

صِفْوَةُ النَّفَاسِ

حقوق الطبعة محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

رقم الإيداع

٨٣٣٧ / ٢٠١٣

الترقيم الدولي

7 - 22 - 6354 - 977 - 978

ISBN 978-977-6354-22-7



9 789776 354227 >

دار العالمين للنشر والتجليد

جاكرتا - أندونيسيا

هاتف: 087889324793 - 081310218626

087880176606 - 085218824802

email: darul_aalamiyyah@yahoo.com

abdallaelnady@gmail.com

صَفْوَةُ التَّفَاسِيرِ

تفسير للقرآن الكريم ، جامع بين المأثور والمعقول
مستمدة من أوثق الكتب التفسيرية
بأسلوب مبسّر، وتنظيم حديث، مع العناية بالوضوح البَيَّانِيَّة واللُّغَوِيَّة

نسخة محققة ومخرجة الأحاديث

تأليف

محمد علي الصابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مكة المكرمة - جامعة الملك عبدالعزيز

المجلد الأول





مقدمة المحقق

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].
 ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ص، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

إن القرآن الكريم هو كلام الله الذي أنزله على قلب نبيه محمد ﷺ ليكون للعالمين نذيراً، وهو هدى ونور وشفاء لما في الصدور، وقد كان على الرسول ﷺ بيانه للناس، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

والقرآن الكريم هو المصدر الأول من مصادر التشريع الإسلامي. والأمة الإسلامية هي أمة القرآن، إليه يُرَدُّ أصلُها، وبه يُعرف نسبُها، ومنه نُسجت وتنسج ما ليست وتلبس من حلل العزة والكرامة والسيادة. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]. وعلى قدر ما يقترب المسلمون من كتابهم الكريم، وبقدر ما يرعون حقه، ويؤدون أمانته، يكون نصيبهم من الخير، ويكون حظهم من السلامة في أنفسهم، وأموالهم، وأوطانهم! والعكس صحيح. فإنه على قدر ما يبعد المسلمون عن كتابهم، وبقدر ما يفرطون في حقه، بقدر ما يكون بُعْدُهم عن الخير، ودُنُوُّهم من الخطر، وتعرّضهم لآفات التفكك والانحلال! وتفسير القرآن أشرف علوم الدين، وقد حاول الشيخ محمد علي الصابوني بتأليفه لكتاب «صفوة التفاسير» أن يقدم للأمة الإسلامية تفسيراً موجزاً يجمع عيون ما في التفاسير الكبيرة المفصلة، مع الاختصار والترتيب، والوضوح والبيان.

وقد قُمتُ بتَحْقِيقِهِ وَضَبْطُ نَصِّهِ، وَتَخْرِيجِ أَحَادِيثِهِ وَالتَّعْلِيلِ عَلَيْهِ، عَلَى نَحْوِ يُسِّرِ الانْتِفَاعِ بِهِ، وَيُحَقِّقُ رَغْبَةَ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي تَصْحِيحِهِ وَالتَّعْلِيلِ عَلَيْهِ. وأرجو أن يكون هذا التحقيق خدمةً لكتاب انتشر في الآفاق تنبيهاً على ما فيه من انتقادات نبّه عليها بعض أهل العلم، وقد ذكر مؤلفه في مواضع من تفسيره ما يؤيد صحّتها.

عمل المحقق:

- ١- مراجعة الأحاديث المذكورة في الكتاب من مصادرها في كتب السنة، وتشكيل الأحاديث الصحيحة الموجودة بالكتاب، وبعض الأحاديث الضعيفة، وشرح غريبها.
- ٢- بيان درجة أحاديث الكتاب صِحَّةً وضعفًا من كتب الشيخ الألباني وغيره. وأحيانًا أنقل عن المحدثين والعلماء والمحققين أكثر من حكم على حديث واحد، فأحكامهم قد تختلف حسب اجتهاداتهم.
- ٣- التعليق على الأخطاء التي استدرکها العلماء على الكتاب، خاصةً فيما يتعلق بما في الكتاب من أخطاء في العقيدة في مسألة الأسماء والصفات والتي وافق فيها المؤلف تأويلات الأشاعرة، وفي هذه التعليقات انتصار للشيخ الصابوني نفسه؛ فقد ذكر في كتابه «كشف الافتراءات في رسالة التنبیهاة حول صفوة التفاسیر» (ص / ١٦٧) أنه لا يتبنى مذهب الأشاعرة، وأقر بأنهم مُخطئون في التأويل.
- وقد استفدت في تلك التعليقات كثيرًا من كتاب «تعقيبات وملاحظات على كتاب صفوة التفاسیر»، للشيخ صالح بن فوزان الفوزان، واستفدت كذلك من كتاب الشيخ محمد بن جميل زينو «تنبيهات هامة على كتاب صفوة التفاسیر ومخالفات هامة في مختصر تفسير ابن جرير الطبري».
- ٤- محاولة بيان درجة أسباب النزول الواردة في الكتاب، وذلك بالاستفادة من كتاب «الصحيح المسند من أسباب النزول» للشيخ مُقْبِلُ بْنُ هَادِي الْوَادِعِيِّ، و«الاستيعاب في بيان الأسباب»، أول موسوعة علمية حديثة محققة في أسباب نزول آي القرآن الكريم» لسليم بن عيد الهاللي ومحمد بن موسى آل نصر، وكتاب «أسباب نزول القرآن» للواحي بتحقيق عصام بن عبد المحسن الحميدان، ونسخة أخرى بتحقيق كمال بسيوني زغلول.
- وإذا كان سبب النزول المذكور في الكتاب ضعيفًا ووجدت سببًا آخر صحيحًا أذكره في الهامش.
- وما لا أجده في تلك الكتب أبحث عنه في التفاسير، وغالبًا ما يكون فيها بدون إسناد أصلاً، وأنبه على ذلك في الهامش.
- ٥- الآيات أو الكلمات التي لم يفسرها المؤلف أنقل في الهامش تفسيرًا ميسرًا لها من تفسير السعدي أو ابن كثير أو غيرهما.
- ٦- التعليق على تفسير الآيات في أحوال نادرة جدًا بنقل كلام الإمام ابن جرير الطبري أو الحافظ ابن كثير أو الشيخ السعدي، أو غيرهم، وذلك لتوضيح كلام المؤلف أو بيان أن الصواب أو المشهور في التفسير غير ما ذكره، أو لغير ذلك.

٧- محاولة تصويب الأخطاء المطبعية الموجودة بالكتاب وذلك بالرجوع أحياناً إلى المصادر التي ينقل منها المؤلف، ومحاولة وضع الهوامش في مكانها الصحيح إن كانت في غيره. ولا يُشار إلى ما تم تصويبه إلا نادراً حتى لا يُثقل الكتاب بالهوامش.

٨- تشكيل الشواهد الشعرية، وشرح غريبها.

٩- شرح غريب الألفاظ الواردة في الكتاب، بالرجوع إلى كتب التفسير وشروح الحديث ومعاجم اللغة، وأحياناً أوضح كلام المؤلف بنقل كلامه في مواضع أخرى من الكتاب.

١٠- تشكيل الكلمات التي قد يُساء فهمها.

١١- التعليقات الموجودة في التحقيق أنقلها من كتب أهل العلم وقد أختصرها أو أتصرف فيها بما ييسر على القارئ فهمها.

١٢- الروايات التاريخية في قصص الأنبياء يذكرها المؤلف بدون إسناد ومعظمها إسرئيليات، أو أقوال مرسلة، وغالباً ما ينسبها لأحد المفسرين أو يذكرها بعد قوله: «قال المفسرون...»، وهذه لا يتم التعليق عليها إلا إذا غلب على الظن أنه قد يُفهم منها معارضة الكتاب والسنة الصحيحة.

١٣- وكذلك بعض أحداث السيرة يذكرها المؤلف بدون إسناد أو بعد قوله: «قال المفسرون...»، وقد لا أجدها بإسناد ثابت فلا أعلق عليها.

١٤- تجد تعليقات المحقق في الهامش، متميزة عن هوامش الكتاب الأصلية بالرمز (ش)، وإذا كانت هناك حاجة لذكر التعليق في أكثر من موضع فأعيد ذكره فيها ولا أكتفي بالإحالة على ما سبق؛ تيسيراً على القارئ.

١٥- تيسيراً للانتفاع بالكتاب وضعت بين يديه بعض المقدمات:

أ- الدكتور محمد علي الصابوني، بطاقة حياة.

ب- «صفوة التفاسير» في الميزان، ما له وما عليه.

ج- مصادر الشيخ الصابوني في «صفوة التفاسير».

د- اعتقاد الأئمة الأربعة.

هـ- قواعد في الأسماء والصفات.

و- أسباب النزول، قواعد وأصول.

ز- مناهج المفسرين.

ح- مصطلحات بلاغية.

وأرجو من الله ﷻ أن يكون هذا التحقيق تحقيقاً لرغبة الشيخ أبي بكر جابر الجزائري حيث نصح الشيخ محمد بن جميل زينو بمواصلة البحث والتصويب والتصحيح وتبّع

«صفوة التفاسير» من ألفه إلى يائه - أي من أوله إلى آخره - معللاً ذلك بأنه هو المفروض لمن أراد أن يصحح الأخطاء ويبيّن العيب ليُجَنَّب، ونَصَحَه بكتابة ذلك على هامش التفسير، ورأى أن تتحمل دار الإفتاء تكاليف الطباعة ومصاريفها^(١).

وفي الختام أتمنى من كل من وجد بهذا التحقيق خطأ أن لا ييخل به، إعداراً إلى الله ونُصْحاً للعبد الفقير. ويأبى الله العصمة لكتاب غير كتابه، والمُنْصِف من اغتفرَ قليل خطأ المرء في كثير صوابه. وقديماً قيل: «المتصفح للكتاب أبْصُرَ بمواقع الخلل فيه من مُنشئه».

بل إن من يكتب الشيء اليوم قد يتراجع عنه غداً، فيتدارك بنفسه بعض أخطائه، قال الثعالبي: «لا يكتب أحد كتاباً، فيبيت عنده ليلة، إلا أَحَبَّ في غيرها، أن يزيد فيه أو ينقص منه». وقال العماد الأصبهاني: «إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه، إلا قال في غده: لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يُستحسن، ولو قُدِّمَ هذا لكان أفضل، ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل؛ وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر».

والله العظيم أسأل أن ينفع المسلمين بهذه الورقات وأن يرزقنا الإخلاص في السر والعلن، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه - سيدنا محمد - وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ أَنْتَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

شحاتة محمد صقر

(١) تنبيهات هامة على كتاب صفوة التفاسير، ص ٣٧-٣٨، للشيخ محمد بن جميل زينو. وقد كتب الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ تعليقات على كتاب «فتح الباري» لابن حجر العسقلاني مُنبِّهاً على ما فيه من أخطاء، وقد طبعت هذه التعليقات مع الكتاب.

بين يدي « صفوة التفاسير »

١- الدكتور محمد علي الصابوني، بطاقة حياة^(١) :

ولد الشيخ محمد علي الصابوني بمدينة حلب الشهباء^(٢) بسوريا في ١ يناير، عام ١٩٣٠م، من أسرهِ عريقة، وكان والده الشيخ جميل الصَّابوني من كبار علماء حلب، وتلقَّى تعليمه على يد والده وغيره من العلماء فقام بدراسة العربية والفرائض وعلوم الدين، كما حفظ القرآن الكريم في الكتاب وأكمل حفظه وهو في المرحلة الثانوية، هذا بالإضافة لدراسته للعديد من العلوم التي تلقاها على يد كبار العلماء بسوريا، والتي كانت تشتهر بعلمائها الكبار، فدرس الصابوني على يد كل من الشيخ محمد نجيب سراج، والشيخ أحمد الشماخ، الشيخ محمد سعيد الإدليبي، والشيخ راغب الطباخ والشيخ محمد نجيب خياطة وغيرهم الكثير من العلماء والشيخوخ.

التعليم:

لما حصل على الشهادة الابتدائية انتسب إلى إعدادية وثانوية التجارة فدرس فيها سنة واحدة، ولما لم توافق ميوله العلمية لأنهم كانوا يعلمون فيها الطلاب أصول المعاملات الربويَّة التي تجري في البنوك هجر الإعدادية التجارية مع أن ترتيبه فيها كان الأول على زملائه، وانتقل إلى الثانوية الشرعية التي كانت تسمى (الخسروية) في مدينة حلب وفيها نال الإعدادية والثانوية، وكانت دراسته فيها مزدوجة تجمع بين العلوم الشرعية والعلوم الكونية التي كانت تدرس في وزارة المعارف، فقد كانت المواد الشرعية كلها من التفسير، والحديث، والفقه، والأصول، والفرائض، وسائر العلوم الشرعية إلى جانب الكيمياء والفيزياء والجبر والهندسة والتاريخ والجغرافيا واللغة الإنجليزية، فكانت دراسته جامعة بين الدراسة الشرعية والدراسة العصرية، وقد تخرج من الثانوية الشرعية عام ١٩٤٩.

وبعد أن أتم الصابوني دراسته الثانوية الشرعية بنجاح قامت وزارة الأوقاف السورية بإرساله في بعثة إلى الأزهر الشريف بالقاهرة بمصر، وذلك حتى يُتم دراسته الجامعية هناك وبالفعل تمكن الصابوني من أن يحصل على شهادة كلية الشريعة عام ١٩٥٢م، ثم أتم دراسة التخصص وتخرج عام ١٩٥٤ من الأزهر حاملاً شهادة العالمية في تخصص القضاء الشرعي، وكانت هذه الشهادة من أعلى الشهادات في ذلك العصر فتعادل الدكتوراه في درجتها العلمية.

(١) انظر في ذلك: صفحة الشيخ محمد علي الصابوني على الفيس بوك.

(٢) الموقع المكتبة الشاملة. محمد علي الصابوني، من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة. <https://www.facebook.com/m.a.alsabouni> ترجمة الدكتور محمد علي الصابوني على

موقع المكتبة الشاملة. محمد علي الصابوني، من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

(٢) الشَّهْبَاءُ: لقبُ مدينة حلب، سُمِّيَتْ بذلك لبياض حجارته.

الحياة العلمية:

بعد أن حصل الصابوني على درجة العالمية بتفوق من الأزهر الشريف عاد مرة أخرى إلى سوريا وبالتحديد إلى مدينته حلب حيث تم تعيينه أستاذاً لمادة الثقافة الإسلامية في ثانويات حلب ودور المعلمين، وظل يعمل في التدريس في الفترة ما بين ١٩٥٥ - ١٩٦٢ م. ثم بعد ذلك انتدابه إلى المملكة العربية السعودية لكي يعمل أستاذاً معاراً من قبل وزارة التربية والتعليم السورية وذلك للتدريس بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، وكلية التربية بالجامعة بمكة المكرمة، وكان على رأس البعثة السورية إلى المملكة آنذاك، فقام بالتدريس فيها لمدة طويلة اقتربت من الثلاثين عاماً، وتخرج على يديه الكثير من أساتذة الجامعة في هذه الفترة الطويلة.

ونظراً لنشاطه العلمي في البحث والتأليف فقد رأت جامعة أم القرى أن تسند إليه تحقيق بعض كتب التراث الإسلامي فعين باحثاً علمياً في مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، فاشتغل في تحقيق كتاب مهم في التفسير يسمى (معاني القرآن) للإمام أبي جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨هـ، والمخطوطة نسخة وحيدة في العالم لا يوجد لها ثان، فقام بتحقيقها على الوجه الأكمل، بالاستعانة بالمراجع الكثيرة بين يديه من كتب التفسير واللغة والحديث وغيرها من الكتب التي اعتمد عليها، وقد خرج الكتاب في ستة أجزاء، وطبع باسم جامعة أم القرى بمكة المكرمة بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي. بعد ذلك انتقل الشيخ للعمل في رابطة العالم الإسلامي كمستشار في هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، وبقي فيها عدة سنوات قبل أن يتفرغ للتأليف والبحث العلمي.

المؤلفات:

للشيخ مؤلفات عديدة في العلوم الشرعية والعربية، ألفها في مشواره العلمي الطويل فكانت من بين أهم الكتب في مجالاتها ولاقت قبولاً وانتشاراً واسعاً بين طلاب العلم في شتى أنحاء العالم الإسلامي، وترجم العديد منها إلى لغات مختلفة كالتركية والإنجليزية والفرنسية والملاوية والهوساوية وغيرها من لغات العالم الإسلامي. وقد ألف بعضها أثناء تدريسه في الجامعة، والبعض الآخر بعد انتهائه من التدريس، وتفرغه للتأليف، ومن هذه المؤلفات ما يلي:

١. صفوة التفاسير.
٢. المواريث في الشريعة الإسلامية.
٣. من كنوز السنة.
٤. روائع البيان في تفسير آيات الأحكام.

٥. قيس من نور القرآن الكريم.
٦. السنة النبوية قسم من الوحي الإلهي المنزل.
٧. موسوعة الفقه الشرعي الميسر (سلسلة التفقه في الدين)
٨. الزواج الإسلامي المبكر سعادة وحصانة.
٩. التفسير الواضح الميسر.
١٠. الهدى النبوي الصحيح في صلاة التراويح.
١١. إيجاز البيان في سور القرآن .
١٢. موقف الشريعة الغراء من نكاح المتعة.
١٣. حركة الأرض ودورانها حقيقة علمية أثبتها القرآن.
١٤. التبيان في علوم القرآن.
١٥. عقيدة أهل السنة في ميزان الشرع.
١٦. النبوة والأنبياء.
١٧. رسالة الصلاة.
١٨. المهدي وأشراف الساعة.
١٩. المقتطف من عيون الشعر.
٢٠. كشف الافتراءات في رسالة التنبيهات حول صفوة التفاسير.
٢١. درة التفاسير (على هامش المصحف).
٢٢. جريمة الربا أخطر الجرائم الدينية والاجتماعية.
٢٣. التبصير بما في رسائل بكر أبو زيد من التزوير.
٢٤. شرح رياض الصالحين.
٢٥. شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول.
٢٦. رسالة في حكم التصوير.
٢٧. معاني القرآن (للنحاس).
٢٨. المقتطف من عيون التفاسير (للمنصوري).
٢٩. مختصر تفسير ابن كثير.
٣٠. مختصر تفسير الطبري.
٣١. تنوير الأذهان من تفسير روح البيان (للبروسوي).
٣٢. المنتقى المختار من كتاب الأذكار (للنووي).
٣٣. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (للأنصاري).

٣٤. الشرح الميسر لصحيح البخاري .
٣٥. الإبداع البياني في القرآن الكريم .
٣٦. صفحات مُشرقة من حياة الرسول ﷺ وصحابته الكرام .
٣٧. نكاح المتعة في الإسلام حرام .
٣٨. آمنت بالله (الأدلة العقلية والنقلية على صفاء عقيدة التوحيد).
٣٩. الجهاد في الإسلام والخطأ الدارج في مفهومه .
٤٠. الشرح الميسر لصحيح الإمام مسلم (تحت الطبع).
٤١. الشرح الميسر لصحيح الإمام الترمذي (تحت الطبع).
٤٢. الشرح الميسر لصحيح الإمام أبي داود (تحت التأليف).
٤٣. تفسير الدعوات المباركات في القرآن الكريم .

الدروس:

بالإضافة للمؤلفات والرحلة العملية والعلمية للشيخ الصابوني فقد كانت له العديد من الإسهامات العلمية الأخرى فكان له درس يومي بالمسجد الحرام بمكة المكرمة يقعد فيه للإفتاء في المواسم، ودرس آخر أسبوعي بأحد مساجد مدينة جدة يقوم فيه بتفسير آيات القرآن الكريم، وامتد لفترة ما يقارب الثماني سنوات فسر خلالها لطلاب العلم أكثر من ثلثي القرآن الكريم، وهي مسجلة على أشرطة كاسيت، كما قام الشيخ بتصوير أكثر من ستمائة حلقة لبرنامج تفسير القرآن الكريم كاملاً ليعرض في التلفاز، وقد استغرق هذا العمل زهاء السنتين، وقد أتمه نهاية عام ١٤١٩ هـ.

جوائز وتكريم:

تقديراً لجهوده في المجال العلمي والإسلامي فقد تم اختياره في رمضان ١٤٢٨ هـ من قبل جائزة دبي للقرآن ليكون «الشخصية الإسلامية» للدورة الحادية عشر، وتمنح هذه الجائزة للشخصيات الإسلامية المتميزة، وقد صدر عن جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم كتيب تعريف بالشيخ الصابوني ذكر فيه نبذة عن حياته ومؤلفاته.

التلاميذ:

أثناء فترة عمله الأكاديمي تخرج على يديه العديد من علماء الإسلام المتميزين، بالإضافة للمستفيدين من كتبه.

ردود أهل العلم على كتبه:

لبعض أهل العلم ملاحظات على ما كتبه الشيخ الصابوني، لا سيما كتبه في التفسير، وكلُّ يؤخذ من كلامه ويُترك إلا المعصوم ﷺ. قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ: «ما منَّا إلا رادُّ ومردودٌ عليه

إلا صاحب هذا القبر»، (يعني: النبي ﷺ).

ومن تلك الردود:

١- تنبيهات هامة على ما كتبه الشيخ علي الصابوني في صفات الله عزَّ وجلَّ، تأليف الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز . وهي موجودة ضمن «مجموع فتاوى العلامة عبد العزيز بن باز» (٣ / ٥١ - ٨٢).

٢- ملاحظات على صفوة التفاسير، تأليف الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين.

٣- تعقيبات وملاحظات على كتاب صفوة التفاسير، تأليف الشيخ صالح الفوزان.

٤- التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير، تأليف الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد.

٥- مخالفات هامة في مختصر تفسير ابن جرير الطبري للشيخ محمد علي الصابوني، تأليف الشيخ محمد بن جميل زينو.

٦- تنبيهات هامة على كتاب صفوة التفاسير، تأليف الشيخ محمد بن جميل زينو.

٧- ملاحظات على مختصر تفسير ابن جرير الطبري، تأليف الشيخ إسماعيل الأنصاري.

٨- في مقدمة الجزء الرابع من «السلسلة الصحيحة» للألباني تعقيبات على «مختصر

تفسير ابن كثير». وفي مواضع من الجزئين الثالث والرابع من «السلسلة الضعيفة» للألباني.

٩- ملاحظات على «كتاب صفوة التفسير»: تأليف الدكتور سعد ظلام، عميد كلية اللغة العربية بمصر: (ص / ١٠٣، ١٠٩) من مجلة منار الإسلام في العدد الرابع من السنة العاشرة، ونشر بعضها في مجلة التوحيد المصرية في العدد السادس عام ١٤٠٨ هـ لشهر رجب .

١٠- كتاب الشيخ عثمان بن عبد القادر الصافي الطرابلسي، وعنوانه: الأخطار على المراجع العلمية لأئمة السلف دراسة تمهيدية تهدف إلى المحافظة على التراث العلمي الإسلامي، والتحذير من العبث به، على ضوء وجهة نظر في كتابي: «مختصر تفسير ابن كثير»، و«صفوة التفاسير» للشيخ علي الصابوني .

١١- منهج الأشاعرة في العقيدة - تعقيب على مقالات الصابوني للدكتور سفر الحوالي.

١٢- تعقيبات على مقالات الصابوني، للشيخ إدريس بن محمد علي .

١٣- نظرات في كتاب النبوة والأنبياء، تأليف الشيخ محمد محمود أبو رحيم .

١٤- الرد على الصابوني فيما سماه: «الهدى النبوي الصحيح في صلاة التراويح»، تأليف

الشيخ محمد بن يوسف العجمي .



٢- «صفوة التفاسير» في الميزان ما له وما عليه

اسم الكتاب:

«صفوة التفاسير، تفسير للقرآن الكريم، جامع بين المأثور، والمعقول مستمد من أوثق كتب التفسير: الطبري، الكشاف، القرطبي، الألوسي، ابن كثير، البحر المحيط وغيرها». ولكن الكتاب يشتمل على أخطاء مستمدة من كتب ليست هي من أوثق التفاسير، وقد انتقد الشيخ بكر أبو زيد هذه التسمية (صفوة التفاسير) مستنكراً أن ينتج الصفاء من الخلط بين تفسيري ابن جرير، وابن كثير السلفيين، وتفسير الزمخشري المعتزلي، والرضي الرافضي، والرازي الأشعري، والصاوي الأشعري القبوري المتعصب. إن تفسير الكشاف إنما ألفه الزمخشري على أصول المعتزلة كما بينه أئمة العلم، وحذروا من دسائسه فيه، وتفسير الألوسي وإن احتوى على كثير مما لا يُستغنى عنه في التفسير فقد شأنه بما فيه من تحريفات المتصوفة للقرآن المسماة بالتفسير الإشاري يأتي بها بعد فراغه من الكلام على تفسير الآيات.

فهذان التفسيران ما داماً كذلك فلا يصح إطلاق القول عليهما بأنهما من أوثق كتب التفسير هذا بالنسبة إلى ما سماه المؤلف من المصادر التي يعتبرها أوثق التفاسير. وكذلك حاشية الصاوي التي وصل من الانحراف فيها إلى القول بأن الأخذ بظاهر القرآن والحديث أصل من أصول الكفر، وإلى إجازة الاستغاثة بغير الله عز وجل فيما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل، فلا يليق ما دام الأمر هكذا إطلاق القول بأن هذه المراجع من أوثق التفاسير^(١).

منهج الشيخ الصابوني في كتاب «صفوة التفاسير»:

كتاب «صفوة التفاسير» تفسير موجز ذكر مؤلفه في مقدمته أن يجمع عيون ما في التفاسير الكبيرة المفصلة، مع الاختصار والترتيب، والوضوح والبيان، وأنه قد سلك في طريقه لتفسير الكتاب العزيز الأسلوب الآتي:

- أولاً: بين يدي السورة، وهو بيان إجمالي للسورة الكريمة وتوضيح مقاصدها الأساسية.
- ثانياً: المناسبة بين الآيات السابقة والآيات اللاحقة.
- ثالثاً: اللغة مع بيان الاشتقاق اللغوي والشواهد العربية.
- رابعاً: سبب النزول.
- خامساً: التفسير.
- سادساً: البلاغة.
- سابعاً: الفوائد واللطائف.

لقد حاول الشيخ الصابوني في كتاب «صفوة التفاسير» أن يجمع أسهل وأبسط أقوال

(١) باختصار من كتابه «التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير».

المفسرين، بحيث يفهمه عامة المسلمين، وابتعد فيه عن التعقيد في العبارة، وعن المسائل الفقهية، والنحوية، وحاول أن يقدم أقرب فكرة ممكنة تساعد قارئ القرآن على فهم وتدبر ما يقرؤه.

ومما يلاحظ عند دراسة الكتاب ما يلي:

- ١- المؤلف ينقل عن أصحاب التفاسير المختلفة نصّ كلامهم ويشير إلى مصدره في الهامش، ولكنه أحياناً لا ينقله بنصّه بل يتصرف فيه ويختصره بأسلوبه هو مع الإشارة إلى مصدره في الهامش، وأحياناً لا يشير إلى المصدر.
- ٢- معظم الأحاديث ينقلها من تفسير ابن كثير، وغالباً لا يشير إلى درجة صحة الحديث إن لم يكن في الصحيحين (البخاري ومسلم) أو أحدهما، وأحياناً ينقل الأحاديث من التفاسير، ويكتفي بالإحالة إليها موضعها فيها ولا يذكر مَنْ خرّجها، وأحياناً أخرى يذكر الحديث دون الإشارة إلى أي مصدر.
- ٣- معظم الشواهد الشعرية ينقلها من «البحر المحيط» و«القرطبي»، ونادراً ما ينقلها من تفسير «الرازي» أو «الألوسي».
- ٤- الروايات التاريخية في قصص الأنبياء يذكرها المؤلف بدون إسناد ومعظمها أقوال مرسلة، وغالباً ما ينسبها لأحد المفسرين أو يذكرها بعد قوله: «قال المفسرون:...».
- ٥- غالباً ما يذكر أحداث السيرة النبوية المتعلقة بتفسير الآيات بدون تخريج، وبعد قوله: «قال المفسرون:...».

محاسن التفسير:

لا ينكر أحد أن في الكتاب فوائد كثيرة منها الأسلوب الواضح، وذكر المقاصد الأساسية للسرور، وتوضيح بعض معاني الكلمات وبيان اشتقاقها، والمناسبة بين الآيات السابقة والآيات اللاحقة، وذكر الفوائد التي لها علاقة بالآيات والمستنبطة منها. وننقل هنا في مميزات الكتاب ما ذكره أحد ناقدَي الكتاب وهو الشيخ محمد بن جميل زينو، حيث قال: «فقد كلفتني مدرسة دار الحديث الخيرية بمكة المكرمة بتدريس مادة التفسير، واختارت كتاب «صفوة التفسير» لتوفّره لديها، وما كدنا نقرأ منه قليلاً حتى ظهر بعض الأخطاء فيه. وقبل أن أذكر الأخطاء أود إيراد بعض محاسن التفسير، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الشعراء: ١٨٣] ففي التفسير المذكور:

- ١- سهولة العبارة في تفسيره.
- ٢- معلومات موجزة عن السورة في أولها.
- ٣- كلامه على البلاغة في آخر السورة، وللعلماء عليه ملاحظات كما سيأتي عند ذكر الخطأ التاسع.

٤- جمعه لأقوال كثير من المفسرين، لكنه لم يتحرر الصواب منها أحياناً^(١).

ومن محاسن «صفوة التفسير»:

١- كشف ضلال أصحاب الأديان الباطلة من المشركين واليهود والنصارى والتي كشف القرآن زيفها، مما تجده متناثراً في أجزاء كثيرة من الكتاب، ومن الأمثلة على ذلك قول المؤلف في تفسير سورة الإخلاص: «يعتقد النصارى بأن الإله ثلاثة أقانيم (الآب، والابن، وروح قدس) وهي عقيدة التثليث التي أشار إليها القرآن الكريم بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ تَالِثٌ ثَلَاثَةً وَمَكَ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ﴾ الآية ويعتقدون بأن الثلاثة واحد، والواحد ثلاثة، ويزعمون أنهم موحدون، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

٢- بيان محاسن الإسلام وحكمة التشريع، والتصدي لمن يطعنون فيه، ومن ذلك قوله في تفسير سورة النساء إن العبد الرقيق في الإسلام له من الحقوق ما ليس للأحرار في الأمم الأخرى وأن من يطلع على معاملة الزوج في أمريكا يتضح له جلياً صحة ما نقول وها هي الأمم الغربية تحرم استرقاق العبيد في حين أنها تسترق الأحرار، وتحرم استرقاق الأفراد وتسترق الجماعات والأمم والشعوب، باسم الاستعمار والانداب، فأين هذه الحضارة المزعومة والمدنية الزائفة من حضارة الإسلام ومدنيته الصادقة التي حررت الشعوب والأمم والأفراد؟!.

٣- تركيزه في مواطن عديدة من التفسير على أن القرآن يدعو إلى إصلاح المجتمع المسلم على أسس من الفضيلة والخلق الكريم، وحذر المؤلف مما يؤدي إلى تعرض المجتمع للتفسخ والانحلال الخلقي كالتعري ومجالس اللهو، والسينما، والقمار، والغناء المحرم. وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَهُمَا﴾ إن الآية قد أوضحت هدف إبليس اللعين فمن دعا إلى تعري المرأة وشجع على ذلك كما هو حال من يزعم التقدمية ويدعو المرأة إلى نزع الحجاب بدعوة الحرية والمساواة فإنما هو عدو للمرأة ومن أنصار وأعوان إبليس لأن الهدف واحد، وهي دعوة مكشوفة غايتها التفسخ والانحلال الخلقي، وليست التقدمية بالتكشف والتعري وإنما هي بصيانة الشرف والعفاف. وقد رد المؤلف في تفسير سورة الأحزاب على من أباح كشف الوجه، وذكر طائفة من أقوال المفسرين في وجوب ستره.

٤- التثبت ورد الروايات الباطلة، ومن ذلك:

أ- قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيّاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا

(١) تنبيهات عامة على كتاب «صفوة التفسير»، ص ٥-٦.

صَلِيحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠]: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾ أي فلما وهبهما الولد الصالح السوي ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ أي جعل هؤلاء الأولاد والذرية شركاء مع الله فعبدوا الأوثان والأصنام. وقال في الهامش: «ذهبنا إلى هذا الرأي لجلالته ووضوحه وهو ما رجَّحه المحققون من أهل العلم، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن الآية في: (آدم وحواء) وأن الضمير في قوله تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ يعود إليهما ورووا في ذلك أحاديث وآثار منها ما روي عن سمرة مرفوعاً قال: «لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش بها ولد فقال: سمَّيه عبد الحارث فإنه يعيش، فسَمَّته عبد الحارث فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان» رواه أحمد والترمذي قال الحافظ ابن كثير: وهذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه وقد وضعها رَحِمَهُ اللهُ وَرَجَحَ أَنَّ الحديث موقوف وضعف ما ورد من آثار، ثم روى بسنده عن الحسن أنه قال: «كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم»، ثم قال ابن كثير: «وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري في هذا وأنه ليس المراد من هذا السياق (آدم وحواء) وإنما المراد المشركون من ذريته بدليل قول الله بعده: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾». أقول: وهو الحق الذي لا محيد عنه».

ب- قوله إن الصحابي المشهور «ثعلبة بن أبي حاطب»، ليس هو المقصود بالآيات ٧٨-٧٥ من سورة التوبة، مع أن هذه القصة المكذوبة عليه مشهورة في كتب التفسير. وهذه القصة المكذوبة قد أشار إلى ضعفها ابن حزم والبيهقي والقرطبي والذهبي وابن حجر العسقلاني والسيوطي والألباني^(١).

ج - تحذيره من قصة الغرائق المكذوبة، فقال عند تفسير الآية ٥٢ من سورة الحج: وأما قصة الغرائق التي أولع بذكرها بعض المفسرين فهي باطلة مردودة، وهي أن الرسول عليه السلام قرأ سورة: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ بمحضر من المشركين والمسلمين فلما بلغ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ ﴿١٩﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةِ الْآخِرَىٰ﴾ ألقى الشيطان على لسانه «تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجي» ففرح بذلك المشركون ولما انتهى من السورة سجد وسجد معه المشركون... إلخ. قال ابن العربي: إن جميع ما ورد في هذه القصة باطل لا أصل له وقال ابن إسحاق: هي من وضع الزنادقة وقال البيهقي: رواها مطعون فيهم وقال ابن كثير: ذكر كثير من المفسرين قصة الغرائق وهي روايات مراسلات ومنقطعات لا تصح وقال القاضي عياض: هذا حديث لم يخرج أحد من أهل الصحة ولا رواه أحد بسند متصل سليم، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون، المولعون بكل غريب، المتلفون من الصحف كل صحيح وسقيم.

(١) انظر: الشهاب الثاقب في الذب عن الصحابي الجليل ثعلبة بن حاطب رضى الله عنه، لسليم الهلالي

أقول: مما يدل على بطلان القصة قوله تعالى في نفس السورة: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ فكيف نطق المعصوم بمثل هذا الذي يزعمونه! سبحانه هذا بهتان عظيم.
 د- قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

يتشبه بعض أعداء الإسلام بروايات ضعيفة واهية، لا زمام لها ولا خطام، للطعن في الرسول الكريم والنبل من مقامه العظيم، وجَدَّت في بعض كتب التفسير!! من هذه الروايات الباطلة التي تلقفها «المستشرقون» وخبَّروا فيها وأَوْضَعُوا، أن الرسول ﷺ رأى «زينب» وهي متروجة بزيد بن حارثة فأحبها ووقعت في قلبه فقال: «سبحان مقلب القلوب» فسمعتها زينب فأخبرت بها زيدا، فأراد أن يطلقها فقال له الرسول: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ حتى نزل القرآن يعاتبه على إخفائه ذلك.... إلخ. وهذه روايات باطلة لم يصح فيها شيء كما قال العلامة: «أبو بكر بن العربي» رَحِمَهُ اللهُ، والآية صريحة في الرد على هذا البهتان، فإن الله سبحانه أخبر بأنه سيُظْهِر ما أخفاه الرسول: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ فماذا أظهر الله تعالى؟ هل أظهر حب الرسول وعشقه لزينب، أم أن الذي أظهره هو أمره عليه السلام بالزواج بها لحكمة عظيمة جليلة هي إبطال «حكم التنبي» الذي كان شائعا في الجاهلية ولهذا صرح تعالى بذلك وأبداه علنا وجهارا: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ يا قوم اعقلوا وفكروا، وتفهموا الحق لوجه الحق بلا تلبس ولا تشويش وتبصروا فيما تقولون فمن غير المعقول أن يعاتب الشخص لأنه لم يُجَاهِر بحبه لزوجة جاره؟ وحاشا الرسول الطاهر الكريم أن يتعلق قلبه بامرأة هي في عصمة رجل، وأن يُخْفِي هذا الحب حتى ينزل القرآن يعاتبه على إخفائه، فإن مثل هذا لا يليق بأي رجل عادي، فضلا عن أشرف الخلق عليه أفضل الصلاة والتسليم، وغاية ما في الأمر - كما نقل في البحر - عن علي بن الحسين أنه قال: «أَعْلَمَ اللهُ نبيه ﷺ أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد يشكوها إليه وقال له: اتق الله وأمسك عليك زوجك، عاتبه الله وقال له: أخبرتك أني مزوجكها وتخفي في نفسك ما الله مُبْدِيهِ!! انظر رد الفرية في كتابنا «النبوة والأنبياء» ص ٩٩.

ه- قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضِصِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ۖ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَعْىَ بَعْضًا عَلَىٰ بَعْضٍ فَأَخَرُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا شَطِطَ وَاهِدَنَا إِلَىٰ سَوَاءٍ الْأَصْرَطِ ۖ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْعَةً وَلِي نَجْعَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ۖ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْعِكَ إِلَىٰ نَجْعِهِ ۖ وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَعَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّكَابٍ ﴿٢٥﴾ [ص: ٢١-٢٥].

«وقع بعض المفسرين في خطأ فاحش حين نقلوا بعض الأقوال الواهية في تفسيرهم اعتماداً علي ما جاء عند أهل الكتاب من غير تحقيق ولا تمحيص، مما لم يصح سنده ولا يجوز اعتماده، لأنه من القصص الإسرائيلية التي تتنافى مع العقيدة الإسلامية في (عصمه الأنبياء). من هذه الأباطيل المدسوسة ما رُوي من أمر عشقه لزوجته قائد جيشه وخلاصتها: (أن داود كان يمشي علي سطح داره فنظر إلي امرأه تستحم فأعجبته وعشقها، وكانت زوجة أحد قواده ويسمي (أوريا) فأراد أن يتخلص منه ليتزوج بها، فأرسله في إحدى المعارك وحمله الراية وأمره بالتقدم فانتصر، فأرسله مراراً ليتخلص منه حتي قُتل فتزوجها . . .) إلخ ما هناك من الكذب والبهتان، قال ابن كثير: وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصصاً وأخباراً أكثرها إسرائيلية، ومنها ما هو مكذوب لا محالة، تركنا إيرادها في كتابنا قصداً، اكتفاءً بمجرد تلاوة القصة من القرآن الكريم، والله يهدي من يشاء إلي الصراط المستقيم، وقال البيضاوي: ما قيل: أنه أرسل (أوريا) مراراً إلى الحرب، وأمره أن يتقدم حتى قُتل فتزوجها داود، فزوروا افتراء، ولذلك قال علي عليه السلام: (من حدث بحديث داود علي ما يرويه القصاص جلده مائة وستين جلدة) وهو حد الفرية علي الأنبياء .

والصحيح في موضوع هذه القصة ما ذكره المحققون من أئمة التفسير وعلماء الأعلام، وبيان هذه القصة أن داود عليه السلام كان يخصص بعض وقته لتصريف شئون الملك، ولل قضاء بين الناس، ويخصص البعض الآخر للخلوة والعبادة وترتيل الزبور تسبيحاً لله في المحراب، وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل إليه أحد حتي يخرج هو إلي الناس، وفي ذات يوم فوجئ بشخصين يتسوران المحراب الذي يتعبد فيه، ففزع منهما وأضمر في نفسه أن يبطش بهما، فبادرا يُطمئناناً أنهما خصمان اختلفا في أمر بينهما، وبدأ أحدهما فعرض خصومته. كما قصها القرآن الكريم في آياته البينات. والقضية كما عرضها أحد الخصمين تحمل ظلماً صارخاً مشيراً لا يتحمل التأويل ومن ثم اندفع داود علي إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة، ولم يوجه إلي الخصم الآخر حديثاً، ولم يطلب إليه بياناً، ولم يسمع له حجة، ولكنه مضي يحكم بقوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْنِكَ إِلَىٰ تِغْلَاجِهِ﴾ ﴿٢٥﴾ إلي آخر الآيات فعاتبه الله علي ذلك ونبهه إلي ضروره تثبت القاضي علي حكمه وسماعه للخصم الآخر . . أما ما قاله البعض اعتماداً علي بعض الرويات الإسرائيلية مما ذكرناه وحذرناه منه، فانه لا يصلح بالنسبة إلي عوام المسلمين وجهلة الفساق، فما بالك بالأنبياء بل بخواص الأنبياء «فليتدبر هذا من له عقل سليم ودين قوي».

و- قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤] «قال ابن كثير:» وقد أورد بعض المفسرين أثراً كثيرة عن جماعة من السلف، وأكثرها أوكلها مُتْلَقَةً من الإسرائيليات، وفي كثير منها نكارة شديدة.

ثم قال المؤلف في الهامش: أشار ابن كثير إلي ما ذكره، بعض المغرمين بالروايات الضعيفة، والحكايات الإسرائيلية المصطنعة، حول فتنة سليمان التي أشار إليها القرآن الكريم هذه الاشارة الخاطفه «ولقد فتنا سليمان» ومن أغربها وأنكرها ما رواه ابن أبي حاتم أن سليمان عليه السلام أراد ان يدخل الخلاء، فأعطي الجراد. زوجته. خاتمه، وكانت أحب نسائه إليه فجاءها الشيطان في صوره سليمان فقال لها: هاتي خاتمي فظنَّته سليمان فأعطته إياه، فلما لبسه دانت له الأنس والجن والشياطين... إلخ، وكل هذه الروايات خرافات وأباطيل ردَّها المحققون من العلماء كابن كثير، والفخر الرازي، والبيضاوي والنسفي وغيرهم.

٥- في بعض مواضع من «صفوة التفاسير» يُردُّ المؤلف التفاسير المخالفة للقرآن والسنة، ومن ذلك:

أ- قوله في تفسير الآية ٧٤ من سورة الأنعام: تنبيه: ذهب بعض المفسرين إلى أن ﴿ءَازَرَ﴾ عم إبراهيم وليس أباه وقال آخرون: إنه اسم للصنم، والصحيح كما قال المحققون من المفسرين أنه اسم لوالد إبراهيم وقد دل على ذلك الكتاب والسنة، والآية صريحة في أن آزر كان كافراً ولا يقدح ذلك في مقام إبراهيم عليه السلام وفي صحيح البخاري «يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ أَرْزَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَلَى وَجْهِهِ أَرْزٌ قَتَرَةٌ وَعَبْرَةٌ...» الحديث ودعوى إيمانه مرفوضة بنص الكتاب والسنة والله أعلم.

ب- قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسُ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَفْذُوا مِنْ أَفْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَأَنْفُذُوا لَا تَنْفُذُوا إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ (٣٣) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاْظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصُرَانِ﴾ [الرحمن: ٣٣ - ٣٥]:

«جنح بعض المتأخرين في هذه إلى تفسير الآية تفسيراً خاطئاً فزعموا أن الإنسان يُمكنه الصعود إلى السماوات وإلى الكواكب وفسروا «السلطان» بالعلم وهو مخالف لأقول المفسرين، ويردُّه سياق الآية وسباقها، فإن الآية سيقت لبيان أهوال الآخرة وشدائدها بدليل قوله تعالى قبلها: ﴿سَفَرُكُمْ لَكُمْ أَيْهَةُ الثَّقَلَانِ﴾ وقوله بعدها: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاْظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ﴾ وقد اتفق المفسرون على أنها في الآخرة، ونحن لانستتكر إمكان وصول الإنسان بالصواريخ والمخترعات الحديثة. إلى القمر أو بعض الكواكب، فإن ذلك مقدور الإنسان ويستطيع بواسطة العلم أن يدور حول الأرض ويعلو في الأجواء ولكنه لا يستطيع أن يصل إلى السماء، فقد جعلها الله سقفاً محفوظاً، أما القمر وسائر الكواكب فهي دون السماء الدنيا

ويمكن الوصول إليها. ولكننا نستنكر ونتعجب ممن يتهجم على القرآن بدون علم ولا فهم، ويقول في كتاب الله برأيه دون الرجوع إلى أقوال المفسرين المعتمدين، وانظر ما كتبناه في مجلة رابطة العالم الإسلامي سنة ١٣٨٧ حول الوصول إلى القمر».

ج- قال في تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ بَنِيَّ مَرْصَاتٍ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التحریم: ١]: «أي والله واسع المغفرة، عظيم الرحمة، حيث سامحك في امتناعك عن مارية، وإنما عاتبك رحمة بك، وفي هذه إشارة إلى أن عتابه في ذلك إنما كان كرامة له، وإنما وقع العتاب لتضييقه عليه السلام على نفسه، وامتناعه مما كان له فيه أنس ومتعة، وبئس ما قاله الزمخشري في أن هذا كان منه ﷺ زلة لأنه حرّم ما أحل الله له الخ فإن هذا القول قلة أدب مع مقام النبوة، وجهل بصفات المعصوم، فلم يكن منه صلوات الله عليه تحريمٌ للحلال كما زعم حتى تعتبر مخالفة ومعصية، وإنما امتنع عن بعض إمائه تطبيقاً لخاطر بعض أزواجه، فعاتبه الله تعالى عليه رفقا به، وتنويهاً بقدره، وإجلالاً لمنصبه عليه السلام أن يراعي مرضاة أزواجه بما يشق عليه، جرياً على ما ألف من لطف الله تعالى به».

ثم قال في الهامش: شنّ صاحب «الإنصاف على الكشاف» الغارة على الزمخشري وشنع عليه وهو مُحِقٌّ في ذلك، لأن من نظر إلى لطف العتاب عرف حقيقة الأمر والصواب.

٦- التنبيه على أن القرآن لا يخالف الحقائق العلمية: فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ أي وإلى الأرض التي يعيشون عليها، كيف بُسِطَتْ ومُهِدَتْ حتى صارت شاسعة واسعة يستقرون عليها، ويزرعون فيها أنواع المزروعات؟! قال الألوسي: ولا ينافي هذا، القول بأنها كرة أو قرية من الكرة لمكان عِظَمِها ثم قال في الهامش: أثبت علماؤنا أن الأرض كروية كالإمام الفخر الرازي، وأبي السعود، والألوسي، كما نقلنا بعض ذلك في سورة لقمان، وأما كونها مسطحة أو مبسوطة فإنما هي بالنسبة لعظمها وسمتها أبو بالنسبة للناظرين، فليس في القرآن ما يخالف الحقائق العلمية.

٧- نصر المؤلف عقيدة أهل السنة في بعض المواضع من تفسيره ومن ذلك:

أ- في الرد على من يحتجون بالقدر نقل عن «محاسن التأويل» قول ابن تيمية في منهاج السنة: «والاحتجاج بالقدر حجة باطلة داحضة، باتفاق كل ذي عقل ودين من جميع العالمين، ولهذا لما قال المشركون ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] ردّ الله عليهم بقوله ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨] والمشركون يعلمون بفطرتهم وعقولهم أن هذه الحجة باطلة، فإن أحدهم لو ظلم الآخر، أو أراد قتل ولده، أو الزنى بزوجه، أو كان مصراً على الظلم فنهاه الناس عن ذلك فقال: لو شاء الله لم أفعل هذا، لم يقبلوا منه هذه الحجة ولا يقبلها هو من غيره، وإنما يحتج بها المحتج دفعاً للوم عن نفسه بلا وجه ...»^(١).

(١) عن محاسن التأويل الجزء العاشر بإيجاز.

ب- فيما يتعلق برؤية المؤمنين لله ﷻ في الآخرة:

قال في تفسير قوله تعالى ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]: «الآية نَفَتْ الإِحَاطَةَ ولم تَنْفِ الرؤية فلم يقل تعالى: (لا تراه الأبصار)، فمن ذهب إلى عدم رؤية الله في الآخرة كالمعتزلة فقد جَانَبَ الْحَقَّ وَضَلَّ السَّبِيلَ بِمُخَالَفَةِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ كِتَابُ اللَّهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ ﷺ المتواترة، أما الكتاب فقوله تعالى ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] وأما السنة فما أخرجه البخاري «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تَصَاطُونَ فِي رُؤْيَيْهِ». الحديث وكفى بالكتاب والسنة دليلاً وهادياً.

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ، قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ أَنظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ، فَسَوْفَ تَرَنِي فَلَمَّا تَخَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] «مذهب أهل السنة قاطبة على أن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة وأنكرت المعتزلة ذلك واستدلوا بالآية الكريمة ﴿لَنْ تَرَنِي﴾ وليس لهم في هذه الآية متمسك بل هي دليل لأهل السنة والجماعة على إمكان الرؤية، لأنها لو كانت مُحَالاً لم يسألها موسى فإن الأنبياء عليهم السلام يعلمون ما يجوز على الله وما يستحيل، ولو كانت الرؤية مستحيلة لكان في الجواب زجرٌ وإغلاظ كما قال تعالى لنوح ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ مَا تَكُونُ مِنْ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] فهذا المنع من رؤية الله إنما هو في الدنيا لضعف البنية البشرية عن ذلك قال مجاهد: إن الله قال لموسى: لن تراني، لأنك لا تطيق ذلك ولكن سأتجلى للجبل الذي هو أقوى منك وأشد، فإن استقر وأطاق الصبر لهيئتي أمكن أن تراني أنت، وإن لم يُطِقِ الجبل فأحرى ألا تطيق أنت، فعلى هذا جعل الله الجبل مثلاً لموسى ولم يجعل الرؤية مستحيلة على الإطلاق، وقد صرح بوقوع الرؤية في الآخرة كتابُ الله ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] فلا ينكرها إلا مبتدع».

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]: أي تنظر إلى جلال ربها، وتهيم في جماله، أعظم نعيم لأهل الجنة رؤية المولى جلا وعلا والنظر إلى وجهه الكريم بلا حجاب. قال الحسن البصري: تنظر إلى الخالق، وحق لها أن تنضر وهي تنظر إلى الخالق^(١)، وبذلك وردت النصوص الصحيحة».

ثم قال في الهامش: «هذا هو مذهب أهل السنة، ويؤيده ما ورد في الصحيحين: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ» الحديث وفي صحيح مسلم: «فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ» وأنكر المعتزلة رؤية الله في الآخرة

وأولوا الآية: «ناظرة» بمعنى منتظرة تنتظر ثواب ربها، وهذا باطل لأن نظر بمعنى انتظر يتعدى بغير حرف الجر، وانظر الأدلة وافية في تفسير الخازن ١٨٦/٤.

ج- فيما يتعلق بالعقيدة في الصحابة عليهم السلام: في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

نقل المؤلف عن الحافظ ابن كثير قوله: وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة أن الرافضي الذي يسبُّ الصحابة ليس له في مال الغنيمة شيء لعدم اتصافه بأوصاف المؤمنين، ونقل عن شيخ زادة قوله: «بين تعالى أن من شأن من جاء من بعد المهاجرين والأنصار أن يذكر السابقين بالرحمة والدعاء، فمن لم يكن كذلك بل ذكرهم بسوء فقد كان خارجاً عن جملة أقسام المؤمنين بمقتضى هذه الآيات، وقد روي عن الشعبي أنه قال: تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة، سئلت اليهود: من خير أهل ملتكم؟ فقالوا أصحاب موسى وسئلت النصارى فقالوا: أصحاب عيسى، وسئلت الرافضة من شر أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أمروا بالاستغفار لهم فسبُّوهم، فالسيفُ عليهم مسلولٌ إلى يوم القيامة».

د- في توحيد الأسماء والصفات: قال في تفسير الآية ١٥٨ من سورة البقرة: «الشكر معناه مقابلة النعمة والإحسان بالثناء والعرفان، وهذا المعنى محالٌ على الله إذ ليس لأحدٍ عنده يدٌ ونعمة حتى يشكره عليها ولهذا حملة العلماء على الثواب والجزاء أي أنه تعالى يُثيبه ولا يضيع أجر العاملين، أقول: والصحيح ما عليه السلف من إثبات الصفات كما وردت، فهو شُكْرٌ يليق بجلاله وكماله» اهـ.

فالمؤلف هنا ردَّ القول المخالف لمذهب السلف؛ فالشاكر والشكور، من أسماء الله تعالى، الذي يقبل من عباده السير من العمل، ويجازيهم عليه، العظيم من الأجر.

هـ- في توحيد الأسماء والصفات: استواء الله على عرشه:

ذكر المؤلف أن الله فوق العرش، وأثبت الله تعالى استواءً يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تحريف كما هو مذهب السلف، وفسَّر الاستواء بالعلو والاستقرار وأنه علا فوق العرش علواً يليق بجلاله، وأنا لا نعلم كيفية الاستواء.

فقال في تفسير الآية ١٨٦ من سورة البقرة: قال الإمام ابن تيمية «وهو سبحانه فوق العرش رقيب على خلقه مهيمن عليهم مطلعٌ إليهم فدخل في ذلك الإيمان بأنه قريب من خلقه» وفي الصحيح إن «الَّذِي تَدْعُوهُ أَقْرَبُ إِلَيَّ أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقٍ رَاحِلَتِهِ»^(١) وما ذُكر في الكتاب والسنة

(١) رواه مسلم بلفظ: «وَالَّذِي تَدْعُوهُ أَقْرَبُ إِلَيَّ أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقٍ رَاحِلَةٍ أَحَدِكُمْ»

من قُربِه ومَعِيَّتِه لا يُنَافِي ما ذُكِرَ مِنْ عُلُوِّهِ وفوقِيَّتِه فإنَّه سبحانه ليس كمثله شيء^(١).
وفي تفسير سورة الرعد فسر المؤلف الاستواء بالعلو فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٣]: «أي علا فوق العرش عُلُوًّا يليق بجلاله». وقال في تفسير قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]: «﴿أَسْتَوَى﴾ الاستواء: العلو والاستقرار». ثم قال: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾: «أي استواءً يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تحريف كما هو مذهب السلف وكما قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»، وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «أخبار الصفات تُمرُّ كما جاءت بلا تشبيه ولا تعطيل فلا يقال: كيف؟ ولم؟ نؤمن بأن الله على العرش كيف شاء، وكما شاء بلا حدٍّ ولا صفة يبلغها واصفٌ أو يحُدُّها حَدٌّ، نقرأ الآية والخبر ونؤمن بما فيهما ونكل الكيفية في الصفات إلى علم الله عَزَّ وَجَلَّ»، وقال القرطبي: لم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تُعلم حقيقته».

وقال في تفسير قوله تعالى في سورة طه: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [طه: ٥]: «استوى على عرشه استواءً يليق بجلاله من غير تجسيم، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل كما هو مذهب السلف».

وقال في تفسير قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الفرقان: ٥٩]: «استواءً يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تعطيل».

وقال في تفسير قوله تعالى في سورة السجدة: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [السجدة: ٤]: «استواءً يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل».

وقال في تفسير قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤]: «استواءً يليق بجلاله من غير تمثيل ولا تكييف».

وقال في تفسير سورة يونس: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ استواءً يليق بجلاله من غير تكييف، ولا تشبيه، ولا تعطيل».

ثم نقل المؤلف عن ابن كثير قوله: «نسلُّك في هذا المقام مذهب السلف الصالح، وهو إمرارها كما جاءت من غير تشبيه ولا تعطيل، والمتبادر إلى أذهان المشبِّهين منفي عن الله، فإن الله لا يُشَبَّه شيء من خلقه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة، والأخبار

الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله، فقد سلك سبيل الهدى» اهـ. وفي تفسير كل هذه الآيات يُحيل المؤلف على تفسيره لآية الأعراف في تفسير استواء الله على عرشه. ولكن المؤلف نقل في تفسير سورة يونس قول أبي السعود: «استوى على العرش على الوجه الذي عناه، وهو صفة له سبحانه بلا كيف، مُنَزَّهًا عن التمكن والاستقرار». وهذا من الملاحظات التي أُخِذَتْ على المؤلف، فقول أبي السعود «منزَّهًا عن التمكن والاستقرار» غير موافق لما يثبت السلف من صفة العلو، ومخالف لما ذكره المؤلف نفسه - في تفسير سورة الأعراف - من تفسير الاستواء بالعلو والاستقرار.

فكلام أبي السعود مخالفٌ لعقيدة أهل السنة والجماعة، والواجب السكوت عما سكنت عنه النصوص وسكت عنه السلف؛ بل إن عامة أهل السنة على إثبات «التمكن والاستقرار» الذي نزه أبو السعود الله عنه، فإن جمعاً من علماء أهل السنة فسروا الاستواء بالاستقرار والتمكن، وما أنكر البقية عليهم. جاء في كتاب «التمهيد» لابن عبد البر (٧/ ١٣١): «الاستواء معلوم في اللغة ومفهوم، وهو العلو والارتفاع على الشيء والاستقرار، والتمكن فيه». فمن الملاحظات التي أُخِذَتْ على المؤلف أنه في الأسماء والصفات يتردد في مواضع من كتابه بين مذهب السلف وبين مذهب المفوضة، أو يخلط بينهما^(١)، أو يُخطئ في الوصول إلى مذهب السلف، أو يقتصر على جزء منه:

أ- فقد قال في تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ

(١) التفويض في أسماء الله تعالى وصفاته له معنيان: الأول: معنى صحيح، وهو إثبات اللفظ ومعناه الذي يدل عليه، ثم تفويض علم كفيته إلى الله، فثبت لله تعالى أسماء الحسنى وصفاته العلى، ونُعرف بمعانيها ونؤمن بها، غير أننا لا نعلم كفيته. فنؤمن بأن الله تعالى قد استوى على العرش، استواء حقيقياً يليق بجلاله سبحانه، ليس كاستواء البشر، ولكن كيفية الاستواء مجهولة بالنسبة لنا؛ ولذا، فإننا نفوض كفيته إلى الله، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة: إثبات صفات الله تعالى، إثباتاً بلا تمثيل ولا تكييف، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. والمعنى الثاني للتفويض - وهو معنى باطل -: إثبات اللفظ من غير معرفة معناه. فيثبتون الألفاظ فقط، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ثم يقولون: لا ندري معناه، ولا ماذا أراد الله به!! وقد توهم البعض أن مذهب السلف هو التفويض، وفهموا ذلك من قول السلف في أحاديث الصفات: (أمرؤها كما جاءت بلا كيف). وهو فهم غير صحيح، بل هذا القول الوارد عن السلف يدل على أنهم كانوا يثبتون الصفات بمعانيها لله تعالى، ثم ينفون علمهم بكيفية ذلك. وفي هذه العبارة رد على المعطلة والمثثلة، ففي قولهم: «أمرؤها كما جاءت» ردٌ على المعطلة. وفي قولهم: «بلا كيف» رد على المثثلة. وفيها أيضاً دليل على أن السلف كانوا يثبتون لنصوص الصفات المعاني الصحيحة التي تليق بالله تدل على ذلك من وجهين: الأول: قولهم: «أمرؤها كما جاءت». فإن معناها إبقاء دلالتها على ما جاءت به من المعاني، ولا ريب أنها جاءت لإثبات المعاني اللائقة بالله تعالى، ولو كانوا لا يعتقدون لها معنى لقالوا: «أمرؤا لفظها ولا تتعرضوا لمعناها». ونحو ذلك. الثاني: قولهم: «بلا كيف» فإنه ظاهر في إثبات حقيقة المعنى، لأنهم لو كانوا لا يعتقدون ثبوته ما احتاجوا إلى نفي كفيته، فإن غير الثابت لا وجود له في نفسه، فنفي كفيته من لغو القول.

وَأَمَلَيْكَهُ ﴿البقرة: ٢١٠﴾: أي ما ينتظرون شيئاً إلا أن يأتيهم الله يوم القيامة لفصل القضاء بين الخلائق» اهـ.

وهذا القول من المؤلف إثبات لمذهب السلف، فالإتيان والمجيء صفتان ثابتتان بالكتاب والسنة على ما يليق بجلال الله، فهما من صفات الله على الحقيقة على ما هو لائق بالله بلا معرفة الكيف. ومن الدلائل على بطلان تأويل الإتيان والمجيء بالأمر أن الملائكة من أمر الله فلا معنى لمجيء الأمر مع تصريح مجيء الملائكة لأنه يكون ذكراً للملائكة بلا فائدة. ولكن المؤلف عاد وقال في الهامش: «ذهب الإمام الفخر إلى أن معنى قوله: ﴿أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ أي يأتيهم أمره وبأسه فهو على حذف مضاف مثل قوله: ﴿وَسَّيْلُ الْقَرْيَةِ﴾ وهو مجاز مشهور يقال ضرب الأمير فلاناً وصلبه وأعطاه المراد أنه أمر بذلك واستدل على صحة هذا التأويل بالآية الأخرى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ وما أثبتناه من تفسير ابن كثير هو مذهب السلف وهو عدم التأويل وتفويض معنى الآية على سبيل التفصيل إلى الله تعالى» اهـ.

والمؤلف هنا بنقله لكلام الفخر الرازي خلط بين مذهب السلف ومذهب الخلف، وأيضاً خطأ في قوله إن مذهب السلف هو عدم التأويل وتفويض معنى الآية على سبيل التفصيل إلى الله تعالى؛ لأن السلف إنما يفوضون كيفية الصفة ولا يفوضون معناها، ويدل على ذلك ما نقله المؤلف نفسه بعد ذلك حيث قال:

تنبيه: قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى في رسالته «التدمرية»: «وَصَفُّهُ تَعَالَى نَفْسَهُ بِالْإِتْيَانِ فِي ظِلِّ مِنَ الْغَمَامِ كَوَصْفِهِ بِالْمَجِيءِ فِي آيَاتٍ آخَرَ وَنَحْوَهُمَا مِمَّا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ أَوْ صَحَّ عَنْ رَسُولِهِ ﷺ والقول في جميع ذلك من جنس واحد وهو مذهب سلف الأمة وأئمتها، إنهم يصفونه سبحانه بما وصف به نفسه ووصفه به رسول الله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، والقول في صفاته كالقول في ذاته والله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله فلو سأل سائل: كيف يجيء سبحانه؟ فليقل له: كما لا تعلم كيفية ذاته كذلك لا تعلم كيفية صفاته»^(١).

ب- والخلط بين مذهب السلف والخلف تجده أيضاً في تفسيره لسورة الفجر حيث

(١) ما نقله المؤلف ليس في «التدمرية» لابن تيمية بل هو كلام القاسمي في تفسيره «محاسن التأويل» (٢/ ٨٨): «فلو سأل سائل: كيف يجيء سبحانه أو كيف يأتي..؟ فليقل له: كيف هو في نفسه؟ فإذا قال: لا أعلم كيفية ذاته! فليقل له: وكذلك لا تعلم كيفية صفاته..! فإن العلم بكيفية الصفة يتبع العلم بكيفية الموصوف. وقد أطلق غير واحد، ممن حكى إجماع السلف، منهم الخطابي: مذهب السلف أن صفاته تعالى تجري على ظاهرها مع نفي الكيفية والتشبيه عنها».

قال: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أي وجاء ربك يا محمد لفصل القضاء بين العباد، وجاء الملائكة صُفُوفًا متتابعة صفاً بعد صفٍّ اهـ.

وكلام المؤلف هنا موافق لمذهب السلف، ولكنه لم يقف عند هذا بل نقل عن ابن جرير في تفسيره «التسهيل لعلوم التنزيل» قول المنذر بن سعيد: «معناه ظهوره للخلق هنالك»، وأن هذه الآية وأمثالها مما يجب الإيمان به من غير تكيف ولا تمثيل وما ذكره المؤلف في بداية تفسير الآية هو الصواب، فالمجيء صفة من صفات الله على الحقيقة على ما هو لائق بالله بلا معرفة الكيف. فقلوه تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ لا يصح تأويله بظهور الله للخلق. بل هذا مع مخالفته لظاهر القرآن يخالف نص السنة الصحيحة، فعن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: يَجْمَعُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ، قِيَامًا أَرْبَعِينَ سَنَةً شَاخِصَةً أَبْصَارُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ، يَنْتَظِرُونَ فَضْلَ الْقَضَاءِ، وَيَنْزِلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ظُلُلٍ مِنَ الْغَمَامِ مِنَ الْعَرْشِ إِلَى الْكُرْسِيِّ (رواه ابن أبي الدنيا والطبراني، والحاكم وصححه، وحسنه الذهبي، وصححه الألباني).

وبذلك قال أئمة التفسير. قال الإمام الطبري في تفسيره (٢٤ / ٤١٧): «يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَإِذَا جَاءَ رَبُّكَ يَا مُحَمَّدٌ وَأَمَلَاكُهُ صُفُوفًا صَفًّا بَعْدَ صَفٍّ». اهـ. ثم أورد من الأحاديث والآثار ما يدل لقوله ويثبت مجيء الله تعالى.

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٨ / ٣٩٩): ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ يَعْنِي: لِفَضْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ خَلْقِهِ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا يَسْتَشْفِعُونَ إِلَيْهِ بِسَيِّدٍ وَلَدِ آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ مُحَمَّدٌ ﷺ، ... فَيَذْهَبُ فَيَشْفَعُ عِنْدَ اللَّهِ فِي أَنْ يَأْتِيَ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ فَيُشَفِّعَهُ اللَّهُ فِي ذَلِكَ، ... فَيَجِيءُ الرَّبُّ تَعَالَى لِفَضْلِ الْقَضَاءِ كَمَا يَشَاءُ، وَالْمَلَائِكَةُ يَجِيئُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ صُفُوفًا صُفُوفًا.

ج- قال المؤلف في تفسير الآية ٢٥٥ من سورة البقرة: ﴿الْعَلِيِّ﴾ المراد علو المنزلة والشأن الذي تعالى في جلاله وعظم في سلطانه اهـ.

ولم يذكر علو الذات الذي ذكره في تفسيره لآيات الاستواء، حيث ذكر أن الله فوق العرش، وأثبت لله ﷻ استواء يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تحريف كما هو مذهب السلف، وفسر الاستواء بالعلو والاستقرار وأنه علا فوق العرش علواً يليق بجلاله، وأنا لا نعلم كيفية الاستواء.

فمن أسماء الله الحسنى (العليّ الأعلى) وذلك دال على أن جميع معاني العلو ثابتة لله من كل وجه، فله علو الذات، وهو أنه مستو على عرشه، فوق جميع خلقه، مباين لهم، وهو مع هذا مطلع على أحوالهم، مشاهد لهم، مدبر لأموالهم الظاهرة والباطنة متكلم بأحكامه القدريّة، وتدبيراته الكونية، وبأحكامه الشرعية.

وأما علو القدر فهو علو صفاته، وعظمتها فلا يماثله صفة مخلوق، بل لا يقدر الخلائق

كلهم أن يحيطوا ببعض معاني صفة واحدة من صفاته، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾^(١) علماً وبذلك يعلم أنه ليس كمثله شيء في كل نعوته.

وله علو القهر فإنه الواحد القهار الذي قهر بعزته وعلوه الخلق كلهم، فنواصيهم بيده، وما شاء كان لا يمانعه فيه ممانع، وما لم يشأ لم يكن فلو اجتمع الخلق على إيجاد ما لم يشأه الله لم يقدرُوا، ولو اجتمعوا على منع ما حكمت به مشيئته لم يمنعه، وذلك لكمال اقتداره، ونفوذ مشيئته وشدة افتقار المخلوقات كلها إليه من كل وجه.

ملاحظات عامة على كتاب "صفوة التفاسير" للشيخ الصابوني^(٢):

١- اعتماد المؤلف على مصادر غير مرغوب فيها ووصفها بأنها أوثق كتب التفسير، مثل: «تلخيص البيان» للرضي الشيعي الرافضي، و«تفسير الزمخشري» المعتزلي، وعلى تفاسير الأشاعرة كالرازي وأبي السعود والضاوي والبيضاوي، وبعض التفاسير العصرية، ولا يخفى أن كثيراً من القراء يعرفون حقيقة هذه الكتب وما فيها من أخطاء.

٢- إثبات المجاز والاستعارات في القرآن الكريم مما لا يتناسب مع مكانته الجليلة، وكلام الله يجب حمله على الحقيقة لا على المجاز^(٣).

٣- حشو الكتاب بما لا يفهمه كثير من القراء من اصطلاحات البلاغيين، مثل: الطباق، والجناس، والاشتقاق، والإطناب، والحذف، ويذكر هذه الأشياء بمجرد أسمائها من غير إيضاح لها^(٤).

٤- يُورد في الكتاب كثيراً من الأحاديث في أسباب النزول وغيرها، ولا يبين درجتها من الصحة وعدمها.

٥- ينقل من كتب المعتزلة والأشاعرة من غير تعليق على ما تشتمل عليه عباراتهم من أغلاط في العقيدة، وهذا فيه تمرير لعقائدهم الباطلة وتغريب بالقارئ المبتدئ.

(١) انظر: تعقيبات وملاحظات على كتاب صفوة التفاسير (ص ١٢ - ١٣)، تنبيهات هامة على كتاب صفوة التفاسير ومخالفات هامة في مختصر تفسير ابن جرير الطبري (ص ٧ - ٣٥).

(٢) انظر: «منع جواز المجاز في المنزل للتعب والإعجاز»، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي.

(٣) من الملاحظات المتكررة في الكتاب قول المؤلف إن في القرآن سجاً، والصواب ألا يقال ذلك؛ لأن السجع من كلام الكهنة المذموم. وقد ذكر الزركشي في كتابه «البرهان في علوم القرآن» (١/ ٥٤) كلاماً ينفي فيه وجود السجع في القرآن، وذكر السيوطي في كتابه «الإتقان في علوم القرآن» (٣/ ٣٣٤) أن الجمهور على أنه لا يجوز أن يقال: في القرآن سجع؛ لأن السجع أصله من سجع الطير فشرف القرآن أن يستعار لشيء منه لفظ أصله مهمل ولاجل تشريفه عن مشاركة غيره من الكلام الحادث في وصفه بذلك ولأن القرآن من صفاته تعالى فلا يجوز وصفه بصفة لم يرد الإذن بها. وقرئوا بأن السجع هو الذي يُقصد في نفسه ثم يحال المعنى عليه والفواصل التي تتبع المعاني ولا تكون مقصودة في نفسها، ولذلك كانت الفواصل بلاغةً والسجع عيباً.

٦- يفسر بعض آيات الصفات بما فسر بها به نفاة الصفات^(١)، ولا يفسرها بالأحاديث التي جاءت توضيحها، كما في آية ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾، وآية: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾، وآية: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾^(٢).

٧- يتمشى مع منهج المتكلمين في الاستدلال بالآيات على إثبات توحيد الربوبية ووجود الرب ولا يستدل بها على توحيد الإلهية الذي سيقت من أجله وجاءت لمُحَاجَّة المخالفين فيه^(٣).

٨- يتمشى مع منهج المرجئة في تفسير الإيمان بالتصديق فقط^(٤).

٩- تمر في تفسيره تعبيرات صوفية.

١٠- قوله في تفسير أنه لا إله إلا الله: «لا معبود سواه» والصواب: لا معبود بحق سواه، لأن هناك معبودات بغير حق، ومن ذلك قوله في تفسير الآية ٦٢ من سورة آل عمران: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي لا يوجد إله غير الله، فالصواب أن يقال: «لا يوجد إله حق غير الله» لأن هناك آلهة باطلة^(٥).

(١) قال المؤلف في كتابه «كشف الافتراءات في رسالة التنبهات حول صفوة التفاسير» (ص / ١٦٧) إنه لا يتبنى مذهب الأشاعرة وأقر بأنهم مُخطئون في التأويل، ولكنه وقع في بعض ما وقعوا فيه من التأويل، ومن ذلك تأويل الوجه بالذات؛ لأنه نفى لصفة ثابتة لله تعالى. ومن ذلك قوله في تفسير سورة ص: ﴿قَالَ يَبْرَأِيلُ مَا مَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِدَيِّ﴾ أي: قال له ربه: ما الذي صرفك وصدك عن السجود لمن خلقته بذاتي. وتفسير اليدين بالذات تعطيل للصفات وجحد ليدى الله الكريمتين. فإليدان صفة ذاتية خبرية لله عز وجل، ثبتها كما ثبت باقي صفاته تعالى؛ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكيف ولا تمثيل، وهي ثابتة بالكتاب والسنة.

(٢) خالف المؤلف في ذلك ما نقله في تفسير «سورة الكوثر» عن أبي حيان في «البحر المحيط» من أن في الكوثر ستة وعشرين قولاً، وأن الصحيح هو ما فسره به رسول الله ﷺ.

(٣) هذا هو الغالب، ولكنه نادراً ما يخالف ذلك، فقد نقل عن الحافظ ابن كثير في تفسير سورة الغاشية قوله: «نبه تعالى البدوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه، والسماء التي فوق رأسه، والجبل الذي تجاهه، والأرض التي تحته، على قدرة خالق ذلك وصانعه، وأنه الرب العظيم، الخالق المالك المتصرف، الذي لا يستحق العبادة سواه» اهـ. وقال في تفسير سورة الشمس: «قال المفسرون: أقسم سبحانه بسبعة أشياء «الشمس، والقمر، والليل، والنهار، والسماء، والأرض، والنفس البشرية» إظهاراً لعظمته قدرته، وانفراده بالألوهية، وإشارة إلى كثرة مصالح تلك الأشياء وعظم نفعها وأنها لا بد لها من صانع ومدبر لحركاتها وسكناتها».

(٤) وقد ذكر المؤلف كلام أهل السنة في تفسير الآية ٧ من سورة «فاطر» حيث قال: «فالإيمان تصديق، وقول، وعمل».

(٥) ولكن في مواطن من تفسيره ذكر المؤلف القول بالصواب، فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْإِلَهُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٣]: «أي لا معبود بحق إلا هو جل وعلا». وقال في تفسير الآية ١٨ من سورة آل عمران: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود في الوجود بحق إلا هو». وقال في تفسير الآية ٢ من سورة غافر: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحق إلا الله، ولا رب في الوجود سواه». وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الحشر: ٢٣]: «أي هو جل وعلا الإله المعبود بحق لا إله ولا رب سواه».

١١- من الملاحظات المتكررة في الكتاب قول المؤلف: هذا تعجب من الله تعالى لنبه، هذا التعبير خطأ، لأنه يتضمن نفْي التعجب عن الله، وقد ثبت في الأدلة أنه سبحانه يعجب^(١)، ومثل هذا يتكرر كثيراً، والصواب أن يقول: هذا تعجب من الله. فالله هو من يتكلم بصيغة التعجب فيكون متعجباً^(٢).



(١) قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: «قوله تعالى: بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ. قَرَأَ هَذَا الْحَرْفَ عَامَةً الْقُرَاءِ السَّبْعَةِ غَيْرَ حَمْزَةٍ وَالْكَسَائِيِّ: عَجِبْتَ بِالنَّاءِ الْمَفْتُوحَةِ وَهِيَ تَاءُ الْخَطَابِ، الْمُخَاطَبُ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ. وَقَرَأَ حَمْزَةً وَالْكَسَائِيُّ: بَلْ عَجِبْتُ، بَضَمُ النَّاءِ وَهِيَ تَاءُ الْمُتَكَلِّمِ، وَهُوَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا. وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي تَرْجَمَةِ هَذَا الْكِتَابِ الْمُبَارَكِ أَنَّ الْقُرَاءَ ثَلَاثِينَ الْمُخْتَلِفِينَ يُحْكَمُ لَهُمَا بِحُكْمِ الْآيَتَيْنِ. وَبِذَلِكَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ عَلَى قِرَاءَةِ حَمْزَةٍ وَالْكَسَائِيِّ فِيهَا إِثْبَاتُ الْعَجَبِ لِلَّهِ تَعَالَى، فَهِيَ إِذَا مِنْ آيَاتِ الصِّفَاتِ عَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ» [أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٦/ ٣٠٨)].

(٢) وقد أثبت المؤلف صفة التعجب لله فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾: «أَيُّ شَيْءٍ خَدَعَكَ بِرُكِّ الْحَلِيمِ الْكَرِيمِ، حَتَّى عَصَيْتَهُ وَتَجَرَأْتَ عَلَى مَخَالَفَةِ أَمْرِهِ، مَعَ إِحْسَانِهِ إِلَيْكَ وَعَظْفِهِ عَلَيْكَ؟». ثم قال في الهامش: هذه الآية واردة على سبيل التوبيخ والتعجب من حال الإنسان الجاحد لنعم ربه. وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ ﴿١﴾ تَعَجَّبُ مِنْ حَالِ ذَلِكَ الشَّقِيِّ الْفَاجِرِ أَيْ أَخْبَرَنِي يَا مُحَمَّدٌ عَنْ ذَلِكَ الْمَجْرَمِ الْأَثِيمِ، الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ عَنِ الصَّلَاةِ، مَا أَسْخَفَ عَقْلَهُ. وَقَالَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾: «الاستفهام للتعجب والاستغراب». وقد ذكر المؤلف ما رواه البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: «لَقَدْ عَجَبَ اللَّهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِصَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ». وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

٣- مصادر الشيخ الصابوني في «صفوة التفاسير»

- ١- تفسير ابن جرير الطبري «جامع البيان في تأويل القرآن».
- ٢- تفسير ابن كثير «تفسير القرآن العظيم».
- ٣- تفسير القاسمي «محاسن التأويل في تفسير القرآن الكريم».
- ٤- تفسير الزمخشري «الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم القرآن في وجوه التأويل»^(١).
- ٥- تفسير ابن عطية «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز».
- ٦- تفسير الرازي «مفاتيح الغيب» أو «التفسير الكبير».
- ٧- تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن».
- ٨- تفسير البيضاوي «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»^(٢).
- ٩- تفسير ابن جرير «التسهيل لعلوم التنزيل».
- ١٠- تفسير الخازن «لباب التأويل في معاني التنزيل».
- ١١- تفسير أبي حيان الأندلسي «البحر المحيط في التفسير»^(٣).
- ١٢- تفسير الجلالين، لجلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي.
- ١٣- حاشية الجمل على «تفسير الجلالين» (الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية).

- ١٤- حاشية الصاوي على «تفسير الجلالين».
 - ١٥- تفسير السيوطي «الدر المنثور في التفسير بالمأثور».
 - ١٦- تفسير أبي السعود «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم».
 - ١٧- تفسير الشوكاني «فتح القدير الجامع بين فن الرواية والدراسة من التفسير».
 - ١٨- تفسير الألوسي «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني».
- ومن الكتب الأخرى التي نقل منها الشيخ الصابوني في «صفوة التفاسير»:**

- ١- مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني.
- ٢- غريب القرآن، لابن قتيبة الدينوري.
- ٣- كشف المعاني في المتشابه من المثاني، لابن جماعة الكنايني الحموي الشافعي.
- ٤- الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض بن موسى اليحصبي.

(١) لشرف الدين الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي حاشية على تفسير الكشاف اسمها «فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرّيب».

(٢) محي الدين شيخ زاده له حاشية على تفسير البيضاوي، كتبها على سبيل الإيضاح والبيان للمبتدئ.

(٣) وبهامشه «النهر الماد من البحر» له أيضًا.

- ٥- مجاز القرآن، لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري.
- ٦- جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد، للمحدث الأديب محمد بن محمد بن سليمان بن الفاسي السوسي المغربي، وبذيله «أعذب الموارد في تخريج جمع الفوائد» للسيد عبد الله هاشم اليماني المدني.
- ٧- تهذيب اللغة، لمحمد بن أحمد بن الأزهر الهروي.
- ٨- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لإسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي.
- ٩- لسان العرب، لجمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقي.
- ١٠- القاموس المحيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي.
- ١١- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، لأحمد بن محمد بن علي الفيومي.
- ١٢- مقدمة في التفسير، لحسن البنا.
- ١٣- روائع البيان تفسير آيات الأحكام، لمحمد علي الصابوني.
- ١٤- النبوة والأنبياء، لمحمد علي الصابوني.
- ١٥- متن الجوهرة في التوحيد، لبرهان الدين إبراهيم بن هارون اللقاني^(١).
- ١٦- الحكم لابن عطاء الله السكندري^(٢).
- ١٧- تلخيص البيان في مجازات القرآن، للشريف الرضي^(٣).



- (١) كتاب جوهرة التوحيد مختصر في العقيدة الأشعرية، انظر في الرد عليه: «ملاحظات على البيجوري، في شرح جوهرة التوحيد»، لعمر بن محمد أبو عمرو.
- (٢) ابن عطاء الله السكندري هو: أحمد بن محمد بن عبد الكريم، أبو الفضل، وهو من أهل التصوف الغلاة، يسير على الطريقة الشاذلية، وهو من أشد خصوم شيخ الإسلام ابن تيمية، وقد ادّعى عليه عند السلطان، وألّب عليه السفهاء، توفي سنة ٧٠٩ هـ. وكتاب «الحكم الإلهية» قد تتبع ما فيه من ضلالات الشيخ محمود مهدي الإستانبولي رَحِمَهُ اللهُ، وذلك في كتابه الماتع «كتب ليست من الإسلام» (٩١-١٠١)، ومن تلك الضلالات: أ. أقوال يؤيد فيها نظرية وحدة الوجود القائلة بأن الخالق والمخلوق واحد، ومثلها نظرية الاتحاد والحلول، وكل ذلك كفر. ب. أقواله في النهي عن دعاء الله، مما يصادم أصول الشريعة. ج. أقوال تشجع على تعطيل المواهب والعزائم وتدعو إلى التماوت وترك التدبير.
- (٣) الشريف الرضي شيعي متعصب، قال عنه الذهبي: «رافضي جلد». [انظر: ميزان الاعتدال في نقد الرجال (٣/٥٢٣)].

٤ - اعتقاد الأئمة الأربعة^(١)

إن عقيدة الأئمة الأربعة هي العقيدة الجديرة بأن تجمع المسلمين على كلمة سواء وتعصمهم من التفرق في الدين لأنها مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

فاعتقاد الأئمة الأربعة - أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد رحمهم الله - هو ما نطق به الكتاب والسنة وما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان وليس بين هؤلاء الأئمة والله الحمد نزاع في أصول الدين بل هم متفقون على الإيمان بصفات الرب وأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأن الإيمان لا بد فيه من تصديق القلب واللسان، بل كانوا ينكرون على أهل الكلام من جهمية وغيرهم ممن تأثروا بالفلسفة اليونانية والمذاهب الكلامية.

فعقيدة هؤلاء الأئمة الأربعة هي العقيدة الصحيحة التي جاءت في الكتاب والسنة من منبع صاف لا تشوبه شائبة التأويل والتعطيل أو التشبيه أو التمثيل.

من أقوال الإمام أبي حنيفة رحمه الله في التوحيد:

أولاً: عقيدته في توحيد الله وبيان التوسل الشرعي وإبطال التوسل البدعي:

١ - قال أبو حنيفة رحمه الله: «لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به والدعاء المأذون فيه المأمور به ما استفيد من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠] ...».

٢ - وقال أبو حنيفة رحمه الله: «يكراه أن يقول الداعي أسألك بحق فلان أو بحق أنبيائك ورسلك وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام»^(٢).

(١) باختصار من: اعتقاد الأئمة الأربعة، للدكتور محمد بن عبد الرحمن الخميس.

(٢) قال الإمام الشاطبي - رحمه الله -: «وَأَمَّا كَلَامُ الْعُلَمَاءِ فَإِنَّهُمْ - وَإِنْ أَطْلَقُوا الْكَرَاهِيَةَ فِي الْأُمُورِ الْمَنْهِي عَنْهَا - لَا يَعْثُونَ بِهَا كَرَاهِيَةَ التَّنْزِيهِ فَقَطْ، وَإِنَّمَا هَذَا اضْطِلَاحٌ لِلْمُتَأَخِّرِينَ حِينَ أَرَادُوا أَنْ يَفْرُقُوا بَيْنَ الْقَبِيلَيْنِ. فَيُطْلَقُونَ لَفْظَ الْكَرَاهِيَةِ عَلَى كَرَاهِيَةِ التَّنْزِيهِ فَقَطْ، وَيَخْصُصُونَ كَرَاهِيَةَ التَّحْرِيمِ بِلَفْظِ التَّحْرِيمِ وَالْمَنْعِ، وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ. وَأَمَّا الْمُتَقَدِّمُونَ مِنَ السَّلَفِ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ مِنْ شَأْنِهِمْ فِيمَا لَا نَصَّ فِيهِ صَرِيحًا أَنْ يَقُولُوا: هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ. وَيَتَحَامَوْنَ هَذِهِ الْعِبَارَةَ خَوْفًا فِيمَا فِي الْآيَةِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ﴾ [النحل: ١١٦]، وَحَكَى مَالِكٌ عَمَّنْ تَقَدَّمَ هَذَا الْمَعْنَى. فَإِذَا وَجَدْتَ فِي كَلَامِهِمْ فِي الْبِدْعَةِ أَوْ غَيْرِهَا: أَكْرَهُ هَذَا، وَلَا أَحَبُّ هَذَا، وَهَذَا مَكْرُوهٌ. وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَلَا تَقْطَعْ عَلَى أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ التَّنْزِيهِ فَقَطْ» (الاعتصام ٢/ ٥٣٧ - ٥٣٨). وقال الإمام ابن القيم: «قَالَ ابْنُ وَهْبٍ: سَمِعْتُ مَالِكًا يَقُولُ: «لَمْ يَكُنْ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ وَلَا مِنْ مَضَى مِنْ سَلَفِنَا، وَلَا أَدْرَكَتْ أَحَدًا أَقْتَدِي بِهِ يَقُولُ فِي شَيْءٍ: هَذَا حَلَالٌ، وَهَذَا حَرَامٌ، وَمَا كَانُوا يَجْتَرُّونَ عَلَى ذَلِكَ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَقُولُونَ: نَكْرَهُ كَذَا، وَنَرَى هَذَا حَسَنًا؛ فَيَنْبَغِي هَذَا، وَلَا نَرَى هَذَا»، وَرَوَاهُ عَنْهُ عَتِيقُ بْنُ يَعْقُوبَ، وَرَأَى: «وَلَا يَقُولُونَ حَلَالٌ وَلَا حَرَامٌ، أَمَّا سَمِعْتُ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَدْبَسَ لَكُمْ أَمْرًا عَلَى اللَّهِ تَفْقَهُونَ﴾ [يونس: ٥٩]، الْحَلَالُ: مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ». قُلْتُ (القائل الإمام ابن القيم): =

ثانياً: قوله في إثبات الصفات والرد على الجهمية:

- ١- قال رَحِمَهُ اللهُ: «لا يوصف الله تعالى بصفات المخلوقين، وغضبه ورضاه صفتان من صفاته بلا كيف، وهو قول أهل السُّنَّة والجماعة وهو يغضب ويرضى ولا يقال: غضبه عقوبته ورضاه ثوابه، ونَصِفُهُ كما وصف نفسه أحدٌ صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، حيٌّ قادر سميع بصير عالم، يد الله فوق أيديهم ليست كأيدي خلقه ووجهه ليس كوجوه خلقه».
- ٢- وقال رَحِمَهُ اللهُ: «وله يد ووجه ونفس، كما ذكره الله تعالى في القرآن، فما ذكره الله تعالى في القرآن من ذكر الوجه واليد والنفس، فهو له صفات بلا كيف ولا يقال إن يده قدرته أو نعمته، لأن فيه إبطال الصفة وهو قول أهل القدر والاعتزال».
- ٣- وقال رَحِمَهُ اللهُ: «لا ينبغي لأحد أن ينطق في ذات الله بشيء بل يصفه بما وصف به نفسه ولا يقول فيه برأيه شيئاً تبارك الله وتعالى رب العالمين».
- ٤- ولما سُئِلَ عن النزول الإلهي قال رَحِمَهُ اللهُ: «ينزل بلا كيف».
- ٥- وقال رَحِمَهُ اللهُ: «والله تعالى يدعى من أعلى لا من أسفل لأن الأسفل ليس من وصف الربوبية والألوهية في شيء».
- ٦- وقال رَحِمَهُ اللهُ: «وهو يغضب ويرضى ولا يقال غضبه عقوبته ورضاه ثوابه».
- ٧- وقال رَحِمَهُ اللهُ: «ولا يشبه شيئاً من الأشياء من خلقه ولا يشبه من خلقه لم يزل ولا يزال بأسمائه وصفاته».
- ٨- وقال رَحِمَهُ اللهُ: «وصفاته بخلاف صفات المخلوقين يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرويتنا، ويسمع لا كسمعنا، ويتكلم لا ككلامنا».
- ٩- وقال رَحِمَهُ اللهُ: «لا يوصف الله تعالى بصفات المخلوقين».

= «وَقَدْ غَلِطَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَئِمَّةِ عَلَى أَئِمَّتِهِمْ بِسَبَبِ ذَلِكَ، حَيْثُ تَوَرَّعَ الْأَئِمَّةُ عَنْ إِطْلَاقِ لَفْظِ التَّحْرِيمِ، وَأَطْلَقُوا لَفْظَ الْكَرَاهَةِ، فَنفَى الْمُتَأَخِّرُونَ التَّحْرِيمَ عَمَّا أَطْلَقَ عَلَيْهِ الْأَئِمَّةُ الْكَرَاهَةَ، ثُمَّ سَهَّلَ عَلَيْهِمْ لَفْظُ الْكَرَاهَةِ وَخَفَّتْ مُؤَنَّتُهُ عَلَيْهِمْ فَحَمَلَهُ بَعْضُهُمْ عَلَى التَّنْزِيهِ، وَتَجَاوَزَ بِهِ آخَرُونَ إِلَى كَرَاهَةِ تَرْكِ الْأَوْكَلِ، وَهَذَا كَثِيرٌ جِدًّا فِي تَصَرُّفَاتِهِمْ؛ فَحَصَلَ بِسَبَبِهِ غَلْطٌ عَظِيمٌ عَلَى الشَّرِيعَةِ وَعَلَى الْأَئِمَّةِ». ثم ذكر الإمام ابن القيم أمثلة كثيرة منها قول الإمام أحمد: «لَا يُعْجِبُنِي أَكْلُ مَا ذُبِحَ لِلزَّهْرَةِ وَلَا الْكَوَاكِبِ وَلَا الْكَيْسَةِ، وَكُلُّ شَيْءٍ ذُبِحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِئَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلُ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: ٣]. فَتَأَمَّلْ كَيْفَ قَالَ: «لَا يُعْجِبُنِي» فِيمَا نَصَّ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - عَلَى تَحْرِيمِهِ، وَاحْتَجَّ هُوَ أَيْضًا بِتَحْرِيمِ اللَّهِ لَهُ فِي كِتَابِهِ [انظر: إعلام الموقعين (١/ ٤٠ - ٤١)]. ومما يوضح كلام الإمامين الشاطبي والنووي أن الإمام الترمذي قال في سننه: «بَابُ مَا جَاءَ فِي كَرَاهِيَةِ إِيْتَانِ الْحَائِضِ»، وذكر فيه قول رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: «مَنْ أَتَى حَائِضًا، أَوْ امْرَأَةً فِي دُبْرِهَا، أَوْ كَاهِنًا، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ». [سنن الترمذي (١/ ١٩٩)، والحديث صحيحه الألباني]. فهل يُعقل أن يستدل الإمام الترمذي بالحديث على الكراهة التنزيهية؟!!

- ١٠ - وقال رَحِمَهُ اللهُ: «ومن وصف الله بمعاني البشر فقد كفر» .
- ١١ - وقال رَحِمَهُ اللهُ: «من قال لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض فقد كفر، وكذا من قال إنه على العرش ولا أدري العرش أفي السماء أم في الأرض» .
- ١٢ - وقال رَحِمَهُ اللهُ: «ومتكلمًا بكلامه والكلام صفة في الأزل» .
- ١٣ - وقال رَحِمَهُ اللهُ: «ويتكلم لا ككلامنا» .
- ١٤ - وقال رَحِمَهُ اللهُ: «والقرآن كلام الله في المصاحف مكتوب وفي القلوب محفوظ، وعلى الألسن مقروء، وعلى النبي ﷺ، أنزل» .
- ١٥ - وقال رَحِمَهُ اللهُ: «والقرآن غير مخلوق» .

ثالثًا: أقوال الإمام أبي حنيفة في القدر:

- ١ - جاء رجل إلى الإمام أبي حنيفة يجادله في القدر فقال له: «أما علمت أن الناظر في القدر كالناظر في عيني الشمس كلما ازداد نظرًا ازداد تحيرًا» .
- ٢ - يقول الإمام أبو حنيفة: «وكان الله تعالى عالمًا في الأزل بالأشياء قبل كونها» .
- ٣ - وقال: «يعلم الله تعالى المعدوم في حالة عدمه معدومًا ويعلم أنه كيف يكون إذا أوجده، ويعلم الله تعالى الموجود في حال وجوده موجودًا ويعلم كيف يكون فناؤه» .
- ٤ - يقول الإمام أبو حنيفة: «وقدره في اللوح المحفوظ» .
- ٥ - وقال: «ونقر بأن الله تعالى أمر بالقلم أن يكتب فقال القلم، ماذا أكتب يا رب؟ فقال الله تعالى: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة^(١) لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ (٥٢)» .
- ٦ - وقال الإمام أبو حنيفة: «ولا يكون في الدنيا ولا في الآخرة شيء إلا بمشيئته» .
- ٧ - وقال: «نقر بأن العبد مع أعماله وإقراره ومعرفته مخلوق، فلما كان الفاعل مخلوقًا فأفعاله أولى أن تكون مخلوقة» .
- ٨ - وقال: «جميع أفعال العباد من الحركة والسكون كسبهم والله تعالى خالقها وهي كلها بمشيئته وعلمه وقضائه وقدره» .
- ٩ - قال الإمام أبو حنيفة: «وجميع أفعال العباد من الحركة والسكون كسبهم على الحقيقة والله تعالى خلقها وهي كلها بمشيئته وعلمه وقضائه وقدره، والطاعات كلها كانت واجبة بأمر الله تعالى وبمحبة وبرضاه وعلمه ومشيئته وقضائه وتقديره، والمعاصي كلها بعلمه وقضائه وتقديره ومشيئته لا بمحبته ولا برضائه ولا بأمره» .

(١) قال ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ أَكْتُبْ. قَالَ رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ قَالَ أَكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ». (رواه أبو داود، وصححه الألباني).

١٠ - وقال: «وهو الذي قدر الأشياء وقضاها ولا يكون في الدنيا ولا في الآخرة شيء إلا بمشيئته وعلمه وقضائه وقدره، وكتبه في اللوح المحفوظ».

رابعاً: أقوال الإمام أبي حنيفة في الإيمان:

قال رحمه الله: «الإيمان إقرار باللسان وتصديق بالجنان والإقرار وحده لا يكون إيماناً».

خامساً: قول الإمام أبي حنيفة في الصحابة رضي الله عنهم:

١ - قال الإمام أبو حنيفة: «ولا نذكر أحداً من صحابة رسول الله إلا بخير».

٢ - وقال رحمه الله: «ولا نتبرأ من أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، ولا نوالي أحداً دون أحد».

٣ - وقال رحمه الله: «مقام أحدهم مع رسول الله ﷺ، ساعة واحدة خير من عمل أحدنا جميع عمره وإن طال».

٤ - وقال رحمه الله: «ونقر بأن أفضل هذه الأمة بعد نبينا محمد ﷺ: أبو بكر الصديق ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضوان الله عليهم أجمعين».

عقيدة الإمام مالك بن أنس:

أولاً: قوله في التوحيد:

١ - عن جعفر بن عبد الله قال: «كنا عند مالك بن أنس فجاء رجل فقال: يا أبا عبد الله، الرحمن على العرش استوى، كيف استوى؟ فما وجد مالك من شيء ما وجد من مسألته. فنظر إلى الأرض وجعل ينكت بعود في يده حتى علاه الرضاء - يعني العرق - ثم رفع رأسه ورمى بالعود وقال: كيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة وأظنك صاحب بدعة». وأمر به فأخرج.

٢ - وقال رحمه الله: الله في السماء وعلمه في كل مكان».

ثانياً: قوله في القدر:

١ - أخرج ابن أبي عاصم عن سعيد بن عبد الجبار قال: «سمعت مالك بن أنس يقول: رأيي فيهم أن يستأبوا فإن تابوا وإلا قتلوا - يعني القدرية -»^(١).

٢ - وعن مروان بن محمد الطاطري قال: (سمعت مالك بن أنس يسأل عن تزويج القدري؟ فقرأ: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ﴾ [البقرة: ٢٢١] ... »).

٣ - وقال القاضي عياض: «قال مالك: لا تجوز شهادة القدري الذي يدعو، ولا الخارجي والرافضي».

(١) أي من لا يؤمنون بالقدر.

ثالثاً: قوله في الإيمان:

١ - عن عبد الرزاق بن همام قال: «سمعت ابن جريج وسفيان الثوري ومعمربن راشد وسفيان بن عيينة ومالك بن أنس يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص» .

٢ - وقال رحمه الله: «الإيمان قول وعمل» .

رابعاً: قوله في الصحابة رضي الله عنهم:

١ - قال الإمام مالك بن أنس: من تنقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ، أو كان في قلبه عليهم غل، فليس له حق في فيء المسلمين، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا﴾ [الحشر: ١٠]. فمن تنقصهم أو كان في قلبه عليهم غل، فليس له في الفيء حق» .

٢ - عن رجل من ولد الزبير قال: «كنا عند مالك فذكر وارجلاً يتنقص أصحاب رسول الله ﷺ، فقرأ مالك هذه الآية: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ﴾ - حتى بلغ - ﴿يُعِجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]. فقال مالك: (من أصبح في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، فقد أصابته الآية)» .

عقيدة الإمام الشافعي:

أولاً: قوله في التوحيد:

١ - قال الشافعي في كتابه الرسالة: «والحمد لله ... الذي هو كما وصف به نفسه وفوق ما يصفه به خلقه» .

٢ - وقال رحمه الله: «نثبت هذه الصفات التي جاء بها القرآن ووردت بها السنة وننفي التشبيه عنه كما نفى عن نفسه فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]» .

٣ - وقال رحمه الله: «من قال القرآن مخلوق فهو كافر» .

ثانياً: قوله في القدر:

قال رحمه الله: «إن مشيئة العباد هي إلى الله تعالى ولا يشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين، فإن الناس لم يخلقوا أعمالهم وهي خلق من خلق الله تعالى أفعال العباد وإن القدر خير به وشره من الله عز وجل، وإن عذاب القبر حق، ومسألة أهل القبور حق، والبعث حق، والحساب حق، والجنة والنار حق، وغير ذلك مما جاءت به السنن» .

ثالثاً: قوله في الإيمان:

١ - قال رحمه الله: «الإيمان قول وعمل واعتقاد بالقلب» .

٢ - وقال رحمه الله: «سمعت الشافعي يقول: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص» .

رابعاً: قوله في الصحابة:

١ - قال رَحِمَهُ اللهُ: «أثنى الله تبارك وتعالى على أصحاب رسول الله ﷺ في القرآن والتوراة والإنجيل وسبق لهم لسان رسول الله ﷺ من الفضل ما ليس لأحد بعدهم، فرحمهم الله، وهنأهم بما أتاهم من ذلك ببلوغ أعلى منازل الصديقين والشهداء والصالحين، فهم أدوا إلينا سُنَن رسول الله ﷺ، وشاهدوه والوحي ينزل عليه، فعلموا ما أراد رسول الله ﷺ عامّاً وخاصّاً وعزماً وإرشاداً، وعرفوا من سُنته ما عرفنا وجهلنا، وهم فوقنا في كل علم واجتهاد، وورع وعقل، وأمر استدرك به علم واستنبط به وآراؤهم لنا أحمد وأولى بنا من آرائنا عندنا لأنفسنا والله أعلم» .

٢ - وقال رَحِمَهُ اللهُ: «أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ، أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي - رضي الله عنهم -» .

٣ - عن يوسف بن يحيى البويطي قال: «سألت الشافعي أصلي خلف الرافضي؟ قال: لا تصل خلف الرافضي ولا القدري ولا المرجعي، قلت: صفهم لنا، قال: من قال: الإيمان قول فهو مرجعي، ومن قال: إن أبا بكر وعمر ليسا بإمامين فهو رافضي، ومن جعل المشيئة إلى نفسه فهو قدري» .

عقيدة الإمام أحمد بن حنبل:

أولاً: قوله في التوحيد:

١ - قال رَحِمَهُ اللهُ: «لم يزل الله عز وجل متكلماً، والقرآن كلام الله عز وجل غير مخلوق، ولا يوصف الله بشيء أكثر مما وصف به نفسه عز وجل» .

٢ - وقال رَحِمَهُ اللهُ: «من زعم أن الله لا يتكلم فهو كافر» .

٣ - وقال رَحِمَهُ اللهُ: «نحن نؤمن بأن الله على العرش كيف شاء وكما شاء بلا حد ولا صفة يبلغها واصف أو يحُدُّه أحد، فصفات الله منه وله وهو كما وصف نفسه لا تدركه الأبصار» .

٤ - وقال رَحِمَهُ اللهُ: «من زعم أن الله لا يرى في الآخرة فهو كافر مكذب بالقرآن» .

ثانياً: قوله في القدر:

١ - قال رَحِمَهُ اللهُ: «ويؤمن بالقدر خيره وشره وحلوه ومُمرّه من الله» .

٢ - وقال رَحِمَهُ اللهُ: «والقدر خيره وشره وقليله وكثيره، وظاهره وباطنه، وحلوه وممره، ومحبوته ومكروهه، وحسنه وسيئته، وأوله وآخره من الله قضاء قضاءه على عباده وقدر قدره، ولا يعدو واحد منهم مشيئة الله عز وجل ولا يجاوز قضاءه» .

ثالثاً: قوله في الإيمان:

١ - قال رَحِمَهُ اللهُ: «الإيمان يزيد وينقص» .

٢- وقال رَحِمَهُ اللهُ: الصلاة والزكاة والحج والبر من الإيمان والمعاصي تُنْقِصُ الإيمان».

رابعاً: قوله في الصحابة:

١- قال رَحِمَهُ اللهُ: «ومن السُّنَّةِ ذكر محاسن أصحاب رسول الله ﷺ، كلهم أجمعين، والكُفُّ عن ذكر مساوئهم والخلاف الذي شجر بينهم، فمن سبَّ أصحاب رسول الله ﷺ، أو أحداً منهم فهو مبتدع، رافضي خبيث، لا يقبل الله منه صرفاً، ولا عدلاً، بل حُبهم سُنَّةٌ، والدعاء لهم قربة، والافتداء بهم وسيلة، والأخذ بآثارهم فضيلة».

ثم قال: «ثم أصحاب رسول الله ﷺ، بعد الأربعة خير الناس، ولا يجوز لأحد أن يذكر شيئاً من مساوئهم ولا يطعن على أحد منهم بعيب ولا بنقص، فمن فعل ذلك فقد وجب على السلطان تأديبه وعقوبته، ليس له أن يعفو عنه».

٢- وقال عبد الله بن أحمد: «سألت أبي عن الأئمة فقال: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي».

٣- وقال عبد الله بن أحمد: «سألت أبي عن قوم يقولون: إن علياً ليس بخليفة، قال هذا قول سوء ردي».

٤- وقال رَحِمَهُ اللهُ: «من لم يثبت الخلافة لعلي فهو أضلُّ من حمار أهله».



٥- قواعد في الأسماء والصفات^(١)

أسماء الله كل ما دل على ذات الله مع صفات الكمال القائمة به؛ مثل: القادر، العليم، الحكيم، السميع، البصير؛ فإن هذه الأسماء دلت على ذات الله، وعلى ما قام بها من العلم والحكمة والسمع والبصر، أما الصفات؛ فهي نُعُوت الكمال القائمة بالذات؛ كالعلم والحكمة والسمع والبصر؛ فالاسم دل على أمرين، والصفة دلت على أمر واحد، ويقال: الاسم متضمن للصفة، والصفة مستلزمة للاسم.

ولمعرفة ما يُميز الاسم عن الصفة، والصفة عن الاسم أمور، منها:
أولاً: أن الأسماء يشتق منها صفات، أما الصفات؛ فلا يشتق منها أسماء، فنشتق من أسماء الله الرحيم والقادر والعظيم، صفات الرحمة والقدرة والعظمة، لكن لا نشق من صفات الإرادة والمجيء والمكر اسم المريد والجائي والماكر،

ثانياً: أن الاسم لا يُشتق من أفعال الله؛ فلا نشق من كونه يحب ويكره ويغضب اسم المحب والكاره والغاضب، أما صفاته؛ فنشتق من أفعاله فنثبت له صفة المحبة والكراهة والغضب ونحوها من تلك الأفعال، لذلك قيل: باب الصفات أوسع من باب الأسماء.

ثالثاً: أن أسماء الله عزَّ وجلَّ وصفاته تشترك في الاستعاذة بها والحلف بها،^(٢) لكن تختلف في التبعيد والدعاء، فَيُتَعَبَّدُ الله بأسمائه، فنقول: عبد الكريم، وعبد الرحمن، وعبد العزيز، لكن لا يُتَعَبَّدُ بصفاته؛ فلا نقول: عبد الكرم، وعبد الرحمة، وعبد العزة؛ كما أنه يُدعى الله بأسمائه، فنقول: يا رحيم! ارحمنا، يا كريم! أكرمنا، يا لطيف! الطف بنا، لكن لا ندعو صفاته فنقول: يا رحمة الله! ارحمنا، أو: يا كرم الله! أو: يا لطف الله! ذلك أن الصفة ليست هي الموصوف؛ فالرحمة ليست هي الله، بل هي صفة لله، وكذلك العزة، وغيرها؛ فهذه صفات لله، وليست هي الله، ولا يجوز التبعيد إلا لله، ولا يجوز دعاء إلا الله؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]، وقوله تعالى ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] وغيرها من الآيات.

قواعد عامة في الصفات:

القاعدة الأولى: إثبات ما أثبتته الله لنفسه في كتابه، أو أثبتته له رسوله ﷺ؛ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

لأن الله أعلم بنفسه من غيره، ورسوله ﷺ أعلم بالخلق بربه.

القاعدة الثانية: نفي ما نفاه الله عن نفسه في كتابه، أو نفاه عنه رسوله ﷺ، مع اعتقاد ثبوت كمال ضده الله تعالى.

(١) باختصار من: صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة، للشيخ علوي بن عبد القادر السقاف.

(٢) فيجوز أن نحلف ونستعبد بالله وأسمائه وصفاته فنقول: والله والرحمن وهكذا، وكذلك يجوز أن نقول: نعوذ بالله، ونعوذ بالرحمن، ونعوذ بعزة الله وقدرته.

لأن الله أعلم بنفسه من خلقه، ورسوله أعلم الناس بربه؛ فنفي الموت عنه يتضمن كمال حياته، ونفي الظلم يتضمن كمال عدله، ونفي النوم يتضمن كمال قيوميته.

القاعدة الثالثة: صفات الله عز وجل توقيفية؛ فلا يثبت منها إلا ما أثبتته الله لنفسه، أو أثبتته له رسوله ﷺ، ولا ينفي عن الله عز وجل إلا ما نفاه عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله ﷺ.

لأنه لا أحد أعلم بالله من نفسه تعالى، ولا مخلوق أعلم بخالقه من رسول الله ﷺ.

القاعدة الرابعة: التوقف في الألفاظ المجملة التي لم يرد إثباتها ولا نفيها، أما معناها؛ فيستفصل عنه، فإن أريد به باطل ينزّه الله عنه؛ رد، وإن أريد به حق لا يمتنع على الله؛ قبل، مع بيان ما يدل على المعنى الصواب من الألفاظ الشرعية، والدعوة إلى استعماله مكان هذا اللفظ المجمل الحادث.

مثاله: لفظة (الجهة): نتوقف في إثباتها ونفيها، ونسأل قائلها: ماذا تعني بالجهة؟ فإن قال: أعني أنه في مكان يحويه. قلنا: هذا معنى باطل ينزّه الله عنه، ورددناه. وإن قال: أعني جهة العلو المطلق؛ قلنا: هذا حق لا يمتنع على الله. وقبلنا منه المعنى، وقلنا له: لكن الأولى أن تقول: هو في السماء، أو في العلو؛ كما وردت به الأدلة الصحيحة، وأما لفظة (جهة)؛ فهي مجملة حادثة، الأولى تركها.

القاعدة الخامسة: كل صفة ثبتت بالنقل الصحيح؛ وافقت العقل الصريح، ولا بد.

القاعدة السادسة: قطع الطمع عن إدراك حقيقة الكيفية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾.

القاعدة السابعة: صفات الله عز وجل تثبت على وجه التفصيل، وتنفي على وجه الإجمال.

فالإثبات المفصل؛ كإثبات السمع والبصر وسائر الصفات، والنفي المجمل كنفي المثلية في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

القاعدة الثامنة: كل اسم ثبت لله عز وجل؛ فهو متضمن لصفة، ولا عكس.

مثاله: اسم الرحمن متضمن صفة الرحمة، والكريم يتضمن صفة الكرم، واللطيف يتضمن صفة اللطف... وهكذا، لكن صفاته: الإرادة، والإتيان، والاستواء، لا نشق منها أسماء، فلا نقول: المريد، والآتي، والمستوي وهكذا القاعدة التاسعة: صفات الله تعالى كلها صفات كمال، لا نقص فيها بوجه من الوجوه.

القاعدة العاشرة: صفات الله عز وجل ذاتية وفعليّة، والصفات الفعلية متعلقة بأفعاله، وأفعاله لا تنتهي لها، ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾.

القاعدة الحادية عشرة: دلالة الكتاب والسنة على ثبوت الصفة: إما التصريح بها، أو تضمّن الاسم لها، أو التصريح بفعل أو وصف دال عليها. مثال الأول: الرحمة، والعزة، والقوة، والوجه، واليدين، والأصابع... ونحو ذلك.

مثال الثاني: البصير متضمن صفة البصر، والسميع متضمن صفة السمع.. ونحو ذلك.
مثال الثالث: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾: دال على الاستواء، ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾: دال على الانتقام... ونحو ذلك.

القاعدة الثانية عشرة: صفات الله عز وجل يستعاذ بها ويحلف بها.
ومنها قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ». (رواه مسلم).
القاعدة الثالثة عشرة: الكلام في الصفات كالكلام في الذات.
فكما أن ذاته حقيقية لا تشبه الذوات؛ فهي متصفة بصفات حقيقية لا تشبه الصفات، وكما أن إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية، كذلك إثبات الصفات.
القاعدة الرابعة عشرة: القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر.
فمن أقر بصفات الله؛ كالسمع، والبصر، والإرادة، يلزمه أن يقر بمحبة الله، ورضاه، وغضبه، وكرهيته.

القاعدة الخامسة عشرة: ما أضيف إلى الله مما هو غير بائن عنه؛ فهو صفة له غير مخلوقة، وكل شيء أضيف إلى الله بائن عنه؛ فهو مخلوق؛ فليس كل ما أضيف إلى الله يستلزم أن يكون صفة له.

مثال الأول: سمع الله، وبصر الله، ورضاه، وسخطه...

ومثال الثاني: بيت الله، وناقة الله...

القاعدة السادسة عشرة: صفات الله عز وجل وسائر مسائل الاعتقاد تثبت بما ثبت عن رسول الله ﷺ، وإن كان حديثاً واحداً، وإن كان آحاداً.
القاعدة السابعة عشرة: معاني صفات الله عز وجل الثابتة بالكتاب أو السنة معلومة، وتفسر على الحقيقة، لا مجاز ولا استعارة فيها البتة، أمّا الكيفية؛ فمجهولة.
القاعدة الثامنة عشرة: ما جاء في الكتاب أو السنة، وجب على كل مؤمن القول بموجبه والإيمان به، وإن لم يفهم معناه.

القاعدة التاسعة عشرة: باب الأخبار أوسع من باب الصفات، وما يطلق عليه من الأخبار؛ لا يجب أن يكون توقيفياً؛ كالقديم، والموجود، والشيء، والذات^(١)، ولا يقال إن من أسماء الله الشيء، والذات، أو إن من أسمائه القديم، والموجود.
القاعدة العشرون: صفات الله عز وجل لا يقاس عليها.
فلا يقاس السخاء على الجود، ولا الجكد على القوة، ولا الاستطاعة على القدرة، ولا

(١) والأفضل والأسلم في باب الأخبار أن يُصار إلى اللفظ الوارد في الكتاب والسنة عند وجود مثل هذا اللفظ، فنقول: الأول بدل القديم، ونقول: الآخر بدل الأزلي والأبدي والتعبير بالمنصوص أولى وأحرى.

الركة على الرمة والرأفة، ولا المعرفة على العلم... وهكذا؛ لأن صفاء الله عز وجل لا يتجاوز فيها التوقيف؛ كما مر في القاعدة الثالثة.

القاعدة الحادية والعشرون: صفاء الله عز وجل لا حصر لها؛ لأن كل اسم يتضمن صفة - كما مر في القاعدة الثامنة -، وأسماء الله لا حصر لها، فمنها ما استأثر الله به في علم الغيب عنده.



٦- أسباب النزول وقواعد وأصول

إن معرفة أسباب نزول أي القرآن من أجل علومه وأشرف مقاصدها؛ لأنه يعين على فهم معناها، ولهذا فقد أشكلت آيات على بعض الصحابة فمن دونهم حتى استبان لهم سبب نزولها؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فقد وضح لهم أبو أيوب الأنصاري - (رضي الله عنه) - سبب نزولها؛ فعرفوا تفسيرها؛ فاستبان لهم معناها^(١).

ولا يعني هذا: أن يلتبس الإنسان لكل آية سبباً؛ فإن القرآن لم يكن نزوله وقفاً على الحوادث والوقائع أو على السؤال والاستفسار، بل كان القرآن يتنزل ابتداءً بعقائد الإيمان، وواجبات الإسلام، وشرائع الله - تعالى - في حياة الفرد وحياة الجماعة. فالقرآن نزل على قسمين: قسم نزل ابتداءً، وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال.

١- ما هو سبب النزول؟

سبب النزول هو: ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال.

فسبب النزول يكون قاصراً على أمرين:

أحدهما: أن تحدث حادثة فينزل القرآن الكريم بشأنها كما في سبب نزول ﴿تَبَّتْ يَدَايَ لَهَبٍ﴾ كما سيأتي إن شاء الله.

الثاني: أن يُسأل الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن شيء فينزل القرآن ببيان الحكم فيه كما في سبب نزول آية اللعان.

وسبب النزول هو ما نزلت الآية أيام وقوعه؛ وعلى هذا فسورة الفيل ليس من سبب نزولها قصة قدوم الحبشة؛ فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء، بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية؛ كذكر قصة قوم نوح، وعاد، وثمود، وبناء البيت، ونحو ذلك.

٢- ما يعتمد عليه في معرفة سبب النزول؟

والعلماء يعتمدون في معرفة سبب النزول على صحة الرواية عن رسول الله ﷺ أو عن الصحابة، فإن إخبار الصحابي عن مثل هذا إذا كان صريحاً لا يكون بالرأي، بل يكون له

(١) عن حذيفة: ﴿وَأَنفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾؛ قَالَ: نَزَلَتْ فِي النَّفَقَةِ (رواه البخاري). (نَزَلَتْ فِي النَّفَقَةِ): أَي: فِي تَرْكِ النَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. عَنْ أَسْلَمَ أَبِي عُمَرَ، قَالَ: غَزَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ نُرِيدُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ وَعَلَى الْجَمَاعَةِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَالرُّومُ مُلْصِقُوا ظُهُورَهُمْ بِحَائِطِ الْمَدِينَةِ، فَحَمَلَ رَجُلٌ عَلَى الْعَدُوِّ، فَقَالَ النَّاسُ: مَهْ مَهْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ. فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ: «إِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِينَا مَعَسَرِ الْأَنْصَارِ، لَمَّا نَصَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ، وَأَظْهَرَ الْإِسْلَامَ، فَلَمَّا لُحِقَ لَهُمْ نَقِيمٌ فِي أَمْوَالِنَا، وَنُصَلِّحُهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَأَنفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فَالْإِلْقَاءُ بِأَيْدِينَا إِلَى التَّهْلُكَةِ أَنْ نَقِيمَ فِي أَمْوَالِنَا وَنُصَلِّحُهَا، وَنَدْعَ الْجِهَادَ» قَالَ أَبُو عُمَرَ: فَلَمْ يَزَلْ أَبُو أَيُّوبَ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى دُفِنَ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ (رواه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي والألباني).

حكم المرفوع. وقد تقرر في علوم الحديث: أن سبب النزول حكمه حكم الحديث المرفوع؛ لا يقبل منه إلا الصحيح المتصل المسند، لا ضعيف ولا مقطوع. وقد كان السلف الصالح - رضي الله عنهم - يتورعون أن يقولوا في القرآن أو تفسيره أو أسباب نزوله دون علم أو تثبت خوفاً من الوقوع في وعيد قول الرسول ﷺ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» (حديث متواتر، رواه البخاري ومسلم وغيرهما).

٢- قد تتعدد الأسباب والنازل واحد؛

كما في آية اللعان وغيرها من الآيات^(١). إذا جاءت روايتان في نازل واحد من القرآن وذكرت كل من الروائتين سبباً صريحاً غير ما تذكره الأخرى، نُظِرَ فيهما: فإما أن تكون إحداهما صحيحة والأخرى غير صحيحة. وإما أن تكون كلتاها صحيحة، ولا مرجح لأحدهما على الأخرى، ولكن يمكن الأخذ بهما معاً.

وإما أن تكون كلتاها صحيحة ولإحداهما مرجح. وإما أن تكون كلتاها صحيحة ولا مرجح ولا يمكن الأخذ بهما معاً. فتلك صور أربع لكل منها حكم خاص نسوقه إليك: أما الصورة الأولى: وهي ما صحت فيه إحدى الروائتين دون الأخرى؛ فحكمها الاعتماد على الصحيحة في بيان السبب، ورُدُّ الأخرى غير الصحيحة. أما الصورة الثانية: وهي صحة الروائتين كليهما، ولإحداهما مرجح؛ فحكمها أن نأخذ في بيان السبب بالراجحة دون المرجوحة، والمرجح أن تكون إحداهما أصح من الأخرى، أو أن يكون راوي إحداهما مشاهداً للقصة دون راوي الأخرى. وأما الصورة الثالثة: وهي ما استوت في الروائتين في الصحة، ولا مرجح لإحداهما، لكن يمكن الجمع بينهما، بأن كلاً من السببين حصل، ونزلت الآية عقب حصولهما معاً؛ لتقارب زمنيتهما، فحكم هذه الصورة أن نحمل الأمر على تعدد السبب؛ لأنه الظاهر، ولا مانع يمنعه. وأما الصورة الرابعة: وهي استواء الروائتين في الصحة دون مرجح لإحداهما ودون إمكان للأخذ بهما معاً لبعده الزمان بين الأسباب؛ فحكمها أن نحمل الأمر على تكرار نزول الآية بعدد أسباب النزول التي تحدثت عنها هاتان الروائتان أو تلك الروايات؛ لأنه إعمال لكل رواية ولا مانع منه.

(١) انظر الروايات الصحيحة في ذلك في «الاستيعاب في بيان الأسباب» (٢/ ٥٤٦ - ٥٥٤).

٤- قد تتعدد الآيات النازلة والسبب واحد:

كما في حديث المسيب رضي الله عنه في شأن وفاة أبي طالب وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم «لأستغفرن لك ما لم أنه عنه» فأنزل الله ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ٥٠﴾. ونزل في أبي طالب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ٥١﴾^(١).

٥- صيغة سبب النزول إما أن تكون صريحة في السببية وإما أن تكون محتملة:

فتكون نصاً صريحاً إذا قال الراوي سبب نزول هذه الآية كذا أو إذا أتى بفاء تعقيمية داخلية على مادة النزول بعد ذكر الحادثة أو السؤال كما إذا قال حدث كذا أو سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن كذا فنزلت الآية.

فهاتان صيغتان صريحتان في السببية.

وتكون الآية محتملة للسببية ولما تضمنته الآية من الأحكام إذا قال الراوي نزلت هذه الآية في كذا فذلك يراد به تارة أنه سبب النزول وتارة أنه داخل في معنى الآية.

وكذا إذا قال أحسب هذه الآية نزلت في كذا أو ما أحسب هذه الآية إلا نزلت في كذا فإن الراوي بهذه الصيغة لا يقطع بالسبب فهاتان صيغتان تحتلمان السببية وغيرها.

٦- العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب:

والدليل على ذلك أن الأنصاري الذي قبل الأجنبية ونزلت فيه ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ٥٢﴾ الآية، فعن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة، فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره، فأنزل الله ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ أَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ٥٣﴾. فقال الرجل يا رسول الله ألي هذا قال «لجميع أمتي كلهم» (رواه البخاري ومسلم).

فوائد معرفة أسباب النزول:

لمعرفة أسباب النزول فوائد أهمها:

١- بيان أن القرآن نزل من الله تعالى وذلك لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يسأل عن الشيء، فيتوقف عن الجواب أحياناً، حتى ينزل عليه الوحي، أو يخفى الأمر الواقع فينزل الوحي مبيناً له.

٢- بيان عناية الله تعالى برسوله صلى الله عليه وآله وسلم في الدفاع عنه، مثال ذلك آيات الإفك؛ فإنها دفاع عن فراش النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتطهير له عما دنسه به الأفاكون.

٣- معرفة سبب النزول خير سبيل لفهم معاني القرآن على الوجه الصحيح، وكشف الغموض الذي يكتنف بعض الآيات في تفسيرها ما لم يعرف سبب نزولها.

مثال ذلك: قوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴿البقرة: ١٥٨﴾، أي يسعى بينهما، فإن ظاهر قوله ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ أن غاية أمر السعي بينهما، أن يكون من قسم المباح، وفي صحيح البخاري عن عاصم بن سليمان قال سألت أنس بن مالك رضي الله عنه عن الصفا والمروة، قال: «كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ وبهذا عرف أن نفي الجناح ليس المراد به بيان أصل حكم السعي، وإنما المراد نفي تحرجهم بامساكهم عنه، حيث كانوا يرون أنهما من أمر الجاهلية، أما أصل حكم السعي فقد تبين بقوله ﴿وَمِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾.

٤- بيان الحكمة التي دعت إلى تشريع حكم من الأحكام وإدراك مراعاة الشرع للمصالح العامة في علاج الحوادث رحمة بالأمة، وفي ذلك فائدة للمؤمن وغير المؤمن: أما المؤمن: فيزداد إيماناً وبصيرة بحكمة الله في تشريعه؛ فيدعوه ذلك إلى شدة التمسك بها. وأما غير المؤمن: فيعلم أن الشرع قام على رعاية المصلحة، وجلب المنفعة، ودفع المضرة، فيدعوه ذلك إن كان منصفاً إلى الدخول في الإسلام.

فمثلاً إذا عرفنا سبب تحريم الخمر؛ عرفنا الحكمة في التحريم؛ إذ أنها توقع العداوة والبغضاء بين الناس، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وتذهب العقل والوقار، وتضر بالصحة وتفني الأموال في غير طائل.

٥- بيان عناية الله تعالى بعباده في تفريج كرباتهم وإزالة غمومهم فيأتي الفرج الإلهي، وذلك كسبب نزول آية التيمم، وقصة الثلاثة الذين خَلَفُوا، وكقصة الإفك وما حصل لنبي الهدى من الأذى بسببه وكذا لأم المؤمنين إذ بكت حتى ظن أبواها أن البكاء فالتق كبدها. فيأتي الفرج بعد الشدة. وكقصة هلال بن أمية إذ رمى زوجته بالزنى فقال له الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم: البينة أو حد في ظهرك فقال: والذي بعثك بالحق إني لصادق ولنزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد فأراد الرسول أن يأمر بضربه فأنزل الله آية اللعان وأبر قسمه وأتى بالعلاج بعد تفاقم الداء فخاب وخسر من ظن أنه يستطيع أن يستغني عن هذا التشريع الحكيم.

٦- الاستفادة من مراحل التشريع في الدعوة، فتجد في أسباب النزول الكثير الطيب من بيان مراحل الدعوة والتوجيهات الإلهية كآية القتال فإنها لم تنزل إلا بعد أن علم الله أن لهم اقتداراً على القتال.

٧- تثبيت الوحي وتيسير الحفظ والفهم، وتأكيده الحكم في ذهن من يسمع الآية إذا عرف سببها.

٨- معرفة اسم من نزلت فيه الآية، وتعيين المبهم فيها.

٧- مناهج المفسرين

هذه التفاسير نقل عن أكثرها الشيخ الصابوني في صفوة التفاسير.

من التفاسير السلفية:

١- ابن جرير الطبري في تفسيره «جامع البيان في تأويل القرآن»:

هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن غالب، (٢٢٤-٣١٠هـ، ٨٣٩-٩٢٣م). إمام المفسرين، ثقة عالم، أحد أئمة أهل السنة الكبار، وتفسيره من أجل التفاسير المأثورة، وأعظمها قدراً، وهو إمام متبع، نصر مذهب السلف واحتج له، والتزم ذكر الروايات بأسانيدھا، ولا يحكم عليها في الغالب، ويذكر الأحكام الفقهية وأقوال العلماء، ويرجح بينها. وهو إمام مجتهد مطلق، يرجع المفسرون إلى قوله، وهم عيال عليه.

يعتني بذكر القراءات ومعانيها، ويرد على الشواذ منها، ويورد الأخبار والقصص عن «كعب الأخبار» و«وهب بن منبه» وغيرهما، ويتعقبها بالنقد في الأغلب، ويحتوي على جمل عظيمة من المعالجات اللغوية والنحوية، حتى اكتسب الكتاب بها شهرة عظيمة، يرجع إلى كلام العرب كثيراً، ويذكر أشعار العرب القديمة، ويستشهد بها، ويعرض كثيراً لمذاهب النحويين، ويرجح الأقوال، ويوجه الأخرى. وهو في تفسيره يبدى رأيه ثم يستشهد عليه بالآثار والأخبار مستعيناً في ذلك بقواعد وأقوال السابقين.

٢- منهج ابن كثير في تفسيره «تفسير القرآن العظيم»:

هو عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير القرشي (٧٠٠-٧٧٤هـ). كان ابن كثير من بيت علم وأدب، وتلمذ على كبار علماء عصره، فنشأ عالماً محققاً ثقة متقناً، وكان غزير العلم واسع الاطلاع إماماً في التفسير والحديث والتاريخ، سمع من ابن تيمية الذي كانت تربطه به علاقة خاصة تعرض ابن كثير للأذى بسببها.

ترك مؤلفات كثيرة قيمة أبرزها كتاب تفسير القرآن العظيم، وهو من أفضل كتب التفسير لما امتاز به من عناية بالمأثور وتجنب للأقوال الباطلة والروايات المنكرة.

يُعتبر هذا التفسير من أشهر ما دُوِّن في التفسير بالمأثور، ويأتي في المرتبة الثانية بعد تفسير ابن جرير الطبري، إذ يعتني بالرواية، يذكر الآيات المتشابهة للآية التي يريد تفسيرها، والأحاديث والآثار مسندة إلى أصحابها.

والحافظ ابن كثير سلفي العقيدة، وقد أثبت في التفسير معظم الصفات الإلهية وبيّن فيها مذهب السلف.

وهو يذكر الأحاديث والآثار بأسانيدھا، ويهتم بتصحيح الروايات وتضعيفھا، وذكر الجرح والتعديل في الرواية، يذكر المناقشات الفقهية وأقوال العلماء وأدلتهم عند تفسيره لآيات الأحكام باعتدال، ويحيل على كتب الفقه.

يعرض لذكر القراءات باقتصاد، يمتاز بنقده للإسرائيليات والتحذير منها عموماً، مع نقده لها غالباً عند ذكر شيء منها، وقليلًا ما يعرض للإعراب والنحو والشعر.

ينقل أقوال أهل العلم في مسائل الأحكام، مشفوعة بأدلة كل منهم، ثم يرجّح من أقوالهم ما يرى أن الدليل يدعمه، أو أن السياق يؤيده؛ وهو في كل ذلك مقتصد غير مسرف، ومعتدل غير مفرط.

وقد اعتمد في تفسير القرآن الكريم على المأثور؛ فهو أولاً يفسر الآية بآية أخرى، وهو في هذا شديد العناية، وبارعٌ إلى أقصى غاية في سرد الآيات المتناسبة في المعنى الواحد. ثم بعد ذلك يشرع في سرد الأحاديث المتعلقة بالآية المراد تفسيرها، ويبين ما يُقبل من تلك الأحاديث وما لا يُقبل. ثم يشفع هذا وذاك بذكر أقوال الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من أهل العلم، ويرجّح ما يراه الأرجح، ويُعرض عن كل نقل لم يصح ثبوته، وعن كل رأي لم ينهض به دليل.

إن أصح الطرق في تفسير القرآن الكريم - حسبما يرى الحافظ ابن كثير - هي: أ - أن يفسر القرآن بالقرآن، وذلك أنه كثيراً ما يكون المجمل في مكان قد بسط في موضع آخر.

ب - فإذا تعذر ذلك فعلى المفسر بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له.

ج - فإذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدركوا بذلك لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصّوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبرائهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه والحبر البحر عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وترجمان القرآن.

د - وإذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عند الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر فإنه كان آية في التفسير، وكسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس وعطاء ابن أبي رباح والحسن البصري ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب وأبي العالية والربيع بن أنس والضحاك بن مزاحم وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم فتذكر أقوالهم في الآية.

ومن منهجه - وهو مما امتاز به - أن ينبّه إلى ما في التفاسير من منكرات المرويات الإسرائيلية.

٣- منهج البغوي في تفسيره «معالم التنزيل»:

هو أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد المعروف بالفراء^(١) البغوي الفقيه الشافعي المحدث المفسر، توفي سنة (٥١٠هـ) وقيل (٥١٦هـ) وقيل بينهما. سلفي العقيدة، له مقدمة مفيدة في كتابه «شرح السنة» بيّن فيها عقيدة السلف في الأسماء والصفات. أما في تفسيره فالغالب عليه فيه الإثبات في الصفات، لكن وقع منه التأويل في بعض الصفات تبعاً للثعلبي وسكت عن البعض وأجمل في البعض.

إن «معالم التنزيل» قد نقل فيه مؤلفه عن مفسري الصحابة والتابعين ومن بعدهم، حاور للصحيح من الأقوال، عارٍ عن الغموض والتكلف في توضيح النص القرآني، مُحلّي بالأحاديث النبوية والآثار الغالب عليها الصحة. وهو مختصر من تفسير الثعالبي، لكنه صان تفسيره عن أقوال المبتدعة والأحاديث الموضوعة.

ملامح منهج البغوي في التفسير:

١- يتعرض لتفسير الآية الكريمة بلفظ سهل موجز، لا تكلف في لغته ولا تطويل، فهو يكتفي بالوقوف على الكلمة الغريبة ليكشف عن معناها بالرجوع إلى أصلها ومصدرها، مستدلاً بالآيات والأحاديث وما أثر عن الصحابة والتابعين وأقوال أهل اللغة.

٢- يفسر القرآن بالقرآن أو بالحديث أو بأقوال الصحابة، ويستأنس بأقوال التابعين والمجتهدين، وذلك أن القرآن يفسر بعضه بعضاً فما أجمل في موضع فُصل في موضع آخر، وقد تخصص آية عموم آية أخرى.

إن اعتماد البغوي على السنة في تفسير القرآن الكريم سمة واضحة في تفسيره. فقد جاء تفسيره حافلاً بالأحاديث التي انتخبها، وقلّ أن يورد حديثاً ضعيفاً، وقد نجده يسوق عدة أحاديث عند الآية الواحدة.

٣- يتعرض للقراءات من غير إسراف وذلك حين يجد أن القراءة يترتب عليها تغيير المعنى.

٤- يظهر بوضوح اهتمامه بالآراء الفقهية فكثيراً ما نجده يبسط آراء الفقهاء ويرجح رأي الشافعية وهو من أبرز فقهاءهم، وأحياناً يورد الآراء بدون ترجيح.

٦- يذكر أحياناً بعض الإسرائيليات، ونراه يمر على بعضها - وهي قليلة مقارنة بالتفسير الموجودة بين أيدينا - دون التعقيب عليها.

(١) فراء: صانع الفراء. كان أبوه يعمل الفراء ويبيعها. والفرو: جلود بعض الحيوانات تدبغ ويُتخذ منها ملابس للدفء وللزينة.

٤- منهج القاسمي في تفسيره «محاسن التأويل في تفسير القرآن الكريم»:

من علماء الشام الكبار المحقق المدقق العالم الجليل جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم القاسمي (١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ = ١٨٦٦ - ١٩١٤ م). كان من أقطاب المدرسة السلفية ومن المعجبين بالشيخ ابن تيمية، وتأثر به وتلميذه ابن القيم وهو يهتم اهتماما واضحا بكل ما انفردا به من آراء، وقد تأثر بمنهج ابن تيمية في التفسير.

يعتبر تفسير القاسمي مصدراً كبيراً في التعبير عن العقيدة السلفية السمحة السهلة جمع فيه من المباحث والأقوال ما لو جُمع لكان مؤلفاً في مجلدات، فإذا أحببت أن تقرأ تفسيراً كاملاً للقرآن لا تجد فيه خرافة ولا أسطورة ولا شيئاً من الإسرائيليات المذمومة التي حُشيت بها التفاسير فعليك بكتاب القاسمي (محاسن التأويل) الذي فسر به القرآن الكريم تفسيراً يعتبر نموذجاً إلى حد كبير.

والناظر في هذا التفسير يجد أن مؤلفه قد أفرد جزءاً كاملاً مقدمة لتفسيره وفي هذه المقدمة يتجلى منهجه في التفسير بل في التأليف عموماً.

لقد ناقش قضايا عامة وخطيرة فيما يتصل بالتفسير ونقل كثيراً عن مشاهير العلماء في الأصول والتفسير وسائر العلوم القرآنية.

لقد تحدث عن مصادر التفسير وعد أن أصولها أربعة:

الأول: النقل عن النبي ﷺ وعلى المفسر بطريق النقل أن يحذر من الضعيف والموضوع.

الثاني: الأخذ بقول الصحابي إذ هو المعاصر للتنزيل والفاهم لجو القرآن.

الثالث: الأخذ بمطلق اللغة.

الرابع: التفسير بما يقتضيه معنى الكلام ومفهوم الشرع.

لقد كان القاسمي بوفرة اطلاعه ودقة فهمه وأمانته في النقل ينتقى أجود الأقوال فيما يختص بموضوع بحثه ثم ينقله في كتبه وعلى هذا النهج جرى في تفسيره، فتفسيره أشبه ما يكون بحديقة غناء لا ترى فيها إلا زرعاً ناضراً أو ورداً عاطراً ولا تجد فيه ما يؤذي النفس ويشير الشعور ويمتاز هذا التفسير الجليل زيادة على التحري في النقل وحسن الاختيار والبعد عن الضعيف والموضوع بما يأتي:

١ - العناية بالمعاني اللغوية للمفردات وتوجيه الإعراب في سهولة ويُسر دون تفرع أو تطويل.

٢ - اعتماده في تفسير القرآن على القرآن ثم على السنة الصحيحة ثم على أقوال الصحابة وآراء السلف الصالح.

٣ - اهتمامه بالآيات التي تحتاج إلى بحث وإطالته النفس فيها وذلك أن في القرآن آيات بينه واضحة لا تحتاج إلى بحث لأنها واضحة من ناحية المعنى.

وفي القرآن آيات واضحة ولكن بعض المفسرين قد حاول إثارة الجدل فيها أو أخطأ في فهمها أو فسرهما بأسرائيليات أو انحرفت بها الأهواء على أي وضع كانت ويشتد اهتمام مفسرنا بمثل هذه الآيات، شارحاً ومبيناً ومحققاً للحق وكاشفاً لزيغ الباطل. وينقل في سبيل ذلك عن القدماء ما يؤيد فكرته ويتخذ من هذا التأييد كمصدر أول - القرآن نفسه فإنه يفسر بعضه بعضاً ويتخذ كذلك الأحاديث الصحيحة الشريفة عن رسول الله ﷺ كمصدر آخر ثم ينقل عن العلماء القدامى وعن العلماء المحدثين ما يؤيد وجهة نظره، وهي في الأغلب الأعم وجهة نظر سليمة.

٤ - اهتمامه بذكر وجوه القراءات.

ومن المعالم البارزة في هذا التفسير اعتناء المفسر بالربط بين الآيات المختلفة والكشف عن مظاهر الحكمة في ترتيب القرآن.

ومما يلاحظ على القاسمي في تفسيراته إن استمداده من ابن كثير بلغ حداً كبيراً. إنه يكاد يشبه تفسير ابن كثير في كثير من الموضوعات في صورة تكاد تكون متقنة.. ومع ذلك فإن هذا التشابه القوي بينه وبين ابن كثير لا ينزله عن أصالته فإن هذا التشابه آت من اتحاد الرأي وتشابه الأفكار لا من النقل والتقليد.

والخلاصة أن الكتاب نخبة ممتازة يضم الأفكار القيمة والآراء الصحيحة في كل ما يتصل بالتفسير^(١).

ثانياً: من تفاسير المعتزلة:

٥ - منهج الزمخشري في تفسيره «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل»^(٢):

الزمخشري هو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري (٤٦٧ - ٥٣٨ هـ، ١٠٧٤ - ١١٤٣ م). من أئمة متأخري المعتزلة، وهو من علماء اللغة والتفسير. وقد تعرض تفسير الزمخشري لانتقاد جمع من الأئمة؛ بسبب النهج الاعتزالي في تفسيره. ومن تلك الانتقادات:

١ - أن تفسيره محشو بالبدع، وعلى طريقة المعتزلة من القول بخلق القرآن وإنكار

(١) تنبيه: هناك كتاب منسوب للقاسمي اسمه «تاريخ الجهمية» شكك بعض أهل العلم في نسبته إليه لما فيه من التعارض الشديد مع كتابه الكبير «محاسن التأويل». وقد بين في تفسيره (٣/٤٥٧ - ٤٥٨) ضلال ابن عربي وابن سيعين والقنوي ونحوهم من أهل وحدة الوجود والحلول والاتحاد القائلين إن وجود كل مخلوق هو عين وجود الخالق، واصفاً هذا القول بالكفر.

(٢) لشرف الدين الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي حاشية على تفسير الكشاف اسمها «فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرّيب».

الصفات الإلهية، ورؤية المؤمنين ربهم في الآخرة، وأن الله خالق لأفعال العباد، وغير ذلك من أصول المعتزلة.

٢- احتوائه على الأحاديث الموضوعة.

وهذا التفسير لا يُنصح به طالب العلم الذي لم يتضلع من علم العقيدة وفهم منهج السلف الصالح الذي قرره أئمة أهل السنة والجماعة.

ثالثاً: من تفاسير الأشاعرة، ومن قلدهم في تأويل الصفات الإلهية:

وهذه التفاسير لا يُنصح بها طالب العلم الذي لم يتضلع من علم العقيدة وفهم منهج السلف الصالح الذي قرره أئمة أهل السنة والجماعة.

٦- منهج ابن الجوزي في تفسيره: «زاد المسير في علم التفسير»:

هو عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي البغدادي، (٥٠٨هـ - ٥٩٧، ١١١٦ - ١٢٠١م). برز في الحديث والوعظ والتفسير والتاريخ وغيرها من أصناف العلوم الدينية، ووصل فيها إلى مرتبة مشهورة.

عمد ابن الجوزي إلى كتب الذين سبقوه في التفسير فأشبعها دراسة واستفاد من الثغرات التي كانت في تفاسيرهم، ووضع تفسيره هذا مخلّصاً إياه من التطويل المملّ ومن الاختصار المخلّ. وقال في مقدمة كتابه: «... أني نظرت في جملة من كتب التفسير فوجدتها بين كبير قد يئس الحافظ منه، وصغير لا يستفاد كل المقصود منه، والمتوسط منها قليل الفوائد، عديم الترتيب، وربما أهمل فيه المشكل وشرح غير الغريب، فأتيتك بهذا المختصر اليسير، منظوماً على العلم الغزير، ووسمته بـ «زاد المسير في علم التفسير».

فجاء كتابه وسطاً بين التفاسير الطويلة والمختصرة الشديدة الاختصار، مع تميّزه بجملة من الخصائص، إضافة إلى أسلوب ابن الجوزي السلس المتين والسهل الممتنع. ومن هذه الخصائص أنه تحدّث عن نزلت بعض الآيات فيهم، وذكر القراءات المشهورة والشاذة أحياناً، وتوقف عند الآيات المنسوخة والتي اختلف العلماء حولها أمّنسوخة هي أم لا؟ وأورد أقوال العلماء بهذا الصدد، بالإضافة إلى ردّه كل قول إلى مصدره معتمداً على علماء اللغة مثل: ابن قتيبة وأبي عبيدة والخليل بن أحمد الفراهيدي وعلى النحاة مثل: القراء والزجاج والأخفش والكسائي ومحمد بن القاسم النحوي وعلى القراء مثل: الجحدري وعاصم وغيرهم.

ويعد تفسير ابن الجوزي من التفاسير التي تنقل أقوال السلف بدون أسانيد.

أما عقيدته في الأسماء والصفات فقد كان مضطرباً فيثبت بعض الصفات وينفي بعضها.

٧- منهج ابن عطية في تفسيره «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز»:

هو أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي المغربي الغرناطي (٤٨١ - ٥٤٢ هـ = ١٠٨٨ - ١١٤٨ م).

لخص ابن عطية تفسيره مؤلفه من كتب تفاسير المنقول كلها، وتحرى ما هو أقرب للصحة منها، ويفسر الآية بعبارة عذبة سهلة، وينقل عن ابن جرير كثيراً. يورد الأقوال المأثورة دون ذكر الأسانيد، ويختار منها من غير إكثار لها، ويقدر يضعف بعضها، يذكر أقوال الفقهاء من السلف، ويوجهها ويختار منها ما يراه صواباً، يعرض كثيراً للقراءات، ويُنزل عليها المعاني المختلفة. ينقل بعض الإسرائيليات عن «ابن منبّه» و«السدي» وغيرهما، ويتعقب بعضها بالتضعيف. له اهتمام كبير بالصناعة النحوية، ويعتني بذكر الشواهد الأدبية للعبارة.

أما عقيدة ابن عطية في تفسيره في الصفات فهو مؤول أشعري يدافع عن التأويل الأشعري ويحتج له، وهو في نقله عن السلف لا ينقله على وجهه، بل يخالفه ويذكر خلافه، ويزعم أنه قول المحققين ويعني بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطريق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم، وإن كانوا أقرب إلى السنة من المعتزلة.

٨- منهج الرازي في تفسيره «مفاتيح الغيب» أو «التفسير الكبير»:

هو محمد بن عمر بن الحسين بن علي المشهور بفخر الدين الرازي، (٥٤٤ - ٦٠٦ هـ، ١١٥٠ - ١٢١٠ م). ولد في مدينة الري واليه نسبته بالرازي. كان فريد عصره ومتكلم زمانه جمع كثيراً من العلوم ونبع فيها، فكان اماماً في التفسير والكلام والعلوم العقلية وعلوم اللغة، ولقد اكتسبه نبوغه العلمي شهرة عظيمة، فكان العلماء يقصدونه من البلاد ويشدون إليه الرحال من مختلف الاقطار.

يُعد (مفاتيح الغيب) من أطول التفاسير القديمة التي وصلتنا، بل هو من أطول كتب التفسير القديمة والحديثة، وأكثرها تفصيلاً وعرضاً للآراء، ومناقشة للمعتقدات والمذاهب المختلفة. إن منهجية الفخر الرازي في التفسير لا نجد لها نظيراً في التفاسير الأخرى. فلقد اعتمد التفصيل إلى أقصى قدر ممكن في كل آية من آيات القرآن الكريم. حيث جزأ الآية الواحدة إلى أصغر وحدة كلامية يمكن أن تستقل بالمعنى، وتناولها في عدد من المسائل، ثم يجعل من المسألة الواحدة مباحث لفروع تفصيلية، يُعبر عنها تارة (بالأقوال) وأخرى (بالوجوه) وثالثة (بالأمور) وغير ذلك من التقسيمات. وكل قسم من هذه التقسيمات قابل للتفريع والتفصيل. ويرى بعض الباحثين أن فخر الدين الرازي اعتمد في تفسيره على منهجين: الأول: ما فسر فيه سورة الفاتحة وهي منهجية مطولة جداً تتناول الآية من كافة جوانبها. والثاني: المنهجية

التي فسر بها القرآن الكريم ابتداءً من سورة البقرة وحتى آخر آية من سورة الناس. ويرى هذا البعض من الباحثين أن الرازي لو اعتمد منهجيته في تفسير سورة الفاتحة، في تفسير القرآن الكريم لاحتاج الى مئات المجلدات.

ولكن يرى بعض الباحثين أن الفخر الرازي اعتمد منهجية واحدة في تفسيره. وإذا كان قد استغرق في الحديث عن سورة الفاتحة فلأن لها خصوصيتها المتميزة وفضائلها الكثيرة. ولا نجد مفسراً من المفسرين إلا وقد أطل الحديث عنها بشكل يميزها عن بقية سور القرآن. والناظر في هذا التفسير الكبير يجد أموراً هامة تلفت النظر وتشد الانتباه منها:

١ - الاهتمام بذكر المناسبات بين سور القرآن وآياته وبعضها مع بعض حتى يوضح ما عليه القرآن من ترتيب على الحكمة «تنزيل من حكيم حميد».

٢ - كثرة الاستطراد إلى العلوم الرياضية والفلسفية والطبيعة وغيرهما.

٣ - الفخر الرازي في تفسيره لا يكاد يمر بآية من آيات الأحكام إلا ويذكر مذاهب الفقهاء فيها مع ترويجه لمذهب الشافعي الذي كان يتابعه هو في عبادته ومعاملاته.

٤ - ويضيف الرازي إلى ما سبق كثيراً من المسائل في علوم: الأصول والبلاغة والنحو وغيرها، وإن كانت هذه المسائل في مجموعها بعيدة عن الإطناب والتوسع كما هو الحال في المسائل الكونية والرياضية والفلسفية بوجه عام.

والذي يظهر لقارئ هذا التفسير - فوق ما تقدم - أن مؤلفه رَحِمَهُ اللهُ كان مولعاً بكثرة الاستنباطات والاستطرادات في تفسيره، إضافة إلى توسُّعه في ذكر مسائل الكون والطبيعة، ولأجل هذا، فقد قلَّ البعض من قيمة هذا الكتاب، كتفسير للقرآن الكريم، بل وصل الأمر ببعضهم بأن وصف هذا التفسير بقوله: «فيه كل شيء إلا التفسير» وهذا القول قد يكون فيه شيء من المبالغة.

ولكثير من العلماء والمحققين العديد من المآخذ على هذا التفسير؛ كتوسُّعه في ذكر مسائل علم الكلام، والعلوم الطبيعية والرياضية، التي لا علاقة لها بموضوع التفسير إلا بشيء غير يسير من التكلف والتأويل البعيد، والتعرض لمثل هذه الأمور مما يجعل عنه كتاب الله سبحانه.

إن الرازي رَحِمَهُ اللهُ تعالى من أئمة الأشاعرة وعلماء الكلام الذين جانبوا منهج أهل السنة والجماعة في كثير من أبواب الاعتقاد، ولقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الرازي وأمثاله: «أوتُوا ذكاً ولم يُؤْتُوا زكاً». ولقد تصدى له رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «بيان تلبس الجهمية» وبين أحواله وتناقضه وقواعده التي أسس عليها بنيانه وهي أوهن من بيت العنكبوت، كما خصص له جزءاً كبيراً من كتابه «درء تعارض العقل والنقل».

ويعتبر تفسير الرازي مرجعاً كبيراً في علم الكلام عموماً وفي العقيدة الأشعرية خصوصاً، ثم إنه انشغل بذكر أقوال المعتزلة المذمومة والرد عليها، إلا أن رده لم يكن كافياً ولا شافياً، فقد قال الحافظ ابن حجر - كما في «لسان الميزان»: «وكان يعاب بإيراد الشبهة الشديدة، ويقصر في حلها، حتى قال بعض المغاربة: «يورد الشبهة نقداً ويحلها نسيئة».

وأورد ابن حجر في «لسان الميزان» أيضاً عن الرازي في تفسيره أنه يورد شبهات المخالفين في المذهب والدين على غاية ما يكون من التحقيق، ثم يورد مذهب أهل السنة على غاية من الضعف.

ثم إن الرازي في تفسيره أكثر من الاستطراد في الفلسفة والعلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة، وعرض كثيراً لأقوال الفلاسفة بالرد والتفنيد، ولكنه كان يصوغ أدلته على نمط استدلالهم العقلية لا على الطريقة السلفية المرضية.

والرجل لم يكن عالماً بعقيدة السلف الصالح تخط في باب الأسماء والصفات تخطاً شديداً ولقب القائلين بمذهب السلف بلقب «المجسمة».

وليُعلم أن الرازي في خواتيم حياته قد منَّ الله تعالى عليه بالتوبة من اعتقاده الفاسد وبالرجوع إلى ما كان عليه السلف الصالح من أئمتنا، قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تفسيره «أضواء البيان»: «وَأَعْلَمُ أَنَّ الْفَخْرَ الرَّازِيَّ الَّذِي كَانَ فِي زَمَانِهِ أَعْظَمَ أُمَّةِ التَّأْوِيلِ - رَجَعَ عَنْ ذَلِكَ الْمَذْهَبِ إِلَى مَذْهَبِ السَّلَفِ مُعْتَرِفًا بِأَنَّ طَرِيقَ الْحَقِّ هِيَ اتِّبَاعُ الْقُرْآنِ فِي صِفَاتِ اللَّهِ.

وَقَدْ قَالَ فِي ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ «أَقْسَامُ اللَّذَاتِ»: لَقَدْ اخْتَبَرْتُ الطُّرُقَ الْكَلَامِيَّةَ، وَالْمَنَاهِجَ الْفَلَسَفِيَّةَ، فَلَمْ أَجِدْهَا تَرْوِي غَلِيلاً، وَلَا تَشْفِي غَلِيلاً، وَرَأَيْتُ أَقْرَبَ الطُّرُقِ طَرِيقَةَ الْقُرْآنِ، أَفْرَأَ فِي الْإِبْتَاتِ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [٥١٢٠]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [١٠١٣٥]، وَفِي النَّفْيِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [١١٤٢]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [٦٥١١٩]، وَمَنْ جَرَّبَ مِثْلَ تَجَرِبَتِي عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي. اهـ.

وَقَدْ بَيَّنَّ هَذَا الْمَعْنَى فِي أَبْيَاتِهِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا:

وَعَايَةُ سَعْيِ الْعَالَمِينَ ضَالَالٌ	نَهَايَةُ إِقْدَامِ الْعُقُولِ عَقَالٌ
وَحَاصِلُ دُنْيَانَا أَذَى وَوَبَالٌ	وَأَرْوَاحُنَا فِي وَخْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا
سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلٌ وَقَالَ	وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طَوْلَ عُمُرِنَا
	إِلَى آخِرِ الْأَبْيَاتِ ^(١) .

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٢٩٦).

«وَكَذَلِكَ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ، كَانَ فِي زَمَانِهِ مِنْ أَعْظَمِ الْقَائِلِينَ بِالتَّأْوِيلِ، ثُمَّ رَجَعَ عَنْ ذَلِكَ، وَبَيَّنَّ أَنَّ =

وقد ترك الرازي وصيةً شهيرة أوردتها الكثير من المصادر التاريخية. وهذه الوصية استكتبها الرازي في الحادي والعشرين من شهر المحرم سنة ٦٠٦ هجرية، وذكرها السبكي في «طبقات الشافعية» (٣٧/٥ - ٣٨)، وفيها رجوعه إلى مذهب السلف الصالح، وبرأته من كتبه التي فيها ما يخالف العقيدة السلفية.

٩- منهج القرطبي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن»:

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي (٦٠٠ - ٦٧١ هـ، ١٢٠٤ - ١٢٧٣ م). من كبار المفسرين، يتضمّن تفسيره نكتاً من التفسير واللغات والإعراب والقراءات، والردّ على أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهدة لما يذكره من الأحكام ونزول الآيات.

والقرطبي مؤوّل أشعري، واعتمد في نقله في الأسماء والصفات على أئمة الأشاعرة، كـ«الجويني» و«الباقلائي» و«الرازي» و«ابن عطية» وغيرهم، وفيه مواضع ردّ فيها على أهل التصوّف، وأنكر أقوالهم وأفعالهم المخالفة للشرع.

يكثر من إيراد الأحاديث النبوية، مع عزوها، ويسوقها بلا إسناد غالباً، يستفيض في آيات الأحكام الفقهية، ويذكر مسائل الخلاف مع الأقوال وأدلتها، حتى كأنه كتاب فقه؛ وهو منصف، لا يتعصب لمذهبه المالكي.

يعرض لذكر القراءات باقتصاد، وترك كثيراً من قصص وأخبار المؤرخين، إلا ما لا بدّ

= الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ هُوَ مَذْهَبُ السَّلَفِ. وَقَالَ فِي كِتَابِهِ: إِنْ جَاءَ الْعَوَامُّ عَنْ عِلْمِ الْكَلَامِ: «اعْلَمْ أَنَّ الْحَقَّ الصَّرِيحَ الَّذِي لَا مَرَاءَ فِيهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَصَائِرِ - هُوَ مَذْهَبُ السَّلَفِ، أَغْنَى الصَّحَابَةَ وَالتَّابِعِينَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الْبُرْهَانَ الْكَلِّيَّ عَلَى أَنَّ الْحَقَّ فِي مَذْهَبِ السَّلَفِ وَحْدَهُ يَنْكَشِفُ بِتَسْلِيمِ أَرْبَعَةِ أَصُولٍ مُسَلِّمَةٍ عِنْدَ كُلِّ عَاقِلٍ. ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّ الْأَوَّلَ مِنْ تِلْكَ الْأَصُولِ الْمَذْكُورَةِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ هُوَ أَعْرَفُ الْخَلْقِ بِصَلَاحِ أَحْوَالِ الْعِبَادِ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ. الْأَصْلُ الثَّانِي: أَنَّهُ بَلَغَ كُلُّ مَا أَوْحَى إِلَيْهِ مِنْ صَلَاحِ الْعِبَادِ فِي مَعَادِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ شَيْئًا. الْأَصْلُ الثَّالِثُ: أَنَّ أَعْرَفَ النَّاسِ بِمَعَانِي كَلَامِ اللَّهِ وَأَحْرَاهُمْ بِالْوُقُوفِ عَلَى أَسْرَارِهِ هُمْ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِينَ لَا زَمُّهُ وَحَضْرُوهُ التَّنْزِيلَ وَعَرَفُوا التَّأْوِيلَ. وَالْأَصْلُ الرَّابِعُ: أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي طَوِيلِ عَصْرِهِمْ إِلَى آخِرِ أَعْمَارِهِمْ مَا دَعَوْا الْخَلْقَ إِلَى التَّأْوِيلِ، وَلَوْ كَانَ التَّأْوِيلُ مِنَ الدِّينِ أَوْ عِلْمُ الدِّينِ لَا قَبْلَؤَ عَلَيْهِ لَيْلًا وَنَهَارًا وَدَعَوْا إِلَيْهِ أَوْلَادَهُمْ وَأَهْلَهُمْ. ثُمَّ قَالَ الْغَزَالِيُّ: وَبِهَذِهِ الْأَصُولِ الْأَرْبَعَةُ الْمُسَلِّمَةُ عِنْدَ كُلِّ مُسْلِمٍ نَعْلَمُ بِالْقَطْعِ أَنَّ الْحَقَّ مَا قَالُوهُ وَالصَّوَابُ مَا رَأَوْهُ». انْتَهَى بِاخْتِصَارٍ. وَلَا شَكَّ أَنَّ اسْتِدْلَالَ الْغَزَالِيِّ هَذَا لِأَنَّ مَذْهَبَ السَّلَفِ هُوَ الْحَقُّ - اسْتِدْلَالٌ لَا شَكَّ فِي صِحَّتِهِ، وَوُضُوحٌ وَجْهِ الدَّلِيلِ فِيهِ، وَأَنَّ التَّأْوِيلَ لَوْ كَانَ سَائِعًا أَوْ لَا زَمًا لَبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ، وَلَقَالَ بِهِ أَصْحَابُهُ وَتَابِعُوهُمْ كَمَا لَا يَخْفَى. وَذَكَرَ غَيْرَ وَاحِدٍ عَنِ الْغَزَالِيِّ أَنَّهُ رَجَعَ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ إِلَى تِلَاوَةِ كِتَابِ اللَّهِ وَحَفِظَ الْأَحَادِيثَ الصَّحِيحَةَ وَالْإِعْتِرَافَ بِأَنَّ الْحَقَّ هُوَ مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ. وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ مَاتَ وَعَلَى صَدْرِهِ صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ. [أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢٩٦/٧)].

منه، يعرض للإعراب، ويبين الغريب من ألفاظ القرآن، يُكثر من الاستشهاد بأشعار العرب، ويحتكم كثيراً إلى اللغة.

١٠- منهج البيضاوي في تفسيره «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»^(١):

هو عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي، (؟ - ٦٩١ هـ، ؟ - ١٢٩٢ م). كان عارفاً بالفقه والتفسير وأصول الفقه وأصول الدين والعربية والمنطق وكان عالماً بفنون المناظرة وآداب المناقشة، صالح السلوك، مجتهداً في العبادة، زاهداً في متاع الدنيا الفاني، شافعي المذهب.

والمأمل في تفسيره يجد أنه قد نحا فيه نحو الاختصار، وركز فيه الأفكار، ووجه الأنظار إلى ما تشتمل عليه الآيات في كثير من نواحي الإعراب والفقه والأصول ونحو ذلك، معتمداً على ما سبقه من التفاسير كتفسير الكشاف والرازي ونحوهما. أما مذهبه في تفسيره في الأسماء والصفات فهو على مذهب الأشاعرة في تأويل الصفات إلا في الاستواء فقد حكى فيه الخلاف، والرؤية والمعية.

١١- منهج النسفي في تفسيره «تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل»:

هو عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، نسبة إلى بلدة نسف ببلاد السند. كان مولده في النصف الأول من القرن السابع، وتوفي سنة عشر وسبعمائة للهجرة (٧١٠ هـ). كان عالماً أصولياً وفقهياً على طريقة المذهب الحنفي، ألّف العديد من الكتب في الفقه الحنفي وأصوله. كما كان محدثاً ومفسراً ولغوياً وعالماً من علماء القراءات، ويبدو ذلك واضحاً في تصانيفه. من غلاة المؤوّلة، أوّل جميع الصفات بلا استثناء.

تفسيره ليس بالطويل المُمِل، ولا بالقصير المخل، وقد اختصره من تفسيري البيضاوي والزمخشري. لكن أسلوبه يعلو على مستوى العامة، حيث حشد فيه ألواناً من العلوم المتعلقة بالقرآن لا يفهمها إلا من عنده فكرة سابقة عنها. لم يتوسع في الإعراب، ولم يخلُ تفسيره من الإشارة إلى المذاهب الفقهية في بعض آيات الأحكام، والانتصار لمذهبه الحنفي، فقد كان النسفي من أئمة المذهب الحنفي وفقهائه.

يعرض النسفي في تفسيره أنواع القراءات المتواترة والشاذة، بقدرٍ يدل على معرفة تامة بها. فالمتواترة يلتزم بها وينسبها إلى أصحابها في غالب الأحيان، أما القراءة الشاذة فيصرح بشذوذها دون أن ينسبها لأصحابها، إلا إذا كانت متعلقة بالمعنى أو المسألة الفقهية التي يسعى إليها.

ولم يسلم تفسيره من الإسرائيليات رغم احتياطه وتحفظه وإقلاله منها، وابتعاده ما استطاع عنها، وأحياناً يعتمد ذكر بعض الروايات أحياناً أخرى، ليبين أنها خرافات وإسرائيليات يسعى

(١) محي الدين شيخ زاده له حاشية على تفسير البيضاوي، كتبها على سبيل الإيضاح والبيان للمبتدئ.

أصحابها من خلالها إلى تشكيك المسلمين في أمر دينهم، خصوصاً تلك التي تمس العقيدة وتتناهى مع عصمة الأنبياء. وما عدا ذلك؛ فإنه في الغالب، لا يعقب على الروايات الإسرائيلية التي أوردتها.

١٢- منهج ابن جرّي في تفسيره: «التسهيل لعلوم التنزيل»:

هو محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد الكلبي (٦٩٣-٧٤١هـ = ١٢٩٤-١٣٤٠م)، فقيه مالكي، عالم بالأصول والتفسير واللغة، من أهل غرناطة. وتفسيره تفسيرٌ مختصر وجيز جامع، من غير إخلال، لخصه من كتب التفسير المختلفة الطويلة، بعد تمحيصها وتنقيح فصولها وحذف فضولها، وأضاف إليها فوائد عديدة غريبة، ونكت عجيبة من كتب شتى، قلّما توجد في كتاب، لأنها من عنده أو من شيوخه أو ما سطره في دفاتره. جعله سهلاً على الطالبين، قريباً من الراغبين، واهتم بإيضاح المشكلات وبيان المجملات، وتحقيق أقوال المفسرين، وتمييز الراجح من المرجوح. ويمتاز تفسيره بالسهولة واليسر مع حسن الترتيب والتنقيح، وقد يذكر فوائد بعض الآيات مرتبة، وقد يتوسع في بعض المسائل.

يذكر الأحاديث مختصرة وبدون أسانيد، ولا يعزوها لمخرجيها، ولم يتوسع في إيراد الأحاديث وأسباب النزول، بل يشير إليها أحياناً ولا يسوقها. يهتم بذكر مذهب مالك، ويقارن بينه وبين مذهب أبي حنيفة والشافعي وغيرهما، وينقل الإجماع إن وجد، ومسلكه في ذلك مسلك وسط، لا طويل ممل ولا قصير مخل. يهتم بذكر القراءات، ويبين معانيها وألفاظها وما تدل عليه. يذكر بعض الإسرائيليات عن «وهب بن منبه» و«السدي» وغيرهما، وأحياناً يذكر معانيها ويصرح بضعفها، ويصدرها أحياناً بقوله: روي. وتجد في كتابه الكثير من المواعظ وآداب السلوك والأخلاق، وعليه في بعضها مؤاخذات. وابن جرّي مؤوّل لأغلب الصفات، ومفوّض لبعضها، وفيه نزعة صوفية، وعليه في بعضها مؤاخذات.

١٣- منهج الخازن في تفسيره «الباب التأويل في معاني التنزيل»:

هو علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن إبراهيم الشحي البغدادي الصوفي المعروف بالخازن، (٦٧٨-٧٤١هـ = ١٢٨٠-١٣٤١م). كان فقيهاً شافعيّاً مؤرخاً عالمّاً بالتفسير والحديث، وسمي بالخازن لأنه كان خازن كتب خانقاه السيمسائية بدمشق^(١). وتفسير الخازن مختصر من تفسير البغوي مع إضافات، وقد أكثر فيه من ذكر الإسرائيليات،

(١) خازن: متعهد أو مسئول الخزّن، الذي يتولّى حفظ المال وغيره وإنفاقه.

وأخذ كثيراً من تفسير الثعلبي فيما يتعلق بالأخبار، وله عناية بذكر ما يتعلق بالمواعظ والرفائق مما بهذب الأخلاق ويقوي العزائم ويزهّد في الدنيا ويرغب في الآخرة ويزكّر بالله تعالى واليوم الآخر.

أما عقيدته في الأسماء والصفات فهو مؤوّل في كثير من الصفات، ومثبت في قليل منها مثل الإتيان والمجيء، ويذكر في بعض الصفات مذهب السلف والخلف ولكن بدون ترجيح.

ومن مزايا هذا التفسير:

١- رده على بعض مفتريات وشبهات الفرق المبتدعة من المعتزلة والخوارج والمرجئة والرافضة وغيرهم. وفيه عناية بآيات الأحكام وذكر خلاصة الحكم فيما يورده من المسائل دون التوسع غالباً في التفرعات الفقهية والخلافات المذهبية وقد يعقد الفصول لذلك.

٢- اعتماده أسلوب الترجيح أو التصحيح أو الجمع لكثير من الخلافات والوجوه التي يوردها وإن كان ذلك ليس مطرداً في تفسيره

٣- تتبعه لأخطاء بعض المفسرين وبيان وجه الحق في ذلك.

٤- رده لكثير من الإسرائيليات فينبغ القصة ببيان ما فيها من باطل حتى لا ينخدع بها ولا يفتن جاهل. ولكن الخازن رحمه الله تعالى لم يلتزم بمنهجه هذا في جميع تفسيره.

١٤- منهج أبي حيان الأندلسي في تفسيره «البحر المحيط في التفسير»: (١)

هو أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي، (٦٥٤ هـ - ٧٤٥ هـ، ١٢٥٦ - ١٣٤٤ م).

و«البحر المحيط» مرجع مهم لمن يريد أن يقف على وجوه الإعراب لألفاظ القرآن، حيث توسّع في مسائل النحو والخلاف بين النحويين، وينقل كثيراً عن «الزمخشري» و«ابن عطية» ويتعقبهما، خصوصاً «الزمخشري» لأرائه الاعتزالية. ويختم تفسيره للآيات بكلام مثور، يشرح به مضمون الآيات على ما اختاره من المعاني باختصار. يتناول الأحكام، وينقل أقاويل الفقهاء الأربعة وغيرهم، ويحيل على كتب الفقه، توسّع في مباحث الإعراب والنحو، حتى كأنه كتاب نحو. وفي ختام تفسيره للآيات يذكر ما فيها من علم البيان والبديع، وهو إمام في النحو والعربية؛ يحشر القراءات المتواترة والشاذة، ويذكر توجيهها في علم العربية. وينقل أقوال السلف والخلف في فهم معانيها، ولا يترك كلمة - وإن اشتهرت - إلا ويتكلم عليها، ويبيد ما فيها من غوامض الإعراب، والبديع والبيان.

ويلاحظ من منهج أبي حيان في تفسيره أنه كان في منهجه بعيداً عن أقوال أهل الفلسفة، وبريئاً من مذهب أهل الاعتزال؛ غير أنه - في المقابل - لم يلتزم مذهب أهل السنة والجماعة

(١) وبهامشه «النهر الماد من البحر» له أيضاً.

في مسائل الأسماء والصفات، فهو مؤوّل أشعري، اتخذ «ابن عطية» و«الرازي» و«الباقلائي» عمدة له.

١٥- منهج تفسير الجلالين:

سُمّي هذا التفسير بـ «الجلالين» نسبة إلى مؤلّفه جلال الدين المحلي، (٧٩١ - ٨٦٤ هـ = ١٣٨٩ - ١٤٥٩ م) وجلال الدين السيوطي (٨٤٩ - ٩١١ هـ = ١٤٤٥ - ١٥٠٥ م)، وكلاهما مؤوّل للصفات على مذهب الأشاعرة. وقد اشتركا في تفسير القرآن غاية في الإيجاز، وربما كان أوجز تفسير للقرآن.

«تفسير الجلالين» ابتدأه «المحلي» بتفسير سورة الكهف إلى آخر سورة الناس، وابتدأ تفسير سورة الفاتحة، ثم توفّي؛ وأكمّله السيوطي، فابتدأه من سورة الفاتحة إلى سورة الإسراء.

والقارئ لهذا التفسير لا يكاد يلمس فرقاً واضحاً بين طريقة الشيخين، فيما فسراه، بل لا يكاد يحس بمخالفة بينهما - لا شكلاً ولا مضموناً - في ناحية من نواحي التفسير المختلفة، اللهم إلا في مواضع قليلة لا تكاد تذكر.

و«تفسير الجلالين» تفسير مختصر، وعبارته موجزة، اشتهر بين الناس لسهولة واختصاره. تُذكر فيه الأحاديث وأسباب النزول والآثار عن السلف بلا أسانيد ولا عزو لمصادرٍ غالباً، وأحياناً تُذكر المصادر.

وتُذكر في الأقوال التي رجّحها المفسران من غير تطويل، يقع فيه ذكر الإعراب على وجه مختصر. ينبّه على القراءات المشهورة باختصار.

تُذكر فيه معاني الإسرائيليات دون التنبيه عليها. وقد تتضمن الغرض من بعض الأنبياء (كما في تفسير فتنة داود عليه السلام في سورة ص).

ومما يؤخذ على هذا التفسير أنّ مؤلّفه لم يلتزم منهج أهل السنة والجماعة في مسائل الأسماء والصفات، التي أجمع السلف على إثباتها، دون تحريف، أو تعطيل، أو تكييف، أو تمثيل.

ومن الحواشي التي كُتبت على هذا التفسير، حاشية الجمل (الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية) لسليمان بن عمر الشهير بالجمل المتوفّي عام ١٢٠٤ هـ، وحاشية الصاوي، وهو أحمد بن محمد الصاوي، وهو مالكي المذهب، وصوفي من كبار الصوفية، (١١٧٥ - ١٢٤١ هـ = ١٧٦١ - ١٨٢٥ م).

وهاتان الحاشيتان متداولتان بين أهل العلم. وتجد فيهما تأويل الصفات على مذهب الأشاعرة، فلم يلتزم منهج أهل السنة والجماعة في مسائل الأسماء والصفات، التي أجمع السلف على إثباتها، دون تحريف، أو تعطيل، أو تكييف، أو تمثيل.

وحاشية الجمل، حاشية مفيدة، على ما فيها من أخطاء في العقيدة، تبعاً للأصل، لكن هي أفضل من حاشية الصاوي، وحاشية الصاوي فيها بعض الكلام الذي لا يسوغ نقله، فضلاً عن ابتدائه. وقد وصل الانحراف فيها إلى القول بأن الأخذ بظاهر القرآن والحديث أصل من أصول الكفر، وإلى إجازة الاستغاثة بغير الله عز وجل فيما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل.

١٦- منهج السيوطي في تفسيره «الدر المنثور في التفسير بالمأثور»:

عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين، والسيوطي نسبة إلى أسيوط مدينة في صعيد مصر. (٨٤٩ - ٩١١ هـ = ١٤٤٥ - ١٥٠٥ م)، والدر المنثور هو أجمع كتاب للتفسير بالمأثور، لم يُبد فيه السيوطي رأياً، ولم يقل فيه كلمة مفسرة أو جملة شارحة، وإنما التزم التزاماً كاملاً أن يكون تفسيره جمعاً لأحاديث رسول الله ﷺ في الآية وسرداً لبعض أقوال الصحابة رضي الله عنهم.

وهو في جمعه هذا لم يلتزم صحة الأحاديث والنقل، وإنما خلط فيه بين الصحيح والعليل، ومن أجل ذلك فإن هذا الكتاب الجليل في حاجة ماسة إلى عمل متقن، في التحقيق والتخريج، وبيان الصحيح من الأحاديث والحسن منها والضعيف.

فكتاب «الدر المنثور» كل ما فيه هو سرد الروايات عن السلف في التفسير بدون أن يُعقَّب عليها، فلا يُعَدَّل ولا يُجَرَّح، ولا يُضَعَّف ولا يُصَحِّح، فهو كتاب جامع فقط لما يروى عن السلف في التفسير، أخذه السيوطي من البخاري، ومسلم، والنسائي، والترمذي، وأحمد، وأبي داود، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وعبد ابن حميد، وابن أبي الدنيا، وغيرهم ممن تقدّمه ودوّن التفسير.

١٧- منهج أبي السعود في تفسيره «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم»:

هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي، المُفتي والمُفسّر. ولد في إحدى ضواحي القسطنطينية عام ٨٩٨ هـ، تلقى العلوم على يد نخبة من علماء عصره، ومنهم والده، اشتغل بالتدريس، وتولى قضاء القسطنطينية وغيرها من المدن، وتولى بعد ذلك الإفتاء ومكث فيه ثلاثين سنة، توفي أبو السعود ٩٨٢ هـ.

وقد استفاد في تفسيره من تفاسير الزمخشري والبيضاوي والرازي والواحدي والثعلبي والقرطبي والبغوي وغيرها.

أما عقيدته في الأسماء والصفات فهو على عقيدة المؤلّة ما حاد عنها تبع الرازي في تصرفه بل ينقل ترجيحات الرازي ويقرها.

١٨- منهج الشوكاني في تفسيره «فتح القدير الجامع بين فن الرواية والدراية من التفسير»:

مؤلف هذا التفسير هو العلامة محمد بن علي بن عبد الله الشوكاني، (١١٧٣ - ١٢٥٠ هـ، ١٧٥٩ - ١٨٣٤ م)، تفقه على مذهب الزيدية، وبرع فيه، وألف وأفتى. ثم خلع ربة التقليد،

وتحلَّى بمنصب الاجتهاد، وألَّف رسالة سماها «القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد»، تحامل عليه من أجلها جماعة من العلماء.

وعنوان تفسيره «فتح القدير الجامع بين فن الرواية والدراية من التفسير» يشرح الطريقة، فهي ليست طريقة التفسير بالمأثور تقتصر على إيراد ما ورد في الآية من الآثار كما فعل السيوطي في تفسيره الذي اقتصر فيه على إيراد ما ورد من المأثورات.

وليس تفسيراً يجعل كلَّ همِّه العقليات كما فعل مثلاً الفخر الرازي وإنما هو تفسير يجمع بين «الرواية والدراية» والرواية، هي إيراد المأثورات والدراية هي ابداء الرأي الشخصي بعد الفهم والتأمل في الآية وما روى عنها.

والشوكاني في تفسيره يذكر الآيات، ثم يفسرها تفسيراً معقولاً ومقبولاً، ثم يذكر بعد الفراغ من ذلك: الروايات التفسيرية الواردة عن السلف، وهو ينقل كثيراً عن ذكر من أصحاب كتب التفسير. ويذكر المناسبات بين الآيات، ويحتكم إلى اللغة كثيراً. وينقل عن أئمتها كالمبرد وأبي عبيدة والفراء، كما أنه يتعرض أحياناً للقراءات السبع، ولا يفوته أن يعرض لمذاهب العلماء الفقهية في كل مناسبة، ويذكر اختلافاتهم وأدلتهم، ويُدلي بدلوه بين الدلاء، فيرجح، ويستظهر، ويستنبط، ويعطى نفسه حرية واسعة في الاستنباط، لأنه يرى نفسه مجتهداً لا يقل عن غيره من المجتهدين.

ويتميز تفسير الشوكاني بالتحذير من البدع المضلة والعقائد المنحرفة والتقليد الأعمى، وقد لقي المؤلف بسبب ذلك إيذاءً وفتناً شتى رَحِمَهُ اللهُ تعالى.

وموقفه من الأسانيد ما ذكره في مقدمة تفسيره من الحرص على إيراد ما ثبت من التفسير عن رسول الله أو الصحابة أو التابعين أو تابعيهم أو الأئمة المعترين، وأنه قد يذكر ما في إسناده ضعف، وهو يتعقب أحياناً الروايات التي يذكرها ويبين حالها، لكن يؤخذ عليه أنه يذكر أحاديث ضعيفة وموضوعة في مواضع كثيرة ولا ينبه عليها، وهو ينقل من "الدر المنثور" للسيوطي كثيراً.

أما الإسرائيليات فإنه يمتاز عن غيره بقلة إيرادها، بل لا تكاد توجد فيه إلا للرد عليها، فهو من أشد المفسرين انتقاداً لها، ولا يدع فرصة تمر إلا ويوجه نقده اللاذع إليها.

وموقفه من الأحكام الفقهية أنه يذكر مذاهب العلماء الفقهية (الأئمة الأربعة وغيرهم) واختلافاتهم وأدلتهم، ويرجح ويستنبط، فهو إمام مضطلع مجتهد في الفقه، فقد ألَّف فيه مؤلفات، مثل: «نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار»، و«السييل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار»، و«الدر البهية» وشرحها وغيرها.

ولا يدع الشوكاني فرصة تسنح له في تفسيره للتنديد بالتقليد إلا ويشنع فيها على المقلدة.

بل إنك تلحظ أنه لا يمر بآية من القرآن تنعى على المشركين تقليدهم آباءهم إلا ويطبقها على مقلدي المذاهب الفقهية ويرميهم بأنهم تاركون لكتاب الله تعالى معرضون عن سنة رسوله ﷺ.

والشوكاني في تفسيره يُؤَوِّل الصفات، إلا صفة الاستواء حاول أن يقرر فيها مذهب السلف، أما سائر الصفات فهو مُؤَوِّل فيها ينقل فيها عبارة غيره ويسكت عنها، فأَوَّل صفة الغضب والاستهزاء والحياء والوجه والإتيان والمجيء والمحبة والنفس واليد والفوقية والعين، أما الرؤية فقد أثبت رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة كما أثبتها غيره ردًا على المعتزلة. وللشوكاني رسالة أسماها «التحف في مذاهب السلف» ذم فيها أهل الكلام وطريقتهم في تقديم العقل على نصوص الكتاب والسنة ومدح فيها مذهب السلف، وحاول فيها تقرير مذهب السلف.

والشوكاني في التوسل لا يجيز التوسل بجاه أحد ولا بشيء لم يرد جوازه في الكتاب أو السنة ويفيض في الإنكار على مَنْ يفعل. ورَدَّ على المعتزلة في إنكارهم لحقيقة وتأثير السحر.

١٩- منهج الألوسي في تفسيره «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني»:
الألوسي هو أبو شهاب الدين محمود أفندي الألوسي نسبة إلى قرية اسمها ألوس، وهي جزيرة في منتصف نهر الفرات بين الشام وبغداد، كانت موطن أجداده، ولد سنة ١٢١٧م في الكرخ من بغداد.

وتفسير الألوسي يعد من التفاسير الصوفية، فقد كان اتجاهه صوفيًا، وقَلَّ ما تفوته مناسبة إلا وبنَّه على ما في الآية من التفسير الإشاري، وهو الذي تُؤَوِّل به الآيات على غير ظاهرها مع محاولة الجمع بين الظاهر والخفي، فبعد أن يُورد فيه تفسير الآيات حسب الظاهر، يشير إلى بعض المعاني الخفية التي تستنبط بطريق الرمز والإشارة.

وتفسيره موسوعة تفسيرية لخلاصة كل ما سبقه من التفاسير. ينقل عن «ابن عطية» و«أبي حيان» و«الزمخشري» و«أبي السعود» و«البيضاوي» و«الرازي» وغيرهم.

وهو يُدَقِّق ما ينقله وينقده، وييدي رأيه فيه، ويستطرد في الكلام على الأمور الكونية، ويذكر كلام أهل الهيئة والحكمة، ويُقَرِّ ما يرتضيه، ويرد على ما لا يرتضيه، وبطيل النفس في بحوثه. يميل إلى التصوف، وكثيراً ما يفسر الآيات تفسيراً رمزياً إشارياً، على طريقة المتصوفة، مع المتابعة لهم في بعض شطحاتهم، وخلع الألقاب العظيمة عليهم، ويصرِّح بأسمائهم أحياناً كـ«ابن الفارض» وغيره؛ وفيما يسوقه من «التفسير الإشاري» بلالاً وأوابد، ولهذا عدّه بعضهم من تفسير «الصوفية».

وقد ضم في تفسيره معظم بحوث «الرازي»، مع تقرير مذهب «الأشاعرة»، والانتصار

لهم، والوقية في أئمة السلف، ولهذا عدّه بعضهم من تفاسير «الماتريديّة»، وأحياناً يردّ على الأشاعرة أقوالهم، ويقرّر مذهب السلف، ويفنّد آراء «المعتزلة» و«الشيعة» وغيرهم من أصحاب المذاهب المخالفة؛ ولهذا عدّه بعضهم من مفسري السلف. والحقُّ أن الألوسي عنده تردّد بين مذهب السلف والخلف، وتفسيره مزيج بين الاتجاهات الثلاثة.

وقد سلك الألوسي في تفسيره مسلك التفسير اللغوي، حيث يهتم بالتحقيقات اللغوية باعتبارها تفتح أوسع المجالات لفهم آيات الذكر الحكيم. وإذا تكلم عن آيات الأحكام فإنه لا يمر عليها إلا إذا استوفى مذاهب الفقهاء وأدلتهم، مع عدم تعصب منه لمذهب بعينه. كما يستهل الألوسي تفسير السورة بالكلام عنها هل هي مكية أم مدنية وعدد آياتها، ثم يبين وجه مناسبتها للسورة التي قبلها، ويذكر أقوال العلماء في ذلك.

أما طريقته في تفسير السورة فإنه لا يلتزم بنظام معين، بل يعرضها حسب ما يتفق وتبين المراد منها في نظره، فقد يعرض الآية كاملة ثم يفسرها وقد يجزئ بعضها.

أما طريقته في توظيف الحديث الشريف في التفسير، فإنه يحشد في معنى الآية المزمع تفسيرها مجموعة من الأحاديث النبوية الواردة في النص، وقد تكون متعارضة قوةً وضعفاً، فما إن ظهرت قوة أحدها أو مجموعة منها رجحها وعول عليها لتوجيه معنى الآية، وكثيراً ما يلجأ الألوسي إلى أقوال الصحابة لتفسير الآيات، وغالباً يعقب عليها إما توضيحاً أو تعريضاً بأقوال أخرى. وقد يسوق الألوسي قول أحد الصحابة لبيان الناسخ والمنسوخ.

أما موقفه من الإسرائيليات، فيلاحظ عليه أنه شديد النقد للإسرائيليات، والأخبار المكذوبة التي حشأ بها كثير من المفسرين تفاسيرهم وظنوها صحيحة. أما نهجه في توظيف أقوال التابعين، فإنه يستشهد كثيراً بأقوال التابعين في صدد تبيان مراد الله من آيات كتابه، ولكن منهجه في ذلك ليس دائم القبول، فقد يستبعد قول أحد التابعين إن رآه بعيداً عن المعنى المطلوب، وقد اعتمد على كبار المفسرين من التابعين كمجاهد وقتادة وعكرمة وطاووس وعطاء بن أبي رباح والحسن البصري وسعيد بن جبير ومسروق وغيرهم من العلماء الأجلاء الذين ورثوا أمانة العلم من الصحابة وأدوها أحسن أداء.

واستعمل الألوسي الشعر في تفسيره كثيراً، ولو أراد باحث أن يتقصى ذلك وأن يحصره لضاق ذرعاً، ففي الكتاب عدد كبير من الأبيات الشعرية، وكان يذكر الشعر لأغراض مختلفة، فتارة يذكره لبيان معنى لغوي أو للاستدلال على قاعدة نحوية أو بلاغية. كما نجد الألوسي يولي اهتماماً خاصاً للقراءات المختلفة التي تساعد في استخلاص المعاني.

وقد اعتمد الألوسي على مجموعة من المصادر منها:

١ - كتب التفسير: كان الألوسي يعرض آراء كثير من المفسرين ويناقشها كتفسير ابن جرير الطبري، وتفسير ابن أبي حاتم، وتفسير القرطبي، وتفسير ابن حبان، وتفسير ابن عطية، وتفسير البيضاوي، وتفسير الزمخشري، وتفسير الرازي.

- ٢- كتب الحديث: اعتمد على كثير من المصنفات الحديثية كالبخاري ومسلم والترمذي وأبي داود والنسائي وابن ماجه وكتب البيهقي والدارقطني والحاكم.
- ٣- كتب الفقه: أخذ تفسير بعض الألفاظ القرآنية من مؤلفات فقهية لمذاهب مختلفة كمذهب مالك والشافعي والحنفي وغيرهم.



٨ - مصطلحات بلاغية

*** الفصاحة:** عبارة عن الألفاظ البينة الظاهرة، المتبادرة إلى الفهم، والمأنوسة الاستعمال بين الكتاب والشعراء لمكان حسنها.

*** البلاغة:** البلاغة في الكلام: مطابقته لما يقتضيه حال الخطاب - مع فصاحة ألفاظه «مفردتها ومركيها». والكلام البليغ: هو الذي يُصوره المتكلم بصورة تناسب أحوال المخاطبين.

*** الخبر:** الخبر كلامٌ يحتمل الصدق والكذب لذاته، والمراد: بصدق الخبر مطابقته للواقع ونفس الأمر، والمراد بكذبه عدم مطابقته له. والأصل في الخبر أن يلقي لأحد غرضين: إما إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة، إذا كان جاهلاً له، وإما إفادة المخاطب أن المتكلم عالمٌ أيضاً بأنه يعلم الخبر.

*** الإنشاء:** ما لا يحتمل صدقاً ولا كذباً، كالأمر والنهي والاستفهام والتمني والنداء وغيرها.

*** القصص:** هو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص. نحو: ما شوقي إلا شاعرٌ، فمعناه تخصيص (شوقي بالشعر) وقصره عليه، ونفي صفة (الكتابة) عنه - (رداً على من ظن أنه شاعرٌ وكاتبٌ) والذي دل على هذا التخصيص هو النفي بكلمة (ما) المتقدمة، والاستثناء بكلمة (إلا) التي قبل الخبر. ولو قلت (شوقي شاعرٌ) بدون (نفي واستثناء) ما فهم هذا التخصيص.

*** الإيجاز:** هو وضع المعاني الكثيرة في ألفاظ أقل منها، وافية بالغرض المقصود، مع الإبانة والإفصاح، كقوله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، فهذه الآية القصيرة جمعت مكارم الأخلاق بأسرها.

*** الإطناب:** زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، أو هو تأدية المعنى بعبارة زائدة عن متعارف أو ساط البلاء، لفائدة تقويته وتوكيده - نحو قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ [مريم: ٤]، أي: كبرت.

وأنواع الإطناب كثيرة منها: ذكر الخاص بعد العام للتنبية على فضل الخاص: كقوله تعالى: ﴿ حَفِظُوا عَلَى الصُّلُوحِ وَالصُّلُوحِ أَلْأَوْسَطُ ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وذكر العام بعد الخاص، كقوله تعالى: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [نوح: ٢٨]. والإيضاح بعد الإبهام، لتقرير المعنى في ذهن السامع بذكره مرتين، مرة على سبيل الإبهام والإجمال، ومرة على سبيل التفصيل والإيضاح، فبيده ذلك نبأً وشرفاً، كقوله تعالى: ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَذْكَرُ عَلَىٰ بَحْرَةٍ نُّجِجُكُمْ مِّنْ عَذَابِ إِلِيمٍ ۖ ۝١٠ تَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الصف: ١٠، ١١].

*** التشبيه:** هو عقد مماثلة بين أمرين أو أكثر، قصد اشتراكهما في صفة أو أكثر، بأداة لغرض

يقصده المتكلم للعلم، نحو: أَنْتَ كَالشَّمْسِ فِي الضِّيَاءِ.

*** تشبيه التمثيل:** هو ما كان وجه الشبه فيه وصفاً منتزِعاً من متعددٍ، حسيّاً كان أو غير حسيّ، كقول الشاعر:

وما المرء إلا كالشَّهَابِ وَضَوْئِهِ يَحُورُ رَمَاداً بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ
فوجه الشبه سرعةُ الفناءِ انتزَعَهُ الشاعرُ من أحوالِ القمرِ المتعددةِ، إذ يبدو هلالاً، فيصيرُ
بدرًا، ثم ينقصُ، حتى يدركه المحاقُ.

وتشبيه التمثيل نوعان:

الأول: ما كان ظاهرَ الأداة، نحو قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْبَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥] فالمشبه: هم الذين حُمِّلُوا التَّوْبَةَ ولم يعقلوها ما بها: والمشبه به (الحمار) الذي يحملُ الكتبَ النافعةَ، دونَ استفادتهِ منها، والأداة الكافُ، ووجهُ الشبه (الهيئةُ الحاصلةُ من التعبِ في حملِ النافعِ دونَ فائدة).

الثاني: ما كان خفيَّ الأداة: كقولك للذي يتردّد في الشيء بين أن يفعلهُ، وألا يفعلهُ (أراك تقدّم رجلاً وتؤخّرُ أخرى)، إذ الأصلُ أراك في ترددك مثل من يقدّم رجلاً مرةً، ثم يؤخّرُها مرةً أخرى، فالأداة محذوفةٌ، ووجهُ الشبه هيئةُ الإقدام والإحجام المصحوبين بالشكِّ.

*** التشبيه المرسل:** هو ما ذكرت في الأداة، كقول الشاعر:

إِنَّمَا الدُّنْيَا كَبَيْتٍ نَسَجْتَهُ الْعَنْكَبُوتُ

*** التشبيه المؤكّد:** هو ما حذف منه أداؤه، كقول الشاعر:

أَنْتَ نَجْمٌ فِي رِفْعَةٍ وَضِيَاءٍ تَجْتَليكَ الْعُيُونُ شَرْقًا وَغَرْبًا

*** التشبيه البليغ:** هو ما حذف في أداة التشبيه وجه الشبه، نحو قوله تعالى: ﴿هَنَ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].

*** التشبيه الضمني:** هو تشبيه لا يوضع فيه المشبه والمشبه به في صورةٍ من صور التشبيه المعروفة، بل يلمح المشبه والمشبه به، ويفهمان من المعنى، ويكون المشبه به دائماً برهاناً على إمكان ما أُسند إلى المشبه، كقول المتنبي:

مَنْ يَهْنُ يَسْهَلُ الْهَوَانُ عَلَيْهِ مَا لَجُرْحَ بَمَيِّتٍ إِيْلَامُ

أي أن الذي اعتاد الهوان، يسهل عليه تحمُّله، ولا يتألم له، وليس هذا الادعاء باطلاً، لأن الميت إذا جرح لا يتألم، وفي ذلك تلميحٌ بالتشبيه في غير صراحةٍ، وليس على صورةٍ من صور التشبيه المعروفة.

*** التشبيه المقلوب:** التشبيه المقلوب: هو جعل المشبه مشبهاً به بادعاء أن وجه الشبه فيه

أَقْوَى وَأَظْهَرُ. وَيَسْمَى ذَلِكَ بِالتَّشْبِيهِ الْمَقْلُوبِ أَوْ الْمَعْكُوسِ، نَحْوُ: كَأَنَّ ضَوْءَ النَّهَارِ جَبِينُهُ، وَنَحْوُ: كَأَنَّ الْمَاءَ فِي الصَّفَاءِ طَبَاعُهُ.

*** المجازُ العقليُّ:** هو إسنادُ الفعل، أو ما في معناه من اسم فاعل، أو اسم مفعولٍ أو مصدرٍ إلى غير ما هو له في الظاهر، من حال المتكلم، لعلاقةٍ مع قرينةٍ تمنعُ من أن يكون الإسنادُ إلى ما هو له. كقوله: (بنى الأميرُ المدينة) فإنَّ الأميرَ سببُ بناءِ المدينة، لا إنَّه بناها بنفسه.

*** المجازُ اللغويُّ:** وهو استعمالُ اللفظ في غير ما وضع له لعلاقةٍ، بمعنى مناسبة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي ويكون الاستعمالُ لقرينةٍ مانعةٍ من إرادة المعنى الحقيقي.

*** المجازُ المرسلُ:** هو الكلمة المستعملة قصدًا في غير معناها الأصلي لملاحظة علاقةٍ غير (المشابهة) مع قرينةٍ دالةٍ على عدم إرادة المعنى الوضعي.

وله علاقات كثيرة منها:

١- السببية: هي كون الشيء المنقول عنه سببًا ومؤثرًا في غيره، وذلك فيما إذا ذكر لفظُ السبب، وأريد منه المسبب، نحو: رعتِ الماشيةُ الغيثَ - أي النبات، لأنَّ الغيثَ أي (المطر) سببٌ فيه، وقرينته (لفظية) وهي (رعت) لأنَّ العلاقةَ تعتبرُ من جهة المعنى المنقول عنه.

٢- الكلية: هي كون الشيء متضمنًا للمقصود ولغيره، وذلك فيما إذا ذكر لفظُ الكل، وأريد منه الجزء، نحو: شربتُ ماءَ النيل - والمرادُ بعضُهُ، بقرينةٍ شربتُ.

٣- الجزئية: هي كون المذكور ضمنَ شيءٍ آخر، وذلك فيما إذا ذكر لفظُ الجزء، وأريد منه الكل، نحو: نشرَ الحاكمُ عيونهَ في المدينة، أي الجواسيس، فالعيونُ مجازٌ مرسلٌ، علاقتهُ (الجزئية) لأنَّ كلَّ عينٍ جزءٌ من جاسوسها - والقرينةُ الاستحالة.

*** الاستعارة:** هي استعمالُ اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة (المشابهة) بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه، مع (قرينة) صارفةٍ عن إرادة المعنى الأصلي، (والاستعارة) ليست إلا (تشبيهًا) مختصرًا، لكنها أبلغُ منه كقولك: رأيتُ أسدًا في المدرسة، فأصلُ هذه الاستعارة «رأيتُ رجلاً شجاعاً كالأسد في المدرسة» فحذفتُ المشبهة «لفظُ رجل» وحذفتُ الأداةَ الكاف - وحذفتُ وجه التشبيه «الشجاعة» وألحقتهُ بقرينة «المدرسة» لتدلَّ على أنك تريدُ بالأسد شجاعاً.

- الاستعارةُ التصريحية: هي ما صرَّحَ فيها بلفظِ المشبهة به. كقول المتنبي:

وَلَمْ أَرْ قَبْلِي مَنْ مَشَى الْبَدْرَ نَحْوَهُ وَلَا رَجُلًا قَامَتْ تُعَانِقُهُ الْأُسْدُ

فكلمتي البدرِ والأسدِ مشبهةٌ به في الأصل، وحذفتُ المشبهة، فالبدرُ لا يمشي والأسدُ لا تعانق.

- الاستعارةُ المكنية: هي ما حذفتُ فيها المشبهة به ورُمِزَ له بشيءٍ من لوازمه.

كقوله الحجاج بن يوسف في أول خطبة بأهل الكوفة: «أني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها».

فإن الذي يفهم منه أن يشبه الرؤوس بالثمرات، فأصل الكلام إني لأرى رؤوساً كالثمرات قد أينعت، ثم حذف المشبه به فصار إني لأرى رؤوساً قد أينعت، على تخيل أن الرؤوس قد تمثلت في صورة ثمار، ورُمز للمشبه به المحذوف بشيء من لوازمه وهو أينعت، ولما كان المشبه به في هذه الاستعارة محتجباً سميت استعارة مكنية.

* تقسيم الاستعارة إلى مطلقة ومرشحة ومجردة:

تنقسم الاستعارة بالنظر إلى اقترانها بما يلائم المستعار منه «وهو المشبه به» أو المستعار له «وهو المشبه» أو عدم اقترانها بشيء من ذلك إلى ثلاثة أقسام:

١- الاستعارة المطلقة: وهي الاستعارة التي لم تقترن عبارتها بأوصاف أو تفريعات أو كلام مما يلائم المستعار منه، أو يلائم المستعار له، باستثناء القرينة الصارفة عن إرادة المعنى الأصلي للفظ المستعار.

مثل: «قطع الأمير رأس الحية الكبرى» بمعنى أنه قطع رأس رئيس عصابة الشر والفساد، إذا كانت قرينة الحال دالة على المراد. فالحية لفظ مستعار للدلالة به على رئيس عصابة الشر والفساد، ويلاحظ أن العبارة لم تقترن بما يلائم لفظ الحية، ولا بما يلائم رئيس عصابة الشر والفساد. هذه الاستعارة استعارة تصريحية مطلقة.

٢- الاستعارة المرشحة: وهي الاستعارة التي اقترنت بما يلائم المستعار منه. وسميت مرشحة لأن ما اقترن بها يعطيها زيادة تقوية للمستعار منه بزيادة أعطية تحتاج زيادة عمل ذهني لكشف إرادة المعنى المجازي الذي استعمل اللفظ للدلالة عليه. مثل أن نقول في المثال السابق: «قطع الأمير رأس الحية الكبرى التي باصت وفرخت صغار الحيات والثعابين وسعت تنهش وتنفت سُمها». هذه العبارة اقترنت بالاستعارة فيها بما يلائم المستعار منه، إذ الحية الحقيقية هي التي تبيض وتفرخ وتنهش وتنفت سُمها. فالاستعارة في هذا المثال استعارة تصريحية مرشحة.

٣- الاستعارة المجردة: وهي الاستعارة التي اقترنت بما يلائم المستعار له. وسميت مجردة لأن المقارنات الملائمات للمستعار له تُجرّد الاستعارة من أعطيتها الساترة، فيظهر المعنى المجازي المراد دون تأمل فكري. كأن نقول في المثال السابق:

«قطع الأمير رأس الحية الكبرى التي جمعت أشرار الناس، وأرادت إفساد المجتمع».

هذه العبارة اقترنت بما يلائم المستعار له الذي هو رئيس عصابة الشر والفساد.

وإذا اجتمع في العبارة المشتملة على الاستعارة الترشيح والتجريد معاً، كانت الاستعارة

في حكم الاستعارة المطلقة.

كقول زهير:

لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السَّلَاحِ مُقَدِّفٍ لَهُ لِبَدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلِّمْ
استعار الأسد للرجل الشجاع، وقد ذكر ما يناسب المستعار له، في قوله: شاكي السلاح مقَدِّفٍ وهو التجريد، ثم ذكر ما يناسب المستعار منه، في قوله: له لبَدٌ أظْفَارُهُ لَمْ تُقَلِّمْ، وهو الترشيح، واجتماع التجريد والترشيح يؤدي إلى تعارضهما وسقوطهما، فكأن الاستعارة لم تقترن بشيء وتكون في رتبة المطلقة.

* تنقسم الاستعارة باعتبار اللفظ المستعار الأفعال أو المشتقات أو الحروف على النحو التالي:

١- إذا كان اللفظ المستعار «اسماً جامداً لذات» كالبدن إذا استعير للجميل، سميت الاستعارة «أصلية».

٢- إذا كان اللفظ المستعار «فعلاً» أو اسم فعل، أو اسماً مشتقاً أو اسماً مبهماً أو حرفاً فالاستعارة «تصريحية تبعية» نحو: نامت همومي عني.

الكناية: لفظ أريد به غير معناه الذي وضع له، مع جواز إرادة المعنى الأصلي، لعدم وجود قرينة مانعة من إرادته، نحو: «زيدٌ طويل النجاد» تريد بهذا التركيب أنه شجاعٌ عظيم، فعدلت عن التصريح بهذه الصفة، إلى الإشارة إليها بشيء تترتب عليه وتلزمه، لأنه يلزم من طول حمالة السيف طول صاحبه، ويلزم من طول الجسم الشجاعة عادةً، فإذا: المراد طول قامته، وإن لم يكن له نجاد، ومع ذلك يصح أن يراد المعنى الحقيقي، ومن هنا يعلم أن الفرق بين الكناية والمجاز صحة إرادة المعنى الأصلي في الكناية، دون المجاز، فإنه ينافي ذلك.

وقد يقال: فلان كثير الرماد، أي: مضاف جواد، مع أنه لا يطبخ الطعام لصيوفه الكثيرين بنار الحطب الذي يخلف رماداً، إنما يطبخ لهم بالأفران الكهربائية أو الغازية. وبهذا يظهر الفرق بين الكناية والمجاز، فالمجاز لا يصح معه إرادة المعنى الحقيقي للفظ، بل يتعين فيه إرادة المعنى المجازي فقط، مثل: خطب الأسد المغوار خطبة عظيمة في الجيش ألهم بها المشاعر، واستثار الحماسة. فلفظ "الأسد" هنا مجاز عن الرجل الشجاع، ولا يصح أن يراد به معناه الحقيقي، وهو الحيوان المفترس المعروف.

وتنقسم الكناية بحسب المعنى الذي تشير إليه إلى ثلاثة أقسام:

١- كناية عن صفة: كما تقول: (فلان نظيف اليد) تكتني عن العفة والأمانة، وتعرف كناية الصفة بذكر الموصوف: ملفوظاً أو ملحوظاً من سياق الكلام.

٢- كناية عن موصوف: كما تقول (الناطقين بالضاد) تكتني عن العرب، و (دار السلام) تكتني عن بغداد، و (طيبة) كناية عن المدينة المنورة، وتعرف بذكر الصفة مباشرة، أو

ملازمة، ومنها قولهم: (هو حارسٌ على ماله) كنوا به عن البخيل الذي يجمع ماله، ولا ينتفع به.

٣- كناية عن نسبة: الكناية التي يراد بها نسبة أمرٍ لآخر، إثباتاً أو نفيًا فيكون المكنى عنه نسبةً، أسندت إلى ماله اتصالاً به - نحو قولنا عن شخص: (العز في بيته) فإن العز ينسب للشخص وليس للبيت.

*** الطباق:** هو الجمع في العبارة الواحدة بين معنيين متقابلين، على سبيل الحقيقة، أو على سبيل المجاز، ولو إيهاماً، ولا يشترط كون اللفظين الدالّين عليهما من نوع واحد كاسمين أو فعلين، فالشرط التقابل في المعنيين فقط. والتقابل بين المعاني له وجوه، منها ما يلي:

١- تقابل التناقض: كالوجود والعدم، والإيجاب والسلب.

٢- تقابل التضاد: كالأسود والأبيض، والقيام والقعود.

٣- تقابل التضائيف: كالأب والابن، والأكبر والأصغر، والخالق والمخلوق.

ينقسم الطباق إلى قسمين طباق إيجاب وطباق سلب:

طباق الإيجاب: هو ما لم يختلف فيه الضدان إيجاباً وسلباً، مثل الطباق بين (حلو) و (مر)، و (يقظ) و (نائم).

طباق السلب: هو ما اختلف فيه الضدان إيجاباً وسلباً، بحيث:

أ- يجمع بين فعلين من مصدر واحد، أحدهما مثبت مرةً، والآخر منفي تارةً أخرى، في كلام واحد، مثل الطباق بين (يعلم) و (لا يعلم) في قولنا: «بعض الناس يعلم الكثير عن أمر دينه، ولا يعلم عن أمر دينه إلا القليل».

ب- أو أحدهما أمرٌ، والآخر نهْيٌ، نحو: «صاحب المصلح، ولا تصاحب المفسد».

*** المقابلة:** هي طباق متعَدّد عناصر الفريقين المتقابلين، وفيها يؤتى بمعنيين فأكثر، ثم يؤتى بما يُقابل ذلك على سبيل الترتيب. قال الشاعر:

فَلَا الْجُودُ يُفْنِي الْمَالَ وَالْجَدُّ مُقْبَلٌ وَلَا الْبُخْلُ يُبْقِي الْمَالَ وَالْجَدُّ مُدْبِرٌ
الْجَدُّ: الحظُّ والنصيبُ من الخير. في هذا البيت مقابلة بين فريقين من المعاني يوجد بين عناصرهما طباق، وهي ثلاث:

الفريق الأول: الجود - يُفني - مُقبل.

الفريق الثاني: البخل - يُبقي - مُدبر.

*** التورية:** هي أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان؛ أحدهما قريبٌ غير مقصودٍ ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيدٌ مقصودٌ، ودلالة اللفظ عليه خفية، فيتوهم السامع: أنه يريد المعنى القريب، وهو إنما يريد المعنى البعيد بقرينة تشير إليه ولا تظهره، وتسره عن غير

المتيقظ الفطن.

وهي تنقسم إلى قسمين:

١- مجردة: وهي التي لم تقترن بما يلائم المعنى القريب، ولا بما يلائم المعنى البعيد: كقول إبراهيم الخليل عليه السلام لما سأله الجبار عن زوجته: فقال «هذه أختي» (رواه مسلم). أراد أخوة الدين.

وكقول سراج الدين الوراق:

أَصُونُ أَدِيمَ وَجْهِي عَنْ أَنْاسٍ لِقَاءِ الْمَوْتِ عِنْدَهُمُ الْأَدِيبُ
وَرَبُّ الشَّعْرِ عِنْدَهُمُ بَغِيضٌ وَلَوْ وَافَى بِهِ لَهُمُ حَبِيبُ

كلمة «حبيب» لا يريد بها المعنى القريب وهو المحبوب، بل يريد بها المعنى البعيد، وهو اسم أبي تمام الشاعر: «حبيب بن أوس».

٢- مرشحة: وهي التي اقترنت بما يلائم المعنى القريب، وسميت بذلك لتقويتها به، لأن القريب غير مراد، فكأنه ضعيف، فإذا ذكر لازمه تقوى به، نحو:

أَقُولُ وَقَدْ شَنُونا إِلَى الْحَرْبِ غَارَةً دَعُونِي فَإِنِّي أَكُلُ الْعَيْشَ بِالْجُبْنِ

الشاهد فيه: العيش والجبن، فالعيش يعني الخبز ويعني الحياة، والجبن يعني المصنوع من اللبن، ويعني الخور عكس الشجاعة.

*** التجريد:** أن يتنزع المتكلم من أمر ذي صفة أمراً آخر مثله في تلك الصفة مبالغة في كمالها في المنتزع منه، حتى أنه قد صار منها بحيث، يمكن أن يتنزع منه موصوف آخر بها، كقولك: لي «من» فلان صديق حميم، أي بلغ فلان من الصداقة حداً صحَّ معه أن يستخلص منه آخر مثله فيها. وقولك: لئن سألت فلاناً لتسألن به البحر، بالغ في اتصافه بالسماحة، حتى انتزع منه بحراً فيها. ونحو: (شربت بمائها عسلاً مصفى...). فكأن حلاوة ماء تلك العين الموصوفة وصلت إلى حدٍّ يمكن انتزاع العسل منها حين الشرب.

*** المشاكلة:** هي أن يذكر الشيء بلفظ غيره، لوقوعه في صحبته، كقول «عمرو بن كلثوم»: أَلَا لَا يَجْهَلُنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ

سمي تأديب الجاهل على جهله جهلاً من باب المشاكلة، مع أن التأديب والعقاب ليسا من الجهل. والمراد من الجهل هنا السفه والغضب المنافي للحلم وما ينتج عنه من أعمال غير حميدة. ومن ذلك ما حكى عن أحد الشعراء أن أصحاباً له أرسلوا يدعونه إلى الصبح في يوم بارد، ويقولون له: ماذا تريد أن نصنع لك طعاماً؟ وكان فقيراً، ليس له كسوة تقيه البرد، فكتب إليهم يقول:

وَعَصَابَةٌ عَزَمُوا الصَّبُوحَ بِسَحْرَةٍ بَعَثُوا إِلَيَّ مَعَ الصَّبَاحِ خُصُوصًا
قَالُوا: اقْتَرَحْ شَيْئاً نُجِدْ لَكَ طَبْخَهُ قُلْتُ: اطْبُخُوا لِي جُبَّةً وَقَمِيصًا

فطلب طَبْخَ جُبَّةٍ وقميص على سبيل المشاكلة لطلبهم أن يطبخوا له شيئاً يأكله، أي:

خيطوا لي جبةً وقميصاً، فأبدل الخياطة بلفظ الطبخ لوقوعها في سياق طبخ الطعام. ودلّ بهذا على أنّه بحاجة إلى ما يلبّسه.

*** اللَّفُّ والنَّشْرُ: الطِّيُّ والنَّشْرُ:** هو أن يذكر متعدّد، ثم يذكر ما لكلّ من أفرادهِ شائعاً من غير تعيين، اعتماداً على تصرف السامع في تمييز ما لكلّ واحد منها، وردّه إلى ما هو له، كقول ابن الرومي:

أَرَأَيْتُمْ وَوُجُوهَكُمْ وَسُيُوفَكُمْ فِي الْحَادِثَاتِ إِذَا دَجَوْنَ نُجُومَ
فِيهَا مَعَالِمٌ لِلْهُدَى وَمَصَابِيحُ تَجَلُّو الدُّجَى وَالْأَخْرِيَّاتِ رُجُومَ
فالآراء معالم للهدى، والوجوه مصابيح للدُّجَى، والسيوف رجوم.

*** الجمع:** هو أن يجمع المتكلّم بين متعدّد، تحت حكم واحد كقول الشاعر:

إِنَّ الشَّبَابَ وَالْفَرَاعَ وَالْجِدَّةَ مَفْسَدَةٌ لِلْعَقْلِ أَيُّ مَفْسَدَةٍ
*** التفريق:** أن يفرّق بين أمرين من نوع واحد في اختلاف حكمهما، كقول الشاعر:

مَنْ قَاسَ جَدَّوَاكَ يَوْمًا بِالسُّخْبِ أَخْطَأَ مَدْحَكَ
السُّخْبُ تُعْطِي وَتَبْكِي وَأَنْتَ تُعْطِي وَتَضْحَكُ
مَنْ قَاسَ جَدَّوَاكَ بِالْغَمَامِ فَمَا أَنْصَفَ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ شَكْلَيْنِ، أَنْتَ إِذَا جُدْتَ ضَاكُ
أبداءً، وهو إذا جاد داعم العين .

*** التقسيم:** هو أن يذكر متعدّد، ثم يضاف إلى كلّ من أفرادهِ ما له على جهة التعيين، كقول الشاعر:

وَلَا يُقِيمُ عَلَى ضَيْمٍ يُرَادُّ بِهِ إِلَّا الْأَذْلَانَ عَيْرُ الْحَيِّ وَالْوَتْدُ
هَذَا عَلَى الْخَسْفِ مَرْبُوطٌ بِرُمَّتِهِ وَذَا يُشَجُّ فَلَا يَرْتِي لَهُ أَحَدٌ^(١)

*** الجناس:** هو تشابه لفظين في النطق، واختلافهما في المعنى، الجناس التام نحو: رحبةٌ رحبةٌ، فرجةٌ الأولى: فناء الدار، ورحبةٌ الثانية: بمعنى واسعة. ونحو قول الشاعر:

أَعَذَبُ خَلْقِ اللَّهِ نُطْقًا وَ(فَمَا) إِنْ لَمْ يَكُنْ أَحَقُّ بِالْحُسْنِ (فَمَنْ)

ونحو قول الشاعر:

إِنْ تُلِقَكَ الْغُرْبَةَ فِي مَعْشَرٍ قَدْ أَجْمَعُوا فِيكَ عَلَى بُغْضِهِمْ
فَدَارِهِمْ مَا دُمْتَ فِي دَارِهِمْ وَأَرْضِهِمْ مَا دُمْتَ فِي أَرْضِهِمْ
فدارهم الأولى فعل أمر من المدارة، ودارهم الثانية اسم للبيت، وأرضهم الأولى فعل أمر

(١) الْأَذْلَان: مثني الأذل، وهو المهين الحقير. الْعَيْر: حمار، حمار وحشي. والمراد هنا الحمار الأهلي، والجمع أعيار. والعير: قافلة الإبل أو الحمير أو البغال يُجلب عليها الطّعام وغيره. الْوَتْد: ما تُبَتُّ في الأرض أو الحائط من خشب ونحوه، لدعم سور أو تشييت خيمة أو ربط حيوان. والوتد ككتف: ما يسمر في الأرض من الخشب. الرُّمَّة: قطعة من الجبل. لَا يَرْتِي لَهُ أَحَدٌ: لا أحد يرقّ ويرأف بحاله ويتوجّع له.

من الإرضاء، وأرضهم الثانية هي الأرض اسم .
الجناس غير التام: نحو: الْخَيْلُ وَالْخَيْرُ، مفرّ ومقرّ، الهوى مطيئة الهوان . رحم الله امرأ،
أمسك ما بين فكّيه، وأطلق ما بين كفّيه.

*** السَّجْعُ:** هو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير من (النثر)، كقول أعرابي ذهب السَّيْلُ
بأبْنِه: «اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ قَدْ أَبْلَيْتَ، فَإِنَّكَ طَالَمَا قَدْ عَافَيْتَ». وكقولهم: «الْحَرُّ إِذَا وَعَدَ وَفَى، وَإِذَا
أَعَانَ كَفَى، وَإِذَا قَدَّرَ عَفَا». وكقولهم: «الْإِنْسَانُ بِآدَابِهِ لَا بِزِيَّهِ وَثِيَابِهِ».

*** السَّجْعُ الْمُرْصَعُ:** وهو ما اتفقت فيه ألفاظُ إحدى الفقرتين أو أكثرها في الوزن والتقفية،
نحو: «هو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه، ويقرّع الأسماع بزواجر وعظه»، ونحو: «إِنَّ بَعْدَ
الكَدْرِ صَفْوًا، وَبَعْدَ الْمَطَرِ صَحْوًا».

*** السَّجْعُ الْمَتَوَازِي:** وهو ما كان الاتفاق فيه في الكلمتين الأخيرتين فقط، نحو: «حَسِدَ
الناطق والصامت، وهلك الحاسد والشامت».

*** التَّرْصِيعُ:** هو توازن الألفاظ، مع توافق الأعجاز، أو تقاربها، مثل قول المتنبي: قَدْ جَرَنَ
فِي بَشَرٍ فِي تَاجِهِ قَمَرٌ فِي دِرْعِهِ أَسَدٌ تَدْمَى أَظْفَرُهُ

حرن تحيرن يعني الأبصار وأراد بالبشر الممدوح، وبالقمر وجهه، وجعله أسداً في الدرع
لشجاعته، والأظافر جمع أظفار، وقوله تدمى أن تتلطح بالدم بافتراسه أعداءه .
ومنه قول الشاعر:

هَوَانُ الْحَيَاةِ، وَذُلُّ الْمَمَاتِ وَكُلًّا أَرَاهُ طَعَامًا وَبَيْلًا
فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنْ ذَلِكَ فَسِيرُوا إِلَى الْمَوْتِ سِيرًا جَمِيلًا
*** رَدُّ الْعَجْزِ عَلَى الصَّدْرِ:** أَنْ يَجْعَلَ الْمُتَكَلِّمُ أَحَدَ اللَّفْظَيْنِ الْمَكْرَرَيْنِ أَوْ الْمُتَجَانِسَيْنِ، أَوْ مَا
هو مُلْحَقٌ بِالْمُتَجَانِسَيْنِ فِي أَوَّلِ الْفَقْرَةِ، وَالْآخِرِ فِي آخِرِهَا مِثْلَ مَا يَلِي:

١ - قول الله عز وجل خطاباً لرسوله ﷺ بشأن تزوجه من زينب مطلقاً متبناه زيد بن
حارثة **﴿وَتَخَشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ...﴾**

هذا مثال اللفظين والمكررين.

٢ - قول الله - عز وجل - في حكاية ما قال نوح - عليه السلام - لقومه:
﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾.

هذا مثال اللفظين المتلاقيين في الاشتقاق.

٣ - قول الله - عز وجل - حكاية لما قال لوط - عليه السلام - لقومه:
﴿قَالَ إِنِّي لَعَمَلِكُمْ مِنَ الْفَالِينَ﴾.

هذا مثال اللفظين المتلاقيين فيما يشبه الاشتقاق.



أهم مراجع التحقيق^(١)

أبو حيان الأندلسي ومنهجه في تفسيره البحر المحيط وفي إيراد القراءات فيه، للدكتور أحمد خالد شكري.

أبو حيان وتفسيره البحر المحيط، للدكتور بدر بن ناصر البدر .
أسباب النزول، لعلي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان.

أسباب النزول، لعلي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي، تحقيق: كمال بسيوني زغلول.

أصول في التفسير، للشيخ محمد العثيمين.
الإبحار في جمع الأسفار، موسوعة تحتوي على تعريف بأكثر من ١٠٠٠ كتاب تهم طالب العلم، للشيخ جمار بن عبد الرحمن الجمار.

الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي.
الاستيعاب في بيان الأسباب «أول موسوعة علمية حديثة محققة في أسباب نزول أي القرآن الكريم»، لسليم بن عيد الهاللي، ومحمد بن موسى آل نصر.

البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي .
البلاغة العربية، لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَكَة الميداني.

التفسير والمفسرون، للدكتور محمد السيد حسين الذهبي.
الخلاصة في علوم البلاغة، لعلي بن نايف الشحود.

الصحيح المسند من أسباب النزول، لِمُقْبَلُ بْنُ هَادِي بْنِ مُقْبَلٍ بْنِ قَائِدَةَ الْهَمْدَانِي الْوَادِعِيِّ.
العجاب في بيان الأسباب، للحافظ ابن حجر العسقلاني.

القاموس المحيط، لمجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي.
المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات، للدكتور محمد بن عبد الرحمن

المغراوي.

أنوار الهالين في التعقبات على الجلالين، للدكتور محمد بن عبد الرحمن الخميس .
ترجمة الدكتور محمد علي الصابوني من موقع «المكتبة الشاملة».

(١) بالإضافة إلى كثير من كتب التفسير، وكتب السنة وشروحا، وكتب التخریج لا سيما كتب العلامة الألباني وغيره، وكتب العقيدة والفتاوى.

تفسير الخازن والإسرائيليات، للدكتور عيادة الكبسي .
 حياة الرازي ومنهج تفسيره، حسين بركة الشامي .
 رأي شيخ الإسلام ابن تيمية في التفاسير المطبوعة، جمع وتعليق: بشير جواد القيسي .
 صفحة الشيخ محمد علي الصابوني على الفيس بوك .
<https://www.facebook.com/m.a.alsabouni>
 لسان العرب، لابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي .
 مباحث في علوم القرآن، لمانع القطان .
 مجموع فتاوى ورسائل محمد بن صالح العثيمين .
 مذكرة أصول الفقه، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي .
 معجم اللغة العربية المعاصرة، للدكتور أحمد مختار عبد الحميد عمر، بمساعدة فريق عمل .
 مناهج المفسرين، للدكتور منيع بن عبد الحليم محمود .
 منهج الألوسي من خلال تفسيره «وح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني»،
 للدكتور عبد المجيد معلومي .
 موقع الإسلام، سؤال وجواب، بإشراف الشيخ محمد صالح المنجد .
 موقع الشبكة الإسلامية، بإشراف الدكتور عبد الله الفقيه .
 ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، محمد علي الصابوني .



صِفْوَةُ النَّفَائِسِ

حقوق الطبعة محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

رقم الإيداع

٨٣٣٧ / ٢٠١٣

الترقيم الدولي

7 - 22 - 6354 - 977 - 978

ISBN 978-977-6354-22-7



9 789776 354227 >

دار العالمين للنشر والتجليد

جاكرتا - أندونيسيا

هاتف: 087889324793 - 081310218626

087880176606 - 085218824802

email: darul_aalamiyyah@yahoo.com

abdallaelnady@gmail.com

صِفْوَةُ النِّفَاسِ

تفسير للقرآن الكريم ، جامع بين المأثور والمعقول
مستمدة من أوثق الكتب التفسيرية
بأسلوب مبسّر، وتنظيم حديث، مع العناية بالوضوح البَيَانِيَّة واللُّغَوِيَّة

نسخة محققة ومخرجة الأحاديث

تأليف

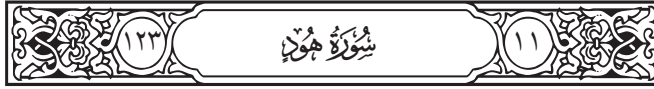
محمد علي الصابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مكة المكرمة - جامعة الملك عبدالعزيز

المجلد الثاني







مكية وآياتها ثلاث وعشرون ومائة

بين يدي السورة

* سورة هود مكية وهي تُعني بأصول العقيدة الإسلامية «التوحيد، الرسالة، البعث والجزاء»^(١) وقد عرضت لقصص الأنبياء بالتفصيل تسلياً للنبي عليه الصلاة والسلام على ما يلقاه من أذى المشركين لاسيما بعد تلك الفترة العصيبة التي مرت عليه بعد وفاة عمه «أبي طالب» وزوجه «خديجة» فكانت الآيات تنزل عليه وهي تقص عليه ما حدث لإخوانه الرسل من أنواع الابتلاء، ليتأسى بهم في الصبر والثبات...

* ابتدأت السورة الكريمة بتمجيد القرآن العظيم، الذي أحكمت آياته، فلا يتطرق إليه خلل ولا تناقض، لأنه تنزيل الحكيم العليم، الذي لا تخفى عليه خافية من مصالح العباد.. ثم عرضت لعناصر الدعوة الإسلامية، عن طريق الحجج العقلية، مع الموازنة بين الفريقين: فريق الهدى، وفريق الضلال، وضربت مثلاً للفريقين وضحت به الفارق الهائل بين المؤمنين والكافرين، وفرفت بينهما كما تفرق الشمس بين الظلمات والنور ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِينَ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟

* ثم تحدثت عن الرسل الكرام مبتدئة بقصة «نوح» عليه السلام أبي البشر الثاني، لأنه لم ينح من الطوفان إلا نوح والمؤمنون الذين ركبوا معه في السفينة، وغرق كل من على وجه الأرض، وهو أطول الأنبياء عمراً، وأكثرهم بلاءً وصبراً.

* ثم ذكرت قصة «هود» عليه السلام الذي سميت السورة الكريمة باسمه، تخليداً لجهوده الكريمة في الدعوة إلى الله، فقد أرسله الله تعالى إلى قوم «عاد» العتاة المتجبرين، الذين اغتروا بقوة أجسامهم وقالوا: من أشد منا قوة؟ فأهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية، وقد أسهبت الآيات في الحديث عنهم بقصد العظة والعبرة للمتكبرين المتجبرين ﴿وَلَا تَكُ عَادًا جَحْدُوا بِأَيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا إِنَّا عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾.

* ثم تلتها قصة نبي الله «صالح» ثم قصة «لوط» ثم قصة «شعيب» ثم قصة «موسى وهارون» صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ثم جاء التعقيب المباشر بما في هذه

(١) (ش): أصول العقيدة ستة: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره كما في حديث جبريل عليه السلام حين قال للنبي ﷺ: فَأَخْبَرَنِي عَنِ الْإِيمَانِ. فَقَالَ ﷺ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». [رَوَاهُ مُسْلِمٌ].

القصص من العبر والعظات في إهلاك الله تعالى للظالمين ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

* وختمت السورة الكريمة ببيان الحكمة من ذكر قصص المرسلين، وذلك للاعتبار بما حدث للمكذبين في العصور السالفة، ولتثبيت قلب النبي عليه الصلاة والسلام أمام تلك الشدائد والأحوال ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وهكذا تختتم السورة بالتوحيد كما بدأت به ليتناسق البدء مع الختام!

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّكِيبُ أَهْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرٌّ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَإِنْ أَسْتَعْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَهُمْ مَنَعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَّا إِتَمَّ يَتُونَ صُدُورُهُمْ لِيَسْتَخَفُوا مِنْهُ أَلَا جِنَّةٌ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَنَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّا نَكْفُرُ بِمَعْبُودَاتِكُمْ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولَنَّ مَا يَجْهَشُونَ أَلَا يَوْمٌ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِيَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَدْنَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَبَتَلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ

أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانْ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ * مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

اللغة: ﴿أُحْكِمْتُ﴾ الإحكام: المنع من الفساد يقال: أحكم الأمر إذا أتى به على وجه لا يتطراً إليه خلل أو فساد ﴿مُسْنَقَرَهَا﴾ المكان الذي تأوي إليه في الدنيا ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ المكان الذي تصير إليه بعد الموت ﴿أُمَّةٌ مَعْدُودَةٌ﴾ الأمة هنا بمعنى المدة من الزمن أي مدة محدودة من السنين قال «القرطبي»: والأمة اسم مشترك يطلق على ثمانية أوجه: الجماعة، الملة، الرجل الجامع للخير، الحين والزمن، أتباع الأنبياء^(١) إلخ ﴿مَرِيئَةٍ﴾ شك وارتياب ﴿وَضَلَّ﴾ ضاع وتلاشى ﴿لَا جَرَمَ﴾ كلمة واحدة بمعنى حقاً وهو قول الخليل وسيبويه ﴿وَأَخْبَتُوا﴾ خضعوا وخضعوا والإخبات: الذل والخضوع ﴿وَالْأَصْمَى﴾ الذي لا يسمع وبه صمم.

سَبَبُ النُّزُول: ذكر «القرطبي» عن ابن عباس أن «الأخنس بن شريق» كان رجلاً حلو الكلام وحلو المنطق، يلقي رسول الله ﷺ بما يحب، وينطوي له بقلبه على ما يسوء فأنزل الله ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَمْتَنُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ..﴾ الآية^(٢).

التفسير: ﴿الر﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن، وأنه مركب من أمثال هذه الحروف الهجائية، وعن ابن عباس أن معناه: أنا الله أرى ﴿كَتَبْتُ أُحْكِمْتُ ءَايَتُهُ﴾ أي هو كتابٌ جليل القدر، نظمت آياته نظماً محكماً، لا يلحقه تناقض ولا خلل ﴿ثُمَّ فَضَّلْتُ﴾ أي بُيِّنْتُ فيه أمور الحلال والحرام، وما يحتاج إليه العباد في أمور المعاش والمعاد ﴿مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أي من عند الله فضَّلها وبيَّنَّها الخبير العالم بكيفيات الأمور، ولذا كانت محكمة أحسن الأحكام ومفصلة أحسن التفصيل ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي لئلا تعبدوا إلا الله ﴿إِنِّي

(١) كقوله تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ﴾ أي جماعة، وقوله: ﴿وَأَذْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي حين من الزمن، وقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ أي ملة ودين... إلخ.

(٢) «تفسير القرطبي» ٥/٩. (ش): ضعيف. رواه الواحدي في «أسباب النزول»، عن ابن عباس رضي الله عنهما: قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ يُجَامِعُ امْرَأَتَهُ فَيَسْتَحْيِ أَوْ يَتَخَلَّى فَيَسْتَحْيِ فَتَزَلُّ «أَلَا إِنَّهُمْ يَمْتَنُونُ صُدُورَهُمْ». [رواه البخاري].

لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿١﴾ أَيِ إِنِّي مَرْسَلٌ إِلَيْكُمْ مِنْ جِهَتِهِ تَعَالَى، أَنْذَرَكُمْ بِعَذَابِهِ إِنْ كَفَرْتُمْ، وَأَبَشَرَكُمْ بِثَوَابِهِ إِنْ آمَنْتُمْ ﴿٢﴾ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴿٣﴾ أَيِ اسْتَغْفِرُوهُ مِنَ الذُّنُوبِ وَأَخْلَصُوا التَّوْبَةَ وَاسْتَقِيمُوا عَلَيْهَا بِالطَّاعَةِ وَالْإِنَابَةِ ﴿٤﴾ يُمْنِعْكُمْ مِّنَّا حَسَنًا ﴿٥﴾ أَيِ يَمْتَنِعْكُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بِالْمَنَافِعِ الْجَلِيلَةِ مِنْ سَعَةِ الرِّزْقِ، وَرَعْدِ الْعَيْشِ ﴿٦﴾ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٧﴾ أَيِ إِلَى وَقْتٍ مُّحَدَّدٍ هُوَ انْتِهَاءُ أَعْمَارِكُمْ ﴿٨﴾ وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴿٩﴾ أَيِ وَيُعْطِي كُلَّ مُحْسِنٍ فِي عَمَلِهِ جَزَاءَ إِحْسَانِهِ ﴿١٠﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴿١١﴾ أَيِ وَإِنْ تَوَلَّوْا عَنِ الْإِيمَانِ وَتَعَرَّضُوا عَنْ طَاعَةِ الرَّحْمَنِ ﴿١٢﴾ فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿١٣﴾ أَيِ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَوَصَفَ الْعَذَابَ بِأَنَّهُ كَبِيرٌ لِّمَا فِيهِ مِنَ الْأَهْوَالِ الشَّدِيدَةِ ﴿١٤﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ﴿١٥﴾ أَيِ إِلَيْهِ جَلَّ وَعَلَا رَجُوعُكُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ ﴿١٦﴾ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ أَيِ قَادِرٌ عَلَى إِمَاتَتِكُمْ ثُمَّ إِحْيَائِكُمْ وَعَلَى مَعَاقِبَةٍ مِنْ كَذَبٍ لَا يَعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَفِي الْآيَةِ تَهْدِيدٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾ أَلَا إِنَّهُمْ يُلْتَوْنُ صُدُورُهُمْ لِيَسْتَخَفُّوا مِنْهُ ﴿١٩﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ فِي الْأَخْنَسِ بْنِ شَرِيْقٍ كَانَ يَجَالِسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَيَحْلِفُ إِنَّهُ لِيُحِبُّهُ وَيُضْمِرُ خِلَافَ مَا يَظْهَرُ ^(١) وَقَالَ «الْقُرْطُبِيُّ»: أَخْبَرَ عَنْ مَعَادَةِ الْمَشْرِكِينَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَيُظَنُّونَ أَنَّهُ تَخْفَى عَلَى اللَّهِ أَحْوَالُهُمْ ^(٢) وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ يَطْوُونَ صُدُورَهُمْ عَلَى عِدَاوَةِ النَّبِيِّ وَالْمُؤْمِنِينَ، يَرِيدُونَ بِذَلِكَ أَنْ يَسْتَخَفُّوا مِنَ اللَّهِ حَتَّى لَا يَفْتَضَحَ أَمْرُهُمْ ﴿٢٠﴾ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴿٢١﴾ أَيِ حِينَ يَتَغَطُّونَ بِثِيَابِهِمْ ﴿٢٢﴾ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوتُ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٢٣﴾ أَيِ يَعْلَمُ تَعَالَى مَا يُبْطِنُونَ وَمَا يُظْهَرُونَ وَكَأَنَّ الْآيَةَ تَقُولُ: لَا تَظُنُّوا أَنَّ تَغْطِيَتَكُمْ تَحْجُبُكُمْ عَنِ اللَّهِ بَلِ اللَّهُ يَعْلَمُ سِرَّاتِكُمْ وَظَوَاهِرَكُمْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مِنْ أَحْوَالِكُمْ ﴿٢٤﴾ إِنَّهُ عَلَيْهِمْ يَذَاتُ الصُّدُورِ ﴿٢٥﴾ أَيِ عَالِمٌ بِمَا فِي الْقُلُوبِ ﴿٢٦﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴿٢٧﴾ أَيِ مَا مِنْ شَيْءٍ يَدْبُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْ إِنْسَانٍ أَوْ حَيْوَانٍ إِلَّا تَكْفُلُ اللَّهُ بِرِزْقِهِ تَفَضُّلاً مِنْهُ تَعَالَى وَكَرَمًا، فَكَمَا كَانَ هُوَ الْخَالِقُ كَانَ هُوَ الرَّازِقُ ﴿٢٨﴾ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴿٢٩﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مُسْتَقَرَّهَا حَيْثُ تَأْوِي إِلَيْهِ مِنَ الْأَرْضِ، وَمُسْتَوْدَعُهَا الْمَوْضِعُ الَّذِي تَمُوتُ فِيهِ فَتُدْفَنُ ^(٣) ﴿٣٠﴾ كُلُّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣١﴾ أَيِ كُلُّ مَنْ الْأَرْزَاقِ، وَالْأَقْدَارِ، وَالْأَعْمَارِ، مُسَطَّرٌ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴿٣٣﴾ أَيِ خَلَقَهَا فِي مَقْدَارِ سِتَّةِ أَيَّامٍ مِنَ أَيَّامِ الدُّنْيَا، وَفِيهِ الْحَثُّ لِلْعِبَادِ عَلَى التَّأْنِي فِي الْأُمُورِ فَإِنَّ إِلَهَ الْقَادِرِ عَلَى خَلْقِ الْكَائِنَاتِ بِلَمَحِّ الْبَصَرِ خَلَقَهَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴿٣٤﴾ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴿٣٥﴾ أَيِ وَكَانَ الْعَرْشُ قَبْلَ خَلْقِهَا عَلَى الْمَاءِ قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: أَيِ مَا كَانَ تَحْتَهُ خَلْقُ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْعَرْشَ وَالْمَاءَ كَانَا مَخْلُوقَيْنِ قَبْلَ السَّمَاوَاتِ

(١) «البحر المحيط» ٥ / ٢٠٢.

(٢) «تفسير القرطبي» ٩ / ٥.

(٣) «البحر المحيط» ٥ / ٢٠٤. (ش): تقدَّم أنه ضعيف، رواه الواحدي في «أسباب النزول».

والأرض^(١) ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي خلقهن لحكمة بالغة ليختبركم فيظهر المحسن من المسيء، ويجازيكم حسب أعمالكم ﴿وَلَيْتَ قُلْتِ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ﴾ أي ولئن قلت يا محمد لأولئك المنكرين من كفار مكة: إنكم ستبعثون بعد موتكم للحساب ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي ليقولن الكفار المنكرون للبعث والنشور: ما هذا القرآن إلا سحر واضح مكشوف ﴿وَلَيْتَ أَخْرَجْنَاهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ أي إلى مدة من الزمن قليلة ﴿لَيَقُولَنَّ مَا يَجِئُهُ﴾ أي ليقولن استهزاء: ما يمنعه من النزول؟ ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ أي ألا فليستبهوا فإنه يوم يأتيهم العذاب ليس مدفوعاً عنهم ﴿وَحَافٍ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي نزل وأحاط بهم جزاء ما كانوا به يستهزئون ﴿وَلَيْتَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ أي أنعمنا على الإنسان بأنواع النعم من الصحة، والأمن، والرزق وغيرها من النعم ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ أي ثم سلبنا تلك النعم منه ﴿إِنَّهُ لَيَكْفُرُ﴾ أي قنوط من رحمة الله، شديد الكفر به ﴿وَلَيْتَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَةٍ﴾ أي ولئن منحنا الإنسان نعمة من بعد ما نزل به من الضر، وما أصابه من البلاء، كال فقر والمرض والشدة ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أي انقطع الفقر والضييق والمصائب ولن تصيبني بعد اليوم ﴿إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ﴾ أي بطر بالنعمة مغتر بها، متعازم على الناس بما أوتي، والآية ذم لمن يقنط عند الشدائد، ويبتر عند النعم ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي هذه عادة الإنسان إلا المؤمنين الذين يصبرون على الضراء، ويفعلون الخير في النعماء، فهم في حالي المحنة والنعمة محسنون ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي أولئك الموصوفون بالصفات الحميدة لهم مغفرة لذنوبهم، وأجر كبير في الآخرة هو الجنة قال في البحر: ووصف الثواب بأنه كبير وذلك لما احتوى عليه من النعيم السرمدي، والأمن من العذاب، ورضا الله عنهم، والنظر إلى وجهه الكريم^(٢) ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ﴾ كان المشركون يقترحون على رسول الله ﷺ أن يأتي بكنز أو يأتي معه ملك، وكانوا يستهزئون بالقرآن فقال الله تعالى له: فللك يا محمد تارك بعض ما أنزل إليك من ربك فلا تبلغهم إياه لاستهزائهم ﴿وَصَاحِقٌ بِهٖ صَدْرُكَ﴾ أي ويضيق صدرك من تبليغهم ما نزل عليك من ربك خشية التكذيب، والغرض تحريضه ﷺ على تبليغ الرسالة وعدم المبالاة بمن عاداه ﴿أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ﴾ أي لأجل أن يقولوا: هلا أنزل عليه مال كثير ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ أي جاء معه ملك يصدقه كما اقترحنا، قال تعالى محذراً مهمته عليه السلام ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ أي لست يا محمد إلا منذراً

(١) «الكشاف» ٢/ ٣٨٠.

(٢) «البحر المحيط» ٥/ ٢٠٦.

تَخَوَّفَ الْمُجْرِمِينَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ﴿١﴾ أَي قَائِمٌ عَلَى شُئُونِ الْعِبَادِ يَحْفَظُ عَلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ ﴿٢﴾ أَي بَلْ يَقُولُونَ: اخْتَلَقَ مُحَمَّدٌ هَذَا الْقُرْآنَ وَافْتَرَاهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ؟ ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾ ﴿٣﴾ أَي إِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ فِي الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ مَفْتَرِيَاتٍ فَأَنْتُمْ عَرَبٌ فَصَحَاءُ ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ﴿٤﴾ أَي اسْتَعِينُوا بِمَنْ شِئْتُمْ غَيْرَ اللَّهِ سِحْاحَهُ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٥﴾ فِي أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَفْتَرِيٌّ ﴿فَلَا تَسْتَجِيبُوا لَهُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ ﴿٦﴾ أَي فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لَكُمْ مِنْ دَعْوَتِهِمْ لِلْمَعَاوَةِ وَعَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ فَاعْلَمُوا أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ أَنَّمَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ بِوَحْيٍ مِنَ اللَّهِ ﴿وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ﴿٧﴾ أَي لَا رَبَّ وَلَا مَعْبُودَ إِلَّا اللَّهُ ^(١) الَّذِي أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ الْمَعْجَزَ ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿٨﴾ لَفْظُهُ اسْتِفْهَامٌ وَمَعْنَاهُ أَمْرٌ أَي فَاسْأَلُوا بَعْدَ ظَهْوَرِ هَذِهِ الْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ إِذْ لَمْ يَبْقَ لَكُمْ عَذْرٌ مَانِعٌ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ فِي «التسهيل»: الاسْتِفْهَامُ مَعْنَاهُ اسْتِدْعَاءٌ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَالزَّامُ لِلْكَفَّارِ أَنْ يَسْأَلُوا لِمَا قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ الْإِسْلَامِ لِعَجْزِهِمْ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِ الْقُرْآنِ ^(٢) ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ ﴿٩﴾ أَي مَنْ كَانَ يَقْصِدُ بِأَعْمَالِهِ الصَّاحِلَةَ نَعِيمَ الدُّنْيَا فَقَطْ لِأَنَّهُ لَا يَعْتَقِدُ بِالْآخِرَةِ ﴿نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا﴾ ﴿١٠﴾ أَي نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَجُورَ أَعْمَالِهِمْ بِمَا يَحْبُونَ فِيهَا مِنَ الصَّحَةِ وَالْأَمْنِ وَالرِّزْقِ ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَبْخُسُونَ﴾ ﴿١١﴾ أَي وَهُمْ فِي الدُّنْيَا لَا يُقْصُونَ شَيْئًا مِنْ أَجُورِهِمْ قَالَ قَتَادَةُ: مَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ وَنِيَّتُهُ جَازَاهُ اللَّهُ بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ يُفْضِي إِلَى الْآخِرَةِ وَلَيْسَ لَهُ حَسَنَةٌ يُعْطَى بِهَا، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيُجَازَى بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا وَيُنَازِلُ فِيهَا فِي الْآخِرَةِ ^(٣) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ ﴿١٢﴾ أَي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ هَدَفَهُمُ الدُّنْيَا لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا نَارُ جَهَنَّمَ وَعَذَابُهَا الْمَخْلَدُ ﴿وَحَكِيطٌ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ ﴿١٣﴾ أَي بَطْلٌ مَا صَنَعُوهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ لِأَنَّهُمْ قَدْ اسْتَوْفَوْا فِي الدُّنْيَا جَزَاءَهَا ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٤﴾ تَأْكِيدٌ لِمَا سَبَقَ، أَي: بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْخَيْرَاتِ ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَنْبَغٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ ﴿١٥﴾ أَي أَفَمَنْ كَانَ عَلَى نُورٍ وَاضِحٍ، وَبِرْهَانٍ سَاطِعٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ النَّبِيُّ ﷺ وَالْمُؤْمِنُونَ، وَجَوَابُهُ مَحْذُوفٌ أَي كَمَنْ كَانَ يَرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا؟ يَرِيدُ أَنْ يَبْتَغِيَ تَفَاوُتًا كَبِيرًا، وَتَبَايُنًا بَعِيدًا، فَلَا يَسْتَوِي مَنْ أَرَادَ اللَّهَ، وَمَنْ أَرَادَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ ﴿١٦﴾ أَي وَيَتَّبِعُهُ شَاهِدٌ مِنَ اللَّهِ بِصَدَقَةِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ كُنْتُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ ﴿١٧﴾ أَي وَمَنْ قَبْلَ الْقُرْآنِ كِتَابُ التَّوْرَةِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى مُوسَى قُدُورَةً فِي الْخَيْرِ وَرَحْمَةً لِّمَنْ نَزَلَ عَلَيْهِمْ ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ ﴿١٨﴾ أَي

(١) (ش): الصواب أن يقال: ولا معبود بحق إلا الله، لأن هناك معبودات كثيرة بغير حق.

(٢) «التسهيل» ١٠٢/٢.

(٣) «المختصر» ٢١٤/٢.

أولئك الموصوفون بأنهم على نور من ربهم يصدقون بالقرآن حق التصديق ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾
 مِنَ الْأَحْزَابِ فَأَلْتَارُ مَوْعِدُهُ ﴿أَيُّ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْقُرْآنِ مِنْ أَهْلِ الْمَلَلِ وَالْأَدْيَانِ، فَلَهُ نَارُ جَهَنَّمَ
 يَرُدُّهَا لَا مُحَالَةَ^(١)﴾ فَلَا تَكُ فِي مَرِيَّةٍ مِنْهُ ﴿أَيُّ فَلَا تَكُنْ فِي شَكٍّ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ﴾ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ
 رَبِّكَ ﴿أَيُّ إِنَّهُ الْحَقُّ الثَّابِتُ الْمُنَزَّلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿أَيُّ
 لَا يَصَدِّقُونَ أَنَّهُ تَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿أَيُّ لَا أَحَدٌ
 أَطْغَى وَلَا أَظْلَمُ مِمَّنْ اخْتَلَقَ الْكَذِبَ عَلَى اللَّهِ بِنَسْبَةِ الشَّرِيكِ وَالْوَلَدِ إِلَيْهِ﴾ أُولَئِكَ
 يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ ﴿أَيُّ يُعْرَضُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي جُمْلَةِ الْخَلْقِ عَلَى خَالِقِهِمْ وَمَالِكِهِمْ
 ﴾ وَيَقُولُ الْأَشْهَدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ ﴿أَيُّ وَيَقُولُ الْخَلَائِقُ وَالْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ
 يَشْهَدُونَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ، وَالْغَرْضُ فَضِيحَتِهِمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ
 عَلَى رَعُوسِ الْأَشْهَادِ وَالتَّشْهِيرِ بِهِمْ خَزِيًا وَنِكَالًا﴾ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿لَظْلَمَهُمْ
 وَافْتَرَاهُمْ عَلَى اللَّهِ، وَاللَّعْنَةُ: الطَّرْدُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿أَيُّ
 يَمْنَعُونَ النَّاسَ عَنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَسُلُوكِ سَبِيلِ الْهُدَى الْمَوْصِلِ إِلَى اللَّهِ﴾ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا
 عِوَجًا ﴿أَيُّ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَكُونَ السَّبِيلُ مَعُوجَةً، أَيُّ: يَبْغُونَ أَنْ يَكُونَ دِينَ اللَّهِ مَعُوجًا عَلَى
 حَسَبِ أَهْوَائِهِمْ﴾ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿أَيُّ جَا حَادُونَ بِالْآخِرَةِ مَنْكَرُونَ لِلْبَعْثِ وَالنُّشُورِ
 ﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴿أَيُّ لَيْسُوا مُفْلِتِينَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَإِنْ أَمْهَلَهُمْ
 ﴾ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴿أَيُّ لَيْسَ لَهُمْ مَنْ يَتَوَلَّاهُمْ أَوْ يَمْنَعُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ
 ﴾ يَضَعُفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ﴿جُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٍ، أَيُّ: يَضَاعَفُ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ بِسَبَبِ إِجْرَامِهِمْ
 وَطَغْيَانِهِمْ﴾ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿أَيُّ سَبَبُ تَشْدِيدِ الْعَذَابِ
 وَمُضَاعَفَتِهِ عَلَيْهِمْ أَنْ اللَّهُ جَعَلَ لَهُمْ سَمْعًا وَبَصَرًا، وَلَكِنْهُمْ كَانُوا صُمًّا عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ،
 عَمِيًّا عَنْ اتِّبَاعِهِ، فَلَمْ يَتَفَعَّلُوا بِمَا مَنَحَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَوَاسٍ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴿
 أَيُّ خَسِرُوا سَعَادَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَخَسِرُوا رَاحَةَ أَنْفُسِهِمْ لِدُخُولِهِمْ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ وَضَلَّ
 عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿أَيُّ وَغَابَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَزْعُمُونَهُ مِنْ شَفَاعَةِ الْأَلْهَةِ﴾ لَا جَرَمَ
 أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسِرُونَ ﴿أَيُّ حَقًّا إِنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَخْسَرِ النَّاسِ، وَلَا تَرَى
 أَحَدًا أَبْيَنَ خَسْرَانًا مِنْهُمْ، لِأَنَّهُمْ آثَرُوا الْفَانِيَةَ عَلَى الْبَاقِيَةِ، وَاسْتَعَاذُوا عَنِ الْجَنَانِ بِظُلَى
 النِّيرَانِ، ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الْكَفَّارِ الْأَشْقِيَاءِ، ذَكَرَ حَالَ الْمُؤْمِنِينَ السَّعْدَاءِ فَقَالَ﴾ إِنَّ
 الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴿أَيُّ جَمَعُوا مَعَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ
 الْإِخْبَاتِ: وَهُوَ الْاطْمِئْنَانُ إِلَيْهِ سَبْحَانَهُ وَالْخُشُوعُ لَهُ وَالْانْقِطَاعُ لِعِبَادَتِهِ﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ

(١) (ش): قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ». [رَوَاهُ مُسْلِمٌ].

الْجَنَّةَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١﴾ أَي مُنْعَمُونَ فِي الْجَنَّةِ لَا يَخْرَجُونَ مِنْهَا أَبَدًا ﴿٢﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ ﴿٣﴾ أَي فَرِيقَ الْمُؤْمِنِينَ وَفَرِيقَ الْكَافِرِينَ ﴿٤﴾ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ﴿٥﴾ قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ: شَبَّهَ فَرِيقَ الْكَافِرِينَ بِالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى، وَفَرِيقَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ، وَهُوَ مِنَ اللَّفِّ وَالطَّبَاقِ ^(١) وَالْمَعْنَى حَالُ الْفَرِيقَيْنِ الْعَجِيبُ كَحَالِ مَنْ جُمِعَ بَيْنَ الْعَمَى وَالصَّمَمِ، وَمَنْ جُمِعَ بَيْنَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ ﴿٦﴾ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴿٧﴾ الْإِسْتِفْهَامُ إِنكَارِي، أَي: لَا يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا فَلَيْسَ حَالُ مَنْ يَبْصُرُ نَوْرَ الْحَقِّ وَيَسْتَضِيءُ بِضِيَائِهِ كَحَالِ مَنْ يَخْبُطُ فِي ظُلُمَاتِ الضَّلَالَةِ وَلَا يَهْتَدِي إِلَى سَبِيلِ السَّعَادَةِ ﴿٨﴾ أَفَلَا نَذَكَّرُونَ ﴿٩﴾ أَي أَفَلَا تَعْتَبِرُونَ وَتَتَعَطَّوْنَ؟ وَالْغَرَضُ التَّفْرِيقُ بَيْنَ أَهْلِ الطَّاعَةِ وَالْإِيمَانِ، وَأَهْلِ الْجُحُودِ وَالْعَصْيَانِ.

البلاغة: ١ - ﴿عَذَابٌ يَوْمٌ كَبِيرٌ﴾ إضافة العذاب إلى اليوم الكبير للتحويل والتفطيع.
٢ - ﴿مَا يُشِيرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بينهما طباق وكذلك بين ﴿نِعْمَاءَ﴾ و﴿ضُرَاءَ﴾ وبين ﴿نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾.

٣ - ﴿لَيْتُوسُ كَفُورٌ﴾ من صيغ المبالغة أي شديد اليأس كثير الكفران.
٤ - ﴿كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى﴾ فيه تشبيه مرسل مجمل لوجود أداة التشبيه وحذف وجه الشبه، أي: مثل الفريق الكافر كالأعمى والأصم في عدم البصر والسمع، ومثل الفريق المؤمن كالسميع والبصير.

لطيفة: قال بعض الصالحين: الاستغفار بلا إقلاع عن الذنب توبة الكذابين ^(٢).
تنبيه: التحدي بعشر سور جاء بعد التحدي بالقرآن الكريم، فلما عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن تحداهم بعشر سور، ثم لما عجزوا تحداهم بالإتيان بسورة مثله في البلاغة والفصاحة والاشتمال على المغيبات والأحكام التشريعية وأمثالها، وهي الأنواع التسعة وقد نظمها بعضهم بقوله:

أَلَا إِنَّمَا الْقُرْآنُ تِسْعَةُ أَحْرَفٍ سَأُنَبِّكُهَا فِي بَيْتِ شِعْرِ بَلَا مَلَلٍ
حَلَالٌ، حَرَامٌ، مُحْكَمٌ، مُتَشَابِهٌ بَشِيرٌ، نَذِيرٌ، قِصَّةٌ، عِظَةٌ، مَثَلٌ

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿١٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئَارِيٍّ وَمَا زَايَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا

(١) «الكشاف» ٢/ ٣٨٧.

(٢) «تفسير القرطبي» ٩/ ٣.

وَأَنْتُمْ لَهَا كَاهِنُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ لَا اسْتَلَكُم عَلَيْهِ مَا لَإِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ
 آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَلِنَكْفِيَنَّ أَرْكَكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقُولُونَ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ
 أَفَلَا نَذْكُرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ
 لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا
 يَنْبُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِنَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ
 بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ
 يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَدُّهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ، فَعَلَى إِجْرَامِي وَأَنَا
 بَرِيءٌ مِمَّا تَجْحَرُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأَوْحَى إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا
 كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعُ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطُبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾
 وَيَصْنَعُ الْفُلَكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ
 كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّى إِذَا
 جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ
 ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ بِحَبْرِهَا وَمُرْسَاهَا إِنْ رَبِّي لَغَفُورٌ
 رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرَى بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَى أَرْكَبَ
 مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَتَأْوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ
 أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَتَارِضْ أَبْلَى مَاءٍ كِ
 وَبَسْمَاءُ أَقْبَلِي وَغِيضُ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَى
 نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَنْبُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ
 مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ
 رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾
 قِيلَ يَنْبُوحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا
 عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ
 إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى عناد الكافرين من أهل مكة، وتكذيبهم لرسول الله ﷺ واتهامهم له بافتراء القرآن، ذكر هنا قصة نوح مع قومه الكافرين لتكون كالعظة والعبرة لمن كذب وعاند، ولتسلية الرسول ﷺ بسرد قصص المرسلين وما جرى مع أقوامهم.

اللغة: ﴿الْمَلَأُ﴾: أشراف القوم وسادتهم ﴿أَرَادُنَا﴾: الأراذل هنا: المراد بهم الفقراء والضعفاء والسفلة، وهو جمع أَرَذَلَ بمعنى السافل الذي لا خلاق له ولا يبالي بما يفعل ﴿فَعُمِيتَ﴾: عمي عن كذا، وعمي عليه كذا، بمعنى التبس عليه ولم يفهمه، وخفي عليه

أمره ﴿جَدَلْتَنَا﴾ الجدل في كلام العرب: المبالغة في الخصومة ﴿تَزِدِّي﴾ تحتقر ﴿وَأَصْنَعَ الْفُلَّكَ﴾ السفينة ويطلق على المفرد والجمع ﴿الْتَنُورُ﴾ مُسْتَوْدَعُ النَّارِ^(١) ﴿وَمُرْسِنَهَا﴾ رسا الشيء يرسو ثبت واستقر ﴿عَاصِمٌ﴾ مانع يقال: عصمه إذا منعه ومنه الحديث «فَقَدْ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ»^(٢) ﴿وَعِضٌ﴾ غاض الماء نقص بنفسه وغطته أنقصته ﴿الْجُودِي﴾ جبلٌ بقرب المَوْصِلِ.

التفسير: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ أي أرسلناه رسولا إلى قومه بعد أن امتلأت الأرض بشركهم وشروهم ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي بآني منذر لكم ومخوف من عذاب الله إن لم تؤمنوا ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي أرسلناه بدعوة التوحيد وهي عبادة الله وحده ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أي إني أخاف عليكم إن عبدتم غيره عذاب يوم شديد مؤلم ﴿فَقَالَ أَمْلَأُوا الْبُحْرَ الْكُفْرَ مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي قال السادة والكبراء من قوم نوح: ﴿مَا نَزَلْنَا إِلَّا بَنَشْرًا مِثْلَنَا﴾ أي ما نراك إلا واحداً مثلنا ولا فضل لك علينا قال الزمخشري: وفيه تعريض بأنهم أحق منه بالنبوة، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم^(٣) ﴿وَمَا نَزَلْنَاكَ إِلَّا آتِئَاكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا﴾ أي وما اتبعك إلا سفلة الناس قال في «التسهيل»: وإنما وصفوهم بذلك لفقرهم جهلاً منهم واعتقاداً بأن الشرف هو بالمال والجاه، وليس الأمر كذلك، بل المؤمنون أشرف منهم على فقرهم وخمولهم^(٤) ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ أي في ظاهر الرأي من غير تفكير أو روية ﴿وَمَا نَزَلْنَاكَ إِلَّا آتِئَاكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا﴾ أي وما نرى لك ولا تبعاك من مزية وشرف علينا يؤهلهم للنبوة، واستحقاق المتابعة ﴿بَلْ نُنَظِّقُكُمْ كَذِبِينَ﴾ أي بل نظنكم كاذبين فيما تدعونه، أرادوا أن يحجوا^(٥) نوحاً من وجهين: أحدهما: أن المتبعين له أراذل القوم ليسوا قدوة ولا أسوة، والثاني: أنهم مع ذلك لم يتروا في اتباعه، ولا أمعنوا في الفكر في صحة ما جاء به، وإنما بادروا إلى ذلك من غير فكرة ولا روية، وغرضهم ألا تقوم الحجة عليهم بأن منهم من آمن به وصدقه ﴿قَالَ يَقَوْمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ تطف معهم في الخطاب لاستمالتهم إلى الإيمان أي قال لهم نوح:

(١) (ش): التَّنُورُ: فُرْنٌ يُخْبِزُ فِيهِ.

(٢) (ش): قَالَ ﷺ: «أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ. فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ» [رواه البخاري ومسلم].

(٣) «الكشاف» ٢/ ٣٨٨.

(٤) «التسهيل» ٢/ ١٠٣.

(٥) (ش): حَجَّ الشَّخْصَ: غَلَبَهُ بِالْحُجَّةِ.

أخبروني يا قوم إن كنتُ على برهان وأمر جلِّي من ربي بصحة دعواي ﴿وَأَنبِئِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾ أي ورزقني هداية خاصة من عنده وهي النبوة ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي فخفي الأمر عليكم لاحتجابكم بالمادة عن نور الإيمان ﴿أَنزِلْ مُكُومَهَا وَأُنزِلْهَا كِرْهُونَ﴾ أي أنكرهكم على قبولها ونجبركم على الإهداء بها والحال أنكم كارهون منكرون لها؟ والاستفهام للإنكار أي لا نفعل ذلك لأنه لا إكراه في الدين ﴿وَيَقْوِمُوا لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَّا﴾ أي لا أسألكم على تبليغ الدعوة أجراً، ولا أطلب على النصيحة مالاً حتى تتهموني ﴿إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي ما أطلب ثوابي إلا من الله فإنه هو الذي يثيبني ويجازيني ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي ولست بمُبعِد هؤلاء المؤمنين الضعفاء عن مجلسي، ولا بطارد لهم عني كما طلبتم ﴿إِنَّهُمْ مُّلقَاؤُ رَبِّهِمْ﴾ أي إنهم صائرون إلى ربهم، وفائزون بِقُرْبِهِ فكيف أطردهم؟ ﴿وَلَكَيْفَ أَزْكَرُكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ أي ولكنكم قوم تجهلون قدرهم فطلبون طردهم، وتظنون أنكم خير منهم ﴿وَيَقْوِمُوا مَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَفْتُمْ﴾ أي من يدفع عني عقاب الله إن ظلمتهم وطردهم؟ ﴿أَفَلَا نَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تتفكرون فتعلمون خطأ رأيكم وتزجرون عنه؟ ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أي لا أقول لكم: عندي المال الوافر الكثير حتى تتبعوني لِغِنَاي ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أي ولا أقول لكم: إني أعلم الغيب حتى تظنوا بي الربوبية ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي ولا أقول لكم إني من الملائكة أرسلت إليكم فأكون كاذباً في دعواي ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ أي ولا أقول لهؤلاء الضعفاء الذين آمنوا بي واحتقرتموهم لفقرهم: لن يمنحهم الله الهداية والتوفيق ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ أي أعلم بسرائرهم وضمائرهم ﴿إِنِّي إِذْ أَلَمْتُ الظَّالِمِينَ﴾ أي إني إن قلت ذلك أكون ظالماً مستحقاً للعقاب ﴿قَالُوا يَنْبُحُ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْثَرْتَ جِدْلَنَا﴾ أي قال قوم نوح لنوح عليه السلام: قد خاصمتنا فأكثرت خصومتنا ﴿فَأَنبَأْنَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي فأنبأنا بالعذاب الذي كنت تعدنا به إن كنت صادقاً في ما تقول ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ﴾ أي أمر تعجيل العذاب إليه تعالى لا إليّ فهو الذي يأتيكم به إن شاء ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي ولستم بفائتين الله هرباً لأنكم في ملكه وسلطانه ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ﴾ أي ولا ينفعكم تذكيري إياكم ونصحي لكم ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ أي إن أراد الله إضلالكم وهو جواب لما تقدم. والمعنى ماذا ينفع نصحي لكم إن أراد الله شقاوتكم وإضلالكم؟ ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي هو خالقكم والمتصرف في شئونكم، وإليه مرجعكم ومصيركم فيجازيكم على أعمالكم ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أي أيقول كفار قريش: اختلق محمد هذا القرآن من عند نفسه^(١)

(١) هذا رأي كثير من المفسرين، وذهب ابن عطية وأبو حيان إلى أن الآية من جملة قصة نوح وأن الضمير عائد إلى قوم نوح والمعنى أيقولون افترى نوح هذه الأخبار... إلخ.

﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ، فَعَلَىٰ إِجْرَامِي﴾ أي قل لهم يا محمد إن كنت قد افتريت هذا القرآن فعليّ وزري وذنبى، ولا تؤاخذون أتم بجريرتي^(١) ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُخَرِّمُونَ﴾ أي وأنا بريء من إجرامكم بكفركم وتكذيبكم، والآية اعتراض بين قصة نوح للإشارة إلى أن موقف مشركي مكة كموقف المشركين من قوم نوح في العناد والتكذيب ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾ أي أوحى الله إلى نوح أنه لن يتبعك ويصدق برسالتك إلا من قد آمن من قبل ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي فلا تحزن بسبب كفرهم وتكذيبهم لك فإني مهلكهم ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي اصنع السفينة تحت نظرنا وبحفظنا ورعايتنا^(٢) ﴿وَوَحِّينَا﴾ أي وتعليمنا لك قال مجاهد: أي كما نأمرك ﴿وَلَا تُخْطِئْ فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي لا تشفع فيهم فإني مهلكهم لا محالة ﴿إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾ أي هالكون غرقاً بالطوفان ﴿وَيَصْنَعِ الْفُلَ﴾ حكاية حال ماضية لاستحضرها في الذهن، أي: صنع نوح السفينة كما علمه ربه ﴿وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ أي كلما مرّ عليه جماعة من كبراء

(١) (ش): جريرة: جناية وذنب.

(٢) (ش): في قوله تعالى عَنْ سَفِينَةِ نُوحٍ: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] وقوله لموسى: ﴿وَلْيَصْنَعِ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩] وقوله للنبي ﷺ ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] المعنى على ظاهر الكلام وحقيقته، لكن ما ظاهر الكلام وحقيقته هنا؟ هل يقال: إن ظاهره وحقيقته أن السفينة تجري في عين الله؛ أو أن موسى عليه الصلاة والسلام يرى فوق عين الله تعالى؟! أو يقال: إن ظاهره أن السفينة تجري وعين الله ترعاها وتكفلها، وكذلك تربيته موسى تكون على عين الله تعالى يرعاه ويكلؤه بها، ولا ريب أن القول الأول باطل، وذلك من وجهين: ١- أنه لا يقتضيه الكلام بمقتضى الخطاب العربي، والقرآن إنما نزل بلغة العرب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢] ولا أحد يفهم من قول القائل: فلان يسير بعيني أن المعنى أنه يسير داخل عينه، ولا من قول القائل: فلان تخرج على عيني، أن تخرجه كان وهو راكب على عينه، ولو ادعى مدّع أن هذا هو ظاهر اللفظ في هذا الخطاب لصحك منه السفهاء فضلاً عن العقلاء. ومثله قول: إنك تحت عيني، وفلان تخرج من تحت يدي، وفلان يدي اليمنى.... مما معناه ظاهر مفهوم باللسان العربي. ٢- أن هذا ممتنع غاية الامتناع، ولا يمكن لمن عرف الله وقدره حق قدره أن يفهمه في حق الله تعالى؛ لأن الله تعالى مستو على عرشه بائن من خلقه لا يحل فيه شيء من مخلوقاته، ولا هو حال في شيء من مخلوقاته سبحانه وتعالى. فإذا تبين بطلان هذا من الناحية اللفظية والمعنوية تعين أن يكون ظاهر الكلام هو القول الثاني؛ أن السفينة تجري وعين الله ترعاها وتكفلها، وكذلك تربيته موسى تكون على عين الله يرعاه ويكلؤه بها، وهذا معنى قول بعض السلف بمراى مني، فإن الله تعالى إذا كان يكلؤه بعينه لزم من ذلك أنه يراه. ووجه كون العين هي التي ترعاه دون الوجه أو اليد أو... هو لأن العين تفيد الاطلاع والمراقبة والإحاطة مما يناسب الحفظ. والله أعلم. وفي هذه الآيات إثبات لصفة العينين لله تعالى بما يليق به، دون تشبيه بخلقه أو تكيف لذاته، سبحانه وبحمده، كما ثبت ذلك بالسنة، وأجمع عليه سلف الأمة، فأهل السنة والجماعة يعتقدون أن الله يبصر بعين، كما يعتقدون أن الله عز وجل له عينان تليقان به؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وهو السميع البصير ﴿[الشورى: ١١]﴾. واللفظ الذي ورد بصيغة الجمع ﴿وَأَعْيُنِنَا﴾ فإنما هو للتعظيم.

قومه هزءوا منه وضحكوا وقالوا: يا نوح كنت بالأمس نبياً، وأصبحت اليوم نجاراً!! ﴿قَالَ
 إِنَّ تَسَخَّرُوا مِنَّا﴾ أي إن تهزءوا منا اليوم ﴿فَإِنَّا تَسَخَّرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسَخَّرُونَ﴾ أي فإننا سنسخر
 منكم في المستقبل عندما تغرقون مثل سخريتكم منا الآن، فأنتم أولى بالسخرية والاستهزاء
 ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وعيد وتهديد أي سوف تعلمون عاقبة التكذيب والاستهزاء ﴿مَنْ
 يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي عذاب يُذِلُّه ويهينه وهو الغرق ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي وينزل
 عليه عذاب دائم لا ينقطع وهو عذاب جهنم ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي جاء أمرنا الموعد
 بالطوفان ﴿وَفَارَ الْتُورُ﴾ أي فار الماء من التور الذي يوقد به النار قال العلماء: جعل الله
 ذلك علامة لنوح وموعداً لهلاك قومه، وقال ابن عباس: التنور وجه الأرض قال «الطبري»:
 والعرب تسمي وجه الأرض تنور الأرض، قيل له: إذا رأيت الماء على وجه الأرض
 فاركب أنت ومن معك^(١) في السفينة وقال ابن كثير: التنور وجه الأرض أي صارت الأرض
 عيوناً تغور، حتى فار الماء من التناير التي هي مكان النار صارت تغور ماءً، وهذا قول
 جمهور السلف والخلف^(٢) ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي احمل في السفينة:
 من كل صنف من المخلوقات اثنين: ذكراً، وأنثى ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أي
 واحمل قرابتك أيضاً أولادك ونساءك إلا من حكم الله بهلاكه، والمراد به ابنه الكافر
 «كنعان» وامراته «واعلة» ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ أي واحمل معك من آمن من أتباعك ﴿وَمَا ءَامَنَ
 مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي وما آمن بنوح إلا نزر يسير مع طول إقامته بينهم وهي مدة تسعمائة
 وخمسين سنة، قال ابن عباس: كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم، وعن كعب: كانوا اثنين
 وسبعين نفساً، وقيل: كانوا عشرة^(٣) ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَحْرُنَهَا وَفَرَسَهَا﴾ أي وقال
 نوح لمن آمن به اركبوا في السفينة، باسم الله يكون جريها على وجه الماء، وباسم الله يكون
 رسوؤها واستقرارها قال «الطبري»: المعنى باسم الله حين تجري وحين تُرسي، أي حين
 تسير وحين تقف^(٤) ﴿إِنْ رَأَى لَغُفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي سائر لذنوب التائبين، رحيمٌ بالمؤمنين حيث
 نجاهم من الغرق ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ أي والسفينة تسير بهم وسط الأمواج،
 التي هي كالجبل في العظم والارتفاع، بإذن الله وعنايته ولطفه قال الصاوي: روي أن الله
 أرسل المطر أربعين يوماً وليلة، وخرج الماء من الأرض ينابيع كما قال تعالى ﴿فَفَتَحْنَا

(١) بعد أن ذكر الإمام «الطبري» أقوال السلف في المراد بالتنور قال: وأولى هذه الأقوال عندنا قول من قال: هو
 التنور الذي يخبز فيه لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب وكلام الله يحمل على الأغلب الأشهر. انظر
 «الطبري» ٤٠ / ١٢.

(٢) «المختصر» ٢٢٠ / ٢.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٢٢٠ / ٢.

(٤) «تفسير الطبري» ٤٤ / ١٢.

أَنُوبَ السَّمَاءِ بِمَا مَنَّهُمْ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿[القمر: ١١ - ١٢]﴾
وارتفع الماء على أعلى جبل أربعين ذراعاً حتى أغرق كل شيء^(١) ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾
وَكَانَ فِي مَعْرَلٍ ﴿أَيُّ وَنَادَى نُوحٌ وَلَدَهُ «كُنْعَان» قَبِيلَ سِيرِ السَّفِينَةِ وَكَانَ فِي نَاحِيَةِ مِنْهَا لَمْ يَرْكَبْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿يَبْنِيْ أَرْكَبْ مَعَنَا﴾ أَيُّ أَرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَهْلِكْ نَفْسُكَ بِالْغُرُقِ ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ أَيُّ فَتَغْرُقْ كَمَا يَغْرُقُونَ ﴿قَالَ سَتَأْتِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾
أَيُّ سَأَصْعِدُ إِلَى رَأْسِ جَبَلٍ أَتَحْصِنُ بِهِ مِنَ الْغُرُقِ، ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ الْمَاءَ لَا يَصِلُ إِلَى رِءُوسِ الْجِبَالِ ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ﴾ أَيُّ قَالَ لَهُ أَبُوهُ نُوحٌ: لَا مَعْصُومَ الْيَوْمَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَلَا نَاجِيٍّ مِنْ عِقَابِهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَهُ اللَّهُ ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرَوِّينَ﴾ أَيُّ حَالَ بَيْنَ نُوحٍ وَوَلَدِهِ مَوْجُ الْبَحْرِ فَغُرِقَ ﴿وَقِيلَ يَتْرُكُ أَرْضَ آبَائِهِ مَاءً كَ﴾ أَيُّ انشَقَّى وَابْتَلَعِيَ مَا عَلَى وَجْهِهِ مِنَ الْمَاءِ ﴿وَيَسْمَاءُ أَقْلِي﴾ أَيُّ أَمْسَكِي عَنِ الْمَطَرِ ﴿وَعِصَى الْمَاءِ﴾ أَيُّ ذَهَبَ فِي أَغْوَارِ الْأَرْضِ قَالَ مُجَاهِدٌ: نَقَصَ الْمَاءُ ﴿وَفُصِّي الْأُمُرُ﴾ أَيُّ تَمَّ أَمْرُ اللَّهِ بِإِغْرَاقِ مَنْ غَرِقَ، وَنَجَاةٍ مِنْ نَجَا ﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ أَيُّ اسْتَقَرَّتِ السَّفِينَةُ عَلَى جَبَلِ الْجُودِيِّ بِقَرَبِ الْمَوْصِلِ ﴿وَقِيلَ بَعْدَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أَيُّ هَلَكَ وَخَسِرَ أَلَمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَهِيَ جُمْلَةٌ دَعَائِيَّةٌ قَالَ «الْأَلُوسِي»: وَلَا يَخْفَى مَا فِي الْآيَةِ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى عُمُومِ هَلَكَ الْكَافِرَةِ، بَلْ عَلَى عُمُومِ هَلَكَ أَهْلِ الْأَرْضِ مَا عَدَا أَهْلَ السَّفِينَةِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مَا رُوِيَ أَنَّ الْغُرُقَ أَصَابَ امْرَأَةً مَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَوَضَعَتْهُ عَلَى صَدْرِهَا، فَلَمَّا بَلَغَهَا الْمَاءُ وَضَعَتْهُ عَلَى مَنْكَبِهَا، فَلَمَّا بَلَغَهَا الْمَاءَ رَفَعَتْهُ بِيَدَيْهَا، فَلَوْ رَحِمَ اللَّهُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ لَرَحِمَهَا^(٢) ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أَيُّ نَادَى نُوحٌ رَبَّهُ مُتَضَرِّعًا إِلَيْهِ فَقَالَ: رَبِّ إِنَّ ابْنِي «كُنْعَان» مِنْ أَهْلِي وَقَدْ وَعَدْتَنِي بِنَجَاتِهِمْ ﴿وَلِإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ أَيُّ وَعْدُكَ حَقٌّ لَا خُلْفَ فِيهِ ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ أَيُّ وَأَنْتَ يَا اللَّهُ أَعْدَلُ الْحَاكِمِينَ بِالْحَقِّ ﴿قَالَ يَنْوَحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أَيُّ قَالَ لَهُ رَبُّهُ: يَا نُوحُ إِنَّ وَلَدَكَ هَذَا لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ الَّذِينَ وَعَدْتُكَ بِنَجَاتِهِمْ لِأَنَّهُ كَافِرٌ وَلَا وَلايَةَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ أَيُّ: إِنَّ عَمَلَهُ سَيِّئٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أَيُّ لَا تَطْلُبْ مِنْي أَمْرًا لَا تَعْلَمُ أَصَوَابٌ هُوَ أَمْ غَيْرُ صَوَابٍ؟ ﴿إِنِّي أَعْطِيكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أَيُّ إِنِّي أَنْبَهُكَ وَأَنْصَحُكَ خَشْيَةً أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالَ فِي «التَّسْهِيلِ»: وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ وَصْفٌ لَهُ بِالْجَهْلِ، بَلْ فِيهِ مَلَاظِفَةٌ وَإِكْرَامٌ^(٣) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أَيُّ قَالَ نُوحٌ مُعْتَذِرًا إِلَى رَبِّهِ عَمَّا صَدَرَ عَنْهُ: رَبِّ إِنِّي

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٢/٢١٦.

(٢) «روح المعاني» ١٢/٦٢.

(٣) «التسهيل» ٢/١٠٦.

استجير بك من أن أسألك أمراً لا يليق بي سؤاله ﴿وَالَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ أي وإلا تغفر لي زلتي، وتنداركني برحمتك، أكن ممن خسر آخرته وسعادته ﴿قِيلَ يَنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾ أي اهبط من السفينة بسلامة وأمن ﴿وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾ أي وخيرات عظيمة عليك وعلى ذرية من معك من أهل السفينة، قال «القرطبي»: دخل في هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة^(١) ﴿وَأُمَمٌ سُمِّيَتْهُمْ﴾ أي وأمم أخرى من ذرية من معك تمتعهم متاع الحياة الدنيا وهم الكفرة المجرمون ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ثم نذيقهم في الآخرة العذاب الأليم وهو عذاب جهنم ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ أي هذه القصة وأشباهاها من أخبار الغيوب السالفة التي لم تشهدها ﴿نُوحِهَا إِلَيْكَ﴾ أي نعلمك بها يا محمد بواسطة الوحي ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أي لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها من قبل هذا القرآن ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي فاصبر على أمر الله بتبليغ الدعوة كما صبر نوح، فإن العاقبة المحمودة لمن اتقى الله، وفيه تسلية له ﷺ على أذى المشركين.

البلاغة: ١ - ﴿فَعَمِيَّتْ عَلَيْكُمُ﴾ شبه الذي لا يهتدي بالحجة لخفائها عليه، بمن سلك مفازة لا يعرف طرقها ومسالكها، واتبع دليلاً أعمى فيها على سبيل الاستعارة التمثيلية.

٢ - ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتقريع.

٣ - ﴿فَأَنذَرْنَا يَمَّا تَعْدُنَا﴾ الأمر يراد به التهكم والاستهزاء.

٤ - ﴿فَعَلَىٰ إِجْرَامِي﴾ مجاز بالحذف أي عقوبة إجرامي وجاء بـ ﴿إِنْ﴾ الدالة على الشك لبيان أنه على سبيل الفرض ﴿إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ﴾ بخلاف إجرامهم فإنه محقق ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ وَمِمَّا يَجْعَرُونَ﴾.

٥ - ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ الأعين كناية عن الرعاية والحفظ يقال للمسافر: «صحبتك عين الله» أي رعاية الله وحفظه^(٢).

٦ - ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَبَسِّمَاءَ أَقْلَعِي﴾ بين الأرض والسماء طباقاً، وبين ابليعي وأقْلَعِي جناساً ناقصاً، وكلاهما من المحسنات البديعية.

(١) «تفسير القرطبي» ٤٨/٩. (ش): قال الإمام ابن جرير «الطبري» في تفسيره «جامع البيان في تأويل القرآن» (٣٥٣/١٥): ﴿وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾ وعلى قرون تجيء من ذرية من معك من ولدك. فهؤلاء المؤمنون من ذرية نوح الذين سبقت لهم من الله السعادة، وبارك عليهم قبل أن يخلقهم في بطون أمهاتهم وأصلاّب آبائهم. (٢) (ش): في هذه الآية إثبات لصفة العينين لله تعالى بما يليق به، دون تشبيه بخلقه أو تكيف لذاته، سبحانه وبحمده، كما ثبت ذلك بالسنة، وأجمع عليه سلف الأمة، فأهل السنة والجماعة يعتقدون أن الله يبصر بعين، كما يعتقدون أن الله عز وجل له عينان تليقان به؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. واللفظ ورد هنا بصيغة الجمع للتعظيم.

فائدة: قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ كان ابنه من صلبه، ولكنه لم يكن مؤمناً، وما بغت امرأة نبي قط. ومعنى الآية: إنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك^(١).

أقول: نهبت الآية على أن أهله هم الصلحاء، أهل دينه وشريعته، فمن لا صلاح له لا نجاة له، ومدار الأهلية القرابة الدينية، لا القرابة البدنية.

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقبس أو تميم
 لطيفة: روي أن أعرابياً سمع هذه الآية ﴿وَقِيلَ يَتَّارُضْ أَبْلَغِي مَاءَ لِي وَكَسْمَاءَ أَقْلِي...﴾ الآية فقال: هذا كلام القادرين لا يشبه كلام المخلوقين، ويروى أن «ابن المقفع» - وكان أفصح أهل زمانه - رام أن يعارض القرآن فنظم كلاماً، وجعله مفصلاً، وسمّاه سوراً، فمرّ يوماً بصبي فسمعه يقرأ الآية فرجع إلى بيته ومحا ما كان قد بدأ به، وقال: أشهد أن هذا لا يُعارض أبداً، وما هو من كلام البشر^(٢).

تنبيه: هذه الآية بلغت من أسرار الإعجاز غايتها، وحوّت من بدائع الفوائد نهايتها، وجمعت من المحاسن اللفظية والمعنوية ما يضيق عنه نطاق البيان، وقد اهتم بإظهار لطائفها وأسرارها العلامة أبو حيان حيث قال رَحِمَهُ اللهُ وَطِيبَ ثَرَاهُ: في هذه الآية أحد وعشرون نوعاً من البديع: المناسبة في قوله ﴿أَقْلِي﴾ و﴿أَبْلَغِي﴾ والمطابقة بذكر الأرض والسماء، والمجاز في ﴿وَكَسْمَاءَ﴾ المراد مطر السماء، والاستعارة في ﴿أَقْلِي﴾ والإشارة في ﴿وَعِضَ الْمَاءِ﴾ فإنها إشارة إلى معانٍ كثيرة، والتمثيل في ﴿وَفُضِيَ الْأَمْرُ﴾ عبر بالأمر عن إهلاك الهالكين ونجاة الناجين، والإرداف في ﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ فلفظ واستوت كلام تامّ أردفه بلفظ ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ قصداً للمبالغة في التمكن بهذا المكان، والتعليل في ﴿وَعِضَ الْمَاءِ﴾ فإنه علة للاستواء، والاحتراش في ﴿بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وهو أيضاً ذم لهم، والإيجاز وهو ذكر القصة باللفظ القصير مستوعباً للمعاني الجمة، وعدد بقية الوجوه وهي: الإيضاح، والمساواة، وحسن النسق، وصحة التقسيم، وحسن البيان، والتمكين، والتجنيس، والتسheim، والمقابلة، والتهذيب، والوصف^(٣).

قال الله تعالى:

وَالِإِلَٰهَ أَخَاهُمُ هُودًا قَالَ يَنْقُومِ الْعَبْدُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنَ الْدِينِ غَيْرُهُ إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ
 يَنْقُومُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَنْقُومُ

(١) «تفسير الطبري» ٥١/١٢.

(٢) «روح المعاني» ٦٣/١٢.

(٣) النهر الماد من البحر ٥/٢٢٧.

أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُرْدِكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوتِكُمْ وَلَا تَنْوَلُوا بُحْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِ هَارُونَ بِسُوءٍ قَالَ إِنْ أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا نَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنْ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ ربي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ ربي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ ربي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنْ ربي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ آدَاءُ جَحْدُوا بِكَائِبَتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَغْوَهُ وَبِئْسَ الْفَقِيمَةُ إِلَّا إِنْ عَادَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدُ لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ ربي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَنْقُورُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَنْقُورُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَفَعَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنَ خِزْيِ يَوْمِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٦٧﴾ كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا إِنْ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدُ لَثَمُودٍ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تُصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَوَيْلَ لِي وَالِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾

المناسبة: هذه هي القصة الثانية من القصص التي ذكرها الله في هذه السورة الكريمة، وهي قصة هود مع قومه عاد، وقد ذكرها تعالى بالإسهاب، ولهذا سميت السورة «سورة هود» ثم أعقبها بالحديث عن ثمود وهي القصة الثالثة في هذه السورة، ثم قصة إبراهيم وبشارة الملائكة له بإسحاق وهي القصة الرابعة.

اللغة: ﴿مِدْرَارًا﴾ كثيراً متتابعاً من درت السماء تدر إذا سكبت المطر بسخاء، والمدرار: الكثير الدر وهو من أبنية المبالغة ﴿اعْتَرَاكَ﴾ أصابك ﴿بِنَاصِيَتِهَا﴾ الناصية: منبت الشعر

في مقدم الرأس ﴿جَبَّارٌ﴾ الجبار: المتكبر ^(١) ﴿عَنِيدٌ﴾ العنيد «الطاغي الذي لا يقبل الحق ولا يذعن له، قال أبو عبيدة: العنيد والمعاند: المعارض بالخلاف ﴿وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ جعلكم عمَّارها وسكانها ﴿تُخْسِرُ﴾ تضليل وإبعاد عن الخير ﴿حَنِيزٌ﴾ مشوي يقال: حنزتُ الشاة أحنذها حنذاً، أي: شويتها ﴿نَكِرَهُمْ﴾ أنكرهم يقال: نكره وأنكره واستنكره بمعنى واحد وهو أن يجده على غير ما عهده قال الشاعر:

وَأَنْكَرْتَنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكَرْتُ
مِنَ الْحَوَادِثِ إِلَّا الشَّيْبَ وَالصَّلَاعَ ^(٢)

فجمع الشاعر بين اللُّغتين ﴿وَأَوْجَسَ﴾ استشعر وأحسَّ ﴿بَعْلِي﴾ زوجي.

التفسير: ﴿وَالِإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي ولقد أرسلنا إلى قبيلة عاد نبياً منهم اسمه هود ﴿قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي اعبدوا الله وحده دون الآلهة والأوثان ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أي ليس لكم معبودٌ غيره يستحق العبادة ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ أي ما أنتم في عبادتكم غير الله إلا كاذبون عليه جل وعلا، لأنه لا إله سواه ﴿يَقُومُوا لِآيَاتِهِ أَجْرًا﴾ أي لا أطلب منكم على النصيح والبلاغ جزاء ولا ثواباً ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي ما ثوابي وجزائي إلا على الله الذي خلقني ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أنغفلون عن ذلك فلا تعقلون أن من يدعوكم إلى الخير دون إرادة جزاءٍ منكم هو لكم ناصح أمين؟ والاستفهام للإنكار والتفريع ﴿وَيَقُومُوا أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ أي استغفروه من الكفر والإشراك ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ أي ارجعوا إليه بالطاعة والإستقامة على دينه والتمسك بالإيمان والتوحيد ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ أي يرسل عليكم المطر غزيراً متتابعاً، روي أن عاداً كان حُبس عنهم المطر ثلاث سنين حتى كادوا يهلكون، فأمرهم هودٌ بالتوبة والاستغفار ووعدهم على ذلك بنزول الغيث والمطر، وفي الآية دليل على أن التوبة والاستغفار، سببٌ للرحمة ونزول الأمطار ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ أي ويزدكم عزاً وفخراً فوق عزكم وفخاركم قال مجاهد: شدة إلى شدتكم ^(٣)، فإنهم كانوا في غاية القوة والبطش حتى قالوا ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]؟ ﴿وَلَا تُلَاقُوا مَجْرِمِينَ﴾ أي لا تُعرضوا عما أدعوكم إليه مُصِرِّين على الإِجرام، وارتكاب الآثام ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي ما جئتنا بحجة واضحة تدل على صدقك قال «الألوسي»: وإنما قالوه لفرط عنادهم، أو لشدة عَمَاهم عن الحق ^(٤) ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ عَنْ قَوْلِكَ﴾ أي لسنا بتاركيين عبادة الأصنام من أجل قولك

(١) (ش): أي المستكبر عن الحق.

(٢) تفسير «القرطبي» ٦٦/٩. (ش): الشَّيْب: بياض الشعر، الصَّلَاع: انحسار الشعر عن مقدّم الرأس أو وسطها.

(٣) «تفسير الطبري» ٥٨/١٢.

(٤) «الألوسي» ٨١/١٢.

﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي لسنا بمصدقين لنبوتك ورسالتك^(١)، والجملة تقنيطٌ من دخولهم في دينه، ثم نسبوه إلى الخبل والجنون فقالوا ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ أي ما نقول: إلا أصابك بعض آلهتنا بجنونٍ لَمَّا سَبَبَتْهَا وَنَهَيْتَنَا عَنْ عِبَادَتِهَا قال الزمخشري: دلت أجوبتهم المتقدمة على أن القوم كانوا جفاةً، غلاظ الأكباد، لا يلتفتون إلى النصيح، ولا تلين شكيمتهم للرشد^(٢)، وقد دل قولهم الأخير على جهل مفرط، وبلاء متناهٍ، حيث اعتقدوا في حجارة أنها تتنصر وتنقم^(٣) ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهُ﴾ أي قال هود: إني أشهد الله على نفسي ﴿وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾^(٤) من دُونِهِ أي وأشهدكم أيضاً أيها القوم أنني بريء مما تشركون في عبادة الله من الأوثان والأصنام ﴿فَكَيْدُنِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ أي فاحتالوا في هلاكي أنتم وآلهتكم ثم لا تمهلوني طرفة عين قال (أبو السعود): وهذا من أعظم المعجزات، فإنه عليه السلام كان رجلاً مفرداً بين الجحيم الغفير من عتاة عاد، الغلاظ الشداد، وقد حقرهم وهيجهم بانتقاص آلهتهم، وحثمهم على التصدي له فلم يقدرُوا على مباشرة شيء، وظهر عجزهم عن ذلك ظهوراً بيناً^(٥) وقال الزمخشري: من أعظم الآيات أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمة عطاشاً إلى إراقة دمه، يرمونه عن قوس واحدة، وذلك لثقتة بربه وأنه يعصمه منهم، فلا تنشب فيه مخالبتهم، ومثله قول نوح ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾^(٥) [يونس: ٧١] ﴿إِنِّي نَوَّكْتُ عَلَى اللَّهِ رَيًّْا وَرِيكُمُ﴾ أي إني لجأت إلى الله وفوضت أمري إليه تعالى مالكي ومالككم ﴿مَّا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أي ما من نَسَمَةٍ تدبُّ^(٦) على وجه الأرض إلا هي في قبضته وتحت قهره، والأخذ بالناصية تمثيلٌ للملك والقهر، والجملة تعليلٌ لقوة توكله على الله وعدم مبالاته بالخلق ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي إن ربي عادل، يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، لا يظلم أحداً شيئاً ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ أي فإن تعرضوا عن قبول دعوتي فقد أبلغتكم أيها القوم رسالة ربي، وما على الرسول إلا البلاغ ﴿وَيَسْنَخِلْ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي فسوف يهلككم الله ويستخلف قوماً آخرين غيركم، وهذا وعيدٌ شديد ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ أي لا تضرون الله شيئاً بإشراككم ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ أي إنه سبحانه رقيبٌ على كل

(١) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٢) (ش): شَكِيمَة: عِزَّةٌ وَشِدَّةٌ وَعَزِيمَة.

(٣) «الكشاف» ١٥/٣.

(٤) «أبو السعود» ١٥/٣.

(٥) «الكشاف» ٤٠٣/٢.

(٦) (ش): نَسَمَة: كُلُّ كَائِنٍ حَيٍّ فِيهِ رُوح.

شيء، وهو يحفظني من شركم ومكركم ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي ولما جاء أمرنا بالعذاب، وهو ما نزل بهم من الريح العقيم ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي نجينا من العذاب هوداً والمؤمنين بفضل عظيم ونعمة منا عليهم ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي وخلصناهم من ذلك العذاب الشديد، وهي الريح المدمرة التي كانت تهدم المساكن، وتدخل في أنوف أعداء الله وتخرج من أدبارهم، وتصرعهم على وجوههم حتى صاروا كأعجاز نخل خاوية ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الإشارة لأثارهم، أي تلك آثار المكذبين من قوم عاد انظروا ماذا حل بهم حين كفروا بالله، وأنكروا آياته في الأنفس والآفاق الدالة على وحدانيته؟ ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ أي عصوا رسوله هوداً، وجمعه تفضيلاً لحالهم، وإظهاراً لكمال كفرهم وعنادهم، ببيان أن عصيانهم له عصيانٌ لجميع الرسل السابقين واللاحقين لاتفاق كلمتهم على التوحيد ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي أطاعوا أمر كل مستكبر على الله، حائد عن الحق، لا يُذعن له ولا يقبله، يريد به الرؤساء والكبراء ﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي وألحقوا باللعة والطرده من رحمة الله في الدنيا ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي ويوم القيامة أيضاً تلحقهم اللعة قال «الرازي»: جعل اللعن رديفاً لهم ومتابِعاً ومصاحباً في الدنيا والآخرة، ومعنى اللعة الإبعاد من رحمة الله تعالى ومن كل خير ^(١) ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ هذ تشنيع لكفرهم وتهويل ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ أي أبعدهم الله من الخير، وأهلكهم عن بكرة أبيهم ^(٢)، وهي جملة دُعائية بالهلاك واللعة ﴿وَالِإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ أي ولقد أرسلنا إلى قوم ثمود نبياً منهم وهو صالح عليه السلام ﴿قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ أي اعبدوا الله وحده ليس لكم ربٌّ معبود سواه ^(٣) ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أي هو تعالى ابتداء خلقكم من الأرض، فخلق آدم من تراب ثم ذريته من نطفة ﴿وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي جعلكم عمَّارها وسكانها تسكنون بها ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ﴾ أي استغفروه من الشرك ثم ارجعوا إليه بالطاعة ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ أي إنه سبحانه قريب الرحمة مجيب الدعاء ﴿قَالُوا يَصْلِحْ فَدَكَّنْتُ فِينَا مَرْجُواً قَبْلَ هَذَا﴾ أي كنا نرجو أن تكون فينا سيِّداً قبل تلك المقالة فلما قلتها انقطع رجائنا فيك ﴿أَنَّهُنَّا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أي أننا نأبى عباداً الأوثان التي عبدها آبائنا؟ ﴿وَلِإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أي وإننا لشاككون في دعواك، وأمرُك مريب يوجب التهمة ﴿قَالَ يَاقَوْمِ

(١) «الفخر الرازي» ١٦/١٨.

(٢) (ش): بكرة: جماعة، جاءوا على بكرة أبيهم/ جاءوا على بكرتهم/ جاءوا عن بكرتهم: جميعاً لم يتخلف منهم أحد.

(٣) (ش): الصواب أن يقال: ليس لكم رب معبود بحق سواه.

أَرَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴿١﴾ أَيُخْبِرُونِي إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَرَهَانٍ وَاضِحَةٍ مِّن رَّبِّي ﴿٢﴾ وَءَاتَيْنِي مِنْهُ رَحْمَةً ﴿٣﴾ أَيُأَعْطَانِي النُّبُوَّةَ وَالرَّسَالَهَ ﴿٤﴾ فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴿٥﴾ أَيُفْنِي مَنْ يَمْنَعُنِي مِنَ عَذَابِ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُ أَمْرَهُ ﴿٦﴾ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٧﴾ أَيُفْضِلُونَنِي بِمَا تَزِيدُونَنِي بِمُؤَاظَمَتِكُمْ وَعَصِيَانِ أَمْرِ اللَّهِ غَيْرَ تَضْلِيلٍ وَإِعَادِ عَنِ الْخَيْرِ قَالَ الزُّمَخْشَرِيُّ ﴿٨﴾ غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٩﴾ يَعْنِي تُخْسِرُونَ أَعْمَالِي وَتَبْطُلُونَهَا ﴿١٠﴾ ﴿١١﴾ وَيَقُومُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ ﴿١٢﴾ أَضَافَ النَّاقَةَ إِلَى اللَّهِ تَشْرِيفًا لَهَا؛ لِأَنَهَا خَرَجَتْ مِنْ صَخْرَةٍ صَمَاءَ بِقُدْرَةِ اللَّهِ حَسَبَ طَلِبِهِمْ أَيُ هَذِهِ النَّاقَةُ مُعْجَزَتِي لَكُمْ وَعَلَامَةٌ عَلَىٰ صِدْقِي ﴿١٣﴾ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ﴿١٤﴾ أَيُ دَعَاَهَا تَأْكُلُ وَتَشْرَبُ فِي أَرْضِ اللَّهِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ رِزْقُهَا ﴿١٥﴾ وَلَا تَتَسَوَّهَا سِوَىٰ فَاخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿١٦﴾ أَيُ لَا تَنَالُوهَا بِشَيْءٍ مِنَ السُّوءِ فَيُصِيبُكُمْ عَذَابٌ عَاجِلٌ لَا يَتَأَخَّرُ عَنْكُمْ ﴿١٧﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴿١٨﴾ أَيُ ذَبَحُوا النَّاقَةَ فَقَالَ لَهُمْ صَالِحٌ: اسْتَمْتِعُوا بِالْعَيْشِ فِي بِلَدِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ثُمَّ تَهْلِكُونَ قَالَ «الْقُرْطُبِيُّ»: إِنَّمَا عَقَرَهَا بَعْضُهُمْ وَأَضْيَفَ إِلَى الْكُلِّ لِأَنَّهُ كَانَ بَرَضَى الْبَاقِينَ، فَعَقَرَتْ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ فَأَقَامُوا يَوْمَ الْخَمِيسِ وَالْجُمُعَةِ وَالسَّبْتِ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْأَحَدِ ﴿١٩﴾ ﴿٢٠﴾ ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٢١﴾ أَيُ وَعْدٌ حَقٌّ غَيْرُ مَكْذُوبٍ فِيهِ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَنَيْنَا صَلِيلًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ﴿٢٣﴾ أَيُ فَلَمَّا أَمَرْنَا بِإِهْلَاكِهِمْ نَجَّيْنَا صَالِحًا وَمَنْ ءَامَنَ بِهِ ﴿٢٤﴾ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴿٢٥﴾ أَيُ بِنِعْمَةٍ وَفَضْلٍ عَظِيمٍ مِنَ اللَّهِ ﴿٢٦﴾ وَمِنْ خَزْيٍ يَوْمَئِذٍ ﴿٢٧﴾ أَيُ وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ هَوَانٍ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَذَلِكَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٢٩﴾ أَيُ الْقَوِيُّ فِي بَطْشِهِ، الْعَزِيزُ فِي مَلِكِهِ، لَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ، وَلَا يَقْهَرُهُ قَاهِرٌ ﴿٣٠﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَثْمِينَ ﴿٣١﴾ أَيُ أَخَذَتْهُمْ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ تَقَطَّعَتْ لَهَا قُلُوبُهُمْ، فَأَصْبَحُوا هَامِدِينَ مَوْتَى لَا حَرَكَاءَ لَهُمْ كَالطَّيْرِ إِذَا جَثِمَتْ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُمْ يَغْنَوْنَ فِيهَا ﴿٣٣﴾ أَيُ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَقِيمُوا فِي دِيَارِهِمْ وَلَمْ يَعْمُرُوا ﴿٣٤﴾ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴿٣٥﴾ أَلَا بَعْدَ الثَّمُودِ ﴿٣٦﴾ أَيُ أَلَا فَانْتَبِهُوا أَيُّهَا الْقَوْمُ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَسَحَقْنَا لَهُمْ وَبَعْدًا، وَهَلَاكًا وَلَعْنَةً ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ ﴿٣٨﴾ هَذِهِ هِيَ الْقِصَّةُ الرَّابِعَةُ وَهِيَ قِصَّةُ لُوطَ وَهَلَاكِ قَوْمِهِ الْمَكْذِبِينَ أَيُ جَاءَتْ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ أَرْسَلْنَاهُمْ لِإِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطَ إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَةِ بِإِسْحَاقَ ﴿٣٩﴾ قَالَ «الْقُرْطُبِيُّ»: لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ لِعَذَابِ قَوْمِ لُوطَ مَرَّوا بِإِبْرَاهِيمَ فَظَنَّهُمْ أَضْيَافًا، وَهُمْ جَبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: كَانُوا أَحَدَ عَشَرَ مَلَكًا عَلَىٰ صُورَةِ الْعُلَمَاءِ الْحَسَنَانِ الْوُجُوهِ ﴿٤٠﴾ ﴿٤١﴾ فَالْوَأْسَلَمَاءُ ﴿٤٢﴾ أَيُ سَلِمُوا عَلَيْهِ

(١) «الكشاف» ٢ / ٤٠٨.

(٢) «تفسير القرطبي» ٩ / ٦٠.

(٣) البشرى هي البشارة بالولد، وقيل: بهلاك قوم لوط قال الزمخشري: والظاهر الولد.

(٤) «تفسير القرطبي» ٩ / ٦٢.

سلاماً ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ أي قال لهم إبراهيم: سلام عليكم قال المفسرون: ردَّ عليهم التحية بأحسن من تحيتهم لأنه جاء بها جملة اسمية وهي تدل على الثبات والاستمرار ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيزٍ﴾ أي فما أبطأ ولا تأخر مجيئه حتى جاء بعجل مشويٍّ فقدمه لهم قال الزمخشري: والعجل: ولد البقرة ويسمى «الحسيل» وكان مال إبراهيم عليه السلام البقر، والحنيذ: المشوي بالحجارة المحماة في أخدود وقيل: الذي يقطر دسمه ويدل عليه ﴿بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦] ^(١) ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ أي فلما رآهم لا يمدون أيديهم إلى الطعام ولا يأكلون منه أنكرهم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي أحسَّ منهم الخوف والفرع قال قتادة: كان العرب إذا نزل بهم ضيف فلم يطعم من طعامهم ظنوا أنه لم يجئ بخير وأنه جاء يحدث نفسه بشر ^(٢) ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ﴾ أي قالت الملائكة: لا تخف فإننا ملائكة ربك لا نأكل، وقد أرسلنا لإهلاك قوم لوط ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ أي وامرأة إبراهيم واسمها «سارة» قائمة وراء الستر تسمع كلامهم فضحكت استبشاراً بهلاك قوم لوط ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ أي بَشَّرْنَاهَا الملائكة بإسحاق ولد لها ويأتيه مولودٌ هو يعقوب ابناً لولدها ﴿قَالَتْ يَوَاسِيَ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ أي قالت سارة متعجبة: يا لهفي ويا عجبي ألد وأنا امرأة مسنة وهذا زوجي إبراهيم شيخ هرم أيضاً فكيف يأتينا الولد؟ ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي إن هذا الأمر لشيء غريب لم تجربه العادة قال مجاهد: كانت يومئذ ابنة تسع وتسعين سنة، وإبراهيم ابن مائة وعشرين سنة ^(٣) ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي أتعجبين من قدرة الله وحكمته في خلق الولد من زوجين هرمين؟ ليس هذا بمكان عجب على قدرة الله ﴿رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْهِمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ أي رحمكم الله وبارك فيكم يا أهل بيت إبراهيم ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مُجِيدٌ﴾ أي إنه تعالى محمود ممجد في صفاته وذاته، مستحق للحمد والتمجيد من عباده، وهو تلييل بديع لما سبق من البشارة.

البلاغة: ١ - ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ المراد بالسمااء المطر فهو مجاز مرسل؛ لأن المطر ينزل من السماء ولفظ «مدراراً» للمبالغة أي كثير الدر.

٢ - ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ أمرٌ بمعنى التعجيز.

٣ - ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ استعارة تمثيلية شبه الخلق وهم في قبضة الله وملكه وتحت قهره وسلطانه بالمالك الذي يقود المقدور عليه بناصيته كما يقاد الأسير

(١) «الكشاف» ٢/ ٤٠٩. (ش): قال الله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَيْكَ أَهْلُهَا فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦]

(٢) «تفسير الطبري» ١٢/ ٧١.

(٣) «البيضاوي» ٢٥٣.

والفرس بناصيته.

٤ - ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ استعارة لطيفة عن كمال العدل في ملكه تعالى فهو مطلع على أمور العباد لا يفوته ظالم، ولا يضيع عنده معتصم به.

٥ - ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ الأمر كناية عن العذاب^(١).

٦ - ﴿وَجَعَلْنَا هُودًا.. وَجَعَلْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ التكرار في لفظ الإنجاء لبيان أن الأمر شديد عظيم لا سهل يسير، ويسمى هذا الإطناب.

٧ - ﴿وَعَصَوْنَا رُسُلَهُ﴾ أي عصوا رسولهم هوداً وفيه تفضيع لحالهم وبيان أن عصيانهم له عصيان لجميع الرسل السابقين واللاحقين، وهو مجاز مرسل من باب إطلاق الكل وإرادة البعض.

٨ - ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا.. أَلَا بَعْدَ الْعَادِ﴾ تكرير حرف التنبيه وإعادة لفظ «عاد» للمبالغة في تهويل حالهم.

تنبيه: لم يقل هود عليه السلام: إني أشهد الله وأشهدكم وإنما قال: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَشْرِكُونَ﴾ وذلك لثلا يفيد التشريك بين الشهادتين والتسوية بينهما، فأين شهادة الله العلي الكبير من شهادة العبد الحقير؟!

قال الله تعالى:

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجْدِلُونَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَتَذَكَّرُ لَهُمْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْ عَذَابٍ غَيْرِ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفِقُوا هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزَوْا إِلَيْهِ فِي ضَعِيفٍ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَن لِّي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ أَوْىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَنْلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ * وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفِقُوا إِلَهُ عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُ ﴿٨٤﴾ وَيَنْفِقُوا أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ

(١) (ش): هذا خطأ لأن المراد الأمر الكوني القدري فليس هو كناية، بل هو أمر حقيقة كما يدل عليه كلام المؤلف في تفسيرها حيث قال: «أي ولما جاء أمرنا بالعذاب، وهو ما نزل بهم من الريح العقيم».

مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَدْعُبُ آبَاؤُنَا أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَنْقَوْمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخْلِفَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنَهَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَنْقَوْمُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَدْعُبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِيزٌ ﴿٩١﴾ قَالَ يَنْقَوْمُ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَنْقَوْمُ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا آلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَبْسُ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَاتَّبِعُوا فِي هُدًى لَعَنَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَبْسُ الرِّقْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

المناسبة: لا تزال الآيات تتحدث عن قصة ضيوف إبراهيم، وهم الملائكة الذين مروا عليه وهم بطريقهم لإهلاك قوم لوط، وبشروه بالبشارة السارة بولادة غلام له، وقد ذكرت الآيات مرورهم على لوط وما حلَّ بقومه من النكال والدمار، وهي القصة الخامسة، ثم ذكرت قصة شعيب مع أهل مدين، وقصة موسى مع فرعون، وفي جميع هذه القصص عبر وعظات.

اللغة: ﴿الرَّوْعُ﴾ الخوف والفرع ﴿مُنِيبٌ﴾ الإنابة: الرجوع والتوبة ﴿عَصِيبٌ﴾ شديد في الشر قال الشاعر:

وَإِنَّكَ إِلَّا تُرْضِ بَكَرَ بْنَ وَائِلٍ يَكُنْ لَكَ يَوْمَ بِالْعِرَاقِ عَصِيبٌ
﴿يَهْرَعُونَ﴾ يسرعون قال الفراء: الإهراع الإسراع مع رعدة يقال: أهرع الرجل إهراعا، أي: أسرع في رعدة من برد أو غضب^(١) ﴿تُخْزَوْنَ﴾ أخزاه: أهانه وأذله، قال حسان:
فَأَخْزَاكَ رَبِّي يَا عُتَيْبَ بْنَ مَالِكٍ وَلَقَّاكَ قَبْلَ الْمَوْتِ إِحْدَى الصَّوَاعِقِ
﴿سَجِيلٌ﴾ السجيل والسجين: الشديد من الحجر قاله أبو عبيدة، وقال الفراء: طينٌ

طبخ حتى صار كالآجر^(١) ﴿مَنْضُودٌ﴾ متتابع بعضه فوق بعض في النزول ﴿مُسَوَّمَةٌ﴾ معلّمة من السما وهي العلامة ﴿شِقَاقٍ﴾ الشقاق: العداوة قال الشاعر:

أَلَا مَنْ مُبْلِغٍ عَنِّي رَسُولاً فَكَيْفَ وَجَدْتُمْ طَعْمَ الشَّقَاقِ^(٢)

﴿رَهْطُكَ﴾ رهط الرجل: عشيرته التي يتقوى بهم ﴿الْوَرْدُ﴾ المدخل ﴿الرِّقْدُ﴾ العطاء والإعانة.

التفسير: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ أي فلما ذهب عن إبراهيم الخوف الذي أوجسه في نفسه، واطمأن قلبه لضيوفه حين علم أنهم ملائكة ﴿وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَى﴾ أي جاءتته البشارة بالولد ﴿يُجَدِّدُنَا فِي قَوْمٍ لُوطٍ﴾ أي أخذ يجادل ملائكتنا في شأن إهلاك قوم لوط، وغرضه تأخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون قال المفسرون: لما قالت الملائكة: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١] قال لهم: أرايتم إن كان فيها خمسون من المسلمين أتهلكونهم؟ قالوا: لا، قال: فأربعون؟ قالوا: لا، فقال لهم: ﴿إِنِّي فِيهَا لُوطٌ قَالُوا نَحْرُبُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تُدْعَىٰ مِنْ الْغَيْبِ﴾ [العنكبوت: ٣٢]^(٣) ﴿إِنِّي إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ أي غير عجول في الانتقام من المسيء إليه ﴿أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ أي كثير التأوه والتأسف على الناس لرقعة قلبه، منيب رجاء إلى طاعة الله ﴿يَتَذَكَّرُ لَوْ لَوُطٌ فَعَدَّ الْقَضَاءَ بَعْدَ بَهِيمٍ﴾ أي قالت الملائكة: يا إبراهيم دع عنك الجدل في قوم لوط فقد نفذ القضاء بعدابهم ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي جاء أمر الله بإهلاكهم ﴿وَإِنَّهُمْ عَذَابٌ عَزِيزٌ دُورٌ﴾ أي نازل بهم عذاب غير مصروف عنهم ولا مدفوع ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ﴾ أي ولما جاءت الملائكة لوطاً أصابه سوء وضجر، لأنه ظهر أنهم من البشر فخاف عليهم من قومه ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي ضاق صدره بمجيئهم خشية عليهم من قومه الأشرار ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أي شديد في الشر ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي جاء قومه يسرعون إليه لطلب الفاحشة بالضيوف كأنهم يُدْفَعُونَ إلى ذلك دفعاً ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي ومن قبل ذلك الحين كانت عادتهم إتيان الرجال وعمل الفاحشة فلذلك لم يستحيوا حين جاءوا يهرعون لها مجاهرين قال «القرطبي»: وكان سبب إسراعهم أن امرأة لوط الكافرة لما رأت الأضياف وجمالهم، خرجت حتى أتت مجلس قومها فقالت لهم: إن لوطاً قد أضاف الليلة فتية ما رأيتم مثلهم جمالاً فحيثنذ جاءوا يهرعون إليه^(٤) ﴿قَالَ يَنْفَعُكُمْ هَؤُلَاءِ بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾

(١) (ش): آجر: طوب: لبنٌ محروق مُعَدٌّ للبناء، وتكون المادة المحرقة من الطين أو أي مخلوط آخر كالجير والرمل أو الأسمنت والرمل. واللبن: قوالب مربعة أو مستطيلة مضروبة من الطين تستعمل في البناء.

(٢) الرسول هنا بمعنى الرسالة والبيت للأخطل كذا في «القرطبي».

(٣) انظر «الطبري» ١٢ / ٨٠.

(٤) «تفسير القرطبي» ٩ / ٧٥.

أي قال لهم لوط: هؤلاء نساء البلدة أزوجكم بهن فذلك أطهر لكم وأفضل، وإنما قال بناتي لأن كل نبي أب لأمته في الشفقة والتربية ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ أي اخشوا عذاب الله ولا تفضحوني وتهينوني في ضيوفي ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ أي استفهام توبيخ، أي: أليس فيكم رجل عاقل يمنع عن القبيح؟ ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي قال له قومه: لقد علمت يا لوط ما لنا في النساء من أرب^(١). وليس لنا رغبة فيهن ﴿وَأِنَّكَ لَلْعَاِلَمِ مَا تُرِيدُ﴾ أي وأنت تعلم غرضنا وهو إتيان الذكور، صرّحوا له بغرضهم الخبيث قبّحهم الله ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾ أي لو كان لي قوة أستطيع أن أدفع أذاكم بها ﴿أَوْ أَوِيَّ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أي ألبأ إلى عشيرة وأنصار تنصرني عليكم، وجواب «لو» محذوف تقديره لبطشت بكم وفي الحديث «رحم الله أخي لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد»^(٢) يريد ﷺ أن الله كان ناصره ومؤيده، فهو ركنه الشديد وسنده القوي قال قتادة: وذكر لنا أن الله تعالى لم يبعث نبياً بعد لوط إلا في منعة من عشيرته^(٣)، وحين سمع رسل الله تعالى تحسر لوط على ضعفه وانقطاعه من الأنصار ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ أي قالت الملائكة للوط: إنا رسل ربك أرسلنا لإهلاكهم وإنهم لن يصلوا إليك بضرر ولا مكروه ﴿فَاسْرِ بِأَهْلِكَ يَقْطِيعُ مِنَ الْآئِلِ﴾ أي اخرج بهم بطائفة من الليل قال «الطبري»: أي اخرج من بين أظهرهم أنت وأهلك ببقية من الليل^(٤) ﴿وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ﴾ أي لا ينظر أحد منكم وراءه إلا امرأتك فإنها ستهلك كما هلكوا، نُهوا عن الالتفات لثلاث تنفطر أكبادهم على قريتهم قال «القرطبي»: إن امرأة لوط لما سمعت هذه العذاب التفتت

(١) (ش): أرب: بغيّة وحاجة مُلحّة.

(٢) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة مرفوعاً. (ش): قال ﷺ: «يَرْحَمُ اللَّهُ لُوطًا، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ» رواه البخاري ومسلم. أما الزيادة «أخي» فلم أجدها إلا في جامع البيان في تفسير القرآن للطبري والمعجم الأوسط للطبراني بإسنادٍ ضعيف. قال الإمام النووي: «الْمُرَادُ بِالرُّكْنِ الشَّدِيدِ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَإِنَّهُ أَشَدُّ الْأَرْكَانِ وَأَقْوَاهَا وَأَمْنَعُهَا وَمَعْنَى الْحَدِيثِ -وَاللَّهُ أَعْلَمُ- أَنَّ لُوطًا ﷺ لَمَّا خَافَ عَلَى أَصْيَافِهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَشِيرَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنَ الظَّالِمِينَ صَاقَ دَرْعَهُ وَاسْتَدَّ حُزْنُهُ عَلَيْهِمْ فَغَلَبَ ذَلِكَ عَلَيْهِ فَقَالَ فِي ذَلِكَ الْحَالِ: لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ فِي الدَّفْعِ بِنَفْسِي أَوْ أَوِيَّ إِلَى عَشِيرَةٍ تَمْنَعُ لَمَنْعَتُكُمْ وَقَصِدَ لُوطٌ ﷺ إِظْهَارُ الْعُذْرِ عِنْدَ أَصْيَافِهِ وَأَنَّهُ لَوْ اسْتَطَاعَ دَفْعَ الْمَكْرُوهِ عَنْهُمْ بِطَرِيقٍ مَا لَفَعَلَهُ وَأَنَّهُ بَذَلَ وَسْعَهُ فِي إِكْرَامِهِمْ وَالْمُدَافَعَةِ عَنْهُمْ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ إِعْرَاضًا مِنْهُ ﷺ عَنِ الْإِعْتِمَادِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِنَّمَا كَانَ لِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ تَطْيِيبِ قُلُوبِ الْأَصْيَافِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ نِسْبَةُ الْإِلْتِمَاسِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي حِمَايَتِهِمْ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ التَّجَاؤُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى وَأَظْهَرَ لِلْأَصْيَافِ التَّأَلُّمَ وَضِيقَ الصَّدْرِ». [شرح صحيح مسلم ٢/ ١٨٤-١٨٥].

(٣) «روح المعاني» ١٢/ ١٠٨. (ش): قال ﷺ: «فَمَا بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيًّا بَعْدَهُ، إِلَّا فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ» [رواه أحمد بإسناد حسن].

(٤) «الطبري» ١٢/ ٨٩. (ش): أي اخرج بهم بعد مرور جزء من الليل.

وقالت: واقوما! فأدركها حجر فقتلها^(١) ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ أي إنه يصيب امرأتك من العذاب ما أصاب قومك ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ أي موعد عذابهم وهلاكهم الصبح ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ استعجلهم بالعذاب لغيظه على قومه فقالوا له: أليس وقت الصبح قريباً؟ قال المفسرون: إن قوم لوط لما سمعوا بالضيوف هرعوا نحوه، فأغلق بابه وأخذ يجادل قومه عنهم من وراء الباب، فتسوروا الجدار، فلما رأت الملائكة ما بلوط من الكرب قالوا يا لوط: افتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب فضر بهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم وعموا، وانصرفوا على أعقابهم يقولون: النجاء، النجاء كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ رَوَدُّهُ عَن صَافِيَةٍ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧] ثم إن لوطاً سرى بمن معه قبل الفجر، ولما حان وقت عذابهم أمر الله جبريل فاقتلع مدائن قوم لوط - وهي خمس - من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها، حتى سمع أهل السماء صراخ الديكة، ونباح الكلاب، ثم أرسلها مقلوبة وأتبعهم الله بالحجارة ولهذا قال تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَنِهَا سَافِلَهَا﴾ أي فلما جاء وقت العذاب قلّبنا بهم القرى فجعلنا العالي سافلاً ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي أرسلنا على أهل تلك المدن حجارة صلبة شديدة من نار وطين، شهبها بالمطر لكثرتها وشدتها ﴿مَنْضُودٍ﴾ أي متتابعة، بعضها في إثر بعض ﴿مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ أي معلّمة بعلامة قال الربيع: قد كتب على كل حجر اسم من يُرمى به قال «القرطبي»: وقوله ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ دليل على أنها ليست من حجارة الأرض^(٢) ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ﴾ أي ما هذه القرى المهلكة^(٣) بعيدة عن قومك «كفار قریش» فإنهم يمرون عليها في أسفارهم أفلا يعتبرون؟ قال المفسرون: وقد صار موضع تلك المدن بحراً أجاجاً يعرف بـ «البحر الميت» لأن مياهه لا تغذي شيئاً من الحيوان وقد اشتهر باسم «بحيرة لوط» والأرض التي عليها قاحلة لا تنبت شيئاً ﴿وَالِإِني مَدِينٌ أَخَاهُ شُعَيْبًا﴾ هذه هي القصة السادسة من القصص المذكورة في هذه السورة، أي: وأرسلنا إلى قبيلة مدين أخاهم شعيباً، وقد كان شعيب من نفس القبيلة ولهذا قال «أخاهم» ﴿قَالَ يَفْقَهُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ أي اعبدوا الله وحده فليس لكم ربّ سواه ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ أي لا تنقصوا الناس حقوقهم في المكيال والميزان، وقد اشتهروا بتطيف الكيل والوزن ﴿إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ﴾ أي إني أراكم في سعة تغنيكم عن نقص الكيل والميزان قال «القرطبي»: أي في سعة من الرزق، وكثرة من

(١) «تفسير القرطبي» ٨٠/٩.

(٢) «تفسير القرطبي» ٨٣/٩.

(٣) وقيل: الضمير يعود على الحجارة أي وما تلك الحجارة بشيء بعيد عن كل ظالم.

النعم^(١) ﴿وَلِإِنِّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ أي إني أخاف عليكم إن لم تؤمنوا عذاب يوم مهلك، لا يفلت منه أحد، والمراد به عذاب يوم القيامة ﴿وَيَقَوْمٌ أَوْفُوا أَلْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي أتموا الكيل والوزن للناس بالعدل ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي لا تُنقصوهم من حقوقهم شيئاً ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي ولا تسعوا بالفساد في الأرض، والعُتْيُ أشدُّ الفساد ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي ما أبقاء الله لكم من الحلال خير مما تجمعونه من الحرام، إن كنتم مصدقين بوعد الله ووعيده^(٢) وقال مجاهد: أي طاعة الله خير لكم^(٣) ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أي ولستُ ب قريب أحفظ عليكم أعمالكم وأجازيكم بها وإنما أنا ناصح مبلِّغ، وقد أعذر من أنذر ﴿قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلُوتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ لما أمرهم شعيب عليه السلام بعبادة الله تعالى وترك عبادة الأوثان، وبإيفاء الكيل والميزان، ردّوا عليه على سبيل السخرية والاستهزاء فقالوا: أصلاتك تدعوك لأن تأمرنا بترك عبادة الأصنام التي عبدها آبائنا؟ إن هذا لا يصدر عن عاقل ﴿أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ أي وتأمرنا بأن نترك تطفيف الكيل والميزان. قال الإمام الفخر: إن شعيباً أمرهم بشيئين: بالتوحيد، وترك البخس، فأنكروا عليه أمره بهذين النوعين فقوله ﴿مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ إشارة إلى التوحيد، وقوله: ﴿تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا﴾ إشارة إلى ترك البخس، وقد يراد بالصلاة الدين والمعنى: دينك يأمر بك بذلك؟ وأطلق عليه الصلاة لأنها أظهر شعار الدين، وروي أن شعيباً كان كثير الصلاة وكان قومه إذا رأوه يصلي تغامزوا وتضاحكوا، فقصدوا بقولهم ﴿أَصْلُوتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ السخرية والهزاء، كما إذا رأيت معتوهاً يطالع كتباً ثم يذكر كلاماً فاسداً فتقول: هذا من مطالعة تلك الكتب؟^(٤) ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ أي إنك لأنك العاقل المتصف بالحلم والرشد؟ قال «الطبري»: يستهزئون به فإنهم أعداء الله قالوا له ذلك استهزاءً، وإنما سقوه وجهلوه بهذا الكلام^(٥) ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي قال لهم شعيب: أخبروني إن كنت على برهان من ربي وهو الهداية والنبوة ﴿وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي أعطاني المال الحلال، فقد كان عليه السلام كثير المال قال الزمخشري: والجواب محذوف دل عليه المعنى أي أخبروني إن كنت على حجة واضحة،

(١) «تفسير القرطبي» ٨٥ / ٩.

(٢) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديق بالقلب وقولٌ

باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٣) «تفسير الطبري» ١٠٠ / ١٢.

(٤) «تفسير الرازي» ٤٢ / ١٨.

(٥) «تفسير الطبري» ١٠٣ / ١٢.

ويقين من ربي، وكنت نبياً على الحقيقة أبلغ لي أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان، والكف عن المعاصي؟ والأنبياء لا يُبعثون إلا لذلك^(١) ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَيْكُمْ عَنْهُ﴾ أي لست أنهاكم عن شيء وأرتكبه وإنما آمركم بما أمر به نفسي ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أي لا أريد فيما آمركم به وأناكم عنه إلا إصلاحكم آمركم بقدر استطاعتي ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي ليس التوفيق إلى الخير إلا بتأييده سبحانه ومعونته ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي على الله سبحانه اعتمدت في جميع أموري، وإليه تعالى أرجع بالتوبة والإنابة ﴿وَيَقُولُوا لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ أي لا تُكسِبَنَّكم عداوتي ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ أي يصيبكم العذاب كما أصاب قوم نوح بالغرق، وقوم هود بالريح، وقوم صالح بالرجفة وقال الحسن المعنى: لا تَحْمِلَنَّكُمْ مُعَادَاتِي عَلَى تَرْكِ الْإِيمَانِ فِيصِيبَكُمْ مَا أَصَابَ الْكَافِرَ^(٢) ﴿وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِنْكُمْ بَعِيدٌ﴾ أي وما ديار الظالمين من قوم لوطٍ بمكان بعيد، أفلا تتعظون وتعتبرون؟! ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثَابَرُوا إِلَيْهِ﴾ أي استغفروا ربكم من جميع الذنوب، ثم تابوا إليه توبةً نصوحاً ﴿إِنْ رَبِّي رَجِيمٌ وَدُودٌ﴾ أي إنه جل وعلا عظيم الرحمة، كثير الود والمحبة لمن تاب وأناب ﴿قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ أي قالوا لنبيهم شعيب على وجه الاستهانة: ما نفهم كثيراً مما تحدثنا به قال «الألوسي»: جعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكم والمواعظ، وأنواع العلوم والمعارف، من قبيل التخليط والهديان الذي لا يفهم معناه، ولا يدرك فحواه مع أنه كما ورد في الحديث الشريف (خَطِيبُ الْأَنْبِيَاءِ)^(٣) ﴿وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ أي لا قوة لك ولا عز فيما بيننا ﴿وَلَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ أي ولولا جماعتك لقتلناك رمياً بالأحجار ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِيزٌ﴾ أي لست عندنا بمكرّم ولا محترم حتى نمتنع من رجمك ﴿قَالَ يَقُولُونَ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾؟ هذا توبيخ لهم أي أتركوني لأجل قومي ولا تتركوني إعظاماً لجناب الرب تبارك وتعالى؟ فهل عشتري أعزّ عندكم من الله وأكرم؟ قال ابن عباس: إن قوم شعيب ورهطه كانوا أعزّ عليهم من الله وصغر شأن الله عندهم، عزّ ربنا وجلّ ثناؤه^(٤) ﴿وَأَتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا﴾ أي جعلتم الله خلف ظهوركم لا تطيعونه ولا تعظمونه كالشيء المنبوذ وراء الظهر لا يُعْبَأُ به، وهذا مثلاً قال «الطبري»: يقال للرجل إذا لم يقض حاجة الرجل: نبذ حاجته وراء ظهره أي تركها

(١) «الكشاف» ٢/ ٤٢٠.

(٢) «تفسير القرطبي» ٩/ ٩٠.

(٣) «روح المعاني» ١٢/ ١٢٣. (ش): رواه الحاكم في «المستدرک» وابن أبي حاتم في تفسيره، بإسناد ضعيف.

(٤) «تفسير الطبري» ١٢/ ١٠٦.

ولم يلتفت إليها^(١) ﴿إِنَّكَ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي إنه جل وعلا قد أحاط علماً بأعمالكم السيئة وسيجازيكم عليها ﴿وَيَقَوْمٌ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَيْكُمْ أَنِّي عَمَلٌ﴾ تهديداً شديداً أي اعملوا على طريقتهم إني عاملٌ على طريقتي كأنه يقول: اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة، فأنا ثابت على الإسلام والمصابرة ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي سوف تعلمون الذي يأتيه عذاب يذله ويهينه ﴿وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾ أي وتعلمون من هو الكاذب ﴿وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ أي انتظروا عاقبة أمركم إني منتظر معكم ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ أي ولما جاء أمرنا بإهلاكهم نجينا شعيباً والمؤمنين معه بسبب رحمة عظيمة منا لهم ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ أي وأخذ أولئك الظالمين صيحة العذاب قال «القرطبي»: صاح بهم جبريل صيحة فخرجت أرواحهم من أجسادهم^(٢) ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ﴾ أي موتى هامدين لا حراك بهم قال ابن كثير: وذكر هاهنا أنه أتتهم صيحة، وفي الأعراف رجفة، وفي الشعراء عذاب يوم الظلة، وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها، وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه^(٣) ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي كأن لم يعيشوا وقيموا في ديارهم قبل ذلك ﴿أَلَا بَعْدَ أَلَمَيْنِ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ﴾ قال «الطبري»: أي ألا أبعد الله مدين من رحمته بإحلال نقمته، كما بعدت من قبلهم ثمود من رحمته بإنزال سخطه بهم^(٤) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ هذه هي القصة السابعة وهي آخر القصص في هذه السورة والمعنى: لقد أرسلنا موسى بشرائع وأحكام وتكاليف إلهية، وأيدناه بمعجزات قاهرة، وبنات قاهرة، كالعصا واليد ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي إلى فرعون وأشراف قومه ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي فأتبعوا أمر فرعون وعصوا أمر الله ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي وما أمر فرعون بسديد لأنه ليس فيه رشد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي يتقدم أمامهم إلى النار يوم القيامة كما كان يتقدمهم في الدنيا ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ أي أدخلهم نار جهنم ﴿وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ أي بئس المدخل المدخول هي. ﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً﴾ أي ألحقوا فوق العذاب الذي عجله الله لهم لعنة في الدنيا ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي وأردفوا بلعنة أخرى يوم القيامة ﴿بِئْسَ الْوَرْدُ الْمَرْفُودُ﴾ أي بئس العون المعان والعطاء المعطى لهم، وهي اللعنة في الدارين.

البلاغة: ١ - ﴿ذَهَبَ الرُّوْعُ.. وَجَاءَتْهُ﴾ بينهما طباق وهو من المحسنات البديعية.

(١) «تفسير الطبري» ١٢/١٠٦.

(٢) «تفسير القرطبي» ٩٢/٩.

(٣) «المختصر» ٢٣١/٢.

(٤) «تفسير الطبري» ٩/١٢.

- ٢ - ﴿جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ كناية عن العذاب الذي قضاه الله لهم^(١).
- ٣ - ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ الاستفهام للتعجب والتوبيخ.
- ٤ - ﴿أَوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ قال الشريف الرضي: وهذه استعارة والمراد بها قومه وعشيرته جعلهم ركنًا؛ له لأن الإنسان يلجأ إلى قبيلته، ويستند إلى أعوانه كما يستند إلى ركن البناء الرصين، وجاء جواب «لو» محذوفًا تقديره: لحلت بينكم وبين ما هممتم به من الفساد، والحذف هاهنا أبلغ لأنه يؤهم بعظيم الجزاء وغلظ النكال^(٢).
- ٥ - ﴿عَلَيْهَا سَافِهًا﴾ بينهما طباق.
- ٦ - ﴿عَذَابٌ يَوْمٍ مُحِيطٌ﴾ فيه مجاز عقلي أسند الإحاطة لليوم مع أن اليوم ليس بجسم باعتبار أن العذاب يكون فيه، فهو إسناد للزمان.
- ٧ - ﴿وَأَخَذْتُمُوهُ وَرَأَاهُ ظَهْرًا﴾ فيه استعارة تمثيلية كالشيء الذي يلقي وراء الظهر ولا يكثر به.
- ٨ - ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ فيه استعارة مكنية لأن الورد في الأصل يقال للمرور على الماء للاستسقاء منه، فشبه النار بماء يورد وحذف ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الورد، وشبه فرعون في تقدمه على قومه بمنزلة من يتقدم على الواردين إلى الماء ليكسر العطش. وقوله ﴿وَيُسَّسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ تأكيد له لأن الورد إنما يورد لتسكين العطش وتبريد الأكباد وفي النار إلهاب للعطش وتقطيع للأكباد، نعوذ بالله من جهنم.

قال الله تعالى:

ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَنْبِيهٌ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخَذُ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْفُرَى وَهِيَ ظَلِيمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ يَجْمُوعُ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُوَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَلِيلَيْنِ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَلِيلَيْنِ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٍ﴾ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاءَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرُ مَقْصُوفٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ

(١) (ش): هذا خطأ لأن المراد الأمر الكوني القدري فليس هو كناية، بل هو أمر حقيقة كما يدل عليه كلام المؤلف في تفسيرها حيث قال: «أي جاء أمر الله بإهلاكهم».

(٢) «تلخيص البيان» ١٦٣.

فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْ مَرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ كَلَّا لَمَا يُؤْفِكُ بِهِمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَأَسْتَفِمْ كَمَا أُمِرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ تَخِلَافِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُوثِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى بعض قصص المرسلين، وما حلَّ بأمامهم من النكال والدمار، ذكر هنا العبرة من سرد هذه القصص، وهي أن تكون شاهداً على تعجيل العقوبة للمكذبين والانتقام العاجل منهم وبرهاناً على تأييد الله ونصرته لأوليائه وأنبيائه، وقد ذكرت الآيات يوم القيامة وانقسام الناس فيه إلى فريقين: سعداء، وأشقياء، وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالصبر على الأذى، والتوكل على الحي القيوم.

اللغة: ﴿وَحَصِيدٌ﴾ مستأصل كالزراع المحصود ﴿تَنْبِيْءٍ﴾ التباب: الهلاك والخسران قال لبيد:

وَلَقَدْ بَلَيْتُ وَكُلُّ صَاحِبٍ جِدَّةٍ لِبَلِيٍّ يَعُودُ وَذَاكُمُ التَّيِّبُ ^(١)
﴿زَفِيرٌ﴾ الزفير: إخراج النَّفْسِ من شدة الجري ﴿وَشْهِيْقٌ﴾ الشهيْق: ردُّ النَّفْسِ وقال الليث: الزفير أن يملأ الرجل صدره من النَّفْسِ في حال الغم الشديد ويخرجه، والشهيْق أن يخرج ذلك النَّفْسَ بشدة ^(٢) وقال بعض أهل اللغة: الزفير مثل أول نقيق الحمام، والشهيْق مثل آخره ﴿مَجْدُوذٌ﴾ مقطوع من جذه يجذبه إذا قطعه ﴿تَرْكَبُوا﴾ الركوب: الميل إلى الشيء والرضا به ﴿وَزُلْفًا﴾ الزلف: جمع زلفة وهي الطائفة من أول الليل قال ثعلب: هي أول ساعات الليل، وأصلها من الزلفى وهي القربة ﴿وَأُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ﴾ [الشعراء: ٩٠] قُرِبَتْ

(١) تفسير «القرطبي» ٩/ ٩٥. (ش): بلي الثوب ونحوه: رث وتلف، أصبح بالياً. بلي المثلث: فني وزال. البلي: الفناء. جدّة: حادثة. كُلُّ صَاحِبٍ جِدَّةٍ: كل ما هو جديد.

(٢) «البحر المحيط» ٥/ ٢٥١.

﴿أَتَرْفُوا﴾ التَّرف: البطر يقال: فلان مترف، أي: أبطرته النعمة وسعة العيش ﴿مَرِيَّة﴾ شك وريب.

سَبَبُ النِّزُول: عن ابن مسعود أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: إني عالجتُ امرأةً في أقصى المدينة، وإني أصبتُ منها من دون أن أمسسها، وأنا هذا فاقض في ما شئت! فقال له عمر: لقد سترك الله لو سترت على نفسك، فلم يردَّ عليه رسولُ الله ﷺ شيئاً، فانطلق الرجل ونزلت هذه الآية ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ فأتبعه رسول الله ﷺ رجلاً فدعاه فتلاها عليه^(١).

التفسير: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى نَفْصُهُ عَلَيْكَ﴾ أي ذلك القصص من أخبار القرى التي أهلكنا أهلها بكفرهم وتكذيبهم الرسل، نقصه عليك يا محمد ونخبرك عنه بطريق الوحي ﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ أي من هذه القرى ما هو عامر قد هلك أهله وبقي بنيانه، ومنها ما هو خراب قد اندثر بأهله فلم يبق له أثر كالزرع المحصود ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي وما ظلمناهم بإهلاكهم بغير ذنب، ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي فاستحقوا عذاب الله ونقمته ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي ما نفعتهم آلهتهم التي عبدوها من دون الله، ولا دفعت عنهم شيئاً من عقاب الله وعذابه ﴿لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي حين جاء قضاء الله بعذابهم ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا تَنْبِيْهُ﴾ أي وما زادتهم تلك الآلهة غير تخسير وتدمير ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي مثل ذلك الأخذ والإهلاك الذي أخذ الله به أهل القرى الظالمين المكذبين، يأخذ تعالى بعذابه الفجرة الظلمة قال «الألوسي»: وفي الآية من إنذار الظالم ما لا يخفى كما قال عليه السلام «إِنَّ اللَّهَ لَيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُقْلِتْهُ» ثم قرأ الآية^(٢) ﴿إِنْ أَخَذَهُ أَليمٌ شَدِيدٌ﴾ أي إن عذابه موجه شديد، وهذا مبالغة في التهديد والوعيد ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ أي إن في هذه القصص والأخبار لعظة وعبرة لمن خاف عذاب الله وعقابه في الآخرة ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ جَمْعُوهُ لَهُ النَّاسُ﴾ أي يجتمع فيه الخلائق للحساب والثواب والعقاب ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أي يشهده أهل السماء والأرض،

(١) تفسير «القرطبي» ٩/ ١١١. (ش): رواه الترمذي، وصححه الألباني، وفيه: فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: هَذَا لَهُ خَاصَّةٌ؟ قَالَ: «لَا بَلْ لِلنَّاسِ كَافَّةٌ».

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنْ امْرَأَةٍ قُبْلَةً، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾. فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَيْ هَذَا؟ قَالَ: «لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ». [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ].

(٢) «روح المعاني» ١٢/ ١٣٧. (ش): قَالَ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُقْلِتْهُ» ثُمَّ قرأ ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَليمٌ شَدِيدٌ﴾. رواه البخاري.

والأولون والآخرون قال ابن عباس: يشهده البر والفاجر^(١) ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أي ما تؤخر ذلك اليوم - يوم القيامة - إلا لزمانٍ معين سبق به قضاء الله، لا يتقدم ولا يتأخر ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِذَنبِهِ﴾ أي يوم يأتي ذلك اليوم الرهيب لا يتكلم أحدٌ إلا بإذن الله تعالى ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أي فمن أهل الموقف شقيٌّ، ومنهم سعيد كقوله ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ أي فأما الأشقياء الذين سبقت لهم الشقاوة فإنهم مستقرون في نار جهنم، لهم من شدة كربهم ﴿زَفِيرٌ﴾ وهو إخراج النفس بشدة ﴿وَشَهِيقٌ﴾ وهو ردُّ النفس بشدة، وقال بعض المفسرين: شبه صراخهم في جهنم بأصوات الحمير قال «الطبري»: في روايته عن قتادة: صوت الكافر في النار صوت الحمار، أوله زفير وآخره شهيق^(٢) ﴿خَلِدِيكَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي ما كثرين في جهنم أبداً على الدوام ما دامت السماوات والأرض قال «الطبري»: إن العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً^(٣) قالت: هذا دائمٌ دوام السماوات والأرض بمعنى أنه دائمٌ أبداً، فخطبهم جل ثناؤه بما يتعارفون به بينهم قال ابن زيد: ما دامت السماء سماء، والأرض أرضاً، والمعنى خالدين فيها أبداً وقال الزمخشري فيها وجهان: أحدهما أن تراد سماوات الآخرة وأرضها وهي دائمة مخلوقة للأبد، والثاني أن يكون عبارة عن التأييد ونفي الانقطاع^(٤) ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ الاستثناء في أهل التوحيد^(٥)، لأن لفظة ﴿شَقُّوا﴾ تعم الكفار والمذنبين، فاستثنى الله من خلود أهل الشقاوة العصاة من المؤمنين، فإنهم يطهرون في نار جهنم ثم يخرجون منها بشفاعة سيد المرسلين ﷺ ويدخلهم الله الجنة ويقال لهم: ﴿طِبِّتُمْ فَأَدْخَلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي يفعل ما يريد يرحم ويعذب كما يشاء ويختار، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ هذا بيان لحال الفريق الثاني «أهل السعادة» اللهم اجعلنا منهم أي وأما السعداء الأبرار فإنهم مستقرون في الجنة، لا يخرجون منها أبداً، دائمون فيها دوام السماوات والأرض، أو ما دامت سماوات الجنة وأرض الجنة حسب مشيئته تعالى، وقد شاء تعالى لهم الخلود والدوام ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ﴾ أي عطاءً غير مقطوع عنهم، بل هو ممتد إلى غير نهاية ﴿فَلَا

(١) «تفسير القرطبي» ٩٦/١٢.

(٢) «تفسير الطبري» ١١٧/١٢.

(٣) «تفسير الطبري» ١١٧/١٢.

(٤) «الكشاف» ٤٣/٢.

(٥) هذا اختيار «الطبري» وهو أحد أوجه عشرة ذكرها المفسرون في معنى الاستثناء، وانظر «القرطبي» ٩٩/٩.

تَكُ فِي مَرِيَّةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ ﴿١﴾ أَي لَا تَكُن فِي شَكٍّ مِنْ عِبَادَةِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ فِي أَنهَا ضَلَالٌ بِمَعْنَى لَا تَشَكَّ فِي فِسَادِ دِينِهِمْ ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أَي هُمْ مُتَّبِعُونَ لَا بَأْتَهُمْ تَقْلِيداً مِنْ غَيْرِ حُجَّةٍ وَلَا بَرَهَانٍ، وَهَذِهِ تَسْلِيَةٌ لِلرَّسُولِ ﷺ وَوَعْدٌ لَهُ بِالِاتِّقَامِ مِنْهُمْ، إِذْ حَالُهُمْ حَالٌ مِنْ سَبَقِهِمْ مِنَ الضَّالِّينَ الْمَكْذِبِينَ، وَقَدْ بَلَغَكَ مَا نَزَلَ بِأَسْلَافِهِمْ فَسَيَنْزِلُ بِهِمْ مِثْلُهُ ﴿وَإِنَّا لَمُوقِفُهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ أَي وَسَنُعْطِيهِمْ جَزَاءَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ كَامِلاً غَيْرَ مَنْقُوصٍ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا قُدِّرَ لَهُمْ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ^(١) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ قَالَ «الطَّبْرِي»: يَقُولُ تَعَالَى مُسْلِماً نَبِيَّهُ فِي تَكْذِيبِ مُشْرِكِي قَوْمِهِ لَهُ: لَا يَحْزَنُكَ يَا مُحَمَّدُ تَكْذِيبُ هَؤُلَاءِ لَكَ، فَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى التَّوْرَةَ كَمَا آتَيْنَاكَ الْفُرْقَانَ، فَاخْتَلَفَ فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ، فَكَذَّبَ بِهِ بَعْضُهُمْ، وَصَدَّقَ بِهِ بَعْضُهُمْ، كَمَا فَعَلَ قَوْمُكَ ^(٢) ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أَي وَلَوْلَا حُكْمُ اللَّهِ السَّابِقُ بِتَأْخِيرِ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا فَجُوزِيَ الْمُحْسِنُ بِإِحْسَانِهِ، وَالْمُسِيءُ بِإِسَاءَتِهِ، وَلَكِنْ سَبَقَ الْقَدَرُ بِتَأْخِيرِ الْجَزَاءِ إِلَى يَوْمِ الْحِسَابِ ^(٣) ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ أَي وَإِنْ كَفَرَ قَوْمُكَ لَفِي شَكٍّ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ مُرِيبٍ لَهُمْ، إِذْ لَا يَدْرُونَ أَحَقُّ هُوَ أَمْ بَاطِلٌ؟ ﴿وَإِنْ كَلَّا لَيُوقِفَنَّاهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أَي وَإِنْ كَلَّا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ لَمَّا يَنَالُوا جَزَاءَ أَعْمَالِهِمْ وَسَيُوفِيهِمْ رَبُّكَ جَزَاءَهَا فِي الْآخِرَةِ ﴿إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أَي عَلِيمٌ بِأَعْمَالِهِمْ جَمِيعاً، صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا، وَسَيَجَازِيهِمْ عَلَيْهَا ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتُ﴾ أَي اسْتَقِمَّ يَا مُحَمَّدُ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ وَاتَّبِعْ وَدَاوِمْ عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ كَمَا أَمَرَكَ رَبُّكَ ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ أَي وَمَنْ تَابَ مِنَ الشَّرِّ وَالْكَفْرِ وَآمَنَ مَعَكَ ﴿وَلَا تَطْعَمُوا﴾ أَي لَا تَجَاوِزُوا حُدُودَ اللَّهِ بَارْتِكَابِ الْمَحَارِمِ ﴿إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أَي إِنَّهُ تَعَالَى مُطَّلِعٌ عَلَى أَعْمَالِكُمْ وَيَجَازِي عَلَيْهَا ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُكُمْ أَلْتَارُ﴾ أَي لَا تَمِيلُوا إِلَى الظُّلْمَةِ مِنَ الْوَلَاةِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْفُسْقَةِ الْفَجْرَةِ فَمَا تَمْسِكُكُمْ نَارُ جَهَنَّمَ قَالَ «الْبَيْضَاوِيُّ»: الرُّكُونُ هُوَ الْمِيلُ الْيَسِيرُ، أَي: لَا تَمِيلُوا إِلَيْهِمْ أَدْنَى مِيلٍ فَمَا تَمْسِكُكُمْ النَّارُ بِرُكُونِكُمْ إِلَيْهِمْ، وَإِذَا كَانَ الرُّكُونُ الْيَسِيرَ إِلَى مَنْ وَجَدَ مِنْهُ مَا يَسْمَى ظُلْماً كَذَلِكَ، فَمَا ظَنُّكَ بِالرُّكُونِ إِلَى الظَّالِمِينَ الْمَوْسُومِينَ بِالظُّلْمِ، وَالْمِيلُ إِلَيْهِمْ كُلُّ الْمِيلِ ^(٤)؟! ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ أَي لَيْسَ لَكُمْ مِنْ يَمْنَعُكُمْ مِنْ عَذَابِهِ ثُمَّ لَا تَجِدُونَ مَنْ

(١) «تفسير الطبري» ١٢/ ١٢٢.

(٢) «تفسير الطبري» ١٢/ ١٢٣.

(٣) (ش): أَي: وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنَ اللَّهِ بِإِمْهَالِ الْعَاصِينَ وَعَدَمِ مُعَاجَلَتِهِمْ بِذُنُوبِهِمْ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ: بَأَن يَهْلِكَ أَهْلُ الْبَاطِلِ مِنْهُمْ، وَيُنْجَى أَهْلُ الْحَقِّ.

(٤) «البيضاوي» ٢٥٨.

ينصركم من ذلك البلاء قال «القرطبي»: والآية دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي فإنَّ ضُحْبَتَهُمْ كُفْرٌ أو معصية إذ الضُّحْبَةُ لا تكون إلا عن مودَّة، وأما ضُحْبَةُ الظالم على التقيَّة فمستثناة من النهي بحال الاضطرار^(١) ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ أي أقم الصلاة المكتوبة على تمامها وكمالها أول النهار وآخره، والمراد صلاة الصبح والعصر لأنهما طرفا النهار^(٢) ﴿وَرُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ أي ساعاتٍ منه قريبة من النهار، والمراد بهما المغرب والعشاء ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي إن الأعمال الصالحة ومنها الصلوات الخمس تكفر الذنوب الصغائر، لحديث «الصلوات الخمس كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر»^(٣).

قال المفسرون: المراد بالحسنات الصلوات الخمس واستدلوا على ذلك بسبب النزول، وهذا قول الجمهور، والأظهر أن المراد بها العموم وهو اختيار ابن كثير حيث قال: المعنى إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة كما جاء في الحديث «مَا مِنْ مُّسْلِمٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا فَيَتَوَضَّأُ وَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ إِلَّا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ»^(٤) ﴿ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّكْرِينَ﴾ أي ذلك المذكور من الاستقامة والمحافظة على الصلاة، عظة للمتعتزين وإرشاد للمسترشدين ﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي اصبر يا محمد على ما تلقى من المكارِه ومن أذى المشركين، فإن الله معك وهو لا يضيع ثواب المحسنين ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ أي فهلاً كان من الأمم الماضية قبلكم أولو عقل وفضل، وجماعة أحياناً ينهون الأشرار عن الإفساد في الأرض ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ آجِنَا مِنْهُمْ﴾ استثناء منقطع أي لكن قليلاً منهم، نهوا عن الفساد فَنَجَوْا قال في البحر: «لولا» في الآية للتحضيض صاحبها معنى التأسف والتفجع مثل قوله ﴿يَحْسِرَةُ عَلَى الْعِبَادِ﴾ [يس: ٣٠] والغرض التأسف على تلك الأمم التي لم تهتد بكموم نوح وعاد وثمود ومن تقدم ذكره^(٥) ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أي واتبع أولئك الظلمة شهواتهم، وما نعيموا به من الاشتغال بالمال واللذات وآثروها على الآخرة ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي وكانوا قومًا

(١) تفسير القرطبي ١٠٨/٩.

(٢) هذا قول الحسن وقتادة واختار «الطبري» أنهما الصبح والعصر وهو مروي عن ابن عباس.

(٣) (ش): قال ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهنَّ ما اجتنب الكبائر» [رواه أحمد]. ورواه مسلم بلفظ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهنَّ إذا اجتنب الكبائر».

(٤) «المختصر» ٢٣٥/٢. (ش): أنه قال ﷺ: «ما من عبد يُذنب ذنباً فيتوضأ فيحسن الوضوء ثم يصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر الله له». ثم قرأ هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ إلى آخر الآية. [رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه وصححه الألباني].

(٥) «البحر المحيط» ٢٧١/٥.

مَصْرِينَ عَلَى الْإِجْرَامِ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ أي ما جرت عادة الله تعالى أن يهلك القرى ظلماً وأهلها مصلحون في أعمالهم، لأنه تعالى منزه عن الظلم، وإنما يهلكهم بكفرهم ومعاصيهم ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي لو شاء الله لجعل الناس كلهم مؤمنين مهتدين على ملة الإسلام، ولكنه لم يفعل ذلك للحكمة ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ ١١٨ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ ﴿أَيَّ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ عَلَى أَدْيَانِ شَتَىٰ، وملل متعددة ما بين يهودي، ونصراني، ومجوسي، إلا ناساً هداهم الله من فضله وهم أهل الحق ﴿وَلِذَلِكَ خَلَفَهُمُ﴾ اللام لام العاقبة أي خلقتهم لتكون العاقبة اختلافاً بينهم ما بين شقي وسعيد قال «الطبري»: المعنى وللاختلاف بالشقاء والسعادة خلقتهم، فريق في الجنة، وفريق في السعير^(١) ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي تمَّ أمر الله ونفذ قضاؤه بأن يملأ جهنم من الجن والإنس من الكفرة الفجرة جميعاً قال «الألوسي»: والجملة متضمنة معنى القسم ولذا جيء باللام في ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾^(٢) وكأنه قال: والله لأملأَنَّ جهنم من أتباع إبليس من الإنس والجن أجمعين ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا ثَبَتْنَا بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي كل هذه الأخبار التي قصصناها عليك يا محمد من أخبار الرسل السابقين، إنما هي بقصد تثبيتك على أداء الرسالة، وتطمين قلبك، ليكون لك بمن مضى من إخوانك المرسلين أسوة فتصبر كما صبروا ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ أي جاءك في هذه الأنبياء التي قصها الله عليك النبأ اليقيني الصادق ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وجاءك في هذه الأخبار أيضاً ما فيه عظة وعبرة للمعتبرين، وخصَّ المؤمنين بالذكر لانتفاعهم بمواعظ القرآن ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ أي اعملوا على طريقتهكم ومنهجكم إنا عاملون على طريقتنا ومنهجنا، وهو أمر ومعناه التهديد والوعيد ﴿وَأَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ تهديد آخر أي انتظروا ما يحل بنا إنا منتظرون ما يحل بكم من عذاب الله ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي علم ما غاب وخفي فيهما، كل ذلك بيده وبعلمه ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ أي إليه يردُّ أمر كل شيء، فينتقم ممن عصى، ويثيب من أطاع وفيه تسلية للنبي ﷺ وتهديد للكفار بالانتقام منهم ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ أي اعبد ربك وحده، وفوض إليه أمرك، ولا تعتمد على أحد سواه، فإنه كافي من توكل عليه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد، ويجازي كلا بعمله.

البلاغة: ١ - ﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ شبه ما بقي من آثار القرى وجدرانها بالزرع القائم

(١) «تفسير الطبري» ١٢ / ١٤٤.

(٢) «روح المعاني» ١٢ / ١٦٥.

على ساقه، وشبه ما هلك مع أهله ولم يبق له أثر بالزرع المحصود بالمناجل على طريق الاستعارة المكنية.

- ٢ - ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ فيه طباق السلب.
- ٣ - ﴿إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ﴾ مجازٌ عن الأهل أي أخذ أهل القرى.
- ٤ - ﴿شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ بينهما طباقٌ وهو من المحسنات البديعية.
- ٥ - ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا.. وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا﴾ فيه لفٌّ ونشر مرتب.
- ٦ - ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ الكلمة هنا كناية عن القضاء والقدر.
- ٧ - ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ بينهما طباق.
- ٨ - ﴿ذَكَرْنَا لِلذَّاكِرِينَ﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

تنبيه: خلود أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، ثابتٌ مقطوعٌ به بالنصوص العديدة، وأما الاستثناء بالمشيئة في هذه السورة فقد استعمل في أسلوب القرآن للدلالة على الثبوت والاستمرار، والنكتة في ذكره بيان أن هذه الأمور إنما كانت بمشيئته تعالى ولو شاء لغيرها، وليس شيء خارجاً عن مشيئته، فالإيمان والكفر، والسعادة والشقاوة، والخلود والخروج كلها بمشيئته تعالى.

فائدة: أشار الشهاب إلى لطيفة من البلاغة القرآنية، وهي أن الأوامر بأفعال الخير أفردت للنبي ﷺ وإن كانت عامة في المعنى ﴿فَأَسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ﴾، ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾، ﴿وَأَصْبِرْ﴾ وفي المنهيات جمعت للأمة ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾، ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كذا في «الغناية»^(١).



(١) (ش): حاشية الشَّهَابِ عَلَى تَفْسِيرِ الْبَيْضَاوِيِّ (المُسَمَّاة: عَنَايَةُ الْقَاضِي وَكَفَايَةُ الرَّاضِي عَلَى تَفْسِيرِ الْبَيْضَاوِيِّ) لأحمد بن محمد بن عمر شهاب الدين الخفاجي المصري الحنفي، (١٤٥/٥).



مكية، وآياتها إحدى عشرة ومائة

بين يدي السورة

* سورة يوسف إحدى السور المكية التي تناولت قصص الأنبياء، وقد أفردت الحديث عن قصة نبي الله «يوسف بن يعقوب» وما لاقاه عليه السلام من أنواع البلاء، ومن ضروب المحن والشدائد، من إخوته ومن الآخرين، في بيت عزيز مصر، وفي السجن، وفي تأمر النسوة، حتى نجَّاه الله من ذلك الضيق، والمقصود بها تسلية النبي ﷺ بما مرَّ عليه من الكرب والشدة، وما لاقاه من أذى القريب والبعيد.

* والسورة الكريمة أسلوبٌ فذ فريد، في ألفاظها، وتعبيرها، وأدائها، وفي قصصها الممتع اللطيف، تسري مع النفس سريان الدم في العروق، وتجري -برقتها وسلاستها- في القلب جريان الروح في الجسد، فهي وإن كانت من السور المكية، التي تحمل -في الغالب- طابع الإنذار والتهديد، إلا أنها اختلفت عنها في هذا الميدان، فجاءت طرية ندية، في أسلوب ممتع لطيف، سلس رقيق، يحمل جو الأنس والرحمة، والرأفة والحنان، ولهذا قال خالد بن معدان: «سورة يوسف ومريم مما يتفكه بهما أهل الجنة في الجنة»^(١) وقال عطاء: «لا يسمع سورة يوسف محزونٌ إلا استراح إليها»^(٢).

* نزلت السورة الكريمة على رسول الله ﷺ بعد سورة «هود»، في تلك الفترة الحرجة العصيبة من حياة الرسول الأعظم ﷺ، حيث توالى الشدائد والنكبات عليه وعلى المؤمنين، وبالأخص بعد أن فقد عليه السلام نصيرَه: زوجه الطاهر الحنون «خديجة» وعمه «أبا طالب» الذي كان له خير نصير، وخير معين، وبوفاتهما اشتد الأذى والبلاء على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين، حتى عُرف ذلك العام بـ «عام الحزن».

* في تلك الفترة العصيبة من حياة الرسول الكريم، وفي ذلك الوقت الذي كان يعاني فيه الرسول والمؤمنون الوحشة، والغربة، والانقطاع في جاهلية قريش، كان الله سبحانه ينزل على نبيه الكريم هذه السورة تسليَّةً له، وتخفيفاً لآلامه، بذكر قصص المرسلين، وكأن الله تعالى يقول لنبيه عليه السلام: لا تحزن يا محمد ولا تتفجع لتكذيب قومك، وإيذائهم لك، فإن بعد الشدة فرجاً، وإن بعد الضيق مخرجاً، انظر إلى أخيك «يوسف» وتمعنْ ما حدث له من صنوف البلايا والمحن، وألوان الشدائد والنكبات، وما ناله من ضروب

(١) (ش): وصُفَّ الجنة ونعيم أهلها من الغيب الذي لا يثبت إلا بدليل من القرآن الكريم أو السنة الصحيحة.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٢ / ٣٣٢.

المِحَن: محنة حَسَد إخوته وكيدهم له، ومحنة رميه في الحب، ومحنة تعلق امرأة العزيز به وعشقها له، ثم مرادوته عن نفسه بشتى طرق الفتنة والإغراء، ثم محنة السجن بعد ذلك العِزَّ ورغد العيش! انظر إليه كيف أنه لما صبر على الأذى في سبيل العقيدة، وصبر على الضر والبلاء، نقله الله من السجن إلى القصر، وجعله عزيزاً في أرض مصر، وملكه الله خزائنها، فكان السيد المطاع، والعزيز المكرم.. وهكذا أفعل بأوليائي، ومن صبر على بلائي، فلا بد أن توطن النفس على تحمل البلاء، اقتداءً بمن سبقك من المرسلين ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرُ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

وهكذا جاءت قصة يوسف الصديق تسلياً لرسول الله ﷺ عما يلقيه، وجاءت تحمل البشرَ والأنس، والراحة، والطمأنينة لمن سار على درب الأنبياء، فلا بدَّ من الفرج بعد الضيق، ومن اليسر بعد العُسْر، وفي السورة دروسٌ وعبر، وعظات بالغات، حافلات بروائع الأخبار العجيبة، والأنباء الغريبة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

* هذا هو جو السورة، وهذه إحياءاتها ورموزها. تُبَشِّر بقرب النصر، لمن تمسَّك بالصبر، وسار على طريق الأنبياء والمرسلين، والدعاة المخلصين، فهي سلوى للقلب، وبلسمٌ للجروح، وقد جرت عادة القرآن الكريم بتكرير القصة في مواطن عديدة، بقصد «العة والاعتبار» ولكن بإيجاز دون توسع، لاستكمال جميع حلقات القصة، وللتشويق إلى سماع الأخبار دون سامة أو ملل، وأما سورة يوسف فقد ذكرت حلقاتها هنا متتابعة بإسهاب وإطناب، ولم تكرر في مكان آخر كسائر قصص الرسل، لتشير إلى «إعجاز القرآن» في المجلد والمفصل، وفي حالتي الإيجاز والإطناب، فسبحان الملك العلي الوهاب.

* قال العلامة «القرطبي»: ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن، وكررها بمعنى واحد، في وجوه مختلفة، وبألفاظ متباينة، على درجات البلاغة والبيان، وذكر قصة يوسف عليه السلام ولم يكررها، فلم يقدر مخالف على معارضة المكرر، ولا على معارضة غير المكرر، والإعجاز واضح لمن تأمل.

قال الله تعالى:

الرَّيَّةَ أَيْتَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفِيلِ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَبْنَئُ لَكَ نَقْصُ رُءُوكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ

يَحْيِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلْسَائِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ أَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْنُتُوا يَوْسُفَ أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْنُتُوا يَوْسُفَ وَالْقَوْمُ فِي غِيبَتِ الْجُبِّ يَلْقِظُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا يَتَّبِعَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَفَظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَخَافَتُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهُمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءَ آبَاؤُهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَتَّبِعَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِ وَيُتْرَكْنَا يَوْسُفَ عِنْدَ مَتَلَعِنَا فَاكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةَ اللَّهِ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِأُمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

اللغة: ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ الظاهر الجلي ﴿الْقَصَصِ﴾ إيتباع الخبر بعضه بعضاً وأصله في اللغة المتابعة ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١] أي أتبعي أثره والمراد بالقصص الأخبار التي قصّها علينا الله في كتابه العزيز ﴿الرَّءْيَا﴾ خاصة بالمنام وأما باليقظة فهي بالتاء (الرؤية) قال «الألوسي»: مصدر رأى الحُلُمِيّة الرؤيا ومصدر البصريّة الرؤية، ولهذا خُطئ المتنبي في قوله «وَرُؤْيَاكَ أَحَلَّى فِي الْعُيُونِ مِنَ الْعَمَضِ»^(١) ﴿يَحْيِيكَ﴾ الاجتباء: الاصطفاء والاختيار وأصله من جبيت الشيء أي حصّلته ﴿عُصْبَةٌ﴾ جماعة قال الفراء: ما زاد على العشرة، والعصبة والعصابة العشرة فصاعداً ﴿أَطْرَحُوهُ﴾ الطرح: رمي الشيء وإلقاؤه ﴿غَيْبَتِ الْجُبِّ﴾ قَعْرُهُ وَغَوْرُهُ^(٢) سُمِّيَ به لغيبته عن عين الناظر ﴿يَرْتَعْ﴾ يتسع في أكل ما لذ وطاب قال الراغب: الرتع حقيقته في أكل البهائم ويستعار للإنسان إذا أريد به الأكل الكثير قالت الخنساء:

(١) «روح المعاني» ١٢ / ١٧٩.

(٢) (ش): الجُبُّ: بئر، حفرة واسعة عميقة، كثيرة الماء. غَوْرُهُ: عُمُقُهُ.

تَرْتَعُ مَا رَتَعْتَ حَتَّى إِذَا اذْكُرْتَ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِذْبَارٌ^(١)
 ﴿السَّيَّارَةُ﴾ المسافرين ﴿سَوَّلَتْ﴾ زَيَّنَتْ ﴿وَارِدَهُمْ﴾ الوارد الذي يَرِدُ الماءَ ليستقي
 للقوم^(٢).

سَبَبُ النُّزُول: روي أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف وما حصل له مع
 إخوته من أولاد يعقوب فنزلت السورة^(٣).

التفسير: ﴿الر﴾ إشارة إلى الإعجاز، فمن هذه الحروف وأمثالها تتألف آيات الكتاب
 المعجز ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي تلك الآيات التي أنزلت إليك يا محمد هي آيات
 الكتاب المعجز في بيانه، الساطع في حججه وبراهينه، الواضح في معانيه، الذي لا تشبهه
 حقائقه، ولا تلبس دقائقه ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي أنزلناه بلغة العرب كتاباً عربياً
 مؤلفاً من هذه الأحرف العربية ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي لكي تعقلوا وتدرکوا أن الذي
 يصنع من الكلمات العادية هذا الكتاب المعجز^(٤) ليس بشراً، وإنما هو إله قدير، وهذا
 الكلام وحي منزل من رب العالمين ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ أي نحن نحدثك يا
 محمد ونروي لك أخبار الأمم السابقة، بأصدق كلام، وأحسن بيان ﴿يَمَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا
 الْقُرْآنَ﴾ أي بإيحائنا إليك هذا القرآن المعجز ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفْلِينَ﴾
 أي وإن الحال والشأن أنك كنت من قبل أن نوحى إليك هذا القرآن لمن الغافلين عن
 هذه القصة، لم تخطر ببالك، ولم تفرغ سمعك، لأنك أُمِّيٌّ لا تقرأ ولا تكتب ﴿إِذْ قَالَ
 يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ من هنا بداية القصة، أي اذكر حين قال يوسفُ

(١) تصف بقرة فقدت ولدها فكلما غفلت عنه رتعت فإذا ذكرته حنت إليه فأقبلت وأدبرت. وهو مثل لفقدها
 أخاها صخرًا. (ش:) قالت الخنساء في قصيدة ترثي بها أخاها صخرًا

تَرْتَعُ مَا رَتَعْتَ حَتَّى إِذَا اذْكُرْتَ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِذْبَارٌ
 ومعنى: (ترتع): ترعى. تصف ناقه أو بقرة فقدت ولدها، فكلما غفلت عنه رتعت، فإذا اذكرته حنت إليه فأقبلت
 وأدبرت، فضربتها مثلاً لفقدها أخاها صخرًا.

(٢) (ش:) وَرَدَ فَلَانُ الْمَكَانَ: وَرَدَ فَلَانٌ عَلَى الْمَكَانِ: أَشْرَفَ عَلَيْهِ، أَتَاهُ، دَخَلَهُ أَوْ لَمْ يَدْخُلْهُ وَرَدَ فَلَانُ الْمَاءِ: أَقْبَلَ
 عَلَيْهِ.

(٣) (ش:) باطل لا أصل له. عزه ابن الجوزي للضحاك عن ابن عباس، والضحاك لم يلق ابن عباس. عَنْ سَعْدِ
 بْنِ أَبِي وَقَاصٍ، فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] الآية. قَالَ: «نَزَلَ الْقُرْآنُ
 عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَلَا عَلَيْهِمْ زَمَانًا فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ قَصَصْتَ عَلَيْنَا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ
 الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١] تَلَا إِلَى قَوْلِهِ ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] الآية. فَتَلَا عَلَيْهِمْ
 زَمَانًا فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ حَدَّثْتَنَا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ لَحْدِيثٍ كُنَّا مُتَشَبِّهًا﴾ [الزمر: ٢٣]
 الآية. كُلُّ ذَلِكَ يُؤْمَرُ بِالْقُرْآنِ [رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي].

(٤) انظر ما كتبهنا حول الحروف المقطعة والتحقيق الدقيق حول الموضوع في أول سورة البقرة.

لأبيه يعقوب: يا أباي، إني رأيت في المنام هذه الرؤيا العجيبة، رأيت أحد عشر كوكباً من كواكب السماء خرت ساجدةً لي ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ أي ورأيت في المنام الشمس والقمر ساجدةً لي مع الكواكب قال ابن عباس: كانت الرؤيا فيهم وحيًا^(١) قال المفسرون: الكواكب الأحد عشر كانت إخوته، والشمس والقمر أبواه، وكان سنُّه إذ ذاك اثنتي عشرة سنة، وبين هذه الرؤيا واجتماعه بأبيه وإخوته في مصر أربعون سنة^(٢) ﴿قَالَ يَبْنَئُ لَنَا نَقْصُصُ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ أي قال له يعقوب: لا تخبر بهذه الرؤيا إخوتك ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ أي فيحتالوا لإهلاكك حيلةً عظيمة لا تقدر على ردّها ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر العداوة قال أبو حيان: فهم يعقوب من رؤيا يوسف أن الله تعالى يبلغه مبلغاً من الحكمة، ويصطفيه للنبوّة، وينعم عليه بشرف الدارين، فخاف عليه من حسد إخوته فنهاه أن يقصّ رؤياه عليهم^(٣) ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ﴾ أي وكما أراك مثل هذه الرؤيا العظيمة كذلك يختارك ربك للنبوّة ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي يعلمك تفسير الرؤيا المنامية ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ أي يتمم فضله وإنعامه عليك وعلى ذرية أبيك يعقوب ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ أي كما أكمل النعمة من قبل ذلك على جدك إبراهيم وجدك إسحاق بالرسالة والاصطفاء ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليمٌ بمن هو أهل للفضل، حكيم في تدبيره لخلقهِ ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ أي لقد كان في خبر يوسف وإخوته الأحد عشر عبرٌ وعظاتٌ للسائلين عن أخبارهم ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا﴾ هذه هي المحنة الأولى ليوسف عليه السلام أي حين قالوا: والله ليوسف وأخوه «بنيامين» أحبُّ منا عند أبينا، أرادوا أن زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه، وإنما قالوا ﴿وَأَخُوهُ﴾ وهم جميعاً إخوة لأن أمهما كانت واحدة ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي والحال نحن جماعة ذوو عدد، نقدر على النفع والضرر، بخلاف الصغيرين ﴿إِنَّا أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي إنه في خطأ وخروج عن الصواب بين واضح، لإيثاره يوسف وأخاه علينا بالمحبة قال «القرطبي»: لم يريدوا ضلال الدين إذ لو أرادوه لكفروا، وإنما أرادوا أنه في خطأ بين في إيثار اثنين على عشرة^(٤) ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ طَرْحُوهُ أَرْضًا﴾ أي أقتلوا يوسف أو ألقيه في أرض بعيدة مجهولة ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ﴾ أي فعند ذلك يخلص لكم حبُّ أبيكم، فيقبل عليكم قال «الرازي»: المعنى إن

(١) «تفسير الطبري» ١٢ / ١٥١.

(٢) الصاوي على الجلالين ٢ / ٢٣٤.

(٣) «البحر المحيط» ٥ / ٢٨٠.

(٤) «تفسير القرطبي» ٩ / ١٣١.

يوسف شغله عنا وصرف وجهه إليه، فإذا فقدته أقبل علينا بالمحبة والميل ^(١) ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ أي وتوبوا من بعد هذا الذنب وتصبحوا قوماً صالحين ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ أي قال لهم أخوهم «يهودا» ^(٢) وهو أكبر ولد يعقوب: لا تقتلوا يوسف بل ألقيه في قعر الجب وغوره ﴿يَلْقَظُهَا بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أي يأخذه بعض المارة من المسافرين ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي إن كان لا بد من الخلاص منه فافتقوا بذلك، وكان رأيهم فيه أهون شراً من رأي غيره ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ المعنى أي شيء حدث لك حتى لا تأمنا على أخينا يوسف، ونحن جميعاً أبناءك؟ ﴿وَأَنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ﴾ أي ونحن نشفق عليه ونريد له الخير قال المفسرون: لما أحكموا العزم ذكروا هذا الكلام وأظهروا عند أبيهم أنهم في غاية المحبة ليوسف، وفي غاية الشفقة عليه، ليستنزله عن رأيهم في تخوفه منهم وكأنهم قالوا: لِمَ تخافنا عليه ونحن نحبه ونريد الخير به! ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ أي أرسله معنا غداً إلى البادية، يتسع في أكل ما لذ وطاب ويله ويلعب بالاستباق وغيره ﴿وَأَنَّا لَهُ لَنَحْفَظُونَهُ﴾ أي ونحن نحفظه من كل سوء ومكروه، أكدوا كلامهم بـ «إِنَّ» واللام وهم كاذبون ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ أي قال لهم يعقوب: إنه ليؤلمني فراقه لقلته صبري عنه ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ أي وأخاف أن يفترسه الذئب في حال غفلتكم عنه، وكأنه لقنهم الحجة قال الزمخشري: إعتذر إليهم بشيئين: أحدهما: أن ذهابهم به ومفارقتهم إيَّاه مما يحزنه لأنه كان لا يصبر عنه ساعة، والثاني: خوفه عليه من الذئب إذا غفلوا عنه برغيهم ولعبيهم ^(٣) ﴿قَالُوا لَنْ نَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذَا لَخَّيْرُونَ﴾ اللام للقسم أي والله لئن أكله الذئب ونحن جماعة أقوياء أشداء إنا لمستحقون أن يدعى علينا بالخسارة والدمار ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ في الكلام محذوف، أي: فأرسله معهم فلما أخذوه وابتعدوا به عن أبيه ﴿وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ أي عزموا واتفقوا على إلقائه في غور الجب ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي أوحينا إلى يوسف لتخبرن إخوتك بفعلهم هذا الذي فعلوه بك وهم لا يشعرون في ذلك الوقت أنك يوسف، قال «الرازي»: وفائدة هذا الوحي تأنيسه، وتكسين نفسه، وإزالة الغم والوحشة عن قلبه، بأنه سيحصل له الخلاص من هذه المحنة ^(٤) ﴿وَجَاءَ آبَاَهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ أي رجعوا إلى أبيهم وقت العشاء ليلاً وهم يبكون، روي أنه لما سمع يعقوب بكاءهم فزع، وقال: ما لكم يا بني،

(١) «الرازي» ٩٤ / ١٨.

(٢) هذا قول ابن عباس. وقيل: هو «روبييل» وهو قول قتادة.

(٣) «الكشاف» ٤٤٨ / ٢.

(٤) «الفخر الرازي» ١٨ / ١٠٠.

وأين يوسف؟ ﴿قَالُوا يَتَابَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِ﴾ أي نتسابق في العدو، أو في الرمي ﴿وَتَرَكَنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ أي تركنا يوسف عند ثيابنا وحوائجنا ليحفظها فجاء الذئب فافترسه ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ أي لست بمصدق لنا في هذه المقالة ولو كنا في الواقع صادقين، فكيف وأنت تتهمنا وغير واثق بقولنا؟ وهذا القول منهم يدل على الارتباب، وكما قيل: يكاد المريب يقول خذوني ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي جاءوا على ثوبه بدم كاذب، وُصِفَ بالمصدر مبالغة كأنه نفس الكذب وعينه قال ابن عباس: ذبحوا شاة ولطخوا بدمها القميص فلما جاءوا يعقوب قال: كذبتُم لو أكله الذئب لخرقَ القميص^(١) وروي أنه قال: «ما أحلم هذا الذئب أكل ابني ولم يشق قميصه»؟ ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمُ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أي زينت لكم أنفسكم أمراً في يوسف وليس كما زعمتم أن الذئب أكله ﴿فَصَبَّرْ جَمِيلٌ﴾ أي أمري صبرٌ جميل لا شكوى فيه ﴿وَاللَّهُ أَلْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ أي وهو سبحانه عوني على تحمُّل ما تصفون من الكذب ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ أي قوم مسافرون مروا بذلك الطريق قال ابن عباس: جاء قوم يسرون من مدين إلى مصر فأخطئوا الطريق فانطلقوا يهيمون حتى هبطوا على الأرض التي فيها جُبُّ يوسف، وكان الجُبُّ في قفرة^(٢) بعيدة عن العمران^(٣) ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ أي بعثوا من يستقي لهم الماء ﴿فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ أي أرسل دلوه في البئر. قال المفسرون: لما أدلى الوارد دلوه وكان يوسف في ناحية من قعر البئر تعلّق بالحبل فخرج فلما رأى حسنه وجماله نادى ﴿قَالَ يَبَشِّرْنِي هَذَا عَلِيمٌ﴾ قاله على سبيل السرور والفرح لتبشير نفسه وجماعته. قال «أبو السعود»: كأنه نادى البشرى وقال: تعالني فهذا أو أُنْكِ^(٤) حيث فاز بنعمة جلييلة^(٥) ﴿وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً﴾ أي أخفوا أمره عن الناس لبيعوه في أرض مصر متاعاً كالْبضَاعَةِ والضمير يعود على الوارد وجماعته ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي لا يخفى عليه سبحانه أسرارهم، وما عزموا عليه في أمر يوسف ﴿وَشَرَّوهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ هذه هي المحنة الثانية في حياة يوسف الصديق وهي محنة الاسترقاق أي باعه أولئك المارة الذين استخرجوه من البئر بثمنٍ قليل منقوص هو عشرون درهماً كما قال ابن عباس ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ أي وكانوا في يوسف من الزاهدين الذين لا يرغبون فيه لأنهم التقطوه وخافوا أن يكون

(١) «تفسير الطبري» ١٢ / ١٦٤.

(٢) (ش): الجُبُّ: بئر، حفرة واسعة عميقة، كثيرة الماء. قفرة: أرض خالية من الماء والعُشب والناس.

(٣) «الرازي» ١٨ / ١٠٥.

(٤) (ش): أي كأنه نادى البشرى وقال لها: تعالني أيتها البشرى فهذا أو أُنْكِ أي اقربي أو احضري فهذا زَمْنُكَ.

(٥) «أبو السعود» ٢ / ٥٩. (ش): الذي في تفسير «أبي السعود»: «حيث فاز بنعمة باردة وأي نعمة مكان ما يوجد

مباحاً من الماء».

عبدًا أَبَقًا فينتزعه سيّده من أيديهم، ولذلك باعوه بأبخس الأثمان ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ أي وقال الذي اشتراه من مدينة مصر لزوجته: أكرمي إقامته عندنا قال ابن عباس: كان اسم الذي اشتراه «قطفير» وهو العزيز الذي كان على خزان مصر^(١) ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ أي عسى أن يكفيننا بعض المهمات إذا بلغ أو نتبناه حيث لم يكن يولد لهما ولد ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي وكما نجيناه من الجب جعلناه متمكنًا في أرض مصر يعيش فيها بعر وأمان ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي نوفقه لتعبير بعض المنامات ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِأَمْرِهِ﴾ أي لا يعجزه تعالى شيء ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون لطائف صنعه وخفايا فضله ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي بلغ منتهى شدته وقوته وهو ثلاثون سنة ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي أعطيناه حكمة وفقها في الدين ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي المحسنين في أعمالهم.

البلاغة: ١ - ﴿تِلْكَ آيَاتُ﴾ الإشارة بالبعيد لبعده مرتبته في الكمال وعلو شأنه.

٢ - ﴿كَمَا أَنَّمَاهَا عَلَى أَبَوَيْكَ﴾ تشبيه مرسل مجمل.

٣ - ﴿رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ قال الشريف الرضي: هذه استعارة لأن الكواكب والشمس والقمر مما لا يعقل فكان الوجه أن يقال: ساجدة، ولكنها لما أطلق عليها فعل من يعقل جاز أن توصف بصفة من يعقل لأن السجود من فعل العقلاء^(٢).

٤ - ﴿يَدْمِ كَذِبٍ﴾ الدم لا يوصف بالكذب والمراد بدم مكذوب فيه أو دم ذي كذب وجيء بالمصدر على طريق المبالغة.

لطيفة: روي أن امرأة تحاكت إلى شريح فبكت فقال الشعبي: يا أبا أمية أما تراها تبكي؟ فقال الشعبي: لقد جاء إخوة يوسف ييكون وهم ظلمة كذبة، لا ينبغي للإنسان أن يقضي إلا بالحق^(٣).

تنبيه: ذهب بعض المفسرين إلى أن إخوة يوسف أنبياء واستدلوا على ذلك بأنهم الأسباط المذكورون في قوله تعالى ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ [آل عمران: ٨٤] والصحيح أن الأسباط ليسوا أولاد يعقوب وإنما هم القبائل من ذرية يعقوب كما نبّه عليه المحققون، ولو كان إخوة يوسف أنبياء لما أقدموا على مثل هذه الأفعال الشنيعة، فالحسد، والسعي بالفساد، والإقدام على القتل، والكذب، وإلقاء يوسف في الجب، كل ذلك من الكبائر التي تنافي

(١) «تفسير الطبري» ١٢ / ١٧٥.

(٢) «تلخيص البيان» ١٦٩.

(٣) «الفخر الرازي» ١٨ / ١٠١.

عصمة الأنبياء، فالقول بأنهم أنبياء - مع هذه الجرائم - لا يقبله عقل حصيف، وانظر ما قاله العلامة ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في هذا الشأن، فإنه لطيف ودقيق.

قال الله تعالى:

وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجُلًا بُرْهَنَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ قُبْلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرِيهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَجْدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَكْسَحَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصُبُ إِلَيْهِنَّ وَلَكِنَّ مِنْ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْأَيَّاتِ لَيَسْجُنَنَّهُ. حَتَّى حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ابْرَهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْحَحِي السِّجْنَ أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَّحْدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَصْحَحِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَلَهُ الشَّيْطَانُ وَكَرَّ رَبُّهُ فَلَيْثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى ما أكرم به يوسف من الإقامة في القصر مع عزيز مصر، ذكر هنا

ما تعرّض له عليه السلام من أنواع الفتنة والإغراء من زوجة العزيز، وصموده أمام تلك الفتنة العارمة، وما ظهر منه من العفة والنزاهة حتى أثر دخول السجن على عمل الفاحشة، وكفى بذلك برهاناً على عفته وطهارته.

اللغة: ﴿وَرَوَدَتْهُ﴾ المرادة: الطلب برفقٍ ولين مأخوذة من راد يروُد إذا جاء وذَهَب، ومنه الرائد لطلب الكلاء، يقال في الرجل: راودها عن نفسها، وفي المرأة راودته عن نفسه أي طلبت منه مضاجعتها ﴿هَيَّتَ﴾ اسم فعل أمر بمعنى تعال وهُلِّمْ ﴿مَثَوَايَ﴾ مقامي، والشواء الإقامة مع الاستقرار ﴿هَمَّتْ﴾ الهمُّ يأتي بمعنى العزم والقصد، ومنه ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ [غافر: ٥] ويأتي بمعنى الخاطر وحديث النفس دون عزم قال الشاعر:

هَمَمْتُ بِهِمْ مِنْ بُشَيْنَةٍ لَوْ بَدَا
شَفَيْتُ عَلَيَّاتِ الْهُوَى مِنْ فُؤَادِيَا^(١)
فَالْهَمُّ من امرأة العزيز كان هَمَّ عزم وتصميم، والهمُّ من يوسف كان مجرد حديث نفس ﴿السُّوءَ﴾ المنكر، والفجور، والمكروه ﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾ ما تنهى قبحه والمراد به الزنى ﴿وَقَدَّتْ﴾ القُدُّ: الشَّقُّ والْقَطْعُ وأكثر ما يستعمل في الطول، والقَطُّ يستعمل في العرض ﴿وَأَلْفِيَا﴾ وَجَدَا ﴿كَيْدَكُنْ﴾ الكيد: المكر والحيلة ﴿الْخَاطِعِينَ﴾ المتعمدين للذنب قال الأصمعي: خطئ الرجل فهو خاطئ إذا تعمد الذنب، وأخطأ يخطئ إذا غلط ولم يتعمد^(٢) ﴿شَغَفَهَا حُبًّا﴾ وصل حبه إلى سويداء قلبها قال الزجاج: الشَّغاف سويداء القلب^(٣) ﴿أَصْبُ﴾ أَمِلَ يقال: صبا إلى اللهو إذا مال إليه.

التفسير: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ هذه هي المحنة الثالثة بعد محنة الحب والاسترقاق، والمرادة الطلب برفقٍ ولين كما يفعل المخادع بكلامه المعسول المعنى: طلبت امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها منه أن يضاجعها، ودَعَتْهُ برفقٍ ولين أن يواقعها، وتوسَّلت إليه بكل وسيلة ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبُوبَ﴾ أي غلَّقت أبواب البيوت عليها وعلى يوسف وأحكمت إغلاقها قال «القرطبي»: كانت سبعة أبواب غلَّقتها ثم دَعَتْهُ إلى نفسها^(٤) ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي هُلِّمْ وأسرع إلى الفراش فليس ثمة ما يُخشى قال في «البحر»: أمرته بأن يسرع إليها^(٥) ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أي عياداً بالله من فعل السوء قال «أبو السعود»:

(١) «تفسير القرطبي» ٩/ ١٦٦.

(٢) «غريب القرآن» لابن قتيبة ٢١٥.

(٣) (ش): سُوَيْدَاءُ الْقَلْبِ: حَبَّةُ الْقَلْبِ، أَعَمَّقُ أَعْمَاقِهِ.

(٤) «تفسير القرطبي» ٩/ ١٦٣.

(٥) «البحر المحيط» ٥/ ٢٩٣.

وهذا إشارة إلى أنه منكر هائل يجب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه، لما أراه الله من البرهان النير على ما فيه من غاية القبح ونهاية السوء ^(١) ﴿إِنَّهُ رَفِيعٌ أَحْسَنُ مَثْوًى﴾ أي إن زوجك هو سيدي العزيز الذي أكرمني وأحسن تعهدي فكيف أسىء إليه بالخيانة في حرمه؟ ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي لا يظفر الظالمون بمطالبهم، ومنهم الخائنون المُجازون الإحسان بالسوء، ثم أخبر تعالى أن امرأة العزيز حاولت إيقاعه في شراكها، وتوسّلت إليه بكل وسائل الإغراء، ولولا أن الله جلّ وعلا حفظه من كيدها لهلك فقال ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ أي همت بمخالطته عن عزم وقصد وتصميم، عزمًا جازمًا على الفاحشة لا يصرفها عنها صارف، وقصدت إجباره على مطاوعتها القوة، بعد أن استحكمت من تغليق الأبواب، ودعوته ^(٢) إلى الإسراع، مما اضطره إلى الهرب إلى الباب ﴿وَهُمْ بِهَا﴾ أي مالت نفسه إليها بمقتضى الطبيعة البشرية، وحدثته نفسه بالنزول عند رغبتها حديث نفس، دون عزم وقصد، فبين الهممين فرقٌ كبير ^(٣) قال الإمام الفخر: الهمُّ خطوُّ الشيء بالبال أو ميل الطبع، كالصائم في الصيف يرى الماء البارد فتحمله نفسه على الميل إليه وطلب شربه، ولكن يمنعه دينه عنه ^(٤) ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ جوابه محذوف أي لولا حفظ الله ورعايته ليوسف، وعصمته له لخالطها وأمضى ما حدثته نفسه به، ولكن الله عصمه بالحفظ والتأييد فلم يحصل منه شيء البتة قال في البحر: نسب بعضهم ليوسف ما لا يجوز نسبته لأحد الفساق، والذي اختاره أن «يوسف» عليه السلام لم يقع منه هم البتة، بل هو منفى لوجود رؤية البرهان كما تقول: «فارقت الذنب لولا أن عصمك الله» وكقول العرب: «أنت ظالم إن فعلت» وتقديره: إن فعلت فأنت ظالم وكذلك هنا التقدير: لولا أن رأى برهان ربه لهم بها ولكنه وجد رؤية البرهان فانتفى الهم، وأمّا أقوال السلف فنعتقد أنه لا يصح عن أحدٍ منهم شيء من ذلك، لأنها أقوال متكاذبة يناقض بعضها بعضًا مع كونها قاذحة في بعض فساق المسلمين فضلًا عن المقطوع لهم بالعصمة ^(٥) وقال

(١) «أبو السعود» ٦٢ / ٢.

(٢) (ش): لعل الصواب: ودعته.

(٣) هذا من باب المشاكلة وهي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى، فالهمُّ منها كان همَّ عزم، وقصد، والهمُّ منه كان حديث نفس.

(٤) «الفخر الرازي» ١١٩ / ١٨.

(٥) «البحر المحيط» ٢٩٥ / ٥. (ش): قال أبو حيان الأندلسي في «البحر المحيط» في التفسير «(٦/ ٢٥٧): طَوَّلَ الْمُفَسِّرُونَ فِي تَفْسِيرِ هَذَيْنِ الهمَّيْنِ، وَنَسَبَ بَعْضُهُمْ لِيُوسُفَ مَا لَا يَجُوزُ نَسَبُهُ لِأَحَادِ الْفُسَّاقِ. وَالَّذِي اخْتَارَهُ أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَقَعْ مِنْهُ هَمٌّ بِهَا الْبَتَّةَ، بَلْ هُوَ مَنْفَى لَوْجُودِ رُؤْيَا الْبُرْهَانِ كَمَا تَقُولُ: لَقَدْ قَارَفْتَ الذَّنْبَ لَوْلَا أَنَّ عَصَمَكَ اللَّهُ».

«أبو السعد»: إن همَّه بها بمعنى ميله إليها بمقتضى الطبيعة البشرية، ميلاً جِبِلِّيًّا^(١) لا أنه قصدها قصدًا اختياريًا، ألا يرى إلى ما سبق من استعصامه المُنْبِئِ عن كمال كراهيته له ونفرتة عنه، وحكمه بعدم إفلاح الظالمين، وهل هو إلا تسجيلٌ باستحالة صدور الهمَّ منه تسجيلًا محكمًا؟ وما قيل: إنه حلَّ الهميان^(٢)، وجلس مجلس الختان، فإنما هي خرافاتٌ وأباطيل، تمجها^(٣) الآذان، وتردّها العقول والأذهان^(٤) ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾ أي ثبتناه على العفة أمام دوافع الفتنة والإغراء لنصرف عنه المنكر والفجور، وهذه آيةٌ بيّنة، وحجةٌ قاطعة على أنه عليه السلام لم يقع منه همٌّ بالمعصية، ولو كان كما زعموا لقال «لنصرفه عن السوء والفحشاء» فلما قال ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ﴾ دلَّ على أن ذلك شيء خارج عن الإرادة فصرفه الله عنه، بما منحه من موجبات العفة والعصمة ﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾ أي لنصرف عنه الزنى الذي تناهى قبَّحه ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام أي الذين أخلصهم الله لطاعته، واصطفاهم واختارهم لوحيه ورسالته، فلا يستطيع أن يغويهم الشيطان.

ثم أخبر تعالى بما حصل من المفاجأة العجيبة بقدم زوجها وهما يتسابقان نحو الباب، ولا تزال هي في هياجها الحيواني ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ أي تسابقا نحو باب القصر، هو للهرب، وهي للطلب ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ أي شقت ثوبه من خلف لأنها كانت تلحقه فجذبته فشقت قميصه ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ أي وجدا العزيز عند باب القصر فجاءة وقد حضر في غير أوان حضوره، وبمهارة فائقة تشبه مهارة إبليس انقلب الوضع فأصبح الظالم مظلوماً، والبريء متهماً ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ما جزاؤه إلا السجن أو الضرب ضرباً مؤلماً وجيعاً ﴿قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ قَمِيصِي﴾ أي قال يوسف مكذباً لها: هي التي دعنتني إلى مقارفة الفاحشة لا أني أردت بها السوء ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ قال ابن عباس: كان طفلاً في المهد أنطقه الله، وكان ابن خالها^(٥) قال في البحر: وكونه من أهلها أوجب للحجة عليها، وأوثق لبراءة يوسف، وأنفى للتهمة^(٦) ﴿إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي إن كان ثوبه قد شقَّ من أمام فهي صادقة وهو كاذب ﴿وَإِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي وإن كان ثوبه قد شقَّ من وراء فهي كاذبة وهو صادق، لأن الأمر المنطقي

(١) (ش): جِبِلَّةٌ: خَلْقَةٌ، طَبِيعَةٌ. جِبِلِّيٌّ: طَبِيعِيٌّ.

(٢) (ش): الهميان: شدادُ السراويل.

(٣) (ش): مَجَّ الشَّرَابَ ونحوه من فمه: لَفَظَهُ، رَمَى بِهِ وَأَلْقَى.

(٤) «أبو السعد» ٦٣/٢.

(٥) «تفسير الطبري» ١٢/١٩٣.

(٦) «البحر المحيط» ٥/٢٩٧.

أَنْ يُشَقَّ الثَّوْبُ مِنْ خَلْفِ إِنْ كَانَتْ هِيَ الطَّالِبَةُ لَهُ وَهُوَ الْهَارِبُ ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ﴾ أَي فَلَمَّا رَأَىٰ زَوْجَهَا أَنَّ الثَّوْبَ قَدْ شَقَّ مِنَ الْوَرَاءِ ﴿قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ أَي إِنْ هَذَا الْأَمْرُ مِنْ جَمَلَةٍ مَكْرُكُنَّ وَاحْتِيَالِكُنَّ أَيُّهَا النَّسْوَةُ ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ تَأْكِيدٌ لِمَا سَبَقَ ذَكَرَهُ أَي مَكْرُكُنَّ مَعْشَرِ النَّسْوَةِ وَاحْتِيَالِكُنَّ لِلتَّخْلُصِ مِمَّا دَبَّرْتُنَّ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ أَي يَا يَوْسُفَ اكْتُمْ هَذَا الْأَمْرَ وَلَا تَذْكُرْهُ لِأَحَدٍ، ﴿إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ أَي مِنَ الْقَوْمِ الْمُتَعَمِّدِينَ لِلذَّنْبِ، وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْعَزِيزَ كَانَ قَلِيلَ الْغَيْرَةِ حَيْثُ لَمْ يَنْتَقِمِ مِمَّنْ أَرَادَتْ خِيَاتَتَهُ، وَتَدْنِيسِ فَرَاشِهِ بِالْإِثْمِ وَالْفَجُورِ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: كَانَ زَوْجَهَا لَيِّنَ الْعَرِيكَةِ سَهْلًا^(١)، أَوْ أَنَّهُ عَذَرَهَا لِأَنَّهَا رَأَتْ مَا لَا صَبْرَ لَهَا عَنْهُ^(٢) ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أَي قَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ النِّسَاءِ فِي مَدِينَةِ مِصْرَ، رَوَى أَنَّهُنَّ خَمْسُ نِسْوَةٍ: أَمْرَأَةُ سَاقِي الْعَزِيزِ، وَأَمْرَأَةُ الْحَاجِبِ، وَأَمْرَأَةُ الْخَبَازِ، وَأَمْرَأَةُ صَاحِبِ الدَّوَابِّ، وَأَمْرَأَةُ صَاحِبِ السَّجَنِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّ تِلْكَ الْوَاقِعَةَ شَاعَتْ فِي الْبَلَدِ، وَاشْتَهَرَتْ وَتَحَدَّثَ بِهَا النِّسَاءُ ﴿أَمْرَأَتُ الْعَزِيزِ تَرْوِدُ فَتَحَهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ أَي أَمْرَأَةُ عَزِيزِ مِصْرَ تَطْلُبُ مِنْ خَادِمِهَا وَعَبْدِهَا أَنْ يُوَاقِعَهَا وَتَخَادَعَهُ وَتَتَوَسَّلَ إِلَيْهِ لِقَضَاءِ وَطَرِهَا مِنْهُ قَالَ أَبُو حِيَانٍ: وَتَصْرِيحُهُنَّ بِإِضَافَتِهَا إِلَى الْعَزِيزِ مَبَالِغَةٌ فِي التَّشْنِيعِ، لِأَنَّ النِّفْسَ أَمِيلٌ لِسَمَاعِ أَخْبَارِ ذَوِي الْجَاهِ، وَعَبَّرَ بِ﴿تَرْوِدُ﴾ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ صَارَ سَجِيَّةً لَهَا فَهِيَ دَائِمًا تَخَادَعُهُ عَنْ نَفْسِهِ لِأَنَّ الْمَضَارِعَ يَفِيدُ التَّجَدُّدَ وَالِاسْتِمْرَارَ^(٣) ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أَي بَلَغَ حُبُّهُ شَغَافَ قَلْبِهَا - وَهُوَ حِجَابُهُ - وَشَقَّهُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى فُؤَادِهَا ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أَي إِنَّا لَنَعْتَقِدُ أَنَّهَا فِي ضَلَالٍ عَنْ طَرِيقِ الرُّشْدِ وَاضْطِرَّ بِسَبَبِ حُبِّهَا إِيَّاهُ ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أَي فَلَمَّا سَمِعَتْ بِحَدِيثِهِنَّ، وَسَمَاهُ مَكْرًا لِأَنَّهُ كَانَ فِي خَفِيَّةٍ، كَمَا يَخْفَى الْمَاكِرُ مَكْرَهُ ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ أَي أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ تَدْعُوهُنَّ إِلَى مَنْزِلِهَا لِحُضُورِ وَلِيمَةٍ قَالَ الْمَفْسُورُونَ: دَعَتْ أَرْبَعِينَ أَمْرَأَةً مِنَ الذَّوَاتِ مِنْهُنَّ النِّسَاءُ الْخَمْسُ الْمَذْكُورَاتِ ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا﴾ أَي هَيَّأَتْ لِهِنَّ مَا يَتَكُنَّ عَلَيْهِ مِنَ الْفُرَشِ وَالْوَسَائِدِ ﴿وَوَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ فِي الْكَلَامِ مَحْذُوفٌ، أَي: قَدِمَتْ لِهِنَّ الطَّعَامَ وَأَنْوَاعَ الْفَاكِهَةِ ثُمَّ أَعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا لِّتَقَطَعَ بِهِ ﴿وَقَالَتِ أَخْرَجَ عَلَيْنَا﴾ أَي وَقَالَتْ لِيُوسُفَ وَهِنَّ مَشْغُولَاتٌ بِتَقْشِيرِ الْفَاكِهَةِ وَالسَّكَاكِينِ فِي أَيْدِيهِنَّ: أَخْرَجَ عَلَيْنَا فَلَمْ يَشْعُرْنَ إِلَّا وَيُوسُفَ يَمُرُّ مِنْ بَيْنِهِنَّ ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ أَي فَلَمَّا رَأَيْنَ يُوسُفَ أَعْظَمْنَهُ وَأَجْلَلْنَهُ، وَبُهِتْنَ مِنْ جَمَالِهِ وَدُهْشْنَ ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أَي جَرَحْنَ أَيْدِيَهُنَّ بِالسَّكَاكِينِ لِفَرْطِ الدَّهْشَةِ الْمَفَاجِئَةِ ﴿وَقُلْنَ

(١) (ش): لَيِّنَ الْعَرِيكَةِ: سَهَّلَ الْإِنْقِيَادَ.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢ / ٢٤٧.

(٣) «البحر المحيط» ٥ / ٣٠١.

حَسَّ لِلَّهِ ﴿١﴾ أَي تَنَزَّهَ اللهُ عَنْ صفات العجز، وتعالَت عَظَمَتُهُ فِي قُدْرَتِهِ عَلَى خَلْقِ مِثْلِهِ ﴿٢﴾ مَا هَذَا بَشَرًا ﴿٣﴾ أَي لَيْسَ هَذَا مِنَ الْبَشَرِ ﴿٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٥﴾ أَي مَا هُوَ إِلَّا مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَإِنْ هَذَا الْجَمَالُ الْفَائِقُ، وَالْحَسَنُ الرَّائِعُ مِمَّا لَا يَكَادُ يُوْجَدُ فِي الْبَشَرِ ﴿٦﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ ﴿٧﴾ صَرَحت عند ذلك بما في نفسها من الحب لِيُوسُفَ لِأَنَّهُا شَعَرَتْ بِأَنَّهُا انْتَصَرَتْ عَلَيْهِنَ فَقَالَتْ قَوْلَةَ الْمُنْتَصِرَةِ: هَذَا الَّذِي رَأَيْتُمْنَهُ هُوَ ذَلِكَ الْعَبْدُ الْكِنْعَانِي الَّذِي لُمْتُنَنِي فِي مُحَبَّتِهِ، فَانْظُرْنَ مَاذَا لَقِيتُنَّ مِنْهُ مِنَ الْإِفْتِتَانِ وَالْدَهْشِ وَالْإِعْجَابِ! ﴿٨﴾ وَلَقَدْ رَوَدُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴿٩﴾ أَي أَرَدَتْ أَنْ تُنَالَهُ وَطَرِي مِنْهُ، وَأَنْ أَقْضِيَ شَهْوَتِي مَعَهُ، فَامْتَنَعَ امْتِنَاعًا شَدِيدًا، وَأَبَى إِبَاءً عَنِيفًا قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ: وَالِاسْتَعْصَامُ بِنَاءٌ مِبَالِغَةٌ يَدُلُّ عَلَى الْإِمْتِنَاعِ الْبَلِيغِ وَالتَّحْفِظِ الشَّدِيدِ ﴿١٠﴾ وَلَكِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لِيُسْجَنَ وَلِيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿١١﴾ أَي وَلَكِنْ لَمْ يَطَاوِعْنِي لِيَعَاقِبَنِّي بِالسَّجْنِ وَالْحَبْسِ وَلِيَكُونَنَّ مِنَ الْأَذْلَاءِ الْمَهَانِينَ قَالَ «الْقُرْطُبِيُّ»: عَاوَدَتْهُ الْمُرَاوَدَةُ بِمَحْضَرٍ مِنْهُنَّ، وَهَتَكَتْ جُلُبَابَ الْحَيَاءِ، وَتَوَعَّدَتْ بِالسَّجْنِ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ، وَلَمْ تَعُدْ تَخْشَى لَوْمًا وَلَا مَقَالًا، خِلَافَ أَوَّلِ أَمْرِهَا إِذْ كَانَ ذَلِكَ سِرًّا بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ ﴿١٢﴾ قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴿١٣﴾ لَجَأَ يُوسُفُ إِلَى رَبِّهِ وَجَعَلَ يَنَاجِيهِ فِي خُشُوعٍ وَتَضَرُّعٍ فَقَالَ: رَبِّ السَّجْنُ أَثَرٌ عِنْدِي ﴿١٤﴾ وَأَحَبُّ إِلَيَّ نَفْسِي مِنْ اقْتِرَافِ الْفَاحِشَةِ، وَأَسْنَدُ الْفِعْلِ إِلَيْهِنَ لِأَنَّهُنَّ جَمِيعًا مُشْتَرِكَاتٌ فِي الدَّعْوَةِ بِالتَّصْرِيحِ أَوْ التَّلْوِيحِ، وَقِيلَ: إِنَّهَا لَمَّا تَوَعَّدَتْهُ نَصَحْنَهُ وَزَيَّنَّ لَهُ مَطَاوَعَتَهَا، وَنَهَيْتَهُ عَنِ الْقَاءِ نَفْسِهِ فِي السَّجْنِ ﴿١٥﴾ وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴿١٦﴾ أَي وَإِنْ لَمْ تَدْفَعْ عَنِّي شَرَّهُنَّ وَتَعْصِمَنِي مِنْهُنَّ ﴿١٧﴾ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴿١٨﴾ أَي أَمْلُ إِلَى إِجَابَتِهِنَّ بِمَقْتَضَى الْبَشَرِيَّةِ ﴿١٩﴾ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٢٠﴾ أَي بِسَبَبِ مَا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ مِنَ الْقَبِيحِ، وَهَذَا كُلُّهُ عَلَى سَبِيلِ التَّضَرُّعِ وَالِاسْتِغَاثَةِ بِجَنَابِ اللَّهِ تَعَالَى كَعَادَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴿٢١﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴿٢٢﴾ أَي أَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَهُ فَنَجَّاهُ مِنْ مَكْرَهُنَّ، وَثَبَّتَهُ عَلَى الْعَصْمَةِ وَالْعِفَّةِ ﴿٢٣﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴿٢٤﴾ أَي لِدَعَاءِ الْمَلْتَجِّينَ إِلَيْهِ ﴿٢٥﴾ أَلْعَلِمُ ﴿٢٦﴾ بِأَحْوَالِهِمْ وَمَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ نِيَاتِهِمْ. وَهَكَذَا اجْتَازَ يُوسُفُ مُحَنَّتَهُ الثَّالِثَةَ بِلُطْفِ اللَّهِ وَرِعَايَتِهِ ﴿٢٧﴾ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْأَيَدِ لَيْسَ جُنَّتُهُ حَتَّى حِينَ ﴿٢٨﴾ هَذِهِ بَدَايَةُ الْمُحَنَّةِ الرَّابِعَةِ وَهِيَ الْأَخِيرَةُ مِنْ مُحَنِّ الشَّدَةِ فِي حَيَاةِ يُوسُفَ الصَّدِيقِ وَهِيَ «مُحَنَّةُ السَّجْنِ» وَكُلُّ مَا بَعْدَهَا فَرَحَاءُ وَالْمَعْنَى ثُمَّ ظَهَرَ لِلْعَزِيزِ وَأَهْلِهِ وَمَنْ اسْتَشَارَهُمْ بَعْدَ الدَّلَائِلِ الْقَاطِعَةِ عَلَى بَرَاءَةِ يُوسُفَ، سَجَنَهُ إِلَى مَدَّةٍ مِنَ الزَّمَنِ غَيْرَ مَعْلُومَةٍ، رَوَى أَنَّ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ لَمَّا اسْتَعْصَى عَلَيْهَا يُوسُفَ وَأَيَسَّتْ مِنْهُ، احْتَالَتْ بِطَرِيقِ

(١) «الكشاف» ٢/ ٤٦٧.

(٢) «القرطبي».

(٣) (ش): أَثَرٌ عِنْدِي: أَفْضَلُ عِنْدِي، أَثَرُ الشَّيْءِ: فَضْلُهُ وَاخْتَارَهُ.

آخر، فقالت لزوجها: إن هذا العبد العبراني قد فضحني في الناس يقول لهم: إني راودته عن نفسه وأنا لا أقدر على إظهار عذري، فإما أن تأذن لي فأخرج وأعتذر، وإما أن تحبسه، فعند ذلك بدا له سجنه قال ابن عباس: فأمر به فحمل على حمار، وضرب بالطبل، وتؤدي عليه في أسواق مصر، إن يوسف العبراني أراد سيده فجزأه أن يسجن، قال أبو صالح ما ذكر ابن عباس هذا الحديث إلا بكى^(١) ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ﴾ أي أدخل يوسف السجن وافترق أنه أدخل حينئذ آخران من خدم الملك الخاص أحدهما خبازه، والآخر ساقيه، اتهما بأنهما أرادا أن يسماه فحبسهما ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ أي قال الساقى: إني رأيت في المنام أني أعصر عنباً يتول إلى خمر وأسقي منه الملك ﴿وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ أي وقال الخباز: إني رأيت في منامي أني أحمل على رأسي طبقاً فيه خبز، والطير تأكل من ذلك الخبز ﴿نَبَتْنا بِتَأْوِيلِهِ﴾ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿أي أَخْبَرْنَا بِتَفْسِيرِ مَا رَأَيْنَا إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الَّذِينَ يَحْسِنُونَ تَفْسِيرَ الرُّؤْيَا، أَخْبَرَاهُ عَنْ رُؤْيَاهُمَا لَمَّا عَلِمَا أَنَّهُ يَجِيدُ تَفْسِيرَ الرُّؤْيَا﴾ قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴿أي لَا يَأْتِيَكُمَا شَيْءٌ مِنَ الطَّعَامِ إِلَّا أَخْبَرْتَكُمَا بَيَانَ حَقِيقَتِهِ وَمَاهِيَتِهِ وَكَيْفِيَّتِهِ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكُمَا، أَخْبَرَهُمَا بِمُعْجَزَاتِهِ وَمِنْهَا مَعْرِفَةُ «الْمَغِيَّاتِ» تَوَاطُؤُهُ لِدَعَائِهِمَا إِلَى الْإِيمَانِ قَالَ «الْبَيْضَاوِيُّ»: أَرَادَ أَنْ يَدْعُوهُمَا إِلَى التَّوْحِيدِ وَيُرْشِدَهُمَا إِلَى الدِّينِ الْقَوِيمِ قَبْلَ أَنْ يَسْعِفَهُمَا إِلَى مَا سَأَلَاهُ عَنْهُ، كَمَا هُوَ طَرِيقَةُ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْهَدَايَةِ وَالْإِرْشَادِ، فَقَدَّمَ مَا يَكُونُ مُعْجَزَةً لَهُ مِنَ الْإِخْبَارِ بِالْغَيْبِ لِيَدْلُهُمَا عَلَى صِدْقِهِ فِي الدَّعْوَةِ وَالتَّعْبِيرِ^(٢) ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ إِنْ ذَلِكَ الْإِخْبَارُ بِالْمَغِيَّاتِ لَيْسَ بِكُهَانَةٍ وَلَا تَنْجِيمٍ، وَإِنَّمَا هُوَ بِالْهَامِ وَوَحْيٍ مِنَ اللَّهِ ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ أي خَصَّنِي رَبِّي بِذَلِكَ الْعِلْمِ لِأَنِّي مِنْ بَيْتِ النُّبُوَّةِ وَقَدْ تَرَكْتُ دِينَ قَوْمٍ مُشْرِكِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أي يَكْذِبُونَ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، نَبَّهَ عَلَى أَصْلَيْنِ عَظِيمَيْنِ: الْإِيمَانُ بِاللَّهِ، وَالْإِيمَانُ بِدَارِ الْجَزَاءِ، إِذْ هُمَا أَعْظَمُ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ، وَكَرَّرَ لَفْظَهُ ﴿هُمْ﴾ عَلَى سَبِيلِ التَّأْكِيدِ ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أَيِ اتَّبَعْتُ دِينَ الْأَنْبِيَاءِ، لَا دِينَ أَهْلِ الشُّرْكِ وَالضَّلَالِ، وَالْغَرَضُ إِظْهَارُ أَنَّهُ مِنْ بَيْتِ النُّبُوَّةِ، لِتَقْوَى رَغْبَتِهِمَا فِي الْاسْتِمَاعِ إِلَيْهِ وَالْوَثُوقَ بِكَلَامِهِ ﴿مَا كُنَّا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَيِ مَا يَنْبَغِي لَنَا -مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ- أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا مَعَ اصْطِفَائِهِ لَنَا وَإِنْعَامِهِ عَلَيْنَا ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ أَيِ ذَلِكَ الْإِيمَانُ وَالتَّوْحِيدُ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا حَيْثُ

(١) «البحر المحيط» ٣٠٧/٥.

(٢) «البيضاوي» ٢٦٤.

أكرمنا بالرسالة، وعلى الناس حيث بعث الرسل لهدايتهم وإرشادهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي لا يشكرون فضل الله عليهم فيشركون به غيره.

ولما ذكر عليه السلام ما هو عليه من الدين الحنيف الذي هو دين الرسل، تلطّف في حسن الاستدلال على فساد ما عليه قوم الفتيين من عبادة الأصنام فقال ﴿يَصْدِحِّي السِّجْنَ ۖ أَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي يا صاحبي في السجن آلهة متعددة لا تنفع ولا تضر ولا تستجيب لمن دعاها كالأصنام، خيرٌ أم عبادة الواحد الأحد، المتفرد بالعظمة والجلال؟! ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ أي ما تعبدون يا معشر القوم من دون الله إلا أسماء فارغة سميتموها آلهة وهي لا تملك القدرة والسلطان لأنها جمادات ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي ما أنزل الله لكم في عبادتها من حجة أو برهان ﴿إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ﴾ أي ما الحكم في أمر العبادة والدين إلا لله رب العالمين ﴿أَمَرَ آلَا تَعْبُدُوا إِلَّا آيَاهُ﴾ أي أمر سبحانه بإفراد العبادة له، لأنه لا يستحقها إلا من له العظمة والجلال ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي ذلك الذي أدعوكم إليه من إخلاص العبادة لله هو الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي يجهلون عظمة الله فيعبدون ما لا يضر ولا ينفع.. تدرّج عليه السلام في دعوتهم وألزمهم الحجة بأن يبين لهم أولاً رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة المتعددة، ثم برهن على أن ما يسمونها آلهة ويعبدونها من دون الله لا تستحق الألوهية والعبادة، ثم نصّ على ما هو الحق القويم والدين المستقيم وهو عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد، وذلك من أسلوب الحكيم في الدعوة إلى الله، حيث قدّم الهداية والإرشاد، والنصيحة والموعظة، ثم شرع في تفسير رؤياهما فقال ﴿يَصْدِحِّي السِّجْنَ ۖ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ أي يا صاحبي في السجن أمّا الذي رأى أنه يعصر خمراً فيخرج من السجن ويعود إلى ما كان عليه من سقي سيده الخمر، وأمّا الآخر الذي رأى على رأسه خبزاً فيقتل ويُعلّق على خشبة فتأكل الطير من لحم رأسه، قال المفسرون: روي أنه لما أخبرهما بذلك جحدا وقال ما رأينا شيئا فقال ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي انتهى وتمّ قضاء الله صدقتهما أو كذبتما فهو واقع لا محالة ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ أي قال يوسف للذي اعتقد نجاته وهو الساقى ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي اذكرني عند سيّدك وأخبره عن أمري لعلّه يخلصني ممّا ظلمتُ به ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ أي أنسى الشيطان الساقى أن يذكر أمر يوسف للملك ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجَنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ أي مكث يوسف في السجن سبع سنين، قال المفسرون: وإنما لبث في السجن بضع سنين، لأنه اعتمد ووثق

بالمخلوق، وغفل أن يرفع حاجته إلى الخالق جل وعلا^(١) قال «القرطبي»: قال وهب ابن منبه: أقام أيوب في البلاء سبع سنين، وأقام يوسف في السجن سبع سنين.

البلاغة: ١ - بين ﴿فَصَدَقَتْ﴾ و﴿فَكَذَبْتَ﴾ و﴿الصَّادِقِينَ﴾ و﴿الْكَذِبِينَ﴾ طباق وهو من المحسنات البديعية.

٢ - ﴿مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ من باب تغليب الذكور على الإناث.

٣ - ﴿سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ استعير المكر للغيبة لشبهها له في الإخفاء.

٤ - ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ كذلك فيه استعارة حيث استعار لفظ القطع عن الجرح أي جرحن أيديهن.

٥ - ﴿أَغْصِرْ خَمْرًا﴾ مجاز مرسل باعتبار ما يكون أي عنباً يثول إلى خمر.

فائدة: روي أن جبريل جاء إلى يوسف وهو في السجن معاتباً له فقال له: يا يوسف من خلصك من القتل من أيدي إخوانك؟ قال: الله تعالى، قال: فمن أخرجك من الحب؟ قال: الله تعالى، قال: فمن عصمك من الفاحشة؟ قال: الله تعالى، قال: فمن صرف عنك كيد النساء؟ قال: الله تعالى، قال: فكيف تركت ربك فلم تسأله ووثقت بمخلوق؟! قال: يا رب كلمة زلت مني أسألك يا إله إبراهيم وآله والشيخ يعقوب عليهم السلام أن ترحمني فقال له جبريل: فإن عقوبتك أن تلبث في السجن بضع سنين^(٢).

تنبيه: قال العلماء في قوله تعالى ﴿وَأَسْتَبْقَى الْبَابَ﴾ هذا من اختصار القرآن المعجز، الذي يجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة، وذلك أنها لما راودته عن نفسه وأبى، عزمت على أن تجبره بالقسر والإكراه، فهرب منها فتسابقا نحو الباب هي لترده إلى نفسها وهو يهرب منها فاختصر القرآن ذلك كله بتلك العبارة البليغة ﴿وَأَسْتَبْقَى الْبَابَ﴾.

(شطحات بعض المفسرين في تفسير الهم)

لقد شطَّ القلم، وزلقت القدم ببعض المفسرين حين زعموا أن يوسف عليه السلام قد همَّ بمقارفة الفاحشة، وشُحنت بعض كتب التفسير بكثير من الروايات الإسرائيلية الواهية، بل المنكرة الباطلة في تفسير «الهم» و«البرهان» حتى زعم بعضهم أن يوسف حلَّ رباط السروال، وجلس منها مجلس الرجل من امرأته، ثم رأى صورة أبيه «يعقوب» عاضاً على أصبعه، فقام عنها وتركها خجلاً من أبيه إلى غير ما هنالك من أقوال واهية،

(١) (ش): رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ لَمْ يَقُلْ -يَعْنِي: يُوسُفَ- الْكَلِمَةَ الَّتِي قَالَ: مَا لَيْتَ فِي السَّجْنِ طُولَ مَا لَيْتَ. حَيْثُ يَتَّبِعِي الْفَرَجَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ». (رواه الإمام ابن جرير «الطبري» في «تفسيره» وقال الحافظ ابن كثير: «هَذَا الْحَدِيثُ ضَعِيفٌ جِدًّا»، ورواه ابن حبان، وضعفه الألباني).

(٢) «تفسير القرطبي» ٩/ ١٩٦. (ش): ذكره «القرطبي» بدون إسناد، وقد تقدم أن هذا لا يثبت.

لا زمام لها ولا خطام. ولست أدري كيف دخلت تلك الروايات المنكرة إلى بعض كتب التفسير، وتقبلها بعضهم بقبول حسن، وكلها - كما يقول العلامة «أبو السعود» - خرافات وأباطيل، تمجّجها الآذان، وتردها العقول والأذهان؟ ثم كيف غاب عن أولئك المفسرين أن «يوسف الصديق» نبيّ كريم، ابن نبي كريم، وأن العصمة من صفات الأنبياء يا قوم اعقلوا وفكروا، ونزّوها هذه الكتب عن أمثال هذه الترهات والأباطيل، فإن الزنى جريمة من أبشع الجرائم فكيف يرتكبها نبيّ من الأنبياء المكرمين؟ وهاكم الأدلة أسوقها من كتاب الله فقط على عصمته عليه السلام من عشرة وجوه:

الأول: امتناعه الشديد ووقوفه أمامها بكل صلابة وعزم ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ...﴾.

الثاني: فراره منها بعد أن غلّقت الأبواب وشدّدت عليه الحصار ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ...﴾.

الثالث: إثاره السجن على الفاحشة ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ...﴾.

الرابع: ثناء الله تعالى عليه في مواطن عديدة ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فهل يكون مخلصاً لله من همّ بفاحشة الزنى؟

الخامس: شهادة الطفل الذي أنطقه الله وهو في المهد بالحجة الدامغة ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا...﴾ الآية.

السادس: اعتراف امرأة العزيز ببراءته وعفته ﴿وَلَقَدْ زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَصَمَ...﴾.

السابع: استغاثته بربه لينجيه من كيد النساء ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ...﴾.

الثامن: ظهور الإمارات الواضحة والبراهين الساطعة على براءته وإدخاله السجن لدفع مقالة الناس ﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَ جُذُئُهُ حَتَّىٰ حِينَ...﴾.

التاسع: عدم قبوله الخروج من السجن حتى تبرأ ساحته من التهمة ﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ الْإِسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ...﴾؟

العاشر: الاعتراف الصريح من امرأة العزيز والنسوة ببراءته ﴿قَالَتْ أَمَرْتُ الْعَزِيزَ النَّفْنَ حَصْحَصَ الْحَقِّ أَنَا وَرَدُّتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصّٰدِقِينَ﴾. وكفى بذلك برهاناً على عفته ونزاهته! والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

قال الله تعالى:

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنْتُ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَثْتَ أَحْلَامَ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعِلْمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾

يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عَجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ
وَأُخْرَى يَأْسِتُ لَعَلِّي أرجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ
فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا
تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا
جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ الْيُسُوفِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾
قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَوَدْتُمْ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْتِ حَسْبُ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ
الْعَزِيزِ الْفَنِّ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ
وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي
عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾
قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا
حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَاءَ إِخْوَهُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا
جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ
تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَوِّدُ عَنْهُ آبَاءَهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفَتْنِيهِ
أَجْعَلُوا بَضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا
إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَتَابَانَا مَنَعَ مِنَّا الْكَيْلَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ﴿٦٣﴾
قَالَ هَلْ ءَامَنْتُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنْتُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَأَلَّه خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾
وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَتَابَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ
إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ سَيِّئٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ
حَتَّى تَتَوْتَنَ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾
وَقَالَ يَبْنَئِ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ
أَحْكُمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا
كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلِمْنَاهُ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

المناسبة: لما أراد الله الفرج عن يوسف وإخراجه من السجن، رأى ملك مصر رؤيا
عجيبة أفرغته، فجمع السحرة والكهنة والمنجمين وأخبرهم بما رأى في منامه، وسألهم
عن تأويلها فأعجزهم الله جميعاً ليكون ذلك سبباً في خلاص يوسف من السجن.

اللغة: ﴿عَجَافٌ﴾ هزيلة ضعيفة جمع أعجف والأنثى عجفاء ﴿تَعَبُرُونَ﴾ التعبير:
معرفة تفسير الرؤيا المنامية ﴿أَضْغَثُ﴾ جمع ضغث وهو الحزمة من الحشيش اختلط

فيها اليابس بالرطب ﴿أَحْلَمِ﴾ جمع حُلْم وهو ما يراه النائم ومعناه أخطاط منامات اختلط فيها الحق بالباطل ﴿وَأَذْكُرْ﴾ تذكّر بعد النسيان ﴿دَابَّ﴾ الدَّابُّ: الاستمرار على الشيء يقال: دأب على عمله فهو دائب، أي: استمر عليه ﴿تُحَرِّزُونَ﴾ تُحَرِّزُونَ وتُدْخِرُونَ ﴿حَصَّصَ﴾ ظهر وبان ﴿مَكِينٌ﴾ ذو مكانة رفيعة ﴿رَحَلَهُمْ﴾ جمع رحل وهو ما على ظهر المركوب من متاع الراكب وغيره ﴿وَنَمِيرُ﴾ نأتي لهم بالميرة وهي الطعام ﴿يُحَاطُ بِكُمْ﴾ تهلكوا جميعاً.

التفسير: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ أي قال ملك مصر: إني رأيت في منامي سبع بقرات سمانٍ خرجت من نهر يابس، وفي أثرها سبع بقراتٍ هزيلة في غاية الهزال فابتلعت العجاف السمان ﴿وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَةٍ﴾ هذا من تنمة الرؤيا أي ورأيت أيضاً سبع سنبلاتٍ خضر قد انعقد حبُّها وسبعاً آخر يابسات قد استحصدت، فالتوت اليابسات على الخضر فأكلنهنَّ ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٌ فِي رُؤْيَايَ﴾ أي يا أيها الأشراف من رجالي وأصحابي أخبروني عن تفسير هذه الرؤيا ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ أي إن كنتم تجدون تعبيرها وتعرفون مغزاها ﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمِ﴾ أي أخطاط رؤيا كاذبة لا حقيقة لها. قال الضحاك: أحلامٌ كاذبة ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ أي ولسنا نعرف تأويل مثل هذه الأحلام الكاذبة ^(١) ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي وقال الذي نجا من السجن وهو الساقى وتذكّر ما سبق له مع يوسف بعد مدة طويلة: ﴿أَنَا أُنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي أنا أخبركم عن تفسير هذه الرؤيا ممن عنده علم بتأويل المنامات ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ أي فأرسلوني إليه لآتيكم بتأويلها، خاطب الملك بلفظ التعظيم قال ابن عباس: لم يكن السجن في المدينة ولهذا قال: فأرسلون ^(٢) ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ في الكلام محذوف دلّ عليه السياق وتقديره: فأرسلوه فانطلق الساقى إلى السجن ودخل على يوسف وقال له: يا يوسف يا أيها الصديق وسمّاه صديقاً لأنه كان قد جرب صدقه في تعبير الرؤيا التي رآها في السجن، والصديق مبالغة من الصدق ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَةٍ﴾ أي أخبرنا عن تأويل هذه الرؤيا العجيبة ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي لأرجع إلى الملك وأصحابه وأخبرهم بها ليعلموا فضلك وعلمك ويخلصوك من محتكك قال الإمام الفخر: وإنما قال ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ لأنه رأى عجز سائر المعبرين عن جواب هذه المسألة

(١) وقيل المعنى: لسنّا نعرف تأويل الأحلام على الإطلاق.

(٢) «تفسير الطبري» ٢٢٩/١٢.

فخاف أن يعجز هو أيضاً عنها فلهذا السبب قال: لعلِّي ^(١) ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَعَى سِنِينَ دَابًّا﴾ أي تزرعون سبع سنين دائبين بجَدٍّ وعزيمة ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ أي فما حصدتم من الزرع فاتركوه في سنبله لئلا يسوس ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا نَأْكُلُونَ﴾ أي إلا ما أردتم أكله فادرسوه واتركوا الباقي في سنبله ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ أي ثم يأتي بعد سني الرخاء سبع سنين مجدبات ذات شدة وقحط على الناس ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي تأكلون فيها مما ادخرتم أيام الرخاء ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَحْصِتُونَ﴾ أي إلا القليل الذي تدخرونه وتخبنونه للزراعة ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصَرُونَ﴾ أي ثم يأتي بعد سني القحط والجذب العصيبة عام رخاء، فيه يُمطر الناس ويُعاثون، وفيه يعصرون الأغراب وغيرها لكثرة خصبه، قال الزمخشري: تأول عليه السلام البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخصيب، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، ثم بشرهم بأن العام الثامن يجيء مباركاً خصباً، كثير الخير، غزير النعم، وذلك من جهة الوحي ^(٢) ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤَنِّي بِهَذَا﴾ أي ولما رجع الساقى إلى الملك وعرض عليه ما عبَّر به يوسف رؤياه استحسَن ذلك فقال: أحضروه لي لأسمع منه تفسيرها بنفسي ولأبصره ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ أي فلما جاء رسول الملك يوسف ﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي قال يوسف للرسول: ارجع إلى سيدك الملك ﴿فَسَأَلَهُ مَا بَالُ النَّسُوءِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي سأل عن قصة النسوة اللاتي قَطَعْنَ أيديهن هل يعلم أمرهن؟ وهل يدري لماذا حُبِسَتْ ودخلت السجن؟ وأني ظلمت بسببهن؟ أبى عليه السلام أن يخرج من السجن حتى تُبرأ ساحتها من تلك التهمة الشنيعة، وأن يعلم الناس جميعاً أنه حُبِسَ بلا جرم ﴿إِنَّ رَبِّي يَبْعِدُ عَنْ عِلْمِي﴾ أي إنه تعالى هو العالم بخفيات الأمور وبما دَبَّرَ من كيدٍ لي ﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاودْتَنِي يَوْسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ جمع الملك النسوة ودعا امرأة العزيز معهن فسألهن عن أمر يوسف وقال لهن: ما شأنكن الخطير حين دعوتن يوسف إلى مقارفة الفاحشة؟ ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ أي معاذ الله أن يكون يوسف أراد السوء، وهو تنزيه له وتعجب من نزاهته وعفته ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْقَنْ حَصَّصَ الْحَقُّ﴾ أي ظهر وانكشف الحق وبان بعد خفائه ﴿أَنَا رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي أنا التي أغريته ودعوته إلى نفسي وهو بريء من الخيانة وصادق في قوله «هي راودتني عن نفسي» وهذا اعتراف صريح براءة يوسف على رؤوس الأشهاد ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ الأظهر أن هذا من كلام يوسف قاله لما وصله براءة النسوة له والمعنى ذلك الأمر الذي فعلته من ردِّ الرسول حتى تظهر براءتي ليعلم العزيز أنني

(١) «الرازي» ١٨ / ١٤٩.

(٢) «الكشاف» ٢ / ٤٧٧.

لم أخنه في زوجته في غيبته بل تعففت عنها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ أي لا يوفق الخائن ولا يسدّد خطاه ﴿وَمَا أَتَّبِعُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ أي لا أزي نفسي ولا أنزّ هها، فإن النفس البشرية ميّالة إلى الشهوات، قاله يوسف على وجه التواضع قال الزمخشري: أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه، لئلا يكون لها مزيكاً، وبحالها معجباً ومفتخراً^(١) ﴿إِلَّا مَا رَجِمَرَيْتُ﴾ أي إلا من رَحِمَهُ اللهُ بالعصمة ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَنْتُونِي بِهَذَا اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي﴾ أي اتنوني بيوسف أجعله من خاصتي وخلصائي، قال ذلك لما تحقق براءته وعرف عفته وشهامته وعلمه ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي فلما أتوا به وكلمه يوسف وشاهد الملك فضله، ووفور عقله، وحسن كلامه قال إنك اليوم قريب المنزلة رفيع الرتبة، مؤتمنٌ على كل شيء ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ أي قال يوسف للملك: اجعلني على خزائن أرضك ﴿إِنِّي حَفِيطٌ عَلِيمٌ﴾ أي أمينٌ على ما استودعتني، عليمٌ بوجوه التصرف، وإنما طلب منه الولاية رغبة في العدل، وإقامة الحق والإحسان، وليس هو من باب التزكية للنفس، وإنما هو للإشعار بحنكته ودرايته لاستلام وزارة المالية ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي وهكذا مكنا ليوسف في أرض مصر، وجعلنا له العزَّ والسلطان بعد الحبس والضيق ﴿يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ أي يتخذ منها منزلاً حيث يشاء ويتصرف في المملكة كما يريد ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ أي نخص بإنعامنا وفضلنا من نشاء من عبادنا ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي لا نضيع أجر من أحسن عمله وأطاع ربه بل نضاعفه له ﴿وَلَا نُجْزِي إِلَّا الْخَيْرَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ أي أجر الآخرة وثوابها خير للمؤمنين المتقين من أجر الدنيا، وفيه إشارة إلى أن المطلب الأعلى هو ثواب الآخرة، وأن ما يدخر لهؤلاء المحسنين أعظم وأجل من هذا النعيم العاجل في الدنيا ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ أي دخلوا على يوسف فعرف أنهم إخوته ولكنهم لم يعرفوه لهيبة الملك، وبعد العهد، وتغير الملامح قال ابن عباس: كان بين إلقائه في الحب وبين دخولهم عليه اثنتان وعشرون سنة

(١) «الكشاف» ٢/ ٤٨٠. (ش): رجح الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٣٩٤) أن الكلام في الموضعين لا مرأة العزيز فقال: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ تقول: إِنَّمَا اعْتَرَفْتُ بِهَذَا عَلَى نَفْسِي، ذَلِكَ لِيَعْلَمَ رَوْحِي أَن لَمْ أَخُنْهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَلَا وَقَعَ الْمَحْدُورُ الْأَكْبَرُ، وَإِنَّمَا رَاوَدْتُ هَذَا الشَّابَّ مُرَاوِدَةً، فَأَمْتَنَعُ؛ فَلِهَذَا اعْتَرَفْتُ لِيَعْلَمَ أَنِّي بَرِيئَةٌ، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿وَمَا أَتَّبِعُ نَفْسِي﴾ تقول المرأة: وَلَسْتُ أَتَّبِعُ نَفْسِي، فَإِنَّ النَّفْسَ تَحَدَّثَتْ وَتَتَمَنَّى؛ وَلِهَذَا رَاوَدْتُهُ لِأَنَّهَا أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ، ﴿إِلَّا مَا رَجِمَرَيْتُ﴾ أي: إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْأَشْهَرُ وَالْأَلْبَنُ وَالْأَنْسَبُ بِسِيَاقِ الْقِصَّةِ وَمَعَانِي الْكَلَامِ. وَقَدْ حَكَاهُ الْمَاوَرِدِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ»، وَانْتَدَبَ لِتَضَرُّهِ الْإِمَامُ الْعَلَامَةُ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ، رَحِمَهُ اللهُ، فَأَفْرَدَهُ بِتَصْنِيفٍ عَلَى حِدَةٍ».

فلذا أنكروه^(١)، وكان سبب مجيئهم أنهم أصابتهم مجاعة في بلادهم بسبب القحط الذي عمَّ البلاد، فخرجوا إلى مصر ليشتروا من الطعام الذي ادخره يوسف، فلما دخلوا على يوسف قال كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادي؟ قالوا: جئنا للميرة، قال: لعلكم عيون «جواسيس» علينا؟ قالوا: معاذ الله، قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبيُّ الله، قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم كنا اثني عشر فذهب أصغرنا وهلك في البرية - وكان أحبنا إليه - وبقي شقيقه فاحتبسه ليتسلَّى به عنه وجئنا نحن العشرة، فأمر بإنزالهم وإكرامهم^(٢) ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ﴾ أي هياً لهم الطعام والميرة وأعطاهم ما يحتاجون إليه في سفرهم ﴿قَالَ أَتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ أي اتوني بأخيكم بنيامين لا صدقكم ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ﴾ أي ألا ترون أني أتم الكيل من غير بخس ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ أي خير من يكرم الضيفان وخير المضيفين لهم، وكان قد أحسن إنزالهم وضيافتهم ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أي إن لم تأتوني بأخيكم فليس لكم عندي بعد اليوم ميرة، ولا تقربوا بلادي مرة ثانية، رغبتهم ثم توعدهم قال في البحر: والظاهر أن كل ما فعله يوسف عليه السلام كان بوحى من الله وإلا فمقتضى البر أن يبادر إلى أبيه ويستدعيه لكن الله أراد تكميل أجر يعقوب ومحنته، ولتفسر الرؤيا الأولى^(٣) ﴿قَالُوا سُرُودُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ أي سنخادعه ونحتال في انتزاعه من يده، ونجتهد في طلبه منه، وإننا لفاعلون ذلك ﴿وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ أي قال يوسف لغلمان الكياليين اجعلوا المال الذي اشتروا به الطعام في أوعيتهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ أي لكي يعرفوها إذا رجعوا إلى أهلهم وفتحوا أوعيتهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي لعلهم يرجعون إلينا إذا رأوها، فإنه علم أن دينهم يحملهم على رد الثمن لأنهم مطهرون عن أكل الحرام فيكون ذلك أدعى لهم إلى العود إليه ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ أي فلما عادوا إلى أبيهم قالوا له - قبل أن يفتحوا متاعهم - يا أبانا لقد أنذرنا بمنع الكيل في المستقبل إن لم نأت بأخينا بنيامين، فإن ملك مصر ظن أننا جواسيس وأخبرناه بقصتنا فطلب أخانا ليتحقق صدقنا ﴿فَأَرْسَلَ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلُ﴾ أي أرسل معنا أخانا بنيامين لنأخذ ما نستحقه من الحبوب التي تكال لنا ﴿وَأِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أي نحفظه من أن يناله مكروه ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ أي قال لهم يعقوب: كيف آمنكم على بنيامين وقد فعلتم بأخيه يوسف

(١) «حاشية الصاوي» ٢/ ٢٤٩.

(٢) «تفسير الجلالين» ٢/ ٢٤٩.

(٣) «البحر المحيط» ٥/ ٣٢٢.

ما فعلتم بعد أن ضمنتكم لي حفظه، ثم ختم العهد؟ فأخاف أن تكيدوا له كما كدتم لأخيه؟ فأنا لا أثق بكم ولا بحفظكم، وإنما أثق بحفظ الله ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا﴾ أي حفظ الله خير من حفظكم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي هو أرحم من والديه وإخوته، فأرجو أن يمنّ عليّ بحفظه ولا يجمع عليّ مصيبتين ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ أي ولما فتحوا الأوعية التي وضعوا فيها الميرة وجدوا ثمن الطعام في متاعهم ﴿قَالُوا يَا بَنَا آمَا نَبِئْهُ﴾ أي ماذا نبغي؟ وأي شيء نطلب من إكرام الملك أعظم من هذا؟ ﴿هَذِهِ بِضْعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ أي هذا ثمن الطعام قد ردّ إلينا من حيث لا ندري، فهل هناك مزيد فوق هذا الإحسان، أوفى لنا الكيل، وردّ لنا الثمن! أرادوا بذلك استئزال أبيهم عن رأيه ﴿وَمِمَّا أَهْلْنَا﴾ أي نأتي بالميرة والطعام لأهلنا ﴿وَنَحْفِظُ أَخَانَا﴾ أي نحفظه من المكاره، وكرروا حفظ الأخ مبالغة في الحض على إرساله ﴿وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي ونزداد باستصحابنا له حمل بعير، روي أنه ما كان يعطي الواحد إلا كيل بعير من الطعام، فأعطاهم حمل عشرة جمال ومنعهم الحادي عشر حتى يحضر أخوهم ﴿ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ﴾ أي سهل على الملك إعطاؤه لسخائه ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ أي قال لهم أبوهم: لن أرسل معكم بنيامين إلى مصر حتى تعطوني عهداً مؤكداً وتحلفوا بالله لتردّنه عليّ ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي إلا أن تغلبوا فلا تقدرُوا على تخليصه، ولا يبقى لكم طريق أو حيلة إلى ذلك قال مجاهد: إلا أن تموتوا كلكم فيكون ذلك عذراً عندي ﴿فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أي فلما حلفوا له وأعطوه العهد المؤكد ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي الله شهيد رقيب على ذلك ﴿وَقَالَ يَبْنَئِ لَكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ أي لا تدخلوا مصر من باب واحد قال المفسرون: خاف عليهم من العين إن دخلوا مجتمعين إذ كانوا أهل جمال وهيبة، والعين حقّ تدخل الرجل القبر، والجمال القدر كما جاء في الحديث^(١) ﴿وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي لا أدفع عنكم بتدبيري شيئاً مما قضاه الله عليكم، فإن الحذر لا يدفع القدر ﴿إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ﴾ أي ما الحكم إلا لله جلّ وعلا وحده لا يشاركه أحد، ولا يمانعه شيء ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي عليه وحده اعتمدت وبه وثقت ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي وعليه فليعتمد أهل التوكل والإيمان، وليفوضوا أمورهم إليه ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ أي دخلوا من الأبواب المتفرقة كما أوصاهم أبوهم ﴿مَا كَانَتْ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي ما كان دخولهم متفرقين ليدفع عنهم من قضاء الله شيئاً ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ أي إلا خشية العين

(١) (ش): قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْعَيْنُ حَقٌّ». [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ]. وَقَالَ ﷺ: «الْعَيْنُ تُدْخِلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ وَتُدْخِلُ الْجَمَلَ الْقَدْرَ» رواه أبو نعيم في «الحلية»، وحسنه الألباني.

شفقةً منه على بنيه ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ أي وإن يعقوب لذو علم واسع لتعليمنا إياه بطريق الوحي، وهذا ثناء من الله تعالى عظيم على يعقوب، لأنه علم بنور النبوة أن القدر لا يدفعه الحذر ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون ما خصَّ الله به أنبياءه وأصفياه من العلوم التي تنفعهم في الدارين.

البلاغة: ١ - ﴿إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ﴾ صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية.

٢ - ﴿سِمَانٍ.. عِجَافٍ﴾ بينهما طباق وكذلك بين ﴿خُضْرٍ.. يَاسِئَةٍ﴾ طباق.

٣ - ﴿أَضْعَفْتُ أَلْهَمِي﴾ هذا من أبلغ أنواع الاستعارة وألطفها فإن الأضغاث هو المختلط من الحشيش المضموم بعضه إلى بعض، فشبه اختلاط الأحلام وما فيها من المحبوب والمكروه، والخير والشر باختلاط الحشيش المجموع من أصناف كثيرة.

٤ - ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ هذا من براعة الاستهلال فقد قدّم الثناء قبل السؤال طمعاً في إجابة مطلبه.

٥ - ﴿يَا كُنْ مَا قَدَّمْتُمْ لَهَا﴾ فيه مجاز عقلي لأن السنين لا تأكل وإنما يأكل الناس ما أذخروه فيها، فهو من باب الإسناد إلى الزمان كقول الفصحاء: نهار الزاهد صائم وليله قائم.

٦ - ﴿لَأَمْرَأَةٌ بِالسَّوَةِ﴾ لم يقل امرأة مبالغة في وصف النفس بكثرة الدفع في المهووي، والقود إلى المغاوي لأن «فَعَال» من أبنية المبالغة.

٧ - ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ بين عرف وأنكر طباق.

٨ - ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ فيه إطناب وهو زيادة اللفظ على المعنى، وفائدته تمكين المعنى من النفس، وفيه أيضاً من المحسنات البديعية ما يسمى «طباق السلب».

فائدة: أثنى رسول الله ﷺ على يوسف الصديق في كرمه وصبره وحلمه فقال: «لَوْ لَبِثْتُ فِي السَّجْنِ طُولَ لَبْثِ يُوسُفَ لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ»^(١) وكفى بهذا برهاناً على عفة يوسف ونزاهته عليه السلام.

لطيفة: ذكر بعض العلماء أن يوسف عليه السلام ما زال النساء يملن إليه ميل شهوة حتى نبأه الله، فألقى عليه هيبة النبوة فشغلت هيئته كل من رآه عن حسنه.

قال الله تعالى:

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذْنَّ مُؤَدِّنَ أَيَّتْهَا الْعِزُّ

(١) (ش): رواه البخاري ومسلم.

إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقَدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَأَيُّ أَبَانَا ابْنُ ابْنِكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَأَلَ الْقَرِيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَيَّ يُوسُفَ وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُنُوا تَذَكَّرُ يُونُسَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الصُّرَّ وَجِئْنَا بِضَعْفٍ مُّزْنَةٍ فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلُ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا إِيَّاكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرْنَاكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقَوُةُ عَلَى وَجْهِ أَيْ يَأْتِ بِصِيرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

المناسبة: تتحدث الآيات عن مجيء إخوة يوسف للمرة الثانية إلى مصر ومعهم «بنيامين» الأخ الشقيق ليوسف، وما كان من شأنه حين ظهر الصواع في رحله، فاحتجزه يوسف عنده بحكم شريعة يعقوب، ثم ما كان من تمام المحنة على يعقوب عليه السلام بفقد ولدَيْه حتى ذهب الحزن ببصره.

اللغة: ﴿تَبْتَسُّ﴾ تحزن ﴿أَلْعَبُ﴾ الإبل التي عليها الأحمال ثم كثر الاستعمال حتى قيل لكل قافلة: عَيْرٌ ﴿صَوَاعَ﴾ الصواع: الصاع الذي يُكَال به يُذَكَّر ويؤنَّث وهو السقاية ﴿زَعِيمٌ﴾ كفيل ﴿سَوَلَتْ﴾ زينت وسهلت ﴿كَطِيمٌ﴾ ممتلئ من الحزن يكتمه ولا يبيديه ﴿نَفْتَوْا﴾ لا تفتأ ولا تزال من أخوات كان الناقصة ﴿حَرَضًا﴾ الحَرَض: المَرَض الذي يُشفي على الهلاك قال الشاعر:

سَرَى هَمِّي فَأَمْرَضَنِي وَقَدَمًا^(١) زَادَنِي مَرَضًا
كَذَاكَ الْحُبُّ قَبْلَ الْيَوِّ مِمَّا يُورِثُ الْحَرَضَا

وأصل الحَرَض الفساد في الجسم أو العقل ﴿بَقِيَ﴾ البث: أشد الغم والهَم ﴿فَتَحَسَّسُوا﴾ التحسس: طلب الشيء بالحواس، والتعرُّفُ عليه مع الاستقصاء الدقيق ويستعمل في الخير كما أن التحسس يستعمل في الشر، وقيل: يستعمل في الخير والشر ﴿لَا تَثْرِيْبَ﴾ التثريبُ: التأنيب والتوبيخ.

التفسير: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ أي وحين دخل أولاد يعقوب على يوسف ﴿ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ أي ضمَّ إليه أخاه الشقيق بنيامين ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ أي أنا أخوك يوسف، أخبره بذلك واستكتمه ﴿فَلَا تَبْتَسِّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي لا تحزن بما فعلوا بنا فيما مضى فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا بخير قال المفسرون: لما دخل إخوة يوسف عليه أكرمهم وأحسن ضيافتهم ثم أنزل كل اثنين في بيت وبقي «بنيامين» وحيداً فقال: هذا لا ثاني له فيكون معي، فبات يوسف يضمه إليه ويعانقه، وقال له: أنا أخوك يوسف فلا تحزن بما صنعوا، ثم أعلاه أنه سيحتال لإبقائه عنده وأمره أن يكتم الخبر ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ﴾ أي ولمَّا قضى حاجتهم وحملَ إبلهم بالطعام والميرة ﴿جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ أي أمر يوسف بأن تجعل السقاية - وهي صاعٌ مرصعٌ بالجواهر - في متاع أخيه بنيامين ﴿ثُمَّ أَذْنَمُؤَذِّنٌ﴾ أي نادى منادٍ ﴿ابْتِئْهَا أَلْعَبُ﴾ أي يا أصحاب الإبل ويا أيها الركب المسافرون ﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ أي أنتم قوم سارقون، وإنما استحل أن يرميهم بالسرقة لما في ذلك من المصلحة من إمساك أخيه ﴿قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ ؟ قال المفسرون: لما وصل المنادون إليهم قالوا: ألم نكرمكم ونحسن ضيافتكم؟ ونوفَّ إليكم الكيل؟ ونفعل بكم ما لم نفعل بغيركم؟ قالوا: بلى وما ذاك؟

(١) (ش): قَدَمًا: قديمًا، أي في القديم، في الزمن الماضي. يُقَال: قَدَمًا كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَهُوَ اسْمٌ مِنَ الْقَدَم، جُعِلَ اسْمًا مِنْ أَسْمَاءِ الزَّمَانِ.

قالوا: فقدنا سقاية الملك ولا ننتهم عليها غيركم فذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾ أي التفتوا إليهم وسألوهم ماذا ضاع منكم وماذا فقد؟ وفي قولهم: ﴿مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾ بدل «ماذا سرقنا» إرشادٌ لهم إلى مراعاة حسن الأدب، وعدم المجازفة بنسبة البريئين إلى تهمة السرقة، ولهذا التزموا الأدب معهم فأجابوهم ﴿قَالُوا نَفْقَدُ صُوعَ الْمَلِكِ﴾ أي ضاع منا مكيال الملك المُرَّصع بالجواهر ﴿وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ أي ولمن جاءنا بالمكيال وردّه إلينا حِمْلٌ بَعِيرٌ من الطعام كجائزة له ﴿وَأَنَّا بِهِ زَعِيمٌ﴾ أي أنا كفيلٌ وضامنٌ بذلك ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ قسمٌ فيه معنى التعجب أي قالوا متعجبين: والله لقد علمتم أيها القوم ما جئنا بقصد أن نفسد في أرضكم ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ أي ولسنا ممن يُوصف بالسرقة قط لأننا أولاد أنبياء ولا نفعل مثل هذا الفعل القبيح قال «البيضاوي»: استشهدوا بعلمهم على براءة أنفسهم لما عرفوا منهم من فرط أمانتهم، كردّ البضاعة التي جُعِلت في رحالهم، وككَمّ أفواه الدواب^(١) لئلا تتناول زرعاً أو طعاماً لأحد^(٢) ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ أي ما عقوبة السارق في شريعتكم إن كنتم كاذبين في ادعاء البراءة ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ أي جزاء السارق الذي يوجد الصاع في متاعه أن يُسَرَقَ ويصبح مملوكاً لمن سَرَقَ منه ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي كذلك نجازي من تعدّى حدود الله بالسرقة وأمثالها، وهذا القول منهم هو الحكم في شريعة يعقوب وقد نسخ بقطع الأيدي في الشريعة الإسلامية ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ أي بدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه بنيامين قال المفسرون: هذا من تمام الحيلة ودفع التهمة فإنهم لما ادعوا البراءة قال لهم: لا بد من تفتيش أوعيتكم واحداً واحداً فانطلقوا بهم إلى يوسف فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء «بنيامين» قال قتادة: ذكر لنا أنه كان لا يفتح متاعاً ولا ينظر وعاءً إلا استغفر الله مما قذفهم به، حتى بقي أخوه - وكان أصغر القوم فقال: ما أظنُّ هذا أخذ شيئاً فقالوا: والله لا نتركك حتى تنظر في رحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا، فلما فتحوا متاعه وجدوا الصواع فيه فذلك قوله تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَخْرِجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ أي استخرج الصواع من متاع أخيه بنيامين، فلما أخرجها منه نكس الإخوة رءوسهم من الحياء، وأقبلوا عليه يلوّمونه ويقولون له: فضحتنا وسودت وجوهنا يا ابن راحيل ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي كذلك صنعنا ودبرنا ليوسف وألهمناه الحيلة ليستبقي أخاه عنده ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أي ما

(١) (ش): كَمّ السَّقَاء: غطّاه وستره وأخفاه. كَمّ الحيوان كَمًّا وكُمومًا: شدَّ فمه بالكِمَامَة.

(٢) «البيضاوي» ٢٦٧.

كان ليوسف أن يأخذ أخاه في دين ملك مصر^(١)، لأن جزاء السارق عنده أن يضرب ويُعْرَمَ ضعفَ ما سَرَقَ ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي إلا بمشيئته تعالى وإذنه، وقد دلت الآية على أن تلك الحيلة كانت بتعليم الله وإلهامه له ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ أي نرفع بالعلم منازل من نشاء من عبادنا ما رفعنا يوسف ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ أي فوق كل عالم من هو أعلم منه حتى ينتهي إلى ذي العلم البالغ وهو رب العالمين قال الحسن: ليس عالمٌ إلا فوقه عالم حتى ينتهي العلم إلى الله. وقال ابن عباس: الله العليم الخبير فوق كل عالم^(٢) ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي إن سرق فقد سرق أخوه الشقيق من قبله يعنون يوسف، تنصّلوا من السرقة ورموا بها يوسف وأخاه ﴿فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أي أخفى تلك القولة في نفسه وكتمها ولم يُظهرها لإخوته تلطفاً معهم ﴿قَالَ أَنْتُمْ سَرَّ مَكَانًا﴾ أي أنتم سرّ منزلة حيث سرّتم أخاكم من أبيكم ثم طفقتم تفترون على البريء، ولم يواجههم بهذا الكلام وإنما قاله في نفسه ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي أعلم بما تقولون وتفترون ﴿قَالُوا يَتَأْتِيهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ استرحام واستعطاف أي قالوا مستعطفين: يا أيها السيد المبجل إن أباه شيخ كبير في السن لا يكاد يستطيع فراقه ﴿فَخَذَ أَحَدُنَا مَكَانَهُ﴾ أي خذ بدله واحداً منا فلسنا عنده بمنزلته من المحبة والشفقة ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي تمم إحسانك علينا فقد عودتنا الجميل والإحسان ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ﴾ أي نعوذ بالله من أن نأخذ أحداً بجرم غيره ﴿إِنَّا إِذَا لَطَمُوهُ﴾ أي نكون ظالمين إن فعلنا ذلك قال «الألوسي»: والتعبير بقوله ﴿مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ﴾ بدل «من سرق» لتحقيق الحق والاحتراز عن الكذب^(٣) ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ أي ولما يسسوا من إجابة طلبهم يأساً تاماً، وعرفوا أن لا جدوى من الرجاء، اعتزلوا جانباً عن الناس يتناجون^(٤) ويتشاورون ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ أي قال أكبرهم سنأ وهو «روبيّل»: أليس قد أعطيتم أباكم عهداً وثيقاً برد أخيك؟ ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ أي ومن قبل هذا ألا تذكرون تفرطكم في يوسف؟ فكيف ترجعون إليه الآن؟ ﴿فَلَنْ أَجْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي﴾ أي فلن أفارق أرض مصر حتى يسمح لي أبي بالخروج منها

(١) (ش): ما كان ليوسف أن يأخذ أخاه في دين ملك مصر: أي ما كان ليوسف أن يأخذ أخاه في حكم ملك «مصر»، لأن القانون المصري لا يُجيز استرقاق السارق.

(٢) «الطبري» ٢٧/١٣.

(٣) «روح المعاني» ٣٤/١٣.

(٤) (ش): تناجى الشخصان: أفضى كلّ منهما إلى الآخر بما يخصّه به، ويكتمه غيره، تساراً.

﴿أَوْ يَحْكُمُ اللَّهُ لِي﴾ أي يحكم لي بخلاص أخي ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ أي وهو سبحانه أعدل الحاكمين لأنه لا يحكم إلا بالعدل والحق ﴿أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيْبَكُمْ فَقُولُوا يَتَابَعَانَا﴾ إِنَّكَ سَرَقَ ﴿أَيَّ أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيْبَكُمْ فَأَخْبِرُوهُ بِحَقِيقَةِ مَا جَرَى وَقُولُوا لَهُ: إِنَّ ابْنَكَ بَنِيَامِينَ سَرَقَ ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا﴾ أي ولسنا نشهد إلا بما تيقنا وعلمنا فقد رأينا الصاع في رَحْلِهِ ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ أي ما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الميثاق ﴿وَسُئِلَ الْقَرْيَةُ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ أي واسأل أهل مصر عن حقيقة ما حدث قال «البيضاوي»: أي أرسل إلى أهلها واسألهم عن القصة^(١) ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي واسأل أيضاً القافلة التي جئنا معهم وهم قوم من كنعان كانوا بصحبته في هذه السفرة ﴿وَلَنَا لَصَدَقُوتٌ﴾ أي صادقون فيما أخبرناك من أمره ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أي زينت وسهلت لكم أنفسكم أمراً ومكيدة فنفذتموها، اتهمهم بالتآمر على «بنيامين» لما سبق منهم في أمر يوسف ﴿فَصَبَّرْ جَمِيلٌ﴾ أي لا أجد سوى الصبر محتسباً أجري عند الله ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ أي عسى أن يجمع الله شملهم بهم، ويقر عيني برؤيتهم جميعاً ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أي العالم بحالي الحكيم في تدبيره وتصريفه ﴿وَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أي أعرض عن أولاده كراهة لما سمع منهم ﴿وَقَالَ يَتَأَسَّفُ عَلَى يُوسُفَ﴾ أي يا لهفي ويا حسرتي وحزني على يوسف ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ﴾ أي فقد بصره وعشي^(٢) من شدة البكاء حزناً على ولديه ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي مملوء القلب كمداً وغيظاً ولكنه يكتم ذلك في نفسه، وهو مغموم ومكروب لتلك الداهية الدهية قال «أبو السعود»: وإنما تأسف على يوسف مع أن الحادث مصيبة أخويه^(٣) لأن ذكر يوسف كان آخذاً بمجامع قلبه لا ينساه ولأنه كان واثقاً بحياتهما طامعاً في إياهما وأما يوسف فلم يكن في شأنه ما يحرك سلسلة رجائه سوى رحمة الله وفضله^(٤) وقال «الرازي»: الحزن الجديد يقوي الحزن القديم الكامن في النفس، والأسى يبعث الأسى ويشير الأحزان قال الشاعر:

فَقُلْتُ لَهُ إِنَّ الْأَسَى يَبْعَثُ الْأَسَى فَدَعْنِي فَهَذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكٍ^(٥)

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي لا تفتأ ولا تزال تذكر يوسف وتتفجع عليه

(١) «البيضاوي» ٢٦٨.

(٢) عشى البصر ضعف حتى كاد لا يرى من شدة البكاء كأن غشاوة صارت عليه قال الشاعر: عشت عيناى من

طول البكاء. قال المفسرون: إن يعقوب فقد بصره من شدة حزنه على يوسف وبقي لا يبصر ست سنوات حتى

كشف الله عنه الضر بقميص يوسف واستدلوا بقوله تعالى: ﴿الْقَنُةُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾.

(٣) (ش): الذي أخذه يوسف وكبرهم الذي قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ إِلَى أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لى﴾

(٤) «أبو السعود» ٨٨/٣.

(٥) «الفخر الرازي» ١٨/١٩٣.

﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ أي حتى تكون مريضاً مشرفاً على الهلاك أو تهلك أسى وحسرة وتموت ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي قال لهم يعقوب: لست أشكو غمي وحزني إليكم وإنما أشكو ذلك إلى الله فهو الذي تنفع الشكوى إليه ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أعلم من رحمته وإحسانه ما لا تعلمون أنتم؛ فأرجو أن يرحمني ويلطف بي ويأتيني بالفرج من حيث لا أحتسب ﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي اذهبوا إلى الموضع الذي جئتم منه فالتمسوا يوسف وتعرفوا على خبره وخبر أخيه بحواسكم ﴿وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ أي لا تقنطوا من رحمة الله وفرجه وتنفسه ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾ أي فإنه لا يقنط من رحمته تعالى إلا الجاحدون المنكرون لقدرة جل وعلا ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ في الكلام محذوف، أي: فخرجوا راجعين إلى مصر فدخلوا على يوسف فلما دخلوا قالوا: يا أيها العزيز أصابنا وأهلنا الشدة من الجذب والقحط ﴿وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُرَجَلَةٍ﴾ أي وجئنا ببضاعة رديئة مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقاراً قال ابن عباس: كانت دراهمهم رديئة لا تقبل في ثمن الطعام^(١)، أظهروا له الذل والانكسار استرحاماً واستعطافاً ﴿فَأَوْفَ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أي أتمم لنا الكيل ولا تنقصه لرداءة بضاعتنا ﴿وَنَصَدِّقْ عَلَيْنَا﴾ أي برّد أخينا إلينا^(٢) أو بالمسامحة عن رداءة البضاعة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أي يشيب المحسنين أحسن الجزاء. ولما بلغ بهم الأمر إلى هذا الحد من الاسترحام والضيق والانكسار أدركته الرأفة فباح لهم بما كان يكتمه من أمره ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُ يُونُسَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ أي هل تذكرون ما فعلتم بيوسف وأخيه حال شبابكم وطيشكم؟ والغرض تعظيم الواقعة كأنه يقول: ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف وما أقبح ما أفدتم عليه! قال «أبو السعود»: وإنما قاله نصحاً لهم، وتحريضاً على التوبة، وشفقة عليهم^(٣) ﴿قَالُوا أَيْنَ نَكَ لَا نَتَّيُوسُفَ﴾ أي قال إخوته متعجبين مستغربين: أنت يوسف حقاً؟ ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ أي قال: نعم أنا يوسف وهذا أخي الشقيق ﴿قَدْ مَرَّكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي من علينا بالخلاص من البلاء، والاجتماع بعد الفرقة، والعزة بعد الذلة ﴿إِنَّهُ، مَنْ يَتَّقْ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي لا يبطل أجرهم ولا يضيع إحسانهم بل يجزيهم عليه أوفى الجزاء قال «البيضاوي»: ووضع المحسنين موضع الضمير للتنبيه على أن المحسن من جمع بين التقوى والصبر^(٤) ﴿قَالُوا نَالَهُ لَقَدْ عَازَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ اعتراف بالخطيئة وإقرار

(١) «الرازي» ٢٠١/١٨.

(٢) هذا قول ابن جريج واختار «الطبري» أن المراد المسامحة لرداءة البضاعة.

(٣) «أبو السعود» ٩٠/٣.

(٤) «البيضاوي» ٢٦٩.

بالذنب، أي: والله لقد فضلك الله علينا بالتقوى والصبر، والعلم والحلم ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ أي وحالنا وشأننا أننا كنا مذنبين بصنيعنا الذي صنعنا بك، ولذلك أعزك الله وأذلنا، وأكرمك وأهاننا ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ أي قال لهم يوسف: لا عتب عليكم اليوم ولا عقوبة بل أصفح وأعفو ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ دعاء لهم بالمغفرة وهذا زيادة تكريم منه لما فرط منهم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي هو جل وعلا المتفضل على التائب بالمغفرة والرحمة، أرحم بعباده من كل أحد ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أُمِّي﴾ قال «الطبري»: ذكر أن يوسف لما عرّف نفسه إخوته سألهم عن أبيهم فقالوا: ذهب بصره من الحزن فعند ذلك أعطاهم قميصه^(١)، وأراد يوسف تبشير أبيه بحياته، وإدخال السرور عليه بذلك ﴿يَأْتِ بِصِيرًا﴾ أي يرجع إليه بصره ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي وجئوني بجميع الأهل والذرية من أولاد يعقوب.

البلاغة: ١ - ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ فيه جناس الاشتقاق وكذلك في ﴿أَذْنُ مُؤَدِّنٌ﴾.

٢ - ﴿فَأَسْرَهَا... وَلَمْ يَبْدَهَا﴾ بينهما طباق.

٣ - ﴿شَيْخًا كَبِيرًا﴾ فيه إطناب للاستعطاف.

٤ - ﴿وَسَلَّ الْقَرْيَةَ﴾ مجاز مرسل علاقته المحلية.

٥ - ﴿يَتَأَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ بين لفظي الأسف ويوسف جناس الاشتقاق.

٦ - ﴿تَاللَّهِ تَفْتَنُوا﴾ إيجاز بالحذف أي تالله لا تفتأ.

٧ - ﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾ فيه استعارة استعير الرّوح وهو تنسيم الريح التي يلدّ شميمها ويطيب نسيمها، للفرج الذي يأتي بعد الكربة، واليسر الذي يأتي بعد الشدة.

لطيفة: ذكر القاضي عياض في كتابه «الشفاء» أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ هذه الآية ﴿فَلَمَّا أَسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَاَصُوا نَحْيًا﴾ فقال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام^(٢). وذلك أن الآية ذكرت صفة اعتزالهم لجميع الناس، وانفرادهم من غيرهم، وتقليبهم الآراء ظهراً لبطن، وأخذهم في تزوير^(٣) ما يلقون به أباهم عند عودهم إليه، وما يوردون عليه من ذكر الحادث، فتضمنت تلك الآية القصيرة، معاني القصة الطويلة.

قال الله تعالى:

وَلَمَّا فَصَلَ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ

(١) «تفسير الطبري» ٥٧ / ١٣.

(٢) كتاب الشفاء بحث إعجاز القرآن.

(٣) (ش): التزوير: هو التحسين والتزيين. زوّر مقالته: أي هيأها وحسّنها.

أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا بَنَا آسَتِنَا مَا أَتَيْتَنَا بِتُوبَةٍ إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَبْنَوتَ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْتُ رَاسِي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يَوْمُنَّ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَلَمْ يَنْسَ الْأَرْضَ فَأَنظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عِقَبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَّشَأٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

المناسبة: تتحدث الآيات عن مجيء أسرة يعقوب بأسرهم إلى مصر، ودخولهم على يوسف وهو في عز السلطان وعظمة الملك، وتحقيق الرؤيا بسجود إخوته الأحد عشر له مع أبيه وأمه، واجتماع الشمل بعد الفرقة، وحلول الأنس بعد الكدر، ثم تختتم السورة الكريمة بتوجيه الأنظار إلى عجائب الكون الدالة على القدرة والوحداية، وما في قصص القرآن من العبر والعظات ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ !

اللغة: ﴿تَفِيدُونَ﴾ تنسبونني إلى الخرف قال الأصمعي: إذا كثر كلام الرجل من خرف فهو المُفند وقال الزمخشري: التفيد النسبة إلى الفند وهو الخرف وإنكار العقل من هرم يقال: شيخ مُفند ولا يقال عجوز مُفندة، لأنها لم تكن في شببتها ذات رأي فتفند في كبرها^(١) ﴿ضَلَّالِكَ﴾ ذهابك عن الصواب ﴿الْبَدْوِ﴾ البادية ﴿نَزَغَ﴾ أفسد وأغوى وأصله من نزغ الراكب الدابة إذا نخسها ليحملها على الجري ﴿فَاطَرَ﴾ مبدع ومخترع وأصله من فطر إذا شق ثم صار عبارة عن الخلق والإيجاد ﴿غَشِيَةٌ﴾ عذاب يغشاهم ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة

﴿بِأَسْنَا﴾ عذابنا ﴿عَبْرَةً﴾ عظة وتذكرة.

التفسير: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ أي خرجت مُنْطَلِقَةً من مصر إلى الشام ﴿قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أي قال يعقوب لمن حضر من قرابته: إني لأشم رائحة يوسف قال ابن عباس: هاجت ريح فحملت ريح قميص يوسف وبينهما مسيرة ثمان ليال^(١) ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُون﴾ أي تسفهوني وتنسبوني إلى الخَرْف وهو ذهاب العقل وجواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوف تقديره لأخبرتكم أنه حي ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ قَدِيمٍ﴾ أي قال حَفْدته ومن عنده: والله إنك لفي خطأ وذهاب عن طريق الصواب قديم، بإفراطك في محبة يوسف، ولهجك بذكره، ورجائك للقائه قال المفسرون: وإنما قالوا ذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ أي فلما جاء المبشر بالخبر السار قال مجاهد: كان البشير أخاه يهوذا الذي حمل قميص الدم فقال: أفرحه كما أحزنته^(٢) ﴿أَلْقَنهُ عَلَى وَجْهِهِ﴾ أي طرح البشير القميص على وجه يعقوب ﴿فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ أي عاد بصيراً لما حدث له من السرور والانتعاش^(٣) ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي قال يعقوب لأبنائه: ألم أخبركم بأني أعلم ما لا تعلمونه من حياة يوسف وأن الله سيرده عليّ لتتحقق الرؤيا؟ قال المفسرون: ذكرهم بقوله ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦] روي أنه سأل البشير كيف يوسف؟ فقال: هو ملك مصر، قال: ما أصنع بالملك على أي دين تركته؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تَمَّتِ النعمة^(٤) ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ طلب أبناؤه أن يستغفر لهم لما فرط منهم ثم اعترفوا بخطئهم بقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ أي مخطئين فيما ارتكبنا مع يوسف ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ وعدهم بالاستغفار قال المفسرون: آخر ذلك إلى السَّحَر ليكون أقرب إلى الإجابة وقيل: أخرهم إلى يوم الجمعة ليتحرى ساعة الإجابة ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي الساتر للذنوب الرحيم بالعباد ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ أي فلما دخل يعقوب وأبناؤه وأهلهم على يوسف ضمَّ إليه أبويه واعتنقهما ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِن صُرَٰتِ هَٰذَا إِلَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي ادخلوا بلدة مصر آمنين من كل مكروه، وإنما قال ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ تبركاً وتيمناً ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي أجلسهما على سرير الملك بجانبه ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ أي سجد له أبوه وأمه وإخوته حين دخولهم عليه قال المفسرون: كان السجود

(١) «تفسير القرطبي» ٩/ ٢٥٩.

(٢) «تفسير الطبري» ١٣/ ٦٣.

(٣) (ش): في هذا التعليل نظر: لأن ذلك معجزة من معجزات الأنبياء التي لا ندرك حقيقتها.

(٤) «الرازي» ١٨/ ٢٠٩.

عندهم تحية وكرامة لا عبادة ﴿وَقَالَ يَتَابِتْ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي هذا تفسير الرؤيا التي رأيته في منامي وأنا صغير ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أي صدقاً حيث وقعت كما رأيته في النوم ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ أي أنعم عليّ بإخراجه من السجن قال المفسرون: ولم يذكر قصة الحب تكرماً منه لئلا يُخجل إخوته ويذكرهم صنيعهم بعد أن عفا عنهم ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ أي جاء بكم من البادية لأنهم كانوا أهل إبل وغنم ببادية فلسطين، ذكرهم بنعمة الله على آل يعقوب حيث نقلهم من البادية إلى الحضر واجتمع شمل الأسرة بمصر قال «الطبري»: ذكر أن يعقوب دخل مصر هو ومن معه من أولاده وأهليهم وأبنائهم وهم أقل من مائة، وخرجوا منها يوم خرجوا وهم زيادة على ستمائة ألف ^(١) ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أي أفسد ما بيني وبين إخوتي بالإغواء قال أبو حيان: وذكر هذا القدر من أمر إخوته لأن النعمة إذا جاءت إثر بلاءٍ وشدة كانت أحسن موقعاً ^(٢) ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ أي لطيف التدبير يحقق مشيئته بلطفٍ ودقة خفية لا يحسها الناس ولا يشعرون بها ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أي العليم بخلقه الحكيم في صنعه قال المفسرون: إن يعقوب عليه السلام أقام مع يوسف في مصر أربعاً وعشرين سنة ثم مات وكان قد أوصى أن يُدفن بالشام إلى جنب أبيه إسحاق، فمضى يوسف بنفسه ودفنه ثمّة، ثم لما عاد إلى مصر عاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة، فلما تم أمره وعلم أنه لا يدوم تاقت نفسه إلى الملك الدائم الخالد، واشتاق إلى لقاء الله وإلى آباءه الصالحين إبراهيم وإسحاق فقال ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ أي أعطيتني العزَّ والجاه والسلطان، وذلك من نعمة الدنيا ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي علمتني تفسير الرؤيا، وذلك من نعمة العلم ﴿فَاطْرَأَ السَّمَكُوتَ وَالْأَرْضِ﴾ أي يا مبدع السماوات والأرض وخالقهما على غير مثال سابق ﴿وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي أنت يا رب متولي أموري وشئوني في الدارين ﴿تَوْفَنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّقِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أي اقبضني إليك مسلماً، واجعل لحاقي بالصالحين، ابتهل إلى ربه أن يحفظ عليه إسلامه حتى يموت عليه، وإلى هنا تنتهي قصة يوسف الصديق ثم يأتي التعقيب بعد ذلك بإقامة البرهان على صحة نبوة محمد عليه السلاة والسلام ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي ذلك الذي أخبرناك عنه يا محمد من أمر يوسف وقصته، من الأخبار المغيية التي لم تكن تعلمها قبل الوحي، وإنما نُعلمك نحن بها على أبلغ وجه وأدق تصوير، ليظهر صدقك في دعوى الرسالة ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ أي وما كنت حاضراً مع إخوة يوسف حين تأمروا على أخيه

(١) «الطبري» ١٣ / ٧٣.

(٢) «البحر المحيط» ٥ / ٣٤٩.

وأجمعوا أمرهم على إلقائه في الجب وهم يحتالون ويمكرون به وبأبيه ليرسله معهم، فإنك يا محمد لم تشاهدهم حتى تقف على حقيقة القصة وإنما جاءتك بوحي من العلم الخبير ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ أي ليس أكثر الخلق ولو حرصت على إيمانهم وبالغت في إرشادهم بمصدقين لك^(١) لتصميمهم على الكفر ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي وما تطلب منهم على هذا النصيح، والدعاء إلى الخير والرشد أجرة حتى يثقل عليهم ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي ما هذا القرآن إلا عظة وتذكير للعالمين، وأنت لا تطلب في تلاوته عليهم مالا، فلو كانوا عقلاء لقبلوا ولم يتمردوا ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي كم من الآيات والعلامات الدالة على وجود الله جل وعلا^(٢) ووحدانيته، الكائنة في السماوات والأرض كالشمس والقمر والنجوم، والجبال والبحار والأشجار، وسائر ما فيهما من العجائب ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ أي يشاهدونها ليل نهار، ويمرون عليها بالعشي والإبكار ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ أي لا يفكرون فيها ولا يعتبرون، فلا تتعجب من إعراضهم عنك فإن إعراضهم عن هذه الآيات الدالة على وحدانية الله وقدرته أغرب وأعجب ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾ أي لا يؤمن أكثر هؤلاء المكذبين من قومك إلا إذا أشركوا مع الله غيره، فإنهم يقرّون بأن الله هو الخالق الرازق ويعبدون معه الأصنام قال ابن عباس: ومن ذلك قولهم في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك^(٣) ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ أفأمن هؤلاء المكذبون عقوبة من عذاب الله تغشاهم وتشملهم؟ ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي أو تأتيهم القيامة بأهوالها فجأة من حيث لا يشعرون ولا يتوقعون؟ والاستفهام إنكاري وفيه معنى التوبيخ ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ أي قل يا محمد هذه طريقي ومنهجي واضحة مستقيمة لا عوج فيها ولا شك ولا شبهة ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ أي أدعو إلى عبادة الله وطاعته، على بيان وحجة واضحة أنا ومن آمن بي ﴿وَسُبْحَنَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي وأنزهه سبحانه عن الشركاء والأنداد، فأنا مؤمن موحد ولست من المشركين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا مِنْ الْبَشَرِ لَا مَلَائِكَةَ مِنَ السَّمَاءِ قَالَ «الطبري»: أي رجلاً لا نساء ولا ملائكة نوحى إليهم آياتنا للدعاء إلى طاعتنا^(٤)، والآية

(١) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح.

(٢) (ش): لو قال على قدرة الله لكان أنسب، لأن مجرد الوجود لا مدح فيه.

(٣) «تفسير القرطبي» ٩/ ٢٧٢.

(٤) «تفسير الطبري» ١٣/ ٨٠.

رَدُّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ مِنَ الْبَشَرِ، أَوْ زَعَمَ أَنَّ فِي النِّسَاءِ نَبِيَّاتٍ ﴿مَنْ أَهْلَ الْقُرَىٰ﴾^(١) أي من أهل المُدُن والأَمْصَار لا من أهل الْبَوَادِي قال الحسن: لم يبعث الله نبياً من أهل البادية قط ولا من النساء ولا من الجن^(٢) قال المفسرون: وإنما كانوا من أهل الأمصار لأنهم أعلم وأحلم، وأهل البوادي فيهم الجهل والجفاء والقسوة ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي أفلم يسر هؤلاء المكذبون في الأرض فينظروا نظراً تفكروا وتدبروا ما حل بالأمم السابقين ومصارع المكذابين فيعتبرون بذلك؟ والاستفهام للتوبيخ ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي الدار الآخرة خير للمؤمنين المتقين من هذه الدار التي ليس فيها قرار ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تعقلون فتؤمنون! ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ أي يسر الرسل من إيمان قومهم ﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ أي أيقن الرسل أن قومهم كذبوهم^(٣) ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ أي أتاهم النصر عند اشتداد الكرب، ففي اللحظة التي تستحكم فيها الشدة، ويأخذ فيها الكرب بالمخائق^(٤)، ولا يبقى أمل في غير الله، في هذه اللحظة يجيء النصر كاملاً حاسماً فاصلاً ﴿فَنُجِّيَ مِنْ نَشَاءٍ﴾ أي فنجينا الرسل والمؤمنين بهم دون الكافرين ﴿وَلَا يُرْدُ بِأَسْنَانٍ الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي ولا يرد عذابنا وبطشنا عن المجرمين إذا نزل بهم ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي لقد كان في قصة يوسف وإخوته عظة وتذكرة لأولوي العقول النيرة ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي ما كان هذا القرآن أخباراً تُروى أو أحاديث تخلق ﴿وَلَكِنَّ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي ولكن كان هذا القرآن مصدقاً لما سبقه من الكتب السماوية المنزلة من قبل ﴿وَتَقْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي تبيان كل ما يحتاج إليه من أحكام الحلال والحرام، والشرائع والأحكام ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي وهداية من الضلالة ورحمة من العذاب لقوم يصدقون به ويعملون بأوامره ونواهيه.

البلاغة: ١ - ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ﴾ أكدوا كلامهم بالقسم وإن واللام وهذا الضرب^(٥) يسمى (إنكارياً) لتتابع أنواع المؤكدات.

٢ - ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ جملة ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ دعائية جيء بها للتبرك وفي الآية تقديم وتأخير تقديره: ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله.

٣ - ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ أبواه المراد به الأب والأم فهو من باب

(١) «تفسير القرطبي» ٩/ ٢٧٤.

(٢) (ش): ولا أمل في إيمانهم.

(٣) (ش): المخنق: مكان الخنق، وهو العنق أو الحلق من الإنسان.

(٤) (ش): ضرب: نوع.

التغليب، والرفع مؤخر عن الخرور وإن تقدم لفظاً للاهتمام بتعظيمه لهما أي سجدوا له ثم أجلس أبويه على عرش الملك.

٤ - ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ جملة ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ اعتراضية بين اسم (ما) الحجازية وخبرها، وجيء بهذا الاعتراض لإفادة أن الهداية بيد الله جل وعلا وحده.

٥ - ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ هذا على حذف مضاف أي وما تسألهم على تبليغ القرآن من أجر.

٦ - ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ ﴿إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ فيه من المحسنات البديعية «السجع» وهو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير.

تنبيه: دلّ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي فَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ على أن الغرض من ذكر هذه القصص والأخبار، العظة والاعتبار، ووجه الاعتبار بهذه القصة أن الذي قدر على إخراج يوسف من الجب بعد إلقاءه فيه، وإخراجه من السجن، وتمليكه مصر بعد العبودية، وجمع شمله بأبيه وإخوته بعد المدة الطويلة واليأس من الاجتماع، قادرٌ على إعزاز محمد صلى الله عليه، وإعلاء شأنه، وإظهار دينه، وأن الإخبار بهذه القصة العجيبة جار مجرى الإخبار عن الغيوب، فكان ذلك معجزة لرسول الله ﷺ.

«انتهى بعون الله وتوفيقه تفسير سورة يوسف»





مدنية وآياتها ثلاث وأربعون

بين يدي السورة

* سورة الرعد من السور المدنية، التي تتناول المقاصد الأساسية للسور المدنية، من تقرير «الوحدانية» و«الرسالة» و«البعث والجزاء» ودفع الشبه التي يثيرها المشركون.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقضية الكبرى، قضية الإيمان بوجود الله ووحدانيته، فمع سطوع الحق ووضوحه، كذب المشركون بالقرآن وجحدوا وحدانية الرحمن، فجاءت الآيات تقرر كمال قدرته تعالى، وعجيب خلقه، في السماوات والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والزروع والثمار وسائر ما خلق الله في هذا الكون الفسيح البديع.

* ثم تَلَتْهَا الآيات في إثبات البعث والجزاء، ثم بعد ذكر الأدلة الساطعة والبراهين القاطعة على انفراده جل وعلا بالخلق والإيجاد، والإحياء والإماتة، والنفع والضرر، ضرب القرآن مثلين للحق والباطل أحدهما: في الماء ينزل من السماء، فتسيل به الأودية والشعاب، ثم هو يجرف في طريقه الغطاء، فيطفو على وجهه الزبد الذي لا فائدة فيه والثاني: في المعادن التي تُذاب لتصاغ منها الأواني وبعض الحلية كالذهب والفضة، وما يعلو هذه المعادن من الزبد والخبث، الذي لا يلبث أن يذهب جفاء ويضمحل ويتلاشى، ويبقى المعدن النقي الصافي ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا...﴾ الآيات فذلك مثل الحق والباطل.

* وذكرت السورة الكريمة أوصاف أهل السعادة وأهل الشقاوة، وضربت لهم المثل بالأعمى والبصير، وبينت مصر كل من الفريقين، ثم ختمت بشهادة الله لرسوله بالنبوة والرسالة وأنه مرسل من عند الله.

التسمية: سميت (سورة الرعد) لتلك الظاهرة الكونية العجيبة، التي تتجلى فيها قدرة الله وسلطانه، فالماء جعله الله سبباً للحياة، وأنزله بقدرته من السحاب، والسحابُ جمع الله فيه بين الرحمة والعذاب، فهو يحمل المطر ويحمل الصواعق، وفي الماء الإحياء، وفي الصواعق الإفناء، وجمع النقيضين من العجائب كما قال القائل:

جَمْعُ النَّفِیْضِیْنِ مِنْ أَسْرَارِ قُدْرَتِهِ هَذَا السَّحَابُ بِهِ مَاءٌ بِهِ نَارٌ
فما أجل وأعظم قدرة الله!

قال الله تعالى:

الْمَرْ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ۖ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَاتٌ ۖ وَجَنَّتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَلَمْ نَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِيْ أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَتْلِ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ۖ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِإِمْقَادٍ ﴿٨﴾ عَلَيْهِ الْقِيَامُ وَالشَّهَادَةُ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِآلِيلٍ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقَّبَتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۖ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۖ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيَسْخِرُ الرُّعْدَ بِحِمْدِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجْعَدُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطُ كَفَيْهِ إِلَىٰ أَلْمَاءٍ لِّبَلَّغٍ فَا هُوَ يَبْلُغُهُ ۖ وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَةُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾

اللغة: ﴿عَمَدٍ﴾ العمد: الدعائم وهو اسم جمع، وقيل: جمع عمود ﴿صِنَوَانٌ﴾ جمع صِنُو وهو الغصن الخارج عن أصل الشجرة وأصله المِثْلُ ومنه قيل للعم: صِنُو لمماثلته للأب، فإذا كان للشجرة عدة فروع فهي صِنَوَانٌ ﴿الْأَغْلَالُ﴾ جمع غل وهو طوق تُشدُّ به اليد إلى العُنُقِ ﴿الْمَثَلَتُ﴾ جمع مثلة وهي العقوبة وسميت بذلك لما بين العقاب والمُعَاقِب من المماثلة ﴿تَغِيضُ﴾ غاض الماء نقص أو غار ﴿وَسَارِبٌ﴾ السارب: الذاهب في سربه أي طريقه بوضوح النهار لا يستخفى عن الأنظار ﴿مُعَقَّبَتٌ﴾ ملائكة يعقب بعضهم بعضًا،

أي: يأتي بعضهم عقب بعض ﴿شَدِيدُ الْحَالِ﴾ القوة والإهلاك والنقمة.

سبب النزول: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا مَرَّةً إِلَى رَجُلٍ مِنْ فِرَاعِنَةَ الْعَرَبِ، فَقَالَ: «أَذْهَبْ فَادْعُهُ لِي»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ أَعْتَى مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: «أَذْهَبْ فَادْعُهُ لِي»، قَالَ: فَذْهَبَ إِلَيْهِ فَقَالَ: يَدْعُوكَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: وَمَا اللَّهُ أَمِنْ ذَهَبٍ هُوَ أَوْ مِنْ فِضَّةٍ أَوْ مِنْ نُحَاسٍ؟ قَالَ فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، وَقَالَ: قَدْ أَخْبَرْتُكَ أَنَّهُ أَعْتَى مِنْ ذَلِكَ، قَالَ لِي كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ: «ارْجِعْ إِلَيْهِ الثَّانِيَةَ فَادْعُهُ لِي»، فَرَجَعَ إِلَيْهِ، فَعَادَ عَلَيْهِ مِثْلَ الْكَلَامِ الْأَوَّلِ، فَرَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «ارْجِعْ إِلَيْهِ»، فَرَجَعَ الثَّالِثَةَ فَأَعَادَ عَلَيْهِ ذَلِكَ الْكَلَامَ، فَبَيْنَا هُوَ يُكَلِّمُنِي إِذْ بُعِثَتْ إِلَيْهِ سَحَابَةٌ حِيَالُ رَأْسِهِ فَرَعَدَتْ فَوْقَ عَتَمَتِهَا صَاعِقَةٌ فَذَهَبَتْ بِقُحْفٍ رَأْسِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ [الرعد: ١٣].^(١)

التفسير: ﴿الْمَرَّةُ﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن^(٢) وقال ابن عباس معناه: أنا الله أعلم وأرى^(٣) ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي هذه آيات القرآن المعجز، الذي فاق كل كتاب ﴿وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ أي والذي أوحى إليك يا محمد في هذا القرآن هو الحق الذي لا يلتبس بالباطل، ولا يحتمل الشك والتردد ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي ومع وضوحه وجلالته كذب به أكثر الناس ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أي خلقها مرتفعة البناء، قائمة بقدرته لا تستند على شيء حال كونكم تشاهدونها وتنظرونها بغير دعائم، وذلك دليل وجود الخالق المبدع الحكيم ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي علا فوق العرش علواً يليق بجلاله من غير تجسيم^(٤) ولا تكييف ولا تعطيل^(٥) ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ذلل الشمس والقمر لمصالح العباد، كل يسير بقدرته تعالى إلى زمن معين هو زمن فناء الدنيا ﴿يَذِيرُ الْأَمْرَ﴾ أي يصرف بحكمته وقدرته أمور الخلق وشئون الملكوت من إيجاد وإعدام، وإحياء وإماتة وغير ذلك ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي يبينها ويوضحها ﴿لَعَلَّكُمْ يَلْقَاءَ رَبَّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أي لتصدقوا بقاء الله، وتوقنوا بالمعاد إليه، لأن من قدر على ذلك كله فهو قادر على إحياء الإنسان بعد موته ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ أي هو تعالى بقدرته بسط

(١) «أسباب النزول» ١٥٦. (ش): صحيح، رواه النسائي والبخاري وأبو يعلى.

(٢) انظر توضيح الحروف المقطعة في أول تفسير سورة البقرة.

(٣) «تفسير الطبري» ٩١/١٣.

(٤) (ش): التجسيم لم يرد نفيه ولا إثباته في الكتاب والسنة وهو من الألفاظ التي تحتمل حقاً وباطلاً.

(٥) انظر أقوال السلف في سورة الأعراف من هذا الكتاب.

الأرض وجعلها ممدودة فسيحة، وهذا لا ينافي كرويتها فإن ذلك مقطوعٌ به، والغرض أنه تعالى جعلها واسعة فسيحة ممتدة الآفاق ليستقر عليها الإنسان والحيوان، ولو كانت كلها جبلاً وودياناً لما أمكن العيش عليها قال في «التسهيل»: ولا يتنافى لفظ البسط والمد مع التكوين، لأن كل قطعة من الأرض ممدودة على حدتها، وإنما التكوين لجملة الأرض^(١) ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي وخلق في الأرض جبلاً ثوابت رواسخ لئلا تضطرب بأهلها كقوله ﴿أَنْ نَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] ﴿وَأَنْهَرًا﴾ أي وجعل فيها الأنهار الجارية ﴿وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي جعل فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين اثنين ذكراً وأنثى ليتّم بينهما أسباب الإخصاب والتكاثر طبق سنته الحكيمة وقال «أبو السعود»: أي جعل من كل نوع من أنواع الثمرات الموجودة في الدنيا ضربين وصنفين، إمّا في اللون كالأبيض والأسود، أو في الطعم كالحلو والحامض، أو في القدر كالصغير والكبير، أو في الكيفية كالحار والبارد وما أشبه ذلك^(٢) ﴿يُعْشَىٰ لَيْلَ النَّهَارِ﴾ أي يلبسه إياه فيصير الجو مظلماً بعد ما كان مضيئاً ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إنّ في عجائب صنع الله لدلالات وعلامات باهرة على قدرته ووحدانيته لمن تأمل وتفكر، وخُصَّ «المتفكرون» بالذكر لأنّ ما احتوت عليه هذه الآيات من الصنيع العجيب لا يدرك إلا بالتفكر ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّزَاتٌ﴾ أي في الأرض بقاعٌ مختلفة متلاصقات قريب بعضها من بعض قال ابن عباس: أرض طيبة، وأرض سبخة، تُنبِت هذه، وهذه إلى جنبها لا تُنبِت^(٣) ﴿وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ أي بساتين كثيرة من أشجار العنب ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ أي وفي هذه القطع المتجاورة أنواع الزروع والحبوب والنخيل والرطب، منها ما يَنبِت منه من أصل واحد شجرتان فأكثر، ومنها ما ينبت منه شجرة واحدة ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْضُ لُبٍّ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ أي الكل يسقى بماء واحد، والتربة واحدة، ولكن الثمار مختلفات الطعوم قال «الطبري»: الأرض الواحدة يكون فيها الخوخ، والكمثرى، والعنب الأبيض والأسود، بعضها حلو، وبعضها حامض، وبعضها أفضل من بعض مع اجتماع جميعها على شرب واحد^(٤) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي علامات باهرة ظاهرة لمن عقل وتدبّر، وفي ذلك ردٌّ على القائلين بالطبيعة ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ

(١) «التسهيل في علوم التنزيل» ٢ / ١٣٠.

(٢) «أبو السعود» ٣ / ٩٧.

(٣) «تفسير الطبري» ١٣ / ٩٧.

(٤) «نفس المرجع السابق» ١٣ / ٩٨.

فَعَجَبُ قَوْلِهِمْ أَيْ ذَا كُنَّا تَرْبًا لَنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١﴾ أي إن تعجب يا محمد من شيء فليس ما هو أعجب من قول الكفار أنذا متنا وأصبحنا رفاتاً هل سنبعث من جديد؟ فإن إنكارهم للبعث حقيق أن يتعجب منه، فإن الذي قدر على إنشاء ما ذكرنا من السماوات والأرض، والأشجار والثمار، والبحار والأنهار قادرٌ على إعادتهم بعد موتهم ﴿وَأُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ أي هؤلاء الذين أنكروا البعث هم الجاحدون لقدرة الله ﴿وَأُولَئِكَ الْأَعْلَىٰ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ أي يُغْلَوْنَ بالسلاسل في أعناقهم يوم القيامة ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي وهم في جهنم مخلدون فيها أبداً لا يموتون فيها ولا يُخْرَجُونَ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي يستعجلوك المشركون يا محمد بالبلاء والعقوبة قبل الرخاء والعافية، استعجلوا ما هُددوا به من عذاب الدنيا استهزاء ﴿وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلُتُ﴾ أي وقد مضت عقوبات أمثالهم من المكذبين، فما لهم لا يعتبرون ولا يتعظون؟ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أي وإن ربك لذو صفح عظيم للناس، لا يعجل لهم العقوبة وإن كانوا ظالمين بل يمهلهم بتأخيرها ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي شديد العقاب لمن أصرَّ على المعاصي ولم يتب ومن ذنوبه. قرن تعالى بين سعة حلمه وشدة عقابه ليبقى العبد بين الرغبة والرغبة، والرجاء والخوف ﴿وَقَوْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي ويقول المشركون من كفار قريش: هلا أنزل على محمد معجزة تدل على صدقه مثل معجزات موسى وعيسى! قال في البحر: لم يعتدوا بالآيات الخارقة المنزلة كانشقاق القمر، وانقياد الشجر، ونبع الماء من بين الأصابع وأمثال هذه المعجزات فاقترحوا عناداً آيات أخرى ^(١) ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ جواب لما اقترحوا أي لست أنت يا محمد إلا محدّر ومبصر، شأنك شأن كل رسول قبلك، فلكل قوم نبيّ يدعوهم إلى الله وأما الآيات الخارقة فأمرها إلى مدبر الكون والعباد ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ﴾ أي الله وحده الذي يعلم ما تحمله كل أنثى في بطنها هل هو ذكرٌ أم أنثى؟ تامٌ أم ناقصٌ؟ حسنٌ أم قبيحٌ ﴿وَمَا تَغْيِضُ الْأَرْحَامُ﴾ أي وما تنقصه الأرحامُ بإلقاء الجنين قبل تمامه ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ أي وما تزداد على الأشهر التسعة قال ابن عباس: ما تغيض بالوضع لأقل من تسعة أشهر، وما تزداد بالوضع لأكثر من تسعة أشهر، وعنه المراد بالغيض: السقط الناقص، وبالأزدياد: الولد التام ^(٢) ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ أي كل شيء من الأشياء عند الله تعالى بقدر محدد لا يتجاوزه حسب المصلحة والمنفعة ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي ما غاب عن الحس وما كان مشاهداً

(١) «البحر المحيط» ٣٦٧/٥.

(٢) «زاد المسير» ٣٠٨/٤.

منظوراً، فعلمه تعالى شامل للخفي والمرئي لا يخفى عليه شيء ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ أي العظيم الشأن الذي كل شيء دونه المُستَعْلَى على كل شيء بقدرته^(١) المنزه عن المشابهة والمماثلة ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ أي يستوي في علمه تعالى ما أضمرته القلوب وما نطقت به الألسنة ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أي ويستوي عنده كذلك من هو مستتر بأعماله في ظلمات الليل وهو في غاية الاختفاء، ومن هو ذاهب في طريقه بوضوح النهار مستعلن لا يستخفي فيما يعمل وهو في غاية الظهور ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ﴾ أي لهذا الإنسان ملائكة موكلّة به تتعقب في حفظه يأتي بعضهم بعقب بعض كالحرس في الدوائر الحكومية^(٢) ﴿مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أي من أمام الإنسان ومن ورائه ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي يحفظونه من الأخطار والمضار بأمره تعالى قال مجاهد: ما من عبد إلا وملك موكل به يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام^(٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ أي لا يزيل نعمته عن قوم ولا يسلبهم إياها إلا إذا بدلوا أحوالهم الجميلة بأحوال قبيحة، وهذه من سنن الله الاجتماعية أنه تعالى لا يبدل ما بقوم من عافية ونعمة، وأمن وعزة إلا إذا كفروا تلك النعم وارتكبوا المعاصي وفي الأثر «أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك: إنه ليس من أهل قرية، ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله إلا حول الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون»^(٤) ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ أي وإذا أراد تعالى هلاك قوم أو عذابهم ﴿فَلَا مَرَدَ لَهُ﴾ أي لا يقدر على رد ذلك أحد ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ أي ليس لهم من دون الله ولي يدفع عنهم العذاب والبلاء ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ﴾ هذا بيان لآثار قدرته تعالى المنبئة في الكون أي يريكم أيها الناس البرق الخاطف من خلال السحاب ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قال ابن عباس: خوفاً من الصواعق وطمعاً في الغيث^(٥)، فإن البرق غالباً ما يعقبه صواعق مدمرة، وقد يكون وراءه المطر المدرار الذي به حياة البلاد والعباد ﴿وَيُنْشِئُ

(١) (ش): هذا تفسير ناقص، والحق: أنه تعالى مُسْتَعْلَى على كل شيء بذاته وقدره وقهره، وقد أثبت المؤلف: لله عز وجل علو ذاته عز وجل فوق العرش علواً يليق بجلاله.

(٢) (ش): تشبيه الملائكة بالبشر فيه تنقيص لقدرهم، وفيه تشبيه لحراسة الملائكة بحراسة البشر، والمشبّه أقل من المشبّه به، فعلى هذا تكون حراسة الملائكة أقل من حراسة البشر.

(٣) «الطبري» ١١٩/١٣.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم كذا في «مختصر ابن كثير» ٢/٢٧٤. (ش): هذا الأثر ضعيف لا يثبت، فهو من كلام إبراهيم بن يزيد النخعي المتوفى سنة ٩٦ هـ وبينه وبين أنبياء بني إسرائيل مفاوز. ورؤي مرفوعاً (أي منسوباً إلى النبي ﷺ) في كتاب «صفة العرش» لابن أبي شيبّة، وضعفه الحافظ ابن كثير.

(٥) «زاد المسير» ٤/٣١٣.

السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١﴾ أي وبقدرته كذلك يخلق السحب الكثيفة المحملة بالماء الكثير ﴿وَيَسْبِغُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ أي يسبغ الرعد له تسبيحاً مقترناً بحمده والثناء عليه، وتسبغ له الملائكة خوفاً من عذابه، وتسبغ الرعد حقيقة دَلَّ عليها القرآن فنؤمن بها وإن لم نفهم تلك الأصوات فهو تعالى لا يخبر إلا بما هو حق كما قال ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِغُ بِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يرسل الصواعق المدمرة نقمة يهلك بها من شاء ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ أي وكفار مكة يجادلون في وجود الله ^(١) ووحدانيته وفي قدرته على البعث ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ أي وهو تعالى شديد القوة والبطش والنكال، القادر على الانتقام ممن عصاه ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ أي لله تعالى تتجه الدعوة الحق فهو الحقيق بأن يُعبد وحده بالدعاء والالتجاء ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي والآلهة الذين يدعوه الكفار من دون الله ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ أي لا يستجيبون لهم دعاءً، ولا يسمعون لهم نداءً ﴿إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِغٍ﴾ أي إلا كمن يسط كفيه للماء من بعيد يدعوه ويناديه ليصل الماء إلى فمه، والماء جمادٍ لا يُحس ولا يسمع قال «أبو السعود»: شبه حال المشركين في عدم حصولهم عند دعاء آلهتهم على شيء أصلاً بحال عطشان هائم لا يدري ما يفعل، قد بسط كفيه من بعيد إلى الماء يبغي وصوله إلى فمه وليس الماء ببالغ فمه أبداً لكونه جماداً لا يشعر بعطشه ^(٢) ﴿وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي ما دعاؤهم والتجاؤهم لآلهتهم إلا في ضياع وخسار لأنه لا يُجدي ولا يفيد ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي لله وحده يخضع وينقاد أهل السماوات وأهل الأرض ﴿طَوْعاً وَكَرْهًا﴾ أي طائعين وكارهين قال الحسن: المؤمن يسجد طوعاً، والكافر يسجد كرهاً ^(٣) أي في حالة الفزع والاضطرار ﴿وَوَظَلُّهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي وتسجد ظللهم أيضاً لله في أول النار وأواخره، والغرض الإخبار عن عظمة الله تعالى وسلطانه الذي قهر كل شيء، ودان له كل شيء، بأنه ينقاد لجلاله جميع الكائنات حتى ظلال الأدميين، الكل في نهاية الخضوع والاستسلام لأمره تعالى ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: مَنْ خالق السماوات والأرض ومدبر أمرهما؟ والسؤال لتهكم والسخرية بما عبدوا من دون الله ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ أي قل لهم تقريعاً وتبكيته: الله خالقهما ﴿قُلْ أَفَاتُخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ فَنَعَمْ وَلَا ضَرْأُ﴾ أي قل لهم - إلزاماً لإقامة الحجة

(١) (ش): كان كفار قريش يؤمنون بوجود الله، وإنما يجادلون في تخصيصه بالعبادة.

(٢) «أبو السعود» ١٠٢/٣.

(٣) «تفسير القرطبي» ٣٠١/٩.

عليهم - أ جعلتم لله شركاء وعبدتموهم من دونه وهم لا يقدرُونَ على نفع أنفسهم، ولا على دفع الضرر عنها، فكيف يستطيعونه لغيرهم؟ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ هذا تمثيلٌ لضلالهم في عبادة غير الله، والمراد بالأعمى الكافر وبالبصير المؤمن، وبالظلمات الضلالُ وبالنور الهدى أي كما لا يستوي الأعمى والبصير، وكما لا تستوي الظلمات والنور، كذلك لا يستوي المؤمن الذي يبصر ضياء الحق، والمشرِك الذي عمي عن رؤية ذلك الضياء، فالفارق بين الحق والباطل واضحٌ وضوح الفارق بين الأعمى والبصير، والفارق بين الإيمان والضلال ظاهر ظهور الفارق بين النور والظلام ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ هذا من تمام الاحتجاج عليهم والتهكم بهم أي أم اتخذ هؤلاء المشركون آلهةً خلقوا مخلوقاتٍ كالتي خلقها الله فالتبس الأمر عليهم فلا يدرون خَلَقَ اللهُ مِنْ خَلْقِ آلِهَتِهِمْ؟ وهو تهكم لاذع فإنهم يرون كل شيء من خلق الله، ويرون هذه الآلهة المزعومة لم تخلق شيئاً، ثم بعد هذا كله يعبدونها من دون الله، وذلك أسخف وأحط ما تصل إليه عقول المشركين، ولما أقام الحجة عليهم جاء بهذا البيان الواضح ﴿قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهْرُ﴾ أي الله الخالق لجميع الأشياء لا خالق غيره، وهو المنفرد بالآلوهية والربوبية، الغالب لكل شيء، وجميعُ الأشياء تحت قدرته وقهره.

البلاغة: في الآيات الكريمة من وجوه الفصاحة والبيان والبديع ما يلي:

١ - الإشارة بالبعيد عن القريب في ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ تنزيلاً لها منزلة البعيد للدلالة على علو شأنها ورفعة منزلتها و (أل) في الكتاب للتفخيم أي الكتاب العجيب الكامل في إعجازه وبيانه.

٢ - الاستعارة التبعية في ﴿يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ شبه إزالة نور النهار بواسطة ظلمة الليل بالغطاء الكثيف واستعار لفظ ﴿يُعْشَى﴾ المشير إلى تغطية الأشياء الظاهرة بالأغطية الحسية للأمور المعنوية.

٣ - الطباق في ﴿تَغِيضُ.. تَزْدَادُ﴾ وفي ﴿الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ وفي ﴿أَسْرَ... جَهَرَ﴾ وفي ﴿مُسْتَخْفٍ.. وَسَارِبٍ﴾ لأن السارب الظاهر وفي ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ وفي ﴿طَوَعًا وَكَرْهًا﴾ وكلها من المحسنات البديعية اللفظية.

٤ - الإيجاز بالحذف في ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ أي الله خالق السماوات والأرض.

٥ - التشبيه التمثيلي في ﴿كَبَسَ كَفَيْهِ﴾ شبه عدم استجابة الأصنام للداعين لها بعدم استجابة الماء لباس كفيه إليه من بُعد فوجه الشبه منتزع من متعدد.

(١) «تفسير القرطبي» ٢٩٨/٩. (ش:) رواه ابن جرير «الطبري» في تفسيره دون قوله: من قالها فأصابته صاعقةٌ فعليّ ديتُه، بإسناد ضعيف. وعن ابن عباس، قال: «من سمع صوت الرعد، فقال: سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير، فإن أصابته صاعقة فعليّ ديتُه» [رواه سعيد بن منصور بإسناد ضعيف جداً]. وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ إِذَا سَمِعَ الرَّعْدَ تَرَكَ الْحَدِيثَ وَقَالَ: سُبْحَانَ الَّذِي يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ. ثُمَّ يَقُولُ: «إِنَّ هَذَا لَوَعِيدٌ شَدِيدٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ». [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ].

تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا تَابَ ﴿٢٩﴾ كَذَلِكَ
 أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ
 هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ
 الْأَرْضُ أَوْ كُلُّ نَفْسٍ بِهِ الْمَوْتُ بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِئِسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ
 جَمِيعًا وَلَا يَزَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
 لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ
 عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ
 فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظَاهِرُ مِن الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ
 مِن هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ ﴿٣٤﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى في الآيات السابقة أنَّ في الأرض دعوتين: دعوة الحق، ودعوة الباطل، وذكر أنَّ دعوة الله هي دعوة الحق، ودعوة ما يعبدون من دونه هي دعوة الباطل ذكر تعالى هنا مثلين ضربهما للحق وأهله، والباطل وحزبه، ليتضح الفرق بين الهدى والضلال، والرشد والغى، ثم أعقبه بذكر مآل المؤمنين في دار النعيم، والكافرين في دار الجحيم.

اللغة: ﴿زَبَدًا﴾ الزبد: الغُثَاء الذي يحمله السَّيْلُ ^(١) ﴿زَايِبًا﴾ عالياً متفخفاً ﴿جُفَاءً﴾ مضمحلاً متلاشياً لا منفعة فيه ولا بقاء له ^(٢) يقال: جفا الماء بالزبد إذا قذفه ورمى به ﴿الْمِهَادُ﴾ الفراش وأصله المكان الممهّد الموطأ للنوم والراحة ﴿وَيَذْرَءُونَ﴾ يدفعون والدرء: الدفع ﴿عُقْبَى﴾ العاقبة ويسمى الجزاء على الفعل عقبي لأنه يكون عقب الفعل ﴿عَدَنَ﴾ استقرار وثبات وخلود يقال: عدَنَ بالمكان إذا أقام به ﴿يَسْطُ﴾ يوسع ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يضيق ﴿مَتَّعٌ﴾ كل شيء يتمتع به إلى أجل ثم ينتهي ويفنى ﴿طُوبَى﴾ فرح وقرة عين قال الزمخشري: مصدر من طاب كبشرى وزلفى ومعناه أصبت خيراً وطيباً ^(٣) ﴿يَأْتِئِسَ﴾ اليأس: القنوط من الشيء ﴿فَأَمَلَيْتُ﴾ أمهلتُ يقال: أملى الله له إذا أمهله وطول له المدة ﴿وَاقٍ﴾ اسم فاعل من وقى إذا دفع الأذى والضرر عنه.

سبب النزول: قال ابن عباس: نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي ﷺ: اسجدوا للرحمن قالوا: وما الرحمن؟ أنسجد لما تأمرنا؟ فأنزل الله ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ

(١) (ش): الغُثَاء: ما يحمله السَّيْلُ من رغوة ومن فُتات الأشياء التي على وجه الأرض.

(٢) «البحر المحيط» ٥/ ٣٨٢.

(٣) «الكشاف» ٢/ ٥٢٨.

رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿١﴾.

التفسير: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي أنزل تعالى من السماء مطراً ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ أي فجرت مياه الأودية بمقدار سعتها كل بحسبه، فالكبير بمقدار كبره، والصغير بمقدار صغره ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ أي حمل السيل الذي حدث من الأمطار زبداً عالياً فوقه وهو ما يحمله السيل من غشاء، ورغوة تظهر على وجه الماء قال «الطبري»: هذا مثل ضربه الله للحق والباطل، والإيمان والكفر، فمثل الحق في ثباته، والباطل في اضمحلاله، مثل الماء الذي أنزله الله من السماء إلى الأرض، فاحتمل السيل زبداً عالياً، فالحق هو الماء الباقي الذي يمكث في الأرض، والزبد الذي لا يُنتفع به هو الباطل، وهذا أحد مثلي الحق والباطل، والمثل الآخر (٢) قوله تعالى ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ﴾ أي ومن الذي يوقد عليه الناس من المعادن كالذهب والفضة والنحاس، مما يُسبك في النار طلب الزينة أو الأشياء التي يُنتفع بها كالأواني زبدٌ مثل زبد السيل، لا يُنتفع به كما لا يُنتفع بزبد السيل ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ أي كذلك يضرب الله المثل للحق والمثل للباطل، فمثل الحق في ثباته واستقراره كمثل الماء الصافي الذي يستقر في الأرض فينتفع منه الناس، ومثل الباطل في زواله وضمحلاله كمثل الزبد والغشاء الذي يقذف به الماء يتلاشى ويضمحل ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ أي فأما الزبد الذي لا خير فيه مما يطفو على وجه الماء والمعادن فإنه يرمي به السيل ويقذفه ويتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي وأما ما ينتفع الناس به من الماء الصافي، والمعدن الخالص فيبقى ويثبت في الأرض ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ أي مثل المثليين السابقين يبين الله الأمثال للحق والباطل، والهدى والضلال ليعتبر الناس ويتعظوا ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى﴾ أي للمؤمنين الذين استجابوا لله بالإيمان والطاعة المثوبة الحسنى وهي الجنة دار النعيم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرُّ الْحُسْنَى﴾ أي لم يجيبوا ربهم إلى الإيمان به وهم الكافرون ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي لو كان لهم جميع ما في الدنيا من الأموال ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ أي ومثل جميع ما في الدنيا ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ أي لبذلوا كل ذلك فداءً لأنفسهم ليتخلصوا من عذاب الله ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ أي لهم الحساب السيئ قال الحسن: يُحاسبون بذنوبهم كلها لا يُغفر لهم منها شيء ﴿وَمَا لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ أي المكان الذي يأوون إليه يوم القيامة نار جهنم ﴿وَيَسَّ لِلِهَادُ﴾ أي يس هذا المستقر والفراش الممهّد لهم في النار ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ الهمزة للاستفهام

(١) «أسباب النزول» ٢٥٧، و«تفسير القرطبي» ٣١٨/٩. (ش): ضعيف. رواه الواحدي في «أسباب النزول».

(٢) «الطبري» ١٣/١٣٤.

الإنكاري، أي: هل يستوي من آمن وصدق بما نزل عليك يا محمد ومن بقي يتخبط في ظلمات الجهل والضلال لا لبَّ له كالأعمى؟ والمراد به عمى البصيرة. قال ابن عباس نزلت في حمزة وأبي جهل^(١) ﴿إِنَّمَا يَنْذَرُ أَولَؤُا الْأَنْبِ﴾ أي إنما يتعظ بآيات الله ويعتبر بها ذوو العقول السليمة، ثم عدد تعالى صفاتهم فقال ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ أي يمتنون عهد الله الذي وصاهم به وهي أوامره ونواهيه التي كلف بها عباده ﴿وَلَا يَنْقُضُونَ الْيَمِينَ﴾ أي لا يخالفون ما وثقوه على أنفسهم من العهود المؤكدة بينهم وبين الله، وبين العباد ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ أي يصلون الأرحام التي أمر الله بصلتها ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي يهابون ربهم إجلالاً وتعظيماً ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ أي يخافون الحساب السيئ المؤدي لدخول النار، فهم لرهبتهم جادون في طاعة الله، محافظون على حدوده ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي صبروا على المكاره طلباً لمرضاة الله ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي أدوا الصلاة المفروضة بحدودها في أوقاتها ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي أنفقوا بعض أموالهم التي أوجبها الله عليهم في الخفاء والعلانية ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي يدفعون الجهل بالحلم والأذى بالصبر وقال ابن عباس: يدفعون بالعمل الصالح السيئ من الأعمال^(٢) بمعنى يفعلون الحسنات ليدرءوا بها السيئات وفي الحديث «وَاتَّبَعَ السَّيِّئَةُ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا»^(٣) ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ﴾ أي العاقبة المحمودة في الدار الآخرة وهي الجنة وقد جاء تفسيرها في قوله ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أي جنات إقامة خالدة يدخلها أولئك الأبرار ومن كان صالحاً من آبائهم ونسائهم وأولادهم، ليأنسوا بلقائهم ويتم بهم سرورهم، وإن لم يكونوا يستحقون هذه المنازل العالية بأعمالهم، فترفع منازل هؤلاء إكراماً لأولئك وذلك فضل الله، ثم إن لهم إكراماً آخر بينه بقوله ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ أي والملائكة تدخل عليهم للتهنئة من كل باب من أبواب الجنة يقولون لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ أي سلمتم من الآفات والمحن بصبركم في الدنيا، ولئن تعبتم فيما مضى فلقد استرحتم الساعة، وهذه بشارة لهم بدوام السلامة ﴿فَنِعْمَ عَقَبَى الدَّارِ﴾ أي نعمت هذه العاقبة الحميدة عاقبتكم وهي الجنة بدل النار، ولما ذكر تعالى أوصاف المؤمنين التسع أعقبه بذكر أوصاف الكافرين الذميمة فقال ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ أي ينقضون عهودهم بعدما وثقوا على أنفسهم لله أن يعملوا بما عهد إليهم من طاعته والإيمان به ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ

(١) (ش): ذكره «القرطبي» وأبو حيان الأندلسي في تفسيريهما بدون إسناد.

(٢) «تفسير القرطبي» ٣١١/٩.

(٣) (ش): رواه الترمذي، وحسنه الألباني.

يُوصَلْ ﴿١﴾ أي يقطعون الرحم التي أمر الله بوصلها ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من القبائح لهم البعد من رحمته، والطرْدُ من جنته ﴿وَهُمْ سَوْءُ الدَّارِ﴾ أي لهم ما يسوءهم في الدار الآخرة وهو عذاب جهنم على عكس المتقين ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسع على من يشاء من عباده ويضيّق على من يشاء حسب الحكمة والمصلحة ﴿وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي وفرح هؤلاء المشركون بنعيم الدنيا فرح أشْر وبَطَر^(١)، وهو إخبار في ضمنه ذم وتسفيه لمن فرح بالدنيا ولذلك حَقَّرها بقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ أي قليل وشيء حقير بالنظر إلى الآخرة ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي ويقول كفار مكة: هَلَّا نُزِّلَ على محمد معجزة من ربه مثل معجزة موسى في فلق البحر، ومعجزة عيسى في إحياء الموتى ونحو ذلك ﴿قُلْ إِنْ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِ إِلَى اللَّهِ مَنْ أَنْابَ﴾ أي قل لهم يا محمد: الأمر بيد الله وليس إليّ، يُضِلُّ من يشاء إضلاله فلا تغني عنه الآيات والنذر شيئاً، ويرشد إلى دينه من أراد هدايته لأنه رجع إلى ربه بالتوبة والإنابة قال في «التسهيل»: خرج بالكلام مخرج التعجب حين طلبوا آية. والمعنى قد جاءكم محمد ﷺ بالقرآن وآيات كثيرة فعميتم عنها، وطلبتُم غيرها، وتماديتُم على الكفر فإنه تعالى يضل من يشاء مع ظهور الآيات، ويهدي من يشاء دون ذلك^(٢) ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ هذا بدل^(٣) والمعنى يهدي أهل الإنابة وهم الذين آمنوا وتسكن وتستأنس قلوبهم بذكر الله وتوحيده، وجيء بصيغة المضارع لإفادة دوام الاطمئنان واستمراره ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أي ألا فانتبهوا أيها القوم فإن بذكر الله تستأنس وتسكن قلوب المؤمنين، فلا يشعرون بقلق واضطراب من سوء العقاب، على عكس الذين إذا ذكر الله اشمأزت قلوبهم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَمِلُوا غَيْرَ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَتَابٍ﴾ أي أما المؤمنون أهل الأعمال الصالحة فقرة عين لهم ونعم ما يلقون من الهناء والسعادة في المرجع والمنقلب قال ابن عباس: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ فرح وقرة عين ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ أي كما أرسلنا الأنبياء من قبلك كذلك أرسلناك يا محمد في أمة قد مضت قبلها أُمم كثيرة، فهي آخر الأُمم وأنت

(١) (ش): أَشْرَ الشَّخْصُ، أَشَرًّا، فهو أَشَرُّ: بَطِرَ واستكبر ومرح ونَشِط. بَطِرَ الشَّخْصُ، بَطَرًا، فهو بَطِرٌ: طَعَى وغالى في مَرَجِه وزهو واستخفافه، جاوز الحدَ كَبَرًا. بَطِرَ النُّعْمَةُ: استخفَّها وكَفَرها ولم يَشْكُرها. بَطِرَ الحَقُّ ونحوه: أنكره ولم يقبله تكبرًا وطغيانًا.

(٢) «التسهيل» ٢/ ١٣٤.

(٣) (ش): البدل: تابعٌ مِمَّهْدٌ له بِذِكْرِ اسم قبله غير مقصود لذاته، مثل «حضر أخوك حسن». فإن ذُكِرَ الأخ غير مقصود لذاته، وإنما المقصود بالذِّكْرِ هو «حسن» وقد ذُكِرَت كلمة الأخ تهيئةً لما بعدها، وليكون الكلام أقوى في نفس السامع؛ لأنك تنسب فيه الحضور إلى حسن مرتين، مرة باعتبار أنه أخ، ومرة بذكر اسمه.

خاتم الأنبياء ﴿لَتَتْلُوهُ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي لتبلغهم هذا الوحي العظيم والذكر الحكيم ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ أي والحال أنهم يكفرون بالرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الرحمن الذي كفرتم به وأنكرتم معرفته هو ربي الذي آمنْتُ به لا معبود لي سواه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ﴾ أي عليه وحده اعتمدت، وإليه توبتي ومرجعي فيثبيني على مجاهدتكُم، والغرض تسلية النبي ﷺ مما يلقاه من كفار قريش من الجحود والعناد فقد كَذَّبَ قبلهم الأمم ﴿وَلَوْ أَن قُرْءَانَا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ أي لو كان كتابُ من الكتب المنزلة سُيرت بتلاوته الجبال وزعزعت عن أماكنها ﴿أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ أي شُقت به الأرض حتى تتصدع وتصير قطعاً ﴿أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتُ﴾ أي خوطبت به الموتى حتى أجابت وتكلمت بعد أن أحياها الله بتلاوته عليها، وجواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوف تقديره: لكان هذا القرآن، لكونه غايةً في الهداية والتذكير، ونهايةً في الإنذار والتخويف^(١) وقال الزجاج: تقديره «لما آمنوا» لغلوهم في المكابرة والعناد، وتماديهم في الضلال والفساد ﴿بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ بل للإضراب والمعنى: لو أن قرآنًا فعل به ما ذُكر لكان ذلك هذا القرآن، ولكن الله لم يُجِبْهم إلى ما اقترحوا من الآيات، لأنه هو المالك لجميع الأمور والفاعل لما يشاء منها من غير أن يكون لأحد عليه تحكُّم أو اقتراح ﴿أَفَلَمْ يَأْنَيْسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي أفلم يَفْنُط وَيُيَاسِ المؤمنون من إيمان الكفار، ويعلموا أنه تعالى لو شاء هدايتهم لهداهم لأن الأمر له، ولكن قضت الحكمة أن يكون بناء التكليف على الاختيار^(٢) ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ أي ولا يزال كفار مكة يصيبهم بسوء أعمالهم وكفرهم داهية تقريح أسماعهم وتقلق بالهم من صنوف البلايا والمصائب ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أي أو تحل القارعة والداهية قريباً من ديارهم فيفزعون منها ويتطايروا إليهم شررها ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ بإظهار الإسلام وانتصارك عليهم بفتح مكة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ أي لا يخلف وعده لرسله وأوليائه بنصرهم على أعدائه ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسلياً وتأنيساً للنبي ﷺ، أي: كما استهزأ بك المشركون فقد استهزأ المجرمون برسلكهم وأنبيائهم ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أي أمهلتهم وتركتهم في أمنٍ ودعة ثم أخذتهم بالعذاب ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي فكيف كان عقابي لهم على الكفر والتكذيب؟

(١) هذا اختيار الزمخشري. واختار الزجاج أن التقدير «لما آمنوا».

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى ﴿أَفَلَمْ يَأْنَيْسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أفلم يعلم ويتبين وهي لغة هوازن وهذا منقول عن بعض السلف، ولكن لا ضرورة لإخراج الكلمة عن معناها الأصلي طالما يمكن فهمها على الوجه المتبادر كما بيَّنا.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي أفمن هو رقيب حفيظ على عمل كل إنسان لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد وهو الله تعالى، والخبر محذوف تقديره: كمن ليس بهذه الصفة من الأصنام التي لا تسمع ولا تنفع ولا تملك من الأمر شيئاً قال الفراء: وترك جوابه لأن المعنى معلوم وقد بينه بعد هذا بقوله ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ كأنه قيل: هل الله شركائهم؟^(١) وقال الزمخشري: هذا احتجاجٌ عليهم في إشراكهم بالله يعني أفالله الذي هو قائم رقيب على كل نفس صالحة أو طالحة بما كسبت من خير أو شر وقد أعد لكل جزاءه كمن ليس كذلك^(٢) ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي وجعل المشركون آلهة عبودها معه من أصنام وأنداد في منتهى العجز والحقارة والجهالة، قل لهم يا محمد: سمّوهم لنا وصفوهم لننظر هل لهم ما يستحقون به العبادة والشركة مع الله؟ ﴿أَمْ تَدْعُونَهُ إِيمًا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي أم تخبرون الله بشركاء لا يعلمهم سبحانه وهو استفهام للتوبيخ ﴿أَمْ يَبْظَاهِرُ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي أم تسمونهم شركاء بظن باطل فاسد لا حقيقة له، لفرط الجهل وسخافة العقل ﴿بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ أي زين لهم الشيطان ذلك الكفر والضلال ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي منعوهم عن طريق الهدى ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي ومن يضلله الله فما له أحد يهديه ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي لهؤلاء الكفرة عذاب عاجل في هذه الحياة الدنيا بالقتل والأسر وسائر المحن ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أي ولعذابهم في الآخرة أثقل وأشد إيلاماً من عذاب الدنيا ﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ أي وليس لهم من يحميهم من عذاب الله أو يدفع عنهم سخطه وانتقامه.

البلاغة: ١ - ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ...﴾ الآية. شبه تعالى الحق والباطل بتشبيهه رائع يسمى «التشبيه التمثيلي» لأن وجه الشبه فيه منتزِعٌ من متعدد، فمثل الحق بالماء الصافي الذي يستقر في الأرض، والجوهر الصافي من المعادن الذي به ينتفع العباد، ومثل الباطل بالزبد والرغوة التي تظهر على وجه الماء، والخبث من الجوهر الذي لا يلبث أن يتلاشى ويضمحل، والصورة التي توحى بها الآية «صورة الحق والباطل» وهما في صراع كالزبد الذي تتقاذفه الأمواج ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ وهو تمثيل في منتهى الروعة والجمال.

٢ - ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ مجاز عقلي من إسناد الشيء لمكانه والأصل فسالت مياه الأودية.

٣ - ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي أمثال الحق وأمثال الباطل.

(١) «زاد المسير» ٣٣٣/٤.

(٢) «الكشاف».

- ٤ - ﴿لِّلَّذِينَ اسْتَجَابُوا... وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا﴾ بينهما طباق السلب.
- ٥ - ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ شبه الجهل والكفر بالعمى على سبيل الاستعارة التبعية لأن المراد بالأعمى الجاهل الكافر.
- ٦ - ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ بينهما طباق وكذلك بين ﴿بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ﴾ و ﴿يَبْسُطُ... وَيَقْدِرُ﴾ و ﴿يُضِلُّ... وَيَهْدِي﴾ للتضاد بين اللفظين.
- ٧ - ﴿إِلَّا مَتَّعُ﴾ أي إلا مثل المتاع الذي يستمتع به الإنسان في الحاجات الموقته ففيه تشبيه بليغ لحذف الأداة ووجه الشبه.
- فائدة:** بيّن تعالى في قوله ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾ أن النسب لا ينفع إذا لم يحصل معه العمل الصالح، وفيه قطع للأطماع الفارغة لمن يتمسك بمجرد حبل الأنساب.
- تنبيه:** قال الإمام الطيبي في قوله تعالى ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ﴾: في هذه الآية احتجاج بليغ مبني على فنون من علم البيان أولها: التوبيخ لهم على قياسهم الفاسد في عبادة غير الله.
- ثانيها:** وضع الظاهر موضع الضمير ﴿وَجَعَلُوا اللَّهَ شُرَكَاءَ﴾^(١) تنبيهاً على ضلالهم في جعل شركاء لمن هو فردٌ واحد لا يشاركه أحد في اسمه. ثالثها: إنكار لوجود الشركاء على وجه برهاني ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾^(٢)
- رابعها:** نفى الشيء بنفي لازمه ﴿أَمْ تَتَّبِعُونَهُ، بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾^(٣).
- خامسها:** الاحتجاج عليهم بطريق التدرج لبعثهم على التفكير ﴿أَمْ يَظْهَرُ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي أتقولون بأفواهكم من غير روية^(٤) ولا تفكير ببطان ما تقولون؟ فكان هذا الاحتجاج منادياً على نفسه بالإعجاز وأنه ليس من كلام البشر^(٥).

قال الله تعالى:

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ أَنْقَرُوا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلِكْتَبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرْ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرِكَ بِهِ إِلَهُي أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَلِكَ

(١) (ش): فلم يقل: (وجعلوا له شركاء).

(٢) (ش): أي عيّنوا أسماءهم فقولوا: فلان وفلان فهو إنكار لوجودها على وجه برهاني، كما تقول: إن كان الذي تدعيه موجوداً فسمّه، لأن المراد بالاسم العلم.

(٣) (ش): فما لا يعلمه الله فليس بموجود إذ الله خالق كل شيء.

(٤) (ش): روية: نظرٌ وتفكير في الأمور.

(٥) نقلاً عن «حاشية الصاوي على الجلالين».

أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ
لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ
بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِينَكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا
مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ
الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى ما أعد للكفار في الآخرة ذكر ما أعد للمؤمنين في جنات النعيم، ثم توعد المشركين بالعذاب الأليم، وختم السورة الكريمة ببيان صدق رسالته عليه السلام بشهادة الله تعالى وشهادة المؤمنين من أهل الكتاب.

اللغة: ﴿الْأَحْزَابِ﴾ الطوائف المتفرقة من أحزاب اليهود والنصارى سموا بذلك؛ لأنهم جماعات متفرقة لا تجمعهم عقيدة واحدة ﴿مَنَابٍ﴾ أي مآبي بمعنى مرجعي ﴿يَمْحُو﴾ المحو: إزالة الأثر من كتابة أو غيرها وعكسه الإثبات ﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أصل كل الكتب والمراد منه علم الله أو اللوح المحفوظ ﴿الْبَلْغُ﴾ اسم بمعنى التبليغ ﴿مَكْرَ﴾ المكر: تدبير أمر في خفاء، وقد يكون في الخير وقد يكون في الشر.

سبب النزول: قال الكلبي: غيرت اليهود رسول الله ﷺ وقالت: ما نرى لهذا الرجل مهمة إلا النساء والنكاح ولو كان نبياً كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء، فأنزل الله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ (١).

التفسير: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي صفة الجنة العجيبة الشأن التي وعد الله بها عباده المتقين أنها تجري من تحت قصورها وغرفها الأنهار ﴿أَكُلُوهَا دَائِمًا وَظِلُّهَا﴾ أي ثمرها دائم لا ينقطع، وظلها دائم لا تنسخه الشمس ﴿تِلْكَ عِوَقُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي تلك الجنة عاقبة المتقين ومآلهم ﴿وَعِوَقُ الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ أي وأما عاقبة الكفار الفجار فهي النار ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي والذين أنزلنا إليهم التوراة والإنجيل - ممن آمن بك واتبعك يا محمد - كعبد الله بن سلام والنجاشي وأصحابه يفرحون بهذا القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ أي ومن أهل الملل المتحيزين عليك وهم أهل أديان شتى من ينكر بعض القرآن مكابرة مع يقينهم بصدقه لأنه موافق لما معهم ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرِكَ بِهِ﴾ أي قل يا محمد إنما أمرت بعبادة الله وحده لا أشرك معه غيره

(١) «أسباب النزول» ١٥٨. (ش): موضوع. رواه الواحدي في «أسباب النزول».

﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابٌ﴾ أي إلى عبادته أَدْعُوا الناس وإليه مرجعي ومصيري ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أي ومثل إنزال الكتب السابقة أنزلنا هذا القرآن بلغة العرب لتحكم به بين الناس ﴿وَلَكِنْ أَتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي ولئن اتبعت المشركين فيما يدعونك إليه من الأهواء والآراء بعد ما آتاك الله من الحجج والبراهين ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ أي ليس لك ناصرٌ ينصرك أو يقيك من عذاب الله، والمقصود تحذير الأمة من اتباع أهواء الناس؛ لأن المعصوم إذا خوطب بمثل ذلك كان الغرض تحذير الناس قال «القرطبي»: الخطاب للنبي ﷺ والمراد الأمة ^(١) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي أرسلنا قبلك الرسل الكرام ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً﴾ أي وجعلنا لهم النساء والبنين، وهو ردٌّ على من عاب على الرسول ﷺ كثرة النساء وقالوا: لو كان مرسلًا حقًا لكان مشغولًا بالزهد وترك الدنيا والنساء، فردَّ الله مقالتهم وبين أن محمدًا ﷺ ليس بيدع في ذلك، بل هو كمن تقدم من الرسل ^(٢) ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِثَابِتٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي لم يكن لرسول أن يأتي قومه بمُعجزة إلا إذا أذن الله له فيها، وهذا ردٌّ على الذين اقترحوا الآيات ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي لكل مدة مضروبة كتابٌ كتبه الله في اللوح المحفوظ، وكل شيء عنده بمقدار قال «الطبري»: لكل أمر قضاه الله كتابٌ قد كتبه فهو عنده ^(٣) ﴿يَمْحُوهُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ أي ينسخ الله ما يشاء نسخه من الشرائع والأحكام وصحف الملائكة الكرام، ويثبت ما يشاء منها دون تغيير قال ابن عباس: يبدل الله ما يشاء فينسخه إلا الموت والحياة والشقاء والسعادة فإنه قد فرغ منها ^(٤) وقيل: إن المحو والإثبات عامٌّ في جميع الأشياء ^(٥) لما روي أن عمر بن الخطاب كان يطوف بالبيت ويكي ويقول: اللهم إن كنت كتبت علي شقوة أو ذنبًا فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب، واجعله سعادةً ومغفرة ^(٦)، وقد رجه «أبو السعود» وهو قول ابن مسعود أيضًا ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي أصل كل كتاب وهو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير الأشياء كلها ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أي وإن أريناك يا محمد بعض الذي وعدناهم من العذاب ﴿أَوْ تَوَفَّيْنَاكَ﴾ أي نقبضك قبل أن نقر عينك بعذاب هؤلاء المشركين ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ أي ليس عليك إلا تبليغ الرسالة وعلينا حسابهم جزاؤهم ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا

(١) «تفسير القرطبي» ٩/ ٣٢٧.

(٢) (ش): تقدم أن سبب النزول موضوع. رواه الواحدي في «أسباب النزول».

(٣) «تفسير الطبري» ١٣/ ١٦٥.

(٤) وهذا قول مجاهد أيضًا حيث قال: إلا الحياة والموت والشقاوة والسعادة فإنهما لا يتغيران.

(٥) (ش): أي يمحو الله ما يشاء من الأحكام والأقدار، ويثبت ما يشاء منها لحكمة يعلمها.

(٦) «تفسير الطبري» ١٣/ ١٦٧.

مِنْ أَطْرَافِهَا ﴿١﴾ أَي أَوْلَمْ يَرِ هَؤُلَاءِ الْمَشْرُكُونَ أَنَّا نُمَكِّنُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ دِيَارِهِمْ وَنَفْتَحُ لِلرَّسُولِ الْأَرْضَ بَعْدَ الْأَرْضِ حَتَّى تَنْقُصَ دَارُ الْكُفْرِ وَتَزِيدَ دَارُ الْإِسْلَامِ؟ وَذَلِكَ مِنْ أَقْوَى الْأَدْلَةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ مَنْجِزٌ وَعَدَهُ لِرَسُولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ ﴿٢﴾ أَي لَيْسَ يَتَعَقَّبُ حُكْمَهُ أَحَدٌ بِنَقْصٍ وَلَا تَغْيِيرٍ ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ﴿٣﴾ أَي سَرِيعُ الْإِنْتِقَامِ مِمَّنْ عَصَاهُ ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ﴿٤﴾ أَي مَكَرَ الْكَفَّارِ الَّذِينَ خَلَوْا بِأَنْبِيَائِهِمْ كَمَا مَكَرَ كِفَارُ قَرِيشَ بِكَ ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أَي لَهُ تَعَالَى أَسْبَابُ الْمَكْرِ جَمِيعًا لَا يَضُرُّ مَكْرَهُمْ إِلَّا بِإِرَادَتِهِ، فَهُوَ يُوَصِّلُ إِلَيْهِمُ الْعَذَابَ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ ﴿٥﴾ أَي مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ فَيَجَازِي عَلَيْهِ ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ﴾ أَي لِمَنْ تَكُونُ الْعَاقِبَةُ الْحَسَنَةُ فِي الْآخِرَةِ ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ أَي يَقُولُ كِفَارُ مَكَّةَ: لَسْتَ يَا مُحَمَّدٌ مَرْسَلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ ﴿٦﴾ أَي حَسْبِيَ شَهَادَةُ اللَّهِ بِصَدَقَتِي بِمَا أَيْدِي مِنَ الْمَعْجَزَاتِ ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ أَي وَشَهَادَةُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ عُلَمَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ.

البَلَاغَةُ: فِي الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ مِنْ وَجْهِ الْبَيَانِ وَالْبَدِيعِ مَا يَلِي:

- ١ - التَّشْبِيهِ فِي قَوْلِهِ ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ﴾ وَفِي ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ﴾ وَيُسَمَّى مَرْسَلًا مُجْمَلًا.
- ٢ - الْإِيْجَازُ بِالْحَذْفِ فِي ﴿أَكُلْهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ أَي وَظِلُّهَا دَائِمٌ حَذَفَ مِنْهُ الْخَبَرُ بِدَلِيلِ السَّابِقِ.
- ٣ - الْمَقَابَلَةُ فِي ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ وَهُوَ مِنَ الْمَحْسَنَاتِ الْبَدِيعِيَّةِ.
- ٤ - جُنَاسُ الْإِشْتِقَاقِ فِي ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلًا﴾.
- ٥ - الطَّبَاقُ فِي ﴿يَمَحُورًا.. وَيُنْبِتُ﴾.
- ٦ - الْقَصْرُ فِي ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ وَفِي ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ وَكِلَاهُمَا قَصْرٌ إِضَافِي مِنْ بَابِ قَصْرِ الْمَوْصُوفِ عَلَى الصِّفَةِ، أَي: لَيْسَ لَكَ مِنَ الصِّفَاتِ إِلَّا صِفَةُ التَّبْلِيغِ.
- ٧ - التَّهْيِيجُ وَالْإِلْهَابُ ﴿وَلَكِنْ أَتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ﴾.
- ٨ - الْمَجَازُ الْمُرْسَلُ فِي ﴿تَأْتِي الْأَرْضُ﴾ أَي يَأْتِيهَا أَمْرُنَا وَعَذَابُنَا^(١).

(١) (ش): (أَتَى): تَأْتِي بَعْدَ مَعَانَ، مِنْهَا: بِمَعْنَى الْمَجِيءِ، وَمِنْهَا بِمَعْنَى الْإِنْدَارِ، وَمِنْهَا بِمَعْنَى الْمُدَاهَمَةِ. وَيُقَالُ: أَتَيْتُ فُلَانًا بِضَمِّ الهمزة وَكَسْرِ التَّاءِ إِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِ الْعَدُوُّ وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: «مَنْ مَأْمَنَ يَأْتِي الْحَذِرُ»، أَمَا مَعْنَى الْآيَةِ، فَإِنَّ سِيَاقَ الْقُرْآنِ يُدَلُّ عَلَى أَنَّ مِثْلَ هَذَا السِّيَاقِ لَيْسَ مِنْ بَابِ الصِّفَاتِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنبَأَ اللَّهُ بَنِيَّاهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾، أَي هَدَمَهُمْ وَأَقْتَلَعَهُ مِنْ قَوَاعِدِهِ، وَتَطْيِيرُهُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَنبَأَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ أَي أَخَذَهُمْ وَدَهَأَهُمْ وَبَاغَتَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا. [انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٨/ ١٨)].

لطيفة: فسّر بعضهم قوله تعالى: ﴿نَقُصُّهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ ﴿١﴾ أن نقصانها بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير والصلاح، وهذا مروى عن مجاهد وابن عباس في رواية عنه وأنشد بعضهم:

الأَرْضُ تَحْيَا إِذَا مَا عَاشَ عَالِمُهَا مَتَى يَمُتْ عَالِمٌ مِنْهَا يَمُتْ طَرَفُ
كَالْأَرْضِ تَحْيَا إِذَا مَا الْغَيْثُ حَلَّ بِهَا وَإِنْ أَبَى عَادَ فِي أَكْنَافِهَا التَّلَفُ^(١)

«انتهى تفسير سورة الرعد»



(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٢٨٧. (ش): طَرَف: قسم، جزء، جانب، ناحية. أطراف المعمورة: أنحاء الأرض.

الغَيْث: المطر الغزير يجلب الخير. كَنَف: ناحية.



مكية وآياتها اثنتان وخمسون

بين يدي السورة

* تناولت السورة الكريمة موضوع العقيدة في أصولها الكبيرة «الإيمان بالله، الإيمان بالرسالة، الإيمان بالبعث والجزاء» ويكاد يكون محور السورة الرئيس «الرسالة والرسول» فقد تناولت دعوة الرسل الكرام بشيء من التفصيل، وبينت وظيفة الرسول، ووضحت معنى وحدة الرسالات السماوية، فالأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، جاءوا لتشيد صرح الإيمان، وتعريف الناس بالإله الحق الذي تعنوا له الوجوه، وإخراج البشرية من الظلمات إلى النور، فدعوتهم واحدة، وهدفهم واحد، وإن كان بينهم اختلاف في الفروع. * وقد تحدثت السورة عن رسالة موسى عليه السلام، ودعوته لقومه إلى أن يعبدوا الله ويشكروه، وضربت الأمثال بالمكذبين للرسل، من الأمم السابقة كقوم نوح، وعاد، وثمود، ثم تناولت الآيات موضوع الرسل مع أقوامهم على مر العصور والدهور، وحكت ما جرى بينهم من محاورات ومناورات انتهت بإهلاك الله للظالمين ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ (١٣) وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ * وتحدثت السورة عن مشهد من مشاهد الآخرة، حيث يلتقي الأشقياء المجرمون بأتباعهم الضعفاء، وذكرت ما يدور بينهم من حوار طويل، ينتهي بتكديس الجميع في نار جهنم يصطلون سعيها، فلم ينفع الأتباع تلك اللعنات والشتائم التي وجهوها إلى الرؤساء فالكل في السعير، ثم ضربت الآيات مثلاً لكلمة الإيمان، وكلمة الضلال، بالشجرة الطيبة، والشجرة الخبيثة، وختمت السورة ببيان مصير الظالمين يوم الجزاء والدين.

التسمية: سميت السورة الكريمة «سورة إبراهيم» تخليداً لمآثر أبي الأنبياء، وإمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام، الذي حطم الأصنام، وحمل راية التوحيد، وجاء بالحنيفية السمحة ودين الإسلام الذي بعث به خاتم المرسلين، وقد قص علينا القرآن الكريم دعواته المباركات بعد انتهائه من بناء البيت العتيق، وكلها دعوات إلى الإيمان والتوحيد.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّكَتَبِ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ
 الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ
 عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
 وَيَعْنُونَهَا عَوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا يَلْسَنُ قَوْمِهِ لِبَيِّنَاتٍ
 لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
 مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيْمَنِ اللَّهِ
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ
 اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ
 وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رِثْكُكُمْ
 لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ
 وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَفِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ
 وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا
 أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾
 قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِ اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِيعُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ
 وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ
 يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ
 وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ
 فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصَبِرَ
 عَلَى مَا أَذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ
 مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُولُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ
 الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ
 عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسَبِّغُهُ وَيَأْتِيهِ
 الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

اللغة: ﴿وَوَيْلٌ﴾ هلاكٌ ودمارٌ ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾ يختارون ويفضّلون ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يذيقونكم يقال: سامه الذلّ أي أذاقه الذلّ ﴿تَأَذَّتْ﴾ أعلم إعلامًا لا شبهة فيه ﴿نَبَأُ﴾ النبأ: الخبر وجمعه أنباء ﴿بِسُلْطَانٍ﴾ حجة وبرهان ﴿فَأَطِيعُوا﴾ مبدع ومخترع ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾ استنصروا على أعدائهم ﴿جَبَّارٍ﴾ الجبار: المتكبر الذي لا يرى لأحدٍ عليه حقًا ﴿عَنِيدٍ﴾ العنيد: المعاند للحق والمجانِب له الذي يذهب عن طريق الحق،

تقول العرب: شرُّ الإبل العنود ﴿صَكِيدٍ﴾ الصديد: القيح الذي يسيل من أجساد أهل النار ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ أي يتحسَّاهُ^(١) ويتكلفُ بلَّعه بمرارة ﴿يُسِغُّهُ﴾ يبتلعه.

التفسير: ﴿الر﴾ هذا الكتاب المعجز مؤلف من جنس هذه الحروف المقطعة فأتوا بمثله إن استطعتم ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ أي هذا القرآن كتاب أنزلناه عليك يا محمد، لم تنشئه أنت وإنما أوحيناه نحن إليك ﴿لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي لتخرج البشرية من ظلمات الجهل والضلال إلى نور العلم والإيمان ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي بأمره وتوفيقه ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ أي لتهديهم إلى طريق الله العزيز الذي لا يغالب، المحمود بكل لسان، الممجَّد في كل مكان ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي المالك لما في السماوات والأرض، الغني عن الناس، المسيطر على الكون وما فيه ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قال الزجاج: ﴿وَوَيْلٌ﴾ كلمة تُقال للعذاب والهلكة^(٢)، أي هلاك ودمارٌ للكافرين ويا ويلهم من عذاب الله الأليم، ثم وضح صفات أولئك الكفار بقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ أي يفضلون ويؤثرون الحياة الفانية على الحياة الآخرة الباقية ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي يصرفون الناس ويمنعونهم عن دين الإسلام ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي يطلبون أن تكون دين الله معوجة لتوافق أهواءهم ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي أولئك المتصفون بتلك الصفات الذميمة في ضلالٍ عن الحق مبين، لا يرجي لهم صلاح ولا نجاح ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ أي وما أرسلنا في الأمم الخالية رسولاً من الرسل إلا بلغة قومه ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ أي ليبين لهم شريعة الله ويفهمهم مراده، لتتم الغاية من الرسالة ﴿فِيضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي وليست وظيفة الرسل إلا التبليغ وأما أمر الهداية والإيمان فذلك بيد الله يضل من يشاء إضلاله، ويهدي من يشاء هدايته على ما سبق به قضاؤه المحكم ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي وهو العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ أي أرسلنا موسى بالمعجزات الباهرات الدالة على صدقه ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أن تفسيرية بمعنى أي. والمعنى أي أخرج بني إسرائيل من ظلمات الجهل والكفر إلى نور الإيمان والتوحيد قال أبو حيان: وفي قوله ﴿قَوْمَكَ﴾ خصوصاً لرسالة موسى إلى قومه بخلاف قوله لمحمد ﴿لِنُخْرِجَ النَّاسَ﴾^(٣)

(١) (ش): تحسَّى المَرَقَ: تناوله جُرعة بعد جُرعة.

(٢) «تفسير القرطبي» ٣٣٩/٩.

(٣) (ش): قال الله تعالى: ﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

ما يدل على عموم الرسالة^(١) ﴿وَذَكَرَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي ذكرهم بأياديه ونعمه عليهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي في التذكير بأيام الله لعبراً ودلالات لكل عبد منيب صابر على البلاء، شاكر للنعماء ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي اذكروا نعم الله الجليلة عليكم ﴿إِذْ أَنجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي حين نجاكم من الذل والاستعباد من فرعون وزبانيته ﴿يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي يذيقونكم أسوأ أنواع العذاب ﴿وَيُذَيِّبُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أي يذبحون الذكور ويستبقون الإناث على قيد الحياة مع الذل والصغار ﴿وَفِي ذَلِكَكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي وفي تلك المحنة ابتلاء واختبار لكم من ربكم عظيم قال المفسرون: وكان سبب قتل الذكور أن الكهنة قالوا لفرعون: إن مولوداً يولد في بني إسرائيل يكون ذهاب ملكك على يديه، فأمر بقتل كل مولود ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ هذا من تنمة كلام موسى أي واذكروا أيضاً حين أعلم ربكم إعلاماً لا شبهة فيه لئن شكرتم إنعامي لأزيدنكم من فضلي ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ أي ولئن جحدتم نعمتي بالكفر والعصيان فإن عذابي شديد، وعد بالعباد على الكفر، كما وعد بالزيادة على الشكر ﴿وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي وقال موسى لبني إسرائيل بعد أن آيس من إيمانهم لئن كفرتم أنتم وجميع الخلائق فلن تضروا الله شيئاً ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي هو غني عن شكر عباده، مستحق للحمد في ذاته وهو المحمود وإن كفره من كفره ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي ألم يأتكم أخبار من قبلكم من الأمم المكذبة كقوم نوح وعاد وثمود ماذا حل بهم لما كذبوا بآيات الله ﴿وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ أي والأمم الذين جاءوا بعدهم ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي لا يحصي عددهم إلا الله ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالحجج الواضحات، والدلائل الباهرات ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم. وقال ابن مسعود: عَضُّوا أَصَابِعَهُمْ غِيظاً^(٢) ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أي كفرنا بما زعمتم أن الله أرسلكم به ﴿وَأَنَّا لِنُفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أي في شك عظيم من دعوتكم، وقلق واضطراب من دينكم ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ أي أجابهم الرسل بقولهم: أي

(١) «البحر المحيط» ٤٠٥/٥.

(٢) مبنى القول الثاني على المجاز ومثله: ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ والقول الأول محمول على الحقيقة وتوضيحه أنهم لما سمعوا كلام الأنبياء عجبوا منه وضحكوا على سبيل السخرية فعند ذلك ردوا أيديهم في أفواههم كما يفعل ذلك من غلبه الضحك فوضع يده على فيه.

وجود الله ووحانيته شك؟ والاستفهام للإنكار والتوبيخ لأنه لا يحتمل الشك لظهور الأدلة ولهذا لفتوا الانتباه إلى براهين وجوده بقولهم ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سابق ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ أي يدعوكم إلى الإيمان ليغفر لكم ذنوبكم ﴿وَيُخْرِجَكُم مِّنَ أَجْلِ مَسْمَى﴾ أي إن آمنتُم أمد في أعماركم إلى منتهى آجالكم ولم يعاقبكم في العاجل فيهلككم ﴿قَالُوا إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي ما أنتم إلا بشر مثلنا لا فضل لكم علينا ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصَدُّونَا﴾ أي تريدون أن تصرفونا عن عبادة الأوثان التي كان عليها آبائنا ﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي فأتونا بحجة ظاهرة على صدقكم ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي قالت الرسل: نحن كما قلتُم بشر مثلكم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي يتفضل على من يشاء بالنبوة والرسالة قال الزمخشري: لم يذكروا فضلهم تواضعاً منهم وسلّموا القول لهم وأنهم بشرٌ مثلهم في البشرية وحدها، فأما ما وراء ذلك فما كانوا مثلهم^(١) ﴿وَمَا كَانُوا لَنَا أَن نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي وما ينبغي لنا أن نأتيكم بحجة وآية مما اقترحتموه علينا إلا بمشيئة الله وإذنه ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي على الله وحده فليعتمد المؤمنون في جميع أمورهم ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ أي قالت الرسل: أي شيء يمنعنا من التوكل على الله؟ ﴿وَقَدْ هَدَيْنَا سُبُلَنَا﴾ أي والحال أنه قد بصرنا طريق النجاة من عذابه ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَاءٍ ذَيْتُمُونَا﴾ أي ولنصبرنَّ على أذاكم قال ابن الجوزي: وإنما قُصَّ هذا وأمثاله على نبينا ﷺ ليقندي بمن قبله في الصبر وليعلم ما جرى لهم^(٢) ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ليس هذا تكراراً وإنما معناه الثبات على التوكل أي فليدوموا وليثبتوا على التوكل عليه وحده، وهنا يسفر الطغيان عن وجهه متبجحاً بالقوة المادية التي يملكها المتجبرون ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أي قال الكفار للرسل الأطهار والله لنطردنكم من ديارنا أو لترجعنَّ إلى ديننا ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أي أوحى الله إلى الرسل لأهلكنَّ أعداءكم الكافرين المتجبرين ﴿وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي ولأمنحنكم سكناً أرضهم بعد هلاكهم ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي ذلك النصر للرسول وإهلاك الظالمين لمن خاف مقامه بين يدي وخاف عذابي ووعيدني قال في البحر: ولما أقسموا على إخراج الرسل أو العودة في ملتهم أقسم تعالى على إهلاكهم، وأي إخراجٍ أعظم من الإهلاك

(١) «الكشاف» ٢/ ٥٤٤.

(٢) «زاد المسير» ٤/ ٣٥٠.

بحيث لا يكون لهم عودة إليها أبداً^(١) ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي واستنصر الرسل بالله على قومهم وخسر وهلك كل متجبر معاند للحق ﴿مَنْ وَرَأَيْهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ أي من وراء ذلك الكافر جهنم ويسقى فيها من ماء صديد هو من قيح ودم ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ أي يبتلعه مرة بعد مرة لمرارته، ولا يكاد يستسيغه لقبحه وكرهته ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ أي يأتيه الموت بأسبابه المحيطة به من كل مكان، ولكنه لا يموت ليستكمل عذابه ﴿وَمِنْ وَرَأَيْهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي ومن بين يديه عذاب أشد مما قبله وأغلظ.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة أنواعاً من البلاغة والبيان والبدیع نوجزها فيما يلي:
١ - الاستعارة في ﴿لَنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ حيث استعار الظلمات للظلمة والضلال، والنور للهدى والإيمان، وكذلك ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ﴾ استعارة عن غواشي^(٢) الكروب وشدائد الأمور، فقد يوصف المغموم بأنه في غمرات الموت مبالغة في عظيم ما يغشاه وأليم ما يلقاه.

٢ - الطباق بين ﴿يُضِلُّ وَيَهْدِي﴾ وبين ﴿شَكَرْتُمْ..كَفَرْتُمْ﴾ وبين ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ..لَتَعُودُنَّ﴾.

٣ - صيغة المبالغة في ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ وفي ﴿جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.
٤ - جناس الاشتقاق في ﴿أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ﴾ وفي ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

٥ - السجع في ﴿شَدِيدٍ، بَعِيدٍ، عَنِيدٍ﴾ إلخ.

فائدة: ذكر تعالى في البقرة ﴿يَذِيحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩] بغير واو وهنا ﴿وَيَذِيحُونَ﴾ بالواو، والسُر في ذلك أنه في سورة البقرة جاء اللفظ تفسيراً لما سبق من قوله ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٤٩] فكأنه قال يسومونكم سوء العذاب ثم فسره بقوله ﴿يَذِيحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩] أما في هذه السورة فهو غير تفسير لأن المعنى أنهم يعذبونهم بأنواع من العذاب وبالتذبيح أيضاً فهو نوع آخر من العذاب غير الأول. والله أعلم.

قال الله تعالى:

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ نَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ

(١) «البحر المحيط» ٤١١/٥.

(٢) (ش): غاشية: داهية، نازلة من خير أو شر أو مكروه.

قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحَيُّهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا زَكَاةً وَسِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٍ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْآنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَيْنَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

المناسبة: لما حكي تعالى استهزاء الكفار بالرسول، وما أعد لهم من العذاب والنكال في الآخرة، ضرب مثلاً لأعمالهم، ثم ذكر المناظرة بين الرؤساء والأتباع، وعقبتها بالتذكير بنعم الله على العباد ليعبدوه ويشكروه.

اللغة: ﴿عاصِفٌ﴾ شديد الريح ﴿وَبَرَزُوا﴾ البروز: الظهور بعد الخفاء، والبراز المكان الواسع لظهوره، وامرأة برزة أي تظهر للناس ﴿مَحِيصٌ﴾ منجى ومهرب يقال: حاص عن كذا أي فرّ وأراد الهرب منه ﴿أَجْرَعْنَا﴾ الجزع: عدم احتمال الشدة وهو نقيض الصبر ﴿بِمُصْرِخِكُمْ﴾ مغيثكم. الصارخ: المستغيث، والمُصرخ: المغيث، قال أمية: فلا تجزعوا إني لكم غير مُصرخ وليس لكم عني غناء ولا نصر^(١) ﴿اجْتُثَّتْ﴾ اقتلعت من أصلها ﴿الْبَوَارِ﴾ الهلاك ﴿خِلَالٌ﴾ جمع خلة وهي الصحبة والصداقة قال امرؤ القيس:

صَرَفْتُ الْهَوَى عَنْهُمْ مِنْ خَشْيَةِ الرَّدَى وَلَسْتُ بِمُقْلِي الْخِلَالِ وَلَا قَالَ^(١)

﴿دَائِبِينَ﴾ الدُّوبُ فِي اللُّغَةِ: مَرُورُ الشَّيْءِ فِي الْعَمَلِ عَلَى عَادَةِ مَطْرَدَةٍ يُقَالُ دَابُّ دُوبًا.

التفسير: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ أي مَثَلُ أَعْمَالِ الْكُفَّارِ الَّتِي عَمَلُوهَا فِي الدُّنْيَا يَبْتَغُونَ بِهَا الْأَجْرَ مِنْ صَدَقَةٍ وَصَلَةِ رَحِمٍ وَغَيْرِهَا مَثَلُ رَمَادٍ عَصَفَتْ بِهِ الرِّيحُ فَجَعَلَتْهُ هَبَاءً مَنثورًا ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي فِي يَوْمٍ شَدِيدِ هُبُوبِ الرِّيحِ قَالَ «الْقُرْطُبِيُّ»: ضَرَبَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ مَثَلًا لِأَعْمَالِ الْكُفَّارِ فِي أَنَّهُ يَمَحِقُهَا كَمَا تَمَحِقُ الرِّيحُ الشَّدِيدَةُ الرَّمَادَ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لِأَنَّهُمْ أَشْرَكُوا فِيهَا غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى^(٢) ﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ أي لَا يَقْدِرُ الْكُفَّارُ عَلَى تَحْصِيلِ ثَوَابٍ مَا عَمَلُوا مِنَ الْبِرِّ فِي الدُّنْيَا لِإِحْبَاطِهِ بِالْكَفْرِ، كَمَا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْصِلَ الْإِنْسَانُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الرَّمَادِ الَّذِي طَيَّرَتْهُ الرِّيحُ ﴿ذَلِكَ هُوَ أَضْلَلُ الْبَعِيدِ﴾ أي الْخُسْرَانُ الْكَبِيرُ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي أَلَمْ تَرِ أَيُّهَا الْمَخَاطَبُ بَعِينَ قَلْبِكَ وَتَتَأَمَّلُ بِبَصِيرَتِكَ أَنَّ اللَّهَ الْعَظِيمَ الْجَلِيلَ أَنْفَرَدَ بِالْخَلْقِ وَالْإِبْجَادِ، وَأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيُسْتَدَلَّ بِهِمَا عَلَى قُدْرَتِهِ؟ قَالَ الْمَفْسُورُونَ: أَيُّ لَمْ يَخْلُقْنَهُنَّ عَبَثًا وَإِنَّمَا خَلَقْنَهُنَّ لِأَمْرٍ عَظِيمٍ ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي هُوَ قَادِرٌ عَلَى الْإِفْنَاءِ كَمَا هُوَ قَادِرٌ عَلَى الْإِبْجَادِ وَالْإِحْيَاءِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَرِيدُ: يَمِيتُكُمْ يَا مَعْشَرَ الْكُفَّارِ وَيَخْلُقُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ خَيْرًا مِنْكُمْ وَأَطُوعًا^(٣) ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي لَيْسَ ذَلِكَ بِصَعْبٍ أَوْ مُتَعَذِّرٍ عَلَى اللَّهِ، فَإِنَّ الْقَوِيَّ الْقَادِرَ لَا يَصْعَبُ عَلَيْهِ شَيْءٌ ﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أَيُ خَرَجُوا مِنْ قُبُورِهِمْ يَوْمَ الْبَعْثِ، وَظَهَرُوا لِلْحِسَابِ لَا يَسْتَرْهَمُ عَنْ اللَّهِ سَاتِرٌ. قَالَ الْإِمَامُ الْفَخْرُ: وَرَدَ بِلَفْظِ الْمَاضِي ﴿وَبَرِّزُوا﴾ وَإِنْ كَانَ مَعْنَاهُ الْاسْتِقْبَالُ لِأَنَّ كُلَّ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ فَهُوَ صَدَقٌ وَحَقٌّ، فَصَارَ كَأَنَّهُ قَدْ حَصَلَ وَدَخَلَ فِي الْوُجُودِ وَنَظِيرُهُ ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ﴾^(٤) [الأعراف: ٤٤] ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أَيُ قَالَ الْأَتْبَاعُ وَالْعَوَامُّ لِلْسَادَةِ الْكِبَرَاءِ وَالْقَادَةِ الَّذِينَ أَضْلَوْهُمْ فِي الدُّنْيَا: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أَيُ كُنَّا أَتْبَاعًا لَكُمْ نَاتِمِرُ بِأَمْرِكُمْ ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنْكُمْ عَنْدَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَيُ هَلْ أَنْتُمْ دَافِعُونَ عَنَّا شَيْئًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ؟ وَالِاسْتَفْهَامُ لِلتَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ ﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾ أَيُ قَالَ الْقَادَةُ مُعْتَذِرِينَ: لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لِلْإِيمَانِ لَهْدَيْنَاكُمْ إِلَيْهِ، وَلَكِنْ حَصَلَ لَنَا الضَّلَالُ فَأَضَلَّ لَنَا كُمْ فَلَا يَنْفَعُنَا الْعِتَابُ وَلَا الْجَزَعُ ﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرٌ عَنَّا أَمْ

(١) «البحر المحيط» ٥/ ٤٢٧. (ش): غناء: نفع، كفاية.

(٢) «تفسير القرطبي» ٩/ ٣٥٣. (ش): قَلَى / قَلِي فَلَانًا: أَبْغَضَهُ وَكَرَهُهُ غَايَةَ الْكَرَاهَةِ فَتَرَكَهُ.

(٣) «زاد المسير» ٤/ ٣٥٣.

(٤) «الفخر الرازي» ١٩/ ١٠٧.

صَبْرًا ﴿١﴾ أي يستوي علينا الجزع والصبر قال «الطبري»: إن أهل النار يجتمعون فيقول بعضهم لبعض: إنما أدرك أهل الجنة بيكائهم وتضرعهم إلى الله فتعالوا نبكي ونتضرع إلى الله، فبكوا فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم قالوا: تعالوا نصبر فصبروا صبراً لم يُر مثله، فلما رأوا أنه لا ينفعهم قالوا ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنا أَمْ صَبْرُنَا﴾ ^(١) وقال مقاتل: جزعوا خمسمائة عام، وصبروا خمسمائة عام ^(٢) ﴿مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ أي ليس لنا من مهرب أو ملجأ ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ هذه هي الخطبة البتراء التي يخطب بها إبليس في محفل الأشقياء في جهنم، أي: لما فرغ من الحساب ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ أي وعدكم وعداً حقاً بإثابة المطيع وعقاب العاصي فوفى لكم وعده ﴿وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ أي وعدتكم أن لا بعث ولا ثواب ولا عقاب فكذبتكم وأخلفتكم الوعد ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي لم يكن لي قدرة وتسלט وقهر عليكم فأقهركم على الكفر والمعاصي ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ أي إلا دعائي إياكم إلى الضلالة بالوسوسة والتزيين فاستجبتم لي باختياركم ﴿فَلَا تُلْهُمُونِي وَلَوْ كُنتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي لا ترجعوا باللوم عليّ اليوم ولكن لوموا أنفسكم فإن الذنب ذنبكم ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي﴾ أي ما أنا بمُغِيثِكُمْ ولا أنتم بمُغِيثِي من عذاب الله ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي كفرت بإشراككم لي مع الله في الطاعة ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي إن المشركين لهم عذاب مؤلم قال المفسرون: هذه الخطبة إنما تكون إذا استقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، فيأخذ أهل النار في لوم إبليس وتقريعه فيقوم فيما بينهم خطيباً بما أخبر عنه القرآن ^(٣) وقال الحسن: يقف إبليس يوم القيامة خطيباً في جهنم على منبر من نار يسمعه الخلائق جميعاً ^(٤) ﴿وَأَدْخِلْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ لما ذكر تعالى أحوال الأشقياء، ذكر بعده أحوال السعداء، ليبقى العبد بين الرغبة والرغبة، وبين الخوف والرجاء، أي: أدخلهم الله تعالى جنات تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ماكثين فيها أبداً بأمره تعالى وتوفيقه وهدايته ﴿يُحْيِيهِمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أي يُحْيِيهِم الملائكة بالسلام مع الإجلال والإكرام ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ هذا مثل ضربه الله لكلمة الإيمان وكلمة الإشراف، فمثل لكلمة الإيمان بالشجرة الطيبة، وكلمة

(١) «تفسير الطبري» ١٣ / ٢٠٠.

(٢) «زاد المسير» ٤ / ٣٥٦.

(٣) «الفخر الرازي» ١٩ / ١١٠.

(٤) «تفسير القرطبي» ٩ / ٣٥٦.

الإشراك بالشجرة الخبيثة قال ابن عباس: الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله» والشجرة الطيبة «المؤمن»^(١) ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي أصلها راسخ في الأرض وأغصانها ممتدة نحو السماء ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أي تعطي ثمرها كل وقت بتيسير الخالق وتكوينه، كذلك كلمة الإيمان ثابتة في قلب المؤمن، وعمله يصعد إلى السماء ويناله بركته وثوابه في كل وقت ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي يبين لهم الأمثال لعلهم يتعظون فيؤمنون ﴿وَمِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ أي ومثل كلمة الكفر الخبيثة كشجرة الحنظل الخبيثة ﴿أَجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾ أي استوصلت من جذورها واقتلعت من الأرض لعدم ثبات أصلها ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ أي ليس لها استقرار وثبات، كذلك كلمة الكفر لا ثبات لها ولا فرع ولا بركة قال ابن الجوزي: شبه ما يكسبه المؤمن من بركة الإيمان وثوابه في كل وقت بثمرتها المجتناة في كل حين، فالمؤمن كلما قال «لا إله إلا الله» صعدت إلى السماء ثم جاء خيرها ومنفعتُها، والكافر لا يقبل عمله ولا يصعد إلى الله تعالى، لأنه ليس له أصل في الأرض ثابت، ولا فرع في السماء^(٢) ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي يشبِّههم على كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» وعلى الإيمان في هذه الحياة فلا يزيغون ولا يُفْتَنُونَ ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي عند سؤال الملكين في القبر كما في الحديث الشريف «المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله تعالى ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾»^(٣) الآية ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يهديهم في الحياة ولا عند سؤال الملكين وقت الممات ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ أي من هداية المؤمن وإضلال الكافر لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ استفهام للتعجب أي ألا تعجب أيها السامع من أولئك الذين غيروا نعمة الله بالكفر والتكذيب؟ قال المفسرون: هم كفار مكة فقد أسكنهم الله حرمة الأمن، وجعل عيشهم في السَّعة، وبعث فيهم محمداً ﷺ فلم يعرفوا قدر هذه النعمة، وكفروا به وكذبوه، فابتلاهم الله بالقحط والجذب ﴿وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ أي أنزلوا قومهم دار الهلاك بكفرهم وطغيانهم ثم فسرها بقوله ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنَسُّ الْقَرَارَ﴾ أي أحلوه في جهنم يذوقون سعيها ويئست جهنم مستقراً ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي جعلوا لله شركاء مماثلين عبدوهم كعبادته ليضلوا الناس عن دين الله ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أي استمتعوا بنعيم الدنيا فإن مردكم

(١) «المختصر» ٢/ ٢٩٦.

(٢) «زاد المسير» ٤/ ٣٦٠.

(٣) أخرجه البخاري وهذا الرأي هو اختيار «الطبري». (ش): الحديث رواه البخاري ومسلم.

ومرجعكم إلى عذاب جهنم، وهو وعيد وتهديد ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي قل يا محمد لعبادي الذين آمنوا: فليقيموا الصلاة المفروضة عليهم ويؤدوها على الوجه الأكمل ﴿وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي ولينفقوا مما أنعمنا عليهم به من الرزق خفية وجهراً ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ أي من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا انتفاع فيه بمبايعة ولا صداقة، ولا فداء ولا شفاعة، ولما أطل الكلام في وصف أحوال السعداء والأشقياء ختم ذلك بذكر الدلائل الدالة على وجود الخالق الحكيم^(١) فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي أبدعهما واخترعهما على غير مثال سبق ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي أنزل من السحاب المطر ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ أي أخرج بالمطر من أنواع الزروع والثمار رزقاً للعباد يأكلونه ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ أي ذلل السفن الكبيرة لتسير بمشيئته، تركبونها وتحملون فيها أمتعتكم من بلد إلى بلد ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ أي الأنهار العذبة لتشربوا منها وتسقوا وتزرعوا ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ أي وذلل لكم الشمس والقمر يجريان بانتظام لا يفتران^(٢)، لصلاح أنفسكم ومعاشكم ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي لتسكنوا في الليل، ولتبتغوا من فضله بالنهار، هذا لمنامكم وذاك لمعاشكم ﴿وَأَتَنَكُم مِّنْ كُلِّ مَآسَاءٍ لُّتُمُوهُ﴾ أي أعطاكم كل ما تحتاجون إليه، وما يصلح أحوالكم ومعاشكم، مما سألتموه بلسان الحال أو المقال ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ أي وإن تعدُّوا نعم الله عليكم لا تطيقوا حصرها وعدّها، فهي أكبر وأكثر من أن يحصيها عدد ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ الإنسان اسم جنس، أي: إن الإنسان لمُبالغٌ في الظلم والجحود، ظالمٌ لنفسه بتعديه حدود الله، جحودٌ لنعم الله، وقيل: ظلوم في الشدة يشكو ويجزع، كفّار في النعمة يجمع ويمنع.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

١ - التشبيه التمثيلي ﴿أَعْمَلُهُمْ كَرَمًا دَأَسْتَدَتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ لأن وجه الشبه منتزع من

متعدد.

٢ - التشبيه المرسل المجمل ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَيِّثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَيْثَةٍ﴾ ومثلها ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾.

٣ - الطباق في ﴿أَصْلُهَا.. وَفَرَعُهَا﴾ وفي ﴿طَيِّبَةً يَخْلُقُ.. خَيْثَةٍ﴾ وفي ﴿وَيُذْهِبَ..

(١) (ش): كان كفار قريش يؤمنون بوجود الله، وإنما يجادلون في تخصيصه بالعبادة، فالآيات سَيَقَتْ هي وأمثالها لإثبات توحيد الإلهية والاستدلال عليه بتوحيد الربوبية الذي يعترفون به.

(٢) (ش): فترت همته: سكنت بعد حدة ونشاط، ضعفت، خفت.

- يَأْتِي ﴿ وفي ﴿سِرًّا.. وَعَلَانِيَةً﴾ وفي ﴿أَجْزَعَنَا.. صَبَرْنَا﴾ .
- ٤ - طباق السلب في ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ .
- ٥ - التعجيب ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ﴾ .
- ٦ - التهديد والوعيد ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا ﴾ .
- ٧ - صيغة المبالغة ﴿ لَظَلُمُوا كَفَّارًا ﴾ لأن (فعل وفعل) من صيغ المبالغة.
- ٨ - السجع المرصع دون تكلف مثل ﴿ الْبَوَارِ .. الْقَرَارِ .. النَّارِ ﴾ الخ.

قال الله تعالى:

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ يَتَعَنَّى فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمَ تَشْخِصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُحِبِّ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْلَمِ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلُ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكَانِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمُ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِيَنْزُولٍ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ ۚ رُسُلُهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا وَلُوا الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى بالدلائل الحسية والسمعية انفراده بالألوهية وأن لا معبود إلا الله، ذكر هنا أبا الأنبياء «إبراهيم» عليه السلام حصن التوحيد، ومبالغته في هدم الشرك والأوثان، ثم ذكر موقف الظالمين يوم الدين، وما يعترهم من الذل والهوان في يوم الحشر الأكبر.

اللغة: ﴿وَأَجْنِبْنِي﴾ أبعدني ونحني يقال: جنب وجنب وأصله جعل الشيء في جانب آخر ﴿شَخَصُ﴾ شَخَصَ البصر: إذا بقيت العين مفتوحة لا تغمض من هول ما ترى ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين يقال: أهطع إهطاعاً إذا أسرع قال الشاعر:

بِدَجَلَةٍ دَارُهُمْ وَلَقَدْ أَرَاهُمْ بِدَجَلَةٍ مُهْطِعِينَ إِلَى السَّمَاعِ^(١)
﴿مُقْنِعِي﴾ المقنع: الرافع رأسه المقبل ببصره على ما بين يديه ﴿هَوَاءٌ﴾ خالية ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ مشدودين ﴿الْأَصْفَادِ﴾ الأغلال والقيود واحداً صَفَدَ ﴿سَرَائِلَهُمْ﴾ جمع سربال وهو القميص والثوب ﴿وَتَغَشَى﴾ تَجَلَّلَ وتَغَطَّى.

التفسير: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ أي اجعل مكة بلد آمن يأمن أهله وساكنته ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ أي احمني يا رب وجنبي وأولادي عبادة الأصنام، والغرض تثبيته على ملة التوحيد والإسلام ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ أي يا رب إن هذه الأصنام أضلت كثيراً من الخلق عن الهداية والإيمان ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي فمن أطاعني وتبعني على التوحيد فإنه من أهل ديني ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي ومن خالف أمري فإنك يا رب غفار الذنوب رحيمٌ بالعباد ﴿وَبَنَّا إِذْ سَكَنْتُمْ مِن دُرِّيَّةٍ﴾ كرر النداء رغبة في الإجابة وإظهاراً للتذلل والالتجاء إلى الله تعالى أي يا ربنا إني أسكنت من أهلي - ولدي إسماعيل وزوجي هاجر^(٢) - ﴿بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ أي بوادٍ ليس فيه زرع في جوار بيتك المحرم، وهو وادي مكة شرفها الله تعالى ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ أي ربنا لكي يعبدوك ويقيموا الصلاة أسكنتهم بهذا الوادي فاجعل قلوب الناس تحن وتسرع إليهم شوقاً قال ابن عباس: لو قال: (أفئدة الناس) لازدحمت عليه فارس والروم والناس كلهم، ولكن قال ﴿مِّنَ النَّاسِ﴾ فهم المسلمون^(٣) ﴿وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ أي وارزقهم في ذلك الوادي القفر^(٤) من أنواع الثمار ليشكروك على جزيل نعمك، وقد استجاب الله

(١) «تفسير القرطبي» ٣٧٦/٩.

(٢) روى أن هاجر لما ولدت إسماعيل غارت منها «سارة» زوجة إبراهيم فأمره الله تعالى أن يحمل ولده إسماعيل مع أمه من الشام إلى مكة فوضعهما عند دوحة مكان زمزم كما في الحديث.

(ش): قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: «أَوَّلُ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قَبْلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لِّتُعْفِيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةٍ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبَابِنَهَا إِسْمَاعِيلُ وَهِيَ تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهُمَا عِندَ الْبَيْتِ عِندَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ رَوَاهُ الْبَخَارِيُّ. (الْمِنْطَقُ) هُوَ مَا يُشَدُّ بِهِ الْوَسْطُ. (لِتُعْفِيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةٍ) أَي لِتَجْرَهُ عَلَى الْأَرْضِ وَتُخْفِيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةٍ. (عِندَ دَوْحَةٍ) الدَّوْحَةُ: الشَّجَرَةُ الْكَبِيرَةُ. (فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ) أَي مَكَانَ الْمَسْجِدِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ حِينَئِذٍ بُنِيَ.

(٣) «تفسير القرطبي» ٣٧٣/٩.

(٤) (ش): قَفَرٌ: خَالٍ مِنَ الْمَاءِ وَالْعُشْبِ وَالنَّاسِ.

دعاه فجعل مكة حرمًا آمنًا يجبي إليها ثمرات كل شيء رزقًا من عند الله ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ أي يا ربنا إنك العالم بما في القلوب تعلم ما نسرُّ وما نظهر ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي لا يغيب عنه تعالى شيء في الكائنات، سواء منها ما كان في الأرض أو في السماء، فكيف تخفى عليه وهو خالقها وموجدُها؟ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ أي الحمد لله الذي رزقني على كبر سني وشخوختي إسماعيل وإسحاق قال ابن عباس: ولد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين، وولد له إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة ^(١) ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدُّعَاءِ﴾ أي مجيبٌ لدعاء من دعاه ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ هذه هي الدعوة السادسة من دعوات الخليل عليه السلام أي يا رب اجعلني ممن حافظ على الصلاة واجعل من ذريتي من يقيمها أيضًا، وهذه خير دعوة يدعوها المؤمن لأولاده فلا أحبُّ له من أن يكون مقيمًا للصلاة هو وذريته لأنها عماد الدين ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ أي تقبل واستجب دعائي فيما دعوتك به ﴿أَغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ هذه هي الدعوة السابعة وبها ختم إبراهيم دعاءه الضارع الخاشع بالاستغفار له ولوالديه ولجميع المؤمنين، يوم يقوم الناس لرب العالمين قال المفسرون: استغفر لوالديه قبل أن يتبين له أن أباه عدوُّ الله قال القشيري: ولا يبعد أن تكون أمه مسلمة لأن الله ذكر عذره في استغفاره لأبيه دون أمه ^(٢).

وينتقل السياق إلى مشاهد القيامة وما فيها من الأحوال حين تنزل القلوب والأقدام ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ أي لا تظننَّ يا محمد أن الله ساهٍ عن أفعال الظلمة، فإن سنة الله إمهال العصاة ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، قال ميمون بن مهران: هذا وعيدٌ للظالم، وتعزيةٌ للمظلوم ^(٣) ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِیَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي إنما يؤخرهم ليوم رهيب عصب، تشخص فيه الأبصار من الفزع والهلع، فتظل مفتوحة مبهوتة لا تطرف ولا تتحرك قال «أبو السعود»: تبقى أبصارهم مفتوحة لا تتحرك أجفانهم من هول ما يرونه ^(٤) ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي مسرعين لا يلتفتون إلى شيء رافعين رؤوسهم مع إدامة النظر قال الحسن: وجوه الناس يومئذٍ إلى السماء لا ينظر أحدٌ إلى أحد ^(٥) ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي لا يطفون بعيونهم من الخوف والجزع ﴿وَأَفْتَدِيَهُمْ

(١) «زاد المسر» ٤ / ٣٦٨.

(٢) «تفسير القرطبي» ٩ / ٣٧٥.

(٣) «تفسير الطبري» ١٣ / ٢٣٦.

(٤) «أبو السعود» ٣ / ١٣٣.

(٥) «تفسير القرطبي» ٩ / ٣٧٧.

هَؤُلَاءِ ﴿١﴾ أَي قُلُوبِهِمْ خَالِيَةٌ مِنَ الْعَقْلِ لَشِدَّةِ الْفَرْعِ ﴿٢﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴿٣﴾ أَي خَوْفٌ يَا مُحَمَّدُ الْكُفَّارِ مِنْ هَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ حِينَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ الشَّدِيدُ ﴿٤﴾ يَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴿٥﴾ أَي فَيَتَوَجَّهَ الظَّالِمُونَ يَوْمَئِذٍ إِلَى اللَّهِ بِالرَّجَاءِ يَقُولُونَ يَا رَبَّنَا أَمَهَلْنَا إِلَى زَمَنٍ قَرِيبٍ لِنَسْتَدْرِكَ مَا فَاتَ ﴿٦﴾ يُحِبُّ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴿٧﴾ أَي نَجِبْ دَعْوَتَكَ لَنَا إِلَى الْإِيمَانِ وَتَتَّبِعِ رِسْلَكَ فِيمَا جَاءَنَا بِهِ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلُ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ﴿٩﴾ أَي يَقَالُ لَهُمْ تَوْبِيخًا وَتَبْكِيَةً: أَلَمْ تَحْلِفُوا أَنْكُمْ بَاقُونَ فِي الدُّنْيَا لَا تَتَّقِلُونَ إِلَى دَارٍ أُخْرَى؟ وَالْمُرَادُ إِنْكَارَهُمْ لِلْبَعْثِ وَالنُّشُورِ ﴿١٠﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكَكِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴿١١﴾ أَي سَكَنتُمْ فِي دِيَارِ الظَّالِمِينَ بَعْدَ أَنْ أَهْلَكْنَاهُمْ، فَهَلَّا عَاطَبْتُمْ بِمَسَاكِنِهِمْ؟ ﴿١٢﴾ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴿١٣﴾ أَي تَبَيَّنَ لَكُمْ بِالْإِخْبَارِ وَالْمُشَاهَدَةِ كَيْفَ أَهْلَكْنَاهُمْ، وَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴿١٤﴾ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿١٥﴾ أَي بَيْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ فِي الدُّنْيَا فَلَمْ تَعْتَبِرُوا ﴿١٦﴾ وَقَدْ مَكَّرُوا مَكْرَهُمْ ﴿١٧﴾ أَي مَكَرَ الْمُشْرِكُونَ بِالرُّسُولِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ حِينَ أَرَادُوا قَتْلَهُ ﴿١٨﴾ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴿١٩﴾ أَي وَعِنْدَ اللَّهِ جَزَاءُ هَذَا الْمَكْرِ فَإِنَّهُ مُحِيطٌ بِهِمْ وَبِمَكْرِهِمْ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَرْزُلَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٢١﴾ أَي وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ مِنَ الْقُوَّةِ وَالتَّأَثِيرِ حَتَّى لِيُؤْدِيَ إِلَى زَوَالِ الْجِبَالِ وَلَكِنَّ اللَّهَ عَصَمَ وَوَقَى مِنْهُ ﴿٢٢﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعِدَّتِهِ رُسُلُهُ ﴿٢٣﴾ أَي لَا تَظُنَّنَّ أَيُّهَا الْمُخَاطَبُ أَنَّ اللَّهَ يَخْلِفُ رِسْلَهُ مَا وَعَدَهُمْ بِهِ مِنَ النَّصْرِ وَأَخَذَ الظَّالِمِينَ الْمَكْذِبِينَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٢٥﴾ أَي إِنَّهُ تَعَالَى غَالِبٌ لَا يَعْجِزُهُ شَيْءٌ مُنْتَقِمٌ مِمَّنْ عَصَاهُ ﴿٢٦﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴿٢٧﴾ أَي يَنْتَقِمُ مِنْ أَعْدَائِهِ يَوْمَ الْجَزَاءِ، يَوْمَ تُبَدَّلُ هَذِهِ الْأَرْضُ أَرْضًا أُخْرَى، وَتُبَدَّلُ السَّمَاوَاتُ سَمَاوَاتٍ أُخْرَى قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: تُبَدَّلُ الْأَرْضُ بِأَرْضٍ كَالْفُضَّةِ نَقِيَّةٍ، لَمْ يَسْفِكْ فِيهَا دَمٌ، وَلَمْ يَعْمَلْ عَلَيْهَا خَطِيئَةٌ ^(١) ﴿٢٨﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٢٩﴾ أَي خَرَجَتْ الْخَلَائِقُ جَمِيعُهَا مِنْ قُبُورِهِمْ، وَإِنَّمَا هُمْ فِي أَرْضِ الْمُحْشَرِّ أَمَامَ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٣٠﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣١﴾ أَي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الرَّهيبِ تَبْصُرُ الْمُجْرِمِينَ مُشْدُودِينَ مَعَ شَيَاطِينِهِمْ بِالْقَيْدِ وَالْأَغْلَالِ قَالَ «الطَّبْرِي»: أَي مُقَرَّنَةً أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ إِلَى رِقَابِهِمْ بِالْأَصْفَادِ وَهِيَ الْأَغْلَالُ وَالسَّلَاسِلُ ﴿٣٢﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قَطْرِانٍ ﴿٣٣﴾ أَي

(١) «تفسير الطبري» ١٣/٢٥٠، وعن ابن عباس هي تلك الأرض وإنما تغير صفاتها فتسوى الجبال وتقلع الأشجار وتنشق الأنهار، وتتناثر الكواكب وأنشد:

وَمَا النَّاسُ بِالنَّاسِ الَّذِينَ عَاهَدْتُهُمْ وَلَا الدَّارُ بِالدَّارِ الَّتِي كُنْتُ تَعْلَمُ
 (أبو السعود) ٣/١٣٧. (ش): قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ، كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ، لَيْسَ فِيهَا عِلْمٌ لِأَحَدٍ» رواه البخاري ومسلم. (عَفْرَاءُ): بَيْضَاءُ مَشْوَبَةٌ بِحُمْرَةٍ. أَي: لَيْسَ بِبَاضِهَا بِالنَّاصِعِ. وَقَوْلُهُ: كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ كَرِغِفٍ مُصْنُوعٍ مِنْ دَقِيقٍ خَالِصٍ مِنَ الْغَشِّ وَالنَّخَالَةِ. (لَيْسَ فِيهَا عِلْمٌ لِأَحَدٍ) أَي لَيْسَ بِهَا عَلَامَةٌ سَكَنَى أَوْ بَنَاءٌ وَلَا أَثَرٌ.

ثيابهم التي يلبسونها من قطران وهي مادة يسرع فيها اشتعال النار، تطلّى بها الإبل الجربى^(١) فيحرق الجرب بحرّه وجدّته^(٢)، وهو أسود اللون مُتِنُّ الريح ﴿وَقَشْنِيْ وَجُوهُهُمْ النَّارُ﴾ أي تعلوها وتحيط بها النار، جزاء المكر والاستكبار ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ أي برزوا يوم القيامة لأحكام الحاكمين ليجازيهم الله على أعمالهم، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي لا يشغله شأن عن شأن، يحاسب جميع الخلق في أعجل ما يكون من الزمان^(٣)، في مقدار نصف نهار من أيام الدنيا كما ورد به الأثر^(٤) ﴿هَذَا بَلَدٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي هذا القرآن بلاغٌ لجميع الخلق من إنس وجان، أنزل لتبليغهم بما فيه من فنون العبر والعظات ﴿وَلِيُنْذِرُوا بِهِ﴾ أي لكي يُنصَحُوا به ويُخَوْفُوا من عقاب الله ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أي ولكي يتحققوا بما فيه من الدلائل الواضحة والبراهين القاطعة، على أنه تعالى واحد أحد، فرد صمد ﴿وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ﴾ أي وليتعض بهذا القرآن أصحاب العقول السليمة، وهم السعداء أهل النهي والصلاح.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

- ١ - التشبيه البليغ ﴿وَأَقْنَدُهُمْ هَوَاءٌ﴾ حذف منه أداة التشبيه ووجه الشبه، أي: قلوبهم كالهواء لفراغها من جميع الأشياء فأصبح التشبيه بليغاً.
- ٢ - الإيجاز بالحذف ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ حذف منه والسموات تبدل غير السماوات لدلالة ما سبق.
- ٣ - الطباق في ﴿تَبَعْنِي .. عَصَانِي﴾ وفي ﴿تُخْفِي .. نُعَلْنِي﴾ وفي ﴿الْأَرْضِ .. السَّمَاءِ﴾.
- ٤ - جناس الاشتقاق في ﴿مَكْرُوءًا مَّكْرَهُمْ﴾.
- ٥ - العدول عن المضارع إلى الماضي ﴿وَبَرَزُوا﴾ بدل «ويبرزون» للدلالة على تحقق الوقوع مثل ﴿أَفَنُؤْمِرُ اللَّهَ﴾ [النحل: ١] فكأنه حدث ووقع فأخبر عنه بصيغة الماضي.
- ٦ - الاستعارة في ﴿فَأَجْعَلْ أُفْعِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ قال الشريف الرضي: وهذه من محاسن الاستعارة، وحقيقة الهويّ النزول من علو إلى انخفاض كالهبوط والمراد تسرع إليهم شوقاً وتطير إليهم حباً، ولو قال «تحن إليهم» لم يكن فيه من الفائدة ما في التعبير بـ ﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ لأن الحنين قد يكون من المقيم بالمكان^(٥).

(١) (ش): جرب الحيوان: أصابه الجرب.

(٢) (ش): أي يحرق القطران الجرب بحرّه وجدّته.

(٣) (ش): قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/ ١٣٦): ﴿وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: يُحَاسِبُ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ، كَمَا يُحَاسِبُ نَفْسًا وَاحِدَةً، كَمَا قَالَ: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفْيسٍ وَاحِدٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

(٤) (ش): لم أجده إلا في بعض كتب التفسير بدون إسناد.

(٥) «تلخيص البيان» ١٨٤.

لُطِيفَةٌ: حكمة تعريف البلد هنا ﴿أَجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ وتنكيره في البقرة ﴿أَجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦] أنه تكرر الدعاء من الخليل، ففي البقرة كان قبل بنائها فطلب من الله أن تجعل بلداً، وأن تكون آمناً، وهنا كان بعد بنائها فطلب من الله أن تكون آمناً أي بلد آمن واستقرار^(١)، وهذا هو السرُّ في التفريق في الآيتين، اللهم ارزقنا فهم أسرار كتابك العظيم.

«انتهى تفسير سورة إبراهيم»



(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٢/ ٢٨٦.



مكية وآياتها تسع وتسعون

بين يدي السورة

* سورة الحجر من السور المكية، التي تستهدف المقاصد الأساسية للعقيدة الإسلامية «الوحدانية، النبوة، البعث والجزاء» ومحور السورة يدور حول مصارع الطغاة والمكذبين لرسول الله في شتى الأزمان والعصور، ولهذا ابتدأت السورة بالإنذار والتهديد، مُلَفِّعًا بظُلِّ من التهويل والوعيد ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

* عرضت السورة لدعوة الأنبياء، وبيّنت موقف أهل الشقاوة والضلالة من الرسل الكرام، فما من نبي إلا سخر منه قومه الضالون، من لدن بعثة شيخ الأنبياء «نوح» عليه السلام، إلى بعثة خاتم المرسلين، وقد بينت السورة أن هذه سنة المكذبين، في كل زمان وحين ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ الآيات.

* وعرضت السورة إلى الآيات الباهرات، المُبَيِّنَةُ^(١) في صفحة هذا الكون العجيب، الذي ينطق بأثار اليد المبدعة، ويشهد بجلال عظمة الخالق الكبير، بدءًا بمشهد السماء، فمشهد الأرض، فمشهد الرياح اللوَّاح، فمشهد الحياة والموت، فمشهد الحشر والنشر، وكلُّها ناطقة بعظمة الله وجلاله، وشهادة بوحدانيته وقدرته ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ...﴾ الآيات.

* وعرضت السورة إلى قصة «البشرية الكبرى» قصة الهدى والضلال ممثلة في خلق آدم عليه السلام، وعدوه اللدود إبليس اللعين، وما جرى من سجود الملائكة لآدم، واستكبار إبليس عن السجود، واعتراضه على أمر الله وتوعده لذرية آدم ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ...﴾ الآيات.

* ومن قصة آدم تنتقل السورة إلى قصص بعض الأنبياء، تسليّة لرسول الله عليه السلام، وتثبيتاً لقلبه الشريف لئلا يتسرب إليه اليأس والقنوط، فتذكر قصة لوط، وشعيب، وصالح عليهم السلام، وما حل بأقوامهم المكذبين.

* وتختتم السورة الكريمة بتذكير الرسول ﷺ بالنعمة العظمى عليه، بإنزال هذا الكتاب

(١) (ش): انْبُتَّ: تَفَرَّقَ وَانْتَشَرَ.

المجيد المعجز، وتأمّره بالصبر والسلوان على ما يلقاه من أذى المشركين، وتبشّره بقرب النصر له وللمؤمنين ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ...﴾ إلى آخر السورة الكريمة.

التسمية: سميت السورة الكريمة «الحجر» لأن الله تعالى ذكر ما حدث لقوم صالح، وهم قبيلة ثمود - وديارهم في الحجر بين المدينة والشام - فقد كانوا أشداء ينحتون الجبال ليسكنوها، وكانهم مخلدون في هذه الحياة، لا يعترهم موت ولا فناء، فبينما هم آمنون مطمئنون جاءتهم صيحة العذاب في وقت الصباح ﴿فَاخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ (٨٢) ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ رَبُّمَا يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِيهِمْ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أَمْرِهِ أَجَلًا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنْزِلُ الْمَلَكِ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنْ أَسْرَفَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيًّا وَابْتَسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمُ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَّسْتُمْ لَهُ بِرِزْقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَا نَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخِيرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَلَبَّانْ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَكُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَتَّبِعُنِي مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدْ لِبَشَرٍ خَلَقْتُهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ

مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

اللغة: ﴿رُبَّمَا﴾ ربَّ للتقليل و﴿مَا﴾ نكره موصوفة أي رب شيء ﴿لَوْ مَا﴾ للتحضيض كـ«لولا» و«هلاً» ﴿شَيْعٍ﴾ جمع شيعه وهي الفرقة والطائفة من الناس ﴿نَسَلُكُهُ﴾ نُدْخِلُهُ، والسَّلَكُ: إدخال الشيء في الشيء ﴿يَعْرُجُونَ﴾ عَرَج: صعد، والمعارج المصاعد ﴿سُكِرَتْ﴾ سُدَّتْ ومنعت ﴿بُرُوجًا﴾ البروج: منازل الكواكب السيارة وأصله الظهور ومنه تبرز المرأة وهو إظهار زينتها ﴿لَوْ قَعَ﴾ جمع لاقح وهي الريح التي تحمل المطر، والتي لا تأتي بخير تسمى الريح العقيم، أو ملقحة للشجر أي تحمل اللقاح له ﴿صَلَصَلٍ﴾ طين يابس يسمع له صلصلة إذا ييس ﴿حَمَلٍ﴾ الحمأ: الطين الأسود ﴿مَسْتُونٍ﴾ متنن متغير قال الفراء: هو المتغير وأصله من سننت الحجر إذا حككته به ﴿السُّمُورِ﴾ الريح الحارة القاتلة.

سبب النزول: عن ابن عباس قال: كانت امرأة تصلي خلف رسول الله ﷺ حسناء من أحسن الناس، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها، ويتأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر فإذا رجع نظر من تحت إبطه أنزل الله ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخِيرِينَ﴾^(١).

التفسير: ﴿الر﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن أي هذا الكتاب العجيب المعجز كلام الله تعالى وهو منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية الألف واللام والراء ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي هذه آيات الكتاب، الكامل في الفصاحة والبيان، المتعالي عن الطاقة البشرية، ﴿وَقُرْآنٍ مِّبِينٍ﴾ أي قرآن عظيم الشأن، واضح بَيِّنٌ، لا خلل فيه ولا اضطراب

(١) «أسباب النزول» ١٥٨، و«القرطبي» ١/ ١٩. (ش): أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه والطبراني والحاكم، وفي إسناده ضعف، من أجل عمرو بن مالك النكري، وقال الحافظ ابن كثير: «غريب جداً». وهذا فيه طعن في صحابة رسول الله ﷺ وحاشاهم عن مثله، لا سيما أن أسلوب حكاية القصة يوحي بأن ذلك مشهور بينهم، فكيف يسكت رسول الله ﷺ عن مثل ذلك؟! وقد ضَعَّفَ الحديث الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند، وكان قد حَسَّنَ إسناده في تعليقه على (صحيح ابن حبان)، ثم تبين له أنه ضعيف لا يستحق التحسين، ولذلك نبّه على ذلك. ولكن صححه الشيخ الألباني، ومن الملاحظ أن مدار الحديث على عمرو بن مالك النكري والشيخ الألباني - رحمه الله - قال في تخريجه لهذا الحديث في «السلسلة الصحيحة»: «وهو ثقة»، رغم أنه أشار إلى ضعفه في مواضع أخرى من كتبه خاصة إذا تفرد بالحديث، انظر مثلاً: «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة» (١/ ٢١١)، حديث رقم ٩٤، (٥/ ٤٤٩)، حديث رقم ٢٤٢٩. وعمرو هذا قد تفرد بهذا الحديث - حديث المرأة الحسنة - فاللائق به الضعف، فكان الأوّل بالشيخ الألباني - رحمه الله - أن يضعفه بناءً على قواعده. أما كونها حسناء على فرض صحة الحديث وقد تبين ما فيه فقد يكون ذلك قبل فرض الحجاب. [انظر: الاختلاط بين الرجال والنساء، لمحقق هذا الكتاب (٢/ ٢٧٤ - ٣٩٧)].

﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ربما تمنى الكفار ﴿لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ أي لو كانوا في الدنيا مسلمين، وذلك عند معاينة أهوال الآخرة ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ أي دعهم يا محمد يأكلوا كما تأكل البهائم، ويستمتعون بديناهم الفانية ﴿وَيُلْهِمُهُمُ الْأَمْلَ﴾ أي يشغلهم الأمل بطول الأجل، عن التفكير فيما ينجيهم من عذاب الله ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي عاقبة أمرهم إذا رأوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا، وهو وعيد وتهديد ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أي وما أهلكنا أهل قرية من القرى الظالمة التي كذبت رسل الله ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ أي إلا لها أجل محدود لإهلاكها ﴿مَا تَسْقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ أي لا يتقدم هلاك أمة قبل مجيء أوانه ﴿وَمَا يَسْتَعْجِرُونَ﴾ أي ولا يتأخر عنهم قال ابن كثير: وهذا تنبيه لأهل مكة وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم عليه من العناد والإلحاد الذي يستحقون به الهلاك^(١) ﴿وَقَالُوا يَكُونُ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ قال كفار قريش لمحمد ﷺ على جهة الاستهزاء والتهكم: يا من تزعم وتدعي أن القرآن نزل عليك ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ أي إنك حقاً لمجنون، أكدوا الخبر بـ «إِنَّ وَاللَّامِ» مبالغة في الاستخفاف والاستهزاء بمقامه الشريف عليه السلام ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي هلاً جئتنا بالملائكة لتشهد لك بالرسالة إن كنت صادقاً في دعواك أنك رسول الله! قال تعالى ردّاً عليهم ﴿مَا نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي ما ننزل ملائكتنا إلا بالعذاب لمن أردنا إهلاكه ﴿وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ أي وفي هذه الحالة وعندئذ لا إمهال ولا تأجيل، والغرض أن عادة الله تعالى قد جرت في خلقه أنه لا ينزل الملائكة إلا لمن يريد إهلاكهم بعذاب الاستئصال، وهو لا يريد ذلك مع أمته ﷺ لعلمه تعالى أنه يخرج من أصلابهم من يعبد الله، ففيه ردٌ عليهم فيما اقترحوا ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ أي نحن بعظمة شأننا نزلنا عليك القرآن يا محمد ﴿وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أي ونحن الحافظون لهذا القرآن، نصونه عن الزيادة والنقصان، والتبديل والتغيير، قال المفسرون: تكفل الله بحفظ هذا القرآن، فلم يقدر أحد على الزيادة فيه ولا النقصان، ولا على التبديل والتغيير كما جرى في غيره من الكتب فإن حفظها موكول إلى أهلها لقوله تعالى ﴿بِمَا أَسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤] وانظر الفرق بين هذه الآية ﴿وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ حيث ضمن حفظه وبين الآية السابقة حيث وكل حفظه إليهم فبدلوا وغيروا ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾ أي ولقد أرسلنا من قبلك يا محمد رسلاً في طوائف و فرق الأمم الأولين ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي وما جاءهم رسول إلا سخروا منه واستهزءوا به، وهذا تسلية للنبي ﷺ والمعنى كما فعل بك هؤلاء المشركون فكذلك فعل بمن قبلك من الرسل فلا تحزن ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي كذلك

نسلك الباطل والضلال والاستهزاء بأنبياء الله في قلوب المجرمين، كما سلكناه وأدخلناه في قلوب أولئك المستهزين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي لا يؤمنون بهذا القرآن وقد مضت سنة الله بإهلاك الكفار، فما أقرب هؤلاء من الهلاك والدمار! ثم بين تعالى أن كفار مكة لا ينقصهم توافر براهين الإيمان فهم معاندون مكابرون، وفي ضلالهم وعنادهم سائرون فقال ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ أي لو فرض أننا أصعدناهم إلى السماء، وفتحنا لهم بابًا من أبوابها، فظلوا يصعدون فيه حتى شاهدوا الملائكة والملكوت ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ أي لقالوا - لفرط مكابرتهم وعنادهم - إنما سُدَّتْ أَبْصَارُنَا وخُذعت بهذا الارتقاء والصعود ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْجُورُونَ﴾ أي سحرنا محمد وخيل إلينا ذلك وما هو إلا سحر مبين قال «الرازي»: لو ظل المشركون يصعدون في تلك المعارج، وينظرون إلى ملكوت الله تعالى وقدرته وسلطانه، وإلى عبادة الملائكة الذين هم من خشيته مشفقون لشكوا في تلك الرؤية، وبقوا مُصْرِّين على الكفر والعناد كما جحدوا سائر المعجزات من انشقاق القمر، والقرآن المعجز الذي لا يستطيع الجن والإنس أن يأتوا بمثله^(١)، ثم ذكر تعالى البراهين الدالة على وحدانيته وقدرته فقال ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ أي جعلنا في السماء منازل تسير فيها الأفلاك والكواكب ﴿وَزَيَّنَّهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ أي زينها بالنجوم ليُسَرَّ الناظر إليها ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ أي حفظنا السماء الدنيا من كل شيطان لعين مطرود من رحمة الله ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ أي إلا من اختلس شيئًا من أخبار السماء فأدركه ولحقه شهاب ثاقب فأحرقه ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي بسطانها ووسعناها وجعلنا فيها جبالاً ثوابت^(٢) ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ أي أنبتنا في الأرض من الزروع والثمار من كل شيء موزون بميزان الحكمة، بدقة وإحكام وتقدير ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمُ فِيهَا مَعَاشٍ﴾ أي ما تعيشون به من المطاعم والمشارب ﴿وَمَنْ لَّسْتُمْ لَهُمْ بَرَزِقِينَ﴾ أي وجعلنا لكم من العيال والممالك والأنعام من لستم له برازقين، لأننا نخلق طعامهم وشرابهم لا أنتم ﴿وَلِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ أي ما من شيء من أرزاق الخلق والعباد ومنافعهم إلا عندنا خزائنه ومستودعاته ﴿وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي ولكن لا ننزله إلا على حسب حاجة الخلق إليه، وعلى حسب المصالح، كما نشاء ونريد ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيْحَ لَوْفِقٍ﴾ أي تلقح السحاب فيدر ماءً، وتلقح الشجر فيفتح عن أوراقه وأكمامه، فالريح

(١) «الفخر الرازي» ١٩/ ١٦٧.

(٢) قال «الفخر الرازي»: إن الأرض كرة في غاية العظمة، والكرة العظيمة تكون كل قطعة صغيرة منها إذا نظر إليها كالسطح المستوي فلا إشكال في بسطها مع أنها كرة والدليل قوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالُ أَوْتَادٌ﴾ سماها أوتادًا مع أنه قد يحصل عليها سطوح عظيمة مستوية فكذا هنا. «الرازي» ١٩/ ١٧٠.

كالفحل للسحاب والشجر ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ أي فأنزلنا من السحاب ماءً عذباً، جعلناه لسقياكم ولشرب أرضكم ومواشيكم ﴿وَمَا أَنْشَرْنَاهُ بِخَزْنَيْنِ﴾ أي لستم بقادرين على خزنه بل نحن بقدرتنا نحفظه لكم في العيون والآبار والأنهار، ولو شئنا لجعلناه غائراً في الأرض فهلكنم عطشاً كقوله ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠] ؟ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ أي الحياة والموت بيدنا ونحن الباقون بعد فناء الخلق، نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخْرِينَ﴾ أي أحطنا علماً بالخلق أجمعين، الأموات منهم والأحياء قال ابن عباس: المستقدمون كل من هلك من لدن آدم عليه السلام والمستأخرون من هو حيٌّ ومن سيأتي إلى يوم القيامة^(١) وقال مجاهد: المستقدمون: الأمم السابقة، والمستأخرون أمة محمد ﷺ، والغرض أنه تعالى محيطٌ بعلمه بمن تقدم وبمن تأخر، لا يخفى عليه شيء من أحوال العباد، وهو بيان لكمال علمه بعد الاحتجاج على كمال قدرته ﴿وَإِنْ رَبُّكَ هُوَ يُحْشِرُهُمْ﴾ أي وإن ربك يا محمد هو يجمعهم للحساب والجزاء ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي حكيمٌ في صنعه عليمٌ بخلقه، ولما ذكر تعالى الموت والفناء، والبعث والجزاء، نبههم إلى مبدأ أصلهم وتكوينهم من نفس واحدة، ليشير إلى أن القادر على الإحياء قادر على الإفناء والإعادة، وذكرهم بعداوة إبليس لأبيهم آدم ليحذروه فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ﴾ أي خلقنا آدم من طين يابس يسمع له صلصلة أي صوت إذا نقر ﴿مِنْ حَمَلٍ مُّسْنُونٍ﴾ أي من طين أسود متغير ﴿وَلَجَّانَ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ تَارِ السَّمُورِ﴾ أي ومن قبل آدم خلقنا الجن - أي الشياطين ورئيسهم إبليس - من نار السموم وهي النار الحارة الشديدة التي تنفذ في المسام فتقتل بحرّها. قال المفسرون: عنى بالجان هنا «إبليس» أبا الجن لأن منه تناسلت الجن فهو أصل لها كما أن آدم أصل للإنس ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مُّسْنُونٍ﴾ أي اذكري يا محمد وقت قول ربك للملائكة: إني خالق بشرًا من طين يابس، أسود متغير قال ابن كثير: فيه تنويه بذكر آدم في الملائكة قبل خلقه له، وتشريفه إياه بأمر الملائكة بالسجود له، وامتناع إبليس عدوه عن السجود له حسداً وكفراً^(٢) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ أي سويت خلقه وصورته، وجعلته إنساناً كاملاً معتدلاً الأعضاء ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ أي أفضت عليه من الروح التي هي خلقٌ من خلقي فصار بشراً حياً ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ أي خروا له ساجدين، سجدود تحية وتكريم لا سجدود عبادة، قال المفسرون:

(١) هذا اختيار «الطبري»، وقد فسرت الآية بثمانية تأويلات ذكرها في البحر ثم قال: الأولى حمل هذه الأقوال

على التمثيل لا على الحصر «البحر» ٥ / ٤٥١.

(٢) «المختصر» ٢ / ٣١١.

وإنما أضاف الروح إليه تعالى على سبيل التشريف والتكريم بقوله «بيت الله، ناقة الله! شهر الله» وهي من إضافة الملك إلى المالك، والصنعة إلى الصانع ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أي سجد لآدم جميع الملائكة لم يمتنع منهم أحد ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ الاستثناء منقطع لأن إبليس خلق آخر غير الملائكة^(١)، فهو من نار وهم من نور، وهم لا يعصون الله ما أمرهم وهو أبى وعصى، فليس هو من الملائكة بيقين، ولكنه كان بين صفوفهم فتوجه إليه الخطاب والمعنى: سجد جميع الملائكة لكن إبليس امتنع من السجود بعد أن صدر له الأمر الإلهي ﴿قَالَ يَتْلِيَ لَيْسَ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ أي ما المانع لك من السجود؟ وأي داع دعائك إلى الإباء والامتناع؟ وهو استفهام تبكيت وتوبيخ ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلَاسِلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ أي قال إبليس: لا ينبغي ولا يليق لمثلي أن يسجد لآدم وهو مخلوق من طين يابس متغير، فهو من طين وأنا من نار فكيف يسجد العظيم للحقير، والفاضل للمفضول؟ رأى عدو الله نفسه أكبر من أن يسجد لآدم، ومنعه كبره وحسده عن امتثال أمر الله ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي اخرج من السماوات فإنك مطروء من رحمتي ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي وإن عليك لعنتي إلى يوم الجزاء والعقوبة ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي قال اللعين: أمهلني وأخبرني إلى يوم البعث ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾^(٢٧) إلى يوم الوقت المعلوم ﴿أَيُّ قَالَ لَهُ اللَّهُ: إِنَّكَ مِنَ الْمُؤْجَلِينَ إِلَى حِينَ مَوْتِ الْخَلَائِقِ قَالَ «القرطبي»: أراد بسؤاله الإنظار - إلى يوم يبعثون - ألا يموت، لأن البعث لا موت بعده، فأجابه المولى بالإنظار إلى يوم الوقت المعلوم وهو يوم موت الخلائق، فموت إبليس ثم يبعث^(٢) ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ أي بسبب إغوائك وإضلالك لي ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي لأزينن لذرية آدم المعاصي والآثام ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي ولأضلنهم عن طريق الهدى أجمعين ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي إلا من استخلصته من عبادك لطاعتك ومرضاتك فلا قدرة لي على إغوائه ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ﴾ أي قال الله تعالى: هذا طريق مستقيم واضح، وسنة أزلية لا تتخلف وهي ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي إن عبادي المؤمنين لا قوة على إضلالهم ﴿إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ استثناء منقطع لأن الغاوين ليسوا من عباد الله المخلصين، والمعنى لكن من غوى وضل من الكافرين فلك عليهم تسلط، لأن الشيطان إنما يتسلط على الشاردين عن الله، كما يتسلط الذئب على الشاردة من القطيع

(١) قد حققنا ذلك في سورة البقرة والأعراف. وتقدم قول الحسن البصري: «والله ما كان إبليس من الملائكة طرفة

عين» وانظر كتابنا: «النبوة والأنبياء» ص ١٢٨، ففيه البيان الشافي.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٠ / ٢٧.

﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي موعد إبليس وأتباعه جميعاً ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ أي لجهنم سبعة أبواب يدخلون منها لكثرتهم وروي عن علي أنها أطباق، طبق فوق طبق وأنها دركات بعضها أشد من بعض ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ أي لكل جماعة من أتباع إبليس باب معين معلوم، قال ابن كثير: كل يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر في دركٍ بقدر عمله^(١).

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

١ - المجاز المرسل في ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ المراد أهلها وهو من باب إطلاق المحل وإرادة الحال.

٢ - الاستعارة التخيلية في ﴿عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ فهو تمثيل لكمال قدرته، شبه قدرته على كل شيء بالخزائن المودوعة فيها الأشياء، وإخراج كل شيء بحسب ما اقتضته حكمته على طريق الاستعارة^(٢).

٣ - الطباق بين ﴿نَحْنُ... وَنُمِيتُ﴾ وبين ﴿الْمُسْتَقْدِمِينَ... الْمُسْتَخِرِينَ﴾.

٤ - جناس الاشتقاق في ﴿خَزَائِنُهُ... يَخْزِنِينَ﴾.

٥ - السجع الذي له وقع على السمع مثل ﴿الْمُجْرِمِينَ، الْأُولِينَ، الْمُنْظَرِينَ﴾ إلخ.

لطيفة: ذكر أن رجلاً أراد أن يمتحن الأديان أيها أصح وأحسن؟ فعمد إلى التوراة والإنجيل والقرآن - وكان خطاطاً - فنسخ من كل كتاب نسخة بخط جميل وزاد فيها ونقص، ثم عرض التوراة على علماء اليهود فقبلوها وتصفحوها وأكرموه بالمال، ثم عرض الإنجيل الذي نسخه بيده على القسس فاشتروه بثمن كبير وأكرموه، ثم عرض نسخة القرآن على شيوخ المسلمين فنظروا فيه فلما رأوا فيه بعض الزيادة والنقص أمسكوا به فضربوه ثم رفعوا أمره إلى السلطان فحكم بقتله، فلما أراد قتله أشهر إسلامه وأخبرهم بقصته وأنه امتحن الأديان فعرف أن الإسلام دين حق. انظر «تفسير القرطبي» ٦/١٠.

قال الله تعالى:

إِنَّ الْمُنَاقِبِينَ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ أَذْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ ﴿٤٨﴾ نَبِّئْ

(١) «المختصر» ٣١٢/٢.

(٢) (ش): الأصل في كلام الله عز وجل وكلام نبيه ﷺ أن يُحمَل على ظاهره، كما قال المؤلف في تفسيرها: ﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي ما من شيء من أرزاق الخلق والعباد ومنافعهم إلا عندنا خزائنه ومستودعاته. وكما قال الشيخ السعدي: ﴿وَأَنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾. أي: جميع الأرزاق وأصناف الأقدار لا يملكها أحد إلا الله، فنزائنها بيده يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، بحسب حكمته ورحمته الواسعة.

عِبَادِي أَفَئِنَّا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَبَيَّنَّهُمْ عَنْ ضَيْفِ
إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ
عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُونَنِي ﴿٥٤﴾ قَالُوا بِشْرْنَكَ بِالْحَقِّ
فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا
خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آءَالَ لُوطُ إِنَّا لَمَنُجُّوهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرَاتُهُ قَدَرْنَا إِنَّمَا لِمَنِ الْغَابِرَاتُ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آءَالَ لُوطُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾
قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَيُّنَا بِالْحَقِّ
وَأَنَا لَصَدِيقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْقَئُ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا
حَيْثُ تَأْمُرُونَ ﴿٦٥﴾ وَفَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلُ
الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ
تَنْهَأْ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾
فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا وَامْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِّنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَيْسَبِيلُ مِيقَةٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ
الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ وَلِأَنَّهُمَا لِيَأْمُرَ مُبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ
﴿٨٠﴾ وَءَايَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْجِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ
الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْصَبْ الصَّصَبِ الْجَمِيلِ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾
وَلَقَدْ ءَايَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَاتِ الْعَظِيمِ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أُنزَلْنَا عَلَى
الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْعَلَنَّهِنَّ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ
يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ
بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّجْدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى حال الأشقياء من أهل الجحيم، أعقبهم بذكر حال السعداء من أهل النعيم، ثم ذكر قصص بعض الرسل مع أقوامهم «لوط، وشعيب، وصالح» تسلياً لرسول الله ﷺ ليتأسى بهم في الصبر، ثم ذكر الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين، وختم السورة بشارته عليه السلام بإهلاك أعدائه المستهزئين.

اللغة: ﴿نَصَّبُ﴾ تعب وإعياء ﴿وَجِلُونَ﴾ خائفون فزعون ﴿الْغَابِرَاتُ﴾ الباقيات في العذاب ﴿الْقَانِطِينَ﴾ كمال اليأس ﴿نَفْضَحُونَ﴾ الفضيحة: أن يظهر من أمره ما

يلزمه به العار، يقال: فضحه الصبح إذا أظهره للناس قال الشاعر:
 وَلَا حَ ضَوْءٌ هَلَالٍ كَادَ يَفْضَحُنَا مِثْلُ الْقَلَامَةِ قَدْ قُصَّتْ مِنَ الظُّفْرِ^(١)
 ﴿لَعَمْرُكَ﴾ قسمٌ بحياة محمد ﷺ أي وحياتك^(٢) ﴿سَكْرَهُمْ﴾ السكره: الغواية والضلالة
 ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون تحيراً أو يعمون عن الرشد. والعمه للقلب مثل العمى للبصر
 ﴿لَتَتَوَسَّيْنَ﴾ التوسم من الوسم وهي العلامة التي يستدل بها على المطلوب يقال: توسم
 فيه الخير إذا رأى فيه أثراً منه قال ابن رواحة في رسول الله ﷺ:
 إِنِّي تَوَسَّيْتُ فِيكَ الْخَيْرَ أَعْرِفُهُ وَاللَّهِ يَعْلَمُ أَنِّي ثَابِتُ الْبَصَرِ^(٣)
 وأصله التثبت والتفكر مثل التفرس وفي الحديث: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ
 اللَّهِ»^(٤).

﴿الْأَيْكَةِ﴾ الشجرة الملتفة وجمعها أيك ﴿الْحِجْرِ﴾ اسم واد كانت تسكنه ثمود
 ﴿عِصِينَ﴾ أجزاء متفرقة من التعضية وهي التجزئة والتفريق ﴿الْيَقِينِ﴾ الموت لأنه أمر
 متيقن.

سَبَبُ النَّزُولِ: روي «أن النبي ﷺ خرج على الصحابة وهم يضحكون فقال: أتضحكون
 وبين أيديكم الجنة والنار؟ فشق ذلك عليهم فنزلت ﴿نَحْيَ عِبَادِيَ أَيَّ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(٥)
 وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ»^(٥).

التفسير: ﴿إِنَّا الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي إن الذين اتقوا الفواحش والشرك لهم في
 الآخرة البساتين الناضرة، والعيون المتفجرة بالماء والسلسيل والخمر والعسل ﴿أَدْخُلُوهَا
 سَلَامٍ﴾ أي يقال لهم: ادخلوا الجنة سالمين من كل الآفات، آمنين من الموت ومن
 زوال هذا النعيم ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍ﴾ أي أزلنا ما في قلوب أهل الجنة من
 الحقد والبغضاء والشحناء ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ أي حال كونهم إخوة متحابين لا

(١) «البحر المحيط» ٤٥٦/٥.

(٢) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الخالق يُقسم بما شاء من خلقه، وأن
 المخلوق لا ينبغي له أن يُقسم إلا بالخالق. قال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». وفي رواية: «مَنْ حَلَفَ
 بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ» [رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه
 أَدْرَكَ عُمَرَ ابْنَ الْخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا، إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا
 بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ خَالِفاً فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ، أَوْ لِيَصُمْتُ» [رواه البخاري ومسلم].

(٣) «تفسير القرطبي» ٤٣/١٠.

(٤) رواه الترمذي. (ش): رواه الترمذي، وضعفه الألباني. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عِبَادًا يَعْرِفُونَ
 النَّاسَ بِالتَّوَسُّمِ».

(٥) «تفسير القرطبي» ٣٤/١٠. (ش): أخرجه الطبراني والبزار وابن جرير، وإسناده ضعيف.

يكدّر صفوهم شيء، على سرر متقابلين وجهاً لوجه قال مجاهد: لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض زيادةً في الأنس والإكرام، وقال ابن عباس: على سرر من ذهب مكلّلة بالدر والياقوت والزبرجد^(١) ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي لا يصيبهم في الجنة إعياء وتعب ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أي لا يُخرجون منها ولا يُطردون، نعيمهم خالد، وبقاؤهم دائم، لأنها دار الصفاء والسرور ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي أخبر يا محمد عبادي المؤمنين بأني واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وأتاب ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ أي وأخبرهم أن عذابي شديد لمن أصرّ على المعاصي والذنوب قال أبو حيان: وجاء قوله ﴿وَأَنَّ عَذَابِي﴾ في غاية اللطف إذ لم يقل على وجه المقابلة (وأني المعذب المؤلم) وكل ذلك ترجيح لجهة العفو والرحمة^(٢) ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي وأخبرهم عن قصة ضيوف إبراهيم، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وكانوا عشرة على صورة غلمانٍ حسانٍ معهم جبريل ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي حين دخلوا على إبراهيم فسلموا عليه ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي قال إبراهيم: إِنَّا خائفون منكم، وذلك حين عرض عليهم الأكل فلم يأكلوا ﴿قَالُوا لَا نَبْشُرُكَ إِلَّا نَبْشُرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي قالت الملائكة لا تخف فإننا نبشرك بسلام واسع العلم، عظيم الذكاء، هو إسحاق ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ بُشِّرُونَنِي﴾ أي قال إبراهيم أبشروني بالولد على حالة الكبر والهرم، فبأي شيء تبشروني؟ قال ذلك على وجه التعجب والاستبعاد ﴿قَالُوا بِشْرُكَ بِالْحَقِّ فَلَاحُنَّ مِمَّنْ الْفَنَاطِيلِ﴾ أي بشرك باليقين الثابت فلا تستبعده ولا تيأس من رحمة الله ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ استفهام إنكاري أي لا يقنط من رحمة الله إلا المخطئون طريق المعرفة والصواب، الجاهلون برب الأرباب، أما القلب العامر بالإيمان، المتصل بالرحمن، فلا ييأس ولا يقنط قال «البيضاوي»: وكان تعجب إبراهيم عليه السلام باعتبار العادة دون القدرة فإن الله تعالى قادرٌ على أن يخلق بشراً من غير أبوين، فكيف من شيخٍ فاني وعجوزٍ عاقر؟ ولذلك أجابهم بذلك الجواب^(٣) ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أي قال إبراهيم: ما شأنكم وما أمركم الذي جئتم من أجله أيها الملائكة الكرام؟ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أي أرسلنا ربنا إلى قوم مشركين ضالين لإهلاكهم يعنون قوم لوط ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي إلا أتباع لوط وأهله المؤمنين، فسَنُنَجِّيهم من ذلك العذاب أجمعين ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا لَهَا مِنَ الْغَيْرِ﴾ أي إلا امرأة

(١) «زاد المسير» ٤/ ٤٠٤.

(٢) «البحر المحيط» ٥/ ٤٥٧.

(٣) «البيضاوي» ٢٨٦.

لوط فقد قَدَّرَ الله بقاءها في العذاب مع الكفرة الهالكين قال «القرطبي»: استثنى من آل لوطِ امرأته وكانت كافرة فالتحقت بالمجرمين في الهلاك^(١) ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي فلما أتى رسولُ الله لوطاً عليه السلام ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنكَرُونَ﴾ أي قال لهم إنكم قوم لا أعرفكم فماذا تريدون؟ ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي قالوا له بل نحن رسل الله، جئناك بما كان فيه قومك يشكُّون فيه وهو نزول العذاب الذي وعدتهم به ﴿وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أي أتيناك بالحق اليقين من عذابهم وإنا لصادقون فيما نقول ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ أي سرَّ بأهلك في طائفة من الليل^(٢) ﴿وَأَتَّبِعْ أَذْبَرَهُمْ﴾ أي كن من ورائهم وسرَّ خلفهم لتطمئنَّ عليهم ﴿وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أي لا يتلفت أحد منكم وراءه لئلا يرى عظيم ما ينزل بهم فيرتاع ﴿وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ أي سيروا حيث يأمركم الله عزَّ وجلَّ قال ابن عباس: يعني الشام ﴿وَفَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ﴾ أي أوحينا إلى لوط ذلك الأمر العظيم أن أولئك المجرمين سيُسْتَأْصَلُونَ عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحدٌ ﴿مُصْبِحِينَ﴾ أي إذا دخل الصباح تمَّ هلاكهم واستئصالهم ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي جاء أهل مدينة سدوم - وهم قوم لوطٍ - مسرعين يستبشرون بأضيافه، طمعاً في ارتكاب الفاحشة بهم، ظناً منهم أنهم أناسٌ أمثالهم قال المفسرون: أخبر أولئك السفهاء أن في بيت لوطٍ شباناً مردداً حسناً فأسرعوا فرحين يبشِّر بعضهم بعضاً بأضياف لوط ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُون﴾ أي هؤلاء ضيوفي فلا تقصدهم بسوء فتلحقوا بي العار وتفضحوني أمامهم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ﴾ أي خافوا الله أن يحلَّ بكم عقابه، ولا تهينوني بالتعرض لهم بالمكروه ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي قالوا ألم نمنعك عن ضيافة أحد؟ قال «الرازي»: المعنى ألسنا قد نهيناك أن تكلمنا في أحدٍ من الناس إذا قصدناه بالفاحشة؟^(٣) ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي هؤلاء النساء فتزوجوهنَّ ولا تركنوا إلى الحرام إن كنتم تريدون قضاء الشهوة قال المفسرون: المراد بقوله ﴿بَنَاتِي﴾ بناتُ أمته لأن كل نبيٍّ يعتبر أباً لقومه ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي وحياتك يا محمد إن قوم لوط لفي ضلالهم وجهلهم يتخبطون ويترددون، وهذه جملة اعتراضية جاءت ضمن قصة لوط قسماً بحياة الرسول ﷺ تكريماً له وتشريفاً قال ابن عباس: «ما خلق الله وما ذراً وما برأ نفساً أكرمَ على الله من محمد ﷺ وما سمعتُ الله

(١) «تفسير القرطبي» ٣٦/١٠.

(٢) (ش): أي اخرج بهم بعد مرور جزء من الليل.

(٣) «الفخر الرازي» ١٩/٢٠٢.

أقسم بحياة أحد غيره»^(١) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ أي أخذتهم صيحة العذاب المهلكة المدمرة وقت شروق الشمس ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا﴾ أي قلبناها بهم فجعلنا أعالي المنازل أسافلها قال المفسرون: حمل جبريل عليه السلام قريتهم واقتلعها من جذورها، حتى رأوا الأفلاك وسمعوا تسييح الأملاك ثم قلبها بهم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي أنزلنا عليهم حجارة كالمطر من طين طبخ بنار جهنم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّينَ﴾ أي إن فيما حل بهم من الدمار والعذاب للدلالات وعلامات للمعتبرين، المتأملين بعين البصر والبصيرة ﴿وَلِئَنهَا لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أي وإن هذه القرى المهلكة، وما ظهر فيها من آثار قهر الله وغضبه، لطريق ثابت لم يندرس، يراها المجتازون في أسفارهم أفلا يعتبرون؟ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لعلبرة للمصدقين^(٢) ﴿وَأَن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ أي وإنه الحال والشأن كان قوم شعيب - وهم أصحاب الأيكة أي الشجر الكثير الملتف - لظالمين بتكذيبهم شعيباً، وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان ﴿فَأَنقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي أهلكناهم بالرجفة وعذاب يوم الظلة قال المفسرون: اشتد الحر عليهم سبعة أيام حتى قربوا من الهلاك، فبعث الله عليهم سحابة كالظلة، فالتجئوا إليها واجتمعوا تحتها للتظلل بها، فبعث الله عليهم منها ناراً فأحرقتهم جميعاً ﴿وَلِئَنهُمَا لَبِئَامٌ مُّبِينٌ﴾ أي وإن قرى قوم لوط وشعيب بطريق واضح أفلا يعتبرون بهم يا أهل مكة؟ ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٣) هذه هي القصة الرابعة وهي قصة صالح عليه السلام أي كذبت ثمود نبيهم صالحاً - والحجر واد بين المدينة والشام وآثاره باقية يمر عليها المسافرون - قال «البيضاوي»: ومن كذب واحداً من الرسل فكأنما كذب الجميع ولذا قال ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿وَأَنبَيْنَاهُمُ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي وأريناهم معجزاتنا الدالة على قدرتنا مثل الناقة وما فيها من العجائب فكانوا لا يعتبرون بها ولا يتعظون قال ابن عباس: كان في الناقة آيات: خروجها من الصخرة، ودنو ولادتها عند خروجها، وعظم خلقها فلم تشبهها ناقة، وكثرة لبنها حتى كان يكفيهم جميعاً فلم يتفكروا فيها ولم يستدلوا بها^(٤) ﴿وَكَانُوا يَحْجُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَوْمًا آمِنِينَ﴾ أي كانوا ينقبون الجبال فينون فيها بيوتاً آمنين يحسبون أنها تحميهم من عذاب الله ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ أي أخذتهم صيحة الهلاك حين أصبحوا

(١) «تفسير الطبري» ١٤ / ٤٤.

(٢) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديق بالقلب وقول

باللسان وعمل بالجوارح.

(٣) «البيضاوي» ٢٨٦.

(٤) «زاد المسير» ٤ / ٤١١.

﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي ما دفع عنهم عذاب الله ما كانوا يُشيدونه من القلاع والحصون ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي وما خلقنا الخلائق كلها سماءها وأرضها وما بينهما إلا خلقاً مُلتبساً بالحق، فلذلك اقتضت الحكمة إهلاك أمثال هؤلاء المكذبين لئلا يعم الفساد ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا تُبْطَلُ فَاصْصَبْ وَاصْصَبْ الْجَبِيلُ﴾ أي وإن القيامة لآتية لا محالة فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، فأعرض يا محمد عن هؤلاء السفهاء وعاملهم معاملة الحليم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ أي الخالق لكل شيء، العليم بأحوال العباد ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ أي ولقد أعطيناك يا محمد سبع آيات هي الفاتحة لأنها تشتمل أي تكرر قراءتها في الصلاة وفي الحديث «(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)» هي السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ^(١) وقيل: هي السور السبع الطوال، والأول أرجح ﴿وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ﴾ أي وآتيناك القرآن العظيم الجامع لكمالات الكتب السماوية ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ أي لا تنظر إلى ما متعنا به بعض هؤلاء الكفار، فإن الذي أعطيناك أعظم منها وأشرف وأكرم، وكفى بإنزال القرآن عليك نعمة ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي لا تحزن لعدم إيمانهم ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي تواضع لمن آمن بك من المؤمنين وضعفائهم ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ أي قل لهم يا محمد: أنا المنذر من عذاب الله، الواضح البين في الإنذار لمن عصى أمر الجبار ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ الكاف للتشبيه والمعنى أنزلنا عليك القرآن كما أنزلنا على أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى الذين آمنوا ببعض كتابهم وكفروا ببعضه، فانقسموا إلى قسمين ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ أي جعلوا القرآن أجزاء متفرقة وقالوا فيه أقوالاً مختلفة قال ابن عباس: آمنوا ببعض وكفروا ببعض، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم له بقولهم سحر، وشعر، وأساطير، بأن غيرهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب مثل فعل كفار مكة ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي فأقسم بربك يا محمد لنسألن الخلائق أجمعين عما كانوا يعملون في الدنيا ﴿فَأَصْدَقُ بِمَا تُؤْمَرُونَ وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي فاجهر بتبليغ أمر ربك، ولا تلتفت إلى ما يقول المشركون ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ أي كفييناك شر أعدائك المستهزين بإهلاكنا إياهم وكانوا خمسة من صناديد قريش ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي الذين أشركوا مع الله غيره من الأوثان والأصنام ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيد وتهديد، أي: سوف يعلمون عاقبة أمرهم في الدارين ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِالاستهزاء والتكذيب﴾ أي فافزع فيما نالك من مكروه إلى التسبيح والصلاة ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ أي فافزع فيما نالك من مكروه إلى التسبيح والصلاة

(١) أخرجه البخاري. وهذا القول هو اختيار «الطبري».

والإكثار من ذكر الله ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أي اعبد ربك يا محمد حتى يأتيك الموت؛ سمي يقيناً لأنه متيقن الوقوع والنزول.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

- ١ - الإيجاز بالحذف في ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ أي يقال لهم: ادخلوها.
- ٢ - المقابلة اللطيفة في ﴿نَتَىٰ عِبَادِي أَفَىٰ أَنَا الْعَفْوَ الرَّحِيمُ﴾ مع الآية بعدها ﴿وَأَنَّا عَذَابِي﴾ فقد قابل بين العذاب والمغفرة وبين الرحمة الواسعة والعذاب الأليم، وهذا من المحسنات البديعية.

- ٣ - الكناية في ﴿أَنَّا دَابِرَ هَتُولَاءِ مَقْطُوعٍ﴾ كنى به عن عذاب الاستئصال.
- ٤ - المجاز في ﴿فَدَرَرْنَا إِنَّا لَمَنِ الْغَدِيرِ﴾ أسند الملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم مجازاً وهو الله وحده وذلك لما لهم من القرب والاختصاص لأنهم رسل الله أرسلوا بأمره تعالى.

- ٥ - الجناس الناقص في ﴿الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ وجناس الاشتقاق في ﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ﴾.
- ٦ - صيغة المبالغة في ﴿الْعَفْوَ الرَّحِيمُ﴾ وفي ﴿الْخَلْقُ الْعَلِيمُ﴾.
- ٧ - الطباق في ﴿عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾.
- ٨ - السجع بلا تكلف في مواطن عديدة مثل ﴿ءَامِنِينَ﴾، ﴿مُصْبِحِينَ﴾، ﴿مُعْرِضِينَ﴾.
- ٩ - عطف العام على الخاص في ﴿سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمِ﴾^(١).
- ١٠ - الاستعارة التبعية في ﴿وَأَخْفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ حيث شبه إلانة الجناح بخفض الجناح بجامع العطف والرقعة في كل واستعير اسم المشبه به للمشبه، وهذا من بليغ الاستعارات لأن الطائر إذا كف عن الطيران خفض جناحيه.

تنبيه: الجمع بين هذه الآية ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسَعَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وبين قوله ﴿وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨] وقوله ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] أن القيامة مواطن، فموطن يكون فيه سؤال وكلام، وموطن لا يكون ذلك فيه، هذا قول عكرمة، وقال ابن عباس: لا يسألهم سؤال استخبار واستعلام هل عملتم كذا وكذا، لأن الله عالم بكل شيء، ولكن يسألهم سؤال توبيخ فيقول لهم: لم عصيتم القرآن وما حجتكم فيه؟^(٢)

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحجر»



(١) (ش): فالفاتحة جزء من القرآن الكريم.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٠ / ٦١.

سُورَةُ النَّحْلِ

مكية وآياتها ثمان وعشرون ومائة

بين يدي السورة

* سورة النحل من السور المكية التي تعالج موضوعات العقيدة الكبرى «الألوهية، والوحي، والبعث، والنشور» وإلى جانب ذلك تتحدث عن دلائل القدرة والوحدانية في ذلك العالم الفسيح في السماوات والأرض، والبحار والجبال، والسهول والوديان، والماء الهاطل، والنبات النامي، والفلك التي تجري في البحر، والنجوم التي يهتدي بها السالكون في ظلمات الليل، إلى آخر تلك المشاهد التي يراها الإنسان في حياته، ويدركها بسمعه وبصره، وهي صورٌ حيةٌ مشاهدة، دالة على وحدانية الله جلّ وعلا، وناطقةٌ بآثار قدرته التي أبدع بها الكائنات.

* تناولت السورة الكريمة في البدء أمر الوحي الذي كان مجال إنكار المشركين واستهزائهم، فقد كذبوا بالوحي واستبعدوا قيام الساعة، واستعجلوا الرسول ﷺ أن يأتيهم بالعذاب الذي خوّفهم به، وكلما تأخر العذاب زادوا استعجالاً وزادوا استهزاءً واستهتاراً. * ولقد هدفت السورة الكريمة إلى تقرير مبدأ «وحدانية الله» جلّ وعلا بلفت الأنظار إلى قدرة الله الواحد القهار، فخاطبت كل حاسة في الإنسان، وكل جراحة في كيانه البشري، ليتجه بعقله إلى ربّه، ويستنير بما يرى من آثار صنع الله على عظمة الله سبحانه.

* ثم تابعت السورة الكريمة تذكّر الناس بنتيجة الكفر بنعم الله، وعدم القيام بشكرها، وتحذره من تلك العاقبة الوخيمة التي يؤول إليها مصير كل معاندٍ وجاحد. * وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والصبر والعفو عما يلقاه من الأذى في سبيل تبليغ دعوة الله.

التسمية: سميت هذه السورة الكريمة «سورة النحل» لاشتمالها على تلك العبرة البليغة التي تشير إلى عجيب صنع الخالق، وتدُلُّ على الألوهية بهذا الصنع العجيب.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَفْعُ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُزِيلُ الْمَلٰٓئِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ

تَرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِلَاغِهِ إِلَّا نَفْسَ إِلَافٍ رَّبِّكُمْ لَرْءَوْفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُثْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَفْكُرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَالَّذِي فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَضَاكُمْ لَعَلَّكُمْ تهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَتِ بِالْجَبَمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذْكُرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمُوتَ عَيْرَ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوتُ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنَّ اللَّهَ بَنَيْنَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَالِعِ أَنْفُسِهِمْ فَأَلْفَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

اللغة: ﴿نُطْفَةٍ﴾ النطفة الماء المهيّن الذي يتكون منه الإنسان، من نطفٍ إذا قطر ﴿دَفءٌ﴾ الدفء: ما يستدفئ به الإنسان من البرد ﴿تَرِيحُونَ﴾ الرّواح: رجوع المواشي بالعشي^(١) من المرعى ﴿تَسْرَحُونَ﴾ السّراح: الخروج بها صباحاً إلى المرعى ﴿أَثْقَالَكُمْ﴾ الأثقال: الأمتعة جمع ثقل سميت أثقالاً لأنها ثقيلة الحمل ﴿جَايزٌ﴾ مائل عن الحق ﴿تُسِيمُونَ﴾ أسام الماشية: تركها ترعى، وسامت هي إذا رعت حيث

(١) (ش): العشي: الوقت من زوال الشّمس إلى المغرب أو من صلاة المغرب إلى العتمة، والعتمة: ظلّمة الليل. والعتمة: وقت صلاة العشاء: من مغيب الشفق الأحمر إلى نصف الليل.

شاءت فهي سائمة ﴿ذَرَأًا﴾ خلق وأبدع ﴿مَوَاحِرَ﴾ أصل المخر شق الماء عن يمين وشمال يقال: مخرت السفينة إذا جرت شق الماء مع صوت ﴿تَمِيدَ﴾ تضطرب.
سَبَبُ النَّزُول: قال ابن عباس: لما نزل قوله تعالى ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] قال الكفار بعضهم لبعض: إنَّ محمداً يزعم أن القيامة قد اقتربت فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى ننظر، فلما امتدت الأيام قالوا: يا محمد، ما نرى شيئاً مما تُخَوِّفنا به فأنزل الله تعالى ﴿أَفَئِنَّ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ...﴾ (١) الآية.

التفسير: ﴿أَفَئِنَّ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي قرب قيام الساعة فلا تستعجلوا العذاب الذي أوعدكم به محمد، وإنما أتى بصيغة الماضي لتحقيق وقوع الأمر وقربه، قال «الرازي»: لما كان واجب الوقوع لا محالة عبّر عنه بالماضي كما يقال للمستغيث: جاءك الغوث فلا تجزع (٢) ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه الله عما يصفه به الظالمون، وتقّس عن إشراكهم به غيره من الأنداد والأوثان ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ أي يُنَزِّلُ الملائكة بالوحي والنبوة بإرادته وأمره ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي على الأنبياء والمرسلين، وسمّى الوحي روحاً لأنه تحيا به القلوب كما تحيا بالأرواح الأبدان ﴿أَنْ أُنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ أي بأن أُنْذِرُوا أهل الكفر أنه لا معبود إلا الله (٣) فخافوا عذابي وانتقامي، ثم ذكر تعالى البراهين الدالة على وحدانيته وقدرته فقال ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي خلقهما بالحق الثابت، والحكمة الفائقة، لا عبثاً ولا جُزافاً ﴿تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تمجّد وتقدّس عن الشريك والنظير ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أي خلق هذا الجنس البشري من نطفة مهينة ضعيفة هي المني ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ أي فإذا به بعد تكامله بشراً مخلصاً لخالقه، واضح الخصومة، يكابر ويعاند، وقد خلق ليكون عبداً لا ضدّاً قال ابن الجوزي: لقد خلق من نطفة وهو مع ذلك يخاصم وينكر البعث، أفلا يستدل بأوله على آخره، وبأن من قدر على إيجاده أولاً قادرٌ على إعادته ثانياً؟ (٤) ﴿وَلَا نُنَعِّمُ خَلْقَهَا﴾ أي وخلق الأنعام لمصالحكم وهي الإبل والبقر والغنم ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ أي لكم فيها ما تستدفئون به من البرد مما تلبسون وتفترشون من الأصواف والأوبار ﴿وَمِنْ فَئِجٍ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي ولكم فيها منافع عديدة من النسل والدّر (٥) وركوب

(١) «زاد المسير» ٤/ ٤٢٦. (ش): رواه الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.

(٢) «الرازي» ٩١/ ٢١٨.

(٣) (ش): الصواب أن يُقال: لا معبود بحق إلا الله، لأن هناك معبودات بالباطل، فلا بد من التقييد.

(٤) «زاد المسير» ٤/ ٤٢٩.

(٥) (ش): الدَّر: اللَّبَنُ.

الظَّهْرُ، ومن لحومها تأكلون وهو من أعظم المنافع لكم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أي ولكم في هذه الأنعام والمواشي زينة وجمال حين رجوعها عشياً من المرعى، وحين غدوها صباحاً لترعى، جمال الاستمتاع بمنظرها صحيحة سمينه فارهة ﴿وَتَحْمِلُ أُنْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأُنْفُسِ﴾ أي وتحمل أحمالكم الثقيلة وأمتعتهم التي تعجزون عن حملها إلى بلد بعيد لم تكونوا لتصلوا إليه إلا بجهد ومشقة ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي إن ربكم أيها الناس الذي سخر لكم هذه الأنعام لعظيم الرأفة والرحمة بكم ﴿وَالْخَيْلَ وَالْإِبَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ أي وخلق الخيل والبغال والحمر للحمل والركوب وهي كذلك زينة وجمال ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي ويخلق في المستقبل ما لا تعلمونه الآن كوسائل النقل الحديث: القاطرات، والسيارات، والطائرات النفاثة وغيرها مما يجدُّ به الزمان وهو من تعليم الله للإنسان ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أي وعلى الله جل وعلا بيان الطريق المستقيم، الموصل لمن يسلكه إلى جنات النعيم ﴿وَمِنْهَا جَايِزٌ﴾ أي ومن هذه السبل طريق مائل عن الحق منحرف عنه، لا يوصل سالكه إلى الله وهو طريق الضلال، كاليهودية والنصرانية والمجوسية ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَنَّاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي لو شاء أن يهديكم إلى الإيمان لهداكم جميعاً ولكنه تعالى اقتضت حكمته أن يدع للإنسان حرية الاختيار. ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] ليترتب عليه الثواب والعقاب، ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الأنعام، شرع في ذكر سائر النعم العظام وآياته المنبثة في الكائنات فقال ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي أنزل المطر بقدرته القاهرة من السحاب ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾ أي أنزله عذباً فراتاً لتشربوه فتسكن حرارة العطش ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي وأخرج لكم منه شجراً ترعون فيه أنعامكم ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ﴾ أي يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي ومن كل الفواكه والثمار يخرج لكم أطيب الطعام ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إن في إنزال الماء وإخراج الثمار لدلالة واضحة على قدرة الله ووحدانيته لقوم يتدبرون في صنعه فيؤمنون قال أبو حيان: ختم الآية بقوله: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ لأن النظر في ذلك يحتاج إلى فضل تأمل، واستعمال فكر، ألا ترى أن الحبة الواحدة إذا وُضعت في الأرض ومرَّ عليها زمن معيَّن لحقها من نداوة الأرض ما تنتفخ به فيشق أعلاها فتصعد منه شجرة إلى الهواء، وأسفلها يغوص منه في عمق الأرض شجرة أخرى وهي العروق، ثم ينمو

الأعلى ويقوى وتخرج الأوراق والأزهار، والأكمام^(١) والثمار، المشتملة على أجسام مختلفة الطبائع والألوان والأشكال والمنافع وذلك بتقدير قادر مختار وهو الله تعالى^(٢) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي ذلّل الليل والنهار يتعاقبان لئلا يفتقرنكم، والشمس والقمر يدوران لمصالحكم ومنافعكم ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ أي والنجوم تجري في فلكها بأمره تعالى لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي إن في ذلك الخلق والتسخير لدلائل باهرة عظيمة، لأصحاب العقول السليمة ﴿وَمَا ذَرَأْنَا لَكُمُ فِي الْأَرْضِ مَخْلِفًا لَّوْنَهُ﴾ أي وما خلق لكم في الأرض من الأمور العجيبة، من الحيوانات والنباتات، والمعادن والجمادات، على اختلاف ألوانها وأشكالها، وخواصها ومنافعها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ﴾ أي لعلهم يتعظون ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ أي وهو تعالى - بقدرته ورحمته - ذلّل لكم البحر المتلاطم الأمواج للركوب فيه والغوص في أعماقه ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ أي لتأكلوا من البحر السمك الطري الذي تصطادونه ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ أي وتستخرجوا منه الجواهر النفيسة كاللؤلؤ والمرجان ﴿وَتَرَى الْفُلَ مَوْحَاً فِيهِ﴾ أي وترى السفن العظيمة تشق عباب البحر جارية فيه وهي تحمل الأمتعة والأقوات ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي سخر لكم البحر لتتفعوا بما ذكر ولتطلبوا من فضل الله ورزقه سبل معاشكم بالتجارة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولتشكروا ربكم على عظيم إنعامه وجليل إفضاله ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ يَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي نصب فيها جبالاً ثوابت راسيات لئلا تضطرب بكم وتميل قال «أبو السعود»: إن الأرض كانت كرة خفيفة قبل أن تخلق فيها الجبال، وكان من حقها أن تتحرك كالأفلاك بأدنى سبب فلما خلقت الجبال توجهت بثقلها نحو المركز فصارت كالأوتاد لها^(٣) ﴿وَأَنْهَرَا وَسُبُلًا لِّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي وجعل فيها أنهاراً وطرقاً ومسالك لكي تهتدوا إلى مقاصدكم ﴿وَعَلَّمَتْهُنَّ وَأَلَّتْ جِثْمَهُنَّ يَهْتَدُونَ﴾ أي وعلامات يستدلون بها على الطرق كالجبال والأنهار، وبالنجوم يهتدون ليلاً في البراري والبحار قال ابن عباس: العلامات معالم الطرق بالنهار

(١) (ش): الكم: غلاف يحيط بالزهر أو الثمر أو الطلع فيستره ثم ينشق عنه. والكم: بُرْعوم الثمرة / بُرْعَم الثمرة:

فرع صغير ناتئ من ساق النبات، تنبت منه الأوراق والأزهار.

(٢) «البحر المحيط» ٤٧٩ / ٥.

(٣) «أبو السعود» ١٦٧ / ٣.

وبالنجم هم يهتدون بالليل ^(١) ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ الاستفهام إنكاري أي أئسوون بين الخالق لتلك الأشياء العظيمة والنعم الجليلة، وبين من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فضلاً عن غيره؟ أتشركون هذا الصنم الحقيق مع الخالق الجليل؟ وهو تبكيت للكفرة وإبطالاً لعبادتهم الأصنام ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تتذكرون فتعرفون خطأ ما أنتم فيه من عبادة غير الله؟ وهو توبيخ آخر ﴿وَلَنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا﴾ أي إن تعدوا نعم الله الفائضة عليكم لا تضبطوا عددها فضلاً عن أن تطبقوا شكرها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي غفور لما صدر منكم من تقصير رحيم بالعباد حيث ينعم عليهم مع تقصيرهم وعصيانهم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي يعلم ما تخفونه وما تظهرونه من النوايا والأعمال وسيجازيكم عليها ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي والذين يعبدونهم من دون الله كالأوثان والأصنام لا يقدرُونَ على خلق شيء أصلاً والحال أنهم مخلوقون صنعههم البشر بأيديهم، فكيف يكونون آلهة تعبد من دون الله؟ ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ أي وتلك الأصنام أموات لا أرواح فيها، لا تسمع ولا تبصر لأنها جمادات لا حياة فيها، فكيف تعبدونها وأنتم أفضل منها لما فيكم من الحياة؟ ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي ما تشعر هذه الأصنام متى يبعث عابدها، وفيه تهكم بالمشركين لأنهم عبدوا جماداً لا يحس ولا يشعر ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أي إلهكم المستحق للعبادة إله واحد لا شريك له ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ﴾ أي فالذين لا يصدقون بالبعث والجزاء قلوبهم تنكر وحدانية الله عز وجل ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ أي متكبرون متعظمون عن قبول الحق بعدما سطعت دلائله ﴿لَا جَرَمَ أَنْتَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي حقاً إن الله تعالى لا تخفى عليه خافية من أحوالهم يعلم ما يخفون وما يظهرون ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ أي المتكبرين عن التوحيد والإيمان ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ أي وإذا سئل هؤلاء الجاحدون أي شيء أنزل ربكم على رسوله ﷺ؟ ﴿قَالُوا اسْتَطِيرُ الْأُولَى﴾ أي قالوا على سبيل الاستهزاء: ما أنزله ليس إلا خرافات وأباطيل الأمم السابقين ليس بكلام رب العالمين قال المفسرون: كان المشركون يجلسون على مداخل مكة يُنفرون عن رسول الله ﷺ إذا سألهم وفود الحاج ماذا أنزل على محمد؟ قالوا: أباطيل وأحاديث الأولين ^(٢) ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي قالوا ذلك البهتان ليحملوا ذنوبهم كاملة من غير أن يكفر منها شيء ﴿وَمَنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي وليحملوا ذنوب الأتباع الذين أضلوهم بغير دليل أو برهان، فقد كانوا رؤساء يُقتدى بهم في الضلالة

(١) «زاد المسير» ٤/ ٤٣٦.

(٢) «البحر المحيط» ٥/ ٤٨٤.

ولذلك حملوا أوزارهم وأوزار من أضلوهم ﴿الْأَسَاءَ مَا يَزِيْرُونَ﴾ ألاً للتنبيه أي فانتبهوا أيها القوم بشئ الحمل الذي حملوه على ظهورهم، والمقصود المبالغة في الزجر ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي مكر المجرمون بأنبيائهم وأرادوا إطفاء نور الله من قبل كفار مكة، وهذا تسلية له ﷺ ﴿فَأَقْبَ اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أي قلع بنيانهم من قواعده وأسسهم، وهذا تمثيلٌ لإفساد ما أبرموه من المكر بالرسول ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوَقِهِمْ﴾ أي فسقط عليهم سقف بنيانهم فتهدم البناء وماتوا ﴿وَأَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي جاءهم الهلاك والدمار من حيث لا يخطر على بالهم، والآية مشهد كامل للدمار والهلاك، وللسخرية من مكر الماكرين، وتدبير المدبرين، الذين يقفون لدعوة الله ويحسبون مكرهم لا يُرد، وتدبيرهم لا يخيب، والله من ورائهم محيط ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي يفضحهم بالعذاب ويذلهم ويهينهم ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَشْفُقُونَ فِيهِمْ﴾ أي يقول تعالى لهم على سبيل التقرير والتوبيخ: أين هؤلاء الشركاء الذين كنتم تخاصمون وتعادون من أجلهم الأنبياء؟ أحضروهم ليشفعوا لكم، والأسلوب استهزاء وتهكم ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوقُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي يقول الدعاة والعلماء شماتةً بأولئك الأشقياء: إن الذل والهوان والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي تقبض الملائكة أرواحهم الخبيثة حال كونهم ظالمي أنفسهم بالكفر والإشراك بالله ﴿فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ أي استسلموا وانقادوا عند الموت على خلاف عادتهم في الدنيا من العناد والمكابرة، وقالوا ما أشركنا ولا عصينا كما يقولون يوم المعاد ﴿وَاللَّهِ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يكذبهم الله ويقول: بلى قد كذبتُم وعصيتُم وكنتم مجرمين ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ادخلوا جهنم ماكثين فيها أبداً ﴿فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي بسُت جهنم مقراً ومقاماً للمتكبرين عن طاعة الله.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

- ١ - الالتفات في ﴿فَاتَّقُوا﴾ فهو خطاب للمستعجلين بطريق الالتفات.
- ٢ - أسلوب الإطناب في ﴿أَمُوتُوا غَيْرَ أَحْيَاءٍ﴾ تأكيداً لسفاهة مَنْ عَبَدَ الأصنام ومثله ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.
- ٣ - الطباق بين ﴿يُسِرُّونَ وَيُعْلِنُونَ﴾ وبين ﴿تُرِيحُونَ وَتَسْرَحُونَ﴾.
- ٤ - صيغة المبالغة في ﴿خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ وفي ﴿عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.
- ٥ - طباق السلب في ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾.
- ٦ - الجنس الناقص في ﴿لَا يَخْلُقُونَ .. وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

٧ - الاستعارة التمثيلية في ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .. فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ شبهت حال أولئك الماكرين بحال قوم بنوا بنياناً شديداً الدعائم فانهدم ذلك البنيان وسقط عليهم فأهلكهم بطريق الاستعارة التمثيلية، ووجه الشبه أن ما عدّوه سبباً لبقائهم، عاد سبباً لفنائهم كقولهم «من حفر حفرة لأخيه سقط فيها».

فائدة: قال «القرطبي»: تسمى سورة النحل سورة النعم لكثرة ما عدّد الله فيها من نعمه على عباده^(١).

قال الله تعالى:

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ نُوَفِّقُهُمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْبِئُوا اللَّهَ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتَ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لَيْسَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعِيوْا ظِلَالَهُ عَنِ الْأَيْمَنِ وَالْشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾

المناسبة: لما أخبر تعالى عن حال الأشقياء الذين كفروا نعمة الله، وطعنوا في القرآن فزعموا أنه أساطير الأولين، وبين ما يكونون عليه في الآخرة من الفضيحة والذل والهوان، ذكر هنا ما أعدّه للمتقين من وجوه التكريم في دار النعيم، ليظهر الفارق بين حال أهل السعادة وحال أهل الشقاوة، وبين الأبرار والفجار على طريقة القرآن في المقارنة بين الفريقين.

اللغة: ﴿وَالزُّبُرُ﴾ الكتب السماوية جمع زُبُور من زبرت الكتاب إذا كتبه ﴿يَحْصِفُ﴾ حَسَفَ المكانُ خسوفاً إذا ذهب وغاب في الأرض ﴿يَنْفَيْوُا﴾ يميل من جانب إلى جانب ومنه قيل للظل: فيءٌ لأنه يفيء أي يرجع من جهة إلى أخرى ﴿دَاخِرُونَ﴾ صاغرون ذليلون، والدُّخُور الصَّغَارُ والذُّل قال ذو الرمة:

فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا دَاخِرٌ فِي مُخَيَّسٍ وَمُنَجَّرٌ فِي غَيْرِ أَرْضِكَ فِي جُحْرٍ^(١)

التفسير: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي قيل للفريق الثاني وهم أهل التقوى والإيمان ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ﴾ أي ماذا أنزل ربكم على رسوله؟ قالوا أنزل خيراً قال المفسرون: هذا كان في أيام الموسم يأتي الرجل مكة فيسأل المشركين عن محمد وأمره فيقولون: إنه ساحر وكاهن وكذاب، فيأتي المؤمنون ويسألهم عن محمد وعمّا أنزل الله عليه فيقولون: أنزل الله عليه الخير والهدى والقرآن^(٢)، قال تعالى بياناً لجزائهم الكريم ﴿لَلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي لهؤلاء المحسنين مكافأة في الدنيا بإحسانهم ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أي وما ينالونه في الآخرة من ثواب الجنة خيرٌ وأعظم من دار الدنيا لفنائها وبقاء الآخرة ﴿وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي ولنعم دار المتقين دار الآخرة وهي ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي جنات إقامة ﴿يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي يدخلون تلك الجنان التي تجري من بين أشجارها وقصورها الأنهار ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ أي لهم في تلك الجنات ما يشتهون بدون كد ولا تعب، ولا انقطاع ولا نصب ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي مثل هذا الجزاء الكريم يجزي الله عباده المتقين لمحارمهم، المتمسكين بأوامره ﴿الَّذِينَ نُوَفِّهِمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ﴾ أي هم الذين تقبض الملائكة أرواحهم حال كونهم أبراراً، قد تطهروا من دنس الشرك والمعاصي، طيبة نفوسهم بقاء الله ﴿يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي تسلم عليهم الملائكة وتبشرهم بالجنة قال ابن عباس: الملائكة يأتونهم بالسلام من قبل الله، ويخبرونهم أنهم من أصحاب اليمين^(٣) ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي هنيئاً

(١) (تفسير الطبري) ١٤/ ١١٦. (ش): مُخَيَّسٌ وَمُخَيَّسٌ: سَجَنٌ. وَالْمُنَجَّرُ: الدَّخَلُ فِي الْجُحْرِ، وَالْجُحْر: حُفْرَةٌ

تَأْوِي إِلَيْهَا الْهَوَامُّ وَصَغَارُ الْحَيَوَانَاتِ.

(٢) «الرازي» ٢٠/ ٢٣.

(٣) (تفسير الطبري) ١٤/ ١٠١.

لكم الجنة بما قدمتم في الدنيا من صالح الأعمال ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ ﴾ عاد الكلام إلى تقرير المشركين وتوبيخهم على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا والمعنى ما ينتظر هؤلاء إلا أحد أمرين: إما نزول الموت بهم، أو حلول العذاب العاجل^(١)، أو ليس في مصير المكذبين قبلهم عبرة وغناء؟ ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي كذلك صنع من قبلهم من المجرمين حتى حلَّ بهم العذاب ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي ما ظلمهم الله بتعذيبهم وإهلاكهم ولكن ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ أي أصابهم عقوبات كفرهم وجزاء أعمالهم الخبيثة ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي أحاط ونزل بهم جزاء استهزائهم وهو العذاب الأليم في دركات الجحيم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ أي قال أهل الكفر والإشراك وهم كفار قريش ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي لو شاء الله ما عبدنا الأصنام لا نحن ولا آبائنا، ولا حرمنّا ما حرمنّا من البحائر والسوائب وغيرها، قالوا هذا على سبيل الاستهزاء لا على سبيل الاعتقاد، وغرضهم أن إشراكهم وتحريمهم لبعض الذبائح والأطعمة واقع بمشيئة الله، فهو راض به وهو حق وصواب ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي مثل هذا التكذيب والاستهزاء فعل من قبلهم من المجرمين، واحتجوا مثل احتجاجهم الباطل، وتناسوا كسبهم لكفرهم ومعاصيهم، وأن كل ذلك كان بمحض اختيارهم بعد أن أنذرتهم رسلهم عذاب النار وغضب الجبار ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ أي ليس على الرسل إلا التبليغ، وأمّا أمر الهداية والإيمان فهو إلى الله جلَّ وعلا ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ أي أرسلنا الرسل إلى جميع الخلق بأن عبدوا الله ووحدوه، واتركوا كل معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم، وكل من دعا إلى الضلال ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ ﴾ أي فمنهم من أرشده الله إلى عبادته ودينه فأمن ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ أي ومنهم من وجبت له الشقاوة والضلالة فكفر، أعلم تعالى أنه أرسل الرسل لتبليغ الناس دعوة الله فمنهم من استجاب فهداه الله، ومنهم من كفر فأضله الله ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ أي سيرا يا معشر قريش في أكناف الأرض ثم انظروا ماذا حلَّ بالأمم المكذبين لعلمكم تعتبرون! ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ أي إن تحرص يا محمد على هداية هؤلاء الكفار فاعلم أنه تعالى لا يخلق الهداية جبراً وقسراً فيمن يخلق

(١) (ش): المعنى: ما ينتظر المشركون إلا أن تأتيهم الملائكة؛ لتقبض أرواحهم وهم على الكفر، أو يأتي أمر الله بعذاب عاجل يهلكهم.

فيه الضلالة بسوء اختياره ﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرٍ﴾ أي ليس لهم من ينقذهم من عذابه تعالى ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ أي حلف المشركون جاهدين في أيمانهم مبالغين في تغليظ اليمين بأن الله لا يبعث من يموت، استبعدوا البعث ورأوه أمراً عسيراً بعد البلى وتفرق الأشلاء والذرات، قال تعالى ردّاً عليهم ﴿بَلَى وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي بلى ليعيثنهم، وعد بذلك وعداً قاطعاً لا بد منه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكن أكثرهم لا يعلمون قدرة الله فينكرون البعث والنشور ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾ أي سيعيثنهم ليكشف ضلالهم في إنكارهم البعث، وليظهر لهم الحق فيما اختلفوا فيه، وليحقق العدل وهو التمييز بين المطيع والعاصي، وبين الموحق والمبطل، وبين الظالم والمظلوم ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ أي وليعلم الجاحدون للبعث، والمكذبون لوعد الله الحق أنهم كانوا كاذبين فيما يقولون ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي لا يحتاج الأمر إلى كبير جهد وعناء فإننا نقول للشيء كُنْ فيكون قال المفسرون: هذا تقريبٌ للأذهان، والحقيقة أنه تعالى لو أراد شيئاً لكان بغير احتياج إلى لفظ ﴿كُنْ﴾^(١) ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ أي تركوا الأوطان والأهل والقرابة في شأن الله وابتغاء رضوانه من بعد ما عذبوا في الله قال «القرطبي»: هم صهيب وبلال وخباب وعمار، عذبهم أهل مكة حتى قالوا لهم ما أرادوا، فلما خلّوهم هاجروا إلى المدينة^(٢) ﴿لَيُبَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَتَهُ﴾ أي لنسكننهم داراً حسنة خيراً مما فقدوا قال ابن عباس: بوأهم الله المدينة فجعلها لهم دار هجرة ﴿وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي ثواب الآخر أعظم وأشرف وأكبر لو كان الناس يعلمون ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي هم الذين صبروا على الشدائد والمكاره، فهاجروا الأوطان، وفارقوا الإخوان، واعتمدوا على الله وحده يتغنون أجره ومثوبته ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ أي وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلى الأمم الماضية إلا بشراً نوحى إليهم كما أوحينا إليك قال المفسرون: أنكر مشركو قريش نبوة محمد ﷺ وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فهلا بعث إلينا ملكاً فنزلت^(٣) ﴿فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي اسألوا يا معشر قريش العلماء بالتوراة والإنجيل يخبرونكم أن جميع الأنبياء كانوا بشراً إن كنتم لا تعلمون ذلك ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ أي أرسلناهم بالحجج والبراهين

(١) (ش): الله - سبحانه وتعالى - على كل شيء قدير، لكن هذا القول يحتاج إلى دليل فإنه لا يقال في حق الله شيء إلا بدليل.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٠ / ١٠٧.

(٣) «زاد المسير» ٤ / ٤٤٩.

الساطعة الدالة على صدقهم وبالزبر، أي: الكتب المقدسة ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ أي القرآن المذكر الموقظ للقلوب الغافلة ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي لتعرف الناس الأحكام، والحلال والحرام ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي ولعلهم يتفكرون في هذا القرآن فيتعظون ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ أي هل آمن هؤلاء الكفار الذين مكروا برسول الله ﷺ واحتالوا لقتله في دار الندوة، هل آمنوا أن يخسف الله بهم الأرض كما فعل بقارون؟ ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي يأتيهم العذاب بغتة في حال أمنهم واستقرارهم، من حيث لا يخطر ببالهم ومن جهة لا يعلمون بها ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي يهلكهم في أثناء أسفارهم للتجارة واشتغالهم بالبيع والشراء فإنهم على أي حال لا يعجزون الله ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ أي يهلكهم الله حال كونهم خائفين مترقبين لنزول العذاب قال ابن كثير: فإنه يكون أبلغ وأشد فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد^(١) ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمُ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي حيث لم يعاجلكم بالعقوبة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي أولم يعتبر هؤلاء الكافرون ويروا آثار قدرة الله وأنه ما من شيء من الجبال والأشجار والأحجار ومن سائر ما خلق الله ﴿يَنْفَقُوا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ﴾ أي تميل ظلالها من جانب إلى جانب ساجدة لله سجود خضوع لمشيئته تعالى وانقياد، لا تخرج عن إرادته ومشئته ﴿وَهُمْ دَخِرُونَ﴾ أي خاضعون صاغرون فكل هذه الأشياء منقادة لقدرة الله وتديره فكيف يتعالى ويتكبر على طاعته أولئك الكافرون؟ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي له تعالى وحده يخضع وينقاد جميع المخلوقات بما فيهم الملائكة فهم لا يستكبرون عن عبادته ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي يخافون جلال الله وعظمته^(٢)، ويمثلون أوامره على الدوام.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

- ١ - الإيجاز بالحذف ﴿قَالُوا خَيْرًا﴾ أي قالوا: أنزل خيراً.
- ٢ - الإطناب في قوله ﴿مَا عِبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ... وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾.
- ٣ - الطباق في ﴿هَدَى اللَّهُ.. حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ وفي ﴿لَا يَهْدِي مَنْ يَضِلُّ﴾ وفي ﴿الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ﴾.
- ٤ - صيغة المبالغة في ﴿لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ لأن (فعول وفعل) من صيغ المبالغة.

(١) «المختصر» ٢/ ٣٣٣.

(٢) (ش): هذا تفسير مجمل ليس فيه معنى الفوقية الحقيقي الذي هو علو الذات الكريمة فوق عبادته بل اقتصر على تفسيره بالجلالة والعظمة.

٥ - ذكر الخاص بعد العام في ﴿يَسْجُدْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ... وَالْمَلَائِكَةُ﴾ زيادةً في التعظيم والتكريم للملائكة الأطهار.

٦ - السجعة في ﴿يَنْفَكُرُونَ ، دَخِرُونَ ، يَشْعُرُونَ﴾.

فائدة: استنبط بعض العلماء من قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ أن النبوة لا تكون إلا في الرجال، وأما النساء فليس فيهن نبية، وهو استنباط دقيق.

تنبيه: قال ابن تيمية في منهاج السنة: «والاحتجاج بالقدر حجة باطلة داحضة، باتفاق كل ذي عقل ودين من جميع العالمين، ولهذا لما قال المشركون ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] ردَّ الله عليهم بقوله ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨] والمشركون يعلمون بفطرتهم وعقولهم أن هذه الحجة باطلة، فإنَّ أحدهم لو ظلم الآخر، أو أراد قتل ولده، أو الزنى بزوجه، أو كان مصرًّا على الظلم فنهاه الناس عن ذلك فقال: لو شاء الله لم أفعل هذا، لم يقبلوا منه هذه الحجة ولا يقبلها هو من غيره، وإنما يحتج بها المحتج دفعًا للوم عن نفسه بلا وجه...»^(١).

قال الله تعالى:

وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارَهُبُونَ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا يَكُم مِّن تَعَمُّةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانِسْتُمْ بِفَتَمَتْعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَنْ مَا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يَوَازِئُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤْخِرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَجِزُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِن لَّكَ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّشْفِيكُم مَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ

(١) عن «محاسن التأويل» الجزء العاشر بإيجاز.

دون سواي ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ملكاً وخلقاً وعبيداً ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ أي له الطاعة والانقياد واجباً ثابتاً فهو الإله الحق، وله الطاعة خالصة ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ نُنْفِقُ﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ أي كيف تتقون وتخافون غيره، ولا نفع ولا ضرر إلا بيده؟ ﴿وَمَا يَكُم مِّن نَّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي ما تفضل عليكم أيها الناس من رزق ونعمة وعافية ونصر فمن فضل الله وإحسانه ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ أي ثم إذا أصابكم الضر من فقر ومرضى وبأساء فإليه وحده ترفعون أصواتكم بالدعاء، والغرض أنكم تلجئون إليه وحده ساعة العسرة والضيق، ولا تتوجهون إلا إليه دون الشركاء ﴿ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي إذا رفع عنكم البلاء رجع فريق منكم إلى الإشراف بالله قال «القرطبي»: ومعنى الكلام التعجب من الإشراف بعد النجاة من الهلاك^(١) ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانَيْنَهُمْ﴾ أي ليحمدوا نعمته تعالى من كشف الضر والبلاء ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي تمتعوا بدار الفناء فسوف تعلمون عاقبة أمركم وما ينزل بكم من العذاب، وهو أمر للتهديد والوعيد ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيْبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أي يجعلون للأصنام التي لا يعلمون ربوبيتها برهان ولا بحجة^(٢) نصيباً من الزرع والأنعام تقرباً إليها ﴿ثُمَّ نَالَهُ تَشْأَلُنَّ عَمَّا كُتِمَ تَقَتَّرُونَ﴾ أي والله أيها المشركون لتسألن عما كنتم تختلقونه من الكذب على الله، والمراد سؤال توبيخ وتقريع ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ أي ومن جهل هؤلاء المشركين وسفاهتهم أن جعلوا الملائكة بنات الله، فنسبوا إلى الله البنات وجعلوا لهم البنين ﴿سُبْحَنَهُ﴾ أي تنزه الله وتعظم عن هذا الإفك والبهتان ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون من البنين مع كراهتهم أنهم يأنفون من البنات ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ﴾ أي إذا أخبر أحدهم بولادة بنت ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسَوِّدًا﴾ أي صار وجهه متغيراً من الغم والحزن قال «القرطبي»: وهو كناية عن الغم والحزن وليس يريد السواد، والعرب تقول لكل من لقي مكروهاً: قد اسودَّ وجهه^(٣) ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي مملوء غيظاً وغماً ﴿يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ أي يختفي من قومه خوفاً من العار الذي يلحقه بسبب البنت، كأنها بلية وليست هبة إلهية، ثم يفكر فيما يصنع ﴿أَيُمْسِكُ عَلَيْهُ هُونًا يُدْسهُ فِي التَّرَابِ﴾ أي أيمسك هذه الأنثى على ذل وهوان أم يدفنها في التراب حية؟ ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي ساء صنيعهم وساء حكمهم، حيث نسبوا لخالقهم البنات - وهي عندهم بتلك الدرجة من الذل والحقارة - وأضافوا البنين إليهم، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ أي

(١) «تفسير القرطبي» ١٠ / ١١٥.

(٢) وقيل: المعنى يجعلون لآلهتهم التي لا علم لها لأنها جماد نصيباً مما أعطاهم الله.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٠ / ١١٦.

لهؤلاء الذين لم يصدقوا بالآخرة ونسبوا لله البنات سفهاً وجهلاً، صفةُ السوءِ القبيحة التي هي كالمثل في القبح، فالتقصُّ إنما ينسب إليهم لا إلى الله ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ أي له جل وعلا الوصف العالي الشأن، والكمال المطلق، والتنزه عن صفات المخلوقين ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي العزيز في ملكه، الحكيم في تديره. ثم أخبر تعالى عن حلمه بالعباد مع ظلمهم فقال ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾ أي لو يؤاخذهم بكفرهم ومعاصيهم ويعاجلهم بالعقوبة ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي ما ترك على الأرض أحداً يدب على ظهرها من إنسانٍ وحيوان ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ولكن يؤخرهم إلى وقتٍ معينٍ تقتضيه الحكمة ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْزِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي فإذا جاء الوقت المحدد لهلاكهم لا يتأخرون برهةً يسيرةً من الزمن ولا يتقدمون عليها كقوله ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩] ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أي يجعلون له تعالى البنات مع كراهتهم لهن، وهو تأكيد لما سبق للتقريع والتوبيخ ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ أي يجعلون لله ما يجعلون ومع ذلك يزعمون أن لهم العاقبة الحسنى عند الله وأنهم أهل الجنة ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ أي حقاً إن لهم مكاناً ما أملوا نار جهنم التي ليس وراء عذابها عذاب ﴿وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ أي معجلون إليها ومُقدَّمون^(١)، ثم ذكر تعالى نعمته في إرسال الرسل ليتأسى صلوات الله عليه بهم في الصبر على تحمل الأذى فقال ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَرَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي والله لقد بعثنا قبلك يا محمد رسلاً إلى أقوامهم فحسّن الشيطان أعمالهم القبيحة حتى كذبوا الرسل وردّوا عليهم ما جاءهم به من البينات ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمْ يَوْمَ﴾ أي فالشيطان ناصرهم اليوم في الدنيا وبئس الناصر ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب مؤلم ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي ما أنزلنا عليك القرآن يا محمد إلا لتبين للناس ما اختلفوا فيه من الدين والأحكام لتقوم الحجة عليهم ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي وأنزلنا القرآن هدايةً للقلوب، ورحمةً وشفاءً لمن آمن به، ثم ذكر تعالى عظيم قدرته الدالة على وحدانيته فقال ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي أنزل بقدرته الماء من السحاب فأحيا بذلك الماء النبات والزرع بعد جذب الأرض ويُسها ﴿وَإِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي إن في هذا الإحياء لدلالةً باهرة على عظيم قدرته لقوم يسمعون التذكير فيتدبرونه ويعقلونه ﴿وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ﴾ أي وإن لكم أيها الناس في هذه الأنعام «الإبل والبقر والضأن والمعز» لعظةً وعبرةً يعتبر بها العقلاء، ففي خلقها

(١) هذا قول قتادة والحسن من الفرط وهو السابق إلى طلب الماء، وقال مجاهد: «مفرون» متركون منسيون في النار.

وتسخيرها دلالة على قدرة الله وعظمته ووحدانيته ﴿سُقِّكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ أي نسقيكم من بعض الذي في بطون هذه الأنعام ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا﴾ أي من بين الروث والدم ذلك الحليب الخالص واللبن النافع ^(١) ﴿سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ أي سهل المرور في حلقهم، لذيذاً هيناً لا يغصُّ به من شربه ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ أي ولكم مما أنعم الله به عليكم من ثمرات النخيل والأعناب ما تجعلون منه خمراً يسكر، قال «الطبري»: وإنما نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر ثم حُرِّمَتْ بعد ^(٢) ﴿وَرَزَقًا حَسَنًا﴾ كالتمر والزبيب قال ابن عباس: الرزق الحسن: ما أُحِلَّ من ثمرتها، والسَّكر: ما حُرِّمَ من ثمرتها. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي لآية باهرة، ودلالة قاهرة على وحدانيته سبحانه لقوم يتدبرون بعقولهم قال ابن كثير: وناسب ذكر العقل هنا لأنه أشرف ما في الإنسان، ولهذا حَرَّمَ الله على هذه الأمة الأشرية المسكرة صيانةً لعقولها ^(٣)، ولما ذكر تعالى ما يدل على باهر قدرته، وعظيم حكمته من إخراج اللبن من بين فرثٍ ودم وإخراج الرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب، ذكر إخراج العسل الذي جعله شفاءً للناس من النحل، وهي حشرة ضعيفة وفيها عجائب بديعة وأمور غريبة، وكل هذا يدل على وحدانية الصانع وقدرته وعظمته فقال تعالى ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ المراد من الوحي: الإلهام والهداية أي ألهمها مصالحها وأرشدتها إلى بناء بيوتها المسدسة العجيبة تأوي إليها في ثلاثة أمكنة: الجبال، والشجر، والأكوار التي بينها الناس ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي كلي من كل الأزهار والثمار التي تشتهينها من الحلوى والمر، والحامض، فإن الله بقدرته يحيلها إلى عسل ﴿فَاسْأَلِيكَ سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ أي ادخلي الطرق في طلب المرعى حال كونها مسخرة لك لا تضلين في الذهاب أو الإياب ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ أي يخرج من بطون النحل عسلٌ متنوعٌ منه أحمر، وأبيض، وأصفر، فيه شفاءٌ للناس من كثير من الأمراض قال «الرازي» فإن قالوا: كيف يكون شفاءٌ للناس وهو يضر بالصفراء؟ فالجواب أنه تعالى لم يقل: إنه شفاءٌ لكل الناس، ولكل داء، وفي كل حال، بل لما كان شفاءً للبعض ومن بعض الأدوية صلح بأن يوصف بأن فيه شفاءً ^(٤) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي لعبرة لقوم يتفكرون في عظيم

(١) قال الزمخشري: والآية بيان للعبرة فإن الله سبحانه يخلق اللبن وسطاً بين الفرث والدم يكتنفانه وبينهما برزخ من قدرة الله لا يبغي أحدهما عليه بلون، ولا طعم، ولا رائحة، ف سبحانه الله ما أعظم قدرته، وألطف حكمته لمن تفكر وتأمل. «الكشاف» ٢/ ٦١٥. (ش): يكتنفانه: يُحيطان به.

(٢) «تفسير الطبري» ١٤/ ١٣٤.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٠/ ٧٢.

(٤) «المختصر» ٢/ ٣٣٦.

قدرة الله، وبديع صنعه ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يُنَوِّقُكُمْ﴾ أي خلقكم بقدرته بعد أن لم تكونوا شيئاً ثم يتوفاكم عند انقضاء آجالكم ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ﴾ أي يُرَدُّ إلى أَرْدَا وأضعف العمر وهو الهرم والخرف ﴿لَكِنَّ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ أي لينسى ما يعلم فيشبه الطفل في نقصان القوة والعقل ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ أي عليمٌ بتدبير خلقه، قديرٌ على ما يريده، فكما قدر على نقل الإنسان من العلم إلى الجهل، فإنه قادر على إحيائه بعد إماتته قال عكرمة: من قرأ القرآن لم يُرَدَّ إلى أَرْدَلِ العمر ^(١) ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ أي فاوت بينكم في الأرزاق فهذا غنيٌّ وذاك فقير، وهذا مالِكٌ وذاك مملوك ﴿فَمَا الَّذِينَ فَضَّلْنَا بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ أي ليس هؤلاء الأغنياء بمشركين لعبيدهم المماليك فيما رزقهم الله من الأموال حتى يستوا في ذلك مع عبيدهم، وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى للمشركين قال ابن عباس: لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني؟ ^(٢) ﴿أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، أي: أيشركون معه غيره وهو المنعم المتفضل عليهم؟ ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾ أي هو تعالى بقدرته خلق النساء من جنسكم وشكلكم ليحصل الائتلاف والمودة والرحمة بينكم ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ أي جعل لكم من هؤلاء الزوجات الأولاد وأولاد الأولاد، سمّوا حفدة لأنهم يخدمون أجدادهم ويسارعون في طاعتهم ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي رزقكم من أنواع اللذائذ من الثمار والحبوب والحيوان ﴿أَفَبِإِبْطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِعِمَّةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي أبعد تحقّق ما ذُكر من نعم الله يؤمنون بالأوثان ويكفرون بالرحمن؟ وهو استفهام للتوبيخ والتقريع ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً﴾ أي ويعبد هؤلاء المشركون أوثاناً لا تقدر على إنزال مطر، ولا على إخراج زرع أو شجر، ولا تقدر أن ترزقهم قليلاً أو كثيراً ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي ليس لها ذلك ولا تقدر عليه لو أرادت ﴿فَلَا تَضُرُّوهُ اللَّهُ الْأَمْثَالُ﴾ أي لا تُمثّلوا الله الأمثال، ولا تُشَبِّهوا له الأشباه؛ فإنه تعالى لا مثل له ولا نظير ولا شبيه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي يعلم كل الحقائق، وأنتم لا تعلمون قدر عظمة الخالق.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة من صنوف البيان والبديع ما يلي:

- ١ - الالتفات من التكلم إلى الغيبة إلى المتكلم ﴿فَاتَى فَأَرْهَبُونِ﴾ لتربية المهابة والرهبة في القلوب مع إفادة القصر، أي: لا تخافوا غيري.
- ٢ - الطباق في ﴿يَسْتَقْدِمُونَ.. يَسْتَخِرُونَ﴾ وفي ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وفي

(١) «زاد المسير» ٤/ ٤٦٨.

(٢) «المختصر» ٢/ ٣٣٨.

﴿يُؤْمِنُونَ... يَكْفُرُونَ﴾.

٣ - الجنس الناقص بين ﴿كُلِّ مِنْ كُلِّ﴾.

٤ - الاعتراض ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ - سُبْحَنَهُ - وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ فلفظة (سبحانه)

معتضة لتعجيب الخلق من هذا الجهل القبيح.

٥ - صيغة المبالغة في ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ و ﴿عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

٦ - السجع ﴿يَعْقِلُونَ، يَعْرِشُونَ، يَجْحَدُونَ، يَكْفُرُونَ﴾.

٧ - التهديد والوعيد ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

٨ - قوله تعالى ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ قال الشهاب: هذا من بليغ الكلام وبديعه

أي ألسنتهم كاذبة كقولهم «عينها تصفُ السحر» أي ساحرة، وقدّها يصفُ الهيف أي هيفاء^(١).

قال الله تعالى:

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي أَلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمُرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يَمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سُرُبِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسُرُبِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمَمِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا

(١) (ش): هيفاء: ضامرة البطن، دقيقة الخصر. ضامرة البطن: قليلة لحم البطن. خصر الإنسان والحيوان: وسطه، ما بين أسفل القفص الصدري والحوض. الدقيق: (ضد الغليظ) وما قل أو صغر من الأشياء.

كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى سفاهة المشركين في عبادتهم لغير الله، أعقبه بذكر مثلين توضيحاً لبطلان عبادة الأوثان التي لا تضر ولا تنفع، ولا تستجيب ولا تسمع، ثم ذكر الناس ببعض النعم التي أفاضها عليهم ليعبدوه ويشكروه، ويخلصوا له العمل طائعين منيبين.

اللغة: ﴿أَبْكُمْ﴾ الأبكم: الأخرس الذي لا ينطق ﴿كُلُّ﴾ الكل: الثقل الذي هو عيال على الغير وقد يسمى اليتيم كلاً لثقله على من يكفله قال الشاعر:

أَكُولُ لِمَالِ الْكَلِّ قَبْلَ شَبَابِهِ إِذَا كَانَ عَظُمَ الْكَلِّ غَيْرَ شَدِيدٍ ^(١)

﴿كَلَمَج﴾ اللّمح: النظر بسرعة مثل الخطفة يقال لمحه لمحاً ولمحاناً ﴿ظَعْنَكُمْ﴾ الظعن: السفر والرحيل لطلب الكلاء، والظعينة المرأة المسافرة ﴿وَأَوْبَارَهَا﴾ الوبر للابل كالصوف للغنم ﴿ظِلَالًا﴾ الظلال: كل ما يستظل به من البيوت والشجر ﴿كَنَنًا﴾ جمع كنّ مثل حِمْلٍ وأحمال وهو كل ما يحفظ ويقي من الريح والمطر وغيرهما ﴿سَرَبِيل﴾ جمع سربال قال الزجاج: كل ما لبسته من قميص أو درع فهو سربال ^(٢).

التفسير: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ هذا مثل ضربه الله تعالى لنفسه وللأصنام التي أشركوها مع الله جل وعلا، أي: مثل هؤلاء في إشراكهم مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف، وبين حرّ مالك يتصرف في أمره كيف يشاء، مع أنهما سيّان ^(٣) في البشرية والمخلوقية لله سبحانه وتعالى، فما الظنُّ

(١) «البحر المحيط» ٥/ ٥١٨.

(٢) قال الإمام ابن القيم: ذكر الله تعالى مثلين: فالمثل الأول ضربه لنفسه سبحانه والأوثان، فالله هو المالك لكل شيء، ينفق كيف يشاء على عبده سرّاً وجهراً، وليلاً ونهاراً، والأوثان مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء، فكيف يجعلونها شركاء إلي ويعبدونها من دوني مع التفاوت العظيم والفرق المبين؟ وأما المثل الثاني فالصنم الذي يعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم، لا يعقل ولا ينطق، بل هو أبكم القلب واللسان، ومع هذا لا يقدر على شيء البتة، أينما أرسلته لا يأتك بخير، ولا يقضي لك حاجة، والله سبحانه حي قادر، متكلم، يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد. «إعلام الموقعين» لابن القيم.

(٣) (ش): سيّ: مثل ونظير (تستعمل مع المذكر والمؤنث) «هو سيك - هي سيك - هما سيان - هذا سيّ ذاك - هم سيّ عندي: متساوون». سيّان عندي كذا وكذا: لا فرق بينهما.

ربِّ العالمين حيث يشركون به أعجز المخلوقات؟ ﴿فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ أي ينفق ماله في الخفاء والعلانية ابتغاء وجه الله ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾؟ أي هل يستوي العبيد والأحرار الذين ضرب لهم المثل، فالأصنام كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، والله تعالى له المُلْكُ، ويده الرزق، وهو المتصرف في الكون كيف يشاء، فكيف يُسَوَّى بينه وبين الأصنام؟ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي شكرًا لله على بيان هذا المثال ووضوح الحق فقد ظهرت الحجة مثل الشمس الساطعة، ولكنَّ المشركين بسفهمهم وجهلهم يسوون بين الخالق والمخلوق، والمالك والمملوك ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ هذا هو المثل الثاني للتفريق بين الإله الحق والأصنام الباطلة قال مجاهد: هذا مثلٌ مضروبٌ للوثن ولِلْحَقِّ تعالى^(١)، فالوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير، ولا يقدر على شيء بالكلية لأنه إما حجرٌ أو شجر، ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾ أي ثقل عالة على وليه أو سيده ﴿أَيْنَمَا يُوْجِهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ أي حيثما أرسله سيده لم ينجح في مسعاه لأنه أخرس، بليد، ضعيف ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي هل يتساوى هذا الأخرس، وذلك الرجل البليغ المتكلم بأفصح بيان، وهو على طريق الحق والاستقامة، مستنيرٌ بنور القرآن؟ وإذا كان العاقل لا يسوِّي بين هذين الرجلين، فكيف تمكن التسوية بين صنم أو حجر، وبين الله سبحانه وهو القادر العليم، الهادي إلى الصراط المستقيم؟^(٢) ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هو سبحانه المختص بعلم الغيب، يعلم ما غاب عن الأبصار في السماوات والأرض ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ أي ما شأن الساعة في سرعة المجيء إلا كنظرة سريعة بطرف العين، بل هو أقرب لأنه تعالى يقول للشيء: كن فيكون، وهذا تمثيل لسرعة مجيئها ولذلك قال ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي قادرٌ على كل الأشياء ومن جملتها القيامة التي يكذب بها الكافرون ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ أي أخرجكم من أرحام الأمهات لا تعرفون شيئاً أصلاً ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي خلق لكم الحواس التي بها تسمعون وتبصرون وتعتقلون لتشكروه على نعمه وتحمدوه على آلائه ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٣٤٠. تنبيه: في طبعات سابقة كان هذا الهامش مكان الذي بعده، والكلام بنصه

في «تفسير ابن كثير» ومختصره للمؤلف، وليس في «تفسير الرازي».

(٢) «الرازي» ٢٠/ ٩٣. (ش): هذا الكلام ليس في «تفسير الرازي». تنبيه: في طبعات سابقة كان هذا الهامش مكان الذي قبله.

جَوَّالَسَّمَاءِ ﴿١﴾ هذا من الأدلة على قدرة الله تعالى ووحدانيته والمعنى: ألم يشاهدوا الطيور مذللات للطيران في ذلك الفضاء الواسع بين السماء والأرض ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي ما يمسكهن عن السقوط عند قبض أجنحتهن وبسطها إلا هو سبحانه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي إن فيما ذكر آيات ظاهرة، وعلامات باهرة على وحدانيته تعالى لقوم يصدقون بما جاءت به رسل الله ^(١) ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ هذا تعداد لنعم الله على العباد أي جعل لكم هذه البيوت من الحجر والمدر ^(٢) لتسكنوا فيها أيام مقامكم في أوطانكم ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ أي وجعل لكم بيوتاً أخرى وهي الخيام والقباب المتخذة من الشعر والصوف والوبر ^(٣) ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامِكُمْ﴾ أي تستخفون حملها ونقلها في أسفاركم، وهي خفيفة عليكم في أوقات السفر والحضر ﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا﴾ أي وجعل لكم من صوف الغنم، ووبر الإبل، وشعر المعز ما تلبسون وتفرشون به بيوتكم ﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي تنتفعون وتتمتعون بها إلى حين الموت ^(٤) ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ أي جعل لكم من الشجر والجبل مواضع تسكنون فيها كالكهوف والحصون قال «الرازي»: لما كانت بلاد العرب شديدة الحر، وحاجتهم إلى الظل ودفع الحر شديدة، فلهذا ذكر تعالى هذه المعاني في معرض النعمة العظيمة ^(٥) ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكَنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَائِلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ﴾ أي جعل لكم الثياب من القطن والصوف والكتان لتحفظكم من الحر والبرد ﴿وَسَرَائِلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ﴾ أي ودروعاً تشبه الثياب تتقون بها شر أعدائكم في الحرب ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي مثل ما خلق هذه الأشياء لكم وأنعم بها عليكم فإنه يتم نعمة الدنيا والدين عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ أي لتخلصوا لله الربوبية، وتعلموا أنه لا يقدر على هذه الإنعامات أحدٌ سواه ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ أي فإن أعرضوا عن الإيمان ولم يؤمنوا بما جئتهم به يا محمد فلا ضرر عليك لأن وظيفتك التبليغ وقد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ

(١) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٢) (ش): المدر: طين لزج متماسك، القطعة منه مدرّة.

(٣) (ش): القبة: خيمة صغيرة أعلاها مستدير. وبر: صوف الإبل والأرانب ونحوها، زغب، شعر، فرو.

(٤) هذا قول ابن عباس ومجاهد، وقال مقاتل: تنتفعون بها إلى أن تبلي. (ش): بلي الثوب ونحوه: رث وتلف، صار قديماً بالياً.

(٥) «التفسير الكبير» ٢٠/٩٣.

ثُمَّ يَنْكُرُونَهَا ﴿١﴾ أَي يَعْرِفُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ نِعْمَ اللَّهُ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْهِمْ، وَيَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ يَنْكُرُونَهَا بِعِبَادَتِهِمْ غَيْرِ الْمُنْعَمِ وَقَالَ السُّدِّي: نِعْمَةُ اللَّهِ هِيَ مُحَمَّدٌ ﷺ عَرَفُوا نَبُوته، ثُمَّ جَحَدُواهَا وَكَذَّبُوهُ ^(١) ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أَي أَكْثَرُهُمْ يَمُوتُونَ كُفْرًا وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ بَعْضَهُمْ يَهْتَدِي لِلْإِسْلَامِ وَأَمَّا أَكْثَرُهُمْ فَمُصْرُونَ عَلَى الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أَي وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ نَحْشُرُ الْخَلَائِقَ لِلْحِسَابِ وَنَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ نَبِيًّا يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِالْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذِنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَي لَا يُؤْذِنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْإِعْتِزَالِ لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ بَطْلَانَهُ وَكَذِبَهُ ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أَي لَا يُطْلَبُ مِنْهُمْ أَنْ يَسْتَرْضُوا رَبَّهُمْ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، فَقَدَفَاتٍ أَوْ أَوَانِ الْعِتَابِ وَالْإِسْتِرْضَاءِ، وَجَاءَ وَقْتُ الْحِسَابِ وَالْعِقَابِ قَالَ «الْقُرْطُبِيُّ»: الْعُتْبَى هِيَ رَجُوعُ الْمَعْتُوبِ عَلَيْهِ إِلَى مَا يَرْضَى الْعَاتِبَ، وَأَصْلُ الْكَلِمَةِ مِنَ الْعُتْبِ وَهِيَ الْمَوْجِدَةُ فَإِذَا وَجَدَ عَلَيْهِ يُقَالُ: عَتَبَ، وَإِذَا رَجَعَ إِلَى مَسَرَّتِكَ فَقَدْ أَعْتَبَ ^(٢) ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ﴾ أَي وَإِذَا رَأَى الْمُشْرِكُونَ عَذَابَ جَهَنَّمَ فَلَا يُفْتَرِّغُهُمْ سَاعَةً وَاحِدَةً ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أَي لَا يُؤْخَرُونَ وَلَا يُمَهَّلُونَ ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أَي وَإِذَا أَبْصَرَ الْمُشْرِكُونَ شُرَكَاءَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ شُرَكَاءُ اللَّهِ فِي الْأُلُوهِيَةِ ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ﴾ أَي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ عَبْدْنَاهُمْ مِنْ دُونِكَ قَالَ «الْبَيْضَاوِيُّ»: وَهَذَا اعْتِرَافٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مَخْطِئِينَ فِي ذَلِكَ وَالتَّمَاسُّ لِتَخْفِيفِ الْعَذَابِ ^(٣) ﴿فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أَي أَجَابُوهُمْ بِالتَّكْذِيبِ فِيمَا قَالُوا فِي تَقْرِيرِ وَتَوْكِيدِ، وَذَلِكَ مِمَّا يُوْجِبُ زِيَادَةَ الْغَمِّ وَالْحَسْرَةِ فِي قُلُوبِهِمْ ﴿وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ﴾ أَي اسْتَغْلَسُوا أَوَّلَئِكَ الظَّالِمُونَ لِحُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى بَعْدَ الْإِبَاءِ وَالِاسْتِكْبَارِ فِي الدُّنْيَا ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أَي بَطَلَ مَا كَانُوا يُؤْمَلُونَ مِنْ أَنَّ آلِهَتَهُمْ تَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ مَا لَهُمْ بَعْدَ أَنْ أَخْبَرَ عَنْ حَالِهِمْ فَقَالَ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَي كَفَرُوا بِاللَّهِ وَمَنْعُوا النَّاسَ عَنِ الدُّخُولِ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ أَي زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فِي جَهَنَّمَ فَوْقَ عَذَابِ الْكُفْرِ، لِأَنَّهُمْ ارْتَكَبُوا جَرِيمَةَ صَدِّ النَّاسِ عَنِ الْهُدَى فَوْقَ جَرِيمَةِ الْكُفْرِ، فَضَوَّعَ لَهُمُ الْعَذَابَ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُدُونَ﴾ أَي بِسَبَبِ إِفْسَادِهِمْ فِي الدُّنْيَا بِالْكَفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أَي اذْكُرْ لِلنَّاسِ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَهُوَ لَهِ حِينَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ نَبِيًّا لِيَشْهَدَ عَلَيْنَا ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ أَي وَجِئْنَا

(١) وهذا اختيار «الطبري».

(٢) «تفسير القرطبي» ١٠ / ١٦٣.

(٣) «البيضاوي» ٢٩٦.

بك يا محمد شهيداً على أمتك ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيِّدًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي ونزلنا عليك القرآن المنير بياناً شافياً بليغاً لكل ما يحتاج الناس إليه من أمور الدين فلا حجة لهم ولا معذرة قال ابن مسعود: قد بين لنا في هذا القرآن كل علم، وكل شيء^(١) ﴿وَهَذَى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِّلْمُسْلِمِينَ﴾ أي هداية للقلوب، ورحمة للعباد، وبشارة للمسلمين المهتدين ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ أي يأمر بمكارم الأخلاق بالعدل بين الناس، والإحسان إلى جميع الخلق ﴿وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي مواساة الأقرباء، وخصه بالذكر اهتماماً به ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ أي ينهى عن كل قبيح من قول، أو فعل، أو عمل قال ابن مسعود: هذه أجمع آية في القرآن لخير يُمثّل، ولشر يُجتنب^(٢) والفحشاء كل ما تنهى فُبحه كالزنى والشرك، والمنكر كل ما تنكره الفطرة، والبغي هو الظلم وتجاوز الحق والعدل ﴿يُعْظَمُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي يؤدبكم بما شرع من الأمر والنهي لتتعظوا بكلام الله.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من وجوه البيان والبديع ما يلي:

١ - الاستعارة التمثيلية في ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ الآية تمثيل للوثن بالأبكم الذي لا يُنتفع منه شيء أصلاً، مع القادر السميع البصير. وشتان بين الرب والصنم.

٢ - التشبيه المرسل المجمل في ﴿كَلِمَاحَ الْبَصَرِ﴾.

٣ - الطباق بين ﴿سِرًّا وَجَهْرًا﴾ وبين ﴿يَعْرِفُونَ... يُنْكِرُونَهَا﴾ وبين ﴿ظَعْنَكُمْ... إِقَامَتَكُمْ﴾.

٤ - الإيجاز بالحذف في ﴿تَقِيَكُمْ﴾ أي والبرد حذف الثاني استغناءً بذكر الأول.

٥ - المقابلة اللطيفة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ أمر بثلاثة ونهى عن ثلاثة وهو من المحسنات البديعية.

٦ - ذكر الخاص بعد العام للاهتمام بشأنه ﴿وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ بعد لفظ الإحسان الذي هو عام.

لطيفة: ذكر «أن» أكثم بن صيفي «لما بلغه خبر الرسول ﷺ انتدب رجلين فأتياه فقالا: من أنت؟ وما أنت؟ فقال أنا محمد بن عبد الله، وأنا رسول الله ثم تلا علينا هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ...﴾ الآية فرجعا إلى أكثم فلما قرأ عليه الآية قال: إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن مساوئها، فكونوا في هذا الأمر رؤساء، ولا تكونوا

(١) «المختصر» ٢/ ٣٤٣.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٠/ ١٦٥.

فيه أذناباً»^(١).

قال الله تعالى:

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَزَلَ قَدْ بَعَثَ فِي ثَوْبِهَا وَتَذَوُّقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِمَا شَاءَ الَّذِي يُلْحِذُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِيْ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ إِنَّمَا يَقْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿٢٥﴾ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿٢٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَسِرُونَ ﴿٢٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَنَّهُدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٠﴾

المناسبة: لما استقصى تعالى في الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، وذكر جملة المكارم والفضائل، حذر تعالى هنا من نقض العهود والمواثيق وعصيان أوامر الله تعالى، لأن العصيان سبب البلاء والحرمان، ثم ذكر تعالى ما أعدّه لأهل الإيمان من الحياة الطيبة الكريمة.

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٣٤٤. (ش): ضعيف، رواه أبو نعيم في "معرفة الصحابة".

اللغة: ﴿نَنْقُضُوا﴾ النقض ضد الإبرام، وهو فك أجزاء الشيء بعضها من بعض ﴿تَوَكَّدَهَا﴾ التوكيد التثبيت يقال: توكيد وتأكيد ﴿أَنْكَثَا﴾ أنقاضاً والنكث: النقض بعد الفتل ﴿دَخَلَا﴾ الدَّخَلَ: الدَّغَلَ والخديعة والغش قال أبو عبيدة: كل أمر لم يكن صحيحاً فهو دخل ﴿يَنْفُذُ﴾ نفذ الشيء ينفذ: فَنِي ﴿أَعْجَمِيَّ﴾ الأعجمي الذي لا يتكلم العربية، وقال الفراء: الأعجم الذي في لسانه عَجَمَةٌ^(١) وإن كان من العرب، والعجمي الذي أصله من العجم ﴿يُلْحِدُونَ﴾ الإلحاد: الميل يقال: لحد وألحد إذا مال عن القصد والاستقامة.

سَبَبُ النُّزُول: أ - روي أن النبي ﷺ كان يجلس عند المروة إلى غلام نصراني يقال له: «جبر» وكان يقرأ الكتب فقال المشركون: والله ما يعلمه ما يأتي به إلا جبر الرومي فأنزل الله عز وجل ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ...﴾ الآية^(٢).

ب - عن ابن عباس أن المشركين أخذوا عَمَّارَ بن ياسر وأباه ياسراً وأمه سُمَيَّةَ وصهيياً وبلاً لا فعذبوهم، ورُبِطت «سُمَيَّة» بين بعيرين ووُجِئ قُبُلُهَا بحربة فقتلت، وقُتِل زوجها ياسر - وهما أول قتيلين في الإسلام - وأما عَمَّار فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال له الرسول الكريم: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئن بالإيمان، فقال رسول الله ﷺ: «فإن عادوا فعد» وأنزل الله ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ...﴾ الآية^(٣).

التفسير: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ أي حافظوا على العهود التي عاهدتم عليها الرسول أو الناس وأدوها على الوفاء والتمام ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ أي لا تنقضوا أيمان البيعة بعد توثيقها بذكر الله تعالى ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ أي جعلتم الله شاهداً ورقيباً على تلك البيعة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي علم بأفعالكم وسيجازيكم عليها ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهُمَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَثَا﴾ هذا مثل ضرب به الله لمن نكث عهده^(٤)، شَبَّهَت الآية الذي يحلف ويعاهد ويبرم عهده ثم

(١) (ش): عَجَمَةٌ: إبهام وخفاء في الكتابة، وعدم فصاحة في الكلام.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٧٧/١٠. (ش): عن عبد الله بن مسلم الحضرمي أنه كان لهم عبدان من أهل عين التمر وكانا طفلين وكانا يقال لأحدهما يسار والآخر جبر فكانا يقرآن التوراة وكان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ربما جلس إليهما، فقال كفار قريش: إنما يجلس إليهما يتعلم منهما، فأنزل الله سبحانه وتعالى ﴿لَسَاءَ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾. صحيح، رواه ابن جرير «الطبري» في «تفسيره».

(٣) «تفسير القرطبي» ١٨٠/١٠، و«أسباب النزول» ١٦٢. (ش): ضعيف، رواه الواحدي في «أسباب النزول» وابن جرير «الطبري» في تفسيره.

(٤) هذا قول مجاهد وقتادة.

ينقضه بالمرأة تغزل غزلها وتفتله محكمًا ثم تحله أنكاثًا أي: أنقاضًا قال المفسرون: كان بمكة امرأة حمقاء تغزل غزلًا ثم تنقضه، وكان الناس يقولون: ما أحقق هذه! ﴿نَتَّخِذُوكَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي تتخذون أيمانكم خديعة ومكرًا تتخذون بها الناس ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي لأجل أن تكون أمة أكثر عددًا وأوفر مالا من غيرها قال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك^(١) ﴿إِنَّمَا يَلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ أي إنما يختبركم الله بما أمركم به من الوفاء بالعهد لينظر المطيع من العاصي ﴿وَلَيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي ليجازي كل عامل بعمله من خير وشر ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي لو شاء الله لخلق الناس باستعداد واحد، وجعلهم أهل ملة واحدة، لا يختلفون ولا يفترون ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي ولكن اقتضت حكمته أن يتركهم لاختيارهم، ناسًا للسعادة وناسًا للشقاوة، فيضل من يشاء بخذلانه إياهم عدلاً، ويهدي من يشاء بتوفيقه إياهم فضلاً ﴿وَلَتَسْتَلْنَ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم على الفتيل والقطمير^(٢) ﴿وَلَا نَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ كرهه تأكيداً ومبالغة في تعظيم شأن العهود أي لا تعقدوا الأيمان وتجعلوها خديعة ومكرًا تعرّضون بها الناس لتخصلوا على بعض منافع الدنيا الفانية ﴿فَنَزَلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ أي فتزل أقدامكم عن طريق الاستقامة وعن محجة الحق بعد رسوخها فيه قال ابن كثير: هذا مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها، وزلّ عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحائثة، المشتملة على الصدّ عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى المؤمن قد عاهده ثم غدر به لم يبق له وثوق بالدين، فيصد بسببه عن الدخول في الإسلام^(٣) ولهذا قال ﴿وَتَذُقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي يصيبكم العقاب الديني العاجل الذي يسوءكم لصددكم غيركم عن اعتناق الإسلام بسبب نقض العهود ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولكم في الآخرة عذاب كبير في نار جهنم ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي لا تستبدلوا بعهد الله وعهد رسوله حطام الدنيا الفاني ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي ما عند الله من الأجر والثواب خير لكم من متاع الدنيا العاجل إذا كنتم تعلمون الحقيقة، ثم علّل ذلك بقوله ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ أي ما عندكم أيها الناس فإنه فانٍ زائل، وما عند الله فإنه

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ١٧١ / ١٠.

(٢) (ش): القُطْمِير: القِشْرَةُ الرَّقِيقَةُ عَلَى النَّوَاةِ كَاللَّفَافَةِ لَهَا، الْقِشْرَةُ الرَّقِيقَةُ بَيْنَ النَّوَاةِ وَالتَّمَرَةِ. وَالنَّقِيرُ: حفرة مستديرة في ظهر نواة البلح. والفتيل: خيط في شق النواة أو قشرة في بطنها.

(٣) «المختصر» ٣٤٥ / ٢.

باقٍ دائم، لا انقطاع له ولا نفاد، فآثروا ما يبقى على ما يفنى ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ولنثيب الصابرين بأفضل الجزاء، ونعطيهم الأجر الوافي على أحسن الأعمال مع التجاوز عن السيئات، وهذا وعد كريم بمنح أفضل الجزاء على أفضل العمل، ليكون الجزاء على أحسن العمل دون سواه، وكل ذلك بفضل الله ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِئى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي من فعل الصالحات ذكراً كان أو أنثى بشرط الإيمان ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ أي فلنحيينه في الدنيا حياة طيبة بالقناعة والرزق الحلال، والتوفيق لصالح الأعمال وقال الحسن: لا تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة لأنها حياة بلا موت، وغنى بلا فقر، وصحة بلا سقم، وسعادة بلا شقاوة^(١) ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ولنجزينهم في الآخرة بجزاء أحسن أعمالهم، وما أكرمهم من جزاء ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ أي إذا أردت تلاوة القرآن ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أي فاسأل الله أن يحفظك من وساوس الشيطان وخطراته، كيلا يوسوس لك عند القراءة فيصدك عن تدبر القرآن والعمل بما فيه ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي ليس له تسلط وقدر على المؤمنين بالإغواء والكفر لأنهم في كنف الرحمن ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي يعتمدون على الله فيما ناههم من شذائد ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ أي إنما تسلطه وسيطرته على الذين يطيعونه ويتخذونه لهم ولياً ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ أي بسبب إغوائه أصبحوا مشركين في عبادتهم وذبايحهم، ومطاعمهم ومشاربهم ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَاتٍ آيَةٍ﴾ أي وإذا أنزلنا آية مكان آية وجعلناها بدلاً منها بأن ننسخ تلاوتها أو حكمها ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ جملة اعتراضية سبقت للتوبيخ أي والله أعلم بما هو أصلح للعباد وبما فيه خيرهم، فإن مثل آيات هذا الكتاب كممثل الدواء يُعطى منه للمريض جرعات حتى يماثل الشفاء، ثم يستبدل به ما يصلح له من أنواع أخرى من الأطعمة ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفَرِّجٌ﴾ أي قال الكفرة الجاهلون إنما أنت يا محمد متقول كاذب على الله ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي أكثرهم جهلة لا يعلمون حكمة الله فيقولون ذلك سفهاً وجهلاً قال ابن عباس: كان إذا نزلت آية فيها شدة ثم نسخت قال كفار قريش: والله ما محمد إلا يسخر من أصحابه، يأمرهم اليوم بأمر، وينهاهم غداً عنه، وإنه لا يقول ذلك إلا من عند نفسه فنزلت^(٢) ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣٢٧/٢، والقول الأول لابن عباس وهو الأظهر.

(٢) «التفسير الكبير» للرازي ١١٦/٢٠. (ش): رواه الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد. وهو في «التفسير الكبير» للرازي بدون إسناد أيضاً.

رَبِّكَ بِالْحَقِّ ۖ أَيُّ قَل لَّهُمْ يَا مُحَمَّد: إِنَّمَا نَزَّلَهُ جَبْرِيلُ الْأَمِينُ مِنْ عِنْدِ أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ
 بِالصِّدْقِ وَالْعَدْلِ ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أَيُّ لِيُثَبِّتَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْحُجَجِ
 وَالْبَرَاهِينِ فَيَزِدَادُوا إِيمَانًا وَيَقِينًا ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أَيُّ وَهُدَايَةً وَبَشِيرَةً
 لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ الَّذِينَ انْقَادُوا لِحُكْمِهِ تَعَالَى، وَفِيهِ تَعْرِيفٌ بِالْكَفَّارِ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَسْلِمُوا
 لِلَّهِ تَعَالَى ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ أَيُّ قَدْ عَلِمْنَا مَقَالَةَ الْمُشْرِكِينَ
 الشَّنِيعَةِ وَدَعْوَاهُمْ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مِنْ تَعْلِيمِ «جَبْرِ الرُّومِيِّ» وَقَدْ رَدَّ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ
 ﴿لَسَانُ الَّذِي يُلْحِذُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ أَيُّ لِسَانُ الَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُ عَلَّمَهُ وَيَنْسُبُونَ إِلَيْهِ
 التَّعْلِيمَ أَعْجَمِيٌّ ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَكَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ أَيُّ وَهَذَا الْقُرْآنُ عَرَبِيٌّ فِي غَايَةِ الْفَصَاحَةِ،
 فَكَيْفَ يُمْكِنُ لِمَنْ لِسَانُهُ أَعْجَمِيٌّ أَنْ يُعَلِّمَ مُحَمَّدًا هَذَا الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ الْمُبِينُ؟ وَمَنْ أَيْنَ
 لِلْأَعْجَمِيِّ أَنْ يَذُوقَ بِلَاغَةَ هَذَا الْكِتَابِ الْمَعْجَزِ فِي فَصَاحَتِهِ وَبَيَانِهِ!! ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
 بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ أَيُّ إِنْ الَّذِينَ لَا يُصَدِّقُونَ هَذَا الْقُرْآنَ لَا يُوَفِّقُهُمُ اللَّهُ لِإِصَابَةِ الْحَقِّ،
 وَلَا يَهْدِيهِمْ إِلَى طَرِيقِ النِّجَاةِ وَالسَّعَادَةِ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَيُّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ
 مُوجِعٌ مُؤْلِمٌ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ وَوَعِيدٌ عَلَى كُفْرِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ ﴿إِنَّمَا يُفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ
 لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أَيُّ لَا يَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَلَا بِآيَاتِهِ، لِأَنَّهُ لَا
 يَخَافُ عِقَابًا يَرُدُّهُ، فَالْكَذِبُ جَرِيمَةٌ فَاحِشَةٌ لَا يُقَدَّمُ عَلَيْهَا مَوْءُونَ، وَهَذَا رَدُّ لِقَوْلِهِمْ ﴿إِنَّمَا
 أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ أَيُّ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ عَلَى الْحَقِّيقَةِ لَا
 مُحَمَّدُ الرَّسُولُ الْأَمِينُ ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ أَيُّ مَنْ تَلَفَّظَ بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ وَارْتَدَّ
 عَنِ الدِّينِ بَعْدَ مَا دَخَلَ فِيهِ ﴿إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ أَيُّ إِلَّا مَنْ تَلَفَّظَ
 بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ مُكْرَهًا وَالْحَالُ أَنَّ قَلْبَهُ مَمْلُوءٌ إِيمَانًا وَيَقِينًا، وَالْآيَةُ تَغْلِيظٌ لِجَرِيمَةِ الْمُرْتَدِّ
 لِأَنَّهُ عَرَفَ الْإِيمَانَ وَذَاقَهُ ثُمَّ ارْتَدَّ إِثَارًا لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ قَالَ الْمَفْسُرُونَ: «نَزَلَتْ
 فِي عِمَارِ بْنِ يَاسِرٍ أَخَذَهُ الْمُشْرِكُونَ فَعَذَّبُوهُ حَتَّى أَعْطَاهُمْ مَا أَرَادُوا مُكْرَهًا فَقَالَ النَّاسُ:
 إِنَّ عِمَارًا كَفَرَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ عِمَارًا مَلَأَ إِيمَانًا مِنْ فِرْقَةٍ إِلَى قَدَمِهِ، وَاخْتَلَطَ
 الْإِيمَانُ بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ»، فَاتَى عِمَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَبْكِي فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
 «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟» قَالَ: «مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ قَالَ: «إِنْ عَادُوا فَعُدُّ»^(١) ﴿وَلَكِنْ مَن شَرَحَ
 بِالْكَفْرِ صَدْرًا﴾ أَيُّ طَابَتْ نَفْسُهُ بِالْكَفْرِ وَانْشَرَحَ صَدْرُهُ لَهُ ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ
 عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أَيُّ وَلَهُمْ غَضَبٌ شَدِيدٌ مَعَ عَذَابِ جَهَنَّمَ، إِذْ لَا جُرْمَ أَكْبَرَ مِنْ جُرْمِهِمْ^(٢)

(١) «التفسير الكبير» ٢٠/١٢١. (ش): ضعيف، رواه الواحدي في «أسباب النزول» وابن جرير «الطبري» في «تفسيره».

(٢) (ش): جُرْمٌ: ذَنْبٌ، خَطَأٌ.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ أي ذلك العذاب بسبب أنهم آثروا الدنيا واختاروها على الآخرة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي لا يوفقهم إلى الإيمان ولا يعصمهم من الزيغ والضلال ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾ أي ختم على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم فجعل عليها غِلافاً^(١) بحيث لا تُدْعَن للحق ولا تسمعه ولا تبصره ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ أي الكاملون في الغفلة إذ أغفلتهم الدنيا عن تدبر العواقب ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي حقاً ولا شك ولا ريب في أنهم الخاسرون في الآخرة لأنهم ضيعوا أعمارهم في غير منفعة تعود عليهم قال المفسرون^(٢): وصفهم تعالى بست صفات هي: الغضب من الله، والعذاب العظيم، واختيارهم الدنيا على الآخرة، وحرمانهم من الهدى، والطبع على قلوبهم، وجعلهم من الغافلين: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ أي ثم إن ربك يا محمد للذين هاجروا في سبيل الله بعد ما فتنهم المشركون الطغاة عن دينهم بالعذاب ﴿ثُمَّ جَهَدُوا وَصَبَرُوا﴾ أي ثم جاهدوا في سبيل الله وصبروا على مشاق الجهاد ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي إن ربك بعد تلك الهجرة والجهاد والصبر سيغفر لهم ويرحمهم.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

- ١ - التشبيه التمثيلي ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ الآية. شبه تعالى من يحلف ثم لا يفي بعهده بالمرأة التي تغزل غزلاً ثم تنقضه.
- ٢ - الاستعارة في ﴿فَنَزَلَ قَدَمُ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ استعار القدم للرسوخ في الدين والتمكن فيه، لأن أصل الثبات يكون بالقدم ولما كان الزلل عن محجة الحق يشبه زلل القدم وانزلاقها عبر به عن الانزلاق الحسي بطريق الاستعارة.
- ٣ - الطباق بين ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ وبين ﴿أَعْجَمِي .. عَكِرْتِ﴾ وبين ﴿يَفْقَدُ... بَاقٍ﴾.

- ٤ - جناس الاشتقاق ﴿قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ وفيه مجاز مرسل من إطلاق اسم المسبب على السبب، أي: إذا أردت قراءة القرآن.

- ٥ - الاعتراض ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ الجملة اعتراضية لبيان الحكمة الإلهية في النسخ، وفيه التفات من المتكلم إلى الغائب، وذكر الاسم الجليل لتربية المهابة في النفس.
- ٦ - الاستعارة اللطيفة ﴿لَسَاتِ الْاِلٰهِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي﴾ استعار اللسان للغة

(١) (ش): غلاف: غشاء يغطي شيئاً آخر أو يحويه.

(٢) «حاشية الصاوي» ٣٢٩/٢.

والكلام كقول الشاعر:

لِسَانُ السُّوءِ تُهْدِيهَا إِلَيْنَا وَخُنْتُ وَمَا حَسِبْتُكَ أَنْ تَخُونَا^(١)
والعرب تستعمل اللسان بمعنى اللغة كقوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

لطيفة: السر في الاستعاذة قبل قراءة القرآن أن القرآن هو الذكر الحكيم، والحق المبين، ولما كان الشيطان يثير الشبهات بوساوسه، ويفسد القلوب بدسائسه، أمر ﷺ بأن يستعذ بالله ويلتجئ إليه عند تلاوة القرآن، لأن قوة الإنسان تضعف عن دفعه بسهولة فيحتاج إلى الاستعانة بالله العلي الكبير.

قال الله تعالى:

يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾
وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِنْمَا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاطِلٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْسِكُمْ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا فَضَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى حال من كفر بلسانه، وحال من كفر بلسانه وجنانه، ذكر هنا

الجزاء العادل الذي يلقاه كل إنسان في الآخرة، وما أعدّه من العقاب العاجل في الدنيا لبعض المكذبين، ثم ذكر قصة إبراهيم الأواه المنيب، وأمر الرسول ﷺ باقتفاء آثاره المجيدة.

اللغة: ﴿تُجَدِّلُ﴾ تخاصم وتحتاج ﴿رَعَدًا﴾ واسعاً هنيئاً بلا كلفة ولا تعب ﴿يَأْنَعُمُ﴾ جمع نعمة كالأشد جمع الشدة ﴿أُمَّةً﴾ إماماً جامعاً لخصال الخير ﴿فَإِنَّا﴾ مطيعاً خاضعاً من القنوت وهو الطاعة والخضوع ﴿أَجَبْنَهُ﴾ اصطفاه واختاره ﴿حَنِيفًا﴾ الحنيف: المائل عن الأديان الباطلة إلى دين الإسلام، من الحنف وهو الميل.

سَبَبُ النَزُول: «لَمَّا قُتِلَ حَمْزَةُ وَمِثْلُهَا بِهَ الْمَشْرُكُونَ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ قَالَ ﷺ حِينَ رَأَاهُ وَاللَّهُ لَا مِثْلَ سَبْعِينَ مِنْهُمْ مَكَانَكَ» فنزلت الآية الكريمة ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ...﴾ الآية (١).

التفسير: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَدِّلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ أي ذكّرهم يوم القيامة حين تخاصم كل نفس عن ذاتها سعيًا في خلاصها، لا يهمها شأن غيرها ﴿وَتُؤْفِقُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي تُعْطَى جزاء ما عملت من غير بخس ولا نقصان ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا ينقصون أجورهم بل يُعْطَوْنَ كاملة وافية ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ هذا مثل ضرب به الله لأهل مكة وغيرهم، يقوم أنعم الله عليهم فأبطرَتْهُمْ النعمة فعصوا وتمردوا، فبدّل الله بنعمتهم نقمة ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ أي كان أهلها في أمن واستقرار، وسعادة ونعيم ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي تأتيها الخيرات والأرزاق بسعة وكثرة من كل الجهات ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ أي لم يشكروا الله على ما آتاهم من خير، وما وهبهم من رزق ﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ أي سلبهم الله نعمة الأمن والاطمئنان، وأذاقهم آلام الخوف والجوع والحرمان ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أي بسبب كفرهم ومعاصيهم، قال «الرازي»: وهذا مثل أهل مكة لأنهم كانوا في الأمن والطمأنينة والخصب، ثم أنعم الله عليهم بالنعمة العظيمة وهو محمد ﷺ فكفروا به، وبالغوا في إيذاؤه، فعذبهم الله بالقحط والجوع سبع سنين حتى أكلوا الجيف والعظام (٢) ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾

(١) «زاد المسير» ٥٠٧/٤. (ش): أخرجه ابن المنذر وابن مردويه والطبراني والبيهقي في «الدلائل». وإسناده ضعيف. وعن أبي بن كعب قال: لما كان يوم أُحُدٍ أُصِيبَ مِنَ الْأَنْصَارِ أَرْبَعَةٌ وَسِتُّونَ رَجُلًا وَمِنْ الْمُهَاجِرِينَ سِتَّةٌ فِيهِمْ حَمْزَةُ فَمَثَلُوا بِهِمْ فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ لَيْتَ أَصَبْنَا مِنْهُمْ يَوْمًا مِثْلَ هَذَا لَتُرِينَ عَلَيْهِمْ قَالَ: فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [رواه الترمذي وابن حبان، وصححه الألباني].

(٢) «التفسير الكبير» ١٢٨/٢٠. (ش): الجيفة: جثة الميت إذا انتنت. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ قُرَيْشًا أَبْطَأُوا عَنِ الْإِسْلَامِ فَدَعَا عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَعْنِ عَلَيْهِمْ سَبْعَ كَسْبَعٍ يُوسِفُ»، فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ (وفي =

أي ولقد جاءهم محمد بالآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة وهو رسولٌ منهم يعرفون أصله ونسبه فلم يصدقوه ولم يؤمنوا برسالته، والآية دالة على أن المراد بهم أهل مكة وهو قول ابن عباس ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي فأصابتهم الشدائد والنكبات وهم ظالمون بارتكاب المعاصي والآثام ﴿فَكُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا﴾ أي كلوا من نِعَمِ الله التي أباحها لكم حال كونها حلالاً طيباً ﴿وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي واشكروا الله على نعمه الجليلة إن كنتم مخلصين في إيمانكم لا تعبدون أحداً سواه، ثم ذكر تعالى ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم فقال ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ﴾ أي لم يحرم ربكم عليكم أيها الناس إلا ما فيه أذى لكم كالميتة والدم ولحم الخنزير ﴿وَمَا أَهْلُ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي وما ذُبَحَ على اسم غير الله تعالى ^(١) فإن فيه أذى للنفس والعقيدة ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي فمن اضطر لأكل ما حرم الله من المذكورات من غير بغى ولا عدوان فإن الله واسع المغفرة عظيم الرحمة لا يؤاخذ من كان مضطراً، ثم وبَّخ تعالى المشركين الذين حللوا وحرموا من تلقاء أنفسهم فقال ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ أي لا تقولوا أيها المشركون في شأن ما تصفه ألسنتكم من الكذب: هذا حلالٌ وهذا حرام من غير دليل ولا برهان ﴿لِنُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ أي لتكذبوا على الله بنسبة ذلك إليه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي إن الذين يختلقون الكذب على الله لا يفوزون ولا يظفرون بمطلوبهم لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿مَتَّعَ قَلِيلٌ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي انتفاعهم واستمتاعهم في الدنيا قليل لأنه زائل، ولهم في الآخرة عذاب مؤلم، ثم ذكر تعالى ما حرم على اليهود فقال ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَافَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ

= رواية: فَحُطُّ وَجْهَهُ حَصَّتْ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى هَلَكُوا فِيهَا، وَأَكَلُوا الْمَيْتَةَ وَالْجَيْفَ، وَالْجُلُودَ وَالْعِظَامَ، وَيَرَى الرَّجُلُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ مِنَ الْجَهْدِ وَالْجُوعِ. فجاءه أبو سُفْيَانٍ، فَقَالَ: «يَا مُحَمَّدُ! إِنَّكَ تَأْمُرُ بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَبِصَلَةِ الرَّحِمِ، وَإِنْ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا؛ فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُمْ، فَدَعَا، ثُمَّ قَالَ: «تَعُودُونَ بَعْدَ هَذَا»، فَقَرَأَ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ ^(١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ، فَدَعَا: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ ^(١١) أَلَيْسَ لَكُمُ الذِّكْرُ وَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ^(١٢) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ لِّتَحْنُونَ ^(١٣) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ. فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْتَسْقَى اللَّهُ لِمُصْرَ؛ فَإِنَّهَا قَدْ هَلَكَتْ». قَالَ: «لِمُصْرَ؟! إِنَّكَ لَجَرِيءٌ!». فَاسْتَسْقَى، فَسَقُوا الْغَيْثَ وَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمْ سَبْعًا، وَشَكَ النَّاسُ كَثْرَةَ الْمَطَرِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾، فَكَشَفَ عَنْهُمْ فَعَادُوا إِلَى كُفْرِهِمْ، فَانْتَقَمَ اللَّهُ مِنْهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ. (وفي رواية: فَمَطَرُوا فَلَمَّا أَصَابَتْهُمْ الرَّفَاهَةُ عَادُوا إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يَوْمَ بَدْرٍ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾. [رواه البخاري ومسلم]. [يَسْبِعُ كَسْبَعِ يَوْسُفَ]: أَيِ يَسْبِعُ سِنِينَ كَسَنِي يَوْسُفَ فِي الْقَحْطِ وَالْمِحْنَةِ وَالْبَلَاءِ. (السَّنة)، هِيَ الْقَحْطُ وَالْجُدْب. (حَصَّتْ): اسْتَأْصَلَتْ.

(١) (ش): ﴿وَمَا أَهْلُ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ ما ذُبَحَ على اسم غير الله تعالى، أو تَقَرَّبَ به إلى الأصنام ولو ذُكِرَ اسمُ الله عليه.

قَبْلُ ﴿ أَيُّ وَعَلَى الْيَهُودِ خَاصَّةٌ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ مِمَّا سَبَقَ ذَكَرَهُ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ عَقُوبَةً لَهُمْ وَهِيَ شَحُومُ الْبَقَرَةِ وَالْغَنَمِ وَكُلِّ ذِي ظَفَرٍ ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أَيُّ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ بِذَلِكَ التَّحْرِيمِ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَاسْتَحَقُّوا ذَلِكَ كَقَوْلِهِ ﴿ فَيُظْلَمُونَ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٦٠] ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ﴾ أَيُّ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ يَا مُحَمَّدُ لِلَّذِينَ ارْتَكَبُوا تِلْكَ الْقَبَائِحَ بِجَهْلٍ وَسَفَهٍ ﴿ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ﴾ أَيُّ ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى رَبِّهِمْ وَأَنَابُوا وَأَصْلَحُوا الْعَمَلُ بَعْدَ ذَلِكَ الزَّلَلِ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أَيُّ إِنَّهُ تَعَالَى وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ عَظِيمُ الرَّحْمَةِ، وَالآيَةُ تَأْنِيسٌ لَجَمِيعِ النَّاسِ وَفَتْحٌ لِبَابِ التَّوْبَةِ ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ أَيُّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ إِمَامًا قُدُورَةً جَامِعًا لَخِصَالِ الْخَيْرِ وَلِذَلِكَ اخْتَارَهُ اللَّهُ لَخَلَّتِهِ ^(١) ﴿ فَأَيَّتَآ لِلَّهِ ﴾ أَيُّ مَطِيعًا لِرَبِّهِ قَائِمًا بِأَمْرِهِ ﴿ حَنِيفًا ﴾ أَيُّ مَائِلًا عَنْ كُلِّ دِينٍ بَاطِلٍ إِلَى دِينِ الْحَقِّ، دِينِ الْإِسْلَامِ ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ تَأْكِيدٌ لِمَا سَبَقَ وَرَدُّ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي زَعْمِهِمْ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ ﴾ أَيُّ قَائِمًا بِشُكْرِ نِعَمِ اللَّهِ ﴿ أَجْتَنَّبَهُ وَهَدَانَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أَيُّ اخْتَارَهُ وَاصْطَفَاهُ لِلنُّبُوَّةِ وَهَدَاهُ إِلَى الْإِسْلَامِ وَإِلَى عِبَادَةِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ أَيُّ جَعَلْنَا لَهُ الذِّكْرَ الْجَمِيلَ فِي الدُّنْيَا ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أَيُّ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ أَصْحَابِ الدَّرَجَاتِ الرَّفِيعَةِ، وَفِي أَعْلَى مَقَامَاتِ الصَّالِحِينَ ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ ^(٢) لَمَّا وَصَفَ تَعَالَى إِبْرَاهِيمَ بِتِلْكَ الْأَوْصَافِ الشَّرِيفَةِ أَمَرَ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَتَّبِعْ مِلَّتَهُ. وَالْمَعْنَى ثُمَّ أَمَرْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ بِاتِّبَاعِ دِينِ إِبْرَاهِيمَ وَمِلَّتِهِ الْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أَيُّ وَمَا كَانَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا، وَإِنَّمَا كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا، وَهُوَ تَأْكِيدٌ آخَرٌ لِرَدِّ مَزَاعِمِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى أَنَّهُمْ عَلَى دِينِهِ ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ أَيُّ لَمْ يَكُنْ تَعْظِيمُ يَوْمِ السَّبْتِ وَتَرْكُ الْعَمَلِ فِيهِ مِنْ شَرِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ وَلَا مِنْ شَعَائِرِ دِينِهِ، وَإِنَّمَا جُعِلَ تَغْلِيزًا عَلَى الْيَهُودِ لِاخْتِلَاطِهِمْ فِي الدِّينِ وَعَصْيَانِهِمْ أَمْرَ اللَّهِ، حَيْثُ نَهَاهُمْ عَنِ الْإِصْطِيَادِ فِيهِ فَاصْطَادُوا فَمَسَخَهُمْ قَرْدَةً وَخَنَازِيرَ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أَيُّ وَسَيَفْصِلُ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَجَازِي كُلًّا بِمَا يَسْتَحِقُّ مِنَ الثَّوَابِ أَوِ الْعِقَابِ ﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ

(١) (ش): الْخَلَّةُ: صِفَاءُ الْمَوَدَّةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ أَيُّ صَفِيًّا اصْطَفَاهُ لِمَحَبَّتِهِ وَخَلَّتِهِ

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ، إِثْبَاتُ صِفَةِ الْخَلَّةِ لِلَّهِ - تَعَالَى - وَهِيَ أَعْلَى مَقَامَاتِ الْمَحَبَّةِ، وَالْإِصْطِفَاءِ.

(٢) قَالَ الْمَفْسُرُونَ: الْعُطْفُ بِ «ثُمَّ»: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ فِيهِ تَعْظِيمُ مَنَزَلَةِ الرُّسُولِ ﷺ وَإِجْلَالُ مُحَلَّةٍ فَكَأَنَّهُ بَعْدَ أَنْ عُدَّ مَنَاقِبُ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: وَهَهُنَا مَا هُوَ أَعْلَى مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ قَدْرًا، وَأَرْفَعُ رَتْبَةً، وَهُوَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ الْأُمِّيَّ الَّذِي هُوَ سَيِّدُ الْبَشَرِ مَتَّبِعَ لِمَلَةِ إِبْرَاهِيمَ، مُسْتَمْسِكٌ بِشَرِيعَتِهِ. وَكَفَى بِذَلِكَ فَخْرًا.

بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴿١﴾ أَي ادع يا محمد الناس إلى دين الله وشريعته القدسية بالأسلوب الحكيم، واللفظ واللين، بما يؤثر فيهم وينجع^(١)، لا بالزجر والتأنيب والقسوة والشدة ﴿وَحَدِّ لَهُمْ يَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي وجادل المخالفين بالطريقة التي هي أحسن من طرق المناظرة والمجادلة بالحجج والبراهين، والرفق واللين ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي إن ربك يا محمد هو العالم بحال الضالين وحال المهتدين. فعليك أن تسلك الطريق الحكيم في دعوتهم ومناظرتهم، وليس عليك هدايتهم، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ أي وإن عاقبتم أيها المؤمنون من ظلمكم واعتدى عليكم فعاملوه بالمثل ولا تزيدوا قال المفسرون: نزلت في شأن «حمزة بن عبد المطلب» لما بقر المشركين بطنه يوم أحد، فقال النبي ﷺ: «لئن أظفرتني الله بهم لأمثلن بسبعين منهم»^(٢) ﴿وَلَيْنَ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ أي ولئن عفوتم وتركتم القصاص فهو خير لكم وأفضل، وهذا ندب إلى الصبر، وترك عقوبة من أساء، فإن العقوبة مباحة وتركها أفضل ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي واصبر يا محمد على ما ينالك من الأذى في سبيل الله، فما تنال هذه المرتبة الرفيعة إلا بمعونة الله وتوفيقه ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي لا تحزن على الكفار إن لم يؤمنوا ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي ولا يضيق صدرك بما يقولون من السّفه والجهل، ولا بما يدبرون من المكر والكيد ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ أي مع المتقين بمعونته ونصره، ومع المحسنين بالحفظ والرعاية، ومن كان الله معه فلن يضره كيد الكائدين.

البَلَاغَةُ: تضمنت الآيات من صنوف البيان والبدیع ما يلي:

- ١ - الاستعارة المكنية ﴿فَإَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ شبه ذلك اللباس من حيث الكراهية بالطعم المر المشبع وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الإذاقة على طريق الاستعارة المكنية.
- ٢ - الطباق بين ﴿حَلَلٌ .. حَرَامٌ﴾.
- ٣ - الالتفات ﴿وَعَايَنَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ التفت عن الغيبة إلى التكلم إشارة إلى زيادة

(١) (ش): نَجَعَ الشَّيْءُ: نَفَعَ، وَظَهَرَ أَثَرُهُ.

(٢) (ش): أخرجه ابن المنذر وابن مردويه والطبراني والبيهقي في «الدلائل». وإسناده ضعيف. وَعَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ أَصِيبَ مِنَ الْأَنْصَارِ أَرْبَعَةٌ وَسِتُّونَ رَجُلًا وَمِنَ الْمُهَاجِرِينَ سِتَّةٌ فِيهِمْ حَمْرَةٌ فَمَثَلُوا بِهِمْ فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: لَيْتَ أَصَبْنَا مِنْهُمْ يَوْمًا مِثْلَ هَذَا لَنُزِبْنَ عَلَيْهِمْ قَالَ: فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَيْنَ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [رواه الترمذي، وابن حبان، وصححه الألباني].

الاعتناء بشأنه وتفخيم أمره.

٤ - التشبيه البليغ ﴿كَانَ أُمَّةٌ﴾ أي كان بمفرده كالأمة والجماعة الكثيرة لجمعه أوصاف الكمالات التي تفرقت في الخلق كما قال الشاعر:

وَلَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ
تنبيه: دل قوله تعالى ﴿وَجَدِلْ لَهُم بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ على الحث على الإنصاف في المناظرة، واتباع الحق، والرفق والمداراة، على وجه يظهر منه أن القصد إثبات الحق وإزهاق الباطل، لا نصرة الرأي وهزيمة الرأي الآخر.

«انتهى تفسير سورة النحل»



سُورَةُ الْإِسْرَاءِ

مكية وآياتها إحدى عشرة ومائة

بين يدي السورة

سورة الإسراء من السور المكية التي تهتم بشئون العقيدة، شأنها كشأن سائر السور المكية من العناية بأصول الدين «الوحدانية، والرسالة، والبعث» ولكن العنصر البارز في هذه السورة الكريمة هو «شخصية الرسول ﷺ»، وما أيده الله به من المعجزات الباهرة، والحجج القاطعة، الدالة على صدقه عليه السلام.

* تعرضت السورة الكريمة لمعجزة الإسراء، التي كانت مظهرًا من مظاهر التكريم الإلهي، لخاتم الأنبياء والمرسلين، وآية باهرة تدل على قدرة الله جل وعلا في صنع العجائب والغرائب.

وتحدثت عن بني إسرائيل، وما كتب الله عليهم من التشرّد في الأرض مرتين، بسبب طغيانهم وفسادهم وعصيانهم لأوامر الله ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتُفْسِدُنَا فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ...﴾ الآيات.

* وتحدثت عن بعض الآيات الكونية، التي تدل على العظمة والوحدانية، وعن النظام الدقيق الذي يحكم الليل والنهار، ويسير وفق ناموس ثابت لا يتبدل ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ...﴾ الآيات.

* وتعرضت السورة إلى بعض الآداب الاجتماعية، والأخلاق الفاضلة الكريمة، فحثت عليها، ودعت إلى التحلي بها ليكون هناك المجتمع المثالي الفاضل بدءًا من قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ لَهُ...﴾ الآيات.

* وتحدثت عن ضلالات المشركين حيث نسبوا إلى الله تعالى الصاحبة والولد، والعجيب في أمرهم أنهم يكرهون البنات، ثم ينسبونها إلى العلي الكبير، المنزه عن الشبيه والنظير ﴿أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا...﴾ الآيات.

* وتحدثت عن البعث والشور، والمعاد والجزاء، الذي كثر حوله الجدل، وأقامت الأدلة والبراهين على إمكانه، ثم تحدثت عن القرآن العظيم، ومعجزة محمد ﷺ الخالدة، وذكرت تَعَنَّتْ المشركين في اقتراحاتهم، حيث طلبوا معجزة أخرى غير القرآن، أن يفجر لهم الأنهار، ويجعل مكة حدائق وبساتين ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمَرَكَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا...﴾ الآيات.

* ثم ختمت السورة بتنزيه الله عن الشركي والولد، وعن صفات النقص ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ

لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا ﴿١﴾

التسمية: سميت السورة الكريمة «سورة الإسراء» لتلك المعجزة الباهرة معجزة الإسراء التي خص الله تعالى بها نبيه الكريم.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْأَيْمَنِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِتَعْلَنَ أَعْلُوًا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُثِمَ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ مَجْجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحْوَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِيَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ وَكُلَّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نُزِرْ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُمِدُّ هُنُوًا وَهَنُورًا وَمِنْ عَطَايِكُمْ وَكَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْصِيلًا ﴿٢١﴾ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴿٢٢﴾

اللغة: ﴿سُبْحَنَ﴾ اسمٌ للتسبيح ومعناه تنزيه الله تعالى عن كل سوء ونقص وهو خاصٌ به سبحانه ﴿أَسْرَى﴾ الإسراء: السير ليلاً يقال: أسرى وسرى لغتان قال الشاعر:

سَرَيْتَ مِنْ حَرَمٍ لَيْلًا إِلَى حَرَمٍ كَمَا سَرَى الْبَدْرُ فِي دَاخٍ مِنَ الظُّلُمِ^(١)
﴿فَجَاسُوا﴾ قال الزجاج: طافوا، والجَوْسُ: الطواف بالليل والترحُّد والطلب مع
الاستقصاء وقال الواحدي: الجَوْسُ هو الترحُّد والطلب ﴿الْكِرَّةُ﴾ الدولة والغلبة
﴿تَنْبِيرًا﴾ هلاكًا ودمارًا ﴿فَحَوَّنَا﴾ طمسنا قال علماء اللغة: المحوُّ إذهاب الأثر يقال:
محوته فأنمحي أي ذهب أثره ﴿طَلَّيْرُهُ﴾ عمله المقدَّر عليه، سُمِّيَ الخير والشر بالطائر
لأن العرب كانوا يتفاءلون ويتشاءمون بالطير إذا طار جهة اليمين أو الشمال ﴿مُتَرَفِّهَا﴾
المُتَرَفُّ: المتنعَّم الذي أبطرتُه النعمة وسعة العيش ﴿يَصْلُدْنَهَا﴾ يدخلها ويدوق حرَّها
﴿مَدْحُورًا﴾ مطرودًا مبعدًا من رحمة الله.

التفسير: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ أي تنزَّه وتقدَّس عما لا يليق بجلاله، الله
العليُّ الشأن، الذي انتقل بعبيده ونبيه محمد ﷺ في جزءٍ من الليل ﴿مَرَكَ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ أي من مكة المكرمة إلى بيت المقدس، وسمي بالأقصى لبعده
المسافة بينه وبين المسجد الحرام قال المفسرون: وإنما قال ﴿لَيْلًا﴾ بلفظ التنكير لتقليل
مدة الإسراء، وأنه قطع به المسافات الشاسعة البعيدة في جزءٍ من الليل^(٢) كانت مسيرة
أربعين ليلة، وذلك أبلغ في القدرة والإعجاز ولهذا كان بدء السورة بلفظ ﴿سُبْحَنَ﴾
المدال على كمال القدرة، وبالع الحكمة، ونهاية تنزُّهه تعالى عن صفات المخلوقين،
وكان الإسراء بالروح والجسد، يقظة لا منامًا ﴿الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أي الذي باركنا ما
حوله بأنواع البركات الحسية والمعنوية، بالثمار والأنهار التي خصَّ الله بها بلاد الشام،
وبكونه مقر الأنبياء ومهبط الملائكة الأطهار ﴿لَنُرِيَهُ مِنْ أَيْنُنَا﴾ أي لنري محمدًا ﷺ
آياتنا العجيبة العظيمة، ونطلعه على ملكوت السماوات والأرض، فقد رأى صلوات الله
عليه السماوات العلى والجنة والنار، وسدرة المنتهى، والملائكة والأنبياء وغير ذلك من
العجائب والآيات التي تدل على قدرة الله تعالى ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي إنه تعالى
هو السميع لأقوال محمد، البصير بأفعاله، فلهذا خصَّ به هذه الكرامات والمعجزات احتفاءً

(١) (ش): وصفُ المسجد الأقصى المبارك بأنه حرمٌ لا يصح، لأنه ليس هناك حرمٌ إلا في مكة المشرفة حول
البيت العتيق وحرم المدينة، والله لم يصف المسجد الأقصى بأنه حرم حيث يقول سبحانه: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ
لَيْلًا مَرَكَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ فلم يقل إلى المسجد الأقصى الحرام كما قال
ذلك في مسجد مكة.

(٢) (ش): الأوَّلَى أن يُقال: «سَرَّ عبده ونبيه محمدًا ﷺ»، كما في «تفسير الواحدي»؛ لأن «انتقل بعبد» قد يُفهم
منها المصاحبة، كما يقال: «انتقل فلانٌ بأهله وماله من بلده يريد بلدًا آخر».

(٣) (ش): الأوَّلَى أن يُقال: «وأنه جعله يقطع المسافات الشاسعة البعيدة في جزءٍ من الليل لثلاثيهم من الكلام
معنى المصاحبة».

وتكريماً ﴿وَعَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي أعطينا موسى التوراة هدايةً لبني إسرائيل يخرجهم بواسطة ذلك الكتاب من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ أي لا تتخذوا لكم ربًّا تكونون إليه أموركم سوى الله الذي خلقكم قال المفسرون: لما ذكر المسجّد الأقصى وهو قلب الأرض المقدسة التي أسكنها الله بني إسرائيل جاء الحديث عنهم في مكانه المناسب من سياق السورة ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي يا ذرية ويا أبناء المؤمنين الذين كانوا مع نوح في السفينة، لقد نجينا آباءكم من الغرق فاشكروا الله على إنعامه ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ أي إن نوحاً كان كثير الشكر يحمد الله على كل حال فاقندوا به، وفي النداء لهم تطفئ وتذكير بنعمة الله ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ أي أخبرناهم وأعلمناهم وأوحينا إليهم في التوراة ﴿لَنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ أي ليحصلنَّ منكم الإفساد في أرض فلسطين وما حولها مرتين^(١) قال ابن عباس: أول الفساد قتل زكريا والثاني قتل يحيى عليهما السلام ﴿وَلَنَعْلَنَ عَلَوًا كَبِيرًا﴾ أي تطغون في الأرض المقدسة طغياناً كبيراً بالظلم والعدوان وانتهاك محارم الله ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ أي أولى المرتين من الإفساد ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا﴾ أي سلطنا عليكم من عبيدنا أناساً جبارين للانتقام منكم ﴿أُولَىٰ بِأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي أصحاب قوة وبطش في الحرب شديد. قال المفسرون: إن بني إسرائيل لما استحلوا المحارم وسفكوا الدماء سلط الله عليهم بُخْتَنَصَّرَ ملك بابل فقتل منهم سبعين ألفاً حتى كاد يفنيهم هو وجنوده، وذلك أول الفسادين ﴿فَجَاسُوا خَلَلِ الدِّيَارِ﴾ أي طافوا وسط البيوت يروحون ويغدون للتفتيش عنكم واستئصالكم بالقتل والسلب والنهب لا يخافون من أحد ﴿وَكَاثَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ أي كان ذلك التسليط والانتقام قضاءً جزماً حتماً لا يقبل النقص والتبديل ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي ثم لما تبئتم وأنبتتم أهلكنّا أعداءكم ورددنا لكم الدّولة والغلبة عليهم بعد ذلك البلاء الشديد ﴿وَأَمَدَدْنَكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ أي أعطيناكم الأموال الكثيرة والذرية الوفيرة، بعد أن نهبت أموالكم وسبيت أولادكم

(١) قضاء الله على بني إسرائيل بالإفساد مرتين ليس قضاء قهر وإلزام، وإنما هو إخبار من الله تعالى بما سيكون منهم حسب ما وقع في علمه الإلهي الأزلي فتنه. (ش): هذا التعبير خلاف تعبير الآية الكريمة، فالله تعالى يقول: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ أي أعلمناهم وأخبرناهم في التوراة، ولم يقل: قضينا عليهم، إذ لو قال ذلك لاختلف المعنى، فالقضاء هنا معناه الإخبار فلا يحتاج إلى هذا الاحتراز. وما حصل من بني إسرائيل لا يخرج عن قضاء الله الكوني وقدره، فليس هناك شيء يخرج عن قضاء الله الكوني وقدره، ولا يمنع هذا أن يكون لهم اختيار وقدره ومشيتة لأفعالهم يستحقون بموجبها الثواب والعقاب كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ولا يكفي أن يقال: إن الله علم ذلك أولاً وأخبر عنه، بل يقال إن الله علمه وقضاه وقدره وكتبه في اللوح المحفوظ.

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي جعلناكم أكثر عدداً ورجالاً من عدوكم لتستعيدوا قوتكم وتبنوا دولتكم ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ أي إن أحسنتم يا بني إسرائيل فإحسانكم لأنفسكم ونفعه عائد عليكم لا ينتفع الله منها بشيء ﴿وَإِنْ أَسَاءْتُمْ فَلَهَا﴾ أي وإن أسأتم فعليها لا يتضرر الله بشيء منها، فهو الغني عن العباد، لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي فإذا جاء وعد المرة الأخيرة من إفسادكم بقتل يحيى وانتهاك محارم الله بعثنا عليكم أعداءكم مرة ثانية ﴿لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ﴾ أي بعثناهم ليهينوكم ويجعلوا آثار المساءة والكتابة بادية على وجوهكم بالإذلال والقهر ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي وليدخلوا بيت المقدس فيخربوه كما خربوه أول مرة ﴿وَلِيَسْتَبْرُوا مَا عَلَوْا تَتَبِيرًا﴾ أي وليدمروا ويهلكوا ما غلبوا عليه تدميراً، فقد سلط الله عليهم مجوس الفرس فشردوهم في الأرض وقتلوهم ودمروا مملكتهم تدميراً ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ أي لعل الله يرحمكم ويعفو عنكم إن تبتُّم وأنبتُّم، وهذا وعدٌ منه تعالى بكشف العذاب عنهم إن رجعوا إلى الله و﴿عَسَىٰ﴾ من الله واجبة ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ أي وإن عدتم إلى الإفساد والإجرام عدنا إلى العقوبة والانتقام ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي وجعلنا جهنم محبساً وسجناً للكافرين، لا يقدرّون على الخروج منها أبداً الأبد، ثم بين تعالى مزية التنزيل الكريم الذي فاق بها سائر الكتب السماوية فقال ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِينَ هُمْ أَقْوَمُ﴾ أي إن هذا القرآن العظيم يهدي لأقوم الطرق وأوضح السبل، ولما هو أعدل وأصوب ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أي ويبشر المؤمنين الذين يعملون بمقتضاه بالأجر العظيم في جنات النعيم ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي ويبشرهم بأن لأعدائهم الذين لا يصدقون بالآخرة العقاب الأليم في دار الجحيم، وقد جمعت الآية بين الترغيب والترهيب ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ أي يدعو بالشر على نفسه كدعائه لها بالخير، ولو استجيب له في الشر كما يستجاب له في الخير لهلك قال ابن عباس: هو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما لا يحب أن يستجاب له: اللهم أهلكه اللهم دمه ونحوه^(١) ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ أي ومن طبيعة الإنسان العجلة، يتعجل بالدعاء على نفسه ويسارع لكل ما يخطر بباله، دون النظر في عاقبته، ثم أشار تعالى إلى آيات الله الكونية في هذا الوجود، التي كل منها برهانٌ نير على وحدانية الله فقال ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ﴾ أي علامتين عظيمتين على وحدانيتنا وكمال قدرتنا ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ أي طمسنا الليل فجعلناه مظلماً لتسكنوا فيه ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصَرَةً﴾ أي جعلنا النهار مضيئاً مشرقاً بالنور ليحصل به الإبصار

(١) «تفسير القرطبي» ١٠ / ٢٢٥.

﴿لَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي لتطلبوا في النهار أسباب معاشكم ﴿وَلَتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ أي وتعلموا عدد الأيام والشهور والأعوام، بتعاقب الليل والنهار، فالليل للراحة والسكون، والنهار للكسب والسعي ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَّهُ نَقْصِيلًا﴾ أي وكل أمر من أمور الدنيا والدين، بيناه أحسن تبين، وليس شيء من أمر هذا الوجود متروكًا للمصادفة والجُزاف، وإنما هو بتقديرٍ وتديرٍ حكيم ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَّهُ نَقْصِيلًا﴾ (١٣) ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَّزِمَنَّهُ طَعِيرُهُ﴾ أي إن الإنسان مرهون بعمله مجزي به، وعمله ملازم له لزوم القلادة للعنق لا ينفك عنه أبدًا ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ أي يظهر له في الآخرة كتاب أعماله مفتوحًا فيه حسناته وسيئاته فيرى عمله مكشوفًا لا يملك إخفاءه أو تجاهله ﴿أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي اقرأ كتاب عملك كفى أن تكون اليوم شهيدًا بما عملت، لا تحتاج إلى شاهدٍ أو حسيبٍ ﴿مَن أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي من اهتدى فثواب اهتدائه له، ومن ضلَّ فعقاب كفره وضلاله عليها ﴿وَلَا نُزِرُ وَارِدَةً وَزَرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجني جانٍ إلا على نفسه ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ أي وما كنا معذبين أحدًا من الخلق حتى نبعث لهم الرسل مُذَكِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فتقوم عليهم الحجة ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْنًا مَّتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ أي وإذا أردنا هلاك قوم من الأقوام أمرنا المتنعمين فيها والقادة والرؤساء بالطاعة على لسان رسلنا فعصوا أمرنا وخرجوا عن طاعتنا وفسقوا وفجروا ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ أي فوجب عليهم العذاب بالفسق والطغيان فأهلكناهم إهلاكًا مُّرِيْعًا قال ابن عباس: ﴿أَمَرْنَا مَتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ أي سَلَطْنَا^(١) أشرارها فعصوا فيها فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب^(٢) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ أي وكثير من الأمم الطاغية المكذبين للرسل أهلكناهم من بعد نوح كقوم عاد وثمود وفرعون قال ابن كثير: والآية إنذار لكفار قريش. والمعنى: إنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم وقد كذبتهم أشرف الرسل وأكرم الخلائق فعقوبتكم أولى وأحرى^(٣) ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أي كفى يا محمد أن يكون ربك رقيبًا على أعمال العباد يدرك بواطنها وظواهرها ويجازي عليها ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ أي من كان يريد بعمله الدنيا فقط ولها يعمل ويسعى فليس له هَمٌّ إلا الدنيا عجلنا له فيها ما نشاء تعجيله

(١) (ش): هذا التفسير على قراءة (أَمَرْنَا) بتشديد الميم، وهي من القراءات الشاذة إسنادًا لكنها مشتهرة بين

العلماء، ويستأنسون بها في مواضع التفسير.

(٢) «المختصر» ٣٧١ / ٢.

(٣) «المختصر» ٣٧١ / ٢.

من نعيمها لا كل ما يريد ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ أي ثم جعلنا له في الآخرة جهنم يدخلها مهاناً حقيراً مطروداً من رحمة الله ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي ومن أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم المقيم، وعمل لها عملها الذي يليق بها من الطاعات وهو مؤمن صادق الإيمان ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ أي فأولئك الجامعون للخصال الحميدة من الإخلاص، والعمل الصالح، والإيمان. كان عملهم مقبولاً عند الله أحسن القبول، مثاباً عليه ﴿كَلَّا نُمَدِّدُ هَتُولَاءَ وَهَتُولَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ أي كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا، والذين أرادوا الآخرة نعطيهم من عطائنا الواسع تفضلاً منا وإحساناً، فنعطي المؤمن والكافر والمطيع والعاصي ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أي ما كان عطاؤه تعالى محبوساً ممنوعاً عن أحد ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي انظر يا محمد كيف فاءتنا بينهم في الأرزاق والأخلاق في هذه الحياة الدنيا فهذا غني وذاك فقير، وهذا شريف وذاك حقير ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أي ولتفاوتهم في الدار الآخرة أعظم من التفاوت في هذا الدار لأن الآخرة دار القرار وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿لَا يَجْعَلُ اللَّهُ لِلْهَاءِ آخِرَ﴾ أي لا تجعل مع الله شريكاً ولا تتخذ غيره إلهاً تعبد به ﴿فَفَقَعُ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ أي فتصير ملوماً عند الله مخذولاً منه لا ناصر لك ولا معين.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - براعة الاستهلال ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى﴾ لأنه لما كان أمراً خارقاً للعادة بدأ بلفظ يشير إلى كمال القدرة وتنزه الله عن صفات النقص.
- ٢ - إضافة التكريم والتشريف ﴿بِعَبْدِهِ﴾.
- ٣ - جناس الاشتقاق ﴿عُلُوءًا﴾ ﴿نَزَرُ وَازِرَةً﴾.
- ٤ - الطباق بين ﴿أَحْسَنْتُمْ... أَسَأْتُمْ﴾ وبين ﴿صَلَّ... أَهْتَدَى﴾.
- ٥ - إيجاز بالحذف ﴿أَقْرَأَ كِتَابَكَ﴾ أي يقال له يوم القيامة اقرأ كتابك ﴿أَمَرْنَا مَتَرَفَهَا﴾ أي أمرناهم بطاعة الله فعصوا وفسقوا فيها.
- ٦ - المجاز العقلي ﴿ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ لأن النهار لا يُبصر بل يُبصر فيه فهو من إسناد الشيء إلى زمانه.

٧ - الاستعارة اللطيفة ﴿طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ﴾ استعير الطائر لعمل الإنسان، ولما كان العرب يتفاءلون ويتشاءمون بالطير سموا نفس الخير والشر بالطائر بطريق الاستعارة.

لطيفة: الحكمة في إسرائه إلى بيت المقدس ثم عروجه من بيت المقدس إلى السماوات العلى أنه مجمع أرواح الأنبياء، وموطن تنزل الوحي الإلهي على الرسل الكرام، ولما

كانت هذه الرحلة رحلة تكريم أراد تعالى أن يشرفهم بزيارته. ولهذا صلى بهم إماماً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

تنبيه: وصفه تعالى في هذه السورة بالعبودية ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ لأنه أشرف المقامات وأسمى المراتب العلية، كما وصفه في مقام الوحي كذلك ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] وفي مقام الدعوة ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩] ولهذا قال القاضي عياض:

وَمِمَّا زَادَنِي شَرَفًا وَتِيهًا وَكَدْتُ بِأَخْمَصِي أَطَا الثُّرَيَّا
دُخُولِي تَحْتَ قَوْلِكَ يَا عِبَادِي وَأَنْ صَيَّرْتَ أَحْمَدَ لِي نَبِيًّا^(١)

قال الله تعالى:

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَادِقِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَآتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا يَبْذُرْ بَذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِنَّمَا تَعْرِضُ عَنْهُمْ بَغْيًا رَّحْمَةً مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهُمْ فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ تَحْنُ تَرْفُهُمْ وَبِآيَاكُمُ إِن قَتَلْتُمْ كَانَ خَطِئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا بِالْكِيلِ إِذَا كَلَّمْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا إِنَّكُمْ لَنَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّعُوتِ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهَا وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِيحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن

(١) (ش): تبه: زهو، عُجب. الثُّرَيَّا: مجموعة من النجوم. أَخْمَصُ: باطن القدم الذي يتجافى ويرتفع عن الأرض، ما دخل من باطن القدم فلا يلمس بالأرض عند الوطء.

لَا يَفْقَهُونَ تَسْيِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٤٧﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾

المناسبة: لما جعل تعالى الإيمان والعمل الصالح أساساً للفوز بالسعادة الأبدية، وبين حال المؤمن الذي أراد بعمله الدار الآخرة، ذكر هنا طائفة من الأوامر والزواجر التي يقوم عليها بنیان المجتمع الفاضل، ثم ذكر تعالى موقف المشركين المكذبين من هذا القرآن العظيم.

اللغة: ﴿أَفِي﴾ كلمة تضجر وتبرم قال ابن الأعرابي: الأف: الضجر، وأصلها أنه إذا سقط تراب أو رماد فنفع الإنسان ليزيله، فالصوت الحاصل هو أف ثم توسعوا في الكلمة حتى أصبحت تقال لكل مكروه ﴿نَهَرَهُمَا﴾ النهر: الزجر والغلظة ﴿لِلْأَوَّيْنِ﴾ جمع أوَّاب وهو كثير التوبة والإنابة من الأوب بمعنى الرجوع ﴿تَحْسُورًا﴾ منقطعاً عن النفقة والتصرف قال الفراء: تقول العرب للبعير هو محسور إذا انقطع سيره، وحسرت الدابة إذا انقطعت عن المسير لذهاب قوتها، فشبه حال من أنفق كل ماله بمن انقطع في سفره بسبب انقطاع مطيته^(١) ﴿أَمْلَقِي﴾ فقر وفاقة، أملق الرجل إذا افتقر ﴿خِطَاءً﴾ قال الأزهرى: خطي يخطأ خطأ إذا تعمّد الخطأ، وأخطأ إذا لم يتعمّد^(٢) ﴿بِالْقِسْطِ﴾ الميزان مأخوذ من القسط وهو العدل ﴿نَقِفْ﴾ تتبّع مأخوذ من قفوت أثر فلان إذا اتبعت أثره وأصله البهت والقذف بالباطل ﴿مَرَحًا﴾ المرح: شدة الفرح والمراد به هنا التكبر والخيلاء ﴿صَرَفْنَا﴾ بيّنا ﴿أَكِنَّةً﴾ جمع كنان وهو الغطاء الذي يستر الشيء ﴿وَقَرًا﴾ صمماً وثقلاً.

التفسير: ﴿وَفَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أي حكم تعالى وأمر بأن لا تعبدوا إلهاً غيره وقال مجاهد: ﴿وَفَضَى﴾ يعني وصّى بعبادته وتوحيده ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي وأمر بأن تحسنوا إلى الوالدين إحساناً قال المفسرون: قرن تعالى بعبادته برّ الوالدين لبيان حقهما العظيم على الولد لأنهما السبب الظاهر لوجوده وعيشه، ولما كان إحسانهما إلى الولد قد بلغ الغاية العظيمة وجب أن يكون إحسان الولد إليهما كذلك ﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ أي قد أوصيناك بهما وبخاصة إذا كبرا أو كبر أحدهما، وإنما خصّ حالة الكبر لأنهما حينئذ أحوج إلى البر والقيام بحقوقهما لضعفهما ومعنى

(١) «التفسير الكبير» للرازي ٢٠/١٩٥.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٠/٢٥٢.

﴿عِنْدَكَ﴾ أي في كنفك^(١) وكفالتك ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفِي﴾ أي لا تقل للوالدين أقل كلمة تُظهر الضجر ككلمة أف ولا تُسمعهما قولاً سيئاً حتى ولو بكلمة التأفف ﴿وَلَا نُنْهَرُهُمَا﴾ أي لا تزجرهما بإغلاظٍ فيما لا يعجبك منهما ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي قل لهما قولاً حسناً ليناً طيباً بأدب ووقار وتعظيم ﴿وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي ألنْ جانبيك وتواضع لهما بتدلل وخضوع من فرط رحمتك وعطفك عليهما ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ أي ادع لهما بالرحمة وقل في دعائك: يا رب ارحم والديَّ برحمتك الواسعة كما أحسنا إليَّ في تربيتهما حالة الصغر ﴿رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ أي ربكم أيها الناس أعلم بما في نفوسكم من إرادة البر أو العقوق ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ أي إن تكونوا قاصدين للبر والصلاح دون العقوق والفساد فإنه جلَّ وعلا يتجاوز عن سيئاتكم ويغفر للأوابين وهم الذين كلما أخطأوا عادوا إلى ربهم مستغفرين قال «الرازي»: والمقصود من هذه الآية أن الأولى لما دلت على وجوب تعظيم الوالدين ثم إن الولد قد يظهر منه ما يخل بتعظيمهما فإن كانت تلك الهفوة ليست لأجل العقوق بل ظهرت بمقتضى الجبلة البشرية كانت في محل الغفران^(٢)، وبمناسبة الإحسان إلى الوالدين يأمر تعالى بالإحسان إلى الأقارب والضعفاء والمساكين ﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ أي أعط كل من له قرابة بك حقه من البر والإحسان ﴿وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ أي وأعط المسكين المحتاج والغريب المنقطع في سفره حقه أيضاً ﴿وَلَا بُدْرَ تَبْذِيرًا﴾ أي لا تنفق مالك في غير طاعة الله فتكون مبذراً، والتبذير الإنفاق في غير حق قال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً، ولو أنفق مُدًّا في غير حق كان مبذراً. وقال قتادة: التبذير النفقة في معصية الله تعالى وفي غير الحق والفساد^(٣) ﴿إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ هذا تعليل للنهي وهو غاية في الذم والتقبيح، أي: إن المبذرين كانوا أمثال الشياطين وأشباههم في الإفساد، لأنهم ينفقون في الباطل وينفقون في الشر والمعصية فهم أمثالهم ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ أي مبالغاً في كفران نعمة الله لا يؤدي حق النعمة كذلك إخوانه المبذرون لا يؤديون حق النعمة، وحققها أن ينفقوها في الطاعات والحقوق غير متجاوزين ولا مبذرين ﴿وَأَمَّا تَعْرِضْنَ عَنْهُمْ أَيَّغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيَّسُورًا﴾ أي إن أعرضت عن ذوي القربى والمساكين وابن السبيل إذا لم تجد ما تعطيهم فقل لهم قولاً سهلاً ليناً وعدهم وعداً جميلاً ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ تمثيل للبخل أي

(١) (ش): في كنفك: أي في رعايتك.

(٢) «التفسير الكبير» ٢٠/ ١٩٢.

(٣) «المختصر» ٢/ ٣٧٥.

لا تكن بخيلاً ممنوعاً لا تعطي أحداً شيئاً كمن حبست يده عن الإنفاق وشدت إلى عنقه ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ تمثيل للتبذير أي ولا تتوسع في الإنفاق توسعاً مفرطاً بحيث لا يبقى في يدك شيء، والغرض من الآية لا تكن بخيلاً ولا مسرفاً ﴿فَنَقَعْدُ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ أي فتصير مذموماً من الخلق والخالق، منقطعاً من المال كمن انقطع في سفره بانقطاع مطيته ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسع الرزق على من يشاء ويضيّق على من يشاء، وهو القابض، الباسط المتصرف في خلقه، بما يشاء حسب الحكمة ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أي إنه عالم بمصالح العباد، والتفاوت في الأرزاق ليس لأجل البخل بل لأجل رعاية المصالح فهو تعالى يعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ أي لا تقتلوا أولادكم مخافة الفقر ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِنَّا كَرِيمُونَ﴾ أي نرزقهم علينا لا عليكم فنحن نرزقهم ونرزقكم فلا تخافوا الفقر بسببهم ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ أي قتلهم ذنبٌ عظيم وجرمٌ خطير قال المفسرون: كان أهل الجاهلية يئدون البنات ^(١) مخافة الفقر أو العار فنهاهم الله عن ذلك وضمن أرزاقهم ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ أي لا تدنوا من الزنى وهو أبلغ من «لا تزنوا» لأنه يفيد النهي عن مقدمات الزنى كاللمس، والقبلة، والنظرة، والغمز وغير ذلك مما يجزئ إلى الزنى فالنهي عن القرب أبلغ من النهي عن الفعل ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾ أي إن الزنى كان فعلة قبيحة متناهية في القبح ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي ساء طريقاً موصلاً إلى جهنم ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي لا تقتلوا نفساً حرم الله قتلها بغير حق شرعي موجب للقتل كالمرتد، والقاتل عمداً، والزاني المحصن ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا﴾ أي ومن قُتل ظلماً بغير حق يوجب قتله فقد جعلنا لوارثه سلطة على القاتل بالقصاص منه، أو أخذ الدية، أو العفو ﴿فَلَا يُسْرِفَ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ أي فلا يتجاوز الحد المشروع بأن يقتل غير القاتل أو يمثل به أو يقتل اثنين بواحد كما كان أهل الجاهلية يفعلون، فحسبه أن الله قد نصره على خصمه فليكن عادلاً في قصاصه ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي لا تتصرفوا في مال اليتيم إلا بالطريقة التي هي أحسن وهي حفظه واستثماره ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أي حتى يبلغ اليتيم سن الرشد ويحسن التصرف في ماله ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ أَلْفَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ أي وفوا بالعهد سواء كانت مع الله أو مع الناس لأنكم تسألون عنها يوم القيامة ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ أي أتموا الكيل إذا كِلْتُمْ لغيركم من غير تطفيف ولا بخس ^(٢) ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَسْلَمَ لِمُسْتَقِيمٍ﴾ أي زنوا بالميزان العدل السوي بلا احتيال ولا

(١) (ش): وأد البنات خشية الفقر والعار: دفنهن في التراب حيّة.

(٢) (ش): طَفَّفَ المكيال والميزان: نَقَصَهُمَا وَبَخَسَهُمَا، لَمْ يَوْفَهُمَا. بِخَسِ الرَّجُلُ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَنَحْوَهُمَا: نَقَصَهُ.

خديعة ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي وفاء الكيل وإقامة الوزن خيرٌ في الدنيا وأحسن مآلاً في الآخرة ﴿وَلَا تَقُفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي لا تتبّع ما لا تعلم ولا يعنيك بل تثبّت من كل خير، قال قتادة: لا تقل: رأيتُ ولم تر، وسمعتُ ولم تسمع، وعلمتُ ولم تعلم، فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله ^(١) ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ أي إن الإنسان يُسأل يوم القيامة عن حواسه: عن سمعه، وبصره، وقلبه وعما اكتسبته جوارحه ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي لا تمش في الأرض مختلاً مشية المعجب المتكبر ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ هذا تعليل للنهي عن التكبر. والمعنى أنك أيها الإنسان ضئيل هزيل لا يليق بك التكبر؟ كيف تتكبر على الأرض ولن تجعل فيها خرقاً أو شقاً؟ وكيف تتناول وتتعظّم على الجبال ولن تبلغها طولاً؟ فأنت أحقر وأضعف من كل واحدٍ من الجماديين فكيف تتكبر وتتعالى وتختال وأنت أضعف من الأرض والجبال؟ وفي هذا تهكم وتقريع للمتكبرين ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ أي كل ذلك المذكور الذي نهى الله عنه كان عمله قبيحاً ومحرماً عند الله تعالى ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ أي ذلك الذي تقدم من الآداب والقصص والأحكام بعضُ الذي أوحاه إليك ربك يا محمد من المواعظ البليغة، والحكم الفريدة ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾ أي لا تشرك مع الله غيره من وثنٍ أو بشر فتلقى في جهنم ملوماً تلوم نفسك ويلومك الله والخلق مطروداً مبعداً من كل خير. قال الصاوي: ختم به الأحكام كما ابتدأها إشارة إلى أن التوحيد مبدأ الأمور ومنتهأها، وهو رأس الأشياء وأساسها، والأعمال بدونه باطلة لا تفيد شيئاً ^(٢) ﴿أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا﴾ خطابٌ على وجه التوبيخ للعرب الذين قالوا: إن الملائكة بنات الله. والمعنى أفخصّكم ربكم وأخلصّكم بالذكر واختار لنفسه - على زعمكم - البنات؟ كيف يجعل لكم الأعلى من النسل ويختار لنفسه الأدنى! ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ أي إنكم لتقولون قولاً عظيماً في شناعته وبشاعته حيث تنسبون إليه البنات وتجعلون لله ما تكرهون ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا﴾ أي ولقد بيّنا للناس في هذا القرآن العظيم الأمثال والمواعظ، والوعد والوعيد، ليتذكروا بما فيه من الحجج النيرة والبراهين الساطعة، فينزجروا عما هم فيه من الشرك والضلال ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي وما يزيدهم هذا البيان والتذكير إلا تباعداً عن الحق، وغفلة عن النظر والاعتبار ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بَغْوًا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ أي لو فرضنا أن مع الله

(١) «المختصر» ٣٧٧/٢.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣٥٠/٢.

آلهة أخرى كما يزعم هؤلاء المشركون إذا طلبوا طريقاً إلى مغالبة ذي العزة والجلال^(١) ليسلبوا ملكه كما يفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض^(٢) ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أي تنزهه تعالى وتقدس عما يقول أولئك الظالمون، وتعالى ربنا عما نسبوه إليه من الزور والبهتان تعالياً كبيراً، فإن مثل هذه الفرية مما ينتزه عنه مقامه الأسمى قال الشهاب: وذكر العلو بعد عنوانه بـ ﴿ذِي الْعَرْشِ﴾ في أعلى مراتب البلاغة لأنه المناسب للعظمة والجلال ﴿تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ أي تسبح له الكائنات، وتنزهه وتقدسها الأرض والسماوات، ومن فيهن من المخلوقات ﴿وَمِنْ مَن شَيْءٌ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أي وما من شيء في هذا الوجود إلا ناطق بعظمة الله، شاهد بوحدانيته جل وعلا، السماوات تسبح الله في زُرقتها، والحقول في خضرتها، والبساتين في نضرتها، والأشجار في حفيفها، والمياه في خريها، والطيور في تغريدها^(٣)، والشمس في شروقها وغروبها، والسحب في إمطارها، والكل شاهد بالوحدانية لله.

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَّهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ
﴿وَلَكِنْ لَا يَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي ولكن لا تفهمون تسبيح هذه الأشياء لأنها ليست بلغاتكم ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أي إنه تعالى حلیم بالعباد لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، غفور لمن تاب وأناب، ولولا حلم الله وغفرانه لأخذ البشر أخذ عزيز مقتدر ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ أي وإذا قرأت يا محمد القرآن على هؤلاء المشركين الذين لا يصدقون بالآخرة جعلنا بينك وبينهم حجاباً خفياً يحجب عنهم فهم القرآن وإدراك أسرارهِ وحكمهِ ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أي وجعلنا على قلوب هؤلاء الكفار أغطية لئلا يفهموا القرآن ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي صمماً يمنعهم من استماعه ﴿وَإِذَا ذُكِّرَتْ رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ أي وإذا وحَّدت الله وأنت تتلو القرآن فرَّ المشركون من ذلك هرباً من استماع التوحيد ﴿تَنْحُنُّ أَعْلَمُ

(١) (ش): الصواب أن يُقال: مغالبة الله ذي العرش العظيم، الذي هو أعظم المخلوقات. وقد فسرهُ المؤلف بذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] حيث قال: «أي هو سبحانه رب العرش المحيط بكل شيء، لكونه أعظم الأشياء؛ الذي لا يعلم مقدار عظمته إلا الله تعالى».

(٢) هذا أحد وجهين في تفسير الآية الكريمة. والوجه الآخر أن المعنى: لو كان كما تقولون لكان أولئك المعبودون يتغنون سبيلاً إلى التقرب إليه بعبادته وطاعته ويطلبون الزلفى لديه، وهذا اختيار ابن جرير وابن كثير، والوجه الأول أظهر كما يقول العلامة «أبو السعود» وهو المناسب للآية؛ لقوله تعالى بعدها: ﴿سُبْحَنَهُ﴾ فإنه صريح في الإنكار وأن قولهم فيه محذور عظيم.

(٣) (ش): حفَّ الشَّيْءُ: سُمِعَ له صوت كالذي يكون من أجنحة الطيور أو تلهب النار أو مرور الريح في الشجر. خرَّ الماء: أحدث صوتاً إذا سال أو سقط، أو اشتدَّ جُريه. غَرَدَ الطَّائِرُ: غَنَّى، رفع صوته بالغناء وطرب به.

بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ ﴿١﴾ أي نحن أعلم بالغاية التي يستمعون من أجلها للقرآن وهي الاستهزاء والسخرية قال المفسرون: كان المشركون يجلسون عند النبي ﷺ مُظْهِرِينَ الاستماع وفي الواقع قاصدين الاستهزاء؛ فنزلت الآية تسلياً للرسول ﷺ وتهديداً للمشركين ﴿١﴾ ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ أي حين يستمعون إلى قراءتك يا محمد ثم يتناجون ويتحدثون بينهم سرّاً ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ أي حين يقول أولئك الفجرة ما تتبعون إلا رجلاً مسحوراً فاجتلبت كلامه ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا﴾ أي انظر يا محمد وتعجب كيف يقولون تارة عنك: إنك ساحر، وتارة: إنك شاعر، وتارة: إنك مجنون. وقد ضلوا بهذا البهتان والزور ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي لا يجدون طريقاً إلى الهدى والحق المبين.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

- ١ - الاستعارة المكنية ﴿وَخَفِضَ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾ شبه الذل بطائر له جناح، وحذف الطائر ورمز له بشيء من لوازمه وهو الجناح على سبيل الاستعارة المكنية.
- ٢ - الاستعارة التمثيلية ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ مثل للبخيل بالذي حبست يده عن الإعطاء وشدّت إلى عنقه بحيث لا يقدر على مدّها، وشبهه السرف ببسط الكفّ بحيث لا تحفظ شيئاً.
- ٣ - اللف والنشر المرتب ﴿فَنَقَعَدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ عاد لفظ ﴿مَلُومًا﴾ إلى البخل ولفظ ﴿مَّحْسُورًا﴾ إلى الإسراف، أي: يلومك الناس إن بخلت، وتصبح مقطوعاً إن أسرفت.
- ٤ - الطباق بين ﴿يَبْسُطُ.. وَيَقْدِرُ﴾.
- ٥ - جناس الاشتقاق ﴿قَرَأَتِ الْقُرْآنَ﴾.
- ٦ - التوبيخ ﴿أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ؟﴾
- ٧ - الفرض والتقدير ﴿لَوْ كَانَ مَعَهُ إِلَهٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾.

لطيقة: نقف هنا أمام مثل من دقائق التعبير القرآني العجيبة ففي هذه السورة قدّم تعالى رزق الأبناء على رزق الآباء ﴿تَحْنُ نَزْرُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ وفي سورة الأنعام قدّم رزق الآباء ﴿تَحْنُ نَزْرُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١] والسرّ في ذلك أن قتل الأولاد هنا كان خشية وقوع الفقر بسببهم فقدّم تعالى رزق الأولاد، وفي الأنعام كان قتلهم بسبب فقر الآباء فعلاً فقدّم رزق الآباء، فلهذا التنزيل ما أروع أسرارهِ^(٢).

(١) (ش): ضعيف، ذكره السيوطي في «الدر المنثور» و«لباب النقول».

(٢) (ش): لله دُرُّ كذا: عبارة تعجب ومدح.

قال الله تعالى:

وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنَا أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴿٥٠﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ لِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرِيبَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ أَلْقِيسَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَحْوِيلًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحَوِّهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأُحْتَكِنَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَّقْضُورًا ﴿٦٣﴾ وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطِطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْنِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخِيَلِكِ وَرَجُلَاكِ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَبُّكُمُ الَّذِي يُرْسِلُ لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَنْبَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَن يُخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا يَوْمَ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى موقف المشركين من القرآن العظيم، وذكر تعاميمهم عن فهم آياته البينات، أردفه بذكر شبهاتهم في إنكار البعث والنشور وكرّ عليها بالإبطال والتفنيد، ثم ذكر قصة آدم وإبليس للعظة والاعتبار، وأعقبها بذكر نعمه العظيمة على العباد ثم بالوعيد والتهديد إن أصرُّوا على الكفر والجحود.

اللغة: ﴿وَرَفْنَا﴾ الرُّفَات: ما تَكَسَّرَ وَبَلَّى من كل شيء كالْفُتَات والحُطَام والرُّضَاض^(١)

(١) (ش): رُضَاض: دُفَاقٌ وَفُتَاتٌ مِمَّا تَكَسَّرَ، وَدُفَاقُ الشَّيْءِ: فُتَاتُهُ النَّاتِجُ عَنِ الدَّقِّ.

﴿فَسَيَنْفِضُونُ﴾ قال الفراء: يقال أنغض فلان رأسه إذا حرّكه إلى فوق وأسفل كالمتعجب من الشيء^(١) قال الراجز: «أَنْغَضَ نَحْوِي رَأْسَهُ وَأَفْنَعَا» ﴿يَنْزِعُ﴾ يفسد ويهيج الشر والنزع: الإفساد والإغراء ﴿لَأَحْتَنِكَ﴾ الاحتناك الأخذ بالكلية والاستتصال يقال: احتنك الجراد الزرع إذا ذهب به كله ﴿وَأَسْتَفْزِرُ﴾ اخدع واستخفّ يقال: أفزه الخوف واستفزه إذا أزعجه واستخفه ﴿وَأَجْلِبُ﴾ أصل الإجلاب السّوق بجلبة من السائق وهو الصياح، والجلب والجلبة الأصوات ﴿وَرَجِلْكَ﴾ الرّجل جمع راجل وهو الذي يمشي على قدميه ﴿يُزْجِي﴾ يسوق ﴿حَاصِبًا﴾ الحاصب والحصاء هي الحصى الصغار ﴿قَاصِفًا﴾ القاصف ما يقصف الشيء أي يكسره والريح الشديدة التي تكسر بشدة من قَصَفَ الشيء يقصفه أي كسره بشدة، ورعد قاصف شديد الصوت ﴿يَبْعَا﴾ طالباً يقال: تابع وتبيع وهو النصير والمطالب.

سَبَبُ النُّزُولِ: أ - عن ابن عباس «أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن يُنَحِّيَ عنهم الجبال فيزرعوا فقليل له: إن شئت أن تستأني بهم لعلنا نجتبي منهم، وإن شئت نعطيهم الذي سألوا فإن كفروا أهلكوا، فقال: لا بل أستاذني بهم» فنزلت ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ...﴾^(٢) الآية.

ب - لما ذكر تعالى شجرة الزقوم في القرآن قال أبو جهل: يا معشر قريش إن محمداً يخوّفكم بشجرة الزقوم، ألستم تعلمون أن النار تُحرق الشجر؟ ومحمد يزعم أن النار تُنبِت الشجر، فهل تدرون ما الزقوم؟ هو التمر والزُّبد، يا جارية ابغينا تمرّاً وزُبدًا، فجاءته به فقال: تزقّموا من هذا الذي يخوّفكم به محمد فأنزل الله تعالى ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي أَلْقَرَاءٍ وَخَوْفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾^(٣).

التفسير: ﴿وَقَالُوا أَوَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَفْنًا﴾ استفهام تعجب وإنكار، أي: قال المشركون المكذبون بالبعث: أإذا أصبحنا عظاماً نخرة، وذرات متفتتة كالتراب ﴿أَوَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي هل سنُبْعَث ونُخْلَق خلقاً جديداً بعد أن نبلى ونفنى؟ ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ أي قل لهم يا محمد لو كنتم حجارة أو حديداً لَقَدَّرَ الله على بعثكم وإحيائكم فضلاً عن أن تكونوا عظاماً ورفاتاً فإن الله لا يعجزه شيء، فالحجارة والحديد أبعد عن الحياة وهي أصلب الأشياء ولو كانت أجسامكم منها لأعاده الله فكيف لا يقدر على إعادتكم

(١) «التفسير الكبير» ٢٠/٢٢٦.

(٢) «أسباب النزول» للواحدى رحمه الله ١٦٦. (ش): أخرجه الإمام أحمد وابن جرير والحاكم والنسائي والبخاري والطبراني، وإسناده صحيح.

(٣) «زاد المسير» ٥/٥٥. (ش): أخرجه ابن جرير «الطبري» في «تفسيره»، وإسناده ضعيف.

إذا كنتم عظاماً ورفاتاً؟ ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي أو كونوا خلقاً آخر أو غل في البعد عن الحياة^(١) من الحجارة والحديد مما يصعب في نفوسكم تصوّر الحياة فيه فسيبعثكم الله قال مجاهد: المعنى كونوا ما شئتم فستعادون ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا؟﴾ أي من الذي يردنا إلى الحياة بعد فنائنا ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: قل لهم يعيدكم القادر العظيم الذي خلقكم وأنشأكم من العدم أول مرة ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ؟﴾ أي يحركون رءوسهم متعجبين مستهزئين ويقولون استنكاراً واستبعاداً: متى يكون البعث والإعادة؟ ﴿قُلِ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أي لعله يكون قريباً فإن كل ما هو آت قريب ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ لِحَمْدِهِ وَتَنْظُرُونَ أَنْ لَيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي سيكون بعثكم يوم الحشر الأكبر يوم يدعوكم الرب جل وعلا للاجتماع في المحشر فتجيبون لأمره، وتظنون لهول ما ترون أنكم ما أقمتُم في الدنيا إلا زمناً قليلاً ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي قل لعبادي المؤمنين يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلمة الطيبة ويختاروا من الكلام ألطفه وأحسنه وينطقوا دائماً بالحسنى ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ أي إن الشيطان يفسد ويهيج بين الناس الشر ويشتعل نار الفتنة بالكلمة الخسنة يفلت بها اللسان ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَتْ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ أي ظاهر العداوة للإنسان من قديم الزمان يتلمس سقطات لسانه ليحدث العداوة والبغضاء بين المرء وأخيه ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَسَاءَ يَرْحَمُكُمْ أَوْ إِنْ يَسَاءُ يُعَذِّبُكُمْ﴾ أي ربكم أيها الناس أعلم بدخائل نفوسكم إن يشأ يرحمكم بالتوفيق للإيمان، وإن يشأ يعذبكم بالإماتة على الكفر والعصيان ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي وما جعلناك يا محمد حفيظاً على أعمال الكفار كفيلاً عنهم لتُقَسِّرَهم على الإيمان^(٢) إنما أرسلناك نذيراً فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ انتقال من الخصوص إلى العموم أي ربك جلّ وعلا أعلم بعباده بأحوالهم ومقاديرهم فيخص بالنبوة من شاء من خلقه، وهو أعلم بالسعداء والأشقياء، والآية رد على المشركين حيث استبعدوا النبوة على رسول الله وقالوا: كيف يكون يقيم أبي طالب نبياً؟ وكيف يكون هؤلاء الفقراء الضعفاء أصحابه دون الأكابر والرؤساء؟ ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي فضلنا بعض الأنبياء على بعض حسب علمنا وحكمتنا وخصصناهم بمزايا فريدة، فاصطفينا إبراهيم بالخلة^(٣)، وموسى بالتكليم،

(١) (ش): أو غل: أشد أو أكثر بُعداً عن الحياة.

(٢) (ش): قسره على الشيء: أكرهه وأجبره عليه.

(٣) (ش): الخلة: صفاء المودة، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ أي صديقاً اصطفاه لمحبهته وخلته، وفي هذه الآية إثبات صفة الخلة لله - تعالى - وهي أعلى مقامات المحبة، والاصطفاء.

وسليمان بالملك العظيم، ومحمدًا بالإسراء والمعراج وجعلناه سيّد الأولين والآخرين، وكل ذلك فعل الحكيم العليم الذي لا يصدر شيء إلا عن حكمته ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ أي وأنزلنا الزبور على داود المشتمل على الحكمة وفصل الخطاب ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِي﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دونه تعالى قال الحسن: يعني الملائكة وعيسى وعزيراً فقد كانوا يقولون: إنهم يشفعون لنا عند الله ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أي فلا يستطيعون رفع البلاء عنكم ولا تحويله إلى غيركم ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أي أولئك الآلهة الذين يدعونهم من دون الله هم أنفسهم يبتغون القرب إلى الله، ويتوسلون إليه بالطاعة والعبادة، فكيف تعبدونهم معه؟ ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ أي يرجون بعبادتهم رحمته تعالى ويخافون عقابه ويتسابقون إلى رضاه ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي عذابه تعالى شديد ينبغي أن يحذر منه ويخاف من وقوعه وحصوله ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْكَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي ما من قرية من القرى الكافرة التي عصت أمر الله وكذبت رسله إلا وسيهلكها الله إما بالاستئصال الكلي أو بالعذاب الشديد لأهلها ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ أي كان ذلك حكماً مسطراً في اللوح المحفوظ لا يتغير ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ قال المفسرون: اقترح المشركون على رسول الله ﷺ معجزات عظيمة منها أن يقلب لهم الصفا ذهباً، وأن يزيح عنهم الجبال فأخبره تعالى أنه إن أجابهم إلى ما طلبوا ثم لم يؤمنوا استحقوا عذاب الاستئصال، وقد اقتضت حكمته تعالى إمهالهم لأنه علم أن منهم من يؤمن وأن من أولادهم من يؤمن فلهذا السبب ما أجابهم إلى ما طلبوا^(١) أو المعنى ما مَنَعَنَا من إرسال المعجزات والخوارق التي اقترحها قومك إلا تكذيب من سبقهم من الأمم حيث اقترحوا ثم كذبوا فأهلكهم الله ودمرهم ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصَرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي وأعطينا قوم صالح الناقة آيةً بينة ومعجزةً ساطعة واضحة فكفروا بها وجحدوا بعد أن سألوها فأهلكهم الله ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ أي وما نرسل بالآيات الكونية كالزلازل والرعد والخسوف والكسوف إلا تخويفاً للعباد من المعاصي قال قتادة: إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويرجعون^(٢) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ أي واذكر يا محمد حين أخبرناك أن الله أحاط بالناس علماً في

(١) انظر سبب النزول المذكور سابقاً. (ش): أخرجه الإمام أحمد وابن جرير والحاكم والنسائي والبزار والطبراني، وإسناده صحيح.

(٢) «تفسير الطبري» ١٥/١٠٩.

الماضي والحاضر والمستقبل فهو تعالى لا يخفى عليه شيء من أحوالهم وقد علم أنهم لن يؤمنوا ولو جئتهم بما طلبوا من الآيات والمعجزات ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ أي وما جعلنا الرؤيا التي أريناها عياناً ليلة المعراج من عجائب الأرض والسماء إلا امتحاناً وابتلاءً لأهل مكة حيث كذبوا وكفروا وارتد بعض الناس لما أخبرهم بها. قال البخاري عن ابن عباس: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أُسري به وليست برؤيا منام^(١) ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾ أي وما جعلنا الشجرة الملعونة في القرآن وهي شجرة الزقوم إلا فِتْنَةً أيضاً للناس قال ابن كثير: لما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأى الجنة والنار ورأى شجرة الزقوم كذبوا بذلك حتى قال أبو جهل متهمكماً: هاتوا لنا تمراً وزُبْداً وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول: ترقموا فلا نعلم الزقوم غير هذا^(٢) ﴿وَنُحُوفُهُمْ قَمَائِرُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ أي ونخوف هؤلاء المشركين بأنواع العذاب والآيات الزاجرة فما يزيدهم تخويفنا إلا تمادياً وغياً واستمراراً على الكفر والضلال، فماذا تنفع معهم الخوارق؟ ما زادتهم خارقة الإسراء والمعراج، ولا خارقة التخويف بشجرة الزقوم إلا استهزاء وإمعاناً في الضلال، ثم أشار تعالى إلى أن هذا الطغيان سببه إغواء الشيطان ولهذا ذكر قصته عقب ذلك فقال ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ أي أذكر يا محمد حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى افتخاراً على آدم واحتقاراً له ﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ استفهام إنكاري أي أأسجد أنا العظيم الكبير لهذا الضعيف الحقير الذي خلقته من الطين؟ كيف يصح للعالي أن يسجد للداني؟ ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ أي قال إبليس اللعين جرأة على الرب وكفراً به: أترى هذا المخلوق الذي فضّلته عليّ وجعلته أكرم مني عندك؟ ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لئن أنظرتني وأبقيتني حياً إلى يوم القيامة لأستأصلن ذريته بالإغواء والإضلال قال «الطبري»: أقسم عدو الله فقال لربه: لئن أخرت إهلاكي إلى يوم القيامة لأستأصلنهم ولأستميلنهم وأصلنهم إلا قليلاً منهم^(٣) ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ كُلِّ جَزَاءٍ مَوْفُورًا﴾ أي قال الرب جلّ وعلا: اذهب فقد أنظرتك وابدل جهدك فيهم فمن أطاعك من ذرية آدم فإن جزاءك وجزاءهم

(١) «تفسير الطبري» ١٥ / ١١٠. (ش): عن ابن عباس - رضى الله عنهما - في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ قَالَ: هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ، أَرِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ. وَالزِّيَادَةُ «وَلَيْسَتْ بِرُؤْيَا مَنْامٍ» رَوَاهُ «الطَّبْرِيُّ» فِي «تَفْسِيرِهِ» وَالتَّبْرَانِيُّ فِي «الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ» بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

(٢) «المختصر» ٢ / ٣٨٦.

(٣) «تفسير الطبري» ١٥ / ١١٦، والمراد بالقليل: المخلصون الذين عصمهم الله.

نارُ جهنم جزاء كاملاً وافرأ لا ينقص لكم منه شيء قال «القرطبي»: والأمر في ﴿أَذْهَبَ﴾ أمرُ إهانة. والمعنى اجهد جهدك فقد أنظرناك^(١) ﴿وَأَسْتَفْزَزَ مِنْ أَسْتَفْزَعَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ أي استخفف واستجهل وحرَّك من أردت أن تستفزّه فتخدعه بدعائك إلى الفساد قال ابن عباس: صوته كلُّ داع يدعو إلى معصية الله تعالى وقال مجاهد: صوته الغناء والمزامير واللهو^(٢) ﴿وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي صَحَّ عليهم بأعوانك وجنودك من كل راكبٍ وراجلٍ قال «الطبري»: المعنى اجمع عليهم من ركبان جنديك ومشاتهم من يصيح عليهم بالدعاء إلى طاعتك، والصرفِ عن طاعتي قال ابن عباس: خيله ورجله كل راكب وماشٍ في معصية الله تعالى^(٣) وقال الزمخشري: الكلام واردٌ مورد التمثيل، مثَّلت حاله في تسلطه على من يُغويه بفارسٍ مغوارٍ أوقع على قومٍ فصوت بهم صوتاً يستفزهم عن أماكنهم، ويُفلقهم عن مراكزهم، وأجلب عليهم بجنده من خيالةٍ ورجالةٍ حتى استأصلهم^(٤) ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أي اجعل لنفسك شركة في أموالهم وأولادهم، أما الأموال فبكسبها من الحرام وإنفاقها في المعاصي، وأما الأولاد فبتحسين اختلاط الرجال بالنساء حتى يكثر الفجور ويكثر أولاد الزنى ﴿وَعَدُّهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي عدُّهم بالوعود المغرية الخادعة والأمانى الكاذبة، كالوعد بشفاعة الأصنام، والوعد بالغنى من المال الحرام، والوعد بالعمو والمغفرة وسعة رحمة الله، والوعد باللذة والسرور في ارتكاب الموبقات كقول الشاعر:

خُذُوا بِنَصِيبٍ مِنْ سُرُورٍ وَلَذَّةٍ فَكُلُّ وَإِنْ طَالَ الْمَدَى يَتَصَرَّمُ^(٥)

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي إنَّ عبادي المخلصين ليس لك عليهم تسلطٌ بالإغواء لأنهم في حفظي وأماني ﴿وَكَفَىٰ بَرِيكَ وَكِيلًا﴾ أي كفى بالله تعالى عاصماً وحافظاً لهم من كيدك وشرك، ثم ذكَّر تعالى العباد بإحسانه ونعمه عليهم وبآثار قدرته ووحدانيته فقال ﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي ربكم أيها الناس هو الذي يُسيِّر لكم السفن في البحر لتطلبوا من رزقه في أسفاركم وتجاراتكم ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي هو تعالى رحيم بالعباد ولهذا سهَّل لهم أسباب ذلك ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أي وإذا أصابتكم الشدة والكرب

(١) «تفسير القرطبي» ١٠ / ٢٨٨.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٠ / ٢٨٨.

(٣) «تفسير الطبري» ١٥ / ١١٨.

(٤) «الكشاف» ٢ / ٦٧٨.

(٥) (ش): يَتَصَرَّمُ يَنْقَطِعُ.

في البحر وخشيتهم من الغرق ذهب عن خاطرهم من كنتم تعبدونه من الآلهة ولم تجدوا غير الله مغيثاً يغيثكم، فالإنسان في تلك الحالة لا يتضرع إلى الصنم والوثن، والملك والفلك وإنما يتضرع إلى الله تعالى ﴿فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ أي فلما نجاكم من الغرق وأخرجكم إلى البر أعرضتم عن الإيمان والإخلاص ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ أي ومن طبيعة الإنسان جحود نعم الرحمن، ثم خوفهم تعالى بقدرته العظيمة فقال ﴿أَفَأَمْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ أي أفأمتهم أيها الناس حين نجوتم من الغرق في البحر أن يخسف الله بكم الأرض فيخفيكم في باطنها؟ إنكم في قبضة الله في كل لحظة فكيف تأمنون بطش الله وانتقامه بزلزال أو رجفة أو بركان؟ ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي يمطرهم بحجارة من السماء تقتلكم كما فعل بقوم لوط ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ أي لا تجدوا من يقوم بأموركم ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى﴾ أي يعيدكم في البحر مرة أخرى ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ﴾ أي يرسل عليكم وأنتم في البحر ريحاً شديدة مدمرة، لا تمر بشيء إلا كسرتة ودمرتة ﴿فَيُغْرِقْكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي يغرقكم بسبب كفركم ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنًا بِهِ ذَبْيًا﴾ أي لا تجدوا من يأخذ لكم بالثأر منا أو يطالبنا بتبعية إغراقكم^(١).

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

- ١ - الاستفهام الإنكاري ﴿أَوَإِذَا كُنَّا عِظْمًا﴾ وتكرير الهمزة في ﴿أَوَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ لتأكيد النكير وكذلك تأكيده بإن واللام للإشارة إلى قوة الإنكار.
- ٢ - التعجيز والإهانة في الأمر ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾.
- ٣ - الطباق بين ﴿يَرْحَمُكُمْ.. يُعَذِّبُكُمْ﴾ وبين لفظ ﴿الْبَرِّ.. الْبَحْرِ﴾.
- ٤ - الإيجاز بالحذف ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أي ولا تحويل الضر عنكم حذف لدلالة ما سبق.
- ٥ - المقابلة اللطيفة بين الجملتين ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾، ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾.
- ٦ - الإسناد المجازي ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ المنع محال في حقه تعالى لأن الله لا يمنعه عن إرادته شيء فالمنع مجاز عن الترك أي ما كان سبب ترك إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين.

- ٧ - المجاز العقلي ﴿النَّافَةَ مُبْصَرَةً﴾ لما كانت الناقة سبباً في إبصار الحق والهدى نسب إليها الإبصار ففيه مجاز عقلي علاقته السببية.

(١) (ش): تبعة الأمر: عاقبته، وما ينشأ عنه من أثر.

٨ - الاستعارة التمثيلية ﴿وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ يُحْيِيكَ وَرَحِيكَ﴾ مُثِّلَتْ حال الشيطان في تسلطه على من يغويه بالفارس الذي يصيح بجنده للهجوم على الأعداء لاستئصالهم.

٩ - التذليل ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ لأنه كالتعلييل لما سبق من تسيير السفن وتسخيرها في البحر.

تنبيه: الغالب في لفظ ﴿الرُّؤْيَا﴾ أن تكون منامية وإذا كانت بالعين يقال «رؤية» بالتاء، وقوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ جاءت على غير الغالب لأن المراد بها الرؤية البصرية التي رآها رسول الله ﷺ في الإسراء والمعراج وقد تقدم قول ابن عباس: «هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أُسري به» ولو كانت رؤيا منام لما كانت فتنة للناس ولما ارتد بعضهم عن الإسلام.

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِسْمِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّرْنَا لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِكَ الشَّمْسِ إِلَى عَسَى الْيَلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَكِنْ شِئْنَا لَنُدْهِنَ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُلْ لِّينِ أَجْمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى ما امتنَّ به على الناس من تسيير السفن في البحر، ومن تَجِيتهم

من الغرق، تَمَّ ذكر المنة بما أنعم به على النوع الإنساني من تكرمهم، ورزقهم، وتفضيلهم على سائر المخلوقات، ثم ذكر أحوال الناس ودرجاتهم في الآخرة، ثم حذر الرسول ﷺ من اتباع أهواء المشركين.

اللغة: ﴿بِأَمِّهِمْ﴾ الإمام في اللغة: كل من يأتى به غيره سواء كان على هدى أو ضلال ويطلق الإمام على كتاب الأعمال لأن الإنسان يكون تابعاً لكتاب أعماله يقوده إلى الجنة أو النار ﴿فَتِيلًا﴾ الفتيل: القشرة التي في شق النواة ويضرب مثلاً للشيء الحقير التافه ومثله القطمير والنقيير^(١) ﴿تَرَكْنُ﴾ تميل ﴿لَيْسَتْ فَرْزُونَكَ﴾ الاستفزاز: الإزعاج بسبب من الأسباب للحمل على الخروج من الوطن وغيره ﴿تَحْوِيلًا﴾ تغييراً وتبديلاً ﴿لَذُلُوكُ﴾ الدلوك: الغروب يقال: دلكت الشمس، أي: غابت قال أبو عبيد وابن قتيبة: الدلوك الغروب وأنشد لذي الرمة:

مَصَابِيحُ لَيْسَتْ بِاللَّوَاتِي تَقُودُهَا نَجُومٌ وَلَا بِالْأَفَلَاتِ الدَّوَالِكِ^(٢)

وقال الأزهري: أصل الدلوك الميل يقال: مالت الشمس للزوال، ومالت للغروب ﴿عَسَقُ﴾ عَسَقُ الليل: سواده وظلمته يقال: عَسَقَ الليل إذا اشتدت ظلمته ﴿فَتَهَجَّدُ﴾ التهجّد: صلاة الليل بعد الاستيقاظ من النوم، والهجود: النوم، قال الشاعر:

أَلَا طَرَقْتَنَا وَالرَّفَاقُ هُجُودُ فَبَاتَتْ بَعَلَاتِ النَّوَالِ تَجُودُ^(٣)

﴿وَزَهَقُ﴾ زال وبطل ﴿وَنَا﴾ تباعد والنأي: البعد ﴿ظَهِيرًا﴾ مُعِينًا وَنَصِيرًا. **سَبَبُ النُّزُولِ:** عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «قَالَتْ قُرَيْشٌ لِلْيَهُودِ: أَعْطُونَا شَيْئًا نَسْأَلُ عَنْهُ هَذَا الرَّجُلَ، فَقَالُوا: سَلُّوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَسَأَلُوهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ فَلِ الرُّوحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّي قَلِيلًا...﴾^(٤) الآية.

التفسير: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ أي لقد شرفنا ذرية آدم على جميع المخلوقات بالعقل،

(١) (ش): القطمير: القشرة الرقيقة على النواة كاللغافة لها، القشرة الرقيقة بين النواة والتمرة. والتقيير: حفرة مستديرة في ظهر نواة البلح. والفتيل: خيط في شق النواة أو قشرة في بطنها.

(٢) (ش): أَفَلُ النُّجْمِ: غَابَ وَاسْتَرَفَهُوَ أَفَلٌ.

(٣) (تفسير القرطبي) ٣٠٨/١٠. (ش): طَرَقَ الْقَوْمُ: أَتَاهُمْ لَيْلًا. وَالرَّفَاقُ هُجُودٌ: يَعْنِي: نِيَامًا. وَالْعَلَّةُ: الشَّرْبَةُ الثَّانِيَّةُ، أَوِ الشَّرْبُ بَعْدَ الشَّرْبِ تَبَاعًا. وَالْعَلَّةُ: التَّعَلَّةُ: مَا يُتَعَلَّلُ بِهِ. وَتَعَلَّةُ الصَّبِيِّ أَي مَا يُعَلَّلُ بِهِ لَيْسَكَتَ. يُقَالُ: عَلَّلَ فُلَانًا بِطَعَامٍ أَوْ غَيْرِهِ: شَغَلَهُ بِهِ وَلَهَاهُ. وَالنَّوَالِ: مَا يَعْطِيهِ الْحَبِيبُ حَبِيبَهُ مِنْ ثَمَرَةِ الْحَبِّ.

(٤) «أسباب النزول» للواحدي ١٦٨. (ش): صحيح، رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني.

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرْثٍ بِالْمَدِينَةِ، وَهُوَ يَتَوَكَّأُ عَلَى عَصِيبٍ، فَمَرَّ بِنَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ سَلُّوهُ عَنِ الرُّوحِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا تَسْأَلُوهُ لَا يُسْمِعُكُمْ مَا تَكْرَهُونَ. فَقَامُوا إِلَيْهِ فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ حَدِّثْنَا عَنِ الرُّوحِ. فَقَامَ سَاعَةً يَنْظُرُ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُوحِي إِلَيْهِ، فَتَأَخَّرْتُ عَنْهُ حَتَّى صَعِدَ الْوُحْيُ، ثُمَّ قَالَ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ فَلِ الرُّوحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾. [رواه البخاري]. (العصيب): العصا من جريد النخل.

والعلم، والنطق، وتسخير جميع ما في الكون لهم ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَيْبِ وَالْبَحْرِ﴾ أي وحملناهم على ظهور الدواب والسفن ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي من لذيذ المطاعم والمشارب قال مقاتل: السمن والعسل والزبد والتمر والحلوى وجعلنا رزق الحيوان التبن والعظام وغيرها ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أي وفضلناهم على جميع من خلقنا من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات من الجن والبهايم والدواب والوحش والطير وغير ذلك ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ﴾ أي اذكر يوم الحشر حين ننادي كل إنسان بكتاب عمله ليسلم له وينال جزاءه، والإمام الكتاب الذي سجل فيه عمل الإنسان ويقويه ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢] قال ابن عباس: الإمام ما عمل وأُملِي فكتب عليه، فمن بُعث متقياً لله جعل كتابه يمينه فقرأه واستبشر^(١) ﴿فَمَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ يَمِينِهِ﴾ أي فمن أعطي كتاب عمله يمينه وهم السعداء أولو البصائر والنهي المتقون لله ﴿فَأُولَٰئِكَ يَرْجَوْنَ كِتَابَهُمْ﴾ أي يقرءون حسناتهم بفرح واستبشار لأنهم أخذوا كتبهم بأيمانهم ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي ولا يُنقصون من أجور أعمالهم شيئاً ولو كان بمقدار الفيتيل وهو الخيط الذي في شق النواة ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ أي ومن كان في هذه الدنيا أعمى القلب، لا يهتدي إلى الحق ولا إلى الخير ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي فهو في الآخرة أشدَّ عمى وأشدُّ ضلالاً^(٢) عن طريق السعادة والنجاة قال قتادة: من كان في هذه الدنيا أعمى عمّا عاين من نعم الله وخلقه وعجائبه، فهو فيما يغيب عنه من أمر الآخرة أشدَّ عمى وأضلُّ طريقاً ﴿وَلَن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي وإن كان الحال والشأن أن المشركين قاربوا أن يصرفوك عن الذي أوحينا إليك يا محمد من بعض الأوامر والنواهي ﴿لَنفْتَرِي عَلَيْكَ غَيْرَهُ﴾ أي لتأتي بغير ما أوحاه إليك وتخالف تعاليمه ﴿وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا﴾ أي لو فعلت ما أرادوا لاتخذوك صاحباً وصديقاً قال المفسرون: حاول المشركون محاولات كثيرة ليشنوا رسول الله ﷺ عن المضي في دعوته منها: مساومتهم له أن يعبدوا إلهه مقابل أن يترك التنديد بآلهتهم وما كان عليه آباؤهم، ومنها مساومة بعضهم أن يجعل أَرْضهم حراماً كالبيت العتيق الذي حرّمه الله، ومنها طلب بعض الكبراء أن يجعل لهم مجلساً غير مجلس الفقراء، فعصمه الله من شرهم وأخبر

(١) «تفسير الطبري» ١٥/١٢٦، وهذا ما رجحه ابن كثير. وقيل: إمام هدى أو إمام ضلالة. وقيل: نبهم.

(٢) هذا كله من عمى القلب. وقيل: المراد أنه يحشر يوم القيامة أعمى البصر لقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا...﴾ الآية.

أَنَّهُ لَا يَكِلُهُ إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ^(١) بَلْ هُوَ وَلِيُّهُ وَحَافِظُهُ وَنَاصِرُهُ ^(٢) ﴿وَلَوْلَا أَن تَبْتَئَكَ﴾ أي لولا أن تبتناك على الحق بعصمتنا إياك ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ أي كدت تميل إليهم وتسايروهم على ما طلبوا ﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ أي لو ركنت إليهم لضاعفنا لك عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، لأن الذنب من العظيم جرمٌ كبير يستحق مضاعفة العذاب، والغرض من الآية بيان فضل الله على الرسول في تثبيته على الحق، وعصمته من الفتنة، ولو تخلى عن عصمته لمال إليهم بعض الشيء ﴿وَلَوْلَا﴾ حرف امتناع لوجود، أي: امتنع الركون إليهم لعصمته تعالى وتثبيته له، فليس في الآية ما يقتص من قدر الرسول ﷺ وإنما هي بيان لفضل الله العظيم على نبيه الكريم ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا﴾ أي لا تجد من ينصرك منا أو يدفع عنك عذابنا وإن كادوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ أي وإن كاد المشركون بمكرهم وإزعاجهم أن يخرجوك يا محمد من أرض مكة ﴿وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لو أخرجوك لم يلبثوا بعد خروجك إلا زمنًا يسيرًا وفق سنة الله التي لا تبدل مع الذين يُخْرِجُونَ رُسُلَهُمْ مِنْ أَوْطَانِهِمْ قَالَ قَتَادَةُ: هُمْ أَهْلُ مَكَّةَ بِإِخْرَاجِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ مَكَّةَ وَلَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ مَا أَهْلَوْا وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَنَعَهُمْ مِنْ إِخْرَاجِهِ حَتَّى أَمَرَهُ بِالْخُرُوجِ ^(٣) ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ أي هذه عادة الله مع رسله في إهلاك كل أمة أخرجت رسولها من بين أظهرهم ﴿وَلَا يَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أي لن تجد لها تبديلًا أو تغييرًا ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ أي حافظ يا محمد على الصلاة في أوقاتها من وقت زوال الشمس عند الظهيرة إلى وقت ظلمة الليل ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ﴾ أي وأقم صلاة الفجر، وإنما عبر عنها بقرآن الفجر لأنه تطلب إطالة القراءة فيها ﴿إِنْ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَأَنَّكَ مُشْهُودٌ﴾ أي تشهده ملائكة الليل والنهار كما في الحديث «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةُ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْعَصْرِ وَصَلَاةِ الْفَجْرِ...» الحديث ^(٤)، قال المفسرون: في الآية الكريمة إشارة إلى الصلوات المفروضة، فذلوك الشمس زوالها وهو إشارة إلى الظهر والعصر، وغسق الليل ظلمته وهو إشارة إلى المغرب والعشاء، وقرآن الفجر صلاة الفجر، فالآية رمزٌ إلى الصلوات الخمس ^(٥) ﴿وَمَنْ أَلِيلٍ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ أي وقم من الليل

(١) (ش): وكل إليه الأمر: سلمه وفوضه إليه واعتمد عليه فيه.

(٢) قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ معصومًا، ولكن هذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين في شيء من أحكام الله تعالى وشرائعه. «تفسير القرطبي» ١٠/ ٣٠٠.

(٣) «التفسير الكبير» للرازي ٢١/ ٢٣.

(٤) (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٥) قال «القرطبي»: وهذه الآية إشارة إلى الصلوات المفروضة بإجماع من المفسرين.

بعد النوم متهجداً بالقرآن فضيلةً وتطوعاً لك ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ أي لعل ربك يا محمد يقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً يحمذك فيه الأولون والآخرون وهو مقام «الشفاعة العظمى» قال المفسرون: ﴿عَسَىٰ﴾ في كلام الله للتحقيق لأنه وَعَدَ كريم وهو لا يتخلف ولهذا قال ابن عباس: «عسى» من الله واجبة أي تفيد القطع ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ﴾ أي قل: يا رب ادخلني قبري مُدْخِل صدق أي إدخالاً حسناً ﴿وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾ أي أخرجني من قبري عند البعث إخراجاً حسناً هذا قول ابن عباس، وقال الحسن والضحاك: المراد دخوله المدينة المنورة، وخروجه من مكة المكرمة وذلك حين أخرجه المشركون بعد أن تأمروا على قتله صلوات الله وسلامه عليه^(١) ﴿وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ أي اجعل لي من عندك قوةً وَمَنْعَةً تنصّرني بها على أعدائك وتُعْزُزْ بها دينك، وقد استجاب الله دعاءه فنصره على الأعداء، وأعلى دينه على سائر الأديان ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ أي سطع نور الحق وضياؤه وهو الإسلام، وزهق الباطل وأنصاره وهو الكفر وعبادة الأصنام، فلا شرك ولا وثنية بعد إشراق نور الإيمان^(٢) ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ أي إن الباطل لا بقاء له ولا ثبوت لأنه يضمحل ويتلاشى، وإن كانت له صولةٌ وجولةٌ فسرعان ما تزول كشعلة الهشيم ترتفع عالياً ثم تخبو سريعاً، روي «أن النبي ﷺ لما دخل مكة عام الفتح كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً فجعل يطعنها بعودٍ في يده ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ فما بقي منها صنمٌ إلا خرّ لوجهه ثم أمر بها فكسرت»^(٣) ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ونزل من آيات القرآن العظيم ما يشفي القلوب من أمراض الجهل والضلال، ويذهب صداً النفس من الهوى والدنس، والشح والحسد، وما هو رحمة للمؤمنين بما فيه من الإيمان والحكمة والخير المبين ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي ولا يزيد هذا القرآن

(١) اختار هذا القول «الطبري» وهو المشهور، والمعنى الأول أظهر لأنه سبقه لفظ البعث والغرض الدعاء بالموت على الإيمان والبعث على الإيمان.

(٢) (ش): في هذا نظر لأن الشرك والوثنية لا يزال كل منهما موجوداً، فيكون المراد أن حُجَّة الحق ظهرت وبطلت حُجَّة الباطل وليس المراد عدم وجود الباطل.

(٣) «التفسير الكبير» للرازي ٢٣/٢١، وأصل الحديث أخرجه البخاري. (ش): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ وَحَوْلَ الْكَعْبَةِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ نَصْبًا فَجَعَلَ يَطْعُهَا بِعُودٍ كَانَ بِيَدِهِ وَيَقُولُ «جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا» «جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِي الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ» [رواه البخاري ومسلم]. وفي رواية لمسلم أن ذلك كان يَوْمَ الْفَتْحِ. وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «دَخَلْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مَكَّةَ فِي الْبَيْتِ وَحَوْلَ الْبَيْتِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ صَنْمًا تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ». قَالَ: فَأَمَرَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَكَبَّتْ كُلُّهَا لَوُجُوهَهَا، ثُمَّ قَالَ: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] [رواه ابن أبي شيبة في «المصنف»، وقال الحافظ ابن حجر: «إسناده حسن»].

الكافرين به عند سماعه إلا هلاكاً ودماراً لأنهم لا يُصدّقون به فيزدادون كفراً وضلالاً ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَجَّيْنَاهُ﴾ أي وإذا أنعمنا على الإنسان بأنواع النعم من صحة، وأمن، وغنى، أعرض عن طاعة الله وعبادته، وابتعد عن ربه غروراً وكِبَراً ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ أي وإذا أصابته الشدائد والمصائب أصبح يائساً قانطاً من رحمة الله، والآية تمثّل لطغيان الإنسان فإن أصابته النعم بطر وتكبر، وإن أصابته الشدة أيس وقنط كقوله ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جُرُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿[المعارج: ١٩ - ٢١]﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ﴾ أي كل واحد يعمل على نهجه وطريقته في الهدى والضلال، فإن كانت نفس الإنسان مشرقة صافية صدرت عنه أفعال كريمة فاضلة^(١)، وإن كانت نفسه فاجرة كافرة صدرت عنه أفعال سيئة شريرة ﴿فَرَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ أي ربكم أعلم بمن اهتدى إلى طريق الصواب وبمن ضلّ عنه وسيجزي كل عامل بعمله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي يسألك يا محمد الكفار عن الروح ما هي؟ وما حقيقتها؟ فقل لهم إنها من الأسرار الخفية التي لا يعلمها إلا ربّ البرية ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي وما أوتيتم أيها الناس من العلم إلا شيئاً قليلاً لأن علمكم قليل بالنظر إلى علم الله ﴿وَلَكِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي لو أردنا لمحوها هذا القرآن الذي هو منّة الرحمن من صدرك يا محمد فإن ذلك في قدرتنا ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عِلَيْنَا وَكِيلًا﴾ أي لا تجد من يتوكل علينا باسترداده، وردّه إليك بعد ذهابه ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ أي لكن رحمة من ربك تركناه محفوظاً في صدرك وصدر أصحابك ﴿وَأَن فَضَّلَهُ كَانَتْ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ أي فضل الله عليك عظيم حيث أنزل عليك القرآن، وأعطاك المقام المحمود، وجعلك خاتم المرسلين وسيد الأولين والآخرين، والمقصود بالآية الامتنان على الرسول بالقرآن والتحذير له عن التفريط فيه، والخطاب له عليه السلام والمراد أمته ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ أي لو اتفق واجتمع أرباب الفصاحة والبيان من الإنس والجان وأرادوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن لما أطاقوا ذلك ولو تعاونوا وتساعدوا على ذلك جميعاً

(١) (ش): الصواب أن يقال: فَمَنْ كُتِبَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ؛ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ كُتِبَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الَّذِي بَيَّنَّ سَبَبَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ، وَكَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ، وَإِشْرَاقِ النَّفْسِ سَبَبِهِ أَنَّهَا قَدْ كُتِبَتْ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ. عَنْ عَلِيٍّ عليه السلام قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله فِي جَنَازَةٍ فَأَخَذَ شَيْئًا فَجَعَلَ يَنْكُثُ بِهِ الْأَرْضَ فَقَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا تَنْكُلُ عَلَيَّ كِتَابِنَا وَتَدْعُ الْعَمَلَ قَالَ «اعْمَلُوا فَكُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُسِّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَيُسِّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ». ثُمَّ قَرَأَ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ ٥ وَصَدَقَ بِالْحَقِّ ٦ الْآيَةُ. رواه البخاري.

فإن هذا أمر لا يستطيع وليس بمقدور أحد ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي بينا لهم الحجج والبراهين القاطعة، ووضحنا لهم الحق بالآيات والعبر، والترغيب والترهيب ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي ومع البراهين القائمة والحجج الواضحة أبى أكثر الناس إلا جحوداً للحق وتكذيباً لله ورسوله.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

- ١ - الاستعارة ﴿كُلُّ أَنَاسٍ بِإِمْمِهِمْ﴾ الإمام الذي يتقدم الناس في الصلاة وقد استعير هنا لكتاب الأعمال لأنه يرافق الإنسان ويتقدمه يوم القيامة.
- ٢ - الاستعارة التمثيلية ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ يضرب مثلاً للقلّة، أي: لا ينقصون من ثواب أجورهما ولا بمقدار الخيط الذي في شق النواة.
- ٣ - الطباق ﴿ضِعْفَ الْحَيَوةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾.
- ٤ - المجاز المرسل ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ﴾ أطلق الجزء على الكل أي قراءة الفجر والمراد بها الصلاة لأن القراءة جزء منها فالعلاقة الجزئية.
- ٥ - الإظهار في مقام الإضمار لمزيد الاهتمام والعناية ﴿إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَتْ مَشْهُودًا﴾ بعد قوله ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ﴾.
- ٦ - التفصيل بعد الإجمال ﴿فَمَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ يَمِينِهِ... وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ بعد ذكر كتاب الأعمال.
- ٧ - المقابلة اللطيفة بين ﴿وَقُلُوبٍ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ وبين ﴿جَاءَ الْحَقُّ﴾ ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾.
- ٨ - إسناد الخير إلى الله والشر لغيره ﴿أَنعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ... وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ لتعليم الأدب مع الله تعالى.

لطيفة: ذكر أن عالماً ممن ينكر المجاز والاستعارة في القرآن الكريم جاء إلى شيخ فاضل عالم منكرأ عليه دعوى المجاز - وكان ذلك السائل المنكر أعمى - فقال له الشيخ ما تقول في قوله تعالى ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ هل المراد بالعمى الحقيقة وهو عمى البصر، أم المراد به المجاز وهو عمى البصيرة؟ فبُهِتَ السائل وانقطعت حجته^(١).

(١) (ش): العَمَى منه عَمَى البصر، ومنه عَمَى القلب، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾، وهذا العمى هو المراد في الآية، فليس العمى مقصوراً على عمى البصر حتى يصح الاحتجاج بتلك الحكاية.

قال الله تعالى:

وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَنْفَجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿١٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿١١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالَهُ اللَّهُ وَالْمَلَكُوتَ قَبِيلًا ﴿١٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْفٍ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّىٰ تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤه. قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٤﴾ قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿١٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ. وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عُمِيًّا وَبَكَمَا وَصَمًّا مَا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿١٧﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفَتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿١٨﴾ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿١٩﴾ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿٢٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَأَلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿٢١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنِ مَثْبُورًا ﴿٢٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمِن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿٢٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿٢٤﴾ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٢٥﴾ وَفَرَأَيْنَا فَطْنَةً لِّنُفَرِّقَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مَكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيرًا ﴿٢٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿٢٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُوتُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿٢٩﴾ قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿٣٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرًا تَكْبِيرًا ﴿٣١﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى القرآن وما فيه من الدلائل الواضحة والبراهين القاطعة على صدق النبي الأُمِّي، وتحداهم فظهر عجزهم بوضوح إعجازه، ذكر هنا نماذج عن تعنت الكفار وضلالهم باقتراح خوارق مادية غير القرآن العظيم، ثم ذكر قصة موسى وتكذيب فرعون له مع كثرة الخوارق والمعجزات التي ظهرت على يديه تسلياً لرسول الله ﷺ عن تكذيب المشركين، ثم ختم السورة الكريمة بدلائل القدرة والوحدانية.

اللغة: ﴿كِسْفًا﴾ قطعاً جمع كِسْفَةٍ كدمنة ودمن يقال: كسفت الثوب أكسفه كسفاً إذا

قَطَعْتُهُ قِطْعًا قَالَ الْفَرَاءُ: سَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ لِلْبَرَّازِ أَعْطِنِي كِسْفَةً يَرِيدُ قِطْعَةً^(١) ﴿قَبِيلًا﴾ مُعَايِنَةً ﴿تَرْقَى﴾ تَصْعَدُ ﴿خَبَتْ﴾ خَبَتِ النَّارُ: سَكَنَ لَهَبُهَا، وَخَمَدَتْ: سَكَنَ جَمْرُهَا، وَهَمَدَتْ: طَفِئَتْ جَمْلَةً^(٢) ﴿قَتُورًا﴾ بَخِيلًا ﴿مُثْبُورًا﴾ الثُّبُورُ: الْهَلَاكُ يُقَالُ: ثَبَرَ اللَّهُ الْعَدُوَّ أَهْلَكَهُ ﴿لَفِيفًا﴾ اللَّفِيفُ: الْجَمْعُ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ أَخْلَاطِ شَتَّى قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: اللَّفِيفُ مَا اجْتَمَعَ مِنَ النَّاسِ مِنْ قِبَائِلٍ شَتَّى يُقَالُ: جَاءَ الْقَوْمُ بَلْفَهُمْ وَلَفِيفَهُمْ ﴿مُكْثٌ﴾ الْمُكْثُ: التَّطَاوُلُ فِي الْمَدَّةِ يُقَالُ: مَكَّثَ إِذَا أَطَالَ الْإِقَامَةَ ﴿تُخَافَتُ﴾ خَافَتْ فِي الْكَلَامِ أَسْرَهُ بِحَيْثُ لَا يَكَادُ يَسْمَعُ أَحَدٌ ﴿لِلْأَذْقَانِ﴾ جَمْعُ ذَقْنٍ وَهُوَ مُجْتَمِعُ اللَّحْيَيْنِ^(٣).
قال الشاعر:

فَخَرُّوا لِأَذْقَانِ الْوُجُوهِ تَنْوُشُهُمْ سِبَاعٌ مِنَ الطَّيْرِ الْعَوَادِي وَتَنْتِفُ^(٤)

سَبَبُ النَّزُولِ: أ - عن ابن عباس «أن رؤساء قريش اجتمعوا عند الكعبة فقالوا: ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تَعُذُّرُوا فِيهِ، فَبِعَثُوا إِلَيْهِ أَنْ أَشْرَافَ قَوْمِكَ قَدْ اجْتَمَعُوا لِيَكْلَمُوكَ فَجَاءَهُمْ سَرِيعًا - وَكَانَ حَرِيصًا عَلَى رُشْدِهِمْ - فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّا وَاللَّهِ لَا نَعْلَمُ رَجُلًا مِنَ الْعَرَبِ أَدْخَلَ عَلَى قَوْمِهِ مَا أَدْخَلْتَ عَلَى قَوْمِكَ، لَقَدْ شَتَمْتَ الْآبَاءَ، وَعَبَتِ الدِّينَ، وَسَفَهْتَ الْأَحْلَامَ، وَفَرَّقْتَ الْجَمَاعَةَ، فَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا جِئْتَ بِهَذَا لِنَتَلَبَّ مَا لَا جَعْلَ لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا تَكُونُ بِهِ أَكْثَرْنَا مَا لَا، وَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا تَطْلُبُ الشَّرَفَ فِينَا سَوَدْنَاكَ عَلَيْنَا، وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيكَ رَئِيًّا - أَيْ تَابِعًا مِنَ الْجَنِّ - بِذِلِّ أَمْوَالِنَا فِي طَلَبِ الطَّبِّ حَتَّى نَبْرُثَكَ مِنْهُ أَوْ نُعَذِّرَ فَيْكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا بِي مَا تَقُولُونَ، مَا جِئْتُمْكُمْ أَطْلُبُ أَمْوَالَكُمْ وَلَا الشَّرَفَ فِيكُمْ وَلَا الْمُلْكَ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ رَسُولًا فَإِنْ تَقَبَّلُوا مِنِّي مَا جِئْتُمْكُمْ بِهِ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ تَرَدَّوْهُ عَلَيَّ أَصْبِرُ لِأَمْرِ اللَّهِ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، فَقَالُوا يَا مُحَمَّدُ إِنْ كُنْتَ غَيْرَ قَابِلٍ مِنَّا مَا عَرْضْنَا فَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَضْيَقُ بِلَادًا، وَلَا أَشَدُّ عِيشًا مِنَّا، فَسَلِّ رَبُّكَ يُسَيِّرُ لَنَا هَذِهِ الْجِبَالَ، وَيَجْرِي لَنَا أَنْهَارًا، وَيَبْعَثُ مِنْ مَضَى مِنْ آبَائِنَا حَتَّى نَسْأَلَهُمْ أَحَقَّ مَا تَقُولُ؟ وَسَلِّهِ أَنْ يَجْعَلَ لَكَ جَنَانًا وَكُنُوزًا وَقُصُورًا مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ تَغْنِيكَ عَنَّا فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا...﴾^(٥) الْآيَةُ.

(١) «التفسير الكبير» للرازي ٥٦/٢١. (ش): البرّاز: بائع الثياب والأقمشة.

(٢) «البحر المحيط» ٦٨/٦.

(٣) (ش): كُحِي: مَنِبْتُ اللَّحْيَةِ مِنَ الْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ، وَهَمَا: كُحْيَان.

(٤) (ش): نَاشَ الشَّيْءُ: تَنَاوَلَهُ وَأَخَذَهُ. عَدَا الشَّخْصُ: اعْتَدَى، تَجَاوَزَ، فَهُوَ عَادٍ. نَفَّ الشَّعْرَ وَنَحَوَهُ: نَزَعَهُ وَاسْتَخْرَجَهُ.

(٥) «زاد المسير» ٨٥/٥. (ش): ضَعِيفٌ، رَوَاهُ ابْنُ جُرَيْرٍ «الطبري» فِي «تفسيره» بِإِسْنَادٍ ضَعِيفٍ، وَالْوَاهِدِيُّ فِي «أسباب النزول» بِدُونِ إِسْنَادٍ.

ب- عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ مختفياً بمكة، وكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن، ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله عز وجل لنبيه: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافَتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾^(١).

التفسير: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ لما تبين إعجاز القرآن ولزمتهم الحجة وغلبوا أخذوا يتعلّلون باقتراح الآيات والخوارق. والمعنى قال المشركون: لن نصدقك يا محمد حتى تشقق لنا من أرض مكة عيناً غزيرة ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ أي يكون لك بستان فيه أنواع النخيل والأعناب ﴿فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي تجعل الأنهار تنفجر فيها وتسير وسطها بقوة وغزارة ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ هذا هو الاقتراح الثالث أي تجعل السماء تتساقط علينا قطعاً كما كنت تخوفنا وتزعم أن الله سيعذبنا إن لم نؤمن بك قال المفسرون: أشاروا إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُخَسِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [سبأ: ٩] ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ أي تحضر لنا الله وملائكته مقابلةً وعياناً فتراهم ﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ ذُرْئِیِّیْهِ أَوْ يَكُونَ لَكَ قَصْرٌ مِّثْلَ مَا تُرِیُّ﴾ أي يكون لك قصرٌ مشيدٌ عظيم من ذهب لا من حجر أو طين ﴿أَوْ تَرْفَعُ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَفْعِكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِنَبًا نَقْرُؤُهُ﴾ هذا هو الاقتراح السادس والأخير، وكلها تدل على سفه وجهل كبير، بسنة الله في خلقه وبحكمته وجلاله أي أو تصعد يا محمد إلى السماء بسلم ولن نصدقك لمجرد صعودك حتى تعود ومعك كتاب من الله تعالى منشور أنك عبده ورسوله نقرؤه بأنفسنا ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ أي قل لهم يا محمد تعجباً من فرط كفرهم وعنادهم: سبحان الله هل أنا إله حتى تطلبوا مني أمثال هذه المقترحات؟ ما أنا إلا رسولٌ من البشر بعثني الله إليكم فلم هذا الجحود والعناد؟! ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ أي إن السبب الذي منع المشركين من الإيمان بعد وضوح المعجزات هو استبعاد أن يبعث الله رسولاً إلى الخلق من البشر، فلماذا يكون بشراً ولا يكون ملكاً؟ وقد ردّ تعالى عليهم بقوله ﴿قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ أي قل لهم يا محمد: لو كان أهل الأرض ملائكة يمشون على أقدامهم كما يمشي الناس ساكنين في الأرض مستقرين فيها ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ أي لنزلنا عليهم رسولاً من الملائكة ولكن أهل الأرض بشرٌ فالرسول إليهم بشرٌ من جنسهم، إذ جرت حكمة الله أن يرسل إلى كل قوم رسولاً من جنسهم ليمكنهم الفهم عنه ومخاطبته، وهذا تسفيهٌ وتجهيل لمنطق المشركين ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي

(١) «أسباب النزول» ١٧٠. (ش): رواه البخاري ومسلم.

كفى الله شاهداً على صدقي ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أي هو تعالى العالم بأحوال العباد وسيجازيهم عليها ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ أي من يهده الله إلى الحق فهو السعيد الرشيد ﴿وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي ومن يضلله الله عن الحق بسبب سوء اختياره فلن تجد لهم أنصاراً يعصمونهم من عذاب الله ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أي يُسحبون يوم القيامة على وجوههم تجرهم الزبانية من أرجلهم إلى جهنم كما يفعل في الدنيا بمن يُبالغ في هوانه وتعذيبه ﴿عُمِيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ أي يُحشرون حال كونهم عمياً وبكماً وصمماً يعني فاقد الحواس لا يرون ولا ينطقون ولا يسمعون ثم يردُّ الله إليهم أسماعهم وأبصارهم ونطقهم فيرون النار ويسمعون زفيرها وينطقون بما حكى الله عنهم، عن أنس «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ؟ قَالَ: «إِنَّ الَّذِي أَمْسَاهُمْ عَلَىٰ أَرْجُلِهِمْ، قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُمَشِّيَهُمْ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ»^(١) ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ أي مستقرهم ومقامهم في جهنم كلما سكن لهبها وخمدت نارها زدناهم ناراً ملتهبة ووهجاً وجمراً^(٢) ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتًا أَعْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي ذلك العذاب جزاء كفرهم بآيات الله وتكذيبهم بالبعث والنشور وقولهم: أإذا أصبحنا عظاماً نخرة، وذرات متفتتة سنخلق ونبعث مرة ثانية؟ وقد ردَّ تعالى عليهم بقوله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي أولم يرهؤلاء المشركون أن الله العظيم الجليل الذي خلق هذا الكون الهائل بسماواته وأرضه قادرٌ على إعادة جسد الإنسان بعد فناءه؟ فإن القادر على الإحياء قادر على إعادة بطريق الأخرى قال في البحر: نبههم تعالى على عظيم قدرته وباهر حكمته بقوله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ وهو استفهام إنكارٍ وتوبيخ على استبعادهم الإعادة، واحتجاج عليهم بأنهم قد رآوا قدرة الله على خلق هذه الأجرام العظيمة التي بعض ما تحويه البشر، فكيف يقرون بخلق هذا المخلوق العظيم ثم ينكرون إعادته^(٣) ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي جعل لهؤلاء المشركين موعداً محدداً لموتهم وبعثهم، لا شك ولا ريب في مجيئه ﴿فَأَنَّى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي أبى هؤلاء الكافرون الظالمون - مع وضوح الحق وسطوعه - إلا جحوداً وتمادياً في الكفر والضلال ﴿قُلْ لَّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ أي: قل يا

(١) أخرجه الشيخان. (ش): عن أنس بن مالك رضي الله عنه قَالَ: إِنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَىٰ وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «أَلَيْسَ الَّذِي أَمْسَاهُ عَلَى الرَّجُلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَىٰ أَنْ يُمَشِّيَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ]. وما ذكره المؤلف هو رواية الإمام أحمد في «المُسْنَد» بإسناد صحيح.

(٢) قال في «التسهيل»: المراد كلما أكلت لحومهم فسكن لهبها بُدِّلوا أجساداً آخر، ثم صارت ملتهبة أكثر مما كانت.

(٣) «الكشاف» ٢/ ٦٩٦.

محمد لهؤلاء المعاندين المكابرين، المقترحين للخوارق والمعجزات: لو كنتم تملكون خزائن رزق الله ونعمه التي أفاضها على العباد ﴿إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ أي إذا لبخلتم به وامتنعتم عن الإنفاق خوفاً من نفادها ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ أي وكان الإنسان شحيحاً مبالغاً في البخل قال ابن عباس ﴿قَتُورًا﴾ أي بخيلاً منوعاً وقال الزمخشري: ولقد بلغ هذا الوصف بالشح الغاية التي لا يبلغها الوهم^(١). ثم ذكر تعالى أن كثرة الخوارق لا تنشئ الإيمان في القلوب الجاحدة، وها هو ذا موسى قد أُوتِيَ تسع آيات بينات ثم كَذَّبَ بها فرعون وملؤه فحلَّ بهم الهلاك جميعاً ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي والله لقد أعطينا موسى تسع آيات واضحة الدلالة على نبوته وصحة ما جاء به من عند الله وهي «العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وانفلاق البحر، والسنين» خمس منها في سورة الأعراف ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَ آيَاتٍ مُفْصَلَاتٍ﴾ [الأعراف: ١٣٣] ﴿فَسَلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ أي فاسأل يا محمد بني إسرائيل عما جرى بين موسى وفرعون فإنهم يعلمونها مما لديهم في التوراة قال «الرازي»: وليس المطلوب من سؤال بني إسرائيل أن يستفيد هذا العلم منهم بل المقصود أن يظهر لعامة اليهود وعلمائهم صدق ما ذكره الرسول فيكون هذا السؤال سؤال استشهاد^(٢) ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا﴾ أي إني لأظنك يا موسى قد سُحِرْتَ فتخبَّط عقلك ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ﴾ أي قال له موسى توبيخاً وتبكيّاً: لقد تيقنت يا فرعون أن هذه الآيات التسع ما أنزلها إلا رب السماوات والأرض شاهدة على صدقي، تبصّر الناس بقدره الله وعظمته ولكنك مكابرٌ معاند ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ أي وإني لأعتقدك يا فرعون هالكا خاسراً ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفْزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي أراد فرعون أن يخرج موسى وقومه من أرض مصر ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ أي فأغرقنا فرعون وجند: أجمعين في البحر ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ أي وقلنا لبني إسرائيل من بعد إغراق فرعون وجنده اسكنوا أرض مصر ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي فإذا جاء يوم القيامة جئنا بكم من قبوركم إلى المحشر مختلطين فيكم المؤمن والكافر، والبر والفاجر، ثم نفصل بينكم ونميز السعداء من الأشقياء، ثم عاد إلى تعظيم حال القرآن وجلالة قدره فقال ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي وأنزلنا هذا القرآن متلبساً بالحق، لا يعتريه شك أو ريب، فيه الحكيم والمواعظ والأمثال التي اشتمل عليها القرآن وهكذا أنزل من عند الله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾

(١) «التفسير الكبير» ٢١/ ٦٥.

(٢) «البحر المحيط» ٦/ ٨٢.

أي وما أرسلناك يا محمد إلا مبشراً بالجنة لمن أطاع، ومنذراً بالنار لمن عصى ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ أي وقرأنا نزلناه مفرقاً منجماً لتقرأه على الناس على تودة ومهل، ليكون حفظه أسهل، والوقوف على دقائقه أيسر ﴿وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلاً﴾ أي نزلناه شيئاً بعد شيء على حسب الأحوال والمصالح ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ ءَوْلاً تَتُؤْمِنُوا﴾ خطاب للمشركون الذين اقترحوا المعجزات على وجه التهديد والوعيد، أي: آمنوا بهذا القرآن أو لا تؤمنوا فإن إيمانكم به لا يزيده كمالاً، وتكذيبكم له لا يورثه نقصاً ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْآذْقَانِ سُجَّدًا﴾ أي العلماء الذين قرءوا الكتب السالفة من صالح أهل الكتاب إذا سمعوا القرآن تأثروا وفخروا ساجدين لله رب العالمين، والجملة تعليل لما تقدم. والمعنى: إن لم تؤمنوا به أنتم فقد آمن به من هو خير منكم وأعلم ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ أي يقولون: تنزه الله عن إخلاف وعده إنه كان وعده كائناً لا محالة ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْآذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ أي ويخرون لناحية الأذقان ساجدين على وجوههم باكين عند استماع القرآن ويزيدهم تواضعاً لله قال «الرازي»: والفائدة في هذا التكرير اختلاف الحالين وهو خرورهم للسجود وفي حال كونهم باكين عند استماع القرآن^(١) ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ أي نادوا ربكم الجليل باسم ﴿اللَّهُ﴾ أو باسم ﴿الرَّحْمَنَ﴾ ﴿أَيُّمَا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي بأي هذين الاسمين ناديتموه فهو حسن لأن أسماء جميعها حسنى وهذان منها. قال المفسرون: سببها أن الكفار سمعوا النبي ﷺ يدعو (يا الله، يا رحمن) فقالوا: إن كان محمد ليأمرنا بدعاء إله واحد وها هو يدعو إلهين فنزلت الآية مبينة أنهما لمسمى واحد^(٢) ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافَتْ بِهَا﴾ أي لا تجهر يا محمد بقراءةك في الصلاة فيسمعك المشركون فيسبوا القرآن ومن أنزله ولا تسرَّ بقراءةك بحيث لا تسمع من خلفك ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أي اقصد طريقاً وسطاً بين الجهر والمخافة قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يرفع صوته بالقراءة فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله فنزلت^(٣) ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذُ وَلَدًا﴾ أي الحمد لله الذي تنزه عن الولد ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ أي ليس له شريك في ألوهيته ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ أي ليس بذليل فيحتاج إلى الولي والنصير ﴿وَكَبِيرَةٌ تَكْبِيرًا﴾ أي عظم ربك عظمة تامة بلا ولد ولا شريك، وتنزيهه عن الحاجة إلى الولي والنصير، وهو العلي الكبير.

(١) «التفسير الكبير» ٦٩ / ٢١.

(٢) (ش): ضعيف، رواه ابن جرير «الطبري» في «تفسيره» بإسناد ضعيف، والواحيدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.

(٣) «التفسير الكبير» ٧٠ / ٢١. (ش): رواه البخاري ومسلم.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبدیع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الاستفهام الإنكاري ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بُشْرًا رَسُولًا﴾ ؟
- ٢ - الالتفات من الغيبة إلى التكلم ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ اهتماماً بأمر الحشر.
- ٣ - الطباق بين ﴿وَمَنْ يَهْدِ.. وَمَنْ يُضِلِّ﴾ وبين ﴿مُبَشِّرًا.. وَنَذِيرًا﴾ وبين ﴿تَجَهَّرَ.. تُخَافُ﴾.
- ٤ - الجناس الناقص بين ﴿مَسْحُورًا﴾ و﴿مُتَّبِعًا﴾ لتغير بعض الحروف.
- ٥ - المقابلة اللطيفة ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَنْفِرَعَوْتُ مُتَّبِعًا﴾ مقابل قوله فرعون ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا﴾.
- ٦ - السجع الرصين الذي يزيد في جمال الأسلوب مثل ﴿فَنُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا.. مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ومثل ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا.. وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَنْفِرَعَوْتُ مُتَّبِعًا﴾.

«انتهى تفسير سورة الإسراء»





مكية وآياتها عشر ومائة

بين يدي السورة

سورة الكهف من السور المكية، وهي إحدى سور خمس بُدئت بـ «الحمد لله» وهذه السور هي «الفاتحة، الأنعام، الكهف، سبأ، فاطر» وكلها تبتدئ بتمجيد الله جلّ وعلا وتقديسه، والاعتراف له بالعظمة والكبرياء، والجلال والكمال.

* تعرضت السورة الكريمة لثلاث قصص من روائع قصص القرآن، في سبيل تقرير أهدافها الأساسية لتثبيت العقيدة، والإيمان بعظمة ذي الجلال. أما الأولى فهي قصة «أصحاب الكهف» وهي قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة، وهم الفتية المؤمنون الذين خرجوا من بلادهم فرارًا بدينهم، ولجئوا إلى غارٍ في الجبل، ثم مكثوا فيه نيامًا ثلاثمائة وتسع سنين، ثم بعثهم الله بعد تلك المدة الطويلة.

* والقصة الثانية: قصة موسى مع الخضر، وهي قصة التواضع في سبيل طلب العلم، وما جرى من الأخبار الغيبية التي أطلع الله عليها ذلك العبد الصالح «الخضر» ولم يعرفها موسى عليه السلام حتى أعلمه بها الخضر كقصة السفينة، وحادثة قتل الغلام، وبناء الجدار.

* والقصة الثالثة: قصة «ذي القرنين» وهو ملك مكن الله تعالى له بالتقوى والعدل أن يسطر سلطانه على المعمورة، وأن يملك مشارق الأرض ومغاربها، وما كان من أمره في بناء السد العظيم.

* وكما استخدمت السورة - في سبيل هدفها - هذه القصص الثلاث، استخدمت أمثلة واقعية ثلاثة، لبيان أن الحق لا يرتبط بكثرة المال والسلطان، وإنما هو مرتبط بالعقيدة، المثل الأول: للغني المزهو بماله، والفقير المعتز بعقيدته وإيمانه، في قصة أصحاب الجنتين. والثاني: للحياة الدنيا وما يلحقها من فناء وزوال، والثالث: مثل التكبر والغرور مصورًا في حادثة امتناع إبليس عن السجود لآدم، وما ناله من الطرد والحرمان، وكل هذه القصص والأمثال بقصد العظة والاعتبار.

التسمية: سميت «سورة الكهف» لما فيها من المعجزة الربانية، في تلك القصة العجيبة الغريبة قصة أصحاب الكهف.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۝ (١) قِيمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ (٢) مَكَثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝ (٣) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝ (٤) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِابَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝ (٥) فَلِعَلَّكَ بِخُجُوعِ نَفْسِكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنَّ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِدَا الْحَدِيثِ آسَفًا ۝ (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝ (٨) أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝ (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آئِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝ (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝ (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۝ (١٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۝ (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ۝ (١٤) هَتُولَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝ (١٥) وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ۝ (١٦) وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرُورٌ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرُّصُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مِنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ۝ (١٧) وَخَسَفْنَا أَيْكَانًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلْتُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ۝ (١٨) وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لِبَثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝ (١٩) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ۝ (٢٠) وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ثَبِّتْنَا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ۝ (٢١) سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرًّا ظَهَرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۝ (٢٢) وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لَا اقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۝ (٢٤) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ۝ (٢٥) قُلْ

اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيُثَوِّلَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٦٦﴾

اللغة: ﴿بَنَجِعْ﴾ قاتل ومهلك قال الليث: بخر الرجل نفسه إذا قتلها غيظاً وأصل البخر الجهد كما قال الفراء ﴿جُرُزًا﴾ الجُرُز: الأرض التي لا نبات عليها ﴿الْكُهْفِ﴾ النقب المتسع في الجبل، وإذا لم يكن متسعاً فهو غار ﴿وَالرَّقِيمِ﴾ اللوح الذي كتبت فيه أسماء أصحاب الكهف ﴿شَطَطًا﴾ الشطط: الجور والغلو وتعدي الحد. قال الفراء: اشتط في الأمر جاوز الحد، وشط المنزل بعد ﴿تَزَوُّرٌ﴾ تتنحى وتميل من الزورار بمعنى الميل قال عنتره «فَارَوْرَ مِنْ وَقَعَ الْقَنَا بِلَبَانِهِ» ^(١) ﴿بِالْوَصِيدِ﴾ الفناء أي فناء الكهف ﴿فَجَوْقٍ﴾ متسع من المكان ﴿بِوَرَقِكُمْ﴾ الورق: اسم للفضة سواء كانت مضروبة أم لا ﴿أَعَزَّنَا﴾ أطلعنا ﴿تُمَارٍ﴾ تجادل والمرء: المجادلة.

التفسير: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ أي الشاء الكامل مع التعظيم والإجلال لله الذي أنزل على رسوله محمد القرآن نعمةً عليه وعلى سائر الخلق ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ أي لم يجعل فيه شيئاً من العوج لا في ألفاظه ولا في معانيه، وليس فيه أي عيب أو تناقض ﴿فَتَمًّا﴾ أي مستقيماً لا اختلاف فيه ولا تناقض قال «الطبري»: هذا من المُقَدَّم والمؤخر أي أنزل الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً يعني مستقيماً لا اختلاف فيه ولا تفاوت، ولا اعوجاج ولا ميل عن الحق ^(٢) ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ﴾ أي لينذر بهذا القرآن الكافرين عذاباً شديداً من عنده تعالى ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي ويبشر المصدقين بالقرآن ^(٣) الذين يعملون الأعمال الصالحة ﴿أَنْ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أي أن لهم الجنة وما فيها من النعيم المقيم ﴿مُكَثِّبِينَ فِيهِ أُنْدًا﴾ أي مقيمين في ذلك النعيم الذي لا انتهاء له ولا انقضاء ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ أي ويخوف أولئك الكافرين الذين نسبوا لله الولد عذابه الأليم قال «البيضاوي»: خصَّهم بالذكر وكرَّر الإنذار استعظاماً لكفرهم، وإنما لم يذكر المُنْذِر به استغناءً بتقدم ذكره ^(٤) ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي ما لهم بذلك الافتراء الشنيع شيء من العلم أصلاً ﴿وَلَا لِأَبَائِهِمْ﴾ أي ولا لأسلافهم الذين

(١) (ش): (الْقَنَا) الرِّمَاح. القَنَا: رُمُحٌ أَجَوْفٌ. اللَّبَان: الصَّدْر. أي: فمال فرسي بسبب ما أصابت رماح الأعداء صدره ووقوعها به.

(٢) «تفسير الطبري» ١٥ / ١٩٠.

(٣) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح.

(٤) «البيضاوي» ٢ / ٢. (ش): وهو البأس الشديد في قوله تعالى: ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ﴾.

قَلَّدُوهُمْ فَتَاهُوا جَمِيعًا فِي بَيْدَاءِ الْجَهَالَةِ وَالضَّلَالَةِ ^(١) ﴿كَثُرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾
 أي عَظُمَتْ تلك المقالة الشنيعة كلمة قبيحة ما أشنعها وأفطعها! خرجت من أفواه أولئك
 المجرمين، وهي في غاية الفساد والبطلان ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ أي يقولون إلا كذبًا
 وسفهاً وزوراً ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ عَاقِبَتِهِمْ﴾ أي فلعلك قاتل نفسك يا محمد
 ومهلكها غمًا وحزنًا على فراقهم وتوليهم وإعراضهم عن الإيمان ﴿إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا
 الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ أي إن لم يؤمنوا بهذا القرآن حسرة وأسفًا عليهم، فما يستحق هؤلاء أن
 تحزن وتأسف عليهم، والآية تسليّة للنبي عليه السلام ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً
 لَهَا﴾ أي جعلنا ما عليها من زخارف ورياش ^(٢) ومتاع وذهب وفضة وغيرها زينة للأرض
 كما زينا السماء بالكواكب ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي لنختبر الخلق أيهم أطوع لله
 وأحسن عملًا لآخرته ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ أي سنجعل ما عليها من الزينة
 والنعيم حطامًا وركامًا حتى تصبح كالأرض الجرداء التي لا نبات فيها ولا حياة بعد أن
 كانت خضراء بهجة ^(٣) قال «القرطبي»: الآية وردت لتسليّة النبي ﷺ والمعنى: لا تهتم يا
 محمد للدنيا وأهلها فإنما جعلنا ذلك امتحانًا واختبارًا لأهلها، فمنهم من يتدبر ويؤمن
 ومنهم من يكفر، ثم إن يوم القيامة بين أيديهم، فلا يعظمَنَّ عليك كُفْرُهُمْ فإنما سنجازيهم ^(٤)
 ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ ؟ بدءٌ قصة أصحاب
 الكهف، والكهف الغار المتسع من الجبل، والرقيم اللوح الذي كُتب فيه أسماء أصحاب
 الكهف على المشهور. والمعنى: لا تظنَّ يا محمد أن قصة أهل الكهف - على غرابتها
 - هي أعجبُ آيات الله، ففي صفحات هذا الكون من العجائب والغرائب ما يفوق قصة
 أصحاب الكهف قال مجاهد: أحسبت أنهم كانوا أعجب آياتنا؟ قد كان في آياتنا أعجب ^(٥)
 منهم ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ ^(٦) أي اذكر حين التجأ الشبان إلى الغار في الجبل

(١) (ش): بَيْدَاءُ: فلاة، صحراء.

(٢) (ش): رِيَّاشٌ: لباسٌ أو أثاثٌ فاخر.

(٣) (ش): نَهَجَ النَّبَاتُ: حَسُنَ وَنَضُرَ، فَهُوَ يَهِيحُ وَيَهْجُ.

(٤) «القرطبي» ١٠ / ٣٥٤.

(٥) «زاد المسير» ١٠٨ / ٥.

(٦) خلاصة قصة أصحاب الكهف كما ذكرها المفسرون أن ملكًا جبارًا يسمى دقيانوس ظهر على بلدة من بلاد الروم تدعى «طروس» بعد زمن عيسى عليه السلام، وكان يدعو الناس إلى عبادة الأصنام ويقتل كل مؤمن لا يستجيب لدعوته الضالة، حتى عظمت الفتنة على أهل الإيمان، فلما رأى الفتية ذلك حزنوا حزنًا شديدًا وبلغ خبرهم الملك الجبار فبعث في طلبهم فلما مثلوا عند الملك توعدهم بالقتل إن لم يعبدوا الأوثان ويذبحوا للطواغيت، فوقفوا في وجهه وأظهروا إيمانهم وقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ فقال لهم: إنكم فتيان حديثة أسنانكم وقد أخرتكم إلى الغد لتروا رأيكم فهربوا ليلاً ومروا براع معه كلب =

وجعلوه مأواهم ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي أعطنا من خزائن رحمتك الخاصة مغفرة ورزقاً ﴿وَهَيِّ لَنَا مِن أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي أصلح لنا أمرنا كله واجعلنا من الراشدين المهتدين ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ أي ألقينا عليهم النوم في الغار سنين عديدة ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ أي ثم أيقظناهم من بعد نومهم الطويل لنرى أي الفريقين أدق إحصاء للمدة التي ناموها في الكهف؟ قال في «التسهيل»: والمراد بالحزبين: أصحاب الكهف، والذين بعثهم الله إليهم حتى رأوهم^(١) وقال مجاهد: الحزبان من أصحاب الكهف لما استيقظوا اختلفوا في المدة التي لبثوها في الكهف فقال بعضهم: يوماً أو بعض يوم وقال آخرون: ربكم أعلم بما لبثتم^(٢)، والقول الأول مروي عن ابن عباس ﴿ثُمَّ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي نحن نقص عليك يا محمد خبرهم العجيب على وجه الصدق دون زيادة ولا نقصان ﴿وَأَنَّهُمْ فِتْنَةُ ءَامَنُوا رَبَّهُمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ أي إنهم جماعة من الشبان آمنوا بالله فثبتناهم على الدين وزدناهم يقيناً ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي قوينا عزمهم وألهمناهم الصبر حتى أصبحت قلوبهم ثابتة راسخة، مطمئنة إلى الحق معتزة بالإيمان ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي حين قاموا بين يدي الملك الكافر الجبار من غير مبالاة فقالوا: ربنا هو خالق السماوات والأرض لا ما تدعوننا إليه من عبادة الأوثان والأصنام ﴿لَن نَّدْعُوهُ مِن دُونِهِ إِلَهًا﴾ أي لن

= فتبعهم فلما كان الصباح أووا إلى الكهف وتبعهم الملك وجنده فلما وصلوا إلى الكهف هاب الرجال وفزعوا من الدخول عليهم فقال الملك: سدوا عليهم باب الغار حتى يموتوا فيه جوعاً وعطشاً، وألقى الله على أهل الكهف النوم فبقوا نائمين وهم لا يدرون ثلاثمائة وتسع سنين ثم أيقظهم الله وظنوا أنهم أقاموا يوماً أو بعض يوم، وشعروا بالجوع فبعثوا أحدهم ليشترى لهم طعاماً وطلبوا منه التخفي والحذر فسار حتى وصل البلدة فوجد معالمها قد تغيرت ولم يعرف أحداً من أهلها فقال في نفسه: لعلني أخطأت الطريق إلى البلدة ثم اشترى طعاماً ولما دفع النقود للبائع جعل يقلبها في يده ويقول: من أين حصلت على هذه النقود؟ اجتمع الناس وأخذوا ينظرون لتلك النقود ويعجبون، ثم قالوا من أنت يا فتى لعلك وجدت كنزاً؟ فقال: لا والله ما وجدت كنزاً إنها دراهم قومي، قالوا له إنها من عهد بعيد ومن زمن الملك دقيانوس، قال: وما فعل دقيانوس؟ قالوا: مات من قرون عديدة، قال والله ما يصدقني أحد بما أقوله: لقد كنا فتية وأكرهنا الملك على عبادة الأوثان فهربنا منه عشية أمس فأوينا إلى الكهف فأرسلني أصحابي اليوم لأشتري لهم طعاماً، فانطلقوا معي إلى الكهف أريكم أصحابي، فتعجبوا من كلامه ورفعوا أمره إلى الملك، وكان مؤمناً صالحاً، فلما سمع خبره خرج الملك والجند وأهل البلدة وحين وصلوا إلى الغار سمعوا الأصوات وجلبة الخيل فظنوا أنهم رسل دقيانوس فقاموا إلى الصلاة فدخل الملك عليهم فرأهم يصلون فلما انتهوا من صلاتهم عانقهم الملك وأخبرهم أنه رجل مؤمن وأن دقيانوس قد هلك من زمن بعيد وسمع كلامهم وقصتهم وعرف أن الله بعثهم ليكون أمرهم آية للناس ثم ألقى الله عليهم النوم وقبض أرواحهم فقال الناس: لننتخذن عليهم مسجداً.

(١) «التسهيل» ١٨٣/٢.

(٢) «حاشية الجبل على الجلالين» ٧/٣.

شرك معه غيره فهو واحد بلا شريك ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ أي لئن عبدنا غيره نكون قد تجاوزنا الحق، وحدنا عن الصواب^(١)، وأفردنا في الظلم والضلال ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ أي هؤلاء أهل بلدنا عبدوا الأصنام تقليداً من غير حجة ﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أي هلاً يأتون على عبادتهم لها ببرهان ظاهر، والغرض من التحضيض ﴿لَوْلَا﴾ التعجيز كأنهم قالوا: إنهم لا يستطيعون أن يأتوا بحجة ظاهرة على عبادتهم للأصنام فهم إذا كذبة على الله ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله بنسبة الشريك إليه تعالى ﴿وَإِذْ اعْتَرَزْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي وإذا اعترزتم أيها الفتية قومكم وما يعبدون من الأوثان غير الله تعالى ﴿فَأَوَّاهٌ إِلَى الْكَهْفِ﴾ أي التجئوا إلى الكهف ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي ييسر ربكم ويوسع عليكم رحمته ﴿وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَاقًا﴾ أي يسهل عليكم أسباب الرزق وما ترتفقون به^(٢) من غداء وعشاء في هذا الغار ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزْوُورُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ أي ترى أيها المخاطب الشمس إذا طلعت تميل عن كهفهم جهة اليمين ﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْ ذَاتِ الشِّمَالِ﴾ أي وإذا غربت تقطعهم وتبعد عنهم جهة الشمال والغرض أن الشمس لا تصيبهم عند طلوعها ولا عند غروبها كرامة لهم من الله لئلا تؤذيهم بحرهما ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ أي في متسع من الكهف وفي وسطه بحيث لا تصيبهم الشمس لا في ابتداء النهار، ولا في آخره ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي ذلك الصنيع من دلائل قدرة الله الباهرة قال ابن عباس: لو أن الشمس تطلع عليهم لأحرقتهم، ولو أنهم لا يقلّبون لأكلتهم الأرض^(٣) ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ أي من يوفقه الله للإيمان ويرشده إلى طريق السعادة فهو المهتدي حقاً ﴿وَمَنْ يَضِلْ فَلَنْ يُجَدِّدَهُ وَلَيَأْمُرْ بِشِدَا﴾ أي ومن يضلله الله بسوء عمله فلن تجد له من يهديه ﴿وَنَحْسَبُهُمْ آفِكاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ أي لو رأيتهم أيها الناظر لظننتهم أيقاظاً لفتح عيونهم وتقلبهم والحال أنهم نيام ﴿وَنَقْلِبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أي ونقلبهم من جانب إلى جانب لئلا تأكل الأرض أجسامهم ﴿وَكَلْبُهُمْ بِسِطِّ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ﴾ أي وكلبهم الذي تبعهم باسط يديه بفناء الكهف كأنه يحرسهم ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوُكِّيتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾ أي لو شاهدتهم وهم على تلك الحالة لفررت منهم هارباً رعباً منهم، وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة، فرويتهم تشير

(١) (ش): حاد عن الشيء / حاد من الشيء: مال وعدل وجنح عنه.

(٢) (ش): ارتفق بالشيء: انتفع واستعان به.

(٣) «تفسير الطبري» ١٥ / ٢١١.

الرعب إذ يراهم الناظر نياماً كالأيقاظ، يتقلبون ولا يستيقظون ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ أي كما أنمناهم كذلك بعثناهم من لنوم وأيقظناهم بعد تلك الرقدة الطويلة التي تشبه الموت ليسأل بعضهم بعضاً عن مدة مكثهم وإقامتهم في الغار ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أي قال أحدهم: كم مكثنا في هذا الكهف؟ فقالوا مكثنا فيه يوماً أو بعض يوم قال المفسرون: إنهم دخلوا في الكهف صباحاً وبعثهم الله في آخر النهار فلما استيقظوا ظنوا أن الشمس قد غربت فقالوا لبثنا يوماً، ثم رأوها لم تغرب فقالوا أو بعض يوم، وما دروا أنهم ناموا ثلاثمائة وتسع سنين ﴿قَالُوا رَبُّكُمُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أي قال بعضهم، الله أعلم بمدة إقامتنا ولا طائل وراء البحث عنها فخذوا بما هو أهم وأنفع لكم فنحن الآن جياع ﴿فَاذْكُوا شِرْبَكُم مَّا هَدَيْنَاكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ أي فأرسلوا واحداً منكم إلى المدينة بهذه النقود الفضية ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ أي فليختر لنا أحل وأطيب الطعام فليشتر لنا منه ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ أي وليتلف في دخول المدينة وشراء الطعام حتى لا يشعر بأمرنا أحد ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أي إن يظفروا يقتلوكم بالحجارة أو يردوكم إلى دينهم الباطل ﴿وَلَنْ تَقْدِرُوا إِذَا أُنْكَرَ﴾ أي وإن عدتم إلى دينهم ووافقتموهم على كفرهم فلن تفوزوا بخير أبداً، وهكذا يتناجى الفتية فيما بينهم خائفين حذرين أن يظهر عليهم الملك الجبار فيقتلهم أو يردهم إلى عبادة الأوثان فيوصون صاحبهم بالتلطف بالدخول والخروج وأخذ الحيلة والحذر ﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعْدُ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي وكما بعثناهم من نومهم كذلك أطلعنا الناس عليهم ليستدلوا بذلك على صحة البعث ويوقنوا أن القيامة لا شك فيها، فتكون قصة أصحاب الكهف حجة واضحة ودلالة قاطعة على إمكان البعث والنشور فإن القادر على بعث أهل الكهف بعد نومهم ثلاثمائة عام قادر على بعث الخلق بعد مماتهم ﴿إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ﴾ أي حين تنازع القوم في أمر أهل الكهف بعد أن أطلعهم الله عليهم ثم قبض أرواحهم ﴿فَقَالُوا اتَّبِعُوا عَلَيْنَا بَنِيْنَا﴾ أي قال بعض الناس: ابنوا على باب كهفهم بنياناً ليكون علماً عليهم ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ أي الله أعلم بحالهم وشأنهم ﴿قَالَ الَّذِي نَكَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ أي قال الفريق الآخر وهم الأكثرية الغالبة: لتتخذن على باب الكهف مسجداً نصلي فيه ونعبد الله فيه ^(١) ﴿سَيَقُولُونَ

(١) (ش): تشييد المساجد على قبور الأنبياء والصالحين وآثارهم مما جاءت الشريعة الإسلامية الكاملة بالمنع منه والتحذير عنه، ولعن من فعله؛ لكونه من وسائل الشرك والغلو في الأنبياء والصالحين، والواقع شاهدٌ بصحة ما جاءت به الشريعة، ودليل على أنها من عند الله عز وجل، وبرهان ساطع وحجة قاطعة على صدق =

ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴿٢٠﴾ أَي سَيَقُولُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ الْخَائِضُونَ فِي قِصَّتِهِمْ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ
 مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ هُمْ ثَلَاثَةٌ رَجَالٌ يَتَّبِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴿٢١﴾ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا
 بِالْغَيْبِ ﴿٢٢﴾ أَي وَيَقُولُ الْبَعْضُ: إِنَّهُمْ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمُ الْكَلْبُ قَذْفًا بِالظَّنِّ مِنْ غَيْرِ يَقِينٍ وَلَا
 عِلْمَ كَمَنْ يَرْمِي إِلَى مَكَانٍ لَا يَعْرِفُهُ ﴿٢٣﴾ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴿٢٤﴾ أَي وَيَقُولُ
 الْبَعْضُ إِنَّهُمْ سَبْعَةٌ وَالثَّامِنُ هُوَ الْكَلْبُ ﴿٢٥﴾ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ ﴿٢٦﴾ أَي اللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ عَدَدِهِمْ
 ﴿٢٧﴾ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٢٨﴾ أَي لَا يَعْلَمُ عَدَّتَهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ مِنَ النَّاسِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَنَا مِنْ ذَلِكَ
 الْقَلِيلِ، كَانُوا سَبْعَةً إِنْ اللَّهُ عَدَّهُمْ حَتَّى انْتَهَى إِلَى السَّبْعَةِ ^(١) قَالَ الْمَفْسُورُونَ: إِنْ اللَّهُ تَعَالَى لَمَّا
 ذَكَرَ الْقَوْلَ الْأَوَّلَ وَالثَّانِي أَرَدَفَهُ بِقَوْلِهِ ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ وَلَمَّا ذَكَرَ الْقَوْلَ الْآخِرَ لَمْ يَقْدَحْ فِيهِ
 بِشَيْءٍ فَكَانَهُ أَقْرَ قَائِلَهُ ثُمَّ نَبَّهَ رَسُولَهُ إِلَى الْأَفْضَلِ وَالْأَكْمَلِ وَهُوَ رَدُّ الْعِلْمِ إِلَى عَلَامِ الْغُيُوبِ

= رسول الله ﷺ فيما جاء به عن الله وبلغه الأمة، وكلُّ مَنْ تأمل أحوال العالم الإسلامي وما حصل فيه من الشرك
 والغلو بسبب بناء المساجد على الأضرحة وتعظيمها وفرشها وتجميلها واتخاذ السدنة لها عليم يقينا أنها من
 وسائل الشرك، وأن من محاسن الشريعة الإسلامية المنع منها والتحذير من إشادتها. ومما ورد في ذلك ما رواه
 الشيخان البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِي لَمْ يَقُمْ مِنْهُ: «لَعَنَ اللَّهُ
 الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ». قَالَتْ عَائِشَةُ: يُحَذَّرُ مِثْلَ مَا صَنَعُوا. قَالَتْ: فَلَوْلَا ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ
 غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يَتَّخَذَ مَسْجِدًا. وَفِي الصَّحِيحِينَ أَيْضًا أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتَا كِنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِالْحَبَشَةِ فِيهَا
 تَصَاوِيرٌ، فَذَكَرَتَا لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّ أَوْلَئِكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ قَمَاتَ بَنُوا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا
 فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرِ، فَأُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». وَقَالَ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ: «أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ
 قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ إِنْ أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ». [رَوَاهُ مُسْلِمٌ].
 والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وقد نص الأئمة من علماء المسلمين من جميع المذاهب،
 الأربعة وغيرهم، على النهي عن اتخاذ المساجد على القبور وحذروا من ذلك، عملاً بسنة الرسول ﷺ،
 ونصحاء للأمة وتحذيراً لها أن تقع فيما وقع فيه من قبلها من غلاة اليهود والنصارى وأشباههم من ضلال
 هذه الأمة. وقد تعلق بعض الناس في هذا الباب بقوله عز وجل في قصة أهل الكهف: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى
 أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ الكهف / ٢١. والجواب عن ذلك أن يقال: إن الله سبحانه وتعالى أخبر عن
 الرؤساء وأهل السيطرة في ذلك الزمان أنهم قالوا هذه المقالة، وليس ذلك على سبيل الرضا والتقرير لهم وإنما
 هو على سبيل الذم والعيب والتنفير من صنيعهم، ويدل على ذلك أن الرسول ﷺ الذي أنزلت عليه هذه الآية
 وهو أعلم الناس بتأويلها قد نهى أمته عن اتخاذ المساجد على القبور، وحذّرهم من ذلك ولعن ودمّ من فعله.
 ولو كان ذلك جائزاً لما شدد رسول الله ﷺ في ذلك التشديد العظيم وبالغ في ذلك حتى لعن من فعله، وأخبر
 أنه من شرار الخلق عند الله عز وجل، وهذا فيه كفاية ومقنع لطالب الحق. ولو فرضنا أن اتخاذ المساجد على
 القبور جائز لمن قبلنا لم يجز لنا التأسى بهم في ذلك؛ لأن شريعتنا ناسخة للشرائع قبلها ورسولنا عليه الصلاة
 والسلام هو خاتم الرسل وشريعته كاملة عامة وقد نهانا عن اتخاذ المساجد على القبور، فلم تجز لنا مخالفتها،
 ووجب علينا اتباعه والتمسك بما جاء به وترك ما خالف ذلك من الشرائع القديمة، والعادات المستحسنة عند
 من فعلها؛ لأنه لا أكمل من شرع الله ولا هدي أحسن من هدي رسول الله ﷺ.

﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرًّا ظَهَرًا﴾ أي فلا تجادل أهل الكتاب في عدتهم إلا جدال متيقن عالم بحقيقة الخبر ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي لا تسأل أحداً عن قصتهم فإن فيما أوحى إليك الكفاية ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِيْشَاءَ إِيَّائِي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ (٢٣) ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي لا تقولن لأمر عزمت عليه إني سأفعله غداً إلا إذا قرنته بالمشيئة فقلت إن شاء الله قال ابن كثير: سبب نزول الآية أن النبي ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف قال: (غداً أجيئكم) فتأخر الوحي عنه خمسة عشر يوماً^(١) وأذكر ربك إذا نسيت ﴿إِي إِذَا نَسِيتَ أَنْ تَقُولَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ تَذَكَّرْتَ فَقُلْتَ لَتَبْقَى نَفْسُكَ مُسْتَشْعِرَةً عِظْمَةَ اللَّهِ﴾ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ أي لعل الله يوفقني ويرشدني إلى ما هو أصلح من أمر ديني ودنياي ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ أي مكثوا في الكهف نائمين ثلاثمائة وتسع سنين، وهذا بيان لما أجمل في قوله تعالى ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ أي الله أعلم بمدة لبثهم في الكهف على وجه اليقين ﴿لَهُ غِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هو تعالى المختص بعلم الغيب وقد أخبرك بالخبر القاطع عن أمرهم الحكيم الخبير ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ أي ما أبصره بكل موجود، وما أسمع له لكل مسموع، يدرك الخفيات كما يدرك الجليات ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ أي ليس للخلق ناصر ولا معين غيره تعالى ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ أي ليس له شريك ولا مثل ولا نظير، ولا يقبل في قضائه وحكمه أحداً لأنه الغني عما سواه.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبدیع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿وَبَشِّرَ.. وَيُنذِرَ﴾ وبين ﴿يَهْدِ.. يُضِلِّ﴾ وبين ﴿أَيَقْظَا.. رُقُودٌ﴾ وبين ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ.. وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾.

٢ - الطباق المعنوي بين ﴿فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ.. ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ لأن معنى الأول أنماهم والثاني أيقظناهم.

٣ - الجناس الناقص بين ﴿فَامُوا.. وَقَالُوا﴾.

٤ - الإطناب بذكر الخاص بعد العام ﴿لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ لشناعة دعوى الولد لله، وفيه من بديع الحذف وجيليل الفصاحة حذف المفعول الأول أي لينذر الكافرين بأساً شديداً، ثم ذكر المفعول الأول وحذف الثاني في قوله ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ عذاباً شديداً فحذف العذاب لدلالة الأول عليه وحذف من الأول المنذرين لدلالة الثاني عليه، وهذا من أطف الفصاحة.

٥ - صيغة التعجب ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾.

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٤١٥. (ش): ضعيف، رواه ابن جرير «الطبري» في «تفسيره».

٦ - الاستعارة التمثيلية ﴿بَنَجْ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ﴾ شبه حاله عليه السلام مع المشركين بحال من فارقتهم الأحباب فهمم بقتل نفسه أو كاد يهلك نفسه حزناً ووجداً عليهم.

٧ - الاستعارة التبعية ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ شبهت الإنامة الثقيلة بضرب الحجاب على الأذان كما تضرب الخيمة على السكان وكذلك يوجد استعارة في ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ لأن الربط هو الشد والمراد شددنا على قلوبهم كما نشد الأوعية بالأوكية.

قال الله تعالى:

وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾
وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِفِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحُسْنَتِ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أُكْلُهُمَا وَلَمْ تُطْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأُجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَيْكَنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاءً وَهًا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيط بِشَمْرِهِ فَاصْبَحَ يَقْلِبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا بَنِيَّ لِمَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَصْرُوْنَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَتْرَكْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّرًا ﴿٤٥﴾ أَلَمْ آتِ الْبَنُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْبَنَاتِ الصَّالِحَاتِ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَىٰ

الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ بَوَيْلُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ يَتَّبِعُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى قصة أهل الكهف وهي تمثل صور التضحية والبطولة في سبيل العقيدة والإيمان، أعقبها بذكر قصة صاحب الجنتين وهي نموذج آخر للعقيدة ممثلة في قصة الأخوين من بني إسرائيل: المؤمن المغتر بإيمانه، والكافر وهو صاحب الجنتين، وما فيها من عبر وعظات، وفي ثنايا الآيات جاءت بعض التوجيهات القرآنية الكريمة. اللغة: ﴿مُلْتَحِدًا﴾ ملجأ وأصله من لحد إذا مال، ومن لجأت إليه فقد ملت إليه هكذا قال أهل اللغة ﴿فُرُطًا﴾ مجاوزاً للحد من قولهم: فرس فرط إذا كان متقدماً للخيال، قال الليث: الفرط: الأمر الذي يُفَرِّط فيه، قال الشاعر:

لَقَدْ كَلَّفْتَنِي شَطَطًا وَأَمْرًا خَائِبًا فُرُطًا^(١)

﴿سُرَادِقُهَا﴾ السُّرَادِق: السور والحائط ﴿كَالْمُهَلِّ﴾ كل ما أذيب من المعادن قال أبو عبيدة: كل شيء أذبت من ذهب أو نحاس أو فضة فهو المهل ﴿سُنْدُسٍ﴾ السندس: الرقيق من الحرير ﴿وَالِاسْتَبْرَقِ﴾ الاستبرق: الغليظ من الحرير وهو الديباج قال الشاعر:

تَرَاهُنَّ يَلْبَسُنَّ الْمَشَاعِرَ مَرَّةً وَإِسْتَبْرَقُ الدِّبَاجِ طَوْرًا لِبَاسُهَا^(٢)

﴿الْأَرَايِكِ﴾ جمع أريكة وهي السرير المزين بالثياب والستور كسرير العروس ﴿حُسْبَانًا﴾ جمع حسبانة وهي الصاعقة ﴿هَشِيمًا﴾ الهشيم: اليابس المتكسر من النبات ﴿فُعَادِرُ﴾ ترك.

سَبَبُ النُّزُول: روى أن أشراف قريش اجتمعوا عند رسول الله ﷺ وقالوا له: إن أردت أن نؤمن بك فاطر وهؤلاء الفقراء من عندك يعنون «بلا لاً، وخباباً، وصهيباً» وغيرهم فإننا نأنف^(٣) أن نجتمع بهم، وتعين لهم وقتاً يجتمعون فيه عندك فأنزل الله ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ...﴾^(٤) الآية.

(١) «التفسير الكبير» ١١٨/٢١. (ش): الشطط: الجور والغلو وتعدي الحد.

(٢) (ش): المشاعر: جمع مشعر، وهو الشعار، أي ما يلي جسد الإنسان من الثياب.

(٣) (ش): أنف من الناس: استكبر.

(٤) «البحر المحيط» ٩٤/٦. (ش): رواه ابن جرير «الطبري» في «تفسيره» وإسناده ضعيف. وعن خباب بن الأرت رضي الله عنه في قوله تعالى ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قَالَ جَاءَ الْأَفْرَغُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ =

التفسير: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ أي اقرأ يا محمد ما أوحاه إليك ربك من آيات الذكر الحكيم ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ﴾ أي لا يقدر أحد أن يغير أو يبدل كلام الله ^(١) ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ أي لن تجد ملجأ غير الله تعالى أبداً ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ أي احبس نفسك مع الضعفاء والفقراء من المسلمين الذين يدعون ربهم بالصباح والماء ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي يبتغون بدعائهم وجه الله تعالى ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي لا تصرف بصرك إلى غيرهم من ذوي الغنى والشرف قال المفسرون: كان عليه السلام حريصاً على إيمان الرؤساء ليؤمن أتباعهم ولم يكن مريداً لزينة الدنيا قط، فأمر أن يجعل إقباله على فقراء المؤمنين وأن يعرض عن أولئك العظماء والأشراف من المشركين ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي تبتغي بمجالستهم الشرف والفخر قال ابن عباس: لا تجاوزهم إلى غيرهم تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة ^(٢) ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أي لا تطع كلام الذين سألوك طرد المؤمنين فقلوبهم غافلة عن ذكر الله، وقد شغلوا عن الدين وعبادة ربهم بالدنيا قال المفسرون: نزلت في عيينة بن حصن وأصحابه أتى النبي ﷺ وعنده جماعة من الفقراء منهم «سلمان الفارسي» وعليه شملة صوف قد عرق فيها فقال عيينة للنبي ﷺ: أما يؤذيك ريح هؤلاء؟ ونحن سادة مضر وأشرافها إن أسلمنا يسلم الناس، وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء فنحهم عنك حتى نتبعك، أو اجعل لنا مجلساً ولهم مجلس، فهم رسول الله ﷺ أن يجيئهم إلى ما

= وَعُيِّنَتْ بَنُ حُصَيْنِ الْفَزَارِيُّ فَوَجَدُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَعَ صُحْبِهِ وَبِلَالٍ وَعَمَّارٍ وَخَبَّابٍ، قَاعِدًا فِي نَاسٍ مِنَ الضَّعَفَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَمَّا رَأَوْهُمْ حَوَّلَ النَّبِيُّ ﷺ حَقَرُوهُمْ فَأَتَوْهُ فَخَلُّوا بِهِ وَقَالُوا: إِنَّا نُرِيدُ أَنْ تَجْعَلَ لَنَا مِنْكَ مَجْلِسًا نَعْرِفُ لَنَا بِهِ الْعَرَبُ فَضَلُّنَا فَإِنْ وَفَّرَ الْعَرَبُ تَأْتِيكَ فَتَسْتَحْيِي أَنْ تَرَانَا الْعَرَبُ مَعَ هَذِهِ الْأَعْيِدِ فَإِذَا نَحْنُ جُنَّتْكَ فَأَقْمِمْ عَنْكَ فَإِذَا نَحْنُ فَرَعْنَا فَأَقْعُدْ مَعَهُمْ إِنْ شِئْتَ. قَالَ «نَعَمْ». قَالُوا فَاتَّكَبْ لَنَا عَلَيْكَ كِتَابًا. قَالَ فَدَعَا بِصُحُفَةٍ وَدَعَا عَلِيًّا لِيَكْتُبَ وَنَحْنُ قُعُودٌ فِي نَاحِيَةٍ فَتَزَلَّ جِبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ وَعُيَيْنَةَ بْنَ حُصَيْنٍ فَقَالَ ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالظَّالِمِينَ﴾. ثُمَّ قَالَ ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾. قَالَ: فَدَنَوْنَا مِنْهُ حَتَّى وَضَعْنَا رُكْبَتَنَا عَلَى رُكْبَتِهِ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُجْلِسًا مَعَنَا فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ قَامَ وَتَرَكْنَا فَانْزَلَ اللَّهُ ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ وَلَا تَجَالِسِ الْأَشْرَافَ ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ - بِعَيْنِ عُيَيْنَةَ وَالْأَقْرَعَ - ﴿وَأَنبَعِ هَوِيَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ - قَالَ: هَلَاكًا - قَالَ أَمْرُ عُيَيْنَةَ وَالْأَقْرَعَ. ثُمَّ صَرَبَ لَهُمْ مِثْلَ الرَّجُلَيْنِ وَمِثْلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. قَالَ خَبَّابٌ: فَكُنَّا نَقْعُدُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَإِذَا بَلَغْنَا السَّاعَةَ الَّتِي يَقُومُ فِيهَا قُمْنَا وَتَرَكْنَاهُ حَتَّى يَقُومَ.

[رواه ابن ماجه، وصححه الألباني].

(١) «التفسير الكبير» ١١٥/٢١.

(٢) «المختصر» ٤١٦/٢.

طلبوا فلما نزلت الآية خرج رسول الله ﷺ يلتمس هؤلاء الفقراء فلما رأهم جلس معهم وقال «الحمد لله الذي جعل أمتي من أمرني ربي أن أصبر نفسي معهم»^(١) ﴿وَأَتَّبَعَ هَوْنَهُ﴾ أي سار مع هواه وترك أمر الله ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ أي كان أمره ضياعاً وهلاكاً ودماراً ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ ظاهره أمرٌ وحقيقته وعيدٌ وإنذار أي قل يا محمد لهؤلاء الغافلين: لقد ظهر الحق وبان بتوضيح الرحمن فإن شئتم فآمنوا وإن شئتم فاكفروا كقوله ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي هيأنا للكافرين بالله ورسوله ناراً حاميةً شديدة أحاط بهم سورها كإحاطة السوار بالمعصم^(٢) ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ أي وإن استغاثوا من شدة العطش فطلبوا الماء أغيثوا بماءٍ شديد الحرارة كالنحاس المذاب أو كعكر الزيت المحمى يشوي وجوههم إذا قُرب منهم من شدة حره وفي الحديث «مَاءٌ كَعَكْرِ الزَّيْتِ، فَإِذَا قُرِبَ إِلَيْهِ، سَقَطَتْ فَرُوءَةٌ وَجْهِهِ فِيهِ»^(٣) أي سقطت جلدة وجهه فيه أعاذنا الله من جهنم ﴿بُسْكَ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي بس ذلك الشراب الذي يغاثون به وساءت جهنم منزلاً ومقيلاً يرتفق به أهل النار^(٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ لما ذكر تعالى حال الأشقياء أعقبه بذكر حال السعداء، على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب، أي إنا لا نضيع ثواب من أحسن عمله وأخلص فيه بل نزيده وننميه ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي لهم جنات إقامة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي تجري من تحت غرفهم ومنازلهم أنهار الجنة ﴿يُحَلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ أي يحلون في الجنة بأساور الذهب قال المفسرون: ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أساور: سوار من ذهب، وسوار من فضة، وسوار من لؤلؤ، لأن الله تعالى قال ﴿وَحُلُوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١]

(١) (ش): عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَهْلٍ بْنِ حُنَيْفٍ، قَالَ: «نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ -، وَهُوَ فِي بَعْضِ آيَاتِهِ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨]، خَرَجَ يَلْتَمِسُهُمْ، فَوَجَدَ قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ مِنْهُمْ ثَائِرُ الرَّأْسِ، وَجَافُ الْجِلْدِ، وَذُو الثُّوبِ الْوَاحِدِ، فَلَمَّا رَأَاهُمْ جَلَسَ مَعَهُمْ، فَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي أُمَّتِي مَنْ أَمَرَنِي أَنْ أَصْبِرَ نَفْسِي مَعَهُمْ» (رواه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» والطبراني، وقال الهيثمي: «ورجالة رجال الصحيح»، وعبد الرحمن بن سهل بن حنيف ذكره الطبراني عبد الرحمن بن حنبل في «الصحابة». وذكره الصغاني فيمن في صحبته نظر، وقال ابن الأثير: عبد الرحمن بن سهل بن حنيف الأنصاري ذكره ابن أبي داود في «الصحابة»، ولا يصح». (ثائر الرأس): قائم شعره منتفش منتشر.

(٢) (ش): السَّوَارُ؛ حَلِيَّةٌ مُسْتَدِيرَةٌ كَالْحَلَقَةِ تَلْبَسُ حَوْلَ الْمَعْصَمِ، وَهُوَ مَوْضِعُ السَّوَارِ مِنَ الْيَدِ.

(٣) أخرجه أحمد والترمذي. (ش): رواه الترمذي، وضعفه الألباني. (كَعَكْرِ الزَّيْتِ): الدُّنْسُ والدرن الذي تحت الزيت. (قُرِبَ): من التقريب. «فيه»، أي: في العكر.

(٤) (ش): (المَقِيلُ): موضع القيلولة، مكان الراحة والتمتع وقت القيلولة، وهي الاستراحة نصف النهار، (ارتَفَقَ بالشَّيْءِ): انتفع واستعان به.

وقال ﴿وَلَوْلَا وِلَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٣] وفي الحديث «تَبْلُغُ الْحَلِيَّةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ»^(١) ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ أي وهم رافلون في ألوان من الحرير، برقيق الحرير وهو السندس، وبغليظه وهو الإسترِق^(٢) قال «الطبري»: معنى الآية أنهم يلبسون من الحلي أساور من ذهب، ويلبسون من الثياب السندس وهو ما رق من الديباج، والإسترِق وهو ما غلظ فيه ونَحْنُ^(٣) ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ أي متكئين في الجنة على الشُرُر الذهبية المزينة والستور قال ابن عباس: الأرائك الأسيرة من ذهب وهي مَكَلَّلَةٌ بالدُر والياقوت عليها الحجال، الأريكة ما بين صنعاء إلى أيلة، وما بين عدن إلى الجابية^(٤) ﴿نِعَمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي نعم ذلك جزاء المتقين، وحسنت الجنة منزلاً ومقيلاً لهم ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ﴾ أي اضرب لهؤلاء الكفار الذين طلبوا منك أن تطرد الفقراء هذا المثل قال المفسرون: هما أخوان من بني إسرائيل، أحدهما مؤمن، والآخر كافر، ورثا مالاً عن أبيهما فاشترى الكافر بماله حديقتين، وأنفق المؤمن ماله في مرضاة الله حتى نفذ ماله فعيّره الكافر بفقره، فأهلك الله مال الكافر، وضرب هذا مثلاً للمؤمن الذي يعمل بطاعة الله، والكافر الذي أبطرتُه النعمة ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ﴾ أي جعلنا لأحدهما - وهو الكافر - بستانين من شجر العنب، مُثْمِرَيْنِ بأنواع العنب اللذيذ ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أي أحطناهما بسياج من شجر النخيل ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ أي جعلنا وسط هذين البستانين زرعاً ويتفجر بينهما نهر، وإنه لمنظرٌ بهيجٌ يصوره القرآن أروع تصوير، منظر الحديقتين المثمرتين بأنواع الكرم^(٥)، المحفوفتين بأشجار النخيل، تتوسطهما الزروع وتتفجر بينهما الأنهار ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ أي كل واحدة من الحديقتين أخرجت ثمرها يانعاً في غاية الجودة والطيب ولم تنقص منه شيئاً ﴿وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا﴾ أي جعلنا النهر يسير وسط الحديقتين ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ أي وكان للأخ الكافر من جنتيه أنواع من الفواكه والثمار ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ

(١) (ش): (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). وهذا الحديث يدل على فضيلة الوضوء حيث تكون مواضعه يوم القيامة يُحَلَّى بها الإنسان في الجنة حيث يلبس الرجال والنساء حليّة من ذهب وفضة ولؤلؤ، فتبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء، فكل الذراع يكون حلية مملوءة حلية من ذهب وفضة ولؤلؤ.

(٢) (ش): رَقَل الشَّخْصُ في ثيابه/ رَقَل الشَّخْصُ في مشيه: جَرَّ ثَوْبَهُ وتبختر في مشيه. رَقَل الشَّخْصُ في النعمة: تنعم وعاش مُتَرَفِّحاً.

(٣) «تفسير الطبري» ١٥/١٤٣.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٠/٣٩٨. (ش): (الْحَجَلَةُ): سَاتِر كَالْقُبَّةِ يُزَيَّنُ بِالثِّيَابِ وَالسُّتُورِ لِلْعُرُوسِ، وَسِتْرٌ يَضْرِبُ لِلْعُرُوسِ فِي جَوْفِ الْبَيْتِ. (أَيْلَةُ): تُعْرَفُ الْيَوْمَ بِاسْمِ «الْعَقَبَةِ» مِثْلًا بِالْأُرْدُنِّ. (الْجَابِيَةُ): قَرِيبَةٌ مِنَ الْجَوْلَانِ. وَ(بَابُ الْجَابِيَةِ): بِدِمَشْقٍ.

(٥) (ش): (الْكُرْمُ): الْعِنَبُ.

مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿١٠﴾ أَيُّ قَالَ صَاحِبُ الْجَنَّتَيْنِ لِمَ صَاحِبُهُ الْمُؤْمِنُ وَهُوَ يَجَادِلُهُ وَيُخَاصِمُهُ وَيُفْتَخِرُ عَلَيْهِ وَيَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى مِنْكَ وَأَشْرَفُ، وَأَكْثَرُ أَنْصَارًا وَخِدْمًا ﴿١١﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ، وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴿١٢﴾ أَيُّ أَخَذَ بِيَدِ أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ وَدَخَلَ الْحَدِيقَةَ يَطُوفُ بِهِ فِيهَا وَيُرِيهِ مَا فِيهَا مِنْ أَشْجَارٍ وَثَمَارٍ وَأَنْهَارٍ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ بِالْعُجْبِ وَالْكَفْرِ ﴿١٣﴾ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿١٤﴾ أَيُّ مَا أَعْتَقَدُ أَنْ تَفْنَى هَذِهِ الْحَدِيقَةُ أَبَدًا ﴿١٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴿١٦﴾ أَيُّ وَمَا أَعْتَقَدُ الْقِيَامَةَ كَائِنَةً وَحَاصِلَةً، أَنْكَرَ فَنَاءَ جَنَّتِهِ وَأَنْكَرَ الْبَعْثَ وَالنَّشُورَ ﴿١٧﴾ وَلَئِنْ رُودَتْ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِمَّنْهَا ﴿١٨﴾ أَيُّ وَلَئِنْ كَانَ هُنَاكَ بَعْثٌ - عَلَى سَبِيلِ الْفَرَضِ وَالتَّقْدِيرِ كَمَا تَرَعُمُ - فَسَوْفَ يُعْطِينِي اللَّهُ خَيْرًا مِنْ هَذَا وَأَفْضَلَ ﴿١٩﴾ مُنْقَلَبًا ﴿٢٠﴾ أَيُّ مَرْجِعًا وَعَاقِبَةً فَكَمَا أُعْطَانِي هَذَا فِي الدُّنْيَا فَسَيُعْطِينِي فِي الْآخِرَةِ لِكِرَامَتِي عَلَيْهِ ﴿٢١﴾ قَالَ لَهُ، صَاحِبُهُ، وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴿٢٢﴾ أَيُّ قَالَ ذَلِكَ الْمُؤْمِنُ الْفَقِيرُ وَهُوَ يَرَاجِعُ أَخَاهُ وَيَجَادِلُهُ ﴿٢٣﴾ أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ﴿٢٤﴾ أَيُّ أَجْحَدْتَ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ أَصْلَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ مَنِيٍّ ثُمَّ سَوَّاكَ إِنْسَانًا سَوِيًّا؟ الْإِسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ ﴿٢٥﴾ لَيْكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي ﴿٢٦﴾ أَيُّ لَكِنْ أَنَا أَعْتَرَفُ بِوُجُودِ اللَّهِ فَهُوَ رَبِّي وَخَالَقِي ﴿٢٧﴾ وَلَا أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٢٨﴾ أَيُّ لَا أَشْرِكُ مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ، فَهُوَ الْمَعْبُودُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿٢٩﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴿٣٠﴾ أَيُّ فَهَلَّا حِينَ دَخَلْتَ حَدِيقَتَكَ وَأُعْجِبْتَ بِمَا فِيهَا مِنَ الْأَشْجَارِ وَالثَّمَارِ قُلْتَ: هَذَا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ، فَمَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ﴿٣١﴾ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴿٣٢﴾ أَيُّ لَا قُدْرَةَ لَنَا عَلَى طَاعَتِهِ إِلَّا بِتَوْفِيقِهِ وَمَعُونَتِهِ ﴿٣٣﴾ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٤﴾ أَيُّ قَالَ الْمُؤْمِنُ لِلْكَافِرِ: إِنْ كُنْتَ تَرَى أَنَّنِي أَفْقَرُ مِنْكَ وَتَعْتَزِّلِي بِكَثْرَةِ مَالِكَ وَأَوْلَادِكَ ﴿٣٥﴾ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ ﴿٣٦﴾ جَوَابُ الشَّرْطِ أَيُّ إِنِّي أَتَوَقَّعُ مِنْ صَنِيعِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِحْسَانِهِ أَنْ يَقْلِبَ مَا بِي وَمَا بَكَ مِنَ الْفَقْرِ وَالْغِنَى فَيَرْزُقَنِي جَنَّةً خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ لِإِيمَانِي بِهِ، وَيَسْلُبَ عَنْكَ نِعْمَتَهُ لِكُفْرِكَ بِهِ وَيُخَرِّبَ بَسْتَانَكَ ﴿٣٧﴾ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ أَيُّ يَرْسِلُ عَلَيْهَا أَفَّةً تَجْتَاحُهَا أَوْ صَوَاعِقَ مِنَ السَّمَاءِ تَدْمُرُهَا ﴿٣٩﴾ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَيُّ تَصْبِحُ الْحَدِيقَةُ أَرْضًا مَلْسَاءً لَا تَثْبِتُ عَلَيْهَا قَدَمٌ، جَرْدَاءُ لَا نَبَاتَ فِيهَا وَلَا شَجَرَ ﴿٤١﴾ أَوْ يُصْبِحُ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤٢﴾ أَيُّ يَغُورُ مَأْوَاهُ فِي الْأَرْضِ فَيَتَلَفُ كُلُّ مَا فِيهَا مِنَ الزَّرْعِ وَالشَّجَرِ، وَحِينَئِذٍ لَا تَسْتَطِيعُ طَلَبُهُ فَضْلًا عَنْ إِعَادَتِهِ وَرَدِّهِ، وَيَنْتَهِي الْحَوَارُ هُنَا وَتَكُونُ الْمَفَاجَأَةُ الْمَدْهَشَةُ فَيَتَحَقَّقُ رَجَاءُ الْمُؤْمِنِ بِزَوَالِ النِّعَمِ عَنِ الْكَافِرِ وَفَجْأَةُ يُنْقَلَبُ السِّيَاقُ مِنْ مَشْهَدِ الْبَهْجَةِ وَالْإِزْدِهَارِ إِلَى مَشْهَدِ الْبَوَارِ وَالْدِمَارِ ﴿٤٣﴾ وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ ﴿٤٤﴾ أَيُّ هَلَكْتَ جَنَّتُهُ بِالْكَلِيَّةِ وَاسْتَوْلَى عَلَيْهَا الْخَرَابُ وَالْدِمَارُ فِي الزَّرْعِ وَالثَّمَارِ ﴿٤٥﴾ فَأَصْبَحَ يَقْلِبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَتَفَقَّ فِيهَا ﴿٤٦﴾ أَيُّ يَقْلِبُ كَفَيْهِ ظَهْرًا لِبَطْنٍ أَسْفًا وَحُزْنًا عَلَى مَالِهِ الضَّائِعِ وَجْهَهُ الذَّاهِبِ قَالَ «الْقُرْطَبِيُّ»: أَيُّ يُضْرَبُ إِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى نَدْمًا لِأَنَّهُ هَذَا يُصْدَرُ مِنَ النَّادِمِ ﴿٤٧﴾ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴿٤٨﴾

أي مهشمة محطمة قد سقطت السقوف على الجدران فأصبحت خراباً ياباً^(١) ﴿وَيَقُولُ يَلَيِّنُنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ أي وهو نادم على إشراكه بالله يتمنى أن لم يكن قد كفر النعمة، ندم حين لا ينفع الندم قال تعالى ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةً يَصُورُهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي لم تكن له جماعة تنصره وتدفع عنه الهلاك ﴿وَمَا كَانَ مُنْصِرًّا﴾ أي وما كان بنفسه ممتنعاً عن انتقام الله سبحانه، فلم تنفعه العشيرة والولد حين اعتزّ وافتخر بهم وما استطاع بنفسه أن يدفع عنه العذاب ﴿هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ أي في ذلك المقام وتلك الحال تكون النصرة لله وحده لا يقدر عليها أحد فهو الوليُّ الحق الذي ينصر أوليائه ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي الله خير ثواباً في الدنيا والآخرة لمن آمن به، وهو خير عاقبة لمن اعتمد عليه ورجاه ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ هذا مثل آخر للدنيا وبهرجها الخادع يشبه مثل الجنتين في الفناء والزوال. والمعنى اضرب يا محمد للناس مثل هذه الحياة في زوالها وفنائها وانقضائها بماء نزل من السماء فخرج به النبات وافيًا غزيراً وخالط بعضه بعضاً من كثرته وتكاثفه ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾ أي صار النبات متكسراً من اليبس^(٢) متفتتاً تنسفه الرياح ذات اليمين وذات الشمال ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّرًا﴾ أي قادراً على الإفناء والإحياء لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي الأموال والأولاد زينة هذه الحياة الفانية، ذاك مثلها وهذه زينتها والكل إلى فناء وزوال لا يعتر بها إلا الأحقق الجهُول^(٣) ﴿وَالْبَلَقِيَّتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي أعمال الخير تبقى ثمرتها أبد الآباد فهي خير ما يؤملها الإنسان ويرجوه عند الله قال ابن عباس: الباقيات الصالحات هي الصلوات الخمس وعنه أيضاً أنها كل عمل صالح من قول أو فعل يبقى للآخرة^(٤) وفي الحديث: «سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، هُنَّ الْبَاقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ»^(٥) ﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ﴾ لما ذكر الدنيا ومآلها ذكر القيامة وأهوالها أي واذكر يوم نزيل الجبال من أماكنها ونسيرها كما نسير السحاب فنجعلها هباءً منيهاً ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي وترى الأرض ظاهرة للعيان ليس عليها ما يستترها من جبل ولا شجر ولا بنية، قد قلعت جبالها وهُدم بنيانها

(١) (ش): يباب: صحراء. خراب، خالٍ من أي شيء.

(٢) (ش): ييس الشيء، يُيس ويؤس: جفّ بعد رطوبة.

(٣) جهول: صيغة مبالغة من جهل، جهل الشخص: جفا وتسافه وحمق وأظهر الطيش.

(٤) هذا ما رجحه «الطبري»، قال «الطبري»: وهو الصحيح إن شاء الله.

(٥) (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خُذُوا جُسَّتَكُمْ». قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: مِنْ عَدُوٍّ قَدْ حَضَرَ؟

قَالَ: «لَا، جُسَّتُكُمْ مِنَ النَّارِ، قُولُوا: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، فَإِنَّهُنَّ يَأْتِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُنْجِيَّاتٍ وَمُقَدِّمَاتٍ وَهُنَّ الْبَاقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ» [رواه الحاكم، وصححه، ووافقه الألباني].

فهي بارزة ظاهرة ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي جمعنا الأولين والآخرين لموقف الحساب فلم نترك أحداً منهم ﴿وَعَرَّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًا﴾ أي عرضوا على رب العالمين مصطفين، لا يحجب أحداً وفي الحديث «يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ صَفُوفًا»^(١) قال مقاتل: يُعرضون صفا بعد صف كالصفوف في الصلاة كل أمة وزمرة صفا^(٢) ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي يقال للكفار على وجه التوبيخ والتقريع: لقد جئتمونا حفاة عراة لا شيء معكم من المال والولد كهيتكم حين خلقناكم أول مرة ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَنَّا نَجْعَلُ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ أي زعمتم أن لا بعث ولا جزاء، ولا حساب ولا عقاب ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أي وضعت صحائف أعمال البشر وعُرضت عليهم ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي ترى المجرمين خائفين مما فيه من الجرائم والذنوب ﴿وَيَقُولُونَ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يا حسرتنا ويا هلاكنا على ما فرطنا في حياتنا الدنيا ﴿مَا لِي هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أي ما شأن هذا الكتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ضبطها وأحاط بها؟ قال تعالى ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ أي مكتوباً مثبتاً في الكتاب ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أي يعاقب إنساناً بغير جرم، ولا يُنقص من ثواب المحسن ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ أي لا اذكر حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أي سجد جميع الملائكة لكن إبليس الذي هو من الجن خرج عن طاعة ربه، والآية صريحة في أن إبليس من الجن لا من الملائكة^(٣) ﴿أَفَنَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ أي أفتتخذونه يا بني آدم هو وأولاده الشياطين أولياء من دون الله وهم لكم أعداء ﴿بئس ينس للظالمين بدلاً﴾ أي بسست عبادة الشيطان بدلاً عن عبادة الرحمن ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ما أشهدت هؤلاء الشياطين الذين عبدتموهم من دوني خلق السماوات والأرض ﴿وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي ولا أشهدت بعضهم خلق بعض فهم عبيد أمثالكم لا يملكون شيئاً ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتَّخِذُونَ الْمُضِلِينَ عُزْدًا﴾ أي وما كنت متخذ الشياطين أعواناً في الخلق فكيف طيعوهم من دوني؟ ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾

(١) (ش): قال ﷺ: «يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ» [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ]. وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «يُصَفُّ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُفُوفًا، فَيَمُرُّ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عَلَى الرَّجُلِ فَيَقُولُ: يَا فَلَانُ أَمَا تَذْكُرُ يَوْمَ اسْتَسْقَيْتَ فَسَقَيْتَ شَرِبَةً؟ قَالَ فَيَشْفَعُ لَهُ. وَيَمُرُّ الرَّجُلُ فَيَقُولُ أَمَا تَذْكُرُ يَوْمَ نَاوَلْتَنِي طَهُورًا فَيَشْفَعُ لَهُ، وَيَقُولُ: يَا فَلَانُ أَمَا تَذْكُرُ يَوْمَ بَعَثْتَنِي فِي حَاجَةٍ كَذَا وَكَذَا فَذَهَبْتُ لَكَ فَيَشْفَعُ لَهُ». [رواه ابن ماجه، وضعفه الألباني].

(٢) «تفسير القرطبي» ١٠/ ٤١٧.

(٣) انظر التحقيق الذي ذكرناه في كتابنا «النبوة والأنبياء» على أن إبليس لم يكن من الملائكة ص ١٢٨.

(١) (ش:) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خُذُوا جُسْتَكُمْ». قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: مِنْ عَدُوٍّ قَدْ حَضَرَ؟ قَالَ: «لَا، جُسْتُكُمْ مِنَ النَّارِ، قُولُوا: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، فَإِنَّهُنَّ يَأْتِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُنْجِيَاتٍ وَمُقَدِّمَاتٍ وَهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ» [رواه الحاكم، وصححه، ووافقه الألباني]. عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اسْتَكْبِرُوا مِنَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ». قِيلَ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الْمَلَّةُ»، قِيلَ: «الْمَلَّةُ»، قِيلَ: «الْمَلَّةُ؟ قَالَ: «الْمَلَّةُ»، قِيلَ: «وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «التَّكْبِيرُ، وَالتَّهْلِيلُ، وَالتَّسْبِيحُ، وَالتَّحْمِيدُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» [رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ، وَحَسَنَهُ الْأَرْنؤُوطُ]. وَرواه ابن حبان، وضعفه الألباني. وقال الألباني: «لكن صح بدون [استكبروا]»، وأشار إلى «الصحيحة» (٣٢٦٤).

[التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٢/ ٢١٧)]. (الملة): لغة: ما شرع الله لعباده على ألسنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وتستعمل في جملة الشرائع لا في أحادها، فالمراد هاهنا المبالغة بأن هذه الكلمات كأنها تمام الدين، أو المراد: كلمات الملة أو أذكارها، على تقدير المضاف، بمعنى أنها أذكار لها اختصاص =

وفي الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةً أُسْرِيَ بِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَقْرَأُ أَمْتَكَ مِنِّي السَّلَامَ وَأَخْبِرُهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ عَذْبَةُ الْمَاءِ وَأَنَّهَا قِيَعَانُ وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ» رواه الترمذي (١).

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَحْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْأَفْرُتُ أَهْلَكْنَهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنَّا غَدَاةٌ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْكَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلِمَ مِنْ مِمَّا عَلَّمْتُ رُسْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ نَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقَهَا لِنُفُوسِ أَهْلِهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا

= بالدين لا يعرفها إلا أصحاب الدين، ولا يخفى أن من رسخت معرفة هذه الكلمات في قلبه على وجهها فهو في الدين من الراسخين.

(١) (ش): رواه الترمذي، وحسنه الألباني. (أَقْرَأُ أَمْتَكَ مِنِّي السَّلَامَ) أَي بَلَّغُهُمْ مِنِّي السَّلَامَ. (طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ) هِيَ التُّرَابُ فَإِنَّ تُرَابَهَا الْمِسْكُ وَالزَّعْفَرَانُ وَلَا أَطْيَبَ مِنْهُمَا (عَذْبَةُ الْمَاءِ) أَي مَائُهَا طَيِّبٌ لَا مُلُوحَةَ فِيهِ. (وَأَنَّهَا) أَي الْجَنَّةُ (قِيَعَانُ) جَمْعُ قَاعٍ وَهِيَ الْأَرْضُ الْمُسْتَوِيَّةُ الْخَالِيَةُ مِنَ الشَّجَرِ، (غِرَاسَهَا) جَمْعُ غَرْسٍ بِالْفَتْحِ وَهُوَ مَا يُغْرَسُ أَيْ يَسْتُرُهُ تُرَابُ الْأَرْضِ مِنْ نَحْوِ الْبَذْرِ لِيَنْبُتَ بَعْدَ ذَلِكَ. وَإِذَا كَانَتْ تِلْكَ التُّرْبَةُ طَيِّبَةً وَمَائُهَا عَذْبًا كَانَ الْغِرَاسُ أَطْيَبَ لَا سِيَّمَا وَالْغَرْسُ الْكَلِمَاتُ الطَّيِّبَاتُ وَهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ، وَالْمَعْنَى أَعْلَمُهُمْ بِأَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَنَحْوَهَا سَبَبٌ لِدُخُولِ قَائِلِهَا الْجَنَّةَ وَلِكثْرَةِ أَشْجَارِ مَنْزِلِهِ فِيهَا لِأَنَّهُ كُلَّمَا كَرَّرَهَا نَبَتْ لَهُ أَشْجَارٌ بَعْدَ دَهَاهَا. وَمَعْنَى كَوْنِهَا قِيَعَانًا أَنَّ أَكْثَرَهَا مَغْرُوسٌ وَمَا عَدَاهُ مِنْهَا أَمْكِنَةٌ وَاسِعَةٌ بِلَا غَرْسٍ لِيَنْغَرِسَ بِتِلْكَ الْكَلِمَاتِ وَيَتَمَيَّزَ غَرْسُهَا الْأَصْلِيُّ الَّذِي بِلَا سَبَبٍ وَغَرْسُهَا الْمُسَبَّبُ عَنْ تِلْكَ الْكَلِمَاتِ.

فَقُلْنَا لَهُ قَالَ أَقَلَّتْ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَنْبَأَ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّنْ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ ذَلِكِ فَأَوَّلِ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

المناسبة: لما ضرب تعالى المثل في قصة صاحب الجنتين، وضرب المثل للحياة الدنيا وما فيها من نعيم خادع ومتاع زائل، نبّه تعالى إلى الغاية من ذكر هذه الأمثال وهي «العظة والاعتبار» ثم ذكر القصة الثالثة «قصة موسى مع الخضر» وما فيها من أمور غيبية عجيبة.

اللغة: ﴿قُبُلًا﴾ مقابلة وعياناً^(١) ﴿مَوْبِلًا﴾ ملجأ ومنجى. قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: الْمَلْجَأُ يُقَالُ: وَآلُ فُلَانٍ إِلَى كَذَا لَجَأَ إِلَيْهِ وَالْأَوَّلُ وَوُؤُولًا، وَالْمَوْتَلُ: الْمَلْجَأُ، قَالَ الْأَعَشَى:

وَقَدْ أَحْالَسُ رَبَّ الْبَيْتِ غَفْلَتُهُ
وَقَدْ يُحَاذِرُ مِنِّي ثُمَّ مَا يَيْلُ^(٢)

﴿حُقُبًا﴾ جمع حقبة وهي السنة والمراد بالحُقُب هنا الزمان الطويل ﴿سَرِيًّا﴾ السَّرْبُ: المسلك في جوف الأرض ﴿نَضَبًا﴾ النَضْبُ: التعب والمشقة ﴿أَمْرًا﴾ أمراً عظيماً يقال: أَمِرَ الأمر إذا عظم ﴿نُكْرًا﴾ منكرًا فظيعاً جداً.

التفسير: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي بينا في هذا القرآن الأمثال وكرّرنا الحجج والمواعظ ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ أي وطبيعة الإنسان الجدل والخصومة لا يُنِيبُ لحق ولا ينزجر لموعظة ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَى﴾ أي ما منع الناس من الإيمان حين جاءهم الهدى من الله ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ أي ومن الاستغفار من الذنوب والآثام ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي إلا انتظارهم أن تأتيتهم سنة الأولين وهي الإهلاك ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أي يأتيتهم عذاب الله عياناً ومقابلة. ومعنى الآية أنه ما منعهم من الإيمان والاستغفار إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عياناً ومواجهة كقولهم: ﴿فَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ أَثْنَيْنَا

(١) (ش): عاين الشيء، معاينة وعياناً: رآه أو شاهده بعينه.

(٢) «البحر المحيط» ١٣٢/٦. (ش): خالس فلاناً: انتهر منه فرصة فأعجله. مَا يَيْلُ: أَي لَا يَنْجُو.

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١﴾ [الأنفال: ٣٢] ﴿٢﴾ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴿٣﴾ أَيُّ مَا نُرْسِلُ الرُّسُلَ إِلَّا لِمَنْ يَتَّبِعُ الْغُرُزَ الْتَبَشِيرَ وَالْإِنْذَارَ لَا لِلْإِهْلَاكِ وَالْدَّمَارِ، مُبَشِّرِينَ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ وَمُنذِرِينَ لِأَهْلِ الْعِصْيَانِ ﴿٤﴾ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴿٥﴾ أَيُّ وَمَعَ وَضُوحِ الْحَقِّ يَجَادِلُ الْكَافِرَ بِالْبَاطِلِ لِيُغْلِبُوا بِهِ الْحَقَّ وَيَبْطُلُوهُ فَهُمْ حِينَ يَطْلُبُونَ الْخَوَارِقَ وَيَسْتَعْجِلُونَ الْعَذَابَ لَا يَرِيدُونَ الْإِيمَانَ وَإِنَّمَا يَسْتَهْزِئُونَ وَيَسْخَرُونَ ﴿٦﴾ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٧﴾ أَيُّ اتَّخَذُوا الْقُرْآنَ وَمَا خُوفُوا بِهِ مِنَ الْعَذَابِ سَخِرِيَّةً وَاسْتَهْزَاءً ﴿٨﴾ وَمِنْ أَظْلَمَ مِمَّنْ ذَكَرَ بِثَابِتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴿٩﴾ أَيُّ لَا أَحَدٌ أَظْلَمَ مِمَّنْ وَعُظَّ بِآيَاتِ اللَّهِ الْبَيِّنَةِ، وَحُجِّجَ السَّاطِعَةِ، فَتَعَامَى عَنْهَا وَتَنَاسَاهَا وَلَمْ يُلْقِ لَهَا بِالًا ﴿١٠﴾ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴿١١﴾ أَيُّ نَسِيَ مَا عَمِلَهُ مِنَ الْجَرَائِمِ الشَّنِيعَةِ، وَالْأَفْعَالِ الْقَبِيحَةِ، وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِي عَاقِبَتِهَا ﴿١٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴿١٣﴾ أَيُّ جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَغْطِيَةً تَحُولُ دُونَ فَهْمِهِ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِدْرَاكَ أَسْرَارِهِ ﴿١٤﴾، وَالْإِنْتِفَاعَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْمَوَاعِظِ وَالْأَحْكَامِ ﴿١٥﴾ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴿١٦﴾ أَيُّ وَفِي آذَانِهِمْ صَمًّا مَعْنَوِيًّا يَمْنَعُهُمْ أَنْ يَسْمَعُوهُ سَمَاعَ تَفْهَمُ وَانْتِفَاعَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿١٨﴾ أَيُّ وَإِنْ دَعَوْتَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ فَلَنْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ أَبَدًا لِأَنَّهُمْ لَا يَفْقَهُونَ وَلَا يَسْمَعُونَ، فَلِلْهُدَى قُلُوبٌ مَتَفَتِحَةٌ مُسْتَعِدَّةٌ لِقَبُولِ الْإِيمَانِ وَهَؤُلَاءِ كَالْأَنْعَامِ ﴿١٩﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ﴿٢٠﴾ أَيُّ وَرَبُّكَ يَا مُحَمَّدٌ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ عَظِيمُ الرَّحْمَةِ بِالْعِبَادِ مَعَ تَقْصِيرِهِمْ وَعِصْيَانِهِمْ ﴿٢١﴾ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابَ ﴿٢٢﴾ أَيُّ لَوْ يَعَاقِبُهُمْ بِمَا اقْتَرَفُوا مِنَ الْمَعَاصِي وَالْإِجْرَامِ لَعَجَلْ لَهُمْ عَذَابُ الدُّنْيَا، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى يَمْهَلُهُمْ وَيُؤَخِّرُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ الَّذِي يَسْتَعْجِلُونَهُ بِهِ رَحْمَةً بِهِمْ، وَقَدْ جَرَتْ سُنَّتُهُ بِأَنْ يُمْهَلَ الظَّالِمُ وَلَكِنْ لَا يُهْمَلُهُ ﴿٢٣﴾ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا ﴿٢٤﴾ أَيُّ لَهُمْ مَوْعِدٌ آخَرٌ فِي الْقِيَامَةِ يَرُونَ فِيهِ الْأَهْوَالَ لَنْ يَجِدُوا لَهُمْ فِيهِ مَلْجَأً وَلَا مَنْجَى ﴿٢٥﴾ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكَنَّهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴿٢٦﴾ أَيُّ تِلْكَ هِيَ أَخْبَارُ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ كَقَوْمِ هُودٍ وَصَالِحٍ وَلُوطٍ وَشُعَيْبٍ أَهْلَكَنَاهُمْ حِينَ ظَلَمُوا ﴿٢٧﴾ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٢٨﴾ أَيُّ جَعَلْنَا لِأَهْلِكَاهُمْ وَقْتًا مُحَدَّدًا مَعْلُومًا، أَفَلَا يَعْتَبِرُ هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبُونَ الْمَعَانِدُونَ؟ وَالْآيَةُ وَعِيدٌ وَتَهْدِيدٌ لِكُفَّارِ قَرِيشٍ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَالْمَعْنَى احْذَرُوا أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ أَنْ يَصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ فَقَدْ كَذَبْتُمْ أَعْظَمَ نَبِيِّ وَأَشْرَفَ رَسُولٍ، وَلَسْتُمْ بِأَعَزَّ عَلَيْنَا مِنْهُمْ فَخَافُوا عَذَابِي وَتَذَرِي ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ ﴿٣٠﴾ هَذِهِ الْقِصَّةُ الثَّلَاثَةُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ. وَالْمَعْنَى اذْكُرْ حِينَ قَالَ مُوسَى الْكَلِيمُ لِفَتْنِهِ «يُوشَعَ بْنِ نُونٍ» لَا أَزَالُ

(١) هذا خلاصة المعنى الذي اختاره ابن كثير، كذا في «المختصر» ٤٢٥/٢.

(٢) (ش): حال دون الشيء: منع حدوثه.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٤٢٦/٢.

أسير وأتابع السير حتى أصل إلى ملتقى بحر فارس وبحر الروم مما يلي جهة المشرق وهو مجمع البحرين^(١) ﴿أَوْ أَمْضَى حُقُبًا﴾ أي أسير زماناً إلى أن أبلغ ذلك المكان ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسِيَا حُوتَهُمَا﴾ أي فلما بلغ موسى وفتاه مجمع البحرين نسي «يوشع» أن يخبر موسى بأمر الحوت وما شاهده منه من الأمر العجيب، روي أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن يأخذ معه حوتاً فيجعله في مِكتَل فحيثما فقد الحوت فهناك الرجل الصالح^(٢) ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أي اتخذ الحوت سبيله في البحر مسلكاً^(٣) قال المفسرون: كان الحوت مشوياً فخرج من المِكتَل ودخل في البحر وأمسك الله جرية الماء فصار كالطاق عليه وجمد الماء حوله^(٤) وكان ذلك آية من آيات الله الباهرة لموسى عليه السلام ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنَّا غَدَاءَنَا﴾ أي فلما قطعنا ذلك المكان وهو مجمع البحرين الذي جعل موعداً للملاقة قال موسى لفتاه: أعطنا طعام الغداء ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ لقينا في هذا السفر العناء والتعب، وكان قد سار ليلة وجزءاً من النهار بعد أن جاوز الصخرة ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ أي قال الفتى «يوشع بن نون» حين طلب موسى منه الحوت للغذاء: رأيت حين التجأنا إلى الصخرة التي نمت عندها ماذا حدث من الأمر العجيب؟ لقد خرج الحوت من المِكتَل ودخل البحر وأصبح عليه مثل الكوة^(٥) وقد نسي أن أذكر لك ذلك حين استيقظت ﴿وَمَا أَنْسَيْنَاهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ أي وقد أنساني الشيطان أن أخبرك عن قصته الغريبة ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ أي واتخذ الحوت طريقة في البحر وكان أمره عجباً، يتعجب الفتى من أمره لأنه كان حوتاً مشوياً فدبت فيه الحياة ودخل البحر ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ﴾ أي قال موسى هذا الذي نطلبه ونريده لأنه علامة على غرضنا وهو لُقيا الرجل الصالح ﴿فَارْتَدَّ عَلَيْنَا آثَارُهُمَا قَصَصًا﴾ أي رجعا في طريقهما الذي جاءا منه يتتبعان أثرهما الأول لئلا يخرججا عن الطريق ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وجدا الخضر عليه السلام عند الصخرة التي فقد عندها الحوت، وفي الحديث أن موسى وجد الخضر مسجى بثوبه مستلقياً على الأرض فقال له: السلام عليك فرفع رأسه وقال: وإنني بأرضك السلام؟^(٦) ﴿ءَاثَيْنَهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ أي وهبناه نعمة عظيمة

(١) هكذا نقل «الطبري» عن قتادة ٢٧١/١٥.

(٢) (ش): بعد صفحات سيذكر المؤلف القصة كاملة كما وردت في الصحيحين. (مِكتَل): وعاءٌ مثل القفَّة: وعاءٌ من خوصٍ أو نحوهٍ ليحمل البضائع وغيرها.

(٣) (ش): أي أخذ يسبح فيه، وكان يسقه شقاً، ويترك وراءه مثل السرب (النفق).

(٤) (ش): جرية الماء: حالة جريانه. (الطاق) الثقب غير النافذ.

(٥) (ش): (الكوة): (الطاق) الثقب غير النافذ.

(٦) الحديث سيأتي مفصلاً إن شاء الله. (ش): (مسجى): معطى. (أنى) أي كيف، أو من أين. (أنى بأرضك =

وفضلاً كبيراً وهي الكرامات التي أظهرها الله على يديه ^(١) ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ أي علماً خاصاً بنا لا يعلم إلا بتوفيقنا وهو علم الغيوب قال العلماء: هذا العلم الرباني ثمرة الإخلاص والتقوى ويسمى «العلم اللدني» يورثه الله لمن أخلص العبودية له، ولا ينال بالكسب والمشقة وإنما هو هبة الرحمن لمن خصّه الله بالقرب والولاية والكرامة ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ أي هل تأذن لي في مرافقتك لأقتبس من علمك ما يرشدني في حياتي؟ قال المفسرون: هذه مخاطبة فيها ملاطفة وتواضع من نبي الله الكريم وكذلك ينبغي أن يكون الإنسان مع من يريد أن يتعلم منه ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أي قال الخضر: إنك لا تستطيع الصبر على ما ترى قال ابن عباس: لن تصبر على

(= السَّلام؟) أَي كَيْفَ بَارَئِكَ السَّلامُ. أَوْ مِنْ أَيْنَ السَّلامُ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي لَا يُعْرَفُ فِيهَا وَكَانَتْ بِلَادَ تُفَرٍ أَوْ كَانَتْ تَحِيَّتُهُمْ بِغَيْرِ السَّلامِ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَمَنْ دُونَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مِنَ الْغَيْبِ إِلَّا مَا عَلَّمَهُمُ اللَّهُ إِذْ لَوْ كَانَ الْخَضِرُ يَعْلَمُ كُلَّ غَيْبٍ لَعَرَفَ مُوسَى ﷺ قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَهُ.

(١) الصحيح أن الخضر عليه السلام ليس بنبي وإنما هو من عباد الله الصالحين وأوليائه المقربين وقد أظهر الله على يديه هذه الكرامات والأمور الغيبية تعليمًا للخلق فضل العبودية. (ش): رجح الحافظ ابن كثير أن الخضر ﷺ كان نبياً وقال: إن سياق القصة قد دلَّ على نبوته من وجوه: أحدها: قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٥٦]. الثاني: قول موسى له: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ (١٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (١٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (١٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (١٩) قَالَ فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلْني عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا [الكهف: ٦٦ - ٧٠]. فَلَوْ كَانَ وَلِيًّا وَلَيْسَ بِنَبِيِّ، لَمْ يُخَاطَبْهُ مُوسَى بِهَذِهِ الْمُخَاطَبَةِ، وَلَمْ يَرُدَّ عَلَى مُوسَى هَذَا الرَّدِّ، بَلْ مُوسَى إِنَّمَا سَأَلَ صُحْبَتَهُ لِيَسَالَ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ، الَّذِي اخْتَصَّ بِهِ اللَّهُ بِهِ دُونَهُ، فَلَوْ كَانَ غَيْرَ نَبِيِّ لَمْ يَكُنْ مَعْصُومًا، وَلَمْ تَكُنْ لِمُوسَى - وَهُوَ نَبِيٌّ عَظِيمٌ، وَرَسُولٌ كَرِيمٌ، وَاجِبُ الْعِصْمَةِ - كَبِيرُ رَغْبَةٍ، وَلَا عَظِيمُ طَلِبَةٍ فِي عِلْمٍ وَلَيْ غَيْرِ وَاجِبِ الْعِصْمَةِ، وَلَكَمَا عَزَمَ عَلَى الدَّهَابِ إِلَيْهِ، وَالتَّفَتِيشِ عَلَيْهِ، وَلَوْ أَنَّهُ يَمْضِي حَقْبًا مِنَ الزَّمَانِ. ثُمَّ لَمَّا اجْتَمَعَ بِهِ تَوَاضَعُ لَهُ، وَعَظَمُهُ، وَاتَّبَعَهُ فِي صُورَةِ مُسْتَفِيدٍ مِنْهُ، دَلَّ عَلَى أَنَّهُ نَبِيٌّ مِثْلُهُ يُوْحِي إِلَيْهِ كَمَا يُوْحِي إِلَيْهِ، وَقَدْ خَصَّ مِنَ الْعُلُومِ اللَّدْنِيَّةِ، وَالْأَسْرَارِ النَّبَوِيَّةِ، بِمَا لَمْ يُطْلَعِ اللَّهُ عَلَيْهِ مُوسَى، الْكَلِيمُ، نَبِيُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكَرِيمِ. الثَّالِثُ: أَنَّ الْخَضِرَ أَقْدَمَ عَلَى قَتْلِ ذَلِكَ الْعُلَامِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِلْوَحْيِ إِلَيْهِ مِنَ الْمَلِكِ الْعُلَامِ. وَهَذَا دَلِيلٌ مُسْتَقِلٌّ عَلَى نُبُوَّتِهِ، وَبُرْهَانٌ ظَاهِرٌ عَلَى عِصْمَتِهِ؛ لِأَنَّ الْوَلِيَّ لَا يَجُوزُ لَهُ الْإِقْدَامُ عَلَى قَتْلِ النَّفْسِ بِمُجَرَّدِ مَا يَلْقَى فِي خَلْدِهِ، لِأَنَّ خَاطِرَهُ لَيْسَ بِوَاجِبِ الْعِصْمَةِ؛ إِذْ يَجُوزُ عَلَيْهِ الْخَطَا بِالِاتِّفَاقِ. وَلَكَمَا أَقْدَمَ الْخَضِرُ عَلَى قَتْلِ ذَلِكَ الْعُلَامِ، الَّذِي لَمْ يَلْعَلِ الْحُلْمُ، عِلْمًا مِنْهُ بِأَنَّهُ إِذَا بَلَغَ يَكْفُرُ، وَيَحْمِلُ أُبُوبَهُ عَنِ الْكُفْرِ؛ لِشِدَّةِ مَحَبَّتِهِمَا لَهُ، فَيَتَابَعَانِي عَلَيْهِ، فَفِي قَتْلِهِ مَصْلَحَةٌ عَظِيمَةٌ تَرْبُو عَلَى بَقَاءِ مُهْجَتِهِ؛ صِبَاةً لِأُبُوبِهِ عَنِ الْوُفُوعِ فِي الْكُفْرِ وَعُقُوبَتِهِ، دَلَّ ذَلِكَ عَلَى نُبُوَّتِهِ، وَأَنَّهُ مُؤَيَّدٌ مِنَ اللَّهِ بِعِصْمَتِهِ. الرَّابِعُ: أَنَّهُ لَمَّا فَسَّرَ الْخَضِرُ تَأْوِيلَ تِلْكَ الْأَفَاعِيلِ لِمُوسَى، وَوَضَحَ لَهُ عَنْ حَقِيقَةِ أَمْرِهِ، وَجَلَّى، قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ كَلِمَةً: ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ يعني: مَا فَعَلْتُهُ مِنْ تَلَفٍّ نَفْسِي، بَلْ أَمَرْتُ بِهِ، وَأَوْحَى إِلَيَّ فِيهِ، فَدَلَّتْ هَذِهِ الْوُجُوهُ عَلَى نُبُوَّتِهِ. وَلَا يَنَافِي ذَلِكَ حُصُولَ وَلَايَتِهِ، بَلْ وَلَا رِسَالَتَهُ، كَمَا قَالَ آخَرُونَ. [البداية والنهاية (٢/ ٨٤٢ - ٩٤٢)]. وقال الله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ والرحمة وردت في القرآن بمعنى النبوة، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْشِيِّينَ عَظِيمٍ﴾ (٣١) أَهْمَرْتَهُمْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ١٣ - ٢٣]

صنعي لأني علمت من غيب علم ربي ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ أي كيف تصبر على أمر ظاهره منكر وأنت لا تعلم باطنه؟ ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ أي قال موسى: ستراني صابراً ولا أعصي أمرك إن شاء الله ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ شرط عليه قبل بدء الرحلة ألا يسأله ولا يستفسر عن شيء من تصرفاته حتى يكشف له سرها، فقبل موسى شرطه رعاية لأدب المتعلم مع العالم. والمعنى لا تسألني عن شيء مما أفعله حتى أبينه لك بنفسي ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ أي انطلق موسى والخضر يمشيان على ساحل البحر حتى مرت بهما سفينة فعفرها الخضر فحملوها بدون أجر فلما ركبوا السفينة عمد الخضر إلى فأس فقلع لوحاً من ألواح السفينة بعد أن أصبحت في لجة البحر ﴿قَالَ أَخَرَقَهَا لِتُغْرَقَ أَهْلُهَا﴾ أي قال له موسى مستنكراً: أخرقت السفينة لتغرق الركاب؟ ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أي فعلت شيئاً عظيماً هائلاً، يروى أن موسى لما رأى ذلك أخذ ثوبه فجعله مكان الخرق ثم قال للخضر: قوم حملونا بغير أجر عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهل السفينة لقد فعلت أمراً منكراً عظيماً! ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أي ألم أخبرك من أول الأمر أنك لا تصبر على ما ترى من صناعي؟ ذكره بلطف في مخالفته الشرط ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ أي لا تؤاخذني بمخالفتي الشرط ونسياني العهد ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ أي لا تكلفني مشقة في صحبتي إياك وعاملني باليسر لا بالعسر ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ أي فقبل عذره وانطلقا بعد نزولهما من السفينة يمشيان فمرّا بغلامٍ يلعبون وفيهم غلام وضيء الوجه جميل الصورة فأمسكه الخضر واقتلع رأسه بيده ثم رماه في الأرض ﴿قَالَ أَفَقَتَلْتَ نَفْسًا رَّكِيَةً يَغْيِرُ نَفْسٍ﴾ أي قال موسى: أقتلت نفساً طاهرة لم ترتكب جرماً ولم تقتل نفساً حتى تقتل به ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ أي فعلت شيئاً منكراً عظيماً لا يمكن السكوت عنه، لم يكن موسى ناسياً في هذه المرة ولا غافلاً ولكنه قاصداً أن يُنكر المنكر الذي لا يصبر على وقوعه بالرغم من تذكره لوعده، وقال هنا ﴿نُكْرًا﴾ أي منكراً فظيعاً وهو أبلغ من قوله ﴿إِمْرًا﴾ في الآية السابقة، ذكر «القرطبي» أن موسى عليه السلام لما قال للخضر ﴿أَفَقَتَلْتَ نَفْسًا رَّكِيَةً﴾ غضب واقتلع كتف الصبي الأيسر وقشر اللحم عنه فإذا مكتوب في عظم كتفه كافر لا يؤمن بالله أبداً^(١) ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أي ألم أقُلْ

(١) «تفسير القرطبي» ٢٢/١١. (ش): نقله الإمام «القرطبي» عن كتاب «عرائس المجالس» للثعلبي، ص ١٣٤، عن قتادة بدون إسناد، ولو صح الإسناد إلى قتادة فبينه وبين موسى عليه السلام مئات أو آلاف السنين فقد كان مؤلده في سنة ستين للهجرة. وكتاب «عرائس المجالس» فيه الكثير من الأخبار الواهية والإسرائيليات، فلا ينبغي الاعتماد عليه لمن لا يميز صحيح الحديث من ضعيفه، والثعلبي - رحمه الله - قد انتقده العلماء في رواياته للأحاديث والأخبار، حيث يروي كثيراً من الأحاديث الموضوعية أي المكذوبة.

لك أنت على التعيين والتحديد لن تستطيع الصبر على ما ترى مني؟ قال المفسرون: وقَّره في الأول فلم يواجهه بكاف الخطاب فلما خالف في الثاني واجهه بقوله ﴿لَكَ﴾ لعدم العذر هنا، ويعود موسى لنفسه ويجد أنه خالف وعده مرتين، فيندفع ويقطع على نفسه الطريق ويجعلها آخر فرصة أمامه^(١) ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي﴾ أي إن أنكرت عليك بعد هذه المرة واعتزضت على ما يصدر منك فلا تصحِّبني معك ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ أي قد أعذرت إلي في ترك مصاحبتي فأنت معذورٌ عندي لمخالفتي لك ثلاث مرات ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا آتَيْنَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعْنَا أَهْلَهَا فَأَبْوَأْنَا أَنْ يُضَيَّفُوهُمَا﴾ أي مشيا حتى وصلا إلى قرية قال ابن عباس: هي أنطاكية فطلبا طعاما وكان أهلها لثاما لا يطعمون جائعا، ولا يستضيفون ضيفا، فامتنعوا عن إضافتهم أو إطعامهم ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ أي وجدا في القرية حائطًا مائلا يوشك أن يسقط ويقع ﴿فَأَقَامَهُ﴾ أي مسحه الخضر بيده فاستقام، وقيل: إنه هدمه ثم بناه وكلاهما مروى عن ابن عباس^(٢) ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي قال له موسى لو أخذت منهم أجرا نستعين به على شراء الطعام! أنكر عليه موسى صنيع المعروف مع غير أهله، روي أن موسى قال للخضر: «قوم استطعمناهم فلم يطعمونا، وضيئناهم فلم يضيئونا ثم قعدت تبني لهم الجدار لو شئت لاتخذت عليه أجرا» ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ أي قال الخضر: هذا وقت الفراق بيننا حسب قولك ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِمَا أَوْيَلَ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي سأخبرك بحكمة هذه المسائل الثلاث التي أنكرتها علي ولم تستطع عليها وفي الحديث «رحم الله أخي موسى لو ددت أنه صبر حتى يقص الله علينا من أمرهما ولو لبث مع صاحبه لأبصر العجب»^(٣) ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ هذا بيان وتفصيل للأحداث العجيبة التي رآها موسى ولم يُطِّقْ لها صبرا. والمعنى أما السفينة التي خرقتها فكانت لأناس ضعفاء لا يقدرّون على مدافعة الظلمة يشتغلون بها في البحر بقصد التكبس ﴿فَارْدَتْ أَنْ أَعْيِبَهَا﴾ أي أردت بخرقها

(١) (ش): يندفع: يتسرع.

(٢) (ش): في «البخاري» أن الخضر أقامه بيده فاستقام.

(٣) هذا جزء من حديث أخرجه الشيخان. (ش): قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى لَوَدِدْتُ أَنَّهُ كَانَ صَبْرًا حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِهِمَا». [رَوَاهُ مُسْلِمٌ]. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَعَلَى مُوسَى، لَوْلَا أَنَّهُ عَجَلَ لَرَأَى الْعَجَبَ، وَلَكِنَّهُ أَخَذْتَهُ مِنْ صَاحِبِهِ ذِمَامَةً». [رَوَاهُ مُسْلِمٌ]. (ذِمَامَةٌ): اسْتِحْيَاءٌ، وَقِيلَ: مَلَامَةٌ. (أَخَذْتَهُ مِنْ صَاحِبِهِ ذِمَامَةً): أَيِ أَصَابَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ صَاحِبِهِ الْخَضِرِ اسْتِحْيَاءً أَوْ مَلَامَةً لِيَتَكَرَّرَ مُخَالَفَتُهُ. (وَفِي رِوَايَةٍ: وَلَوْ صَبَرَ لَرَأَى الْعَجَبَ) [رَوَاهُ مُسْلِمٌ]. وَفِي رِوَايَةٍ: «رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَعَلَى مُوسَى، لَوْلَا أَنَّهُ عَجَلَ لَرَأَى الْعَجَبَ» [رَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي «السنن الكبرى» بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ]. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِلَفْظٍ: «رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَعَلَى مُوسَى لَوْ صَبَرَ لَرَأَى مِنْ صَاحِبِهِ الْعَجَبَ» [وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ].

أن أجعلها معيبة لئلا يغتصبها الملك الظالم ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ أي كان أمامهم ملك كافر ظالم ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ أي يغتصب كل سفينة صالحة لا عيب فيها ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ أي وأما الغلام الذي قتلته فكان كافرًا فاجرًا وكان أبواه مؤمنين وفي الحديث «إِنَّ الْغُلَامَ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طُبِعَ كَافِرًا وَلَوْ عَاشَ لَأَرْهَقَ أَبَوَيْهِ طُغْيَانًا وَكُفْرًا»^(١) ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي فخشنا أن يحملهما حبه على اتباعه في الكفر والضلال ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا كَانَتْ لَهُمَا زُكُوةٌ وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي فأردنا بقتله أن يرزقهما الله ولدًا صالحًا خيرًا من ذلك الكافر وأقرب برًا ورحمة بوالديه ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَتْ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ أي وأما الجدار الذي بنّيته دون أجر والذي كان يوشك أن يسقط فقد خبئ تحته كنز من ذهب وفضة لغلامين يتيمين ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ أي وكان والدهما صالحًا تقيًا فحفظ الله لهما الكنز لصالح الوالد^(٢) قال المفسرون: إن صلاح الأبناء ينفع الأبناء، وتقوى الأصول تنفع الفروع ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ أي فأراد الله بهذا الصنيع أن يكبرا ويشد عودهما ويستخرجا كنزهما من تحت الجدار ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ أي رحمة من الله بهما لصالح أبيهما ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ﴾ أي ما فعلت ما رأيت من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار عن رأيي واجتهادي، بل فعلته بأمر الله وإلهامه ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي ذلك تفسير التي لم تستطع الصبر عليها وعارضت فيها قبل أن أخبرك عنها.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

- ١ - الطباق بين ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ وبين ﴿نَسِيتُ﴾.. ﴿وَأَذْكُرُ﴾.
- ٢ - اللف والنشر المرتب ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ﴾ ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ﴾ فقد جاء بها مرتبة بعد ذكر ركوب السفينة وقتل الغلام وبناء الجدار بطريق اللف والنشر المرتب وهو من المحسنات البديعية.
- ٣ - الحذف بالإيجاز ﴿كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ أي صالحة حذف لدلالة لفظ «أعيها» وكذلك حذف لفظ كافر من ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ﴾ لدلالة قوله تعالى ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾.
- ٤ - التغليب ﴿أَبَوَاهُ﴾ المراد باللفظ أبوه وأمه.
- ٥ - الاستعارة ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ لأن الإرادة من صفات العقلاء وإسنادها إلى الجدار من لطيف الاستعارة وبليغ المجاز كقول الشاعر:

(١) رواه مسلم.

(٢) قيل: إنه الأب السابع، وظاهر اللفظ أنه أبوهما مباشرة وهو الأرجح.

- يُرِيدُ الرُّمْحُ صَدْرَ أَبِي بَرَاءٍ وَيَرْعَبُ عَنْ دِمَائِ بَنِي عَقِيلٍ ^(١)
- ٦ - التنكير للتفخيم والإضافة للتشريف ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾.
- ٧ - السجع مراعاة لرؤوس الآيات مثل ﴿نَضْبًا.. سَرَبًا.. عَجَبًا﴾.
- ٨ - تعليم الأدب ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ وهناك قال ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ حيث أسند ما ظاهره شر لنفسه وأسند الخير إلى الله تعالى، وذلك لتعليم العباد الأدب مع الله جل وعلا.

«قصة موسى والخضر كما في الصحيحين»

عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ أنه قال: إِنَّ مُوسَى قَامَ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ: «أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟» فَقَالَ: «أَنَا»، فَعَتَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ، إِذْ لَمْ يَرُدِّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ، إِنَّ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ ^(٢)، هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قَالَ مُوسَى: «يَا رَبِّ، فَكَيْفَ لِي بِهِ؟». قَالَ: «تَأْخُذْ حُوتًا» ^(٣) فَتَجْعَلْهُ فِي مِكْتَلٍ ^(٤) فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَهُوَ ثَمٌّ ^(٥).

فَأَخَذَ حُوتًا فَجَعَلْهُ فِي مِكْتَلٍ، ثُمَّ انْطَلَقَ، وَانْطَلَقَ مَعَهُ فَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ وَمَعَهُمَا الْحُوتُ حَتَّى إِذَا أَتَيَا الصَّخْرَةَ، فَتَزَلَّ عَنْدَهَا فَوْضَعَا رُءُوسَهُمَا فَنَامَا وَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمِكْتَلِ، فَخَرَجَ مِنْهُ، فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ، فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ^(٦)، وَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنِ الْحُوتِ جَرِيَةَ الْمَاءِ ^(٧)، فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْلُ الطَّاقِ ^(٨). فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نَسِيَ صَاحِبَهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِالْحُوتِ، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمٍ مَّهِمَا وَلَيْلَتَهُمَا، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ: «أَتَنَا غَدَاءُنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا» ^(٩). قَالَ وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى النَّصَبَ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ. فَقَالَ فَتَاهُ: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قال: فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا، وَلِمُوسَى وَلِفَتَاهُ عَجَبًا ^(١٠). فَقَالَ

(١) «تفسير الطبري» ١٥ / ٢٨٩.

(٢) (ش): (مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ): مُلْتَقَى الْبَحْرَيْنِ. أَيَّ حَيْثُ التَّقَى الْبَحْرَانِ.

(٣) (ش): (حُوتٌ): سَمَكَةٌ صَغِيرَةٌ كَانَتْ أَوْ كَبِيرَةً.

(٤) (ش): (مِكْتَلٌ): وَعَاءٌ مِثْلُ الْقَفَّةِ: وَعَاءٌ مِنْ خُوصٍ أَوْ نَحْوِهِ لِحَمْلِ الْبَضَائِعِ وَغَيْرِهَا.

(٥) (ش): (ثَمٌّ): هُنَاكَ.

(٦) (ش): (فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ) أَيَّ طَرِيقَهُ (فِي الْبَحْرِ سَرَبًا): أَيَّ طَرِيقًا كَالنَّفَقِ.

أَيَّ أَخَذَ يَسْبُحُ فِيهِ، وَكَانَ يُشَقُّ شَقًّا، وَيَتْرَكُ وَرَاءَهُ مِثْلُ السَّرَبِ (النَّفَقِ).

(٧) (ش): (جَرِيَةَ الْمَاءِ) حَالَةً جَرِيَانِهِ.

(٨) (ش): (الطَّاقُ) الثَّقْبُ غَيْرُ النَّافِذِ.

(٩) (ش): (النَّصَبُ): التَّعَبُ.

(١٠) (ش): (فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا) أَيَّ: مُسَلَّكًا. (وَلِمُوسَى وَلِفَتَاهُ عَجَبًا) لَمَّا تَذَكَّرَا، فَرَجَعَا، تَعَجَّبَا مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى

إِحْيَاءِ الْحُوتِ، وَمِنْ إِمْسَاكِ جَرِيِ الْمَاءِ حَتَّى صَارَ بِحَيْثُ يَسْلُكُ فِيهِ.

مُوسَى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَاذْتَدَاعَىٰٓ أَثَارُهُمَا قَصَصًا﴾ قال: رجعا يَقْصَانِ أَثَارَهُمَا^(١)، حَتَّىٰ انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، فَإِذَا هُوَ مُسَجَّى^(٢)، يَثُوبُ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى، فَقَالَ الْخَضِرُ: «وَأَنْتَىٰ بِأَرْضِكَ السَّلَامُ»^(٣) مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا مُوسَى. قَالَ: «مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟». قَالَ: «نَعَمْ، أَتَيْتَكَ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا». ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ يَا مُوسَى، إِنِّي عَلَىٰ عِلْمٍ مِّنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ اللَّهُ، لَا تَعْلَمُهُ، وَأَنْتَ عَلَىٰ عِلْمٍ مِّنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكَهُ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ، فَقَالَ مُوسَى: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: ﴿فَإِنْ أَتَبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ فَاِنْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ فَمَرَّتْ سَفِينُهُ، فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمْ، فَعَرَفُوا الْخَضِرَ، فَقَالُوا: «عَبْدُ اللَّهِ الصَّالِحُ؟ لَا نَحْمِلُهُ بِأَجْرٍ». فَحَمَلُوهُمْ بِغَيْرِ نَوْلٍ - أي بدون أجر -، فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ، لَمْ يَفْجَأْ إِلَّا وَالْخَضِرُ قَدْ قَلَعَ لَوْحًا مِّنْ أَلْوَا حِ السَّفِينَةِ بِالْقُدُومِ^(٤)، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: «قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ»^(٥)، عَمَدَتْ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقَتْهَا ﴿لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾^(٦). قَالَ: «أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا». قَالَ: «لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا». قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَكَاثَتِ الْأُولَىٰ مِنْ مُّوسَى نِسْيَانًا»^(٧) وَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَفَقَرَ فِي الْبَحْرِ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ^(٨)، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ الْخَضِرُ: «مَا عَلِمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ، إِلَّا مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ». ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ، فَبَيْنَمَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ، إِذْ أَبْصَرَ الْخَضِرُ غُلَامًا يَلْعَبُ مَعَ الْغُلَمَانِ، فَأَخَذَ الْخَضِرُ رَأْسَهُ فَاقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ فَقَتَلَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: ﴿أَقْتَلْتَ نَفْسًا رَّكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾^(٩) ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ قَالَ سُفْيَانُ^(١٠):

(١) (ش): أَي رَجَعَا مِنَ الطَّرِيقِ الَّذِي سَلَكَاهُ يَتَّبِعَانِ أَثَارَ سِيرِهِمَا.

(٢) (ش): (مُسَجَّى): مُعْطَى.

(٣) يعني من أين السلام في هذه الأرض التي لا يعرف فيها السلام؟ (ش): وَكَانَتْهَا كَانَتْ بِلَادَ كُفْرٍ أَوْ كَانَتْ تَحِيَّتُهُمْ بِغَيْرِ السَّلَامِ، وَفِي الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ هَلِيخَكَ تَسْلُتُكَ وَمَنْ دُونَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مِنَ الْغَيْبِ إِلَّا مَا عَلَّمَهُمُ اللَّهُ إِذْ لَوْ كَانَ الْخَضِرُ يَعْلَمُ كُلَّ غَيْبٍ لَعَرَفَ مُوسَى عَلَيْهِمُ السَّلَامَ قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَهُ.

(٤) (ش): (الْقُدُومُ): أَلَّةٌ لِلنَّجْرِ وَالنَّحْتِ.

(٥) (ش): (بِغَيْرِ نَوْلٍ): بِغَيْرِ أَجْرَةٍ.

(٦) (ش): (إِمْرًا): مُنْكَرًا.

(٧) (ش): قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَكَاثَتِ الْأُولَىٰ مِنْ مُّوسَى نِسْيَانًا وَالْوُسْطَىٰ شَرْطًا، وَالثَّالِثَةُ عَمْدًا». [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ]. وَالشَّرْطُ قَوْلُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَدُنِّي عُذْرًا﴾.

(٨) (ش): فَفَقَرَ فِي الْبَحْرِ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ: أَي غَمَسَ مِنْقَارُهُ فِي الْبَحْرِ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ.

(٩) (ش): (نُكْرًا): مُنْكَرًا، وَقِيلَ: النُّكْرُ أَشَدُّ مِنَ الْإِمْرِ.

(١٠) (ش): الْقَائِلُ هُوَ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ، وَقَدْ بَيَّنَّتْ ذَلِكَ رَوَايَةُ الْإِمَامِ أَحْمَدُ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ: «قَالَ سُفْيَانُ: قَالَ عَمْرُو: «وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى».

وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى ^(١). ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ فَأَنْطَلَقَا ﴿حَتَّى إِذَا أَنْيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُصَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ ^(٢)﴾ فَقَامَ الْخَضِرُ فَأَقَامَهُ بِيَدِهِ فَاسْتَقَامَ. فَقَالَ مُوسَى: «قَوْمٌ آتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُطْعِمُونَا، وَلَمْ يُصَيِّفُونَا» لَوْ شِئْتَ لَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ^(٣). قَالَ: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأْنِيكَ بِأَوَّلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى لَوَدِدْتُ أَنَّهُ كَانَ صَبْرًا حَتَّى يَقْصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِهِمَا» أخرجه الشيخان.

تنبيه: قال العلامة «القرطبي»: «كَرَامَاتُ الْأَوْلِيَاءِ ثَابِتَةٌ، عَلَى مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَخْبَارُ الثَّابِتَةُ، وَالْآيَاتُ الْمُتَوَاتِرَةُ وَلَا يَنْكُرُهَا إِلَّا الْمُبْتَدِعُ الْجَاوِدُ، أَوْ الْفَاسِقُ الْحَايِدُ، فَالْآيَاتُ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي حَقِّ مَرِيَمَ مِنْ ظُهُورِ الْفَوَاكِهِ الشَّتَوِيَّةِ فِي الصَّيْفِ، وَالصَّيْفِيَّةِ فِي الشِّتَاءِ وَمَا ظَهَرَ عَلَى يَدَيْهَا حَيْثُ أَمَرَتِ النَّخْلَةَ وَكَانَتْ يَابِسَةً فَأَثْمَرَتْ، وَهِيَ لَيْسَتْ بِنَبِيَّةٍ، عَلَى الْخِلَافِ. وَيَدُلُّ عَلَيْهَا مَا ظَهَرَ عَلَى يَدِ الْخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ خَرَقِ السَّيْفِيَّةِ، وَقَتْلِ الْغُلَامِ، وَإِقَامَةِ الْجِدَارِ» ^(٣) ا.هـ.

قال الله تعالى:

﴿وَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ^(٨٣)﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَانْتَهَى مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلًا ^(٨٤) فَأَنْبَغُ سَبِيلًا ^(٨٥) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَنْدَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ^(٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكُورًا ^(٨٧) وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ^(٨٨) ثُمَّ أَنْبَغُ سَبِيلًا ^(٨٩) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَبِيلًا ^(٩٠) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ^(٩١) ثُمَّ أَنْبَغُ سَبِيلًا ^(٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ^(٩٣) قَالُوا يَنْدَا الْقَرْنَيْنِ إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ^(٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ^(٩٥) ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلُهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ^(٩٦) فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَصْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ^(٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ^(٩٨) وَرَكَعًا بَعْضُهُمْ يَوْمِيذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ^(٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ^(١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ^(١٠١) أَفَحَسِبَ

(١) (ش): (وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى) أَيِ أَوْكَدُ مِنَ الْأُولَى، حَيْثُ زَادَ كَلِمَةَ (لَكَ).

(٢) (ش): أَيِ مَائِلٌ.

(٣) «القرطبي» ٢٨/١١ (ش): تقدم أن الحافظ ابن كثير رجَّح أن الْخَضِرَ عليه السلام كان نبيًّا، وقال: إن سِيَاقَ الْقِصَّةِ قَدْ دَلَّ عَلَى بُيُوتِهِ مِنْ وَجْهِهِ.

الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَخَذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَوَخَّذُوا بِآيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنفَذَ كَلِمَتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُ الْبَشَرِ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى قصة الخضر أعقبها بقصة ذي القرنين ورحلاته الثلاث إلى المغرب والشرق، وإلى السدين، وبنائه للسد في وجه «يا جوج ومأجوج» وهي القصة الرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة، وجميعها ترتبط بالعقيدة والإيمان، وهو الهدف الأصيل للسورة الكريمة.

اللغة: (ذو القرنين) هو الإسكندر المقدوني^(١) وهو ملك صالح أعطي العلم والحكمة، سمي بذو القرنين لأنه ملك مشارق الأرض ومغاربها وكان مسلماً عادلاً قال الشاعر:

قَدْ كَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ قَبْلِي مُسْلِمًا مَلِكًا عَلَا فِي الْأَرْضِ غَيْرُ مُفْنَدٍ
بَلَغَ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ يَتَنَغَّى أَسْبَابَ مُلْكٍ مِنْ كَرِيمٍ سَيِّدٍ^(٢)

﴿حِمَّةٌ﴾ كثيرة الحمأة وهي الطينة السوداء ﴿سَدًا﴾ السد: الحاجز والحائل بين الشيئين ﴿رَدْمًا﴾ الردم. السد المنيع وهو أكبر من السد لأن الردم ما جعل بعضه على بعض حتى يصبح كالحجاب المنيع فالردم الحاجز الحصين المتين ﴿زُبُرُ الْحَدِيدِ﴾ قطع الحديد مفردة زبرة وهي القطعة ﴿الْصَّدَفَيْنِ﴾ جانبا الجبل قال أبو عبيدة: الصدف كل بناء عظيم مرتفع ﴿قَطْرًا﴾ القطر: النحاس المذاب ﴿نَقَبًا﴾ خرقاً وثقباً ﴿دَكَاةً﴾ مدكوكاً مسوى بالأرض قال الأزهري: دكته أي دققته ﴿يَمُوجٌ﴾ يختلط ويضطرب ﴿الْفِرْدَوْسُ﴾ قال الفراء: البستان الذي فيه العنب وقال ثعلب: كل بستان يحوط عليه فهو فردوس^(٣).

سبب النزول: أ - قال قتادة: إن اليهود سألوا النبي ﷺ عن ذي القرنين فأنزل الله ﴿وَسْأَلُونَا عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ...﴾ الآية^(٤).

ب - قال مجاهد: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أتصدق، وأصل

(١)راجع أن ذا القرنين ملك مسلم من ملوك اليمن.

(٢) «التفسير الكبير» للرازي ١٦٤/٢١. (ش): المُفْنَدُ: الشيخ الذي كثر كلامه من الحرف، ضعيف الرأي.

(٣) «البحر المحيط» ١٥٧/٦.

(٤) «أسباب النزول» ١٧٢. (ش): ضعيف، رواه الواحدي في «أسباب النزول».

الرحم، ولا أصنع ذلك إلا لله تعالى، فيذكر ذلك مني وأحمد عليه فيسرنى ذلك وأعجب به، فسكت رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً فأنزل الله ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(١).

التفسير: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ أي يسألك اليهود يا محمد عن ذي القرنين ما شأنه؟ وما قصته؟ ﴿قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي قل لهم سأقص عليكم من نبئه وخبره قرآنًا ووحياً ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلاً﴾ أي يسرنا له أسباب الملك والسلطان والفتح والعمران، وأعطيناه كل ما يحتاج إليه للوصول إلى غرضه من أسباب العلم والقدرة والتصرف قال المفسرون: ذو القرنين هو «الإسكندر اليوناني»^(٢) ملك المشرق والمغرب فسمي ذا القرنين، وكان ملكاً مؤمناً مكن الله له في الأرض فعدل في حكمه وأصلح، وكان في الفترة بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما روي أن الذين ملكوا الأرض أربعة: مؤمنان وكافران، أما المؤمنان فإسليمان وذو القرنين، وأما الكافران فنمرود ويخنتنصر^(٣) ﴿فَأَلْبَعَسَ سَبِيلاً﴾ أي سلك طريقه الذي يسره الله له وسار جهة المغرب ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ أي وصل المغرب ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي وجد الشمس تغرب في ماء وطنين - حسب ما شاهد لا حسب الحقيقة - فإن الشمس أعظم من أن تدخل في عين من عيون الأرض قال «الرازي»: إن ذا القرنين لما بلغ أقصى المغرب ولم يبق بعده شيء من العمارات وجد الشمس كأنها تغرب في عين وهدة^(٤) مظلمة وإن لم تكن كذلك في الحقيقة كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر إذا لم ير الشط وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر^(٥) ﴿وَوَجَدَهَا قَوْمًا﴾ أي وجد عند تلك العين الحارة ذات الطين قوماً من الأقوام ﴿قُلْنَا يَذَّاقُوا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ أي قلنا له بطريق الإلهام: إما أن تقتلهم أو تدعوهم بالحسنى إلى الهداية والإيمان قال المفسرون: كانوا كفاراً فخيرهم الله بين أن يعذبهم بالقتل، أو يدعوهم إلى الإسلام فيحسن إليهم ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ﴾ أي من أصر على الكفر فسوف نقتله ﴿ثُمَّ يَرْدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾ أي ثم يرجع إلى ربه فيعذبه عذاباً منكرًا فظيعاً في نار جهنم ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ﴾ أي وأما من آمن بالله وأحسن العمل في الدنيا وقدم الصالحات

(١) «تفسير القرطبي» ١١ / ٧٠. (ش): ضعيف، رواه الواحدي في «أسباب النزول».

(٢) (ش): تقدم ترجيح المؤلف أن ذا القرنين ملك مسلم من ملوك اليمن.

(٣) «البحر المحيط» ٦ / ١٥٧.

(٤) (ش): وهدة: أرض منخفضة، هوة في الأرض.

(٥) «التفسير الكبير» ٢١ / ١٦٦.

فجزاؤه الجنة يتنعم فيها ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ، مِنْ أَمْرٍ آتٍ﴾ أي نيسر عليه في الدنيا فلا نكلفه بما هو شاق بل بالسهل الميسر، اختار الملك العدل دعوتهم بالحسنى فمن آمن فله الجنة، والمعاملة الطيبة، والمعونة والتيسير، ومن بقي على الكفر فله العذاب والنكال في الدنيا والآخرة ﴿ثُمَّ أُنْبِئْ سَبَّأًا﴾ أي سلك طريقاً بجنده نحو المشرق ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ أي حتى وصل أقصى المعمورة من جهة الشرق حيث مطلع الشمس في عين الراي ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ أي وجد الشمس تشرق على أقوام ليس لهم من اللباس والبناء ما يسترهم من حر الشمس فإذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب تحت الأرض، وإذا غربت خرجوا لمكاسبهم قال قتادة: مضى ذو القرنين يفتح المدائن ويجمع الكنوز ويقتل الرجال إلا من آمن حتى أتى مطلع الشمس فأصاب قوماً في أسراب عراة، ليس لهم طعام إلا ما أنضجته الشمس إذا طلعت، حتى إذا زالت عنهم الشمس خرجوا من أسرابهم في طلب معاشهم، وذكر لنا أنهم كانوا في مكان لا يثبت عليه بنيان ويقال إنهم الزنج^(١) ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ أي كذلك فعل بأهل المشرق من آمن تركه ومن كفر قتله كما فعل بأهل المغرب وقد أحطنا علماً بأحواله وأخباره، وعتاده وجنوده، فأمره من العظمة وكثرة المال بحيث لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير ﴿ثُمَّ أُنْبِئْ سَبَّأًا﴾ أي سلك طريقاً ثالثاً بين المشرق والمغرب يوصله جهة الشمال حيث الجبال الشاهقة ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ أي حتى إذا وصل إلى منطقة بين حاجزين عظيمين، بمنقطع أرض بلاد الترك مما يلي أرمينية وأذربيجان قال «الطبري»: والسَّد: الحاجز بين الشيئين وهما هنا جبلان سُدَّ ما بينهما، فردم ذو القرنين حاجزاً بين يأجوج ومأجوج من ورائهم ليقطع مادة غوائلهم وشرهم عنهم^(٢) ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أي وجد من وراء السدين قوماً متخلفين لا يكادون يعرفون لساناً غير لسانهم إلا بمشقة وعسر قال المفسرون: إنما كانوا لا يفقهون القول لغرابة لغتهم، وبطء فهمهم، وبعدهم عن مخالطة غيرهم، وما فهم كلامهم إلا بواسطة ترجمان ﴿قَالُوا يَٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي قال القوم لذي القرنين: إن يأجوج ومأجوج - قبيلتان من بني آدم في خلقهم تشويهُ، منهم مفرط في الطول، ومنهم مفرط في القصر^(٣) - قوم مفسدون بالقتل والسلب والنهب وسائر وجوه الشر قال المفسرون: كانوا من أكلة لحوم البشر، يخرجون في الربيع فلا يتركون أخضر إلا أكلوه، ولا يابساً إلا احتملوه ﴿فَهَلْ يَجْعَلْ لَكَ خَرْجًا﴾ أي هل نفرض

(١) «زاد المسير» ١٨٧/٥، و«تفسير الطبري» ١٤/١٦.

(٢) «تفسير الطبري» ١٥/١٦.

(٣) روى ذلك عن علي وابن عباس.

لك جزءاً من أموالنا كضريبة وخراج ﴿عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ أي لتجعل سدّاً يحميننا من شر يأجوج ومأجوج قال في البحر: هذا استدعاء منهم لقبول ما يبذلونه على جهة حسن الأدب^(١) ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي ما بسطه الله عليّ من القدرة والمُلك خير مما تبذلونه لي من المال ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي لا حاجة لي إلى المال فأعينوني بالأيدي والرجال ﴿أَجْعَل بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ أي أجعل بينكم وبينهم سداً منيعاً، وحاجزاً حصيناً، وهذه شهامة منه حيث رفض قبول المال وتطوَّع ببناء السد واكتفى بعون الرجال ﴿أَتُؤْتِي زُبْرَ الْحَدِيدِ﴾ أي أعطوني قطع الحديد واجعلوها لي في ذلك المكان ﴿حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ أي حتى إذا ساوى البناء بين جانبي الجبلين ﴿قَالَ انْفُخُوا﴾ أي انفخوا بالمنافخ عليه ﴿حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ أي جعل ذلك الحديد المترام كالنار بشدة الإحماء ﴿قَالَ أَتُؤْتِي أُفْرَغَ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أي أعطوني أصبُّ عليه النحاس المذاب قال «الرازي»: لما أتوه بقطع الحديد وضع بعضها على بعض حتى صارت بحيث تسدُّ ما بين الجبلين إلى أعلاهما ثم وضع المنافخ عليها حتى إذا صارت كالنار صبَّ النحاس المذاب على الحديد المحمي فالتصق بعضه ببعض وصار جبلاً صلباً ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ أي فما استطاع المفسدون أن يعلوه ويتسوروه لعلوه وملاسته^(٢) ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ أي وما استطاعوا نقبه من أسفل لصلابته وثخنته، وبهذا السد المنيع أغلق ذو القرنين الطريق على يأجوج ومأجوج ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ أي قال ذو القرنين: هذا السدُّ نعمة من الله ورحمة على عباده ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي فإذا جاء وعد الله بخروج يأجوج ومأجوج وذلك قرب قيام الساعة ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أي جعله الله مستويًا بالأرض وعاد متهدماً كأن لم يكن بالأمس ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ أي كان وعده تعالى بخراب السدِّ وقيام الساعة كائنًا لا محالة.

وها هنا تنتهي قصة ذي القرنين، ثم يأتي الحديث عن أهوال الساعة وشدائد القيامة قال تعالى ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أي تركنا الناس يوم قيام الساعة يضطرب بعضهم ببعض - لكثرتهم - كاضطراب موج البحر ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ أي ونفخ في الصور النفخة الثانية فجمعناهم للحساب والجزاء في صعيد واحد جمعاً لم يتخلف منهم أحد ﴿وَعَرَّضْنَاهُمْ يُومِئذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا﴾ أي أبرزنا جهنم وأظهرناها للكافرين يوم جمع الخلائق حتى شاهدوها بأهوالها عرضاً مخيفاً مفزعاً ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ أي هم الذين كانوا في الدنيا عُمية عن دلائل قدرة الله ووحدانيته فلا ينظرون ولا يتفكرون ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أي لا يطيعون أن يسمعوا كلام الله تعالى لظلمة قلوبهم قال

(١) «البحر المحيط» ٦/ ١٦٤.

(٢) «التفسير الكبير» ٢١/ ١٧٢.

«أبو السعود»: وهذا تمثيل لإعراضهم عن الأدلة السمعية، وتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالأبصار فكأنهم عمي صم^(١) ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ أَوْلِيَاءَ﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ أي أظن الكافرون أن يتخذوا بعض عبادي آلهة يعبدونهم دوني كالملائكة وعزير والمسيح ابن مريم، وأن ذلك ينفعهم أو يدفع عنهم عذابي؟ قال «القرطبي»: جواب الاستفهام محذوف تقديره أفحسبوا أن ذلك ينفعهم، أو لا أعاقبهم^(٢) ﴿إِنَّا أَعْنَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ أي هيأنا جهنم وجعلناها ضيافة لهم كالنزل المعداد للضيف^(٣) قال «البيضاوي»: وفيه تهكم بهم وتنبية على أن لهم وراءها من العذاب ما تستحق جهنم دونه^(٤) ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكافرين هل نخبركم بأخسر الناس عند الله؟ ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي بطل عملهم وضاع في هذه الحياة الدنيا لأن الكفر لا تنفع معه طاعة قال الضحاك: هم القسيسون والرهبان يتعبدون ويظنون أن عبادتهم تنفعهم وهي لا تقبل منهم ﴿وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ أي يظنون أنهم محسنون بأفعالهم ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي كفروا بالقرآن وبالبعث والنشور فبطلت أعمالهم ﴿فَلَا نَقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ أي ليس لهم عند الله قيمة ولا وزن، ولا قدر ولا منزلة وفي الحديث «يؤتى بالرجل الطويل الأكل الشروب فلا يزن جناح بعوضة»^(٥) ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ أي ذلك جزاؤهم وعقوبتهم نار جهنم بسبب كفرهم واستهزائهم بآيات الله ورسله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي آمنوا بالله وعملوا بما يرضيه ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ أي لهم أعلى درجات الفردوس منازل مستقرًا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يطلبون عنها تحولا قال ابن رواحة: في جنات الفردوس ليس يخافون خروجاً عنها ولا تحويلاً ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ هذا تمثيل لسعة علم الله^(٦). والمعنى لو كانت بحار الدنيا حبراً ومداداً وكتبت به كلمات الله وحكمه وعجائبه^(٧) ﴿لَفِدَا الْبَحْرِ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ أي لفني ماء البحر على

(١) «أبو السعود» ٢٦٧/٣.

(٢) «تفسير القرطبي» ١١/٦٥.

(٣) (ش): التزل: مكان يهيا للضيف يأكل وينام فيه.

(٤) «البيضاوي» ١٣/٢.

(٥) ذكره الحافظ في «الفتح» ٨/٣٢٤. (ش): رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره»، والبيهقي في «شعب الإيمان» وضعفه الألباني. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلَ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَرَى عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ أَقْرَأَ» ﴿فَلَا نَقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾. [رواه البخاري ومسلم].

(٦) (ش): هذا تأويل لكلمات الله سبحانه وتعالى بغير معناها الحقيقي، فكلام الله تعالى غير علمه وكل منهما صفة مستقلة عن الأخرى، والمراد بكلمات الله كلماته الحقيقية التي بها يخلق ويرزق ويشرع ويأمر وينهى.

(٧) (ش): في الآية إثبات صفة الكلام لله - تعالى - حقيقة كما يليق بجلاله وكماله سبحانه.

كثرته وانتهى، وكلامُ الله لا ينفدُ لأنه غيرُ مُتناهٍ^(١) كعلمه جل وعلا ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ أي ولو أتينا بمثل ماء البحر وزدناه به حتى يكثر فإن كلام الله لا يتناهى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أي قل لهم يا محمد: إنما أنا إنسان مثلكم أكرمني الله بالوحي، وأمرني أن أخبركم أنه واحدٌ أحدٌ لا شريك له ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أي فمن كان يرجو ثواب الله ويخاف عقابه ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ أي فليخلص له العبادة ﴿وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ أي لا يرائي بعمله ولا يبتغ بما يعمل غير وجه الله، فإن الله لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الطباق بين ﴿مَطْلَعٍ..مَغْرَبٍ﴾.
- ٢ - التشبيه البليغ ﴿جَعَلَهُ نَارًا﴾ أي كالنار في الحرارة وشدة الاحمرار حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً.
- ٣ - الاستعارة ﴿يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ شبههم لكثرتهم وتداخل بعضهم في بعض بموج البحر المتلاطم واستعار لفظ يموج لذلك ففيه استعارة تبعية.
- ٤ - الاستعارة أيضاً ﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ أي كانوا ينظرون فلا يعتبرون وتعرض عليهم الآيات الكونية فلا يؤمنون، ولم تكن أعينهم حقيقةً في غطاء وحجاب وإنما هو طريق التمثيل.
- ٥ - الجناس الناقص ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ﴾ لتغير الشكل وبعض الحروف، ويسمى أيضاً جناس التصحيف.
- ٦ - الاستفهام الذي يراد به التوبيخ والتقريع ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا؟﴾
- ٧ - المقابلة اللطيفة ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ مقابل ﴿وَأَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ الآية.

لطيفة: كثيراً ما يرد في القرآن لفظ «حبط» وأصل الحبوط هو انتفاخ بطن الدابة حين تأكل نوعاً سائماً من الكلاء ثم تَلْقَى حَتْفَهَا، وهذا اللفظ أنسب شيء لوصف الأعمال فإنها تنتفخ وأصحابها يظنونها صالحة ناجحة رابحة ثم تنتهي إلى البوار.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الكهف»



(١) (ش): لا ينفدُ: لا ينتهي، غير مُتناهٍ: لا يُمكنُ أن تكون له نهاية.



مكية وآياتها ثمان وتسعون

بين يدي السورة

سورة مريم مكية، وغرضها تقرير التوحيد، وتنزيه الله جل وعلا عما لا يليق به، وتثبيت عقيدة الإيمان بالبعث والجزاء، ومحور هذه السورة يدور حول التوحيد، والإيمان بوجود الله^(١) ووحدانيته، وبيان منهج المهتدين، ومنهج الضالين.

* عرضت السورة الكريمة لقصص بعض الأنبياء مبتدئة بقصة نبي الله «زكريا» وولده «يحيى» الذي وهبه على الكبر من امرأة عاقر لا تلد، ولكن الله قادر على كل شيء يسمع دعاء المكروب، ويستجيب لنداء الملهوف، ولذلك استجاب الله دعاءه ورزقه الغلام النبیه.

* وعرضت السورة لقصة أعجب وأغرب، تلك هي قصة «مريم العذراء» وإنجابها لطفل من غير أب، وقد شاءت الحكمة الإلهية أن تبرز تلك المعجزة الخارقة بميلاد عيسى من أم بلا أب، لتظل آثار القدرة الربانية ماثلة أمام الأبصار، بعظمة الواحد القهار. * وتحدثت كذلك عن قصة إبراهيم مع أبيه، ثم ذكرت بالثناء والتبجيل رسل الله الكرام: «إسحاق، يعقوب، موسى، هارون، إسماعيل، إدريس، نوحًا» وقد استغرق الحديث عن هؤلاء الرسل الكرام حوالي ثلثي السورة، والهدف من ذلك إثبات «وحدة الرسالة» وأن الرسل جميعًا جاءوا لدعوة الناس إلى توحيد الله، ونبد الشرك والأوثان.

* وتحدثت السورة عن بعض مشاهد القيامة، وعن أهوال ذلك اليوم الرهيب، حيث يجثو فيه الكفرة المجرمون حول جهنم ليقذفوا فيها، ويكونوا وقودًا لها.

* وختمت السورة الكريمة بتنزيه الله عن الولد، والشريك، والنظير، وردت على ضلالات المشركين بأنصع بيان، وأقوى برهان.

التسمية: سميت «سورة مريم» تخليدًا لتلك المعجزة الباهرة، في خلق إنسان بلا أب، ثم إنطاق الله للوليد وهو طفل في المهد، وما جرى من أحداث غريبة رافقت ميلاد عيسى عليه السلام.

(١) (ش): توحيد الربوبية الذي منه الإقرار بوجود الله يُدَكَّر في القرآن للاستدلال به على توحيد العبادة لا لأجل إثباته لأنهم يُقرُّون به، والشواهد على هذا كثيرة حتى إبليس مُقَرَّب بوجود الله.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَهَيْعَصَ ① ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ، زَكَرِيَّا ② إِذْ نَادَى رَبَّهُ، نِدَاءً خَفِيًّا ③ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ④ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ⑤ يَرِنُّ بُرْتُ مِنْ أَلِ يَعْقُوبَ ⑥ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ⑦ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ⑧ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ⑨ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ⑩ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ⑪ يَبْجَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ⑫ وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً ⑬ وَكَانَ تَقِيًّا ⑭ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ⑮ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ⑯ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ⑰ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ⑱ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ⑲ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ⑳ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ㉑ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ㉒ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ㉓ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلِّتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا ㉔ فَنادَیْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ㉕ وَهَرَىٰ إِلَيْكِ الْجِذْعُ النَّخْلَةُ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ㉖ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَلَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ㉗ فَاتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا لِمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ㉘ بَتَّخَتِ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ㉙ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ تُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ㉚ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ㉛ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ㉜ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ㉝ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ㉞ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْدُونَ ㉟ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ㊱ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ㊲ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ㊳ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ㊴ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ㊵ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ

اللغة: ﴿وَهَنَ﴾ ضَعُفَ، يُقَالُ وَهَنَ يَهِنُ فَهُوَ وَاهِنٌ وَالْوَهْنُ ضَعْفُ الْقُوَّةِ ﴿وَاشْتَعَلَ﴾

الاشتعال انتشار شعاع النار ﴿عَاقِرًا﴾ العاقر: التي لا تلد لكِبَر سنها ﴿عِنْيًا﴾ العِتْي: النهاية في الكِبَر واليُس واليُس يقال: عتا الشيخ كِبُرٌ وَوَلَّى، قال الشاعر:

إِنَّمَا يُعْذَرُ الْوَلِيدُ وَلَا يُعْذَرُ
مَنْ كَانَ فِي الزَّمَانِ عِتْيًا^(١)
﴿وَحَنَانًا﴾ الحنان: الشفقة والرحمة والمحبة، وأصله من حَنِينِ الناقة على ولدها^(٢)،
وحنانيك تريد رحمتك^(٣) قال طرفة:

أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبَقَ بَعْضُنَا
حَنَانِيكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ^(٤)
﴿أَنْبَذْتُ﴾ ابتعدت وتنحّيت ﴿سَوِيًّا﴾ مستوي الخَلْقَةِ ﴿الْمَحَاضُ﴾ اشتداد وجع
الولادة والطلق ﴿سَرِيًّا﴾ السَّريُّ: النهر والجدول^(٥) لأن الماء يسري فيه ﴿فَرِيًّا﴾ الفري:
العظيم من الأمر.

التفسير: ﴿كَهَيْعَصَ﴾ حروف مقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن^(٦) وتقرأ: «كاف،
ها، يا، عين، صاد» ﴿ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ، ذَكَرِيًّا﴾ أي هذا ذكر رحمة ربك لعبده زكريا
نقضه عليك يا محمد ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ، نِدَاءً خَفِيًّا﴾ أي حين ناجى ربه ودعاه بصوت
خفي لا يكاد يُسمع قال المفسرون: لأن الإخفاء في الدعاء أدخل في الإخلاص وأبعد من
الرياء ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ أي دعا في ضراعة فقال يا رب: لقد ضعف عظمي،
وزهدت قوتي من الكبر ﴿وَأَسْتَعْلَ الرَّأْسُ سَكْبًا﴾ أي انتشر الشيب في رأسي انتشار النار
في الهشيم ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي لم تخيب دعائي في وقت من الأوقات
بل عودتني الإحسان والجميل فاستجب دعائي الآن كما كنت تستجيبه فيما مضى قال

(١) «تفسير القرطبي» ٨٣ / ١١.

(٢) (ش): حَنَّتِ الناقة: مَدَّتْ صَوْتَهَا شَوْقًا إِلَى ولدها.

(٣) (ش): الذي في تفسير «القرطبي» (٨٧ / ١١): وَالْعَرَبُ تَقُولُ: حَنَانُكَ يَا رَبَّ وَحَنَانِيكَ يَا رَبَّ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، تُرِيدُ رَحْمَتَكَ.

(٤) «البحر المحيط» ١٧٧ / ٦. (ش): أبو المنذر هو الحارث بن عباد من بني بكر بن وائل. شهد حرب البسوس بين قوم بكر بن وائل وتغلب بن وائل، وكان قد اعتزلها بقومه وأهل بيته ومن أطاعه من قبائل بكر حتى أسرف المهلهل في القتل وقتل ولده جبيرًا فلما علم بذلك ثارت به الحمية ونادى في قومه للحرب، وقال قصيدة طويلة تزيد عن مائة بيت، وجمع الحارث بن عباد قومه وبكر بن وائل لمواجهة تغلب. وحلف الحارث ألا يصالح بني تغلب حتى تُكَلِّمَهُ الأرض، فلما كثرت وقائعه في تغلب ورأوا أنهم لا يستطيعون حربه حفرُوا سربًا (أي نَقَعًا). تحت الأرض وأدخلوا فيه رجالًا وقالوا له: إذا مر بك الحارث فغنّ بهذا البيت:

أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبَقَ بَعْضُنَا
حَنَانِيكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ
فلما مر الحارث به قال الرجل هذا البيت، فأمسك الحارث عن حربهم واصطلحت قبيلتا بكر وتغلب وانتهت حرب البسوس.

(٥) (ش): الْجَدُول: مجرى صغير متفرّع من نهر، أو يُشَقُّ في الأرض للسَّقْيِ.

(٦) انظر ما كتبه في أول سورة البقرة.

«البيضاوي»: هذا توسلٌ بما سلف له من الاستجابة، وأنه تعالى عوّده بالإجابة وأطعمه فيها، ومن حقّ الكريم أن لا يخيب من أطعمه^(١) ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْلَىٰ مِنْ وَرَأَىٰ﴾ أي خفت بني العم والعشيرة من بعد موتي أن يضيّعوا الدين ولا يحسنوا وراثته العلم والنبوة ﴿وَكَاْنَتْ أُمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ أي لا تلد لكبر سنّها أو لم تلد قطّ ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ أي فارزقني من محض فضلك ولدًا صالحًا يتولاني ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ أي يرثني ويرث أجداده في العلم والنبوة قال «البيضاوي»: المراد وراثته الشرع والعلم فإن الأنبياء لا يورثون المال^(٢) ﴿وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أي اجعله يا رب مرضيًا عندك قال «الرازي»: قدّم زكريا عليه السلام على طلب الولد أموراً ثلاثة: أحدها: كونه ضعيفاً، والثاني: أن الله ما ردّ دعاءه البتة، والثالث: كون المطلوب بالدعاء سبباً للمنفعة في الدين ثم صرح بسؤال الولد وذلك مما يزيد الدعاء تأكيداً لما فيه من الاعتماد على حول الله وقوته والتبري عن الأسباب الظاهرة^(٣) ﴿يَرْزُقْنِي إِنَّا نَبْتَرُكَ بِغُلَامٍ أَسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾ أي نبشرك بواسطة الملائكة بغلام يسمى يحيى كما في آل عمران ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٩] ﴿لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي لم يسمّ أحدٌ قبله يحيى فهو اسم فذ غير مسبوق سمّاه تعالى به ولم يترك تسميته لوالديه وقال مجاهد: ليس له شبيه في الفضل والكمال ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ أي كيف يكون لي غلام؟ وهو استفهام تعجب وسرور بالأمر العجيب ﴿وَكَاْنَتْ أُمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ أي والحال أن امرأتي كبيرة السن لم تلد في شبابها فكيف وهي الآن عجوز! ﴿وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ أي بلغت في الكبر والشيخوخة نهاية العمر قال المفسرون: كان قد بلغ مائة وعشرين سنة، وامرأته ثمان وتسعين سنة، فأراد أن يطمئن ويعرف الوسيلة التي يرزقه بها هذا الغلام ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ﴾ أي قال الله لزكريا: هكذا الأمر أخلقه من شيخين كبيرين، وخلقه وإيجاده سهل يسير عليّ ﴿وَقَدْ خَلَقْتَكُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ أي كما خلقتك من العدم ولم تكن شيئاً مذكوراً فأنا قادر على خلق يحيى منكما قال المفسرون: ليس في الخلق هينٌ وصعبٌ على الله، فوسيلة الخلق للصغير والكبير، والجليل والحقير واحدة ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ وإنما هو أهونٌ في اعتبار الناس، فإن القادر على الخلق من العدم قادرٌ على الخلق من شيخين هرمين ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أي اجعل لي علامة تدل على حمل امرأتي ﴿قَالَ آيَتُكَ الْأَنْتُكَلِمَ النَّاسُ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي علامتك ألا

(١) «البيضاوي» ١٤ / ٢

(٢) «البيضاوي» ١٤ / ٢

(٣) «التفسير الكبير» ٢١ / ١٨١

تستطيع تكليم الناس ثلاثة أيام بلياليهن وأنت سويُّ الخلق ليس بك خرس ولا علة قال ابن عباس: اعتُقل لسانه من غير مرض وقال ابن زيد: حُبس لسانه فكان لا يستطيع أن يكلم أحداً وهو مع ذلك يسبح ويقرأ التوراة لم يكن الإنجيل ظهر بعد لأن هذا قبل ولادة عيسى عليه السلام فإذا أراد الناس لم يستطيع أن يكلمهم^(١) ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ أي أشرف عليهم من المصلّى وهو بتلك الصفة ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي أشار إلى قومه بأن سبّحوا الله في أوائل النهار وأواخره، وكان كلامه مع الناس بالإشارة لقوله تعالى في آل عمران ﴿قَالَ آيَاتُكَ أَلا تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١] ﴿بِيَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ في الكلام حذفٌ والتقدير فلما ولد يحيى وكبر وبلغ السن الذي يؤمر فيه قال الله له: يا يحيى خذ التوراة بجِد واجتهاد ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي أعطيناه الحكمة ورجاحة العقل منذ الصغر، روي أن الصبيان قالوا ليحيى: اذهب بنا نلعب فقال لهم: ما للعب خلقت، وقيل: أعطي النبوة منذ الصغر، والأول أظهر قال «الطبري»: المعنى أعطيناه الفهم لكتاب الله في حال صباه قبل بلوغه سن الرجال^(٢) ﴿وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً﴾ أي فعلنا ذلك رحمة منا بأبويه وعطفاً عليه وتركيةً له من الخصال الذميمة ﴿وَكَاثِبِيًّا﴾ أي عبداً صالحاً متقياً لله، لم يهَمَّ بمعصية قط قال ابن عباس: طاهرًا لم يعمل بذنوب ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ أي جعلناه باراً بأبيه وأمه محسناً إليهما ولم يكن متكبراً عاصياً لربه ﴿وَسَلِّمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي سلام عليه من الله من حين مولده إلى حين مبعثه، في يوم ولادته وفي يوم موته ويوم يُبعث من قبره قال ابن عطية: حياته في المواطن التي يكون الإنسان فيها في غاية الضعف، والحاجة، والافتقار إلى الله^(٣) ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ هذه هي القصة الثانية في هذه السورة وهي أعجب من قصة «ميلاد يحيى» لأنها ولادة عذراء من غير بعل، وهي أغرب من ولادة عاقرٍ من بعلها الكبير في السن. والمعنى اذكر يا محمد قصة مريم العجيبة الغريبة الدالة على كمال قدرة الله ﴿إِذْ أَنْبَأَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْفِيًّا﴾ أي حين تنحّت واعتزلت أهلها في مكان شرقي بيت المقدس لتتفرغ لعبادة الله ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أي جعلت بينها وبين قومها ستراً وحاجزاً ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ أي أرسلنا إليها جبريل عليه السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أي تصوّر لها في صورة البشر التام الخلقة قال ابن عباس: جاءها في صورة شاب أبيض الوجه جعد الشعر مستوى الخلقة قال المفسرون: إنما تمثل لها في

(١) «تفسير الطبري» ١٦ / ٥٢.

(٢) «تفسير الطبري» ١٦ / ٥٥.

(٣) «تفسير القرطبي» ١١ / ٨٨.

صورة الإنسان لتسأنس بكلامه ولا تنفر عنه، ولو بدا لها في الصورة الملكية لنفرت ولم تقدر على السماع لكلامه، ودلّ على عفافها وورعها أنها تعوذت بالله من تلك الصورة الجميلة الفائقة في الحسن ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ أي فلما رأته فزعت وخشيت أن يكون إنما أرادها بسوء فقالت: إني أحتمي وألتجئ إلى الله منك، وجواب الشرط محذوف تقديره إن كنت تقياً فاتركني ولا تؤذني ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ أي قال لها جبريل مزيلاً لما حصل عندها من الخوف: ما أنا إلا ملكٌ مرسلٌ من عند الله إليك ليهب لك غلاماً طاهراً من الذنوب ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ أي كيف يكون لي غلام؟ وعلى أيّ صفة يوجد هذا الغلام مني؟ ﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ أي ولست بذات زوج حتى يأتيني ولد ولست بزانية ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾ أي كذلك الأمر حكم ربك بمجيء الغلام منك وإن لم يكن لك زوج، فإن ذلك على الله سهل يسير ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي وليكون مجيئه دلالة للناس على قدرتنا العجيبة ورحمة لهم ببعثته نبياً يهتدون بإرشاده ﴿وَكَاثَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي وكان وجوده أمراً مفروضاً منه لا يتغير ولا يتبدل لأنه في سابق علم الله الأزلي ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ انتهى الحوار بين الروح الأمين ومريم العذراء قال المفسرون: إن جبريل نفخ في جيب درعها فدخلت النفخة في جوفها فحملت به وتنحت إلى مكان بعيد. ومعنى الآية أنها حملت بالجنين فاعتزلت - وهو في بطنها - مكاناً بعيداً عن أهلها خشية أن يعيروها بالولادة من غير زوج ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِئِغ النَّخْلَةِ﴾ أي فآلجأها ألم الطلق وشدة الولادة إلى ساق نخلة يابسة لتعتمد عليه عند الولادة ﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا﴾ أي قالت: يا ليتني كنت قد مت قبل هذا اليوم وكنت شيئاً تافهاً لا يعرف ولا يذكر قال ابن كثير: عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود فتمنت الموت لأنها عرفت أن الناس لا يصدقونها في خبرها، وبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عاهرة زانية ولذلك قالت ما قالت ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي﴾ أي فنادها الملك من تحت النخلة قائلاً لها: لا تحزني لهذا الأمر^(١) ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ أي جعل لك جدولاً صغيراً يجري أمامك قال ابن عباس: ضرب جبريل برجله الأرض فظهرت

(١) (ش): اختلف المفسرون في المراد بذلك من هو؟ فقيل: جبريل، أي: ناداهَا مِنَ اسْفَلِ الْوَادِي، وَلَمْ يَتَكَلَّمْ عِيسَى حَتَّى أَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا. وقيل: عيسى ابنها. أي ناداهَا الْمَوْلُودُ مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي يَا أُمُّهُ. قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: «أَوَّلَ مَا تَسْمَعُ اللَّهُ يَقُولُ: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ [مريم: ٢٩؟]»، واختاره ابن جرير «الطبري» في «تفسيره»، وقال: وَلَمْ تُشِرْ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ إِلَّا وَقَدْ عَلِمَتْ أَنَّهُ نَاطِقٌ فِي حَالِهِ تِلْكَ، وَلِلَّذِي كَانَتْ قَدْ عَرَفَتْ وَوَقَّعَتْ بِهِ مِنْهُ بِمُخَاطَبَتِهِ إِيَّاهَا بِقَوْلِهِ لَهَا: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾.

عين ماء عذب فجرى جدولاً ﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ أي حركي جذع النخلة اليابسة ﴿سُقِطَ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾ أي يتساقط عليك الرطب الشهي الطري قال المفسرون: أمرها بهز الجذع اليابس لترى آية أخرى في إحياء موات الجذع بعد رؤيتها عين الماء العذب الذي جرى جدولاً، وذلك ليسكن ألمها وتعلم أن ذلك كرامة من الله لها ﴿فَكُلِّي وَأَشْرَبِي﴾ أي كلي من هذا الرطب الشهي، واشربي من هذا الماء العذب السلسيل ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أي طيبي نفسك بهذا المولود ولا تحزني ﴿فَإِمَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أي فإن رأيت أحداً من الناس وسألك عن شأن المولود ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ أي نذرت السكوت والصمت لله تعالى ﴿فَلَنُؤْكِلَمُ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ أي لن أكلم أحداً من الناس.

أمرت بالكف عن الكلام ليكفيها ولدها ذلك فتكون آية باهرة ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ أي أنت قومها بعد أن طهرت من النفاس تحمل ولدها عيسى على يديها ﴿قَالُوا يَمْرَأَتُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ أي فلما رأوها وابنها أعظموا أمرها واستنكروه وقالوا لها: لقد جئت شيئاً عظيماً منكراً ﴿يَتَّخِذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءًا﴾ أي يا شبيهة هارون في الصلاح والعبادة ما كان أبوك رجلاً فاجراً ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ أي وما كانت أمك زانية فكيف صدر هذا منك وأنت من بيت طاهر معروف بالصلاح والعبادة؟ قال قتادة: كان هارون رجلاً صالحاً في بني إسرائيل مشهوراً بالصلاح فشبها (١) به، وليس بهارون أخي موسى لأن بينهما ما يزيد على ألف عام وقال السهيلي: هارون رجل من عباد بني إسرائيل المجتهدين كانت مريم تُشَبَّه به في اجتهادها وليس بهارون أخي موسى بن عمران فإن بينهما دهرًا طويلاً (٢) ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أي لم تُجِبْهم وأشارت إلى عيسى ليكلّمه ويسألوه ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أي قالوا متعجبين: كيف نكلّم طفلاً رضيعاً لا يزال في السرير يغتذي بلبان أمه؟ قال «الرازي»: روي أنه كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه وكلّمهم، ثم لم يتكلّم حتى بلغ مبلغاً يتكلّم فيه الصبيان (٣) ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ أي قال عيسى في كلامه حين كلّمهم: أنا عبدُ الله خلّقني بقدرته من دون أب، قدم ذكر العبودية، ليُبطل قول من ادّعى فيه الربوبية ﴿ءَاتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ أي قضى ربي أن يؤتيني الإنجيل ويجعلني نبياً، وإنما جاء بلفظ الماضي لإفادته تحقيقه فإن ما حكم به الله ألا لا بدّ إلا أن يقع ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ أي جعل في البركة

(١) «تفسير الطبري» ١٦ / ٧٧.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢ / ٤٥٠.

(٣) «التفسير الكبير» ٢١ / ٢٠٨.

والخير والنفع للعباد حيثما كنت وأينما حللت ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ أي أوصاني بالمحافظة على الصلاة والزكاة مدة حياتي ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْ﴾ أي وجعلني بارًّا بوالدي محسنًا لها ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أي ولم يجعلني متعظمًا متكبرًا على أحد شقيًّا في حياتي ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي سلام الله علي في يوم ولادتي، وفي يوم مماتي، وفي يوم خروجي حيًّا من قبري، هذا ما نطق به المسيح عليه السلام وهو طفل رضيع في المهد وهكذا يعلن عيسى عبوديته لله، فليس هو إلهًا، ولا ابن إله، ولا ثالث ثلاثة كما يزعم النصارى، إنما عبدٌ ورسول، يحيا ويموت كسائر البشر، خلقه الله من أم دون أب ليكون آية على قدرة الله الباهرة، ولهذا جاء التعقيب المباشر ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي ذلك هو القول الحق في عيسى بن مريم لا ما يصفه النصارى من أنه ابن الله، أو اليهود من أنه ابن زنى ويشكون في أمره ويمترون ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ أي ما ينبغي لله ولا يجوز له أن يتخذ ولدًا ﴿سُبْحَنَهُ﴾ أي تنزه الله عن الولد والشريك ﴿إِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي إذا أراد شيئًا وحكم به قال له كن فكان، ولا يحتاج إلى معاناة أو تعب، ومن كان هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد؟ قال المفسرون: وهذا كالدليل لما سبق كأنه قال: إن اتخاذا الولد شأن العاجز الضعيف المحتاج الذي لا يقدر على شيء، وأما القادر الغني الذي يقول للشيء ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ فلا يحتاج في اتخاذا الولد إلى إحبال الأنثى وحيث أوجده بقوله ﴿كُنْ﴾ لا يسمى ابنًا له بل هو عبده، فهو تبيكت وإلزام لهم بالحجج الباهرة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي ومما أمر به عيسى قومه وهو في المهد أن أخبرهم أن الله ربه وربهم فليفردوه بالعبادة هذا هو الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أي اختلفت الفرق من أهل الكتاب في أمر عيسى وصاروا أحزابًا متفرقين، فمنهم من يزعم أنه ابن الله، ومنهم من يزعم أنه ابن زنى ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي ويلٌ لهم من المشهد الهائل ومن شهود هول الحساب والجزاء ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ أي ما أسمعهم وأبصرهم في ذلك اليوم الرهيب ﴿لَكِنَّ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي لكن الظالمون في هذه الدنيا في بعدٍ وغفلة عن الحق واضح جلي ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ أي أنذر الخلائق وخوفهم يوم القيامة يوم يتحسر المسيء إذ لم يُحسن، والمقصر إذ لم يزد من الخير ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي قضي أمر الله في الناس، فريق في الجنة وفريق في السعير ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ أي وهم اليوم في غفلة سادرون ^(١) ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يصدقون بالبعث والنشور ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ

(١) (ش): سادِرٌ: مُسْتَهْتَرٌ، لَا يَهْتَمُّ بِمَا صَنَعَ وَلَا يُبَالِي.

عَلَيْهَا ﴿ أَي نَحْنُ الْوَارِثُونَ لِلْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهَا مِنَ الْكُنُوزِ وَالْبَشَرِ ﴾ ﴿ وَإِنَّا يُرْجَعُونَ ﴾ أَي مَرَجَعِ الْخَلَائِقِ وَمَصِيرِهِمْ إِلَيْنَا لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ .

البَلَاغَةُ: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

- ١ - الكناية ﴿ وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ كناية عن ذهاب القوة وضعف الجسم .
- ٢ - الاستعارة ﴿ وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ شبه انتشار؛ الشيب وكثرته باشتعال النار في الحطب واستعير الاشتعال للانتشار واشتق منه اشتعل بمعنى انتشر ففيه استعارة تبعية .
- ٣ - الطباق بين ﴿ وُلِدَ .. يَمُوتُ ﴾ .
- ٤ - جناس الاشتقاق ﴿ نَادَى .. نِدَاءً ﴾ .
- ٥ - الكناية اللطيفة ﴿ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ﴾ كناية عن المعاشرة الزوجية بالجماع .
- ٦ - صيغة التعجب ﴿ أَسْمِعْ .. وَأَبْصِرْ ﴾ .
- ٧ - السجع ﴿ سَرِيًّا ، بَغِيًّا ، صَبِيًّا ، نَبِيًّا ﴾ وهو من المحسنات البديعية .

تنبيه: في يوم القيامة تشتد الحسرات حتى لكأن اليوم ممحض للحسرة لا شيء فيه سواها، وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري أن الرسول ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون - أي يمددون أعناقهم - وينظرون ويقولون نعم هذا الموت، ثم يقال، يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، فيؤمر به فيذبح ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت ثم قرأ ﴿ وَأَنْذَرُهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ .. ﴾ الآية .

قال الله تعالى:

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْ مَا لَا يَشْعُرُ وَلَا يَبْصُرُ وَلَا يَفْقَهُ عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَتَّبِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَتَّبِعْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَتَّبِعْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَتَّبِعُهُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رِجِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزَلَكُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَادْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَذَرْنَاهُ فِي جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَّقْنَاهُ يَحْيَىٰ ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَأَذْكُرُ فِي

الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَيْشًا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفُنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا

المناسبة: لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى «قِصَّةَ مَرْيَمَ» وَاخْتِلَافَ النَّصَارَى فِي شَأْنِ عِيسَى حَتَّى عَبْدُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، أَعَقَبَهَا بِذِكْرِ «قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ» وَتَحْطِيطِهِ الْأَصْنَامَ لِتَذْكِيرِ النَّاسِ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ مِنْ تَوْحِيدِ الرَّبِّ الدِّيَانِ، وَسَوَاءٌ فِي الضَّلَالِ مِنْ عَبْدٍ بَشَرًا أَوْ عَبْدٍ حَجَرًا، فَالنَّصَارَى عَبْدُوا الْمَسِيحِ، وَمَشْرُكُو الْعَرَبِ عَبْدُوا الْأَوْثَانِ.

اللغة: ﴿صِدِّيقًا﴾ مِنْ أُنْبِيَاءِ الْمُبَالِغَةِ وَمَعْنَاهُ كَثِيرُ الصَّدَقِ ﴿مَلِيًّا﴾ دَهْرًا طَوِيلًا مِنْ قَوْلِهِمْ: أَمَلَيْتُ لِفُلَانٍ فِي الْأَمْرِ إِذَا أَطْلُتْ لَهُ، قَالَ الشَّاعِرُ:

فَتَصَدَّعَتْ شُمُّ الْجِبَالِ لِمَوْتِهِ وَبَكَتْ عَلَيْهِ الْمُرَمَّلَاتُ مَلِيًّا ^(١)
 ﴿حَفِيًّا﴾ الْحَفِيُّ: الْمُبَالِغُ فِي الْبِرِّ وَاللُّطْفِ بِهِ ﴿خَلْفٌ﴾ الْخَلْفُ: بِسُكُونِ اللَّامِ الَّذِي يَخْلَفُ سَلْفَهُ بِالشَّرِّ، وَبِفَتْحِهَا الَّذِي يَخْلَفُهُ بِالْخَيْرِ، يَقَالُ: جَعَلَكَ اللَّهُ خَيْرَ خَلْفٍ لَخَيْرِ سَلَفٍ، وَقَالَ الشَّاعِرُ:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَتْ فِي خَلْفٍ كَحِلْدِ الْأَجْرَبِ ^(٢)
 ﴿غِيًّا﴾: شَرًّا وَضَلَالًا قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: كُلُّ شَرٍّ عِنْدَ الْعَرَبِ فَهُوَ غِيٌّ، وَكُلُّ خَيْرٍ فَهُوَ رِشَادٌ.

سَبَبُ النُّزُولِ: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا جَبْرِيلُ مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا» فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ هَرُونَ﴾. ﴿الْآيَةُ﴾ ^(٣).

التفسير: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أَيِ أَذْكُرُ يَا مُحَمَّدُ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ أَيِ مُلَازِمًا لِلصَّدَقِ مُبَالِغًا فِيهِ، جَامِعًا بَيْنَ

(١) «البحر المحيط» ٦/ ١٩٥. (ش): شَمَّ الْجِبَلُ وَنَحْوُهُ: ارْتَفَعَ أَعْلَاهُ. أَرَمَلَتْ الْمَرْأَةُ: مَاتَ زَوْجُهَا.

(٢) الْبَيْتُ لِلْبَيْدِ كَذَا فِي «الرَّازِي» ٢١/ ٢٣٥. (ش): كَنَفٌ: رِعَايَةٌ. يَتَحَسَّرُ الشَّاعِرُ لِفَقْدِ ذَوِي الْمَرْوَةِ، وَالْمَصِيرُ إِلَى لُثَامٍ لَا خَيْرَ فِيهِمْ.

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ.

الصّدّيقية والنبوة والغرض تنبيه العرب إلى فضل إبراهيم الذي يزعمون الانتساب إليه ثم يعبدون الأوثان مع أنه إمام الحنفاء وقد جاء بالتوحيد الصافي الذي دعاهم إليه خاتم المرسلين ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ أي ناداه متلطفًا بخطابه، مستميلًا له نحو الهداية والإيمان، يا أبت لم تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر، ولا يجلب لك نفعاً أو يدفع عنك ضرراً؟ ﴿يَتَّبِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ كرّر النصيح باللطف ولم يصف أباه بالجهل الشنيع في عبادته للأصنام وإنما ترفق وتلطف في كلامه أي جاءني من العلم بالله ومعرفة صفاته القدسية ما لا تعلمه أنت ﴿فَأَتَّبَعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ أي اقبل نصيحتي وأطعني أرشدك إلى طريق مستقيم فيه النجاة من المهالك وهو دين الله الذي لا عوج فيه ﴿يَتَّبِعْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ أي لا تطع أمر الشيطان في الكفر وعبادة الأوثان ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ أي إن الشيطان عاصٍ للرحمن، مستكبرٌ على عبادة ربه، فمن أطاعه أغواه، قال «القرطبي»: وإنما عبّر بالعبادة عن الطاعة لأن من أطاع شيئاً في معصية الله فقد عبده ^(١) ﴿يَتَّبِعْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ تحذيرٌ من سوء العاقبة. والمعنى أخاف أن تموت على كفرك فيحل بك عذاب الله الأليم وتكون قريباً للشيطان بالخلود في النيران قال الإمام الفخر: وإيراد الكلام بلفظ ﴿يَتَّبِعْ﴾ في كل خطاب دليل على شدة الحب والرغبة في صونه عن العقاب، وإرشاده إلى الصواب، وقد رتب إبراهيم الكلام في غاية الحسن، لأنه نبّهه أولاً إلى بطلان عبادة الأوثان، ثم أمره باتباعه في الاستدلال وترك التقليد الأعمى، ثم ذكره بأن طاعة الشيطان غير جائزة في العقول، ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الإقدام مع رعاية الأدب والرفق، وقوله ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ دليل على شدة تعلق قلبه بمصالحه قضاءً لحق الأبوّة ^(٢) ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَتَّبِعُهُمْ﴾ أي قال له أبوه أزر: أتارك يا إبراهيم عبادة آلهتي ومنصرفاً عنها؟ استفهامٌ فيه معنى التعجب والإنكار لإعراضه عن عبادة الأوثان كأن ترك عبادتها لا يصدر عن عاقل ^(٣) قال «البيضاوي»: قابل أبوه استعطافه ولطفه في الإرشاد بالفظاظة وغلظة العناد، فناده باسمه ولم يقابل قوله ﴿يَتَّبِعْ﴾ بـ «يا ابني» وقدم الخبر وصدّره بالهمزة لإنكار نفس الرغبة كأنها مما لا يرغب عنها عاقل، ثم هدّده بقوله ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أي لئن لم تترك شتم وعيب آلهتي لأرجمنك بالحجارة ﴿وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾ أي اهجرني دهنراً طويلاً قال السدي: أبداً. بهذه الجهالة تلقى «أزر» الدعوة إلى

(١) «تفسير القرطبي» ١١/ ١١١.

(٢) «التفسير الكبير» ٢١/ ٢٢٦.

(٣) «البيضاوي» ١٧/ ٢.

الهدى، وهذه القسوة قابل القول المؤدّب المهدّب، وكذلك شأن الكفر مع الإيمان، وشأن القلب الذي هدّبه الإيمان، والقلب الذي أفسده الطغيان ﴿قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي﴾ أي قال إبراهيم في جوابه: أمّا أنا فلا ينالك مني أذى ولا مكروه، ولا أقول لك بعد ما يؤذيك لحُرمة الأبوة، وسأسأل الله أن يهديك ويغفر لك ذنبك^(١). ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ أي مبالغاً في اللطف بي والاعتناء بشأني ﴿وَأَعَزَّنَا فِي الدُّنْيَا﴾ أي أترككم وما تعبدون من الأوثان وأرتحل عن دياركم ﴿وَأَدْعُوا رَبِّي﴾ أي وأعبد ربي وحده مخلصاً له العبادة ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ أي راجياً بسبب إخلاصي العبادة له ألا يجعلني شقيّاً، وفيه تعريض بشقاوتهم بدعاء الهتهم. وهكذا اعتزل إبراهيم أباه وقومه وعبادتهم للأوثان، وهجر الأهل والأوطان، فلم يتركه الله وحيداً بل وهب له ذرية وعوّضه خيراً ﴿فَلَمَّا أَتَتْهُمْ وَأَعَازِلُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ قال المفسرون: لما هاجر إبراهيم إلى أرض الشام، واعتزل أباه وقومه في الله، أبدله الله من هو خيرٌ منهم، فوهب له إسحاق ويعقوب أولاداً أنبياء، فأنس الله بهما وحشته عن فراق قومه بأولئك الأولاد الأطهار، ويعقوب ابن إسحاق، وهما شجرتا الأنبياء فقد جاء من نسلهما أنبياء بني إسرائيل قال ابن كثير: المعنى جعلنا له نسلًا وعقبًا أنبياء، أقر الله بهم عينه في حياته بالنبوّة^(٢) ولهذا قال ﴿وَكَلَّاجَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ أي كل واحدٍ منهما جعلناه نبياً ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ أي أعطينا الجميع - إبراهيم وإسحاق ويعقوب - كل الخير الديني والدنيوي، من المال والولد والعلم والعمل ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ أي جعلنا لهم ذكراً حسناً في الناس، لأن جميع أهل الملل والأديان يشنون عليهم لما لهم من الخصال المرضية، ويصلون على إبراهيم وعلى آله إلى قيام الساعة، قال «الطبري»: أي رزقناهم الثناء الحسن، والذكر الجميل في الناس^(٣) ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى﴾ أي اذكر يا محمد لقومك في القرآن العظيم خبر موسى الكليم ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ أي استخلصه الله لنفسه، واصطفاه من بين الخلق لكلامه ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ أي من الرسل الكبار، والأنبياء الأطهار، جمع الله له بين الوصفين الجليلين، وإنما أعاد لفظ «كان» لتفخيم شأن النبي المذكور ﴿وَنَذِيرَةً مِّنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ أي نادينا موسى من جهة جبل الطور من ناحية

(١) (ش): قال الله تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (١١٣) ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأبيه إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤].

(٢) «المختصر» ٢/ ٤٥٤.

(٣) «تفسير الطبري» ١٦/ ٩٣.

اليمن حين كلمناه بلا واسطة ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ أي أدتينا للمناجاة حين كلمناه قال ابن عباس: أدنى موسى من الملكوت ورفعت له الحجب حتى سمع صريف الأقلام^(١) قال الزمخشري: شبهه بمن قرّبه بعض العظماء للمناجاة حيث كلمه بغير واسطة ملك ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ أي وهبنا له من نعمتنا عليه أخاه هارون فجعلناه نبياً إجابة لدعائه حين قال ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾ ﴿هَارُونَ أَخِي﴾ [طه: ٢٩ - ٣٠] جعلناه له عضداً وناصرًا ومعيناً ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾ أي اذكر يا محمد في القرآن العظيم خبر جدك «إسماعيل» الذبيح ابن إبراهيم، وهو أبو العرب جميعاً ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ أي كان صادقاً في وعده، لا يعد بوعده إلا وفي به قال المفسرون: وذكر بصدق الوعد وإن كان موجوداً في غيره من الأنبياء تشريفاً وإكراماً، ولأنه عانى في الوفاء بالوعد ما لم يعاناه غيره من الأنبياء، فمن مواعيده الصبر وتسليم نفسه للذبح فلذلك أثنى الله عليه ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ أي جمع الله له بين الرسالة والنبوة قال ابن كثير: وفي الآية دليل على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق لأنه إنما وُصف بالنبوة فقط، وإسماعيل وُصف بالنبوة والرسالة^(٢)، ومن إسماعيل جاء خاتم المرسلين محمد ﷺ ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ أي كان يحث أهله على طاعة الله، وبخاصة الصلاة التي هي عماد الدين، والزكاة التي بها تتحقق سعادة المجتمع ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ رَاضِيًّا﴾ أي نال رضى الله قال «الرازي»: وهذا نهاية المدح لأن المرضي عند الله هو الفائز في كل طاعته بأعلى الدرجات^(٣) ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا أي اذكر يا محمد في الكتاب الجليل خبر إدريس إنه كان ملازماً للصدق في جميع أحواله، موحى إليه من الله قال المفسرون: إدريس هو جد نوح، وأول مرسل بعد آدم، وأول من خط بالقلم وليس المخيط، وكانوا من قبل يلبسون الجلود، وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ أي رفعنا ذكره وأعلينا قدره، بشرف النبوة والزلفى عند الله^(٤) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ أي أولئك المذكورون هم أنبياء الله ورسله الكرام، الذين قصصنا عليك خبرهم في هذه السورة - وهم عشرة أولهم زكريا وآخرهم إدريس - وهم الذين أنعم الله عليهم بشرف النبوة ﴿مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ أي من نسل آدم كإدريس

(١) «البحر المحيط» ١٩٩/٦. (ش): صريف الأقلام: صوتها. عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢] قَالَ: «سَمِعَ صَرِيفَ الْقَلَمِ حِينَ كَتَبَ فِي اللَّوْحِ» [رواه الحاكم في «المستدرک» وصححه ووافقه الذهبي].

(٢) «المختصر» ٤٥٦/٢.

(٣) «الفخر الرازي» ٢٣٢/٢١.

(٤) وقيل المراد رفعه إلى السماء الرابعة. (ش): قَالَ ﷺ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ: ثُمَّ عَرَجَ بَنَّا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قَالَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ فَرَحَبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ [رواه البخاري ومسلم].

﴿وَمَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ كإبراهيم فإنه من ذرية سام بن نوح ﴿وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ كإسماعيل وإسحاق ويعقوب ﴿وَإِسْرَءِيلَ﴾ أي ومن ذرية إسرائيل وهو «يعقوب» كموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ﴿وَمَنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ أي وممن هديناهم للإيمان واصطفيناهم لرسالتنا ووحينا ﴿إِذْ أَنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ أي إذا سمعوا كلام الله سجدوا وبكوا من خشية الله مع ما لهم من علو الرتبة، وسمو النفس، والزلفى من الله تعالى، قال «القرطبي»: وفي الآية دلالة على أن آيات الرحمن تأثيراً في القلوب ^(١) ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ﴾ أي جاء من بعد هؤلاء الأتقياء قوم أشقياء، تركوا الصلوات وسلكوا طريق الشهوات ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ أي سوف يلقون كل شر وخسار ودمار، قال ابن عباس: غيٌّ وادٍ في جهنم، وإن أودية جهنم لتستعبد بالله من حره ^(٢) ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي إلا من تاب وأصاب وأصلح عمله ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ أي فأولئك يسعدون في الجنة ولا يُنقصون من جزاء أعمالهم شيئاً ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي هي جنات إقامة التي وعدهم بها ربهم فآمنوا بها بالغيب قبل أن يروها تصديقاً بوعده تعالى ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ أي إن وعده تعالى بالجنة آتٍ وحاصل لا يخلف ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ أي لا يسمعون في الجنة شيئاً من فضول الكلام، لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم على وجه التحية والإكرام، والاستثناء منقطع ^(٣) ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَرْفُوعٌ فِيهَا بُكْرَةٌ وَعِشْيَا﴾ أي ولهم ما يشتهون في الجنة من أنواع المطاعم والمشارب بدون كد ولا تعب، ولا تنغص ولا انقطاع ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ أي هذه الجنة التي وصفنا أحوال أهلها هي التي نورثها لعبادنا المتقين ﴿وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ هذا من كلام جبريل لرسول الله ﷺ حين احتبس عنه فترة من الزمن. والمعنى: ما ننزل إلى الدنيا إلا بأمر الله وإذنه ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي لله جل وعلا جميع الأمر، أمر الدنيا والآخرة، وهو المحيط بكل شيء لا يخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة، فكيف نقدم على فعل شيء إلا بأمره وإذنه؟ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي لا ينسى شيئاً من أعمال العباد ﴿زَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ﴾ أي هو رب العوالم علويها وسفليها فاعبده وحده ﴿وَأَصْطِرِبْ لِعَذَابِنَا﴾ أي اصبر على تكاليف العبادة ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أي هل تعلم له شبيهاً ونظيراً؟

(١) «تفسير القرطبي» ١١ / ١٢٠.

(٢) «تفسير القرطبي» ١١ / ١٢٥.

(٣) (ش): الاستثناء المُنْقَطِعُ: هو ما كان المُسْتَشْنَى ليس من نَوْعِ المُسْتَشْنَى منه نحو: جاء بَنُوكَ إِلَّا ابْنُ خَالِدٍ يعني جاء بنوك لكن ابن خالد لم يأت.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبدیع نوجزها فيما يلي:

١ - الكناية اللطيفة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ كنى عن الذكر الحسن والثناء الجميل باللسان، لأن الثناء يكون باللسان فلذلك قال ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾ كما يكنى عن العطاء باليد.

٢ - الاستعارة ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ شبه المكانة العظيمة والمنزلة السامية بالمكان العالي بطريق الاستعارة.

٣ - المبالغة ﴿صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ أي مبالغاً في الصدق.

٤ - الإشارة بالبعيد لعلو المرتبة ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ﴾ فما فيه من معنى البعد للإشادة بعلو رتبهم وبعده منزلتهم في الفضل.

٥ - الجناس الناقص ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ لتغير الحركات والشكل.

٦ - الطباق ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ وبين ﴿بُكْرَةً.. وَعَشِيًّا﴾.

٧ - السجع الحسن الرصين ﴿عَلِيًّا، حَقِيًّا، نَبِيًّا﴾.

فائدة: في قول إبراهيم عليه السلام «يا أبت» تطفء واستدعاء، والتاء عوض عن ياء الإضافة لأن أصله «يا أبي» ولهذا لا يجمع بينهما.

تنبيه: ذكر السيوطي في «التحبير» أن إبراهيم عليه السلام عاش من العمر مائة وخمسة وسبعين سنة، وبينه وبين آدم ألف سنة، وبينه وبين نوح ألف سنة، ومنه تفرعت شجرة الأنبياء.

قال الله تعالى:

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِثُّ لَسَوْفَ أُخْرَجَ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَهْبًا أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أُولَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَلَئِنْ مَنَعْتُمُ الْإِلَهَ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا نُتِلَّىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِءْيَا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ أَحْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ، مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ

تَرَانَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ
نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ
إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾
تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخِزُّ الْجِبَالِ هَذَا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾
وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾
لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ
وُنَذِرَ بِهِ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا

المناسبة: لما ذكر تعالى طائفة من قصص الأنبياء للعة والاعتبار، وكان الغرض الأساسي للسورة الكريمة إثبات قدرة الله على الإحياء والإفناء، وإثبات يوم المعاد، ذكر تعالى هنا بعض شبهات المكذبين للبعث والنشور وردَّ عليها بالحجج القاطعة، والبراهين الساطعة، وختم السورة الكريمة ببيان مآل السعداء والأشقياء.

اللغة: ﴿جِئْتُمْ﴾ جمع جاثٍ يقال: جثا إذا قعد على ركبتيه من شدة الهول وهي قعدة الخائف الذليل، قَالَ الْكَمَيْتُ:

هُم تَرَكُوا سَرَائِهِمْ جِئًا وَهُمْ دُونَ السَّرَاةِ مُقَرَّنِينَ ^(١)
﴿عَيْنًا﴾ عصياناً وتمرداً عن الحق ﴿نَدِيًّا﴾ النَّدِيُّ والنادي: الذي يجتمع فيه القوم للحدث والمشورة قال الجوهري: النَّدِيُّ مجلس القوم ومُتَحَدِّثُهُمْ ^(٢) وكذلك الندوة والنادي فإن تفرقوا فليس بنَدِيٍّ ^(٣) ﴿أَثْنًا﴾ الأثاث: متاع البيت ﴿وَرِيًّا﴾ منظراً حسناً ﴿تَوَزُّهُمْ﴾ الأثر: التهيج والإغراء، قال أهل اللغة: الأثر والهز والاستفزاز متقاربة ومعناها التهيج وشدة الإزعاج، ومنه أزيز المرجل وهو غليانه وحركته ﴿وَفْدًا﴾ جمع وفد وهو الذي يُقَدَّمُ على سبيل التكرمة معززاً مكرماً ﴿وَرْدًا﴾ مُشَاءً عطاشاً قال «الرازي»: والورد اسم للعطاش لأن مَنْ يَرِدُ الماء لا يَرِدُهُ إِلَّا للعطش ^(٤) ﴿إِذَا﴾ منكرأ عظيماً قال الجوهري: الإِذُّ: الداهية والأمر الفظيع ﴿رِكْزًا﴾ الرکز: الصوت الخفي.

سَبَبُ النِّزُول: عن خباب بن الأرت قال: كنت رجلاً قيناً - أي حداداً - وكان لي على

(١) «تفسير القرطبي» ١١/١٣٣. (ش): سَراة: جمع سَرِيٍّ: شريف، كريم الحسب، صاحب مروءة وسخاء.

(مُقَرَّنَ): مُكَبَّلَ: مُقَيَّدَ بالسلاسل والجبال، ونحوها.

(٢) (ش): مُتَحَدِّثُهُمْ: مكان تَحَدُّثِهِمْ.

(٣) «الصحيح» للجوهري.

(٤) «التفسير الكبير» ٢١/٢٥٢.

العاص بن وائل دينٌ فأتيتُهُ أتقاضاه فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث - أي تموت الآن وتبعث أمامي وهذا من باب المستحيل - قال: فإني إذا متُّ ثم بُعثتُ جئتني ولي ثم مالٌ فأعطيتك فأنزل الله ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّلَدًا﴾^(١).

التفسير: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ أي يقول الكافر الذي لا يصدق بالبعث بعد الموت على وجه الإنكار والاستبعاد: أإذا متُّ وأصبحتُ تراباً ورفاتاً فسوف أخرج من القبر حياً؟ قال ابن كثير: يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته^(٢)، واللام «لسوف» للمبالغة في الإنكار، وهو إنكار منشؤه غفلة الإنسان عن نشأته الأولى، أين كان؟ وكيف كان؟ ولو تذكر لعلم أن الأمر أيسر مما يتصور ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ أي ألا يتذكر هذا المكذب الجاحد أول خلقه فيستدل بالبداة على الإعادة؟ ويعلم أن الله الذي خلقه من العدم قادرٌ على أن يعيده بعد الفناء وتشتت الأجزاء؟ قال بعضُ العلماء: لو اجتمع كل الخلائق على إيراد حجة في البعث على هذا الاختصار لما قدروا عليها، إذ لا شك أن الإعادة ثانياً أهون من الإيجاد أولاً^(٣)، ونظيره قوله ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩] ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ أي فوربك يا محمد لنحشرن هؤلاء المكذبين بالبعث مع الشياطين الذين أغووههم قال المفسرون: يُحشر كل كافر مع شيطان في سلسلة ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ أي نحضر هؤلاء المجرمين حول جهنم قعوداً على الرُكَب من شدة الهول والفرع، لا يطيقون القيام على أرجلهم لما يدهمهم من شدة الأمر ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّ لَنَا خِذْنَ وَلَنَنْتَزِعَنَّ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ وَجُمَاعَةً ارْتَبَطَتْ بِمَذْهَبٍ﴾ أيهم أشدُّ على الرحمن عنيّاً أي من منهم أعصى الله وأشد تمرداً، والمراد أنه يؤخذ من هؤلاء المجرمين ليقذف في جهنم الأعتى فالأعتى قال ابن مسعود: يُبدأ بالأكابر جرماً ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ أي نحن أعلم بمن هم أحق بدخول النار والاصطلاء بحرهما وبمن يستحق تضييع العذاب فنبدأ بهم ﴿وَلَنَمُنَّكُمُ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ أي ما منكم أحدٌ من برٍّ أو فاجر إلا وسيرد على النار، المؤمن للعبور والكافر للقرار ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ أي كان ذلك الورود^(٤) قضاءً لازماً لا يمكن خلفه ﴿ثُمَّ

(١) البخاري ومسلم وانظر سبب النزول ١٧٣.

(٢) «المختصر» ٢/ ٤٦٠.

(٣) «الفخر الرازي» ٢١/ ٢٤١.

(٤) اختلف علماء السلف في معنى الورود فقال ابن عباس: الورود الدخول، لا يبقى برٌّ ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم، وقال ابن مسعود وقتادة: الورود: المرور عليها حين اجتياز الصراط، ولعل هذا أصح أجارنا الله من جهنم.

نُجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴿١﴾ أَي نَجَّيْ من جهنم المتقين بعد مرور الجميع عليها ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا﴾ أي ونترك الظالمين في جهنم قعوداً على الرُّكْب قال «البيضاوي»: والآية دليل على أن المراد بالورود الجثو حوالَيْهَا، وأن المؤمنين يفارقون الفجرة إلى الجنة بعد نجاتهم ^(١)، ويبقى الفجرة فيها على هيئاتهم ^(٢) ﴿وَإِذَا نُتِيَ عَلَيْهِمْ أَیْتُنَا بَیْنَتٍ﴾ أي وإذا قرئت على المشركين آيات القرآن المبين، واضحات الإعجاز، بينات المعاني ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي قال الكفرة المترفون لفقراء المؤمنين أي الفريقين: - نحن أو أنتم - أحسنُ مسکنًا، وأطيب عيشًا، وأكرم منتدى ومجلسًا؟ قال «البيضاوي»: إن المشركين لما سمعوا الآيات الواضحات وعجزوا عن معارضتها، أخذوا في الافتخار بما لهم من حظوظ الدنيا، والاستدلال بزيادة حظهم فيها على فضلهم وحسن حالهم لقصور نظرهم ^(٣)، فردَّ الله عليهم بقوله ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرَءً يَّا﴾ أي وكثير من الأمم المكذبين بآياتنا أهلكناهم بكفرهم كانوا أكثر من هؤلاء متاعًا، وأجمل صورةً ومنظرًا، فكما أهلكننا السابقين نُهْلِكُ اللاحقين، فلا يغتر هؤلاء بما لديهم من النعيم والمتاع ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أنهم على حق: من كان في الضلالة منا ومنكم فليُمهِله الرحمن فيما هو فيه، وليدعه في طغيانه، حتى يلقي ربه وينقضيه أجله قال «القرطبي»: وهذا غاية في التهديد والوعيد ^(٤) ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ أي حتى يروا ما يحلُّ بهم من وعد الله ﴿إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ أي إمَّا عذاب الدنيا بالقتل والأسر، أو عذاب الآخرة بما ينالهم يوم القيامة من الشدائد والأحوال ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أي فسيعلمون عندئذ حين تنكشف الحقائق أي الفريقين شرٌّ منزلة عند الله، وأقلُّ فئةً وأنصارًا، هل هم الكفار أم المؤمنون؟ وهذا في مقابلة قولهم: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ أي ويزيد الله المؤمنين المهتدين، بصيرةً وإيمانًا وهداية ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّلَاحُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي والأعمال الصالحة التي تبقى لصاحبها ذخراً في الآخرة خير عند الله من كل ما يتباهى به أهل الأرض من حيث الأجر والثواب ﴿وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ أي وخير رجوعاً وعاقبة، فإن نعيم الدنيا زائل ونعيم الآخرة باقٍ دائم ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا

(١) (ش): الذي في تفسير «البيضاوي»: بعد تجايبهم. أي إن المؤمنين يفارقون الفجرة بعد اشتراك المؤمنين في التجايب على الرُّكْب مع الفجرة.

(٢) «البيضاوي» ١٩/٢.

(٣) «البيضاوي» ٢٠/٢.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٤٤/١١.

وَقَالَ لَاؤْتِيَنِي مَالًا وَّوَلَدًا ﴿١﴾ نزلت في العاص بن وائل^(١)، والاستفهام للتعجب أي تعجب يا محمد من قصة هذا الكافر الذي جحد بآيات الله وزعم أن الله سيعطيه في الآخرة المال والبنين ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ﴾ أي هل اطلع على الغيب الذي تفرّد به علام الغيوب؟ ﴿أَوَاتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ أي أم أعطاه الله عهداً بذلك فهو يتكلم عن ثقة ويقين؟ ﴿كَأَلَّا سَنَكُنُّبُ مَا يَقُولُ﴾ ردّ عليه، ولفظة «كلا» للردع والزجر أي ليرتدع ذلك الفاجر عن تلك المقالة الشنيعة فسنكتب ما يقول عليه ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ أي سنزيد له في العذاب ونطيله عليه جزاء طغيانه واستهزائه، ونضاعف له مدد العذاب مكان الإمداد بالمال والولد ﴿وَنَرِثُهُ، مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أي ونرثه وما يخلفه من المال والولد بعد إهلاكه، ويأتينا وحيداً لا مال معه ولا ولد، ولا نصير له ولا سند ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ أي واتخذ المشركون أصناماً عبدوها من دون الله لينالوا بها العزّ والشرف ﴿كَأَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي ليس الأمر كما ظنوا وتوهموا فإن الآلهة التي عبدوها ستبرأ من عبادتهم ويكونون له أعداء يوم القيامة ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾ أي ألم تريا محمد أنا سلطنا الشياطين على الكافرين تغريهم إغراء بالشّر، وتهيجهم تهيجاً حتى يركبوا المعاصي قال «الرازي»: أي تغريهم على المعاصي وتحثهم وتهيجهم لها بالسواوس والتسويلات^(٢) ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ أي لا تتعجل يا محمد في طلب هلاكهم فإنه لم يبق لهم إلا أيام وأنفاس نعدّها عليهم عذاباً ثم يصيرون إلى عذاب شديد قال ابن عباس: نعدّ أنفاسهم في الدنيا كما نعدّ عليهم سنيهم^(٣) ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ أي يوم نحشر المتقين إلى ربهم معززين مكرّمين، راكبين على النوق كما يفد الوفود على الملوك منتظرين لكرامتهم وإنعامهم ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا﴾ أي ونسوق المجرمين كما تُساق البهائم مشاة عطاشاً كأنهم إبل عطاش تُساق إلى الماء وفي الحديث «يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلَاثِ طَرَائِقَ: رَاغِبِينَ وَرَاهِبِينَ، وَأَثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ، وَثَلَاثَةَ عَلَى بَعِيرٍ، وَأَرْبَعَةَ عَلَى بَعِيرٍ، وَعَشْرَةَ عَلَى بَعِيرٍ وَتَدْرُ بِقَيْتِهِمْ إِلَى النَّارِ، ثَقِيلٌ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا، وَثَبِيتٌ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتُصْبِحُ مَعَهُمْ حَيْثُ أَصْبَحُوا، وَتُمْسِي مَعَهُمْ حَيْثُ أَمْسَوْا»^(٤) ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ﴾ أي لا يشفعون ولا يُسْفَعُ

(١) انظر سبب النزول المتقدم.

(٢) «التفسير الكبير» ٢١/٢٥٢. (ش): سَوَّلَ لَهُ الشَّرَّ: أَغْرَاهُ بِهِ، حَبَّبَهُ إِلَيْهِ وَسَهَّلَهُ لَهُ.

(٣) «تفسير القرطبي» ١١/١٥٠.

(٤) أخرجه الشيخان. (ش): (ثَلَاثُ طَرَائِقَ): ثَلَاثُ فِرَقٍ. قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَهَذَا الْحَشْرُ فِي آخِرِ الدُّنْيَا قُبِيلَ الْقِيَامَةِ قُبِيلَ النَّفْخِ فِي الصُّورِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ ﷺ: «وَتَحْشُرُ بَقِيَّتُهُمُ النَّارُ تَبِيتَ مَعَهُمْ وَثَقِيلٌ وَتُصْبِحُ وَتُمْسِي» وَهَذَا آخِرُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ كَمَا قَالَ ﷺ: «إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ». فَذَكَرَ الدُّخَانَ وَالْذَّجَالَ وَالْدَّابَّةَ وَطُلُوعَ =

لهم ﴿إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ الاستثناء، منقطع أي: لَكِنْ مَنْ تَحَلَّى بِالْإِيمَانِ والعمل الصالح فإنه يملك الشفاعة قال ابن عباس: العهد «شهادة أن لا إله إلا الله» ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ أي اليهود والنصارى ومن زعم أن الملائكة بنات الله ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ أي لقد أتيتم أيها المشركون بقول منكر عظيم تناهى في القُبْح والشناعة ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ﴾ أي تكاد السماوات تتشقق من هول هذا القول ﴿وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ أي وتنشق كذلك الأرض وتندك الجبال وتهبط هدا استعظاما للكلمة الشنيعة ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ أي ما يليق به سبحانه اتخاذ الولد، لأن الولد يقتضي المجانسة ويكون عن حاجة، وهو المنزه عن الشبيه والنظير، والغني عن المعين والنصير ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ أي ما من مخلوق في هذا العالم العلوي والسفلي إلا وهو عبد لله، دليل خاضع بين يديه، منقاد مطيع له كما يفعل العبيد ﴿لَقَدْ أَخَصَّكُمْ وَعَدَّكُمْ عَدًّا﴾ أي علم عددهم وأحاط علمه بهم فلا يخفى عليه شيء من أمورهم ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ أي وكل فرد يأتي يوم القيامة وحيداً فريداً، بلا مال ولا نصير، ولا معين ولا خفير^(١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ لما ذكر أحوال المجرمين ذكر أحوال المؤمنين والمعنى سيحدث لهم في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة قال الربيع: يحبهم ويحبهم إلى الناس ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾ أي فإنما يسرنا يا محمد هذا القرآن بلسانك العربي تقرأه، وجعلناه سهلاً يسيراً لمن تدبره، لتبشر به المؤمنين المتقين، وتخوف به قوماً معاندين شديدي الخصومة والجدال ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي كم من الأمم الماضية أهلكناها بتكذيبهم الرسل، و «كم» للتكثير

= الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ خَسَفَ بِالْمَشْرِقِ وَخَسَفَ بِالْمَغْرِبِ وَخَسَفَ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ. [رواه مسلم]. (رَاغِبِينَ وَرَاهِبِينَ) هِيَ الطَّرِيقَةُ الْأُولَى. (وَإِثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ، وَثَلَاثَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَأَرْبَعَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَعَشْرَةٌ عَلَى بَعِيرٍ) هِيَ الطَّرِيقَةُ الثَّانِيَّةُ وَتَحْشُرُ بَقِيَّتَهُمُ النَّارَ... هَذِهِ الطَّرِيقَةُ الثَّالِثَةُ. (تَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا، وَتَبَيَّتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتَصْبُحُ مَعَهُمْ حَيْثُ أَصْبَحُوا، وَتُمْسِي مَعَهُمْ حَيْثُ أَمْسَوْا فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى مُلَازِمَةِ النَّارِ لَهُمْ إِلَى أَنْ يَصِلُوا إِلَى مَكَانِ الْحَشْرِ.

(وَإِثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ وَثَلَاثَةٌ عَلَى بَعِيرٍ الْخ) يُرِيدُ أَنَّهُمْ يَعْتَقِبُونَ الْبَعِيرَ الْوَاحِدَ يَرْكَبُ بَعْضُ بَعْضٍ وَيَمْشِي بَعْضٌ، وَإِنَّمَا لَمْ يَذْكُرِ الْخُمْسَةَ وَالسَّتَّةَ إِلَى الْعَشْرَةِ إِيْجَازًا وَاكْتِفَاءً بِمَا ذُكِرَ مِنَ الْأَعْدَادِ. وَالْإِعْتِقَابُ لَيْسَ مَجْزُومًا بِهِ وَلَا مَانِعٌ أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ فِي الْبَعِيرِ مَا يَقْوَى بِهِ عَلَى حَمْلِ الْعَشْرَةِ [انظر: شرح النووي على مسلم (١٧/ ١٩٤ - ١٩٥)، فتح الباري لابن حجر (١١/ ٣٧٩)].

(١) (ش): خفير: حارس.

﴿هَلْ تُحِشُّ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ﴾ أي هل ترى منهم أحداً؟ ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أي أو تسمع صوتاً خفياً؟ والمعنى أنهم بادوا وهلكوا وخلت منهم الديار، وأوحشت منهم المنازل، فكما أهلكنا أولئك نهلك هؤلاء.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

- ١ - ذكر العام وإرادة الخاص ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَنُ﴾ المراد به الكافر لأنه هو المنكر للبعث.
- ٢ - الطباق بين ﴿مَتَّ.. حَيًّا﴾ وبين ﴿لَتُبَشِّرَ.. وَتُنذِرَ﴾.
- ٣ - الاستفهام للإنكار والتوبيخ ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَنُ﴾.
- ٤ - المقابلة اللطيفة بين المتقين والمجرمين وبين حال الأبرار والأشرار ﴿يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ ﴿وَتُسَوَّقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا﴾.
- ٥ - الجناس غير التام ﴿وَفْدًا.. وَرْدًا﴾ لتغير الحرف الثاني.
- ٦ - اللف والنشر المرتب في ﴿شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ حيث رجع الأول إلى ﴿خَيْرٌ مَقَامًا﴾ والثاني إلى ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ كما يوجد بين ﴿خَيْرٌ.. شَرٌّ﴾ طباق.
- ٧ - المجاز العقلي ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أي نأمر الملائكة بالكتابة فهو من إسناد الشيء إلى سببه.

٨ - السجع الرصين مثل ﴿عَبْدًا، عَدًّا، فَرْدًا، وَدًّا﴾ وهو من المحسنات البديعية.

فائدة: أخرج مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى إذا أحبَّ عبداً دعا جبريل فقال: إني أحبُّ فلاناً فأحبهُ فيحبهُ جبريل، ثم ينادي في السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء..» الحديث وهو مصداق قوله تعالى ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾.

لطفة: روي أن المأمون قرأ هذه الآية ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ وعنده جماعة من الفقهاء فيهم ابن السماك فأشار إليه المأمون أن يعظه فقال: إذا كانت الأنفاس بالعدد، ولم يكن لها مدد، فما أسرع ما تنفذ قال الشاعر:

حَيَاثُكَ أَنْفَاسٌ تُعَدُّ فِكُلَّمَا مَضَى نَفْسٌ مِنْكَ انْتَقَصَتْ بِهِ جُزْءًا

«تم بعونه تعالى تفسير سورة مريم»





مكية وآياتها خمس وثلاثون ومائة

بين يدي السورة

سورة طه مكية، وهي تبحث عن نفس الأهداف للسور المكية، وغرضها تركيز أصول الدين «التوحيد، والنبوة، والبعث والنشور».

* في هذه السورة الكريمة تظهر شخصية الرسول ﷺ، في شد أزره، وتقوية روحه، حتى لا يتأثر بما يُلقى إليه من الكيد والعناد، والاستهزاء والتكذيب، لإرشاده إلى وظيفته الأساسية، وهي التبليغ والتذكير، والإنذار والتبشير، وليس عليه أن يجبر الناس على الإيمان.

* عرضت السورة لقصص الأنبياء، تسلياً لرسول الله ﷺ وتطميناً لقلبه الشريف، فذكرت بالتفصيل قصة «موسى مع هارون» مع فرعون الطاغية الجبار ويكاد يكون معظم السورة في الحديث عنها وبالأخص موقف المناجاة بين موسى وربّه، وموقف تكليفه بالرسالة، وموقف الجدل بين موسى وفرعون، وموقف المبارزة بينه وبين السحرة، وتتجلى في ثنايا تلك القصة رعاية الله لموسى، نبيه وكليمه، وإهلاك الله لأعدائه الكفرة المجرمين.

* وعرضت السورة لقصة آدم بشكل سريع خاطف، برزت فيه رحمة الله لأدم بعد الخطيئة، وهدايته لذريته بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين، ثم ترك الخيار لهم لاختيار طريق الخير أو الشر.

* وفي ثنایا السورة الكريمة تبرز بعض مشاهد القيامة، في عبارات يرتجف لها الكون، وتهتز لها القلوب هلعاً وجزعاً، ويعتري الناس الدهول والسكون ﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾.

* وعرضت السورة ليوم الحشر الأكبر، حيث يتم الحساب العادل، ويعود الطائعون إلى الجنة، ويذهب العصاة إلى النار، تصديقاً لوعده الله الذي لا يتخلف، بإثابة المؤمنين وعقاب المجرمين.

* وختمت ببعض التوجيهات الربانية للرسول ﷺ في الصبر وتحمل الأذى في سبيل الله حتى يأتي نصر الله.

التسمية: سميت «سورة طه» وهو اسم من أسمائه الشريفة عليه الصلاة والسلام^(١)، تطييباً لقلبه، وتسلياً لفؤاده عما يلقاه من صدود وعناد، ولهذا ابتدأت السورة بملاطفته بالنداء ﴿طه﴾ (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۖ ﴿٢﴾

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢) إِلَّا نَذِيرًا لِّمَنْ يَخْشَىٰ (٣) تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَىٰ (٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ (٦) وَإِنْ تَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ (٧) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ (٨) وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (٩) إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَنْهَا نُودِيَ بِمُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ (١٦) وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَنُوكِّئُ عَلَيْهَا وَأُشْفِي بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلَيْهَا يَمْوَسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَبَآءٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١) وَأَضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَصَاطًا مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ آيَةً أُخْرَىٰ (٢٢) لَنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ (٢٣) أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَٰزُونَ أَخَىٰ (٣٠) أَشَدُّ بِهِ أَزْرَىٰ (٣١) وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَىٰ سَجَّكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذَرْتُكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمْوَسَىٰ (٣٦) وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنْ اقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِتِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوَسَىٰ

اللغة: ﴿بَقَسٍ﴾ القبس: شعلة من نار ﴿الْمُقَدَّسِ﴾ المطهر والمبارك ﴿طُوًى﴾ اسم للوادي ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ تهلك والردى: الهلاك ﴿وَأُشْفِي﴾ أخطب بها الشجر ليسقط الورق ﴿مَنَازِبُ﴾ جمع مأربة وهي الحاجة ﴿جَنَاحِكَ﴾ الجناح: الجنب وجناح الإنسان جنباه لأن يدي الإنسان يشبهان جناحي الطائر ﴿أَزْرَى﴾ الأزر: القوة يقال: أزره أي قواه ومنه

(١) (ش): لم يذكر المؤلف دليلاً على ذلك، مع أنه قال بعد ذلك في تفسيرها: إن الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن، فكيف يكون (طه) اسماً للرسول ﷺ ويكون حروفاً مقطعة.

﴿فَنَازَرُهُ فَأَسْتَغْلَظُ﴾ [الفتح: ٢٩] قال الشاعر:

أَلَيْسَ أَبُوْنَا هَاشِمٌ شَدَّ أَرْزُهُ
أَلَيْمٌ الْبَحْرُ ﴿فَقَرَّ عَيْنَهَا﴾ تُسَرُّ بِلِقَائِكَ.

التفسير: طه ﴿١﴾ مَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿ الحروف المقطعة للتنبية إلى إعجاز القرآن وقال ابن عباس: معناها يا رجل، ومعنى الآية: ما أنزلنا عليك يا محمد القرآن ﴿٢﴾ لتشقى به إنما أنزلناه رحمة وسعادة، رُوي أن رسول الله ﷺ لما نزل عليه القرآن صلى هو وأصحابه فأطال القيام فقالت قريش: ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى فنزلت هذه الآية ﴿٣﴾ ﴿إِلَّا نَذْكُرَكَ لَمَنْ يَخْشَى﴾ أي ما أنزلناه إلا عظة وتذكيراً لمن يخشى الله ويخاف عقابه، وهو المؤمن المستنير بنور القرآن ﴿تَزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ أي أنزله خالق الأرض، ومبدع الكون، ورافع السماوات الواسعة العالية، والآية إخبار عن عظمته وجبروته وجلاله قال في البحر: ووصف السماوات بالعلی دليل على عظمة قدرة من اخترعها إذ لا يمكن وجود مثلها في علوها من غيره تعالى ﴿٤﴾ ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ أي ذلك الرب الموصوف بصفات الكمال والجمال هو الرحمن الذي استوى على عرشه استواءً يليق بجلاله من غير تجسيم ﴿٥﴾، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل كما هو مذهب السلف ﴿٦﴾ ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ أي له سبحانه ما في الوجود كله: السماوات السبع، والأرضون وما بينهما من المخلوقات وما تحت التراب من معادن ومكنونات، الكل ملكه وتحت تصرفه وقهره وسلطانه ﴿وَأَنْ يَجْهَرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ أي وإن تجهر يا محمد بالقول أو تخفه في نفسك فسواء عند ربك، فإنه يعلم السر وما هو أخفى منه كالوسوسة والهاجس والخاطر ﴿٧﴾. والغرض من الآية طمأنينة قلبه عليه السلام بأن ربه معه يسمعه، ولن يتركه وحيداً يواجه الكافرين بلا سند فإذا كان يدعو جهراً فإنه يعلم السر وما هو أخفى، والقلب حين يستشعر قرب الله منه، وعلمه بسرّه ونجواه يطمئن ويرضى ويأنس بهذا القرب الكريم

(١) البيت لأبي طالب وانظر «القرطبي» ١١/ ١٩٣.

(٢) انظر أول سورة البقرة.

(٣) هذا قول الضحاك. وانظر «زاد المسير» ٥/ ٢٦٨. (ش): ضعيف، رواه الواحدي في «أسباب النزول».

(٤) «البحر المحيط» ٦/ ٢٢٦.

(٥) (ش): الجسم لم يرد نفيه ولا إثباته في حق الله تعالى فيجب التوقف فيه.

(٦) انظر أقوال السلف الصالح في سورة الأعراف والرد.

(٧) (ش): خاطر: هاجس: ما يعرض أو يرد على القلب من تدابير، أو ما يمر بالذهن من الأمور والآراء، كل ما يتصوره الفكر. الوسوسة: حديث النفس، وما يلقيه الشيطان في القلب.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي ربكم هو الله المتفرد بالوحدانية، لا معبود بحق سواه، ذو الأسماء الحسنة التي هي في غاية الحسن وفي الحديث «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١) ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ الاستفهام للتقرير وغرضه التشويق لما يُلقَى إليه أي هل بلغك يا محمد خبر موسى وقصته العجيبة الغريبة؟ ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ أي حين رأى نارا فقال لامرأته: أقيمي مكانك فإني أبصرت نارا قال ابن عباس: هذا حين قضى الأجل وسار بأهله من مدين يريد مصر، وكان قد أخطأ الطريق وكانت ليلة مظلمة شاتية فجعل يقدح بالزناد^(٢). فلا يخرج منها شَرَرٌ فبينما هو كذلك إذ بصر بنار من على يسار الطريق، فلما رآها ظنها نارا وكانت من نور الله ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي لعلي آتيكم بشعلة من النار تستدفئون بها ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أي أجد هاديا يدلني على الطريق ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمُوسَى ﴿١١﴾﴾ ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ أي فلما أتى النار وجدها نارا بيضاء تتقد في شجرة خضراء وناداه ربُّه يا موسى: إني أنا ربُّك الذي أكلمك فاخلع النعلين من قدميك رعايةً للأدب وأقبل ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ أي فإنك بالوادي المطهر المبارك المسمى طوى ﴿وَأَنَا أَخَذْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ أي اصطفتيك للنبوة فاستمع لما أوحى إليك قال «الرازي»: فيه نهاية الهيبة والجلالة فكأنه قال: لقد جاءك أمر عظيم هائل فتأهب له واجعل كل عقلك وخاطرك مصروفاً إليه^(٣) ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ أي أنا الله المستحق للعبادة لا إله غيري فأفردني بالعبادة والتوحيد ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ أي أقم الصلاة لتذكرني فيها قال مجاهد: إذا صلى ذكر ربه لاشتغالها على الأذكار^(٤) وقال الصاوي: خصَّ الصلاة بالذكر وإن كانت داخلية في جملة العبادات لعظم شأنها، واحتوائها على الذكر، وشغل القلب واللسان والجوارح، فهي أفضل أركان الدين بعد التوحيد^(٥) ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أي إن الساعة قادمة وحاصلة لا محالة أكاد أخفيها عن نفسي فكيف أطلعكم عليها؟^(٦) قال المبرد: وهذا على عادة العرب فإنهم يقولون إذا بالغوا في كتمان الشيء:

(١) أخرجه الترمذي. (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٢) (ش): (الزُّنْد) العود الأعلى الذي تُقدح به النار والأسفل هو الزُّنْدَة، والجمع زناد وأزناد. قدح النار/ قدح النار من الزُّنْد: أخرجها منه، أشعلها بالاحتكاك.

(٣) «الرازي» ١٩/٢٢.

(٤) «الرازي» ١٩/٢٢.

(٥) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٥٠/٣.

(٦) هذا خلاصة قول مجاهد وابن عباس واختاره «الطبري» وهو الأرجح في تفسير الآية. وهناك أقوال أخرى لا تخلو من ضعف وانظر «البحر المحيط» ٦/٢٣٢.

كتمته حتى من نفسي أي لم أطلع عليه أحداً ﴿لَتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ أي لتنال كل نفس جزاء ما عملت من خير أو شر قال المفسرون: والحكمة من إخفائها وإخفاء وقت الموت أن الله تعالى حكم بعدم قبول التوبة عند قيام الساعة وعند الاحتضار، فلو عرف الناس وقت الساعة أو وقت الموت، لاشتغلوا بالمعاصي ثم تابوا قبل ذلك، فيتخلصون من العقاب، ولكن الله عمى الأمر، ليظل الناس على حذر دائم، وعلى استعداد دائم، من أن تبغتهم الساعة أو يفاجئهم الموت ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ أي لا يصرفنك يا موسى عن التأهب للساعة والتصديق بها من لا يوقن بها ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أي مآل مع الهوى وأقبل على اللذائذ والشهوات ولم يحسب حساباً لآخرته ﴿فَتَرَدَّى﴾ أي فتهلك فإن الغفلة عن الآخرة مستلزمة للهلاك ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ﴾ أي وما هذه التي يمينك يا موسى؟ ألبست عصا؟ والغرض من الاستفهام التقرير والإيقاظ والتنبيه إلى ما سيبدو من عجائب صنع الله في الخشبة اليابسة بانقلابها إلى حية، لتظهر لموسى القدرة الباهرة، والمعجزة القاهرة قال ابن كثير: إنما قال له ذلك على وجه التقرير، أي أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها؟ فسترى ما نصنع بها الآن؟^(١) ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾ أي أعتمد عليها في حال المشي ﴿وَأَهْشُ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ أي أهز بها الشجرة وأضرب بها على الأغصان ليتساقط ورقها فترعاه غنمي ﴿وَلِي فِيهَا مَنَازِبٌ أُخْرَىٰ﴾ أي ولي فيها مصالح ومنافع وحاجات أخر غير ذلك قال المفسرون: كان يكفي أن يقول هي عصاي ولكنه زاد في الجواب لأن المقام مبسطة وقد كان ربه يكلمه بلا واسطة، فأراد أن يزيد في الجواب ليزداد تلذذاً بالخطاب، وكلام الحبيب مريح للنفس ومذهب للعناء ﴿قَالَ أَلْقَهَا يَمْوَسَىٰ﴾ أي اطرح هذه العصا التي بيدك يا موسى لترى من شأنها ما ترى! ﴿فَأَلْقَاهَا فِإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ أي فلما ألقاها صارت في الحال حية عظيمة تنتقل وتتحرك في غاية السرعة قال ابن عباس: انقلبت ثعباناً ذكراً يبتلع الصخر والشجر، فلما رآه يبتلع كل شيء خافه ونفر منه وولّى هارباً^(٢) قال المفسرون: لما رأى هذا الأمر العجيب الهائل، لحقه ما يلحق البشر عند رؤية الأحوال والمخاوف، لا سيما هذا الأمر الذي يذهب بالعقول، وإنما أظهر له هذه الآية وقت المناجاة تأنيساً له بهذه المعجزة الهائلة حتى لا يفرع إذا ألقاها عند فرعون لأنه يكون قد تدرّب وتعود ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ أي قال له ربه: خذها يا موسى ولا تخف منها ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ أي سنعيدها إلى حالتها الأولى كما كانت عصا لا حية، فأمسكها فعادت عصا ﴿وَأَضْمُمُ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيَظًّا مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ أي أدخل يدك تحت إبطك ثم أخرجها تخرج نيرة مضيئة كضوء الشمس والقمر من غير عيب ولا برص قال

(١) «المختصر» ٢/ ٤٧٢.

(٢) «تفسير القرطبي» ١١/ ١٩٠.

ابن كثير: كان إذا أدخل يده في جيبه ثم أخرجها تترألاً كأنها فلقة القمر من غير برصٍ ولا أذى^(١) ﴿ءَايَةٌ أُخْرَى﴾ أي معجزة ثانية غير العصا ﴿لِزَيْكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ أي لنريك بذلك بعض آياتنا العظيمة. أراه الله معجزتين «العصا، واليد» وهي بعض ما أيده الله به من المعجزات الباهرة، ثم أمره أن يتوجه إلى فرعون رأس الكفر والطغيان ﴿أَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ أي اذهب بما معك من الآيات إلى فرعون إنه تكبر وتجبّر وجاوز الحد في الطغيان حتى ادّعى الألوهية ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ أي وسّعه ونوره بالإيمان والنبوة ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ أي سهّل عليّ القيام بما كلفتنني من أعباء الرسالة والدعوة ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ ^(٢٧) ﴿يَقْفُوا قَوْلِي﴾ أي حلّ هذه اللكنة الحاصلة في لساني حتى يفهموا كلامي قال المفسرون: عاش موسى في بيت فرعون فوضعه فرعون مرة في حجره وهو صغير فجرّ لحية فرعون بيده فهمّ بقتله، فقالت له آسية: إنه لا يعقل وسأريك بيان ذلك، قدّم إليه جمرتين ولؤلؤتين، فإن أخذ اللؤلؤة عرفت أنه يعقل، وإن أخذ الجمرة عرفت أنه طفل لا يعقل، فقدّم إليه فأخذ الجمرة فجعلها في فيه فكان في لسانه حبسة^(٢) ﴿وَجَعَلْنِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ ^(٢٩) ﴿هَٰؤُلَاءِ أَخِي﴾ أي اجعل لي معيناً يساعدي ويكون من أهلي وهو أخي هارون ﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرَىٰ﴾ أي لتقوي به يا رب ظهري ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ أي أجعله شريكاً لي في النبوة وتبليغ الرسالة ﴿كَيْ نَسِيحَكَ كَثِيرًا﴾ ^(٣٢) ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ أي كي نتعاون على تنزيهك عما لا يليق بك ونذكرك بالدعاء والثناء عليك ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَاصِرًا﴾ أي عالمًا بأحوالنا لا يخفى عليك شيء من أفعالنا، طلب موسى من ربه أن يعينه بأخيه يشدّ به أزره، لما يعلم منه من فصاحة اللسان^(٣)، وثبات الجنان، وأن يشركه معه في المهمة لما يعلم من طغيان فرعون وتكبره وجبروته ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَىٰ﴾ أي أعطيت ما سألت وما طلبت، ثم ذكره تعالى بالمنن العظام عليه ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ أي أنعمنا عليك يا موسى بمنة أخرى غير هذه المنة ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ﴾ أي ألهمناها ما يلهم ممّا كان سبباً في نجاتك ﴿أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْبَيْتِ﴾ أي ألهمناها أن ألقي هذا الطفل في الصندوق ثم اطرchie في نهر النيل، ثم ماذا؟ ومن يتسلمه؟ ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ أي يلقيه النهر على شاطئه ويأخذه فرعون عدوي وعدوّه قال في البحر: ﴿فَلْيُلْقِهِ﴾ أمر بمعناه الخبر جاء بصيغة الأمر مبالغة إذ الأمر أقطع الأفعال وأوجبها^(٤) ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ أي زرعْتُ في القلوب

(١) «المختصر» ٢/ ٤٧٣.

(٢) انظر «الطبري» ١٦/ ١٩٥، وقيل: كان ذلك خِلْقَةً فسأل الله تعالى إزالته.

(٣) (ش): قال موسى عليه السلام: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ إِنْ أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِي ﴿[القصص: ٣٤].

(٤) «البحر المحيط» ٦/ ٢٤١.

محبتك بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك حتى أحبك فرعون قال ابن عباس: أحبه الله وحببه إلى خلقه ﴿وَلْتَصْنَعْ عَلَى عَيْنِي﴾ أي ولتربي بعين الله بحفظي ورعايتي ^(١) ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾ أي حين تمشي أختك وتتبع أثرك فتقول لآل فرعون حين طلبوا لك المراضع: هل أدلكم على من يضمن لكم حضانتهم ورضاعته؟ قال المفسرون: لما التقطه آل فرعون جعل لا يقبل ثدي امرأة لأن الله حرم عليه المراضع وبقيت أمه بعد قذفه في اليم مغمومة فأمرت أخته أن تتبع خبره، فلما وصلت إلى بيت فرعون ورأته قالت: هل أدلكم على امرأة أمينة فاضلة تتعهد لكم رضاع هذا الطفل؟ فطلبوا منها إحضارها فأنت بأم موسى فلما أخرجت ثديها التقمه ففرحت زوجة فرعون فرحاً شديداً وقالت لها: كوني معي في القصر فقالت: لا أستطيع أن أترك بيتي وأولادي ولكن أخذه معي وآتي لك به كل حين فقالت نعم وأحسنتم إليها غاية الإحسان فذلك قوله تعالى ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي رددناك إلى أمك لكي تسر بلقائك وتطمئن بسلامتك ونجاتك، ولكيلا تحزن على فراقك ﴿وَقُلْتَ نَفْسًا فَفَجِّنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ أي قتلت القبطي حين أصبحت شاباً فنجيناك من غم القتل

(١) (ش): في قوله تعالى عَنْ سَفِينَةَ نُوحٍ ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] وقوله لِمُوسَى ﴿وَلْتَصْنَعْ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]. وقوله للنبي ﷺ ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] المعنى على ظاهر الكلام وحقيقته، لكن ما ظاهر الكلام وحقيقته هنا؟ هل يقال: إن ظاهره وحقيقته أن السفينة تجري في عين الله؛ أو أن موسى عليه الصلاة والسلام يرى فوق عين الله تعالى؟! أو يقال: إن ظاهره أن السفينة تجري وعين الله ترعاها وتكفلها، وكذلك تربيته موسى تكون على عين الله تعالى يرعاه ويكفله بها، ولا ريب أن القول الأول باطل، وذلك من وجهين:

١- أنه لا يقتضيه الكلام بمقتضى الخطاب العربي، والقرآن إنما نزل بلغة العرب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢] ولا أحد يفهم من قول القائل: فلان يسير بعيني أن المعنى أنه يسير داخل عيني، ولا من قول القائل: فلان تخرج على عيني؛ أن تخرجه كان وهو راكب على عيني، ولو ادعى مدع أن هذا هو ظاهر اللفظ في هذا الخطاب لصحك منه السّمهاء فضلاً عن العقلاء. ومثله قول: إنك تحت عيني، وفلان تخرج من تحت يدي، وفلان يدي اليمنى... مما معناه ظاهر مفهوماً باللسان العربي.

٢- أن هذا مُمتنع غاية الامتناع، ولا يمكن لمن عرف الله وقدره حق قدره أن يفهمه في حق الله تعالى؛ لأن الله تعالى مُستو على عرشه بائن من خلقه لا يحل فيه شيء من مخلوقاته، ولا هو حال في شيء من مخلوقاته سبحانه وتعالى. فإذا تبين بطلان هذا من الناحية اللفظية والمعنوية تعين أن يكون ظاهر الكلام هو القول الثاني؛ أن السفينة تجري وعين الله ترعاها وتكفلها، وكذلك تربيته موسى تكون على عين الله يرعاه ويكفله بها، وهذا معنى قول بعض السلف بمراي مني، فإن الله تعالى إذا كان يكفله بعينه لزم من ذلك أنه يراه. ووجه كون العين هي التي ترعاه دون الوجه أو اليد أو... هو لأن العين تفيد الاطلاع والمراقبة والإحاطة مما يناسب الحفظ. والله أعلم. وفي هذه الآيات إثبات لصفة العينين لله تعالى بما يليق به، دون تشبيهه بخلقه أو تكيف لذاته، سبحانه وبحمده، كما ثبت ذلك بالسنة، وأجمع عليه سلف الأمة، فأهل السنة والجماعة يعتقدون أن الله يصبر بعين، كما يعتقدون أن الله عز وجل له عينان تليقان به؛ ﴿كَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

واللفظ الذي ورد بصيغة الجمع (بأعيننا) فإنما هو للتعظيم.

وصرفنا عنك شرَّ فرعون وزبانيته، وفي صحيح مسلم: وكان قتله خطأ^(١) ﴿وَفَنَّاكَ فُتُونًا﴾ أي ابتليناك ابتلاءً عظيماً بأنواع من المحن ﴿فَلَيْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ أي مكثت سنين عديدة عند شعيب في أرض مدين ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يُمُوسَى﴾ أي جئت على موعدٍ ووقتٍ مقدر للرسالة والنبوة.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - التشويق والحث على الإصغاء ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾.
- ٢ - الإطناب ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَسُ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ وكان يكفي أن يقول: هي عصاي ولكنه توسّع في الجواب تلذذاً بالخطاب.
- ٣ - الاستعارة التصريحية ﴿وَأَضْمُمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ أصل الجناح للطائر ثم استعير لجنب الإنسان لأن كل جنب في موضع الجناح للطائر فسميت الجهتان جناحين بطريق الاستعارة.

٤ - الاحتراس وهو عند علماء البيان أن يؤتى بشيء يرفع توهم غير المراد مثل قوله ﴿بِضَاءٍ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ فلو اقتصر على قوله ﴿بِضَاءٍ﴾ لَأُوْهِمَ أن ذلك من برص أو بهق ولذلك احترس بقوله ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾.

٥ - الاستعارة التمثيلية ﴿وَلِنُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ تمثيل لشدة الرعاية وفرط الحفظ والكلاءة بمن يصنع بمرأى من الناظر؛ لأن الحافظ للشيء في الغالب يديم النظر إليه فمثّل لذلك على عين الآخر^(٢).

٦ - السجع الحسن الذي يزيد الكلام جمالاً وبهاءً في أواخر الآيات (فتشقى، يخشى، أخفى، تسعى) إلخ.

فائدة: قال العلماء: ما نفع أخ أخاه كما نفع موسى هارون فقد طلب له من ربه أن يجعله وزيراً له ويكرمه بالرسالة فاستجاب الله دعاءه وجعله نبياً مرسلًا.

تنبيه: ذكر تعالى بعض المنن على موسى وعدّد منها ستاً:

المنة الأولى: إلهام أمّه صنْع الصندوق وإلقاءه في النيل ليربّي في بيت فرعون ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا

(١) (ش): قال ﷺ: «إِنَّمَا قَتَلَ مُوسَى الَّذِي قَتَلَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ خَطَأً، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾. [رَوَاهُ مُسْلِمٌ].

(٢) (ش): في هذه الآية إثبات لصفة العينين لله تعالى بما يليق به، دون تشبيهه بخلقه أو تكييف لذاته، سبحانه وبحمده، كما ثبت ذلك بالسنة، وأجمع عليه سلف الأمة، فأهل السنة والجماعة يعتقدون أن الله يبصر بعين، كما يعتقدون أن الله عزَّ وجلَّ له عينان تليقان به؛ ﴿كَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

إِلَى أَمَلِك مَآيُوحَى ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ ﴿٣٩﴾

الثانية: إلقاء المحبة عليه من الله تعالى بحيث لا يراه أحد إلا أحبه ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾.

الثالثة: حفظ الله ورعايته له بالكلاءة والعناية ﴿وَلِنُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾.

الرابعة: رده إلى أمه مع الإنعام والإكرام ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾.

الخامسة: إنجاء موسى من القتل بعد قتله القبطي ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾.

السادسة: تكليم الله له بعد عودته من أرض مدين وتكليفه بالرسالة ﴿ثُمَّ جِئْتَنَا عَلَى قَدَرٍ يَمُوسَى﴾.

قال الله تعالى:

وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾ يَقُولُ لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعْلَهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٤﴾ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَتَخَفُ أَنْ يَقْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَى ﴿٤٦﴾ فَأَنبَاهُ فَقَوْلًا إِنَّا رُسُلَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنَ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مِنْ أَتْبَعِ الْهُدَى ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿٥١﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنِّي فِي ذَلِكَ لَا بَلِّغُكُمْ إِلَّا ذِكرِي الْأُولَى النَّهْيُ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَبِلَكُمْ لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ أَفْتَرَى ﴿٦١﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النِّجْوَى ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا لِسِحْرَيْنِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴿٦٣﴾ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَعْلَى ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِأَتْهُمْ وَعِصِيَّتُهُمْ تُجَلُّ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةُ مُوسَى ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفُ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِهِ لَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدَ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٦٩﴾ فَأَلْقَى السِّحْرَةَ سُبْحًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنَّا لَهُ قَبْلُ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلِنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى

﴿٧١﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْيَاسَنِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ

المناسبة: لما ذكر تعالى نعمته على موسى باستجابة دعائه وإعطائه سُؤله، ذكر هنا ما خصَّه به من الاصطفاء والاجتباء، وأمره بالذهاب إلى فرعون مع أخيه هارون لتبليغه دعوة الله، ثم ذكر ما دار من الحوار بين موسى وفرعون وما كان من أمر السحرة وسجودهم لله رب العالمين.

اللغة: ﴿وَأَصْطَفَعْتُكَ﴾ اصطفتيك واخترتك، وأصل الاصطناع: اتخاذ الصنعة وهو الخير تُسديه إلى إنسان ﴿لَنِيَا﴾ الوَنِي: الضعف والفتور قال العجاج:

فَمَا وَنَىٰ مُحَمَّدٌ مُذْ أَنْ غَفِرَ لَهُ الْإِلَٰهُ مَا مَضَىٰ وَمَا غَبَرَ ^(١)

﴿يَفْرُطُ﴾ يتعجل ويبادر إلى عقوبتنا، ومنه الفارط الذي يتقدم القوم إلى الماء ﴿فَيُسْحَتُكُمْ﴾ يستأصلكم ويبيدكم وأصله استقصاء الحلق للشعر قال الفرزدق:

وَعَصُ زَمَانٍ يَا ابْنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدْعُ مِنَ الْمَالِ إِلَّا مُسَحَّتٌ أَوْ مُجْلَفٌ ^(٢)

ثم استعمل في الإهلاك والإذهاب، والسحت: المال الحرام لأنه يهلك الإنسان ويدمره ﴿النَّجْوَى﴾ التجاوي وهو الإسرار بالكلام ﴿وَأَوْجَسَ﴾ أضمر واستشعر الخوف في نفسه.

التفسير: ﴿وَأَصْطَفَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ أي اخترتك لرسالتي ووحيلي ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾ أي اذهب مع هارون بحججي وبراهيني ومعجزاتي قال المفسرون: المراد بالآيات هنا اليد والعصا التي أيد الله بها موسى ﴿وَلَا نُنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ أي لا تفترأ وتقصصا في ذكر الله وتسبيحه قال ابن كثير: والمراد ألا يفترأ عن ذكر الله بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون، ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه، وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له ^(٣) ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ أي تجبر وتكبر وبلغ النهاية في العتو والطغيان ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَئِنَّا﴾ أي قولاً لفرعون قولاً لطيفاً رفيقاً ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أي لعله يتذكر عظمة الله أو يخاف عقابه فيرتدع عن طغيانه ﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ﴾ أي قال موسى وهارون: يا ربنا إننا نخاف إن دعوانه إلى الإيمان أن يعجل علينا العقوبة، أو يجاوز الحد في الإساءة إلينا ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أي لا تخافا من سطوته إنني معكما بالنصرة والعون أسمع جوابه لكما، وأرى ما يفعل بكما ﴿فَأَنبَاهُ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أي إنا رسولان

(١) «تفسير الطبري» ١٦٨/١٦. (ش): (مُدُّ): مُنَدُّ. (عَبَر): مَضَى، ذهب.

(٢) «تفسير القرطبي» ٢١٥/١١. (ش): الْمُسَحَّتُ: الْمُسْتَأَصَل. وَالْمُجْلَفُ: الَّذِي بَقِيََتْ مِنْهُ بَقِيَّةٌ.

(٣) «المختصر» ٤٨٢/٢.

من عند ربك أُرسلنا إليك، وتخصيصُ الذِّكْرِ^(١) بلفظ ﴿رَبِّكَ﴾ لإعلامه أنه مربوبٌ وعبْدٌ مملوكٌ لله إذ كان يدَّعي الربوبية ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَّا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ﴾ أي أطلق سراح بني إسرائيل ولا تعذبهم بتكليفهم بالأعمال الشاقة ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي قد جئناك بمعجزة تدل على صدقنا ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَتْبَعِ الْهُدَى﴾ أي والسلامة من عذاب الله لمن اهتدى وآمن قال المفسرون: لم يقصد به التَّجْبِية لأنه ليس بابتداء الخطاب وإنما قصد به السلام من عذاب الله وسخطه ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ أي قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا أن العذاب الأليم على من كَذَّبَ أنبياء الله وأعرض عن الإيمان ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يُمُوسَى﴾ أي قال فرعون: ومن هذا الربُّ الذي تدعوني إليه يا موسى؟ فإني لا أعرفه؟ ولم يقل: «مَنْ رَبِّي؟» لغاية عتوه ونهاية طغيانه بل أضافه إلى موسى وهارون ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا﴾ ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ أي ربُّنا هو الذي أبدع كل شيء خلقه ثم هداه لمنافعه ومصالحه، وهذا جوابٌ في غاية البلاغة والبيان لاختصاره ودلالته على جميع الموجودات بأسرها، فقد أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع، وكذلك اليد والرجل والأنف واللسان قال الزمخشري: والله درُّ هذا الجواب^(٢) ما أَخَصَرَهُ وأَجْمَعَهُ وأَبَيَّنَهُ لمن ألقى الذهن ونظر بعين الإنصاف ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ أي ما حال من هلك من القرون الماضية؟ لِمَ لَمْ يُبْعَثُوا ولم يُحَاسِبُوا إن كان ما تقول حقاً؟ قال ابن كثير: لما أخبر موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق، وقدر فهدى، شرع فرعون يحتج بالقرون الأولى كأنه يقول: ما بالهم إذ كان الأمر كذلك لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره؟^(٣) ﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾ أي قال موسى: عَلِمَ أحوالها وأعمالها عند ربي مسطرٌ في اللوح المحفوظ ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أي لا يخطئ ربي ولا يغيب عن علمه شيء منها.

ثم شرع موسى يبيِّن له الدلائل على وجود الله وآثار قدرته الباهرة فقال ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي جعل الأرض كالمهد تمتهدونها^(٤) وتستقرون عليها رحمةً بكم ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي جعل لكم طرقاً تسلكونها فيها لقضاء مصالحكم ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي أنزل لكم من السحاب المطر عذباً فزاتاً ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ أي فأخرج بذلك الماء أنواعاً من النباتات المختلفة الطعم والشكل والرائحة

(١) (ش): الذِّكْرِ: التذكير. ذَكَرَ فلانُ الشَّيْءَ لفلانٍ: أعلمه به وذكره إِيَّاه.

(٢) (ش): لله درُّ هذا الجواب: عبارة تعجب ومدح.

(٣) «المختصر» ٤٨٣/٢.

(٤) (ش): أي جعلها كالفراش ميسرةً للانتفاع بها.

كُلَّ صَنَفٍ مِنْهَا زَوْجٌ، وفيه التفاتٌ من الغيبة إلى المتكلم تنبيهاً على عظمة الله ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ أي كلوا من هذه النباتات والثمار واطرخوا أنعامكم تسرح وترعى من الكلال الذي أخرجه الله، والأمر للإباحة تذكيراً لهم بالنعم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ أي إنَّ فيما ذكر لعلامات واضحة لأصحاب العقول السليمة على وجود الله ووحدانيته ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أي من الأرض خلقناكم أيها الناس وإليها تعودون بعد مماتكم فتصيرون تراباً ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ أي ومن الأرض نخرجكم مرة أخرى للبعث والحساب.. ثم أخبر تعالى عن عتو فرعون وعناده فقال ﴿وَلَقَدْ آرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا﴾ أي والله لقد بصرنا فرعون بالمعجزات الدالة على نبوة موسى من العصا، واليد، والطوفان، والجراد، وسائر الآيات التسع ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ أي كذب بها مع وضوحها وزعم أنها سحر، وأبى الإيمان والطاعة لعُتُوّه^(١) واستكباره ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى﴾ أي قال فرعون: أجئتني يا موسى بهذا السحر لتخرجنا من أرض مصر؟ ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ﴾ فلنعارضنك بسحر مثل الذي جئت به ليظهر للناس أنك ساحر ولست برسول ﴿فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أي عيّن لنا وقت اجتماع ﴿لَّا نُخْلَفُهُ، نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ أي لا نخلف ذلك الوعد لا من جهتنا ولا من جهتك ويكون بمكان معيّن ووقت معيّن^(٢) ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَن يُخَشِرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ أي قال موسى: موعدنا للاجتماع يوم العيد - يومٌ من أيام أعيادهم - وأن يجتمع الناس في ضحى ذلك النهار قال المفسرون: وإنما عيّن ذلك اليوم للمبارزة ليظهر الحق ويذهب الباطل على رءوس الأشهاد، ويشيع ذلك في الأقطار بظهور معجزته للناس ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ أي انصرف فرعون فجمع السحرة ثم أتى الموعد ومعه السحرة وأدواتهم وما جمعه من كيد ليطغى نور الله قال ابن عباس: كانوا اثنين وسبعين ساحراً مع كل ساحر منهم حبال وعصي^(٣) ﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ أي قال موسى للسحرة لما جاء بهم فرعون: ويلكم لا تختلقوا على الله الكذب فيهلككم ويستأصلكم بعذاب هائل ﴿وَقَدْ حَاقَ مِنَ الْفِتْرِى﴾ أي خسر وهلك من كذب على الله قدامهم النصيح والإنذار لعلهم يثوبون إلى الهدى، ولما سمع السحرة منه هذه المقالة هالهم ذلك ووقع في نفوسهم مهابته ولذلك تنازعوا في أمره ﴿فَنَنْزِعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ أي اختلفوا في أمر موسى فقال بعضهم: ما هذا بقول ساحر وأخفوا ذلك عن الناس وأخذوا يتناجون سرّاً ﴿قَالُوا

(١) (ش): عتا الظالم: استكبر وتجبر وجاوز الحد، عصى وتمرد.

(٢) هذا ما اختاره ابن كثير في تفسير «مَكَانًا سُوًى» واختار «الطبري» أن المراد مكاناً تستوي مسافته على الفريقين.

(٣) «تفسير القرطبي» ١١ / ٢١٤.

إِنَّ هَذَيْنِ لَسَاحِرَيْنِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا ﴿١﴾ أَيُّ قَالُوا بَعْدَ التَّنَاضُرِ وَالتَّشَاوُرِ مَا هَذَانِ إِلَّا سَاحِرَانِ يُرِيدَانِ الِاسْتِيلَاءَ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ وَإِخْرَاجِكُمْ مِنْهَا بِهَذَا السِّحْرِ ﴿٢﴾ وَبِذِهِمَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴿٣﴾ أَيُّ غَرَضُهُمَا إِفْسَادُ دِينِكُمُ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَالَّذِي هُوَ أَفْضَلُ الْمَذَاهِبِ وَالْأَدْيَانِ قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ: وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ تَشَاوَرُوا فِي السَّرِّ وَتَجَادَبُوا أَهْدَابَ الْقَوْلِ ثُمَّ قَالُوا ﴿٤﴾ إِنَّ هَذَيْنِ لَسَاحِرَيْنِ ﴿٥﴾ فَكَانَتْ نَجْوَاهُمْ فِي تَلْفِيقِ هَذَا الْكَلَامِ وَتَرْوِيرِهِ خَوْفًا مِنْ غَلْبَةِ مُوسَى وَهَارُونَ لِهَمَا وَتَثْبِيطًا لِلنَّاسِ مِنْ اتِّبَاعِهِمَا ^(١) ﴿٦﴾ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَتْهُمَا صَفًّا ﴿٧﴾ أَيُّ أَحْكَمُوا أَمْرَكُمْ وَاعْزَمُوا عَلَيْهِ وَلَا تَتَنَازَعُوا وَارْمُوا عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ أَتَوْا إِلَى الْمِيدَانِ مِصْطَفِينَ لِيَكُونَ أَهْيَبَ ^(٢) فِي صُدُورِ النَّاضِرِينَ ﴿٨﴾ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى ﴿٩﴾ أَيُّ فَازَ الْيَوْمَ مِنْ عِلَا وَغَلَبَ قَالَ الْمَفْسُورُونَ: أَرَادُوا بِالْفَلَاحِ مَا وَعَدَهُمْ بِهِ فِرْعَوْنُ مِنَ الْإِنْعَامَاتِ الْعَظِيمَةِ وَالْهَدَايَا الْجَزِيلَةِ مَعَ التَّقْرِيبِ وَالتَّكْرِيمِ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿١٠﴾ قَالُوا إِنَّا لَنَاجِرُونَ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٢﴾ [الأعراف: ١١٣ - ١١٤] ﴿١٣﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴿١٤﴾ أَيُّ قَالَ السَّحْرَةَ لِمُوسَى: إِمَّا أَنْ تَبْدَأَ أَنْتَ بِالِالْقَاءِ أَوْ نَبْدَأَ نَحْنُ؟ خَيْرٌ وَهُوَ ثَقَّةٌ مِنْهُمْ بِالْغَلْبَةِ لِمُوسَى لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ أَحَدًا لَا يَقَاوِمُهُمْ فِي هَذَا الْمِيدَانِ ﴿١٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ﴿١٦﴾ أَيُّ قَالَ لَهُمْ مُوسَى: بَلْ ابْدَعُوا أَنْتُمْ بِالِالْقَاءِ قَالَ «أَبُو السَّعُودِ»: قَالَ ذَلِكَ مُقَابِلَةً لِلْأَدَبِ بِأَحْسَنَ مِنْ أَدْبِهِمْ حَيْثُ بَتَّ الْقَوْلَ ^(٣) بِالْقَائِهِمْ أَوَّلًا، وَإِظْهَارًا لِعَدَمِ الْمِبَالَاةِ بِسِحْرِهِمْ لِيُبرِّزُوا مَا مَعَهُمْ، وَيَسْتَفْرِغُوا أَقْصَى جَهْدِهِمْ وَقِصَارَى وَسْعِهِمْ، ثُمَّ يُظْهِرُ اللَّهُ سُلْطَانَهُ فَيَقْدِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيُدْمِغُهُ ^(٤) ﴿١٧﴾ فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُخَيِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴿١٨﴾ فِي الْكَلَامِ حَذْفُ دَلٍّ عَلَيْهِ الْمَعْنَى أَيُّ فَأَلْقَوْا فَإِذَا تَلَّكَ الْحَبَالُ وَالْعَصِيُّ الَّتِي أَلْقَوْهَا يَتَخِيلُهَا مُوسَى وَنَظْمُهَا - مِنْ عَظْمَةِ السِّحْرِ - أَنَّهَا حَيَاتٌ تَتَحَرَّكُ وَتَسْعَى عَلَى بَطُونِهَا، وَالتَّعْبِيرُ يُوْحِي بِعَظْمَةِ السِّحْرِ حَتَّى إِنْ مُوسَى فَرَعَ مِنْهَا وَاضْطَرَبَ ﴿١٩﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٢٠﴾ أَيُّ أَحْسَسَ مُوسَى الْخَوْفَ فِي نَفْسِهِ بِمُقْتَضَى الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ لِأَنَّهُ رَأَى شَيْئًا هَائِلًا ﴿٢١﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٢٢﴾ أَيُّ قُلْنَا لِمُوسَى: لَا تَخَفْ مِمَّا تَوْهَمْتَ ^(٥) فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَالِبُ الْمُنْتَصِرُ ﴿٢٣﴾ وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ نَلْقَفَ مَا صَنَعُوا ﴿٢٤﴾ أَيُّ أَلْقَى عَصَاكَ الَّتِي بِيَمِينِكَ تَتْبَلَعُ بِفَمِهَا مَا صَنَعُوهُ مِنَ السِّحْرِ ﴿٢٥﴾ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سِحْرٍ ﴿٢٦﴾ أَيُّ إِنْ الَّذِي اخْتَرَعُوهُ وَافْتَعَلُوهُ هُوَ مِنْ بَابِ الشَّعْوَذَةِ وَالسِّحْرِ ﴿٢٧﴾ وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٢٨﴾ أَيُّ لَا يَسْعُدُ السَّاحِرُ حَيْثُ كَانَ وَلَا يَفُوزُ بِمَطْلُوبِهِ لِأَنَّهُ كَاذِبٌ

(١) «الكشاف» ٣.

(٢) (ش): أَهْيَبَ: أَكْثَرُ هَيْبَةً، أَكْثَرُ مَهَابَةً.

(٣) (ش): أَيُّ لَمْ يَتَرَدَّدْ فِيهِ.

(٤) «أَبُو السَّعُودِ» ٣/ ٣١٣.

(٥) أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى لَهُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الرَّاهِنَةَ بِهَذَا الْقَوْلِ.

مضلل ﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَجْدًا قَالَوْا أَمَّا رَبُّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ أي فألقى موسى عصاه فابتلعت ما صنعوا فخر السحرة حينئذ سجد الله رب العالمين لما رأوا من الآية الباهرة قال ابن كثير: لما ألقى موسى العصا صارت ثعباناً عظيماً هائلاً، ذا قوائم وعُنق ورأس وأضراس، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصي حتى لم تبق شيئاً إلا ابتلعت، والناس ينظرون إلى ذلك عياناً نهراً، فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوا علموا علم اليقين أن هذا ليس من قبيل السحر والحيل وأنه حق لا مرية فيه، فعند ذلك وقعوا سجداً لله، فقامت المعجزة واتضح البرهان، ووقع الحق وبطل السحر، قال ابن عباس: كانوا أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء بررة^(١) ﴿قَالَ أَمَنْتُمْ لَهُ، قَبْلَ أَنْ أَدْنَلَ لَكُمْ﴾ أي قال فرعون للسحرة: آمنتم بموسى وصدقتموه بما جاء به قبل أن أسمح لكم بذلك وقبل أن تستأذنوني؟ ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ أي إنه رئيسكم الذي علمكم السحر فاتفقتم معه لتذهبوا بملكي قال «القرطبي»: وإنما أراد فرعون بقوله أن يلبس على الناس حتى لا يتبعوهم فيؤمنوا كإيمانهم^(٢)، ثم توعدهم وهددهم بالقتل والتعذيب فقال ﴿فَلَا قُطْعَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾ أي فوالله لأقطعن الأيدي والأرجل منكم مختلفات بقطع اليد اليمنى، والرجل اليسرى أو بالعكس ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي لأعلقنكم على جذوع النخل وأقتلنكم شر قتلة ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ أَنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ أي ولتعلمن أيها السحرة من هو أشد منا عذاباً وأدوم، هل أنا أم رب موسى الذي صدقتم به وآمتم ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَينَتِ﴾ أي قال السحرة: لن نخترك ونفضلك على الهدى والإيمان الذي جاءنا من الله على يد موسى ولو كان في ذلك هلاكنا ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ قسم بالله أي مُقسِّمين بالله الذي خلقنا^(٣) ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ أي فاصنع ما أنت صانع ﴿إِنَّمَا نَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي إنما ينفذ أمرك في هذه الحياة الدنيا وهي فانية زائلة ورغبتنا في النعيم الخالد قال عكرمة: لما سجدوا أراهم الله في سجودهم منازلهم في الجنة فلذلك قالوا ما قالوا^(٤) ﴿إِنَّا أَمَّا رَبُّنَا لَيَغْفِرُنَا خَطِيئَتَنَا﴾ أي آمنا بالله ليغفر لنا الذنوب التي اقترفناها وما صدر منا من الكفر والمعاصي ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ أي ويغفر لنا السحر الذي عملناه لإطفاء نور الله ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أي والله خير منك ثواباً وأبقى عذاباً، وهذا جواب قوله ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ أَنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ ﴿إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ﴾ هذا

(١) «المختصر» ٤٨٦/٢.

(٢) «تفسير القرطبي» ١١/٢٢٤.

(٣) (ش): قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٥/٣٠٤): ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ قَسَمًا، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَعْطُوفًا عَلَى الْبَيِّنَاتِ. يَعْنُون: لَا نَخْتَارُكَ عَلَى فَاطِرِنَا وَخَالِقِنَا الَّذِي أَنْشَأَنَا مِنَ الْعَدَمِ، الْمُبْتَدِي خَلْقَنَا مِنَ الطَّيْنِ، فَهُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ وَالْخُضُوعِ لَا أَنْتَ.

(٤) «تفسير القرطبي» ١١/٢٢٥.

من تتمة كلام السحرة عظة لفرعون أي من يُلْقَ ربه يوم القيامة وهو مجرمٌ باقترافه المعاصي وموته على الكفر، فإن له نار جهنم ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ أي لا يموت في جهنم فينقضي عذابه، ولا يحيا حياة طيبة هنيئة^(١) ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي ومن يلقي ربه مؤمناً موحداً وقد عمل الطاعات وترك المنهيات ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ أي فأولئك المؤمنون العاملون للصلوات لهم المنازل الرفيعة عند الله ﴿حَتَّىٰ عَدْنٍ﴾ بيانٌ للدرجات العُلَى أي جنات إقامة ذات الدرجات العاليات، والغرف الآمنات، والمساكن الطيبات ﴿تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي تجري من تحت غرفها وسُررُها أنهار الجنة من الخمر، والعسل، واللبن، والماء ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء: ٥٧] أي ماكثين في الجنة دوماً لا يخرجون منها أبداً ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ أي وذلك ثواب من تطهر من دنس الكفر والمعاصي، وفي الحديث «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالْفِرْدَوْسُ أَعْلَاهَا، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُّوهُ الْفِرْدَوْسَ»^(٢).

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الاستعارة ﴿وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ شبه ما خوّله به من القرب والاصطفاء بحال من يراه الملك أهلاً للكرامة وقرب المنزلة لما فيه من الخلال الحميدة فيصطنعه لنفسه، ويختاره لخلّته، ويصطنعه لأموره الجليلة، واستعار لفظ (اصطنع) لذلك، ففيه استعارة تبعية.

٢ - المقابلة اللطيفة ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ حيث قابل بين ﴿وَمِنْهَا﴾ و ﴿وَفِيهَا﴾ وبين الخلق والإعادة وهذا من المحسنات البديعية.

٣ - إيجاز حذف ﴿بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِجَابٌ﴾ أي فألقوا فإذا حبالهم، حذف لدلالة المعنى عليه ومثله ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدًا﴾ بعد قوله ﴿وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ حذف منه كلام طويل وهو فألقى موسى عصاه فتلففت ما صنعوا من السحر فألقى السحرة سجداً، وإنما حسن الحذف لدلالة المعنى عليه ويسمى إيجاز حذف.

٤ - الطباق بين ﴿يَمُوتُ... يَحْيَى﴾ وبين ﴿نُعِيدُ... وَنُخْرِجُ﴾.

٥ - المقابلة بين ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ وبين ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ إلخ والمقابلة هي أن يؤتى بمعنيين أو أكثر ثم يؤتى بما يقابل ذلك.

٦ - السجع الحسن غير المتكلف في مثل ﴿سُوءَى، ضُحَى، أَفْتَرَى، يَحْيَى، تَزَكَّى﴾ إلخ.

(١) أنشد ابن الأنباري في هذا المعنى:

شَقَاهَا وَلَا تَحْيَا حَيَاةً لَهَا طَعْمُ

أَلَا مَنْ لِنَفْسٍ لَا تَمُوتُ فَيَنْقُضِي

(٢) رواه أحمد والترمذي. (ش): ورواه البخاري.

٧ - المؤكدات ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ أكد الخبر بعدة مؤكدات وهي ﴿إِنَّ﴾ المفيدة للتأكيد، وتكرير الضمير ﴿أَنْتَ﴾ وتعريف الخبر ﴿الْأَعْلَى﴾ ولفظ العلو الدال على الغلبة، وصيغة التفضيل ﴿الْأَعْلَى﴾ والله در التنزيل ما أبلغه وأروعه، وهذا من خصائص علم المعاني.

تنبيه: لم تذكر الآيات الكريمة أن فرعون فعل بالسحرة ما هددهم به، وقد ذكر المفسرون أنه أنفذ فيهم وعيده فقطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم فماتوا على الإيمان ولهذا قال ابن عباس: كانوا في أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء برة.

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ۖ فَاتَّبِعْهُمْ فَرْعَوْنُ يَجْنُوبُهُ فَعَشِيبُهُمْ مِنْ آلِمْ مَا غَشِيبُهُمْ ۖ وَأَضَلَّ فَرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ۖ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَجْنَحْنَاكُمْ مِنْ عُدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى ۖ كُلُوا مِنْ طَلِبَتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ۖ وَلَئِنْ لَغَفَرْنَا لَرَيْنَا تَابَ وَءَامَنَ وَحَمَلَ صِلِحًا ثُمَّ أُهْتَدَى ۖ ﴿٧٨﴾ وَمَا أَعْجَلَاكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمْوَسَّى ۖ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَتْرَىٰ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۖ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ۖ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفُطِلَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ۖ ﴿٨٠﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ۖ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسَىٰ ۖ ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۖ ﴿٨٢﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ۖ ﴿٨٣﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ۖ ﴿٨٤﴾ قَالَ يَهْدُرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۖ ﴿٨٥﴾ أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ۖ ﴿٨٦﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ۖ ﴿٨٧﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمِرِيُّ ۖ ﴿٨٨﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ۖ ﴿٨٩﴾ قَالُوا فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ ۖ وَانْظُرْ إِلَى إِلٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ۖ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۖ ﴿٩١﴾

المناسبة: لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن قصة موسى وفرعون، وتشير الآيات هنا إلى عناية الله تعالى بموسى وقومه، وإنجائهم وإهلاك عدوهم، وتذكّرهم بنعم الله العظمى ومنته الكبرى على بني إسرائيل، وما وصّاهم به من المحافظة على شكرها وتحذيرهم من

التعرض لغضب الله بكفرها، ثم تذكر الآيات انتكاس بني إسرائيل بعبادتهم العجل، وقد طوى هنا ما فصل في آيات آخر.

اللغة: ﴿دَرَكًا﴾ لحاقاً مصدر أدركه إذا لحقه ﴿تَطْغَوْا﴾ الطغيان: مجاوزة الحد إلى ما لا ينبغي ﴿هَوَى﴾ صار إلى الهاوية وهي قعر النار من هوى يهوى إذا سقط من علو إلى سفلى ﴿بِمَلِكِنَا﴾ المَلَك: بفتح الميم وسكون اللام: الطاقة والقدرة ومعناه بأمر كنا نملكه من جهتنا ﴿أَوْزَارًا﴾ أثقالاً ومنه سمي الذنب وزراً لأنه يثقل الإنسان ﴿خُورًا﴾ الخوار: صوت البقر ﴿يَبْتُؤُمْ﴾ أي يا ابن أمي واللفظة تدل على الاستعطاف ﴿سَوَّلَتْ﴾ حسنت وزينت.

التفسير: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ أي أوحينا إلى موسى بعد أن تمادى فرعون في الطغيان أن سر بني إسرائيل ليلاً من أرض مصر ﴿فَأَضْرَبَ لَهِمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَمَسًا﴾ أي اضرب البحر بعصاك ليصبح لهم طريقاً يابساً يمرون عليه ﴿لَّا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ أي لا تخاف لحاقاً من فرعون وجنوده، ولا تخشى الغرق في البحر ﴿فَأَنْبَعَثَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَعَشِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي فلحقهم فرعون مع جنوده ليقتلهم فأصابهم من البحر ما أصابهم، وغشيهم من الأحوال ما لا يعلم كنهه إلا الله، والتعبير يفيد التهويل لما دهاهم عند الغرق ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ أي أضلهم عن الرشده وما هداهم إلى خير ولا نجاة، وفيه تهكم بفرعون في قوله ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكَ مِّنْ عَدُوِّكَ﴾ خطاب لبني إسرائيل بعد خروجهم من البحر وإغراق فرعون وجنوده. والمعنى اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي العظيمة عليكم حين نجيتكم من فرعون وقومه الذين كانوا يسومونكم سوء العذاب ﴿وَوَعَدْنَاكَ الْجَنَابَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ﴾ أي وعدنا موسى للمناجاة وإنزال التوراة عليه جانب طور سيناء الأيمن، وإنما نسبت المواعدة إليهم لكون منفعتها راجعة إليهم إذ في نزول التوراة صلاح دينهم وديانهم ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى﴾ أي رزقناكم وأنتم في أرض التيه باليمن وهو يشبه العسل، والسلوى وهو من أجود الطيور لحماً تفضلاً منا عليكم.. وفي هذا الترتيب غاية الحسن حيث بدأ بتذكيرهم بنعمة الإنجاء، ثم بالنعمة الدنيوية ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي وقلنا لكم: كلوا من الحلال اللذيذ الذي أنعمت به عليكم ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أي لا تحملنكم السعة والعافية على العصيان لأمرى فينزل بكم عذابي ﴿وَمَن يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ أي ومن ينزل عليه غضبي وعقابي فقد هلك وشقي ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ أي وإني لعظيم المغفرة لمن تاب من الشرك وحسن إيمانه وعمله، ثم استقام على الهدى والإيمان، وفي الآية ترغيب لمن وقع في وهدة

العصيان ببيان المخرج كيلا يئأس ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ أي أي شيء عجّل بك عن قومك يا موسى؟ قال الزمخشري: كان موسى قد مضى مع النقباء الذين اختارهم من قومه إلى الطور على الموعد المضروب ثم تقدمهم شوقاً إلى كلام ربه^(١) ﴿قَالَ هُمْ أَوْلَاءَ عَلَىٰ أَثَرِي﴾ أي قومي قريون مني لم أتقدمهم إلا بشيء يسير وهم يأتون بعدي ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ أي وعجلت إلى الموضع الذي أمرتني بالمجيء إليه لتزداد رضى عني. أعتذر موسى أولاً ثم بيّن السبب في إسرّاعه قبل قومه وهو الشوق إلى مناجاة الله ابتغاء لرضى الله ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ أي ابتليناهم بعبادة العجل من بعد ذهابك من بينهم ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ أي وأوقعهم السامري في الضلالة بسبب تزيينه لهم عبادة العجل، وكان السامري ساحراً منافقاً من قوم يعبدون البقر قال المفسرون: كان موسى حين جاء لمناجاة ربه قد استخلف على بني إسرائيل أخاه هارون، وأمره أن يتعهدهم بالإقامة على طاعة الله، وفي أثناء غيبة موسى جمع السامري الحليّ ثم صنع منها عجلاً ودعاهم إلى عبادته فعكفوا عليه وكانت تلك الفتنة وقعت لهم بعد خروج موسى من عندهم بعشرين يوماً ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا﴾ أي رجع موسى من الطور بعدما استوفى الأربعين وأخذ التوراة عضبان شديد الحزن على ما صنع قومه من عبادة العجل^(٢) ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا﴾ أي ألم يعدكم بإنزال التوراة فيها الهدى والنور؟ والاستفهام للتوبيخ ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ أي هل طال عليكم الزمن حتى نسيتم العهد أم أردتم بصنيعكم هذا أن ينزل عليكم سخط الله وغضبه فأخلفتم وعدي؟ قال أبو حيان: وكانوا وعدوه بأن يتمسكوا بدين الله وسنة موسى عليه السلام، ولا يخالفوا أمر الله أبداً، فأخلفوا مواعده بعبادتهم العجل ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا﴾ أي ما أخلفنا العهد بطاقتنا وإرادتنا واختيارنا بل كنا مكرهين ﴿وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا﴾ أي حملنا أثقالاً وأحمالاً من حليّ آل فرعون فطرحناها في النار بأمر السامري قال مجاهد: أوزاراً: أثقالاً وهي الحلي التي استعاروها من آل فرعون ﴿فَكَذَّبْتَكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ أي كذلك فعل السامري ألقى ما كان معه من حلي القوم في النار قال المفسرون: كان بنو إسرائيل قد استعاروا من القبط الحليّ قبل خروجهم من مصر، فلما أبطأ موسى في العودة إليهم قال لهم السامري: إنما احتبس عليكم لأجل ما عندكم من الحلي فجمعه ودفعوه إلى السامري، فرمى به في النار

(١) «الكشاف» ٨٩/٣.

(٢) «البحر المحيط» ٦/٢٦٨.

وصاغ لهم منه عجلاً، ثم ألقى عليه قبضةً من أثر فرس جبريل عليه السلام فجعل يخور^(١) فذلك قوله تعالى ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجْلاً جَسَداً لَهُ خَوَارٌ﴾ أي صاغ لهم السامري من تلك الحلي المذابة عجلاً جسداً بلا روح له خوارٌ وهو صوت البقر^(٢) ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ أي هذا العجل إلهكم وإله موسى فنسي موسى إلهه هنا وذهب يطلبه في الطور، قال قتادة: نسي موسى ربه عندكم، فعكفوا عليه يعبدونه، قال تعالى ردّاً عليهم وبياناً لسخافة عقولهم في عبادة العجل ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي أفلا يعلمون أن العجل الذي زعموا أنه إلههم لا يردّ لهم جواباً، ولا يقدر أن يدفع عنهم ضرراً أو يجلب لهم نفعاً فكيف يكون إلهاً؟ والاستفهام للتوبيخ والتفريع ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ أي قال لهم هارون ناصحاً ومذكراً من قبل رجوع موسى إليهم: إنما ابتليتم وأضللتهم بهذا العجل ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ أي وإن ربكم المستحق للعبادة هو الرحمن لا العجل، فاقفوا بي فيما أدعوكم إليه من عبادة الله، وأطيعوا أمري بترك عبادة العجل ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ أي قالوا: لن نزال مقيمين على عبادة العجل حتى يعود إلينا موسى فننظر في الأمر ﴿قَالَ يَهُدُوثُ مِمَّنْ مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾^(٣) ﴿أَلَا تَتَّبِعُنِي؟﴾ في الكلام حذف أي فلما رجع موسى ووجدهم عاكفين على عبادة العجل امتلاً غضباً لله وأخذ برأس أخيه هارون يجره إليه وقال له: أي شيء منعك حين رأيتهم كفروا بالله أن لا تتبعني في الغضب لله والإنكار عليهم والزجر لهم عن ذلك الضلال؟ ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ أي أخالفتني وتركت أمري ووصيتي؟ قال المفسرون: وأمره هو ما كان أوصاه به فيما حكاه تعالى عنه ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُوثَ أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] ﴿قَالَ يَبْنَوثُ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ أي قال له هارون استعظافاً وترقيقاً: يا ابن أمي - أي يا أخي - لا تأخذ بلحيتي ولا بشعر رأسي قال ابن عباس: أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله من شدة غيظه وفرط غضبه لأن الغيرة في الله ملكته^(٣) ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي إني خفت إن زجرتهم بالقوة أن يقع قتال بينهم فتلومني على ذلك وتقول لي: لقد أشعلت الفتنة بينهم ﴿وَلَمْ تَرْفَعْ قَوْلِي﴾ أي لم تنتظر أمري فيهم، فمن أجل ذلك رأيت ألا أفعل شيئاً حتى ترجع إليهم لتتدارك الأمر بنفسك قال ابن عباس: وكان

(١) هذا خلاصة قول ابن عباس وقتادة ومجاهد كذا في «تفسير الطبري» ١٦/ ٢٠٠.

(٢) قال «الرازي»: قيل إنه صار حياً وخار، وقيل: لم تحله الحياة وإنما جعل فيه منافذ تدخل فيه الريح فيخرج له صوت العجل، «الرازي» ٢٢/ ١٠٣.

(٣) (ش): أي إن الغيرة في الله تمكنت منه وسيطرت عليه.

هارون هائباً مطيعاً له^(١) ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمَرِي﴾ أي ما شأنك فيما صنعت؟ وما الذي حملك عليه يا سامري؟ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أي قال السامري: رأيت ما لم يروه وهو أن جبريل جاءك على فرس الحياة فألقي في نفسي أن أقبض من أثره قبضة فما ألقيته على شيء إلا دبّت فيه الحياة ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾ أي قبضت شيئاً من أثر فرس جبريل فطرحتها على العجل فكان له خوار ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي﴾ أي وكذلك حسنت وزيت لي نفسي ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أي قال موسى للسامري: عقوبتك في الدنيا ألا تمس أحداً ولا يمسك أحد قال الحسن: جعل الله عقوبة السامري ألا يماس الناس ولا يمسه عقوبة له في الدنيا وكأن الله عز وجل شدد عليه المحنة ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفَهُ﴾ أي وإن لك موعداً للعذاب في الآخرة لن يتخلف ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي انظر إلى هذا العجل الذي أقمت ملازماً على عبادته ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ أي لنحرقه بالنار ثم لنطيرنه رماداً في البحر لا يبقى منه عين ولا أثر ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي يقول موسى لبني إسرائيل: إنما معبودكم المستحق للعبادة هو الله الذي لا رب سواه ﴿وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي وسع علمه كل شيء فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

- ١ - التهويل ﴿فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اللَّيْلِ مَا غَشِيَهُمْ﴾.
- ٢ - الطباق بين ﴿وَأَضَلَّ.. وَمَاهَدَى﴾.
- ٣ - الاستعارة ﴿فَقَدْ هَوَى﴾ استعار لفظ الهوي وهو السقوط من علٍ إلى سفلى للهلاك والدمار.
- ٤ - صيغة المبالغة ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾ أي كثير المغفرة للذنوب.
- ٥ - الطباق ﴿ضَرَّاءٌ وَلَا نَفْعًا﴾.
- ٦ - الإيجاز بالحذف في مواطن عديدة بينها في التفسير.
- ٧ - السجع الحسن غير المتكلف مثل ﴿أَمْرِي، قَوْلِي، نَفْسِي﴾ و ﴿نَفْعًا، عِلْمًا، نَسْفًا﴾ الخ.

تنبيه: إنما عبد بنو إسرائيل العجل بسبب فتنة السامري وقد كانت بذور الوثنية راسخة

(١) (ش): أي كان يعظمه ويوقره ويحمله ويطيعه. وقد نصحه هارون عليه السلام من قبل رجوع موسى إليهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠].

في قلوبهم ولذلك لما نجّاهم الله من طغيان فرعون طلبوا من موسى أن يصنع لهم تمثالاً ليعبدوه كما قال تعالى ﴿وَجُوزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] فلا عجب إذاً أن يعكفوا على عبادة عجل من ذهب له خوار!

قال الله تعالى:

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿١١﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿١٢﴾ خَلِيدٍ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ يُفْخَرُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٤﴾ يَخْفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٥﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٦﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٧﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٨﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٩﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿٢٠﴾ يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفْعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿٢١﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿٢٢﴾ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿٢٣﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿٢٤﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿٢٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ عَاهَدْنَا آلَ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ نُجِذْ لَهُ عَزْمًا ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِ كَعِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿٢٨﴾ فَقُلْنَا يَتَّعَدُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِجْلِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿٢٩﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿٣٠﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴿٣١﴾ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّعَدُمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبُلَى ﴿٣٢﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَتُهُمَا وَطَفِقَا مَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿٣٣﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَغَابَ عَلَيْهِ وَهْدَى ﴿٣٤﴾ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأَمَّا بَايِنُكُمْ مَنِ هَدَى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿٣٥﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿٣٦﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿٣٧﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ آيَاتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِيْكَ ﴿٣٨﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَشْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿٣٩﴾ أَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿٤٠﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿٤١﴾ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ أَنْبَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴿٤٢﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٤٣﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴿٤٤﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا

فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا
فَنُنَبِّئَ عَآيِنِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلُّ مَتَرَبِّصٍ فَتَرَبِّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنِ أَصْحَابُ
الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ

المناسبة: لما ذكر تعالى قصة موسى بالتفصيل، أعقبها بذكر أن هذا القصص وحي من الله، وأن محمداً ﷺ ما كان له علم بهذه الأخبار والأنباء العجيبة لولا أن الله تعالى أوحى إليه، وذلك من أكبر الدلائل والبراهين على صدق الرسالة.

اللغة: ﴿قَاعًا﴾ القاع: الأرض الملساء التي لا نبات فيها ولا بناء ﴿صَفْصَفًا﴾ الصَّفْصَفُ: المستوي من الأرض كأنه على صف واحد في استوائه ﴿أَمْتًا﴾ الأمت: المكان المرتفع كالتل والهضبة ﴿هَمْسًا﴾ صوتاً خفياً ﴿وَعَنْتِ﴾ ذَلَّتْ وخضعت قال أمية: «لِعِزَّتِهِ تَعْنُو الْوُجُوهُ وَتَسْجُدُ» قال الجوهري: عنا يعنو خضع وذَلَّ وأعناه غيره ومنه الآية ﴿وَعَنْتِ الْوُجُوهُ﴾ ﴿هَضْمًا﴾ الهضم: النقص يقال: هضمه حقه إذا أنقصه والفرق بين الظلم والهضم أن الظلم المنع من الحق كله، والهضم المنع من بعضه ^(١) ﴿نَضْحَىٰ﴾ ضحى للشمس برز لها حتى يصيبه حرُّها قال ابن أبي ربيعة:

رَأَتْ رَجُلًا أَيْمًا إِذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ فَيَضْحَى وَأَمَّا بِالْعَشِيِّ فَيَخْصُرُ ^(٢)

﴿صَنَّكَ﴾ الضَّنْكَ: الضيق والشدة يقال: منزلُ ضنك وعيشُ ضنك إذا كان شديداً ضيقاً ﴿سَوَاءُ تَهُمَا﴾ عوراتهما ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ انتظروا ﴿الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ الطريق المستقيم.

التفسير: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ أي كما قصصنا عليك يا محمد خبر موسى مع فرعون وما فيه من الأنباء الغريبة كذلك نقص عليك أخبار الأمم المتقدمين ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ أي أعطيناك من عندنا قرآناً يتلى منطقياً على المعجزات الباهرة قال في البحر: امتن تعالى عليه بإتيانه الذكر المشتمل على القصص والأخبار، الدال على معجزات أوتيتها عليه السلام ^(٣) ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ أي من أعرض عن هذا القرآن فلم يؤمن به ولم يتبع ما فيه، فإنه يحمل يوم القيامة حملاً ثقيلاً، وذنبا عظيماً يثقله في جهنم ﴿خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾ أي مقيمين في ذلك العذاب بأوزارهم، وبئس ذلك الحمل الثقيل حملاً لهم، شبه الوزر بالحمل لثقله ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ أي يوم ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية،

(١) «تفسير القرطبي» ١١/ ٢٤٩.

(٢) «البحر المحيط» ٦/ ٢٧١. (ش): أَيْمًا: أَمَّا. (عَارَضَتْ): ظهرت. (فَيَخْصُرُ): البُرد الشديد. تنبيه: في المطبوع:

فينحصر، والتصحيح من تفسير «القرطبي» و«القاموس المحيط» و«لسان العرب» و«مجمع الأمثال» للميداني.

(٣) «البحر المحيط» ٦/ ٢٧٨.

ونحشر المجرمين إلى أرض المحشر زُرْقُ العيون سود الوجوه قال «القرطبي»: تُشوه خلقتهم بزرقة العيون وسواد الوجوه^(١) ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ أي يتهامسون بينهم ويسرُّ بعضهم إلى بعض قائلين: ما مكثتم في الدنيا إلا عشر ليال قال «أبو السعود»: استقصروا مدة لبثهم فيها لما عاينوا الشدائد والأهوال^(٢) ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ أي نحن أعلم بما يتناجون بينهم إذ يقول أعقلهم وأعدلهم قولاً: ما لبثتم إلا يوماً واحداً ﴿وَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ أي ويسألونك عن حال الجبال يوم القيامة فقل لهم: إن ربي يفتتها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فيطيرها ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أي فيتركها أرضاً ملساء مستوية لا نبات فيها ولا بناء ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ أي لا ترى فيها انخفاصاً ولا ارتفاعاً ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أي في ذلك اليوم العصيب يتبع الناس داعي الله الذي يدعوهم لأرض المحشر يأتونه سراعاً لا يزيغون عنه ولا ينحرفون ﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ أي ذلت وسكنت أصوات الخلائق هيبةً من الرحمن جل وعلا ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ أي لا تسمع إلا صوتاً خفياً لا يكاد يُسمع وعن ابن عباس: هو همسُ الأقدام في مشيها نحو المحشر^(٣) ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب لا تنفع الشفاعة أحداً إلا لمن أذن له الرحمن في أن يشفع له، ورضي لأجله شفاعته الشافع، وهو الذي كان في الدنيا من أهل لا إله إلا الله^(٤)، قاله ابن عباس ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي يعلم أحوال الخلائق فلا تخفى عليه خافية من أمور الدنيا وأمور الآخرة ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ أي لا تحيط علومهم بمعلوماته جل وعلا^(٥) ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ أي ذلت وخضعت وجوه الخلائق للواحد القهار جبار السماوات والأرض الذي لا يموت قال الزمخشري: المراد بالوجوه وجوه العصاة وأنهم إذا عاينوا يوم القيامة الخيبة والشقوة وسوء الحساب، صارت وجوههم عانية أي ذليلة خاضعة مثل وجوه العناة وهم الأسارى كقوله ﴿سَيَتَّ وَجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الملك: ٢٧]^(٦) ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أي خسر من أشرك بالله، ولم ينجح ولا ظفر بمطلوبه ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾

(١) «تفسير القرطبي» ١١ / ٢٤٤.

(٢) «أبو السعود» ٣ / ٣٢٤.

(٣) «تفسير الطبري» ١٦ / ٢١٤.

(٤) (ش): قوله: (لا تنفع الشفاعة أحداً إلا لمن أذن له الرحمن أن يشفع له ورضي لأجله شفاعته الشافع)، الجملتان في معنى واحد، والصواب أن يقال في الثانية: ورضي قول المشفوع فيه وعمله بأن يكون من أهل لا إله إلا الله.

(٥) وقيل المراد لا يحيطون بمعرفة ذاته إذ لا يعرف الله على الحقيقة إلا الله. واختاره في «التسهيل».

(٦) «الكشاف» ٣ / ٩٢.

أي من قَدَّم الأعمال الصالحة بشرط الإيمان ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ أي فلا يخاف ظلمًا بزيادة سيئاته، ولا بخسًا ونقصًا لحسناته ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي مثل إنزال الآيات المشتملة على القصص العجيبة أنزلنا هذا الكتاب عليك يا محمد بلغة العرب ليعرفوا أنه في الفصاحة والبلاغة خارجٌ عن طوق البشر ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ أي كررنا فيه الإنذار والوعيد ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي كي يتقوا الكفر والمعاصي أو يحدث لهم موعظة في القلوب ينشأ عنها امتثال الأمر واجتناب النواهي ﴿فَعَلَى اللَّهِ أَمْلِكُ الْحَقُّ﴾ أي جلَّ الله وتقدَّس الملك الحق الذي قهر سلطانه كل جبار عمَّا يصفه به المشركون من خلقه ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أي إذا أقرأك جبريل القرآن فلا تتعجل بالقراءة معه، بل استمع إليه واصبر حتى يفرغ من تلاوته وحينئذٍ تقرؤه أنت قال ابن عباس: كان عليه السلام يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحي حرصًا على حفظ القرآن ومخافة النسيان فهناك الله عن ذلك قال «القرطبي»: وهذا كقوله تعالى ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾^(١) [القيامة: ١٦] ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ أي سأل الله عزَّ وجلَّ زيادة العلم النافع قال «الطبري»: أمره بمسألته من فوائد العلم ما لا يعلم^(٢) ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ﴾ أي وصيناه أن لا يأكل من الشجرة من القديم ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ أي نسي أمرنا ولم نجد له حزمًا وصبرًا عمَّا نهيناه عنه ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ يذكر تعالى تشريف آدم وتكريمه وما فضله به على كثير من الخلق أي واذكر يا محمد حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم فامثلوا الأمر لإبليس فإنه أبى السجود وعصى أمر ربه قال الصاوي: كررت هذه القصة في سبع سور من القرآن تعليمًا للعباد امتثال الأمر، واجتناب النواهي وتذكيرًا لهم بعداوة إبليس لأبيهم آدم^(٣) ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ أي ونهينا آدم فقلنا له: إن إبليس شديد العداوة لك ولحواء ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ أي لا تطيعاه فيكون سببًا لإخراجكما من الجنة فتشقيان، وإنما اقتصر على شقائه مراعاة للفواصل ولا استلزام شقائه لشقائهما قال ابن كثير: المعنى إياك أن تسعى في إخراجك من الجنة فتتعب وتشقى في طلب رزقك، فإنك هاهنا في عيش رغيد، بلا كلفة ولا مشقة^(٤) ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ أي إن لك يا آدم ألا ينالك في الجنة الجوع ولا العري

(١) «تفسير القرطبي» ١١/ ٢٥٠.

(٢) «تفسير الطبري» ١٦/ ٢٢٠. (ش): أي أمره أن يطلب من الله أن يُعطيَه من فوائد العلم ما لا يعلم.

(٣) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/ ٦٦.

(٤) «المختصر» ٢/ ٤٩٦.

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ أي ولك أيضاً ألا يصيبك العطش فيها ولا حر الشمس، لأن الجنة دار السرور والحبور، لا تعب فيها ولا نصب، ولا حر ولا ظمأ بخلاف دار الدنيا ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ أي حدّثه خفيةً بطريق الوسوسة ﴿قَالَ يَتَدَأْمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ أي قال له إبليس اللعين: هل أدلك يا آدم على شجرة من أكل منها خلّد ولم يمت أصلاً، ونال الملك الدائم الذي لا يزول أبداً؟ وهذه مكيدة ظاهرها النصيحة ومتى كان اللعين ناصحاً؟ ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَ تَهُمَا﴾ أي أكل آدم وحواء من الشجرة التي نهاهما الله عنها فظهرت لهما عوراتهما قال ابن عباس: عريا عن النور الذي كان الله تعالى قد ألبسهما إياه حتى بدت فروجهما^(١) ﴿وَفَقَعَا فِي صُفْحَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقٍ الْجَنَّةِ﴾ أي شرعا يأخذان من أوراق الجنة ويغطيان بها عوراتهما ليستتراها ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ أي خالف آدم أمر ربه بالأكل من الشجرة فضل عن المطلوب الذي هو الخلود في الجنة حيث اغتر بقول العدو قال ابو السعود: وفي وصفه بالعصيان والغواية - مع صغر زلته - تعظيم لها وزجرٌ بليغ لأولاده عن أمثالها^(٢) ﴿ثُمَّ أَجْنَبَتْ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ أي ثم اصطفاه ربه فقرّبه إليه وقبل توبته وهداه إلى الثبات على التوبة والتمسك بأسباب الطاعة ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي قال الله لآدم وحواء: انزلا من الجنة إلى الأرض مجتمعين بعض ذريتكما لبعض عدوٌ بسبب الكسب والمعاش واختلاف الطبائع والرغبات قال الزمخشري: لما كان آدم وحواء أصلي البشر جُعلا كأنهما البشر في أنفسهما فخطوبا مخاطبتهم^(٣) ﴿فَأَمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ أي فإن جاءكم من جهتي الكتب والرسل لهدايتكم ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ أي فمن تمسك بشريعتي واتبع رسلي فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة قال ابن عباس: ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة وتلا الآية^(٤) ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ أي ومن أعرض عن أمري وما أنزلته على رسلي من الشرائع والأحكام فإن له في الدنيا معيشة قاسية شديدة وإن تنعم ظاهره ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ أي ونحشره في الآخرة أعمى البصر قال ابن كثير: من أعرض عن أمر الله وتناساه فإن له حياة ضنكاً في الدنيا، فلا طمأنينة له ولا انشراح ل صدره، بل صدره ضيقٌ حرج لضلاله وإن تنعم ظاهره ولبس ما شاء، وأكل ما شاء،

(١) «أبو السعود» ٣/ ٣٢٧.

(٢) «نفس المراجع السابق» والصفحة.

(٣) «الكشاف» ٣/ ٩٣.

(٤) «تفسير القرطبي» ١١/ ٢٥٨.

وسكن حيث شاء، فإن قلبه في قلق وحيرة وشك، وقيل: يُضَيَّقُ عليه قبره حتى تختلف أضلاعه فيه^(١) ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ أي قال الكافر: يا رب بأي ذنب عاقبتني بالعمى وقد كنت في الدنيا بصيراً؟ ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتَنَا فَتَبَايَعْنَا بِكَ وَالْيَوْمَ نَسْئُكُ﴾ أي قال الله تعالى له: لقد أتتك آياتنا واضحة جلية فتعاميت عنها وتركتها، وكذلك تُترك اليوم في العذاب جزاءً وفاقاً ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ أي ومثل ذلك الجزاء الموافق للخيانة والتكذيب بآيات الله نعاقب من أسرف بالانهماك في الشهوات، ولم يصدق بكلام ربه وآياته البينات ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ أي عذاب جهنم أشد من عذاب الدنيا لأن عذابها أَدْوَمُ وأثبت لأنه لا ينقطع ولا ينقضي ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ أي أفلم يتبين لكفار مكة الذين كذبوك كم أهلكنا قبلهم من الأمم الخالية المكذبين لرسولهم ﴿يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ﴾ أي يرون مساكن عاد وثمود ويعانون آثار هلاكهم أفلا يتعظون ويعتبرون؟ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ أي إن في آثار هذه الأمم البائدة لدلالات وعبراً لذوي العقول السليمة ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي لولا قضاء الله بتأخير العذاب عنهم ووقت مسمى لهلاكهم لكان العذاب واقعاً بهم^(٢) قال الفراء: في الآية تقديم وتأخير والمعنى: ولولا كلمة وأجل مسمى لكان لزماً أي لكان العذاب لازماً لهم، وإنما أخره لتعتدل رءوس الآي^(٣) ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي فاصبر يا محمد على ما يقول هؤلاء المكذبون من قومك ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ أي صلِّ وأنت حامدٌ لربك قبل طلوع الشمس صلاة الصبح، وقبل غروبها صلاة العصر ﴿وَمِنْ عَنَائِي آلِيلُ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافُ النَّهَارِ﴾ أي وصلِّ لربك في ساعات الليل وفي أول النهار وآخره ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ أي لعلك تعطى ما يرضيك قال «القرطبي»: أكثر المفسرين أن هذه الآية إشارة إلى الصلوات الخمس ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ صلاة الصبح ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ صلاة العصر ﴿وَمِنْ عَنَائِي آلِيلُ﴾ صلاة العشاء ﴿وَأَطْرَافُ النَّهَارِ﴾ صلاة المغرب والظهر، لأن الظهر في آخر طرف النهار الأول، وغروب الشمس آخر طرف النهار الأخير^(٤) ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ أي لا تنظر إلى ما متعنا به أصنافاً من الكفار من نعيم الدنيا وبهرجها^(٥) الخادع ﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي زينة الحياة الدنيا ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي

(١) «المختصر» ٤٩٧/٢.

(٢) (ش): فالذي أخره عنهم كلمة ربك، المتضمنة لإمهالهم وتأخيرهم، لعلهم يرجعون أمر الله، فيتوب عليهم، ويرفع عنهم العقوبة.

(٣) «زاد المسير» ٥/٣٣٣.

(٤) «تفسير القرطبي» ١١/٢٦١.

(٥) (ش): أي زُيِّنَها وزخرفها وزينتها الباطلة التافهة.

لِنَبْتَلِيَهُمْ وَنَخْتَبِرَهُمْ بِهَذَا النِّعَمِ حَتَّى يَسْتَوْجِبُوا الْعَذَابَ بِكُفْرِهِمْ ﴿وَرَزَقْنَا رِيكَ خَيْرًا وَأَبْقَى﴾ أي ثواب الله خير من هذا النعيم الفاني وأدوم قال المفسرون: الخطاب للرسول ﷺ والمراد به أمته لأنه عليه السلام كان أزهّد الناس في الدنيا وأشدّ رغبةً فيما عند الله ﴿وَأَمْرًا هَلَكًا بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرَ عَلَيْهَا﴾ أي وأمر يا محمد أهلك وأمتك بالصلاة واصبر على أدائها بخشوعها وآدابها ﴿لَا تَتَّكِلْ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ أي لا نكلفك أن ترزق نفسك وأهلك بل نحن نتكفل برزقك وإياهم ﴿وَالْعَنِقَبَةُ لِلنَّقَوَى﴾ أي العاقبة الحميدة لأهل التقوى قال ابن كثير: أي حسن العاقبة وهي الجنة لمن اتقى الله ^(١) ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ رَبِّيهِ﴾ أي قال المشركون هلاً يأتينا بمعجزة تدل على صدقه؟ ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ أي أولم يكتفوا بالقرآن المعجزة الكبرى لمحمد عليه السلام المحتوي على أخبار الأمم الماضية؟ والاستفهام للتوبيخ والتفريع قال في البحر: اقترح المشركون ما يختارون على ديدهم ^(٢) في التعنت فأجيبوا بأن هذا القرآن الذي سبق التبشير به في الكتب الإلهية السابقة أعظم الآيات في الإعجاز وهو الآية الباقية إلى يوم القيامة ^(٣) ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ﴾ أي لو أنا أهلكنا كفار مكة من قبل نزول القرآن وبعثة محمد عليه السلام ﴿لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ أي لقالوا: يا ربنا هلاً أرسلت إلينا رسولاً حتى نؤمن به ونتبّعه ﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِّن قَبْلِ أَنْ نُنْذِلَ وَنَخْرُجَ﴾ أي فنتمسك بآياتك من قبل أن نذل بالعذاب ونفتضح على رءوس الأشهاد قال المفسرون: أراد تعالى أن يبين أنه لا حجة لأحد على الله بعد إرسال الرسل وإنزال الكتب فلم يترك لهم حجة ولا عذراً ﴿قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المكذبين: كل منا ومنكم منتظر دوائر الزمان ولمن يكون النصر ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أمر تهديد أي فانتظروا العاقبة والنتيجة ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَن أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ أي فستعلمون عن قريب من هم أصحاب الطريق المستقيم هل نحن أم أنتم؟ ﴿وَمَن أَهْتَدَى﴾ أي اهتدى إلى الحق وسبيل الرشاد ومن بقي على الضلال قال «القرطبي»: وفي هذا ضرب ^(٤) من الوعيد والتخويف والتهديد ختمت به السورة الكريمة ^(٥).

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه الفصاحة والبيان والبديع ما يلي:

١ - التشبيه ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ وهو تشبيه مرسل مجمل.

(١) «المختصر» ٥٠٠/٢.

(٢) (ش): دَيْدَنٌ: عادةٌ ودأْبٌ، يقال: من دَيْدَنَهُ أن يفعل كذا.

(٣) «البحر المحيط» ٢٩٢/٦.

(٤) (ش): ضَرْبٌ: نوعٌ.

(٥) «تفسير القرطبي» ١١/٢٦٥.

٢ - الاستعارة ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾ شبه الوزر بالحمل الثقيل بطريق الاستعارة التصريحية.

٣ - الكناية ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ كناية عن أمر الدنيا وأمر الآخرة.

٤ - الطباق بين ﴿أَعْمَى.. بَصِيرًا﴾.

٥ - التشبيه التمثيلي ﴿زَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ مثل لنعم الدنيا بالزهر وهو النوار لأن الزهر له منظر حسن ثم يذبل ويضمحل وكذلك نعيم الدنيا.

٦ - الوعيد والتهديد ﴿فَتَرْبَصُوا﴾.

٧ - جناس الاشتقاق ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾.

٨ - السجع اللطيف غير المتكلف مثل ﴿ظُلُمًا، هَضْمًا، عِلْمًا﴾ ومثل ﴿فَتَشْفَقْ، تَعْرِى، تَرْضَى﴾ الخ.

لطيفة: قال الناصر: في الآية سرٌّ بدیع من البلاغة يسمى قطع النظر عن النظر، وذلك أنه قطع الظمأ عن الجوع، والضحو عن الكسوة مع ما بينهما من التناسب، الغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها، ولو قرن كلاً بشكله لتوهم أن المعدودات نعمة واحدة، على أن في الآية سرّاً آخر وهو قصد تناسب الفواصل، ولو قرن الظمأ بالجوع لانتشر سلك رءوس الآي^(١).

فائدة: قال الشهاب: ليس المراد بحكاية قول من قال ﴿عَشْرًا﴾ أو ﴿يَوْمًا﴾ أو ﴿سَاعَةً﴾ حقيقة اختلافهم في مدة اللبث، ولا الشك في تعيينه، بل المراد أنه لسرعة زواله عبر عن قلته بما ذكر، فتفنن في الحكاية وأتى في كل مقام بما يليق به^(٢).

«تم بعونه تعالى تفسير سورة طه»



(١) حاشية «الكشاف» ٩٤ / ٣.

(٢) حاشية الشهاب على «البيضاوي».

صِفْوَةُ النَّفَاسِ

حقوق الطبعة محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

رقم الإيداع

٨٣٣٧ / ٢٠١٣

الترقيم الدولي

7 - 22 - 6354 - 977 - 978

ISBN 978-977-6354-22-7



9 789776 354227 >

دار العالمين للنشر والتجليد

جاكرتا - أندونيسيا

هاتف: 087889324793 - 081310218626

087880176606 - 085218824802

email: darul_aalamiyyah@yahoo.com

abdallaelnady@gmail.com

صَفْوَةُ التَّفَاسِيرِ

تفسير للقرآن الكريم ، جامع بين المأثور والمعقول
مستمدة من أوثق الكتب التفسيرية
بأسلوب مبسّر، وتنظيم حديث، مع العناية بالوضوح البَيَانِيَّة واللُّغَوِيَّة

نسخة محققة ومخرجة الأحاديث

تأليف

محمد علي الصابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مكة المكرمة - جامعة الملك عبدالعزيز

المجلد الثالث







مكية وآياتها ثلاث وثمانون

بين يدي السورة

* سورة يس مكية وقد تناولت مواضيع أساسية ثلاثة وهى: «الإيمان بالبعث والنشور، وقصة أهل القرية، والأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين».

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالقرآن العظيم على صحة الوحي، وصدق رسالة محمد ﷺ ثم تحدثت عن كفار قريش، الذين تماردوا في الغي والضلال، وكذبوا سيد الرسل محمد بن عبد الله، فحق عليهم عذاب الله وانتقامه.

* ثم ساقَت قصة أهل «إنطاكية» الذين كذبوا الرسل، لتحذر من عاقبة التكذيب بالوحي والرسالة، على طريقة القرآن في استخدام القصص للعظة والاعتبار.

* وذكرت موقف الداعية المؤمن «حبيب النجار» الذي نصح قومه فقتلوه فأدخله الله الجنة، ولم يمهل المجرمين بل أخذهم بصيحة الهلاك والدمار.

* وتحدثت السورة عن دلائل القدرة والوحدانية، في هذا الكون العجيب، بدءًا من مشهد الأرض الجرداء تدب فيها الحياة، ثم مشهد الليل ينسلخ عنه النهار، فإذا هو ظلام دامس، ثم مشهد الشمس الساطعة تدور بقدرة الله في فلك لا تتخطاه، ثم مشهد القمر يتدرج في منازل، ثم مشهد الفلك المشحون يحمل ذرية البشر الأولين وكلها دلائل باهرة على قدرة الله جل وعلا.

* وتحدثت عن القيامة وأهوالها، وعن نفخة البعث والنشور، التي يقوم الناس فيها من القبور، وعن أهل الجنة وأهل النار، والتفريق بين المؤمنين والمجرمين في ذلك اليوم الرهيب، حتى يستقر السعداء في روضات النعيم، والأشقياء في دركات الجحيم.

* وختمت السورة بالحديث عن الموضوع الأساسي، وهو موضوع «البعث والجزاء» وأقامت الأدلة والبراهين على حدوثه.

* **التسمية:** سميت السورة «سورة يس» لأن الله تعالى افتتح السورة الكريمة بها، وفي الافتتاح بها إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم.

* **فضلها:** قال ﷺ: «إن لكل شئ قلبًا وقلب القرآن يس، وددت أنها في قلب كل إنسانٍ مِنْ أُمَّتِي»^(١).

(١) أخرجه البزار. (ش): ضعيف، رواه الترمذي، والبزار.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَس ١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٤ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٥ لِنُذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ٦ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْعَقِهِمْ جَانًا فَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٨ وَجَعَلْنَا مِثْلَهُنَّ فِي بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ٩ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ١١ إِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدُمُوا وَءَاتَاهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ١٢ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ١٣ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ١٤ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ١٥ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ ١٦ وَمَا عَلَيْنَا الْبَلِّغُ الْمُبِينُ ١٧ قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرُكُمْ لَكُم لَنْ نَمُوتَ وَلَنْ نَحْيَا لَكُمْ لَكُمُ الْعَذَابُ أَلِيمٌ ١٨ قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ دُكْرُكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ١٩ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْفِقُونَ أَنْتُمْ أَلْمُرْسَلِينَ ٢٠ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ٢١ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٢٢ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ٢٣ إِنَّي إِذَا لِفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ٢٤ إِنْ أَمِنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ٢٥ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتُ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ٢٦ بِمَا عَفَّرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ٢٧ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ٢٨ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ٢٩ يَنْحَسِرُونَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٣٠ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ٣١ وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ

اللغة: ﴿أَغْلَلَّا﴾ جمع غُل وهو القيد الذي يوضع في اليد، وقد تشدُّ به اليد مع العنق ﴿مُقَمِّحُونَ﴾ رافعوا الرؤوس مع غض البصر، قال أهل اللغة: الإقماح: رفع الرأس وغض البصر يقال: أقمَحَ البعير إذا رفع رأسه عند الحوض وامتنع من الشرب^(١)، قال بشر يصف سفينة:

وَنَحْنُ عَلَى جَوَانِبِهَا نُعْوِدُ نَغْضُ الطَّرْفَ كَالْإِبِلِ الْقِمَاحِ^(٢)
﴿سَدًّا﴾ السَّد: الحاجز والمانع بين الشيئين ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ عززه قواه وشدَّ من أزره ﴿تَطَيَّرْنَا﴾ تشاءمنا، والتطير التشاؤم، وأصله من الطير إذا طار إلى جهة اليسار تشاءموا به ﴿خَمِدُونَ﴾ ميتون

(١) انظر «القاموس المحيط» مادة قمح.

(٢) «تفسير الطبري» ٨/١٥.

لا حراك بهم كما تخدم النار.

التفسير: ﴿يَسْ﴾ الحروف المقطعة في أوائل بعض السور الكريمة للتنبيه على إعجاز القرآن، وأنه مصوغ من جنس هذه الحروف الهجائية التي يعرفونها ويتكلمون بها، ولكن نظمه البديع المعجز آية على كونه من عند الله ^(١) وقال ابن عباس: معنى «يس» يا إنسان في لغة طيء، وقيل: هو اسم من أسماء النبي ﷺ بدليل قوله بعده ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وقيل معناه: يا سيد البشر قاله أبو بكر الوراق ^(٢) ﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ قسم من الله تعالى بالقرآن، والحكيم معناه المحكم، الذي لا يلحقه تغيير ولا تبديل، ولا يعتريه تناقض أو بطلان قال القرطبي: أحكم في نظمه ومعانيه فلا يلحقه خلل ^(٣) وقال أبو السعود: أي المتضمن للحكمة أو الناطق بالحكمة من حيث نظم المعجز، المنطوي على بدائع الحكم ^(٤).. والخلاصة فقد أقسم تعالى بهذا الكتاب المحكم، المعجز نظمه، وبديع معانيه، المتقن في تشريعه وأحكامه، الذي بلغ أعلى طبقات البلاغة، على أن محمداً رسوله، وفي هذا القسم من التعظيم والتفخيم لشأن الرسول ما فيه ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ جواب القسم إنك يا محمد لمن المرسلين من رب العالمين لهداية الخلق قال ابن عباس: قالت كفار قريش: لست يا محمد مرسلًا، وما أرسلك الله إلينا، فأقسم الله بالقرآن العظيم المحكم أن محمداً ﷺ من المرسلين ^(٥) ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي على طريق ونهج مستقيم، لا انحراف فيه ولا اعوجاج، وهو الإسلام دين الرسل قبلك، الذين جاءوا بالإيمان والتوحيد قال الطبري: أي على طريق لا اعوجاج فيه من الهدى وهو الإسلام كما قال قتادة ^(٦)، والتنكير للتفخيم والتعظيم ^(٧) ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ أي هذا القرآن الهادي المنير، تنزيل من رب العزة جل وعلا، والعزيز في ملكه، الرحيم بخلقه ﴿لِنُنْذِرَكُمْ وَأُنْذِرَ آبَاءَكُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ أي لتنذر يا محمد بهذا القرآن العرب، الذين ما جاءهم رسول ولا كتاب، لتطاول زمن الفترة عليهم، والمراد بالإنذار تخويفهم من عذاب الله ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ أي فهم بسبب ذلك غافلون عن الهدى والإيمان، يتخبطون في ظلمات الشرك وعبادة الأوثان.. ثم بين تعالى استحقاقتهم للعذاب بإصرارهم على الكفر والتكذيب فقال ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ اللام مؤطئة

(١) انظر تفصيل البحث حول الحروف المقطعة في أوائل البقرة من هذا التفسير.

(٢) القرطبي ٥ / ١٥.

(٣) «تفسير القرطبي» ٥ / ١٥.

(٤) «تفسير أبي السعود» ٤ / ٢٤٧.

(٥) «تفسير القرطبي» ٥ / ١٥ وقد نقله القرطبي عن القشيري.

(٦) «تفسير الطبري» ٢٢ / ٩٧.

(٧) «الانتصاف على الكشاف» ٢ / ٤.

لَلْقَسَمِ^(١) أي والله لقد وجب عذاب النار على أكثر هؤلاء المشركين، بسبب إصرارهم على الكفر والإنكار، وعدم تأثرهم بالتذكير والإنذار، فهم لذلك لا يؤمنون بما جئتهم به يا محمد. ثم بين تعالى سبب تركهم الإيمان فقال ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلًا فَبِهِ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾ تمثيل وتصوير لحال المشركين في ضلالهم بحال الذي جعل في يده غل وجمعت يده إلى عنقه، فبقي رافعاً رأسه لا يخفضه قال في «الجلالين»: وهذا تمثيل ولمراد أنهم لا يُدْعَنون للإيمان، ولا يخفضون رؤوسهم^(٢) له قال ابن كثير: ومعنى الآية: إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء، كمن جعل في عنقه غل، وجمعت يده مع عنقه تحت ذقنه^(٣)، فارتفع رأسه فصار مُقْمَحًا، والمُقْمَح هو الرافع رأسه، واكتفى بذكر الغل في العنق عن ذكر اليدين، لأن الغل إنما يُعرف فيما جمع اليدين مع العنق^(٤) وقال أبو السعود: مثل حالهم بحال الذين غلَّت أعناقهم ﴿فَبِهِ إِلَى الْأَذْقَانِ﴾ أي فالأغلال منتهية إلى أذقانهم، فلا تدعهم يلتفتون إلى الحق، ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يُطأطئون رؤوسهم، غاضون أبصارهم، بحيث لا يكادون يرون الحق، أو ينظرون إلى جهته^(٥) ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قال أبو السعود: وهذا تتممة للتمثيل وتكميل له أي وجعلنا من أمامهم سدًا عظيمًا، ومن ورائهم سدًا كذلك ﴿فَأَعَشَيْنَاهُمُ فُتًى لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي فغطينا بهما أبصارهم فهم بسبب ذلك لا يبصرون شيئًا أصلاً، لأنهم أصبحوا محصورين بين سدين هائلين، وهذا بيان لكمال فظاعة حالهم وكونهم محبوسين في مطمورة الغي والجهالات^(٦)، محرومين من النظر في الأدلة والآيات^(٧)، قال المفسرون: وهذا كله تمثيل لسد طرق الإيمان عليهم، بمد سُدَّت عليه الطرق فهو لا يهتدي لمقصوده^(٨) ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾ أي يستوي عندهم إنذارك يا محمد وتخويفك لهم وعدمه، لأن من خيم على عقله ظلام الضلال، وعشعشت^(٩) في قلبه شهوات الطغيان، لا تنفعه القوارع والزواجر^(١٠) ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي فهم بسبب ذلك لا يؤمنون، لأن الإنذار

(١) (ش): مُوطَّئَةٌ لِلْقَسَمِ: أي مُهَيَّئَةٌ لَهُ؛ لَأَنَّهَا الَّتِي تُهَيِّئُ الذَّهْنَ لِمَعْرِفَتِهِ.

(٢) «تفسير الجلالين» ٣/ ٣١٨.

(٣) الذَّقْنُ: مفرد الأَذْقَانِ قال الطبري: وَالذَّقْنُ مَجْمَعُ اللَّحْيَيْنِ. (ش): اللَّحْيُ: منبت اللحية من الإنسان وغيره، وهما: لَحْيَان.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١٥٥.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٢٤٨.

(٦) (ش): الْمَطْمُورَةُ: حُفْرَةٌ تَحْتَ الْأَرْضِ تُخَبَّأُ فِيهَا الْحُبُوبُ وَنَحْوُهَا.

(٧) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٢٤٩.

(٨) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/ ٣١٩.

(٩) (ش): هَكَذَا فِي أَكْثَرِ مِنْ طَبْعَةٍ، وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ: «عَشَّشْتُ». يُقَالُ: عَشَّشَ الطَّائِرُ: اتَّخَذَ بَيْتًا مِنْ قَشٍّ وَغَيْرِهِ لِيَضَعَ فِيهِ بَيْضَهُ. وَتَعَشَّشَ الطَّائِرُ فِي الْمَكَانِ: اسْتَقَرَّ فِيهِ. وَالْعَشْعُشُ، وَالْعُشْعُشُ: الْعُشُّ الْمَتْرَاكِبُ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ.

(١٠) (ش): قَارِعَةٌ: مُصِيبَةٌ. زَجَرَ الشَّخْصَ: انْتَهَرَهُ وَرَدَعَهُ. زَاَجَرَ: مَانِعٌ، مُعَاقِبٌ، رَادِعٌ. الْمُؤْنْتُ: زَاَجِرَةٌ، جَمْعُ الْمُؤْنْتُ: زَوَاَجِرٌ.

لَا يَخْلُقُ الْقُلُوبَ الْمَيِّتَةَ، إِنَّمَا يُوقِظُ الْقَلْبَ الْحَيَّ الْمُسْتَعِدَّ لِتَلَقِّي الْإِيمَانِ، وَهَذَا تَسْلِيَةٌ لَهُ ﷺ وَكُشْفٌ لِحَقِيقَةٍ مَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُهُمْ مِنَ الطُّغْيَانِ ﴿إِنَّمَا نُنْذِرُ مَنْ أَتَعَ الذِّكْرَ﴾ أَيُّ إِنَّمَا يَنْفَعُ إِنْذَارَكَ يَا مُحَمَّدُ مَنْ آمَنَ بِالْقُرْآنِ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ أَيُّ وَخَافَ اللَّهَ دُونَ أَنْ يَرَاهُ قَالَ أَبُو حَيَّانَ: ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ﴾ أَيُّ الْمَتَّصِفِ بِالرَّحْمَةِ، وَالرَّحْمَةُ تَدْعُو إِلَى الرَّجَاءِ، لَكِنَّهُ مَعَ عِلْمِهِ بِرَحْمَتِهِ يَخْشَاهُ جَلَّ وَعَلَا، خَوْفًا مِنْ أَنْ يَسْلِبَهُ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ وَمَعْنَى «بِالْغَيْبِ» أَيُّ بِالْخُلُوعِ عَنْ مَغِيبِ الْإِنْسَانِ عَنْ عَيُونِ الْبَشَرِ ^(١) ﴿فَلَيْشَرُّهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ لَمَّا انْتَفَعَ بِالْإِنْذَارِ كَانَ جَدِيرًا بِالْبَشَارَةِ، أَيُّ: فَبَشَّرَهُ يَا مُحَمَّدُ بِمَغْفِرَةٍ عَظِيمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَذُنُوبِهِ، وَأَجْرٍ كَرِيمٍ فِي الْآخِرَةِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: الْأَجْرُ الْكَرِيمُ هُوَ الْكَثِيرُ الْوَاسِعُ، الْحَسَنُ الْجَمِيلُ وَذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْجَنَّةِ ^(٢).

وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَمْرَ الرِّسَالَةِ ذَكَرَ بَعْدَهَا أَمْرَ الْبَعْثِ وَالنَّشُورِ فَقَالَ ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أَيُّ نَبْعُهُمْ مِنْ قُبُورِهِمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ قَالَ الطَّبْرِيُّ: أَيُّ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَمِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ وَسَيِّئِهَا ﴿وَوَآثَرَهُمْ﴾ أَيُّ وَأَثَارَ خَطَايَاهُمْ بِأَرْجُلِهِمْ إِلَى الْمَسَاجِدِ ^(٣)، وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: أَرَادَ بَنُو سَلِيمَةَ أَنْ يَتَحَوَّلُوا إِلَى قُرْبِ الْمَسْجِدِ - وَالْبِقَاعُ خَالِيَةٌ - فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «يَا بَنِي سَلِيمَةَ دِيَارُكُمْ تُكْتَبُ آثَارُكُمْ». فَقَالُوا: مَا كَانَ يَسُرُّنَا أَنَّا كُنَّا تَحَوَّلْنَا. ^(٤) ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ أَيُّ وَكُلُّ شَيْءٍ مِنْ الْأَشْيَاءِ أَوْ أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ جَمَعْنَاهُ وَضَبَطْنَاهُ فِي كِتَابٍ مَسْطُورٍ هُوَ صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] أَيُّ: بِكِتَابِ أَعْمَالِهِمْ، الشَّاهِدَ عَلَيْهِمْ بِمَا عَمِلُوهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: هُوَ الْوَلُوحُ الْمَحْفُوظُ ^(٥) وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ: «نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا» أَيُّ وَنُحْصِيهِ، فَعَبَّرَ عَنْ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ جَلَّ وَعَلَا بِأَعْمَالِهِمْ بِالْكِتَابَةِ الَّتِي تُضَبِّطُ بِهَا الْأَشْيَاءَ ^(٦)..

(١) «تفسير البحر المحيط» ٣٢٥/٧.

(٢) «مختصر ابن كثير» ١٥٦/٣.

(٣) «تفسير الطبري» ٩٩/٢٢. (ش): وَقِيلَ: ﴿وَوَآثَرَهُمْ﴾ وَهِيَ آثَارُ الْخَيْرِ وَأَثَارُ الشَّرِّ، الَّتِي كَانُوا هُمْ السَّبَبُ فِي إِيجَادِهَا فِي حَالِ حَيَاتِهِمْ وَبَعْدَ وَفَاتِهِمْ، وَتِلْكَ الْأَعْمَالُ الَّتِي نَشَأَتْ مِنْ أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ، فَكُلُّ خَيْرٍ عَمِلَ بِهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ، بِسَبَبِ عِلْمِ الْعَبْدِ وَتَعْلِيمِهِ وَنُصْحِهِ، أَوْ أَمْرِهِ بِالْمَعْرُوفِ، أَوْ نَهْيِهِ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ عِلْمِ أَوْدَعِهِ عِنْدَ الْمُتَعَلِّمِينَ، أَوْ فِي كِتَابٍ يَنْتَفِعُ بِهَا فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَوْتِهِ، أَوْ عَمَلٍ خَيْرًا، مِنْ صَلَاةٍ أَوْ زَكَاةٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ إِحْسَانٍ، فَاقْتَدَى بِهِ غَيْرُهُ، أَوْ عَمَلٍ مُسْجِدًا، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَإِنَّهَا مِنْ أَثَارِهِ الَّتِي تَكْتُبُ لَهُ، وَكَذَلِكَ عَمَلُ الشَّرِّ.

(٤) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ. (ش): (دِيَارُكُمْ تُكْتَبُ آثَارُكُمْ): مَعْنَاهُ الزَّمُوا دِيَارَكُمْ فَإِنَّكُمْ إِذَا لَزِمْتُمُوهَا كُتِبَتْ آثَارُكُمْ وَخُطَاكُمْ الْكَثِيرَةُ إِلَى الْمَسْجِدِ - وَبَنُو سَلِيمَةَ - بِكُسْرِ اللَّامِ - قَبِيلَةٌ مَعْرُوفَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. (فَقَالُوا: مَا كَانَ يَسُرُّنَا أَنَّا كُنَّا تَحَوَّلْنَا): لِأَنَّ الْقُرْبَ مِنَ الْمَسْجِدِ يَقَوَّتْ عَلَيْهِمْ نَقْصُ الْأَثَارِ بِقِلَّةِ الْخَطَا لِقُرْبِ الْمَكَانِ.

(٥) الْأَرْجَحُ مَا ذَكَرْنَاهُ أَنَّهُ صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ كَثِيرٍ.

(٦) «البحر المحيط» ٣٢٥/٧.

ثم ذكر تعالى للمشركين قصة أهل القرية الذين كذبوا الرسل فأهلكهم الله بصيحة من السماء فقال ﴿وَأَصْرَبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ أي واذكر يا محمد لقومك الذين كذبوك قصة أصحاب القرية «أنطاكية» التي هي في الغرابة كالمثل السائر والقول العجيب ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أي حين جاءهم رسلنا الذين أرسلناهم لهدايتهم قال القرطبي: وهذه القرية هي «أنطاكية» في قول جميع المفسرين أرسل الله إليهم ثلاثة رسل وهم «صادق» و «مصدق» و «شمعون» أمر ﷺ بإنذار هؤلاء المشركين أن يحل بهم ما حل بكفار أهل القرية المبعوث إليهم ثلاثة رسل من الله، وقيل: هم رسل عيسى ^(١) ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي حين بعثنا إليهم رسولين فبادروهما بالكذب ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي قويناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث ﴿فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ أين نحن رسل الله مُرْسَلُونَ لهدايتكم ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ أي ليس لكم فضل علينا وما أنتم إلا بشر مثلنا، فكيف أوحى الله إليكم دوننا؟ ﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي لم ينزل الله شيئاً من الوحي والرسالة ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ أي ما أنتم إلا قوم تكذبون في دعوى الرسالة ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ أي أجابهم الرسل بقولهم: الله يعلم أننا رسله إليكم، ولو كنا كذبة لانتقم منا أشد الانتقام قال ابن جزي: أكدوا الخبر هنا باللام ﴿لَمُرْسَلُونَ﴾ لأنه جواب المنكرين، بخلاف الموضع الأول فإنه إخبارٌ مجرد ^(٢) ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي وليس علينا إلا أن نبليكم رسالة الله بلاغاً واضحاً جليلاً لا غموض فيه، فإن أنتم فلكم السعادة، وإن كذبتكم فلكم الشقاوة قال أبو حيان: وفي هذا وعيدٌ لهم، ووصف البلاغ بـ﴿الْمُبِينُ﴾ لأنه الواضح بالآيات الشاهدة بصحة الإرسال، كما روي في هذه القصة من المعجزات الدالة على صدق الرسل من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الميت ^(٣) ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي قال لهم أهل القرية: إننا تشاءمنا بكم وبدعوتكم القبيحة لنا إلى الإيمان، وترك عبادة الأوثان قال المفسرون: ووجه تشاءمهم بالرسل أنهم دعوهم إلى دين غير ما يدينون به، فاستغربوه واستقبحوه ونفرت منه عنه طبيعتهم المعوجة، فتشاءموا بمن دعا إليه كأنهم قالوا: أعاذنا الله مما تدعوننا إليه ^(٤)، ثم توعّدوا الرسل بقولهم ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا﴾ أي والله لئن لم تمتنعوا عن قولكم، ودعوتكم لنا إلى التوحيد، ورفض ديننا ﴿لَنَرْجَمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ

(١) «تفسير القرطبي» ١٥ / ١٤ وما ذكره من أنهم رسل عيسى قول مرجوح، لأن قوله تعالى: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ إنما يقال لمن ادعى أن الله أرسله كذا في التسهيل.

(٢) «التسهيل في علوم التنزيل» ٣ / ١٦١. (ش): الموضع الأول إخبار فقط بغير لام التوكيد ﴿فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾.

(٣) «تفسير البحر المحيط» ٧ / ٣٢٧. (ش): هكذا ذكره صاحب «البحر المحيط» بدون إسناد. أكمه: أعمى بالولادة. (أبرص) أصاب جسده مرض البرص، ظهر في جسده بياض لعله.

(٤) «حاشية شيخ زاده على البيضاوي» ٣ / ١٢٥.

أَلَيْسَ ﴿١﴾ أَي لَرَجْمَنَكُمْ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى تَمُوتُوا، وَلِنَقْتُلَنَّكُمْ شَرِّ قَتْلَةٍ ﴿٢﴾ قَالُوا طَٰغَتْكُمْ مَّعَكُمْ أَي قَالَتْ الرِّسْلُ لَهُمْ: لَيْسَ شَوْكُمْ بِسَبِينَا، وَإِنَّمَا شَوْكُمْ بِسَبِيكُم، وَبِكُفْرِكُم، وَعَصِيَانِكُم، وَسُوءِ أَعْمَالِكُم ﴿٣﴾ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ؟ شَرْطُ جَوَابِهِ مَحْذُوفٌ لِدَلَالَةِ السِّيَاقِ عَلَيْهِ أَي أَتُنْ ذَكْرُنَاكُمْ وَوَعظُنَاكُمْ وَدَعْوَانَاكُمْ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ، تَشَاءُ مَتَمُّ بِنَا وَتَوَعَّدْتُمُونَا بِالرَّجْمِ وَالتَّعْذِيبِ؟ ﴿٤﴾ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٥﴾ أَي لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادْتُمْ الْإِسْرَافَ فِي الْعَصِيَانِ وَالْإِجْرَامِ، وَهُوَ تَوَيْخُ لَهُمْ مَعَ الزَّجْرِ وَالتَّقْرِيعِ ﴿٦﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴿٧﴾ أَي وَجَاءَ مِنْ أَبْعَدِ أَطْرَافِ الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَعْذُو، يَسْرِعُ فِي مَشْيِهِ وَهُوَ «حَبِيبُ النِّجَارِ» قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: إِنَّ أَهْلَ الْقَرْيَةِ هَمًّا بَقَتْلِ رَسَلِهِمْ، فَجَاءَهُمْ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى لِيَنْصُرَهُمْ مِنْ قَوْمِهِ، وَهُوَ حَبِيبُ النِّجَارِ كَانَ يَعْمَلُ الْحَرِيرَ وَهُوَ الْحَبَاكُ^(١)، وَكَانَ كَثِيرُ الصَّدَقَةِ يَتَصَدَّقُ بِنِصْفِ كِسْبِهِ^(٢) وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: كَانَ حَبِيبٌ مَجْذُومًا وَمَنْزَلُهُ عِنْدَ أَقْصَى أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ، وَكَانَ يَعْكَفُ عَلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ سَبْعِينَ سَنَةً يَدْعُوهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْحَمُونَهُ وَيَكْشِفُونَ ضُرَّهُ، فَمَا اسْتَجَابُوا لَهُ، فَلَمَّا أَبْصَرَ الرِّسْلُ وَدَعَا إِلَى اللَّهِ قَالَ: هَلْ مِنْ آيَةٍ؟ قَالُوا: نَعَمْ نَحْنُ نَدْعُو رَبَّنَا الْقَادِرَ فَيَفْرَجُ عَنْكَ مَا بِكَ! فَقَالَ إِنَّ هَذَا لِعَجِيبٌ، إِنِّي إِدْعُو هَذِهِ الْأَلْهَةَ سَبْعِينَ سَنَةً لَتَفْرَجَ عَنِّي فَلَمْ تَسْتَطِعْ فَكَيْفَ يَفْرَجُهُ رَبُّكُمْ فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ؟ قَالُوا نَعَمْ رَبَّنَا عَلَى مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ، وَهَذِهِ لَا تَنْفَعُ شَيْئًا وَلَا تَضُرُّ، فَأَمِنْ وَدَعَا رِبَّهُمْ فَكَشَفَ اللَّهُ مَا بِهِ، فَلَمَّا هَمَّ قَوْمُهُ بِقَتْلِ الرِّسْلِ جَاءَهُمْ مُسْرِعًا وَقَالَ مَا قَصَبَهُ الْقُرْآنُ^(٣) ﴿٨﴾ قَالَ يَنْقُورُوا أَتَبْعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٩﴾ أَي اتَّبَعُوا الرِّسْلَ الْكَرَامَ الدَّاعِينَ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ، وَإِنَّمَا قَالَ ﴿يَنْقُورُوا﴾ تَأْلِيفًا لِقُلُوبِهِمْ وَاسْتِمَالَةً لَهَا لِقَبُولِ النَّصِيحَةِ، ثُمَّ كَرَّرَ الْقَوْلَ تَأْكِيدًا وَبَيَانًا لِلْسَّبَبِ فَقَالَ ﴿أَتَبْعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ أَي اتَّبَعُوا هَؤُلَاءِ الرِّسْلَ الصَّادِقِينَ الْمُخْلِصِينَ، الَّذِينَ لَا يَسْأَلُونَكُمْ أَجْرًا عَلَى الْإِيمَانِ، وَهُمْ عَلَى هُدًى وَبَصِيرَةٍ فِيمَا يَدْعُونَكُمْ إِلَيْهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تَلَطَّفَ فِي الْإِرْشَادِ لَهُمْ كَأَنَّهُ يَنْصَحُ نَفْسَهُ، وَيَخْتَارُ لَهُمْ مَا يَخْتَارُ لِنَفْسِهِ، وَنَفِيهِ نَوْعَ تَقْرِيعٍ عَلَى تَرْكِ عِبَادَةِ خَالِقِهِمْ. وَالْمَعْنَى أَي شَيْءٌ يَمْنَعُنِي مَنْ أَنْ أَعْبُدَ خَالِقِي الَّذِي أَبْدَعَ خَلْقِي؟ وَإِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ فَيَجَازِي كَلًّا بِعَمَلِهِ؟ ﴿عَاثِخُ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ اسْتَفْهَامُ إِنْكَارِيٍّ أَي كَيْفَ أَتُخَذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لَا تَسْمَعُ وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تَغْنِي عَنْ عَابِدِهَا شَيْئًا؟ ﴿إِنْ يُرِيدَنَّ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُ شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ أَي هِيَ فِي الْمَهَانَةِ وَالْحَقَارَةِ بِحَيْثُ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُنْزِلَ بِي شَيْئًا مِنَ الضَّرِّ وَالْأَذَى وَشَفَعْتَ لِي

(١) (ش): هَكَذَا فِي أَكْثَرِ مِنْ طَبْعَةٍ، وَلَمْ أَجِدْهُ هَكَذَا فِي أَيِّ مِنَ التَّفَاسِيرِ إِلَّا فِي «مَخْتَصَرِ تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ» لِلْمُؤَلِّفِ، وَلَعَلَّهُ خَطَأٌ طِبَاعِي، فَقَدْ جَاءَ فِي تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ (الأصل) (٦/ ٥٧٠): «وَكَانَ يَعْمَلُ الْجَرِيرَ وَهُوَ الْجِبَالُ». اهـ. وَجَاءَ فِي «لِسَانِ الْعَرَبِ» (٤/ ١٢٧): الْجَرِيرُ الْجِبْلُ، وَجَمْعُهُ أَجْرَةٌ.

(٢) «مَخْتَصَرِ تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ» ٣/ ١٥٩، وَالْقَوْلُ بِأَنْ اسْمَ الرَّجُلِ: «حَبِيبُ النِّجَارِ» مَرْوِي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

(٣) «تَفْسِيرِ الْقُرْطُبِيِّ» ١٥/ ١٨، وَهَذِهِ رَوَايَةٌ وَهَبٍ، ذَكَرَهَا الْقُرْطُبِيُّ.

لم تنفع شفاعتهم ولم يقدرُوا على إنقاذه، فكيف وهي أحجار لا تسمع ولا تنفع ولا تشفع؟ ﴿وَلَا يَنْقُدُونَ﴾ أي ولا يقدرُونَ على إنقاذه من عذاب الله ﴿إِنِّي إِذْ أُلْفِيَ ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي إني إن عبدت غير الله واتخذت الأصنام آلهة لفي خسران ظاهر جلي. وبعد النصيح والتذكير أعلن إسلامه، وأشهر إيمانه فقال ﴿إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ أي إني آمنت بربكم الذي خلقكم، فاسمعوا قولي واعملوا بنصيحتي قال المفسرون: لما قال لهم ذلك ونصحهم وأعلن إيمانه^(١)، وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه، ولم يكن له أحد يمنع عنه أذاهم قال الطبري: وثبوا عليه فوطئوه بأقدامهم حتى مات^(٢)، وقيل: رموه بالحجارة حتى مات ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ أي فلما مات قال الله له: ادخل الجنة مع الشهداء الأبرار، جزاءً على صدق إيمانك وفوزك بالشهادة قال ابن مسعود: إنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرجت أمعاؤه من دبره، وقال الله له ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ فدخلها فهو يُرزق فيها، قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحُزنها ونَصَبها^(٣) ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ﴿يَا غَفْرِي رَبِّ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ﴾ أي فلما دخل الجنة وعان ما أكرمه الله بها لإيمانه وصبره تمنى أن يعلم قومه بحاله، ليعلموا حسن مآله أي ياليتهم يعلمون بالسبب الذي من أجله غفر لي ربي ذنوبي، وأكرمني بدخول جنات النعيم قال ابن عباس: نصح قومه في حياته، ونصحهم بعد مماته^(٤) قال أبو السعود: وإنما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب الثواب والأجر، بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان، جرياً على سنن الأولياء في الترحم على الأعداء^(٥) ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ هذا تحقيرٌ لهم وتصغيرٌ لشأنهم ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ أي ما كانت عقوبتهم إلا صيحة واحدة صاح بها جبريل، فإذا هم ميتون لا حراك بهم، قد أخذت أنفاسهم حتى صاروا كالنار الخامدة قال المفسرون: وفي الآية استحقار لإهلاكهم فإنهم أذل وأهون على الله من أن يرسل الملائكة لإهلاكهم، وقد روي أنه لما قُتل «حبيب النجار» غضب الله تعالى له، فعجل لهم النعمة فأمر جبريل فصاح بهم صيحة واحدة، فماتوا عن آخرهم، فجعل طريق استئصالهم بالصيحة، ثم قال تعالى ﴿يَنْحَسِرُوا عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي

(١) انظر «مختصر ابن كثير» ١٥٩/٣.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٠٤/٢٢.

(٣) «مختصر ابن كثير» ١٦٠/٣.

(٤) هذا قول ابن عباس وقال الكشاف: وفي حديث مرفوع: «نصح قومه حياً وميتاً» أقول: والمشهور أنه من كلام ابن عباس. (ش): المرفوع (أي المنسوب للنبي ﷺ) رَوَاهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ بِإِسْنَادٍ ضَعِيفٍ. وكلام ابن عباس نقله ابن كثير في «تفسيره» (٥٧٢/٦) عن «ابن أبي حاتم»: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَصَحَ قَوْمَهُ فِي حَيَاتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَنْقُورُوا أَتَيْعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]، وَبَعْدَ مَمَاتِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ﴿يَا غَفْرِي رَبِّ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ﴾.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٢٥٢/٤. (ش): أما الاستغفار للمشركين فلا يجوز.

يا أسفًا على هؤلاء المكذبين لرسول الله المنكرين لآياته ويا حسرةً عليهم، ما جاءهم رسولٌ إلا كذبوه واستهزؤا به، وهكذا عادة المجرمين في كل زمان ومكان قال في حاشية البيضاوي: إنهم أحقَّاء^(١) بأن يتَحَسَّرُوا على أنفسهم أو يُتَحَسَّرَ عليهم، فإن الأمر لفخامته وشدته، بلغ إلى حيث إن كل من يتأتى منه التلّيف إذا نظر إلى حال استهزائهم بالرسول تحسّر عليهم، وقال: يا لها من حسرة وخيبة على هؤلاء المحرّومين، حيث بدّلوا بالإيمان بالكفر، والسعادة بالشقاوة^(٢)، وفي الآية تعريضٌ بكفار قريش حيث كذبوا سيد المرسلين.

ولمّا مثل حال كفار مكة بحال أصحاب القرية وبخّ المشركين على عدم اعتبارهم بمن سبقهم فقال ﴿الْمُرِوْا كَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي ألم يتعظ هؤلاء المشركين بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسول، ويعلموا أن هؤلاء المهلكين لا عودة لهم إلى الدنيا بعد هلاكهم؟^(٣) ﴿وإن كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ أي وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب والجزاء يوم القيامة بين يدي أحكم الحاكمين، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها؟ قال أبو حيان: وجاءت هذه الجملة بعد ذكر الإهلاك تبيينًا إلى أن الله تعالى لا يترك المهلكين بل بعد الهلاك جمعٌ وحساب، وثواب وعقاب^(٤).

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - التأكيد بأكثر من مؤكّد لأن المخاطب منكّرٌ مثل ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ فقد أكّد كل منها بـ «إنَّ» و «اللام» ويسمى هذا الضرب إنكارياً^(٥).
- ٢ - الاستعارة التمثيلية ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا..﴾ الآية شبه حال الكفار في امتناعهم من الهدى والإيمان بمن غلّت يده إلى عنقه بالسلاسل والأغلال فأصبح رأسه مرفوعاً لا يستطيع خفاصاً له ولا التفاتاً، وبمن سُدَّتْ الطرق في وجهه فلم يهتد لمقصوده، وذلك بطريق الاستعارة التمثيلية.

- ٣ - الطباق ﴿مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ... وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾.
- ٤ - طباق السلب ﴿أَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾.
- ٥ - الجناس الناقص ﴿تَحْنُ نُحْيِ﴾ لتغيير بعض الحروف.
- ٦ - الإطناب بتكرار الفعل ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلْكُمْ أَجْرًا﴾.

(١) (ش): حقيقٌ: جديرٌ، حريٌّ، خليفٌ.

(٢) «حاشية ذاده على البيضاوي» ١٢٨/٣.

(٣) «مختصر ابن كثير» ١٦١/٣.

(٤) «البحر المحيط» ٣٣٥/٧.

(٥) (ش): الضرب: النوع.

٧ - الاستفهام للتوبيخ ﴿ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً﴾؟

٨ - الحذف لدلالة السياق عليه ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ أي فلما أشهر إيمانه قتلوه ف قيل له: ادخل الجنة.

٩ - جناس الاشتقاق بين ﴿تَطَيَّرْنَا... طَيَّرَكُمْ﴾ وبين ﴿أَرْسَلْنَا... الْمُرْسَلُونَ﴾.

١٠ - مراعاة الفواصل وهو من خصائص القرآن لما فيه من روعة البيان، وحسن الوقع على السمع، وهو كثير.

تنبيه: من محاسن التنزيل الكريم وبلاغته الخارقة، هو الإيجاز في القصص والأنباء، والإشارة إلى روحها وسرّها، لأن القصد من القصص التذكير والاعتبار، ولهذا لم يذكر في القصة اسم البلدة، ولا اسم الشخص الذي دعاهم إلى الله، ولا اسم الرسل الكرام، لأن كل ذلك ليس هو الهدف من القصة، وقس على هذا سائر قصص القرآن.

قال الله تعالى:

وَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَتَأْتُونَ الصَّالِينَ وَتُقِرُّونَ لَهُمْ مَا ظَنُّوا أُولَئِكَ فِي عَذَابٍ مُتَسَاوِينَ ﴿٣٢﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٣﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٤﴾ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ أَوْ لَا وَاعُوا أَوْ خَمْرًا بَلَغَ إِلَىٰكُمْ فَاصْلَوْا كَذَٰلِكَ تُفْسَدُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ بِمَاءٍ ذَاكِرًا ذُنُوبَكُمْ إِنَّمَا بَلَّغُكُمُ الصَّلَاةَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٨﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٩﴾ وَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكَ الْمَسْحُونِ ﴿٤٠﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤١﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٢﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذَيْنِ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٧﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٨﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالُوا يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥١﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٢﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهِونَ ﴿٥٤﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرْيَافِ مُتَكَوِّنُونَ ﴿٥٥﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٦﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ ﴿٥٧﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى قصة أهل القرية، وإهلاك الله لهم بالصيحة بسبب تكذيبهم المرسلين، ذكر هنا الأدلة والبراهين على القدرة والوحدانية، في إخراج الزروع والثمار،

وتعاقب الليل والنهار، وفي الشمس والقمر يجريان بقدره الواحد القهار، ثم ذكر شبهات المشركين حول البعث وردَّ عليها بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة.

اللغة: ﴿وَأَيُّ﴾ علامة لأنها دالة على وجود الله قال أبو العتاهية:

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهُ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَا حِدُّ؟
وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَخْرِيكَةٍ وَتَسْكِينَةٍ أَبَدًا شَاهِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

﴿الْأَزْوَاجُ﴾ الأصناف والأنواع ﴿سَلَخَ﴾ السَّلَخُ: الكَشَطُ والنَزْعُ قال تعالى ﴿فَأَنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥] ويقال سَلَخَ الجِزَارُ جِلْدَةَ الشَّاةِ أي نزع الجلد عن اللحم ﴿كَالْعُرْجُونِ﴾

من الانعراج وهو الانعطاف، والعرجون: عود عَدَقِ النخلة الذي فيه عناقيد الرطب قال الجوهري: هو أصل العَدَقِ الذي يَغُوجُ وتُقْتَطَعُ منه الشماريح فيبقى على النخل يابساً^(١)

﴿الْمُسْحُونِ﴾ المملوء الموقر بالأشياء الثقيلة ﴿صَرِيحٌ﴾ مغيث ﴿يَخْصِمُونَ﴾ يختصمون في أمورهم غافلين عما حولهم ﴿الْأَجْدَاثُ﴾ جمع جَدَث وهو القبر ﴿يَنْسِلُونَ﴾ يُسْرِعُونَ في الخروج، يقال: عَسَلَ الذئبُ ونَسَلَ أي أسرع في المشي^(٢).

التفسير: ﴿وَأَيُّ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَهَا﴾ أي ومن الآيات الباهرة، والعلامات الظاهرة الدالة على كمال قدرة الله ووحدانيته هذه الآية العظيمة، وهي الأرض اليابسة الهامدة التي لا نبات فيها ولا زرع، أحييناها بالمطر قال المفسرون: موت الأرض جدها، وإحيائها بالغيث، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج^(٣) ولهذا قال تعالى بعده ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ أي وأخرجنا بهذا الماء أنواع الحبوب ليتغذوا به ويعيشوا قال القرطبي: نبههم تعالى بهذا على إحياء الموتى، وذكرهم على توحيدِهِ وكَمَالِ قدرته، بالأرض الميتة أحيها بالنبات، وإخراج الحب منها، فمن الحب يأكلون وبه يتغذون^(٤) ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ أي وجعلنا في الأرض بساتين ناضرة فيها من أنواع النخيل والعنب ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ أي وجعلنا فيها ينابيع من الماء العذب، والأنهار السارحة في بلدان كثيرة ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي ليأكلوا من ثمرات ما ذكر من الجنات والنخيل التي أنشأها لهم، ومما عملته أيديهم مما غرسوه وزرعوه بأنفسهم قال

(١) انظر «القرطبي» ١٥ / ٣١، و«القاموس المحيط» و«الصحاح». (ش): عَدَقَ: سَبَّاطَةٌ، غُصْنُ نخلة بما عليه من الرُّطَب.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥ / ٤٠.

(٣) (ش): أي فإذا أنزل الله عليها الماء تحركت بالنبات تفتتح عنه، وارتفعت وزادت لارتوائها، وأنبتت من كل نوع من أنواع النبات الحسن الذي يَسُرُّ الناظرين.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٥ / ٢٥.

ابن كثير: لما امتنَّ على خلقه بإيجاد الزروع لهم، عطف بذكر الثمار وأنواعها وأصنافها، وما ذاك كله إلا من رحمة الله تعالى بهم، لا بسعيهم وكدهم، ولا بحولهم وقوتهم ولهذا قال ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾؟ أي أفلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم؟ واختار ابن جرير أن «ما» بمعنى الذي أي ليأكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم أي من الذي غرسوه ونصبوه ^(١) ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي، تنزهه وتقدس الله العلي الجليل الذي خلق الأصناف كلها، والمختلفة الألوان والطعوم والأشكال من جميع الأشياء ﴿مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي مما تخرج الأرض من النخيل والأشجار، والزروع والثمار، ومن أنفسهم من الذكور والإناث، ومما لا يعلمون من المخلوقات العجيبة والأشياء ^(٢) الغريبة كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَفْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩] ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَيْلٌ سَلَخٌ مِنْهُ النَّهَارُ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ أي وعلامة أخرى لهم على كمال قدرتنا الليل نزيل عنه الضوء ونفصله عن النهار فإذا هم داخلون في الظلام، وفي الآية رمزٌ إلى أن الأصل هو الظلام والنور عارض، فإذا غربت الشمس ينسلخ النهار من الليل ويكشف ويزول فيظهر الأصل وهو الظلمة ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ أي وآية أخرى لهم الشمس تسير بقدره الله في فلك لا تتجاوزه ولا تتخطاه لزم من تستقر فيه، ولوقت تنتهي إليه وهو يوم القيامة حيث ينقطع جريانها عند خراب العالم قال ابن كثير: وفي قوله تعالى ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ قولان: أحدهما: أن المراد مستقرها المكاني وهو تحت العرش مما يلي الأرض لحديث البخاري أن النبي ﷺ قال: «يَا أَبَا ذَرٍّ أَتَدْرِي أَيْنَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ؟». قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ» الحديث ^(٣). والثاني: أن المراد بمسقرها هو منتهى سيرها وهو يوم القيامة، حيث يبطل سيرها، وتسكن حركتها، وتكْوَرُ وينتهي هذا العالم إلى غايته، وقرىء (لا مُسْتَقَرَّ لَهَا) ^(٤) أي لا قرار لها ولا سكون، بل هي سائرة ليلاً ونهاراً، لا تَقْتَرُ ولا تَقِفُ ^(٥) ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ

(١) «مختصر ابن كثير» ١٦٢/٣.

(٢) سبحانه الله ما أعظم قدرة الله لقد كان السائد أن الزوجية إنما تكون بين الإنسان والحيوان فقط، وجاء القرآن بالمعجزة الباهرة المثبتة لما اكتشفه العلم الحديث منذ قريب وهي أن الزوجية بين الإنسان والحيوان والنبات والذرة وسائر الكائنات، فقد ثبت أن الذرة - وهي أصغر أجزاء المادة - مؤلفة من زوجين مختلفين من الإشعاع الكهربائي «سالب وموجب» يتزاوجان ويتحدان، وأن بين النبات أعضاء مذكرة وأعضاء مؤنثة، فيبحان العلي القدير القائل ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾.

(٣) (ش): عَنْ أَبِي ذَرٍّ - رضى الله عنه - قَالَ كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فَقَالَ «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَتَدْرِي أَيْنَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ؟». قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾».

(٤) (ش): وهي قراءة شاذة.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ١٦٢/٣. (ش): لا تَقْتَرُ: لا تَضَعُفُ.

الْعَلِيمِ ﴿١﴾ أي ذلك الجزّي والدوران بانتظام وبحساب دقيق هو تقدير الإله العزيز في ملكه، العليم بخلقه ﴿٢﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴿٣﴾ أي والقمر قدرنا مسيره في منازل يسير فيها لمعرفة الشهور، وهي ثمانية وعشرون منزلاً في ثمانٍ وعشرين ليلة، ينزل كل ليلة في واحد منها لا يتخطاها ولا يتعادها، فإذا كان في آخر ليلة دَقَّ واستَقَوَسَ ﴿٤﴾ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٥﴾ أي حتى صار كغصن النخل اليابس، وهو عنقود التمر حين يجف ويَصْفَرُّ ويتَقَوَسُ قال ابن كثير: جعل الله القمر لمعرفة الشهور، كما جعل الشمس لمعرفة الليل والنهار، وفاوت بين سير الشمس وسير القمر، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب آخره، وتنتقل في مطالعها ومغارها صيفاً وشتاءً، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل، ثم يطول الليل ويقصر النهار، وهي كوكب نهاري، وأما القمر فقدَره منازل يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلاً قليل النور، ثم يزداد نوراً في الليلة الثانية ويرتفع منزلة، ثم كلما ارتفع ازداد ضياؤه حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر حتى يصير كالعرجون القديم قال مجاهد: أي العذق اليابس وهو عنقود الرطب إذا عتق ويس وانحنى، ثم يبدأ جديداً في أول الشهر الآخر ﴿٦﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴿٧﴾ أي لا يمكن للشمس ولا يصح لها أن تجتمع مع القمر بالليل فتمحو نوره، لأن ذلك يُخل بتلوين النبات، ومصلحة العباد قال الطبري: أي لا الشمس يصلح لها إدراك القمر، فيذهب ضوءها نوره فتكون الأوقات كلها نهاراً لا ليل فيها ﴿٨﴾ وَلَا أَلِيلٌ سَابِقُ النَّهَارِ ﴿٩﴾ أي ولا الليل يسبق النهار حتى يدركه فيذهب بضياؤه فتكون الأوقات كلها ليلاً ﴿١٠﴾ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿١١﴾ أي وكل من الشمس والقمر والنجوم تدور في فلك السماء قال الحسن: الشمس والقمر والنجوم في فلك بين السماء والأرض، وغير ملصقة بشيء ولو كانت ملصقة ما جرت ﴿١٢﴾ والغرض من الآية: بيان قدرة الله في تسيير هذا الكون بنظام دقيق، فالشمس لها مدار، والقمر له مدار، وكل كوكب من الكواكب له مدار لا يتجاوزه في جريانه أو دورانه، ولا يطغى أحدهما على الآخر كما قال قتادة: «لكل حدٍّ وعلمٌ لا يعدوه، ولا يقصر دونه» حتى يأتي الأجل المعلوم بخراب العالم، فيجمع الله بين الشمس والقمر كما قال تعالى ﴿١٣﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿١٤﴾ [القيامة: ٩] فيختل نظام الكون، وتقوم القيامة، وتنتهي حياة البشرية عن سطح هذا الكوكب الأرضي ﴿١٥﴾ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٦﴾ أي وعلامة

(١) (ش): دَقَّ الشَّيْءُ: صَغُرَ، صار دقيقاً، خلاف غَلُظَ، أي كَبُرَ حجمه. استقوس الشيء: تقَوَسَ: صار منحنيًا كالقوس.

(٢) «مختصر ابن كثير» ١٦٣/٣.

(٣) «تفسير الطبري» ٦/٢٣.

(٤) «تفسير القرطبي» ٣٣/١٥.

(٥) (ش): تسمية الأرض كوكبًا إطلاقاً غريب عن نصوص الوحيين الشريفيين، فالكواكب في السماء، والأرض في السفلى، ولم يطلق على الكواكب اسم: الأرض، ومن لازم هذا الإطلاق أن تكون الأرض زينة للسماء الدنيا، =

أخرى واضحة للناس على كمال قدرتنا أننا حملنا آباءهم الأقدمين وهم ذرية آدم في سفينة نوح عليه السلام التي أمره الله أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين قال في التسهيل: وإنما خصّ ذريتهم بالذكر، لأنه أبلغ في الامتنان عليهم، ولأن فيه إشارة إلى حمل أعقابهم إلى يوم القيامة^(١) ﴿وَخَلَقْنَاهُمْ مِنْ مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ أي وخلقنا لهم من مثل سفينة نوح السفن العظيمة التي يركبونها ويبلغون عليها أقصى البلدان، وإنما نسب الخلق إليه لأنها بتعليم الله جل وعلا للإنسان وقال ابن عباس: هي الإبل وسائر المركوبات، فهي في البر مثل السفن في البحر^(٢) ﴿وَلِنْ شَأْنُ غَرْقِهِمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ﴾ ولو أردنا لأغرقناهم في البحر فلا مغيث لهم ﴿وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ أي ولا أحد يستطيع أن ينقذهم من الغرق ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي لا ينقذهم أحد إلا نحن لأجل رحمتنا إياهم، وتمتعنا لهم إلى انقضاء آجالهم.. بين تعالى أن ركبهم السفن في البحر من الآيات العظيمة، فإن سير السفينة بما فيها من الرجال والأثقال فوق سطح الماء آية باهرة فقد حملتهم قدرة الله ونواميسه التي تحكم الكون وتصرفه بحكم خواص السفن، وخواص الماء، وخواص الرياح، وكلها من أمر الله وخلقه وتقديره، والسفينة في البحر الخضم كالريشة في مهبّ الهواء، وإلا تدرّكها رحمة الله فهي هالكة في لحظة من ليل أو نهار، والذين ركبوا البحار، وشاهدوا الأخطار، يدركون هول البحر المخيف، ويحسون معنى رحمة الله وأنها وحدها هي المنجي لهم من بين العواصف والتيارات، في هذا الخضم الهائل الذي تمسكه يد الرحمة ويعرفون معنى قوله تعالى ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا﴾ فسبحان الله القدير الرحيم! ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لما ذكرهم تعالى بدلائل قدرته، وآثار رحمته، أخبرنا هنا عن تعاميمهم عن الحق، وأعراضهم عن الهدى والإيمان، مع كثرة الآيات الواضحات، والشواهد الباهرات. والمعنى: وإذا قيل للمشرّكين احذروا سخط الله وغضبه، واعتبروا بما حلّ بالأمم السابقين قبلكم من العذاب بسبب تكذيبهم الرسل، واحذروا ما وراءكم من عذاب الآخرة لكي تُرحموا، وجواب الشرط محذوف تقديره أعرضوا واستكبروا ودلّ عليه قوله تعالى ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ قال القرطبي: والجواب محذوف والتقدير: إذا قيل لهم ذلك أعرضوا، ودليله الآية التي بعدها ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ﴾ فاكتمى بهذا عن ذلك^(٣) ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَةٍ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي وما تأتي هؤلاء

= وجعلها رجوماً للشياطين، وهذا باطل. انظر: «معجم المناهي اللفظية» للشيخ بكر بن عبد الله زيد (ص: ١١٨). [

(ش): السّفِين: السّفُن: جمع سَفِينَة. الخَضَم: البحر الواسع.

(١) «التسهيل في علوم التنزيل» ١٦٤/٣.

(٢) «تفسير القرطبي» ٣٥/١٥، وهناك قول آخر عن ابن عباس أن المراد بقوله: (من مثله) السفن أي خلق لهم سفناً أمثال سفينة نوح يركبونها وهو الأظهر لقوله بعده: ﴿وَلِنْ شَأْنُ غَرْقِهِمْ﴾.

(٣) «تفسير القرطبي» ٣٦/١٥.

المشركين علامة من العلامات الواضحة الدالة على صدق الرسول كالمعجزات الباهرة التي أيده الله بها إلا أعرضوا عنها على وجه التكذيب والاستهزاء قال أبو السعود: وإضافة الآيات إلى اسم الرب جل وعلا لتفخيم شأنها، المستتبع لتحويل ما اجترعوا عليه في حقها، والمراد بالآيات إما الآيات التنزيلية التي من جملتها الآيات الناطقة ببدائع صنع الله وسوابغ آلائه، أو الآيات التكوينية الشاملة للمعجزات وغيرها من تعاجيب المصنوعات، التي من جملتها ما ذكر من شئونه الشاهدة بوحدانته تعالى، وتفرد به بالألوهية^(١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء الكفار بطريق النصيحة أنفقوا بعض ما أعطاكم الله من فضله على الفقراء والمساكين ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ أي قال الكفار للمؤمنين تهكمًا بهم: أنفق أموالنا على هؤلاء المساكين الذين أفقرهم الله؟ ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي ما أنتم أيها المؤمنون إلا في ضلال ظاهر واضح حيث تأمرونا أن ننفق أموالنا على من أفقرهم الله قال ابن عباس: كان بمكة زنادقة فإذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا: لا والله لا نفعل، أي فقره الله ونطعمه نحن^(٢) وغرضهم الرد على المؤمنين فكأنهم يقولون: لو كان الأمر كما تزعمون أن الله قادر، وأن الله رازق لأطعم هؤلاء الفقراء، فما بالكم تطلبون إطعامهم منا؟ وما علم هؤلاء السفهاء أن خزائن الأرزاق بيد الخلاق، وأنه تعالى أغنى بعض الخلق وأفقر بعض الخلق ابتلاءً، لينظر كيف عطف الغني، وكيف صبر الفقير، فقد منع الدنيا عن الفقير لا بخلاً، وأمر الغني بالإنفاق عليه لا حاجة إلى ماله، ولكن للإبتلاء والله يفعل ما يشاء، لا اعتراض لأحد في مشيئته ولا في حكمه ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] ثم أخبر عن إنكار المشركين للآخرة، واستبعادهم لقيام الساعة فقال ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي متى يوم القيامة الذي تتوعدونا به؟ ومتى هذا العذاب الذي تخوفونا به إن كنتم صادقين في دعاكم أن هناك بعثًا ونشورًا وحسابًا وعذابًا؟ قال تعالى ردًا عليهم ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ﴾ أي ما ينتظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم مفاجأة من حيث لا يشعرون ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي وهم يتخاصمون في معاملاتهم وأسواقهم، فلا يشعرون إلا بالصيحة قد أخذتهم، فيموتون في أماكنهم قال ابن كثير: وهذه - والله أعلم - نفخة الفزع، ينفخ إسرافيل في الصور والناس في أسواقهم ومعاشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم، فبينما هم كذلك إذ أمر الله إسرافيل فنفخ في الصور نفخة يطولها ويمدّها، فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا حنى عنقه يتسمع الصوت من قبل السماء^(٣) فذلك قوله

(١) «تفسير أبي السعود» ٢٥٥ / ٤.

(٢) «تفسير القرطبي» ٣٧ / ١٥، قال القرطبي: وإنما أخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين.

(٣) «مختصر ابن كثير» ١٦٥ / ٣، وهذا الذي قاله ابن كثير هو اختيار الطبري وهو أن المراد بها نفخة الفزع، وقال القرطبي: هي نفخة الصعق التي يموت بها جميع الأحياء.

تعالى ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي فلا يستطيع بعضهم أن يوصي بعضاً بأمر من الأمور، ولا يستطيعون أن يرجعوا إلى أهلهم ومنازلهم لأن الأمر أسرع منه ذلك وفي الحديث: «لَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلَا يَتَبَايَعَانِيهِ وَلَا يَطُوبِيَانِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ - أي يصلحه بالطين - فَلَا يَسْقَىٰ فِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أَكْلَتَهُ إِلَىٰ فِيهِ فَلَا يَطْعُمُهَا»^(١) ثم تكون هناك نفخة ثانية وهي «نفخة الصَّعَق» التي يموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحي القيوم^(٢)، ثم تكون النفخة الثالثة وهي «نفخة البعث والنشور» التي يخرج الناس بها من القبور، وهي التي أشارت إليها الآية الكريمة ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ أي ونفخ في الصور فإذا هؤلاء الأموات يخرجون من قبورهم يسرعون المشي قال الطبري: ﴿يَنسِلُونَ﴾ يخرجون سراعاً، والنَّسْلَان: الإسراع في المشي^(٣) ﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾؟ أي يقولون يا هلاكنا من الذي أخرجنا من قبورنا التي كنا فيها؟ قال ابن كثير: وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم، لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد، فإذا قالوا ذلك أجابتهم الملائكة أو المؤمنون^(٤) ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي هذا الذي وعدكم الله به من البعث بعد الموت والحساب والجزاء، وصدق رسله الكرام فيما أخبرونا به عن الله ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ أي ما كان أمر بعثهم إلا صيحة واحدة يصيح بهم فيها إسرافيل فإذا هم جميع عندنا حاضرون قال الصَّاوِي: وهذه الصيحة هي قول إسرافيل: أيتها العظام النخرة، والأوصال المتقطعة، والأجزاء المتفرقة، والشعور المتمزقة، إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَجْتَمَعَ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ ثُمَّ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مَجْمُوعُونَ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ^(٥) ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي ففي هذا اليوم يوم القيامة لا تُظْلَمُ نفس شيئاً، سواء كانت هذه النفس برة أو فاجرة، ولا يُحْمَلُ الإنسان وزر غيره وإنما يُجَازَى كل بعمله قال أبو السعود: هذه حكاية لما سيقال لهم في الآخرة، حين يرون العذاب المُعَدَّ لهم تحقيقاً للحق، وتقريعاً لهم^(٦). ولما أخبر عن مآل المجرمين أخبر عن حال الأبرار المتقين فقال ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي

(١) أخرجه البخاري.

(٢) (ش): هذا يخالف قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ فهناك من استثناهم الله سبحانه، فبقيتهم عند النفخة، فلم يُصعقوا، قيل: هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت. وقيل: هم الشهداء أو بعضهم.

(٣) «الطبري» ١١ / ٢٣.

(٤) «مختصر ابن كثير» ١٦٦ / ٣.

(٥) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣ / ٣٢٨.

(٦) «أبو السعود» ٤ / ٢٥٧.

شُغِلْ فَتَكْهُونَ ﴿١﴾ أي إن أصحاب الجنة في ذلك اليوم مشغولون بما هم فيه من اللذات والنعيم عن التفكير بأهل النار، يتفكهون ويتلذذون بالحوار العين، وبالأكلة والشرب والسماع للأوتار قال أبو حيان: والظاهر أن الشغل هو النعيم الذي قد شغلهم عن كل ما يخطر بالبال وقال ابن عباس: شُغِلُوا بافتضاض الأبقار، وسماع الأوتار عن أهاليهم من أهل النار، لا يذكروهم لئلا يتنصصوا^(١)، ﴿هُم وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَايِكِ مُتَكُونَ ﴿٢﴾ أي هم وزوجاتهم في ظلال الجنان الوارفة، حيث لا شمس فيها ولا زمهرير، متكئون على السُرُر المزيّنة بالثياب والستور ﴿لَهُمْ فِيهَا فَكْهَةٌ ﴿٣﴾ أي لهم في الجنة، فاكهة كثيرة من كل أنواع الفواكه ﴿وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٤﴾ أي ولهم فيها ما يتمنون ويشتهون كقوله تعالى ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴿٥﴾ [الزخرف: ٧١] ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٦﴾ أي لهم سلام كريم من ربهم الرحيم، وفي الحديث «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع عليهم نور، فرفعوا رءوسهم فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة فذلك قوله تعالى ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٧﴾ قال: فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم، ويبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم»^(٢).

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - التنكير والتفخيم والتعظيم ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ ﴿١﴾ أي آية عظيمة باهرة على قدرة الله.
- ٢ - الطباق بين الموت والإحياء ﴿الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا ﴿٢﴾ وبين الليل والنهار.
- ٣ - الاستعارة التصريحية ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَلَيْلٌ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴿٣﴾ شبه إزالة ضوء النهار وانكشاف ظلمة الليل بسلخ الجلد عن الشاة، واستعار اسم السلخ للإزالة والإخراج، واشتق منه نسلخ بمعنى نخرج منه النهار بطريق الاستعارة التصريحية، وهذا من بليغ الاستعارة، وبين الليل والنهار طباق.

٤ - التشبيه المرسل المجمل ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٤﴾ وجه الشبه مركب من ثلاثة أشياء: الرقة، والانحناء، والصفرة، ولَمَّا لم يُذَكَّر سُمي مُجْمَلًا^(٣).

٥ - تقديم المسند إليه لتقوية الحكم المنفي ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴿٥﴾ فإنه أبلغ من أن يقول (لا ينبغي للشمس أن تدرك القمر) وأكد في إفادة أنها مسخرة لا يتيسر لها إلا ما أريد بها فإن قولك «أنت لا تكذب» بتقديم المسند إليه أبلغ من قولك «لا تكذب» فإنه أشدُّ

(١) «البحر المحيط» ٣٤٢/٧.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم قال ابن كثير: وفي إسناده نظر كذا في «المختصر» لابن كثير ١٦٧/٣، ورواه ابن ماجه في سننه. (ش): وضعفه الألباني.

(٣) (ش): أي ولمَّا لم يُذَكَّر وجه الشبه سُمي تشبيهاً مُجْمَلًا.

لنفي الكذب من العبارة الثانية فتدبر أسرار القرآن^(١).

٦ - تنزيل غير العاقل منزلة العاقل ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ بدل (يَسْبَح)، فقد عبر عن الشمس والقمر والكواكب بضمير جمع المذكر، والذي سَوَّغ ذلك وصفهم بالسباحة لأنها من صفات العقلاء^(٢).

٧ - الاستعارة اللطيفة ﴿مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدًا﴾ المرقد هنا عبارة عن الممات، فشبها حال موتهم بحال نومهم لأنها أشبه الأشياء بها وأبلغ من قوله: من بعثنا من مماتنا.

٨ - الإيجاز بالحذف ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ أي تقول لهم الملائكة: هذا ما وعدكم به الرحمن.

٩ - الطباق ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ والاستفهام الذي يراد منه التهكم ﴿أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾.

١٠ - السجع غير المتكلف في ختام الآيات الكريمة مثل ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلَمُونَ﴾ ومثل ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ و﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ وهو من المحسنات البديعية^(٣).

قال الله تعالى:

وَأَمْتَدُوا إِلَيْهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ نَعْهِدْ إِلَىٰكُمْ يَبْنَىٰءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ نَعْمِرْهُ نَكْسِئْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مِنْفَعٌ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُخَضَّرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَخْزِيكَ قَوْلُهُمْ إِنَّآ نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَنُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ

(١) انظر «حاشية الشيخ زاده على البضاوي» ١٣٢/٣.

(٢) انظر «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣٢٦/٣.

(٣) ذكرنا بعض الامثلة البلاغية على سبيل المثال لا الحصر، حتى يتذوق الإنسان بعض روائع القرآن، وإلا فكلام الله معجز وفيه من الروائع البيانية ما يعجز وصفه اللسان، فسيحان منزل القرآن.

خَلَقَ عَلَيْهِ ﴿٧٨﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسَبِّحْنَا الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَلِيْلَهُ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى حال السعداء الأبرار وما لهم في الجنة من النعيم المقيم، أعقبه بذكر حال الأشقياء الفجار وما لهم من الخزي والدمار، على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب، وختم السورة الكريمة ببيان أدلة البعث بعد الموت، والحساب والجزاء.

اللغة: ﴿وَأَمْنَرُوا﴾ تميزوا وانفصلوا، والتمييز: الفرق بين أمرين ﴿جِيلًا﴾ بكسر الجيم خلقًا جمع جِبَلَةٍ ومنه ﴿وَالْجِبَلَةُ الْأَوَّلِينَ﴾ مشتق من جبل الله الخلق أي خلقهم ﴿لَطَمَسْنَا﴾ الطمس: إذهاب الشيء وأثره جملة كأنه لم يوجد ﴿أَصْلَوْهَا﴾ ادخلوها وذوقوا سعيها ﴿لَمَسَخْنَاهُمْ﴾ المسخ: التحويل من صورة إلى صورة منكرة ﴿نُعَمِّرُهُ﴾ التعمير: إطالة العمر حتى يبلغ سن الشيخوخة ﴿نُكْسِيهِ﴾ التنكيس: قلب الشيء رأسًا على عقب يقال: نكستُ الشيء نكسًا إذا قبلته على رأسه ومنه ﴿ثُمَّ نَكْسُوهُ عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٦٥] ﴿رَمِيمٌ﴾ الرميم: البالي المفتت يقال رمَّ العظم أي بلى فهو رميم.

سبب النزول: روي أن «أبي بن خلف» من صناديد كفار قريش جاء بعظم بالٍ إلى النبي ﷺ ففتنه بيده ثم قال: أنزع يا محمد أن الله يحيي هذا بعدما رم؟ فقال له النبي ﷺ نعم يحييه، ثم يبعثك ويدخلك النار فأنزل الله تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْخَلَقْنَاهُ مِنْ طُفْلَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿١﴾.

التفسير: بعد أن بين تعالى حال السعداء ذكر حال الأشقياء فقال ﴿وَأَمْنَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي تميزوا وانفصلوا يا معشر الكفرة المجرمين عن عبادي المؤمنين، انفردوا عنهم وكونوا جانبًا قال القرطبي: يقال لهم هذا عند الوقوف للسؤال، وحين يؤمر بأهل الجنة إلى الجنة (٢) ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَنْبَىءَ آدَمَ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع، وهو توبيخ للكفرة المجرمين أي: ألم أوصيكم وأمركم يا بني آدم على السنة رسلي ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾،

(١) انظر «تفسير القرطبي» ٥٨/١٥، و«البحر المحيط» ٣٤٨/٧. (ش): ضعيف جدًا. أخرجه الطبري في «تفسيره». وأخرج ابن أبي حاتم في «تفسيره»، والحاكم في «المستدرک» بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: جاء العاصي بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل ففتنه فقال: «يا محمد أبعث الله هذا بعد ما أرم؟» قال: «نعم، يبعث الله هذا. يُميتك، ثم يُحييك، ثم يدخلك نار جهنم» قال: فتركت الآيات ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ طُفْلَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [يس: ٧٧] إلى آخر السورة. (قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي). (بعظم حائل): حال الشيء: تغير وتحول. فتنه: دقّه وكسره بالأصابع كسرًا صغيرة. أرمَّ العظم: بلى.

(٢) «تفسير القرطبي» ٤٦/١٥.

أي: ألا تطيعوا الشيطان فيما دعاكم إليه من معصيتي؟ ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ تعليل للنهي أي لأنه عدو لكم ظاهر العداوة، فكيف يطيع الإنسان عدوه؟ ﴿وَأَنْ أَعْبُدُ فِي﴾ أي وأمرتكم بأن تعبدوني وحدي، بتوحيدي وطاعتي وامثال أمري ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: هذا هو الدين الصحيح، والطريق الحق المستقيم ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ تأكيد للتعليل، أي: ولقد أضل الشيطان خلقًا منكم كثيرين، وأغواهم عن سلوك طريق الحق قال الطبري: أي صد الشيطان منكم خلقًا كثيرًا عن طاعتي حتى عبده ^(١) ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفما كان لكم عقل يردعكم عن طاعة الشيطان ومخالفة أمر ربكم؟ وهو توبيخ آخر للكفرة الفجار.. ثم بشرهم بما ينتظرهم من العذاب فقال ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي هذه نار جهنم التي أوعدكم بها الرسل وكذبت بها قال الصاوي: هذا خطاب لهم وهم على شفير جهنم، والمقصود منه زيادة التبكيت والتفريع ^(٢) ﴿أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي ذوقوا حرارتها وقاسوا أنواع عذابها اليوم بسبب كفركم في الدنيا، وهو أمر إهانة وتحقير مثل قوله ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] ثم أخبر تعالى عن فضيحتهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد فقال ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ ^(٣) أي في هذا اليوم يوم القيامة نختم على أفواه الكفار ختمًا يمنعها عن الكلام ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي تنطق عليهم جوارحهم أيديهم وأرجلهم بأعمالهم القبيحة روى ابن جرير الطبري عن أبي موسى الأشعري أنه قال: «يُدعى الكافر والمنافق يوم القيامة للحساب فيعرض عليه ربه عمله فيجحدده ويقول: أي رب وعزتك لقد كتب عليّ هذا الملك ما لم أعمل، فيقول الملك: أما عملت كذا في كذا في مكان كذا فيقول: لا وعزتك أي رب ما عملته، فإذا فعل ذلك ختم على فيه وتكلمت أعضاؤه ثم تلا ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ وفي الحديث: «يَقُولُ الْعَبْدُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجَرِّبْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى. قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أَجِيزُ عَلَىٰ نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي. قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا وَبِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا - قَالَ - فَيُخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ فَيَقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي. قَالَ فَتَنْطِقِي بِأَعْمَالِهِ - قَالَ - ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ - قَالَ - فَيَقُولُ: بَعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا. فَعَنْكَنَ كُنْتُ أَنَا ضِلُّ» ^(٤) ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُصِيرُوكَ﴾ أي لو شئنا لأعميانهم فابتدروا طريقهم ذاهبين كعادتهم فكيف يبصرون حينئذ؟ قال ابن عباس: المعنى لو نشاء لأعميانهم عن الهدى فلا يهتدون أبدًا إلى طريق الحق ^(٥)،

(١) «تفسير الطبري» ١٦/٢٣.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/٣٢٩.

(٣) «الطبري» ١٧/٢٣.

(٤) هذا جزء من حديث أخرجه الإمام مسلم.

(٥) «تفسير القرطبي» ٤٩/١٥.

وهو تهديد لقريش ﴿وَلَوْ فَشَاءَ لَمَسَخْنَهُمْ عَلَىٰ مَكَاتَتِهِمْ﴾ أي لو نشاء لمسخناهم مسخاً يقعدهم في مكانهم ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ أي إذا مسخوا في مكانهم لم يقدرُوا وأن يذهبوا ولا أن يرجعوا، وهو تهديد آخر للكفرة المجرمين، ثم ذكر تعالى دلائل قدرته على مسخ الكفار يتناول الأعمار فقال ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ أي ومن نُطِلْ عمره نُقَلِّبْهُ في أطوار منتكساً في الخلق فيصير كالطفل لا يعلم شيئاً قال قتادة: يصير إلى حال الهرم الذي يشبه حال الصبا، فطولُ العمر يصيرُ الشبابَ هرمًا، والقوة ضعفًا، والزيادة نقصًا ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾؟ أي أفلا يعقلون أن من قدر على ذلك قادر على إعمائهم أو مسخهم؟ قال ابن جزي: والقصدُ من ذلك الاستدلالُ على قدرته تعالى على مسخ الكفار، كما قدر على تنكيس الإنسان إذا هرم ^(١) ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أي وما علمنا محمدًا الشعر، ولا يصح ولا يليق به أن يكون شاعرًا قال القرطبي: هذا ردُّ على الكفار في قولهم: إنه شاعر، وإن ما أتى به من قبيل الشعر، فالرسول ﷺ ليس بشاعر، والقرآن ليس بشعر، لأن الشعر كلام مزخرف موزون، مبني على خيالات وأوهام واهية، حتى قيل: «أَعَذَّبَهُ أَكْذَبُهُ» ^(٢). فأين ذلك

(١) «التسهيل في علوم التنزيل» ١٦٦/٣.

(٢) (ش): هل أعذب الشعر أكذب؟ يرى المؤيدون لذلك أن الشعر لا يُبهر ويُبهج إلا إذا ترصّع بالكذب، وسافر مع الخيال. أما المعارضون فيرون أن هذه المقولة أخطأت الصواب، ولم تُصِبِ الحقيقة ولا قاربت، بل عدوها دعوى فارغة من البيّنة، زائغة عن الصواب. وقالوا: إن أحسن الشعر أصدقّه، وإن فضيلة الشاعر ليست في معرفته بوجوه الإغراق والغلو؛ ومخالفته الحقيقة، وخروجه عن الواجب والمتعارف، فخير الكلام الحقائق، فإن لم يكن فما قاربها وناسبها. أما المُفَصِّلُونَ في المسألة فقالوا إن أحسن الشعر أَقْصَدُهُ، إذ لا تعارض بين الصدق من جهة، والغلو والمبالغة من جهة أخرى، فالشعرُ أساسه التأثير بواسطة التخييلات البيانية من تشبيه واستعارة وكناية ونحو ذلك، ولما كان الخيال صورةً من صُور الكذب قيل: إن أعذب الشعر أكذبّه، ولكن ليس ذلك على إطلاقه؛ فإن العمدية في حُسْن الشعر وجودته على صدق الشعور، وجمال التعبير، وكم من أبيات اعتبرت من عيون الشعر بينما هي لا تعتمد على أي صورة كاذبة، وإنما تتجلى بلاغتها في حُسْن إصابتها للمعنى الصحيح، وحُسْن صياغتها في تعبير جميل، إلا أن الذي غلب على الشعراء المبالغة في الصور البيانية إلى حد التخييل الكاذب الصريح، وخاصة في مقاصد الوصف والمدح والهجاء، فتسابقوا إلى الإغراب في ذلك، وإلى ابتداع المعاني الموهلة في الاستحالة، زاعمين أنه بذلك يحلو الشعر ويستعذب. ربّما يكون تضخيم الحق وتجسيمه في الصورة الأدبية عملاً أدبيًّا جميلًا؛ لأنّ التضخيم والتجسيم في مفاهيم الناس لونٌ من ألوان البيان والشرح للحقيقة، وبعد الشرح ترجع الحقيقة في تصوُّر الناس إلى حجمها الطبيعي. فيكون الكلام أقرب إلى حيِّز الصحة كما قال أبو عبيدة:

أَتَاكَ الرَّبِيعُ الطَّلُقُ يَخْتَالُ صَاحِكًا مَنِ الْحُسْنِ حَتَّى كَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ

فهذا البيت قد تضمن غلوًا لكن لما جاءت فيه كلمة (كَادَ) قَرَّبَتْهُ إلى الصحة. ولكن الفكرة المشتملة على كذبٍ سخيفٍ ممعوج قد يستعذبها الذهن لطرافتها، ولكن يمجّها الذوق والحسُّ المرفه العارف بألوان الجمال لسخافتها، ومجافاتها للحقيقة مجافاةً واسعة المسافة، في قول المتنبي:

كَفَى بِجِسْمِي نُحُولًا أَنَّنِي رَجُلٌ لَوْلَا مُخَاطَبَتِي إِيَّاكَ لَمْ تَرْنِي

=

وفي قول القائل:

من القرآن العزيز الذي تنزه عن مماثلة كلام البشر!! وقد أكثر الناس في ذم الشعر ومدحه، وإنما الإنصاف ما قاله الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «الشعر كلامٌ، والكلام منه حسنٌ، ومنه قبيح»^(١). ﴿إِنَّهُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ أي ما هذا الذي يتلوه محمد إلا عظة وتذكيرٌ من الله جل وعلا لعباده، وقرآن واضح ساطع لا يلتبس به الشعر بحالٍ من الأحوال ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أي لينذر بهذا القرآن من كان حي القلب مستنير البصيرة، وهو المؤمنون لأنهم المتفعون به ﴿وَيَحَقِّقَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي وتجب كلمة العذاب على الكافرين^(٢) لأنهم كالأموات لا يعقلون ما يخاطبون به قال البيضاوي: وجعلهم في مقابلة من كان حيًّا إشعارًا بأنهم لكفرهم، وسقوط حجتهم، وعدم تأملهم، أمواتٌ في الحقيقة^(٣). ثم ذكّرهم تعالى بنعمه، وأعاد ذكر دلائل القدرة والوحدانية ليستدلوا على وجوده جلّ وعلا من آثاره فقال ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا﴾ الهمزة للإنكار والتعجب، أي: أولم ينظروا نظر اعتبار، ويتفكروا فيما أبدعته أيدينا من غير واسطة، وبلا شريك ولا معين مما خلقناه لهم ولأجلهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم، فيستدلوا بذلك على وحدانيتنا وكمال قدرتنا؟ ﴿فَهُمْ لَهَا كَمَلٌ كُونَ﴾ أي فهم متصرفون فيها كيف يشاءون تصرف المالك بماله ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ قال ابن كثير: المعنى جعلهم يقهرونها وهي ذليلةٌ لهم لا تمتنع منهم، بل لو جاء صغير إلى بعيرٍ لآناخه، ولو شاء لأقامه وساقه وهو ذليل منقاد معه، وكذا لو كان القطار مائة بعير لसार الجميع بسير الصغير، فسبحان من سخر هذا لعباده!^(٤) ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أي فمن هذه الأنعام ما يركبونه في الأسفار، ويحملون عليه الأثقال كالإبل التي هي سفن البر، ومنها ما يأكلون لحمه كالبحر والغنم ﴿وَهُنَّ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ﴾ أي ولهم فيها منافع عديدة غير الأكل والركوب كالجلود والأصواف والأوبار، ولهم فيها مشارب أيضًا يشربون من ألبانها ﴿مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمْرٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦] ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أي أفلا يشكرون ربهم على هذه النعم الجليلة؟ والغرض من الآيات تعديد النعم وإقامة الحجة عليهم... ثم وبّخهم وعنفهم في عبادة

= بَكَتْ لَوْلَوْ رَطْبًا فَسَالَتْ مَدَامِعِي عَقِيقًا فَصَارَ الْكُلُّ فِي جِيدِهَا عُقْدًا

وما دام باستطاعة الإنسان أن يتقي من الحق والصدق عناصر جمالية لأدبه فما أوفر الحق والصدق في بيانات الإسلام، أما الدعاة إلى الله فما عليهم إلا أن يغترفوا.

(١) (ش): قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الشَّعْرُ بِمَنْزِلَةِ الْكَلَامِ، حَسَنُهُ كَحَسَنِ الْكَلَامِ، وَقَبِيحُهُ كَقَبِيحِ الْكَلَامِ». (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمَفْرَدِ» وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ).

(٢) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٢٦١.

(٣) تفسير البيضاوي ٢/ ١٣٦.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٧٠. (ش): أَنَاخَ الْجَمَلُ: أَبْرَكَهُ. الْفَطَارُ مِنَ الْإِبِلِ: عَدَدٌ مِنْهَا بَعْضُهُ خَلْفَ بَعْضٍ عَلَى نَسْقٍ وَاحِدٍ.

ما لا يسمع ولا ينفع من الأوثان والأصنام، وذلك نهاية الغي والضلال فقال ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أي وعبد المشركون آلهة من الأحجار رجاء أن ينصروا بها وهي صماء بكماء، لا تسمع الدعاء ولا تستجيب للدعاء ﴿لَا يَسْتَبِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ أي لا تستطيع هذه الآلهة المزعومة نصرهم بحال من الأحوال، لا بشفاعة ولا بنصرة أو إعانة ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْضَرُونَ﴾ أي وهؤلاء المشركون كالجند والخدم لأصنامهم في التعصب لهم، والذب عنهم، وفدائهم بالروح والمال، مع أنهم لا ينفعونهم أي نفع قال قتادة: المشركون يغضبون للآلهة في الدنيا، وهي لا تسوق إليه خيراً ولا تدفع عنهم شراً، إنما هي أصنام والمشركون كأنهم خدام^(١) وقال القرطبي: المعنى إنهم قد رأوا هذه الآيات من قدرتنا، ثم اتخذوا من دوننا آلهة لا قدرة لها على فعل شيء أصلاً، والكفار يمنعون منهم ويدفعون عنهم، فهم لهم بمنزلة الجند، والأصنام لا تستطيع أن تنصرهم^(٢). ﴿فَلَا يَخْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي لا تحزن يا محمد على تكذيبهم لك، واتهامهم بأنك شاعر أو ساحر، وهذه تسلية للنبي عليه السلام، وهنا تم الكلام. ثم قال تعالى ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي نحن أعلم بما يخفونه في صدورهم، وما يظهرونه من أقوالهم وأفعالهم، فنجازيهم عليه، وكفى بربك أنه على كل شيء شهيد.. ثم أقام الدليل القاطع، والبرهان الساطع، على البعث والنشور فقال ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ استفهام إنكاري للتوبيخ والتفريع، أي: أولم ينظر هذا الإنسان الكافر نظر اعتبار، ويتفكر في قدرة الله فيعلم أننا خلقناه من شيء مهين حقير هو النطفة «المني» الخارج من مخرج النجاسة؟ ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ أي فإذا هو شديد الخصومة والجدال بالباطل، يخاصم ربه وينكر قدرته، ويكذب بالبعث والنشور، أفليس الإله الذي قدر على خلق الإنسان من نطفة، بقادر على أن يخلقه مرة أخرى عند البعث؟ قال المفسرون: نزلت في «أبي بن خلف» «جاء بعظم رميم، وفنته في وجه النبي الكريم وقال ساخرًا: أتزعم يا محمد أن الله يحيينا بعد أن نصبح رفاتاً مثل هذا؟ فقال ﷺ له: «نعم يبعثك ويدخلك النار»^(٣) ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ أي وضرب لنا هذا الكافر المثل بالعظم الرميم، مستبعداً على الله إعادة خلق الإنسان بعد موته وفنائه، ونسي أنا أنشأناه من نطفة ميتة وركبنا فيه الحياة، نسي خلقه العجيب وبدأه الغريب، وجوابه من نفسه حاضر ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أي وقال هذا الكافر: من يحيي العظام وهي أشد البلى، متفتته متلاشية؟ قال الصاوي: أي أورد كلاماً عجيباً في

(١) وهذا القول هو الذي اختاره الطبري ورجحه انظر «تفسير الطبري» ٢٣/٢٠.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥/٥٦ بشيء من الاختصار.

(٣) قال في البحر: وقيل: إنها نزلت في «العاص بن وائل» والأصح أنها في «أبي بن خلف» وانظر سبب النزول المتقدم في هذا التفسير. (ش): تقدم أن الصحيح أنها نزلت في «العاص بن وائل»، رواه الحاكم في «المستدرک» بإسناد صحيح. أما ما روي أنها نزلت في «أبي بن خلف» فضعيف جداً. أخرجه الطبري في «تفسيره».

الغربة هو كالمثل، حيث قاس قدرتنا على قدرة الخلق ^(١) ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي قل يا محمد تخريسا وتبكيئا لهذا الكافر وأمثاله: يخلقها ويحييها الذي أوجدها من العدم، وأبدع خلقها أول مرة من غير شيء، فالذي قدر على البداء، قادر على الإعادة ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أي يعلم كيف يخلق ويبدع، فلا يصعب عليه بعث الأجساد بعد الفناء ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ أي الذي جعل لكم بقدرته من الشجر الأخضر نارا تُحرق الشجر، لا يمتنع عليه فعل ما أراد، ولا يُعجزه إحياء العظام البالية وإعادتها خلقا جديدا ^(٢) وقال أبو حيان: ذكر تعالى لهم ما هو أغرب من خلق الإنسان من النطفة، وهو إبراز الشيء من ضده، وذلك أبداع شيء وهو اقتداح النار من الشيء الأخضر، ألا ترى الماء يطفىء النار ومع ذلك خرجت مما هو مشتمل على الماء، والأعراب تُوري النار من المَرخ والعُفار، وفي أمثالهم «لِكُلِّ شَجَرٍ نَارٌ، وَاسْتَمَجَدَ المَرخُ والعُفار» ^(٣). ولقد أحسن القائل:

جَمْعُ النَّقِصِينَ مِنْ أَسْرَارِ قُدْرَتِهِ هَذَا السَّحَابُ بِهِ مَاءٌ بِهِ نَارُ
﴿فَإِذَا أَنْتُمْ تُؤْفِكُونَ﴾ أي فإذا أنتم تقدحون النار من هذا الشجر الأخضر ﴿وَأَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾؟ أي أليس الذي خلق السموات والأرض مع كبر جرهما، وعظم شأنهما قادرا على أن يخلق أجساد بني آدم بعد فنائها؟ ﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ أي بلى هو القادر على ذلك، فهو الخلاق المبدع في الخلق والتكوين، العليم بكل شيء ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي لا يصعب عليه جل وعلا شيء، لأن أمره بين الكاف والنون، فمتى أراد تعالى شيئا وجده، بدون تعب ولا جهد، ولا كلفة ولا عناء ^(٤) ﴿فَسُبْحَنَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي تنزهه وتمجده عن صفات النقص الإله العظيم الجليل، الذي بيده الملك الواسع، والقدرة التامة على كل الأشياء ﴿وَالَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي وإليه وحده مرجع الخلائق للحساب والجزاء.. ختم تعالى السورة الكريمة بهذا الختم الرائع، الدال على كمال القدرة، وعظمة الملك والسلطان، الذي تفرد به خالق الأكوان.

البلاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - طباق السلب ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ... وَأَن أَعْبُدُونِي﴾ فالأول سلب، والآخر إيجاب.

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/ ٣٣١.

(٢) «تفسير الطبري» ٢٣/ ٢١.

(٣) «البحر المحيط» ٧/ ٣٤٨. (ش): المَرخ والعُفار هما شجرتان من أسرع الشجر خروج نار، والاستيمجاد الاستكثار من المجد وهو كثرة الشرف، وقيل: معناه أنهما أخذوا الفضل وذهبا بالمجد، يُضرب هذا المثل في تفضيل القوم على بعض إذا كانوا كلهم ذوى خير ول بعضهم مزية وتقدم ليس للآخرين.

(٤) (ش): كُفَّة: مَشَقَّة.

- ٢ - الاستفهام الإنكاري للتوبيخ والتقرير ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾؟ ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾؟
- ٣ - الطباق بين مُضِيًّا .. يَرْجِعُونَ ﴿يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وهو من المحسنات البديعية.
- ٤ - التشبيه البليغ ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أي كالجند في الخدمة والدفاع، حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً.
- ٥ - ذكر العام بعد الخاص ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ﴾ بعد قوله ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ الآية وفائدته تفخيم النعمة، وتعظيم المنة.
- ٦ - المقابلة ﴿لِيُنْذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ الآية قابل بين الإنذار والإعذار، وبين المؤمنين والكفار ﴿وَيَحَقِّقَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وهو من ألطف التعبير.
- ٧ - الاستعارة التمثيلية ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا﴾ الأنعام تُخْلَقُ ولا تُعْمَلُ، ولكنه شَبَّه اختصاصه بالخلق والتكوين بمن يعمل أمراً بيديه ويصنعه بنفسه، واستعار لفظ العمل للخلق بطريق الاستعارة التمثيلية ^(١).
- ٨ - صيغة المبالغة ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ .. ﴿الْخَلْقُ الْعَلِيمُ﴾.
- ٩ - الاستعارة التمثيلية ﴿أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ شبه سرعة تأثير قدرته تعالى ونفاذها في الأشياء بأمر المطاع من غير توقف ولا امتناع، فإذا أراد شيئاً وجد من غير إبطاء ولا تأخير، وهو من لطائف الاستعارة ^(٢).
- فائدة:** الملكوت صيغة مبالغة من المُلْك، ومعناه الملك الواقع التام مثل الجبروت والرحموت للمبالغة.

تنبيه: قال العلامة ابن كثير: «ما ثبت عنه ﷺ أنه تمثل يوم الخندق بأبيات ابن رواحة: «اللَّهُمَّ لَوْ لَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا» ^(٣). وما ثبت أنه قال يوم حنين وهو راكب على بغلته: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبُ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» ^(٤) وقوله: «هَلْ أَنْتَ إِلَّا إِضْبَعٌ دَمِيَّتٌ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتَ» ^(٥) إلخ إنما وقع اتفاقاً من غير قصد إلى قول الشعر، بل جرى هذا على لسانه ﷺ عفواً وكل هذا لدينا في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ ^(٦) ١. هـ. فتدبره فإنه نفيس.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة يس»

(١) انظر «حاشية شيخ زاده على البيضاوي» ٣ / ١٤٠.

(٢) انظر تلخيص البيان في مجازات القرآن للشرif الرضي ١ / ١٩٢.

(٣) (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٤) (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٥) (ش): عَنْ جُنْدُبِ بْنِ سُفْيَانَ قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ يَمْشِي إِذْ أَصَابَهُ حَجَرٌ فَعَثَرَ فَدَمِيَّتْ إِضْبَعُهُ. فَقَالَ: «هَلْ أَنْتَ إِلَّا إِضْبَعٌ دَمِيَّتٌ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتَ» رواه البخاري ومسلم. دمي الجرح: خرج منه الدَّم.

(٦) «مختصر ابن كثير» ٣ / ١٧٦.



مكية وآياتها ثنتان وثمانون ومائة

بين يدي السورة

سورة الصافات من السور المكية التي تعنى بأصول العقيدة الإسلامية «التوحيد، الوحي، البعث، الجزاء» شأنها كشأن السور المكية التي تهدف إلى تثبيت دعائم الإيمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن الملائكة الأبرار، الصافات قوائمها في الصلاة أو أجنحتها في ارتقاب أمر الله، الزاجرين للسحاب يسوقونه حيث شاء الله.. ثم تحدثت عن الجن وتعرضهم للرجم بالشهب الثاقبة، ردًا على أساطير أهل الجاهلية في اعتقادهم بأن هناك قرابة بين الله سبحانه وبين الجن، وتحدثت السورة عن البعث والجزاء وإنكار المشركين له، واستبعادهم للحياة مرة ثانية بعد أن يصبحوا عظامًا ورفاتًا.

* وتأكيدها للعقيدة الإيمان بالبعث ذكرت السورة قصة «المؤمن والكافر» والحوار الذي دار بينهما في الدنيا، ثم النتيجة التي آل إليها أمر كل منهما بخلود المؤمن في الجنة، وخلود الكافر في النار.

* واستعرضت السورة الكريمة قصص بعض الأنبياء، بدءًا من نوح، ثم إبراهيم، ثم إسماعيل، ثم قصة موسى وهارون، ثم إلياس ولوط، وذكرت بالتفصيل قصة «الإيمان والابتلاء» في حادثة الذبيح إسماعيل، وما جرى من أمر الرؤيا للخليل إبراهيم حين أمر بذبح ولده ثم جاء الفداء، تعليمًا للمؤمنين كيف يكون أمر الانقياد والاستسلام لأمر احكم الحاكمين.

* **التسمية:** سميت السورة «سورة الصافات» تذكيرًا للعباد بالملا الأعلى من الملائكة الأطهار، الذين لا ينفكون عن عبادة الله ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْترُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] وبيان وظائفهم التي كلفوا بها.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ① فَالزَّجَرَاتِ زَجْرًا ② فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ③ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ④ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ⑤ إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ⑥ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ⑦ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلَمًا لَّا أَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ⑧ دُخُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ⑨ إِلَّا مَنْ خِطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ⑩ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ⑪ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ⑫ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ⑬ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ ⑭ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ

مُيِّنٌ ﴿١٥﴾ أَءَا مَنَا وَكُنَّا نُرَآهَا وَعَظَمْنَا إِيَّانَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَا بَاؤُنَا إِلَّا وَلُونُ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا بَلْ يَنْظُرُونَ هَذَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٢١﴾ أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقَفَّوهُمْ إِنْهُمْ فَسْخُلُوا ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسَامُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰبِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَعْوَيْنَكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعِلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَ رَبِّنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَٰبِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تَحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَكَّاهُمْ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَى سُرُرٍ مُنْقَلَبِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيَّضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَفَأَنْكَ لَئِنْ أُلْهِمْتُمْ أَنَّ مَنَا وَكُنَّا نُرَآهَا وَعَظَمْنَا إِيَّانَا لَمَدِينُونَ ﴿٥٢﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ ﴿٥٣﴾ قَالُوا بَلَّغْنَا فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٤﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتَرْوِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَوْ لَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٦﴾ أَمَّا نَحْنُ بِمَبَيتِنِ ﴿٥٧﴾ إِلَّا أَلَا مَوْنَتَنَا أَلَاؤُنَا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهَوُ الْفَوْزِ الْعَظِيمِ ﴿٥٩﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦٠﴾

اللغة: ﴿قَالَتِ زَجْرَتْ﴾ الزجر: الدفع عن الشيء بقوة أو صياح، والزجرة: الصيحة من قولك: زجر الراعي الغنم إذا صاح عليها فرجعت لصوته ﴿مَارِدٍ﴾ عاني متمرد ﴿ثَاقِبٌ﴾ محرق شديد النفاذ ﴿وَاصِبٌ﴾ دائم لا ينقطع ﴿لَا زَبٍ﴾ ملتزق بعضه ببعض ﴿مَعِينٍ﴾ شراب نابع من العيون ﴿غَوْلٌ﴾ الغول: كل ما يغتال العقل ويفسده قال أبو عبيدة: الغول ما يغتال العقل ويذهبه وأنشد قول ابن عباس:

وَمَا زَالَتِ الْحُمُرُ تَغْتَالِنَا وَتَذَهَبُ بِالْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ ^(١)
﴿يَكْأَسُ﴾ قال أهل اللغة: العرب تقول للإِناء إذا كان فيه خمر: كَأَس، فإذا لم يكن فيه خمر قالوا: إِنَاء وقدح قال الشاعر:
وَكَأَسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا ^(٢)
﴿يُنْزَفُونَ﴾ يسكرون يقال: نُزِفَ الرجل فهو نزيف ومنزوف إذا سكر قال الشاعر:
لَعَمْرِي لَئِنْ أَنْزَفْتُمْ أَوْ صَحَوْتُمْ لَبَسَ النَّدَامَى كُنْتُمْ آلَ أَبَجْرَا ^(٣)

(١) «البحر المحيط» ٧/ ٣٥٠.

(٢) «تفسير الفخر الرازي» ٢٦/ ١٣٧.

(٣) «البحر» ٧/ ٣٥٠. (ش): نديم: مُجَالِسٌ عَلَى الشَّرَابِ وَعَلَى الْمَائِدَةِ عَامَّةً. نديم: رفيق وصاحب. وأبجر هو أبجر بن جابر العجلي وكان نصرانيا.

التفسير: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ افتتح تعالى هذه السورة بالقسم ببعض مخلوقاته، إظهاراً لعظم شأنها، وكبر فوائدها، وتنبهًا للعباد على جلاله قدرها^(١).

والمعنى: أقسم بهذه الطوائف من الملائكة، الصافات قوائهما في الصلاة، أو أجنحتها في ارتقاب أمر الله قال ابن مسعود: هم الملائكة تصف في السماء في العبادة والذكر صفوفاً، وفي الحديث: «أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟» قلنا: وكيف يا رسول الله؟ قَالَ: «يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْمُقَدَّمَةَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ»^(٢). أقسم تعالى بالملائكة تنبيهاً على جلالة قدرهم، وكثرة عبادتهم، فهم مع عظيم خلقهم ورفعة شأنهم لا ينفكون عن عبادة الله، يصطفون للعبادة كاصطفاف المؤمنين في الصلاة، مع الخشوع والخضوع للعزیز الجبار، الذي دانت له الخلائق، وخضعت لجلال هيئته الرقاب، بما فيهم حملة العرش والملائكة الأطهار ﴿فَالزَّجَرَتِ زَجْرًا﴾ أي الملائكة التي تزجر السحاب، يسوقونه إلى حيث شاء الله، من الزجر بمعنى السوق والحث ﴿فَاللَّيْلِ ذِكْرًا﴾ وصف ثالث للملائكة الأبرار، إشادة بذكر محاسنهم ومناقبهم العلوية أي وأقسم بالملائكة التالين لآيات الله على أنبيائه وأوليائه، مع التسبيح والتحميد والتمجيد ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ هذا هو المُقسَم عليه، أي: إن إلهكم الذي تعبدونه أيها الناس إله واحد لا شريك له، قال مقاتل: إن الكفار بمكة قالوا: أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ وكيف يسع هذا الخلق إله فرد؟ فأقسم الله بهؤلاء تشریفاً^(٣)، ثم بين تعالى معنى وحدانيته وألوهيته فقال ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي هو تعالى خالق السموات والأرض وما لكهما وما بينهما من المخلوقات والموجودات، فإن وجودهما وانتظامهما على هذا النمط البديع، من أوضح الدلائل على وجود الله ووحدانيته ﴿وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ أي وهو رب مشارق الشمس ومغاربها في الشتاء والصيف قال الطبري: واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالة الكلام عليه^(٤) ثم أخبر عن قدرته بتزيين السماء بالكواكب، بعد أن أخبر عن وحدانيته فقال ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ أي زينا السماء القريبة منكم بالكواكب المنيرة المضيئة، التي تبدو وكأنها جواهر تتلألأ ﴿وَحَفَظَا

(١) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الخالق يقسم بما شاء من خلقه، وأن المخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق. قال **رحمته**: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». وفي رواية: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ» (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعن ابن عمر **رحمتهما** أنه أذرك عمر بن الخطاب في ركب وهو يحلف بأبيه، فناداهم رسول الله **رحمته**: «أَلَا، إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ» (رواه البخاري ومسلم).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه وانظر «مختصر ابن كثير» ١٧٤/٣. (ش): هذا لفظ أبي داود، أما لفظ مسلم فهو: «أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا». قلنا: يا رسول الله، وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُولَى وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ».

(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/٦٢.

(٤) «تفسير الطبري» ٢٣/٢٤.

مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿١﴾ أي وللحفظ من كل شيطان عاتٍ متمرد، خارج عن طاعة الله قال قتادة: خلقت النجوم ثلاث: رجوماً للشياطين، ونوراً يهتدى بها، وزينةً للسماء الدنيا^(١) وقال أبو حيان: خصَّ السماء الدنيا بالذكر لأنها هي التي تُشاهد بالأبصار، وفيها وحدها يكون الحفظ من الشياطين^(٢) ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلِ الْأَعْلَى﴾ أي لا يقدرون أن يستمعوا إلى الملائكة الذين هم في العالم العلوي، وقيل، المعنى: لثلاث يستمعوا إلى الملائكة الأعلى ﴿وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي ويُرجمون بالشهب من كل جهة يقصدون السماء منها ﴿دُحُورًا﴾ أي طرداً لهم عن السماع لأخبار السماء قال الطبري: أي مطرودين، من الدحر وهو الدفع والإبعاد^(٣) ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب موصول لا ينقطع ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ أي إلا من اختلس شيئاً مسارقة ﴿فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أي فلاحقه شهاب مضيء، نافذ بضوئه وشعاعه فأحرقه قال المفسرون: قد يخطف الشيطان المارد خطفة سريعة مما يدور في الملائكة الأعلى، فيتبعه شهابٌ يلاحقه في هبوطه فيصيبه ويحرقه حرقاً قال القرطبي: وليست الشهب التي يرمي بها الشياطين من الكواكب الثوابت، لأن الثابتة تجري ولا تُرى حركاتها، وهذه الشهب تُرى حركاتها^(٤) ﴿فَأَسْتَفْهِمُ﴾ أي فسّل يا محمد هؤلاء المنكرين للبعث ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنِ خَلَقْنَا﴾ أي أيهم أقوى بُنيةً وأشد خلقاً هل هم أم السموات والأرض وما بينهما من الملائكة والمخلوقات العظيمة العجيبة؟ ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ أي من طين رخو لا قوة فيه قال الطبري: وإنما وصفه باللزوب لأنه ترابٌ مخلوطٌ بماء، وكذلك خلق ابن آدم من ترابٍ وماء، ونار وهواء، والتراب إذا خلط بماء صار طيناً لازباً^(٥)، والغرض من الآية إقامة البرهان على إعادة الإنسان، فالذي خلقه من العدم وخلق هذه الخلائق، قادرٌ على إعادة الأجسام بعد الفناء ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ أي بل عجبت يا محمد من تكذيبهم للبعث مع رؤيتهم آثار قدرة الله الباهرة، وهم يسخرون منك ومما تقول لهم في ذلك قال أبو السعود: المعنى عجبت من قدرة الله تعالى على هذه الخلائق العظيمة وإنكارهم للبعث، وهم يسخرون من تعجبك وتقريرك للبعث^(٦) ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ أي وإذا وُعظُوا بالقرآن وخُوفوا به، لا يتعظون ولا يتدبرون ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً بَاهِرَةً﴾ أي وإذا رأوا آية باهرة، أو معجزة قاهرة تدل على صدقك كانشق القمر، وتكليم الشجر والحجر، يبالغون في السخرية أو يدعون غيرهم للسخرية والاستهزاء

(١) «تفسير القرطبي» ١٥ / ٦٤.

(٢) «البحر المحيط» ٧ / ٣٥٢.

(٣) «تفسير الطبري» ٢٣ / ٢٧.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٥ / ٦٨.

(٥) «تفسير الطبري» ٢٣ / ٢٨.

(٦) «تفسير أبي السعود» ٤ / ٢٦٦.

﴿وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما هذا الذي جئنا به يا محمد إلا سحر واضح بين قال في البحر: والإشارة بـ «هذا» إلى ما ظهر على يديه عليه السلام من الخارق المعجز^(١) ﴿أَوَإِذَا مَنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والاستهزاء أي أئذا أصبحت أجسادنا بالية، وتفتت أجزاؤها إلى تراب وعظام سوف نبعث؟ ﴿أَوَإِذَا بَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ أي أو آبائنا الأولون كذلك سيُبعثون؟ قال الزمخشري: أي أيبعث أيضًا آبائنا؟ وهذا زيادة في استبعاد الأمر، يعنون أنهم أقدم، فبعثهم أبعث وأبطل^(٢) ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَخِرُونَ﴾ أي قل لهم: نعم تُبعثون وأنتم صاغرون ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي وما هي إلا صيحة واحدة ينفخ فيها إسرافيل في الصور للقيام من القبور ﴿فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أي فإذا هم قيام في أرض المحشر ينظر بعضهم إلى بعض قال القرطبي: الزجرة: الصيحة وهي النفخة الثانية، وسميت زجرة لأن مقصودها الزجر، كزجر الإبل، والخيال عند السوق^(٣).

ثم أخبر تعالى عن حسرتهم وندامتهم عند معاينتهم أهوال القيامة فقال ﴿وَقَالُوا يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ أي يا هلاكنا وخسارتنا هذا يوم الجزاء والحساب! فتقول لهم الملائكة على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي هذا يوم الفصل بين الخلائق الذي كنتم تنكرونه وتكذبون به قال البيضاوي: الفصل: القضاء والتقريع بين المحسن والمسيء^(٤) ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْجَاهُمْ﴾ أي اجمعوا الظالمين وأشباههم من العصاة والمجرمين، كل إنسان مع نظرائه قال القرطبي: الزاني مع الزاني، وشارب الخمر مع شارب الخمر، والسارق مع السارق^(٥) وقال ابن عباس: اجمعوا الظالمين ونساءهم الكافرات، وعنه: المراد به أشباههم من العصاة^(٦) ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ من دُونِ اللَّهِ أي وما كانوا يعبدون من الأوثان والأصنام، وذلك زيادة في تحسيرهم وتخجيلهم ﴿فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أي فعرفوهم طريق الجحيم ووجهوهم إليها، وفي لفظ ﴿فَأَهْدُوهُمْ﴾ تهكم وسخرية، فإذا لم يهتدوا في الدنيا إلى الصراط المستقيم، فليهتدوا اليوم إلى صراط الجحيم ﴿وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ أي احبسوهم عند الصراط لأنهم سيُسألون عن جميع أقوالهم وأفعالهم، ثم يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ أي ما لكم لا ينصر بعضكم بعضًا وأنتم هنا جميعًا؟ وكلكم في حاجة إلى الناصر والمعين؟ قال المفسرون: هذا إشارة إلى قول أبي جهل يوم

(١) «تفسير البحر المحيط» ٣٥٥ / ٧.

(٢) «تفسير الكشاف» ٣٠ / ٤.

(٣) «تفسير القرطبي» ٧٢ / ١٥.

(٤) تفسير البيضاوي ١٣٨ / ٢.

(٥) «تفسير القرطبي» ٧٣ / ١٥، وعزاه إلي عمر بن الخطاب

(٦) نقلهما عنه صاحب «البحر المحيط» ٣٥٦ / ٧.

بدر «نحن جميعٌ منتصر»^(١) وأصل ﴿نَنَاصِرُونَ﴾ تتناصرون حذف إحدى التاءين تخفيفاً، قال تعالى ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ أي بل هم اليوم أذلاء مُنقادون، عاجزون عن الانتصار، سواء منهم العابدون والمعبدون ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي أقبل الرؤساء والأتباع يتلاومون ويتخاصمون قال أبو السعود: وسؤالهم إنما هو سؤال توبيخ بطريق الخصومة والجدال^(٢) ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ أي قال الأتباع منهم للمتبعين: إنكم كنتم تأتوننا من قبل الحق، وتزينون لنا الباطل، وتصدوننا عن اتباع طريق الهدى^(٣) قال الطبري: أي كنتم تأتوننا من قبل الدين والحق، فتخدعوننا بأقوى الوجوه، قال: واليمين في كلام العرب: القوه والقدرة كقول الشاعر:

إِذَا مَا رَأَيْتُ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عُرَابُهُ بِالْيَمِينِ^(٤)

وقيل: المراد تأتوننا بطريق الوسوسة عن يميننا كما هو المعتاد في حالة الوسوسة بالإسرار غالباً ﴿قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي يقول لهم الرؤساء: لم نحملكم نحن على الضلال ولم نمنعكم من الإيمان، بل كفرتم ولم تؤمنوا باختياركم قال ابن كثير: أي ليس الأمر كما تزعمون، بل كانت قلوبكم منكراً للإيمان، قابلة للكفر والعصيان^(٥) ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي ما كان لنا عليكم من قوة وقدرة نقهركم بها عن متابعتنا ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ أي بل كان فيكم فجور وطغيان واستعداد للعصيان، فلذلك استجبتم لنا واتبعتمونا ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا﴾ أي فوجب علينا جميعاً وعيد الله لنا بالعذاب ﴿إِنَّا لَذَٰبِقُونَ﴾ أي فإننا لذائقو هذا العذاب لا محالة ﴿فَأَعْوَبْتُمْكُمْ إِنَّا كُنَّا غَالُونَ﴾ أي فزينا لكم الباطل، ودعوناكم إلى الغي لأننا كنا على غي وضلال، قال تعالى مخبراً عن حالهم ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي فإنهم يوم القيامة مشتركون في العذاب، كما كانوا مشتركين في الغواية، ولكن كما قال تعالى ﴿وَلَكِن يَفْعَلُكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُمُ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩] ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أي مثل هذا الفعل بهؤلاء نفعل بالأشقياء المجرمين، ثم بين تعالى السبب فقال ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي إذا قيل لهم قولوا ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ يتكبرون ويتعظمون ﴿وَيَقُولُونَ آيُنَا لَنَارِكُوا إِلَهَ هَٰؤُلَاءِ شَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾؟ أي ويقولون عندما يدعون إلى التوحيد: أنترك عبادة الأوثان لقول شاعر مجنون؟ يعنون بذلك رسول الله ﷺ قال تعالى ردّاً عليهم: ﴿بَلْ جَاءَ

(١) «تفسير القرطبي» ١٥ / ٧٤

(٢) تفسير أبو سعود ٤ / ٢٦٨

(٣) هذا قول حكاه ابن كثير عن السدي وهو لا الأظهر.

(٤) تفسير الطبري ٢٣ / ٣٢ (ش): البيت للشماخ، يمدح عُرَابَةَ الْأَوْسِيِّ. وقيل:

رَأَيْتُ عُرَابَةَ الْأَوْسِيِّ يَسْمُو إِلَى الْحَبِيرَاتِ مُنْقَطِعِ الْقَرِينِ

(٥) «مختصر ابن كثير» ٣ / ١٧٧

بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١﴾ أي ليس الأمر كما يفترون بل جاءهم محمد بالتوحيد والإسلام الذي هو الحقُّ الأبلج^(١)، وجاء بمثل ما جاء به الرسل قبله قال أبو حيان: جمع المشركون بين إنكار الوجدانية، وإنكار الرسالة، ثم خلطوا في كلامهم بقولهم: «شاعر مجنون» فإن الشاعر عنده من الفهم والحدق ما ينظم به المعاني الغريبة، ويصوغها في قالب الألفاظ البديعة، ومن كان مجنوناً لا يصل إلى شيء من ذلك، فكلامهم تخطيط وهذيان^(٢) ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ أي إنكم أيها المجرمون لمُعَذَّبُونَ أشد العذاب ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي لا تعاقبون إلا جزاء مثل عملكم قال الصاوي: لأن الشر يكون جزاؤه بقدره، بخلاف الخير فجزاؤه بأضعاف مضاعفة^(٣).. ولما ذكر شيئاً من أحوال الكفار وعذابهم، ذكر شيئاً من أحوال المؤمنين ونعيمهم، على طريقة القرآن في الموازنة بين الفريقين ترغيباً وترهيباً فقال ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ الاستثناء منقطع أي لكن عباد الله المخلصين الموحدين، فإنهم لا يذوقون العذاب، ولا يناقشون الحساب^(٤)، بل يتجاوز الله عن سيئاتهم، يُجْزَوْنَ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف.

ثم أخبر عن جزائهم فقال ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ أي أولئك الأخيار الأبرار لهم رزقهم في الجنة صباحاً ومساءً كما قال تعالى ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] وقال أبو السعود: معلوم الخصائص من حسن المنظر، ولذة الطعم، وطيب الرائحة^(٥)، ثم فسر الرزق بقوله: ﴿فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ أي فواكه متنوعة من جميع ما يشتهون، وهم في الجنة معززون مكرمون، وخصَّ الفواكه بالذكر لأن كل ما يؤكل في الجنة إنما هو على سبيل التفكه والتلذذ ﴿فِي جَنَّاتٍ أَلْوَعٍ﴾ أي في رياض وبساتين يتنعمون فيها ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ أي على أسرة مكللة بالدر والياقوت، تدور بهم كيف شاءوا قال مجاهد: ﴿مُقَابِلِينَ﴾ أي لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض تواصلًا وتحابيًا^(٦) ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ﴾ لما ذكر الطعام أعقبه بذكر الشراب، أي: يطوف عليهم خدم الجنة بكأس من الخمر من نهر جارٍ خارج من عيون الجنة قال الصاوي: وصف به خمر الجنة لأنه يجري كالماء النابع^(٧) وقال ابن عباس: كل كأس في القرآن فهي الخمر،

(١) (ش): بلج الحق: وضح وظهر.

(٢) «البحر المحيط» ٣٥٧/٧

(٣) «حاشية الصاوي» علي الجلالين ٣/ ٣٣٧

(٤) (ش): قال ﷺ: «مَنْ تَوَقَّشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَّبَ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وَالْمُرَادُ بِالْمُنَاقَشَةِ الْإِسْتِفْصَاءُ فِي الْمَحَاسِبَةِ وَالْمُطَالَبَةُ بِالْجَلِيلِ وَالْحَقِيرِ وَتَرْكُ الْمُسَامَحَةِ. (عَذَّبَ): أَي فِي النَّارِ جَزَاءً عَلَى السَّيِّئَاتِ الَّتِي أَظْهَرَهَا حِسَابُهُ.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٢٦٨

(٦) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٧٧

(٧) «حاشية الصاوي» ٣/ ٣٣٧

والمعين هي الجارية^(١) ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ أي هذه الخمر بيضاء ذات لذة للشاربين، يلتذ بها من شربها قال الحسن: خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ أي ليس فيها ما يغتال عقولهم فيفسدها، ولا هم يسكرون بشربها كما تفعل خمر الدنيا قال ابن كثير: نزه الله سبحانه خمر الجنة عن الآفات التي هي في خمر الدنيا، من صداع الرأس، ووجع البطن، وذهاب العقل، فخمر الجنة طعمها طيب كلونها، والمراد بالغول هنا صداع الرأس قاله ابن عباس، وقال قتادة: هو صداع الرأس ووجع البطن^(٢) وتلك أجمل أوصاف الشراب، التي تحقق لذة الشراب، وتنفي أكراره وأضراره، فلا خمار يصدر الرءوس، ولا سكر ولا عردة يُذهب لذة الاستمتاع كما هي الحال في خمرة الدنيا ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطَّرْفِ﴾ أي وعندهم الحور العين، العفيفات اللواتي قصرن أعينهن على النظر إلى أزواجهن، فلا ينظرن إلى غيرهم حياة وعفة، قال ابن عباس: ﴿قَصِيرَاتُ الْطَّرْفِ﴾ أي عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن^(٣) ﴿عَيْنٌ﴾ أي وهن مع العفة واسعات جميلات العيون قال الطبري: أي تُجَلُّ العيون^(٤) جمع عينا وهي المرأة الواسعة العين مع الحسن والجمال، وهي أحسن ما تكون من العيون^(٥) ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ أي كأنهن اللؤلؤ المكنون في أصدافه قاله ابن عباس واستشهد بقوله تعالى ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾^(٦) ﴿كَأَمْثَلُ اللَّوْلُوءِ الْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٢-٢٣] وقال الحسن: ﴿الْمَكْنُونُ﴾ المصون الذي لم تمسه الأيدي.. والغرض أنهن مع هذا الجمال الباهر، مصنونات كالدر في أصدافه، مع رقة لطف ونعومة ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ لا تبتذله الأيدي ولا العيون، والعرب تشبه المرأة بالبيضة لصفائها وبياضها قال أبو حيان: ذكر تعالى في هذه الآيات أولاً الرزق وهو ما تتلذذ به الأجسام، وثانياً الإكرام وهو ما تتلذذ به النفوس، ثم ذكر المحل وهو جنات النعيم، ثم لذة التأنس والاجتماع ﴿عَلَى سُرُرٍ مُنْقَلَبِينَ﴾ وهو أتم للسُرور وأنس، ثم ذكر المشروب وهو الخمر التي تدار عليهم بالكئوس ولا يتناولونها بأنفسهم، ثم ختم باللذة الجسدية أبلغ الملاذ وهي التأنس بالنساء^(٧) ثم أخبر تعالى عما يتحدث به أهل الجنة للأنس والسُرور، وهم على موائد الشراب يتلذذون بكل ممتع، وينعمون بتجاذب أطراف الحديث فقال ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي جلسوا يتحدثون عما جرى لهم في الدنيا، يتذكرون نعيمهم وحال

(١) «تفسير الطبري» ٢٣ / ٣٤

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣ / ١٧٩

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣ / ١٩٧

(٤) (ش): نَجَلَّتِ الْعَيْنُ: اتَّسَعَتْ، وَحَسُنَتْ. نَجَلَاءُ: وَاسِعَةُ الْعَيْنَيْنِ.

(٥) تفسير الطبري ٢٣ / ٣٦

(٦) «تفسير الطبري» ١٥ / ٨١

(٧) «تفسير البحر المحيط» ٧ / ٣٥٩

الدنيا وثمره الإيمان ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ أي قال قائل من أهل الجنة: إني كان لي في الدنيا صديق وجليس ينكر البعث ﴿يَقُولُ أَهْلَكَ لَمَنِ الْمَصْدَقِينَ﴾ أي يقول لي: أتصدق بالبعث والجزاء؟ ﴿إِذْ دَا مَنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذْ نَأْتِيَنَّهُمُ بَشِيرًا وَّنَذِيرًا﴾ أي هل إذا متنا وأصبحنا ذرات من التراب وعظاماً نخرة^(١)، أننا لمحاسبون ومجزئون بأعمالنا؟ يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد ﴿قَالَ هَلْ أُنتُمْ مُّطَّلِعُونَ﴾ أي قال ذلك المؤمن من لإخوانه في الجنة: هل أنتم مطلعون إلى النار لننظر كيف حال ذلك القرين؟ قال تعالى ﴿فَاطْلَعُوا فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أي فنظر فأبصر صاحبه الكافر في وسط الجحيم يتلظى سعيها ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرْدِينَ﴾ أي فخطبه المؤمن شامتاً وقال له: والله لقد قاربت أن تهلكني بأغوائك ﴿وَلَوْ لَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ أي ولولا فضل الله عليّ بشيئتي على الإيمان، لكنت معك في النار محضراً ومعدباً في الجحيم، ثم يخاطبه مستهزئاً ساخرًا كما كان ذلك الكافر يستهزئ به في الدنيا ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ﴾ ٥٨ ﴿إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي هل لا تزال على اعتقادك أننا لن نموت إلا موتة واحدة، وأنه لا بعث ولا جزاء ولا حساب ولا عذاب؟ وهو أسلوب ساخر لا ذع يظهر فيه التشفي من ذلك القرين الكافر، والتحدث بنعمة الله عليه قال تعالى ﴿إِنَّ هَذَا لَهُ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي إن هذا النعيم الذي ناله أهل الجنة لهو الفوز العظيم ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ أي لمثل هذا الجزاء الكريم يجب أن يعمل العاملون ويجتهد المجتهدون.

قال المفسرون: أشارت الآيات الكريمة إلى قصة شريكين كان لهما ثمانية آلاف درهم، فكان أحدهما يعبد الله ويقصر في التجارة والنظر إلى أمور الدنيا، وكان الآخر مقبلاً على تكثير ماله، فانفصل من شريكه لتقصيره، وكان كلما اشترى داراً أو جارية أو بستاناً أو نحو ذلك عرضه على المؤمن وفخر عليه بكثرة ماله، وكان المؤمن إذا سمع ذلك يتصدق بنحو من ذلك ليشتري له به قصراً في الجنة، فإذا لقيه صديقه قال ما صنعت بمالك؟ قال: تصدقت به لله! فكان يسخر منه ويقول: أئتتك لمن المصدقين؟ فكان أمرهما ما قص الله علينا في كتابه العزيز^(٢).

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الطباق ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ لأن السخرية في مقابلة التعجب.
- ٢ - التأكيد بـ «السلام» ﴿إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ ومقتضى الكلام يقتضيه لإنكار المخاطبين للوحداية.

٣ - الأسلوب التهكمي ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ وردت الهداية بطريق التهكم، لأن الهداية تكون إلى طريق النعيم لا الجحيم.

(١) (ش): أي عظاماً بالية.

(٢) أنظر «الطبري» ٣٨/٢٣، و«مختصر ابن كثير» ٣/١٨١ ففيهما تفصيل للقصة.

٤ - الإيجاز بالحذف ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي قولوا: لا إله إلا الله، وحذف لدلالة السياق عليه.

٥ - الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ والأصل: إنهم لذائقو وإنما التفت لزيادة التوبيخ والتشنيع عليهم.

٦ - الكناية ﴿فَصَرَّتْ لَهُمُ الْطَّرْفُ﴾ كنى بذلك عن الحور العين؛ لأنهن عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن.

٧ - التشبيه المرسل والمجمل ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ حذف منه وجه الشبه فأصبح مجملاً.

٨ - مراعاة الفواصل وهو المحسنات البديعية مثل ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ ١٠ ﴿فَاسْتَفْنِهِمْ أَهْمٌ أَشَدُّ خَلْقًا مِّنْ خَلْقِنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن طِينٍ لَّا زَبٍ﴾ إلى آخره.

قال الله تعالى:

أَذْلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿١٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿١٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿١٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُ مِنْهَا قَمَاتُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ أَقْوَاءُ آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿١٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّنْذِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٢٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٢٥﴾ وَنَحْنُ نَعْتَنِّهَ وَأَهْلَهُ مِن مِّك الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٢٨﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٠﴾ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴿وَإِن مِّن شَيْعَةٍ إِلَّا زَهِيمٌ﴾ ﴿٣٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَيُّهَا وَقَوْمُهُ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٣٥﴾ أَفَبِكُلِّ عِلْقٍ عَلَيْهِ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ فَظَنَرْنَاهُ فِي النَّجْمِ ﴿٣٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٣٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٤٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ إِلَهِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٤١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٤٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٤٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُوقُونَ ﴿٤٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٤٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْفَوْهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ فَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿٤٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿٥١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُ فَأَنْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴿٥٢﴾ قَالَ يَتَأْتِيَ أَفْعَلٌ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥٣﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿٥٤﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنِ يَتَّيِّبْ بِهِمُ ﴿٥٥﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُعِينُ ﴿٥٧﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٥٩﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٠﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّن الصَّالِحِينَ ﴿٦٣﴾ وَبَرَكَاتٍ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ

المناسبة: لما ذكر تعالى ما أعدّه للأبرار في دار النعيم، ذكر ما أعدّه للأشرار في دار الجحيم،

ليظهر التمييز بين الفريقين، ثم ذكر قصة «نوح» وقصة «إبراهيم» وما فيهما من العظات والعبر للمعتبرين.

اللغة: ﴿نَزَّلًا﴾ النزل: الضيافة والتكرمة، وأصله ما يُعد للأضياف من الطعام والشراب وغيرهما ﴿طَلَعَهَا﴾ ثمرها، سُمي طلعا لطلوعه ﴿لَشَوْبًا﴾ خلطًا ومزاجًا من شاب الطعام يشوبه إذا خلطه بشيء آخر ﴿يُسْرِعُونَ﴾ قال الفراء: الإهرع: الإسراع مع رعدة^(١)، وقال المبرد: المهرع: المستحث يقال: جاء فلان يهرع إلى النار، إذا استحثه البرد إليها^(٢) ﴿شَيْعِنَهُ﴾ شيعه الرجل أعوانه وأنصاره، ومن سار على طريقته ومنهاجه ﴿أَبْفَكًا﴾ كذبًا وباطلاً ﴿سَقِيمٌ﴾ مريض وعليل ﴿فَرَاغٌ﴾ راغ إليه: أقبل عليه ومال نحوه خفيةً وأصله من الميل قال الشاعر:

وَيُرِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةً وَيُرْوِغُ مِنْكَ كَمَا يُرْوِغُ الثَّلَعْلَبُ^(٣)

﴿يُرْفُونَ﴾ يسرعون في مشيهم ﴿وَتَلَّهُ﴾ صرعه وكبه على وجهه.

التفسير: ﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ﴾ أي أنعيم الجنة خير ضيافة وعطاء أم شجرة الزقوم التي في جهنم؟ أيهما خير وأفضل؟ فالفواكه والثمار طعام أهل الجنة، وشجرة الزقوم طعام أهل النار، والغرض منه توبيخ الكفار ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ أي إنا جعلنا شجرة الزقوم فتنةً وابتلاءً لأهل الضلالة قال المفسرون: لما سمع الكفار ذكر شجرة الزقوم قالوا: كيف يكون في النار شجرة، والنار تُحرق الشجر؟ وكان أبو جهل يقول لأصحابه: أتدرون ما الزقوم؟ إنه الزبد والتمر، ثم يأتيهم به ويقول: ترقموا، هذا الذي يخوفنا به محمد^(٤) ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ أي تنبت في قعر جهنم ثم هي متفرعة فيها ﴿طَلَعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ أي ثمرها وحملها كأنه رؤوس الشياطين في تناهي القبح والبشاعة قال ابن كثير: وإنما شبهها برؤوس الشياطين، وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين، لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر^(٥) ﴿فَاتَّهَمُوا لَوْلَا كُنْ مِنْهَا فَمَا لَوْنٌ مِنْهَا الْبُطُونِ﴾ أي فإن هؤلاء الكفار لشدة جوعهم مضطرون إلى الأكل منها حتى تمتلئ منها بطونهم، فهي طعامهم وفاكهتهم بدل رزق أهل الجنة، وفي الحديث «لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُومِ قُطِرَتْ فِي بَحَارِ الدُّنْيَا لَأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ مَعَاشَهُمْ فَكَيْفَ بِمَنْ تَكُونُ طَعَامَهُ؟»^(٦) ﴿إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حِمِيمٍ﴾ أي ثم إن لهم

(١) (ش): رعدة: هيئة الجسم إذا أصابه فزع أو خوف أو حمى أو غيرها.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥ / ٨٨. (ش): استحثه البرد إليها: أي جعله يسرع إليها.

(٣) نفس المرجع السابق ١٥ / ٩٤.

(٤) أنظر «تفسير الطبري» ٢٣ / ٤١. (ش): ضعيف جدًا، أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره».

(٥) «مختصر ابن كثير» ٣ / ١٨٢.

(٦) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح. (ش): «لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُومِ قُطِرَتْ فِي دَارِ الدُّنْيَا لَأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَاشَهُمْ فَكَيْفَ بِمَنْ يَكُونُ طَعَامَهُ» (رواه الترمذي، وصححه، ورواه أحمد وأحمد شاكر والأرنؤوط).

بعدما شبعوا منها وغلبهم العطش لمزاجاً من ماء حار قد انتهت حرارته يشاب به الطعام أي يخلط ليجمع لهم بين مرارة الزقوم، وحرارة الحميم، تغليظاً لعذابهم ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ أي ثم مصيرهم ومرجعهم إلى دركات الجحيم قال مقاتل: الحميم خارج الجحيم، فهم يُورَدُونَ الحميم لشربه^(١) ثم يُرَدُّونَ إلى الجحيم وقال أبو السعود: الزقوم والحميم نُزِّلُ يُقَدَّمُ إليهم قبل دخولها^(٢) ﴿إِنَّهُمْ أَلفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ أي وجدوهم على الضلالة فافتدوا بهم ﴿فَهُمْ عَلَىٰ أَثَرِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي فهم يُسْرِعُونَ في اتباع خطاهم من غير دليل ولا برهان قال مجاهد: شبهه بالهرولة كمن يُسْرِعُ إسراعاً نحو الشيء ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي ضلَّ قبل قومك أكثر الأمم الماضية ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ أي أرسلنا فيهم رسلاً كثيرين يُخَوِّفُونَهُمْ من عذاب الله ولكنهم تَمَادَوْا في الغي والضلال ﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ﴾ أي فانظر يا محمد كيف كان مصير أمر هؤلاء المكذبين؟ ألم نهلكهم فنصيرهم عبرة للعباد؟ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي لكن عباد الله المؤمنين الذين أخلصهم تعالى لطاعته فإنهم نجوا من العذاب.

ثم شرع في بيان قصة نوح فقال ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ اللام مُوطَّئَةٌ لِلْقَسَمِ^(٣) أي: وبالله لقد استغاث بنا نوح لما كذبه قومه فلنعم المجيبون نحن له، وصيغة الجمع ﴿الْمُجِيبُونَ﴾ للعظمة والكبرياء قال الصاوي: ذكر تعالى في هذه السورة سبع قصص: قصة نوح، وقصة إبراهيم، وقصة الذبيح إسماعيل، وقصة موسى وهارون، وقصة إلياس، وقصة لوط، وقصة يونس، وكل ذلك تسليية له ﷺ وتحذيراً لمن كفر من أمته^(٤) ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أي ونجيناه ومن آمن معه من أهله وأتباعه من الغرق قال المفسرون: وكانوا ثمانين ما بين رجل وامرأة ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ أي وجعلنا ذرية نوح هم الذين بقوا في الأرض بعد هلاك قومه قال ابن عباس: أهل الأرض كلهم من ذرية نوح^(٥) قال في التسهيل: وذلك لأنه لما غرق الناس في الطوفان، ونجا نوح ومن كان معه في السفينة، تناسل الناس من أولاده الثلاثة

= «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنْ الزَّقُّومِ قَطَرَتْ فِي بَحَارِ الْأَرْضِ لَفَسَدَتْ» وفي رواية: «لَأَمَرْتُ عَلَىٰ أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَايِشَهُمْ فَكَيْفَ بِمَنْ تَكُونُ طَعَامُهُ؟» (رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي). «لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنْ الزَّقُّومِ قَطَرَتْ فِي الْأَرْضِ لَأَفْسَدَتْ عَلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ مَعِيشَتَهُمْ» رواه ابن حبان. والحديث صححه الألباني، ثم تراجع وضعفه لأنه تبين له أن فيه عنعنات الأعمش وأن بينه وبين مجاهد أبا يحيى القتات وهو ضعيف.

(١) (ش): «أورد الفرس الماء: جعله يَرِدُهُ، أي يذهب إليه ليشرب».

(٢) «تفسير أبي السعود» ٢٧١ / ٤

(٣) (ش): «مُوطَّئَةٌ لِلْقَسَمِ: أي مُمَهَّدَةٌ له؛ لأنها التي تُهَيِّئُ الدهن لمعرفته».

(٤) «حاشية الصاوي علي الجلالين» ٢٤٠ / ٣

(٥) «تفسير البحر المحيط» ٣٦٤ / ٧

«سام، وحام، ويافت»^(١) ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي تركنا عليه ثناءً حسناً في كل أمة إلى يوم القيامة ﴿سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ أي سلام عاطر من الله تعالى والخلائق على نوح باقٍ على الدوام بدون انقطاع ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي هكذا نجزي من أحسن من العباد، نبقي له الذكر الجميل إلى آخر الدهر ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي كان مخلصاً في العبودية لله، كامل الإيمان واليقين قال في حاشية البيضاوي: علل هذه التكرمة السنية بكونه من أولي الإحسان، ثم علل كونه محسناً بأنه كان عبداً مؤمناً، إظهاراً لجلالة قدر الإيمان وأصاله أمره، وجعل الدنيا مملوءة من ذريته بتبقية لذكره الجميل في السنة العالمين^(٢) ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ أي أغرقنا الكافرين الذين لم يؤمنوا بنوح عن آخرهم، فلم تبق منهم عين تطرف^(٣) ولا ذكر ولا أثر.. ثم شرع تعالى في بيان قصة إبراهيم فقال ﴿وَإِنِّ مِنْ شَيْعِنِهِ لِإِبْرَاهِيمَ﴾ أي وإن من من أنصار نوح واعوانه وممن كان على مناجاهه وسنته إبراهيم الخليل، قال البيضاوي: وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة، وكان بينهما نبيان هما «هود» و«صالح» صلوات الله عليهم أجمعين^(٤) ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي حين جاء ربه بقلب نقي طاهر، مُخلص من الشك والشرك ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ أي حين قال لأبيه آزر وقومه موبخاً لهم: ما الذي تعبدونه من الأوثان والأصنام؟ وهو إنكار لهم وتوبيخ ﴿أَيْفَكَاءَ آلِهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾؟ أي أتعبدون آلهة من دون الله من أجل الإفك والكذب والزور؟ وإنما قدّم المفعول لأجله ﴿أَيْفَكَاءَ﴾ على المفعول به لأجل التقييد عليهم بأنهم على إفك وباطل في شركهم والأصل: أتريدون آلهة من دون الله إفكاً؟ قال القرطبي: والإفك أسوأ الكذب وهو الذي لا يثبت ويضطرب^(٥) ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ استفهام توبيخ وتحذير، أي: أي شيء تظنون برّب العالمين؟ هل تظنون أنه يترككم بلا عقاب وقد عبدتم غيره؟ قال الطبري: المعنى أي شيء تظنون أيها القوم أنه يصنع بكم إن لقيتموه وقد عبدتم غيره^(٦) ﴿فَنَظَرْنَا إِلَى النُّجُومِ﴾^(٧) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿لما وبّخهم على عبادة غير الله أراد أن يُريهم أن أصنامهم لا تضر ولا تنفع، وأراد أن يخلو بها حتى يكسرها، فاحتال للبقاء وعدم الخروج معهم إلى العيد، فنظر في السماء على عادتهم حيث كانوا نجّامين وأوهمهم أن النجوم تدل على أنه سيسقم غداً^(٧) فقال: إني

(١) «التسهيل في علوم التنزيل» ١٥٧/٣

(٢) حاشية الشيخ زاده علي البيضاوي ١٥٧/٣

(٣) (ش): طرّف العين: تحرّك جفناها.

(٤) تفسير البيضاوي ١٥٧/٣

(٥) «تفسير القرطبي» ٩٢/١٥

(٦) «تفسير الطبري» ٤٥/٢٣

(٧) (ش): الصواب أن يقال إنه عليه السلام، نظر إلى النجوم، وأطال الفكر فيما يعتذر به عن الخروج مع قومه عبدة =

سقيم: أي سأمَرَضَ إن خرجتُ معكم^(١)، وهذا ليس بكذب وإنما هو من المعاريض الجائزة لمقصد شرعي كما ورد «إِنَّ فِي الْمَعَارِضِ لَمَنْدُوحَةً عَنِ الْكَذِبِ»^(٢) أو أراد أنه سقيم القلب من عبادتهم للأوثان^(٣) ﴿فَنَوَلُّوْا عَنْهُ مُدْرِجِينَ﴾ أي فتركوه إعراضاً عنه وخرجوا إلى عيدهم ﴿فَرَاغَ إِلَآءَ الْهَنِيمِ﴾ أي فلما ذهبوا وتركوه توجه إلى الأصنام ومال إليها في خفية قال ابن كثير: أي ذهب إليها بعد ما خرجوا في سرعة واختفاء^(٤) ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾؟ أي ألا تأكلون من هذا الطعام؟ قال ابن كثير: وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديهما طعاماً قرباناً لتبارك لهم فيه^(٥) ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾؟ أي ما لكم لا تجيبوني على سؤالي قال أبو حيان: وعرض الأكل عليها واستفهامها عن النطق إنما هو على سبيل الهزاء، لأنها منحطة عن رتبة عابديها إذ هم يأكلون وينطقون بخلافها^(٦) ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ أي فأقبل على الأصنام مستخفياً يحطمها يمينه بفأس كان معه قال البيضاوي: وتقييده باليمين للدلالة على قوته وقوة الآلة تستدعي قوة الفعل^(٧) وقال القرطبي: خصَّ الضرب باليمين لأنها أقوى والضرب بها أشد^(٨) ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُوقُونَ﴾ أي أقبلوا نحوه مسرعين كأن بعضهم يدفع بعضاً، فلما أدر كوه قالوا: ويحك نحن نعبدها وأنت تكسرها؟ فأجابهم موبخاً ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾؟ أي أتعبدون أصناماً نحتموها بأيديكم، وصنعتموها بأنفسكم؟ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي والله جل وعلا خلقكم وخلق عملكم، وكل الأشياء مخلوقة له، فكيف تعبدون المخلوق وتتركون الخالق، أليس لكم عقل أيها الناس؟ قال ابن جزى: ذهب بعض المفسرين إلى أن ﴿مَا﴾ مصدرية والمعنى:

= الأصنام إلى أعيادهم، فقال لهم: إني مريض. وهذا تعريض منه. فتركوه وراء ظهورهم. قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٢٤): «قَالَ قَتَادَةُ: وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِمَنْ تَفَكَّرَ: نَظَرَ فِي النُّجُومِ، يَعْنِي قَتَادَةُ: أَنَّهُ نَظَرَ فِي السَّمَاءِ مُتَفَكِّراً فِيمَا يُلْهِيهِمْ بِهِ، فَقَالَ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾».

(١) (ش): وَقِيلَ: فَقَالَ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا يُسْتَقْبَلُ، يَعْنِي: مَرَضَ الْمَوْتِ. وَقِيلَ: أَرَادَ ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أَي: مَرِيضُ الْقَلْبِ مِنْ عِبَادَتِكُمُ الْأَوْثَانَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

(٢) (ش): رواه البيهقي وغيره مرفوعاً (أي منسوباً إلى النبي ﷺ)، وضعفه الألباني. ورواه البخاري في «الأدب المفرد» من كلام عمران بن حصين رضي الله عنه قال: «إِنَّ فِي الْمَعَارِضِ لَمَنْدُوحَةً عَنِ الْكَذِبِ»، وصححه الألباني. (المعاريض) جمع المعارض، وهو التورية: أن يكون للفظ معنيان، أحدهما قريب، ظاهر الكلام يدل عليه، والآخر بعيد، وهو الذي يقصده القائل. (مندوحة عن الكذب): أي سعة وفُسحة عن الكذب، يُقال: أَرْضْ مندوحة واسعة بعيدة. ويقال: لَكَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ مَدْنُوحَةٌ: أي سعة وفُسحة.

(٣) انظر أقوال المفسرين في القرطبي ٩٣/ ١٥

(٤) «مختصر ابن كثير» ١٨٥/ ٣

(٥) «مختصر ابن كثير» ١٨٥/ ٣

(٦) «البحر المحيط» ٣٦٦/ ٧

(٧) «البيضاوي» ١٤٢/ ٢

(٨) «القرطبي» ٩٤/ ١٥

الله خلقكم وأعمالكم، وهذه الآية عندهم قاعدة في خلق أفعال العباد، وذهب بعضهم إلى أن ﴿مَا﴾ موصولة بمعنى الذي والمعنى: خلقكم وخلق أصنامكم التي تعملونها، وهذا أليق بسياق الكلام، وأقوى في قصد الاحتجاج على الذين عبدوا الأصنام^(١). ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ أي ابنوا له مكاناً وأضرموه ناراً ثم ألقوه في تلك النار المتأججة المستعرة قال المفسرون: لما غلبهم إبراهيم عليه السلام في الحجة، مالوا إلى الغلبة بقوة البطش والشدة، وتشاوروا فيما بينهم ثم قرروا أن يطرحوه في النار انتصاراً لأصنامهم وآلهتهم ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ أي أرادوا المكر بإبراهيم واحتالوا لإهلاكه، فنجيناه من النار وجعلناها برداً وسلاماً عليه، وجعلناهم الأذلين المقهورين لأنه لم ينفذ فيه مكرهم، ولا كيدهم ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَّهَدِينَ﴾ لما نجاه الله من النار، وخلّصه من كيد الفجار، هجر قومه واعتزلهم. والمعنى: إني مهاجر من بلد قومي إلى حيث أمرني ربي قال مقاتل: هو أول من هاجر من الخلق مع سارة إلى أرض الشام^(٢) ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي ارزقني ولداً من الصالحين يؤنسني في غربتي قال ابن كثير: يريد أولاداً مطيعين يكونون عوضاً عن قومه وعشيرته الذين فارقهم^(٣) ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِعِلْمٍ حَلِيمٍ﴾ أي فاستجبنا دعاءه وبشرناه بغلام يكون حليماً في كبره قال أبو السعود: جمع الله له فيه بشارات ثلاث: بشارة أنه غلام، وأنه يبلغ أوان الحلم، وأنه يكون حليماً، لأن الصغير لا يوصف بذلك، وأيّ حلم يعادل حلمه عليه السلام حين عرض عليه أبوه الذبح فقال ﴿يَتَأْتِيَ أَعْمَلٌ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٤) ! وجمهور المفسرين على أن هذا الغلام المبشر به هو «اسماعيل» لأن الله تعالى قال بعد تمام قصة الذبيح

(١) «التسهيل في علوم التنزيل» ١٧٣/٣ (ش): الإيمان بالقدر يقوم على أربع مراتب، من أقرّ بها جميعاً فإن إيمانه بالقدر يكون مكتملاً، ومن انتقص واحدة منها أو أكثر فقد اختل إيمانه بالقدر، وهذه المراتب هي: الأول: الإيمان بعلم الله الشامل المحيط. فعلم الله محيط بكل شيء، يعلم ما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، ويعلم الموجود والمعدوم، والممكن والمستحيل. وهو عالم بالعباد وآجالهم وأرزاقهم وأحوالهم وحركاتهم وسكناتهم وشقاوتهم وسعادتهم، ومن منهم من أهل الجنة، ومن منهم من أهل النار من قبل أن يخلقهم، ويخلق السماوات والأرض. الثاني: الإيمان بكتابة الله في اللوح المحفوظ لكل ما هو كائن إلى يوم القيامة. الثالث: الإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته التامة، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. الرابع: خلقه تبارك وتعالى لكل موجود، لا شريك له في خلقه. فالله تعالى خالق كل شيء، ومن ذلك أفعال العباد، فلا يقع في هذا الكون شيء إلا وهو خالقه. روى البخاري في «خلق أفعال العباد» بإسناد صحيح عن حذيفة رضي الله عنه، قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَصْنَعُ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنَعَتَهُ» وَتَلَا بَعْضُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]. قال البخاري: «فَأَخْبَرَ أَنَّ الصَّنَاعَاتِ وَأَهْلَهَا مَخْلُوقَةٌ».

(٢) «تفسير القرطبي» ٩٧/١٥.

(٣) «مختصر ابن كثير» ١٨٦/٣.

(٤) «تفسير أبي السعود» ٨٧٣/٤.

﴿وَبَشِّرْهُ بِسَحَقٍ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ فدل ذلك على أن الذبيح هو إسماعيل ^(١) ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى﴾ أي فلما ترعرع وشبَّ وبلغ السن الذي يمكنه أن يسعى مع أبيه في أشغاله وحواله قال المفسرون: وهو سن الثالثة عشرة ﴿فَكَالَ يُبْنَىٰ إِيَّيَّيَّ أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ أي إني أمرت في المنام أن أذبحك، قال ابن عباس: رؤيا الأنبياء وحيي وتلا الآية ^(٢) وقال محمد بن كعب: كانت الرسل يأتيهم الوحي من الله تعالى أيقاظًا ورقودًا، لأن الأنبياء تنام عيونهم ولا تنام قلوبهم ^(٣) ﴿فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ أي فانظر في الأمر، ما رأيك فيه؟ قال ابن كثير: وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه على طاعة الله وطاعة أبيه ^(٤). فإن قيل: لم يشاورة في أمر هو حتم من الله؟ فالجواب: أنه لم يشاورة ليرجع إلى رأي، ولكن ليعلم ما عنده فيثبت قلبه ويوطن نفسه على الصبر، فأجابه بأحسن جواب ﴿قَالَ يَتَابَتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي امض لما أمرك الله به من ذبحي، فستجدني صابرًا إن شاء الله، وهو جواب من أوتي الحلم والصبر وامثال الأمر، والرضا بقضاء الله ﴿فَلَمَّا أَتَمَّكَ وَلَكَّ، لِلْجَبِينِ﴾ أي فلما استسلما الأب والابن لأمر الله، وصرعه على وجهه ليذبحه قال ابن عباس: ﴿وَلَكَّ، لِلْجَبِينِ﴾ أكبَّه على وجهه ^(٥) ﴿وَنَدَيْتُهُ أَنْ يَتَابِرْهُمُ﴾ ^(٦) قَدْ صَدَقَتِ الرَّيَّاءُ هذه جواب «لَمَّا» والواو مُقَحَّمة، أي: ناديناه يا إبراهيم قد نفذت ما أمرت به، وحصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح ^(٧)، روي أنه أمر السكين بقوته على حلقه مرارًا فلم يقطع قال الصاوي: والحكمة في هذه القصة أن إبراهيم اتخذه الله تعالى خليلاً، فلما سأل ربه الولد ووهبه له تعلق شعبة من قلبه بمحبة ولده، فأمر بذبح المحبوب ليظهر صفاء الخلَّة، فامتثل أمر ربه وقدم محبته على محبة ولده، قال ابن عباس: فلما عزم على ذبح ولده ورماه على شقه قال الابن: يا أبت اشدُّ رباطي حتى لا أضطرب، واكفف ثيابك لئلا ينتضح عليها شيء من دمي فتراه أمني فتحزن، وأجد شفرتك وأسرع بها على حلقي ليكون الموت أهون علي، وإذا أتيت أمني فأقرئها مني السلام، وإن رأيت أن ترد قميصي عليها فافعل فإنه عسى أن يكون أسلى

(١) انظر تفصيل الموضوع في كتابنا «النبوه والأنبياء» والأدلة على ذلك ص ١٧٣، وانظر «ابن كثير» ١٨٦/٣ فيه بحث لطيف ونفيس.

(٢) (ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ» (رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي). وروى البخاري عن عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ قَالَ: «رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/١٠٢.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/١٨٦.

(٥) (ش): ﴿وَلَكَّ، لِلْجَبِينِ﴾ أي وضع إبراهيم عليه السلام ابنه على جبينه على الأرض؛ ليذبحه. والجبين جانب الجبهة، ولكل إنسان جبينان أيمن وأيسر والجبهة بينهما.

(٦) (ش): لَفْظَةُ مُقَحَّمة أي زائدة. وَقِيلَ: جَوَابُ «لَمَّا» مَحْذُوفٌ، وَتَقْدِيرُهُ: ظَهَرَ صَبْرُهُمَا، أَوْ أَجْرَلْنَا لَهُمَا أَجْرَهُمَا، أَوْ فَدَيْنَاهُ بِكَبْشٍ. [«فتح القدير» للشوكاني (٤/٤٦٤)].

لها عني، فقال له إبراهيم: نعم العون أنت يا بُنَيَّ على أمر الله ^(١) ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾
 تعليلٌ لتفريج الكربة، أي: كما فرجنا شدتك كذلك نجازي المحسنين بتفريج الشدة عنهم
 ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً ﴿إِن كَذَلِكَ هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ أي إن هذا لهو الابتلاء
 والامتحان الشاق الواضح، الذي يتميز فيه المخلص من المنافق ﴿وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾
 أي وفديناه بكبش عظيم من الجنة فداءً عنه قال ابن عباس: كبش عظيم قد رعى في الجنة
 أربعين خريفاً ^(٢) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي وأبقينا عليه ثناءً حسناً إلى يوم الدين ﴿سَلِّمْ
 عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي سلام منا على إبراهيم عاطر كريم ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ^(٣) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿كَرَّرَ ذِكْرَ الْجَزَاءِ مَبَالِغَةً فِي الثَّنَاءِ ثُمَّ عَلَّلَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَ مِنَ الرَّاغِبِينَ فِي الْإِيمَانِ
 مَعَ الْإِيقَانِ وَالْاطْمِئْنَانِ﴾ ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وبشرناه بغلام آخر بعد تلك الحادثة
 هو إسحاق الذي سيكون نبياً قال ابن عباس: بَشَّرَ بنوته حين وُلِدَ، وَحِينَ نَبِيٌّ ^(٤)، وتكاد تكون
 الآية صريحةً في أن الذبيح هو «إسماعيل» لا «إسحاق» ^(٥) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ أي أَفْضَلَنَا
 على إبراهيم وإسحاق بركات الدنيا والدين ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ أي
 ومن ذريتهما محسنٌ ومسيءٌ قال الطبري: المحسن هو المؤمن، والظالم لنفسه هو الكافر ^(٦)
 وقال أبو حيان: وفي الآية وعيدٌ لليهود ومن كان من ذريتهما ممن لم يؤمن بمحمد ﷺ وفيها
 دليل على أن البر قد يلد الفاجر ولا يلحقه من ذلك عيب ولا منقصة ^(٧).

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الأسلوب التهكمي ﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾؟ التعبير بـ «خير» تهكم بهم.
- ٢ - الجناس الناقص ﴿الْمُنْذِرِينَ.. الْمُنْذِرِينَ﴾ لأن المراد بالأول الرسل، وبالثاني الأمم.
- ٣ - التشبيه ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ أي في الهول والشناعة ويسمى تشبيهاً مرسلًا مجملًا.
- ٤ - الاستعارة التبعية ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ شبه إقباله على ربه مخلصاً بقلبه بمن قدم
 على الملك بتحفة ثمينة جميلة ففاز بالرضى والقبول ففيه استعارة تبعية.

(١) «حاشية الصاوي» علي الجلالين ٣/ ٣٤٣.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٨٧.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٨٧.

(٤) (ش): وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ حِينَ فَرَعَ مِنْ قِصَّةِ الْمَذْبُوحِ مِنْ ابْنَيْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾
 ومن الأدلة على أن الذبيح هو «إسماعيل» لا «إسحاق» أيضاً قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ
 يَعْقُوبَ﴾، فبشرها الله بابنٍ وابنِ ابنٍ، فَلَمْ يَكُنْ لِأُمِّهِ بِذَبْحٍ إِسْحَاقَ وَقَدْ وَعَدَهُ بِأَن زَوْجَتَهُ سَتَلِدُ مِنْهُ وَلَدًا يَسْمَى
 إِسْحَاقَ، وسيعيش ولدهما، وسيكون لهما بعد إسحاق حفيد منه، وهو يعقوب.

(٥) «تفسير الطبري» ٢٣/ ٥٧.

(٦) «البحر المحيط» ٧/ ٣٧٢.

- ٥ - الطباق بين ﴿مُحْسِنٌ.. وَظَالِمٌ﴾ .
 ٦ - جناس الاشتقاق بين ﴿ابْنُوا... بُيُنَا﴾ .
 ٧ - الكناية اللطيفة ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ كنى به عن الثناء الحسن الجميل .
 ٨ - مراعاة الفواصل مثل ﴿وَإِنَّكَ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ﴾ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿الخ وهو من المحسنات البديعية، وهو من خصائص القرآن وفيه من الروعة والجمال، وحسن الوقع على السمع ما يزيده روعةً وجمالاً.

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَايَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَّمْ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَأَلْتَفَقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَّمْ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّا لَنُورُونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَيَالَيْلُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفَالَكِ الْمَشْهُورِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَبَدَّلْنَاهُ بِالْعُرَىٰ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَبَلَّيْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَاسْتَفْتِهِمُ الرِّبَا أَلْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُتُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَلَدًا وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأَتُوا بِكُنُوزِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاعِلِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَن هُوَ صَالٍ الْحَنِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٦﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٧﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٨﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَيْفَ لَعْنَةُ الْإِبْرَاهِيمَ ﴿١٧٠﴾ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُتَّصِرُونَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُتَّصِرُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِن جُنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَقَوْلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَعِدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِبِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

المناسبة: لما ذكر قصة الخليل إبراهيم، وقصة الذبيح والفداء، أعقبها بذكر قصص بعض الأنبياء، كموسى وهارون، ويونس ولوط، وما في هذه القصص من العظات والعبر، وختم السورة الكريمة ببيان أن النصر والغلبة للرسول وأتباعهم المؤمنين.

اللغة: ﴿أَبَقَ﴾ هرب ﴿الْمَشْحُونُ﴾ المملوء ﴿فَسَاهَمَ﴾ قَارَعَ، أي: ضرب القرعة، قَالَ الْمُبَرَّدُ: وَأَصْلُهُ مِنَ السَّهَامِ الَّتِي تُجَالُ^(١).

﴿الْمُدْحَضِينَ﴾ المغلوبين، وأصله من الزلق، يُقَالُ: دَحَضْتُ حِجَّتَهُ وَأَدْحَضْتُهَا اللَّهُ، أي: غَلَبَ وَهَزَمَ قال الشاعر:

فَقَدْ قَرَّتْ بِقَتْلِهِمُ الْعُيُونُ^(٢) قَتَلْنَا الْمُدْحَضِينَ بِكُلِّ فَجٍّ
﴿مُلِيمٌ﴾ آتٍ بِمَا يُلَامُ عَلَيْهِ ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ الأرض الفيحاء لا شجر فيها، ولا معلّم، قال الفراء، العراء المكان الخالي ﴿يَقْطِينُ﴾ القرع المعروف والمسمى بالدُّبَاءِ، قال الجوهري: اليقطين ما لا ساق له كشجر القرع ونحوه^(٣) ﴿سَاحِيزٌ﴾ الساحة: الفناء.

التفسير: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ اللام مُوطَّئَةٌ لِلْقَسَمِ^(٤) أي وعزتنا وجلالنا لقد أنعمنا على موسى وهارون بأنواع النعم والمنافع الدينية والدنيوية، ومنها نعمة النبوة والرسالة ﴿وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أي ونجينا ههما وقومهما بني إسرائيل من الغم والمكروه العظيم، وهو استعباد فرعون إياهم مع التعذيب بقتل الأبناء، واستحياء النساء ﴿وَضَرَبْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ الضمير يعود على موسى وهارون وبني إسرائيل، أي: ونصرناهم على أعدائهم الأقباط فكانوا الغالبين عليهم بعد أن كانوا تحت أيديهم مقهورين ﴿وَأَيَّنَّاهُمَا الْكِتَابَ الْأُسْتَيْنِ﴾ أي أعطينا ههما الكتاب البليغ في بيانه، الكامل في حدوده وأحكامه، وهو التوراة ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي وهدينا ههما الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه قال الطبري: وهو الإسلام دين الله الذي ابتعث به أنبياءه^(٥) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرَبِ﴾ أي تركنا عليهما الثناء الجميل، والذكر الحسن ﴿سَلَّمْنَا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ أي سلام منا على موسى وهارون ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي كذلك نفعل بمن أحسن وأخلص العبودية لله ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي وإنَّ إيلياس - أحد أنبياء بني إسرائيل - لمن الرسل الكرام الذين أرسلتهم لهداية الخلق قال أبو السعود: هو إيلياس بن ياسين من سبط هارون أخي موسى^(٦) ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ أي حين قال لقومه من بني إسرائيل ألا

(١) (ش): أَجَالَ السَّهَامَ بَيْنَ الْقَوْمِ: حَرَكَهَا وَأَفْضَىٰ بِهَا فِي الْقِسْمَةِ.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥/١٢٣.

(٣) انظر «الصحاح» للجوهري و«القاموس المحيط».

(٤) (ش): مُوطَّئَةٌ لِلْقَسَمِ: أي مُمَهَّدَةٌ لَهُ؛ لأنها التي تُهَيَّئُ الذِّهْنَ لِمَعْرِفَتِهِ.

(٥) «تفسير الطبري» ٢٣/٨٥.

(٦) «تفسير أبي السعود» ٤/٣٤٦.

تخافون الله في عبادتكم غيره؟ ﴿أَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ ﴿تَعْبُدُونَ هَذَا الصَّنَمَ الْمُسَمَّى بَعْلًا وَتَتْرَكُونَ عِبَادَةَ رَبِّكُمْ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ؟﴾ ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي تتركون عبادة أحسن الخالقين، الذي هو ربكم ورب آبائكم السابقين قال القرطبي: و «بعل» اسم صنم لهم كانوا يعبدونه وبذلك سميت مدينتهم بعلبك، والمعنى: أدعون ربًّا اختلقتموه وهو هذا الصنم، وتتركون أحسن من يقال له خالق وهو «الله» ربكم ورب آبائكم الأولين^(١)؟ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي فكذبوا نبيهم فإنهم لمحضرون في العذاب ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي لكن عباد الله المؤمنين فإنهم نجوا من العذاب ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي تركنا على إيلياس الشئ الحسن الجميل إلى يوم الدين ﴿سَلِّمْ عَلَىٰ إِيَّاسِينَ﴾ أي سلام منا عليه وعلى آل ياسين قال المفسرون: المراد بـ ﴿إِلَّيَّاسِينَ﴾ هو إيلياس ومن آمن معه جمعوا معه تغليبا كما قالوا للمهلب وقومه المهلبون^(٢)، واختار الطبري أنه اسم لإيلياس فيقال: إيلياس، وإل ياسين مثل ميكال وميكائيل، وأن له اسمين فيسمى «إيلياس» و ﴿إِلَّيَّاسِينَ﴾^(٣) ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدم تفسيره، وإنما ختم الآيات بعد ذكر كل رسول بالسلام عليه، وبهاتين الآيتين الكريمتين لبيان فصل الإحسان والإيمان، وأن هؤلاء الرسل الكرام كانوا جميعا من المتصفين بهذه الصفات، فلذلك استحقوا التحية والسلام، والذكر الحسن بين الأنام، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ﴿وَإِنْ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي وإن لوطا لأحد رسلنا لهداية قومه ﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ أي: ذكر حين خلصناه من العذاب هو ومن آمن معه من أهله وأولاده ﴿إِلَّا نَجُوزًا فِي الْغَيْرِينَ﴾ أي إلا امرأته الكافرة فإنها لم تؤمن فكانت من الباقيين في العذاب ومن الهالكين ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ﴾ أي ثم أهلكنا المكذبين من قومه أشد إهلاك وأفظعه، وذلك بقلب قراهم حيث جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل، ولهذا عبر بـ ﴿دَمَرْنَا﴾ ﴿وَإِنَّا لَنُؤْمِنُ عَلَيْهِمْ مُّصْحِحِينَ﴾ أي وإنكم يا أهل مكة لتؤمنوا على منازلهم في أسفاركم وتشاهدون آثار هلاكهم صباحا ومساء، وليلا ونهارا ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أتشاهدون ذلك ثم لا تعتبرون؟ ألا تخافون أن يصيبكم مثل ما أصابهم؟ ﴿وَإِنَّ يُوشَعَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي وإن يونس لأحد رسلنا المرسلين لهداية قومه ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّ الْمَشْهُونِ﴾ أي اذكر حين هرب إلى السفينة المملوءة بالرجال ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أي فقارع أهل السفينة فكان من المغلوبين بالقرعة فألقوه في البحر قال المفسرون: إن يونس ضاق صدرا بتكذيب قومه، فأنذرهم بعذاب قريب، وغادرهم مغضبا

(١) «تفسير القرطبي» ١١٦/١٥.

(٢) انظر «تفسير الجلالين» ٣/٣٤٦.

(٣) «تفسير الطبري» ٦١/٢٣.

لأنهم كذبوه، فقادته الغضب إلى شاطئ البحر حيث ركب سفينة مشحونة، فناوأها الرياح والأمواج، فقال الملاحون: ههنا عبدٌ أبقي من سيده، ولا بدَّ لنجاة السفينة من إلقاءه في الماء لتنجو من الغرق، فاقترعوا فخرجت القرعة على يونس فألقوه في البحر ﴿فَالْقَمَّةُ الْخَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي فابتلعه الحوت وهو آتٍ بما يُلام عليه من تخليه عن المهمة التي أرسله الله بها، وترك قومه مغاضباً لهم، وخروجه بغير إذنٍ من ربه ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ أي لولا أنه كان من الذاكرين الله كثيراً في حياته ﴿لَلَيْثُ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي لبقى في بطن الحوت إلى يوم القيامة، وأصبح بطنه قبراً له فلم ينج أبداً، ولكنه سبح الله واستغفره وناداه في بطن الحوت بقوله ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فاستجاب الله تضرعه ونداءه ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي فألقيناه من بطن الحوت على الساحل، بالأرض الفضاء التي لا شجر فيها ولا ظل، وهو سقيم مريض مما ناله من الكرب قال عطاء: أوحى الله تعالى إلى الحوت إني قد جعلت بطنك له سجنًا، ولم أجعله لك طعاماً، فلذلك بقى سالمًا لم يتغير منه شيء^(١) ﴿وَأَبْتَنَّا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾ أي وأبتنا فوقه شجرة لتظله وتقيه حرَّ الشمس، وهي شجرة القرع ذات الأوراق العريضة قال ابن جزي: وإنما خصَّ القرع بالذكر لأنه يجمع كبر الورق، وبرد الظل، والذباب^(٢) لا يقربه، فإن لحم يونس لما خرج من البحر كان لا يحتمل الذباب، وكان هذا من تدبير الله ولطفه، فلما استكمل قوته وعافيته ردَّه الله إلى قومه ولهذا قال ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ أي وأرسلناه بعد ذلك إلى قومه الذين هرب منهم وهم مائة ألف بل يزيدون قال المفسرون: كانوا مائة وعشرين ألفاً وقيل: وسبعين ألفاً، وهم أهل نينوى بجهة الموصل، و «أو» بمعنى «بل» أي بل يزيدون ﴿فَأَمَّنُوا فَمَرَّعْتَهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ أي فأمَّنوا بعد أن شاهدوا أمارات العذاب الذي وعدوا به فأبقيناهم مُمرَّعين في الدنيا إلى حين انقضاء آجالهم قال في التسهيل: روي أنهم خرجوا بالأطفال وأولاد البهائم، وفرقوا بينهم وبين الأمهات، وناحوا وتضرعوا إلى الله، فرفع الله العذاب عنهم^(٣).. ولما انتهى من الحديث عن الرسل رجع إلى الحديث عن المكذبين من كفار مكة فقال ﴿فَأَسْتَفْتِهِمْ أَلِرَّبِّكَ أَبْنَاتٌ وَلَهُمْ بَنُونَ﴾؟ أي اسأل يا محمد واستخبر كفار مكة على سبيل التوبيخ والتفريع لهم كيف زعموا أن الملائكة بنات الله، فجعلوا لله الإناث ولأنفسهم الذكور؟ إنهم يكرهون البنات ولا يرضون نسبتهن لأنفسهم، فكيف يرضونها لله عزَّ وجلَّ ويختصون بالبنين؟ ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ توبيخ آخر على بهتانهم واستهزاء بهم وتجهيل أي بل أخلقنا الملائكة الأطهار حين خلقناهم، وجعلناهم إناثاً وهم شاهدون لذلك

(١) تفسير «أبو السعود» ٤ / ٢٧٧.

(٢) التسهيل في علوم التنزيل ٣ / ١٧٦.

(٣) تفسير «التسهيل في علوم التنزيل» ٣ / ١٧٦.

حتى يقولوا مثل هذا البهتان؟ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ﴾ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ ﴿أَيُّ آلَا فَاتْنَبُوهَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ كَذِبِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ يَنْسُبُونَ إِلَى اللَّهِ الذَّرِيَّةَ وَالْوَلَدَ﴾ (١٥٢) وَلَيَكْذِبُونَ ﴿أَيُّ وَهُمْ كَاذِبُونَ قَطْعًا﴾ (١) فِي قَوْلِهِمْ: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ قَالَ أَبُو السَّعُودِ: وَالْآيَةُ اسْتِنْفَافٌ مَسْوقٌ لِإِبْطَالِ أَصْلِ مَذْهَبِهِمُ الْفَاسِدِ، بَيَانٌ أَنَّ مِنبَاهَ لَيْسَ إِلَّا الْإِفْكُ الصَّرِيحُ، وَالْإِفْتِرَاءُ الْقَبِيحُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ دَلِيلٌ قَطْعًا ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتَ عَلَى الْبَنِينَ﴾؟ تَوْبِيخٌ وَتَقْرِيعٌ أَيُّ هَلْ اخْتَارَ جُلَّ وَعِلَا الْبَنَاتِ وَفَضَلَهُنَّ عَنِ الْبَنِينَ؟ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟ تَسْفِيَةٌ لَهُمْ وَتَجْهِيلٌ، أَيُّ: أَيُّ شَيْءٍ حَصَلَ لَكُمْ حَتَّى حَكَمْتُمْ بِهَذَا الْحُكْمِ الْجَائِرِ؟ كَيْفَ يَخْتَارُ لِنَفْسِهِ أَخْسَ الْجَنْسَيْنِ عَلَى زَعْمِكُمْ؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أَيُّ أَفَلَيْسَ لَكُمْ تَمْيِيزٌ وَإِدْرَاكٌ تَعْرِفُونَ بِهِ خَطَأَ هَذَا الْكَلَامِ؟ قَالَ أَبُو السَّعُودِ: أَيُّ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ بَطْلَانَ هَذَا بَبْدِيَّةِ الْعَقْلِ، فَإِنَّهُ مَرْكُوزٌ فِي عَقْلِ كُلِّ ذَكِي وَغَبِي (٢) ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ تَوْبِيخٌ آخَرُ أَيُّ أَمْ لَكُمْ بَرَهَانٌ بَيِّنٌ وَحُجَّةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ اتَّخَذَ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتٍ لَهُ؟ ﴿فَأَتُوا بِكِنْيَتِكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَيُّ فَاتُوا بِهَذَا الْكِتَابِ الَّذِي يَشْهَدُ بِصَحَّةِ دَعْوَاكُمْ فِيمَا تَزْعُمُونَ. وَالْغَرَضُ تَعْجِيزُهُمْ وَبَيَانُ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَتِدُونَ فِي أَقْوَالِهِمُ الْبَاطِلَةَ عَلَى دَلِيلٍ شَرْعِيٍّ، وَلَا مَنْطِقٍ عَقْلِيٍّ.. وَيَنْتَقِلُ إِلَى أُسْطُورَةٍ أُخْرَى لَفَقَّهَا الْمُشْرِكُونَ، حَيْثُ زَعَمُوا أَنَّ هُنَاكَ صِلَةَ بَيْنِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَبَيْنَ الْجَنِّ، وَأَنَّهُ مِنَ التَّزَاجُجِ بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى وَالْجَنَّةِ وَوُلِدَتِ الْمَلَائِكَةُ فَيَقُولُ: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا﴾ أَيُّ جَعَلَ الْمُشْرِكُونَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ الْجَنِّ قَرَابَةً وَنِسْبًا، حَيْثُ قَالُوا: إِنَّهُ نَكَحَ مِنَ الْجَنِّ فَوُلِدَتْ لَهُ الْمَلَائِكَةُ ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُفُكُّونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣] ثُمَّ زَعَمُوا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ إِنَاثٌ، وَأَنَّهُنَّ بَنَاتُ اللَّهِ ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجَنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أَيُّ لَقَدْ عَلِمَتْ الشَّيَاطِينُ أَنَّهُمْ مُحْضَرُونَ فِي الْعَذَابِ قَالَ الصَّاوِي: وَهَذَا زِيَادَةٌ فِي تَبْكِيَّتِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ كَأَنَّهُ قِيلَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ عَظَّمْتُمُوهُمْ وَجَعَلْتُمُوهُمْ بَنَاتِ اللَّهِ، أَعْلَمُ بِحَالِكُمْ وَمَا يَثُولُ إِلَيْهِ أَمْرُكُمْ (٣) ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أَيُّ تَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ اللَّهُ عَمَّا يَصِفُهُ بِهِ هَؤُلَاءِ الظَّالِمُونَ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مَنْقُطِعٌ، أَيُّ: لَكِنْ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ فَإِنَّهُمْ يُنَزَّهُونَ اللَّهُ تَعَالَى عَمَّا يَصِفُهُ بِهِ هَؤُلَاءِ ﴿فَاتَّكُمُ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ (١٦١) مَا أَتَتْهُ عَلَيْهِ يَفْتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿أَيُّ فَإِنَّكُمْ أَيُّهَا الْكَافِرُ وَكُلُّ مَا تَعْبُدُونَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالشَّيَاطِينِ لَسْتُمْ بِقَادِرِينَ عَلَى أَنْ تُضَلُّوا أَحَدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، إِلَّا مِنْ قَضَى اللَّهِ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةَ، وَقَدَّرَ أَنَّهُ يَدْخُلُ النَّارَ وَيَصْلَاهَا، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى اعْتِرَافَ الْمَلَائِكَةِ بِالْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ فَقَالَ ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ أَيُّ وَمَا مِنَّا مَلِكٌ إِلَّا لَهُ مَرْتَبَةٌ وَمَنْزِلَةٌ وَوُضُفَةٌ لَا يَتَعَدَّاهَا، فَمِنَّا الْمَوْكَلُ بِالْأَرْزَاقِ، وَمِنَّا الْمَوْكَلُ بِالْأَجَالِ، وَمِنَّا مَنْ يَنْزِلُ بِالْوَحْيِ، وَلِكُلِّ مَنْزِلَتِهِ

(١) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٦٧٨.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٦٧٨.

(٣) «حاشية الصاوي» على الجلالين ٣/ ٣٤٨.

من العبادة، والتقريب، والتشريف ﴿وَأِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ أي الواقفون في العبادة صفوفًا ﴿وَأِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ أي المنزهون الله سبحانه عن كلا ما يليق بعظمته وكبريائه، نسبَّح الله في كل وقتٍ وحين قال في التسهيل: وفي هذا الكلام الذي قالته الملائكة ردُّ على من قال: إنهم بناتُ الله، وشركاء الله، لأنه اعترفوا على أنفسهم بالعبودية والطاعة لله، والتنزيه له جل وعلا ﴿وَإِنْ كَانُوا يَقُولُونَ ﴿١٧٧﴾ لَوَإِنَّ عِنْدَنَا لَذِكْرًا مِّنَ الْأُولِينَ ﴿١٧٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ الضمير لكفار قريش و﴿وَإِنْ﴾ هي المخففة من «إِنَّ» الثقيلة، أي: وإن كان الحال والشأن أن كفار مكة كانوا قبل أن ينزل عليهم القرآن يقولون لو نزل علينا كتاب من كتب الأولين كالتوراة والإنجيل لَكُنَّا أعظم إيمانًا منهم، وأكثر عبادةً وإخلاصًا لله منهم، فلما جاءهم القرآن كفروا به ولهذا قال ﴿فَكَفَرُوا بِهِ﴾ أي فكفروا وكذبوا بالقرآن أشرف الكتب السماوية ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي فسوف يرون عاقبة كفرهم بآيات الله، وهو وعيد وتهديد ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كُفْمُنَا لِإِِبَادِنَا الْمُؤْمِسِينَ﴾ أي سبق وعدنا وقضاؤنا للرسل الكرام ﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْمُتَنَصُّرُونَ﴾ أي إنهم هم المنصرون على أعدائهم، والإشارة إلى قوله تعالى ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَا غَلِبَ لَكَ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿وَإِنْ جُنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أي وإن جندنا المؤمنين لهم الغالبون في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالحجة والبرهان، وفي الآخرة بدخول الجنان قال المفسرون: نصر الله للمؤمنين محقق، ولا يقدر في ذلك انهزامهم في بعض المعارك، فإن القاعدة هي بالظفر والنصرة، وإنما يغلبون في بعض الأحيان بسبب تقصير منهم أو ابتلاءً ومحنة ﴿فَقَوْلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي أعرض عنه يا محمد إلى مدة يسيرة، إلى أن تؤمر بقتالهم ﴿وَأَبْصَرَهُمْ فَسَوْفَ يُبْصَرُونَ﴾ أي وأبصرهم حين ينزل بهم العذاب، فسوف يبصرون عاقبة كفرهم ﴿أَفَعِدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ استفهام إنكاري للتهديد أي أيستعجلون بعذاب الله؟ روي أنه لما نزل ﴿فَسَوْفَ يُبْصَرُونَ﴾ استهزءوا وقالوا: متى هذا يكون؟ فنزلت الآية^(١) ثم قال تعالى ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِطِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أي لا يستبعدوا ذلك فإن العذاب إذا نزل بفناء المكذبين فبئس هذا الصباح صباحهم، شبهه بجيش هجم عليهم وقت الصباح فقطع دابرهم ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصَرَ فَسَوْفَ يُبْصَرُونَ﴾ كرره تأكيداً للتهديد وتسليية للرسول ﷺ ﴿سَبَّحَنَ رَبِّكَ رَبَّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزهه وتقده ذو العزة والجبروت عما يصفه به المشركون ﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي وسلامٌ منا على الرسل الكرام، والحمد لله في البدء والختم لله ربُّ الخلائق أجمعين. نزه تعالى نفسه عما وصفه به الكفار مما لا يليق به سبحانه، فإنه حكى عنهم في هذه السورة أقوالاً كثيرة شنيعة، وختم بتعميم السلام على الرسل الكرام وبحمده سبحانه، وهو تعليم للعباد.

البلاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

(١) (ش): لم أجده إلا في «روح البيان» (٧/ ٤٩٨) بدون إسناد.

- ١ - الطباق ﴿تَدْعُونَ.. وَتَذَرُونَ﴾ وبين ﴿الْبَنَاتِ.. الْبَنِينَ﴾.
- ٢ - تتابع التوبيخ وتكراره مثل ﴿الرَّيَكِ الْبَنَاتُ﴾؟ ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا﴾؟ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَنٌ مُبِينٌ﴾؟ وكلها للتوبيخ والتبكيت.
- ٣ - التأكيد بعدة مؤكّدات لتحقيق المعنى وتقريره مثل ﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْمُتَصُورُونَ﴾ (١٧٢) ﴿وَلَا جُنْدًا لَهُمْ﴾ ﴿أَلْغَلِيُونَ﴾ فقد أكدت كل من الجملتين بأن واللام.
- ٤ - الاستعارة التصريحية ﴿إِذَا بَقِيَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونُ﴾ شبه خروجه بغير إذن ربه بإباق العبد من سيّده.
- ٥ - الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا﴾ الأصل وتجعلون، والالتفات للإشارة إلى أنهم ليسوا أهلاً للخطاب، وهم بعيدون من رحمة ربّ الأرباب.
- ٦ - الاستعارة التمثيلية ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِخِهِمْ﴾ مثل للعذاب النازل بهم بجيش هجم عليهم فأناخ بفنائهم بغة، ونصحهم بعض النصاح فلم يلتفتوا إلى إنذاره ولا أخذوا أهبتهم، حتى اجتاحتهم الجيوش. قال الزمخشري: وما فصحت هذه الجملة ولا كانت لها الروعة التي يروقك موردها إلا لمجيئها على طريقة التمثيل (١).
- فائدة: روى ابن أبي حاتم عن الشعبي قال قال: رسول الله ﷺ: «من سرّه أن يكتال بالمكيال الأوفى فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿وَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٨١)» (٢).

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الصافات»



(١) الكشف ٥٢ / ٤.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم مرسلا، وروي موقوفا عن علي رضي الله عنه (ش): ضعفه الألباني.



مكية وآياتها ثمان وثمانون

بين يدي السورة

* سورة ص مكية، وهدفها نفس هدف السور المكية، التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية. ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالقرآن المعجز المنزل على النبي الأمي، والمشمول على المواعظ البليغة والأخبار العجيبة - على أن القرآن حق وأن محمدًا نبي مرسل.

* ثم تحدثت عن الوحدانية وإنكار المشركين لها، ومبالغتهم في العجب من دعوة الرسول ﷺ لهم إلى توحيد الله ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

* وانتقلت السورة لتضرب الأمثال لكفار مكة بمن سبقهم من الطغاة المتجبرين، الذين أسرفوا بالكذب والضلال، وما حل بهم من العذاب والنكال، بسبب إفسادهم وإجرامهم.

* ثم تناولت قصص بعض الرسل الكرام، تسلياً للنبي عليه الصلاة والسلام، عما يلقيه من كفار مكة من الاستهزاء والتكذيب، وتخفيفاً لآلامه وأحزانه، فذكرت قصة نبي الله داود، وولده سليمان، الذي جمع الله له بين النبوة والملك، وما نال كلا منهما من الفتنة والابتلاء، ثم أعقبتها، بذكر فتنة أيوب وإسحاق ويعقوب، وإسماعيل وذو الكفل، هكذا في عرض سريع لبيان سنة الله في ابتلاء أنبيائه وأصفياه.

* وأشارت السورة الكريمة إلى دلائل القدرة والوحدانية، في هذا الكون المنظور وما فيه من بدائع الصنعة، للتنبيه على أن هذا الكون لم يخلق عبثاً، وأنه لا بد من دار ثانية يجازى فيها المحسن والمسيء.

* وختمت السورة الكريمة ببيان وظيفة الرسول ومهمته الأساسية التي هي مهمة جميع الرسل الكرام.

التسمية: تسمى السورة الكريمة «سورة ص» وهو حرف من حروف الهجاء للإشادة بالكتاب المعجز الذي تحدى الله به الأولين والآخرين، وهو المنظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ① بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ شِقَاقٍ ② كَرَاهَلِكُنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مَنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ③ وَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ④ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ⑤ وَأَنْطَلِقَ الْأُمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَأَصْبَرُوا عَلَىٰ آلِهَتِهِمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ⑥ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِثْلَةِ الْأُولَىٰ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقٌ ⑦ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدْفَعُوا

عَذَابٍ ۝ (٨) أَمْرٌ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ۝ (٩) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرَبُّوا فِي الْأَسْبَابِ ۝ (١٠) جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ۝ (١١) كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ ۝ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ۝ (١٣) إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابُ ۝ (١٤) وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهُمْ مِنْ فَوْاقِ ۝ (١٥) وَقَالُوا رَبَّنَا مَجِّلْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ۝ (١٦) أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝ (١٧) إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ۝ (١٨) وَالطَّيْرَ مُحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ۝ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ۝ (٢٠) وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سُورُوا مِنَ الْحَرَابِ ۝ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَحْفَظْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ۝ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْعَةً وَلِيَ نَجْعَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ۝ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِيكَ إِلَيَّ نَعِيجُهُ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۝ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ۝ (٢٥) يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ

اللغة: ﴿عَزَّ﴾ تكبر وامتناع عن قبول الحق، وأصلها الغلبة والقهرُ ومنه قولهم «من عَزَّ بَزَّ» يعني من غلب سلب ﴿وَشِقَاقٍ﴾ مخالفة ومباينة ﴿مَنَاصٍ﴾ المناص: الملجأ والغوث والخلاص ﴿عُجَابٌ﴾ بالغ الغاية في العجب قال الخليل: العجيب: العجب، والعُجَاب الذي قد تجاوز حدَّ العجب ^(١) ﴿اِخْتِلَاقٍ﴾ كذب وافتراء ﴿فَوَاقٍ﴾ الفَوَاق: الاستراحة، والإفاقة قال الجوهري: الفواق والفواق: ما بين الحلبتين من الوقت، لأنها تحلب ثم تترك ساعة يرضعها الفصيل لتدَّر ثم تحلب وقوله تعالى ﴿مَّا لَهُمْ مِنْ فَوْاقٍ﴾ أي ما لها من نظرة وراحة وإفاقة ^(٢) ﴿قَطْنَا﴾ القِطُّ: الحظُّ والنصيب ﴿الْأَيْدِ﴾ القوة في العبادة والطاعة ﴿سُورُوا﴾ تسور الحائط علاً أعلاه وتسلقه، والسور: الحائط ﴿شُطِطَ﴾ قال علماء اللغة: الشُّطط: مجاوزة الحد وتخطي الحق، يقال: شَطَّ في الحكم أي جار فيه ولم يعدل، والأصل فيه: البعد من شَطَّت الدار بمعنى بُعِدَتْ.

التفسير: ﴿ص﴾ تقدم الكلام على الحروف الهجائية، وبيننا أن فيها الإشارة إلى إعجاز القرآن ^(٣) ﴿وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ قسم أقسم به الباري جل وعلا أي والقرآن ذي الشرف الرفيع، وذي الشأن والمكانة، وجواب القسم محذوف تقديره إن هذا القرآن لمعجز وإن محمداً

(١) «تفسير القرطبي» ١٥ / ١٥٠.

(٢) انظر «الصحاح للجوهري».

(٣) انظر أول سورة البقرة من هذا التفسير.

لصادق قال ابن عباس: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ أي ذي الشرف^(١) ﴿بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ أي بل الكافرون في حمية وتكبر عن الإيمان، وفي خلاف وعداوة للرسول عليه السلام قال البيضاوي: أي ما كفر من كفر بالقرآن لخلل وجده فيه بل الذين كفروا به ﴿فِي عِزَّةٍ﴾ أي استكبار عن الحق ﴿وَشِقَاقٍ﴾ أي خلاف لله ولرسوله ولذلك كفروا به^(٢) ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي كم أهلكنا قبل أهل مكة من أمم كثيرة من القرون الخالية، لكبرهم عن الحق ومعاداتهم لرسولهم، قال أبو السعود: والآية وعيد لأهل مكة على كفرهم واستكبارهم ببيان ما أصاب مَنْ قَبْلَهُمْ من المستكبرين^(٣) ﴿فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي فاستغاثوا واستجاروا عند نزول العذاب طلباً للنجاة، وليس الحين حين فرارٍ ومهرب ونجاة قال ابن جزى: المعنى أن القرون الذين هلكوا دعوا واستغاثوا حين لم ينفعهم ذلك، إذ ليس الحين الذي دعوا فيه حين مناص، أي: مفر ونجاة من (ناص ينوص إذا فرَّ)، ولات بمعنى ليس - وأصلها لا النافية زيدت عليها علامة التأنيث^(٤) - ﴿وَيَحْجُوا أَنَّ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي وعجب المشركون من بعثة محمد ﷺ واستبعدوا أن يبعث الله رسولا من البشر ﴿وَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾ أي وقال كفار مكة: إن محمداً ساحرٌ فيما يأتي به من المعجزات ﴿كَذَّابٌ﴾ أي مبالغ في الكذب في دعوى أنه رسول الله، وإنما وضع الاسم الظاهر ﴿الْكَافِرُونَ﴾ مكان الضمير «وقالوا» غضباً عليهم، وذمّاً لهم وتسجيلاً لجريمة الكفر عليهم، فإن هذا الاتهام لا يقوله إلا المتوغلون في الكفر والفسوق ﴿أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾؟ أي أزعم أن الربَّ المعبود واحد لا إله إلا هو؟ ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ أي إن هذا الذي يقوله محمد: إن الإله واحد شيء بليغٌ في العجب قال ابن كثير: أنكر المشركون ذلك قَبَّحَهُمُ اللهُ وتعجبوا من ترك الشرك بالله، فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأُشْرِبَتْهُ قُلُوبُهُمْ، فلما دعاهم رسول الله ﷺ إلى خلع الأوثان وإفراد الإله بالوحداية، أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا: ﴿أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾^(٥) قال المفسرون: «إن قريشاً اجتمعوا وقالوا لأبي طالب: كُفَّ ابن أخيك عنا، فإنه يعيب ديننا، ويذم آلهتنا، ويسفّه أحلامنا، فدعاه أبو طالب وكلّمه في ذلك، فقال ﷺ: «يا عم: إنما أريد منهم كلمةً واحدة، يملكون بها العجم، وتدين لهم بها العرب»، فقال أبو جهل والمشركون: نعم نعطيكها وعشر كلماتٍ معها!! فقال قولوا: «لا إله إلا الله» فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم ويقولون ﴿أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا

(١) «مختصر ابن كثير» ١٩٦/٣.

(٢) «تفسير البيضاوي» ١٤٦/٢.

(٣) «أبو السعود» ٢٨١/٤.

(٤) «التسهيل في علوم التنزيل» ١٧٩/٣.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ١٩٧/٣.

وَجِدَا...؟» فنزلت الآيات ^(١) ﴿وَأَنْطَلِقْ أَلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى إِلِهَيْكُمْ﴾ أي وانطلق أشراف قريش ورؤساء الضلال فيهم، وخرجوا من عند الرسول ﷺ يقول بعضهم لبعض: امشوا واصبروا على عبادة آلهتكم، ولا تطيعوا محمداً فيما يدعوكم إليه من عبادة الله الواحد الأحد ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُّ﴾ أي هذا أمرٌ مدبرٌ، يريد من ورائه محمد أن يصرفكم عن دين آبائكم لتكون له العزة والسيادة عليكم، فاحذروا أن تطيعوه ^(٢) ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِ الْآخِرَةِ﴾ أي ما سمعنا بمثل هذا القول في ملة النصرانية التي هي آخر الملل، فإنهم يقولون بالتثليث لا بالتوحيد، فكيف يزعم محمد أن الله واحد؟ قال ابن عباس: يعنون بالملة الآخرة دين النصرانية. وقال مجاهد وقتادة: يعنون دين قريش أي ليس هذا في الدين الذي أدركنا عليه آبائنا ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا أَخْلَقُ﴾ أي ما هذا الذي يدعيه محمد إلا كذب وافتراء، ثم أنكروا اختصاصه عليه السلام بالوحي من بينهم فقالوا ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾؟ الاستفهام للإنكار، أي: هل تنزل القرآن على محمد دوننا، مع أن فينا من هو أكثر منه مالا، وأعلى رياسة؟ قال الزمخشري: أنكروا أن يختص ﷺ بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم، وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلي به صدورهم من الحسد على ما أوتي من شرف النبوة من بينهم ^(٣) ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ إضرابٌ عن مقدر تقديره: إنكارهم للذكر ليس عن علم بل هم في شك منه فلذلك كفروا ﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِي﴾ إضراب انتقالي وغرضه التهديد. والمعنى: سبب شكهم أنهم لم يذوقوا العذاب إلى الآن، ولو ذاقوه لأيقنوا بالقرآن وآمنوا به ﴿أَمْرٌ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾؟ هذا ردُّ على المشركين فيما أنكروا من اختصاص محمد ﷺ بالنبوة. والمعنى: هل عندهم خزائن رحمته تعالى حتى يعطوا النبوة من شاءوا، ويمنعوها من شاءوا؟ قال البيضاوي: يريد أن النبوة عطية من الله يتفضل بها على من يشاء من عباده، فإنه ﴿الْعَزِيزُ﴾ أي الغالب الذي لا يغلب ﴿الْوَهَّابُ﴾ أي الذي له أن يهب ما يشاء لمن يشاء ^(٤) ﴿أَمْلَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؟ أي هل لهم شيء من ملك السموات والأرض؟ وهو إنكار وتوبيخ ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ أي إن كان لهم شيء من ذلك فليصعدوا في المراقي التي توصلهم إلى السماء، وليدبروا شئون الكون؟ وهو تهكم بهم واستهزاء قال الزمخشري: تهكم بهم غاية التهكم فقال: إن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق، والتصرف في قسمة الرحمة، وكان عندهم من الحكمة ما يميزون بها بين من هو حقيق بالنبوة من غيره فليصعدوا في المعارج التي يتوصلون بها إلى العرش، حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم، وينزلوا الوحي على من يختارون، هو

(١) انظر «تفسير الطبري» ٧٩/٢٣، و«البحر المحيط» ٧/٣٨٢. (ش): رواه الترمذي وغيره، وضعفه الألباني.

(٢) هذا معنى ما قاله ابن جرير وهو الأظهر، وهناك أقوال أخرى انظر في «تفسير أبي السعود» ٤/٢٨٣.

(٣) «تفسير الكشاف» ٤/٥٦.

(٤) تفسير البيضاوي ٢/١٤٦.

غاية التهكم بهم ^(١) ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ التنكير للتقليل والتحقير، ﴿مَا﴾ لتأكيد القلة أي ما هم إلا جند من الكفار، المتحزبين على رسل الله، هم عما قليل يهزمون ويولون الأدبار، فلا بُدَّ بما يقولون، ولا تكثر بما يهدون ^(٢). ثم أخبر تعالى عما نال أسلافهم الكفار من العذاب والدمار فقال ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ أي كذب قبل كفار قريش أممٌ كثيرون منهم قوم نوح، وقوم هود وهم قبيلة «عاد» وفرعون الجبار ذو الملك الثابت بالأوتاد أو ذو الجموع الكثيرة، قال بعض المفسرين: سمي بذي الأوتاد، لأنه كان يوتد من يريد تعذيبه بأربعة أوتاد في يديه ورجليه ويتركه حتى يموت، وقيل: لأنه صاحب الأهرامات والمباني العظيمة الثابتة التي تقوم في الأرض كالأوتاد ^(٣) ﴿وَتَمُودٌ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ﴾ أي وكذبت تمود وهم قوم صالح وقوم لوط، وأصحاب الأيكة أي الشجر الملتف وهم قوم شعيب ﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ أي أولئك هم الكفار الذين تحزبوا على رسلهم فأهلكهم الله، فليحذر هؤلاء المكذبون لرسول الله أن يصيبهم ما أصاب أسلافهم ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلِ﴾ أي ما كل من هؤلاء الأحزاب والأمم إلا كذب رسوله الذي أرسل إليه ﴿فَحَقَّ عِقَابٌ﴾ أي فثبت ووجب عليهم عقابي، وحذفت الياء مراعاة لراء وس الآيات ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي وما ينتظر هؤلاء المشركون كفار مكة إلا نفخة واحدة ينفخ فيها إسرافيل في الصور فيصعقون ﴿مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ أي ليس لها من توقف ولا تكرار، قال ابن عباس: أي ما لها من رجوع ^(٤) قال المفسرون: أي إن هذه الصيحة إذا جاءت لا تستأخر ولو فترة قصيرة مقدار فواق ناقة وهي المسافة بين الحلبتين؛ لأنها تجيء في موعدها المحدد، الذي لا يتقدم ولا يتأخر قال الزمخشري: يريد أنها نفخة واحدة فحسب لا تُثنى ولا تُردَّد ^(٥) ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا مَجْلٌ لَّنَا فَمَنْ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي وقال كفار مكة على سبيل الاستهزاء والسخرية: عجل لنا يا ربنا نصيبنا من العذاب الذي وعدته لنا، قبل أن يجيء يوم القيامة إن كان الأمر كما يقول محمد قال المفسرون: وإنما قالوا هذا على سبيل الاستهزاء كقوله تعالى ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧] ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ أي اصبر يا محمد على تكذيبهم فإن الله ناصرك عليهم قال الصاوي: وفيه تسلية للرسول ﷺ وتهديد للكفار ^(٦) ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾ أي

(١) «تفسير الكشاف» ٥٧/٤.

(٢) (ش): بالي الأمر/ بالي بالأمر/ بالي للأمر: اُتْرَتْ له، واهتمَّ به، ويغلب استعماله في سياق النَّفْيِ «لا يُبَالِي كثير من النَّاسِ بقيمة الوقت - لا أبالي له». هَذَا الشَّخْصُ: تكلم بكلام غير معقول لمرض أو غيره.

(٣) نقل عن الضحاك أن المراد بالأوتاد المباني العظيمة الثابتة ورجحه ابن عطية، وقال الزمخشري: إن ذلك استعارة في ثبات الملك كقول الأسود: في ظل مُلْكٍ ثابت الأوتاد.

(٤) «تفسير الطبري» ٢٣/ ٨٤.

(٥) «الكشاف» ٥٩/٤.

(٦) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/ ٣٥٣.

وتذكّر عبدنا داود ذلك النبي الشاكر الصابر، ذا القوة في الدين، والقوة في البدن، فقد كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وكان يقوم نصف الليل ^(١) ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي كثير الرجوع والإنابة إلى الله، والأَوَّابُ: الرَّجَّاعُ إلى الله قال أبو حيان: لما كانت مقالة المشركين تقتضي الاستخفاف بالدين، أمر تعالى نبيه بالصبر على أذاهم، وذكر قصصًا للأنبياء «داود، وسليمان، وأيوب» وغيرهم، وما عرض لهم فصبروا حتى فرج الله عنهم، وصارت عاقبتهم أحسن عاقبة، فكذلك أنت تصبر ويثول أمرك إلى أحسن مآل ^(٢) ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ أي سخرنا الجبال لداود تسبح معه في المساء والصباح، وتسبيح الجبال حقيقة وكان معجزة لداود عليه السلام كما قال تعالى ﴿يَنْجِبَالُ أَوْيِ مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ [سبأ: ١٠] ﴿وَالطَّيْرُ مُحْشُورَةٌ كُلُّ لَهٍ أَوَّابٌ﴾ أي وسخرنا له الطير مجموعة إليه تسبح بتسبيحه وترجع بترجيعه، إذا مرَّ به الطير وهو سابح في الهواء فسمعه يترنم بقراءة الزبور يقف في الهواء ويسبح معه، وكذلك الجبال الشامخات كانت ترجع معه وتسبح تبعًا له، قال قتادة: ﴿أَوَّابٌ﴾ أي مطيع ^(٣) ﴿وَسَدَدْنَا مَلَكُوهُ﴾ أي قوينا ملكه وثبتناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود ﴿وَعَآيِنُهُ الْحِكْمَةُ﴾ أي أعطيناه النبوة والفهم والإصابة في الأمور ﴿وَفَصَّلَ الْخُطَابِ﴾ أي الكلام البين الذي يفهمه من يُخاطَب به ^(٤) قال مجاهد: يعني إصابة القضاء وفهمه وقال القرطبي: البيان الفاصل بين الحق والباطل ^(٥) قال المفسرون: كان مُلْكُ داود قويًّا عزيزًا، وكان يسوسه بالحكمة والحزم معًا، ويقطع ويجزم برأي لا تردد فيه مع الحكمة والقوة، وذلك غاية الكمال في الحكم والسلطان ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبُؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ هذا الاستفهام للتعجب وتشويق السامع إلى ما يلقي إليه كما تقول لجلسك: هل تعلم ما وقع اليوم؟ تريد تشويقه لسماع كلامك. والمعنى: هل أتاك يا محمد خبر الجماعة المتنازعين الذين تسوّروا على داود مسجده في وقت اشتغاله بالعبادة والطاعة؟ ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ أي حين دخلوا عليه من أعلى السور فخاف وارتعد منهم قال المفسرون: وإنما فرغ داود منهم لأنهم دخلوا عليه بغير إذن، ودخلوا من غير الباب، في وقت كان قد خصصه للعبادة ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا﴾ أي لاتخف منا فنحن فوجان مختصمان تعدى بعضنا على بعض ﴿فَلَحَكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا نُشِطُ﴾ أي فاحكم بيننا بالعدل،

(١) (ش): الصواب أن داود عليه السلام كان يقوم ثلث الليل، قال عليه السلام: «أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ، وَكَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(٢) «البحر المحيط» ٣٩٠/٧.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣.

(٤) هذا قول الزمخشري واختاره ابن عطية واستدل بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا لَقَوْلُ فَصَّلَ﴾، واختار الطبري أنه الفصل في الكلام والحكم والمحاورة والخطب.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٥/١٦٢.

ولا تَجْرُ^(١) ولا تظلم في الحكم ﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ أي وأرشدنا إلى وسط الطريق يعني إلى الطريق الحق الواضح ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعِجَةً وَلِيَ نَعِجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ هذه بداية قصة الخصمين^(٢) أي قال أحدهما: إن صاحبي هذا يملك تسعاً وتسعين نعجة وهي أنثى الضأن وأملك أنا نعجة واحدة قال المفسرون: وقد يُكْنَى بها عن المرأة فيكون الغرض أن عنده تسعاً وتسعين امرأةً وعندي امرأة واحدة ﴿فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا﴾ أي ملكنها واجعلها تحت كفالتي ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي غلبني في الخصومة، وشدّد عليّ في القول وأغلظ ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِجَتِكَ لِئَیْ نَعِجِهِ﴾ أي قال له داود: لقد ظلمك بهذا الطلب حين أراد انتزاع نعجتك منك ليكمل ما عنده إلى مائة ﴿وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي وإن الكثيرين من الشركاء

(١) (ش): جَارَ فِي حُكْمِهِ: ظَلَمَ، مَالَ عَنِ الْحَقِّ وَخَالَفَ الْعَدْلَ.

(٢) وقع بعض المفسرين في خطأ فاحش حين نقلوا بعض الأقوال الواهية في تفسيرهم اعتماداً على ما جاء عند أهل الكتاب من غير تحقيق ولا تمحيص، مما لم يصح سنده ولا يجوز اعتماده، لأنه من القصص الإسرائيلية التي تتنافى مع العقيدة الإسلامية في (عصمه الأنبياء). من هذه الأباطيل المدسوسة ما روي من أمر عشقه لزوجة قائد جيشه وخلاصتها: (أن داود كان يمشي على سطح داره فنظر إلى امرأة تستحم فأعجبته وعشقها، وكانت زوجة أحد قواده ويسمي (أوريا) فأراد أن يتخلص منه ليتزوج بها، فأرسله في إحدى المعارك وحمله الراية وأمره بالتقدم فانتصر، فأرسله مراراً ليتخلص منه حتى قُتِل فتزوجها...) إلى آخر ما هنالك من الكذب والبهتان، قال ابن كثير: وقد ذكر كثير من المفسرين هنا قصصاً وأخباراً أكثرها إسرائيليات، ومنها ما هو مكذوب لا محالة، تركنا إيرادها في كتابنا قصداً، اكتفاء بمجرد تلاوة القصة من القرآن الكريم، والله يهدي من يشاء إلى الصراط المستقيم، وقال البيضاوي: ما قيل: إنه أرسل (أوريا) مراراً إلى الحرب، وأمره أن يتقدم حتى قُتِل فتزوجها داود، فزوروا افتراء، ولذلك قال علي رضي الله عنه: «من حدث بحديث داود على ما يرويه القصص جلدته مائة وستين جلدة» وهو حد الفرية على الأنبياء. والصحيح في موضوع هذه القصة ما ذكره المحققون من أئمة التفسير وعلمائه الأعلام، وبيان هذه القصة أن داود عليه السلام كان يخصص بعض وقته لتصرف شئون الملك، ولل قضاء بين الناس، ويخصص البعض الآخر للخلو والعبادة وترتيب الزبور تسبيحاً لله في المحراب، وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلو لم يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس، وفي ذات يوم فوجئ بشخصين يتسوران المحراب الذي يتعبد فيه، ففزع منهما وأضمر في نفسه أن يبطش بهما، فبادرا يُطْمَئِنُّانَهُ أنهما خصمان اختلفا في أمر بينهما، وبدأ أحدهما فعرض خصومته. كما قصها القرآن الكريم في آياته البينات. والقضية كما عرضها أحد الخصمين تحمل ظلماً صارخاً مثيراً لا يتحمل التأويل ومن ثم اندفع داود على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة، ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثاً، ولم يطلب إليه بيانا، ولم يسمع له حجة، ولكنه مضى يحكم بقوله ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِجَتِكَ لِئَیْ نَعِجِهِ﴾ إلى آخر الآيات فعاتبه الله على ذلك ونبهه إلى ضروره تثبيت القاضي على حكمه وسماعه للخصم الآخر... أما ما قاله البعض اعتماداً على بعض الرويات الإسرائيلية مما ذكرناه وحذرناه منه، فإنه لا يصلح بالنسبة إلى عوام المسلمين وجهلة الفساق، فما بالك بالأنبياء بل بخواص الأنبياء. فليتدبر هذا من له عقل سليم ودين قوي.

(ش): قول علي رضي الله عنه: «من حدث بحديث داود على ما يرويه القصص جلدته مائة وستين جلدة» وهو حد الفرية على الأنبياء. لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد. وقد قال الألوسي في تفسيره «روح المعاني» (٢٣/ ١٨٥) أن الزين العراقي ذكر أن هذه القول لم يصح عن علي عليه السلام.

ليتعدى بعضهم على بعض ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ أي إلا المؤمنين الذين يعملون الصالحات فإنهم لا ييغون وهم قليل ﴿وَطَنَ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ أي علم وأيقن أنما اختبرناه بهذه الحادثة وتلك الحكومة^(١) ﴿فَاسْتَغْفِرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ أي طلب المغفرة من الله وخرَّ ساجدًا لله تعالى، ورجع إليه بالتوبة والندم على ما فرط منه قال أبو حيان: وذكر المفسرون في هذه القصة أشياء لا تناسب مناصب الأنبياء، ضربنا عن ذكرها صفحًا، والذي يدل عليه ظاهر الآية من أن المتسورين المحراب كانوا من الإنس، دخلوا عليه من غير المدخل وفي غير وقت جلوسه للحكم، وأنه فزع منهم ظنًا منه أنهم يقاتلونه إذا كان منفردًا في محرابه لعبادة ربه، فلما اتضح له أنهم جاءوا في حكومة، وبرز منهم اثنان للتحاكم كما قصَّ الله تعالى فاستغفر من ذلك الظن، وخرَّ ساجدًا لله عزَّ وجلَّ، ونحن نعلم قطعًا أن الأنبياء معصومون من الخطايا، إذ لو جوزنا عليهم شيئًا من ذلك لبطلت الشرائع ولم نثق بشيء مما يذكرون، فما حكى الله في كتابه يُمرُّ على ما أَرَادَهُ اللهُ، وما حكى القصاص مما فيه غُصٌّ من منصب النبوة طَرَحْنَاهُ^(٢) ثم قال تعالى ﴿فَعَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ أي فسامحناه وعفونا عنه ذلك الظن السيئ بالرجلين قال ابن كثير: أي غفرنا له ما كان منه مما يقال فيه: «حسنات الأبرار سيئات المقربين» ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى﴾ وإنَّ له لقربةً وكرامةً بعد المغفرة ﴿وَحُسْنُ مَتَابٍ﴾ أي وحسن مرجع في الآخرة ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ أي استخلفناك على الناس لتدبير شئونهم ومصالحهم ﴿فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي فاحكم بينهم بالعدل وبشرية الله التي أنزلها عليك ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي لا تتبع هوى النفس في الحكومات وغيرها فيضلك اتباع الهوى عن دين الله القويم، وشرعه المستقيم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي إن الذين ينحرفون عن دين الله وشرعه لهم عذاب شديد يوم القيامة ﴿وَمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ أي بسبب نسيانهم وتركهم سلوك سبيل الله، وعدم إيمانهم بيوم الحساب، لأنهم لو آمنوا به لَأَعَدُّوا الزاد ليوم المعاد، قال أبو حيان: وجعله تعالى داود خليفة في الأرض يدل على مكانته عليه السلام واصطفائه له، ويدفع في صدر من نسب إليه شيئًا مما لا يليق بمنصب النبوة.

البَلاغَةُ: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

(١) (ش): الْحُكُومَةُ مِنْ مَعَانِيهَا رَدُّ الظَّالِمِ عَنِ الظُّلْمِ، وَمِنْ مَعَانِيهَا الْاجْتِهَادُ وَإِعْمَالُ الْفِكْرِ فِيمَا يَسْتَحِقُّهُ الْمَجْنُونُ عَلَيْهِ مِنَ الْجَانِي.

(٢) «تفسير البحر المحيط» ٣٩٣/٧ بشيء من الاختصار، هذا هو الحق الأبلغ الذي ندين الله عز وجل به والذي يجب أن يعتقد المسلم في الأنبياء والمرسلين، وانظر كتابنا «النبوة والأنبياء» فيه بيان أوسع لهذه القصة وانظر «التفسير الكبير» للإمام الفخر الرازي فقد رد تلك الفرية من عشرة وجوه فأجاد وأفاد... «التفسير الكبير» ١٨٩/٢٦.

- ١ - المجاز المرسل ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ﴾ القرن مائة عام والهلاك لأهله ففيه مجاز.
- ٢ - وضع الظاهر مكان الضمير ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ بدل «وقالوا» لتسجيل جريمة الكفر عليهم.
- ٣ - صيغة المبالغة في كل من ﴿كَذَّابٌ ، الْغَزِيرُ ، الْوَهَّابُ ، أَوَّابٌ﴾.
- ٤ - التنوين للتقليل والتحقير وزيادة ﴿مَا﴾ لتأكيد القلة ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ﴾.
- ٥ - تأكيد الجملة الخبرية بأن واللام لزيادة التعجب والإنكار ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.
- ٦ - الاستعارة البليغة ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ شبه الملك بخيمة عظيمة شددت أطنابها بالأوتاد لتثبت وترسخ ولا تقتلعها الرياح ففيه استعارة مكنية، وذكر الأوتاد تخيل.
- ٧ - الطباق ﴿يُسَيِّحْنَ بِالْعُثَىٰ وَالْإِشْرَاقِ﴾ لأن المراد المساء والصباح.
- ٨ - أسلوب التشويق ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ ورد الأسلوب بطريق التشويق.
- ٩ - أسلوب الإطناب ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿إِلَخ.
- ١٠ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ... فَلْيَرْفَعُوا فِي الْأَسْبَابِ .. جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْرَابِ﴾ مما يزيد في روعة الكلام وجماله.

لطيفة: روى ابن كثير أن أبا زرعة دخل على الوليد بن عبد الملك فقال له الوليد: أخبرني أيحاسب الخليفة فإنك قد قرأت القرآن وفقهت! فقال يا أمير المؤمنين: أقول؟ قال: قل في أمان الله، قال: يا أمير المؤمنين، أنت أكرم على الله أو داود عليه الصلاة والسلام؟ إن الله تعالى جمع له بين الخلافة والنبوة ثم توعده في كتابه فقال ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآية، فكانت موعظة بليغة.

قال الله تعالى:

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعُثَىٰ الصَّفِيفَتُ الْيَاقُوتِ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رَدُّوهَا عَلَيَّ فَنُفِثَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَّثَابٍ ﴿٤٠﴾ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَتْ إِنَّا وُجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَادْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ

﴿٤٦﴾ وَإِنَّمَا عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْآخِيَارِ ﴿٤٧﴾ وَأَذْكُرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْآخِيَارِ ﴿٤٨﴾ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنِ مَّثَابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَنَكِهِهِ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ * وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَتُ الطَّرْفِ أَنْزَابٌ ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لَرْزُقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ

المناسبة: لما ذكر تعالى إنكار المشركين للقرآن والرسالة والحشر والنشر، وأعقبها بذكر قصة داود تسليية للنبي عليه الصلاة والسلام، ذكر هنا بعض البراهين على البعث والنشور، ثم بين الحكمة من نزول القرآن، ثم تابع الحديث عن قصة سليمان بن داود تكميلاً وتكميلاً للهدف السامي من ذكر قصص القرآن.

اللغة: ﴿الْأَلْبَبُ﴾ العقول واحدها لب، ولب الشيء صفوته وخلاصته؛ ولذلك سمي العقل لباً ﴿الْصَفِينَتُ﴾ الخيول الواقفة على ثلاثة قوائم وطرف حافر الرابعة جمع صافن قال الفراء: الصافن في كلام العرب الواقف من الخيل أو غيرها قال الشاعر:

تَرَكْنَا الْخَيْلَ عَاكِفَةً عَلَيْهِ مَقْلَدَةً أَعْنَتَهَا صُفُونَا^(١)

﴿الْحَيَادُ﴾ السَّراع السَّوابق في العدو قال المبرد: الجياد جمع جواد وهو الشديد الجري كما أن الجواد من الناس هو السريع البذل^(٢) ﴿تَوَارَتْ﴾ اختفت ﴿رُخَاءً﴾ لينة أو منقادة حيث أراد ﴿الْأَصْفَادُ﴾ سلاسل الحديد والأغلال واحدها صَفَد وفي الحديث: «صُفدت الشياطين» أي ربطت بالسلاسل^(٣) قال الشاعر:

فَأَبَاوَا بِالنَّهَابِ وَبِالسَّبَايَا وَأُبْنَا بِالْمُلُوكِ مُصَفِّدِينَ^(٤) ﴿ضَعْنًا﴾ الضغث: حزمة من الحشيش أو غيره مختلطة الرطب باليابس، وأصله: الشيء المختلط ومنه «أضغاث أحلام» للرؤيا المختلطة.

التفسير: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ أي ما خلقنا هذا الكون البديع بما فيه من المخلوقات العجيبة عبثاً وسدى ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: خلق ما ذكر لا لحكمة هو ظن الكفار الفجار الذين لا يؤمنون بالبعث والنشور ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ أي فويل للكفار من عذاب النار، ثم وبَّخهم تعالى على هذا الظن السيئ فقال ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ

(١) «تفسير الطبري» ١٥ / (ش): أي قتلناه، وحبسنا خيلاً عليه، وقد قلدناها أعنتها في حال صُفُونها عنده. والأعنة: جمع عنان: وهو سير اللجام الذي يُمسك به الفرس ونحوه كي يُحكم في سيره. مَقْلَدَةً أَعْنَتَهَا: قلدناها أعنتها: أي وضعنا أعنتها في أعناقها.

(٢) «التفسير الكبير» للرازي ٢٦ / ٢٠٤.

(٣) (ش): قال عليه السلام: «إِذَا جَاءَ رَمَضَانُ فَتَحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ، وَصُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ». (رواه مسلم).

(٤) (ش): أب: رجع وعاد. النَّهَاب: جمع نهب، وهو المنهوب، أي ما يؤخذ قهراً.

ءَامِنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ﴿١﴾ أي هل نجعل المؤمنين المصلحين كالكفرة المفسدين؟ ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ أي أم نجعل الأخيار الأبرار كالأشرار الفجار؟ والغرض: أنه لا يتساوى في حكمته تعالى المحسن مع المسيء، ولا البر مع الفاجر، ففي الآية استدلال على الحشر والجزاء، وفيها أيضًا وعد ووعد قال ابن كثير: بين تعالى أنه ليس من عدله وحكمته أن يساوي بين المؤمنين والكافرين، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من جزاء^(١) يُثَاب فيها المطيع، ويعاقب فيها الفاجر، وقد دلت العقول السليمة على أنه لا بد من جزاء ومعاد، فإننا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت دون عقاب، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده، فلا بد في حكمة الحكيم العليم إنصاف هذا من هذا، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار، فتعين أن هناك دارًا أخرى لهذا الجزاء والمواساة وهي الدار الآخرة^(٢).. ثم بين تعالى الغاية من نزول القرآن وهي العمل والتفكير فقال ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ أي هذا الكتاب الذي أنزلناه عليك يا محمد كتابٌ عظيم جليل، كثير الخيرات والمنافع الدينية والدنيوية ﴿لِيَذْكُرُوا آيَاتِهِ﴾ أي أنزلناه ليتدبروا آياته ويتفكروا بما فيها من الأسرار العجيبة، والحكم الجليلة ﴿وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ﴾ أي وليتعض بهذا القرآن أصحاب العقول السليمة قال الحسن البصري: والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفًا، وقد أسقطه والله كله، ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل^(٣). اللهم اجعلنا ممن قرأه وتدبره وعمل بما فيه ﴿وَوَهَبْنَا لِذَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾ شروع في بيان قصة سليمان بن داود عليهما السلام أي رزقنا عبدنا داود بالولد الصالح المسمى سليمان وأعطيناه النبوة قال المفسرون: المراد بالهبة هنا هبة النبوة كما قال تعالى ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦] أي في النبوة، وإلا فقد كان له أولاد كثيرون غيره ﴿نِعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي نعم العبد سليمان فإنه كان كثير الرجوع إلى الله بالتوبة والإنابة ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشيِّ الصَّفِيْنَتَ الْجَيَادَ﴾ أي اذكر حين عرض على سليمان عشية يوم من الأيام - أي بعد العصر - الخيل الواقعة على طرف الحافر، السريعة الجري قال الرازي: وُصِفَتْ تلك الخيل بوصفين: الأول: الصفون وهو صفة دالة على فضيلة الفرس، والثاني: الجياد وهي الشديدة الجري، والمراد وصفها بالفضيلة والكمال في حالي الوقوف والحركة، فإذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها، وإذا جرت كانت سراعًا في جريها^(٤) ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ

(١) (ش): هكذا في أكثر من طبعة، والذي في «تفسير ابن كثير» (٧/ ٦٣) و«مختصره» للمؤلف (٢/ ٢٠٢): «وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلَا بُدَّ مِنْ دَارٍ أُخْرَى».

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٢٠٢.

(٣) «تفسير الكاشف» ٤/ ٧٠.

(٤) «التفسير الكبير» للرازي ٢٦/ ٢٠٤.

عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ﴿١﴾ أَيِ آثَرِ حَبِّ الْخَيْلِ حَتَّى شَغَلْتَنِي عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ قَالَ الْمَفْسُورُونَ: عُرِضَتْ عَلَيْهِ أَلْفٌ مِنَ الْخَيْلِ تَرَكَهَا لَهُ أَبَوُهُ، فَأُجْرِيَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ عَشِيًّا فَتَشَاغَلَ بِحَسَنِهَا وَجَرِيهَا وَمَحَبَّتِهَا عَنْ ذِكْرِ لَهُ خَاصٍ حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ ﴿٢﴾ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣﴾ أَيِ حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ وَاخْتَفَتْ عَنِ الْأَنْظَارِ ﴿٤﴾ رُدُّوْهَا ﴿٥﴾ أَيِ قَالَ سَلِيمَانُ: رَدُّوا هَذِهِ الْخَيْلَ عَلَيَّ ﴿٦﴾ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٧﴾ أَيِ فَشَرَعَ يَذْبَحُهَا وَيَقْطَعُ أَرْجُلَهَا تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ، لِتَكُونَ طَعَامًا لِلْفُقَرَاءِ لِأَنَّهَا شَغَلَتْهُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ قَالَ الْحَسَنُ: لَمَّا رُدَّتْ عَلَيْهِ قَالَ: لَا وَاللَّهِ لَا تَشْغِلْنِي عَنْ طَاعَةِ رَبِّي ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَعُفِّرَتْ ^(١) وَكَذَلِكَ قَالَ السَّدِيُّ ^(٢)، وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ: إِنَّهَا شَغَلَتْهُ عَنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ فَضَعِيفٌ، لِأَنَّهُ لَا يَتَصَوَّرُ مِنْ نَبِيِّ أَنْ يَتَرَكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ مِنْ أَجْلِ اشْتِغَالِهِ بِالْدُّنْيَا، وَالنَّصُّ صَرِيحٌ ﴿٨﴾ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ﴿٩﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿١٠﴾ هَذِهِ إِشَارَةٌ إِلَى ابْتِلَاءِ آخِرِ سَلِيمَانَ ابْتِلَايَ بِهِ، ثُمَّ تَابَ وَأَنَابَ مِنْ تِلْكَ الْهَفْوَةِ وَالزَّلَةِ، وَلَعَلَّ هَذِهِ الْفِتْنَةَ مَا رَوَى فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «قَالَ سُلَيْمَانُ: لَا طُوفَانَ اللَّيْلَةِ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ تَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَلَمْ يَقُلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَطَافَ عَلَيْهِنَّ جَمِيعًا، فَلَمْ تَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً، جَاءَتْ بِشَقِّ رَجُلٍ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ قَالَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ» ^(٣) قَالَ أَبُو كَثِيرٍ: «وَقَدْ أوردَ بَعْضُ الْمَفْسُورِينَ آثَارًا كَثِيرَةً عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ السَّلَفِ، وَأَكْثَرُهَا أَوْ كُلُّهَا مُتَلَقَّاةٌ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ، وَفِي كَثِيرٍ مِنْهَا نَكَارَةٌ شَدِيدَةٌ» ^(٤) وَاخْتَارَ الْإِمَامُ الْفَخْرُ أَنَّ الْفِتْنَةَ الْمَذْكُورَةَ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ يَقْصِدُ بِهَا فِتْنَتَهُ فِي جَسَدِهِ، حَيْثُ إِنَّ سَلِيمَانَ ابْتُلِيَ بِمَرَضٍ شَدِيدٍ نَحَلَ مِنْهُ وَضَعْفٌ، حَتَّى صَارَ لَشَدَةِ الْمَرَضِ كَأَنَّهُ جَسَدٌ مَلْقَى عَلَى كُرْسِيِّ، قَالَ وَالْعَرَبُ تَقُولُ فِي الضَّعِيفِ: إِنَّهُ لَحَمٌّ عَلَى وَضَمٍّ ^(٥)، وَجَسَمٌ بِلَا رُوحٍ، ﴿١١﴾ ثُمَّ أَنَابَ ﴿١٢﴾

(١) (ش): عَقَرَ الْحَيَوَانَ: ذَبَحَهُ.

(٢) رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: جَعَلَ يَمْسَحُ أَعْرَافَ الْخَيْلِ وَعَرَاقِبِيهَا حَبًّا لَهَا وَتَكْرَمَةً، وَهَذَا الْقَوْلُ اخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَأَظْهَرَ قَوْلَ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَالسَّدِيِّ أَنَّهُ ضَرَبَ أَعْنَاقَهَا بِالسَّيْفِ وَنَحَرَهَا لِأَنَّهَا شَغَلَتْهُ عَنْ طَاعَةٍ، وَلِهَذَا عَوَّضَهُ اللَّهُ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا مِنَ الرِّيحِ الَّتِي هِيَ أَسْرَعُ مِنَ الْخَيْلِ.

(٣) الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ فِيهِ أَنَّهُ تَفْسِيرٌ لِلآيَةِ فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ تَفْسِيرًا وَيَحْتَمِلُ غَيْرَهُ.

(٤) أَشَارَ ابْنُ كَثِيرٍ إِلَى مَا ذَكَرَهُ، بَعْضُ الْمَغْرَمِينَ بِالرَّوَايَاتِ الضَّعِيفَةِ، وَالْحِكَايَاتِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ الْمَصْطَنَعَةِ، حَوْلَ فِتْنَةِ سَلِيمَانَ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هَذِهِ الْإِشَارَةُ الْخَاطِطَةُ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴿١١﴾ وَمِنْ أَغْرَبِهَا وَأَنْكَرِهَا مَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ أَنَّ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ الْخَلَاءَ، فَأَعْطَى الْجَرَادَةَ. زَوْجَتَهُ. خَاتَمَهُ، وَكَانَتْ أَحَبَّ نِسَائِهِ إِلَيْهِ فَبَجَّاءَهَا الشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ سَلِيمَانَ فَقَالَ لَهَا: هَاتِي خَاتَمِي فَظَلَّتْهُ سَلِيمَانُ فَأَعْطَتْهُ إِيَّاهُ، فَلَمَّا لَبَسَهُ دَانَتْ لَهُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ وَالشَّيَاطِينُ...، إلخ، وَكُلُّ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ خِرَافَاتٌ وَأَبَاطِيلٌ رَدَّهَا الْمُحَقِّقُونَ مِنَ الْعُلَمَاءِ كَابْنِ كَثِيرٍ، وَالْفَخْرُ الرَّازِي، وَالْبِيضَاوِيُّ وَالنَّسْفِيُّ وَغَيْرُهُمْ.

(٥) (ش): الْوَضَمُّ: خَشَبَةُ الْجَزَارِ الَّتِي يَقْطَعُ عَلَيْهَا اللَّحْمَ.

أي رجع إلى حالة الصحة ^(١) ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ أي اغفر لي ما صدر مني وأعطني ملكًا واسعًا لا يكون لأحد غيري ليكون دلالة على نبوتي ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ أي واسع الفضل كثير العطاء ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ﴾ أي فذلَّلنا الريح لطاعته إجابة لدعوته ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي تسير بأمره لينَّة طيبة حيث قصد وأراد ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ﴾ أي وسخرنا له الشياطين كذلك تعمل بأمره، منهم من يستخدمه لبناء الأبنية الهائلة العجيبة، ومنهم من يغوص في البحار لاستخراج اللؤلؤ والمرجان ﴿وَأَخْرَجَ مُقْرِنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ أي وآخرين من الشياطين وهم المردة موثقون في الأغلال، مربوطون بالقيود والسلاسل لكفرهم وتمردهم عن طاعة سليمان ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي وقلنا له: هذا عطاؤنا الواسع لك، فأعط من شئت وامنع من شئت، لا حساب عليك في ذلك، لأنك مطلق اليد فيما وهب الله لك من سلطة ومن نعمة ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَّكَابٍ﴾ أي وإنَّ له عندنا لَمكانة رفيعة في الدنيا، وحسن مرجع في الآخرة ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ هذه هي القصة الثالثة في هذه السورة، والإضافة للتشريف، أي: اذكر يا محمد عبدنا الصالح أيوب عليه السلام، الذي ابتلي بأنواع البلاء فصر. ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بُصْبٌ وَعَذَابٌ﴾ أي حين نادى ربه متضرعًا إليه قائلاً: إني مسني الشيطان بتعب ومشقة، وألم شديد في بدني قال المفسرون: وإنما نسب ذلك إلى الشيطان تأديبًا مع الله تعالى، وإن كانت الأشياء كلها خيرها وشرها من الله تعالى، وكان أيوب قد أصيب في ماله وأهله وبدنه، وبقي في البلاء ثمان عشرة سنة، وقد تقدمت قصته ^(٢) ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ أي وقلنا له اضرب برجلك الأرض فضر بها فنبعت له عين ماء صافية ﴿هَذَا مُمْسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ أي وقلنا له: هذا ماءٌ تغتسل به، وشراب تشرب منه، فاغتسل منها فذهب ما كان بظاهر جسده، وشرب منها فذهب كل مرض كان داخل جسده قال أبو حيان: ﴿هَذَا مُمْسِلٌ بَارِدٌ﴾ أي ما يغتسل به ﴿وَشَرَابٌ﴾ أي ما يشرب منه، فباغتسالك يبرأ ظاهرك، وبشربك يبرأ باطنك، والجمهور على أنه نبعت له عينان، شرب من إحداهما وَاغتسل من الأخرى فشفي ^(٣) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ أي أحيا الله من مات من أولاده ورزقه مثله. قال الرازي: الأقرب أن الله تعالى متَّعه بصحته وبماله وقواه حتى كثر نسله وصار أهله ضعف ما كان وأضعاف ذلك. وعن الحسن أنه أحياهم بعد أن هلكوا ^(٤) وقال أبو حيان: الجمهور على أنه تعالى أحيا له من مات من أهله، وعافى المرضى، وجمع عليه من شئت منهم ^(٥) ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ أي رحمةً منا

(١) انظر «تفسير الكبير» للرازي ٢٦ / ٢٠٨ فقد أجاد فيه وأفاد، وكتابنا «النبوه والأنبياء».

(٢) انظر قصته في سورة الأنبياء من هذا التفسير.

(٣) «البحر المحيط» ٧ / ٤٠١.

(٤) «التفسير الكبير» ٢٦ / ٢١٥.

(٥) «البحر المحيط» ٧ / ٤٠١.

به لصبره وإخلاصه ﴿وَذَكَرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ أي وعبرة لذوي العقول المستنيرة قال ابن كثير: أي وذكرى لذوي العقول ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج ^(١) ﴿وَحَذَّيْدَكَ ضَعْفًا فَضْرِبَ بِهِ وَلَا تَحْتَّ﴾ أي وقلنا له: خذ بيدك حزمة من القضبان الرفيعة فاضرب بها زوجتك لتبر بيمينك ولا تحتث قال المفسرون: كان أيوب قد حلف أن يضرب امرأته مائة سوطٍ إذا برئ من مرضه، وسبب ذلك أنها كانت تخدمه في حالة مرضه، فلما اشتد به البلاء وطالت به المدة وسوس إليها الشيطان: إلى متى تصبرين؟ فجاءت إلى أيوب وفي نفسها الضجر فقالت له: إلى متى هذا البلاء؟ فغضب من هذا الكلام وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة سوط، فأمره الله أن يأخذ حزمة من قضبان خفيفة فيها مائة عود ويضربها بها ضربة واحدة ويبر في يمينه، ورحمة من الله به وبزوجه التي قامت على رعايته، وصبرت على بلائه، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه ولهذا قال تعالى ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ أي ابتليناه فوجدناه صابراً على الضراء ﴿نِعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي نعم العبد أيوب إنه كثير الرجوع إلى الله بالتوبة والإنابة والعبادة ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ أي اذكر يا محمد هؤلاء الأنبياء الأخيار وتأس بهم، الذين جمعوا بين القوة في العبادة، والبصائر في الدين قال الطبري: أي أهل القوة في عبادة الله، وأهل العقول المبصرة ^(٢) ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ﴾ أي خصصناهم بخصلة خالصة عظيمة الشأن، هي عدم التفاتهم إلى الدنيا وتذكرهم للدار الباقية قال مجاهد: جعلناهم يعملون للأخرة ليس لهم همٌّ غيرها ^(٣) ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ أي وهم عندنا المختارون المجتوبون على سائر الناس لأنهم أخيار أبرار ﴿وَأَذْكُرْ إسماعيلَ وإليساَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلَّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾ أي واذكر يا محمد هؤلاء الرسل أيضاً وكل من خيرة الله فاقتد بهم في الصبر وتحمل الأذى في سبيل الله ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد من سيرة الرسل الكرام ذكرٌ جميلٌ لهم في الدنيا، وشرفٌ يذكرون به أبداً ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَّثَابٍ﴾ أي وإن لكل متقٍ لله مطيعٍ لرسوله لحسن مرجع ومنقلب، ثم فسره بقوله ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةٌ لَّهُمْ الْأَبْوَابُ﴾ أي جنات إقامة في دار الخلد والنعيم قد فتحت لهم أبوابها انتظاراً لقدمهم قال الرازي: إن الملائكة الموكلين بالجنان إذا رأوا المؤمنين فتحوا لهم أبوابها، وحيوهم بالسلام، فيدخلون كذلك محفوفين بالملائكة على أعز حال، وأجمل هيئة ^(٤) ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾ أي متكئين في الجنة على الأرائك وهي السرر الوفيرة ^(٥) ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ أي

(١) مختصر ابن كثير ٢٠٥ / ٣.

(٢) تفسير الطبري ١٠٩ / ٢٣.

(٣) مختصر ابن كثير ٢٠٦ / ٣.

(٤) التفسير الكبير ٢٢١ / ٢٦.

(٥) (ش): وثير: لين ناعم.

وهم متكئون على الأسرّة يطلبون أنواع الفواكه، وألوان الشراب كعادة الملوك في الدنيا قال ابن كثير: أي مهما طلبوا وجدوا، ومن أي أنواع شاءوا أتهم به الخدام قال الصاوي: والاختصار على دعاء الفاكهة للإيدان بأن مطاعمهم لمحض التفكه والتلذذ دون التغذية لأنه لا جوع في الجنة^(١) ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطَّرِيفِ أَزْرَابٌ﴾ أي وعندهم الحور العين اللواتي لا ينظرن إلى غير أزواجهن أتراب، أي: في سنٍّ واحدة ﴿هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي هذا جزاؤكم الذي وُعدتم به في الدنيا ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ أي هذا النعيم عطاؤنا لأهل الجنة لا زوال له ولا انقطاع ولا انتهاء أبداً.

قال الله تعالى:

هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَذَا وَإِلَ لِلطَّاغِينَ لَشَرٌّ مَأَبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقُ ﴿٥٧﴾ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَنِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَّيْتُمْ لَنَا فِئْسَ الْفَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رَجُلًا كُنَّا نَعُدُّهُ مِنْ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ اتَّخَذْنَاهُمْ سِحْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْفَقِيرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَسْجُودًا ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَبْنَئُ لَيْسَ مَا مَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَخُذْ مِنْهَا فَاكًا رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنْ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَعَلَّكُمْ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ

المناسبة: لما ذكر تعالى مآل السعداء المتقين، ثنى بذكر حال الأشقياء المجرمين، ثم ذكر الأدلة على صدق رسالة محمد ﷺ وختم السورة الكريمة بذكر قصة آدم وإبليس وامتناعه عن السجود لآدم، تحذيراً للبشر من عدوهم الأكبر ومن وساوسه وإغوائه.

اللغة: ﴿وَعَسَاقُ﴾ الغساق: ما يخرج من لحوم الكفرة من الصيد والقيح والنتن ﴿زَاغَتْ﴾ مالت ﴿سِحْرِيًّا﴾ بكسر السين وهو الهزء والسخرية ﴿مُقْتَنِمٌ﴾ الاقتحام: ركوب الشدة والدخول فيها ومنه اقتحام المخاطر ﴿سَوَّيْتُهُ﴾ أتممت خلقه على أكمل الوجوه ﴿الْعَالِينَ﴾ المتكبرين،

وعلا في الأرض: تكبر وتجبر ﴿رَجِمُ﴾ مرجوم بالكواكب والشهب.

التفسير: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَنَاقِبٍ﴾ ﴿هَذَا﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره الأمرُ هذا وهي بمنزلة أما بعد، ثم قال ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَنَاقِبٍ﴾ أي وإن للكافرين الذين كذبوا الرسل، لشر منقلب يصيرون إليه في الآخرة ثم فسّر هذا المصير بقوله ﴿جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنُفَسُ الْمِهَادُ﴾ أي جهنم يذوقونها ويصلون سعيها، وبُست جهنم فراشا ومهادا لهم قال ابن جزي: لما تمّ ذكر أهل الجنة ختمه بقوله ﴿هَذَا﴾ ثم ابتداء بذكر وصف أهل النار، وعنى بالطاغين الكفار ^(١) ﴿هَذَا فَيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ أي هذا هو العذاب الأليم فليذوقوه وهو الحميم، أي: الماء الحار المحرق، والغساق وهو ما يسيل من صديد أهل النار قال الطبري: في الآية تقديم وتأخير، أي: هذا حميم وغساق فليذوقوه، والحميم الذي أغلي حتى انتهى حره، والغساق ما يسيل من جلودهم من الصيد والدم ^(٢) ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَجَلِهِ أَزْوَاجَ﴾ أي وعذاب آخر من هذا العذاب المذكور كالزهرير، والسموم، وأكل الزقوم لهم منه أنواع وأصناف.. ثم حكى ما يقال للرؤساء الطاغين إذا دخلوا النار فقال ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْنَحٌ مِّعَكُمْ لَا مَرْجَأَ بِهِمْ﴾ أي تقول لهم خزنة جهنم: هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار، ودخلوها بصحبكم كما اقتحموا معكم في الجهل والضلال، لا أهلاً ولا مرحباً بهم ﴿إِنَّمَا صَلُّوا النَّارَ﴾ أي إنهم ذائقو النار، ودخلوها كما دخلتموها أنتم قال الرازي: والافتحام ركوب الشدة والدخول فيها، وهذا من كلام خزنة جهنم لرؤساء الكفرة عن أتباعهم، والعرب تقول لمن يدعون له: مرحباً، أي: أتيت مرحباً في البلاد لا ضيقاً، ثم يدخلون عليها كلمة «لا» في دعاء السوء ^(٣) ﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَأَ بِكُمْ﴾ أي قال الأتباع للرؤساء الطغاة الذين أضلّوهم: بل أنتم لا أهلاً بكم ولا مرحباً قال المفسرون: عندما يدخل الأتباع جهنم تتلقاهم الرؤساء بقولهم ﴿لَا مَرْجَأَ بِكُمْ﴾ أي تلقون هنا رحباً ولا خيراً وهذه تحية أهل النار كما قال تعالى ﴿كَلِمَاتٍ دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨] فعند ذلك يقول لهم الداخلون ﴿بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَأَ بِكُمْ﴾ وهذا على حد قول القائل: «تَحِيَّةُ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ» ^(٤). فكذلك أهل النار يتلقون بعضهم باللعنات والشتائم بدل التحايا والسلام، ثم يعلّل الأتباع ذلك بقولهم ﴿أَنْتُمْ قَدْ مَتُّوهُ لَنَا فَيَسَّ الْقَرَارُ﴾ أي أنتم قدمتم لنا هذا العذاب وكنتم السبب في ضلالنا، فبئس المنزل والمستقر لنا ولكم نار جهنم ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضَعُفًا فِي النَّارِ﴾ هذا أيضاً من كلام الأتباع دعوا الله أن يضاعف العذاب لرؤسائهم الذين

(١) «التسهيل في علوم التنزيل» ١٨٧/٣.

(٢) «تفسير الطبري» ١١٣/٢٣.

(٣) «التفسير الكبير» للرازي ٢٦/٢٢٢.

(٤) (ش): أي: القائم مقام التحية هو الضرب الوجيع.

أوجبوا لهم العذاب فهو كقولهم ﴿رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدُّهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨] والضعف زيادة المثل^(١) قال البيضاوي: وقال الأتباع أيضًا ﴿رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدُّهُ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ أي مضاعفًا وذلك أن يزيد على عذابه مثله فيصير ضعفين^(٢) ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾؟ أي وقال الطغاة من رؤساء الكفر وأئمة الضلال: ما لنا لا نرى في النار هؤلاء الذين كنا نعدُّهم في الدنيا من الأشرار؟ يعنون بهم المؤمنين قال ابن عباس: يريدون أصحاب محمد ﷺ يقول أبو جهل: أين بلال، أين صهيب، أين عمار؟ أولئك في الفردوس (واعجبًا لأبي جهل) مسكين، أسلم ابنه عكرمة، وابنته جويرية، وأسلمت أمه، وأسلم أخوه وكفر هو^(٣) قال ابن كثير: هذا إخبار عن الكفار في النار، أنهم يفتقدون رجالاً كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة وهم المؤمنون، يقول أبو جهل: ما لي لا أرى بلالًا وعمارًا وصهيبًا وفلانًا وفلانًا؟ وهذا ضربٌ مثل وإلا فكل الكفار هذا حالهم، يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخلها الكفار افتقدوهم فلم يجدوهم^(٤)، ثم قالوا ﴿أَتُخَذَ نَحْنُ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾؟ أي يؤنبون أنفسهم قائلين: أ جعلنا هؤلاء المؤمنين في الدنيا هزءًا وسخرية؟ أم هم معنا في النار ولكن لا نراهم؟ قال البيضاوي: إنكار على أنفسهم وتأنيب لها في الاستسغار من المؤمنين، كأنهم قالوا: ليسوا ههنا في النار؟ أم مالت عنهم أبصارنا فلا نراهم^(٥)؟ قال تعالى ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ أي إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد من أقوال أهل النار وتخاصمهم، لهو الحق الذي لا بد وأن يتكلموا به، فنحن نخبرك عن قول الرؤساء ﴿لَا مَرْجَأَ لَهُمْ﴾ وقول الأتباع ﴿بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَأَ لَكُمْ﴾ من باب الخصومة^(٦) ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ هذا شروع في بيان مهمة الرسول ﷺ وفي إثبات الوحداية، والمعاد، والجزاء، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إنما أنا رسولٌ من رب العالمين، أنذركم وأخوفكم من عذابه إن لم تؤمنوا، ولست بساحر ولا شاعر ولا كاهن ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي وليس لكم ربٌ ولا معبود إلا الواحد الأحد، الغالب على خلقه، القاهر لكل شيء ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي خالق جميع ما في الكون من الخلائق والعجائب، والمتصرف فيها بالإيجاد والإعدام ﴿الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ أي الغالب على أمره الذي لا يُغلب، المبالغ في المغفرة لمن شاء من العباد قال الرازي: لما ذكر أنه ﴿الْقَهَّارُ﴾ وهذا مشعر بالترهيب والتخويف، أردفه بما يدل على الرجاء والترغيب

(١) «التسهيل في علوم التنزيل» ١٨٨/٣.

(٢) «تفسير البيضاوي» ١٥١/٢.

(٣) «تفسير القرطبي» ٢٢٤/١٥.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٢٠٧/٣.

(٥) «تفسير البيضاوي» ١٥١/٢.

(٦) «التفسير» ٢٣٣/٢٦.

وذكر ثلاث صفات دالة على الرحمة، والفضل والكرم وهي: «الرب، العزيز، الغفار» فكونه رباً مشعر بالترية والإحسان، وكونه عزيزاً مشعر بأنه قادر على كل شيء ولا يعجزه شيء، وكونه غفاراً مشعر بالترغيب وأنه يرجى فضله وثوابه، فلو بقي الإنسان على الكفر سبعين سنة، ثم تاب فإن الله سبحانه يغفر له برحمته جميع ذنوبه، ويمحو اسمه من ديوان المذنبين، ويوصله إلى درجات الأبرار ^(١) ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن هذا القرآن الذي جئتكم به هو نبأ هام وأمر عظيم الشأن، أنتم عنه غافلون لا تلتفتون إليه ولا تعلمون قدره ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي من أين لي العلم باختلاف الملائكة في شأن خلق آدم لولا الوحي المنزل عليّ؟ قال ابن جزي: والقصد الاحتجاج على نبوة محمد ﷺ لأنه أخبر بأمور لم يكن يعلمها قبل ذلك، والإشارة إلى اختصاص الملائكة هو ما جاء في قصة آدم حين قال تعالى لهم ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] حسبما تضمنته قصته في مواضع من القرآن ^(٢) ﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ آلَا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما يوحى إليّ إلا لأني رسول مرسل إليكم لأنذركم عذاب الله، ومعنى النذير المنذر المخوف من عذاب الله، ثم شرع تعالى في ذكر قصة آدم فقال ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ أي اذكر حين أعلم ربك الملائكة أنه سيخلق إنساناً من طين وهو آدم عليه السلام ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ﴾ أي فإذا أتممت خلقه ونفخت فيه الروح فاسجدوا إكراماً له وإعظاماً قال القرطبي: وهذا سجود تحية لا سجود عبادة ^(٣) ﴿فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أي فسجد جميع الملائكة خضوعاً له وتعظيماً لأمر الله بالسجود له ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي لكن إبليس استكبر عن طاعة الله وأبى السجود لآدم فصار من الكافرين قال ابن كثير: امثل الملائكة كلهم سوى إبليس، ولم يكن منهم جنساً كان من الجن ^(٤)، فخانه طبعه وجبلته فاستنكف عن السجود لآدم، وخاصم ربه عز وجل فيه، وادعى أنه خير من آدم، فكفر بذلك وطرده الله عن باب رحمته، ومحل أنسه، وحضرة قدسه ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾ أي: قال له ربه: ما الذي صرفك وصدك عن السجود لمن خلقتُه بذاتي ^(٥). من غير واسطة أب

(١) «التفسير الكبير» ٢٦/ ٢٢٤.

(٢) «التسهيل في علوم التنزيل» ٣/ ١٨٩.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٢٧.

(٤) هذا هو الرأي الصحيح أن إبليس من الجن وليس من الملائكة، وقد تقدم قول الحسن البصري: «لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين!» وهذا هو الرأي الذي تطمئن إليه النفس وترتاح، وتدل عليه النصوص الكريمة كقوله تعالى ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾، وانظر الأدلة في كتابنا «النبوة والأنبياء» ١/ ١٢٨.

(٥) (ش): تفسير اليدين بالذات تعطيل للصفات وجحد ليدي الله الكريمتين. فاليدان صفة ذاتية خبرية لله عز وجل، نشبتها كما نشب باقي صفاته تعالى؛ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، وهي ثابتة بالكتاب والسنة.

وأم؟ قال القرطبي: أضاف خلقه إلى نفسه تكريماً لآدم وإن كان خالق كل شيء، كما أضاف إلى نفسه الروح، والبيت، والناقة، المساجد، فخطب الناس بما يعرفونه ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾؟ أي استكبرت الآن عن السجود أم كنت قديماً من المتكبرين على ربك؟ وهذا على جهة التوبيخ له لاستنكافه عن السجود ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ أي قال اللعين: أنا خير من آدم وأشرف وأفضل ﴿خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتُهُ مِنْ طِينٍ﴾ أي لأنني مخلوق من النار، وآدم مخلوق من الطين، والنار خير من الطين، فكيف يسجد الفاضل للمفضول؟ ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي اخرج من الجنة فإنك لعين مطرود من كل خير وكرامة ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي وأنت مبعّد عن رحمتي إلى يوم الجزاء والعقوبة ثم تلقى ما هو أظع وأشنع من اللعنة ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْني إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي أخرني وأمهلني إلى اليوم الذي تبعث فيه الخلائق من القبور قال أبو السعود: أراد بذلك أن يجد فسحة لإغوائهم، ويأخذ منهم ثأره، وينجو من الموت بالكلية إذ لا موت بعد البعث فأجابه الله بأنه مؤخر إلى وقت النفخة الأولى لا إلى وقت البعث الذي طلبه ^(١) ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ ^(٨٠) إلى يوم ألوقت المعلوم أي أنك من الممهلين إلى وقت النفخة الأولى حيث يموت الناس وتنتهي مهمتك ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ^(٨١) إلا عبادك منهم المخلصين ﴿أي قال اللعين: أقسم بعزتك لأضلن بني آدم أجمعين، إلا الذين أخلصتهم لعبادتك وعصمتهم مني﴾ ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ ^(٨٢) لأملاّن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴿أي قال تعالى: أقسم بالحق ولا أقول إلا الحق لأملاّن جهنم منك ومن أتباعك قال السُّدي: هو قسم أقسم الله به ^(٢)، وجملة «والحق أقول» اعتراضية لتأكيد القسم ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي قل لهم يا محمد: لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً، ولست من الذين يتصنعون ويتحيلون حتى انتحل النبوة وأتقول القرآن ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي ما هذا القرآن إلا عظة وذكرى للإنس والجن والعقلاء ﴿وَلَنُعَلِّمَنَّ بَأْهٖ بُعْدَ حِينٍ﴾ أي لتعملن خبره وصدقه عن قريب، وهذا وعيد وتهديد قال الحسن البصري: يا بن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - المقابلة بين المؤمنين والمفسدين، وبين المتقين والفجار ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَارِ﴾ [ص: ٢٨] وهذا من ألطف أنواع البديع.

٢ - الكناية ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالْسُوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٣] كنى عن العقر والذبح بالمسح

(١) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٢٩٨.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٠٩.

وهي كناية بليغة.

- ٣ - الطباق بين ﴿فَأَمْنٌ أَوْ أَمْسِكْ﴾ [ص: ٣٩] لأنها بمعنى أعط من شئت، وامنع من شئت.
 ٤ - مراعاة الأدب ﴿إِنِّي مَسِّيَ الشَّيْطَانُ﴾ [ص: ٤١] أسند الضرر إلى الشيطان أدباً، والخير والشر بيد الله تعالى.

٥ - الاستعارة التصريحية ﴿أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَرِ﴾ [ص: ٤٥] استعار الأيدي للقوة في العبادة والأبصار للبصيرة في الدين.

- ٦ - المقابلة الرائعة ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّا لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنُ مَثَابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّتْ عَدْنِي مَفْنَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ [ص: ٤٩-٥٠] ثم قابل ذلك بقوله ﴿هَذَا وَإِنَّا لِلظَّالِمِينَ لَشَرُّ مَثَابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَنسَلِمُونَ لَهَا﴾
 وياله من تصوير رائع!

٧ - التأكيد بمؤكدين ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ فقد أكده أولاً بلفظ (كل) ثم بلفظ (أجمعون).

- ٨ - مراعاة الفواصل وهي من خصائص القرآن ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَخَذْنَاهُمْ سِحْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاضُّمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ فمثل هذا البيان الرائع والجرس العذب، يسري في النفس سريان الروح في الجسد، وأقسم بالله أنني أشعر بهزة في نفسي كلما قرأت القرآن، لما له من وقع عذب على السمع، وأحياناً أجدي أتمايل طرباً بدون شعور، أكثر مما يتمايل المغرّمون بالأنعام، وما ذلك إلا لروعة البيان في هذا القرآن^(١)، وصدق رسول الله حين قال «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا»^(٢).

«تم بعونه تعالى تفسير سورة ص والله الحمد والمنة»



(١) (ش): المطلوب عند تلاوة القرآن الخشوع لا الطرب والتمايل، ويجب أن ينزه القرآن عن مثل هذا الكلام، ولو كان هذا الفعل خيراً لسبقنا إليه من هم خير منا النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.
 (٢) (ش): رواه البخاري ومسلم.



مكية وآياتها خمس وسبعون

بين يدي السورة

* سورة الزمر مكية، وقد تحدثت، عن «عقيدة التوحيد» بالإسهاب، حتى لتكاد تكون هي المحور الرئيسي للسورة الكريمة لأنها أصل الإيمان، وأساس العقيدة السليمة، وأصل كل عمل صالح.

* ابتدأت السورة بالحديث عن القرآن «المعجزة الكبرى» الدائمة الخالدة لمحمد بن عبد الله، وأمرت الرسول بإخلاص الدين لله وتنزيهه جل وعلا من مشابهة المخلوقين، وذكرت شبهة المشركين في عبادتهم للأوثان واتخاذهم شفعاء، وردت على ذلك بالدليل القاطع.

* ثم ذكرت الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين، في إبداعه لخلق السماوات والأرض وفي ظاهرة الليل والنهار، وفي تسييره للشموس والأقمار، وفي خلق الإنسان في أطوار في ظلمات الأرحام، وكلها براهين ساطعة على قدرة الله ووحدانيته.

* وتناولت السورة موضوع العقيدة بوضوح وجلاء، وكشفت عن مشهد الخسران المبين للكفرة المجرمين في دار الجزاء، حيث يذوقون ألوان العذاب، وتغشاهم ظلل من النار من فوقهم ومن تحتهم.

* وذكرت السورة مثلاً يوضح الفارق الكبير بين من يعبد إلهاً واحداً، ومن يعبد آلهة متعددة لا تسمع ولا تستجيب، وهو مثل للعبد الذي يملكه شركاء متخاصمون، والعبد الذي يملكه سيد واحد، ثم ذكرت حالة المشركين النفسية عندما يسمعون توحيد الله تنقبض قلوبهم، وإذا سمعوا ذكر الطواغيت هشوا وبشوا.

* ثم جاءت الآيات طرية ندية تدعو العباد إلى الإنابة لربهم، والرجوع إليه، قبل أن يداهمهم الموت بغتة، أو يفاجئهم العذاب من حيث لا يشعرون، وحينئذ يتوبون ويندمون في وقت لا ينفع فيه توبة ولا ندم.

* وختمت السورة الكريمة بذكر نفخة الصعق، ثم نفخة البعث والنشور، وما يعقبهما من أهوال الآخرة وشدائدها، وتحدثت عن يوم الحشر الأكبر، حيث يساق المتقون الأبرار إلى الجنة زمراً، ويساق المجرمون الأشرار إلى جهنم زمراً، في مشهد هائل يحضره الأنبياء والصديقون والشهداء الأبرار، والوجود كله يتجه إلى ربه بالحمد والثناء في خشوع واستسلام.

التسمية: سميت «سورة الزمر» لأن الله تعالى ذكر فيها زمرة السعداء من أهل الجنة، وزمرة الأشقياء من أهل النار، أولئك مع الإجلال والإكرام، وهؤلاء مع الهوان والصغار.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ
 الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلِلَّهُ الدِّينُ الْخَالِصُ وَلَذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ
 زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَوْ
 أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
 كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا
 وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أزْوَاجًا يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ
 ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي وَعَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ
 لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا
 كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ
 نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ
 مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ أَمَنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ
 يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ قُلْ يَعْبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ
 أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّادِقُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ
 أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
 ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ
 يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يَخَوْفُ اللَّهُ بِهِ
 عِبَادَهُ يَعْبَادُهُ فَاتَّقُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّلُعَاتِ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ
 يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ
 عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْقَرُوا رَبَّهُمْ لَهُمْ عَرْفٌ مِنْ فَوْقِهَا عَرْفٌ مَبْنِيَةٌ تَجْرِي
 مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِعَادَ

اللغة: ﴿زُلْفَى﴾ قربي، ومنه ﴿وَأَنْزَلْنَاهُ الْجَنَّةَ لِلْمُنْقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠] أي قَرِبتَ لَهُمْ ﴿يَكُونُ﴾ التكوير: اللَّفُّ والليُّ يقال: كَوَّرَ العمامة، أي: لَفَّهَا ﴿خَوَّلَهُ﴾ أعطاه وملكه ﴿قَنِتٌ﴾ مطيع خاضع عابد ﴿أَنْدَادًا﴾ أوثانًا وأصنامًا ﴿ظُلُلٌ﴾ جمع ظِلَّة وهي ما يُظِلُّ الإنسان من سقف ونحوه ﴿الطَّلُعَاتِ﴾ من الطغيان وهو مجاوزة الحد، والمراد بالطاغوت كل ما عُبد من دون الله من وثن أو بشر أو حجر ﴿وَأَنَابُوا﴾ رجعوا ﴿عَرْفٌ﴾ منازل رفيعة عالية في الجنة، والغرفة:

المنزلة والمكانة السامية ومنه ﴿أُولَئِكَ يُحْزَنُ لَكُمُ الْعُرْفُ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الفرقان: ٧٥].

التفسير: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ أي هذا القرآن تنزيلٌ من الله جل وعلا ﴿الْعَزِيزِ﴾ أي القادر الذي لا يُغلب ﴿الْحَكِيمِ﴾ أي الذي يفعل كل شيء بحكمة وتقدير وتدبير ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي نحن أنزلنا عليك يا محمد القرآن العظيم متضمناً الحق الذي لا مزية فيه، والصدق الذي لا يشوبه باطل أو هزل ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ أي فاعبد الله وحده مخلصاً له في عبادتك، ولا تقصد بعملك ونيتك غير ربك ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي ألا فانتبهوا أيها الناس: إن الله تعالى لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم لأنه المتفرد بصفات الألوهية، المطلع على السرائر والضمائر، ومعنى «الخالص» الصافي من شوائب الشرك والرياء ﴿وَالَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي وهؤلاء المشركون الذين عبدوا من دونه الأوثان يقولون ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ أي ما نعبد هذه الآلهة والأصنام إلا ليقربونا إلى الله قربي ويشفعوا لنا عنده قال الصاوي: كان المشركون إذا قيل لهم: من خلقكم؟ ومن خلق السموات والأرض؟ من ربكم ورب آبائكم الأولين؟ فيقولون: الله، فيقال لهم: فما معنى عبادتكم الأصنام؟ فيقولون: لتقربنا إلى الله زلفى وتشفع لنا عنده^(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي يحكم بين الخلائق يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر الدين، فيدخل المؤمنين الجنة، والكافرين النار ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي لا يوفق للهدى، ولا يرشد للدين الحق من كان كاذباً على ربه، مبالغاً في كفره، وفي الآية إشارة إلى كذبهم في تلك الدعوى ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أي لو شاء الله اتخاذ ولد على سبيل الفرض والتقدير ﴿لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي لا اختار من مخلوقاته ما يشاء ولداً على سبيل التبني إذ يستحيل أن يكون ذلك في حقه تعالى بطريق التوالد المعروف ولكنه لم يشأ ذلك لقوله ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢] وقوله ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ أي من المخلوقات التي أنشأها واختراعها ﴿سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي تنزه جل وعلا وتقديس عن الشريك والولد، لأنه هو الإله الواحد الأحد، المنزه عن النظير والمثيل، القاهر لعباده بعظمته وجلاله قال في التسهيل: نزّه تعالى نفسه من اتخاذ الولد، ثم وصف نفسه بالواحد لأن الوحدانية تنافي اتخاذ الولد، لأنه لو كان له ولد لكان من جنسه ولا جنس له لأنه واحد، ووصف نفسه بالقهار ليدل على نفي الشركاء والأنداد، لأن كل شيء مهوور تحت قهره تعالى، فكيف يكون شريكاً له^(٢)؟ ثم ذكر تعالى دلائل قدرته وحدانيته وعظمته، فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي خلقهما على أكمل الوجوه وأبدع الصفات، بالحق

(١) «حاشية الصاوي» على الجلالين ٣/ ٣٦٦.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٣/ ١٩١.

الواضح والبرهان الساطع ﴿يُكَوِّرُ أَيْلًا عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى أَيْلٍ﴾ أي يُغشي الليل على النهار، ويُغشي النهار على الليل، وكأنه يلف عليه لفَّ اللباس على اللباس قال القرطبي: وتكوِّرُ الليل على النهار تغشيتُهُ إياه حتى يُذهب ضوؤه، ويغشي النهار على الليل فيذهب ظلمته وهذا منقول عن قتادة. وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُغْشَى أَيْلًا النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ﴾^(١) ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي ذلَّلهما لمصالح العباد ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي كل منهما يسير إلى مدة معلومة عند الله تعالى، ثم ينقضي يوم القيامة حين تُكوِّرُ الشمسُ وتنكدرُ النجوم^(٢) ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ أي هو جل وعلا كامل القدرة لا يغلبه شيء، عظيم الرحمة والمغفرة والإحسان قال الصاوي: صُدِّرت الجملة بحرف التنبيه «ألا» للدلالة على كمال الاعتناء بمضمونها كأنه قال: تنبهوا يا عبادي فإنني أنا الغالب على أمري، والستارُ لذنوب خلقي فأخلصوا عبادتكم ولا تشركوأبي أحدًا.^(٣) ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي خلقكم أيها الناس من نفس واحدة هي آدم، وهذا من جملة أدلة وحدانيته، وانفراده بالعزة والقهر، وجميع صفات الألوهية ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي ثم خلق من آدم (ثم خلق منها زوجها) يعني حواء خلقها من ضلع من أضلاعه^(٤) ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ أي وأوجد لكم من الأنعام المأكولة وهي الإبل، والبقر، والغنم، والمعز، ثمانية أزواج من كل نوع ذكرًا وأنثى قال قتادة: من الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، ومن الضأن اثنين، ومن المعز اثنين، كل واحد زوج^(٥)، وسميت أزواجًا لأن الذكر زوج الأنثى، والأنثى زوج الذكر قال المفسرون: والإنزالُ عبارة عن نزول أمره وقضائه^(٦) ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أي يخلقكم في بطون أمهاتكم أطوارًا، فإن الإنسان يكون نطفة، ثم علقة، ثم مضغة إلى أن يتم خلقه، ثم ينفخ فيه الروح فيصير خلقًا آخر ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ هي البطن، والرحم، والمشيمة، وهو الكيس الذي يغلف الجنين ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي ذلكم الخالق المبدع المصور هو الله ربُّ العالمين، ربكم وربُّ آبائكم الأولين ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ أي له الملك والتصرف التام، في الإيجاد والإعدام ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحق إلا الله ولا ربَّ لكم سواه ﴿فَأَنَّى تُصَرِّفُونَ؟﴾ أي فكيف تنصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟ ثم بعد أن ذكَّروهم بآياته ونعمه، حذَّروهم من الكفر

(١) «تفسير القرطبي» ١٥ / ٢٣٥.

(٢) (ش): فُتِلَفَ الشمس ويذهب ضوؤها، وتتناثر النجوم ويذهب نورها.

(٣) «حاشية الصاوي» ٣ / ٣٦٦.

(٤) «تفسير الطبري» ٢٣ / ١٢٤. (ش): قال ﷺ: «إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ» (رواه البخاري ومسلم).

(٥) «تفسير القرطبي» ١٥ / ٢٣٥.

(٦) (ش): قال السعدي: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ﴾ أي: خلقها بقدرِ نازل منه، رحمةً بكم.

والجحد لفضله وإحسانه فقال ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنَىٰ عَنْكُمْ﴾ أي إن تكفروا أيها الناس بعد ما شاهدتم من آثار قدرته وفنون نعمائه، فإن الله مستغن عنكم وعن إيمانكم وشكركم وعبادتكم ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ أي لا يرضى الكفر لأحد من البشر قال الرازي: أشار تعالى إلى أنه وإن كان لا ينفعه إيمان، ولا يضره كفران، إلا أنه لا يرضى بالكفر بمعنى أنه لا يمدح صاحبه ولا يشبهه عليه وإن كان واقعاً بمشيئته وقضائه ^(١) ﴿وَلِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي وإن تشكروا ربكم يرض هذا الشكر منكم، لأجلكم ومنفعتكم لا لانتفاعه بطاعتكم قال أبو السعود: عدم رضائه بكفر عباده لأجل منفعتهم ودفع مضرّتهم، رحمة بهم لا لتضره تعالى بذلك، ورضاه بشكرهم لأجلهم ومنفعتهم لأنه سبب فوزهم بسعادة الدارين، ولهذا فرق بين اللفظين فقال «ولا يرضى لعباده الكفر» وقال هنا «يرضه لكم» لأن المراد بالأول تعميم الحكم ثم تعليقه بكونهم عباده ^(٢) ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي ولا تحمل نفس ذنب نفس أخرى، بل كل يؤخذ بذنبه ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي ثم مرجعكم ومصيركم إليه تعالى ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي فيحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي يعلم ما تكنه السرائر وتخفيه الضمائر، وفيه تهديد وبشارة للمطيع ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ﴾ أي وإذا أصاب الإنسان الكافر شدة من فقر ومرض وبلاء ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي تضرع إلى ربه في إزالة تلك الشدة، مقبلاً إليه مخبتاً مطيعاً ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ أي ثم إذا أعطاه نعمة منه وفرج عنه كربته ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي نسي الضر الذي كان يدعو ربه لكشفه وتمرد وطغى ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي وجعل لله شركاء في العبادة ليصد عن دين الله وطاعته ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أمر للتهديد أي تمتع بهذه الحياة الدنيا الفانية، وتلذذ فيها وأنت على كفرك، عمراً قليلاً وزمناً يسيراً ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي فمصيرك إلى نار جهنم، وأنت من المخلدين فيها ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ إِذْ أَاءَ الْيَتْلُ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ استفهام حذف جوابه لدلالة الكلام عليه، أي: أم من هو مطيع عابد في ساعات الليل يتعبد ربه في صلاته ساجداً وقائماً كمن أشرك بالله وجعل له أنداداً؟ قال القرطبي: بين تعالى أن المؤمن ليس كالكافر الذي مضى ذكره ^(٣) ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ أي حال كونه خائفاً من عذاب الآخرة، راجياً رحمة ربه وهي الجنة، هل يستوي هذا المؤمن التقي مع ذلك الكافر الفاجر؟ لا يستوون عند الله، ثم ضرب مثلاً فقال ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي هل يتساوى العالم والجاهل؟ فكما لا يتسوي هذان كذلك لا يتسوي المطيع والعاصي ^(٤)

(١) التفسير ٢٦/٢٤٦. (ش): تفسير معنى رضا الله بالمدح والإثابة، تأويل للصفة عن معناها الصحيح، الذي هو

الرضا الحقيقي اللائق به ﷻ.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٤/٣٠٢.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/٢٣٨.

(٤) أنظر حاشيه زاده علي البضاوي ٣/١٩٢.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي إنما يعتبر ويتعظ أصحاب العقول السليمة قال الإمام الفخر: وأعلم أن هذه الآية دالة على أسرار عجيبة، فأولها أنه بدأ فيها بذكر العمل، وختم فيها بذكر العلم، أما العمل فهو القنوت، والسجود، والقيام، وأما العلم ففي قوله ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؟ وهذا يدل على أن كمال الإنسان محصورٌ في هذين المقصودين، فالعمل هو البداية، والعلم والمكاشفة هو النهاية^(١)، وفي الكلام حذف تقديره آمَن هو قانتٌ كغيره؟ وإنما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه، لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية الكافر، ثم مثل بالذين يعلمون، وفيه تنبيه عظيم على فضيلة العلم^(٢) ﴿قُلْ يَعْبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ أي قل يا محمد لعبادي المؤمنين يجمعوا بين الإيمان وتقوى الله وهي البعد عن محارم الله قال المفسرون: نزلت في جعفر بن أبي طالب وأصحابه حين عزموا على الهجرة إلى أرض

(١) (ش): هذا خلاف ما يدل عليه قوله تعالى ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ فبدأ بالعلم قبل القول والعمل. موقف أهل السنة من الكشف: الكشف في الاصطلاح عند أهل السنة نوع من الخوارق، وذلك بأن يسمع الشخص ما لا يسمعه غيره، أو يرى ما لا يراه غيره، أو أن يعلم ما لا يعلمه غيره، إما من طريق الوحي والإلهام وهذا للمؤمن، وقد يكون كرامة من الله لعبده، وقد يحصل للنفس نوع من الكشف، إما يقظة وإما منامًا بسبب قلة علاقتها مع البدن، إما بريضة أو بغيرها، وهذا هو الكشف النفساني، وهو مشترك بين المؤمن والكافر. والكشف الصحيح أن يعرف الحق الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، معانيه لقلبه، فيكشف له من غوامض علوم الدين ما لا ينكشف لغيره، ويكون مع علمه عاملاً، فهذا من كشف الأولياء، وهو كشفٌ ظاهرٌ المنفعة. ومن الكشف ما لا فائدة فيه لا في الدنيا ولا في الآخرة، كالاتلاع على سيئات العباد. ولا بد أن يقرن الدين بالكشف، وإلا هلك صاحبه في الدنيا والآخرة، أما في الآخرة فلعدم الدين الذي هو أداء الواجبات وترك المحرمات، وأما في الدنيا فإن الخوارق هي من الأمور الخطرة، التي لا تنالها النفوس إلا بمخاطرات في القلب والجسم والأهل والمال. وما يحصل بالزهد والعبادة والرياضة والتصفية والخلو، وغير ذلك، من المعارف، متى خالف الكتاب والسنة، أو خالف العقل الصريح، فهو باطل، ومن زعم أنه يجد في الكشف ما يناقض صريح العقل، أو يرد عليه أمر يخالف الكتاب والسنة بحيث يكون خارجاً عن طاعة الرسول - ﷺ - وأمره، أو أنه يحصل له علم مفصل بجميع ما أخبر به الرسول - ﷺ - وأمر به، فهو ضالٌ مُبْطِلٌ، بل زنديق منافق. وما يُعلم بالكشف قد يكون صحيحاً وقد يكون خاطئاً، فأهل المكاشفات والمخاطبات يصيبون تارة، ويخطئون أخرى، كأهل النظر والاستدلال في موارد الاجتهاد، ولهذا وجب عليهم جميعهم أن يعتصموا بكتاب الله، وسنة رسوله - ﷺ -، وأن يَرْتَوُوا كشفهم، ومشاهدتهم، وآراءهم، ومعقولاتهم، بكتاب الله، وسنة رسوله، ولا يكتفوا بمجرد ذلك، فإن سيد المحذّثين والمخاطبين المُلهَمين من هذه الأمة هو عمر بن الخطاب، وقد كانت تقع له وقائع، فيردها عليه رسول الله، أو صديقه أبو بكر، ولهذا وجب على جميع الخلق اتباع الرسول ﷺ كما أن ما يدّعيه كثير من الصوفية، من الكشف والمشاهدة، عامته خيالات في أنفسهم، ويسمونّها حقيقة، وقد تنزل عليهم الشياطين، وتخبرهم بأشياء، وتأمّرههم بأشياء، وهذا غاية كشفهم الذي يحكمون به على الكتاب والسنة. لذا يجب ربط ما يحصل بالكشف بالكتاب والسنة، فنجعلهما حاكِمَيْن على الكشف، ونردّ ما خالفهما. (الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية، لآمال بنت عبد العزيز العمرو، ص ٤٦١-٤٦٦).

الحبشة^(١) والغرض منها التأنيس لهم والتنشيط إلى الهجرة^(٢) ومعنى التقوى: امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، وكأن العبد بذلك يجعل بينه وبين النار وقاية^(٣) ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة عظيمة في الآخرة وهي الجنة دار الأبرار ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ﴾ أي وأرض الله فسيحة فهاجروا من دار الكفر إلى دار الإيمان، ولا تقيموا في أرض لا تتمكنون فيها من إقامة شعائر الله ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي إنما يعطى الصابرون جزاءهم بغير حصر، وبدون عدد أو وزن قال الأوزاعي: ليس يوزن لهم ولا يكال إنما يغرف غرفاً^(٤) ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ أي قل يا محمد: أُمِرْتُ بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له قال المفسرون: وإنما خص الله تعالى الرسول بهذا الأمر لينبه على أن غيره بذلك أحق فهو كالترغيب للغير ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي وأُمِرْتُ أيضاً بأن أكون أول المسلمين من هذه الأمة قال القرطبي: وكذلك كان، فإنه أول من خالف دين آبائه وخلع الأصنام وحكمها، وأسلم وجهه لله وآمن به ودعا إليه ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي وأخاف إن عصيت أمره أن يعذبني يوم القيامة بنار جهنم قال الصاوي: والمقصود منها زجر الغير عن المعاصي، لأنه ﷺ إذا كان خائفاً مع كمال طهارته وعصمته فغيره أولى، وذلك سنة الأنبياء والصالحين حيث يخبرون غيرهم بما اتصفوا به ليكونوا مثلهم^(٥) ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْهُمُ خَلِّصَ لَهُ دِينِي﴾ أي قل لهم يا محمد: لا أعبد إلا الله وحده، مخلصاً له طاعتي وعبادتي من كل شائبة، وليس هذا بتكرار لأن الأول إخبار بأنه ﷺ مأمور بالعبادة، والثاني إخبار بخوفه من عذاب الله إن عصى أمره، والثالث إخبار بامتثاله الأمر مع إفادة الحصر كأنه يقول: أعبد الله ولا أعبد أحداً سواه ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ صيغة أمر على جهة التهديد والوعيد، أي: اعبدوا ما شئتم من دون الله من الأوثان والأصنام فسوف ترون عاقبة كفركم كقوله ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي حقيقة الخسران الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، حيث صاروا إلى نار مؤبدة يضلون سعيها يوم القيامة، فهؤلاء هم الخاسرون كل الخسران^(٦) قال ابن عباس: إن لكل رجل منزلاً وأهلاً

(١) (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ١٩٢/٣.

(٣) «حاشية الصاوي» ٣/٣٦٨.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/٢١٥.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٥/٢٤٢.

(٦) «حاشية الصاوي» ٣/٣٦٩.

(٧) (ش): قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٩٠): «الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: تَفَارَقُوا فَلَا لِقَاءَ لَهُمْ أَبَدًا، سَوَاءٌ ذَهَبَ أَهْلُهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَقَدْ ذَهَبُوا هُمْ إِلَى النَّارِ، أَوْ أَنَّ الْجَمِيعَ أَسْكَنُوا النَّارَ، وَلَكِنْ لَا اجْتِمَاعَ لَهُمْ وَلَا سُورَ.

وخدمًا في الجنة، فإن أطاع الله أعطي ذلك، وإن كان من أهل النار حُرِمَ ذلك، فخسر نفسه وأهله ومنزله^(١) ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أي ألا فانتبهوا أيها القوم ذلك هو الخسران الواضح الذي ليس بعده خسران! قال أبو حيان: بالغ في بيان الخسران بأداة التنبيه «ألا» وبالإشارة إليه «ذلك» وتأكيد به أداة الحصر «هو» وتعريفه بأل ووصفه بأنه بين ﴿الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أي الواضح لمن تأمله أدنى تأمل^(٢)، ثم لَمَّا ذكر خسرانهم في الدنيا ذكر حالهم ومآلهم في الآخرة فقال ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أي تغشاهم نار جهنم من فوقهم ومن تحتهم، وتحيط بهم من جميع جوانبهم، ومعنى الظلل أطباق من نار جهنم^(٣)، وتسميتها ظلالًا تهكم بهم، لأنها مُحْرِقَةٌ وَالظِّلَّةُ تَقِي مِنَ الْحَرِّ ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ﴾ أي ذلك العذاب الشديد الفظيع، إنما يقصه تعالى ليخوف به عباده، لينزجروا عن المحارم والمآثم ﴿يَعْبَادُ فَاتَّقُونِ﴾ أي يا أوليائي خافوا عذابي ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي، قال الزمخشري: وهذه عظة من الله تعالى لعباده ونصيحة بالغة^(٤).. والحكمة من ذكر أحوال النار تخويف المؤمنين منها ليتقوها بطاعة ربهم ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطُّغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ لما ذكر وعيد عبدة الأوثان، ذكر وعد أهل الفضل والإحسان، ممن احترز عن الشرك والعصيان، ليكون الوعد مقرونًا بالوعيد، فيحصل كمال الترغيب والترهيب والمعنى: والذين انتهوا عن عبادة الأوثان وطاعة الشيطان، وتباعدوا عنها كل البعد قال أبو السعود: «الطاغوت» البالغ أقصى غاية الطغيان كالرحموت والعظموت، والمراد به الشيطان وصف به للمبالغة^(٥) ﴿وَأَنَا بَوَّاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي رجعوا إلى طاعة الله وعبادته ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ أي لهم البشري السارة من الله تعالى بالفوز العظيم بجنات النعيم ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ﴾ ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ أي فبشِّر عبادي المتقين الذين يستمعون الحديث والكلام فيتبعون أحسن ما فيه قال ابن عباس: هو الرجل يسمع الحسن والقبیح، فيتحدث بالحسن وينكف عن القبیح فلا يتحدث به^(٦). وهذا ثناء من الله تعالى عليهم بنفوذ بصائرهم، وتمييزهم الأحسن من الكلام، فإذا سمعوا قولاً تبصروه وعملوا بما فيه، وأحسن الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد ﷺ وإنما وضع الظاهر ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ﴾ بدل الضمير (فبشرهم) تشريفًا لهم وتكريماً بالإضافة إليه سبحانه ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أي أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة هم الذين هداهم الله لما يرضاه، ووقفهم لنيل

(١) «التفسير الكبير» ٢٦/٢٥٦.

(٢) «البحر المحيط» ٧/٤٢٠.

(٣) (ش): أي طبقات من نار جهنم، الطَّبَقَةُ تَكُونُ أَسْفَلَ مِنَ الْأُخْرَى.

(٤) «تفسير الكشاف» ٩٣/٤.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٤/٣٠٥.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٥/٢٤٤.

رضاه ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي أولئك هم أصحاب العقول السليمة، والفطر المستقيمة ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ أي أفمن وجبت له الشقاوة من الله تعالى، وجوابه محذوف دل عليه ما بعده أي هل تقدر على هدايته؟ لا. ثم قال تعالى ﴿أَفَأَنْتُ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾؟ أي هل تستطيع يا محمد أن تنقذ من هو في الضلال والهلاك؟ قال القرطبي: كان النبي ﷺ يحرص على إيمان قومه وقد سبقت لهم من الله الشقاوة فنزلت الآية، وقال ابن عباس: يريد «أبا لهب» وولده ومن تخلف من عشيرة النبي ﷺ عن الإيمان، وكرر الاستفهام «أفأنت» تأكيداً لطول الكلام والمعنى: أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه^(١)؟ ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَفَوْا بِهِمْ﴾ أي لكن المؤمنين الأبرار، المتقون لله في الدنيا، المتمسكون بشريعته وطاعته ﴿هُمْ عُرِفُوا مِنْ فَوْقَهَا عُرْفًا مَبِينَةً﴾ أي لهم في الجنة درجات عالية وقصور شاهقة بعضها فوق بعض مبنية من زبرجد وياقوت^(٢) ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي تجري من تحت قصورها وأشجارها أنهار الجنة من غير أخذود ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِعَادَ﴾ أي وعدهم الله بذلك وعداً مؤكداً لا يمكن أن يتخلف لأنه وعد العزيز القدير.

تنبيه: قال الزمخشري: أفاد قوله تعالى ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ أن المؤمنين ينبغي أن يكونوا نقاداً في الدين، يميزون بين الحسن والأحسن، والفاضل والأفضل، ويدخل تحته المذاهب واختيار أثبتها دليلاً، وأبينها أمانة، وألا يكونوا في مذهبهم كما قال القائل «ولا تكن مثل عير قيد فانقاداً»^(٣).

قال الله تعالى:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنبُوعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَاتَرَاهُ مُصْفًى ثُمَّ يُجْعَلُهُ حُطْلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١١﴾ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَلَيْسَةِ فَلُوبُهُمْ مِنْ ذَكَرِ اللَّهُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَتَانٍ نَقْشُورٌ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿١٣﴾ أَفَمَنْ يَنْقَى بَوَجهَهُ سَوْءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ فَاذْأَقَهُمُ اللَّهُ الْحُزْنَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَنْذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ قُرْآنًا

(١) «تفسير القرطبي» ١٥ / ٢٤٤ ، وهذا القول الثاني رجهه صاحب «التسهيل».

(٢) هذا قول ابن عباس.

(٣) «تفسير الكشاف» ٩٣ / ٤ . (ش): وهذا التمييز يكون باتباع الدليل من القرآن الكريم والسنة الصحيحة المطهرة بفهم سلف الأمة، الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان.

عَرِيبًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصِّمُونَ

المناسبة: لما ذكر تعالى أحوال المشركين وضلالتهم في عبادة غير الله، أردفه بذكر دلائل الوحداية، ثم ذكر القرآن العظيم أشرف الكتب السماوية المنزلة، ومع إقرارهم بفصاحته وإعجازه كذب به المكذبون، ثم ضرب للمشرك والموحد مثلاً في غاية الوضوح.

اللغة: ﴿فَسَلَكُوهُ﴾ أدخله ﴿يَنْبِيعُ﴾ جمع ينبوع وهو عين الماء من الأرض ﴿يَهِيْجُ﴾ ييس قال الأصمعي: هاجت الأرض تهيج إذا دبر نبتها وولّى ^(١) وقال الجوهري: هاج النبت هياجاً إذا ييس، وأرض هائجة إذا ييس بقلها أو اصفر ^(٢) ﴿حُطَلَمًا﴾ فتاتاً وهشيمًا، من تحطمت العود إذا تفتت من اليبس ﴿شَرَحَ﴾ فتح ووسّع ﴿قَسِيَةً﴾ قسا القلب إذا صلب، وكذلك عتا وعسا، وقلب قاس أي صلب لا يرق ولا يلين ﴿مَثَانِي﴾ مكرراً فيه الحكم والمواعظ والأمثال ﴿نَقْشَعُرُ﴾ تضطرب وتتحرك من الخوف ﴿الخزي﴾ الذل والهوان ﴿مُتَشَكِّسُونَ﴾ متنازعون ومختلفون، ورجل شكس: شرس الخلق والطباع.

التفسير: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي ألم تر أيها الإنسان العاقل أن الله بقدرته أنزل المطر من السحاب ﴿فَسَلَكُوهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي أدخله مسالك وعيوناً في الأرض وأجراه فيها قال المفسرون: وهذا دليل على أن ماء العيون من المطر، تحبسه الأرض ثم ينبع شيئاً فشيئاً قال ابن عباس: ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكن عروق الأرض تغيره ^(٣) ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ﴾ أي ثم يخرج بهذا الماء النازل من السماء والنابع من الأرض أنواع الزروع، المختلفة الأشكال والألوان، من أحمر وأبيض وأصفر، والمختلفة الأصناف من قمح وأرز وعدس وغير ذلك قال البيضاوي: ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ﴾ أي أصنافه من برّ وشعير وغيرهما، أو كفياته من خضرة وحمرة وغيرهما ^(٤) ﴿ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرْتَهُ مُتْصِفًا﴾ أي ثم ييس فتراه بعد خضرته مصفراً ﴿ثُمَّ يَجْعَلُوهُ حُطَلَمًا﴾ أي ثم يصبح فتاتاً وهشيمًا متكسراً ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي إن فيما ذكر لعظة وعبرة، ودلالة على قدرة الله ووحدانيته لذوي العقول المستنيرة.. والآية فيها تمثيل لحياة الإنسان بالحياة الدنيا، فمهما طال عمر الإنسان فلا بد من الانتهاء، إلى أن يصير مصفر اللون، متحطم الأعضاء، متكسراً كالزراع بعد نضرتة، ثم تكون عاقبته الموت قال ابن كثير: هكذا الدنيا تكون خضرة ناضرة حسناء، ثم تعود عجوزاً

(١) «تفسير القرطبي» ٢٤٦/١٥.

(٢) انظر الصحاح و«القاموس المحيط».

(٣) «مختصر ابن كثير» ٢١٧/٣.

(٤) «تفسير البيضاوي» ١٥٤/٢.

شوهاء، وكذلك الشاب يعود شيخاً هرمًا، كبيراً ضعيفًا، وبعد ذلك كله الموت، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير^(١) ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ أي وسَّع صدره للإسلام، واستضاء قلبه بنوره حتى ثبت ورسخ فيه ﴿فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي فهو على بصيرة ويقين من أمر دينه، وعلى هدى من ربه بتنوير الحق في قلبه، وفي الآية محذوف دل عليه سياق الكلام تقديره كمن هو أعمى القلب، معرض عن الإسلام؟ قال الطبري: وترك الجواب اجتراءً بمعرفة السامعين وبدلالة ما بعده وتقديره: كمن أقسى الله قلبه وأخلاه من ذكره حتى ضاق عن استماع الحق، واتباع الهدى^(٢) ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي فويل للذين لا تلين قلوبهم ولا تخشع عند ذكر الله، بـ «ذكر الله» القرآن الذي أنزله الله تذكراً لعباده ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي أولئك الذين قست قلوبهم في بُعد عن الحق ظاهر. ولما بين تعالى ذلك أردفه بما يدل على أن القرآن سبب لحصول النور والهداية والشفاء فقال ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ أي الله نزل القرآن العظيم أحسن الكلام قال أبو حيان: والابتداء باسم «الله» وإسناد «نزل» لضميره، فيه تفخيم للمُنزل، ورفع من قدره كما تقول: الملك أكرم فلانًا، فإنه أفخم من أكرم الملك فلانًا، وحكمة ذلك البداءة بالأشرف^(٣) ﴿كَتَبْنَا مُتَشَاهِبًا﴾ أي قرآنًا متشابهًا يشبه بعضه بعضًا في الفصاحة، والبلاغة، والتناسب، بدون تعارض ولا تناقض ﴿مَثَانِي﴾ أي تُثنى وتكرر فيه المواعظ والأحكام، والحلال والحرام، وتردّد فيه القصص والأخبار دون سأم أو ملل قال الطبري: تُثنى أي تكرر فيه الأنباء والأخبار والقضاء والأحكام والحجج^(٤) ﴿نَقْشُورُهُمْ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي تعتري هؤلاء المؤمنين خشية، وتأخذهم قشعريرة عند تلاوة آيات القرآن، هيبة من الرحمن وإجلالًا لكلامه ﴿ثُمَّ تَلِيْنُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي تطمئن وتسكن قلوبهم وجلودهم إلى ذكر الله قال المفسرون: إنهم عند سماع آيات الرحمة والإحسان تلين جلودهم وقلوبهم وقال العارفون: إذا نظروا إلى عالم الجلال طاشوا، وإن لاح لهم أثر من عالم الجمال عاشوا^(٥) قال ابن كثير: هذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار، إذا قرءوا آيات الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشعر جلودهم من الخشية والخوف وإذا قرءوا آيات الرحمة لانت جلودهم وقلوبهم، لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه^(٦) ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي ذلك القرآن الذي تلك صفته

(١) «مختصر ابن كثير» ٢١٧/٣.

(٢) «تفسير الطبري» ١٣٤/٢٣.

(٣) «البحر المحيط» ٤٢٢/٤.

(٤) «تفسير الطبري» ١٣٥/٢٣.

(٥) التفسير الكبير ٢٧٢/٢٦.

(٦) «مختصر ابن كثير» ٢١٧/٣.

هو هدى الله يهدي به من شاء من خلقه ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي ومن يخذله الله فيجعل قلبه قاسياً مظلماً، فليس له مرشد ولا هاد بعد الله ﴿أَفَمَنْ يَبْقَى بِوَجْهِهِ سُوءُ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي فمن يجعل وجهه وقايةً من عذاب جهنم الشديد، وخبره محذوف تقديره كمن هو آمن من العذاب؟ قال المفسرون: الوجه أشرف الأعضاء فإذا وقع الإنسان في شيء من المخاوف فإنه يجعل يده وقاية لوجهه، وأيدي الكفار مغلولة يوم القيامة، فإذا ألقيوا في النار لم يجدوا شيئاً يتقونها به إلا وجوههم ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي وتقول خزنة جهنم للكافرين: ذوقوا وبال ما كنتم تكسبون في الدنيا من الكفر والمعاصي ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي كذب من قبلهم من الأمم السالفة فاتاهم العذاب من جهة لا تخطر ببالهم ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي فأذاقهم الله الذل والصغار والهوان في الدنيا ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي ولعذاب الآخرة الذي أعد لهم أعظم بكثير من عذاب الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كان عندهم علم وفهم ما كذبوا ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي ولقد بينا ووضعنا للناس في هذا القرآن من كل الأمثال النافعة، والأخبار الواضحة ما يحتاجون إليه ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْذَكَّرُونَ﴾ أي لعلهم يتعظون ويعتبرون بتلك الأمثال والزواجر ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أي حال كونه قرآناً عربياً لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه، ولا تعارض ولا تناقض ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي لكي يتقوا الله ويجتنبوا محارمه. ثم ذكر تعالى مثلاً لمن يشرك بالله ولمن يؤخّده فقال ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ أي ضرب الله لكم أيها الناس هذا المثل: رجل من المماليك اشترك فيه مَلَأٌ سَيِّئُ الْأَخْلَاقِ، بينهم اختلاف وتنازع، يتجاذبون في حوائجهم، هذا يأمره بأمر وذاك يأمره بمخالفته، وهو متحير موزع القلب، لا يدري لمن يُرضي^(١)؟ ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ هذا من تِمَّة المثل أي رجلاً آخر لا يملكه إلا شخص واحد، حسن الأخلاق، فهو عبد مملوك لسيد واحد، يخدمه بإخلاص ويتفانى في خدمته، ولا يلقي من سيده إلا إحساناً ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي هل يستوي هذا وهذا في حسن الحال، وراحة البال؟ فكَذَلِكَ لَا يَتَسَاوَى الْمُؤْمِنُ الْمُوَحِّدُ مَعَ الْمُشْرِكِ الَّذِي يَعْبُدُ آلِهَةً شَتَّى. قال ابن عباس: هذه الآية ضربت مثلاً للمشرك والمخلص^(٢) وقال الرازي: وهذا مثل ضرب في غاية الحُسن في تقييح الشرك، وتحسين التوحيد^(٣) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لما كان المثل بيناً واضحاً في غاية الجلاء والوضوح ختم به الآية والمعنى: الحمد لله على إقامة الحجة عليهم بل أكثر هؤلاء المشركين

(١) (ش): هكذا في أكثر من طبعة، ولعل الصواب: لا يدري مَنْ يُرضي؟

(٢) «مختصر ابن كثير» ٢١٩/٣.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٦/٢٧٧.

لا يعلمون الحق فهم لفرط جهلهم^(١) يشركون بالله ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ أي إنك يا محمد ستموت كما يموت هؤلاء، ولا يخلد أحد في هذه الدار ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصِّصُونَ﴾ أي ثم تجتمعون عند الله في الدار الآخرة، وتختصمون فيما بينكم من المظالم وأمر الدنيا والدين ويفصل بينكم أحكم الحاكمين.

قال الله تعالى:

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيَكْفِرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَٰكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ۖ أَلَلَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضُرِّي ۚ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَنْقُورِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ بِمُكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسَاكٍ ۗ أَلَتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلَ الْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ أَخَذْنَا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفْعَاءَ قُلْ أُولَٰئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا ۚ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَا فُنَدُوا بِهِ ۚ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۖ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

المناسبة: لما ذكر أن الخلق صائرون إلى الموت، وأن المؤمنين والكافرين سيختصمون

(١) (ش): أي لشدة جهلهم، وكثرة.

عند ربهم في أمر التوحيد والشرك، وأنه تعالى يفصل بينهم، ذكر هنا جزاء كل من الفريقين، ثم أتبعه بذكر قبائح المشركين واعتدادهم بشفاععة الأوثان والأصنام.

اللغة: ﴿مَوَى﴾ مأوى ومقام، مشتق من ثوى بالمكان إذا أقام به ﴿يُخْزِيهِ﴾ يهينه ويذله ﴿أَسْمَأَزَّتْ﴾ نفرت وانقبضت ﴿فَاطَرَ﴾ خالق ومبدع ﴿يَحْتَسِبُونَ﴾ يظنون ويؤمنون يقال: جاءه الأمر من حيث لا يحتسب، أي: من حيث لا يظن ﴿وَحَاقَ﴾ نزل وأحاط بهم من كل جانب ﴿خَوَّلْنَاهُ﴾ منحناه وأعطيناه تفضلاً وكرماً ﴿مُعْجِزَاتٍ﴾ فائتين من العذاب ﴿يَقْدِرُ﴾ يُضَيِّقُ وَيُقْتَرِّ.

التفسير: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى النفي، أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله بنسبة الشريك له والولد ﴿وَكَذَبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ أي وكذب بالقرآن والشرعية وقت مجيئه من غير تدبر ولا تأمل؟ أي لا أحد أظلم ممن حاله ذلك، فإنه أظلم من كل ظالم ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾؟ أي أليس في جهنم مقام ومأوى لهؤلاء الكافرين المكذبين؟ والاستفهام هنا تقرير، أي: بلى لهم مأوى ومكان ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ أي وأما الذين جاءوا بالصدق وهم الأنبياء، والذين صدقوا به وهم المؤمنون أتباع الرسل ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ أي فأولئك الموصوفون بالصفات الحميدة هم أهل التقوى والصلاح الذين يستحقون كل إحسان وإكرام ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي لهم كل ما يشتهون في الجنة من الحور، والقصور، والملاذ، والنعيم ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي ذلك الذي ينالونه هو ثواب كل محسن أحسن في هذه الحياة قال بعض المفسرين: «الذي جاء بالصدق» هو محمد ﷺ «وصدق به» هو أبو بكر رضي الله عنه^(١)، والاختيار أن يكون على العموم حتى يشترك في هذه الصفة كل الرسل الكرام، وكل من دعا إلى هذا الصدق عن عقيدة وإيمان من أتباع الرسل، ونيدل عليه ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ بصيغة الجمع، وهذا اختيار ابن عطية ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أي هؤلاء الذين صدقوا الأنبياء سيغفر الله لهم ما أسلفوا من الأعمال السيئة فلا يعاقبهم بها ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ويثيبهم على طاعتهم في الدنيا بحساب الأحسن الذي عملوه فضلاً منه وكرماً قال المفسرون: العدل أن تحسب الحسنات وتحسب السيئات، ثم يكون الجزاء، والفضل هو الذي يتجلى به الله على عباده المتقين، فيكفر عنهم أسوأ أعمالهم، فلا يبقى لها حساب في ميزانهم، وأن يجزيهم أجرهم بحساب أحسن الأعمال، فتزيد حسناتهم وتعلو وترجح كفة الميزان، وهذا من زيادة الكرم والإحسان ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾؟ الهمزة للتقرير، أي: أليس الله كافياً عبده ورسوله محمداً ﷺ من شر من

(١) روي هذا عن مجاهد وقتادة، والراجح أن الآية على العموم في الرسل والمؤمنين.

يريده بسوء؟ قال أبو السعود: تسليّة لرسول الله ﷺ عما قالت له قريش: لتكفنّ عن شتم آلهتنا، أو ليصينّك منها خبل أو جنون^(١) وقال أبو حيان: قالت قريش: لئن لم ينته محمد عن سبّ آلهتنا وتعييننا لنسلطانها عليه فتصيبه بخبل وتعتريه بسوء، فأنزل الله ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ أي هو كافٍ عبده، وإضافته إليه تشریفٌ عظيمٌ لنبیه^(٢) ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي ويخوفونك يا محمد بهذه الأوثان التي لا تضر ولا تنفع ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي ومن أشقاه الله وأضله فلن يهديه أحدٌ كائنًا من كان ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ أي ومن أراد الله سعادته فهداه إلى الحق، ووفقه لسلوك طريق المهتدين، فلن يقدر أحدٌ على إضلاله ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْفِقَارٍ﴾؟ أي هو تعالى منيع الجَنَاب^(٣) لا يُضَامُ مَنْ لجأ إلى بابه^(٤)، وهو القادر على أن ينتقم من أعدائه لأوليائه، لأنه غالبٌ لا يُغلب، ذو انتقام من أعدائه، وفي الآية وعيدٌ للمشركين، ووعدٌ للمؤمنين ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ﴾ هذه الآية إقامة برهان على تزييف طريقة عبدة الأوثان، أي: ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين عمّن خلق السموات والأرض ليقولنَّ الله خالقهما، لو ضوح الدليل على تفردته تعالى بالخالقية قال الرازي: إن العلم بوجود الإله القادر الحكيم، لا نزاع فيه بين جمهور الخلائق، وفطرة العقل شاهدةٌ بصحة هذا العالم، فإن من تأمل في عجائب أحوال السموات والأرض، وفي عجائب أحوال النبات والحيوان، وفي عجائب بدن الإنسان وما فيه من أنواع الحكم الغريبة، والمصالح العجيبة، علم أنه لا بد من الاعتراف بالإله القادر الحكيم الرحيم، ولهذا أقر المشركون بوجود الله^(٥) ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي قل لهم يا محمد توبيخًا وتبكيًا: أخبروني بعد أن تحققت أن خالق العالم هو الله عن هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيَّ؟﴾ أخبروني لو أراد الله أن يصيبني بشدة أو بلاء، هل تستطيع هذه الأصنام أن تدفع عني ذلك السوء والضّر؟ ﴿أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ؟﴾ أي ولو أراد الله نفعًا من نعمته ورخاء هل تستطيع أن تمنع عني هذه الرحمة؟ والجواب محذوفٌ لدلالة الكلام عليه يعني فسيقولون: لا، لا تكشف السوء، ولا تمنع الرحمة^(٦) ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي الله

(١) «تفسير ابي السعود» ٤/ ١٣٠.

(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٤٢٩.

(٣) (ش): أي عزيزٌ، مرهوبٌ، يُخْشَى بأسه.

(٤) (ش): الضيم: فُعْلٌ يُسَبِّبُ الظلمَ والإذلال. يقال: ضَامَ الشخص: قهره، ظلمه وأضر به. ضَامَ عدوّه: أذله.

ضَامَهُ حَقُّهُ: انتقصه.

(٥) «التفسير الكبير» ٢٦/ ٢٨٢.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٥٩.

كافيني فلا ألتفت إلى غيره، عليه وحده يعتمد المعتمدون، والغرض الاحتجاج على المشركين في عبادة ما لا يضر ولا ينفع، وإقامة البرهان على الوحانية ﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانِكُمْ﴾ أي اعملوا على طريقتكم من المكر والكيد والخداع ﴿إِنِّي عَمَلٌ﴾ أي إني عامل على طريقتي، من الدعوة إلى الله وإظهار دينه ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٣٩) من يأتيه عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴿أي فسوف تعلمون لمن سيكون العذاب الذي يذل ويخزي الإنسان وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي وينزل عليه عذاب دائم لا ينقطع وهو عذاب النار، هل هذا العذاب سيصيبني أو يصيبكم؟ والغرض التهديد والتخويف قال أبو السعود: وفي الآية مبالغة في الوعيد، وإشعار بأن حاله عليه السلام لا تزال تزداد قوة بنصر الله وتأيدته، وفي خزي أعدائه دليل غلبته عليه الصلاة والسلام، وقد عذبهم الله وأخزاهم يوم بدر (٤٠) ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي نحن أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن المعجز في بيانه، الساطع في برهانه، لجميع الخلق، بالحق الواضح الذي لا يلتبس به الباطل ﴿فَمَنْ أَهْتَكَدَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ﴾ أي: فمن اهتدى فنفعه يعود عليه، ومن ضل فضرر ضلاله لا يعود إلا عليه ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي لست بموكل عليهم حتى تجبرهم على الإيمان قال الصاوي: وفي هذا تسلية له ﷺ. والمعنى: ليس هداهم بيدك حتى تقهرهم وتجبرهم عليه، وإنما هو بيدنا، فإن شئنا هديناهم وإن شئنا أبقيناهم على ما هم عليه من الضلال (٤١) ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي يقبضها من الأبدان عند فناء آجالها وهي الوفاة الكبرى ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ أي ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها وهي الوفاة الصغرى قال في التسهيل: هذه الآية للاعتبار. ومعناها: أن الله يتوفى النفوس على وجهين: أحدهما: وفاة كاملة حقيقية وهي الموت، والآخر: وفاة النوم لأن النائم كالميت، في كونه لا يبصر ولا يسمع، ومنه قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠] وفي الآية عطف والتقدير: ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها (٤٢) وقال ابن كثير: أخبر تعالى بأنه المتصرف في الوجود كما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى، بما يرسل من الحفظة الملائكة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام (٤٣) ﴿فَيَمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ أي فيمسك الروح التي قضى على صاحبها الموت فلا يردها إلى البدن ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ويرسل الأنفس النائمة إلى بدنها عند اليقظة إلى وقت محدود، هو أجل موتها الحقيقي قال ابن عباس: إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام،

(١) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٣١٠.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/ ٣٧٤.

(٣) «التسهيل» ٣/ ١٩٦.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٢٢.

فتتعارف ما شاء الله لها، فإذا أرادت الرجوع إلى أجسادها، أمسك الله أرواح الأموات عنده، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها^(١) قال القرطبي: وفي الآية تنبيه على عظيم قدرته تعالى، وانفراده بالألوهية، وأنه يحيي ويميت، ويفعل ما يشاء، لا يقدر على ذلك سواه^(٢)، ولهذا قال ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إن في هذه الأفعال العجيبة لعلامات واضحة قاطعة، على كمال قدرة الله وعلمه، لقوم يُجِيلُونَ أفكارهم فيها^(٣) فيعتبرون ﴿أَمْ أَلْهَوْا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفْعَاءَ﴾ أم للإضراب، أي: لم يتفكروا بل اتخذوا لهم شفعاء من الأوثان والأصنام، فانظر إلى فرط جهالتهم حيث اتخذوا من لا يملك شيئاً أصلاً شفعاء لهم عند الله قال ابن كثير: هذا ذمٌ للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله وهي الأصنام والأوثان التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم، بلا دليل ولا برهان، وهي لا تملك شيئاً من الأمر، وليس لها عقل تعقل به، ولا سمعٌ تسمع به، ولا بصرٌ تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالاً بكثير من الحيوانات^(٤) ﴿قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَآيَمَلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام توبيخي، أي: قل لهم يا محمد: اتخذونهم شفعاء ولو كانوا على هذه الصفة جمادات لا تقدر على شيء، ولا عقل لها ولا شعور؟ ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ أي قل لهم: الشفاعة لله وحده، لا يملكها أحدٌ إلا الله تعالى، ولا يستطيع أحد أن يشفع إلا بإذنه ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هو المتصرف في الملك والملكوت قال البيضاوي: أي هو تعالى مالك الملك كله، لا يملك أحدٌ أن يتكلم في أمره دون إذنه ورضاه^(٥) ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي ثم مصيركم إليه يوم القيامة، فيحكم بينكم بعدله، ويجازي كلًّا بعمله. ثم ذكر تعالى نوعاً آخر من أفعالهم القبيحة فقال ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أي وإذا أفرد الله بالذكر، ولم يذكر معه آلهتهم وقيل أمام المشركين: لا إله إلا الله ﴿أَسْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي نفرت وانقبضت من شدة الكراهة قلوب هؤلاء المشركين ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي وإذا ذكرت الأوثان والأصنام إذا هم يفرحون ويُسرُّون قال الإمام الفخر: هذا نوع آخر من قبائح المشركين، فإنك إذا ذكرت الأصنام وقلت: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ظهرت آثار النفرة من وجوههم وقلوبهم، وإذا ذكرت الأصنام والأوثان ظهرت آثار الفرح والبشارة في قلوبهم وصدورهم، وذلك يدل على الجهل والحماقة، لأن ذكر الله رأس السعادات وعنوان الخيرات، وذكر الأصنام الجمادات رأس الجهالات والحماقات، فنفرتهم عن ذكر الله، واستبشارهم بذكر

(١) «تفسير القرطبي» ١٥ / ٢٦٠.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥ / ٢٦٣.

(٣) (ش): أَجَالَ الْقَوْمُ الرَّأْيَ فيما بينهم: تداولوا البحث فيه. أجال الرَّأْيَ في الموضوع: فكَّر فيه.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣ / ٢٢٢.

(٥) «تفسير البيضاوي» ٢ / ١٥٤.

الأصنام، من أقوى الدلائل على الجهل الغليظ، والحق الشديد^(١) ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي قل: يا الله يا خالق ومبدع السموات والأرض ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي يا عالم السر والعلانية، يا من لا تخفى عليه خافية، مما هو غائب عن الأعين أو مُشَاهَدٌ بِالْأَبْصَارِ ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي أنت تفصل بين الخلائق بعدلك وقضائك، فافصل بيني وبين هؤلاء المشركين قال في البحر: لما أخبر عن سخافة عقولهم باشمئزازهم من ذكر الله، واستبشارهم بذكر الأصنام أمر رسوله أن يدعو بأسمائه العظمى من القدرة والعلم ليفصل بينه وبين أعدائه، وفي ذلك وعيد للمشركين وتسلية للرسول عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقال الصاوي^(٢): أي التَّجَيُّ إلى ربك بالدعاء والتضرع فإنه القادر على كل شيء^(٣) ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي ولو أن لهؤلاء المشركين الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب القرآن والرسول ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ﴾ أي لو ملكوا كل ما في الأرض من أموال، وملكوا مثل ذلك معه ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي لجعلوا كل ما لديهم من أموال وذخائر، فدية لأنفسهم من ذلك العقاب الشديد يوم القيامة ﴿وَبَدَّلَهُمْ مِنْكَ اللَّهُ مَالَهُمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ أي وظهر لهم من أنواع العقوبات ما لم يكن في حسابهم قال أبو السعود: وهذا غاية من الوعيد لا غاية وراءها، ونظيرها في الوعد ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]^(٤) ﴿وَبَدَّلَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا﴾ أي وظهر لهم في ذلك اليوم المفزع سيئات أعمالهم التي اكتسبوها ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي وأحاط ونزل بهم من كل الجوانب جزاء ما كانوا يستهزئون به قال ابن كثير: أي أحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به في الدنيا^(٥) ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ أي فإذا أصاب هذا الإنسان الكافر شيء من الشدة والبلاء، تضرع إلى الله وأناب إليه ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا﴾ أي ثم إذا أعطيناه نعمة منا تفضلا عليه وكرما ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ أي قال ذلك الإنسان الكافر الجاحد: إنما أُعْطِيتُهُ على علم مني بوجوه المكاسب والمتاجر ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أي ليس الأمر كما زعم بل هي اختبارٌ وامتحانٌ له، لنتخبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصي؟ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن إعطاءهم المال اختبار وابتلاء فلذلك يبطرون ﴿قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي قال تلك الكلمة والمقالة الكفار قبلهم كقارون وغيره حيث قال ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨] ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي فما نفعهم

(١) «التفسير الكبير» ٢٦/ ٢٨٦.

(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٤٣٢.

(٣) «حاشية الصاوي» ٣/ ٣٥٧.

(٤) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٣١١.

(٥) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٢٤.

ما جمعوه من الأموال، ولا ما كسبوه من الحطام ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي فنالهم جزاء أعمالهم السيئة ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ﴾ أي والذين ظلموا من هؤلاء المشركين كفار قریش ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي سينالهم جزاء أعمالهم القبيحة كما أصاب أولئك قال البيضاوي: وقد أصابهم ذلك فإنهم قد فُحطوا سبع سنين حتى أكلوا الجيف وقُتل ببدن صناديدهم^(١) ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي وليسوا بفائتين من عذابنا، لا يعجزوننا هرباً ولا يفوتوننا طلباً.. ثم ردّ عليهم زعمهم فيما أوتوا من المال وسعة الحال فقال ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾؟ أي أولم يعلم هؤلاء المشركون أن الله يوسع الرزق على قوم، ويضيّقه على آخرين؟ فليس أمر الرزق تابعاً لذكاء الإنسان أو غبائه، إنما هو تابعٌ للقسمة والحكمة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي إن في الذي ذكر لعبراً وحججاً لقوم يصدّقون بآيات الله قال القرطبي: وخصّ المؤمن بالذكر، لأنه هو الذي يتدبر الآيات وينتفع بها، ويعلم أن سعة الرزق قد يكون استدراجاً، وأن تقيره قد يكون إعظاماً^(٢).

قال الله تعالى:

قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَءَايَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَنَجِّى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ الشُّوْءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاثَةِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَغْوَى اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَ بِالنَّبِيِّنَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ

(١) «تفسير البيضاوي» ١٥٦/٢.

(٢) «تفسير القرطبي» ٢٦٧/١٥.

مَا عَمِلْتُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ

المناسبة: لما ذكر تعالى أحوال الفجرة المشركين، وذكر ما يكونون عليه في الآخرة من الذل والهوان، دعا المؤمنين إلى الإنابة والتوبة قبل فوات الأوان، وختم السورة بذكر عظمة الله وجلاله يوم الحشر الأكبر، حيث يكون العدل الإلهي والقسطاس المستقيم، ويساق السعداء إلى الجنة زمراً، والأشقياء إلى النار زمراً ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا... ﴾ الآية. **اللغة:** ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿مَثْوًى﴾ مكان إقامة يقال: ثوى بالمكان أقام فيه ﴿مَقَالِيدُ﴾ خزائن ومفاتيح ﴿زُمَرًا﴾ جماعات جماعات جمع زمرة وهي الجماعة ﴿خَزَنَتُهَا﴾ حُرَاسُهَا الموكلون عليها ﴿نَتَبَوَّأُ﴾ تبوأ المكان حلّ ونزل فيه ﴿حَافِيَتُ﴾ محيطين به من أطرافه وجهاته.

التفسير: ﴿قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ أخبر يا محمد عبادي المؤمنين الذين أفرطوا في الجناية على أنفسهم بالمعاصي والآثام ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ أي لا تيأسوا من مغفرة الله ورحمته ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ أي إنه تعالى يعفو عن جميع الذنوب لمن شاء، وإن كانت مثل زبد البحر ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة، وظاهر الآية أنها دعوة للمؤمنين إلى عدم اليأس من رحمة الله لقوله ﴿يٰعِبَادِيَ﴾ وقال ابن كثير: هي دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخباراً بأن الله يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها مهما كثرت ^(١) ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ﴾ أي ارجعوا إلى الله واستسلموا له بالطاعة والخضوع والعمل الصالح ﴿مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ من قبل حلول نقمته تعالى بكم ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرِفُونَ﴾ ^(٢) أي ثم لا تجردون من يمنحكم من عذابه ^(٣) ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي اتبعوا القرآن العظيم، بامثال أوامره

(١) «حاشية الصاوي» ٣/ ٣٧٦.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٢٧.

(٣) «الكشاف» ٤/ ١٠٥.

واجتناب نواهيه^(١)، والزموا أحسن كتاب أنزل إليكم فيه سعادتكم وفلاحكم ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ﴿١﴾ أي من قبل أن ينزل بكم^(٢) العذاب فجأة وأنتم غافلون، لا تدرون بمجيئه لتتداركوا وتتأهبوا ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ﴾ ﴿٢﴾ أي لثلاث تقول بعض النفوس التي أسرفت في العصيان ﴿بَحَسْرَتٍ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ ﴿٣﴾ أي يا حسرتي وندامتني على تفريطي وتقصيري في طاعة الله وفي حقه قال مجاهد: يا حسرتا على ماضيت من أمر الله^(٣) ﴿وَأِنْ كُنْتَ لِمَنْ السَّخِرِينَ﴾ ﴿٤﴾ أي وإن الحال والشأن أنني كنت من المستهزئين بشريعة الله ودينه قال قتادة: لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٥﴾ «أو» للتنويع أي يقول الكافر والفاجر هذا أو هذا. والمعنى: لو أن الله هداني لاهتديت إلى الحق، وأطعت الله، وكنت من عباده الصالحين قال ابن كثير: يتحسر المعجرم ويود لو كان من المحسنين المخلصين، المطيعين لله عز وجل^(٤) ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٦﴾ أي أو تقول تلك النفس الفاجرة حين مشاهدتها العذاب لو أن لي رجعة إلى الدنيا لأعمل بطاعة الله، وأحسن سيرتي وعملي ﴿بَلَى قَدْ جَاءَ تَاكِئَاتِي﴾ ﴿٧﴾ هو جواب قوله ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ والمعنى بلى قد جاءك الهدى من الله بإرساله الرسل، وإنزاله الكتب ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٨﴾ أي فكذبت بالآيات، وتكبرت عن الإيمان، وكنت من الجاحدين قال الصاوي: إن الكافر أولاً يتحسر، ثم يحتاج بحجج واهية، ثم يتمنى الرجوع إلى الدنيا^(٥)، ولورُدَّ لِعَادٍ إِلَى ضلّاله كما قال تعالى ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ ﴿٩﴾ أي ويوم القيامة ترى أيها المخاطب الذين كذبوا على الله بنسبة الشريك له والولد وجوههم سوداء مظلمة بكذبهم وافترائهم ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَأْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ﴿١٠﴾ استفهام تقرير، أي: أليس في جهنم مقام ومأوى للمستكبرين عن الإيمان، وعن طاعة الرحمن؟ بلى إن لهم منزلاً ومأوى في دار الجحيم.. ولما ذكر حال الكاذبين على الله، ذكر حال المتقين لله فقال ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ ﴿١١﴾ أي وينجي الله المتقين بسبب سعادتهم وفوزهم بمطلوبهم وهو الجنة دار الأبرار ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿١٢﴾ أي لا ينالهم هلع ولا جزع، ولا هم يحزنون في الآخرة، بل هم آمنون ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ﴾ [القمر: ٥٥] ثم عاد إلى دلائل الألوهية والتوحيد، بعد أن أفاض في الوعد والوعيد فقال ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/٢٨٣.

(٢) نفس المرجع السابق ١٥/٢٦٨.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/٢٧١.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/٢٧٧.

(٥) «حاشية الصاوي» على الجلالين ٣/٣٧٧.

شَيْءٍ ﴿١﴾ أَيُّ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا خَالِقُ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ وَمُوجِدُ الْمَخْلُوقَاتِ، وَالْمَتَصَرِّفُ فِيهَا كَيْفَ يَشَاءُ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أَيُّهُوَ الْقَائِمُ بِتَدْيِيرِ كُلِّ شَيْءٍ ﴿لَهُ، مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيُّبِيْدُهُ جَلَّ وَعَلَا مَفَاتِيحُ خَزَائِنِ كُلِّ الْأَشْيَاءِ، لَا يَمْلِكُ أَمْرَهَا وَلَا يَتَصَرَّفُ فِيهَا غَيْرُهُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «مَقَالِيدُ» مَفَاتِيحُ، وَقَالَ السَّيِّدِي: خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِيْدِهِ ^(١) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أَيُّوَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ الْقُرْآنِ الظَّاهِرَةِ، وَالْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَةِ، أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ أَشَدَّ الْخَسْرَانِ ﴿قُلْ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَني أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾؟ أَيُّقُلْ يَا مُحَمَّدُ: أَتَأْمُرُونِي أَنْ أَعْبُدَ غَيْرَ اللَّهِ بَعْدَ سَطْوِ الْآيَاتِ وَالِدَلَائِلِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ يَا أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ؟ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: إِنَّ الْمَشْرِكِينَ مِنْ جَهْلِهِمْ دَعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَى عِبَادَةِ آلِهَتِهِمْ، وَيَعْبُدُوا مَعَهُ إِلَهَهُ فَنَزَلَتْ الْآيَةُ ^(٢) ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ الْإِلَهِ الْوَاحِدَ لِلْقَسَمِ ^(٣) أَيُّوَاللَّهُ لَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ ﴿لَئِنْ أَشْرَكَكَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ أَيُّلِئِنْ أَشْرَكَكَ يَا مُحَمَّدُ لَيُطْلَنَّ وَيُفْسَدَنَّ عَمَلُكَ الصَّالِحَ ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أَيُّلَتَكُونَنَّ فِي الْآخِرَةِ مِنْ جَمَلَةِ الْخَاسِرِينَ بِسَبَبِ ذَلِكَ. وَهَذَا عَلَى سَبِيلِ الْفَرْضِ وَالتَّقْدِيرِ، وَإِلَّا فَالرَّسُولُ ﷺ قَدْ عَصَمَهُ اللَّهُ، وَحَاشَا لَهُ أَنْ يَشْرَكَ بِاللَّهِ، وَهُوَ الَّذِي جَاءَ لِإِقَامَةِ صِرَاحِ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ قَالَ أَبُو السَّعُودِ: وَالْكَلَامُ وَارِدٌ عَلَى طَرِيقَةِ الْفَرْضِ لِتَهْيِيجِ الرَّسُولِ، وَإِقْنَاتِ الْكُفْرَةِ، وَالْإِذَانِ بِغَايَةِ شِنَاعَةِ الْإِشْرَاقِ وَقَبِيحِهِ ^(٤) ﴿بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ﴾ أَيُّأَخْلَصِ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَلَا تَعْبُدْ أَحَدًا سِوَاهُ. ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أَيُّوَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ لِإِنْعَامِ رَبِّكَ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أَيُّوَمَا عَرَفُوا اللَّهَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ، إِذْ أَشْرَكُوا مَعَهُ غَيْرَهُ، وَسَاوَوْا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَجَرِ وَالْخَشَبِ فِي الْعِبَادَةِ ^(٥).. ثُمَّ نَبِّهَهُمْ عَلَى عَظَمَتِهِ وَجَلَالَةِ شَأْنِهِ فَقَالَ ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ الْجَمَلَةُ حَالِيَةٌ وَالْمَعْنَى مَا عَظَّمُوهُ حَقَّ تَعْظِيمِهِ وَالحَالُ أَنَّهُ مَوْصُوفٌ بِهَذِهِ الْقُدْرَةِ الْبَاهِرَةِ، الَّتِي هِيَ غَايَةُ الْعَظَمَةِ وَالْجَلَالِ ^(٦)، فَالْأَرْضُ مَعَ سَعَتِهَا وَبَسْطِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَحْتَ قَبْضَتِهِ وَسُلْطَانِهِ ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ أَيُّوَالسَّمَوَاتُ مَضْمُومَاتٌ وَمَجْمُوعَاتٌ بِقُدْرَتِهِ تَعَالَى قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ: وَالْغَرَضُ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ تَصْوِيرُ عَظَمَتِهِ وَالتَّوْقِيفُ عَلَى كُنْهِ جَلَالِهِ لَا غَيْرَ ^(٧)، مِنْ غَيْرِ ذَهَابٍ بِالْقَبْضَةِ وَالْيَمِينِ إِلَى جِهَةٍ ^(٨) وَفِي الْحَدِيثِ «يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ

(١) «تفسير القرطبي» ٢٧٤ / ١٥.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٢٢٨ / ٣. (ش): ضعیف، رواه الطبري في «تفسيره».

(٣) (ش): «مُوطَّئٌ لِلْقَسَمِ: أَيُّمُهِدَّةٌ لَهُ؛ لِأَنَّهَا الَّتِي تُهَيِّئُ الذِّهْنَ لِمَعْرِفَتِهِ».

(٤) «تفسير أبي السَّعُودِ» ٣١٤ / ٤.

(٥) «البحر المحيط» ٤٣٩ / ٧.

(٦) «الكشاف» ١١٠ / ٤.

(٧) أخرجه الشيخان واللفظ للبخاري.

(٨) (ش): «تُوصَفُ يَدُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّهَا يَمِينٌ، وَهَذَا ثَابِتٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. وَتَفْسِيرُ الْيَمِينِ بِالْقُدْرَةِ، تَأْوِيلٌ بَاطِلٌ =

بِإِمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مَلُوكُ الْأَرْضِ؟^(١) ﴿سُبْحَنَهُ، وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه الله وتقدس عما يصفه به المشركون من صفات العجز والنقص، ثم ذكر تعالى أهوال الآخرة فقال ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ هو قَرْنٌ يَنْفُخُ فِيهِ إِسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَمْرِ اللَّهِ^(٢)، والمراد بالنفخة هنا «نفخة الصَّعَق» التي تكون بعد نفخة الفزع قال ابن كثير: وهي النفخة الثانية التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض ﴿فَصَعَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي فخر ميتاً كل من في السموات والأرض ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أي إلا من شاء الله بقاءه كحملة العرش، والحوار العيين والولدان ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى﴾ أي نُفِخَ فِيهِ نفخة أخرى وهي نفخة الأحياء ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ أي فإذا جميع الخلائق الأموات يقومون من القبور ينظرون ماذا يؤمرون ﴿وَأُشْرِقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي وأضاءت أرض المحشر بنور الله يوم القيامة، حين تجلي الباري جلّ وعلا لفصل القضاء بين العباد ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أي أحضرت صحائف أعمال الخلائق للحساب ﴿وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ أي وجيء بالأنبياء ليسألهم رب العزة عما أجابتهم به أمهم، وبالشهداء وهم الحفظة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم^(٣)، وقال السدي: هم الذين استشهدوا في سبيل الله ﴿وَقَضِيَ إِلَيْهِمْ بِالْحَقِّ﴾ أي وقضى بين العباد جميعاً بالقسط والعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي وهم في الآخرة لا يظلمون شيئاً من أعمالهم، لا بنقص ثواب، ولا بزيادة عقاب قال ابن جبير: لا يُنْقَصُ من حسناتهم ولا يزداد على سيئاتهم ﴿وُفِّيتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي جوزي كل إنسان بما عمل من خير أو شر ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي هو تعالى أعلم بما عمل كل إنسان، ولا حاجة به إلى كتاب ولا إلى شاهد، ومع ذلك تشهد الكتب إلزاماً للحجة. ثم فصل تعالى مآل كل من الأشقياء والسعداء فقال ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ أي وسيق الكفرة المجرمون إلى نار جهنم جماعات جماعات، كما يساق الأشقياء في الدنيا إلى السجون ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أي حتى إذا وصلوا إليها فتحت أبواب جهنم فجأة لتستقبلهم ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُم﴾؟ أي وقال لهم خزنة جهنم تقريراً وتوبيخاً: ألم يأتكم رسل من البشر يتلون عليكم الكتب المنزلة من السماء؟ ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾؟ أي ويخوفونكم من شر هذا اليوم العصيب؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي قالوا: بلى قد جاءونا وأنذرونا، وأقاموا علينا الحجج والبراهين، ولكننا كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من

= ليمين الرحمن جل وعلا. والحديث الذي ذكره المؤلف بعدُ يُرَدُّ هذا التأويل.

(١) «مختصر ابن كثير» ٢٢٩/٣. (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٢) (ش): قَرْنٌ: بُوقٌ.

(٣) هذا قول ابن زيد وهو الأظهر كما في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ فالسائق يسوقها إلى الحساب، والشاهد يشهد عليها وهو المَلَكُ الموكل بالإنسان.

الشقاوة قال القرطبي: وهذا اعتراف منهم بقيام الحجة عليهم، والمراد بكلمة العذاب قوله تعالى ﴿لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^(١) [هود: ١١٩] ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي قيل لهم: ادخلوا جهنم لتصلوا سعيها ماكنين فيها أبداً، بلا زوال ولا انتقال ﴿فَيُسْـَمَوْنَ الْمُنكَرِينَ﴾ أي فبئس المقام والمأوى جهنم للمتكبرين عن الإيمان بالله وتصديق رسوله ﴿وَسَيَقُ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ أي وسيق الأبرار المتقون لله إلى الجنة جماعاتٍ جماعاتٍ راكبين على النجائب^(٢) قال القرطبي: سوقُ أهل النار طُرْدُهُمْ إليها بالخزي والهوان، كما يفعل بالمجرمين الخارجين على السلطان، وسوقُ أهل الجنان سوقُ مراكبهم إلى دار الكرامة والرضوان، لأنه لا يُذهب بهم إلا راكبين، كما يفعل بالوافدين على الملوك، فشتان ما بين السَّوقين^(٣) ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أي حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها كقوله تعالى ﴿جَنَّتْ عَدْنٍ مُّفْنَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ [ص: ٥٠] قال الصاوي: والحكمة في زيادة الواو هنا «فتحت» دون التي قبلها، أن أبواب السجون تكون مغلقة إلى أن يجيئها أصحاب الجرائم، فتفتح لهم ثم تغلق عليهم، بخلاف أبواب السرور والفرح فإنها تفتح انتظاراً لمن يدخلها فناسب دخول الواو هنا دون التي قبلها^(٤) ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ أي وقال لهم حراس الجنة: سلامٌ عليكم أيها المتقون الأبرار ﴿طِبْتُمْ﴾ أي طهرتم من دنس المعاصي والذنوب، فادخلوا الجنة دار الخلود، قال البيضاوي: وجواب «إذا» محذوف، للدلالة على أن لهم من الكرامة والتعظيم، ما لا يحيط به الوصف والبيان^(٥) قال ابن كثير: وتقديره إذا كان هذا سَعِدُوا، وطابوا، وسُرُّوا وفرحوا بقدر ما يكون لهم من النعيم^(٦) ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدُهُ﴾ أي وقالوا عند دخولهم الجنة واستقراهم فيها: الحمد لله الذي حقق لنا ما وعدنا به من دخول الجنة قال المفسرون: والإشارة إلى وعده تعالى لهم بقوله ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣] ﴿وَأَوْزَنَّا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أي وملَكنا أرض الجنة نتصرف فيها تصرف المالك في ملكه ونزل فيها حيث نشاء، ولا ينازعنا فيها أحد ﴿فَنَعَمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ﴾ أي فنعم أجر العاملين بطاعة الله الجنة ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ أي وترى يا محمد الملائكة محيطين بعرش الرحمن، محققين به من كل جانب ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي

(١) «تفسير القرطبي» ١٥ / ٢٨٤.

(٢) (ش): النجيب من الإبل: القوي، الخفيف، السريع؛ نجائبُ الإبل: خيارها.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٥ / ٢٨٥.

(٤) «حاشية الصاوي» ١٣ / ٣٨١.

(٥) «تفسير البيضاوي» ٢ / ١٤٧.

(٦) «مختصر ابن كثير» ٣ / ٢٣٢.

يسبحون الله ويمجدونه تلذذاً لا تعبداً^(١) ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي وقضى بين العباد بالعدل ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي وقيل: الحمد لله على عدله وقضائه قال المفسرون: القائل هم المؤمنون والكافرون، المؤمنون يحمدون الله على فضله، والكافرون يحمدونه على عدله قال ابن كثير: نطق الكون أجمعه، ناطقه وبهيمه، الله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله، ولهذا لم يسند القول إلى قائل، بل أطلقه فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد^(٢).

البالغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿تَكْفُرُوا.. تَشْكُرُوا﴾ وبين ﴿رَبِحُوا.. وَيَحْزَنُوا﴾ وبين ﴿فَوْقَهُمْ.. تَحْتَهُمْ﴾ وبين ﴿ضُرُّ.. وَرَحْمَةٌ﴾ وبين ﴿الْغَيْبِ.. وَالشَّهَادَةِ﴾ وبين ﴿يَبْسُطُ.. وَيَقْدِرُ﴾ وبين ﴿أَهْدَى.. وَضَلَّ﴾ إلخ.

٢ - جناس الاشتقاق ﴿يَتَوَكَّلْ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨] وكذلك في قوله ﴿أَحْسِنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [الزمر: ١٠].

٣ - الأسلوب التهكمي ﴿لَهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ﴾ [الزمر: ١٦] إطلاق الظلة عليها تهكم لأنها مُحْرِقَةٌ، والظلة تقي من الحر.

٤ - المقابلة الرائعة ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ..﴾ [الزمر: ٤٥] الآية فقد قابل بين الله والأصنام، وبين السرور والاشمئزاز، وكذلك توجد مقابلة بين آيتي السعداء والأشقياء ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ وقابل ذلك بقوله ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ والمقابلة أن يؤتى بمعنيين أو أكثر، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب وهو من المحسنات البديعية.

٥ - الإيجاز بالحذف لدلالة السياق عليه ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِٗٓ قَوْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَيْتَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢]؟ حذف خبره وتقديره كمن طبع الله على قلبه؟ ومثله ﴿أَمَنَ هُوَ قَنَئَةً أَنَاةً إِلِيلَ﴾ [الزمر: ٩]؟ أي كمن هو كافرٌ جاحد لربه؟

٦ - الأمر الذي يراد منه التهديد ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾ [الزمر: ٨] ومثله ﴿أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ﴾ [الزمر: ٣٩] للمبالغة في الوعيد.

٧ - المجاز المرسل ﴿أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾ [الزمر: ١٩]؟ أطلق المسبب وأراد السبب، لأن الضلال سبب لدخول النار.

(١) (ش): هذا فيه نظر لأنه لا دليل عليه والله وصف الملائكة بأنهم عبادٌ، فلو قال المؤلف: «تلذذاً وتعبداً»، لكان أحسن.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٣٣.

٨ - الاستعارة ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي مفاتيح خيراتها، ومعادن بر كاتها فشبه الخيرات والبركات بخزائن واستعار لها لفظ المقاليد، بمعنى المفاتيح، ومعنى الآية خزائن رحمته وفضله بيده تعالى.

٩ - الاستعارة التمثيلية ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ مثل لعظمته وكمال قدرته، وحقارة الأجرام العظام التي تتحير فيها الأوهام بالنسبة لقدرته تعالى بمن قبض شيئاً عظيماً بكفه، وطوى السموات بيمينه بطريق الاستعارة التمثيلية، قال في «تلخيص البيان»: وفي الآية استعارة. ومعنى ذلك: أن الأرض في مقدوره كالذي يقبض عليه القابض، فستولي عليه كفه، ويحوزه ملكه، ولا يشاركه غيره، والسموات مجموعات في ملكه ومضمومات بقدرته وقال الزمخشري: والآية لتصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله، من غير ذهاب بالقبضة واليمين إلى جهة، لأن الغرض الدلالة على القدرة الباهرة، ولا ترى باباً في علم البيان أدق ولا أرق ولا ألطف من هذا الباب^(١).

١٠ - الكناية ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ جنب الله كناية عن حق الله وطاعته، وهذا من لطيف الكنايات.

١١ - الالتفات من التكلم إلى الغيبة ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ والأصل: (لا تقنطوا من رحمتي) قال علماء البيان: وفي الآية الكريمة ﴿قُلْ يَعْبَادِي الَّذِينَ اسْتَرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية من أنواع المعاني والبيان أمور حسان: منها إقباله تعالى على خلقه وندائه لهم، ومنها إضافة الرحمة للفظ الجلالة الجامع لجميع الأسماء والصفات، ومنها الإتيان بالجملة المعروفة الطرفين المؤكدة بأن وضمير الفصل ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

١٢ - توافق الفواصل في الحرف الأخير، وهو نهاية في الروعة والجمال اقرأ مثلاً قوله تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾^(٦٨) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ^(٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ألا تأخذك روعة هذا البيان برونقه، وجماله، وأدائه، فينطلق لسانك بذكر الرحمن؟!

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الزمر»



(١) (ش): توصف يد الله عز وجل بأنها يمين، وهذا ثابت بالكتاب والسنة. وتفسير اليمين بالقدرة، تأويل باطل ليمين الرحمن جل وعلا.



مكية وآياتها خمس وثمانون

بين يدي السورة

* سورة غافر مكية، وهي تعنى بأمور العقيدة كشأن سائر السورة المكية، ويكاد يكون موضوع السورة البارز هو المعركة بين «الحق والباطل» و«الهدى والضلال» ولهذا جاء جو السورة مشحوناً بطابع العنف والشدة، وكأنه جو معركة رهيبة يكون فيها الطعن والنزال، ثم تسفر عن مصارع الطغاة فإذا بهم حطام وركام.

* ابتدأت السورة الكريمة بالإشادة بصفات الله الحسنی، وآياته العظمى، ثم عرضت لمجادلة الكافرين في آيات الله، فمع وضوح الحق وسطوعه، جادل فيه المجادلون، وكابر فيه المكابرون.

* وعرضت السورة لمصارع الغابرين وقد أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، فلم يفلت منهم إنسان.

* وفي ثنايا هذا الجو الرهيب، يأتي مشهد حملة العرش في دعائهم الخاشع المنيب.

* وتحدثت السورة عن بعض مشاهد الآخرة وأهوالها، فإذا العباد واقفون للحساب، بارزون أمام الملك الديان، يغمرهم رهبة وخشوع، وإذا القلوب لدى الحناجر تكاد لشدة الفزع والهول تنخلع، وفي ذلك الموقف الرهيب، واليوم العصيب، يلقي الإنسان جزاءه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

* ثم يأتي الحديث عن قصة الإيمان والطغيان، ممثلة في دعوة موسى عليه السلام لفرعون الطاغية الجبار، ففرعون يريد -بكبريائه وجبروته- أن يقضي على موسى وأتباعه خشية أن ينتشر الإيمان بين الأقوام، وتبرز في ثنايا هذه القصة حلقة جديدة، لم تعرض في قصة موسى من قبل، ألا وهي ظهور رجل مؤمن من آل فرعون يخفي إيمانه، يصدع بكلمة الحق في تلطف وحذر، ثم في صراحة ووضوح، وتنتهي القصة بهلاك فرعون الطاغية الجبال بالغرق في البحر مع أعوانه وأنصاره وبنجاة الداعية المؤمن وسائر المؤمنين.

* ثم تعرضت السورة إلى بعض الآيات الكونية، والشاهدة بعظمة الله، الناطقة بوحدانيتها وجلاله، الذي يشركون به ويكفرون بآياته، وتضرب مثلاً للمؤمن والكافر بالبصير والأعمى، فالؤمن على نور من الله وبصيرة، والكافر يتخبط في الظلام. * وتختتم السورة الكريمة بالحديث عن مصارع المكذبين، والطغاة المتجبرين، ومشهد العذاب يأخذهم وهم في غفلتهم سادرون.

التسمية: سميت «سورة غافر» لأن الله تعالى ذكر هذا الوصف الجليل - الذي هو من صفات الله الحسنى - في مطلع السورة الكريمة ﴿غَافِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ التَّوْبِ﴾ وكرر ذكر المغفرة في دعوة الرجل المؤمن ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَرِ﴾ وتسمى سورة المؤمن لذكر قصة مؤمن آل فرعون.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ٢ غَافِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ التَّوْبِ شَدِيدُ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ٣ مَا يُجَدِّدُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَعْرَكُ ثَقَلُهَا فِي السَّمَاءِ ٤ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرُسُلِهِمْ لِيَاخُذُوهُ وَجَدُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ٥ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ لِمَنْ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ٦ الَّذِينَ يَمْجُلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَزَوَّجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٨ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ٩ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ينادونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ١٠ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَثْنَيْنِ وَأَكْبَرْنَا ثَلَاثِينَ فَاغْفِرْنَا يَدْخُلُونَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ١١ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَلَّيْتُمْ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ١٢ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ آيَاتِهِ وَيُرْسِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ١٣ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ١٤ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ١٥ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ١٦ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ١٧ وَأَنْذَرْتَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ مِمَّا لِّلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ ١٨ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ١٩ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ٢٠ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُدَوِّجُهُمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ٢١ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ

اللغة: ﴿غَافِرُ﴾ الغفر: الستر والمحو والتكفير ﴿الطَّوْلُ﴾ الإِنعام والتفضل ﴿لِيُدْحِضُوا﴾ يبتلعوا ويزيلوا، يقال: الباطل داحضٌ، لأنه يزلق ويزل فلا يستقر ﴿حَقَّتْ﴾ وجبت ولزمت

﴿لَمَقْتُ﴾ المقت: شدة البغض ﴿الرُّوحُ﴾ الوحي والنبوة سمي رُوحًا لأن القلوب تحيا به كما تحيا الأبدان بالأرواح ﴿الْتَلَّاقُ﴾ الاجتماع في الحشر ﴿بَرْزُونَ﴾ ظاهرون لا يستترهم شيء ﴿الْأَرْفَةُ﴾ اسم للقيامة سميت أرفة لقربها، يقال أرف الشيء إذا اقترب ﴿وَاقٍ﴾ دافع يدفع عنهم العذاب.

التفسير: ﴿حَمَّ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن، وللإرشاد على أن هذا القرآن المعجز منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية^(١) ﴿تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي هذا القرآن تنزيل من الله ﴿الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي العزيز في ملكه، العليم في خلقه ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ أي الذي يعفو عن ذنوب العباد، ويقبل توبة العصاة لمن تاب منهم وأتاب ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ أي شديد العقاب لمن تكبر وطغى، وأعرض عن طاعة المولى ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ أي ذي الفضل والإعلاء ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحق إلا الله، ولا رب في الوجود سواه ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي إليه وحده مرجع الخلائق فيجازيهم بأعمالهم، وإنما قدم المغفرة والتوبة على العقاب، للإشارة إلى سعة الفضل وأن رحمته سبقت عذابه، ثم لما ذكر أن القرآن هداية الله للعالمين، أعقبه بذكر المجادلين المعاندين فقال ﴿مَا يُجَدِّلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ما يدفع الحق ويجادل في هذا القرآن بعد وضوح آياته وظهور إعجازه إلا الجاحدون لآيات الله، المعاندون لرسوله ﴿فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ﴾ أي فلا تغتر أيها العاقل بتصرفهم وتقلبهم في هذه الدنيا، بالمساكن والمزارع، والممالك والتجارات، فإنهم أشقى الناس، وما هم عليه من النعيم متاع قليل، وظل زائل، فإني وإن أهملتهم لا أهملهم، بل آخذهم بعد ذلك النعيم أخذ عزيز مقتدر قال في التسهيل: والآية تسليية للنبي ﷺ ووعيد شديد للكفار^(٢) ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي كذب قبل كفار مكة أقوام كثيرون، منهم قوم نوح والأمم الذين تحزبوا على أنبيائهم ولم يقبلوا ما جاءوا به من عند الله كقوم عاد وثمود وفرعون وأمثالهم ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي وهمت كل أمة من الأمم المكذبين أن يقتلوا رسولهم ويبطشوا به قال ابن كثير: أي حرصوا على قتله بكل ممكن ومنهم من قتل رسوله^(٣) ﴿وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ أي جادلوا رسلهم بالباطل ليزيلوا ويبطشوا به الحق الواضح الجلي ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ أي فأهلكتهم إهلاكاً مريعاً ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ استفهام

(١) انظر تفصيل الموضوع في أول سورة البقرة، وهذه السورة واحدة من سبع سور كلها تبدأ بالحرفين (ح ميم) وتسمى السبع آل ح ميم. (ش): وفي طبعة أخرى: وتسمى الحواميم السبع أو ال ح ميم. اهـ. وفي «لسان العرب» (١/ ١٢): «قَالَ أَبُو حَاتِمٍ: قَالَتِ الْعَامَّةُ فِي جَمْعِ حَمٍ وَطَسٍ: طَوَاسِينُ وَحَوَامِيمٍ. قَالَ: وَالصَّوَابُ دَوَاتٌ طَسٌ وَدَوَاتٌ حَمٌ وَدَوَاتٌ مِمٌّ».

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٢.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٣٥.

تعجب أي فكيف كان عقابي لهم؟ ألم يكن شديدًا فظيعًا؟ ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي وكذلك وجبت كلمة العذاب على هؤلاء المكذبين من قومك، كما وجبت لمن سبقهم من الكفار ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي لأنهم أهل النار، قال القرطبي: أي كما حق على الأمم التي كذبت رسلها وحل بها عقابي، كذلك وجبت كلمة العذاب على الذين كفروا بالله من قومك لأنهم أصحاب النار^(١).

ثم ذكر تعالى حال الملائكة الأطهار، والمؤمنين الأبرار، بعد أن ذكر الكفار والفجار فقال ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي هؤلاء العباد المقربون حملة العرش ومن حول العرش من أشرف الملائكة وأكابرهم، ممن لا يُحصى عددهم إلا الله، هم في عبادة دائبة لله، ينزهونه عن صفات النقص، ويشنون عليه بصفات الكمال ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي ويصدقون بوجوده تعالى، وبأنه لا إله لهم سواه، ولا يستكبرون عن عبادته قال الزمخشري: فإن قالت: ما فائدة قوله ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ ولا يخفى أن حملة العرش وجميع الملائكة يؤمنون بالله؟ فالجواب أن ذلك إظهار لفضيلة الإيمان وشرفه والترغيب فيه^(٢) ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي وهم مع عباداتهم واستغراقهم في تسييح الله وتمجيده، يطلبون من الله المغفرة للمؤمنين قائلين ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي يا ربنا وسعت رحمك وعلمك كل شيء قال المفسرون: وفي وصف الله تعالى بالرحمة والعلم -وهو ثناء قبل الدعاء- تعليم العباد أدب السؤال والدعاء، فهم يبدءون دعاءهم بأدب ويستمطرون إحسانه وفضله وإنعامه^(٣) ﴿فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أي فاصفح عن المسيئين المذنبين، التائبين عن الشرك والمعاصي، المتبعين لسبيل الحق الذي جاء به أنبياءك ورسلك ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي واحفظهم من عذاب جهنم ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ أي أدخلهم جنات النعيم والإقامة التي وعدتهم إياها ﴿وَمَنْ صُلِحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أي وأدخل الصالحين من الآباء والأزواج والأولاد في جنات النعيم أيضًا ل يتم سرورهم بهم قال ابن كثير: أي اجمع بينهم وبينهم لتقر بذلك أعينهم^(٤) بالا اجتماع في الجنة بمنازل متجاورة^(٥) ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي العزيز الذي لا يُغلب ولا يمتنع عليه شيء، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما فيه الحكمة والمصلحة ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ هذا من

(١) «تفسير الطبري» ٤٣/٢٤.

(٢) «تفسير الكشاف» ١١٨/٤.

(٣) انظر «البحر المحيط» ٤٥١/٧.

(٤) (ش): قَرَّتْ عَيْنُهُ: بَرَدَ دَمْعُهَا، ضَدَّ سَخْنَتْ، وَيُكْنَى بِهِ عَنِ السُّرُورِ وَالِابْتِهَاجِ، وَقِيلَ: لِأَنَّهُ لِلْسُّرُورِ دَمْعَةٌ بَارِدَةٌ وَلِلْحُزَنِ دَمْعَةٌ حَارَّةٌ.

(٥) «مختصر ابن كثير» ٢٣٦/٣.

تمام دعاء الملائكة، أي: احفظم يا رب من فعل المنكرات والفواحش التي توبق أصحابها ﴿وَمَنْ تَقِ السَّعَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ أي ومن حفظته من نتائجها وعواقبها يوم القيامة، فقد لطفت به ونجّيته من العقوبة ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي وذلك الغفران ودخول الجنان، هو الظفر العظيم الذي لا ظفر مثله.. ولما تحدث عن أحوال المؤمنين، ذكر شيئاً من أحوال الكافرين فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي تنادبهم الملائكة يوم القيامة على جهة التوبيخ والتقريع: لَبَغَضُ اللَّهِ الشديد لكم في الدنيا أعظم من بغضكم اليوم لأنفسكم ﴿إِذْ نُدْعَوُوكَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ أي حين كنتم تدعون إلى الإيمان فتكفرون كبراً وعتوّاً قال قتادة: بغض الله لأهل الضلالة حين عرض عليهم الإيمان في الدنيا فأبوا أن يقبلوه، أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عابوا عذاب الله ^(١) ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَتَيْنِي وَأُحْيَيْنَا أَتَيْنِي﴾ أي قال الكفار لما رأوا الشدائد والأهوال: ربنا أمتنا مرتين، وأحييتنا مرتين ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ أي فاعترفنا بما جنيناه من الذنوب في الدنيا ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي فهل تردنا إلى الدنيا لنعمل بطاعتك؟ وهل تخرجنا من النار لنسلك طريق الأبرار؟ قال المفسرون: الموتة الأولى حين كانوا في العدم، والموتة الثانية حين ماتوا في الدنيا، والحياة الأولى حياة الدنيا، والحياة الثانية حياة البعث يوم القيامة، فهاتان موتتان وحياتان ^(٢)، وإنما قالوا ذلك على سبيل التعطف والتوسل إلى رضى الله، بعد أن عابوا العذاب، وقد كانوا يكفرون وينكرون، ولهذا جاء الجواب ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾ أي ذلكم العذاب والخلود في جهنم بسبب كفركم وعدم إيمانكم بالله، فإذا دعيتم إلى التوحيد كفرتم ﴿وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِ تُوْمِنُوا﴾ وإن دعيتم إلى اللات والعزى وأمثالهما من الأصنام، آمنتم وصدقتم بألوهيتها ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ أي فالقضاء لله وحده، لا للأوثان والأصنام، ولا سبيل إلى نجاتكم، لأن الله هو المتعالي على خلقه، العظيم في ملكه الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. ولما ذكر تعالى ما يوجب التهديد الشديد للمشركين، أرففه بذكر ما يدل على كمال قدرته وحكمته ليصير بمنزلة البرهان على عدم جواز عبادة الأوثان فقال ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي الله جل وعلا هو الذي يريكم أيها الناس العلامات الدالة على قدرته الباهرة في مخلوقاته، في العالم العلوي والسفلي الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ أي وينزل لكم من السماء المطر الذي هو سبب للرزق، وبه تخرج الزروع والثمار ﴿وَمَا تَذْكُرُ إِلَّا مَنْ يَنْبُ﴾ أي وما يعتبر ويتعظ بهذه

(١) «مختصر ابن كثير» ٢٣٧١/٣.

(٢) هذا قول ابن مسعود وابن عباس وقتادة، قالوا: وهذه مثل قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ الآية.

الآيات الباهرة، إلا من يرجع إلى الله بالتوبة والإنابة، والعمل الصالح البعيد عن الرياء والنفاق ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي فاعبدوا الله أيها المؤمنون مخلصين له العبادة والطاعة ولا تعبدوا معه غيره ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ هذا للمبالغة، أي: اعبدوه وأخلصوا له قلوبكم، حتى ولو كره الكافرون ذلك، وغازطهم إخلاصكم وقاتلوكم عليه ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ أي عظيم الشأن والسلطان، صاحب الرفعة والمقام العالي ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ أي صاحب العرش العظيم، الذي هو أعظم المخلوقات، ولا شيء يشبهه من مخلوقات الله. قال ابن كثير: أخبر تعالى عن عظمته وكبريائه، وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالسقف لها، وقد ذكر أن العرش من ياقوتة حمراء ^(١) ولا يعلم سعته إلا الله ^(٢) وقال أبو السعود: وكون العرش العظيم المحيط بأكناف العالم العلوي والسفلي، تحت ملكوته وقبضة قدرته، مما يقضي بكون علو شأنه وعظم سلطانه، في غاية لا غاية وراءها ^(٣) ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي ينزل الوحي على من يشاء من خلقه، ويختص بالرسالة والنبوة من أراد من عباده، وإنما سمى الوحي روحاً لأنه يسري في القلوب كسريان الروح في الجسد قال القرطبي: سمّاه روحاً لأن الناس يحيون به من موت الكفر كما تحيا الأبدان بالآرواح ^(٤) ﴿لِنُنْذِرَ يَوْمَ النَّارِ﴾ أي ليخوف الرسول الموحى إليه يوم القيامة الكبرى، حيث يلتقي العباد جميعاً ليحاسبوا على أعمالهم، ويلتقي الخلق بالخالق في ساعة الحساب قال قتادة: يلتقي فيه أهل السماء بأهل الأرض، والخالق والخلق ^(٥) ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورُونَ﴾ أي يوم هم ظاهرون بادون للعيان، لا شيء يكتنهم ولا يظللهم ولا يسترهم من جبل أو أكمة أو بناء ^(٦)، لأنهم في أرض مستوية هي أرض المحشر ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أي لا يخفى على الله شيء من أحوالهم وأعمالهم ولا من سرائرهم وبواطنهم قال الصاوي: والحكمة في تخصيص ذلك اليوم مع أن الله لا يخفى عليه شيء في سائر الأيام أنهم كانوا يتوهمون في الدنيا أنهم إذا استتروا بالحيطان مثلاً لا يراهم الله، وفي هذا اليوم لا يتوهمون هذا التوهم ^(٧) ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ أي ينادي الله

(١) (ش): رواه أبو الشيخ في «العظمة»، وضعفه الألباني.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٢٢٢/٣.

(٣) «تفسير أبي السعود» ٥/٥ (ش): وكذلك علو ذاته، كما قال المؤلف في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف ٥٤]: «اسْتَوَى الاستواء: العلو والاستقرار». وقال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي استواء يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تحريف كما هو مذهب السلف.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٥/٢٩٩.

(٥) «مختصر ابن كثير» ٣/٢٣٨.

(٦) (ش): كُنَّ الشَّيْء: أخفاه وستره وصانه. أكمة: تلٌ صغير، أو موضع يكون أكثر ارتفاعاً ممّا حوله.

(٧) «حاشية الصاوي» علي الجلالين ٥/٤.

سبحانه والناس بارزون في أرض المحشر: لمن المُلْكُ اليوم؟ ويسكت الخلائق هيبَةً لله تعالى وفزعاً، فيجيب تعالى نفسه قائلاً ﴿لِلَّهِ الْوَحْدُ الْقَهَّارُ﴾ أي الله المتفرد بالملك، الذي قهر بالغلبة كل ما سواه قال الحسن: هو تعالى السائل والمجيب، لأنه يقول ذلك حين لا أحد يجيبه، فيجيب نفسه^(١) ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي في ذلك اليوم يوم القضاء والفصل بين العباد تُجازى كل نفس بما عملت من خير أو شر ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ أي لا يُظلم أحد شيئاً، لا بنقص ثواب، ولا بزيادة عقاب ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي سريع حسابه، لا يشغله شأن عن شأن، فيحاسب الخلائق جميعاً في وقت واحد قال القرطبي: كما يرزقهم في ساعة واحدة، يحاسبهم كذلك في ساعة واحدة، وفي الخبر: «لا ينتصف النهار حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار»^(٢) ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ﴾ أي خوفهم ذلك اليوم الرهيب يوم القيامة قال ابن كثير: «الأزفة» اسم من أسماء القيامة، سميت بذلك لقربها كقوله تعالى ﴿أَزِفَتِ الْأَزْفَةُ﴾ [النجم: ٥٧]^(٣) ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ أي تكاد قلوبهم لشدة الخوف والجزع تبلغ الحناجر وهي الحلوق مكان البلعوم ﴿كُظْمِينَ﴾ أي ممتلئين غمًا وحسرة شأن المكروب قال في التسهيل: معنى الآية أن القلوب قد صعدت من الصدور لشدة الخوف حتى بلغت الحناجر، ويحتمل أن يكون ذلك حقيقة أو مجازاً عبّر به عن شدة الخوف والحجارة هي الحلق^(٤) ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ﴾ أي ليس للظالمين صديق ينفعهم ﴿وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ﴾ أي ولا شفيع يشفع لهم لينقذهم من شدة العذاب ﴿يَعْلَمُ حَاقِنَةُ الْأَعْيُنِ﴾ أي يعلم جل وعلا العين الخائنة بمسارقتها النظر إلى محرم قال ابن عباس: هو الرجل يكون جالساً مع الناس، فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ أي ويعلم السر المستور تخفيه الصدور ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أي يقضي ويحكم بالعدل ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي والذين يعبدونهم من دون الله من الأوثان والأصنام ﴿لَا يَقْضُونَ شَيْئاً﴾ أي لا حكم لهم أصلاً فكيف يكونون شركاء لله؟ قال أبو السعود: وهذا تهكم بهم لأن الجماد لا يقال في حقه: يقضي أو لا يقضي^(٥) ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي هو السميع لأقوال العباد، البصير بأفعالهم ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي أولم يعتبر هؤلاء المشركون في أسفارهم بما يرون من آثار المكذبين ﴿فَيَنْظُرُوا

(١) «تفسير القرطبي» ١٥ / ٣٠٠.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥ / ٣٠١، ومعنى «يقيل» من القيلولة وهي الاستراحة وقت الظهيرة. (ش): رواه ابن أبي حاتم وابن جرير الطبري في «تفسيريهما» من كلام عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بإسناد ضعيف. ورواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» من كلام ابن جريج بإسناد ضعيف.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣ / ٢٣٩.

(٤) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤ / ٤.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٥ / ٧.

كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿٢٤﴾ أَيُفَنظَرُوا مَا حَلَّ بِالْمُكَذِبِينَ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ؟ فَإِنَّ الْعَاقِلَ مِنْ أَعْتَبَرِ بغيره ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ ﴿أَيُكَانُوا أَشَدَّ قُوَّةً مِنْ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِ مِنْ قَوْمِكَ﴾ ﴿وَأَنَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿أَيُأَقْوَى آثَارًا فِي الْأَرْضِ مِنَ الْحَصُونِ وَالْقُصُورِ وَالْجُنْدِ الْأَشْدَاءِ، وَمَعَ هَذِهِ الْقُوَّةِ الْعَظِيمَةِ وَالْبَأْسِ الشَّدِيدِ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ لَمَّا كَذَبُوا الرِّسْلَ﴾ ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ ﴿أَيُأَهْلَكُهُمُ اللَّهُ إِهْلَاكًا فَضِيعًا بِسَبَبِ إِجْرَامِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ رِسْلَ اللَّهِ﴾ ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ ﴿أَيُوَمَا كَانَ لَهُمْ أَحَدٌ يَدْفَعُ عَنْهُمْ عَذَابَ اللَّهِ، وَلَا يُقِيهِمْ مِنْ عِقَابِهِ. ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى سَبَبَ عِقَابِهِ لَهُمْ فَقَالَ﴾ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ ﴿أَيُذَلِكَ الْعَذَابِ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْمَعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ، وَالآيَاتِ السَّاطِعَاتِ الْوَاضِحَاتِ﴾ ﴿فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ ﴿أَيُفَكَفَرُوا مَعَ هَذَا الْبَيَانِ وَالْبَرَهَانِ فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ وَدَمَّرَهُمْ﴾ ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ﴾ ﴿أَيُإِنَّ تَعَالَى قَوِيٌّ لَا يُقَهَّرُ، ذُو قُوَّةٍ عَظِيمَةٍ وَبَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿أَيُعِقَابِهِ شَدِيدٌ لِمَنْ عَصَاهُ، وَعَذَابِهِ أَلِيمٌ وَجِيعٌ، أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْ عِقَابِهِ وَأَجَارَنَا مِنْ عَذَابِهِ.

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٥﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمْلَنَ وَقَدَّرُونَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بَيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿٣٠﴾ يَقَوْمُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنَ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَقَوْمُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٢﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلَمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣٣﴾ وَيَقَوْمُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٍ ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمُنُ ابْنُ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَتْلُوعُ السَّبَبِ ﴿٣٨﴾ أَسْبَدَ السَّمَوَاتِ فَأَطْلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ فِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَقَوْمُ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ

الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَقَوْمٍ إِنَّمَا هَٰذِهِ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْفَوْنَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴿٤١﴾ وَيَقَوْمٍ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَىٰ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ ﴿٤٢﴾ تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٣﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدْنَا إِلَى اللَّهِ وَآتَى السُّرْفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٤﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَؤُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٥﴾ فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَخَافَ بَقَايَ فِرْعَوْنَ سُوءَ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ

المناسبة: لما ذكر تعالى ما حلَّ بالكفار من العذاب والدمار، أردفه بذكر قصة موسى مع فرعون تسليّة لرسول الله ﷺ عما يلقاه من الأذى والتكذيب، وبياناً لسنة الله تعالى في إهلاك الظالمين، ثم ذكر موقف مؤمن آل فرعون ونصيحته لقومه، وهي مواقف بطولية مشرفة في وجه الطغيان.

اللغة: ﴿وَأَسْتَحْيُوا﴾^(١) استبقوا بناتهم على قيد الحياة ﴿ضَلَّكِلِ﴾ ضياع وبطلان ﴿عُدْتُ﴾ اعتصمت وتحصنت والتجأت ﴿ظَاهِرِينَ﴾ غالبين مستغلين ﴿بِأْسِ اللَّهِ﴾ عذابه وانقامه ﴿دَابِّ﴾ عادة وشأن ﴿النَّادِ﴾ يوم القيامة للنداء فيه إلى المحشر، أو لمناداة الناس بعضهم بعضاً قال أمية بن الصلت:

وَبَثَّ الْخَلْقَ فِيهَا إِذْ دَحَاهَا فَهُمْ سُكَّانُهَا حَتَّى التَّنَادِ^(٢)
عَاصِمٍ مانع ودافع ﴿صَرَخَا﴾ قصراً وبناءً عظيماً عالياً ﴿تَبَابٍ﴾ خسران وهلاك ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقاً ولا محالة ﴿وَحَافَ﴾ نزل وأحاط.

التفسير: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ اللام مؤنّثة للقسام^(٣) أي والله لقد بعثنا رسولنا موسى بالآيات البينات، والدلائل الواضحات، وبالبرهان البين الظاهر وهو معجزة اليد والعصا ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَنَ وَقُرُونَ﴾ أي إلى فرعون الطاغية الجبار، ووزيره هامان، وقارون صاحب الكنوز والأموال قال في البحر: وخصّ قارون وهامان بالذكر لمكانتهما في الكفر، ولأنهما أشهر أتباع فرعون^(٤) ﴿فَقَالُوا سِحْرُ كَذَّابٍ﴾ أي فقالوا عن موسى: إنه ساحر فيما أظهر من المعجزات، كذاب فيما ادعاه أنه من عند الله، وصيغة كذاب للمبالغة ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ أي فلما جاءهم بالمعجزات الباهرة التي تدل على

(١) (ش): هكذا في أكثر من طبعة والصواب: ﴿وَأَسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾، ولعله خطأ طباعي.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥/٣١٠.

(٣) (ش): مؤنّثة للقسام: أي مُهَدَّةٌ له؛ لأنها التي تهَيّئُ الذهن لمعرفته.

(٤) «البحر المحيط» ٧/٤٥٩.

صدقه، والتي أيده الله بها ﴿قَالُوا أَقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ أي اقتلوا الذكور لئلا يتناسلوا، واستبقوا الإناث للخدمة قال الصاوي: وهذا القتل غير الأول، لأن فرعون بعد ولادة موسى أمسك عن قتل الأولاد، فلما بُعث موسى وعجز عن معارضته أعاد القتل في الأولاد ليمتنع الناس من الإيمان، ولئلا يكثر جمعهم فيكيده، فأرسل الله عليهم أنواع العذاب كالضفادع والقمل والدم والطوفان، إلى أن خرجوا من مصر فأغرقهم الله تعالى وجعل كيدهم في نحورهم^(١) ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي وما تدبيرهم ومكرهم إلا في خسران وهلاك، لأن الله لا يُنجح سعيهم ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ أي قال فرعون الجبار: اتركوني حتى أقتل لكم موسى ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أي وليناد ربه حتى يخلصه مني، وإنما ذكره على سبيل الاستهزاء وكأنه يقول: لا يهولنكم ما يذكر من ربه فإنه لا حقيقة له وأنا ربكم الأعلى، وغرضه أن يوهمهم بأنه إنما امتنع عن قتله رعاية لقلوب أصحابه قال أبو حيان: والظاهر أن فرعون -لعنه الله- كان قد استيقن أنه نبي، وأن ما جاء به آيات باهرة وما هو بسحر، ولكن الرجل كان فيه خبث وجبروت وكان قتلاً سفكاً للدماء لأهون شيء، فكيف لا يقتل من أحس منه بأنه يثُلُّ عرشه^(٢)، وَيَهْدِمُ مُلْكَهُ، ولكنه يخاف إن هَمَّ بقتله أن يُعاجل بالهلاك، وكان كلامه للتمويه على قومه وإيهامهم أنهم هم الذين يكفونه، وما كان يكفه إلا شدة الخوف والفرع^(٣) ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أي إني أخشى أن يغير ما أنتم عليه من عبادتكم لي إلى عبادة ربه ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ أي أو أن يثير الفتن والقلاقل في بلدكم، ويكون بسببه الهرج، وهذا كما قال المثل «صار فرعون واعظاً» ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أي إني استجرت بالله واعتصمت به ليحفظني ﴿مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي من شر كل جبار عنيد متكبر عن الإيمان بالله، لا يصدق بالآخرة قال في التسهيل: وإنما قال ﴿مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ ولم يذكره باسمه ليشمل فرعون وغيره، وليكون فيه وصف لغير فرعون بذلك الوصف القبيح^(٤) ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ قال المفسرون: كان هذا الرجل ابن عم فرعون وكان قبطياً يخفي إيمانه عن فرعون، فلما سمع قول الجبار متوعداً موسى بالقتل نصحهم بقوله ﴿انْقُتُلُوا رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ استفهام إنكاري للتبكي عليهم، أي: أقتلوا رجلاً لا ذنب له إلا لأجل أن قال: ربي الله من غير تفكير ولا تأمل في أمره؟ ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي والحال أنه قد أتاكم بالمعجزات الظاهرة التي شاهدتموها من عند ربكم ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾

(١) «حاشية الصاوي» ٦/٤.

(٢) (ش): ثَلَّ عَرْشَهُ: أَذْهَبَ سُلْطَانَهُ، هَدَمَ مُلْكَهُ وَأَزَالَهُ.

(٣) «البحر المحيط» ٤٥٩/٧.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٥/٤.

أي إن كان كاذبًا في دعوى الرسالة فضرر كذبه لا يتعداه قاله القرطبي: ولم يكن ذلك لشك منه في رسالته وصدقه، ولكن تطفًا في الاستكفاف، واستنزًا عن الأذى^(١) ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ أي وإن كان صادقًا في دعواه أصابكم بعض ما وعدكم به من العذاب ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ أي لا يوفق للهداية والإيمان من هو مسرف في الضلال، مبالغ في الكذب على الله قال الإمام الفخر: وفي هذا إشارة إلى رفع شأن موسى لأن الله هداه وأيده بالمعجزات، وتعرض بفرعون في أنه مسرف في عزمه على قتل موسى، كذاب في إقدامه على ادعاء الإلهية، والله لا يهدي من هذا شأنه وصفته، بل يبطله ويهدم أمره^(٢) وقال في البحر: هذا نوع من أنواع علم البيان يسميه علماءنا «استدراج المخاطب» وذلك أنه لما رأى فرعون قد عزم على قتل موسى، وقومه على تكذيبه؛ أراد الانتصار له بطريق يخفي عليهم بها أنه متعصب له، وأنه من أتباعه، فجاءهم بطريق النصح والملاطفة فقال ﴿أَنْقُتُلُونَ رَجُلًا﴾ ولم يذكر اسمه بل قال رجلًا ليوهمهم أنه لا يعرفه، ثم قال ﴿أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ ولم يقل رجلًا مؤمنًا بالله أو هو نبي الله، إذ لو قال ذلك لعلموا أنه متعصب ولم يقبلوا قوله، ثم أتبعه بقوله ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا﴾ فقدّم الكذب على الصدق موافقة لرأيهم فيه ثم تلاه بقوله ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا﴾ ولم يقل هو صادق وكذلك قال ﴿يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ ولم يقل كل ما يعدكم، ولو قال ذلك؛ لعلموا أنه متعصب له، وأنه يزعم نبوته وأنه يصدقه، ثم أتبعه بكلام يفهم منه أنه ليس بمصدق له وهو قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ وفيه تعرض بفرعون، إذ هو في غاية الإسراف والكذب على الله، إذ ادعى الألوهية والربوبية^(٣) ﴿يَقُومُوا لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ كرر النصح مع التلطف، والمعنى: أنتم غالبون على بني إسرائيل في أرض مصر قد قهرتموهم واستعبدتموهم اليوم ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ أي فمن ينقذنا من عذاب الله وينجينا منه إن قتلتم رسوله قال الرازي: وإنما قال ﴿يَنْصُرُنَا﴾ و «جَاءَنَا» لأنه كان يظهر لهم أنه منهم، وأن الذي ينصحبهم به هو مشارك لهم فيه^(٤). وهنا تأخذ فرعون العزة بالإثم، ويستبد به الجبروت والطغيان ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ أي ما أشير عليكم برأي سوى ما ذكرته من قتل موسى حسمًا لمادة الفتنة ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أي وما أهداكم بهذا الرأي إلا طريق الصواب والصلاح ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَوْمَئِذٍ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ أي أخشى عليكم مثل أيام العذاب التي عذب بها المتحزبون على الأنبياء ﴿مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ هذا تفسير للأحزاب أي مثل عادة

(١) «تفسير القرطبي» ٣٠٧ / ١٥.

(٢) «التفسير الكبير» للرازي ٥٩ / ٢٧.

(٣) «البحر المحيط» ٤٦١ / ٧.

(٤) «التفسير الكبير» للرازي ١٢٨ / ٤.

قوم نوح وعاد وثمود وما أصابهم من العذاب والدمار بتكذيبهم لرسولهم ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي والمكذبين بعد أولئك كقوم لوط ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ أي لا يعاقب العباد بدون ذنب قال الزمخشري: أي إن تدميرهم كان عدلاً وقسطاً لأنهم استوجبوه بأعمالهم، وفيه مبالغة حيث جعل المنفي إرادة الظلم، ومن كان بعيداً عن إرادة الظلم، كان عن الظلم أبعد^(١) ﴿وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ خوفهم بعذاب الآخرة بعد أن خوفهم بعذاب الدنيا. والمعنى: إني أخاف عليكم من ذلك اليوم الرهيب يوم الحشر الأكبر، حيث ينادي المجرمون بالويل والثبور ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣] ﴿يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ﴾ أي تولون منهزمين من هول عذاب جهنم قال المفسرون: إن الكفار إذا سمعوا زفير النار أدبروا هاربين، فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا الملائكة يتلقونهم يضربون وجوههم، فيرجعون إلى مكانهم فتتلقفهم جهنم ﴿مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ﴾ أي ليس لكم مانع ولا دافع يصرف عنكم عذاب الله ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ مُضِلٌّ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي ومن يضلله الله فليس له من يهديه إلى طريق النجاة ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي والله لقد جاءكم يوسف بن يعقوب من قبل موسى بالمعجزات الظاهرات ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ أي فلم تزالوا شاكين في رسالته كافرين بما جاء به من عند الله قال المفسرون: المراد أبائكم وأصولكم ﴿حَقَّ إِذَا هَلَكَ قُلُوبُكُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ أي حتى إذا مات قلتم على سبيل التشهي والتمني من غير حجة ولا برهان: لن يأتي أحد يدعي الرسالة بعد يوسف قال أبو حيان: وليس هذا تصديقاً لرسالة يوسف، كيف وما زالوا في شك منه، وإنما المعنى لا رسول من عند الله فيبعثه إلى الخلق، ففيه نفي الرسول ونفي بعثته^(٢) ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٍ﴾ أي مثل ذلك الضلال الفظيع يضل الله كل مسرف في العصيان، شاك في الدين، بعد وضوح الحجج والبراهين ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بَغْيًا سُلْطَانًا أَنَّهُمْ﴾ هذا من تنمة كلام الرجل المؤمن. والمعنى الذين يجادلون في شريعة الله بغير حجة وبرهان جاءهم من عند الله ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي عظم بغضاً عند الله وعند المؤمنين جدلهم بغير برهان قال في البحر: عدل الواعظ عن مخاطبتهم إلى الاسم الغائب، لحسن محاورته لهم واستجلاب قلوبهم، لئلا ينجأهم بالخطاب، وفي قوله ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ ضرب من التعجب والاستعظام لجدالهم، كأنه خارج عن حد أمثاله من الكبائر^(٣) ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ أي كما ختم على قلوب هؤلاء المجادلين كذلك يختم بالضلال على قلب كل متكبر

(١) تفسير الكشاف ٤/ ١٢٨.

(٢) البحر المحیط ٧/ ٤٦٤.

(٣) نفس المرجع السابق ٧/ ٤٦٥.

عن الإيمان، متجبر على العباد، حتى لا يعقل الرشاد، ولا يقبل الحق، وإنما وصف القلب بالتكبر والجبروت لكونه مركزهما ومنبعهما، وهو سلطان الأعضاء، فمتى فسد فسدت ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرَحًا﴾ أي قال فرعون لوزيره هامان ابن لي قصرًا عاليًا، وبناءً شامخًا منيفًا قال القرطبي: لما قال مؤمن آل فرعون ما قال، وخاف فرعون أن يتمكن كلامه في قلوب القوم، أوهم أنه يمتحن ما جاء به موسى من التوحيد، فأمر وزيره هامان ببناء الصرح^(١) ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾^(٢) أَسْبَابُ السَّمَوَاتِ ﴿أَي لَعَلِّي أَصِلُ إِلَى طَرِيقِ السَّمَوَاتِ وَمَا يُوْدِي إِلَيْهَا، وَكَرَّرَهَا لِلتَّفْخِيمِ وَالْبَيَانِ﴾^(٣) ﴿فَأَطْلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ أي فأنظر إلى إله موسى نظر عيان ﴿وَلِيِّنِي لِأُظْهِرُ كَذِبًا﴾ أي وإني لأعتقد موسى كاذبًا في ادعائه أن له إلهًا غيري قال أبو حيان: وبلوغ أسباب السموات غير ممكن، لكن فرعون أبرزه في صورة الممكن تمويهًا على سامعيه، ولما قال ﴿فَأَطْلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ كان ذلك إقرارًا بالإله فلذلك استدرك هذا الإقرار بقوله ﴿وَلِيِّنِي لِأُظْهِرُ كَذِبًا﴾^(٤) ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِفِرْعَوْنَ سُوءِ عَمَلِهِ﴾ أي ومثل ذلك التزيين زَيْن لفرعون عمله السيئ حتى رآه حسنًا ﴿وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي ومنع بضلاله عن طريق الهدى ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي وما تدمير فرعون ومكره إلا في خسار وهلاك، خسر ملكه في الدنيا بالغرق، وفي الآخرة بالخلود في النار ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا يَتَقَوَّمُ أُنْتِغُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ كرر مؤمن آل فرعون نصحه لهم بعد تلك المراوغة التي لقيها من فرعون، ودعا قومه إلى الإيمان بالله الواحد الأحد، وكشف لهم عن قيمة الحياة الزائلة، وشوقهم إلى نعيم الحياة الباقية، وحذّرهم من عذاب الله ومعنى الآية: امتثلوا يا قوم أمري واسلكوا طريقي أرشدكم إلى طريق الفوز والنجاة - طريق الجنة - ﴿يَتَقَوَّمُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ﴾ أي ليست الدنيا إلا متاعًا زائلًا، لا ثبات له ولا دوام ﴿وَلِإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ أي وإن الدار الآخرة هي دار الاستقرار والخلود، التي لا زوال لها ولا انتقال منها، فإما خلود في النعيم، أو خلود في الجحيم قال القرطبي: ومراده بالدار الآخرة الجنة والنار لأنهما لا يفنيان^(٥) ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ أي من عمل في هذه الدنيا سيئة فلا يعاقب في الآخرة إلا بمقدارها دون زيادة، رحمة منه تعالى بالعباد ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي ومن فعل في الدنيا العمل الصالح سواء كان ذكرًا أو أنثى بشرط الإيمان ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي فأولئك المحسنون

(١) «تفسير القرطبي» ٣١٤ / ١٥.

(٢) قال صاحب الكشف: إذا أهم الشيء ثم أوضح كان تفخيماً لشأنه، فلما أراد تفخيماً أسباب السموات أجهها ثم أوضحها. اهـ. «الكشاف» ٦٦ / ٤.

(٣) «البحر المحيط» ٤٦٥ / ٧.

(٤) «تفسير القرطبي» ٣١٧ / ١٥.

يدخلون جنات النعيم، ويعطون جزاءهم بغير تقدير، بل أضعافاً مضاعفة فضلاً من الله وكرماً، فقد اقتضى فضله تعالى أن تضاعف الحسنات دون السيئات قال ابن كثير: ﴿بَغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي لا يُتَقَدَّرُ بجزاء، بل يشبه الله ثواباً كثيراً عظيماً، لا انقضاء له ولا نفاد^(١) ﴿وَيَقُومُ مَا لِحَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ﴾؟ أي مالي أدعوكم إلى الإيمان الموصل إلى الجنان، وتدعونني إلى الكفر الموصل إلى النار؟ والاستفهام للتعجب كأنه يقول: أنا أتعجب من حالكم هذه، أدعوكم إلى النجاة والخير، وتدعونني إلى النار والشر؟ ثم وضح ذلك بقوله ﴿تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أي تدعونني للكفر بالله، وأن أعبد ما ليس لي علمٌ بربوبيته، وما ليس بإلهٍ كفرعون ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَرِ﴾ أي وأنا أدعوكم إلى عبادة الله الواحد الأحد، العزيز الذي لا يُغلب، الغفار لذنوب العباد ﴿لَا جَرَوَانَمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ أي حقاً إن ما تدعونني لعبادته ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي لا يصلح أن يُعبد لأنه لا يستجيب لنداء داعيه، ولا يقدر على تفريج كربته لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي وأن مرجعنا إلى الله وحده فيجازي كلًّا بعمله ﴿وَأَنْ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي وأن المسرفين في الضلال والطغيان سيخلدون في النار ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ أي فستذكرون صدق كلامي عندما يحل بكم العذاب، وهو تهديد ووعيد ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي أتوكل على الله، وأسلم أمري إليه قال القرطبي: وهذا يدل على أنهم هددوه وأرادوا قتله^(٢) ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي مطلع على أعمالهم، لا تخفى عليه خافية من أحوالهم ﴿فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ أي فنجاه الله من شذائد مكرهم، ومن أنواع العذاب الذي أرادوا إلحاقه به ﴿وَحَاقَ بِئَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أي ونزل بفرعون وجماعته أسوأ العذاب، وهو الغرق في الدنيا، والحرق في الآخرة، ثم فسره بقوله ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ أي النار يُحرقون بها صباحاً ومساءً قال المفسرون: المراد بالنار هنا نار القبر وعذابهم في القبور بدليل قوله بعده ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أي ويوم القيامة يقال للملائكة: أدخلوا فرعون وقومه نار جهنم التي هي أشد من عذاب الدنيا.

قال الله تعالى:

وَإِذْ يَتَحَابُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٤٥.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣١٨.

الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُم رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَاسْتَغْفِرْ لِذُنُوبِكُمْ وَسَيَجْزِيكِ رَبُّكَ بِالْعَشَى وَالْإَبْكَرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِّغِيهِ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّا اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴿٦٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا يَافِتُوا بِاللهِ بِمُحَدِّثُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ صُورَكُمْ فَاحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَ فِي الْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ

المناسبة: لما ذكر تعالى ما حلَّ بآل فرعون من العذاب والدمار، ذكر بعده النزاع والخصام الذي يكون بين أهل النار، واستغاثة المجرمين، وهم في عذاب الجحيم يصلون سعيها فلا يجابون، ثم ذكر الأدلة والبراهين على قدرة الله ووحدانيته، لإقامة الحجة على المشركين.

اللغة: ﴿يَتَحَاوَرُونَ﴾ يختصمون ﴿لِحِزْنَةٍ﴾ جمع خازن وهو المتكفل بحفظ الشيء وحراسته ﴿الْأَشْهُدُ﴾ جمع شاهد وهو الذي يشهد بالحجة على غيره ﴿دَاخِرِينَ﴾ أذلاء صاغرين ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ تُصرفون عن الإيمان إلى الكفر ﴿فَرَارًا﴾ مستقرًا ﴿أُسْلِمَ﴾ أذلَّ وأخضع. **التفسير:** ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ﴾ أي واذكر حين يختصم الرؤساء والأتباع في نار جهنم ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ بَعْءًا﴾ أي فيقول الأتباع الضعفاء للرؤساء المستكبرين عن الإيمان واتباع الرسل: إنا كنا لكم في الدنيا أتباعًا كالخدم نقاد لأوامركم، ونطيعكم فيما تدعوننا إليه من الكفر والضلال ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّْا ضَيْبًا مِنَ النَّارِ﴾؟ أي فهل أنتم دافعون عنا جزءًا من هذا العذاب الذي نحن فيه؟ قال الرازي: علموا أن أولئك الرؤساء لا قدرة لهم على ذلك التخفيف، وإنما مقصودهم من هذا الكلام

المبالغة في تخجيل الرؤساء، وإيلاهم قلوبهم، لأنهم سعوا في إيقاعهم في أنواع الضلالات^(١) ﴿قَالَ الَّذِينَ أُسْتُكْبِرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ أي قال الرؤساء جواباً لهم: إِنَّا جميعاً في نار جهنم، فلو قدرنا على إزالة العذاب عنكم لدفعناه عن أنفسنا ﴿إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ أي قضى قضاءً مُبرماً^(٢) لا مَرَدَّ له، بدخول المؤمنين الجنة، والكافرين النار، فلا نستطيع أن نفعل لكم شيئاً ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ لما يس أهل النار بعضهم من بعض التجنوا إلى حراس جهنم يطلبون منهم التخفيف قال البيضاوي: وإنما وضع جهنم موضع الضمير ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ بدلاً من «لخزنتها» للتهويل والتفطيع^(٣) ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يَخْفَفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ أي ادعوا لنا الله أن يخفف عنا ولو مقدار يوم واحد من هذا العذاب ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾؟ أي أجابتهم الملائكة على سبيل التوبيخ والتقريع: ألم تأتكم الرسل بالمعجزات الظاهرات فكفرتم بهم وكذبتموهم؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي قال الكفار: بلى جاءونا ﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ أي: قالت لهم الملائكة: فادعوا الله أنتم فإننا لا نجترئ على ذلك قال الرازي: وليس قولهم ﴿فَادْعُوا﴾ لرجاء المنفعة، ولكن للدلالة على الخيبة، فإن الملائكة المقربين إذا لم يُسمع دعاؤهم، فكيف يسمع دعاء الكفار^(٤)؟ ثم يصرحون لهم بأنه لا أثر لدعائهم فيقولون: ﴿وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي دعاؤكم لا ينفع ولا يجدي لأن دعاء الكافرين ما هو إلا خسارة وتبarrar ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي ننصر الرسل والمؤمنين بالحجة والظفر والانتقام لهم من الكفرة المجرمين في هذه الحياة الدنيا ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أي وفي الآخرة يوم يحضر الأشهاد الذين يشهدون بأعمال العباد، من ملك ونبي ومؤمن قال الرازي: الآية وعد من الله تعالى لرسوله بأن ينصره على أعدائه في الحياة الدنيا وفي الآخرة^(٥) ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ أي لا ينفع المجرمين اعتذارهم قال ابن جرير: لا ينفع أهل الشرك اعتذارهم، لأنهم لا يعتذرون إلا بباطل^(٦) ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي الطرد من رحمة الله ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي ولهم جهنم أسوأ مرجع ومصير قال ابن عباس: ﴿سُوءُ الدَّارِ﴾ سوء العاقبة ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾ أي والله لقد أعطينا «موسى بن عمران» ما يهتدى به في الدين، من المعجزات والصحف والشرائع^(٧) ﴿وَأَوْثَقْنَا بِئْنَ إِسْرَءِيلَ

(١) «التفسير الكبير» ٢٧ / ٧٤.

(٢) (ش): مُبرم: قاطع.

(٣) «تفسير البيضاوي» ٣ / ١٥٤.

(٤) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧ / ٧٤.

(٥) «التفسير الكبير» ٢٧ / ٧٥.

(٦) «تفسير الطبري» ٢٤ / ٥٢.

(٧) «تفسير أبي السعود» ٥ / ١٢.

أَلَكْتَبَ ﴿١﴾ أي أورثناهم العلم النافع والكتاب الهادي وهو «التوراة» ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ أي هادياً وتذكراً لأصحاب العقول السليمة ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي فاصبر يا محمد على أذى المشركين، فإن وعد الله لك ولأتباعك بالنصر على الأعداء، حق لا يمكن أن يتخلف، لأن الله لا يخلف الميعاد قال الإمام الفخر: لما بين تعالى أنه ينصر رسوله، وضرب المثال في ذلك بحال موسى، خاطب بعده رسوله بقوله ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ والمراد أن الله ناصر كَمَا نصرهم، ومنجز وعده لك كما أنجزه في حقهم ^(١) ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ﴾ أي واطلب المغفرة من ربك على ما فرط منك من ترك الأولى والأفضل، قال الصاوي: والمقصود من هذا الأمر تعليم الأمة ذلك، وإلا فرسول الله ﷺ معصوم من الذنوب جميعاً، صغائر وكبائر قبل النبوة وبعدها على التحقيق ^(٢) وقال ابن كثير: وهذا تيسير للأمة على الاستغفار ^(٣) ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ أي ودُم على تسييح ربك في المساء والصباح قال الرازي: والمراد منه الأمر بالمواظبة على ذكر الله، وألا يفتر اللسان عنه، حتى يصبح في زمرة الملائكة الأبرار، الذين ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] والمراد بالتسييح تنزيه الله عن كل ما لا يليق به ^(٤)، ثم نبه تعالى إلى السبب الدافع للكفار إلى المجادلة بالباطل فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ فِيءِ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي يخاصمون في الآيات المنزلة ﴿يَغْيِرُ سُلْطَانِ أَتْنَهُمْ﴾ أي بلا برهان ولا حجة من الله ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ أي ما في قلوبهم إلا تكبر وتعظيم يمنعهم من اتباعك والانقياد إليك ﴿مَاهُمْ بِسَالِحِينَ﴾ أي ما هم بواصلين إلى مرادهم من إطفاء نور الله، ولا بمؤملين مقصودهم بالعلو عليك ﴿فَأَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي فالتجئ وتحصن بالله من كيدهم، فإن الله يدفع عنك شرهم، لأنه هو السميع لأقوالهم العليم بأحوالهم.. ثم ذكر تعالى الدلائل الدالة على قدرته ووحدانيته فقال ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ اللام لام الابتداء، أي: لخلق الله للسموات والأرض وإنشأؤهما وابتداعهما من غير شيء أعظم من خلق البشر، فمن قدر على خلقهما مع عظمهما كيف يعجز عن خلق ما هو أحقر وأهون؟ قال في التسهيل: والغرض الاستدلال على البعث، لأن الإله الذي خلق السموات والأرض على كبرها، قادر على إعادة الأجسام بعد فنائها ^(٥) ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك، لأنهم لا يتأملون لغلبة الجهل عليهم، وفرط غفلتهم واتباعهم لأهوائهم ﴿وَمَا

(١) «التفسير الكبير» ٢٧ / ٧٧.

(٢) «حاشية الصاوي» ٤ / ١١.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣ / ٢٤٨.

(٤) «التفسير الكبير» ٢٧ / ٧٨.

(٥) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤ / ٨.

يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١﴾ أي لا يتساوى المؤمن والكافر ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءَ﴾ أي ولا البرُّ والفاجر ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي لا تتعظون بهذه الأمثال إلا قليلاً قال ابن كثير: والمراد أنه كما لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئاً، والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره، كذلك لا يستوي المؤمنون الأبرار، والكفرة الفجار، ما أقل ما يتذكر كثير من الناس ^(١)؟ ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَنبِئَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي إن القيامة آتية لا محالة، لا شك في ذلك ولا مرية ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي ولكن أكثر الناس لا يصدقون بمجيئها، ولذلك ينكرون البعث والجزاء قال الرازي: والمراد بأكثر الناس الكفار الذين ينكرون البعث والقيامة ^(٢) ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أي ادعوني أجبكم فيما طلبتم، وأعظم ما سألتهم قال ابن كثير: ندب تعالى عباده ^(٣) إلى دعائه، وتكفل لهم بالإجابة فضلاً منه وكرماً ^(٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي إن الذين يتكبرون عن دعاء الله سيدخلون جهنم أذلاء صاغرين. ثم ذكر تعالى من آثار قدرته ووحدانيته، ما يلزم منه إفراده بالعبادة والشكر فقال ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي الله جل وعلا بقدرته وحكمته هو الذي جعل لكم الليل مظلاً لتستريحوا فيه من تعب وعناء العمل بالنهار، وجعل النهار مضيئاً لتصرفوا فيه بأسباب الرزق وطلب المعاش ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أي إنه تعالى متفضل على العباد، وهو صاحب الجود والإحسان إليهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله على إحسانه، ويجددون فضله وإنعامه ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ خَلِيقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي ذلكم المتفرد بالخلق والإنعام هو الله ربكم، خالق كل الأشياء ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود في الوجود سواه ^(٥) ﴿فَإَن تَوَفَّكُونَ﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادة الخالق المالك إلى عبادة الأوثان؟ ﴿كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا يُبَاطِنُونَ لِلَّهِ يُجَاهِدُونَ﴾ أي كذلك يُصرف عن الهدى والحق الذين جحدوا بآيات الله وأنكروها قال الصاوي: وهذه تسليية للنبي ﷺ. والمعنى: لا تحزن يا محمد على إنكار قومك فإن من قبلهم فعل ذلك ^(٦)، ثم زاد في البيان ودلائل القدرة فقال ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي جعلها مستقراً لكم في حياتكم وبعد مماتكم قال ابن عباس: جعلها

(١) ابن كثير ٣/ ٢٤٩ من «المختصر» .

(٢) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٥٨٠ .

(٣) (ش): ندب تعالى عباده: أي دعاهم.

(٤) ذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد بالدعاء العبادة قال القرطبي: والمعنى: وحدوني واعبدوني أتقبل عبادتكم وأغفر لكم... إلخ. ما أثبتناه هو اختيار ابن كثير وهو الأظهر وكذلك قال الشهاب ورجحه الرازي.

(٥) (ش): الصواب أن يقال: لا معبود بحق في الوجود سواه، لأن هناك معبودات كثيرة لكنها تعبد بالباطل.

(٦) حاشية الصاوي ٤/ ١٣.

منزلاً لكم في حال الحياة وبعد الموت ^(١) ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَاءً﴾ أي وجعل السماء سقفاً محفوظاً، كالقبة المبنية مرفوعة فوقكم ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ أي صوركم أحسن تصوير، وخلقكم في أحسن الأشكال، متناسب الأعضاء، ولم يجعلكم كالبهائم منكوسين تمشون على أربع قال الزمخشري: لم يخلق تعالى حيواناً أحسن صورةً من الإنسان ^(٢)، وهذه مثل قوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] ﴿وَرَزَقَكُمُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي ورزقكم من أنواع اللذائذ ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي ذلكم الفاعل لهذه الأشياء والمنعم بهذه النعم هو ربكم لا إله إلا هو ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي فتعالى وتمجد وتقدس رب جميع المخلوقات الذي لا تصلح الربوبية إلا له ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي هو تعالى المتفرد بالحياة الذاتية الحقيقية، الباقي الذي لا يموت، لا إله سواه ﴿فَكَادُوعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي فاعبدوه وحده مخلصين له العبادة والطاعة ظاهراً وباطناً قائلين ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي الشناء والشكر لله مالك جميع المخلوقات، لا للأوثان التي لا تملك شيئاً، ولما بين صفات الجلال والعظمة، نهى عن عبادة غير الله فقال ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي قل يا محمد: إن ربي العظيم الجليل نهاني أن أعبد هذه الآلهة التي تعبدونها من الأوثان والأصنام قال الصاوي: أمر تعالى نبيه أن يخاطب قومه بذلك زجراً لهم، حيث استمروا على عبادة غير الله، بعد ظهور الأدلة العقلية والنقلية ^(٣) ﴿لَمَّا جَاءَ فِي الْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّي﴾ أي حين جاءني الآيات الواضحات من عنده، الدالة على وحدانيته قال الرازي: والبيّنات هي أن إله العالم قد ثبت كونه موصوفاً بصفات الجلال والعظمة، وصريح العقل يشهد بأن العبادة لا تليق إلا به، وأن جعل الحجارة المنحوتة والأخشاب المصورة، شركاء له في المعبودية مُسْتَنَكِرٌ في بديهة العقل ^(٤) ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي وأمرت أن أذل وأخضع لله وحده، وأن أخلص له ديني، وأطهر نفسي من عبادة غيره.

قال الله تعالى:

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ رُبِّ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكونُوا أشيوخاً ومنكم من يُنوفٍ من قَبْلٍ وَلْيَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُحَدِّثُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنِّي بَصْرَفُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ إِذِ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٢١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ

(١) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٨٤.

(٢) «الكشاف» ٤/ ١٣٧.

(٣) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ١٣.

(٤) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧/ ٨٥.

أَنْزِلَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ تَكُن تَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٣﴾ ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٤﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِئْتَسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٥﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْفَ تَنْزِيلُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَوَفِّيَنَّاكَ فَإِنَّا يَرْجِعُونَ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِثَابِتٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٧﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لَتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٨﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٧٩﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨٠﴾ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٣﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَنَّتْ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ

المناسبة: لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن دلائل القدرة والوحداية، فبعد أن ذكر تعالى دلائل القدرة في الآفاق أردفها بدلائل القدرة في الأنفس، ثم تحدث عن أحوال المشركين يوم القيامة، وختم السورة الكريمة بالوعيد والتهديد لأهل الكفر والضلال.

اللغة: ﴿الْأَعْلَلُ﴾ القيود جمع غُل وهو القيد يجمع اليد إلى العنق ﴿الْحَمِيمُ﴾ الماء الحار البالغ نهاية الحرارة ﴿يُسْجَرُونَ﴾ توقد بهم النار يقال: سجر التنور أوقده ﴿تَمْرَحُونَ﴾ تَبَطَّرُونَ وتأشرون^(١) ﴿مَثْوَى﴾ مأوى ومكان إقامة، من ثوى بالمكان إذا أقام فيه ﴿خَلَّتْ﴾ مضت.

التفسير: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ هذا بيان للأطوار التي مر بها خلق الإنسان، أي: هو جل وعلا بقدرته الذي أوجدكم أيها الناس من العدم، فخلق أصلكم آدم من تراب، ثم خلق ذريته من النطفة وهي المنى، ثم من علقه وهي الدم الغليظ، إلى آخر تلك الأطوار ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي ثم بعد أن ينفصل الجنين من بطن الأم يكون طفلاً ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ﴾ أي ثم لتبلغوا كمالكم في القوة والعقل، وهو سن الأربعين ﴿ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ أي ثم لتصبحوا في سن الهرم والشيخوخة قال الإمام الفخر: رتب تعالى عمر الإنسان على ثلاث مراتب: الطفولة، وبلوغ الأشد، والشخوخة، وهذا ترتيب مطابق للعقل، فإن الإنسان في أول عمره يكون في النماء والنشوء وهو المسمى بالطفولة، إلى أن

(١) (ش): أَشَرَ الشَّخْصُ، أَشَرًا، فَهُوَ أَشَرُّ: بَطِرٌ وَاسْتَكْبَرٌ وَمَرَحٌ وَنَشِيطٌ. بَطِرَ الشَّخْصُ، بَطَرًا، فَهُوَ بَطِرٌ: طَعَى وَغَالَى فِي مَرَجِهِ وَزَهْوِهِ وَاسْتِخْفَافِهِ، جَاوَزَ الْحَدَّ كَثِيرًا. بَطِرَ النِّعْمَةُ: اسْتَخَفَّهَا وَكَفَرَهَا وَلَمْ يَشْكُرْهَا. بَطِرَ الْحَقُّ وَنَحَوَهُ: أَنْكَرَهُ وَلَمْ يَقْبَلْهُ تَكْبِيرًا وَطُغْيَانًا.

يبلغ إلى كمال النشوء من غير أن يحصل له ضعف، وهذا بلوغ الأشد، ثم يبدأ بالتراجع ويبدأ فيه الضعف والنقص، وهذه مرتبة الشيخوخة^(١) ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ﴾ أي ومنكم من يتوفى قبل أن يخرج إلى العالم وهو السقط وقال مجاهد: من قبل سن الشيخوخة ﴿وَلِنَبْلُوهَا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ أي ولتصلوا إلى الزمان الذي حُدد لكل شخص وهو الموت ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي ولكي تعقلوا دلائل قدرته تعالى وتؤمنوا بأنه الواحد الأحد ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي هو القادر جل وعلا على الإحياء والإماتة ﴿فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي فإذا أراد أمرًا من الأمور فلا يحتاج إلى تعب وعناء، وإنما يوجد فورًا دون تأخير قال أبو السعود: وهذا تمثيل لكمال قدرته، وتصوير لسرعة وجودها من غير أن يكون هناك أمر ومأمور^(٢). ثم عاد إلى ذم المجادلين في آيات الله بالباطل فقال ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَمْجِدُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرِفُونَ﴾ الاستفهام للتعجب، أي: ألا ترى أيها السامع -وتعجب من حال هؤلاء المكابرين، الذين يجادلون في آيات الله الواضحة، كيف تُصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال؟ ثم بينهم بقوله ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ أي الذين كذبوا بالقرآن، وبسائر الكتب والشرائع السماوية ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيد وتهديد، أي: سوف يعلمون عاقبة تكذيبهم ﴿إِذَا الْأَغْلالُ فِي أَعْنَقِهِمْ وَالسَّالِيلُ﴾ أي حين يدخلون النار، وتربط أيديهم إلى أعناقهم بالأغلال والسلاسل ﴿يُسْحَبُونَ﴾^(٣) في الحميم ثم في النار يُسْجَرُونَ أي يسحبون بتلك السلاسل في الماء الحار المسخن بنار جهنم، ثم يُوقدون ويحرقون فيها قال ابن كثير: ومعنى الآية: أن السلاسل متصلة بالأغلال وهي بأيدي الزبانية، يسحبونهم على وجوههم تارة إلى الحميم، وتارة إلى الحميم كما قال تعالى ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ إِن﴾ [الرحمن: ٤٤]^(٤) ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْ مَّا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾^(٥) من دون الله ﴿أَيُّ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ تَبَكَّيْتُمْ: أَيْنَ الْأَوْثَانُ وَالْأَصْنَامُ﴾ التي كنتم تعبدونها وتجعلونها شركاء لله؟ ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي فيقولون: غابوا عن عيوننا فلا نراهم ولا نستشفع بهم ﴿بَلْ لَّمْ تَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ أي بل لم تكن نعبد شيئًا قال المفسرون: جحدوا عبادتهم، وإنما فعلوا ذلك لحيرتهم واضطرابهم ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ أي مثل إضلال هؤلاء المكذبين يضل الله كل كافر ﴿ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي ذلكم العذاب بما كنتم تُظهِرونه في الدنيا من السرور بالمعصية وكثرة المال وإنفاقه في المحرمات ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أي وبسبب بطركم وأشركم وخيلائكم قال الصاوي: وهذا وإن كان ذمًا في الكفار، إلا أنه يجزئ بذيله على كل من توسّع في معاصي

(١) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧ / ٨٥.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٥ / ١٤. (ش): هذا كلامٌ فاسدٌ لأنه خلاف مدلول الآية من أن الله تعالى يقول للشيء قولاً

حقيقياً «كن»، وهذا فيه نفى لكلام الله.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣ / ٢٥١.

الله، فله من هذا الوعيد نصيب^(١) ﴿أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ادخلوا من أبواب جهنم السبعة المقسومة لكم ما كنتم فيها أبداً ﴿فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي بنست جهنم مقراً وسكناً للمستكبرين عن آيات الله، المعرضين عن دلائل الإيمان والتوحيد، وإنما قال ﴿مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ولم يقل (فبئس مدخل المتكبرين) وهو مقتضى النظم، لأن الدخول لا يدوم، وإنما يدوم المَثْوَى ولذا خصه بالذم ﴿فَأَصْرَارًا وَعَدًا لِلَّهِ حَقٌّ﴾ أي فاصبر يا محمد على تكذيب قومك لك، فإن وعد الله بتعذيبهم كائن لا محالة قال الصاوي: هذا تسليّة من الله لنبيه ﷺ ووعد حسن بالنصر له على أعدائه^(٢) ﴿فَكَيْفَ تَأْخُذُ بِعَصَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي إن أريناك بعض الذي نعدهم من العذاب، وجواب الشرط محذوف تقديره فذلك هو المطلوب، أو لتقرّ به عينك^(٣) ﴿أَوْ تَتَوَفَّيَنَا فَإِنَّا يَرْجِعُونَ﴾ أي أو تتوفينك يا محمد قبل إنزال العذاب عليهم، فإننا مرجعهم يوم القيامة فننتقم منهم أشد الانتقام، ثم أخبره تعالى بأنباء الرسل تسليّة له عليه السلام فقال ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ أي والله لقد بعثنا يا محمد رسلاً كثيرين قبلك، وأيدناهم بالمعجزات الباهرة فجادلهم قومهم وكذبوهم فتأسّ بهم^(٤) في الصبر على ما ينالك^(٥) قال القرطبي: عزّاه تعالى بما لقيت الرسل من قبله^(٦) ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ أي من هؤلاء الرسل من أخبرناك عن قصصهم مع قومهم، ومنهم من لم نخبرك عن قصصهم وأخبارهم ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي وما صحّ ولا استقام لرسول من الرسل أن يأتي قومه بشيء من المعجزات إلا بأمر الله، وهذا ردّ على قریش حيث قالوا للنبي ﷺ: اجعل لنا الصفا ذهباً وغير ذلك من مقترحاتهم ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِّى بِالْحَقِّ﴾ أي فإذا جاء الوقت المسمّى لعذابهم أهلكهم الله ﴿وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْمُكْبِرُونَ﴾ أي خسروا في ذلك الحين المعاندون الذين يجادلون في آيات الله، ويقتربون المعجزات على سبيل التعت، ثم ذكرهم تعالى بنعمه فقال ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّعْنَ﴾ أي الله جلّ وعلا الذي لا تصلح الألوهية إلا له، هو الذي سخّر لكم هذه الأنعام «الإبل والبقر والغنم» خلقها لكم ولمصلحتكم ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي لتركبوا على ظهور بعض هذه الحيوانات، وتأكلوا من لحومها وألبانها، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ أي ولكم في هذه

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ١٤ / ٤.

(٢) «حاشية الصاوي» ١٥ / ٤.

(٣) (ش): قَرَّتْ عَيْنُهُ: بَرَدَ دَمْعُهَا، ضِدَّ سَخُنَتْ، وَيُكْنَى بِهِ عَنِ السُّرُورِ وَالِابْتِهَاجِ، وَقِيلَ: لِأَنَّهُ لِلْسُّرُورِ دَمْعَةٌ بَارِدَةٌ وَلِلْحُزَنِ دَمْعَةٌ حَارَّةٌ.

(٤) (ش): أَيِ اقْتَدَى بِهِمْ.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٥ / ٣٣٤.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٥ / ٣٤١.

الأنعام منافع عديدة في الوبر والصوف والشعر، واللبن والزبد والسمن ﴿وَلَيْسَبُلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي يحمل الأثقال في الأسفار البعيدة ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ أي وعلى هذه الإبل في البر، وعلى السفن في البحر تحمّلون، وإنما قرن بين الإبل والسفن لما بينهما من شدة المناسبة حتى سميت الإبل سفن البر ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي ويريكُم أيها الناس حججه وأدلته على وحدانيته في الآفاق والأنفس ﴿فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُكْفِرُونَ﴾ توبيخ لهم على إنكارهم لوحدانيته مع ظهور آياته الكثيرة. والمعنى: أي آية من تلك الآيات الباهرة والدلائل الكثيرة الساطعة تنكرون مع وضوحها وجلالتها وكثرتها؟ فإن هذه الدلائل لظهورها لا تقبل الإنكار ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الاستفهام إنكاري، أي: أفلم يسر هؤلاء المشركون في أطراف الأرض ليعرفوا عاقبة المتكبرين المتمردين، وآثار الأمم السالفة قبلهم، ماذا حل بهم من العذاب والدمار بسبب كفرهم وتكذيبهم؟ ﴿كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً وَءَاتَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي كانوا أكثر عدداً من أهل مكة، وأقوى منهم قوة، وآثارهم لا تزال باقية بعدهم من الأبنية والقصور والمباني الضخمة ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي فلم ينفعهم ما كانوا يكسبونه من الأبنية والأموال شيئاً، ولا دفع عنهم العذاب ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي فلما جاءتهم الرسل بالمعجزات الظاهرات، والآيات الواضحات ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي فرح الكفار بما هم عليه من العلم الدنيوي، الخالي عن نور الهداية والوحي، فرح بطرٍ وأشر^(١)، واغتروا بذلك العلم ﴿وَحَاكَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي نزل بهم جزاء كفرهم واستهزائهم بالرسول والآيات ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ أي فلما رأوا شدة العذاب وعاینوا أهواله وشدائده قالوا: آمنا بالله الواحد الأحد ﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ أي كفرنا بالأصنام والأوثان التي أشركناها في العبادة مع الله ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي فلم يكن ينفعهم ذلك الإيمان حين شاهدوا العذاب لأنه إيمان عن قسر وإلجاء^(٢) ﴿سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ أي سن الله ذلك سنة ماضية في العباد، أنه لا ينفع الإيمان إذا رآوا العذاب ﴿وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ أي وخسر في ذلك الوقت الكافرون برهم، الجاحدون لتوحيد خالقهم.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

(١) (ش): أشر الشخص، أشرًا، فهو أشر: بطر واستكبر ومرح ونشط. بطر الشخص، بطراً، فهو بطر: طغى وغالى في مَرَحِه وزهوهِ واستخفافه، جاوز الحد كثيراً. بطر النعمة: استخفها وكفرها ولم يشكرها. بطر الحق ونحوه: أنكره ولم يقبله تكبراً وطغياناً.

(٢) (ش): أي عن إكراه واضطرار.

- ١ - الطباق بين ﴿الذَّنْبِ..التَّوْبِ﴾ وبين ﴿أَمْتَنَا..وَأَحْيَيْنَا﴾ وبين ﴿صَادِقًا..كَذَابٌ﴾ وبين ﴿عُدُوًّا..وَعَشِيًّا﴾ وبين ﴿يُحْيِي..وَيُمِيتُ﴾ وبين ﴿الْأَعْمَى..وَالْبَصِيرُ﴾.
- ٢ - المقابلة ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ [غافر: ١٢] فقد قابل بين التوحيد والإشراك، والكفر والإيمان وكذلك توجد المقابلة بين قوله تعالى ﴿يَقُومُوا إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩] وهذه من المحسنات البديعية.
- ٣ - المجاز المرسل ﴿وَيُنَزِّلْ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ [غافر: ١٣] أطلق الرزق وأراد المطر؛ لأن الماء سبب في جميع الأرزاق، فهو من إطلاق المسبب وإرادة السبب.
- ٤ - الاستعارة اللطيفة ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٨] استعار الأعمى للكافر، والبصير للمؤمن.
- ٥ - المجاز العقلي ﴿وَالْتَهَارَ مُبْصِرًا﴾ [غافر: ٦١] من إسناد الشيء إلى زمانه، لأن النهار زمنٌ للإبصار.
- ٦ - الكناية ﴿يُلْقَى الرُّوحُ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [غافر: ١٥] الروح هنا كناية عن الوحي، لأنه كالروح للجسد.
- ٧ - صيغ المبالغة مثل: «كذاب، جبَّار، سميع، بصير، عليم» إلخ.
- ٨ - الجناس الناقص ﴿تَفَرَّحُونَ..تَمَرَّحُونَ﴾ وكذلك ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤].
- ٩ - التأكيد بإن واللام ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّهُ﴾ [غافر: ٥٩].
- ١٠ - صيغة الحصر ﴿مَا يُجَدِّلُ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٤].
- ١١ - جناس الاشتقاق ﴿أَرْسَلْنَا رَسُولًا﴾.
- ١٢ - طباق السلب ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾.
- ١٣ - توافق رءوس الآيات مع السجع البديع، والكلام الذي يأخذ بالألباب، انظر روعة البيان، وتمعن قول القرآن وهو يتحدث عن مؤمن آل فرعون بذلك البيان الإلهي المعجز ﴿وَيَقُومُوا مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ۖ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ۚ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ [غافر: ٤١٤٢] إلخ الآيات الكريمة التي هي أجلى من عقود الجُمان^(١).

«تم بعونه تعالى تفسير سورة غافر»





مكية وآياتها ٥٤ نزلت بعد غافر

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مكية، وهي تتناول جوانب العقيدة الإسلامية «الوحدانية، الرسالة، البعث، والجزاء» وهي الأهداف الأساسية لسائر السورة المكية التي تهتم بأركان الإيمان. * ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن، المنزل من عند الرحمن، بالحجج الواضحة، والبراهين الساطعة، الدالة على صدق محمد عليه الصلاة والسلام، فهو المعجزة الدائمة الخالدة للنبي الكريم.

* وتحدثت السورة عن أمر «الوحي والرسالة» فقررت حقيقة الرسول، وأنه بشر خصه الله تعالى بالوحي، وأكرمه بالنبوة، واختاره من بين سائر الخلق ليكون داعياً إلى الله، مرشداً إلى دينه المستقيم.

* ثم انتقلت السورة للحديث عن مشهد الخلق الأول للحياة، خلق السماوات والأرض، بذلك الشكل الدقيق المحكم، الذي يلفت أنظار المعرضين عن آيات الله، للنظر والتفكير والتدبر، ولكن ظلمات الكفر هي التي تحول بينهم وبين الإيمان، فالكون كله ناطق بعظمة الله، شاهد بوحدانيته جل وعلا.

* وعرضت السورة للتذكير بمصارع المكذبين، وضربت على ذلك الأمثلة بأقوى الأمم وأعتها قوم عاد الذين بلغ من جبروتهم أن يقولوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مَقَافَةً؟﴾ وذكرت ما حل بهم وبشمود من الدمار الشامل، والهلاك المبين، حين تمادوا في الطغيان وكذبوا برسول الله.

* وبعد الحديث عن المجرمين يأتي الحديث عن المؤمنين المتقين، الذين استقاموا على شريعة الله ودينه، فأكرمهم الله بالأمن والأمان في دار الجنان، مع النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين.

* ثم تحدثت السورة عن الآيات الكونية المعروضة للأنتظار، في هذا الكون الفسيح، الزاخر بالحكم والعجائب، وموقف الملحين بآيات الله، المتعامين عن كل تلك الآيات الظاهرة الباهرة.

* وختمت السورة بوعد الله للبشرية، بأن يطلعهم على بعض أسرار هذا الكون في آخر الزمان، ليستدلوا على صدق ما أخبر عنه القرآن ﴿سَرُّهُمْ ءَايَاتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

التسمية: سميت «سورة فصلت» لأن الله تعالى فصل فيها الآيات، ووضح فيها الدلائل

على قدرته ووحدانيته، وأقام البراهين القاطعة على وجوده وعظمته، وخلق له هذا الكون البديع الذي ينطق بجلال الله وعظيم سلطانه.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝ (١) نَزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ (٢) كَتَبَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ وَفِي أَذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا عَمَلُونا ۝ (٥) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُمُ اللَّهُ وَجِدْ فَاسْتَغِيثُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ۝ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝ (٧) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝ (٨) قُلْ أَيْتَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِّنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝ (١٠) ثُمَّ أَسْوَأَ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اأْتِنِي طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ (١٢) فَإِنِ اعْرَضُوا فَقُلْ أَذَرْتُكُمْ صَبْعَةً مِّثْلَ صَبْعَةِ عَادٍ وَنُوحٍ ۝ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۝ (١٤) فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ ۝ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحْسَاتٍ لِّنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَبْعَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ (١٧) وَتَجَنَّبْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ

اللغة: ﴿فُصِّلَتْ﴾ بُيِّنَتْ وَوَضِّحَتْ ﴿أَكِنَّةٌ﴾ جَمْعُ كَنَانٍ وَهُوَ الْغَطَاءُ ﴿وَقُرٌّ﴾ صَمٌّ وَثَقَلٌ يَمْنَعُ سَمَاعَ الْكَلَامِ ﴿مَمْنُونٍ﴾ مَقْطُوعٌ مِنْ مَنْتِ الْحَبْلِ إِذَا قَطَعْتَهُ قَالَ الشَّاعِرُ:

إِنِّي لَعَمْرُكَ مَا بَابِي بِذِي غَلَقٍ عَلَى الصَّدِيقِ وَلَا خَيْرِي بِمَمْنُونٍ ^(١)
﴿صَرْصَرٍ﴾ الصَّرْصَرُ: الرِّيحُ الْبَارِدَةُ الْعَاصِفَةُ مَعَ الصَّوْتِ الشَّدِيدِ ﴿نَحْسَاتٍ﴾ مَشْتَوِمَاتٍ مِنَ النَّحْسِ بِمَعْنَى الشُّؤْمِ وَهُوَ ضِدُّ السَّعْدِ قَالَ الشَّاعِرُ:

سَوَاءٌ عَلَيْهِ أَيَّ حِينٍ أَتَيْتُهُ أَسَاعَةً نَحْسٍ تُنْقَى أَمْ بِأَسْعَدٍ ^(٢)
﴿أَخْزَى﴾ أَشَدُّ إِهَانَةً وَإِذْلَالًا مِنَ الْخِزْيِ بِمَعْنَى الْإِهَانَةِ ﴿الْهُونُ﴾ الْإِهَانَةُ وَالذِّلُّ.

(١) «تفسير القرطبي» ١٥ / ٣٤١. (ش): مَا بَابِي بِذِي غَلَقٍ عَلَى الصَّدِيقِ: أَيُّ أَنَا كَرِيمٌ لَا أَغْلِقُ بَابِي فِي وَجْهِ الصَّدِيقِ.

(٢) «البحر المحيط» ٧ / ٤٨١. (ش): يَرِيدُ بِسَاعَتِي النَّحْسَ وَالسَّعْدَ أَوَقَاتَ الْفَلَةِ وَالْكَثْرَةَ فِي الْمَالِ. وَالْبَيْتُ مَنَسُوبٌ لَزُهَيْرِ بْنِ أَبِي سَلَمَى، مِنْ قَصِيدَةٍ لَهُ يَصُورُ فِيهَا كَرَمُهُ وَشَجَاعَتُهُ وَفَصَاحَتُهُ.

التفسير: ﴿حَمَّ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن^(١) ﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أي هذا القرآن المجيد مُنَزَّل من الرحمن الرحيم، أنزله جل وعلا رحمةً بعباده، وإنما خصَّ هذين الاسمين ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ إشارة إلى أن نزوله من أكبر النعم، ولا شك أن القرآن نعمة باقية إلى يوم القيامة ﴿كَذَّبُ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي كتاب جامع للمصالح الدينية والدنيوية، بُيِّنَت معانيه، ووضِّحت أحكامه، بطريق القصص والمواعظ والأحكام والأمثال، في غاية البيان والكمال ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي في حال كونه قرآنًا عربيًّا، واضحًا جليًّا نزل بلسان العرب ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي لقوم يفهمون تفاصيل آياته، ودلائل إعجازه، فإنه في أعلى طبقات البلاغة، ولا يتذوق أسرارَه إلا من كان عالمًا بلغة العرب ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي مبشرًا للمؤمنين بجنت النعيم، ومنذرًا للكافرين بعذاب الجحيم ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي فأعرض أكثر المشركين عن تدبر آياته مع كونه نزل بلُغَتهم، فهم لا يسمعون سماع تفكر وتأمل قال أبو حيان: المعنى: أعرض أكثر أولئك القوم مع كونهم من أهل العلم، ولكن لم ينظروا النظر التام بل أعرضوا، فهم لإعراضهم لا يسمعون ما احتوى عليه من الحجج والبراهين^(٢) وقال القرطبي: السورة نزلت تقريبًا وتوبيخًا لقريش في إعجاز القرآن، فهم لا يسمعون سماعًا ينتفعون به^(٣)، ثم أخبر تعالى عن عتوهم وضلالهم فقال ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي وقالوا للرسول ﷺ حين دعاهم إلى الإيمان: قلوبنا في أغشية متكاثفة، لا يصل إليها شيء مما تدعوننا إليه من التوحيد والإيمان ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي وفي آذاننا صمم وثقل يمنعنا من فهم ما تقول قال الصاوي: شبهوا أسماعهم بأذان فيها صمم، من حيث إنها تمجج^(٤) الحق ولا تميل إلى استماعه^(٥) ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ أي وبيننا وبينك يا محمد حاجز يمنع أن يصل إلينا شيء مما تقول، فنحن معذورون في عدم اتباعك، لوجود المانع من جهتنا وجهتك ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَا﴾ أي اعمل أنت على طريقتك، ونحن على طريقتنا، واستمر على دينك فإننا مستمرون على ديننا ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ﴾ أي قل يا محمد لأولئك المشركين: لست إلا بشرًا مثلكم خصني الله بالرسالة والوحي، وأنا داع لكم إلى توحيد خالقكم وموجدكم، الذي قامت الأدلة العقلية والشرعية على وحدانيته ووجوده، فلا داعي إلى تكذبي ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي توجهوا إليه بالاستقامة على التوحيد والإيمان، والإخلاص في الأعمال، واسألوه المغفرة

(١) انظر أول سورة البقرة.

(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٤٨٣.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٣٨.

(٤) (ش): مَجَّ الشَّرَابَ ونحوه من فمه: لَفَظَه، رمى به وألقى.

(٥) «حاشية الصاوي» ٤/ ١٧.

لسالف الذنوب ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴿أَي دِمَارٌ وَهَلَاكٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يَفْعَلُونَ الْخَيْرَ، وَلَا يَتَصَدَّقُونَ وَلَا يَنْفِقُونَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: قَرَّعَهُمْ (١) بِالْشَّحِّ الَّذِي يَأْنِفُ مِنْهُ الْفَضْلَاءُ، وَفِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْكَافِرَ يُعَذَّبُ بِمَنْعِ الزَّكَاةِ مَعَ عَذَابِهِ عَلَى كُفْرِهِ (٢) وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْمُرَادُ زَكَاةُ الْإِنْفُسِ. وَالْمَعْنَى: لَا يَطْهَرُونَ أَنْفُسَهُمْ مِنَ الشَّرْكِ بِالتَّوْحِيدِ، وَلَا يَقُولُونَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (٣) ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أَي كَفَرُوا بِالْبَعْثِ وَالنَّشُورِ، وَكَذَّبُوا بِالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ قَالَ الصَّاوِي: وَإِنَّمَا خَصَّ مَنَعَ الزَّكَاةِ وَقَرْنَهُ بِالْكَفْرِ بِالْآخِرَةِ، لِأَنَّ الْمَالَ شَقِيقُ الرُّوحِ فَإِذَا بَذَلَهُ الْإِنْسَانُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَانَ دَلِيلًا عَلَى قُوَّتِهِ وَثَبَاتِهِ فِي الدِّينِ (٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ لَمَّا ذَكَرَ حَالَ الْكَفَرِ وَوَعِيدَهُمْ، أَرَدَفَهُ بِذِكْرِ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا لَهُمْ مِنَ الْوَعْدِ الْكَرِيمِ. وَالْمَعْنَى: الَّذِينَ صَدَّقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ (٥)، وَجَمَعُوا بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ (٦)، لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ أَجْرٌ غَيْرُ مَقْطُوعٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ، بَلْ هُوَ دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ بِدَوَامِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى دَلَائِلَ قُدْرَتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ فَقَالَ ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ الْإِسْتِفْهَامُ لِلتَّوْبِيخِ وَالتَّعَجُّبِ، أَي: كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَهُوَ الْإِلَهُ الْعَلِيُّ الشَّانُ، الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، خَالِقُ الْأَرْضِ فِي يَوْمَيْنِ؟ ﴿وَجَعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ أَي تَجْعَلُونَ لَهُ شُرَكَاءَ وَأَمْثَالَ تَعْبُدُونَهَا مَعَهُ ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أَي ذَلِكَ الْخَالِقُ الْمُبْدِعُ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ كُلِّهِمْ، فَكَيْفَ يَجُوزُ جَعْلُ الْأَصْنَامِ الْخَسِيسَةِ شُرَكَاءَ لَهُ فِي الْإِلَهِيَّةِ وَالْمَعْبُودِيَّةِ؟ قَالَ الصَّاوِي: الْإِسْتِفْهَامُ ﴿أَيُّكُمْ﴾ لِلإِنْكَارِ وَالتَّشْنِيعِ عَلَيْهِمْ وَالْمَعْنَى: أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي الْعَالَمِ الْعُلَوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ، فَكَيْفَ تَجْعَلُونَ لَهُ شَرِيكَاً (٧)؟ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا مِنْ فَوْقِهَا﴾ أَي جَعَلَ فِي الْأَرْضِ جِبَالًا ثَوَابِتَ لثَلَا تَمِيدُ بِالْبَشَرِ (٨) ﴿وَبَرَكْنَا فِيهَا﴾ أَي أَكْثَرَ خَيْرِهَا بِمَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ الْمِيَاهِ، وَالزَّرُوعِ، وَالضَّرُوعِ ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا﴾ أَي قَدَّرَ أَرْزَاقَ أَهْلِهَا وَمَعَاشَهُمْ قَالَ مُجَاهِدٌ: خَلَقَ فِيهَا أَنْهَارَهَا وَأَشْجَارَهَا وَدَوَابَّهَا ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءٍ لِلْسَّائِلِينَ﴾ أَي: فِي تَمَامِ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ كَامِلَةٍ

(١) (ش): قَرَّعَهُ: عَنَّفَهُ.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥ / ٣٤٠.

(٣) هذا القول ذكره ابن كثير ونسبه لابن عباس أن المراد به طهارة النفس من الشرك وهو قول مرجوح، والصحيح ما ذكره المفسرون أن المراد زكاة المال وهو اختيار ابن جرير.

(٤) «حاشية الصاوي» ٤ / ١٧.

(٥) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديق بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٦) (ش): العمل الصالح من الإيمان، فهو داخل في حقيقته وعطفه على الإيمان من عطف الخاص على العام اهتماماً به، مثل قوله تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالزَّكَاةِ أَلَوْسَطَى﴾.

(٧) «حاشية الصاوي» ٤ / ١٨.

(٨) (ش): تَمَازَ الشَّيْءُ: تَحَرَّكَ وَاضْطَرَبَ.

مستوية بلا زيادة ولا نقصان^(١)، للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ أي عمد إلى خلقها وقصد إلى تسويتها وهي بهيئة الدخان قال ابن كثير: والمراد بالدخان بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض^(٢) ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اأْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي استجبيا لأمري طائعتين أو مكرهتين ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ أي قالت السموات والأرض أتينا أمرك طائعين. قال الزمخشري: وهذا على التمثيل أي إنه تعالى أراد تكوينهما فلم يمتنع عليه، وكانت في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الأمر المطاع، والغرض تصوير أثر قدرته في المقدورات من غير أن يكون هناك خطاب وجواب، ومثله قول القائل: قال الحائط: للمسمار لم تشقني؟ قال: سل من يدقني^(٣)، وروي عن ابن عباس قال قال الله تعالى للسماء: أطلعي شمسك وقمرك ونجومك، وقال للأرض: شققي أنهارك وأخرجي شجرك وثمارك طائعتين أو كارهتين «قالتا أتينا أمرك طائعتين»^(٤) واختاره ابن جرير ﴿فَفَضَّهِنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي صنعهن وأبدع خلقهن سبع سموات في وقت مقدر بيومين، فتم خلق السموات والأرض في ستة أيام، ولو شاء لخلقهن بلمح البصر، ولكن أراد أن يعلم عباده الحلم والأناة ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أي أوحى في كل سماء ما أَرَادَهُ، وما أمر به فيها قال ابن كثير: أي رتب في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو ﴿وَرَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا﴾ أي وزينا السماء الأولى القريبة منكم، بالكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض، وحرسا من الشياطين أن تستمع إلى الملائكة الأعلى ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي ذلك المذكور من الخلق والإبداع هو صنع الله، العزيز في ملكه، العليم بمصالح خلقه ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي حين جاءتهم الرسل من كل جوانبهم، واجتهدوا في هدايتهم من كل جهة، وأعملوا فيهم كل حيلة، فلم يروا منهم إلا العتو والإعراض ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي بأن لا تعبدوا إلا الله وحده ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أي فإن أعرضوا عن الإيمان بعد هذا البيان، فقل لهم: إني أخوفكم عذابا هائلا مثل هلاك عاد وثمود^(٥)، وعبر بالماضي إشارة إلى تحققه وحصوله ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي ولو شاء ربنا إرسال رسول لجعله ملكا لا بشرا ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ

(١) «الكشاف» ٤/ ١٤٧.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٥٧.

(٣) «الكشاف» ٤/ ١٤٨. (ش): هذا تأويل باطل، يريد الزمخشري المعتزلي من ورائه نفى وصف الله بأنه يتكلم. وهذا الكلام الفاسد خلاف مدلول الآية من أن الله تعالى قال للسماء والأرض قولاً حقيقياً: ﴿أْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ وأنها قالتا قولاً حقيقياً ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٤٣.

(٥) قال في «الكشاف»: أي عذاباً شديداً وقع كأنه صاعقة.

كُفِرُونَ ﴿١﴾ أي: فإننا كافرون برسالتكم، لا نتبعكم وأنتم بشرٌ مثلنا، وفي قولهم: ﴿يَمَّا أُرْسِلْتُمْ﴾ ضربٌ من التهكم والسخرية بهم ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ هذا تفصيلٌ لما حلَّ بعاد وثمود من العذاب، أي فأما عاد فبغَوْا وعتَوْا وعَصَوْا، وتكبروا على عباد الله «هود» ومن آمن معه، بغير استحقاقٍ للتعظيم والاستعلاء ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟﴾ أي وقالوا اغترارًا بقوتهم لَمَّا خَوْفُوا بالعذاب: لا أحد أقوى منا فنحن نستطيع أن ندفع العذاب عن أنفسنا بفضل قوتنا قال أبو السعود: كانوا ذوي أجسام طوال، وخلق عظيم، وقد بلغ من قوتهم أن الرجل كان ينزع الصخرة من الجبل فيقتلعها بيده ^(١) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ جملة اعتراضية للتعجب من مقالتهم الشنيعة، والمعنى: أغفلوا عن قدرة الله ولم يعلموا أن الله العظيم الجليل الذي خلقهم وخلق الكائنات، هو أعظم منهم قوة وقدرة؟ ﴿وَكَانُوا يَنَازِعُونَا يَجْحَدُونَ﴾ أي وكانوا بمعجزاتنا يجحدون قال الرازي: إنهم كانوا يعرفون أنها حق ولكنهم جحدوا كما يجحد المودعُ الوديع ^(٢) ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي فأرسلنا على عاد ريحًا باردة شديدة البرد، وشديدة الصوت والهبوب، تهلك بشدة صوتها وبردها ﴿فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾ أي في أيام مشئومات غير مباركات ﴿لَنَذِقَنَّهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي لكي نذيقهم العذاب المخزي المذل في الدنيا قال الرازي: ﴿عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ أي عذاب الهوان والذل، والسبب أنهم استكبروا عن الإيمان، نقابل الله ذلك الاستكبار بإيصال الذل والهوان إليهم ^(٣) ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي ولعذابهم في الآخرة أعظم وأشدُّ إهانة وخزيًا من عذاب الدنيا، وليس لهم ناصر يدفع عنهم ذلك العذاب ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ أي وأمَّا ثمود فبينَّا لهم طريق الهدى، ودللناهم على سبيل السعادة، فاختاروا الضلالة على الهداية، والكفر على الإيمان ﴿فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ أي فأخذتهم قارعة العذاب الموقع في الإهانة والذل ﴿يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي بسبب إجرامهم وطغيانهم وتكذيبهم لنبي الله «صالح» قال ابن كثير: بعث الله عليهم صيحةً ورجفةً وذلاً وهواناً، وعذاباً ونكالاً، بتكذيبهم صالحاً وعقرهم الناقة ^(٤) ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ﴾ أي ونجينا صالحاً ومن آمن به من ذلك العذاب.

(١) «تفسير أبي السعود» ٢١/٥.

(٢) «التفسير الكبير» ١٢٧/١١٢. (ش): المودعُ: الشخص الذي تعطيه النقود وغيرها لتكون عنده وديعة، أي: أمانة. والمعنى: أنهم أنكروا الحق كما يُنكر الشخص المودعُ ما أعطاه الناس إياه من أموال وغيرها كوديعة - أي أمانة - ليستردوها فيما بعد.

(٣) نفس المرجع السابق ٢٧/١١٣.

(٤) «المختصر» ٢٥٩/٣.

قال الله تعالى:

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهُمَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ
وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِيُجْلِدُوهُمْ لَمْ يَشْهَدُوا عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ
وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا
جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ
فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصِيرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِنْ سَتَعْبَتُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾
وَقِيصْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لَّهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ
قَبْلِهِمْ مِنَ الْغِيَةِ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ
اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ
الْغِيَةِ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِي كَفَرُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا
تَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾
نَحْنُ أَوْلَىٰ أَوْكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهُى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا
تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي
مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ
كَأَنَّهُ وَدِّي حِمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ
الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنْ
اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ

المناسبة: لما ذكر تعالى قصة عاد وثمود، وما أصابهم من العقوبة في الدنيا بطغيانهم وإجرامهم، ذكر هنا ما يصيب الكفار عامة في الآخرة من العذاب والدمار، ليحصل منه تمام الاعتبار، في الزجر والتحذير عن ارتكاب المعاصي والكفر بنعم الله.

اللغة: ﴿يُوزَعُونَ﴾ يُحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا ﴿تَسْتَتِرُونَ﴾ تستخفون، من الاستتار بمعنى الاختفاء عن الأعين ﴿أَرَدْتُمْ﴾ أهلككم وأوقعكم في المهالك ﴿يَسْتَعْبَتُوا﴾ يطلبوا رضا الله ﴿الْمُعْتَبِينَ﴾ جمع معتب وهو المقبول عتابه قال النابغة:

فَإِنْ أَكْ مَظْلُومًا فَعَبْدٌ ظَلَمْتَهُ وَإِنْ تَكْ ذَا عُتْبَى فَمِثْلُكَ يُعْتَبُ ^(١)
﴿وَقِيصْنَا﴾ هيأنا ﴿نُزُلًا﴾ ضيافة وكرامة ﴿يَسْمَعُونَ﴾ يملكون.

سبب النزول: عن ابن مسعود قال: اجتمع عند البيت ثلاثة نفر فرشيان وثقفي أو ثقيان

وَقُرْشَى قَلِيلٌ فَفَهُ قُلُوبُهُمْ كَثِيرٌ شَحْمٌ بَطُونُهُمْ فَقَالَ أَحَدُهُمْ: «أَتَرُونَ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَا نَقُولُ؟». وَقَالَ الْآخَرُ: «يَسْمَعُ إِنْ جَهَرْنَا وَلَا يَسْمَعُ إِنْ أَخْفَيْنَا». وَقَالَ الْآخَرُ: «إِنْ كَانَ يَسْمَعُ إِذَا جَهَرْنَا فَهُوَ يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا». فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ (١) الآية.

التفسير: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ﴾ أي واذكر يوم يُجمع أعداء الله المجرمون في أرض المحشر لسوقهم إلى النار ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يُحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ويجتمعوا قال ابن كثير: تجمع الزبانية أولهم على آخرهم حتى يجمعوا (٢) ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ أي حتى إذا وقفوا للحساب ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي نطقت جوارحهم وشهدت عليهم بما اقترفوه من إجرام وآثام، وفي الحديث «فِيحْتَمُ عَلَى فِيهِ - أي فَمِه - فَيُقَالُ لَأَرْكَانِهِ: انْطَقِي. قَالَ فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ - قَالَ - ثُمَّ يُخَلِّي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُخْقًا. فَعَنْكَرُنْ كُنْتُ أَنَا ضِلُّ» (٣) ﴿وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ أي وقالوا لأعضائهم وجلودهم توبيخاً وتعجباً من هذا الأمر الغريب: لِمَ أقررتم علينا وشهدتم بما فعلنا وإنما كنا نجادل وندافع عنكم؟ ﴿قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي قالوا معتذرين: ليس الأمر بيدنا وإنما أنطقنا الله بقدرته، الذي يُنطق الجماد والإنسان والحيوان، فشهدنا عليكم بما عملتم من القبائح ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي هو أوجدكم من العدم، وأحياكم بعد أن لم تكونوا شيئاً، فمن قدر على هذا قدر على إنطاقنا ﴿وَالْيَهُ تَرْجِعُونَ﴾ أي وإليه وحده تردون بالبعث قال أبو السعود: المعنى: ليس نطقنا بعجب من قدرة الله، الذي أنطق كل حي، فإن من قدر على خلقكم وإنشائكم أولاً، وعلى إعادتكم ورجعكم إلى جزائه ثانياً، لا يُتعجب من إنطاقه لجوارحكم (٤) ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي وما كنتم تستخفون من هؤلاء الشهود في الدنيا حين مباشرتكم الفواحش، لأنكم لم تظنوا أنها تشهد عليكم قال البيضاوي: أي كنتم تستترون عن الناس عند ارتكاب الفواحش مخافة الفضيحة، وما ظننتم أن أعضاءكم تشهد عليكم فما استخفيتم منها، وفيه تنبيه على أن المؤمن ينبغي ألا يمر عليه حال إلا وعليه رقيب (٥) ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي ولكن ظننتم أن الله تعالى لا يعلم كثيراً من القبائح المخفية، ولذلك اجترأتم على المعاصي

(١) الحديث أخرجه مسلم كذا في القرطبي ١٥ / ٣٥١. (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٢٦٠ / ٣.

(٣) هذا جزء من حديث طويل أخرجه مسلم، وفيه دلالة على أن أعضاء الإنسان تشهد عليه يوم القيامة، والله على كل شيء قدير.

(٤) «تفسير أبي السعود» ٢٢ / ٥.

(٥) «تفسير البيضاوي» ١٥٦ / ٢.

(٢) (ش): غَوَى فلانٌ: أَمَعَن في الضَّلال، فهو غَاوٍ و غَوِيٌّ.

(۳) «مختصر ابن کثیر» ۳ / ۲۶۱.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٥/٣٥٦.

علموا كونه معجزاً إلا أنهم جحدوه حسداً^(١) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرَنَا أَضَلَّاءَ مِمَّنْ لَّجِنَ وَالْإِنْسِ﴾ أي ويقول الكفار إذا دخلوا جهنم: ربنا أَرنا كل من أغوانا وأضلنا من الجن والإنس، وإنما جاء بلفظ الماضي «وقال» لتحقيقه ومعناه المستقبل قال أبو حيان: والظاهر أن المراد بـ﴿الَّذِينَ﴾ يراد بهما الجنس أي كل مُغْوٍ^(٢) من هذه النوعين^(٣) ﴿تَجَعَّلَهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أن نطأهما بأقدامنا انتقاماً وتشفيًا ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ أي ليكونا في الدرك الأسفل من النار، وهي أشد عذاب جهنم لأنها درك المنافقين، ولما ذكر تعالى حال الأشقياء المجرمين، أردفه بذكر حال السعداء المؤمنين فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ أي آمنوا بالله إيماناً صادقاً وأخلصوا العمل له، ثم استقاموا على توحيد الله وطاعته، وثبتوا على ذلك حتى الممات، عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال على المنبر بعد أن تلا الآية الكريمة: «استقاموا والله على الطريقة لطاعته، ثم لم يروغوا وروغان الثعالب»^(٤) والغرض أنهم استقاموا على شريعة الله، في سلوكهم، وأخلاقهم وأقوالهم، وأفعالهم، فكانوا مؤمنين حقاً، مسلمين صدقاً، وقد سئل بعض العارفين عن تعريف الكرامة فقال: الاستقامة عين الكرامة، وعن الحسن أنه كان يقول: اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة ﴿تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي تنزل عليهم ملائكة الرحمة عند الموت بأن لا تخافوا ممّا تقدّمون عليه من أحوال القيامة، ولا تحزنوا على ما خلفتموه في الدنيا من أهل ومالٍ وولد فنحن نخلفكم فيه ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي وأبشروا بجنة الأخلد التي وعدكم الله بها على لسان الرسل قال شيخ زاده: إن الملائكة تنزل حين الاحتضار على المؤمنين بهذه البشارة أن لا تخافوا من هول الموت، ولا من هول القبر، وشدائد يوم القيامة، وإن المؤمن ينظر إلى حافظيه قائمين على رأسه يقولان: لا تخف اليوم ولا تحزن، وأبشر بالجنة التي كنت توعده، وإنك سترى اليوم أموراً لم تر مثلها فلا تهولنك فإنما يراد بها غيرك^(٥) ﴿نَحْنُ أَوْلَىٰ أَوْكُم فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي تقول لهم الملائكة: نحن أنصاركم وأعوانكم في الدنيا والآخرة، نرشدكم إلى ما فيه خيركم وسعادتكم في الدارين ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهُى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ أي ولكم في الجنة ما تشتهي نفوسكم، وتقرُّ به عيونكم^(٦) من أنواع اللذائذ والشهوات، ولكم

(١) «التفسير الكبير» ٢٧ / ١٢٠.

(٢) (ش): أغواه؛ غواه؛ أضله وأغراه بالفساد، فهو مُغْوٍ.

(٣) «البحر المحيط» ٧ / ٤٩٥.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٥ / ٣٥٨.

(٥) «حاشية شيخ زاده على البيضاوي» ٣ / ٢٦١.

(٦) (ش): فرّت عينه: برد دمعها، ضدّ سخنت، ويكنّى به عن السرور والابتهاج، وقيل لأنه للسرور دمعة باردة وللحزن دمعة حارة.

فيها ما تطلبون وتتمنون ﴿فَزُلْزِلْ مِنْ عَفْوَ رَحِيمٍ﴾ أي ضيافة وكرامة من رب واسع المغفرة، عظيم الرحمة لعباده المتقين ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي دعا إلى توحيد الله وطاعته، بقوله وفعله وحاله، وفعل الصالحات، وجعل الإسلام دينه ومذهبه قال ابن كثير: وهذه الآية عامة في كل من دعا إلى خير وهو نفسه مهتد، وقال الزمخشري^(١): والآية عامة في كل من جمع بين هذه الثلاث: أن يكون مؤمناً معتقداً لدين الإسلام، عاملاً بالخير، داعياً إليه، وما هم إلا طبقة العلماء العاملين^(٢) ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ أي لا يتساوى فعل الحسنة مع فعل السيئة، بل بينهما فرق عظيم في الجزاء وحسن العقابة ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي ادفع السيئة بالخصلة التي هي أحسن، مثل أن تدفع الغضب بالصبر، والجهل بالحلم، والإساءة بالعفو قال ابن عباس: ادفع بحلمك جهل من جهل عليك^(٣) ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ أي فإذا فعلت ذلك صار عدوك كالصديق القريب، الخالص الصداقة في مودته ومحبه لك ﴿وَمَا يُقْلِقْهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي وما ينال هذه المنزلة الرفيعة، والخصلة الحميدة، إلا من جاهد نفسه بكظم الغيظ واحتمال الأذى ﴿وَمَا يُقْلِقْهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي وما يصل إليها وينالها إلا ذو نصيب وافر من السعادة واحتمال الأذى ﴿وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أي وإن وسوس إليك الشيطان بترك ما أمرت به من الدفع بالتي هي أحسن، وأراد أن يحملك على البطش والانتقام، فاستعذ بالله من كيد وشره ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي هو السميع لأقوال العباد، العليم بأفعالهم وأحوالهم، ثم ذكر تعالى دلائل قدرته الباهرة، وحكمته البالغة فقال ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَيْلٌ وَالنَّهَارُ وَاللَّيْلُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أي ومن علاماته الدالة على وحدانيته وقدرته تعاقب الليل والنهار، وتذليل الشمس والقمر، مسخرين لمصالح البشر ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ أي لا تسجدوا للمخلوق واسجدوا للخالق، الذي خلق هذه الأشياء وأبدعها ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي إن كنتم تفردونه بالعبادة فلا تسجدوا لأحد سواه ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا﴾ أي فإن استكبر الكفار عن السجود لله ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي فالملائكة الأبرار يعبدونه بالليل والنهار ﴿وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ أي لا يملون عبادته.

قال الله تعالى:

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٦٤.

(٢) «الكشاف» ٤/ ١٥٦.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٦١.

أَمَّا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكُنْتُ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَنِ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۖ إِلَيْهِ يَرُدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءُي قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مَا مَنَّا مِنْ شَيْءٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِصٍ ﴿٤٨﴾ لَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَنْوَسُ فَنُوحٍ ﴿٤٩﴾ وَلَكِنْ أَدْقَنَهُ رَحْمَةٌ مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْطَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أُنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَغْرَضَ وَتَنَا بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ۖ مَنْ أَضِلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكُنْ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيبَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ءَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ

المناسبة: لما ذكر صفات المؤمنين الأبرار، وأردفها بذكر الدلائل الدالة على وجوده سبحانه ووحدانيته^(١)، وكمال علمه وحكمته، ذكر هنا ما يدل على البعث والنشور، من صفحات هذا الكون المنظور، ثم أعقبه بذكر الملحدين في آياته، المكذبين برسله وأنبيائه، وختم السورة الكريمة بيان حال الأشقياء المجرمين، المنكرين للقرآن العظيم.

اللغة: ﴿يُلْحِدُونَ﴾ يميلون عن الحق والاستقامة، والإلحاد: الميل والعدول يقال: ألحد في دين الله أي: حاد عنه وعدل^(٢) ﴿أَعْجَمِيًّا﴾ بلغة العجم ﴿وَقُرْ﴾ صمم مانع من سماعه ﴿أَكْمَامِهَا﴾ جمع كُمَّ وهو وعاء الثمرة بضم الكاف وكسرهما ﴿نَجِصٍ﴾ فرار ومهرب من حاص يحيط حيصاً إذا هرب ﴿وَتَنَا﴾ تباعد وأعرض ﴿الْأَفَاقِ﴾ أقطار السموات والأرض ﴿مَرِيبَةٍ﴾ شك وارتياب عظيم.

(١) (ش): ليس القصد من ذكر الآيات الكونية الاستدلال على وجود الله وانفراده بالخلق الذي هو عبارة عن توحيد الربوبية، لأن هذا يُقَرَّبُ به جمهور العالم أو كل العالم ومنهم المخاطبون بالقرآن بالذات، ومن أقر بهذا فقط لم يكن مسلماً، وإنما المقصود بسياق الآيات الكونية دائماً الاستدلال بذلك على توحيد العبادة الذي ينكره المشركون.

(٢) (ش): عدل عن الشيء، عدولاً، فهو عادل: مأل.

التفسير: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أي ومن البراهين والعلامات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته، أنك ترى الأرض يابسة جرداء لا نبات فيها، تشبه الرجل الخاضع الدليل ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي فإذا أنزلنا عليها المطر تحركت حركة شديدة وانتفخت وعلت بالنبات، وأخرجت من جميع ألوان الزروع والثمار ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَخْشَوْنَ اللَّهَ الْمَوْفِقَ﴾ أي إن الإله الذي أحيا الأرض بعد موتها هو الذي يحيي الأموات ويبعثهم من القبور ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لا يعجزه جل وعلا شيء، فكما أخرج الزروع والثمار من الأرض المجذبة، فإنه قادر على إحياء الموتى.. ثم توعد تعالى من يلحد في آياته بعد ظهور الأدلة والبراهين على وجوده^(١) فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْهَا﴾ أي إن الذين يطعنون في آياتنا، بالتحريف والتكذيب والإنكار لها لا يغيب أمرهم عنا فنحن لهم بالمرصاد، وفيه وعيد وتهديد قال قتادة: الإلحاد الكفر والعناد وقال ابن عباس: هو تبديل الكلام ووضع في غير موضعه^(٢) ﴿أَفَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَّ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي أفسن يطرح في جهنم مع الخوف والفرع أفضل أم من يكون في الجنة آمناً من عذاب الله يوم القيامة؟ قال الرازي: والغرض التنبيه على أن الملحدين في آيات الله يُلقون في النار، وأن المؤمنين بآيات الله يكونون آمنين يوم القيامة، وشتان ما بينهما^(٣) ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ أي افعلوا ما تشاءون في هذه الحياة، وهو تهديد لا إباحة ملفع بطل الوعيد، بدليل قوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي هو تعالى مطلع على أعمالكم، لا تخفى عليه خافية، من أحوالكم، وسيجازيكم عليها ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي إن الذين كذبوا بالقرآن حين جاءهم من عند الله، وخبر «إن» محذوف لتهويل الأمر كأنه قيل: سيجازون بكفرهم جزاء لا يكاد يوصف لشدة بشاعته وفظاعته^(٤) ﴿وَأَنَّهُ لَكِنَّهُمْ لَكَاِبٌ عَرِيزٌ﴾ أي وإنه لكتاب غالب بقوة الحجة، لا نظير له لما احتوى عليه من الإعجاز، يدفع كل جاحد، ويقمع كل معاند ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي لا يتطرق إليه الباطل من جهة من الجهات، ولا مجال للطعن فيه قال ابن كثير: أي ليس للبطلان إليه سبيل، لأنه منزل من رب العالمين^(٥) ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي هو تنزيل من إله حكيم في

(١) (ش): ليس القصد من ذكر الآيات الكونية الاستدلال على وجود الله وانفراده بالخلق الذي هو عبارة عن توحيد الربوبية، لأن هذا يُقر به جمهور العالم أو كل العالم ومنهم المخاطبون بالقرآن بالذات، ومن أقر بهذا فقط لم يكن مسلماً، وإنما المقصود بسياق الآيات الكونية دائماً الاستدلال بذلك على توحيد العبادة الذي ينكره المشركون.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥ / ٣٦٦.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٧ / ١٣١.

(٤) هذا رأي أكثر المفسرين. واختار أبو حيان في «البحر المحيط» أن الخبر مذكور وهو: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ ولكنه حذف منه العائد، والأول أظهر.

(٥) «مختصر ابن كثير» ٣ / ٢٦٥.

تشريعه وأحواله وأفعاله، محمود من خلقه بسبب كثرة نعمه.

ثم سَلَّى تعالى نبيّه على ما يصيبه من أذى الكفار فقال ﴿مَآيُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي ما يقول لك كفار قومك، إلا ما قد قال الكفار للرسل قبلهم من الكلام المؤذي، والطعن فيما أنزل الله قال القرطبي: يُعْزَى نبيه ويُسَلَّى من أذى وتكذيب قومه ^(١) ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي إن ربك يا محمد لهو الغفور لذنوب المؤمنين، ذو العقاب الشديد للكافرين، ففَوْضُ أمرِك إليه فإنه ينتقم من أعدائك، ثم ذكر تعالى تعنت الكافرين ومكابرتهم للحق بعد سطوعه وظهوره فقال ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا﴾ أي لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم ﴿لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أي لقال المشركون: هَلَا بُيِّنَتْ آيَاتُهُ بِلِسَانٍ نفهمه وهَلَا نَزَلَ بِلُغَتِنَا ﴿أَعْجَمِيٍّ وَعَرَبِيٍّ﴾؟ استفهام إنكاري، أي: أفرَأَن أعجميٌّ ونبيٌّ عربي؟ قال الرازي: ذكروا أن الكفار كانوا يقولون لتعنتهم: هَلَا نَزَلَ الْقُرْآنُ بِلُغَةِ الْعَجَمِ؟ (فأجيبوا بأن الأمر لو كان كما تقترحون لم تتركوا الاعتراض، ثم قال: والحق عندي أن هذه السورة من أولها إلى آخرها كلام واحد متعلق ببعضه ببعض، وقد حكى تعالى عنهم في أول السورة أنهم قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥] فَرَدَّ تعالى عليهم هنا بأنه لو أنزل هذا القرآن بلغة العجم لكان لهم أن يقولوا: كيف أرسلت الكلام العجمي إلى القوم العرب) (ولصح لهم أن يقولوا ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥] لأننا لا نفهمه ولا نجيب بمعناه) ! أما وقد نزل بلغة العرب، وهم من أهل هذه اللغة، فكيف يمكنهم أن يقولوا ذلك؟ فظهر أن الآية على أحسن وجوه النظم ^(٢) ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾ أي قل لهم يا محمد: إن هذا القرآن هدى للمؤمنين من الضلالة، وشفاء لهم من الجهل والشك والريب ^(٣) ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيهِ إِذْ أَنَاهِهِمْ وَقُرْ﴾ أي والذين لا يصدقون بهذا القرآن، في آذانهم صمم عن سماعه، ولذلك تواصلوا باللغو فيه ^(٤) ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي كما أن هذا القرآن رحمة للمؤمنين، هو شقاء وتعاسة على الكافرين كقوله تعالى ^(٥) ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] قال في «حاشية البيضاوي»: إن القرآن لوضوح آياته، وسطوع براهينه، هادٍ إلى الحق، ومزيل للريب والشك، وشفاء من داء الجهل والكفر والارتياب، ومن ارتاب فيه ولم يؤمن به، فارتبابه إنما نشأ عن توغله في اتباع الشهوات، وتقاعده عن تفقد ما يسعده

(١) «تفسير القرطبي» ١٥ / ٣٦٧.

(٢) «التفسير الكبير» وهذا الذي ذكره الإمام الفخر الأظهر، فإنهم لم يقتربوا أن ينزل بلغة العجم وإنما هو على الفرض بدليل: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا﴾ وهذا الذي رجحناه هو ما ذهب إليه العلامة القرطبي حيث قال في تفسير الآية: المعنى لو جعلنا هذا القرآن بلغة غير العرب لقالوا: لولا بُيِّنَتْ آيَاتُهُ بلغتنا فإننا عرب لا نفهم الأعجمية، فينّ تعالى أنه أنزل بلسانهم ليتقرر به معنى الإعجاز، إذ هم أعلم الناس بأنواع الكلام نظماً ونثراً وإذا عجزوا عن معارضته؛ فذلك أدل دليل على أنه عند الله.

وينجيه ^(١) ﴿أُولَئِكَ يُنَادُونَكَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي أولئك الكافرون بالقرآن، كمن يُنادي من مكان بعيد، فإنه لا يسمع ولا يفهم ما يُنادي به، وهذا على سبيل التمثيل قال ابن عباس: يريد مثل البهيمة التي لا تفهم إلا دعاءً ونداءً ^(٢) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَآخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أي والله لقد أعطينا موسى التوراة فاختلف فيها قومه ما بين مصدق لها ومكذب، هكذا حال قومك بالنسبة للقرآن قال القرطبي: وهذا تسلية للنبي ﷺ أي لا يحزنك اختلاف قومك في كتابك، فقد اختلف من قبلهم في كتابهم، فأمن به قوم وكذب به قوم ^(٣) ﴿وَلَوْ لَا كَلِمَةُ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي ولو لا أن الله حكم بتأخير الحساب والجزاء للخلائق إلى يوم القيامة لعذبهم وأهلكهم في الدنيا ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي وإن هؤلاء الكفار لفى شك من القرآن، لتبلد عقولهم وعمى بصائرهم، موقع لهم في أشد الريبة والاضطراب ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي من عمل شيئاً من الصالحات في هذه الدنيا فإنما يعود نفع ذلك على نفسه، ومن أساء في الدنيا فإنما يرجع وبال ذلك وضرره عليه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي وليس الله منسوباً إلى الظلم حتى يعذب بغير إساءة، فهو تعالى لا يعاقب أحداً إلا بذنبه، ولا يعاقبه إلا بجُرمه قال المفسرون: ليست صيغة «ظلام» هنا للمبالغة، وإنما هي صيغة نسبة مثل عطار، ونجار، وتَمَار، ولو كانت للمبالغة لأوهم أنه تعالى ليس كثير الظلم ولكنه يظلم أحياناً، وهذا المعنى فاسد لأنه يستحيل عليه الظلم جل وعلا ﴿إِلَيْهِ يُرْجَعُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي إليه تعالى وحده علم وقت الساعة لا يعلمه غيره قال الإمام الفخر: أي لا يعلم وقت الساعة بعينه إلا الله، ومناسبتها لما قبلها أنه تعالى لما هدّد الكفار بقوله ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ ومعناه أن جزاء كل أحد يصل إليه في يوم القيامة، فكان سائلاً قال: ومتى يكون ذلك اليوم؟ فبين تعالى أن معرفة ذلك اليوم لا يعلمه إلا الله ^(٤) ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامٍهَا﴾ أي وما تخرج ثمرة من الثمرات من غلافها ووعائها ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي ولا تحمل أنثى جنيئاً في بطنها، ولا تلده إلا ملتبساً بعلمه تعالى، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَتَيْنَ شُرَكَاءِي﴾ أي ويوم القيامة ينادي الله المشركين: أين شركائي الذين زعمتم أنهم آلهة؟ وفيه تفرغ وتهكم بهم ﴿قَالُوا أَذُنْكَ مَا مِمَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ أي قال المشركون: أعلمناك وأخبرناك الآن بالحقيقة ما منا من يشهد اليوم بأن لك شريكاً قال المفسرون: لما عاينوا القيامة تبرءوا من الأصنام وتبرأت الأصنام منهم، أي: وأعلنوا إيمانهم وتوحيدهم في وقت لا ينفع فيه إيمان ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا

(١) حاشية زاده علي البيضاوي ٢٦٥ / ٣.

(٢) «التفسير الكبير» ١٣٤ / ٢٧.

(٣) «تفسير القرطبي» ٣٧٠ / ١٥.

(٤) «التفسير الكبير» ١٣٦ / ٢٧.

يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ ﴿١﴾ أي وغاب عنهم ما كانوا يعبدونه في الدنيا من الآلهة المزعومة ﴿وَضَلُّوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ﴾ أي وأيقنوا أنه لا مهرب ولا مخلص لهم من عذاب الله ﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ أي لا يملُّ الإنسان من سؤاله ودعائه بالخير لنفسه، كالمال والصحة والعز والسلطان ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ أي وإن أصابه فقر أو مرض فهو عظيم اليأس، فانطُ من رُوح الله ورحمته ^(١) ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ﴾ أي ولئن أعطيناه غنى وصحة من بعد شدة وبلاء ﴿يَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ أي ليقولَنَّ هذا بسعبي واجتهادي قال أبو حيان: سمى النعمة رحمة إذ هي من آثار رحمة الله ^(٢) ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي وما أعتقد أن القيامة ستكون ﴿وَلَيْنَ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ أي وعلى فرض أن القيامة حاصلة، فليحسننَّ إليَّ ربِّي كما أحسن إليَّ في هذه الدنيا قال ابن كثير: يتمنى على الله عزَّ وجلَّ مع إساءته العمل وعدم اليقين ^(٣) ﴿فَلَنَنْتِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ أي فوالله لنُعْلِمَنَّ هؤلاء الكافرين بحقيقة أعمالهم، ولنَبَصِّرَنَّهُمْ بِإِجْرَامِهِمْ ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي ولنُعَذِّبَنَّهُمْ أَشَدَّ الْعَذَابِ، وهو الخلود في نار جهنم ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِنِعْمَتِنَا﴾ أي وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض عن شكر ربه، واستكبر عن الانقياد لأوامره، وشمخ بأنفه تكبراً وترفعاً ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ أي وإذا أصابه المكروه فهو ذو دعاء كثير، يديم التضرع ويكثر من الابتهاال، وهكذا طبيعة الإنسان الجُحود والنُكران، يعرف ربه في البلاء وينساه في الرخاء قال الرازي: استعير العرض لكثرة الدعاء، كما استعير الغلظ لشدة العذاب ^(٤) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثَمَرٌ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ أي قل لهم يا محمد: أخبروني يا معشر المشركين، إن كان هذا القرآن من عند الله، وكفرتم به من غير تأمل ولا نظر، كيف يكون حالكم؟ ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى النفي، أي: لا أحد أضل منكم لفرط شِقَاقِكُمْ وعداوتِكُمْ، قال أبو السعود: وضع الموصول «من أضل» موضع الضمير «منكم» شرحاً لحالهم، وتعليلاً لمزيد ضلالهم ^(٥) ﴿سَرَّيْهِمْ أَیَّتِنَا﴾ أي سنظهِرُ لَهُؤْلَاءِ الْمُشْرِكِينَ دَلَالَتَنَا وَحُجَجَنَا عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ مَنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿فِي الْأَفَاقِ﴾ أي في أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم، والأشجار والنبات وغير ذلك من العجائب العلوية والسفلية ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي وفي عجائب قدرة الله في خلقهم وتكوينهم قال القرطبي: المراد

(١) (ش): رُوح الله: رحمة الله.

(٢) «البحر المحيط» ٥٠٤ / ٧.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٢٦٧ / ٣.

(٤) «التفسير الكبير» ١٣٨ / ٢٧.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٢٧ / ٥.

ما في أنفسهم من لطيف الصنعة، وبديع الحكمة، حتى سبيل الغائط والبول، فإن الرجل يأكل ويشرب من مكان واحد، ويتميز ذلك من مكانين، ومن بديع صنعة الله وحكمته في عينيه اللتين هما قطرة ماء، ينظر بهما من الأرض إلى السماء، مسيرة خمسمائة عام، وفي أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة، وغير ذلك من بديع حكمة الله فيه ^(١) ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ أي حتى يظهر لهم أن هذا القرآن حق ﴿وَلَمْ يَكُفَّ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؟ أي أولم يكفهم برهاناً على صدقك أن ربك لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء؟ وأنه مطلع على كل شيء لا تخفى عليه خافية؟ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِئَةٍ مِّنَ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ ألا استفتاح لتنبية السامع إلى ما يقال، أي: ألا فانتبهوا أيها القوم إن هؤلاء المشركين في شك من الحساب والبعث والجزاء، ولهذا لا يتفكرون ولا يؤمنون ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ أي ألا فانتبهوا فإنه تعالى قد أحاط علمه بكل الأشياء جملة وتفصيلاً، فهو يجازيهم على كفرهم.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الطباق بين ﴿بَشِيرًا.. وَنَذِيرًا﴾ وبين ﴿طَوْعًا.. كَرْهًا﴾ وبين ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ.. وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ وبين ﴿الْحَسَنَةَ.. السَّيِّئَةَ﴾ وبين ﴿مَغْفِرَةً.. عِقَابٍ﴾ وبين ﴿ءَانْجَحَى.. وَعَرِيٌّ﴾ وبين ﴿تَحْمَلُ.. تَضَعُ﴾ وبين ﴿الْخَيْرِ.. الشَّرِّ﴾.
- ٢ - طباق السلب ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ.. وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ وكذلك ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

- ٣ - الالتفات ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ [فصلت: ١٣] بعد قوله ﴿قُلْ إِنِّي كُنتُمُ لَتَكْفُرُونَ﴾ [فصلت: ٩] وهو التفات من الخطاب إلى الغيبة، وناسب الإعراض عن مخاطبتهم لكونهم أعرضوا عن الحق، وهو تناسب حسن.

- ٤ - الاستعارة التمثيلية ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آئِيتَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١] مثل تأثير قدرته تعالى في السموات والأرض بأمر السلطان لأحد رعيته أو عبيده بأمر من الأمور وامتنال الأمر سريعاً ^(٢).

- ٥ - الاستعارة التصريحية ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيْ ءَاذَانِنَا وَقَرْ﴾ [فصلت: ٥] ليس هناك على الحقيقة شيء مما قالوه، وإنما أخرجوا هذا الكلام مخرج الدلالة على استئثارهم ما يسمعون من قوارع القرآن، وجوامع البيان، فكأنهم من شدة الكراهية له قد صمّت أسماعهم عن فهمه، وقلوبهم عن علمه.

(١) «تفسير القرطبي» ١٥ / ٣٧٥.

(٢) (ش): هذا الكلام خلاف مدلول الآية من أن الله تعالى قال للسماء والأرض قولاً حقيقياً: ﴿آئِيتَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ وأنهما قالتا قولاً حقيقياً ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

٦ - الاستعارة أيضًا ﴿أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ شبه حالهم في عدم قبول المواعظ، وإعراضهم عن القرآن وما فيه بحال من يُنادى من مكان بعيد، فلا يسمع ولا يفهم ما يُنادى به، والجامع عدم الفهم في كل.

٨ - الأمر التهديدي ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ خرج الأمر عن صيغته الأصلية إلى معنى الوعيد والتهديد.

٩ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كَأَنَّهُ بُولَىٰ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه فهو مرسل مجمل.

١٠ - إن اللسان عاجز عن تصوير البلاغة في جمال الأسلوب القرآني، فتأمل الروعة البيانية في قوله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وتصور التناسق الفني في التعبير والأداء، وتأمل لفظ الخشوع والاهتزاز والانتفاخ للأرض الميتة يبعثها الله كما يبعث الموتى من القبور، إنه جو بعث وإخراج وإحياء، ويا له من تصوير رائع يأخذ بالآلباب.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة فصلت»





مكية وآياتها ثلاث وخمسون

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مكية، وموضوعها نفس موضوع السور المكية التي تعالج أمور العقيدة «الوحدانية، الرسالة، البعث والجزاء» والمحور الذي تدور عليه السورة هو «الوحي والرسالة» وهو الهدف الأساسي للسورة الكريمة.

* تبتدئ السورة بتقرير مصدر الوحي، ومصدر الرسالة، فالله رب العالمين هو الذي أنزل الوحي على الأنبياء والمرسلين، وهو الذي اصطفى لرسالاته من شاء من عباده، ليخرجوا الإنسانية من ظلمات الشرك والضلال إلى نور الهداية والإيمان.

* ثم تعرض لحالة بعض المشركين، ونسبتهم لله الذرية والولد، حتى إن السماوات ليكدن يتفطرن من هول تلك المقالة الشنيعة، وبينما هؤلاء المشركون في ضلالهم يتخبطون، إذا بالملائكة الأعلى في تسبيحهم وتمجيدهم لله يستغرقون، وذلك للمقارنة بين كفر أهل الأرض وطغيانهم وإيمان أهل السماء وإذعانهم.

* ثم تعود السورة للحديث عن حقيقة الوحي والرسالة، فتقرر أن الدين واحد أرسل الله تعالى به جميع المرسلين، وأن شرائع الأنبياء وإن اختلفت إلا أن دينهم واحد، وهو الإسلام الذي بعث به نوحاً وموسى وعيسى وسائر الرسل الكرام ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾.

* وتنتقل السورة للحديث عن المكذبين بالقرآن، المنكرين للبعث والجزاء، وتنذرهم بالعذاب الشديد في يوم تشيب له الرؤوس وتطير لهوله الأفتدة، بينما هم في الدنيا يهزءون ويسخرون، ويستعجلون قيام الساعة.

* وبعد أن تتحدث السورة عن دلائل الإيمان في هذا العالم المنظور، الذي هو أثر من آثار صنع الله الباهر وحكمته وقدرته، تدعو الناس إلى الاستجابة لدعوة الله والانقياد والاستسلام لحكمه قبل أن يفاжئهم ذلك اليوم العصيب، الذي لا ينفع فيه مال ولا قريب ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾.

* وتختتم السورة بالحديث عن الوحي وعن القرآن، كما بدأت به في مطلع السورة الكريمة، ليتناسق الكلام في البدء والختام ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَكْتُبُ وَلَا آلاِئِمْنُ...﴾.

التسمية: سميت «سورة الشورى» تنويهاً بمكانة الشورى في الإسلام، وتعليماً للمؤمنين

أن يقيموا حياتهم على هذا المنهج الأمثل الأكمل «منهج الشورى» لما له من أثر عظيم جليل في حياة الفرد والمجتمع كما قال تعالى ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم ﴿١﴾ عَسَىٰ ﴿٢﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَأَلَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطْرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنْ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ سَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَهِي اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَهِي مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا نَفَعُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَنِيًّا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِّ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْيَبٌ ﴿١٤﴾ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ مُجَاهِدَةٌ دَاجِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْعَىٰ جُلُوسُهَا لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُسْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ

اللغة: ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ يتشققن، والفتور: الشقوق ومنه ﴿هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣] ﴿فَاطِرٌ﴾ خالق ومبدع ومخترع ﴿يَوْمَ الْجُمُعِ﴾ يقوم القيامة لاجتماع الخلائق فيه ﴿أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ مكة المكرمة ﴿يَذُرُوكُمْ﴾ ينشئكم ويكثركم ﴿مَقَالِيدُ﴾ مفاتيح جمع إقليد على غير قياس ﴿سَرَعَ﴾ بين وسن وأوضح ﴿كَبُرَ﴾ عظم وشق ﴿يُنِيبُ﴾ يرجع ويتوب من ذنبه ﴿مِرْيَبٌ﴾

مُوقِع في الريبة والقلق ﴿دَاحِضَةً﴾ باطلة وزائلة يقال: دحضت حجته أي بطلت، ودحضت رجله أي زلقت.

التفسير: ﴿حَمْدٌ ۝١ عَسَقَ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن^(١)، وإثارة انتباه الإنسان بحروف أولية، وبدء غير مألوف ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي مثل ما أوحى إليك ربك يا محمد هذا القرآن، أوحى إلى الرسل من قبلك في الكتب المنزل، الله العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي له ما في الكون ملكاً وخلقاً وعبداً ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ أي هو المتعالي فوق خلقه، المنفرد بالكبرياء والعظمة ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ أي تكاد السموات يتشققن من عظمة الله وجلاله، ومن شناعة ما يقوله المشركون من اتخاذ الله الولد ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَسْبُحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي والملائكة الأبرار دائبون في تسييح الله، ينزهونه عما لا يليق به ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي ويطلبون المغفرة لذنوب من في الأرض من المؤمنين قال في التسهيل: والآية عمومٌ يراد به الخصوص؛ لأن الملائكة إنما يستغفرون للمؤمنين من أهل الأرض، فهي كقوله تعالى ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧]^(٢) ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي ألا فانتبهوا -أيها القوم- إن الله هو الغفور لذنوب عباده، الرحيم بهم حيث لا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وعصيانهم قال القرطبي: هَيَّبَ وَعَظَّمْ جَلَّ وَعَلَا في الابتداء، وَأَلْطَفَ وَبَشَّرَ في الانتهاء^(٣) ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي جعلوا له شركاء وأنداداً ﴿اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي الله تعالى رقيبٌ على أحوالهم وأعمالهم، لا يفوته منها شيء، وهو محاسبهم عليها ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي وما أنت يا محمد بموكلٍ على أعمالهم حتى تقسرهم على الإيمان، إنما أنت منذرٌ فحسب ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي وكما أوحينا إلى الرسل قبلك أوحينا إليك يا محمد قرآنًا عربيًّا معجزًا، بلسان العرب لا لبس فيه ولا غموض ﴿لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي لتنذر بهذا القرآن أهل مكة ومن حولها من البلدان قال الإمام الفخر: وأُمُّ الْقُرَى أصلُ القرى وهي مكة، وسميت بهذا الاسم إجلالاً لها، لأن فيها البيت ومقام إبراهيم، والعربُ تسمي أصل كل شيء أمه، حتى يقال: هذه القصيدة من أمهات قصائد فلان^(٤) ﴿وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ أي وتخوف الناس ذلك اليوم الرهيب، يوم اجتماع الخلائق للحساب في صعيدٍ واحد ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك في وقوعه، ولا محالة من حدوثه ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ أي فريقٌ منهم في جنات النعيم وهم المؤمنون، وفريقٌ منهم في دركات الجحيم

(١) انظر التفصيل القول في أول سورة البقرة.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ١٧/٤.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٦/٥.

(٤) «التفسير الكبير» ٢٧/١٤٧.

وهم الكافرون، حيث ينقسمون بعد الحساب إلى أشقياء وسعداء كقوله تعالى ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥] ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي لو شاء الله لجعل الناس كلهم مهتدين، أهل دين واحد وملة واحدة وهي الإسلام قال الضحاك: أهل دين واحد، أهل ضلالة أو أهل هدى^(١) ﴿وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي ولكنه تعالى حكيم لا يفعل إلا ما فيه المصلحة، فمن علم منه اختيار الهدى يهديه فيدخله في جنته، ومن علم منه اختيار الضلال يضلّه فيدخله بذلك السعير ولهذا قال ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي والكافرون ليس لهم ولي يتولاهم يوم القيامة، ولا نصير ينصرهم من عذاب الله قال أبو حيان: والآية تسليّة للرسول ﷺ عما كان يقاسيه من كفر قومه، وتوقيف على أن ذلك راجع إلى مشيئته جل وعلا، ولكن من سبقت له السعادة أدخله في رحمته يعني دين الإسلام^(٢) ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ استفهام على سبيل الإنكار، أي: بل اتخذ المشركون من دون الله آلهة، يستعينون بهم، ويطلبون نصرهم وشفاعتهم ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ أي فالله وحده هو الولي الحق، الناصر للمؤمنين، لا ولي سواه ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أي هو تعالى القادر على إحياء الموتى، لا تلك الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لا يعجزه شيء فهو الحقيق بأن يتخذ ولياً دون من سواه ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي وما اختلفتم فيه أيها المؤمنون من شيء من أمر الدنيا أو الدين، فالحكم فيه إلى الله جل وعلا، هو الحاكم فيه بكتابه أو بسنة نبيه عليه السلام ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي﴾ أي الموصوف بهذه الصفات هو ربي وحده، وليي ومالك أمري قال القرطبي: وفيه إضمار، أي: قل لهم يا محمد: ذلك الذي يحيي الموتى، ويحكم بين المختلفين هو ربي^(٣) ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي عليه وحده اعتمدت في جميع أموري ﴿وَالَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي وإليه وحده أرجع في كل ما يعرض عليّ من مشكلات ومعضلات، لا إلى أحد سواه قال الرازي: والعبارة تفيد الحصر، أي: لا أتوكل إلا عليه، ولا أنيب إلا إليه، وهو إشارة إلى تزييف طريقة من اتخذ غير الله ولياً^(٤).. ثم بين تعالى صفاته الجليلة القدسية، التي هي من آثار ومظاهر الربوبية فقال ﴿فَاطْرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هو جل وعلا خالقهما ومبدعهما على غير مثال سابق ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي أوجد لكم بقدرته من جنسكم نساء من آدميات ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أي وخلق لكم كذلك من الإبل والبقر والضأن والمعز أصنافاً، ذكوراً وإناثاً ﴿يَذَرُوكُمْ فِيهِ﴾ أي يكثركم بسببه بالتوالد، ولولا أنه خلق الذكر والأنثى لما كان ثمة تناسل ولا توالد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي ليس له تعالى مثل ولا نظير، لا في

(١) «تفسير القرطبي» ١٦ / ٦.

(٢) «البحر المحيط» ٧ / ٥٠٩.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٦ / ٧.

(٤) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧ / ١٤٩.

ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد والغرض: تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقين، والكاف هنا لتأكيد النفي، أي: ليس مثله شيء، قال ابن قتيبة: العرب تقيم المثل مقام النفس فتقول: مثلي لا يقال له هذا، أي: أنا لا يقال لي هذا، ومعنى الآية ليس كالله جل وعلا^(١) شيء قال القرطبي: والذي يُعتقد في هذا الباب أن الله جلَّ اسمه في عظمته وكبريائه، وملكوته وحُسن أسمائه، لا يشبه شيئاً من مخلوقاته، ولا يُشبه به أحد، وما أطلقه الشرع على الخالق والمخلوق فلا تشابه بينهما في المعنى الحقيقي، إذ صفات القديم عز وجل بخلاف صفات المخلوق، إذ صفاتهم لا تنفك عن الأعراض والأغراض، وهو تعالى منزّه عن ذلك^(٢)، وقد قال بعض المحققين: التوحيد إثبات ذاتٍ غير مُشبهة للذوات، ولا مُعطلة من الصفات، وزاد الواسطي فقال: ليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، وهذا مذهب أهل الحق، أهل السنة والجماعة^(٣) ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي وهو تعالى السميع لأقوال العباد، البصير بأفعالهم ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي بيده جل وعلا مفاتيح خزائنها من المطر والنبات وسائر الحاجات ﴿يَسُطُّ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسّع الرزق على من يشاء، ويضيّق على من يشاء، حسب الحكمة الإلهية ﴿إِنَّهُ يَكُلُّ شَيْءٌ عَلِيمٌ﴾ تعليل لما سبق أي: لأن علمه تعالى محيط بكل الأشياء، فهو واسع العلم، يعلم إذا كان الغنى خيراً للعباد أو الفقر ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي سنّ وبين لكم أيها المؤمنون من الشريعة السمحة والدين الحنيف، ما وصّى به الرسل، وأرباب الشرائع من مشاهير الأنبياء، كنوح ومحمد عليه السلام ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ أي وما أمرنا به بطريق الإلزام إبراهيم وموسى وعيسى من أصول الشرائع والأحكام قال الصاوي: خصّ هؤلاء بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء، وأولو العزم، وأصحاب المعظمة، فلكل واحد من هؤلاء الرسل شرعٌ جديد، وأمّا من عدّاهم، فإنما كان يُبعث بتبليغ شرع من قبله، ولم يزل الأمر يتأكد بالرسول، ويتناصر بالأنبياء، واحداً بعد واحد، وشريعة إثر شريعة، حتى ختمها الله بخير الملل، ملة أكرم الرسل نبينا محمد ﷺ، فتبيّن أن شرعنا معشر الأمة المحمدية قد جمع جميع الشرائع المتقدمة في أصول الاعتقادات، وأصول الأحكام^(٤) ولهذا قال تعالى ﴿أَن أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أي وصيناهم بأن أقيموا الدين الحق دين الإسلام الذي هو توحيد الله وطاعته، والإيمان بكتبه ورسوله، وبالبعث والجزاء قال القرطبي: المراد اجعلوا

(١) انظر «حاشية الجمل على الجلالين» ٥٥ / ٤.

(٢) (ش): مثل هذا النفي مبتدع، لأنه مما سكت الله عنه وسكت عنه رسوله ﷺ، ولأنه يُراد بنفي الأغراض نفي الحكمة، وبنفي الأغراض نفي أفعاله المتجددة مثل الكلام والخلق والرزق.

(٣) «تفسير القرطبي» ٨ / ١٦.

(٤) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣٢ / ٤.

الدين قائماً مستمراً محفوظاً من غير خلاف فيه ولا اضطراب، في الأصول التي لا تختلف فيها الشريعة وهي: التوحيد، والصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، وغيرها فهذا كله مشروع ديناً واحداً وملة متحدة^(١). ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي عظم وشق على الكفار ما تدعوهم إليه من عبادة الله، وتوحيد الواحد القهار ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ أي الله يصطفي ويختار للإيمان والتوحيد من يشاء من عباده، ويهدي إلى دينه الحق من يرجع إلى طاعته، فيوفقه له ويقربه إليه رحمة وإكراماً ﴿وَمَا نَفَرُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ أَلْعَلُّمٌ﴾ أي وما تفرق أهل الأديان المختلفة من اليهود والنصارى وغيرهم إلا من بعد ما قامت عليهم الحجج والبراهين من النبي المرسل إليهم ﴿بَعِيَّا بَيْنَهُمْ﴾ أي ظلماً وتعدياً، وحسداً وعناداً ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي ولولا أن الله قضى بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة ﴿لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي لعجل لهم العقوبة في الدنيا سريعاً باستئصالهم قال ابن كثير: أي لولا الكلمة السالفة من الله تعالى بإظهار العباد إلى يوم المعاد لعجل لهم العقوبة سريعاً^(٢) ﴿وَلِنَّ الَّذِينَ أَوْرَثُوا أَلْكُتَبَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي وإن بقيّة أهل الكتاب الذين عاصروا رسول الله ﷺ من بعد أسلافهم السابقين ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْيَ﴾ أي لفي شك من التوراة والإنجيل، موقع لهم في أشد الحيرة والريبة، لأنهم ليسوا على يقين من أمر دينهم وكتابهم، وإنما هم مقلدون لأبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا برهان قال البيضاوي: لا يعلمون كتابهم كما هو ولا يؤمنون به حق الإيمان، فهم في شك مقلق^(٣) ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ أي فلاجل الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك، فادع يا محمد إليه والزم النهج القويم مع الاستقامة كما أمرك ربك ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي ولا تتبع أهواء المشركين الباطلة فيما يدعونك إليه من ترك دعوة التوحيد ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ أي صدقت بكل كتاب أنزله الله تعالى قال الرازي: يعني الإيمان بجميع الكتب السماوية، لأن أهل الكتاب المتفرقين في دينهم آمنوا ببعض وكفروا ببعض^(٤) ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي وأمرني ربي بأن أعادل بينكم في الحكم قال ابن جزي: يعني العدل في الأحكام إذا تفاصموا إليه^(٥) ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَعَزَّكَمُ﴾ أي الله خالقنا جميعاً ومتولي أمورنا فيجب أن نفرده بالعبادة ﴿لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ أي لنا جزاء أعمالنا ولكم جزاء أعمالكم، من خير أو شر، لا نستفيد من حسناتكم ولا نتضرر من سيئاتكم قال ابن كثير: هذا تبرؤ منهم، أي: نحن برآء منكم كقوله

(١) «تفسير القرطبي» ١٦ / ١١.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣ / ٢٧٢.

(٣) «تفسير البيضاوي» ٢ / ١٧٣.

(٤) «التفسير الكبير» ٢٧ / ١٥٨.

(٥) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤ / ١٩.

تعالى ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١] ^(١) ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي لا جدال ولا مناظرة بيننا وبينكم، فإن الحق قد ظهر وبأن كالشمس في رابعة النهار، وأنتم تعاندون وتكابرون ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي الله يجمع بيننا يوم القيامة لفصل القضاء، وإليه المرجع والمآب فيجازي كل أحد بعمله من خير وشر قال الصاوي: والغرض أن الحق قد ظهر، والحجج قد قامت، فلم يبق إلا العناد، وبعد العناد لا حجة ولا جدل، والله يفصل بين الخلائق يوم المعاد، ويجازي كلًا بعمله ^(٢) ﴿وَالَّذِينَ يَحْمِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ أي يخاصمون في دينه لصد الناس عن الإيمان ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَسْئَلْتَهُمْ لَهُ﴾ أي من بعد ما استجاب الناس له ودخلوا في دينه ﴿مُجْتَنِّهِمْ دَارِ حُصَّةٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي حجتهم باطلة لا ثبوت لها عند الله قال ابن عباس: نزلت في طائفة من بني إسرائيل همّت برد الناس عن الإسلام وإضلالهم ومحاقتهم بالباطل ^(٣) ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي وعليهم غضب عظيم في الدنيا، وعذاب شديد في الآخرة، ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي نزل القرآن وسائر الكتب الإلهية متلبسًا بالصدق القاطع، والحق الساطع، في أحكامه وتشريعاته وأخباره ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ أي ونزل الميزان أي العدل والإنصاف، فهو من تسمية الشيء باسم السبب ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ أي وما ينبئك أيها المخاطب لعل وقت الساعة قريب؟ فإن الواجب على العاقل أن يحذر منها، ويستعد لها. قال أبو حيان: ووجه اتصال الآية بما سبق أن الساعة يوم الحساب فكأنه قيل: أمركم الله بالعدل والتسوية قبل أن يفاجئكم اليوم الذي يحاسبكم فيه ويزن أعمالكم ^(٤) ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ أي يستعجل بالقيامة المشركون الذين لا يصدقون بها فيقولون على سبيل الاستهزاء: متى تكون؟ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي والمؤمنون المصدقون بها خائفون وجلون من قيامها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أي ويعلمون أنها كائنة وحاصلة لا محالة ﴿إِلَّا الَّذِينَ يُمَارِؤْنَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي الذين يجادلون في أمر القيامة في ضلال بعيد عن الحق، لإنكارهم عدل الله وحكمته.

قال الله تعالى:

اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ

(١) «مختصر ابن كثير» ٢٧٣/٣.

(٢) «حاشية الصاوي» ٣٣/٤.

(٣) «البحر المحيط» ٥١٣/٧. (ش): ضعيف، رواه الطبري في «تفسيره». وذكره صاحب «البحر المحيط» بدون إسناد.

(٤) نفس المرجع ٥١٣/٧.

سَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقَرِّفْ حَسَنَةً نَّدَلْهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَاءِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ النَّبِلَ وَيُحِقِّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ سَـَّطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَعَثُوا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يَنْزِلُ بِقَدْرِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَتْ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَصْبَحْكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ

المناسبة: لما ذكر تعالى الساعة وما يلقاه عند قيامها المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار من الحساب والجزاء، ذكر هنا أنه لطيف بالعباد لا يعاجل العقوبة للعصاة مع استحقاقهم للعذاب، ثم ذكر مآل المتقين، ومآل المجرمين في الآخرة، دار العدل والجزاء.

اللغة: ﴿لَطِيفٌ﴾ برُّ رفيقٌ رحيم ﴿حَرَّتْ الْأَخْرَقُ﴾ الحرثُ في الأصل: إلقاء البذور في الأرض، ويطلق على الزرع الحاصل منه، ثم استعمل في ثمرات الأعمال ونتائجها بطريق الاستعارة ﴿الْفَصْلُ﴾ القضاء السابق ﴿يَقَرِّفُ﴾ يكتسب ﴿رَوْضَاتٍ﴾ جمع روضة وهو الموضع الكثير الأزهار والأشجار والثمار كالمتنزه وغيره ﴿يَقَرِّفُ﴾ يكتسب ﴿الْغَيْثُ﴾ المطر سمي غيثاً لأنه يغيث الخلق ﴿قَنَطُوا﴾ يئسوا ﴿بَتْ﴾ فرَّق ونشر ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ فاتنين من عذاب الله بالهرب.

التفسير: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي بارٌّ رحيم بالخلق كثير الإحسان بهم، يفيض عليهم من الخيرات والبركات مع عصيانهم قال مقاتل: لطيف بالبر والفاجر حيث لم يهلكهم جوعاً بمعاصيهم ^(١) ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يوسع الرزق على من يشاء قال القرطبي: وفي تفضيل قوم بالمال حكمة، لاحتاج البعض إلى البعض، وهذا من لطفه بالعباد، وأيضاً ليمتحن الغني بالفقر، والفقر بالغني كقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠]؟ ^(٢) ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ﴾ أي القادر على كل ما يشاء ﴿الْعَزِيزُ﴾ أي الغالب الذي لا يُغَالَب ولا يُدَافَع

(١) «البحر المحيط» ٥١٤/٧.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٨/١٦.

ثم لما بين كونه لطيفاً بالعباد، كثير الإحسان إليهم، أشار إلى أن الإنسان ما دام في هذه الحياة فعليه أن يسعى في طلب الخيرات لأسباب السعادة فقال ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ أي من كان يريد بعمله ثواب الآخرة ونعيمها، نَزِدْ لَهُ في أجره وثوابه، بمضاعفة حسناته ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي ومن كان يريد بعمله متاع الدنيا ونعيمها فقط، نُعْطِه بعض ما يطلبه من المتاع العاجل ممَّا قُدِّرَ لَهُ ﴿وَمَا لَهُ، فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ أي وليس له في الآخرة حظ من الثواب والنعيم قال الزمخشري: سَمَّى ما يعملُه العامل مما يتبعي به الفائدة حَرْثًا على سبيل المجاز، وفرَّق بينهما بأن من عمل للآخرة ضُوْعِفَتْ حسناته، ومن عمل للدنيا أُعْطِيَ شيئاً منها لا ما يريده ويتبعه^(١) وقال في التسهيل: حَرْثُ الآخرة عبارة عن العمل لها، وكذلك حَرْث الدنيا، وهو مستعارٌ من حَرْث الأرض، لأن الحَرَثَ يعمل ويتنظر المنفعة بما عمل^(٢)، ثم أخذ ينكر على الكفار عبادتهم لغير الله، مع أنه الخالق المتفضل على العباد فقال ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾؟ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، أي: ألهؤلاء الكفار شركاء من الشياطين أو آلهة من الأوثان، شرعوا لهم الشرك والعصيان الذي لم يأمر به الله؟ قال شيخ زاده: وإسناد الشرع إلى الأوثان، وهي جمادات إسناد مجازي، ومن إسناد الفعل إلى السبب، وسَمَّاهُ دينًا للمشاكلة والتهكم^(٣) ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَضْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي لولا أن الله حكم وقضى في سابق أزله أن الثواب والعقاب يكونان يوم القيامة لحُكِمَ بين الكفار والمؤمنين، بتعجيل العقوبة للظالم، وإثابة المؤمن ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وإن الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان لهم عذابٌ موجه مؤلم. ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ أي ترى أيها المخاطب الكافرين يوم القيامة خائفين خوفًا شديدًا من جزاء السيئات التي ارتكبوها في الدنيا ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي والجزاء عليها نازلٌ بهم يوم القيامة لا محالة، سواءً خافوا أو لم يخافوا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ أي والمؤمنون الصالحون في رياض الجنة يتمتعون، في أطيب بقاعها، وفي أعلى منازلها ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي لهم في الجنات ما يشتهونه من أنواع اللذائذ والنعيم والثواب العظيم عند رب كريم قال ابن كثير: فأين هذا من هذا؟ أين من هو في الذل والهوان، ممن هو في روضات الجنان فيما يشاء من مآكل ومشارب وملاذ^(٤)؟ ولهذا قال تعالى ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي ذلك النعيم والجزاء هو الفوز الأكبر الذي لا يوازيه شيء قال القرطبي: أي الفضل الذي لا يوصف، ولا

(١) «تفسير الكشاف» ٤/ ٤٧١.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٧١.

(٣) «حاشية البيضاوي» ٣/ ٢٧٥.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٧٥.

تهتدي العقول إلى حقيقة صفته، لأن الحقَّ جلَّ وعلا إذا قال «كبير» فمن ذا الذي يقدر قدره^(١) ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي ذلك الإكرام والإنعام هو الذي يبشر الله به عباده المؤمنين المتقين، ليتعجلوا السرور ويزدادوا شوقاً إلى لقائه ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ أي قل لهم يا محمد لا أسألكم على تبليغ الرسالة شيئاً من الأجر والمال، إلا أن تحفظوا حقَّ القربى ولا تؤذوني حتى أبلغ رسالة ربي قال ابن كثير: أي لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح مالا، وإنما أطلب أن تذكروني حتى أبلغ رسالات ربي، فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة قال ابن عباس: يقول إلا أن تصلوا ما بين وبينكم من القرابة^(٢)، وتؤذوني في نفسي لقرابتي منكم ﴿وَمَنْ يَفْرَفْ حَسَنَةً نَّزَلْهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي ومن يكتسب ويفعل طاعة من الطاعات نضاعف له ثوابها ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي غفور للذنوب شاكر لإحسان المحسن، لا يضيع عنده عمل العامل، ولهذا يغفر الكثير من السيئات، ويكثر القليل من الحسنات ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا؟﴾ أي بل أيقول كفار قريش: إن محمداً اختلق الكذب على الله بنسبة القرآن إليه؟ قال أبو حيان: وهذا استفهام إنكار وتوبيخ للمشركين على هذه المقالة، أي: مثله لا يُنسب إلى الكذب على الله مع اعترافكم له قبلاً^(٣) بالصدق والأمانة^(٤) ﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ أي لو افتريت على الله الكذب كما يزعم هؤلاء المجرمون لختم على قلبك فأفساك هذا القرآن، وسلبه من صدرك، ولكنك لم تفتّر على الله كذباً ولهذا أيدك وسدّدك قال ابن كثير: وهذه كقوله جلَّ وعلا ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾^(٥) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ^(٦) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ [الحاقة: ٤٤-٤٦] وقال أبو السعود: والآية استشهادٌ على بطلان ما قالوا ببيان أنه عليه السلام لو افترى على الله تعالى لَمَنَعَهُ من ذلك قطعاً، بالختم على قلبه بحيث لا يخطر بباله معنى من معانيه، ولم ينطق بحرفٍ من حروفه^(٧) ﴿وَمَنْعَ اللَّهِ الْبَطْلَ﴾ أي يزيل الله الباطل بالكلية ﴿وَيُحَقِّقُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ أي ويثبت الله الحق ويوضحه بكلامه المنزل، وقضائه المبرم وقال ابن كثير: بكلماته، أي: بحججه وبراهينه ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي عالم بما في القلوب، يعلم ما تكنه الضمائر، وتنطوي عليه السرائر وقال القرطبي: والمراد أنك لو حدثت نفسك أن تفترى الكذب لعلمه الله وطبع على قلبك^(٨) ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ هذا امتنانٌ من الرحمن على العباد، أي: هو جلَّ وعلا بفضله وكرمه يتقبل التوبة

(١) «تفسير القرطبي» ١٦ / ٢٠.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣ / ٢٧٥.

(٣) (ش): أي قبل ذلك.

(٤) «البحر المحيط» ١٧ / ٥١٦.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٥ / ٣٤.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٦ / ٢٥.

من عباده، إذا أقبلوا عن المعاصي وأنابوا بصدق وإخلاص نيّة ﴿وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ أي يصفح عن الذنوب صغيرها وكبيرها لمن يشاء ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي يعلم جميع ما تصنعون من خير أو شر ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي ويستجيب الله دعاء المؤمنين الصالحين قال الرازي: أي ويستجيب الله للمؤمنين إلا أنه حذف اللام كما حذف في قوله ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ [المطففين: ٣] أي كألوا لهم^(١) ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي ويزيدهم من جوده وكرمه فوق ما سألوا واستحقوا لأنه الجواد الكريم، البر الرحيم ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي وأما الكافرون بالله فلهم العذاب الموجه الأليم في دار الجحيم ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ولو وسّع الله الرزق على عباده لطفوا وبغوا وأفسدوا في الأرض بالمعاصي والآثام، لأن الغنى يوجب الطغيان. قال ابن كثير: أي لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض أشراً وبطراً، وقال قتادة: خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك^(٢) ﴿وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾ أي ولكنه تعالى يُنْزِلُ أرزاق العباد بما تقتضيه الحكمة والمصلحة كما جاء في الحديث القدسي «إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يَصْلَحُهُ إِلَّا الْغَنَى وَلَوْ أَفْقَرْتَهُ لَأَفْسَدْتَ عَلَيْهِ دِينَهُ، وَإِنْ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يَصْلَحُهُ إِلَّا الْفَقْرُ، وَلَوْ أَغْنَيْتَهُ لَأَفْسَدْتَ عَلَيْهِ دِينَهُ»^(٣) ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أي عالم بأحوالهم وما يصلحهم، فيعطي ويمنع، ويسقط ويقبض، حسبما تقتضيه الحكمة الربانية ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ تعديداً لنعمه على العباد أي هو تعالى الذي ينزل المطر، الذي يغيثهم من الجذب، من بعد ما يسوا من نزوله ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ أي ويسقط خيراته وبركاته على العباد ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي وهو الولي الذي يتولى عباده، المحمود بكل لسان على ما أسدى من النعماء ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ومن دلائل قدرته، وعجائب حكمته، الدالة على وحدانيته، خلق السموات والأرض بهذا الشكل البديع ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي وما نشر وفرّق في السماوات والأرض من مخلوقات قال ابن كثير: وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن، وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم وأجناسهم وأنواعهم^(٤) وقال

(١) التفسير الكبير ٢٧/ ١٦٩. (ش): قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/ ٢٠٥ - ٢٠٦): «قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: مَعْنَاهُ يَسْتَجِيبُ الدُّعَاءَ لَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِأَصْحَابِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ. وَحَكَاهُ عَنْ بَعْضِ النُّحَاةِ، وَأَنَّهُ جَعَلَهَا كَقَوْلِهِ: «فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ» [آلِ عِمْرَانَ: ١٩٥]. وَحَكَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ أَنَّهُ جَعَلَ قَوْلَهُ: «وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا» كَقَوْلِهِ: «الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ» [الزُّمَرُ: ١٨] أَيْ: هُمُ الَّذِينَ يَسْتَجِيبُونَ لِلْحَقِّ وَيَتَّبِعُونَهُ، كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ» [الْأَنْعَامُ: ٣٦] وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ أَظْهَرُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ» أَيْ: يَسْتَجِيبُ دُعَاءَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ قَوْلَ ذَلِكَ».

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٧٧.

(٣) كذا ذكره ابن كثير عن أنس مرفوعاً. (ش): أخرجه الخطيب في «التاريخ»، وضعفه الألباني.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٧٨.

مجاهد: هم الناس والملائكة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذْ يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ أي وهو تعالى قادر على جمع الخلائق للحشر والحساب والجزاء، في أي وقت شاء ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَمِمَّا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي وما أصابكم أيها الناس مصيبة من المصائب في النفس أو المال فإنما هي بسبب معاصيكم التي اكتسبتموها قال الجلال: وعبر بالأيدي لأن أكثر الأفعال تُزاول بها^(١) ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي: ويصفح عن كثير من الذنوب فلا يعاقبكم عليها، ولو أخذكم بكل ما كسبتم لهلكتم وفي الحديث «لا يصيب ابن آدم خدش عود، أو عثرة قدم، ولا اختلاج عرق إلا بذنب، وما يعفو عنه أكثر»^(٢) ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي ولستم أيها المشركون فائتين من عذاب الله، ولا هارين من قضائه، وإن هربتم من أقطارها كل مهرب ﴿وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي وليس لكم غير الله ولي يتولى أموركم ويتعهد مصالحكم، ولا نصير يدفع عنكم عذابه وانتقامه.

فائدة: المصائب التي تُصيب الناس لتكفير السيئات، وأما الأنبياء فإنما هي لرفع الدرجات لأنهم معصومون عن الذنوب والآثام.

تنبيه: قال بعض العلماء: لا يستبعد أن يكون في الكواكب السيارة، والعوالم العلوية مخلوقات غير الملائكة تشبه مخلوقات الأرض، وأن يكون فيها حيوانات تشبه الحيوانات التي على أرضنا كما تدل الدلائل الفلكية على وجود حياة في المريخ، واستدلوا بهذه الآية ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ الآية^(٣)، أقول: يحتمل أن يوجد في هذا الفضاء الواسع، مخلوقات حيّة غير الإنسان، أمّا الإنسان فإننا نقطع بأنه لا يوجد إلا فوق سطح الكوكب الأرضي^(٤) لقوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥].

(١) «تفسير الجلالين» ٤ / ٣٨.

(٢) كذا في «البحر المحيط» ٧ / ٨١٥، وذكر ابن كثير أن الحديث من رواية ابن أبي حاتم عن الحسن مرسلًا. (ش:) أي إنه حديث ضعيف لانقطاعه، فالحسن البصري رحمه الله لم يدرك النبي صلى الله عليه وسلم. وقال رحمه الله: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكِّهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ» (رواه البخاري). وقال رحمه الله: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى مِنْ مَرَضٍ فَمَا سِوَاهُ إِلَّا حَطَّ اللَّهُ بِهِ سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا» (رواه مسلم).

(٣) (ش:) لا تطابق بين ما ذكر ومدلول الآية الكريمة، لأنها خصت السموات والأرض دون الكواكب ببيت الدواب فيها.

(٤) (ش:) تسمية الأرض كوكبًا إطلاقًا غريبًا عن نصوص الوحيين الشريفين، فالكواكب في السماء، والأرض في الشُّقْل، ولم يطلق على الكواكب اسم: الأرض، ومن لازم هذا الإطلاق أن تكون الأرض زينة للسماء الدنيا، وجعلها رجومًا للشياطين، وهذا باطل. [انظر: «معجم المناهي اللفظية» للشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد (ص: ١١٨)].

قال الله تعالى:

وَمِنَ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّخِصٍ ﴿٣٥﴾ هَآؤُلَآئِكَ مِمَّنْ شِئَ فَنُفِخَ الْخَيَاطَةُ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ كِبْرَ الْأَنِامِ وَالْفَوْحَشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنِ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَادٍ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَرَبُّهُمْ يَعْزُضُونَ عَلَيْهَا حَسِيعٌ ﴿٤٥﴾ مِنَ الدَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٧﴾ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلَجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿٤٨﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَجَحَّ بِهَا وَإِنْ نَضْبْنَاهُمْ سَيْئَةً يَمَّا قَدَّمْتُ أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٩﴾ اللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكُورَ ﴿٥٠﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥١﴾ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ مُّكَرَّمٍ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحَنَا مَنْ أَمَرْنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٣﴾ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ

المناسبة: لما ذكر تعالى بعض الدلائل على وحدانيته في خلق السموات والأرض، وما بث فيهما من مخلوقات لا تحصى، أتبعه بذكر آية أخرى تدل على وجود الإله القادر الحكيم^(١)، وهي السفن الضخمة التي تشبه الجبال تسير بقدرته تعالى فوق سطح البحر، محملة بالأقوات والأرزاق، وختم السورة الكريمة ببيان إثبات الوحي وصدق القرآن.

اللغة: ﴿الْجَوَارِ﴾ جمع جارية وهي السفينة سميت جارية لأنها تجري في الماء ﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ جمع علم وهو الجبل العظيم الشاهق قالت الخنساء:

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتُمُّ الْهُدَاةُ بِهِ
كَأَنَّهُ عِلْمٌ فِي رَأْسِهِ نَارٌ

(١) (ش): وجود الله يعرفه كل أحد، وإنما المقصود الاستدلال على وجوب إفراجه بالعبادة.

﴿رَوَاكِدٌ﴾ ثوابت ساكنة لا تسير، من ركذ الماء إذا سكن ووقف عن الجري ﴿نَحِيصٍ﴾ مهرب ومخلص من العذاب ﴿يُؤَيِّقُهُنَّ﴾ يهلكهنَّ يقال: أوبقه أي أهلكه ﴿الْفَوْحِشَ﴾ جمع فاحشة وهي ما تناهى قبحه كالزنى والقتل والشرك وغيرها ﴿نَكِيرٍ﴾ مُنْكَرٌ يُنْكَرُ ما ينزل بكم من العذاب ﴿عَقِيمًا﴾ لا تلد.

التفسير: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ أي ومن علاماته الدالة على قدرته الباهرة، وسلطانه العظيم، السفنُ الجارية في البحر كأنها الجبال من عظمها وضخامتها ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ أي لو شاء تعالى لأسكن الرياح وأوقفها فتبقى السفن سواكن وثابت على ظهر البحر لا تجري ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي إن في تسيرها لعبراً وعظات لكل مؤمن صابر في البأساء، شاکر في الرخاء قال الصاوي: أي كثير الصبر على البلايا، عظيم الشكر على العطايا ^(١) وقال أبو حيان: وإنما ذكر السفن الجارية في البحر، لما فيها من عظيم دلائل القدرة، من جهة أن الماء جسم لطيف شفاف، يغوص فيه الثقل، والسفن تحمل الأجسام الثقيلة الكثيفة ومع ذلك جعل الله تعالى في الماء قوة يحملها بها ويمنعها من الغوص، ثم جعل الرياح سبباً لسيورها فإذا أراد أن ترسوا أسكن الرياح فلا تبرح عن مكانها ^(٢)، ﴿أَوْ يُؤَيِّقُهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ أي وإن يشأ يجعل الرياح عواصف فيغرق هذه السفن وأهلها بسبب ما اقترفوا من جرائم ﴿وَيَعُفُّ عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي ويتجاوز عن كثير من الذنوب فينجيهم الله من الهلاك ﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِّنْ نَّجِيصٍ﴾ أي وليعلم الكفار المجادلون في آيات الله بالباطل، أنه لا ملجأ لهم ولا مهرب من عذاب الله قال القرطبي: أي ليعلم الكفار إذا توسطوا البحر وغشيتهم الرياح من كل مكان أنه لا ملجأ لهم سوى الله، ولا دافع لهم إن أراد الله إهلاكهم فيخلصون له العبادة ^(٣) ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَنَّ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ أي فما أعطيتكم أيها الناس من شيء من نعيم الدنيا وزهرتها الفانية، فإنما هو نعيم زائل، تتمتعون به مدة حياتكم ثم يزول ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أي وما عند الله من الثواب والنعيم، خير من الدنيا وما فيها لأنَّ نعيم الآخرة دائم مستمر، فلا تقدّموا الفاني على الباقي ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي للذين صدّقوا الله ورسوله وصبروا على ترك الملاذ في الدنيا ﴿وَعَلَىٰ رِجْلِهِم مَّا يَكُونُ﴾ أي واعتمدوا على الله وحده في جميع أمورهم ﴿وَالَّذِينَ يَجْنَبُونَ كِبْرَ الْأَيْمِ﴾ أي وهؤلاء المؤمنون هم الذين يجتنبون كبائر الذنوب كالشرك والقتل وعقوق الوالدين ﴿وَالْفَوَحِشَ﴾ قال ابن عباس: يعني الزنى ﴿وَإِذَا مَا عَصَبُوا لَهُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي إذا غضبوا على أحد ممّن اعتدى عليهم عفوا وصفحوا قال الصاوي:

(١) «حاشية الصاوي» ٣٩/٤.

(٢) «البحر المحيط» ٥٢٠/٧.

(٣) «تفسير القرطبي» ٣٣/١٦.

من مكارم الأخلاق التجاوز والحلم عند حصول الغضب، ولكن يشترط أن يكون الحلم غير مخل بالمروءة، ولا واجباً كما إذا انتهكت حرمة الله فالواجب حينئذ الغضب لا الحلم، وعليه قول الشافعي «من استغضب ولم يغضب فهو حمار» وقال الشاعر «وَحِلْمُ الْفَتَى فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ جَهْلٌ»^(١) ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي أجابوا ربهم إلى ما دعاهم إليه من التوحيد والعبادة قال البيضاوي: نزلت في الأنصار دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإيمان فاستجابوا^(٢) ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي أدوها بشروطها وآدابها، وحافظوا عليها في أوقاتها ﴿وَأَمَرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ أي يتشاورون في الأمور ولا يعجلون، ولا يُبرمون أمراً من مهمات الدنيا والدين إلا بعد المشورة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي وينفقون مما أعطاهم الله في سبيل الله بالإحسان إلى خلق الله ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ أي ينتقمون ممن بغى عليهم، ولا يستسلمون لظلم المعتدي قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون أن يُذلوا أنفسهم فتجترأ عليهم الفساق^(٣) قال أبو السعود: وهو وصف لهم بالشجاعة بعد وصفهم بسائر الفضائل، وهذا لا ينافي وصفهم بالغفران فإن كلاً في موضعه محمود^(٤) ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ أي وجزاء العدوان أن ينتصر ممن ظلمه من غير أن يعتدي عليه بالزيادة قال الإمام الفخر: لما قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ أردفه بما يدل على أن ذلك الانتصار يجب أن يكون مقيداً بالمثل دون زيادة، وإنما سمى ذلك سيئة لأنها تسوء من تنزل به^(٥) ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي فمن عفا عن الظالم، وأصلح بينه وبين عدوه، فإن الله يُثيبه على ذلك الأجر الجزيل قال ابن كثير: شرع تعالى العدل وهو القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو، فمن عفا فإن الله لا يضيع له ذلك كما جاء في الحديث: «وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا»^(٦) ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي إنه جل وعلا يبغض البادئين بالظلم، والمعتدين في الانتقام ﴿وَلَمَنِ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ أي انتصر ممن ظلمه دون عدوان ﴿فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي فليس عليهم عقوبة ولا مؤاخذه، لأنهم أتوا بما أبيح لهم من الانتصار ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ أي إنما العقوبة والمؤاخذه

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤٠ / ٤.

(٢) «تفسير البيضاوي» ٢ / ١٧٥. (ش): ذكره البيضاوي بدون إسناد.

(٣) «القرطبي» ٣٩ / ١٦.

(٤) «أبو السعود» ٣٦ / ٥.

(٥) «مختصر ابن كثير» ٢٨٠ / ٣.

(٦) «حاشية الصاوي» ٤١ / ٤. (ش): رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَالْعَفْوُ نَوْعَانِ:

١- نوعٌ يكون فيه العفو سبباً لتسكين الفتنة، وتهذئة النفوس، ومنع استفحال الشر، وهذا محمودٌ.

٢- نوعٌ يكون فيه العفو سبباً لجرأة الظالم وتماديهِ في غيِّهِ، وهذا مذموم.

فالعفو عن العاقر المعترف بجُرمه محمود، والانتصار من المخاصم المُصرِّ على جرمه والتمادي في غيِّهِ

محمود. [انظر: تفسير المراغي (٢٥ / ٥٣ - ٥٤)].

على المعتدين الذين يظلمون الناس بعدوانهم ﴿وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي ويتكبرون في الأرض تجبراً وفساداً بالمعاصي والاعتداء على الناس في النفوس والأموال ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي أولئك الظالمون الباغون لهم عذاب مؤلم موجه بسبب ظلمهم وبغيهم ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي ولمن صبر على الأذى، وترك الانتصار لوجه الله تعالى، فإن ذلك الصبر والتجاوز من الأمور الحميدة التي أمر الله بها وأكد عليها قال الصاوي: كرر الصبر اهتماماً به وترغيباً فيه وللإشارة إلى أنه محمود العاقبة^(١) ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ﴾ أي ومن يضلله الله فليس له ناصر ولا هاد يهديه إلى الحق ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ أي وترى الكافرين حين شاهدوا عذاب جهنم ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَهِ إِلَّا رَبُّنَا﴾ أي يطلبون الرجوع إلى الدنيا لهول ما يشاهدون من العذاب ويقولون: هل هناك طريق لعودتنا إلى الدنيا؟ قال القرطبي: يطلبون أن يُردُّوا إلى الدنيا ليعملوا بطاعة الله عز وجل فلا يجابون^(٢) ﴿وَتَرَنَّهُمْ يُخَرِّضُونَ غُلَامَهُمْ﴾ أي وترأهم أيها المخاطب يُعرضون على النار ﴿خَشَعَتِ الْأَذْهُانُ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ أي متضائلين صاغرين مما يلحقهم من الذل والهوان ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ تَحْتِهَا﴾ أي يسارقون النظر خوفاً منها وفرعاً كما ينظر من قُدَمَ ليقُتل بالسيف، فإنه لا يقدر أن ينظر إليه بملء عينه قال ابن عباس: ينظرون بطرف ذابل ذليل وقال قتادة والسدي: يسارقون النظر من شدة الخوف^(٣) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي يقول المؤمنون في الجنة لما عاينوا ما حل بالكفار: إن الخسران في الحقيقة ما صار إليه هؤلاء، فإنهم خسروا أنفسهم وأهليهم بخلودهم في نار جهنم ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي ألا إنهم في عذاب دائم لا ينقطع ﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي وما كان لهم من أعوان ونُصراء ينصرونهم من عذاب الله كما كانوا يرجون ذلك في الدنيا ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي: ومن يضلله الله فليس له طريق يصل به إلى الحق في الدنيا، وإلى الجنة في الآخرة، لأنه قد سُدَّت عليه طريق النجاة قال ابن كثير: من يضلله الله فليس له خلاص^(٤) ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾ أي استجبوا أيها الناس إلى ما دعاكم إليه ربكم من الإيمان والطاعة ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي من قبل أن يأتي ذلك اليوم الرهيب الذي لا يقدر أحد على رده، لأنه ليس له دافع ولا مانع ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَّلَاجٍ يَوْمَئِذٍ﴾ أي ليس لكم مفر تلتجئون إليه ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّكِيرٍ﴾ أي وليس لكم مُنَكِّر يُنَكِّر ما ينزل بكم من العذاب وقال أبو السعود: أي ما لكم إنكار لما اقترتموه لأنه مدون في

(١) «تفسير القرطبي» ١٦ / ٤٥.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٦ / ٤٦.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٧ / ١٧٨.

(٤) «مختصر ابن كثير» ١٣ / ١٨٢.

صحائف أعمالكم وتشهد عليه جوارحكم ^(١) ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ أي فإن أعرض المشركون عن الإيمان ولم يقبلوا هداية الرحمن ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّرَبِّكَ﴾ أي فما أرسلناك يا محمداً رقيباً على أعمالهم ولا محاسباً لهم ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ أي ما عليك إلا أن تبلغهم رسالة ربك وقد فعلت قال أبو حيان: والآية تسلية للرسول ﷺ وتأنيس له، وإزالة لهما ^(٢)، ثم أخبر تعالى أن طبيعة الإنسان الكفران لنعم الله فقال ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَفَرِحَ بِهَا﴾ وأراد بالإنسان الجنس بدليل قوله ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ﴾ والمعنى: إنا إذا أكرمنا الإنسان بنعمة من النعم من صحة وغنى وأمن وغيرها بطر وتكبر ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَاقِدَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ أي وإن أصاب الناس جذب ونقمة، وبلاء وشدة، بسبب ما اقترفوه من آثام فإن الإنسان مبالغ في الجحود والكفران، ينسى النعمة ويذكر البلية ^(٣) قال الصاوي: والحكمة في تصدير النعمة بـ «إذا» والبلاء بـ «إن» هو الإشارة إلى أن النعمة محققة الحصول بخلاف البلاء، لأن رحمة الله تغلب غضبه ^(٤) وقال الإمام الفخر: نعم الله في الدنيا وإن كانت عظيمة إلا أنها بالنسبة إلى سعادة الآخرة كالقطرة بالنسبة إلى البحر فلذلك سمّاها ذوقاً، فبين تعالى أن الإنسان إذا فاز بهذا القدر الحقير في الدنيا فإنه يفرح بها ويعظم غروره بسببها ويقع في العجب والكبر، ويظن أنه فاز بكل المني، وذلك لجهله بحال الدنيا وبحال الآخرة ^(٥) ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي هو تعالى المالك للكون كله، علويه وسفليّه، والمتصرف فيه بالخلق والإيجاد، كيفما يشاء، والمقصود من الآية أن لا يغتر الإنسان بما ملكه من المال والجاه، وأن يعلم أن الكل ملك الله وحده، وبيده مقاليد التصرف في السموات والأرض، يعطي ويمنع، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ﴿يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْتِثَا﴾ أي يخلص من شاء من عباده بالإنثا دون البنين ﴿وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ أي ويخلص من شاء بالذكور دون الإناث ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنْتِثَا﴾ أي يجعلهم إن شاء من النوعين فيجمع للإنسان بين البنين والبنات ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ أي ويجعل بعض الرجال عقيماً فلا يولد له، وبعض النساء عقيماً فلا تلد قال البيضاوي: والمعنى: يجعل أحوال العباد في الأولاد مختلفة، على مقتضى المشيئة، فيهب لبعض إماء صنفاً واحداً من ذكر أو أنثى، أو الصنفين جمعاً، ويُعقم آخرين ^(٦)، والمراد من الآية بيان نفاذ قدرته تعالى في الكائنات كيف يشاء، ولهذا

(١) «تفسير أبي السعود» ٣٧/٥.

(٢) «البحر المحيط» ٥٢٥/٧.

(٣) (ش): بليّة: بلاء، مُصيبة ومحنة.

(٤) «حاشية الصاوي» ٤١/٤.

(٥) «التفسير الكبير» للرازي ١٨٤/٢٧.

(٦) «تفسير البيضاوي» ١٧٦/٢.

قال ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ أي مبالغ في العلم والقدرة، يفعل ما فيه مصلحة وحكمة قال ابن كثير: جعل تعالى الناس أربعة أقسام: منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه النوعين الذكر والإناث، ومنهم من يمنعه هذا وهذا فيجعله عقيمًا لا نسل له ولا ولد، فسبحان العليم القدير^(١).

ثم ذكر تعالى الوحي وأقسامه وأنواعه فقال: ﴿وَمَا كَانَ لَشَيْءٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ أي وما صحَّ لأحد من البشر أيًا كان أن يكلمه الله إلا بطريق الوحي في الناس أو بالإلهام، لأن رؤيا الأنبياء حق كما وقع للخليل إبراهيم عليه السلام ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصفات: ١٠٢] ﴿أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ أي أو يكلمه من وراء حجاب كما كلم موسى عليه السلام ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِأَذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ أي أو يرسل ملكًا فيبلغ الوحي إلى الرسل بأمره تعالى ما يشاء تبليغه كما نزل جبريل بالوحي على الأنبياء قال في التسهيل: بين تعالى في الآية أن كلامه لعباده على ثلاثة أوجه: أحدها: الوحي بطريق الإلهام أو المنام، والآخر: أن يُسمعه كلامه من وراء حجاب، والثالث: الوحي بواسطة الملك، وهذا خاص بالأنبياء، والثاني خاص بموسى وبمحمد إذ كلمه الله ليلة الإسراء، وأما الأول فيكون للأنبياء والأولياء^(٢) وقال الصاوي: وقد يقع الإلهام لغير الأنبياء كالأولياء، غير أن إلهام الأولياء قد يختلط به الشيطان لأنهم غير معصومين، بخلاف الأنبياء فالإلهام محفوف منه^(٣) ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي إنه تعالى متعال عن صفات المخلوقين، حكيم في أفعاله وصنعه، تجري أفعاله على موجب الحكمة ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ أي وكما أوحينا إلى غيرك من الرسل أوحينا إليك يا محمد هذا القرآن، وسمّاه روحًا لأن فيه حياة النفوس من موت الجهل، وكان مالك بن دينار يقول: يا أهل القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع القلوب كما أن الغيث ربيع الأرض^(٤) ﴿مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا أَلْكَتُبُ وَلَا أَلَايَمُنُ﴾ أي ما كنت يا محمد تعرف قبل الوحي ما هو القرآن، ولا كنت تعرف شرائع الإيمان ومعالمه على وجه التفصيل ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي ولكن جعلنا هذا القرآن نورًا وضياءً نهدي به عبادنا المتقين ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي وإنك يا محمد لترشد إلى دين قيم مستقيم هو الإسلام ﴿صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي هذا الدين الذي لا اعوجاج فيه هو دين الله الذي له كل

(١) «مختصر ابن كثير» ٢٨٣/٣.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٢٤/٤. (ش): أي الوحي بطريق الإلهام أو المنام يكون للأنبياء والأولياء كما حدث مع أم موسى عليها السلام. كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا مَوْسَى أَنْ أَرْضِعِيْهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَالْقَبِيْهِ فِي الْبَيْتِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

(٣) «حاشية الصاوي» ٢٤/٤.

(٤) «تفسير القرطبي» ٥٥/١٦.

ما في الكون ملكاً وخلقاً وعبداً ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ أي ألا إلى الله وحده ترجع الأمور فيفصل فيها بين العباد بحكمه العادل وقضائه المبرم.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان نوجزها فيما يلي:

١ - المجاز المرسل ﴿لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ [الشورى: ٧] أي لتنذر أهل مكة لأن الإنذار لأهل القرية لا لها^(١).

٢ - توالي المؤكدات مع صيغة المبالغة ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٥] وهي ألا، وإن، وضمير الفصل.

٣ - الطباق بين ﴿الْجَنَّةِ .. السَّعِيرِ﴾ وبين ﴿يَبْسُطُ .. وَيَقْدِرُ﴾ وبين ﴿ذُكْرَانًا .. وَإِنثًا﴾.

٤ - طباق السلب ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُسْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى: ١٨].

٥ - الاستعارة ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ [الشورى: ٢٠] الآية شبه العمل للآخرة بالزراع يزرع الزرع ليحني منه الثمرة والحب، بطريق الاستعارة التمثيلية وهي من لطائف الاستعارة.

٦ - المقابلة ﴿وَمَعَ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخَوِّعُ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ﴾ [الشورى: ٢٤].

٧ - عطف العام على الخاص ﴿يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ [الشورى: ٢٨] فالغيث خاص والرحمة عام.

٨ - التشبيه المرسل المفضل ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ أي كالجبال في الضخامة والعظم.

٩ - التقسيم ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ﴾ (٢٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا.

١٠ - جناس الاشتقاق ﴿وَمَا أَصْبَحَ كُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

١١ - صيغة المبالغة ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي عظيم الصبر، كبير الشكر.

١٢ - المشاكلة ﴿وَحَزَنًا سَنِيَّةً سَنِيَّةً مِثْلُهَا﴾ سميت الثانية سنيئة لمشاهايتها للأولى في الصورة.

١٣ - توافق الفواصل وهو من المحسنات البديعية وهو كثير في القرآن العظيم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الشورى»



(١) وفي الآية: أي قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَأَرْيَبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ احتباك حيث حذف من كل نظير ما أثبتته في الآخر وتقديره: لتنذر أُمَّ القري العذاب، وتنذر الناس يوم الجمع. (ش): الاحتباك: هو أن يُحذف من الأوائل ما جاء نظيره أو مقابله في الأواخر، ويُحذف من الأواخر ما جاء نظيره أو مقابله في الأوائل.

سُورَةُ الزَّخْرَفِ

٤٣

٨٩

مكية وآياتها تسع وثمانون

بين يدي السورة

* سورة الزخرف مكية، وقد تناولت أسس العقيدة الإسلامية وأصول الإيمان «الإيمان بالوحدانية، وبالرسالة، وبالبعث والجزاء» كشأن سائر السور المكية.

* عرضت السورة لإثبات مصدر الوحي، وصدق هذا القرآن، الذي أنزله الله على النبي الأمي بأفصح لسان، وأنصح بيان، ليكون معجزة واضحة للنبي العربي.

* ثم عرضت إلى دلائل قدرته تعالى ووحدانيته، منبثة في هذا الكون الفسيح، في السماء والأرض، والجبال والوهاد، والبحار والأنهار، والماء الهاطل من السماء، والسفن التي تسير فوق سطح الماء، والأنعام التي سخرها الله للبشر ليأكلوا لحومها ويركبوا ظهورها.

* ثم تناولت السورة ما كان عليه المجتمع الجاهلي من الخرافات والوثنيات فقد كانوا يكرهون البنات، ومع ذلك اختاروا لله البنات سفهاً وجهلاً، فزعموا أن الملائكة بنات الله، فجاءت الآيات لتصحيح تلك الانحرافات، ورد النفوس إلى الفطرة، وإلى الحقائق الأولى القطعية.

* وتحدثت السورة بإيجاز عن دعوة الخليل إبراهيم عليه السلام، الذي يزعم المشركون أنهم من سلالته وعلى ملته، فكذبته في تلك الدعوى، وبينت الآيات أن إبراهيم أول من تبرأ من الأوثان.

* ثم انتقلت إلى تفنيد تلك الشبهة السقيمة، التي أثارها المشركون حول رسالة محمد عليه السلام، فقد اقترحوا أن تنزل الرسالة على رجل من أهل الجاه والثراء، لا على يتيم فقير كمحمد ﷺ فجاءت الآيات لتقرير أن الجاه والثراء ليسا ميزاناً لكرامة الإنسان واستحقاقه المناصب الرفيعة، وأن الدنيا من الحقارة والمهانة بحيث لو شاء الله لأغدقها على الكافرين ومنعها عباده المؤمنين.

* وذكرت السورة قصة «موسى وفرعون» لتأكيد تلك الحقيقة السابقة، فهي هو فرعون الجبار يعتز ويفخر على موسى بملكه وسلطانه، كما يعتز الجاهلون من رؤساء قريش على النبي ﷺ ثم تكون نتيجة الغرق والدمار.

* وختمت السورة الكريمة ببيان بعض أحوال الآخرة وشدائدها وأهوالها، وبيان حال الأشقياء المعجمرين، وهم يتقلبون في غمرات الجحيم.

* التسمية: سميت «سورة الزخرف» لما فيها من التمثيل الرائع - لمتاع الدنيا الزائل

وبريقها الخادع - بالزخرف اللامع، الذي ينخدع به الكثيرون، مع أنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، ولهذا يعطيها الله للأبرار والفجار، وينالها الأخيار والأشرار، أما الآخرة فلا يمنحها الله إلا لعباده المتقين، فالدنيا دار الفناء، والآخرة دار البقاء.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٣) وَإِنَّهُ فِي أُولَى الْأَنْبَاءِ لَدِينًا لَعَلِّي حَكِيمٌ ٤) أَفَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ٥) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ٦) وَمَا يَلِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ٨) وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٠) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ١١) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَالِكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ١٢) لَيْسَتُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ١٣) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ١٤) وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنْ الْإِنْسَانُ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ١٥) أَوِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ١٦) وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧) أَوْ مِنْ يُنَسِّئُوا فِي الْحُلِيِّ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ١٨) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنِشَاءً أَشْهَادُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَدَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ٢٠) أَمْ أَنَيْنَافُ كُتِبَ مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُهُتَدُونَ ٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ٢٣) قُلْ أُولَئِكَ حُكْمُكُمْ بِأَهْدَى وَمِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ٢٤) فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ فَاظْطَرَّ كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُكَذِبِينَ

اللغة: ﴿صَفْحًا﴾ إعراضًا يقال: ضربت عنه صفحًا إذا أعرضت عنه وتركتها ﴿بَطْشًا﴾ قوة وانتقامًا، وبطش به أخذه بشدة وعنف ﴿مَهْدًا﴾ فراشًا وبساطًا ﴿فَأَنْشَرْنَا﴾ أحيينا، والنشور، الإحياء بعد الموت ﴿لَيْسَتُوا﴾ تستقروا وتركبوا ﴿مُقْرِنِينَ﴾ مطيقين ﴿كَظِيمٌ﴾ مملوء غمًا وغيظًا ﴿يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون ﴿أُمَّةٍ﴾ دين وطريقة ﴿مُتْرَفُوهَا﴾ المترف: المتنعم المنغمس في الشهوات.

التفسير: ﴿حَمَّ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن ^(١) ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾

(١) انظر تفصيل القول في أول سورة البقرة.

قَسَمُ أَقْسَمُ اللَّهُ بِهِ، أَي: أَقْسَمُ بِالْقُرْآنِ الْبَيِّنِ الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ، الْمَظْهَرِ طَرِيقَ الْهَدْيِ مِنْ طَرِيقِ الضَّلَالِ، الْمُبَيِّنِ لِلْبَشَرِيَّةِ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْدَّلَائِلِ الشَّرْعِيَّةِ ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ هَذَا هُوَ الْمَقْسَمُ عَلَيْهِ، أَي: أَنْزَلْنَاهُ بِلُغَةِ الْعَرَبِ، مُشْتَمَلًا عَلَى كَمَالِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ، بِأَسْلُوبٍ مُحْكَمٍ، وَبَيَانٍ مُعْجَزٍ ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أَي لَكِي تَفْهَمُوا أَحْكَامَهُ، وَتَتَدَبَّرُوا مَعَانِيَهُ، وَتَعْقِلُوا أَنَّ أَسْلُوبَهُ الْحَكِيمَ خَارِجٌ عَنْ طَوْقِ الْبَشَرِ قَالَ الْبِيضَاوِيُّ: أَقْسَمَ تَعَالَى بِالْقُرْآنِ عَلَى أَنَّهُ جَعَلَهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا، وَهُوَ مِنَ الْبِدَائِعِ الْبَلَاغِيَّةِ لِمُنَاسَبَةِ الْقِسْمِ وَالْمُقْسَمِ عَلَيْهِ، تَنْبِيْهًُا عَلَى أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَعْلَى مِنْهُ فَيُقْسَمُ بِهِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى شَرَفِ الْقُرْآنِ وَعِزَّتِهِ بِأَبْلَغِ وَجْهِ وَأَدَقِّهِ ^(١) ﴿وَلَئِنَّهُ فِي أُمْرِ الْكِتَابِ لَدَيْنَا﴾ أَي وَإِنَّهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ عِنْدَنَا ﴿لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾ أَي رَفِيعُ الشَّأْنِ عَظِيمُ الْقَدْرِ، ذُو حِكْمَةٍ بِالْغَةِ وَمَكَانَةٍ فَائِثَةٌ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: بَيَّنَّ شَرَفَ الْقُرْآنِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى، لِيُشَرِّفَهُ وَيُعْظِمَهُ أَهْلُ الْأَرْضِ، أَي: وَإِنَّ الْقُرْآنَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ عِنْدَنَا ذُو مَكَانَةٍ عَظِيمَةٍ، وَشَرَفٍ وَفَضْلٍ ^(٢) ﴿أَفَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ الْإِسْتِفْهَامُ إِنْكَارِيٌّ، أَي: أَنْتَرَكُ تَذَكِيرَكُمْ إِعْرَاضًا عَنْكُمْ، وَنَعْتَبِرُكُمْ كَالْبَهَائِمِ فَلَا نَعْظَمُكُمْ بِالْقُرْآنِ؟ ﴿أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ أَي لِأَجْلِ أَنْكُمْ مُسْرِفُونَ فِي التَّكْذِيبِ وَالْعَصْيَانِ؟ لَا، بَلْ نَذَكِّرُكُمْ وَنَعْظَمُكُمْ بِهِ إِلَى أَنْ تَرْجِعُوا إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ قَالَ قَتَادَةُ: لَوْ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ رُفِعَ حِينَ رَدِّهِ الْأَوَائِلَ لَهَلَكُوا، وَلَكِنَّ اللَّهَ بِرَحْمَتِهِ كَرَّرَهُ عَلَيْهِمْ، وَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ عَشْرِينَ سَنَةً ^(٣) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَقَوْلُ قَتَادَةَ لَطِيفُ الْمَعْنَى جَدًّا، وَحَاصِلُهُ أَنَّهُ تَعَالَى مِنْ لُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ لَا يَتْرَكُ دَعَاءَهُمْ إِلَى الْخَيْرِ، وَإِلَى الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، وَإِنْ كَانُوا مُسْرِفِينَ مُعْرِضِينَ عَنْهُ، بَلْ يَأْمُرُ بِهِ لِيَهْتَدِيَ بِهِ مَنْ قَدَّرَ هِدَايَتَهُ، وَتَقُومَ الْحُجَّةُ عَلَى مَنْ كَتَبَ شِقَاوَتَهُ ^(٤) ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾؟ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَي مَا أَكْثَرَ مَا أَرْسَلْنَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْأَوَّلِينَ! ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أَي وَلَمْ يَكُنْ يَأْتِيهِمْ نَبِيٌّ إِلَّا سَخِرُوا مِنْهُ وَاسْتَهْزَءُوا بِهِ قَالَ الصَّادِقُ: وَهَذَا تَسْلِيَةٌ لَهُ ﷺ وَالْمَعْنَى تَسَلَّى ^(٥) يَا مُحَمَّدُ وَلَا تَحْزَنْ فَإِنَّهُ وَقَعَ لِلرَّسْلِ قَبْلَكَ مَا وَقَعَ لَكَ ^(٦) ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أَي فَأَهْلَكْنَا قَوْمًا كَانُوا أَشَدَّ قُوَّةً مِنْ كِفَارِ مَكَّةَ وَأَعْتَى مِنْهُمْ وَأَطْغَى ﴿وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَي وَسَبَقَ فِي الْقُرْآنِ أَحَادِيثُ إِهْلَاكِهِمْ، لِيَكُونَ عِظَةً وَعِبْرَةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْمَكْذِبِينَ قَالَ الْإِمَامُ الْفَخْرُ: إِنَّ كِفَارَ مَكَّةَ سَلَكَوا فِي الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ مَسْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ، فَلْيَحْذَرُوا أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ مِثْلُ مَا نَزَلَ

(١) «حاشية زاده على البيضاوي» ٣/ ٢٨٨.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٨٤.

(٣) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧/ ١٩٥.

(٤) «المختصر» ٣/ ٢٨٥.

(٥) (ش): تَسَلَّى الشَّخْصُ: طَابَتْ نَفْسُهُ وَذَهَبَ مَا بَهَا مِنْ تَعَبٍ أَوْ هَمٍّ.

(٦) «حاشية الصادق على الجلالين» ٤/ ٤٤٠.

بأولئك فقد ضربنا لهم مثلهم^(١) ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين من خلق السموات والأرض بهذا الشكل البديع ﴿لَيَقُولَنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ أي ليقولنَّ خلقهنَّ الله وحده، العزيز في ملكه، العليم بخلقه قال القرطبي: أقرؤا له بالخلق والإيجاد، ثم عبدوا معه غيره جهلاً منهم وسفهاً^(٢). ثم بين تعالى لهم صفاته الجليلة، الدالة على كمال القدرة والحكمة فقال ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي بسط الأرض وجعلها كالفرش لكم، تستقرون عليها وتقومون وتنامون ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي وجعل لكم فيها طرقاً تسلكونها في أسفاركم ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي لكي تهتدوا إلى قدرة الخالق الحكيم، مودع هذا النظام العجيب^(٣) ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ أي نزل بقدرته الماء من السماء بمقدار ووزن معلوم، بحسب الحاجة والكفاية قال القرطبي: أي بمقدار ينفع ولا يضر^(٤) ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي فأحيينا به أرضاً ميتة مقفرة من النبات ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ أي كذلك نخرجكم من قبوركم كما نخرج النبات من الأرض الميتة ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي خلق جميع الأصناف والأنواع كلها كالحلو والحامض، والأبيض والأسود، والذكر والانثى^(٥) ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي وسخر لكم من السفن في البحر، والإبل في البر ما تركبونه في أسفاركم قال ابن كثير أي ذللها وسخرها ويسرها لكم، لتأكلوا لحومها وتركبوا ظهورها^(٦) ﴿لَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ أي لتستقروا على ظهور هذا المركوب، سفينة كانت أو جملاً ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي وتذكروا نعمة ربكم الجليلة عليكم حين تستقرون فوقها فتشكروه بقلوبكم ﴿وَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ أي وتقولوا بألستكم عند ركوبكم: سبحان الله الذي ذلل ويسر لنا ركوب هذا المركوب ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أو وما كنا قادرين ولا مطيقين لركوبه لولا تسخيره تعالى لنا ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ أي وإنا إلى ربنا لراجعون، وصاترون إليه بعد الموت قال في «حاشية البيضاوي»: وليس المراد من ذكر النعمة تصوُّرها وإخطارها في البال، بل المراد تذكُّر أنها نعمةٌ حاصلةٌ بتدبير القادر العليم الحكيم، مُستدعيةٌ لطاعته وشُكره، فإن من تفكر في أن ما يركبه الإنسان من الفلك والأنعام، أكثر قوةً وأكبر جثَّةً من راحته، ومع ذلك كان مسخرًا لراكبه

(١) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧/ ١٩٥.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٦٤.

(٣) (ش): أي الذي أودع هذا النظام العجيب في هذا الكون.

(٤) «تفسير البيضاوي» ٢/ ١٧٧.

(٥) «حاشية الجمل على الجلالين» ٤/ ٧٧.

(٦) «مختصر ابن كثير» للصابوني ٣/ ٢٨٥.

يتمكن من تصرفه إلى أي جانب شاء، وتفكر أيضًا في خلق البحر والرياح وفي كونهما مُسَخَّرَيْنِ للإنسان مع ما فيهما من المهابة والأهوال، استغرق في معرفة عظمة الله تعالى وكبريائه، وكمال قدرته وحكمته، فيحمله ذلك الاستغراق على أن يقول متعجبًا من عظمة الله ^(١) ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾. ولما ذكر تعالى اعتراف المشركين بأن خالق السموات والأرض هو رب العالمين، ذكر بعده ما يدل على سفههم وجهلهم في عبادة غير الله فقال ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ أي جعل المشركون لله ولدًا حيث قالوا: الملائكة بنات الله ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ أي: إن القائل لهذا لُمبالغ في الكفر، عظيم الجحود والطغيان قال البيضاوي: أي ظاهر الكفران لأن نسبة الولد إليه تعالى من فرط الجهل به والتحقير لشأنه ^(٢) ﴿أَمْ أَخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَكُمْ بَالِبِينَ﴾ إنكار وتعجب من حالهم أي هل اتخذ تعالى لنفسه البنات، وخصكم واختار لكم البنين؟ قال ابن كثير: وهذا إنكار ^(٣) عليهم غاية الإنكار، ثم ذكر تعالى تمام الإنكار فقال ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾ أي وإذا بُشِّرَ أحد المشركين بالأنثى التي جعلها مثلاً لله بنسبة البنات له ﴿ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي صار وجهه كأنه أسود من الكآبة والحزن، وهو ممتلئ غيظًا وغمًا من سوء ما بُشِّرَ به قال الإمام الفاخر: والمقصود من الآية التنبيه على قلة عقولهم وسخافة تفكيرهم، فإن الذي بلغ حاله في النقص إلى هذا الحد كيف يجوز للعاقل إثباته لله تعالى؟ وقد روي عن بعض العرب أن امرأته وضعت أنثى فهجر البيت الذي فيه المرأة ^(٤) ﴿أَوْ مَنْ يُسْأَلُ فِي الْحَلِيِّ﴾ أي أيجعلون لله من يُرَبَّى في الزينة وينشأ ويكبر عليها وهن الإناث؟ ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي ومن هو في الجدل غير مظهر لحجته لضعف رأيه؟ أو من يكون هكذا يُنسب إلى جناب الله العظيم؟ قال في التسهيل: والمقصود الرد على الذين قالوا: الملائكة بنات الله، كأنه قال: أ جعلتم لله من ينشأ في الحلية؟ يعني يكبر وينبت في استعمالها، وذلك صفة النقص، ثم أتبعها بصفة نقص أخرى فقال ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ يعني أن الأنثى إذا خاصمت أو تكلمت لم تقدر أن تبين حجتها لنقص عقلها، وقلما تجد امرأة إلا تفسد الكلام، وتخلط المعاني، فكيف يُنسب لله من يتصف بهذه النقائص ^(٥)؟ وقال ابن كثير: المرأة ناقصة في الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلي ليحبر ما فيها من نقص، كما قال بعض الشعراء:

(١) «حاشية شيخ زاده على البيضاوي» ٢٩١/٣.

(٢) «تفسير البيضاوي» ١٧٧/٢.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٢٨٦/٣.

(٤) «التفسير الكبير للرازي» ٢٧/٢٠١.

(٥) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٢٦/٤.

وَمَا الْحَلِيُّ إِلَّا زِينَةٌ مِنْ نَقِيبَةٍ يُتَمَّمُ مِنْ حُسْنٍ إِذَا الْحُسْنُ قَصُرَ^(١)
وأما نقص معناها فإنها صعيقة عاجزة عن الانتصار، كما قال بعض العرب وقد بُشِّرَ بنت
«ما هي بنعم الولد، نصرها بكاءً، وبرها سرقة»^(٢) ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ
إِنثًا﴾ كُفِّرَ آخر تضمنه قولهم الشنيع، أي واعتقد كفار العرب بأن الملائكة الذين هم أكمل
العباد وأكرمهم على الله إناث وحكموا عليهم بذلك ﴿أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ﴾ أي أَحْضَرُوا وقت
خلق الله لهم حتى عرفوا أنهم إناث؟ وهذا تجهيلٌ وتهكمٌ بهم ﴿سَتَكُنُّ شُهَدَائِهِمْ وَكُسُوفُ﴾
أي سنأمر الملائكة بكتابة شهادتهم الكاذبة في ديوان أعمالهم ويُسألون عنها يوم القيامة، وهو
وعيدٌ شديدٌ مع التهديد قال المفسرون: حكى تعالى عن كفار العرب ثلاثة أقوال شنيعة:
الأول: أنهم نسبوا إلى الله الولد، الثاني: أنهم نسبوا إليه البنات دون البنين، الثالث: أنهم حكموا
على الملائكة المكرمين بالأنوثة بلا دليل ولا برهان، فكذبهم القرآن الكريم في تلك الأقوال،
ثم زادوا ضللاً وهتاناً فزعموا أن ذلك برضى الله ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ أي قالوا
على سبيل السخرية والاستهزاء: لو شاء الله ما عبدنا هؤلاء الملائكة ولا الأصنام، ولما كانت
عبادتنا واقعة بمشيئته فهو راضٍ بها قال القرطبي: وهذا منهم كلمة حق أريد بها باطل، فكل
شيء بإرادة الله، والمشيئة غير الرضى، ولا يصح الاحتجاج بالمشيئة، فإنهم لو عبدوا الله بدل
الأصنام لعلمنا أن الله أراد منهم ذلك^(٣)، وقد كذبهم الله بقوله ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي
ما لهم بذلك القول حجة ولا برهان ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي ما هم إلا يكذبون ويتقوّلون
على الله كذباً وزوراً ﴿أَمْ أَلَيْسَتْ لَهُمْ كِتَابٌ مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ ردّ آخر عليهم، أي:
أم أنزلنا على هؤلاء المشركين كتاباً من قبل القرآن فهم بذلك الكتاب متمسكون يعملون
بتوجيهاته؟ قال الإمام الفخر: والمعنى: هل وجدوا ذلك الباطل في كتاب منزل قبل القرآن
حتى يعوّلوا عليه ويتمسكوا به^(٤) ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ (بل) للإضراب وهو
الانتقال من كلام إلى آخر أي لم يأتوا بحجة عقلية أو نقلية على ما زعموا بل اعترفوا بأنه لا
مستند لهم سوى تقليد آبائهم الجهلة قال أبو السعود: والأُمَّة: الدين والطريقة سميت أمة لأنها

(١) (ش): الحَلِيُّ: الحِلْيَةُ: ما يُتَزَيَّنُ به من المصوغات أو الأحجار الثمينة.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢٨٧/٣. (ش): المعنى أنه إذا كانت هناك محنة يحتاج أحدٌ فيها لمن ينصّره فهي لا تملك أمامها - لعجزها - إلا البكاء، كما أنها في الغالب عاجزة عن كسب دخل مادي تبر به من تريد برّهم وإذا أرادت أن تبرهم فهي تسرق من مال زوجها لتبرهم به لأن الزوج غالباً لا يسمح بأن تنفق ماله على أهلها. وكلام هذا العربي ليس صحيحاً بإطلاق فقد تكون البنت أفضل أولاد الأب والأم إن كانت صالحةً تبرّهما في حياتهما بالإحسان إليهما والإنفاق عليهما إن كانت ذات مال، وبعد مماتهما تبرّهما بالدعاء لهما. وفي ذات الوقت قد يكون من إخوانها من هم على النقيض من ذلك.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٦/٧٣.

(٤) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧/٢٠٦.

قال الله تعالى:

(۲) «تفسير البيضاوى» ۱۷۸/۲

أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٣﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٤﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٥﴾ وَسَأَلَ مِنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ

المناسبة: لما حكي عن المشركين تقليدهم الأعمى للآباء، ذكر هنا إمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام، الذي يفتخر به العرب وينتسبون إليه، وتبرؤه من قومه ومن عبادة الأوثان، للمقارنة بين الهدى والضلال، وبين منطق العقل السديد، ومنطق الهوى والتقليد.

اللغة: ﴿بَرَاءٌ﴾ مصدر بمعنى بريء أي متبرئ يقال: تبرأت من الأمر أي تخليت عنه بالكلية ﴿عَقِيَهُ﴾ ذريته ونسله قال ابن شهاب: العقب: الولد وولد الولد ﴿سُخْرِيًّا﴾ أي مسخرًا في العمل مستخدمًا فيه ﴿وَمَعَارِجَ﴾ مصاعد ومراقي جمع معراج وهو ما يصعد عليه الإنسان كالدرج ونحوه^(١) ﴿يُظْهِرُونَ﴾ يرتقون ويصعدون ﴿وَزُخْرَفًا﴾ زينة من ذهب وفضة وغيرهما ﴿يَعُشُّ﴾ يُعرض وأصله من عشي البصر إذا ضعف قال الخليل: العشو هو النظر ببصر ضعيف.

التفسير: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ أي واذكر يا محمد حين قال إبراهيم الخليل لأبيه وقومه المشركين: إني بريء من هذه الأوثان التي تعبدونها من دون الله ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ أي لكن ربي الذي خلقني وأنشأني من العدم فإنه يرشدني إلى الدين الحق، ويهديني إلى طريق السعادة ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِيهِ﴾ أي وجعل إبراهيم هذه الكلمة كلمة التوحيد باقية في ذريته فلا يزال فيهم من يوحد الله ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي رجاء أن يرجع إلى الإيمان من أشرك منهم قال مجاهد: «وجعلها كلمة» يعني «لا إله إلا الله» لا يزال في ذريته من يقولها إلى يوم الدين^(٢) ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ﴾ أي بل متعت أهل مكة وآباءهم وهم من عقب إبراهيم بالإمداد في العمر والنعمة، فاغتروا بالمهلة واشتغلوا بالتنعم واتباع الشهوات عن كلمة التوحيد ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ أي حتى جاءهم القرآن ورسول ظاهر الرسالة، مؤيد بالمعجزات الباهرة من عند الله قال الإمام الفخر: وجه نظم الآية أنهم لما عولوا على تقليد الآباء، ولم يتفكروا في الحجة، اغتروا بطول الإمهال وإمتاع الله إياهم بنعيم الدنيا فأعرضوا عن الحق^(٣) ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ﴾ أي ولما جاءهم القرآن لينبهمهم من غفلتهم، ويرشدهم إلى التوحيد، ازدادوا عتوًا وضلالًا فقالوا عن القرآن: إنه سحر ﴿وَلِنَأْيِهِمْ كُفْرُونَ﴾ أي ونحن كافرون به، لا نصدق أنه كلام الله قال أبو السعود:

(١) (ش): الدرَج: جمع دَرَجَة: مراقي السُّلَم، أو ما يُتَخَطَّى عليه من الأدنى إلى الأعلى في الصُّعُود أو في النُّزول.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٢٨٨/٣.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٧/٢٠٨.

سَمَّوُا الْقُرْآنَ سِحْرًا وكفروا به واستحققوا الرسول عليه السلام، فضمُّوا إلى كفرهم السابق معاندة الحق والاستهانة به^(١) ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أي وقال المشركون: هلاً أنزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير في مكة أو الطائف!! قال المفسرون: يعنون «الوليد بن المغيرة» في مكة أو «عروة بن مسعود الثقفي» في الطائف. استبعدت قريش نزول القرآن على محمد وهو فقير يتيم، واقترحوا أن ينزل على أحد الرؤساء والعظماء، ظناً منهم أن العظيم هو الذي يكون له مال وجاه، وفاتهم أن العظيم هو الذي يكون عند الله عظيماً، وهم يعتبرون مقياس العظمة: الجاه والمال، وهذا رأي الجاهلين في كل زمانٍ ومكان، أما مقياسُ العظمة الحقيقية عند الله تعالى وعند العقلاء، فإنما هو عظمة النفس، وسُمُّوُ الروح، وَمَنْ أَعْظَمُ نَفْسًا وَأَسْمَى رُوحًا من محمد بن عبد الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ! ولهذا ردَّ تبارك وتعالى عليهم بقوله ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؟ أي أهم يمنحون النبوة ويخصون بها من شاءوا من العباد، حتى يقترحوا أن تكون لفلانٍ الغني، أو فلانٍ الكبير في الناس؟ ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي نحن بحكمتنا جعلنا هذا غنياً وهذا فقيراً، وفأوتنا بينهم في الأموال والأرزاق، وإذا كان أمر المعيشة وهو تافه حقير لم نتركه لهم بل تولينا قسمته بأنفسنا، فكيف نترك أمر النبوة وهو عظيم وخطير لأهوائهم ومشتياتهم! قال في التسهيل: كما قسمنا المعاش في الدنيا كذلك قسمنا المواهب الدينية، وإذا كنا لم نهمل الحظوظ الحقيرة الفانية، فأولى وأحرى ألا نهمل الحظوظ الشريفة الباقية^(٢) ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أي فضلنا بين الخلق في الرزق والعيش، وجعلناهم مراتب: هذا غني، وهذا فقير، وهذا متوسط الحال ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ أي ليكون كل منهم مسخراً للآخر، ويخدم بعضهم بعضاً، لينتظم أمر الحياة قال الصاوي: إن القصد من جعل الناس متفاوتين في الرزق، لينتفع بعضهم ببعض، ولو كانوا سواء في جميع الأحوال لم يخدم أحدٌ أحداً، فيُفْضِي إلى خراب العالم وفساد نظامه^(٣) وقال أبو حيان: وقوله تعالى: ﴿سُخْرِيًّا﴾ بضم السين من التسخير بمعنى الاستخدام، لا من السخرية بمعنى الهزاء، والحكمة هي أن يرتفع بعضهم ببعض^(٤)، ويصلوا إلى منافعهم، ولو تولَّى كل واحدٍ جميع أشغاله بنفسه ما أطاق ذلك، وضاع وهلك، وفي قوله ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا﴾ ترهيدٌ في الإكباب على طلب الدنيا، وعونٌ على التوكل على الله، وقال قتادة^(٥): تلقى ضعيف القوة، قليل الحيلة، عيبُ اللسان وهو موسَّع عليه في الرزق، وتلقى

(١) «تفسير أبي السعود» ٤٣/٥.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٢٨/٤.

(٣) «حاشية الصاوي» ٤٨/٤.

(٤) (ش): ارتفع بالشئ: انتفع واستعان به.

(٥) «تفسير البحر المحيط» ١٣/٨.

شديد الحيلة، بسيط اللسان وهو مقتَر عليه في الرزق، وقال الشافعي:

وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى الْقَضَاءِ وَكَوْنِهِ بُؤْسُ اللَّيْبِ وَطَيْبُ عَيْشِ الْأَحْمَقِ^(١)

﴿وَرَحِمْتُ رَيْكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي وإنعامه تعالى عليك بالنبوة خير مما يجمع الناس من حطام الدنيا الفاني، ثم بيّن تعالى حقارة الدنيا ودناءة قدرها عند الله فقال ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ أي ولولا أن يرغب الناس في الكفر إذا رأوا الكافر في سعة من الرزق، ويصيروا أمة واحدة في الكفر، لخصصنا هذه الدنيا بالكفار، وجعلنا لهم القصور الشاهقة المزخرفة بأنواع الزينة والنقوش، سقفها من الفضة الخالصة ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي وجعلنا لهم مصاعد و سلالم من فضة عليها يرتقون ويصعدون ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا﴾ أي ولبيوتهم أبواباً من فضة وسرراً من فضة، زيادة في الرفاهية والنعيم ﴿عَلَيْهَا يَتَكَفَّوْنَ﴾ أي على تلك الأسرة الفضية يتكئون ويجلسون ﴿وَزُخْرُفًا﴾ أي وجعلنا لهم زينة من ستور ونمارق ونقوش. قال ابن عباس: ﴿وَزُخْرُفًا﴾ ذهباً، أي: جعلنا لهم سقفاً وأبواباً وسرراً من فضة وذهب^(٢) ﴿وَأَن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي وما كل ذلك النعيم العاجل الذي نعطيه للكفار، إلا شيء يُمتنع به في الحياة الدنيا الزائلة الحقيرة ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي والجنة وما فيها من أنواع الملاذ والنعم التي يقصر عنها البيان، هي خاصة بالمتقين لا يشاركون فيها أحد قال المفسرون: والآيات سبقت لبيان حقارة الدنيا وقلة شأنها، وأنها من الهوان بحيث لولا الفتنة لخص بها الكافرين، فجعل بيوت الكفرة ودرجها وسقوفها من ذهب وفضة، وأعطى الكافر كل ذلك النعيم في الدنيا لعدم حظه في الآخرة، ولكنه تعالى رحيم بالعباد فلذلك أغنى بعض الكفار وأفقر بعضهم، وأغنى بعض المؤمنين وأفقر بعضهم وفي الحديث «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بُعْضَةٍ مَّا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»^(٣) قال الزمخشري: فإن قلت: فحين لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليها التوسعة عليهم، من إطباق الناس على الكفر لجبههم الدنيا وتهالكهم عليها، فهلاً وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام؟ قلت: التوسعة عليهم مفسدة أيضاً لما تؤدي إليها من دخول الناس في الإسلام لأجل الدنيا وذلك من دين المنافقين، فكانت الحكمة فيما دبر، حيث جعل الفريقين أغنياء وفقراء، وغلب الفقر على الغنى^(٤) ﴿وَمَن يَعِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ أي ومن يعرض ويتعام^(٥) ويتغافل عن القرآن وعبادة الرحمن ﴿نَقِصْ لَهُ شَيْطَانًا﴾

(١) «البحر المحيط» ١٣ / ٨.

(٢) «تفسير القرطبي» ٨٧ / ١٦.

(٣) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح. (ش): وصححه الألباني.

(٤) «تفسير الكشاف» ١٩٧ / ٤.

(٥) (ش): يتعامى: يتظاهر بالعمى، يدعي أنه لا يرى. يتعامى عن الحقيقة: يُخفيها عن نفسه ويتظاهر أنه يجهلها ولا يراها، يتغافل عنها، يتجاهلها.

أي نهى ونيسر له شيطاناً لا ينفك عن الوسوسة له والإغواء كقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣] ﴿فَهُوَ لَهُمْ قَرِينٌ﴾ فهو له ملازم ومصاحب له لا يفارقه ﴿وَأَنَّهُمْ لَيَصَّدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي وإن الشياطين ليصدون هؤلاء الكفار الضالين عن طريق الهدى ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ أي ويحسب الكفار أنهم على نور وبصيرة وهداية من أمرهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ أي حتى إذا جاء الكافر مع قرينه وقد ربط بلسلسة واحدة ﴿قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي قال الكافر لقرينه: يا ليت بيني وبينك مثل ما بين المشرق والمغرب قال الطبري: وهذا من التغليب كما يقال: القمران، والعمران، والأبوان، فغلب ههنا المشرق على المغرب^(١) ﴿فَنَسِيَ الْفُرَيْنِ﴾ أي فبئس الصاحب أنت لأنك كنت سبباً في شقائي بتزيينك الباطل لي قال أبو سعيد الخدري: إذا بعث الكافر رُودَ بقرينه من الشياطين، فلا يفارقه حتى يصير به إلى النار ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ أَلْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي ولن ينفعكم ويفيدكم اشتراككم في العذاب، ولن يخفف ذلك عنكم شيئاً بسبب ظلمكم، فإن لكل واحد نصيبه الأوفر منه قال في التسهيل: المراد أنه لا ينفعهم اشتراكهم في العذاب، ولا يجدون راحة التأسّي التي يجدها المكروب في الدنيا إذا رأى غيره قد أصابه مثل ما أصابه^(٢) لأن المصيبة إذا عمّت هانت، فدفع تعالى ذلك التوهم بأن اشتراكهم في العذاب، لا يخفف عنهم البلاء ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي فأنت يا محمد تقدر أن تسمع هؤلاء الكفار الذين هم كالصم والعُمي، ومن كان في ضلال واضح؟ ليس لك ذلك فلا يصدق صدرك إن كفروا قال المفسرون: والآية تسلية للنبي ﷺ فقد كان يجتهد في دعائهم إلى الإيمان، ولا يزدادون إلا تعامياً عن الحق وطغياناً وضلالاً ﴿فَأَمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ أي إن عجلنا وفاتك قبل الانتقام منهم، فإننا سنتقم منهم بعد وفاتك ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾ أي أو نرينك يا محمد العذاب الذي وعدناهم به في حياتك فإننا قادرون عليهم فهم في قبضتنا لا يفوتونا قال ابن عباس: قد أراه الله ذلك يوم بدر وقال ابن كثير: المعنى: لا بد أن نتقم منهم ونعاقبهم في حياتك أو بعد وفاتك، ولم يقبض الله تعالى رسوله حتى أقر عينه من أعدائه^(٣)، وحكمه في نواصيهم^(٤) ﴿فَأَسْمِعْكَ بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ﴾ أي فتمسك يا محمد بالقرآن الذي أوحيناك لك ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي فإنك على الحق الواضح والطريق المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ

(١) «تفسير الطبري».

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٢٩/٤.

(٣) (ش): قَرَّتْ عَيْنُهُ: بَرَدَ دَمْعُهَا، ضَدَّ سَخْنَتْ، وَيُكْنَىٰ بِهِ عَنِ السُّرُورِ وَالِابْتِهَاجِ، وَقِيلَ: لِأَنَّهُ لِلْسُّرُورِ دَمْعَةٌ بَارِدَةٌ وَلِلْحَزَنِ دَمْعَةٌ حَارَّةٌ.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٢٩٠/٣.

تَسْأَلُونَ ﴿١﴾ أَيِ وَإِنْ هَذَا الْقُرْآنَ لَشَرَفٌ عَظِيمٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ مِنْ قَرِيشٍ، إِذْ أَنْزَلَ بِلُغَتِهِمْ وَعَلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ وَسَوْفَ تَسْأَلُونَ عَنْ شُكْرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ قَالَ فِي التَّسْهِيلِ: وَالذِّكْرُ هُنَا بِمَعْنَى الشُّرْفِ، وَقَوْمُ النَّبِيِّ ﷺ هُمُ قَرِيشٌ وَسَائِرُ الْعَرَبِ، فَإِنَّهُمْ نَالُوا بِالإِسْلَامِ شُرْفَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَيَكْفِيكَ أَنْ فَتَحُوا مِشَارِقَ الدُّنْيَا وَمَغَارِبَهَا وَصَارَتْ فِيهِمُ الْخِلَافَةُ وَالْمُلْكُ ^(١)، وَهَذَا الْقُرْآنُ شَرَفٌ لِكُلِّ مَنْ تَبِعَهُ، وَهَذِهِ الْآيَةُ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]؟ ﴿وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ هَذَا عَلَى سَبِيلِ الْفَرَضِ، وَفِي الْكَلَامِ مَحْذُوفٌ، أَيِ: إِنْ كُنْتَ يَا مُحَمَّدُ شَاكًّا فِي أَمْرِ التَّوْحِيدِ فَسَلْ مِنْ سَبَقِكَ مِنَ الرُّسُلِ ﴿أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ﴾؟ أَيِ هَلْ هُنَاكَ أَحَدٌ مِنَ الرُّسُلِ دَعَا لِعِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ؟ وَالْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤] قَالَ أَبُو السَّعُودِ: وَالْمُرَادُ بِالْآيَةِ الْاسْتِشْهَادُ بِإِجْمَاعِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَالتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِبَدْعٍ ابْتَدَعَهُ حَتَّى يُكَذِّبَ وَيُعَادَى ^(٢) وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ: وَيُظْهِرُ أَنَّ الْخُطَابَ لِلْسَّامِعِ، وَالسُّؤَالَ هُنَا مُجَازٍ عَنِ النَّظَرِ فِي أَدْيَانِ الْأَنْبِيَاءِ، هَلْ جَاءَتْ عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ فِي مِلَّةٍ مِنْ مِلَلِهِمْ؟ وَهَذَا كَمَا يَسْأَلُ الشُّعْرَاءُ الدِّيَارَ وَالْأَطْلَالَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: سَلِ الْأَرْضَ مِنْ شَقِّ أَنْهَارِكَ، وَغَرَسِ أَشْجَارِكَ، وَجَنِّ ثِمَارِكَ؟ فَإِنَّهَا إِنْ لَمْ تَجِبْكَ حَوَارًا أَجَابَتْكَ اعْتِبَارًا، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ بَابِ الْمَجَازِ ^(٣).

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَتَأْتِيَ السَّاحِرُ أَنْعَ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْقُورُ آلِيسَ لِي مَلِكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْفِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقَرَّرِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْنَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمُوتُنَّ فِيهَا وَاتَّبِعُونْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٢٩/٤.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٤٥/٥.

(٣) «البحر المحيط» ١٩/٨.

مُبِينٌ ۝١٦ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝١٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ

المناسبة: لما طغت قريش على الرسول ﷺ في أمر النبوة، بسبب أنه فقيرٌ عديم المال والجاه، واختاروا أن يتنزل القرآن على رجل كثير المال عظيم الجاه، ذكر تعالى قصة «موسى مع فرعون» ليشير إلى أن منطق العناد والطغيان واحد، فقد سبقهم فرعون إلى التجبر بماله وسلطانه، ورفض قبول دعوة الحق بحجة أنه أكثر مالاً وجاهاً من موسى، فردت الآيات الكريمة هذه الشبهة السقيمة بالحجة والبرهان.

اللغة: ﴿يَنْكُثُونَ﴾ نكث العهد: نقضه ﴿مُهِينٌ﴾ حقير لا قدر له ولا مكانة ﴿ءَاسَفُونَا﴾ أغضبونا وغازبونا ﴿سَلَفًا﴾ قُدوة ﴿يَصِدُّونَ﴾ بكسر الصاد بمعنى يَضَجُّون ويصيحون، وبضمها بمعنى الإعراض ومنع الناس عن الإيمان قال الجوهري: صَدَّ يَصِدُّ صديداً أي ضجَّ، وقيل: إنه بالضم من الصدود وهو الإعراض، وبالكسر من الضجيج^(١)، وقال الفراء: هما سواء ﴿تَمَتَّرْتُكَ﴾ الامتراء: الشك، امترى في الأمر شك فيه، والمرية: الشك.

سَبَبُ النُّزُول: عن مجاهد قال: إن قريشاً قالت: إن محمداً يريد أن نعبد كما عبد النصراني عيسى ابن مريم فأنزل الله ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾^(٢).

التفسير: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي والله لقد أرسلنا موسى بالمعجزات الباهرة الدالة على صدقه إلى فرعون وقومه الأقباط ﴿فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي فقال له موسى: إني رسول الله إليك، أرسلني لأدعوك وقومك إلى عبادة الله وحده ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ أي فلما جاءهم بتلك الآيات الباهرة الدالة على رسالته ضحكوا سخريَةً واستهزاءً به قال القرطبي: إنما ضحكوا منها ليوهموا أتباعهم أن تلك الآيات سحرٌ، وأهم قادرون عليها^(٣)، قال تعالى ﴿وَمَا نُزِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ أي وما نزيهم آية من آيات العذاب كالطوفان، والجراد، والقمل إلا وهي في غاية الكبر والظهور، بحيث تكون أوضح من سابقتها قال الصاوي: والمعنى إلا وهي بالغة الغاية

(١) انظر «الصحيح» و«لسان العرب» و«القاموس المحيط».

(٢) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٠٢. (ش): ضعيف لانقطاعه، إن كان مسنداً، فكيف وقد ذكره القرطبي بدون إسناد. عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِقُرَيْشٍ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فِيهِ خَيْرٌ»، وَقَدْ عَلِمْتُ قُرَيْشٌ أَنَّ النَّصَارَى تَعْبُدُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، وَمَا تَقُولُ فِي مُحَمَّدٍ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، أَلَسْتَ نَزَعُمُ أَنَّ عِيسَى كَانَ نَبِيًّا وَعَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ صَالِحًا، فَلَيْتَ كُنْتَ صَادِقًا، فَإِنَّ آلِهَتَهُمْ لَكَمَا تَقُولُونَ. قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧]. (رواه الإمام أحمد في المُسْنَدِ، وحسنه الألباني، وأحمد شاكر والأرنؤوط).

(٣) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٩٧.

في الإعجاز، بحيث يظن الناظر إليها أنها أكبر من غيرها^(١) ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي عاقبناهم بأنواع العذاب الشديد، لعلهم يرجعون عما هم عليه من الكفر والتكذيب ﴿وَقَالُوا يَتَأْتِيهِ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ أي وقالوا لما عاينوا العذاب: يا أيها الساحر ادع لنا ربك ليكشف عنا هذا البلاء والعذاب ﴿بِمَا عَاهَدْنَاكَ﴾ أي بالعهد الذي أعطاك إياه من استجابة دعائك ﴿إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ أي لنؤمن بك إن كشف عنا العذاب بدعائك - قال المفسرون: ليس قولهم ﴿وَقَالُوا يَتَأْتِيهِ السَّاحِرُ﴾ على سبيل الانتقاص، وإنما هو تعظيم في زعمهم، لأن السحر كان علم زمانهم، ولم يكن مذموماً، فنادوه بذلك على سبيل التعظيم - قال ابن عباس: معناه يا أيها العالم، وكان الساحر فيهم عظيماً يوقرونه ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾ أي فلما رفعنا عنهم العذاب بدعوة موسى، إذا هم ينقضون العهد ويصرون على الكفر والعصيان ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ﴾ أي نادى فرعون رؤساء القبط وعظماءهم، لما رأى الآيات الباهرة من موسى وخاف أن يؤمنوا ﴿قَالَ يَفْعَلُ الْيَسَّىٰ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ أي قال مفتخراً متبجحاً: أليست بلاد مصر الواسعة الشاسعة ملكاً لي؟ وهذه الخُلجان والأنهار المتفرعة من نهر النيل تجري من تحت قصوري؟ قال القرطبي: ومعظمها أربعة: نهر الملك، ونهر طولون، ونهر دمياط، ونهر تينس وكلها من النيل^(٢) وقال قتادة: كانت جناها وأنهارها تجري من تحت قصره^(٣) ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أي أفلا تبصرون عظمتي وسعة ملكي، وقلة موسى وذلته؟ ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مِثْلُ آبٍ تُفَكِّكُ مِنْهُ الرِّيحَ مِمَّا نَحْنُ عَلَيهِ﴾ أي أم أنا خير من هذا الضعيف الحقير الذي لا عز له ولا جاه ولا سلطان، فهو يمتهن نفسه في حاجاته لحقارته وضعفه؟ يعني بذلك موسى عليه السلام ﴿وَلَا يَكَادُ بَيِّنٌ﴾ أي لا يكاد يفصح عن كلامه، ويوضح مقصوده، فكيف يصلح للرسالة؟ قال أبو السعود: قال فرعون ذلك افتراءً على موسى، وتقيصاً له عليه السلام في أعين الناس، باعتبار ما كان في لسانه من عقدة، ولكن الله أذهبها عنه بدعائه ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي﴾ ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه: ٢٧-٢٨]^(٤) ﴿فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ﴾ أي فهلاً ألقى الله إليه آسورة من ذهب كرامة له ودلالة على نبوته! قال مجاهد: كانوا إذا أرادوا أن يجعلوا رجلاً رئيساً عليهم سوروه بسوارين وطوقوه بطوق من ذهب علامة لسيادته^(٥) ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَكُ مِثْلَ مُقْتَرِنِينَ﴾ أي أو جاءت معه الملائكة يكتنفونه خدمة له وشهادة بصدقه قال أبو حيان: لما وصف فرعون نفسه بالعزة والملك، ووازن بينه وبين موسى عليه السلام، ووصفه بالضعف

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٥١/٤.

(٢) نفس المرجع السابق ٩٨/١٦.

(٣) «البحر المحيط» ٢٢/٨.

(٤) تفسير «أبي السعود» ٤٦/٥.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٠٠/١٦.

وقلة الأعوان، اعترض فقال: إن كان صادقاً فهلاً ملكه ربّه وسوره وجعل الملائكة أنصاره^(١) ! ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ، فَاطَاعُوهُ﴾ أي فاستخفّ يعقول قومه واستجهلهم لخفة أحلامهم، فاطاعوه فيما دعاهم إليه من الضلالة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ لأي إنما أجابوه لفسقهم وخروجهم عن طاعة الله ﴿فَلَمَّا عَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي فلما أغضبونا وعاظفونا انتقمنا منهم بأشد أنواع العقاب ﴿فَاغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي فأغرقنا فرعون وقومه في البحر أجمعين فلم يبق منهم أحداً قال المفسرون: اغتر فرعون بالعظمة والسلطان والأنهار التي تجري من تحته، فأهلكه الله بجنس ما تكبر به هو وقومه وذلك بالغرق بماء البحر، وفيه إشارة إلى أن من تعزّز بشيء أهلكه الله به ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ أي جعلنا قوم فرعون قدوة لمن بعدهم من الكفار في استحقاق العذاب والدمار، ومثلاً يعتبرون به لئلا يصيبهم مثل ذلك قال مجاهد: سلفاً لكفار قريش يتقدمونهم إلى النار، وعظة وعبرة لمن يأتي بعدهم^(٢) ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أي ولما ذكر عيسى ابن مريم في القرآن وضرب المثل بالآلهة التي عبّدت من دون الله إذا مشركو قريش يضحجون وترتفع أصواتهم بالصياح. قال المفسرون: «لما قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] قال ابن الزبيري: أهذا لنا أم لجميع الأمم؟ فقال عليه السلام: «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم» فقال: قد خصمتك وربّ الكعبة؟ أليست النصارى يعبدون المسيح، واليهود يعبدون عزيزاً؟ وبنو فلان يعبدون الملائكة!! فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم، فسكت عليه الصلاة والسلام انتظاراً للوحي، فظنوا أنه ألزم الحجة فضحك المشركون وضجوا وارتفعت أصواتهم فأنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾^(٣) [الأنبياء: ١٠١] قال القرطبي: ولو تأمل ابن الزبيري الآية ما اعترض عليها، لأنه تعالى قال ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ولم يقل «ومن تعبدون» وإنما أراد الأصنام ونحوها مما لا يعقل، ولم يرد المسيح ولا الملائكة وإن كانوا معبودين^(٤) ﴿وَقَالُوا ءِالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ أي آلهتنا خير أم عيسى؟ فإن كان عيسى في النار فلتكن آلهتنا

(١) «البحر المحيط» ٢٢/٨.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٦/١٠٢.

(٣) «حاشية الصاوي» ٥٢/٤، وانظر «تفسير أبي السعود» ٥/٤٧. (ش): عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما نزل قوله تعالى ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ شق ذلك على كفار قريش وقالوا: شتم آلهتنا وأتوا ابن الزبيري وأخبروه فقال: لو حضرته لرددت عليه قالوا: وما كنت تقول له؟ قال: أقول له: هذا المسيح تعبد النصارى، وهذا عزيز تعبد اليهود؛ أفهما من حصب جهنم؟ فعجبت قريش من مقالته ورأوا أن محمداً قد خصم فأنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾. أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» وإسناده حسن، وأخرج نحوه الحاكم في «المستدرک» وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٦/١٠٣.

معه ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ أي ما قالوا هذا القول لك إلا على وجه الجدل والمكابرة لا لطلب الحق ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ أي بل هم قوم شديدا الخصومة واللجاج بالباطل قال في التسهيل: أي ما ضربوا لك هذا المثل إلا على وجه الجدل، وهو أن يقصد الإنسان أن يغلب من يناظره، سواء غلبه بحق أو بباطل، فإن ابن الزبيري وأمثاله ممن لا يخفى عليه أن عيسى لم يدخل في قوله تعالى ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ولكنهم أرادوا المغالطة فوصفهم الله بأنهم قوم خصمون^(١) ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أي ما عيسى إلا عبد كسائر العبيد أنعمنا عليه بالنبوة وشرفناه بالرسالة، وليس هو إلها ولا ابن إله كما زعم النصارى ﴿وَجَعَلْنَاهُ مِثْلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي وجعلناه آية وعبرة لبني إسرائيل، يستدلون بها على قدرة الله تعالى، حيث خلق من أم بلا أب قال الرازي: أي صيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر حيث خلقناه من غير أب كما خلقنا آدم ﴿وَلَوْ شَاءَ جَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ أي ولو أردنا لجعلنا بدلا منكم ملائكة يسكنون في الأرض يكونون خلفا عنكم قال مجاهد: ملائكة يعمرّون الأرض بدلا منكم ﴿وَإِنَّهُ لَئِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي وإن عيسى علامة على قرب الساعة قال ابن عباس وقتادة: إن خروج عيسى عليه السلام من أعلام الساعة لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة، ﴿فَلَا تَعْتَرِكُ بِهَا﴾ أي فلا تشكوا في أمر الساعة فإنها آتية لا محالة وفي الحديث «لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُّقْسِطًا...» الحديث^(٢) ﴿وَأَتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي وقل لهم يا محمد: اتبعوا هداي وشرعي، فإن هذا الذي أدعوكم إليه دين قيم وطريق مستقيم ﴿وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي لا تغتروا بوساوس الشيطان، واحذروا أن يصدكم عن اتباع الحق، فإنه لكم عدو ظاهر العداوة، حيث أخرج أباكم من الجنة، ونزع عنه لباس النور^(٣) ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ أي ولما جاء عيسى بالمعجزات وبالشرائع البينات الواضحات، قال: قد جئتكم بما تقتضيه الحكمة الإلهية من الشرائع ﴿وَلَا يَبِينُ لَكُمْ

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٣٢/٤.

(٢) (ش): قال **الرحمن**: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُّقْسِطًا فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخَنَزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَقْبِضَ الْمَالَ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ» رواه البخاري. وفي رواية: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُّقْسِطًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخَنَزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَقْبِضَ الْمَالَ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ» رواه البخاري. (يَضَعُ الْجِزْيَةَ)، أي لا يقبلها من اليهود والنصارى، بل لا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتل.

(٣) (ش): هكذا في بعض التفاسير ولم أجد من الأحاديث الصحيحة ما يدل عليه. قال تعالى: ﴿يَنْبِئُ آدَمَ لَا يَفْنَى بَنِيكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ عَيْتِهِمَا إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧]. وتفسيرها: يا بني آدم لا يخدعكنم الشيطان، فيزين لكم المعصية، كما زينها لأبويكم آدم وحواء، فأخرجهما بسببها من الجنة، ينزع عنهما لباسهما الذي سترهما الله به؛ لتتكشف لهما عوراتهما. إن الشيطان يراكم هو وذريته وجنسه وأتم ل تروهم فاحذروهم. إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلْكَافِرِ الَّذِينَ لَا يُوْحِدُونَ اللَّهَ، ولا يصدقون رسله، ولا يعملون بهديه.

بَعْضُ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴿٥٠﴾ أَي جِئْتُمْكُمْ لَأُبَيِّنَ لَكُمْ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ قَالَ ابْنُ جُزَيٍّ: وَإِنَّمَا قَالَ ﴿بَعْضُ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ دُونَ الْكُلِّ، لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ إِنَّمَا يَبَيِّنُونَ أُمُورَ الدِّينِ لَا أُمُورَ الدُّنْيَا وَقَالَ الطَّبْرِيُّ: يَعْنِي مِنَ الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ لَا الدُّنْيَوِيَّةِ ^(١) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ أَي فَاتَّقُوا اللَّهَ بِامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، وَأَطِيعُوا أَمْرِي فِيمَا أَبْلَغُهُ إِلَيْكُمْ مِنَ التَّكْلِيفِ ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ أَي إِنْ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا هُوَ الرَّبُّ الْمَعْبُودُ لَا رَبَّ سِوَاهُ فَأَخْلَصُوا لَهُ الطَّاعَةَ وَالْعِبَادَةَ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَي أَنَا وَأَنْتُمْ عِبِيدُ لَهُ، فَقَرَأْ إِلَيْهِ، مُشْتَرِكُونَ فِي عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ ^(٢) ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أَي هَذَا التَّوْحِيدُ وَالتَّعَبُّدُ بِالْشَّرَائِعِ، طَرِيقٌ مُسْتَقِيمٌ مُوصِلٌ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

قال الله تعالى:

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ إِلِيمٍ ﴿٥٠﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥١﴾ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٥٢﴾ يَتَجَادَلُونَ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٥٣﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٥٥﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥٦﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٧﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٥٩﴾ لَا يُفْتَرَعُ عَنْهُمْ فِيهِ مَبْلِسُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٦١﴾ وَنَادَاوُا يَمَلِكُ لِنَفْسِ عَلِيَّ بْنِ أَبِي رَبِئَةَ قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُوثُونَ ﴿٦٢﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٦٣﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٦٤﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٦٥﴾ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٦٦﴾ سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٦٧﴾ فَذَرَهُمْ يَبْخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٨﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٦٩﴾ وَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَاءَ بِالشَّهَادَةِ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٧٢﴾ وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧٣﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى أمر عيسى ودعوته إلى الدين الحق، أتبعه بذكر ضلال أهل الكتاب حيث تفرقوا شيعاً وأحزاباً في شأنه، فقال بعضهم: إنه إله، وقال بعضهم: إنه ابن الإله، وقال آخرون: إنه ثالث ثلاثة، ثم ذكر تعالى أحوال القيامة وأهوالها، وختم السورة الكريمة ببيان صفات المعبود الحق، الواحد الأحد جل وعلا.

اللغة: ﴿الْأَخِلَّاءُ﴾ جمع خليل وهو الصديق الحميم ﴿تُحْبَرُونَ﴾ تُسَرَّوْنَ وتفرحون،

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٩٥ قال ابن كثير: وهذا الذي قاله ابن جرير حسن جيد.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٩٥.

والحبور: السرور والفرح ﴿وَأَكْوَابُ﴾ جمع كوب وهو القدح الذي لا عُرْوَةَ له^(١) ﴿مُبِلْسُونَ﴾ آيسون من الرحمة، وحزينون من شدة اليأس ﴿أَبْرُمُوا﴾ أحكموا الشيء يقال: أبرم القوم أمرهم أحكموه، والإبرام: الإحكام ﴿يُؤَفِّكُونَ﴾ يُقْلِبُونَ ويُصَرِّفُونَ، أَفَّكَ أَي قَلَبَهُ وَصَرَّفَهُ عن الشيء.

سَبَبُ النَّزُول: عن مقاتل قال: مكر المشركون بالنبي ﷺ في دار الندوة، وتآمروا على قتله حين استقر أمرهم على ما أشار به أبو جهل عليهم، وهو أن يبرز من كل قبيلة رجل ليشتركوا في قتله وتضعف المطالبة بدمه فنزلت: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾^(٢).

التفسير: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أي اختلفت فرق النصارى في شأن عيسى وصاروا شيعاً وأحزاباً فيه قال ابن كثير: صاروا شيعاً فيه، منهم من يُقَرُّ بأنه عبد الله ورسوله وهو الحق، ومنهم من يدعي أنه ولد الله، ومنهم من يقول: إنه الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً^(٣) ﴿قَوْلِ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ أَلِيمٍ﴾ أي فهلاك ودمار لهؤلاء الكفرة الظالمين من عذاب يوم مؤلم وهو يوم القيامة ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ أي هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون إلا إتيان الساعة ومجيئها فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وهم غافلون عنها مشغولون بأمور الدنيا، وحينئذ يندمون حيث لا ينفعهم الندم، ثم ذكر تعالى أحوال القيامة فقال ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ أي الأصدقاء والأحباب يوم القيامة يصبحون أعداء إلا من كانت صداقته ومحبته لله قال ابن كثير: كل خلة وصداقة لغير الله، فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله عزَّ وجلَّ فإنه دائم بدوامه^(٤) قال ابن عباس: صارت كل خلة عداوة يوم القيامة إلا المتقين تشريعاً وتطبيعاً لقلوبهم فيقول: ﴿يَعْبَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ يا عباد الله المؤمنين الذين تحققت في العبودية لرب العالمين، لا خوف عليكم في هذا اليوم العصيب، ولا أنتم تحزنون على ما فاتكم من الدنيا، ثم وضَّحهم بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ أي هم الذين صدَّقوا بالقرآن، واستسلموا للحكم الله وأمره، وانقادوا لطاعته ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ أي يقال لهم: ادخلوا الجنة أنتم ونسائكم المؤمنات، تُنْعَمُونَ فيها وتُسَرُّون سروراً يظهر أثره على وجوهكم ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي يُطَاف على أهل الجنة بأوانٍ من الذهب فيها طعام، وأقداح

(١) (ش): العُرْوَةُ مِنَ الدَّلْوِ أَوِ الْكُوبِ: مَقْبُضُهُ.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢٩٥/٣. (ش): هكذا في أكثر من طبعة. وليس في «تفسير ابن كثير» ولا في «مختصره» للمؤلف. إنما وجدته في تفسير «القرطبي» وهو ضعيف لا نقطاعه، إن كان مسنداً، فكيف وقد ذكره القرطبي بدون إسناد. وأيضاً مقاتل متهم بالكذب.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢٩٥/٣.

(٤) نفس المرجع السابق والصفحة.

من ذهب فيها الشراب قال المفسرون: آنية أهل الجنة التي يأكلون فيها الطعام، والكؤوس التي يشربون فيها الشراب كلها من ذهب وفضة كما قال تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآيَاتٍ مِنْ فَضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾ [الإنسان: ١٥] وفي الحديث: «لَا تَلْبَسُوا الْحَرِيرَ وَلَا الدِّيَابَجَ وَلَا تَشْرَبُوا فِي آيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلَا تَأْكُلُوا فِي صَحَافِهَا، فَإِنَّهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَنَا فِي الْآخِرَةِ»^(١). ﴿وَفِيهَا مَا نَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ أي وفي الجنة كل ما تشتهيه النفوس من أنواع اللذائذ والمشتهيات، وتُسَرُّ به الأعين من فنون المناظر الجميلة، والمشاهد اللطيفة ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي وأنتم في الجنة باقون دائمون، لا تخرجون منها أبدًا قال أبو السعود: وهذا إتمامٌ للنعمة وإكمالٌ للسرور، فإن كل نعيم زائل موجبٌ لخوف الزوال^(٢).. لَمَّا ذَكَرَ الْجَنَّةَ وَأَنَّهَا مَوْضِعُ الْحَبُورِ، ذَكَرَ مَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ، فَذَكَرَ أَوَّلَ الْمَطَاعِمِ، ثُمَّ ذَكَرَ الْمَشَارِبِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ التَّفْصِيلَ ذَكَرَ بَيَانًا كَلِمًا بِقَوْلِهِ ﴿وَفِيهَا مَا نَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ ثم ذكر تمام النعمة بالخلود في دار النعيم، وهذا حصرٌ لأنواع النعم، لأنها إما مشتهاة في القلوب، أو مستلذة في العيون^(٣) ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي وتلك الجنة الموصوفة بتلك الأوصاف الجليلة أُعْطِيتُمْوهَا بسبب أعمالكم الصالحة التي قدمتموها في الدنيا قال ابن كثير: أي أعمالكم الصالحة كانت سببًا لشمول رحمة الله إياكم، فإنه لا يدخل أحد الجنة بعمله، ولكن برحمة الله وفضله، وإنما الدرجات يُنال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات^(٤) وفي الحديث «ما من أحدٍ إلَّا وله منزلٌ في الجنة ومنزلٌ في النار، الكافر يرث المؤمن منزله في النار، والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة، وذلك قوله تعالى ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾»^(٥) ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي لكم في الجنة من أنواع الفواكه والثمار الشيء الكثير سوى الطعام والشراب من هذه الفواكه تأكلون تفكهًا وتلذذًا قال المفسرون: يأكل أهل الجنة من بعض الثمار، وأما الباقي فعلى الأشجار على الدوام، لا ترى فيها شجرة تخلو عن ثمرها لحظة، فهي مزينة بالثمار أبدًا، لأن كل ما يؤكل يخلف بدله وفي الحديث: «لا ينزع رجلٌ

(١) الحديث من رواية الشيخين. (ش): الصَّحَاف: الأواني.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٤٩/٥.

(٣) «حاشية زاده على البيضاوي» ٣٠٤/٣.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٢٩٦/٣.

(٥) الحديث أخرجه ابن أبي حاتم. (ش): إسناده ضعيف. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا لَهُ مَنْزِلٌ لَآنَ مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ فَإِذَا مَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ وَرِثَ أَهْلَ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمْ﴾». (رواه ابن ماجه، وصححه الألباني. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ الْجَنَّةَ إِلَّا أَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، لَوْ أَسَاءَ، لَيَزِدَّادَ شُكْرًا، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ إِلَّا أَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، لَوْ أَحْسَنَ، لَيَكُونَ عَلَيْهِ حَسْرَةٌ» رواه البخاري.

في الجنة من ثمرها إلا نبت مثلاً ما مكانها»^(١). ولما ذكر حال السعداء الأبرار أعقبه بذكر حال الأشقياء الفجار فقال ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ أي إن الكافرين الراسخين في الإجرام في العذاب الشديد في جهنم دائمون فيها أبداً قال الصاوي: والمراد بالمجرمين الكفار لأنهم ذكروا في مقابلة المؤمنين^(٢) ﴿لَا يُفْتَرُّ عَنْهُمْ﴾ أي لا يخفف عنهم العذاب لحظة ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي وهم في ذلك العذاب يائسون من كل خير ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ أي وما ظلمناهم بعقابنا لهم، ولكن كانوا هم الظالمين لتعريضهم أنفسهم للعذاب الخالد ﴿وَنَادَوْا بِمَمْلَكَتِكَ لِيُفْضَلَ عَلَيْنَا رَيْبُكَ﴾ أي ونادى الكفار مالكا خازن النار قائلين: ليمتنا الله حتى نستريح من العذاب قال ابن كثير: أي ليقبض أرواحنا فيرحنا مما نحن فيه قال ابن عباس: فلم يجبههم إلا بعد ألف سنة^(٣) ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَعِي كُتُوبٌ﴾ أي أجابهم إنكم مقيمون في العذاب أبداً، لا خلاص لكم منه بموت ولا بغيره ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ خطاب توبيخ وتقريع أي لقد جئناكم أيها الكفار بالحق الساطع المبين، ولكنكم كتمت كارهين لدين الله مشتمزين منه لكونه مخالفاً لأهوائكم وشهواتكم قال الرازي: هذا كالعلة لما ذكر والمراد نفرتهم عن محمد وعن القرآن، وشدة بغضهم لقبول الدين الحق^(٤) ﴿أَمْ أَمْرُؤْنَا مُبْرِمُونَ﴾ الكلام عن كفار قريش، أي: أم أحكم هؤلاء المشركون أمراً في كيد محمد ﷺ فإننا مُحْكَمُونَ أمرنا في نصرته وحمايته، وإهلاكهم وتدميرهم قال مقاتل: نزلت في تدميرهم المكر بالنبي ﷺ في دار الندوة^(٥) ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ أي أم يظنون أننا لا نسمع ما حدثوا به أنفسهم، وما تكلموا به فيما بينهم بطريق التناجي قال في التسهيل: السر ما يحدث به الإنسان نفسه أو غيره في خفية، والنجوى ما تكلموا به بينهم^(٦) ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتَئِبُونَ﴾ أي بلى إنا نسمع سرهم وعلاانيتهم، وملا ثقتنا الحفظة يكتبون عليهم أعمالهم، روي أنها نزلت في «الأخنس بن شريق» و«الأسود بن عبد يغوث» اجتمعنا فقال الأخنس: أترى الله يسمع سرنا؟! فقال الآخر: يسمع نجوانا ولا يسمع سرنا^(٧) ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾

(١) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٤٩. (ش): رواه أبو نعيم الأصبهاني في «صفة الجنة» بإسناد ضعيف.

(٢) «حاشية الصاوي» ٤/ ٥٤.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٩٦.

(٤) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٢٢٧.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١١٨.

(٦) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٣٣.

(٧) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٣٣. (ش): ذكره بدون إسناد. وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: اجْتَمَعَ عِنْدَ الْبَيْتِ ثَلَاثَةٌ نَمَرُ قُرَيْشِيَّانِ وَتَقْفِيٌّ أَوْ تَقْفِيَّانِ وَقُرَشِيٌّ قَلِيلٌ فَقَهُ قُلُوبُهُمْ كَثِيرٌ شَحْمٌ بَطُونُهُمْ فَقَالَ أَحَدُهُمْ: «أَتَرُونَ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَا نَقُولُ؟». وَقَالَ الْآخَرُ: «يَسْمَعُ إِنْ جَهَرْنَا وَلَا يَسْمَعُ إِنْ أَخْفَيْنَا». وَقَالَ الْآخَرُ: «إِنْ كَانَ يَسْمَعُ إِذَا جَهَرْنَا فَهَوَّ يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا». فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرْوْنَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ الآية.

أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: لو فرض أن الله ولدًا لكنت أنا أول من يعبد ذلك الولد، ولكنه جلّ وعلا منزّه عن الزوجة والولد قال القرطبي: وهذا كما تقول لمن تناظره: إن ثبت ما قلت بالدليل فأنا أوّل من يعتقده، وهذا مبالغة في الاستبعاد، وترقيق في الكلام^(١) وقال الطبري: هو ملاطفة في الخطاب وقال البيضاوي: ولا يلزم من هذا الكلام صحة وجود الولد وعبادته له، بل المراد نفيهما على أبلغ الوجوه، وإنكاره للولد ليس للعناد والمرء، بل لو كان لكان أوّل الناس بالاعتراف به، فإن النبي يكون أعلم بالله وبما يصح له وما لا يصح^(٢) ﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزهه وتقدس الله العظيم الجليل، ربّ السموات والأرض، وربّ العرش العظيم، عمّا يصفه به الكافرون من نسبة الولد إليه ﴿فَذَرَهُمْ خَوْضًا وَيَلْعَبُوا﴾ أي اترك كفار مكة في جهلهم وضلالهم، يخوضوا في باطلهم ويلعبوا بدنياههم ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ أي إلى ذلك اليوم الرهيب الذي وعده وهو يوم القيامة فسوف يعلمون حينئذ كيف يكون حالهم ومصيرهم ومآلهم ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ فِي الْأَرْضِ إِلَهُ﴾ أي هو جلّ وعلا معبود في السماء ومعبود في الأرض، لأنه هو الإله الحق، المستحق للعبادة في السماء والأرض قال في التسهيل: أي هو الإله لأهل الأرض وأهل السماء وقال ابن كثير: أي هو إله من في السماء وإله من في الأرض، يعبده أهلها وكلهم خاضعون له أذلاء بين يديه^(٣) ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ أي هو الحكيم في تدبير خلقه، العليم بمصالحهم، وهذا كالدليل على وحدانيته تعالى ﴿وَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي تمجّد وتعظّم الله الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات، من الإنس والجن والملائكة، فهو الخالق والمالك والمتصرف في الكائنات بلا ممانعة ولا مدافعة ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي وعنده وحده علم زمان قيام الساعة ﴿وَالَّذِي تُرْجَعُونَ﴾ أي وإليه لا إلى غيره مرجع الخلاق للجزاء، فيجازي كلًّا بعمله ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَكَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ﴾ أي ولا يملك أحد ممن يعبدونهم من دون الله أن يشفع عند الله لأحد، لأنه شفاعته إلا بإذنه ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ أي إلا لمن شهد بالحق، وآمن عن علم وبصيرة، فإنه تنفع شفاعته عند الله ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي وهم يعلمون أن الشفاعة لا تكون إلا بإذنه قال المفسرون: والمراد بـ ﴿مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ عيسى وعزير والملائكة، فإنهم يشهدون بالحق والوحدانية لله، فهؤلاء تنفع شفاعتهم للمؤمنين وإن كانوا قد عبدوا من دون الله ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي ولئن سألت يا محمد كفار مكة من الذي خلقهم وأوجدهم؟ ليقولنَّ الله خلقنا، فهم يعترفون

(١) «تفسير القرطبي» ١٦ / ١١٩.

(٢) هذا قول جيد وهو الصحيح في معنى الآية. وقيل: «إن» بمعنى «ما» أي ما كان للرحمن ولد. وتم الكلام ثم ابتداء فقال: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾، وهذا قول ضعيف.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤ / ٣٣.

بأنه خالق ثم يعبدون غيره ممن لا يقدر على شيء ﴿فَأَنزِلْ يُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف ينصرفون عن عبادة الرحمن إلى عبادة الأوثان؟ فهم في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقول ﴿وَقِيلَ لَهُ يَكْرَبُ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي وقول محمد في شكواه لربه يا رب إن هؤلاء قوم معاندون جبارون لا يصدقون برسالتي ولا بالقرآن قال قتادة: هذا قول نبيكم ﷺ يشكو قومه إلى ربه عز وجل^(١) ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾ أي فأعرض عنهم يا محمد وسامحهم ولا تقابلهم بمثل ما يقابلونك به قال الصاوي: وهو تباعد وتبرؤ منهم، وليس في الآية مشروعية السلام على الكفار^(٢) وقال قتادة: أمر بالصفح عنهم ثم أمر بقتالهم، فصار الصفح منسوخاً بالسيف^(٣) ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي فسوف يعلمون عاقبة إجرامهم وتكذيبهم، وهو وعد وتهديد للمشركين، وتسليية لرسول الله ﷺ^(٤).

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - التشبيه البليغ ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [الزخرف: ١٠] أي كالمهد والفراش حذفت منه الأداة ووجه الشبه فأصبح بليغاً.
- ٢ - الاستعارة التبعية ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ بَلَدَةً مَّيِّتًا﴾ [الزخرف: ١١] شبه الأرض قبل نزول المطر بالإنسان الميت ثم أنشراها الله أي أحيها بالمطر ففيه استعارة تبعية^(٥).
- ٣ - التأكيد باللام مع صيغة المبالغة ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِكَفُورٍ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ١٥] لأن (فعل وفعل) من صيغ المبالغة.
- ٤ - الأسلوب التهكمي للتوبيخ والتفريع ﴿أَمْ أَمْتًا خَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ [الزخرف: ١٦]؟ وبين لفظ البنات والبنين طباق.
- ٥ - المجاز المرسل ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ [الزخرف: ٢٨] المراد بالكلمة الجملة التي قالها ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦] ففي اللفظ مجاز.

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) «حاشية الصاوي» ٥٦/٤. (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَبْدَءُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِالسَّلَامِ» (رواه الترمذي، وصححه الألباني). وَعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ عَلَى مَجْلِسٍ فِيهِ أَخْلَاطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ عَبْدَةُ الْأَوْثَانِ وَالْيَهُودَ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ. رواه البخاري ومسلم. [انظر: «رياض الصالحين للنووي» باب تحريم ابتداء الكافر بالسلام وكيفية الرد عليهم واستجاب السلام على أهل مجلس فيهم مسلمون وكفار].

(٣) «تفسير القرطبي» ١٦/١٢٤.

(٤) «أبو السعود» ٥/٥١.

(٥) (ش): الاستعارة التبعية: هي ما كان اللفظ المستعار فيها فعلاً، أو اسماً مشتقاً، أو حرفاً، والأسماء المشتقة هي: اسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة، وأفعال التفضيل، واسما الزمان والمكان، واسم الآلة، وما إلى ذلك.

- ٦ - الاستعارة ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى﴾ [الزخرف: ٤٠] شبه الكفار بالصم والعمي بطريق الاستعارة التمثيلية.
- ٧ - جناس الاشتقاق ﴿أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ [الزخرف: ٤٥] لتغير الشكل وبعض الحروف بينهما.
- ٨ - حذف الإيجاز ﴿بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي أكواب من ذهب وحذف للدلالة السابق عليه.
- ٩ - ذكر العام بعد الخاص ﴿وَفِيهَا مَا نَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ﴾ بعد قوله ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ﴾ الآية.
- ١٠ - الطباق ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ لأن المراد سرهم وعلانياتهم.
- ١١ - السجع الرصين غير المتكلف مثل ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف: ١١] ﴿مِنْ أَلْفَلِكٍ﴾ [الزخرف: ١٢] ﴿وَأَنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٤] وغير ذلك وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الزخرف»



سُورَةُ الدُّخَانِ

مكية وآياتها تسع وخمسون

بين يدي السورة

* سورة الدخان مكية وهي تتناول أهداف السور المكية «التوحيد، الرسالة، البعث» لترسيخ العقيدة وتثبيت دعائم الإيمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن العظيم - المعجزة الخالدة -^(١) الباقي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وإليه يرجعون، وقد تحدثت عن إنزال الله تعالى له في ليلة مباركة من أفضل ليالي العمر هي «ليلة القدر» وبينت شرف تلك الليلة العظيمة التي تفصل وتدبر فيها أمور الخلق، والتي اختارها الله لإنزال خاتمة الكتب السماوية على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ.

* ثم تحدثت عن موقف المشركين من هذا القرآن العظيم، وأنهم في شك وارتياب من أمره، مع وضوح آياته، وسطوع براهينه، وأنذرتهم بالعذاب الشديد.

* ثم تحدثت عن قوم فرعون، وما حل بهم من العذاب والنكال نتيجة الطغيان والإجرام، وعن الآثار التي تركوها بعد هلاكهم، من قصور ودور، وحدائق وبساتين، وأنهار وعيون، وعن ميراث بني إسرائيل لهم، ثم ما حدث لهم من تشرد وضياح بسبب عصيانهم لأوامر الله. * وتناولت السورة الكريمة مشركي قريش، وإنكارهم للبعث والنشور، واستبعادهم للحياة مرة أخرى ولذلك كذبوا الرسل، وبينت أن هؤلاء المكذبين ليسوا بأكرم على الله ممن سبقهم من الأمم الطاغية، وأن سنة الله لا تتخلف في إهلاك الطغاة المجرمين.

(١) (ش): من أشراط الساعة أن يُرفع القرآن من الصدور والمصاحف فلا يبقى منه آية لا في الصدور ولا في المصاحف، فعن رُبَيْعِ بْنِ جَرَّاشٍ عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «يَذْرُسُ الْإِسْلَامُ كَمَا يَذْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ، حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ، وَلَا صَلَاةٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ، وَكَيْسَرَى عَلَى كِتَابِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي لَيْلَةٍ، فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ، يَقُولُونَ: «أَذْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَنَحْنُ نَقُولُهَا»، فَقَالَ لَهُ صَلَ: «مَا تُغْنِي عَنْهُمْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، وَهُمْ لَا يَذْرُونَ مَا صَلَاةٌ، وَلَا صِيَامٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ؟»، فَأَعْرَضَ عَنْهُ حُذَيْفَةُ، ثُمَّ رَدَّهَا عَلَيْهِ ثَلَاثًا، كُلَّ ذَلِكَ يُعْرِضُ عَنْهُ حُذَيْفَةُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ فِي الثَّالِثَةِ، فَقَالَ: «يَا صَلَ، تُنْجِيهِمْ مِنَ النَّارِ» ثَلَاثًا. (رواه ابن ماجه، والحاكم في المستدرک، وصححه الحاكم، والذهبي، وابن تيمية، وابن حجر العسقلاني، والألباني). (يَذْرُسُ) دَرَسَ الرَّسْمُ: عفا وهلك، دَرَسَ الثَّوْبُ: صار عتيقاً. والمعنى: يُمَحَى قَلِيلًا قَلِيلًا، أَي يَذْهَبُ نَسْجُهُ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى يُمَحَى. (وَشْيُ الثَّوْبِ): نَقْشُهُ. (حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ، وَلَا صَلَاةٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ) أَي يَأْتِي قَوْمٌ لَا يَذْرُونَ عَنْ هَذِهِ الْأُمُورِ وَعَنْ هَذِهِ الْأَحْكَامِ شَيْئًا، (وَكَيْسَرَى عَلَى كِتَابِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي لَيْلَةٍ، فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ) فَيُرْفَعُ الْقُرْآنُ مِنَ الْمَصَاحِفِ وَمِنَ الْصُدُورِ.

* وختمت السورة الكريمة ببيان مصير الأبرار ومصير الفجار، بطريق الجمع بين الترغيب والترهيب، والتبشير والإنذار.

* **التسمية:** سميت «سورة الدخان» لأن الله تعالى جعله آيةً لتخويف الكفار، حيث أصيبوا بالقحط والمجاعة بسبب تكذيبهم للرسول ﷺ وبعث الله عليهم الدخان حتى كادوا يهلكون، ثم نجاههم بعد ذلك ببركة دعاء النبي ﷺ.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمِّ ١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ٤) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ٥) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٦) رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ٧) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ٨) بَلْ هُمْ فِي سَكِّ يَلْعَبُونَ ٩) فَأَرْقَبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ١٢) أَتَى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ١٤) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ ١٦) وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٨) وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَنِ مُّبِينٍ ١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ٢٠) وَإِنْ لَرُّؤُسُؤُنَا لِفَاعْلُولُونَ ٢١) فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَتُولَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبَعُونَ ٢٣) وَاتْرِكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ٢٦) وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ ٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ

اللغة: ﴿يُفْرَقُ﴾ يُبَيِّنُ وَيُفْصِّلُ ﴿فَأَرْقَبْ﴾ انتظر ﴿يَغْشَى﴾ يغطي ويحيط ﴿نَبْطِشُ﴾ نأخذ بشدة وعنف ﴿فَتَنَّا﴾ ابتلينا وامتحنا ﴿تَعْلُوا﴾ تتكبروا وتتطاولوا ﴿عُذْتُ﴾ استجرت والتجأت إلى الله ﴿فَأَسْرِ﴾ سر ليلاً ﴿رَهْوًا﴾ ساكنًا، والرهو عند العرب الساكن قال الشاعر:
وَالْخَيْلُ تَمَزَعُ رَهْوًا فِي أَعْيَتِهَا
كَالطَّيْرِ تَنْجُو مِنَ الشُّؤْبِ ذِي الْبَرَدِ^(١)

قال الجوهري: رها البحر أي سكن، وجاءت الخيل رهوًا أي برفق وسكينة ﴿مُنْظَرِينَ﴾ مؤخرين ﴿وَنَعْمَةً﴾ النعمة بفتح النون من التنعيم وهو سعة العيش والراحة، وبالكسر من المنة وهي العطية والإفضال.

(١) البيت للنابغة الذبياني كذا في «القرطبي» ١٦/ ١٣٧، ومعنى الشؤبوب: السحاب العظيم القطر. (ش): تَمَزَعُ: تمرُّ مرًّا سريعًا. عنان: سَيْرُ اللِّجَامِ الَّذِي يُمَسَّكُ بِهِ الْفَرَسُ وَنَحْوُهُ كَيْ يُتَحَكَّمُ فِي سِيرِهِ. والجمع أَعْنَةٌ. والبرَد: ماء جامد ينزل من السحاب قطعًا صغيرة شبه شفاقة، ويُسمى حَبَّ الغمام وَحَبَّ الْمَزْنِ. والفَطَرُ: المطر.

سَبَبُ النَّزُولِ: عن ابن مسعود قال: إن قريشاً لما استعصت على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهية الدخان من الجهد، فأنزل الله تعالى ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ فأتى رسول الله ﷺ فقيل: يا رسول الله (استسقى لمضر فإنها قد هلكت، فاستسقى فُسِقُوا فنزلت ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾^(١).

التفسير: ﴿حَم﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن وقد تقدم^(٢) ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي أقسم بالقرآن البين الواضح، الفارق بين طريق الهدى والضلال، البين في إعجازه، الواضح في أحكامه، وجوابه ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ﴾ أي أنزلنا القرآن في ليلة فاضلة كريمة هي ليلة القدر من شهر رمضان المبارك ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥] قال ابن جزي: وكيفيته إنزاله فيها أنه أنزل إلى السماء الدنيا جملة واحدة، ثم نزل به جبريل على النبي ﷺ شيئاً بعد شيء^(٣)، وقيل: المعنى: ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر، قال القرطبي: ووصف الليلة بالبركة لما ينزل الله فيها على عباده من البركات والخيرات والثواب^(٤) ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ أي لننذر به الخلق، لأن من شأننا وعادتنا ألا نترك الناس دون إنذار وتحذير من العقاب، لتقوم الحجة عليهم ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي في ليلة القدر يفصل ويبين كل أمر محكم من أرزاق العباد وأجالهم وسائر أحوالهم فلا يبدل ولا يعير قال ابن عباس:

(١) الحديث أخرجه البخاري عن عبد الله بن مسعود. رَوَاهُ قَالَ: إِنَّ قُرَيْشًا أَبْطَأُوا عَنِ الْإِسْلَامِ فَدَعَا عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَيْهِمْ بِسَنَعِ يُوسُفَ»، فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ (وفي رواية: قَحْطٌ وَجَهْدٌ) حَصَّتْ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى هَلَكُوا فِيهَا، وَأَكَلُوا الْمَيْتَةَ وَالْجَيْفَ، وَالْجُلُودَ وَالْعِظَامَ، وَيَرَى الرَّجُلُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ مِنَ الْجَهْدِ وَالْجُوعِ. فِجَاءَهُ أَبُو سُفْيَانٍ، فَقَالَ: «يَا مُحَمَّدُ! إِنَّكَ تَأْمُرُ بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَبِصَلَةِ الرَّجَمِ، وَإِنْ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا؛ فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُمْ، فَدَعَا، ثُمَّ قَالَ: «تَعُودُونَ بَعْدَ هَذَا»، فَقَرَأَ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ (١) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ»، فَدَعَوْا: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ (٢) أَتَى هُمُ الذِّكْرُ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِثْنُكُم مَّجْنُونٌ (٤) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ». فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْتَسْقِ اللَّهَ لِمُضَرَ؛ فَإِنَّهَا قَدْ هَلَكَتْ». قَالَ: «لِمُضَرَ؟! إِنَّكَ لَجَرِيءٌ!». فَاسْتَسْقَى، فَسُقُوا الْغَيْثَ وَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمْ سَبْعًا، وَشَكَ النَّاسُ كَثْرَةَ الْمَطَرِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾، فَكَشَفَ عَنْهُمْ فَعَادُوا إِلَى كُفْرِهِمْ، فَانْتَقَمَ اللَّهُ مِنْهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ. (وفي رواية: فَمَطَرُوا فَلَمَّا أَصَابَتْهُمْ الرَّفَاهِيَّةُ عَادُوا إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ فَآخَذَهُمُ اللَّهُ يَوْمَ بَدْرٍ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). (بِسَبْعٍ كَسَبَعِ يُوسُفَ): أَيِّ بَسْعٍ سَنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ فِي الْقَحْطِ وَالْمِحْنَةِ وَالْبَلَاءِ. (السَّنَةُ)، هِيَ الْقَحْطُ وَالْجَذْبُ. (حَصَّتْ): اسْتَأْصَلَتْ.

(٢) انظر تفصيل الموضوع في أول سورة البقرة.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٤٣.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٢٦.

يحكم الله أمر الدنيا إلى السنة القابلة ما كان من حياة، أو موت، أو رزق قال المفسرون: إن الله تعالى ينسخ من اللوح المحفوظ في ليلة القدر، ما يكون في تلك السنة من أرزاق العباد وأجالهم وجميع أمورهم من خير وشر، وصالح وطالح، حتى إن الرجل ليمشي في الأسواق وينكح ويولد له وقد وقع اسمه في الموتى^(١) ﴿أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا﴾ أي جميع ما نقدره في تلك الليلة وما نوحى به إلى الملائكة من شئون العباد، هو أمرٌ حاصل من جهتنا، بعلمنا وتديرنا ﴿مُرْسِلِينَ﴾ أي نرسل الأنبياء إلى البشر بالشرائع الإلهية لهدايتهم وإرشادهم ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي من أجل الرأفة والرحمة بالعباد قال في البحر: وضع الظاهر ﴿رَبِّكَ﴾ موضع الضمير «رحمة منا» إيذاناً بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين^(٢) ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوال العباد، العليم بأفعالهم وأحوالهم ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ مُّوقِنِينَ﴾ أي الذي أنزل القرآن هو ربُّ السموات والأرض وخالقهما ومالكهما ومن فيهما، إن كنتم من أهل الإيمان واليقين ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي لا ربَّ غيره، ولا معبود سواه، لأنه المتصف بصفات الجلال والكمال، يحيي الأموات، ويميت الأحياء ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾ أي هو خالقكم وخالق من سبقكم من الأمم الماضين قال الرازي: والمقصود من الآية أن المنزل إذا كان موصوفاً بهذه الجلالة والكبرياء، كان المنزل الذي هو القرآن في غاية الشرف والرفعة^(٣) ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ أي ليسوا موقنين فيما يظهره من الإيمان في قولهم: الله خالقنا^(٤)، بل هم في شكٍّ من أمر البعث، فهم يلعبون ويسخرون ويهزءون قال شيخ زاده: التفت من الخطاب للغبية فقال ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ تحقيراً لشأنهم، وإبعاداً لهم عن موقف الخطاب، لكونهم من أهل الشك والامتراء، وكون أفعالهم الهزل واللعب لعدم التفاتهم إلى البراهين القاطعة، وعدم تمييزهم بين الحق والباطل، والضار والنافع^(٥)، ثم لما بين أن شأنهم الحماقه والطغيان التفت إلى حبيبهِ ﷺ تسلياً له، وإقناباً من إيمانهم فقال ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي فانظر يا محمد عذابهم يوم تأتي

(١) «حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٣١٠.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٣٣.

(٣) «التفسير الكبير».

(٤) (ش): ليس الإيمان مجرد الاعتراف بأن الله هو الخالق، فالإيمان هو: «الاعتراف المستلزم للقبول والإذعان» أما مجرد أن يؤمن الإنسان بالشيء بدون أن يكون لديه قبول وإذعان، فهذا ليس بإيمان، بدليل أن المشركين مؤمنون بوجود الله ومؤمنون بأن الله هو الخالق، الرازق، المحيي، المميت، المدبر للأمر، وكذلك أيضاً فإن الواحد منهم قد يقر برسالة النبي ﷺ ولا يكون مؤمناً، فهذا أبو طالب عم النبي ﷺ كان يقرُّ بأن النبي ﷺ صادق وأن دينه حق، لكن لم ينفعه ذلك؛ لأنه لم يقبله ولم يُدعِن له فكان - والعياذ بالله - بعد شفاعة النبي ﷺ في النار مُتَّعِلاً بِنَعْلَيْنِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاعُهُ. (رواه مسلم).

(٥) «حاشية شيخ زاده على البيضاوي» ٣/ ٣١١.

السَّمَاءُ بِدُخَانٍ كَثِيفٍ، بَيِّنٌ وَاضِحٌ يَرَاهُ كُلُّ أَحَدٍ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: إِنَّ قَرِيشًا لَمَّا عَصَتْ الرَّسُولَ ﷺ دَعَا عَلَيْهِمْ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَى مُضَرٍّ، وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ» فَأَصَابَهُمُ الْجَهْدُ حَتَّى أَكَلُوا الْحَبَّ وَالزُّرْءَ، وَكَانَ الرَّجُلُ يُحَدِّثُ أَخَاهُ فَيَسْمَعُ صَوْتَهُ وَلَا يَرَاهُ لِشِدَّةِ الدُّخَانِ الْمُنْتَشِرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «خَمْسُ قَدَمَاتٍ الدُّخَانُ وَالزُّرْءُ وَالرُّومُ وَالْبَطْشَةُ وَالْقَمَرُ»^(١) وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمْ يَمُضِ الدُّخَانُ بَلْ هُوَ مِنْ أَمَارَاتِ السَّاعَةِ، وَهُوَ يَأْتِي قَبِيلَ الْقِيَامَةِ، يَصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْهُ مِثْلُ الزَّكَامِ، وَيُنْضِجُ رِءُوسَ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، حَتَّى يَصْبَحَ رَأْسُ الْوَاحِدِ كَالرَّأْسِ الْمَشْوِيِّ، وَيَغْدُو كَالسَّكْرَانِ فَيَمْلَأُ الدُّخَانُ جَوْفَهُ وَيُخْرِجُ مِنْ مَنْخَرِهِ وَأُذُنِيهِ وَدَبْرَهُ^(٢) ﴿يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَيِ يَشْمَلُ كَفَارَ قَرِيشٍ وَيَعْمَهُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَيَقُولُونَ حِينَ يَصِيبُهُمُ الدُّخَانُ: هَذَا عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أَيِ وَيَقُولُونَ مُسْتَغِيثِينَ: رَبَّنَا ارْفَعْ عَنَّا الْعَذَابَ فَإِنَّا مُؤْمِنُونَ بِمُحَمَّدٍ وَبِالْقُرْآنِ إِنْ كَشَفْتَهُ عَنَّا قَالَ الْبَيْضَاوِيُّ: وَهَذَا وَعْدٌ بِالْإِيمَانِ إِنْ كَشَفَ الْعَذَابَ عَنْهُمْ^(٣) ﴿أَفَنُكْرِيهِمْ أَمْ أَفَنُكْرِيهِمْ؟﴾ اسْتِبْعَادًا لِإِيمَانِهِمْ أَيِ مَنْ أَيْنَ يَتَذَكَّرُونَ وَيَتَعَذَّبُونَ عِنْدَ كَشْفِ الْعَذَابِ؟ ﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ أَيِ وَالْحَالُ أَنَّهُ قَدْ أَتَاهُمْ رَسُولٌ بَيِّنُ الرِّسَالَةِ، مُؤَيَّدٌ بِالْبَيِّنَاتِ الْبَاهِرَةِ، وَالْمُعْجَزَاتِ الْقَاهِرَةِ، وَمَعَ هَذَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَلَمْ يَتَعَبَوْهُ؟ ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ أَيِ ثُمَّ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَهَيَّئُوا لَهُ وَنَسَبُوهُ إِلَى الْجُنُونِ وَحَاشَاهُ فَهَلْ يُتَوَقَّعُ مِنْ قَوْمِ هَذِهِ صِفَاتِهِمْ أَنْ يَتَأَثَّرُوا بِالْعِظَةِ وَالتَّذْكِيرِ؟! قَالَ الْإِمَامُ الْفَخْرُ: إِنْ كَفَرَ مَكَّةَ كَانَ لَهُمْ فِي ظُهُورِ الْقُرْآنِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ قَوْلَانِ: مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إِنْ مُحَمَّدًا يَتَعَلَّمُ هَذَا الْكَلَامَ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَقُولُ: إِنَّهُ مَجْنُونٌ وَالْجَنُّ تَلْقَى عَلَيْهِ

(١) «البحر المحيط» ٣٤٤/٨. (ش): راجع سبب النزول السابق، وكلام عبد الله بن مسعود رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَالْمُرَادُ بِالزُّرْءِ: قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى «فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا» أَيِ يَكُونُ عَذَابُهُمْ لَازِمًا، وَهُوَ مَا جَرَى عَلَيْهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ مِنَ الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَهِيَ الْبَطْشَةُ الْكُبْرَى. فَالْبَطْشَةُ يَوْمَ بَدْرٍ، وَقَدْ مَضَتْ آيَةُ الدُّخَانِ، وَالْبَطْشَةُ وَالزُّرْءُ، وَآيَةُ الرُّومِ. فَعَبَدَ اللَّهُ بَنَ مَسْعُودٍ رَوَاهُ مُسْلِمٌ كَانَ يَرَى أَنَّ هَذِهِ خَمْسُ آيَاتٍ مَضَتْ، يَعْنِي: حَصَلَتْ وَانْتَهَتْ، فَالدُّخَانُ حَصَلَ وَأَنَّ آيَاتِهَا الَّتِي مِنْ سُورَةِ الدُّخَانِ ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾^(١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿الدُّخَانُ: ١٠ - ١١﴾ فَيَقُولُ: إِنْ الدُّخَانُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، هُوَ الَّذِي حَصَلَ لِقَرِيشٍ لَمَّا أَعْرَضُوا عَنِ الْإِسْلَامِ، صَارَ أَحَدُهُمْ إِذَا رَفَعَ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ يَرَى كَأَنَّ هُنَاكَ دُخَانًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّمَاءِ، بِسَبَبِ الْجَهْدِ وَالْجُوعِ. وَالزُّرْءُ الَّذِي هُوَ الْعَذَابُ الَّذِي لَزِمَهُمْ حَصَلَ لَهُمْ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَكَذَلِكَ الْبَطْشَةُ وَآيَةُ الرُّومِ، وَالْقَمَرُ يَعْنِي انْشِقَاقَ الْقَمَرِ الَّذِي حَصَلَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، فَانْشَقَّ الْقَمَرُ فَرَقَتَيْنِ، وَانْشَقَّ الْقَمَرُ مِنْ عِلَامَاتِ السَّاعَةِ الَّتِي مَضَتْ. وَآيَةُ الرُّومِ أَيِ: الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ الرُّومِ، وَأَنَّهَا مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ.

(٢) قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ هُوَ الْأَظْهَرُ وَقَدْ اخْتَارَهُ «أَبُو السَّعُودِ». وَقَالَ: هُوَ الَّذِي يَسْتَدْعِيهِ مَسَاقُ النِّظْمِ الْكَرِيمِ، وَذَكَرَ ابْنُ كَثِيرٍ الرَّأْيَيْنِ ثُمَّ رَجَحَ رَأْيَ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَقَالَ: إِنَّ مَا أَوْرَدَهُ فِيهِ مَقْنَعٌ وَدَلَالَةٌ ظَاهِرَةٌ عَلَى أَنَّ الدُّخَانَ مِنْ آيَاتِ الْمُنْتَظَرَةِ مَعَ أَنَّهُ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ. اهـ. «ابن كثير» ٣٠٠/٣.

(٣) «تفسير البيضاوي» ٣١٢/٣.

هذا الكلام حال تخبطه ^(١) ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ أي سنكشف عنكم العذاب زمنًا قليلًا ثم تعودون إلى ما كنتم عليه من الشرك والعصيان قال الرازي: والمقصودُ التنبيه على أنهم لا يوفون بعهدهم، وأنهم في حال العجز يتضرعون إلى الله تعالى، فإذا زال الخوف عادوا إلى الكفر وتقليد الأسلاف ^(٢) قال ابن مسعود: لما كشف عنهم العذاب باستسقاء النبي ﷺ عادوا إلى تكذيبه ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ نَبْطِشُ، أي: واذكر يوم نبطش بالكفار بطشتنا الكبرى انتقامًا منهم، والبطش: الأخذ بقوة وشدة قال ابن مسعود: «البطشة الكبرى» يوم «بدر» وقال ابن عباس: هي يوم القيامة. قال ابن كثير: الظاهر أن ذلك يوم القيامة، وإن كان يوم بدر يومَ بطشةٍ أيضًا ^(٣) وقال الرازي: القول الثاني أصح لأن يوم بدر لا يبلغ هذا المبلغ الذي يوصف به هذا الوصف العظيم، ولأن الانتقام التام إنما يحصل يوم القيامة، ولما وصف بكونها «كبرى» وجب أن تكون أعظم أنواع البطش على الإطلاق، وذلك إنما يكون في القيامة ^(٤)، ثم ذكر كفار قريش بما حلَّ بالطاغين من قوم فرعون فقال ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ أي ولقد اختبرنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون وهم أقباط مصر ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ أي وجاءهم رسول شريف الحسب والنسب، من أكرم عباد الله وهو موسى الكليم عليه أفضل الصلاة والتسليم ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ أي فقال لهم موسى: ادفعوا إليَّ عباد الله وأطلقوهم من العذاب، يريد بني إسرائيل ^(٥) كقوله تعالى ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَحْذَرِهِمْ﴾ [طه: ٤٧] ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي إني رسول مؤتمن على الوحي غير مُتهم، وأنا لكم ناصح فاقبلوا نصحي ﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي لا تتكبروا على الله ولا تترفعوا عن طاعته ﴿إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَنِ مُبِينٍ﴾ أي قد جئتكم بحجة واضحة، وبرهان ساطع، يعترف بهما كل عاقل ﴿وَإِنِّي عَذْتُ رَبِّي وَرَبَّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ أي التجأت إليه تعالى واستجرت به من أن تقتلوني قال القرطبي: كأنهم توعدوه بالقتل فاستجار بالله ^(٦) ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا إِلَيَّ فَأَعَزُّ لُونِي﴾ أي وإن لم تصدقوني ولم تؤمنوا بالله لأجل ما أتيتكم به من الحجة، فكفوا عن أذاي وحلوا سبيلي قال ابن كثير: أي لا تتعرضوا لي ودعوا الأمر مسالمةً إلى أن يقضي الله بيننا ^(٧) ﴿فَدَعَارِبُهُمْ أَنْ هَتُّوْا قَوْمَ ثَجَرِمْ﴾ أي فدعا عليهم لما كذبوه قائلًا: يا رب إن هؤلاء قوم مجرمون فانتقم منهم ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾

(١) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧/ ٢٤٤.

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٠٢.

(٤) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٢٤٤.

(٥) هذا قول مجاهد واختاره في «التسهيل»، وروي عن ابن عباس أن معناه: أن أدوا إلى الطاعة والإيمان يا عباد الله

(٦) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٣٥.

(٧) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٠٢.

في الكلام حذف تقديره فأوحينا إليه وقلنا له: أسرِ بعبادي، أي: اخرج ببني إسرائيل ليلاً فإن فرعون وقومه يتبعونكم، ويكون ذلك سبباً لهلاكهم ﴿وَأَتْرُكُ الْبَحْرَ رَهَوًا﴾ أي واترك البحر ساكناً منفرجاً على هيئته بعد أن تجاوزه ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ أي إن فرعون وقومه سيغرقون فيه قال في التسهيل: لما جاوز موسى البحر أراد أن يضربه بعصاه فينطبق كما ضربه فانفلق، فأمره الله بأن يتركه ساكناً كما هو ليدخله فرعون وقومه فيغرقوا فيه^(١)، وإنما أخبره تعالى بذلك ليبقى فارغ القلب من شرهم وإيذائهم، مطمئناً إلى أنهم لن يدركوا بني إسرائيل، ثم أخبر تعالى عن هلاكهم فقال ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ كم للتكثير، أي: لقد تركوا كثيراً من البساتين والحدائق الغناء والأنهار والعيون الجارية ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ أي ومزارع عديدة فيها أنواع المزروعات ومجالس ومنازل حسنة قال قتادة: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ هي المواضع الحسان من المجالس والمساكن وغيرها^(٢) ﴿وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَكَهِينَ﴾ أي وتنعم بالعيش مع الحسن والنضارة كانوا فيها ناعمين بالرفاهية وكمال السرور قال الإمام الفخر: بين تعالى أنهم بعد غرقهم تركوا هذه الأشياء الخمسة وهي: الجنات، والعيون، والزروع، والمقام الكريم - وهو المجالس - والمنازل الحسنة، ونعمة العيش بفتح النون هي حسنة ونضارته^(٣) ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أي كذلك فعلنا بهم حيث أهلكناهم وأورثنا ملكهم وديارهم لقوم آخرين، كانوا مُستعبدين في يد القبط وهم بنو إسرائيل قال ابن كثير: والمراد بهم بنو إسرائيل فقد استولوا بعد غرق فرعون وقومه على الممالك القبطية، والبلاد المصرية كما قال تعالى ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧] وقال تعالى في مكان آخر ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩]^(٤) ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ أي فما حزن على فقدهم أحدٌ، ولا تأثر بموتهم كائن من الخلق ﴿وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ أي ما كانوا مؤخرين وممهّلين إلى وقت آخر. بل عجل عقابهم في الدنيا قال القرطبي: تقول العرب عند موت السيد منهم: بكت له السماء والأرض، أي عمّت مصيبتُهُ الأشياء حتى بكته الأرض والسماء، والريح والبرق قال الشاعر:

فَيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَا لَكَ مُورِقًا كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ لِمَوْتِ طَرِيفٍ^(٥)

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغة في وجوب الجزع والبكاء عليه. والمعنى: أنهم هلكوا فلم تعظم مصيبتهم ولم يوجد لهم فقد، وقيل: هو على حذف مضاف أي ما بكى

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٣٥ / ٤.

(٢) «البحر المحيط» ٣٦ / ٨.

(٣) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧ / ٢٤٦.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣ / ٣٠٣.

(٥) (ش): البيت لامرأة ترثي أخاها.

عليهم أهل السماء وأهل الأرض^(١).

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ جَعَلْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينَ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَأَعْلَنَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِن هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَتَوْا بِآبَائِنَا كُتُمَ صَدِيقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهْمٌ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يَغْنِي مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ سَجْرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلِي الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خَذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنَ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ الْمَتَفِينَ فِي مَقَامِ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَنَكْهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضَلَّ مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَأَنَّمَا يُسْرِتُهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ

المناسبة: لما ذكر تعالى إهلاك فرعون وقومه، أردفه بذكر إحسانه لبني إسرائيل، ليشكروا ربهم على إنعامه وإحسانه، ثم حذر كفار مكة من بطش الله وانتقامه، وختم السورة الكريمة ببيان حال الأشقياء والسعداء في يوم الفصل والجزاء.

اللغة: ﴿عَالِيًّا﴾ متكبراً جباراً ﴿بَلَكُوا﴾ اختبار وامتحان ﴿بِمُنْشَرِينَ﴾ مبعوثين بعد الموت، وأنشر الله الموتى أحياءهم ﴿قَوْمٌ تُبِعَ﴾ ملوك اليمن، وكانوا يسمون ملوكهم التبايعه قال الجوهرى: التبايعه ملوك اليمن، واحدهم تُبِعَ^(٢)، وقال أهل اللغة: تُبِعَ لقب للملك منهم كالقيصرة للروم، والأكاسرة للفرس، والخلفاء للمسلمين^(٣) ﴿يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ يوم القيامة ﴿مَوْلَى﴾ قريب وناصر ﴿كَالْمُهْلِ﴾ النحاس المذاب ﴿الْأَثِيمِ﴾ الفاجر من أثم الرجل يأثم إذا وقع في الإثم والفجور ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ جرّوه وسوقوه بعنفٍ وشدة ﴿سُنْدُسٍ﴾ رقيق الديباج ﴿إِسْتَبْرَقٍ﴾ غليظ الديباج^(٤) ﴿عِينٍ﴾ واسعات الأعين جمع عيناء ﴿فَأَرْتَقِبْ﴾ انتظر.

(١) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٣٩. (ش): هذا التعبير لا يتناسب مع كلام الله عز وجل، وهو خلاف ما يدل عليه من بكائهما حقيقة، والأصل حملُ كلام الله على الحقيقة، فلهما بكاء حقيقي يناسبهما.

(٢) «الصحيح» للجوهرى مادة تبع.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٤٤.

(٤) (ش): الدِّيَّاج: الحرير.

التفسير: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا نَبِيَّ إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ أي والله لقد أنقذنا بني إسرائيل من العذاب الشديد، المفرط في الإذلال والإهانة، وهو قتل أبنائهم واستخدام نسائهم، وإرهاقهم في الأعمال الشاقة ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي من طغيان فرعون وجبروته إنه كان متكبراً جباراً، متجاوزاً الحد في الطغيان والإجرام قال الصاوي: هذه من جملة تعداد النعم على بني إسرائيل، والمقصود من ذلك تسليته ﷺ وتبشير به بأنه سينجيهم وقومه المؤمنين من أيدي المشركين، فإنهم لم يبلغوا في التجبر مثل فرعون وقومه ^(١) ﴿وَلَقَدْ أَخَذَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي اصطفيانهم وشرفناهم على علم منا باستحقاقهم لذلك الشرف على جميع الناس في زمانهم قال قتادة: على أهل زمانهم، لا على أمة محمد لقوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] ﴿وَأَتَيْنَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ﴾ أي وآتيناهم من الحجج والبراهين وخوارق العادات ما فيه اختبار وامتحان ظاهرٌ جلِّي لمن تدبَّر وتبصَّر قال الرازي: والآيات مثل فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى وغيرها من الآيات الباهرة، التي ما أظهر الله مثلها على أحد سواهم ^(٢) ﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ﴾ أي إن كفار قريش ليقولون: لن نموت إلا موتة واحدة وهي موتتنا الأولى في الدنيا، وفي قوله تعالى ﴿هَؤُلَاءَ﴾ تحقيرٌ لهم وازدراءٌ بهم قال المفسرون: لَمَّا كان الحديث في أول السورة عن كفار مكة، وجاءت قصة فرعون وقومه مسوقة للدلالة على أنهم مثلهم في الإصرار على الضلالة والكفر، رجع إلى الحديث عن كفار قريش، والغرض من قولهم ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ﴾ إنكار البعث كأنهم قالوا: إذا متنا فلا بعث ولا حياة ولا نشور، ثم صرحوا بذلك بقولهم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنتَصِرِينَ﴾ أي وما نحن بمبعوثين ﴿فَأَتَوْا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ خطابٌ للرسول ﷺ والمؤمنين على وجه التعجيز، أي: أحيوا لنا آباءنا ليخبرونا بصدقكم إن كنتم صادقين في أن هناك حياة بعد هذه الحياة قال الإمام الفخر: إن الكفار احتجوا على نفي الحشر والنشر بأن قالوا: إن كان البعث والنشور ممكناً معقولاً فعجلوا لنا إحياء من مات من آبائنا ليصير ذلك دليلاً عندنا على صدق دعواكم في البعث يوم القيامة ^(٣) وقال القرطبي: قال هذا أبو جهل، قال: يا محمد، إن كنت صادقاً في قولك فابعث لنا رجلين من آبائنا أحدهما: قُصَيِّ بن كلاب فإنه كان رجلاً صادقاً، لنسأله عما يكون بعد الموت ^(٤) ﴿أَهْمُ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَيْعٍ﴾ استفهام إنكار مع التهديد، أي: أهؤلاء المشركون أقوى وأشدُّ أم أهل سبأ ملوك اليمن؟ الذين كانوا أكثر أموالاً، وأعظم نعيماً من كفار مكة؟ ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ أي والذين

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤٨ / ٦٠.

(٢) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧ / ٢٤٨.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٧ / ٢٤٩.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٦ / ١٤٤.

سبقوهم من الأمم العاتية أهلكناهم، وخربنا بلادهم، وفرقناهم شذر مذر^(١) قال أبو السعود: والمراد بهم عاد وثمود وأضرابهم من كل جبار عنيد، أولي بأسٍ شديد، فأولئك كانوا أقوى من هؤلاء، وقد أهلكهم الله مع ما كانوا عليه من غاية القوة والشدة، فإهلاك هؤلاء أولى^(٢) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُجْرِمُونَ﴾ تعليل للإهلاك أي أهلكناهم ودمرناهم بسبب إجرامهم، وفيه وعيد وتهديد لقريش أن يفعل الله بهم ما فعل بقوم تبع والمكذبيين.

ثم نبه تعالى إلى دلائل البعث وهو خلق العالم بالحق فقال ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَْعِينٍ﴾ أي ما خلقنا هذا الكون وما فيه من المخلوقات البديعة لعباً وعبثاً ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات إلا بالعدل والحق المبين، لنجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك فينكرون البعث والجزاء قال المفسرون: إن الله تعالى خلق النوع الإنساني، وخلق ما ينتظم به أسباب معاشهم، من السقف المرفوع، والمهاد المفروش، وما بينهما من عجائب المصنوعات، وبدائع المخلوقات، ثم كلّفهم بالإيمان والطاعة، فأمن البعض وكفر البعض، فلا بدّ إذاً من دار جزاء يثاب فيها المحسن، ويعاقب فيها المسيء، لتجزي كل نفس بما كسبت، ولو لم يحصل البعث والجزاء لكان هذا الخلق لهواً وعبثاً، وتنزه الله عن ذلك، ولهذا قال بعده: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي إن يوم القيامة موعد حساب الخلائق أجمعين، سمي ﴿يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ لأن الله تعالى يفصل فيه بين الخلق كما قال ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [المتحنة: ٣] ﴿يَوْمَ لَا يَغْنَى مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب، لا يدفع قريب عن قريبه، ولا صديق عن صديقه، ولا ينفع أحدٌ أحداً ولا ينصره ولو كان قريبه قنوله ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقْوَارِبَكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدُ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً﴾ [لقمان: ٣٣] ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ استثناء متصل أي لا يغني قريب عن قريب إلا المؤمنين فإنه يؤذن لهم في شفاعة بعضهم لبعض^(٣) وقيل: منقطع أي لكن من رَحِمَهُ اللَّهُ فإنه يشفع وينفع قال ابن عباس: يريد المؤمن فإنه تشفع له الأنبياء والملائكة^(٤) ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي هو المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه.. ولما ذكر الأدلة على القيامة، أوردته بوصف ذلك اليوم العصيب، فذكر وعيد الكفار أولاً ثم وعد الأبرار ثانياً للجمع بين الترهيب والترغيب فقال ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامٌ لِلْآثِمِينَ﴾ أي إن هذه الشجرة

(١) (ش): شَذَرَ مَذَرَ: تركبٌ يفيد التفرق والتشتت، وَلَا يُقَالُ ذَلِكَ فِي الْإِقْبَالِ. تَفَرَّقُوا شَذَرَ مَذَرَ: ذهبوا مذاهب شتى مختلفين، ذهبوا في كل اتجاه.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٥٥.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٣٩.

(٤) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٢٥١.

الخيثة شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم، طعام كل فاجر، ليس له طعام غيرها قال أبو حيان: الأثيم صفة مبالغة وهو الكثير الآثام، وفُسِّرَ بالمشرك^(١) ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ أي هي في شناعتها وفظاعتها إذا أكلها الإنسان كالنحاس المذاب الذي تنهى حره، فهو يُجر جر في البطن ﴿كَغَلِي الْحَمِيمِ﴾ أي كغليان الماء الشديد الحرارة قال القرطبي: وشجرة الزقوم هي الشجرة التي خلقها الله في جهنم، وسمّاها الشجرة الملعونة، فإذا جاع أهل النار التجئوا إليها فأكلوا منها، فغلبت في بطونهم كما يغلي الماء الحار، وشبه تعالى ما يصير منها إلى بطونهم بالْمُهْل وهو النحاس المذاب، والمراد بالأثيم الفاجر ذو الإثم وهو أبو جهل، وذلك أنه كان يقول: يعدنا محمد أن في جهنم الزقوم، وإنما هو الشريد بالزبد والتمر^(٢)، ثم يأتي بالزبد والتمر ويقول لأصحابه: ترقموا، سخرية واستهزاء بكلام الله، قال تعالى ﴿خُذُوهُ فَأَعْتُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أي يُقال للزبانية: خذوا هذا الفاجر اللئيم فسوقوه وجُروه من تلايبه^(٣) بعنف وشدة إلى وسط الجحيم ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ أي ثم صبوا فوق رأس هذا الفاجر عذاب ذلك الحميم الذي تنهى حره ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أي يقال له على سبيل الاستهزاء والإهانة: ذُقْ هذا العذاب فإنك أنت المعزز المكرم قال عكرمة: التقى النبي ﷺ بأبي جهل فقال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقُولَ لَكَ ﴿أَوَلَيْكَ فَأُولَى﴾» [القيامة: ٣٤] فقال: بأي شيء تهددني! والله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعل بي شيئاً، إني لمن أعز هذا الوادي وأكرمه على قومه، فقتله الله يوم بدر وأذله ونزلت هذه الآية^(٤) ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ أي إِنَّ هَذَا الْعَذَابُ هُوَ مَا كُنْتُمْ تَشْكُونَ به في الدنيا، فذوقوه اليوم ﴿أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥] والجمع في الآية باعتبار المعنى لأن المراد جنس الأثيم.. ولما ذكر تعالى أحوال أهل النار أتبعه بذكر أحوال أهل الجنة فقال ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ أي الذين اتقوا الله في الدنيا بامتنال أوامره واجتناب نواهيه، هم اليوم في موضع إقامة يأمنون فيه من الآفات والمنغصات والمكارة، وهو الجنة ولهذا قال بعده ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي في حدائق وبساتين ناضرة، وعيونٍ جارية ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ أي يلبسون ثياب الحرير، الرقيق منه وهو السندس، والسميك منه وهو الإسترقي ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ أي متقابلين في المجالس ليستأنس بعضهم ببعض ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي كذلك أكرمناهم بأنواع الإكرام، وزوجناهم أيضاً بالهور الحسان في الجنان قال البيضاوي: أي قرناهم بالهور

(١) «البحر المحيط» ٣٩ / ٨.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٦ / ١٤٩.

(٣) (ش): تَلَيْبٍ: طَوْقُ الثَّوبِ والجمع تلايبٌ. أخذ بتلايبه: أمسكه من أعلى ثوبه.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٦ / ١٥١. (ش): ضعيف، أخرجه الطبري في «تفسيره»، والواحد في «أسباب النزول».

العين، والحوراء: البيضاء، والعيناء عظيمة العينين^(١)، وإنما وصف تعالى نعيمهم بذلك لأن الجنات والأنهار من أقوى أسباب نزهة الخاطر، وانفراجه عن الغم، ثم ذكر الحور الحسن لأن بها اكتمال سعادة الإنسان كما قيل: «ثلاثة تنفي عن القلب الحزن: الماء، والخضرة، والوجه الحسن» ثم زاد في بيان النعيم فقال ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ أي يطلبون من الخدم إحضار جميع أنواع الفواكه في الجنة، لأجل أنهم آمنون من التخّم والأمراض، فلا تعب في الجنة ولا وَصَب^(٢) ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ استثناء منقطع أي لا يذوقون في الجنة الموت لكنهم قد ذاقوا الموتة الأولى في الدنيا فلم يعد ثمة موت، بل خلود أبد الأبدين ﴿وَوَقَّهْمُ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي خلصهم ونجّاهم من عذاب جهنم الشديد الأليم ﴿فَضَلَّامِينَ رِيَكٍ﴾ أي فعل ذلك بهم تفضلاً منه تعالى عليهم ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي ذلك الذي أعطوه من النعيم، هو الفوز العظيم الذي لا فوز وراءه ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزِقُهُ لِسَانُكَ لَعَالَهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي فإنما سهّلنا القرآن بلغتكم وهي لسان العرب لعلهم يتعظون وينزجرون ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ أي فانتظري يا محمد ما يحل بهم، إنهم منتظرون هلاكك، وسيعلمون لمن تكون النصرة والظفر في الدنيا والآخرة، وفيه وعد للرسول ﷺ ووعد للمشاركين.

البلاغه: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - صيغة المبالغة ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾.
- ٢ - الطباق ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [الدخان: ٨] وكذلك ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾.

- ٣ - تحريك الهمة للإيمان والتبصر ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ [الدخان: ٧].
- ٤ - الإيجاز بحذف بعض الكلام ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ أي وقلنا له بأن أسر.
- ٥ - الاستعارة اللطيفة ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ [الدخان: ٢٩] أي لم يتغير بهلاكهم شيء ولم تحزن عليهم السماء والأرض بعد انقطاع آثارهم، والعرب يقولون في التعظيم: بكت عليه السماء والأرض، وأظلمت له الدنيا ويقولون في التحقير: مات فلان فلم تخشع له الجبال.
- ٦ - أسلوب التعجيز ﴿فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.
- ٧ - أسلوب التهكم والسخرية ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾.
- ٨ - التفجع وإظهار الأسى والحسرة ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾

[الدخان: ٢٥٢٦؟]

(١) تفسير البيضاوي ١٨٢/٢.

(٢) (ش): تُخَمَّة: داءٌ يصيب الإنسان من أكل الطعام الثقيل أو من كثرة الأكل أو من عُسر الهضم. والجمع تُخَمَاتٌ وتُخَمَاتٌ وتُخَمٌ. وَصَب: تعب وفقر في البدن.

- ٩ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ ٤٥ ﴿كَغَلِي الْحَمِيمِ﴾ .
- ١٠ - السجع الرصين غير المتكلف الذي يزيد في رونق الكلام وجماله اقرأ مثلاً قوله تعالى ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ﴾ ٤٣ ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ ٤٤ ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ ٤٥ ﴿كَغَلِي الْحَمِيمِ﴾ ٤٦ ﴿حُدُوهُ فَاعْتَلُوهُ﴾ ٤٧ ﴿إِنَّ سَوَاءَ الْحَمِيمِ﴾ ٤٧ ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ ٤٨ ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ .

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الدخان»





مكية إلا آية ١٤ فمدنية وآياتها ٣٧ بعد الدخان

بين يدي السورة

* سورة الجاثية مكية، وقد تناولت العقيدة الإسلامية في إطارها الواسع «الإيمان بالله تعالى ووحدانيته، الإيمان بالقرآن ونبوة محمد عليه السلام، الإيمان بالآخرة، والبعث والجزاء» ويكاد يكون المحور الذي تدور حوله السورة الكريمة هو إقامة الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين.

* تبتدئ السورة الكريمة بالحديث عن القرآن ومصدره، وهو الله العزيز في ملكه، الحكيم في خلقه، الذي أنزل كتابه المجيد رحمة بعباده، ليكون نبراساً مضيئاً ينير للبشرية طريق السعادة والخير.

* ثم ذكرت الآيات الكونية المنبثة في هذا العالم الفسيح، ففي السماوات البديعة آيات، وفي الأرض الفسيحة آيات، وفي خلق البشر وسائر الأنعام والمخلوقات آيات، وفي تعاقب الليل والنهار، وتسخير الرياح والأمطار آيات، وكلها شواهد ناطقة بعظمة الله وجلاله، وقدرته ووحدانيته، ثم تحدثت عن المجرمين المكذبين بالقرآن الذين يسمعون آياته المنيرة، فلا يزدادون إلا استكباراً وطغياناً، وأنذرتهم بالعذاب الأليم في دركات الجحيم.

* وتحدثت السورة عن نعم الله الجليلة على عباده ليشكروه، ويتفكروا في آلائه التي أسبغها عليهم، ويعلموا أن الله وحده هو مصدر هذه النعم، الظاهرة والباطنة، وأنه لا خالق ولا رازق إلا الله^(١).

* وتحدثت عن إكرام الله لبني إسرائيل بأنواع التكريم، ومقابلتهم ذلك الفضل والإحسان بالجحود والعصيان، وذكرت موقف الطغاة المجرمين من دعوة الرسل الكرام، وبينت أنه لا يتساوى في عدل الله وحكمته أن يجعل المجرمين كالمحسنين، ولا أن يجعل الأشرار

(١) (ش): المقصود من ذكر النعم الاستدلال بها على وجوب إفراز الله بالعبادة. ليس الإيمان مجرد الاعتراف بأن الله هو الخالق والرازق، فالإيمان هو: «الاعتراف المستلزم للقبول والإذعان» أما مجرد أن يؤمن الإنسان بالشيء بدون أن يكون لديه قبول وإذعان، فهذا ليس بإيمان، بدليل أن المشركين مؤمنون بوجود الله ومؤمنون بأن الله هو الخالق، الرازق، المحيي، المميت، المدبر للأمور، وكذلك أيضاً فإن الواحد منهم قد يقر برسالة النبي ﷺ، ولا يكون مؤمناً، فهذا أبو طالب عم النبي ﷺ، كان يقر بأن النبي ﷺ، صادق وأن دينه حق، لكن لم ينفعه ذلك؛ لأنه لم يقبله ولم يدع له فكان - والعياذ بالله - بعد شفاعة النبي ﷺ، في النار مُتَّعِلاً بِنَعْلَيْنِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاعُهُ. (رواه مسلم).

كالأبرار، ثم بينت سبب ضلال المشركين، وهو إجرامهم واتخاذهم الهوى إلهاً ومعبوداً حتى طمست بصيرتهم فلم يهتدوا إلى الحق أبداً.

* وختمت السورة بذكر الجزاء العادل يوم الدين، حيث تنقسم الإنسانية إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

التسمية: سميت «سورة الجاثية» للأهوال التي يلقاها الناس يوم الحساب، حيث تجثو الخلائق من الفزع على الركب في انتظار الحساب، ويغشى الناس من الأهوال ما لا يخطر على البال ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وحققاً إنه ليوم رهيب يشيب له الولدان!!

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝ تَزِيلُ الْكِتَابَ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ (٢) إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ (٤) وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ وَإِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ كَفِيرٌ ۝ (٥) تِلْكَ آيَاتُ الْقَوْمِ يَعْلَمُونَ ۝ (٦) وَلِلَّهِ أَفَّاكٌ أَثِيمٌ ۝ (٧) يَسْمَعُ آيَاتُ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةً لِّعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا حُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ (٩) مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَئِكَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ (١٠) هَذَا هَدْيٌ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝ (١١) اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِيَجْزِيَ الْفَلَكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ (١٣) قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝ (١٥) وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَوَرَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ (١٦) وَأَعَيْنَاهُمْ يَتَقَرَّبَ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا يَبِغُونَ ۝ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ۝ (١٩) هَذَا بَصِيرَتِي لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ

اللغة: ﴿يُبُثُّ﴾ ينشر ويفرق ﴿وَتَصْرِيفٌ﴾ تقليب، صرَّف الله الريح قلبها من جهة إلى جهة ﴿وَيْلٌ﴾ كلمة تستعمل في العذاب والدمار ﴿أَفَّاكٌ﴾ كذاب، والإفك: الكذب ﴿أَثِيمٌ﴾ كثير الإثم والإجرام ﴿رِجْزٍ﴾ أشد العذاب ﴿يُصِرُّ﴾ أصرَّ على الشيء: عزم على البقاء عليه بقوة وشدة ﴿يُغْنِي﴾ ينفع أو يدفع ومنه ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾ [الحاقة: ٢٨] ﴿بَصِيرَتِي﴾ دلائل ومعالم.

التفسير: ﴿حَمَّ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن^(١) ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ أي هذا القرآن تنزيلٌ من الله، العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه، الذي لا يصدر عنه إلا كل ما فيه حكمة ومصلحة للعباد، ثم أخبر تعالى عن دلائل الوجدانية والقدرة فقال ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إن في خلق السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات العجيبة، والأحوال الغريبة، والأمور البديعة، لعلامات باهرة على كمال قدرة الله وحكمته، لقوم يُصدِّقون بوجود الله ووجدانيته^(٢) ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي وفي خلقكم أيها الناس من نطفة ثم من علقه متقلبة في أطوار مختلفة إلى تمام الخلق، وفيما ينشره تعالى ويُمرِّقه من أنواع المخلوقات التي تدب على وجه الأرض، آياتٌ باهرة أيضًا لقوم يصدِّقون عن إذعانٍ ويقين بقدره رب العالمين ﴿وَخَلِيفَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي وفي تعاقب الليل والنهار، دائبين لا يفران، هذا بظلامه وذاك بضياءه، بنظام محكم دقيق ﴿وَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ﴾ أي وفيما أنزله الله تبارك وتعالى من السحاب، من المطر الذي به حياة البشر في معاشهم وأرزاقهم قال ابن كثير: وسمي تعالى المطر رزقاً لأنه به يحصل الرزق^(٣) ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي فأحيا بالمطر الأرض بعدما كانت هامدة يابسة لا نبات فيها ولا زرع، فأخرج فيها من أنواع الزروع والثمرات والنبات ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾ أي وفي تقلب الرياح جنوباً وشمالاً، باردة وحارة ﴿وَآيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي علامات ساطعة واضحة على وجود الله ووجدانيته، لقوم لهم عقول نيرة وبصائر مشرقة قال الصاوي: ذكر الله سبحانه وتعالى من الدلائل ستة في ثلاث آيات، ختم الأولى بـ ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، والثانية بـ ﴿يُوقِنُونَ﴾، والثالثة بـ ﴿يَعْقِلُونَ﴾ ووجه التغاير بينها في التعبير أن الإنسان إذا تأمل في السموات والأرض، وأنه لا بد لهما من صانع آمن، وإذا نظر في خلق نفسه ونحوها ازداد إيماناً فأيقن، وإذا نظر في سائر الحوادث كمل عقله واستحكم علمه^(٤) ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي هذه آيات الله وحججه وبراهينه، الدالة على وحدانيته وقدرته، نقضها عليك يا محمد بالحق المبين الذي لا غموض فيه ولا التباس ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾؟ أي وإذا لم يصدِّق كفار مكة بكلام الله، ولم يؤمنوا بحججه وبراهينه، فبأي كلام يؤمنون ويصدِّقون؟ والغرض استعظام تكذيبهم للقرآن بعد وضوح بيانه وإعجازه ﴿وَبَلِّغْ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أي هلاك ودمارٌ لكل كذاب مبالغٍ في اقتراف

(١) انظر تفصيل البحث في الحروف المقطعة في أول سورة البقرة من هذا التفسير.

(٢) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديق بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح. وليس المقصود من الآيات الاستدلال على وجود الله؛ لأن معظم الناس لا ينكرون هذا خصوصاً المخاطبين بالقرآن.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٠٨.

(٤) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٦٣.

الآثام قال الرازي: وهذا وعيدٌ عظيم، والأفأك الكذاب، والأثيم المبالغ في اقتراف الآثام^(١) ﴿يَسْمَعُ أَيْدِي اللَّهِ تُنْثَلِ عَلَيْهِ﴾ أي يسمع آيات القرآن تُقرأ عليه، وهي في غاية الوضوح والبيان ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي ثم يدوم على حاله من الكفر، ويتمادي في غيّه وضلاله، مستكبراً عن الإيمان بالآيات كأنه لم يسمعها ﴿فَنَشِرُّهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي فبشره يا محمد بعذاب شديد مؤلم، وسمّاه «بشارة» تهكمًا بهم، لأن البشارة هي الخبر السارُّ قال في التسهيل: وإنما عطفه ب «ثم» لاستعظام الإصرار على الكفر بعد سماعه آيات الله، واستبعاد ذلك في العقل والطبع^(٢) قال المفسرون: نزلت في «النضر بن الحارث» كان يشتري أحاديث الأعاجم ويشغل بها الناس عن استماع القرآن، والآية عامة في كل من كان موصوفاً بالصفة المذكورة ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ أي إذا بلغه شيء من الآيات التي أنزلها الله على محمد، سخر واستهزأ بها ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي أولئك الأفاكون المستهزون بالقرآن لهم عذاب شديد مع الذل والإهانة ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي أمامهم جهنم تنتظرهم لما كانوا فيه من التعزز في الدنيا والتكبر عن الحق ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا﴾ أي لا ينفعهم ما ملكوه في الدنيا من المال والولد ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي ولا تنفعهم الأصنام التي عبدوها من دون الله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولهم عذاب دائم مؤلم قال أبو السعود: وتوسيط النفي ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا﴾ مع أن عدم إغناء الأصنام أظهر وأجلى من عدم إغناء الأموال والأولاد، مبني على زعمهم الفاسد حيث كانوا يطعمون في شفاعتهم، وفيه تهكم بهم^(٣) ﴿هَذَا هَدًى﴾ أي هذا القرآن كامل في الهداية لمن آمن به واتبعه ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَأْتِيَتْ رَبِّهِمْ﴾ أي جحدوا بالقرآن مع سطوعه، وفيه زيادة تشنيع على كفرهم به، وتفطيع حالهم ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رَجْزٍ أَلِيمٍ﴾ أي لهم عذاب من أشد أنواع العذاب مؤلمٌ موجدٌ قال الزمخشري: والرجز أشد العذاب، والمراد ب «يَأْتِيَتْ رَبِّهِمْ» القرآن^(٤). ثم لما توعدّهم بأنواع العذاب ذكرهم تعالى بنعمه الجليلة ليذكروه ويوحّدوه فقال ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ أي الله تعالى بقدرته وحكمته هو الذي ذلّل لكم البحر على ضخامته وعظمه ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ أي لتسير السفن على سطحه بمشيئته وإرادته، دون أن تغوص في أعماقه قال الإمام الفخر: خلق وجه الماء على الملاسة التي تجري عليها السفن، وخلق الخشبة على وجهه تبقى طافية على وجه الماء دون أن تغوص فيه، وذلك لا يقدر عليه أحد إلا الله^(٥) ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي ولتطلبوا من فضل الله بسبب التجارة، والغوص على اللؤلؤ

(١) «التفسير الكبير» ٢٧ / ٢٦١.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤ / ٣٨.

(٣) «تفسير أبي السعود» ٥ / ٥٨.

(٤) «الكشاف» ٤ / ٢٢٧.

(٥) «التفسير الكبير» ٢٧ / ٢٦٢.

والمرجان، وصيد الأسماك وغيرها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولأجل أن تشكروا ربكم على ما أنعم به عليكم وتفصل قال القرطبي: ذكر تعالى كمال قدرته، وتام نعمته على عباده، وبين أنه خلق ما خلق لمنافعهم، وكل ذلك من فعله وخلق، وإحسان منه وإنعام^(١) ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أي وخلق لكم كل ما في هذا الكون، من كواكب، وجبال، وبحار، وأنهار، ونبات، وأشجار، الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه، من عنده وحده جلّ وعلا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إن فيما ذكر لعبراً وعظات لقوم يتأملون في بدائع صنع الله فيستدلون على قدرته ووحدانيته ويؤمنون، ثم لما بين تعالى دلائل التوحيد والقدرة والحكمة، أردفه بتعليم فضائل الأخلاق، ومحاسن الأفعال فقال ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أي قل يا محمد للمؤمنين يصفحوا عن الكفار، ويتجاوزوا عما يصدر عنهم من الأذى والأفعال الموحشة. قال مقاتل: شتم رجل من الكفار عمر بمكة فهم أن يبطش به، فأمر الله بالعفو والتجاوز وأنزل هذه الآية^(٢)، والمراد من قوله ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أي لا يخافون من بأس الله وعقابه لأنهم لا يؤمنون بالآخرة ولا بقاء الله قال ابن كثير: أمر المسلمون أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب، ليكون ذلك تأليفاً لهم، ثم لما أصرّوا على العناد، شرع الله للمؤمنين الجلال والجهاد^(٣) ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وعيد وتهديد أي ليجازي الكفرة المجرمين بما اقترفوه من الإثم والإجرام، والتنكير للتحقير ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي من فعل خيراً في الدنيا فنفعه لنفسه، ومن ارتكب سوءاً وشراً فضرره عائد عليها، ولا يكاد يسري عمل إلى غير عامله ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي ثم مرجعكم يوم القيامة إلى الله وحده، فيجازي كلًا بعمله، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

ولما ذكر بالنعمة العامة أردفه بذكر النعمة الخاصة على بني إسرائيل فقال ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ أي والله لقد أعطينا بني إسرائيل التوراة، وفصل الحكومات

(١) (تفسير القرطبي) ١٦ / ٦٠.

(٢) (التفسير الكبير) للرازي ٢٧ / ٢٦٣. (ش): ذكره الرازي بدون إسناد. وهو ضعيف لانقطاعه، إن كان مسنداً، فكيف وقد ذكره الرازي بدون إسناد. وأيضاً مقاتل متهم بالكذب. وروى الواحد في «أسباب النزول» بإسناد ضعيف عن ابن عباس قال: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَغْرِضُ اللَّهَ وَصَاحِبًا حَسَنًا﴾ قَالَ يَهُودِيٌّ بِالْمَدِينَةِ يُقَالُ لَهُ: فَنُحَاسٌ - (اِحْتِاجَ رَبِّ مُحَمَّدٍ). فَلَمَّا سَمِعَ عُمَرُ بِذَلِكَ اشْتَمَلَ عَلَى سَيْفِهِ وَخَرَجَ فِي طَلَبِهِ، فَجَاءَ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقُولُ لَكَ: قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾، وَأَعْلَمَ أَنَّ عُمَرَ قَدْ اشْتَمَلَ عَلَى سَيْفِهِ وَخَرَجَ فِي طَلَبِ الْيَهُودِيِّ. فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي طَلَبِهِ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: يَا عُمَرُ ضَعْ سَيْفَكَ، قَالَ: صَدَقْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَشْهَدُ أَنَّكَ أُرْسِلْتَ بِالْحَقِّ، قَالَ: فَإِنَّ رَبَّكَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ قَالَ: لَا جَرَمَ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا يُبْرَى الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ.

(٣) (مختصر ابن كثير) ٣ / ٣٠٩. (ش): جالّد، مُجالّدَة وجِلادًا، فهو مُجالِد. جالده بالسيف: ضاربه به.

بين الناس، وجعلنا فيهم الأنبياء والمرسلين ﴿وَرَزَقْنَهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي ورزقناهم من أنواع النعم الكثيرة من المأكّل والمشارب، والأقوات والثمار ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي وفضلناهم على سائر الأمم في زمانهم قال الصاوي: والمقصود من ذلك تسليته ﷺ كأنه قال: لا تحزن يا محمد على كفر قومك، فإننا آتينا بني إسرائيل الكتاب والنعم العظيمة، فلم يشكروا بل أصروا على الكفر، فكذلك قومك ^(١) ﴿وَأَيِّنَّاهُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أي وبينا لهم في التوراة أمر الشريعة وأمر محمد ﷺ على أكمل وجه قال ابن عباس: يعني أمر النبي ﷺ وشواهد نبوته بأنه يهاجر من تهامة إلى يثرب وينصره أهلها ^(٢) ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي فما اختلفوا في ذلك الأمر، إلا من بعد ما جاءتهم الحجج والبراهين والأدلة القاطعة على صدقه ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي حسداً وعناداً وطلباً للرياسة قال الإمام الفخر: والمقصود من الآية التعجب من هذه الحالة، لأن حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف، وههنا صار العلم سبباً لحصول الاختلاف، لأنه لم يكن مقصودهم نفس العلم، وإنما المقصود منه طلب الرياسة والتقدم، فلذلك علموا وعاندوا ^(٣) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي هو جل وعلا الذي يفصل بين العباد يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر الدين، وفي الآية زجرٌ للمشركين أن يسلكوا مسلك من سبقهم من الأمم العاتية الطاغية ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ أي ثم جعلناك يا محمد على طريقة واضحة، ومنهاج سديد رشيد من أمر الدين، فاتبع ما أوحى إليك ربك من الدين القيم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي تتبع ضلالال المشركين قال البيضاوي: لا تتبع آراء الجاهل التابعة للشهوات، وهم رؤساء قريش حيث قالوا: ارجع إلى دين آبائك ^(٤) ﴿إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي لن يدفعوا عنك شيئاً من العذاب إن سائرته على ضلالهم ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي وإن الظالمين يتولى بعضهم بعضاً في الدنيا ولا ولي لهم في الآخرة ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي وهو تعالى ناصر ومعين المؤمنين المتقين في الدنيا والآخرة ﴿هَذَا بَصَرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي هذا القرآن نور وضياء للناس بمنزلة البصائر في القلوب، وهو رحمة لمن آمن به وأيقن.

قال الله تعالى:

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مِّمَّنْهُمْ وَمَنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٦٥ / ٤.

(٢) «حاشية الجمل» ١١٦ / ٤.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٦٥ / ٢٧.

(٤) «البيضاوي على زاده» ٣٢٣ / ٣.

كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَحَ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا نُنَادَى عَلَيْهِمْ هَإِنَّا بَينَتَا بَيْنَتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبِعُوا بَنَاءَ بَنَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا تُجْرِمُونَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَنُكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّخَذُوا ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَفُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

المناسبة: لما حكى تعالى ضلالات بني إسرائيل، وبين أن القرآن نور وهداية لمن تمسك به، أعقبه ببيان أنه لا يتساوى المؤمن مع الكافر، ولا البر مع الفاجر، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ثم ذكر الأدلة على البعث والنشور.

اللغة: ﴿اجْتَرَحُوا﴾ اكتسبوا والاجترأح الاكتساب ومنه الجوارح ﴿غَشَاوَةً﴾ غطاء وغشى الشيء غطاءً ﴿جَائِيَةً﴾ باركة على الركب لشدة الهول جثا يجثو إذا قعد على ركبتيه ﴿نَسْتَنسِخُ﴾ استنسخ الشيء أمر بكتابه وتدوينه ﴿وَحَاقَ﴾ نزل وأحاط ﴿يُسْعَفُونَ﴾ يُطلب منهم إرضاء ربه يقال: استعفتبه فأعتبني أي استرضيته فقبل مني عذري ﴿الْكِبَرِيَاءُ﴾ العظمة والمُلْك والجلال.

سبب النزول: رُوِيَ أن أبا جهل طاف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد بن المغيرة، فتحدثا في شأن النبي ﷺ فقال أبو جهل: والله إني لأعلم إنه لصادق، فقال له: مه، وما ذلك على ذلك؟ فقال يا أبا عبد شمس: كنا نسقيه في صباه الصادق الأمين، فلما تمَّ عقله وكمل رشده نسقيه الكذاب الخائن! والله إني لأعلم إنه لصادق، قال: فما يمنعك أن تصدقه وتؤمن به؟ قال: تتحدث عني بنات قريش أني اتبعت يتيم أبي طالب من أجل كِسرة؛ واللات والعزى لا أتبعه أبداً فنزلت ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَحَ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ...﴾ الآية (١).

(١) رواه مقاتل كذا في «القرطبي» ١٦ / ١٧٠. (ش): هو ضعيف لانقطاعه، إن كان مسنداً، فكيف وقد ذكره القرطبي بدون إسناد. وأيضاً مقاتل متهم بالكذب.

التفسير: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ الاستفهام للإنكار، والمعنى: هل يظن الكفار الفجار الذين اكتسبوا المعاصي والآثام ﴿أَنْ يَجْعَلَهُمُ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي نجعلهم كالمؤمنين الأبرار ﴿سَوَاءٌ نَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ أي نساوي بينهم في المحيا والممات؟ لا يمكن أن نساوي بين المؤمنين والكفار، لا في الدنيا ولا في الآخرة، فإن المؤمنين عاشوا على التقوى والطاعة، والكفار عاشوا على الكفر والمعصية، وشتان بين الفريقين كقوله ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨]؟ قال مجاهد: المؤمن يموت مؤمناً ويُبعث مؤمناً، والكافر يموت كافراً^(١) ويُبعث كافراً ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي ساء حكمهم في تسويتهم بين أنفسهم وبين المؤمنين قال ابن كثير: ساء ما ظنوا بنا وبعدلنا أن نساوي بين الأبرار والفجار، فكما لا يُجتنى من الشوك العنب، كذلك لا ينال الفجار منازل الأبرار^(٢) ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي وخلق الله السموات والأرض بالعدل والأمر الحق ليدل بهما على قدرته ووحدانيته ﴿وَلَيُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي ولكي يُجزى كل إنسان بعمله، وبما اكتسب من خير أو شر، دون أن يُنقص في ثوب المؤمن أو يُزاد في عذاب الكافر قال شيخ زاده: لما خلق تعالى السموات والأرض لأجل إظهار الحق، وكان خلقهما من جملة حكمته وعدله، لزم من ذلك أن ينتقم من الظالم لأجل المظلوم، فثبت بذلك حشر الخلائق للحساب^(٣) ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أي أخبرني يا محمد عن حال من ترك عبادة الله وعبد هواه! قال في البحر: أي هو مطواع لهوى نفسه^(٤) يتبع ما تدعوه إليه، فكأنه يعبد كما يعبد الرجل إلهه^(٥) قال ابن عباس: ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه، فلا يهوى شيئاً إلا ركبته ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي وأضل الله ذلك الشقي في حال كونه عالماً بالحق غير جاهل به، فهو أشد قبحاً وشناعة ممن يضل عن جهل، لأنه يُعرض عن الحق والهدى عناداً كقوله تعالى ﴿وَحَدِّثُوا بِهَِا وَاسْتَفْتِنَاهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] ﴿وَحَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ أي وطبع على سمعه وقلبه بحيث لا يتأثر بالمواعظ، ولا يتفكر في الآيات والنذر ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشًوَةً﴾ أي وجعل على بصره غطاء حتى لا يبصر الرشد، ولا يرى حجة يستضيء بها ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ أي فمن الذي يستطيع أن يهديه بعد أن أضله الله؟ لا أحد يقدر على ذلك ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تعتبرون أيها الناس وتتعضون؟ قال الصاوي: وصف تعالى الكفار بأربعة أوصاف: الأول: عبادة الهوى، والثاني: ضلالهم على علم الثالث: الطبع على

(١) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٦٦.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٢/ ٣١١.

(٣) «حاشية زاده على البيضاوي» ٣/ ٣٢٥.

(٤) (ش): مطواع: صيغة مبالغة من طاع: مسرع إلى الطاعة، مكثراً منها.

(٥) «البحر المحيط» ٨/ ٤٨.

أسماعهم وقلوبهم، الرابع: جعل الغشاوة على أبصارهم، وكل وصفٍ منها مقتضى للضلالة، فلا يمكن إيصال الهدى إليهم بوجهٍ من الوجوه^(١).. ثم حكى تعالى عن المشركين شبهتهم في إنكار القيامة، وفي إنكار الإله القادر العليم فقال ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي وقال المشركون: لا حياة إلا هذه الحياة الدنيا، يموت بعضنا ويحيا بعضنا، ولا آخرة، ولا بعث، ولا نشور قال ابن كثير: هذا قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد، ومرادهم ما ثمَّ إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وليس هناك معاد ولا قيامة، وهذا قول الفلاسفة الدهريين، المنكرين للصانع، المعتقدين أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه^(٢) ﴿وَمَا يَهْلِكُ إِلَّا الدَّهْرُ﴾ أي وما يهلكنا إلا مرور الزمان، وتعاقب الأيام قال الرازي: يريدون أن الموجب للحياة والموت تأثيرات الطبائع وحرركات الأفلاك، ولا حاجة إلى إثبات الخالق المختار، فهذه الطائفة جمعوا بين إنكار الإله وبين إنكار البعث والقيامة^(٣)، قال تعالى ردًّا عليهم ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي وليس لهم مستند من عقل أو نقل، ولذلك أنكروا وجود الله من غير حجة ولا بينة ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي ما هم إلا قوم يتوهمون ويتخيلون، يتكلمون بالظن من غير يقين ﴿وَإِذَا نُنْزِلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْتَوِي﴾ أي وإذا قرئت آيات القرآن على المشركين، واضحات الدلالة على البعث والنشور ﴿مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي ما كان متمسكهم في دفع الحق الصريح إلا أن يقولوا: أحيوا لنا آباءنا الأولين، إن كان ما تقولونه حقًا، سُمِّي قولهم الباطل حجةً على سبيل التهكم ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد: الله الذي خلقكم ابتداءً حين كنتم نطفًا هو الذي يميتكم عند انقضاء آجالكم، لا كما زعمتم أنكم تحيون وتموتون بحكم الدهر ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي ثم بعد الموت يبعثكم للحساب والجزاء كما أحياكم في الدنيا، فإن من قدر على البدء قدر على الإعادة، والحكمة اقتضت الجمع للجزاء في يوم القيامة، الذي لا شك فيه ولا ارباب ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكن أكثر الناس لجهلهم وقصورهم في النظر والتفكير، لا يعلمون قدرة الله فينكرون البعث والجزاء. ثم بين إمكان الحشر والنشر وذكر تفاصيل أحوال يوم القيامة فقال ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هو جل وعلا المالك لجميع الكائنات العلوية والسفلية ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي ويوم القيامة يخسر الكافرون الجاحدون بآيات الله ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةٍ﴾ أي وترى أيها المخاطب كل أمة من الأمم جالسةً على الركب من شدة الهول والفرع، كما يجثو الخصوم بين يدي الحاكم بهيئة الخائف

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤ / ٦٧.

(٢) «مختصر ابن كثير» ١ / ٣١١.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٧ / ٢٧٥.

الذليل قال ابن كثير: وهذا إذا جيء بجهنم فإنها تزفر زفرة لا يبقى أحدٌ إلا جثا على رُكبتيه^(١) ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ أي كل أمة من تلك الأمم تُدعى إلى صحائف أعمالها ﴿الْيَوْمَ يُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يقال لهم: في هذا اليوم الرهيب تنالون جزاء أعمالكم من خيرٍ أو شرٍ ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي هذا كتابُ أعمالكم يشهد عليكم بالحق من غير زيادةٍ ولا نقصان قال في التسهيل: فإن قيل: كيف أضاف الكتاب تارةً إليهم وتارةً إلى الله تعالى؟ فالجواب أنه أضافه إليهم لأن أعمالهم ثابتة فيه، وأضافه إلى الله تعالى لأنه مالكة وأنه هو الذي أمر الملائكة أن يكتبوه^(٢) ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي كنّا نأمر الملائكة بكتابة أعمالكم، وإثباتها عليكم قال المفسرون: تنسخ هنا بمعنى تكتب، وحقيقة النسخ هو النقل من أصل آخر، وقال ابن عباس: تكتب الملائكة أعمال العباد ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابل الملائكة الموكلون بديوان الأعمال ما كتبه الحفظة، مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلةٍ قدر، ما كتبه الله في القدم على العباد قبل أن يخلقهم، فلا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً، فذلك هو الاستنساخ، وكان ابن عباس يقول: أَلَسْتُمْ عَرَبِيًّا، هل يكون الاستنساخ إلا من أصل^(٣)؟ ثم بين تعالى أحوال كل من المطيعين والعاصين فقال ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي فأما المؤمنون الصالحون المتقون لله في الحياة الدنيا، فيدخلهم الله في الجنة، سُميت الجنة رحمةً لأنها مكان تنزل رحمة الله^(٤) ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أي ذلك هو الفوز العظيم، البين الظاهر الذي لا فوز وراءه ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي وأما الكافرون فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً: أفلم تكن الرسل تتلو عليكم آيات الله؟ ﴿فَأَسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي فتكبرتم عن الإيمان بها، وأعرضتم عن سماعها، وكنتم قوماً مغرقيين في الإجمام ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي وإذا قيل لكم: إن البعث كائن لا محالة ﴿وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي والقيامة آتية لا شك فيها ولا ريب ﴿قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ أي قلتم لغاية عتوكم^(٥)، أي شيء هي؟ أحقُّ أم باطل؟ قال البيضاوي: قالوا هذا استغراباً واستبعاداً وإنكاراً لها^(٦) ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي لا نصدّق بها ولكن نسمع الناس يقولون: إن هناك آخرة فتتوهم بها توهمًا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ﴾ أي ولسنا مصدّقين بالآخرة يقينًا، وهذا تأكيد منهم لإنكار القيامة ﴿وَبَدَأْتُمْ سَيِّئَاتٍ مَّا عَمِلُوا﴾ أي وظهر لهم في الآخرة قبائح أعمالهم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣١٢.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٤٠.

(٣) انظر «البحر المحيط» ١٨/ ٥١، و«مختصر ابن كثير» ٣/ ٢١٣.

(٤) (ش): الرحمن والرحيم من أسماء الله الحسنى، والجنة أثر من آثار رحمته تعالى.

(٥) (ش): أي بسبب شدة عتوكم واستكباركم عن قبول الحق.

(٦) «حاشية الجمل على الجلالين» ٤/ ١٢٢.

أي ونزل وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به في الدنيا ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا فُسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي ويقال لهم: اليوم نترككم في العذاب ونعاملكم معاملة الناسي، كما تركتم الطاعة التي هي الزاد ليوم المعاد فلم تعملوا لآخرتكم ^(١) ﴿وَمَا أَوْنَكُومُ النَّارُ﴾ أي ومستقركم في نار جهنم ﴿وَمَا لَكُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ﴾ أي وليس لكم من ينصركم ويخلصكم من عذاب الله ﴿ذَلِكَ بِمَا كُنتُمْ تَأْخُذْتُمْ أَيَدِيَ اللَّهِ هُزُوا﴾ أي إنما جازيناكم هذا الجزاء، بسبب أنكم سخرتم من كلام الله واستهزأتم به ﴿وَعَرَّكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ أي خدعتكم الدنيا بزخارفها وأباطيلها، حتى ظننتم أن لا حياة سواها، وأن لا بعث ولا نشور ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَوُونَ﴾ أي فاليوم لا يُخرجون من النار، ولا يُطلب منهم أن يُرضوا ربهم بالتوبة والطاعة لعدم نفعها يومئذ ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي فله الحمد خاصة لا يستحق الحمد أحدٌ سواه لأنه الخالق والمالك لجميع المخلوقات والكائنات ﴿وَلَهُ الْكِبَرِيَّةُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي وله العظمة والجلال، والبقاء والكمال في السموات والأرض ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي الغالب الذي لا يُغلب، الحكيم في صنعه وفعله وتدبيره.

البالغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - التأكيد بأن والسلام ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ﴾ [الجاثية: ٣] لأن المخاطبين منكرون

لوحداية الله.

٢ - صيغة المبالغة ﴿وَيَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧].

(١) (ش): للنسيان معنيان:

أحدهما: الزهول عن شيء معلوم مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وهذا المعنى للنسيان مُتَّبَعٌ عن الله عز وجل بالدليلين السمعي، والعقلي. أما السمعي: فقوله تعالى عن موسى: ﴿قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]. وأما العقلي: فإن النسيان نقص، والله تعالى منزّه عن النقص، موصوف بالكمال، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠]. وعلى هذا فلا يجوز وصف الله بالنسيان بهذا المعنى على كل حال. والمعنى الثاني للنسيان: الترك عن علم وعمد، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دُسُّوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤]. وهذا المعنى من النسيان ثابت لله تعالى عز وجل قال الله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ [السجدة: ١٤]. وقال تعالى في المنافقين: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧]. وفي صحيح مسلم أن الله ﷻ يَلْقَى الْعَبْدَ فَيَقُولُ لَهُ: أَفْطَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِي فَيَقُولُ: لَا. فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنَسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي. وتركه للشيء صفة من صفاته الفعلية الواقعة بمشيئته التابعة لحكمته، قال الله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧]. وقال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: ٩٩]. وقال: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً﴾ [العنكبوت: ٣٥]. والنصوص في ثبوت الترك وغيره من أفعاله المتعلقة بمشيئته كثيرة معلومة، وهي دالة على كمال قدرته وسلطانه. وقيام هذه الأفعال به سبحانه لا يماثل قيامها بالمخلوقين، وإن شاركه في أصل المعنى، كما هو معلوم عند أهل السنة. [باختصار من «فتاوى الشيخ ابن عثيمين» (١/ ١٧٢-١٧٤).

- ٣ - الأسلوب التهكمي ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٨].
- ٤ - المجاز المرسل ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ﴾ [الجاثية: ٥] أي مطر، مجاز مرسل علاقته المسببية لأن الرزق لا ينزل من السماء، ولكن ينزل المطر الذي ينشأ عنه النبات والرزق.
- ٥ - التشبيه المرسل ﴿يَصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ [الجاثية: ٨] أي كأنه لم يسمع آيات القرآن.
- ٦ - المبالغة بذكر المصدر ﴿هَذَا هُدًى﴾ [الجاثية: ١١] كأن القرآن لو ضوح حجته عين الهدى.
- ٧ - الإطناب بتكرار اللفظ ﴿سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ .. وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ١٢١٣] لإظهار الامتنان.
- ٨ - طباق السلب ﴿فَاتَّبَعَهَا وَلَا تَنْتَبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].
- ٩ - المجاز المرسل ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي في الجنة لأنها مكان تنزل رحمة الله.
- ١٠ - الطباق بين ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ .. وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [الجاثية: ١٥] وبين ﴿نُفُوتٌ وَنَحْيًا﴾ وبين ﴿يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾.
- ١١ - الاستعارة التصريحية ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي يشهد عليكم، والاستعارة هنا أبلغ من الحقيقة، لأن شهادة الكتاب ببيانه أقوى من شهادة الإنسان بلسانه.
- ١٢ - الالتفات ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة لإسقاطهم من رتبة الخطاب.
- ١٣ - الاستعارة التمثيلية ﴿الْيَوْمَ نَسْخَرُكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ مثل تركهم في العذاب بمن حُبس في مكان ثم نسيه السجان من الطعام والشراب حتى هلك بطريق الاستعارة التمثيلية، والمراد من الآية ترككم في العذاب ونعامكم معاملة الناسي، لأن الله تعالى لا ينسى ولا يعرض عليه النسيان.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الجاثية»



سُورَةُ الْأَحْقَافِ

٣٥

٤٦

مكية وآياتها خمس وثلاثون

بين يدي السورة

* هذه السورة مكية وأهدافها نفس أهداف السور المكية، العقيدة في أصولها الكبرى «الوحدانية، الرسالة، البعث والجزاء» ومحور السورة الكريمة يدور حول «الرسالة والرسول» لإثبات صحة رسالة محمد ﷺ وصدق القرآن.

* تحدثت السورة في البدء عن القرآن العظيم المنزل من عند الله بالحق، ثم تناولت الأوثان التي عبدها المشركون وزعموا أنها آلهة مع الله تشفع لهم عنده، فبينت ضلالهم وخطأهم في عبادة ما لا يسمع ولا ينفع، ثم تحدثت عن شبهة المشركين حول القرآن، فردت على ذلك بالحجة الدامغة، والبرهان الناصع.

* ثم تناولت نموذجين من نماذج البشرية في هدايتها وضلالها، فذكرت نموذج الولد الصالح، المستقيم في فطرته، البار بوالديه، الذي كلما زادت سنه وتقدم في العمر ازداد تقى وصلاً وإحساناً لوالديه.. ونموذج الولد الشقي، المنحرف عن الفطرة، العاق لوالديه، الذي يهزأ ويسخر من الإيمان والبعث والنشور ومآل كل منهما^(١).

* ثم تحدثت السورة عن قصة «هود» عليه السلام مع قومه الطاغين «عاد» الذين طغوا في البلاد واغترأوا بما كانوا عليه من القوة والجبروت، وما كان من نتيجتهم حيث أهلكهم الله بالريح العقيم، تحذيراً للكفار قريش في طغيانهم واستكبارهم على أوامر الله وتكذيبهم للرسول ﷺ.

* وختمت السورة الكريمة بقصة النفر من الجن الذين استمعوا إلى القرآن وآمنوا به ثم رجعوا منذرين إلى قومهم يدعونهم إلى الإيمان، تذكيراً للمعاندين من الإنس بسبق الجن لهم إلى الإسلام.

التسمية: سميت «سورة الأحقاف» لأنها مساكن عاد الذين أهلكهم الله بطغيانهم وجبروتهم، وكانت مساكنهم بالأحقاف من أرض اليمن ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ الآية.

(١) (ش): أي مآل كُلِّ من الولد الصالح والولد الشقي.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ① نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ② مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ③ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرُوهُ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ④ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ⑤ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ⑥ وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بِبَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ⑦ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعِلُونَ فِيهِ كُفًى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ⑧ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ⑨ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَ مِنْ أَهْلِهِمْ أَتَىٰ إِلَهُ الْكَافِرِينَ ⑩ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ⑪ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ⑫ إِنْ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ⑬ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ⑭ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ⑮ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ⑯ وَالَّذِي قَالَ لِوَلَدَيْهِ أَفَبِ لَكُمْ مَا أَتَعِدَانِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفْغِيَانِ اللَّهَ وَبِكَ ءَامِنَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ⑰ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمُورِهِمْ فَكَانَ مِنْهُمْ أَلُجْنُ وَالْإِنْسُ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ⑱ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَلُهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ

اللغة: ﴿شِرْكٌ﴾ شركة ونصيب ﴿أَثَرُوهُ﴾ بقية من الشيء ﴿تَفْعِلُونَ﴾ تفعلون الإفاضة في الشيء: الخوض فيه والاندفاع يقال: أفاضوا في الحديث اندفعوا فيه، وأفاض الناس من عرفات أي دفعوا منها ﴿بَدْعًا﴾ البدع بالكسر الشيء المبتدع قال الرازي: والبدع والبديع من كل شيء المبدع، والبدعة ما اخترع مما لم يكن موجودًا قبله بحكم السنة^(١) ﴿إِفْكٌ﴾ كذب ﴿كُرْهًا﴾ بكره

(١) «التفسير الكبير» ٧/٢٨. (ش): لا يقبل الله ﷻ من العمل إلا ما كان خالصًا أريد به وجهه، وكان صوابًا موافقًا لمراده الشرعي. والاعتصام بالسنة نجاة والبعد عنها هلاك وضلال، وأهل السنة هم الطائفة الناجية المنصورة. وليس في البدع ما هو حسن أبدًا، بل كل بدعة في دين الله بالزيادة أو النقصان فهي ضلالة، ولا يستثنى شيء من =

ومشقة ﴿وَفَصَّلُ﴾ فطامه ﴿أَوْزَعِي﴾ ألهمني ﴿أَفِ﴾ كلمة تضجّر وتبرم ﴿خَلَّتِ﴾ مضت.

التفسير: ﴿حَم﴾ الحروف المقطعة للتنبية على إعجاز القرآن وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية^(١) ﴿تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ أي هذا الكتاب المجيد منزل من عند الإله العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات عبثًا، وإنما خلقناهما خلقًا متلبسًا بالحكمة، لندل على وحدانيتنا وكمال قدرتنا ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي وإلى زمن معين هو زمن فنائهما يوم القيامة ﴿يَوْمَ يُبَدِّلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ أي وهؤلاء الكفار معرضون عما خُوفوه من العذاب ومن أهوال الآخرة، لا يتفكرون فيه لا يستعدون له.. ثم لما بين وجود الإله العزيز الحكيم ردّ على عبدة الأصنام فقال ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: أخبروني عن هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله، وتزعمون أنها آلهة ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ؟﴾ أي أرشدوني وأخبروني أي شيء خلقوا من أرجاء الأرض، ومما على سطحها من إنسان أو حيوان؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ؟﴾ أي أم لهم مشاركة ونصيب مع الله في خلق السموات؟ ﴿أَتُنَوِّنِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أي هاتوا كتابًا من الكتب المنزلة من عند الله قبل هذا القرآن يأمركم بعبادة هذه الأصنام؟ وهو أمر تعجيز لأنهم ليس لهم كتاب يدل على الإشارك بالله، بل الكتب كلها ناطقة بالتوحيد ﴿أَوْ أَتُكْفَرُونَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي أو ببقية من علم من علوم الأولين شاهدة بذلك ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي إن كنتم صادقين في دعواكم أنها شركاء مع الله قال في البحر: طلب منهم أن يأتوا بكتاب يشهد بصحة ما هم عليه من عبادة غير الله، أو ببقية من علوم الأولين، والغرض توبيخهم؛ لأن كل كتب الله المنزلة ناطقة بالتوحيد وإبطال الشرك، فليس لهم مستند من نقل أو عقل^(٢).. ثم أخبر تعالى عن ضلال المشركين فقال ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ أي لا أحد أضل وأجهل ممن يعبد أصنامًا لا تسمع دعاء الداعين، ولا تعلم حاجات المحتاجين، ولا تستجيب لمن ناداها أبدًا لأنها جمادات لا تسمع ولا تعقل^(٣) ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ أي وهم لا يسمعون ولا

= هذه العموم. وألبدعة كما عرّفها الإمام الشاطبي في «الاعتصام»: «طريقة في الدين مختارة، تُصاهاي الشريعة يُقصدُ بالسُّلوكِ عَلَيْهَا الْمُبَالَغَةُ فِي التَّعْبُدِ لِلَّهِ». تُصاهاي: تُشابه. انظر: «الاعتصام» للإمام الشاطبي، و«حقيقة البدعة وأحكامها» للدكتور سعيد بن ناصر الغامدي. و«تهذيب كتاب الاعتصام» لمحقق هذا الكتاب.

(١) انظر تفصيل الموضوع في أول سورة البقرة.

(٢) «البحر المحيط» ٥٥ / ٨.

(٣) (ش:) كلمة «مَنْ» من صيغ العموم؛ فالآية عامة في كل ما عُبد من دون الله من الأصنام والأنبياء والملائكة والأولياء والصالحين والقبور والأضرحة وغيرهم.

يفهمون دعاء العابدين، وفيه تهكم بها وبعبدتها، وإنما ذكر الأصنام بضمير العقلاء، لأنهم لما عبدوها ونزلوها منزلة من يضر وينفع، صحَّ أن توصف بعدم الاستجابة وبعدم السمع والنفع، مجازاة لزعم الكفار ﴿وَإِذَا حِشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ أي وإذا جمع الناس للحساب يوم القيامة كانت الأصنام أعداء لعابديها يضر ونهم ولا ينفعونهم ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كُفِرِينَ﴾ أي وتبرأ الأصنام من الذين عبدوها قال المفسرون: إن الله تعالى يحيي الأصنام يوم القيامة فتتبرأ من عابديها وتقول ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣] وهذه الآية كقوله تعالى ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢] والله على كل شيء قدير^(١) ﴿وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي وإذا قرئت عليهم آيات القرآن واضحات ظاهرات أنها من كلام الله ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي قال الكافرون عن القرآن الحق لما جاءهم من عند الله ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي هذا سحر لا شبهة فيه ظاهر كونه سحراً، وإنما وضع الظاهر ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ موضع الضمير تسجيلاً عليهم بكمال الكفر والضلالة قال في البحر: وفي قوله ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ تنبيه على أنهم لم يتأملوا ما يتلى عليهم، بل بادروا أول سماعه إلى نسبته إلى السحر عناداً وظلماً، ووصفوه بأنه ﴿مُبِينٌ﴾ أي ظاهر أنه سحر لا شبهة فيه^(٢) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أي يقولون: اختلق محمد هذا القرآن وافتراه من تلقاء نفسه؟ وهو إنكار توبيخي ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي قل إن افتريته على سبيل الفرض فالله حسبي في ذلك، وهو الذي يعاقبني على الافتراء عليه، ولا تقتدرون أنتم على أن تردوا عني عذاب الله، فكيف افترته من أجلكم وأنعرض لعقابه؟ ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي هو جل وعلا أعلم بما تخوضون في القرآن وتقدحون به من قولكم: هو شعر، هو سحر، هو افتراء، وغير ذلك من وجوه الطعن ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي كفى أن يكون تعالى شاهداً بيني وبينكم، يشهد لي بالصدق والتبليغ، ويشهد عليكم بالجحود والتكذيب ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي وهو الغفور لمن تاب، الرحيم بعباده المؤمنين قال أبو حيان: وفيه وعد لهم بالغفران والرحمة إن رجعوا عن الكفر، وإشعاراً بحلمه تعالى عليهم إذ لم يعالجهم بالعقوبة^(٣) ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي لست أول رسول طرق العالم، ولا جئت بأمر لم يجر به أحد قبلي، بل جئت بما جاء به ناس كثير من قبلي، فلا شيء تنكرون ذلك عليّ؟ والبدع والبديع من الأشياء هو الذي لم ير مثله قال ابن كثير: أي ما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكروني وتستبعدوا بعثي إليكم، فقد أرسل الله قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم ﴿وَمَا أَدْرِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ أي ولا أدري بما يقضي الله

(١) انظر «التفسير الكبير» ٦/٢٨.

(٢) «البحر المحيط» ٥٦/٨.

(٣) «البحر المحيط» ٥٦/٥.

عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ، فَإِنْ قَدَرَ اللَّهُ مُغَيِّبٌ ﴿إِنْ أَنْجِ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أَي لَا أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يَنْزِلُهُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الْوَحْيِ، وَلَا أَبْتَدِعُ شَيْئًا مِنْ عِنْدِي ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾^(١) أَي وَمَا أَنَا إِلَّا رَسُولٌ مُنْذِرٌ لَكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، بَيِّنَ الْإِنذَارِ بِالشَّوَاهِدِ الظَّاهِرَةِ، وَالْمَعْجَزَاتِ الْبَاهِرَةِ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ أَي قُلْ يَا مُحَمَّدُ: أَخْبَرُونِي يَا مَعْشَرَ الْمُشْرِكِينَ إِنْ كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ كَلَامَ اللَّهِ حَقًّا وَقَدْ كَذَبْتُمْ بِهِ وَجَحْتُمُوهُ، وَجَوَابُهُ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: كَيْفَ يَكُونُ حَالُكُمْ؟ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَّنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أَي وَقَدْ شَهِدَ رَجُلٌ مِنْ عُلَمَاءِ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى صَدَقِ الْقُرْآنِ، فَأَمَّنَ بِهِ وَاسْتَكْبَرْتُمْ أَنْتُمْ عَنِ الْإِيمَانِ، كَيْفَ يَكُونُ حَالُكُمْ، أَلَسْتُمْ أَضِلُّ النَّاسَ وَأَظْلِمُ النَّاسَ؟ قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ: وَجَوَابُ الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: إِنْ كَانَ الْقُرْآنُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ أَلَسْتُمْ ظَالِمِينَ؟ وَدَلَّ عَلَى هَذَا الْمَحْذُوفِ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٢) أَي لَا يُوفِّقُ لِلْخَيْرِ وَالْإِيمَانِ مَنْ كَانَ فَاجِرًا ظَالِمًا قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: وَالشَّاهِدُ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ هُوَ «عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ» وَذَلِكَ حِينَ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ جَاءَ إِلَيْهِ ابْنُ سَلَامٍ لِيَمْتَحِنَهُ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى وَجْهِهِ عَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَاذِبٍ، وَتَأَمَّلَهُ فَتَحَقَّقَ أَنَّهُ هُوَ النَّبِيُّ الْمُنْتَظَرُ، فَقَالَ لَهُ: إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْمَلُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ: مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟ وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ؟ وَمَا بِالِالْوَلَدِ يَنْزِعُ إِلَى أَبِيهِ أَوْ إِلَى أُمِّهِ؟ فَلَمَّا أَجَابَهُ ﷺ قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا^(٣).
النَّخ، ثُمَّ رَدَّ تَعَالَى عَلَى شَبْهَةِ أُخْرَى مِنْ شَبْهِ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مِمَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أَي: وَقَالَ كُفَّارُ مَكَّةَ فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ: لَوْ كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ وَالِدِينَ خَيْرًا مِمَّا سَبَقْنَا إِلَيْهِ هَؤُلَاءِ الْفُقَرَاءُ الضَّعَفَاءُ!! وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: يَعْنُونَ «بِلَالًا» وَ«عِمَارًا» وَ«صَهْبِيًّا» وَ«خُبَابًا» وَأَشْبَاهَهُمْ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَالْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ مِمَّنْ أَسْلَمَ وَآمَنَ بِالنَّبِيِّ ﷺ ﴿وَأَذَلَّمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَيَقُولُوا هَذَا أَفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أَي: وَلَمَّا لَمْ يَهْتَدُوا بِالْقُرْآنِ مَعَ وَضُوحِ إِعْجَازِهِ، قَالُوا: هَذَا كَذِبٌ قَدِيمٌ مَأْثُورٌ عَنِ الْأَقْدَمِينَ، أَتَى بِهِ مُحَمَّدٌ وَنَسَبَهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أَي وَمِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ التَّوْرَةُ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَى مُوسَىٰ قَدْوَةً يُؤْتَمُّ بِهَا فِي دِينِ اللَّهِ وَشَرَائِعِهِ كَمَا يُؤْتَمُّ بِالْإِمَامِ، وَرَحْمَةً لِمَنْ آمَنَ بِهَا وَعَمِلَ بِمَا فِيهَا قَالَ الْإِمَامُ الْفَخْرُ: وَوَجْهُ تَعَلُّقِ الْآيَةِ بِمَا قَبْلُهَا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ طَعَنُوا فِي صِحَّةِ الْقُرْآنِ، وَقَالُوا: لَوْ كَانَ خَيْرًا مِمَّا سَبَقْنَا إِلَيْهِ هَؤُلَاءِ الضَّعَفَاءُ الصَّعَالِيكُ، فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّكُمْ لَا تَنَازَعُونَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَىٰ، وَجَعَلَ هَذَا الْكِتَابَ التَّوْرَةَ إِمَامًا يَقْتَدَى بِهِ، ثُمَّ إِنْ التَّوْرَةُ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى الْبَشَارَةِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَإِذَا سَلِمْتُمْ

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣١٦.

(٢) «تفسير الكشاف» ٤/ ٢٣٦.

(٣) قصة إسلام عبد الله بن سلام مفصلة في صحيح البخاري.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣١٨.

كونها من عند الله، فاقبلوا حكمها بأن محمداً ﷺ رسولٌ حقاً من عند الله^(١) ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانَا عَرَبِيًّا﴾ أي وهذا القرآن كتاب عظيم الشأن، مصدقٌ للكتب قبله بلسانٍ عربي فصيح، فكيف ينكرونه وهو أفصح بياناً، وأظهر برهاناً، وأبلغ إعجازاً من التوراة؟ ﴿يُنْذِرُ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشِّرُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي ليخوف كفار مكة الظالمين من عذاب الجحيم، ويبشر المؤمنين المحسنين بجنت النعيم.

ولما بين تعالى أحوال المشركين المكذبين بالقرآن، أردفه بذكر أحوال المؤمنين المستقيمين على شريعة الله فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ أي جمعوا بين الإيمان والتوحيد والاستقامة على شريعة الله ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي فلا يلحقهم مكروه في الآخرة يخافون منه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي ولا هم يحزنون على ما خلفوا في الدنيا ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي أولئك المؤمنون المستقيمون في دينهم، هم أهل الجنة ماكثين فيها أبداً ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي نالوا ذلك النعيم جزاء لهم على أعمالهم الصالحة ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ لما كان رضا الله في رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما حيث تعالى العباد عليه. والمعنى: أمرنا الإنسان أمراً جازماً مؤكداً بالإحسان إلى الوالدين، ثم بين السبب فقال ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي حملته بكره ومشقة ووضعت بكره ومشقة ﴿وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ أي ومدة حمله ورضاعه عامان ونصف، فهي لا تزال تعاني التعب والمشقة طيلة هذه المدة قال ابن كثير: أي قاست بسببه في حال حمله مشقة وتعباً من وحم، وغثيان، وثقل، وكرب إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة، ووضعت بمشقة أيضاً من الطلق وشدته، وقد استدلل العلماء بهذه الآية مع التي في لقمان ﴿وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤] على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وهو استنباط قوي صحيح^(٢) ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي حتى إذا عاش هذا الطفل وبلغ كما قوته وعقله ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أي واستمر في الشباب والقوة حتى بلغ أربعين سنة وهو نهاية اكتمال العقل والرشد^(٣) ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِي﴾ أي قال: رب الهمني شكر نعمتك التي أنعمت بها عليّ وعلى والدي حتى ربياني صغيراً ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أي ووفقني لكي أعمل عملاً صالحاً يرضيك عني ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ أي اجعل ذريتي ونسلي صالحين قال شيخ زاده: طلب هذا الداعي من الله ثلاثة أشياء: الأول: أن يوفقه الله للشكر على النعمة، والثاني: أن يوفقه للإتيان بالطاعة المرضية عند الله، والثالث: أن يصلح له في ذريته، وهذه

(١) «التفسير الكبير» للرازي ١٢/٢٨.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/٣٩١.

(٣) قال العلماء: ولذلك لم يبعث نبي قبل أربعين.

كمال السعادة البشرية ^(١) ﴿إِنِّي تَبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي إني يارب تبت إليك من جميع الذنوب، وإني من المستمسكين بالإسلام قال ابن كثير: وفي الآية إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله عز وجل ويعزم عليها ^(٢) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر نتقبل منهم طاعاتهم ونجازيهم على أعمالهم بأفضلها ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ أي ونصفح عن خطيئاتهم وزلاتهم، في جملة أصحاب الجنة الذين نكرمهم بالعفو والغفران ﴿وَعَدَ الصِّدِّيقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي بذلك الوعد الصادق الذي وعدناهم به على السنة الرسل، بأن نتقبل من محسنهم ونتجاوز عن مسيئهم.

ولما مثل تعالى لحال الإنسان البار بوالديه وما آل إليه حاله من الخير والسعادة، مثل لحال الإنسان العاق لوالديه وما يثول إليه أمره من الشقاوة والتعاسة فقال ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أُفٍّ لَكُمَا﴾ أي وأما الوالد الفاجر الذي يقول لوالديه إذا دعواه إلى الإيمان أفٍّ لكما، أي: قبحاً لكما على هذه الدعوة ﴿أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَيْتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ أي أتعدانني أن أبعث بعد الموت وقد مضت قرون من الناس قبلي ولم يبعث منهم أحد؟ ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ﴾ أي وأبواه يسألان الله أن يغيثه ويهديه للإسلام قائلين له: ويلك آمن بالله وصدق بالبعث والنشور وإلا هلكت ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي وعد الله صدق لا خلف فيه ﴿فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي فيقول ذلك الشقي: ما هذا الذي تقولان من أمر البعث إلا خرافات وأباطيل سطرها الأولون في الكتب مما لا أصل له قال تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي أولئك المجرمون هم الذين حَقَّ عليهم قول الله بأنهم أهل النار قال القرطبي: أي وجب عليهم العذاب وهي كلمة الله كما في الحديث «هؤلاء في النار ولا أبالي» ^(٣) ﴿فِي أَمْرِ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ أي في جملة أمم من أصحاب النار قد مضت قبلهم من الكفرة الفجار من الجن والإنس ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ أي كانوا كافرين لذلك ضاع سعيهم وخسروا آخرتهم، وهو تعليل لدخولهم جهنم قال الإمام الفخر: قال بعضهم: إن الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق قبل إسلامه، والصحيح أنه لا يراد بالآية شخص معين، بل المراد منها كل من كان موصوفاً بهذه الصفة، وهو كل من دعاه أبواه إلى الدين الحق فأباه وأنكره، ويدل عليه أن الله تعالى وصف هذا الذي قال لوالديه ﴿أَفٍّ لَكُمَا﴾ بأنه من الذين حَقَّ عليهم

(١) «حاشية البيضاوي» ٣/ ٣٣٦.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٢٠.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٩٨. (ش): عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ قَتَادَةَ السُّلَمِيِّ رحمته الله قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ، ثُمَّ أَخَذَ الْخَلْقَ مِنْ ظَهْرِهِ، وَقَالَ: هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أَبَالِي، وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَلَا أَبَالِي»، قَالَ: فَقَالَ قَائِلٌ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَعَلَى مَاذَا نَعْمَلُ؟». قَالَ: «عَلَى مَوَاقِعِ الْقَدَرِ» (رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِي).

القول بالعذاب، ولا شك أن عبد الرحمن آمن وحسن إسلامه وكان من سادات المسلمين فبطل حمل الآية عليه^(١) ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ أي لكل من المؤمنين والكافرين مراتب ومنازل بحسب أعمالهم، فمراتب المؤمنين في الجنة عالية، ومراتب الكافرين في جهنم سافلة ﴿وَلِيُوفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي وليعطيتهم جزاء أعمالهم وافيها كاملة، المؤمنون بحسب الدرجات، والكافرون بحسب الدرجات، من غير نقصان بالثواب، ولا زيادة في العقاب.

قال الله تعالى:

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدَّبْتُمْ طَائِفَتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ وَأَذْكُرْ أَهْلَ عَادٍ إِذْ أَنْذَرْنَاهُمْ يَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ الْبُحُورُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَأَفَّكُنَا عَنْ عَاهِدِنَا قَالُوا بَلَىٰ نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطْمَرٌ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيهَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَقُومُنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغْيَ يَخْلُقْهُنَّ يَفْعَلْ عَلَىٰ أَنْ يَحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلِّغْ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ

المناسبة: لما ذكر تعالى أحوال بعض الأشقياء، أعقبه بذكر حال الكفار والفجار في الآخرة، ثم ذكر قصة عاد الذين أهلكتهم الله بطغيانهم مع ما كانوا عليه من القوة والشدة، تذكيراً للكفار قريش بعاقبة التكذيب والطغيان، وختم السورة الكريمة بقصة النفر من الجن

(١) «التفسير الكبير» ٢٨/٢٣، وهذا اختيار المحققين من المفسرين كابن كثير والقرطبي وأبي السعود وصاحب «البحر المحيط».

الذين آمنوا بالقرآن حين سمعوه ودعوا قومهم إلى الإيمان.

اللغة: ﴿الْهُونُ﴾ الهوان والذل ﴿بِالْأَحْقَافِ﴾ الرمال العظيمة جمع حَقْف وهو ما استطال من الرمل العظيم واعوجَّ، والأحقاف ديار عاد^(١) ﴿لِتَأْفِكُنَا﴾ لتُصْرِفْنَا وتُزِيلَنَا، والإفك: الكذب ﴿عَارِضٌ﴾ سحاب يعرض في الأفق ﴿تُدَمِّرُ﴾ تُهْلِكُ، والتدميرُ الهلاك وكذلك الدمار ﴿صَرَفْنَا﴾ بَعَثْنَا وَوَجَّهْنَا ﴿يَعَى﴾ يضعف ويعجز من الإعياء وهو التعب والعجز.

التفسير: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ أي وذكرهم يا محمد يوم يكشف الغطاء عن نار جهنم، وتبرز للكافرين فيقرَّبون منها وينظرون إليها ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ في الكلام حذف، أي: ويقال لهم تقريعًا وتوبيخًا: أذهبتُم طيباتكم، أي: لقد نلتُم وأصبتُم لذائد الدنيا وشهواتها فلم يبق لكم نصيب اليوم في الآخرة قال في البحر: والطيبات هنا المستلذات من المأكَل والمشارب، والملابس والمفارش. والمراكب والمواطىء، وغير ذلك مما ينتعم به أهل الرفاهية^(٢) ﴿وَأَسْتَمْتُمْ بِهَا﴾ أي وتمتعتم بتلك اللذائذ والطيبات في الدنيا قال المفسرون: المراد بالآية إنكم لم تؤمنوا حتى تناولوا نعيم الآخرة، بل اشتغلتُم بشهوات الدنيا ولذائذها عن الإيمان والطاعة، وأفنيتم شبابكم في الكفر والمعاصي، وأثرتم الفاني على الباقي، فلم يبق لكم بعد ذلك شيء من النعيم، ولهذا قال بعده ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي ففي هذا اليوم يوم الجزاء تناولون عذاب الذلِّ والهوان ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي بسبب استكباركم في الدنيا عن الإيمان وعن الطاعة ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أي وبسبب فسقكم وخروجكم عن طاعة الله، وارتكاب الفجور والآثام قال الإمام الفخر: وهذه الآية تدل على المنع من التنعم، لأن هذه الآية وردت في حق الكافر، وإنما وبَّخ الله الكافر لأنه يتمتع بالدنيا ولا يؤدي شكر المنعم بطاعته والإيمان به، وأما المؤمن فإنه يؤدي بإيمانه شكر المنعم فلا يوبخ بتمتعته ودليله ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]! نعم لا يُنكر أن الاحتراز عن التنعيم أولى، وعليه يُحمل قول عمر «لو شئتُ لكنتُ أطيبكم طعامًا، وأحسنكم لباسًا، ولكنني أستبقي طيباتي لحياتي الآخرة»^(٣) وقال في التسهيل: الآية في الكفار بدليل قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهي مع ذلك واعظةٌ لأهل التقوى من المؤمنين، ولذلك قال عمر لجابر بن عبد الله وقد رآه اشترى لحمًا: «أو كلما اشتهى أحدكم شيئًا جعله في بطنه» أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية ممن قال الله فيهم ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾^(٤)!! ﴿وَأَذْكُرْنَا عَادٍ﴾ أي اذكر يا محمد لهؤلاء المشركين قصة نبي الله هود عليه السلام مع قومه

(١) «تفسير القرطبي» ١٦ / ٢٠٣.

(٢) «البحر المحيط» ٨ / ٦٣.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٨ / ٢٥.

(٤) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤ / ٤٤.

عَادٍ لِيَعْتَبَرُوا بِهَا ﴿إِذْ أَنْذَرْنَا قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ أي حين حذر قومه من عذاب الله إن لم يؤمنوا وهم مقيمون بالأحقاف وهي تلالٌ عظيمة من الرمل في بلاد اليمن قال ابن كثير: الأحقاف جمع حَقَف وهو الجبل من الرمل، قال قتادة: كانوا حيًّا باليمن أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يُقال لها: الشَّحْر^(١) ﴿وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ﴾ أي وقد مضت الرسل بالإنذار من قبل هود ومن بعده، والجملة اعتراضية وهي إخبار من الله تعالى أنه قد بعث رسلاً متقدمين قبل هود وبعدة ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي حذرهم هود عليه السلام قائلًا لهم: بأن لا تعبدوا إلا الله ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي إني أخاف عليكم إن عبدتم غير الله عذاب يوم هائل وهو يوم القيامة ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتْفِكَنَّهُ عَنْ آلِهَتِنَا﴾ أي قالوا جوابًا لإنذاره: أجيئنا يا هود لتصرفنا عن عبادة آلِهتنا؟ وهو استفهام، يراد منه التسفيه والتجهيل لِمَا دعاهم إليه ﴿فَأَنَّا يَمُنَّ بَعْدَنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي فأتنا بالعذاب الذي وعدتنا به إن كنت صادقًا فيما تقول، قال ابن كثير: استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعادًا منهم لوقوعه^(٢) ﴿قَالَ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي قال لهم هود: ليس علم وقت العذاب عندي إنما علمه عند الله ﴿وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ أي وإنما أنا مبلغٌ ما أُرسلني به الله إليكم ﴿وَلَنَكُنِّيَ أَرْبَكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ أي ولكني أجِدكم قَوْمًا جهلة في سؤالكم استعجال العذاب ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ﴾ أي فلما رأوا السحاب معترضًا في أفق السماء متجهًا نحو أوديتهم استبشروا به ﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطَرٌ﴾ أي وقالوا هذا السحاب يأتينا بالمطر قال المفسرون: كانت عاد قد أبطأ عنهم المطر، وفُحطوا مدةً طويلةً من الزمن، فلما رأوا ذلك السحاب العارض ظنوا أنه مطر ففرحوا به واستبشروا وقالوا: هذا عارضٌ ممطرنا ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ أي قال لهم هود: ليس الأمر كما زعمتم أنه مطر، بل هو ما استعجلتم به من العذاب ثم فسره بقوله ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي هو ريحٌ عاصفة مدمرة فيها عذابٌ فظيع مؤلم ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي تُخرب وتهلك كل شيء أتت عليه من رجالٍ ومواشي وأموال، بأمره تعالى وإذنه قال ابن عباس: أول ما جاءت الريح على قوم عاد، كانت تأتي على الرجال والمواشي فترفعهم من الأرض وتطير بهم إلى السماء حتى يصبح الواحد منهم كالريشة، ثم تضر بهم على الأرض، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم، فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم، فهي التي قال الله فيها ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي تدمر كل شيء مرت عليه من رجال عادٍ وأموالها، والتدميرُ الهلاك^(٣)، وفي الحديث عن عائشة قالت: «كَانَ ﷺ إِذَا رَأَى غَيْمًا أَوْ رِيحًا عَرَفَ فِي وَجْهِهِ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْغَيْمَ فَرِحُوا، رَجَاءَ

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٢٢.

(٢) نفس المرجع السابق والصفحة.

(٣) انظر «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٠٦.

أَنْ يَكُونَ فِيهِ الْمَطَرُ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ عُرِفَ فِي وَجْهِكَ الْكَرَاهِيَةُ؟ فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ مَا يُؤْمِنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ؛ عَذَّبَ قَوْمٌ بِالرَّيْحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمُ الْعَذَابِ فَقَالُوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّطَرْنَا﴾»^(١) ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَوْنَ إِلَّا مَسْكِنَهُمْ﴾ أي فأصبحوا هلكى لا ترى إلا مساكنهم، لأن الريح لم تبق منهم إلا الآثار والديار خاوية ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي بمثل هذه العقوبة الشديدة نعاقب من كان عاصياً مجرماً قال الرازي: والمقصود منه تخويف أهل مكة^(٢)، ولهذا قال بعده ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّكُمْ فِيهِ﴾ «إِنْ» نافية بمعنى «ما» أي ولقد مكنا عَادًا في الذي لم نمكنكم فيه يا أهل مكة من القوة، والسَّعة، وطول الأعمار^(٣)، وهو خطاب لكفار مكة على وجه التهديد ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرَ وَأَفْئِدَةً﴾ أي وأعطيناهم الأسماع والأبصار والقلوب، ليعرفوا تلك النعم ويستدلوا بها على الخالق المنعم ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي فما نفعتهم تلك الحواس أي نفع، ولا دفعت عنهم شيئاً من عذاب الله قال الإمام الفخر: المعنى أَنَا فتحنا عليهم أبواب النعم: أعطيناهم سمعاً فما استعملوه في سماع الدلائل، وأعطيناهم أبصاراً فما استعملوها في تأمل العبر، وأعطيناهم أفئدة فما استعملوها في طلب معرفة الله، بل صرفوا كل هذه القوى إلى طلب الدنيا ولذاتها، فلا جرم أنها لم تُغْنِ عنهم من عذاب الله شيئاً ﴿إِذْ كَانُوا يَحْجِدُونَ بِتَايَتِ اللَّهِ﴾ تعليل لما سبق أي لأنهم كانوا يكفرون وينكرون آيات الله المنزلة على رسله ويكذبون رسله ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي ونزل وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستعجلون به بطريق الاستهزاء ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى﴾ تخويف آخر لكفار مكة، أي: ولقد أهلكنا القرى المجاورة لكم يا أهل مكة والمحيطه بكم، كقرى عاد وثمود وسبأ وقوم لوط، والمراد بإهلاك القرى إهلاك أهلها ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي وكررنا الحجج والدلالات، والمواعظ والبيّنات، أوضحناها وبيّناها لهم لعلهم يرجعون عن كفرهم وضلالهم ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ أي فهلاً نصرتهم آلهتهم التي ترقبوا بها إلى الله بزعمهم، وجعلوها شفعاءهم لتدفع عنهم العذاب؟! و«لولا» تحضيضية بمعنى هلاً ومعناها النفي، أي: لم تنصرهم آلهتهم ولم تدفع عنهم عذاب الله ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ أي غابوا عن نصرتهم وهم أحوج ما يكونون إليهم، فإن الصديق وقت الضيق قال أبو السعود: وفي الآية تهكم بهم كأن

(١) أخرجه البخاري. (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٢) «التفسير الكبير» للرازي ٢٨/٢٩.

(٣) ذهب بعض المفسرين إلى أن «إِنْ» زائدة، والمعنى: ولقد مكناهم فيما مكناكم فيه أي في مثل الذي مكناكم فيه، والأول أرجح لأن المقصود أنهم كانوا أقوى منكم ومع ذلك ما نجوا من عقاب الله فكيف يكون حالكم؟ وإنما لم يؤت بـ«ما» فيقال: فيما مكناكم فيه، دفعا لثقل التكرار؟ (ش): هكذا في أكثر من طبعة والصواب أن يقال: وإنما لم يؤت بـ«ما» فيقال: فيما ما مكناكم فيه، دفعا لثقل التكرار؟

عدم نصرهم كان لغيتهم^(١) ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْرُوتُونَ﴾ أي وذلك الذي أصابهم هو كذبهم وافتراؤهم على الله، حيث زعموا أن الأصنام شركاء الله وشفعاء لهم عند الله ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ أي واذكر يا محمد حين وجَّهنا إليك وبعثنا جماعة من الجن ليستمعوا القرآن قال البيضاوي: والنفر دون العشرة، روي أنهم وافوا رسول الله ﷺ بوادي النخلة عند منصرفه من الطائف يقرأ في تهجده القرآن^(٢) ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾ أي فلما حضروا القرآن عند تلاوته قال بعضهم لبعض: استكثروا لاستماع القرآن قال القرطبي: هذا توبيخ لمشركي قريش، أي إن الجن سمعوا القرآن فآمنوا به وعلموا أنه من عند الله، وأنتم معرَّضون مُصْرُونَ على الكفر^(٣) ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ أي فلما فرغ من قراءة القرآن رجعوا إلى قومهم مُخَوِّفِينَ لهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا قال الرازي: وذلك لا يكون إلا بعد إيمانهم، لأنهم لا يدعون غيرهم إلى استماع القرآن والتصديق به إلا وقد آمنوا^(٤) ﴿قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ أي سمعنا كتابًا رائعًا مجيدًا منزَّلًا على رسول من بعد موسى قال ابن عباس: إن الجن لم تكن قد سمعت بأمر عيسى عليه السلام^(٥) ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي مُصَدِّقًا لما قبله من التوراة ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي هذا القرآن يرشد إلى الحق المبين، وإلى دين الله القويم ﴿يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ﴾ أي أجيبوا محمدًا ﷺ فيما يدعوكم إليه من الإيمان وصدقوا برسالته ﴿يَغْفِر لَكُمْ مِن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي يمحو الله عنكم الذنوب والآثام ﴿وَيُجْزِكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ أي ويخلصكم وينجكم من عذاب شديد مؤلم ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ هذا ترهيب بعد الترغيب أي ومن لم يؤمن بالله ويستجب لدعوة رسوله، فإنه لا يفوت الله طلبًا، ولا يعجزه

(١) «تفسير أبي السعود» ٦٩/٥.

(٢) حاشية البيضاوي ٣/ ٣٤١. (ش): عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: انْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَازٍ، وَقَدْ جِئَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ فَقَالُوا: «مَا لَكُمْ؟». فَقَالُوا: «حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ». قَالُوا: «مَا حَالُ بَيْنِكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلَّا مَا حَدَّثَ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَانْظُرُوا مَا هَذَا الْأَمْرُ الَّذِي حَدَّثَ». فَانْطَلَقُوا فَضَرَبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا يَنْظُرُونَ مَا هَذَا الْأَمْرُ الَّذِي حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ. قَالَ: فَانْطَلَقَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تَهَامَةٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - بِنَخْلَةٍ، وَهُوَ عَامِدٌ إِلَى سُوقِ عُكَازٍ، وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ تَسَمَّعُوا لَهُ فَقَالُوا: «هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ». فَهَذَاكَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا: «يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ، وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا». وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ ﴿قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ وَإِنَّمَا أُوْحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الْجِنِّ. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(٣) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢١٠.

(٤) «التفسير الكبير» ٢٨/ ٣٢.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٧٠.

هَرَبًا ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ أي وليس له أنصار يمنعونه من عذاب الله ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي أولئك الذين لا يستجيبون لدعوة الله في خسران واضح، وإلى هنا آخر كلام الجن الذين سمعوا القرآن، ثم ذكر تعالى الأدلة على قدرته ووحدانيته فقال ﴿وَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي أولم يعلم هؤلاء الكفار المنكرون للبعث والنشور أن الله العظيم القدير الذي خلق السموات والأرض ابتداءً من غير مثال سابق ﴿وَلَمْ يَعَىٰ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أي ولم يضعف ولم يتعب بخلقهن ﴿بِقَدْرِ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾؟ أي قادرٌ على أن يعيد الموتى بعد الفناء، ويحييهم بعد تمزق الأشلاء؟ ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي بلى إنه تعالى قادر لا يعجزه شيء، فكما خلقهم يعيدهم ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ أي واذكري يا محمد لهؤلاء المشركين الأهوال والشدائد التي يرونها في الآخرة، وذكرهم يوم يُعرضون على النار فيقال لهم ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾؟ أي أليس هذا العذاب الذي تدوقونه حقاً؟ ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥] ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أي قالوا: بلى وعزة ربنا، أكدوا كلامهم بالقسم طمعاً في الخلاص قال الفخر الرازي: والمقصود بالآية التهكم بهم، والتوبيخ على استهزائهم بوعد الله ووعيده وقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ ^(١) [الشعراء: ١٣٨] ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي فيقال لهم: ذوقوا العذاب الأليم بسبب كفركم ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرْنَا وَأُولُوا الْعُزْرِ مِنْ أَرْسُلِ﴾ أي فاصبر يا محمد على أذى المشركين كما صبر مشاهير الرسل الكرام وهم «نوح وإبراهيم وموسى وعيسى» ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ أي ولا تدع على كفار قريش تعجيل العذاب فإنه نازل بهم لا محالة ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ أي كأنهم حين يعاينون العذاب في الآخرة لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة واحدة من النهار، لما يشاهدون من شدة العذاب وطوله ﴿بَلَّغْ﴾ أي هذا بلاغ وإنذار ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي لا يكون الهلاك والدمار إلا للكافرين الخارجين عن طاعة الله.

تنبيه: قال المفسرون: «إن الجن كانوا يسترقون السمع، فلما حُرست السماء بالشهب، قال إبليس: إن هذا الذي حدث بالسماء من أمر حدث في الأرض، فبعث سراياه ليعرف الخبر، فذهب ركبٌ من نصيبين وهم أشراف الجن إلى تهامة، فلما بلغوا باطن نخلة سمعوا النبي ﷺ يصلي ويتلو القرآن، فاستمعوا له وقالوا: أنصتوا ثم لما انتهى ﷺ من القراءة آمنوا ثم رجعوا إلى قومهم منذرين فدعواهم إلى الإيمان، وجاءوا بعد ذلك جماعات جماعات إلى النبي ﷺ فذلك سبب قوله تعالى ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾ ^(٢).

(١) «التفسير الكبير» ٢٨ / ٣٤.

(٢) (ش): راجع حديث البخاري ومسلم الذي سبق ذكره في التعليق السابق.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبدیع نوجزها فيما يلي:

- ١ - التعجيز ﴿ اَتْتُونِي بِكِتَابٍ مِّنْ قَبْلِ هٰذَا ﴾ [الأحقاف: ٤] أمرٌ يراد منه التعجيز.
- ٢ - جناس الاشتقاق ﴿ يَدْعُوا .. وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ ﴾ ومثله ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ ﴾ [الأحقاف: ١٠].
- ٣ - الطباق بين ﴿ وَكَفَرْتُمْ .. فَتَآمَنَ ﴾ وبين ﴿ وَيُنذِرَ .. وَبُشِّرَى ﴾.
- ٤ - ذكر الخاص بعد العام ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ ﴾ ثم قال ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا ﴾ [الأحقاف: ١٥] فذكر الخاص بعد العام لزيادة العناية والاهتمام بشأن الأم لحقها العظيم.
- ٥ - الطباق بين ﴿ حَمَلَتْهُ .. وَوَضَعَتْهُ ﴾.
- ٦ - صيغة الحصر ﴿ مَا هٰذَا إِلَّا أَسْطُرٌ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٧].
- ٧ - الاستعارة ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ تَمَاعِلُكُمْ ﴾ [الأحقاف: ١٩] استعار الدرجات للمراتب، للسعداء والأشقياء.
- ٨ - الإيجاز بالحذف مع التوبيخ والتقريع ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ أي يقال لهم: أذهبتم.
- ٩ - الإطناب بتكرار اللفظ ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً ﴾ ثم قال ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ ﴾ لزيادة التقييح والتشنيع عليهم.
- ١٠ - توافق الفواصل مما يزيد في جمال الكلام وحسن تناسقه وهو من المحسنات البديعية مثل ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الجاثية: ٣٣] ﴿ وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ﴿ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَرُونَ ﴾ إلخ.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأحقاف»



سُورَةُ مُحَمَّدٍ

٣٨

٤٧

مدنية وآياتها ثمان وثلاثون

بين يدي السورة

* سورة محمد من السور المدنية، وهي تعنى بالأحكام التشريعية، شأن سائر السور المدنية، وقد تناولت السورة أحكام القتال، والأسرى، والغنائم، وأحوال المنافقين، ولكن المحور الذي تدور عليه السورة هو موضوع «الجهاد في سبيل الله».

* ابتدأت السورة الكريمة بدءاً عجيباً بإعلان حرب سافرة على الكفار أعداء الله، وأعداء رسوله، الذين حاربوا الإسلام، وكذبوا الرسول ﷺ، ووقفوا في وجه الدعوة المحمدية، ليصدوا الناس عن دين الله ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ الآيات..

* ثم أمرت المؤمنين بقتال الكافرين، وحصدهم بسيوف المجاهدين، لتطهير الأرض من رجسهم، حتى لا تبقى لهم شوكة ولا قوة، ثم دعت إلى أسرهم بعد إكثار القتل فيهم والجراحات ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوُفُقَ...﴾ الآيات.

* ثم بينت طريق العزة والنصر، ووضعت الشروط لنصرة الله لعباده المؤمنين، وذلك بالتمسك بشريعته، ونصرة دينه ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾.

* وتحدثت السورة بإسهاب عن صفات المنافقين، باعتبارهم الخطر الداهم على الإسلام والمسلمين، فكشفت عن مساوئهم ومخازيهم ليحذر الناس مكرهم وخبثهم ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِمَتِهِمْ﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بدعوة المؤمنين إلى سلوك طريق العزة والنصر، بالجهاد في سبيل الله وعدم الوهن والضعف أمام قوى الشر والبغي، وحذرتهم من الدعوة إلى الصلح مع الأعداء، حرصاً على الحياة والبقاء، فإن الحياة الدنيا زائلة فانية، وما عند الله خير للأبرار ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَتَمَلَّكُمْ﴾ (٣٥) إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ وَلَنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ...﴾ إلى نهاية السورة الكريمة.

* وهكذا ختمت السورة بالدعوة إلى الجهاد، كما بدأت بالدعوة إليه، حفزاً للعزائم المؤمنين، وليتناسق البدء مع الختام ألطف التتام!!

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَانَ فِإِذَا مِنْ مَّأْتًا بَعْدُ وَإِذَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴿٤﴾ سَيَجْزِيهِمْ وَصْلَهُم بِالْهَمِّ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴿٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصْلَ أَعْمَالُهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْطَبُوا أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَرِ اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنْ اللَّهُ يُدْخِلِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَبَّهُونَ وَيَاكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَنْ كَانَ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٤﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاهُهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ يَقُولُهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴿١٨﴾ فَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ

اللغة: ﴿كَفَرُ﴾ أزال ومحا ﴿أَتَخْتَمُوهُمْ﴾ أكثرتم فيهم القتل والجراح والأسر قال في المصباح: أثنخ في الأرض إثنخاً، سار إلى العدو وأوسعهم قتلاً، وأثنخته الجراحة أو هنته وأضعفته^(١) ﴿الْوَتَانُ﴾ القيد والحبس الذي يربط به ﴿مَتًّا﴾ إطلاق الأسير من غير فدية ﴿أَوْزَارُهَا﴾ آلاتها وأثقالها وهي الأسلحة والعتاد يقال: وضعت الحرب أوزارها أي انقضت الحرب وانتهت، وأصل الأوزار الأثقال من السلاح والخيال قال الشاعر:

وَأَعْدَدْتُ لِلْحَرْبِ أَوْزَارَهَا رِمَاحًا طَوَالًا وَخَيْلًا ذُكُورًا^(٢)
﴿فَتَعَسَا﴾ شقاءً وهلاكاً ﴿ءَاسِنٍ﴾ متغيّرٍ ومتننٍ ﴿حَمِيمًا﴾ حارًّا شديد الحرارة ﴿ءَانِفًا﴾ الآن، من قولهم: استأنف الأمر إذا ابتدأ به ﴿أَشْرَاطُ﴾ أمارات وعلامات.

(١) «المصباح المنير» مادة ثخن.

(٢) البيت للأعشى كذا في «القرطبي» ٢٢٩/١٦.

التفسير: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هذا إعلان حربٍ من الله تعالى على أعدائه وأعداء دينه. والمعنى: الذين جحدوا بآيات الله وأعرضوا عن الإسلام، ومنعوا الناس عن الدخول فيه ﴿أَصْلَحَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي أبطلها وأحبطها وجعلها ضائعة لا ثواب لها لأنها لم تكن لله فبطلت، والمراد أعمالهم الصالحة كإطعام الطعام، وصلة الأرحام، وقرى الضيف^(١) قال الزمخشري: وحقيقة إضلال الأعمال جعلها ضالة ضائعة، ليس لها من يتقبلها ويشب عليها كالأضالة من الإبل، التي لا رب لها يحفظها ويعتني بأمرها، والمراد أعمالهم التي عملوها في كفرهم بما كانوا يسمونه «مكارم الأخلاق»، من صلة الأرحام، وفك الأسارى، وقرى الأضياف، وحفظ الجوار^(٢) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي جمعوا بين الإيمان الصادق، والعمل الصالح^(٣) ﴿وَمَا آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ أي صدقوا بما أنزل الله على رسوله محمد ﷺ تصديقًا جازمًا لا يخالجه شك ولا ارتياب وهو عطف خاص على عام، والنكتة فيه تعظيم أمره والاعتناء بشأنه، إشارة إلى أن الإيمان لا يتم بدونه^(٤)، ولذا أكد بقوله ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي وهو الثابت المؤكد المقطوع بأنه كلام الله ووحية المنزل من عند الله، والجملة اعتراضية لتأكيد السابق ﴿كَفَرَتْ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي أزال ومحا عنهم ما مضى من الذنوب والأوزار ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي أصلح شأنهم وحالهم، في دينهم ودنياهم، ثم بين تعالى سبب ضلال الكفار، واهتداء المؤمنين فقال ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ أي ذلك الإضلال لأعمال الكفار بسبب أنهم سلكوا طريق الضلال، واختاروا الباطل على الحق ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي وأن المؤمنين سلكوا طريق الهدى، وتمسكوا بالحق والإيمان المنزل من عند الرحمن ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ أي مثل ذلك البيان الواضح، بين الله أمر كل من الفريقين المؤمنين والكافرين بأوضح بيان وأجلى برهان ليعتبر الناس ويتعظوا.. وبعد إعلان هذه الحرب السافرة على الكافرين أمر تعالى المؤمنين بجهادهم فقال ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أي فإذا أدركتم الكفار في الحرب فاحصدوهم حصدًا بالسيوف قال في التسهيل: وأصله فاضربوا الرقاب ضربًا ثم حذف الفعل وأقام المصدر مقامه والمراد: اقتلوه، ولكن

(١) (ش): قرى الضيف، قرى: أضافه وأكرمه، أحسن إليه.

(٢) «الكشاف» ٤/ ٢٥٠.

(٣) (ش): هذا التعبير يعطي التفريق بين الإيمان والعمل، وأنه يمكن أن يكون إيمان صادق بدون عمل، والصواب: أن العمل جزء من الإيمان فلا يكون إيمان بدون عمل، وعطف العمل على الإيمان من عطف الخاص على العام اهتمامًا به.

(٤) «حاشية الصاوي» ٨١/ ٤. (ش): والصواب أن الإيمان لا يصح بدون التصديق بما أنزل على النبي محمد ﷺ لأن التمام غير الصحة، فتمام الأمر كماله.

عَبَّرَ عَنْهُ بِضَرْبِ الرِّقَابِ، لِأَنَّهُ الْغَالِبُ فِي صِفَةِ الْقَتْلِ ^(١) ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَنْخَسْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ أَيِ حَتَّىٰ إِذَا هَزَمْتُمُوهُمْ وَأَكْثَرْتُمْ فِيهِمُ الْقَتْلَ وَالْجَرَاحَاتِ وَلَمْ تَبْقَ لَهُمْ قُوَّةٌ لِلْمَقَاوِمَةِ فَأَسْرَوْهُمْ وَكُفُّوا عَنْ قَتْلِهِمْ قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: وَفِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ ﴿فَضْرَبَ الرِّقَابَ﴾ مِنَ الْغَلْظَةِ وَالشَّدَةِ مَا لَيْسَ فِي لَفْظِ الْقَتْلِ، لَمَّا فِيهَا مِنْ تَصْوِيرِ الْقَتْلِ بِأَشْنَعِ صُورَةٍ، وَهُوَ حَزُّ الْعُنُقِ وَإِطَارَةُ رَأْسِ الْبَدَنِ، وَلَقَدْ زَادَ فِي هَذِهِ الْغَلْظَةِ فِي قَوْلِهِ ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢] وَمَعْنَى ﴿أَنْخَسْتُمُوهُمْ﴾ أَكْثَرْتُمْ قَتْلَهُمْ وَأَغْلَظْتُمُوهُمُ ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ أَيِ فَأَسْرَوْهُمْ، وَالْوَثَاقُ اسْمٌ لِمَا يَرِبُطُ مِنْ حَبْلِ وَغَيْرِهِ ^(٢) ﴿فَلَمَّا مَتَابَعَدُوا وَمَا فِدَاءٌ﴾ أَيِ ثُمَّ أَنْتُمْ مَخِيرُونَ بَعْدَ أَسْرِهِمْ إِمَّا أَنْ تَمُتُّوْا عَلَيْهِمْ وَتَطْلُقُوا سَرَاحَهُمْ بِلَا مِقَابِلٍ مِنْ مَالٍ، أَوْ تَأْخُذُوا مِنْهُمْ مَا لَا فِدَاءَ لِنَفْسِهِمْ، وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ تَكُونُوا قَدْ كَسَرْتُمْ شَوْكَتَهُمْ، وَأَعْجَزْتُمُوهُمْ بِكَثْرَةِ الْقَتْلِ وَالْجَرَاحِ ﴿حَتَّىٰ نَضَعَ الْحَرْبُ أَوْرَاقَهَا﴾ أَيِ حَتَّىٰ تَنْقُضِي الْحَرْبُ وَتَنْتَهِيَ بَوَاضِعُ آلَاتِهَا وَأَثْقَالُهَا، وَتَنْتَهِيَ الْحَرْبُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمَنَاوِئِينَ لَهُمْ، وَذَلِكَ بَعْزَةُ الْإِسْلَامِ وَانْدِحَارُ الْمُشْرِكِينَ ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنْصَرَفْنَا مِنْهُمْ﴾ أَيِ الْأَمْرُ فِيهِمْ مَا ذُكِرَ، وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ لَا تَنْصَرَفْنَا مِنْهُمْ وَأَهْلَكَهُمْ بِقُدْرَتِهِ، دُونَ أَنْ يَكْلِفَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ إِلَى قِتَالِهِمْ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيِ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَا تَنْتَقِمُ مِنَ الْكَافِرِينَ بِعُقُوبَةٍ وَنَكَالٍ مِنْ عِنْدِهِ ^(٣) ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوْا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ أَيِ وَلَكِنَّهُ أَمْرُكُمْ بِجِهَادِهِمْ لِيَخْتَبِرَ إِيْمَانَكُمْ وَثَبَاتَكُمْ، فَيُظْهِرَ حَالَ الصَّادِقِ فِي الْإِيْمَانِ مِنْ غَيْرِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ [محمد: ٣١] وَلِيَتْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْكَافِرِينَ وَالْكَافِرِينَ بِالْمُؤْمِنِينَ، فَيَصِيرُ مَنْ قُتِلَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ قُتِلَ مِنَ الْكَافِرِينَ إِلَى النَّارِ وَلِهَذَا قَالَ ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ أَيِ وَالَّذِينَ اسْتَشْهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُبْطِلَ اللَّهُ عَمَلَهُمْ، بَلْ يَكْثُرُهُ وَيُضَاعِفُهُ وَيَنْمِيهِ ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ أَيِ سَيَهْدِيهِمْ إِلَى مَا يَنْفَعُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، بِتَوْفِيقِهِمْ إِلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَإِرْشَادِهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ دَارِ الْأَبْرَارِ ﴿وَيُضِلُّهُمْ بِالْهَمِّ﴾ أَيِ وَيُضِلُّهُمْ حَالَهُمْ وَشَأْنَهُمْ ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا كُهُمُ﴾ أَيِ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ دَارَ النِّعَمِ يَبَيِّنُهَا لَهُمْ بِحَيْثُ يَعْلَمُ كُلَّ وَاحِدٍ مَنْزِلَهُ وَيَهْتَدِي إِلَيْهِ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَهْتَدِي أَهْلُهَا إِلَى بَيْتِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ لَا يَخْطِئُونَ كَأَنَّهُمْ سَكَنُوهَا مِنْذُ خُلِقُوا ^(٤) وَفِي الْحَدِيثِ «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا أَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا» ^(٥) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ﴿أَيِ إِنْ تَنْصَرُوا دِينَهُ يَنْصَرِكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ﴾ وَيُثَبِّتُ أَقْدَامَكُمْ ﴿أَيِ وَيَشْتِكُمْ فِي مَوَاطِنِ الْحَرْبِ﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمُ﴾ أَيِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَآيَاتِهِ فَهَلَاكًا وَشَقَاءً لَهُمْ،

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٤٦.

(٢) «الكشاف» ٤/ ٢٥١.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٣٠.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٧٥.

(٥) جزء من حديث رواه البخاري.

وهو دعاءٌ عليهم بالتعاسة والخيبة والخذلان ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ﴾ أي أبطلها وأحبطها لأنها كانت في طاعة الشيطان ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي ذلك التّعس والإضلال بسبب أنهم كرهوا ما أنزل الله من الكتب والشرائع قال الزمخشري: أي كرهوا القرآن وما أنزل الله فيه من التكليف والأحكام، لأنهم قد ألقوا الإهمال وإطلاق العنان في الشهوات والملاذ^(١) فشق عليهم ذلك وتعاضمهم^(٢) ﴿فَأَحْطَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ أي أذهبها وأضاعها لأن الإيمان شرط لقبول الأعمال، والشرك محبط للعمل، ثم خوّفهم تعالى عاقبة الكفر فقال ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي أفلم يسافر هؤلاء ليروا ما حلّ بمن سبقهم من الأمم الطاغية كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم من المجرمين، كيف كان مآلهم؟ وماذا حلّ بهم من العذاب؟ فإن آثار ديارهم تنبئ عن أخبارهم ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي أهلكهم الله، واستأصل كل ما يخصهم من مالٍ وبنين ومتاع، فإذا هو أنقاض متراكمة وإذا هم تحت هذه الأنقاض «ودمّر عليهم» أبلغ من دمّرهم لأن معناها أهلكهم مع أموالهم ودورهم وأولادهم وأطبق عليهم الهلاك إطباقاً فلم يبق شيء إلا شمله الدمار ﴿وَالْكَافِرِينَ أَهْلُهَا﴾ أي ولكفار مكة أمثال تلك العاقبة الوخيمة والعذاب المدمر ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي وليهم وناصرهم ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ أي لا ناصر لهم ولا معين ولا مغيث، ثم بين تعالى مآل كل من الفريقين المؤمنين والكافرين في الآخرة فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي يدخل المؤمنين جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ أي والكافرون في الدنيا يتتفعون بشهواتها ولذائذها، ويأكلون كما تأكل البهائم، ليس لهم همٌ إلا بطونهم وفروجهم ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ أي وجههم مقامهم ومنزلهم في الآخرة قال الزمخشري: المراد أنهم يتتفعون بمتاع الدنيا أياماً قلائل، ويأكلون غافلين غير مفكرين في العاقبة كما تأكل الأنعام في مسارحها ومعالفها غافلة عما هي بصده من النحر والذبح، والنار منزل ومقام لهم في الآخرة.^(٣)

ثم سأل تعالى رسوله ﷺ فقال ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَةٍ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ﴾ أي وكم من أهل قرية^(٤) عاتية ظالمة كانوا أقوى من أهل مكة الذين أخرجوك منها ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ أي أهلكناهم بأنواع العذاب فلم ينصرهم أحد فكذلك نفعل بهؤلاء قال ابن عباس: لما خرج النبي ﷺ من مكة واختفى بالغار ثم خرج مهاجراً إلى المدينة، التفت إلى مكة ثم قال «إنك لأحب البلاد إلى الله، وأحب البلاد إليّ، ولولا أن قومك أخرجونني منك

(١) (ش): أطلق له العنان: تركه يفعل ما يشاء.

(٢) «الكشاف» ٢٥٣/٤.

(٣) «تفسير الكشاف» ٢٥٣/٤.

(٤) الكلام على حذف مضاف أي من أهل قرية وهو مجاز مشهور.

ما خرجت فنزلت الآية^(١) ﴿أَفَن كَانَ عَلَىٰ يَتَةِ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي هل من كان على حجة وبصيرة، وثبات ويقين من أمر دينه ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾؟ أي كمن زُيِّنَ له عمله القبيح فرآه حسناً؟ ﴿وَأَتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي أنهمكوا في الضلال حتى عبدوا الهوى؟ ليس هذا كهذا، وإنما جاء بصيغة الجمع مراعاة للمعنى قال المفسرون: يريد بـ ﴿أَفَن كَانَ عَلَىٰ يَتَةِ﴾ رسول الله ﷺ وبمن ﴿زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ أبا جهل وكفار قريش. واللفظ أعم لأن الغرض المباشرة بين من يعبد الله، وبين من يعبد هواه، ولذلك مثل بعده بالفارق الكبير بين الجنة والنار فقال ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أي صفة الجنة الغريبة العجيبة الشأن، التي وعد الله بها عباده الأبرار وأعدّها للمتقين الأخيار ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ أي فيها أنهار جاريات من ماء غير متغير الرائحة قال ابن مسعود: أنهار الجنة تفجر من جبل من مسك^(٢) ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ أي وأنهار جاريات من حليب في غاية البياض والحلاوة والدسامة، لم يحمض بطول المقام ولم يفسد كما تفسد ألبان الدنيا وفي حديث مرفوع «لم يخرج من ضروع الماشية»^(٣) ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ حَمْرٍ لَّدَةِ الشَّارِبِينَ﴾ أي وأنهار جاريات من خمر لذينة الطعم يتلذذ بها الشاربون لأنه ﴿لَا فِيهَا عُوقٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُزْفُونَ﴾ [الصفات: ٤٧] وإنما قيدها بأنها لذة للشاربين، لأن الخمر كريهة الطعم في الدنيا لا يلتذ بها إلا فاسد المزاج، وأما خمر الآخرة فهي طيبة الطعم والرائحة، يشربها أهل الجنة لمجرد الالتذاذ ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ أي وأنهار جاريات من عسل في غاية الصفاء وحسن اللون والريح، لم يخرج من بطون النحل قال أبو السعود: ﴿عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ أي لم يخالطه الشمع وفضلات النحل^(٤) ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي ولهم في الجنة أنواع متعددة من جميع أصناف الفواكه والثمار قال في حاشية البيضاوي: وفي ذكر الثمرات بعد المشروب إشارة إلى أن مأكول أهل الجنة للذة لا للحاجة^(٥) ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي ولهم فوق ذلك النعيم الحسن نعيم رُوحِي وهو المغفرة من الله مع الرحمة والرضوان وفي الحديث «أَحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي

(١) «حاشية الجمل على الجلالين» ٤/ ١٤٥. (ش): ضعيف جداً، رواه أبو يعلى في «المسند»، والطبري وابن أبي حاتم في «تفسيريهما». وعن عبد الله بن عدي بن حمراء الزهري قال: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ واقفاً على الحَزْوَرَةِ فَقَالَ: «وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ». (رواه الترمذي، وغيره، وصححه الألباني). (الحَزْوَرَةُ): كَانَ سَوْقٌ مَكَّةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَقَدْ أُدْخِلَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ. وعن ابن عباس رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمَكَّةَ «مَا أَطْيَبُكَ مِنْ بَلَدٍ وَأَحَبُّكَ إِلَيَّ وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أُخْرِجُونِي مِنْكَ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكَ». (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٣٢.

(٣) نفس المرجع السابق والصفحة. (ش): أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره»، وضعفه الألباني.

(٤) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٧٤.

(٥) «حاشية زاده على البيضاوي» ٣/ ٣٤٨.

فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»^(١) قال الصاوي: في الجنة ترفع عنهم التكاليف فيما يأكلونه ويشربونه، بخلاف الدنيا فإن مأكولها ومشروبها يترتب عليه الحساب والعقاب، ونعيم الآخرة لا حساب عليه ولا عقاب فيه^(٢) ﴿كَمَنْ هُوَ خَلِدٌ فِي النَّارِ﴾ أي كمن هو مخلد في الجحيم؟ والاستفهام للإنكار، أي: لا يستوي من هو في ذلك النعيم المقيم، بمن هو خالد في الجحيم؟ ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ﴾ أي وسقوا مكان تلك الأشربة ماءً حارًا شديد الغليان، فقطع أحشاءهم من فرط حرارته؟ قال المفسرون: بلغ الماء الغاية في الحرارة، إذا دنا منهم شوى وجوههم، ووقعت فروة رءوسهم، فإذا شربوه قطع أمعاءهم وأخرجها من دبورهم^(٣) ولما بين تعالى حال الكافرين، ذكر حال المنافقين فقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أي ومن هؤلاء المنافقين جماعة يستمعون إلى حديثك يا محمد ﴿حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي حتى إذا خرجوا من مجلسك ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا﴾ أي قالوا علماء الصحابة كابن عباس وابن مسعود: ماذا قال محمد قريبًا في تلك الساعة؟ قال ابن كثير: أخبر تعالى عن المنافقين في بلادتهم وقلة فهمهم، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه، فلا يفهمون منه شيئًا، فإذا خرجوا من عنده قالوا لأهل العلم من الصحابة: ماذا قال محمد ﴿آنفًا﴾ أي الساعة، لا يعقلون ما قال ولا يكثرثون به^(٤) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي ختم على قلوبهم بالكفر ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي ساوروا وراء أهوائهم الباطلة ﴿وَالَّذِينَ أَهْنَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ يَقُونَهُمْ﴾ أي وأما المؤمنون المتقون فقد زادهم الله هدى وألهمهم رشدهم قال الإمام الفخر: لما بين تعالى أن المنافق يستمع ولا ينتفع، ويستعيد ولا يستفيد، بين أن حال المؤمن المهتدي بخلافه، فإنه يستمع فيفهم، ويعمل بما يعلم، وفيه فائدة وهو قطع عذر المنافق، فإنه لو قال ما فهمت كلامه لغموضه، يُردُّ عليه بأن المؤمن فهم واستنبط، فذلك لعماء القلوب لا لخبفاء المطلوب^(٥) ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ أي فهل ينتظرون إلا قيام الساعة فجأة فتبغتهم وهم سادرون غارون غافلون^(٦)؟ ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي فقد جاءت أماراتها وعلا ماتها، ومنها بعثة خاتم الرسل ﷺ ﴿فَإِنَّ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ أي فمن أين لهم التذكر

(١) (ش): عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: «يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ». فَيَقُولُونَ: «لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ». فَيَقُولُ: «هَلْ رَضِيتُمْ؟». فَيَقُولُونَ: «وَمَا لَنَا لَا تَرْضَى يَا رَبَّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ نُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟». فَيَقُولُ: «أَلَا أُعْطِيَكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟». فَيَقُولُونَ: «يَا رَبَّ وَآيَ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟». فَيَقُولُ: «أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا». (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(٢) «حاشية الصاوي» ٤ / ٨٤.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٦ / ٢٣٧.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣ / ٣٣٣.

(٥) «التفسير الكبير» ٢٨ / ٥٨.

(٦) (ش): سِدْرُ الشَّخْصِ: اسْتَهْتَر، لَمْ يَهْتَمَّ بِمَا صَنَعَ وَلَمْ يُبَالِ. عَرَّ الرَّجُلُ، فَهُوَ غَارٌ: غَفَلَ.

إذا جاءتهم الساعة، حيث لا ينفع ندم ولا توبة؟ ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي فدم يا محمد على ما أنت عليه من العلم بوحداية الله ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَذُنُوبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي اطلب من الله المغفرة لك وللمؤمنين والمؤمنات ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ أي يعلم تصرفكم في الدنيا، ومصيركم في الآخرة، فأعدوا الزاد ليوم الميعاد.

قال الله تعالى:

وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَنَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْرٌ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُوتُ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ، فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْنَاهُمْ بِسِمَتِهِمْ وَلَعَرَفْنَاهُمْ فِي لَحَنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالُهُمْ ﴿٣٢﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَا تَوَّابُوا وَهُمْ كَفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ يُوَفِّيَكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِنْ يَسْأَلْكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ فَيُحْفَظْكُمْ بِحِلِّهَا وَيُخْرِجْ أَضْغَنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ

المناسبة: كان بدء السورة في الحديث عن الكافرين، ثم جاء عن المؤمنين، وهنا يأتي الحديث عن المنافقين، وقد استغرق الجانب الأكبر من السورة باعتبارهم الخطر الداهم على الإسلام والمسلمين، والآيات الكريمة تتحدث عن الجهاد وعن موقف المنافقين منه.

اللغة: ﴿سَوَّلَ﴾ زَيَّنَ وَسَهَّلَ ﴿أَضْغَنَهُمْ﴾ أَحْقَادَهُمُ الدِّينَةَ قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: الضَّغْنُ وَالضَّغِينَةُ: الْحَقْدُ، وَتَضَاغَنَ الْقَوْمُ أَبْطَنُوا عَلَى الْأَحْقَادِ ^(١) ﴿سِيمَاهُمْ﴾ عَلَامَتُهُمْ ﴿السَّلَامُ﴾ الصِّلَحُ وَالْمَوَادَعَةُ ﴿فَيُحْفَظْكُمْ﴾ يَلْحَ عَلَيْكُمْ يُقَالُ: أَحْفَى بِالْمَسْأَلَةِ وَالْحَفِّ وَالْحَ بِمَعْنَى

(١) «الصحاح» للجوهري مادة ضغن.

واحد ﴿يَتَرَكُكُمْ﴾ يُنْقِصُكُمْ يقال: وتره حقه أي نقصه.

التفسير: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي ويقول المؤمنون المخلصون شوقاً إلى الجهاد وحرصاً على ثوابه: هَلَّا أنزلت سورة فيها الأمر بالجهاد ﴿فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ تُحْكَمُ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ أي فإذا أنزلت سورة صريحة ظاهرة الدلالة على الأمر بالقتال قال القرطبي: ﴿تُحْكَمُ﴾ أي لم تنسخ وقد قال قتادة: كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة، وهي أشد القرآن على المنافقين ^(١) ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي رأيت المنافقين الذين في قلوبهم شك ونفاق ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي ينظرون إليك يا محمد تشخص أبصارهم جبناً وهلعاً، كما ينظر من أصابته الغشية من حلول الموت ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ﴾ أي فويلٌ لهم قال في التسهيل: وهي كلمة معناها التهديد والدعاء عليهم كقوله تعالى ﴿أُولَئِكَ فَأُولَئِكَ﴾ [القيامة: ٣٥] ^(٢) ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ مبتدأً محذوف الخبر أي طاعة لك يا محمد، وقولٌ جميلٌ طيبٌ خيرٌ لهم وأفضل وأحسن، قال الرازي: وهو كلام مستأنف محذوف الخبر تقديره خيرٌ لهم أي أحسن وأمثل، وإنما جاز الابتداء بالنكرة لأنها موصوفة ويدل عليه قوله ﴿وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ كأنه قال: طاعة مخلصه، وقولٌ معروفٌ خيرٌ لهم ^(٣) ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أي فإذا جدَّ الجدُّ وفُرض القتال ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أي فلو أخلصوا نياتهم وجاهدوا بصدقٍ ويقينٍ لكان ذلك خيراً لهم من التقاعس والعصيان، والجملة جواب الشرط ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ أي فلعلكم إن أعرضتم عن الإسلام أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية، من الإفساد في الأرض بالمعاصي، وقطع الأرحام! قال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تولَّوا عن كتاب الله، ألم يسفكوا الدم الحرام، ويقطعوا الأرحام، ويعصوا الرحمن؟ قال أبو حيان: يريد ما جرى من الفترة بعد زمان الرسول ﷺ ^(٤) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿فَأَصْمَهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ أي فأصمهم عن استماع الحق، وأعمى قلوبهم عن طريق الهدى فلا يهتدون إلى سبي الرشاد قال القرطبي: أخبر تعالى أن من فعل ذلك حقت عليه اللعنة، وسلبه الانتفاع بسمعته وبصره، حتى لا ينقاد للحق وإن سمعه، فجعله كالبهيمة التي لا تعقل ^(٥) ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ؟﴾ الاستفهام توبيخي، أي: أفلا يتفهمون القرآن ويتصفحونه ليروا ما فيه من المواعظ والزواجر،

(١) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٤٣.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٤٩، وذهب بعض المفسرين إلى أن معنى ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ﴾ أي أحق وأجدر بهم وخبره ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ وما ذكرناه أظهر وهو اختيار القرطبي.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٨/ ٦٢.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٨٢.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٤٦.

حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات؟! ﴿أَمَرَ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا﴾ «أم» بمعنى «بل» وهو انتقالٌ من توبيخهم على عدم التدبر إلى توبيخهم على ظلمة القلوب وقسوتها حتى لا تقبل التفكير والتدبر والمعنى: بل قلوبهم قاسية مظلمة كأنها مكبلة بالأقفال الحديدية فلا ينفذ إليها نور ولا إيمان قال الرازي: إن القلب خلق للمعرفة فإذا لم تكن فيه المعرفة فكأنه غير موجود، وهذا كما يقول القائل في الإنسان المؤذي: هذا ليس بإنسان هذا وحش، وهذا ليس بقلب هذا حجر^(١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ أي رجعوا إلى الكفر بعد الإيمان، وبعد أن وضع لهم طريق الهدى بالدلائل الظاهرة والمعجزات الواضحة ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي الشيطان زين لهم ذلك الأمر، وغرهم وخدعهم بالأمل، وطول الأجل ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ أي ذلك الإضلال بسبب أنهم قالوا لليهود الذين كرهوا القرآن الذي نزل به الله حسداً وبغياً: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أي سنطيعكم في بعض ما تأمروننا به كالقعود عن الجهاد، وتشيط المسلمين عنه وغير ذلك ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي وهو جل وعلا يعلم خفاياهم، وما يبتنونونه من الكيد والدس والتآمر على الإسلام والمسلمين قال المفسرون: قال المنافقون لليهود ذلك سرّاً فأظهره الله تعالى وفضحهم ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُوتُ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾ أي فكيف يكون حالهم حين تحضرهم ملائكة العذاب لقبض أرواحهم معهم مقامع من حديد يضربون بها وجوههم وظهورهم؟ قال القرطبي: المعنى على التخويف والتهديد، أي: إن تأخر عنهم العذاب فالى انقضاء العمر^(٢) قال ابن عباس: لا يتوفى أحد على معصية إلا تضرب الملائكة في وجهه وفي دبره^(٣) ﴿ذَٰلِكَ يَأْتِيهِمْ أَن تَبْعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ أي ذلك العذاب بسبب أنهم سلكوا طريق النفاق وكرهوا ما يرضي الله من الإيمان والجهاد وغيرهما من الطاعات ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي أبطل ما عملوه حال إيمانهم من أعمال البر ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَنِهم﴾؟ أي أيعتقد المنافقون الذين في قلوبهم شك ونفاق أن الله لن يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ وأنه لن يظهر بغضهم وأحقادهم على الإسلام والمسلمين؟ لا بد أن يفضحهم ويكشف أمرهم ﴿وَلَوْ شَاءَ لَأَرْسَلْنَاكُمْ فَلَعرَفْتَهُمْ بِسْمِهِمْ﴾ أي لو أردنا لأريناك يا محمد أشخاصهم فعرفتَهُم عياناً بعلا متهم ولكن الله ستر عليهم إبقاءً عليهم وعلى أقاربهم من المسلمين لعلمهم يتوبون ﴿وَلَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أي ولتعرفنَّ يا محمد المنافقين من فحوى كلامهم وأسلوبه، فيما يعرضونه بك من القول الذي

(١) «التفسير الكبير» للرازي ٦٦/٢٨.

(٢) «تفسير القرطبي» ٢٥٠/١٦.

(٣) «البحر المحيط» ٨٤/٨.

ظاهره إيمان وإسلام وباطنه كفر ومسبة قال الكلبي: لم يتكلم بعد نزولها عند النبي ﷺ منافق إلا عرفه^(١) ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمالكم فيجازيكم بحسب قصدكم، ففيه وعد ووعد ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ أي ولنختبرنكم أيها الناس بالجهد وغيره من التكاليف الشاقة حتى نعلم علم ظهور المجاهدين في سبيل الله، والصابرين على مشاق الجهاد ﴿وَبَلَّغُوا أَخْبَارَكُمْ﴾ أي ونختبر أعمالكم حسناتها وقبيحها قال في التسهيل: المراد بقوله ﴿حَتَّى نَعْلَمَ﴾ أي نعلمه علماً ظاهراً في الوجود تقوم به الحجة عليكم، وقد علم الله الأشياء قبل كونها، ولكنه أراد إقامة الحجة على عباده بما يصدر منهم، وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال: اللهم لا تبتلنا فإنك إذا ابتليتنا فضحتنا وهتكت أستاذنا^(٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي جحدوا بآيات الله ومنعوا الناس على الدخول في الإسلام ﴿وَسَأَقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ أي عادوا الرسول وخرجوا عن طاعته من بعد ما ظهر لهم صدقه وأنه رسول الله بالحجج والآيات ﴿لَنَ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِيطُ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي لن يضرروا الله بكفرهم وصددهم شيئاً من الضرر، وسيبطل أعمالهم من صدقة ونحوها فلا يرون لها في الآخرة ثواباً ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي امثلوا أوامر الله وأوامر رسوله ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أي ولا تبطلوا أعمالكم بما أبطل به هؤلاء أعمالهم من الكفر والنفاق، والعجب والرياء ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي جحدوا بآيات الله وصدوا الناس عن طريق الهدى والإيمان ﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي وماتوا على الكفر ﴿فَلَنَ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أي فلن يغفر الله لهم بحال من الأحوال، وهذا قطع بأن من مات على الكفر لا يغفر الله له لقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨] قال أبو السعود: وهذا حكم يعم كل من مات على الكفر، وإن صح نزوله في أصحاب^(٣) القلب^(٤) ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَوةِ﴾ أي فلا تضعفوا وتدعوا إلى المهادنة والصلح مع الكفار إذا قيتموهم ﴿وَأَنْتُمْ أَغْلَوْنَ﴾ أي وأنتم الأغلبة الغالبون لأنكم مؤمنون ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أي والله معكم بالعون والنصر ﴿وَلَنَ يَرِيَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي لن يُنْقِصَكم شيئاً من ثواب أعمالكم قال ابن كثير:

(١) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٥٣.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٥٠.

(٣) (ش): أي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنَ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾

(٤) «أبو السعود» ٧٨/ ٥. لم أجد ما يدل على أن الآية نزلت في أصحاب القلب. والقلب: البئر المفتوحة.

وأصحاب القلب: هم قتلى مشركي مكة الذين ألقاهم المسلمون في قلب بدر. وعن عبد الله بن عباس -

رضي الله عنهما - قال: نزلت في أهل مكة: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ (ضعيف، رواه الطبري

في «تفسيره»).

وفي قوله ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء^(١) ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي ما الحياة الدنيا إلا زائلة فانية، لا قرار لها ولا ثبات، كاللعب واللهو الذي يتلهى به الأولاد قال شيخ زاده: بيّن تعالى أن الدنيا وما فيها من الحظوظ العاجلة، لا يصلح مانعاً من الإقدام إلى الجهاد، وما يؤدي إلى ثواب الآخرة، لكونها بمنزلة اللهو اللعب في سرعة زوالها، وأن الآخرة هي الحياة الباقية، فلا ينبغي أن يكون حب الدنيا والحرص على ما فيها من اللذات والشهوات سبباً للجبين عن الغزو والتخلف عن الجهاد^(٢) ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ فَيَمُوتَ عَنْكُمْ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي وإن تؤمنوا بالله وتتقوه حقّ تقواه، يُعطِكم ثواب أعمالكم كاملاً ﴿وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالُكُمْ﴾ أي ولا يطلب منكم أن تنفقوا جميع أموالكم، بل الزكاة المفروضة فيها قال ابن كثير: أي هو غني عنكم لا يطلب منكم شيئاً، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساةً لإخوانكم الفقراء، ليعود نفع ذلك وثوابه عليكم^(٣) ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمْ فِي الْبَلَاءِ فَإِنَّكُمْ لَسْأَلُهُمْ فِيهَا حَرَجٌ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي إن يسألكم جميع أموالكم ويبالغ في طلبها، ويلح عليكم في إنفاقها تبخلوا ﴿وَيُخْرِجُ أَضْعَافًا مُّكْرَبَةً﴾ أي ويخرج ما في قلوبكم من البخل وكراهة الإنفاق قال في التسهيل: وذلك لأن الإنسان جبل على محبة الأموال، ومن نوزع في حبيبه ظهرت سرائره، فمن رحمته تعالى على عباده عدم التشديد عليهم في التكاليف^(٤) ﴿هَآؤُنْتُمْ هَآؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي ها أنتم معشر المخاطبين تُدْعَوْنَ للإنفاق في سبيل الله، وقد كلفتم ما تطيقون ﴿فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلْ﴾ أي فمنكم من يشح عن الإنفاق ويمسك عنه ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَخِلْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي ومن بخل عن الإنفاق في سبيل الله فإنما يعود ضرر بخله على نفسه، لأنه يمنعها الأجر والثواب قال الصاوي: وبخل يتعدى بـ «على» إذا ضُمن معنى شح، وبـ «عن» إذا ضُمن معنى أمسك^(٥) ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ أي والله مستغن عن إنفاقكم ليس بحاجة إلى أموالكم، وأنتم محتاجون إليه ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي وإن تعرضوا عن طاعته واتباع أوامره، يخلف مكانكم قوماً آخرين يكونون أطوع لله منكم ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا لَكُمْ أَعْمَالًا﴾ أي لا يكونوا مثلكم في البخل عن الإنفاق بل يكونوا كرماء أسخياء.

البلاغ: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبدیع نوجزها فيما يلي:

١ - المقابلة بين الآية الأولى والثانية ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ١] وبين ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [محمد: ٢] الآية. وهو من المحسنات البديعية.

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٣٨.

(٢) حاشية زاده على البضاوي ٣/ ٣٥٢.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٣٨.

(٤) «التسهيل» ٤/ ٥٠.

(٥) «حاشية الصاوي» ٤/ ٨٩.

٢ - ذكر الخاص بعد العام ﴿وَأَمِنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾^(١) [محمد: ٢] والنكتة تعظيمه والاعتناء بشأنه.

٣ - الاستعارة التبعية ﴿تَضَعُ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤] شبه ترك القتال بوضع آلتها، واشتق من الوضع «تضع» بمعنى تنتهي وتترك بطريق الاستعارة التبعية.

٤ - المجاز المرسل ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] أطلق الجزء وأراد الكل أي يثبتكم، وعبر بالأقدام لأن الثبات والتزلزل يظهران فيها وهو مثل ﴿فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

٥ - الطباق بين ﴿مَنَّا.. فِدَاءً﴾ وبين ﴿ءَامِنُوا.. وَكَفَرُوا﴾ وبين ﴿الْغَنَى.. الْفُقَرَاءُ﴾.

٦ - المجاز العقلي ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ نسب العزم إلى الأمر وهو لأهله مثل نهاره صائم.

٧ - الالتفات ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ وهو الالتفات من الغيبة إلى الخطاب لتأكيد التوبيخ وتشديد التقرير.

٩ - الاستعارة التصريحية ﴿أَمَرَ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا﴾ شبه قلوبهم بالأبواب المقفلة، فإنها لا تفتح لوعظ واعظ، ولا يفيد فيها عذل عاذل، وهي من لطائف الاستعارات.

١٠ - الإطناب بتكرار ذكر الأنهار ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَنْغَيِّرْ طَعْمَهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ..﴾ [محمد: ١٥] الآية وذلك لزيادة التشويق إلى نعيم الجنة.

١١ - الكناية ﴿أَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ﴾ كناية عن الكفر بعد الإيمان.

١٢ - السجع الرصين غير المتكلف ﴿أَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ.. وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ.. وَأَعْمَى أَبْصَرَهُمْ﴾ إلخ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة محمد»



(١) (ش): في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾.



مدنية وآياتها تسع وعشرون

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مدنية، وهي تعنى بجانب التشريع شأن سائر السور المدنية التي تعالج الأسس التشريعية في المعاملات، والعبادات، والأخلاق، والتوجيه.

* تحدثت السورة الكريمة عن «صلح الحديبية» الذي تم بين الرسول ﷺ وبين المشركين سنة ست من الهجرة، والذي كان بداية للفتح الأعظم «فتح مكة» وبه تم العز والنصر والتمكين للمؤمنين، ودخل الناس في دين الله أفواجا ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا...﴾ الآيات.

* وتحدثت السورة عن جهاد المؤمنين، وعن «بيعة الرضوان» التي بايع فيها الصحابة رضوان الله عليهم رسول الله ﷺ على الجهاد في سبيل الله حتى الموت، وكانت بيعة جليلة الشأن ولذلك باركها الله، ورضي عن أصحابها، وسجلها في كتابه العظيم في سطور من نور ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ...﴾ الآية.

* وتحدثت عن الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ من الأعراب الذين في قلوبهم مرض، ومن المنافقين الذين ظنوا الظنون السيئة برسول الله ﷺ وبالمؤمنين فلم يخرجوا معهم، فجاءت الآيات تفضحهم وتكشف سرائرهم ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلْفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَعَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا...﴾.

* وتحدثت السورة عن الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ في منامه - في المدينة المنورة - وحدث بها أصحابه ففرحوا واستبشروا، وهي دخول الرسول ﷺ والمسلمين مكة آمنين مطمئنين، وقد تحققت تلك الرؤيا الصادقة فدخلها المؤمنون معتمدين مع الأمن والطمأنينة ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُخْلِفِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾.

* وختمت السورة الكريمة بالثناء على الرسول ﷺ وأصحابه الأتهار الأخيار ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ الآية.

التسمية: سميت سورة الفتح لأن الله تعالى بشر المؤمنين بالفتح المبين ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا...﴾ الآيات.

فضلها: نزلت السورة الكريمة على رسول الله ﷺ بعد مرجعه من الحديبية، ولما نزلت هذه السورة قال صلوات الله عليه: «لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة هي أحب إلي من الدنيا وما

فيها ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا...﴾ أخرجه الإمام أحمد^(١).

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيُضْرِكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ظَنَّتِ السُّوءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةً السُّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِيكَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهُ بِذَلِكَ فُوقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَاسِيَّتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلْفُونَ مِنْ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسَّيِّئَةِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ طَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَغْلِبَ الرُّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَطَنَنْتُمْ ظَنَّتِ السُّوءَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلْفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَهُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُلْ لِلْمُخَلَفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا

اللغة: ﴿السَّكِينَةَ﴾ السكون والطمانينة والثبات ﴿السُّوءُ﴾ المساءة والحزن والألم قال الجوهري: ساءه سوءًا بالفتح ومساءةً نقيض سره، والاسم السُّوء بالضم، ودائرة السُّوء يعني الهزيمة والشر، ومن فتح فهو من المساءة^(٢) ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ تعظموه وتنصروه وتمنعوا الأذى

(١) (ش): وصححه أحمد شاكر والأرنؤوط. ورواه البخاري بلفظ: «لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَى اللَّيْلَةِ سُورَةٌ لَهَايَ أَحَبُّ

إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ». ثُمَّ قَرَأَ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾. وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: نَزَلَتْ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ مَرْجِعُهُ رضي الله عنه مِنَ الْحَدِيثِ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٢) (الصحيح للجوهري). (ش): ساء فلانًا: فعل به ما يكره. والمساءة: الضرر، العيب، النقص، ما يلحق سوءًا، أو ضررًا، أو إجحافًا. والجمع مساوي.

عنه، وسمي التعزير في الحدود تعزيراً لأنه مانع من فعل القبيح ﴿تَكْتُمُ﴾ نقض البيعة والعهد ﴿بُورًا﴾ هلكى قال الجوهرى: البور: الرجل الفاسد الهالك الذي لا خير فيه، و «قومًا بورًا» جمع بائر، وبار فلان أي هلك ^(١) ﴿حَرَجٌ﴾ إثم وذنب.

سَبَبُ النُّزُول: عن ابن عباس قال: تخلف عن رسول الله ﷺ أعراب المدينة حين أراد السفر إلى مكة عام الفتح، بعد أن كان استنفرهم معه حذرًا من قريش، وأحرم بعمره وساق معه الهدي ليعلم الناس أنه لا يريد حربًا، فتناقلوا عنه واعتلوا بالشغل فنزلت ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا..﴾ الآية ^(٢).

التفسير: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ أي قد فتحنا لك يا محمد مكة فتحًا بينًا ظاهرًا، وحكمنا لك بالفتح المبين على أعدائك، والمراد بالفتح فتح مكة، وعده الله به قبل أن يكون، وذكره بلفظ الماضي لتحقيقه، وكانت بشارة عظيمة من الله تعالى لرسوله وللمؤمنين قال الزمخشري: هو فتح مكة، وقد نزلت مرجع رسول الله ﷺ عن مكة عام الحديبية، وهو وعدٌ له بالفتح، وجيء به بلفظ الماضي على عادة رب العزة سبحانه في أخباره، لأنها في تحقيقها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن الفتح ما لا يخفى ^(٣) ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أي ليغفر لك ربك يا محمد جميع ما فرط منك من ترك الأولى قال أبو السعود: وتسميته ذنبًا بالنظر إلى منصبه الجليل ^(٤) وقال ابن كثير: هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره، وفيه تشریفٌ عظيم لرسول الله ﷺ إذ هو أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم في الدنيا والآخرة، وهو في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشرٌ سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، ولما كان أطوع خلق الله بشره الله بالفتح المبين، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ^(٥) ﴿وَبَيَّنَّا نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ أي وكمل نعمته عليك بإعلاء الدين ورفع مناره ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أي ويرشدك إلى الطريق القويم، الموصول إلى جنات النعيم ^(٦)؛ بما يشرعه لك من الدين العظيم ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا﴾ أي

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٦ / ٢٦٨. (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير عن مجاهد وابن عباس ولكن بدون إسناد.

(٣) «الكشاف» ٤ / ٢٦٢، وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالفتح «صلح الحديبية» لما ترتب عليه من الآثار العظيمة، من بيعة الرضوان، ومن الصلح الذي عقده رسول الله ﷺ مع قريش، ومن دخول كثير في الإسلام، إلى غير ما هنالك، وإلى هذا ذهب ابن كثير. (ش): عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا» قَالَ الْحُدَيْبِيُّ: رَوَاهُ الْبَخَارِيُّ: وَعَنِ الْبَرَاءِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: تَعْدُونَ أَنَّكُمْ الْفَتْحَ فَتَحَ مَكَّةَ، وَقَدْ كَانَ فَتَحَ مَكَّةَ فَتَحًا، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ بَيْعَةَ الرُّضْوَانِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ. رَوَاهُ الْبَخَارِيُّ.

(٤) «أبو السعود» ٥ / ٨٠.

(٥) «مختصر ابن كثير» ٣ / ٣٤٠.

(٦) (ش): مُوَصَّلٌ: اسم فاعل من أَوْصَلَ. أَوْصَلَ الطَّرِيقُ إِلَى الدَّارِ: أَدَّى. يقال: هذا طريقٌ يُوصِلُ إلى المدينة. مُوَصَّلٌ: اسم فاعل من وَصَّلَ.

وينصرك الله على أعدائك نصرًا قويًا منيعًا، فيه عزّة وغلبة، يجمع لك به بين عز الدنيا والآخرة ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي هو جل وعلا الذي جعل السكون والطمأنينة في قلوب المؤمنين ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ أي ليزدادوا يقينًا مع يقينهم، وتصديقًا مع تصديقهم، برسوخ العقيدة في القلوب، والتوكل على علام الغيوب ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي والله جلّت عظمتة كل جنود السموات والأرض، من الملائكة والجن، والحيوانات، والصواعق المدمرة، والزلازل، والخسف والغرق، جنود لا تحصى ولا تغلب، يسلطها على من يشاء قال ابن كثير: ولو أرسل عليهم ملكًا واحدًا لأباد خضراءهم^(١)، ولكنه تعالى شرع لعباده الجهاد، لما له في ذلك من الحجة القاطعة والحكمة البالغة^(٢) ولذلك قال ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي عليمًا بأحوال خلقه، حكيماً في تقديره وتدبيره قال المفسرون: أراد بإنزال السكينة في قلوب المؤمنين «أهل الحديبية» حين بايعوا رسول الله ﷺ على مناجزة الحرب مع أهل مكة^(٣)، بعد أن حصل لهم ما يُزعج النفوس ويُزيغ القلوب، من صدّ الكفار لهم عن دخول مكة، ورجوع الصحابة دون بلوغ مقصود، فلم يرجع منهم أحد عن الإيمان، بعد أن هاج الناس وماجوا^(٤)، وزلزلوا حتى جاء عمر بن الخطاب إلى النبي ﷺ وقال: «أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟» قَالَ «بَلَى». قَالَ: «أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُّونَا عَلَى الْبَاطِلِ؟» قَالَ: «بَلَى». قَالَ: «فَلِمَ تُعْطَى الدِّيْنَةُ فِي دِينِنَا إِذَا؟». قَالَ: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَغْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي»^(٥).. الخ.

(١) (ش): أباد الله خضراءهم: أفتأهم، أذهب خصبهم ونعيمهم.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٤١.

(٣) (ش): ناجزه الحرب: نازله، وقاتله.

(٤) (ش): هاج القوم: ثاروا وغضبوا للضرر أو عُسّر. ماج القوم: اختلفت أمورهم واضطربت، وازدحموا لكثرتهم.

(٥) انظر تفصيل القصة في صحيح البخاري وفي سيرة ابن هشام. (ش): لم يكن ذلك من عمر رضي الله عنه شكًا، ولا معارضةً، بل كان استكشافًا لما خفي عنه، وحثًا على قتال أهل الكفر، وإذلالهم، وحرصًا على ظهور المسلمين على عدوهم، وهذا على مقتضى ما كان عنده من القوة في دين الله، والجرأة، والشجاعة التي خصّه الله بها. فليس في قصة صلح الحديبية ما ادعاه الشيعة من أن الصحابة رضي الله عنهم - ومنهم عمر رضي الله عنه - أرادوا مخالفة نبيهم ﷺ، ولكن الأمر أنهم فعلوا ما فعلوه حبًا لدينهم وعقيدتهم وحنفًا على الكافرين، وظنوا كما يظن أي إنسان تعثره الأعراض البشرية أن ما جاء في المعاهدة التي أبرمت من الشروط ما يعتبر إجحافًا في حق المسلمين وهذا ما كان ظاهرًا وجليًا في هذه المعاهدة، وهم ليسوا معصومين ويوحى إليهم مثل نبيهم ﷺ ويقال للشيعة: كيف يخالف الصحابة نبيهم ولا يمثلون أمره كما زعمتم ثم ينزل فيهم قوله تعالى ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨] فهذه الآية نزلت في صلح الحديبية، فكيف يخبر الله الذي يعلم السر وأخفى برضاه عن الصحابة لعلمه ما في قلوبهم من الصدق والوفاء والسمع والطاعة ويبشرهم بالفتح القريب ثم يأتي الشيعة ليشتكوا في نيات الصحابة تجاه نبيهم ﷺ؟ وزعم الشيعة أن عمر رضي الله عنه كان يشكك في نبوة ﷺ، فيه اتهام للنبي ﷺ لو كانوا يفقهون! فإذا كان الأمر كما يدّعون فلماذا لم يأمر النبي ﷺ بقتله، أو حتى على الأقل يبين أن ما فعله عمر كان شكًا في نبوته ﷺ كما فهم الشيعة النابهن؟! رضي الله عنه

﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ليدخلهم على طاعتهم وجهادهم حدائق وبساتين ناضرة، تجري من تحتها أنهار الجنة ماكين فيها أبداً ﴿وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي يمحو عنهم خطاياهم وذنوبهم ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي وكان ذلك الإدخال في الجنات والتكفير عن السيئات، فوزاً كبيراً وسعادة لا مزيد عليها، إذ ليس بعد نعيم الجنة نعيم ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ أي وليعذب الله أهل النفاق والإشراك، وقدّمهم على المشركين لأنهم أعظم خطراً وأشدّ ضرراً من الكفار المجاهرين بالكفر ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَ السَّوءِ﴾ أي الظالنين بربههم أسوأ الظنون، ظنوا أن الله تعالى لن ينصر رسله والمؤمنين، وأن المشركين يستأصلونهم جميعاً كما قال تعالى ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ قال القرطبي: ظنوا أن النبي ﷺ لا يرجع إلى المدينة ولا أحدٌ من أصحابه حين خرج إلى الحديبية^(١) ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوءِ﴾ دعاء عليهم، أي: عليهم ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين من الهلاك والدمار ﴿وَعُذِّبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ أي سخط تعالى عليهم بكفرهم ونفاقهم، وأبعدهم عن رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي وهى لهم في الآخرة ناراً مستعرة هي نار جهنم، وساءت مرجعاً ومنقلباً لأهل النفاق والضلال ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تأكيد للانتقام من الأعداء أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين قال الرازي: كرر اللفظ لأن جنود الله قد يكون إنزالهم للرحمة، وقد يكون للعذاب، فذكرهم أولاً لبيان الرحمة للمؤمنين وثانياً لبيان إنزال العذاب على الكافرين^(٢) ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي عزيزاً في ملكه وسلطانه، حكيماً في صنعه وتدييره قال الصاوي: ذكر هذه الآية أولاً في معرض الخلق والتدبير فذيلها بقوله ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(٣) وذكرها ثانياً في معرض الانتقام فذيلها بقوله ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ وهو في منتهى الترتيب الحسن، لأنه تعالى ينزل جنود الرحمة لنصرة المؤمنين، وجنود العذاب لإهلاك الكافرين.. ثم امتن تعالى على رسوله الكريم بتشريفه بالرسالة، وبعثه إلى كافة الخلق فقال ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: إنا أرسلناك يا محمد شاهداً على الخلق يوم القيامة، ومبشراً للمؤمنين بالجنة، ومنذراً للكافرين من عذاب النار ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي أرسلنا الرسول لتؤمنوا أيها الناس بربكم ورسولكم حق الإيمان، إيماناً عن اعتقاد ويقين، لا يخالطه شك ولا ارتياب ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي تقمّموه وتعظموه ﴿وَتَوْقَرُوهُ﴾ أي تحترموا وتجلّوا أمره مع التعظيم والتكريم، والضمير فيهما للنبي ﷺ ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي تسبحوا بركم في

(١) «تفسير القرطبي» ١٦ / ٢٦٥.

(٢) «التفسير الكبير» ٢٨ / ٨٤.

(٣) «حاشية الصاوي» ٤ / ٩٢.

الصباح والمساء^(١)، ليكون القلب متصلاً بالله في كل آن، ثم قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِيكُ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهَ﴾ أي إن الذين يبايعونك يا محمد في الحديبية «بيعة الرضوان» إنما يبايعون في الحقيقة الله، وهذا تشریفٌ للنبي ﷺ حيث جعل مبايعته بمنزل مبايعة الله، لأن الرسول ﷺ سفيرٌ ومعبرٌ عن الله قال المفسرون: المراد بالبيعة هنا بيعة الرضوان بالحديبية، حين بايع الصحابة رسول الله ﷺ على الموت كما روى الشيخان عن سلمة ابن الأكوع أنه قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على الموت»^(٢) وسميت «بيعة الرضوان» لقول الله فيها ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨] ﴿يُذِ اللَّهُ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ قال ابن كثير: أي هو تعالى حاضر معهم، يسمع أقوالهم، ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى المبايع بواسطة رسول ﷺ وسلم^(٣) وقال الزمخشري: يريد أن يد رسول الله ﷺ التي تعلق أيدي المبايعين هي يدُ الله، والمعنى أن من بايع الرسول فقد بايع الله كقوله تعالى ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]^(٤) ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي فمن نقض البيعة فإنما يعود ضرر نكثه عليه، لأنه حرم نفسه الثواب وألزمها العقاب بنقضه العهد والميثاق الذي عاهد به ربه ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ﴾ أو ومن وفى بعهده ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي فسيعطيه الله ثواباً جزيلاً، وهو الجنة دار الأبرار ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ أي سيقول لك يا محمد المنافقون الذين تخلفوا عن الخروج معك عام الحديبية من أعراب المدينة: ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ أي شغلنا عن الخروج معك بالأموال والأولاد، فاطلب لنا من الله المغفرة، لأن تخلفنا لم يكن باختيار بل عن اضطرار قال في التسهيل: سمّاهم تعالى بالمخلفين لأنهم تخلفوا عن غزوة الحديبية، والأعراب هم أهل البوادي من العرب. لما خرج رسول الله ﷺ إلى مكة يعتمر، رأوا أنه يستقبل عدواً كثيراً من قريش وغيرهم ففقدوا عن الخروج معه، ولم يكن إيمانهم متمكناً فظنوا أنه لا يرجع هو والمؤمنون من ذلك السفر، ففضحهم الله في هذه السورة وأعلم تعالى رسوله ﷺ بقولهم واعتذارهم قبل أن يصل إليهم، وأعلمه أنهم كاذبون في اعتذارهم^(٥) ﴿يَقُولُونَ يَا لَيْسَ نَحْنُ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يقولون خلاف

(١) الضمير هنا عائد على الله تعالى، وقيل: إن الضمائر كلها راجعة على الله سبحانه وهو اختيار البيضاوي وأبي السعود، وما ذكرناه منقول عن الضحاك وهو اختيار القرطبي.

(٢) (ش): في روايات صحيحة أن البيعة كانت على الموت. وفي روايات صحيحة أخرى أنهم بايعوه على ألا يفروا وليس على الموت. أو أنهم بايعوه على الصبر. ولا تعارض في ذلك لأن المراد بالمبايعة على الموت ألا يفروا. [انظر: السيرة النبوية الصحيحة، محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية (٢/ ٤٤٠)].

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٤٢.

(٤) «الكشاف» ٤/ ٢٦٥.

(٥) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٥٢.

ما يبتغون وهذا هو النفاق المحض، فهم كاذبون في الاعتذار وطلب الاستغفار، لأنهم قالوه رياءً من غير صدق ولا توبة ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾؟ أي قل لهم: مَنْ يمنعكم من مشيئة الله وقضائه، إِنْ أَرَادَ أَنْ يُلْحِقَ بِكُمْ أَمْرًا يضركم كالهزيمة، أو أَمْرًا ينفعكم كالنصر والغنيمة؟ قال القرطبي: وهذا ردُّ عليهم حين ظنوا أن التخلف عن الرسول ﷺ يدفع عنهم الضرر، ويُعجل لهم النفع^(١) ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ يُمَاقِلُونَ خَيْرًا﴾ أي ليس الأمر كما زعمتم بل الله مطلع على ما في قلوبكم من الكذب والنفاق، ثم أظهر تعالى ما يخفونه في نفوسهم فقال ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أي بل ظننتم أيها المنافقون أن محمدًا وأصحابه لن يرجعوا إلى المدينة أبدًا ﴿وَزَيَّنْتَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي وزَّيْن ذلك الضلال في قلوبكم ﴿وَوَدَّعْتُمْ ظَنِّي السَّوَاءَ﴾ أي ظننتم أنهم يُستأصلون بالقتل، ولا يرجع منهم أحد ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أي وكنتم قومًا هالكين عند الله، مستوجبين لسخطه وعقابه ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمَرْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ لما بيَّن حال المتخلفين عن رسول الله، وبيَّن حال ظنهم الفاسد، وأنه يفضي بصاحبه إلى الكفر، حرَّضهم على الإيمان والتوبة على سبيل العموم. والمعنى: من لم يؤمن بالله ورسوله بطريق الإخلاص والصدق ﴿فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ أي فإنَّا هيأنا للكافرين نارًا شديدة مستعرة، وهو وعيد شديد للمنافقين ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي له جل وعلا جميع ما في السموات والأرض، يتصرف في الكل كيف يشاء ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يرحم من يشاء من عباده ويُعذب من يشاء، وهذا قطع لطمعهم في استغفار رسول الله ﷺ لهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي واسع المغفرة عظيم الرحمة ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ أي سيقول الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله في عمرة الحديبية، عند ذهابكم إلى مغانم خيبر لتحصلوا عليها ﴿ذُرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ أي اتركونا نخرج معكم إلى خيبر لنقاتل معكم ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ أي يريدون أن يغيروا وعد الله الذي وعده لأهل الحديبية^(٢) مِنْ جَعَلَ غَنَائِمَ خَيْرَ لَهُمْ خَاصَّةً لَا يشارِكهم فيها أحد قال القرطبي: إن الله تعالى جعل لأهل الحديبية غنائم خيبر عوضًا عن فتح مكة إذ رجعوا من الحديبية على صلح^(٣) ﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا﴾ أي قل لهم: لا تتبعونا فلن يكون لكم فيها نصيب ﴿كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي كذلك حكم الله تعالى بأن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية، ليس لغيرهم فيها نصيب قبل رجوعنا منها ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي فسيقولون: ليس هذا من الله بل هو حسد منكم لنا على مشاركتكم في الغنيمة، قال تعالى ردًّا

(١) «تفسير القرطبي» ١٦ / ٢٦٩.

(٢) (ش): أي كلام الله الذي وعده به أهل الحديبية.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٦ / ٢٧١.

عليهم ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لا يفهمون إلا فهمًا قليلًا وهو حرصهم على الغنائم وأمور الدنيا ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْدَةٌ إِلَى قَوْمٍ أُولَىٰ بِأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي قل لهؤلاء الذين تخلفوا عن الحديبية كَرَّرَ وصفهم بهذا الاسم إظهارًا لشناعتة ومبالغة في ذمهم: سِتْدَعُونَ إلى حرب قوم أشداء، هم بنو حنيفة قوم مسلمية الكذاب أصحاب الردة ﴿نُقَنِّلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ﴾ أي إما أن تقتلوهم أو يدخلوا في دينكم بلا قتال ﴿فَإِنْ نَّطْبِعُوا لَكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أي فإن تستجيبوا وتخرجوا لقتالهم يعطكم الله الغنيمة والنصر في الدنيا، والجنة في الآخرة ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وإن تتخلفوا عن الخروج كما تخلفت من زمن الحديبية، يعذبكم الله عذابًا شديدًا مؤلمًا في نار جهنم. ثم ذكر تعالى الأعذار في ترك الجهاد فقال ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾ أي ليس على هؤلاء إثم أو ذنب في ترك الخروج للجهاد لما بهم من الأعذار الظاهرة ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي من يطع أمر الله وأمر الرسول يُدْخِلْهُ جنات النعيم خالدًا فيها ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ عِدْبَهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي ومن ينكل عن الجهاد لغير عذر يعذبه الله عذابًا شديدًا، في الدنيا بالمذلة وفي الآخرة بالنار.

قال الله تعالى:

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَرُ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلَّهُ، وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ فَأُنْزِلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّبَا بِالْحَقِّ لِنَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكُوعًا سَاجِدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ

أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْبَةِ وَمَنْلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْجٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُ، فَفَازَرَهُ، فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُقُوبِهِ يَعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا

المناسبة: لما ذكر تعالى حال المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ، ذكر تعالى حال المؤمنين المجاهدين الذين بايعوا الرسول «بيعة الرضوان» تسجيلاً لرضى الله تعالى عنهم، وتخليداً لمآثرهم الكريمة، وختم السورة الكريمة بالثناء على الصحابة الأبرار، بأبلغ ثناء وأكرم تمجيد.

اللغة: ﴿أَظْفَرَكُمْ﴾ أظهركم وأعلامكم، ظفر بالشيء غلب عليه، وأظفره غلبه^(١) ﴿مَعَكُوفًا﴾ محبوباً ومنه الاعتكاف ﴿مَعَرَّةٌ﴾ المعرة: العيب والمشقة اللاصقة بالإنسان من العرو وهو الجرب^(٢) ﴿تَزَلُّوْا﴾ تميزوا ﴿الْحَمِيَّةُ﴾ الأنفة والغضب الشديد ﴿سَيِّمَاهُمْ﴾ علامتهم ﴿شَطْطُهُ﴾ الشطء: الفراخ قال الجوهري: شطء الرزق والنبات فراخه والجمع أشطاء^(٣) ﴿فَازَرَهُ﴾ قواه وأعانه وشده.

سبب النزول: عن أنس رضي الله عنه أن ثمانين من أهل مكة هبطوا على النبي ﷺ من التنعيم متسلحين يريدون الغدر به وبأصحابه فأخذناهم أسرى فأنزل الله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنِ مَكَّةَ...﴾ الآية^(٤).

التفسير: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ السلام مؤطئة لقسم محذوف^(٥) أي والله لقد رضي الله عن المؤمنين حين بايعوك يا محمد «بيعة الرضوان» تحت ظل الشجرة بالحديبية قال المفسرون: كان سبب هذه البيعة أن رسول الله ﷺ لما بلغ الحديبية أرسل عثمان بن عفان إلى أهل مكة يخبرهم أنه إنما جاء معتمراً، وأنه لا يريد حرباً، فلما ذهب عثمان حبسوه عندهم، وجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل، فدعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة على أن يدخلوا مكة حرباً، وبايعوه على الموت، فكانت بيعة الرضوان، فلما بلغ المشركين ذلك أخذهم الرعب وأطلقوا عثمان وطلبوا الصلح من رسول الله ﷺ على أن يأتي في العام القابل، ويدخلها ويقيم فيها ثلاثة أيام، وكانت هذه البيعة تحت شجرة سمرة بالحديبية وقد سميت «بيعة الرضوان» ولما رجع المسلمون يعلوهم الحزن والكآبة، أراد الله تسليتهم وإذهاب الحزن عنهم فأنزل الله هذه السورة على رسوله ﷺ بعد مرجعه من الحديبية ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١] وكان عدد الذين بايعوا رسول الله ﷺ ألفاً وأربعمائة رجل،

(١) «البحر» ٨ / ٨٨.

(٢) (ش): العرّ والعرّ والعرّة: الجرب.

(٣) «الصحيح» للجوهري. (ش): أي فروعها.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٦ / ٢٨٠. (ش): رواه مسلم وغيره.

(٥) (ش): أي ممهّدة له؛ لأنها التي تُهيئ الذهن لمعرفة.

وفيههم نزلت الآية الكريمة ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ ولم يتخلف عن البيعة إلا «الجد بن قيس» من المنافقين^(١)، وحضر هذه البيعة روح القدس جبريل الأمين، ولهذا سُطرت في الكتاب المبين^(٢) ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي فعلم تعالى ما في قلوبهم من الصدق والوفاء، عند مبايعتهم لك على حرب الأعداء ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي رزقهم الطمأنينة وسكون النفس عند البيعة ﴿وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي وجازاهم على بيعة الرضوان بفتح خير، وما فيها من النصر والغنائم، زيادةً على ثواب الآخرة ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ أي وجعل لهم الغنائم الكثيرة التي غنموها من خير قال ابن كثير: هو ما أجرى الله عزَّ وجلَّ على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام بفتح خير، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة^(٣)، ولهذا قال تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي غالبًا على أمره، حكيماً في تدبيره وصنعه، ولهذا نصركم عليهم وغممكم أرضهم وديارهم وأموالهم^(٤) ﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ أي وعدكم الله معشر المؤمنين على جهادكم وصبركم الفتوحات الكثيرة، والغنائم الوفيرة تأخذونها من أعدائكم، قال ابن عباس: هي المغنم التي تكون إلى يوم القيامة^(٥) قال في البحر: ولقد اتسع نطاق الإسلام، وفتح المسلمون فتوحاً لا تحصى، وغنموا مغنم لا تعدُّ وذلك في شرق البلاد وغربها، حتى في الهند والسودان تصديقاً لوعده تعالى وقدم علينا أحد ملوك غانة من بلاد التكرور^(٦)، وقد فتح أكثر من خمس وعشرين مملكة من بلاد السودان، وأسلموا معه

(١) (ش): أي بايعوه جميعاً سوى الجد بن قيس لم يبايع لأنه كان من المنافقين. عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً فَبَايَعْنَاهُ وَعُمَرُ أَخَذَ بِيَدِهِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ وَهِيَ سَمُرَةٌ فَبَايَعْنَاهُ غَيْرُ جَدِّ بْنِ قَيْسٍ الْأَنْصَارِيِّ اخْتِبَاءً تَحْتَ بَطْنِ بَعِيرِهِ. (رواه مسلم). والسَمُرَةُ: من شجر الطَّلَح، والجمع سَمُرٌ.

(٢) انظر تفصيل القصة في «تفسير القرطبي» ١٦ / ٢٧٤. (ش): لم أجد ما يدل على حضور جبريل عليه السلام بيعة الرضوان.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣ / ٣٤٥.

(٤) (ش): أي جعلها لكم غنيمة.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٦ / ٢٧٨.

(٦) (ش): مملكة التكرور هو اسم لشعب كبير أسس مملكة إفريقية قديمة جداً امتدت من غرب السودان إلى سواحل المحيط الأطلسي في أراضي شاسعة تزيد عن مساحة الجزيرة العربية والعراق والشام معاً. ضمت تلك المملكة أراضي المناطق المعروفة اليوم بـموريتانيا والسنغال ومالي ونيجيريا والنيجر وتشاد وصولاً إلى حدود دارفور في السودان. دخل الإسلام مملكة التكرور، على الأرجح، بداية القرن الخامس الهجري، أي قبل سنة ١٠٣٠م بعدة سنوات بإسلام أفراد وجماعات صغيرة على يد التجار المسلمين القادمين من شمال أفريقيا. ورغم قوة المملكة آنذاك، فقد دخل الإسلام مملكة التكرور طواعيةً دون قتال وباختيار أهلها. ففي حوالي سنة ١٠٣٠م أسلم ملك مملكة التكرور القوي «وارديابي» وأسلم معه رجال الدولة والعلماء ثم عمَّ الإسلام كافة أرجاء المملكة. (وانظر كتاب: «سطور من المنظور والمأثور عن بلاد التكرور، رحلة في مالي وحديث عن ماضيها المجيد، وحاضرها الجديد»، لمحمد بن ناصر العبودي).

وقدم علينا ببعض ملوكهم يُحجّ معه^(١) ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ أي فعجل لكم غنائم خيبر بدون جهد وقتال ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ أي ومنع أيدي الناس أن تمتد إليكم بسوء فقال المفسرون: المراد أيدي أهل خيبر وحلفائهم من بني أسد وغطفان، حين جاءوا لنصرتهم فكدف الله في قلوبهم الرعب ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ولتكون الغنائم، وفتح مكة، ودخول المسجد الحرام علامة واضحة تعرفون بها صدق الرسول فيما أخبركم به عن الله ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي ويهديكم تعالى إلى الطريق القويم، الموصل إلى جنات النعيم بجهادكم وإخلاصكم قال الإمام الفخر: والآية للإشارة إلى أن ما أعطاهم من الفتح والمغانم، ليس هو كل الثواب، بل الجزاء أمامهم، وإنما هو شيء عاجل عجّله لهم لينتفعوا به، ولتكون آية لمن بعدهم من المؤمنين، تدل على صدق وعد الله في وصول ما وعدهم به كما وصل إليكم^(٢) ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ أي وغنيمة أخرى يسرها لكم، لم تكونوا بقدرتكم تستطيعون عليها، ولكن الله بفضلها وكرمه فتحها لكم، والمراد بها فتح مكة ﴿فَدَاخَطَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي قد استولى الله عليها بقدرته ووهبها لكم، فهي كالشيء المحاط به من جوانبه محبوس لكم لا يفوتكم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ أي قادراً على كل شيء، لا يعجزه شيء أبداً، فهو القادر على نصره أوليائه، وهزم أعدائه قال ابن كثير: المعنى أي وغنيمة أخرى وفتحاً آخر معيناً، لم تكونوا تقدرّون عليها، قد يسرها الله عليكم وأحاط بها لكم، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين من حيث لا يحتسبون والمراد بها في هذه الآية «فتح مكة» وهو اختيار الطبري^(٣) ﴿وَلَوْ قَتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَرْضَ﴾ تذكير لهم بنعمة أخرى أي ولو قاتلكم أهل مكة ولم يقع الصلح بينكم وبينهم، لغلبوا وانهزموا أمامكم ولم يثبتوا ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوكَ وَلِيًّا وَلَا نُصِيرًا﴾ أي ثم لا يجدون من يتولّى أمرهم بالحفظ والرعاية، ولا من ينصرهم من عذاب الله ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي تلك طريقة الله وعادته التي سنّها فيمن مضى من الأمم، من هزيمة الكافرين ونصر المؤمنين قال في البحر: أي سنّ الله لأبنيائه ورسله سنة قديمة وهي قوله ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾^(٤) [المجادلة: ٢١] ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُنَّ اللَّهُ تَبْدِيلًا﴾ أي وسنته تعالى لا تبدل ولا تتغير ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنِ مَكَّةَ﴾ أي وهو تعالى بقدرته

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٩٩٦. (ش): ما أثبتناه في هذا الهامش واثنين بعده هو الصواب، والمثبت في أكثر من طبعة غير ذلك، وهي أخطاء طباعية واضحة.

(٢) «التفسير الكبير» ٢٨/ ٩٦.

(٣) ما ذكره ابن كثير هو الراجح وهو اختيار الطبري وأبي حيان، وهو منقول عن قتادة والحسن، ويؤيده أن الله تعالى قال: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾، وهذا يدل على تقدّم محاولة لفتحها وهو منطبق على «فتح مكة»، وقيل: إن المراد فتح فارس والروم، وقيل: هو أوازن في حنين، وما ذكرناه أرجح.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٩٧.

وتدبيره صرف أيدي كفار مكة عنكم كما صرف عنهم أيديكم بالحديبية التي هي قرية من البلد الحرام قال ابن كثير: هذا امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين، حين كف أيدي المشركين عنهم، فلم يصل إليهم منهم سوء، وكف أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلاً من الفريقين وأوجد بينهم صلحاً، فيه خيرة للمؤمنين وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة^(١) ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي من بعد ما أخذتموهم أسارى وتمكنتهم منهم قال الجلال: وذلك أن ثمانين من المشركين طافوا بعسكر المؤمنين ليصيبوا منهم، فأخذوا وأتى بهم إلى رسول الله ﷺ فعفا عنهم وخلي سبيلهم، فكان ذلك سبب الصلح^(٢) وقال في التسهيل: وروي في سببها أن جماعة من فتيان قريش خرجوا إلى الحديبية، ليصيبوا من عسكر رسول الله ﷺ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في جماعة من المسلمين فهزم موهم وأسروا منهم قوماً، وساقوهم إلى رسول الله ﷺ فأطلقهم^(٣)، فكف أيدي الكفار هو هزيمتهم وأسروهم، وكف أيدي المؤمنين عن الكفار هو إطلاقهم من الأسر وسلامتهم من القتل^(٤) ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ أي هو تعالى بصير بأعمالكم وأحوالكم، يعلم ما فيه مصلحة لكم، ولذلك حجزكم عن الكافرين رحمة بكم، وحرمة لبيته العتيق لئلا تسفك فيه الدماء.. ثم ذكر تعالى استحقاق المشركين للعذاب والدمار فقال ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي هم كفار قريش المعتدون الذين كفروا بالله والرسول، ومنعوا المؤمنين عن دخول المسجد الحرام لأداء مناسك العمرة عام الحديبية ﴿وَأَلْهَدَىٰ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ﴾ أي وصدوا الهدي أيضاً وهو ما يهدي لبيت الله لفقراء الحرم معكوفاً، أي: محبوساً عن أن يبلغ مكانه الذي يُذبح فيه وهو الحرم قال القرطبي: يعني قريشاً منعوا المسلمين من دخول المسجد الحرام عام الحديبية، حين أحرم رسول الله ﷺ مع أصحابه بالعمرة، ومنعوا الهدي وحبسوه عن أن يبلغ محله، وهذا كانوا لا يعتقدونه، ولكنه حملتهم الأنفة ودعتهم الحمية الجاهلية على أن يفعلوا ما لا يعتقدونه ديناً، فوبخهم الله على ذلك وتوعدهم عليه، وأدخل الأنس على رسول الله ﷺ ببيانه ووعد^(٥) ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ الْمُؤْمِنِينَ وَالنِّسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي ولولا أن في مكة رجالاً ونساء من المؤمنين المستضعفين، الذين يخفون إيمانهم خوفاً من المشركين ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ أي لا تعرفونهم بأعيانهم لا اختلاطهم بالمشركين ﴿أَنْ تَطَّوَّهُمْ فُتْصِبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي كراهة أن توقعوا بهم وتقتلوا منهم دون علم منكم

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٤٦.

(٢) «تفسير الجلالين» ٩٧/ ٤. (ش): رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

(٣) (ش): ضعيف جداً رواه الطبري في «تفسيره».

(٤) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٥٤.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٨٣.

بإيمانهم، فينالكم بقتلهم إثم وعيب وجواب «لولا» محذوفٌ تقديره: لأذن لكم في دخول مكة، ولسلطكم على المشركين قال الصاوي: والجواب محذوف قدره الجلال بقوله: لأذن لكم في الفتح، ومعنى الآية: لولا كراهة أن تهلکوا أناساً مؤمنين بين أظهر الكفار، حال كونكم جاهلين بهم فيصيبكم بإهلاكهم مكروه لما كف أيديكم عنهم، ولأذن لكم في فتح مكة^(١) ﴿لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي إنما فعل ذلك ليخلص المؤمنين من بين أظهر المشركين، وليرجع كثيرٌ منهم إلى الإسلام قال القرطبي: أي لم يأذن الله لكم في قتال المشركين، ليُسلم بعد الصلح مَنْ قضى أن يُسلم من أهل مكة، وكذلك كان، أسلم كثير منهم وحسن إسلامه، ودخلوا في رحمته وجنته^(٢) ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي لو تفرقوا وتميَّز بعضهم عن بعض، وانفصل المؤمنون عن الكفار، لعذبنا الكافرين منهم أشدَّ العذاب، بالقتل والسبي والتشريد من الأوطان ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾ أي حين دخل إلى قلوب الكفار الأنفة والكبرياء بالباطل، فرفضوا أن يكتبوا في كتاب الصلح «بسم الله الرحمن الرحيم» ورفضوا أن يكتبوا «محمد رسول الله» وقولهم: لو نعلم أنك رسول الله لاتبعناك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك^(٣) ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أي أنفة وغطرسة وعصية جاهلية ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي جعل الطمأنينة والوقار في قلب الرسول والمؤمنين، ولم تلحقهم العصبية الجاهلية كما لحقت المشركين ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ أي اختار لهم كلمة التقوى إلزام تكريم وتشريف وهي كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» هذا قول الجمهور، والظاهر: أن المراد بكلمة التقوى هي إخلاصهم وطاعتهم لله ورسوله، وعدم شقِّ صف الطاعة عندما كتبت بنود الصلح، وكانت مجحفةً بحقوق المسلمين في الظاهر، فثبت الله المؤمنين على طاعة رسول الله ﷺ وكان في هذا الصلح كل الخير للمسلمين^(٤) ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلُهَا﴾ أي وكانوا أحقَّ بهذه الفضيلة من كفار مكة، لأن الله اختارهم لدينه وصحبه نبيه ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي عالماً بمن هو أهل للفضل، فيخصه بمزيد من الخير والتكريم. ثم أخبر تعالى عن رؤيا رسول الله ﷺ في المنام وهي رؤيا حق لأنها جزء من الوحي فقال ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ اللام موطئة للقسم، و«قد» للتحقيق، أي: والله لقد جعل الله رؤيا رسوله صادقة محققة لم يدخلها الشيطان لأنها رؤيا حق قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ قد رأى في منامه أنه دخل مكة هو وأصحابه وطافوا بالبيت، ثم حلق بعضهم وقصَّ بعضهم، فحدث بها أصحابه ففرحوا واستبشروا، فلما

(١) «حاشية الصاوي علي الجلالين» ٩٨ / ٤.

(٢) تفسير القرطبي ٢٨٦ / ١٦.

(٣) (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٤) هذا ما ألهمني الله إياه عند تفسير الآيات الكريمة من واقعة صلح الحديبية ولعله واضح لمن تمعَّن فيه.

خرج إلى الحديبية مع الصحابة، وصدّه المشركون عن دخول مكة، وقع ما وقع من قضية الصلح، ارتاب المنافقون وقالوا: والله ما حلقنا ولا قصّرنا ولا رأينا البيت، فأين هي الرؤيا؟ ووقع في نفوس بعض المسلمين شيء فنزلت الآية ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ فأعلم تعالى أن رؤيا رسوله حق، وأنه لم يكذب فيما رأى، ولكنه ليس في الرؤيا أنه يدخلها عام ستة من الهجرة، وإنما أراه مجرد صورة الدخول، وقد حقق الله له ذلك بعد عام فذلك قوله تعالى ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أي لتدخلن يا محمد أنت وأصحابك المسجد الحرام بمشيئة الله ﴿ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي تدخلونها آمنين من العدو، تؤدون مناسك العمرة ثم يحلق بعضكم رأسه، ويقصر بعض ﴿لَا تَخَافُوكَ﴾ أي غير خائفين، وليس فيه تكرار لأن المراد (آمنين) وقت دخولكم، وحال المكث، وحال الخروج ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ أي فعلم تعالى ما في الصلح من الحكمة والخير والمصلحة لكم ما لم تعلموه أنتم قال ابن جزي: يريد ما قدره تعالى من ظهور الإسلام في تلك المدة، فإنه لما انعقد الصلح وارتفعت الحرب، رغب الناس في الإسلام، فكان رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية في ألف وأربعمائة، وغزا «غزوة الفتح» بعدها بعامين ومعه عشرة آلاف^(١) ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي فجعل قبل ذلك فتحًا عاجلاً لكم وهو «صلح الحديبية» وسُمي فتحاً لما ترتب عليه من الآثار الجليّة، والعواقب الحميدة، ولهذا روى البخاري عن البراء رضي الله عنه قال: تَعُدُّونَ أَنْتُمْ الْفَتْحَ فَتَحَ مَكَّةَ، وَقَدْ كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ فَتْحًا، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ بَيْعَةَ الرُّضْوَانِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ^(٢) الحديث ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي هو جلّ وعلا الذي أرسل محمداً بالهداية التامة الشاملة الكاملة، والدين الحق المستقيم دين الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي ليعليه على جميع الأديان، ويرفعه على سائر الشرائع السماوية ﴿وَكُفِّي بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي وكفى بالله شاهداً على أن محمداً رسوله. ثم أثنى تعالى على أصحاب رسول الله بالثناء العاطر، وشهد لرسوله بصدق الرسالة فقال ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي هذا الرسول المسمّى محمداً هو رسول الله حقاً لا كما يقول المشركون ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ أي وأصحابه الأبرار الأخيار غلاظ على الكفار متراحمون فيما بينهم كقوله تعالى ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] قال أبو السعود: أي يظهرن

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٥٦/٤.

(٢) الحديث أخرجه البخاري وتتمته: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ - ﷺ - أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً، وَالْحُدَيْبِيَّةُ بئرٌ فَتَزَحْنَاهَا، فَلَمْ نَتْرَكْ فِيهَا قَطْرَةً، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ - ﷺ - فَأَتَاهَا، فَجَلَسَ عَلَى شَفِيرِهَا، ثُمَّ دَعَا بِإِنَاءٍ مِنْ مَاءٍ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ مَضْمَضَ وَدَعَا، ثُمَّ صَبَّ فِيهَا فَتَرَكْنَاهَا غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ إِنَّهَا أَصْدَرَتْنَا مَا شِئْنَا نَحْنُ وَرِكَابَتَنَا. (ش): (فَتَزَحْنَاهَا) أَخَذْنَا مَاءَهَا شَيْئًا فَشِئًا. (فَتَرَكْنَاهَا غَيْرَ بَعِيدٍ) تَرَكْنَاهَا مَدَّةً مِنَ الزَّمَنِ قَلِيلَةً. (أَصْدَرَتْنَا) أَخْرَجَتْ لَنَا وَأَرْجَحَتْ مَاءَ عَوْضًا عَنِ الَّذِي نُرْجِحُ مِنْهَا. (مَا شِئْنَا) الْقَدْرَ الَّذِي نُرْغِبُهُ وَنُرِيدُهُ لَشُرْبٍ وَغَيْرِهِ. (وَرِكَابَتَنَا) هِيَ الْإِبِلُ الَّتِي يُسَارُّ عَلَيْهَا وَنَحْوُهَا.

لمن خالف دينهم الشدة والصلابة، ولمن وافقهم في الدين الرحمة والرفقة^(١) قال المفسرون: وذلك لأن الله أمرهم بالغلظة عليهم ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣] وقد بلغ من تشديدهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تمس أبدانهم، وكان الواحد منهم إذا رأى أخاه في الدين صافحه وعانقه ﴿تَرْنَهُمْ رُكْعًا سَجَدًا﴾ أي تراهم أيها السامع راكعين ساجدين من كثرة صلاتهم وعبادتهم، رهبان بالليل أسود بالنهار ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ أي يطلبون بعبادتهم رحمة الله ورضوانه قال ابن كثير: وصفه بكثرة الصلاة وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص لله عزَّ وجلَّ والاحتساب عنده بجزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة على فضل الله ورضاه^(٢) ﴿سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ أي علامتهم وسمتهم كائنة في جباههم من كثرة السجود والصلاة قال القرطبي: لاحت في وجوههم علامات التهجد بالليل وأمارات السهر، قال ابن جريج: هو الوقار والبهاء، وقال مجاهد: هو الخشوع والتواضع، قال منصور: سألت مجاهدًا عن قوله تعالى ﴿سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ أهو أثر يكون بين عيني الرجل؟ قال: لا، ربما يكون بين عيني الرجل مثل رُكْبَةِ الْعِزِّ^(٣) وهو أقسى قلبًا من الحجارة، ولكنه نورٌ في وجوههم من الخشوع^(٤) ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ أي ذلك وصفهم في التوراة: الشدة على الكفار، والرحمة بالمؤمنين، وكثرة الصلاة والسجود ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ أي ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج فراخه وفروعه ﴿فَنَازَرَهُ فَأَسْتَغْلَظَ﴾ أي فقواه حتى صار غليظًا ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوْقِهِ﴾ أي فقام الرزق واستقام على أصوله ﴿يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيَغِظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ أي يعجب هذا الزرع الزراع، بقوته وكثافته وحسن منظره، ليغتاظ بهم الكفار قال الضحاك: هذا مثل في غاية البيان، فالزرع محمد ﷺ، والشطأ أصحابه، كانوا قليلًا فكثرُوا، وضعفاء فقوُوا، وقال القرطبي: وهذا مثل ضربه الله تعالى لأصحاب النبي ﷺ يعني أنهم يكونون قليلًا ثم يزدادون ويكثرون، فكان النبي ﷺ حين بدأ بالدعوة ضعيفًا، فأجابه الواحد بعد الواحد حتى قوي أمره، كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفًا فيقوى حالًا بعد حال حتى يغلظ نباته، وأفراخه، فكان هذا من أصح مثل وأقوى بيان^(٥) ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

(١) «أبو السعود» ٨٦/٥.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٥٥.

(٣) (ش): (رُكْبَةُ): مَوْصِلُ أَصْفَلِ الْفَخْذِ بِأَعْلَى السَّاقِ. والجمع رُكْبَاتٌ وَرُكْبَاتٌ وَرُكْبٌ. (الماعز): واحد من المَعَزِّ، ذُو الشَّعْرِ مِنَ الْغَنَمِ، خِلَافَ الضَّأْنِ، يُطْلَقُ عَلَى الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، وَقَدْ يُقَالُ لِلذَّكَرِ: تَيْسٌ، وَلِلْأُنْثَى: عَتَرٌ وَمَاعِزَةٌ وَمِعْرَاةٌ.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٩٣.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٩٥. (ش): في أكثر من طبعة هذا الهامش في نفس مكان الهامش السابق، وهو خطأ طباعي واضح.

أَصْلَحَتْ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ أي وعدهم تعالى بالآخرة بالمغفرة التامة والأجر العظيم والرزق الكريم في جنات النعيم، اللهم ارزقنا محبتهم يا رب العالمين.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿مَا نَقَدَّمَ.. وَمَا تَأَخَّرَ﴾ وبين ﴿وَمُبَشِّرًا.. وَنَذِيرًا﴾ وبين ﴿بُكْرَةً.. وَأَصِيلًا﴾ وبين ﴿نَكَتَ.. أَوْفَى﴾ وبين ﴿أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ [الفتح: ١١] وبين ﴿يَغْفِرُ.. وَيُعَذِّبُ﴾ وبين ﴿مُحْلِقِينَ.. وَمُقَصِّرِينَ﴾ وبين ﴿أَشِدَّاءُ.. رُحَمَاءُ﴾.

٢ - المقابلة بين ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ جَنَّاتٍ..﴾ [الفتح: ٥] الآية وبين ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُتَنَفِّقِينَ وَالْمُتَنَفِّقَاتِ﴾ [الفتح: ٦] الآية.

٣ - الاستعارة التصريحية المكنية ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] شبه المعاهدة على التضحية بالأنفس في سبيل الله طلباً لمرضاته بدفع السلع في نظير الأموال، واستعير اسم المشبه به للمشبه واشتق من البيع يبايعون بمعنى يعاهدون على دفع أنفسهم في سبيل الله، والمكنية في قوله ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ شبه اطلاع الله على مبايعتهم ومجازاته على طاعتهم بملك وضع يده على يد أميره ورعيته، وطوى ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو اليد على طريق الاستعارة المكنية، ففي الآية استعارتان^(١).

٤ - الكناية ﴿لَوْ لَوْ الْأَذْبَرُ﴾ كناية عن الهزيمة لأن المنهزم يدير ظهره لعدوه للهرب.

٥ - التعبير بصيغة المضارع لاستحضار صورة المبايعة ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ..﴾.

٦ - الالتفات من ضمير الغائب إلى الخطاب ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ﴾ بعد قوله تعالى ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ وذلك لتشريف المؤمنين في مقام الامتنان.

٧ - الإطناب بتكرار الحرج ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾ [الفتح: ١٧] لتأكيد نفي الإثم عن أصحاب الأعذار.

٨ - التشبيه التمثيلي ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ، فَتَزَارَهُ، فَاسْتَغْلَظَ، فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ..﴾ الآية لأن وجه الشبه منتزِعٌ من متعدد.

٩ - مراعاة الفواصل في نهاية الآيات وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفتح»



(١) (ش): البدان صفة ذاتية لله عز وجل، ثبتها كما ثبت باقي صفاته تعالى؛ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، وهي ثابتة بالكتاب والسنة.



مدنية وآياتها ثماني عشرة

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مدنية، وهي على وجازتها سورة جليلة ضخمة، تتضمن حقائق التربية الخالدة وأسس المدنية الفاضلة، حتى سماها بعض المفسرين «سورة الأخلاق».

* ابتدأت السورة الكريمة بالأدب الرفيع الذي أدب الله به المؤمنين، تجاه شريعة الله وأمر رسوله وهو ألا يرموا أمراً، أو يبدوا رأياً، أو يقضوا حكماً في حضرة الرسول ﷺ حتى يستشيروه ويستمسكوا بإرشاداته الحكيمة ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ؕ وَانْقُوا إِلَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

* ثم انتقلت إلى أدب آخر وهو خفض الصوت إذا تحدثوا مع الرسول ﷺ تعظيماً لقدره الشريف، واحتراماً لمقامه السامي، فإنه ليس كعامة الناس بل هو رسول الله، ومن واجب المؤمنين أن يتأدبوا معه في الخطاب مع التوقير والتعظيم والإجلال ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾.

* ومن الأدب الخاص إلى الأدب العام تنتقل السورة لتقرير دعائم المجتمع الفاضل، فتأمر المؤمنين بعدم السماع للإشاعات، وتأمر بالتثبت من الأنباء والأخبار، لا سيما إن كان الخبر صادراً عن شخص غير عدل أو شخص متهم، فكم من كلمة نقلها فاجر فاسق سببت كارثة من الكوارث، وكم من خبر لم يتثبت منه سامعه جر وبلاً، وأحدث انقساماً ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾.

* ودعت السورة إلى الإصلاح بين المتخاصمين، ودفع عدوان الباغين ﴿وَلِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ الآيات.

* وحذرت السورة من السخرية والهمز واللمز، ونفرت من الغيبة والتجسس والظن السيئ بالمؤمنين، ودعت إلى مكارم الأخلاق، والفضائل الاجتماعية، وحين حذرت من الغيبة جاء النهي في تعبير رائع عجيب، أبدعه القرآن غاية الإبداع، صورة رجل يجلس إلى جنب أخ له ميت ينهش منه ويأكل لحمه ﴿وَلَا يَجْسَسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ الآية. ويا له من تنفير عجيب!!

* وختمت السورة بالحديث عن الأعراب الذين ظنوا الإيمان كلمة تقال باللسان، وجاءوا يمنون على الرسول إيمانهم، فتبين حقيقة الإيمان، وحقيقة الإسلام، وشروط المؤمن الكامل وهو الذي جمع الإيمان والإخلاص والجهاد والعمل الصالح ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا

بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١﴾
إلى آخر السورة الكريمة.

التسمية: سميت «سورة الحجرات» لأن الله تعالى ذكر فيها حرمة بيوت النبي ﷺ وهي الحجرات التي كان يسكنها أمهات المؤمنين الطاهرات رضوان الله عليهن.
قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْفَقَاةُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّفَقَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَجَزَاءٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَتَذَمِينِ ﴿٦﴾ وَاعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَنَعْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَّ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَفُتِنِلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحْسَبُوا أَنَّ بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ أَحَدٌ كُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ

اللغة: ﴿يَغُضُّونَ﴾ غَضَّ صَوْتَهُ خَفَضَهُ وَخَافَتْ بِهِ ﴿فَاسِقٌ﴾ الفاسق: الخارج من حدود الشرع، وهو في أصل الاشتقاق موضوع لما يدل على معنى الخروج، مأخوذ من قولهم: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها، وسمي فاسقًا لخروجه عن الطاعة ﴿بِنَبَأٍ﴾ النبأ: الخبر الهام قال الراغب: لا يقال للخبر في الأصل: نبأ حتى يكون ذا فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن^(١) ﴿عَنِتُّمْ﴾ وقعت في العنت وهو المشقة والهلاك قال في اللسان: العنت: الهلاك وأَعْتَنَهُ أَوْقَعَهُ فِي الْهَلَكَةِ^(٢) ﴿الرَّاشِدُونَ﴾ جمع راشد وهو المهتدي إلى محاسن الأمور

(١) مفردات القرآن للراغب.

(٢) «لسان العرب» مادة عنت.

﴿تَقِيءُ﴾ ترجع ﴿بَغَتْ﴾ اعتدت واستطالت وأصله مجاوزة الحد في الظلم والطغيان ﴿تَلْمِزُوا﴾ تعيبوا.

سَبَبُ النَّزُول: أ- روي أن بعض الأعراب الجففة جاءوا إلى حجرات أزواج النبي ﷺ فجعلوا ينادونه: يا محمد أخرج إلينا، يا محمد أخرج إلينا فأنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(١).

ب- وروي أن النبي بعث «الوليد بن عقبة» إلى الحارث بن ضرار ليقبض ما كان عنده من الزكاة التي جمعها من قومه، فلما سار الوليد واقترب منهم خاف وفزع، فرجع إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، إنهم قد ارتدوا ومنعوا الزكاة، فهم بعض الصحابة بالخروج إليهم وقتالهم فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ الآية^(٢).

ج - عن أنس قال: قيل للنبي ﷺ: لو أتيت «عبد الله بن أبي» وهو رأس المنافقين فانطلق إليه وركب حماراً، وانطلق معه المسلمون يمشون، فلما أتاه النبي ﷺ قال له: إليك عني أي تنحّ وابتعد عني فوالله لقد آذاني نتن حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك، فغضب لعبد الله رجلاً من قومه، وغضب للأنصاري آخرون من قومه، فكان بينهم ضربٌ بالجريد والأيدي والنعال، فأنزل الله ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا..﴾^(٣) الآية.

التفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي أيها المؤمنون، يا من اتصفتم بالإيمان، وصدقتكم بكتاب الله، لا تقدّموا أمراً أو فعلاً بين يدي الله ورسوله، وحذف المفعول للتعميم ليذهب ذهن السامع إلى كل ما يمكن تقديمه من قول أو فعل، كما إذا عرضت مسألة في مجلسه ﷺ لا يسبقونه بالجواب، وإذا حضر الطعام لا يتدثّن بالأكل، وإذا ذهبوا معه إلى مكان لا يمشون أمامه ونحو ذلك قال ابن عباس: نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه ﷺ وقال الضحاك: لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم^(٤) وقال البيضاوي: المعنى لا تقطعوا أمراً قبل أن يحكم الله ورسوله به، وقيل: المراد بين يدي رسول الله، وذكر الله تعظيماً له وإشعاراً بأنه من الله بمكان يوجب إجلاله^(٥) ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي واتقوا الله فيما

(١) (ش): حسن، رواه أحمد والترمذي، وابن جرير، والطبراني.

(٢) انظر تفصيل الرواية في «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٥٨. (ش): ضعيف، رواه أحمد وغيره. وانظر في الدفاع عن الصحابي الجليل «الوليد بن عقبة» تعليق الشيخ محب الدين الخطيب رحمه الله على كتاب «العواصم من القواصم» للقاضي أبي بكر بن العربي المالكي (ص: ١٠٢-١٠٥).

(٣) أخرجه الشيخان.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٥٧.

(٥) «البيضاوي» ٣/ ٣٦٥ من الحاشية.

أمركم به، إن الله سميعٌ لأقوالكم، عليمٌ بنياتكم وأحوالكم، وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والروعة في النفوس .. ثم أرشد تعالى المؤمنين إلى وجوب توقير الرسول وإجلاله واحترامه فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ أي إذا كلمتم رسول الله ﷺ فاخفضوا أصواتكم ولا ترفعوها على صوت النبي ﷺ ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي ولا تبلغوا حدَّ الجهر

عند مخاطبته ﷺ كما يجهر بعضكم في الحديث مع البعض، ولا تخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضكم بعضاً فتقولوا: يا محمد، ولكن قولوا يا نبي الله، ويا رسول الله، تعظيماً لقدره، ومراعاةً للأدب قال المفسرون: نزلت في بعض الأعراب الجفاة الذين كانوا ينادون رسول الله باسمه، ولا يعرفون توقير الرسول الكريم ^(١) ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي خشية أن تبطل أعمالكم من حيث لا تشعرون ولا تدرون، فإن في رفع الصوت والجهر بالكلام في حضرته ﷺ استخفافاً قد يؤدي إلى الكفر المحبط للعمل قال ابن كثير: روي «أن ثابت بن قيس كان رفيع الصوت، فلما نزلت الآية قال: أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ أنا من أهل النار، حبط عملي، وجلس في أهله حزناً، فافتقده رسول الله ﷺ فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له: تفقدك رسول الله ﷺ ما لك؟ فقال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ حبط عملي أنا من أهل النار، فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال، فقال النبي ﷺ: «لا، بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ» ^(٢)

وفي رواية «أترضى أن تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة؟» فقال: رضىتُ بشري الله تعالى ورسوله ﷺ ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله ﷺ. ^(٣) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ أي إن الذين يخفضون أصواتهم في حضرة الرسول ﷺ أولئك الذين أخلص الله قلوبهم للتقوى ومرَّنها عليها وجعلها صفة راسخة راسخة فيها قال ابن كثير: أي أخلصها للتقوى وجعلها أهلاً ومحلاً ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي لهم في الآخرة صفحٌ عن ذنوبهم، وثواب عظيم في جنات النعيم .. ثم ذمَّ تعالى الأعراب الجفاة الذين ما كانوا يتأدبون في ندائهم للرسول ﷺ فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ أي يدعونك من وراء الحجرات، منازل أزواجك الطاهرات ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي أكثر هؤلاء غير عقلاء، إذ العقل يقتضي حسن الأب، ومراعاة العظماء عند خطابهم، سيما لمن كان بهذا المنصب الخطير قال البيضاوي: قيل إن الذي ناداه «عُيَيْنَةُ بن

(١) (ش): حسن، رواه أحمد والترمذي، وابن جرير، والطبراني.

(٢) الحديث أخرجه أحمد. (ش): ورواه البخاري ومسلم.

(٣) ذكر هذه الرواية ابن جرير الطبري. (ش): ضعفه الألباني.

حُصَيْن»^(١) و «الأقرع بن حابس» وقدًا على رسول الله ﷺ في سبعين رجلاً من بني تميم وقت الظهيرة وهو راقد فقالا: يا محمد اخرج إلينا^(٢) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أي ولو أن هؤلاء المُنادين لم يزججوا الرسول ﷺ بمناداتهم وصبروا حتى يخرج إليهم لكان ذلك الصبر خيراً لهم وأفضل عند الله وعند الناس، لما فيه من مراعاة الأدب في مقام النبوة ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي الغفور لذنوب العباد، الرحيم بالمؤمنين حيث اقتصر على نصحتهم وتقريعهم، ولم يُنزل العقاب بهم. ثم حذر تعالى من الاستماع للأخبار بغير تثبت فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾ أي إذا أتاكم رجل فاسق غير موثوق بصدقه وعدالته بخبر من الأخبار ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ أي فتثبتوا من صحة الخبر ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ﴾ أي لئلا تصيبوا قوماً وأنتم جاهلون حقيقة الأمر ﴿فَنُصِصُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ أي فتصيروا نادمين أشد الندم على صنيعكم^(٣) ﴿وَاعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي واعلموا أيها المؤمنون أن بينكم الرسول المعظم، والنبى المكرم، المعصوم عن اتباع الهوى ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ﴾ أي لو يسمع وشاياتكم، ويصغي بسمعه لأرائكم، ويطيعكم في غالب ما تشيرون عليه من الأمور، لوقعتكم في الجهد والهلاك قال ابن كثير: أي اعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظموه ووقروه، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم، ولو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدّى ذلك إلى عنتكم وحر جكم^(٤) ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ أي ولكنه تعالى بمنه وفضله نور بصائرهم فحبّب إلى نفوسكم الإيمان ﴿وَزَيَّنَّ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي وحسّنه في قلوبكم، حتى أصبح أغلى عندكم من كل شيء ﴿وَكَرِهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ أي وبغض إلى نفوسكم أنواع الضلال، من الكفر والمعاصي والخروج عن طاعة الله قال ابن كثير: والمراد بالفسوق الذنوب الكبار، وبالعصيان جميع المعاصي^(٥) ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرّٰشِدُونَ﴾ أي أولئك المتصفون بالنعوت الجليلة هم المهتدون، الراشدون في سيرتهم وسلوكهم، والجملة تفيد الحصر أي هم الراشدون لا غيرهم ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ أي هذا العطاء تفضّل منه تعالى عليكم وإنعام ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بمن يستحق الهداية، حكيم في خلقه وصنعه وتدييره.. ثم عقب تعالى ما يترتب على سماع الأنباء المكذوبة من تخاصم وتباغض وتقاتل

(١) (ش): هكذا في أكثر من طبعة، والصواب: «عُيَيْنَ بن حُصْن».

(٢) «تفسير البيضاوي» ٣/ ٣٦٧. (ش): رواه البيهقي في «دلائل النبوة» بإسناد ضعيف. وروى أحمد بإسناد ضعيف أنها نزلت في الأقرع بن حابس. وقد قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٣٦٩): «وَقَدْ ذَكَرَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسِ التَّمِيمِيِّ».

(٣) انظر سبب النزول.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٦١.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير»

فقال ﴿وَلِنْ طَافِقَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ أي وإن حدث أن فئتين وجماعتين من إخوانكم المؤمنين جنحوا إلى القتال فأصلحوا بينهما، واسعوا جهدكم للإصلاح بينهما، والجمع ﴿أَفْتَلُوا﴾ باعتبار المعنى، والتثنية ﴿بَيْنَهُمَا﴾ باعتبار اللفظ ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى﴾ أي فإن بغت إحداهما على الأخرى، وتجاوزت حدّها بالظلم والطغيان، ولم تقبل الصلح وصمّمت على البغي ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَقَّ نَفْسِي إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي فقاتلوا الفئة الباغية حتى ترجع إلى حكم الله وشرعه، وتقلع عن البغي والعدوان، وتعمل بمقتضى أخوة الإسلام ﴿فَإِنْ فَأَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا﴾ أي فإن رجعت وكفّت عن القتال فأصلحوا بينهما بالعدل، دون حيفٍ على إحدى الفئتين، واعدلوا في جميع أموركم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي يحبُّ العادلين الذين لا يجورون في أحكامهم قال البيضاوي: والآية نزلت في قتالٍ حدث بين «الأوس» و«الخزرج» في عهده ﷺ كان فيه ضربٌ بالسَّعَفِ والنعال^(١)، وهي تدلُّ على أن الباغي مؤمن، وأنه إذا كفّ عن الحرب ترك، وأنه يجب تقديم النصح والسعي في المصالحة^(٢) ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أي ليس المؤمنون إلا أخوة، جمعتهم رابطة الإيمان، لا ينبغي أن تكون بينهم عداوة ولا شحناء، ولا تباغض ولا تقاتل قال المفسرون: ﴿إِنَّمَا﴾ للحصر فكأنه يقول: لا أخوة إلا بين المؤمنين، ولا أخوة بين مؤمن وكافر، وفي الآية إشارة إلى أن أخوة الإسلام أقوى من أخوة النسب، بحيث لا تعتبر أخوة النسب إذا خلت عن أخوة الإسلام ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَوْصِيائِكُمْ﴾ أي فأصلحوا بين إخوانكم المؤمنين، ولا تتركوا الفرقة تدبُّ، والبغضاء تعمل عملها ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي اتقوا الله تعالى بامثال أوامره واجتناب نواهيه، لتنالكم رحمته، وتسعدوا بجنّته ومرضاته ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي يا معشر المؤمنين، يا من اتصفتم بالإيمان، وصدّقتم بكتاب الله وبرسوله، لا يهزأ جماعة بجماعة، ولا يسخر أحد من أحد، فقد يكون المسخور منه خيرًا عند الله من الساخر، و«رَبِّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طَمَرَيْنِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَهُ»^(٣) ﴿وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ أي ولا يسخر نساء من نساء فعسى أن تكون المحتقر منها خيرًا عند الله وأفضل من الساخرة

(١) (ش): السَّعَفُ: جريد النخل وورقه. عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قِيلَ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -: «لَوْ آتَيْتَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ؟»، فَأَنْطَلَقَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وَرَكِبَ حِمَارًا فَأَنْطَلَقَ الْمُشْلِمُونَ يَمْشُونَ مَعَهُ وَهِيَ أَرْضٌ سَبِيحَةٌ فَلَمَّا أَتَاهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: «إِلَيْكَ عَنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ آذَانِي نَنْنُ جِمَارًا». فَقَالَ رَجُلٌ مِّنَ الْأَنْصَارِ مِنْهُمْ: وَاللَّهِ لَجِمَارُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أَطْيَبُ رِيحًا مِنِّي. فَعَضِبَ لِعَبْدِ اللَّهِ رَجُلٌ مِّنْ قَوْمِهِ فَشَتَمَهُ، فَعَضِبَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَصْحَابُهُ فَكَانَ بَيْنَهُمَا ضَرْبٌ بِالْجَرِيدِ وَالْأَيْدِي وَالنِّعَالِ فَبَلَّغْنَا أَنَّهَا أَنْزَلَتْ ﴿وَلِنْ طَافِقَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ رواه البخاري ومسلم.

(سَبِيحَةٌ): أَي ذَات سَبَاح، وَهِيَ الْأَرْضُ الَّتِي لَا تُنْبِتُ لِمَلُوحَتِهَا.

(٢) «تفسير البيضاوي» ٣/ ٣٧١.

(٣) هذا حديث صحيح. (ش): رواه الترمذي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي والألباني. الطبري: الثوب البالي.

﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي ولا يعيب بعضكم بعضاً، ولا يدع بعضكم بعضاً بلقب السوء، وإنما قال ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ لأن المسلمين كأنهم نفس واحدة ﴿يَسْأَلُكُمْ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أي يسأل أن يسمى الإنسان فاسقاً بعد أن صار مؤمناً قال البيضاوي: وفي الآية دلالة على أن التنازع فسق، والجمع بينه وبين الإيمان مستفحب^(١) ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي ومن لم يتب عن اللّمز والتنازع فأولئك هم الظالمون بتعريض أنفسهم للعذاب ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتِنُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ أي ابتعدوا عن التهمة والتخون وإساءة الظن بالأهل والناس، وعبر بالكثير ليحاط الإنسان في كل ظن ولا يسارع فيه بل يتأمل ويتحقق ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ أي إن بعض الظن إثم وذنوب يستحق صاحبه العقوبة عليه قال عمر رضي الله عنه: «لا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً، وأنت تجد لها في الخير محملاً»^(٢) ﴿وَلَا تَحْسَبُوا﴾ أي لا تبحسوا عن عورات المسلمين ولا تتبعوا معائبهم^(٣) ﴿وَلَا يَغْتَابَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي لا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء في غيبته بما يكرهه ﴿يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ تمثيل لشناعة الغيبة وقبحها بما لا مزيد عليه من التقييد أي هل يحب الواحد منكم أن يأكل لحم أخيه المسلم وهو ميت؟ ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي فكما تكرهون هذا طبعاً فاكروهوا الغيبة شرعاً، فإن عقوبتها أشد من هذا. شبه تعالى الغيبة بأكل لحم الأخ حال كونه ميتاً، وإذا كان الإنسان يكره لحم الإنسان فضلاً عن كونه أخاً، وفضلاً عن كونه ميتاً وجب عليه أن يكره الغيبة بمثل هذه الكراهة أو أشد ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي خافوا الله واحذروا عقابه، بامتنال أو امره واجتناب نواحيه ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ أي إنه تعالى كثير التوبة، عظيم الرحمة، لمن اتقى الله وتاب وأناب، وفيه حث على التوبة، وترغيب بالمسارعة إلى الندم والاعتراف بالخطأ لئلا يقنط الإنسان من رحمة الله.

قال الله تعالى:

يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُونَ

(١) «تفسير البيضاوي» ٣/ ٣٧٣.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٦٤.

(٣) وفي الحديث: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بَلِسَانِهِ وَلَمْ يُفِضِ الْإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَّبَعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ». أخرجه الحافظ أبو يعلى. (ش): ورواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن حبان، وصححه الألباني.

عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِيمَا تَعْمَلُونَ

المناسبة: لما دعا تعالى إلى مكارم الأخلاق ونهى عن مساوئها، وحذر المؤمنين من بعض الأفعال القبيحة، دعا الناس هنا جميعاً للتعارف والتآلف ونهاهم عن التفاخر بالأنساب، ثم بين صفات المؤمن الكامل.

اللغة: ﴿يَلْتَكُمُ﴾ ينقصكم ﴿وَقِبَائِلَ﴾ جمع قبيلة وهي الجماعة التي يربطها حسب أو نسب، وهي أخص من الشعب، لأن الشعب الجمع العظيم المنتسبون إلى أصل واحد، فالشعب يجمع القبيلة، والقبيلة تجمع البطون والأفخاذ ﴿يَرْتَابُوا﴾ يشكوا والريب: الشك ﴿يَمُنُّونَ﴾ الممن: الامتنان على الشخص والاعتداد عليه بفعل المعروف، وأصله في اللغة القطع ومنه ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦].

سبب النزول: عن ابن عباس قال: جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أسلمنا، وقاتلتك العرب ولم نقاتلك، أخذوا يمينون عليه فنزلت الآية الكريمة ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا...﴾^(١) الآية.

التفسير: ﴿يَتَأَيَّمُ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ الخطاب لجميع البشر أي نحن بقدرتنا خلقناكم من أصل واحد، وأوجدناكم من أب وأم فلا تفاخر بالأباء والأجداد، ولا اعتداد بالحسب والنسب، كلكم لآدم وادم من تراب ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ أي وجعلناكم شعوباً شتى وقبائل متعددة، ليحصل بينكم التعارف والتآلف، لا التناحر والتخالف قال مجاهد: ليعرف الإنسان نسبه فيقال: فلان ابن فلان من قبيلة كذا^(٢)، وأصل تعارفوا (تعارفوا) حُذِفَتْ إحدى التاءين تخفيفاً قال شيخ زاده: والمعنى: إن الحكمة التي من أجلها جعلكم على شعوب وقبائل هي أن يعرف بعضكم نسب بعض ولا ينسبه إلى غير آبائه، لا أن نتفاخر بالأباء والأجداد، والنسب وإن كان يُعتبر عرفاً وشرعاً، حتى لا تزوج الشريفة بالنبطي^(٣)، إلا أنه لا عبرة به عند ظهور ما هو أعظم قدراً منه وأعز، وهو الإيمان والتقوى، كما لا تظهر الكواكب عند طلوع الشمس^(٤) ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَّكُمْ﴾ أي إنما يتفاضل الناس بالتقوى

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٦٩. (ش): حسن، أخرجه أبو يعلى والبخاري في «مسنديهما».

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٦٧.

(٣) (ش): النبطي: من أهل النبط: قَوْمٌ كَانُوا يَسْكُنُونَ بَيْنَ الْعِرَاقِ وَالْأُرْدُنِّ، كَانَتْ لِدَوْلَتِهِمْ حَضَارَةٌ، عَاصِمَتُهَا الْبَتْرَاءُ، وَتُطْلَقُ الْآنَ كَلِمَةُ أَنْبَاطٍ عَلَى أَخْلَاطِ النَّاسِ وَعَوَائِمِهِمْ.

(٤) «حاشية شيخ زاده على البيضاوي» ٣/ ٣٧٥. اتفق أهل العلم على أن الكفاءة في الدين معتبرة فلا تزوج المسلمة بكافر، ولا يتزوج المسلم الكافرة إلا الكتابية بشرط الإحصان، وهو أن تكون عفيفة عن الزنا، أو تابت بعد زناها واستبرأ رحمها. والفاسق المشهور بفسقه يُمنع من الزواج بالمرأة ذات الدين حيث لا يؤمن =

لا بالأحساب والأنساب، فمن أراد شرفاً في الدنيا ومنزلة في الآخرة فليتق الله^(١) كما قال ﷺ: «من سرّه أن يكون أكرم الناس فليتق الله»^(٢) وفي الحديث «النَّاسُ رَجُلَانِ: رَجُلٌ بَرٌّ تَقَى كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيْنَ عَلَى اللَّهِ»^(٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي عليمٌ بالعباد، مطلع على ظواهرهم وبواطنهم، يعلم التقي والشقي، والصالح والطالح ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٢٣]. قَالَتْ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴿أي زعم الأعراب أنهم آمنوا قل لهم يا محمد: إنكم لم تؤمنوا بعد، لأن الإيمان تصديق مع ثقة واطمئنان قلب، ولم يحصل لكم، وإلا لَمَا مَنَنْتُمْ عَلَى الرَّسُولِ بِالْإِسْلَامِ وَتَرَكُوا الْمَقَاتِلَةَ، وَلَكِنْ قُولُوا اسْتَسْلَمْنَا خَوْفَ الْقَتْلِ وَالسَّبِي قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: نَزَلَتْ فِي نَفَرٍ مِنْ بَنِي أَسَدٍ، قَدِمُوا الْمَدِينَةَ فِي سَنَةِ مَجْدَبَةٍ، وَأَظْهَرُوا الشَّهَادَتَيْنِ، وَكَانُوا يَقُولُونَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَتَيْنَاكَ بِالْأَثْقَالِ وَالْعِيَالِ، وَلَمْ نَقَاتِلْكَ كَمَا قَاتَلَكَ بَنُو فُلَانٍ وَفُلَانٍ، يَرِيدُونَ الصَّدَقَةَ وَيَمْتَنُونَ عَلَى الرَّسُولِ﴾^(٤)، وقد دلت الآية على أن الإيمان مرتبة أعلى من الإسلام، الذي هو الاستسلام والانقياد بالظاهر ولهذا قال تعالى ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي ولم يدخل الإيمان إلى قلوبكم ولم تصلوا إلى حقيقته بعد^(٥)، ولفظه «لَمَّا» تفيد التوقع كأنه يقول: وسيحصل لكم الإيمان عند اطلاعكم على محاسن الإسلام، وتذوقكم لحلاوة الإيمان قال ابن كثير: وهؤلاء الأعراب المذكورون في هذه الآية ليسوا منافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادّعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه فأدّبوا في ذلك، ولو كانوا منافقين كما ذهب إليه البخاري لعنّفوا وفُضِّحوا^(٦) ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً﴾ أي وإن أطعتم الله ورسوله بالإخلاص الصادق، والإيمان الكامل، وعدم المنّ على الرسول لا ينقصكم من أجوركم شيئاً ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي عظيم

= عليها منه فقد يمنعه حقوقها أو يضطرها إلى ارتكاب ما حرم الله عليها. وأما الكفاءة في النسب فقد اختلف أهل العلم في اشتراطها على قولين: الأول أنها معتبرة، والقول الثاني أن المعتبر في الكفاءة الدين، وأنه لا يثبت في اعتبار الكفاءة بالنسب حديث. وهذا القول هو الذي تشهد له الأدلة. قال تعالى: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] وثبت عنه ﷺ أنه قال: «إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَرَوْجُوهُ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ» رواه الترمذي، وحسنه الألباني.

(١) «البيضاوي» ٣/ ٣٧٥.

(٢) (ش): «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ أَعْنَى النَّاسِ فَلْيَكُنْ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ أَوْثَقَ مِمَّا فِي يَدِهِ» (رواه الحاكم وغيره بإسناد ضعيف).

(٣) جزء من خطبة قالها ﷺ عند فتح مكة وخطب الناس بها. (ش): رواه الترمذي، وحسنه الألباني.

(٤) (ش): انظر سبب النزول السابق.

(٥) (ش): لَمَّا: حرف نفى يجزم المضارع، ويقبله إلى ماضٍ ممتدٍّ حتّى وقت الحديث مع توقّع حدوثه في المستقبل القريب «لَمَّا يَذْكَرُ دَرْسَهُ» لم يفعله إلى وقت الحديث - قَالَتْ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ: لم يدخل حتى الآن.

(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٦٩.

المغفرة، واسع الرحمة، لأن صيغة «فعل» و«فعليل» تفيد المبالغة. ثم ذكر تعالى صفات المؤمنين الكُمل الصادقين في إيمانهم فقال ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي إنما المؤمنون الصادقون في دعوى الإيمان، الذين صدّقوا الله ورسوله، فأقروا الله بالوحدانية، ورسوله بالرسالة، عن يقين راسخ وإيمان كامل ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أي ثم لم يشكوا ويتزلزلوا في إيمانهم بل ثبتوا على التصديق واليقين ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي وبذلوا أموالهم ومهجهم في سبيل الله وابتغاء رضوانه ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي أولئك الذين صدّقوا في ادعاء الإيمان.. وصف تعالى المؤمنين الكاملين بثلاثة أوصاف: الأول: التصديق الجازم بالله ورسوله، الثاني: عدم الشك والارتياب، الثالث: الجهاد بالمال والنفس، فمن جمع هذه الأوصاف فهو المؤمن الصادق ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي: قل يا محمد، أتخبرون الله بما في ضمائركم وقلوبكم؟ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي وهو جل وعلا العليم بأحوال جميع العباد، لا تخفى عليه خافية لا في السموات ولا في الأرض ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي واسع العلم رقيب على كل شيء، لا يعزب عنه مثقال ذرة، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴿يُمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ أي يعدون إسلامهم عليك يا محمد منّة، يستوجبون عليها الحمد والثناء ﴿قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ﴾ أي قل لهم لا تمتنوا عليّ بإسلامكم، فإن نفع ذلك عائد عليكم ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي بل لله المنّة العظيمة عليكم، بالهداية للإيمان والتبشير عليه إن كنتم صادقين في دعوى الإيمان ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي يعلم ما غاب عن الأبصار في السموات والأرض ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي مطلع على أعمال العباد، لا تخفى عليه خافية. كرّر تعالى الإخبار بعلمه بجميع الكائنات، وإحاطته بجميع المخلوقات، ليدل على سعة علمه، وشموله لكل صغيرة وكبيرة، في السر والعلن، والظاهر والباطن.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الاستعارة التمثيلية ﴿لَا نُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١] شبه حالهم في إبداء الرأي وقطع الأمر في حضرة الرسول بحال ملكٍ عظيم تقدّم للسير أمامه بعض الناس وكان الأدب يقضي أن يسيروا خلفه لا أمامه، وهذا بطريق الاستعارة التمثيلية.

٢ - التشبيه المرسل المجمل ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: ٢] لوجود أداة التشبيه.

٣ - الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ بعد قوله ﴿حَبَّ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانُ﴾ [الحجرات: ٧] وهذا من المحسنات البديعية.

٤ - المقابلة بين ﴿حَبَّ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانُ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وبين ﴿وَكُرَهُ إِلَيْكُمُ الْكُفْرُ وَالْفُسُوقُ﴾

وَالْعَصِيَّانَ ﴿[الحجرات: ٧].

٥ - الطباقي ﴿وَلِنْ طَائِفَتَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلَوْا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩].

٦ - جناس الاشتقاق ﴿وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

٧ - التشبيه التمثيلي ﴿يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات: ١٢] مثل
للغيبه بمن يأكل لحم الميت، وفيه مبالغات عديدة لتصوير الاغتياب بأقبح الصور وأفحشها
في الذهن.

٨ - طباق السلب ﴿ءَاْمَنَّا قُلْ لَمْ نُؤْمِنُوا﴾.

٩ - الاستفهام الإنكاري للتوبيخ ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾.

١٠ - التشبيه البليغ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] أصل الكلام المؤمنون كالأخوة
في وجوب التراحم والتناصر، فحذف وجه الشبه وأداة التشبيه فأصبح بليغاً مع إفادة الجملة
الحصر.

تنبيه: سورة الحجرات تسمى سورة «الأخلاق والآداب» فقد أرشدت إلى مكارم الأخلاق،
وفضائل الأعمال، وجاء فيها النداء بوصف الإيمان خمس مرات، وفي كل مرة إرشاد إلى
مكرمة من المكارم وفضيلة من الفضائل، وهذه الآداب الرفيعة نستعرضها في فقرات:

أولاً: وجوب الطاعة والانقياد لأوامر الله ورسوله وعدم التقدم عليه بقول أو رأي ﴿يَتَأْتِيهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١].

ثانياً: احترام الرسول وتعظيم شأنه ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ...﴾
[الحجرات: ٢].

ثالثاً: وجوب الثبوت من الأخبار ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ۝٥﴾
[الحجرات: ٦].

رابعاً: النهي عن السخرية بالناس ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُوا قَوْمٍ مِّنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا
مِّنْهُمْ ۝١١﴾ [الحجرات: ١١].

خامساً: النهي عن التجسس والغيبة وسوء الظن ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾
[الحجرات: ١٢] الآية.

لطيفة: سئل بعض العلماء عما وقع بين الصحابة من قتال؟ فقال: «تلك دماء قد ظهر الله
منها أيدينا فلا نلوث بها ألسنتنا، وسبيل ما جرى بينهم كسبيل ما جرى بين يوسف وإخوته».

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحجرات»



سُورَةُ قٍ

مكية وآياتها خمس وأربعون

بين يدي السورة

* هذه السورة مكية وهي تعالج أصول العقيدة الإسلامية «الوحدانية، الرسالة، البعث» ولكن المحور الذي تدور حوله هو موضوع «البعث والنشور» حتى ليكاد يكون هو الطابع الخاص للسورة الكريمة، وقد عالجه القرآن بالبرهان الناصع، والحجة الدامغة، وهذه السورة رهيبة، شديدة الوقع على الحس، تهز القلب هزاً، وترج النفس رجاً، وتثير فيها روعة الإعجاب، ورعدة الخوف بما فيها من الترغيب والترهيب.

* ابتدأت السورة بالقضية الأساسية التي أنكرها كفار قريش، وتعجبوا منها غاية العجب، وهي قضية الحياة بعد الموت، والبعث بعد الفناء ﴿قَدْ وَالْقُرْآنُ الْمَجِيدُ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) إِنْذِرْهُمْ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ إِنَّ الْبَعْثَ لَهُ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ الَّذِي كُفِّرُوا عَنْهُ﴾ الآية.

* ثم لفتت السورة أنظار المشركين - المنكرين للبعث - إلى قدرة الله العظيمة، المتجلية في صفحات هذا الكون المنظور، في السماء والأرض، والماء والنبات، والثمر والطلع، والنخيل والزرع وكلها براهين قاطعة على قدرة العلي الكبير ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا...﴾ الآية.

* وانتقلت السورة الكريمة للحديث عن المكذبين من الأمم السالفة، وما حل بهم من الكوارث وأنواع العذاب، تحذيراً لكفار مكة أن يحل بهم ما حل بالسابقين ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ...﴾ الآية.

* ثم انتقلت السورة للحديث عن سكرة الموت، ووهلة الحشر، وهول الحساب، وما يلقاه المجرم في ذلك اليوم العصيب من أهوال وشدائد تنتهي به بالقاء في الجحيم ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ الآية.

* وختمت السورة الكريمة بالحديث عن «صيحة الحق» وهي الصيحة التي يخرج الناس بها من القبور كأنهم جراد منتشر، ويساقون للحساب والجزاء لا يخفى على الله منهم أحد، وفيه إثبات للبعث والنشور الذي كذب به المشركون ﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ...﴾ الآية.

* وختمت السورة الكريمة بالحديث عن «صيحة الحق» وهي الصيحة التي يخرج الناس بها من القبور كأنهم جراد منتشر، ويساقون للحساب والجزاء لا يخفى على الله منهم أحد، وفيه إثبات للبعث والنشور الذي كذب به المشركون ﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١)﴾

يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿الآيات﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ يَجْعَلُونَ آيَاتِنَا هُتًى فَجَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيعٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيْنَنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِهَيْجٍ ﴿٧﴾ تَبَصَّرُوا وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ ﴿١٤﴾ أَفَعَيَّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ حَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَنْفَلِقُ الْمَتْلِفَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِنْدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ

اللغة: ﴿مَرِيعٌ﴾ مختلط قال ابن قتيبة: مرج الأمر ومرج الدين اختلط، وأصله أن يقلق الشيء ولا يستقر يقال: مرج الخاتم في يدي إذا قلق للهزال ﴿فُرُوجٌ﴾ شقوق وصدوع جمع فرج وهو الشق ﴿بَاسِقَاتٍ﴾ طوال بسق الشيء بُسُوقًا إذا طال ﴿نَضِيدٌ﴾ متراكب بعضه فوق بعض ﴿لَبْسٍ﴾ حيرة وشك واضطراب ﴿أَفَعَيْنَا﴾ عجزنا يقال: عيي به يعيا أي عجز عنه ﴿رَقِيبٌ﴾ حافظ شاهد على أعمال الإنسان ﴿عَتِيدٌ﴾ حاضر مهياً قال الجوهري: العتيد الشيء الحاضر المهياً ومنه ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا﴾ [يوسف: ٣١] وفرسٌ عَتَدٌ: مُعَدٌّ للجري^(١) ﴿حَدِيدٌ﴾ حَادٌّ نَافِذٌ.

التفسير: ﴿ق﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن، وللإشارة إلى أن هذا الكتاب المعجز منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية^(٢) ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ قسمٌ حذف جوابه أي أقسم بالقرآن الكريم، ذي المجد والشرف على سائر الكتب السماوية لتبعثن بعد الموت قال ابن كثير: وجواب القسم محذوف وهو مضمون الكلام بعده وهو إثبات النبوة، وإثبات المعاد وتقديره إنك يا محمد لرسول وإن البعث لحق^(٣)، وهذا كثير في القرآن. وقال

(١) «الصحيح» مادة عتد.

(٢) انظر أول سورة البقرة حول الحروف المقطعة.

(٣) هذا خلاصة قول ابن كثير وانظر «المختصر» ٣/ ٣٧١.

أبو حيان: والقرآن مقسم به، والمجيد صفته وهو الشريف على غيره من الكتب، والجواب محذوف يدل عليه ما بعده تقديره: لقد جئتهم منذراً بالبعث فلم يقبلوا^(١) ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ أي تعجب المشركون من إرسال رسول إليهم من البشر يخوفهم من عذاب الله ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي فقال كفار مكة: هذا شيء في منتهى الغرابة والعجب، والإظهار في موضع الإضمار لتسجيل جريمة الكفر عليهم، والآية إنكاراً لتعجبهم مما ليس بعجب، فإنهم قد عرفوا صدق الرسول وأمانته ونصحه، فكان الواجب عليهم أن يسارعوا إلى الإيمان لا أن يعجبوا ويستهزئوا، ثم أخبر تعالى عن وجه تعجبهم فقال ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ أي أئذا متنا واستحالت أجسادنا إلى تراب هل سنحيا ونرجع كما كنا؟ ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أي ذلك رجوع بعيد غاية البعد، مستحيل حصوله ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي قد علمنا ما تنقصه الأرض من أجسادهم، وما تأكله من لحومهم وأشعارهم ودمائهم إذا ماتوا، فلا يضل عنا شيء حتى نتعذر علينا الإعادة ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ﴾ أي ومع علمنا الواسع عندنا كتاب حافظ لعددهم وأسمائهم وما تأكله الأرض، وهو اللوح المحفوظ الذي يحصي تفصيل كل شيء ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ إضراب إلى ما هو أفظع وأشنع من التعجب وهو التكذيب بالقرآن العظيم أي كذبوا بالقرآن حين جاءهم، مع سطوع آياته، ووضوح بيانه ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ أي فهم في أمر مختلط مضطرب، فتارة يقولون عن الرسول: إنه ساحر، وتارة يقولون: إنه شاعر، وتارة يقولون: إنه كاهن، وهكذا قالوا أيضاً عن القرآن: إنه سحر، أو شعر، أو أساطير الأولين إلى غير ذلك.

ثم ذكر تعالى دلائل القدرة والوحدانية الدالة على عظمة رب العالمين فقال ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾ أي أفلم ينظروا نظر تفكير واعتبار، إلى السماء في ارتفاعها وإحكامها، فيعلموا أن القادر على إيجادها قادر على إعادة الإنسان بعد موته؟ ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾ أي كيف رفعناها بلا عمد وزيناها بالنجوم ﴿وَمَا هَا مِنْ فُجُوعٍ﴾ أي ما لها من شقوق وصدوع ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ أي والأرض بسطناها ووسعناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي وجعلنا فيها جبلاً ثوابت تمنعها من الاضطراب بسكانها ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي وأنبتنا فيها من كل نوع من النبات حسن المنظر، يبهج ويسر الناظر إليه ﴿تَبَصَّرَهُ وَذَكَرْنِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ أي فعلنا ذلك تبصيراً منا وتذكيراً عن كمال قدرتنا، لكل عبد راجع إلى الله متفكر في بديع مخلوقاته ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا﴾ أي ونزلنا من السحاب ماء كثير المنافع والبركة ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ أي فأخرجنا بهذا الماء البساتين الناضرة، والأشجار المثمرة، وحبّ الزرع المحصود، كالحنطة والشعير وسائر الحبوب التي تحصد ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾

أي وأخرجنا شجر النخيل طوآلاً مستويات ﴿هَاطَعٌ نَّضِيدٌ﴾ أي لها طلع منضود، منظم بعضه فوق بعض. قال أبو حيان: يريد كثرة الطلع وتراكمه وكثرة ما فيه من الثمر، وأول ظهور الثمر يكون منضدًا كحب الرمان، فما دام ملتصقاً ببعضه ببعض فهو نضيد، فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد^(١) ﴿رَزَقًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي أنبتنا كل ذلك رزقاً للخلق لينتفعوا به ﴿وَأَحْيَيْنَاهُ بِلَدَةٍ مَّيْتَةٍ﴾ أي وأحيينا بذلك الماء أرضاً جديبة لا ماء فيها ولا زرع فأنبتنا فيها الكلاً والعشب ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ أي كما أحييناها بعد موتها كذلك نخرجكم أحياء بعد موتكم قال ابن كثير: وهذه الأرض الميتة كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج من أزاهير وغير ذلك مما يحار الطرف في حسننها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها فأصبحت تتهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت، فكما أحيانا الله الأرض الميتة كذلك يحيي الله الموتى..^(٢) ثم ذكر تعالى كفار مكة بما حلَّ بمن سبقهم من المكذبين إنذاراً لهم وإعذاراً فقال ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي كذب قبل هؤلاء الكفار قوم نوح ﴿وَأَصْحَابُ الرَّسِّ﴾ أي وأصحاب البئر وهم بقية من ثمود رشوا نبيهم فيها أي دسوه فيها^(٣) ﴿وَتَمُودُ^(٤) وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ سمّاهم إخوانه لأنه صاهرهم وتزوج منهم ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ أي وأصحاب الشجر الكثير الملتف وهم قوم شعيب، نُسبوا إلى الأيكة لأنهم كانت تحيط بهم البساتين والأشجار الكثيرة، الملتف بعضها على بعض ﴿وَقَوْمُ ثُعُوبٍ﴾ قال المفسرون: هو ملك كان باليمن أسلم ودعا قومه إلى الإسلام فكذبوه وهو تبع اليماني^(٥) ﴿كُلُّ كَذَّبَ الرَّسْلِ﴾ أي جميع هؤلاء المذكورين كذبوا رسلهم قال ابن كثير: وإنما جمع الرسل لأن من كذب رسولا فإنما كذب جميع الرسل كقوله تعالى ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعرا: ١٠٥]^(٦) ﴿حَقُّ وَعِيدٍ﴾ أي فوجب عليهم وعيدي وعقابي، والآية تسلية للنبي ﷺ وتهديد للكفرة المجرمين ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ أي أفعجزنا عن ابتداء الخلق حتى نعجز عن إعادتهم بعد الموت؟ قال القرطبي: وهو توبيخ لمنكري البعث، وجواب لقولهم ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾^(٧) ومراده

(١) «البحر المحيط» ٨/ ١٢٢.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٧٢.

(٣) (ش): قال المؤلف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَتَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ [الفرقان: ٣٨]: أي وأهلكنا عاداً وتمروداً وأصحاب البئر الذين انهارت بهم قال البيضاوي: وأصحاب الرس قوم كانوا يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم شعيباً فكذبوه فبينما هم حول الرس - وهي البئر غير المطوية - انهارت فحسفت بهم وبديارهم انتهى كلام المؤلف وأحال إلى «تفسير البيضاوي» ٢/ ٦٨. والرس: بئر قديمة متهدمة الجوانب. البئر المطوية: مبنية الجوانب، يقال: طويت البئر إذا بنيتها بالحجارة.

(٤) انظر «حاشية الجمل على الجلالين» ٤/ ٩١.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٧٢.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٨.

أن ابتداء الخلق لم يعجزنا، والإعادة أسهل منه فكيف يُتوهم عجزنا عن البعث والإعادة ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي بل هم في خلطٍ وشبهةٍ وحيرة من البعث والنشور قال الألوسي: وإنما نكر الخلق ووُصِف بـ «جديد»، ولم يقل: «من الخلق الثاني» تنبيهاً على استبعادهم له وأنه خلقٌ عظيم يجب أن يُهتَمَّ بشأنه فله نبأ عظيم^(١) ثم نبه تعالى على سعة علمه وكمال قدرته فقال ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْهُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ أي خلقنا جنس الإنسان ونعلم ما يجول في قلبه وخطاره، لا يخفى علينا شيء من خفايا ونواياه ﴿وَمَنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ أي ونحن أقرب إليه من حبل وريده، وهو عرق كبير في العنق متصل بالقلب قال أبو حيان: ونحن أقرب إليه قرب علم، نعلم به وبأحواله لا يخفى علينا شيء من خفياته، فكأن ذاته تعالى قريبة منه، وهو تمثيل لفرط القُرب كقول العرب: هو مني معقد الإزار^(٢) وقال ابن كثير: المراد ملائكتنا أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه، والحلول والاتحاد منفيان بالإجماع تعالى الله وتقدس، وهذا كما قال في المختصر: ﴿وَمَنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥] يريد به الملائكة^(٣)، ويدل عليه قوله بعده ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي حين يتلقى الملكان الموكَّلان بالإنسان، ملك عن يمينه يكتب الحسنات، وملك عن شماله يكتب السيئات، وفي الكلام حذف تقديره عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد فحذف الأول لدلالة الثاني عليه قال مجاهد: وكل الله - بالإنسان مع علمه - بأحواله ملكين بالليل وملكين بالنهار يحفظان عمله ويكتبان أثره إلزاماً للحجة، أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات، والآخر عن شماله يكتب السيئات فذلك قوله تعالى ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾^(٤) وقال الألوسي: والمراد أنه سبحانه أعلم بحال الإنسان من كل رقيب، حين يتلقى المتلقيان الحفيظان ما يتلفظ به، وفيه إيذان بأنه عزَّ وجلَّ غني عن استحفاظ الملكين، فإنه تعالى أعلم منهما ومطلع على ما يخفى عليهما، لكن الحكمة اقتضت كتابة الملكين لعرض صحائفهما يوم يقوم الأشهداء، فإذا علم العبد ذلك مع علمه بإحاطة الله تعالى بعلمه ازداد رغبة في الحسنات، وانتهاءً عن السيئات^(٥) ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ أي ما يتلفظ كلمة من خير أو شر^(٦)، إلا وعنده ملك يرقب قوله ويكتبه ﴿عَتِيدٌ﴾ أي حاضر معه أينما كان مهياً لكتابة ما

(١) «تفسير روح المعاني» ١٧٨/٢٦.

(٢) «تفسير البحر المحيط» ١٢٣/٨. (ش): هو مني معقد الإزار، أي: قريب المنزلة كقُرب مكان عقد الإزار. والإزار: ثوبٌ يحيط بالنصف الأسفل من البدن.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/٣٧٣.

(٤) «تفسير القرطبي» ٩/١٧.

(٥) «تفسير روح المعاني» ١٧٩/٢٦.

(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/٣٧٤.

أمر به قال ابن عباس: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر وقال الحسن: فإذا مات ابن آدم طويت صحيفته وقيل له يوم القيامة: ﴿ أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾^(١) [الإسراء: ١٤] ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ أي وجاءت غمرة الموت وشدته التي تغشى الإنسان وتغلب على عقله، بالأمر الحق من أهوال الآخرة حتى يراها المنكر لها عياناً ﴿ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ أي ذلك ما كنت تفر منه وتميل عنه وتهرب منه وتفزع، وفي الحديث عن عائشة أن النبي ﷺ لمّا تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «سبحان الله إن للموت لسكرات»^(٢) ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴾ أي ونفخ في الصور نفخة البعث ذلك هو اليوم الذي وعد الله الكفار به بالعذاب ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ أي وجاء كل إنسان براً كان أو فاجراً ومعه ملكان: أحدهما يسوقه إلى المحشر، والآخر يشهد عليه بعمله قال ابن عباس: السائق من الملائكة، والشهيد من أنفسهم وهي الأيدي والأرجل ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٢٤] وقال مجاهد: السائق والشهيد ملكان، ملك يسوقه وملك يشهد عليه^(٣) ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ ﴾ أي لقد كنت أيها الإنسان في غفلة من هذا اليوم العصيب ﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ ﴾ أي فازلنا عنك الحجاب الذي كان على قلبك وسمعك وبصرك في الدنيا ﴿ فَصَرُّكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ أي بصرك اليوم قوي نافذ، ترى به ما كان محجوباً لزوال الموانع بالكلية.

قال الله تعالى:

وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي ^(٢٣) أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلُّ كَفَّارٍ عَيْنِي ^(٢٤) مَتَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ^(٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ^(٢٦) ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ^(٢٧) قَالَ لَا تَخْصِمُوهُ لَدَىٰ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ^(٢٨) مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ^(٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتَ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ ^(٣٠) وَأَزْلَفَتْ الْجَنَّةُ الْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ^(٣١) هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ^(٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ^(٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ^(٣٤) هُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ^(٣٥) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ ^(٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ^(٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ^(٣٨) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ^(٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ^(٤٠) وَاسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ^(٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ^(٤٢) إِنَّا نَحْنُ

(١) «تفسير البحر المحیط» ١٢٤/٨.

(٢) رواه البخاري. (ش): ليس في البخاري بهذا اللفظ ولم أجده في غيره، لكن فيه عن عائشة رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ

ﷺ كَانَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي الْمَاءِ، فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ وَيَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، إِنَّ لِمَوْتِ سَكَرَاتٍ».

(٣) اخترنا قول مجاهد هنا، لأنه الظاهر من الآية الكريمة، وهو ما رجحه الطبري وابن كثير.

نَحْيٍ، وَنُيِّتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرُ ﴿١٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ

المناسبة: لما حكى تعالى في الآيات السابقة إنكار المشركين للبعث، وأقام الأدلة والبراهين على البعث والنشور، ذكر هنا الأحوال والشدائد التي يلقاها الكافر في الآخرة، والنعيم الذي أعدّه للمؤمنين الأبرار في الجنة، وختم السورة الكريمة ببيان دلائل البعث وأحواله وأطواره. **اللغة:** ﴿وَأُزْلِفَتْ﴾ قربت يقال: زلف يزلف أي قرب، وأزلفه قربه ﴿أَوَابٍ﴾ رجاء إلى الله من آب يئوب أوبًا إذا رجع ﴿بَطْشًا﴾ البطش: الأخذ بالشدة والعنف ﴿فَقَبُولًا﴾ طوفوا وساروا وأصل التقيب التنفير عن الشيء والبحث عنه قال الشاعر:

نَقَبُوا فِي الْبِلَادِ مِنْ حَذَرِ الْمَوْتِ وَجَالُوا فِي الْأَرْضِ كُلِّ مَجَالٍ ^(١)
مَحْصِصٍ مفر ومهرب من حاص يحيص حيصًا إذا أراد الهرب ﴿لُغُوبٍ﴾ تعب.

سبب النزول: عن قتادة أن اليهود قالوا: إن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، وأنه تعب فاستراح يوم السبت وسمّوه يوم الراحة فكذبهم تعالى فيما قالوا فنزلت ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ ^(٢).

التفسير: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَى عَيْنِي﴾ أي وقال الملك الموكل به، هذا الذي وكلّني به من بني آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان عمله ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَيْنِي﴾ أي يقول تعالى للملكين «السائق والشهيد»: اقدفا في جهنم كل كافر معاند للحق لا يؤمن بيوم الحساب ﴿مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ أي مبالغ في المنع لكل حق واجب عليه في ماله ﴿مُعَذِّبٍ مَرْبٍ﴾ أي ظالم غاشم شاك في الدين ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي أشرك بالله ولم يؤمن بوحديته ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ أي فألقياه في نار جهنم - وكرر اللفظ ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ للتوكيد - ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ أي قال قرينه وهو الشيطان المقيض له: ربنا ما أضللته ﴿وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي ولكنه ضل باختياره، وأثر العمى على الهدى من غير إكراه أو إجبار، وفي الآية محذوف دل عليه السياق كأن الكافر قال: يارب إن شيطاني هو الذي أطعاني فيقول قرينه: ربنا ما أطعته بل كان هو نفسه ضالاً معانداً للحق فأعنته عليه ﴿قَالَ لَا تَخْضِعُوا لَدَىٰ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ أي فيقول الله عز وجل للكافرين وقرنائهم من الشياطين: لا تتخاصموا هنا فما ينفع الخصام ولا الجدل، وقد سبق أن أنذرتكم على ألسنة الرسل بعذابي، وحذرتكم شديد عقابي، فلم تنفَعكم الآيات والنذر ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَىٰ﴾ أي ما يُغيّر كلامي، ولا يُبدّل حكمي بعقاب الكفرة المجرمين قال

(١) «تفسير القرطبي» ١٧ / ٢٢. (ش:) جال في الأرض: طاف ودار وتجوّل غير مستقرّ فيها.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣ / ٣٧٨. (ش:) ضعيف، أخرجه الحاكم في «المستدرک»، والطبري في «تفسيره».

المفسرون: المراد وعده تعالى بعذاب الكافر وتخليده في النار بقوله تعالى ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^(١) [هود: ١١٩] ﴿وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي ولست ظالماً حتى أعذب أحداً بدون استحقاق، وأعاقبه بدون جرم ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾؟ أي اذكر ذلك اليوم الرهيب يوم يقول الله تعالى لجهنّم هل امتلأت، ونقول هل هناك من زيادة؟ وفي الحديث «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ تُقْلَى فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ فَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ وَعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ - أي قد اكتفيت - وَيُزَوَّى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ»^(٢).

والظاهر أن السؤال والجواب على حقيقتيهما^(٣)، والله على كل شيء قدير، فإن إنطاق الجماد والشجر والحجر جائز عقلاً، وحاصل شرعاً، وقد أخبر القرآن الكريم أن نملة تكلمت، وأن كل شيء يسبح بحمد الله، وورد في «صحيح مسلم» أن المسلمين في آخر الزمان يقاتلون اليهود، حتى يختبئ اليهودي وراء الشجر والحجر، فيُنطقُ الله الشجر والحجر.. إلخ وقيل: إن الآية على التمثيل وإنما تصويرٌ لسعة جهنّم وتباعد أقطارها بحيث لو ألقى فيها جميع الكفرة والمجرمين فإنها تتسع لهم^(٤)، وهو كقولهم «قال الحائطُ للمسمار لم تشقني؟ قال: سَلْ مَنْ يَدُقُّنِي»^(٥) ثم أخبر تعالى عن حال السعداء بعد أن ذكر حال الأشقياء فقال ﴿وَأَزَلِفَتْ أَلْحَنَةُ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي قُرِبَتْ وأدْنِيت الجنة من المؤمنين المتقين مكاناً غير بعيد، بحيث تكون بمرأى منهم مبالغة في إكرامهم ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ﴾ أي يقال لهم: هذا الذي تروونه من النعيم هو ما وعده الله لكل عبدٍ أَوَّابٍ، أي: رجّاع إلى الله، حافظٍ لعهدِه وأمره ﴿مَنْ حَشَى الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ أي خاف الرحمن فاطّاعه دون أن يراه لقوة يقينه، وجاء بقلبٍ تائب خاضع خاشع ﴿أَدْخُلُوهَا وَسَلِّمُوا فِي ذَلِكَ يَوْمَ الْخُلُودِ﴾ أي يقال لهم: ادخلوا الجنة

(١) «انظر حاشية الجمل» ٩٦/٤، و«القرطبي» ١٧/١٧.

(٢) الحديث من رواية البخاري ومسلم. (ش): يُزَوَّى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ يُجْمَعُ وَيُضَمُّ.

(٣) (ش): بل هو الصواب الذي لا يصح غيره.

(٤) هذا القول: أنه ليس ثمة قول وإنما هو على طريق التمثيل قول الخلف، ونقل القرطبي أن هذا هو تفسير مجاهد، والقول الأول قول السلف. (ش): وكل خيرٍ في اتباع من سلف وكل شرٍّ في ابتداء من خلف. وما رُوي عن مجاهد رحمه ذكره القرطبي عنه بدون إسناد، وما أظن هذا القول يثبت عنه رحمه، فقد جاء في كثير من التفاسير عن مجاهد في تفسير الآية أن كلام الله وكلام النار كلام حقيقي، انظر «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٦٠)، «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٧٩)، «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» للسيوطي (٧/ ٦٠٢)، «فتح القدير» للشوكاني (٥/ ٩٢). وقد قال القرطبي في تفسيره بعد ذلك (١٧/ ١٨): «وَقِيلَ: يُنطِقُ اللَّهُ النَّارَ حَتَّى تَقُولَ هَذَا كَمَا تَنْطِقُ الْجَوَارِحُ. وَهَذَا أَصَحُّ». ثم ذكر الحديث الذي أورده المؤلف.

(٥) (ش): هذا تأويل باطل، وهذا الكلام الفاسد خلاف مدلول الآية من أن الله تعالى قال لجهنّم قولاً حقيقياً: ﴿هَلِ امْتَلَأَتْ﴾ وأنها تقول قولاً حقيقياً ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾. وكيف يقال ذلك وقد فسرها رسول الله ﷺ بغيره كما ورد في الحديث السابق؟

بسلامة من العذاب والهموم والأكدار، ذلك هو يوم البقاء الذي لا انتهاء له أبداً، لأنه لا موت في الجنة ولا فناء ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ أي لهم في الجنة من كل ما تشتهيهم أنفسهم، وتلذبه أعينهم ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ أي وعندنا زيادة على ذلك الإناعم والإكرام، وهو النظر إلى وجه الله الكريم^(١).. ثم خَوَّفَ تعالى كفار مكة بما حدث للمكذبين قبلهم فقال ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (٢٥) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ﴿أي وأهلكنا قبل كفار قريش أمماً كثيرين من الكفار المجرمين﴾ ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أي هم أقوى من كفار قريش قوة، وأعظم منهم فتكاً وبطشاً ﴿فَقَبُؤُوا فِي آلِكِدِّهِمْ هَلْ مِنْ مَخِصٍ﴾ أي فساروا في البلاد، وطوفوا فيها وجالوا في أقطارها، فهل كان لهم من الموت مهرب؟ وهل كان لهم من عذاب الله مخلص؟ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي إن فيما ذكر من إهلاك القرى الظالمة، لتذكروا وموعظة لمن كان له عقل يتدبر به، أو أصغى إلى الموعظة وهو حاضر القلب ليتذكر ويعتبر قال سفيان: لا يكون حاضرًا وقلبه غائب^(٢) وقال الضحاك: العرب تقول: ألقى فلان سمعه إذا استمع بأذنيه وهو شاهد بقلب غير غائب، وعبر عن العقل بالقلب لأنه موضعه كما قال تعالى ﴿فَأَنفَكُوا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ هذه الآية ردُّ على اليهود حيث زعموا أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، وأولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة وأنه تعب فاستراح يوم السبت واستلقى على ظهره فوق العرش، فكذبهم الله تعالى^(٣). والمعنى: والله خلق السموات السبع في ارتفاعها وعظمتها، والأرض في كثافتها وسعتها، وما بينهما من المخلوقات البديعة في ستة أيام، وما مَسَّنَا من إعياء وتعب ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي فاصبر يا محمد على ما يقوله اليهود وغيرهم من كفار قريش، واهجرهم هجراً جميلاً ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ أي ونزه ربك عما لا يليق به، وصلِّ له واعبدْه وقي الفجر والعصر، وخصَّهما بالذكر لزيادة فضلهما وشرفهما ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ﴾ أي ومن الليل فصلِّ لله تهجداً وأعقاب الصلوات المفروضة قال ابن كثير: كانت الصلاة المفروضة قبل

(١) هذا القول مروى عن أنس وجابر بن عبد الله قالوا: المزيّد هو أن يتجلى الله تعالى لهم حتى يروه وذلك في كل جمعة، انظر «روح المعاني» ٢٦/ ١٩٠. (ش): رَوَى الْبُرَّاءُ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، بِإِسْنَادٍ ضَعِيفٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ قَالَ: «يُظْهَرُ لَهُمُ الرَّبُّ، عَزَّ وَجَلَّ، فِي كُلِّ جُمُعَةٍ». وروى في ذلك الإمام الشافعي في «مسنده» حديثاً عن النبي ﷺ بِإِسْنَادٍ ضَعِيفٍ جداً. وَعَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ - قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟»، فَيَقُولُونَ: «أَلَمْ تُبَيِّضْ وَجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟» فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ». ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٧٨.

(٣) هذا قول قتادة والكلبي كذا في «القرطبي» ١٧/ ٢٤.

الإسراء (ثنتان قبل طلوع الشمس، وثنان قبل الغروب)، وكان قيام الليل واجباً على النبي ﷺ وعلى أمته حولاً ثم نسخ في حق الأمة وجوبه، ثم بعد ذلك نسخ كل ذلك ليلة الإسراء بخمس صلوات، وبقي منهم صلاة الصبح والعصر فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب^(١) ﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي واستمع يا محمد النداء والصوت حين ينادي إسرافيل بالحشر من موضع قريب يصل صوته إلى الكل على السواء قال أبو السعود: وفيه تهويلٌ وتفظيعٌ لشأن المخبر به، والمنادي هو إسرافيل عليه السلام يقول: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، واللحوم المتمزقة، والشعور المتفرقة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء^(٢) ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ أي يسمعون صيحة البعث التي تأتي بالحق وهي النفخة الثانية في الصور ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ ذلك هو يوم الخروج من القبور ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ أي نُحيي الخلائق ونميتهم في الدنيا، وإلينا رجوعهم للجزاء في الآخرة، لا إلى غيرنا ﴿يَوْمَ تَشَقُّوْا الْأَرْضُ عَنْهُمْ سَرَاعًا﴾ أي يوم تنشق الأرض عنهم فيخرجون من القبور مسرعين إلى موقف الحساب استجابةً لنداء المنادي ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي ذلك جمع وبعث سهل هين علينا لا يحتاج إلى عناء ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي نحن أعلم بما يقول كفار قريش من إنكار البعث والسخرية والاستهزاء بك وبرسالتك، وفيه تسلية للنبي ﷺ وتهديدٌ لهم ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ أي وما أنت يا محمد بمسلط عليهم تجبرهم على الإسلام، إنما بعثت مذكراً ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي عظم بهذا القرآن من يخاف وعيدي وعيدي.

ختم السورة الكريمة بالتذكير بالقرآن كما افتتحها بالقسم بالقرآن ليتناسق البدء مع الختام:

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبدیع نوجزها فيما يلي:

١ - الإظهار في موطن الإضممار ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ [ق: ٢] بدل فقالوا؛ للتسجيل عليهم بالكفر.

٢ - الاستفهام الإنكاري لاستبعاد البعث ﴿أَوَلَمْ نَكُنْ نَرُوبًا﴾ [ق: ٢]؟

٣ - الإضراب عن السابق لبيان ما هو أفضع وأشنع من التعجب ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ [ق: ٥] وهو التكذيب بآيات الله وبرسوله المؤيد بالمعجزات.

٤ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١] شبه إحياء الموتى بإخراج النبات من الأرض الميتة.

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٧٨.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٩٦. (ش): رواه البيهقي «شعب الإيمان» بإسناد ضعيف. وقد ذكره «أبو السعود» وغيره من المفسرين بدون إسناد.

٥ - الاستعارة التمثيلية ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِمْ مِنْ جَلِّ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] مثل علمه تعالى بأحوال العبد، وبخطرات النفس، بحبل الوريد القريب من القلب، وهو تمثيلٌ للقرب بطريق الاستعارة كقول العرب: هو مني مقعد القابلة، وهو مني مقعد الإزار^(١).

٦ - الحذف بالإيجاز ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧] أصله عن اليمين قعيدٌ، وعن الشمال قعيد، فحذف من الأول لدلالة الثاني عليه، وبين اليمين والشمال طباقٌ وهو من المحسنات البديعية.

٧ - الاستعارة التصريحية ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾ [ق: ١٩] استعار لفظ السكرة للهول والشدة التي يلقاها المحتضر عند وفاته.

٨ - الجناس الناقص بين ﴿عَنِيدٍ﴾ و ﴿عَتِيدٌ﴾ لتغاير حرفي النون والتاء.

٩ - الطباق بين ﴿نُحْيِ﴾ و ﴿وَنُمِيتُ﴾.

١٠ - توافق الفواصل والسجع اللطيف غير المتكلف مثل ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٠] ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١] ﴿فَبَصَّرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ و مثل ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ .. ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ السخ وهو من المحسنات البديعية، لما فيه من جميل الوقع على السمع.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة ق»



(١) (ش): هو مني مقعد القابلة: شديد القرب كقرب مكان القابلة (الداية) من المرأة الحامل التي تساعد على الولادة. هو مني مقعد الإزار، أي: قريب المنزل كقرب مكان عقد الإزار. والإزار: ثوبٌ يحيط بالنصف الأسفل من البدن.



مكية وآياتها ستون

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة من السور المكية التي تقوم على تشييد دعائم الإيمان، وتوجيه الأبصار إلى قدرة الله الواحد القهار، وبناء العقيدة الراسخة على أسس التقوى والإيمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن الرياح التي تذر الغبار، وتسير المراكب في البحار، وعن السحب التي تحمل مياه الأمطار، وعن السفن الجارية على سطح الماء بقدرة الواحد الأحد، وعن الملائكة الأطهار المكلفين بتدبير شئون الخلق، وأقسمت بهذه الأمور الأربعة على أن الحشر كائن لا محالة، وأنه لا بد من البعث والجزاء.

* ثم انتقلت إلى الحديث عن كفار مكة، المكذبين بالقرآن وبالدار الآخرة، فبينت حالهم في الدنيا ومآلهم في الآخرة، حيث يعرضون على نار جهنم فيصلون عذابها ونكالها^(١).

* ثم تحدثت عن المؤمنين المتقين، وما أعد الله لهم من النعيم والكرامة في الآخرة، لأنهم كانوا في الدنيا محسنين، على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب، والإعذار والإنذار.

* ثم تحدثت عن دلائل القدرة والوحدانية في هذا الكون الفسيح، في سمائه وأرضه، وجباله ووهاده، وفي خلق الإنسان في أبداع صورة وأجمل تكوين، وكلها دلائل على قدرة رب العالمين.

* ثم انتقلت للحديث عن قصص الرسل الكرام، وعن موقف الأمم الطاغية من أنبيائهم وما حل بهم من العذاب والدمار، فذكرت قصة إبراهيم ولوط، وقصة موسى، وقصة الطغاة المتكبرين من قوم عاد وثمود وقوم نوح، وفي ذكر القصص وتكراره في القرآن تسلية للرسول الكرام، وعبرة لأولي الأبصار، يعتبر بها من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

* وختمت السورة الكريمة ببيان الغاية من خلق الإنسان والجن، وهي معرفة الله جل وعلا، وعبادته وتوحيده، وإفراده بالإخلاص والتوجه لوجهه الكريم بأنواع القربات والعبادات.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالَّذِينَ ذَرَوْا (١) فَأَلْحَمْنَا لَهُمْ وَفَرَا (٢) فَأَلْحَمْنَا لَهُمْ سِرًّا (٣) فَأَلْمَمْنَا مِنْ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تَوَدُّونَ لِصَادِقٍ (٥)
وَأَنَّ الَّذِينَ لَوْفِعُوا (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنْ أَؤُكُ (٩) قُلِ الْغَرَضُونَ (١٠)

(١) (ش): النكال: العقاب.

الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنُّونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَعِوَيْنَ ﴿١٥﴾ أَخَذِينَ مَا آتَاهُمْ مِنْهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْعَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُتَوَقِّينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ قُورَبَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَنْتَ حَدِيثٌ عِنْدَ رَبِّهِمُ الْمُكَرَّمِ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بَعْلَمَ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرٍّ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ ثَجَرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ جِبَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ

اللغة: ﴿الْحُبُّكَ﴾ الطرائق جمع حبيكة كطريقة وزناً ومعنى قال الزجاج: الحبك الطرائق الحسنة، والمحبوك في اللغة ما أجيد عمله^(١) وقال ابن الأعرابي: كلُّ شيء أحكمته وأحسنه عمله فقد حبكته^(٢) ﴿الْخَرَصُونَ﴾ جمع خَرَّاص وهو الكذاب ﴿عَمَرَقَ﴾ الغمرة ما ستر الشيء وغطاه ومنه نهر غمر ﴿يَهْجَعُونَ﴾ ينامون والهجوم النوم ليلاً ﴿فَأَوْجَسَ﴾ أحسَّ وشعر ﴿صَرَقَ﴾ صيحة وضجة ﴿مُسَوِّمَةً﴾ معلّمة.

التفسير: ﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا﴾ هذا قسم أقسم تعالى به أي أقسم بالرياح التي تذر التراب فتفرقه، وتحمل الرمال من مكان إلى مكان ﴿فَالْحَمَلَاتِ وَقَرَأَ﴾ أي وأقسم بالسحب التي تحمل أثقال الأمطار، وهي محملة بالماء الذي فيه حياة البشر ﴿فَالْجُرَيْتِ يُسْرًا﴾ أي وأقسم بالسفن التي تجري على وجه الماء جرياً سهلاً يسر وهي تحمل ذرية بني آدم ﴿فَالْمَقْسَمَتِ أَمْرًا﴾ أي وأقسم بالملائكة التي تقسم الأرزاق والأمطار بين العباد، وكل ملك مخصص بأمر، فجبريل صاحب الوحي إلى الأنبياء، وميكائيل صاحب الرزق والرحمة، وإسرافيل صاحب الصور، وعزرائيل صاحب قبض الأرواح^(٣) قال المفسرون: أقسم الله تعالى بهذه الأشياء لشرفها ولما فيها من الدلالة على عجيب صنعه وقدرته، ثم ذكر جواب القسم فقال ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾

(١) «زاد المسير» ٢٩/٨.

(٢) «البحر المحيط» ١٣٢/٨.

(٣) «حاشية الجمل» ٢٠١/٤. (ش): اشتهر أن اسم ملك الموت عزرائيل، إلا أنه لم ترد تسمية ملك الموت بهذا الاسم في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية الصحيحة، وإنما ورد ذلك في بعض الآثار والتي قد تكون من الأسرائيليات. وعلى هذا، لا ينبغي الجزم بالنفي ولا بالإثبات، فلا نثبت أن اسم ملك الموت عزرائيل، ولا نفني ذلك، بل نفوض الأمر إلى الله تعالى ونسبمه بما سماه الله تعالى به «ملك الموت».

إي إن الذي توعده من الثواب والعقاب، والحشر والنشر، لَأَمْرٌ صِدْقٌ مُحَقَّقٌ لَا كَذِبَ فِيهِ ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ أي وإن الجزاء لكائنٌ لا محالة، ثم ذكر تعالى قسمًا آخر فقال ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ﴾ أي وأقسم بالسماء ذات الطرائق المحكمة والبُنيان المُتَقَنِّ قال ابن عباس: ذات الخلق الحسن المستوي^(١) ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ جواب القسم أي إنكم أيها الكفار لفي قول مضطرب في أمر محمد، فمنكم من يقول: إنه ساحر، ومنكم من يقول: إنه شاعر، وبعضكم يقول: إنه مجنون إلى غير ما هنالك من أقوال مختلفة ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ﴾ أي يُصْرِفُ عن الإيمان بالقرآن وبمحمد عليه السلام، من صُرف عن الهداية في علم الله تعالى وحُرم السعادة ﴿قُلْ لِّلْخَافِرِينَ﴾ أي لعن الكذابين الذين قالوا: إن النبي ﷺ ساحر وكذاب وشاعر قال ابن الأنباري: والقتل إذا أُخبر عن الله به فهو بمعنى اللعنة، لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك^(٢) ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرٍ وَسَاهُونَ﴾ أي الذين هم غافلون لاهون عن أمر الآخرة ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي يقولون تكذيبًا واستهزاء: متى يوم الحساب والجزاء؟ قال تعالى ردًا عليهم ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنَّنُونَ﴾ أي هذا الجزاء كائن يوم يدخلون جهنم ويُحرقون بها ﴿ذُوقُوا فَنَّتَكُمْ﴾ أي تقول لهم خزنة النار: ذوقوا تعذيبكم وجزاءكم ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي هذا الذي كنتم تستعجلونه في الدنيا استهزاء.. ولما ذكر حال الكفار ذكر المؤمنين الأبرار فقال ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي هم في بساطين فيها عيون جارية، تجري فيها على نهاية ما يُتَنَزَّه به ﴿ءَاخِذِينَ مَاءً لَّهُمْ رُبُومٌ﴾ أي راضين بما أعطاهم ربهم من الكرامة والنعيم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أي كانوا في دار الدنيا محسنين في الأعمال، ثم ذكر طرقًا من إحسانهم فقال ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ أي كانوا ينامون قليلًا من الليل ويصلون أكثره قال الحسن: كابدوا قيام الليل لا ينامون منه إلا قليلًا^(٣) ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي وفي أواخر الليل يستغفرون الله من تقصيرهم، فهم مع إحسانهم يعدون أنفسهم مذنبين، ولذلك يكثرون الاستغفار بالأسحار قال أبو السعود: أي هم مع قلة نومهم وكثرة تهجدهم يداومون على الاستغفار بالأسحار، كأنهم أسلفوا ليلهم باقتراف الجرائم^(٤)، وهو مدح ثانٍ للمحسنين ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ مدحٌ ثالث أي وفي أموالهم نصيب معلوم قد أوجبه على أنفسهم بمقتضى الكرم للسائل المحتاج، وللمتعفف الذي لا يسأل لتعففه^(٥) ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُتَوَقِّينَ﴾ أي وفي الأرض

(١) «تفسير الخازن» ٤ / ٢٠٠.

(٢) «زاد المسير لابن الجوزي» ٨ / ٣٠.

(٣) «البحر المحيط» ٨ / ١٣٥.

(٤) «إرشاد العقل السليم» ٥ / ٢٤٠.

(٥) هو المشهور عن ابن عباس أنه حق سوى الزكاة، يقرى به ضيفًا، ويصل به رحمًا، ويحمل به كلاً، وقيل: إنه الزكاة وهو قول قتادة وابن سيرين.

دلائل واضحة على قدرة الله سبحانه ووحدانيته للموقنين بالله وعظمته، الذين يعرفونه بصنعه قال ابن كثير: أي وفي الأرض من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة، مما فيها من صنوف النباتات والحيوانات، والجبال والقفار، والبحار والأنهار، واختلاف ألْسنة الناس وألوانهم، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم، والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الخلق البديع^(١)، ولهذا قال بعده ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أي وفي أنفسكم آياتٌ وعبرٌ من مبدأ خلقكم إلى منتهاه، أفلا تبصرون قدرة الله في خلقكم لتعرفوا قدرته على البعث؟ قال ابن عباس: يريد اختلاف الصور، والألسنة، والألوان، والطبائع، والسمع والبصر والعقل^(٢) إلى غير ذلك من العجائب المودعة في ابن آدم وقال قتادة: من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أي وفي السماء أسباب رزقكم ومعاشكم وهو المطر الذي به حياة البلاد والعباد، وما توعدون به من الثواب والعقاب مكتوب كذلك في السماء قال الصاوي: والآية فُصد بها الامتنان والوعد والوعيد^(٣) ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلٍ مَّا أَنْتُمْ نَاطِقُونَ﴾ أي أقسم برب السماء والأرض إن ما توعدون به من الرزق والبعث والنشور لحق كائن لا محالة مثل نطقكم، فكما لا تشكون في نطقكم حين تنطقون فكذلك يجب ألا تشكوا في الرزق والبعث قال المفسرون: وهذا على سبيل التشبيه والتمثيل أي رزقكم مقسوم في السماء كنطقكم فلا تشكوا في ذلك، وهذا كقول القائل: هذا حق كما أنك ههنا، وهذا حق كما أنك ترى وتسمع^(٤)، فالرزق مثل النطق لا يفارق الشخص في حالٍ من الأحوال وفي الحديث «لَوْ فَرَّ أَحَدُكُمْ مِنْ رِزْقِهِ لَأَدْرَكَهُ كَمَا يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ»^(٥). ثم ذكر تعالى قصة ضيف إبراهيم تسلياً لقلب النبي الكريم فقال ﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾؟ الاستفهام للتشويق ولتفخيم شأن تلك القصة كما يقول القائل: هل بلغك الخبر الفلاني؟ يريد تشويقه إلى استماعه. والمعنى: هل وصل إلى سمعك يا محمد خبر ضيوف إبراهيم المعظمين؟ قال ابن عباس: يريد جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام^(٦)، سُموا مكرمين لكرامتهم عند الله عزَّ وجلَّ ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ أي حين دخلوا على إبراهيم فقالوا: نسلم عليك سلاماً ﴿قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أي قال: عليكم سلامٌ أنتم قومٌ غرباء لا نعرفكم فمن أنتم؟ قال ابن كثير: وإنما أنكرهم لأنهم قدموا عليه

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٨٤.

(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٠٣.

(٣) «حاشية الصاوي» ٤/ ١٢٥.

(٤) انظر «البحر المحيط» ٨/ ١٣٧.

(٥) ذكر القرطبي في «تفسيره» ١٧/ ٤٣ وأسندته إلى الثعلبي. (ش): رواه الطبراني، وحسنه الألباني.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٤٤.

في صورة شبانٍ حسانٍ عليهم مهابة عظيمة ولهذا أنكرهم^(١) وقال أبو حيان: والذي يناسب حال إبراهيم عليه السلام أنه لا يخاطبهم بذلك، إذ فيه من عدم الأنس ما لا يخفى، وإنما قال ذلك في نفسه، أو لمن كان معه من أتباعه وغلماؤه، بحيث لا يسمع ذلك الأضياف ﴿فَرَأَى إِلَهُ الْآهْلِ﴾ أي فمضى إلى أهله في سرعة وخفية عن ضيفه، لأن من أدب المضيف أن يبادر بإحضار الضيافة من غير أن يشعر به الضيف، حذرًا من أن يمنعه الضيف، أو يثقل عليه في التأخير قال ابن قتيبة: عدل إليهم في خفية ولا يكون الرّواغ إلا أن تخفي ذهابك ومجيئك ﴿فَجَاءَ بِعِجْلِ سَمِينٍ﴾ أي فجاءهم بعجل سمين مشوي، والعجل ولد البقرة وكان عامة ماله البقر، واختاره لهم سمينًا زيادة في إكرامهم ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أي فأذناه منهم ووضعه بين أيديهم فلم يأكلوا فقال لهم في تطف وبشاشة: ألا تأكلون هذا الطعام. قال ابن كثير: وفي الآية تطف في العبارة وعرض حسن، وقد انتظمت الآية آداب الضيافة، فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يتمنّ عليهم أولًا فقال: نأتكم بطعام بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله وهو عجل فتني سمين مشوي، فقرّبه إليه ولم يضعه وقال اقربوا بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرًا يشق على سامعه بصيغة الجزم بل قال: ألا تأكلون؟ على سبيل العرض والتطف كما يقول القائل: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي فأضمر في نفسه الخوف منهم لما رأى إعراضهم عن الطعام ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ أي قالوا له: لا تخف إنا رسل ربك ﴿وَبَشِّرُوهُ بِعِلْمٍ عَلِيمٍ﴾ أي وبشروه بولد يولد له من زوجته سارة يكون عالمًا عند بلوغه قال أبو حيان: وفيه تبشيرٌ بحياته حتى يكون من العلماء، والجمهور على أن المشر به هو إسحاق لقوله تعالى في سورة هود ﴿فَبَشِّرْهُنَّ بِإِسْحَاقَ وَهُوَ رَأَى إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] ﴿فَأَقْبَلَتْ أَمْرَأَتُهُ فِي صَرْفٍ﴾ أي فأقبلت سارة نحوهم حيث سمعت البشارة في صيحة وضجة قال المفسرون: لما سمعت بالبشارة وكانت في زاوية من زوايا البيت جاءت نحوهم في صيحة عظيمة تريد أن تستفر الخبر ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي فلطمت وجهها على عادة النساء عند التعجب قال ابن عباس: لطمت وجهها تعجبًا كما تتعجب النساء من الأمر الغريب ﴿وَقَالَتْ مَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي قالت أنا عجوز عقيم فكيف ألد؟ والعقيم هي التي لم تلد قط لا لقطع حبلها. قال الإمام الجلال: كان عمرها تسعًا وتسعين سنة، وعمر إبراهيم مائة وعشرين ﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾ أي الأمر كما أخبرناك هكذا حكم وقضى ربك من الأزل فلا تعجبي ولا تشكي فيه ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ أي الحكيم في صنعه، العليم بمصالح خلقه ﴿قَالَ فَاخْطُبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أي ما شأنكم الخطير الذي لأجله أرسلتم أيها الملائكة الأبرار؟ قال البيضاوي: لما علم أنهم ملائكة وأنهم لا ينزلون مجتمعين

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٨٥.

إِلَّا لِأَمْرِ عَظِيمٍ سَأَلَ عَنْهُ ^(١) ﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَمُودَ نَبِيًّا﴾ أَي قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ أَرْسَلَنَا لِإِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطِ الَّذِينَ ارْتَكَبُوا أَفْحَشَ الْجَرَائِمِ «اللُّوَاطِ» وَكَانُوا ذَوِي جَرَائِمٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَهِيَ كِبَارُ الْمَعَاصِي مِنْ كُفْرٍ وَعَصْيَانٍ ﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّن طِينٍ﴾ أَي لَنُهْلِكُهُمْ بِحِجَابَةٍ مِنْ طِينٍ مُتَحَجَّرٍ مَطْبُوخٍ بِالنَّارِ وَهُوَ السَّجِيلُ قَالَ أَبُو حَيَّانٍ: وَالسَّجِيلُ طِينٌ يُطْبَخُ كَمَا يُطْبَخُ الْأَجْرُ ^(٢) حَتَّى يَصْبَحَ فِي صَلَابَةِ الْحِجَابَةِ ^(٣) ﴿مُسُومَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أَي مُعَلِّمَةً مَنْ عِنْدَ اللَّهِ بِعَلَامَةٍ، عَلَى كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا اسْمُ صَاحِبِهَا الَّذِي يَهْلِكُ بِهَا ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أَي الْمَجَاوِزِينَ الْحَدَّ فِي الْفُجُورِ قَالَ الصَّاوِي: كَانَ فِي قَرْيٍ لُوطٍ سِتْمَائَةٌ أَلْفٌ فَادْخَلَ جَبْرِيلُ جَنَاحَهُ تَحْتَ الْأَرْضِ فَاقْتَلَعَ قَرَاهِمَ، وَرَفَعَهَا حَتَّى سَمِعَ أَهْلَ السَّمَاءِ أَصْوَاتَهُمْ ثُمَّ قَلَبَهَا، ثُمَّ أَرْسَلَ الْحِجَابَةَ عَلَى مَنْ كَانَ خَارِجًا عَنْهَا ^(٤) ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَي فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِي قَرْيٍ أَهْلُ لُوطٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِثَلَا يَهْلِكُوا ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أَي فَمَا كَانَ فِيهَا بَعْدَ الْبَحْثِ وَالتَّفْتِيشِ غَيْرُ أَهْلِ بَيْتٍ وَاحِدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَالَ: مُجَاهِدٌ هُمْ لُوطٌ وَابْنَتَاهُ، وَالْغَرَضُ مِنَ الْآيَةِ بَيَانُ قَلَّةِ الْمُؤْمِنِينَ النَّاجِينَ مِنَ الْعَذَابِ، وَكَثْرَةِ الْكَافِرِينَ الْمُسْتَحْقِينَ لِلْهَلَاكِ قَالَ الْإِمَامُ الْجَلَالُ: وَصَفُوا بِالْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ أَي هُمْ مُصَدِّقُونَ بِقُلُوبِهِمْ، عَامِلُونَ بِجَوَارِحِهِمُ الطَّاعَاتِ ^(٥) ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً﴾ أَي أَبْقَيْنَا فِي تِلْكَ الْقَرْيَةِ الْمَهْلُكَةِ بَعْدَ إِهْلَاكِ الظَّالِمِينَ عِلَامَةً عَلَى هَلَاكِهِمْ بِجَعْلِهَا سَافِلَهَا ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أَي لِلَّذِينَ يَخَافُونَ عَذَابَ اللَّهِ فَإِنَّهُمْ الْمَعْتَبِرُونَ بِهِ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَمَعْنَى الْآيَةِ ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً﴾ أَي جَعَلْنَاهَا عِبْرَةً بِمَا أَنْزَلْنَا بِهِمُ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ، وَجَعَلْنَا مُحَلَّتَهُمْ بِحِيرَةً مُنْتَنَةً خَبِيثَةً فِي ذَلِكَ عِبْرَةً لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ^(٦).

تنبيه: قَالَ الْإِمَامُ الرَّازِي: فِي قِصَّةِ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ تَسْلِيَةً لِقَلْبِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ بَيَانُ أَنَّ غَيْرَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كَانَ مِثْلَهُ، وَاخْتَارَ تَعَالَى إِبْرَاهِيمَ لِكُونِهِ شَيْخَ الْمُرْسَلِينَ، وَكَوْنِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى سَنَتِهِ فِي بَعْضِ الْأَشْيَاءِ، وَفِيهَا إِنْذَارٌ لِّقَوْمِهِ بِمَا أُجْرَى مِنَ الضَّيْفِ ^(٧).

(١) «تفسير البيضاوي» ٤/ ١٦٧.

(٢) (ش): الْأَجْرُ: طُوبُ لِبَنٍّ مُحْرَقٍ مُعَدُّ لِلْبِنَاءِ، وَتَتَكَوَّنُ الْمَادَّةُ الْمُحْرَقَةُ مِنَ الطِّينِ أَوْ أَيِّ مَخْلُوطٍ آخَرَ كَالْجِيرِ وَالرَّمْلِ أَوْ الْأَسْمَنْتِ وَالرَّمْلِ. وَاللِّينُ: قَوَالِبُ مَرْبَعَةٍ أَوْ مُسْتَطِيلَةٍ مُضْرُوبَةٍ مِنَ الطِّينِ تَسْتَعْمَلُ فِي الْبِنَاءِ.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ١٤٠.

(٤) «حاشية الصاوي» ٤/ ١٢٦.

(٥) «تفسير الجلالين» ٤/ ٢٠٥.

(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٨٥.

(٧) (ش): قَالَ الرَّازِي: إِذَا كَانَ الْمُرَادُ مَا ذُكِرَتْ مِنَ التَّسْلِيَةِ وَالْإِنْذَارِ فَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي حِكَايَةِ الضَّيْفَةِ؟ نَقُولُ: لِيَكُونَ ذَلِكَ إِشَارَةً إِلَى الْفَرَجِ فِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ، وَالْبَلَاءِ عَلَى الْجَهْلَةِ وَالْأَغْيَاءِ، إِذَا جَاءَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يُحْتَسَبُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَنبَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ [الْحَشَرُ: ٢] فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَيْرٌ مِنْ إِنْزَالِ الْعَذَابِ مَعَ ارْتِفَاعِ مَكَانَتِهِ. وَمِنْ إِنْزَالِ الْحِجَابَةِ عَلَى الْمَذْنُبِينَ الْمُضْلِينَ.

قال الله تعالى:

وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْبَيْهِ ۖ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ ۖ فَبَدَّدَتْهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذْنَا مِنْهُمُ الصُّعْفَةَ وَهَمُّهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمُ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿٤٦﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا يَٰأَيُّدٍ ۖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهْدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَنْوَاصُ بِهِ بَلَّ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَنُفِّلْ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِّثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمْ الَّذِي يَوْعَدُونَ

المناسبة: لما ذكر تعالى قصة ضيف إبراهيم الذين أرسلوا لهلاك قوم لوط أتبعه بذكر قصص الأمم الطاغية، فذكر منهم فرعون وجنوده، وعادًا، وثمود، وقوم نوح، تسلياً للنبي عليه السلام، وتذكيراً للأنام بانتقام الله من أعدائه وأعداء رسله، ثم ذكر دلائل القدرة والوحانية، وختم السورة الكريمة بإنكار المكذبين الضالين.

اللغة: ﴿فَبَدَّدَتْهُمْ﴾ طَرَحْنَاهُمْ ﴿الْيَمِّ﴾ البحر ﴿مُلِيمٌ﴾ آتٍ بما يُلَام عليه ﴿كَالرَّمِيمِ﴾ الشيء الهالك البالي قال الزجاج: الرميم: الورق الجاف المتحطم مثل الهشيم^(١)، ورمَّ العظم إذا بلي فهو رَمَّةٌ ورميم قال جرير يرثي ابنه:

تَرَكْتَنِي حِينَ كَفَّ الدَّهْرُ مِنْ بَصْرِي وَإِذْ بَقِيَتْ كَعَظْمِ الرَّمَّةِ الْبَالِيِ^(٢)
﴿الْمُهْدُونَ﴾ مهَّدْتُ الفراش مهْدًا بَسَطْتُهُ ووطَّأْتُه، والتمهيد تسوية الشيء وإصلاحه
﴿ذُنُوبًا﴾ الذُّنُوب: بفتح الذال النصب من العذاب.

التفسير: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ أي وجعلنا في قصة موسى أيضًا آيةً وعبرة وقت إرسالنا له إلى فرعون ﴿بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي بحجة واضحة ودليل باهر ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْبَيْهِ﴾ أي فأعرض عن الإيمان بموسى بجموعه وأجناده، وقوته وسلطانه قال مجاهد: تعزز عدو الله بأصحابه^(٣) والغرض أن فرعون أعرض عن الإيمان بسبب ما كان يتقوى به من جنوده

(١) «زاد المسير» ٣٩ / ٨.

(٢) «تفسير القرطبي» ٥١ / ١٧.

(٣) «المختصر» ٣٨٦ / ٣، ونقل عن ابن عباس أن المراد «بركنه» أي بقوته وسلطانه، وقد جمعنا بين القولين في التفسير.

لأنهم كانوا له كالركن الذي يعتمد عليه البنيان ﴿وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ أي وقال اللعين في شأن موسى: إنه ساحرٌ ولذلك أتى بهذه الخوارق، أو مجنون ولذلك ادّعى الرسالة، وإنما قال ذلك تمويهًا على قومه لا شكًا منه في صدق موسى ^(١) ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ﴾ أي فأخذنا فرعون مع أصحابه وجنوده ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أي فطرحناهم في البحر لما أغضبونا وكذبوا رسولنا ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي وهو آتٍ بما يلام عليه من الكفر والطغيان.. ثم لما انتهى من قصة فرعون أعقبها بذكر قصة عاد فقال ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ أي وجعلنا في قصة عاد كذلك آية لمن تأمل حين أرسلنا عليهم الريح المدمرة، التي لا خير فيها ولا بركة، لأنها لا تحمل المطر ولا تلقح الشجر ^(٢)، وإنما هي للإهلاك، وهي الريح التي تسمى الدبور وفي الصحيح «نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكْتُ عَادٌ بِالدَّبُورِ» ^(٣). قال المفسرون: سميت ﴿الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ تشبيهًا لهم بعقم المرأة التي لا تحمل ولا تلد، ولما كانت هذه الريح لا تلقح سحابًا ولا شجرًا، ولا خير فيها ولا بركة لأنها لا تحمل المطر شبّهت بالمرأة العقيم ﴿مَا نَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ﴾ أي ما تترك شيئًا مرّت عليه في طريقها مما أراد الله تدميره وإهلاكه ﴿إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ﴾ أي إلا جعلته كالهشيم المتفتت البالي قال ابن عباس: ﴿كَالرَّمِيمِ﴾ الشيء الهالك البالي وقال السدي: هو التراب والرماد المدقوق ^(٤) كقوله تعالى: ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥] قال المفسرون: كانت الريح التي أرسلها الله عليهم ريحًا صرصرًا عاتية، استمرت عليهم ثمانية أيام متتابعة، فكانت تهدم البنيان وتنتزع الرجال فترفعهم إلى السماء حتى يرى الواحد منهم كالطير ثم ترمي به إلى الأرض جثة هامدة ﴿كَانَتْهُمْ أَعْجَازٌ تَخِلُ خَاوِيَةً﴾ [الحاقة: ٧]. ثم أخبر تعالى عن هلاك ثمود فقال ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ أي وجعلنا في ثمود أيضًا آية وعبرة ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي حين قيل لهم: عيشوا متمتعين بالدنيا إلى وقت الهلاك بعد عقرهم للناقة، وهو ثلاثة أيام كما في هود ﴿تَمَنَّوْا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥] ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي فاستكبروا عن امتثال أمر الله، وعصوا رسولهم فعقروا الناقة ﴿فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّيْقَةَ﴾ أي

(١) لفظه «أو» للشك، وذهب بعض المفسرين إلى أنها بمعنى الواو أي ساحر ومجنون لأن اللعين قال الأمرين معًا فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾، وقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمُجْنُونٌ﴾ وهو اختيار القرطبي، وقال الألوسي: لا ضرورة إلى ذلك التأويل لأن اللعين كان يتلوّن تلوّن الحرباء.

(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٠٥. (ش): في الهوامش من هنا حتى نهاية السورة أخطاء طباعية كثيرة في أكثر من طبعة، والمثبت هنا هو الصواب.

(٣) (ش): رواه البخاري ومسلم. (نُصِرْتُ بِالصَّبَا) الصَّبَا: هي الريح الشرقية، الريح التي تهب من مشرق الشمس ونُصِرْتُهَا ﷺ كانت يوم الخندق أرسلها الله تعالى على الأحزاب باردة في ليلة شاتية فقلعت خيامهم وأطفأت نيرانهم وقلبت قدورهم وكان ذلك سبب رجوعهم وانهزامهم. (وَأُهْلِكْتُ عَادٌ بِالدَّبُورِ) الدَّبُور: هي الريح الغربية، الريح التي تهب من مغرب الشمس وبها كان هلاك قوم عاد كما قص علينا القرآن الكريم.

(٤) «حاشية الجمل» ٤/ ٢٠٧.

فأخذتهم الصبيحة المهلكة صبيحة العذاب ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أي وهم يشاهدونها ويعاينونها لأنها جاءت في وضوح النهار قال ابن كثير: وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام فجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بكرة النهار^(١) وقال الألوسي: إن صالحاً عليه السلام وعدهم بالهلاك بعد ثلاثة أيام وقال لهم: تصبح وجوهكم غداً مصفرة، وبعد غد محمرة، وفي اليوم الثالث مسودة، ثم يصبحكم العذاب، فلما رأوا الآيات التي بينها عليه السلام عمدوا إلى قتله فنجاه الله، وفي اليوم الرابع أتتهم الصاعقة وهي نار من السماء، وقيل: صبيحة؛ فهلکوا^(٢) ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ أي ما قدروا على الهرب والنهوض من شدة الصبيحة، بل أصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿وَمَا كَانُوا مُنْصَرِينَ﴾ أي وما كانوا ممن ينتصر لنفسه فيدفع عنها العذاب.. ثم أخبر تعالى عن هلاك قوم نوح فقال: ﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ﴾ أي وأهلكنا قوم نوح بالطوفان من قبل إهلاك هؤلاء المذكورين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ تعليلٌ للهلاك، أي: لأنهم كانوا فاسقةً خارجين عن طاعة الرحمن بارتكابهم الكفر والعصيان.. ولما انتهى من أخبار هلاك الأمم الطاغية المكذبة، شرع في بيان دلال القدرة والوحدانية فقال ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ أي وشيدنا السماء وأحكمنا خلقها بقوة وقدرة قال ابن عباس: ﴿بِأَيْدٍ﴾ بقوة^(٣) ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي وإنا لموسعون في خلق السماء، فإن الأرض وما يحيط بها من الهواء والماء بالنسبة لها كحلقة صغيرة في فلاة كما ورد في الأحاديث^(٤) وقال ابن عباس: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي لقادرون، من الوسع بمعنى الطاقة^(٥) ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ أي والأرض مهدناها لتسقروا عليها، وبسطناها لكم ومددنا فيها لتنتفعوا بها بالطرقات وأنواع المزروعات، ولا ينافي ذلك كرويتها، فذلك أمرٌ مقطوع به، فإنها مع كرويتها واسعة ممتدة، فيها السهول الفسيحة، والبقاع الواسعة، مع الجبال والهضاب ولهذا قال تعالى ﴿فَنِعْمَ الْمَهْدُودُونَ﴾ أي فنعمة الباسطون الموسعون لها نحن، وصيغة الجمع للتعظيم ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي ومن كل شيء خلقنا صنفين ونوعين مختلفين ذكرًا وأنثى، وحلوا وحامضاً ونحو ذلك^(٦) ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي كي تتذكروا عظمة الله فتؤمنوا به، وتعلموا

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٨٦.

(٢) «روح المعاني» ١٦/ ٢٧.

(٣) «تفسير ابن الجوزي» ٨/ ٤٠.

(٤) (ش): قال **الرحمن**: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلَقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى تِلْكَ الْحَلَقَةِ» (رواه ابن حبان والبيهقي، وصححه الألباني).

(٥) انظر إلى عظمة الكون بعين البصيرة والعقل، لترى عظمة الخالق الكبير المتعال، فإن هذه الأرض التي نعيش فوق سطحها ما هي إلا ذرة أو نقطة تسبح في هذا الكون الفسيح، الذي لا يعلم سعته وعظمته إلا الله رب العالمين، مُنشئ الأكوان وخالق الإنسان، وتمعنْ وأنت تقرأ هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ عظمة الكون لتسبح الله مع المسبحين بقلبك ولسانك.

(٦) هذا قول ابن زيد، وقال مجاهد: يعني به المتقابلات كالذكر والأنثى، والسماء والأرض، والشمس والقمر، =

أن خالق الأزواج واحدٌ أحدٌ ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي الجئوا إلى الله، واهربوا إلى توحيده وطاعته قال أبو حيان: والأمر بالفرار إلى الله أمرٌ بالدخول في الإيمان وطاعة الرحمن، وإنما ذكر بلفظ الفرار لينبه على أن وراء الناس عقاباً وعذاباً، وأمرٌ حَقُّه أن يُفَرَّ منه، فقد جمعت اللفظة بين التحذير والاستدعاء، ومثله قول النبي ﷺ: «لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ» ^(١) وقال ابن الجوزي: المعنى اهربوا مما يُوجب العقاب من الكفر والعصيان، إلى ما يُوجب الثواب من الطاعة والإيمان ^(٢) ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ﴾ أي إني أنذركم عذاب الله وأخوفكم انتقامه ﴿مُتَيْنٌ﴾ أي واضحٌ أمري فقد أيدني الله بالمعجزات الباهرات ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي لا تشركوا مع الله أحداً من بشر أو حجر ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ كرر اللفظ للتأكيد والتنبيه إلى خطر الإشراف بالله. قال الخازن: وإنما كرر اللفظ عند الأمر بالطاعة، والنهي عن الشرك، ليعلم أن الإيمان لا ينفع إلا مع العمل، كما أن العمل لا ينفع إلا مع الإيمان، وأنه لا يفوز وينجو عند الله إلا الجامع بينهما ^(٣) ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ﴾ هذه تسليية للنبي ﷺ أي كما كذبت قومك يا محمد، وقالوا عنك: إنك ساحرٌ أو مجنون، كذلك قال المكذبون الأولون لرسولهم، فلا تحزن لما يقول المجرمون ﴿أَتَوَصَّوهُمْ﴾ أي هل أوصى أولهم آخرهم بالكذب؟ وهو استفهام للتعجب من إجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة، ثم أضرب عن هذا النفي والتوبيخ فقال ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي لم يوص بعضهم بعضاً بذلك، بل حملهم الطغيان على التكذيب والعصيان فلذلك قالوا ما قالوا ﴿فَقَوْلُ عَنَّهُمْ﴾ فأعرض يا محمد عنهم ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ أي فلا لوم عليك ولا عتاب، لأنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة، وبذلت الجهد في النصح والإرشاد ﴿وَذَكَرْنَاكَ فَإِنَّ الدِّكْرَى نَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لا تدع التذكير والموعظة فإن القلوب المؤمنة تنتفع وتتأثر بالموعظة الحسنة.. ثم ذكر تعالى الغاية من خلق الخلق فقال ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي وما خلقت الثقلين الإنس والجن إلا لعبادتي وتوحيدي، لا لطلب الدنيا والانهماك بها قال ابن عباس: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ إلا ليقروا لي بالعبادة طوعاً أو كرهاً وقال مجاهد: إلا ليعرفوني ^(٤) قال الرازي: لما بين تعالى حال المكذبين ذكر هذه الآية ليبين سوء صنيعهم حيث تركوا عبادة الله مع أن خلقهم لم يكن

= والليل والنهار، والنور والظلام، والخير والشر وأمثال ذلك. كذا في «القرطبي» ١٧/ ٥٣، وهو اختيار الطبري لأنه أدل على العظمة والقدرة.

(١) «البحر المحيط» ٨/ ١٢٤. (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٢) «تفسير ابن الجوزي» ٨/ ٤١.

(٣) «تفسير الخازن» (٤/ ١٩٦).

(٤) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٥٥.

إِلَّا لِلْعِبَادَةِ^(١) ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ أي لا أريد منهم أن يرزقوني أو يرزقوا أنفسهم أو غيرهم بل أنا الرزاق المعطي ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ﴾ أي ولا أريد منهم أن يطعموا خلقي ولا أن يطعموني فأنا الغني الحميد قال البيضاوي: والمراد أن يبين أن شأنه مع عباده ليس شأن السادة مع عبيدهم، فإنهم إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معاشهم^(٢)، فكأنه سبحانه يقول: ما أريد أن أستعين بهم كما يستعين السادة بعبيدهم، فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتي ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ أي إنه جل وعلا هو الرزاق، المتكفل بأرزاق العباد وحاجاتهم، أتى باسم الجلالة الظاهر للتفخيم والتعظيم، وأكد الجملة بأن والضمير المنفصل لقطع أوهام الخلق في أمور الرزق، وليقوي اعتمادهم على الله ﴿ذُو الْقُوَّةِ﴾ أي ذو القدرة الباهرة ﴿الْمَتِينُ﴾ أي شديد القوة لا يطرأ عليه عجز ولا ضعف قال ابن كثير: أخبر تعالى أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إلى الله في جميع أحوالهم فهو خالقهم ورازقهم، وفي الحديث القدسي «يَا ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَملَأْ صَدْرَكَ غِنًى وَأَسَدَّ فَقْرَكَ، وَإِلَّا تَفَعَّلْ، مَلَأْتُ صَدْرَكَ شُغْلًا، وَلَمْ أُسَدِّ فَقْرَكَ»^(٣) ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ أي فإن لهؤلاء الكفار الذين كذبوا الرسول ﷺ نصيبًا من العذاب مثل نصيب أسلافهم الذين أهلكوا كقوم نوح وعاد وثمود ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي فلا يتعجلوا عذابي فإنه واقع لا محالة إن عاجلاً أو آجلاً ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أي هلاك ودمار وشدة عذاب لهؤلاء الكفار في يوم القيامة الذي وعدهم الله به.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩] لأن السائل الطالب، والمحروم المتعفف.

٢ - تأكيد الخبر بالقسم وإن واللام ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٣] ويسمى هذا الضرب إنكارياً، لأن المخاطب منكر لذلك.

٣ - أسلوب التشويق والتفخيم ﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤]؟

٤ - الاستعارة ﴿فَتَوَكَّلْ بِرُكْنِهِ﴾ استعار الركن للجنود والجموع لأنه يحصل بهم التقوى والاعتماد كما يعتمد على الركن في البناء أو استعاره للقوة والشدة.

٥ - المجاز العقلي ﴿وَهُوَ مُلِمٌ﴾ أطلق اسم الفاعل على اسم المفعول، أي: ملام على طغيانه.

٦ - الاستعارة التبعية ﴿الرَّيْحَ الْعَقِيمَ﴾ شبه إهلاكهم وقطع دابرهم بعقم النساء وعدم

(١) «تفسير الفخر الرازي» ٧/ ٦٨٥.

(٢) «تفسير البيضاوي» ٤/ ١٦٨.

(٣) أخرجه الترمذي وأحمد وانظر «المختصر» ٣/ ٣٨٧. (ش): صححه الألباني وأحمد شاكر.

حملهن ثم أطلق المشبه به على المشبه واشتق منه العقيم بطريق الاستعارة.

٧ - حذف الإيجاز ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥] أي: أنتم قوم منكرون ومثلها ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩] أي: أنا عجوز.

٨ - التشبيه المرسل المجمل ﴿ذُنُوبًا مِّثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ أي نصيبًا من العذاب مثل نصيب أسلافهم المكذبين في الشدة والغلظة، حذف منه وجه الشبه فهو مجمل.

٩ - الإطناب بتكرار الفعل ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ﴾ للمبالغة والتأكيد.

١٠ - السجع الرصين غير المتكلف الذي يزيد في جمال الأسلوب ورونقه مثل ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ.. وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهْدُونَ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

لطيقة: ذكر أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (٢٢) فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْتُمْ نَاطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢-٢٣] فقال: يا سبحان الله من الذي أغضب الجليل حتى حلف (ألم يصدقه في قوله حتى ألجئوه إلى اليمين؟ يا ويح الناس)!

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الذاريات»





مكية وآياتها تسع وأربعون

بين يدي السورة

- * سورة الطور من السور المكية التي تعالج موضوع العقيدة الإسلامية، وتبحث في أصول العقيدة وهي «الوحدانية، الرسالة، البعث والجزاء».
- * ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن أهوال الآخرة وشدائدها، وعما يلقيه الكافرون في ذلك الموقف الرهيب «موقف الحساب» وأقسمت على أن العذاب نازل بالكفار لا محالة، لا يمنعه مانع ولا يدفعه دافع، وكان القسم بأمور خمسة تنبئها على أهمية الموضوع.
- * ثم تناولت الحديث عن المتقين، وهم في جنات النعيم، على سرر متقابلين، وقد جمع الله لهم أنواع السعادة «الحوار العيني، واجتماع الشمل بالذرية والبنين، والتنعيم والتلذذ بأنواع المأكول والمشرب من فواكه وثمار، ولحوم متنوعة مما يشتهي ويستطاب» إلى غير ما هنالك من أنواع النعيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.
- * ثم تحدثت عن رسالة محمد بن عبد الله صلوات الله عليه، وأمرته بالتذكير والإنذار للكفرة الفجار، غير عابئ بما يقوله المشركون وما يفتره المفترون حول الرسالة والرسول، فليس محمد ﷺ بإنعام الله عليه بالنبوة وإكرامه بالرسالة بكاهن ولا مجنون كما زعم المجرمون.
- * ثم أنكرت السورة على المشركين مزاعمهم الباطلة في شأن نبوة محمد ﷺ، وردت عليهم بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة التي تقصم ظهر الباطل، وأقامت الدلائل على صدق رسالة محمد عليه السلام.
- * وختمت السورة الكريمة بالتهكم بالكافرين وأوثانهم بطريق التوبيخ والتقريع، وبينت شدة عنادهم، وفرط طغيانهم، وأمرت الرسول ﷺ بالصبر على تحمل الأذى في سبيل الله حتى يأتي نصر الله.
- التسمية:** سميت «سورة الطور» لأن الله تعالى بدأ السورة الكريمة بالقسم بجبل الطور الذي كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام، ونال ذلك الجبل من الأنوار والتجليات والفيوضات الإلهية ما جعله مكاناً وبقعة مشرفة على سائر الجبال في بقاع الأرض.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّافِرِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا ﴿١٠﴾ قَوْلٌ يَوْمِيذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٣﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٤﴾ أَصَلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٦﴾ فَتَكِينٍ يَمَآءَ أَنهَارٍ يُزِيلُهُمْ رُبُّهُمْ وَوَقَفَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٧﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢٠﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ يَنْزِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيهِ ﴿٢٢﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ زُلُفًا مِنْ لَدُنْهُمْ كَانَتْهُمْ لَوْلُؤُهُمْ مَكُونٌ ﴿٢٣﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٥﴾ فَمَنْ أَلَّاهُ عَلَيْنا وَوَقَّنا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٢٦﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ

اللغة: ﴿رَقٍّ﴾ الرق بالفتح والكسر جلد رقيق يكتب فيه وقال أبو عبيدة: الرق الورق وفي الصحاح: الرق بالفتح ما يكتب فيه وهو جلد رقيق ^(١) ﴿الْمَسْجُورِ﴾ الموقد نارًا يقال: سحرت النار أي أوقدتها ﴿تَمُورُ﴾ مار الشيء يَمُور مَوْرًا إذا تحرك واضطرب، وجاء وذهب، قال جرير: فَمَا زَالَتِ الْقَتْلَى تَمُجُّ دِمَاءَهَا بِدِجْلَةٍ حَتَّى مَاءٌ دِجْلَةٌ أَشْكَلُ ^(٢) ﴿يَدْعُوتُ﴾ يدفعون بشدة وعنف، والدَّع: الدفع بشدة وإهانة ﴿أَلَتْنَاهُمْ﴾ أنقصناهم ﴿رَهِينٌ﴾ محبوس ﴿السَّمُورِ﴾ الريح الحارة النافذة في المسام.

التفسير: ﴿وَالطُّورِ﴾ ﴿١﴾ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ أقسم تعالى بجبل الطور الذي كلم الله عليه موسى، وأقسم بالكتاب الذي أنزله على خاتم رسله وهو القرآن العظيم المكتوب ﴿فِي رَقٍّ﴾ أي في أديم من الجلد الرقيق ﴿مَنْشُورٍ﴾ أي مبسوط غير مطوي وغير مختوم عليه قال القرطبي: أقسم الله تعالى بالكتاب المسطور، أي: المكتوب وهو القرآن يقرؤه المؤمنون من المصاحف، ويقرؤه الملائكة من اللوح المحفوظ، وقيل: يعني بالكتاب سائر الكتب المنزلة على الأنبياء لأن كل كتاب في رق ينشره أهله لقراءته، والرق ما رقق من الجلد ليكتب فيه ^(٣) ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ أي وأقسم بالبيت المعمور الذي تطوف به الملائكة الأبرار، وهو لأهل السماء

(١) «الصحاح» مادة رَقَّ.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٦٣. (ش): الأَشْكَلُ: ما فيه بياضٌ وحُمْرة.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٥٨.

كالعربة المشرفة لأهل الأرض، وفي حديث الإسراء «ثُمَّ رُفِعَ لِيَ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ فَقُلْتُ: يَا جَبْرِيلُ مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ إِذَا خَرَجُوا مِنْهُ لَمْ يَعُودُوا فِيهِ آخِرُ مَا عَلَيْهِمْ»^(١) وقال ابن عباس: هو بيت في السماء السابعة حيال الكعبة أي مقابلها وحذاءها تعمره الملائكة، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون إليه^(٢) ﴿وَالسَّقْفُ الْمَرْفُوعُ﴾ أي والسماء العالية المرتفعة، الواقعة بقدره الله بلا عمد، سمى السماء سقفاً لأنها للأرض كالسقف للبيت ودليله ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢] وقال ابن عباس: هو العرش وهو سقف الجنة^(٣) قال **رَبِّكَ**: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَفْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ» رواه البخاري. ﴿وَالْبَحْرُ الْمَسْجُورُ﴾ أي والبحر المسجور الموقد ناراً يوم القيامة كقوله ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦] أي أضرمت حتى تصير ناراً ملتهبة تتأجج تحيط بأهل الموقف ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ هذا جواب القسم، أي: إن عذاب الله لنازل بالكافرين لا محالة قال ابن الجوزي: أقسم تعالى بهذه الأشياء الخمسة للتنبيه على ما فيها من عظيم قدرته على أن عذاب المشركين حق^(٤) ﴿مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ أي ليس له دافع يدفعه عنهم قال أبو حيان: والواو الأولى للقسم وما بعدها للعطف^(٥)، والجملة المقسم عليها هي ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ وفي إضافته إلى الرب وإضافته لكاف الخطاب أمان له **رَبِّكَ** وأن العذاب واقع بمن كذبه -ولفظ واقع) أشد من كائن، كأنه مهياً في مكان مرتفع فيقع على من حل به-^(٦) ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ أي تتحرك السماء

(١) أخرجه مسلم في صحيحه. (ش): ورواه البخاري. (آخِرُ مَا عَلَيْهِمْ) أي دخولهم الأول ذلك هو آخر دخول لهم لكثرتهم.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٨٨.

(٣) (ش): أي إن السقف المرفوع هو العرش وهو سقف الجنة.

(٤) «زاد المسير» ٨/ ٤٨.

(٥) (ش): الواو الأولى للقسم، أي قوله تعالى: (وَالطُّورُ). وما بعدها للعطف، أي قوله تعالى: (وَكُنْطِ مَسْطُورٍ)، (وَالْبَيْتُ الْمَعْمُورُ) (وَالسَّقْفُ الْمَرْفُوعُ)، (وَالْبَحْرُ الْمَسْجُورُ).

(٦) «البحر المحيط» ٨/ ١٤٧، والآية فيها أهوال وشدائد ينخلع لها قلب المؤمن، روى عن جبير بن مطعم أنه قال: قدمت المدينة لأسأل رسول الله ﷺ في أسارى بدر، فوافيته يقرأ في صلاة المغرب: ﴿وَالطُّورُ وَكُنْطِ مَسْطُورٍ...﴾ إلى ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ فكانما صدع قلبي، فأسلمت خوفاً من نزول العذاب، وما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب. (ش): عَنْ جَبْرِيلَ بْنِ مُطْعِمٍ - رضى الله عنه - قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾^(٣٥) أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوَفِّقُونَ^(٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصْطَفُونَ﴾ كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ. رواه البخاري. وعن جَبْرِيلَ بْنِ مُطْعِمٍ **رحمته الله** أَنَّهُ جَاءَ فِي فِدَاءِ أُسَارَى أَهْلِ بَدْرٍ، قَالَ: قَوَّافْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقْرَأُ فِي صَلَاةِ الْمَغْرِبِ ﴿وَالطُّورُ﴾^(١) وَكُنْطِ مَسْطُورٍ^(٢) فِي رَقِيٍّ مَشْهُورٍ [الطور: ٣١]، قَالَ: فَأَخَذَنِي مِنْ قِرَاءَتِهِ كَالْكُرْبِ، فَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ مَا سَمِعْتُ مِنْ أَمْرِ الْإِسْلَامِ. فَسَمِعْتُهُ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ [الطور: ٨]، وَقَدْ خَرَجَ صَوْتُهُ مِنَ الْمَسْجِدِ =

وتضطرب اضطراباً شديداً من هول ذلك اليوم ﴿وَسَيَرُ الْجِبَالَ سَيَرًا﴾ أي تنسف نفساً عن وجه الأرض فتكون هباءً منثوراً كقوله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥] قال الخازن: والحكمة في مور السماء وسير الجبال، الإنذار والإعلام بأن لا رجوع ولا عود إلى الدنيا، وذلك لأن الأرض والسماء وما بينهما من الجبال والبحار وغير ذلك إنما خلقت لعمارة الدنيا وانتفاع بني آدم بذلك، فلما لم يبق لهم عودٌ إليها أزالها الله تعالى وذلك لخراب الدنيا وعمارة الآخرة ^(١) ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار وشدة عذاب للمكذبين أرسل الله في ذلك اليوم الرهيب ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أي الذين هم في الدنيا يخوضون في الباطل غافلون ساهون عما يراد بهم ﴿يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًا﴾ أي يوم يدعون إلى نار جهنم دفعاً بشدة وعنف قال في البحر: وذلك أن خزنة جهنم يغفلون أيدي الكفار إلى أعناقهم، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم، ويدفعون بهم دفعاً إلى النار على وجوههم وزجاً في أفقيتهم حتى يردوا إلى النار، ^(٢) فإذا دنوا منها قال لهم خزنتها ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي هذه نار جهنم التي كنتم تهزءون وتكذبون بها في الدنيا ﴿أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ أي وتقول لهم الزبانية تقريباً وتوبيخاً: هل هذا الذي ترونه بأعينكم من لعذاب سحر، أم أنتم اليوم عمي كما كنتم في الدنيا عمياً عن الخير والإيمان؟ قال أبو السعود: وقوله تعالى ﴿أَفَسِحْرُ هَذَا﴾ توبيخ لهم وتقريع حيث كانوا يسمون القرآن الناطق بالحق سحراً فكأنه قيل لهم: كنتم تقولون عن القرآن: إنه سحر. أفهذا العذاب أيضاً سحر أم سُدَّتْ أبصاركم كما سُدَّتْ في الدنيا؟ ^(٣) ﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾ أي قاسوا شدتها فاصبروا على العذاب أو لا تصبروا، وهو توبيخ آخر ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي يتساوى عليكم الصبر والجزع لأنكم مخلصون في جهنم أبداً ﴿إِنَّمَا تُجْرَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي إنما تنالون جزاء أعمالكم القبيحة من الكفر والتكذيب، ولا يظلم ربك أحداً.. ولما ذكر حال الكفرة الأشقياء ذكر حال المؤمنين السعداء على عادة القرآن الكريم في الجمع بين الترهيب والترغيب فقال ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ أي إن الذين اتقوا ربهم في الدنيا بامثال أوامره واجتناب نواهيه، هم في الآخرة في بساتين عظيمة ونعيم مقيم خالد ﴿فَنَكِهِنَّ يَمَاءً أَنْهَمُ رِيَّهُمْ﴾ أي متنعمين ومتلذذين بما أعطاهم ربهم

= ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿[الطور: ٨]، فَكَأَنَّمَا صُدِعَ قَلْبِي (رواه الطبراني بإسناد حسن). قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/ ٤٣٧): «وَجَبَّيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ كَانَ قَدْ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ فِي فِدَاءِ الْأَسَارَى، وَكَانَ إِذْ ذَاكَ مُشْرِكَاً، وَكَانَ سَمَاعُهُ هَذِهِ الْآيَةَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ جُمْلَةٍ مَا حَمَلَهُ عَلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ ذَلِكَ».

(١) «تفسير الخازن» ١٠٧/٤.

(٢) «البحر المحيط» ١٤٧/٨.

(٣) «تفسير أبي السعود على هامش الرازي» ٦٩٧/٧.

من الخير والكرامة وأصناف الملاذ من مآكل ومشارب، وملابس ومراكب، وغير ذلك من ملاذ الجنة ﴿وَوَقَّهْمَ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي وقد نجاهم ربهم من عذاب جهنم وصرف فيها من السرور ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ^(١) ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يقال لهم: كلوا واشربوا أكلاً وشراباً هنيئاً، لا تنغيص فيه ولا كدر، بسبب ما قدمتم من صالح الأعمال. ثم أخبر تعالى عن حالهم عند أكلهم وشرابهم فقال ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ أي جالسين على هيئة المضطجع على سرر من ذهب مكللة بالدر والياقوت، مصطفة بعضها إلى جانب بعض، قال ابن كثير: ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ أي وجوه بعضهم إلى بعض كقوله ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧] ^(٢) وفي الحديث «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَيُّ الْمُتَكَيُّ مِقْدَارَ أَرْبَعِينَ سَنَةً مَا يَتَحَوَّلُ عَنْهُ وَلَا يَمَلُّهُ، يَأْتِيهِ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ وَلَذَّتْ عَيْنُهُ» ^(٣) ﴿وَزَوْجَهُمْ يُحُورِينَ﴾ أي وجعلنا لهم قرينات صالحات، وزوجات حسناً من الحور العين، وهن نساء بيض واسعات العيون - من الحور وهو شدة البياض - والعين جمع عينا وهي كبيرة العين - والبياض مع سعة العين نهاية الحسن والجمال - ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِْمْنٍ﴾ أي كانوا مؤمنين وشاركتهم أولادهم في الإيمان ﴿الْحَقَنَاءُ لَهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ أي الحقنا الأبناء بالآباء لتقر بهم أعينهم وإن لم يبلغوا أعمالهم قال ابن عباس: إن الله عز وجل ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كان لم يبلغها بعمله لتقر بهم عينه وتلا الآية ^(٤) قال الزمخشري: فيجمع الله لأهل الجنة أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم، وبمزاوجة الحور العين، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم ^(٥) ﴿وَمَا أَلْنَتْهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي وما نقصنا الآباء من ثواب عملهم شيئاً قال في البحر: المعنى أنه تعالى يلحق المقصّر بالمحسن ولا ينقص المحسن من أجره شيئاً ^(٦) ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي كل إنسان مرتين بعمله لا يحمل عليه ذنب غيره سواء كان أباً أو ابناً وقال ابن عباس: ارتهن أهل جهنم بأعمالهم، وصار أهل الجنة إلى نعيمهم ^(٧) وقال الخازن: المراد بالآية الكافر أي كل كافر بما عمل من الشرك مرتين بعمله في النار، والمؤمن لا يكون مرتين بعمله لقوله تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ ^(٢٨)

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣ / ٢٩٠.

(٢) نفس المرجع السابق والصفحة. (ش): رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» بإسناد ضعيف.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٧ / ٦٦.

(٥) «تفسير الكشاف» ٤ / ٢٧٢.

(٦) «البحر المحيط» ٨ / ١٤٩، وهذا تأويل ابن عباس.

(٧) «تفسير القرطبي» ١٧ / ٦٨.

﴿إِلَّا أَتَّخَبَ آلِ يَمِينٍ﴾^(١) [المدر: ٣٨-٣٩].. ثم ذكر ما وعدهم به من الفضل والنعمة فقال ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي وزدناهم فوق ما لهم من النعيم بفواكه ولحوم من أنواع شتى مما يستطاب ويشتهى ﴿يَسْتَرْعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي يتعاطون في الجنة كأسًا من الخمر، يتجاوزها بعضهم من بعض تلذذاً وتأنساً قال الألوسي: أي يتجاوزونها تجاذب ملاعبة كما يفعل ذلك الندامى في الدنيا لشدة سرورهم^(٢) ﴿لَا لَعْوُ فِيهَا وَلَا تَأْسِيمٌ﴾ أي لا يقع بينهم بسبب شربها هذيان حتى يتكلموا بساقط الكلام، ولا يلحقهم إثم كما يلحق شارب الخمر في الدنيا قال قتادة: نزه الله خمر الآخرة عن قاذورات الكلام الفارغ الذي لا فائدة فيه، المتضمن للهذيان والفحش، ووصفها بحسن منظرها وطيب طعمها، فقال ﴿يَصْنَعُ اللَّهُ لِلشَّرِيبِينَ﴾^(٣) ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾^(٤) [الصفات: ٤٦-٤٧] ثم قال تعالى ﴿وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ غُلَمَانٌ لَهُمْ﴾ أي يطوف عليهم للخدمة غلمان مماليك خصصهم تعالى لخدمتهم ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيضٌ مَكْنُونٌ﴾ أي كأنهم في الحسن، والبياض، والصفاء اللؤلؤ المصون في الصدف قال القرطبي: وهؤلاء الغلمان قيل: هم أولاد المشركين وهم خدم أهل الجنة^(٥)، وليس في الجنة نصب ولا حاجة إلى خدمة، ولكنه أخبر بأنهم على غاية النعيم ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي أقبل أهل الجنة يسأل بعضهم بعضاً عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا، تلذذاً بالحديث، واعتراضاً بالنعمة ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أي قال المسئولون: إنا كنا في دار الدنيا خائفين من ربنا، مشفقين من عذابه وعقابه ﴿فَمَرَّبَ اللَّهُ عَيْنًا وَوَقَفْنَا عَدَابَ السُّمُورِ﴾ أي فأكرمنا الله بالمغفرة والجنة، وأجارنا مما نخاف، وحمانا من عذاب جهنم النافذة في المسام نفوذ الريح الحارة الشديدة وهي التي تسمى ﴿السُّمُورِ﴾ قال الفخر الرازي: والآية إشارة إلى أن أهل الجنة يعلمون ما جرى عليهم في الدنيا ويذكرونه، وكذلك الكافر لا ينسى ما كان له من النعيم في الدنيا، فترداد لذة المؤمن

(١) «تفسير الخازن» ٢٠٨/٤.

(٢) «روح المعاني» ٣٤/٢٧. (ش): ندامى: جمع نديم: مُجَالِسٌ عَلَى الشَّرَابِ وَعَلَى الْمَائِدَةِ عَامَّةً. والنديم: الرفيق والصاحب.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣٩١/٣.

(٤) (ش): أطفال المسلمين لا خلاف بين العلماء أنهم من أهل الجنة.

أما أطفال الكفار فقد اختلف العلماء فيه إلى أقوال:

١- أنهم في الجنة. ٢- أنهم مع آبائهم في النار. ٣- التوقف فيهم.

٤- أنهم خدم أهل الجنة. قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ولا أصل لهذا القول». «مجموع الفتاوى» (٤/٢٧٩).

وقد ورد ذلك في حديث عند الطبراني والبخاري، لكن ضعفه الأئمة ومنهم الحافظ ابن حجر.

٥- أنهم يُمْتَحَنُونَ في الآخرة، فمن أطاع الله دخل الجنة، ومن عصى دخل النار. وهو قول طائفة من المحققين، وهو الذي مال إليه شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو الذي رجحه الحافظ ابن كثير، وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٧/٦٩.

حيث يرى نفسه انتقلت من الضيق إلى السعة، ومن السجن إلى الجنة، ويزداد الكفار أَلَمًا حيث يرى نفسه انتقلت من النعيم إلى الجحيم^(١) ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أي قال أهل الجنة: إنا كنا في الدنيا نعبد الله ونتضرع إليه، فاستجاب الله لنا فأعطانا سُؤْلَنَا^(٢) ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ أي إنه تعالى هو الْمُحْسِن، والمتفَضِّل على عباده بالرحمة والغفران، وهو كالتعليق لما سبق، عن مسروق أن عائشة رضي الله تعالى عنها قرأت هذه الآية ﴿فَمَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّنَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾^(٣) ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ فقالت: اللهم مُنِّ عَلَيْنَا وَقِنَا عَذَابَ السَّمُومِ إِنَّكَ أَنْتَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ^(٤).

قال الله تعالى:

فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ^(١) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ^(٢) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْزِلِينَ^(٣) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلُمُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ^(٤) أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ^(٥) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ^(٦) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ^(٧) أَمْ خُلِقُوا مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ بَلْ لَا يُؤْفَنُونَ^(٨) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ أَمْ هُمُ الْمُصْطَبِرُونَ^(٩) أَمْ هُمْ سَامِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَعْمِلُنَّ مِثْلَهُ^(١٠) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ^(١١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ^(١٢) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ^(١٣) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ^(١٤) أَمْ هُمُ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ^(١٥) وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ^(١٦) فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ^(١٧) يَوْمَ لَا يَغْنَى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ^(١٨) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ^(١٩) وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ^(٢٠) وَمِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ

المناسبة: لما تقدم إقسام الله تعالى على وقوع العذاب بالكافرين، وذكر أشياء من أحوال المعذبيين والناجين، أمر تعالى رسوله بالتذكير، إنذارًا للكافرين وتبشيرًا للمؤمنين، وختم السورة الكريمة ببيان عاقبة المكذبين، وحفظ الله ورعايته لرسوله الكريم ﷺ.

اللغة: ﴿رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ حوادث الدهر وصروفه، والمنون هو الدهر قال أبو ذؤيب: أَمِنْ الْمَنُونِ وَرَيْبِهَا تَتَوَجَّعُ وَالْدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبٍ مَنْ يَجْزَعُ^(١) والمنون أيضًا الموت من المَنِّ بمعنى القطع لأنه يقطع الأعمار ﴿أَحْلُمُهُمْ﴾ عقولهم جمع حُلْم وهو العقل ﴿الْمُصْطَبِرُونَ﴾ المسيطر: المتسلط على الشيء ﴿كِسْفًا﴾ قطعة يقال: كسف

(١) «التفسير الكبير» للرازي ٧/ ٧٠٥.

(٢) (ش): سُؤْل: طلب، حاجة.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٩٢.

(٤) «زاد المسير» ٨/ ٥٤، وانظر «الصحيح» للجوهري. (ش): وَالْدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبٍ مَنْ يَجْزَعُ: أي: ليس بمراجع من يجزع منه.

بسكون السين وكسفة أي قطعة وجمعه كسف بفتح السين ﴿مَرْكُومٌ﴾ متجمع ومتراكم بعضه فوق بعض.

التفسير: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي فذكر يا محمد بالقرآن قومك وعظّمهم به، فما أنت بإنعام الله عليك بالنبوة وإكرامه لك بالرسالة ﴿يَكَاهِنُ وَلَا مَجْنُونٌ﴾ أي لست كاهناً تخبر بالأمور الغيبية من غير وحي، ولا مجنوناً كما زعم المشركون، إنما تنطق بالوحي.. ثم أنكر عليهم مزاعمهم الباطلة في شأن الرسول فقال ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّبَّأْنَاهُ رِيبَ الْمُنُونِ﴾ أي بل يقول المشركون هو شاعر نتظر به حوادث الدهر وصروفه حتى يهلك فنستريح منه؟ قال الخازن: وريبُ المنون حوادث الدهر وصروفه، وغرضهم أنه يهلك ويموت كما هلك من كان قبله من الشعراء، والمنون اسم الموت وللدهر وأصله القطع، سُمّي بذلك لأنهما يقطعان الأجل^(١) ﴿قُلْ تَرِصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْزِلِينَ﴾ أي قل لهم يا محمد: انتظروا بي الموت فإنني منتظر هلاككم كما تنتظرون هلاكي، وهو تهكم بهم مع التهديد والوعيد ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا﴾؟ أي أم تأمرهم عقولهم بهذا الكذب والبهتان؟ قال الخازن: وذلك أن عظماء قريش كانوا يوصفون بالأحلام والعقول، فأزرى الله بعقولهم حين لم تثمر لهم معرفة الحق من الباطل^(٢)، وهو تهكم آخر بالمشرّكين ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ﴾ أي بل هم قوم مجاوزون الحد في الكفر والطغيان، والمكابرة والعناد ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ﴾ أي أم يقولون: إن محمداً اختلق القرآن وافتراه من عند نفسه قال القرطبي: والتقولُ تكلف القول، وإنما يستعمل في الكذب في غالب الأمر، يقال: قولتني ما لم أقل أي ادعيته عليّ، وتقول عليه، أي: كذب عليه^(٣) ﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا بل لا يصدقون بالقرآن استكباراً وعناداً ثم ألزمهم تعالى الحجة فقال ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أي فليأتوا بكلام مماثل للقرآن في نظمه وحسنه وبيانه، إن كانوا صادقين في قولهم: إن محمداً افتراه، وهو تعجيزٌ لهم مع التوبيخ ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أي هل خلقوا من غير رب ولا خالق؟ قال ابن عباس: من غير رب خلقهم وقدرهم^(٤) ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أي أم هم الخالقون لأنفسهم، حتى تجرّوا فأنكروا وجود الله جل وعلا^(٥)؟ ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي أم هم خلقوا السموات والأرض؟ وإنما خصّ السموات والأرض بالذكر من بين سائر المخلوقات لعظمتها وشرفها، ثم بين

(١) «تفسير الخازن» ٢٠٩ / ٤.

(٢) نفس المرجع السابق والصفحة.

(٣) «تفسير القرطبي» ٧٣ / ١٧.

(٤) «تفسير القرطبي» ٧٤ / ١٧.

(٥) (ش): إن المشركين لم ينكروا وجود الله الخالق، وإنما ينكرون إفراده بالعبادة، والمراد بالآيات إثبات ما أنكروه لا إثبات ما يُقرون به؛ لأنه تحصيل حاصل ولأنه لا يكفي.

تعالى السبب في إنكارهم لوحانية الله فقال ﴿بَلْ لَا يُؤْقِنُونَ﴾ أي بل لا يصدقون ولا يؤمنون بوحدانية الله وقدرته على البعث ولذلك ينكرون الخالق قال الخازن: ومعنى الآية هل خلَقُوا من غير شيء خلَقَهم فوجدوا بلا خالق وذلك مما لا يجوز أن يكون، لأن تعلق الخلق بالخالق ضروري، فإن أنكروا الخالق لم يجز أن يوجدوا بلا خالق، أم هم الخالقون لأنفسهم؟ وذلك في البطلان أشد، لأن ما لا وجود له كيف يخلق؟ فإذا بطل الوجهان قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقاً فليؤمنوا به، وليوحدوه، وليعبدوه، وليوقنوا أنه ربهم وخالقهم^(١) ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ﴾؟ أي أعندهم خزائن رزق الله ورحمته حتى يعطوا النبوة من شاءوا ويمنعوها عن من شاءوا؟ قال ابن عباس: ﴿خَزَائِنُ رَيْكَ﴾ المطر والرزق وقال عكرمة: النبوة^(٢) ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيِّرُونَ﴾؟ أي أم هم الغالبون القاهرون حتى يتصرفوا في الخلق كما يشاءون؟ لا بل الله عز وجل هو الخالق المالك المتصرف وقال عطاء ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيِّرُونَ﴾ أم هم الأرباب فيفعلون ما يشاءون ولا يكونون تحت أمر ولا نهي؟^(٣) ﴿أَمْ لَهُمْ سُلْمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾؟ أي أم لهم مرقى ومصعد إلى السماء يستمعون فيه كلام الملائكة والوحي فيعلمون أنهم على حق فهم به مستمسكون؟ ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَنِ مُبِينٍ﴾ أي فليأت من يزعم ذلك بحجة بينة واضحة على صدق استماعه كما أتى محمد بالبرهان القاطع.

ثم وبخهم تعالى على ما هو أشنع وأقبح من تلك المزاعم الباطلة وهو نسبتهم إلى الله البنات، وجعلهم لله جل وعلا ما يكرهون لأنفسهم فقال ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾؟ أي كيف تجعلون لله البنات مع كراحتكم لهن وتجعلون لأنفسكم البنين؟ أهذا هو المنطق والإنصاف؟ وقال القرطبي: سَفَّهَ أحلامهم توبيخاً لهم وتقريعاً. والمعنى: أتضيفون إلى الله البنات مع أنفثتكم منهن، ومن كان عقله هكذا لا يُستبعد منه إنكار البعث^(٤) وقال أبو السعود: تسفيهٌ لهم وتركيكٌ لعقولهم، وإيذانٌ بأن من هذا رأيهِ لا يكاد يُعد من العقلاء، فضلاً عن الترفي إلى عالم الملكوت، والاطلاع على الأسرار الغيبية، والالتفات إلى الخطاب لتشديد الإنكار والتوبيخ^(٥) ﴿أَمْ سَأَلْتَهُمُ أَجْرًا﴾ أي هل تسألهم يا محمد أجراً على تبليغ الرسالة وتعليم أحكام الدين؟ ﴿فَهُمْ مِّنْ مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أي فهم بسبب ذلك الأجر والغرم الثقيل الذي أوجبته عليهم مجاهدون ومتعبون؛ فلذلك يزهدون في أتباعك، ولا يدخلون في الإسلام؟ فإن العادة أن من كلف إنساناً مالاً وضرب عليه جُعلاً يصير مثقلاً وغارماً بسببه فيكرهه ولا يسمع قوله ولا يمتثله

(١) «تفسير الخازن» ٤ / ١٢٠.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٧ / ٧٤.

(٣) «تفسير ابن الجوزي» ٨ / ٥٧.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٧ / ٧٦.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٥ / ١٧٥.

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾؟ أي أعندهم علم الغيب حتى يعلموا أن ما يخبرهم به الرسول ﷺ من أمور الآخرة والحشر والنشر باطل فلذلك يكتبون هذه المعلومات عن معرفةٍ ويقين؟ قال قتادة: هو ردُّ لقولهم ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُّ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ والمعنى: أعلموا أن محمداً يموت قبلهم حتى يحكموا بذلك؟^(١) وقال ابن عباس: أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيهن، ويخبرون الناس بما فيه؟^(٢) ليس الأمر كذلك فإنه لا يعلم أحدٌ من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾؟ أي يريد هؤلاء المجرمون أن يتآمروا عليك يا محمد؟ قال المفسرون: والآية إشارة إلى كيدهم في دار الندوة وتآمرهم على قتل الرسول ﷺ كما قال تعالى ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ أي فالذين جحدوا رسالة محمد هم المجزيون بكيدهم لأن ضرر ذلك عائد عليهم، ووباله راجع على أنفسهم كقوله ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣] قال الصاوي: وأوقع الظاهر ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ موقع المضمرة تشنيعاً وتقبيحاً عليهم بتسجيل وصف الكفر^(٣) ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾؟ أي ألهم إله خالق رازق غير الله تعالى حتى يلجئوا إليه وقت الضيق والشدة؟ ويستنجدوا به لدفع الضرِّ والعذاب عنهم؟ ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزهه وتقدس الله عما يشركون به من الأوثان والأصنام قال الإمام الجلال: والاستفهام بـ «أم» في مواضعها الخمسة عشر للتوبيخ والتفريع والإنكار^(٤).. ثم أخبر تعالى عن شدة طغيانهم وفرط عنادهم فقال ﴿وَلَنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ أي لو عذبناهم بسقوط قطع من السماء نزلت عليهم لم ينتهوا ولم يرجعوا، ولقالوا في هذا النازل عناداً واستهزاءً: إنه سحاب مركوم ﴿يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ أي إنه سحاب متراكم بعضه فوق بعض قد سقط علينا قال أبو حيان: كانت قریش قد اقترحت على رسول الله ﷺ فيما اقترحت من قولهم ﴿أَوْ تُسْقِطُ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾ [الإسراء: ٩٢] فأخبر تعالى أنهم لو رأوا ذلك عياناً حسب اقتراحهم لبلغ بهم عتوهم وجهلهم أن يغالطوا أنفسهم فيما عاينوه ويقولوا: هو سحابٌ مركوم، أي: سحاب تراكم بعضه فوق بعض مُمَطَّرٌ نا، وليس بكسْفٍ ساقِطٍ للعذاب^(٥) ﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلْقَا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ أي اتركهم يا محمد يتمادون في غيهم وضلالهم، حتى يلاقوا ذلك اليوم الرهيب يوم القيامة الذي يأتيهم فيه من العذاب ما يزيل عقولهم ويسلب ألبابهم ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي يوم لا ينفعهم كيدهم ولا مكرهم الذي استعملوه في الدنيا ولا يدفع

(١) «تفسير ابن الجوزي» ٥٨/٨.

(٢) «تفسير القرطبي» ٧٦/١٧.

(٣) «حاشية الصاوي» ١٣٤/٤.

(٤) «تفسير الجلالين» ٢٢١/٤.

(٥) «تفسير البحر المحيط» ١٥٣/٨.

عنهم شيئاً من العذاب ﴿وَلَا هُمْ يُصْرُونَ﴾ أي ولا هم يُمنعون من عذاب الله في الآخرة ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي وإن للذين كفروا عذاباً شديداً في الدنيا قبل عذاب الآخرة قال ابن عباس: هو عذاب القبر وقال مجاهد: هو الجوع والفقر سبع سنين^(١) ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون أن العذاب نازل بهم ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي اصبر يا محمد على قضاء ربك وحكمه، فيما حمّلك به من أعباء الرسالة ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي فإنك بحفظنا وكلاءتنا نحرسك ونرعاك^(٢) ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي ونزه ربك عما لا يليق به من صفات النقص حين تقوم من منامك ومن كل مجلس بأن تقول: سبحان الله وبحمده قال ابن عباس: أي صلّ لله حين تقوم من منامك^(٣) ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي ومن الليل فاذكره وابعده بالتلاوة والصلاة والناس نيام كقوله ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩] ﴿وَادْبَرْ أَلْبُجُومٍ﴾ أي وصلّ له في آخر الليل حين تدبر وتغيب النجوم بضوء الصبح قال ابن عباس: هما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر وفي الحديث «رَكَعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»^(٤).

(١) «البحر المحيط» ٨/ ١٥٣.

(٢) (ش:) في قوله تعالى عَنْ سَفِينَةِ نُوحٍ ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ (القمر: ١٤) وقوله لِمُوسَى ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (طه: ٣٩). وقوله للنبي ﷺ ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] المعنى على ظاهر الكلام وحقيقته، لكن ما ظاهر الكلام وحقيقته هنا؟ هل يقال: إن ظاهره وحقيقته أن السفينة تجري في عين الله؛ أو أن موسى عليه الصلاة والسلام يرى فوق عين الله تعالى؟! أو يقال: إن ظاهره أن السفينة تجري وعين الله ترعاها وتكفلها، وكذلك تربيته موسى تكون على عين الله تعالى يرعاه ويكفله بها، ولا ريب أن القول الأول باطل، وذلك من وجهين: ١- أنه لا يقتضي الكلام بمقتضى الخطاب العربي، والقرآن إنما نزل بلغة العرب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف: ٢) ولا أحد يفهم من قول القائل: فلان يسير بعيني أن المعنى أنه يسير داخل عينه، ولا من قول القائل: فلان تخرج على عيني؛ أن تخرجه كان وهو راكب على عينه، ولو ادعى مدّع أن هذا هو ظاهر اللفظ في هذا الخطاب لصحح منه السفهاء فضلاً عن العقلاء. ومثله قول: إنك تحت عيني، وفلان تخرج من تحت يدي، وفلان يدي اليمنى... مما معناه ظاهر مفهوم باللسان العربي. ٢- أن هذا مُمتنع غاية الامتناع، ولا يمكن لمن عرف الله وقدره حق قدره أن يفهمه في حق الله تعالى؛ لأن الله تعالى مستو على عرشه بائن من خلقه لا يحل فيه شيء من مخلوقاته، ولا هو حال في شيء من مخلوقاته سبحانه وتعالى. فإذا تبين بطلان هذا من الناحية اللفظية والمعنوية تعين أن يكون ظاهر الكلام هو القول الثاني؛ أن السفينة تجري وعين الله ترعاها وتكفلها، وكذلك تربيته موسى تكون على عين الله يرعاه ويكفله بها، وهذا معنى قول بعض السلف بمرأى مني، فإن الله تعالى إذا كان يكفله بعينه لزم من ذلك أنه يراه. ووجه كون العين هي التي ترعاه دون الوجه أو اليد أو.... هو لأن العين تفيد الاطلاع والمراقبة والإحاطة مما ياسب الحفظ. والله أعلم. وفي هذه الآيات إثبات لصفة العينين لله تعالى بما يليق به، دون تشبيه بخلقه أو تكيف لذاته، سبحانه وبحمده، كما ثبت ذلك بالسنة، وأجمع عليه سلف الأمة، فأهل السنة والجماعة يعتقدون أن الله يبصر بعين، كما يعتقدون أن الله عز وجل له عيانان تليقان به؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. واللفظ الذي ورد بصيغة الجمع (بأعيننا) فإنما هو للتعظيم.

(٣) «تفسير ابن الجوزي» ٨/ ٦١.

(٤) «المختصر» ٣/ ٣٩٥. (ش:) رواه مسلم.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - جناس الاشتقاق ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ [الطور: ٩] و ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ١٠].
- ٢ - الإهانة والتوبيخ ﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾ [الطور: ١٦] وبين قوله ﴿فَاصْبِرُوا﴾ وقوله ﴿أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾ طباق السلب وهو من المحسنات البديعية.
- ٣ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور: ٢٤] حذف منه وجه الشبه فهو مجمل.

٤ - الاستعارة التبعية ﴿رَبِّبَ الْمُنُونُ﴾ شبهت حوادث الدهر بالريب الذي هو الشك بجامع التحير وعدم البقاء على حالة واحدة في كلٍ منهما واستعير لفظ الريب لصروف الدهر ونوائبه بطريق الاستعارة التبعية.

- ٥ - الأسلوب التهكمي ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُوا بِهَذَا﴾؟ هذا بطريق التهكم والسخرية بعقولهم.
- ٦ - الالتفات من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التوبيخ والتفريع لهم ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾؟

- ٧ - أسلوب الفرض والتقدير ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ أي لو رأوا ذلك لقالوا ما قالوا.
- ٨ - السجع الرصين غير المتكلف مثل ﴿وَالطُّورُ ١﴾ و﴿كَتَبَ مَسْطُورٌ ٢﴾ في رَقٍّ مَّنْشُورٍ﴾ [الطور: ١٣] ومثل ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧٨] وهلم جرا.

فائدة: عن جبير بن مطعم قال: قدمت المدينة لأسأل رسول الله ﷺ في أسارى بدر، فوافيته يقرأ في صلاة المغرب ﴿وَالطُّورُ ١﴾ و﴿كَتَبَ مَسْطُورٌ﴾ [الطور: ١٢] فلما قرأ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧٨] فكأنما صُدع قلبي، فأسلمت خوفاً من نزول العذاب، فلما انتهت إلى هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ٣٥﴾ أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ كاد قلبي أن يطير^(١).

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الطور»

(١) (ش): عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ - ﷺ - يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ٣٥﴾ أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيِّطُونَ﴾ كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ. رواه البخاري. وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ جَاءَ فِي فِدَاءِ أَسَارَى أَهْلِ بَدْرٍ، قَالَ: فَوَافَقْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقْرَأُ فِي صَلَاةِ الْمَغْرِبِ ﴿وَالطُّورُ ١﴾ و﴿كَتَبَ مَسْطُورٌ ٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ﴾ [الطور: ١٣]، قَالَ: فَأَخَذَنِي مِنْ قِرَاءَتِهِ كَالْكَرْبِ، فَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ مَا سَمِعْتُ مِنْ أَمْرِ الْإِسْلَامِ. فَسَمِعْتُهُ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ [الطور: ٨]، وَقَدْ خَرَجَ صَوْتُهُ مِنَ الْمَسْجِدِ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ [الطور: ٨]، فَكَأَنَّمَا صُدِعَ قَلْبِي (رواه الطبراني بإسناد حسن). قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/ ٤٣٧): «وَجُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ كَانَ قَدْ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ فِي فِدَاءِ الْأَسَارَى، وَكَانَ إِذْ ذَاكَ مُشْرِكَاً، وَكَانَ سَمَاعُهُ هَذِهِ الْآيَةَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ جُمْلَةِ مَا حَمَلَهُ عَلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ ذَلِكَ».



مكية وآياتها ثنتان وستون

بين يدي السورة

* سورة النجم: مكية وهي تبحث عن موضوع الرسالة في إطارها العام، وعن موضوع الإيمان بالبعث والنشور شأن سائر السور المكية.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن موضوع «المعراج» الذي كان معجزة لرسول الإنسانية محمد بن عبد الله صلوات الله عليه، والذي رأى فيه الرسول الكريم عجائب وغرائب في ملكوت الله الواسع مما يدهش العقول ويحير الألباب، وذكرت الناس بما يجب عليهم من الإيمان والتصديق، وعدم المجادلة والمماراة في مواضع الغيب والوحي.

* ثم تلاها الحديث عن الأوثان والأصنام التي عبدها المشركون من دون الله، وبينت بطلان تلك الآلهة المزعومة، وبطلان عبادة غير الله، سواء في ذلك عبادة الأصنام أو عبادة الملائكة الكرام.

* ثم تحدثت عن الجزاء العادل يوم الدين، حيث تجزى كل نفس بما كسبت، فينال المحسن جزاء إحسانه، والمسيء جزاء إساءته، ويتفرق الناس إلى فريقين: أبرار وفجار.

* وقد ذكرت برهاناً على الجزاء العادل بأن كل إنسان ليس له إلا عمله وسعيه، وأنه لا تحمل نفس وزر أخرى، لأن العقوبة لا تتعدى غير المجرم، وهو شرع الله المستقيم، وحكمه العادل الذي بينه في القرآن العظيم، وفي الكتب السماوية السابقة.

* وذكرت السورة الكريمة آثار قدرة الله جل وعلا في الإحياء والإماتة، والبعث بعد الفناء، والإغناء والإفقار، وخلق الزوجين الذكر والأنثى من نقطة إذا تمنى.

* وختمت السورة الكريمة بما حل بالأمم الطاغية كقوم عاد، وثمود، وقوم نوح ولوط، من أنواع العذاب والدمار، تذكيراً لكفار مكة بالعذاب الذي ينتظرهم بتكذيبهم لرسول الله ﷺ، وزجراً لأهل البغي والطغيان عن الاستمرار في التمرد والعصيان.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ① مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ② وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ③ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ④ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ⑤ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ⑥ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ⑦ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ⑧ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ⑨ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ⑩ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ⑪ أَفَتَمْرُونَهُ عَلَيَّ مَا يَرَىٰ ⑫ وَلَقَدْ رَآهُ

نَزَلَهُ أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَ هَاجَتِهِ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨) أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنُوءَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذْ قَسَمَ صَبْرَى (٢٢) إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى (٢٣) أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (٢٥) * وَكَرَّمْنَا مَلَكَ فِي السَّمَوَاتِ لَا تَغْنَى شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى (٢٦) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى (٢٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنَى مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (٣٠) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ الَّذِينَ اسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمُ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى

اللغة: ﴿هَوَى﴾ هوى يهوى إذا سقط إلى أسفل ﴿مَرَقَ﴾ المَرَّة بكسر الميم القوة قال قطرب: تقول العرب لكل جزل الرأي حصيف العقل: ذو مَرَّة^(١) ﴿فَنَدَلَى﴾ التدلي: الامتداد من أعلى إلى أسفل يقال: تدلى الغصن إذا امتد نحو الأسفل ﴿قَابَ﴾ قدر قال في البحر: القاب والقاد والقيد: المقدار^(٢) ﴿صَبْرَى﴾ جائرة ماثلة عن الحق يقال: ضاز في الحكم أي جار، وضازه حقه أي بخسه قال الشاعر:

صَارَتْ بَنُو أَسَدٍ بِحُكْمِهِمْ إِذْ يَجْعَلُونَ الرَّأْسَ كَالذَّنْبِ
﴿الْمَم﴾ الصغائر من الذنوب قال الزجاج: أصل اللمم ما يعمله الإنسان المَرَّة بعد المَرَّة ولا يقيم عليه يقال: ما فعلته إلا لممًا ولمامًا ﴿أَجْنَةٌ﴾ جمع جنين وهو الولد ما دام في البطن سمي جنينًا لا ستاره.

التفسير: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ أي أقسم بالنجم وقت سقوطه من علو قال ابن عباس: أقسم سبحانه بالنجوم إذا انقضت في إثر الشياطين حين استراقها السمع^(٣) وقال الحسن: المراد في الآية النجوم إذا انتشرت يوم القيامة كقوله ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ [الإنفطار: ٢] قال ابن كثير: الخالق يُقسم بما شاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغي أن يُقسم إلا بالخالق^(٤) ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ أي ما ضلَّ محمدٌ عن طريق الهداية، ولا حاد عن نهج الاستقامة ﴿وَمَا غَوَى﴾ أي وما اعتقد باطلاً قط بل هو في غاية الهدى والرشد قال أبو السعود: والخطاب لكفار قريش، والتعبير

(١) «تفسير القرطبي» ١٧ / ٨٦.

(٢) «البحر المحيط» ٨ / ١٥٤.

(٣) هذه إحدى الروايات عن ابن عباس، وعنه أن المراد بالنجم الثريا إذا سقطت مع الفجر.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣ / ٣٩٦.

بلفظ ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ للإيدان بوقوفهم على تفاصيل أحواله، فإن طول صحبتهم له، ومشاهدتهم لمحاسن أو صافه العظيمة مقتضية ذلك ^(١) ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أي لا يتكلم ﷺ عن هوى نفسي ورأي شخصي ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ أي لا يتكلم إلا عن وحي من الله عز وجل قال البيضاوي: أي ما القرآن إلا وحي يوحيه الله إليه ^(٢) ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ أي علمه القرآن ملك شديد قواه وهو جبريل الأمين قال المفسرون: ومما يدل على شدة قوته أنه قلع قرى قوم لوط وحملها على جناحه حتى بلغ بها السماء ثم قلبها، وصاح بتمود فأصبحوا خامدين، وكان هبوطه بالوحي على الأنبياء أو صعوده في أسرع من رجع الطرف ﴿ذُومِرَ فَاَسْتَوَىٰ﴾ أي ذو حصافة في العقل، وقوة في الجسم، فاستقر جبريل على صورته الحقيقية ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ أي وهو بأفق السماء حيث تطلع الشمس جهة المشرق قال ابن عباس: المراد بالأفق الأعلى مطلع الشمس ^(٣) قال الخازن: كان جبريل يأتي رسول الله ﷺ في صورة الآدميين كما كان يأتي الأنبياء قبله، فسأله رسول الله ﷺ أن يريه نفسه على صورته التي جبل عليها فأراه نفسه مرتين: مرة في الأرض ومرة في السماء، فأما التي في الأرض فبالأفق الأعلى أي جانب المشرق حيث كان رسول الله ﷺ بحراء فطلع عليه جبريل من ناحية المشرق وفتح جناحيه فسد ما بين المشرق والمغرب، فخر رسول الله ﷺ مغشياً عليه، فنزل جبريل في صورة الآدميين فضمه إلى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه وهو قوله ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ وأما التي في السماء فعند سدرة المنتهى، ولم يره أحد من الأنبياء على صورته الملكية التي خلق عليها إلا نبينا محمد ﷺ ^(٤) ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ أي ثم اقترب جبريل من محمد وزاد في القرب منه ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي فكان منه على مقدار قوسين أو أقل قال الألوسي: والمراد إفادة شدة القرب فكانه قيل: فكان قريباً منه ^(٥) ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ أي فأوحى جبريل إلى عبد الله ورسوله

(١) «تفسير أبي السعود» ٥.

(٢) تفسير البيضاوي ٤/ ١٧١.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٨٨.

(٤) «تفسير الخازن» ٤/ ٢١٣. (ش): عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَرَ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ، أَمَّا مَرَّةٌ، فَإِنَّهُ سَأَلَهُ أَنْ يُرِيَهُ نَفْسَهُ فِي صُورَتِهِ، فَأَرَاهُ صُورَتَهُ فَسَدَّ الْأَفُقَ، وَأَمَّا الْأُخْرَى، فَإِنَّهُ صَعِدَ مَعَهُ حِينَ صَعِدَ بِهِ». وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) [النجم: ٧-١٠] قَالَ: فَلَمَّا أَحَسَّ جِبْرِيلُ رَبَّهُ، عَادَ فِي صُورَتِهِ، وَسَجَدَ، فَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨) [النجم: ١٣-١٨]، قَالَ: خَلَقَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (رواه أحمد، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح). فَلَمَّا أَحَسَّ جِبْرِيلُ رَبَّهُ: أَي: ظَهَرَ لَهُ آثَارُ تَجَلِّيهِ. عَادَ فِي صُورَتِهِ: أَي: صَارَ فِي صُورَتِهِ الْأَصْلِيَّةِ، فَلِذَلِكَ رَأَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي تِلْكَ الصُّورَةِ. وَلَمْ أَجِدْ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ جِبْرِيلَ ﷺ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى صُورَتِهِ الْمَلَكِيَّةِ الَّتِي خَلَقَ عَلَيْهَا إِلَّا نَبِيَنَا مُحَمَّدًا ﷺ.

(٥) تفسير الألوسي ٢٧/ ٤٨.

محمد ﷺ ما أوحى إليه من أوامر الله عز وجل ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ أي ما كذب قلب محمد ما رآه ببصره من صورة جبريل الحقيقية قال ابن مسعود: رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ، وَلَهُ سِتْمِائَةُ جَنَاحٍ، كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا قَدْ سَدَّ الْأَفْقَ يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِهِ مِنَ التَّهَاقُوتِ وَالذَّرِّ وَالْيَاقُوتِ مَا اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ^(١) ﴿أَفْتَمَرُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾؟ أي أفتجادلونه يا معشر المشركين على ما رأى ليلة الإسراء والمعراج؟ قال في البحر: كانت قريش حين أخبرهم ﷺ بأمره في الإسراء كذبوا واستخفوا حتى وصف لهم ﷺ بيت المقدس، والجمهور على أن المرئي مرتين هو جبريل، وعن ابن عباس وعكرمة أن الرسول ﷺ رأى ربه بعيني رأسه^(٢)، وأنكرت ذلك عائشة وقالت إنه رأى جبريل في صورته مرتين^(٣) ثم قال أبو حيان: والصحيح أن جميع ما في هذه الآيات هو مع جبريل بدليل قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ فإنه يقتضي مرة متقدمة^(٤)

- (١) أخرجه الإمام أحمد. (ش): إسناده ضعيف ومعظم فقراته ثابتة في أحاديث أخرى. (التَّهَاقُوتِ): الأشياء المختلفة الألوان. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى، لَهُ سِتْمِائَةُ جَنَاحٍ، يَنْفُضُ مِنْ رِيشِهِ التَّهَاقُوتَ وَالذَّرَّ وَالْيَاقُوتَ» (رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره»، وحسنه الألباني). وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ لَهُ سِتْمِائَةُ جَنَاحٍ. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١]، قَالَ: «رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي حُلَّةٍ مِنْ زُفْرِ، قَدْ مَلَكَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» (رواه أحمد بإسناد صحيح على شرط الشيخين) (مَنْ زُفِرَ): نوع من عالي الثياب. عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنِهَا سَأَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾. فَقَالَ: «إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عَظَمَ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). وَعَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ قُلْتُ لِعَائِشَةَ: فَأَيْنَ قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ دَفَعْنَا لَكَ﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى^(١) فَأَوْحَى إِلَيَّ عَبْدِي مَا أَوْحَى؛ قَالَتْ: إِنَّمَا ذَاكَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْتِيهِ فِي صُورَةِ الرَّجَالِ وَإِنَّهُ أَنَا فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ فِي صُورَتِهِ الَّتِي هِيَ صُورَتُهُ فَسَدَّ أَفْقَ السَّمَاءِ. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).
- (٢) (ش): لم يثبت ذلك عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بل الثابت عنه أنه قال: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ قَالَ: رَأَاهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).
- (٣) (ش): (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

- (٤) «البحر المحيط» ١٥٨/٨، أقول: ما ذكره صاحب «البحر» قوي من حيث الدلالة، ومذهب أهل السنة أن النبي ﷺ رأى ربه ليلة المعراج في السماوات العلى رؤية بصرية، ولهم أدلة من السنة النبوية، أما الآيات الكريمة فالراجح ما قاله الجمهور، والله أعلم. (ش): ثبت بالنصوص الصحيحة واتفاق سلف الأمة أنه لا يرى الله أحد في الدنيا بعينه إلا ما نازع فيه بعضهم من رؤية نبينا محمد خاصة واتفقوا على أن المؤمنين يرون الله يوم القيامة عياناً. وقد ذهب أغلب الصحابة إلى أن النبي ﷺ لم ير الله عز وجل بعينه ليلة المعراج، فقد ثبت عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ وَهُوَ يَقُولُ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ... (رواه البخاري). وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «رَأَيْتُ نُورًا». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾^(١) أَفْتَمَرُونَهُ عَلَى مَا يَرَى^(٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى^(٣) قَالَ: رَأَاهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). وقد حكى الإمام عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب «الرؤية» إجماع الصحابة على أنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم ير ربه ليلة المعراج، وبعضهم استثنى ابن عباس فيمن قال ذلك، وليس ذلك بخلاف في الحقيقة، فإن ابن عباس لم يقل رآه بعيني رأسه بل قال: رَأَاهُ بِفُؤَادِهِ. فعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا =

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ أي رأى الرسول جبريل في صورته الملكية مرة أخرى ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ أي عند سدرة المنتهى التي هي في السماء السابعة قرب العرش قال المفسرون: والسدرة شجرة التَّبَقُّ تنبع من أصلها الأنهار، وهي عن يمين العرش، وسميت سدرة المنتهى لأنه ينتهي إليها علم الخلائق وجميع الملائكة، ولا يعلم أحد ما وراءها إلا الله جل وعلا وفي الحديث «صَعِدَ بِي إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَرُفِعَتْ لِي سِدْرَةُ الْمُنْتَهَىٰ، فَإِذَا نَبْهَهَا - أي ثمرها - مِثْلُ قِلَاقٍ هَجَرَ، وَإِذَا وَرَقُهَا مِثْلُ أَذَانِ الْفِيلَةِ» ^(١) ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ أي عند سدرة المنتهى الجنة التي تأوي إليها الملائكة وأرواح الشهداء والمتقين ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ أي رآه وقت ما يغشى السدرة ما يغشى من العجائب قال الحسن: غشيتها نور رب العالمين فاستنارت. وقال ابن مسعود: غشيتها فراش من ذهب ^(٢) وفي الحديث «فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشَى تَغَيَّرَتْ فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا» ^(٣) قال المفسرون: رأى عليه السلام شجرة سدرة المنتهى وقد غشيتها سُبُحات أنوار الله عز وجل، حتى ما يستطيع أحد أن ينظر إليها، وغشيتها الملائكة أمثال الطيور يعبدون الله عندها، يجتمعون حولها مسبحين وزائرين كما يزور الناس الكعبة ^(٤) وفي الحديث «رَأَيْتُ السِّدْرَةَ يَغْشَاهَا فَرَّاشٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَرَأَيْتُ عَلَى كُلِّ وَرَقَةٍ مِنْ وَرَقِهَا مَلَكًا قَائِمًا يُسَبِّحُ اللَّهَ تَعَالَى» ^(٥) ﴿مَا رَأَى الْبَصَرُ﴾ أي ما مال بصر النبي ﷺ في المقام وفي تلك الحضرة يمينًا وشمالًا ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ أي وما جاوز الحد الذي رأى قال القرطبي: أي لم يمدَّ بصره إلى غير ما رأى من الآيات، وهذا وصف أدب النبي ﷺ في ذلك المقام إذ لم يلتفت يمينًا ولا شمالًا ^(٦) وقال الخازن: لما تجلَّى رب العزة وظهر نوره، ثبت ﷺ في ذلك

= أنكرت رؤية العين وابن عباس رضي الله عنهما أثبت رؤية الفؤاد. وقال رضي الله عنه: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ وَلَا يَبْغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقَسْطَ وَيَرْفَعُهُ يُزْفِعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحات وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ». (رواه مسلم). القسط: الميزان. سُبُحات وَجْهِهِ: نوره تعالى وجلاله وبهاؤه وعظمته وهي جمع سُبُحة فهذا النور هو - والله أعلم - النور المذكور في حديث أبي ذر رضي الله عنه «رَأَيْتُ نُورًا». وليس في الأدلة ما يقتضي أن النبي ﷺ رأى ربه بعينه، ولا ثبت ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم ولا في الكتاب والسنة ما يدل على ذلك بل النصوص الصحيحة على نفيه أدل كما تقدم. وقد قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا لَهُ حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْإِبْرَةِ. مَنْ أَيْنِنَا﴾ ولو كان قد أراه نفسه بعينه لكان ذكُر ذلك أولى، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَفْتَمَرْتُوهُ عَلَى مَا يَرَى﴾ ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾. ولو كان رآه بعينه لكان ذكُر ذلك أولى.

(١) جزء من حديث أخرجه الشيخان.

(٢) الحديث رواه مسلم.

(٣) أخرجه مسلم أيضًا.

(٤) (ش): لم يذكر المؤلف دليلاً على هذا، ومعلوم أن مثل هذا لا يقبل إلا بدليل.

(٥) «تفسير أبي السعود» ١٥٧/٥. (ش): رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف.

(٦) «تفسير القرطبي» ٩٨/١٧.

المقام العظيم الذي تحار فيه العقول، وتزلُّ فيه الأقدام، وتميل فيه الأبصار^(١) ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ أي والله لقد رأى محمد ليلة المعراج عجائب ملكوت الله، رأى سدره المنتهى، والبيت المعمور، والجنة والنار، ورأى جبريل في صورته التي يكون عليها في السموات له ستمائة جناح، ورأى رفرقاً أخضر من الجنة قد سدَّ الأفق^(٢)، وغير ذلك من الآيات العظام قال الفخر: وفي الآية دليلٌ على أن النبي ﷺ رأى ليلة المعراج آيات الله ولم ير الله كما قال البعض، ووجهه أن الله ختم قصة المعراج برؤية الآيات، وقال في الإسراء ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا﴾ [الإسراء: ١] ولو كان رأى ربه لكان ذلك أعظم ما يمكن ولأخبر تعالى به^(٣) ﴿أَفَرَأَيْتُمْ أَلَلَّتْ وَالْعُزَّىٰ﴾ ١٩ ﴿وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةِ الْآخِرَىٰ﴾ أي أخبرونا يا معشر الكفار عن هذه الآلهة التي تعبدونها «اللات والعزى ومناة» هل لها من القدرة والعظمة التي وُصف بها رب العزة شيء حتى زعمتم أنها آلهة؟ قال الخازن: هذه أسماء أصنام اتخذوها آلهة يعبدونها، واشتقوا لها أسماء من أسماء الله عزَّ وجلَّ فقالوا من الله اللات، ومن العزيز: العزَّى، وكانت اللات بالطائف، والعزَّى بغطفان وقد حطمها خالد بن الوليد، ومناة صنم لخزاعة يعبداه أهل مكة^(٤) ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ﴾؟ تويخٌ وتقريع أي ألكم يا معشر المشركين النوع المحبوب من الأولاد وهو الذكر، وله تعالى النوع المذموم بزعمكم وهو الأنثى؟ ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ أي تلك القسمة قسمة جائزة غير عادلة حيث جعلتم لربكم ما تكرهونه لأنفسكم قال الرازي: إنهم ما قالوا: لنا البنون وله البنات، وإنما نسبوا إلى الله البنات وكانوا يكرهونهن كما قال تعالى ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢] فلما نسبوا إلى الله البنات حصل من تلك النسبة قسمة جائزة^(٥) ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ أي ما هذه الأوثان إلا أسماء مجردة لا معنى تحتها لأنها لا تضر ولا تنفع، سميتوها آلهة أنتم وآباؤكم وهي مجرد تسميات ألقيت على جمادات ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي ما أنزل الله بها من حجة ولا برهان ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ أي ما يتبعون في عبادتها إلا الظنون والأوهام، وما تشتهيهم أنفسهم مما زينه لهم الشيطان ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ﴾ أي والحال أنه قد جاءهم من ربهم البيان الساطع، والبرهان القاطع على أن الأصنام ليست بآلهة، وأن العبادة لا تصلح إلا لله

(١) «تفسير الخازن» ٢١٦/٤.

(٢) رؤيته ﷺ للرفرف الأخضر الذي سد الأفق أخرجها البخاري عن ابن مسعود. (ش): ما رآه النبي ﷺ مما

ذكره المؤلف ثابت في البخاري ومسلم ومسنند أحمد وغيرهم.

(رفرقاً أخضر) ثياباً خضراً مبسوطة. (أفق السماء) أطرافها.

(٣) «التفسير الكبير» ٧/٧٤٠.

(٤) «التفسير الخازن» ٤/٢١٨.

(٥) «التفسير الكبير» ٧/٧٤٣.

الواحد القهار قال ابن الجوزي: وفيه تعجيبٌ من حالهم إذ لم يتركوا عبادتها بعد وضوح البيان^(١) ﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ أي ليس للإنسان كل ما يشتهي حتى يطمع في شفاعة الأصنام قال الصاوي: والمراد بالإنسان الكافر، وهذه الآية تجر بذيلها على من يلتجئ لغير الله طلباً للفاني، ويتبع هوى نفسه فيما تطلبه فليس له ما يشتهي، واتباعُ الهوى هو ان^(٢) ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ أي فالمُلْكُ كله لله يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، لأنه مالك الدنيا والآخرة، وليس الأمر كما يشتهي الإنسان، بل هو تعالى يعطي من اتبع هداه وترك هواه. ثم أكد هذا المعنى بقوله ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي وكثير من الملائكة الأبرار الأطهار المُنبِّئين في السموات^(٣) ﴿لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ أي إن الملائكة مع علو منزلتهم ورفعة شأنهم لا تنفع شفاعتهم أحداً إلا بإذن الله، فكيف تشفع الأصنام مع حقارتها؟! ﴿إِلَّا مَن بَعَدَ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ أي إلا من بعد أن يأذن تعالى في الشفاعة لمن يشاء من أهل التوحيد والإيمان ويرضى عنه كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَن ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨] قال ابن كثير: فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة الأصنام والأنداد عند الله تعالى؟^(٤) ثم أخبر تعالى عن ضلالات المشركين فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي لا يصدقون بالبعث والحساب ﴿لَيْسُمُونَ الْمَلَائِكَةَ سَيِّئَةَ الْأَنْثَى﴾ أي ليزعمون أنهم إناث وأنهم بناتُ الله ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي لا علم لهم بما يقولون أصلاً، لأنهم لم يشاهدوا خلق الملائكة، ولا جاءهم عن الله حجة أو برهان ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي ما يتبعون في هذه الأقوال الباطلة إلا الظنون والأوهام ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يَعْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أي وإن الظنَّ لا يجدي شيئاً، ولا يقوم أبداً مقام الحق ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَّن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أي فأعرض يا محمد عن هؤلاء المشركين الذين استنكفوا عن الإيمان والقرآن ﴿وَلَوْ يُرَدُّ إِلَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي وليس له همٌّ إلا الدنيا وما فيها من النعيم الزائل، والمتعة الفانية قال أبو السعود: والمراد النهي عن دعوة المعرض عن كلام الله وعدم الاعتناء بشأنه، فإن من أعرض عما ذكر، وانهمك في الدنيا بحيث صارت منتهى همته وقصارى سعيه، لا تزيده الدعوة إلا عناداً وإصراراً على الباطل^(٥) ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ أي ذلك نهاية علمهم وغاية إدراكهم أن أثروا الدنيا على الآخرة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن اهْتَدَى﴾ أي هو عالم بالفريقين: الضالين والمهتدين ويجازيهم بأعمالهم ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي له كل ما في الكون خلقاً وملكاً وتصرفاً ليس لأحد من ذلك شيء

(١) «تفسير ابن الجوزي» ٧٤ / ٨.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ١٣٩ / ٤.

(٣) (ش): انبث: انتشر.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٤٠١ / ٣.

(٥) «تفسير أبي السعود» ١٦٠ / ٥.

أَصْلًا ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ أي ليجازي المسيء بإساءته ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ أي وليجازي المحسن بالجنة جزاء إحسانه قال ابن الجوزي: والآية إخبار عن قدرته وسعة ملكه، وهو كلام معترض بين الآية الأولى وبين قوله ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا﴾ لأنه إذا كان أعلم بالمسيء وبالمحسن جازى كلا بما يستحقه، وإنما يقدر على مجازاة الفريقين إذا كان واسع الملك^(١).

ثم ذكر تعالى صفات المتقين المحسنين فقال ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ﴾ أي يبتعدون عن كبائر الذنوب كالشرك والقتل وأكل مال اليتيم ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ أي ويبتعدون عن الفواحش - جمع فاحشة وهي ما تنهى قبحها عقلاً وشرعاً - كالزنى ونكاح زوجة الأب لقوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّوَاجَ إِنَّمَا كَانَ فَحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢] وقوله ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢] إِلَّا اللَّهُمَّ أي إلا ما قل وصغر من الذنوب قال القرطبي: وهي الصغائر التي لا يسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله كالقابلة والغمزة والنظرة^(٢) وفي الحديث «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزَّنا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَرَنَا الْعَيْنَيْنِ النَّظْرُ، وَزَنَا اللِّسَانِ النُّطْقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهَى، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ»^(٣) فإذا اجتنب العبد كبائر الذنوب غفر الله بفضلته وكرمه الصغائر لقوله تعالى ﴿إِنْ يَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] يعني الصغائر^(٤) ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ﴾ أي هو تعالى غفار الذنوب ستار العيوب، يغفر لمن فعل ذلك ثم تاب قال ابن كثير: أي رحمته وسعت كل شيء، ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها^(٥) قال البيضاوي: ولعله عقب به وعيد المسيئين ووعد المحسنين، لئلا ييأس صاحب الكبيرة من رحمته، ولا يتوهم وجوب العقاب على الله تعالى^(٦) ﴿هُوَ أَكْثَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنْ الْأَرْضِ﴾ أي هو جل وعلا أعلم بأحوالكم منكم قبل أن يخلقكم، ومن حين أن خلق أبائكم آدم من التراب ﴿وَإِذْ أَنْتُمْ أَحْنَاءُ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ أي ومن حين أن كنتم مستترين في أرحام أمهاتكم، فهو تعالى يعلم التقي والشقي، والمؤمن والكافر، والبر والفاجر، علم ما

(١) «تفسير ابن الجوزي» ٥ / ١٦٠.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٧ / ١٠٦.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم. (ش) تَمَنَّى: تَمَنَّى.

(٤) قال الخازن: روى عن عمر وابن عباس أنهما قالاً: لا كبيرة في الإسلام ومعناه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع الإصرار، فالكبيرة تمحى بالاستغفار والتوبة، والصغيرة تصير كبيرة بالإصرار عليها. (ش) عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِابْنِ عَبَّاسٍ: «كَمْ الْكَبَائِرُ؟ أَسْبَعُ هِيَ؟»، قَالَ: «إِلَى سَبْعِمِائَةٍ أَقْرَبَ مِنْهَا إِلَى سَبْعٍ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا كَبِيرَةٌ مَعَ اسْتِغْفَارٍ، وَلَا صَغِيرَةٌ مَعَ إِصْرَارٍ» (رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره»، وإسناده صحيح).

(٥) «مختصر ابن كثير» ٣ / ٤٠٣.

(٦) «تفسير البيضاوي» ٤ / ١٧٣.

تفعلون وإلى ماذا تصيرون ﴿فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي لا تمدحوها على سبيل الإعجاب، ولا تشهدوا لها بالكمال والتقوى، فإن النفس خسيصة إذا مُدِّحَتْ اغترَّتْ وتكَبَّرَتْ قال أبو حيان: أي لا تنسبوها إلى الطهارة عن المعاصي، ولا تُثَنِّوْا عليها، فقد علم الله منكم الزكيَّ والتقوي قبل إخراجكم من صلب آدم، وقبل إخراجكم من بطون أمهاتكم ^(١) ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ أي هو تعالى العالم بمن أخلص العمل، واتقى ربه في السر والعلن.

قال الله تعالى:

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٣٢﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٣٤﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفٍ مُّوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَمْ نَزِدْ وَازِرَةً وَزِدْ أُخْرَى ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يَرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٤١﴾ وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴿٤٢﴾ إِنَّهُ هُوَ أَصْحَكَ وَأَبْكَى ﴿٤٣﴾ إِنَّهُ هُوَ آمَاتٌ وَاحِيَا ﴿٤٤﴾ إِنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٤٥﴾ مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴿٤٦﴾ وَأَنْ عَلَيْهِ النَّشْأَةُ الْآخِرَى ﴿٤٧﴾ إِنَّهُ هُوَ غَفْنٌ وَاقِنٌ ﴿٤٨﴾ إِنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴿٤٩﴾ إِنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴿٥٠﴾ وَثَمُودًا إِفَّا بَقَى ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَبْلُغَ أَكْمُلَ نَجْمِهِمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْفَى ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤَنَّفَكَةَ أَهْوَى ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَاعَشَى ﴿٥٤﴾ فَيَا أَيُّهَا رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴿٥٥﴾ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى ﴿٥٦﴾ أَزِفَتْ الْأَرْفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَعِيدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا

المناسبة: لما ذكر تعالى في الآيات السابقة سفاهات المشركين وضلالاتهم في عبادتهم للأصنام، وميّز بين المؤمنين والمجرمين، ذكر هنا نوعاً خاصاً من أهل الإجرام، وختم السورة الكريمة ببيان ما حلَّ بالمكذبيين من أنواع العذاب والدمار، تذكيراً للمشركين بانتقام الله من أعدائه المكذبيين لرسوله.

اللغة: ﴿وَأَكْدَى﴾ قطع العطاء مأخوذ من الكُدْيَةِ يقال لمن حفر بئراً ثم وجد صخرة تمنعه من إتمام الحفر: قد أكدى، ثم استعمله العرب لمن أعطى ولم يتمم، ولمن طلب شيئاً فلم يبلغ آخره قال الحطّية:

فَأَعْطَى قَلِيلًا ثُمَّ أَكْدَى عَطَاءَهُ وَمَنْ يَبْذُلُ الْمَعْرُوفَ فِي النَّاسِ يُحْمَدُ ^(٢) ﴿وَاقِنٌ﴾ أعطاه الكفاية من المال ورضاه بما أعطاه قال الجوهري: قَنِيَ الرجل يَقْنِي مثل غَنِي يَغْنِي أي أعطاه الله ما يَقْتَنِي من المال والنَّشَب ^(٣)، وأقناه الله رَضَاهُ ^(٤) ﴿الشِّعْرَى﴾ الكوكب المضيء الذي يطلع بعد الجوزاء في شدة الحر ﴿أَزِفَتْ﴾ قربت قال كعب بن زهير:

(١) «تفسير البحر المحيط» ٨ / ١٦٥.

(٢) «البحر المحيط» ٨ / ١٥٥.

(٣) (ش): النَّشَب: الْمَالُ وَالْعَقَار.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٧ / ١١٩.

بَانَ الشَّبَابُ وَهَذَا الشَّيْبُ قَدْ أَرَفَا وَلَا أَرَى لِشَبَابٍ بَائِنٍ خَلْفًا^(١)
والآزفة القيامة سميت بذلك لقربها ودُنُوها ﴿سَمِدُونَ﴾ لاهون ولا عبون، والسمودُ اللهو.
سَبَبُ التَّنْزِيلِ: روي أن «الوليد بن المغيرة» جلس عند النبي ﷺ وسمع وعظه، فتأثر قلبه
بما سمع وكاد أن يُسلم، فعيَّره رجلٌ من المشركين وقال: تركت دين آبائك وضللتهم وزعمت
أنهم في النار؟! فقال الوليد: إني خشيت عذاب الله، فضمن له الرجل إن هو أعطاه شيئاً من
ماله، ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله عزَّ وجلَّ، فأعطاه بعض الذي ضمن له ثم
بخل ومنعه الباقي فأنزل الله ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٢٣﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٢٤﴾﴾ الآية.

التفسير: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾ أي أخبرني يا محمد عن هذا الفاجر الأثيم الذي أعرض
عن الإيمان واتباع الهدى؟ ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾ أي وأعطى لصاحبه الذي عيَّره قليلاً
من المال المشروط ثم بخل بالباقي قال مجاهد: نزلت في الوليد بن المغيرة^(٢) ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمٌ
الْعَبِيءُ فَهُوَ يَرَى﴾ أي أعنده علمٌ بالأمور الغيبية حتى يعلم أن صاحبه يتحمل عنه العذاب؟
﴿أَمْ لَمْ يُبَيِّنْ لِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾ أي لم يُخبر بما في التوراة المنزلة على موسى ﴿وَابْرَاهِيمَ
الَّذِي وَفَّى﴾ أي وبما في صحف إبراهيم الذي تَمَّ ما أمَّره به من طاعة الله وتبليغ رسالته، على
وجه الكمال والتمام قال الحسن: ما أمره الله بشيء إلا وفَّى به كقوله تعالى ﴿وَإِذْ أَبَتَكَ إِزْهَقَ
رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] ﴿أَلَا نُنَزِّرُ وَازِرَةً وَنَزَّاهُ﴾ أي ألا تحمل نفسُ ذنب غيرها، ولا
يؤاخذ أحدٌ بجريرة غيره، والآية ردُّ على من زعم أنه يتحمل العذاب عن غيره كقوله تعالى
﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢] ﴿وَأَنْ لَيْسَ
لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ أي وأنه ليس للإنسان إلا عمله وسعيه قال ابن كثير: أي كما لا يُحمل
عليه وزرٌ غيره، كذلك لا يحصل له من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه^(٣) ﴿وَأَنْ سَعَاهُ سَوْفَ
يُرَى﴾ أي وأن عمله سيُعرض عليه يوم القيامة، ويراه في ميزانه قال الخازن: وفي الآية بشارة
للمؤمن، وذلك أن الله تعالى يُريه أعماله الصالحة ليفرح بها ويحزن الكافر بأعماله الفاسدة
فيزداد غمًا^(٤) ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ أي ثم يُجزى بعمله الجزاء الأتم الأكمل، وهو وعيدٌ
للكافر ووعدٌ للمؤمن ﴿وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ أي إليه جل وعلا المرجع والمآب والمصير

(١) «البحر المحيط» ٨/ ١٥٥.

(٢) «التفسير الكبير» للرازي ٧/ ٧٦٤. (ش:) ضعيف جداً، أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره». وإنما فيه أنه
«رجلٌ أسلم فلقبه بعض من عيَّره...». وما ذكره المؤلف هو في تفسير «الرازي» بدون إسناد هكذا: قَالَ بَعْضُ
الْمُفَسِّرِينَ: نَزَلَتْ الْآيَةُ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمَغِيرَةِ...

(٣) انظر سبب النزول السابق.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٠٤.

(٥) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٢٣.

فيعاقب ويُسبب.. ثم شرع تعالى في بيان آثار قدرته فقال ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ أي هو الذي خلق الفرح والحزن، والسرور والغم، فأضحك في الدنيا من أضحك، وأبكى من أبكى قال مجاهد: أضحك أهل الجنة وأبكى أهل النار^(١) ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ أي خلق الموت والحياة فهو جل وعلا القادر على الإماتة والإحياء لا غيره، ولهذا كرر الإسناد «هو» لبيان أن هذا من خصائص فعل الله ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ أي أوجد الصنفين الذكر والأنثى من أولاد آدم ومن كل حيوان قال الخازن: والغرض أنه تعالى هو القادر على إيجاد الضدين في محل واحد: الضحك والبكاء، والإحياء والإماتة، والذكر والأنثى، وهذا شيء لا يصل إليه فهم العقلاء ولا يعلمونه، وإنما هو بقدره الله تعالى وخلق لا بفعل الطبيعة، وفيه تنبيه على كمال قدرته، لأن النطفة شيء واحد خلق الله منها أعضاء مختلفة، وطباعاً متباينة، وخلق منها الذكر والأنثى، وهذا من عجيب صنعته وكمال قدرته^(٢)، ولهذا قال ﴿مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾ أي خلق الذكر والأنثى من نطفة إذا تدفقت من صلب الرجل، وصُبت في رحم المرأة ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْآخِرَى﴾ أي وأن عليه جل وعلا إعادة خلق الناس للحساب والجزاء، وإحياءهم بعد موتهم قال في البحر: لما كانت هذه النشأة ينكرها الكفار بولغ فيها بقوله تعالى ﴿عَلَيْهِ﴾ كأنه تعالى أوجب ذلك على نفسه^(٣) ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ أي أغنى من شاء^(٤)، وأفقر من شاء وقال ابن عباس: أعطى فأرضى، أغنى الإنسان ثم رَضَاهُ بما أعطاه ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعَرَى﴾ أي هو ربُّ الكوكب المضيء المسمَّى بالشعرى الذي كانوا يعبدونه قال أبو السعود: أي هو رب معبودهم وكانت خزاعة تعبدوها سنَّ لهم ذلك رجلٌ من أشرافهم هو «أبو كبشة»^(٥) ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ أي أهلك قوم عاد القدماء الذين بُعث لهم نبيُّ الله «هود» عليه السلام، وكانوا من أشد الناس وأقواهم، وأعتاهم على الله وأطغاهم، فأهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية قال البيضاوي: سميت عادًا الأولى أي القدماء لأنهم أولى الأمم هلاكًا بعد قوم نوح عليه السلام^(٦) ﴿وَتُمُودًا آخَرَى﴾ أي وثمود دمَّهم فلم يبق منهم أحدًا ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي وقوم نوح قبل عادٍ وثمود أهلكناهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ أي كانوا أظلم من الفريقين، وأشد تمردًا وطغيانًا ممن سبقهم، قال في البحر: كانوا في غاية العتو والإيذاء لنوح عليه السلام، يضربونه حتى لا يكاد يتحرك، ولا يتأثرون بشيء مما يدعوهم إليه قال قتادة: دعاهم ألف سنة

(١) «البحر المحيط» ١٦٨/٨.

(٢) «تفسير الخازن» ٤/٢٢٤.

(٣) «البحر المحيط» ١٦٨/٨.

(٤) هذا قول ابن زيد ثم قرأ: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/١٦٣.

(٦) «تفسير البيضاوي» ٤/١٧٤.

إلا خمسين عامًا، كلما هلك قرن نشأ قرن، حتى كان الرجل يأخذ بيد ابنه يتمشى به إلى نوح ليحذره منه ويقول له: يا بني إن أبي مشى بي إلى هذا وأنا مثلك يومئذٍ فيباك أن تصدقه، فموت الكبير على الكفر، وينشأ الصغير على بغض نوح^(١) ﴿وَالْمُؤْنَفَكَةُ أَهْوَى﴾ أي وقرى قوم لوط أهواها فأسقطها على الأرض بعد أن انقلبت بهم فصار عاليها سافلها، وذلك أن جبريل رفعها إلى السماء ثم أهوى بها ﴿فَغَشَّهَا مَا غَشَّى﴾^(٢) أي فغطاها من فنون العذاب ما غطى، وفيه تهويل للعذاب وتعميم لما أصابهم منه قال في البحر: والمؤنفكة هي مدائن قوم لوط، سميت بذلك لأنها انقلبت بأهلها، رفعها جبريل عليه السلام ثم أهوى بها إلى الأرض، ثم أمطرت عليهم حجارة من سجيل منضود فذلك قوله ﴿فَغَشَّهَا مَا غَشَّى﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ أي فبأي نعم الله الدالة على وحدانيته وقدرته تشكك أيها الإنسان وتكذب!! ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِرِ الْأُولَى﴾ أي هذا هو محمد رسول الله منذر كسائر الرسل ومن جنس المنذرين الأولين وقد علمتم ما حلَّ بالمكذبين ﴿أَرْفَتِ الْأَرْفَةُ﴾ أي دنت الساعة واقتربت القيامة قال القرطبي: سميت آرفة لدنوها وقرب قيامها^(٣) ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي لا يقدر على كشفها ردها إذا غشيت الخلق بأهوالها وشدائدها إلا الله تعالى ﴿أَمِنَ هَذَا الْحَدِيثَ تَعْجَبُونَ﴾؟ استفهام للتوبيخ أي أؤمن هذا القرآن تعجبون يا معشر المشركين سخرية واستهزاء؟ ﴿وَنَضْحَكُونَ وَلَا يَكُونُونَ﴾ أي وتضحكون عند سماعه، ولا تكونون من زواجره وآياته؟ وقد كان حقكم أن تبكوا الدم بدل الدمع حزنًا على ما فرطتم ﴿وَأَنْتُمْ سَمِدُونَ﴾ أي وأنتم لاهون غافلون؟ ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ أي فاسجدوا لله الذي خلقكم وأفرِدوه بالعبادة، ولا تعبدوا اللات والعزى، ومناة والشعري، فهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لا يليق السجود والعبادة إلا له جلَّ وعلا.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الإيهام للتعظيم والتهويل ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] ومثله ﴿وَأَذِغْنِي السِّدْرَةَ مَا يَغْنَى﴾ [النجم: ١٦] وكذلك ﴿فَغَشَّهَا مَا غَشَّى﴾.

٢ - الجناس ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ ... وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم: ١٣] فالأول هو بمعنى حرَّ وسقط والثاني بمعنى هوى النفس.

٣ - الطباق بين ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ وبين ﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ وبين ﴿ضَلَّ وَاهْتَدَىٰ﴾ وبين ﴿الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٢٥] وبين ﴿وَنَضْحَكُونَ وَلَا يَكُونُونَ﴾ وهي من المحسنات البديعية.

٤ - المقابلة ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ﴾ [النجم: ٣١] كما فيه

(١) «البحر المحيط» ٨ / ١٧٠.

(٢) نفس المرجع السابق والصفحة.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٧ / ١٢٢.

إطناب في تكرار لفظ (يجزي) وكلاهما من المحسنات البديعية.

٥ - الاستفهام التوبيخي مع الإِزراء بقولهم ﴿الْكُمُ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ (١١) تِلْكَ إِذَا قَسَمَةٌ صَبْرَى ﴿[النجم: ٢١-٢٢].

٦ - الجناس الناقص بين ﴿أَعْنَى... وَأَقْنَى﴾ لتغير بعض الحروف.

٧ - جناس الاشتقاق ﴿أَزَفَتِ الْأَرْفَةُ﴾.

٩ - عطف العام على الخاص ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾.

١٠ - مراعاة الفواصل ورءوس الآيات، مما له أجمل الوقع على السمع مثل ﴿أَفَرَأَيْتُمْ أَلَلَّتْ وَالْعُزَّى﴾ (١٩) وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةِ الْآخَرَى ﴿٢٠﴾ أَلْكُمُ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى ﴿[النجم: ١٩-٢٠]؟ ومثله ﴿أَفَرَأَيْتُمْ هَذَا الْحَدِيثَ تَعْبُجُونَ﴾ (٥٩) وَتَضَحَّكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَمِدُونَ﴾؟ ويسمى بالسجع.

تنبيه: كانت الأصنام التي عبدها المشركون كثيرة تقرب من ثلاثمائة وستين صنماً ومعظمها حول الكعبة وقد حطمها ﷺ عند فتحه لمكة، وأشهر هذه الأصنام «اللات، والعزى، ومناة» وقد أرسل ﷺ عام الفتح خالد بن الوليد ليحطم العزى فحطمها وهو يقول:

يَا عَزَّى كُفِّرَانِكَ لَا سُبْحَانَكَ إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكَ^(١)

وانتهت بفتح مكة عبادة الأوثان والأصنام، ودخل الناس في دين الإسلام أفواجا أفواجا.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النجم»



(١) (ش): رواه النسائي، وأبو نعيم، والبيهقي في «الدلائل» وابن أبي شيبة في «التاريخ» وابن سعد في «الطبقات». ولم تثبت في القصص التي تدور حول هدمها رواية صحيحة. [انظر: السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية، للدكتور أكرم ضياء العمري (٢/ ٤٨٤)].

سُورَةُ الْقَمَرِ

مكية وآياتها خمس وخمسون

بين يدي السورة

* سورة القمر من السور المكية، وقد عالجت أصول العقيدة الإسلامية، وهي من بدايتها إلى نهايتها حملة عنيفة مفزعة^(١) على المكذبين بآيات القرآن، وطابع السورة الخاص، هو طابع التهديد والوعيد، والإعذار والإنذار، مع صور شتى من مشاهد العذاب والدمار.

* ابتدأت السورة الكريمة بذكر تلك «المعجزة الكونية» معجزة انشقاق القمر، التي هي إحدى المعجزة العديدة لسيد البشر ﷺ، وذلك حين طلب المشركون منه معجزة جلية تدل على صدقه، وخصصوا بالذكر أن يشق لهم القمر ليشهدوا له بالرسالة، ومع ذلك عاندوا وكابروا ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ...﴾ الآيات.

* ثم انتقلت للحديث عن أهوال القيامة وشدائدها، بأسلوب مخيف يهز المشاعر هزاً، ويحرك في النفس الرعب والفرع من هول ذلك اليوم العصيب ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ ۝٦ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ۝٧ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

* وبعد الحديث عن كفار مكة، يأتي الحديث من مصارع المكذبين، وما نالهم في الدنيا من ضروب العذاب والدمار بدءاً بقوم نوح ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ...﴾.

* ثم تلاه الحديث عن الطغاة المتجبرين من الأمم السالفة، الذين كذبوا الرسل فأهلكهم الله إهلاكاً فظيعاً، ودمرهم عن بكرة أبيهم، وقد تحدثت الآيات عن قوم «عاد»، و«ثمود»، وقوم لوط، وقوم فرعون» وغيرهم من الطغاة المتجبرين بشيء من الإسهاب، مع تصوير أنواع العذاب.

* وبعد عرض هذه المشاهد الأليمة -مشاهد العذاب والنكال- الذي حل بالمكذبين لرسول الله ﷺ توجهت السورة إلى مخاطبة قريش، وحذرتهم مصرعاً كهذه المصارع بل ما هو أشد وأنكى ﴿سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ فَعَرَّ...﴾ الآيات.

(١) (ش): هذا التعبير لا يليق بكلام الله عز وجل.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَبَ السَّاعَةِ وَأَشَقَّ الْقَمَرِ ① وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ② وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ③ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ④ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرَ ⑤ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكَرٍ ⑥ خُسْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ⑦ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ⑧ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرُوا ⑨ فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ⑩ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ⑪ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فَرَّ ⑫ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسِّرُ ⑬ تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرَ ⑭ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ⑮ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِ ⑯ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ⑰ كَذَبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِ ⑱ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحِيسُ مُسْتَمِرٍّ ⑲ تَزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ⑳ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِ ㉑ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ㉒ كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ㉓ فَقَالُوا ابْشِرِ إِنَّا وَاحِدٌ نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفَى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ㉔ أَلْتَقَى الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ㉕ سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ㉖ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فَنَنَّا لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ㉗ وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلَّ شَرْبٍ مُخْضَرٌ ㉘ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ㉙ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِ ㉚ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيَّحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ ㉛ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ

اللغة: ﴿الْأَجْدَاثِ﴾ جمع جَدَث وهو القبر ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين يقال: أهطع في سيره أي أسرع ﴿مُنْهَمِرٍ﴾ انهمر الماء نزل بقوة عزيزا ﴿وَدُسِّرُ﴾ الدُّسْر: المسامير التي تشد بها السفينة جمع دِسَار ككتاب وكتب قال في الصحاح: الدُّسَار واحد الدُّسْر وهي خيوط تشد بها ألواح السفينة ويقال هي المسامير (١) ﴿مُدَكِّرٍ﴾ مُتَعِظٌ خائف وأصله مذتكر قلبت التاء دالا ثم أدمغت الذال فيها فصارت مذكر ﴿صَرْصَرًا﴾ الصرصر: الشديدة الصوت مع البرد مأخوذ من صرير الباب وهو تصويته ﴿أَعْجَازُ﴾ جمع عجز وهو مؤخر الشيء ﴿مُنْقَعِرٍ﴾ المنقرع: المنقلع من أصله يقال: فمرت الشجرة فعرا فلعتها من أصلها فانقرعت ﴿وَسُعُرٍ﴾ جنون من قولهم ناقة مسعورة كأنها من شدة نشاطها مجنونة قال الشاعر:

تَخَالُ بِهَا سُعْرًا إِذَا السُّفْرُ هَزَّهَا

﴿أَشِرُّ﴾ الأشر: البطر ورجل أشر، أي بطر أبطرته النعمة (٣).

(١) «الصحاح» مادة دسر.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٧/١٣٨.

(٣) (ش): أَشِرُ الشَّخْصِ، أَشَرًا، فَهُوَ أَشَرٌ: بَطِرٌ وَاسْتَكْبَرٌ وَمَرِحٌ وَنَشِطٌ. بَطِرُ الشَّخْصِ، بَطَرًا، فَهُوَ بَطِرٌ: طَعَى وَغَالَى =

التفسير: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ أي دنت القيامة وقد انشق القمر ﴿وَلِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا﴾ أي وإن ير كفار قريش علامة واضحة ومعجزة ساطعة، تدل على صدق محمد ﷺ يُعَرِّضُوا عن الإيمان ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ أي ويقولوا هذا سحر دائم، سحر به محمد أعيننا قال المفسرون: إن كفار مكة قالوا للرسول ﷺ: إن كانت صادقا فشق لنا القمر فرقتين، ووعدوه بالإيمان إن فعل، وكانت ليلة بدر، فسأل رسول الله ﷺ: ربّه أن يعطيه ما طلبوا، فانشق القمر: نصف على جبل الصفا، ونصف على جبل قيقعان المقابل له، حتى رأوا حراء بينهما، فقالوا: سحرنا محمد، ثم قالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم! فقال أبو جهل: اصبروا حتى تأتينا أهل البوادي فإن أخبروا بانشقاقه فهو صحيح، وإلا فقد سحر محمد أعيننا، فجاءوا فأخبروا بانشقاق القمر فقال أبو جهل والمشركون: هذا سحر مستمر أي دائم فأنزل الله ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (١) ﴿وَلِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ (٢) قال الخازن: وانشقاق القمر من آيات رسول الله ﷺ الظاهرة، ومعجزاته الباهرة، يدل عليه ما أخرجه الشيخان عن أنس «أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر مرتين» وما روي عن ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا» (٣) وما روي عن جبير بن مطعم قال: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين، فقالت قريش: سحر محمد أعيننا فقال بعضهم: لئن كان

= في مَرَجِه وزهوه واستخفافه، جاوز الحدَّ كَبْرًا. بطر النعمة: استخفها وكفرها ولم يشكرها. بطر الحق ونحوه: أنكره ولم يقبله تكبرا وطغيانا.

(١) هذا قول جمهور المفسرين وهو مروي عن ابن عباس وأنس وابن عمر، وذهب بعضهم إلى أن القمر سينشق يوم القيامة قال ابن الجوزي: وهو قول شاذ لا يقاوم الإجماع. (ش): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: هَذَا سِحْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ سَحَرَكُمْ، فَاسْأَلُوا السُّفَارَ فَسَأَلُوهُمْ فَقَالُوا: نَعَمْ قَدْ رَأَيْنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (١) وَلِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» والبيهقي في «دلائل النبوة»، وإسناده صحيح). (ابن أبي كَبْشَةَ): قِيلَ: هُوَ رَجُلٌ مِنْ خِزَاعَةَ كَانَ يَعْبُدُ الشُّعْرَى وَلَمْ يُوَافِقْهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ فِي عِبَادَتِهَا فَشَبَّهُوا النَّبِيَّ ﷺ بِهِ لِمُخَالَفَتِهِ إِيَّاهُمْ فِي دِينِهِمْ كَمَا خَالَفَهُمْ أَبُو كَبْشَةَ. وَقِيلَ: إِنَّ أَبَا كَبْشَةَ جَدُّ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ قَبْلِ أُمِّهِ. وَقِيلَ: هُوَ أَبُوهُ مِنَ الرِّضَاعَةِ. وَقِيلَ: نَسَبُهُ إِلَى نَسَبٍ لَهُ غَيْرِ نَسَبِ الْمَشْهُورِ إِذْ لَمْ يُمَكِّنْهُمُ الطُّغْنُ فِي نَسَبِ الْمَعْلُومِ الْمَشْهُورِ، وَقَدْ كَانَ وَهْبُ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ بَنَ زُهْرَةَ جَدُّهُ أَبُو أَمِيْنَةَ يُكْنَى أَبَا كَبْشَةَ. (السُّفَارُ): الْمَسَافِرِينَ. وحديث انشقاق القمر أصله في الصحيحين لكن ليس عندهما التصريح بنزول الآيات. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَقَّتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اشْهَدُوا» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وفي رواية: عَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَقَّتَيْنِ، فَسَتَرَ الْجَبَلُ فَلَقَةً، وَكَانَتْ فَلَقَةً فَوْقَ الْجَبَلِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَرِيَهُمْ آيَةً فَأَرَاهُمْ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). أَمَّا مَا يَذْكُرُهُ بَعْضُ الْقُصَّاصِ مِنْ أَنَّ الْقَمَرَ سَقَطَ إِلَى الْأَرْضِ، حَتَّى دَخَلَ فِي كُمِّ النَّبِيِّ ﷺ، وَخَرَجَ مِنَ الْكُمِّ الْآخِرِ، فَلَا أَصْلَ لَهُ، وَهُوَ كَذِبٌ مُفْتَرَى، لَيْسَ بِصَحِيحٍ.

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

سحرنا فما يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فكانوا يتلقون الركبان فيخبرونهم بأنهم قد رأوه فيكذبونهم»^(١) فهذه الأحاديث الصحيحة، قد وردت بهذه المعجزة العظيمة، مع شهادة القرآن العظيم بذلك، فإنه أدل دليل وأقوى مثبت له وإمكانه لا يشك فيه مؤمن، وقيل في معنى الآية ينشق القمر يوم القيامة، وهذا قول باطل لا يصح، وشاذ لا يثبت، لإجماع المفسرين على خلافه، ولأن الله ذكره بلفظ الماضي ﴿وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ﴾ وحمل الماضي على المستقبل بعيد^(٢) ﴿وَكَذَّبُوا وَأَتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي وكذبوا النبي ﷺ وما عاينوا من قدرة الله تعالى في انشقاق القمر، واتبعوا ما زين لهم الشيطان من الباطل ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي وكل أمر من الأمور مُتَّيِّه إلى غاية يستقر عليها لا محالة إن خيراً فخير، وإن شراً فشر قال مقاتل: لكل حديث منتهى وحقيقة ينتهي إليها وقال قتادة: إن الخير يستقر بأهل الخير، والشر يستقر بأهل الشر، وكل أمر مستقر بأهله^(٣) ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي ولقد جاء هؤلاء الكفار من أخبار الأمم الماضية المكذبين للرسول، ما فيه واعظ لهم عن التماذي في الكفر والضلال ﴿حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ﴾ أي هذا القرآن حكمة بالغة، بلغت النهاية في الهداية والبيان ﴿فَمَا تُغْنِ الْتُّذُرُ﴾ أي أي شيء تُغْنِي التُّذُرُ عمن كتب الله عليه الشقاوة، وختم على سمعه وقلبه؟! قال المفسرون: المعنى: لقد جاءهم القرآن وهو حكمة تامة قد بلغت الغاية، فماذا تنفع الإنذارات والمواعيد لقوم أصموا أذانهم عن سماع كلام الله؟ كقوله تعالى ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] ﴿فَقَوْلٌ عَنْهُمْ﴾ أي فأعرض يا محمد عن هؤلاء المجرمين وانتظرهم ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ﴾ أي يوم يدعو إسرافيل إلى شيء منكر فظيع، تنكره النفوس لشدة وهوله، وهو يوم القيامة وما فيه من البلاء والأهوال ﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ﴾ أي ذليلة أبصارهم لا يستطيعون رفعها من شدة الهول ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي يخرجون من القبور ﴿كَانَ جَرَادٌ مُّنتَبِئٌ﴾ أي كأنهم في انتشارهم وسرعة إجابتهم للداعي جرادٌ منتشر في الآفاق، لا يدرون أين يذهبون من الخوف والحيرة قال ابن الجوزي: وإنما شبههم بالجراد المنتشر، لأن الجراد لا جهة له يقصدها، فهم يخرجون من القبور فزعين ليس لأحدٍ منهم جهة يقصدها، والداعي هو إسرافيل^(٤) ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ أي مسرعين مآذٍ أعناقهم إلى الداعي لا يتلكئون ولا يتأخرون ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أي يقول الكافرون: هذا يوم صعبٌ شديد قال الخازن: وفيه إشارة إلى أن ذلك اليوم يومٌ شديد على الكافرين لا

(١) أخرجه الترمذي وغيره.

(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٢٦.

(٣) «تفسير ابن الجوزي» ٨/ ٨٩.

(٤) «تفسير ابن الجوزي» ٨/ ٩١.

على المؤمنين^(١) كقوله تعالى ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يُسِيرٍ﴾ [المدثر: ١٠].. ثم ذكر تعالى وقائع الأمم المكذبين وما حلَّ بهم من العذاب والנקال تسلياً لرسول الله ﷺ تحذيراً للكفار مكة فقال: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي كذب قبل قومك يا محمد قوم نوح ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ أي فكذبوا عبدنا نوحاً وقالوا: إنه مجنون، وانتهره وزجروه عن دعوى النبوة بالسب والتخويف والوعيد بقولهم: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْتُحَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦] قال في البحر: لم يقنعوا بتكذيبه حتى نسبوه إلى الجنون أي إنه يقول ما لا يقبله عاقل وذلك مبالغة في تكذيبهم، وإنما قال ﴿عَبْدَنَا﴾ تشريفاً له وخصوصية بالعبودية^(٢) ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ﴾ أي فدعا نوح ربه وقال: يا رب إني ضعيف عن مقاومة هؤلاء المجرمين، فانتقم لي منهم وانتصر لدينك قال أبو حيان: وإنما دعا عليهم بعدما يئس منهم وتفاقم أمرهم، وكان الواحد من قومه يخنقه إلى أن يخر مغشياً عليه وهو يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون^(٣) ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ أي فأرسلنا المطر من السماء منصباً بقوة وغزارة قال أبو السعود: وهو تمثيل لكثرة الأمطار وشدة انصباها^(٤) ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أي جعلنا الأرض كلها عيوناً متفجرة بالماء ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي فالتقى ماء السماء وماء الأرض على حالٍ قد قدرها الله في الأزل وقضاها بإهلاك المكذبين غرقاً قال قتادة: قضى عليهم في أم الكتاب إذا كفروا أن يغرقوا ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسِّرَ﴾ أي وحملنا نوحاً على السفينة ذات الألواح الخشبية العريضة المشدودة بالمسامير قال في البحر: وذات الألواح والدُّسر هي السفينة التي أنشأها نوح عليه السلام، ويفهم من هذين الوصفين أنها «السفينة» فهي صفة تقوم مقام الموصوف وتنوب عنه ونحوه: قميصي مسرودة من حديد، أي: درع، وهذا من فصيح الكلام وبديعه، ولو جمعت بين الصفة والموصوف لم يكن بالفصيح، والدُّسر: المسامير^(٥) ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي تسير على وجه الماء بحفظنا وكلاءنا وتحت رعايتنا^(٦) ﴿جَزَاءً

(١) «تفسير الخازن» ٢٢٨/٤.

(٢) «تفسير البحر المحيط» ١٧٦/٨.

(٣) «البحر المحيط» ١٧٦/٨.

(٤) «تفسير أبي السعود» ٧٨٦/٧.

(٥) «البحر المحيط» ١٧٧/٨.

(٦) (ش:) في قوله تعالى عَنْ سَفِينَةِ نُوحٍ ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ (القمر: ١٤) وَقَوْلُهُ لِمُوسَى ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (طه: ٣٩). وقوله للنبي ﷺ ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] المَعْنَى عَلَى ظَاهِرِ الْكَلَامِ وَحَقِيقَتِهِ، لَكِنْ مَا ظَاهِرُ الْكَلَامِ وَحَقِيقَتُهُ هُنَا؟ هَلْ يُقَالُ: إِنَّ ظَاهِرَهُ وَحَقِيقَتَهُ أَنَّ السَّفِينَةَ تَجْرِي فِي عَيْنِ اللَّهِ؛ أَوْ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُرَبِّي فَوْقَ عَيْنِ اللَّهِ تَعَالَى؟!! أَوْ يُقَالُ: إِنَّ ظَاهِرَهُ أَنَّ السَّفِينَةَ تَجْرِي وَعَيْنُ اللَّهِ تَرَعَاهَا وَتَكْلُوهَا، وَكَذَلِكَ تَرْبِيَهُ مُوسَى تَكُونُ عَلَى عَيْنِ اللَّهِ تَعَالَى يَرَعَاهُ وَيَكْلُوهُ بِهَا، وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْقَوْلَ الْأَوَّلَ بَاطِلٌ، وَذَلِكَ مِنْ وَجْهَيْنِ: ١- أَنَّهُ لَا يَمْتَنِضِي الْكَلَامُ بِمُقْتَضَى الْخُطَابِ الْعَرَبِيِّ، وَالْقُرْآنُ إِنَّمَا نَزَلَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: =

لَيْنَ كَانَ كُفْرًا ﴿١﴾ أَيِ أَغْرَقْنَا قَوْمَ نوحٍ انتصارًا لعبدنا نوحٍ لأنه كان قد كُذِّبَ وَجُحِدَ فضله قال الألوسي: أي فعلنا ذلك جزاء لنوح لأنه كان نعمة أنعمها الله على قومه فكفروها، وكذلك كلُّ نبي نعمة من الله تعالى على أمته ^(١) ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً﴾ أي تركنا تلك الحادثة «الطوفان» عبرة ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ أي فهل من معتبر ومتعظ؟ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ استفهام تهويل وتعجيب أي فكيف كان عذابي وإنذاري لمن كذب رسلي، ولم يتعظ بآياتي؟ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ أي والله لقد سهلنا القرآن للحفظ والتدبر والاعتاظ، لما اشتمل عليه من أنواع المواعظ والعبر ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ أي فهل من متعظ بمواعظه، معتبر بقصصه وزواجره؟ قال الخازن: وفيه الحث على تعلم القرآن والاشتغال به، لأنه قد يسره الله وسهله على من يشاء من عباده، بحيث يسهل حفظه للصغير والكبير، والعربي والعجمي قال سعيد بن جبير: يسرناه للحفظ والقراءة، وليس شيء من كتب الله تعالى يُقرأ كله ظاهرًا إلا القرآن ^(٢)، وبالجمله فقد جعل الله القرآن مهينًا ومسهلًا لمن أراد حفظه وفهمه أو الاعتاظ به، فهو رأس سعادة الدنيا والآخرة ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ أي كذبت عادٌ رسولهم هودًا فكيف كان إنذاري لهم بالعذاب؟ ثم شرع في بيان ما حل بهم من العذاب الفظيع المدمر فقال ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي أرسلنا عليهم ريحًا عاصفة باردة شديدة الهبوب والصوت قال ابن عباس: الصرصر: الشديدة البرد وقال السدي: الشديدة الصوت ^(٣) ﴿فِي يَوْمٍ نَخِصُ مُسْتَمِرٍّ﴾ أي في يوم

= ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف: ٢) وَلَا أَحَدٌ يَفْهَمُ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: فَلَانٌ يَسِيرُ بَعْنِي أَنْ الْمَعْنَى أَنَّهُ يَسِيرُ دَاخِلَ عَيْنِهِ، وَلَا مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: فَلَانٌ تَخَرَّجَ عَلَى عَيْنِي؛ أَنْ تَخَرَّجَهُ كَانَ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى عَيْنِهِ، وَلَوْ ادَّعَى مُدْعٍ أَنَّ هَذَا هُوَ ظَاهِرُ اللَّفْظِ فِي هَذَا الْخَطَابِ لَصَحَّحَ مِنْهُ السُّفَهَاءُ فَضْلًا عَنِ الْعُقَلَاءِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ: إِنَّكَ تَحْتَ عَيْنِي، وَفُلَانٌ تَخَرَّجَ مِنْ تَحْتِ يَدِي، وَفُلَانٌ يَدِي الْيُمْنَى وَ... مِمَّا مَعْنَاهُ ظَاهِرٌ مَقْهُومٌ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ. ٢- أَنَّ هَذَا مُتَّبِعٌ غَايَةِ الْاِمْتِنَاعِ، وَلَا يُمَكِّنُ لِمَنْ عَرَفَ اللَّهَ وَقَدَّرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ أَنْ يَفْهَمَهُ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ بَائِتٌ مِنْ خَلْقِهِ لَا يَحُلُ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، وَلَا هُوَ حَالٌ فِي شَيْءٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فَإِذَا تَبَيَّنَ بَطْلَانُ هَذَا مِنَ النَّاحِيَةِ اللَّفْظِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ تَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرُ الْكَلَامِ هُوَ الْقَوْلُ الثَّانِي؛ أَنَّ السَّيْفِيَّةَ تَجْرِي وَعَيْنُ اللَّهِ تَرَعَاهَا وَتَكَلُّوْهَا، وَكَذَلِكَ تَرْبِيَّةُ مُوسَى تَكُونُ عَلَى عَيْنِ اللَّهِ يَرَعَاهُ وَيَكَلُّوْهَا بِهَا، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ بَعْضِ السَّلَفِ بِمَرَأَى مِنِّي، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا كَانَ يَكَلُّوْهُ بَعْنِي لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يَرَاهُ. وَوَجْهُ كَوْنِ الْعَيْنِ هِيَ الَّتِي تَرَعَاهُ دُونَ الْوَجْهِ أَوْ الْيَدِ أَوْ.... هُوَ لِأَنَّ الْعَيْنَ تُفِيدُ الْاطَّلَاعَ وَالْمُرَاقَبَةَ وَالْإِحَاطَةَ مِمَّا يُنَاسِبُ الْحِفْظَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وفي هذه الآيات إثبات لصفة العينين لله تعالى بما يليق به، دون تشبيهه بخلقه أو تكيف لذاته، سبحانه وبحمده، كما ثبت ذلك بالسنة، وأجمع عليه سلف الأمة، فأهل السنة والجماعة يعتقدون أن الله يصير بعين، كما يعتقدون أن الله عز وجل له عينان تليقان به؛ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ [الشورى: ١١]. واللفظ الذي ورد بصيغة الجمع (بِأَعْيُنِنَا) فإنما هو للتعظيم.

(١) روح المعاني ٢٧/ ٨٣.

(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٢٨.

(٣) قال ابن كثير بعد أن نقل الأقوال: والحق أنها متصفة بجميع ذلك، فقد كانت ريحًا شديدة قوية، وكانت باردة شديدة البرد، وكانت ذات صوت مزعج. اهـ. وهذا القول هو الذي اخترناه.

مشئوم دائم الشؤم، استمر عليهم بشؤمه فلم يبق منهم أحدٌ إلا هلك فيه قال ابن كثير: استمر عليهم نحسه ودماره، لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الديوي بالأخروي ﴿تَنَزَّعُ النَّاسُ﴾ أي تقلع الريح القوم ثم ترمي بهم على رؤوسهم فتدق رقابهم وتركهم ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ أي كأنهم أصول نخل قد انقلعت من مغارسها وسقطت على الأرض، شبهوا بالنخل لطولهم وضخامة أجسامهم فتبقى أجسامهم بلا رؤوس كعجز النخلة الملقاة على الأرض^(١) ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ تهويل لما حلَّ بهم من العذاب وتعجبٌ من أمره أي كيف كان عذابي وإنذاري لهم؟ ألم يكن هائلاً فظيماً؟ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾؟ كرهه للتنبيه على فضل الله على المؤمنين بتيسير حفظ القرآن، أي: ولقد سهلنا القرآن للحفظ والفهم، فهل من متعظٍ ومعتبرٍ بزواج القرآن؟ ثم أخبر تعالى عن قوم ثمود المكذبين لرسولهم صالح عليه السلام فقال ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ أي كذبت ثمود بالإنذارات والمواعظ التي أنذرهم بها نبيهم صالح ﴿فَقَالُوا أَبَشْرًا مِمَّنَّا وَحِدًا نَنبَعُهُ﴾ أي أنتبع إنساناً مثلاً من آحاد الناس، ليس من الأشراف ولا العظماء، ونحن جماعة كثيرون؟ قال في البحر: قالوا ذلك حسداً منهم واستبعاداً أن يكون نوع البشر يفضل بعضه بعضاً هذا الفضل، فقالوا: أنكون جمعاً ونتبع واحداً منا؟ ولم يعلموا أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، ويفيض نور الهدى على من رَضِيَهُ^(٢) ﴿إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَلٌ وَسُعْرٌ﴾ أي إنا إذا اتبعناه لفي خطأ وذهابٍ عن الحق واضح، وجنون دائم قال ابن عباس: سُعْرٌ، أي: جنون من قولهم ناقة مسعورة كأنها من شدة نشاطها مجنونة^(٣) ﴿أَلْقَى الذِّكْرُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ استفهام إنكاري، أي: هل خصَّ بالوحي والرسالة وحده دوننا، وفينا من هو أكثر منه مالاً وأحسن حالاً؟ قال الإمام الفخر: وفي الآية إشارة إلى ما كانوا ينكرونه بطريق المبالغة، وذلك لأن الإلقاء إنزالٌ بسرعة، فكأنهم قالوا: الملك جسمٌ والسماء بعيدة فكيف ينزل عليه الوحي في لحظة؟ وقولهم «عليه» إنكارٌ آخر كأنهم قالوا: ما ألقى عليه ذكرٌ أصلاً، وعلى فرض نزوله فلا يكون عليه من بيننا وفينا من هو فوقه في الشرف والذكاء؟ وقولهم ﴿أَلْقَى﴾ بدلاً من قولهم «ألقى الله» إشارة إلى أن الإلقاء من السماء غير ممكن فضلاً عن أن يكون من الله تعالى^(٤) ﴿بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ﴾ أي بل هو كاذب في دعوى النبوة، متجاوز في حد الكذب، متكبرٌ بطرٍ يريد العلو علينا، وإنما وصفوه بأنه ﴿أَشْرٌ﴾ مبالغة منهم في رفض دعواه كأنهم قالوا: إنه كَذَبٌ لا ضرورةٌ وحاجةٌ إلى الخلاص كما يكذب الضعيف، وإنما تكبرٌ وطرٍ وطلب الرياسة عليكم

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٢٩.

(٢) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ١٨٠. (ش): هذا التعبير بالفيض قد يُفهم منه التوافق مع قول الفلاسفة أن النبوة فيض وليست وحيًا. والمؤلف لا يقصد ذلك طبعًا، يتضح ذلك من كلامه في مواضع كثيرة من هذا الكتاب.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٧/ ١٣٨.

(٤) «التفسير الكبير» للرازي ٧/ ٧٩٩.

وأراد أن تتبعوه فكذب على الله، فلا يلتفت إلى كلامه لأنه جمع بين رذيلتين: الكذب والتكبر، وكل منهما مانع من اتباعه، قال تعالى تهديدًا لهم وردًا لبهتانهم ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَّابِ الْأَشْرِ﴾ أي سيعلمون في الآخرة من هو الكذاب الأشر، هل هو صالح عليه السلام أم قومه المكذبون المجرمون؟ قال الألوسي: المراد سيعلمون أنهم هم الكذابون الأشرون، لكن أورد ذلك مورد الإبهام إيماءً إلى أنه مما لا يكاد يخفى ^(١) ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فَنَنَّةَ لَهُمْ﴾ أي مخرجو الناقة من الصخرة الصماء محنة لهم واختبارًا كما شاءوا وطلبوا قال ابن كثير: أخرج الله لهم ناقة عظيمة عشراء، من صخرة صماء طبق ما سألوا لتكون حجة الله عليهم في تصديق صالح عليه السلام فيما جاءهم به ^(٢) ﴿فَارْتَقِبْهُمْ وَأَصْطِرِّ﴾ أي فانظرهم وتبصر ما يصنعون وما يصنع بهم، واصبر على أذاهم فإن الله ناصرك عليهم ﴿وَبَيِّنْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي وأعلمهم أن الماء الذي يمر بواديهم مقسوم بين ثمود وبين الناقة كقوله تعالى ﴿هَٰذَا شَرْبٌ وَلَكُمُ شَرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] قال ابن عباس: إذا كان يوم شربهم لا تشرب الناقة شيئًا من الماء وتسقيهم لبنًا وكانوا في نعيم، وإذا كان يوم الناقة شربت الماء كله فلم تبق لهم شيئًا ^(٣)، وإنما قال تعالى ﴿بَيْنَهُمْ﴾ تغلييًا للعقلاء ﴿كُلُّ شَرْبٍ مُّخَضَّرٌ﴾ أي كل نصيب وحصة من الماء يحضرها من كانت نوبته، فإذا كان يوم الناقة حضرت القوم شربها، وإذا كان يومهم حضروا شربهم ﴿فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ أي فنادت قبيلة ثمود أشقى القوم واسمه «قدار بن سالف» لقتل الناقة فتناول الناقة بسيفه فقتلها غير مكترث بالأمر العظيم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ أي فكيف كان عقابي وإنذاري لهم؟ ألم يكن فظيعة شديدة؟! ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي أهلكناهم بصيحة واحدة صاح بها جبريل عليه السلام فلم تبق منه عين تطرف ^(٤) ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ أي فصاروا هشيمًا متفتتًا كيابس الشجر إذا بلي وتحطم وداسته الأقدام قال الإمام الجلال: المحتظر هو الذي يجعل لغنمه حظيرة من يابس الشجر والشوك يحفظهن فيها من الذئاب والسباع، وما سقط من ذلك فداسته فهو الهشيم ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدْكِرٍ﴾ أي يسرناه للحفظ والاتعاظ فهل من معتبر؟

قال الله تعالى:

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِي (٣٢) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةٌ مِنَّا كَذَلِكَ نَجْرِي مَنْ شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالَّذِي (٣٦) وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ

(١) روح المعاني ٢٧/ ٨٨.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤١١.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٧/ ١٤٠.

(٤) (ش): طُرِفَتِ الْعَيْنُ: تحرَّك جفناها. ما بقيت منهم عين تطرف: هلكوا جميعًا.

فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَحَهمْ بُكَرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا
الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ ﴿٤١﴾ كَذِبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَآخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقَدِّرٍ ﴿٤٢﴾
أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنصَرُونَ ﴿٤٤﴾ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ
الْدُّبَرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْجَبُونَ فِي
النَّارِ عَلَى وُجُوهِهمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْتُهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾
وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ
وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقَدِّرٍ

المناسبة: لما ذكر تعالى المكذبين من قوم «عاد وثمود» ذكر هنا قوم لوط وقوم فرعون وما حل بهم من العذاب والدمار، تذكيراً للكفار مكة بانتقام الله من أعدائه وأعداء رسله، وختم السورة الكريمة ببيان سنة الله في عقاب الكفرة المجرمين.

اللغة: ﴿حَاصِبًا﴾ الحاصب: الحجارة وقيل: هي الريح الشديدة التي تثير الحصباء وهي الحصى ﴿بَطَشْتَنَّا﴾ عقابنا الشديد ﴿الزُّبُرِ﴾ الكتب السماوية جمع زبور وهو الكتاب الإلهي ﴿أَذَى﴾ أفضع من الداهية وهي الأمر المنكر العظيم ﴿وَسُعُرٍ﴾ خسرانٍ وجنون ﴿سَقَرَ﴾ اسم من أسماء جهنم أعادنا الله منها.

سبب النزول: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: جَاءَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ يُخَاصِمُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي الْقَدَرِ فَتَنَزَّلَتْ: ﴿يَوْمَ يُسْجَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتُهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾^(١).

التفسير: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِيرِ﴾ أي كذبوا بالإنذارات التي أنذرهم بها نبيهم لوط عليه السلام ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ حَاصِبًا﴾ أي أرسلنا عليهم حجارة قذفوا بها من السماء قال ابن كثير: أمر تعالى جبريل فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عنان السماء، ثم قلبها عليهم وأرسلها وأتبع بحجارة من سجيل منضود، والحاصب هي الحجارة^(٢) ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ أي غير لوط وأتباعه المؤمنين ﴿بَجِئَتُهُمْ بِسَحَرٍ﴾ أي نجيناهم من الهلاك قبيل الصبح وقت السحر^(٣) ﴿نِعْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا﴾ أي إنعاماً منا عليهم نجيناهم من العذاب ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الكريم، نجزي من شكر نعمتنا بالإيمان والطاعة ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا﴾ أي ولقد خوفهم لوط عقوبتنا الشديدة، وانتقامنا منهم بالعذاب ﴿فَتَمَارَوْا بِالنَّذِيرِ﴾ أي فتشككوا وكذبوا بالإنذار والوعيد ﴿وَلَقَدْ رَوْدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ﴾ أي طلبوا منه أن يُسَلِّمَ لهم أضيافه وهم الملائكة ليفجروا بهم بطريق اللواطَة ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ أي أعمينا أعينهم وأزلنا أثرها حتى فقدوا

(١) أخرجه مسلم والترمذي.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٤١٢/٣.

(٣) (ش): قُبِيل: تصغير قُبَل: قبل الشيء بقليل، يقال: جاء قُبِيلُ الظُّهر، أي قبله بزمان قليل - تحطمت الطائرة قُبِيلَ المطار».

أبصارهم قال المفسرون: لما جاءت الملائكة إلى لوط في صورة شبابٍ مردِّ حسان، أضافهم لوط عليه السلام، فجاء قومه يُهرعون إليه لقصد الفاحشة بهم، فأغلق لوط دونهم الباب، فجعلوا يحاولون كسر الباب، فخرج عليهم جبريل فضرب أعينهم بطرف جناحه فانطمست أعينهم وعموا^(١) ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرٌ﴾ أي فذوقوا عذابي وإنذاري الذي أنذركم به لوط ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي جاءهم وقت الصبح عذابٌ دائم متصل بعذاب الآخرة قال الصاوي: وذلك أن جبريل قلع بلادهم فرفعها ثم قلبها بهم وأمطر عليهم حجارة من سجيل، واتصل عذاب الدنيا بعذاب الآخرة فلا يزول عنهم حتى يصلوا إلى النار^(٢) ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرٌ﴾ أي فذوقوا أيها المجرمون عذابي الأليم، وإنذاري لكم على لسان رسولي ﴿وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ أي ولقد يسرنا القرآن للحفظ والتدبير فهل من متعطيٍّ ومعتبر؟ قال المفسرون: حكمة تكرار ذلك في كل قصة، التنبيه على الاتعاظ والتدبير في أبناء الغابرين، وللإشارة إلى أن تكذيب كل رسولٍ مقتضي لنزول العذاب كما كرر قوله ﴿فَيَأْتِيْءُ الْآلَاءَ رَيْكُومًا تَكْذِبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] تقريراً للنعم المختلفة المعدودة، فكلما ذكر نعمةً وبَّخ على التكذيب بها^(٣) ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ أي جاء فرعون وقومه الإنذارات المتكررة فلم يعتبروا قال أبو السعود: صُدِّرَتْ قصتهم بالقسم المؤكد لإبراز كمال الاعتناء بشأنها، لغاية عظم ما فيها من الآيات وكثرتها، وهو ما لا قوه من العذاب^(٤)، وفرعون رأس الطغيان ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ أي كذبوا بالمعجزات التسع التي أُعطيها موسى^(٥) ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْنِدٌ﴾ أي فانتقمنا منهم بإغراقهم في البحر، وأخذناهم بالعذاب أخذ إلٍه غالب في انتقامه، قادرٍ على إهلاكهم لا يعجزه شيء.. ثم خَوَّفَ تعالى كفار مكة فقال ﴿أَكْفَاكُ كُفْرًا مِنْ أَوْلِيكُمْ﴾؟ الاستفهام إنكاري للتقريع والتوبيخ، أي: أكفاركم يا معشر العرب خيرٌ من أولئكم الكفار الذين أحللت بهم نعمتي مثل قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وقوم فرعون، حتى لا أعذبهم؟ قال القرطبي: استفهام إنكار ومعناه النفي، أي: ليس كفاركم خيراً من كفار من الأمم الذين أهلكوا بكفرهم^(٦) ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أي أم لكم كفار قريش براءة من العذاب في الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء؟ ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْصَرُونَ﴾ أي بل يقولون نحن جمعٌ كثير،

(١) انظر «تفسير الخازن» ٤/ ٢٣٠، و «تفسير الرازي» ٧/ ٨٠٨.

(٢) «حاشية الصاوي» ٤/ ١٥٠.

(٣) «انظر التفسير الكبير» للرازي ٧/ ٨١٠.

(٤) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٧٨.

(٥) قال القرطبي: المراد المعجزات الدالة على توحيد الله ونبوة موسى وهي: «العصا، واليد، والسنون، والطمس، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم».

(٦) «تفسير القرطبي» ١٧/ ١٤٥.

واثقون بكثرتنا وقوتنا، منتصرون على محمد؟ قال تعالى ردًّا عليهم ﴿سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ أي سيهزم جمع المشركين ويولون الأدبار منهزمين قال ابن الجوزي: وهذا مما أخبر الله به نبيه من علم الغيب، فكانت الهزيمة يوم بدر^(١) ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ أي ليس هذا تمام عقابهم بل القيامة موعد عذابهم ﴿وَالسَّاعَةُ أَدهَى وَأَمْرٌ﴾ أي أعظم داهيةً وأشدَّ مرارةً من القتل والأسر ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ أي إن المجرمين في حيرةٍ وتخبُّطٍ في الدنيا، وفي نيرانٍ مسعرةٍ في الآخرة قال ابن عباس: في خسرانٍ وجنون^(٢) ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ أي يوم يُجرَّون في النار على وجوههم عقابًا وإذلالًا لهم ﴿ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ﴾ أي يقال لهم: ذوقوا أيها المكذبون عذاب جهنم قال أبو السعود: وسقر علمٌ لجهنم ولذلك لم يُصرف^(٣) ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ أي إنا خلقنا كل شيءٍ مقدَّرًا مكتوبًا في اللوح المحفوظ من الأزل وما أمرنا إلاَّ وَاحِدَةً كُلِّمًا بِالْبَصْرِ أي وما شأننا في الخلق والإيجاد إلا مرة واحدة كلمح البصر في السرعة نقول للشيء: كن فيكون قال ابن كثير: أي إنما نأمر بالشيء مرة واحدة لا نحتاج إلى تأكيدٍ بثانية، فيكون ذلك موجودًا كلمح البصر لا يتأخر طرفة عين^(٤) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ أي ووالله لقد أهلكنا أشباهكم ونظراءكم في الكفر والضلال من الأمم السالفة ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ أي فهل من يتذكر ويتعظ؟ ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ أي وجميع ما فعلته الأمم المكذبة من خير وشر مكتوب عليهم، مسجل في كتب الحفظ التي بأيدي الملائكة قال ابن زيد: ﴿فِي الزُّبُرِ﴾ أي في دواوين الحفظه ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ أي وكل صغير وكبير من الأعمال مسطورٌ في اللوح المحفوظ، مُثَبَّتٌ فيه ﴿إِنَّ الْلُفَّيْنَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ﴾ أي في جنات وأنهار قال القرطبي: يعني أنهار الماء، والخمر، والعسل، واللبن ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ﴾ أي في مكانٍ مرضيٍّ، ومقامٍ حسنٍ ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ﴾ أي عند ربٍّ عظيم جليل، قادرٍ في ملكه وسلطانه، لا يعجزه شيء، وهو الله رب العالمين.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الاستعارة التمثيلية ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾ [القمر: ١١] شبه تدفق المطر من السحاب بانصباب أنهار انفتحت بها أبواب السماء، وانشق بها أديم الخضراء بطريق الاستعارة التمثيلية.
- ٢ - جناس الاشتقاق ﴿يَدْعُ الدَّاعِ﴾.

(١) «تفسير ابن الجوزي» ٨ / ١٠٠.

(٢) «روح المعاني» ٢٧ / ٩٣.

(٣) «تفسير أبي السعود» ٥ / ١٧٩. (ش): أي ممنوع من الصرف لأنه اسم علم لـ «جهنم» و«جهنم» علمٌ مؤنث، فصار مجرورًا بالفتحة نيابةً عن الكسرة لأنه مضاف إليه: ﴿سَقَرٌ﴾ وليس (سَقَرٍ).

(٤) «المختصر» ٣ / ٤١٤.

- ٣ - الكناية ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾ [القمر: ١٣] كناية عن السفينة التي تحوي الأخشاب والمسامير.
- ٤ - التشبيه المرسل والمجمل ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] ومثله ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخَضَّبِ﴾ [القمر: ٣١].
- ٥ - صيغة المبالغة ﴿بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ﴾ [القمر: ٢٥] أي كثير الكذب عظيم البطر؛ لأن (فَعَّال وفعل) للمبالغة.
- ٦ - الإطناب بتكرار اللفظ ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ لزيادة التخويف والتهويل.
- ٧ - المقابلة بين المجرمين والمتقين ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ و ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾.
- ٨ - الطباق بين ﴿صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾.
- ٩ - السجع المرصع غير المتكلف الذي يزيد في جمال اللفظ وموسيقاه، اقرأ مثلاً قوله تعالى ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ﴾ (٤٨) ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (٤٩) ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ إلخ.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القمر»





مدنية وآياتها ثمان وسبعون

بين يدي السورة

* سورة الرحمن من السور المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية، وهي كالعروس بين سائر السور الكريمة، ولهذا ورد في الحديث الشريف: «لكل شيء عروس وعروس القرآن سورة الرحمن»^(١).

* ابتدأت السورة بتعديد آلاء الله الباهرة، ونعمه الكثيرة الظاهرة على العباد، التي لا يحصيها عد، وفي مقدمتها نعمة «تعليم القرآن» بوصفه المنة الكبرى على الإنسان، تسبق في الذكر خلق الإنسان ذاته وتعليمه البيان ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝﴾.

* ثم فتحت السورة صحائف الوجود، الناطقة بآلاء الله الجليلة، وآثاره العظيمة التي لا تحصى، الشمس والقمر، والنجم والشجر، والسماء المرفوعة بلا عمد، وما فيها من عجائب القدرة وغرائب الصنعة، والأرض التي بث فيها من أنواع الفواكه، والزروع، والثمار، رزقاً للبشر ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝﴾ الآيات.

* وتحدثت السورة عن دلائل القدرة الباهرة في تسيير الأفلاك، وتسخير السفن الكبيرة تمخر عباب البحار^(٢) وكأنها الجبال الشاهقة عظمة وضخامة، وهي تجري فوق سطح الماء ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ۝﴾ الآيات.

* ثم بعد ذلك الاستعراض السريع لصفحة الكون المنظور، تطوى صفحات الوجود، وتتلشى الخلائق بأسرها، فيلفها شبح الموت الرهيب، ويطويها الفناء، ولا يبقى إلا الحي القيوم متفرداً بالبقاء ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٣٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝﴾.

* وتناولت السورة أهوال القيامة، فتحدثت عن حال الأشقياء المجرمين، وما يلاقونه من الفرع والشدائد في ذلك اليوم العصيب ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ ۝١٠٢ يَسْمِعُهُمُ الْفَوْحُ وَأَلْقَامُ ۝١٠٣﴾ الآيات.

* وبعد الحديث عن مشهد العذاب للمجرمين، تناولت السورة مشهد النعيم للمتقين في شيء من الإسهاب والتفصيل، حيث يكونون في الجنان مع الحور والولدان ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۝١٠٧﴾ الآيات.

(١) (ش): «لكل شيء عروس وعروس القرآن الرَّحْمَنُ». (رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ، وَضَعْفَهُ الْأَلْبَانِيُّ).
(٢) (ش): مَخْرَتِ السَّفِينَةُ: جرت في البحر بدفع الماء، جرت تَشَقُّ الْمَاءُ مندفعة مع إحداث صوت. عُبَابُ الْبَحْرِ: مَوْجُهُ.

* وختمت السورة بتمجيد الله جل وعلا والثناء عليه، على ما أنعم على عباده من فنون النعم والإكرام، وهو أنسب ختام لسورة الرحمن ﴿بِزَكَاةٍ يُزَكِّيهِ أَكْثَرُ﴾ وهكذا يتناسق البدء مع الختام في أروع صور البيان!

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ ① عَلَّمَ الْقُرْآنَ ② خَلَقَ الْإِنْسَانَ ③ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ④ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ⑤
وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ⑥ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ⑦ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ⑧
وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ⑨ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ⑩ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ
ذَاتُ الْأَكَامِ ⑪ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ⑫ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⑬ خَلَقَ الْإِنْسَانَ
مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ⑭ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ⑮ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⑯
رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ⑰ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⑱ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ⑲ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ⑳
فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ㉑ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ㉒ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ㉓ وَلَهُ
الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ㉔ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ㉕ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ㉖ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو
الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ㉗ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ㉘ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ㉙ فَيَأْتِي
ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ㉚ سَنَفَعُ لَكُمْ إِيَّاهُ الثَّقَلَانِ ㉛ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ㉜ يَمْشُرُ الْغَيْنَ وَالْإِنْسَ
إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ㉝ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ㉞ بُرْسُلٌ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصُرَانِ ㉟ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ㊱ فِإِذَا
أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ㊲ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ㊳ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُشْعِلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ
وَلَا جَانٌّ ㊴ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ㊵ يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ سِيمَتَهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأُقْدَامِ ㊶
فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ㊷ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ㊸ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ㊹
فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ

اللغة: ﴿حُسْبَانٍ﴾ الحُسبان بضم الحاء مصدر مثل الغفران والكفران ومعناه الحساب ﴿الْأَنَامُ﴾ الخلق وكلُّ ما دبَّ على وجه الأرض ﴿الْعَصْفُ﴾ ورق الزرع الأخضر إذا يبس ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ كل نبات طيب الريح، سمي ريحاناً لرائحته الطيبة ﴿مَّارِجٍ﴾ المارج: اللهب الذي يعلو النار قال الليث: هو الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد ^(١) ﴿الْجَوَارِ﴾ جمع جارية وهي السفينة سميت جارية لأنها تمشي على سطح الماء ﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ الجبال جمع علم وهو الجبل الطويل قال الشاعر:

إِذَا قَطَعْنَ عِلْمًا بَدَا عِلْمٌ

﴿تَفْذَرُوا﴾ النفوذ: الخروج من الشيء بسرعة ﴿شَوَاطُءٌ﴾: اللهب الذي لا دخان له ﴿كَالَّذِي هَانَ﴾ الجلد الأحمر ﴿ءَانٍ﴾: نهاية في الحرارة.

التفسير: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿أي الله الرحمن عَلَّمَ القرآن، ويسرّه للحفظ والفهم قال مقاتل: لما نزل قوله تعالى ﴿اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٦٠] قال كفار مكة: وما الرحمن؟ فأنكروه وقالوا: لا نعرف الرحمن (١) فقال تعالى ﴿الرَّحْمَنُ﴾ الذي أنكروه هو الذي ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ (٢) وقال الخازن: إن الله عَزَّ وَجَلَّ عَدَّدَ نِعَمَهُ على عباده، فَقَدَّمَ أعظمها نعمة، وأعلاها رتبة، وهو القرآن العزيز لأنه أعظم وحي الله إلى أنبيائه، وأشرفه منزلة عند أوليائه وأصفيائه، وأكثره ذكراً، وأحسنه في أبواب الدين أثراً، وهو سنام الكتب السماوية المنزلة على أفضل البرية (٣) ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ أي خلق الإنسان السميع البصير الناطق، والمراد بالإنسان الجنس ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ أي ألهمه النطق الذي يستطيع به أن يبين عن مقاصده ورغباته ويتميز به عن سائر الحيوان قال البيضاوي: والمقصودُ تعداد ما أنعم الله به على الإنسان، حثاً على شكره، وتنبهها على تقصيرهم فيه، وإنما قَدَّمَ تعليم القرآن على خلق الإنسان، لأنه أصل النعم الدينية فَقَدَّمَ الأهم (٤) ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أي الشمس والقمر يجريان بحساب معلوم في بروجهما، ويتنقلان في منازلهما لمصالح العباد قال ابن كثير: أي يجريان متعاقبين بحساب مُقَنَّسٍ لا يختلف ولا يضطرب (٥) ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ أي والنجم والشجر ينقادان للرحمن فيما يريد منهما هذا بالتنقل بالبروج وذاك بإخراج الثمار (٦) ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ أي والسماء خلقها عالية محكمة البناء رقيقة القدر والشأن، وأمر بالميزان الأخذ والإعطاء لينال الإنسان حقه وافيًا ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ أي لئلا تبخسوا في الميزان ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ أي اجعلوا الوزن مستقيماً بالعدل والإنصاف ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أي لا تطففوا الوزن ولا تُنقصوه كقوله تعالى ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١] ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ أي والأرض بسطها لأجل الخلق، ليستقروا عليها، ويتنفعوا بما خلق الله على ظهرها قال ابن كثير: أي أرساها بالجبال الشامخات لتستقر بما على وجهها من

(١) (ش): قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠].

(٢) «زاد المسير» ١٠٥/٨.

(٣) «تفسير الخازن» ٤/٢٤٦.

(٤) «حاشية زاده على البيضاوي» ٣/٤٢٧.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/٤١٥.

(٦) (ش): هذا تأويل للسجود عن حقيقته من غير دليل. وكل شيء يسجد سجوداً حقيقياً بكيفية يعلمها الله، كالتبسيع، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْجُدُ بِحَمْدِهِ. وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

الأنام وهم الخلائق، المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم في سائر أرجائها^(١) ﴿فِيهَا فَكْهَةٌ﴾ أي فيها من أنواع الفواكه المختلفة الألوان والطعوم والروائح ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ أي وفيها النخل التي يطلع فيها أوعية الثمر قال ابن كثير: أفرد النخل بالذكر لشرفه ونفعه رطباً وبأساً، والأكمام هي أوعية الطلع كما قال ابن عباس، وهو الذي يطلع فيه القنؤ، ثم ينشق عنه العنقود فيكون بُسراً ثم رطباً، ثم ينضج ويتناهى ينعه واستواؤه^(٢) ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ أي والنجم والشجر ينقادان للرحمن فيما يريده منهما، هذا بالتنقل بالبروج، وذلك بإخراج الثمار ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ أي وفيها أنواع الحب كالحنطة^(٣) والشعير وسائر ما يتغذى به، ذو التبن الذي هو غذاء الحيوان ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ أي وفيها كل مشموم طيب الريح من النبات كالورد، والفل، والياسمين وما شاكلها قال في البحر: ذكر تعالى الفاكهة أولاً ونكر لفظها لأن الانتفاع بها نفسها، ثم نثى بالنخل فذكر الأصل ولم يذكر ثمرها وهو التمر، لكثرة الانتفاع بها من ليف، وسعف، وجريد، وجذوع، وجُمار، وثمر^(٤)، ثم ذكر الحب الذي هو قوام عيش الإنسان وهو البر والشعير وكل ما له سنبل وأوراق، ووصفه بقوله ﴿ذُو الْعَصْفِ﴾ تنبيهاً على إنعامه عليهم بما يقوتهم به من الحب، وما يقوت بهائمهم من ورقه وهو التبن، وبدأ بالفاكهة وختم بالمشموم ليحصل ما به يتفكه، وما به يتقوت، وما به تقع اللذازة من الرائحة الطيبة^(٥)، ولما عدّد نعمه خاطب الإنس والجن بقوله ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ رَّبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ أي فأي نعم الله يا معشر الإنس والجن تكذبان؟ أليست نعم الله عليكم كثيرة لا تحصى؟ عن ابن عمر «أن رسول الله ﷺ قرأ سورة الرحمن على أصحابه فسكتوا، فقال: «مَا لِي أَسْمَعُ الْجَنِّ أَحْسَنَ جَوَابًا لِرَبِّهَا مِنْكُمْ؟ مَا أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ رَّبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ إِلَّا قَالُوا: لَا بَشَىءٍ مِنْ نِعْمِكَ رَبَّنَا نَكْذِبُ فَلَكَ الْحَمْدُ»^(٦).

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٤١٦/٣.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٤١٦/٣. قال. مُحَقَّقُهُ: قُنُو/ قُنُو: سُباطة، عَدَقَ بما فيه من الرُّطْبِ، وهو من النَّخْلِ كالعنقود من العنب. البُسْرُ: ثَمَرُ النَّخْلِ إِذَا تَلَوَّنَ وَلَمْ يَنْضِجْ. يَنْعُ الثَّمَرُ، يَنْعًا وَيُنْعًا: يَنْضِجُ، طَابَ وَحَانَ قِطَافُهُ. نَضِجَتِ الْفَاكِهَةُ: طَابَتْ، بَلَغَتْ مَا يَرَادُ مِنْهَا مِنْ اكْتِمَالِ الطَّرَاوَةِ وَالرَّائِحَةِ وَالطَّعْمِ وَاللَّوْنِ.

(٣) (ش): الحنطة: القمح والبر.

(٤) (ش): سَعَفٌ: جريد النخل وورقه، ورق النخل اليابس. جُمار: قلب النخل.

(٥) «البحر المحيط» ١٩٠/٨. (ش): تَفَكَّهُ الشَّخْصُ: أَكَلَ الْفَاكِهَةَ. تَفَكَّهُ بِالشَّيْءِ: تَمَتَّعَ بِهِ وَتَلَذَّذَ. تَقَوَّتْ بِالشَّيْءِ: اقْتَاتَتْ بِهِ؛ أَكَلَتْ. قَاتَ الشَّخْصُ قَوْتًا: أَطْعَمَهُ قَوْتًا يَسُدُّ الرَّمَقَ.

(٦) أخرجه الترمذي وصححه الحاكم. (ش): رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» عن ابن عمر بهذا اللفظ. والترمذي، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي وحسنه الألباني. ولفظ الترمذي: عَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الرَّحْمَنِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا فَسَكَتُوا فَقَالَ: «لَقَدْ قَرَأْتُهَا عَلَى الْجَنِّ لَيْلَةً فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُودًا مِنْكُمْ كُنْتُ كُلَّمَا أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِهِ ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ رَّبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ قَالُوا لَا بَشَىءٍ مِنْ نِعْمِكَ رَبَّنَا نَكْذِبُ فَلَكَ الْحَمْدُ».

ثم ذكر تعالى دلائل قدرته ووحدانيته فقال ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ أي خلق أباكم آدم من طين يابس يُسمع له صلصلة أي صوتٌ إذا نُقِرَ قال المفسرون: ذكر تعالى في هذه السورة أنه خلق آدم ﴿مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ وفي سورة الحجر ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] أي من طين أسود متغير، وفي الصافات ﴿مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١] أي يلتصق باليد، وفي آل عمران ﴿كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] ولا تنافي بينها، وذلك لأن الله تعالى أخذه من تراب الأرض، فعبثه بالماء فصار طيناً لازباً، أي: متلاًصقاً يلصق باليد، ثم تركه حتى صار حملاً مسنوناً، أي: طيناً أسود منتناً، ثم صورَه كما تُصور الأواني ثم أبيسه حتى صار في غاية الصلابة كالفخار إذا نُقِرَ صَوْتٌ، فالمذكور هنا آخر الأطوار ^(١) ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ﴾ أي وخلق الجن من لهب خالص لا دخان فيه من النار ^(٢) قال ابن عباس: ﴿مِنْ مَّارِجٍ﴾ أي لهب خالص لا دخان فيه وقال مجاهد: هو اللهب المختلط بسواد النار، وفي الحديث «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ» ^(٣) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله يا مشعر الإنس والجن تكذبان؟ قال أبو حيان: والتكرار في هذه الفواصل للتأكيد والتنبيه والتحريك، وقال ابن قتيبة: إن هذا التكرار إنما هو لاختلاف النعم، فكلما ذكر نعمة كرر قوله ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ^(٤) وقد ذُكرت هذه الآية إحدى وثلاثين مرة، والاستفهام فيها للتفريع والتوبيخ ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ أي هو جل وعلا ربُّ مشرق الشمس والقمر، وربُّ مغربهما، ولَمَّا ذكر الشمس والقمر في قوله ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ ذكر هنا أنه ربُّ مشرقهما ومغربهما ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله التي لا تحصى تكذبان؟ ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ أي أرسل البحر المِلْحَ والبحر العذب ^(٥) يتجاوران يلتقيان ولا يمتزجان ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ أي بينهما حاجزٌ من قدرة الله تعالى لا يطغى أحدهما على الآخر بالممازجة قال ابن كثير: والمراد بالبحرين: المِلْحَ والحلو، فالمِلْحُ هذه البحار، والحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس، وجعل الله بينهما برزخاً وهو الحاجز من الأرض لئلا يبغي هذا على هذا فيفسد كل واحد منهما الآخر ^(٦) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله تكذبان؟ ﴿يَخْرِجُ مِنْهُمَا الْمُلُوءَ وَالْمَرَجَاتُ﴾ أي يُخرج لكم من الماء اللؤلؤ والمرجان، كما يخرج من

(١) انظر «حاشية شيخ زاده على البيضاوي» ٣/ ٤٣٠ و«حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ١٥٤.

(٢) «روح المعاني» ٢٧/ ١٠٥.

(٣) أخرجه مسلم وأحمد.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ١٩٠.

(٥) (ش): مِلْحُ الماء: صار مِلْحاً، عكسه عَذْبٌ.

(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤١٧.

التراب الحب والعصف والريحان، قال الألوسي: واللؤلؤ صغار الدر، والمرجان كباره قاله ابن عباس، وعن ابن مسعود أن المرجان الخرز الأحمر^(١)، والآية بيانٌ لعجائب صنع الله حيث يخرج من الماء المالح أنواع الحلية كالدر والياقوت والمرجان، فسبحان الواحد المتأن ﴿فَيَأْتِيَهُمْ الْآلَاءُ رِيكًا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعمة من نعم الله تكذبان؟ ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ أي وله جل وعلا السفن المرفوعات الجاريات في البحر كالجبال في العظم والضخامة قال القرطبي: ﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ أي كالجبال، والعلم الجبل الطويل، فالسفن في البحر كالجبال في البر^(٢)، ووجه الامتنان بها أن الله تعالى سير هذه السفن الضخمة التي تشبه الجبال على وجه الماء، وهو جسم لطيف مائع يحمل فوقه هذه السفن الكبار المحملة بالأرزاق والمكاسب والمتاجر من قطر إلى قطر، ومن إقليم إلى إقليم قال شيخ زاده: واعلم أن أصول الأشياء أربعة: التراب، والماء والهواء، والنار، فبين تعالى بقوله ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ﴾ أن التراب أصل لمخلوق شريف مكرم، وبين قوله ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ أن النار أيضًا أصل لمخلوق آخر عجيب الشأن، وبين بقوله ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْهُ وَالْمَرَجَاتُ﴾ أن الماء أيضًا أصل لمخلوق له قدرٌ وقيمة، ثم ذكر أن الهواء له تأثير عظيم في جري السفن المشابهة للجبال فقال ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ وخص السفن بالذكر لأن جريها في البحر لا صنع للبشر فيه، هم معترفون بذلك حيث يقولون: «لك الفلك ولك الملك» وإذا خافوا الغرق دعوا الله تعالى خاصة ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا بَخَّسَهُمُ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾^(٣) [العنكبوت: ٦٥] ﴿فَيَأْتِيَهُمْ الْآلَاءُ رِيكًا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعمة من نعم الله تكذبان؟ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ أي كل من على وجه الأرض من الإنسان والحيوان هالك وسيموت ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي ويبقى ذات الله الواحد الأحد، ذو العظمة والكبرياء والإنعام والإكرام كقوله ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] قال ابن عباس: الوجه عبارة عن الله جل وعلا الباقي الدائم^(٤). قال

(١) «روح المعاني» ١٠٦/٢٧.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٦٤/١٧.

(٣) «حاشية شيخ زاده على البيضاوي» ٤٣٠/٣.

(٤) (ش): لم يذكر المؤلف المصدر الذي نقل منه قول ابن عباس عليه السلام، وقد بحثت عنه كثيرًا في كتب التفسير فلم أجده إلا في بعض التفسيرات بدون إسناد بلفظ: «الوجه عبارة عنه». انتهى. وما أظنه ثبت عنه عليه السلام، فالوارد عن ابن عباس عليه السلام إثبات الوجه لله تعالى. [انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٤/٣٥٨)، تفسير ابن كثير (٤/٢٦٢)، «تخريج أحاديث الكشاف للزبيعي» (٢/١٢٧)].

إن تأويل الوجه بالذات تأويل باطل؛ لأنه نفى لصفة ثابتة لله تعالى. والنصوص في إثبات الوجه من الكتاب والسنة لا تخص كثرة، وكلها تنفي تأويل الذين يفسرون الوجه بالجهة أو الثواب أو الذات، والذي عليه أهل الحق أن الوجه صفة غير الذات، ولا يقتضي إثباته كونه تعالى مركبًا من أعضاء، كما يقوله المجسمة، بل هو صفة لله على ما يليق به، فلا يشبه وجهًا ولا يشبهه وجه. قال الإمام ابن خزيمة: «باب ذكر إثبات وجه الله =

القرطبي: ووجه النعمة في فناء الخلق التسوية بينهم في الموت ومع الموت تستوي الأقدام، والموت سبب النقلة من دار الفناء إلى دار الثواب والجزاء^(١) ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ الرَّبِّ كَمَا تَكْذِبَانِ﴾ أي

= الَّذِي وَصَفَهُ بِالْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وَنَمَى عَنْهُ الْهَلَاكُ إِذَا أَهْلَكَ اللَّهُ مَا قَدْ قَضَى عَلَيْهِ الْهَلَاكُ مِمَّا قَدْ خَلَقَهُ اللَّهُ لِلْفَنَاءِ لَا لِلْبَقَاءِ، جَلَّ رُبُّنَا، عَنْ أَنْ يَهْلِكَ شَيْءٌ مِنْهُ مِمَّا هُوَ مِنْ صِفَاتِ ذَاتِهِ، قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وَقَالَ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] [التوحيد لابن خزيمة (١/ ٢٤)]. وَقَدْ تَضَمَّنَتْ هَاتَانِ الْآيَتَانِ إِثْبَاتَ صِفَةِ الْوَجْهِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَلَا يَصِحُّ قَوْلُ مَنْ اسْتَدَلَّ بِهِمَا عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْوَجْهِ الذَّاتُ؛ قَائِلًا: إِنَّهُ لَا خُصُوصَ لِلْوَجْهِ فِي الْبَقَاءِ وَعَدَمِ الْهَلَاكِ، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ صِفَةٌ زَائِدَةٌ عَلَى الذَّاتِ لَكَانَ الْمَعْنَى الْمُرَادُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أَنَّ ذَاتَهُ تَهْلِكُ إِلَّا وَجْهَهُ. وَالْجَوَابُ عَنْ هَذِهِ الشَّبْهَةِ مِنْ وَجْهَيْنِ: مُجْمَلٌ وَمَفْصَّلٌ: أَمَّا الْمُجْمَلُ، فَإِنَّهُ يُقَالُ: قَدْ دَلَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَإِجْمَاعُ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَثْمَتُهَا عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَجْهًا كَمَا أَنَّ لَهُ يَدَيْنِ وَسَمْعًا وَبَصَرًا وَعِلْمًا وَحَيَاةً، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ أَوْ وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَيَجِبُ إِثْبَاتُ الْوَجْهِ لِلَّهِ تَعَالَى إِثْبَاتًا بَلَا تَمَثِيلٍ وَتَنْزِيهَا بَلَا تَعْطِيلٍ؛ لِأَنَّ اللَّهَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١]؛ فَكَمَا أَنَّنَا نَثْبِتُ لِلَّهِ تَعَالَى ذَاتًا لَا تُشَبِّهُ الذُّوَاتِ، فَكَذَلِكَ نَثْبِتُ لِلَّهِ تَعَالَى وَجْهًا لَا شَبِيهَ لَهُ وَلَا نَظِيرَ. وَأَمَّا الْجَوَابُ الْمَفْصَّلُ؛ فَمِنْ وَجْهٍ:

- ١- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ قَالَ «أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ». (رواه أبو داود، وصححه الألباني). فَقَوْلُهُ ﷺ: «وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ»: دَلِيلٌ عَلَى إِثْبَاتِ الْوَجْهِ لِلَّهِ تَعَالَى. وَفِي هَذَا رَدٌّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْوَجْهَ هُوَ الذَّاتُ؛ فَالْجَنَابُ ﷺ اسْتَعَاذَ أَوَّلًا بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، ثُمَّ اسْتَعَاذَ ثَانِيًا بِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَالْعَطْفُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْوَجْهَ غَيْرُ الذَّاتِ.
- ٢- إِنَّمَا لَوْ سَلَّمْنَا أَنَّ الْمُرَادَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾؛ أَيُّ: إِلَّا ذَاتَهُ، أَوْ: إِلَّا هُوَ، لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى نَفْيِ الْوَجْهِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّ النُّصُوصَ كَثِيرَةً فِي إِثْبَاتِ الْوَجْهِ لِلَّهِ تَعَالَى.
- ٣- إِنْ تَأَوَّلَ الْوَجْهَ بِالذَّاتِ بَاطِلٌ؛ لِأَنَّهُ أَضَافَ الْوَجْهَ إِلَى نَفْسِهِ فَقَالَ: ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾ وَالْمُضَافُ لَيْسَ كَالْمُضَافِ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ لَا يُضَافُ إِلَى نَفْسِهِ. فَقَدْ وَرَدَ الْوَجْهَ مُضَافًا إِلَى الذَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ وَأَضَافَ النِّعْتَ إِلَى الْوَجْهِ فِي قَوْلِ الْحَقِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْجَلَالَ وَالْإِكْرَامَ مِنْ صِفَاتِ الْوَجْهِ وَأَنَّ الْوَجْهَ مِنْ صِفَةِ الذَّاتِ اللَّائِقَةِ بِجَلَالِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَظَمَتِهِ فِإِضَافَتِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ إِضَافَةِ الصِّفَةِ إِلَى مَوْصُوفِهَا.
- ٤- إِنْ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ دَلَالَةٌ أَنَّ وَجْهَ اللَّهِ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ، صِفَاتِ الذَّاتِ، لَا أَنَّ وَجْهَ اللَّهِ هُوَ اللَّهُ؛ لِأَنَّ وَجْهَ اللَّهِ لَوْ كَانَ هُوَ اللَّهُ لَقُرِئَ: (وَبَقِيَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ)! فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (١٦) ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أَضَافَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْوَجْهَ إِلَى الذَّاتِ ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾، ثُمَّ وَجْهَ النَّعْتِ ﴿ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ إِلَى الْوَجْهِ. وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ هَؤُلَاءِ الْمُؤَوَّلُونَ مِنْ أَنَّ الْوَجْهَ هُوَ الذَّاتُ لَقَالَ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ فَتَكُونُ وَصْفًا لِكَلِمَةِ ﴿رَبِّكَ﴾ إِلَّا أَنَّ رَفْعَهُ لِكَلِمَةِ ﴿ذُو﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ نَعْتُ لِلْوَجْهِ وَأَنَّ الْوَجْهَ صِفَةُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ فَأَضَافَ الْوَجْهَ إِلَى الذَّاتِ ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾، وَأَضَافَ النَّعْتَ إِلَى الْوَجْهِ، فَقَالَ ﴿ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ فَلَمَّا قَالَ: ﴿ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ عَلِمْنَا أَنَّهُ نَعْتُ لِلْوَجْهِ، وَهُوَ صِفَةٌ لِلذَّاتِ. وَقَدْ ذَكَرَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ أَنَّ النَّعْتَ فِي آيَةِ الْوَجْهِ فَقَالَ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٧/ ٤٩٤): «وَقَدْ نَعَتْ تَعَالَى وَجْهَهُ الْكَرِيمَ فِي هَذِهِ آيَةِ الْكَرِيمَةِ بِأَنَّهُ ﴿ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أَيُّ: هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُجَلَّ فَلَا يُعْصَى، وَأَنْ يُطَاعَ فَلَا يُخَالَفُ».

فبأي نعمة من نعم الله تكذبان ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي يفتقر إليه تعالى من السموات والأرض، ويطلبون منه العون والرزق بلسان المقال أو بلسان الحال ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ أي كل ساعة ولحظة هو تعالى في شأن من شئون الخلق، يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين قال المفسرون: هي شئون يُبديها ولا يَتَبديها أي يُظهرها للخلق ولا يُنشيئها من جديد لأن القلم جَفَّ على ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة، فهو تعالى يرفع من يشاء ويضع من يشاء، ويشفي سقيماً ويُمِرِّض سليماً، ويعز ذليلاً ويذل عزيزاً، ويفقر غنياً ويغني فقيراً قال مقاتل: إن الآية نزلت في اليهود قالوا: إن الله تعالى لا يقضي يوم السبت شيئاً، فردَّ الله عليهم بذلك ^(١) ﴿فَيَأْتِيَهُمْ آيَ الْكِتَابِ﴾ أي فبأي نعم الله الجليلة تكذبان أيها الإنس والجن؟ ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ أي سنحاسبكم على أعمالكم يا معشر الإنس والجن قال ابن عباس: هذا وعيد من الله تعالى للعباد، وليس بالله تعالى شغل وهو فارغ ^(٢) قال في البحر: أي ننظر في أموركم يوم القيامة، لا أنه تعالى كان له شغل فيفرغ فيه، وجرى هذا على كلام العرب يقول الرجل لمن يتهدده: سأفرغ لك، أي: سأتجرد للانتقام منك من كل ما شغلني ^(٣) وقال البيضاوي: أي ستتجرد لحسابكم جزائكم يوم القيامة، وفيه تهديد مستعار من قولك لمن تهدده: سأفرغ لك، فإن المتجرد للشيء يكون أقوى عليه، وأجد فيه، والثقلان: الإنس والجن سُمِّيَا بذلك لثقلهما على الأرض ^(٤) ﴿فَيَأْتِيَهُمْ آيَ الْكِتَابِ﴾ تقدم تفسيره ﴿يَمْعَسَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا﴾ أي إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هاربين من الله، فارين من قضائه فاخرجوا منها، وخلصوا أنفسكم من عقابه، والأمر للتعجيز ﴿لَا تَنْفُذُوا إِلَّا بِأَسْطِنِ﴾ أي لا تقدر أن تخرجوا إلا بقوة وقهر وغلبة، وأتَى لكم ذلك؟ قال ابن كثير: معنى الآية أنكم لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره، بل هو محيط بكم لا تقدر أن تخلصوا من حكمه، أينما ذهبتم أحيط بكم، وهذا في مقام الحشر حيث الملائكة مُحَدِّقَةٌ بالخلائق سبعة صفوف من كل جانب، فلا يقدر أحد على الذهاب إلا بسلطان أي إلا بأمر الله وإرادته ^(٥) ﴿يَقُولُ الْإِنْسُ يَوْمَئِذٍ أَلَمْ أَقُلْ﴾ [القيامة: ١٠]؟ ^(٦)

(١) تفسير الألوسي ٢٧ / ١١١. (ش): ذكره الألوسي بدون إسناد. وإن ثبت عنه فمقاتل مُتَّهِم بالكذب، وهناك انقطاع بينه وبين النبي ﷺ فمقاتل توفي بعد عام ١٥٠ هـ.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٤١٩ / ٣. (ش): فَإِنْ سُبْحَانَهُ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ وَلَا يَسْأَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ، قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: إن هذا وعيد، وليس المعنى أن الله عز وجل مشغول الآن، وسيخلفه الفراغ فيما بعد. [القول المفيد على كتاب التوحيد (٢ / ٣١٨)].

(٣) «البحر المحيط» ٨ / ١٩٤.

(٤) «تفسير البيضاوي» ٣ / ٤٣٢.

(٥) (ش): أَحَدَقَ بِهِ: أَحَاطَ بِهِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ.

(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣ / ٤١٩.

وهذا إنما يكون في القيامة لا في الدنيا بدليل قوله تعالى بعده ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاْطُ مِّنْ نَّارٍ﴾^(١) ﴿فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ تقدم تفسيره ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاْطُ مِّنْ نَّارٍ﴾ أي يرسل عليكما يوم القيامة لهب النار الحامية ﴿وَنُحَّاسٌ﴾ أي ونحاسٌ مذاب يصبُّ فوق رؤوسكم قال مجاهد: هو الصُّفْرُ المعروف يصب على رؤوسهم يوم القيامة^(٢) وقال ابن عباس: ﴿وَنُحَّاسٌ﴾ هو الدخان الذي لا لهب فيه، وقول مجاهد أظهر ﴿فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ أي فلا ينصر بعضكم بعضاً، ولا يخلصه من عذاب الله قال ابن كثير: ومعنى الآية لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكة وزبانية جهنم، بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا فلا تجدون لكم ناصرًا^(٣) ﴿فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ أي فإذا انصدعت يوم القيامة لتُنزل الملائكة منها لتحيط بالخلائق من كل جانب ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ أي فكانت مثل الورد الأحمر من حرارة النار، ومثل الأديم الأحمر أي الجلد الأحمر قاله ابن عباس: وذلك من شدة الهول، ومن رهبة ذلك اليوم العظيم ﴿فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿فَيَوْمَذِي يُنْفَخُ عَنْ ذِيهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ أي ففي ذلك اليوم الرهيب يوم تنشق السماء، لا يُسأل أحد من المذنبين من الإنس والجن عن ذنبه، لأن للمذنب علامات تدل على ذنبه كاسوداد الوجوه، وزرقة العيون قال الإمام الفخر: لا يُسأل أحد عن ذنبه فلا يقال له: أنت المذنب أو غيرك؟ ولا يقال: من المذنب منكم؟ بل يعرفون بسواد وجوههم وغيره^(٤) ﴿فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ سِيمَتَهُمْ﴾ أي يُعرف يوم القيامة أهل الإجمام بعلامات تظهر عليهم وهي ما يغشاهم من الكآبة والحزن قال الحسن: سواد الوجه وزرقة الأعين كقوله تعالى ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢] وقوله ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ

(١) جنح بعض المتأخرين في هذه إلى تفسير الآية تفسيراً خطأ فزعوا أن الإنسان يُمكنه الصعود إلى السماوات وإلى الكواكب وفسروا «السلطان» بالعلم وهو مخالف لأقول المفسرين، ويردُّه سياق الآية وسباقها، فإن الآية سبقت لبيان أهوال الآخرة وشدائدها بدليل قوله تعالى قبلها: ﴿سَفَرُّكُمْ لَكُمْ أَنَّهُ الْفَقْلَانِ﴾ وقوله بعدها: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاْطُ مِّنْ نَّارٍ وَنُحَّاسٌ﴾ وقد اتفق المفسرون على أنها في الآخرة، ونحن لانستنكر إمكان وصول الإنسان بالصواريخ والمخترعات الحديثة. إلى القمر أو بعض الكواكب، فإن ذلك مقدور الإنسان ويستطيع بواسطة العلم أن يدور حول الأرض ويعلو في الأجواء ولكنه لا يستطيع أن يصل إلى السماء، فقد جعلها الله سقفاً محفوظاً، أما القمر وسائر الكواكب فهي دون السماء الدنيا ويمكن الوصول إليها. ولكننا نستنكر ونتعجب ممن يتهجم على القرآن بدون علم ولا فهم، ويقول في كتاب الله برأيه دون الرجوع إلى أقوال المفسرين المعتمدين، وانظر ما كتبناه في مجلة رابطة العالم الإسلامي سنة ١٣٨٧ حول الوصول إلى القمر. (ش): نفهم الكلمة أو الجملة من السياق (ما قبلها من الكلام) و السياق (ما حولها) و اللحاق (ما بعدها).

(٢) (ش): الصُّفْرُ: خليط من النُّحاس والزُّنك (الخارصين) ويُسمَّى النُّحاس الأصفر.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٤١٩/٣.

(٤) «التفسير الكبير» للرازي ١١٨/٢٩.

وَسَوْدُ وُجُوهُ^(١) [آل عمران: ١٠٦] ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ أي فتأخذ الملائكة بنواصيهم، أي: بشعور مقدم رؤوسهم وأقدامهم فيقذفونهم في جهنم قال ابن عباس: يُؤْخَذُ بناصية المجرم وقدميه فيكسر كما يكسر الحطب ثم يلقى في النار ﴿فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكْذَبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي يقال لهم تقريباً وتوبيخاً: هذه النار التي أُخْبِرْتُمْ بها فكذبتُم قال ابن كثير: أي هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها، ها هي حاضرة تشاهدونها عياناً^(٢) ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ﴾ أي يترددون بين نار جهنم وبين ماءٍ حار بلغ النهاية في الحرارة قال قتادة: يطوفون مرةً بين الحميم، ومرة بين الجحيم، والجحيم النار، والحميم الشراب الذي انتهى حره ﴿فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله تكذبان يا معشر الإنس والجان؟

قال الله تعالى:

وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ ﴿٤٦﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَكِبِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَرْقٍ وَحَىٰ الْحَنَنَيْنِ دَانِ ﴿٥٤﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَصِيرَتُ الطَّرَفِ لَمْ يَطْمِئُنَّ إِسْ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴿٥٦﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَتٌ حَسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَقْصُورَتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِئُنَّ إِسْ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴿٧٤﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَكِبِينَ عَلَى رَقَرٍ خَضِرٍ وَعَبَقَرٍ حَسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٧٧﴾ نَبْرَكَ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ

المناسبة: لما ذكر تعالى أحوال أهل النار، ذكر ما أعدّه للمؤمنين الأبرار من الجنات والولدان والهور الحسان، ليميز الفارق الهائل بين منازل المجرمين ومراتب المتقين، على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب.

اللغة: ﴿أَفْنَانٍ﴾ جمع فَنَن وهو الغُصْن قال الشاعر يصف حمامة:

رُبَّ وَرْقَاءَ هَتُوفٍ فِي الضُّحَى ذَاتِ شَدُو صَدَحَتْ فِي فَنَنِ
ذَكَرَتْ إِلْفًا وَدَهْرًا خَالِيَا فَبَكَتْ شَوْقًا فَهَاجَتْ حَزْنِي^(٣)

(١) «تفسير القرطبي» ١٧ / ١٧٥.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣ / ٤٢١.

(٣) (ش): هَتَفَ الشَّخْصُ: صاح مادًّا صوته، يُقَالُ: هَتَفَتِ الحمامةُ. هَتُوفٌ: هَتَافٌ: صيغة مبالغة من هَتَفَ، كثير الصياح والنواح (يستوي فيها المذكر والمؤنث) يُقَالُ رجل هتوف وحمامة هتوف. شَدُو: غناء. صَدَحَ الطَّائِرُ: =

﴿وَاسْتَرْقِيَ﴾ ما غُلِظَ من الديباج وخُشِنَ ﴿وَحَنَى﴾ الجنى: ما يُحْتَنَى من الشجر ويُقَطَفَ ﴿يَطْمِئُنُّ﴾ الطمئُ: الجماع المؤدي إلى خروج دم البكر ثم أُطْلِقَ على كل جماع، ومعنى ﴿لَمْ يَطْمِئُنُّ﴾ أي لم يصبهن بالجماع قبل أزواجهن أحد قال الفراء: الطمئ الافتضاض وهو النكاح بالتدمية^(١) ﴿مُدَّاهِمَتَانِ﴾ سوداوان من شدة الخضرة، والدهمة في اللغة السواد ﴿ضَاخَتَانِ﴾ فَوَارَتَانِ بالماء لا تنقطعان ﴿وَعَبْقَرِيٌّ﴾ طنافس جمع، عبقرية أي طنفسة ثخينة فيها أنواع النقوش^(٢) قال الفراء: العبقرى الطنافس الثخان منها وقال أبو عبيد: كل ثوب وشي عند العرب فهو عبقرى منسوب إلى أرض يعمل فيها الوشي^(٣) قال ذو الرمة:

حَتَّى كَأَنَّ رِيَاضَ الْقُفِّ أَلْبَسَهَا مِنْ وَشْيٍ عَبَقَرٌ تَجْلِيلٌ وَتَنْجِيدٌ^(٤)

التفسير: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ أي وللعبد الذي يخاف قيامه بين يدي ربه للحساب^(٥) جنتان: جنة لسكنه، وجنة لأزواجه وخدمة، كما هي حال ملوك الدنيا حيث يكون له قصر ولأزواجه قصر^(٦) قال القرطبي: وإنما كانتا اثنتين ليضاعف له السرور بالتنقل من وجهة إلى جهة وقال الزمخشري: جنة لفعل الطاعات، وجنة لترك المعاصي وفي الحديث «جَنَّاتٍ مِنْ فَضَّةٍ، أُنْتُهَمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّاتٍ مِنْ ذَهَبٍ أُنْتُهَمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءَ الْكَبِيرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةٍ عَدْنٍ»^(٧) ﴿فَيَأْتِيَهُمْ الْآلَاءُ رِيكًا تُكَذِّبَانِ﴾ ثم وصف تعالى

= صاح، غَرَّدَ ورفع صَوْتَهُ فأطرب. أَلْف: صديق ودود، حبيب، أنيس. فَبَكَتْ شَوْقًا فَهَاجَتْ حَزَنِي: أي إن بكاءها أثار في نفسه الحزن، يقال: حَزِنَ الرَّجُلُ حَزْنًا وَحُزْنًا: اغْتَمَّ.

(١) «تفسير القرطبي» ١٧ / ١٨.

(٢) (ش): الطَّنْفَسَةُ: البساط.

(٣) (ش): وشى / وشى الثوب ونحوه: زخرفه، حَسَّنَهُ بالألوان ونقشه. والوشى: التطريز، والنقش يكون في الثوب ونحوه.

(٤) «البحر المحيط» ٨ / ١٨٦. (ش): القُفُّ ما ارتفع من الأرض وصلبت حجارته. جَلَّلَ الشيء تجليلًا: غَطَّاه، كساه بغطاء. التَّنْجِدُ: ما يُنْجَدُ به البيت من المتاع، أي يزيّن؛ والجمع نُجُودٌ. والتَّنْجِيدُ: التزيين. والشاعر يشبه الزهر في هذا المكان المرتفع في اختلاف ألوانه بوشى مصنوع في عبقر، ويشبهه بنجود البيت التي يُكسى بها وَيُزَيَّن.

(٥) (ش): قال المؤلف في تفسير سورة النازعات: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي وأما من خاف عظمة ربه وجلاله، وخاف مقامه بين يدي ربه يوم الحساب، لعلمه ويقينه بالمبدأ والمعاد.

(٦) قال الفخر الرازي: «لما قال تعالى في حق المجرم: إنه يطوف بين نار، وبين حميم آن، قال في حق المؤمن الخائف: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ وقد ذكر تعالى الجنة، والجنتين، والجنات فقال: ﴿إِنَّ اللَّائِقِينَ فِي جَنَّاتٍ﴾ وقال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾ فهي لا تُصَالِ أشجارها ومسكنها وعدم وقوع الفاصل بينها كمهايمه وقفار صارت كجنة واحدة ولسعته وتنوع أشجارها وكثرة مساكنها كأنها جنات، ولا شتمالها على ما تلتذ به الروح والجسم كأنها جنتان» انتهى من «التفسير الكبير» ٢٩ / ١٢٣. (ش): مَهْمُهُ، وَمَهْمُهُ: مفازة بعيدة لا ماء بها ولا أنيس، وَالْجَمْعُ مَهَايمُهُ. القفر: الخلاء من الأرض لا ماء فيه ولا ناس، وَالْجَمْعُ قِفَار.

(٧) أخرجه البخاري. (ش): رواه البخاري ومسلم.

الجنتين فقال ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ أي ذواتا أغصان متفرعة وثمار متنوعة قال في البحر: وخصّ الأفنان وهي الغصون بالذكر لأنها لا تُورق وتُثمر، ومنها تمتد الظلال وتُجنى الثمار ﴿فَيَأْتِي ٱلْآءَ رِيكْمًا يُكْدَبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله الجليلة تكذبان يا معشر الإنس والجن ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ أي في كل واحدة من الجنتين عين جارية، تجري بالماء الزلال كقوله تعالى ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ [الغاشية: ١٢] قال ابن كثير: أي تسرحان لسقي تلك الأشجار والأغصان، فتثمر من جميع الألوان^(١) قال الحسن: تجريان بالماء الزلال^(٢) إحداهما التسنيم، والأخرى السلسيل ﴿فَيَأْتِي ٱلْآءَ رِيكْمًا يُكْدَبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ أي فيهما من جميع أنواع الفواكه والثمار صنفان: معروف، وغريب لم يعرفه في الدنيا قال ابن عباس: ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل، إلا أنه حلو، وليس في الدنيا مما في الآخرة إلا لأسماء ﴿فَيَأْتِي ٱلْآءَ رِيكْمًا يُكْدَبَانِ﴾ تقدم تفسيره قال الفخر الرازي: إن قوله تعالى ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ و ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ و ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ كلها أوصاف للجنتين المذكورتين، وإنما فصل بين الأغصان والفواكه بذكر العينين الجاريتين على عادة المتنعمين، فإنهم إذا دخلوا البستان لا يبادرون إلى أكل الثمار، بل يقدمون التفرج على الأكل، مع أن الإنسان في بستان الدنيا لا يأكل حتى يجوع ويشتهي شهوة شديدة فكيف في الجنة! فذكر تعالى ما يتم به النزهة وهو خضرة الأشجار، وجريان الأنهار، ثم ذكر ما يكون بعد النزهة وهو أكل الثمار، فسبحان من يأتي بالآيات بأحسن المعاني في أيّين المباني^(٣) ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ أي مضطجعين في جنان الخلد على فرش وثيرة بطائنهما من ديباج وهو الحرير السميك المزين بالذهب، وهذا يدل على نهاية شرفها لأن البطانة إذا كانت بهذا الوصف فما بالك بالظاهرة؟ قال ابن مسعود: هذه البطائن فكيف لو رأيتكم الطواهر؟ وقال ابن عباس: لما سئل عن الآية: ذلك مما قال الله تعالى ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]^(٤) ﴿وَحَتَّىٰ الْجَنَّةَيْنِ دَانٍ﴾ أي ثمرها قريب يناله القاعد والقائم والنائم، بخلاف ثمار الدنيا فإنها لا تنال إلا بكدٍ وتعب قال ابن عباس: تدنو الشجرة حتى يجتنينها وليّ الله إن شاء قائمًا، وإن شاء قاعدًا، وإن شاء مضطجعًا^(٥) ﴿فَيَأْتِي ٱلْآءَ رِيكْمًا يُكْدَبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الطَّرَفِ﴾ أي في تلك الجنان نساء قاصرات الطرف قصرن أعينهن على أزواجهن فلا يَرَيْنَ غيرهم،

(١) «مختصر ابن كثير» ٣ / ٤٢٢.

(٢) (ش): زلال: ماء عذب بارد صافٍ سهل المرور في الحلق. والزلال: الصافي من كل شيء، يقال: ذهب زلال / فضة زلال.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٩ / ١٢٥.

(٤) «روح المعاني» ٢٧ / ١١٨.

(٥) «تفسير الخازن» ٤ / ١٠.

كما هو حال المخدَّرات العفائف^(١) ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْفُسُ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ أي لم يمسهنَّ ولم يجامعن أحدٌ قبل أزواجهنَّ لا من الإنس ولا من الجن، بل هنَّ أبكار عذارى قال الألوسي: وأصل الطمث خروج الدم ولذلك يقال للحيض: طمثٌ، ثم أطلق على جماع الأبكار لما فيه من خروج الدم، ثم على كل جماع وإن لم يكن فيه خروج دم^(٢) ﴿فَيَأْتِيءَ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله الجليلة تكذبان يا معشر الإنس والجن ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ أي كأنهن يشبهن الياقوت والمرجان في صفائهنَّ وحُمَرتهن قال قتادة: كأنهن في صفاء الياقوت وحمرة المرجان، لو أدخلت في الياقوت سلكًا ثم نظرت إليه لرأيتَه من ورائه^(٣) وفي الحديث: «إِنَّ الْمَرْأَةَ مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيَرَى بَيَاضَ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ سَبْعِينَ حُلَّةً حَتَّى يَرَى مُخْجَهَا»^(٤) ﴿فَيَأْتِيءَ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ أي ما جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يُحسن إليه في الآخرة قال أبو السعود: أي ما جزاء الإحسان في العمل، إلا الإحسان في الثواب^(٥) والغرض أن من قدم المعروف والإحسان استحق الإنعام والإكرام ﴿فَيَأْتِيءَ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ أي ومن دون تلك الجنتين في الفضيلة والقدَر جنتان أخريان قال المفسرون: الجنتان الأوليان للسابقين، والأخريان لأصحاب اليمين ولا شك أن مقام السابقين أعظم وأرفع لقوله تعالى ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۖ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۖ وَالسَّيِّقُونَ وَالسَّيِّقُونَ ۖ ۝ ١٠ ۖ أُولَٰئِكَ الْمَقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨-١١] ﴿فَيَأْتِيءَ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله الجليلة تكذبان يا معشر الإنس والجن؟ ﴿مُدَّهَامَتَانِ﴾ أي سوداوان من شدة الخضرة والري قال الألوسي: والمراد أنهما شديدتا الخضرة، والخضرة إذا اشتدت ضربت إلى السواد وذلك من كثرة الري بالماء^(٦) ﴿فَيَأْتِيءَ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ﴾ أي فوَّارتان بالماء لا تنقطعان وقال ابن مسعود وابن عباس: تنضخ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور في دور أهل الجنة كرخ المطر^(٧) ﴿فَيَأْتِيءَ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ أي في الجنتين من أنواع الفواكه كلها وأنواع النخل والرمان، وإنما ذكر النخل والرمان

(١) (ش): خدَّر المرأة: ألزمها الخدَّر، والخدَّر: ستارة، سترٌ يُمدد للمرأة في ناحية البيت ليحجب ما وراءه. العفيفة:

المتصفة بالعفة، والجمع عفائف.

(٢) «تفسير الألوسي» ١١٩/٢٧.

(٣) «البحر المحيط» ١٩٨/٨.

(٤) أخرجه الترمذي عن ابن مسعود مرفوعاً وموقوفاً، قال ابن كثير: والموقوف أصح. (ش): ضعفه الألباني.

(٥) «تفسير أبي السعود» ١٢٧/٥.

(٦) «روح المعاني» ١٢١/٢٧.

(٧) «تفسير القرطبي» ١٧/١٨٥. (ش): رخَّ المطرُ: اشتدَّ نزولُه.

تنبهًا على فضلها وشرفها على سائر الفواكه ولأنهما غالب فاكهة العرب قال الألوسي: ثم إن نخل الجنة ورماتها وراء ما نعرفه ^(١) ﴿فَيَأْتِيءَ الْآءَ رَيْكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿فِيهِنَّ حَيْرَاتٌ حَسَنٌ﴾ أي في تلك الجنان نساء صالحات كريمات الأخلاق، حسان الوجوه ﴿فَيَأْتِيءَ الْآءَ رَيْكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ أي هن الحور العين المخدرات المستورات لا يخرجن لكرامتهن وشرفهن، قد قُصِرْنَ في خدورهن في خيام اللؤلؤ المجوّف، قال أبو حيان: والنساء تُمدَح بذلك إذ ملازمتهن البيوت تدل على صيانتهم قال الحسن: لسن بطوّافات في الطرق، وخيام الجنة بيوت اللؤلؤ ^(٢)، وفي الحديث «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ خِيَمَةً مِنْ لَوْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ، عَرْضُهَا سِتُّونَ مِثْلًا، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ، مَا يَرَوْنَ الْآخِرِينَ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ» ^(٣) ﴿فَيَأْتِيءَ الْآءَ رَيْكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿لَمْ يَطْمِئْتُنَّ إِذْ سَبَقَهُمْ وَلَا جِئَهُمْ﴾ أي لم يُجامِعُهُنَّ ولم يَعْشَهُنَّ أحدٌ قبل أزواجهن لا من الإنس ولا من الجن قال في التسهيل: الجنتان المذكورتان أولاً للسابقين، والجنتان المذكورتان ثانياً لأصحاب اليمين، وانظر كيف جعل أوصاف الجنتين الأوليين أعلى من أوصاف الجنتين اللتين بعدهما، فقال هناك: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ وقال هنا: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ فَضَّخَتَانِ﴾ والجري أشدُّ من النضح، وقال هناك: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَنَكَةٍ زَوْجَانِ﴾ وقال هنا: ﴿فِيهِمَا فَنَكَةٌ نُفْلٌ وَرُفٌّ﴾ والأول أعم وأشمل، وقال في صفة الحور هناك: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ وقال هنا: ﴿فِيهِنَّ حَيْرَاتٌ حَسَنٌ﴾ وليس كل حُسن كحسن الياقوت والمرجان فالوصف هناك أبلغ، وقال هناك في وصف الفرش: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو الديباج وقال هنا: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ﴾ ولا شك أن الفرش المُعدّة للأتكاء أفضل من فضل الخباء ^(٤) ﴿فَيَأْتِيءَ الْآءَ رَيْكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله الجليلة تكذبان يا مشعر الإنس والجن؟ ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ﴾ أي مُستندين على وسائد خضر من وسائد الجنة ^(٥) ﴿وَعَبَقَرِي حَسَنٍ﴾ أي وطنافس ثخينة مزخرفة، محلاة بأنواع الصور والزينة

(١) «روح المعاني» ١٢٢/٢٧.

(٢) «البحر المحيط» ١٩٨/٨.

(٣) أخرجه البخاري. (ش): ورواه مسلم بلفظ: «فِي الْجَنَّةِ خِيَمَةٌ مِنْ لَوْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ عَرْضُهَا سِتُّونَ مِثْلًا فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ مَا يَرَوْنَ الْآخِرِينَ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ».

(٤) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٨٦/٤، والقرطبي ١٨٣/١٧. (ش): جاء في «تفسير القرطبي»: وَقَالَ فِي الْأَوَّلِينَ: «مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ» [الرَّحْمَنُ: ٥٤] وَهُوَ الدِّبَاجُ، وَفِي الْآخِرِينَ «مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرِي حَسَنٍ» [الرَّحْمَنُ: ٧٦] وَالْعَبَقَرِيُّ الْوُشْيُ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الدِّبَاجَ أَعْلَى مِنَ الْوُشْيِ، وَالرَّفْرَفُ كَسْرُ الْخَبَاءِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْفُرُشَ الْمُعَدَّةَ لِلْإِتِّكَاءِ عَلَيْهَا أَفْضَلُ مِنْ فَضْلِ الْخَبَاءِ. اهـ. الخباء: خيمة تُنْصَبُ عَلَى عَمُودَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةِ. والرَّفْرَفُ ما فَضَّلَ عَنِ الشَّيْءِ وَعُطِفَ، أَي ما زَادَ عَنِ الشَّيْءِ وَثُبِّي وَمِنْهُ كَسْرُ الْخَبَاءِ. وَكَسْرُ الْخَبَاءِ جَانِبُهُ. وَهُوَ الْجُزْءُ الَّذِي يُرْفَعُ عِنْدَ دُخُولِ الْخَبَاءِ وَالْخُرُوجِ مِنْهُ وَنَحْوُهُمَا.

(٥) هذا قول الحسن وقال ابن عباس: الرِّفْرَفُ: فضول المحابس وهي ما يُطْرَحُ عَلَى ظَهْرِ الْفَرَّاشِ لِلنَّوْمِ عَلَيْهِ.

قال الصاوي: وهي نسبة إلى «عبر» قرية بناحية اليمن، يُنسج فيها بسط منقوشة بلغت النهاية في الحسن، فقرَّب الله لنا فرش الجنتين بتلك البسط المنقوشة^(١) ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ لَّيَّاكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ أي فبأي نعمة من نعم الله تعالى تكذبان يا معشر الإنس والجن ﴿نَبِّرْكُمْ أَسْمَ رَبِّكُمْ﴾ أي تنزهه وتقُدِّسه الله العظيم الجليل، وكثرت خيراته وفاضت بركاته ﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي صاحب العظمة والكبرياء، والفضل والإنعام قال في البحر: لما ختم تعالى نعم الدنيا بقوله ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] ختم نعم الآخرة بقوله ﴿نَبِّرْكُمْ أَسْمَ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ وناسب هناك ذكر البقاء والديمومة له تعالى بعد ذكر فناء العالم، وناسب هنا ذكر البركة وهي النماء والزيادة عقب امتنانه على المؤمنين في دار كرامته وما آتاهم من الخير والفضل في دار النعيم^(٢).

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - المقابلة اللطيفة بين ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ [الرحمن: ٧] وبين ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ [الرحمن: ١٠] وكذلك المقابلة بين ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] و﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ [الرحمن: ١٥].

٢ - التشبيه المرسل المجلد ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الرحمن: ٢٤] أي كالجبال في العظم.

٣ - المجاز المرسل ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧] أي ذاته المقدسة وهو من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل^(٣).

٤ - الاستعارة التمثيلية ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] شبه انتهاء الدنيا وما فيها من تدبير شئون الخلق ومجيء الآخرة وبقاء شأن واحد وهو محاسبة الإنس والجن بفراغ من يشغله أمور فتفرغ لأمر واحد، والله تعالى لا يشغله شأن عن شأن وإنما هو على سبيل التمثيل.

٥ - الأمر التعجيزي ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا... فَأَنْفُذُوا﴾ [الرحمن: ٣٣] فالأمر هنا للتعجيز.

٦ - التشبيه البليغ ﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ [الرحمن: ٣٧] أي كالوردة في الحمرة حذف وجه الشبه وأداة التشبيه فصار بليغاً.

٧ - الجناس الناقص ﴿وَبَحَى الْجَنَّتَيْنِ﴾ لتغير الشكل والحروف، ويسمى جناس الاشتقاق.

٨ - الإيجاز بحذف الموصوف وإبقاء الصفة ﴿فَإِنَّ قَصْرَتِ الطَّرْفِ﴾ أي نساء قصرن أبصارهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم.

٩ - السجع المرصع غير المتكلف كأنه حبات در منظومة في سلك واحد اقرأ قوله تعالى

(١) حاشية الصاوي ٤ / ١٦٠.

(٢) «البحر المحيط» ٨ / ٢٠٠.

(٣) (ش): تَصَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ إِثْبَاتَ صِفَةِ الْوَجْهِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَالنُّصُوصُ فِي إِثْبَاتِ الْوَجْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَا تُحْصَى كَثْرَةً. (راجع التعليق على كلام المؤلف عند تفسير هذه الآية).

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۖ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١٤] وأمثاله في السورة كثير.
فائدة: تسمى سورة الرحمن «عروس القرآن» لما ورد «لكل شيء عروس، وعروس القرآن سورة الرحمن»^(١).

«انتهى تفسير سورة الرحمن»



(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ١٥٢ / ٤. (ش): «لكل شيء عروس وعروس القرآن الرَّحْمَنُ». (رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ، وَضَعَفَهُ الْأَلْبَانِيُّ).



مكية وآياتها ست وتسعون

بين يدي السورة

* تشتمل هذه السورة الكريمة على أحوال يوم القيامة، وما يكون بين يدي الساعة من أهوال، وانقسام الناس إلى ثلاث طوائف (أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، السابقون).
* وقد تحدثت السورة عن مآل كل فريق، وما أعدّه الله تعالى لهم من الجزاء العادل يوم الدين، كما أقامت الدلائل على وجود الله ووحدانيته، وكمال قدرته في بديع خلقه وصنعه، في خلق الإنسان، وإخراج النبات، وإنزال الماء، وما أودعه الله من القوة في النار... ثم نوهت بذكر القرآن العظيم، وأنه تنزيل رب العالمين، وما يلقيه الإنسان عند الاحتضار من شذائد وأهوال.

* وختمت السورة بذكر الطوائف الثلاث وهم أهل السعادة، وأهل الشقاوة، والسابقون إلى الخيرات من أهل النعيم، وبينت عاقبة كل منهم، فكان ذلك كالتفصيل لما ورد في أول السورة من إجمال، والإشادة بذكر مآثر المقربين في البدء والختام.

فضلها: أ- عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً»^(١).

ب- وأخرج الحافظ ابن عساكر في ترجمة (عبد الله بن مسعود) بسنده عن أبي ظبية قال: «مرض عبد الله مرضه الذي توفي فيه، فعاده عثمان بن عفان فقال: ما تشتهي؟ قال: ذنوبي، قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي، قال: ألا أمر لك بطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني، قال: ألا أمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لي فيه، قال: يكون لبناتك من بعدك، قال: أتخشى على بناتي الفقر؟ إني أمرت بناتي يقرأن كل ليلة سورة الواقعة، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً»^(٢) فكان أبو ظبية لا يدعها^(٣).

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى وابن عساكر.

(٢) (ش): رواه البيهقي وضعفه الألباني. فاقة: فقْر؛ حاجة؛ ضيق الحال.

(٣) (تفسير ابن كثير) ٤/ ٢٨١.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا (٦) وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ الْشُّعْمَةُ (٩) وَالسَّيْفُونَ السَّيْفُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ (١٢) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يُطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخْلَدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَنْبَارٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ (١٩) وَفَكَهَنَهُمْ مِمَّا يَشْتَبِرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦) وَأَصْحَابُ الْمَيْمَنِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنِ (٢٧) فِي سِدْرٍ خَضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَنضُودٍ (٢٩) وَظِلٌّ مَدُودٍ (٣٠) وَمَاءٌ مَسْكُوبٍ (٣١) وَفَكَهَنَهُ كَثِيرٌ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٌ مَرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنْشَاءً (٣٥) جَعَلْنَاهُمْ أَتْبَارًا (٣٦) عُرْبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِأَصْحَابِ الْمَيْمَنِ (٣٨) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (٤٠) وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٌّ مِنْ جَحِيمٍ (٤٣) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصْرَفُونَ عَلَى الْجَنِّ الْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا نَا لَمْبَعُونَ (٤٧) أَوَءَا بَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَأَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُفُورٍ (٥٢) فَالَّذِينَ مِنْهَا الْأَبْطُونَ (٥٣) فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَرِبُوا شُرْبَ الْهَبِيرِ (٥٥) هَذَا نَزَّلْنَاهُ يَوْمَ الدِّينِ

اللغة: ﴿رُجَّتْ﴾ وحُرِّكت تحريكاً شديداً ﴿وَبُسَّتِ﴾ فُتَّتْ حتى صارت كالدقيق المبسوس^(١) ﴿هَبَاءً﴾ الهباء ما يتطاير في الهواء من الأجزاء الدقيقة ﴿ثَلَاثَةً﴾ جماعة من ثلث الشيء، أي: قطعته قاله الزجاج، فمعنى ثلثة كمعنى فرقة وزناً ومعنى ﴿مَوْضُونَةٍ﴾ منسوجة مُحَكَّمَةُ النَّسْجِ كَأَنَّ بَعْضَهَا أُدْخِلَ فِي بَعْضِ قَالِ الْأَعْشَى:

وَمِنْ نَسْجِ دَاوُدَ مَوْضُونَةٍ تَسِيرُ مَعَ الْحَيِّ عِيراً فَعِيرًا^(٢) ﴿يُصَدَّعُونَ﴾ صُدِّعَ الْقَوْمُ بِالْخَمْرِ لِحَقِّهِمُ الصُّدَاعُ فِي رءُوسِهِمْ مِنْهَا ﴿يُزْفُونَ﴾ يَسْكُرُونَ

(١) (ش): أي المبلول. بسّ الدقيق: بلّله بالماء.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٠١. (ش): الموضونة: الدرع المنسوجة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجْعَلُ أَوْبَى مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ (١٠) أَنْ أَعْمَلَ سَيِّغَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَليحًا إِلَى بَما يَعْمَلُونَ بِصِيرٍ ﴿[سبأ: ١٠ - ١٢]﴾. (اعْمَلُ سَابِغَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ): أي اعمل دروعاً تامات واسعات وقدر المسامير في جلق الدروع، فلا تعمل الحلقة صغيرة فتضعف، فلا تقوى الدروع على الدفاع، ولا تجعلها كبيرة فتثقل على لابسها.

فتذهب عقولهم ﴿مَخْضُودٌ﴾ خُضِدَ شَوْكُهُ، أي: قُطِعَ قال أمية بن أبي الصلت:
 إِنَّ الْحَدَائِقَ فِي الْجَنَانِ ظَلِيلَةٌ فِيهَا الْكَوَاعِبُ سِدْرُهَا مَخْضُودٌ^(١)
 ﴿وَطَلِحٌ﴾ الطلح: شَجَرُ الْمَوْزِ ﴿مَنْضُودٌ﴾ مترابك بعضه فوق بعض ﴿عُرْبًا﴾ جمع عَرُوبٍ
 وهي المتحبة إلى زوجها ﴿سَمُومٌ﴾ ريح حارة تدخل في مَسَامِ البدن ﴿يَحْمُومٌ﴾ اليموم الشديد
 السواد ﴿لَحْمِيمٌ﴾ الماء المغلي ﴿أَلْمِيرُ﴾ الإبل العطاش التي لا تروى لداء يصيبها.
التفسير: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أي إذا قامت القيامة التي لا بد من وقوعها، وحدثت الداهية
 الطامة التي ينخلع لها قلب الإنسان، كان من الأهوال ما لا يصفه الخيال قال البيضاوي:
 سميت واقعة لتحقق وقوعها^(٢) وقال ابن عباس: الواقعة اسم من أسماء القيامة كالصاخة
 والآزفة والطامة، وهذه الأشياء تقتضي عظم شأنها^(٣) ﴿لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي لا يكون عند
 وقوعها نفس كاذبة تكذب بوقوعها كحال المكذبين اليوم، لأن كل نفس تؤمن حينئذ لأنها
 ترى العذاب عياناً كقوله تعالى ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [غافر: ٨٤] ﴿خَافِضَةٌ
 رَافِعَةٌ﴾ أي هي خافضة لأقوام رافعة لآخرين، تخفض أعداء الله في النار، وترفع أولياء الله في
 الجنة قال الحسن: تخفض أقواماً إلى الجحيم وإن كانوا في الدنيا أعزة، وترفع آخرين إلى
 أعلى عليين وإن كانوا في الدنيا وضعاء^(٤).. ثم بين تعالى متى يكون ذلك فقال ﴿إِذَا رُجَّتِ
 الْأَرْضُ رَجًا﴾ أي زُلزِلَتْ زلزلاً عنيفاً، واضطربت اضطراباً شديداً، بحيث ينهدم كل ما فوقها
 من بناء شامخ، وطُودٍ راسخ^(٥) قال المفسرون: تُرْجُ كما يَرْجُ الصبي في المهد حتى ينهدم كل
 ما عليها من بناء، وينكسر كل ما فيها من جبال وحصون^(٦) ﴿وُسُيِّرَتِ الْجِبَالُ سَيًّا﴾ أي فُتِّتَتْ
 تفتيتاً حتى صارت كالدقيق المبسوس وهو المبلول بعد أن كانت شامخة ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾
 أي فصارت غباراً متفرقاً متطائراً في الهواء، كالذي يَرَى في شعاع الشمس إذا دخل النافذة فهذا
 هو الهباء^(٧)، والمنبث المتفرق، وهذه الآية كقوله تعالى ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ
 الْمَنْفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] وقوله ﴿وُسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبا: ٢٠] ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾

(١) «البحر المحيط» ٢٠١ / ٨. (ش): البيت في وصف الجنة، والمعنى أن الحدائق في الجنة ظليلة وفيها أشجار
 النبق الذي قُطِعَ شَوْكُهُ، وفيها الكواعب: نساء عذارى نواهد قد برزت أنداؤهن.

(٢) «تفسير البيضاوي» ٤٣٧ / ٣.

(٣) «تفسير المحيط» ٢٠٢ / ٨.

(٤) هذا القول هو الأرجح في تفسير الآية الكريمة وهو اختيار البيضاوي وأبي السعود والألوسي، واختيار ابن كثير
 أن المعنى ليس لوقوعها - إذا أراد الله - صارفٌ يصرفها ولا دافعٌ يدفعها، وروي نحو هذا عن الحسن وقتادة:
 والأول أدق وأظهر والله أعلم.

(٥) (ش): شامخ: مرتفع. طُود: جبل. راسخ: ثابت.

(٦) «مختصر ابن كثير» ٤٢٨ / ٣.

(٧) «تفسير القرطبي» ١٧ / ١٩٦.

أي وكنتم أيها الناس أصنافاً وفرقاً ثلاث «أهل اليمين، وأهل الشمال، وأهل السبق» فأما السابقون فهم أهل الدرجات العُلى في الجنة، وأما أصحاب اليمين فهم سائر أهل الجنة، وأما أصحاب الشمال فهم أهل النار^(١)، وهذه مراتب الناس في الآخرة قال ميمون بن مهران: اثنان في الجنة وواحد في النار، ثم فصلهم تعالى بقوله ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾؟ استفهام للتفخيم والتعظيم أي هل تدري أي شيء أصحاب الميمنة؟ من هم وما حالهم وصفتهم؟ إنهم الذين يُؤْتَوْنَ صحائفهم في أيماهم، فهو تعجيب لحالهم، وتعظيم لشأنهم في دخولهم الجنة وتعمهم بها ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾؟ أي هل تدري من هم؟ وما حالهم وصفتهم؟ إنهم الذين يُؤْتَوْنَ صحائفهم بشمالهم، فيه تعجيب لحالهم في دخولهم النار وشقائهم^(٢) قال القرطبي: والتكرير في ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ و ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ للتفخيم والتعجيب كقوله ﴿الْحَاقَّةُ ۝ (١) مَا الْحَاقَّةُ ۝﴾ [الحاقة: ١٢] وقوله ﴿الْقَارِعَةُ ۝ (١) مَا الْقَارِعَةُ ۝﴾ [القارعة: ١٢]^(٣) وقال الألوسي: والمقصود التفخيم في الأول، والتفطيع في الثاني، وتعجيب السامع من شأن الفريقين في الفخامة والفضاعة كأنه قيل: فأصحاب الميمنة في غاية حُسْن الحال، وأصحاب المشأمة في غاية سوء الحال^(٤) ﴿وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ﴾ هذا هو الصنف الثالث من الأزواج الثلاثة، أي: والسابقون إلى الخيرات والحسنات، هم السابقون إلى النعيم والجنات، ثم أثنى عليهم بقوله ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي أولئك هم المقربون من الله، في جواره، وفي ظل عرشه، ودار كرامته ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ أي هم في جنات الخلد يتنعمون فيها قال الخازن: فإن قلت: لم أذكر السابقين وكانوا أولى بالتقديم على أصحاب اليمين؟ قلت: فيه لطيفة وذلك أن الله ذكر في أول السورة الأمور الهائلة عند قيام الساعة تخويفاً لعباده، فإما محسنٌ فيزداد رغبة في الثواب، وإما مسيء فيرجع عن إساءته خوفاً من العقاب، فلذلك قدّم أصحاب اليمين ليسمعوا ويرغبوا، ثم ذكر أصحاب الشمال ليرهبوا، ثم ذكر السابقين وهم الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر ليَجِدُوا ويَجْتَهِدُوا^(٥) ﴿ثَلَاثَةٌ مِنْ الْأُولَى﴾ أي السابقون المقربون جماعة كثيرة من الأمم السالفة ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ أي وهم قليل من هذه الأمة قال القرطبي: وسمّوا قليلاً بالإضافة إلى من كان قبلهم، لأن الأنبياء المتقدمين كانوا كثرة، فكثر السابقون إلى الإيمان منهم فزادوا على عدد من سبق إلى التصديق من أمتنا، قال الحسن: سابقو من مضى أكثر من سابقينا ثم تلا الآية^(٦) وقيل: إن المراد بقوله ﴿وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ﴾ أول هذه

(١) هذا قول ابن عباس.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٤٢٨/٣.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٧/١٩٩.

(٤) «تفسير الألوسي» ٢٧/١٣١.

(٥) «تفسير الخازن» ٤/١٥.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٧/٢٠٠.

الأمة، والآخرون والمتأخرون من هذه الأمة، فيكون كلا الفريقين من أمة محمد ﷺ^(١) ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾ أي جالسين على أسرة منسوجة بقضبان الذهب، مُرَصَّعة بالدر والياقوت^(٢) قال ابن عباس: ﴿مَوْضُونَةٍ﴾ أي مرمولة بالذهب يعني منسوجة به^(٣) ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا﴾ أي حال كونهم مضطجعين على تلك الأسرة شأن المنعمين المترفين ﴿مُتَقَلِّبِينَ﴾ أي وجوه بعضهم إلى بعض، ليس أحد وراء أحد، وهذا أدخل في السرور، وأكمل في أدب الجلوس ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ أي يدور عليهم للخدمة أطفال في نضارة الصبا، لا يموتون ولا يهرمون قال أبو حيان: وُصفوا بالخلد وإن كان كل من في الجنة مخلدًا ليدل على أنهم يبقون دائماً في سنّ ولدان، لا يتحولون ولا يكبرون كما وصفهم جل وعلا^(٤) ﴿يَا كُؤَابَ﴾ أي بأقداح كبيرة مستديرة لا عُرى لها^(٥) ﴿وَأَبَارِقَ﴾ جمع إبريق أي وبأباريق لها عُرى تبرق من صفاء لونها ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أي وكأسٍ من خمرٍ لذة جارية من العيون قال ابن عباس: لم تعصر كخمر الدنيا بل هي من عيون سارحة قال القرطبي: والمعين الجاري من ماء أو خمر، غير أن المراد في هذا الموضع الخمر الجارية من العيون، ليست كخمر الدنيا التي تستخرج بعصرٍ وتكلف ومعالجة^(٦) ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي لا تنصدع رءوسهم من شربها ﴿وَلَا يُزِفُونَ﴾ أي ولا يسكرون فتذهب بعقولهم كخمر الدنيا قال ابن عباس: في الخمر أربع خصال: السكرُ والصُّدَاعُ، والقيءُ، والبول، وقد ذكر تعالى خمر الجنة ونزَّهاها عن هذه الخصال الذميمة^(٧) ﴿وَفَكَهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ أي ولهم فيها فاكهة كثيرة يختارون ما تشتهيهِ نفوسهم لكثرتها وتنوعها ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي ولحم طيرٍ مما يحبون ويشتهون قال ابن عباس: يخطر على قلب أحداهم لحم الطير فيطير حتى يقع بين يديه على ما اشتهى مقلباً أو مشويّاً وفي الحديث «إِنَّكَ لَتَنظُرُ

(١) القول الأول الذي أسلفناه هو اختيار جمهور المفسرين، كابن جرير، وأبي السعود، والقرطبي، والبيضاوي، والألوسي، واختار ابن كثير القول الثاني فقال: القول الذي اختاره ابن جرير فيه نظر بل هو ضعيف، لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن، فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها.. إلخ، أقول: قد علمت أن الأنبياء كثرة كثيرة وكلهم من السابقين، فإذا انضم إليهم أتباعهم من الخواص كانوا أكثر من خواص هذه الأمة، وتبقى أمة محمد ﷺ أكثر الأمم دخولاً الجنة وأفضل الأمم بمجموعها لا بخواصها، فيندفع بذلك الإشكال والله أعلم.

(٢) (ش): رَصَع الشيء: حَلَّاهُ بالرصاص. والرصعة: كل حلية يرصع بها أو كل حلية مستديرة يحلّي بها التَّاجَ وغيره، يُقَال: رَصَع التَّاجَ أَو السَّيْفَ بالجواهر.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٤٣٠/٣.

(٤) «البحر المحيط» ٢٠٥/٨.

(٥) (ش): العُرْوَةُ مِنَ الدَّلْوِ أَو الكُوبِ: مَقْبُضُهُ.

(٦) «تفسير القرطبي» ٢٠٣/١٧.

(٧) «مختصر تفسير ابن كثير» ٤٣٠/٣.

إِلَى الطَّيْرِ فِي الْجَنَّةِ فَشْتَهِيهِ فَيَخْرُ بَيْنَ يَدَيْكَ مَشْوِيًّا»^(١) قال الرازي: وقَدَّم الفاكهة على اللحم لأن أهل الجنة يأكلون لا عن جوع بل للتفكه، فميلهم إلى الفاكهة أكثر كحال الشبان في الدنيا فلذلك قَدَّمَهَا^(٢) ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾^(٣) كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿أَيُّ وَلَهُمْ مَعَ ذَلِكَ النِّعَمِ نِسَاءٌ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، الْوَاسِعَاتِ الْعِينِ، فِي غَايَةِ الْجَمَالِ وَالْبَهَاءِ، كَأَنَّهُنَّ اللَّوْلُؤُ فِي الصَّفَاءِ وَالنَّقَاءِ، الَّذِي لَمْ تَمْسَهُ الْأَيْدِي قَالَ فِي التَّسْهِيلِ: شَبَّهَهُنَّ بِاللَّوْلُؤِ فِي الْبَيَاضِ، وَوَصَفَهُنَّ بِالْمَكْنُونِ لِأَنَّهُ أَبْعَدُ عَنْ تَغْيِيرِ حَسَنِهِ، وَحِينَ سَأَلَتْ أُمَّ سَلَمَةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ هَذَا التَّشْبِيهِ قَالَ: «صَفَاؤُهُنَّ صَفَاءُ الدَّرِّ الَّذِي فِي الْأَصْدَافِ، الَّذِي لَمْ تَمْسَهُ الْأَيْدِي»^(٤) ﴿جَزَاءُ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَيُّ جَعَلْنَا لَهُمْ ذَلِكَ كُلَّهُ جَزَاءً لِعَمَلِهِمُ الصَّالِحِ فِي الدُّنْيَا.. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ كَمَالِ نِعِمِّهِمْ فِي الْجَنَّةِ فَقَالَ ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ أَيُّ لَا يَطْرُقُ أَذَانُهُمْ فَاحِشُ الْكَلَامِ، وَلَا يَلْحَقُهُمْ إِثْمٌ مِمَّا يَسْمَعُونَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا يَسْمَعُونَ بَاطِلًا وَلَا كَذِبًا^(٥) ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ أَيُّ إِلَّا قَوْلَ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ: سَلَامًا سَلَامًا، يُحْيِي بِهِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيَفْشُونَ السَّلَامَ فِيمَا بَيْنَهُمْ قَالَ فِي الْبَحْرِ: وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ اسْتِثْنَاءٌ مَنْقُطِعٌ لِأَنَّهُ لَمْ يَنْدَرْجُ فِي اللَّغْوِ وَلَا التَّائِيهِ^(٦) وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ يَفْشُونَ السَّلَامَ فَيَسْلَمُونَ سَلَامًا بَعْدَ سَلَامٍ، أَوْ لَا يَسْمَعُ كُلُّ مِنْهُمْ إِلَّا سَلَامَ الْآخِرِ بَدَأًا أَوْ رَدًّا^(٧). ثُمَّ شَرَعَ فِي تَفْصِيلِ أَحْوَالِ الصَّنْفِ الثَّانِي وَهُمْ أَصْحَابُ الْيَمِينِ فَقَالَ ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾؟ اسْتَفْهَامٌ لِلتَّعْظِيمِ وَالتَّعْجِيبِ مِنْ حَالِهِمْ، أَيُّ مَا أَدْرَاكَ مِنْهُمْ، وَمَا حَالُهُمْ؟ ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ أَيُّ هُمْ تَحْتَ أَشْجَارِ النَّبَقِ الَّذِي قَطَعَ شَوْكُهُ قَالَ الْمَفْسُورُونَ: وَالسِّدْرُ: شَجَرُ النَّبَقِ، وَالْمَخْضُودُ الَّذِي خُضِدَ، أَيُّ قُطِعَ شَوْكُهُ، وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ شَجَرَةً مُؤْذِيَةً وَمَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً تُؤْذِي صَاحِبَهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَا هِيَ؟» قَالَ: السِّدْرُ، فَإِنَّ لَهَا شَوْكًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَيْسَ اللَّهُ يَقُولُ: ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ يَخْضِدُ اللَّهُ شَوْكَهُ فَيَجْعَلُ مَكَانَ كُلِّ شَوْكَةٍ ثَمَرَةً، فَإِنَّهَا تُنْبِتُ ثَمَرًا تُفْتَقُ الثَّمَرَةُ مَعَهَا عَنْ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ لَوْ نَا مِنْ طَعَامٍ مَا مِنْهَا لَوْ نُشِبِ الْآخِرُ»^(٨) ﴿وَطَلِحٍ مَنُضُودٍ﴾ هُوَ شَجَرُ الْمَوْزِ وَمَعْنَى ﴿مَنُضُودٍ﴾ أَيُّ مَتْرَاكِمٍ قَدْ نُضِدَ بِالْحَمَلِ مِنْ أَسْفَلِهِ إِلَى أَعْلَاهُ ﴿وَطَلِحٍ مَنُضُودٍ﴾

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كذا في ابن كثير ٤٣١/٣. (ش): ضعيف جدًا.

(٢) «التفسير الكبير» ١٥٣/٢٩.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٨٩/٤. (ش): رواه الطبراني بسند ضعيف.

(٤) «تفسير القرطبي» ٢٠٦/١٧.

(٥) «البحر المحيط» ٢٠٦/٨.

(٦) «تفسير أبي السعود» ١٣٠/٥.

(٧) أخرجه الحاكم والبيهقي وانظر روح المعاني ١٤٠/٢٧. (ش): رواه ابن أبي الدنيا والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي والألباني. تَفْتَقُ: تَشَقُّق.

أي وظل دائم باقٍ لا يزول ولا تنسخه الشمس، لأن الجنة ظل كلها لا شمس فيها ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣] وفي الحديث «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّابُّ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا، وَأَقْرَأُوا إِنَّ شَيْئًا ﴿وَبِلَّامٍ مَّذُودٍ﴾»^(١) وقال الرازي: ومعنى ﴿مَّذُودٍ﴾ أي لا زوال له فهو دائم ﴿أَكُلُّهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥] أي: دائم، والظل ليس ظل الأشجار، بل ظل يخلقه الله تعالى^(٢) ﴿وَمَاءٌ مَّسْكُوبٌ﴾ أي وماء جارٍ دائماً لا ينقطع يجري في غير أخدود قال القرطبي: كانت العرب أصحاب بادية، والأنهار في بلادهم عزيزة، لا يصلون إلى الماء إلا بالدلو والرشاء، فوعدوا بالجنة بأسباب النزهة وهي الأشجار وظلالها، والمياه والأنهار وجريانها^(٣) ﴿وَفِكَهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾^(٤) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿أَيَ وَفَاكِهِةٍ كَثِيرَةٍ مِّنْهُنَّ، لَيْسَتْ بِالْقَلِيلَةِ الْعَزِيزَةِ كَمَا كَانَتْ فِي بِلَادِهِمْ، لَا تَنْقَطِعُ كَمَا تَنْقَطِعُ ثَمَارُ الدُّنْيَا فِي الشِّتَاءِ، وَلَيْسَتْ مَمْنُوعَةً عَنْ أَحَدٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا تَنْقَطِعُ إِذَا جُنِّتْ، وَلَا تَمْتَنِعُ مِنْ أَحَدٍ إِذَا أُرَادَ أَخْذُهَا»^(٥) وفي الحديث «مَا قُطِعَتْ ثَمَرَةٌ مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ إِلَّا عَادَ مَكَانُهَا أُخْرَى»^(٦) ﴿وَفُرْشٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ أي عالية وطينة ناعمة وفي الحديث «ارْتِفَاعُهَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَمَسِيرَةُ مَا بَيْنَهُمَا خَمْسُمِائَةِ عَامٍ»^(٧) قال الألوسي: ولا تستبعد هذا من حيث العروج والنزول، فالعالم عالم آخر فوق طور عقلك^(٨) تنخفض للمؤمن إذا أراد الجلوس عليها ثم ترتفع به، والله على كل شيء قدير ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾ أي خلقنا نساء الجنة خلقاً جديداً، وأبدعناهن إبداعاً عجيباً، قال في التسهيل: ومعنى إنشاء النساء أن الله تعالى يخلقهن في الجنة خلقاً آخر في غاية الحسن بخلاف الدنيا، فالعجوز ترجع شابة، والقيحة ترجع جميلة^(٩) قال ابن عباس: يعني الآدميات العجائز الشمط خلقهن الله بعد الكبر والهرم خلقاً آخر^(١٠) ﴿فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا﴾ أي فجعلناهن عذارى، كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً ﴿عُرُبًا﴾ جمع عروب وهي المتحبة لزوجها العاشقة له قال

(١) أخرجه البخاري.

(٢) التفسير الكبير ٢٩/ ١٦٤. (ش): كيف يستقيم هذا الكلام مع قوله ﷻ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّابُّ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا، وَأَقْرَأُوا إِنَّ شَيْئًا ﴿وَبِلَّامٍ مَّذُودٍ﴾». (رواه البخاري) وقد أورده المؤلف، وهذا الحديث يُثبت للأشجار ظلًا: «شَجَرَةٌ يَسِيرُ الرَّابُّ فِي ظِلِّهَا».

(٣) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٠٩.

(٤) «تفسير الخازن» ٤/ ١٨.

(٥) أخرجه الطبراني. (ش): أخرجه البزار، والطبراني، وضعفه الألباني.

(٦) أخرجه النسائي والترمذي. (ش): وضعفه الألباني.

(٧) «روح المعاني» ٢٧/ ١٤١.

(٨) «التسهيل» ٤/ ٩٠.

(٩) «تفسير الخازن» ٤/ ١٨.

مجاهد: هنَّ العاشقات لأزواجهن المتحبات لهن اللواتي يشتهين أزواجهن^(١) ﴿أَتَرَابًا﴾ أي مستويات في السن مع أزواجهن، في سنّ أبناء ثلاث وثلاثين، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سألت النبي ﷺ عن قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنثَاءً﴾^(٢) ﴿جَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا﴾^(٣) ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ فقال: «يا أم سلمة هنَّ اللواتي قُبِضْنَ في الدنيا عجائز، شُمُطًا عُمُشًا، رُمُصًا، جعلهن الله بعد الكبر أترابًا على ميلادٍ واحدٍ في الاستواء»^(٤) وفي الحديث أن امرأة عجوزًا جاءت النبي ﷺ فقالت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُدْخِلَنِي الْجَنَّةَ، فَقَالَ: «يَا أُمُّ فَلَانٍ، إِنَّ الْجَنَّةَ لَا تَدْخُلُهَا عَجُوزٌ» قَالَ: فَوَلَّتْ تَبْكِي فَقَالَ: «أَخْبِرُوهَا أَنَّهُ لَا تَدْخُلُهَا وَهِيَ عَجُوزٌ» إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنثَاءً﴾^(٥) ﴿جَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا﴾^(٦) ﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي أنشأنا هؤلاء النساء الأَبْكَارَ لأصحاب اليمين ليستمتعوا بهنَّ في الجنة، ثم قال تعالى ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾^(٧) وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ أي هم جماعة من الأولين من الأمم الماضية، وجماعة من المتأخرين من أمة محمد ﷺ، قال في البحر: ولا تنافي بين هذه الآية ﴿وَلَا تَنَافَى بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ وبين الآية التي سبقتها وهي قوله ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ لأن الثانية في السابقين فلذلك قال ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ وهذه في أصحاب اليمين ولذلك قال ﴿وَلَا تَنَافَى بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ﴾^(٨) .. ثم شرع تعالى في بيان الصنف الثالث وهم أهل النار فقال ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ استفهام بمعنى التهويل والتفطيع والتعجيب من حالهم، أي: وأصحابُ الشمال وهم الذين يُعْطَوْنَ كتبهم بشمائلهم ما أصحاب الشمال؟ أي ما حالهم وكيف مآلهم؟ ثم فصل تعالى حالهم فقال ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ أي في ريح حارة من النار تنفذ في المسام، وماءٍ شديد الحرارة ﴿وَزُلْزِلَ زَلْزَمًا﴾ أي وفي ظل من دخان أسود شديد السواد ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ أي ليس هذا الظل باردًا يستروح به الإنسان من شدة الحر ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ أي وليس حسن المنظر يُسرُّ به من يستفيء بظله قال الخازن: إن فائدة الظل ترجع إلى أمرين: أحدهما: دفع الحر، والثاني: حسن المنظر وكون الإنسان فيه مكرمًا، وظل أهل النار بخلاف هذا لأنهم في ظل من دخان أسود حار^(٩) .. ثم بين تعالى سبب استحقاقهم ذلك فقال ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ أي لأنهم كانوا في الدنيا مُنْعَمِينَ، مُقْبِلِينَ على الشهوات والملذات ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى

(١) «تفسير الألوسي» ٢٧/١٤٣.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٧/٢١٠، والحديث أخرجه الترمذي عن أنس مرفوعًا. (ش): بهذا اللفظ رواه الطبراني بسند ضعيف، وروى بعضه الترمذي وضعفه الألباني. (شُمُطًا): الشَّمُطَاءُ: من اختلط سوادُ شعرها ببياض. (عُمُشًا): جَمْعُ عُمُشَاءٍ مِنَ الْعَمَشِ فِي الْعَيْنِ، وَهُوَ ضَعْفُ الرُّؤْيَةِ مَعَ سَيَلَانِ دَمْعِهَا فِي أَكْثَرِ أَوْقَاتِهَا. (رُمُصًا): جَمْعُ رَمَضَاءٍ مِنَ الرَّمَصِ مُحَرَّكَ وَهُوَ وَسَخٌ أَبْيَضٌ يَجْتَمِعُ فِي الْمَوْقِ، وَهِيَ مَجَارِي الدَّمْعِ مِنَ الْعَيْنِ، أَي: من طرفها ممَّا يلي الأنف.

(٣) أخرجه الترمذي في الشمائل. (ش): حسنه الألباني.

(٤) «البحر المحيط» ٨/٢٠٧.

(٥) «تفسير الخازن» ٤/٢١.

الْحَنَثِ الْعَظِيمِ ﴿٥٦﴾ أي وكانوا يداومون على الذنب العظيم وهو الشرك بالله قال المفسرون: لفظ الإصرار يدل على المداومة على المعصية، والحنث هو الذنب الكبير والمراد به هنا الكفر بالله كما قاله ابن عباس ﴿وَكُنَّا نَقُولُ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أي هل سنبعث بعد أن تصبح أجسادنا ترابًا وعظامًا نخرة؟ وهذا استبعادٌ منهم لأمر البعث وتكذيب له ﴿أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾؟ تأكيدٌ للإنكار ومبالغة فيه، أي: وهل سيبعث آباؤنا الأوائل بعد أن بليت أجسامهم وتفتت عظامهم؟ ﴿قُلْ إِنَّا الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٨﴾ أي قل لهم يا محمد: إن الخلائق جميعًا السابقين منهم واللاحقين، سيجمعون ويحشرون ليوم الحساب الذي حدده الله بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ ﴿٥٩﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿٦٠﴾ [هود: ١٠٣-١٠٤] ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتَ الْضَالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ ﴿٦١﴾ لَا كُفُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُفُورٍ ﴿٦٢﴾ أي ثم إنكم يا معشر كفار مكة، الضالون عن الهدى، المكذبون بالبعث والنشور، لا كلون من شجر الزقوم الذي ينبت في أصل الجحيم ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ أي فمالئون بطونكم من تلك الشجرة الخبيثة لغلبة الجوع عليكم ﴿فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾ أي فشاربون عليه الماء الحار الذي اشتد غليانه ﴿فَشَرِبُونَ شُرْبَ الْهَلِيمِ﴾ أي فشاربون شرب الإبل العطاش قال ابن عباس: الهيمُ الإبل العطاش التي لا تروى لداء يصيبها^(٦) وقال أبو السعود: إنه يسلط على أهل النار من الجوع ما يضطرهم إلى أكل الزقوم الذي هو كالمهل، فإذا ملئوا منه بطونهم - وهو في غاية الحرارة والمرارة - سُلط عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم الذي يقطع أمعاءهم، فيشربونه شرب الهيم - وهي الإبل التي بها الهيام وهو داء يصيبها فتشرب ولا تروى - ﴿هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي هذه ضيافتهم وكرامتهم يوم القيامة، وفيه تهكم بهم قال الصاوي: والنزل في الأصل ما يُهيأ للضيف أوّل قدومه من التَّحَف والكرامة^(٨)، فتسمية الزقوم نُزلاً تهكمٌ بهم.

قال الله تعالى:

نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدْ زَيَّنَّا لَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشَأَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطًا مَّا فَظَلَمْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمَغْرُمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾

(٦) «تفسير القرطبي» ٧/ ٢١٥.

(٧) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٣٢.

(٨) (ش): أي الإكرام الزائد عن المعتاد: ما يُقدَّم للضيف مما هو ليس مطابقاً لعادة المضيف التي كان قد اعتادها، فيتكلف إذا نزل به الضيف ويزيد في البرِّ على ما يُحضِّره في سائر الأيام.

ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٧١﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَسْكُرُونَ ﴿٧٢﴾ أَفَرَأَيْتُمْ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧٣﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٤﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَضْرُوتُمْ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصْرَ لَكُمْ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ أَلِيمِينَ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ أَلِيمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنَزْلٌ مِنْ حِمِيرٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةٌ جَمِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ

المناسبة: لما ذكر تعالى الأشقياء المجرمين وأحوالهم في نار جهنم، ذكر هنا الأدلة والبراهين على قدرة الله ووحدانيته في بديع خلقه وصنعه، لتقوم الحجة على المنكر المكذب بوجود الله، وختم السورة الكريمة بالتنويه بذكر أهل السعادة، وأهل الشقاوة، والسابقين إلى الخيرات، ليكون ذلك كالتفصيل لما ورد في أول السورة من الإجمال، والإشادة بذكر مآثر المقربين في البدء والمآل.

اللغة: ﴿تَفَكَّهُوْنَ﴾ تفكَّه بالشيء تمتع به، ورجل فكه منبسط النفس غير مكترث بشيء ﴿الْمُزْنِ﴾ السحاب جمع مُزْنَةٌ قال الشاعر:

فَنَحْنُ كَمَاءِ الْمُزْنِ مَا فِي نَصَابِنَا كَهَامٌ وَلَا فِينَا يُعَدُّ بَخِيلٌ ^(١)
﴿تُورُونَ﴾ أورى النار من الزناد قدحها ﴿لِلْمُقْوِينَ﴾ المسافرين يقال: أقوى الرجل إذا دخل القواء وهو القفر ^(٢)، والقوى الجوع، قال الشاعر:

وَإِنِّي لَأَخْتَارُ الْقَوَى طَاوِي الْحَشَى مُحَافِظَةً مِنْ أَنْ يُقَالَ: لَيْئِمٌ ^(٣)
﴿مُدْهُونٌ﴾ المدهن: الذي ظاهره خلاف باطنه، كأنه شُبَّهَ بالدهن في سهولة ظاهره ومنه المداهنة ﴿مَدِينِينَ﴾ مجزيين ومحاسنين من الدين بمعنى الجزاء ﴿فَرَوْحٌ﴾ الروح بفتح الراء الاستراحة ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ الريحان: كل مشموم طيب الريح من النبات.

التفسير: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أي نحن خلقناكم أيها الناس من العدم، فهلَّا تُصَدِّقُونَ بالبعث؟ فإن من قدر على البدء قادرٌ على الإعادة ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ أي أخبروني

(١) «تفسير القرطبي» ١٧ / ٢٢٠. (ش): نصابٌ كل شيء: أصله. ورجل كهامٌ وكهيمٌ: ثقیل، بطيء عن النصرة والحرب، لا غناء عنده.

(٢) (ش): القواء: الأرض الخالية.

(٣) نفس المرجع السابق ١٧ / ٢٢٢. (ش): المقوي الذي لا زاد معه، ويُقال: أقوى الرجل إذا تقد زاده. طايي الحشى: جوعان.

عَمَّا تَصْبُونُهُ مِنَ الْمَنِيِّ فِي أَرْحَامِ النِّسَاءِ ﴿١﴾ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٢﴾ أَيُّ هَلْ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَ هَذَا الْمَنِيَّ بَشَرًا أَمْ سَوِيًّا، أَمْ نَحْنُ بِقَدَرْتِنَا خَلَقْنَاهُ وَصَوَّرْنَاهُ؟ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَهَذَا احْتِجَاجٌ عَلَى الْمَشْرِكِينَ وَبَيَانٌ لِلآيَةِ الْأُولَى وَالْمَعْنَى: إِذَا أَقَرَرْتُمْ بِأَنَّا خَالِقُوهُ لَا غَيْرُنَا فَاعْتَرَفُوا بِالْبَعْثِ ^(١) ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾ أَيُّ نَحْنُ قَضِينَا وَحَكَمْنَا عَلَيْكُمْ بِالْمَوْتِ وَسَاوِينَا بَيْنَكُمْ فِيهِ قَالَ الضَّحَّاكُ: سَاوَى فِيهِ بَيْنَ أَهْلِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ^(٢)، سَوَاءٌ فِيهِ الشَّرِيفُ وَالْوَضِيعُ، وَالْأَمِيرُ وَالصُّعْلُوكُ ^(٣) ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أَيُّ وَمَا نَحْنُ بِعَاجِزِينَ ﴿عَلَى أَنْ نُبْدِلَ أَمْثَلَكُمْ﴾ أَيُّ عَلَى أَنْ نَهْلِكَكُمْ وَنَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ يَكُونُونَ أَطْوَعَ اللَّهُ مِنْكُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩] ﴿وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ وَلَسْنَا بِعَاجِزِينَ أَيْضًا أَنْ نَعِيدَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي خَلْقَةٍ لَا تَعْلَمُونَهَا وَلَا تَصِلُ إِلَيْهَا عَقُولُكُمْ، وَالْغَرَضُ أَنْ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَهْلِكَهُمْ وَأَنْ يَعِيدَهُمْ وَأَنْ يَبْعَثَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَفِي الْآيَةِ تَهْدِيدٌ وَاحْتِجَاجٌ عَلَى الْبَعْثِ ^(٤) ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾ أَيُّ وَلَقَدْ عَرَفْتُمْ أَنَّ اللَّهَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْعَدَمِ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا، فَخَلَقَكُمْ مِنْ نَظْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ مِنْ مَضْغَةٍ، وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أَيُّ فَهَلَا تَتَذَكَّرُونَ بِأَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِكُمْ كَمَا قَدَّرَ عَلَى خَلْقِكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ؟ ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾ [مریم: ٦٧]؟ ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ هَذِهِ حُجَّةٌ أُخْرَى عَلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ، أَيُّ: أَخْبَرُونِي عَنِ الْبَذْرِ الَّذِي تَلْقُونَهُ فِي الطِّينِ ﴿ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾؟ أَيُّ أَنْتُمْ تَنْبِتُونَهُ وَتَنْشِئُونَهُ حَتَّى يَكُونَ فِيهِ السَّنْبِلُ وَالْحَبُّ أَمْ نَحْنُ الْفَاعِلُونَ لَذَلِكَ؟ إِذَا أَقَرَرْتُمْ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَخْرِجُ الْحَبَّ وَيَنْبِتُ الزَّرْعَ، فَكَيْفَ تَنْكُرُونَ إِخْرَاجَهُ الْأَمْوَاتِ مِنَ الْأَرْضِ؟ ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ أَيُّ لَوْ أَرَدْنَا لَجَعَلْنَا هَذَا الزَّرْعَ هَشِيمًا مَتَكْسِرًا لَا يَنْتَفِعُ بِهِ فِي طَعَامٍ وَلَا غَيْرِهِ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَالْحُطَامُ الْهَشِيمُ الْهَالِكُ الَّذِي لَا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي مَطْعَمٍ وَلَا غِذَاءٍ، فَتَبَّهَهُمْ بِذَلِكَ عَلَى أَمْرَيْنِ: أَحَدُهُمَا: مَا أَوْلَاهُمْ بِهِ مِنَ النِّعَمِ فِي زَرْعِهِمْ لِيَشْكُرُوهُ. الثَّانِي: لِيَعْتَبِرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ فَكَمَا أَنَّهُ تَعَالَى يَجْعَلُ الزَّرْعَ حُطَامًا إِذَا شَاءَ، كَذَلِكَ يَهْلِكُهُمْ إِذَا شَاءَ لِيَتَعَطَّوْا فَيَنْزَجِرُوا ^(٥) ﴿فَطَلَّامُ نَفَكْهُونَ﴾ أَيُّ فَظَلَلْتُمْ وَبَقِيتُمْ تَتَفَجَّعُونَ وَتَحْزَنُونَ عَلَى الزَّرْعِ مِمَّا حَلَّ بِهِ وَتَقُولُونَ ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ أَيُّ إِنَّا لَمُحْمَلُونَ الْغَرَمِ ^(٦) فِي إِنْفَاقِنَا حَيْثُ ذَهَبَ زَرْعُنَا وَغَرِمْنَا الْحَبَّ الَّذِي

(١) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢١٦.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٣٦.

(٣) (ش): صُعْلُوكٌ: فَقِيرٌ.

(٤) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٩١.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢١٨.

(٦) قال الضحَّاكُ «مُغْرَمُونَ» مِنَ الْغَرَمِ، وَالْمُغْرَمُ الَّذِي ذَهَبَ مَالُهُ بِغَيْرِ عَوْضٍ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مُعَذَّبُونَ، وَالْغَرَامُ الْعَذَابُ.

بذَرْنَاهُ ﴿بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ﴾ أي بل نحن محرومون الرزق، غَرِمْنَا قيمة البذر، وَحُرِمْنَا خروج الزرع ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ أي أخبروني عن الماء الذي تشربونه عذبًا فرأتا لتدفعوا عنكم شدة العطش ﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ أي هل أنتم الذين أنزلتموه من السحاب أم نحن المنزلون له بقدرتنا؟ قال الخازن: ذَكَرَهُمُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ بِإِنْزَالِ الْمَطَرِ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ^(١) ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ أي لو شئنا لجعلناه ماء مالِحًا شديد الملوحة لا يصلح لشرب ولا لزراع قال ابن عباس: ﴿أُجَاجًا﴾ شديد الملوحة وقال الحسن: مُرًّا زَعَفًا لا يمكن شُرْبُهُ ^(٢) ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أي فهلاً تشكرون ربكم على نعمة الجليلة عليكم؟! وفي الحديث أن النبي ﷺ كان إذا شرب الماء قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَقَانَا عَذْبًا فُرَاتًا بِرَحْمَتِهِ، وَلَمْ يَجْعَلْهُ مِلْحًا أُجَاجًا بِذُنُوبِنَا» ^(٣) ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ أي أخبروني عن النار التي تقدحونها وتستخرجونها من الشجر الرطب ﴿أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ أي هل أنتم خلقتم شجرها أم نحن الخالقون المخترعون؟ قال ابن كثير: وللعرب شجرتان: إحدهما المَرْخُ، والأخرى العُفَارُ، إذا أخذ منهما غصنان أخضران، فحُكَّ أحدهما بالآخر تناثر من بينهما شرر النار ^(٤)، وقيل: أراد جميع الشجر الذي توقد منه النار، لما روي عن ابن عباس أنه قال: ما من شجرة ولا عود إلا وفيه النار سوى العُنَابِ ^(٥) ﴿جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ أي جعلنا نار الدنيا تذكيرًا للنار الكبرى «نار جهنم» إذا رآها الرائي ذكر بها نار جهنم، فيخشى الله ويخاف عقابه وفي الحديث: «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ». قَالُوا: «وَاللَّهِ إِنْ كَانَتْ لَكَا فَيَّةٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ». قَالَ: «فَإِنَّهَا فَضَّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا» ^(٦) ﴿وَمَتَّعْنَا لِلْمُقْوِينَ﴾ أي ومنفعةً للمسافرين قال ابن عباس: ﴿لِلْمُقْوِينَ﴾ المسافرين، وقال مجاهد: للحاضر والمسافر، المستمتعين بالنار من الناس أجمعين ^(٧) قال الخازن: والمُقْوِي النازل في الأرض القواء وهي الأرض الخالية البعيدة عن العمران. والمعنى: أنه ينتفع بها أهل البوادي والسُّفَارُ، فإن منفعتهم أكثر من المقيم، فإنهم يوقدون النار بالليل لتهرب السباع ويهتدي بها الضال إلى غير ذلك من المنافع وهو قول أكثر المفسرين ^(٨).

(١) «تفسير الخازن» ٢٣/٤.

(٢) (ش): سَمُّ زَعَفًا: سريع القتل، قَاتِلٌ فِي حِينِهِ.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم. (ش): ورواه أبو نعيم في «الحلية». وضعفه الألباني.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٤٣٨/٣.

(٥) «حاشية الصاوي على الجلالين» ١٦٦/٤. (ش): العُنَاب: شجرٌ شائك.

(٦) أخرجه الشيخان ومالك.

(٧) «مختصر تفسير ابن كثير» ٤٣٨/٣.

(٨) «تفسير الخازن» ٢٤/٤.

ولما ذكر دلائل القدرة والوحدانية في الإنسان، والنبات، والماء، والنار، أمر رسوله بتسبيح الله الواحد القهار فقال ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي فترّه يا محمد ربك عما أضافه إليه المشركون من صفات العجز والنقص وقل: سبحان من خلق هذه الأشياء بقدرته، وسخرها لنا بحكمته، سبحانه ما أعظم شأنه، وأكبر سلطانه! (عدّد سبحانه وتعالى نعمه على عباده، فبدأ بذكر خلق الإنسان فقال ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ ثم بما به قوامه ومعيشته وهو الزرع فقال ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ ثم بما به حياته وبقاؤه وهو الماء فقال ﴿أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ ثم بما يصنع به طعامه، ويصلح به اللحوم والخضار وهو النار فقال ﴿أَفَرَأَيْتُمْ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ فيا له من إله كريم، ومنعم عظيم! ثم شرع بالقسم على جلال القرآن ورفعته، وعلو شأنه ومنزلته، وأنه تنزيل العزيز الحكيم فقال ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ اللام لتأكيد الكلام وتقويته، وزيادة «لا» كثير في كلام العرب ومشهور قال الشاعر:

تَدَكَّرْتُ لَيْلَى فَأَعْتَرَنِي صَبَابَةٌ وَكَادَ نِيَاطُ الْقَلْبِ لَا يَتَقَطَّعُ^(١)

أي كاد يَتَقَطَّعُ قال القرطبي: «لا» صلة في قول أكثر المفسرين. والمعنى: «أقسم»^(٢) بدليل قوه بعده ﴿وَأِنَّهُ لَقَسَمٌ﴾^(٣) أي فأقسم بمنازل النجوم وأماكن دورانها في أفلاكها وبروجها ﴿وَأِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ أي وإن هذا القسم العظيم جليل، لو عرفتم عظمتها لآمنتهم وانتفعتهم به^(٤)، لما في المُقَسَم به من الدلالة على عظيم القدرة، وكمال الحكمة، وفراط الرحمة، ومن مقتضيات رحمته تعالى أن لا يترك عباده سُدى ﴿وَأِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ هذا هو المُقَسَم عليه. والمعنى: أقسم بمواقع النجوم أن هذا القرآن وقرآن كريم، ليس بسحر ولا كهانة وليس بمفتري، بل هو قرآن كريم مجيد، جعله الله معجزة لنبيه محمد ﷺ وهو كثير المنافع والخيرات والبركات ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ أي في كتاب مصون عند الله تعالى، محفوظ عن الباطل وعن التبديل والتغيير قال ابن عباس: هو اللوح المحفوظ، وقال مجاهد: هو

(١) (ش): صَبَابَةٌ: عَشَقٌ وَحُبٌّ. نِيَاطُ الْقَلْبِ: عِرْقٌ غَلِيظٌ ممتد من الرئتين ومتصل بالقلب، فإذا قُطِع مات صاحبه.

(٢) (ش): أي «لا» صلة زائدة مؤكدة، أي توصل للمعنى الأساسي لتأكيد وتقويته.

(٣) (تفسير القرطبي) ١٧/٢٢٣، وانظر تفصيل الأقوال وأرجحها في كتابنا «تفسير آيات الأحكام» الجزء الثاني

ص ٥٠٥.

(٤) (لم يكن المخاطبون يعلمون عن مواقع النجوم إلا القليل، أما في هذا العصر فقد ظهرت معجزة القرآن يقول الفلكيون: إن مجموعة واحدة من المجموعات التي لا تحصى في الفضاء الهائل، الذي لا يعرف له حدوداً مجموعة واحدة هي «المجرة» التي تنتسب إليها أسرتنا الشمسية تبلغ ألف مليون نجم، وإن من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة «بلايين» نجم منها ما يمكن رؤيته بالعين المجردة، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة، هذه كلها تسبح في الفلك الغامض، ولا يوجد أي احتمال أن يقترب نجم من مجال نجم آخر، أو يصطدم بكوكب آخر، إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض بآخر في المحيط الهادي، ويسيران باتجاه واحد وبسرعة واحدة وهو احتمال بعيد جداً إن لم يكن مستحيلاً، نقلاً عن كتاب «الله والعلم الحديث» ص ٣٣».

المصحف الذي بأيدينا^(١) ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ أي لا يمس ذلك الكتاب المكنون إلا المطهرون، وهم الملائكة الموصوفون بالطهارة من الشرك والذنوب والأحداث، أو لا يمسّه إلا من كان متوضئاً طاهراً قال القرطبي: المراد بالكتاب المصحف الذي بأيدينا وهو الأظهر لقول ابن عمر «لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر» ولكتاب رسول الله ﷺ لعمر بن حزم «ألا يمس القرآن إلا طاهر»^(٢) ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْمَلَكِينَ﴾ أي منزل من عند الله جل وعلا.. ثم لما عظم أمر القرآن ومجد شأنه وبخ الكفار فقال ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ﴾ أي أفبهذا القرآن يا معشر الكفار تكذبون وتكفرون؟ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾ أي وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون برازقكم، وهو المنعم المتفضل عليكم؟ ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ أي فهلاً إذا بلغت الروح الحلقوم عند معالجة سكرات الموت ﴿وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ﴾ أي وأنتم في ذلك الوقت تنظرون إلى المحتضر وما يكابده من شدائد وأهوال ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصِيرُونَ﴾ أي ونحن بعلمنا واطلاعنا أقرب إلى الميت منكم ولكن لا تعلمون ذلك، ولا تبصرون ملائكتنا الذين حضروه لقبض روحه قال ابن كثير: ومعنى الآية ملائكتنا أقرب إليه منكم ولكن لا ترونهم كما قال تعالى ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]^(٣) ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي فهلاً إن كنتم غير مجزيين بأعمالكم كما تزعمون ﴿تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي تردون نفس هذا الميت إلى جسده بعد ما بلغت الحلقوم قال ابن عباس: ﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي غير محاسبين ولا مجزيين قال الخازن: أجاب عن قوله ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ وعن قوله ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ بجواب واحد وهو قوله ﴿تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ومعنى الآية: إن كان الأمر كما تقولون أنه لا بعث ولا حساب، ولا إله يجازي، فهلاً تردون نفس من يعز عليكم إذا بلغت الحلقوم؟ وإذا لم يمكنكم ذلك فاعلموا أن الأمر إلى غيركم وهو الله تعالى فآمنوا به^(٤).. ثم ذكر تعالى طبقات الناس عند الموت وعند البعث، وبين درجاتهم في الآخرة فقال ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (٨٨) ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ أي فأما إن كان هذا الميت من المحسنين السابقين بالدرجات العلا، فله عند ربه استراحة ورزق حسن وجنة واسعة يتنعم فيها قال القرطبي: والمراد بالمقربين السابقون المذكورون في أول السورة^(٥) ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي وأما إن كان المحتضر من السعداء أهل الجنة الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم ﴿فَسَلَامٌ لَكَ مِنَ الْيَمِينِ﴾ أي فسلام لك يا محمد منهم،

(١) «تفسير القرطبي» ١٧ / ٢٢٥.

(٢) نفس المصدر السابق والصفحة. (ش): رواه الطبراني وصححه الألباني.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣ / ٤٤٠.

(٤) «تفسير الخازن» ٤ / ٢٧.

(٥) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤ / ٩٤.

لأنهم في راحة وسعادة ونعيم ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ أي وأما إن كان المحتضر من المنكرين للبعث، الضالين عن الهدى والحق ﴿فَنَزَّلُ مِنَ حَمِيمٍ﴾ أي فضيافتهم التي يكرمون بها أول قدومهم، الحميم الذي يصهر البطون لشدة حرارته قال في التسهيل: النزل أول شيء يقدم للضيف^(١) ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي ولهم إصلاء بنار جهنم وإذاقة لهم من حرها ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي إن هذا الذي قصصناه عليك يا محمد من جزاء السابقين، والسعداء، والأشقياء لهو الحق الثابت الذي لا شك فيه ولا ريب، وهو عين اليقين الذي لا يمكن إنكاره ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي فنزه ربك عن النقص والسوء، وعمّا يصفه به الظالمون، لما نزلت هذه الآية الكريمة قال النبي ﷺ: «اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ»، ولما نزلت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] قال ﷺ: «اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ»^(٢).

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - جناس الاشتقاق ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة: ١] والجناس الناقص في قوله ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾.

٢ - الطباق بين ﴿الْمِئْمَنَةِ.. الْمَشْئَمَةِ﴾ وبين ﴿الْأُولَيْنَ.. وَالْآخِرِينَ﴾ وبين ﴿خَافِضَةً.. رَافِعَةً﴾ وفي إسناد الخفض والرفع إلى القيامة مجاز عقلي، لأن الخافض والرافع على الحقيقة هو الله وحده، يرفع أوليائه ويخفض أعداءه، ونُسب إلى القيامة مجازاً كقولهم «نهاره صائم».

٣ - التشبيه المرسل المجمل ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾^(٢٢) كَأَمْثَلِ اللَّوْلُوءِ اللَّمَّكَونِ ﴿[الواقعة: ٢٢-٢٣] أي كأمثال اللؤلؤ في بياضه وصفائه، حذف منه وجه الشبه فهو مرسل مجمل.

٤ - التفعييم والتعظيم ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧] كرهه بطريق الاستفهام تفعيماً.

٥ - التفنن بذكر أصحاب الميمنة ثم بذكر أصحاب اليمين، وكذلك بذكر المشأمة وذكر أصحاب الشمال ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [الواقعة: ٨] ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧].

٦ - تأكيد المدح بما يشبه الذم ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾^(٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿[الواقعة: ٢٥-٢٦] لأن السلام ليس من جنس اللغو والتأثيم، فهو مدح لهم بإفشاء السلام، وهذا كقول القائل «لا ذنب لي إلا محبتك».

٧ - التهكم والاستهزاء ﴿هَذَا نَزْنُكُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥٦] أي: هذا العذاب أول ضيافتهم

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٩٤ / ٤.

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجه وصححه الحاكم. (ش): ضعفه الألباني.

يوم القيامة ففيه سخرية وتهكم بهم؛ لأن النزل هو أول ما يقدم للضيف من الكرامة.
 ٨ - الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتَآ الصَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٥١] ثم قال بعد ذلك ملتفتاً عن خطابهم ﴿هَذَا نَزَّلْنَاهُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥٦] وذلك للتحقير من شأنهم، والأصل هذا نزل لكم.

٩ - الجملة الاعتراضية وفائدتها لفت الأنظار إلى أهمية القسم ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ جاءت الجملة الاعتراضية ﴿لِّوَعْلَمُونَ﴾ بين الصفة والموصوف للتهويل من شأن القسم.

١٠ - توافق الفواصل في الحرف الأخير مما يزيد في رونق الكلام وجماله مثل ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ (٢٨) ﴿وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ﴾ (٢٩) ﴿وَزُلْجَلٍ مَّمدُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٨-٣٠] ومثل ﴿فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾ (٥٤) ﴿فَشَرِبُونَ شُرْبَ الْهَمِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٤-٥٥] ويسمى هذا بالسجع المرصع وهو من المحسنات البديعية.
 لطيفة: المناسبة بين المقسم به وهو النجوم وبين المقسم عليه وهو القرآن ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ (٧٥) ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (٧٦) ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ أن النجوم جعلها الله ليهتدي بها الناس في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يهتدي بها في ظلمات الجهل والضلالة، وتلك ظلمات حسية، وهذه ظلمات معنوية، فالقسم جاء جامعاً بين الهديتين: الحسية للنجوم، والمعنوية للقرآن، فهذا وجه المناسبة والله أعلم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الواقعة»



سُورَةُ الْحَدِيدِ

٢٩

٥٧

مدنية وآياتها تسع وعشرون

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة من السور المدنية، التي تعني بالتشريع التربية والتوجيه، وتبني المجتمع الإسلامي على أساس العقيدة الصافية، والخلق الكريم، والتشريع الحكيم. وقد تناولت السورة الكريمة «سورة الحديد» ثلاثة مواضيع رئيسة وهي:

* **أولاً:** أن الكون كله لله جل وعلا، هو خالقه ومبدعه، والمتصرف فيه بما يشاء.

* **ثانياً:** وجوب التضحية بالنفس والنفيس لإعزاز دين الله، ورفع منار الإسلام.

* **ثالثاً:** تصوير حقيقة الدنيا بما فيها من بهرج ومتاع خادع حتى لا يغتر بها الإنسان.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن عظمة الخالق جل وعلا الذي سبج له كل ما في الكون من شجر وحجر، ومدر، وإنسان، وحيوان، وجماد، فالكل ناطق بعظمته شاهد بوحدانيته.

* ثم ذكرت صفات الله الحسنی، وأسماء العلیا، فهو الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، والظاهر بآثار مخلوقاته، والباطن الذي لا يعرف كنه حقيقته أحد^(١)، وهو الخالق للإنسان والمدبر للأكوان.

* ثم تلتها الآيات وهي تدعو المسلمين إلى البذل والسخاء والإنفاق في سبيل الله بما يحقق عز الإسلام ورفعة شأنه، فلا بد للمؤمن من الجهاد بالنفس والمال لينال السعادة في الدنيا والمثوبة في الآخرة.

* وتحدثت السورة عن أهل الإيمان، وأهل النفاق، فالمؤمنون يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، والمنافقون يتخطون في الظلمات، كما كانوا في الدنيا يعيشون كالبهائم في ظلمات الجهل والغي والضلال.

* وتحدثت السورة عن حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة، وصورتهما أدق تصوير، فالدنيا دار الفناء، فهي زائلة فانية، كمثل الزرع الخصيب الذي ينبت بقوة بنزول الغيث، ثم يصفر ويذبل

(١) (ش): فسر المؤلف اسم الله الظاهر والباطن تفسيراً يخالف ما فسرهما به رسول الله ﷺ وقد ساق المؤلف تفسير الرسول ﷺ لهذين الاسمين الكريمين بما يُبطل تفسيره هذا. قال ﷺ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ» (رواه مُسْلِمٌ). فقد فسر ﷺ الظهور بظهور ذاته وعلوها فوق مخلوقاته، وفسر الباطن بقربه من عباده. فكان يجب على المؤلف أن يلتزم بتفسير النبي ﷺ لا سيما أنه قد نقل في تفسير «سورة الكوثر» عن أبي حيان في «البحر المحيط» قوله: «إِنْ فِي الْكُوثَرِ سِتَّةٌ وَعِشْرِينَ قَوْلًا، وَأَنْ الصَّحِيحُ هُوَ مَا فَسَّرَهُ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ».

حتى يصير هشيماً وحطاماً تذروه الرياح، بينما الآخرة دار الخلود والبقاء، التي لا نصب فيها ولا تعب، ولا هم ولا شقاء.

* وختمت السورة الكريمة بالغاية من بعثة الرسل الكرام، والأمر بتقوى الله عز وجل، والاقتداء بهدى رسله وأنبيائه.

التسمية: سميت السورة «سورة الحديد» لذكر الحديد فيها، وهو قوة الإنسان في السلم والحرب، وعدته في البنيان والعمران، فمن الحديد تبنى الجسور الضخمة، وتشاد العماثر، وتصنع الدروع والسيوف والرماح، وتكون الدبابات والغواصات والمدافع الثقيلة إلى غير ما هنالك من منافع.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِنْكُمْ إِيمَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبْتَغِي لِيُخْرِجَكُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٍ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلِهِمْ وَكَذَلِكَ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يَفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَعِفُهُ لَهُ، وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَتُكُمُ الْيَوْمَ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَنَفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَسِمْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُوا لَهُمْ لَعْنٌ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَتْكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ

اللغة: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ نزه الله ومجده وقده ﴿الْعَزِيزُ﴾ القوي الغالب على كل شيء ﴿الْأَوَّلُ﴾ السابق على جميع الموجودات ﴿وَالْآخِرُ﴾ الباقي بعد فنائها ﴿يَلِجُ﴾ يدخل ﴿يَعْرُجُ﴾ يصعد ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ بوجوده ومصنوعاته وآثاره ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ بكنهه ذاته عن إدراك الأبصار له^(١)

(١) (ش): فسر المؤلف اسم الله الظاهر والباطن تفسيراً يخالف ما فسرهما به رسول الله ﷺ وقد ساق المؤلف =

﴿الْحَسَنَى﴾ المثوبة الحسنة والمراد بها الجنة ﴿أَنْظُرُونَا﴾ انتظرونا ﴿نَقْصُيْ﴾ نستضي ونهتد بنوركم ﴿سُورٍ﴾ حازز بين الجنة والنار ﴿الْعُرُورِ﴾ الشيطان وكل من خدع غيره فهو غارٌّ وعُرُورٌ.

التفسير: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي مجد الله ونزهه عن السوء كل ما في الكون من إنسان، وحيوان، ونبات قال الصاوي: والتسبيح تنزيه المولى عن كل ما لا يليق به قولاً، وفعلًا، واعتقادًا، من سبح في الأرض والماء إذا ذهب وأبعد فيهما، وتسبيح العقلاء بلسان المقال، وتسبيح الجماد بلسان الحال، أي إن ذاتها دالة على تنزيه صانعها عن كل نقص، وقيل بلسان المقال أيضًا ﴿وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]^(١) وقال الخازن: تسبيح العقلاء تنزيه الله عز وجل عن كل سوء، وعما لا يليق بجلاله، وتسبيح غير العقلاء من ناطق وجماد اختلفوا فيه، فقيل: تسبيحه دلالة على صانعه، فكأنه ناطق بتسبيحه، وقيل: تسبيحه بالقول يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] أي قولهم، والحق أن التسبيح هو القول الذي لا يصدر إلا من العاقل العارف بالله تعالى^(٢)، وما سوى العاقل ففي تسبيحه وجهان: أحدهما: أنها تدل على تعظيمه وتنزيهه والثاني: أن جميع الموجودات بأسرها منقادة له يتصرف فيها كيف يشاء^(٣)، فإن حملنا التسبيح على القول كان المراد بقوله ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الملائكة والمؤمنون العارفون بالله، وإن حملنا التسبيح على التسبيح المعنوي، فجميع أجزاء السموات وما فيها من شمس، وقمر، ونجوم وغير ذلك وجميع ذرات الأرضين وما فيها من جبال، وبحار، وشجر، ودواب وغير ذلك كلها مسبحة خاشعة خاضعة لجلال عظمة الله، منقادة له يتصرف فيها كيف يشاء، فإن قيل: قد جاء في بعض فواتح السور ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ بلفظ الماضي، وفي بعضها ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ بلفظ المضارع فما المراد؟ قلت: فيه إشارة إلى كون جميع الأشياء مسبحة الله أبدًا، غير مختص بوقت دون وقت، بل هي كانت مسبحة أبدًا في الماضي، وستكون مسبحة أبدًا في المستقبل^(٤) ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي وهو الغالب على أمره الذي لا يمانعه ولا ينازعه شيء، الحكيم في أفعاله الذي لا

= تفسير الرسول ﷺ لهذين الاسمين الكريمين بما يُبطل تفسيره هذا. قال ﷺ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ» (رواه مُسْلِمٌ). فقد فسر ﷺ الظهور بظهور ذاته وعلوها فوق مخلوقاته، وفسر الباطن بقربه من عباده.

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ١٦٨ / ٤.

(٢) (ش): هذا الترجيح خلاف ظاهر الآية ولا دليل عليه.

(٣) (ش): قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ والله قادر على أن يجعل للكائنات نطقًا يناسبها لا نفهمه نحن.

(٤) «تفسير الخازن» ٢٩ / ٤.

يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.. ثم ذكر تعالى عظمته وقدرته فقال ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي هو جلّ وعلا المالك المتصرف في خلقه، يحيي من يشاء، ويميت من يشاء قال القرطبي: يميت الأحياء في الدنيا، ويحيي الأموات للبعث والنشور^(١) ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولفظ ﴿قَدِيرٌ﴾ مبالغة في القادر لأن «فعل» من صيغ المبالغة ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ أي ليس لوجوده بداية، ولا لبقائه نهاية ﴿وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ أي الظاهر للعقول بالأدلة والبراهين الدالة على وجوده، الباطن الذي لا تدركه الأبصار، ولا تصل العقول إلى معرفة كنه ذاته^(٢) وفي الحديث «أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ»^(٣) قال شيخ زاده: وقد فسّر صاحب الكشاف «الباطن» بأنه غير المدرك بالحواس وهو تفسير بحسب الشهي يؤيد مذهبه من استحالة رؤية الله في الآخرة، والحق أنه تعالى ظاهر بوجوده، باطن بكنهه، وأنه تعالى جامع بين الوصفين أزلاً وأبداً^(٤) ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي هو تعالى عالم بكل ذرة في الكون، لا يعزب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي خلقهما في مقدار ستة أيام ولو شاء لخلقهما بلمح البصر، وهو تحقيق لعزته، وكمال قدرته، كما أن قوله ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ تحقيق لحكمته، وكمال علمه ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ استواء يليق بجلاله من غير تمثيل ولا تكيف^(٥)

(١) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٣٦.

(٢) هذا أرجح الأقوال في تفسير «الظاهر والباطن» وقد اختاره «أبو السعود» والألوسي.

(ش): فسر المؤلف اسم الله الظاهر والباطن تفسيراً يخالف ما فسرهما به رسول الله ﷺ وقد ساق المؤلف تفسير الرسول ﷺ لهذين الاسمين الكريمين بما يبطل تفسيره هذا. قال ﷺ: اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ (رواه مسلم). فقد فسر ﷺ الظهور بظهور ذاته وعلوها فوق مخلوقاته، وفسر الباطن بقربه من عباده.

(٣) هذا جزء من حديث أخرجه الإمام مسلم وأحمد.

(٤) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٤٤٨.

(٥) انظر تفصيل معنى الاستواء في سورة الأعراف. (ش): فسر المؤلف الاستواء بالعلو في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٣] فقال: «أي علا فوق العرش علواً يليق بجلاله». وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]: «﴿اسْتَوَى﴾ الاستواء: العلو والاستقرار». وقال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي استواء يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تحريف كما هو مذهب السلف وكما قال الإمام مالك رحمه الله: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة وقال الإمام أحمد رحمه الله: أخبار الصفات تمر كما جاءت بلا تشبيه ولا تعطيل فلا يقال: كيف؟ ولم؟ نؤمن بأن الله على العرش كيف شاء، وكما شاء بلا حد ولا صفة يبلغها واصف أو يحدها حاد، نقرأ الآية والخبر ونؤمن بما فيهما ونكفل الكيفية في الصفات إلى علم الله عز وجل وقال القرطبي: لم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تعلم حقيقته.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي يعلم ما يدخل في الأرض من مطر وأموات، وما يخرج منها من معادن ونبات وغير ذلك ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي وما ينزل من السماء من الأرزاق، والملائكة، والرحمة، والعذاب، وما يصعد فيها من الملائكة والأعمال الصالحة كقوله ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ أي هو جل وعلا حاضر مع كل أحد بعلمه وإحاطته قال ابن عباس: هو عالم بكم أينما كنتم قال ابن كثير: أي هو رقيب عليكم، شهيد على أعمالكم، حيث كنتم وأين كنتم، من بر وبحر، في ليل أو نهار، في البيوت أو القفار^(١)، الجميع في علمه على السواء، يسمع كلامكم ويرى مكانكم، ويعلم سرّكم ونجواكم^(٢) ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي رقيب على أعمال العباد، مُطَّلِع على كل صغيرة وكبيرة

(١) (ش): أقفر المكان: خلا من الماء والعُشب والنّاس. قفار: جمع قَفَر: خال من الماء والعُشب والنّاس.
(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٤٤٥/٣، قال في البحر: أجمعت الأمة على تأويل هذه الآية وأنها لا تحمّل على ظاهرها من المعية بالذات ثم قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أي بالعلم والقدرة. اهـ. وقال القرطبي: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أي بقدرته وسلطانه وعلمه وقال البيضاوي: أي لا ينفك علمه وقدرته عنكم. وقال الألوسي: والآية تمثيل لإحاطة علم الله بهم، وتصوير لعدم خروجهم عنه أينما كانوا. اهـ. أقول: وهذه الأقوال عن السلف والخلف ترد على منع التأويل في كتاب الله تعالى مطلقاً إذ كيف يمكن أن نفهم قوله تعالى عن سفينة نوح: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾، وقوله لموسى: ﴿وَلْنُصَنِّعَ عَلَى عَيْنِي﴾، وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِمْ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾، وقوله عليه السلام: «الحجر الأسود يمين الله في الأرض»!! (ش): تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ بالعلم ليس بتأويل ولكنه هو معنى آيات المعية عند أهل السنة والجماعة. كما حكى الإمام أبو عمر بن عبد البر وأبو عمر الظلمنكي إجماع أهل السنة على ذلك، وذلك لأن النصوص من الكتاب والسنة الدالة على علوه وفوقيته وتنزيهه سبحانه عن الحلول والاتحاد تقتضي ذلك، ومن تأمل الآيات الواردة في ذلك علم أنها تدل على أن المراد بالمعية العلم بأحوال عبادهم وإطلاعهم على شئونهم مع دلالة المعية الخاصة على كلاءته ورعايته وحفظه ونصره لأنبيائه وأوليائه. مع علمه وإطلاعهم على أحوالهم، والعرب الذين نزل عليهم الكتاب وجاءت السنة بلغتهم يعلمون ذلك ولا يشبته عليهم، ولهذا لم يسألوا النبي ﷺ عن معاني هذه الآيات لظهورها لهم. أما النصوص الأخرى فلا تحتاج إلى تأويل لأن المعنى فيها ظاهر مثل قوله سبحانه: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ ﴿وَلْنُصَنِّعَ عَلَى عَيْنِي﴾ ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ فلا يدور بخلد أحد أن السفينة تجري بعين الله ولا أن محمداً عليه الصلاة والسلام في عين الله وإنما المراد بذلك أن السفينة تجري برعاية الله وعنايته وتسخيرها لها وحفظه لها، وأن محمداً ﷺ تحت رعاية مولاه وعنايته وحفظه وكلاءته، وهكذا قوله في حق موسى: ﴿وَلْنُصَنِّعَ عَلَى عَيْنِي﴾ أي تحت رعايتي وحفظي. وأما قوله سبحانه: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِمْ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ فقد فسر جماعة بقرب الملائكة لأن قريتهم من العبد حين يتلقى المتلقين وحين الموت كان بأمره سبحانه وتقديره ورعايته لعباده، وفسره آخرون بأنه قربه سبحانه بعلمه وقدرته وإحاطته بعباده كالمعية وكقربه من عابديه وسائليه مع علوه وفوقيته سبحانه وليس المراد الحلول ولا الاتحاد، تعالى الله عن ذلك وتقدس لأن الأدلة القطعية من الكتاب والسنة تدل على أنه سبحانه فوق العرش بائن من خلقه عالٍ عليهم وعلمه في كل مكان. فمن تدبر النصوص من الكتاب والسنة وفسر بعضها ببعض اتضح له المعنى ولم يحتج إلى التأويل، وقد اختار أبو جعفر بن جرير - رحمه الله - في تفسيره القول الثاني في سورة (ق) والقول الأول في سورة الواقعة. وأما حديث (الحجر الأسود يمين الله في الأرض) فهو حديث قال الألباني عنه: إنه موضوع. وقد أنكر أهل السنة على من تأول نصوص الصفات وبدّعه لما يترتب على تأويلها من أنواع الباطل وتحريف الكلم عن مواضعه وتجريد الرب سبحانه من صفات الكمال وسوء الظن به، وأنه خاطب عباده بما ظاهره تشبيه وتمثيل وأن المراد غيره. وهذا هو التأويل المذموم وهذا =

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كرهه للتأكيد والتمهيد لإثبات الحشر والنشر أي هو المعبود على الحقيقة^(١)، المتصرف في الخلق كيف يشاء ﴿وَالْيَاسُوتُ رُجْعُ الْأُمُورِ﴾ أي إليه وحده مرجع أمور الخلائق في الآخرة فيجازيهم على أعمالهم ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي هو المتصرف في الكون كيف يشاء، يقلب الليل والنهار بحكمته وتقديره، ويدخل كلا منهما في الآخر، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، وأخرى بالعكس ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي هو العالم بالسرائر والضمائر، وما فيها من النوايا والخفايا، ومن كانت هذه صفته فلا يجوز أن يُعبد سواه ثم لما ذكر دلائل عظمته وقدرته، أمر بتوحيده وطاعته فقال ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي صدّقوا بأن الله واحد^(٢) وأن محمدًا عبده ورسوله ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ﴾ أي وتصدقوا من الأموال التي جعلكم الله خلفاء في التصرف فيها، فهي في الحقيقة لله لا لكم قال في التسهيل: يعني أن الأموال التي بأيديكم إنما هي أموال الله لأنه خلقها، ولكنه مَنَّكم بها وجعلكم خلفاء بالتصرف فيها، فأنتم فيها بمنزلة الوكلاء فلا تمنعوها من الإنفاق فيما أمركم مالكمها أن تنفقوها فيه^(٣)، والمقصود التحريض على الإنفاق والترهيد في الدنيا ولهذا قال بعده: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي فالذين جمعوا بين الإيمان الصادق والإنفاق في سبيل الله^(٤) ابتغاء وجهه الكريم لهم أجر عظيم وهو الجنة قال أبو السعود: وفي الآية من المبالغات ما لا يخفى، حيث جعل الجملة اسمية ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وأعيد ذكر الإيمان والإنفاق ﴿ءَامِنُوا وَأَنفِقُوا﴾ وكرر الإسناد ﴿لَهُمْ﴾ وفخم الأجر بالتنكير ووصفه بالكبير ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ استفهام للإنكار والتوبيخ أي أي عذر لكم في ترك الإيمان بالله؟ ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرِسَالِهِ﴾ أي والحال أن الرسول ﷺ يدعوكم للإيمان بربكم وخالقكم،

= هو الذي سلكه أهل الكلام وأنكره عليهم أهل السنة وضلّوهم في ذلك، لكونهم أولوا النصوص عن ظاهرها وصرّفوها عن الحق الذي دلت عليه بلا حجة ولا برهان من كتاب ولا سنة، بل بمقتضى عقولهم وأرائهم التي لم يُنزل الله بها من حجة ولا قام عليها برهان. وقد ألزموهم فيما أثبتوا نظير ما فروا منه فيما تأولوه وهو لازم لهم بلا شك. ولا يسلم من التناقض واللوازم الباطلة إلا من أثبت ما أثبتته الله ورسوله ونفى ما نفاه الله ورسوله وهم أهل السنة والجماعة، والله المستعان.

(١) (ش): في الواقع معبودات كثيرة بالباطل، فالصواب أن يقال: «هو الذي يجب أن يُعبد على الحقيقة». وسيأتي بعد قليل قول المؤلف عن الله: «ومن كانت هذه صفته فلا يجوز أن يُعبد سواه».

(٢) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديق القلب وقول باللسان وعمل بالجوارح.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٩٥/٤ وقيل المعنى: مما جعلكم خلفاء عمن كان قبلكم فيما كان بأيديهم فانتقل لكم بالإرث وسيخلفكم فيه من بعدكم، والأول أظهر.

(٤) (ش): هذا التعبير يعطي التفريق بين الإيمان والعمل، وأنه يمكن أن يكون إيمان صادق بدون عمل، والصواب: أن العمل جزء من الإيمان فلا يكون إيمان بدون عمل، وعُطِفَ العمل على الإيمان من عطف الخاص على العام اهتمامًا به.

بالبراهين القاطعة، والحجج الدامغة ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ أي وقد أخذ الله ميثاقكم وهو العهد المؤكد بما رُكِّز في العقول من الأدلة الدالة على وجود الله^(١) قال أبو السعود: وذلك بنصب الأدلة والتمكين من النظر^(٢) وقال الخازن: أخذ ميثاقكم حين أخرجكم من ظهر آدم وأعلمكم بأن الله ربكم لا إله لكم سواه، وقيل: أخذ ميثاقكم حيث ركب فيكم العقول، ونصب لكم الأدلة والبراهين والحجج التي تدعو إلى متابعة الرسول^(٣) ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ شرطٌ حذف جوابه أي إن كنتم مؤمنين في وقت من الأوقات فالآن أخرى الأوقات لقيام الحجج والبراهين عليكم.. ثم ذكر تعالى بعض الأدلة الدالة على وجوب الإيمان فقال ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي هو تعالى الذي ينزل على محمد القرآن العظيم، المُعْجِزِ في بيانه، الواضح في أحكامه قال القرطبي: يريد بالآيات البينات القرآن - وقيل: المعجزات - أي لزكم الإيمان بمحمد ﷺ لما معه من المعجزات، والقرآن أكبرها وأعظمها^(٤) ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي مبالغ في الرأفة والرحمة بكم، حيث أنزل الكتب وأرسل الرسل لهدايتكم، ولم يقتصر على ما نصب لكم من الحجج العقلية ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؟ أي أي شيء يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله، وفيما يقربكم من ربكم، وأنتم تموتون وتخلّفون أموالكم وهي صائرة إلى الله تعالى؟ قال الإمام الفخر: المعنى: إنكم ستموتون فتورثون، فهلاًّ قدمتموه في الإنفاق في طاعة الله^(٥)!! وهذا من أبلغ الحث على الإنفاق في سبيل الله ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَّنْ أَنْفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٍ﴾ أي لا يستوي في الفضل من أنفق ماله وقاتل الأعداء مع رسول الله قبل فتح مكة، مع من أنفق ماله وقاتل بعد فتح مكة قال المفسرون: وإنما كانت النفقة قبل الفتح أعظم، لأن حاجة الإسلام إلى الجهاد والإنفاق كانت أشد، ثم أعز الله الإسلام بعد الفتح وكثر ناصريه، ودخل الناس في دين الله أفواجا ﴿أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةٍ مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِن بَعْدِ وَقَتْلُوا﴾ أي أعظم أجراً، وأرفع منزلة من الذين أنفقوا من بعد فتح مكة وقاتلوا لإعلاء كلمة

(١) (ش:) في هذا التعبير نظر، والأولى أن يقال: بما رُكِّز في العقول من معرفة الله بالأدلة. وليس المقصود من الأدلة مجرد معرفة وجود الله فقط، لأن لفظ الوجود ليس فيه مدح لأنه يشترك فيه كل موجود، وإنما المقصود من الأدلة معرفة استحقيقه للعبادة وحده.

(٢) «تفسير أبي السعود» ١٣٧/٥.

(٣) «تفسير الخازن» ٣١/٤. (ش:) قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ١١): «وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [الْمَائِدَة: ٧]. وَيَعْنِي بِذَلِكَ: بَيْعَةَ الرَّسُولِ ﷺ. وَزَعَمَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ الْمِيثَاقَ الَّذِي أَخَذَ عَلَيْهِمْ فِي صُلْبِ آدَمَ، وَهُوَ مَذْهَبٌ مُّجَاهِدٍ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ».

(٤) «تفسير القرطبي» ٢٣٩/١٧.

(٥) «التفسير الكبير» ٢٩/٢١٨.

الله قال الكلبي: نزلت في «أبي بكر» لأنه أول من أسلم، وأول من أنفق ماله في سبيل الله، وذبح عن رسول الله ﷺ^(١) ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ أي وكلاً ممن آمن وأنفق قبل الفتح، ومن آمن وأنفق بعد الفتح، وعده الله الجنة مع تفاوت الدرجات ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي عالم بأعمالكم، مُطَّلِعٌ على خفاياكم ونواياكم، ومجازيكم عليه، وفي الآية وعدٌ ووعد ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي من ذا الذي ينفق ماله في سبيل الله ابتغاء رضوانه ﴿فِيُضْعِفَهُ لَهُ﴾ أي يعطيه أجره على إنفاقه مضاعفاً ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي وله مع المضاعفة ثواب عظيم كريم وهو الجنة قال ابن كثير: أي جزاء جميل ورزق باهر وهو الجنة، ولما نزلت هذه الآية قال «أبو الدحداح الأنصاري»: يا رسول الله، وإن الله ليريد منا القرض؟ قال: «نعم يا أبا الدحداح»، قال: أرني يدك يا رسول الله، فناوله يده، قال: فإني قد أقرضت ربي حائطي -أي بستاني- وله فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه هي وعيالها، فجاء أبو الدحداح فنادها: يا أم الدحداح قالت: لبيك، قال اخرجي فقد أقرضته ربي عزَّ وجلَّ، فقالت: «ربح بيعك يا أبا الدحداح ونقلت منه متاعها وصبيانها»^(٢). ثم أخبر تعالى عن المؤمنين الأبرار، وما يتقدمهم من الأنوار وهم على الصراط فقال ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ أي اذكر يوم ترى أنوار المؤمنين والمؤمنات تتلألأ من أمامهم ومن جميع جهاتهم ليستضيئوا بها على الصراط، وتكون وجوههم مضيئة كإضاءة القمر في سواد الليل ﴿بُشْرَكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتْ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي ويقال لهم: أبشروا اليوم بجنان الخلد والنعيم، التي تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي الفوز الذي لا فوز بعده لأنه سبب السعادة الأبدية، رُوِيَ أن نور كل أحد على قدر إيمانه، وأنهم متفاوتون في النور، فمنهم من يضيء نوره ما قرب من قدميه، ومنهم من يُطفأ نوره مرة ويظهر مرة^(٣) قال الزمخشري: وإنما قال ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ٣٢. (ش): ذكره الخازن بدون إسناد. والكلبي محمد بن السائب مُتَّهِمٌ بالكذب، أضف

إلى ذلك الانقطاع بينه وبين النبي ﷺ فالكلبي من الذين عاصروا صغار التابعين وقد توفي عام ١٤٦ هـ.

(٢) تفسير ابن كثير المخصر ٤٨/ ٣. (ش): ضعفه البوصيري والألباني. عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّ لِفُلَانٍ نَخْلَةً، وَأَنَا أَقِيمُ حَائِطِي بِهَا، فَأَمُرُهُ أَنْ يُعْطِيَنِي حَتَّى أَقِيمَ حَائِطِي بِهَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَعْطَاهَا إِيَّاهُ بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ فَأَبَى، فَأَتَاهُ أَبُو الدَّحْدَاحِ فَقَالَ: بِغَنِيِّ نَخْلَتِكَ بِحَائِطِي. فَفَعَلَ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي قَدْ ابْتِغْتُ النَّخْلَةَ بِحَائِطِي. قَالَ: «فَأَجْعَلْهَا لَهُ، فَقَدْ أَعْطَيْتُكَهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَمْ مِنْ عَذْقٍ رَدَّاحٍ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ فِي الْجَنَّةِ» فَأَلَّهَا مَرَارًا. قَالَ: فَأَتَى امْرَأَتَهُ فَقَالَ: يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ اخْرُجِي مِنَ الْحَائِطِ، فَإِنِّي قَدْ بَعْتُهُ بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ. فَقَالَتْ: رَبِيعَ الْبَيْعِ. أَوْ كَلِمَةً تُشَبِّهُهَا. (رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَالْأَلْبَانِيُّ). «عَذْقٌ» قِيلَ: بِالْكَسْرِ الْغُصْنُ، وَبِالْفَتْحِ النَّخْلَةُ أَوْ الْحَائِطُ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ هَا هُنَا النَّخْلَةَ. «رَدَّاحٌ»: ثَقِيلٌ لِكثْرَةِ مَا فِيهِ مِنَ الثَّمَارِ.

(٣) (ش): رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف.

الجهتين، كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ووراء ظهورهم^(١). ولما شرح حال المؤمنين يوم القيامة، أتبع ذلك بشرح حال المنافقين فقال ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ أي انتظرونا لنستضيء من نوركم قال المفسرون: إن الله تعالى يعطي المؤمنين نوراً يوم القيامة على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط، ويترك الكافرين والمنافقين بلا نور، فيستضيء المنافقون بنور المؤمنين، فبينما هم يمشون إذ بعث الله فيهم ريحاً وظلمة، فبقوا في الظلمة لا يبصرون مواضع أقدامهم فيقولون للمؤمنين: انتظرونا لنستضيء بنوركم ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ أي فيقول لهم المؤمنون سخريه واستهزاء بهم: ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا هذه الأنوار هناك قال أبو حيان: وقد علموا أن لا نور وراءهم، وإنما هو إقناط لهم^(٢) ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ سُورًا بَابٌ﴾ أي فضرب بين المؤمنين والمنافقين بحاجز له باب، يحجز بين أهل الجنة وأهل النار ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ أي في باطن السور الذي هو جهة المؤمنين الرحمة وهي الجنة، وفي ظاهره وهو جهة الكافرين العذاب وهو النار قال ابن كثير: هو سور يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب، وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب^(٣) ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين: ألم نكن معكم في الدنيا، نصلي كما تصلون، ونصوم كما تصومون، ونحضر الجمعة والجماعات، ونقاتل معكم في الغزوات؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ نَتَنَصَّرُ أَنْفُسَكُمُ﴾ أي قال لهم المؤمنون: نعم كتم معنا في الظاهر ولكنكم أهلكتم أنفسكم بالنفاق ﴿وَرَبِضَتْكُمْ﴾ انتظرتهم بالمؤمنين الدوائر ﴿وَارْتَبَتْكُمْ﴾ أي شككتهم في أمر الدين ﴿وَعَرَّكْتُكُمُ الْأَمَانِي﴾ أي خدعتكم الأمانى الفارغة بسعة رحمة الله ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي حتى جاءكم الموت ﴿وَعَرَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ أي وخدعكم الشيطان الماكر بقوله: إن الله عفو كريم لا يعذبكم قال قتادة: ما زالوا على خدعة من الشيطان حتى قذفهم الله في نار جهنم^(٤) قال المفسرون: الغرور بفتح الغين الشيطان؛ لأنه يغر ويخدع الإنسان قال تعالى ﴿فَلَا تَعْرَضْكُمْ حَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٥٦] ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ففي هذا اليوم العصيب لا يقبل منكم بدل ولا عوض يا معشر المنافقين، ولا من الكافرين الجاحدين بالله وآيات. وفي الحديث «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لَأَهْوَنُ أَهْلُ النَّارِ عَذَابًا: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ كُنْتَ تَقْتَدِي بِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَقَدْ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ أَنْ لَا

(١) «تفسير الكشاف» ٤/ ٣٤٢.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٢٢١. (ش): أقنط الشَّخْصَ إقناطًا: جعله يئأس.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٥٠.

(٤) «تفسير الخازن» ٤/ ٣٤.

تُشْرِكْ بِي. فَأَيَّتَ إِلَّا الشِّرْكَ»^(١) ﴿مَاؤْنِكُمُ النَّارُ﴾ أي مقامكم ومنزلكم نار جهنم ﴿هِيَ مَوْلَانِكُمْ﴾ أي هو عونكم وسندكم وناصركم لا ناصر لكم غيرها، وهو تهكم بهم ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي وبئس المرجع والمنقلب نار جهنم. قال بعض العلماء: «السَّعِيدُ مَنْ لَا يَغْتَرُّ بِالطَّمَعِ، وَلَا يَرْكُنُ إِلَى الْخُدَعِ، وَمَنْ أَطَالَ الْأَمَلَ نَسِيَ الْعَمَلَ، وَغَفَلَ عَنِ الْأَجَلِ»^(٢).

قال الله تعالى:

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْأَبْيَتَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمَصْدِقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا بَضَعَفَ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَتُهُمْ وَتَفَاخُرُ بَيْنَكُمْ وَتَكَاتُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَجْبَحَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَاتَرَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَلَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ مُضْتَرٍ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى ءَاثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَنِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَنْ رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّمَا يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا يَفْقَهُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ

المناسبة: لما ذكر تعالى اغترار المنافقين والكافرين بالحياة الدنيا، نبّه المؤمنين ألا يكونوا مثلهم، أو مثل أهل الكتاب بالاغترار بدار الفناء، ثم ضرب مثلاً للحياة الدنيا وبهرجها الخادع

(١) «تفسير الألوسي» ٢٧/ ١٨٧، والحديث في الصحاح. (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٤٧.

الكاذب^(١)، وختم السورة الكريمة ببيان فضيلة التقوى والعمل الصالح، وأرشد المؤمنين إلى مضاعفة الأجر والنور باتباعهم هدي الرسول ﷺ .

اللغة: ﴿يَأْنِ﴾ يحزن يقال: أَنِي يَأْنِي مثل رمى يرمي أي حان، قال الشاعر:
 أَلَمْ يَأْنِ لِي يَا قَلْبُ أَنْ أَتْرُكَ الْجَهْلَا وَأَنْ يُحْدِثَ الشَّيْبُ الْمُبِينُ لَنَا عَقْلًا^(٢)
 ﴿تَخْشَعُ﴾ تذل وتلين ﴿الْأَمْدُ﴾ الأجل أو الزمان ﴿يَهِيْجُ﴾ هاج الزرع إذا جف ويس بعد
 خضرته ونضارته ﴿حُطْمًا﴾ فُتَاتًا يتلاشى بالرياح ﴿فَقَيْنَا﴾ ألحقنا وأتبعنا ﴿كَهْلَيْنِ﴾ مثني
 كفل وهو النصيب.

سَبَبُ النَزول: لما قدم المؤمنون المدينة، أصابوا من لين العيش ورفاهيته، ففتروا عن بعض ما كانوا عليه فعبثوا ونزلت هذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾^(٣) قال ابن مسعود: « مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عَاتَبَنَا اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ إِلَّا أَرْبَعُ سِنِينَ »^(٤).

التفسير: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي أما حان للمؤمنين أن ترق قلوبهم وتلين لمواعظ الله؟ ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي ولما نزل من آيات القرآن المبين؟ ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي ولا يكونوا كاليهود والنصارى الذين أعطاهم الله التوراة والإنجيل ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمْدُ فَفَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي فطال عليهم الزمن الذي بينهم وبين أنبيائهم، حتى صلبت قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة قال ابن عباس: ﴿فَفَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ مالوا إلى الدنيا وأعرضوا عن مواعظ القرآن وقال أبو حيان: أي صلبت بحيث لا تفعل للخير والطاعة^(٥) والغرض أن الله يحذر المؤمنين أن يكونوا مع القرآن كاليهود والنصارى حين قست قلوبهم لما طال عليهم الزمان ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فُسِقُوا﴾ أي وكثير من أهل الكتاب خارجون عن طاعة الله، رافضون لتعليم دينهم، من فرط قسوة القلب قال ابن كثير: نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حُمِلُوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى، لما تناول عليهم الزمن بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم، ونبذوه وراء ظهورهم، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، فعند ذلك قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعيد ولا وعيد^(٦) ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي اعلموا يا معشر المؤمنين أن الله يُحْيِي الْأَرْضَ الْقاحلة المجدبة^(٧)

(١) (ش): بَهْرَجَ: باطل.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٤٨.

(٣) (ش): ضعيف، أخرجه عبد الله بن المبارك في «الزهد» وعبد الرزاق في «تفسيره».

(٤) أخرجه مسلم.

(٥) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٢٣. (ش): انفعِلْ بأمرٍ: تأثَّر به؛ أثار الأمرُ مشاعره أو عواطفه.

(٦) «تفسير مختصر ابن كثير» ٣/ ٤٥١.

(٧) (ش): فَحَلَّتِ الْأَرْضُ: يَسِسَتْ. جَدِبَتْ/ جَدِبَتْ/ جُدِبَتْ الْأَرْضُ: يَسِسَتْ لاحتباس الماء عنها.

بالمطر، ويخرج منها النبات بعد يُسَسِّها، وهو تمثيل لإحياء القلوب القاسية بالذكر وتلاوة القرآن، كما تحيا الأرض المعجدة بالغيث الهَتَّان^(١) قال ابن عباس: يلين القلوب بعد قسوتها فيجعلها مخبئة منيية، وكذلك يحيي القلوب الميتة بالعلم والحكمة^(٢) قال في البحر: ويظهر أنه تمثيل لتلين القلوب بعد قسوتها، ولتأثير ذكر الله فيها، فكما يؤثر الغيث في الأرض فتعود بعد إجدابها مُخَصَّبَةً^(٣)، كذلك تعود القلوب النافرة مقبلة يظهر فيها أثر الخشوع والطاعات^(٤)

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أي وَضَحْنَا لَكُمْ الْحُجَجَ والبراهين الدالة على كمال قدرتنا ووحدانيتنا ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي لكي تعقلوا وتتدبروا ما أنزل الله في القرآن ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي الذين تصدقوا بأموالهم على الفقراء ابتغاء وجه الله، والذين أنفقوا في سبيل الله وفي وجوه البر والإحسان طيبة بها نفوسهم ﴿يُضْعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي يضاعف لهم ثوابهم بأن تكتب الحسنة بعشر أمثالها، ولهم فوق ذلك ثواب حسن جزيل وهو الجنة - قال المفسرون: أصل ﴿الْمُصَّدِّقِينَ﴾ المتصدقين أدغمت التاء في الصاد فصارت المصدِّقين - ومعنى القرض الحسن هو التصديق عن طيب النفس، وخلوص النية للفقير، فكأن الإنسان بإحسانه إلى الفقير قد أقرض الله قرضًا يستحق عليه الوفاء في دار الجزاء ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي صدَّقوا بوحدانية الله ووجوده، وآمنوا برسله إيمانًا راسخًا كاملاً، لا يخالجه شك ولا ارتياب ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي أولئك الموصوفون بالإيمان بالله ورسله، هم الذين جمعوا أعلى المراتب فحازوا درجة الصديقية والشهادة في سبيل الله قال مجاهد: كل من آمن بالله ورسله فهو صديق وشهيد^(٥) ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أي لهم في الآخرة الثواب الجزيل، والنور الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي والذين جحدوا بوحدانية الله وكذبوا بآياته أولئك هم المخلدون في دار الجحيم قال البيضاوي: فيه دليل على أن الخلود في النار مخصوص بالكفار، من حيث إن الصيغة تُشعر بالاختصاص ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ والصحبة تدل على الملازمة^(٦). ولما ذكر أحوال المؤمنين والكافرين، ذكر بعده ما يدل على حقارة الدنيا وكمال حال الآخرة فقال ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ﴾ أي اعلموا يا معشر السامعين أن هذه الحياة الدنيا ما هي إلا لعبٌ يُتعب الناس فيها أنفسهم كإتعب الصبيان

(١) (ش): هَتَّنَتِ السَّمَاءُ: تتابعت أمطارها وانصبت.

(٢) «تفسير الخازن» ٤ / ٣٥.

(٣) (ش): مُخَصَّبَةٌ: كثر فيها العشبُ والكلأ والخير.

(٤) «تفسير البحر المحيط» ٨ / ٢٢٣.

(٥) «التفسير الكبير للرازي» ٢٩ / ٢٣٢.

(٦) «تفسير البيضاوي» ٣ / ٤٥٣.

أنفسهم باللعب ﴿وَلَهُمْ﴾ أي وشغل للإنسان يشغله عن الآخرة وطاعة الله ﴿وَزِينَةٌ﴾ أي وزينة يتزين بها الجهلاء كالملاابس الحسنة، والمراكب البهية، والمنازل الرفيعة ﴿وَتَفَاخُرٌ يِّنْكُمْ﴾ أي ومباهاة وافتخار بالأحساب والأنساب والمال والولد كما قال القائل:

أَرَى أَهْلَ الْقُصُورِ إِذَا أُمِيتُوا بَنَوْا فَوْقَ الْمَقَابِرِ بِالصُّخُورِ
أَبَوْا إِلَّا مُبَاهَاةً وَفَخْرًا عَلَى الْفُقَرَاءِ حَتَّى فِي الْقُبُورِ^(١)

﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أي مباهاة بكثرة الأموال والأولاد قال ابن عباس: يجمع المال من سخط الله، ويتباهى به على أولياء الله، ويصرفه في مساخط الله، فهو ظلمات بعضها فوق بعض^(٢) ﴿كَثَلٌ غِثٌّ أَجَبَ الْكُفَّارَ بَأْنَهُ﴾ أي كمثل مطر غزير أصاب أرضاً، فأعجب الزُّرَّاعُ نباته الناشئ عنه ﴿ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا﴾ أي ثم يبيس بعد خضرته وتُضرته فتراه مصفر اللون بعد أن كان زاهياً ناصراً ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾ أي ثم يتحطم ويتكسر بعد يبسه وجفافه فيصبح هشيمًا تذروه الرياح كذلك حال الدنيا قال القرطبي: والمراد بالكفار هنا الزُّرَّاعُ لأنهم يُغَطُّونَ البذر، ومعنى الآية أن الحياة الدنيا كالزرع يعجب الناظرين إليه لخضرته بكثرة الأمطار، ثم لا يلبث أن يصير هشيمًا كأن لم يكن، وإذا أعجب الزراع فهو في غاية الحسن^(٣) ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ أي والجزاء في الآخرة إما عذاب شديد للفسجار، وإما مغفرة من الله ورضوان للأبرار ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْغُرُورِ﴾ أي وليست الحياة الدنيا في حقارتها وسرعة انقضائها إلا متاعٌ زائل، ينخدع بها الغافل، ويغتر بها الجاهل قال سعيد بن جبير: الدنيا متاع الغرور إن ألْهَتْكَ عَنْ طَلَبِ الْآخِرَةِ، فأما إذا دَعَتْكَ إِلَى طَلَبِ رِضْوَانِ اللَّهِ وَطَلَبِ الْآخِرَةِ، فنعم المتاع ونعم الوسيلة^(٤). ولما حَقَّرَ الدنيا وصَغَّرَ أمرها، وعَظَّمَ الْآخِرَةَ وَفَخَّمَ شَأْنَهَا، حَثَّ عَلَى الْمَسَارَعَةِ إِلَى نَيْلِ مَرْضَاةِ اللَّهِ، التي هي سبب للسعادة الأبدية في دار الخلود والجزاء فقال ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي تسابقوا أيها الناس وسارعوا بالأعمال الصالحة التي تُوجِبُ المغفرة لكم من ربكم قال أبو حيان: وجاء التعبير بلفظ ﴿سَابِقُوا﴾ كأنهم في ميدان سباق يجرون إلى غايةٍ مُسَابِقِينَ إِلَيْهَا، والمعنى: سابقوا إلى سبب المغفرة وهو الإيمان، وعمل الطاعات^(٥) ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي وسارعوا إلى جنةٍ واسعةٍ فسيحة، عرضها كعرض السموات السبع من الأرض مجتمعة قال السدي: إن الله تعالى شَبَّهَ عَرْضَ الْجَنَّةِ بِعَرْضِ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ، ولا شك أن طولها أزيد

(١) كنت سمعت هذين البيتين من شيخنا الجليل فضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة عالم الشهاب أمد الله في عمره.

(٢) «التفسير الكبير للرازي» ٢٩ / ٢٣٣.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٧ / ٢٥٥.

(٤) «التفسير الكبير» ٢٩ / ٢٣٤.

(٥) «البحر المحيط» ٨ / ٢٢٥.

من عرضها، فذكر العرض تنبيهاً على أن طولها أضعاف ذلك^(١) وقال البيضاوي: إذا كان العرض كذلك فما ظنك بالطول^(٢)، ﴿أَعَدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي هيأها الله وأعدّها للمؤمنين المصدّقين بالله ورسله قال المفسرون: وفي الآية دلالة على أن الجنة مخلوقة وموجودة لأن ما لم يُخلق بعد لا يوصف بأنه أعدّ وهيئ ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي ذلك الموعود به من المغفرة والجنة هو عطاء الله الواسع، يتفضل به على من يشاء من عباده من غير إيجاب ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي ذو العطاء الواسع والإحسان الجليل ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي ما يحدث في الأرض مصيبةً من المصائب كقحط، وزلزلة، وعاهة في الزروع، ونقص في الثمار ﴿وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أي من الأمراض، والأوصاب^(٣)، والفقر، وذهاب الأولاد ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ أي إلّا وهي مكتوبة في اللوح المحفوظ من قبل أن نخلقها ونوجدّها قال في التسهيل: المعنى أن الأمور كلها مقدّرة في الأزل، مكتوبة في اللوح المحفوظ من قبل أن تكون، وفي الحديث «كُتِبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ - قَالَ - وَعَرَّشَهُ عَلَى الْمَاءِ»^(٤) ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي إن إثبات ذلك على كثرته سهل هين على الله عزّ وجلّ وإن كان عسيراً على العباد.. ثم بيّن تعالى لنا الحكمة في إعلامنا عن كون هذه الأشياء واقعة بالقضاء والقدر فقال ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ أي أثبت وكتب ذلك كي لا تحزنوا على ما فاتكم من نعيم الدنيا ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ أي ولكي لا تبطروا بما أعطاكم الله من زهرة الدنيا ونعيمها قال المفسرون: والمراد بالحزن الحزن الذي يوجب القنوط، وبالفرح الفرح الذي يورث الأشر والبطر، ولهذا قال ابن عباس: «ليس من أحدٍ إلّا وهو يحزن ويفرح، ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبراً، وغنيمة شكرًا»^(٥) ومعنى الآية: لا تحزنوا حزناً يخرجكم إلى أن تهلكوا أنفسكم، ولا تفرحوا فرحاً شديداً يطغىكم حتى تأشروا فيه وتبطروا، ولهذا قال بعض العارفين: «من عرف سرّ الله في القدر هانت عليه المصائب»^(٦) وقال عمر رضي الله عنه: «ما أصابتنى مصيبة إلّا وجدت فيها ثلاث نعم: الأولى: أنها لم تكن في ديني، الثانية: أنها لم تكن أعظم مما كانت، الثالثة: أن الله يعطي عليها الثواب العظيم والأجر الكبير». ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(٧) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ

(١) «التفسير الكبير» ٢٩ / ٢٣٤.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٩٩ / ٤.

(٣) (ش): وَصَبَ: تعبٌ وفقر في البدن.

(٤) «تفسير البيضاوي» ٣ / ٤٥٤. (ش): رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٧ / ٢٥٨.

(٦) «التفسير الكبير» ٢٩ / ٢٣٩.

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٥﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧] ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي لا يحب كل متكبرٍ مُعَجَبٍ بما أعطاه الله من حظوظ الدنيا، فخور به على الناس.. ثم بين تعالى أوصاف هؤلاء المذمومين فقال ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ أي يبخلون بالإنفاق في سبيل الله، ولا يكتفيهم ذلك حتى يأمرؤا الناس بالبخل ويرغبوهم في الإمساك ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ أي ومن يعرض عن الإنفاق ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي فإن الله مُسْتَعْنٍ عنه وعن إنفاقه، محمودٌ في ذاته وصفاته، لا يضُرُّه الإعراض عن شكره، ولا تنفعه طاعة الطائعين، وفيه وعيدٌ وتهديدٌ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ اللام مُوطئةٌ لِقَسَمٍ مَحذوفٍ ^(١) أي والله لقد بعثنا رسلنا بالحجج القواطع والمعجزات البينات ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ أي وأنزلنا معهم الكتب السماوية التي فيها سعادة البشرية، وأنزلنا القانون الذي يُحكم به بين الناس ^(٢)، وفسَّر بعضهم الميزان بأنه العدلُ وقال ابن زيد: وهو ما يُوزن به ويُعامل ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي ليقوم الناس بالحق والعدل في معاملاتهم ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي وخلقنا وأوجدنا الحديد فيه بَأْسٌ شديد، لأن آلات الحرب تُتخذ منه، كالدرع، والرمح، والتروس، والدبابات وغير ذلك ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ أي وفيه منافع كثيرة للناس كسِكِّ الحراثة ^(٣)، والسكِّين، والفأس وغير ذلك وما من صناعةٍ إلا والحديدُ آلةٌ فيها قال أبو حيان: وعبرَ تعالى عن إيجاده بالإنزال كما قال ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أزْوَاجَ﴾ [الزمر: ٦] لأن الأوامر وجميع القضايا والأحكام لما كانت تُلقى من السماء جعل الكل نزولاً منها، وأراد بالحديد جنسه من المعادن قاله الجمهور ^(٤) ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ بَصُرِهِ، وَرُسُلُهُ بِالْغَيْبِ﴾ عطفٌ على محذوفٍ مقدر، أي: وأنزلنا الحديد ليقاتل به المؤمنون أعداءهم ويجاهدوا لإعلاء كلمة الله، وليعلم الله من ينصر دينه ورسله باستعمال السيوف والرمح وسائر الأسلحة مؤمناً بالغيب قال ابن عباس: ينصرونه ولا يُبصرونه ^(٥)، ثم قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي قادر على الانتقام من أعدائه بنفسه، عزيزٌ، أي: غالب لا يُغالب، فهو غني بقدرته وعزته عن كل أحد قال البيضاوي: أي قوي على إهلاك مَنْ أراد إهلاكه، عزيزٌ لا يفتقر إلى نُصرة أحد، وإنما أمرهم بالجهاد لينتفعوا به ويستوجبوا الثواب ^(٦) وقال ابن كثير: معنى الآية أنه جعل الحديد رادعاً لمن أبى الحقَّ وعانده بعد قيام الحجة عليه، ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة

(١) (ش): أي مُمهَّدةٌ له؛ لأنها التي تُهيئُ الذهن لمعرفته.

(٢) (ش): أي القرآن والسنة فهما يجب أن يكونا مصدر القوانين.

(٣) (ش): سِكَّة الحراثة: حديدة المحراث التي تشق الأرض.

(٤) «البحر المحيط» ٢٢٦ / ٨.

(٥) «تفسير الجلالين» ١٧٦ / ٤. (ش): أي ينصرون الله وهم لا يرونه.

(٦) «تفسير البيضاوي» ٤٥٦ / ٣.

تُوحى إليه السور، ويقارعهم بالحجة والبرهان، فلما قامت الحجة على من خالف أمر الله، شرع الله الهجرة وأمر المؤمنين بالقتال بالسيوف وضرب الرقاب، ولهذا قال عليه السلام: «بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»^(١) ثم قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي هو قوي عزيز ينصر من شاء من غير احتياج منه إلى الناس، وإنما شرع الجهاد لِيَلْبُوَ بعضهم ببعض^(٢) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ لما ذكر بعثته الرسل ذكر هنا شيخ الأنبياء نوحًا عليه السلام، وأبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام وبين أنه جعل في نسلهما النبوة والكتب السماوية، أي: وبالله لقد أرسلنا نوحًا وإبراهيم وجعلنا النبوة في نسلهما، كما أنزلنا الكتب الأربعة وهي «التوراة والزبور والإنجيل والقرآن» على ذريتهما، وإنما خصَّ نوحًا وإبراهيم بالذكر تشريفًا لهما وتخليدًا لما أثرهما الحميدة ﴿فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ أي فمن ذرية نوح وإبراهيم أناس مهتدون، وكثيرٌ منهم عصاة خارجون عن الطاعة وعن الطريق المستقيم ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ أي ثم أتبعنا بعدهم برسلنا الكرام، أرسلناهم رسولًا بعد رسول، موسى، وإلياس، وداود، وسليمان، ويونس وغيرهم ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي وجعلناه بعد أولئك الرسل لأن كان آخر الأنبياء من بني إسرائيل ﴿وَأَتَيْنَاهُ بِالْإِنْجِيلِ﴾ أي وأنزلنا عليه الإنجيل الذي فيه البشارة بمحمد ﷺ ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أي وجعلنا في قلوب أتباعه الحواريين الشفقة واللين قال في التسهيل: هذا ثناء من الله عليهم بمحبة بعضهم في بعض كما وصف تعالى أصحاب سيدنا محمد ﷺ بأنهم ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾^(٣) [الفتح: ٢٩] ﴿وَرَهَبَانِيَاتٌ ابْتَدَعُوهُمَا مَا كُتِبَ عَلَيْهِنَّ﴾ أي ورهبانيةً ابتدعتها القسس والرهبان وأحدثوها من تلقاء أنفسهم، ما فرضناها عليهم ولا أمرناهم بها قال أبو حيان: والرهبانية رفض النساء وشهوات الدنيا، واتخاذ الصوامع ومعنى ﴿ابْتَدَعُوهُمَا﴾ أي أحدثوها من عند أنفسهم^(٤) ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ أي ما أمرناهم إلا بما يرضي الله - والاستثناء منقطع - والمعنى: ما كتبنا عليهم الرهبانية، ولكنهم فعلوها من تلقاء أنفسهم ابتغاء رضوان الله ﴿فَمَارَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي فما قاموا بها حق القيام، ولا حافظوا عليها كما ينبغي قال ابن كثير: وهذا ذمٌ لهم من وجهين: أحدهما: الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله. والثاني: في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة تقر بهم إلى الله عزَّ وجلَّ^(٥)، وفي الحديث «لكل أمة رهبانية، ورهبانية أمتي

(١) أخرجه أحمد وأبو داود. (ش): صححه الألباني وأحمد شاكر.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٥٥.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٠٠.

(٤) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٢٨.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٥٦.

الجهاد في سبيل الله»^(١) ﴿فَتَأْتِيَنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي فأعطينا الصالحين من أتباع عيسى الذين ثبتوا على العهد وآمنوا بمحمد ﷺ ثوابهم مضاعفاً ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ أي وكثير من النصارى خارجون عن حدود الطاعة متتهكون لمحارم الله كقوله تعالى ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤] ﴿يَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ وَءَامَنُوا بِرَسُولِهِ﴾ أي يا من صدقتم بالله^(٢) اتقوا الله بامثال أوامره واجتناب نواهيه، ودوموا واثبتوا على الإيمان ﴿يُؤْتِكُمْ كُفُلًا مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ أي يعطكم ضعفين من رحمته ﴿وَيَجْعَلْ لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ أي ويجعل لكم في الآخرة نوراً تمشون به على الصراط ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي ويغفر لكم ما أسلفتم من المعاصي ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي إنما بالغنا في هذا البيان ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرُونَ على تخصيص فضل الله بهم، ولا يمكنهم حصر الرسالة والنبوة فيهم، ف«لا» في قوله ﴿لَيْلًا﴾ زائدة والمعنى: ليعلم^(٣). قال المفسرون: إن أهل الكتاب كانوا يقولون الوحي والرسالة فينا، والكتاب والشرع ليس إلا لنا، والله خصنا بهذه الفضيلة العظيمة من بين جميع العالمين، فردَّ الله عليهم بهذه الآية الكريمة ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي وأن أمر النبوة والهداية والإيمان بيد الرحمن يعطيه لمن يشاء من خلقه ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي والله واسع الفضل والإحسان.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الطباق بين ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ وبين ﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ وبين ﴿وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾.
- ٢ - المقابلة بين ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ وبين ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [الحديد: ٤].

٣ - ردُّ العجز على الصدر ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحديد: ٦] وهو وما

(١) أخرجه الإمام أحمد. (ش): إنما رواه الإمام أحمد بلفظ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ رَّهْبَانِيَّةٌ، وَرَّهْبَانِيَّةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» وضعفه الألباني. واللفظ الذي ذكره المؤلف: «لِكُلِّ أُمَّةٍ رَّهْبَانِيَّةٌ، وَرَّهْبَانِيَّةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» (رواه أبو يعلى والطبراني وضعفه الألباني). وعن أبي سعيد الخدري، أَنَّ رَجُلًا جَاءَهُ فَقَالَ: أَوْصِنِي. فَقَالَ: سَأَلْتُ عَمَّا سَأَلْتُ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَبْلِكَ، «أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ شَيْءٍ، وَعَلَيْكَ بِالْجِهَادِ، فَإِنَّهُ رَّهْبَانِيَّةُ الْإِسْلَامِ، وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللَّهِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ رَوْحُكَ فِي السَّمَاءِ، وَذِكْرُكَ لَكَ فِي الْأَرْضِ» (رواه أحمد، وحسنه الألباني). (رَّهْبَانِيَّةُ الْإِسْلَامِ) أي: الانقطاع إليه تعالى في هذا الدين. (رَوْحُكَ فِي السَّمَاءِ): أي: سبب حياتك عند الله، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا إِنَّكَ مِنَ الْمُفْرَبِينَ﴾ (٨٨) ﴿فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩]. (وَذِكْرُكَ): أي: شرف لك. قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

(٢) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسيراً قاصراً ومخالفاً لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح.

(٣) (ش): أي «لا» صلة زائدة مؤكدة، أي توصل للمعنى الأساسي لتأكيد وتقويته.

سبقه من المحسنات البديعية^(١).

٤ - حذف الإيجاز ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ﴾ [الحديد: ١٠] حذف منه جملة «ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل» وذلك لدلالة الكلام عليه ويسمى هذا الحذف بالإيجاز.

٥ - الاستعارة اللطيفة ﴿يُخْرِجُكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الحديد: ٩] أي ليخرجكم من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان، فاستعار لفظ ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ للكفر والضلالة ولفظ ﴿النُّورِ﴾ للإيمان والهداية وقد تقدم.

٦ - الاستعارة التمثيلية ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: ١١] مثل لمن ينفق ماله ابتغاء وجه الله مخلصاً في عمله بمن يقرض ربه قرضاً واجب الوفاء بطريق الاستعارة التمثيلية.

٧ - الأسلوب التهكمي ﴿مَأْوَانَكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ [الحديد: ١٥] أي لا ولي لكم ولا ناصر إلا نار جهنم وهو تهكم بهم.

٨ - المقابلة اللطيفة بين قوله ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ وقوله ﴿وَوَظْهُرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

٩ - التشبيه التمثيلي ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ، ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرِيَهُ مُصْفَرًّا...﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد.

١٠ - الجناس الناقص ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ لتغير الشكل وبعض الحروف.

١١ - السجع المرصع كأنه الدر المنظوم ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ وقوله تعالى ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ اسْمُورَهُمْ بِأَبْطَانِهِ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظُهُرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣] وهو كثير في القرآن.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحديد»



(١) (ش): رَدُّ الْعُجْزِ عَلَى الصَّدْرِ: أَنْ يَجْعَلَ الْمُتَكَلِّمُ أَحَدَ اللَّفْظَيْنِ الْمَكْرَرَيْنِ أَوْ الْمُتَجَانِسَيْنِ، أَوْ مَا هُوَ مُلْحَقٌ بِالْمُتَجَانِسَيْنِ فِي أَوَّلِ الْفَقْرَةِ، وَالْآخَرُ فِي آخِرِهَا مِثْلَ مَا يَلِي: (١) قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ خُطَابًا لِرَسُولِهِ ﷺ بِشَأْنِ تَزَوُّجِهِ مِنْ زَيْنَبَ مَطْلُوقَةٍ مَتْنَاهُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿وَتَخَشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخَشَهُ...﴾ هذا مثال اللفظين والمكْرَرَيْنِ. (٢) قَوْلَ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- فِي حِكَايَةِ مَا قَالَ نُوحٌ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- لِقَوْمِهِ: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبِّي إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾. هذا مثال للفظَيْنِ الْمُتَلَاقِيَيْنِ فِي الْإِشْتِقَاقِ. (٣) قَوْلَ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- حِكَايَةَ لِمَا قَالَ لُوطٌ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- لِقَوْمِهِ: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾. هذا مثال للفظَيْنِ الْمُتَلَاقِيَيْنِ فِيمَا يَشَبْهُ الْإِشْتِقَاقَ.

سُورَةُ الْمُجَادَلَةِ

مدنية وآياتها ثنتان وعشرون

بين يدي السورة

* سورة المجادلة مدنية، وقد تناولت أحكاماً تشريعية كثيرة كأحكام الظهار، والكفارة التي تجب على المظاهر، وحكم التناجي، وآداب المجالس، وتقديم الصدقة عند مناجاة الرسول ﷺ، وعدم مودة أعداء الله، إلى غير ذلك، كما تحدثت عن المنافقين وعن اليهود.

* ابتدأت السورة الكريمة ببيان قصة المجادلة «خولة بنت ثعلبة» التي ظاهر منها زوجها - على عادة أهل الجاهلية في تحريم الزوجة بالظهار - وقد جاءت تلك المرأة رسول الله - تشكو ظلم زوجها لها وقالت: يا رسول الله: «أكل مالي، وأفنى شبابي، ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني» ورسول الله ﷺ يقول لها: «ما أراك إلا قد حرمت عليه»، فكانت تجادله وتقول يا رسول الله: ما طلقني ولكنه ظاهر مني، فيرد عليها قوله السابق، ثم قالت: اللهم إني أشكو إليك، فاستجاب الله دعاءها وفرج كربتها وشكواها ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ تَحَاوَرَكُمَا...﴾^(١) الآيات.

* ثم تناولت حكم كفارة الظهار ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهُتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدَنَّهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ...﴾ الآيات.

* ثم تحدثت عن موضوع التناجي، وهو الكلام سرّاً بين اثنين فأكثر، وقد كان هذا من

(١) (ش): عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ، إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ، وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهِيَ تَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكَلْتُ شَبَابِي، وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَّى إِذَا كَبُرَتْ سَنِي، وَانْقَطَعَ وَلَدِي، ظَاهَرَ مِنِّي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ، فَمَا يَرَحْتُ حَتَّى نَزَلَ جِبْرَائِيلُ بِهِؤْلَاءِ الْآيَاتِ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١]» (رواه ابن ماجه، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي والألباني). نَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي: أَكْثَرْتُ لَهُ الْأَوْلَادَ، تَرِيدُ أَنَّهَا كَانَتْ شَابَةً تُلِدُ الْأَوْلَادَ عِنْدَهُ. وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرْظِيِّ، قَالَ: كَانَتْ خَوْلَةُ ابْنَةُ ثَعْلَبَةَ تَحْتَ أَوْسَ بْنِ الصَّامِتِ، وَكَانَ رَجُلًا بِهِ لَمَمٌ، فَقَالَ فِي بَعْضِ هَجْرَاتِهِ: أَنْتَ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي، ثُمَّ نَدِمَ عَلَى مَا قَالَ، فَقَالَ لَهَا: مَا أَظْنُكَ إِلَّا قَدْ حَرَمْتَ عَلَيَّ. قَالَتْ: لَا تَقُلْ ذَلِكَ، فَوَاللَّهِ مَا أَحَبَّ اللَّهُ طَلَاقًا. قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَلْهُ. فَقَالَ: إِنِّي أَجِدُنِي أَسْتَحْيِي مِنْهُ أَنْ أَسْأَلَهُ عَنْ هَذَا، فَقَالَتْ: فَدَعْنِي أَنْ أَسْأَلَهُ، فَقَالَ لَهَا: سَلِيهِ؛ فَجَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّ أَوْسَ بْنَ الصَّامِتِ أَبُو وَلَدِي، وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، قَدْ قَالَ كَلِمَةً، وَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مَا ذَكَرَ طَلَاقًا، قَالَ: أَنْتَ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا أَرَاكَ إِلَّا قَدْ حَرَمْتَ عَلَيَّ». قَالَتْ: لَا تَقُلْ ذَلِكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَاللَّهِ مَا ذَكَرَ طَلَاقًا؛ فَارَادَتِ النَّبِيَّ ﷺ مِرَازًا، ثُمَّ قَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو الْيَوْمَ شِدَّةَ حَالِي وَوَحْدَتِي، وَمَا يَشُقُّ عَلَيَّ مِنْ فِرَاقِهِ، اللَّهُمَّ فَأَنْزِلْ عَلَيَّ لِسَانَ نَبِيِّكَ. فَلَمْ تَرَمْ مَكَانَهَا حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١] (رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف). لَمْ تَرَمْ مَكَانَهَا: لَمْ تَبْرَحْهُ.

دأب اليهود والمنافقين لإيذاء المؤمنين، فبينت حكمه وحذرت المؤمنين من عواقبه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ الآيات.

* وتحدثت السورة عن اليهود اللعناء، الذين كانوا يحضرون مجلس الرسول ﷺ فيحيونه بتحية ملغوزة، ظاهرها تحية التحية والسلام، وباطنها الشتيمة والمسبة كقولهم: السام عليك يا محمد - يعنون الموت - ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾.

* وتناولت السورة الحديث عن المنافقين بشيء من الإسهاب، فقد اتخذوا اليهود بخاصة أصدقاء، يحبونهم ويوالونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين، فكشفت الستار عن هؤلاء المذبذبين وفضحتهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة ببيان حقيقة الحب في الله، والبغض في الله، الذي هو أصل الإيمان وأوثق عرى الدين، ولا بد من في اكتمال الإيمان من معاداة أعداء الله ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ إلى آخر السورة الكريمة.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ①
الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مَنْ نَسَاهُمْ مَا هُمْ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهُتُهُمْ إِلَّا اللَّاتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا
مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ②
وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ
مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكَ نَوْعُ عَظُوبٍ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ③
فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ
مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِطْعَامَ سِتِّينَ مَسْكِينًا ذَلِكَ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ
وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ④
إِنَّ الَّذِينَ يُجَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوتًا كَمَا كَتَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَفَدَّ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ
وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ⑤
يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ⑥
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ
رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا
يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ⑦
أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ
بِالْآثِمِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا
اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ بَصُلُونَهَا فَنَسِيَ الْمَصِيرُ ⑧
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَتَنَجَّوْا بِالْآثِمِ
وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ⑨
إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ
لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ

اللغة: ﴿تَحَاوُرَكُمَا﴾ المحاوراة: المراجعة في الكلام من حار الشيء يحور إذا رجع يرجع

ومنه الدعاء المأثور «نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكُورِ»^(١).

قال عنتره في فرسه:

لَوْ كَانَ يَدْرِي مَا الْمُحَاوَرَةُ اشْتَكَى وَلَكَانَ لَوْ عَلِمَ الْكَلَامَ مُكَلِّمِي
﴿يُظَاهِرُونَ﴾ الظهار مشتق من الظهر يقال: ظاهر من امرأته إذا حرمها على نفسه بقوله:
أَنْتِ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي ﴿مُنْكَرًا﴾ المنكر: كل ما قَبَّحه الشرع وحرَّمه ونَفَر منه، وهو خلاف
المعروف ﴿يُحَادُّونَ﴾ المحادَّة: المعادة والمخالفة في الحدود والأحكام وهي مثل المشاقة
قال الزجاج: المُحَادَّة أن تكون في حدٍّ يخالف حدَّ صاحبك، وأصلها الممانعة ﴿كُتِبُوا﴾ الكبت:
القهر والإذلال والخزي يقال: كبته أي قهره وأخزاه ﴿تَجَوَّى﴾ التجوى: الكلام بين اثنين فأكثر
سرًّا، تناجى القوم تحدثوا فيما بينهم سرًّا ﴿حَسَبَهُمْ﴾ كافيهم.

سَبَبُ النَّزُول: أ- روي أن خولة بنت ثعلبة امرأة أوس بن الصامت «أراد زوجها موافقتها
يومًا فأبت، فغضب وظاهر منها، فأنت رسول الله ﷺ وقالت: يا رسول الله، إن أوسًا ظاهر
مني بعد أن كبرت سني، ورق عظمي، وإن لي منه صبيَّةً صغارًا، إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن
ضممتهم إلي جاعوا فما ترى؟! فقال لها: «ما أراك إلا قد حرمت عليه»، فقالت يا رسول الله:
والله ما ذكر طلاقًا وهو أبو ولدي وأحبُّ الناس إليّ، فجعل رسول الله ﷺ يعيد قوله: ما أراك
إلا قد حرمت عليه، هي تكرر قولها، فما زالت تراجعها ويراجعها حتى نزل قول الله تعالى
﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ مُحَاوَرُكُمْ﴾ الآيات^(٢).

ب- وروى البخاري «عن عائشة أنها قالت: تبارك الذي وسع سمعه الأصوات، لقد
جاءت المجادلة خولة بنت ثعلبة فكلمت رسول الله ﷺ وأنا في جانب البيت أسمع كلامها
ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها وتقول: يا رسول الله: أبلَى شبابي، ونثرت له بطني،
حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبريل
بهذه الآيات»^(٣).

(١) (ش): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سُرْجَسَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سَافَرَ يَتَعَوَّذُ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَاتِبَةِ الْمُنْقَلَبِ وَالْحَوْرِ
بَعْدَ الْكُورِ وَدَعْوَةِ الْمَظْلُومِ وَسُوءِ الْمُنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). الْحَوْر: النقصان. الْكُور: الزيادة.
الْوَعْثَاء: الشدة والمشقة.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ١٧٩. (ش): ضعيف، رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» والواحد
في «أسباب النزول». رَقَّ عظمي: أي كبر وضُف. وانظر التعليق السابق على مقدمة السورة والتعليق التالي.
(٣) أخرجه البخاري وابن ماجه والبيهقي. (ش): عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ فَأَنْزَلَ
اللَّهُ تَعَالَى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ رواه البخاري. وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «تَبَارَكَ
الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ، إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ، وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهِيَ تَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكَلْ شَبَابِي، وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَّى إِذَا كَبُرَتْ سَنِي، وَانْقَطَعَ وَلَدِي،
ظَاهَرَ مِنِّي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ، فَمَا بَرَحْتُ حَتَّى نَزَلَ جِبْرَائِيلُ بِهَؤُلَاءِ الْآيَاتِ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ
فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١]». (رواه ابن ماجه، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي والألباني).

التفسير: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّدُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ «قد» لا تدخل إلا على الأفعال، وإذا دخلت على الماضي أفادت التحقيق، وإذا دخلت على المضارع أفادت التقليل كقولك: قد يجودُ البخيلُ، وقد ينزل المطر والمعنى: حقاً لقد سمع الله قول المرأة التي تراجعك وتحاورك في شأن زوجها قال الزمخشري: ومعنى سماعه تعالى لقولها إجابة دعائها، لا مجرد علمه تعالى بذلك، وهو كقول المصلي: سمع الله لمن حمده^(١) ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي وتتضرع إلى الله في تفريج كربتها ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ أي والله جلّ وعلا يسمع حديثكما ومراجعتكما الكلام، ماذا قالت لك، وماذا ردّدت عليها ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي سميع بمن يناجيه ويتضرع إليه، بصير بأعمال العباد، وهو كالتعليل لما قبله، وكلاهما من صيغ المبالغة، أي: مبالغ في العلم بالمسموعات والمبصرات^(٢). ثم ذمّ تعالى الظهار وبيّن حكمه وجزاء فاعله فقال ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِّنْ نِّسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أي الذين يقولون لنسائهم: أنتن كظهور أمهاتنا يقصدون بذلك تحريمهن عليهم كتحريم أمهاتهن، لسنن في الحقيقة أمهاتهن وإنما هن زوجاتهم قال الإمام الفخر: الظهار هو عبارة عن قول الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي، يقصد علوي عليك حرام كعلوي على أمي، والعرب تقول في الطلاق: نزلت عن امرأتي، أي: طلقتها، فغرضهم من هذه اللفظة تحريم معاشرتها تشبيهاً بالأم وقوله ﴿وَمِنْكُمْ﴾ توبيخ للعرب وتهجين لعاداتهم في الظهار لأنه كان من أيمان أهل الجاهلية خاصة دون سائر الأمم^(٣) ﴿إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَاهُمْ﴾ أي ما أمهاتهم في الحقيقة إلا الولادات اللاتي ولدنهم من بطونهم وفي المثل «وَلَدُكَ مِنْ دَمِي عَقِيْبُكَ»^(٤) وهو تأكيد لقوله ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ زيادة في التوضيح والبيان^(٥) ﴿وَالَهُمْ يَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ زَوْرًا﴾ أي والحال إن هؤلاء المظاهرين ليقولون

(١) «تفسير الكشاف» ٤/ ١٥٠. (ش): تفسير الزمخشري هذا تفسير باطل، لأن معناه نفى صفة السمع عن الله وتأويلها بإجابة الدعاء. وتشبيه السمع بقول المصلي: «سمع الله لمن حمده» تشبيه مع الفارق بينهما لأن «سمع الله» هنا معدّي بنفسه، ومعناه السماع الحقيقي، و«سمع الله لمن حمده» معدّي باللام ومعناه الإجابة.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٤٣. (ش): السمع والبصر صفتان ذاتيتان ثابتتان لله عزّ وجلّ بالكتاب والسنة، و«السميع» و«البصير»: من أسمائه تعالى. و«تفسير أبي السعود» لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ بأن معناها مبالغ في العلم بالمسموعات والمبصرات، معناه نفى صفتي السمع والبصر عن الله تعالى وتأويلهما بالعلم، وهو تأويل باطل.

(٣) «تفسير الكبير» بشيء من الإيجاز ٢٩/ ٢٥١.

(٤) (ش): الولد: الولد، أي ابنك من دمي عقيبك. يُحكى أن امرأة الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب ولدت له عقيل بن الطفيل فتبته كبنت عروة بنت جعفر بن كلاب فقدم عقيل على أمّه يوماً فضرته فجاءتها كبشة حتى منعته وقالت: «ابني ابني» فقالت امرأة الطفيل: «وَلَدُكَ مِنْ دَمِي عَقِيْبُكَ»، يعني الذي نُفست به فأدّمتي النفس عقيبك أي من ولدته فهو ابنك لا هذا.

(٥) (ش): أي قوله تعالى ﴿إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَاهُمْ﴾ تأكيد لقوله ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾.

كلًا منكرًا تنكره الحقيقة وينكره الشرع، وهو كذبٌ وزورٌ وبهتانٌ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي مبالغ في العفو والمغفرة لمن تاب وأناب قال في التسهيل: أخبر تعالى أن الظهار منكر وزور، فالمنكر هو الذي لا تعرف له حقيقة، والزور هو الكذب، وإنما جعله كذبًا لأن المظاهر يجعل امرأته كأمه. وهي لا تصير كذلك أبدًا والظهار محرم ويدل على تحريمه أربعة أشياء: أحدها قوله ﴿مَا هَرَبَ أُمَّهَاتِهِمْ﴾ فإن ذلك تكذيب للمظاهر والثاني أنه سمّاه منكرًا والثالث أنه سمّاه زورًا والرابع قوله تعالى ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ فإن العفو والمغفرة لا تقع إلا عن ذنب، والذنب مع ذلك لازمٌ للمظاهر حتى يرفعه بالكفارة^(١). ثم بيّن تعالى طريق الكفارة عن هذا القول الشنيع فقال ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ أي يظاهرون من زوجاتهم بتشبيههنّ بالأمهات ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ أي يعودون عمّا قالوا، ويندمون على ما فرط منهم، ويرغبون في إعادة أزواجهم إليهم ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا﴾ أي فعليهم إعتاق رقية عبدًا كان أو أمة من مقبل أن يعاشر زوجته التي ظاهر منها أو يجامعها - والتّماس كناية عن الجماع ودواعيه من التقبيل واللمس عند الجمهور - قال الخازن: المراد من التماس المجامعة فلا يحل للمظاهر وطء امرأته التي ظاهر منها ما لم يُكفّر^(٢) وقال القرطبي: لا يجوز للمظاهر الوطء قبل التكفير، فإن جامعها قبل التكفير أثم وعصى ولا يسقط عنه التكفير، وعن مجاهد: تلزمه كفارتان^(٣) ﴿ذَلِكَ تَوْعُظُونَ بِهِ﴾ أي ذلكم هو حكم الله فيمن ظاهر ليتعظ به المؤمنون، حتى تركوا الظهار ولا تعودوا إليه ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي عالم بظواهر الأمور وبواطنها ومجازيكم بها، فحافظوا على حدود ما شرع لكم من الأحكام ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا﴾ أي فمن لم يجد الرقية التي يعتقها فعليه صيام شهرين متتابعين من قبل الجماع قال المفسرون: لو أفطر يومًا منها انقطع التابع ووجب عليه أن يستأنفها^(٤). ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مَسْكِينًا﴾ أي فمن لم يستطع الصيام لكبير أو مرضي، فعليه أن يطعم ستين مسكينًا ما يشبعهم ﴿ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي ذلك الذي بيّناه من أحكام الظهار من أجل أن تصدقوا بالله ورسوله في العمل بشرائعه، ولا تستمروا على أحكام الجاهلية ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي وتلك هي أوامر الله وحدوده فلا تعتدوها ﴿وَاللَّكَفِيرِينَ عَذَابُ أَلِيمٌ﴾ أي وللجاحدين والمكذبين

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ١٠٢/٤.

(٢) «تفسير الخازن» ٤٥/٤.

(٣) «تفسير القرطبي» ٢٨٣/١٧.

(٤) (ش): لو أفطر يومًا منها بغير عذر انقطع التابع ووجب عليه أن يبدأ صيام شهرين آخرين. أما إن تخلل صوم الكفارة صوم شهر رمضان أو فطر واجب كفطر العيد أو الفطر لمرض لم ينقطع التابع. فإذا تخلل صوم الظهار زمان لا يصح صومه عن الكفارة مثل أن يبدأ الصوم من أول شعبان فيتخلله رمضان ويوم الفطر، أو يتبدئ من ذي الحجة فيتخلله يوم النحر وأيام التشريق، فإن التابع لا ينقطع بهذا، ويبني على ما مضى من صيامه.

بهذه الحدود عذاب مؤلم مُوجع قال الألوسي: أطلق الكافر على مُتَعَدِّي الحدود تغليظاً وزجراً^(١). ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ﴾ ولما ذكر المؤمنين الواقفين عند حدوده، ذكر المُحَادِّين المخالفين لها فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي يخالفون أمر الله ورسوله، ويعادون الله ورسوله قال أبو السعود: أي يُعَادُونَهَا ويشاقُونَهَا لأن كلاً من المتعاديين في حدٍّ وجهته غير حدٍّ الآخر وجهته، وإنما ذُكرت المُحَادَّة هنا دون المعادة والمشاقَّة لمناسبة ذكر «حدود الله» فكان بينهما من حسن الموقع ما لا غاية وراءه^(٢) ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الَّذِينَ قَاتَلُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي خُذِلُوا وأهينوا كما خُذِلَ من قبلهم من المنافقين والكفار الذين حادُّوا الله ورسوله وأذلُّوا وأهينوا ﴿وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي والحال أنا قد أنزلنا آياتٍ واضحات، فيها الحلال والحرام، والفرائض والأحكام ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي وللكافرين الذين جحدوها ولم يعملوا بها عذاب شديد يُهينهم ويذهب عزَّهم قال الصاوي: وقد نزلت هذه الآية في كفار مكة يوم الأحزاب حين أرادوا التحزب على رسول الله ﷺ والمقصودُ بها تسليية رسول الله ﷺ وبشارته مع المؤمنين بأن أعداءهم المتحزبين سيُذَلُّون ويُخَذَلُّون ويُفَرَّقَ جمعُهم فلا تخشوا بأسهم^(٣) ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي اذكر ذلك اليوم الرهيب حين يحشر الله المجرمين كلهم في صعيد واحد ﴿فَيَنْتَهُمُ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي فيخبرهم بما ارتكبوا في الدنيا من جرائم وآثام ﴿أَخَصَّهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ أي ضبطه الله وحفظه عليهم في صحائف أعمالهم، بينما هم نسوا تلك الجرائم لاعتقادهم أن لا حساب ولا جزاء ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي وهو جل وعلا مُطَّلِعٌ وناظرٌ لا يغيب عنه شيء، ولا يخفى عليه شيء.. ثم بيَّن تعالى سعة علمه، وإحاطته بجميع الأشياء، وأنه تعالى يرى الخلق ويسمع كلامهم ويرى مكانهم حيث كانوا وأين كانوا فقال ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ أي ألم تعلم أيها السامع العاقل أن الله مُطَّلِعٌ على كل ذرة في الكون، لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يخفى عليه سرٌّ ولا علانية، ما يقع من حديثٍ وسرٍّ بين ثلاثة أشخاص إلا كان الله رابعهم بعلمه ومشاركاً لهم فيما يتحدثون ويتهامسون به في خفية عن الناس. ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ أي ولا يقع مناجاةٌ وحديثٌ بالسريين خمسة أشخاص إلا كان الله معهم بعلمه حتى يكون هو سادسهم ﴿وَلَا أَذْنٍ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ أي ولا أقل من ذلك العدد ولا أكثر منه إلا والله معهم يعلم ما يجري بينهم من حديثٍ ونجوى، والغرض: أنه تعالى حاضر عباده، مُطَّلِعٌ على أحوالهم وأعمالهم، وما تهجس به أفئدتهم^(٤).

(١) «تفسير الألوسي» ٢٨ / ٢٠.

(٢) «تفسير أبي السعود» ١٤٤ / ٥.

(٣) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤ / ١٨١. (ش): لم أعر على سبب النزول مُسْنَدًا.

(٤) (ش): أي ما يخطر ببالهم.

لا يخفى عليه شيء من أمور العباد، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿ثُمَّ يَنْتَهِم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي ثم يخبرهم تعالى بما عملوا من حسن وسيئ ويجازيهم عليه يوم القيامة، لأنه عالم بكل شيء من الأشياء قال المفسرون: ابتدأ الله هذه الآيات بالعلم بقوله ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ واختتمها بالعلم بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لينبه إلى إحاطة علمه جل وعلا بالجزئيات والكلليات، وأنه لا يغيب عنه شيء في الكائنات لأنه قد أحاط بكل شيء علماً، قال ابن كثير: وقد حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بالمعية في هذه الآية ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ معية علمه تعالى، ولا شك في إرادة ذلك، فسمعه مع علمه محيط بهم، وبصره نافذ فيهم، فهو سبحانه مطلع على خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شيء^(١).. ثم أخبر تعالى عن أحوال اليهود والمنافقين فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى﴾ قال القرطبي: نزلت في اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم وينظرون للمؤمنين ويتغامزون بأعينهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنهاهم عن النجوى فلم ينتهوا فنزلت^(٢) ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي ثم يرجعون إلى المناجاة التي نهوا عنها قال أبو السعود: والهمزة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للتعجب من حالهم، وصيغة المضارع ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ للدلالة على تكرر عودهم وتجده واستحضار صورته العجيبة^(٣) ﴿وَيَنْتَجِبُونَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ أي ويتحدثون فيما بينهم بما هو إثم وعدوان ومخالفة لأمر الرسول ﷺ لأن حديثهم يدور حول المكر والكيد بالمسلمين، قال أبو حيان: بدأ بالإثم لعمومه، ثم بالعدوان لعظمته في النفوس إذ هي ظلمات العباد^(٤)، ثم ترقى إلى ما هو أعظم وهو معصية الرسول عليه الصلاة والسلام، وفي هذا طعن على المنافقين إذ كان تناجيهم في ذلك^(٥) ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ أي وإذا حضروا عندك يا محمد حيوك بتحية ظالمة لم يشرعها الله ولم يأذن فيها، وهي قولهم «السلام عليكم» أي الموت عليكم قال المفسرون: «كان اليهود يأتون رسول الله ﷺ فيقولون: السلام عليكم بدلاً من السلام عليكم، والسلام الموت وهو ما أرادوه بقولهم، وكان رسول الله ﷺ يقول لهم: وعليكم لا يزيد عليها، فسمعتهم عائشة يوماً فقالت: بَلْ عَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، فلما انصرفوا قال لها رسول الله ﷺ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَالتَّفَحُّشَ» فقالت: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمَا سَمِعْتَ مَا قَالُوا؟ فقال لها: «أَوْ مَا سَمِعْتَ مَا رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ، قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ، فَإِنَّهُ يُسْتَجَابُ لِي

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٤٦١/٣.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٧/٢٩١. (ش): رواه الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد. وهو في «القرطبي» أيضاً بدون إسناد.

(٣) «تفسير أبي السعود» ١٤٥/٥.

(٤) (ش): الظلّامة: ما يطْلُبُه المَظْلُوم وَهُوَ اسْمٌ مَا أُخِذَ مِنْهُ ظُلْمًا.

(٥) «تفسير البحر المحيط» ٢٣٦/٨.

فِيهِمْ وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِي»^(١) ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أي ويقولون فيما بينهم: هَلَّا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بهذا القول لو كان محمد نبياً؟ فلو كان نبياً حقاً لعذبنا الله على هذا الكلام قال تعالى ردّاً عليهم ﴿حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا﴾ أي يكفيهم عذاباً أن يدخلوا نار جهنم ويصلوا حرها ﴿فَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي بئسست جهنم مرجعاً ومستقراً لهم قال ابن العربي: كانوا يقولون: لو كان محمد نبياً لما أمهلنا الله بسببه والاستخفاف به، وجهلوا أن الباري تعالى حليم لا يعاجل العقوبة لمن سبَّ نبيه؟! وقد ثبت في الصحيح «لَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَدَى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّهُ يُشْرِكُ بِهِ وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ»^(٢) فأنزل الله تعالى هذا كشفاً لسرائرهم، وفضحاً لبواطنهم وتكريماً لرسوله ﷺ^(٣)، وأما إمهالهم في الدنيا فمن كراماته ﷺ على ربه لكونه بعث رحمة للعالمين.. ثم نهى تعالى المؤمنين عن التناجي بما هو إثم ومعصية فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّجُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ أي إذا تحدثتم فيما بينكم سراً فلا تحدثوا بما فيه إثم كالقبيح من القول، أو بما هو عدوان على الغير، أو مخالفة ومعصية لأمر الرسول ﷺ ﴿وَتَنَجَّجُوا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ أي وتحدثوا بما فيه خير وطاعة وإحسان قال القرطبي: نهى تعالى المؤمنين أن يتناجوا فيما بينهم كفعل المنافقين واليهود، وأمرهم أن يتناجوا بالطاعة والتقوى والعفاف عما نهى الله عنه^(٤) ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي وخافوا الله بامتثالكم وأمره واجتنابكم نواهيه، الذي سيجمعكم للحساب، ويجازي كلًّا بعمله ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي ليست النجوى بالإثم والعدوان إلا من تزيين الشيطان، لِيُدْخِلَ بها الحزن على المؤمنين قال ابن كثير: أي إنما يصدر هذا من المتناجين عن تزيين الشيطان وتسويله^(٥) ﴿وَلَيْسَ بِضَارٍّ لَهُمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي وليس هذا التناجي بضارٍّ المؤمنين شيئاً إلا بمشيئة الله وإرادته ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي وعلى الله وحده فليعتمد وليثق المؤمنون، ولا يُبَالُوا بنجوى المنافقين فإن الله يعصمهم من شرهم وكيدهم، وفي الحديث «إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ صَاحِبِهِمَا فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْزَنُهُ»^(٦).

(١) (ش): انظر: البخاري ومسلم ومسند أحمد، ومسند إسحق بن راهويه. وفي رواية لمسلم «وَأَنَا نَجَابٌ عَلَيْهِمْ وَلَا يُجَابُونَ عَلَيْنَا». وفي رواية للبخاري ومسلم: «يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ». السَّامُ: الْمَوْتُ، وَالذَّامُ: الذَّمُّ. [وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، للألباني (٦/ ٤٩١-٤٩٣)].

(٢) (ش): رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

(٣) نقلاً عن «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٩٢.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٩٤.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٦٣.

(٦) أخرجه البخاري ومسلم.

قال الله تعالى:

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَزَجِىمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَتْ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَنَّ تُفَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَتْ فَإِذ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَآ تَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧﴾ لَن نُّغْنِي عَنْهُمْ ءَمْوَالَهُمْ وَلَا أَولَادَهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ءُولَٰئِكَ أَحْصَى النَّارُ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٨﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ءَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٩﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ءُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ءَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ءُولَٰئِكَ فِي الْءَٰذِلِينَ ﴿٢١﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٢﴾ ءَلَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ ءَآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَآبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ءُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ءَآيَمَنَ وَيُؤْتِيهِمُ بُرُوجٌ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ءَالنَهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ءُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ءَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

المناسبة: لما نهى تعالى عباده المؤمنين عما يكون سبباً للتباغض والتنافر، أمرهم بما يصير سبباً لزيادة المحبة والمودة، وهو التوسع في المجالس بأن يفسح بعضهم لبعض، ثم حذر من موالات أعداء الله، وختم السورة الكريمة ببيان أوصاف المؤمنين الكاملين.

اللغة: ﴿تَفَسَّحُوا﴾ توسَّعوا يقال: فسح له في المجلس، أي: وسَّع له، ومنه مكان فسيح أي: واسع ﴿فَانْشُرُوا﴾ انفضوا وارتفعوا يقال: نشز ينشز إذا تنحَّى من مجلسه وارتفع منه، وأصله من النشز وهو ما ارتفع من الأرض ﴿جُنَّةً﴾ بضم الجيم وقاية ﴿اسْتَحْوَذَ﴾ استولى وغلب على عقولهم ﴿الءَٰذِلِينَ﴾ الءذلاء المغمورين في الذل والهوان.

سبب النزول: أ- عن مقاتل قال: «كان النبي ﷺ يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء ناسٌ من أهل بدر فيهم «ثابت بن قيس» وقد سبقوا إلى المجلس، فقاموا حيال النبي ﷺ على أرجلهم ينتظرون أن يوسَّع لهم فلم يفسحوا لهم، فشق ذلك على النبي ﷺ فقال لمن حوله من غير أهل بدر قم يا فلان، قم يا فلان، بعدد الواقفين من أهل بدر، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه، وطعن المنافقون في ذلك وقالوا: ما عدل هؤلاء، قوم أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب منه فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه!! فأنزل الله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ

لَكُمْ تَفْسَحُوا فِي الْمَجْلِسِ فَأَفْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ.. ﴿١﴾ الآية.

عن ابن عباس قال: «إن الناس سألوا رسول الله ﷺ وأكثروا عليه حتى شقَّ ذلك عليه ﷺ فأراد الله أن يخفف عن نبيه ويثبِّطهم عن ذلك فأنزل الله ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجِيتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَتِكُمْ صَدَقَةٌ﴾ الآية. فلما نزلت جبن كثير من المسلمين وكفوا عن المسألة^(٢). قال السدي: «كان عبد الله بن نبتل» المنافق يجالس رسول الله ﷺ ويرفع حديثه إلى اليهود، فبينما رسول الله ﷺ في حجرة من حجراته إذ قال يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعيني شيطان، فدخل عبد الله بن نبتل وكان أزرق العينين فقال له النبي ﷺ: علام تشتمني أنت وأصحابك؟ فحلف بالله ما فعل ذلك، فقال له النبي ﷺ: بل فعلت، فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبُّوه فأنزل الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُم مِّنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٣).

التفسير: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ نداء من الله تعالى للمؤمنين بأكرم وصف والطف عبارة أي: يا من صدقتم الله ورسوله وتحلَّيتم بالإيمان الذي هو زينة الإنسان ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفْسَحُوا فِي الْمَجْلِسِ فَأَفْسَحُوا﴾ أي إذا قال لكم أحد توسعوا في المجالس سواء كان مجلس الرسول ﷺ أو غيره من المجالس فتوسعوا وافسحوا له ﴿يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي يوسع لكم ربكم في رحمته وجنته قال مجاهد: كانوا يتنافسون في مجلس النبي ﷺ فأمرُوا أن يفسح بعضهم لبعض^(٤) قال الخازن: أمر الله المؤمنين بالتواضع وأن يفسحوا في المجلس لمن أراد الجلوس عند النبي ﷺ ليتساوى الناس في الأخذ من حظهم من رسول الله ﷺ^(٥) وفي الحديث: «لَا يُقِيمَنَّ أَحَدُكُمُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ، ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ، وَلَكِنْ تَفْسَحُوا وَتَوَسَّعُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ»^(٦). قال الإمام الفخر: وقوله ﴿يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ مطلق في كل ما يطلب الناس الفسحة فيه في المكان، والرزق، والصدر، والقبر، والجنة، واعلم أن الآية دلت على أن كل من وسَّع على

(١) انظر «القرطبي» ١٧/ ٢٩٧، و«التفسير الكبير للرازي» ٢٨/ ٢٦٨. (ش): ضعيف، رواه الواحدي في «أسباب النزول».

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٦٥، و«تفسير الخازن» ٤/ ٥٢. (ش): رواه ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم في «تفسيريهما» بإسناد حسن.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٣٠٤. (ش): ضعيف، رواه الواحدي في «أسباب النزول».

(٤) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٩٦.

(٥) «تفسير الخازن» ٤/ ٥٠.

(٦) أخرجه البخاري ومسلم. (ش): «لَا يُقِيمَنَّ أَحَدُكُمُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ، ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ، وَلَكِنْ تَفْسَحُوا وَتَوَسَّعُوا» (رواه البخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني). «لَا يُقِيمُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَقْعَدِهِ ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ وَلَكِنْ تَفْسَحُوا وَتَوَسَّعُوا» (رواه البخاري ومسلم). «لَا يُقِيمُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ، وَلَكِنْ أَفْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ» (صحيح، رواه أحمد).

عباد الله أبواب الخير والراحة وسَّع عليه خيرات الدنيا والآخرة وفي الحديث «لا يزال الله في عون العبد ما زال العبد في عون أخيه»^(١) ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا﴾ أي وإذا قيل لكم أيها المؤمنون: انهضوا من المجلس وقوموا لتوسَّعوا لغيركم فارتفعوا منه وقوموا^(٢) قال ابن عباس: معناه إذا قيل لكم: ارتفعوا فارتفعوا قال في البحر: أمروا أولاً بالتفُّش في المجلس، ثم ثانياً بامتنال الأمر فيه إذا أمروا^(٣)، وألا يجدوا في ذلك غصاصة ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ أي يرفع الله المؤمنين بامتنال أو امره وأوامر رسوله، والعالمين منهم خاصة أعلى المراتب، ويمنحهم أعلى الدرجات الرفيعة في الجنة قال ابن مسعود: مدح الله العلماء في هذه الآية ثم قال: يا أيها الناس افهموا هذه الآية وتلَّغَّبْكم في العلم؛ فإن الله يقول: يرفع المؤمن العالم فوق المؤمن الذي ليس بعالم درجات. وقال القرطبي: بيِّن في هذه الآية أن الرِّفعة عند الله بالعلم والإيمان، لا بالسبق إلى صدور المجالس، وفي الحديث «إِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ»^(٤) وعنه ﷺ «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء»^(٥) فأعظم بمنزلة هي واسطة بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله ﷺ^(٦) ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي خير بمن يستحق الفضل والثواب ممن لا يستحقه ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ﴾ أي إذا أردتم محادثته سرّاً ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ﴾ أي فقدموا قبلها صدقة تصدَّقوا بها على الفقراء قال الألويسي: وفي هذا الأمر تعظيم لمقام الرسول ﷺ، ونفع للفقراء، وتمييز بين المخلص والمنافق، وبين محب الدنيا ومحب الآخرة^(٧) ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي تقديم الصدقات، قبل مناجاته

(١) تفسير الرازي ٢٩ / ٢٦٩. (ش): قال ﷺ: وَالْآخِرَةُ وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٢) أورد العلامة ابن كثير عند هذه الآية الكريمة: «حكم القيام للقيام» فقال رحمه الله: وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال: فمنهم من رخص في ذلك محتجاً بحديث: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ» ومنهم من منع ذلك محتجاً بحديث: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَتِمَّثَلَ لَهُ الرَّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» ومنهم من فصل فقال: يجوز عند القدوم من سفر، وللحاكم في ولايته لقصة سعد بن معاذ لما استدمه النبي ﷺ ليحكم في بني قريظة فلما أقبل قال: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ» وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه.. ثم قال: وأما اتخاذه ديناً فإنه من شعار العجم، وقد جاء في السنن أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، وكان إذا جاء لا يقومون له، لما يعلمون من كراهته لذلك وفي السنن أن رسول الله ﷺ كان يجلس حيث انتهى به المجلس، ولكن حيث يجلس ﷺ يكون هو صدر المجلس. اهـ. (ش): «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ» رواه البخاري ومسلم. «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَتِمَّثَلَ لَهُ الرَّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

(٣) «البحر المحيط» ٨ / ٢٣٧.

(٤) (ش): رواه أبو داود وصححه الألباني.

(٥) (ش): رواه ابن ماجه، وقال الألباني: موضوع.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٧ / ٣٠٠.

(٧) «تفسير الألويسي» ٢٨ / ٣٠.

أفضل لكم عند الله لما فيه من امتثال أمر الله، وأظهر لذنوبكم ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي فإن لم تجدوا ما تصدقون به فإن الله يسامحكم ويعفو عنكم، لأنه لم يكلف بذلك إلا القادر منكم ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُوبِكُمْ صَدَقْتُمْ﴾ عتابٌ للمؤمنين رقيق رقيق أي أخفتم أيها المؤمنون الفقر إذا تصدقتم قبل مناجاتكم للرسول ﷺ؟ والغرض: لا تخافوا فإن الله يرزقكم لأنه غني بيده خزائن السموات والأرض، وهو عتاب لطيف كما بينا، ثم نسخ تعالى الحكم تيسيراً على المؤمنين فقال ﴿فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا تَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي فإذا لم تفعلوا ما أمرتم به وشق ذلك عليكم، وعفا الله عنكم بأن رخص لكم مناجاته من غير تقديم صدقة ﴿فَأَقِمْ وَاصْلُوهُ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي فاكثفوا بالمحافظة على الصلاة ودفع الزكاة المفروضة ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله في جميع أحوالكم ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي محيط بأعمالكم ونياتكم قال المفسرون: نسخ الله ذلك تخفيفاً على العباد حتى قال ابن عباس: ما كان ذلك إلا ساعة من نهار ثم نسخ^(١) قال القرطبي: نسخت فرضية الزكاة هذه الصدقة، وهذا يدل على جواز النسخ قبل الفعل، وما روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: «آية في كتاب الله لم يعمل بها على أحد قبلي ولا بعدي، كان عندي دينار فتصدقت به ثم ناجيت الرسول ﷺ إلخضعيفاً لأن الله تعالى قال ﴿فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا﴾ وهذا يدل على أن أحداً لم يتصدق بشيء^(٢) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ تعجب للرسول ﷺ من أمر المنافقين الذين اتخذوا اليهود المغضوب عليهم أولياء، يناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين!! قال الإمام الفخر: كان المنافقون يتولون اليهود وهم الذين غضب الله عليهم في قوله ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠] وكانوا ينقلون إليهم أسرار المؤمنين^(٣) ﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي ليس هؤلاء المنافقون من المسلمين ولا من اليهود، بل هم مُدْبِذُونَ بين ذلك كقوله تعالى ﴿مُدْبِذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: ٤٣] قال الصاوي: أي ليسوا من المؤمنين الخُلص، ولا من الكافرين الخُلص، لا ينتسبون إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء^(٤) ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذْبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي ويحلفون بالله كاذبين يقولون: والله إنا لمسلمون، وهم يعملون أنهم كذبة فجرة قال أبو السعود: والصيغة مفيدة لكمال شناعة ما فعلوا، فإن الحلف على ما يعلم أنه كذب في غاية القبح^(٥) ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي هيأ لهم تعالى بسبب نفاقهم عذاباً في نهاية الشدة والألم، وهو الدرك الأسفل في جهنم ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ

(١) «تفسير الخازن» ٥٣/٤.

(٢) «تفسير القرطبي» ٣٠٣/١٧.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٧٣/٢٩.

(٤) «حاشية الصاوي على الجلالين» ١٨٤/٤.

(٥) «تفسير أبي السعود» ١٤٧/٥.

وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ [النساء: ١٤٥] إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١﴾ أَيُّ بئس ما فعلوا وبئس ما صنعوا ﴿٢﴾ أَخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴿٣﴾ أَيُّ جعلوا أيمانهم الكاذبة الفاجرة وقايةً لأنفسهم وسترَةً لها من القتل قال في التسهيل: أصل الجُنَّة ما يُسْتَرُّ به ويُتَّقَى به المحذور كالترس^(١)، ثم استعمل هنا بطريق الاستعارة؛ لأنهم كانوا يُظهِرون الإسلام ليعصموا دماءهم وأموالهم^(٢) ﴿٤﴾ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٥﴾ أَيُّ فمنعوا الناس عن الدخول في الإسلام، بإلقاء الشبهات في قلوب الضعفاء، والمكر والخداع بالمسلمين ﴿٦﴾ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٧﴾ أَيُّ فلهم عذاب شديد في غاية الشدة والإهانة ﴿٨﴾ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴿٩﴾ أَيُّ لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم في الآخرة، ولن تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ أَيُّ هم أهل النار لا يخرجون منها أبداً ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴿١٣﴾ أَيُّ يحشرهم يوم القيامة جميعاً للحساب والجزاء ﴿١٤﴾ فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ ﴿١٥﴾ أَيُّ فيحلفون لله تعالى كما يحلفون لكم اليوم في الدنيا كذباً أنهم مسلمون قال ابن عباس: هو قولهم: ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾^(٣) [الأنعام: ٢٣] ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ أَيُّ يظنون أن حلفهم في الآخرة ينفعهم وينجيهم من عذابها كما نفعهم في الدنيا بدفع القتل عنهم قال أبو حيان: والعجب منهم كيف يعتقدون أن كفرهم يخفى على علام الغيوب، ويُجْرُونَهُ مَجْرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي عَدَمِ اطِّلَاعِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَنِفَاقِهِمْ، وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُمْ تَعَوَّدُوا الْكَذِبَ حَتَّى كَانَ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ فِي الْآخِرَةِ كَمَا كَانَ فِي الدُّنْيَا^(٤) ﴿١٦﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٧﴾ أَيُّ ألا فانتبهوا أيها الناس إن هؤلاء هم البالغون في الكذب الغاية القصوى حيث تجاسروا على الكذب بين يدي علام الغيوب ﴿١٨﴾ اسْتَحْذَرُوا الشَّيْطَانَ فَأَنَاسَهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ ﴿١٩﴾ أَيُّ استولى على قلوبهم الشيطان وغلب عليهم تملُّك نفوسهم حتى أناسهم أن يذكروا ربهم ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ﴿٢١﴾ أَيُّ أولئك هم أتباع الشيطان وأعوانه وأنصاره ﴿٢٢﴾ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٣﴾ أَيُّ أتباع الشيطان وجنوده هم الكاملون في الخسران والضلالة، لأنهم قَوَّتُوا عَلَى أَنْفُسِهِمُ النِّعَمَ الدَّائِمَ وَعَرَّضُوا لِّلْعَذَابِ الْمَقِيمِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴿٢٥﴾ أَيُّ يعادون الله ورسوله ويخالفون أمرهما ﴿٢٦﴾ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٧﴾ أَيُّ أولئك في جملة الأذلاء المبعدين من رحمة الله ﴿٢٨﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَىٰ بَرَكَةٍ أَنَا وَرُسُلِي ﴿٢٩﴾ أَيُّ قضى الله وحكم أن الغلبة لدينه ورسله وعباده المؤمنين ﴿٣٠﴾ إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٣١﴾ أَيُّ هو تعالى قويٌّ على نصر رسله وأوليائه، غالبٌ على أعدائه، لا يُقْهَرُ ولا يَغْلَبُ قال مقاتل: لما فتح الله مكة والطائف وخيبر للمؤمنين قالوا: نرجو أن يُظهرنا الله على فارس والروم، فقال عبد الله بن سلول: «أتظنون أن الروم وفارس كبعض القرى التي غلبتم عليها؟!»

(١) (ش): الترس: صفحة من الفولاذ مستديرة أو بيضية الشكل تحمل لوقاية الوجه والرأس من ضربات.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤ / ١٠٥.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٧ / ٣٠٥.

(٤) «تفسير البحر المحيط» ٨ / ٢٣٨.

والله إنهم لأكثر عدداً، وأشد بطشاً من أن تظنوا فيهم ذلك» فنزلت ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾^(١) ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي لا يمكن أن ترى أيها السامع جماعة يُصدِّقون بالله وباليوم الآخر يحبون ويوالون من عادى الله ورسوله وخالف أمرهما، لأن من أحبَّ الله عادى أعداءه، ولا يجتمع في قلب واحد حبُّ الله وحبُّ أعدائه، كما لا يجتمع النور والظلام قال المفسرون: غرض الآية النهي عن مصادقة ومجبة الكفرة والمجرمين، ولكنها جاءت بصورة إخبارٍ مبالغة في النهي والتحذير قال الإمام الفخر: المعنى: أنه لا يجتمع الإيمان مع حبِّ أعداء الله، وذلك لأن من أحبَّ أحداً امتنع أن يحب عدوه، لأنهما لا يجتمعان في القلب، فإذا حصل في القلب مودة أعداء الله لم يحصل فيه الإيمان^(٢) ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أي ولو كان هؤلاء المُحَادُّونَ لله ورسوله أقرب الناس إليهم، كالآباء، والأبناء، والإخوان، والعشيرة، فإن قضية الإيمان بالله تقتضي معاداة أعداء الله قال في البحر: بدأ بالآباء لأن طاعتهم واجبة على الأولاد، ثم بالأبناء لأنهم أعلق بالقلوب، ثم بالإخوان لأنهم بهم التعاضد^(٣)، ثم بالعشيرة لأن بهم التناصر والمقاتلة والتغلب على الأعداء كما قال القائل:

لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانًا^(٤)

قال ابن كثير: نزلت ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾ في «أبي عبيدة» قتل أباه «الجراح» يوم بدر^(٥)، ﴿أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾ في الصديق هم بقتل ابنه «عبد الرحمن بن أبي بكر» ﴿أَوْ إِخْوَانَهُمْ﴾ في مُصْعَب بن عمير قتل أخاه عُبَيْد بن عمير يومئذٍ ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ في حمزة، وعلي، وعبيدة بن الحارث، قتلوا عتبة، وشيبة، والوليد بن عتبة يوم بدر^(٦) ﴿أَوْ لِيكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ الْإِيمَانَ﴾ أي أثبت الإيمان ومكَّنه في قلوبهم، فهي مؤمنةٌ موقنةٌ مُخلصةٌ ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي وقَّاهم بنصره وتأييده قال ابن عباس: نصرهم على عدوهم، سمي ذلك النصر رُوحاً لأن به يحيا أمرهم^(٧) ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي ويدخلهم في الآخرة بساتين فسيحة، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبد

(١) انظر «البحر المحيط» ٨/ ٢٣٨، و«تفسير الألوسي» ٢٨/ ٣٤. (ش): هو فيهما بدون إسناد، ومقاتل متهم بالكذب.

(٢) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٢٧٦.

(٣) (ش): التعاضد: التعاون والتناصر والمساعدة.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٢٣٩. (ش): نائبة: مصيبة شديدة، ما ينزل بالمرء من الكوارث والحوادث المؤلمة.

أي لا يسألون صاحبهم دليلاً على ما قاله حين يناديهم برفع صوته في المصائب الشديدة.

(٥) (ش): ضعيف، رواه الطبراني والحاكم. ورواه الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.

(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٦٧. (ش): رواه الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.

(٧) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٢٧٧.

الآبدين ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ أي قبل الله أعمالهم فرضي عنهم، ونالوا ثوابه فرضوا بما أعطاهم، وإنما ذكر رضوانه عليهم بعدد دخولهم الجنة لأنه أعظم النعم، وأجل المراتب قال ابن كثير: وفي الآية سر بديع وهو أنهم لما سخطوا على الأقارب والعشائر في الله تعالى، عَوَّضَهُمُ اللَّهُ بِالرِّضَا عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ بِمَا أَعْطَاهُمْ مِنَ النِّعَمِ الْمَقِيمِ، والفوز العظيم ^(١) ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ أي أولئك جماعة الله وخاصته وأولياؤه ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي هم الفائزون بخيري الدنيا والآخرة، وهذا في مقابلة قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - صيغة المبالغة في ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١] وفي ﴿عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ وفي ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦].
- ٢ - الإطناب بذكر الأمهات ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [المجادلة: ٢] زيادة في التقرير والبيان.
- ٣ - الطباق ﴿وَلَا أَدْفَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ﴾ [المجادلة: ٧] لأن معنى أدنى (أقل) فصار الطباق بينها وبين «أكثر».
- ٤ - عطف الخاص على العام تنبيهاً على شرفه ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ فإن ﴿والذين أُوتُوا العلم﴾ دخلوا في المؤمنين أولاً ثم خُصُّوا بالذكر ثانياً تعظيماً لهم.
- ٥ - الاستعارة ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةٌ﴾ استعار البدين لمعنى قبل، أي: قبل نجواكم.
- ٦ - الاستفهام والمراد منه التعجب ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ...﴾.
- ٧ - الجناس الناقص بين ﴿يَعْلَمُونَ﴾ و ﴿يَعْمَلُونَ﴾ لتغير الرسم.
- ٨ - المقابلة بين ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وبين ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ...﴾ الآية.
- ٩ - تحليلية الجملة بفنون المؤكدات مثل: «ألا، وإن، وهم» في قوله ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.
- ١٠ - توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿الْخَاسِرُونَ، الْكَذِبُونَ، خَالِدُونَ، يَعْمَلُونَ﴾.

لطيفة: روى الإمام أحمد عن أبي الطفيل أن «نافع بن عبد الحارث» لقي عمر بن الخطاب بعسفان وكان عمر استعمله على مكة فقال عمر: من استخلفت على أهل البوادي؟ فقال: استخلفت عليهم «ابن أبزى» فقال: ومن ابن أبزى؟ فقال: رجلٌ من موالينا فقال عمر:

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٤٦٨/٣.

استخلفت عليهم مولى؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنه قارىء لكتاب الله، عالم بالفرائض، قاض، فقال عمر رضي الله عنه: أما إن نبيكم ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ الْآخَرِينَ»^(١).

«انتهى تفسير سورة المجادلة»



(١) (ش): ورواه مسلم.



مدنية وآياتها أربع وعشرون

بين يدي السورة

* سورة الحشر مدنية وهي تعني بجانب التشريع شأن سائر السور المدنية، والمحور الرئيس الذي تدور عليه السورة الكريمة هو الحديث عن «غزوة بني النضير» وهم اليهود الذين نقضوا العهد مع الرسول ﷺ فأجلاهم عن المدينة المنورة، ولهذا كان ابن عباس يسمي هذه السورة «سورة بني النضير» وفي هذه السورة الحديث عن المنافقين الذين تحالفوا مع اليهود، وبإيجاز هي السورة «الغزوات، والجهاد، والفيء، والغنائم».

* ابتدأت سورة الكريمة بتنزيه الله وتمجيده، فالكون كله بما فيه من إنسان، وحيوان، ونبات، وجماد، شاهد بوحدانية الله وقدرته وجلاله، ناطق بعظمته وسلطانه ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

* ثم ذكرت السورة بعض آثار قدرته، ومظاهر عزته بإجلاء اليهود من ديارهم وأوطانهم، مع ما كانوا فيه من الحصون والقلاع، وكانوا يعتقدون أنهم في عزة ومنعة لا يستطيع أحد عليهم^(١)، فجاءهم بأس الله وعذابه من حيث لم يكن في حسابهم ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ...﴾ الآيات.

* ثم تناولت السورة موضوع الفيء والغنيمة، فبينت شروطه وأحكامه، ووضحت الحكمة من تخصيص الفيء بالفقراء، لئلا يستأثر به الأغنياء، ويكون هناك بعض التعادل بين طبقات المجتمع، بما فيه خير الفريقين، وبما يحقق المصلحة العامة ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَلِلسَّكِينِ...﴾ الآيات.

* وتناولت السورة أصحاب رسول الله ﷺ بالثناء العاطر، فنوهت بفضائل المهاجرين ومآثر الأنصار، فالمهاجرون هجروا الديار والأوطان حباً في الله، والأنصار نصروا دين الله، وآثروا إخوانهم - المهاجرين - بالأموال والديار على أنفسهم مع فقرهم وحاجتهم ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهِاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالُهُمْ يُنْفِقُونَ فَضَلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا...﴾ الآيات.

* وفي مقابلة ذكر المهاجرين والأنصار، ذكرت السورة المنافقين الأشرار، الذين تحالفوا مع اليهود ضد الإسلام، وضربت لهم أسوأ الأمثال، فمثلتهم بالشیطان الذي يغري الإنسان

(١) (ش): هكذا في أكثر من طبعة، ولعل الصواب: «لا يستطيع أحد الدخول عليهم» أو «لا يستطيع أحد التغلب عليهم».

بالكفر والضلال ثم يتخلى عنه ويخذله، وهكذا كان شأن المنافقين مع إخوانهم اليهود ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَخُرُجُكُمْ مَعَكُمْ﴾ الآيات.

* ووعظت السورة المؤمنين بتذكير ذلك اليوم الرهيب، الذي لا ينفع فيه حسب ولا نسب، ولا يفيد فيه جاه ولا مال، وبينت الفارق الهائل بين أهل الجنة وأهل النار، ومصير السعداء ومصير الأشقاء في دار العدل والجزاء ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّفُوا اللَّهَ وَتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ الآيات.

* وختمت السورة بذكر أسماء الله الحسنى وصفاته العليا وبتنزيهه عن صفات النقص ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا بِأُولَى الْأَنْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَرَكْتُمْ هَا فَأَمِمَةً عَلَى أَوَّلِهَا فَإِذِنْ لِلَّهِ وَلِخِزْيَةِ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا إِلَانُكُمُ الرَّسُولُ فَخْذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالُهُمْ يُنَافِقُونَ فَضَلَّ اللَّهُ مِنْهُمُ الرِّضْوَانُ وَنَصَرُونَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؛ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُخْبِتُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ

اللغة: ﴿الحشر﴾ الجمع، وسمي يوم القيامة يوم الحشر لأنه يوم اجتماع الناس للحساب والجزاء ومنه ﴿وَحْشِرَ لُسَيْمَنَ جُنُودَهُ﴾ [النمل: ١٧] أي جمع له الجنود ﴿وقذف﴾ ألقى وأنزل بشدة ﴿الجللاء﴾

الخروج من الوطن مع الأهل والولد ﴿شاقوا﴾ عادوا وخالفوا ﴿لينة﴾ بكسر اللام

النخلة القريبة من الأرض، الكريمة الطيبة، سميت لينة لجودة ثمرها وأنشد الأخفش:
 قَدْ شَجَانِي الْحَمَامُ حِينَ تَغْنَى بِفِرَاقِ الْأَحْبَابِ مِنْ فَوْقِ لِينَةٍ^(١)
 ﴿أَوْجَفْتُمْ﴾ الوجيف: سرعة السير يقال: أوجف البعير إذا حثه وحمله على السير السريع
 ﴿دُولَةً﴾ بضم الدال الشيء الذي يتداول من الأموال، ويتنقل من يد إلى يد ﴿خَصَاصَةً﴾ فقر
 واحتياج ﴿غَلًّا﴾ حقدًا وضغينة.

سَبَبُ النِّزُولِ: لما نقض اليهود «بنو النضير» العهد مع رسول الله ﷺ حاصرهم ﷺ وأمر
 بقطع نخيلهم وإحراقه إهانة لهم وإرعابًا لقلوبهم، فقالوا يا محمد: ألسنت تزعم أنك نبي؟
 وأنتك تنهى عن الفساد؟ فما بالك تأمر بقطع الأشجار وتحريقها؟ فأنزل الله تعالى ﴿مَا قَطَعْتُمْ
 مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَرَتْكُمْ تُؤَوِّلُهَا فَأَيَّ فَيَاذِنَ اللَّهُ..﴾^(٢) الآية.

التفسير: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي نزه الله تعالى ومجده وقُدَّسه جميع ما
 في السموات والأرض من ملك، وإنسان، وجماد، وشجر كقوله تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا
 يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] قال ابن كثير: يخبر تعالى أن جميع ما في السموات والأرض
 يسبح له ويمجده ويقُدَّسه ويؤحده^(٣) ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي وهو العزيز في ملكه، الحكيم
 في صنعه ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ بيان لبعض آثار قدرته تعالى
 الباهرة وعزته الظاهرة أي هو جل وعلا الذي أخرج يهود بني النضير من مساكنهم بالمدينة
 المنورة ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ أي في أول مرة حُشروا وأخرجوا فيها من جزيرة العرب، إذ لم يصبهم
 هذا الذل قبل ذلك قال البيضاوي: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة صالح «بني النضير» على
 ألا يكونوا معه ولا عليه، فلما ظهر يوم بدر قالوا: إنه النبي المنعوت في التوراة بالنصرة لا تردُّ
 له راية، فلما هُزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا، وخرج «كعب بن الأشرف» في أربعين
 راكبًا إلى مكة وحالفوا «أبا سفيان» فأمر رسول الله ﷺ «محمد بن مسلمة» أخا كعب من
 الرضاعة فقتله غيلة^(٤)، ثم صَبَّحَهُم بالكتائب وحاصرهم، حتى صالحوه على الجلاء، فجلا
 أكثرهم إلى الشام، ولحقت طائفة بخيبر، فذلك قوله ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
 مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ قال الألوسي: ومعنى ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾^(٥) أن هذا أول حشرهم إلى الشام

(١) «تفسير القرطبي» ٩/ ١٨. (ش): شَجِي المَحِبُّ: اهتمَّ وحزن وأهاجته الذكري.

(٢) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٢٨٣. (ش): ضعيف جدًا، رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره». وعن ابن عمر - رضي
 الله عنهما - قَالَ حَرَّقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَقَطَعَ فَنَزَلَتْ ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَرَتْكُمْ فَأَيَّ فَيَاذِنَ اللَّهُ
 أَصُولُهَا فَيَاذِنَ اللَّهُ﴾ (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٦٩.

(٤) (ش): قَتَلَهُ غِيلَةً: قَتَلَهُ عَلَى غَفْلَةٍ مِنْهُ، قَتَلَهُ بِوَسْطَةِ خُدْعَةٍ. وقصة مقتل كعب بن الأشرف رواها البخاري.

(٥) «تفسير البيضاوي» ٣/ ٤٦٩.

-أي أول ما حُشروا وأخرجوا- ونَبَّه بلفظ ﴿لَا وَّلَ﴾ على أنهم لم يصبهم جلاءً قبله ^(١) ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرِجُوكُمْ﴾ أي ما ظننتم أيها المؤمنون أن يخرجوا من أوطانهم وديارهم بهذا الذل والهوان، لعزتهم ومنعتهم، وشدة بأسهم، حيث كانوا أصحاب حصون وعقار، ونخيل وثمار ﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي وظنوا أن حصونهم الحصينة تمنعهم من بأس الله، وتدفع عنهم عذابه وانتقامه قال البيضاوي: والأصل أن يقال: وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم من بأس الله، وتغيير النظم بتقديم الخبر وإسناد الجملة إلى ضميرهم للدلالة على فرط وثوقهم بكونها حصينة، بحيث ظنوا أنه لا يخرجهم منها أحد لأنهم في عزة ومنعة ^(٢) ﴿فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ أي فجاءهم بأس الله وعذابه من حيث لم يكن في حسابهم، ولم يخطر ببالهم ^(٣) ﴿وَقَدْ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبُ﴾ أي وألقى في قلوب بني النضير الخوف الشديد، مما أضعف قوتهم، وسلبهم الأمن والطمأنينة، حتى نزلوا على حكم رسول الله ﷺ وفي الحديث «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مِنْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ» ^(٤) ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يهدمون بيوتهم بأيديهم من الداخل، وأيدي المؤمنين من الخارج قال المفسرون: كانوا بنو النضير قبل إجلائهم عن ديارهم يخربون بيوتهم فيقلعون العمَد، وينقضون السقوف، وينقبون الجدران ^(٥)، لئلا يسكنها المؤمنون حسداً منهم وبغضاً، وكان المسلمون يخربون سائر الجوانب من ظاهرها ليقحموا حصونهم ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ أي فاتعظوا بما جرى عليهم يا ذوي العقول والألباب ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ أي ولولا أن الله تعالى قضى عليهم بالخروج من أوطانهم مع الأهل والأولاد ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ أي لعذبهم في الدنيا بالسيف كما فعل بإخوانهم بنى قريظة ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ أي ولهم مع عذاب الدنيا عذاب جهنم المؤبد ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي ذلك الجلاء والعذاب بسبب أنهم خالفوا الله وعادوه وعصوا أمره، وارتكبوا ما ارتكبوا من جرائم، ونقض للعهد في حق

(١) «تفسير الألوسي» ٣٩/٢٨.

(٢) «حاشية شيخ زاده على البيضاوي» ٤٧٠/٣.

(٣) (ش): ﴿فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ أي أَخَذَهُمْ وَدَهَاهُمْ وَبَاعَتْهُمْ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا. (أتى): تأتي بعده معان، منها: بِمَعْنَى الْمَجِيءِ، وَمِنْهَا بِمَعْنَى الْإِنْدَارِ، وَمِنْهَا بِمَعْنَى الْمُدَاهِمَةِ. وَيُقَالُ: أَتَيْ فُلَانٌ بَضْمَ الْهَمْزَةِ وَكَسَرَ التَّاءِ إِذَا أَظْلَلَ عَلَيْهِ الْعَدُوَّ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: «مِنْ مَأْمَنِهِ يُؤْتَى الْحَذَرُ»، أَمَا مَعْنَى الْآيَةِ، فَإِنَّ سِيَاقَ الْقُرْآنِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مِثْلَ هَذَا السِّيَاقِ لَيْسَ مِنْ بَابِ الصِّفَاتِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾، أَي هَدَمَهُ وَافْتَلَعَهُ مِنَ قَوَاعِدِهِ، [انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٨/ ١٨)].

(٤) (ش): رواه أحمد هذا اللفظ، ورواه البخاري بلفظ: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ». الرعب: الخوف والفرع، كأن أعداءه قد أوقع الله في قلوبهم الخوف منه ﷺ وبينه وبينه مسيرة شهر فإذا كان كذلك فزعوا منه ورهبوه.

(٥) (ش): عَمَدٌ وَعُمُدٌ: أعمدة: جمع عمود. نَقَبَ الْبِنَاءَ أَوْ نَقَبَ الْحَائِطَ: نَقَبَهُ، وَفَتَحَ فِيهِ ثُعْرَةً.

رسوله ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي ومن يخالف أمر الله، ويُعَادِ دينه فالله ينتقم منه لأن عذابه شديد، وعقابه أليم ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].. ثم أخبر تعالى أن كل ما جرى من المؤمنين من قطع النخيل، وإحراق بعض الأشجار المثمرة، فإنما كان بأمر الله وإرادته فقال ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَرَكْتُمْوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي ما قطعتم أيها المؤمنون من شجرة نخيل، أو تركتموها كما كانت قائمة على سوقها فبأمر الله وإرادته ورضاه ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي وليغيظ اليهود ويذللهم، بقطع أشجارهم ونخيلهم قال الرازي: المعنى إنما أذن تعالى في ذلك حتى يزداد غيظ الكفار، وتتضاعف حسرتهم، بسبب نفاذ حكم أعدائهم في أعز أموالهم^(١) قال المفسرون: لما حصار رسول الله ﷺ بني النضير، كان بعض الصحابة قد شرع يقطع ويحرق في نخيلهم، إهانة لهم وإرغاباً لقلوبهم، فقالوا: ما هذا الإفساد يا محمد؟ إنك كنت تنهى عن الفساد، فما بالك تأمر بقطع الأشجار؟ فأنزل الله هذه الآية الكريمة^(٢) ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ أي وما أعاد الله وردّه غنيمة على رسوله من أموال يهود بني النضير ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ أي لم تسيروا إليه خيلكم ولا ركابكم، ولا تعبتم في تحصيله - قال القرطبي -: يقال: وجف البعير وجيفاً إذا أسرع السير، وأوجفه صاحبه إذا حمله على السير السريع، والركاب، ما يُركب من الإبل - والمعنى: لم تقطعوا إليها شقة، ولا لقيتم بها حرباً ولا مشقة، وإنما كانت من المدينة على ميلين، فافتتحها رسول الله ﷺ صلحاً، وأجلاهم عنها وأخذ أموالهم، فجعلها الله لرسوله ﷺ خاصة يضعها حيث شاء^(٣) ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي ولكنه تعالى من سنته أن ينصر رسله بقذف الرعب في قلوب أعدائه، من غير أن يقاسوا شدائد الحروب ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي هو تعالى قادر على كل شيء، لا يُغالب ولا يُمناع ولا يُعجزه شيء ثم بيّن تعالى حكم الفيء عامة وهو ما يغنمه المسلمون بدون حرب فقال ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ أي ما جعله الله غنيمةً لرسوله بدون قتال من أموال الكفار قال ابن عباس: هي قريظة، والنضير، وفدك، وخيبر^(٤) ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ أي فحكمها أنها لله تعالى يضعها حيث يشاء، ولرسوله يصرفها على نفسه وعلى مصالح المسلمين ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ أي ولأقرباء الرسول من بني هاشم وعبد المطلب، ولليتامى الذين مات أبائهم، وللمساكين ذوي الحاجة والفقر ﴿وَأَيْنِ السَّبِيلِ﴾ أي وللغريب المنقطع في سفره قال في التسهيل: لا تعارض بين هذه الآية وبين آية الأنفال، فإن آية الأنفال في حكم الغنيمة التي

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) «التفسير الكبير للرازي» ٢٩ / ٢٨٣.

(٣) انظر «مختصر ابن كثير» ٣٨ / ٤٧١، و«البحر المحيط» ٨ / ٢٤٤، وانظر سبب النزول السابق.

(٤) «تفسير الخازن» ٤ / ٦٠.

تؤخذ بالقتال وإيجاف الخيل والركاب، فتلك يؤخذ منها الخمس ويقسم الباقي على الغانمين، وأما هذه ففي «حكم الفيء» وهو ما يؤخذ من الكفار من غير قتال فلا تعارض بينهما ولا نسخ، وقد قرر الفقهاء الفرق بين الغنيمة والفيء، وأن حكمهما مختلف، فالغنيمة ما أخذت بالقتال، والفيء ما أخذ صلحاً، وانظر كيف ذكر هنا لفظ الفيء ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ وذكر في الأنفال لفظ الغنيمة ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾^(١) [الأنفال: ٤١]! ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ أي لئلا ينتفع بهذا المال ويستأثر به الأغنياء دون الفقراء، مع شدة حاجة الفقراء للمال قال القرطبي: أي فعلنا ذلك كيلا يتقاسمه الرؤساء والأغنياء بينهم دون الفقراء والضعفاء، لأن أهل الجاهلية كانوا إذا غنموا أخذ الرئيس ربعها لنفسه وهو المرباع ثم يصطفي منها أيضاً ما يشاء^(٢) قال المفسرون: إن رسول الله ﷺ قسم أموال بني النضير على المهاجرين فإنهم كانوا حنيئذ فقراء، ولم يُعط الأنصار منها شيئاً فإنهم كانوا أغنياء، فقال بعض الأنصار: لنا سهمنا من هذا الفيء فأنزل الله هذه الآية ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ أي ما أمركم به الرسول ﷺ فافعلوه، وما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بكل خير وصلاح، وينهى عن كل شر وفساد قال المفسرون: والآية وإن نزلت في أموال الفيء، إلا أنها عامة في كل ما أمر به النبي ﷺ أو نهى عنه من واجب، أو مندوب، أو مستحب، أو محرم، فدخل فيها الفيء وغيره^(٣)، عن ابن مسعود أنه قال: «لَعَنَ اللَّهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُوتَشِمَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ وَالْمُتَقَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيَّرَاتِ خَلَقَ اللَّهُ. فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا أُمُّ يَعْقُوبَ، فَجَاءَتْ فَقَالَتْ إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ لَعَنْتَ كَيْتَ وَكَيْتَ. فَقَالَ وَمَا لِي لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَنْ هُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَقَالَتْ لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ اللَّوْحَيْنِ فَمَا وَجَدْتُ فِيهِ مَا تَقُولُ. قَالَ لَيْتَ كُنْتُ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ، أَمَا قَرَأْتَ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾؟^(٤) ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي خافوا ربكم بامثال أوامره واجتناب نواهيه أي فإن عقابه أليم وعذابه شديد، لمن عصاه وخالف ما أمره ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ هذا متعلق بما سبق من حكم الفيء كأنه يقول: الفيء والغنائم لهؤلاء الفقراء المهاجرين الذين ألجأهم كفار مكة إلى الهجرة من أوطانهم، فتركوا الديار والأموال، ابتغاء مرضاة الله ورضوانه ﴿وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي قاصدين بالهجرة إعلاء كلمة الله ونصرة دينه ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي هؤلاء الموصوفون بالصفات

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ١٠٨/٤.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٦/١٨.

(٣) انظر «التفسير الكبير للرازي» ٢٩/٢٨٦.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم، قال العلماء: الوشم هو غرز العضو من الإنسان بالإبرة ثم يُحسَى بكحل، والمستوشمة هي التي تطلب أن يفعل بها ذلك، والنامصة هي التي تنتف الشعر من الوجه، والمتفلجة هي التي تنكلف تفريج ما بين أسنانها من أجل الحُسْن، وكل ذلك مَنهِيٌّ عنه لأن فيه تغييراً لخلق الله.

الحميدة هم الصادقون في إيمانهم قال قتادة: هؤلاء المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال، والأهلين والأوطان، حباً لله ورسوله، حتى إن الرجل منهم كان يعصب الحجر على بطنه ليقيم به ضلبه من الجوع^(١) ثم مدح تعالى الأنصار وبين فضلهم وشرفهم فقال ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي والذين اتخذوا المدينة منزلاً وسكناً وآمنوا قبل كثير من المهاجرين وهم الأنصار قال القرطبي: أي تبوءوا الدار من قبل المهاجرين، واعتقدوا الإيمان وأخلصوه، والتبوء: التمكن والاستقرار، وليس يريد أن الأنصار آمنوا قبل المهاجرين، بل أراد آمنوا قبل هجرة النبي ﷺ إليهم^(٢) ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ أي يحبون إخوانهم المهاجرين ويواسونهم بأموالهم قال الخازن: وذلك أنهم أنزلوا المهاجرين في منازلهم، وأشركوهم في أموالهم^(٣) ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ أي ولا يجد الأنصار حزازة^(٤) وغيظاً وحسداً مما أُعطي المهاجرون من الغنيمة دونهم قال المفسرون: إن رسول الله ﷺ قسم أموال بني النضير بين المهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة منهم، فطبت أنفس الأنصار بتلك القسمة ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي يفضلون غيرهم بالمال على أنفسهم ولو كانوا في غاية الحاجة والفاقة إليه^(٥)، فإيثارهم ليس عن غنى عن المال، ولكنه عن حاجة وفقر، وذلك غاية الإيثار ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي ومن حماه الله وسلم من البخل فقد أفلح ونجح، والشح هو البخل الشديد مع الجشع والطمع، وهو غريزة في النفس ولذلك أضيف إليها، قال ابن عمر: ليس الشح أن يمنع الرجل ماله، إنما الشح أن تطمع عينه فيما ليس له^(٦) وفي الحديث «وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»^(٧) ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين المستحقين للإحسان والفضل، وهم التابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ أي يدعون لهم قائلين: يا ربنا اغفر لنا ولإخواننا المؤمنين الذين سبقونا بالإيمان قال أبو السعود: وصفهم بالسبق بالإيمان اعترافاً بفضلهم، لأن أخوة الدين عندهم أعز وأشرف من النسب^(٨) ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي

(١) «تفسير القرطبي» ١٨ / ١٩.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٨ / ٢٠.

(٣) «تفسير الخازن» ٤ / ٦٢.

(٤) (ش): حَزَازَةٌ: عداوة أو ضغينة.

(٥) (ش): فَاقَةٌ: فَقْرٌ؛ حاجة؛ ضيق الحال.

(٦) «حاشية الصاوي» ٤ / ١٩٠.

(٧) أخرجه مسلم.

(٨) «تفسير أبي السعود» ٥ / ١٥٢.

قُلُوبَنَا غَلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴿١﴾ أَيُّ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا بَغْضًا وَحَسَدًا لِأَحَدٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾ أَيُّ مَبَالُغٌ فِي الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ فَاسْتَجِبْ دَعَاءَنَا، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَمَا أَحْسَنَ مَا اسْتَنْبَطَ الْإِمَامُ مَالِكٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ الرَّافِضِي الَّذِي يَسِبُ الصَّحَابَةَ لَيْسَ لَهُ فِي مَالِ الْغَنِيمَةِ شَيْءٌ لِعَدَمِ اتِّصَافِهِ بِأَوْصَافِ الْمُؤْمِنِينَ^(١)، وَقَالَ شَيْخُ زَادَةَ: بَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّ مِنْ شَأْنِ مَنْ جَاءَ مِنْ بَعْدِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ أَنْ يَذْكُرَ السَّابِقِينَ بِالرَّحْمَةِ وَالِدَعَاءِ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ بَلْ ذَكَرَهُمْ بِسُوءٍ فَقَدْ كَانَ خَارِجًا عَنْ جُمْلَةِ أَقْسَامِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَقْتَضَى هَذِهِ الْآيَاتِ، وَقَدْ رَوَى عَنِ الشَّعْبِيِّ أَنَّهُ قَالَ: تَفَاضَلَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى عَلَى الرَّافِضَةِ بِخَصْلَةٍ، سَأَلْتُ الْيَهُودَ: مِنْ خَيْرِ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ؟ فَقَالُوا: أَصْحَابُ مُوسَى، وَسَأَلْتُ النَّصَارَى فَقَالُوا: أَصْحَابُ عِيسَى، وَسَأَلْتُ الرَّافِضَةَ مِنْ شَرِّ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ؟ فَقَالُوا: أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ أُمِرُوا بِالْإِسْتِغْفَارِ لَهُمْ فَسَبُّهُمْ، فَالْسَيْفُ عَلَيْهِمْ مَسْلُوقٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ^(٢).. اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا مَحَبَّةَ أَصْحَابِ نَبِيِّكَ الْكَرِيمِ.

قال الله تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ لَكُمُوكَ^(١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْتِيَنَّكَ الْأَذْبَرُ ثُمَّ لَا يُنصُرُونَ^(١٢) لَأَنَّهُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ^(١٣) لَا يَقْدِرُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ^(١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَفَأُوا وَإِلَآءَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ^(١٦) فَكَانَ عَقِبَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ^(١٧) يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّفُوا اللَّهَ وَلَتُنْظُرَ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَانْقَفُوا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ^(١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ^(١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ^(٢٠) لَوْ أَنَّا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَشَعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ^(٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ^(٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ^(٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

المناسبة: لما ذكر تعالى أوصاف المؤمنين الصادقين، أعقبه بذكر أوصاف المنافقين

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٤٧٥.

(٢) «حاشية زاده على البيضاوي» ٣/ ٤٧٧.

المخادعين، الذين تركوا نصره المؤمنين وصادقوا اليهود وحالفوهم على حرب المسلمين، ثم ذكر البون الشاسع بين أصحاب النار وأصحاب الجنة، وأنهم لا يستوون في الحال ولا المال، وختم السورة الكريمة بذكر بعض أسماء الله الحسنى، وصفاته العليا.

اللغة: ﴿شَقَى﴾ متفرقة تشتت جمعهم أي تفرق ﴿خَشَعًا﴾ ذليلاً خاضعاً ﴿مُتَّصِدًا﴾ متشققاً، تصدع البنيان، أي: تشقق ﴿الْقُدُّوسُ﴾ المنزه عن كل نقص وعيب ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ المصدق لرسله بالمعجزات ﴿الْمُهَيِّمُ﴾ الرقيب على كل شيء ﴿الْعَزِيزُ﴾ القوي الغالب ﴿الْجَبَّارُ﴾ العظيم القاهر، صاحب العظمة والجبروت ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ المبالغ في الكبرياء والعظمة ﴿الْبَارِئُ﴾ المبدع المخترع ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ خالق الصور.

التفسير: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ تعجب من الله تعالى لرسوله من حال المنافقين أي ألا تعجب يا محمد من شأن هؤلاء المنافقين الذين أظهروا خلاف ما أضمروا؟ ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي يقولون لليهود بني قريظة والنضير الذين كفروا برسالة محمد ﷺ: ﴿لَئِنْ أَخْرَجَناكُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ أي لئن أخرجتم من المدينة لنخرجن معكم منها قال في التسهيل: نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول وقوم من المنافقين، بعثوا إلى بني النضير وقالوا لهم: اثبتوا في حصونكم فإننا معكم كيف ما تقلبت حالكم^(١)، وإنما جعل المنافقين إخوانهم لأنهم كفار مثلهم ﴿وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ أي ولا نطيع أمر محمد في قتالكم، ولا نسمع من أحد إذا أمرنا بخذلانكم ﴿وَلِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ أي ولئن قاتلكم أحد لنعاوننكم على عدوكم ونكون بجانبكم ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي والله يشهد إن المنافقين لكاذبون فيما قالوه ووعدوهم به.. ثم أخبر الله عن حال المنافقين بالتفصيل فقال ﴿لَئِنْ أَخْرَجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ أي لئن أخرج اليهود لا يخرج المنافقون معهم ﴿وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ﴾ أي ولئن قاتل اليهود لا ينصروهم المنافقون ولا يقاتلون معهم قال القرطبي: وفي هذا دليل على صحة نبوة محمد ﷺ من جهة أمر الغيب، لأنهم أخرجوا فلم يخرجوا معهم، وقوتلوا فلم ينصروهم كما أخبر عنهم القرآن^(٢) ﴿وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْلِكَنَّ الْأَذْبَرُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾ أي ولئن جاءوا لنصرتهم وقاتلوا معهم على سبيل الفرض والتقدير فسوف ينهزمون، ثم لا ينفعهم نصره المنافقين قال الإمام الفخر: أخبر تعالى أن هؤلاء اليهود لئن أخرجوا فإن المنافقين لا يخرجون معهم وقد كان الأمر كذلك، فإن بني النضير لما أخرجوا لم يخرج معهم المنافقون وقوتلوا كذلك فما نصرهم وأما قوله تعالى ﴿وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ﴾ فهذا على سبيل الفرض والتقدير أي بتقدير أنهم أرادوا نصرتهم لا بد وأن، يتركوا تلك النصره

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤ / ١١٠. (ش): ذكره بدون إسناد.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٨ / ٣٤.

وينهزموا^(١) ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي لأنتم يا معشر المسلمين أشد خوفاً وخشية في قلوب المنافقين من الله، فإنهم يرهبون ويخافون منكم أشد من رهبتهم من الله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُوْنَ﴾ أي ذلك الخوف منكم بسبب أنهم لا يعلمون عظمة الله تعالى حتى يخشوه حق خشيته قال القرطبي: أي لا يفقهون قدر عظمة الله وقدرته^(٢) ثم أخبر تعالى عن اليهود والمنافقين بأنهم جناء من شدة الهلع، وأنهم لا يقدرّون على قتال المسلمين إلا إذا كانوا متحصّنين في قلاعهم وحصونهم فقال ﴿لَا يُقْلِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ﴾ أي لا يقدرّون على مقاتلتكم مجتمعين إلا إذا كانوا في قرى محصّنة بالأسوار والخنادق ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ أي أو يكونوا من وراء الحيطان ليتستروا بها، لفرط جنبنهم وهلعهم ﴿بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي عداوتهم فيما بينهم شديدة ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ أي تظنهم مجتمعين على أمرٍ ورأي في الصورة ذوي ألفة واتحاد، وهم مختلفون غاية الاختلاف لأن أراءهم مختلفة، وقلوبهم متفرقة قال قتادة: أهل الباطل مختلفة آراءهم، مختلفة أهواؤهم، مختلفة شهادتهم، وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق^(٣) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي ذلك التفرق والشتات بسبب أنهم لا عقل لهم يعقلون به أمر الله. قال في البحر: وموجب ذلك التفرق والشتات هو انتفاء عقولهم، فهم كالبهائم لا تتفق على حالة^(٤) ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾ أي صفة بني النضير فيما وقع لهم من الجلاء والذل، كصفة كفار مكة فيما وقع لهم يوم بدر من الهزيمة والأسر قال البيضاوي: أي مثل اليهود كمثل أهل بدر، أو المهلكين من الأمم الماضية في زمان قريب^(٥) ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي ذاقوا سوء عاقبة إجرامهم في الدنيا ﴿وَهُمْ عَذَابُ الْإِلْمِ﴾ أي ولهم عذاب شديد موجه في الآخرة ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ﴾ أي مثل المنافقين في إغراء اليهود على القتال، كمثل الشيطان الذي أغرى الإنسان بالكفر ثم تخلى عنه وخذله ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ﴾ أي فلما كفر الإنسان تبرأ منه الشيطان وقال ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أي أخاف عذاب الله وانتقامه إن كفرت به قال في التسهيل: هذا مثل، مثل الله المنافقين الذين أغوا يهود بني النضير ثم خذلوهم بعد ذلك بالشيطان الذي يغوي ابن آدم ثم يتبرأ منه، والمراد بالشيطان والإنسان هنا الجنس^(٦)، وقول الشيطان ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ كذب منه ورياء لأنه لو خاف الله لامثل أمره وما عصاه^(٧) ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا

(١) «التفسير الكبير» ٢٩ / ٢٨٩.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٨ / ٣٥.

(٣) «تفسير الخازن» ٤ / ٦٦.

(٤) تفسير البحر ٨ / ٢٤٩.

(٥) «تفسير البيضاوي» ٣ / ٤٧٨.

(٦) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤ / ١١٠.

(٧) قال ابن كثير: أي مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين، كمثل الشيطان إذ سول للإنسان الكفر ثم تبرأ منه وتنصل وقال: إني أخاف الله رب العالمين. المختصر ٣ / ٤٧٦.

أَتَمَّهَا فِي النَّارِ خَلِيدَيْنِ فِيهَا ﴿١﴾ أَي فُكَّانَ عَاقِبَةِ الْمُنَافِقِينَ وَالْيَهُودِ، مِثْلَ عَاقِبَةِ الشَّيْطَانِ وَالْإِنْسَانِ، حَيْثُ صَارَا إِلَى الْمُؤَبَّدَةِ ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢﴾ أَي وَذَلِكَ عِقَابُ كُلِّ ظَالِمٍ فَاجِرٍ، مُنْتَهَكٍ لِحُرْمَاتِ اللَّهِ وَالِدِينِ.. وَلَمَّا ذُكِرَ صِفَاتُ كُلِّ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْيَهُودِ وَضُرِبَ لَهُمُ الْأَمْثَالُ، وَعُظُّ الْمُؤْمِنِينَ بِمَوْعِظَةٍ حَسَنَةٍ، تَحْذِيرًا مِنْ أَنْ يَكُونُوا مِثْلَ مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ فَقَالَ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ ﴿٣﴾ أَي خَافُوا اللَّهَ وَاحْذَرُوا عِقَابَهُ، بِامْتِثَالِ أَمْرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أَي وَلْتَنْظُرْ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا قَدَّمَتْ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: انظُرُوا مَاذَا ادْخَرْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ لِيَوْمِ مَعَادِكُمْ وَعَرَضْكُمْ عَلَى رَبِّكُمْ ^(١)، وَسُمِّيَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ غَدًا لِقَرَبِ مَجِيئِهِ ﴿وَمَا أَمُرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧] وَالتَّنْكِيرُ فِيهِ لِلتَّفْخِيمِ وَالتَّهْوِيلِ ^(٢) ﴿وَاتَّقُوا﴾ كَرَّرَهُ لِلتَّكْيِيدِ وَلِبَيَانِ مَنَزَلَةِ التَّقْوَى الَّتِي هِيَ وَصِيَّةُ اللَّهِ تَعَالَى لِلأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١] ﴿إِنَّ اللَّهَ حَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أَي مُطَّلِعٌ عَلَى أَعْمَالِكُمْ فَيَجَازِيكُمْ عَلَيْهَا ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ أَي وَلَا تَكُونُوا يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ كَالَّذِينَ تَرَكُوا ذِكْرَ اللَّهِ وَمُرَاقَبَتَهُ وَطَاعَتَهُ، فَأَنْسَاهُمْ حَقُّوقَ أَنْفُسِهِمْ وَالنَّظَرَ لَهَا بِمَا يَصْلَحُهَا قَالَ أَبُو حَيَّانٍ: وَهَذَا مِنَ الْمَجَازَةِ عَلَى الذَّنْبِ بِالذَّنْبِ، تَرَكُوا عِبَادَةَ اللَّهِ وَامْتِثَالِ أَمْرِهِ، فَعُوقِبُوا عَلَى ذَلِكَ بِأَنْ أَنْسَاهُمْ حُظَّ أَنْفُسِهِمْ ^(٣)، حَتَّى لَمْ يَقْدَمُوا لَهَا خَيْرًا يَنْفَعُهَا ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أَي أُولَئِكَ هُمُ الْفَجَرَةُ الْخَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ أَي لَا يَتَسَاوَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَشْقِيَاءُ وَالسَّعْدَاءُ، أَهْلُ النَّارِ وَأَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْفَضْلِ وَالرَّتَبَةِ ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أَي أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ بِالسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ فِي دَارِ النَّعِيمِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.. ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى رُوحَةَ الْقُرْآنِ، وَتَأْثِيرَهُ فِي الصُّمِّ الرَّاسِيَّاتِ مِنَ الْجِبَالِ ^(٤) فَقَالَ ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَشِيعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أَي لَوْ خَلَقْنَا فِي الْجَبَلِ عَقْلًا وَتَمَيِّزًا كَمَا خَلَقْنَا لِلْإِنْسَانِ، وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِ هَذَا الْقُرْآنَ، بُوْعْدَهُ وَوَعِيدَهُ، لَخَشَعَ وَخَضَعَ وَتَشَقَّقَ، خَوْفًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَهَابَةً لَهُ وَهَذَا تَصْوِيرٌ لِعَظَمَةِ قُدْرَةِ الْقُرْآنِ، وَقُوَّةِ تَأْثِيرِهِ، وَأَنَّهُ بَحِثٌ لَوْ خَوَّطَبَ بِهِ جَبَلٌ عَلَى شِدَّتِهِ وَصَلَابَتِهِ لَرَأَيْنَاهُ ذَلِيلًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَالْمُرَادُ مِنْهُ تَوْبِيخُ الْإِنْسَانِ بِأَنَّهُ لَا يَتَخَشَّعُ عِنْدَ تَلَاوَةِ الْقُرْآنِ، بَلْ يُعْرِضُ عَمَّا فِيهِ مِنْ عَجَائِبٍ وَعَظَائِمٍ، فَهَذِهِ الْآيَةُ فِي بَيَانِ عَظَمَةِ الْقُرْآنِ، وَدَنَاءَةِ حَالِ الْإِنْسَانِ ^(٥) وَقَالَ فِي الْبَحْرِ: وَالْغَرَضُ تَوْبِيخُ

(١) «تفسير ابن كثير» ٤٧٧/٣.

(٢) «تفسير أبي السعود» ١٥٤/٥.

(٣) «تفسير البحر المحيط» ٢٥١/٨.

(٤) (ش): صم: جمع أصم: مُصَمَّت، صُلْبٌ مَتِين.

(٥) حاشية زاده على البيضاوي ٤٧٩/٣.

الإنسان على قسوة قلبه، وعدم تأثره بهذا الذي لو أنزل على الجبل لتخشع وتصدع، وإذا كان الجبل على عظمته وتصلبه يعرض له الخشوع والتصدع، فابن آدم كان أولى بذلك، لكنه على حقارته وضعفه لا يتأثر^(١) ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي وتلك الأمثال نفصلها ونوضحها للناس لعلهم يتفكرون في آثار قدرة الله ووحدانيته فيؤمنون.. ثم لما وصف القرآن بالرفعة والعظمة، أتبعه بشرح عظمة الله وجلاله فقال ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي هو جلّ وعلا الإله المعبود بحق لا إله ولا رب سواه ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي عالم السر والعلن، يعلم ما غاب عن العباد مما لم يبصروه، وما شاهدوه وعلموه ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ أي هو تعالى ذو الرحمة الواسعة في الدنيا والآخرة ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ كرر اللفظ اعتناءً بأمر التوحيد، أي: لا معبود ولا رب سواه^(٢) ﴿الْمَلِكُ﴾ أي المالك لجميع المخلوقات، المتصرف في خلقه بالأمر والنهي، والإيجاد والإعدام ﴿الْقُدُّوسُ﴾ أي المنزه عن القبائح وصفات الحوادث قال في التسهيل: القدوس مشتق من التقديس وهو التنزه عن صفات المخلوقين، وعن كل نقص وعيب، والصيغة للمبالغة كالسبوح^(٣)، وقد ورد أن الملائكة تقول في تسبيحها: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ»^(٤) ﴿الَسَّلَامُ﴾ أي الذي سلم الخلق من عقابه، وأمنوا من جورهِ ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] وقال البيضاوي: أي ذو السلامة من كل نقص وآفة، وهو مصدر وُصف به للمبالغة^(٥) ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ أي المصدق لرسله بإظهار المعجزات على أيديهم ﴿الْمُهَيِّمُ﴾ أي الرقيب الحافظ لكل شيء وقال ابن عباس: الشهيد على عباده بأعمالهم الذي لا يغيب عنه شيء^(٦) ﴿الْعَزِيزُ﴾ أي القادر القاهر الذي لا يُغلب ولا يناله ذل ﴿الْجَبَّارُ﴾ أي القهار العالي الجنب الذي يذل له من دونه قال ابن عباس: هو العظيم الذي إذا أراد أمراً فعله، وجبروت الله عظمته^(٧) ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ أي الذي له الكبرياء حقاً ولا تليق إلا به وفي الحديث القدسي: «الْكِبْرِيَاءُ رِذَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي فِي وَاحِدٍ مِنْهُمَا قَصَمْتُهُ ثُمَّ قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»^(٨) قال الإمام الفخر: واعلم

(١) «تفسير البحر المحيط» ٢٥١ / ٨.

(٢) (ش): أي لا معبود بحق إلا الله.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ١١١ / ٤.

(٤) (ش): لم أجد ما يدل على ذلك. وكان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه وسجوده «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ». (رواه مسلم).

(٥) «تفسير الخازن» ٧٢ / ٤.

(٦) «تفسير القرطبي» ٤٧ / ١٨.

(٧) «تفسير الخازن» ٧٢ / ٤.

(٨) «تفسير القرطبي» ٤٧ / ١٨. (ش): الذي في الأصل في أكثر من طبعة: «الْعَظَمَةُ إِزَارِي، وَالْكِبْرِيَاءُ رِذَائِي، فَمَنْ نَازَعَنِي فِيهِمَا قَصَمْتُهُ وَلَا أَبَالِي»، والمثبت هنا منقول من «تفسير القرطبي». قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «الْعِزُّ إِزَارُهُ =

أن المتكبر في صفة الناس صفة ذم، لأن المتكبر هو الذي يُظهر من نفسه الكبر، وذلك نقص في حق الخلق، لأنه ليس له كبر ولا علو، بل ليس له إلا الذلة والمسكنة، فإذا أظهر العلو كان كاذباً فكان مذموماً في حق الناس، وأما الحق سبحانه فله جميع أنواع العلو والكبرياء، فإذا أظهر فقد أرشد العباد إلى تعريف جلاله وعظمته وعلوه، فكان ذلك في غاية المدح في حقه جل وعلا^(١)، ولهذا قال في آخر الآية: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه الله وتقدس في جلاله وعظمته، عمّا يلحقون به من الشركاء والأنداد ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ﴾ أي هو جل وعلا الإله الخالق لجميع الأشياء، الموجد لها من العدم، المُنشئ لها بطريق الاختراع ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ أي المبدع للأشكال على حسب إرادته ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٦] قال الخازن: أي الذي يخلق صورة الخلق على ما يريد^(٢) ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي له الأسماء الرفيعة الدالة على محاسن المعاني ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ينزهه تعالى عن صفات العجز والنقص جميع ما في الكون بلسان الحال أو المقال قال الصاوي: ختم السورة كما ابتدأها به إشارة إلى أنها المقصود الأعظم، والمبدأ والنهاية، وأن غاية المعرفة بالله تنزيه عظمته عما صوّرت العقول^(٣) ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي العزيز في ملكه، الحكيم في خلقه وصنعه.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - طباق السلب ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢].

٢ - المقابلة اللطيفة بين ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِالرَّسُولِ فَخْذُوهُ﴾ وبين ﴿وَمَا نَهَكُمُ عَنْهُ فَأَنْهَوْا﴾ [الحشر: ٧].

٣ - وضع الضمير بين المبتدأ والخبر لإفادة الحصر ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

٤ - الاستعارة اللطيفة ﴿تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْأَيْمَانَ﴾ [الحشر: ٩] شبه الإيمان المتمكن في نفوسهم، بمنزل ومستقر للإنسان نزل فيه وتمكّن منه حتى صار منزلاً له، وهو من لطيف الاستعارة.

٥ - الاستفهام الذي يراد به الإنكار والتعجب ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا..﴾ الآية.

٦ - الطباق بين جميعاً وشتى في قولهم ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾.

٧ - التشبيه التمثيلي ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ..﴾ وجه الشبه منتزع من متعدد.

= وَالْكَبِيرَاءُ رِدَاؤُهُ فَمَنْ يَنَازِعُنِي عَذْبَتُهُ. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). «الْكَبِيرَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظْمَةُ إِزَارِي، مَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، فَلَدَقْتُهُ فِي النَّارِ» (رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه، وصححه الألباني). «الْكَبِيرَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ نَازَعَنِي رِدَائِي قَصَمْتُهُ». (رواه الحاكم وصححه).

(١) «التفسير الكبير» ٢٩٤ / ٢٩.

(٢) «تفسير الخازن» ٧٣ / ٤.

(٣) «حاشية الصاوي على الجلالين» ١٩٤ / ٤.

٨ - الكناية اللطيفة ﴿وَلَتَنْظُرَنَّهُمْ مَا قَدَّمَتْ لِعَذَابِكُمْ كُنَى عَنْ الْقِيَامَةِ بِالْعَدَلِ لِقَرَبِهَا.

٩ - الطباق بين ﴿الْغَيْبِ .. وَالشَّهَادَةِ﴾ وبين ﴿الْجَنَّةِ .. النَّارِ﴾ إلخ.

لطيفة: أخرج الشيخان عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله، إني مجهد - أي اشتد بي الجوع والفاقة - فأرسل إلى بعض نسائه يسألها هل عندك شيء؟ فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا الماء، ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك، وقلن كلهن مثل ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ». فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ: أَبُو طَلْحَةَ، فَقَالَ: أنا يا رسول الله! فانطلق به إلى رحله - أي إلى منزله - فقال لها: هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخري عنه شيئاً وأكرمي، فقالت: ما عندي إلا قوت الصبيان، فقال، عَلَيْهِمْ بِشْيءٍ وَنَوْمِهِمْ، فإذا دخل ضيفنا فأريه أنا نأكل ثم قومي إلى السراج كي تصلحيه فأطفيئيه، ففعلت فقعدوا وأكل الضيف وباتا طويين، فلما أصبح غداً على رسول الله ﷺ فلما نظر إليه رسول الله ﷺ تبسم، ثم قال: «لَقَدْ عَجِبَ اللَّهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ» وَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ..﴾ [الحشر: ٩] الآية (١).

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحشر»



(١) (ش): ليس في هذا الحديث دليل على الاختلاط بين الرجال والنساء، فقد كان هذا قبل نزول آيات الحجاب، وما ورد من الأحاديث مما ظاهره عدم الحجاب، فإنه يُحْمَلُ على أن ذلك كان قبل نزول آيات الحجاب. وبيان ذلك أن هذه القصة كانت سبباً في نزول قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر: ٩)، وهي آية من سورة الحشر وقد نزلت سورة الحشر كلها في إثر إجلاء بني النضير، ولذلك كان يسميها عبد الله بن عباس سورة بني النضير، كما أخرج ذلك البخاري في صحيحه عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: «قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: «سُورَةُ التَّوْبَةِ؟»، قَالَ: «التَّوْبَةُ هِيَ الْفَاضِحَةُ، مَا زَالَتْ تَنْزَلُ وَمِنْهُمْ وَمِنْهُمْ، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهَا لَمْ تَبْقَ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا ذَكَرَ فِيهَا». قُلْتُ: «سُورَةُ الْأَنْفَالِ؟». قَالَ: «نَزَلَتْ فِي بَدْرٍ». قُلْتُ: «سُورَةُ الْحَشْرِ؟». قَالَ: «نَزَلَتْ فِي بَنِي النَّضِيرِ». وقد أجلى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بني النضير على أكثر الأقوال في سنة أربع، وباتفاق أهل العلم أن الأحزاب كانت بعد إجلاء بني النضير؛ فهذا يعني أن الآية الكريمة نزلت قبل الحجاب بالإجماع، وأن القصة التي نزلت الآية بشأنها، وجاءت متقدمة على نزول الآية كانت قبل سورة الأحزاب المتضمنة لآيات الحجاب؛ فيكون أمر هذه القصة كله قبل نزول أحكام الحجاب. (إلا قوت صبياني) يَحْمَلُ أَنْ يَكُونَ هُوَ وَأَمْرَاتُهُ تَعَشِيًا وَكَانَ صَبْيَانُهُمْ حِينَئِذٍ فِي شُغْلِهِمْ أَوْ نِيَامًا فَأَخْرَجُوا لَهُمْ مَا يَكْفِيهِمْ، أَوْ نَسَبُوا الْعِشَاءَ إِلَى الصَّبِيِّ لَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ أَشَدُّ طَلَبًا. (طأوين) أي بغير عشاء. (فانطلق به إلى رحله) إلى منزله. (فعليلهم): علله بكذا: شغله به وألهاه وصبره. وفعلهم هذا محمول على أن الصبيان لم يكونوا محتاجين إلى الأكل وإنما تطلبه أنفسهم على عادة الصبيان من غير جوع بضرهم فإنهم لو كانوا على حاجة بحيث بضرهم ترك الأكل لكان إطعامهم واجباً ووجب تقديمه على الضيافة وقد أتى الله ورسوله ﷺ على هذا الرجل وأمراته فدل على أنهما لم يتركا واجباً بل أحسنا وأجملنا رضي الله عنهما. وأما هو وأمراته فآثرا على أنفسهما برضاهما مع حاجتهما وخصاصتهما فمدحهما الله تعالى وأنزل فيهما ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾. [انظر: شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٢)، فتح الباري لابن حجر (٧/ ١١٩)، الاختلاط بين الرجال والنساء (٢/ ٤١٩ - ٤٢٠) لمحقق هذا الكتاب].

سُورَةُ الْمُؤْتَحِنَةِ

١٣

٦٠

مدنية وآياتها ثلاث عشرة

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة من السور المدنية، التي تهتم بجانب التشريع، ومحور السورة يدور حول فكرة «الحب والبغض في الله» الذي هو أوثق عرى الإيمان، وقد نزل صدر السورة عتاباً لحاطب بن أبي بلتعة حين كتب كتاباً لأهل مكة يخبرهم أن الرسول ﷺ قد تجهز لغزوهم، كما ذكر تعالى حكم موالاة أعداء الله، وضرب الأمثال في إبراهيم والمؤمنين في تبرئهم من المشركين، وبين حكم الذين لم يقاتلوا المسلمين، وحكم المؤمنات المهاجرات وضرورة امتحانهم، وغير ذلك من الأحكام التشريعية.

* ابتدأت السورة الكريمة بالتحذير من موالاة أعداء الله، الذين آذوا المؤمنين حتى اضطروهم إلى الهجرة وترك الديار والأوطان ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ...﴾ الآيات. ثم بينت السورة أن القرابة والنسب والصدقة في هذه الحياة لن تنفع الإنسان أبداً يوم القيامة، حيث لا ينفع الإنسان إلا الإيمان والعمل الصالح ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ...﴾ الآيات.

* ثم ضربت المثل في إيمان إبراهيم عليه السلام وأتباعه المؤمنين، حين تبرءوا من قومهم المشركين، ليكون ذلك حافزاً لكل مؤمن على الاقتداء بأبي الأنبياء إبراهيم خليل الرحمن ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِ إِنَّا بِكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾ الآيات.

* وتحدثت السورة عن حكم الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِينِكُمْ أَنَّ تَبْرؤُهُمْ وَتَقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ وحكم الذين قاتلوا المؤمنين وأذوهم ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ...﴾ الآيات.

* وبينت السورة وجوب امتحان المؤمنات عند الهجرة، وعدم ردهن إلى الكفار إذا ثبت إيمانهن، وقررت عدم الاعتداد بعصمة الكافر، ثم حكم مبايعة النساء للرسول ﷺ وشروط هذه البيعة ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَهُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مَهْجُورَاتٍ فَأَمَحَّوهُنَّ...﴾ الآيات وقوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَهُ الْمُؤْمِنَاتُ بِإِيعَاكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ الآيات.

* وختمت السورة بتحذير المؤمنين من موالاة أعداء الله الكافرين ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسْأَلَنَّ الْأَخْرَةَ كَمَا يَسْأَلُ الْكُفَّارُ مِنْ أَحْبَابِ الْقُبُورِ﴾ وهكذا ختمت السورة بمثل ما بدأت به من التحذير من موالاة أعداء الله، ليتناسق الكلام في البدء والختام.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسْرِوْنَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِنْ يَتَفَقَّهْتُمْ بِكُفْرَانِهِمْ لَكُمْ أَعْدَاءُ وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُهُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَغْفِرَ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآخِرُ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ؕ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مُودَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ لَا يَنْهَيْكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَيْكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهْنُ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَانَسْتُمُوهُنَّ أَجْرُهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُفَّارِ وَسَتَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْفَقُوا ذَلِكَكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَابَقْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَرْوَاحُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَدْسُورُونَ الْآخِرَةَ كَمَا يَدْسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَحْصَابِ الْقُبُورِ

اللغة: ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ أصدقاء وأحباء جمع ولي وهو الصديق والناصر والمعين ﴿يَتَفَقَّهْتُمْ﴾ يظفروا بكم ويتمكنوا منكم، وأصل الثقف الحذق في إدراك الشيء وفعله، ومنه قولهم! «رجلٌ ثَقِفٌ لَقِفٌ»^(١) ثم استعمل في الظفر والإدراك مطلقاً^(٢) ﴿أُسْوَةٌ﴾ قدوة يقتدى به

(١) (ش): يقال: «إِنَّهُ ثَقِفٌ لَقِفٌ»، إذا كان جيد الحذر في القتال، بصيراً بمواقع القتال. ويقال: «إِنَّهُ ثَقِفٌ لَقِفٌ»، إذا كان سريع الأخذ لما يُرمى إليه باليد وسريع الفهم لما يُرمى إليه من كلام اللسان. ويقال: «إِنَّهُ ثَقِفٌ لَقِفٌ» إذا كان مُحْكِمًا لِمَا يَتَنَاوَلُهُ مِنَ الْأُمُورِ.

(٢) «تفسير الألوسي» ٦٨/٢٨.

﴿أَرْحَامُكُمْ﴾ جمع رحم وهو في الأصل رحم المرأة، واشتهر في القرابة حتى صار كالحقيقة فيها ﴿وَوَظَهَرُوا﴾ أعانوا ﴿عِصَمٌ﴾ جمع عِصْمَةٌ وهي ما يعتصم ويتمسك به الإنسان من حبل أو عقد والمراد به هنا عقد النكاح ﴿الْكُوفَرُ﴾ جمع كافرة وهي التي لا تؤمن بالله.

سَبَبُ النُّزُولِ: «لما تجهز رسول الله ﷺ لفتح مكة، كتب «حاطب بن أبي بلتعة» إلى أهل مكة يخبرهم بذلك وقال لهم: إن رسول الله ﷺ يريد أن يغزوكم فخذوا حذرکم، ثم أرسل الكتاب مع ظعينة -أي امرأة- مسافرة فنزل الوحي على رسول الله ﷺ يخبره بذلك، فبعث رسول الله ﷺ عليًا، والزبير، والمقداد وقال: «انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخ»^(١)، فَإِنَّ بِهَا ظُعِينَةً^(٢) وَمَعَهَا كِتَابٌ، فَخُذُوهُ مِنْهَا». فخرجنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة، فقلنا لها: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي من كتاب، فقال لها: لتخرجي الكتاب أو لنُلْقِينَ الثياب. فأخرجته من عقاصها^(٣)، فأتينا به النبي ﷺ، فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ: «مَا هَذَا يَا حَاطِبُ؟» فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ، إِنِّي كُنْتُ أَمْرًا مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ، وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ، يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ كُفْرًا وَلَا أَزْدَادًا عَنْ دِينِي. قَالَ عُمَرُ: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ. فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ..﴾ الآية^(٤).

التفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي يا معشر المؤمنين، يا من صدقتم بالله ورسوله^(٥)، لا تتخذوا الكفار الذين هم أعدائي وأعداؤكم أصدقاء وأحباء، فإن من علامة الإيمان بغض أعداء الله لا مودتهم وصدقهم قال في التسهيل: نزلت عتابًا لحاطب وزجرًا عن أن يفعل أحد مثل فعله، وفيها مع ذلك تشریف له لأن الله شهد له بالإيمان في قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾^(٦) «تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ» أي تحبونهم وتودونهم وتصادقونهم مع أنهم

(١) روضة خاخ: مكان على بعد قليل من المدينة.

(٢) (ش): الظعينة: المرأة في اليهودج. والهودج، مقعد ذو قبة يوضع على ظهر الجمل لتركب فيه النساء، كانت فيه المرأة أو لم تكن.

(٣) عقاصها: ضفائر شعرها.

(٤) أخرجه الشيخان وانظر روح المعاني ٢٨/٦٥، والقرطبي ١٨/٥٠.

(٥) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح.

(٦) «التسهيل» ٤/١١٢.

أعداء ألداء لكم^(١) قال القرطبي: أي تخبرونهم بسرائر المسلمين وتنصحون لهم^(٢) ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ﴾ أي والحال أنهم كافرون بدينكم وبقرآنكم الذي أنزله الله عليكم بالحق الواضح ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي يخرجون محمداً من مكة ظلماً وعدواناً كما يخرجون أيضاً منها المؤمنين قال في البحر: وقدم الرسول تشریفاً له ولأنه الأصل للمؤمنين^(٣)، ومعنى إخراجهم أنهم ضيقوا عليهم وآذوهم حتى خرجوا منها مهاجرين إلى المدينة ﴿أَنْ تُوْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أي من أجل أنكم آمنتُم بالله الواحد الأحد كقوله ﴿وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْغَزِيرِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨] ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهْدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ شرطٌ حذف جوابه، أي: إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيل الله طلباً لرضوانه فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء قال الألوسي: وجواب الشرط محذوف دل عليه ما تقدم كأنه قيل: لا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائي^(٤) ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ أي تسرون إليهم بالنصيحة وأنا العالم بسريرتكم وعلا نيتكم، لا يخفى عليّ شيء من أحوالكم؟ والغرض منه التوبيخ والعتاب ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي ومن يصادق أعداء الله، ويُفشي أسرار الرسول^(٥)، فقد حاد عن طريق الحق والصواب.. ثم أخبر تعالى المؤمنين بعداوة الكفار الشديدة لهم، المستحكمة في قلوبهم فقال ﴿إِنْ تَقْفُوا يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾ أي إن يظفروا بكم ويتمكنوا منكم، يُظهروا ما في قلوبهم من العداوة الشديدة لكم ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَهُمْ بِالسُّوءِ﴾ أي يمدوا إليكم أيديهم بالضرب والقتل، وألسنتهم بالشتم والسب ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أي وقد تمنوا أن تكفروا لتكونوا مثلهم قال الزمخشري: وإنما أورده بذكر الماضي ﴿وَوَدُّوا﴾ بعد أن ذكر جواب الشرط بلفظ المضارع ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ لأنهم أرادوا كفرهم قبل كل شيء^(٦) كقوله تعالى ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩] ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ أي لن تفيدكم قراباتكم ولا أولادكم الذين توالون الكفار من أجلهم يوم القيامة شيئاً، فلن يجلبوا لكم نفعاً، ولن يدفعوا عنكم ضرراً قال الصاوي: هذه تخطئة لحاطب في رأيه كأنه قال: لا تحمِلْكم قراباتكم وأولادكم الذين بمكة، على خيانة رسول الله ﷺ والمؤمنين، ونقل

(١) (ش): لَدَّ الشَّخْصِ: خاصَّمَه خُصُومَةً شَدِيدَةً. أَلْدَاءُ: جَمْعُ أَلَدٍّ: شَدِيدُ الْخُصُومَةِ. أَلْدَةً: جَمْعُ لَدُودٍ: صِغَةً مَبَالِغَةً مِنْ لَدَّ: شَدِيدُ الْخُصُومَةِ.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٨ / ٥٢.

(٣) «تفسير البحر المحيط» ٨ / ٢٥٣.

(٤) «تفسير الألوسي» ٢٨ / ٦٧. (ش): في أكثر من طبعة: «لا تتخذوا أعدائي إن كنتم أوليائي»، وهو خطأ طباعي

واضح، والمثبت من «تفسير الألوسي».

(٥) (ش): أَفْشَى السَّرِّ / أَفْشَى السَّرِّ: نَشَرَهُ، أَذَاعَهُ، أَعْطَى مَعْلُومَاتٍ عَنْهُ، كَشَفَهُ.

(٦) «الكشاف» ٤ / ٢٩٥.

أخبارهم وموالاة أعدائهم، فإنه لا تنفعكم الأرحام ولا الأولاد الذين عصيتهم الله من أجلهم^(١) ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ أي في ذلك اليوم العصيب، يحكم الله بين المؤمنين والكافرين، فيدخل المؤمنين جنات النعيم، ويدخل المجرمين دركات الجحيم ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي مطلع على جميع أعمالكم فيجازيكم عليها ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أي قد كان لكم يا معشر المؤمنين قدوة حسنة في الخليل إبراهيم ومن معه من المؤمنين ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي حين قالوا للكفار: إننا متبرءون منكم ومن الأصنام التي تعبدونها من دون الله ﴿كُفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي كفرنا بدينكم وطريقتكم ﴿وَبَدَأَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ أَبَدًا﴾ أي وظهرت بيننا وبينكم العداوة والبغضاء إلى الأبد ما دمت على هذه الحالة ﴿حَتَّى تَوَمَّنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ أي إلى أن توحدوا الله فتعبدوه وحده، وتركوا ما أنتم عليه من الشرك والأوثان قال المفسرون: أمر الله المؤمنين أن يقتدوا بإبراهيم الخليل عليه السلام وبالذين معه في عداوة المشركين والتبرؤ منهم، لأن الإيمان يقتضي مقاطعة أعداء الله وبغضهم ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ أي إلا في استغفار إبراهيم لأبيه فلا تقتدوا به، فإنه إنما استغفر لأبيه المشرك رجاء إسلامه ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ هذا من تنمة كلام إبراهيم لأبيه، أي: ما أدفع عنك من عذاب الله شيئاً إن أشركت به، ولا أملك لك شيئاً غير الاستغفار ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ أي عليك اعتمادنا في جميع أمورنا ﴿وَالْيَكُ أَنْتَبْنَا﴾ أي وإليك رجعنا وتبنا ﴿وَالْيَكُ الْمَصِيرُ﴾ أي وإليك المرجع والمعاد في الدار الآخرة قال المفسرون: إن إبراهيم وعد أباه بالاستغفار كما في سورة مريم قال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧] واستغفر له بالقول فعلاً كما في سورة الشعراء ﴿وَأَعْفِرْ لِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِينَ﴾ [الشعراء: ٨٦] وكل هذا كان رجاء إسلامه، ثم رجع عن ذلك لما تيقن كفره كما في سورة التوبة ﴿وَمَا كَانَ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي لا تسلطهم علينا فيفتنونا عن ديننا بعذاب لا نطقه^(٢) وقال مجاهد: أي لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا: لو كان هؤلاء على الحق لما أصابهم ذلك ﴿وَأَعْفِرْ لَنَا﴾ أي اغفر لنا ما فرط من الذنوب^(٣) ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي أنت يا الله الغالب الذي لا يذل من التجأ إليه، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما فيه الخير والمصلحة، وتكرار النداء للمبالغة في التضرع

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤ / ١٩٥.

(٢) القول الأول مروي عن ابن عباس، والثاني قول مجاهد. والأول هو الأرجح لأنه دعاء لأنفسهم بعدم تمكين الكفار من رقابهم، وهو اختيار ابن عطية.

(٣) (ش): أي اغفر لنا ما سبق من الذنوب.

وَالْجُؤَارُ^(١) ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي لقد كان لكم في إبراهيم ومن معه من المؤمنين قدوة حسنة في التبرؤ من الكفار قال أبو السعود: والتكرير للمبالغة في الحث على الاقتداء به عليه السلام ولذلك صُدِّرَ بالقسم^(٢) ﴿لَمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أي لمن كان يرجو ثواب الله تعالى، ويخاف عقابه في الآخرة ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي ومن يُعرض عن الإيمان وطاعة الرحمن، فإن الله مُسْتَعْنٍ عن أمثاله وعن الخلق أجمعين، وهو المحمود في ذاته وصفاته ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً﴾ أي لعل الله جل وعلا يجعل بينكم وبين الذين عاديتهم من أقاربكم المشركين محبة ومودة، محبة بعد البغضاء، وألفة بعد الشحنة قال في التسهيل: لما أمر الله المسلمين بعداوة الكفار ومقاطعتهم، على ما كان بينهم وبين الكفار من القرابة والمودة، وعلم الله صدقهم أنسهم بهذه الآية، ووعدهم بأن يجعل بينهم مودة، أي: محبة، وهذه المودة كملت في فتح مكة فإنه أسلم حينئذ سائر قريش^(٣)، وجمع الله الشمل بعد التفرق وقال الرازي: و(عسى) وعد من الله تعالى وقد حقق تعالى ما وعدهم به من اجتماع كفار مكة بالمسلمين، ومخالطتهم لهم حين فتح مكة^(٤) ﴿وَاللَّهُ فَذِيرٌ﴾ أي قادر لا يعجزه شيء، يقدر على قلب القلوب وتغيير الأحوال ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي مبالغ في المغفرة والرحمة، لمن تاب إليه وأتاب ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ﴾ أي لا ينهاكم عن البر بهؤلاء الذين لم يحاربوكم لأجل دينكم، ولم يخرجوكم من أوطانكم كالنساء والصبيان، ولفظة ﴿أَنْ تَبَرُّوهُمْ﴾ في موضع جر بـ «عن» أي لا ينهاكم جل وعلا عن البر والإحسان لهؤلاء ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي تعدلوا معهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي يحب العادلين في جميع أمورهم وأحكامهم قال ابن عباس: نزلت في خزاعة، وذلك أنهم صالحوا رسول الله ﷺ على ألا يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحداً، فرخص الله في برهم والإحسان إليهم^(٥). وروي «عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت: قَدِمْتُ عَلَى أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ حِينَ عَاهَدُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَعْنِي فِي صَلَاحِ الْحَدِيثِ فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟» قال: «نَعَمْ صَلِّي أُمَّكِ» فأنزل الله

(١) (ش): تَضَرَّعَ فَلَانٌ إِلَى اللَّهِ / تَضَرَّعَ فَلَانٌ لِلَّهِ: تَذَلَّلَ وَخَضَعَ لَهُ، تَقَرَّبَ وَتَوَسَّلَ إِلَيْهِ، ابْتَهَلَ إِلَيْهِ وَدَعَا. جَارُ فَلَانٍ إِلَى اللَّهِ جَارًا وَجُؤَارًا: رَفَعَ صَوْتَهُ بِالِدَّعَاءِ وَتَضَرَّعَ إِلَى اللَّهِ.

(٢) «تفسير أبي السعود» ١٥٧/٥.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ١١٤/٤.

(٤) «التفسير الكبير» ٣٠٣/٢٩.

(٥) «التفسير الكبير» للرازي ٣٤/٢٩. (ش): ذكره الرازي بدون إسناد، فقال: «اِخْتَلَفُوا فِي الْمُرَادِ مِنَ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُواكُمْ: فَالْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّهُمْ أَهْلُ الْعَهْدِ الَّذِينَ عَاهَدُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى تَرْكِ الْقِتَالِ، وَالْمُظَاهَرَةِ فِي الْعَدَاوَةِ، وَهُمْ خِزَاعَةٌ كَانُوا عَاهَدُوا الرَّسُولَ عَلَى أَنْ لَا يُقَاتِلُوهُ وَلَا يُخْرِجُوهُ، فَأَمَرَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْبِرِّ وَالْوَفَاءِ إِلَى مُدَّةِ أَجْلِهِمْ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ».

﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ ^(١) الآية ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تُولَّوهُمْ﴾ أي إنما ينهاكم الله عن صداقة ومودة الذين ناصبوكم العداوة، وقاتلوكم لأجل دينكم، وأعانوا أعداءكم على إخراجكم من دياركم، أن تتولَّوهم فتتخذوهم أولياء وأنصارًا وأحبابًا ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي ومن يصادق أعداء الله ويجعلهم أنصارًا وأحبابًا، فأولئك هم الظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مَهْجُرَاتٍ فَمَتَّحُوهُنَّ﴾ أي اختبروهن لتعلموا صدق إيمانهن قال المفسرون: «كان صلح الحديبية الذي جرى بين رسول الله ﷺ وكفار مكة قد تضمن أن من أتى أهل مكة من المسلمين لم يُردَّ إليهم، ومن أتى المسلمين من أهل مكة يعني المشركين ردَّ إليهم، فجاءت «أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعيط» مهاجرةً إلى رسول الله ﷺ، فخرج في أثرها أخوها «عُمارة» و«الوليد» فقالوا للنبي ﷺ: رُدَّها علينا بالشرط، فقال ﷺ: «كان الشرط في الرجال لا في النساء» فأنزل الله الآية ^(٢)، قال ابن عباس: كانت المرأة تُستحلف أنها ما هاجرت بغضًا لزوجها، ولا طمعًا في الدنيا، وأنها ما خرجت إلا حبًّا لله ورسوله، ورغبةً في دين الإسلام ^(٣) ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِنَّ﴾ أي الله أعلم بصدقهن في دعوى الإيمان، لأنه تعالى المطلع على قلوبهن، والجملة اعتراضية لبيان أن هذا الامتحان بالنسبة للمؤمنين، وإلا فالله عالمٌ بالسرائر لا تخفى عليه خافية ﴿فَإِن عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ أي فإن تحققتن بإيمانهن بعد امتحانهن فلا تردوهن إلى أزواجهن الكفار ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ أي لا تحل المؤمنة للمشرك، ولا يحل للمؤمن نكاح المشركة قال الألوسي: والتكرير للتأكيد والمبالغة في الحرمة وقطع العلاقة بين المؤمنة والمشرك ^(٤) ﴿وَأَتَوْهُم مَّا أَنْفَقُوا﴾ أي أعطوا أزواجهن الكفار ما أنفقوا عليهن من المهور قال في البحر: أمر أن يُعطى الزوج الكافر ما أنفق على زوجته إذا أسلمت، فلا يُجمع عليه خسران الزوجية والمالية ^(٥) ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أي ولا حرج ولا إثم عليكم أن تتزوجوا هؤلاء المهاجرات إذا دفعتم لهن مهرهن قال الخازن: أباح الله للمسلمين نكاح المهاجرات من دار الحرب إلى دار الإسلام وإن كان لهن أزواج كفار لأن الإسلام فرَّق بينهن وبين أزواجهن الكفار، وتقع الفرقة بانقضاء عدتها ^(٦)

(١) أخرجه الشيخان وأحمد.

(٢) (ش): ضعيف، أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى».

(٣) «تفسير البحر المحيط» ٢٥٦/٨.

(٤) «تفسير الألوسي» ٧٦/٢٨.

(٥) «البحر المحيط» ٢٥٧/٨. (ش): في أكثر من طبعة: «فلا يُجمع عليه خسران الزوجة والمالية»، والمثبت هنا

من «البحر المحيط».

(٦) «تفسير الخازن» ٧٩/٤.

﴿وَلَا تُنْسِكُوا بِعَصَمِ الْكَافِرِ﴾ أي ولا تتمسكوا بعقود زوجاتكم الكافرات، فليس بينكم وبينهن عصمة ولا علاقة زوجية قال القرطبي: المراد بالعصمة هنا النكاح، يقول: من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتد بها فليست امرأته، فقد انقطعت عصمتها لاختلاف الدارين^(١) ﴿وَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا﴾ أي اطلبوا يا أيها المؤمنون ما أنفقتم من المهر إذا لحقت أزواجكم بالكفار، وليطلبوا هم أي المشركون ما أنفقوا على أزواجهم المهاجرات قال ابن العربي: كان من ذهب من المسلمات مرتدات إلى الكفار يقال للكفار: هاتوا مهرها، ويقال للمسلمين إذا جاءت إحدى الكافرات مسلمة مهاجرة: ردُّوا إلى الكفار مهرها، وكان ذلك نصفاً وعدلاً بين الحالتين^(٢) ﴿ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أي ذلك هو شرع الله وحكمه العادل بينكم وبين أعدائكم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بمصالح العباد، حكيم في تشريعه لهم، يشرع ما تقتضيه الحكمة البالغة ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ أي وإن فرّت زوجة أحد من المسلمين ولحقت بالكفار ﴿فَعَاقِبْتُمْ﴾ أي فغزوتهم وغنمتم وأصبتهم من الكفار غنيمة ﴿فَأَتَوْا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ بِمِثْلِ مَا أَنْفَقُوا﴾ أي فأعطوا لمن فرّت زوجته، مثل ما أنفق عليها من المهر، من الغنيمة التي بأيديكم قال ابن عباس: يعني إن لحقت امرأة رجل من المهاجرين بالكفار، أمر له رسول الله ﷺ أن يعطى مثل ما أنفق من الغنيمة^(٣) قال القرطبي: لما نزلت الآية السابقة ﴿وَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا﴾ قال المسلمون: رضينا بما حكم الله، وكتبوا إلى المشركين فامتنعوا فنزلت هذه الآية^(٤) ﴿وَأَنْفَقُوا اللَّهُ﴾ أي وراقبوا الله في أقوالكم وأفعالكم، واحذروا عذابه وانتقامه إن خالفتم أوامره ﴿الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ أي الذي آمنتم وصدقتم بوجوده^(٥)، فإن من مستلزمات الإيمان تقوى الرحمن.

(١) «تفسير القرطبي» ١٨ / ٦٥. (ش): لاختلاف الدارين: أي دار الإسلام ودار الكفر. ودار الإسلام: هي البلاد التي غالب أهلها مسلمون، وهم فيها آمنون وتقام فيها شعائر الإسلام كالأذان والصلاة جماعة والجموع والأعياد الشرعية والصوم والحج وما أشبه ذلك على وجه عام شامل. ودار الكفر: هي البلاد التي تقام فيها شعائر الكفر ولا تقام فيه شعائر الإسلام كالأذان والصلاة جماعة، والأعياد، والجمعة على وجه عام شامل. أما البلاد التي تقام فيه هذه الشعائر على وجه محصور كبلاد الكفار التي فيها أقليات مسلمة فإنها لا تكون بلاد إسلام بما تقيمه الأقليات المسلمة فيها من شعائر الإسلام.

ودار الكفر تنقسم إلى قسمين:

- ١- دار الحرب: وهي أراضي الدولة الكافرة التي أعلنت الحرب على المسلمين.
- ٢- دار العهد: وهي أراضي الدولة الكافرة التي ارتبطت بمعاهدات عدم اعتداء مع المسلمين.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٨ / ٦٨.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣ / ٤٨٦. (ش): ضعيف، رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره».

(٤) «تفسير القرطبي» ١٨ / ٦٨ ثم نقل القرطبي عن قتادة أن هذا الحكم قد نسخ بسورة براءة.

(٥) (ش): ليس الإيمان مجرد التصديق بوجود الله. وتفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح.

ولما فتح رسول الله ﷺ مكة جاء نساء أهل مكة يُبايعنه على الإسلام، كما بايعه الرجال فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾^(١) أي إذا جاء إليك النساء المؤمنات للبيعة فبايعهن على هذه الأمور الستة الهامة، وفي مقدمتها عدم الإشراف بالله جلّ وعلا ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ أي ولا يرتكبن جريمة السرقة ولا جريمة الزنى، التي هي من أفحش الفواحش ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ﴾ أي ولا يئدن البنات كما كان يفعله أهل الجاهلية خوف العار أو خشية الفقر، قال ابن كثير: وهذا يشمل قتله بعد وجوده، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق أو العار، ويعمّ قتله وهو جنين كما يفعله بعض النساء الجاهلات، تُطرح نفسها لئلا تحبل، إمّا لغرض فاسد أو ما أشبهه^(٢) ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَيْنِ بِفَرِيئَةٍ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلَيْهِنَّ﴾ أي لا تنسب إلى زوجها ولدًا لقيطًا ليس منه تقول له: هذا ولدي منك قال المفسرون: كانت المرأة إذا خافت مفارقة زوجها لها لعدم الحمل، التقت ولداً ونسبته له ليبقيها عنده، فالمراد بالآية اللقيط، وليس المراد الزنى لتقدمه في النهي صريحاً^(٣) قال ابن عباس: لا تلحق بزوجها ولدًا ليس منه، وقال الفراء: كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها: هذا ولدي منك، وإنما قال ﴿بِفَرِيئَةٍ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلَيْهِنَّ﴾ لأن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها^(٤) ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ أي ولا يخالفن أمرك فيما أمرتهن به من معروف، أو نهيتهن عن منكر، بل يسمعن ويطيعن ﴿فَبَايَعَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرَهُنَّ اللَّهُ﴾ أي فبايعهن يا محمد على ما تقدم من الشروط، واطلب لهن من الله الصفح والغفران لما سلف من الذنوب ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي واسع المغفرة وعظيم الرحمة قال أبو حيان: «كانت» بيعة النساء «في ثاني يوم الفتح على جبل الصفا، بعدما فرغ من بيعة الرجال، وكان رسول الله ﷺ على الصفا وعمر أسفل منه، يبايعهن بأمره ويبلغهن عنه^(٥)، وما مست يده عليه السلام يد امرأة أجنبية قط^(٦)، وقالت «أسماء بنت السكّن»: كنت في النسوة المبايعات،

(١) (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٨٩.

(٣) انظر «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٠٠، و«تفسير أبي السعود» ٥/ ١٥٨، وتفسير الرازي ٢٩/ ٣٠٨.

(٤) روح المعاني للألوسي ٢٨/ ٨٠.

(٥) (ش): رواه بن أبي حاتم بإسناد ضعيف.

(٦) (ش): عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: كانت المؤمنات إذا هاجرن إلى رسول الله ﷺ يُمْتَحَنَ بقول الله عزّ وجلّ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ إلى آخر الآية. قالت عائشة فمن أقر بهذا من المؤمنات فقد أقر بالمحنة وكان رسول الله ﷺ إذا أقرن بذلك من قولهن قال لهن رسول الله ﷺ «انطلقن فقد بايعتكن». ولا والله ما مسّت يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط. غير أنه يبايعهن بالكلام - قالت عائشة والله ما أخذ رسول الله ﷺ على النساء قط إلا بما أمره الله تعالى وما مسّت كف رسول الله ﷺ كف امرأة قط وكان يقول لهن إذا أخذ عليهن «قد بايعتكن». كلاماً. (رواه البخاري ومسلم).

فقلت: يا رسول الله ابسط، يدك نبايعك، فقال لي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إني لا أصافح النساء، لكنْ أَخَذُ عَلَيْهِنَّ مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْهِنَّ»^(١) وكانت «هند بنت عتبة» - وهي التي شقت بطن حمزة يوم أحد^(٢) - متكررة في النساء، فلما قرأ عليهن الآية ﴿عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقَنَّ﴾ قالت وهي متكررة: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح، وإني لأصيب الهنة أي القليل وبعض الشيء من ماله، لا أدري أيحل لي ذلك أم لا؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال^(٣)، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها فقال لها: «وإنك لهند بنت عتبة؟» قالت: نعم فاعفُ عما سلف يا نبيَّ الله، عفا الله عنك، فلما قرأ ﴿وَلَا يَزِينَنَّ﴾ قالت: أو تزني الحرة؟ فلما قرأ ﴿وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ﴾ قالت: ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً فلا تتم وهم أعلم - وكان ابنها حنظلة قد قُتل يوم بدر - فضحك عمر حتى استلقى، وتبسم رسول الله ﷺ فلما قرأ ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ﴾ قالت هند: والله إن البهتان لأمر قبيح، ولا يأمر الله إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، فلما قرأ ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء^(٤) وأخرج الإمام أحمد عن أميمة بنت رقيقة، «أخت السيدة خديجة وخالة فاطمة الزهراء قالت: أتيت النَّبِيَّ ﷺ، في نساء نُبَاعِهْ، فَأَخَذَ عَلَيْنَا مَا فِي الْقُرْآنِ: أَنْ لَا نُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا: الْآيَةَ، قَالَ: «فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ». قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَرْحَمُ بِنَا مِنْ أَنْفُسِنَا. قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تُصَافِحُنَا؟ قَالَ: «إِنِّي لَا أَصَافِحُ النِّسَاءَ، إِنَّمَا قَوْلِي لَامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، كَقَوْلِي لِمِائَةِ امْرَأَةٍ»^(٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي لا تصادقوا يا معشر المؤمنين الكفرة أعداء الدين، ولا

(١) (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد. وعن أميمة بنت رقيقة، قالت: أتيت النَّبِيَّ ﷺ، في نساء نُبَاعِهْ، فَأَخَذَ عَلَيْنَا مَا فِي الْقُرْآنِ: أَنْ لَا نُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا الْآيَةَ، قَالَ: «فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ». قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَرْحَمُ بِنَا مِنْ أَنْفُسِنَا. قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تُصَافِحُنَا؟ قَالَ: «إِنِّي لَا أَصَافِحُ النِّسَاءَ، إِنَّمَا قَوْلِي لَامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، كَقَوْلِي لِمِائَةِ امْرَأَةٍ» (رواه الإمام أحمد، وصححه الألباني).

(٢) (ش): ثبت في الأحاديث الصحيحة التمثيل بجثة حمزة رضي الله عنه وشق بطنه بعد استشهاد. أما ما ورد من استخراج كبده وتناول هند بنت عتبة - عليها السلام - منها وعدم استساغتها إياها فلا يثبت فيه شيء. فهند بريئة من هذا الفعل المشين. وإن صح ذلك فقد كان هذا قبل إسلامهما، ثم بعد ذلك أسلمت وحسن إسلامها. والإسلام يهدم ما كان قبله كما قال النبي ﷺ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٣) (ش): عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ هِنْدَ بِنْتَ عُبَيْدَةَ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ، وَلَيْسَ يُعْطِينِي مَا يَكْفِينِي وَوَلَدِي، إِلَّا مَا أَخَذْتُ مِنْهُ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ فَقَالَ: «خُذِي مَا يَكْفِيكَ وَوَلَدَكَ بِالْمَعْرُوفِ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(٤) «تفسير البحر المحیط» ٢٥٨/٨، وانظر «التفسير الكبير للرازي» ٣٠٧/٢٩. (ش): رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف. وروى بعضه ابن أبي حاتم في «تفسيره» بإسناد ضعيف. قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٩٩/٨): «وَهَذَا أَثَرٌ غَرِيبٌ، وَفِي بَعْضِهِ نَكَارَةٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ؛ فَإِنَّ أَبَا سُفْيَانَ وَامْرَأَتَهُ لَمَّا أَسْلَمَا لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُخَفِّفُهُمَا، بَلْ أَظْهَرَ الصَّفَاءَ وَالْوَدَّ لَهُ، وَكَذَلِكَ كَانَ الْأَمْرُ مِنْ جَانِبِهِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَهُمَا».

(٥) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي. (ش): صححه الألباني.

تتخذوهم أحماء وأصدقاء توالونهم وتأخذون بآرائهم، فإنهم قوم غضب الله عليهم ولعنهم قال الحسن البصري: هم اليهود لقوله تعالى ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] وقال ابن عباس: هم كفار قريش لأن كل كافر عليه غضب من الله^(١)، والظاهر أن الآية عامة كما قال ابن كثير: يعني اليهود والنصارى وسائر الكفار، ممن غضب الله عليه ولعنه^(٢) ﴿قَدْ يَسْأَلُونَ مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أي أولئك الفجار الذين يسئوا من ثواب الآخرة ونعيمها ﴿كَمَا يَسْأَلُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ أي كما يسئ الكفار المكذبون بالبعث والنشور، من أمواتهم أن يعودوا إلى الحياة مرة ثانية بعد أن يموتوا، فقد كانوا يقولون: إذا مات لهم قريب أو صديق: هذا آخر العهد به، ولن يبعث أبداً^(٣). ختم تعالى السورة الكريمة بمثل ما فتحها به وهو النهي عن موالاة الكفار أعداء الله، وهو بمثابة التأكيد للكلام، وتناسق الآيات في البدء والختام، وهو من البلاغة في مكان.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

- ١ - الطباق في قوله ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ لأن الإخفاء يطابق الإعلان.
- ٢ - العتاب والتوبيخ ﴿يُشِيرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ﴾ الآية.
- ٣ - تقديم ما حقه التأخير لإفادة الصيغة للحصر ﴿رَبَّنَا عَلَيْنَا نُكَلِّمُكَ وَإِلَيْكَ أَنْبَاءُ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾، والأصل توكلنا عليك، وانبأ إليك.. الخ.
- ٤ - صيغة المبالغة ﴿قَدِيرٌ، غَفُورٌ، رَحِيمٌ﴾ وهو كثير في القرآن ومثله ﴿الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.
- ٥ - طباق السلب ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ﴾ الآية.
- ٦ - الجملة الاعتراضية ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ للإشارة إلى أن للإنسان الظاهر والله يتولى السرائر.

- ٧ - العكس والتبديل ﴿لَا هُنَّ حُلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحُلُونَ لَهُنَّ﴾ وهو من أنواع البديع.
- ٨ - الكناية اللطيفة ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ بِهِنَّ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ كنى بذلك عن اللقيط، وهي من لطائف الكنايات.
- ٩ - التشبيه المرسل المجمل ﴿قَدْ يَسْأَلُونَ مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَسْأَلُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ كما أنه فيه من المحسنات البديعية ما يسمى رد العجز على الصدر، حيث ختم السورة بمثل ما ابتدأها ليتناسق البدء مع الختام.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الممتحنة»



(١) «البحر المحيط» ٢٥٩ / ٨.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٤٩٠ / ٣.

(٣) هذا هو الراجح من تفسير الآية الكريمة وهو خلاصة قول ابن عباس وقتادة والحسن، وقال مجاهد معناه أنهم يسئوا من نعيم الآخرة كما يسئ الكفار الذين هم في القبول من كل خير، والأول أظهر والله أعلم.



مدنية وآياتها أربع عشرة بين يدي السورة

* سورة الصف هي إحدى السور المدنية، التي تعنى بالأحكام التشريعية، وهذه السورة تتحدث عن موضوع «القتال» وجهاد أعداء الله، والتضحية في سبيل الله لإعزاز دينه، وإعلاء كلمته، وعن التجارة الرباحة التي بها سعادة المؤمن في الدنيا والآخرة، ولكن المحور الذي تدور عليه السورة هو «القتال»، ولهذا سميت سورة الصف.

* ابتدأت السورة الكريمة -بعد تسييح الله وتمجيده- بتحذير المؤمنين من إخلاف الوعد، وعدم الوفاء بما التزموا به ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿

* ثم تحدثت عن قتال أعداء الله بشجاعة المؤمن وبسالته، لأنه يقاتل من أجل غرض نبيل، وهو رفع منار الحق، وإعلاء كلمة الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بَيْنَهُنَّ مَرْصُوصٌ﴾.

* وتناولت السورة بعد ذلك موقف اليهود من دعوة موسى وعيسى عليهما السلام، وما أصابهما من الأذى في سبيل الله، وذلك تسلياً لرسول الله ﷺ فيما ناله من كفار مكة ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمُ لِمَ تَقُولُونَ لِمَ تَقُولُونَ﴾ الآيات.

* وتحدثت السورة عن سنة الله في نصرته دينه، وأنبيائه، وأوليائه، وضربت المثل للمشركين في عزمهم على محاربة دين الله، بمن يريد إطفاء نور الشمس بفمه الحقيقير ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

* ودعت السورة المؤمنين إلى التجارة الرباحة، وحرصتهم على الجهاد في سبيل الله بالنفس والنفيس، لينالوا السعادة الدائمة الكبيرة مع النصر العاجلة في الدنيا، وخاطبتهم بأسلوب الترغيب والتشويق ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَذُكَّرُ عَلَىٰ حَرَثٍ فُتُجِجُكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (١٠) نُوْمُونُ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَبِجَهَادُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ... ﴿ الآيات.

* وختمت السورة بدعوة أهل الإيمان إلى نصرته دين الرحمن، كما فعل الحواريون أصحاب عيسى حين دعاهم إلى نصرته دين الله فاستجابوا ونصروا الحق والرسول ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ...﴾ وهكذا يتناسق البدء مع الختام في أبدع بيان وإحكام.

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ بَيَّأَهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ يَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُتِئْنَ مَرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِيَّ إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرُسُولِي يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أُسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾

اللغة: ﴿سَبَّحَ﴾ التسبيح تمجيد الله وتنزيهه عما لا يليق به من صفات النقص ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يُغلب ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء في مواضعها ويفعل ما تقتضيه الحكمة ﴿مَقْتًا﴾ بغضًا قال الزمخشري: المقتُّ: أشدُّ البغض وأبلغه وأفحشه ^(١) ﴿مَرْصُوصٌ﴾ المتماسك المتلاصق بعضه ببعض قال الفراء: رصصتُ البناء إذا لائمْتُ بينه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة ^(٢) ﴿زَاعُوا﴾ مالوا عن الهدى والحق ﴿الْيَنَنْتِ﴾ المعجزات الواضحات. **سَبَبُ التَّزْوِيلِ:** روي أن المسلمين قالوا: لو علمنا أحبَّ الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا! فلما فرض الله الجهاد كرهه بعضهم فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كُنتُمْ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾.

التفسير: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي نزه الله وقُدَّسه ومجَّده جميع ما في السموات والأرض من ملك، وإنسان، ونبات، وجماد ﴿وَمِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] قال الإمام الفخر: أي شهد له بالربوبية والوحدانية وغيرهما من الصفات الحميدة جميع ما في السموات والأرض ^(٤) ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي وهو الغالب في ملكه، الحكيم في صنعه، الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة ﴿يَتَأَمَّلُ الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ يَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ^(٥) لم تقولون بألسنتكم شيئاً ولا

(٥) (ش): تفسيرُ الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالفٌ لِمَا عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

تفعلونه؟ ولأي شيء تقولون نفعل ما لا تفعلونه من الخير والمعروف؟ وهو استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ قال ابن كثير: هذا إنكارٌ لعى من يعدّ وعداً، أو يقول قولاً لا يفي به، وفي الصحيحين «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ»^(١) ثم أكد الإنكار عليهم بقوله ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي عظمَ فعلُكم هذا بغضاً عند ربكم ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي أن تقولوا شيئاً ثم لا تفعلونه، وأن تعدوا بشيء ثم لا تفون به^(٢) قال ابن عباس: كان ناسٌ من المؤمنين قبل أن يُفرض الجهاد يقولون: لوددنا أن الله عزَّ وجلَّ دلنا على أحبِّ الأعمالِ إليه فنعمل به، فأخبر الله نبيه أن أحبِّ الأعمالِ إيمان بالله لا شك فيه، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقرؤا به، فلما نزل الجهاد كره ذلك ناسٌ من المؤمنين وشقَّ عليهم أمره فنزلت الآية^(٣) وقيل: هو أن يأمر الإنسان أخاه بالمعروف ولا يَأتمر به، وينهاه عن المنكر ولا ينتهي عنه كقوله تعالى ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]؟ ثم أخبرهم تعالى بفضيلة الجهاد في سبيل الله فقال ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ أي يحب المجاهدين الذين يصفون أنفسهم عند القتال صفًا، ويثبتون في أماكنهم عند لقاء العدو ﴿كَانَ هُمْ يَنْتَظِرُونَ مَرَضُوضٌ﴾ أي كأنهم في تراضهم وثبتهم في المعركة، بناءً قد رُصَّ بعضه ببعض، وألصق وأحكم حتى صار شيئاً واحداً قال القرطبي: ومعنى الآية: أنه تعالى يحب مثبت في الجهاد في سبيل الله ويلزم مكانه كثبوت البناء، وهذا تعليمٌ من الله تعالى للمؤمنين كيف يكونون عند قتال عدوهم^(٤) ولما ذكر تعالى أمر الجهاد، بين أن موسى وعيسى أمرا بالتوحيد، وجاهدا في سبيل الله وأوديا بسبب ذلك فقال ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَكْفُرُ لِمَ تُوَدُّونَنِي﴾ أي واذكريا محمد لقومك قصة عبده وكليمه «موسى بن عمران» حين قال لقومه بني إسرائيل: لِمَ تفعلون ما يؤذيني؟^(٥) ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ أي والحال

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١٩٤.

(٢) (ش): وفي الشخص الوعد/ وفي الشخص الوعد: حافظ عليه وعمل به، أتمه وأنجزه.

(٣) المختصر ٣/ ٤٩٢، وهذا القول هو اختيار الطبري. (ش): رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف. وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه، قال: قَعَدْنَا نَقَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقُلْنَا: «لَوْ تَعْلَمُ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ، لَعَمِلْنَاهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾» يَكْتُبُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ يَنْتَظِرُونَ مَرَضُوضٌ ﴿٤﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، وَقَرَأَهَا عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. (رواه الترمذي والحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي والألباني).

(٤) «تفسير الطبري» ١٨/ ٨٢.

(٥) قال القرطبي: وإذأبته عليه السلام حين رموه بالأذرة. وهو انتفاخ الخصية. ومن الأذى أنهم دسوا امرأة تدعي عليه الفجور، ومن الأذى قولهم: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ وقولهم: «فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا». (ش): قصة رميهم موسى عليه السلام بالأذرة رواها البخاري ومسلم.

أنكم تعلمون علماً قطعياً بما شاهدتموه من المعجزات الباهرة أني رسول الله إليكم، وتعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة؟ وفي هذا تسليّة لرسول الله ﷺ فيما أصابه من كفار مكة ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي فلما مالوا عن الحق، أمال الله قلوبهم عن الهدى ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي والله لا يوفق للخير والهدى من كان فاسقاً خارجاً عن طاعة الله قال الرازي: وفي هذا تنبيه على عظم إيذاء الرسل، حتى إنه يؤدي إلى الكفر وزيع القلوب عن الهدى^(١). ثم ذكر تعالى قصة عيسى عليه السلام فقال ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَنْبِيَّ إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ أي واذكر يا محمد لقومك هذه القصة أيضاً حين قال عيسى لبيني إسرائيل: إني رسول الله أرسلت إليكم بالوصف المذكور في التوراة قال القرطبي: ولم يقل «يا قوم» كما قال موسى، لأنه لا نسب له فيهم فيكونون قومه^(٢) فإنه لم يكن له فيهم أب ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي حال كوني مصدقاً ومعتزلاً بأحكام التوراة، وكُتِبَ الله وأنبيائه جميعاً، ولم آتكم بشيء يخالف التوراة حتى تنفروا عني ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ أي وجئت لأبشركم ببعثة رسول يأتي بعدي يسمى «أحمد» قال الألوسي: وهذا الاسم الكريم علم لبنينا محمد ﷺ كما قال حسان:

صَلَّى إِلَهِهٖ وَمَنْ يَحِفُّ بِعَرْشِهِ وَالطَّيِّبُونَ عَلَى الْمُبَارِكِ أَحْمَدُ^(٣)
وفي الحديث «لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِي الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ»^(٤) ومعنى العاقب الذي لا نبي بعده، وروي أن الصحابة قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنَا عَنْ نَفْسِكَ، فَقَالَ: «دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبَشَارَةُ عِيسَى قَوْمَهُ، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ»^(٥) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي فلما جاءهم عيسى بالمعجزات الواضحات، من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، ونحو ذلك من المعجزات الدالة على صدقه في دعوى الرسالة^(٦) ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي قالوا عن عيسى: هذا ساحرٌ جاءنا بهذا السحر الواضح، والإشارة بقولهم «سحر» إلى المعجزات التي ظهرت على يديه عليه السلام، قال المفسرون: بشر كل نبي قومه بنبينا

(١) «التفسير الكبير» ٢٩/٣١٣.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٨/٨٣.

(٣) «تفسير الألوسي» ٢٨/٨٦.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم.

(٥) سيرة ابن إسحاق قال ابن كثير: إسناده جيد. (ش): ورواه أحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي والألباني والأرنؤوط. (وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ): أي الرؤيا التي رأتها في المنام.

(٦) هذا هو الظاهر أن الضمير يعود على «عيسى» لأنه المحدث عنه، وقيل: يعود على «أحمد» الذي بُشِّرُوا به، والأول اختيار البيضاوي والألوسي وصاحب «البحر المحيط»، وهو الأظهر.

محمد ﷺ، وإنما أفرد تعالى ذكر عيسى بالبشارة في هذا الموضع لأنه آخر نبي قبل نبينا ﷺ، فبين تعالى أن البشارة به عمّت جميع الأنبياء واحداً بعد واحد حتى انتهت إلى عيسى عليه السلام آخر أنبياء بني إسرائيل ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد أظلم ممن يدعوه ربه إلى الإسلام على لسان نبيه، فيجعل مكان إجابته افتراء الكذب على الله بتسمية نبيه ساحراً، وتسمية آيات الله المنزلة سحراً ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يوفق ولا يرشد إلى الفلاح والهدى من كان فاجراً ظالماً ﴿يُرِيدُونَ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي يريد المشركون بأن يطفئوا دين الله وشرعه المنير بأفواههم قال الفخر الرازي: وإطفاء نور الله تعالى تهكم بهم في إرادتهم إبطال الإسلام بقولهم في القرآن: إنه ساحر، شُبِّهَتْ حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه^(١)، وفيه تهكم وسخرية بهم ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ أي والله مظهر لدينه، بنشره في الآفاق، وإعلائه على الأديان، كما جاء في الحديث «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضِ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَلُّعُ مُلْكُهَا مَا زَوَى لِيَ مِنْهَا»^(٢) الحديث والمراد أن هذا الدين سينتشر في مشارق الدنيا ومغاربها ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ أي ولو كره ذلك الكافرون المجرمون، فإن الله سيعز شأن هذا الدين رغم أنف الكافرين قال في حاشية البيضاوي: كان كفار مكة يكرهون هذا الدين الحق، من أجل توغلبهم في الشرك والضلال، فكان المناسب إذلالهم وإرغامهم بإظهار ما يكرهونه من الحق، وليس المراد من إظهاره ألا يبقى في العالم من يكفر بهذا الدين، بل المراد أن يكون أهله عالين غالبين على سائر أهل الأديان بالحجة والبرهان، والسيف واللسان، إلى آخر الزمان^(٣) ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي هو جلّ وعلا بقدرته وحكمته بعث رسوله محمداً ﷺ بالقرآن الواضح، والدين الساطع ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي ليُعْلِيَهُ على سائر الأديان المخالفة له، من يهودية ونصرانية وغيرهما ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ أي ولو كره ذلك أعداء الله، المشركون بالله غيره قال أبو السعود: ولقد أنجز الله وعده بإعزاز دين الإسلام، حيث جعله بحيث لم يبق دين من الأديان، إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام^(٤).

قال الله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَجْرِزٍ يُنَجِّكُمْ مِنَ عَذَابِ الْيَمِّ ۖ ﴿١٠﴾ تَوَكَّلُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

(١) «التفسير الكبير» ٣١٤/٢٩. (ش): بفيه. بفيه.

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم، ومعنى: «زوي الأرض» أي جمعها حتى رآها صلى الله عليه.

(٣) «حاشية زاده على البيضاوي» ٤٩٠/٣.

(٤) «تفسير أبي السعود» ١٦١/٥.

كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ

المناسبة: لما بين تعالى أن المشركين يريدون إطفاء نور الله، أمر المؤمنين بمجاهدة أعداء الدين، ودعاهم إلى التضحية بالمال والنفس والجهد في سبيل الله، وبين لهم أنها التجارة الرباحة لمن أراد سعادة الدارين.

اللغة: ﴿نُجِّحْكُمْ﴾ تخلصكم وتنجذكم ﴿لِلْحَوَارِيِّينَ﴾ الأصفياء والخواص من أتباع عيسى، وهم الذين ناصروا المسيح عليه السلام ﴿فَأَيَّدْنَا﴾ قوينا وساندنا ﴿ظَاهِرِينَ﴾ غالبين بالحجة والبرهان.

سَبَبُ النُّزُول: روي أن بعض الصحابة قالوا: يا نبي الله، لوددنا أن نعلم أي التجارات أحب إلى الله فنتجر فيها!! فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ؟﴾^(١)

التفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ؟﴾ أي يا من صدقتم الله ورسوله وآمنتم بربكم حق الإيمان، هل أدلكم على تجارة رابحة جلييلة الشأن؟ والاستفهام للتشويق ﴿نُجِّحْكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ أي تخلصكم وتنجذكم من عذاب شديد مؤلم.. ثم بين تلك التجارة ووضحها فقال ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إيماناً صادقاً، لا يشوبه شك ولا نفاق ﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ أي وتجاهدون أعداء الدين بالمال والنفس، لإعلاء كلمة الله قال المفسرون: جعل الإيمان والجهاد في سبيله «تجارة» تشبيهاً لهما بالتجارة، فإنها عبارة عن مبادلة شيء بشيء، طمعاً في الربح، ومن آمن وجاهد بماله ونفسه فقد بذل ما عنده وما في وسعه، لنيل ما عند ربه من جزيل ثوابه، والنجاة من أليم عقابه، فشبه هذا الثواب والنجاة من العذاب بالتجارة؛ لقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١] قال الإمام الفخر: والجهاد ثلاثة أنواع:

١ - جهادٌ فيما بينه وبين نفسه، وهو قهر النفس ومنعها عن اللذات والشهوات.

(١) «تفسير القرطبي» ٨٧/١٨. (ش): عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنَ الْعَذَابِ﴾ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ قَالَ الْمُسْلِمُونَ: لَوْ عَلِمْنَا مَا هَذِهِ التِّجَارَةُ، لَأَعْطَيْنَا فِيهَا الْأَمْوَالَ، وَالْأَهْلِيْنَ، فَبَيَّنَّ لَهُمُ التِّجَارَةَ، فَقَالَ: «تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ». (ضعيف، ذكره السيوطي في «الدر المنثور»، و«لباب النقول» ونسبه لابن أبي حاتم. وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه، قَالَ: قَعَدْنَا نَقْرُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقُلْنَا: «لَوْ نَعْلَمُ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ، لَعَمَلْنَاهُ»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(١) يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ^(٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ^(٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْنِتُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بُيُوتٌ مَرْمُوضٌ ﴿ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، وَقَرَأَهَا عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. (رواه الترمذي والحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي والألباني). قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ١١٢): «تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أَرَادُوا أَنْ يَسْأَلُوا عَنْ أَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِيَفْعَلُوهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ السُّورَةَ، وَمِنْ جَمَلَتِهَا هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾».

٢ - وجهادٌ فيما بينه وبين الخلق، وهو أن يدع الطمعَ منهم ويُشفقَ عليهم ويرحمهم.

٣ - وجهادُ أعداء الله بالنفس والمال نصرةً لدين الله ^(١) ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي ما أمرتكم به من الإيمان والجهاد في سبيل الله، خيرٌ لكم من كل شيء في هذه الحياة، إن كان عندكم فهمٌ وعلمٌ ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ هذا جواب الجملة الخبرية ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ لأن معناها معنى الأمر أي آمنوا بالله وجاهدوا في سبيله فإذا فعلتم ذلك يغفر لكم ذنوبكم، أي: يسترها عليكم، ويمحها بفضله عنكم ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي ويدخلكم حدائق وبساتين، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿وَمَسْكِنٌ لَكُمْ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أي ويسكنكم في قصور رفيعة في جنات الإقامة ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي ذلك الجزاء المذكور هو الفوز العظيم الذي لا فوز وراءه، والسعادة الدائمة الكبيرة التي لا سعادة بعدها ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا﴾ أي ويمنُّ عليكم بخصلةٍ أخرى تحبونها وهي ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي إن ينصركم على أعدائكم، ويفتح لكم مكة وقال ابن عباس: يريد فتح فارس والروم ﴿وَيُثِيرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ويثير محمد المؤمنين، بهذا الفضل المبين قال في البحر: لما ذكر تعالى ما يمنحهم من الثواب في الآخرة، ذكر لهم ما يسرهم في العاجلة، وهي ما يفتح الله عليهم من البلاد ^(٢)، فهذه هي خير الدنيا موصولٌ بنعيم الآخرة ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ أي انصروا دين الله وأعلوا مناره ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ﴾ أي كما نصر الحواريون دين الله حين قال لهم عيسى بن مريم ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي من ينصروني ويكون عوني لتبليغ دعوة الله، ونصرة دينه؟ ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ أي قال أتباع عيسى وهم المؤمنون الخُلص من خاصته المستجيبون لدعوته: نحن أنصار دين الله قال البيضاوي: والحواريون أصفياءه وهم أول من آمن به، مُشتق من الحَوَر وهو البياض، وكانوا اثني عشر رجلاً ^(٣) وقال الرازي: والتشبيه في الآية محمول على المعنى أي كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار الله ^(٤) ﴿فَأَمْنَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتِ طَآئِفَةٌ﴾ أي فانقسم بنو إسرائيل إلى جماعتين: جماعة آمنّت به وصدّقته، وجماعة كفرت وكذبت برسالة عيسى ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ أي فقوّينا المؤمنين على أعدائهم الكافرين ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ أي حتى صاروا غاليين عليهم بالحجة والبرهان قال ابن كثير: لما بلغ عيسى بن مريم رسالة ربه، اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به، وضلّت طائفة فجحدهوا نبوته، ورموه وأمه بالعظائم، وهم اليهود عليهم لعنة الله، وغلت فيه طائفة من أتباعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة، واقتروا فيه فرقاً وشيعاً، فمنهم من زعم أن ابن

(١) «التفسير الكبير» ٣١٦/٢٩.

(٢) «تفسير البحر المحيط» ٢٦٣/٨.

(٣) حاشية البيضاوي ٤٩٢/٣.

(٤) «التفسير الكبير» ٣١٩/٢٩.

الله، ومنهم من قال إنه ثالث ثلاثة «الأب والابن وروح القدس» ومنهم من قال: إنه الله - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - فنصر الله المؤمنين على من عاداهم من فرق النصارى^(١).

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يأتي:

١ - أسلوب التوبيخ ﴿لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]؟ وهي «ما» الاستفهامية حذفت ألفها تخفيفاً، والغرض من الاستفهام التوبيخ.

٢ - الإطناب بتكرار ذكر اللفظ لبيان غاية قبح ما فعلوه ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣] وبين ﴿تَقُولُوا... تَفْعَلُوا﴾ طباقاً.

٣ - التشبيه المرسل المفصل ﴿كَأَنَّهُمْ بَيْنَ مَرْصُومٍ﴾ [الصف: ٤] أي في المتانة والترص.

٤ - الاستعارة اللطيفة ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ [الصف: ٨] استعار نور الله لدينه وشرعه المنير، وشبهه من أراد إبطال الدين بمن أراد إطفاء الشمس بفمه الحقير، على طريق الاستعارة التمثيلية، وهذا من لطيف الاستعارات.

٥ - الاستفهام للترغيب والتشويق ﴿هَلْ أَذُكَّرُ عَلَىٰ حَرَةٍ؟﴾

٦ - الطباق ﴿فَأَمْنَتْ طَآئِفَةٌ... وَكَفَرَتْ طَآئِفَةٌ﴾.

٧ - السجع المرصع كأنه حبات در منظومة في سلك واحد مثل ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥] ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٦] ﴿وَيَسِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

تنبيه: إنما قرنت قصة موسى وعيسى في هذه السورة لأنهما من أنبياء بني إسرائيل، وهما من أعظم أنبيائهم ومن أولي العزم الذين ذكرهم الله في كتابه العزيز بالثناء والتبجيل.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الصف»





مدنية وآياتها إحدى عشرة

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مدنية وهي تتناول جانب التشريع، والمحور الذي تدور عليه السورة بيان أحكام صلاة الجمعة التي فرضها الله على المؤمنين.

* تناولت السورة الكريمة بعثة خاتم الرسل محمد بن عبد الله ﷺ وبينت أنه الرحمة المهداة، أنقذ الله به العرب من ظلام الشرك والضلال، وأكرم به الإنسانية، فكانت رسالته بلسمًا لأمراض المجتمع البشري، بعد أن كان يتخبط في الظلام.

* ثم تحدثت السورة عن اليهود، وانحرافهم عن شريعة الله، حيث كلفوا بالعمل بأحكام التوراة، ولكنهم أعرضوا عنها ونبذوها وراء ظهورهم، وضربت مثلاً لهم بالحمار، الذي يحمل على ظهره الكتب الكبيرة النافعة، ولكنه لا يناله منها إلا العناء والتعب، وذلك نهاية الشقاء والتعاسة.

* ثم تناولت أحكام صلاة الجمعة، فدعت المؤمنين إلى المسارعة لأداء الصلاة، وحرمت عليهم البيع وقت الأذان ووقت النداء لها، وختمت بالتحذير من الانشغال عن الصلاة بالتجارة واللهو كحال المنافقين، الذين إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى متثاقلين.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ هَادُوا إِنْ رَعَمْتُمْ أَنْتُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمْنُوا الْوَتَّ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنْ أَلَمْتُ أَلَّذِي تَفْرُوتُ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالَمِ وَالشَّهَادَةُ فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ثَوَّدَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ أَذْكُرُوا اللَّهُ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الْلَهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ

اللغة: ﴿الْأُمِّيَّاتِ﴾ العرب المعاصرين للنبي ﷺ سُمُّوا بذلك لاشتغالهم بالأمية وهي عدم القراءة والكتابة ﴿يُزَكِّيهِمْ﴾ من التزكية وهي التطهير من دنس الشرك والمعاصي ﴿أَسْفَارًا﴾ جمع سَفَر وهو الكتاب الكبير قال الشاعر:

رَوَامِلُ لِلْأَسْفَارِ لَا عِلْمَ عِنْدَهُمْ بَجِيدَهَا إِلَّا كَعِلْمِ الْأَبَاعِرِ
لَعَمْرُكَ مَا يَدْرِي الْبُعِيرُ إِذَا غَدَا بِأَوْسَاقِهِ أَوْ رَاحَ مَا فِي الْغَرَائِرِ^(١)
هَآذُوا﴾ تدينوا باليهودية ﴿أَنْفَضُوا﴾ تفرقوا وانصرفوا.

سَبَبُ النُّزُول: عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة قائماً، إذ قدمت عيرٌ من المدينة، فابتدريها أصحابُ رسول الله ﷺ حتى لم يَبْقَ منهم إلا اثنا عشر رجلاً أنا فيهم وأبو بكر وعمر، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً أَنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾^(٢) الآية.

التفسير: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ينزه الله ويمجده ويقدّسه كل شيء في الكوم، من إنسان، وحيوان، ونبات، وجماد، وصيغة المضارع ﴿يُسَبِّحُ﴾ لإفادة التجدد والاستمرار، فهو تسبيحٌ دائم على الدوام ﴿الْمَلِكِ﴾ أي هو الإله المالك لكل شيء، والمتصرف في خلقه بالإيجاد والإعدام ﴿الْقُدُّوسِ﴾ أي المقدّس والمنزه عن النقائص، المتصف بصفات الكمال ﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ أي العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّاتِ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ أي هو جل وعلا برحمته وحكمته الذي بعث في العرب رسولاً من جملتهم، أمياً مثلهم لا يقرأ ولا يكتب قال المفسرون: سُمي العرب أميين لأنهم لا يقرأون ولا يكتبون، فقد اشتهرت فيهم الأمية كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام: «أَنَا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ»^(٣) الحديث والحكمة في اقتصاره على ذكر الأميين، مع أنه رسولٌ إلى كافة الخلق، تشریفُ العرب حيث أُضيف صلوات الله عليهم إليهم، وكفى بذلك شرفاً للعرب ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ أي يقرأ عليهم آيات القرآن ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يطهرهم من دنس الكفر والذنوب قال ابن عباس: أي يجعلهم أزكيا القلوب بالإيمان^(٤) ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي ويعلمهم ما يتلى من الآيات والسنة النبوية المطهرة ﴿وَلَنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي وإن الحال

(١) «تفسير البحر المحيط» ٢٦٦/٨. (ش): البيتان في قوم يجمعون الكتب، ولا يستفيدون منها. رَوَامِلُ: جمع زاملة: مَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِبِلِ وَغَيْرِهَا. الْوَسْقُ: جَمْلُ البعير. أَبَاعِرُ: جمع بعير: مَا صَلَحَ لِلرُّكُوبِ وَالْحَمْلِ مِنَ الْجِمَالِ، وذلك إذا استكمل أربع سنوات، يُطْلَقُ عَلَى الْجَمَلِ وَالنَّاقَةِ. الْغَرَائِرُ: جمع الغرارة: كيس من الخيش ونحوه توضع فيه الحبوب. والخيش: نسيج غليظ خشن يُتَّخَذُ مِنَ الْكُتَانِ وَغَيْرِهِ، تصنع منه الأكياس.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم وانظر تفسير «روح المعاني» للألوسي ١٠٤/٢٨.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم.

(٤) «تفسير القرطبي» ٩٢/١٨.

والشأن أنهم كانوا من قبل إرسال محمد ﷺ إليهم لفي ضلال واضح، عن النهج القويم، والصراط المستقيم قال ابن كثير: بعث الله محمداً ﷺ على حين فترة من الرسل، وطموسٍ من السُّبُل^(١)، وقد اشتدت الحاجة إليه، فقد كان العرب متمسكين بدين إبراهيم الخليل فبدلوه وغيروه، واستبدلوا بالتوحيد شركاً، وباليقين شكاً، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله، وكذلك كان أهل الكتاب قد بدلوا كتبهم وحرفوها، فبعث الله محمداً ﷺ بشرع عظيم، شامل كامل، فيه الهداية والبيان لكل ما يحتاج الناس إليه من أمر معاشهم ومعادهم، وجمع له تعالى جميع المحاسن، وأعطاه ما لم يعط أحداً من الأولين والآخرين^(٢) ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ أي وبعث الرسول إلى قوم آخرين، لم يكونوا في زمانهم وسيجيئون بعدهم، وهم جميع من أسلم إلى يوم القيامة^(٣)، وفي الحديث عن أبي هريرة قال: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأَنْزَلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الْجُمُعَةِ فَلَمَّا قَرَأَ: ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قَالَ رَجُلٌ: «مَنْ هَؤُلَاءِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟». فَلَمْ يَرِاجِعْهُ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى سَأَلَهُ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا وَفِينَا سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ. فَوَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ عَلَى سَلْمَانَ ثُمَّ قَالَ: «لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ عِنْدَ الثَّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ مِّنْ هَؤُلَاءِ»^(٤). قال مجاهد: في تفسير الآية: هم الأعاجم وكل من صدق النبي ﷺ من غير العرب^(٥) ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي القويُّ الغالب في ملكه، الحكيم في صنعه ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي ذلك الشرف الذي امتاز به سيد البشر، وهو كونه معبوثاً إلى كافة الناس، وما شرف الله به العرب من نزول القرآن بلغتهم، وإرسال خاتم الرسل إليهم، هو فضل الله يعطيه لمن يشاء من خلقه ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي هو جل وعلا ذو الفضل الواسع على جميع خلقه في الدنيا والآخرة.. ثم شرع تعالى في ذم اليهود الذين أكرمهم الله بالتوراة، فلم ينتفعوا بها ولم يطبقوها، وشبههم بالحمار الذي يحمل الأسفار فقال ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ﴾ أي مثل اليهود الذين أُعطوا التوراة، وكُلُّوا العمل بما فيها ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ أي ثم لم يعملوا بها، ولم ينتفعوا بهديها ونورها ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَارًا﴾ أي مثلهم كمثال الحمارة الذي يحمل الكتب النافعة الضخمة، ولا يناله منها إلا التعب والعناء قال القرطبي: شبههم تعالى والتوراة في أيديهم وهم لا يعملون بها بالحمارة يحمل كتباً، وليس له إلا ثقل الحمل من غير فائدة، فهو يتعب في حملها ولا ينتفع بما فيها^(٦) وقال في حاشية البيضاوي: ذمَّ تعالى اليهود بأنهم قراءٌ

(١) (ش): الفترة: زمن انقطاع الوحي ما بين الرسولين لعدم إرسال الله تعالى رسولاً. إذ انقطع الوحي منذ رُفِعَ عيسى عليه السلام إلى السماء. طمَسَ الشَّيْءُ، طُمُوسًا: تَغَيَّرَتْ صَوْرَتُهُ، دَرَسَ وَامْحَى أَثَرُهُ.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٤٩٧/٣.

(٣) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٢٠٤/٤.

(٤) أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم.

(٥) «مختصر ابن كثير» ٤٩٨/٣.

(٦) «تفسير القرطبي» ٩٥/١٨.

التوراة، عالمون بما فيها، وفيها آياتٌ دالة على صحة نبوة محمد ﷺ ووجوب الإيمان به، ولكنهم لم ينتفعوا بها، ووجه التشبيه حرمان الانتفاع بما هو أبلغ شيء في الانتفاع، مع الكد والتعب^(١) ﴿يَسْ مَثَلُ الْفُؤْمَرِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي بئس هذا المثل الذي ضربناه لليهود، مثلاً للقوم الذين كذبوا بآيات الله، الدالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام^(٢) ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يوفق للخير، ولا يرشد للإيمان من كان ظالماً فاسقاً قال عطاء: هم الذين ظلموا أنفسهم بتكذيبهم للأنبياء^(٣)، ثم كذب تعالى اليهود في دعوى أنهم أحباء الله فقال ﴿قُلْ يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الذين تهودوا وتمسكوا بملة اليهودية ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ أي إن كنتم أولياء الله وأحباءه حقاً كما تدعون ﴿فَمَتَنُوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي فتمنوا من الله أن يميتكم، لتتقلوا سريعاً إلى دار كرامته المعدة لأوليائه، إن كنتم صادقين في هذه الدعوة قال أبو السعود: كان اليهود يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨] ويدعون أن الدار الآخرة لم عند الله، خالصة، ويقولون ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا﴾ [البقرة: ١١] فأمر الله رسوله أن يقول لهم إظهاراً لكذبهم: إن زعمتم ذلك فتمنوا الموت، لتتقلوا من دار البلاء إلى دار الكرامة، فإن من أيقن بأنه من أهل الجنة، أحب أن يتخلص إليها من هذه الدار التي هي مقرُّ الأكدار^(٤)، قال تعالى فاضحاً لهم، ومبيناً كذبهم: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي ولا يتمنون الموت بحالٍ من الأحوال، بسبب ما أسلفوه من الكفر والمعاصي وتكذيب محمد عليه السلام وفي الحديث «والذي نفسي بيده، لو تمنوا الموت ما بقي على ظهرها يهودي إلا مات»^(٥) قال الألوسي: لم يتمن أحد الموت منهم، لأنهم كانوا موقنين بصدقه عليه السلام، فعلموا أنهم لو تمنوه لماتوا من ساعتهم، وهذه إحدى المعجزات، وجاء في سورة البقرة نفياً هذا التمني بلفظ ﴿وَلَنْ﴾ وهو من باب التفنن على القول المشهور^(٦) ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي عالمٌ بهم وما صدر عنهم من فنون الظلم

(١) «حاشية شيخ زاده على البيضاوي» ٤٩٤ / ٣.

(٢) أقول: هذه الآية الكريمة فيها تعريض بنا معشر المسلمين إن لم نطبق أحكام القرآن ونعمل بمقتضاه وهو على حد قولهم: إياك أعني واسمعي يا جارة.

(٣) «التفسير الكبير للرازي» ٢٩ / ٥.

(٤) «تفسير أبي السعود» ١٦٣ / ٥.

(٥) «تفسير القرطبي» ٩٦ / ١٨. (ش): لم أجده بهذا اللفظ، ورؤي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: «لَوْ تَمَنَّوْهُ يَوْمَ قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ، مَا بَقِيَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ يَهُودِيٌّ إِلَّا مَاتَ» رواه ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم في «تفسيريهما» بإسناد ضعيف. وقال رحمته الله: «لَوْ أَنَّ الْيَهُودَ تَمَنَّوْا الْمَوْتَ، لَمَاتُوا، وَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ» (رواه أحمد، وصححه الألباني، وأحمد شاكر، والأرنؤوط). وقال رحمته الله: «لَوْ تَابَعَنِي عَشْرَةٌ مِنَ الْيَهُودِ لَمْ يَبْقَ عَلَى ظَهْرِهَا يَهُودِيٌّ إِلَّا أَسْلَمَ» (رواه مسلم).

(٦) روح المعاني ٩٦ / ٢٨. (ش): التفنن: التنويع.

والمعاصي، وإنما وضع الظاهر موضع الضمير «عليهم بهم» ذمًا لهم، وتسجيلًا عليهم بأنهم ظالمون^(١) ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن هذا الموت الذي تهربون منه، وتخافون أن تتمنوه حتى بلسانكم ﴿فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ﴾ أي فإنه آتيكم لا محالة، لا ينفعكم الفرار منه كقوله تعالى ﴿أَيَنْمَاتُ كُونُوا يَذْرُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] لأنه قدر محتوم، ولا يغني حذر عن قدر ﴿ثُمَّ تَرْدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي ثم ترجعون إلى الله الذي لا تخفى عليه خافية ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي فيجازيكم على أعمالكم، وفيه وعيد وتهديد.. ثم شرع تعالى في بيان أحكام الجمعة فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ أي يا معشر المؤمنين المصدقين بالله ورسوله، إذا سمعتم المؤذن ينادي لصلاة الجمعة ويؤذن لها ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ أي فامضوا إلى سماع خطبة الجمعة وأداء الصلاة، واتركوا البيع والشراء، اتركوا التجارة الخاسرة واسعوا إلى التجارة الرباحة قال في التسهيل: والسعي في الآية بمعنى المشي لا بمعنى الجري^(٢) لحديث «إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَلَا تَأْتَوْهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ وَلَكِنْ ائْتَوْهَا وَأَنْتُمْ تَمْشُونَ وَعَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ»^(٣). وقال الحسن: والله ما هو بالسعي على الأقدام، ولقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلا عليهم السكينة والوقار، ولكنه سعي بالقلوب، والنية، والخشوع^(٤) ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي ذلك السعي إلى مرضاة الله، وترك البيع والشراء، خير لكم وأنفع من تجارة الدنيا، فإن نفع الآخرة أجل وأبقى ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم من أهل العلم القويم، والفهم السليم ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ أي فإذا أديتم الصلاة وفرغتم منها ﴿فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي فتفرقوا في الأرض وأنشؤا فيها للتجارة وقضاء مصالحكم ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي واطلبوا من فضل الله وإنعامه، فإن الرزق بيده جلّ وعلا هو المُنعم المتفضل، الذي لا يُضَيِّع عَمَلَ العامل، ولا يخيّب أَمَلَ السائل ﴿

(١) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٦٣.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١١٩.

(٣) أخرجه الستة. (ش): في اصطلاح أهل العلم:

١- الصحيحان: صحيح البخاري، وصحيح مسلم.

٢- رواه الشيخان: البخاري ومسلم.

٣- رواه الثلاثة: أبو داود والترمذي والنسائي.

٤- رواه الأربعة: أصحاب السنن الأربعة: أبو داود والترمذي والنسائي، وابن ماجه.

٥- رواه الخمسة: أحمد وأصحاب السنن الأربعة: أبو داود والترمذي والنسائي، وابن ماجه.

٦- رواه الستة: البخاري ومسلم وأصحاب السنن الأربعة: أبو داود والترمذي والنسائي، وابن ماجه.

٧- رواه السبعة: رواه الجماعة: الصحيحان: (البخاري ومسلم) والخمسة: أحمد وأصحاب السنن الأربعة:

أبو داود والترمذي والنسائي، وابن ماجه.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٨/ ١٠٣.

وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴿١﴾ أي واذكروا ربكم ذكرًا كثيرًا، باللسان والجَنَان^(١)، لا وقت الصلاة فحسب ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ أي كي تفوزوا بخير الدارين قال سعيد بن جبير: ذكرُ الله طاعته، فمن أطاع الله فقد ذكره، ومن لم يطعه فليس بذاكرٍ ولو كان كثير التسييح^(٢). ثم أخبر تعالى أَنَّ فريقًا من الناس يؤثرون الدنيا الفانية على الآخرة الباقية، ويفضلون العاجل على الآجل فقال ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ هذا عتابٌ لبعض الصحابة الذين انصرفوا عن رسول الله ﷺ وتركوه قائمًا يخطب يوم الجمعة، والمعنى: إذا سمعوا بتجارة رابحة، أو صفقة قادمة، أو شيء من لهو الدنيا وزينتها، تفرقوا عنك يا محمد وانصرفوا إليها، وأعاد الضمير إلى التجارة دون اللهو ﴿انْفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ لأنها الأهم المقصود ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ أي وتركوا الرسول قائمًا على المنبر يخطب قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ قائمًا على المنبر يخطب يوم الجمعة، فأقبلت غيرٌ من الشام بطعام قدم بها «دحية الكلبي» وكان أصاب أهل المدينة جوعٌ وغلاء سعر وكانت عادتهم أن تدخل العير المدينة بالطل والصياح سرورًا بها^(٣)، فلما دخلت العير كذلك انفَضَّ أهل المسجد إليها، وتركوا رسول الله ﷺ قائمًا على المنبر، ولم يبق معه إلا اثني عشر رجلًا قال جابر بن عبد الله: أنا أحدهم فنزلت الآية^(٤) قال ابن كثير: وينبغي أن يُعلم أن هذه القصة كانت لما كان رسول الله ﷺ يقدم الصلاة يوم الجمعة على الخطبة كما هو الحال في العيدين، كما روى ذلك أبو داود^(٥) ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمَنِ التَّجَرَّةِ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن ما عند الله من الثواب والنعيم، خير مما أصبتموه من اللهو والتجارة ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّزْقِينَ﴾ أي خير من رزق وأعطى، فاطلبوا منه الرزق، وبه استعينوا لنيل فضله وإنعامه.

البَلاغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

(١) (ش): الجَنَان: القلب.

(٢) «حاشية زاده على البيضاوي» ٤٩٦/٣.

(٣) (ش): ما رُوي من أَنَّ التَّجَارَةَ كَانَتْ لِدَحْيَةَ الْكَلْبِيِّ، ضعيف، رواه أبو داود في «المراسيل»، وما رُوي من أَنَّهُ كَانَ مَعَهَا طَبْلٌ، ضعيفٌ أيضًا ذكره الحافظ ابن كثير في «تفسيره» عن مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ، ومقاتل لم يدرك الصحابة عليه السلام، قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ١٢٣): «وَرَعَمَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: أَنَّ التَّجَارَةَ كَانَتْ لِدَحْيَةَ بْنِ خَلِيفَةَ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ، وَكَانَ مَعَهَا طَبْلٌ».

(٤) انظر سبب النزول المتقدم.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ (ش): أشار الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ١٢٤) إلى ضعف هذا الحديث فقال: «ولكن هاهنا شيءٌ ينبغي أن يُعلم وهو: أَنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ قَدْ قِيلَ: إِنَّهَا كَانَتْ لَمَّا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْدُمُ الصَّلَاةَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ عَلَى الْخُطْبَةِ، كَمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ «الْمَرَّاسِيلِ»... اهـ. فالحديث ليس في «سنن أبي داود» الذي فيه الصحيح والحسن والضعيف، ولكن رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ «الْمَرَّاسِيلِ» وهو كتاب جمع فيه الأحاديث المرفوعة من التابعين إلى رسول الله، أي التي فيها انقطاع بين النبي ﷺ والتابعين الذين لم يروه، والحديث المُرسَل من أنواع من الضعيف. ٥٠٢.

- ١ - التشبيه التمثيلي ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد، أي: مثلهم في عدم الانتفاع بالثوراة، كمثل الحمار الذي يحمل على ظهره الكتب العظيمة ولا يكون له منها إلا التعب والعناء.
- ٢ - طباق السلب ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ .. وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا﴾.
- ٣ - الطباق بين ﴿الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ وهو من المحسنات البديعية.
- ٤ - التفنن بتقديم الأهم في الذكر ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا﴾ لأن المقصود الأساسي هو التجارة فقدمها ثم قال ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾ فقدم اللهو على التجارة لأن الخسارة بما لا نفع فيه أعظم، فقدم ما هو أهم في الموضعين.
- ٥ - المجاز المرسل ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ أطلق البيع وقصد جميع أنواع المعاملة من بيع وشراء وإجارة وغيرها.

تنبيه: يوم الجمعة سمي بذلك لاجتماع المسلمين فيه للصلاة، وقد كان يسمى في الجاهلية «يوم العروبة» ومعناه الرحمة كما قال السهيلي، وأول من سمّاه جمعة «كعب بن لؤي» وأول من صلى بالمسلمين الجمعة «أسعد بن زرارة» صلى بهم ركعتين وذكّرهم، فسميت الجمعة حين اجتمعوا إليه، فهي أول جمعة في الإسلام^(٦).

فائدة: كان «عراك بن مالك» إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال: «اللهم إني أحببت دعوتك، وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين»^(٧).

لطفة: التعبير بقوله تعالى ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فيه لطيفة، وهي أنه ينبغي للمسلم أن يقوم إلى صلاة الجمعة بعزيمة وهمة، وجدّ ونشاط، لأن لفظ السعي يفيد الجهد والعزم، ولهذا قال الحسن البصري: «والله ما هو سعي على الأقدام، ولكنه سعي بالنية والقلوب».

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الجمعة»



(٦) روح المعاني ٢٨/ ١٠٠. (ش): رواه أبو داود، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني.

(٧) «تفسير القرطبي» ١٨/ ١٠٣.

سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ

مدنية وآياتها إحدى عشرة

بين يدي السورة

* سورة (المنافقون) مدنية، شأنها شأن سائر السور المدنية، التي تعالج «التشريعات والأحكام» وتتحدث عن الإسلام من زاويته العملية، وهي القضايا التشريعية.

* والمحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هو الحديث بإسهاب عن النفاق والمنافقين، حتى سميت السورة بهذا الاسم الفاضح، الكاشف لآستار النفاق «سورة المنافقون».

* تناولت السورة الكريمة في البدء أخلاق المنافقين، وصفاتهم الذميمة التي من أظهرها الكذب، ومخالفة الظاهر للباطن، فإنهم يقولون بألسنتهم ما لا تعتقده قلوبهم، ثم تأمرهم على الرسول ﷺ وعلى المسلمين، وقد فضحتهم السورة وكشفت عن مخازيهم وإجرامهم، فهم تظاهروا بالإسلام يصدون الناس عن دين الله وينالون من دعوة الإسلام ما لا يناله الكافر المعلن لكفره، ولذلك خطرهم أعظم، وضررهم أكبر وأجسم ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾.

* كما تحدثت السورة الكريمة عن مقالاتهم الشنيعة في حق الرسول ﷺ، واعتقادهم بأن دعوته ستضمحل وتلاشى، وأنهم بعد عودتهم من «غزوة بني المصطلق» سيطر دون الرسول والمؤمنين من المدينة المنورة، إلى غير ما هنالك من أقوال شنيعة.

* وختمت السورة الكريمة بتحذير المؤمنين من أن ينشغلوا بزينة الدنيا ولهوها ومتاعها عن طاعة الله وعبادته شأن المنافقين، وبينت أن ذلك طريق الخسران، وأمرت بالإفراق في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله قبل أن يفوت الأوان بانتهاء الأجل، فيتحسر الإنسان ويندم حيث لا تنفع الحسرة والندم.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ فَنُلَهِمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾

هُم الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرُضُ مِنْهَا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِمَّنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَقَكَ أَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

اللغة: ﴿جَنَّةٌ﴾ وقاية وسُترة يحفظون بها أنفسهم وأموالهم وفي الحديث «الصوم جَنَّةٌ» أي: وقاية من عذاب الله ﴿فَطُيْعَ﴾ ختم عليها بالكفر، والطُيْعُ: الختم ﴿يُؤَفِّكُونَ﴾ يُصَرِّفُونَ عن الحق إلى الضلال، من الإفك وهو الصِّرف ﴿لَوْوُا﴾ عطفوا وحرَّكوا يقال: لَوَّى رأسه إذا حرَّكه وأداره ﴿يَنْفَضُوا﴾ يتفرقوا ﴿تُلْهِكُمْ﴾ تشغلهم، واللَّهُو: ما لا خير فيه ولا فائدة من القول أو العمل.

سَبَبُ النِّزُول: روي أن النبي ﷺ غزا «بني المُصطلق» فازدحم الناس على ماء فيه، فكان ممن ازدحم عليه «جهجاه بن سعيد: أجير لعمر بن الخطاب، و«سنان الجُهني» حليف لعبد الله بن سلول رأس المنافقين فطم جهجاه سناناً، فغضب سنان وصرخ ياللانصار، وصرخ جهجاه ياللمهاجرين، فقال «عبد الله بن سلول «أو قد فعلوها! (والله ما مثلنا ومثل هؤلاء يعني المهاجرين إلا كما قال الأول «سَمَنْ كَلْبِكَ يَا كَلْكُ»، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرض منها الأذل يعني بالأعرض نفسه، وبالأذل رسول الله ﷺ وصحبه ثم قال لقومه: إنما يقيم هؤلاء المهاجرون بالمدينة بسبب معونتهم وإنفاقكم عليهم، ولو قطعتم ذلك عنهم لفروا عن بلدكم، فسمعه «زيد بن أرقم» فأخبر بذلك رسول الله ﷺ، وبلغ ذلك ابن سلول فحلف أنه ما قال من ذلك شيئاً وكذب زياداً، فنزلت السورة إلى قوله تعالى ﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرُضُ مِنْهَا الْأَذَلُّ...﴾ (١) الآيات.

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ١٢٢/٤، وانظر البخاري. (ش): ضعيف بهذا السياق، رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره». وعن زيد بن أرقم - رضي الله عنه - قال: كُنْتُ مَعَ عَمِّي فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي إِبْنِ سَلُولٍ يَقُولُ: لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا. وَقَالَ أَيْضًا لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرُضُ مِنْهَا الْأَذَلُّ. فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّي فَذَكَرَ عَمِّي لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَأَصْحَابِهِ، فَحَلَفُوا مَا قَالُوا، فَصَدَّقَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَذَّبَنِي، فَأَصَابَنِي هَمٌّ لَمْ يُصِبنِي مِثْلُهُ، فَجَلَسْتُ فِي بَيْتِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ) إِلَى قَوْلِهِ ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرُضُ مِنْهَا الْأَذَلُّ﴾ فَأَرْسَلَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَرَأَهَا عَلَى نَفْسِهِ ثُمَّ قَالَ «إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكَ». (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه، قال: عَزَّوْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ مَعَنَا نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ فَكُنَّا نَبْتَدِرُ الْمَاءَ، وَكَانَ الْأَعْرَابُ يَسْبِقُونَا فَيَسْبِقُونَا فَأَتَى الْأَعْرَابِيُّ أَصْحَابَهُ فَيَمْلَأُ الْحَوْضَ، وَيَجْعَلُ حَوْلَهُ حِجَارَةً، وَيَجْعَلُ النُّطْعَ عَلَيْهِ حَتَّى يَجِيءَ أَصْحَابُهُ، فَأَتَى =

التفسير: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ أي إذا أتاك يا محمد المنافقون وحضروا مجلسك كعبد الله بن سلول وأصحابه ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ أي قالوا بألستهم نفاقاً ورياءً: نشهد بأنك يا محمد رسول الله، يقولون بألستهم ما ليس في قلوبهم قال أبو السعود: أكدوا كلامهم بأن واللام ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ للإيدان بأن شهادتهم هذه صادرة عن صميم قلوبهم، وخلوص اعتقادهم، ووفور رغبتهم ونشاطهم ^(١) ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ أي والله جل وعلا يعلم أنك يا محمد رسوله حقاً، لأنه هو الذي أرسلك، والجملة اعتراضية جيء بها لدفع توهم تكذيبهم في دعوة رسالته ﷺ لئلا يتوهم السامع أن قولهم ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ كذب في حد ذاته قال في التسهيل: وقوله ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ ليس من كلام المنافقين، وإنما هو من كلام الله تعالى، ولو لم يذكره لكان يوهم أن قوله ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَذِبُونَ﴾ إبطال للرسالة، فوسطه بين حكاية المنافقين وبين تكذيبهم ليزيل هذا الوهم وليحقق الرسالة ^(٢) ثم قال تعالى ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَذِبُونَ﴾ أي يشهد بكذب المنافقين فيما أظهروه من شهادتهم وحلفهم بألستهم، لأن من قال بلسانه شيئاً واعتقد خلافه فهو كاذب، والإظهار في موضع الإضمار ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ لزمهم وتسجيل هذه الصفة القبيحة عليهم، كما جاءت الصيغة مؤكدة بأن واللام زيادة في التقرير والبيان ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ أي اتخذوا أيمانهم الفاجرة وقاية وسُترة يستترون بها من القتل قال الضحاك: هي حلفهم بالله إنهم مسلمون ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾

= رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ الْأَعْرَابِيِّ فَأَرْخَى زِمَامَ نَاقَتِهِ لِتَشْرَبَ، فَأَبَى أَنْ يَدَعَهُ فَاتَّزَعَ حَجَرًا فَفَاصَّ فَرَفَعَ الْأَعْرَابِيُّ خَشَبَةً، فَضَرَبَ بِهَا رَأْسَ الْأَنْصَارِيِّ فَسَجَّهَ، فَأَتَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَأْسٍ الْمُنَافِقِينَ فَأَخْبَرَهُ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِهِ فَغَضِبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَأْسٍ، ثُمَّ قَالَ: لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى يَنْقُضُوا مِنْ حَوْلِهِ يَغْنِي الْأَعْرَابَ، وَكَانُوا يُحَدِّثُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ الطَّعَامِ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ لِأَصْحَابِهِ: إِذَا انْقَضَا مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ، فَأَتُوا مُحَمَّدًا لِلطَّعَامِ فَلْيَأْكُلْ هُوَ وَمَنْ عِنْدَهُ، ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَلْيُخْرِجِ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، قَالَ زَيْدٌ: وَأَنَا رَدَفُ عَمِّي، فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ وَكُنَّا أَخَوَالَهُ فَأَخْبَرْتُ عَمِّي، فَأَنْطَلَقْتُ فَأَخْبَرْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَحَلَفَ وَجَحَدَ وَاعْتَذَرَ، فَصَدَّقَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَذَّبَنِي، فَجَاءَ إِلَيَّ عَمِّي، فَقَالَ: مَا أَرَدْتُ إِنْ مَقَتَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَذَّبَكَ، وَكَذَّبَكَ الْمُسْلِمُونَ. فَوَقَعَ عَلَيَّ مِنَ الْغَمِّ مَا لَمْ يَقَعْ عَلَيَّ أَحَدٍ قَطُّ، فَبَيْنَا أَنَا أَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ وَقَدْ حَقَّقْتُ بِرَأْسِي مِنَ الْهَمِّ، فَأَتَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «فَعَرَكْ أُذُنِي وَصَحَّكَ فِي وَجْهِ» فَمَا كَانَ بِسُرْنِي أَنْ لِي بِهَا الْخُلْدُ أَوْ الدُّنْيَا، ثُمَّ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لِحَقَنِي، فَقَالَ: مَا قَالَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قُلْتُ: مَا قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّهُ «عَرَكْ أُذُنِي وَصَحَّكَ فِي وَجْهِ» فَقَالَ: أَبْشِرْ. ثُمَّ لِحَقَنِي عُمَرُ فَقَالَ: مَا قَالَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قُلْتُ لَهُ مِثْلَ قَوْلِي لِأَبِي بَكْرٍ فَلَمَّا أَصْبَحْنَا «قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سُورَةَ الْمُنَافِقُونَ» إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿المنافقون: ١﴾ حَتَّى بَلَغَ «الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى يَنْقُضُوا» ﴿المنافقون: ٧﴾ حَتَّى بَلَغَ «يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ» ﴿المنافقون: ٨﴾. (رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي).

(١) «تفسير أبي السعود» ١٦٤/٥. (ش): وفر المأل وغيره، وفرًا ووفورًا: كثر واتسع.

(٢) «التسهيل» ٢١٢/٤.

أي فمنعوا الناس عن الجهاد، وعن الإيمان بمحمد ﷺ قال الطبري: أي أعرضوا عن دين الله الذي بعث به نبيه ﷺ وشريعته التي شرعها لخلقها^(١) وقال ابن كثير: إن المنافقين اتقوا الناس بالإيمان الكاذبة، فاعترَّبهم من لا يعرف جليَّة أمرهم، فاعتقدوا أنهم مسلمون، وهم في الباطن لا يألون الإسلام وأهله خبالاً^(٢)، فحصل بذلك ضررٌ كبير على كثير من الناس^(٣) ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي قبح عملهم وصنيعهم لأنهم يظهرون بمظهر الإيمان، وهم من أهل النفاق والعصيان، فبُست أعمالهم الخبيثة من نفاقهم وأيمانهم الكاذبة قال الصاوي: وساء ك (بُس) في إرادة الذم، وفيها معنى التعجب^(٤) وتعظيم أمرهم عند السامعين ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ أي ذلك الحلف الكاذب والصدُّ عن سبيل الله، بسبب أنهم آمنوا بألستهم وكفروا بقلوبهم قال أبو السعود: أي نطقوا بكلمة الشهادة عند المؤمنين، ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم المجرمين، وما فيه من الإشارة بالبعيد «ذلك» للإشعار ببعد منزلته في الشر^(٥) ﴿فَطُغِيَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي ختم على قلوبهم فلا يصل إليها هدى ولا نور ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي فهم لا يعرفون الخير والإيمان، ولا يفرقون بين الحسن والقبيح، لَحَتَمَ الله على قلوبهم ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ أي وإذا رأيت هؤلاء المنافقين، أعجبتك هيئاتهم ومناظرهم، لحُسْنها ونضارتها وضخامتها ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ أي وإن يتكلموا تُصغ لكلامهم، لفصاحتهم وذلاقة لسانهم^(٦) قال ابن عباس: كان ابن سلول رأس المنافقين جسيماً، وفصيحاً، ذلق اللسان، فإذا قال سمع النبي ﷺ قوله، وكذلك كان أصحابه إذا حضروا مجلس النبي ﷺ يعجب الناس بهياكلهم^(٧) ﴿كَانَهُمْ خُشْبٌ مِّنْ شَجَرَةٍ﴾ أي يشبهون الأخشاب المسندة إلى الحائط، في كونهم صوراً خالية عن العلم والنظر، فهم أشباح بلا أرواح، وأجسام بلا أحلام قال أبو حيان: شُبَّهوا بالخشب لعزوب أفهامهم، وفراغ قلوبهم من الإيمان، والجملة التشبيهية وصِف لهم بالجُبْن والخور^(٨)، ولهذا قال ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي يظنون لجُبْنهم وهَلْعهم كل نداء وكل صوت، أنهم يُرادون بذلك، فهم دائماً في خوفٍ ووجل من أن يهتك الله أستارهم، ويكشف أسرارهم قال ابن كثير: كلما وقع أمر أو خوفٌ يعتقدون لجبنهم أنه نازل بهم^(٩) قال

(١) «تفسير الطبري» ٦٩/٢٨.

(٢) (ش): لَا يَأْلُونَ جُهْدًا، وَلَا يَتَأَخَّرُونَ عَنْ عَمَلٍ فِيهِ إِندَاءٌ وَإِضَارٌ بِالْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٥٠٣/٣.

(٤) «حاشية الصاوي» ٢٠٨/.

(٥) «تفسير أبي السعود» ١٦٥/٥.

(٦) (ش): ذَلَقَ اللِّسَانَ، ذَلَاقَةً: كَانَ حَادًّا طَلْقًا.

(٧) «حاشية الصاوي» ٢٠٨/٤.

(٨) «البحر المحیط» ٢٧٢/٨. (ش): خَوَّرَ الشَّخْصَ خَوَّرًا: خَارَ، ضَعُفَ وَانْكَسَرَ.

(٩) «مختصر ابن كثير» ٥٠٤/٣.

مقاتل: إذا سمعوا نشدان ضالة^(١)، أو صياحاً بأي وجه كان، طارت عقولهم، وظنوا ذلك إيقاعاً بهم^(٢) ﴿هُرُّ الْعَدُوِّ فَاحْذَرُهُمْ﴾ أي هم الأعداء الكاملون في العداوة لك وللمؤمنين وإن أظهروا الإسلام، فاحذَرهم ولا تأمَنهم على سرٍّ، فإنهم عيون لأعدائك ﴿قَتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ جملة دُعائية أي أخزاهم الله ولعنهم وأبعدهم عن رحمته ﴿أَنِّي يُؤَفِّكُونَ﴾ أي كيف يصرفون عن الهدى إلى الضلال؟ وكيف تضل عقولهم مع وضوح الدلائل والبراهين؟ وفيه تعجيب من جهلهم وضلالهم، وانصرافهم عن الإيمان بعد قيام البرهان، روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ لِلْمُنَافِقِينَ عَلَامَاتٍ يُعْرِفُونَ بِهَا: تَحِيَّتُهُمْ لَعْنَةٌ، وَطَعَامُهُمْ نُهْيَةٌ، وَغَنِيمَتُهُمْ غُلُولٌ، وَلَا يَقْرُبُونَ الْمَسَاجِدَ إِلَّا هَجْرًا، وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا دُبْرًا، مُسْتَكْبِرِينَ، لَا يَأْلَفُونَ وَلَا يُؤْلَفُونَ، خُسْبٌ بِاللَّيْلِ، صُخْبٌ بِالنَّهَارِ»^(٣) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء المنافقين: هلمُّوا إلى رسول الله حتى يطلب لكم المغفرة من الله ﴿لَوْأَرَأَوْهُمْ﴾ أي حركوها وهزوها استهزاء واستكباراً ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ أي وتراهم يُعرضون عما دُعوا إليه، وهم متكبرون عن استغفار رسول الله ﷺ لهم، وجيء بصيغة المضارع ليدل على استمرارهم على الإعراض والعناد^(٤) قال المفسرون: لما نزلت الآيات تفضح المنافقين وتكشف الأستار عنهم، مشى إليهم أقرباؤهم من المؤمنين، وقالوا لهم: ويلكم لقد افتضحتم بالنفاق وأهلكتم أنفسكم، فأتوا رسول الله وتوبوا إليه من النفاق واسألوه يستغفر لكم، فأبوا وحركوا رؤوسهم سخرية واستهزاء فنزلت الآية، ثم جاءوا إلى «ابن سلول» وقالوا له: امض إلى رسول الله ﷺ واعترف بذنبك يستغفر لك، فلوى رأسه إنكاراً لهذا الرأي ثم قال لهم: لقد أشرتُم عليَّ بالإيمان فآمنتُ، وأشرتُم عليَّ بأن أعطي زكاة مالي ففعلتُ، ولم يبق لكم إلا أن تأمروني بالسجود لمحمد! ثم بينَّ تعالى عدم فائدة الاستغفار لهم، لأنهم مردوا على النفاق فقال ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي يتساوى الأمر بالنسبة لهم، فإنه لا ينفع استغفارك لهم شيئاً، ولفسقهم وخروجهم عن طاعة الله ورسوله قال الصاوي: والآية للتيئيس من إيمانهم، أي: إن استغفارك يا محمد وعدمه سواء،

(١) (ش): نَشَدَ الشَّيْءَ، نَشَدًا وَنَشْدَانًا: طَلَبَهُ وَسَأَلَ عَنْهُ. وَالضَّالَّةُ: كُلُّ مَا ضَاعَ وَفُتِدَ.

(٢) «تفسير الألوسي» ٢٨/ ١١١.

(٣) أخرجه أحمد كذا في ابن كثير ٥٠٤/ ٣. (ش): ضعفه الألباني والأرنؤوط، وحسنه أحمد شاكر. نُهْيَةٌ: شَيْءٌ مَنُوبٌ. انْتَهَبَ مَالٌ غَيْرُهُ: نَهَبَهُ؛ أَخَذَهُ قَهْرًا. (لَا يَقْرُبُونَ الْمَسَاجِدَ إِلَّا هَجْرًا): إِلَّا تَرْكَأَ لَهُ وَإِعْرَاضًا عَنْهُ. أَيْ لَا يَقْرَبُونَ الْمَسَاجِدَ، بَلْ يَهْجُرُونَهَا. (وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا دُبْرًا): دُبْرًا وَدُبْرًا: أَيْ: آخِرًا، حِينَ كَادَ الْإِمَامُ أَنْ يَفْرَغَ. (خُسْبٌ بِاللَّيْلِ): أَيْ يَنَامُونَ اللَّيْلَ لَا يَصْلُونَ. شَبَهُهُمْ فِي تَمَدُّدِهِمْ نِيَامًا بِالْخَشَبِ الْمَطْرَحَةِ. (صُخْبٌ بِالنَّهَارِ): وَالصُّخْبُ: الضَّجَّةُ وَاضْطِرَابُ الْأَصْوَاتِ لِلْخَصَامِ. وَالْمَرَادُ رَفْعُ أَصْوَاتِهِمْ وَضَجِيجِهِمْ فِي الْمَجَادَلَاتِ وَالْخُصُومَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

(٤) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٧٣.

فهم لا يؤمنون لسبق الشقاوة لهم^(١) ﴿لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ هُمْ﴾ أي لن يصفح الله عنهم لرسوخهم في الكفر، وإصرارهم على العصيان، ثم علّله بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي لا يُوفق للإيمان، من كان فاسقاً خارجاً عن طاعة الرحمن.. ثم زاد تعالى في بيان قبائحهم وجرائمهم فقال ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ أي هم الفجرة الذين قالوا: لا تنفقوا على المهاجرين حتى يتفرقوا عن محمد قال في البحر: والإشارة إلى ابن سلول ومن وافقه من قومه، سَفَهَ أحلامهم في أنهم ظنوا أن رزق المهاجرين بأيديهم، ما علموا أن ذلك بيد الله تعالى، وقولهم ﴿عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ هو على سبيل الهزاء، إذ لو كانوا مقرين برسالته ما صدر منهم ما صدر، والظاهر أنهم لم ينطقوا بنفس ذلك اللفظ، ولكنه تعالى عبّر به عن رسوله إكراماً له وإجلالاً^(٢) ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هو تعالى بيده مفاتيح الرزق يعطي من يشاء ويمنع عن من يشاء، ولا يملك أحد أن يمنع فضل الله عن عباده ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَقَفَهُونَ﴾ أي ولكن المنافقين لا يفهمون حكمة الله وتدبيره، فلذلك يقولون ما يقولون من مقالات الكفر والضلال. ثم عدّد تعالى بعض قبائحهم وأقوالهم الشنيعة فقال ﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ أي يقولون لئن رجعنا من هذه الغزوة غزوة بني المصطلق وعدنا إلى بلدنا «المدينة المنورة» ﴿لِيُخْرِجَ الْأَعْرَضَ﴾ أي لنخرج منها محمداً وصحبه، والقائل هو ابن سلول، وعنى بالأعز نفسه وأتباعه، وبالأذل رسول الله ﷺ ومن معه^(٣) قال المفسرون: لما قال ابن سلول ما قال ورجع إلى المدينة، وقف له ولده «عبد الله» على باب المدينة واستلّ سيفه، فجعل الناس يمرون به، فلما جاء أبوه قال له ابنه: وراءك، والله لا تدخل المدينة أبداً حتى تقول: إن رسول الله هو الأعز، وأنا الأذل فقالها، ثم جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، بلغني أنك تريد أن تقتل أبي، فإن كنت فاعلاً فمروني فأنا أحمل إليك رأسه! فقال له رسول الله ﷺ: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا»^(٤) ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لله جل وعلا القوة والغلبة ولمن أعزه وأيده من رسوله والمؤمنين لا غيرهم، والصيغة تفيد الحصر قال القرطبي: توهّموا أن العزة بكثرة الأموال والأتباع، فبيّن الله أن العزة والمنعة لله ولرسوله وللمؤمنين^(٥) ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكن المنافقين لفطّ جهلهم وغرورهم لا يعلمون أن العزة والغلبة لأوليائه دون أعدائه ﴿يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تِلْكَ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لما ذكر

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٢٩ / ٤.

(٢) «تفسير البحر المحيط» ٢٧٤ / ٨.

(٣) انظر سبب النزول والمتقدم.

(٤) يستحسن الرجوع إلى سيرة ابن إسحاق ففيها تفصيل للقصة وتوضيح.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٢٩ / ١٨. (ش): رواه ابن إسحاق في «السيرة» والبيهقي في «دلائل النبوة» بإسناد ضعيف.

قبائح المنافقين، نهى المؤمنين عن التشبه بهم في الاغترار بالأموال والأولاد والمعنى: لا تشغلكم أيها المؤمنون الأموال والأولاد عن طاعة الله وعبادته، وعن أداء ما افترضته عليكم من الصلاة، والزكاة، والحج، كما شغلت المنافقين قال أبو حيان: أي لا تشغلكم أموالكم بالسعي في نمائها، والتلذذ بجمعها، ولا أولادكم بسروركم بهم، وبالنظر في مصالحهم، عن ذكر الله وهو عام في الصلاة، والتسبيح، والتحميد، وسائر الطاعات ^(١) ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي ومن تشغله الدنيا عن طاعة الله وعبادته، فأولئك هم الكاملون في الخسران، حيث آثروا الحقير الفاني على العظيم الباقي، وفضلوا العاجل على الآجل ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي وأنفقوا في مرضاة الله، من بعض ما أعطيناكم وتفضلنا به عليكم من الأموال ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِكَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي قبل أن يحل الموت بالإنسان، ويصبح في حالة الاحتضار ﴿فَيَقُولُ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي فيقول عند تيقنه الموت: يا رب هلا أمهلتنني وأخّرت موتي إلى زمن قليل! ﴿فَأَصْدَقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي فأصدق وأحسن عملي، وأصبح تقياً صالحاً قال ابن كثير: كل مفرط يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ليستدرك ما فات، ولكن هيهات ^(٢) ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ أي ولن يمهل الله أحداً أيّا كان إذا انتهى أجله، ولن يزيد في عمره، وفيه تحريض على المبادرة بأعمال الطاعات، حذراً أن يجيء الأجل وقد فرط ولم يستعد للقاء ربه ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي مطلعٌ وعالمٌ بأعمالكم من خير أو شر، ومجازيكم عليها.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من الفصاحة والبيان نوجزها فيما يلي:

- ١ - التأكيد بالقسم وإن واللام ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ زيادة في التقرير والبيان.
- ٢ - الجملة الاعتراضية ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ جاءت معترضة بين الشرط وجوابه لبيان أنهم ما قالوا ذلك عن اعتقاد، ولدفع توهم تكذيبهم في دعواهم الشهادة بالرسالة، والأصل ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ فجاءت الجملة اعتراضية بينهما.
- ٣ - الاستعارة ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ فإن أصل الجنة ما يُستتر به ويُتقى به المحذور كالترس، ثم استعمل هنا استعارة لأنهم كانوا يُظهرون الإسلام ليعصموا دماءهم وأموالهم.
- ٤ - الطباق بين ﴿ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ وبين ﴿الْأَعْرُضُهَا الْأَذَلُّ﴾ وهو من المحسنات البديعية.
- ٥ - التشبيه المرسل المَجْمَل ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ﴾ وهو من روائع التشبيه.

(١) «البحر المحيط» ٢٧٤/٨.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٥٠٦/٣.

- ٦ - طباق السلب ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ .
 ٧ - الجملة الدُعائية ﴿فَنَلَّهُمُ اللَّهُ﴾ وهي دعاءٌ عليهم باللعنة والخزي والهلاك.
 ٨ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات، وهو كثير في القرآن يزيد في رونق الكلام.
تنبيه: النفاق لم يكن بمكة وإنما كان بها الكفر، ولم يظهر النفاق إلا بالمدينة المنورة حين عزَّ الإسلام وكثر أنصاره، وقد كان المنافقون يظهرُونَ الإسلام لصون دمائهم وأموالهم كما قال الشاعر:

وَمَا انْتَسَبُوا إِلَى الْإِسْلَامِ إِلَّا لِيَصُونُوا دِمَائِهِمْ أَنْ لَا تُسَالَا
فائدة: العزة غير الكبر، ولا يحل للمسلم أن يُذل نفسه، فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه، والكبر جهل الإنسان بنفسه، قيل للحسن بن علي رضي الله عنهما: إن الناس يزعمون أن فيك كبراً وتيهًا فقال: ليس بتيه^(١) ولكنه عزة المسلم ثم تلا الآية ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

لطفة: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «من كان له مال يبلغه حج بيت ربه، أو تجب عليه فيه زكاة فلم يفعل، سأل الرجعة عند الموت، فقال رجلٌ يا ابن عباس: اتق الله فإنما يسأل الرجعة الكفار!! فقال: سأتلو عليكم بذلك قرآنًا ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الَمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ الآية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المنافقون»



(١) (ش): تاه الشخص في مشيه تيهًا وتيهًا وتكبر.

سُورَةُ التَّغَابُنِ

١٨

٦٤

مدنية وآياتها ثمان عشرة

بين يدي السورة

- * سورة التغابن من السور المدنية التي تعنى بالتشريع، ولكن جوها جو السور المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية.
- * تحدثت السورة الكريمة عن جلال الله وعظمته وآثار قدرته، ثم تناولت موضوع الإنسان المعترف بربه، والإنسان الكافر الجاحد بآلاء الله.
- * وضربت الأمثال بالقرون الماضية، والأُمم الخالية، التي كذبت رسل الله، وما حل بهم من العذاب والدمار، نتيجة لكفرهم وعنادهم وضلالهم.
- * وأقسمت السورة على أن البعث حق لا بد منه، أقر به المشركون أو أنكروه.
- * وأمرت بطاعة الله وطاعة رسوله، وحذرت من الإعراض عن دعوة الله.
- * كما حذرت من عداوة بعض الزوجات والأولاد، فإنهم كثيراً ما يمنعون الإنسان عن الجهاد والهجرة.
- * وختمت السورة بالأمر بالإنفاق في سبيل الله لإعلاء دينه، وحذرت من الشح والبخل، فإن من صفات المؤمن الإنفاق في سبيل الله ابتغاء مرضاته، وهو شطر الجهاد في سبيل الله.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكُفِّرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورَ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ وَعَدُوا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لَأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقْ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

اللغة: ﴿صُورَكُمْ﴾ التصوير: التخطيط والتشكيل الذي يكون به صورة وهيئة يتميز بها عن غيره ﴿نَبَأُ﴾ النبأ: الخبر الهام ﴿وَبَالَ﴾ الوبال: العقوبة والنكال ﴿زَعَمَ﴾ ظنَّ، والزعْمُ هو القول بالظن ومنه قولهم «زعموا مطية الكذب» قال شريح: «لكل شيء كُنيَّةٌ، وكُنيَّةُ الكذب زعموا»^(١) ﴿التَّغَابُنُ﴾ الغَبْنُ ومعناه: النقص يقال: غَبَنَ غَبْنًا إذا أخذ الشيء منه بدون قيمته، وسمي يوم القيامة يوم التغابن، لأنه يظهر فيه غَبْنُ الكافر بتركه الإيمان، وغَبْنُ المؤمن بتقصيره في الإحسان.

سبب النزول: روى أن رجالاً من أهل مكة أسلموا، وأرادوا أن يهاجروا إلى النبي ﷺ فمنعهم أزواجهم وأولادهم، وقالوا: صبرنا على إسلامكم ولا صبر لنا على فراقكم! فأطاعوهم وتركوا الهجرة فأنزل الله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ وَعَدُوا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ...﴾^(٢) الآية.

التفسير: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ينزه الله تعالى ويمجده جميع ما في السموات والأرض من مخلوقات، تنزيهاً دائماً مستمراً بدون انقطاع، وصيغة المضارع تفيد التجدد والاستمرار ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ أي له جل وعلا الملك التام والتصرف الكامل في خلقه، وهو المستحق للثناء وحده، لأن جميع النعم منه سبحانه وتعالى، وقدَّم

(١) «تفسير القرطبي» ١٨/ ١٣٥. (ش): قال ﷺ: «بَسَّسَ مَطِيَّةُ الرَّجُلِ زَعْمُوا». (رواه أحمد وأبو داود، وصححه الألباني). (بَسَّسَ مَطِيَّةُ الرَّجُلِ) الْمَطِيَّةُ بِمَعْنَى الْمَرْكُوبِ (زَعَمُوا) الزَّعْمُ - بِالضَّمِّ وَالْفَتْحِ - قَرِيبٌ مِنَ الظَّنِّ أَيْ أَسْوَأُ عَادَةٍ لِلرَّجُلِ أَنْ يَتَّخِذَ لَفْظَ زَعَمُوا مَرْكَبًا إِلَى مَقَاصِدِهِ فَيُخْبِرَ عَنْ أَمْرٍ تَقْلِيدًا مِنْ غَيْرِ تَثْبُتٍ فَيُخْطِئُ وَيَجْرَبُ عَلَيْهِ الْكَذِبُ. فَالرَّجُلُ إِذَا أَرَادَ الْمَسِيرَ إِلَى بَلَدٍ رَكِبَ مَطِيَّةً وَسَارَ حَتَّى يَبْلُغَ حَاجَتَهُ فَتَبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ مَا يَقْدُمُهُ الرَّجُلُ أَمَّا كَلَامُهُ وَيَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى حَاجَتِهِ مِنْ قَوْلِهِمْ زَعَمُوا كَذَا وَكَذَا بِالْمَطِيَّةِ الَّتِي يَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي يَقْصُدُهُ. وَالْمَقْصُودُ أَنْ الْإِخْبَارَ بِخَيْرِ مَبْنَاهُ عَلَى الشَّكِّ وَالتَّخْمِينِ دُونَ الْجَزْمِ وَالْيَقِينِ فَيُبَيِّنُ، بَلْ يَبْغِي أَنْ يَكُونَ لِخَبْرِهِ سَنَدٌ وَثُوبٌ وَيَكُونَ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ ذَلِكَ لَا مُجَرَّدَ حِكَايَةٍ عَلَى ظَنٍّ وَحَسْبَانِ.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢١٢. (ش): عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ وَعَدُوا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ﴾ قَالَ: هَؤُلَاءِ رَجَالٌ أَسْلَمُوا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَأَرَادُوا أَنْ يَأْتُوا النَّبِيَّ ﷺ فَأَبَى أَزْوَاجُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ أَنْ يَدْعُوهُمْ أَنْ يَأْتُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَوْا النَّاسَ قَدْ فَقَهُوا فِي الدِّينِ هُمَا أَنْ يُعَاقِبُوهُمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ وَعَدُوا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ﴾ الْآيَةَ. (رواه الترمذي، وحسنه الألباني).

الجبار والمجرور فيهما لإفادة حصر الملك والحمد فيه سبحانه ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي قادر على كل شيء، يُغْنِي وَيُفْقِر، وَيُعِزُّ وَيُذِلُّ، وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، وهو كالدليل لما تقدم من أن الملك والحمد له سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ هذا تفصيل لبعض آثار قدرته، أي: هو الذي خلقكم أيها الناس بهذا الشكل البديع المحكم، فكان يجب على كل واحدٍ منكم الإيمان به، لكن منكم من كفر بربه، ومنكم من آمن وصدق بخالقه قال الطبري: أي منكم كافرٌ بخالقه وأنه هو الذي خلقه، ومنكم مصدق به موقنٌ أنه خالقه وبارئه^(١)، وقدّم الكافر على المؤمن، لكثرة الكفار وقلة المؤمنين ﴿وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣] ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي عالمٌ بأحوالكم، مطلعٌ على أعمالكم، لا تخفى عليه خافية من شئونكم وسيجازيكم عليها.. ثم فصلّ تعالى آثار قدرته ودلائل وحدانيته فقال ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي خلقهما بالحكمة البالغة، المتضمنة لمصالح الدنيا والدين، لا عبثاً ولا لهواً ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي خلقكم في أحسن صورة وأجمل شكل، فأتقن وأحكم خلقكم وتصويركم كقوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] فإن من نظر في شكل الإنسان وهيئته وتناسب أعضائه، علم أن صورته أحسن صورة بالنسبة لسائر أنواع الحيوان، ومن حسن صورته أنه خلق مُتَّصِباً غير مُنْكَبٍّ على وجهه^(٢) ﴿وَالْيَهُ الْمَصِيرُ﴾ أي وإليه تعالى وحده المرجع والمآب، فيجازي كلاً بعمله ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي يعلم ما في الكائنات من أجرام ومخلوقات ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلَنُونَ﴾ أي ويعلم ما تخفونه وما تظهرونه من نواياكم وأعمالكم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي عالم بما في الصدور من الأسرار والخفايا، فكيف تخفى عليه أعمالكم الظاهرة؟ قال في البحر: نبّه تعالى بعلمه بما في السموات والأرض، ثم بعلمه بما يخفيه العباد وما يعلنونه، ثم بعلمه بما أكتنّه الصدور، على أنه تعالى لا يغيب عن علمه شيء، لا من الكليات ولا من الجزئيات، فابتدأ بالعلم الشامل، ثم بسرّ العباد وعلاانيتهم، ثم بما تنطوي عليه صدورهم، وهذا كله في معنى الوعيد، إذ هو تعالى المجازي عليه بالثواب والعقاب^(٣).

ثم ذكّرهم تعالى بما حلّ بالكفار قبلهم فقال ﴿الْمَرِئَاتُ كُفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي ألم يأتكم يا معشر قريش خبر كفار الأمم الماضية كقوم عاد وثمود، ماذا حلّ بهم من العذاب والنكال! ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ﴾ أي فذاقوا العقوبة الوخيمة على كفرهم في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ

(١) «تفسير الطبري» ٧٨/٢٨.

(٢) فإن قيل: إن بعض الناس قبيح المنظر والشكل، فالجواب أن ذلك لا يُخرجه عن حسن الصورة الإنسانية، وإنما هو قبيح بالنظر إلى من هو أحسن منه.

(٣) «تفسير البحر المحيط» ٢٧٧/٨.

أَيُّ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ مَوْجِعٌ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَيُّ ذَلِكَ الْعَذَابِ الَّذِي ذَاقُوهُ فِي الدُّنْيَا وَمَا سَيَذُوقُونَهُ فِي الْآخِرَةِ، بِسَبَبِ أَنَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْمَعْجَزَاتِ الْوَاضِحَاتِ، وَالْبَرَاهِينِ السَّاطِعَاتِ، الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِمْ ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا؟﴾ أَيُّ فَقَالُوا عَلَى سَبِيلِ الْاسْتِعْرَابِ وَالتَّعَجُّبِ: أَرْسَلُ مِنَ الْبَشَرِ يَصِيرُونَ هِدَاةً لَنَا قَالَ الرَّازِي: أَنْكَرُوا أَنَّ يَكُونَ الرَّسُولُ بَشَرًا، وَلَمْ يَنْكَرُوا أَنَّ يَكُونَ مَعْبُودُهُمْ حَجَرًا^(١)، وَذَلِكَ لِقَلَّةِ عَقُولِهِمْ وَسَخَافَةِ أَحْلَامِهِمْ ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا﴾ أَيُّ فَكَفَرُوا بِالرَّسُولِ، وَأَعْرَضُوا عَنِ الْإِيمَانِ وَاتَّبَعَ هَدَى الرَّحْمَنِ ﴿وَأَسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ أَيُّ اسْتَغْنَى اللَّهُ عَنْ طَاعَتِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ قَالَ الطَّبْرِي: أَيُّ اسْتَغْنَى اللَّهُ عَنْهُمْ، وَعَنْ إِيْمَانِهِمْ بِهِ وَبِرَسُولِهِ^(٢) ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أَيُّ غَنِيٌّ عَنْ خَلْقِهِ، مَحْمُودٌ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، لَا تَنْفَعُهُ طَاعَةٌ، وَلَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةٌ، لِأَنَّهُ مُسْتَغْنٍ عَنِ الْعَالَمِينَ.. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ إِنْكَارِهِمْ لِلْبَعْثِ بَعْدَ تَكْذِيبِهِم لِلرَّسَالَةِ فَقَالَ ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ أَيُّ ادَّعَى كُفَّارُ مَكَّةَ وَظُنُّوا أَنَّ اللَّهَ لَنْ يَبْعَثَهُمْ مِنْ قُبُورِهِمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ أَبَدًا ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَابْعَثُنَّ﴾ أَيُّ قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمْتُمْ، وَأَقْسَمُ بِرَبِّي لِتَخْرُجَ مِنْ قُبُورِكُمْ أَحْيَاءٌ وَلِتَبْعَنَّ ﴿ثُمَّ لَنُنَبِّئَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ أَيُّ ثُمَّ لَنُخَبِّرَنَّ بِجَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ، صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا، جَلِيلِهَا وَحَقِيرِهَا، وَنُجْزِيَنَّ بِهَا ﴿وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أَيُّ وَذَلِكَ الْبَعْثُ وَالْجَزَاءُ، سَهْلٌ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ، لِأَنَّ الْإِعَادَةَ أَسْهَلُ مِنَ الْإِبْتِدَاءِ قَالَ الرَّازِي: أَنْكَرُوا الْبَعْثَ بَعْدَ أَنْ صَارُوا تَرَابًا، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ إِعَادَتَهُمْ أَهْوَنُ فِي الْعُقُولِ مِنْ إِنْشَائِهِمْ^(٣).. وَلَمَّا بَالِغٌ فِي الْإِخْبَارِ عَنِ الْبَعْثِ، وَذَكَرَ أَحْوَالَ الْأُمَمِ الْمَكْذُوبَةِ، أَمَرَ بِالْإِعْتَصَامِ بِالْإِيمَانِ وَالتَّمَسُّكِ بِالْقُرْآنِ فَقَالَ ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ أَيُّ فَصَدَّقُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَبِهَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَإِنَّهُ النُّورُ الْوَضَاءُ، الْمُبَدَّدُ لِلشَّبَهَاتِ، كَمَا يَبْدُدُ النُّورُ الظُّلُمَاتِ ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أَيُّ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ أَيُّ وَاذْكُرُوا ذَلِكَ الْيَوْمَ الرَّهيبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي يَجْمَعُ اللَّهُ فِيهِ الْخَلَائِقَ كُلَّهَا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: سُمِّيَ «يَوْمَ الْجَمْعِ» لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَجْمَعُ فِيهِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسَمِعُهُم الدَّاعِيَ وَيَنْفِذُهُمُ الْبَصَرَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]^(٤) ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْغَابِئِ﴾ أَيُّ ذَلِكَ هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي يَظْهَرُ فِيهِ غِبْنُ الْكَافِرِ وَخَسَارَتُهُ بِتَرْكِهِ الْإِيمَانَ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ اشْتَرَوْا الْجَنَّةَ بِتَرْكِ الدُّنْيَا، وَاشْتَرَى الْكَافِرُ النَّارَ بِتَرْكِ الْآخِرَةِ، فَظَهَرَ غِبْنُ الْكَافِرِينَ قَالَ الْخَازَنُ: وَأَصْلُهُ مِنَ الْغَبْنِ وَهُوَ أَخَذَ الشَّيْءَ بَدُونِ قِيَمَتِهِ، وَالْمَغْبُونُ مَنْ غُبِنَ

(١) «تفسير الفخر الرازي» ٢٣/٣٠.

(٢) «تفسير الطبري» ٧٨/٢٨.

(٣) «تفسير الفخر الرازي» ٢٣/٣٠.

(٤) «تفسير مختصر ابن كثير» ٥٠٩/٣.

أهله ومنازله في الجنة، وذلك لأن كل كافر له أهل ومنزل في الجنة لو أسلم^(١)، فيظهر يومئذ غبن كل كافر بتزكته الإيمان، ويظهر غبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان^(٢) ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَعَمِلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ أي ومن يُصَدِّق بالله ويعمل عملاً صالحاً، يُمَحُّ الله تعالى عنه ذنوبه ﴿وَيُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي ويدخله جنات النعيم، التي تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهار الجنة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي مقيمين في تلك الجنات أبد الحياة، لا يموتون لا يخرجون منها ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي ذلك هو الفوز الذي لا فوز وراءه، والسعادة التي لا سعادة بعدها ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي والذين جحدوا بوحداية الله وقدرته، وكذبوا بالدلائل الدالة على البعث وبآيات القرآن الكريم ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي أولئك مآلهم جهنم، ما كثر فيها أبداً ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي وبئسست النار مرجعاً ومستقراً لأهل الكفر والضلال.. ثم أخبر تعالى بأن كل ما يحدث في الكون بقضائه وإرادته فقال ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي ما أصاب أحداً مصيبة في نفسه أو ماله أو ولده، إلا بقضاء الله وقدره ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ أي ومن يُصَدِّق بالله ويعلم أن كل حادثة بقضائه وقدره، يَهْدِ قلبه للصبر والرضا ويثبت على الإيمان قال ابن عباس: يَهْدِ قلبه لليقين، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، ما أخطأه لم يكن ليصيبه^(٣) وقال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى بها ويسلم لقضاء الله^(٤) ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي هو الله تعالى عالم بكل الأشياء، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء قال القرطبي: أي لا يخفى عليه تسليم من انقاد وسلّم لأمره، ولا كراهة من كرهه^(٥) ولم يرض بقضائه ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله في كل ما شرع لكم من الأوامر والنواهي، وكرّر الأمر للتأكيد ولبيان أن طاعة الرسول واجبة كطاعة الله ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ أي فإن أعرضتم عن إجابة الرسول فيما دعاكم إليه من الهداية والإيمان، فليس عليه ضرر إنما ضرر ذلك عليكم، إذ ليس على الرسول إلا تبليغ الرسالة وقد أدى ما عليه، والله ينتقم ممن عصاه وخالف أمره ﴿اللَّهُ لَا

(١) (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا لَهُ مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ فَإِذَا مَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ وَرَثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾». (رواه ابن ماجه، وصححه الألباني. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ الْجَنَّةَ إِلَّا أَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، لَوْ أَسَاءَ، لِيَزْدَادَ شُكْرًا، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ إِلَّا أَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، لَوْ أَحْسَنَ، لِيَكُونَ عَلَيْهِ حَسْرَةٌ» رواه البخاري.

(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ١٠٤. (ش): قَالَ: «لَوْ أَنَّ عَبْدًا خَرَّ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ يَوْمٍ وَلِدَ، إِلَى أَنْ يَمُوتَ هَرَمًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ، لَحَقَرَهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَلَوْ دَأَّ أَنْهُ رَدَّ إِلَى الدُّنْيَا كَيْمَا يَزْدَادَ مِنَ الْأَجْرِ وَالنَّوَابِ» (رواه أحمد، وصححه الألباني).

(٣) «تفسير الطبري» ٢٨/ ٨٠.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥١٠.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٨/ ١٤٠.

إِلَهُ إِلَّا هُوَ ﴿١﴾ أَيُّ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا لَا مَعْبُودَ سِوَاهُ ^(١)، وَلَا خَالِقَ غَيْرِهِ، عَلَيْهِ الْاعْتِمَادُ وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبَأُ ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلَيتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أَيُّ فَعْلِيهِ وَحْدَهُ تَوَكَّلُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ فِي جَمِيعِ أُمُورِكُمْ قَالَ الصَّاوِي: وَهُوَ تَحْرِيقُ وَحْتٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ عَلَى التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ، وَالِاتِّجَاءِ إِلَيْهِ، وَفِيهِ تَعْلِيمٌ لِلأُمَّةِ ذَلِكَ ^(٢)، بَأَن يَلْتَجِئُوا إِلَى اللَّهِ وَيَتَّقُوا بِنَصْرِهِ وَتَأْيِيدِهِ ﴿يَتَأَيَّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيَّاكَ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوَّالَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ أَيُّ يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ بَعْضُ الزَّوْجَاتِ وَالْأَوْلَادِ أَعْدَاءُ لَكُمْ، يَصُدُّونَكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَيَبْطُونَكُمْ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، فَاحْذَرُوا أَن تَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَتَطِيعُوهُمْ قَالَ الْمَفْسُورُونَ: إِنْ قَوْمًا أَسْلَمُوا وَأَرَادُوا الْهَجْرَةَ، فَتَبْطَهُمْ أَزْوَاجُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ عَنِ الْهَجْرَةِ، فَلَمْ يَهَاجِرُوا إِلَّا بَعْدَ مَدَّةٍ، فَلَمَّا أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَوْا النَّاسَ قَدْ فَفَقَهُوا فِي الدِّينِ، فَندَمُوا وَأَسْفَوْا وَهَمُّوا بِمَعَاقِبَةِ أَزْوَاجِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ ^(٣)، وَالْآيَةُ نَعَمْ كُلٌّ مِنْ انْشَغَلِ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ بِالْأَزْوَاجِ وَالْأَوْلَادِ ﴿وَإِنْ تَعَفَّوْا وَصَفَّحُوا وَتَعَفَّرُوا﴾ أَيُّ وَإِنْ عَفَوْتُمْ عَنْهُمْ فِي تَشْيِطِكُمْ عَنِ الْخَيْرِ، وَصَفَّحْتُمْ عَمَّا صَدَرَ مِنْهُمْ، وَغَفَرْتُمْ لَهُمْ زَلَاتِهِمْ ﴿فَإِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَيُّ فَإِنَّ اللَّهَ وَاسِعَ الْمَغْفِرَةِ عَظِيمِ الرَّحْمَةِ، يَعَامِلُكُمْ بِمِثْلِ مَا عَامَلْتُمْ ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أَيُّ لَيْسَتْ الْأَمْوَالُ وَالْأَوْلَادُ إِلَّا اخْتِبَارًا وَابْتِلَاءً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لَخَلْقِهِ، لِيَعْلَمَ مَنْ يَطِيعُهُ وَمَنْ يَعْصِيهِ، وَقَدَّمَ الْمَالَ لِأَن فِتْنَتَهُ أَشَدُّ ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أَيُّ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ أَعْظَمُ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا، فَلَا تَشْغَلْكُمْ الْأَمْوَالُ وَالْأَوْلَادُ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، وَالْآيَةُ تَرْغِيبٌ فِي الْآخِرَةِ وَتَرْهِيءٌ فِي الدُّنْيَا، وَفِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ الَّتِي فَتَنَ النَّاسُ بِهَا ﴿فَانْفِقُوا﴾ اللَّهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴿أَيُّ ابْذُلُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ جَهْدَكُمْ وَطَاقَتَكُمْ، وَلَا تَكْلِفُوا أَنْفُسَكُمْ مَا لَا تَطْبِقُونَ قَالَ الْمَفْسُورُونَ: هَذَا فِي الْمَأْمُورَاتِ وَفَضَائِلِ الْأَعْمَالِ يَأْتِي الْإِنْسَانُ مِنْهَا بِقَدْرِ طَاقَتِهِ، وَأَمَّا فِي الْمَحْظُورَاتِ فَلَا بَدَّ مِنْ اجْتِنَابِهَا بِالْكُلِّيَّةِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مَا رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ» ^(٤) ﴿وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ أَيُّ وَاسْمَعُوا مَا تَوْعَظُونَ بِهِ، وَأَطِيعُوا فِيمَا تُؤْمَرُونَ بِهِ وَتُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴿وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ﴾ أَيُّ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ أَمْوَالِكُمْ، يَكُنْ خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أَيُّ وَمَنْ سَلِمَ مِنَ الْبَخْلِ وَالطَّمَعِ الَّذِي تَدْعُو إِلَيْهِ النَّفْسُ، فَقَدْ فَازَ بِكُلِّ مَطْلُوبٍ ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أَيُّ إِذَا تَصَدَّقْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ، فَإِنَّ اللَّهَ يَضَاعِفُ لَكُمْ الْأَجْرَ وَالثَّوَابَ، وَفِي تَصْوِيرِ الصَّدَقَةِ بِصُورَةِ الْقَرْضِ تَلَطُّفٌ بَلِيغٌ فِي الْإِحْسَانِ إِلَى الْفُقَرَاءِ ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أَيُّ وَيَمْحُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ أَيُّ

(١) (ش): الصواب: لا معبود بحق سواه، لأن هناك معبودات بغير حق.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٢١٢/٤.

(٣) انظر سبب النزول المتقدم.

(٤) أخرجه الشيخان.

شاكراً للمحسن إحسانه، حليماً بالعباد حيث لا يُعاجِلُهُم بالعقوبة مع كثرة ذنوبهم ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي هو تعالى العالم بما غاب وحضر، لا تخفى عليه خافية ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي الغالب في ملكه الحكيم في صنعه.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الطباق في الاسم مثل ﴿فَنُكْرُكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾ وكذلك بين ﴿الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ والطاق في الفعل مثل ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُلْعِنُونَ﴾ وهو من المحسنات البديعية.
- ٢ - تقديم الجار والمجرور لإفادة الحصر ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ أي له وحده الملك والحمد.

٣ - الإستعارة اللطيفة ﴿وَالنُّورَ الَّذِي أُنْزِلْنَا﴾ أطلق على القرآن النور بطريق الاستعارة، فإن القرآن يزيل الشبهات، كما يزيل النور الظلمات.

٤ - المقابلة بين جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا...﴾ الآية وبين ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ الآية.

٥ - الجناس الناقص ﴿وَصُورَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ لاختلاف الحركات في الشكل.

٦ - جناس الاشتقاق ﴿أَصَابَ... مُصِيبَةً﴾ و ﴿يَجْمَعُكُمْ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾.

٧ - الإطناب بتكرار الفعل زيادة في التأكيد واعتناء بشأن الطاعة ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾.

٨ - صيغة المبالغة ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ لأن (فعل وفعل) من صيغ المبالغة.

٩ - الاستعارة التمثيلية ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفْ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ شبه الإنفاق في سبيل الله والتصدق على الفقراء، بمن يُقرض الله قرضاً واجب الوفاء وذلك بطريق التمثيل، وهو من لطيف الاستعارة وبديع العبارة.

١٠ - السجع المرصع لتوافق الفواصل مثل ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التغابن»



سُورَةُ الطَّلَاقِ

١٢

٦٥

مدنية وآياتها اثنتا عشرة

بين يدي السورة

* سورة الطلاق مدنية وقد تناولت بعض الأحكام التشريعية المتعلقة بأحوال الزوجين، كبيان أحكام الطلاق السني وكيفيته، وما يترتب على الطلاق من العدة، والنفقة، والسكنى، وأجر المرضع إلى غير ما هنالك من أحكام.

* وتناولت السورة الكريمة في البدء أحكام الطلاق - الطلاق السني، والطلاق البدعي - فأمرت المؤمنين بسلوك أفضل الطرق، عند تعذر استمرار الحياة الزوجية، ودعت إلى تطبيق الزوجة في الوقت المناسب وعلى الوجه المشروع، وهو أن يطلقها طاهرًا من غير جماع، ثم تركها إلى انقضاء عدتها.

* وفي هذا التوجيه الإلهي دعوة للرجال أن يتمهلوا ولا يسرعوا في فصل عرى الزوجية، فإن الطلاق أبغض الحلال إلى الله^(١)، ولولا الضرورات القسرية لما أبيع الطلاق لأنه هدم للأسرة.

* ودعت السورة إلى إحصاء العدة لضبط انتهائها، لئلا تختلط الأنساب، ولئلا يطول الأمد على المطلقة فيلحقها الضرر، ودعت إلى الوقوف عند حدود الله، وعدم عصيان أو امره. * وتناولت السورة أحكام العدة، فبينت عدة اليائس التي انقطع عنها دم الحيض لكبر أو مرض، وكذلك عدة الصغيرة، وعدة الحامل فبينته أوضح بيان مع التوجيه والإرشاد.

* وفي خلال تلك الأحكام التشريعية تكررت الدعوة إلى «تقوى الله» بالترغيب تارة، وبالترهيب أخرى، لئلا يقع حيف أو ظلم من أحد الزوجين، كما وضحت أحكام السكنى والنفقة.

* وختمت السورة بالتحذير من تعدي حدود الله، وضربت الأمثلة بالأمم الباغية التي عنت عن أمر الله، وما ذاق من الوبال والدمار، ثم أشارت إلى قدرة الله في خلق سبع سماوات طباق، وخلق الأرضين، وكلها براهين على وحدانية رب العالمين.

(١) (ش): حديث «أَبْغَضُ الْحَلَالِ إِلَى اللَّهِ الطَّلَاقُ» (رواه أبو داود، وابن ماجه، وضعفه الألباني). وَعَنْ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَابِيَهُ فَأَذْنَاهُمْ مِنْهُ مَنَزَلَةً أَعْظَمُهُمْ فَتَنَةً يَجِيءُ أَحَدَهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا. قَالَ: ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدَهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكَتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ قَالَ فَيَذْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ: نَعَمْ أَتَتْ. قَالَ الْأَعْمَشُ أَرَاهُ قَالَ «فَيَلْتَرِمُهُ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُعَدِّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ۝ (١) فَإِذَا بَلَغَنَّ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ كُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝ (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرَهُ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝ (٣) وَالَّتِي يَلْسَنُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۝ (٤) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ۝ (٥) أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارِزُوهُنَّ لِيُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتِمُّوا يَبْنَظَهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَسَدِّضْ لَهُنَّ أُخْرَى ۝ (٦) لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝ (٧) وَكَانَ مِنْ قَرَابَةٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَهَا عَذَابًا ثَقِيرًا ۝ (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبٌ أَمْرًا خُسْرًا ۝ (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَانْقَبُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝ (١٠) رَسُولًا يَنْتَلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ۝ (١١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِنَعْلَمَ أَنْ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ۝ (١٢)

اللغة: ﴿الْعِدَّة﴾ المدة التي تحتبس فيها المرأة لمعرفة براءة زوجها ﴿وَأَحْصُوا﴾ اضبطوا بطريق العدد ﴿حَسْبُهُ﴾ كافيه ﴿وُجِدْكُمْ﴾ طاقتكم ووسعكم ﴿أَرْتَبْتُمْ﴾ شككتهم ﴿وَكَانَ﴾ كثير ﴿عَنَّتْ﴾ تكبرت وتجبرت وأعرضت ﴿ثَقِيرًا﴾ منكرًا شنيعًا وفظيعًا ﴿خُسْرًا﴾ خسارًا وهلاكًا.

سبب النزول: أ- روى البخاري أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ - رضى الله عنهما - طَلَّقَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ، فَذَكَرَ عُمَرُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَغَيَّطَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «لِيُرْاجِعَهَا ثُمَّ يُمْسِكَهَا حَتَّى تَطْهَرُ، ثُمَّ تَحِيضُ فَتَطْهَرُ، فَإِنْ بَدَأَ لَهُ أَنْ يُطَلِّقَهَا فَلْيُطَلِّقَهَا طَاهِرًا قَبْلَ أَنْ يَمَسَّهَا فَبَلَكَ الْعِدَّةُ وَالتى أمر بها الله عز وجل»^(١).

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

ب- وروي عن أنس قال طلق رسول الله ﷺ حفصة فأتت أهلها فأنزل الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ فقيل له: راجعها فإنها صوامة قوامة، وهي من أزواجك ونسائك في الجنة^(١).

ج- وروي أنه لما نزل قوله تعالى ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرَیَصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] قال جماعة من الصحابة يا رسول الله: فما عدة من لا قرء لها من صغرة أو كبر فنزلت ﴿وَالَّتِي يَبْسُغْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ الآية^(٢).

التفسير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ والحكم عام له ولأمته، وخص هو بالنداء ﷺ تعظيماً له، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يا فلان افعلوا أي افعل أنت وقومك، فهو نداء على سبيل التكریم والتعظيم قال القرطبي: الخطاب للنبي ﷺ خوطب بلفظ الجماعة ﴿طَلَقْتُمُ﴾ تعظيماً وتفخيماً^(٣) والمعنى: يا أيها النبي يا أيها المؤمنون إذا أردتم تطليق النساء ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ أي فطلقوهن مستقبلات لعدتهن، وذلك في الطهر، ولا تطلقوهن في الحيض قال مجاهد: أي طاهراً من غير جماع لقوله ﷺ: «فَلْيُطْلَقْهَا طَاهِرًا قَبْلَ أَنْ يَمَسَّهَا فِتْلُكَ الْعِدَّةِ» والتي أمر بها الله عز وجل^(٤) قال المفسرون: وإنما نهي عن طلاق المرأة وقت الحيض لئلا تطول عليها العدة فتتضرر، ولأن حالة الحيض منفرة للزوج، تجعله يتسرع في طلاقها بخلاف ما إذا كانت طاهراً، وكونه لم يجامعها في ذلك الطهر، لئلا يحصل من ذلك الوطء حمل، فتنتقل العدة من الحيض لوضع الحمل وفي ذلك ضرر ظاهر^(٥) ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ أي اضبطوها وأكملوها ثلاثة أقرء كاملة لئلا تختلط الأنساب ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ أي خافوا الله رب العالمين، بامتنال أوامره واجتناب نواهيه ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ أي لا تخرجوهن من مساكنهم، بعد فراقكم لهن إلى أن تنقضي عدتهن ﴿وَلَا يَخْرُجَنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ أي ولا يخرجن من البيوت حتى تنقضي عدتهن، إلا إذا قارفت المطلقة عملاً قبيحاً كالزنى فتخرج لإقامة الحد عليها قال في التسهيل: نهى الله سبحانه وتعالى أن يخرج الرجل المرأة المطلقة من المسكن الذي طلقها فيه، ونهاها

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٥١٢/٣. (ش): ضعيف، رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره».

(٢) روح المعاني ١٣٧/٢٨. (ش): رُوِيَ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي عِدَّةٍ مِنْ عِدَّةِ النِّسَاءِ قَالُوا: قَدْ بَقِيَ عِدَّةٌ مِنَ النِّسَاءِ لَمْ يُذَكَّرْنَ الصَّغَارُ وَالْكِبَارُ، وَلَا مِنْ انْقِطَعَتْ عَنْهُنَّ الْحَيْضُ، وَذَوَاتُ الْأَحْمَالِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْآيَةَ الَّتِي فِي سُورَةِ النِّسَاءِ ﴿وَالَّتِي يَبْسُغْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَتْ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤] (ضعيف، رواه الحاكم والبيهقي).

(٣) «تفسير القرطبي» ١٨/١٤٨.

(٤) الحديث في الصحيحين وانظر سبب النزول المتقدم.

(٥) انظر حكمة التشريع في كتابنا «روائع البيان» ٦٠٤/٢.

هي أن تخرج باختيارها، فلا يجوز لها المبيت خارجاً عن بيتها، ولا أن تغيب عنه نهراً إلا لضرورة التصرف، وذلك لحفظ النسب وصيانة المرأة، واختلف في الفاحشة التي تبيح خروج المعتدة فقيل: إنها الزنى فتخرج لإقامة الحد عليها^(١)، وقيل: إنه سوء الكلام مع الأصهار^(٢) وبذاءة اللسان فتخرج ويسقط حقها من السكنى، ويؤيده قراءة «إِلَّا أَنْ يَفْحُشْنَ عَلَيْكُمْ»^(٣) ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي وهذه الأحكام هي شرائع الله ومحارمه ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أي ومن يخرج عن هذه الأحكام، ويتجاوزها إلى غيرها ولا ياتمر بها، فقد ظلم نفسه بتعريضها للعقاب، وأضرَّ بها حيث فوت على نفسه إمكان إرجاع زوجته إليه قال الرازي: وهذا تشديد فيمن يتعدى طلاق السنة، ومن يطلق لغير العدة ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ أي لا تعرف أيها السامع ماذا يُحْدِثُ الله بعد ذلك الطلاق من الأمر؟ فلعل الله يقلب قلبه من بُغْضِهَا إلى محبَّتها، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها، فيجعله راغباً في زوجته بعدما كان كارهاً لها قال ابن عباس: يريد الندم على طلاقها، والمحبة لرجعتها في العدة^(٤) ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ﴾ أي فإذا شَارَفْنَ على انقضاء العدة وقَارَبْنَ ذلك^(٥) ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي فارجعوهنَّ إلى عصمة النكاح مع الإحسان في صحبتهن كما أمر الله، أو اتركوهن حتى تنقضي عدتهن فيملكن أنفسهن قال المفسرون: الإمساك بالمعروف هو إحسان العشرة وتوفية النفقة^(٦)، من غير قصد المضارة في الرجعة لتطول عليها العدة، والفرار بالمعروف هو أداء الصَّدَاق، والمتعة عند الطلاق، والوفاء بالشروط مع توفية جميع حقوقها ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوْيَ عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ أي وأشهدوا عند الطلاق أو الرجعة، شخصين من أهل العدالة والاستقامة ممن تثقون في دينهما وأمانتهما قال في البحر: وهذا الإِشهاد مندوبٌ إليه

(١) تفسير الفاحشة بالزنى هو قول ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة، وروى عن ابن عباس أيضاً أنه البذاء باللسان على الأحماء وهو قول أبي بن كعب.

(٢) (ش): صهر: قريب بالزواج.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ١٢٦/٤. (ش): ليست بقراءة متواترة، ولم أجدها في كتب القراءات الشاذة، ك«المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها» لابن جني الموصلي.

(٤) قال ابن القيم: «إن الله تعالى لما كان يبغض الطلاق، لما فيه من انفصام عُرى الزوجية، وموافقة عدوه إبليس حيث يفرح بافتراق الزوجين، وكان مع ذلك يحتاج إليه الزوج أو الزوجة، شرعه على وجه تحصل به المصلحة، وتندفع به المفسدة وحرمة على غير ذلك الوجه، فشرع له أن يطلقها طاهراً من غير جماع، طلقاً واحدة، ثم يتركها حتى تنقضي عدتها، فإن زالت أسباب الخلاف وحصلت الموافقة كان له سبيل إلى إعادتها، وجعل العدة ثلاثة قروء ليطول زمن المهلة والاختيار، فهذا هو الذي شرعه وأذن فيه»! نقلاً عن «محاسن التأويل» ١٦/٥٨٣٢. (ش): راجع أول تعليق في السورة.

(٥) (ش): شَارَفَ الشيءَ: قَارَبَهُ، دَنَا مِنْهُ.

(٦) (ش): وَفَى الشَّخْصَ حَقَّهُ، تَوَفَّيَهُ: أَوْفَاهُ؛ أَعْطَاهُ إِثَاءً تَامًّا، أَتَمَّ مَا وَعَدَهُ بِهِ.

عند أبي حنيفة كقوله تعالى ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وعند الشافعية واجب في الرجعة، مندوب إليه في الفرقة ^(١) ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ أي اشهدوا بالحق دون تحيز لأحد، خالصاً لوجه الله تعالى من غير تبديل ولا تغيير، ودون مراعاة للمشهود له أو المشهود عليه ﴿ذَلِكَ كُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي هذا الذي شرعناه من الأحكام، إنما ينتفع ويتعظ به المؤمن الذي يخشى الله، ويخاف الحساب والعقاب في الدار الآخرة ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ ^(٢) ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴿أَيُّ وَمَنْ يَرِاقِبِ اللَّهَ يَقِفْ عِنْدَ حَدُودِهِ، يجعل له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ويرزقه من وجه لا يخطر بباله ولا يعلمه قال مجاهد: كنت عند ابن عباس فجاء رجل فقال: إنه طلق امرأته ثلاثاً، فسكت حتى ظننت أنه رادها إليه، ثم قال: ينطلق أحدكم فيركب أحموقه ^(٣) ثم يقول: يا ابن عباس، يا ابن عباس!! والله تعالى يقول ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ وإنك لم تتق الله فلا أجد لك مخرجاً، عصيت ربك وبانت منك امرأتك ^(٤) وقال المفسرون: الآية عامة وقد «نزلت في» عوف بن مالك الأشجعي «أسر المشركون ابنه، فأتى رسول الله ﷺ وشكا إليه الفاقة وقال: إن العدو أسر ابني وجزعت أمه فما تأمرني؟ فقال ﷺ له: «اتق الله واصبر، وأمرك وإياها أن تستكثروا من قول» لا حول ولا قوة إلا بالله «ففعّل هو وامرأته، فينا هو في بيته إذ قرع ابنه الباب، ومعه مائة من الإبل غفل عنها العدو فاستاقها» فنزلت ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ ^(٥) ويرزقه من حيث لا يحتسب ^(٦) ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أي ومن يعتمد على الله، ويثق به فيما أصابه ونابه ^(٧)، فإن الله كافيه قال الصاوي: أي من فوّض إليه أمره كفاه ما أهّمه، والأخذ بالأسباب لا يُنافي التوكل، لأنه مأمور به ولكن لا يعتمد على تلك الأسباب ^(٨)، وفي الحديث «لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ؛ تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا» ^(٩) ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ﴾ أي نافذ أمره في جميع خلقه، يبلغ ما يريد ولا يعجزه شيء قال في التسهيل: وهذا حصّ على التوكل وتأكيده، لأن العبد إذا خلقه، يبلغ ما يريد ولا يعجزه شيء قال في التسهيل: وهذا حصّ على التوكل وتأكيده، لأن العبد إذا تحقق أن الأمور كلها بيد الله، توكل على الله

(١) «البحر المحيط» ٢٨٢ / ٨.

(٢) (ش): الأحموقة: ما يصدر عن الشخص فيوصم بالحماقة.

(٣) عن محاسن التأويل ٥٨٣٨ / ١٦.

(٤) انظر «القرطبي» ١٨ / ١٦٠، و«الطبري» ٢٨ / ٩٠. (ش): ضعيف جداً، رواه الحاكم، والواحد في «أسباب النزول».

(٥) (ش): نابه أمر: أصابه، نزل به.

(٦) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٢١٥ / ٤.

(٧) أخرجه الترمذي. (ش): صححه الألباني. تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا: تغدو بكرة وهي جِياغ، وتروح عشاء وهي ممتلئة الأجواف.

وحده ولم يُعَوَّل على سواه^(١) ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي قد جعل الله لكل أمرٍ من الأمور، مقدارًا معلومًا ووقتًا محددًا، حسب الحكمة الأزلية قال القرطبي: أي جعل لكل شيءٍ من الشدة والرخاء أجلًا ينتهي إليه^(٢).. ثم بيّن سبحانه حكم المطلقة التي لا تحيض لصغرها أو لكبر سنّها فقال ﴿وَالَّتِي يَبْسُنُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ﴾ أي والنسوة اللواتي انقطع حيضهن لكبر سنهنّ، إن شككتن وجعلتم كيف عدتهن؟ فهذا حكمهن ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ أي فعدة الواحدة منهن ثلاثة أشهر، كل شهرٍ يقوم مقام حيضة ﴿وَالَّتِي لَمْ يَحِضْ﴾ أي وكذلك اللواتي لم يحضن لصغرهن عدتهن ثلاثة أشهر ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أي والمرأة الحامل تنتهي عدتها بوضع الحمل، سواء كانت مطلقة، أو متوفى عنها زوجها ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ أي ومن يخش الله في أقواله وأفعاله، ويجتنب ما حرم الله عليه، يسهل عليه أمره ويوفقه لكل خير ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ أي ذلك هو حكم الله وشرعه الحكيم، أنزله عليكم أيها المؤمنون لتأتمروا به، وتعملوا بمقتضاه ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ أي ومن يتق ربّه يَمْحُ عنه ذنوبه، ويضاعف له الأجر والثواب قال الصاوي: كرر التقوى لعلمه سبحانه وتعالى أن النساء ناقصات عقل ودين، فلا يصبر على أمورهن إلا أهل التقوى^(٣) وقال في البحر: لمّا كان الكلام في أمر المطلقات، وكنّ لا يُطْلَقْنَ إلا عن بُغْضِ أزواجهنّ لهنّ، وقد ينسب الزوج إليها ما يشينها وينفر الخطّاب عنها، فلذلك تكرر الأمر بالتقوى، وجاء مُبَرَّرًا^(٤) في صورة شرط وجزاء ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ﴾^(٥) الآية ﴿أَسْكُنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ﴾ أي أسكنوا هؤلاء المطلقات في بعض مساكنكم التي تسكنونها، على قدر طاقتكم ومقدرتكم، فإن كان موسرًا وسّع عليها في المسكن والنفقة، وإن كان فقيرًا فعلى قدر الطاقة ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِضَيِّقَاتِهِنَّ﴾ أي ولا تضيقوا عليهن في السكنى والنفقة، حتى تضطروهن إلى الخروج أو الافتداء ﴿وَلِنْ كُنَّ أُولَئِكَ حَمَلًا﴾ أي وإن كانت المطلقة حاملًا ﴿فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أي فعلى الزوج أن ينفق عليها ولو طالت مدة الحمل حتى تضع حملها ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أي فإذا ولدت ورضيت أن ترضع له ولده ﴿فَاتَّوُّهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أي فعلى الرجل أن يدفع لها أجر الرضاعة، لأن الأولاد ينسبون إلى الآباء قال في التسهيل: والمعنى: إن أَرْضَعْنَ هؤلاء الزوجات المطلقات أولادكم، فاتوهُنَّ أَجْرَةَ الرضاع وهي النفقة

(١) «التسهيل» ١٢٨/٤.

(٢) «القرطبي» ١٦٨/١٨.

(٣) «حاشية الصاوي» ٢١٧/٤.

(٤) (ش): مُبَرَّرًا: مُمَيَّرًا ظاهرًا.

(٥) «البحر المحيط» ٢٨٤/٨.

وسائر المؤمن^(١) ﴿وَأَنذَرُوا بَيْنَكُمْ مَعْرُوفٍ﴾ أي وليأمر كل منهما صاحبه بالخير، من المسامحة والرفق والإحسان، قال القرطبي: أي وليقبل بعضكم من بعض ما أمره به من المعروف الجميل، والمعروف منها: إرضاع الولد من غير أجر، والمعروف منه: توفير الأجرة عليها للإرضاع^(٢) ﴿وَأَن تَعَاوَنُوا﴾ أي تضايقتم وتشددتم، وعسر الاتفاق بين الزوجين، فأبى الزوج أن يدفع لها ما تطلب، وأبت الزوجة أن ترضعه بأنقص من ذلك الأجر ﴿فَسَرَّضْ لَهُ أُخْرَى﴾ أي فليستأجر لولده مرضعة غيرها وهو خبر بمعنى الأمر أي فليسترضع لولده مرضعة أخرى قال أبو حيان: وفيه عتابٌ للأم لطيف كما تقول لمن تطلب منه حاجة فيتوانى عنها: سيقضيها غيرك، تريد أنها لن تبقى غير مقضية وأنت ملوم^(٣) قال الضحاك: إن أبت الأم أن ترضع استأجر لولده أخرى، فإن لم يقبل أجبرت أمه على الرضاع بالأجر^(٤) ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ هذا بيانٌ لقدر الإنفاق. والمعنى: لينفق الزوج على زوجته وعلى ولده الصغير، على قدر وسعه وطاقته، قال في التسهيل: وهو أمرٌ بأن ينفق كل واحد على مقدار حاله، فلا يكلف الزوج ما لا يطيق، ولا تُضَيِّع الزوجة بل يكون الحال معتدلاً، وفي الآية دليلٌ على أن النفقة تختلف باختلاف أحوال الناس يسراً وعسراً^(٥) ﴿وَمَن قُدِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ أي ومن ضيق عليه رزقه فكان دون الكفاية ﴿فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ أي فلينفق على مقدار طاقته، وعلى قدر ما آتاه الله من المال ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتَاهَا﴾ أي لا يكلف الله أحداً إلا قدر طاقته واستطاعته، فلا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغني قال أبو السعود: وفيه تطييبٌ لقلب المعسر، وترغيبٌ له في بذل مجهوده^(٦)، وقد أكد ذلك الوعد بقوله ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ أي سيجعل الله بعد الضيق الغنى، وبعد الشدة السعة والرخاء، وفيه بشارة للفقراء بفتح أبواب الرزق عليهم. ثم حذر تعالى من عصيانه وتعدي حدوده، وضرب الأمثال بالأمم السابقة فقال ﴿وَكُلِّين مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي وكثير من أهل قرية من الأمم السالفة ﴿عَنَّتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ أي طغت وتمردت على أوامر الله وأوامر رسله ﴿فَحَاسَبْنَهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ أي فجازينها على عصيانها وطغيانها بأنواع العذاب الأليم، من الجوع والقحط وعذاب الاستئصال ﴿وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا ثَكْرًا﴾ أي عذاباً منكراً عظيماً يفوق التصور ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي فذاقت عاقبة كفرها وطغيانها وتمردها على أوامر الله ﴿وَكَانَ عِقَبُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ أي وكانت نتيجة بعثها الهلاك والدمار،

(١) «التسهيل» ١٢٩/٤.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٦٩/١٨.

(٣) «تفسير البحر المحيط» ٢٨٥/٨.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٦٩/١٨.

(٥) «التسهيل لعلوم التنزيل» ١٢٩/٤.

(٦) «تفسير أبي السعود» ١٧٢/٥.

والخسران الذي ما بعده خسران.. ولما ذكر ما حلَّ بالأمم الطاغية، أمر المؤمنين بتقوى الله، تحذيراً من عقابه لئلا يصيبهم ما أصاب أولئك المجرمين فقال ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي هيباً الله لهم في الآخرة عذاب جهنم الشديد المؤبد ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي فخافوا الله واحذروا بطشه وانتقامه يا أصحاب العقول السليمة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي أنتم يا معشر المؤمنين الذين صدقتم بالله ورسوله ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ أي قد أنزل الله إليكم وحياً يتلى وهو القرآن الحكيم^(١) ﴿رَسُولًا يَنْتَلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ أي وأرسل إليكم رسولاً وهو محمد ﷺ يقرأ عليكم آيات الله، واضحات جليات، تبين الحلال والحرام وما تحتاجون إليه من الأحكام قال في البحر: والظاهر أن الذكر هو القرآن، وأن الرسول هو محمد ﷺ^(٢) ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي ليخرج المؤمنين المتقين، من الضلالة إلى الهدى، ومن ظلمة الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾ أي ومن يصدق بالله ويعمل بطاعته ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي يدخله في الآخرة جنات النعيم، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي ماكثين في تلك الجنات -جنات الخلد- أبداً لا يخرجون منها ولا يموتون ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ أي قد طيب الله رزقهم في الجنة وسَّعه لهم، لأن نعيمها دائم لا ينقطع قال الطبري: أي وسَّع لهم في الجنات الرزق، وهو ما رزقهم من المطاعم والمشارب وسائر ما أعدَّ لأولياته فيها فطيَّبه لهم^(٣)، وفي الآية معنى التعجب والتعظيم لما رزق الله المؤمن من الثواب.

ثم أشار تعالى إلى آثار قدرته، وعظيم سلطانه وجلاله فقال ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي الله العظيم الكبير هو الذي خلق بقدرته سبع سموات طباقاً، ومن الأرض كذلك خلق سبع أرضين بعضها فوق بعض بدون فتوق بخلاف السموات^(٤) ﴿يَنْزِلُ الْأَمْرُ بِبَيْنِهِنَّ﴾ أي ينزل وحى الله ويجري أمره وقضاؤه بين السموات والأرضين ﴿لِنَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لتعلموا أن من قدر على خلق ذلك قادر على كل شيء ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ

(١) اختار بعض المفسرين أن المراد بالذكر هو الرسول ﷺ بدليل أنه أبذل منه قوله ﴿رَسُولًا يَنْتَلُو﴾ وإليه ذهب الطبري، و«أبو السعود»، وما ذكرناه هو أرجح الأقوال أن المراد بالذكر «القرآن» وبالرسول محمد ﷺ وهو منصوب بفعل محذوف تقديره: وأرسل رسولاً، وهو اختيار ابن عطية وصاحب «البحر المحيط».

(٢) «البحر المحيط» ٢٨٦/٨.

(٣) «تفسير الطبري» ٩٨/٢٨.

(٤) لا خلاف بين العلماء أن السماوات سبع، وأما الأرض فاختلف فيها فقليل: إنها سبع أرضين لظاهر الآية وللحديث الصحيح: «مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الْأَرْضِ طَوَّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ» وقيل: إنها أرض واحدة وإن المماثلة ليست في العدد وإنما هي في الخلق والإبداع أي مثلهن في الإبداع والإحكام، والأول أظهر والله أعلم. (ش): القول الأول هو الصحيح، والقول الثاني يخالف الحديث الصحيح وظاهر الآية. والحديث رواه البخاري ومسلم.

شَيْءٍ عِلْمًا ﴿ أَيُّ وَلْتَعْلَمُوا أَنَّهُ تَعَالَى عَالَمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ .

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الطباق ﴿ فَأَمْسِكُوهُمْ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴾ وكذلك ﴿ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ .
- ٢ - الإظهار في موضع الإضمار للتهويل ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ ﴾ .
- ٣ - الالتفات لمزيد الاهتمام ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ ورد بطريق الخطاب والأصل أن يكون بطريق الغائب «لا يدري» .
- ٤ - إيجاز الحذف ﴿ وَالَّتِي يَبْسُتْنَ مِنَ الْمَحِيضِ ﴾ حذف منه الخبر، أي: فعدتهن ثلاثة أشهر أيضاً .

٥ - تكرار الوعيد للتفظيع والترهيب ﴿ فَحَاسِبْنَهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَهَا عَذَابًا ثَقِيلًا ﴾ ٨ فذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرَهَا ﴾ الآية .

٦ - المجاز المرسل ﴿ وَكَأَنَّهُ مِّنْ قَرْيَةٍ ﴾ يراد بها أهل القرية من باب تسمية الحال باسم المحل .

٧ - الاستعارة اللطيفة ﴿ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ استعار الظلمات للضلال والكفر، واستعار النور للهدى والإيمان، وهو من روائع البيان، وجلال تعبير القرآن .

٨ - السجع المرصع كأنه الدر والياقوت مثل ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا .. يَجْعَلُ لَهُ مِنْ أَمْرِهُ يُسْرًا . وَيُعْظِمُ لَهُ أَجْرًا . وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا خُسْرًا ﴾ إلخ وهو من المحسنات البديعية .

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الطلاق»



سُورَةُ التَّحْرِيمِ

٦٦

١٢

مدنية وآياتها اثنتا عشرة

بين يدي السورة

* سورة التحريم من السور المدنية التي تتناول الشؤون التشريعية، وهي هنا تعالج قضايا وأحكامًا تتعلق «ببيت النبوة» وبأمهات المؤمنين أزواج رسول الله ﷺ الطاهرات، وذلك في إطار تهئية البيت المسلم، والنموذج الأكمل للأسرة السعيدة.

* تناولت السورة الكريمة في البدء الحديث عن تحريم الرسول ﷺ لجاريته ومملوكته «مارية القبطية» على نفسه، وامتناعه عن معاشرتها إرضاء لرغبة بعض زوجاته الطاهرات^(١)، وجاء العتاب له لطيفاً رقيقاً، يشف عن عناية الله بعبده ورسوله محمد ﷺ أن يضيق على نفسه ما وسعه الله له ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ الآية.

* ثم تناولت السورة أمراً على جانب كبير من الخطورة ألا وهو «إفشاء السر» الذي يكون بين الزوجين، والذي يهدد الحياة الزوجية، وضرب المثل على ذلك برسول الله ﷺ حين أسر إلى حفصة بسر واستكتمها إياه، فأفشته إلى عائشة حتى شاع الأمر وذاع، مما أغضب الرسول حتى هم بتطليق أزواجه ﴿وَإِذْ أَسْرَأْتُ لَنُفْيَ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ الآية.

* وحملت السورة الكريمة حملة شديدة عنيفة، على أزواج النبي ﷺ حين حدث ما حدث بينهن من التنافس، وغيره بعضهن من بعض لأمر يسيرة وتوعدتهن بإبدال الله لرسوله عليه السلام بنساء خير منهن، انتصاراً لرسول الله ﷺ ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنَاطَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ الآية.

* وختمت السورة بضرب مثلين: مثلاً للزوجة الكافرة في عصمة الرجل الصالح المؤمن، ومثلاً للزوجة المؤمنة في عصمة الرجل الفاجر الكافر، تنبيهاً للعباد على أنه لا يغني في الآخرة أحد عن أحد، ولا ينفع حسب ولا نسب، إذا لم يكن عمل الإنسان صالحاً ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ - أي كفرتا بالله ولم تؤمنا - ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ﴾^(١٠) وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ... ﴿الآيات. وهو ختم رائع يتناسق مع جو السورة وهدفها في ترسيخ دعائم الفضيلة والإيمان.

(١) (ش): عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِحَفْصَةَ: «لَا تُحَدِّثِي أَحَدًا وَإِنَّ أُمَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيَّ حَرَامٌ». فَقَالَتْ: «أَتَحَرَّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ؟». قَالَ: «فَوَاللَّهِ لَا أَقْرُبُهَا». فَلَمْ يَقْرُبْهَا نَفْسَهَا حَتَّى أَخْبَرَتْ عَائِشَةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ رواه الضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» بإسناد صحيحه ابن كثير، ورواه الحاكم والنسائي دون تسمية الأمة، وصححه ابن كثير وابن حجر. وأُمُّ إِبْرَاهِيمَ هي مارية القبطية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْلَغِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ، وَأَعْرِضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ، قَالَتْ مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِنْ نَوَّيْنَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَتَذَكَّرْنَ عِدَاتٍ سَبَّحْتَ ثِيَابًا وَآبِكَارًا ﴿٥﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَوْا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْبُدُوا إِلَوهَ إِلَّا مَا تَجْزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُؤْبَوْنَ إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ، نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاسِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا وَقَاتٌ مِنَ الْقَانِنِينَ

اللغة: ﴿تَحِلَّةٌ﴾ تحليل اليمين بالكفارة ﴿صَغَتْ﴾ مالت عن الحق وزاغت، وأصغى الإساءة أماله ﴿قَانِتَاتٍ﴾ مطيعات من القنوت وهو ملازمة الطاعة مع الخضوع ﴿نَصُوحًا﴾ خالصة صادقة، والتوبة النصوح هي التي لا عودة بعدها إلى الذنب، سميت نصوحًا لما فيها من الصدق والإخلاص يقال: هذا غسل ناصح إذا خلص من الشمع^(١) ﴿غِلَاطٌ﴾ من الغلظة وهي الشدة ﴿أَحْصَنَتْ﴾ عَفَّتْ وصانت نفسها عن مقارفة الفاحشة.

سَبَبُ النُّزُول: أ- روي «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْسِمُ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ حَفْصَةَ اسْتَأْذَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي زِيَارَةِ أَبَوَيْهَا فَأَذَّنَ لَهَا، فَلَمَّا خَرَجَتْ أُرْسِلَ إِلَى جَارِيَتِهِ «مَارِيَةَ الْقُبْطِيَّةَ» فَعَاشَرَهَا فِي بَيْتِ حَفْصَةَ، فَرَجَعَتْ فَوَجَدَتْهَا فِي بَيْتِهَا، فَغَارَتْ غَيْرَةً شَدِيدَةً، وَقَالَتْ: أَدْخَلْتَهَا بَيْتِي فِي غِيَابِي وَعَاشَرْتُهَا عَلَى فِرَاشِي؟ (مَا أَرَاكَ فَعَلْتَ هَذَا إِلَّا لَهَوَانِي عَلَيْكَ) فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

مسترضياً لها: «إني حرمتها علي ولا تخبري بذلك أحداً»، فلما خرج من عندها قرعت حفصة الجدار الذي بينها وبين عائشة وكانتا متصافيتين وأخبرتها بسر النبي ﷺ فغضب رسول الله وحلف ألا يدخل على نسائه شهراً واعتزلهن» فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ..﴾ الآية^(١).

ب- وروي «أن رسول الله ﷺ كان يدخل على زوجته «زينب» رضي الله عنها فيشرب عندها عسلاً، فاتفقت عائشة وحفصة على أن تقول له كل واحد إذا دنا منها: أكلت معافير - وهو طعام حلو كريبه الريح - فلما مرَّ على حفصة قالت له ذلك، ثم دخل على عائشة فقالت له مثل ذلك وكان ﷺ يكره أن توجد منه رائحة كريهة فقال عليه السلام: «لَا بَلْ شَرِبْتُ عَسلاً عِنْدَ زَيْنَبَ ابْنَةِ جَحْشٍ وَلَنْ أَعُودَ لَهُ» فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ..﴾ الآية^(٢).

التفسير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ الخطاب بلفظ النبوة مشعرٌ بالتوقير والتعظيم،

(١) انظر «تفسير الطبري» ١٨ / ١٠١، وحاشية الصاوي ٤ / ٢١٩. (ش): ضعيف جداً، رواه الطبري في «تفسيره». وعن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِحَفْصَةَ: «لَا تُحَدِّثِي أَحَدًا وَإِنَّ أُمَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيَّ حَرَامٌ». فَقَالَتْ: «أَتَحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ؟». قَالَ: «فَوَاللَّهِ لَا أَقْرُبُهَا». قَالَ: فَلَمْ يَقْرُبَهَا نَفْسَهَا حَتَّى أَخْبَرَتْ عَائِشَةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ (رواه الضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» بإسناد صحيحه ابن كثير، ورواه الحاكم والنسائي دون تسمية الأمة، وصححه ابن كثير وابن حجر. وأُمُّ إِبْرَاهِيمَ هي مارية القبطية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا).

(٢) الرواية الأولى عند المفسرين أشهر في سبب النزول، وهي أن الرسول ﷺ حرَّم عليه «مارية القبطية» وقد أخرجها الدارقطني عن ابن عباس، والرواية الثانية ذُكرت في «الصحيحين» بأوسع من هذا وهي أصبح إسناداً من الأولى، ولكن لكونها سبباً للنزول مستبعد، والذي يرجح الرواية الأولى أمور: أن مثل تحريم بعض النساء مما يبتغي به مرضاة بعض الزوجات لا شرب العسل أو عدمه، ثانياً: أن الاهتمام بإنزال سورة فيها الوعيد والتهديد لأزواج رسول الله ﷺ بالطلاق واستبدالهن بنساء خير منهم، وأن الله وملائكته وصالح المؤمنين عونٌ لرسول الله ﷺ، يدل على وجود تنافس بينهن وغيره بعضهن من بعض، مما أدى إلى إيذاء رسول الله ﷺ فعلاً حتى حرَّم بعض جواريه إرضاءً لهن، واستكنتم البعض منهن الأمر فأفشين السر. وهذا يرجح ما ذكرناه وقد قال العلامة ابن كثير: وكون قضية شرب العسل سبباً للنزول فيه نظر والله أعلم. (ش): الحديث رواه البخاري ومسلم. وقال الحافظ في الفتح ١٠ / ٢٨٣: «يحتمل أن تكون الآية نزلت في السبيين معاً» ا. هـ. أي بسبب تحريمه العسل وتحريمه جاريته. وقال الشوكاني في تفسيره (٥ / ٢٥٢): «فهذا سببان صحيحان لنزول الآية، والجمع ممكن بوقوع القصتين: قصة العسل وقصة مارية، وأن القرآن نزل فيهما جميعاً وفي كل واحد منهما أنه أسر الحديث إلى بعض أزواجه». أما قول المؤلف: «وقد قال العلامة ابن كثير: وكون قضية شرب العسل سبباً للنزول فيه نظر والله أعلم». فلم أجده بهذا اللفظ، بل قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» بعد أن ذكر رواية ضعيفة في سبب النزول (٨ / ١٦٠): «وَالصَّحِيحُ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي تَحْرِيمِهِ الْعَسَلِ». ثم قال بعد أن ذكر روايات البخاري ومسلم في تحريمه ﷺ العسل وأن في بعضها أَنَّ حَفْصَةَ هِيَ السَّاقِيَةُ لِلْعَسَلِ، وفي أخرى أَنَّ زَيْنَبَ بِنْتُ جَحْشٍ هِيَ الَّتِي سَقَتْ الْعَسَلِ، وَأَنَّ عَائِشَةَ وَحَفْصَةَ نَوَاطِئًا وَنَظَاهَرَتَا عَلَيْهِ (٨ / ١٦٢) قال: «فَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّهُمَا وَاقِعَتَانِ، وَلَا بَعْدَ فِي ذَلِكَ، إِلَّا أَنَّ كَوْنَهُمَا سَبَبًا لِنَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ فِيهِ نَظَرٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ». فالذي يبدو أن الحافظ ابن كثير يستبعد أن تكون الواقعتان في تحريمه ﷺ للعسل - الواقعتان معاً - سبباً لنزول الآية، فقد قال: إنَّ الصَّحِيحَ أَنَّ سَبَبَ النِّزُولِ كَانَ فِي تَحْرِيمِهِ ﷺ الْعَسَلِ.

والتنويه بمقامه الرفيع الشريف، فلم يخاطبه باسمه العلم كما خاطب سائر الرسل بقوله «يا إبراهيم، يا نوح، يا عيسى بن مريم» وإنما خاطبه بلفظ النبوة أو الرسالة، وذلك أعظم دليل وبرهان على أنه صلوات الله عليه أفضل الأنبياء والمرسلين ومعنى الآية: يا أيها الموحى إليه من السماء، المُنَبَّأ بواسطة الأمين جبريل عليه السلام، لما تمنع نفسك ما أحل الله لك من النساء؟! قال المفسرون: إن رسول الله ﷺ خلا بأم ولده «مارية» في بيت حفصة وعلمت بذلك فقال لها: اكنمي عليّ، وقد حرمت مارية على نفسي؛ فنزلت الآية ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ لِمَ تَحَرَّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾^(١) وفي افتتاح العتاب من حسن التلطف ما لا يخفى، فقد عاتبه على إتيان نفسه والتضييق عليها من أجل مرضاة أزواجه، كأنه يقول: لا تتعب نفسك في سبيل أزواجك، وأزواجك يسعين في مرضاتك، فأرح نفسك من هذا العناء ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾؟ أي تطلب رضا أزواجك بتحريم ما أحل الله لك؟ قال في التسهيل: يعني تحريمه للجارية ابتغاء رضا حفصة، وهذا يدل على أنها نزلت في تحريم الجارية، وأما تحريم العسل فلم يقصد فيه رضا أزواجه وإنما تركه لرائحته^(٢) ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي والله واسع المغفرة، عظيم الرحمة، حيث سامحك في امتناعك عن مارية، وإنما عاتبك رحمة بك، وفي هذه إشارة إلى أن عتابه في ذلك إنما كان كرامة له، وإنما وقع العتاب لتضييقه - عليه السلام - على نفسه، وامتناعه مما كان له فيه أنس ومتعة، وبئس ما قاله الزمخشري في أن هذا كان منه ﷺ زلة لأنه حرم ما أحل الله له.. إلخ. فإن هذا القول قلة أدب مع مقام النبوة، وجهل بصفات المعصوم، فلم يكن منه صلوات الله عليه تحريم للحلال كما زعم حتى تعتبر مخالفة ومعصية، وإنما امتنع عن بعض إمائه تطييباً لخاطر بعض أزواجه، فعاتبه الله تعالى عليه رفقا به، وتنويهاً بقدره، وإجلالاً لمنصبه عليه السلام أن يراعي مرضاة أزواجه بما يشق عليه، جرياً على ما ألف من لطف الله تعالى به^(٣) ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ أي قد شرع الله لكم يا معشر المؤمنين ما تتحللون به من أيمانكم وذلك بالكفارة ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ أي والله وليكم وناصركم ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أي وهو العليم بخلقه الحكيم في صنعه، فلا يأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

ثم شرع تعالى في بيان القصة التي حدثت لرسول الله ﷺ مع بعض زوجته فقال ﴿وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ أي واذكر حين أسر النبي محمد ﷺ إلى زوجاته حفصة خبراً واستكتمها إياه قال ابن عباس: هو ما أسر إلى حفصة من تحريم الجارية على نفسه، كما

(١) انظر سبب النزول المتقدم ففيه توضيح للقصة.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤ / ١٣٠.

(٣) شنّ صاحب «الإنصاف على الكشاف» الغارة على الزمخشري وشنع عليه وهو مُحِقٌّ في ذلك، لأن من نظر إلى لطف العتاب عرف حقيقة الأمر والصواب.

أخبرها بأن الخلافة بعده تكون في أبي بكر وعمر^(١)، وطلب منها ألا تخبر بذلك أحداً ﴿فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ﴾ أي فلما أخبرت بذلك السر عائشة وأفشته لها ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي وأطلع الله نبيه بواسطة جبريل الأمين على إفشائها للسر ﴿عَرَفَ بَعْضُهُ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ أي أعلمها وأخبرها رسول الله ﷺ ببعض الحديث الذي أفشته معاتباً لها، ولم يخبرها بجميع ما حصل منها حياءً منه وكرماً، فإن من عادة الفضلاء التغافل عن الزلات، والتقصير في اللوم والعتاب قال الحسن: «ما استقصى كريماً قط»، وقال سفيان: «ما زال التغافل من شيم الكرام»^(٢) قال الخازن: المعنى: أن النبي ﷺ أخبر حفصة ببعض ما أخبرت به عائشة وهو تحريم مارية على نفسه، وأعرض عن ذكر الخلافة لأنه ﷺ كره أن ينتشر ذلك في الناس^(٣) ﴿فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ﴾ أي فلما أخبر الرسول حفصة بأنها قد أفشيت سره ﴿قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا﴾ أي قالت: من أخبرك يا رسول الله بأني أفشيتُ سرّك؟ قال أبو حيان: ظنت حفصة أن عائشة فضحتّها وكانت قد استكتمتها فقالت: من أنبأك هذا على سبيل التثبيت، فأخبرها أن الله جل وعلا هو الذي نبأه به فسكتت وسلّمت^(٤) ﴿قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَيْرُ﴾ أي فقال عليه السلام: أخبرني بذلك ربُّ العزة، العليم بسرائر العباد، الخير الذي لا تخفى عليه خافية ﴿إِنْ تُؤْبَأُ إِلَى اللَّهِ﴾ الخطاب لحفصة وعائشة، خاطبهما بطريق الالتفات ليكون أبلغ من معاتبتهما وحملهما على التوبة مما بدر منهما من الإيذاء لسيد الأنبياء، وجوابه محذوف تقديره أي إن تبتما كان خيراً لكمما من التعاون على النبي ﷺ بالإيذاء ﴿فَقَدْ صَعَتِ قُلُوبُكُمَا﴾ أي فقد زاعغت ومالت قلوبكما عما يجب عليكما من الإخلاص لرسول الله، بحُبِّ ما يُحِبُّه، وكرهه ما يكرهه^(٥) ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ أي وإن تتعاوننا على النبي ﷺ بما يسوءه، من الوقعة بينه وبين سائر نساءه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾ أي فإن الله تعالى هو وليه وناصره، فلا يضره ذلك التظاهر منكما ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وجبريل كذلك وليه وناصره، والصالحون من المؤمنين قال ابن عباس: أراد بصالح المؤمنين أبا بكر وعمر فقد كانا عوناً له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عليهما قال في التسهيل: معنى الآية: إن تعاونتما عليه ﷺ بما يسوءه من إفراط الغيرة، وإفشاء سره ونحو ذلك، فإن له من ينصره ويتولاه، وقد ورد في الصحيح أنه لما وقع ذلك جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال:

(١) قال الرازي: لما رأى النبي ﷺ الغيرة في وجه حفصة أراد أن يرضاهما، فأسر إليها بشيئين: تحريم الأمة على نفسه، والبيشارة بأن الخلافة بعده في أبي بكر وعمر. اهـ. «التفسير الكبير» ٣٠/٤٣.

(ش): ضعيف جداً، رواه الطبراني وغيره.

(٢) «روح المعاني» ٢٨/١٥٠. (ش): شيمة: خلق، طبيعة، غريزة، خصلة. والجمع شيمات وشيم.

(٣) «تفسير الخازن» ٤/١١٧.

(٤) «البحر المحيط» ٨/٢٩٠.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/١٧٤.

يا رسول الله: ما يشق عليك من شأن النساء؟ فإن كنت طلقتهنَّ فإنَّ الله معك وملائكته وجبريل، وأبو بكر وعمر معك فنزلت الآية موافقة لقول عمر^(١) ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ أي والملائكة الأبرار بعد حضرة الله، وجبريل، وصالح المؤمنين أعوان لرسول الله ﷺ على من عاداه، فمأذا يُفيد تظاهر امرأتين على من هؤلاء أعوانه وأنصاره؟! أفرد ﴿وَجِبْرِيلُ﴾ بالذكر تعظيماً له، وإظهاراً لمكانته عند الله تعالى فيكون قد ذكر مرتين: مرةً بالإنفراد، ومرةً في العموم، ووسط ﴿وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بين جبريل والملائكة تشريعاً لهم، واعتناءً بهم، وإشادةً بفضل الصلاح، وختم الآية بذكر ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أعظم المخلوقات وجعلهم ظهراً للنبي عليه السلام ليكون أفخم بالنبي صلوات الله عليه، وعظم مكانته، والانتصار له، إذ هم بمثابة جيش جرار، يملأ القفار، نصرةً للنبي المختار، فمن ذا الذي يستطيع أن يناوئ الرسول ﷺ بعد ذلك؟^(٢) ثم خوف تعالى نساء النبي بقوله ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ﴾ قال المفسرون: ﴿عَسَى﴾ من الله واجبٌ أي حقٌ واجب على الله إن طلقنَّ رسولَه ﴿أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ﴾ أي أن يعطيه عليه السلام بدلكنَّ زوجاتٍ صالحاتٍ خيراً وأفضل منكنَّ قال القرطبي: هذا وعدٌ من الله تعالى لرسوله لو طلقهن في الدنيا أن يزوجه نساءً خيراً منهن، والله عالم بأنه لا يطلقهن، ولكن أخبر عن قدرته، على أن رسوله لو طلقهن، لأبدله خيراً منهن، تخويفاً لهن^(٣). ثم وصف تعالى هؤلاء الزوجات اللواتي سيبدلهنَّ فقال ﴿مُسْلِمَاتٍ﴾ أي خاضعات مستسلماتٍ لأمر الله تعالى وأمر رسوله ﴿مُؤْمِنَاتٍ﴾ أي مُصَدِّقَاتٍ بالله وبرسوله^(٤) ﴿قَانِتَاتٍ﴾ أي مطيعاتٍ لما يؤمرن به، مواظباتٍ على الطاعة ﴿تَتَّقِينَ﴾ أي تائباتٍ من الذنوب، ولا يضررنَّ على معصية ﴿عَائِدَاتٍ﴾ أي متعبداتٍ لله تعالى يكثرن العبادَة، كأنَّ العبداء امتزجت بقلوبهن حتى صارت سَجِيَّةً لهنَّ^(٥) ﴿سَجَّحَتِ﴾ أي مسافراتٍ مهاجراتٍ إلى الله ورسوله^(٦) ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾

- (١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤ / ١٣١. (ش): رَوَاهُ مُسْلِمٌ.
 (٢) لا يخفى أن الكلام في الآية مسوق للمبالغة: ﴿وَلَنْ تَظْهَرََا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ وإلا فكفى بالله ولياً، وكفى بالله نصيراً.
 (٣) «تفسير القرطبي» ١٨ / ١٩٣.
 (٤) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالفٌ لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.
 (٥) (ش): سَجِيَّةٌ: طبيعة، خلق، صفة فطرية في الإنسان.
 (٦) قال ابن عباس: ﴿سَجَّحَتِ﴾ أي صائمات واستدل بحديث: «سباحة هذه الأمة الصيام» وقال زيد بن أسلم:

﴿سَجَّحَتِ﴾ أي مهاجرات وتلا قوله تعالى: ﴿الَّتِي يُؤْتِيَنَّكَ الْكِتَابَ وَالْعِذَّةَ وَالْجَنَّةَ وَالْجَنَّةَ وَالْجَنَّةَ﴾ أي المهاجرون، ولعل هذا الرأي أرجح لأنه يتفق مع المعنى اللغوي للسباحة وهي السفر في الأرض للاعتبار، وقد رجح ابن كثير الرأي الأول والله أعلم. (ش): روى ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف عن عائشة رضي الله عنها، قالت: سباحة هذه الأمة الصيام. ورؤي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «السَّائِحُونَ هُمُ الصَّائِمُونَ» (رواه الحاكم، وابن جرير الطبري في «تفسيره» وضعفه الألباني).

أي منهنَّ ثيبات، ومنهم أبكارا قال ابن كثير: قسمهن إلى نوعين ليكون ذلك أشهى إلى النفس، فإنَّ التنوع ييسط النفس^(١)، وإنما دخلت واو العطف على هنا ﴿ثَيِّبَتْ وَأَبْكَرًا﴾ للتنوع والتقسيم، ولو سقطت لاختل المعنى، لأن الثبوبة والبكارة لا يجتمعان، فتدبر سرَّ القرآن.. ولما وعظ نساء الرسول موعظةً خاصة، أتبع ذلك بموعظةٍ للمؤمنين فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ أي يا من صدقتم بالله ورسوله وأسلمتم وجوهكم لله^(٢)، احفظوا أنفسكم، وصونوا أزواجكم وأولادكم، من نارٍ حامية مستعرة، وذلك بترك المعاصي وفعل الطاعات، وبتأديبهم وتعليمهم قال مجاهد: أي اتقوا الله، وأوصوا أهليكم بتقوى الله. وقال الخازن: أي مَرُّوهم بالخير، وانهُوهم عن الشر، وعَلِّموهم وأدَّبُوهم حتى تقوهم بذلك من النار^(٣)، والمراد بالأهل النساء والأولاد وما أُلْحِقَ بهما ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ﴾ أي حطبها الذي تُسَعَّرُ به نار جهنم هو الخلائق والحجارة قال المفسرون: أراد بالحجارة حجارة الكبريت، لأنها أشد الأشياء حرًا، وأسرع اتِّقَادًا، وعنى بذلك أنها مفرطة الحرارة، تتقد بما ذكر، لا كنار الدنيا تتقد بالحطب ونحوه قال ابن مسعود: حطبها الذي يلقي فيها بنو آدم، وحجارة من كبريت أتنن من الجيفة^(٤) ﴿عَلَيْهَا مَلَكُتُكُمُ غَلَاطٌ شَدَادٌ﴾ أي على هذه النار زبانية غلاظ القلوب، لا يَرَحْمُونَ أحدًا، مكلفون بتعذيب الكفار قال القرطبي: المراد بالملائكة الزبانية، وهم غلاظ القلوب لا يَرَحْمُونَ إذا استرَحِمُوا، لأنهم خُلِقُوا من الغضب^(٥)، وَحُبَّ إِيَّاهُمْ عذاب الخلق كما حُبَّ لبني آدم أكل الطعام والشراب^(٦) ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ أي لا يعصون أمر الله بحالٍ من الأحوال ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي وينفذون الأوامر بدون إمهال ولا تأخير ثم يقال للكفار عند دخولهم النار ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْنِدُوا الْيَوْمَ﴾ أي لا تعتذروا عن ذنوبكم وإجرامكم، فلا ينفعكم اليوم الاعتذار، لأنه قد قُدِّمَ إليكم الإنذار والإعذار ﴿إِنَّمَا تُجْرَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي إنما تنالون جزاء أعمالكم القبيحة، ولا تظلمون شيئًا كقوله تعالى ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧] ثم دعا المؤمنين إلى التوبة الصادقة الناصحة فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ أي

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٥٢٢/٣.

(٢) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح.

(٣) «تفسير الخازن» ١٢١/٤.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٥٢٣/٣.

(٥) (ش): أي أن الغضب لهم خُلِقَ وطبيعة، لا أن الغضب مادة خلقهم، فالملائكة مخلوقون من نور كما أخبرنا الصادق المصدوق ﷺ فقال: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ وَخُلِقَ آدَمُ مِنْ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ». (رواه مسلم).

(٦) «تفسير القرطبي» ١٨/١٩٦.

توبوا إلى الله من ذنوبكم توبةً صادقةً خالصة، بالغّة في النصيحة الغاية القصوى، سئل عمر عن التوبة النصوح فقال: هي أن يتوب ثم لا يعود إلى الذنب، كما لا يعود اللبن إلى الضرع^(١) قال العلماء: التوبة النصوح هي التي جمعت ثلاثة شروط: الإقلاع عن الذنب، والندم على ما حدث، والعزم على عدم العودة إليه، وإن كان الحق لأدمي زيد شرطاً رابع وهو: ردّ المظالم لأصحابها ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي لعل الله يرحمكم فيمحو عنكم ذنوبكم قال المفسرون: «عسى» من الله واجبة بمنزلة التحقيق، وهذا إطماعٌ من الله لعباده في قبول التوبة، تفضلاً منه وتكرماً، لأن العظيم إذا وعد وفّى، وعادة الملوك أنهم إذا أرادوا فعلاً قالوا «عسى» فهو بمنزلة المحقق^(٢) ﴿وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي ويدخلكم في الآخرة حدائق وبساتين ناضرة، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أي يوم لا يفضح الله النبي وأتباعه المؤمنين أمام الكفار، بل يُعزُّهم ويُكرِّمهم قال أبو السعود: وفيه تعريضٌ بمن أخزاهم الله تعالى من أهل الكفر والفسوق^(٣) ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ أي نور هؤلاء المؤمنين يضيء لهم على الصراط، ويسطع أمامهم وخلفهم وعن أيماهم وشمائلهم، كإضاءة القمر في سواد الليل^(٤) ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتَيْنَا لَنَا نُورَنَا﴾ أي يدعون الله قائلين: يا ربنا أكمل علينا هذا النور وأدِّمه لنا، ولا تتركنا نتخبط في الظلمات قال ابن عباس: هذا دعاء المؤمنين حين أطفأ الله نور المنافقين^(٥)، يدعون ربهم به إشفافاً حتى يصلوا إلى الجنة ﴿وَأَغْفِرْ لَنَا﴾ أي وامح عنا ما فرط من الذنوب ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي إنك أنت القادر على كل شيء، من المغفرة والعقاب، والرحمة والعذاب.. ثم أمر تعالى بجهاد أعداء الله من الكفرة والمنافقين فقال ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أي جاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة والبرهان، لأن المنافقين يُظهرون الإيمان، فهم مسلمون ظاهراً فلذلك لم يُؤمر عليه الصلاة والسلام بقتالهم ﴿وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي وشدّد عليهم في الخطاب، ولا تعاملهم بالرفقة واللين، إرعاباً وإذلاً لهم، لتتكسر صلابتهم وتلين شكيمة^(٦) ﴿وَمَا أَوْفَوْهُمُ جَهَنَّمَ﴾ أي ومستقرهم في الآخرة جهنم

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ١٢٢.

(٢) «انظر روح المعاني للأوسى» ٢٨/ ١٦٠.

(٣) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٧٥.

(٤) وفي الحديث أن النبي ﷺ سئل: كيف تعرف أمتك يوم القيامة من بين الأمم؟ فقال: «إِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرّاً مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ» أي تسطع جباههم وأيديهم بالنور من آثار الطهور فيعرفهم بذلك رسول الله ﷺ.

(ش): الحديث رواه مسلم.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٠١.

(٦) (ش): شَكِيمَةٌ: عِزَّةٌ وَشِدَّةٌ وَعِزِيمَةٌ.

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ أي وبشّر جهنم مستقرا ومصيرا للمجرمين.. ثم ضرب الله تعالى مثلاً للكفار في عدم انتفاعهم بصلة القرابة أو المصاهرة أو النكاح، لأن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة ولا ينفع إلا العمل الصالح فقال ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾ أي مثل تعالى للكفار في عدم استفادتهم بقرابة المؤمنين، بحال امرأة نوح وامرأة لوط ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ﴾ أي كانتا في عصمة نبيين عظيمين هما «نوح» ولوط عليهما السلام، وإنما وصفهما بالعبودية تشريفاً وتكريماً لهما بإضافتهما إليه تعالى ﴿فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي فخانَت كل واحدة زوجها بالكفر وعدم الإيمان^(١)، فلم يدفعاً عن امرأتيهما مع بُبُوتهما شيئاً من عذاب الله ﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاسِينَ﴾ أي وتقول لهما خزنة النار يوم القيامة: ادخلا نار جهنم مع سائر الداخلين، من الكفرة المجرمين قال القرطبي: ضرب تعالى هذا المثل تنبيهاً على أنه لا يُغني في الآخرة أحدٌ عن قريبٍ ولا نسيب، إذا فَرَّقَ بينهما الدين، كما لم يدفع نوح ولوط مع كرامتهما على الله تعالى عن زوجتيهما لما عصتا شيئاً من عذاب الله^(٢) ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ وهذا مثل آخر للمؤمن في عدم تضرره ببقاء قريبه على الكفر إذا كان هو مؤمناً قال أبو السعود: أي جعل حالها مثلاً لحال المؤمنين في أن وصلة الكفر لا تضرهم، حيث كانت في الدنيا تحت أعدى أعداء الله «فرعون» وهي في أعلى غرف الجنة^(٣) قال المفسرون: واسمها «آسية بنت مزاحم» آمنت بموسى عليه السلام، فبلغ ذلك فرعون فأمر بقتلها، فنجّاها الله من شره، فلم يضر امرأة فرعون اتصالها به وهو من أكفر الكافرين، ولم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالهما بهما وهما رسولاً رب العالمين ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ أي حين دعت ربها قائلة: يا رب اجعل لي قصراً مشيداً بجوار رحمتك في جنة النعيم قال بعض العلماء: ما أحسن هذا الكلام فقد اختارت الجار قبل الدار حيث قالت ﴿ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ فهي تطمع في جوار الله قبل طمعها في القصور، وفي الآية دليل على إيمانها وتصديقها بالبعث

(١) الخيانة هنا يراد بها الخيانة في الدين لا في العرض، وقد أخطأ بعض المفسرين حيث نسب لهما فاحشة الزنى، وهذا لا يجوز لأن الله تعالى أكرم أنبياءه أن تتعاطى واحدة منهن الفجور، بل هن شريفات مصونات لحرمة الأنبياء، وقد قال ابن عباس: «ما بغت امرأة نبي قط، وإنما كانت خيانتها أنهما كانتا على غير دينهما، وكانتا مشركتين»، فتدبره فإنه دقيق.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٨ / ٢٠١.

(٣) «تفسير أبي السعود» ١٧٦ / ٥. (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ فِرْعَوْنَ، أَوْتَدَ لَامْرَأَتِهِ أَرْبَعَةَ أَوْتَادٍ فِي يَدَيْهَا وَرِجْلَيْهَا، فَكَانَ إِذَا تَفَرَّقُوا عَنْهَا ظَلَمَتْهَا الْمَلَائِكَةُ، فَقَالَتْ: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: ١١]، فَكَشَفَ لَهَا عَنْ بَيْتِهَا فِي الْجَنَّةِ. (رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده، وصححه الألباني). وَعَنْ سَلْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ تُعَذَّبُ بِالشَّمْسِ، فَإِذَا انْصَرَفُوا عَنْهَا أَظْلَمَتْهَا الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنَحَيْهَا، وَكَانَتْ تَرَى بَيْتَهَا فِي الْجَنَّةِ» (رواه الحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني).

﴿وَيَحْنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ أي وأنقذني من كفر فرعون وطغيانه ﴿وَيَحْنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي وأنقذني من الأقباط، أتباع فرعون الطاغين، قال الحسن: لما دعت بالنجاة نجاتها الله تعالى أكرم نجاته، فرفعها إلى الجنة تأكل وتشرب وتنعم ^(١) ﴿وَمَرْيَمُ ابْنَتْ عِمْرَانَ﴾ أي ومريم ابنة عمران مثل آخر في الإيمان ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي حفظت فرجها وصانته عن مقارنة الفواحش، فهي عفيفة شريفة طاهرة، لا كما زعم اليهود عليهم لعنة الله، أنها زنت وأن ولدها عيسى ابن زنى ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ أي فنفخ رسولنا جبريل في فتحة جيبها، فوصل أثر ذلك إلى فرجها فحملت بعيسى قال ابن كثير: إن الله بعث جبريل فتمثل لها في صورة بشر، وأمره أن ينفخ فيه في جيب درعها، فنزلت النفخة فولجت في فرجها فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام ^(٢) ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا الْأَمَانَةُ﴾ أي وآمنت بشرائع الله القدسية، وكتبه السماوية ﴿وَوَكَاتُ مِنَ الْقَنِينِ﴾ أي وكانت من القوم المطيعين، العابدين لله عز وجل، وهو ثناء عليها بكثرة العبادة والطاعة، والخشوع، وفي الحديث «كَمَلُ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ ابْنَتْ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ ابْنَتْ خُوَيْلِدٍ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ» ^(٣).

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الطباق بين حرم وأحل ﴿لِمَنْ حُرِّمَ مَا أَحَلَّ﴾ وبين ﴿عَرَفَ.. وَأَعْرَضَ﴾ وبين ﴿ثَبَّتَتْ وَأَبْكَرَتْ﴾ وكلها من المحسنات البديعية التي تزيد في جمال الكلام.
- ٢ - الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿إِنْ نُوْبًا إِلَى اللَّهِ﴾ زيادة في اللوم والعتاب.
- ٣ - صيغ المبالغة ﴿الْعَلِيمُ الْخَيْرُ﴾ ﴿نُصُوحًا﴾ ﴿ظَهِيرٌ﴾ ﴿قَدِيرٌ﴾ إلخ.

(١) «البحر المحيط» ٢٩٥ / ٨.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٥٢٥ / ٣.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم. (ش): رواه البخاري ومسلم بلفظ: «كَمَلُ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ ابْنَتْ عِمْرَانَ، وَإِنْ فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ». ورواه ابن مردويه بلفظ: «كَمَلُ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا ثَلَاثٌ: مَرْيَمُ ابْنَتْ عِمْرَانَ وَأَسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَخَدِيجَةُ ابْنَتْ خُوَيْلِدٍ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ» (وصحح إسناده ابن كثير والألباني). الثريد: طعام من خبز مفتوت ولحم ومرق. قال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث من صحيح مسلم: «قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعْنَاهُ أَنَّ الثَّرِيدَ مِنْ كُلِّ طَعَامٍ أَفْضَلُ مِنَ الْمَرَقِ، فَثَرِيدُ اللَّحْمِ أَفْضَلُ مِنْ مَرَقِهِ بِلاَ ثَرِيدٍ، وَثَرِيدٌ مَا لَا لَحْمَ فِيهِ أَفْضَلُ مِنْ مَرَقِهِ، وَالْمُرَادُ بِالْفَضِيلَةِ نَفْعُهُ وَالشَّبْعُ مِنْهُ وَسَهْوَلَةُ مَسَاغِهِ وَالْإِلْتِذَاذُ بِهِ وَتَيْسُرُ تَنَاوُلِهِ وَتَمَكُّنُ الْإِنْسَانِ مِنْ أَخْذِ كِفَايَتِهِ مِنْهُ بِسُرْعَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْمَرَقِ كُلِّهِ وَمِنْ سَائِرِ الْأَطْعِمَةِ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ زَائِدٌ كَزِيَادَةِ فَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَطْعِمَةِ» [شرح النووي على مسلم (١٩٩ / ١٥)].

٤ - ذكر العام بعد الخاص ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةَ﴾ فقد خصَّ جبريل بالذكر تشريفاً، ثم ذكره ثانية مع العموم اعتناءً بشأن الرسول ﷺ ووسط صالح المؤمنين بين الملائكة المقربين.

٥ - المجاز المرسل ﴿فُؤَا أَنفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ ذكر المسبب وأراد السبب أي لازموا على الطاعة لتقوا أنفسكم وأهليكم من عذاب الله.

٦ - المقابلة بين مصير أهل الإيمان ومصير أهل الطغيان ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ و﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾.

٧ - التغليب ﴿وَكَاثَ مِنَ الْفَتَنِينَ﴾ غلب الذكور على الإناث.

٨ - السجع المرصع كأنه اللؤلؤ والمرجان، وهو كثير في القرآن فتدبره بإمعان.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التحريم»



سُورَةُ الْمَلِكِ

٣٠

٦٧

مكية وآياتها ثلاثون

بين يدي السورة

* سورة الملك من السور المكية، شأنها شأن سائر السور المكية، التي تعالج موضوع العقيدة في أصولها الكبرى، وقد تناولت هذه السورة أهدافاً رئيسة ثلاثة وهي «إثبات عظمة الله وقدرته على الإحياء والإماتة.. وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين.. ثم بيان عاقبة المكذبين الجاحدين للبعث والنشور».

* ابتدأت السورة الكريمة بتوضيح الهدف الأول، فذكرت أن الله جل وعلا بيده الملك والسلطان، وهو المهيمن على الأكوان، الذي تخضع لعظمته الرقاب وتعنو له الجباه^(١)، وهو المتصرف في الكائنات بالخلق والإيجاد، والإحياء والإماتة ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ...﴾ الآيات. ثم تحدثت عن خلق السماوات السبع، وما زين الله به السماء الدنيا من الكواكب الساطعة، والنجوم اللامعة، وكلها أدلة على قدرة الله ووحدانيته ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا...﴾ الآيات.

* ثم تناولت الحديث عن المجرمين بشيء من الإسهاب، وهم يرون جهنم تنلظى وتكاد تقطع من شدة الغضب والغيط على أعداء الله، وقارنت بين مآل الكافرين والمؤمنين، على طريقة القرآن في الجمع بين الترهيب والترغيب ﴿إِذَا الْقَوُوفُ فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ...﴾. وبعد أن ساقَت بعض الأدلة والشواهد على عظمة الله وقدرته، حذرت من عذابه وسخطه أن يحل بأولئك الكفرة الجاحدين ﴿أَمْ أَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْإِثْمُ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ...﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بالإنذار والتحذير للمكذبين بدعوة الرسول، من حلول العذاب بهم في الوقت الذي كانوا يتمنون فيه موت الرسول ﷺ وهلاك المؤمنين ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؟ الآيات ويا له من وعيد شديد، ترتعد له الفرائص!

فضلها: تسمى هذه السورة «الواقية» و«المنجية» لأنها تقى قارئها من عذاب القبر فقد قال ﷺ: «هي المانعة هي المنجية من عذاب القبر» أخرجه الترمذي^(٢).

(١) (ش): نَعْنُو: تَخَضَع. الْجِبَاهُ: جمع جَبْهَة: ما بين الحاجبين ومقدم الرأس موضع السجود من الوجه.
(٢) (ش): ضعفه الألباني. وقال: «وإنما يصح منه قوله: «هِيَ الْمَانِعَةُ». وقد صححه بلفظ: «سُورَةُ تَبَارَكَ هِيَ الْمَانِعَةُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ». (رواه الحاكم وغيره). وقال ﷺ: «إِنَّ سُورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ ثَلَاثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ وَهِيَ سُورَةُ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ» (رواه أحمد والترمذي، وحسنه الألباني).

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ
 الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ② الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَأَرْجِعْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى
 مِنْ فُطُورٍ ③ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَيْنًا يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ④ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ
 وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ⑤ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسُ الِّ الْمَصِيرُ
 ⑥ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ⑦ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ
 يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ⑧ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ⑨ وَقَالُوا لَوْ
 كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ⑩ فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِّقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ⑪ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ
 رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ⑫ وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ⑬ أَلَا يَعْلَمُ
 مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ⑭ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ
 النُّشُورُ ⑮ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ⑯ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ
 عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ ⑰ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَيْفَ كَانَ نَكِيرٌ ⑱ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ
 فَوْقَهُمْ صَفَائٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ⑲ أَمَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ
 مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ⑳ أَمَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ
 ㉑ أَفَنْ يَمْشِيَ مُبْكًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِيَ سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ㉒ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ
 السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ㉓ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ㉔ وَيَقُولُونَ مَتَى
 هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ㉕ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ㉖ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتَتْ وَجُوهُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ㉗ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ
 الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ㉘ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ㉙ قُلْ
 أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ

اللغة: ﴿طِبَاقًا﴾ بعضها فوق بعض، من طابَقَ النَّعْلَ بالنَّعْلِ إِذَا قَطَعَهُ بِقَدْرِهِ وَجَعَلَهُ فَوْقَهُ
 ﴿فُطُورٍ﴾ شقوق وخروق، من فَطَرَ بِمَعْنَى شَقَّ قَالَ الشَّاعِرُ:

بَنَى لَكُمْوَبِلَا عَمَدٍ سَمَاءً وَسَوَّاهَا فَمَا فِيهَا فُطُورٌ ①

﴿حَسِيرٌ﴾ كليل من الحسور وهو الإعياء يقال: حَسِرَ الْبَعِيرُ إِذَا كَلَّ وَانْقَطَعَ قَالَ الشَّاعِرُ:

نَظَرْتُ إِلَيْهَا بِالْمُحَصَّبِ مِنْ مَنَى فَعَادَ إِلَيَّ الطَّرْفُ وَهُوَ حَسِيرٌ ②

﴿شَهِيقًا﴾ صوتًا منكرا كصوت الحمير ﴿تَمَيِّزُ﴾ تتقطع وينفصل بعضها من بعض،

(١) «البحر المحيط» ٢٩٨/٨.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٨/٢١٠. (ش): الْمُحَصَّبُ: موضع رمي الجمار بمئى.

وأصلها تتميز حذفت إحدى التاءين تخفيفاً ﴿مَنَّاكِهَا﴾ أطرافها ونواحيها، وأصل المنكب: الجانب ومنه منكب الرجل ﴿لَجُؤًا﴾ تَمَادَوْا وَأَصْرُوا ﴿تَمُورُ﴾ ترتج وتضطرب ﴿زُلْفَةً﴾ قريباً منهم ﴿عَوْرًا﴾ غائراً ذاهباً في الأرض.

التفسير: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ أي تمجّد وتعالى الله العلي الكبير، المفيض على المخلوقات من فنون الخيرات، الذي بقبضة قدرته ملك السموات والأرض، يتصرف فيهما كيف يشاء قال ابن عباس: بيده الملك، يعزُّ من يشاء ويذل من يشاء، ويحيي ويميت، ويُغني ويُفقر، ويعطي ويمنع ^(١) ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي وهو القادر على كل شيء له القدرة التامة، والتصرف الكامل في كل الأمور، من غير منازع ولا مُدافع.. ثم بيّن تعالى آثار قدرته، وجليل حكمته فقال ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ أي أوجد في الدنيا الحياة والموت، فأحيا من شاء وأمات من شاء، وهو الواحد القهار، وإنما قدم الموت لأنه أهيب في النفوس وأفرع قال العلماء: ليس الموت فناً وانقطاعاً بالكلية عن الحياة، وإنما هو انتقال من دار إلى دار، ولهذا ثبت في الصحيح أن الميت يسمع، ويرى، ويُحسُّ وهو في قبره كما قال عليه السلام «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نَعَالِهِمْ» ^(٢) الحديث وقال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَا يُجِيبُونَ» ^(٣).

فالموت هو انقطاع تعلق الروح بالبدن، ومفارقتها للجسد ﴿لَيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي ليمتحنكم ويختبركم أيها الناس فيرى المحسن منكم من المسيء قال القرطبي: أي يعاملكم

(١) «تفسير القرطبي» ١٨ / ٢٠٦.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري ومسلم.

(٣) (ش): قال ﷺ مخاطباً قتلى المشركين الذين جُعِلُوا فِي بَثَرِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ: «يَا فُلَانُ بْنَ فُلَانٍ وَيَا فُلَانُ بْنَ فُلَانٍ هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ حَقًّا فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي اللَّهُ حَقًّا». فقال عمر: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ تَكَلَّمُ أَجْسَادًا لَا أَرْوَاحَ فِيهَا؟. قَالَ «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَا يُجِيبُونَ». (رواه البخاري ومسلم). وقد اختلف العلماء في مسألة سماع الأموات كلام الأحياء، فمنهم من قال بأنهم يسمعون كلام الأحياء، ومنهم من نفى ذلك. وجاء في «فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء» (١ / ١٥١-١٥٢)، (٩ / ٨٢): «الأصل عدم سماع الأموات كلام الأحياء، إلا ما ورد فيه النص؛ لقول الله سبحانه يخاطب نبيه ﷺ: ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ الآية، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنَ فِي الْقُبُورِ﴾. فالأصل أن الأموات صالحين كانوا أو غير صالحين لا يسمعون كلام البشر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكُمْ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ ولكن قد يُسمع الله الموتى صوت رسول من رسله لحكمة من الحكم، كما أسمع سبحانه قتلى بدر من الكفار صوت رسوله ﷺ؛ إهانة وتبكيتاً لهم، وتكريماً لرسوله ﷺ؛ وأما سماع الميت حيث يوضع في قبره قرع نعال المشيعين فهو إسماع خاص ثبت في النص فلا يُزاد عليه لاستثنائه من الأدلة العامة الدالة على عدم سماع الموتى. (وراجع كتاب «الآيات البينات في عدم سماع الأموات على مذهب الحنفية السادات» للآلوسي، بتحقيق الألباني).

معاملة المختبر، فإن الله تعالى عالم بالمطيع والعاصي أزلًا^(١) ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي الغالب في انتقامه ممن عصاه ﴿الْغَفُورُ﴾ لذنوب من تاب وأناب إليه ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ أي خلق سبع سماوات بعضها فوق بعض، كل سماء كالقبة للأخرى ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ﴾ أي لست ترى أيها السامع في خلق الرحمن البديع من نقص أو خلل، أو اختلاف أو تنافر، بل هي في غاية الأحكام والإتقان، وإنما قال ﴿فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ﴾ ولم يقل «فيهن» تعظيمًا لخلقهن، وتنبيهًا على باهر قدرة الله ﴿فَأَرْجِعْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾؟ أي فكرّر النظر في السموات وردّه في خلقهن المحكم، هل ترى من شقوق وصدوع؟ ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي ثم ردّد النظر مرّة بعد أخرى، وانظر بعين الاعتبار في هذه السموات العجيبة، مرّة بعد مرة ﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ أي يرجع إليك بصرك خاشعًا ذليلاً، لم ير ما تريد ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي وهو كليلٌ مُتَعَبٌ^(٢) قد بلغ الغاية في الإعياء قال الإمام الفخر: المعنى: إنك إذا كررت نظرك لم يرجع إليك بصرك بما طلبته من وجود الخلل والعيب، بل رجع خاسئًا مُبْعَدًا لم ير ما يهوى مع الكلال والإعياء^(٣) وقال القرطبي: أي اردد طرفك وقلّب البصر في السماء ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ أي مرّة بعد أخرى، يرجع إليك البصر خاشعًا صاغراً، متباعدًا عن أن يرى شيئًا من ذلك العيب والخلل، وإنما أمر بالنظر كرتين، لأن الإنسان إذا نظر في الشيء مرّة لا يرى عيبه، ما لم ينظر إليه مرّة أخرى، والمراد بالكنتين التكرير بدليل قوله ﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ وهو دليل على كثرة النظر^(٤).

ثم بين تعالى ما زين به السماء من النجوم الزاهرة والكواكب الساطعة فقال ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ أي خلق سبع سموات متطابقة، بعضها فوق بعض، كل سماء كالقبة للأخرى ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ﴾ السلام لام القسم و﴿قَدْ﴾ للتحقيق والمعنى: والله لقد زيننا السماء القريبة منكم أيها الناس بكواكب مضيئة ساطعة، هي السماء الأولى أقرب السموات إلى الأرض قال المفسرون: سميت الكواكب مصابيح لإضاءتها بالليل إضاءة السراج ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ أي وجعلناها فائدة أخرى وهي رجم أعدائكم الشياطين، الذين يسترقون السمع قال قتادة: خلق الله تعالى النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يُهتدى بها في البر والبحر^(٥) وقال الخازن: فإن قيل: كيف تكون زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وكونها زينة يقتضي بقاءها، وكونها رجومًا يقتضي زوالها،

(١) «تفسير القرطبي» ١٨ / ٢٠٧.

(٢) (ش): كليل: ضعيف.

(٣) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠ / ٥٨.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٨ / ٢٠٩.

(٥) «البحر المحيط» ٨ / ٢٩٩.

فكيف الجمع بين هاتين الحالتين؟ فالجواب أنه ليس المراد أنهم يرمون بأجرام الكواكب، بل يجوز أن تنفصل من الكواكب شعلة وتُرمى الشياطين بتلك الشعلة وهي الشهب، ومثلها كمثل قبس يؤخذ من النار وهي على حالها^(١)، أقول: ويؤيده قوله تعالى ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصفات: ١٠] فعلى هذا، الكواكب لا يرمي بها؛ وإنما يكون الرجم بالشهب ﴿وَأَعَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ أي وهبنا وأعدنا للشياطين في الآخرة بعد الإحراق بالشهب في الدنيا العذاب المستعر، وهو النار الموقدة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ أي وللكافرين برهم عذاب جهنم أيضًا، فليس العذاب مختصًا بالشياطين بل هو لكل كافر بالله من الإنس والجن ﴿وَبُئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي وبُئسَ النار مرجعًا ومصيرًا للكافرين.. ثم وصف تعالى جهنم وما فيها من العذاب والأهوال والأغلال فقال ﴿إِذَا الْقَوُافِيَا﴾ أي إذا قُذِفُوا وطُرِحُوا في جهنم كما يطرح الحطب في النار العظيمة ﴿سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا﴾ أي سمعوا لجهنم صوتًا منكرًا فظيعًا كصوت الحمار، لشدة توقدها وغلبيتها^(٢) قال ابن عباس: الشهيق لجهنم عند إلقاء الكفار فيها، تشهق إليهم شهقة البغلة للشعير، ثم تفرز زفرة لا يبقى أحدٌ إلا خاف^(٣) ﴿وَهِيَ تَقُورُ﴾ أي وهي تغلي بهم كما يغلي المرجل - القدر - من شدة الغضب ومن شدة اللهب قال مجاهد: تقور بهم كما يفور الحب القليل في الماء الكثير ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أي تكاد جهنم تتقطع وينفصل بعضها من بعض، من شدة غيظها وحقها على أعداء الله ﴿كُلَّمَا أَلْفَى فِيهَا فَوْجٌ﴾ أي كلما طُرح فيها جماعة من الكفرة ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ أي سألتهم الملائكة الموكِّلون على جهنم وهم الزبانية سؤال توبيخ وتقريع ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ أي ألم يأتكم رسولٌ ينذركم ويخوفكم من هذا اليوم الرهيب؟ قال المفسرون: وهذا السؤال زيادة لهم في الإيلام، ليزدادوا حسرةً فوق حسرتهم، وعذابًا فوق عذابهم ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ أي أجابوا نعم لقد جاءنا رسول منذر، وتلا علينا آيات الله، ولكننا كذبناه وأنكرنا رسالته ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي وقلنا إمعانًا في التكذيب وتماديًا في النكير: ما أنزل الله شيئًا من الوحي على أحدٍ قال الرازي: هذا اعترافٌ منهم بعدل الله، وإقرار بأن الله أزاح عِلَلَهُم ببعثة الرسل الكرام، ولكنهم كذبوا الرسل وقالوا ما نزل الله من شيء^(٤) ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ هذا من تنمة كلام الكفار أي ما أنتم يا معشر الرسل إلا في بُعدٍ عن الحق، وضلال واضح عميق ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ أي وقال الكفار: لو كانت لنا عقول نتفعل بها أو كنا نسمع سماع طالب للحق، ملتمسٍ للهدى ﴿مَا كُنَّا

(١) «تفسير الخازن» ١٢٥/٤.

(٢) قال في التسهيل: الشهيق أقيح ما يكون من صوت الحمار، ويعني به ما يسمع من صوت جهنم لشدة غلبته وهولها.

(٣) التسهيل ١٣٤/٤، و«تفسير القرطبي» ٢١١/١٨.

(٤) «التفسير الكبير للرازي» ٦٤/٣٠.

فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١﴾ أَيُّ مَا كُنَّا نَسْتَوْجِبُ الْخُلُودَ فِي جَهَنَّمَ ﴿٢﴾ فَأَعْرَفُوا بِذَنبِهِمْ ﴿٣﴾ أَيُّ فَأَقْرَبُوا بِإِجْرَامِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ لِلرَّسُلِ ﴿٤﴾ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ أَيُّ فَبَعْدًا وَهَلَاكًا لِأَهْلِ النَّارِ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: عَادُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْمَلَامَةِ، وَنَدَمُوا حَيْثُ لَا تَنْفَعُهُمُ النَّدَامَةُ^(١)، وَالْجُمْلَةُ دُعَائِيَّةٌ أَيُّ أَبْعَدَهُمُ اللَّهُ مِنْ رَحْمَتِهِ وَسَحَقَهُمْ سَحَقًا. ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ حَالَ الْأَشْقِيَاءِ الْكَفَّارِ أَتْبَعَهُ بِذِكْرِ حَالِ السَّعْدَاءِ الْأَبْرَارِ فَقَالَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ ﴿٧﴾ أَيُّ يَخْفَوْنَ رَبَّهُمْ وَلَمْ يَرَوْهُ، وَيَكْفُونَ عَنِ الْمَعَاصِي طَلَبًا لِمَرْضَاةِ اللَّهِ ﴿٨﴾ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٩﴾ أَيُّ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَغْفِرَةٌ عَظِيمَةٌ لَذُنُوبِهِمْ، وَثَوَابٌ جَزِيلٌ لَا يَعْلَمُ قُدْرَهُ غَيْرُ اللَّهِ تَعَالَى ﴿١٠﴾ وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ﴿١١﴾ الْخُطَابُ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ أَيُّ أَخْفُوا قَوْلَكُمْ وَكَلَامَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ أَوْ أَعْلَنُوا وَأَظْهَرُوهُ، فَسَوَاءٌ أَحْفَيْتُمُوهُ أَوْ أَظْهَرْتُمُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَيُّ لِأَنَّهُ تَعَالَى الْعَالَمِ بِالْخَفَايَا وَالنَّوَايَا، يَعْلَمُ مَا يَخْطُرُ فِي الْقُلُوبِ، وَمَا تَوَسَّسَ بِهِ الصُّدُورُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ فِي الْمَشْرِكِينَ كَانُوا يَنْالُونَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيُخْبِرُهُ جَبْرِيلُ بِمَا قَالُوا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَسْرُوا قَوْلَكُمْ حَتَّى لَا يَسْمَعَ إِلَهُ مُحَمَّدٍ^(٢)، فَأَخْبَرَهُ اللَّهُ أَنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ^(٣) ﴿١٤﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴿١٥﴾؟ أَيُّ أَلَا يَعْلَمُ الْخَالِقُ مَخْلُوقَاتِهِ؟ كَيْفَ لَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ الْأَشْيَاءَ وَأَوْجَدَهَا سِرَّ الْمَخْلُوقِ وَجَهْرَهُ؟ ﴿١٦﴾ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٧﴾ أَيُّ وَالْحَالُ أَنَّهُ اللَّطِيفُ بِالْعِبَادِ، الَّذِي يَعْلَمُ دَقَائِقَ الْأُمُورِ وَغَوَامِضَهَا، الْخَبِيرُ الَّذِي لَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ شَيْءٌ، فَلَا تَتَحَرَّكُ ذَرَّةٌ، وَلَا تَسْكُنُ أَوْ تَضْطَرِبُ نَفْسٌ إِلَّا وَعِنْدَهُ خَبَرُهَا ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى دَلَائِلَ قُدْرَتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَأَثَارَ فَضْلِهِ وَامْتِنَانِهِ عَلَى الْعِبَادِ فَقَالَ ﴿١٨﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا ﴿١٩﴾ أَيُّ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ لَيْتَنَ سَهْلَةً الْمَسَالِكِ ﴿٢٠﴾ فَأَمْسُوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴿٢١﴾ أَيُّ فَاسْلُكُوا أَيُّهَا النَّاسُ فِي جَوَانِبِهَا وَأَطْرَافِهَا قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيُّ فَسَافَرُوا حَيْثُ شِئْتُمْ مِنْ أَقْطَارِهَا، وَتَرَدَّدُوا فِي أَقْلِيمِهَا وَأَرْجَائِهَا لِلْمَكَاسِبِ وَالتَّجَارَاتِ^(٤) ﴿٢٢﴾ وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴿٢٣﴾ أَيُّ وَانْتَفَعُوا بِمَا أَنْعَمَ بِهِ جَلَّ وَعَلَا عَلَيْكُمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْكَسْبِ وَالرِّزْقِ قَالَ الْأَلُوسِي: كَثِيرًا مَا يُعْبَرُ عَنْ وَجْهِهِ الْإِنْتِفَاعُ بِالْأَكْلِ لِأَنَّهُ الْأَهَمُّ الْأَعْمُ، وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى نَدْبِ التَّسْبِيبِ وَالْكَسْبِ، وَهُوَ لَا يَنَافِي التَّوَكُّلَ، فَقَدْ مَرَّ عَمْرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِقَوْمٍ فَقَالَ: مَنْ أَنْتُمْ؟ فَقَالُوا: الْمَتَوَكِّلُونَ فَقَالَ: بَلْ أَنْتُمْ الْمَتَوَكِّلُونَ، إِنَّمَا الْمَتَوَكِّلُ رَجُلٌ أَلْقَى حَبَّهُ فِي بَطْنِ الْأَرْضِ وَتَوَكَّلَ عَلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(٥) ﴿٢٤﴾ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿٢٥﴾ أَيُّ وَإِلَيْهِ تَعَالَى الْمَرْجِعُ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْفَنَاءِ، لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ.. ثُمَّ تَوَعَّدَ تَعَالَى كُفَّارَ مَكَّةَ الْمَكْذِبِينَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ ﴿٢٦﴾ أَمِنْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُخْصِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ ﴿٢٧﴾ أَيُّ هَلْ أَمِنْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْكَفَّارِ رَبَّكُمْ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢٨/٣.

(٢) (ش): رواه الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.

(٣) «الخازن» ١٢٦/٤، «الألوسي» ١٣/٢٩.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٥٢٨/٣.

(٥) «تفسير الألوسي» ١٥/٢٩.

أن يخسف بكم الأرض فَيُغَيِّبُكُمْ فِي مَجَاهِلِهَا^(١)، بعد ما جعلها لكم ذلولاً تمشون في منابها؟ ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أي فإذا بها تضطرب وتهتز بكم هزاً شديداً عنيفاً قال الرازي: والمراد أن الله تعالى يحرك الأرض عند الخسف بهم حتى تضطرب وتتحرك، فتعلو عليهم وهم يخسفون فيها فيذهبون، والأرض فوقهم تمور فتلقيهم إلى أسفل سافلين^(٢) ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي أم أمتم الله العليّ الكبير أن يرسل عليكم حجارة من السماء، كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل؟ ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ﴾ أي فستعلمون عند معاناة العذاب، كيف يكون إنذاري وعقابي للمكذبين!! وفيه وعيد وتهديد شديد، وأصلها (نذيري) و (نكيري) حذفت الياء مراعاة لرءوس الآيات ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي ولقد كذب كفار الأمم السابقة رسلهم، كقوم نوح وعاد وثمود وأمثالهم، وهذا تسلية للرسول ﷺ وتهديد لقومه المشركين ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي فكيف كان إنكاري عليهم بنزول العذاب؟ ألم يكن في غاية الهول والفظاعة؟ ثم لما حذرهم ما عسى أن يحل بهم من الخسف وإرسال الحاصب، نبههم على الاعتبار بالطير، وما أحكم الله من خلقها، وعن عجز آلهتهم المزعومة عن خلق شيء من ذلك فقال ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفًى وَيَقْبِضْنَ﴾ أي أولم ينظروا نظر اعتبار الى الطيور فوقهم، باسقاط أجنحتهم في الجو عند طيرانها وتحليقها، ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ أي وَيَضْمُمْنَهَا إِذَا ضَرَبْنَ بِهَا جُنُوبَهُنَّ وَقَتًا بَعْدَ وَقْتٍ؟ ولما كان الغالب هو فتح الجناحين فكأنه هو الثابت عبّر عنه بالإسم ﴿صَفًى﴾ وكان القبض متجدداً عبّر عنه بالفعل ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ قال في التسهيل: فإن قيل: لم يقل «قابضات» على طريقة ﴿صَفًى﴾؟ فالجواب أن بسط الجناحين هو الأصل في الطيران، كما أن مد الأطراف هو الأصل في السباحة، فذكره بصيغة اسم الفاعل ﴿صَفًى﴾ لدوامه وكثرته، وأما قبض الجناحين فإنما يفعله الطائر قليلاً للاستراحة والاستعانة، فلذلك ذكره بلفظ الفعل لقلته^(٣) ﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرِّحْمَنُ﴾ أي ما يمسكهن في الجو عن السقوط في حال البسط والقبض، إلا الخالق الرحمن الذي وسعت رحمته كل ما في الأكوان قال الرازي: وذلك أنها مع ثقلها وضخامة أجسامها، لم يكن بقاءها في جو الهواء إلا بإمساك الله وحفظه، وإلهامها الى كيفية البسط والقبض المطابق للمنفعة من رحمة الرحمن^(٤) ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ أي يعلم كيف يخلق، وكيف يبدع العجائب، بمقتضى علمه وحكمته.

ثم وبّخ تعالى المشركين في عبادتهم لما لا ينفع ولا يسمع فقال ﴿أَمَنَ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصُرُّكَ مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ﴾؟ أي من هذا الذي يستطيع أن يدفع عنكم عذاب الله من الأنصار

(١) (ش): غَيَّبَ فَلَانًا: دَفَنَهُ. مَجَاهِلٌ: جَمْعُ مَجْهَلٍ وَمَجْهَلَةٌ: أَرْضٌ يَضَلُّ فِيهَا الْإِنْسَانُ وَلَا يَهْتَدِي.

(٢) «التفسير الكبير» ٧٠/٣٠.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ١٣٦/٤.

(٤) «التفسير الكبير» ٧١/٣٠.

والأعوان؟! قال ابن عباس: أي من ينصركم مني إن أردت عذابكم؟^(١) ﴿إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ أي ما الكافرون في اعتقادهم أن آلهتهم تنفع أو تضر إلا في جهل عظيم، وضلال مبين، حيث ظنوا الأوهام حقائق، فاعتزوا بالأوثان والأصنام ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾؟ أي من هذا الذي يرزقكم غير الله إن منع الله عنكم رزقه؟ والخطاب في الآيتين للكفار على وجه التوبيخ والتهديد، وإقامة الحجة عليهم^(٢) ﴿بَلْ لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ أي بل تمادوا في الطغيان، وأصروا على العصيان، ونفروا عن الحق والإيمان.. ثم ضرب تعالى مثلاً للكافر والمؤمن فقال: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؟ أي هل من يمشي منكساً رأسه، لا يرى طريقه فهو يَخِطُّ خَبَطَ عَشْواء^(٣)، مثل الأعمى الذي يتعثر كل ساعة فيختر لَوَجْهه، هل هذا أهدي أم من يمشي منتصب القامة، ويرى طريقه ولا يتعثر في خطواته، لأنه يسير على طريق بَيِّن واضح؟ قال المفسرون: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر كالأعمى الماشي على غير هدى وبصيرة، لا يهتدي إلى الطريق فيتعسف ولا يزال ينكب على وجهه، والمؤمن كالرجل السوي الصحيح البصر، الماشي على الطريق المستقيم فهو آمن من الخبط والعثار^(٤)، هذا مثلهما في الدنيا، وكذلك يكون حالهما في الآخرة، المؤمن يُحْشَر يمشي سويًّا على صراط مستقيم، والكافر يُحْشَر يمشي على وجهه إلى دركات الجحيم قال قتادة: الكافر أكْبَّ على معاصي الله فحشره الله يوم القيامة على وجهه، والمؤمن كان على الدين الواضح فحشره الله على الطريق السوي يوم القيامة. وقال ابن عباس: هو مثل لمن سلك طريق الضلالة ولمن سلك طريق الهدى^(٥) ثم ذكّرهم تعالى بنعمه الجليلة، ليعرفوا قبح ما هم عليه من الكفر والإشراك فقال ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أي قل لهم يا محمد: الله جل وعلا هو الذي أوجدكم من العدم، وأنعم عليكم بهذه النعم «السمع والبصر والعقل» وخصّ هذه الجوارح بالذكر لأنها أداة العلم والفهم ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي قلّما تشكرون ربكم على نعمه التي لا تحصى^(٦) قال الطبري: أي قليلاً ما تشكرون ربكم على

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ١٢٦.

(٢) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٧٣.

(٣) (ش): يَخِطُّ خَبَطَ عَشْواء: يتصرّف على غير هدى، يُخطئ ويصيب.

(٤) (ش): خبط: سار على غير هدى. عثر: زلّ، تعرقل في شيء.

(٥) قال ابن كثير: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو فيه من الضلالة كمثل من يمشي مُكِبًّا على وجهه أي منحنيًا لا مستويًا، لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب، فهو تائه حائر ضال، والمؤمن يمشي منتصب القامة على طريق واضح بين، أيهما أهدي سبيلًا أهذا أم ذاك!! «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٠.

(٦) قال ابن عطية: المراد نفى الشكر، فعبر بالقلة كما تقول العرب: هذه أرض قلّ ما تُنبت كذا وهي لا تُنبت البتة. اهـ. نقلًا عن «البحر» ٨/ ٣٠٣.

هذه النعم التي أنعمها عليكم ^(١) ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي خلقكم وكثركم في الأرض ﴿وَالْيَوْمَ تُحْشَرُونَ﴾ أي وإليه وحده مرجعكم للحساب والجزاء ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي متى يكون الحشر والجزاء الذي تعدوننا به؟ إن كنتم صادقين فيما تخبروننا به من مجيء الساعة الحشر، وهذا استهزاء منهم ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي قل لهم يا محمد: علم وقت قيام الساعة ووقت العذاب عند الله تعالى لا يعلمه غيره ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي وما أنا إلا رسولٌ مُنذِرٌ أخوفكم عذاب الله امتثالاً لأمره.. ثم أخبر تعالى عن حال المشركين في ذلك اليوم العصيب فقال ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ أي فلما رأوا العذاب قريباً منهم، وعانوا أهوال القيامة ﴿سَيَتَّ وَجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ظهرت على وجوههم آثار الاستياء، فعلتها الكآبة والغم والحزن، وغشيتها الذل والانكسار، قال في البحر: أي ساءت رؤية العذاب وجوههم، وظهر فيها السوء والكآبة، كمن يُساق إلى القتل ^(٢) ﴿وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ أي وقالت لهم الملائكة توبيخاً وتبكيتاً: هذا الذي كنتم تطلبونه في الدنيا وتستعجلونه استهزاءً وتكدياً ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يتمنون هلاكك: أخبروني إن أماتني الله ومن معي من المؤمنين، أو رحمنا بتأخير آجالنا ﴿فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ أي فمن يحميكم من عذاب الله الأليم، ووضع لفظ ﴿الْكَافِرِينَ﴾ عوضاً عن الضمير «يجيركم» تشنيعاً وتسجيلاً عليهم بالكفر قال المفسرون: كان الكفار يتمنون هلاك النبي ﷺ والمسلمين، فأمره الله أن يقول لهم: إن أهلكني الله بالإماتة وأهلك من معي، فأني راحة وأي منفعة لكم فيه، ومن الذي يجيركم من عذاب الله إذا نزل بكم؟ هل تظنون أن الأصنام تخلصكم وتنقذكم من العذاب الأليم ^(٣)؟ ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي قل لهم: آمنا بالله الواحد الأحد، وعليه اعتمدنا في جميع أمورنا، لا على الأموال والرجال ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي فسوف تعلمون عن قريب من هو في الضلالة نحن أم أنتم؟ وفيه تهديد للمشركين ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْحَبَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي قل لهم يا محمد: أخبروني إذا صار الماء غائراً ذاهباً في أعماق الأرض، بحيث لا يستطيعون إخراجه ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ أي فمن الذي يُخْرِجُهُ لكم حتى يكون ظاهراً جارياً على وجه الأرض؟ هل يأتيكم غير الله به؟ فلم تُشركون مع الخالق الرازق غيره من الأصنام والأوثان؟

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿الْمَوْتِ.. وَالْحَيَاةِ﴾ وبين ﴿وَأَسْرَوْا.. وَأَوْجَهَرُوا﴾ وبين ﴿صَفَّتْ.. وَيَقْضُنَ﴾

لأن المعنى صفات وقابضات.

(١) «تفسير الطبري» ٧/٢٩.

(٢) البحر ٣٠٧/٨.

(٣) انظر «التفسير الكبير للرازي» ٧٦/٣٠.

- ٢ - وضع الموصول للتفخيم والتعظيم ﴿الَّذِي يَدِهِ الْمُلْكُ﴾ أي له الملك السلطان، والتصرف في الأكوان.
- ٣ - الإطناب بتكرار الجملة مرتين زيادة في التذكير والتنبية ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ.. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ وكذلك ﴿مَا كَأَنَّ أَصْحَابَ السَّعِيرِ.. فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.
- ٤ - الاستفهام الإنكاري للتقريع والتوبيخ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ؟﴾
- ٥ - المقابلة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ قابله بقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ وهو من المحسنات البديعية.
- ٦ - الاستعارة المكنية ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ شبه جهنم في شدة غليانها ولهبها بإنسان شديد الغيظ والحنق على عدوه يكاد يتقطع من شدة الغيظ، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الغيظ الشديد بطريق الاستعارة المكنية.
- ٧ - الاستعارة التمثيلية ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هذا بطريق التمثيل للمؤمن والكافر، فالمؤمن من يمشي سويًّا على صراط مستقيم، والكافر يمشي مكبًّا على وجهه إلى طريق الجحيم، ويا لها من استعارة رائعة!!
- ٨ - السجع المرصع مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٍ﴾ ﴿يَكُلُّ شَيْءٌ بَصِيرٌ﴾ ومثل ﴿إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ ﴿فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ إلخ.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الملك»



سُورَةُ الْقَلَمِ

مكية وآياتها ثنتان وخمسون

بين يدي السورة

* سورة القلم من السور المكية التي تعنى بأصول العقيدة والإيمان، وقد تناولت هذه السورة ثلاثة مواضيع أساسية وهي:

أ- موضوع الرسالة، والشبه التي أثارها كفار مكة حول دعوة محمد بن عبد الله ﷺ.

ب- قصة أصحاب الجنة «البستان»، لبيان نتيجة الكفر بنعم الله تعالى.

ج- الآخرة وأهوالها وشدائدها، وما أعدَّ الله للفريقين: المسلمين والمجرمين.

* ولكن المحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هو موضوع إثبات نبوة محمد ﷺ.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم على رفعة قدر الرسول ﷺ وشرفه وبرائه مما ألصقه به المشركون من اتهامه -وحاشاه- بالجنون، وبينت أخلاقه العظيمة، ومناقبه السامية ﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (١) مَا أَنْتَ بِعَمَةٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنْ لَكَ لَأَجْرٌ آخِرٌ مِمَّنْ وَنِ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿الآيات.

* ثم تناولت موقف المجرمين من دعوة رسول الله ﷺ، وما أعدَّ الله لهم من العذاب والنكال ﴿فَلَا تَطْعَمُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) وَلَا تَطْعَمُ كُلُّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ... ﴿الآيات.

* ثم ضربت مثلاً لكفار مكة في كفرانهم نعمة الله العظمى ببعثة خاتم الرسل ﷺ إليهم وتكذيبهم به بقصة أصحاب الجنة «الحديقة» ذات الأشجار والزروع والثمار، حيث جحدوا نعمة الله ومنعوا حقوق الفقراء والمساكين، فأحرق الله حديقتهم وجعل قصتهم عبرة للمعتبرين ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَنْوُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهِمُ طَائِفٌ مِّنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿الآيات.

* ثم قارنت السورة بين المؤمنين والمجرمين، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب ﴿فَتَجَعِلُ السَّامِعِينَ كَالْمُجْرِمِينَ... ﴿الآيات.

* وتناولت السورة الكريمة القيامة وأحوالها وأهوالها، وموقف المجرمين من ذلك اليوم العصيب، الذي يكلفون فيه بالسجود لرب العالمين فلا يقدرّون ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالصبر على أذى المشركين، وعدم التبرم والضجر بما يلقاه في سبيل تبليغ دعوة الله كما حدث من يونس عليه السلام حين ترك قومه وسارع إلى ركوب البحر ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿الآيات.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ يَا أَيَّتُكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تَطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تَطِعِ كُلَّ حَلَّافٍ مِثْلِهِنَّ ﴿١٠﴾ هُمَا زِمَاشٌ بَنِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عَتِلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تَنَتَّى عَلَيْهِ إِيْتْنَا قَالَاكَ اسْطِيرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمْهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْبَمُوا لَبَصْرٍ مِنْهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنْيْ أَعْدُوا عَلَى حَرْبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَرِيمِينَ ﴿٢٢﴾ فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْضِبُونَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَعَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَدِيرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ خَرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلْرَأْفَلُ لَكُمْ لَوْلَا تَسْتَحِينُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كُنَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَنْفَجَعَلُ الْمُتَسَلِّينَ كَالْجَرِيمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَخْفَوْنَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَنٌ عَلَيْنَا بَلِغَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنْ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلِّمَهُمْ أَتُهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَشِيعَةً أَنْصَرَّهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبُ يَهْدَا الْحَدِيثَ سَتَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنْ كِيدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْتَأْجُرُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْنِبْهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ

اللغة: ﴿يَسْطُرُونَ﴾ يكتبون، سَطَرَ العلم كتبه بالقلم ﴿مَمْنُونٍ﴾ مقطوع يقال: مننت الحبل إذا قطعته ﴿عَتِلٌ﴾ الغليل الجافي، السريع إلى الشر، مأخوذ من العتل وهو الجر ﴿خَذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ﴾ [الدخان: ٤٧] قال في الصحاح: عَتَلْتُ الرَّجُلَ إِذَا جَذَبْتَهُ جَذْبًا عَنِيفًا^(١) ﴿زَنِيمٍ﴾ الزنيم: الملقب بالقوم وليس منهم، وهو الدَّعِيُّ الذي لا يعرف أبوه قال الشاعر:

زَنِيمٌ لَيْسَ يُعْرِفُ مَنْ أَبُوهُ بَغْيِي الْأُمُّ ذُو حَسَبٍ لَيْمٍ^(٢)

﴿صَرِيمِينَ﴾ صرم الشيء قطعه، وصرم النخلة قطع ثمرها ﴿حَرْدٍ﴾ قصد وعزم ﴿زَعِيمٍ﴾ كفيل وضمين ﴿مَكْظُومٌ﴾ مملوء غيظًا وغما.

(١) الصحاح للجوهري مادة عتل.

(٢) تفسر القرطبي ١٨ / ٢٣٤.

التفسير: ﴿تَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ نون حرف من الحروف المقطعة، ذكر للتنبيه على إعجاز القرآن^(١).. أقسم تعالى بالقلم الذي يكتب الناس به العلوم والمعارف، فإن القلم أخو اللسان ونعمة من الرحمن على عباده والمعنى: أقسم بالقلم وما يكتبه الكاتبون على صدق محمد وسلامته مما نسب إليه المجرمون من السفه والجنون، وفي القسم بالقلم والكتابة إشادة بفضل الكتابة والقراءة، فالإنسان من بين سائر المخلوقات خصه الله بمعرفة الكتابة ليفصح عما في ضميره ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ ^(٢) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿[العلق: ٤٥] وحسبك دليلاً على شرف القلم أن الله أقسم به في هذه السورة تمجيذاً لشأن الكاتبين، ورفعاً من قدر أهل العلم، ففي القلم البيان كما في اللسان، وبه قوام العلوم والمعارف قال ابن كثير: والظاهر من قوله تعالى ﴿تَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أنه جنس من القلم الذي يكتب به، وهو قسم منه تعالى لتنبيه خلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم^(٣) ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ أي لست -يا محمد- بفضل الله وإنعامه عليك بالنبوة بمجنون، كما يقول الجهلاء المجرمون^(٤)، فأنت بحمد الله عاقل لا كما قالوا ﴿وَقَالُوا يَأْتِيهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] قال ابن عطية: هذا جواب القسم، وقوله ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ اعترض كما تقول للإنسان: أنت بحمد الله فاضل^(٥) ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي وإن لك ثواباً على ما تحملت من الأذى في سبيل تبليغ دعوة الله غير مقطوع ولا منقوص ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ أي وإنك يا محمد لعلی أدب رفيع جم وخلق فاضل كريم، فقد جمع الله فيك الفضائل والكمالات.. يا له من شرف عظيم، لم يدرك شأوه بشراً^(٦)، فرب العزة جل علا يصف محمداً بهذا الوصف الجليل ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وقد كان من خلقه ﷺ العلم والحلم، وشدة الحياء، وكثرة العبادة والسخاء، والصبر والشكر، والتواضع والزهد، والرحمة والشفقة، وحسن المعاشرة والأدب، إلى غير ذلك من الخلال العلية، والأخلاق المرصية^(٧) ولقد أحسن القائل:

(١) انظر التحقيق العلمي الذي كتبناه في أول سورة البقرة حول الحروف المقطعة.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٣٢.

(٣) (ش): روي أنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ: إنه لمجنون به شيطان؛ فنزلت: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ (ضعيف، ذكره السيوطي في «الدر المنثور»، و«لباب النقول» ونسبه لابن المنذر.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٣٠٧، قال أبو حيان: والآية كالدليل القاطع على صحة الدعوى لأن النعمة كانت ظاهرة في حقه عليه السلام من كمال الفصاحة والعقل والسيرة المرصية والاتصاف بكل مكرمة مما يكذب التهمة.

(٥) (ش): شأو: أمد، غاية.

(٦) أخرج الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي: أف قط، ولا قال لي لشيء فعلته؛ لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله؛ ألا فعلته؟ وكان ﷺ أحسن الناس خلقاً، وما مسست خزاً ولا حريراً، ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكاً ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ» أخرجه البخاري ومسلم، وفي البخاري عن عائشة لما سئلت عن خلقه ﷺ قالت: «كان خلقه القرآن» تعني =

إِذَا اللَّهُ أَثْنَى بِالَّذِي هُوَ أَهْلُهُ عَلَيْنِكَ فَمَا مِقْدَارُ مَا يَمْدُحُ الْوَرَى؟ ﴿فَسَبِّحْهُ وَبُحِّبْهُ﴾ أي فسوف ترى يا محمد، ويرى قومك ومخالفوك كفار مكة إذا نزل بهم العذاب ﴿يَأْتِيَكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ أي أيكم الذي فتن بالجنون؟ هل أنت كما يفترون، أم هم بكفرهم وانصرافهم على الهدى؟ قال القرطبي: والمفتون: المجنون الذي فتنه الشيطان، ومعظم السورة نزل في «الوليد بن المغيرة» و«أبي جهل»^(١) وقد كان المشركون يقولون: إن بمحمد شيطاناً، وعنوا بالمجنون هذا، فقال الله تعالى سيعلمون غداً بأيهم المجنون أي الشيطان الذي يحصل من مسه الجنون واختلاط العقل^(٢) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي هو سبحانه العالم بالشقي المنحرف عن دين الله وطريق الهدى ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي وهو العالم بالتقي المهتدي إلى الدين الحق، وهو تعليل لما قبله وتأكيده للوعد والوعيد كأنه يقول: إنهم هم المجانين على الحقيقة لا أنت، حيث كانت لهم عقول لم يتفتنوا بها، ولا استعملوها فيما ينجيهم ويسعدهم ﴿فَلَا تُطِيعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي فلا تطع رؤساء الكفر والضلال الذين كذبوا برسالتك وبالقرآن، فيما يدعونك إليه قال الرازي: دعاه رؤساء أهل مكة إلى دين آبائه، فنهاه الله أن يطيعهم، وهذا من الله إلهاب وتيسير للتشدد في مخالفتهم^(٣) ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ أي تمنوا لو تلين لهم يا محمد، وتترك بعض ما لا يرضونه مصانعة لهم، فيلينوا لك ويفعلوا مثل ذلك في التسهيل: المداينة: هي الملاينة والمدارة فيما لا ينبغي، روي أن الكفار قالوا للنبي ﷺ: لو عبدت آلهتنا لعبدنا إلهك فنزلت الآية^(٤) ﴿وَلَا تُطِيعِ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ أي ولا تطع يا محمد كثير الحلق بالحف والباطل، الذي يكثّر من الحلف مستهيناً بعظمة الله ﴿مُهَيِّنٍ﴾ أي فاجر حقير ﴿هَمَّازٍ﴾ أي مغتاب يأكل لحوم الناس بالطعن والعيب ﴿مَشَّاءٍ﴾ أي يمشي بالنميمة بين الناس، وينقل حديثهم ليوقع بينهم وهو الفتان، وفي الحديث الصحيح «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّاءٌ»^(٥) ﴿مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ أي بخيل ممسك عن الإنفاق في سبيل الله ﴿مُعْتَدٍ أُنِيعٍ﴾ أي ظالم متجاوز في الظلم والعدوان، كثير الآثام والإجرام، وجاءت الأوصاف ﴿حَلَّافٍ، هَمَّازٍ، مَشَّاءٍ، مَنَاعٍ﴾ بصيغة المبالغة للدلالة على الكثرة ﴿عُتْلٍ﴾ أي جاف غليظ،

= التأدب بآدابه. (ش): الخز: نسيج من حرير خالص. وكلام عائشة ؓ ليس في صحيح البخاري بل في صحيح مسلم.

(١) (ش): قيل: إنها نزلت في الوليد بن المغيرة، وقيل: في الأسود بن عبد يغوث، وقيل: في الأخنس بن شريق. وكلها أقوال في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٨ / ٢٢٩.

(٣) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠ / ٨٣.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤ / ١٣٨. (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٥) أخرجه مسلم.

قاسي القلب عديم الفهم ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي بعد تلك الأوصاف الذميمة التي تقدمت ﴿زَنِيمٍ﴾ أي ابن زنا، وهو أشدُّ معايبه وأقبحُها، أنه لصيق دَعِيٍّ ليس له نسبٌ صحيح قال المفسرون: نزلت في «الوليد بن المغيرة» فقد كان دَعِيًّا في قريش وليس منهم، ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة سنة، أي: تنباه ونسبه لنفسه بعد أن كان لا يُعرف له أب. قال ابن عباس: لا نعلم أحداً وصفه الله بهذه العيوب غير هذا، فألحق به عاراً لا يفارقه أبداً، وإنما ذمُّ بذلك لأن النطفة إذا خبث خبث الولد، وروي أن الآية لما نزلت جاء الوليد إلى أمه فقال لها: إن محمداً وصفني بتسع صفات، كلها ظاهرة في أعرفها غير التاسع منها يريد أنه ﴿زَنِيمٍ﴾ فإن لم تصدقني ضربت عنقك بالسيف، فقالت له: إن أباك كان عِيناً أي لا يستطيع معاشرَةَ النساء فحُفَّت على المال فمكَّنت راعياً من نفسي فأنت ابن ذلك الراعي، فلم يعرف أنه ابن زنا حتى نزلت الآية^(١) ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ أي لأن كان ذا مال وبنتين قال في القرآن ما قال، وزعم أنه أساطير الأولين؟^(٢) وكان ينبغي أن يقابل النعمة بالشكر لا بالجحود والتكذيب ﴿إِذَا تَلَّى عَلَيْهِ ابْنُنَا قَالَكُ اسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي إذا قرئت آيات القرآن على ذلك الفاجر قال مستهزئاً ساخراً: إنها خرافات وأباطيل المتقدمين اختلقها محمد ونسبها إلى الله، قال تعالى ردّاً عليه متوعداً له بالعذاب ﴿سَنَسِفُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ﴾ أي سنجعل له علامة على أنفه بالخطم عليه يعرف بها إلى موته، وكنى بالخرطوم عن أنفه على سبيل الاستخفاف به، لأن الخرطوم للفيول والخنزير، فإذا شبه أنف الإنسان به كان ذلك غاية في الإذلال والإهانة كما يعبر عن شفاه الناس بالمشافر، وعن أيديهم وأرجلهم بالأظلاف والحوافر^(٣)، قال ابن عباس: سنخطم أنفه بالسيف فنجعل ذلك علامة باقية على أنفه ما عاش، وقد خطم يوم بدر بالسيف^(٤). قال الإمام الفخر: لما كان الوجه

(١) انظر «تفسير الجلالين» وحاشية الصاوي عليه ٢٣٣/٤. (ش): لم أجده هذه القصة إلا في بعض التفاسير بدون إسناد. وعن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -: ﴿عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾؛ قال: «رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ لَهُ زَنْمَةٌ مِثْلُ زَنْمَةِ الشَّاةِ». (رواه البخاري). (زنمة) قطعة جلد أو لحم زائدة، كالأصبع الزائدة مثلاً. (زنمة الشاة) هي ما يقطع من أذننها ويترك معلقاً. وقيل: هي لحمة معلقة في عنقها. وفي رواية عنه ﷺ قال: نزل على النبي ﷺ: ﴿وَلَا تُطْعَمُ كُلُّ حَلَاظٍ مِهِينٍ﴾ (١٠) هَذَا مَشَاءٌ بَنِيمٍ، قال: فلم نعرفه حتى نزل على النبي ﷺ: ﴿بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾، فعرفناه له زنمة كزنمة الشاة. (حسن، رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره»).

(٢) اختار الطبري وابن كثير هذا المعنى أن الآية متعلقة بما بعدها أي لأنه ذو مال وبنتين يتكبر بماله وبنييه ويقول: إن القرآن خرافات وأباطيل. واختار غيرهما أن الآية متعلقة بما سبق أي لا تطعه بسبب كثرة ماله وولده، «تفسير الطبري» ١٨/٢٩.

(٣) (ش): مشفر: شفة البعير الغليظة. والجمع مشافرٌ. ظُلف: ظفر مشقوق، للبقرة والشاة والظبي ونحوهم، وهو بمنزلة الحافر للفرس والظفر للإنسان. حافر الدابة: ما يقابل القدم من الإنسان، والجمع حوافرٌ.

(٤) «تفسير الطبري» ١٨/٢٩. (ش): رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف. والخطم: الأثر على الأنف.

أكرم موضع الجسد، والأنف أكرم موضع في الوجه لارتفاعه عليه، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية واشتقوا منه الأنفة، وقالوا في الدليل: رَغِمَ أَنْفُهُ، فعَبَّرَ بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة، لأن السمة على الوجه شَيْنٌ^(١)، فكيف على أكرم موضع من الوجه^(٢)!! ثم ذكر تعالى قصة أصحاب الحديقة وما ابتلاهم تعالى به من إتلاف الزروع والثمار وضربه مثلاً لكفار مكة فقال ﴿إِنَّا بَلَوْتَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ أي إنا اختبرنا أهل مكة بالقحط والجوع بدعوة رسول الله ﷺ كما اختبرنا أصحاب البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه، وكلفنا أهل مكة أن يشكروا ربهم على النعم، كما كلفنا أصحاب الجنة أن يشكروا ويعطوا الفقراء حقوقهم قال المفسرون: كان لرجل مسلم بقرب صنعاء بستان فيه من أنواع النخيل والزروع والثمار، وكان إذا حان وقت الحصاد دعا الفقراء فأعطاهم نصيباً وافراً منه وأكرمهم غاية الإكرام. فلما مات الأب ورثه أبنائوه الثلاثة فقالوا: عيالنا كثير والمال قليل ولا يمكننا أن نعطي المساكين كما كان يفعل أبونا، فتشاوروا فيما بينهم وعزموا على ألا يعطوا أحداً من الفقراء شيئاً، وأن يجنوا ثمرها وقت الصباح خفية عنهم، وحلفوا على ذلك، فأرسل الله تعالى ناراً على الحديقة ليلاً أحرقت الأشجار وأتلفت الثمار، فلما أصبحوا ذهبوا إلى حديقتهم فلم يروا فيها شجراً ولا ثمرًا، فظنوا أنهم أخطئوا الطريق، ثم تبين لهم أنه بستانهم وحديقتهم وعرفوا أن الله تعالى عاقبهم فيها بنيتهم السيئة، فندموا وتابوا بعد أن فات الأوان^(٣) ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي حين حلفوا ليقطعن ثمرها وقت الصباح، قبل أن يخرج إليهم المساكين ﴿وَلَا يَسْتَنْوُونَ﴾ أي ولم يقولوا إن شاء الله حين حلفوا، كأنهم واثقون من الأمر ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ أي فطرقها طارقٌ من عذاب الله^(٤)، وهم في غفلة عما حدث لأنهم كانوا نياماً، قال الكلبي: أرسل الله عليها ناراً من السماء فاحترقت وهم نائمون ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ أي فأصبحت كالزرع المحصود إذا أصبح هشيماً يابساً قال ابن عباس: أصبحت كالرماد الأسود، قد حُرِّمُوا خير جنتهم بذنوبهم ﴿فَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ أي نادى بعضهم بعضاً حين أصبحوا ليمضوا على الميعاد إلى بستانهم ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَرِمِينَ﴾ أي اذهبوا مبكرين إلى ثماركم وزروعكم وأعنا بكم إن كنتم حاصدين للثمار تريدون قطعها ﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْشَوْنَ﴾ أي فانطلقوا نحو البستان وهم يخفون كلامهم خوفاً من أن يشعر بهم المساكين قائلين ﴿أَن لَّا يَدْخُلْنَا الْيَوْمَ عَلَىٰ مَوْسِكِينَ﴾ أي لا تدخلوا في هذا اليوم أحداً من الفقراء إلى البستان ولا تُمكنوه من الدخول ﴿وَعَدُوا عَلَىٰ حَرْثٍ قَدِيرٍ﴾ أي ومضوا على قصد وقدرة في أنفسهم يظنون

(١) (ش): شَيْنٌ: عَيْبٌ.

(٢) «تفسير الفخر الرازي» ٨٦/٣٠.

(٣) انظر «التفسير الكبير» للفخر الرازي ٨٧/٣٠، و«البحر المحيط» لأبي حيان ٨/٣١١.

(٤) (ش): طَرَقَ فلانُ القومَ: أتاهم ليلاً.

أنه تمكنوا من مرادهم قال ابن عباس: ﴿عَلَى حَرْوٍ﴾ على قدرة وقصد، وقال السدي: على حنق وغضب، وقال الحسن: على فاقة وحاجة^(١)، وقول ابن عباس أظهر ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ﴾ أي فلما رأوا حديقتهم سوداء محترقة، قد استحالت من النضارة والبهجة إلى السواد والظلمة، قالوا: لقد ضللنا الطريق إليها وليست هذه حديقتنا قال أبو حيان: كان قولهم ذلك في أول وصولهم إليها، أنكروا أنها هي واعتقدوا أنهم أخطئوا الطريق، ثم وضح لهم أنها هي وأنه أصابها من عذاب الله ما أذهب خيرها فقالوا عند ذلك^(٢) ﴿بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ﴾ أي لسنا مخطئين للطريق بل نحن محرومون، حُرِّمْنَا ثَمَرَهَا وخيرها بجنايتنا على أنفسنا ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلْقَا لَكُمْ لَوْلَا نُسَيِّحُونَ؟﴾ أي قال أعقلهم وأفضلهم رأيًا: هلا تسبحون الله فتقولوا «سبحان الله» أو «إن شاء الله» قال في البحر: نبههم ووبخهم على تركهم ما حضهم عليه من التسبيح، ولو ذكروا الله وإحسانه إليهم لامثلوا ما أمر به من مواساة المساكين، واقتفوا سنة أبيهم في ذلك، فلما غفلوا عن ذكر الله وعزموا على منع المساكين ابتلاهم الله^(٣) وقال الرازي: إن القوم حين عزموا على منع الزكاة واغتروا بمالهم وقوتهم، قال الأوسط لهم توبوا عن هذه المعصية قبل نزول العذاب، فلما رأوا حالة البستان ذكرهم بالكلام الأول، فاشتغلوا بالتوبة ولكن بعد خراب البصرة^(٤) ﴿قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي فقالوا حينئذ: تنزه الله ربنا عن الظلم فيما فعل، بل نحن كنا الظالمين لأنفسنا في منعنا حق المساكين ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَمُونَ﴾ أي يلوم بعضهم بعضًا يقول هذا أنت أشرت علينا بهذا الرأي، ويقول ذاك: بل أنت، ويقول آخر: أنت الذي خوفتنا الفقر ورغبتنا في جمع المال، فهذا هو التلاوم^(٥) ﴿قَالُوا وَيَلْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي قالوا يا هلاكنا وتعاستنا إن لم يغفر لنا ربنا، فقد كنا عاصين وباغين في منعنا الفقراء، وعد التوكل على الله، فقال الرازي: والمراد أنهم استعظموا جرمهم^(٦) ﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا﴾ أي لعل الله يعطينا أفضل منها بسبب توبتنا واعترافنا بخطيئتنا ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ أي فنحن راجون

(١) قال الطبري: وأولى الأقوال بالصواب قول من قال معناه: وَعَدُوا عَلَى أَمْرٍ قَدْ قَصَدُوهُ وَعَتَمَدُوهُ، وَاسْتَسْرَوْهُ بَيْنَهُمْ، قَادِرِينَ عَلَيْهِ، وهو ترجيح لقول ابن عباس وهو الذي اخترناه.

(٢) «البحر المحيط» ٣١٣/٨.

(٣) «التفسير الكبير» ٩٠/٣٠.

(٤) «التفسير الكبير» ٩٠/٣٠. (ش): بعد خراب البصرة: أحد الأمثال المشهورة، ويُضرب للذي يقوم بعمل ولكن بعد فوات الأوان، وأصل المثل ربما يعود إلى زمان الدولة العباسية عندما قاد أحد الزنوج ثورة على الخليفة العباسي «المعتد على الله»، فهاجم البصرة وأحرقها يوم ١٤ شوال سنة ٢٥٧هـ، وقُتل في هذه الواقعة عشرات آلاف من المسلمين، وبعد أربع عشرة سنة استرد الخليفة «الموفق» المدينة من الثوار الزنوج ولكن (بعد خراب البصرة).

(٥) «التفسير الكبير» ٩١/٣٠.

(٦) «التفسير الكبير» ٩١/٣٠.

كلمة سماحة الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين وبعد:

فقد أطلعني الأخ الأستاذ محمد علي الصابوني على شيء من كتابه الجديد «صفوة التفاسير» وهو كتاب تحرى فيه المؤلف ذكر أصح الآراء في تفسير كتاب الله تعالى مع الاختصار والسهولة، وإذا كان اختيار المرء قطعة من عقله، فإنه لا شك أن المؤلف وفق توفيقاً كبيراً في الاختيار من أمهات كتب التفسير التي رجع إليها على علم وبصيرة.

وليس هذا هو الكتاب الأول للمؤلف في موضوع القرآن الكريم فقد سبق أن اختصر كتاب «تفسير ابن كثير» وكان اختصاره لهذا الكتاب العظيم مفيداً نافعاً خلا من كل تعقيد.

ولقد اختص آيات الأحكام في القرآن الكريم بمؤلف مستقل سماه «روائع البيان في تفسير آيات الأحكام»، وهو كتاب يبين الأحكام في المرجع الأول لها وهو الكتاب الكريم.

وسبق أيضاً أن ألف في علوم القرآن الكريم تحت عنوان: «التبيان في علوم القرآن»، وها هو يتوج كل هذه الدراسات بكتاب نفيس هو زهور رائعة لكثير مما أنتجته قرائح أسلافنا رضوان الله عليهم في التفسير.

و نرجو الله سبحانه له التوفيق وأن يهدي سبحانه لكتابه ويهدي به إنه سميع قريب مجيب.

عبد الحليم محمود

شيخ الجامع الأزهر

مكة المكرمة ٢٧ صفر ١٣٩٦ هـ

٢٧ فبراير ١٩٧٦ م

كلمة سماحة الشيخ عبد الله بن حميد
رئيس مجلس القضاء الأعلى
الرئيس العام للإشراف الديني على المسجد الحرام

الحمد لله وحده، وبعد: بناء على طلب الأخ فضيلة الأستاذ الشيخ محمد علي الصابوني المدرس بجامعة الملك عبد العزيز كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة أن أكتب تقريراً لكتابته «صفوة التفاسير» بعد أن قرأ علي بنفسه بعض المواضع من هذا الكتاب ولم يتسع الوقت لسماعه كله.

فقد أجاد المؤلف وأفاد فيما سمعته من كتابه جزاه الله خيراً، كما اجتهد في جمعه واختار أصح الأقوال وأرجحها في تفسير كتاب الله وجمع في هذا التفسير بين المأثور والمعقول، بأسلوب واضح، وطريقة حديثة سهلة، يذكر بين يدي السورة خلاصة للمقاصد الأساسية لها. يوضح معاني الكلمات وبيان اشتقاقها. والمناسبة بين الآيات السابقة والآيات اللاحقة، ويبين السبب الذي نزلت من أجله الآيات. يبدأ بتفسير الآيات دون وجوه الإعراب، ويذكر الفوائد التي لها علاقة بالآيات والمستنبطة منها، ويوضح بيان الصور البيانية والنكات البلاغية.

نسأل الله لنا وله التوفيق والسداد وأن يعم النفع بهذا الكتاب ويجزي المؤلف على ما بذل من جهد. والله الموفق وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

عبد الله بن حميد
رئيس مجلس القضاء الأعلى
الرئيس العام للإشراف الديني على المسجد الحرام
١٣٩٧/٤/٧ هـ

كلمة سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي رئيس ندوة العلماء بلكنهو - الهند

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد كان الاتجاه العلمي السائد في عصور التأليف الإسلامي الأولى هو الاستيعاب الشامل لكل ما قيل وروي في الموضوع، فكانت كتب المؤلفين في التفسير، والحديث، والسيرة، والتاريخ أشبه بموسوعات علمية. وإن كانت لهذا الاتجاه والأسلوب الشائع فوائد أعظمها صيانة هذه الثروة العلمية من الضياع، وتمكين القارئ من اختيار ما هو أوفق وأقرب إلى ذوقه فقد أحدث مشكلة - خصوصاً في هذا العصر - وهي أن الطالب المبتدئ والمتوسط يحار في اختيار أقرب الأقوال إلى الصواب، ويتشتت ذهنه فلا يرسخ فيه قول واحد ويجد نفسه في غابة ملتفة من الأقوال والآراء والمذاهب، ولذلك مال كثير من المؤلفين في كل عصر إلى الانتقاء من هذه الكتب الموسوعية، واختيار أقرب الأقوال وأقواها، فكانت لهذه الكتب فائدة عظيمة وفضل كبير على طلبة العلم.

وكان هذا العصر من أحوج العصور إلى هذا الأسلوب من التأليف لقصر الوقت وضعف الهمم وتشتت الأذهان، لذلك كان صديقنا الفاضل فضيلة الشيخ محمد علي الصابوني موفقاً كل التوفيق في وضع كتابه «صفوة التفاسير» فقد وفر على طلبة علم التفسير وقتاً طويلاً وأخذ بيدهم إلى ما هو عبارة دراسته وخلاصة التفاسير، لا يقدر على ذلك إلا من توسعت دراسته وسلم ذوقه وحسنت ممارسته لفن التدريس، فاستحق بذلك شكر طلبة العلم والمشتغلين بفن التفسير جزاه الله خيراً وأثابه وتقبل عمله.

أبو الحسن علي الحسيني الندوي

مكة المكرمة

١٣٩٦/٤/٩ هـ

كلمة معالي الدكتور عبد الله عمر نصيف مدير جامعة الملك عبد العزيز

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على عبده ونبيه ورسوله نبينا الأمين، محمد بن عبد الله المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.
وبعد:

فإن أشرف ما يقدمه الباحثون، وأسمى ما يسعى إليه المؤلفون، في بحوثهم وتأليفهم، ما كان في خدمة القرآن العظيم، وعلومه الجليلة الزاهرة.. وشرف الإنسان بشرف الرسالة التي يحملها، والغاية التي يسعى من أجل تحقيقها.. وليس ثمة جهد يضاهي جهد العلماء، فإنهم مشاعل النور والضياء، في كل زمان ومكان، ولهذا رفع الله قدرهم، وأعلى شأنهم بقوله جل ثناؤه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]، وإن هذا العمل الجليل، الذي قام به فضيلة الأخ العزيز الشيخ محمد علي الصابوني أستاذ التفسير وعلوم القرآن بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة، من استخلاص لمجموعة من تفاسير القرآن الكريم، لعدد من جهاذة الأئمة المفسرين، لتكون في متناول العلماء وطلاب العلم على حد سواء، لهو توفيق من الله سبحانه وتعالى للمؤلف، فقد مكنه جل وعلا من تقديم هذه الكنوز العظيمة، في سفر واحد هو «صفوة التفاسير» ليسهل على الباحثين مهمة الاطلاع والفهم لكتاب الله عز وجل.

والله أسأل أن يثيب فضيلة المؤلف على عمله، وأن ينفع به المسلمين، وأن يجزيه عنهم خير الجزاء إنه ولي ذلك والقادر عليه، والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

الدكتور عبد الله عمر نصيف

مدير جامعة الملك عبد العزيز

جدة: ١٥ صفر ١٤٠٠ هـ

الموافق: ٣ يناير ١٩٨٠ م

كلمة سعادة الدكتور راشد بن راجح
عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد، لقد اطلعت على كتاب «صفوة التفاسير» لفضيلة الأستاذ محمد علي الصابوني وقرأت بعض صفحاته فألفيته كتاباً ثميناً حوى خلاصة ما قاله أئمة المفسرين ليسهل فهمه على طلبة العلم بأسلوب مبسط وعبارات ميسرة وإيضاحات جيدة مع العناية بالجوانب اللغوية والبيانية... فهو بذلك كتاب جيد يستحق الطبع والنشر لتعم الفائدة.

جزى الله مؤلفه خير الجزاء ونفع به الإسلام والمسلمين، إنه ولي ذلك والقادر عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل.

كتبه الفقير إلى عفو مولاه

راشد بن راجح الشريف

عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة

مكة المكرمة ١٥ / ١٠ / ١٣٩٦ هـ

كلمة فضيلة الشيخ عبد الله خياط
خطيب المسجد الحرام
كتاب صفوة التفاسير

كنت أجد في نفسي رغبة ملحة لتفسير للقرآن الكريم في متناول طالب العلم، يجمع ما تفرق في كتب التفسير المعتبرة، ويغنيه عن المراجع المطولة، ويعطيه فكرة واضحة عن لغة القرآن، وسبب النزول، ويسر له المعاني فيكون زاده وعدته، فكان كتاب «صفوة التفاسير» هو الضالة المنشودة والحلقة المفقودة، إذ قد عني مؤلفه فضيلة الشيخ محمد علي الصابوني بكل ما أشرت إليه مما حقق الرغبة، ولبى الحاجة. والله أسأل أن ينفع به ويأجر مؤلفه على ما بذله من جهد وتضحية، وصلى الله على خير خلقه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه^(١).

و كتبه الفقير إلى الله

عبد الله خياط

خطيب المسجد الحرام

في اليوم الخامس والعشرين من شهر شوال سنة ١٣٩٥ هجرية

(١) (ش): تراجع الشيخ عبد الله خياط عما كتبه في هذه المقدمة، فقد قال الشيخ محمد جميل زينو في كتابه «تنبيهات هامة على كتاب صفوة التفاسير ومخالفات هامة في مختصر تفسير ابن جرير الطبري» (ص ٣٨):

«وكتب فضيلة الشيخ عبد الله خياط استدراكًا لما سبق أن كتب موضوعًا سبب ذلك قائلًا: أما بعد: فقد كنت كتبت مقدمة وجيزة لكتاب: «صفوة التفاسير» بعد أن أطلعني مؤلفه الشيخ محمد علي الصابوني على ملزمة من ملازم الكتاب قبل طبعه وطلب إليّ كتابة مقدمة لهذا الكتاب، ولم يكن فيما اطلعت عليه شيء منتقد أو مردود. ولقد كانت المحاسن التي أشار إليها كاتب هذه التنبيهات الهامة النافعة الأخ الشيخ محمد بن جميل زينو في مطلع نقده سببًا باعثًا على كتابة تلك المقدمة. وقد كتبت هذه الكلمة إيضاحًا للحقيقة، وإبراءً للذمة، والله يتولانا برعايته وعنايته، وصلى الله على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه. كتبت في ٢٢ من شعبان ١٤٠٥ هـ».

كلمة فضيلة الشيخ محمد الغزالي رئيس قسم الدعوة وأصول الدين بكلية الشريعة بمكة المكرمة

الحمد لله أهل التقوى والمغفرة، والصلاة والسلام على منار العلم والهدى في الدنيا والآخره، وبعد:

فإن الثقافة القرآنية تحتاج إلى قلم سهل العبارة، فياض الأداء، بعيد عن المصطلحات الفنية، والمناقشات الفلسفية، همه الأكبر إبراز السياق السماوي، والوصول به إلى نفوس الجماهير دون تكلف أو التواء.

وقد نجح فضيلة الشيخ محمد علي الصابوني في تحقيق هذه الغاية، إذ يسر تفسير الكتاب العزيز، وجمع في تفسيره جملاً من أقوال الأئمة تتضمن خلاصات علمية وأدبية جعلته غنياً بالحقائق، والحكم النافعة. وقد لاحظنا أن الشيخ محمد علي الصابوني قرن في تفسيره بين كثير من مآثورات السلف واجتهادات الخلف، أي: إنه جمع بين المنقول والمعقول - كما يقولون - فيستطيع القارئ أن يرى أمامه اللونين معاً، وأن ينتفع بخير ما في الطريقتين. كما لاحظنا أن التفاسير الأخرى قد تجنح إلى أحد الطرفين، فإما إيجاز شديد أو إطناب لا يطيقه العصر، ولكن الشيخ محمد علي الصابوني - جزاه الله خيراً - استطاع أن يتوسط في مسلكه العلمي فأفاد وأجمل كما ابتعد عن الشطط الذي وقع فيه البعض حين جازف بذكر نظريات علمية أو أحاديث نبوية لا بد في سوقها من التثبت والتمحيص. نفع الله به وشرح الصدور له وجزاه عن الأمة كل خير.

محمد الغزالي

رئيس قسم الدعوة وأصول الدين بكلية الشريعة بمكة المكرمة

في ٦/٤/١٣٩٦ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله الذي أثار قلوب عباده المتقين بنور كتابه المبين، وجعل القرآن شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وأشرف المرسلين، سيدنا محمد النبي العربي الأمين، الذي فتح الله به أعيناً عمياً، وآذاناً صمماً، وقلوباً غلفاً^(١)، وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور، صلاة وسلاماً دائمين إلى يوم البعث والنشور وعلى آله الطيبين الأطهار، وأصحابه الهادين الأبرار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فلا يزال القرآن الكريم بحرًا زاخرًا بأنواع العلوم والمعارف، يحتاج من يرغب الحصول على لآلئه ودرره، أن يغوص في أعماقه، ولا يزال القرآن يتحدى أساطين البلغاء^(٢)، ومصاقيع العلماء^(٣) بأنه الكتاب المعجز، المنزل على النبي الأمي شاهدًا بصدقه، يحمل بين دفتيه برهان كماله، وآية إعجازه، ودليل أنه تنزيل الحكيم العليم: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٣٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٣٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء].

وعلى كثرة ما كتب العلماء وألفوا - وعلى كثرة ما تحويه المكتبة الإسلامية من أسفار ضخمة، وكتب نفيسة، خدم بها العلماء كتاب الله الجليل - يبقى القرآن زاخرًا بالعجائب، مملوءًا بالدرر والجواهر، بما يبهّر العقول ويحير الألباب، بما فيه من الإشراقات الإلهية، والفيوضات القدسية، والنفحات النورانية، بما هو كفيلاً لتخليص الإنسانية، من شقاء الحياة وجحيمها المستعر... وكل علم شاط واحترق^(٤) إلا «علم التفسير» فإنه لا يزال بحرًا لجياً^(٥)، يحتاج إلى من يغوص في أعماقه، لاستخراج كنوزه الثمينة، واستنباط روائعه وأسراره، ولا يزال العلماء يقفون عند ساحله، يرتشفون من معينه الصافي ولا يرتوون... ومن ذا الذي يستطيع أن يحيط علمًا بكلام رب العزة جل وعلا، وأن يدرك أسرارهِ، ودقائقهِ، وإعجازه! وأن يزعم أنه أوفى أو وصل إلى درجة الكمال!

(١) (ش): الْقَلْبُ الْأَغْلَفُ هو قَلْبُ الْكَافِرِ لَأَنَّهُ دَاخِلٌ فِي غُلَافِهِ، وَغُشَائِهِ، فَلَا يَصِلُ إِلَيْهِ نُورُ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى حَاكِيًا عَنِ الْيَهُودِ: ﴿وَقَالُوا أَفَلَوْبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨]، فَهُوَ قَلْبٌ مَغْلَفٌ فِي أَغْلَافَةِ الْكُفْرِ لَا يَسْمَعُ الْحَقَّ وَلَا يَفْهَمُهُ، وَهَذِهِ الْأَغْلَافَةُ عَقُوبَةُ مَنْ أَلْهَى سَبَبُ الْإِعْرَاضِ عَنِ الْحَقِّ وَعَدَمُ اتِّبَاعِ الرِّسَالِ.

(٢) (ش): (أَسَاطِينُ الْعِلْمِ أَوْ الْأَدَبِ) الثَّقَاتُ الْمُبَرِّزُونَ فِيهِ. وَأَسَاطِينُ الزَّمَانِ حِكْمَاؤُهُ. مَفْرَدُهُ أَسْطُونٌ مَعْرَبٌ (أُسْتُونٌ) الْفَارْسِيَّةُ.

(٣) (ش): (مَصَاقِيْعُ) لَمْ أَجِدْهَا فِي كُتُبِ اللُّغَةِ، وَلَعَلَّ الصَّوَابَ (مَصَاقِعُ): جَمْعُ (مِصْقَعٍ) وَهُوَ الْبَلِيغُ. يُقَالُ: الْخَطِيبُ الْمِصْقَعُ، أَيِ الْبَلِيغُ الْمَاهِرُ فِي خُطْبَتِهِ.

(٤) (ش): شَاطُ وَاحْتَرَقَ: أَيِ كَادَ أَنْ يَسْتَوْفِيَ حَقَّهُ مِنَ الْبَحْثِ وَالدراسة.

(٥) (ش): (الْبَحْرُ الْجَيِّ) : الْبَحْرُ الْعَمِيقُ الْوَاسِعُ.

إنه الكتاب المعجز، الذي سيظل يمنح الإنسانية، من علومه ومعارفه، ومن أسرارهِ وحكمه، ما يزيدهم إيماناً وإذعاناً بأنه «المعجزة الخالدة» للنبي العربي الأمي محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وإنه تنزيل الحكيم الحميد.

وإذا كان المسلم قد اضطرته الدنيا ليشغل وقته في تحصيل معاشه، وضاعت أيامه عن الرجوع إلى التفاسير الكبيرة، التي خدم بها أسلافنا -رضوان الله عليهم- كتاب الله تعالى، تبياناً وتفصيلاً لآياته، وإظهاراً لبلاغته، وإيضاحاً لإعجازه، وإبراراً لما حواه الكتاب المجيد من تشريع وتهذيب، وأحكام وأخلاق، وتربية وتوجيه... فإن من واجب العلماء اليوم أن يبذلوا جهدهم لتيسير فهمه على الناس، بأسلوب واضح، وبيان ناصع، لا حشو فيه ولا تطويل، ولا تعقيد ولا تكلف، وأن يبرزوا ما في القرآن من روعة الإعجاز والبيان، بما يتفق وروح العصر الحديث، ويلبي حاجة الشباب المثقف، المتعطش إلى التزود من علوم ومعارف القرآن الكريم.

ولم أجد تفسيراً لكتاب الله ﷻ -على ما وصفت- رغم الحاجة إليه، وسؤال الناس عنه، ورغبتهم فيه، فعزمت على القيام بهذا العمل، رغم ما فيه من مشقة وتعب، واحتياجه لوقت لا يتاح في هذا الزمان، مستعيناً بالله الكريم، متوكلاً عليه، سائلاً إياه أن يعينني على إتمام هذا الواجب، وأن يوفقتي لإخراجه بشكل يليق بكتاب الله تعالى، يعين المسلم على فهم آيات القرآن، والتزود من بيانه، ما يزيده إيماناً و يقيناً، ويدفعه إلى العمل الجاد الموفق إلى مرضاة الرب جل وعلا.

وقد أسميت كتابي «صفوة التفاسير» وذلك لأنه جامع لعيون ما في التفاسير الكبيرة المفصلة^(١)، مع الاختصار والترتيب، والوضوح والبيان، وكلّي أمل أن يكون اسمه مطابقاً لمسماه، وأن تستفيد منه الأمة الإسلامية، بما يوضح لها السبيل الأقوم، والصرط المستقيم. وقد سلكت في طريقي لتفسير الكتاب العزيز الأسلوب الآتي:

أولاً: بين يدي السورة، وهو بيان إجمالي للسورة الكريمة وتوضيح مقاصدها الأساسية.

ثانياً: المناسبة بين الآيات السابقة والآيات اللاحقة.

ثالثاً: اللغة مع بيان الاشتقاق اللغوي والشواهد العربية.

رابعاً: سبب النزول.

خامساً: التفسير.

سادساً: البلاغة.

سابعاً: الفوائد واللطائف.

وقد مكثتُ في تأليف هذا التفسير خمس سنوات، أوصل فيه الليل بالنهار، وما كنت أكتب

(١) (ش): ولكن منها ما استنكره العلماء على المؤلف، راجع مقدمة محقق الكتاب.

شيئاً حتى أقرأ ما كتبه المفسرون في أمهات كتب التفسير الموثوقة^(١)، مع التحري الدقيق لأصح الأقوال وأرجحها، وإنني أشكر المولى جل وعلا أن سهل لي هذا العمل، فقد كنت أشعر أن الزمن يطوى لي، وكل ذلك بركات جوار البيت العتيق الذي أكرمني الله وشرفني بجواره، منذ أن انتدبت للتدريس بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة عام ألف وثلاثمائة وواحد وثمانين من هجرة سيد المرسلين.

والله تعالى أسأل أن يسدد خطاي، ويجزل لي الثواب يوم المآب، فما عملت إلا أملاً بنيل رضاه، راجياً منه أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم، ويبقيه ذخراً لي يوم الدين، وأرجو ممن قرأ فيه فاستفاد أن يخصني بدعوة صالحة تنفعني يوم المعاد، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

مكة المكرمة - غرة ذي الحجة ١٣٩٩ هـ.

وكتبه الفقير إلى عفو ربه

محمد علي الصابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

مكة المكرمة - جامعة الملك عبد العزيز

(١) (ش): هذه التفاسير منها ما هو غير موثق، راجع مقدمة محقق الكتاب.

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

مكية وآياتها اثنتا عشرة ومائة

بين يدي السورة

هذه السورة مكية وهي تعالج موضوع العقيدة الإسلامية في ميادينها الكبيرة «الرسالة، الوحداية، البعث والجزاء» وتتحدث عن الساعة وشدائدها، والقيامة وأهوالها، وعن قصص الأنبياء والمرسلين.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن غفلة الناس عن الآخرة، وعن الحساب والجزاء، بينما القيامة تلوح لهم وهم في غفلة عن ذلك اليوم الرهيب، وقد شغلهم مغريات الحياة عن الحساب المرقوب.

* ثم انتقلت إلى الحديث عن المكذبين، وهم يشهدون مصارع الغابرين، ولكنهم لا يعتبرون ولا يتعظون، حتى إذا ما فاجأهم العذاب، رفعوا أصواتهم بالتضرع والاستغاثة ولكن هيهات.

* وتناولت السورة دلال القدرة في الأنفس والآفاق لتنبه على عظمة الخالق المدبر الحكيم، فيما خلق وأبدع، ولتربط بين وحدة الكون، ووحدة الإله الكبير.

* وبعد عرض الأدلة والبراهين، الشاهدة على وحدانية رب العالمين، تذكر السورة حال المشركين وهم يتلقون الرسول عليه السلام بالاستهزاء والسخرية والتكذيب، وتعقب على بذلك بسنة الله الكونية في إهلاك الطغاة المجرمين.

* ثم تناول السورة الكريمة قصص بعض الرسل، وتحدثت بالإسهاب عن قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه الوثنيين، في أسلوب مشوق، فيه من نصاعة البيان، وقوة الحجة والبرهان ما يجعل الخصم يقر بالهزيمة في خنوع واستسلام، وفي قصته عبر وعظات.

* وتتابع السورة الحديث عن الرسل الكرام فتتحدث عن «إسحاق، ويعقوب، ولوط، ونوح، ودادود، وسليمان، وأيوب، وإسماعيل، وإدريس، وذو الكفل، وذو النون، وزكريا، وعيسى» بإيجاز مع بيان الأهوال والشدائد التي تعرضوا لها، وتختتم ببيان رسالة سيد المرسلين محمد بن عبد الله المرسل رحمة للعالمين.

التسمية: سميت «سورة الأنبياء» لأن الله تعالى ذكر فيها جملة من الأنبياء الكرام في استعراض سريع، يطول أحياناً ويقصر أحياناً، وذكر جهادهم وصبرهم ونصيحتهم في سبيل الله، وتفانيهم في تبليغ الدعوة لإسعاد البشرية.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُجَدِّدٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِ بِأَيِّهِ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ ﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرِيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَانَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَوْمَلْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَا تَخَذْنَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ

اللغة: ﴿أَضْغَتْ﴾ أخلاط جمع ضِغث وهي الأهويل^(١) التي يراها الإنسان من منامه ﴿قَصَمْنَا﴾ القصم: كسر الشيء الصلب يقال: قصمت ظهره وانقصمت سنه إذا انكسرت ﴿يَرْكُضُونَ﴾ الركض: العدو بشدة^(٢)، والركض ضرب الدابة بالرجل حثا على العدو ﴿خَامِدِينَ﴾ خمدت النار طفت والخمود الهمود ويراد به الموت تشبيهاً بخمود النار ﴿يَدْمَغُهُ﴾ دَمَغَهُ: أصاب دماغه نحو كبده ورأسه أصاب كبده ورأسه ﴿يَسْتَحْسِرُونَ﴾ يَعْيُونَ

(١) (ش): الهول: الإفزع والتخويف. والجمع أهوال وجمع الجموع أهويل. كَأَفْوِيلَ جَمَعَ أَفْوَالٌ وَأَفْوَالٌ جَمَعَ قَوْل. قَالَ ﷺ: «إِنَّ الرُّؤْيَا ثَلَاثُ: مِنْهَا أَهْوِيلٌ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ بِهَا ابْنُ آدَمَ، وَمِنْهَا مَا يَهْمُ بِهِ الرَّجُلُ فِي يَقَظَتِهِ فَيَرَاهُ فِي مَنَامِهِ، وَمِنْهَا جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوَّةِ». (رواه ابن ماجه، وصححه الألباني). وقال المؤلف في تفسير سورة يوسف: ﴿أَضْغَتْ أَحْلَامٌ﴾ أي أخلاط رؤيا كاذبة لا حقيقة لها.

(٢) (ش): العدو: الجري.

مأخوذ من الحسیر وهو البعیر المنقطع بالإعیاء والتعب.

التفسير: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ أي قرب ودنا وقت حساب الناس على أعمالهم ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ أي وهم مستغرقون في الشهوات، غافلون عن ذلك اليوم الرهيب، لا يعملون للآخرة ولا يستعدون لها كقول القائل:

النَّاسُ فِي غَفْلَاتِهِمْ وَرَحَا الْمَنِيَّةِ تَطْحَنُ^(١)

وإنما وصف الآخرة بالاقتراب لأن كل ما هو آتٍ قريب ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ﴾ أي ما يأتيهم شيء من الوحي والقرآن من عند الله متجدد في النزول فيه عظة لهم وتذكير^(٢) ﴿إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي إلا استمعوا القرآن مستهزئين قال الحسن: كلما جدد لهم الذكر استمروا على الجهل^(٣) ﴿لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي ساهية قلوبهم عن كلام الله، غافلة عن تدبر معناه ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي تناجى المشركون فيما بينهم سرا ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي قالوا فيما بينهم خفية هل محمد الذي يدعى الرسالة إلا شخص مثلكم يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟ ﴿أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَالْأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي أفتقبلون السحر وأنتم تعلمون أنه سحر؟ قال الألوسي: أرادوا أن ما أتى به محمد عليه السلام من قبيل السحر، وذلك بناء على ما ارتكز في اعتقادهم أن الرسول لا يكون إلا ملكا وأن كل ما جاء به من الخوارق من قبيل السحر وعنوا بالسحر القرآن^(٤) ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي قال محمد ﷺ: إن ربي لا يخفى عليه شيء مما يقال في السماء والأرض ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع بأقوالكم، العليم بأحوالكم، وفي هذا تهديد لهم ووعد ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْطَمُ﴾ هذا إضراب^(٥) من جهته تعالى وانتقال إلى ما هو أشنع وأقبح حيث قالوا عن القرآن: إنه أخلاط منامات ﴿بَلْ أَفْتَرْتَهُ﴾ أي اختلقه محمد من تلقاء نفسه ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ أي بل محمد شاعر وما أتى به شعر يخيل للسامع

(١) البيت لأبي العتاهية كذا في ابن كثير ٥٠١ / ٢. (ش): الرَّحَا: أداة يُطْحَنُ بها، وهي حَجَرَانِ مُسْتَدِيرَانِ يُوضَعُ أحدهما على الآخر ويُدار الأعلى على قُطْب. المَنِيَّةُ: الموت، الوفاة.

(٢) (ش): (مُحَدَّث) في الأصل من (الْحُدُوثِ) وهو كَوْنُ الشَّيْءِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، والقرآن العَظِيمُ حِينَ كَانَ يَنْزَلُ، كَانَ كُلَّمَا نَزَلَ مِنْهُ شَيْءٌ كَانَ جَدِيدًا عَلَى النَّاسِ، لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَهُ مِنْ قَبْلُ، فَهُوَ مُحَدَّثٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى النَّاسِ، لَا تَرَاهُ قَالَ: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ﴾؟ فَهُوَ مُحَدَّثٌ إِلَيْهِمْ حِينَ يَأْتِيهِمْ. وَأَمْرُ اللَّهِ: قَوْلُهُ وَكَلَامُهُ، وَهُوَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، مُحَدَّثٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْعِبَادِ، أَيْ: جَدِيدٌ عَلَيْهِمْ، فَلَيْسَ الْمُحَدَّثُ هُنَا هُوَ الْمَخْلُوقُ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي أُنْزِلَ جَدِيدًا، فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ يُنْزِلُ الْقُرْآنَ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، فَالْمُنْزَلُ أَوَّلًا هُوَ قَدِيمٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُنْزِلِ آخِرًا، وَكُلُّ مَا تَقَدَّمَ عَلَى غَيْرِهِ فَهُوَ قَدِيمٌ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ.

(٣) «تفسير القرطبي» ١١ / ٢٦٨.

(٤) الألوسي ٩ / ١٧.

(٥) (ش): الإضراب: الانْتِقَالُ مِنْ مَعْنَى إِلَى مَعْنَى آخَرٍ هُوَ فِي الْغَالِبِ أَهَمُّ فِي تَقْدِيرِ الْمُرَادِ.

أنه كلام رائع مجيد قال في «التسهيل»: حكى عنهم هذه الأقوال الكثيرة ليظهر اضطراب أمرهم وبطلان أقوالهم فهم متحIRON لا يستقرون على شيء^(١) ﴿فَلْيَأْتِنَا بَشَايَةً كَمَا أَرْسَلْنَا الْأَوَّلُونَ﴾ أي فليأتنا محمدٌ بمعجزة خارقة تدل على صدقه كما أرسل موسى بالعصا وصالح بالناقة ﴿مَاءَ أَمْنَتٍ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي ما صدق قبل مشركي مكة أهل القرى الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات بل كذبوا فأهلكهم الله أفصدق هؤلاء بالآيات لو رأوها؟ كلا. قال أبو حيان: وهذا استبعاد وإنكار، أي: هؤلاء أعتى من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات فلو أعطيناهم ما اقترحوا لكانوا أضل من أولئك واستحقوا عذاب الاستئصال ولكن الله تعالى حكم بإبقائهم لعلهم أنه سيخرج منهم مؤمنون^(٢) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ أي وما أرسلنا قبلك يا محمد إلا رسلاً من البشر لا ملائكة فكيف ينكر هؤلاء المشركون رسالتك ويقولون: ما هذا إلا بشر مثلكم؟ ﴿فَتَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي فاسألوا يا أهل مكة العلماء بالتوراة والإنجيل هل كان الرسل الذين جاءوهم بشراً أم ملائكة إن كنتم لا تعلمون ذلك؟ ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ أي ما جعلنا الأنبياء أجساداً لا يأكلون ولا يشربون كالملائكة بل هم كسائر البشر يأكلون ويشربون، وينامون ويموتون ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ أي ما كانوا مخلدين في الدنيا لا يموتون ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ﴾ أي ثم صدقنا الأنبياء ما وعدناهم به من نصرهم وإهلاك مكذبيهم وإنجائهم مع أتباعهم المؤمنين ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ أي وأهلكنا المكذبين للرسول، المجاوزين الحد في الكفر والضلال، وهذا تخويف لأهل مكة ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ اللام للقسم، أي: والله لقد أنزلنا إليكم يا معشر العرب كتاباً عظيماً مجيداً لا يماثله كتاب فيه شرفكم وعزكم لأنه بلغتكم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تعقلون هذه النعمة فتؤمنون بما جاءكم به محمد عليه السلام؟ ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أي وكثيراً أهلكنا من أهل القرى الذين كفروا بآيات الله وكذبوا رسله ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أي وخلقنا أمة أخرى بعدهم ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي فلما رأوا عذابنا بحاسة البصر وتيقنوا نزوله إذا هم يهربون فارين منهزمين قال أبو حيان: لما أدركتهم مقدمة العذاب ركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين^(٣) ﴿لَّا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ أي تقول لهم الملائكة استهزاء: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب وارجعوا إلى ما

(١) «التسهيل» ٢٣/٣.

(٢) «البحر المحيط» ٦/٢٩٨.

(٣) «البحر المحيط» ٦/٣٠٢.

كنتم فيه من النعمة والسرور ولين العيش ﴿وَمَسْكِنُكُمْ﴾ أي ارجعوا إلى مساكنكم الطيبة ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لعلكم تسألون عما جرى عليكم، وهذا كله من باب الاستهزاء والتوبيخ ﴿قَالُوا يَوَلَّيْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي قالوا: يا هلاكنا ودمارنا إنا كنا ظالمين بالإشراك وتكذيب الرسل، اعترفوا وندموا حين لا ينفعهم الندم ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ أي فما زالت تلك الكلمات التي قالوها يكررونها ويرددونها ﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ﴾ أي حتى أهلكناهم بالعذاب وتركناهم مثل الحصيد موتى كالزروع المحصود بالمناجل ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ﴾ أي لم نخلق ذلك عبثاً وباطلاً وإنما خلقناهما دلالة على قدرتنا ووحدانيتنا ليعتبر الناس ويستدلوا بالخلق على وجود الخالق المدبر الحكيم ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا﴾ قال ابن عباس: هذا ردُّ على من قال: اتخذ الله ولداً. والمعنى لو أردنا أن نتخذ ما يتلهى به من زوجة أو ولد ﴿لَا تَخْذَنْهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ أي لا تخذناه من عندنا من الحور العين أو الملائكة ﴿إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ﴾ أي لو أردنا فعل ذلك لا تخذنا من لدنا ولكنه منافع للحكمة فلم نفعله ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ أي بل نرمي بالحق المبين على الباطل المتزعزع فيقمعه ويبطله ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي هالك تالف ﴿وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ أي ولكم يا معشر الكفار العذاب والدمار من وصفكم الله تعالى بما لا يجوز من الزوجة والولد ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي وله جل وعلا جميع المخلوقات ملكاً وخلقاً وتصرفاً فكيف يجوز أن يشرك به ما هو عبدٌ ومخلوق له؟ ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي والملائكة الذين عبدتموهم من دون الله لا يتكبرون عن عبادة مولاهم ولا يعيرون ولا يملئون ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْترُونَ﴾ أي هم في عبادة دائمة ينزهون الله عما لا يليق به ويصلون ويذكرون الله ليل نهار لا يضعفون ولا يسأمون ﴿أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ لما ذكر الدلائل على وحدانيته وأن من في السماوات والأرض ملكٌ له وأن الملائكة المقربين في طاعته وخدمته عاد إلى ما كان عليه من توبيخ المشركين وذمهم وتسفيه أحلامهم، و﴿أَمْ﴾ منقطع بمعنى بل والهمزة فيها استفهام معناه التعجب والإنكار. والمعنى هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض قادرين على إحياء الموتى؟ كلا بل اتخذوا آلهة جماداً لا تتصف بالقدرة على شيء فهي ليست بآلهة على الحقيقة لأن من صفة الإله القدرة على الإحياء والإماتة ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ هذا برهان على وحدانيته تعالى أي لو كان في الوجود آلهة غير الله لفسد نظام الكون كله لما يحدث بين الآلهة من الاختلاف والتنازع^(١) في الخلق والتدبير

(١) قال المفسرون: في الآية دليل على التمانع الذي أورده الأصوليون وذلك أنا لو فرضنا إلهين فأراد أحدهما =

وقصد المغالبة، ألا ترى أنه لا يوجد ملكان في مدينة واحدة، ولا رئيسان في دائرة واحدة؟ ﴿فَسُبْحَنَّ اللَّهَ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزه الله الواحد الأحد خالق العرش العظيم عما يصفه به أهل الجهل من الشريك والزوجة والولد ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ أي لا يسأل تعالى عما يفعل لأنه مالك كل شيء والمالك يفعل في ملكه ما يشاء، ولأنه حكيم فأفعاله كلها جارية على الحكمة، وهم يسألون عن أعمالهم لأنهم عبيد ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ كرر هذا الإنكار استعظاماً للشرك ومبالغة في التوبيخ أي هل اتخذوا آلهة من دون الله تصلح للعبادة والتعظيم؟ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي قل يا محمد لأولئك المشركين اتقوني بالحجة والبرهان على ما تقولون ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي﴾ أي هذا الكتاب الذي معي والكتب التي من قبلي كالتوراة والإنجيل ليس فيها ما يقتضي الإشراف بالله، ففي أي كتاب نزل هذا؟ في القرآن أم في الكتب المنزلة على سائر الأنبياء؟ فما زعمتموه من وجود الآلهة لا تقوم عليه حجة لا من جهة العقل ولا النقل، بل كتب الله السابقة شاهدة بتنزيهه عن الشركاء والأنداد ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي بل أكثر المشركين لا يعلمون التوحيد فهم معرضون عن النظر والتأمل في دلائل الإيمان.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - التنكير في ﴿غفلة﴾ للتعظيم والتفخيم ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾.
- ٢ - صيغة المبالغة ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.
- ٣ - الإضراب الترقّي ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمٌ بَلْ أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ وهذا الاضطراب في وصف القرآن يدل على التردد والتحير في تزويرهم للحق الساطع المنير فقولهم الثاني أفسد من الأول، والثالث أفسد من الثاني.
- ٤ - الإنكار التوبيخي ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟
- ٥ - التشبيه البليغ ﴿حَصِيدًا خَمِدِينَ﴾ أي جعلناهم كالزراع المحصود وكالنار الخامدة.
- ٦ - الاستعارة التمثيلية ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ شبه الحق بشيء صلب والباطل بشيء رخو. واستعير لفظ القذف والدمغ لغلبة الحق على الباطل بطريق التمثيل فكأنه رمي بجرم صلب على رأس دماغ الباطل فشقه وفي هذا التعبير مبالغة بديعة في إزهاق الباطل.
- ٧ - طباق السلب ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾.

= شيئاً وأراد الآخر نقيضه، فإما أن تنفذ إرادة كل منهما وذلك محال لاستحالة اجتماع النقيضين، وإما أن تنفذ إرادة واحد منهما دون الآخر فيكون الأول الذي تنفذ إرادته هو الإله، والثاني عاجز فلا يصح أن يكون إلهاً.

٨ - التبيكيت وإلقام الحجر للخصم ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾.

فائدة: سئل كعب عن الملائكة كيف يسبحون الليل والنهار لا يفترون؟ أما يشغلهم شأن، أما تشغلهم حاجة؟ فقال للسائل: يا ابن أخي جعل لهم التسييح كما جعل لكم النفس، ألسنت تأكل وتشرب، وتقوم وتجلس، وتجيء وتذهب وأنت تتنفس؟ فكَذَلِكَ جُعِلَ لَهُمُ التَّسِيحُ^(١).

قال الله تعالى:

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ حَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَذِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ يَنْخَلِثُونَ إِلَّا هُزُوا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْنِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبَهِتَهُمُ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَنَعْنَا هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَنْوِيلُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا

مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانِ وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ أَلْسَاعَةِ مُسْخَفُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ

المناسبة: لما بين تعالى أحوال المشركين وأقام الأدلة والبراهين على وحدانية الله وبطلان تعدد الالهة، ذكر هنا أن دعوة الرسل جميعاً إنما جاءت لبيان التوحيد ثم ذكر بقية الأدلة على قدرة الله ووحدانيته في هذا الكون العجيب.

اللغة: ﴿رَتَقًا﴾ الرتق: الضمُّ والالتحام وهو ضد الفتق يقال: رتقتُ الشيء فارتق أي التأم ومنه الرتقاء للمنضمة الفرج ﴿تَمِيدُ﴾ تتحرك وتضطرب ﴿فَجَاجًا﴾ جمع فَجَّ وهو المسلك والطريق الواسع ﴿يُسَيِّحُونَ﴾ يجرون ويسيرون بسرعة كالسباح في الماء ﴿فَتَبَهَّتْهُمْ﴾ تدهشهم وتحيرهم قال الجوهري: بهته بهتاً أخذته بغته وقال الفراء: بهته إذا واجهه بشيء يحيّره ^(١) ﴿يَكُلُّوْكُمْ﴾ يحرسكم ويحفظكم والكلاءة: الحراسة والحفظ. **سبب النزول:** مرَّ النبي ﷺ على أبي سفيان وأبي جهل وهما يتحدثان، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال لأبي سفيان: هذا نبيُّ بني عبد مناف!! فغضب أبو سفيان وقال: ما تنكر أن يكون لبني عبد مناف نبيٌّ؟ فرجع رسول الله ﷺ إلى أبي جهل وقال له: ما أراك منتهياً حتى يصيبك ما أصاب عمك الوليد بن المغيرة فنزلت ﴿وَإِذَا رَأَوْاكَ كُفِرُوا بِكَ يَتَخَذُونَكَ إِلَٰهَ هُزُوًا﴾ ^(٢) الآية.

التفسير: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ﴾ أي وما بعثنا قبلك يا محمد رسولا من الرسل ﴿إِلَّا نُوْحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ أي إلا أوحينا إليه أنه لا رب ولا معبود بحق سوى الله ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ أي فاعبدوني وحدي وخصوني بالعبادة ولا تشرکوا معي أحداً ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ أي قال المشركون اتخذ الله من الملائكة ولداً قال المفسرون: هم حيٌّ من خزاعة قالوا: الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَنَهُ﴾ أي تنزه الله وتقدس عما يقول الظالمون ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أي بل هم عبادٌ مبجلون اصطفاهم الله فهم مكرمون عنده في منازل عالية، ومقامات سامية وهم في غاية الطاعة والخضوع ﴿لَا يَسْقُفُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ أي لا يقولون شيئاً حتى يقوله شأنهم شأن العبيد المؤدبين وهم بطاعته وأوامره يعملون لا يخالفون ربه في أمرٍ من الأوامر ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي علمه تعالى محيط بهم لا يخفى عليه منهم خافية ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْضَىٰ﴾ أي لا يشفعون يوم القيامة إلا لمن رضي الله عنه وهم أهل الإيمان كما قال ابن عباس: هم أهل

(١) «تفسير القرطبي» ١١/ ٢٩٠.

(٢) «روح المعاني» ١٧/ ٤٨. (ش): ضعيف، ذكره السيوطي في «الدر المنثور» و«الباب النقول» ونسبه لابن أبي حاتم.

شهادة لا إله إلا الله ﴿وَهُمْ مِّنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ أي وهم من خوف الله ورهبته خائفون حذرون لأنهم يعرفون عظمة الله قال الحسن: يرتعدون من خشية الله ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِيَّاكَ إِلَهُ مِّنْ دُونِهِ﴾ أي يقل من الملائكة: إني إله ومعبود مع الله ﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ أي فعقوبته جهنم قال المفسرون: هذا على وجه التهديد وعلى سبيل الفرض والتقدير لأن هذا شرط والشرط لا يلزم وقوعه والملائكة معصومون ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الشديد نجزي من ظلم وتعدى حدود الله ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ استفهام توبيخ لمن ادعى مع الله آلهة ورد على عبدة الأوثان، أي: أولم يعلم هؤلاء الجاحدون أن السماوات والأرض كانتا شيئاً واحداً ملتصقتين ففصل الله بينهما ورفع السماء إلى حيث هي وأفر الأرض كما هي؟ قال الحسن وقادة: كانت السماوات والأرض ملتزقتين ففصل الله بينهما بالهواء^(١) وقال ابن عباس: كانت السماوات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت ففتق هذه بالمطر، وهذه بالنبات^(٢) ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أي جعلنا الماء أصل كل الأحياء وسبيلاً للحياة فلا يعيش بدونه إنسان ولا حيوان ولا نبات ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي أفلا يصدقون بقدرة الله^(٣)؟ ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي جعلنا في الأرض جبالاً ثوابت لئلا تتحرك وتضطرب فلا يستقر لهم عليها قرار ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي وجعلنا في هذه الجبال مسالك وطرقاً واسعة كي يهتدوا إلى مقاصدهم في الأسفار قال ابن كثير: جعل في الجبال ثغراً يسلكون فيها طرقاً من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، كما هو المشاهد في الأرض يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه فيجعل الله فيها فجوةً ليسلك الناس فيها من هاهنا إلى هاهنا^(٤) ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ أي جعلنا السماء كالسقف للأرض محفوظة من الوقوع والسقوط وقال ابن عباس: حفظت بالنجوم من الشياطين ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِنَا مُعْرِضُونَ﴾ أي والكفار عن الآيات الدالة على وجود الصانع وقدرته من الشمس والقمر والنجوم وسائر الأدلة والعبر معرضون^(٥) لا يتفكرون فيما أبدعته يد القدرة من الخلق العجيب والتنظيم الفريد الدال على الحكمة البالغة والقدرة

(١) «تفسير القرطبي» ١١ / ٢٨٣.

(٢) «زاد المسير» ٥ / ٣٤٨.

(٣) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح.

(٤) «المختصر» ٢ / ٥٠٧.

(٥) (ش): هذا التعبير غير سليم، لأن الكفار يُقَرُّون بوجود الله وإنما يشركون معه غيره في العبادة، فالآيات حجة عليهم في بطلان الشرك في العبادة، وهم مُعْرِضُونَ عما تدل عليه من وجوب إفراد الله بالعبادة.

الباهرة قال القرطبي: بيّن تعالى أن المشركين غفلوا عن النظر في السماوات وآياتها، من ليلاً ونهارها، وشمسها وقمرها، وأفلاكها ورياحها، وما فيها من القدرة الباهرة إذ لو نظروا واعتبروا لعلموا أن لها صانعاً قادراً واحداً يستحيل أن يكون له شريك^(١) ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي وهو تعالى بقدرته نوع الحياة فجعل فيها ليلاً ونهاراً هذا في ظلامه وسكونه، وهذا بضياءه وأنسه، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى وبالعكس، وخلق الشمس والقمر آيتين عظيمتين دالتين على وحدانيته ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي كل من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار يجرون ويسيرون بسرعة كالسباح في الماء ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ﴾ أي وما جعلنا لأحد من البشر قبلك يا محمد البقاء الدائم والخلود في الدنيا ﴿أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ أي فهل إذا مت يا محمد سيخلدون بعدك في هذه الحياة؟ لا لن يكون لهم ذلك بل كل إلى الفناء قال المفسرون: هذا ردُّ لقول المشركين ﴿شَاعَرُ نَزْبِصُ بِهِ رَبِّبُ الْمُنُونِ﴾ [الطور: ٣٠] فأعلم تعالى بأن الأنبياء قبله ماتوا وتولى الله دينه بالنصر والحيطة، فهكذا تحفظ دينك وشرعك ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ أي كل مخلوق إلى الفناء ولا يدوم إلا الحي القيوم ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ أي ونختبركم بالمصائب والنعم لنرى الشاكرين من الكافر، والصابر من القانط قال ابن عباس: نبتليكم بالشدة والرخاء، ولا صحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال^(٢) وقال ابن زيد: نختبركم بما تحبون لنرى كيف شكركم، وبما تكرهون لنرى كيف صبركم^(٣)!! ﴿وَالَّذِينَ تَرَجُّعُونَ﴾ أي وإلينا مرجعكم فنجازيكم بأعمالكم ﴿وَإِذَا رَأَوْا الْآيَاتِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّهُمْ يَخْذَلُونَكَ إِلَّا هُزُوا﴾ أي إذا رأوك كفار قريش كأبي جهل وأشياعه ما يتخذونك إلا مهزوءاً به يقولون ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ استفهام فيه إنكار وتعجيب أي هذا الذي يسب آلهتكم ويُسفه أحلامكم؟ ﴿وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أي وهم كافرون بالله ومع ذلك يستهزئون برسول الله قال القرطبي: كان المشركون يعيبون من جحد إلهية أصنامهم وهم جاحدون لإلهية الرحمن، وهذا غاية الجهل^(٤) ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أي رُكب الإنسان على العجلة فخلق عجولاً يستعجل كثيراً من الأشياء وإن كانت مُضِرَّة قال ابن كثير: والحكمة في ذكر عجلة الإنسان هاهنا أنه لما

(١) «تفسير القرطبي» ١١ / ٢٨٥.

(٢) «المختصر» ٢ / ٥٠٨.

(٣) «ابن الجوزي» ٥ / ٣٥٠.

(٤) «تفسير القرطبي» ١١ / ٢٨٨.

ذكر المستهزئين بالرسول ﷺ وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلوا ذلك^(١) ولهذا قال ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي سأوريكم انتقامي واقتداري على من عصاني فلا تتعجلوا الأمر قبل أوانه ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي ويقول المشركون على سبيل الاستهزاء والسخرية: متى هذا العذاب الذي يعدنا به محمد إن كنتم يا معشر المؤمنين صادقين فيما أخبرتمونا به قال تعالى ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُوتُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ أي لو عرف الكافرون فظاعة العذاب حين لا يستطيعون دفع العذاب عن وجوههم وظهورهم لأنه محيط بهم من جميع جهاتهم لما استعجلوا الوعيد قال في البحر: وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف لأنه أبلغ في الوعيد وأهيب^(٢) وقدّره الزمخشري بقوله: كما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ولكن جهلهم هو الذي هوّنهم عندهم^(٣) ﴿وَلَا هُمْ يُصْرُونَ﴾ أي لا ناصر لهم من عذاب الله ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي بل تأتيهم الساعة فجأة فتدهشهم وتحيرهم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي فلا يقدرون على صرفها عنهم ولا يمهلون ويؤخرون لتوبة واعتذار ﴿وَلَقَدْ آسَفْنَاهُ لِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسلياً لرسول الله ﷺ عن استهزاء المشركين أي والله لقد استهزئ برسول أولي شأن خطير وذوي عدد كثير من قبلك يا محمد ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي فنزل وحلّ بالساحرين من الرسل العذاب الذي كانوا يستهزئون به قال أبو حيان: سلاه تعالى بأن من تقدّمه من الرسل وقع من أممهم الاستهزاء بهم، وأن ثمرة استهزائهم جنّوها هلاكاً وعقاباً في الدنيا والآخرة فكذلك حال هؤلاء المستهزئين: ﴿قُلْ مَن يَكْلُوْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرِّحْمَنِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين: من يحفظكم من بأس الرحمن في أوقاتكم؟ ومن يدفع عنكم عذابه وانتقامه إن أراد إنزاله بكم؟ وهو سؤال تقريع وتنبية كيلا يغتروا بما نالهم من نعم الله ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾ أي بل هؤلاء الظالمون معرضون عن كلام الله ومواعظه لا يتفكرون ولا يعتبرون ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا﴾ أي ألهم آلهة تمنعهم من العذاب غيرنا؟ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي

(١) «المختصر» ٥٠٨/٢.

(٢) (ش): أي أشد في التحذير والتخويف.

(٣) «البحر المحيط» ٣١٣/٦. (ش): قال الزمخشري في «تفسيره» (١١٨/٣): «لو يعلمون الوقت الذي يستعلمون عنه بقولهم ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ وهو وقت صعب شديد تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام، فلا يقدرون على دفعها ومنعها من أنفسهم، ولا يجدون ناصراً ينصرهم، كما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال، ولكن جهلهم به هو الذي هوّنهم عندهم.

(٤) «البحر المحيط» ٣١٤/٦.

لا يقدرّون على نصر أنفسهم، فكيف ينصرون عابديهم؟ ﴿وَلَا هُمْ مَتَّاعِيصُ حُبُوتٍ﴾ أي وليست هذه الآلهة تستطيع أن تجير نفسها من عذاب الله لأنها في غاية العجز والضعف قال ابن عباس: يُصحبون: يُجارون أي لا يُجبرهم منا أحد لأن المجير صاحب لجاره^(١) ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أي متعنا هؤلاء المشركين وآباءهم من قبلهم بما رزقناهم من حطام الدنيا حتى طالت أعمارهم في رخاء ونعمة وحسبوا أن ذلك يدوم فاغترّوا بذلك ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي أفلا ينظرون فيعتبرون بأننا نأتي أرضهم فننقصها من أطرافها بالفتح على النبي وتسليط المسلمين عليها^(٢)؟ ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ استفهام بمعنى التقرّيع والإنكار أي أفهم الغالبون والحالة هذه أم المغلوبون؟ بل هم المغلوبون الأخسرون الأرذلون ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ أي قل لهم يا محمد إنما أخوّفكم وأحذّرکم ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ من الله لا من تلقاء نفسي، فأنا مبلغ عن الله ما أنذرتكم به من العذاب والنكال ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ أي ولكنكم أيها المشركون لشدة جهلكم وعنادكم كالصم الذين لا يسمعون الكلام والإنذار فلا يتعظون ولا ينزعجون ﴿وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ أي ولئن أصابهم شيء خفيف مما أنذروا به من عذاب الله ولو كان يسيراً ﴿لَيَقُولُنَّ يَنْوِيلُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي ليعترفن بجريمتهم ويقولون: يا هلاكنا لقد كنا ظالمين لأنفسنا بتكذيبنا رسل الله ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ أي ونقيم الموازين العادلة التي توزن بها الأعمال في يوم القيامة ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أي فلا يُنقص محسنٌ من إحسانه، ولا يُزاد مسيءٌ على إساءته ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِنْ ثِقَالٍ حَبْكَةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ أي وإن كان العمل الذي عملته زنة حبة من خردل جثا بها وأحضرناها قال «أبو السعود»: أي وإن كان في غاية القلة والحقارة، فإن حبة الخردل مثل في الصغر^(٣) ﴿وَكُفِّنَّا بِهَا حَسِيِينَ﴾ أي كفى بربك أن يكون محصياً لأعمال العباد مجازياً عليها قال الخازن: والغرض منه التحذير فإن المحاسب إذا كان في العلم بحيث لا يمكن أن يشبه عليه شيء، وفي القدرة بحيث لا يعجز عن شيء فحقيق بالعاقل أن يكون

(١) «زاد المسير» ٣٥٣/٥.

(٢) (ش): (أتى): تأتي بعدة معان، منها: بمعنى المَجِيء، ومنها بمعنى الإنذار، ومنها بمعنى المَدَاهِمَةِ. وَيُقَالُ: أَتَيْتُ فَلَانٌ بِضَمِّ الهمزة وَكَسْرِ التاء إِذَا أَظَلَّ عَلَيْهِ الْعَدُوُّ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: «مِنْ مَأْمَنَةٍ يَأْتِي الْحَذَرُ». أَمَّا مَعْنَى الْآيَةِ، فَإِنَّ سِيَاقَ الْقُرْآنِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مِثْلَ هَذَا السِّيَاقِ لَيْسَ مِنْ بَابِ الصِّفَاتِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَقْصَى اللَّهُ بَيْنَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾، أَيْ هَدَمَهُ وَأَقْتَلَعَهُ مِنَ قَوَاعِدِهِ، وَنَظِيرُهُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَنزَلْنَاهُمْ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾. أي أَخَذَهُمْ وَدَهَأَهُمْ وَبَاغَتْهُمْ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا. [انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٨/ ١٨)].

(٣) «أبو السعود» ١٢٤/٣.

على أشدّ الخوف منه^(١) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ التَّوْرَةَ الْفَارِقَةَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ نُورًا وَضِيَاءً وَتَذَكِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ﴿أَيُّ هُمَ الَّذِينَ يَخَافُونَ اللَّهَ وَلَمْ يَرَوْهُ لَأَنَّهُمْ عَرَفُوا بِالنَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ أَنَّ لَهُمْ رَبًّا عَظِيمًا قَادِرًا يَجَازِي عَلَى الْأَعْمَالِ فَهُمْ يَخْشَوْنَهُ وَإِنْ لَمْ يَرَوْهُ﴾^(٢) ﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أَيُّ هُمَ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَشِدَائِهَا خَائِفُونَ وَجُلُونَ ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أَيُّ هَذَا الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ كِتَابٌ عَظِيمُ الشَّأْنِ فِيهِ ذِكْرٌ لِمَنْ تَذَكَّرَ، وَعِظَةٌ لِمَنْ اتَّعَظَ، كَثِيرُ الْخَيْرِ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكُمْ بَلَّغْتِكُمْ ﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ أَيُّ أَفَأَنْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ مَنْكُرُونَ لَهُ وَهُوَ فِي غَايَةِ الْجَلَاءِ وَالظُّهُورِ؟ قَالَ الْكَرْحِيُّ: الْاسْتِفْهَامُ لِلتَّوْبِيخِ وَالْخَطَابُ لِأَهْلِ مَكَّةَ فَإِنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ اللِّسَانِ يُدْرِكُونَ مَزَايَا الْكَلَامِ وَلَطَائِفَهُ، وَيَفْهَمُونَ مِنْ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ مَا لَا يَدْرِكُهُ غَيْرُهُمْ مَعَ أَنَّ فِيهِ شَرَفَهُمْ وَصِيَّتَهُمْ فَلَوْ أَنْكَرَهُ غَيْرُهُمْ لَكَانَ لَهُمْ مَنَاصِبَتُهُ وَعِدَاؤُهُ^(٣).

البَلَاغَةُ: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

- ١ - جناس الاشتقاق ﴿أَرْسَلْنَا.. رَّسُولٍ﴾.
- ٢ - الاستفهام الذي معناه التعجب والإنكار ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.
- ٣ - الطباق بين الرتق والفتق في قوله ﴿كَانَنَا رَتَقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾.
- ٤ - التنكير للتعميم ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِلشَّرِّ﴾.
- ٥ - الالتفات من المتكلم إلى الغائب ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ بعد قوله

(١) «حاشية الجمل» ١٣١/٣.

(٢) (ش): إن المؤمنين المتقين يخافون الله ربهم - مع أنهم لم يَرَوْهُ - لأنهم آمنوا به وبملائكته وكتبه ورسوله وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره. إن معظم الناس عرفوا بالنظر والاستدلال أن لهم رباً عظيماً قادراً ومع ذلك لم يؤمنوا بالله الإيمان الصحيح، ولو كانوا يخشون ربهم لآمنوا. قال عن المشركين: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْنَاهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]. إن دلائل معرفة الله متنوعة، منها الفطرية، والعقلية، والشرعية، والحسية. فوجود الله تعالى معروف بالعقل. وقد أمر الله تعالى بالتفكير في خلق السماء والأرض، وهذا التفكير إنما يتم بالعقل، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الروم: ٨] وكون الله تعالى موصوفاً بكل كمال، ومنزهاً عن كل نقص معروف أيضاً بالعقل. ولكن هذه المعرفة معرفة إجمالية، وأما المعرفة التفصيلية: فلا تتم إلا بالشرع، فبه تُعرف أسماؤه تعالى الحسنی، وصفاته العلی، إذ الإنسان لا يعرف ربه بأسمائه، وصفاته، وأفعاله، على وجه التفصيل إلا بما جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب.

(٣) انظر «البحر المحيط» ٦/ ٣١٢. (ش): صيئت: سُمِعَتْ، ذُكِّرَ حَسَنٌ يَتَشَرُّ فِي النَّاسِ. (فلو أنكره غيرهم لكان لهم مناصبته وعداؤه): أي لو أن غير أهل مكة أنكره لكان للاتق بأهل مكة أن يعادوهم؛ لأن فيه شرفهم وصيتهم.

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ وذلك لتأكيد الاعتناء بالنعم الجليلة التي أنعم بها على العباد.

٦ - الطباق بين الشر والخير ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ﴾.

٧ - المبالغة ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ جعل لفرط استعجاله كأنه مخلوق من نفس العَجَل كقول العرب لمن لازم اللعب: هو من لعب، وكوصف بعضهم قومًا بقوله «نساؤهم لعبٌ ورجالهم طربٌ».

٨ - الاستعارة ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ﴾ استعار الصُّمَّ للكفار لأنهم كالبهائم التي لا تسمع الدعاء ولا تفقه النداء.

٩ - الكناية ﴿حَبَسَكُم مِّنْ خَرَدَلٍ﴾ كناية عن العمل ولو كان في غاية القلة والحقارة.

١٠ - السجع اللطيف ﴿يَهْتَدُونَ، يُسْحَبُونَ، يُنْصَرُونَ﴾ إلخ.

تنبيه: سئل ابن عباس: هل الليل كان قبل أو النهار؟ فقال: رأيتم إلى السماوات والأرض حين كانتا رتقًا هل كان بينهما إلا ظلمة؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار^(١).

لطيفة: عن ابن عمر أن رجلاً أتاه يسأله عن السماوات والأرض كانتا رتقًا ففتقناهما فقال له: إذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله ثم تعال فأخبرني بما قال لك - يريد ابن عباس - فذهب إليه فسأله فقال ابن عباس: كانت السماوات رتقًا لا تمطر، وكانت الأرض رتقًا لا تُنبِت، فلما خلق للأرض أهلاً فتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات، فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره فقال ابن عمر: قد كنت أقول: ما يعجبني جراءة ابن عباس في تفسير القرآن، فالآن علمتُ بأنه قد أوتي في القرآن علمًا^(٢).

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مِنْ فَعَلٍ هَذَا بَالِغَتَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِلَهْتِنَا يَبْنَؤُا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٥٠٦/٢.

(٢) نفس المرجع السابق والصفحة.

تُكْسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا إِذْ أَنَا بَنِيَّ حُكْمًا وَعَلَّمَا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَثَوًّا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَجَعَلْنَاهُ وَآلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنَحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِنَا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَغْوُصُّ لَهُ، وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ

المناسبة: لما ذكر تعالى الدلائل على التوحيد والنبوة والمعاد أتبع ذلك بذكر قصص الأنبياء، وما نال كثيراً منهم من الابتلاء تسلياً للرسول الأعظم ﷺ ليتأسى بهم في الصبر واحتمال الأذى في سبيل الله تعالى، وتوطين النفس على مجابهة المشركين أعداء الله.

اللغة: ﴿رُشِدُهُ﴾ هُذَاهُ إِلَى وَجْهِهِ الصَّلَاحُ ﴿الْتِمَاسُ﴾ جمع تمثال وهو الصورة المصنوعة مشبهة بمخلوق من مخلوقات الله تعالى يقال: مثلت الشيء بالشيء أي شبيته به واسم ذلك الممثل تمثال ﴿جُدُذًا﴾ فتاتاً والجذ: الكسر والقطع قال الشاعر:

بَنُو الْمُهَلَّبِ جَذَّ اللَّهُ دَابِرَهُمْ
أَمْسَوْا رَمَادًا فَلَا أَصْلَ وَلَا طَرَفُ ^(١)

﴿تُكْسُوا﴾ النكس: قلب الشيء بحيث يصير أعلاه أسفل ﴿نافلة﴾ زيادة، ومنه النفل لأنه زيادة على فرض الله ويقال لولد الولد: نافلة لأنه زيادة على الولد ﴿الْكَرْبِ﴾ الغم الشديد ﴿نَفَسَتْ﴾ النفس: الرعي بالليل بلا راع يقال: نفست بالليل، وهملت بالنهار إذا رعت بلا راع.

التفسير: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ أي والله لقد أعطينا إبراهيم هُذَاهُ وصلاحه إلى

وجوه الخير في الدين والدنيا ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من صغره حيث وفقناه للنظر والاستدلال إلى وحدانية ذي الجلال ﴿وَكُنَّا بِهِ عَلِيمِينَ﴾ أي عالميَّاهُ أهل لما آتياه من الفضل والنبوة ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ هذا بيان للرشد الذي أُوتيه إبراهيم من صغره أي حين قال لأبيه آزر وقومه المشركين: ما هذه الأصنام التي أنتم مقيمون على عبادتها؟ وفي قوله ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾ تحقير لها وتصغير لشأنها وتجاهل بها مع علمه بتعظيمهم لها ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ أي نعبدتها تقليداً لأسلافنا قال ابن كثير: لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلال ^(١) ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي لقد كنتم وأسلافكم الذين عبدوا هذه الأصنام في خطأ بين بعبادتكم إياها إذ هي جمادات لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنْ اللَّعِينِينَ﴾ أي هل أنت جادٌ فيما تقول أو لاعب؟ وهل قولك حق أم مزاح؟ استعظموا إنكاره عليهم، واستبعدوا أن يكون ما هم عليه ضلالاً، وجوزوا أن ما قاله على سبيل المزاح لا الجد، فأضرب عن قولهم وأخبر أنه جادٌ فيما قال غير لاعب ﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ﴾ أي ربكم الجدير بالعبادة هو ربُّ السماوات والأرض الذي خلقهنَّ وأبدعهنَّ لا هذه الأصنام المزعومة ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي وأنا شاهد لله بالوحدانية بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة كالشاهد الذي تُقَطِّعُ به الدَّعَاوى ﴿وَتَاللَّهِ لَا كِيدَ لَأَٰصْنَمِكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ﴾ أي وأقسمُ بالله لأُمكننَّ بالهتكُم وأحتالنَّ في وصول الضر إليها بعد ذهابكم عنها إلى عيدكم قال المفسرون: كان لهم عيد يخرجون إليه في كل سنة ويجتمعون فيه فقال آزر لإبراهيم: لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا! فخرج معهم إبراهيم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض وقال: إني سقيم أشتكى رجلي فتركوه ومضوا ثم نادى في آخرهم ﴿وَتَاللَّهِ لَا كِيدَ لَأَٰصْنَمِكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ﴾ فسمعها رجلٌ فحفظها ^(٢) ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا﴾ أي كسر الأصنام حتى جعلها فتاتاً وحطاماً ﴿إِلَّا كَيْدًا لَهُمْ﴾ أي إلا الصنم الكبير فإنه لم يكسره قال مجاهد: ترك الصنم الأكبر وعلّق الفأس الذي كسره به الأصنام في عنقه ليحتجّ به عليهم ^(٣) ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أي لعلهم يرجعون إلى الصنم فيسألونه عمن كسر الأصنام فيتبين لهم عجزه وتقوم الحجة عليهم ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ في الكلام محذوفٌ تقديره: فلما رجعوا من عيدهم ونظروا إلى آلهتهم ورأوا ما فُعل بها قالوا على جهة البحث والإنكار والتشنيع والتوبيخ: إن من

(١) «المختصر» ٥١١/٢.

(٢) «تفسير الخازن» ٢٤١/٣.

(٣) «تفسير القرطبي» ٢٩٨/١١.

حَطَّمْ هذه الآلهة لشديد الظلم العظيم الجُرْمُ^(١) لجراءته على الآلهة المستحقة للتعظيم والتوقير ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ أي قال من سمع إبراهيم يقول ﴿وَتَاللَّهِ لَا كِيدَ لَأَصْنَمِكُمْ﴾ سمعنا فتى يذكرهم بالذم ويسبهم ويعيبهم يسمى إبراهيم فلعله هو الذي حَطَّمْ الآلهة ﴿قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ أي قال نمرود وأشراف قومه: أحضروا إبراهيم بمرأى من الناس حتى يروه، والغرض أن تكون محاكمته على رؤوس الأشهاد بحضرة الناس كلهم ليكون عقابه عبرة لمن يعتبر ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي لعلهم يحضرون عقابه ويرون ما يصنع به ﴿قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بَالِهَتِنَا يَا ابْنِ هَٰؤُلَاءِ هَلْ آتَاكَ إِلَّا جُرْمٌ﴾ أي هل أنت الذي حَطَّمْتَ هذه الآلهة يا إبراهيم؟ ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ أي قال: إبراهيم بل حَطَّمَهَا الصنم الكبير لأنه غضب أن تعبدوا معه هذه الصغار فكسرها، والغرض تبكيثهم وإقامة الحجة عليهم ولهذا قال ﴿فَسَكُّوهُمْ إِنْ كَانَُوا يُنْطِقُونَ﴾ أي اسألوا هذه الأصنام من كسرها؟ إن كانوا يقدرون على النطق قال القرطبي: والكلام خرج مخرج التعريض وذلك أنهم كانوا يعبدونهم ويتخذونهم آلهة من دون الله كما قال إبراهيم لأبيه: ﴿لَمْ تَعْبُدُوا مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢] فقال إبراهيم ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ ليقولوا: إنهم لا ينطقون ولا ينفعون ولا يضررون فيقول لهم فلم تعبدونهم؟ فتقوم عليهم الحجة منهم كما يجوز فرض الباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحق من نفسه فإنه أقرب في الحجة وأقطع للشبهة^(٢) ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي رجعوا إلى عقولهم وتفكروا بقلوبهم ﴿فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي أنتم الظالمون في عبادة ما لا ينطق ﴿ثُمَّ نَكَّسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ أي انقلبوا من الإذعان إلى المكابرة والطغيان ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ أي قالوا في لجاجهم وعنادهم: لقد علمت يا إبراهيم أن هذه الأصنام لا تتكلم ولا تجيب فكيف تأمرنا بسؤالها؟ وهذا إقرار منهم بعجز الآلهة، وحيث توجّهت لإبراهيم الحجة عليهم فأخذ يوبخهم ويعنفهم ﴿فَكَالَ أَفْتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ أي أتعبدون جمادات لا تضر ولا تنفع؟ ﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي قبحاً لكم ونتاجاً لكم وللأصنام التي عبدتموها من دون الله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تعقلون قبح صنيعكم؟ ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ لَمَّا لَزِمَتْهُمْ الحجة وعجزوا عن الجواب عدلوا إلى البطش والتنكيل فقالوا: احرقوا إبراهيم بالنار انتقاماً لآلهتكم ونصرة لها ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَعَلِينَ﴾ أي إن كنتم ناصريها حقاً ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي ذات برد وسلامة وجاءت العبارة هكذا للمبالغة قال

(١) (ش): جُرْمٌ: ذنب، خطأ.

(٢) «تفسير القرطبي» ١١ / ٣٠٠.

المفسرون: لما أرادوا إحراق إبراهيم جمعوا له حطباً مدة شهر حتى كانت المرأة تمرض فتتذر إن عوفيت أن تحمل حطباً لحرق إبراهيم، ثم جعلوه في حفرة من الأرض وأضرموها ناراً فكان لها لهب عظيم حتى إن الطائر ليمر من فوقها فيحترق من شدة وهجها وحرها، ثم أوثقوا إبراهيم وجعلوه في منجنيق ورموه في النار، فجاء إليه جبريل فقال: ألك حاجة؟ قال أما إليك فلا، فقال جبريل: فاسأل ربك، فقال: «حسبي من سؤالي علمه بحالي» فقال الله: يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم^(١)، ولم تحرق النار منه سوى وثاقه وقال ابن عباس: لو لم يقل الله ﴿وَسَلِّمًا﴾ لأذى إبراهيم بردها^(٢) ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ أي أرادوا تحريقه بالنار ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ﴾ أي أخسر الناس وأخسر من كل خاسر حيث كادوا لنبي الله فرد الله كيدهم في نحورهم ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ أي ونجينا إبراهيم مع ابن أخيه لوط حيث هاجرا من العراق إلى الشام التي بارك الله فيها بالخصب وكثرة الأنبياء ووفرة الأنهار والأشجار قال «ابن الجوزي»: وبركتها أن الله عز وجل بعث أكثر الأنبياء منها وأكثر فيها الخصب والأنهار^(٣) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ أي أعطينا إبراهيم - بعدما سأل ربه الولد - إسحاق وأعطيناه كذلك يعقوب نافلة أي زيادة وفضلاً من غير سؤال قال المفسرون: سأل إبراهيم ربه ولداً فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة زيادة على ما سأل لأن ولد الولد كالولد ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ أي وكلاً من إبراهيم وإسحاق ويعقوب جعلناه من أهل الخير والصلاح ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي جعلناهم قدوة ورؤساء لغيرهم يرشدون الناس إلى الدين بأمر الله ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ أي أوحينا إليهم أن يفعلوا الخيرات ليجمعوا بين العلم والعمل ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ أي وأمرناهم بطريق الوحي بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وإنما خصهما بالذكر لأن الصلاة أفضل العبادات البدنية، والزكاة أفضل العبادات المالية ﴿وَكُنَّا عَيْنِينَ﴾ أي موحيين مخلصين في العبادة ﴿وَلُوطًا أَيْنَتْهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي وأعطينا لوطاً النبوة والعلم والفهم السديد قال ابن كثير: كان لوط قد آمن بإبراهيم عليه السلام وتبعه وهاجر معه كما قال تعالى ﴿فَعَاَمَنَ

(١) «تفسير القرطبي» ٣٠٣/١١ (ش): قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (١/ ٧٤): (حسبي من سؤالي علمه بحالي): «لا أصل له. أوردته بعضهم من قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهو من الإسرائيليات ولا أصل له في المرفوع، وقد ذكره البغوي في تفسير سورة الأنبياء مشيراً لضعفه فقال: رُوي عن كعب الأحبار: أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما رموا به في المنجنيق إلى النار استقبله جبريل. عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كَانَ آخِرَ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ: «حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ». رواه البخاري.

(٢) «المختصر» ٥١٤/٢.

(٣) «زاد المسير» ٣٦٨/٥.

لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ﴿٢٦﴾ [العنكبوت: ٢٦] فَآتَاهُ اللَّهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَأَوْحَى إِلَيْهِ وَجَعَلَهُ نبيًا وبعثه إلى «سدوم» فكذبوه فأهلكهم الله ودمر عليهم كما قص خبرهم في غير موضع من كتابه العزيز ^(١) ﴿وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْقَزِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْغَبِيثَ﴾ أي خلصناه من أهل قرية سدوم الذين كانوا يعملون الأعمال الخبيثة كاللواط وقطع السبيل وغير ذلك ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسَقِينَ﴾ أي كانوا أشراراً خارجين عن طاعة الله ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي أدخلناه في أهل رحمتنا لأنه من عبادنا الصالحين ^(٢) ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ﴾ أي واذكر قصة نوح حين دعا على قومه من قبل هؤلاء الأنبياء المذكورين، دعا عليهم بالهلاك حين كذبوه بقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَجَعَلْنَاهُ وَاهِلَةً مِنْ آلِ كَرِبَ الْعَظِيمِ﴾ أي استجبنا دعاءه فأنقذناه ومن معه من المؤمنين - ركاب السفينة - من الطوفان والغرق الذي كان كرباً وغماً شديداً يكاد يأخذ بالأنفاس ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي منعه من شر قومه المكذبين فنجيناه وأهلكناهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي كانوا منهمكين في الشر فأغرقناهم جميعاً ولم نبق منهم أحداً ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ أي واذكر قصة داود وسليمان حين يحكما في شأن الزرع ﴿إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ أي وقت رعت فيه غنم القوم ليلاً فأفسدته ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ أي كنا مطلعين على حكم كل منهما عالمين به ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ أي علمنا وألهمنا سليمان الحكم في القضية ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي وكلاً من داود وسليمان أعطيناه الحكمة والعلم الواسع مع النبوة قال المفسرون: تخاصم إلى داود رجلان دخلت غنم أحدهما على زرع الآخر بالليل فأفسدته فلم تبق منه شيئاً، فقاضى بأن يأخذ صاحب الزرع الغنم، فخرج الرجلان على سليمان وهو الباب فأخبراه بما حكم به أبوه فدخل عليه فقال: يا نبي الله لو حكمتَ بغير هذا كان أرفق للجميع! قال: وما هو؟ قال: يأخذ صاحب الغنم الأرض فيصلحها ويبذرهما حتى يعود زرعها كما كان، ويأخذ صاحب الزرع الغنم وينتفع بألبانها وصوفها ونسلها، فإذا خرج الزرع رُدَّتْ الغنم إلى صاحبها والأرض إلى ربها فقال له داود: وُفِّقْتَ يا بُنَيَّ وقضى بينهما بذلك فذلك قوله تعالى ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ أي جعلنا الجبال والطير تسبح مع داود إذا سبَّح قال ابن كثير: وذلك لطيب صوته بتلاوة الزبور فكان إذا ترنم بها تقف الطير في الهواء

(١) «المختصر» ٢/ ٥١٥.

(٢) (ش): قال الإمام الطبري في «تفسيره» (١٨ / ٤٧٣): «يقول تعالى ذكره: وأدخلنا لوطاً في رحمتنا بإنجائنا إياه مما أحلَّنا بقومه من العذاب والبلاء وإنقاذنا منه، إنه من الصالحين».

فتجاوبه وتردُّ عليه الجبال تأويباً^(١) وإنما قدَّم ذَكَرَ الجبال على الطير لأن تسخيرها وتسييحها أعجب وأغرب وأدخل في الإعجاز لأنها جماد ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي وكنا قادرين على فعل ذلك ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ أي علمنا داود صنع الدروع بالآلة الحديد له قال قتادة: أول من صنع الدروع داود وكانت صفائح فهو أول من سردها وحلَّقها^(٢) ﴿لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ أي لتقيكم في القتال شر الأعداء ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ استفهام يراد به الأمر، أي: اشكروا الله على ما أنعم به عليكم، ولما ذكر تعالى ما خصَّ به نبيه داود عليه السلام ذكر ما خصَّ به ابنه سليمان فقال ﴿وَلَسُلَيْمَنَّ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح عاصفة أي شديدة الهبوب ﴿تَجْرِي بِأَمْرٍ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ أي تسير بمشيئته وإرادته إلى أرض الشام المباركة بكثرة الأشجار والأنهار والثمار، وكانت مسكنه ومقر ملكه ﴿وَكُنَّا يَكُلُّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ أي وكنا عالمين بجميع الأمور فما أعطيناها تلك المكانة إلا لما نعلمه من الحكمة ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغْوُصُونَ لَهُ﴾ أي وسخرنا لسليمان بعض الشياطين يغوصون في الماء ويدخلون أعماق البحار ليستخرجوا له الجواهر واللائي ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي ويعملون أعمالاً أخرى سوى الغوص كبناء المدن والقصور الشاهقة والأمور التي يعجز عنها البشر ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ أي نحفظهم عن الزيغ عن أمره أو الخروج عن طاعته.

البلاغة: تضمنت الآيات من وجوه الفصاحة والبدیع ما يلي:

- ١ - الاستعارة اللطيفة ﴿ثُمَّ نَكْسُوْا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ شبه رجوعهم عن الحق إلى الباطل بانقلاب الشخص حتى يصبح أسفله أعلاه بطريق الاستعارة.
- ٢ - الطباق بين ﴿يَنْفَعُكُمْ... يَضُرُّكُمْ﴾.
- ٣ - المبالغة ﴿كُوْنِي بَرْدًا﴾ أطلق المصدر وأراد اسم الفاعل أي باردة أو ذات برد.
- ٤ - عطف الخاص على العام ﴿فِعْلُ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ لأن الصلاة والزكاة من فعل الخيرات وإنما خصهما بالذكر تنبيهاً لعلو شأنهما وفضلهما.
- ٥ - الاحتباس ﴿وَكُلًّا أَتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ دفعاً لتوهم انتقاص مقام داود عليه السلام.

(١) «المختصر» ٥١٦/٢.

(٢) «تفسير القرطبي» ٣٢٠/١١. (ش): قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجَالُؤِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ﴾ [سبأ: ١٠، ١١].

أي: ولقد آتينا داود نبوة، وكتاباً وعلماً، وقلنا للجبال والطير: سبّحي معي، وألنا له الحديد، فكان كالعجين يتصرف فيه كيف يشاء. أن عمل دروعاً تامات واسعات وقدر المسامير في حلّق الدروع، فلا تعمل الحلقة صغيرة فتضعف، فلا تقوى الدروع على الدفاع، ولا تجعلها كبيرة فتثقل على لابسها.

٦ - المجاز المرسل ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ أي في الجنة لأنها مكان تنزل الرحمة فالعلاقة المحلية^(١).

٧ - السجع غير المتكلف ﴿الْعَبِيدِينَ، الصَّابِرِينَ، الصَّالِحِينَ﴾ إلخ.
تنبيه: وصف تعالى الريح هاهنا بقوله ﴿عَاصِفَةً﴾ ووصفها في مكان آخر بقوله ﴿ثُخَاءً﴾ [ص: ٣٦] والعاصفة هي الشديدة، والرخاء هي اللينة، ولا تعارض بين الوصفين لأن الريح كانت لينة طيبة وكانت تسرع في جريها كالعاصف فجمعت الوصفين فتدبر.

قال الله تعالى:

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَمِمَّا كَرِهَ الْغَافِلِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِذْ يَرْسِيْ ذَا الْكَفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضًى فَلَمْ أَنْ لَّنْ نَّقْدِرْ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْغَنِيِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَكَرَرْنَا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْـَٔرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَالَّتِي أَحْصَانَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ أُذْيَةٍ مِّنَ الصَّالِحَاتِ يَرَهُ فَلَا كُفْرَانَ لَّسَعِيدٍ وَلَنَا لَهُ كُتُوبٌ ﴿٩٤﴾ وَحَرَّمَ عَلَيَّ قَرِيَّةٍ أَهْلَكْنَاهَا إِنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَقَّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَوَلُّوْنَآ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَتْ هَتُّولاً ۖ ءَالِهَةٌ مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا

(١) (ش): الله سبحانه وتعالى هو أرحم الراحمين والجنة أثر من آثار رحمته سبحانه وتعالى.

عِبَادِي الصَّالِحِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عٰكِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَٰهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنِ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يُعَلِّمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنِ أَدْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَيَّ حِينٍ ﴿١١١﴾ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ

المناسبة: لما ذكر تعالى جملةً من الأنبياء «إبراهيم، نوح، لوط، داود، سليمان» وما نال كثيراً منهم من الابتلاء، ذكر هنا قصة أيوب وابتلاء الله له بأنواع المحن ثم أعقبها بذكر محنة يونس وزكريا وعيسى وكل ذلك بقصد التسلية للرسول ﷺ ليتأسى بهم.

اللغة: ﴿وَذَا التَّنُونِ﴾ النون: الحوت وذا النون لقب ليونس بن متى لابتلاع النون له ﴿أَحْصَنْتَ﴾ الإحصان: العفة يقال: رجل محصن وامرأة محصنة، أي: عفيفة ﴿رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ الرغب: الرجاء، والرهب: الخوف ﴿كُفْرَانًا﴾ الكفر والكفران: الجحود وأصله الستر، لأن الكافر يستر نعمة الله ويجحدها ﴿حَدَبٍ﴾ الحدب: ما ارتفع من الأرض مأخوذ من حدة الظهر قال عنتره:

فَمَا رَعِشَتْ يَدَايَ وَلَا اِزْدَهَانِي تَوَاتُرُهُمْ إِلَيَّ مِنَ الْحَدَابِ^(١)
﴿يَسْأَلُونَ﴾ يسرعون يقال: نسل الذئب ينسل نسلاناً أي أسرع ﴿حَصَبٍ﴾ الحصب: ما توقد به النار كالخطب وغيره ﴿زَفِيرٌ﴾ أنين وتنفس شديد ﴿حَسِيْسَهَا﴾ الحسيس: الصوت والحس والحركة الذي يحس به من حركة الأجرام ﴿السَّجِلِ﴾ الصحيفة لأن بها يسجل المطلوب.

سبب النزول: عن ابن عباس قال: لما نزل قوله تعالى ﴿إِنَّكُمْ وَمَنْعَبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ شق ذلك على كفار قريش وقالوا: شتم آلهتنا وأتوا ابن الزبيري وأخبروه فقال: لو حضرته لرددت عليه قالوا: وما كنت تقول له؟ قال: أقول له: هذا المسيح تعبد النصارى، وهذا عزيز تعبد اليهود؛ أفهما من حصب جهنم؟ فعجبت قريش من مقالته ورأوا أن محمداً قد خصم فأنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾^(٢).

التفسير: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ﴾ أي واذكر قصة نبي الله أيوب حين دعا ربه بتضرع وخشوع

(١) «تفسير القرطبي» ١١/ ٣٤١. (ش): ازدهى الشخص: أعجب بنفسه. ازدهى الشخص: حمله على العجب. تَوَاتُرُهُمْ: تتابعهم، ومجيء بعضهم في إثر بعض.

(٢) «تفسير القرطبي» ١١/ ٣٢٧. (ش): أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» وإسناده حسن، وأخرج نحوه الحاكم في «المستدرک» وصححه ووافقه الذهبي.

﴿إِنِّي مَسْنِيَ الصُّرُورِ﴾ أي نالني البلاء والكرب والشدة قال المفسرون: كان أيوب نبياً من الروم، وكان له أولاد ومال كثير، فأذهب الله ماله فصبر، ثم أهلك الأولاد فصبر، ثم سلط البلاء والمرض على جسمه فصبر فمر عليه ملاء من قومه فقالوا: ما أصابه هذا إلا بذنب عظيم فعند ذلك تضرع إلى الله فكشف عنه ضره ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي أكثرهم رحمة فارحمني، ولم يصرح بالدعاء ولكنه وصف نفسه بالعجز والضعف، ووصف ربه بغاية الرحمة ليرحمه، فكان فيه من حسن التلطف ما ليس في التصريح بالطلب ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ﴾ أي أجبنا دعاءه وتضرعه ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ أي أزلنا ما أصابه من ضر وبلاء ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ قال ابن مسعود: مات أولاده وهم سبعة من الذكور وسبعة من الإناث فلما عوفي أحيوا له وولدت له امرأته سبعة بنين وسبع بنات^(١). والمعنى أعطيناه أهلهم في الدنيا ورزقناه من زوجته مثل ما كان له من الأولاد والأبناء ﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ أي من أجل رحمتنا إياه ﴿وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ﴾ أي وتذكروا لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر قال القرطبي: أي وتذكيراً للعباد لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب ومحتته وصبره ووطنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا مثل ما فعل أيوب وهو أفضل أهل زمانه^(٢)، يُروى أن أيوب مكث في البلاء ثمان عشرة سنة فقالت له امرأته يوماً: لو دعوت الله عز وجل فقال لها: كم لبثنا في الرخاء؟ فقالت: ثمانين سنة فقال: إني أستحيي من الله أن أدعوه وما مكثت في بلائي المدة التي مكثتها في رخائي^(٣) ﴿وَاسْمِعِ يَلَدُكَ وَأَنصِتْ لَعَلَّكَ تُبْقِي وَتُنَاجِي﴾

(١) هذا الأثر عن ابن مسعود أن الله أحيأ أولاده بعد موتهم فيه نظر، لأنه لا يرجع أحد إلى الدنيا بعد انتقاله منها إلا ما كان من معجزة المسيح عليه السلام والصحيح أن الله عوضه من زوجته أولاداً مثل من فقدهم.

(٢) «تفسير القرطبي» ١١/ ٣٢٧.

(٣) «النسفي» ٨٧/ ٣. (ش): عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَيُّوبَ نَبِيَّ اللَّهِ لَبِثَ بِهِ بِلاؤه ثَمَانِ عَشْرَةَ سَنَةً فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ إِلَّا رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ كَانَا مِنْ أَحْصَى إِخْوَانِهِ، قَدْ كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيَرُوحَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ ذَاتَ يَوْمٍ: «نَعْلَمُ وَاللَّهِ لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ»، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: «وَمَا ذَاكَ؟» قَالَ: «مُنْذُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرَحْمَهُ اللَّهُ فَيَكْشِفْ عَنْهُ مَا بِهِ». فَلَمَّا رَاحَا إِلَى أَيُّوبَ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ أَيُّوبُ: «لَا أَذْرِي مَا تَقُولُ غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أُمُرُ بِالرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ يَذْكُرَانِ اللَّهَ فَأَرْجِعْ إِلَى بَيْتِي، فَأَكْفُرْ عَنْهُمَا كَرَاهِيَةً أَنْ يَذْكُرَ اللَّهُ إِلَّا فِي حَقِّ». وَكَانَ يَخْرُجُ لِحَاجَتِهِ، فَإِذَا قَضَى حَاجَتَهُ أَمْسَكَتْ أَمْرَأَتُهُ بِيَدِهِ حَتَّى يَبْلُغَ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأَ عَلَيْهَا فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى أَيُّوبَ فِي مَكَانِهِ أَنْ ارْضُصْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُعْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ، فَاسْتَبْطَأَتْهُ فَتَلَقَّتْهُ وَأَقْبَلَ عَلَيْهَا قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ مَا بِهِ مِنَ الْبَلَاءِ وَهُوَ أَحْسَنُ مَا كَانَ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: «أَيُّ بَارِكِ اللَّهُ فِيكَ هَلْ رَأَيْتَ نَبِيَّ اللَّهِ، هَذَا الْمُبْتَلَى؟ وَاللَّهِ عَلَى ذَلِكَ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَشْبَهَ بِهِ مِنْكَ إِذْ كَانَ صَحِيحًا». قَالَ: «فَإِنِّي أَنَا هُوَ». وَكَانَ لَهُ أَنْدَرَانِ: أَنْدَرٌ لِلْقَمْحِ وَأَنْدَرٌ لِلشَّعِيرِ، فَبَعَثَ اللَّهُ سَحَابَتَيْنِ، فَلَمَّا كَانَتْ أَحَدُهُمَا عَلَى أَنْدَرِ الْقَمْحِ أَفْرَعَتْ فِيهِ الدَّهَبَ حَتَّى فَاضَ، وَأَفْرَعَتْ الْأُخْرَى فِي أَنْدَرِ الشَّعِيرِ الْوَرِقَ حَتَّى فَاضَ. [رواه ابن جبران وصححه، وأبو يعلى في (مسنده) وأبو نعيم في (الحلية) وصححه الألباني]. (كُنْتُ أُمُرُ بِالرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ يَذْكُرَانِ اللَّهَ فَأَرْجِعْ إِلَى بَيْتِي، فَأَكْفُرْ عَنْهُمَا كَرَاهِيَةً أَنْ يَذْكُرَ اللَّهُ إِلَّا فِي حَقِّ): مَا كَانَ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي =

الْكَفْلِ ﴿أَيِ وَاذَكَرْ لِقَوْمِكَ قِصَّةَ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ وَإِدْرِيسَ بْنِ شِيثَ وَذَا الْكُفْلِ
﴿كُلُّ مَنْ الصَّابِرِينَ﴾ أَيِ كُلِّ مَنْ هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ أَهْلِ الْإِحْسَانِ وَالصَّبْرِ، جَاهِدُوا فِي
اللَّهِ وَصَبِرُوا عَلَى مَا نَالَهُمْ مِنَ الْأَذَى ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا﴾ أَيِ أَدْخَلْنَاهُمْ بِصَبْرِهِمْ
وَصَلَاحِهِمْ الْجَنَّةَ دَارَ الرَّحْمَةِ وَالنَّعِيمِ ^(١) ﴿إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أَيِ لِأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ
الْفَضْلِ وَالصَّلَاحِ ﴿وَذَا النُّونِ﴾ أَيِ وَاذَكَرْ لِقَوْمِكَ قِصَّةَ يُونُسَ الَّذِي ابْتَلَعَهُ الْحَوْتُ، وَالنُّونُ
هُوَ الْحَوْتُ نُسِبَ إِلَيْهِ لِأَنَّهُ اتَّقَمَهُ ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا﴾ أَيِ حِينَ خَرَجَ مِنْ بَلَدِهِ مُغَاضِبًا
لِقَوْمِهِ إِذْ كَانَ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ فَيَكْفُرُونَ حَتَّى أَصَابَهُ ضُجْرٌ مِنْهُمْ فَخَرَجَ عَنْهُمْ وَلِذَلِكَ
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨] وَلَا يَصِحُّ قَوْلُ مَنْ قَالَ: مُغَاضِبًا لِرَبِّهِ قَالَ
أَبُو حِيَّانَ: وَقَوْلُ مَنْ قَالَ مُغَاضِبًا لِرَبِّهِ يَجِبُ طَرَحُهُ إِذْ لَا يَنَاسِبُ مَنَصِبَ النَّبُوَّةِ ^(٢) وَقَالَ
الرَّازِي: لَا يَجُوزُ صَرْفُ الْمَغَاضِبَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِأَنَّ ذَلِكَ صِفَةٌ مِنْ يَجْهَلُ كَوْنُ اللَّهِ مَالِكًا
لِلْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالْجَاهِلُ بِاللَّهِ لَا يَكُونُ مُؤْمِنًا فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا، وَمَغَاضِبَتُهُ لِقَوْمِهِ
كَانَتْ غَضَبًا لِلَّهِ، وَأَنْفَةً لِدِينِهِ، وَبَغْضًا لِلْكَفَرِ وَأَهْلِهِ ^(٣) ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أَيِ ظَنَّ
يُونُسَ أَنْ لَنْ نَضِيقَ عَلَيْهِ بِالْعُقُوبَةِ كَقَوْلِهِ ﴿وَمَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق: ٧] أَيِ ضِيقَ عَلَيْهِ فِيهِ
فَهُوَ مِنَ الْقَدْرِ لَا مِنَ الْقُدْرَةِ. قَالَ الْإِمَامُ الْفَخْرُ: مِنْ ظَنَّ عِجْزَ اللَّهِ فَهُوَ كَافِرٌ، وَلَا خِلَافَ أَنَّهُ
لَا يَجُوزُ نِسْبَةُ ذَلِكَ إِلَى أَحَادِ الْمُؤْمِنِينَ فَكَيْفَ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ! رُوي أَنَّهُ دَخَلَ ابْنُ
عَبَّاسٍ عَلَى مُعَاوِيَةَ فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ: لَقَدْ ضَرَبْتَنِي أَمْوَاجُ الْقُرْآنِ الْبَارِحَةِ فَغَرَقْتُ فِيهَا فَلَمْ
أَجِدْ لِي خَلَاصًا إِلَّا بِكَ، فَقَالَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: يَظُنُّ نَبِيُّ اللَّهِ يُونُسَ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ اللَّهُ عَلَيْهِ؟
فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَذَا مِنَ الْقَدْرِ لَا مِنَ الْقُدْرَةِ ^(٤) ﴿فَنَكَدَتْنِي فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أَيِ نَادَى رَبَّهُ فِي
ظُلْمَةِ اللَّيْلِ وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحَوْتُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: جَمَعَتِ الظُّلُمَاتُ لِأَنَّهَا ظُلْمَةُ اللَّيْلِ،
وِظْلُمَةُ الْبَحْرِ، وَظُلْمَةُ بَطْنِ الْحَوْتُ ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ أَيِ نَادَى بِأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ يَا رَبَّ
﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أَيِ تَنَزَّهْتَ يَا رَبَّ عَنِ النِّقْصِ وَالظُّلْمِ، وَقَدْ
كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ لِنَفْسِي وَأَنَا الْآنَ مِنَ التَّائِبِينَ النَّادِمِينَ فَكَاشَفَ عَنِّي الْمِحْنَةَ وَفِي الْحَدِيثِ

= ذَلِكَ كَفَّارَةٌ عَنْ يَمِينٍ كَانَتْ مِنْهُمْ، أَوْ مِنْ أَحَدِهِمَا؛ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكْفَرَ عَنْ حَالِفٍ بَيْنَيْنِ غَيْرِهِ بَعْدَ حَيْثُ فِيهَا،
وَلَا قَبْلَ حَيْثُ فِيهَا وَهُوَ حَيٌّ، وَلَكِنَّهُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - كَفَّارَةٌ عَنِ الْكَلَامِ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ فِيهِ مِمَّا لَمْ يَكُنْ يَصْلُحُ أَنْ
يُذَكَّرَ. (الأنذر): البَيِّدُ: الْجُرْنُ: الْمَوْضِعُ الَّذِي يُدْرَسُ فِيهِ الْقَمْحُ وَنَحْوُهُ وَتَجَفَّفَ فِيهِ الشَّمَارُ. (الْوَرَقُ): الْفَضَّةُ.

(١) (ش): اللَّهُ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ وَالْجَنَّةُ أَثَرٌ مِنْ أَثَارِ رَحْمَتِهِ تَعَالَى سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى.

(٢) «البحر المحيط» ٦/ ٣٣٥.

(٣) «تفسير الفخر الرازي» ٢٢/ ٢١٤.

(٤) «الفخر الرازي» ٢٢/ ٢١٥.

«ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له»^(١) ﴿فَاسْتَجِبْنَا لَهُ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ أي استجبنا لتضرعه واستغاثته ونجينا من الضيق والكرب الذي ناله حين التقمه الحوت ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي كما نجينا يونس من تلك المحنة ننجي المؤمنين من الشدائد والأهوال إذا استغاثوا بنا ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ، رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أي واذكر يا محمد خبر رسولنا زكريا حين دعا ربه دعاء مخلص منيب قائلاً: رب لا تتركني وحيداً بلا ولد ولا وارث قال ابن عباس: كان سنه مائة وسن زوجته تسعاً وتسعين^(٢) ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْأَوْرَثِينَ﴾ أي وأنت يا رب خير من يبقى بعد كل من يموت قال الألوسي: وفيه مدح له تعالى بالبقاء، وإشارة إلى فناء من سواه من الأحياء، واستمطاراً لسحاب لطفه عز وجل^(٣) ﴿فَاسْتَجِبْنَا لَهُ﴾ أي أجبنا دعاءه ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ، يَحْيَى﴾ أي رزقناه ولداً اسمه يحيى على شيخوخته ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ، زَوْجَهُ﴾ أي جعلناها ولوداً بعد أن كانت عاقراً وقال ابن عباس: كانت سيئة الخلق طويلة اللسان فأصلحها الله تعالى فجعلها حسنة الخلق^(٤) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي إنما استجبنا دعاء من ذكر من الأنبياء لأنهم كانوا صالحين يجدون في طاعة الله ويتسابقون في فعل الطاعات وعمل الصالحات ﴿وَيَدْعُونَكَ رَعْبًا وَرَهْبًا﴾ أي طمعاً ورجاءً في رحمتنا وخوفاً وفزعاً من عذابنا ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ أي كانوا متذللين خاضعين لله يخافونه في السر والعلن ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا﴾ أي واذكر مريم البتول^(٥) التي أعفّت نفسها عن الفاحشة وعن الحلال والحرام كقوله ﴿وَلَمْ يَمَسَّ سِنِي بَشَرٍ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠] قال ابن كثير: ذكر تعالى قصة مريم وابنها عيسى مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى لأن تلك مربوطه بهذه فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طعن في السن وامرأة عجوز لم تكن تلد في حال شبابها، وهذه أعجب فإنها

(١) أصل الحديث في سنن أبي داود. (ش): قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشَيْءٍ إِذَا نَزَلَ بِرَجُلٍ مِنْكُمْ كَرْبٌ، أَوْ بَلَاءٌ مِنْ بَلَايَا الدُّنْيَا دَعَا بِهِ يُفَرِّجُ عَنْهُ؟» فَقِيلَ لَهُ: بَلَى، فَقَالَ: «دُعَاءُ ذِي النُّونِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» (رواه الحاكم وصححه الألباني). وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ». (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

(٢) «الرازي» ٣١٧/٢٢.

(٣) «روح المعاني» ٨٧/١٧.

(٤) القول الأول قول قتادة وسعيد بن جبير وأكثر المفسرين كذا في «تفسير القرطبي» ٣٣٦/١١. (ش): قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٣٧٠ / ٥): «وَالْأَظْهَرُ مِنَ السِّيَاقِ الْأَوَّلِ».

(٥) (ش): الْبَتُولُ: الْعَذْرَاءُ، الْمُتَقَطِّعَةُ عَنِ الزَّوْاجِ لِعِبَادَةِ اللَّهِ.

إيجاد ولدٍ من أنثى بلا ذَكَرٍ ولذلك ذكر قصة مريم بعدها^(١) ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ أي أمرنا جبريل فنَفَخَ في فتحة درعها - قميصها - فدخلت النفخة إلى جوفها فحملت بعيسى، وأضاف الروح إليه تعالى على جهة التشريف^(٢) ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أي وجعلنا مريم مع ولدها عيسى علامةً وأعجوبة للخلق تدل على قدرتنا الباهرة ليعتبر بها الناس ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي دينكم وملتكم التي يجب ان تكونوا عليها أيها الناس ملةً واحدة غير مختلفة وهي ملة الإسلام، والأنبياء كلهم جاءوا برسالة التوحيد قال ابن عباس: معناه دينكم دينٌ واحد^(٣) ﴿وَأَنَّا رُيُّكُمْ فَأَعْبُدُوا﴾ أي وأنا إلهكم لا ربَّ سواي فأفردوني بالعبادة ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أي اختلفوا في الدين وأصبحوا فيه شيعاً وأحزاباً فمن مُوحِّد، ومن يهودي، ونصراني ومجوسي ﴿كُلُّ الْيَنَّا رِجْعُونَ﴾ أي رجوعهم إلينا وحسابهم علينا قال الرازي: معنى الآية جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً كما تتوزع الجماعة الشيء ويقسمونه تمثيلاً لاختلافهم في الدين وصيورتهم فرقاً وأحزاباً شتى^(٤) ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي من يعمل شيئاً من الطاعات وأعمال البر والخير بشرط الإيمان ﴿فَلَكَ فَرَانٌ لِسَعْيِهِ﴾ أي لا بطلان لثواب عمله ولا يضيع شيء من جزائه ﴿وَلِنَّا لَهُ كِتَابٌ﴾ أي نكتب عمله في صحيفته والمراد أمر الملائكة بكتابة أعمال الخلق^(٥) ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ قال ابن عباس: أي ممتنع على أهل قرية أهلكتناهم أن يرجعوا بعد الهلاك إلى الدنيا مرة ثانية وفي رواية عنه ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي لا يتوبون قال ابن كثير: والأول أظهر^(٦) وقال في البحر: المعنى وممتنع على أهل قرية قدرنا إهلاكهم لكفرهم رجوعهم في الدنيا إلى الإيمان إلى أن تقوم الساعة فحينئذ يرجعون^(٧) ﴿حَقَّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ أي حتى إذا فتح سدُّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ

(١) «المختصر» ٢/ ٥٢٠.

(٢) (ش): كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

(٣) نفس المرجع السابق والصفحة.

(٤) «تفسير الرازي» ٢٢/ ٢١٩.

(٥) (ش): قال الإمام ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٨ / ٥٢٤): ﴿وَلِنَّا لَهُ كِتَابٌ﴾ يقول: ونحن نكتب أعماله الصالحة كلها، فلا نترك منها شيئاً لنجزيه على صغير ذلك وكبيره وقليله وكثيره. وقال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٥ / ٣٧٢): ﴿وَلِنَّا لَهُ كِتَابٌ﴾ أي: يكتب جميع عمله، فلا يضيع عليه منه شيء.

(٦) «المختصر» ٢/ ٥٢١.

(٧) «البحر المحيط» ٦/ ٣٣٨.

يَسْأَلُونَ ﴿١﴾ أَيُّهُمْ لَكثْرَتُهُمْ مِنْ كُلِّ مَرْتَفَعٍ مِنَ الْأَرْضِ وَمِنْ كُلِّ أَكْمَةٍ ^(١) وَنَاحِيَةٍ يَسْرِعُونَ النُّزُولَ. وَالْمُرَادُ أَنْ يَأْجُوجُ وَمَاجُوجُ لَكثْرَتِهِمْ يَخْرُجُونَ مِنْ كُلِّ طَرِيقٍ لِلْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدِ الْحَقُّ﴾ أَيُّ اقْتَرَبَ وَقْتُ الْقِيَامَةِ قَالَ الْمَفْسُورُونَ: جَعَلَ اللَّهُ خُرُوجَ يَأْجُوجَ وَمَاجُوجَ عَلِمًا عَلَى قَرَبِ السَّاعَةِ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: السَّاعَةُ مِنَ النَّاسِ بَعْدَ يَأْجُوجَ وَمَاجُوجَ كَالْحَامِلِ التَّمَتُّ لَا يَدْرِي أَهْلُهَا مَتَى تَفْجُوهُمْ بَوْلُهَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ^(٢) ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الضَّمِيرُ لِلْقِصَّةِ وَالشَّأْنُ أَيُّ فَإِذَا شَأْنُ الْكَافِرِينَ أَنَّ أَبْصَارَهُمْ شَاخِصَةٌ مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ لَا تَكَادُ تَطْرَفُ مِنَ الْحَيْرَةِ وَشِدَّةِ الْفَزَعِ ﴿يَوَلِّينَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ أَيُّ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَنَا أَيُّ يَا حَسْرَتَنَا وَهَلَاكُنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ تَامَةٍ عَنْ هَذَا الْمَصِيرِ الْمَشْتُومِ وَالْيَوْمِ الرَّهيبِ ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أَضْرَبُوا عَنِ الْقَوْلِ السَّابِقِ وَأَخْبَرُوا بِالْحَقِيقَةِ الْمُؤَلِّمَةِ وَالْمَعْنَى لَمْ نَكُنْ فِي غَفْلَةٍ حَيْثُ ذَكَرْتَنَا الرِّسْلُ وَنَبَّهْتَنَا الْآيَاتِ بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ لِأَنفُسِنَا بِالتَّكْذِيبِ وَعَدَمِ الْإِيمَانِ ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أَيُّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ وَمَا تَعْبُدُونَهُ مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أَيُّ حَطَبُ جَهَنَّمَ وَوَقُودُهَا قَالَ أَبُو حَيَّانٍ: الْحَصَبُ مَا يَحْصَبُ بِهِ أَيُّ يُرْمَى بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَقَبْلَ أَنْ يُرْمَى بِهِ لَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ حَصَبٌ إِلَّا مَجَازًا ^(٣) ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾ أَيُّ أَنْتُمْ دَاخِلُوهَا مَعَ الْأَصْنَامِ، وَإِنَّمَا جَمَعَ اللَّهُ الْكُفَّارَ مَعَ مَعْبُودَاتِهِمْ فِي النَّارِ لِرِزَادَةِ غَمِّهِمْ وَحَسْرَتِهِمْ بِرُؤْيَيْهِمْ الْأَلْهَةِ الَّتِي عَبَدُوهَا مَعَهُمْ فِي عَذَابِ الْجَحِيمِ ﴿لَوْ كَانَتْ هَهُنَاءَ أَلْهَةً مَا وَرَدُوهَا﴾ أَيُّ لَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَصْنَامُ الَّتِي عَبَدْتُمُوهَا أَلْهَةً مَا دَخَلُوا جَهَنَّمَ ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أَيُّ الْعَابِدُونَ وَالْمَعْبُودُونَ كُلُّهُمْ فِي جَهَنَّمَ مُخَلَّدُونَ ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أَيُّ لَهُمْ لَهْوَاءُ الْكُفْرَةِ فِي النَّارِ زَفِيرٌ وَهُوَ صَوْتُ النَّفْسِ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ قَلْبِ الْمَغْمُومِ وَهُوَ يَشْبَهُ أُنَيْنَ الْمَحْزُونِ وَالْمَكْلُومِ ^(٤) ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ أَيُّ لَا يَسْمَعُونَ فِي جَهَنَّمَ شَيْئًا لَّنْهُمْ يُحْشَرُونَ صُمًّا كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِيَائًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٩٧] قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَسَمَاعُ الْأَشْيَاءِ فِيهَا رَوْحٌ وَأُنْسٌ ^(٥)، فَمَنْعَ اللَّهُ الْكُفَّارَ ذَلِكَ فِي النَّارِ ^(٦) وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: إِذَا بَقِيَ مِنْ يُخَلَّدُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ جُعِلُوا فِي تَوَابِيْتِ مِنْ نَارٍ، فِيهَا مَسَامِيرُ مِنْ نَارٍ فَلَا

(١) (ش): أَكْمَةٌ: تَلٌّ صَغِيرٌ، أَوْ مَوْضِعٌ يَكُونُ أَكْثَرُ ارْتِفَاعًا مِمَّا حَوْلَهُ.

(٢) «زاد المسير» ٣٨٩/٥.

(٣) «البحر المحيط» ٦/٣٤٠.

(٤) (ش): الْمَكْلُومُ: الْمَجْرُوحُ، الْجَرِيحُ.

(٥) (ش): رَوْحٌ: اسْتِرَاحَةٌ، رَاحَةٌ وَطَمَأْنِينَةٌ. أُنْسٌ إِلَى فَلَانٍ/ أُنْسٌ بِفُلَانٍ: سَكَنَ إِلَيْهِ وَذَهَبَتْ بِهِ وَحْشَتُهُ، أَلْفَهُ وَارْتَاحَ إِلَيْهِ.

(٦) «تفسير القرطبي» ١١/٣٤٥.

يسمعون شيئاً، ولا يرى أحد منهم أنه يُعَذَّب في النار غيره ثم تلا الآية ^(١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ أي سبقت لهم السعادة ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ أي هم عن النار مبعدون لا يَصْلَوْنَ حَرَّهَا ^(٢) ولا يذوقون عذابها قال ابن عباس: أولئك أولياء الله يَمْرُونَ على الصراط مَرًّا أسرع من البرق ويبقى الكفار فيها جثياً ^(٣) ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي لا يسمعون حسَّ النار ولا حركة لهبها وصوتها ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ أي وهم في الجنة دائمون، لهم فيها تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴿لَا يَخْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ أي لا تصيبهم أهوال يوم القيامة والبعث لأنهم في مأمن منها ﴿وَنُلْقِيَهُمْ الَّمَائِيكَ﴾ أي تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهتئونهم قائلين ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي هذا يوم الكرامة والنعيم الذي وعدكم الله به فأبشروا بالهناء والسرور ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ أي اذكر يوم نطوي السماء طياً مثل طي الصحيفة على ما فيها، فاللام بمعنى «على» ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ أي نحشرهم حفاة عُرَاءَ غُرْلًا على الصورة التي بدأنا خلقهم فيها وفي الحديث «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللَّهِ حُفَاءَ عُرَاءَ غُرْلًا» ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ^(٤) أَلَا وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلَائِقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام.. ^(٥) الحديث ﴿وَعَدًا عَلَيْنَا﴾ أي وعداً مؤكداً لا يخلف ولا يبدل لازم علينا إنجازه والوفاء به ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي قادرين على ما نشاء ^(٥)، وهو تأكيد لوقوع البعث ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ﴾ أي سَجَّلْنَا وُسْطَرْنَا في الزبور الْمُنْزَلَ على داود ﴿مِّنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ أي من بعد ما سَطَرْنَا في اللوح المحفوظ أزلًا ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ أي إن الجنة يرثها المؤمنون الصالحون ^(٦) قال ابن كثير: أخبر سبحانه في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السماوات والأرض أن يورث أمة محمد ﷺ الأرض ويدخلهم الجنة وهم الصالحون وقال القرطبي: أحسن ما قيل فيها أنه يراد به أرض الجنة لأن الأرض في الدنيا قد ورثها الصالحون وغيرهم وهو قول ابن عباس ومجاهد ويدل عليه قوله تعالى ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ [الزمر: ٧٤] وأكثر المفسرين على أن

(١) «تفسير القرطبي» ١١ / ٣٤٥.

(٢) (ش): (لَا يَصْلَوْنَ حَرَّهَا): لَا يَذُوقُونَ حَرَّهَا.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢ / ٥٢٣.

(٤) رواه مسلم عن ابن عباس. (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٥) (ش): الصواب أن يُقال: قادرين على كل شيء كما قال الله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(٦) «مختصر ابن كثير» ٢ / ٥٢٤.

(٧) «تفسير القرطبي» ١١ / ٣٤٩.

المراد بالعباد الصالحين أمة محمد ﷺ، وقال مجاهد: الزبور: الكتب المنزلة، والذكر أم الكتاب عند الله ^(١) ﴿إِنَّ فِي هَذَا بَلَاغًا لِّقَوْمٍ عٰكِدِيْنَ﴾ أي إن في هذا المذكور في هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد البالغة لكفاية لقوم خاضعين متذللين لله جل وعلا، المؤثرين لطاعة الله على طاعة الشيطان ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعٰلَمِيْنَ﴾ أي وما أرسلناك يا محمد إلا رحمة للخلق أجمعين وفي الحديث «إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُّهِدَاةٌ» ^(٢) فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة ^(٣) ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوْحِي إِلَيَّ إِلَهٌ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَحِدٌ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إنما أوحى إليّ ربي أن إلهكم المستحق للعبادة إله واحد أحد فرد صمد ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ﴾ استفهام ومعناه الأمر أي فأسلموا له وانقادوا لحكمه وأمره ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْاْ﴾ أي فإن أعرضوا عن الإسلام ﴿فَقُلْ أَذْنُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي فقل لهم أعلمتكم بالحق على استواء في الإعلام لم أخصّ أحداً دون أحد ﴿وَإِنْ أَذْرَىٰ أَقْرَبُ أَمَّ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أي وما أدري متى يكون ذلك العذاب؟ ولا متى يكون أجل الساعة؟ فهو واقع لا محالة ولكن لا علم لي بقربه ولا ببعده ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ أي الله هو العلام الذي لا يخفى عليه شيء، يعلم الظواهر والضمائر، ويعلم السرّ وأخفى، وسيجازي كلاً بعمله ﴿وَإِنْ أَذْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لِّكُمْ﴾ أي وما أدري لعل هذا الإمهال وتأخير عقوبتكم امتحان لكم لنرى كيف صنعكم ﴿وَمَنْعَ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي ولعل هذا التأخير لتستمعوا إلى زمن معين ثم يأتيكم عذاب الله الأليم ﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ﴾ أي احكم بيني وبين هؤلاء المكذبين وافصل بيننا بالحق ﴿وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي أستعين بالله على الصبر على تصفونه من الكفر والتكذيب. ختم السورة الكريمة بأمر النبي ﷺ بتفويض الأمر إليه وتوقع الفرج من عنده، فهو نعم الناصر ونعم المعين.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

- (١) اختار هذا القول ابن جرير الطبري وهو قريب مما ذكرناه.
- (٢) أخرجه الحافظ ابن عساكر. (ش:) رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي والألباني. (مُهِدَاةٌ): من الهِدْيَةِ وهي ما يُتَخَفُّ به أي إن الله اتَّخَفَ البشر ببعثته ليدلهم على خير الدارين.
- (٣) لم يقل الله تعالى: رحمة للمؤمنين وإنما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعٰلَمِيْنَ﴾ فإن الله سبحانه وتعالى رحم الخلق بإرسال سيد المرسلين ﷺ لأنه جاءهم بالسعادة الكبرى، والنجاة من الشقاوة العظمية، ونالوا على يديه الخيرات الكثيرة في الآخرة والأولى، وعلمهم بعد الجاهلية، وهداهم بعد الضلالة فكان رحمة للعالمين، حتى الكفار رُحِمُوا به حيث أخرج عقوبتهم ولم يستأصلهم بالعذاب كالمسخ والخسف والغرق. (ش:) مَسَخَ اللَّهُ: حَوَّلَ صَوْرَتَهُ إِلَىٰ أُخْرَىٰ أَقْبَحَ مِنْهَا؛ شَوَّهَ صَوْرَتَهُ، أَفْقَدَهُ طَبِيعَتَهُ الْخَاصَّةَ. خَسَفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ: غَيَّبَهُمْ فِيهَا.

- ١ - التعرض للرحمة بطريق التلطف ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾ ولم يقل: ارحمني.
- ٢ - جناس الاشتقاق ﴿أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾.
- ٣ - الجناس الناقص ﴿الصَّادِرِينَ.. الصَّالِحِينَ﴾.
- ٤ - الطباق بين ﴿رَعْبًا.. وَرَهْبًا﴾ وبين ﴿بَدَانًا.. نُعِيدُهُ﴾ وبين ﴿أَقْرَبُ أَمْرَبَعِدُ﴾.
- ٥ - التشریف ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ أضاف الروح إليه تعالى على جهة التشریف كقوله ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾.
- ٦ - الاستعارة التمثيلية ﴿وَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ مثل اختلافهم في الدين وتفرقهم فيه إلى شيع وأحزاب بالجماعة تتوزع الشيء لهذا نصيب، ولهذا نصيب، وهذا من لطيف الاستعارة.
- ٧ - الإيجاز بالحذف ﴿يَوِيلَنَا﴾ أي ويقولون يا ويلنا، ومثله قوله ﴿وَنُلْقَاهُمْ أَمَلًا يَكُونُ هَذَا يَوْمُكُمْ﴾ أي تقول لهم الملائكة: هذا يومكم الذي كنتم توعدون.
- ٨ - التشبيه المرسل المفصل ﴿نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ أي طيًا مثل طي الصحيفة على ما كتب فيها.
- ٩ - الاستفهام الذي يراد به الأمر ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: أسلموا.
- ١٠ - السجع ﴿فَاعْبُدُونِ، كَانِبُونَ، رَاجِعُونَ﴾ إلخ وهو من المحسنات البديعية.

«انتهى تفسير سورة الأنبياء»





مدنية وآياتها ثمان وسبعون

بين يدي السورة

سورة الحج مدنية وهي تتناول جوانب التشريع، شأنها شأن سائر السور المدنية التي تُعنى بأمور التشريع، ومع أن السورة مدنية إلا أنه يغلب عليها جو السور المكية، فموضوع الإيمان، والتوحيد، والإنذار، والتخويف، وموضوع البعث والجزاء، ومشاهد القيامة وأهوالها، هو البارز في السورة الكريمة، حتى ليكاد يُخيّل للقارئ أنها من السور المكية، هذا إلى جانب الموضوعات التشريعية من الإذن بالقتال، وأحكام الحج والهدى، والأمر بالجهاد في سبيل الله، وغير ذلك من المواضع التي هي من خصائص السور المدنية، حتى لقد عدّها بعض العلماء من السور المشتركة بين المدني والمكي.

* ابتدأت السورة الكريمة بمطلع عنيف مخيف، ترتجف له القلوب، وتطيش لهوله العقول، ذلك هو الزلزال العنيف الذي يكون بين يدي الساعة، ويزيد في الهول على خيال الإنسان، لأنه لا يدرك الدور والقصور فحسب، بل يصل هوله إلى المرضعات الذاهلات عن أطفالهن، والحوامل المسقطات حملهن، والناس الذين يترنحون كأنهم سكرى من الخمر، وما بهم شيء من السكر والشراب، ولكنه الموقف المرهوب، الذي تنزل له القلوب ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُورَ رِجْلُهُمْ إِنْ زُلْزِلَتْ السَّاعَةُ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ الآيات.

* ومن أهوال الساعة إلى أدلة البعث والنشور، تنتقل السورة لتقيم الأدلة والبراهين على البعث بعد الفناء، ثم الانتقال إلى دار الجزاء، لينال الإنسان جزاءه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وتحدثت السورة عن بعض مشاهد القيامة، حيث يكون الأبرار في دار النعيم، والفجار في دار الجحيم.

* ثم انتقلت للحديث عن الحكمة من الإذن بقتال الكفار، وتناولت الحديث عن القرى المدمرة بسبب ظلمها وطغيانها، وذلك لبيان سنة الله في الدعوات، وتطميناً للمسلمين بالعاقبة التي تنتظر الصابرين.

* وفي ختام السورة ضربت مثلاً لعبادة المشركين للأصنام، وبيّنت أن هذه المعبودات أعجز وأحقر من أن تخلق ذبابة فضلاً عن أن تخلق إنساناً سميعاً بصيراً، ودعت إلى اتباع ملة الخليل إبراهيم كهدف الإيمان، وركن التوحيد.

التسمية: سميت «سورة الحج» تخليداً لدعوة الخليل إبراهيم عليه السلام، حين انتهى من

بناء البيت العتيق ونادى الناس لحج بيت الله الحرام، فتواضعت الجبال حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع نداؤه من في الأصلاب والأرحام وأجابوا النداء «لييك اللهم لييك»^(١).

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ① يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ② وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ③ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن قَوْلَاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ④ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنَقَرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ⑤ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑥ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ⑦ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ⑧ ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابُ الْحَرِيقِ ⑨ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ بَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ⑩ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعَبِّدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ⑪ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَمَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ⑫ يَدْعُوا لَمَن ضَرَّهُمْ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ⑬ إِنَّ اللَّهَ يَدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا

(١) (ش): قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٣/ ٤٠٩): «قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: قَالَ جَمَاعَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: مَعْنَى التَّلْبِيَةِ إِجَابَةُ دَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ أَذَّنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ انْتَهَى. وَهَذَا أَخْرَجَهُ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ وَابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِأَسَانِيدِهِمْ فِي تَفَاسِيرِهِمْ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ وَعِكْرَمَةَ وَقَتَادَةَ وَغَيْرِ وَاحِدٍ وَالْأَسَانِيدُ إِلَيْهِمْ قَوِيَّةٌ. وَأَقْوَىٰ مَا فِيهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَا أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ بْنُ مَنِيعٍ فِي مُسْنَدِهِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ قَابُوسَ بْنِ أَبِي ظَبْيَانَ عَنْ أَبِيهِ عَنْهُ قَالَ: «لَمَّا فَرَعَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ بِنَاءِ الْبَيْتِ قِيلَ لَهُ: «أَذَّنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ». قَالَ: «رَبِّ وَمَا يَبْلُغُ صَوْتِي؟» قَالَ: «أَذَّنَ وَعَلَيَّ الْبَلَاغُ». قَالَ: فَنَادَىٰ إِبْرَاهِيمُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْحَجُّ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ». فَسَمِعَهُ مَن بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَفَلَا تَرَوْنَ أَنَّ النَّاسَ يَحْيَوْنَ مِّنْ أَفْصَى الْأَرْضِ يُلْبُونَ». وَمِنْ طَرِيقِ ابْنِ جَرِيرٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَفِيهِ: فَأَجَابُوهُ بِالتَّلْبِيَةِ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ وَأَوَّلَ مَنْ أَجَابَهُ أَهْلُ الْيَمَنِ. فَلَيْسَ حَاجٌّ يَحُجُّ مِنْ يَوْمٍ مَّيْذٍ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ إِلَّا مَنْ كَانَ أَجَابَ إِبْرَاهِيمَ يَوْمَئِذٍ».

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ يَنْصُرُهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِيَ مَنْ يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ

اللغة: ﴿زَلْزَلَةٌ﴾ الزلزلة: شدة الحركة وأصل الكلمة من زلَّ عن الموضع أي زال عنه وتحرك، وزلزل الله قدمه، أي: حركها، وهذه اللفظة تستعمل في تهويل الشيء ﴿تَذْهَلُ﴾ ذهل عن الشيء اشتغل عنه بشاغل من همٍّ أو وجع أو غيره ﴿مُضْغَةً﴾ المضغعة: اللحمية الصغيرة قدر ما يُمضغ ﴿مُخَلَّقَةً﴾ تامة الخلقة ﴿بِهَيْجٍ﴾ حسن سار للناظر ﴿عُطْفِهِ﴾ العطف: الجانب، ومنه قولهم: فلان ينظر في أعطافه أي في جوانبه ويسمى الرداء العِطاف والمعطف لأنه يوضع على الجانبين ﴿الْعَشِيرُ﴾ الصاحب والخليل.

التفسير: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ خطاب لجميع البشر، أي: خافوا عذاب الله وأطيعوه بامثال أو امره واجتناب نواهيه، وجماع القول في التقوى هو: طاعة الله واجتناب محارمه ولهذا قال بعض العلماء: التقوى أن لا يراك حيث نهاك، وأن لا يفقدك حيث أمرك ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ تعليل للأمر بالتقوى أي إن الزلزال الذي يكون بين يدي الساعة أمر عظيم وخطب جسيم لا يكاد يتصور لهوله ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ أي في ذلك اليوم العصيب الذي تشاهدون فيه تلك الزلزلة وترون هول مطلعها ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أي تغفل وتذهل - مع الدهشة وشدة الفزع - كل أنثى مرضعة عن رضيعها، إذ تنزع ثديها من فم طفلها وتنشغل - لهول ما ترى - عن أحب الناس إليها وهو طفلها الرضيع ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ أي تراهم كأنهم سكارى يترنحون ترنح السكران من هول ما يدركهم من الخوف والفزع ﴿وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾ أي وما هم على الحقيقة بسكارى من الخمر ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ استدرارك لما دهاهم أي ليسوا بسكارى ولكن أهوال الساعة وشدائدها أطارت عقولهم وسلبت أفكارهم فهم من خوف عذاب الله مشفقون ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي وبعض من الناس من يخاصم وينازع في قدرة الله وصفاته بغير دليل ولا برهان ويقول: ما لا خير فيه من الأباطيل قال المفسرون: نزلت في النضر بن الحارث وكان جدلاً يقول الملائكة

بناتُ الله، والقرآن أساطير الأولين، ولا بعث بعد الموت قال «أبو السعود»: والآية عامة له ولأضرابه من العُتاة المتمردين^(١) ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ أي يطبع ويقتدي بكل عاتٍ متمرّد كرؤساء الكفر الصادّين عن الحق ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ﴾ أي حكم الله وقضى أنه من تولى الشيطان واتخذهُ ولياً ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي فأن الشيطان يغويه ويسوقه إلى عذاب جهنم المستعرة، وعبر بلفظ ﴿وَيَهْدِيهِ﴾ على سبيل التهكم، ولما ذكر تعالى المجادلين في قدرة الله، المنكرين للبعث والنشور ذكر دليلين واضحين على إمكان البعث أحدهما في الإنسان، والثاني في النبات فقال ﴿يَكَايُهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُّرَابٍ﴾ أي إن شككتُم في قدرتنا على إحيائكم بعد موتكم فانظروا في أصل خلقكم ليزول ريبكم فقد خلقنا أصلكم «آدم» من التراب، ومن قدر على خلقكم أول مرة قادر على أن يعيدكم ثاني مرة، والذي قدر على إخراج النبات من الأرض، بعد موتها قادر على أن يخرجكم من قبوركم ﴿ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ﴾ أي ثم جعلنا نسله من المني الذي ينطف من صلب الرجل قال القرطبي: النُّطْفُ: القَطْرُ^(٢). سُمِّيَ نُطْفَةً لِقِلَّتِهِ^(٣) ﴿ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ﴾ وهو الدم الجامد الذي يشبه العلقة التي تظهر حول الأحواس والمياه ﴿ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ﴾ أي من قطعة من لحم مقدار ما يمضغ ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أي مستبينة الخلق مصورة وغير مصورة قال ابن زيد: المخلقة التي خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين، وغير مخلقة التي لم يخلق فيها شيء ﴿لَنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي خلقناكم على هذا النموذج البديع لنبين لكم أسرار قدرتنا وحكمتنا قال الزمخشري: أي لنبين لكم بهذا التدرّج قدرتنا، وأن من قدر على خلق البشر من تراب أولاً، ثم من نطفة ثانياً، ولا تناسب بين التراب والماء، وقدر على أن يجعل النطفة علقة وبينهما تباين ظاهر، ثم يجعل العلقة مضغة والمضغة عظماً، قادر على إعادة ما بدّاه، بل هذا أَدْخُلُ في القدرة وأهون في القياس^(٤) ﴿وَنُقَرِّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ أي ونثبت من الحمل في أرحام الأمهات من أردنا أن نُقَرَّه فيها حتى يتكامل خلقه ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي إلى زمن معين هو وقت الوضع

(١) «إرشاد العقل السليم» ٣/٤. (ش): ذكره «أبو السعود» في تفسيره «إرشاد العقل السليم» إلى مزايا الكتاب الكريم» (٩٢/٦) بدون إسناد. وعن مجاهد قال: «أنزلت في النضر بن الحارث». (ضعيف، ذكره السيوطي في «الدر المنثور» ونسبه لابن أبي حاتم). (صُرِب): نَوْعٌ وصنف والجمع أضراب. عَتِي: عاتٍ، جَبَّارٌ أو متكبر. والجمع عُتَاةٌ وَعُتَيٌّ.

(٢) (ش): قَطَرُ الْمَاءِ ونحوه: سال قَطْرُهُ قَطْرَةً قَطْرَةً. والقَطْرُ: كُلُّ مَا يَقْطُرُ مِنْ مَاءٍ وَدَمٍ وَغَيْرِهِمَا. والقَطْرُ: المَطَرُ.

(٣) (ش): أي المَنِيّ: قال القرطبي في «تفسيره» (٦/١٢): «(مِن نُّطْفَةٍ) وَهُوَ الْمَنِيّ، سُمِّيَ نُطْفَةً لِقِلَّتِهِ، وَهُوَ الْقَلِيلُ مِنَ الْمَاءِ».

(٤) «تفسير القرطبي» ٦/١٢.

﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ أي ثم نخرج هاذ الجنين طفلاً ضعيفاً في بدنه وسمعته وبصره وحواسه، ثم نعطيهِ القوة شيئاً فشيئاً ﴿ثُمَّ لَتَبَلَّغُوا أَشَدَّكُمْ﴾ أي كمال قوتكم وعقلكم ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى﴾ أي ومنكم من يموت في ريعان شبابه ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ﴾ أي ومنكم من يعمر حتى يصل إلى الشيخوخة والهزم وضعف القوة والخرف ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ أي ليعود إلى ما كان عليه في أوان الطفولة من ضعف البنية، وسخافة العقل، وقلة الفهم، فينسى ما علمه وينكر ما عرفه ويعجز عما قدر عليه كما قال تعالى ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ [يس: ٦٨] ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدةً﴾ هذه هي الحجة الثانية على إمكان البعث أي وترى أيها المخاطب أو أيها المجادل الأرض يابسة ميتة لا نبات فيها ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي فإذا أنزلنا عليها المطر تحركت بالنبات وانفخت وزادت وحييت بعد موتها ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ ذَوْجٍ بِهَيْجٍ﴾ أي وأخرجت من كل صنف عجب ما يسر الناظر ببهاؤه ورونقه ﴿ذَلِكَ يَنْتَظِرُ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي ذلك المذكور من خلق الإنسان والنبات لتعلموا أن الله هو الخالق المدبر وأن ما في الكون من آثار قدرته وشاهد بأن الله هو الحق ﴿وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى﴾ أي وبأنه القادر على إحياء الموتى كما أحيأ الأرض الميتة بالنبات ﴿وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي وبأنه قادر على ما أراد ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي وليعلموا أن الساعة كائنة لا شك فيها ولا مرية ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أي يحيي الأموات ويعيدهم بعدما صاروا رمماً، ويعيهم أحياء إلى موقف الحساب ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ أي يجادل في شأنه تعالى من غير تمسك بعلم صحيح يهدي إلى المعرفة ولا كتاب نير بين الحجة بل بمجرد الرأي والهوى قال ابن عطية: كرر هذه على وجه التوبيخ فكأنه يقول: هذه الأمثال في غاية الوضوح والبيان ومن الناس مع ذلك من يجادل في الله بغير دليل ولا برهان^(١) ﴿ثَانِي عَطْفِهِ﴾ أي معرضاً عن الحق لا وياً عنقه كفراً قال ابن عباس: مستكبراً عن الحق إذا دُعي إليه قال الزمخشري: وثني العطف عبارة عن الكبر والخيلاء فهو كتصغير الخد^(٢) ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي ليصد الناس عن دين الله وشرعه ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي له هوان وذل في الحياة الدنيا ﴿وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي ونذيقه في الآخرة النار المحرقة ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت يَدَكَ﴾ أي ذلك الخزي والعذاب بسبب ما اقترفته من الكفر والضلال ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ بَاطِلًا لِّعَبِيدٍ﴾ أي وأن الله عادل لا يظلم أحداً من خلقه^(٣)

(١) «الكشاف» ١٤٢/٣.

(٢) «البحر المحيط» ٦/٣٥٤.

(٣) «الكشاف» ١٤٤/٣.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ أي ومن الناس من يعبد الله على جانب وطرف من الدين، وهذا تمثيل للمذبذبين الذين لا يعبدون الله عن ثقة ويقين بل عن قلق واضطراب كالذي يكون على طرف من الجيش فإن أحسّ بظفر أو غنيمة استقر وإلا فر قال الحسن: هو المنافق يعبد بلسانه دون قلبه وقال ابن عباس: كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً وأنتجت خيله قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء^(١) ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ أي فإن ناله خير في حياته من صحة ورخاء أقام على دينه ﴿وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أَفْكَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ أي وإن ناله شيء يفتتن به من مكروه وبلاء ارتد فرجع إلى ما كان عليه من الكفر ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ أي أضاع دنياه وآخرته فشقي الشقاوة الأبدية ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أي ذلك هو الخسران الواضح الذي لا خسران مثله ﴿يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نِفْعَةَ﴾ أي يعبد الصنم الذي لا ينفع ولا يضر ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ أي ذلك هو نهاية الضلال الذي لا ضلال بعده، شبه حالهم بحال من أبعد في التيه^(٢) ضالاً عن الطريق ﴿يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ أي يعبد وثناً أو صنماً ضره في الدنيا بالخزي والذل أسرع من نفعه الذي يتوقعه لعبادته وهو الشفاعة له يوم القيامة، وقيل: الآية على الفرض والتقدير: أي لو سلمنا نفعه أو ضره لكان ضره أكثر من نفعه^(٣)، والآية سقت تسفيهاً وتجهيلاً لمن يعتقد أنه ينتفع بعبادة غير الله حين يستشفع بها ﴿لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ أي بئس الناصر وبئس القريب والصاحب ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ لما ذكر حال المشركين وحال المنافقين المذبذبين ذكر حال المؤمنين في الآخرة. والمعنى: إن الله يدخل المؤمنين الصادقين جنات تجري من تحت قصورها وغرفها أنهار اللبن والخمر والعسل وهم في روضات الجنات يُحْبَرُونَ^(٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أي يشيب من يشاء ويعذب من يشاء لا معقب لحكمه، فللمؤمنين الجنة بفضله، وللكافرين النار بعدله ﴿مَن كَانَ يَظُنْ أَن لَّنْ يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي من كان يظن أن لن ينصر الله رسوله ﷺ في الدنيا والآخرة^(٥) ﴿فَلْيَعْمُدْ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾

(١) «تفسير القرطبي» ١٢/١٧.

(٢) (ش): (التَّيَّةُ): الصحراء لا علامة فيها يُهْتَدَى بها.

(٣) «البحر المحيط» ٦/٣٥٦.

(٤) (ش): (يُحْبَرُونَ) يُكْرَمُونَ وَيُسَرُّونَ وَيَنْعَمُونَ.

(٥) للمفسرين في معنى الآية قولان: الأول: أن الضمير في «ينصره» للرسول ﷺ والمعنى على هذا: من كان من الكفار يظن أن لن ينصر الله محمداً فليختنق بحبل فإن الله ناصرُه لأبد، وهذا ما رجحه ابن كثير، والثاني: أن الضمير يعود على الإنسان نفسه والمعنى: من ظن بسبب ضيق صدره وكثرة غمه أن لن ينصره الله فليختنق وليمت بغيطه، وهذا ما رجحه صاحب «التسهيل».

أي فليمدد بجبل إلى السقف ثم ليقطع عنقه وليختنق به ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ﴾ أي فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ؟ قال ابن كثير: وهذا القول قول ابن عباس وهو أظهر في المعنى وأبلغ في التهكم؛ فإن المعنى: من كان يظن أن الله بناصر محمدًا وكتابه ودينه فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه فإن الله ليس ناصره لا محالة ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي ومثل ذلك الإنزال البديع المنطوي على الحكم البالغة أنزلنا القرآن الكريم كله آيات واضحة الدلالة على معانيها الرائقة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ أي وأن الله هو الهادي لا هادي سواه يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي صدّقوا الله ورسوله^(١) وهم أتباع محمد عليه السلام ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ أي اليهود وهم المنتسبون إلى موسى عليه السلام ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ هم قوم يعبدون النجوم ﴿وَالضَّرِيَّةَ﴾ هم المنتسبون إلى ملة عيسى عليه السلام ﴿وَالْمَجُوسَ﴾ هم عبدة النيران ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ هم العرب عبدة الأوثان ﴿إِنَّ اللَّهَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي يقضي بين المؤمنين وبين الفرق الخمسة الضالة فيدخل المؤمنين الجنة والكافرين النار ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي شاهد على أعمال خلقه عالم بكل ما يعملون ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي يسجد لعظمته كل شيء طوعاً وكرهاً، الملائكة في أقطار السماوات، والإنس والجن وسائر المخلوقات في العالم الأرضي ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ﴾ أي وهذه الأجرام العظمى مع سائر الجبال والأشجار والحيوانات تسجد لعظمته سجود انقياد وخضوع، قال ابن كثير: وخص الشمس والقمر والنجوم بالذكر لأنها قد عُدّت من دون الله، فبين أنها تسجد لخالقها وأنها مربية مُسَخَّرَةٌ^(٢).

والغرض من الآية: بيان عظمتة تعالى وانفراده بالوحيته وربوبيته بانقياد هذه العوالم العظمى له وجزيها على وفق أمره وتدييره ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ أي ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ أي وكثير من الناس وجب له العذاب بكفره واستعصائه ﴿وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَمَالَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ أي من أهانه الله بالشقاء والكفر فلا يقدر أحد على دفع الهوان عنه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أي يعذب ويرحم، ويعز ويذل، ويغني ويفقّر، ولا اعتراض لأحد عليه.

(١) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسيراً قاصراً ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٢/ ٥٣٤.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبدیع نوجزها فيما يلي:

١ - التشبيه البليغ المؤكد ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ﴾ أي كالسكارى من شدة الهول، حذفت أداة التشبيه والشبه.

٢ - الاستعارة ﴿شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ استعار لفظ الشيطان لكل طاغية متمرد على أمر الله.

٣ - الطباق بين ﴿يُضِلُّهُ... وَيَهْدِيهِ﴾.

٤ - أسلوب التهكم ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

٥ - طباق السلب ﴿مُخْلَقَةٍ وَغَيْرِ مُخْلَقَةٍ﴾.

٦ - الاستعارة اللطيفة ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ شبه الأرض بنائم لا حركة له ثم يتحرك ويتعش وتذب فيه الحياة بنزول المطر عليه ففيها استعارة تبعية.

٧ - الكناية ﴿ثَانِي عَظِيمٍ﴾ كناية عن التكبر والخيلاء.

٨ - المجاز المرسل ﴿بِمَا قَدَّمْتِ يَدَاكَ﴾ علاقته السببية لأن اليد هي التي تفعل الخير أو الشر.

٩ - الاستعارة التمثيلية ﴿مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ مثل للمنافقين وما هم فيه من قلق واضطراب في دينهم بمن يقف على شفا الهاوية يريد العبادة والصلاة، ويا له من تمثيل رائع!

١٠ - المقابلة البديعة بين ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ... وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾.

١١ - الطباق بين ﴿يُضُرُّهُ... يَنْفَعُهُ﴾ وبين ﴿يُؤْنِسُ... فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ﴾.

١٢ - السجع اللطيف بين كثير من الآيات.

فائدة: المُرضع التي شأنها أن ترضع، والمرضعة هي التي في حال الإرضاع ملقمة ثديها لطفلها ولهذا قال ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ ولم يقل: مرضع ليكون ذلك أعظم في الدهول إذ تنزع ثديها من فم الصبي - أحب الناس إليها - وذلك غاية في شدة الهول والفرع.

تنبيه: روى ابن أبي حاتم أنه قيل لعلي: «إن هاهنا رجلاً يتكلم في المشيئة فاستدعاه فقال له، يا عبد الله: خلقت كما يشاء أو كما تشاء؟ قال: بل كما شاء، قال: فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت، قل: بل إذا شاء، قال: فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء، قال: فيدخلك حيث شئت أو حيث يشاء؟ قال: بل حيث يشاء، قال: والله لو قلت غير ذلك

لضربت الذي بين عينيك بالسيف»^(١).

قال الله تعالى:

هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَمُوا فِي رَيْبٍ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۖ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقْلَعٌ مِّنْ حديدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُكَلِّفُ فِيهَا مِنْ آسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يَرِدْ فِيهِ بِالْهَكَامِ يُطْلَمِ نَذَقَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٢٥) وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا لَا عَلَى رِجَالٍ وَلَا عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَوَّاسَ الْفَقِيرِ (٢٨) ثُمَّ لَيَقْبِضُوا أَنْفُسَهُمْ وَلَيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلَيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمِ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يَتَلَنَّى عَلَيْكُمْ فَأَجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمِ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقَوَّى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَلِلَّهِ كُفْرٌ وَحُدٌّ فَلَهُ أَسْلَمُوا وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ جَعَلْنَاهُمْ لَكُمْ مِنَ الشَّعِيرِ اللَّهُ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ

المناسبة: لما ذكر تعالى أهل السعادة وأهل الشقاوة، ذكر هنا ما دار بينهم من الخصومة في دينه وعبادته، ثم ذكر عظم حرمة البيت العتيق وبناء الخليل له، وعظم كفر هؤلاء المشركين الذين يصدون الناس عن سبيل الله والمسجد الحرام.

اللغة: ﴿يُصْهَرُ﴾ الصهر: الإذابة صهرت الشيء فانصهر أي أذبته فذاب ﴿مَقْلَعٌ﴾ المقامع: السياط جمع مقمعة سميت بذلك لأنها تقمع الفاجر ﴿الْعَكْفُ﴾ المقيم الملازم ﴿وَالْبَادِ﴾ القادم من البادية ﴿بَوَانَا﴾ نزلنا وهيانا وأرشدنا ﴿رَجَا لَا﴾ جمع راجل وهو الماشي على قدميه ﴿ضَامِرٍ﴾ الضامر: البعير المهزول الذي أعبه السفر ﴿تَفَثُهُمْ﴾ التفث في اللغة: الوسخ والقذر قال الشاعر^(١):

حَفُوا رُؤُوسَهُمْ لَمْ يَخْلُقُوا تَفَثًا وَلَمْ يَسْلُوا لَهُمْ قَمَلًا وَصِئْبَانًا^(٢)

قال الثعلبي: أصل التفث في اللغة الوسخ، تقول العرب للرجل تستقذره: ما أتفثك، أي: ما أوسخك وأقذر^(٣) ﴿الْمُخَيَّتِينَ﴾ المخبت: المتواضع الخاشع لله.

التفسير: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾ أي هذان فريقان مختصمان فريق المؤمنين المتقين، وفريق الكفرة المجرمين ﴿أَخْصَمُوا فِي رِيبِهِمْ﴾ أي اختلفوا وتنازعوا من أجل الله ودينه قال مجاهد: هم المؤمنون والكافرون، فالمؤمنون يريدون نصرة دين الله، والكافرون يريدون إطفاء نور الله ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ أي فصلت لهم ثياب من نار على قدر أجسادهم ليلبسوها إذا صاروا إلى النار قال القرطبي: شبهت النار بالثياب لأنها لباس لهم كالثياب ومعنى ﴿قُطِعَتْ﴾ خيطت وسويت، وذكر بلفظ الماضي لأن الموعود منه كالواقع المحقق^(٤) ﴿يُصَبُّ يَصْبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ أي يصب على رؤوسهم الماء الحار المغلي بنار جهنم ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ أي يذاب به ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء مع الجلود قال ابن عباس: لو سقطت منه قطرة على جبال الدنيا لأذابتها وفي الحديث «إِنَّ الْحَمِيمَ لِيَصْبُ عَلَى رُءُوسِهِمْ فَيَنْفُذُ الْحَمِيمُ حَتَّى يَخْلُصَ إِلَى جَوْفِهِ فَيَسْلُتَ مَا فِي جَوْفِهِ حَتَّى يَمْرُقَ مِنْ قَدَمَيْهِ وَهُوَ الصَّهْرُ ثُمَّ يُعَادُ كَمَا كَانَ»^(٥) قال الإمام الفخر: والغرض أن الحميم إذا صب على رؤوسهم كان تأثيره في الباطن مثل تأثيره في الظاهر، فيذيب أمعاءهم وأحشاءهم كما يذيب جلودهم وهو أبلغ من قوله ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾^(٦) [محمد: ١٥]

﴿وَلَهُمْ مَقْلَعٌ مِنْ حديدٍ﴾ أي ولهم مطارق وسياط من الحديد يضربون بها ويدفعون

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت كذا في «تفسير القرطبي» ٥٠/١٢.

(٢) (ش): حَفَّ شعره أو رَأَسَه: أبعاد عهده بالدهن فشعث من عدم الادهان، أي تغبر وتلبد لقلّة تعهده ورعايته بالتمشيط والتنظيف. صِئْبَان: بيض القمل.

(٣) «تفسير القرطبي» ٥٠/١٢.

(٤) «تفسير القرطبي» ٢٦/١٢.

(٥) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح غريب. (ش): ضعفه الألباني.

(٦) «تفسير الرازي» ٢٣/٢٢.

وفي الحديث «لو وضعت مقمعة منها في الأرض فاجتمع عليها الثقلان ما أقلوها»^(١) ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ أي كلما أراد أهل النار الخروج من النار من شدة غمها ردوا إلى أماكنهم فيها قال الحسن: إن النار تضربهم بلهبها فترفعهم حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفاً^(٢) ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي ويقال لهم: ذوقوا عذاب جهنم المحرق الذي كنتم به تكذبون، ولما ذكر تعالى ما أعد للكفار من العذاب والدمار، ذكر ما أعد للمؤمنين من الثواب والنعيم فقال ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي يدخل المؤمنون الصالحين في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار العظيمة المتنوعة ﴿يُحْكَمُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ أي تلبسهم الملائكة في الجنة الأساور الذهبية كحلية وزينة يتزينون بها ﴿وَلَوْلُؤُا﴾ أي ويحلون بالؤلؤ كذلك إكراماً من الله لهم ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أي ولباسهم في الجنة الحرير، ولكنه أعلى وأرفع مما في الدنيا بكثير ﴿وَهُدُوءٌ إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي أرشدوا إلى الكلام الطيب والقول النافع إذ ليس في الجنة لغو ولا كذب ﴿وَهُدُوءٌ إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ﴾ أي إلى صراط الله وهو الجنة دار المتقين، ثم عدد تعالى بعض جرائم المشركين فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي جحدوا بما جاء به محمد عليه السلام ويمنعون المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام لأداء المناسك فيه قال القرطبي: وذلك حين صدوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام عام الحديبية^(٣)، وإنما قال ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ بصيغة المضارع ليدل على الاستمرار فكأن المعنى: إن الذين كفروا من شأنهم الصد عن سبيل الله ونظيره قوله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨] ﴿الَّذِي جَعَلَنَّهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ أي الذي جعلناه منسكاً ومتعبداً للناس جميعاً سواء فيه المقيم والحاضر، والذي يأتيه من خارج البلاد ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحِكَاظِ يَظْلَمِ﴾ أي ومن يرد فيه سوءاً أو ميلاً عن القصد أو يهّم فيه بمعصية ﴿نَذَقَهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي نذقه أشد أنواع العذاب الموجه قال ابن مسعود: لو أن رجلاً بعدن هم بأن يعمل سيئة عند البيت أذاقه الله عذاباً أليماً وقال مجاهد: تُضاعف السيئات فيه كما تضاعف الحسنات^(٤) ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ

(١) أخرجه أحمد. (ش): ولفظه: «لَوْ أَنَّ مَقْمَعًا مِنْ حَدِيدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ، فَاجْتَمَعَ لَهُ الثَّقَلَانِ مَا أَقْلَوْهُ مِنْ الْأَرْضِ» ورواه الحاكم في «المستدرک» وصححه، وسكت عليه الذهبي، وضعفه الألباني والأرنؤوط. (ما أقلوه): ما رَفَعوه.

(٢) «تفسير الرازي» ٢٣/٢٢.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٢/٣١.

(٤) «تفسير الرازي» ٢٣/٢٥.

مَكَانَ الْبَيْتِ ﴿١﴾ أَيِ وَادَكَرَ حِينَ أَرْشَدْنَا إِبْرَاهِيمَ وَالْهَمْنَاهُ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴿٢﴾ أَنْ لَا تَشْرِكَ فِي شَيْئًا ﴿٣﴾ أَيِ أَمْرِنَاهُ بِنَاءَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ خَالِصًا اللَّهُ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيِ ابْنِهِ عَلَى اسْمِي وَحَدِي ﴿٤﴾ وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعَ السُّجُودَ ﴿٥﴾ أَيِ طَهَّرَ بَيْتِي مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَقْدَارِ لِمَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ فِيهِ بِالطَّوَافِ وَالصَّلَاةِ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَالْقَائِمُونَ هُمُ الْمُصَلُّونَ، ذَكَرَ تَعَالَى مِنْ أَرْكَانِ الصَّلَاةِ أَعْظَمُهَا وَهُوَ الْقِيَامُ وَالرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ ^(١) ﴿٦﴾ وَأَذِنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴿٧﴾ أَيِ وَنَادَى فِي النَّاسِ دَاعِيًا لَهُمْ لِحَجِّ بَيْتِ اللَّهِ الْعَتِيقِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمَّا فَرَّغَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ بِنَاءِ الْبَيْتِ قِيلَ لَهُ: أَذِنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ، قَالَ يَا رَبِّ: وَمَا يَبْلُغُ صَوْتِي؟ ^(٢) قَالَ: أَذِنَ وَعَلَى الْإِبْلَاحِ فَصَعِدَ إِبْرَاهِيمُ عَلَى جَبَلِ أَبِي قَبَيْسٍ وَصَاحَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَرَكُمْ بِحَجِّ هَذَا الْبَيْتِ لِشَيْبِكُمْ بِهِ الْجَنَّةُ، وَيَجِيرُكُمْ مِنْ عَذَابِ النَّارِ فَحَجُّوا، فَأَجَابَهُ مِنْ كَانَ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ، وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ: لَيْبِكَ اللَّهُمَّ لَيْبِكَ ^(٣) ﴿٨﴾ يَا تَوَكُّلْ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ﴿٩﴾ أَيِ يَأْتُوكَ مَشَاةً عَلَى أَقْدَامِهِمْ أَوْ رُكْبَانًا عَلَى جَمَلٍ هَزِيلٍ قَدْ أَعْتَبَهُ وَأَنْهَكَهُ بَعْدَ الْمَسَافَةِ ﴿١٠﴾ يَا نَائِيكَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿١١﴾ أَيِ تَأْتِي الْإِبِلُ الضَّامِرَةَ مِنْ كُلِّ طَرِيقٍ بَعِيدٍ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَرَدَ الضَّمِيرُ إِلَى الْإِبِلِ ﴿١٢﴾ يَا نَائِيكَ ﴿١٣﴾ تَكْرِمَةً لَهَا لِقَصْدِهَا الْحَجَّ مَعَ أَرْبَابِهَا كَمَا قَالَ ﴿وَالْعَادِيَتِ ضَبْحًا﴾ [الْعَادِيَاتِ: ١] فِي خَيْلِ الْجِهَادِ تَكْرِمَةً لَهَا حِينَ سَعَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ^(٤) ﴿١٤﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴿١٥﴾ أَيِ لِيَحْضُرُوا مَنَافِعَ لَهُمْ كَثِيرَةً دِينِيَّةً وَدُنْيَوِيَّةً قَالَ «الْفَخْرُ الرَّازِي»: وَإِنَّمَا نَكَّرَ «الْمَنَافِعَ» لِأَنَّهُ أَرَادَ مَنَافِعَ مُخْتَصِمَةً بِهَذِهِ الْعِبَادَةِ دِينِيَّةً وَدُنْيَوِيَّةً لَا تَوْجِدُ فِي غَيْرِهَا مِنَ الْعِبَادَاتِ ^(٥) ﴿١٦﴾ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ ﴿١٧﴾ أَيِ وَيَذْكُرُوا عِنْدَ ذَبْحِ الْهَدَايَا

(١) «المختصر» ٥٣٩/٢.

(٢) «تفسير القرطبي» ٣٧/١٢.

(٣) الرازي ٢٧/٣٢. (ش): قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي «فَتْحِ الْبَارِي» (٣/ ٤٠٩): «قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: قَالَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: مَعْنَى التَّلْبِيَةِ إِجَابَةُ دَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ أَدْنَى فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ انْتَهَى. وَهَذَا أَخْرَجَهُ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ وَابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِأَسَانِيدِهِمْ فِي تَفَاسِيرِهِمْ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ وَعِكْرَمَةَ وَقَتَادَةَ وَغَيْرَ وَاحِدٍ وَالْأَسَانِيدُ إِلَيْهِمْ قَوِيَّةٌ. وَأَقْوَى مَا فِيهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَا أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ بْنُ مَنِيعٍ فِي مُسْنَدِهِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ قَابُوسِ بْنِ أَبِي ظَبْيَانَ عَنْ أَبِيهِ عَنْهُ قَالَ: «لَمَّا فَرَّغَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ بِنَاءِ الْبَيْتِ قِيلَ لَهُ: «أَذِنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ». قَالَ: «رَبِّ وَمَا يَبْلُغُ صَوْتِي؟» قَالَ: «أَذِنَ وَعَلَى الْبَلَاغِ». قَالَ: فَتَادَى إِبْرَاهِيمُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْحَجُّ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ». فَسَمِعَهُ مِنْ بَيْنِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَفَلَا تَرَوْنَ أَنَّ النَّاسَ يَجِئُونَ مِنْ أَقْصَى الْأَرْضِ يُلْبِثُونَ». وَمِنْ طَرِيقِ ابْنِ جَرِيرٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَفِيهِ: فَأَجَابُوهُ بِالتَّلْبِيَةِ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ وَأَوَّلَ مَنْ أَجَابَهُ أَهْلُ الْيَمَنِ. فَلَيْسَ حَاجٌّ يَحُجُّ مِنْ يَوْمَيْدٍ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ إِلَّا مَنْ كَانَ أَجَابَ إِبْرَاهِيمَ يَوْمَئِذٍ».

(٤) «تفسير القرطبي» ٣٩/١٢.

(٥) «تفسير الرازي» ٢٩/٢٣.

والضحايا اسم الله في أيام النحر شكراً لله على نعمائه وعلى ما رزقهم وملكهم من الأنعام وهي: الإبل والبقر والغنم والمعز قال الرازي: وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلي ذكر اسمه تعالى عند الذبح وأن يخالف المشركين في ذلك فإنهم كانوا يذبحونها للنصب والأوثان^(١) ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أي كلوا من لحوم الأضاحي ﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ أي أطعموا منها البائس الذي أصابه بؤس وشدة، والفقير الذي أضعفه الإعسار قال ابن عباس: البائس الذي ظهر بؤسه في ثيابه وفي وجهه، والفقير الذي لا يكون كذلك، ثيابه نقية ووجهه وجه غني ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ أي ثم بعد الذبح ليزيلوا وسخهم الذي أصابهم بالإحرام وذلك بالحلق والتقصير وإزالة الشعث وقص الشارب والأظافر ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ أي ما أوجبوه على أنفسهم بالنذر طاعة لله ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أي ليطوفوا حول البيت العتيق طواف الإفاضة وهو طواف الزيارة الذي به تمام التحلل، والعتيق: القديم سمي به لأنه أول بيت وضع للناس ﴿ذَلِكَ﴾ أي الأمر والشأن ذلك قال الزمخشري: كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض المعاني ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر قال: هذا وقد كان كذا^(٢) ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتُ اللَّهِ﴾ أي من يعظم ما شرعه الله من أحكام الدين ويجتنب المعاصي والمحارم ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي ذلك التعظيم خير له ثواباً في الآخرة ﴿وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أي أحللتنا لكم جميع الأنعام إلا ما استثنى في الكتاب المجيد كالهيئة والمنخقة وما ذبح لغير الله وغير ذلك^(٣). ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ أي اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان كما تجتنب الأنجاس، وهو غاية المبالغة في النهي عن عبادتها وتعظيمها ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ أي واجتنبوا شهادة الزور ﴿حُقَّ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ أي مائلين إلى الحق مسلمين لله غير مشركين به أحداً ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ تمثيل للمشرك في ضلاله وهلاكه أي ومن أشرك بالله فكأنما سقط من السماء فتخطفه الطير وتمزقه كل ممزق ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أي أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المهالك البعيدة ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرُ اللَّهِ﴾ أي ذلك ما وضحه الله لكم من الأحكام والأمثال، ومن يعظم أمور الدين ومنها أعمال الحج والأضاحي والهدايا ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ أي فإن تعظيمها من أفعال المتقين لله قال القرطبي: أضاف

(١) الرازي ٢٩/٢٣.

(٢) «الكشاف» ٣.

(٣) (ش): أضافت السُّنَّة إلى الْمُحَرَّمَ أكله في القرآن تحريمَ أَكْلِ كل ذي مخلب من الطير، وكل ذي ناب من السباع، وأكل لحوم الحمر الأهلية.

التقوى إلى القلوب لأن التقوى في القلب وفي الحديث «التَّقْوَى هَا هُنَا». وَأَشَارَ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ^(١) ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي لكم في الهدايا منافع كثيرة من الدَّر ^(٢) والنسل والركوب إلى وقت نحرها ﴿ثُمَّ مَحَلَّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أي ثم مكان ذبحها في الحرم بمكة أو منى، وخص البيت بالذكر لأنه أشرف الحرم كقوله تعالى ﴿هَدْيًا بَلِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥] ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَسْكًا﴾ أي شرعنا لكل أمة من الأمم السابقة من عهد إبراهيم مكاناً للذبح تقرباً لله قال ابن كثير: يخبر تعالى أنه لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ أي أمرناهم عند الذبح أن يذكروا اسم الله وأن يذبحوا لوجهه تعالى ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ أي شكر الله على ما أنعم به عليهم من بهيمة الأنعام من الإبل والبقر والغنم، بيّن تعالى أنه يجب أن يكون الذبح لوجهه تعالى وعلى اسمه لأنه هو الخالق الرازق لا كما كان المشركون يذبحون للأوثان ﴿فَالنَّهْكَمُ لِلَّهِ وَحْدَهُ﴾ أي فربكم أيها الناس ومعبودكم إله واحد لا شريك له ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أي فأخلصوا له العبدية واستسلموا لحكمه وطاعته ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ أي بشر المطيعين المتواضعين الخاشعين بجنات النعيم، ثم وصف تعالى المخبتين بأربع صفات فقال ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي إذا ذكر الله خافت وارتعشت لذكره قلوبهم لإشراق أشعة جلاله عليها فكأنهم بين يديه واقفون، ولجلاله وعظمته مشاهدون ﴿وَالصَّادِقِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ أي يصبرون في السراء والضراء على الأمراض والمصائب والمحن وسائر المكاره ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ أي الذين يؤدونها في أوقاتها مستقيمة كاملة مع الخشوع والخضوع ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي ومن بعض الذي رزقناهم من فضلنا ينفقون في وجوه الخيرات ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعِيرٍ أَللَّهُ﴾ أي والإبل السمينة - سميت بدنًا لبدانتها وضخامة أجسامها - جعلناها من أعلام الشريعة التي شرعها الله لعباده قال ابن كثير: وكونها من شعائر الدين أنها تُهدى إلى بيته الحرام بل هي أفضل ما يهدى ^(٣) ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ قال ابن عباس: نفع في الدنيا وأجر في الآخرة ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَ﴾ أي اذكروا عند ذبحها اسم الله الجليل عليها حال كونها صواف أي: قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن ﴿فَإِذَا وَجِئَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي فإذا سقطت على الأرض بعد نحرها، وهو كناية عن الموت ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ أي كلوا من هذه الهدايا وأطعموا القانع، أي: المتعفف، والمعتر، أي:

(١) «تفسير القرطبي» ١٢/٥٦. (ش): (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٢) (ش): الدَّر: اللَّيْنُ.

(٣) «المختصر» ٢/٥٤٤.

السائل قاله ابن عباس^(١)، وقال الرازي: الأقرب أن القانع هو الراضي بما يدفع إليه من غير سؤال وإلحاح، والمعتر هو الذي يتعرض ويطلب ويعتريهم حالاً بعد حال^(٢) ﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي مثل ذلك التسخير البديع جعلناها منقاداً لكم مع ضخامة أجسامها لكي تشكروا الله على إنعامه ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾ أي لن يصل إليه تعالى شيء من لحومها ولا دماؤها ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ النُّفُوسُ مِنْكُمْ﴾ أي ولكن يصل إليه التقوى منكم بامثالكم أو امره وطلبكم رضوانه ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ أي كرهه للتأكيد أي كذلك ذللها لكم وجعلها منقاداً لرغبتكم لتكبروا الله على ما أرشدكم إليه من أحكام دينه ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي بشر المحسنين في أعمالهم بالسعادة والفوز بدار النعيم.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الإيجاز ﴿أَخْضَعُوا فِي رَيْبِهِمْ﴾ أي في دين ربهم فهو على حذف مضاف.
- ٢ - الاستعارة ﴿قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ استعارة عن إحاطة النار بهم كما يحيط الثوب بلائسه.

- ٣ - الطباق بين ﴿الْعَكْفُ .. وَالْبَادِ﴾ لأن العاكف المقيم في المدينة والباد القدم من البادية.

- ٤ - التأكيد بإعادة الفصل ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ للعناية بشأن كل استقلالاً، ويسمى في علم البديع الإطناب.

- ٥ - التشبيه التمثيلي ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد.

- ٦ - الجنس الناقص ﴿وَجَعَلَتْ جُنُوبَهَا﴾.

- ٧ - الطباق بين ﴿الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ لأن القانع المتعفف والمعتر السائل.

- ٨ - السجع اللطيف مثل ﴿عَمِيقٍ، سَجِيقٍ، الْعَمِيقِ﴾ ومثل ﴿الْمُحْسِنِينَ، الْمُحْسِنِينَ﴾.

تنبيه: لم يؤخذ الله تعالى أحداً من خلقه على الهم بالمعصية إلا في المسجد الحرام ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ لأنه المكان المقدس الذي يجب أن يكون فيه الإنسان نقي القلب، طاهر النفس، صافي السريرة، خالصاً بكليته لله، فمن ينتهك حرمة الملك في حماه جدير بالجحيم والعذاب الأليم.

(١) وهو قول قتادة والنخعي ومجاهد وكثير من السلف.

(٢) الرازي ٣٦/٢٣.

قال الله تعالى:

إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقْتُلُوا بِأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الصُّلُوحُ وَبِيعَ صَلَواتٌ وَمَسْجِدٌ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْحَجِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِئَةٍ مِنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ الْمَلَأْتُ يَوْمَئِذٍ بَلَدًا بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ ﴿٥٨﴾ لِيَدْخُلَنَّهُمْ مَدْخَلًا يُرْضَوْنَ بِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴿٦٠﴾ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوْقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ

المناسبة: لما بين تعالى مناسك الحج وما فيه من منافع الدنيا والآخرة، وذكر أن

الكفار صدوا المؤمنين عن دين الله وعن دخول مكة، بين هنا أنه يدافع عن المؤمنين وذكر الحكمة من مشروعية القتال ومنها الدفاع عن المقدسات، وحماية المستضعفين، وتمكين المؤمنين من عبادة الله تعالى.

اللغة: ﴿صَوْمِعُ﴾ جمع صومعة وهي البناء المرتفع وهي مختصة بالرهبان ﴿وَبَيْعُ﴾ جمع بيعه وهي كنيسة النصارى ﴿وَصَلَوْتُ﴾ كنائس اليهود وقال الزجاج: وهي بالعبرانية صَلَوَتَا ﴿نَكِيرٍ﴾ مصدر بمعنى الإنكار قال الجوهري: النكيرُ والإنكارُ تغيير المنكر ﴿مُعْطَلَةٍ﴾ متروكة، وتعطيل الشيء إبطال منافعه ﴿مَشِيدٍ﴾ مرفوع البنيان.

التفسير: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي ينصر المؤمنين ويدفع عنهم بأس المشركين، وهذه بشارة للمؤمنين بإعلائهم على الكفار وكف كيدهم عنهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ أي إنه تعالى يبغض كل خائن للأمانة جاحد نعمة الله ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾ فيه محذوف تقديره: أُذِنَ لَهُمْ فِي الْقِتَالِ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ ظَلَمُوا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هذه أو لاية نزلت في الجهاد قال المفسرون: هم أصحاب رسول الله ﷺ كان مشركو مكة يؤذونهم أذى شديداً وكانوا يأتون رسول الله ﷺ بين مضروب ومسجوح ويتظلمون إليه فيقول لهم: اصبروا فإني لم أؤمر بقتالهم حتى هاجروا فأنزلت هذه الآية وهي أو لاية أُذِنَ فِيهَا بِالْقِتَالِ بعدما نهى عنه في أكثر من سبعين آية ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ أي هو تعالى قادر على نصر عباده من غير قتال ولكنه يريد منهم أن يبذلوا جهدهم في طاعته لينالوا أجر الشهداء ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي أُخْرِجُوا مِنْ أوطانهم ظلماً وعدواناً بغير سبب موجب للإخراج قال ابن عباس: يعني محمداً وأصحابه أُخْرِجُوا مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴿إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أي ما كان لهم إساءة ولا ذنب إلا أنهم وحدوا الله ولم يشركوا به أحداً ﴿وَلَوْ لَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي لولا ما شرعه الله من الجهاد وقتال الأعداء لاستولى أهل الشرك على أهل الأديان وتعطلت الشعائر ولكنه تعالى دفع شرهم بأن أمر بقتالهم ﴿لَهَدَمْتُ صَوْمِعُ وَيَبْعُ وَصَلَوْتُ﴾ أي تهدمت معابد الرهبان وكنائس النصارى ﴿وَصَلَوْتُ﴾ أي كنائس اليهود ﴿وَمَسْجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ أي ومساجد المسلمين التي يعبد فيها الله بكرة وأصيلاً، ومعنى الآية أنه لولا كفه تعالى المشركين بالمسلمين، وإذنه بمجاهدة المسلمين للكافرين لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمانهم فهدموا موضع عباداتهم، ولم يتركوا للنصارى بيعاً، ولا ليهود كنائس، ولا للمسلمين مساجد، ولغلب المشركون أهل الأديان، وإنما خص المساجد بهذا الوصف

﴿يَذْكُرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ﴾ تعظيماً لها وتشريفاً لأنها أماكن العبادة الحقة ﴿وَلْيَنْصُرْكَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ قسم أي والله سينصر الله من ينصر دينه ورسوله ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي إنه تعالى قادر لا يعجزه شيء، عزيز لا يقهر ولا يغلب قال ابن كثير: وصف نفسه بالقوة والعزة، فبقوته خلق كل شيء، وبعزته لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب^(١) ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ قال ابن عباس: هم المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان، والمعنى: هؤلاء الذين يستحقون نصرة الله هم الذين إن جعلنا لهم سلطاناً في الأرض وتملكاً واستعلاء عبدوا الله وحافظوا على الصلاة وأداء الزكاة ﴿وَأَمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي دَعَوْا إِلَى الْخَيْرِ وَنَهَوْا عَنِ الشَّرِّ ﴿وَلِلَّهِ عَنِقَةُ الْأُمُورِ﴾ أي مرجع الأمور إلى حكمه تعالى وتقديره ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ﴾ تسليية للرسول ﷺ ووعيد للمشركين، أي: إن كذبك أهل مكة فاعلم أنك لست أول رسول يكذبه قومه فقد كان قبلك أنبياء كُذِّبوا فصبروا إلى أن أهلك الله المكذبين، فاقتد بهم واصبر ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ﴿أَيُّ وَكَذَّبَ قَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَقَوْمُ شَعِيبَ﴾ وَكَذَّبَ مُوسَى ﴿أَيُّ وَكَذَّبَ مُوسَى أَيْضاً﴾ مع وضوح آياته، وعظم معجزاته فما ظنك بغيره؟ ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ﴾ أي أمهلتهم ثم أخذتهم بالعقوبة ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ استفهام تقرير أي فكيف كان إنكاري عليهم بالعذاب ألم يكن أليماً؟ ألم أبدلهم بالنعمة نقمة، وبالكثرة قلة، وبالعمارة خراباً؟ فكذلك أفعَل بالمكذبين من أهل مكة ﴿فَكَأَنِّنٌ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي كم من قرية أهلكنا أهلها بالعذاب الشامل ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي وهي مشركة كافرة ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي خرت سقوفها على الأرض ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف فهي مخربة مهدمة ﴿وَيَبِثُّ مَعْطَلَةٌ﴾ أي وكم من بئر عطلت فتركت لا يُسْتَقَى منها لهلاك أهلها ﴿وَقَصْرِ مَشِيدٍ﴾ أي وكم من قصر مرفوع البناء أصبح خالياً بلا ساكن، أليس في ذلك عبرة للمعتبر؟ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ أي أفلم يسافر أهل مكة ليشاهدوا مصارع الكفار فيعتبروا بما حل بهم من النكال والدمار! ﴿وَهَلَّا عَقِلُوا مَا يَجِبُ أَنْ يُعْقَلَ مِنَ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ﴾ ﴿أَوْ أَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي أو تكون لهم آذان يسمعون بها المواعظ والزواجر ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أي ليس العمى على الحقيقة عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة فمن كان أعمى القلب لا يعتبر ولا يتدبر، وذكر الصدر للتأكيد ونفي توهم المجاز

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي ويستعجلوك يا محمد هؤلاء المشركون بالعذاب استهزاءً، وإن ذلك واقع لا محالة، لكن لوقوعه أجل لا يتعداه لأنه تعالى لا يخلف الميعاد ﴿وَلَيْتَ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي هو تعالى حلیم لا يعجل فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حلمه فلم إذا يستبعدونه ويستعجلون العذاب؟^(١) ولهذا قال بعد ذلك ﴿وَكَأَنِّ مِّنْ قَرِيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي وكثير من أهل قرية أخرت إهلاكهم وأمهلتهم مع استمرارهم على الظلم فاعتروا بذلك التأخير ﴿ثُمَّ أَخَذْنَاهَا وَلِئْلِ الْمَصِيرِ﴾ أي ثم أخذتهم بالعذاب ذكر الآية تنبيهاً على أن السابقين أمهلوا ثم أهلكوا وأن قريشاً وإن أملى تعالى لهم وأمهلهم فإنه لا بد من عذابهم فلا يفرحوا بتأخير العذاب عنهم^(٢) ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المستعجلين للعذاب: إنما أنا منذر لكم أخوفكم عذاب الله وأنذركم إنذاراً بيناً من غير أن يكون لي دخل في تعجيل العذاب أو تأخيره ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي فالمؤمنون الصادقون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح لهم عند ربهم مغفرة لذنوبهم ورزق كريم في جنات النعيم قال الرازي: بَيَّنَّ سبحانه أن مَنْ جَمَعَ بينهما فالله تعالى يجمع له بين المغفرة والرزق الكريم^(٣) وقال القرطبي: إذا سمعت الله تعالى يقول ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فاعلم أنه الجنة^(٤) ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ أي كذبوا بآياتنا وسعوا في إبطالها مغالبين مشاقين يريدون إطفاء نور الله ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي فأولئك هم أصحاب النار الحارة الموجهة، الشديد عذابها ونكالها، شبههم من حيث الدوام بالصاحب قال الرازي: فإن قيل: إنه عليه السلام بشر المؤمنين أولاً، وأنذر الكافرين ثانياً في هذه الآية فكان القياس أن يقال ﴿إنما أنا لكم بشير ونذير﴾ والجواب أن الكلام مسوق إلى المشركين وهم الذين استعجلوا العذاب

(١) (ش): ورد في سورة الحج قوله تعالى ﴿وَلَيْتَ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وفي سورة السجدة ﴿ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وفي سورة المعارج ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وقد كثرت أقوال أهل التفسير في تحديد هذه الأيام. وأحسن ما يقال فيها أن اليوم الذي ذكر في سورة الحج هو عبارة عن الزمان وتقديره عند الله، وأن آية السجدة هي في نزول الملائكة بالأمر وعروجهم به في الدنيا، وأن آية المعارج هي في يوم القيامة قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وآله وسلم - : «مَا مِنْ صَاحِبٍ ذَهَبَ وَلَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُخِيَتْ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيَكُونُ بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٢) «البحر المحيط» ٦/ ٣٧٩.

(٣) «الرازي» ٤٧/ ٣٢.

(٤) «المختصر» ٥٥٠/ ٢.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ نداءٌ لهم، وإنما ذكر المؤمنين وثوابهم زيادة لغيظهم وإيذائهم^(١) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ أي وما أرسلنا قبلك يا محمد رسولا ولا نبيا ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّيَ﴾ أي إلا إذا أحب شيئا وهويته نفسه ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أي ألقى الشيطان فيما يشتهيهِ ويتمناه بعض الوسوس التي توجب اشتغاله بالدنيا كما قال عليه السلام: «إِنَّهُ لَيَغْنُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»^(٢).

قال الفراء: تمنى إذا حدث نفسه، وفي البخاري: قال ابن عباس: «إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته» إلا إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه فيبطل الله ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته، ويقال: أمنيته: قراءته^(٣) قال النحاس: وهذا من أحسن ما قيل في الآية وأجله، ومعنى الآية: وما أرسلنا رسولا ولا نبيا فحدث نفسه بشيء وتمنى لأتمته الهداية والإيمان إلا ألقى الشيطان الوسوس والعقبات في طريقه بتزيين الكفر لقومه وإلقاءه في نفوسهم مخالفة لأمر الرسول وكأن الآية تسلية للرسول ﷺ تقول له: لا تحزن يا محمد على معاداة قومك لك فهذه سنة المرسلين^(٤) ﴿فَيَنْسُخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ أي يزيل ويبطل الله ما يلقيه الشيطان من الوسوس والأوهام ﴿ثُمَّ يُخَيِّكُمُ اللَّهُ أَیَّتِهِ﴾ أي يثبت في نفس

(١) «الرازي» ٤٧/٣٢.

(٢) (ش): (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). الْعَيْنُ: مَا يَتَغَشَّى الْقَلْبَ، وَالْمُرَادُ بِالْعَيْنِ فَتْرَاتُ عَنِ الذِّكْرِ الَّذِي شَأْنُهُ ﷻ أَنْ يُدَاوِمَ عَلَيْهِ فَإِذَا فَتَرَ عَنْهُ لَأَمْرٌ مَا عَدَّ ذَلِكَ ذَنْبًا فَاسْتَغْفَرَ عَنْهُ، وَقِيلَ: هُوَ شَيْءٌ يَعْتَرِي الْقَلْبَ مِمَّا يَقَعُ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ، وَقِيلَ هُوَ السَّكِينَةُ الَّتِي تَغْشَى قَلْبَهُ. وَالْإِسْتِغْفَارُ لِإِظْهَارِ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ وَالشُّكْرِ لِمَا أَوْلَاهُ، وَقِيلَ: هِيَ حَالَةُ خَشْيَةٍ وَإِعْظَامِ وَالْإِسْتِغْفَارُ شُكْرُهَا، [انظر: شرح النووي على مسلم (١٧/ ٢٣-٢٤)، فتح الباري لابن حجر (١١/ ١٠١)].

(٣) انظر صحيح البخاري كتاب التفسير.

(٤) هذا أصح ما قيل في تفسير الآية وهو اختيار المحققين من المفسرين، وأما قصة الغرائق التي أُلْعِ بِذِكْرِهَا بعض المفسرين فهي باطلة مردودة، وهي أن الرسول عليه السلام قرأ سورة: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ بمحضر من المشركين والمسلمين فلما بلغ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ ﴿وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةِ الْآخِرَىٰ﴾ ألقى الشيطان على لسانه «تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجى» ففرح بذلك المشركون ولما انتهى من السورة سجد وسجد معه المشركون... إلخ. قال ابن العربي: إن جميع ما ورد في هذه القصة باطل لا أصل له. وقال ابن إسحاق: هي من وضع الزنادقة. وقال البيهقي: رواها مطعون فيهم. وقال ابن كثير: ذكر كثير من المفسرين قصة الغرائق وهي روايات مراسلات ومنقطعات لا تصح: وقال القاضي عياض: هذا حديث لم يخرج أحد من أهل الصحة ولا رواه أحد بسند متصل سليم، وإنما أُلْعِ بِهِ وبمثله المفسرون والمؤرخون، المولعون بكل غريب، المتلفون من الصحف كل صحيح وسقيم. أقول: مما يدل على بطلان القصة قوله تعالى في نفس السورة: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ فكيف نطق المعصوم بمثل هذا الذي يزعمونه! سبحانه هذا بهتان عظيم وانظر الرد القاطع في «تفسير فخر الرازي». (ش): الصحيح في معنى الآية: وما أرسلنا من قبلك - أيها الرسول - من رسول ولا نبي إلا إذا قرأ كتاب الله ألقى الشيطان في قراءته الوسوس والشبهات؛ ليصد الناس عن اتباع ما يقرؤه ويتلوه، لكن الله يبطل كيد الشيطان، فيزيل وسوسه، ويثبت آياته الواضحات. والله عليم بما كان ويكون، لا تخفى عليه خافية، حكيم في تقديره وأمره.

الرسول آياته الدالة على الوحداية والرسالة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي مبالغ في العلم حكيم يضع الأشياء في مواضعها قال «أبو السعود»: وفي الآية دلالة على جواز السهو من الأنبياء عليهم السلام، وتطرق الوسوسة إليهم ^(١) ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ أي ليجعل تلك الشبه والوساوس التي يلقيها الشيطان ﴿فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي فتنة للمنافقين الذين في قلوبهم شك وارتباب ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ أي وفتنة لكلا فريقين الذين لا تلين قلوبهم لذكر الله، وهم خواص من الكفار عتاة كأبي جهل، والنضر، وعتبة ﴿وَإِنَّكَ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي وإن هؤلاء المذكورين من المنافقين والمشركين لفي عداوة شديدة لله ولرسوله، ووصف الشقاق بلفظ ﴿بَعِيدٍ﴾ لأنه في غاية الضلال والبعد عن الخير ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي وليعلم أهل العلم أن القرآن هو الحق النازل من عند الله تعالى ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي يؤمنوا بهذا القرآن ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أي تخشع وتسكن له قلوبهم بخلاف من في قلبه مرض ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي مرشد المؤمنين إلى الصراط المستقيم ومنقذهم من الضلالة والغواية ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيَةٍ مِنْهُ﴾ أي ولا يزال هؤلاء المشركون في شك وريب من هذا القرآن ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي حتى تأتيهم الساعة فجأة دون أن يشعروا قال قتادة: ما أخذ الله قوما قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم فلا تغتروا بالله إنه لا يغتر بالله؛ إلا القوم الفاسقون ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ أي أو يأتيهم عذاب يوم القيمة وسمي عقيماً لأنه لا يوم بعده قال «أبو السعود»: كأن كل يوم يلد ما بعده من الأيام، فما لا يوم بعده يكون عقيماً، والمراد به الساعة أيضاً كأنه قيل: أو يأتيهم عذابها، ووضع ذلك موضع الضمير لمزيد التهويل ^(٢) ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ أي الملك يوم القيامة لله وحده لا منازع له فيه ولا مدافع ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي يفصل بين عباده بالعدل، فيدخل المؤمنين الجنة والكافرين النار ولهذا قال ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي فالذين صدقوا الله ورسوله ^(٣) وفعلوا صالح الأعمال لهم النعيم المقيم في جنات الخلد ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِيتٌ﴾ أي والذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسله لهم العذاب المخزي مع الإهانة والتحقير في دار الجحيم ﴿وَالَّذِينَ

(١) «أبو السعود» ١٨/٤.

(٢) «أبو السعود» ١٩/٤.

(٣) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسيراً قاصراً ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح.

هَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿ أَي تَرَكُوا الْوَطَانَ وَالْأُوطَانَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَجَاهِدُوا لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ ﴾ ثُمَّ قَاتِلُوا أَوْ مَاتُوا ﴿ أَي قَاتِلُوا فِي الْجِهَادِ أَوْ مَاتُوا عَلَى فِرْسِهِمْ ﴾ لِيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿ أَي لِيُعْطِيَنَّهُمْ نَعِيمًا خَالِدًا لَا يَنْقُطِعُ أَبَدًا وَهُوَ نَعِيمُ الْجَنَّةِ ﴾ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿ أَي هُوَ تَعَالَى خَيْرٌ مَنْ أَعْطَى فَإِنَّهُ يَرْزُقُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ﴿ أَي لِيُدْخِلَنَّهُمْ مَكَانًا يَرْضَوْنَهُ وَهُوَ الْجَنَّةُ الَّتِي فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ﴾ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿ أَي عَلِيمٌ بِدَرَجَاتِ الْعَامِلِينَ حَلِيمٌ عَنْ عِقَابِهِمْ ﴾ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوْقِبَ بِهِ ﴿ أَي جَازَى الظَّالِمَ بِمِثْلِ مَا ظَلَمَهُ ﴾ ثُمَّ بَغَى عَلَيْهِ لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ ﴿ أَي ثُمَّ اعْتَدَى الظَّالِمَ عَلَيْهِ ثَانِيًا لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ ذَلِكَ الْمَظْلُومَ ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿ أَي مُبَالِغٌ فِي الْعَفْوِ وَالْغُفْرَانِ، وَفِيهِ تَعْرِيزٌ بِالْحَثِّ عَلَى الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى مَعَ كَمَالِ قُدْرَتِهِ عَلَى الْإِنْتِقَامِ يَعْفُو وَيَغْفِرُ فَغَيْرُهُ أَوْلَى بِذَلِكَ ﴾ ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴿ أَي ذَلِكَ النُّصْرَ بِسَبَبِ أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ، وَمِنْ آيَاتِ قُدْرَتِهِ إِيْلَاجُ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ أَوْ إِيْلَاجُ النَّهَارِ فِي اللَّيْلِ كَلَّا مِنْهُمَا فِي الْآخِرِ بِأَنْ يَنْقُصَ مِنَ اللَّيْلِ فَيَزِيدَ فِي النَّهَارِ وَبِالْعَكْسِ وَهَذَا مُشَاهِدٌ مَلْمُوسٌ فِي الصَّيْفِ وَالشِّتَاءِ ﴾ وَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿ أَي سَمِيعٌ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ بَصِيرٌ بِأَحْوَالِهِمْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ﴾ ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ ﴿ أَي ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْإِلَهَ الْحَقُّ ﴾ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَكَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴿ أَي وَأَنْ الَّذِي يَدْعُوهُ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ هُوَ الْبَاطِلُ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿ أَي هُوَ الْعَالِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ذُو الْعِظَمَةِ وَالْكَبْرِيَاءِ فَلَا أَعْلَى مِنْهُ وَلَا أَكْبَرُ.

الْبَلَاغَةُ: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبدیع نوجزها فيما يلي:

- ١ - صيغة المبالغة ﴿خَوَانِ كَفُورٍ﴾ لأن (فعال وفعلول) من صيغ المبالغة.
- ٢ - الحذف لدلالة السياق عليه ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ﴾ أي أُذِنَ بِالْقَتَالِ لِلَّذِينَ يِقَاتِلُونَ.

- ٣ - تأكيد المدح بما يشبه الذم ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أي لا ذنب لهم إلا هذا.
- ٤ - المقابلة اللطيفة بين ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وبين ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.
- ٥ - جناس الاشتقاق ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ﴾.
- ٦ - الطباق بين ﴿فَيَنْسَخُ.. ثُمَّ يُخَوِّضُكُمْ﴾.
- ٧ - الاستعارة البديعة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ﴾ وهذا من أحسن الاستعارات

لأن العقيم المرأة التي لا تلد، فكأنه سبحانه وصف ذلك اليوم بأنه لا ليل بعده ولا نهار لأن الزمان قد مضى، والتكليف قد انقضى، فجعلت الأيام بمنزلة الولدان لليلي، وجعل ذلك اليوم من بينها عقيمًا على طريق الاستعارة.

قال الله تعالى:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾
لَهُ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَفِيُّ الْحَكِيمُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ
لَكُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ يَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ
اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ
لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَاذْعُ إِلَى رَبِّكَ
إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ
ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ
لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا نُنْتَلَى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا
الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ
النَّارِ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ
الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا
يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ
عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾
يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا
وَأَسْجُدُوا وَعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ
حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ
الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ
وَعَاتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ

المناسبة: لما ذكر تعالى ما دلَّ على قدرته وحكمته، وجعلها كالمقدمة لإثبات البعث والمعاد، وختم السورة بدعوة المؤمنين إلى عبادة الله الواحد الأحد.

اللغة: ﴿سُلْطَانًا﴾ حجة وبرهانًا ﴿يَسْطُونَ﴾ يبطشون، والسطوة: القهر وشدة البطش
يقال: سطا يسطو إذا بطش به ﴿يَسْلُبُهُمْ﴾ سلب الشيء: اختطفه بسرعة ﴿فَكَّرُوا﴾ عظموا
﴿يَصْطَفِي﴾ يجتبي ويختار ﴿حَرَجٍ﴾ ضيق ﴿مِلَّةً﴾ الملة: الدين.

التفسير: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ استفهام تقرير، أي: ألم تعلم أيها السامع أن الله بقدرته أنزل من السحاب المطر؟ ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ أي فأصبحت الأرض منتعشة خضراء بعد يُبْسِها ومُحُولِها^(١)، وجاء بصيغة المضارع ﴿فَتُصْبِحُ﴾ لاستحضار الصورة وإفادة بقائها كذلك مدة من الزمن ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ قال ابن عباس: لطيف بأرزاق عباده خبير بما في قلوبهم من القنوط، والغرض من الآية إقامة الدليل على كمال قدرته وعلى البعث والنشور فمن قدر على هذا قدر على إعادة الحياة بعد الموت ولهذا قال ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي جميع ما في الكون ملكه جل وعلا، خلقاً وملكاً وتصرفاً، والكل محتاج إلى تدبيره وإتقانه ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَفُورُ الْكَامِلُ﴾ أي هو تعالى غني عن الأشياء كلها لا يحتاج لأحد، وهو المحمود في كل حال ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ تذكير بنعمة أخرى أي ألم تر أيها العاقل أن الله سخر لعباده جميع ما يحتاجون إليه من الحيوانات والأشجار والأنهار والمعادن ﴿وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ أي وسخر السفن العظيمة المثقلة بالأحمال والرجال تسير في البحر لمصالحكم بقدرته ومشيئته ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ أي ويمسك بقدرته السماء كي لا تقع على الأرض فيهلك من فيها ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي إلا إذا شاء وذلك عند قيام الساعة^(٢) ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي وذلك من لطفه بكم ورحمته لكم حيث هيأ لكم أسباب المعاش فاشكروا آله ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ أي أحياكم بعد أن كنتم عدماً ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ أي يميتكم عند انتهاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي بعد موتكم للحساب والثواب والعقاب ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكُمْفُورٌ﴾ أي مبالغ في الجحود لنعم الله قال ابن عباس: المراد بالإنسان الكافر والغرض من الآيات توبيخ المشركين كأنه يقول: كيف تجعلون الله أنداداً وتعبدون معه غيره وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف! ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ أي لكل نبي من الأنبياء وأمة من الأمم السابقين وضعنا لهم شريعة ومتعبداً ومهاجاً^(٣) كقوله ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي هم عاملون، به أي: بذلك الشرع ﴿فَلَا يَنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ﴾ أي لا ينازعك أحد من المشركين فيما شرعت لك

(١) (ش): يُبْسٌ: يَبَسَ الشَّيْءُ يُبْسًا وَيُبْوسَةً: جَفَّ بعد رُطوبَةٍ. الْمُحُولُ: انقطاع المطر ويُبْسُ الأرض من النَّبَاتِ، قحط، جذب، جفاف. مَجَلَّ الْمَكَانُ: مَحَلَّ، مَحَلٌّ؛ أَجْدَبَ ولم يَبْت.

(٢) (ش): مِمَّنْ قال بأن ذلك يكون عند قيام الساعة: الشوكاني في «فتح القدير» (٣/ ٥٥١)، و«البيضاوي» في «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (٤/ ٧٨)، وابن عطية في «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» (٤/ ١٣١ -

١٣٢).

(٣) قال ابن عباس: المنسك: الشريعة والمنهاج، قال الرازي: وهو الأقرب هنا.

ولأمتك فقد كانت الشرائع في كل عصر وزمان، وهو نهْيٌ يراد به النفسي، أي: لا ينبغي منازعةُ النبي ﷺ لأن الحق قد ظهر بحيث لا يسع النزاع فيه ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ أي ادعُ الناس إلى عبادة ربك وإلى شريعته السمحة المطهرة ﴿إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ أي فإنك على طريق واضح مستقيم، موصل إلى جنات النعيم ﴿وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي وإن خاصموك بعد ظهور الحق وقيام الحجة عليهم فقل لهم: الله أعلم بأعمالكم القبيحة وبما تستحقون عليها من الجزاء، وهذا وعيد وإنذار ﴿اللَّهُ يُحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي الله يفصل في الآخرة بين المؤمنين والكافرين فيما كانوا فيه يختلفون من أمر الدين، فيعرفون حينئذ الحق من الباطل ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ الاستفهام تقرير أي لقد علمت يا محمد أن الله أحاط علمه بما في السماء والأرض فلا تخفى عليه أعمالهم ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ أي إن ذلك كله مسطر في اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي إن حصر المخلوقات تحت علمه وإحاطته سهل عليه يسيرٌ لديه، ثم بين سبحانه ما يقدم عليه الكفار مع عظيم نعمه، ووضح دلائله فقال ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي ويعبد كفار قريش غير الله تعالى أصنامًا لا تنفع ولا تسمع ﴿مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ﴾ أي ما لم يرد به حجة ولا برهان من جهة الوحي والشرع ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي وما ليس عندهم به علم من جهة العقل وإنما هو مجرد التقليد الأعمى للآباء ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ أي ليس لهم ناصر يدفع عنهم عذاب الله ﴿وَإِذَا نُتِلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي وإذا تليت على هؤلاء المشركين آيات القرآن الواضحة الساطعة وما فيها من الحجج القاطعة على وحدانية الله ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلْمُنْكَرَ﴾ أي ترى في وجوه الكفار الإنكار بالعبوس والكرهية ﴿يَكَادُونَ كَيْسُطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ أي يكادون يبطشون بالمؤمنين الذين يتلون عليهم القرآن ﴿قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُفَرْتُمْ مِنَ ذَلِكَ النَّارِ﴾ أي قل لهم: هل أخبركم بما هو أسوأ أو أشنع من تخويفكم للمؤمنين وبطشكم بهم؟ إنه نار جهنم وعذابها ونكالها ﴿وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِي كَفَرُوا﴾ أي وعذاب الله للكافرين المكذبين بآياته ﴿وَيُسْأَلُ الْمَصِيرُ﴾ أي يسأل الموضع الذي يصيرون إليه ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ أي يا معشر المشركين ضرب الله مثلاً لما يعبد من دون الله من الأوثان والأصنام فتدبروه حق التدبر واعقلوا ما يقال لكم ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ أي إن هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله لن تقدر على خلق ذبابة على ضعفها وإن اجتمعت على ذلك، فكيف يليق بالعاقل جعلها آلهة وعبادتها من دون الله قال القرطبي: وخص الذباب لأربعة

أمور: لمهانتة، وضعفه، ولاستقذاره، وكثرته، فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبدوهم من دون الله على خلق مثله ودفع أذيته، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين، وأرباباً مطاعين؟ وهذا من أقوى الحجج وأوضح البرهان^(١) ﴿وَلِإِنْ يَسْأَلُكُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أي لو اختطف الذباب وسلب شيئاً من الطيب الذي كانوا يضمخون به الأصنام لما استطاعت تلك الآلهة استرجاعه منه رغم ضعفه وحقارته ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ أي ضعف العابد الذي يطلب الخير من الصنم، والمطلوب الذي هو الصنم، فكل منهما حقير ضعيف^(٢) ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي ما عظموه حق تعظيمه حيث جعلوا الأصنام - على حقارتها - شركاء للقوي العزيز ولهذا قال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي هو تعالى قادر لا يعجزه شيء، غالب لا يغلب، فكيف يُسوون بين القوي العزيز والعاجز الحقير؟! ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي الله يختار رسلاً من الملائكة ليكونوا وسطاء لتبليغ الوحي إلى أنبيائه، ويختار رسلاً من البشر لتبليغ شرائع الدين لعباده، والآية ردُّ على من أنكر أن يكون الرسول من البشر ﴿إِنَّكَ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي يسمع ما يقولون ويرى ما يفعلون ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي يعلم ما قدموا وما آخروا من الأفعال والأقوال والأعمال ﴿وَالِلَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي إليه وحده جل وعلا تُردُّ أمور العباد فيجازيهم عليها ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ أي صلوا لربكم خاشعين، وإنما عبر عن الصلاة بالركوع والسجود لأنهما أشرف أركان الصلاة ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ أي أفردوه بالعبادة ولا تعبدوا غيره ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ أي افعلوا ما يقربكم من الله من أنواع الخيرات والمبرات كصلة الأرحام، ومواساة الأيتام، والصلاة بالليل والناس نيام ﴿لَعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ﴾ أي لتفوزوا وتظفروا بنعيم الآخرة ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ أي جاهدوا بأموالكم وأنفسكم لإعلاء كلمة الله حقَّ الجهاد باستفراغ الوسع والطاقة ﴿هُوَ أَجْتَبَكُمْ﴾ أي هو اختاركم من بين الأمم لنصرة دينه، وخصكم بأكمل شرع وأكرم رسول ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي وما جعل عليكم في هذا الدين من ضيق ولا مشقة، ولا كلفكم مالا تطيقون بل هي الحنيفية السمحة ولهذا قال ﴿ثَلَاثَةٌ أَيْبَكُمُ بِإِزْهِيمٍ﴾ أي دينكم الذي لا حرج فيه هو دين إبراهيم فالزموه لأنه الدين القيم كقوله ﴿دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١]

(١) «تفسير القرطبي» ٩٧/١٢.

(٢) قال ابن عباس: الطالب الصنم، والمطلوب الذباب، وقال السدي: الطالب العابد، والمطلوب الصنم نفسه، وهذا هو الراجح وهو الذي اخترناه.

﴿هُوَ سَمَّكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ أي الله ^(١) سماكم المسلمين في الكتب المتقدمة وفي هذا القرآن، ورضي لكم الإسلام ديناً قال الإمام الفخر: المعنى أنه سبحانه في سائر الكتب المتقدمة على القرآن، بين فضلكم على الأمم وسماكم بهذا الاسم الأكرم، لأجل الشهادة المذكورة، فلما خصكم بهذه الكرامة فاعبدوه ولا تتردوا تكاليفه ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي ليشهد عليكم الرسول بتبليغه الرسالة لكم وتشهدوا أنتم على الخلائق أن رسلهم قد بلغتهم ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سَمَّى الْإِسْلَامَ دِيناً﴾ أي لا تشبهوا أحد من الأديان السابقة ولا تتركوا دين الله الذي خلقكم على ما خلقكم عليه ﴿وَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سَمَّى الْإِسْلَامَ دِيناً﴾ أي استمسكوا بحبله المتين وثقوا واستعينوا بالله في جميع أموركم ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ أي نعم هو تعالى والمعين.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبدیع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الامتنان بتعداد النعم ﴿الَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَاءً فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجَرَّى...﴾ إلخ وكذلك الاستفهام الذي يفيد التقرير.
- ٢ - الطباق ﴿يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾.
- ٣ - صيغة المبالغة ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِكَفُورٍ﴾ أي مبالغ في الجحود.
- ٤ - النهي الذي يراد منه الشيء ﴿فَلَا تَنْزِعْ عَنْكَ﴾ أي لا ينبغي لهم منازعتك فقد ظهر الحق وبان.
- ٥ - الاستعارة اللطيفة ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾ أي تستدل من وجوههم على المكروه وإرادة الفعل القبيح مثل قولهم: عرفت في وجه فلان الشر.
- ٦ - التمثيل الرائع ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنَخْلُقُنَّ ذُبَاباً﴾ أي مثل الكفار في عبادتهم لغير الله كمثل الأصنام التي لا تستطيع أن تخلق ذبابة واحدة قال الزمخشري: سميت القصة الرائقة المتلقاة بالاستحسان مثلاً تشبيهاً لها ببعض الأمثال.
- ٧ - المجاز المرسل ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ من إطلاق الجزء على الكل، أي: صلوا؛ لأن الركوع والسجود من أركان الصلاة.
- ٨ - ذكر العام بعد الخاص لإفادة العموم مع العناية بشأن الخاص ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ بدأ بخاص، ثم بعام، ثم بأعم.

«تم بعونه تفسير سورة الحج»



(١) هذا قول ابن عباس ومجاهد وهو الظاهر، وقال الحسن: الضمير يعود على إبراهيم، وهذا قول مرجوح والله أعلم.



مكية وآياتها ثمانى عشرة ومائة

بين يدي السورة

* سورة «المؤمنون» من السور المكية التي تعالج أصول الدين من «التوحيد والرسالة، والبعث» سميت بهذا الاسم الجليل «المؤمنون» تخليداً لهم وإشادةً بمآثرهم وفضائلهم الكريمة التي استحقوا بها ميراث الفردوس الأعلى في جنات النعيم.

* عرضت السورة الكريمة لدلائل القدرة والوحدانية مصورة في هذا الكون العجيب، في الإنسان، والحيوان، والنبات، ثم في خلق السماوات البديعة ذات الطرائق وفي الآيات الكونية المنبثة فيما يشاهده الناس في العالم المنظور من أنواع النخيل والأعنان، والزيتون والرمان، والفواكه والثمار، والسفن الكبيرة التي تمر عباب البحر، وغير ذلك من الآيات الكونية الدالة على وجود الله جلا وعلا.

* وقد عرضت السورة لقصص بعض الأنبياء تسلياً لرسول الله ﷺ عما يلقيه من أذى المشركين، فذكرت قصة نوح، ثم قصة هود، ثم قصة موسى، ثم قصة مريم البتول وولدها عيسى، ثم عرضت لكفار مكة وعنادهم ومكابرتهم للحق بعدما سطع سطوع الشمس في رابعة النهار، وأقامت الحجج والبراهين على البعث والنشور، وهو المحور الذي تدور عليه السورة، وأهم ما يجادل فيه المبطلون، فقصمت ببيانها الساطع ظهر الباطل.

* وتحدثت السورة عن الأهوال والشدائد التي يلقيها الكفار وقت الاحتضار وهم في سكرات الموت، وقد تمنوا العودة إلى الدنيا ليتداركوا ما فاتهم من صالح العمل، ولكن هيهات فقد انتهى الأجل، وضاع الأمل.

* وختمت السورة بالحديث عن يوم القيامة حيث ينقسم الناس إلى فريقين: سعداء، وأشقياء، وينقطع الحسب والنسب فلا ينفع إلا الإيمان والعمل الصالح، وسجلت المحاورة بين الملك الجبار وبين أهل النار وهم يصطرخون فيها فلا يغاثون ولا يجابون!.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ

أَفَرَدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَفْلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِمْ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّتٍ مِنْ نَحِيلٍ وَأَعْنَبْ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لَلْأَكْلَنِ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ

اللغة: ﴿سُلَالَةٍ﴾ السُّلَالَةُ: الخلاصة مشتقة من السَّل وهو استخراج الشيء من الشيء، تقول: سللت الشعر من العجين، والسف من الغمد قال أمية:

خَلَقَ الْبَرِيَّةَ مِنْ سُلَالَةٍ مُنْتَنِ وَإِلَى السُّلَالَةِ كُلُّهَا سَتَعُودُ ^(١)

ويقال: الولد سلالة أبيه لأنه انسل من ظهر أبيه ﴿مَكِينٍ﴾ ثابت راسخ تقول: هذا شيء مكين أي متمكن في الثبوت والرسوخ ﴿طَرَائِقَ﴾ جمع طريقة والمراد بالطرائق السماوات السبع؛ سُمِّيت بذلك لكون بعضها فوق بعض، ومنه قولهم: طَارَقَ النعل إذا جعل إحداهما على الأخرى ﴿وَصَبِغٍ﴾ الصبغ: الإدام وأصله الصباغ وهو الذي يُلَوَّن به الثوب قال الهروي: كل إدام يؤتدم به فهو صبغ ^(٢) ﴿الْأَنْعَامِ﴾ الحيوانات المأكولة «الإبل، والبقر، والغنم».

التفسير: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي فاز وسعد وحصل على البغية والمطلوب المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف الجليلة، و﴿قَدْ﴾ للتأكيد والتحقيق فكأنه يقول لقد تحقق ظفرهم ونجاحهم بسبب الإيمان والعمل الصالح، ثم عدّد تعالى مناقبهم فقال ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ قال ابن عباس: خاشعون: خائفون ساكنون أي هم خائفون متذلّلون في صلاتهم لجلال الله وعظمته لاستيلاء الهيبة على قلوبهم ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ أي عن الكذب والشتم والهزل قال ابن كثير: اللغو: الباطل وهو يشمل الشرك، والمعاصي، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال ^(٣) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ أي يؤدون زكاة أموالهم للفقراء والمساكين، طيبة بها نفوسهم طلباً لرضى الله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَقْرَبِهِمْ حَفَظُونَ﴾ هذا هو الوصف الرابع أي عَفَوْا عن الحرام وصانوا فروجهم عما لا يحل من الزنا واللواط وكشف العورات ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: هم حافظون

(١) «البحر المحيط» ٦/ ٣٩٣.

(٢) (ش): الإدام: ما يؤكل بالخبز، أو ما يُخَلَطُ معه لتطيبه.

(٣) «ابن كثير المختصر» ٢/ ٥٥٩.

لفروجهم في جميع الأحوال إلا من زوجاتهم وإمائهم المملوكات ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ أي فإنهم غير مؤاخذين ﴿فَمَنْ أَتَّبَعَىٰ وَرَأَىٰ ذَلِكَ﴾ أي فمن طلب غير الزوجات والمملوكات ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أي هم المعتدون المجاوزون الحد في البغي والفساد ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾ أي قائمون عليها بحفظها وإصلاحها، لا يخونون إذا اتُّمِنُوا، ولا ينقضون عهدهم إذا عاهدوا قال أبو حيان: والظاهر عموم الأمانات فيدخل فيها ما اتَّمتن الله تعالى عليه العبد من قول وفعل واعتقاد، وما اتَّمتنه الإنسان من الودائع والأمانات ^(١) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ هذا هو الوصف السادس أي: يواظبون على الصلوات الخمس ويؤدونها في أوقاتها قال في التسهيل: فإن قيل كيف كرر ذكر الصلوات أولاً وآخرًا؟ فالجواب أنه ليس بتكرار، لأنه قد ذكر أولاً الخشوع فيها، وذكر هنا المحافظة عليها فهما مختلفان ^(٢) ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَرِثُونَ﴾ أي أولئك الجامعون لهذه الأوصاف الجليلة هم الجديرون بوراثه جنة النعيم ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ أي الذين يرثون أعالي الجنة، التي تتفجر منها أنهار الجنة وفي الحديث «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُّوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَفْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ» ^(٣) ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي هم دائمون فيها لا يخرجون منها أبداً، ولا يغفون عنها حوالاً.. ثم ذكر تعالى الأدلة والبراهين على قدرته ووحدانيته فقال ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ اللام جواب قسم، أي: والله لقد خلقنا جنس الإنسان من صفوة وخلاصة استلت من الطين قال ابن عباس: هو آدم لأنه أنسل من الطين ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾ أي ثم جعلنا ذرية آدم وبنه منياً ينطف من أصلاب الرجال ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ أي في مستقر متمكن هو الرحم ﴿فَخَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أي ثم صيرنا هذه النطفة - وهي الماء الدافق - دماً جامداً يشبه العلقه ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ أي جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة أي: قطعة لحم لا شكل فيها ولا تخطيط ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا﴾ أي صيرنا قطعة اللحم عظاماً صلبة لتكون عموداً للبدن ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾ أي سترنا تلك العظام باللحم وجعلناه كالكسوة لها ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ أي ثم بعد تلك الأطوار نفخنا فيه الروح فصيرناه خلقاً آخر في أحسن تقويم قال الرازي: أي جعلناه خلقاً مبانياً للخلق الأول حيث صار إنساناً وكان جماداً، وناطقاً وكان أبكم، وسميعاً وكان أصم، وبصيراً وكان أكمه، وأودع كل عضو من أعضائه عجائب فطرة، وغرائب حكمة لا يحيط بها

(١) «البحر المحيط» ٦/ ٣٩٧.

(٢) «التسهيل» ٣/ ٤٩.

(٣) أخرجه مسلم. (ش): ليس في صحيح مسلم، بل رواه البخاري، وفيه: «وَقَوْفَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ».

وصف الواصفين^(١) ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ أي فتعالى الله في قدرته وحكمته أحسن الصانعين صنعاً^(٢) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ أي ثم إنكم أيها الناس بعد تلك النشأة والحياة لصائرون إلى الموت ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ أي تبعثون من قبوركم للحساب والمجازاة، ولما ذكر تعالى الأَطْوَارَ في خلق الإنسان وبدايته ونهايته ذكر خلق السماوات والأرض وكلها أدلة ساطعة على وجود الله^(٣) فقال ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ أي والله لقد خلقنا فوقكم سبع سموات، سميت طرائق لأن بعضها فوق بعض ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ أي وما كنا مهملين أمر الخلق بل نحفظهم وندبر أمرهم ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ﴾ أي أنزلنا من السحاب القطر والمطر بحسب الحاجة، لا كثيراً فيفسد الأرض، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار ﴿فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْآرْضِ﴾ أي جعلناه ثابتاً مستقراً في الأرض لتتفعوا به وقت الحاجة ﴿وَلِنَأْخِذَ بِهِمْ لَقَدَرُونَ﴾ وعيد وتهديد أي ونحن قادرون على إذهابه بالتغيير في الأرض فتهلكون عطشاً أنتم ومواشيكم قال ابن كثير: لو شئنا لجعلناه إذا نزل يغور في الأرض إلى مدى لا تصلون إليه ولا تتفعون به لفعلنا، ولكن بلطفه تعالى ورحمته ينزل عليكم المطر من السحاب عذباً فرائتاً، فيسكنه في الأرض، ويسلكه ينابيع فيها فيفتح العيون والأنهار، ويسقي الزروع والثمار، فتشربون منه أنتم ودوابكم وأنعامكم^(٤) ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّتٍ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَبٍ﴾ أي فأخرجنا لكم بذلك الماء حداثاً وبساتين فيها

(١) الفخر الرازي ٢٣ / ٨٥.

(٢) (ش): عن مجاهد: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ قال: «يصنعون ويصنع الله، والله خير الصانعين».

والعرب تسمي كل صانع خالفاً، ومنه قول زهير بن أبي سلمى يمدح رجلاً:

وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْدَ ضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي

يقول: أنت إذا قدرت أمراً قطعته وأمضيته، وغيرك يقدر ما لا يقطعه، لأنه ليس بماضي العزم وأنت مضاء على ما عزمته عليه. والخلق: التقدير، يقال: خلق الأديم يخلقه خلقاً: قدره لما يريد قبل القطع، وقاسه ليقطع منه مزادة أو قربة أو خفاً. ولذلك سمت العرب كل صانع كالنجار والخياط ونحوهما خالفاً، لأنه يقيس الخشب ويقدره على ما يريد له. والفري: القطع بعد التقدير، وقد يكون قبله، بأن يقطع قطعة من جلد أو ثوب قطعاً مقارباً، ثم يصلحها ويسويها بالحساب والتقدير، على ما يريده ولذلك جاءت رواية أخرى في البيت:

وَلَأَنْتَ تَخْلُقُ مَا فَرَيْتَ وَبَعْدَ ضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي

[انظر: تفسير الطبري، بتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر (١٩ / ١٩)].

(٣) (ش): الصواب أن يقال: «وكلها أدلة ساطعة على وجوب إفراد الله بالعبادة»، لأنها سبقت لأجل هذا، أما

وجود الله فالمخاطبون مقررون به كما في آخر السورة. ﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟^(٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَكِ الْكَبِيرِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ^(٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِزُكَ^(٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ^(٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ؟^(٨٩) [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩].

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٢ / ٥٦٣.

النخيل والأعناب ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوَاحِشٌ كَثِيرَةٌ﴾ أي لكم في هذه البساتين أنواع الفواكه والثمار تتفكهون بها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي ومن ثمر الجنات تأكلون صيفاً وشتاءً كالرطب والعنب والتمر والزبيب، وإنما خصّ النخيل والأعناب بالذكر لكثرة منافعهما فإنهما يقومان مقام الطعام، ومقام الإدام، ومقام الفواكه رطباً ويابساً وهما أكثر فواكه العرب ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ أي ومما أنشأنا لكم بالماء أيضاً شجرة الزيتون التي تخرج حول جبل الطور وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى ﴿تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ﴾ أي تُنبت الدهن، أي: الزيت الذي فيه منافع عظيمة ﴿وَصَبِغٌ لِلْأَكْلَيْنِ﴾ أي وإدام للأكلين سمي صبغاً لأنه يلون الخبز إذا غُمس فيه^(١)، جمع الله في هذه الشجرة بين الأدم والدهن، وفي الحديث «كُلُوا الزَّيْتَ وَادَّهِنُوا بِهِ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ»^(٢) ﴿وَلَكُمْ فِيهَا لَبَنٌ عَلِيطٌ لَّيْسٌ لَّعِظَةً بَالِغَةً تَتَرَبَّصُونَ بِهَا﴾ أي وإن لكم أيها الناس فيما خلق لكم ربكم من الأنعام وهي «الإبل والبقر والغنم» لعظة بالغة تعتبرون بها ﴿فَسُقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ أي نسقيكم من ألبانها من بين فرثٍ ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ أي ولكم في هذه منافع عديدة: تشربون من ألبانها، وتلبسون من أصوافها، وتركبون ظهورها، وتحملون عليها الأحمال الثقيل ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي وتأكلون لحومها كذلك ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونَ﴾ أي وتحملون على الإبل في البر كما تحملون على السفن في البحر، فإن الإبل سفائن البر كما أن الفلك سفائن البحر.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الإخبار بصيغة الماضي لإفادة الثبوت والتحقق ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ كما أن ﴿قَدْ﴾ لإفادة التحقق أيضاً.

٢ - التفصيل بعد الإجمال ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ إلخ.

٣ - إنزال غير المنكر منزلة المنكر ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَسْتُونَ﴾ الناس لا ينكرون الموت ولكن غفلتهم عنه وعدم استعدادهم له بالعمل الصالح يعدّان من علامات الإنكار ولذلك نزلوا منزلة المنكرين وألقي الخبر مؤكداً بمؤكدين «إِنَّ واللام».

(١) (ش): الإدام: ما يؤكل بالخبز، أو ما يخلط معه لتطيبه.

(٢) أخرجه أحمد. (ش): ورواه الترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني. (كُلُوا الزَّيْتَ) أي مَعَ الْخُبْزِ وَاجْعَلُوهُ إِدَامًا. (وَادَّهِنُوا بِهِ) أَمَرٌ مِنَ الْإِدْمَانِ بِتَشْدِيدِ الدَّالِّ، وَهُوَ اسْتِعْمَالُ الدَّهْنِ. يُقَالُ ادَّهَنَ رَأْسَهُ: أَي طَلَاهُ بِالدَّهْنِ وَتَوَلَّى ذَلِكَ بِنَفْسِهِ، وَلَا يَخْفَى أَنَّهُ لَا يَخْتَصُّ بِالرَّأْسِ وَلَا يَشْتَرِطُ التَّوَلَّى بِنَفْسِهِ. (فَإِنَّهُ) أَي الزَّيْتُ يَخْصُلُ (مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ) يَعْنِي مِنْ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نَوْرٌ عَلَى نُورٍ، ثُمَّ وَصَفَهَا بِالْبَرَكَةِ لِكَثْرَةِ مَنَافِعِهَا وَانْتِفَاعِ أَهْلِ الشَّامِ بِهَا كَذَا قِيلَ. وَالْأَظْهَرُ لِكُونِهَا تَنْبُتُ فِي الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا لِلْعَالَمِينَ. وَيَلْزَمُ مِنْ بَرَكَةِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ بَرَكَةُ ثَمَرَتِهَا وَهِيَ الزَّيْتُونُ وَبَرَكَةُ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَهُوَ الزَّيْتُ.

٤ - الاستعارة اللطيفة ﴿سَبَّحَ طَرَائِقَ﴾ شبهت السماوات السبع بطرائق النعل التي يجعل بعضها فوق بعض بطريق الاستعارة.

٥ - التهديد ﴿وَلِنَأَعْلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَدْ رُؤِنَ﴾.

٦ - السجع غير المتكلف ﴿خَشِعُونَ ، حَفُظُونَ ، أَلْعَادُونَ﴾ وكذلك ﴿طِينٍ ، مَكِينٍ ، الْخَلِيقِينَ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

تنبيه: ذكر تعالى في هذه الآيات من قوله ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ إلى قوله ﴿وَعَلَى الْفَلَاحِ تَحْمِلُونَ﴾ أربعة أنواع من دلائل قدرته تعالى، الأول: تخلق الإنسان في أطوار الخلق وهي تسعة آخرها البعث بعد الموت، الثاني: خلق السماوات السبع، الثالث: إنزال الماء من السماء، الرابع: منافع الحيوانات وذكر منها أربعة أنواع «الانتفاع بالألبان، وبالصوف، وباللحوم، وبالركوب».

فائدة: روى الإمام أحمد عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْوُحْيُ يَسْمَعُ عِنْدَ وَجْهِهِ دَوِيَّ كَدَوِي النَّحْلِ، فَأَنْزَلَ عَلَيْهِ يَوْمًا فَسَكَنَّا سَاعَةً، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ وَرَفَعَ يَدَيْهِ، وَقَالَ «اللَّهُمَّ زِدْنَا وَلَا تَنْقُصْنَا، وَآكِرْمْنَا وَلَا تُهِنَّا، وَأَعْطِنَا وَلَا تَحْرِمْنَا، وَآثِرْنَا وَلَا تُؤْثِرْ عَلَيْنَا، وَأَرْضِنَا وَأَرْضِ عَنَّا». ثُمَّ قَالَ ﷺ «لَقَدْ أَنْزَلَ عَلَيَّ عَشْرُ آيَاتٍ مِنْ أَقَامَهُنَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ». ثُمَّ قَرَأَ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ حَتَّى خَتَمَ الْعَشْرَ آيَاتٍ^(١).

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُورُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فترَضُّوا بِهِ حَتَّىٰ جَبَنَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَدَدْتُ فِيهِ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا ووَحِينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَجَنَانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَايِدٌ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أُنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِفَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ بَأْ كُلِّ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُونَ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيْدِكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هِيَآتْ هِيَآتْ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ

(١) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي. (ش): ورواه الحاكم، وصححه، ورواه الذهبي، وضعفه الألباني والأرنؤوط.

﴿٣٧﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبْتُ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَآخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمُ غُثَاءً فَبَعْدًا لِلقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخِرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرَ كُلِّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذِبُهُ فَاتَّبَعْنَاهُمْ بِعُضٍّ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً وَأَوَّيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَتَأْتِيَ الرُّسُلَ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ

المناسبة: لما ذكر تعالى دلائل التوحيد في خلق الإنسان، والحيوان، والنبات، وفي خلق السماوات والأرض، وعدّد نعمة على عباده، ذكر هنا أمثالا لكفار مكة من المكذبين من الأمم السابقة وما نالهم من العذاب، فابتدأ بقصة نوح، ثم بقصة موسى وفرعون، ثم بقصة عيسى ابن مريم، وكلها عبر وعظات للمكذبين بالرسول والآيات.

اللغة: ﴿جَنَّةٌ﴾ بكسر الجيم أي جنون ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ فانتظروا والتربص: الانتظار ﴿مُبْتَلِينَ﴾ مُخْتَبَرِينَ ﴿هَيْهَاتَ﴾ اسم فعل ماض بمعنى بُعد قال الشاعر:

تَذَكَّرْتُ أَيَّامًا مَضَيْنَ مِنَ الصَّبَا وَهَيْهَاتَ هَيْهَاتًا إِلَيْكَ رُجُوعَهَا ^(١)

﴿غُثَاءً﴾ الغشاء: العشب إذا يبس، وغُثَاءُ السيل: ما يحمله من الحشيش والقصب اليابس ونحوه ﴿فَبَعْدًا﴾ هلاكًا قال الرازي: بعداً وسُحْقًا ودماراً ونحوها مصادر موضوعة مواضع أفعالها قال سيبويه وهي منصوبة بأفعال لا يستعمل إظهارها ومعنى ﴿فَبَعْدًا﴾ بعدوا بعداً أي هلكوا ^(٢) ﴿قُرُونًا﴾ أُمَمًا ﴿تَتْرَ﴾ تَتَابَعُ، يأتي بعضهم إثر بعض ﴿أَحَادِيثَ﴾ جمعُ أَدْوِثَةٍ كأعجوبة وهي ما يُتَحَدَّثُ به عجباً وتسليّةٌ ﴿مَعِينٍ﴾ ماء جار ظاهر للعيون ﴿رَبْوَةٍ﴾ الربوة: المكان المرتفع من الأرض.

التفسير: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ أي والله لقد أرسلنا رسولنا نوحاً إلى قومه داعياً لهم إلى الله قال المفسرون: هذه تعزية لرسول الله ﷺ بذكر هذا الرسول، ليتأسى به في صبره، وليعلم أن الرسل قبله قد كذبوا ﴿فَقَالَ يَفْقَهُمْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنَ إِلَهِ غَيْرِهِ﴾ أي اعبدوه وحده فليس لكم ربٌّ سواه ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ زجرٌ ووعيد، أي: أفلا تخافون عقوبته بعبادتكم غيره؟ ﴿فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ أي فقال أشرف قومه ورؤساؤهم

(١) «تفسير القرطبي» ١٢ / ١٢٢.

(٢) «التفسير الكبير» ٢٣ / ٩٩.

الْمُؤْمِنُونَ فِي الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ (١) ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي ما هذا الذي يريد أن يطلب الرياسة والشرف عليكم بدعواه النبوة لتكونوا له أتباعاً.. واعجب بضلال هؤلاء استبعدوا أن تكون النبوة لبشر، وأثبتوا الربوبية لحجر ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أي لو أراد الله أن يبعث رسولا لبعث ملكا ولم يكن بشرا ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ أي ما سمعنا بمثل هذا الكلام في الأمم الماضية، والدهور الخالية ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي ما هو إلا رجل به جنون ﴿فَتَرَىٰ صُورَهُ حَتَّىٰ تَمُوتَ أَيَّ أَنْتَظِرُوا وَاصْبِرُوا عَلَيْهِ مَدَّةَ حَتَّىٰ يَمُوتَ﴾ قال رب أنصرني بما كذبون ﴿أي قال نوح بعد ما يس من إيمانهم: رب أنصرني عليهم بإهلاكهم عامة بسبب تكذيبهم إياي﴾ ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَ﴾ ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي فأوحينا إليه عند ذلك أن اصنع السفينة بمرأى منا وحفظنا (٢) ﴿وَوَحَّيْنَا﴾ أي بأمرنا وتعليمنا ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي فإذا جاء أمرنا بإنزال العذاب ﴿وَفَكَارَ النَّوْرُ﴾ أي فار الماء في التنور الذي يُخبز فيه (٣) قال المفسرون: جعل الله ذلك

(١) (ش): أمعن النظر في الأمر / أمعن في الأمر: جدّ وبالغ في استقصائه وأطال التفكير فيه.

(٢) (ش): في هذه الآية وفي قوله تعالى عَنْ سَفِينَةِ نُوحٍ ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] وقوله لِمُوسَى ﴿وَلْنَصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنَيْكَ﴾ [طه: ٣٩]. وقوله للنبي ﷺ ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] المعنى على ظاهر الكلام وحقيقته، لكن ما ظاهر الكلام وحقيقته هنا؟ هل يقال: إن ظاهره وحقيقته أن السفينة تجري في عين الله؛ أو أن موسى عليه الصلاة والسلام يربى فوق عين الله تعالى؟! أو يقال: إن ظاهره أن السفينة تجري وعين الله ترعاها وتكلؤها، وكذلك تربيته موسى تكون على عين الله تعالى يرعاه ويكلؤه بها، ولا ريب أن القول الأول باطل، وذلك من وجهين: ١ - أنه لا يقتضيه الكلام بمقتضى الخطاب العربي، والقرآن إنما نزل بلغة العرب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢] ولا أحد يفهم من قول القائل: فلان يسير بعيني أن المعنى أنه يسير داخل عينه، ولا من قول القائل: فلان تخرج على عيني، أن تخرجه كان وهو راكب على عينه، ولو ادعى مدّع أن هذا هو ظاهر اللفظ في هذا الخطاب لضحك منه السلفاء فضلا عن العقلاء. ومثله قول: إنك تحت عيني، وفلان تخرج من تحت يدي، وفلان يدي اليمنى و..... مما معناه ظاهر مفهوم باللسان العربي. ٢ - أن هذا مُمتنع غاية الامتناع، ولا يمكن لمن عرف الله وقدره حق قدره أن يفهمه في حق الله تعالى؛ لأن الله تعالى مُستو على عرشه بائن من خلقه لا يحل فيه شيء من مخلوقاته، ولا هو حال في شيء من مخلوقاته سبحانه وتعالى. فإذا تبين بطلان هذا من الناحية اللفظية والمعنوية تعين أن يكون ظاهر الكلام هو القول الثاني؛ أن السفينة تجري وعين الله ترعاها وتكلؤها، وكذلك تربيته موسى تكون على عين الله يرعاه ويكلؤه بها، وهذا معنى قول بعض السلف بمرأى مني، فإن الله تعالى إذا كان يكلؤه بعينه لزم من ذلك أنه يراه. وجه كون العين هي التي ترعاه دون الوجه أو اليد أو.... هو لأن العين تُفيد الإطلاع والمراقبة والإحاطة مما يُناسب الجفط. والله أعلم. وفي هذه الآيات إثبات لصفة العينين لله تعالى بما يليق به، دون تشبيه بخلقه أو تكيف لذاته، سبحانه وبحمده، كما ثبت ذلك بالسنة، وأجمع عليه سلف الأمة، فأهل السنة والجماعة يعتقدون أن الله يبصر بعين، كما يعتقدون أن الله عز وجل له عينان تليقان به؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

واللفظ الذي ورد بصيغة الجمع (بِأَعْيُنِنَا) فإنما هو للتعظيم.

(٣) (ش): التنور: فرن يُخبز فيه.

علامة لنوح على هلاك قومه ﴿فَاسْأَلْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي فادخل في السفينة من كل صنف من الحيوان زوجين «ذكر وأنثى» لئلا ينقطع نسل ذلك الحيوان ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي واحمل أهلك أيضاً إلا من سبق عليه القول بالهلاك ممن لم يؤمن كزوجته وابنه ﴿وَلَا تَخْطُبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ أي ولا تسألني الشفاعة للظالمين عند مشاهدة هلاكهم فقد قضيت أنهم مغرقون محكوم عليهم بالغرق ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَعَكَ عَلَى الْفُلِّ﴾ أي فإذا علوت أنت ومن معك من المؤمنين على السفينة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي احمداً الله على تخليصه إياكم من الغرق وإنما قال ﴿فَقُلْ﴾ ولم يقل (فقولوا) لأن نوحاً كان نبياً لهم وإماماً فخطابه خطابٌ لهم ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مَبَارَكاً﴾ أي أنزلني إنزالاً مباركاً يحفظني من كل سوء وشر قال ابن عباس: هذا حين خرج من السفينة ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ أي أنت يا رب خير المنزلين لأوليائك والحافظين لعبادك ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي إن فيما جرى على أمة نوح دلائل وعبراً يستدل بها أولو الأبصار ﴿وَإِنْ كُنَّا لَبَاسِينَ﴾ أي وإن الحال والشأن كنا مختبرين للعباد بإرسال المرسلين ﴿فَرَأَيْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرْآنَ آخِرِينَ﴾ أي ثم أوجدنا من بعد قوم نوح قومًا آخرين يخلفونهم وهم قوم عاد ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ أي أرسلنا إليهم رسولاً من عشيرتهم هو هود عليه السلام ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أي اعبدوه وحده ولا تشرکوا به أحداً لأنه ليس لكم ربٌّ سواه ﴿أَفَلَا نَنْقُوتُ﴾ أي أفلا نخافون عذابه وانتقامه إن كفرتم؟ ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلقاءِ الْآخِرَةِ﴾ أي قال أشرف قومه الكفرة المكذبون بالآخرة وما فيها من الثواب والعقاب ﴿وَأُتْرِفْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي وسعنا عليهم نعم الدنيا حتى بطروا ونعمناهم في هذه الحياة ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي قالوا لا تبعاعهم مضلين لهم: ما هذا الذي يزعم أنه رسول إلا إنسان مثلكم ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَكُونُ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ أي يأكل مثلكم ويشرب مثلكم فلا فضل له عليكم لأنه محتاج إلى الطعام والشراب ﴿وَلَكِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ أي ولئن أطعتموه وصدقتموه فإنكم لخاسرون حقاً حيث أذلتكم أنفسكم باتباعه قال أبو السعود: انظر كيف جعلوا اتباع الرسول الحق الذي يوصلهم إلى سعادة الدارين خسراناً دون عبادة الأصنام التي لا خسران وراءها؟ قاتلهم الله أنى يؤفكون^(١) ﴿أَعِدُّكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَماً﴾ استفهام على وجه الاستهزاء والاستبعاد أي أعددكم بالحياة بعد الموت أن تصبحوا رفاتاً وعظاماً بالية؟ ﴿أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ﴾ أي أنكم ستخرجون أحياء من قبوركم وكرّر لفظ ﴿أَنْتُمْ﴾ تأكيداً لأنه لما طال الكلام حسن التكرار ﴿هَيَّاتِ هَيَّاتِ لِمَا تُوْعَدُونَ﴾ أي بُعد بُعد هذا الذي توعدونه من الإخراج من القبور، وغرضهم بهذا الاستبعاد أنه لا يكون أبداً ﴿إِنْ هِيَ

إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴿١﴾ أَي لَا حَيَاةَ إِلَّا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أَي يَمُوتُ بَعْضُنَا وَيُؤَلِّدُ بَعْضُنَا إِلَى انْقِرَاضِ الْعَصْرِ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أَي لَا بَعثَ وَلَا نَشُورَ ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أَي مَا هُوَ إِلَّا رَجُلٌ كَاذِبٌ يَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ فِيمَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ، وَالْإِخْبَارِ بِالْمَعَادِ ^(١) ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أَي وَلَسْنَا لَهُ بِمُصَدِّقِينَ ^(٢) فِيمَا يَقُولُهُ ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونُ﴾ لَمَّا يُئْسَ نَبِيُّهُمْ مِنْ إِيْمَانِهِمْ وَرَأَىٰ إِصْرَارَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ دَعَا عَلَيْهِمْ بِالْهَلَاكِ وَالْمَعْنَى رَبِّ انصُرْنِي عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ إِيَّايَ ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِيَةً﴾ أَي قَرِيبَ مِنَ الزَّمَانِ سَيَصِيرُونَ نَادِمِينَ عَلَى كُفْرِهِمْ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ أَي أَخَذَتْهُمْ صَيْحَةُ الْعَذَابِ الْمَدْمَرِ عَدْلًا مِنَ اللَّهِ لَا ظُلْمًا ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُلَامًا﴾ أَي هَلَكَى كُثْثَاءَ السَّيْلِ، قَالَ الْمَفْسُرُونَ: صَاحَ بِهِمْ جَبْرِيلُ صَيْحَةً رَجَفَتْ لَهَا الْأَرْضُ مِنْ تَحْتِهِمْ فَصَارُوا لَشِدَّتِهَا غُثَاءً السَّيْلِ وَهُوَ الشَّيْءُ التَّافَهُ الْحَقِيرَ الَّذِي لَا يَنْتَفَعُ مِنْهُ بِشَيْءٍ ﴿فَبَعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أَي فَسَحَقًا وَهَلَاكًا لَهُمْ وَظُلْمُهُمْ، وَهِيَ جُمْلَةٌ دَعَائِيَّةٌ كَأَنَّهُ قَالَ: بَعْدًا لَهُمْ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَهَلَاكًا وَدَمَارًا لَهُمْ ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ أَي أَوْجَدْنَا مِنْ بَعْدِ هَلَاكِ هَؤُلَاءِ أُمَمًا وَخَلَائِقَ آخَرِينَ كَقَوْمِ صَالِحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِ لُوطٍ وَشُعَيْبٍ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَفِي الْكَلَامِ حَذْفُ تَقْدِيرِهِ: فَكَذَّبُوا أَنْبِيَاءَهُمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ دَلٌّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ﴾ أَي مَا تَتَقَدَّمُ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ الْمَهْلُكَةِ عَنِ الْوَقْتِ الَّذِي عُيِّنَ لَهُلَاكُهُمْ وَلَا تَتَأَخَّرُ عَنْهُ ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ أَي بَعَثْنَا الرُّسُلَ مُتَتَالِينَ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَتَّبِعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ تَشْنِيعٌ عَلَيْهِمْ بِكَمَالِ ضَلَالِهِمْ أَي أَنَّهُمْ سَلَكَوا فِي تَكْذِيبِ أَنْبِيَائِهِمْ مَسْلَكَ مَنْ سَبَقَهُمْ مِنَ الْمَكْذِبِينَ وَلِهَذَا قَالَ ﴿فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾ أَي أَلْحَقْنَا بَعْضَهُمْ فِي إِثْرِ بَعْضٍ بِالْهَلَاكِ وَالْدَّمَارِ ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أَي أَخْبَارًا تُرَوَّى وَأَحَادِيثَ تُذَكَّرُ، يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِمَا جَرَى عَلَيْهِمْ تَعَجُّبًا وَتَسْلِيَةً ﴿فَبَعْدًا لِّلْقَوْمِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَي فَهَلَاكًا وَدَمَارًا لِقَوْمٍ لَا يَصَدِّقُونَ اللَّهَ وَرُسُلَهُ ^(٣)

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا﴾ أَي أَرْسَلْنَاهُمَا بِآيَاتِنَا الْبَيِّنَاتِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هِيَ الْآيَاتُ التَّسْعُ «العصا، اليد، الجراد» الخ ﴿وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أَي وَحِجَّةٌ وَاضِحَةٌ مُلْزِمَةٌ لِلْخَصْمِ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أَي أَرْسَلْنَاهُمَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ الطَّاغِيَةِ وَأَشْرَافِ قَوْمِهِ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿فَأَسْكَبُوا﴾ أَي عَنِ الْإِيْمَانِ بِاللَّهِ وَعِبَادَتِهِ ﴿وَكَاوُوا قَوْمًا عَلٰلِينَ﴾ أَي مُتَكَبِّرِينَ

(١) (ش): المَعَاد: الآخِرَةُ، دَارُ الْبَقَاءِ.

(٢) (ش): تَفْسِيرُ الْإِيْمَانِ بِالتَّصْدِيقِ تَفْسِيرٌ قَاصِرٌ وَمُخَالَفٌ لِمَا عَلَيْهِ أَهْلُ السَّنَةِ مِنْ أَنَّ الْإِيْمَانَ تَصْدِيقٌ بِالْقَلْبِ وَقَوْلٌ بِاللِّسَانِ وَعَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ.

(٣) (ش): تَفْسِيرُ الْإِيْمَانِ بِالتَّصْدِيقِ تَفْسِيرٌ قَاصِرٌ وَمُخَالَفٌ لِمَا عَلَيْهِ أَهْلُ السَّنَةِ مِنْ أَنَّ الْإِيْمَانَ تَصْدِيقٌ بِالْقَلْبِ وَقَوْلٌ بِاللِّسَانِ وَعَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ.

متمردين، بالظلم ﴿فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ أي أنصدق رجلين مثلنا وتنبعهما؟ ﴿وَقَوْمَهُمَا لَنَا عَدِيدُونَ﴾ أي والحال أن قوم موسى وهارون منقادون لنا كالخدم والعبيد؟ ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ أي فكذبوا رسولنا فكانوا من المغرقين في البحر ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي أعطينا موسى التوراة بعد غرق فرعون وملئه ليهتدي بها بنو إسرائيل ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ أي وجعلنا قصة مريم وابنها عيسى معجزة عظيمة تدل على كمال قدرتنا ﴿وَوَيْتَنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ﴾ أي وجعلنا منزلهما وما واهما إلى مكان مرتفع من أرض بيت المقدس قال ابن عباس: الربوة المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ أي مستوية يستقر عليها وماء جارٍ ظاهر للعيون قال الرازي: القرار: المستقر كل أرض مستوية مبسوطة، والمعين: الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض، وعن قتادة: ذات ثمار وماء، يعني أنه لأجل الثمار يستقر فيها ساكنوها^(١) ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّهَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ أي قلنا: يا أيها الرسل كلوا من الحلال وتقربوا إلى الله بالأعمال الصالحة، والنداء لكل رسول في زمانه وصى به كل رسول إرشاداً لأئمة كما تقول تخاطب تاجراً: يا تاجر اتقوا الربا ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وعيدٌ وتحذير، أي: إني عالم بما تعملون لا يخفى عليّ شيء من أمركم، قال القرطبي: شمل الكل في الوعيد وإذا كان هذا مع الرسل والأنبياء، فما ظنُّ كل الناس بأنفسهم؟^(٢) ﴿وَلِإِن هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد، وملتكم ملة واحدة وهي دين الإسلام ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ أي وأنا ربكم لا شريك لي فخافوا عذابي وعقابي.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الاستعارة البديعة ﴿أَصْنَعَ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ عبّر عن المبالغة في الحفظ والرعاية بالصنع على الأعين؛ لأن الحافظ للشيء في الأغلب يُدِيمُ مراعاته بعينه؛ فلذلك جاء بذكر الأعين بدلاً من ذكر الحفظ والحراسة على طريق الاستعارة^(٣).

٢ - الكناية ﴿وَفَكَارَ التَّنُورُ﴾ كناية عن الشدة كقولهم: حمي الوطيس^(٤)، وأطلق بعض

(١) «التفسير الكبير» ١٠٣/٢٣.

(٢) تفسير القرطبي ١٢/١٢٨.

(٣) (ش:) في هذه الآية إثبات لصفة العينين لله تعالى بما يليق به، دون تشبيه بخلقه أو تكيف لذاته، سبحانه وبحمده، كما ثبت ذلك بالسنة، وأجمع عليه سلف الأمة، فأهل السنة والجماعة يعتقدون أن الله يُبصر بعين، كما يعتقدون أن الله عز وجل له عيان تليقان به؛ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ [الشورى: ١١]. واللفظ ورد هنا بصيغة الجمع للتعظيم.

(٤) (ش:) حُمِيَ الشَّمْسُ والنَّارُ والحديدَةُ وغيرها: سخنت واشتدَّ حرُّها. والوَطِيسُ: التَّنُورُ وما أشبهه، حُفِيرَةٌ يُخْتَبَرُ فِيهَا وَثُوسَى. والوطيس: المعركة. قال ص يَوْمَ حُتَيْنَ: «هَذَا حِينَ حَمَى الْوَطِيسُ». (زَوَاهُ مُسْلِمَ). ويقال: حمي الوطيس: أي اشتدَّت الحربُ أو اضطرم الأمر. وَيُضْرَبُ مَثَلًا لِشِدَّةِ الْحَرْبِ الَّتِي يُشَبِّهُ حَرْهَا حَرَّ التَّنُورِ.

العلماء التنور على وجه الأرض مجازاً^(١).

- ٣ - جناس الاشتقاق ﴿أَنْزَلْنِي مُنْزَلًا﴾ و ﴿تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.
- ٤ - الطباق بين ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ وكذلك بين ﴿تَسْبِقُ... يَسْتَخِرُونَ﴾.
- ٥ - الجناس الناقص ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ لتغيير بعض الحروف مع الشكل.
- ٦ - التشبيه البليغ ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُسَاءً﴾ أي كالغشاء في سرعة زواله ومهانة حاله، حذف وجه الشبه وأداة التشبيه فصار بليغاً.
- ٧ - أسلوب الإطناب ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا، وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ، وَاتَّرفَنَاهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ ذمًا لهم وتسجيلًا عليهم القبائح والشناعات.
- ٨ - السجع اللطيف مثل ﴿تَنَقُّونَ، تَشْرَبُونَ، تُخْرِجُونَ﴾ ومثل ﴿عَالِينَ، الْمُهْلِكِينَ، قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾.

فائدة: لفظ البشر يطلق على الواحد والجمع، فمن إطلاقه على الواحد ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧] ﴿أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ ؟ ومن إطلاقه على الجمع ﴿فَأَمَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ [مريم: ٢٦] ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرُنَا لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١] أفاده صاحب الكشاف.

قال الله تعالى:

فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾
 اِيْحَسِبُونَ اَنْمَانِيْدُهُمْ بِهٖ مِنْ مَالٍ وَبَنِيْنَ ﴿٥٥﴾ سَارِعُ هُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ اِنَّ الَّذِيْنَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِيْنَ هُمْ يُنَادِيْنَ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِيْنَ هُمْ يُرَبِّهٖمْ لَا يُشْرِكُوْنَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِيْنَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوْبُهُمْ وَجِلَةٌ اَنْهُمْ اِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ اُولَٰئِكَ يُسْرِعُوْنَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا تَكْلَفْ نَفْسًا وَّلَا وُسْعَهَا وَلَدُنَا كِتٰبٌ يَبْلُغُ بِالْحَقِّ وَهٗمْ لَا يَظْلُمُوْنَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوْبُهُمْ فِي غَمَرٍ مِّنْ هٰذَا وَهٗمْ اَعْمَلُ مِنْ دُوْنِ ذٰلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُوْنَ ﴿٦٣﴾ حَتّٰى اِذَا اَخَذْنَا مَّتْرَفِيْهِمْ بِالْعَذَابِ اِذَا هُمْ يَخْتِرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَخْتَرُوا الْيَوْمَ اِيْكُمْ مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ فَذٰكَانَتْ ءَايٰتِيْ تَتْلٰى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلٰى اَعْقٰبِكُمْ نٰكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُّسْتَكْبِرِيْنَ بِهٖ سَمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ اَفَلَمْ يَذْكُرُوْا الْقَوْلَ اَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ اٰبَآءَهُمُ الْاَوَّلِيْنَ ﴿٦٨﴾ اَمْ لَمْ يَعْرِفُوْا رُسُوْلَهُمْ فَهٗمْ لَهٗ مُّنْكَرُونَ ﴿٦٩﴾ اَمْ يَقُوْلُوْنَ بِهٖ حِجَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَاَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوْ اَتَّبَعَ الْحَقُّ اَهْوَاَ هٗمْ لَفَسَدَتِ السَّمٰوٰتُ وَالْاَرْضُ وَمَنْ فِيْهِنَّ بَلْ اَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهٗمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ اَمْ تَسْأَلُهُمْ

(١) (ش): قال المؤلف في تفسير الآية: ﴿وَقَارَ التَّنُورُ﴾ أي فار الماء في التنور الذي يُخَبَزُ فيه، وفي تفسير سورة «هود» نقل عن ابن كثير أن التنور وجه الأرض، أي: صارت الأرض عيونًا تغور، حتى فار الماء من التناير التي هي مكان النار صارت تغور ماءً، وأن هذا قول جمهور السلف والخلف. ثم قال في الهامش: «بعد أن ذكر الإمام الطبري أقوال السلف في المراد بالتنور، قال: وأولى هذه الأقوال عندنا قول من قال: «هو التنور الذي يخبز فيه» لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب وكلام الله يحمل على الأغلب الأشهر. انظر «الطبري» ١٢ / ٤٠.

خَرَجًا فَرَجًا رِيَكٌ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُونَ

المناسبة: لما ذكر تعالى قصص الأنبياء والمرسلين، أتبعه بذكر أخبار الكفرة المتمردين من أقوامهم واختلافهم وتفرقهم في الدين حتى أصبحوا فرقاً وأحزاباً، ليجتنب الإنسان طرق أهل الضلال.

اللغة: ﴿زُبُرًا﴾ قطعاً جمع زبور وهي القطعة من الفضة أو الحديد ﴿عَمَرْتَهُمْ﴾ الغمرة: الحيرة والضلالة وأصله في اللغة: الماء الذي يغمر القامة ﴿يَخْرُوتُ﴾ يَضْجُون ويستغيثون وأصل الجوار رفع الصوت بالتضرع كما يفعل الثور ﴿نَنكِصُونَ﴾ النكوص: الرجوع إلى الوراء ﴿لَنُكَيِّبُونَ﴾ نكب عن الطريق نكوباً إذا عدل عنه ومال إلى غيره.

التفسير: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أي تفرقت الأمم في أمر دينهم فرقاً عديدة وأدياناً مختلفة هذا مجوسي، وهذا يهودي، وهذا نصراني بعدما أمروا بالاجتماع ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي كل فريق منهم مغتبط بما اتخذه ديناً لنفسه معجب به، يرى أنه المحق الرابح، وأن غيره المبطل الخاسر ﴿فَذَرَّهُمْ فِي عَمَرَتِهِمْ﴾ الخطاب للرسول ﷺ والضمير لكفار مكة أي فاترك يا محمد هؤلاء المشركين في غفلتهم وجهلهم وضلالهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي إلى حين موتهم، وهذا تسلية لرسول الله ﷺ ووعداً للمشركين ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ أي أياظن هؤلاء الكفار أن الذي نعطيهم في الدنيا من الأموال والأولاد ﴿سَارِعُهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي هو تعجيل ومسارة لهم في الإحسان؟ كلاً ليس الأمر كما يظنون بل هو استدراج لهم، واستجراً إلى زيادة الإثم ولهذا قال ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي بل هم أشباه البهائم، لا فطنة لهم ولا شعور حتى يتفكروا في الأمر، أهو استدراج أم مسارة في الخير؟ والآية ردُّ على المشركين في زعمهم أن أموالهم وأولادهم دليل رضى الله عنهم كما حكى الله عنهم ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥] وفي الحديث «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ»^(١)، ولما ذمَّ المشركين وتوعدهم عقب ذلك بمدح المؤمنين وذكرهم بأبلغ صفاتهم فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ أي هم من جلال الله وعظمته خائفون، ومن خوف عذابه حذرون ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَأْتِيَتْ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يصدقون بآيات الله القرآنية، وآياته الكونية وهي البراهين الدالة على وجوده سبحانه

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَّهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

(١) جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد. (ش): ورواه الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، وضعفه الألباني، وأحمد شاكر، والأرنؤوط، وحسنه حسين سليم أسد في تحقيقه لـ «مَجْمَعُ الزَّوَادِ وَمَنْبُغُ الْفَوَائِدِ».

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ رَبِّهِمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي لا يعبدون معه غيره، بل يوحّدونه ويخلصون العمل لوجهه قال الإمام الفخر: وليس المراد منه الإيمان بالتوحيد ونفي الشريك لله فإن ذلك داخل في الآية السابقة، بل المراد منه نفى الشرك الخفي وذلك بأن يخلص في العبادة لوجه الله وطلباً لرضوانه^(١) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ هذه هي الصفة الرابعة من أوصاف المؤمنين أي يعطون العطاء من زكاة وصدقة، ويتقربون بأنواع القربات من أفعال الخير والبر وهم يخافون ألا تقبل منهم أعمالهم قال الحسن: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمناءً ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أي لخوفهم أن يكونوا قد قصّروا في القيام بشروط الطاعات والأعمال الصالحة ولا اعتقادهم أنهم سيرجعون إلى ربهم للحساب، روي أن عائشة سألت رسول الله ﷺ عن الآية الكريمة فقالت ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ «هُوَ الرَّجُلُ الَّذِي يَزْنِي وَيَسْرِقُ وَيَشْرِبُ الْخَمْرَ وَهُوَ يَخَافُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ؟ فقال لها: «لَا يَا بِنْتُ الصَّدِيقِ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يُصَلِّي وَيَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وَهُوَ يَخَافُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ»^(٢) ﴿أُولَٰئِكَ يَسْعُرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة هم الذين يسابقون في الطاعات لنيل أعلى الدرجات لا أولئك الكفرة المجرمون ﴿وَهُمْ لَهَا سَاقُونَ﴾ أي هم الجديرون بها والسابقون إليه قال الإمام الفخر: واعلم أن ترتيب هذه الصفات في نهاية الحسن، فالصفة الأولى دلت على حصول الخوف الشديد، الموجب للاحتراز عما لا ينبغي، والثانية: دلت على التصديق بوحداية الله، والثالثة: دلت على ترك الرياء في الطاعات، والرابعة: دلت على أن المستجمع لتلك الصفات الثلاثة يأتي بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير، وذلك هو نهاية مقامات الصديقين رزقنا الله الوصول إليها^(٣) ﴿وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا وِزْرًا وَلَا تَكُلِّفُ أَحَدًا مِنَ الْعِبَادِ مَا لَا يُطِيقُ تَفْضُلًا مِّنَّا وَلَطَفًا﴾ أتى بهذه الآية عقب أوصاف المؤمنين إشارة إلى أن أولئك المخلصين لم يكلفوا بما ليس في قدرتهم وأن جميع التكليف في طاقة الإنسان ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ أي وعندنا صحائف أعمال العباد التي سُطِرَ فيها ما عملوا من خير أو شر نجازيهم في الآخرة عليها ولهذا قال ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا يُظْلَمُونَ من أعمالهم شيئاً بنقص الثواب

(١) «التفسير الكبير» ٢٣/١٠٧.

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد. (ش): رواه الإمام أحمد بهذا اللفظ، وضعفه الأرئووط. ورواه أيضاً بلفظ: «وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يَقْبَلَ مِنْهُ»، ورواه ابن ماجه وصححه الألباني. ورواه الترمذي عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ) قالت عائشة أهما الذين يسربون الخمر ويسرفون قال «لَا يَا بِنْتُ الصَّدِيقِ وَلَكِنَّهُمْ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيَصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا يَقْبَلَ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَاقُونَ». (وصححه الألباني).

(٣) «التفسير الكبير» ٢٣/١٠٧.

أو زيادة العقاب قال القرطبي: والآية تهديد وتأمين من الحيف والظلم ^(١) ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ أي بل قلوب الكفرة المجرمين في غطاء وغفلة وعماية عن هذا القرآن ﴿أَعْمَلُ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ أي ولهم أعمال سيئة كثيرة غير الكفر والإشراك ﴿هُمْ لَهَا عَمَلُونَ﴾ أي سيعملونها في المستقبل لتحقق عليهم الشقاوة فقد جمعوا بين الكفر وسوء الأعمال فحققت عليهم كلمة العذاب ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ﴾ أي حتى إذا أخذنا أغنياءهم وكبراءهم المتنعمين في هذه الحياة بالعذاب العاجل كالجوع والقتل والأسر ﴿إِذَا هُمْ يَخْرُوتُ﴾ أي إذا هم يصيحون ويرفعون أصواتهم بالاستغاثة قال ابن عباس: هو الجوع الذي عذبوا به سبع سنين ﴿لَا تَجْعُرُوا الْيَوْمَ﴾ أي لا تستغيثوا اليوم من العذاب ﴿إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُصْرُونَ﴾ أي لا تمنعون من عذابنا فلا ينفعكم صراخ ولا استغاثة ﴿فَكَانَتْ عَائِقَتِي لَكُمْ﴾ أي لقد كنتم تسمعون آيات القرآن تقرأ عليكم ﴿فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ نَكِصُونَ﴾ أي كنتم تنفرون عن تلك الآيات كما يذهب الناكص على عقبيه بالرجوع إلى ورائه، وهذا تمثيل لإعراضهم عن الحق بالراجع إلى الخلف ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ أي مستكبرين بسبب القرآن عن الإيمان قال ابن كثير: الضمير للقرآن كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام يقولون إنه سحر، شعر، كهانة إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة ^(٢) وقال ابن الجوزي: الضمير عائد إلى البيت الحرام وهي كناية عن غير مذكور لشهرة الأمر والمعنى: إنكم تستكبرون وتفتخرون بالبيت والحرم لأنكم فيه مع خوف سائر الناس في مواطنهم، تقولون: نحن أهل الحرم فلا نخاف أحداً، ونحن أهل بيت الله وولاته، هذا مذهب ابن عباس وغيره ^(٣) ﴿سَمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ أي متحدثين ليلاً تسمرون تقولون في سمركم الهجر وهو القول الفاحش من الطعن في القرآن، وسب النبي عليه السلام ﴿أَفَلَمْ يَذَّبُوا الْقَوْلَ﴾ أي أفلم يتدبروا هذا القرآن العظيم ليعرفوا بما فيه من إعجاز النظم أنه كلام الله فيصدقوا به ^(٤) ؟ ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَالٌ يَآتَىٰ أَبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي أم جاءهم من الله بشيء مبتدع لم يأت مثله في آبائهم السابقين؟ قال أبو السعود: يعني أن مجيء الكتب من جهته تعالى إلى الرسل سنة قديمة لا يكاد يتسنى إنكاره، وأن مجيء القرآن على طريقته فمن أين ينكرونه؟ ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ توبيخ آخر لهم أي أم لم يعرفوا محمداً ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته ورابعاً اتهامهم له بالجنون وقد علموا أنه عليه السلام أرجحهم عقلاً وأقربهم ذهنًا ولهذا قال بعده ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي أم يقولون

(١) «تفسير القرطبي» ١٢/ ١٣٤.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٥٦٩.

(٣) «زاد المسير» ٥/ ٤٨٢.

(٤) «أبو السعود» ٤/ ٣٨.

إن محمداً مجنون، وهذا توبيخ آخر وتعجيب من تفننهم في العناد، وتلونهم في الجحود ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾ ﴿بَلْ﴾ للإضراب أي ليس الأمر كما زعموا بل جاءهم محمد بالحق الساطع الذي لا مدخل فيه للباطل بوجه من الوجوه، وبالقرآن المشتمل على التوحيد وشرائع الإسلام ﴿وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ أي ومع وضوح الدعوة فإن أكثر المشركين يكرهون الحق لما في قلوبهم من الزيغ والانحراف ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي لو كان ما كرهوه من الحق - الذي هو التوحيد والعدل - موافقاً لأهوائهم الفاسدة، و متمشياً مع رغباتهم الزائغة ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ أي لفسد نظام العالم أجمع علوياً وسفلياً، وفسد من فيه من المخلوقات لفساد أهوائهم واختلافهم قال ابن كثير: وفي هذا كله تبين عجز العباد، واختلاف آرائهم وأهوائهم، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وتدبيره لخلقه^(١) ﴿بَلْ أَتَيْنَهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ أي بل أتيناهم بما فيه فخرهم وشرفهم، وهو هذا القرآن العظيم الذي أكرمهم الله تعالى به ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي فهم معرضون عن هذا القرآن العظيم وكان اللائق بهم الانقياد له وتعظيمه لأنه شرفهم وعزهم، وأعاد لفظ «الذكر» تعظيماً للقرآن ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾ أي أم تسألهم يا محمد أجراً على تبليغ الرسالة فلاجل ذلك لا يؤمنون، وفي هذا تشنيع عليهم لعدم الإيمان فمحمد لا يطلب منهم أجراً فلماذا إذاً يكذبونه ويعادونه؟ ﴿فَخَرَجَ مِنْكَ خَيْرٌ﴾ أي رزق الله وعطاؤه خير لك يا محمد ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ﴾ أي هو تعالى أفضل من أعطى ورزق لأنه يعطي لا لحاجة، وغيره يعطي لحاجة ﴿وَلِنَاكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي وإنك يا محمد لتدعوهم إلى الطريق المستقيم وهو الإسلام الموصل إلى جنات النعيم ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصَّوْطِ لَنُكَيِّبُنَّ﴾ أي وإن الذين لا يصدقون بالبعث والثواب والعقاب لعادلون عن الطريق المستقيم منحرفون عنه.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة والبيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الاستعارة اللطيفة ﴿فَذَرَهُمْ فِي عَمَرَتِهِمْ﴾ أصل الغمرة الماء الذي يغمر القامة، شبه ما هم فيه من الجهالة والضلالة بالماء الذي يغمر الإنسان من فرقته إلى قدمه على سبيل الاستعارة.
- ٢ - الاستفهام الإنكاري ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمُ﴾.
- ٣ - حذف الرابط في ﴿سَارِعُهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ حذف «به» أي نسارع لهم به في الخيرات، وحسن حذفه لاستطالة الكلام مع أمن اللبس.
- ٤ - الطباق بين ﴿يُؤْمِنُونَ... يُشْرِكُونَ﴾.
- ٥ - الاستعارة البديعة ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ النطق لا يكون إلا ممن يتكلم بلسانه،

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٥٧٠. (ش): فرق: فاصل بين صفتين من شعر الرأس.

والكتاب ليس له لسان، فوصف سبحانه الكتاب بالنطق مبالغة في وصفه بإظهار البيان وإعلان البرهان، وتشبيهاً باللسان الناطق بطريق الاستعارة.

٦ - جناس الاشتقاق ﴿يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا﴾ ﴿أَعْمَلُوا.. هُمْ لَهَا عَمَلُونَ﴾.

٧ - الاستعارة الفائقة ﴿فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ تُنْكِرُ صَوْنَ﴾ شبه إعراضهم عن الحق بالراجع القهقري إلى الخلف وهو من قبيل الاستعارة التمثيلية.

٨ - السجع الرصين ﴿مُشْفِقُونَ، يُؤْمِنُونَ، يُشْرِكُونَ، سَنِقُونَ﴾ إلخ.

قال الله تعالى:

وَلَوْ رَحَّمْنَهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِّنْ ضُرٍّ لَّلَجُوا فِي طَعْنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسَوْنَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالِ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَوَعَّاكُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَكَاتِ السَّجْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْفِكَو ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَنبَنَّهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِّنْ إِلَهِ إِذَا لَذَبَ كُلُّ إِلَهِ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تُرَبِّينِي مَا يُوْعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿٩٥﴾ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَشَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمِيذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَن خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُم نَارُ النَّارِ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ أَتَيْنِي تَتْلِيٰ عَلَيْنَا فَنُكِّرُ بِهَا تُكْذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِن عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ أَخَسُّوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُوا يَقُولُوا رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوَكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآبِرُونَ ﴿١١١﴾ قُلْ كَمْ لِيَشْرَبَ فِي الْأَرْضِ عَدَدُ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَيْشْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَادِينَ

﴿١١٣﴾ قَدْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ

المناسبة: لما ذكر تعالى إعراض المشركين عن دعوة الإيمان، ذكر هنا سبب الإعراض وهو العناد والطغيان، ثم أردفه بإقامة الأدلة على التوحيد، ثم ذكر أحوال الآخرة وانقسام الناس إلى سعداء وأشقياء، وختم السورة ببيان الحكمة من حشر الناس إلى دار الجزاء وأنه لولا القيامة لما تميز المطيع من العاصي ولا البر من الفاجر.

اللغة: ﴿مُبْلِسُونَ﴾ يائسون متحIRON، والإبلاس: اليأس من كل خير ﴿مُجِيرٌ﴾ يمنع ويحمي من استغاث به يقال: أجرت فلاناً على فلان إذا أغثته ومنعته منه ﴿هَمْزَاتٍ﴾ جمع همزة وهي الدفع والتحريك الشديد وهو كالهز والأز، وهمزات الشيطان: كيده بالوسوسة ﴿بَرْزَخٌ﴾ حاجز ومانع قال الجوهرى: البرزخ: الحاجز بين الشيئين^(١) ﴿كَلْبَحُونَ﴾ الكلوخ: أن تتقلص الشفتان وتتباعد الأسنان، وذلك نهاية القبح لوجه الإنسان.

سبب النزول: عن ابن عباس قال: نزلت في قصة «ثمامة بن أثال» لما أسرته السرية وأسلم وخلى رسول الله ﷺ سبيله، حال بين مكة وبين الميرة وقال: والله لا يأتيكم من الإمامة حبة حنطة حتى يأذن رسول الله ﷺ، وأخذ الله قريشاً بالقحط والجوع حتى أكلوا الميتة والكلاب والعلهز قيل وما العلهز؟ قال: كانوا يأخذون الصوف والوبر فيبلونه بالدم ثم يشوونه ويأكلونه فقال أبو سفيان: أنشدك الله والرحم، أليس تزعم أن الله بعثك رحمة للعالمين؟ قال: بلى، قال فوالله ما أراك إلا قتلت الأبناء بالسيف، وقتلت الأبناء بالجوع فنزل قوله تعالى ﴿وَلَوْ رَحَّمْنَهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضَرٍّ لَلْجَأُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^(٢) الآيات.

(١) تفسير القرطبي ١٢/١٥٠.

(٢) البحر المحيط ٦/٤١٥. (ش): عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: جَاءَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْشُدْكَ اللَّهَ وَالرَّحِمَ لَقَدْ أَكَلْنَا الْعُلْهَزَ، - يَعْنِي الْوَبَرَ بِالْدَّمِ - فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَنْضَعُونَ ﴿﴾ (رواه ابن جرير الطبري في تفسيره، والبيهقي في «الدلائل» وإسناده جيد. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمَّا أَتَى ثُمَامَةُ بْنُ أَثَالٍ الْحَنْظَلِيَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَسْلَمَ وَهُوَ أَسِيرٌ فَخَلَّى سَبِيلَهُ، فَلَحِقَ بِالْإِمَامَةِ فَحَالَ بَيْنَ أَهْلِ مَكَّةَ وَبَيْنَ الْمِيرَةِ مِنْ يَمَامَةَ وَأَخَذَ اللَّهُ تَعَالَى قُرَيْشًا بِسِنِي الْجَذْبِ حَتَّى أَكَلُوا الْعُلْهَزَ، فَجَاءَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: أَنْشُدْكَ اللَّهَ وَالرَّحِمَ أَلَيْسَ تَزْعُمُ أَنَّكَ بَعَثْتَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ؟ قَالَ: «بَلَى»، فَقَالَ: قَدْ قَتَلْتَ الْأَبَاءَ بِالسَّيْفِ وَالْأَبْنَاءَ بِالْجُوعِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ. (رواه ابن جرير الطبري في تفسيره، والبيهقي في «الدلائل» وإسناده جيد. الْمِيرَةُ: الطَّعَامُ مِنَ الْحَبِّ وَالْقَوْتُ. وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: إِنَّ قُرَيْشًا أَبْطَثُوا عَنِ الْإِسْلَامِ فَدَعَا عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَيْهِمْ سَبْعَ كَسْبَعٍ يُوسِفُ»، فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ (وَفِي رِوَايَةٍ: فَحُطَّ وَجْهٌ) حَصَّتْ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى هَلَكُوا فِيهَا، وَأَكَلُوا الْمَيْتَةَ وَالْجَيْفَ، وَالْجُلُودَ وَالْعِظَامَ، وَيَرَى =

التفسير: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ﴾ أي لو رحمنا هؤلاء المشركين الذين كذبوك وعاندوك ورفعنا عنهم ما أصابهم من قحطٍ وجذب وكشفنا عنهم البلاء ﴿لَلَّجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي لاستمروا وتمادوا في ضلالتهم وتجاوزهم الحدَّ يترددون ويتخبطون حيارى ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ أي ابتليناهم بالمصائب والشدائد، وبالقحط والجوع ﴿فَمَا أَسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي ما خضعوا لله ولا تواضعوا لجلاله ﴿وَمَا يَضُرُّعُونَ﴾ أي وما دعوا ربهم لكشف البلاء بل استمروا على العتو والاستكبار، والغرض أنه لم يحصل منهم تواضع ورجوع إلى الله في الماضي، ولا التجاء إلى الله في المستقبل لشدة جبروتهم وطغيانهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي حتى إذا جاءتهم أهوال الآخرة وأتاهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبَسِّئُونَ﴾ أي إذا هم آيسون من كل خير قال أبو السعود: المراد بالعذاب عذاب الآخرة كما ينبئ عنه التهويل والوصف بالشدة. والمعنى: أنا مَحَنَّاَهُمْ^(١) بكل محنة من القتل، والأسر، والجوع وغير ذلك فما روي منهم لين ولا توجه إلى الإسلام إلى أن يروا عذاب الآخرة فيحينئذ ييلسون وتخضع رقابهم^(٢) ثم ذكرهم تعالى بنعمه ودلائل وحدانيته فقال ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أي خلق لكم هذه الحواس لتسمعوا وتبصروا وتفقهوا، وفيه توبيخ للمشركين حيث لم يصرفوا النعم في مصارفها، لأن السمع خلق ليسمع به ما يرشده، والبصر ليشاهد به الآيات على كمال أوصاف الله، والعقل ليتأمل به في مصنوعات الله وباهر قدرته فمن لم يصرف تلك النعم في مصارفها فهو بمنزلة عادمها كما قال تعالى ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعَادُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأحاف: ٢٦] وخص هذه الثلاثة بالذكر لعظم المنافع التي فيها ﴿فَلَيْلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ أي قليلاً تشكرون ربكم، و﴿مَا﴾ لتأكيد القلة أي ما أقل شكركم لله على كثرة إفضاله وإنعامه عليكم! ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي خلقكم

= الرَّجُلُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ مِنَ الْجَهْدِ وَالْجُوعِ. فجاءه أبو سفيان، فقال: «يا مُحَمَّدُ! إِنَّكَ تَأْمُرُ بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَبِصَلَةِ الرَّجَمِ، وَإِنْ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا؛ فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُمْ، فَدَعَا، ثُمَّ قَالَ: «تَعُودُونَ بَعْدَ هَذَا»، فَقَرَأَ: (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ. يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ)، فَدَعَا: (رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ. أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ. ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِجْنُونٌ. إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ). فَاتَى النَّبِيَّ صَ رَجُلٌ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْتَسْقِ اللَّهَ لِمُضَرٍّ؛ فَإِنَّهَا قَدْ هَلَكَتْ». قَالَ: «لِمُضَرٍّ؟! إِنَّكَ لَجَرِيءٌ!». فَاسْتَسْقَى، فَسَقُوا الْعَيْثَ وَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمْ سَبْعًا، وَسَكَا النَّاسُ كَثْرَةَ الْمَطَرِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: (إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ)، فَكَشَفَ عَنْهُمْ فَعَادُوا إِلَى كُفْرِهِمْ، فَانْتَقَمَ اللَّهُ مِنْهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ. (وفي رواية: فَمَطَرُوا فَلَمَّا أَصَابَتْهُمْ الرَّفَاهِيَّةُ عَادُوا إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يَوْمَ بَدْرٍ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَوْمَ تَبْطِشُ الْبَطْشَةُ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ). (زَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). (بِسْمِ كَسْبِ يُونُسَ): أَيِّ بَسْمِ سِنِينَ كَسْبِي يُونُسَ فِي الْقَحْطِ وَالْوَحْنَةِ وَالْبَلَاءِ. (السَّنَةِ)، هِيَ الْقَحْطُ وَالْجَدْبُ. (حَصَّتْ): اسْتَأْصَلَتْ.

(١) (ش): أي ابتليناهم وامتنحناهم.

(٢) أبو السعود ٤/ ٤٠.

وبثكم في الأرض بطريق التناسل ﴿وَالَّذِينَ تُحْشَرُونَ﴾ أي وإليه وحده تجمعون للجزاء والحساب ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي يحيي الرَّمَمَ^(١) ويميت الخلائق والأمم ﴿وَلَهُ أُخْتَلَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي إن اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان بفعله سبحانه وحده ليقيم الدليل على وجوده وقدرته ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفليس لكم عقول تدركون بها دلائل قدرته، وأثار قهره، فتعلمون أن من قدر على ذلك ابتداءً، قادرٌ على إعادة الخلق بعد الفناء؟ ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ ﴿بَلْ﴾ للإضراب أي ليس لهم عقل ولا نظر في هذه الآيات والعبر، بل قال هؤلاء المشركون - من كفار مكة - مثل ما قال الأمم المتقدمون ﴿قَالُوا أَوَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أُنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾؟ أي أئذا بَلِينَا وصرنا ذرات ناعمة، وعظاماً نخرة^(٢) أئنا لمخلوقون ثانية؟ هذا لا يتصور ولا يكون ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَوَعَّاكُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي لقد وعدنا بهذا نحن ومن سبقنا فلم نر له حقيقة ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي ما هذا إلا أكاذيب وأباطيل المتقدمين. ولما أنكروا البعث والنشور أمر تعالى رسوله أن يفحمهم بالحجة الدامغة التي تقصم ظهر الباطل فقال ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾؟ أي قل يا محمد جواباً لهم عما قالوه: لمن الأرض ومن فيها من المخلوقات؟ ومن مالکها والمتصرف فيها بالإيجاد والإفناء؟ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كان عندكم علم فأخبروني بذلك، وفيه استهانة بهم وتقرير لجهلهم قال القرطبي: يخبر تعالى في الآية بربوبيته ووحدانيته، وملكه الذي لا يزول، وقدرته التي لا تحول، ودلت هذه الآيات - وما بعدها - على جواز جدال الكفار وإقامة الحجة عليهم، ونهت على أن من ابتداء بالخلق والإيجاد، والإبداع، هو المستحق للألوهية والعبادة^(٣) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي فسيقولون الله خالقها وموجدها ولا بدّ لهم من الاعتراف بذلك ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ أي أفلا تعتبرون فتعلمون أن من ابتداء ذلك قادر على إعادته؟ ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾؟ أي من هو خالق السموات الطباق بما فيها الشمس، والكواكب والأقمار^(٤)، ومن خالق العرش الكبير الذي تحمله الملائكة الأطهار؟ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي سيقولون: الله خالقه وهو الله ﴿قُلْ أَفَلَا نُنْفِئُكُمْ﴾ أي أفلا تخافون من عذابه فتوحدونه وتتركون عبادة غيره من الأوثان والأصنام ﴿قُلْ مَنْ يَدْعُو مَلَكَوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الملَكُوت من صفات المبالغة أي من بيده الملك الواسع التام؟ ومن

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾؟.

(٢) (ش): عظماً نخرة: عظماً بالية.

(٣) تفسير القرطبي.

(٤) (ش): لم يرد في القرآن ذكر الشمس والقمر إلا مفردتين والباقي سماه نجومًا وكواكب، قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّهِ﴾. وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيْنًا أَسْمَاءَ الدُّنْيَا بَرْنَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ [الصفافات: ٦].

بيده خزائن كل شيء؟ ومن هو المتصرف في هذه الأكوان بالخلق والإيجاد والتدبير؟ ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي يحمي من استجار به والتجأ إليه، ولا يغيث أحدٌ منه أحداً ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْمُونَ﴾ أي إن كنتم تعلمون فأخبروني عن ذلك ﴿سَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ أي سيقولون: الملك كله والتدبير لله جل وعلا ﴿قُلْ فَأَنِّي مُسْحَرُونَ﴾ أي قل لهم: فكيف تُخدعون وتُصرفون عن طاعته وتوحيده مع اعترافكم وعلمكم بأنه وحده المتصرف المالك؟ قال أبو حيان: والسحر هنا مستعار وهو تشبيه لما يقع منهم من التخليط، ووضع الأفعال والأقوال غير مواضعها بما يقع للمسحور من التخبط والتخليط^(١) رتب هذه التوبيخات الثلاثة بالتدرج فقال أولاً ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ ثم قال ثانياً ﴿أَفَلَا نُنْقِطُ﴾؟ وذلك أبلغ لأن فيه زيادة تخويف، ثم قال ثالثاً ﴿قُلْ فَأَنِّي مُسْحَرُونَ﴾ وفيه من التوبيخ ما ليس في غيره^(٢) ﴿بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي بل جنناهم بالقول الصدق في أمر التوحيد والبعث والجزاء ﴿وإنهم لكاذبون﴾ أي كاذبون فيما ينسبون لله من الشركاء والأولاد. لَمَّا بالغ في الحجاج عليه بالآيات السابقة أعقبها بهذه الآية كالوعيد والتهديد، ثم بين بطلان الشريك والولد بالبرهان القاطع فقال ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ أي ما اتخذ الله ولداً مطلقاً لا من الملائكة ولا من البشر ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ أي وليس معه من يشاركه في الألوهية والربوبية ﴿إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ أي لو كان معه إله - كما زعم عبدة الأوثان - لانفرد كل إله بخلقه الذي خلق واستبد به، وتميز ملك كل واحد عن ملك الآخر ﴿وَلَعَلَّابَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي ولغلب بعضهم على بعض كحال ملوك الدنيا قال ابن كثير: المعنى لو قُدر تعدد الآلهة لانفرد كل بما خلق، ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه فيعلو بعضهم على بعض وما كان ينتظم الوجود، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق غاية الكمال فدل على تنزه الله عن الولد والشريك^(٣) ولهذا قال ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي تنزه الله وتقدس عما يصفه به الظالمون ﴿عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي هو تعالى العالم بما غاب عن الأنظار، وبما تدركه الأبصار، لا تخفى عليه خافية من شؤون الخلق ﴿فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تقدس وتنزه عن الشريك والولد ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِي مَا يُوعَدُونَ﴾ أي قل يا رب إن كان ولا بد من أن تُريني ما تعدهم من العذاب في الدنيا ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ هذا جواب الشرط ﴿إِمَّا﴾ وكرر قوله ﴿رَبِّ﴾ مبالغة في الدعاء والتضرع أي رب فلا تجعلني في جملة الظالمين فأهلك بهلاكهم قال أبو حيان: ومعلوم أنه عليه السلام معصومٌ مما يكون سبباً لجعله مع الظالمين ولكنه أمر أن يدعو بذلك إظهاراً

(١) البحر المحيط ٦/ ٤١٨.

(٢) نقلاً عن التسهيل ٣/ ٥٥.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٥٧٣.

للعبودية وتواضعاً لله^(١) ﴿وَلِنَّا عَلَيَّ أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدْ رُؤُونَ﴾ أي ونحن قادرون على أن نريك العذاب الذي وعدناهم به ولكن نؤخره لحكمة ﴿أَدْفَعْ بِأَلْيِّ هِيَ أَحْسَنُ السَّبِيَّةِ﴾ أي ادفع إساءتهم بالصفح عنهم وتكمل بمكارم الأخلاق قال ابن كثير: أرشده إلى الترياق النافع في مخالطة الناس وهو الإحسان إلى من يسيء إليه ليستجلب خاطره، فتعود عداوته صداقة، وبغضه محبة^(٢) ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي نحن أعلم بحالهم وبما يكون منهم من التكذيب والاستهزاء وسنجازيهم عليه ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي أعتصم بك من نزغات الشياطين ووساوسهم المغرية على الباطل والمعاصي ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ أي وأعتصم وأحتمي بك يا رب من أن يصيبوني بسوء أو يكونوا معي في أموري، كرر ذلك للمبالغة والاعتناء بشأن الاستعاذة ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ عاد الكلام عن المشركين، أي: حتى إذا حضر الموت أحدهم وعان أهواله وشدائده ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ أي قال تحسراً على ما فرط منه: ربّ ردني إلى الدنيا، وصيغة الجمع للتعظيم ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾ أي لكي أعمل صالحاً فيما ضيعت من عمري ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ ﴿كَلَّا﴾ كلمة ردع وزجر، أي: لا رجوع إلى الدنيا فليرتدع عن ذلك فإن طلبه للرجعة كلام لا فائدة فيه ولا جدوى منه وهو ذاهبٌ أدراج الرياح ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي وأمامهم حاجز يمنعهم عن الرجوع إلى الدنيا - هو عالم البرزخ - الذي يحول بينهم وبين الرجعة يلبثون فيه إلى يوم القيامة قال مجاهد: البرزخ: الحاجز ما بين الدنيا والآخرة ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ أي فإذا نفخ في الصور النفخة الثانية وهي نفخة البعث والنشور ﴿فَلَا أَسْأَبَ يَنْفَعُهُمْ يُومِئذٍ﴾ أي فلا قرابة ولا نسب ينفعهم يوم القيامة لزوال التراحم والتعاطف من شدة الهول والدهشة بحيث يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه ﴿وَلَا يَسْأَلُوكَ﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضاً عن شأنه لا شغل كل واحد بنفسه، ولا تنافي بينها وبين قوله ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسْأَلُونَ﴾ [الطور: ٢٥]

لأن يوم القيامة طويل وفيه مواقف ومواطن، ففي بعضها يتكلمون وفي بعضها لا ينطقون ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي فمن رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي فهم السعداء الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي زاد سيئاته على حسناته ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي فهم الأشقياء الذين خسروا سعادتهم الأبدية بتضييع أنفسهم وتدنيسها بالكفر والمعاصي ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ أي هم مقيمون في جهنم لا يخرجون منها أبداً ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ أي تحرقها بشدة حرّها، وتخصيص الوجوه بالذكر لأنها أشرف الأعضاء ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ أي وهم في جهنم عابسون مشوهو المنظر

(١) البحر المحيط ٦/ ٤٢٠.

(٢) ابن كثير المختصر ٢/ ٥٧٤.

قال ابن مسعود: قد بدت أسنانهم وتقلصت شفاههم كالرأس المُشَيِّط بالنار، وفي الحديث «تَشْوِيهِ النَّارُ فَتَقْلَصُ شَفَتُهُ الْعُلْيَا حَتَّى تَبْلُغَ وَسَطَ رَأْسِهِ وَتَسْتَزِيحِي شَفَتُهُ السُّفْلَى حَتَّى تَضْرِبَ سُرَّتَهُ»^(١) ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتِنَى ثُلَا عَلَى كُرٍّ﴾ أي يقال لهم تعنيفاً وتوبيخاً: ألم تكن آيات القرآن الساطع تقرأ عليكم في الدنيا؟ ﴿فَكُنْتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ﴾ أي فكنتم لا تصدقون بها مع وضوحها ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ أي غلبت علينا شقاوتنا ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ أي وكنا ضالين عن الهدى بسبب اتباعنا للملذات والأهواء ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ أي أخرجنا من النار وردنا إلى الدنيا ﴿فَإِنْ عُدْنَا فَنَا ظَلِمُونَ﴾ أي فإن رجعنا إلى الكفر والمعاصي بعد ذلك نكون قد تجاوزنا الحد في الظلم العدوان. أقرؤا أولاً بالإجرام ثم تدرجوا من الإقرار إلى الرغبة والتضرع فجاء الجواب بالتيئيس والزجر ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾ أي ذلوا في النار وانزجروا كما تُزجر الكلاب ولا تكلموني في رفع العذاب قال في التسهيل: اخسئوا: كلمة تستعمل في زجر الكلاب ففيها إهانة وإبعاد^(٢) ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ قال مجاهد: هم بلال، وخباب، وصهيب وغيرهم من ضعفاء المسلمين كان أبو جهل وأصحابه يهزءون بهم^(٣) ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا﴾ أي فسخرتم منهم واستهزأتم بهم ﴿حَتَّى أَتَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ أي حتى نسيتم بتشاغلكم بهم واستهزائكم عليهم عن طاعتي وعبادتي ﴿وَكُنْتُمْ مِّنْهُمْ ضَاحِكُونَ﴾ أي وكنتم تتضحكون عليهم في الدنيا ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي جزيتهم بسبب صبرهم على أذاكم أحسن الجزاء ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاكِرُونَ﴾ أي إنهم هم الفائزون بالنعيم المقيم ﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ أي قال تعالى للكفار على سبيل التبكيت والتوبيخ: كم مكثتم في الدنيا وعمّرتم فيها من السنين؟ ﴿قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضُ أَي مَكْنَانًا يَوْمًا أَوْ أَقَلَّ مِنْ يَوْمِ فَتَشَلُّ الْعَادِينَ﴾ أي الحاسبين المتمكنين من العدّ قال ابن عباس: أنساهم ما كانوا فيه من العذاب المدة التي لبثوها ﴿قُلْ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ما أقمتم حقاً في الدنيا إلا قليلاً قال الرازي: كأنه قيل لهم: صدقتم ما لبثتم فيها إلا قليلاً فقد انقضت ومضت، والغرض تعريفهم قلة أيام الدنيا في مقابلة أيام الآخرة^(٤) ﴿لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي لو كان لكم علم وفهم لعرفتم حقارة الدنيا ومتاعها الزائل^(٥) ﴿أَفَحَسِبْتُمْ

(١) أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب. (ش): ضعفه الألباني. (تَشْوِيهِ) أَي تُحْرِقُ الْكَافِرَ. (فَتَقْلَصُ): فَتَقْلَصُ: يَحْذِفُ إِحْدَى التَّائِيْنَيْنِ أَيِ تَنْقِصُ (تَبْلُغُ) أَيِ تَصِلُ (وَتَسْتَزِيحِي) أَيِ تَسْرِسِلُ (حَتَّى تَضْرِبَ سُرَّتَهُ) أَيِ تَقْرُبَ شَفَتُهُ سُرَّتَهُ.

(٢) «التسهيل» ٥٧/٣.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٢/١٥٤.

(٤) «التفسير الكبير» ٢٣/١٢٧.

(٥) (ش): قال الإمام ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٨٣/١٩): ما لبثتم في الأرض إلا قليلاً يسيراً، ﴿لَوْ أَنَّكُمْ

أَتَمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴿١﴾ أي أظننتم - أيها الناس - أنما خلقناكم باطلاً وهملاً بلا ثواب ولا عقاب كما خلقت البهائم ﴿وَأَنكُمُ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ﴾ أي وأنه لا رجوع لكم إلينا للجزاء؟ لا ليس الأمر كما تظنون وإنما خلقناكم للتكليف والعبادة ثم الرجوع إلى دار الجزاء ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ﴾ أي فتنزهه وتقدس الله الكبير الجليل ﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أي صاحب السلطان، المتصرف في ملكه بالإيجاد والإعدام، والإحياء والإفناء، تنزهه عن العبث والنقائص وعن أن يخلق شيئاً سفهاً لأنه حكيم ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا رب سواه ولا خالق غيره ^(١) ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ أي خالق العرش العظيم وصفه بالكريم لأن الرحمة والخير والبركة تنزل منه، ولنسبته إلى أكرم الأكرمين ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي ومن يجعل لله شريكاً ويعبد معه سواه ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ أي لا حجة له به ولا دليل ﴿فَالْتَمَاسُ حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي جزاؤه وعقابه عند الله ﴿إِنَّهُ لَا يَفْصِلُ الْكَافِرُونَ﴾ أي لا يفوز ولا ينجح من جحد وكذب بالله ورُسُلَه، افتتح السورة بقوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وختمها بقوله ﴿إِنَّهُ لَا يَفْصِلُ الْكَافِرُونَ﴾ ليظهر التفاوت بين الفريقين فشتان ما بين البدء والختام.

﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ أمر رسوله بالاستغفار والاسترحام تعليمًا للأمة طريق الشاء والدعاء، اللهم اغفر لنا وارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء، يا أرحم الراحمين، اللهم آمين.

البَلَاغَةُ: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الامتنان ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾.
- ٢ - التنفيس ﴿السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ أفرد السمع وجمع الأبصار تفنناً.
- ٣ - التنكير للتقليل ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ و﴿مَا﴾ تأكيد للقلة المستفادة من التنكير والمعنى شكرًا قليلاً وهو كناية عن عدم الشكر.
- ٤ - الاستفهام الذي غرضه الإنكار والتوبيخ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ؟ ﴿أَفَلَا تَنْقُوتَ﴾ ؟
- ٥ - الطباق بين ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.
- ٦ - حذف جواب الشرط ثقةً بدلالة اللفظ عليه ﴿إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم تعلمون

= كنتم تعلمون ﴿قَدَّرْتُ لَكُمْ فِيهَا﴾. وقال الحافظ ابن كثير تفسيره (٥ / ٥٠٠): ﴿قَدَّرْتُ لَكُمْ فِيهَا﴾ أي: قَدَّرْتُ لَكُمْ فِيهَا قَدْرًا يَسِيرَةً عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ ﴿لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لَمَا أَتَرْتُمُ الْفَانِي عَلَى الْبَاقِي، وَلَمَا نَصَرْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ هَذَا النَّصْرَ السَّيِّئَ، وَلَا اسْتَحَقَّقْتُمْ مِنَ اللَّهِ سُخْطَهُ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ الْيَسِيرَةِ، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَبَرْتُمْ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ - كَمَا فَعَلَ الْمُؤْمِنُونَ - لَفُزْتُمْ كَمَا فَازُوا.

(١) (ش): قال المؤلف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّكَ لَإِلَهُ وَاحِدٌ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]: أي لا معبود بحق إلا هو جل وعلا.

ذلك فأخبروني عنه.

- ٧ - طباق السلب ﴿وَهُوَ يُحْيِي وَلَا يُجَارُ﴾.
- ٨ - تأكيد الكلام بذكر حرف الجر الزائد ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ أي ما اتخذ ولداً وكذلك ﴿وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ ذكر ﴿مِنْ﴾ في الجملتين تأكيداً تثبيتاً للنفي.
- ٩ - الطباق في ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾.
- ١٠ - التأكيد بأن واللام ﴿وَأَنَّا عَلَيَّ أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدْ رُؤِنَ﴾ لإنكار المخاطبين لذلك.
- ١١ - الطباق المعنوي ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ لأنه المعنى ادفع بالحسنة السيئة فهو طباق بالمعنى لا باللفظ.
- ١٢ - واو الجمع للتعظيم ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ولم يقل ارجعني تعظيماً لله جل وعلا.
- ١٣ - المجاز المرسل ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ أطلق الكلمة على الجملة وهو من إطلاق الجزء وإرادة الكل.
- ١٤ - المقابلة اللطيفة بين ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ و﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ...﴾ الآيتان.
- ١٥ - القصر ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.
- ١٦ - جناس الاشتقاق ﴿أَغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾.
- ١٧ - السجع الموزون الخالي من التكلف وهو كثير مشهور.

«انتهى تفسير سورة الحج»



مدنية وآياتها أربع وستون

بين يدي السورة

سورة النور من السور المدنية، التي تتناول الأحكام التشريعية، وتُعنَى بأمور التشريع، والتوجيه والأخلاق، وتهتم بالقضايا العامة والخاصة التي ينبغي أن يُربى عليها المسلمون أفرادًا وجماعات، وقد اشتملت هذه السورة على أحكام هامة وتوجيهات عامة تتعلق بالأسرة، التي هي النواة الأولى لبناء المجتمع الأكبر.

* وضّحت السورة الآداب الاجتماعية التي يجب أن يتمسك بها المؤمنون في حياتهم الخاصة والعامة، كالاستئذان عند دخول البيوت، وغض الأبصار، وحفظ الفروج، وحرمة اختلاط الرجال بالنساء الأجنيات، وما ينبغي أن تكون عليه الأسرة المسلمة و«البيت المسلم» من العفاف والستر، والنزاهة والطهر، والاستقامة على شريعة الله، صيانةً لحرمتها، وحفاظًا عليها من عوامل التفكك الداخلي، والانهيار الخلقي، الذي يهدم الأمم والشعوب.

* وقد ذكرت في هذه السورة الكريمة بعض الحدود الشرعية التي فرضها الله كحد الزنى^(١)، وحد القذف^(٢)، وحد اللعان^(٣)، وكل هذه الحدود إنما شرعت تطهيرًا للمجتمع من الفساد والفوضى، واختلاط الأنساب، والانحلال الخلقي، وحفاظًا للأمة من عوامل التردّي في بؤرة الإباحية والفساد، التي تُسبب ضياع الأنساب، وذهاب العرض والشرف. * وباختصار فإن هذه السورة الكريمة عالجت ناحية من أخطر النواحي الاجتماعية هي

(١) (ش): مَا وَرَدَ مَقْصُورًا وَمَمْدُودًا بِلِغَتَيْنِ: كَالْحُلْوَى وَالْحُلُوءِ، وَالزَّنى وَالزَّناء، يَصِحُّ أَنْ يُكْتَبَ: الْحُلُوءُ، وَالزَّناء بِاللَّيْلِ. [انظر: قواعد الإملاء لعبد السلام محمد هارون (ص ٣٠-٣١)].

(٢) (ش): قَذَفَ الْمُحْصَنَةُ: رَمَاهَا بِالزَّنى وَاتَّهَمَهَا بِهِ.

(٣) (ش): اللعان شهادات مؤكّدة بالأيّمان، مقرونة باللعن من جهة الزوج وبالغضب من جهة الزوجة، قائمة مقام حدّ القذف في حق الزوج، ومقام حدّ الزنى في حق الزوجة. وسُمّي اللعان بذلك؛ لقول الرجل في الخامسة: أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ولأن أحدهما كاذب لا محالة، فيكون ملعونًا. فإذا رأى الرجل امرأته تزني ولم يُمكنه إقامة البينة، أو قذفها بالزنى ولم تُقر هي بذلك، وحتى لا يلحقه العار بزناها ويفسد فراشه، أو يلحقه ولدٌ غيره، شرع الله عز وجل اللعان حلًّا لمشكلته، وإزالة للحرج عنه، ويستحب وعظهما وتخويفهما بالله قبل اللعان. وأيّمان اللعان لا تُعتبر إلا بحضرة قاضٍ أو نائبه، أو رجل متصفٍ بشروط القضاء يتفق الزوجان على تحكيمه بينهما. وإذا تراجع الزوج وامتنع عن الأيمان فعليه حد القذف ثمانين جلدة، وإذا امتنعت الزوجة وأقرت بالزنى أقيم عليها حد الزنا وهو الرجم.

«مسألة الأسرة» وما يحفها من مخاطر، وما يعترض طريقها من عقبات ومشاكل، تؤدي بها إلى الانهيار ثم الدمار، هذا عدا عما فيها من آداب سامية، وحكم عالية، وتوجيهات رشيدة، إلى أسس الحياة الفاضلة الكريمة، ولهذا كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أهل الكوفة يقول لهم: علموا نساءكم سورة النور.

التسمية: سُميت سورة النور لما فيها من إشاعات النور الرباني، بتشريع الأحكام والآداب، والفضائل الإنسانية التي هي قبس من نور الله على عباده، وفيض من فيوضات رحمته وجوده ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ اللهم نور قلوبنا بنور كتابك المبين يارب العالمين.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يَمُونُ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةٌ أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ يَزْمُونَ زَوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَمْسَةَ أَنْ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِنْ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَبَرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِنْتِمَاءِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بَهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعْطِيكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ

اللغة: ﴿سُورَةُ﴾ السورة في اللغة: المنزلة السامية والمكانة الرفيعة قال النابغة:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سُورَةً تَرَى كُلَّ مَلِكٍ دُونَهَا يَتَذَبَذَّبُ

وسميت المجموعة من الآيات لها بدءٌ ونهاية سورة لشرفها وارتفاعها كما يسمى السور للمرتفع من الجدار ﴿الزَّانِ﴾ الزنى: الوطء المحرم ويسمى الفاحشة لتناهي قبحه وهو مقصور وقد يمد على لغة أهل نجد فيقال الزناء قال الفرزدق:

أَبَا حَاضِرٍ ^(١) مَنْ يَزْنِي يُعْرِفُ زِنَاؤُهُ وَمَنْ يَشْرِبُ الْخُرْطُومَ يُصْبِحُ مُسْكِرًا
﴿رَافَةً﴾ شفقة وعطف مأخوذ من رؤف إذ ارق ورحم ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ العفيفات وأصل الإحصان المنع سميت العفيفة محصنة لأنها منعت نفسها عن القبيح، ومنه الحصن لأنه يمنع من الأعداء ﴿يَذَرُؤُا﴾ يدفع والدرء: الدفع ﴿فَتَشِيعَ﴾ شاع الأمر شيوعاً إذا فشا وظهر وانتشر ﴿عُصْبَةً﴾ العصابة: الجماعة الذين يتعصب بعضهم لبعض.

سَبَبُ النَّزُول: أ - روي أن امرأةً تدعى «أم مهزول» كانت من البغايا فكانت تُسافح الرجل وتشترط أن تنفق عليه، فأراد رجل من المسلمين أن يتزوجها فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ ^(٢) الآية.

ب - عن ابن عباس أن «هلال بن أمية» قذف امرأته عند النبي ﷺ «شريك بن سحماء» فقال النبي ﷺ: «البينة أو حدٌ في ظهرك» فقال: يا رسول الله، إذا رأى أحدنا مع امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة؟ والذي بعثك بالحق إني لصادق، ولينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد فنزلت ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ...﴾ ^(٣) الآية.

التفسير: ﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا﴾ أي هذه سورة عظيمة الشأن من جوامع سور القرآن أوحينا بها إليك يا محمد ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ أي أوجبنا ما فيها من الأحكام إيجاباً قطعياً ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي أنزلنا فيها آياتٍ تشريعية واضحة الدلالة على أحكامها، لتكون لكم - أيها المؤمنون - قسماً ونبراساً، وتكريراً لفظ الإنزال لإبراز كمال العناية بشأنها فكانه يقول: ما أنزلتها عليكم لمجرد التلاوة وإنما أنزلتها للعمل والتطبيق ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي لكي تعتبروا وتتعلظوا بهذه الأحكام وتعملوا بموجبها، ثم شرع تعالى بذكر الأحكام وبدأ بحد الزنى فقال ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ أي فيما شرعت لكم وفرضت

(١) (ش:) في الأصل: أبا طاهر، والتصويب من تفسيري «القرطبي» و«البحر المحيط» وكتب اللغة. الخرطوم: الخمر السريعة الإسكار. وقيل: هو أول ما ينزل من الخمر قبل أن يُداسَ عِصْبُهَا. والمُسْكِرُ: المَخْمُورُ.

(٢) رواه أحمد والنسائي. (ش:) أخرجه النسائي في «التفسير»، وأحمد في «مسنده» وابن جرير الطبري في «تفسيره» والحاكم في «المستدرک» وصححه ووافقه الذهبي والألباني.

وعن مرثد بن أبي مرثد الغنوي - وكان يحول الأسارى بمكة وكان بمكة بغي يُقال لها: عناقٌ وكانت صديقتها - قال: جئتُ إلى النبي ﷺ فقُلْتُ: «يا رسول الله أنكِح عناقاً». فسكت عني فنزلت ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ فدعاني فقرأها عليّ وقال: «لا تنكِحها». (رواه أبو داود والترمذي والنسائي، وصححه الألباني).

(٣) رواه البخاري. وانظر تمة القصة في كتابنا «روائع البيان» ٨٠/٢.

عليكم أن تجلدوا كل واحد من الزانيين - غير المحصنين - مائة ضربة بالسوط عقوبة لهما على هذه الجريمة الشنيعة ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ أي لا تأخذكم بهما رقة ورحمة في حكم الله تعالى فتحففوا بالضرب أو تنقصوا العدد بل أوجعوهما ضرباً قال مجاهد: لا تعطلوا حدود الله ولا تركوا إقامتها شفقة ورحمة^(١) ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ هذا من باب الإلهاب والتهيج أي إن كنتم مؤمنين حقاً تصدقون بالله وباليوم الآخر، فلا تعطلوا الحدود ولا تأخذكم شفقة بالزناة، فإن جريمة الزنى أكبر من أن تستدر العطف أو تدفع إلى الرحمة ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وليحضر عقوبة الزانيين جماعة من المؤمنين، ليكون أبلغ في زجرهما، وأنجع في ردهما، فإن الفضيحة قد تنكل أكثر مما ينكل التعذيب ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ أي الزاني لا يليق به أن يتزوج العفيفة الشريفة، إنما ينكح مثله أو أخس منه كالبغي الفاجر، أو المشرقة الوثنية ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ أي والزانية لا يليق أن يتزوج بها المؤمن العفيف، إنما يتزوجها من هو مثلها أو أخس منها، كالزاني الخبيث أو المشرک الكافر، فإن النفوس الطاهرة تأبى الزواج بالفواجر الفاسقات، قال الإمام الفخر: «من أحسن ما قيل في تفسير هذه الآية: أن الفاسق الخبيث - الذي من شأنه الزنى والفسق - لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء، وإنما يرغب في فاسقة خبيثة مثله أو في مشركة، والفاسقة الخبيثة لا يرغب في نكاحها الصالحاء من الرجال وينفرون عنها، وإنما يرغب فيها من هو من جنسها من الفسقة والمشرکين، وهذا على الأعم الأغلب كما يقال: لا يفعل الخير إلا الرجل التقى، وقد يفعل بعض الخير من ليس بتقياً فكذا هنا»^(٢) ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وحرم الزنى على المؤمنين لشناعته وقبحه، أو حرم نكاح الزواني على المؤمنين لما فيه من الأضرار الجسيمة^(٣). ثم شرع تعالى في بيان حد القذف فقال ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ أي يقذفون بالزنى العفيفات الشريفات ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ أي ثم لم يأتوا على دعواهم بأربعة شهود عدول يشهدون عليهم بما نسبوا إليهم من الفاحشة ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ أي اضربوا كل واحد من الرامين ثمانين ضربة بالسوط ونحوه، لأنهم كذبة يتهمون البريئات، ويخوضون في أعراض الناس ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ أي وزيدوا لهم في العقوبة بإهدار كرامتهم الإنسانية فلا تقبلوا شهادة أي واحد منهم ما دام مصراً على كذبه وبهتانه ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي هم الخارجون عن طاعة الله عز وجل لا تيانهم بالذنب الكبير، والجرم الشنيع قال ابن كثير:

(١) «التفسير الكبير» ١٤٨/٢٣.

(٢) «التفسير الكبير» للرازي ١٥٠/٢٣.

(٣) قولان للمفسرين اختار الأول «صاحب التسهيل» واختار الثاني «أبو السعود» والقرطبي.

أوجب تعالى على القاذف إذا لم يُقم البينة على صحة ما قال ثلاثة أحكام: أحدها: أن يجلد ثمانين جلدة الثاني: أن ترد شهادته أبداً الثالث: أن يكون فاسقاً ليس يعدل لا عند الله ولا عند الناس^(١) ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي إلا الذين تابوا وأنابوا وندموا على ما فعلوا من بعد ما اقترفوا ذلك الذنب العظيم ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أي أصلحوا أعمالهم فلم يعودوا إلى قذف المحصنات قال ابن عباس: أي أظهروا التوبة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي فاعفوا عنهم واصفحوا وردوا إليهم اعتبارهم بقبول شهادتهم، فإن الله غفور رحيم يقبل توبة عبده إذا تاب وأناب وأصلح سيرته وحاله.

ثم ذكر تعالى حكم من قذف زوجته وهو المعروف باللعان فقال ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ أي يقذفون زوجاتهم بالزنى ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ أي وليس لهم شهود يشهدون بما رموهن به من الزنى سوى شهادة أنفسهم ﴿فَشَهَادَةُ أَحْيَاهُمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ﴾ أي فشهادة أحدهم التي تزيل عنه حد القذف أربع شهادات بالله تقوم مقام الشهداء الأربعة ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي إنه صادق فيما رمى به زوجته من الزنى ﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي وعليه أيضاً أن يحلف في المرة الخامسة بأن لعنة الله عليه ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي إن كان كاذباً في قذفه لها بالزنى ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ أي ويدفع عن الزوجة المقدوفة حد الزنى الذي ثبت بشهادة الزوج ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي أن تحلف أربع مرات إنه لمن الكاذبين فيما رماها به من الزنى ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ إن كان من الصادقين أي وتحلف في المرة الخامسة بأن غضب الله وسخطه عليها إن كان زوجها صادقاً في اتهامه لها بالزنى ﴿وَلَوْ لَا فَضَّلُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أي ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم بالستر في ذلك، وجواب ﴿وَلَوْ لَا﴾ محذوف لتحويل الأمر تقديره: لهلكتم أو لفضحكم أو عاجلكم بالعقوبة، ورب مسكوت عنه أبلغ من المنطوق ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ أي وأنه تعالى مبالغ في قبول التوبة، حكيم في ما شرع من الأحكام ومن جملتها حكم اللعان. قال «أبو السعود»: وجواب «لولا» محذوف لتحويله كأنه قيل: ولولا تفضله تعالى عليكم ورحمته بكم لكان ما كان ممّا لا يحيط به نطاق البيان ومن جملة أنه تعالى لو لم يشرع لهم ذلك لوجب على الزوج حد القذف مع أن الظاهر صدقه لا اشتراكه في الفضيحة، ولو جعل شهاداته موجبةً لحد الزنى عليها لفات النظر لها، ولو جعل شهاداتها موجبةً لحد القذف عليه لفات النظر له، فسبحانه ما أعظم شأنه، وأوسع

رحمته، وأدق حكمته^(١). ثم بيّن تعالى «قصة الإفك»^(٢) التي اهتمت فيها العفيفة البريئة الطاهرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالكذب والبهتان فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ﴾ أي جاءوا بأسوأ الكذب وأشنع صور البهتان وهو قذف عائشة بالفاحشة قال الإمام الفخر: الإفك أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء، وقد أجمع المسلمون على أن المراد ما أفك به على عائشة وهي زوجة الرسول المعصوم^(٣) ﴿عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ أي جماعة منكم أيها المؤمنون وعلى رأسهم «ابن سلول» رأس النفاق^(٤) ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ﴾ أي لا تظنوا هذا القذف والاتهام شرًّا لكم يا آل أبي بكر ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لما فيه من الشرف العظيم بنزول الوحي ببراءة أم المؤمنين، وهذا غاية الشرف والفضل قال المفسرون: والخير في ذلك من خمسة أوجه: تبرئة أم المؤمنين، وكرامة الله لها بإنزال الوحي في شأنها، والأجر الجزيل لها في الفرية عليها، وموعظة المؤمنين، والانتقام من المفترين^(٥) ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ أي لكل فرد من العصابة الكاذبة جزاء ما اجترح من الذنب على قدر خوضه فيه ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ﴾ أي والذي تولى معظمه وأشاع هذا البهتان وهو «ابن سلول» رأس النفاق ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي له في الآخرة عذاب شديد في نار جهنم ﴿تَوَلَّى إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أي هلاً حين سمعتم يا معشر المؤمنين هذا الافتراء وقذف الصديقة عائشة ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ أَنْفُسَهُمْ خَيْرًا﴾ أي هلاً ظنوا الخير ولم يسرعوا إلى التهمة فيمن عرفوا فيها النزاهة والطهارة؟ فإن مقتضى الإيمان ألا يصدق مؤمنٌ على أخيه قوله عائب ولا طاعن قال ابن كثير: هذا تأديبٌ من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السوء، وهلا قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم فإن كان لا يليق بهم فأُمُّ المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى، وري أن امرأة «أبي أيوب» قالت له: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة! قال: نعم وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله قال فعائشة والله خير منك^(٦)، ﴿وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أي قالوا في ذلك الحين: هذا كذبٌ ظاهر مبين ﴿تَوَلَّى جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ أي هلاً جاء أولئك المفترون بأربعة شهود يشهدون على ما قالوا ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ﴾ أي فإن عجزوا ولم يأتوا على دعواهم بالشهود ﴿فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ أي فأولئك هم المفسدون

(١) «إرشاد العقل السليم» ٤٨/٤.

(٢) انظر القصة مفصلة في كتابنا «روائع البيان» ١١٧/٢.

(٣) «التفسير الكبير» ١٧٢/٢٣.

(٤) (ش): رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

(٥) «التسهيل في علوم التنزيل» ٦١/٣.

(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» ٥٩١/٢. (ش): رواه الطبري وابن أبي حاتم في تفسيريهما.

الكاذبون في حكم الله وشرعه، وفيه توبيخٌ وتعنيفٌ للذين سمعوا الإِفك ولم ينكروه أول وهلة ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي لولا فضله تعالى عليكم - أيها الخائضون في شأن عائشة - ورحمته بكم في الدنيا والآخرة حيث أمهلكم ولم يعاجلكم بالعقوبة ﴿لَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ أي لأصابكم ونالكم بسبب ما خضتم فيه من حديث الإِفك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي عذاب شديد هائل يُستحققر دونه الجلد والتعنيف قال القرطبي: هذا عتابٌ من الله بليغٌ لمن خاضوا في الإِفك، ولكنه برحمته ستر عليكم في الدنيا، ويرحم في الآخرة من أتاه تائباً^(١) ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي وذلك حين تلتقونه ويأخذ بعضكم من بعض بالسؤال عنه قال مجاهد: أي يرويه بعضكم عن بعض، يقول هذا سمعته من فلان، وقال فلانٌ كذا^(٢) ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ أي تقولون ما ليس له حقيقة في الواقع، وإنما هو محض كذب وبهتان ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا﴾ أي وتظنونه ذنباً صغيراً لا يلحقكم فيه إثم ﴿وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ أي والحال أنه عند الله من أعظم الموبقات والجرائم لأنه وقوع في أعراض المسلمين قال في «التسهيل»: عاتبهم تعالى على ثلاثة أشياء: الأول: تلقيه بالأسنة أي السؤال عنه والثاني: التكلم به والثالث: استصغاره حيث حسبه هيناً وهو عند الله عظيم، وفائدة قوله «بألسنتكم وبأفواهكم» الإشارة إلى أن ذلك الحديث كان باللسان دون القلب لأنهم لم يعلموا حقيقته بقلوبهم^(٣) ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ عتابٌ لجميع المؤمنين أي كان ينبغي عليكم أن تنكروه أول سماعكم له وتقولوا لا ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد ﴿سُبْحَنَكَ هَذَا بَهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ أي سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسول الله الطاهرة البريئة فإن هذا الافتراء كذبٌ واضح، عظيم قال الزمخشري: هو بمعنى العجب من عظيم الأمر والاستبعاد له، والأصل في ذلك أن يُسَبَّحَ الله عند رؤية العجائب^(٤) ﴿يَعْظُمُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ أي يذكركم الله ويعظكم بالمواعظ الشافية لكي لا تعودوا إلى مثل هذا العمل أبداً ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم حقاً مؤمنين فإن الإيمان وازع عن مثل البهتان، وفيه حثٌ لهم على الاتعاظ وتهيبج ﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أي ويوضح لكم الآيات الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب، لتعظوا وتتأدبوا بها ﴿وَاللَّهُ

(١) «تفسير القرطبي» ١٢/ ٢٠٣.

(٢) «المختصر» ٢/ ٥٩١.

(٣) «التسهيل في علوم التنزيل» ٣/ ٦٢.

(٤) «الكشاف» ٣/ ٢٢٥. (ش): دلت عدة أحاديث رواها البخاري ومسلم وغيرهما أن النبي ﷺ كان يقولُ عِنْدَ التَّعَجُّبِ وَالْأَمْرِ السَّارِّ: «سُبْحَانَ اللَّهِ!» أو يقول: «اللَّهُ أَكْبَرُ».

عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾ أي عالم بما يصلح العباد، حكيم في تدبيره وتشريعه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾ أي يريدون أن ينتشر الفعل القبيح المفرط في القبح كإشاعة الرذيلة والزنى وغير ذلك من المنكرات ﴿فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي في المؤمنين الأطهار ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي لهم عذاب موجه مؤلم في الدنيا بإقامة الحد، وفي الآخرة بعذاب جهنم قال الحسن: عنى بهذا الوعيد واللعن المنافقين فإنهم أحبوا وقصدوا إذاية الرسول ﷺ وذلك كفر وملعون صاحبه ^(١) ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي هو تعالى عالم بالخفايا والنوايا وأنتم لا تعلمون ذلك قال الإمام الفخر: وهذه الجملة فيها حسنُ الموقع بهذا الموضع، لأن محبة القلب كامنة ونحن لا نعلمها إلا بالأمارات أما الله سبحانه فهو لا يخفى عليه شيء، فصار هذا الذكر نهاية في الزجر، لأن من أحبَّ إشاعة الفاحشة وإن بالغ في إخفاء تلك المحبة فهو يعلم أن الله تعالى يعلم ذلك منه ويعلم قدر الجزاء عليه ^(٢) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ زَعُوفٌ رَجِيمٌ﴾ جواب ﴿وَلَوْلَا﴾ محذوف لتهويل الأمر أي لولا فضله تعالى على عباده ورحمته بهم لأهلكهم وعذبهم، وكان ما كان مما لا يكاد يتصوره الإنسان لأنه فوق الوصف والبيان.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - التنكير للتفخيم ﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا﴾ أي هذه سورة عظيمة الشأن، جليلة القدر أنزلها الله.
- ٢ - الإطناب بتكرير لفظ ﴿وَأَنْزَلْنَا﴾ في قوله ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ لإبراز كمال العناية بشأنها، وهو من باب ذكر الخاص بعد العام للعناية والاهتمام.
- ٣ - الاستعارة ﴿يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ أصل الرمي القذف بالحجارة أو بشيء صلب ثم استعير للقذف باللسان لأنه يشبه الأذى الحسي فيه استعارة لطيفة.
- ٤ - التهييج والإلهاب ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ كقولهم: إن كنت رجلاً فاقدماً.
- ٥ - صيغة المبالغة ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ و ﴿تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ فإن «فعول، وفعلال، وفعليل» من صيغ المبالغة وكلها تفيد بلوغ النهاية في هذه الصفات.
- ٦ - الطباق بين ﴿الصَّادِقِينَ﴾ و ﴿الْكَاذِبِينَ﴾.
- ٧ - حذف جواب ﴿وَلَوْلَا﴾ للتهويل في ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ وذلك حتى يذهب الوهم في تقديره كل مذهب فيكون أبلغ في البيان وأبعد في التهويل والزجر.
- ٨ - الطباق ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وكذلك ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ

(١) «البحر المحيط» ٦/ ٤٣٩.

(٢) «التفسير الكبير» ٢٣/ ١٨٣.

عَظِيمٌ ﴿ فقد طابق بين الشر والخير، وبين الهين والعظيم.

٩ - الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿أَوَلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ﴾ والأصل أن يقال: ظننتم وإنما عدل عنه مبالغة في التوبيخ وإشعاراً بأن الإيمان يقتضي ظن الخير بالمؤمنين.
١٠ - التحضيض ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ أي هلاً جاءوا وغرضه التوبيخ واللوم.

١١ - التعجب ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ فيه تعجب ممن يقول ذلك والأصل في ذكر هذه الكلمة ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أن يُسبح الله تعالى عند رؤية العجيب من صنائعه، تنزيهاً له من أن يخرج مثله عن قدرته ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه^(١).

فائدة: لماذا بدأ الله في الزنى بالمرأة، وفي السرقة بالرجل؟ والجواب أن الزنى من المرأة أقبح، وجرمه أشنع فبدأ بها، وأما السرقة فالرجل عليها أجراً وهو عليها أقدر ولذلك بدأ به ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾.

تنبيه: في التعبير بالإحصان ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ إشارة دقيقة إلى أن قذف العفيف من الرجال أو النساء موجب لحد القذف، وأما إذا كان الشخص معروفاً بفجوره أو اشتهر بالاستهتار والمجون فلا حد على قاذفه، لأنه لا كرامة للفسق الماجن. فتدبر السر الدقيق. لطيفة: لماذا عدل عن قوله ﴿تَوَابٌ رَجِيمٌ﴾ إلى قوله ﴿تَوَابٌ حَكِيمٌ﴾ مع أن الرحمة تناسب التوبة؟ والجواب أن الله عز وجل أراد الستر على العباد بتشريع اللعان بين الزوجين، فلو لم يكن اللعان مشروعاً لوجب على الزوج حد القذف مع أن الظاهر صدقه، ولو اكتفى بلعانه لوجب على الزوجة حد الزنى، فكان من الحكمة وحسن النظر لهما جميعاً أن شرع هذا الحكم، ودرأ عنهما العذاب بتلك الشهادات، فسبحانه ما أوسع رحمته، وأجل حكمته^(٢)!

قال الله تعالى:

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَلَا يَأْتِلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ

(١) «حاشية شيخ زاده على «البضاوي» ٤١٩/٣.

(٢) انظر الحكمة التشريعية في الحدود الإسلامية بالتفصيل في كتابنا «تفسير آيات الأحكام» ٢٥/٢.

(١) (ش): في قصة الإفك التي رواها البخاري ومسلم في «صحيحهما» أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كانت قد خرجت مع رسول الله ﷺ إلى غزوة بني المصطلق وذلك بعدما شرع الله الحجاب للنساء، وفي طريق العودة، عندما اقترب المسلمون من المدينة نزلت من هودج البعير لبعض شأنها، فلما عادت افتقدت عقدًا لها، فرجعت تبحث عنه فحمل الرجال هودجها فوضعه على البعير وهم يحسبونها فيه - إذ كانت صغيرة خفيفة - ومضى المسلمون إلى المدينة وتركوها في البيداء وقد وجدت عقدًا وفقدت الركب، فمكثت في مكانها تنتظر أن يعرفوا بخبرها ويعودوا إليها، فمر بها صفوان بن المعطل السلمي رضي الله عنه وهو من خيرة الصحابة فحملها على بعيره وانطلق بها إلى المدينة، فوصل إليها بعد دخول الرسول ﷺ، وقد استغل المنافقون هذا الحادث ونسجوا حوله، فأنهت عائشة أم المؤمنين بالإفك.

أتبعها بآيات غَضُّ البصر.

اللغة: ﴿يَأْتِلُ﴾ يحلف والأليّة: اليمين ومنه ﴿يُؤْلُونُ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٢٦] أي: يحلفون ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ العفاف الشريفات الطاهرات جمع محصنة وهي العفيفة ﴿مِرْءُوتٌ﴾ منزهون والبراءة: النزاهة مما نسب للإنسان من تهمة ﴿تَسْتَأْذِنُوا﴾ تستأذنون وأصله في اللغة: طلبُ الأنس بالشيء قال الشاعر:

عوى الذئب فاستأنست للذئب إذ عوى وصوت إنسان فكدت أطيّر
﴿يَغْضُوا﴾ غَضَّ بصره: خفضه ونكسه وأصله إطباق الجفن على الجفن قال جرير:
فغَضَّ الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً
﴿مُخْمَرِينَ﴾ جمع خمار وهو ما تغطي به المرأة رأسها، وخمروا الآنية أي غطوها
﴿جُيُوبِينَ﴾ جمع جيب وهو الصدر^(١) ﴿الْإِزْبَةِ﴾ الحاجة إلى النساء.

سَبَبُ النَّزُول: أ - كان أبو بكر الصديق ينفق على «مسطح بن أثاثه» لمسكنته وقرابته، فلما وقع أمر الإفك وقال فيه مسطح ما قال، حلف أبو بكر ألا ينفق عليه ولا ينفعه بنافعة أبداً فأنزل الله ﴿وَلَا يَأْتِلُ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ الآية فقال أبو بكر: والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال: والله لا أنزعها منه أبداً^(٢).

ب - عن علي كرم الله وجهه^(٣) قال: مرّ رجل على عهد رسول الله ﷺ في طريق من طرقات المدينة، فنظر إلى امرأة ونظرت إليه، فوسوس لهما الشيطان أنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا إعجاباً به، فبينما الرجل يمشي إلى جانب حائط ينظر إليها إذ استقبله الحائط (أي صدمه الحائط) فشق أنفه فقال: والله لا أغسل الدم حتى آتي رسول الله ﷺ فأعلمه أمري، فأتاه فقصّ عليه قصته فقال النبي ﷺ: «هذا عقوبة ذنبك» فأنزل الله ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾^(٤) الآيات.

التفسير: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي يا من صدقتم بالله ورسوله لا تتبعوا الآثار الشيطان ولا تسلكوا مسالكه بإشاعة الفاحشة، والإصغاء إلى الإفك والقول

(١) (ش): جَبَّ القميص ونحوه: ما يُدخل منه الرَّأس عند لُبِّسه.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٢ / ٢٠٧.

(٣) (ش): سئل الشيخ ابن باز - رحمه الله - عن تخصيص علي رضي الله عنه بلفظ عليه السلام فقال: «لا ينبغي تخصيص علي - رضي الله عنه - بهذا اللفظ بل المشروع أن يقال في حقه وحق غيره من الصحابة رضي الله عنه أو رحمه الله لعدم الدليل على تخصيصه بذلك، وهكذا قول بعضهم: «كرم الله وجهه» فإن ذلك لا دليل عليه ولا وجه لتخصيصه بذلك، والأفضل أن يعامل كغيره من الخلفاء الراشدين ولا يخص بشيء دونهم من الألفاظ التي لا دليل عليها». (مجموع الفتاوى ٦ / ٥٠١).

(٤) «الدر المنثور» للسيوطي ٥ / ٤٠. (ش): ذكره السيوطي في «الدر المنثور» بدون إسناد، ونسبه لابن مردويه.

به ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي ومن يتبع سيرة الشيطان وطريقته ﴿فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي فإن الشيطان يضل الإنسان ويغويه لأنه يأمر بالفحشاء وهي ما أفرط قبحه، والمنكر وهو ما ينكره الشرع وتنفر منه العقول السليمة ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أي لولا فضل الله عليكم أيها المؤمنون بالتوفيق للتوبة الماحية للذنوب، وبشرع الحدود المكفرة للخطايا ﴿مَا زَكَّيْنَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ أي ما تطهر أحد منكم من الأوزار أبد الدهر ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي ولكن الله بفضله ورحمته يطهر من يشاء بتوفيقه للتوبة النصوح وقبولها منه قال القرطبي: والغرض أن تزكيتكم لكم، وتطهيره وهدايتة إنما هي بفضله لا بأعمالكم^(١) ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوالكم عليم بنياتكم وضمائركم ﴿وَلَا يَأْتِلُ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ أي لا يحلف أهل الفضل في الدين وأصحاب الغنى واليسار ﴿أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي أن لا يؤتوا أقاربهم من الفقراء والمهاجرين ما كانوا يعطونهم إياه من الإحسان لذنوب فعلوه ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ أي وليعفوا عما كان منهم من جرم، وليصفحوا عما بدر منهم من إساءة، وليعودوا إلى ما كانوا عليه من الإنعام والإحسان ﴿أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي ألا تحبون أيها المؤمنون أن يغفر الله لكم على عفوكم وصفحكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم؟ روي أن أبا بكر لما سمع الآية قال: بلى أحب أن يغفر الله لي وأعاد النفقة إلى مسطح وكفر عن يمينه وقال: والله لا أنزعها منه أبداً^(٢)!! قال المفسرون: والآية دالة على فضل أبي بكر فإن الله تعالى امتدحه بقوله ﴿وَلَا يَأْتِلُ أُولُوا الْفَضْلِ﴾ وكفى به دليلاً على فضل الصديق رضي الله عنه وأرضاه ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي مبالغ في المغفرة والرحمة مع كمال قدرته على العقاب، ثم توعّد تعالى الذين يرمون العفاف الطاهرات فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ﴾ أي يقذفون بالزنى العفيفات، السليمات الصدور، النقيات القلوب عن كل سوء وفاحشة ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي المتصفات بالإيمان مع طهارة القلب ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي طردوا وأبعدوا من رحمة الله في الدنيا والآخرة قال ابن عباس: هذا اللعن فيمن قذف زوجات النبي ﷺ إذ ليس له توبة^(٣)، ومن قذف مؤمنة جعل الله له توبة وقال أبو حمزة: نزلت في مشركي مكة، كانت المرأة إذا خرجت إلى المدينة مهاجرة قذفوها وقالوا: خرجت لتفجر^(٤) ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولهم مع اللعنة عذاب هائل لا يكاد يوصف بسبب ما ارتكبوا من إثم وجريمة

(١) «تفسير القرطبي» ١٢/ ٢٠٧.

(٢) (ش): (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ).

(٣) «حاشية شيخ زاده على «البيضاوي» ٣/ ٤٣٠.

(٤) «البحر المحيط» ٦/ ٤٤٠.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي وذلك العذاب الشديد في ذلك اليوم الرهيب - يوم القيامة - حين تشهد على الإنسان جوارحه فتنطق الألسنة والأيدي والأرجل بما اقترف من سيئ الأعمال ﴿يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ أي يوم القيامة ينالهم حسابهم وجزاؤهم العادل من أحكم الحاكمين ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ أي ويعلمون حينئذ أن الله هو العادل الذي لا يظلم أحداً، الظاهر عدله في تشريعه وحكمه.

ثم ذكر تعالى بالدليل القاطع، والبرهان الساطع براءة عائشة ونزاهتها، فهي زوجة رسول الله الطيب الطاهر وقد جرت سنة الله أن يسوق الجنس إلى جنسه، فلو لم تكن عائشة طيبة لما كانت زوجة لأفضل الخلق ﷺ وهذا قال ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ أي الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، وكذلك الطيبات من النساء للطيبين من الرجال والطيبون من الرجال للطيبات من النساء^(١)، ولهذا كالدليل على براءة عائشة لأنها زوجة أشرف رسول وأكرم مخلوق على الله، وما كان الله ليجعلها زوجة لأحب عباده لو لم تكن عفيفة طاهرة شريفة ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي أولئك الفضلاء منزهون مما نقوله أهل الإفك في حقهم من الكذب والبهتان ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي لهم على نالهم من الأذى مغفرة لذنوبهم، ورزق كريم في جنات النعيم قال ابن كثير: وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله ﷺ في الجنة ﴿يَكْتَأِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ لما حذر تعالى من قذف المحصنات وشدد العقاب فيه، وكان طريق هذا الاتهام مخالطة الرجال للنساء، ودخولهم عليهم في أوقات الخلوات أرشد تعالى إلى الآداب الشرعية في دخول البيوت فأمر بالاستئذان قبل الدخول والتسليم بعده ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ أي لا تدخلوا بيوت الغير حتى تستأذنوا وتسلموا على أهل المنزل ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي ذلك الاستئذان والتسليم خير لكم من الدخول بغتة ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي لتتعظوا وتعملوا بموجب هذه الآداب الرشيدة قال القرطبي: المعنى: إن الاستئذان والتسليم خير لكم من الهجوم بغير إذن ومن الدخول على الناس بغتة أو من تحية الجاهلية فقد كان الرجل منهم إذا دخل بيتاً غير بيته قال: حُيِّتُمْ صباحاً، وحُيِّتُمْ مساءً ودخل فربما أصاب الرجل مع امرأته في لحافٍ، وروي أن رجلاً قال للنبي ﷺ أأستأذن على أُمِّي؟ قال: نعم، قال: ليس لها خادمٌ غيري، أأستأذن عليها كلما دخلت؟

(١) هذا قول ابن زيد وهو الأظهر. وقال مجاهد: الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال وبالعكس، ومراده أن كل كلام إنما يحسن في حق أهله فسيئ الكلام إنما يليق بالأشرار والفجار إلخ. وما ذكرناه أوضح بياناً، وأقرب منلاً.

قال: أتحب أن تراها عريانة؟ قال: لا، قال: فاستأذن عليها^(١) ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾ أي فإن لم تجدوا في البيوت أحداً يأذن لكم بالدخول إليها ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ أي فاصبروا ولا تدخلوها حتى يسمح لكم بالدخول، لأن للبيوت حرمة ولا يحل دخولها إلا بإذن أصحابها ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ازْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ أي وإن لم يؤذن لكم وطلب منكم الرجوع فارجعوا ولا تلحوا ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي الرجوع أطهر وأكرم لنفوسكم وهو خير لكم من اللجاج والانتظار على الأبواب ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ أي هو تعالى عالم بالخفايا والنوايا وبجميع أعمالكم فيجازيكم عليها قال القرطبي: وفيه توعده لأهل التجسس على البيوت، ثم إنه تعالى لما ذكر حكم الدور المسكونة ذكر بعده حكم الدور غير المسكونة فقال ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي ليس عليكم إثمٌ وخرج ﴿أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ أي أن تدخلوا بغير استئذان بيوتاً لا تختص بسكنى أحد كالرباطات والفنادق والخانات قال مجاهد: هي الفنادق التي في طرق السابلة لا يسكنها أحد بل هي موقوفة لياوي إليها كل ابن سبيل^(٢) ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ أي فيها منفعة لكم أو حاجة من الحاجات كالاستئطال من الحر، وإيواء الأمتعة والرحال ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ أي يعلم ما تظهرون وما تُسرون في نفوسكم فيجازيكم عليه قال أبو السعود: وهذا وعيد لمن يدخل مدخلاً فساداً أو اطلاع على عورات^(٣)، ثم أرشد تعالى إلى الآداب الرفيعة من غض البصر، وحفظ الفروج فقال ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّونَ أَبْصَارَهُمْ﴾ أي قل يا محمد لأتباعك المؤمنين: يكفوا أبصارهم عن النظر إلى الأجنبية من غير المحارم، فإن النظرة تزرع في القلب الشهوة، ورُبَّ شهوة أورت حزناً طويلاً

كم نظرة فتكت في قلب صاحبها فتك السهام بلا قوس ولا وتر
﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ أي يصونوا فروجهم عن الزنى وعن الإبداء والكشف ﴿ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي ذلك الغض والحفظ أطهر للقلوب، وأتقى للدين، وأحفظ من الوقوع في

(١) «البيضاوي» ٥٧/٢. (ش): رواه مالك في الموطأ، وإسناده ضعيف. ومعناه صحيح؛ فعن عطاء قال: سألت ابن عباس، فقلت: أستاذن على أختي؟ فقال: «نعم». فأعدت، فقلت: أختان في حجرني، وأنا أموهنهما، وأنفق عليهنما، أستاذن عليهنما؟ قال: «نعم، أتحب أن تراهما عريانتي؟! ثم قرأ: ﴿يَتَأْتِيهَا اللَّيْلُ مَسْوِيَةً لِّلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ...﴾ إلى: ﴿ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ﴾ [النور: ٥٨] قال: فلم يؤمر هؤلاء بالإذن إلا في هذه العورات الثلاث». قال: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ﴾ [النور: ٥٩]، قال ابن عباس: «فالإذن واجب، [على الناس كلهم]». رواه البخاري في (الأدب المفرد)، وقال الألباني: «صحيح الإسناد». (مؤن ابنه): أنفق عليه وزوده بما يحتاجه من مأكول وملبس وغيرهما، احتمل مئوته وقام بكفافته.

(٢) «تفسير القرطبي» ٢٢١/١٢. (ش): (الخان): الفندق والمتجر. السابلة: المارون على الطريق.

(٣) «أبو السعود» ٥٥/٤.

الفجور ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ أي هو تعالى رقيبٌ عليهم، مطلعٌ على أعمالهم، لا تخفى عليه خافية من أحوالهم، فعليهم أن يتقوا الله في السر والعلن قال الإمام الفخر: فإن قيل: فلم قدم غَضَّ الأبصار على حفظ الفروج؟ قلنا: لأن النظر بريد الزنى، ورائد الفجور^(١)، والبلوى فيه أشدُّ وأكثر، ولا يكاد يُحترس منه^(٢) ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ أي وقل أيضاً للمؤمنات: يكففن أبصارهن عن النظر إلى ما لا يحل لهن النظر إليه، ويحفظن فروجهن عن الزنى وعن كشف العورات، قال المفسرون: أكد تعالى الأمر للمؤمنات بغض البصر وحفظ الفروج، وزادهن في التكليف على الرجال بالنهي عن إبداء الزينة إلا للمحارم والأقرباء فقال ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي ولا يكشفن زينتهن للأجانب إلا ما ظهر منها بدون قصد ولا نية سيئة قال ابن كثير: أي لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه، كما قال ابن مسعود: الزينة زينتان: فزينة لا يراها إلا الزوج: الخاتم والسوار، وزينة يراها الأجانب وهي الظاهر من الثياب^(٣)، وقيل: المراد به الوجه والكفان فإنهما ليسا بعورة قال «البيضاوي»: والأظهر أن هذا في الصلاة لا في النظر، فإن كل بدن الحرة عورة لا يحل لغير الزوج والمحرم النظر إلى شيء منها إلا لضرورة كالمعالجة وتحمل الشهادة^(٤) ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ أي وليلقين الخمار وهو غطاء الرأس على صدورهن لئلا يبدو شيء من النحر والصدر، وفي لفظ «الضر» بمبالغة في الصيانة والتستر، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يرحم الله النساء المهاجرات الأول لما أنزل الله ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها^(٥) قال المفسرون: كانت المرأة في الجاهلية - كما هي اليوم في الجاهلية الحديثة^(٦) - تمر بين الرجال مكشوفة الصدر، بادية النحر، حاسرة

(١) (ش): أي أن النظر يوصل إلى الزنى ويقود إلى الفجور. (البريد): أصله الدابة التي تحمل الرسائل، والرَّسُول. رائدُ القوم: مَنْ يقودهم ويتقدمهم.

(٢) «التفسير الكبير» ٣٢ / ٢٠٥.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢ / ٦٠٠.

(٤) «البيضاوي» ٢ / ٥٨.

(٥) أخرجه البخاري. عن عائشة - رضى الله عنها - قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ أَخَذَنَ أَزْرَهْنَ فَشَقَّقْنَهَا مِنْ قِبَلِ الْحَوَاشِي فَاخْتَمَرْنَ بِهَا. [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ]. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِلَفْظٍ: يَرْحَمُ اللَّهُ نِسَاءَ الْمُهَاجِرَاتِ الْأَوَّلِ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ شَقَّقْنَ أَكْتَفَ - قَالَ ابْنُ صَالِحٍ أَكْتَفَ - مُرَوِّطِهِنَّ فَاخْتَمَرْنَ بِهَا. [وصححه الألباني]. (مروط): جمع مرط وهو الكساء من صوف وغيره.

(٦) (ش): هذه الكلمة لا تخلو من مبالغة في وصف واقع المسلمين العصر الحديث، فوجود الدين الإسلامي في هذا العصر، وإن كان قد دخل فيه ما ليس منه، يمنعنا من القول بأن هذا العصر يمثل جاهلية كالجاهلية الأولى. فإن إطلاق الجاهلية على العصر الحديث قد يؤهم الناس بأن الإسلام كله قد انحرف عن التوحيد وعن الإخلاص =

الذراعين، وربما أظهرت مفاتن جسمها وذوائب وشعرها^(١) لتغري الرجال، وكنَّ يسدلن الحُمر من ورائهن فتبقى صدورهن مكشوفة عارية، فأمرت المؤمنات بأن يلقينها من

= في عبادة الله عز وجل انحرافاً كلياً، فصار هذا الزمان كزمان الجاهلية الذي بُعثَ رسول الله ﷺ إلى إخراجهم من الظلمات إلى النور حينئذ. يُطلق لفظ «الجاهلية» ويُراد به فترة ما قبل بعثة النبي ﷺ، لأن الناس كانوا فيها على جهل عظيم، فجهلهم شامل للجهل في حقوق الله، وحقوق عباده. وقد أرسل الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق، فأنازل الله تعالى به الكون، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، فبدد الله به ظلمات الجهل والكفر، وانتهى ببعثته ﷺ عهد الجاهلية، ولكن هل رُفعت الجاهلية عن الأمكنة كلها، وفي جميع الأزمنة؟! بالطبع لا، ولذا فإنه لا يجوز وصف جميع المجتمعات بالجاهلية بعد بعثته ﷺ، ولا نزْعها عن جميع المجتمعات أيضاً، فما تزال بعض المجتمعات تعيش في مستنقعات الجاهلية، فلا يُرفع عنها هذا الوصف، وأما من استنار بنور الإسلام من المجتمعات فلا يجوز وصفها بهذا اللفظ، ولو حصل تقصير في بعض جوانب الإسلام منها فهذا لا يبيح وصفها بالجاهلية، وعلى هذا التفصيل اتفقت كلمة العلماء المحققين. فالناس قبل مبعث الرسول ﷺ كانوا في حال جاهلية منسوبة إلى الجهل، فإن ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال إنما أحدثه لهم جاهل، وإنما يفعله جاهل. وكذلك كل ما يخالف ما جاءت به المرسلون من يهودية، ونصرانية: فهي جاهلية، وتلك كانت الجاهلية العامة، فأما بعد مبعث الرسول ﷺ فقد تكون في بلد دون بلد - كما هي في دار الكفار -، وقد تكون في شخص دون شخص، كالرجل قبل أن يسلم فإنه في جاهلية وإن كان في دار الإسلام. فأما في زمان مطلق: فلا جاهلية بعد مبعث محمد ﷺ؛ فإنه لا تزال من أمته طائفة ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة. والجاهلية المقيدة قد تقوم في بعض ديار المسلمين، وفي كثير من الأشخاص المسلمين كما قال ﷺ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهَا: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطُّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنَّبَاحَةُ». [رَوَاهُ مُسْلِمٌ]. وعن أبي ذر (رضي الله عنه) قال: كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنْ إِخْوَانِي كَلَامٌ وَكَانَتْ أُمُّهُ أَعْجَمِيَّةً فَعَبَّرْتُه بِأُمِّهِ فَشَكَانِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَلَقِيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ». [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ]. إن الجاهلية الأولى، إن كان المعني بها العرب فقط فهم كانوا وثنيين وكانوا في ضلال مبين، وإن كان المعني بها ما كان حول العرب من أديان كاليهودية والنصرانية فهي أديانٌ مُحرَّفة، فلم يبق في ذلك الزمان دين خالص منزّه عن التغيير والتبديل، فلا شك في أن وَصَفَ الجاهلية على ذلك العهد وَصْفٌ صحيح. وليس الأمر كذلك في هذا العصر ما دام أن الله تبارك وتعالى قد منَّ على العرب أولاً، ثم على سائر الناس ثانياً، بأن أرسل إليهم محمداً ﷺ - خاتم النبيين، وأنزل عليه دين الإسلام، وهو خاتم الأديان، وتعهد الله عز وجل بحفظ شريعته هذه بقوله عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ونبيه ﷺ قد أخبر أن الأمة الإسلامية وإن كان سيصيبها شيء من الانحراف الذي أصاب الأمم من قبلهم ويقلدون اليهود والنصارى في ذلك الانحراف، فإنه ﷺ في الوقت نفسه قد بشر أتباعه بأن منهم مَنْ سَيَقُونَ عَلَى خَطِهِ الَّذِي رَسَمَهُ لَهُمْ، وأكد ذلك ﷺ في قوله: لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ» [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ]. فلا تزال في هذه الأمة جماعة مباركة طيبة قائمة على هُدي الكتاب والسنة، فهي أبعد ما تكون عن الجاهلية القديمة أو الحديثة. [انظر: اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم] «لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٧٨، ٧٩)، معجم المناهي اللفظية وفوائد في الألفاظ، للشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد (ص ٢٠٩-٢١٢). عن كتاب «حياة الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه» لمحمد إبراهيم الشيباني ١/ ٣٩١ - ٣٩٤.

(١) (ش): النَّحْرُ: أعلى الصدر، وموضع القلادة منه. بادية النحر: أي إنَّ نَحْرَهَا مكشوفٌ. حاسرة الذراعين: مكشوفة الذراعين (الذؤابة): شعر مُقَدَّم الرَّأْسِ.

قدامهن حتى يغطيها ويدفعن عنهن شر الأشرار ﴿وَلَا يُدَيِّنُكِ زِينَتُهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أي ولا يظهرن زينتهن الخفية التي حرم الله كشفها إلا لأزواجهن ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ﴾ أي أو لأبائهن أو آباء أزواجهن وهو العم أبو الزوج فإنهما من المحارم، فإن الأب يصون عرض ابنته، ووالد الزوج يحفظ على ابنه ما يسوءه، ثم عدد بقية المحارم فقال ﴿أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانَهُنَّ أَوْ إِخْوَانَهُنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ﴾ فذكر تعالى الأبناء، وأبناء الأزواج، والإخوة، وأبناء الإخوة، وأبناء الأخوات، وكلهم من المحارم الذين يحرم الزواج بهم لما جبل الله في الطباع من النفرة من مماسة القربيات ونكاحهن ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ أي المسلمات وخرج بذلك النساء الكافرات قال مجاهد: المراد نساؤه من المسلمات، ليس المشركات من نسائهن، وليس يحل للمرأة المسلمة أن تنكشف بين يدي مشركة وقال ابن عباس: هن المسلمات ولا تبدي زينتها أمام يهودية أو نصرانية (١) ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ أي من الإماء المشركات قال ابن جرير: يعني من نساء المشركين فيجوز لها أن تظهر زينتها لها وإن كانت مشركة لأنها أمتها ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ﴾ أي الخدام غير أولي الميل والشهوة والحاجة إلى النساء كالبله والحمقى والمغفلين الذين لا يدركون من أمور الجنس شيئاً قال مجاهد: هو الأبله الذي يريد الطعام ولا يريد النساء ولا يهمله إلا بطنه ﴿أَوِ الطِّفْلِ الذِّي لَمْ يَضْهَرْ عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ﴾ أي الأطفال الصغار الذين لم يبلغوا حد الشهوة، ولا يعرفون أمور الجماع لصغرهم فلا حرج أن تظهر المرأة زينتها أمامهم ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ أي ولا يضربن بأرجلهن الأرض لئلا يسمع الرجال صوت الخلخال (٢) فيطمع الذي في قلبه مرض قال ابن عباس: كانت المرأة تمر بالناس وتضرب برجلها ليسمع صوت خلخالها، فنهى الله تعالى عن ذلك لأنه من عمل الشيطان ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي ارجعوا أيها المؤمنون إلى ربكم بامثال الطاعات، والكف عن الشهوات، لتتألوا رضاه وتفوزوا بسعادة الدارين ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ﴾ أي زوجوا أيها المؤمنون من لا زوج له من الرجال والنساء من أحرار رجالكم ونسائكم قال الطبري: الأيامي جمع أيم، يوصف به الذكر والأنثى يقال: رجل أيم وامرأة أيمة إذا لم يكن لها زوج (٣) ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَلِمَا بَيْنَكُمْ﴾ أي وأنكحوا كذلك أهل التقى والصلاح من عبيدكم وجواريكم قال

(١) «مختصر ابن كثير» ٢/ ٦٠١، وهذا قول أكثر السلف أن المراد بالنساء المؤمنات. قال «الفخر الرازي»: وقيل: المراد بالنساء جميع النساء فإنهن سواء في حل نظر بعضهن إلى بعض، وقول السلف محمول على الاستحباب.

(٢) (ش): خلخال: جليلة من فضة كالسوار تحللي المرأة بها رجليها، تلبس حول الكعب.

(٣) «تفسير الطبري» ١٨/ ٩٨.

«البضاوي»: وتخصيص الصالحين لأن إحصان دينهم والاهتمام بشأنهم أهم^(١)، وفيه إشارة إلى مكانة التقى والصلاح في الإنسان ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي إن يكن هؤلاء الذين تزوجونهم أهل فاقة وفقر فلا يمنعكم فقرهم من إنكاحهم، ففي فضل الله ما يغنيهم ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي واسع الفضل، جواد كريم، يعطي الرزق من يشاء وهو عليم بمصالح العباد قال القرطبي: وهذا وعدٌ بالغنى للمتزوجين طلباً لرضى الله، واعتصاماً من معاصيه وقال ابن مسعود: التمسوا الغنى في النكاح وتلا هذه الآية^(٢) وفي الحديث «ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمُ النَّكِحُ الَّذِي يُرِيدُ الْعَفَافَ، وَالْمُكَاتِبُ يُرِيدُ الْأَدَاءَ، وَالْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٣) ﴿وَلَيْسَتِغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي وليجتهد في العفة وقمع الشهوة الذين لا تيسر لهم سبل الزواج لأسباب مادية ﴿حَتَّى يُعْهِمَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي حتى يوسع الله عليهم ويسهل لهم أمر الزواج، فإن العبد إذا اتقى الله جعل له من أمره فرجاً ومخرجاً ﴿وَالَّذِينَ يَبْنِعُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي والذين يريدون أن يتحرروا من رقِّ العبودية بمكاتبة أسيادهم من العبيد والأرقاء ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي فكاتبوهم على قدر من المال إن عرفتم منهم الأمانة والرشد ليصيروا أحراراً ﴿وَأَنُوتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ أي أعطوهم مما أعطاكم الله من الرزق ليكون لهم عوناً على فكاك أنفسهم ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِنَتَكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ﴾ أي لا تجبروا إماءكم على الزنى ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ أي إن أردن التعفف عن مقارفة الفاحشة، وليس هذا للقيود أو الشرط وإنما هو لبيان فظاعة الأمر وشناعته، فالأصل في المملوكة أن يُحصنها سيدها أمّا أن يأمرها بالزنى وتمتنع وتريد العفة فذلك منتهى الخسة والدناءة منه قال المفسرون: نزلت في «عبد الله بن سلول» المنافق كان له جارتان إحداها تسمى «مُسَيِّكَةَ» والثانية تسمى «أميمة» فكان يأمرهما بالزنى للكسب ويضر بهما على ذلك فشكتا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنزلت الآية^(٤) ﴿لَبَنِعُوا عَرْضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي لأجل أن تنالوا حطام هذه الحياة الزائل، وتحصلوا على المال بطريق الفاحشة والرذيلة ﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي ومن يجبرهن على الزنى فإن الله غفور لهن رحيم بهن لا يؤاخذهن بالزنى لأنهن

(١) «البضاوي» ٥٨/٢.

(٢) «تفسير القرطبي» ٢٤١/١٢.

(٣) أخرجه أحمد والترمذي. (ش): ورواه ابن ماجه، وحسنه الألباني. الكتابة والمكاتبة: هي إعتاق العبد نفسه من سيده بمال يكون في ذمته يؤدّى مؤجلاً. فالمكاتبة -بفتح التاء-: هو العبد الذي علّق عقده بمال يدفعه لسيده، وبكسرهما: من تقع منه. وسميت كتابة، لأن السيد يكتب بينه وبين عبده كتاباً بما اتفقا عليه.

(٤) (ش): (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

أكرهن عليه وسينتقم ممن أكرهن شر انتقام ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ أي والله لقد أنزلنا إليكم أيها المؤمنون آيات واضحة وأحكاماً مفصلات ﴿وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾ وضربنا لكم الأمثال بمن سبقكم من الأمم لتتعظوا وتعتبروا ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي وعظة وذكرى للمتقين.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الاستعارة اللطيفة ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ شبه سلوك طريق الشيطان والسير في ركابه بمن يتتبع خطوات الآخر خطوة خطوة بطريق الاستعارة.
- ٢ - الإيجاز بالحذف ﴿أَن يُؤْتُوا﴾^(١) أي أن لا يؤتوا حذف منه «لا» لدلالة المعنى وهو كثير في اللغة.

٣ - صيغة الجمع للتعظيم ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ والمراد به أبو بكر الصديق.

٤ - الجناس الناقص بين ﴿يَعْلَمُونَ﴾ و﴿يَعْلَمُونَ﴾.

٥ - المقابلة اللطيفة بين ﴿الْحَيْثُ ثُتِّ لِلْحَيْثَيْنِ.. وَالطَّيِّبَتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾.

٦ - الطباق بين ﴿بُدُّوهُمْ.. تَكْتُمُوهُمْ﴾.

٧ - الإيجاز بالحذف ﴿يَغْضُؤُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ لأن المراد غض البصر عما حرم الله لا عن كل شيء فحذف ذلك اكتفاءً بفهم المخاطبين.

٨ - المجاز المرسل ﴿وَلَا يُبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ﴾ المراد مواقع الزينة وهو من باب إطلاق اسم الحال على المحل قال الزمخشري: وذكر الزينة دون مواقعها للمبالغة في الأمر بالتستر والتصون.

فائدة: قال بعض المحققين: إن يوسف لما رُمي بالفاحشة برأه الله على لسان صبي في المهد، وإن مريم لما رُميت بالفاحشة برأها الله على لسان ابنها عيسى عليه السلام، وإن عائشة لما رُميت بالفاحشة برأها الله في كتابه العزيز، فما رضي الله لها براءة صبي ولا نبي حتى برأها الله في القرآن من القذف والبهتان^(٢).

(١) (ش): في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا يُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

(٢) «تفسير القرطبي» ١٢ / ٢١٢. (ش): فائدة: سبح الله سبحانه وتعالى نفسه في تنزيه عائشة عليها السلام كما سبح نفسه لنفسه في تنزيه سببانه وتعالى: قال أبو الخطاب ابن دحية: «إن الله تعالى إذا ذكر في القرآن ما نسب إليه المشركون سبح لنفسه قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، والله تعالى ذكر عائشة عليها السلام فقال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا مَبْتَغَى عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]، فسبح نفسه في تنزيه عائشة كما سبح نفسه لنفسه في تنزيهه». [الإجابة فيما استدرسته عائشة عليها السلام على الصحابة للزركشي (ص ٥٣)]. فائدة: من قذف عائشة رضي الله عنه فهو بمنزلة اليهود الذين قذفوا مريم عليها السلام=

تنبيه: السرُّ في تقديم غَضِّ البصر على حفظ الفروج ﴿يَعْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ هو أن النظر بريد الزنى ورائد الفجور، وهو مقدمة للوقوع في الخطر كما الشاعر:

وكنْتَ إذا أرسلتَ طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
رأيتَ الذي لا كلُّه أنت قادرٌ عليه ولا عن بعضه أنت صابر

لطيفة: ذكر أن قسيساً أراد أن ينال من المسلمين بالطعن في أم المؤمنين السيدة عائشة (رضي الله عنها)، فقال: إن الناس رموها بالإفك ولا ندري أهى بريئة أم متهمة؟ فأجابه بعض الحاضرين بقوله: إسمع يا هذا، هناك امرأتان اتهمتا بالزنى وقد برأهما القرآن الكريم، إحداهما ليس لها زوج وقد جاءت بولد، والأخرى لها زوج ولم يأتها ولد - يقصد مريم وعائشة - فأيتهما أخرى بالتهمة؟ فخرس القسيس.

قال الله تعالى:

اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَوْفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتٍ أُذُنَ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا لِهَيْبِهِمْ تَحَدُّوهُ وَلَا يُعِيبُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهمُ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَاقًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ بَكَدُّهُ لَمْ يَكِدْ بِرُهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَفَاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزَيِّجُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدَفَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ

= قَالَ تَعَالَى: ﴿يَمَّا تَفَضُّهمُ يَنْتَقِمُهُمْ وَكَفَرِهِمْ﴾ بِأَيْتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغْيًا حَتَّى قَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكَفَرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَكَفَرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ [النساء: ١٥٥-١٥٦]. فإنه لما وَصَفَ طَعْنَ الْيَهُودِ فِي مَرْيَمَ بِأَنَّهُ بُهْتَانٌ عَظِيمٌ، وَوَصَفَ طَعْنَ الْمُنَافِقِينَ فِي عَائِشَةَ بِأَنَّهُ بُهْتَانٌ عَظِيمٌ، حَيْثُ قَالَ: ﴿سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]؛ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الرَّوَافِصَ الَّذِينَ يَطْعَنُونَ فِي عَائِشَةَ، بِمَنْزِلَةِ الْيَهُودِ الَّذِينَ يَطْعَنُونَ فِي مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ [اللباب في علوم الكتاب لسراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي (١١١/٧)].

بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾ يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَرِ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْكُمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ

المناسبة: لما وصف تعالى نفسه بأنه أنزل آياتٍ مبينات، وأقام دلائل واضحات على وحدانيته، واختصاصه بتشريع الأحكام التي بها سعادة المجتمع، عقبه بذكر مثلين: أحدهما في بيان أن دلائل والوحدانية والإيمان في غاية الظهور، والثاني: في بيان أن أديان الكفرة في نهاية الظلمة والخفاء، وبالمقارنة بين المثلين يتضح الصبح لذي عينين.

اللغة: ﴿كَمَشْكُوفٍ﴾ المشكاة: الكوة في الحائط غير النافذة^(١)، وأصلها الوعاء يجعل فيه الشيء ﴿دُرِّيٌّ﴾ متلألئ وقاد يشبه الدر في صفائه ولمعانه «سَرَابٌ» السراب: ما يترأى للعين وسط النهار عند اشتداد الحر يشبه الماء الجاري وليس بماء، سمي سراباً لأنه يسرب أي يجري كالماء قال الشاعر:

فلما كففنا الحربَ كانت عهدُكم كلمع سرابٍ بالفلا مُتَأَلِّقُ^(٢)

«قِيَعَةٌ» قال الفراء: هو جمع قاع مثل جار وجيرة، والقاع المنبسط المستوي من الأرض وقال الزمخشري: القِيَعَةُ بمعنى القاع وليس جمعاً^(٣)، وهكذا قال أبو عبيدة ﴿لُجِّيٌّ﴾ اللُّجِّيُّ: الذي لا يدرك قعره لعمقه، واللُّجَّةُ معظم الماء، والجمع لُجَجٌ، والتَّجُّ البحر: تلاطمت أمواجه ﴿يُرْجَى﴾ الإزجاء: سوق الشيء برفق وسهولة ﴿رُكَّامًا﴾ مجتمعاً يركب بعضه بعضاً ﴿الْوَدُوقُ﴾: المطر قال الليث: الودُوقُ المطر كله شديد وهينه^(٤) ﴿سَنَا﴾: السنا الضوء واللمعان قال الشماخ:

(١) (ش): كوة: فتحة أو نافذة. المشكاة: تجويف أو فتحة في الحائط غير نافذة يُوضع عليها مصباح.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٢ / ٢٨٢.

(٣) «الفخر الرازي» ٧ / ٢٤.

(٤) «زاد المسير» ٥ / ٥٢.

وما كادت إذا رفعت سناها ليصر ضوءها إلا البصير^(١)
﴿مُذْعِنِينَ﴾ خاضعين منقادين، أذعن للأمر خضع له ﴿يَحِيفُ﴾ يجور ويظلم.
التفسير: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي الله جل وعلا مُنَوِّرُ السماوات والأرض^(٢)،
أنار السماوات بالكواكب المضيئة، والأرض بالشرائع والأحكام وبعثة الرسل الكرام قال
الطبري: أي هادي أهل السماوات والأرض فهم بنوره إلى الحق يهتدون، وبهده من حيرة
الضلالة يعتصمون^(٣) وقال القرطبي: النور عند العرب: الضوء المدرك بالبصر واستعمل

(١) «تفسير القرطبي» ١٢ / ٢٩٠.

(٢) (ش): قال المؤلف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءُ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩]: أي وأضاءت أرض المحشر بنور الله يوم القيامة، حين تجلى الباري جل وعلا لفصل القضاء بين العباد اهـ. إن من الاعتقاد الصحيح الموافق لعقيدة أهل السنة والجماعة الاعتقاد بأن الله تعالى نور، وأن النور اسم من أسمائه الحسنى وصفته من صفاته تعالى العليا، وهي صفة ذات لازمة له تعالى على ما يليق به، فلم يزل ولا يزال سبحانه وتعالى مُتَّصِفًا بها. وقد جاء عن بعض السلف تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بأنه هادي أهل السماوات والأرض وفسر أيضاً بأنه مُنَوِّرُ السماوات والأرض، وهذا لا يتنافى أبداً مع كونه تعالى نوراً. فإن من عادة السلف في تفسيرهم أن يذكروا بعض صفات المفسر من الأسماء أو بعض أنواعه، ولا ينافي ذلك ثبوت بقية الصفات للمسمى، بل قد يكونان متلازمين ولا دخول لبقية الأنواع فيه. فمن قال مُنَوِّرُ السماوات والأرض لا يُنافي أنه نورٌ فهما متلازمان. فالله نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الحسني والمعنوي، وذلك أنه تعالى بذاته نورٌ، وحجابه نور، وبه استنار العرش، والكرسي، والشمس، والقمر، والنور، وبه استنارت الجنة. وكذلك النور المعنوي يرجع إلى الله، فكتابه نور، وشرعه نور، والإيمان والمعرفة في قلوب رسله وعباده المؤمنين نور. فلولوا نوره تعالى، لتراكت الظلمات. وقول من قال الله نور السماوات والأرض، أي: هادي أهل السماوات والأرض كلام صحيح، فإن من معاني كونه نور السماوات والأرض أن يكون هادياً لهم، وقد أخبر الله في كتابه أن الأرض تشرق بنور ربها، قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ فِي سَاءٍ مِّنْ يَّظُنُّونَ﴾ (١٨) ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءُ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ﴾ (١٩) ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر: ٦٨ - ٧٠] فإذا كانت تشرق من نوره فكيف لا يكون هو نوراً. فالله تعالى نورٌ بذاته، وهذا النور الذي هو اسمه وصفته تعالى لا يشبه نور المخلوقين وإنما هو نورٌ يليق بعظمته وكبريائه وجلاله تعالى ولا يعلم كيفيته إلا هو سبحانه وهو القائل جل وعلا: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ [طه: ١١٠]. قال ص: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ» [زوائد البخاري ومسلم]. وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ» [زوائد مسلم]. قال النبي عليه الصلاة والسلام (حجابه) يعني حجاب الله (النور)، (لو كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ)، يعني لو كشف هذا الحجاب والحجب أيضاً من نور، لكنها نور دون نور الله عز وجل. لو كشف الله هذا النور (لَأَحْرَقَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ). أي نُورُهُ وَجَلَّالُهُ وَبَهَّاءُهُ وعظمته، (مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ)، وبصره ينتهي إلى كل شيء. والمعنى لو كشفه لأحرق هذا النور كل شيء.

(٣) «تفسير الطبري» ١٨ / ١٠٥، وهذا قول ابن عباس ومجاهد واختاره الطبري.

مجازاً في المعاني فيقال: كلامٌ له نور قال الشاعر:

نَسَبُ كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَا نُورًا وَمِنْ فَلَقِ الصَّبَاحِ عَمُودًا

وقال جرير «وَأَنْتَ لَنَا نُورٌ وَعَيْثُ وَعِصْمَةٌ»^(١) والناس يقولون: فلان نور البلد، وشمسُ العصر وقمره، فيجوز أن يقال: الله نور على جهة المدح لأن جميع الأشياء منه ابتداءً، وعنه صدورها، وبقدرته استقامت أمورها^(٢)، وقال ابن عطاء الله: «الكون كله ظلمة أناره ظهور الحق فيه، إذ لولا وجود الله ما وجد شيء من العالم»^(٣) وفي الحديث «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ»^(٤) وقال ابن مسعود: «ليس عند ربكم ليلٌ ولا نهار، نور السماوات والأرض نور وجهه» وقال ابن القيم: سمَّى الله سبحانه نفسه نوراً، وجعل كتابه نوراً، ورسوله نوراً، واحتجب عن خلقه بالنور، وقد فسرت الآية بأنه منور السماوات والأرض، وهادي أهل السماوات والأرض، وما قاله ابن مسعود أقرب إلى تفسير الآية من قول من فسرّها بأنه هادي أهل السماوات والأرض، وأما من فسرّها بأنه منور السماوات والأرض فلا تنافي بينه وبين قول ابن مسعود ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ أي مثل نور الله سبحانه في قلب عبده المؤمن ﴿كَمَشْكُوفٍ فِيهَا مَصْبَاحٌ﴾ أي ككوة في الحائط لا منفذ لها ليكون أجمع للضوء وضع فيها سراج ثاقب ساطع قال في «التسهيل»: المعنى صفة نور الله في وضوحه كصفة مشكاة فيها مصباح على أعظم ما يتصوره البشر من الإضاءة والإنارة، وإنما شبه بالمشكاة - وإن كان نورُ الله أعظم - لأن ذلك هو ما يدركه الناس من الأنوار ضرب لهم به المثل^(٥) ﴿الْمَصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ أي في قنديل من الزجاج الصافي ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أي تشبه الكوكب الدري في صفائها وحسنها ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ أي يشعل ذلك المصباح من زيت شجرة مباركة ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ أي هي من شجر الزيتون الذي خصه الله بمنافع عديدة ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي ليست في جهة الشرق ولا في جهة الغرب، وإنما هي في صحراء منكشفة تصيبها الشمس طول النهار لتكون ثمرتها أن أنضج، وزيتها أصفى قال ابن عباس: هي شجرة بالصحراء لا يظللها شجر، ولا جبل، ولا

(١) (ش): (عَيْثُ): أي مُعِيثُ، أغاثه: أعانه ونصره، قدّم له المساعدة. (عِصْمَةٌ): مَنَعَةٌ: عِزَّةٌ وَقُوَّةٌ وَحِصَانَةٌ ووجاهة.

(٢) «تفسير القرطبي» ٢١/٢٥٦.

(٣) «الحكم» لابن عطاء الله السكندري.

(٤) (ش): (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(٥) نقلاً عن «محاسن التأويل».

(٦) «التسهيل» ٣/٦٧.

كهف، ولا يوارىها شيء وهو أجود لزيته^(١) ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ مبالغة في وصف صفاء الزيت وحسنه وجودته أي يكاد زيت هذه الزيتونة يضيء من صفاته وحسن ضيائه ولو لم تمسه نار، فكيف إذا مسته النار؟ ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ أي نور فوق نور فقد اجتمع نور السراج، وحسن الزجاج، وصفاء الزيت، فاكتمل النور الممثل به ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي يوفق الله لاتباع نوره - وهو القرآن - من يشاء من عباده ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ﴾ أي يبين لهم الأمثال تقريباً لأفهامهم ليعتبروا ويتعظوا بما فيها من الأسرار والحكم ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي هو سبحانه واسع العلم لا يخفى عليه شيء من أمر الخلق، وفيه وعد ووعد قال الطبري: ذلك مثل ضربه الله للقرآن في قلب أهل الإيمان به فقال: مثل نور الله الذي أنار به لعباده سبيل الرشاد مثل كوة في الحائط لا منفذ لها فيها مصباح أي سراج، وجعل السراج مثلاً لما في قلب المؤمن من القرآن والآيات البينات ثم قال ﴿الْمَصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ وذلك مثل للقرآن في قلب المؤمن الذي أنار الله صدره فخلص من الكفر والشك، ثم قال ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أي كأن الزجاج في صفائها وضيائها كوكب يشبه الدر في الصفاء والضياء والحسن ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي توقد هذا المصباح من دهن شجرة مباركة هي شجرة الزيتون، ليست شرقية تطلع عليها الشمس بالعشي دون الغداة، ولكن الشمس تشرق عليها وتغرب فيكون زيتها أجود وأصفى وأضوأ ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي يكاد زيت هذه الزيتونة يضيء من صفائه وحسن ضيائه وعنى بها أن حجج الله على خلقه تكاد من بيانها ووضوحها تضيء لمن فكر فيها ونظر ولو لم يزدها الله بياناً ووضوحاً بنزول هذا القرآن، فكيف وقد نبههم به وذكرهم بآياته فزادهم به حجة! وذلك بيان من الله ونور على البيان^(٢). ثم لما ذكر تعالى هدايته لمن يشاء من عباده، ذكر مواطن هذه العبادة وهي المساجد أحب البقاع إلى الله فقال ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ أي أمر تعالى أن تبنى وتشاد على اسمه خاصة، وأن تعظم ويرفع شأنها لتكون منارات للهدى ومراكز للإشعاع الروحي قال ابن عباس: المساجد بيوت الله في الأرض، تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض^(٣) ﴿وَيَذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ أي يعبد فيها الله بتوحيده، وذكره، وتلاوة آياته ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي يصلي الله تعالى في هذه المساجد في الصباح والمساء المؤمنون قال

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٦٠٦/٢.

(٢) «تفسير الطبري» ١٨/ ١١٠ بشيء من الاختصار.

(٣) «التفسير الكبير» ٣/ ٢٤.

ابن عباس: كل تسبيح في القرآن فهو صلاة^(١) ﴿رَجَالٌ لَا تُلِهِم بِحَجَرَةٍ وَلَا يَئِمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها عن ذكر ربهم، ولا يلهيهم البيع والشراء عن طاعة الله قال المفسرون: نزلت هذه الآية في أهل الأسواق من الصحابة رضوان الله عليهم، كانوا إذا سمعوا النداء تركوا كل شغل وبادروا لطاعة الله^(٢) ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ أي ولا تشغلهم الدنيا عن إقامة الصلاة في أوقاتها، ودفع الزكاة للفقراء والمستحقين بحدودها وشروطها ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَلَا تَبْصُرُ﴾ أي يخافون يوماً رهيباً تضطرب من شدة هوله وفزعه قلوب الناس وأبصارهم ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ أي ليكافئهم على أعمالهم في الدنيا بأحسن الجزاء، ويجزيهم على الإحسان إحساناً، وعلى الإساءة عفواً وغفراناً ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي يتفضل عليهم فوق ذلك الجزاء بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿وَاللَّهُ يَزُكُّ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي يعطي من شاء من خلقه عطاءً واسعاً بدون حد ولا عد يُقال: فلان ينفق بغير حساب أي يوسع كأنه لا يحسب ما ينفقه قال الإمام الفخر: نبه به على كمال قدرته، وكمال جوده، وسعة إحسانه، فإنه سبحانه يعطيهم الثواب العظيم على طاعاتهم، ويزيدهم الفضل الذي لا حد له في مقابلة خوفهم^(٣)، ولما ذكر تعالى حال المؤمن وسعادته، ذكر حال الكافر وخسارته، وضرب لذلك مثلين: الأول لعمله، والثاني لاعتقاده وتخبطه في الظلمات فقال ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ أي إن أعمال الكفار التي عملوها في الدنيا وظنوها أعمالاً صالحة نافعة لهم في الآخرة كالسراب الذي يرى في القيعان وهو ما يرى في الفلوات^(٤) من ضوء الشمس في الهجيرة حتى يظهر كأنه ماء يجري على وجه الأرض ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ أي يظنه العطشان من بعيد ماءً جارياً ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ﴾ أي حتى إذا وصل إليه ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ أي لم ير ماءً ولا شراباً، وإنما رأى سراباً فعظمت حسرته ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوفَتْهُ حِسَابُهُ﴾ أي وجد الله له بالمرصاد فوفاه جزاء عمله، فذلك الكافر يحسب أن عمله ينفعه حتى إذا مات وقدم على ربه لم يجد شيئاً من الأعمال لأنها ذهبت هباءً منثوراً ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي يعجل الحساب لأنه لا يشغله محاسبة واحد عن آخر ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ هذا المثل الثاني لضلال الكفار. والمعنى أو مثلهم كظلمات متكاثفة في بحر عميق لا يدرك قعره ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ أي يغطي ذلك البحر

(١) «تفسير الطبري» ١٨/ ١١٣.

(٢) (ش): ضعيف، رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره».

(٣) «التفسير الكبير» ٦/ ٢٤.

(٤) (ش): فلاة: أرض واسعة مَقْفَرَة خالية من الماء والعُشْب والنَّاس.

ويعلوه موج متلاطم بعضه فوق بعض ﴿مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ أي من فوق ذلك الموج الثاني سحب كثيف ﴿ظُلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ أي هي ظلمات متكاثفة متراكمة بعضها فوق بعض قال قتادة: الكافر يتقلب في خمس من الظلم: فكلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة إلى النار^(١) ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَكُدُّهُ لَمْ يَكْذِبْهَا﴾ هذا من تنمة التمثيل، أي: إذا أخرج ذلك الإنسان الواقع في هذه الظلمات يده لم يقارب رؤيتها فإن ظلمة البحر، وظلمة الموج، وظلمة السحاب قد تكاثفت حتى حجبت عنه رؤية أقرب شيء إليه من شدة الظلمة فكذلك شأن الكافر يتخبط في ظلمات الكفر والضلال ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ أي ومن لم يهده الله للإيمان وينور قلبه بنور الإسلام لم يهتد أبد الدهر، ذكر تعالى لعمل الكافر مثالين: الأول لعمله الصالح ومثل له بالسراب الخادع، والثاني لاعتقاده السيئ ومثل له بالظلمات المتراكم بعضها فوق بعض ثم ختم الآية الكريمة ذلك الختام الرائع ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ مقابل قوله في المؤمن ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ فكان هذا التمثيل والبيان في غاية الحسن والجمال، فله ما أروع تعبير القرآن! ولما وصف سبحانه أنوار قلوب المؤمنين وظلمات قلوب الجاهلين أتبع ذلك بدلائل التوحيد فقال ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْخَرُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ألم تعلم يا محمد علماً يقيناً أن الله العظيم الكبير يسبح له كل من في الكون من ملك، وإنس، وجن، ينزهه ويقدسه ساكنوها؟ ﴿وَالطَّيْرُ صَفَقَتِ أَيْ وَالطَّيْرُ بِاسْطَاتٍ أَجْنَحْتَهُنَّ حَالِ الطَّيْرَانِ تَسْبِيحُ رَبِّهَا وَتَعْبُدُهُ كَذَلِكَ بِتَسْبِيحِ أَلْهَمَهَا وَأَرْشَدَهَا إِلَيْهِ تَعَالَى ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ أي كل من الملائكة والإنس والجن والطير قد أرشد وهدى إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله، وما كلف به من الصلاة والتسبيح ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي لا تخفى عليه طاعتهم ولا تسبيحهم ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هو المالك والمتصرف في الكون، وجميع المخلوقات تحت ملكه يتصرف فيهم تصرف القاهر الغالب ﴿وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي وإليه مرجع الخلائق فيجازيهم على أعمالهم وهو تذكير يتضمن الوعيد، ثم أشار تعالى إلى ظاهرة كونية تدل على قدرته ووحدانيته فقال ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْسِ السَّحَابَ﴾ أي يسوق بقدرته السحاب إلى حيث يشاء ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ أي يجمعه بعد تفرقه ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا﴾ أي يجعله كثيفاً متراكماً بعضه فوق بعض ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي ترى المطر يخرج من بين السحاب الكثيف ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ أي وينزل من السحاب الذي هو كأمثال الجبال برداً ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي فيصيب بذلك البرد من

(١) «تفسير الطبري» ١٨/١١٦.

شاء من العباد فيضره في زرعه وثمرته وماشيته ﴿وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنِشَاءٍ﴾ أي ويدفعه عمن يشاء فلا يضره قال الصاوي: كما ينزل المطر من السماء وهو نفع للعباد كذلك ينزل منها البرد وهو ضرر للعباد، فسبحان من جعل السماء منشأ للخير والشر^(١) ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ﴾ أي يقرب ضوء برق السحاب ﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾ أي يخطف أبصار الناظرين من شدة إضاءته وقوة لمعانه ﴿يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي يتصرف فيهما بالطول والقصر، والظلمة والنور، والحر والبرد ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً﴾ أي إن فيما تقدم ذكره لدلالة واضحة، وعظة بليغة على وجود الصانع المبدع^(٢) ﴿لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي لذوي البصائر المستنيرة، وخصهم بالذكر لأنهم المتفعون حيث يتأملون فيجدون الماء والبرد، والظلمة والنور تخرج من شيء واحد، فسبحان القادر على كل شيء ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ﴾ استدل على وحدانيته بتسبيح أهل السماء والأرض، ثم بتصرف السحاب وإنزال المطر، ثم بأحوال الحيوانات قال ابن كثير: يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها وحرركاتها وسكناتها من ماء واحد^(٣) ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ أي فممنهم من يزحف على بطنه كالحية والزواحف ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان والطير ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ كالأنعام وسائر الدواب قال أبو حيان: قدم ما هو أظهر في القدرة وأعجب وهو الماشي بغير آلة من رجل وقوائم، ثم الماشي على رجلين، ثم الماشي على أربع^(٤) ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ أي يخلق تعالى بقدرته ما يشاء من المخلوقات ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أو هو قادر على ما يشاء لا يمنعه مانع، ولا يدفعه دافع قال الفخر: واعلم أن العقول قاصرة عن الإحاطة بأحوال أصغر الحيوانات على الكمال، والاستدلال بها على الصانع ظاهر، لأنه لو كان الأمر بتركيب الطبائع الأربع لكان في الكل على السوية، فاختصاص كل واحد من هذه الحيوانات بأعضائها وأعمارها ومقادير أبدانها لا بد وأن يكون بتدبير قاهر حكيم، سبحانه وتعالى عما يقول الجاحدون^(٥) ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا ءَايَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ أي لقد أنزلنا إليكم أيها الناس آيات واضحة، دالات على طريق الحق والرشاد ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي يرشد من يشاء من خلقه إلى الدين

(١) «الصاوي على الجلالين» ١٣٤/٣.

(٢) (ش): ليس المراد من سياق الآيات مجرد الاستدلال على وجوده سبحانه لأن المخاطبين مَقْرُونُونَ بذلك، وإنما المراد الاستدلال على وجوب إفراده بالعبادة وهو الذي يخالف فيه المخاطبون.

(٣) «المختصر» ٦١٣/٢.

(٤) «البحر المحيط» ٤٦٦/٦.

(٥) «التفسير الكبير» ١٩/٢٤.

الحق وهو الإسلام، ولما ذكر دلائل التوحيد حذر من النفاق والمنافقين فقال ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ أي يقول المنافقون: صدقنا بالله وبالرسول وأطعنا الله ورسوله ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ أي ثم يعرض جماعة منهم عن قبول حكمه ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي من بعدما صدر منهم ما صدر من دعوى الإيمان ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وليس أولئك الذين يدعون الإيمان والطاعة بمؤمنين على الحقيقة قال الحسن: نزلت هذه الآية في المنافقين الذين كانوا يظهرن الإيمان ويسرون الكفر ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أي وإذا دعوا إلى حكم حكم الله أو حكم رسوله ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي استنكفوا وأعرضوا عن الحضور إلى مجلس الرسول ﴿وَلَنْ يَكُنْ لَهُمُ الْخُفْيَةُ الْإِلَهِيَّةُ مُذَعِّنِينَ﴾ أي وإن كان الحق بجانبهم جاءوا إلى رسول الله طائعين منقادين لعلمهم أنه عليه السلام يحكم بالحق قال الفخر: نبه تعالى على أنهم إنما يعرضون متى عرفوا أن الحق غيرهم؛ أما إذا عرفوه لأنفسهم عدلوا عن الإعراض وأذعنوا ببذل الرضا ^(١) ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ أَرْتَابُونَ﴾ أي أفي قلوبهم نفاق؟ أم شكوا في نبوته عليه السلام؟ ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ﴾ أي أم يخافون أن يظلمهم رسول الله في الحكم، والاستفهام للمبالغة في التوبيخ والذم كقول الشاعر:

أَلَسْتُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ تَعَاهَدُوا عَلَى اللُّؤْمِ وَالْفُخْشَاءِ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ

﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي بل هم الكاملون في الظلم والعناد لإعراضهم عن حكم رسول الله ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: كان الواجب عليهم عندما يدعون إلى رسول الله للفصل بينهم وبين خصومهم أن يسرعوا ويقولوا: سمعنا وطاعة، فلو كان هؤلاء مؤمنين لفعلوا ذلك قال الطبري: ولم يقصد به الخبر ولكنه تأنيب من الله للمنافقين وتأديب منه لآخرين ^(٢) ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي وأولئك المسارعون إلى مرضاة الله هم الفائزون بسعادة الدارين ﴿وَمَنْ يَطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي ومن يطع أمر الله وأمر رسوله في كل فعل وعمل ﴿وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ﴾ أي ويخف الله تعالى لما فرط منه الذنوب، ويمثل أوامره ويجتنب زواجره ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أي هم السعداء الناجون من عذاب الله الفائزون برضوانه. ذكر أن بعض بطارقة الروم سمع هذه الآية فأسلم وقال: إنها جمعت كل ما في التوراة والإنجيل.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة والبدیع نوجزها فيما يلي:

(١) «التفسير الكبير» ٢٤ / ٢١.

(٢) «تفسير الطبري» ١٨ / ١٢٠.

- ١ - إطلاق المصدر على اسم الفاعل للمبالغة ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بمعنى منور لكل بحيث كأنه عين نوره قال الشريف الرضي: وفي الآية استعارة - على تفسير بعض العلماء - والمراد عندهم أنه هادي أهل السماوات والأرض بصوادع برهانه، ونواضع بيانه كما يهتدى بالأنوار الثاقبة والشهب اللامعة.
- ٢ - التشبيه التمثيلي ﴿مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوفٍ فِيهَا مَصْبَاحٌ﴾ شبه نور الله الذي وضعه في قلب عبده المؤمن بالمصباح الوهاج في كوة داخل زجاجة تشبه الكوكب الدري في الصفاء والحسن إلخ سمي تمثيلاً لأن وجه الشبه منتزع من متعدد، وهو من روائع التشبيه.
- ٣ - الإطناب بذكر الخاص بعد العام تنويهاً بشأنه ﴿عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَاقَامِ الصَّلَاةِ﴾ لأن الصلاة من ذكر الله.

- ٤ - جناس الاشتقاق ﴿نَقَلَبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَرُ﴾.
- ٥ - التشبيه التمثيلي الرائع ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ﴾ إلخ وكذلك في قوله ﴿كَظَلَمْتَ فِي بَحْرِ لُجِّي﴾ وهذا من روائع التشبيه وبدائع التمثيل.
- ٦ - الطباق بين ﴿يُصِيبُ.. وَيَصْرِفُهُ﴾.
- ٧ - الاستعارة اللطيفة ﴿يَقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ إذ ليس المراد التقلب المادي للأشياء الذاتية وإنما استعير لتعاقب الليل والنهار.
- ٨ - الجناس التام ﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾ ﴿لَاُولَى الْأَبْصَرِ﴾ المراد بالأولى العيون وبالثانية الألباب.

لطيفة: سمع بعض علماء الطبيعة من غير المسلمين هذه الآية ﴿أَوْ كَظَلَمْتَ فِي بَحْرِ لُجِّي﴾ يَغْشَاهُ مَوْجٌ.. الآية فسأل هل ركب محمد البحر؟ فقالوا: لا فقال أشهد أنه رسول الله قالوا: وكيف عرفت؟ فقال: إن هذا الوصف للبحر لا يعرفه إلا من عاش عمره في البحار، ورأى الأهوال والأخطار، فلما أخبرت أنه لم يركب البحر عرفت أنه كلام الله تعالى.

قال الله تعالى:

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُفْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا وَهُمْ إِلَّا نَارُ الْآلِئِ ۖ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَنَازِحُوا
الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ
الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ هُنَّ طَوَفَاتٍ
عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ
مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَنَازِحُوا كَمَا اسْتَنَازَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ
يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَغْفِرْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾
لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ
بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا
مَلَكَتُمْ مَفَاحِشَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا
فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكَاةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ
يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا إِنْ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَنْزِلْ مَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ
اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ
الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ يَوْمَ تَرجَعُونَ
إِلَيْهِ فَيَنْتَقِظُ مِنْكُمْ مَا يَعْلَمُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

المناسبة: لما ذكر تعالى المنافقين وما هم عليه من صفاتٍ قبيحة، أعقبه بذكر ما
انطوت عليه نفوسهم من المكر والإحتيال والحلف الكاذب بأغلظ الأيمان، وختم
السورة الكريمة بالتحذير من سلوك طريق المنافقين.

اللغة: ﴿الْحُلُمُ﴾: الاحتلام في المنام قال في «القاموس»: الحلم: الرؤيا جمعه
أحلام، والحُلُم والاحتلام: الجماع في النوم^(١) وقال الراغب: هو زمان البلوغ سمي به
لكون صاحبه جديراً بالحلم أي الأناة وضبط النفس^(٢) ﴿الْقَوَاعِدُ﴾ جمع قاعد بغير تاء
لأنه خاصٌ بالنساء كحائض وطامث وهي المرأة التي قعدت عن الزواج وعن الولد

(١) «القاموس المحيط».

(٢) «المفردات» للراغب الأصفهاني.

﴿أَشْتَاتَا﴾ متفرقين جمع شت وهو الافتراق، والشتات: الفرقة ﴿يَتَسَلَّلُونَ﴾ التسلل: الخروج خفية يقال: انسل وتسلل إذا خرج مستتراً بطريق الخفية ﴿لَوْذَا﴾ اللواذ: أن يستتر بشيء مخافة من يراه.

سَبَبُ النُّزُول: روي أن رسول الله ﷺ بعث غلاماً من الأنصار يقال له: مُدْلَج إلى عمر بن الخطاب وقت الظهيرة ليدعوه فوجده نائماً، فدق عليه الغلام الباب ودخل، فاستيقظ عمر وجلس فانكشف منه شيء فقال: وددت أن الله نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا عن الدخول في هذه الساعات إلا بإذن، ثم انطلق إلى رسول الله ﷺ فوجد الآية قد أنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَسْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ بِمَا﴾ ﴿فَرَّ سَاجِداً شَكَراً﴾ ﴿لِلَّهِ تَعَالَى﴾^(١).

التفسير: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾ أي حلف المنافقون بغاية الأيمان المغلظة ﴿لَئِنْ أُمِرْتُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ أي لئن أمرتهم بالخروج إلى الجهاد ليخرجن معك قال مقاتل: لما بين الله إعراض المنافقين وامتناعهم عن قبول حكمه عليه السلام أتوه فقالوا: لو أمرتنا أن نخرج من ديارنا وأموالنا ونسائنا لخرجنا، وإن أمرتنا بالجهاد لجاهدنا فنزلت ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا﴾ أي لا تحلفوا فإن أيمانكم كاذبة ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ أي طاعتكم لله ورسوله معروفة فإنها باللسان دون القلب، وبالقول دون العمل^(٢) ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي بصير لا يخفى عليه شيء من خفاياكم ونواياكم ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي أطيعوا الله بإخلاص النية وترك النفاق، وأطيعوا الرسول بالاستجابة لأمره والتمسك بهديه ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي فإن تولَّوْا وتعرضوا عن طاعته ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكُمْ مَاحِلٌ﴾ أي على الرسول ما كلف به من تبليغ الرسالة ﴿وَعَلَيْكُمْ مَاحِلُكُمْ﴾ أي وعليكم ما كلفتم به من السمع والطاعة واتباع أمره عليه السلام ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ أي وإن أطعتم أمره فقد اهتديتم إلى طريق السعادة والفلاح ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلَعُ الْمِيثَاقِ﴾ أي ليس عليه إلا التبليغ الواضح للأمم، ولا ضرر عليه إن خالفتم وعصيتهم فإنه قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي وعد الله المؤمنين المخلصين الذين جمعوا بين

(١) «تفسير الألوسي» ٢٠٩ / ١٨. (ش): موضوع. رواه ابن مَنَدَه في «معرفة الصحابة» بإسناد فيه كذابون، ورواه الواحد في «أسباب النزول» بدون إسناد.

(٢) «حاشية شيخ زاده على «البيضاوي» ٤٣٥ / ٣.

(٣) (ش): قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٧٦ / ٦): وَقَوْلُهُ: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ طَاعَتُكُمْ طَاعَةً مَّعْرُوفَةً، أَيْ: قَدْ عَلِمْتَ طَاعَتُكُمْ، إِنَّمَا هِيَ قَوْلٌ لَا فِعْلَ مَعَهُ، وَكُلَّمَا حَلَفْتُمْ كَذَبْتُمْ... وَقِيلَ: الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ أَيْ: لِيَكُنْ أَمْرُكُمْ طَاعَةً مَّعْرُوفَةً، أَيْ: بِالْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ حَلْفٍ وَلَا إِفْسَامٍ، كَمَا يُطِيعُ اللَّهُ وَرَسُولَهُ الْمُؤْمِنُونَ بِغَيْرِ حَلْفٍ، فَكُونُوا أَنْتُمْ مِثْلَهُمْ.

الإيمان والعمل الصالح ﴿لَسْتَ خَلْفَنَهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي وعدهم بميراث الأرض وأن يجعلهم فيها خلفاء متصرفين فيها تصرف الملوك في ممالكهم، كما استخلف المؤمنين قبلهم فملكهم ديار الكفار قال المفسرون: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة رمتهم العرب عن قوس واحدة، فكانوا لا يبتون إلا في السلاح، ولا يصبحون إلا في لأمتهم - أي سلاحهم - فقالوا: أترون أننا نعيش حتى نبني آمين مطمئنين لا نخاف إلا الله عز وجل! فنزلت الآية^(١)، وهذا وعد ظهر صدقه بفتح مشارق الأرض ومغارها لهذه الأمة وفي الحديث بشارة كذلك فقد قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زَوَى لِيَ مِنْهَا»^(٢) ﴿وَلْيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ أي وليجعلن دينهم - الإسلام - الذي ارتضاه لهم عزيزاً مكيناً عالياً على كل الأديان ﴿وَلْيَجْذِبَنَّ لَهُمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ أَمَنًا﴾ أي وليغيرن حالهم التي كانوا عليها من الخوف والفرع إلى الأمن والاستقرار كقوله ﴿وَأَمْنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤] ﴿يَعْبُدُونِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ استئناف بطريق الشاء عليهم كالتعليل للاستخلاف في الأرض أي يوحدونني ويلصون لي العبادة، لا يعبدون إلهاً غيري ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي فمن جحد شكر النعم ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ هم الخارجون عن طاعة الله، العاصون أمر الله قال أبو العالية: أي من كفر بهذه النعمة وليس يعني الكفر بالله قال الطبري: وهو أشبه بتأويل الآية لأن الله وعد الإنعام على هذه الأمة بما أخبر في هذه الآية بأنه منعم به عليهم ثم قال ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ أي كفر هذه النعمة ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٣) ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي أقيموا أيها المؤمنون الصلاة وأدوا الزكاة على الوجه الأكمل الذي يرضي الله ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي أطيعوا الرسول في سائر ما أمركم به رجاء الرحمة ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ تسلياً للنبي ﷺ ووعداً له بالنصرة أي: لا تظنن يا محمد الكافرين الذين عاندوك وكذبوك معجزين لله في هذه الحياة بل الله قادرٌ عليهم في كل حين وآن ﴿وَمَا أُوْنَهُمُ النَّارُ﴾ أي مرجعهم نار جهنم ﴿وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي بئس المرجع والمآل الذي يصيرون إليه ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا

(١) «زاد المسير» ٦/ ٥٧. (ش): رواه الحاكم في المستدرک، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) رواه مسلم. (ش): (زَوَاهُ مُسْلِمٌ). (زَوَى): جُمِعَ. وَهَذَا الْحَدِيثُ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مُلْكَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَكُونُ مُعْظَمُ امْتِدَادِهِ فِي جِهَتَي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَهَكَذَا وَقَعَ. وَأَمَّا فِي جِهَتَي الْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ فَقَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَى رَسُولِهِ الصَّادِقِ الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى.

[انظر: شرح النووي على مسلم (١٨ / ١٣)].

(٣) «تفسير الطبري» ١٨ / ١٤٢.

لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴿١﴾ أَي يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ صَدَّقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَأَقْبَنُوا بَشْرِيَّةَ الْإِسْلَامِ نِظَامًا وَحُكْمًا وَمَنْهَاجًا ^(١) لِيَسْتَأْذِنَكُمْ فِي الدُّخُولِ عَلَيْكُمْ الْعَبِيدُ وَالْإِمَاءُ الَّذِينَ تَمْلِكُونَهُمْ مِلْكُ الْيَمِينِ ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ﴾ أَي وَالْأَطْفَالُ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا مَبْلَغَ الرِّجَالِ الْأَحْرَارِ لِيَسْتَأْذِنُوا أَيْضًا ﴿تِلْكَ مَرْثِي﴾ أَي فِي ثَلَاثَةِ أَوقَاتٍ ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾ أَي فِي اللَّيْلِ وَقْتُ نَوْمِكُمْ وَخُلُودِكُمْ إِلَى الرَّاحَةِ ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ﴾ أَي وَقْتُ الظَّهْرِ حِينَ تَخْلَعُونَ ثِيَابَكُمْ لِلْقِيلُولَةِ ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ أَي وَقْتُ إِرَادَتِكُمُ النَّوْمَ وَاسْتِعْدَادِكُمْ لَهُ ﴿تِلْكَ عَوْرَتِي لَكُمْ﴾ أَي هِيَ ثَلَاثَةُ أَوقَاتٍ يَخْتَلِفُ فِيهَا تَسْتَرِكُمْ، الْعَوْرَاتُ فِيهَا بَادِيَةٌ وَالتَّكْشِيفُ فِيهَا غَالِبٌ، فَعَلِّمُوا عِبِيدَكُمْ وَخُدَمَكُمْ وَصِبْيَانَكُمْ أَلَّا يَدْخُلُوا عَلَيْكُمْ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ إِلَّا بَعْدَ الْاسْتِئْذَانِ ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ هُنَّ﴾ أَي لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَى الْمَمَالِكِ وَالصَّبْيَانِ حَرَجٌ فِي الدُّخُولِ عَلَيْكُمْ بِغَيْرِ اسْتِئْذَانٍ بَعْدَ هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الثَّلَاثَةِ ﴿طَوَفُوتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أَي لِأَنَّهُمْ خُدَمُكُمْ يَطُوفُونَ عَلَيْكُمْ لِلخِدْمَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ قَالَ أَبُو حَيَّانٍ: أَي يَمْضُونَ وَيَجِيئُونَ وَيَدْخُلُونَ عَلَيْكُمْ فِي الْمَنَازِلِ غَدَوَةً وَعَشِيَّةً بِغَيْرِ إِذْنٍ إِلَّا فِي تِلْكَ الْأَوْقَاتِ ^(٢) ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ أَي مِثْلَ ذَلِكَ التَّوْضِيحِ وَالْبَيَانِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ لِتَتَأَدَّبُوا بِهَا ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أَي عَالِمٌ بِأُمُورِ خَلْقِهِ، حَكِيمٌ فِي تَدْبِيرِهِ لَهُمْ ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ﴾ أَي وَإِذَا بَلَغَ هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالُ الصَّغَارِ مَبْلَغَ الرِّجَالِ وَأَصْبَحُوا فِي سَنِّ التَّكْلِيفِ ﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أَي فَعَلِّمُوهُمْ الْأَدَبَ السَّامِيَّ أَنْ يَسْتَأْذِنُوا فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ كَمَا يَسْتَأْذِنُ الرِّجَالُ الْبَالِغُونَ ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أَي يَفْصِّلُ لَكُمْ أُمُورَ الشَّرِيعَةِ وَالْدِينِ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أَي عَلِيمٌ بِخَلْقِهِ حَكِيمٌ فِي تَشْرِيعِهِ قَالَ «الْبِيضَاوِي»: كَرَّرَهُ تَأْكِيدًا وَمُبَالَغَةً فِي الْأَمْرِ بِالْإِسْتِئْذَانِ ^(٣) ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أَي وَالنِّسَاءُ الْعَجَائِزُ اللَّوَاتِي قَعَدْنَ عَنِ التَّصَرُّفِ وَطَلَبِ الزَّوْجِ لِكِبَرِ سِنِهِنَّ ﴿الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ أَي لَا يَطْمَعْنَ فِي الزَّوْجِ وَلَا يَرْغَبْنَ فِيهِ لِانْعِدَامِ دَوَافِعِ الشَّهْوَةِ فِيهِنَّ ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أَي لَا حَرَجَ وَلَا إِثْمَ عَلَيْهِنَّ فِي أَنْ يَضَعْنَ بَعْضَ ثِيَابِهِنَّ كَالرِّدَاءِ وَالْجِلْبَابِ ^(٤)، وَيُظْهِرْنَ أَمَامَ

(١) (ش): الإيمان ليس هو مجرد التصديق والرضا بالشرعية نظامًا ومنهاجًا، وإنما هو قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح، هكذا عرّفه أهل السنة والجماعة، ويدخل في ذلك ما ذكره المؤلف.

(٢) «البحر المحيط» ٦/ ٤٧٢.

(٣) «البيضاوي» ٢/ ٦٢.

(٤) (ش): الذي يكون فوق الثياب. ومن أوضح الأدلة على وجوب ستر المرأة المسلمة لوجهها وكفيها عند الرجال الأجانب: الرخصة للقواعد من نساء بوضع الحجاب، وأن يستعففن خير لهن؛ فقد رخص الله سبحانه =

الرجال بملابسهن المعتادة التي لا تلفت انتباهاً، ولا تثير شهوة ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ أي غير متظاهرات بالزينة لينظر إليهن قال أبو حيان: وحقيقة التبرج إظهار ما يجب إخفاؤه، وربَّ عجوزٍ شمسَاءٍ يبدو منها الحرصُ على أن يظهر بها جمال^(١) ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ أي وأن يستترن بارتداء الجلباب ولبس الثياب كما تلبسه الشابات من النساء، مبالغةً في التستر والتعفف خيرٌ لهنَّ وأكرم، وأزكى عند الله وأطهر ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي يعلم خفايا النفوس ويجازي كل إنسان بعمله، وفيه وعدٌ وتحذير ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أي ليس على أهل الأعذار «الأعمى، والأعرج، والمريض» حرج ولا إثم في القعود عن الغزو لضعفهم وعجزهم^(٢) ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ أي وليس عليكم أيها الناس إثم أن تأكلوا من بيوت أزواجكم وعيالككم قال «البيضاوي»: فيدخل فيها بيوت الأولاد لأن بيت الولد كبيتته لقوله عليه السلام: «إِنَّ مِنْ أَطْيَبِ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ وَوَلَدُهُ مِنْ كَسْبِهِ»^(٣) ﴿أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ

= للقواعد من النساء، أي: العجائز، اللائي تقدم بهن السن، فقعدن عن الحيض والحمل ويُسْنَن من الولد أن يضعن ثيابهن الظاهرة من الجلباب والخمار، التي ذكرها الله سبحانه في آيات ضرب الحجاب على نساء المؤمنين، فيكشفن عن الوجه والكفين، ورفع تعالى الإثم والجناح عنهن في ذلك بشرطين: الشرط الأول: أن يَكُنَّ من اللائي لم يبق فيهن زينة ولا هن محل للشهوة، وهن اللائي لا يرجون نكاحاً، فلا يَطْمَعْنَ فيه، ولا يُطْمَعُ فيهن أن يُنكحن؛ لأنهن عجائز لا يَشْتَهَيْن ولا يُشْتَهَيْن، أما من بقيت فيها بقية من جمال ومحل للشهوة، فلا يجوز لها ذلك. الشرط الثاني: أن يَكُنَّ غير متبرجات بزينة، وهذا يتكون من أمرين: أحدهما: أن يَكُنَّ غير قاصدات بوضع الثياب التبرج، ولكن التخفيف إذا احتجن إليه. وثانيهما: أن يكن غير متبرجات بزينة من حلي وكحل وأصباغ وتجميل بثياب ظاهرة، إلى غير ذلك من الزينة التي يفتن بها. فلتحذر المؤمنة التعسف في استعمال هذه الرخصة، بأن تدعي بأنها من القواعد، وليست كذلك، أو تبرز متزينة بأي من أنواع الزينة. ثم قال ربنا جل وعلا: ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾، وهذا تحريض للقواعد على الاستعفاف وأنه خير لهن وأفضل، وإن لم يحصل تبرج منهن بزينة. فدلَّت هذه الآية على فرض الحجاب على نساء المؤمنين لوجوهن وسائر أبدانهم وزينتهن؛ لأن هذه الرخصة للقواعد، اللائي رُفِعَ الإثم والجناح عنهن، إذ التهمة في حقهن مرتفعة، وقد بلغن هذا المبلغ من السن والإياس، والرخصة لا تكون إلا من عزيمة، والعزيمة فرض الحجاب في الآيات السابقة. وبدلالة أن استعفاف القواعد خير لهن من الترخص بوضع الثياب عن الوجه والكفين، فوجب ذلك في حق من لم تبلغ سن القواعد من نساء المؤمنين، وهو أولى في حقهن، وأبعد لهن عن أسباب الفتنة والوقوع في الفاحشة، وإن فعلن فالإثم والحرَج والجناح. ولذا فإن هذه الآية من أقوى الأدلة على فرض الحجاب للوجه والكفين وسائر البدن، والزينة بالجلباب والخمار. [انظر: الاختلاط بين الرجال والنساء (١/ ٧٥ - ٧٧) للمؤلف، عن حراسة الفضيلة للشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد (ص ٥٤ - ٥٦).]

(١) «البحر المحيط» ٦/ ٤٧٣.

(٢) هذا قول الحسن وابن زيد وهو الظاهر واختاره صاحب «البحر» و«الكشاف». وقيل: المراد نفى الحرَج عن أهل الأعذار أن يأكلوا مع الأصحاء واختاره الطبري والرازي.

(٣) «البيضاوي» ٢/ ٦٣. (ش): (رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيُّ، وَابْنُ مَاجَهَ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ).

أَوْ بُيُوتِ أَهْلَيْكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ ﴿١﴾ أَيُّ لَا حَرَجَ فِي الْأَكْلِ مِنْ بُيُوتِ هَؤُلَاءِ الْأَقَارِبِ قَالَ الرَّازِي: وَالظَّاهِرُ أَنَّ إِبَاحَةَ الْأَكْلِ لَا تَتَوَقَّفُ عَلَى الْإِسْتِذَانِ لِأَنَّ الْعَادَةَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ تَطْيِبُ أَنْفُسَهُمْ بِأَكْلِ الْأَقَارِبِ ^(١) ﴿أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ أَيُّ الْبُيُوتِ الَّتِي تَوَكَّلُونَ عَلَيْهِ وَتَمْلِكُونَ مَفَاتِحَهَا فِي غِيَابِ أَهْلِهَا قَالَتْ عَائِشَةُ: كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَذْهَبُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ فِي الْغَزْوِ وَيُدْفَعُونَ مَفَاتِحَهُمْ إِلَى ضَمَنَائِهِمْ وَيَقُولُونَ: قَدْ أَحْلَلْنَا لَكُمْ الْأَكْلَ مِنْهَا فَكَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَنَا أَنْ نَأْكُلَ، إِنَّهُمْ أَذْنُوا لَنَا عَنْ غَيْرِ طَيِّبِ أَنْفُسِهِمْ وَإِنَّمَا نَحْنُ أَمْنَاءُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ^(٢) ﴿أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ ^(٣) ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أَيُّ أَوْ بُيُوتِ أَصْدِقَائِكُمْ وَأَصْحَابِكُمْ قَالَ قَتَادَةُ: إِذَا دَخَلْتَ بَيْتَ صَدِيقِكَ فَلَا بَأْسَ أَنْ تَأْكُلَ بِغَيْرِ إِذْنِهِ ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ أَيُّ لَيْسَ عَلَيْكُمْ إِثْمٌ أَوْ حَرَجٌ أَنْ تَأْكُلُوا مَجْتَمِعِينَ أَوْ مُتَفَرِّقِينَ قَالَ الْمَفْسُرُونَ: نَزَلَتْ فِي حَيٍّ مِنْ كِنَانَةَ كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ لَا يَأْكُلُ وَحْدَهُ، يَمْكُثُ يَوْمَهُ فَإِنْ لَمْ يَجِدْ مَنْ يُوَاكِلُهُ لَمْ يَأْكُلْ شَيْئًا: وَرَبَّمَا كَانَ مَعَهُ الْإِبِلُ الْحَقْلُ فَلَا يَشْرَبُ مِنْ أَلْبَانِهَا حَتَّى يَجِدَ مَنْ يَشَارِبُهُ فَأَخْبَرَهُمُ تَعَالَى بِأَنَّ الرَّجُلَ إِذَا أَكَلَ وَحْدَهُ فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ ^(٤) ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أَيُّ إِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا مَسْكُونَةً فَسَلِّمُوا عَلَى مَنْ فِيهَا مِنَ النَّاسِ ^(٥) ﴿تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ أَيُّ حَيُّوهُمْ بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ» وَهِيَ التَّحِيَّةُ الْمُبَارَكَةُ الطَّيِّبَةُ الَّتِي شَرَعَهَا اللَّهُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَصَفَهَا بِالْبَرَكَةِ لِأَنَّهُ فِيهَا الدُّعَاءُ وَاسْتِجْلَابُ الْمَوَدَّةِ، وَوَصَفَهَا بِالطَّيِّبِ لِأَنَّ سَامِعَهَا يَسْتَطِيعُهَا ^(٦) ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةَ مِنَ الْأَحْكَامِ الْمَحْكَمَةِ، وَالشَّرَائِعِ الْمُبْرَمَةِ، نَبَّهَ عِبَادَهُ عَلَى أَنَّهُ يَبِينُ لَهُمُ الْآيَاتِ بَيَانًا شَافِيًا لِيَتَدَبَّرُوهَا وَيَتَعَقَّلُوهَا لَعَلَّهُمْ يَعْقِلُونَ ^(٧)

(١) «التفسير الكبير» ٣٦/٢٤.

(٢) (ش): صحيح، رواه البزار في «مسنده» وابن أبي حاتم في «تفسيره».

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٦١٩/٢.

(٤) (ش): ضعيف، رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره». (الحقل): جمع حافل، وهي التي امتلأ صرعها لبنًا.

(٥) (ش): قال الشيخ السعدي: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا﴾ نكرة في سياق الشرط، يشمل بيت الإنسان وبيت غيره، سواء كان في البيت ساكن أم لا فإذا دخلها الإنسان ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: فليسلم بعضكم على بعض، لأن المسلمين كأنهم شخص واحد، من تواددهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، فالسلام مشروع لدخول سائر البيوت،

من غير فرق بين بيت وبيت.

(٦) «تفسير القرطبي» ٣١٩/١٢.

(٧) «مختصر تفسير ابن كثير» ٦٢٠/٢.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي إنما المؤمنون الكاملون في الإيمان الذين صدقوا الله ورسوله تصديقاً جازماً لا يخالجه شك ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أي وإذا كانوا مع الرسول في أمر هام فيه مصلحة للمسلمين ﴿لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ أي لم يتركوا مجلسه حتى يستأذِنوه فيأذن لهم قال المفسرون: نزلت هذه الآية في وقت حفر الخندق، فإن بعض المؤمنين كانوا يستأذنون في الانصراف لضرورة، وكان المنافقون يذهبون بغير استئذان فنزلت تمدح المؤمنين الخالصين، وتعرض بدم المنافقين^(١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ هذا تأكيد لما تقدم ذكره تفخيماً وتعظيماً لشأن الرسول ﷺ، أي: إن الذين يستأذنونك يا محمد أولئك هم المؤمنون حقاً قال «البيضاوي»: أعاده مؤكداً على أسلوب أبلغ فإن جعل المستأذنين هم المؤمنين عكس الأسلوب الأول وفيه تأكيد للأول بذكر لفظ الله ورسوله فيكون مصداقاً ودليلاً على صحة الإيمان^(٢) ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أي فإذا استأذنتك هؤلاء المؤمنون لبعض شئونهم ومهامهم^(٣) ﴿فَإِذَا لَمَنَ شَيْئٌ مِنْهُمْ﴾ أي فاسمح لمن أحببت بالانصراف إن كان فيه حكمه ومصلحته ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ﴾ أي وادع الله له بالعفو والمغفرة فإن الاستئذان ولو لعذر قصور لأنه تقديم لأمر الدنيا على أمر الدين ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي عظيم العفو واسع الرحمة ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ أي لا تنادوا الرسول باسمه كما ينادي بعضكم بعضاً باسمه بل قولوا: يا نبي الله ويا رسول الله تفخيماً لمقامه وتعظيماً لشأنه قال أبو حيان: لما كان التداعي بالأسماء على عادة البدواة أمروا بتوقير رسول الله ﷺ ودعائه بأحسن ما يدعى به نحو: يا رسول الله، يا نبي الله، ألا ترى إلى بعض جفاة من أسلم كان يقول: يا محمد فنهوا عن ذلك^(٤) قال قتادة: أمرهم تعالى أن يفخموه ويشرفوه ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْأَلُونَ مِنْكُمْ لَوْ آذَاكُمْ﴾ أي قد علم الله الذين ينسلون قليلاً ويخرجون من الجماعة في خفية يستتر بعضهم ببعض قال الطبري: واللواذ هو أن يلوذ القوم بعضهم ببعض، يستتر هذا بهذا وهذا بهذا^(٥) ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أي فليخف الذين يخالفون أمر الرسول ويتركون

(١) (ش): ضعيف، رواه ابن اسحاق في «المغازي» والبيهقي في «الدلائل».

(٢) حاشية زاده على البيضاوي ٤٤٠/٣.

(٣) قال ابن عباس: إن عمر استأذن النبي ﷺ في العمرة فأذن له ثم قال: «يا أبا حفص لا تنسنا من صالح دعائك».

(ش): عَنْ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: اسْتَأْذَنْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي الْعُمْرَةِ فَأَذَنَ لِي وَقَالَ: «لَا تَنْسَنَا يَا أُنْحَىٰ مِنْ دُعَائِكَ». فَقَالَ كَلِمَةً مَا يَسُرُّنِي أَنَّ لِي بِهَا الدُّنْيَا (رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وضعفه الألباني).

(٤) «البحر المحيط» ٤٧٦/٦.

(٥) «تفسير الطبري» ١٨/١٣٥.

سبيله ومنهجه وسنته ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي تنزل بهم محنة عظيمة في الدنيا أو ينالهم عذاب شديد في الآخرة ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي له جل وعلا ما في الكون ملكاً وخلقاً وعبيداً ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي قد علم ما في نفوسكم من الإيمان أو النفاق، والإخلاص أو الرياء ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنْشِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي ويوم القيامة يرجعون إليه فيخبرهم بما فعلوا في لدينا من صغير وكبير، وجليل وحقير ويجازي كلًّا بعمله ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي لا يخفى عليه خافية لأن الكل خلقه وملكه.

البلاغة: تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الاستعارة اللطيفة ﴿جَهْدًا يَمْنَنُ﴾ شبه الإيمان التي يحلف بها المنافقون بالغين فيها أقصى المراتب في الشدة والتوكيد بمن يجهد نفسه في أمر شاق لا يستطيعه ويبدل أقصى وسعه وطاقته بطريق الاستعارة.

٢ - المشاكلة ﴿عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ أي عليه أمر التبليغ وعليكم وزر التكذيب.

٣ - الطباق بين الخوف والأمن ﴿مَنْ بَعْدَ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ وكذلك بين الجميع والأشتات ﴿جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ لأن المعنى مجتمعين ومتفرقين.

٤ - الإطناب بتكرير لفظ الحرج لترسيخ الحكم في الأذهان ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾.

٥ - صيغة المبالغة ﴿عَفْوَ رَحِيمٌ﴾.

فائدة: قال بعض السلف: من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة لقوله تعالى ﴿وَأِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾^(١).

لطيفة: قيل لبعضهم: من أحب إليك أخوك أم صديقك؟ فقال: لا أحب أخي إذا لم يكن صديقي. وقال ابن عباس: «الصديق أوكد من القريب ألا ترى استغاثة الجهنميّين حين قالوا ﴿فَمَا نَا مِنْ شَفِيعِينَ﴾^(١٠٠) ولا صديق حميم» [الشعراء: ١٠٠ - ١٠١] ولم يستغيثوا بالآباء والأمهات^(٢).

(١) «زاد المسير» ٥٧/٦.

(٢) «البحر المحيط» ٤٧٤/٦.

(ش): الْجَهَنَّمِيُّونَ: جمع جَهَنَّمِيٍّ، نسبة إلى جهنم. ولم أجد كلام ابن عباس **ههنا** إلا في بعض كتب التفسير بدون إسناد. وسياق الآيات يدل على أن من يقولون هذا القول مخلّدون في النار لعدم إيمانهم. قال الله تعالى: =

تنبيه: كان بعض العرب يرى أحدهم أن عاراً وخزياً عليه أن يأكل وحده ويبقى جائعاً حتى يجد من يؤاكله ويشاربه واشتهر هذا عن حاتم فكان يقول:

إذا ما صنعت الزاد فالتمسى له أكىلاً فإنني لست آكله وحدي وهذا من مآثر العرب ومفاخرهم، فقد اشتهروا بالجود والكرم، وقرى الضيف^(١).

«انتهى تفسير سورة النور»



= ﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ٩٠ وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَنْزِلُوا مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ٩٢ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَ ٩٣ فُكُّبِكُومًا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ٩٤ وَجَنُودٌ أَلَيْسَ أَجْمَعُونَ ٩٥ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ٩٦ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ٩٧ إِذْ سَأَلْتُمْ رَبِّي الْعَالَمِينَ ٩٨ وَمَا أَضَلُّنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ ٩٩ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ١٠١ قَالُوا أَنْ لَنَا كَرَّةٌ فَنُكُونُ مِنْ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿الشعراء: ٩٠ - ١٠٢﴾. أَمَّا الْجَهَنَّمِيُّونَ الَّذِينَ يَعْذَّبُونَ فِي النَّارِ ثُمَّ يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فَهُمْ مِنْ عَصَاةِ الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ جَاءَ ذِكْرُهُمْ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ، قَالَ ﷺ: «يُخْرَجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، يُسَمَّوْنَ الْجَهَنَّمِيِّينَ» رواه البخاري. وفي حديث الشفاعة الطويل: فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ: هَؤُلَاءِ الْجَهَنَّمِيُّونَ. فَيَقُولُ الْجَبَّارُ: بَلْ هَؤُلَاءِ عَتَقَاءُ الْجَبَّارِ». أخرجه أحمد والدارمي وابن خزيمة في التوحيد، وقال الألباني: «وسندهم صحيح على شرط الشيخين». قال ﷺ: «يُخْرَجُ اللَّهُ أَنْاسًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ النَّارِ بَعْدَمَا يَأْخُذُ نِقْمَتَهُ مِنْهُمْ، قَالَ: لَمَّا أَدْخَلَهُمُ اللَّهُ النَّارَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، قَالَ الْمُشْرِكُونَ: أَلَيْسَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ فِي الدُّنْيَا أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ فَمَا لَكُمْ مَعَنَا فِي النَّارِ، فَإِذَا سَمِعَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْهُمْ أَدْنَى فِي الشَّفَاعَةِ، فَيَسْتَفْعِلُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَالنَّبِيُّونَ حَتَّى يَخْرُجُوا بِإِذْنِ اللَّهِ، فَلَمَّا أَخْرَجُوا، قَالُوا: يَا لَيْتَنَا كُنَّا مِثْلَهُمْ، فَتَدْرِكُنَا الشَّفَاعَةُ، فَنُخْرَجُ مِنَ النَّارِ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢]، قَالَ: فَيُسَمَّوْنَ فِي الْجَنَّةِ الْجَهَنَّمِيِّينَ مِنْ أَجْلِ سَوَادٍ فِي وُجُوهِهِمْ، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا أَذْهَبَ عَنَّا هَذَا الْإِسْمُ، قَالَ: فَيَأْمُرُهُمْ فَيَغْتَسِلُونَ فِي نَهْرٍ فِي الْجَنَّةِ فَيَذْهَبُ ذَلِكَ مِنْهُمْ» (رواه ابن حبان وصححه الألباني).

(١) (ش): قرى الضيف قرى وقرى: أضافه وأكرمه، أحسن إليه.

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

٧٧

٢٥

مكية وآياتها سبع وسبعون

بين يدي السورة

سورة الفرقان مكية وهي تعنى بشئون العقيدة، وتعالج شبهات المشركين حول رسالة محمد ﷺ وحول القرآن العظيم، ومحور السورة يدور حول إثبات صدق القرآن، وصحة الرسالة المحمدية، وحول عقيدة الإيمان بالبعث والجزاء، وفيها بعض القصص للعتة والاعتبار.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن الذي تفنن المشركون بالطعن فيه، والتكذيب بآياته، فتارة زعموا أنه أساطير الأولين، وأخرى زعموا أنه من اختلاق محمد أعانه عليه بعض أهل الكتاب، وثالثة زعموا أنه سحر مبين، فردّ الله تعالى عليهم هذه المزاعم الكاذبة، والأوهام الباطلة، وأقام الأدلة والبراهين على أنه تنزيل رب العالمين، ثم تحدثت عن موضوع الرسالة التي طالما خاض فيها المشركون المعاندون، واقترحوا أن يكون الرسول ملكاً لا بشراً، وأن تكون الرسالة -على فرض تسليم الرسول من البشر- خاصة بذوي الجاه والثراء، فتكون لإنسان غني عظيم، لا لفقر يتييم، وقد ردّ الله تعالى شبهتهم بالبرهان القاطع، والحجة الدامغة التي تقصم ظهر الباطل.

* ثم ذكرت الآيات فريقاً من المشركين عرفوا الحق وأقروا به، ثم انتكسوا إلى جحيم الضلال، وذكرت منهم «عقبة بن أبي معيط» الذي أسلم ثم ارتد عن الدين بسبب صديقه الشقي «أبي بن خلف» وقد سماه القرآن الكريم بالظالم ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ الآية وسمى صديقه بالشیطان^(١).

(١) (ش): قصة إسلام عقبة موضوعة، أخرجها أبو نعيم في «دلائل النبوة» بإسناد فيه كذابون.

ولكن صح أن الآية نزلت فيه فعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ يقول يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ ﴿[الفرقان: ٢٧]﴾. قَالَ: نَزَلَتْ فِي عَقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، كَانَ يَجْلِسُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِمَكَّةَ لَا يُؤْذِيهِ، وَكَانَ رَجُلًا حَلِيمًا، وَكَانَ بَقِيَّةُ قُرَيْشٍ إِذَا جَلَسُوا مَعَهُ آذَوْهُ، وَكَانَ لِعَقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ خَلِيلٌ غَائِبٌ عَنْهُ بِالشَّامِ فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: «صَبَأُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ». وَقَدِمَ خَلِيلُهُ مِنَ الشَّامِ لَيْلًا، فَقَالَ لِأَمْرَأَتِهِ: «مَا فَعَلَ مُحَمَّدٌ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ؟»، فَقَالَتْ: «أَشَدَّ مَا كَانَ أَمْرًا»، فَقَالَ: «مَا فَعَلَ خَلِيلِي ابْنُ أَبِي مُعَيْطٍ؟»، فَقَالَتْ: «صَبَأٌ». فَبَاتَ بَلِيلَةً سُوءٍ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَنَّهُ ابْنُ أَبِي مُعَيْطٍ فَحَيَّاهُ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ التَّحِيَّةَ، فَقَالَ: «مَا لَكَ لَا تَرُدُّ عَلَيَّ تَحِيَّتِي؟»، فَقَالَ: «كَيْفَ أَرُدُّ عَلَيْكَ تَحِيَّتَكَ وَقَدْ صَبَوْتَ؟»، قَالَ: «أَوْقَدْ فَعَلْتَهَا قُرَيْشٌ؟»، قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: «فَمَا يُبْرِي صُدُورَهُمْ إِنْ أَنَا فَعَلْتُهُ؟»، قَالَ: «تَأْتِيهِ فِي مَجْلِسِهِ، فَتَبْرُقُ فِي وَجْهِهِ، وَتَشْتُمُهُ بِأَخْبَثِ مَا تَعْلَمُ مِنَ الشَّمِّ». فَفَعَلَ، فَلَمْ يَزِدْ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ مَسَحَ وَجْهَهُ مِنَ الْبَرَاقِ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَيْهِ فَقَالَ: «إِنْ وَجَدْتِكَ خَارِجًا مِنْ جِبَالِ مَكَّةَ، أَضْرِبُ عُنُقَكَ =

* وفي ثنایا السورة الكريمة جاء ذكر بعض الأنبياء إجمالاً وجاء الحديث عن أقوامهم المكذبین، وما حلَّ بهم من النكال والدمار نتيجة لطغيانهم وتكذيبهم لرسول الله كقوم نوح، وعاد، وثمود، وأصحاب الرس وقوم لوط، وغيرهم من الكافرين الجاحدين، كما تحدثت السورة عن دلائل قدرة الله ووحدانيته، وعن عجائب صنعه وآثار خلقه في هذا الكون البديع، الذي هو أثر من آثار قدرة الله، وشاهد من شواهد العظمة والجلال.

وختمت السورة ببيان صفات عباد الرحمن، وما أكرمهم الله به من الأخلاق الحميدة التي استحقوا بها الأجر العظيم في جنات النعيم.

التسمية: سميت السورة الكريمة «سورة الفرقان» لأن الله تعالى ذكر فيها هذا الكتاب المجيد الذي أنزله على عبده محمد ﷺ وكان النعمة الكبرى على الإنسانية لأنه النور الساطع والضياء المبين، الذي فرق الله به بين الحق والباطل، والنور والظلام، والكفر والإيمان، ولهذا كان جديرًا بأن يسمى الفرقان.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝ (١) الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا ۝ (٢) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْ يَنْفُسَهُمْ صُرًا وَلَا تَنْفَعُوا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ۝ (٣) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۝ (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝ (٥) أَكُتِّبَ فِيهَا فِيهِ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ (٦) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ (٦)

= صَبْرًا، فَلَمَّا كَانَ يَوْمٌ بَدْرٌ، وَخَرَجَ أَصْحَابُهُ، أَبِي أَنْ يَخْرُجَ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: «اُخْرُجْ مَعَنَا»، قَالَ: تَوَعَّدَنِي هَذَا الرَّجُلُ إِنْ وَجَدَنِي خَارِجًا مِنْ جِبَالِ مَكَّةَ أَنْ يَضْرِبَ عُنُقِي صَبْرًا، فَقَالُوا: «لَكَ جَمَلٌ أَحْمَرٌ لَا يُدْرِكُ، فَلَوْ كَانَتْ الْهَزِيمَةُ، طُرْتَ عَلَيْهِ». فَخَرَجَ مَعَهُمْ، فَلَمَّا هَزَمَ اللَّهُ الْمُشْرِكِينَ، وَحَلَّ بِهِ جَمَلُهُ فِي جُدَدٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَسِيرًا فِي سَبْعِينَ مِنْ قُرَيْشٍ، فَأَمَرَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يُقْتَلَ، فَقَالَ: «يَا مُحَمَّدُ: مِنْ بَيْنِ هَؤُلَاءِ أَتُقْتَلُ؟»، قَالَ: «نَعَمْ». فَقَالَ: «لَمْ؟»، قَالَ: «بِمَا نَزَّ فِي وَجْهِ»، قَالَ: «فَمَنْ لِلصَّبِيَّةِ؟»، قَالَ: «النَّارُ»، فَقَامَ عَلَيَّ بَنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَضْرَبَ عُنُقَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصِي الْأَطْلَامُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ بَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ (٢٧) يَتَوَلَّى لَيْتَنِي لَوْ أَخَذْتُ فَلَانَا خَلِيلًا ۝ (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ۝﴾ [الفرقان: ٢٧]. (رواه أبو نعيم في دلائل النبوة بسند صحيحه الألباني، وروى بعضه أبو داود، وصححه الألباني). أَضْرَبَ عُنُقَكَ صَبْرًا: كُلُّ مَنْ قُتِلَ فِي غَيْرِ مَعْرَكَةٍ وَلَا حَرْبٍ وَلَا خَطَأٍ، فَإِنَّهُ مَقْتُولٌ صَبْرًا. (وَحَلَّ بِهِ جَمَلُهُ فِي جُدَدٍ مِنَ الْأَرْضِ): الْوَحْلُ / الْوَحْلُ: الطَّيْنُ الرَّقِيقُ، (وَحَلَّ): أَيُّ وَقَعَ فِي الْوَحْلِ. (الْجُدَدُ): مَا اسْتَوَى مِنَ الْأَرْضِ.

يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُفُّ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُقِيلَ إِلَيْهِ كَنْزًا أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّطًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ﴿١٣﴾ لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كُنَّا بِبَنِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاؤَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا

اللغة: ﴿تَبَارَكَ﴾ من البركة وهي كثرة الخير وزيادته ويأتي بمعنى التمجيد والتعظيم قال الشاعر:

تَبَارَكْتَ لَا مُعْطٍ لِسَيِّئٍ مَنَعْتُهُ
وَلَيْسَ لِمَا أُعْطِيَتْ يَا رَبِّ مَانِعٌ ^(١)
﴿نَذِيرًا﴾ النذير: المحذّر من الهلاك ﴿ثُبُورًا﴾ النشور: الإحياء بعد الموت ﴿مُقَرَّنِينَ﴾
مربوطين بالسلاسل قال عمرو بن كلثوم:
فَأَبْأَوْا بِالنَّهَابِ وَبِالسَّبَايَا
وَأُبْنَا بِالْمُلُوكِ مُقَرَّرِينَ ^(٢)
﴿ثُبُورًا﴾ هلاكًا ودمارًا ﴿بُورًا﴾ مأخوذ من البوار وهو الهلاك، قال أبو عبيدة: يقال
رجلٌ بور ورجال بور ومعناه هالك، والبوار الهلاك ^(٣).

التفسير: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ أي تمجّد وتعظّم وتكاثر خير الله الذي
نَزَّلَ القرآن العظيم الفارق بين الحق والباطل على عبده محمد ﷺ ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ
نَذِيرًا﴾ أي ليكون محمد نبيًا للخلق أجمعين مخوفًا لهم من عذاب الله ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هو تعالى المالك لجميع ما في السماوات والأرض خلقًا وملكًا
وعبيدًا ﴿وَلَمْ يَنْخِذْ وَلَدًا﴾ أي وليس له ولد كما زعم اليهود والنصارى ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ

(١) البيت للطرماح وانظر «البحر المحيط» ٦/ ٤٨٠.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٨. (ش): آب: رجع وعاد. النَّهَاب: جمع نَهَب، وهو المنهوب، أي ما يؤخذ قهراً.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٤/ ٦٣.

فِي الْمُلْكِ ﴿١﴾ أَي وَلَيْسَ مَعَهُ إِلَهٌ كَمَا قَالَ عَبْدُ الْأَوْثَانِ ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدْ رُءِّي بُدْرًا﴾ ﴿٢﴾ أَي أَوْجَدَ كُلَّ شَيْءٍ بِقُدْرَتِهِ مَعَ الْإِتْقَانِ وَالْإِحْكَامِ قَالَ فِي «التسهيل»: الخلق عبارة عن الإيجاد بعد العدم، والتقدير عبارة عن إتقان الصنعة وتخصيص كل مخلوق بمقداره، وصنعته، وزمانه ومكانه، ومصلحته وأجله وغير ذلك ^(١) وقال الرازي: وصف سبحانه ذاته بأربعة أنواع من صفات الكبرياء: الأول: أنه المالك للسموات والأرض وهذا كالتنبية على وجوده والثاني: أنه هو المعبود أبداً والثالث: أنه المنفرد بالألوهية. والرابع: أنه الخالق لجميع الأشياء مع الحكمة والتدبير ^(٢) ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ أَي عبد المشركون غير الله من الأوثان والأصنام ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أَي لا يقدرُونَ على خلق شيء أصلاً بل هم مصنوعون بالنحت والتصوير فكيف يكونون آلهة مع الله؟ ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أَي لا يستطيعون دفع ضرر عنهم ولا جلب نفع لهم ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا شُورًا﴾ أَي لا تملك أن تُميت أحداً، ولا أن تُحيي أحداً ولا أن تبعث أحداً من الأموات قال الزمخشري: المعنى أنهم آثروا على عبادة الله عبادة آلهة لا يقدرُونَ على شيء، وإذا عجزوا عن دفع الضرر وجلب النفع الذي يقدر عليه العباد كانوا عن الموت والحياة والنشور الذي لا يقدر عليها إلا الله أعجز ^(٣) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ﴾ أَي وقال كفار قريش: ما هذا القرآن إلا كذب اختلقه محمد من تلقاء نفسه ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ أَي وساعده على الاختلاق قومٌ من أهل الكتاب ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ أَي جاءوا بالظلم والبهتان حيث جعلوا العربي يتلقن من العجمي كلاماً عربياً أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب فكان كلامهم فيه محض الكذب والزور ﴿وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾ أَي وقالوا في حق القرآن أيضاً: إنه خرافات الأمم السابقين أمر أن تكتب له ﴿فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أَي فهي تُلقى وتقرأ عليه ليحفظها صباحاً ومساءً قال ابن عباس: والقائل هو «النضر بن الحارث» وأتباعه. والإفك أسوأ الكذب ^(٤) ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا ردٌ عليهم في تلك المزاعم أي قل لهم يا محمد: أنزل الله العليم القدير الذي لا يخفى عليه شيء في السموات والأرض ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أَي إنه تعالى لم يعجل لكم العقوبة بل أمهلكم رحمة بكم لأنه واسع المغفرة رحيم بالعباد ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمَشِي فِي

(١) «التسهيل» ٣/ ٧٤.

(٢) «التفسير الكبير» ٢٤/ ٤٦.

(٣) «الكشاف» ٣/ ١١٥.

(٤) «البحر المحيط» ٦/ ٤٨١.

الْأَسْوَاقِ ﴿١﴾ أي وقال المشركون: ما لهذا الذي يزعم الرسالة يأكل الطعام كما نأكل، ويمشي في الأسواق لطلب المعاش كما نمشي؟ إنه ليس بملك ولا ملك، لأن الملائكة لا تأكل، والملوك لا تتبدل في الأسواق، وفي قولهم ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ﴾ مع إنكارهم لرسالته تهكم واستهزاء ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَهُهُ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرٌ﴾ أي هلاً بعث الله معه ملكاً ليكون له شاهداً على صدق ما يدعيه ﴿أَوْ يُلْقَى إِلَهُهُ كَنزٌ﴾ أي يأتيه كنز من السماء فيستعين به ويستغني عن طلب المعاش ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أي يكون له بستان يأكل من ثماره ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ أي وقال الكافرون ما تتبعون أيها المؤمنون إلا إنساناً سحر فغلب على عقله فهو يزعم أنه رسول الله ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا﴾ أي انظر كيف قالوا في حقك يا محمد تلك الأقاويل العجيبة، الجارية لغرابتها مجرى الأمثال وكيف اخترعوا تلك الصفات والأحوال الشاذة فضلوا بذلك عن الهدى! ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي فلا يجدون طريقاً إلى الحق بعد أن ضلوا عنه بتكذيبك وإنكار رسالتك، ذكروا له عليه الصلاة والسلام خمس صفات وزعموا أنها تخل بالرسالة زعماً منهم أن فضيلة الرسول على غيره تكون بأمرٍ جسمانية وهي غاية الجهالة والسفاهة فردَّ الله عليهم بأمرين: الأول: تعجيب الرسول ﷺ من تناقضهم فتارة يقولون عنه شاعر، وتارة ساحر، وأخرى يقولون إنه مجنون حتى أصبحت تلك الأقوال الغريبة الشاذة، والأمور العجيبة جارية مجرى الأمثال والثاني: أن الله تعالى لو أراد لأعطى نبيه خيراً مما اقترحوا وأفضل مما يتصورون وهو المراد بقوله ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾ أي تمدد وتعظم الله الكبير الجليل الذي لو أراد لجعل لك خيراً من ذلك الذي ذكروه من نعيم الدنيا ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي لو شاء لأعطاك بساتين وحدائق تسير فيها الأنهار لا جنة واحدة كما قالوا ﴿وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا﴾ أي ويجعل لك مع الحدائق القصور الرفيعة المشيدة كما هو حال الملوك قال الضحاك: لما غير المشركون رسول الله ﷺ بالفاقة حزن عليه السلام فنزل جبريل معزياً له فينما النبي وجبريل يتحدثان إذ فُتِحَ باب من السماء فقال جبريل: أبشر يا محمد هذا رضوان خازن الجنة قد أتاك بالرضى من ربك فسلم عليه وقال: ربك يخيّر بين أن تكون نبياً ملكاً، وبين أن تكون نبياً عبداً - ومعه سبط من نور يتلأأ - ثم قال: هذه مفاتيح خزائن الأرض فنظر رسول الله ﷺ إلى جبريل كالمستشير فأوماً بيده أن تواضع فقال رسول الله ﷺ «بل نبياً عبداً» فكان عليه السلام بعد ذلك لا يأكل متكاً حتى فارق الدنيا^(١) ﴿بَلْ كَذَّبُوا

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٤٤٤/٣. (ش): رواه الواحدي «في أسباب النزول»، بإسناد ضعيف جداً. =

بِالسَّاعَةِ ﴿١﴾ أَي بَلْ كَذَبُوا بِالْقِيَامَةِ ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ ﴿٢﴾ أَي وَهَيَّأْنَا لِمَنْ كَذَبَ بِالْآخِرَةِ نَارًا شديدة الاستعار قال الطبري: المعنى ما كذب هؤلاء المشركون بالله وأنكروا ما جئتهم به من الحق من أجل أنك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق ولكن من أجل أنهم لا يوقنون بالمعاد تكذيباً منهم بالقيامة وأعدنا لمن كذب بالبعث نارا تُسَعَّر عليهم وتتقد ^(١) ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أَي إِذَا رَأَتْ جَهَنَّمَ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ مِنْ مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ وَهِيَ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ ^(٢) ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا﴾ أَي سَمِعُوا صَوْتَ لَهْيِهَا وَغَلِيَانِهَا كَالْغَضْبَانِ إِذَا غَلََا صَدْرُهُ مِنَ الْغَيْظِ وَسَمِعُوا لَهَا صَوْتًا كَصَوْتِ الْحِمَارِ وَهُوَ الزَّفِيرُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «إِنَّ الرَّجُلَ لِيَجْرُ إِلَى النَّارِ، فَتَشْهَقُ إِلَيْهِ النَّارُ شُهْقَ الْبَغْلَةِ إِلَى الشَّعِيرِ، وَتَزْفَرُ زَفْرَةً لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا خَافَ» ^(٣)، وَتَقْيِيدُ الرُّؤْيَةِ بِالْبَعْدِ ﴿مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ فِيهِ مَزِيدٌ تَهْوِيلٌ لِأَمْرِهَا ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ أَي وَإِذَا أُلْقُوا فِي جَهَنَّمَ فِي مَكَانٍ ضَيِّقٍ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَضْيِيقٌ عَلَيْهِمْ ضَيْقُ الزُّجِّ فِي الرُّمَحِ ^(٤) - الزُّجُّ: الْحَدِيدَةُ الَّتِي فِي أَسْفَلِ الرُّمَحِ ^(٥) - ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ أَي مُصَفَّدِينَ قَدْ قَرَنْتَ أَيْدِيَهُمْ إِلَى أَعْنَاقِهِمْ بِالسَّلَاسِلِ ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ أَي دَعَوْا فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْوَيْلِ وَالْهَلَاكِ يَقُولُونَ: يَا هَلَاكُنَا، نَادَوْهُ نَدَاءَ الْمُتَمَنِّيِّ لِلْهَلَاكِ لِيَسْلَمُوا مِمَّا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ كَمَا قِيلَ: أَشَدُّ مِنَ الْمَوْتِ مَا يُتَمَنَّى مَعَهُ الْمَوْتُ ﴿لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ أَي يَقَالُ لَهُمْ: لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ بِالْهَلَاكِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَرَّةً وَاحِدَةً بَلْ ادْعُوا مَرَاتٍ وَمَرَاتٍ، فَإِنَّ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ يَسْتَوْجِبُ تَكَرُّرَ الدَّعَاءِ فِي كُلِّ حِينٍ وَآنَ، وَفِيهِ إِقْنَاطٌ لَهُمْ مِنْ اسْتِجَابَةِ الدَّعَاءِ وَتَخْفِيفِ الْعَذَابِ ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ ؟ أَي قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيعِ وَالتَّهَكُّمِ:

= وَرَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ، وَابْنُ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: جَلَسَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مَلَكٌ يَنْزِلُ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: إِنَّ هَذَا الْمَلَكُ مَا نَزَلَ مُنْذُ يَوْمِ خُلِقَ، قَبْلَ السَّاعَةِ، فَلَمَّا نَزَلَ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ رَبُّكَ، أَفَمَلِكًا نَبِيًّا يَجْعَلُكَ، أَوْ عَبْدًا رَسُولًا؟ قَالَ جِبْرِيلُ: تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ. قَالَ: «بَلْ عَبْدًا رَسُولًا» (رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ وَأَحْمَدُ شَاكِرٌ وَالْأَرْنَؤُوطُ). وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه قَالَ: مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْكُلُ مُتَكَبِّرًا قَطُّ [رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهَ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ].

(١) «تفسير الطبري» ١٨ / ١٤٠.

(٢) (ش): لم أجد نصًّا ثابتًا يدل على ذلك.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢ / ٦٢٦. (ش): رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرَانِيُّ فِي «تفسيره» وَصَحَّحَ إِسْنَادَهُ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ.

(٤) «البحر المحيط» ٦ / ٤٨٥.

(٥) (ش): أَي إِنَّهَا تَضْيِيقٌ عَلَيْهِمْ كَالضَّيْقِ الَّذِي بَيْنَ الزُّجِّ وَالرُّمَحِ وَالَّذِي يَحْدُثُ بِسَبَبِ تَرْكِيبِ الزُّجِّ فِي أَسْفَلِ الرُّمَحِ.

ذلك السعير خيرٌ أم جنة الخلود التي وعدّها المتقون؟ قال ابن كثير: يقول الله تعالى يا محمد: هذا الذي وصفناه لك من حال الأشقياء الذين تتلقاهم جهنم بوجه عبوسٍ وتغيظٍ وزفير، ويلقون في أماكنها الضيقة مقرّنين لا يستطيعون حراكاً ولا فكاكاً مما هم فيه، أهذا خيرٌ أم جنة الخلد التي وعدّها الله المتقين من عباده^(١) قال الإمام الفخر: فإن قيل كيف يقال: العذاب خيرٌ أم جنة الخلد؟ وهل يجوز أن يقول العاقل: السكر أحلى أم الصبر؟ قلنا: هذا يحسن في معرض التفرّيع كما إذا أعطى السيد عبده مالا فتمرد وأبى واستكبر فيضربه ضرباً وجيعاً ويقول على سبيل التوبيخ: أهذا أطيب أم ذاك؟^(٢) ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾ أي كانت لهم ثواباً ومرجعاً ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ أي لهم في الجنة ما يشاءون من النعيم ﴿خَالِدِينَ﴾ أي ماكثين فيها أبداً سرمداً بلا زوال ولا انقضاء ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ أي كان ذلك الجزاء وعداً على ذي الجلال حقيقة بأن يسأل ويطلب لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون، وهو وعدٌ واجب ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي واذكر ذلك اليوم الرهيب - يوم القيامة - حين يجمع الله الكفار والأصنام وكل من عبد من دون الله كالملائكة والمسيح قال مجاهد: هو عيسى وعزير والملائكة ﴿فَيَقُولُ أَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ﴾ أي فيقول تعالى للمعبودين تفرّيعاً لعبادتهم: أنتم دعوتهم هؤلاء إلى عبادتكم؟ ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ أي أم هم ضلوا الطريق فعبدوكم من تلقاء أنفسهم؟ ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ﴾ أي قال المعبودون تعجباً مما قيل لهم: تنزهت يا الله عن الأنداد ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي ما يحق لنا ولا لأحد من الخلق أن يعبد غيرك، ولا أن يشرك معك سواك ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾ أي ولكن أكثرت عليهم وعلى آبائهم النعمة - وكان يجب عليهم شكرها والإيمان بما جاءت به الرسل - فكان ذلك سبباً للإعراض عن ذكرك وشكرك ﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ أي وكانوا قومًا هالكين، قال تعالى توبيخاً للكفرة ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي فقد كذبكم هؤلاء المعبودون في قولكم: إنهم آلهة ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ أي فما تستطيعون أيها الكفار دفعاً للعذاب عنكم ولا نصراً لأنفسكم من هذا البلاء ﴿وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ أي ومن يشرك منكم بالله فيظلم نفسه نذقه عذاباً شديداً في الآخرة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ أي وما أرسلنا قبلك يا محمد أحداً من الرسل إلا وهم

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٢٦.

(٢) «التفسير الكبير» ٢٤/ ٥٧.

يأكلون ويشربون ويتجولون في الأسواق للتكسب والتجارة، فتلك هي سنة المرسلين من قبلك فلم ينكروا ذلك عليك؟ وهو جواب عن قولهم ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾؟ ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ أي جعلنا بعض الناس بلاءً لبعض ومحنة، ابتلى الله الغني بالفقير، والشریف بالوضيع، والصحيح بالمريض ليختبر صبركم وإيمانكم أشكرون أم تكفرون؟ قال الحسن: يقول الأعمى لو شاء الله لجعلني بصيراً مثل فلان، ويقول الفقير: لو شاء الله لجعلني غنياً مثل فلان، ويقول السقيم: لو شاء الله لجعلني صحيحاً مثل فلان^(١) ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أي عالماً بمن يصبر أو يجزع، وبمن يشكر أو يكفر.

البلاغة: تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبدیع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الإضافة للتشريف ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ ولم يذكره باسمه تشريفاً له وتكريماً.
- ٢ - الاكتفاء بأحد الوصفين ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ أي ليكون بشيراً ونذيراً واكتفى بالإنذار لمناسبته للكفار.
- ٣ - الجناس الناقص ﴿يَخْلُقُونَ.. يُخْلَقُونَ﴾ سمي ناقصاً لتغايره في الشكل.
- ٤ - الطباق بين ﴿ضَرًّا.. نَفْعًا﴾ وبين ﴿مَوْتًا.. حَيَوَةً﴾.
- ٥ - الاستفهام للتهكم والتحقير ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾؟
- ٦ - الاستعارة التمثيلية ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا﴾ شبه صوت غليانها بصوت المغتاط وزفيره وهو صوت يسمع من جوفه وهو تمثيل وصف النار بالاهتياج والاضطرام على عدة المغيظ والغضبان.
- ٧ - جناس الاشتقاق ﴿أَرْسَلْنَا.. الْمُرْسَلِينَ﴾.

٨ - الجناس غير التام ﴿أَتَصْبِرُونَ.. بَصِيرًا﴾ لتقديم بعض الحروف وتأخير البعض.

لطيفة: نبه تعالى بقوله ﴿الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾ على أنه تعالى يعطي العباد على حسب المصالح، فيفتح على واحد أبواب المعارف والعلوم ويسد عليه أبواب الدنيا، ويفتح على آخر أبواب الرزق ويحرمه لذة الفهم والعلم، ولا اعتراض عليه لأنه فعال لما يريد.

قال الله تعالى:

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿١١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا ﴿١٢﴾ وَقَدْ مَنَّآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿١٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا

وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِيمِ ﴿٢٥﴾ نَزَّلَ الْمَلَكُ تَنْزِيلًا ﴿٢٦﴾ أَلَمْ يَكُنْ عَلَى يَدَيْهِ يَكْفُلُ يَلَيِّنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَوَلِّقُنِي لَمَّا أَخَذْتُهَا خَالِيًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنُ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْغْنَهُمْ نَذِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمُ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَاهُ الْأَمْثَلُ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَنَا عَلَى الْغُرِّهِ الَّتِي أَمْطَرْتُ مَطَرُ السَّوَاءِ أَكَلَمُ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَتَّخِذُونَ شُورًا

المناسبة: لما حكى تعالى إنكار المشركين لنبوة محمد عليه السلام وتكذيبهم للقرآن، أعقبه بذكر بعض جرائمهم الأخرى، ثم ذكر قصص بعض الأنبياء وما حل بأقوامهم المكذبين تسلياً لرسول الله عليه الصلاة والسلام.

اللغة: ﴿حَجَرًا﴾ بكسر الحاء حراماً من حَجَرَهُ إِذَا مَنَعَهُ قَالَ الشَّاعِرُ: «أَلَا أَصْبَحْتُ أَسْمَاءً حَجَرًا مُحَرَّمًا»... أي حراماً محرماً^(١)

﴿هَبَاءً﴾ قال أبو عبيدة: الهباء مثل الغبار يدخل من الكوة^(٢) مع ضوء الشمس ﴿مَنْثُورًا﴾ المنشور: المتفرق ﴿مَقِيلًا﴾ المقييل: زمان القيلولة وهي الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحر^(٣) ﴿تَبَرَّنَا﴾ التبير: التدمير والتكسير قال الزجاج: كل شيء كسرتة وفتته فقد تبرته.

سبب النزول: روي أن «عقبة بن أبي معيط» وكان صديقاً لأبي بن خلف صنع وليمة فدعا إليها قريشاً ودعا رسول الله ﷺ فلما قدم الطعام قال رسول الله ﷺ: «ما أنا بأكل طعامك حتى تشهد أني رسول الله» ففعل فأكل رسول الله من طعامه فلما بلغ «أبي بن خلف» ذلك قال لصديقه عقبة: صبات. قال: لا ولكن دخل علي رجل عظيم فأبى أن يأكل

(١) (ش):

أَلَا أَصْبَحْتُ أَسْمَاءً حَجَرًا مُحَرَّمًا وَأَصْبَحْتُ مِنْ أَذَى حُمُوتِهَا حَمًا. هذا البيت قاله رجل كانت له امرأة فطلقها وتزوجها أخوه، أي أصبحت أختاً وزوجها بعد ما كنت زوجته.

(٢) (ش): كَوَّة/ كَوَّة: فتحة أو نافذة للتهوية والإضاءة ونحوهما.

(٣) (ش): مَقِيل: موضع القيلولة، مكان الراحة وقت القيلولة. وقد قال المؤلف ذلك في تفسير الآية.

طعامي حتى أشهد له بالرسالة فقال له أبي: وجهي من وجهك حرام إن رأيت محمداً حتى تبزق في وجهه وتطأ على عنقه وتقول كيت وكيت، ففعل عدو الله ما أمره به خليله فأنزل الله ﴿وَيَوْمَ يَعْصِي الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ..﴾ الآية (١).

التفسير: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي قال المشركون الذين لا يرجون لقاء الله، ولا يخشون عقابه لتكذيبهم بالبعث والنشور: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْنَا الْمَلَكِ كُتُبًا﴾ أي هلاً نزلت الملائكة علينا فأخبرونا بصدق محمد ﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ أي أو نرى الله عياناً فيخبرنا أنك رسوله قال أبو حيان: وهذا كله على سبيل التعتن وإلا فما جاءهم به من المعجزات كافٍ لو وفقوا (٢) ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي تكبروا في شأن أنفسهم حين تفوهوا بمثل هذه العظيمة، وطلبوا ما لا ينبغي ﴿وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ أي تجاوزوا الحد في الظلم والطغيان، حتى بلغوا أقصى العتو وغاية الاستكبار ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ أي يوم يرى المشركون الملائكة حين تنزل لقبض أرواحهم وقت الاحتضار لن يكون

(١) «التفسير الكبير» ٢٤ / ٧٥. (ش) (ش): قصة إسلام عقبة موضوعه، أخرجها أبو نعيم في «دلائل النبوة» بإسناد فيه كذابون. ولكن صح أن الآية نزلت فيه فعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصِي الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ يقول يَلْبِسُنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ ﴿الفرقان: ٢٧﴾. قَالَ: نَزَلَتْ فِي عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، كَانَ يَجْلِسُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِمَكَّةَ لَا يُؤْذِيهِ، وَكَانَ رَجُلًا حَلِيمًا، وَكَانَ بَقِيَّةَ قُرَيْشٍ إِذَا جَلَسُوا مَعَهُ أَدْوَهُ، وَكَانَ لِعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ خَلِيلٌ غَائِبٌ عَنْهُ بِالشَّامِ فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: «صَبَّابُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ». وَقَدِمَ خَلِيلُهُ مِنَ الشَّامِ لَيْلًا، فَقَالَ لِأَمْرَأَتِهِ: «مَا فَعَلَ مُحَمَّدٌ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ؟»، فَقَالَتْ: «أَشَدَّ مَا كَانَ أَمْرًا»، فَقَالَ: «مَا فَعَلَ خَلِيلِي ابْنُ أَبِي مُعَيْطٍ؟»، فَقَالَتْ: «صَبَّابٌ». فَكَانَتْ بَلِيلَةً سَوْءٍ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَنَاهُ ابْنُ أَبِي مُعَيْطٍ فَحْيَاهُ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ التَّحِيَّةَ، فَقَالَ: «مَا لَكَ لَا تَرُدُّ عَلَيَّ تَحِيَّتِي؟»، فَقَالَ: «كَيْفَ أَرُدُّ عَلَيْكَ تَحِيَّتَكَ وَقَدْ صَوَّتَ؟»، قَالَ: «أَوْقَدْ فَعَلْتَهَا قُرَيْشٌ؟»، قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: «فَمَا يُبْرِئُ صُدُورَهُمْ إِنْ أَنَا فَعَلْتُهُ؟»، قَالَ: «تَأْتِيهِ فِي مَجْلِسِهِ، فَتَبْزُقُ فِي وَجْهِهِ، وَتَشْتُمُهُ بِأَخْبَثِ مَا تَعْلَمُ مِنَ الشَّتْمِ». فَفَعَلَ، فَلَمْ يَرُدَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ مَسَحَ وَجْهَهُ مِنَ الْبَرَاقِ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَيْهِ فَقَالَ: «إِنْ وَجَدْتُكَ خَارِجًا مِنْ جِبَالِ مَكَّةَ، أَضْرِبُ عُنُقَكَ صَبْرًا»، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ، وَخَرَجَ أَصْحَابُهُ، أَبِي أَنْ يَخْرُجَ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: «اخْرُجْ مَعَنَا»، قَالَ: تَوَعَّدَنِي هَذَا الرَّجُلُ إِنْ وَجَدَنِي خَارِجًا مِنْ جِبَالِ مَكَّةَ أَنْ يَضْرِبَ عُنُقِي صَبْرًا، فَقَالُوا: «لَكَ جَمَلٌ أَحْمَرٌ لَا يُدْرِكُ، فَلَوْ كَانَتْ الْهَزِيمَةُ، طَرَتْ عَلَيْهِ». فَخَرَجَ مَعَهُمْ، فَلَمَّا هَزَمَ اللَّهُ الْمُشْرِكِينَ، وَحَلَّ بِهِ جَمَلُهُ فِي جَدِّ مِنَ الْأَرْضِ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَسِيرًا فِي سَبْعِينَ مِنْ قُرَيْشٍ، فَأَمَرَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يُقْتَلَ، فَقَالَ: «يَا مُحَمَّدُ: مَنْ بَيْنَ هَؤُلَاءِ أَقْتُلُ؟»، قَالَ: «نَعَمْ». فَقَالَ: «لِمَ؟»، قَالَ: «بِمَا بَرَقَتْ فِي وَجْهِهِ»، قَالَ: «فَمَنْ لِلصَّبِيَّةِ؟»، قَالَ: «النَّارُ»، فَقَامَ عَلَيَّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَضْرَبَ عُنُقَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصِي الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ يَلْبِسُنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَوَلِّيَنِي لَتَنِي لَمْ أَخْذُ فَلَانَا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَصْلَحَنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿الفرقان: ٢٧﴾. (رواه أبو نعيم في دلائل النبوة بسند صحيحه الألباني، وروى بعضه أبو داود، وصححه الألباني). أَضْرِبُ عُنُقَكَ صَبْرًا: كُلُّ مَنْ قُتِلَ فِي غَيْرِ مَعْرَكَةٍ وَلَا حَرْبٍ وَلَا خَطَأٍ، فَإِنَّهُ مَقْتُولٌ صَبْرًا. (وَحَلَّ بِهِ جَمَلُهُ فِي جَدِّ مِنَ الْأَرْضِ): الْوَحْلُ / الْوَحْلُ: الطَّيْنُ الرَّفِيقُ، (وَحَلَّ): أَيَّ وَقَعَ فِي الْوَحْلِ. (الجدد): مَا اسْتَوَى مِنَ الْأَرْضِ.

(٢) «البحر المحيط» ٦ / ٤٩١.

للمجرمين يومئذ بشارة تسرهم بل لهم الخيبة والخسران ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ أي تقول الملائكة لهم: حرام ومحرم عليكم الجنة والبُشرى والغفران قال ابن كثير: وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار، فتقول للكافر عند خروج روحه: أخرجني أيتها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث، أخرجني إلى سموم وحميم وظل من يحموم فتأبى الخروج وتتفرق في البدن فيضربونه بمقامع الحديد، بخلاف المؤمنين حال احتضارهم فإنهم يُبشرون بالخيرات وحصول المسرات ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ^(١) [فصلت: ٣٠] ﴿وَقَدْ مَنَّا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ أي عمدنا إلى أعمال الكفار التي يعتقدونها براً كإطعام المساكين وصلة الأرحام ويظنون أنها تقرهم إلى الله ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ أي جعلناه مثل الغبار المنثور في الجو، لأنه لا يعتمد على أساس ولا يستند على إيمان قال الطبري: أي جعلناه باطلاً لأنهم لم يعملوه لله، وإنما عملوه للشيطان، والهباء هو الذي يرى كهيئة الغبار إذا دخل ضوء الشمس من كوة ^(٢)، والمنثور المتفرق ^(٣) وقال القرطبي: إن الله أحبط أعمالهم بسبب الكفر حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور ^(٤) ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ لما بين تعالى حال الكفار وأنهم في الخسران الكلي والخيبة التامة، شرح وصف أهل الجنة وأنهم في غاية السرور والحبور، تنبيهاً على أن السعادة كل السعادة في طاعة الله عز وجل، ومعنى الآية: أصحاب الجنة يوم القيامة خيرٌ من الكفار مستقراً ومنزلاً ومأوى ^(٥) ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أي وأحسن منهم مكاناً للتمتع وقت القيلولة وهي الاستراحة نصف النهار، فالمؤمنون في الآخرة في الفردوس والنعيم المقيم، والكفار في دركات الجحيم قال ابن مسعود: «لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار» ^(٦) ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ﴾ أي واذكر ذلك اليوم الرهيب يوم تشقق السماء وتنفطر عن الغمام الذي يسود الجو ويظلمه ويغتم القلوب مرآة ^(٧) لكثرة وشدة ظلمته ﴿وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ أي ونزلت الملائكة فأحاطت بالخلائق في المحشر ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ أي الملك في ذلك

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٢٨.

(٢) (ش): كَوَّة/ كَوَّة: فتحة أو نافذة للتهوية والإضاءة ونحوهما.

(٣) «تفسير الطبري» ٣/ ١٩.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٢٢.

(٥) كلمة «خير» ليست على بابها للمفاضلة وإنما هي لبيان حال أهل الجنة وأنهم في أحسن حال وخير مكان، ولا ضرورة للتأويل بأنهم خير من الكافرين المترفين في الدنيا.

(٦) (ش): رواه ابن أبي حاتم وابن جرير الطبري في «تفسيريهما».

(٧) (ش): أي إن منظره يغتم القلوب.

اليوم لله الواحد القهار، الذي تخضع له الملوك، وتعنوه الوجوه، وتذل له الجبابرة، لا مالك يومئذ سواه كقوله ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ أي وكان ذلك اليوم صعباً شديداً على الكفار قال أبو حيان: ودل قوله ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ على تيسيره على المؤمنين ففي الحديث «إنه يهون حتى يكون على المؤمن أخف عليه من صلاة مكتوبة صلاحها في الدنيا»^(١) ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ أي واذكر يوم يندم ويتحسر الظالم على نفسه لما فرط في جنب الله، وعصّ اليدين كناية عن الندم والحسرة، والمراد بالظالم «عقبة بن أبي معيط» كما في سبب النزول، وهي تعم كل ظالم قال ابن كثير: يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول ﷺ وسلك سبيلاً غير سبيل الرسول، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم، وعصّ على يديه حسرة وأسفاً، وسواء كان نزولها في «عقبة بن معيط» أو غيره من الأشقياء فإنها عامة في كل ظالم^(٢) ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ أي يقول الظالم يا ليتني اتبعت الرسول فاتخذت معه طريقاً إلى الهدى ينجيني من العذاب ﴿يَوَيْلَ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ أي يا هلاكي وحسرتي يا ليتني لم أصاحب فلاناً وأجعله صديقاً لي، ولفظ ﴿فُلَانًا﴾ كناية عن الشخص الذي أضله وهو «أبي بن خلف» قال القرطبي: وكنى عنه ولم يصرح باسمه ليتناول جميع من فعل مثل فعله^(٣) ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ أي لقد أضلني عن الهدى والإيمان بعد أن اهتديت وآمنت، ثم قال تعالى ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ أي يضلّه ويغويه ثم يتبرأ منه وقت البلاء فلا ينقذه ولا ينصره ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنِّي قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ لما أكثر المشركون الطعن في القرآن ضاق صدر الرسول ﷺ وشكاهم إلى الله والمعنى: قال محمد يا رب إن قريشاً كذبت بالقرآن ولم تؤمن به وجعلته وراء ظهورها متروكاً وأعرضوا عن استماعه قال المفسرون: وليس المقصود من حكاية هذا القول الإخبار بما قال المشركون بل المقصود منها تعظيم شكايته، وتخويف قومه، لأن الأنبياء إذا التجأوا إلى الله وشكوا قومهم حل بهم العذاب ولم يمهلوا^(٤) ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي كما جعلنا لك أعداء من مشركي قومك جعلنا لكل نبي عدوًّا من كفار قومه، والمراد تسليّة النبي ﷺ بالتأسي

(١) «البحر المحيط» ٦/ ٤٩٥، والحديث أخرجه أحمد بلفظ: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن»

الحديث. (ش): ضعفه ابن كثير والألباني والأرنؤوط.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٣٠.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٢/ ٢٦.

(٤) نقلاً عن حاشية زاده على البضاوي ٣/ ٤٥١.

بغيره من الأنبياء ﴿وَكُنِيَ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ أي وكفى أن يكون ربك يا محمد هاديًا لك وناصرًا لك على أعدائك فلا تُبالَ بمن عاداك ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي وقال كفار مكة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ أي هلاً نزل هذا القرآن على محمد دفعة واحدة كما نزلت التوراة والإنجيل؟ قال تعالى ردًا على شبهتهم التافهة ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي كذلك أنزلناه مفردًا لنُقَوِّي قلبك على تحمُّله فتحفظه وتعمل بمقتضى ما فيه ﴿وَوَرَّكُنْهُ تَرْيِيلًا﴾ أي فصلناه تفصيلًا بديعًا قال قتادة: أي بيَّناه وقال الرازي: الترييل في الكلام أن يأتي بعضه على إثر بعض على تُوْدَةٍ وَتَمَهُّلٍ^(١)، وأصل الترييل في الأسنان وهو تفلجها^(٢) وقال الطبري: الترييل في القراءة الترسلُ والتثبُّتُ يقول: علمناكه شيئًا بعد شيء حتى تحفظه^(٣) ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي ولا يأتيك هؤلاء الكفار بحجة أو شبهة للقدح فيك أو في القرآن إلا أتيناك يا محمد بالحق الواضح، والنور الساطع لندمغ به باطلهم ﴿وَلَحَسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أي أحسن بيانًا وتفصيلًا، ثم ذكر تعالى حال هؤلاء المشركين المكذبين للقرآن فقال ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي يُسْحَبُونَ ويجرُّون إلى النار على وجوههم ﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي هم شر منزلًا ومصيرًا، وأخطأ دينًا وطريقًا وفي الحديث قيل: يا رسول الله كيف يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَىٰ وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ «أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى الرَّجْلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَىٰ أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٤)، ثم ذكر تعالى قصص الأنبياء تسليية لرسول الله ﷺ وإرهابًا للمكذبين فقال ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي والله لقد أعطينا موسى التوراة ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ زَكِيًّا﴾ أي وأعناه بأخيه هارون فجعلناه وزيرًا له يناصره ويؤازره ﴿فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِنَا﴾ أي اذهبا إلى فرعون وقومه بالآيات الباهرات، والمعجزات الساطعات ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ أي فأهلكناهم إهلاكًا لما كذبوا رسلنا ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ سُلَالًا يَدْعَوْنَ إِلَىٰ غُرُقِنَا قَوْمَ نُوحٍ﴾ أي وأغرقنا قوم نوح بالطوفان لما كذبوا نوحًا وحده لأن تكذيبه تكذيبٌ للجميع لاتفاقهم على التوحيد والإسلام^(٥) ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وأعدنا لهم في الآخرة عذابًا شديدًا مؤلمًا سوى ما حلَّ بهم في الدنيا ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ أي وأهلكنا عادًا وثمود

(١) (ش): التُوْدَةُ: الرزانة والتَّامُّهُ: التَّمَهُّلُ.

(٢) «التفسير الكبير» ٩٧/٢٤.

(٣) «تفسير الطبري» ٨/١٩.

(٤) أخرجه أصحاب السنن. (ش): ورواه البخاري ومسلم.

(٥) «أبو السعود» ٩/٤.

وأصحاب البئر الذين انهارت بهم قال «البضاوي»: وأصحاب الرس قوم كانوا يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم شعيباً فكذبوه فبينما هم حول الرّس - وهي البئر غير المطوية - انهارت فحسفت بهم وبديارهم^(١) ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ أي وأممًا وخلائق كثيرين لا يعلمهم إلا الله بين أولئك المكذبين أهلكتهم أيضاً ﴿وَكُلًّا ضَرَيْنَاهُ أَلَمًا مِثْلَ﴾ أي وكلاً من هؤلاء بيننا لهم الحجج، ووضحنا لهم الأدلة إغذاراً وإنذاراً ﴿وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيرًا﴾ أي أهلكتهم إهلاكاً، ودمرناه تدميراً، لما لم تنجع فيهم المواعظ ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوَاءً﴾ أي ولقد مرّت قريش مراراً في متاجرهم إلى الشام على تلك القرية التي أهلكت بالحجارة من السماء وهي قرية «سدوم» عظمى قرى قوم لوط ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَكُونُوا يَكُونُوا﴾؟ توبيخ لهم على تركهم الاعتاظ والاعتبار أي أفلم يكونوا في أسفارهم يرونها فيعتبروا بما حلّ بأهلها من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم لرسولهم ومخالفتهم لأمر الله؟ قال ابن عباس: كانت قريش في تجارتها إلى الشام تمر بمدائن قوم لوط كقوله تعالى ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ﴾ [الصافات: ١٣٧] ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ أي إنهم لا يعتبرون لأنهم لا يرجون معاداً يوم القيامة.

البلاغة: تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبدیع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الترّجّي ﴿لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَلَائِكَةَ﴾ لأن لولا بمعنى هلاً للترّجّي.
- ٢ - جناس الاشتقاق ﴿وَعَتَوْا.. عُتُوا﴾ و ﴿حَجَرًا.. مَحْجُورًا﴾.
- ٣ - المبالغة بنفي الجنس ﴿لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ ومعناها لا يبشر يومئذ المجرمون وإنما عدل عنه للمبالغة.
- ٤ - التشبيه البليغ ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ أي كالغبار المنثور في الجو في حقارته وعدم نفعه، حذف منه أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً.
- ٥ - الكناية اللطيفة ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ كناية عن الندم والحسرة، كما أن لفظه ﴿فُلَانًا﴾ كناية عن الصديق الذي أضله.
- ٦ - الإسناد المجازي ﴿شَرُّ مَكَانًا﴾ لأن الضلال لا ينسب إلى المكان ولكن إلى أهله.

لطفة: قال ابن القيم رحمه الله: هجر القرآن أنواع: أحدها: هجر سماعه والإيمان به. والثاني: هجر العمل به وإن قرأه وآمن به. والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم

(١) «البضاوي» ٢/ ٦٨. (ش): الرّس: بئر قديمة متهدمة الجوانب. البئر المطوية: مبنية الجوانب، يقال. طويت البئر إذا بنيتها بالحجارة.

إليه. والرابع: هجر تدبره وتفهم معانيه. والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وكل هذا داخل في قوله تعالى ﴿إِنْ قَوْمِي أَخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ وإن كان بعض الهجر أهون من بعض^(١).

قال الله تعالى:

وَإِذَا رَأَوْكَ إِِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهْذًا الَّذِي بِعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهِتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى رِيكِ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيِّنَ يَدَى رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا فَآبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تَطِيعَ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنْسَجِدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا

المناسبة: لما ذكر تعالى شبهات المشركين حول القرآن والرسول، وردَّ عليهم بالحجج الدامغة، والبراهين القاطعة، ذكر هنا طرفاً من استهزائهم وسخريتهم بالرسول فلم يقتصروا على تكذيبه بل زادوا عليه بالاستهزاء والاحتقار، ثم ذكر الأدلة على وحدانيته تعالى وقدرته.

اللغة: ﴿سُبَاتًا﴾ السُّبَات: الراحة جعل النوم سُبَاتًا لأنه راحة للأبدان وأصل السبت: القطع، ومنه السبت لليهود لانقطاعهم فيه عن الأعمال ﴿نُشُورًا﴾ النشور: الانتشار والحركة، والنهار سببٌ للانتشار من أجل طلب المعاش ﴿وَأَنَاسِيَّ﴾ جمع إنسي مثل

(١) نقلاً عن تفسير «محاسن التأويل» ١٢/ ٥٧٥.

كراسي وكرسي قال الفراء: الإنسي والأناسي اسم للبشر وأصله إنسان ثم أبدلت من النون ياء فصار إنسي ﴿مَرَجٌ﴾ خَلَى وأرسل وخلط يقال: مرجه إذا خلطته و﴿أَمْرٌ مَرِيحٌ﴾ [ق: ٥] أي مضطرب مختلط ﴿فَرَاتٌ﴾ شديد العذوبة ﴿أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة ﴿بَرْزَخًا﴾ حاجزاً.

التفسير: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي وإذا رآك المشركون يا محمد ما يتخذونك إلا موضع هزء وسخرية ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ أي قائلين بطريق التهكم والاستهزاء: أهذا الذي بعثه الله إلينا رسولاً؟ ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أي إن كان ليصرفنا عن عبادة آلهتنا لولا أن ثبتنا عليها واستمسكنا بعبادتها قال تعالى ردّاً عليهم ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ وعيد وتهديد أي سوف يعلمون في الآخرة عند مشاهدة العذاب من أخطأ طريقاً وأضل ديناً أ هم أم محمد؟ ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ تعجب من ضلال المشركين أي أ رأيت من جعل هواه إلهاً كيف يكون حاله؟ قال ابن عباس: كان الرجل من المشركين يعبد حجراً فإذا رأى حجراً أحسن منه رماه وأخذ الثاني فعبدته ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ أي حافظاً تحفظه من اتباع هواه؟ ليس الأمر لك قال أبو حيان: وهذا تئيس من إيمانهم، وإشارة للرسول عليه السلام ألا يتأسف عليهم، وإعلام أنهم في الجهل بالمنافع وقلة النظر في العواقب مثل البهائم ^(١) ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾؟ أي أنظن أن هؤلاء المشركين يسمعون ما تقول لهم سماع قبول؟ أو يعقلون ما تورده عليهم من الحجج والبراهين الدالة على الوحداية فتهتم بشأنهم وتطمع في إيمانهم؟ ﴿إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي ما هم إلا كالبهائم بل هم أبشع حالاً، وأسوأ مآلاً من الأنعام السارحة، لأن البهائم تهتدي لمراعيها، وتنقاد لأربابها وتعرف من يحسن إليها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم، ثم ذكر تعالى أنواعاً من الدلائل الدالة على وحدايته وكمال قدرته فقال ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ أي ألم تنظر إلى بديع صنع الله وقدرته كيف بسط تعالى الظل لأحرقت الشمس الإنسان وكدرت حياته ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَاهُ سَاكِنًا﴾ أي لو أراد سبحانه لجعله دائماً ثابتاً في مكان لا يزول ولا يتحول عنه، ولكنه بقدرته ينقله من مكان إلى مكان، ومن جهة إلى جهة، فتارة يكون جهة المشرق، وتارة جهة المغرب، وأخرى من أمام أو خلف ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي جعلنا طلوع الشمس دليلاً على وجود الظل ومدته وقت النهار حتى يستروح الإنسان بظل الأشياء من حرارة الشمس المتوهجة؟ إذا لولا الظل، فلولا وقوع ضوئها على الأجرام كما عرف أن للظل وجوداً،

ولما ظهرت آثار هذه النعمة الجليلة للعباد، والأشياء إنما تُعرف بأضدادها فلولا الظلمة ما عُرف النور، ولولا الشمس ما عرف الظل «وبضدها تتميز الأشياء» ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي أزلنا هذا الظل شيئاً فشيئاً، وقليلًا قليلًا لا دفعة واحدة لئلا تختل المصالح قال ابن عباس: الظل من وقت طلوع الفجر إلى وقت طلوع الشمس^(١) قال المفسرون: الظل هو الأمر المتوسط بين الضوء الخالص والظلمة الخالصة، وهو يحدث على وجه الأرض منبسطاً فيما بين ظهور الفجر إلى طلوع الشمس، ثم إن الشمس تنسخه وتزيله شيئاً فشيئاً، إلى الزوال، ثم هو ينسخ ضوء الشمس من وقت الزوال إلى الغروب ويسمى فيئناً، ووجه الاستدلال به على وجود الصانع الحكيم أن وجوده بعد العدم، وعدمه بعد الوجود، وتغير أحواله بالزيادة والنقصان، والانبساط والتقلص، على الوجه النافع للعباد لا بد له من صانع قادر، مدبر حكيم، يقدر على تحريك الأجرام العلوية، وتدبير الأجسام الفلكية وترتيبها على الوصف الأحسن، والترتيب الأكمل وما هو إلا الله رب العالمين^(٢). ثم أشار تعالى إلى آثار قدرته، وجليل نعمته الفائضة على الخلق فقال ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي هو سبحانه الذي جعل لكم الليل كاللباس يستركم بظلامه كما يستركم اللباس بزينته قال الطبري: وصف الليل باللباس تشبيهاً من حيث يستر الأشياء فصار لهم سترًا يستترون به كما يستترون بالثياب التي يكسونها^(٣) ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي وجعل النوم راحةً لأبدانكم بانقطاعكم عن أعمالكم ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نَشُورًا﴾ أي وقتاً لا تنشأ فيه لمعايشهم، ومكاسبهم، وأسباب رزقهم ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي أرسل الرياح مُبَشِّرَةً بنزول الغيث والمطر ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ أي أنزلنا من السحاب الذي ساقته الرياح ماءً طاهراً مطهراً تشربون وتتطهرون به قال القرطبي: وصيغة ﴿طَهُورًا﴾ بناء مبالغة في «طاهر» فاقتضى أن يكون طاهراً مطهراً^(٤) ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا﴾ أي لنحيي بهذا المطر أرضاً ميتة لا زرع فيها ولا نبات ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ أي وليشرب منه الحيوان والإنسان لأن الماء حياة كل حي، والناس محتاجون إليه غاية الحاجة لشربهم وزرعهم وسقي مواشيهم قال الإمام الفخر: وتنكير الأنعام والأناسي لأن حياة البشر بحياة أرضهم وأنعامهم، وأكثر الناس

(١) «تفسير الطبري» ١٩/١٢، وهذا القول منقول عن مجاهد وإليه ذهب كثير من المفسرين، وقالوا: إنه أطيب الأحوال ولذلك وصف به الجنة: ﴿وَطِلَّ مَدُورٌ﴾ وما أثبتناه هو الراجح لأنه الظل المعروف ولفظ الشمس يرجمه وهو اختيار العلامة أبي السعود.

(٢) انظر «تفسير الرازي» ٢٤/٨٨ ففيه كلام جيد نفيس.

(٣) «تفسير الطبري» ١٩/١٤.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٣/٣٩.

يجتمعون في البلاد القريبة من الأودية والأنهار، فهم في غنية عن شرب مياه المطر، وكثير منهم نازلون في البوادي فلا يجدون المياه للشرب إلا عند نزول المطر ولهذا قال ﴿أَنعَمَّا وَأَنَايَ كَثِيرًا﴾ أي بشراً كثيرين لأن «فعيل» يراد به الكثرة^(١) ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا﴾ أي ضربنا الأمثال في هذا القرآن^(٢) للناس وبيننا فيه الحجج والبراهين ليتفكروا ويتدبروا ﴿فَأَنبَأَ أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كَفُورًا﴾ أي أبى الكثير من البشر إلا الجحود والتكذيب ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ أي لو أردنا لخففنا عنك أعباء النبوة فبعثنا في كل أهل قرية نبياً ينذرهم، ولكننا خصصناك بالبعثة إلى جميع أهل الأرض إجلالاً لك، وتعظيماً لشأنك، فقابل هذا الإجلال بالثبات والاجتهاد في الدعوة وإظهار الحق ﴿فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَهْدُهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ أي لا تطع الكفار فيما يدعونك إليه من الكف عن آلهتهم، وجاهدهم بالقرآن جهاداً كبيراً بالغاً نهايته لا يصاحبه فتور ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي هو تعالى بقدرته خلى وأرسل البحرين متجاورين متلاصقين بحيث لا يتمازجان ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ أي شديد العذوبة قاطع للعطش من فرط عذوبته ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي بليغ الملوحة، مر شديد المرارة ﴿وَجَعَلْ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ أي جعل بينهما حاجزاً من قدرته لا يغلب أحدهما على الآخر ﴿وَجَحْزًا مَّحْجُورًا﴾ وهذا اختيار ابن جرير^(٣) وقال الرازي: ووجه الاستدلال هاهنا بين لأن الحلاوة والملوحة إن كانت بسبب طبيعة الأرض أو الماء فلا بد من الاستواء، وإن لم يكن كذلك فلا بد من قادر حكيم يخصص كل واحد بصفة معينة^(٤) ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾ أي خلق من النطفة إنساناً سميعاً بصيراً ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ أي قسمهم من نطفة واحدة قسمين: ذوي نسب أي ذكوراً ينسب إليهم لأن النسب إلى الآباء كما قال الشاعر:

وَأِنَّمَا أُمَمَاتُ النَّاسِ أَوْعِيَةٌ مُسْتَوْدَعَاتُ وَلِلْآبَاءِ أَبْنَاءُ

وإنما يصاهر بهن، فبالنسب يتعارفون ويتواصلون، وبالمصاهرة تكون المحبة والمودة واجتماع الغريب بالقریب ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ أي مبالغاً في القدرة حيث خلق من النطفة الواحدة ذكراً وأنثى. ولما شرح دلائل التوحيد عاد إلى تهجين سيرة المشركين في عبادة الأوثان فقال ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ أي يعبدون الأصنام

(١) «التفسير الكبير» ٩١/٢٤.

(٢) الضمير في ﴿صَرَفْنَاهُ﴾ عائد على القرآن وإن لم يتقدم له ذكر لوضوح الأمر ويؤيده قوله: ﴿وَجَهْدُهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ وقيل: إنه عائد على المطر وهو - كما قال في «التسهيل» - بعيد.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/٦٣٥.

(٤) «التفسير الكبير» ١٠١/٢٤.

التي لا تنفع ولا تضر لأنها جمادات لا تُحسُّ ولا تُبصر ولا تعقل ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ أي معيناً للشيطان على معصية الرحمن، لأنَّ عبادته للأصنام معونة للشيطان قال مجاهد: يظاهر الشيطان على معصية الله ويُعينه ^(١) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أي مبشراً للمؤمنين بجنات النعيم، ومنذراً للكافرين بعذاب الجحيم ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي قل لهم يا محمد: لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أي لكن من شاء أن يتخذ طريقاً يقربه إلى الله بالإيمان والعمل الصالح فليفعل كأنه يقول: لا أسألكم مالاً ولا أجراً وإنما أسألكم الإيمان بالله وطاعته وأجري على الله ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ أي اعتمد في جميع أمورك على الواحد الأحد، الدائم الباقي الذي لا يموت أبداً، فإنه كافيك وناصرك ومُظهِرُ دينك على سائر الأديان ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ أي نزه الله تعالى عما يصفه هؤلاء الكفار مما لا يليق به من الشركاء والأولاد ﴿وَكَفَىٰ بِهِ بُذُوبٌ عِبَادِهِ خَيْرًا﴾ أي حسبك أن الله مطلع على أعمال العباد لا يخفى عليه شيء منها قال الإمام الفخر: وهذه الكلمة يراد بها المبالغة كقولهم: كفى بالعلم جمالاً، وكفى بالأدب مالاً، وهي بمعنى حسبك، أي: لا تحتاج معه إلى غيره لأنه خيرٌ بأحوالهم، قادر على مجازاتهم، وذلك وعيدٌ شديد ^(٢) ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي هذا الإله العظيم الذي ينبغي أن تتوكل عليه هو القادر على كل شيء، الذي خلق السماوات السبع في ارتفاعها واتساعها، والأرضين في كثافتها وامتدادها في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا قال ابن جبير: الله قادر على أن يخلقها في لحظة ولكن علَّم خلقه الرفق والثبوت ^(٣) ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ استواءً يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تعطيل ﴿الرَّحْمَنُ﴾ أي هو الرحمن ذو الجود والإحسان ﴿فَسْتَلِّ بِهِ خَيْرًا﴾ أي فسَلْ عنه من هو خيرٌ عارف بجلاله ورحمته، وقيل: الضمير يعود إلى الله أي فاسأل الله الخبير بالأشياء، العالم بحقائقها يُطْلَعُكَ على جَلِيَّةِ الأمر ^(٤) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ أي وإذا قيل للمشركين: اسجدوا للربكم الرحمن الذي وسعت رحمته الأكوان ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟﴾ أي من هو الرحمن؟ استفهموا عنه استفهام من يجله وهم عالمون به ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي أنسجد لما تأمرنا بالسجود له من غير أن نعرفه؟ ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ أي وزادهم هذا القول بعداً عن الدين ونفوراً منه.

(١) «تفسير الطبري» ١٩/١٧.

(٢) «التفسير الكبير» ١٠٣/٢٤.

(٣) «التفسير الكبير» ١٠٤/٢٤.

(٤) القول الأول أظهر، والثاني روى عن مجاهد. (ش): جَلِيَّةُ الأمر: حقيقته.

البلاغة: تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبدیع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الاستفهام للتهكم والاستهزاء ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا؟﴾
- ٢ - التعجيب ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ وفيه تقديم المفعول الثاني على الأول اعتناءً بالأمر المتعجب منه والأصل «اتخذ هواه إلهاً له».
- ٣ - التشبيه البليغ ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْيَلَ لِبَاسًا﴾ أي كاللباس الذي يغطي البدن ويستره حذف منه الأداة ووجه الشبه فأصبح بليغاً.
- ٤ - المقابلة اللطيفة بين الليل والنهار والنوم والانتشار ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْيَلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾.
- ٥ - الاستعارة البديعة ﴿بَيْنَ يَدَيَّ رَحْمَةٍ﴾ استعار اليدين لما يكون أمام الشيء وقدامه كما تقول: بين يدي الموضوع أو السورة.
- ٦ - الالتفات من الغيبة إلى التكلم للتعظيم ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ بعد قوله ﴿أَرْسَلَ الرِّيحَ﴾.
- ٧ - المقابلة اللطيفة ﴿هَذَا عَذَبٌ فَرَاتٌ، وَهَذَا مَلْعٌ أَجَاجٌ﴾ أي نهاية في الحلاوة ونهاية في الملوحة.

تنبيه: الفرق بين ﴿مَيِّتٍ﴾ بالتخفيف و﴿مَيِّتٍ﴾ بالتشديد أن الأول لمن مات حقيقة والثاني لمن سيموت قال الشاعر:

أَيَا سَائِلِي تَفْسِيرَ مَيِّتٍ وَمَيِّتٍ فِدُونَكَ ^(١) قَدْ فَسَّرْتُ مَا عَنْهُ تَسْأَلُ
فَمَا كَانَ ذَا رُوحٍ فَذَلِكَ مَيِّتٌ وَمَا الْمَيِّتُ إِلَّا مَنْ إِلَى الْقَبْرِ يُحْمَلُ ^(٢)

قال الله تعالى:

نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ^(١١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الْيَلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ^(١٢) وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ^(١٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ^(١٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ^(١٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسَقَّرًا وَمُقَامًا ^(١٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ^(١٧) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ^(١٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخَلَّدُ فِيهِ مُهَكَمًا ^(١٩) إِلَّا مَنْ تَابَ

(١) (ش): دُونَكَ: اسم فعل أمر بمعنى (خُذْ)، منقول عن الظرف (دون) وكاف الخطاب المتصرفة بحسب أحوال المخاطب «دُونَكَ الكتاب - دُونَكُمْ الكتاب».

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ١٦١ / ٣.

وَأَمِنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فَرَةً أَعْيُنٌ وَأَجْعَلْنَا لِلْمُنْفِقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا نَجَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبُؤُنَا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا

اللغة: ﴿بُرُوجًا﴾ البروج: منازل الكواكب السيارة سميت بالبروج لأنها تشبه القصور العالية وهي للكواكب كالمنازل للسكان وقيل: هي الكواكب العظيمة ﴿غَرَامًا﴾ لازمًا دائماً غير مفارق ومنه الغريم ^(١) لملازمته ﴿الْغُرْفَةُ﴾ الدرجة الرفيعة في الجنة وهي في **اللغة:** العُلْيَةُ ^(٢)، وكل بناء عالٍ فهو غرفة ﴿يَعْبُؤُنَا﴾ يبالى ويهتمُّ قال أبو عبيدة: ما أعبأ به أي وجوده وعدمه عندي سواء، والعبء في اللغة الثقل ﴿لِزَامًا﴾ ملازمًا لكم.

التفسير: ﴿نُبَارِكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ أي تمجِّد وتعظمُ الله الذي جعل في السماء تلك الكواكب العظام المنيرة ^(٣) ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ أي وجعل فيها الشمس المتوهجة في النهار، والقمر المضيء بالليل ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي يخلف كل منهما الآخر ويتعاقبان، فيأتي النهار بضيائه ثم يعقبه الليل بظلامه ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْكَرَ﴾ أي لمن أراد أن يتذكَّر آلاء الله، ويتفكر في بدائع صنعه ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي أراد شكر الله على إفضاله ونعمائه قال الطبري: جعل الله الليل والنهار يخلف كل واحد منهما الآخر، فمن فاته شيء من الليل أدركه بالنهار، ومن فاته شيء من النهار أدركه بالليل ^(٤) ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ الإضافة للتشريف أي العباد الذين يحبهم الله وهم جديرون بالانتساب إليه هم الذين يمشون على الأرض في لين وسكينة ووقار، لا يضربون بأقدامهم أشراً ولا بطراً، ولا يتبخثرون في مشيتهم ^(٥) ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ

(١) (ش): الغريم: الدائن.

(٢) (ش): العُلْيَةُ: بيت مرتفع عن الأرض.

(٣) قال مجاهد والحسن: البروج هي الكواكب العظام. وقال ابن عباس وعلي: هي منازل الكواكب، قال ابن كثير: والقول الأول أظهر.

(٤) «تفسير الطبري» ١٩/ ٢٠.

(٥) (ش): أَسْرَ الشَّخْصُ، أَشْرًا، فهو أَشْرٌ: بطر واستكبر ومرح ونشط. بطر الشَّخْصُ، بطراً، فهو بطِرٌ: طغى وغالى في مَرَجِه وزهوِه واستخفافه، جاوز الحدَّ كثيراً. بطر النُّعْمَةُ: استخفَّها وكفَّرها ولم يشكرها. بطر الحقَّ ونحوه: أنكره ولم يقبله تكبراً وطغياناً. تبختر الشَّخْصُ: تكبَّر، واختال. تبختر الشَّخْصُ: تمايل وتثنَّى معجباً بنفسه.

قَالُوا سَلَمًا ﴿١﴾ أَي وَإِذَا خَاطَبَهُمُ السَّفَهَاءُ بَغْلَظَةٍ وَجَفَاءً قَالُوا قَوْلًا يَسْلُمُونَ فِيهِ مِنَ الْإِثْمِ قَالَ الْحَسَنُ: لَا يَجْهَلُونَ عَلَى أَحَدٍ، وَإِنْ جُهِلَ عَلَيْهِمْ حَلُمُوا ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ﴿٣﴾ أَي يُحْيُونَ اللَّيْلَ بِالصَّلَاةِ سَاجِدِينَ لِلَّهِ عَلَى جِبَاهِهِمْ، أَوْ قَائِمِينَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ كَقَوْلِهِ ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧] قَالَ الرَّازِي: لَمَّا ذَكَرَ سَيْرَتَهُمْ فِي النَّهَارِ مِنْ وَجْهَيْنِ: تَرَكَ الْإِيذَاءَ، وَتَحَمَّلَ الْأَذَى بَيْنَ هُنَا سَيْرَتِهِمْ فِي اللَّيَالِي وَهُوَ اشْتَغَالُهُمْ بِخِدْمَةِ الْخَالِقِ ^(١) ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ أَي يَدْعُونَ رَبَّهُمْ أَنْ يَنْجِيَهُمْ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَيَيْتَهُلُونَ إِلَيْهِ أَنْ يَدْفَعَ عَنْهُمْ عَذَابَهَا ﴿إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أَي لَازِمًا دَائِمًا غَيْرَ مُفَارِقٍ ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أَي بَسُتَ جَهَنَّمَ مَنْزِلًا وَمَكَانَ إِقَامَةٍ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: الْمَعْنَى بَسُتَ الْمُسْتَقَرَّ وَبَسُتَ الْمَقَامَ، فَهَمَّ مَعَ طَاعَتِهِمْ مُشْفِقُونَ خَائِفُونَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ^(٢)، وَقَالَ الْحَسَنُ: خَشِعُوا بِالنَّهَارِ وَتَعَبُوا بِاللَّيْلِ فَرَقًا مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ هَذَا هُوَ الْوَصْفُ الْخَامِسُ مِنْ أَوْصَافِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ وَالْمَعْنَى: لَيْسُوا مَبْذُرِينَ فِي إِنْفَاقِهِمْ فِي الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَابِسِ، وَلَا مَقْصُرِينَ وَمُضَيِّقِينَ بَحِثْ يَصْبَحُونَ بِخِلَاءٍ ﴿وَكَانَ بَيْنَهُ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ أَي وَكَانَ إِنْفَاقُهُمْ وَسْطًا مُعْتَدِلًا بَيْنَ الْإِسْرَافِ وَالتَّقْتِيرِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] الْآيَةُ وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «لَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ جَبَلِ أَبِي قُبَيْسٍ ذَهَبًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ مَا كَانَ سَرْفًا» ^(٣) ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أَي لَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ تَعَالَى إِلَهًا آخَرَ، بَلْ يُوَحِّدُونَهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أَي لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ قَتْلَهَا إِلَّا بِمَا يَحِقُّ أَنْ تُقْتَلَ بِهِ النَّفْسُ مِنْ كُفْرٍ بَعْدَ إِيمَانٍ، أَوْ زَنًى بَعْدَ إِحْصَانٍ، أَوْ الْقَتْلِ قِصَاصًا ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ أَي لَا يَرْتَكِبُونَ جَرِيمَةَ الزَّوْنِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَفْحَشِ الْجَرَائِمِ ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ أَي وَمَنْ يَقْتَرِفْ تِلْكَ الْمَوِيقَاتِ الْعَظِيمَةَ مِنَ الشَّرْكِ وَالْقَتْلِ وَالزَّوْنِ يَجِدُ فِي الْآخِرَةِ النِّكَالَ وَالْعُقُوبَةَ ثُمَّ فَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أَي يُضَاعَفُ عِقَابُهُ وَيُغْلَظُ بِسَبَبِ الشَّرْكِ وَبِسَبَبِ الْمَعَاصِي ﴿وَيُحْلَدُ فِيهِ مِهْكَانًا﴾ أَي يُخْلَدُ فِي ذَلِكَ الْعَذَابِ حَقِيرًا ذَلِيلًا أَبَدَ الْأَبْدِينَ ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ أَي إِلَّا مَنْ تَابَ فِي الدُّنْيَا التَّوْبَةَ النَّصُوحَ وَأَحْسَنَ عَمَلَهُ ﴿فَأُولَٰئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ أَي يَكْرِمُهُمُ اللَّهُ فِي الْآخِرَةِ فَيَجْعَلُ مَكَانَ السَّيِّئَاتِ حَسَنَاتٍ، وَفِي الْحَدِيثِ «إِنِّي لَا أَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ

(١) «التفسير الكبير» ٢٤/ ١٠٨.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٧٢.

(٣) «تفسير الطبري» ١٩/ ٢٣، وهذا على قول من فسر الإسراف بأنه الإنفاق في معصية الله، وإليه ذهب بعض المفسرين وهو منقول عن ابن عباس أيضًا والقول الأول أظهر.

الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةِ وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا. رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقَالُ: اغْرُضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا. فَتَعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ. فَيَقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ. لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ. فَيَقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً. فَيَقُولُ رَبِّ قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَاهُنَا. فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ^(١) ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي واسع المغفرة كثير الرحمة ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَنْتُهِبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ أي ومن تاب عن المعاصي وأصلح سيرته فإن الله يتقبل توبته ويكون مرضيًا عند الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ هذا هو الوصف السابع من أوصاف عباد الرحمن أي لا يشهدون الشهادة الباطلة - شهادة الزور - التي فيها تضییعٌ لحقوق الناس ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ أي وإذا مروا بمجالس اللغو - وهي الأماكن التي يكون فيها العمل القبيح كمجالس اللهو، والسينما، والقمار، والغناء المحرَّم - مروا معرضين مكرمين أنفسهم عن أمثال تلك المجالس قال الطبري: واللغو كل كلام أو فعل باطل وكل ما يُستقبح كسب الإنسان، وذكر النكاح باسمه في بعض الأماكن، وسماع الغناء مما هو قبيح، كل ذلك يدخل في معنى اللغو الذي يجب أن يجتنبه المؤمن^(٢) ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي إذا وعظوا بآيات القرآن وخوفوا بها ﴿لَمْ يَخْرُوْا عَلَيْهَا سُومًا وَغَمًّا﴾ أي لم يُعرضوا عنها بل سمعوها بآذان واعية وقلوب وجلة ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فَرَّةً أُغْنِ﴾ أي اجعل لنا في الأزواج والبنين مسرة وفرحًا بالتمسك بطاعتك، والعمل بمرضاتك ﴿وَأَجْعَلْنَا الْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي اجعلنا قُدوة يقتدي بنا المتقون، دعاة إلى الخير هُداة مهتدين قال ابن عباس: أي أئمة يقتدى بنا في الخير ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي أولئك المتصفون بالأوصاف الجليلة السامية ينالون الدرجات العالية، بصبرهم على أمر الله وطاعتهم له سبحانه ﴿وَيُلْقَوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ أي ويُلَقَّونَ بالتحية والسلام من الملائكة الكرام كقوله تعالى ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد: ٢٣] الآية^(٣) ﴿خَلِيلَيْنِ فِيهَا﴾ أي مقيمين في ذلك النعيم لا يموتون ولا يُخرجون من الجنة لأنها دار الخلود ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾

(١) أخرجه مسلم.

(٢) «تفسير الطبري» ١٩ / ٣٢.

(٣) (ش): قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرُسُونَ وَالْحَسَنَةُ أُولَئِكَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢ - ٢٤].

أي ما أحسنها مقراً وأطيبها منزلاً لمن اتقى الله ﴿قُلْ مَا يَعْبُذُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد: لا يكثر ث ولا يحفل بكم ربي لولا تضرعكم إليه واستغاثتكم إياه في الشدائد ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي فقد كذبتهم أيها الكافرون بالرسول والقرآن فسوف يكون العذاب ملازماً لكم في الآخرة.

البلاغة: تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبدیع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الإضافة للتشريف والتكريم ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾.
- ٢ - الطباق بين السجود والقيام ﴿سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ وكذلك بين الإسراف والتقتير ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾.
- ٣ - المقابلة اللطيفة بين نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار ﴿حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ مقابل قوله عن أهل النار ﴿سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.
- ٤ - الاستعارة البديعة ﴿لَمْ يَخْرُوْا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أي لم يتغافلوا عن قوارع النذر حتى يكونوا بمنزلة من لا يسمع ولا يبصر وهذا من أحسن الاستعارات.
- ٥ - الكناية ﴿فُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ كناية عن الفرحة والمسرة كما أن ﴿الْغُرْفَةَ﴾ كناية عن الدرجات العالية في الجنة.

تنبيه: قال القرطبي: وصف تعالى «عباد الرحمن» بإحدى عشرة خصلة هي أوصافهم الحميدة من التحلي، والتخلي وهي «التواضع، والحلم، والتهجد، والخوف، وترك الإسراف والإقتار، والبعد عن الشرك، والنزاهة عن الزنى والقتل، والتوبة، وتجنب الكذب، وقبول المواعظ، والابتهاال إلى الله» ثم بين جزاءهم الكريم وهو نيل الغرفة أي الدرجة الرفيعة وهي أعلى منازل الجنة وأفضلها كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفرقان»





مكية وآياتها سبع وعشرون ومائتان

بين يدي السورة

سورة الشعراء مكية وقد عالجت أصول الدين من «التوحيد والرسالة، والبعث» شأنها شأن سائر السور المكية، التي تهتم بجانب العقيدة وأصول الإيمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بموضوع القرآن العظيم الذي أنزله الله هداية للخلق، وبلسمًا شافيًا لأمراض الإنسانية، وذكرت موقف المشركين منه، فقد كذبوا به مع وضوح آياته، وسطّوع براهينه، وطلبوا معجزة أخرى غير القرآن الكريم عنادًا واستكبارًا.

* ثم تحدثت السورة عن طائفة من الرسل الكرام، الذين بعثهم الله لهداية البشرية، فبدأت بقصة الكليم «موسى» مع فرعون الطاغية الجبار، وما جرى من المحاوراة والمداوراة بينهما في شأن الإله جلّ وعلا، وما أيد الله به موسى من الحجّة الدامغة التي تقصم ظهر الباطل، وقد ذكرت في القصة حلقات جديدة، انتهت ببيان العظة والعبرة من الفارق الهائل، بين الإيمان والطغيان.

* ثم تناولت قصة الخليل إبراهيم عليه السلام، وموقفه من قومه وأبيه في عبادتهم للأوثان والأصنام، وقد أظهر لهم بقوة حجته، ونصاعة بيانه، بطلان ما هم عليه من عبادة ما لا يسمع ولا ينفذ، وأقام لهم الأدلة القاطعة على وحدانية رب العالمين، الذي بيده النفع والضرر، والإحياء والإماتة.

* ثم تحدثت السورة عن المتقين والغاوين، والسعداء والأشقياء، ومصير كل من الفريقين يوم الدين.

* وبعد أن تابعت السورة في ذكر قصص الأنبياء «نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب» عليهم الصلاة والسلام، وبيّنت سنة الله في معاملة المكذبين لرسله، عادت للتنويه بشأن الكتاب العزيز، تفخيماً لشأنه، وبياناً لمصدره ﴿وَلَهُ نَزْنِزِلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١١٢) نَزْلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١١٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١١٥﴾.

* ثم ختمت السورة بالرد على افتراء المشركين، في زعمهم أن القرآن من تنزيل الشيطان، ليتناسق البدء مع الختام في أروع تناسق والتّمام!

التسمية: سميت «سورة الشعراء» لأن الله تعالى ذكر فيها أخبار الشعراء، وذلك للرد على المشركين في زعمهم أن محمداً كان شاعراً، وأن ما جاء به من قبيل الشعر، فردّ الله

عليهم ذلك الكذب والبهتان بقوله: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿؟﴾ وبذلك ظهر الحق وبان.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَمَ (١) تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنْ شَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَضِيعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثًا إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٦) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زوجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَإِنْ رَبُّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩) وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَنْقُوتُ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضْبِقَ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقَ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَرُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِإِيتَانِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥) فَاتَّبَا فِرْعَوْنَ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكُنَا فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الْتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبْدَتَ بَنِي إِسْرَءِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ (٢٥) قَالَ رَبِّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ أَلَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَيْنَ أَخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنْ الْمَسْجُودِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الدَّائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَا تُولَكِ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجَمَعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأْجُرُكَ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِجِّينَ (٤٦) قَالُوا ءَمَانًا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعَالِمُونَ (٤٩) لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٥٠) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥١) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ

اللغة: ﴿بَنِيعٌ﴾ مهلك وقال وأصل البنع: أن يبلغ بالمذبح البخاع وهو الخرم النافذ

في ثقب الفقرات وهو أقصى حدّ الذبح ﴿فَعَلَتَاكَ﴾ الفَعْلَةُ بفتح الفاء المرة من الفعل ﴿تَلَقَّفُ﴾ تبتلع ﴿يَأْفِكُونَ﴾ من الإفك وهو الكذب ﴿لَا ضَيْرَ﴾ لا ضرر، والضرُّ والضير بمعنى واحد قال الجوهري: ضارُهُ يَضُورُهُ ضَيْرًا، أي ضَرَّهُ قال الشاعر:

فَإِنَّكَ لَا يَضُورُكَ بَعْدَ حَوْلٍ أَظْبِي كَانَ أَمَّكَ أُمَّ حِمَارٍ^(١)

﴿مُنْقَلِبُونَ﴾ راجعون ﴿مَنْ خَلَفَ﴾ أي يخالف بين الأعضاء فيقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى.

التفسير: ﴿طَسَرَ﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم وأنه مركب من أمثال هذه الحروف الهجائية^(٢) ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي هذه آيات القرآن الواضح الجلي، الظاهر إعجازه لمن تأمله ﴿لَعَلَّكَ بَنِعْ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي لعلك يا محمد مهلك نفسك لعدم إيمان هؤلاء الكفار، فيه تسلية للرسول عليه السلام حتى لا يحزن ولا يتأثر على عدم إيمانهم ﴿إِنْ شَاءَ نَزَّلْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَسْمَاءٍ آيَةً﴾ أي لو شئنا لأنزلنا آية من السماء تضطرهم إلى الإيمان قهراً ﴿فَطَلَتْ أَعْنَقَهُمْ لَهَا خَضِيعِينَ﴾ أي فتطل أعناقهم منقاداً خاضعة للإيمان قسراً وقهراً، ولكن لا نفعل لأننا نريد أن يكون الإيمان اختياراً لا اضطراً قال الصاوي: المعنى لا تحزن على عدم إيمانهم فلو شئنا إيمانهم لأنزلنا معجزة تأخذ بقلوبهم فيؤمنون قهراً عليهم، ولكن سبق في علمنا شقاؤهم فأرح نفسك من التعب^(٣) ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أي ما يأتي هؤلاء الكفار شيء من القرآن أو الوحي منزل من عند الرحمن ﴿مُحَدِّثٌ﴾ جديد في النزول^(٤)،

(١) البيت لخداش بن زهير ضرب مثلاً لمن ينتسب إليه الإنسان من شريف أو وضع. (ش): ضارُهُ الأَمْرُ يَضُورُهُ وَيَضِيرُهُ ضُورًا وَضَيْرًا: ضَرَّهُ. والمعنى: لا تُبالِ بعد قيامك بنفسك واستغنائك عن أبويك مَنْ انتسبت إليه من شريف أو وضع، وضرب المثل بالطبي أو الحمار.

(٢) انظر ما كتبه في أول سورة البقرة حول الحروف المقطعة فيه الغنية والكفاية.

(٣) «حاشية الصاوي على الجلالين» ١٦٧/٣.

(٤) معنى «محدث» أي محدث في نزوله وإلا فكلام الله قديم لا يوصف بالحدوث كما لا يوصف بأنه مخلوق. (ش): (محدث) في الأصل من (الحدوث) وهو كَوْنُ الشَّيْءِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، والقرآن العظيم حِينَ كَانَ يُنْزَلُ، كَانَ كُلَّمَا نَزَلَ مِنْ شَيْءٍ كَانَ جَدِيدًا عَلَى النَّاسِ، لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَهُ مِنْ قَبْلُ، فَهُوَ مُحَدَّثٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى النَّاسِ، أَلَا تَرَاهُ قَالَ: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ؟﴾ فَهُوَ مُحَدَّثٌ إِلَيْهِمْ حِينَ يَأْتِيهِمْ. وأمر الله عز وجل: قَوْلُهُ وَكَلَامُهُ، وَهُوَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، مُحَدَّثٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْعِبَادِ، أَيْ: جَدِيدٌ عَلَيْهِمْ، فَلَيْسَ الْمُحَدَّثُ هُنَا هُوَ الْمَخْلُوقُ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي أُنْزِلَ جَدِيدًا، فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ يُنْزِلُ الْقُرْآنَ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، فَالْمُنْزَلُ أَوَّلًا هُوَ قَدِيمٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُتَنَزِّلِ آخِرًا، وَكُلُّ مَا تَقَدَّمَ عَلَى غَيْرِهِ فَهُوَ قَدِيمٌ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ. ومن الخطأ وصفُ كلام الله بأنه قديم مطلقاً، فأهل السنة والجماعة يقولون: إن كلام الله لا قديم النوع حادث الآحاد، لأن الله يتكلم متى شاء، فيعتقد أهل السنة والجماعة أن الله عز وجل يتكلم ويقول ويتحدث وينادي، وأن كلامه بصوت وحرف، وأن القرآن كلامه، مُنْزَلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وكلام الله من صفاته القائمة بنفسه ليس من مخلوقاته، فكلام الله صفة ذاتية فعلية (ذاتية باعتبار أصله وفعلية باعتبار آحاده). =

ينزل وقتاً بعد وقت ﴿لَا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ أي إلا كذبوا به واستهزؤا ولم يتأملوا بما فيه من المواعظ والعبر ﴿فَقَدْ كَذَبُوا فَسَيَاتِيهِمْ أَنْبَتُوا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي فقد بلغوا النهاية في الإعراض والتكذيب فسوف يأتيهم عاقبة ما كذبوا واستهزؤا به، ثم نبه تعالى على عظمة سلطانه، وجلاله قدره في مخلوقاته ومصنوعاته، الدالة على وحدانيته وكمال قدرته فقال ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زوجٍ كَرِيمٍ﴾ أي أولم ينظروا إلى عجائب الأرض كم أخرجنا فيها من كل صنفٍ حسنٍ محمود، كثير الخير والمنفعة؟ والاستفهام للتوبيخ على تركهم الاعتبار ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي إن في ذلك الإنبات لآية باهرة تدل على وحدانية الله وقدرته ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي وما كان أكثرهم يؤمن في علم الله تعالى، فمع ظهور الدلائل الساطعة يستمر أكثرهم على كفرهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي هو سبحانه الغالب القاهر، القادر على الانتقام ممن عصاه، الرحيم بخلقه حيث أمهلهم ولم يعجل لهم العقوبة مع قدرته عليهم قال أبو العالية: العزيز في نعمته ممن خالف أمره وعبد غيره، الرحيم بمن تاب إليه وأناب وقال «الفخر الرازي»: إنما قدم ذكر ﴿الْعَزِيزُ﴾ على ﴿الرَّحِيمِ﴾ لأنه ربما قيل: إنه رحيم لعجزه عن عقوبتهم، فأزال هذا الوهم بذكر العزيز وهو الغالب القاهر، ومع ذلك فإنه رحيم بعباده، فإن الرحمة إذا كانت مع المقدرة الكاملة كانت أعظم وقعاً^(١) ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ أي واذكر يا محمد لأولئك المعرضين المكذبين من قومك حين نادى ربك نبيّه موسى من جانب الطور الأيمن أمراً له أن يذهب إلى فرعون وملئه ﴿أَنْ أَتِيَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي بأن اتت هؤلاء الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي، واستعباد الضعفاء من بني إسرائيل ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ أي هم قوم فرعون، وهو عطف بيان كأن القوم الظالمين وقوم فرعون شيء واحد ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ أي ألا يخافون عقاب الله؟ وفيه تعجيب من غلوهم في الظلم وإفراطهم في العدوان ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ أي قال موسى: يا ربّ إني أخاف أن يكذبوني في أمر الرسالة ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ أي ويضيق صدري من تكذيبهم إياي ﴿وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ أي ولا ينطلق لساني بأداء الرسالة على الوجه الكامل ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾ فأرسل إلى هارون ليعينني على تبليغ رسالتك قال المفسرون: التمس موسى العذر بطلب المعين بثلاثة أعذار كل واحدٍ منها مرتب على ما

= فصفاً الله عزَّ وجلَّ يمكن تقسيمها من حيث تعلقها بذات الله وأفعاله إلى: أ- صفات ذاتية: وهي التي لم يزل ولا يزال الله متصفاً بها؛ كالعلم، والقدرة، والحياة، والسمع، والبصر، والوجه، واليد... ونحو ذلك. ب- صفات فعلية: وهي الصفات المتعلقة بمشيئة الله وقدرته، إن شاء فعلها، وإن شاء لم يفعلها؛ كالجمي، والتزول، والغضب، والفرح، والضحك... ونحو ذلك، وتسمى (الصفات الاختيارية).

(١) «التفسير الكبير» ٢٤ / ١٢٠.

قبله وهي: خوف التكذيب، وضيق الصدر، وعدم انطلاق اللسان، فالتكذيب سبب لضيق القلب، وضيق القلب سبب لتعسر الكلام، وبالأخص على من كان في لسانه حُبسة كما في قوله ﴿وَأَحْلَلْ عَقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ (٢٧) يَقْفَهُوا قَوْلِي ﴿طه: ٢٧ - ٢٨﴾ ثم زاد اعتذاراً آخر بقوله ﴿وَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ أي ولفرعون وقومه عليّ دعوى ذنب وهو أنني قتلت منهم قبطياً فأخاف أن يقتلوني به ﴿قَالَ كَلَّا﴾ أي قال الله تعالى له: كلاًّ لن يقتلوك قال القرطبي: وهو ردع وزجر عن هذا الظن، وأمر بالثقة بالله تعالى أي ثق بالله وانزجر عن خوفك منهم فإنهم لا يقدرّون على قتلِكَ (١) ﴿فَاذْهَبَا إِتَيْنَنَا﴾ أي اذهب أنت وهارون بالبراهين والمعجزات الباهرة ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ أي فأنا معكما بالعون والنصرة أسمع ما تقولان وما يجيبكما به، وصيغة الجمع «معكم» أريد به الشنية فكأنهما لشرفهما عند الله عاملهما في الخطاب معاملة الجمع تشريفاً لهما وتعظيماً (٢) ﴿فَأَتِيَافِرْعُونَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي فأتيا فرعون الطاغية وقولا له: إنا مرسلان من عند رب العالمين إليك لندعوك إلى الهدى ﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي أطلق بني إسرائيل من إسارك واستعبادك وخلّ سبيلهم حتى يذهبوا معنا إلى الشام ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ في الكلام حذف يدل عليه المعنى تقديره: فأتياه فبلغاه الرسالة فقال فرعون لموسى عندئذ: ألم نربك في منازلنا صبيّاً صغيراً؟ قصد فرعون بهذا الكلام المنّ على موسى والاحتقار له كأنه يقول: أأنت أنت الذي ربيناك صغيراً وأحسنّا إليك فمتى كان هذا الأمر الذي تدّعيه؟ ﴿وَكَيْفَ تَفِينَا مِنْ عُمْرِكَ سِنِينَ﴾ أي ومكثت بين ظهرانينا سنين عديدة نحسن إليك ونرعاك؟ قال مقاتل: ثلاثين سنة ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْنَاكِ فَأَتَيْنَاكِ عَلَى أَنْ رَبِينَاكِ أَنْ كَفَرْتَ نَعْمَتَنَا وَقَتَلْتَ مِنَّا نَفْسًا؟ وَالتَّعْبِيرُ بِالْفَعْلَةِ لَتَهْوِيلِ الْوَاقِعَةِ وَتَعْظِيمِ الْأَمْرِ، وَمَرَادُهُ قَتْلَ الْقَبْطِيِّ﴾ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿أَيُّ وَأَنْتَ مِنَ الْجَاهِلِينَ لِإِنْعَامِنَا بِالْكَافِرِينَ بِإِحْسَانِنَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مِنَ الْكَافِرِينَ لِنَعْمَتِي إِذْ لَمْ يَكُنْ فِرْعَوْنُ يَعْلَمُ مَا الْكَفَرُ (٣)﴾ ﴿قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي قال موسى: فعلت تلك الفعلة وأنا من المخطئين لأنني لم أتعمد قتله ولكن أردت تأديبه، ولم يقصد عليه السلام الضلال عن الهدى لأنه معصوم منذ الصغر وقال ابن عباس: ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي الجاهلين ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أي فهربت إلى أرض مدين حين خفت على نفسي أن تقتلوني وتؤاخذوني بما لا أستحقّه ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ أي فأعطاني الله

(١) «تفسير القرطبي» ١٣ / ٩٢.

(٢) هذا ما خرج به سيبويه رحمه الله الآية نقلاً عن «البحر المحيط» ٧ / ٨. (ش): وقيل: إن الاثنين أقل الجمع. أو إن المراد موسى وهارون عليهما السلام ومن أرسل إلى الله.

(٣) وقال الحسن: يريد أنك من الكافرين بألوهيتي. ورجح الطبري قول ابن عباس وهو الأظهر.

النبوّة والحكمة ﴿وَجَعَلْنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي واختارني رسولا إليك، فإن آمنتَ سلمتَ، وإن جحدتَ هلكتَ ﴿وَلَكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبْدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي كيف تمنُّ عليَّ بإحسانك إليَّ وقد استعبدتَ قومي؟^(١) فما تعدُّه نعمة ما هو إلا نعمة قال ابن كثير: المعنى ما أحسنتَ إليَّ وربيتني مقابل ما أسأتَ إلى بني إسرائيل فجعلتهم عبداً وخدماً، أفيني إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأتَ إلى مجموعهم؟^(٢) وقال الطبري: أي أتمنُّ عليَّ أن اتخذتَ بني إسرائيل عبداً؟^(٣) ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي قال فرعون متعالياً متكبراً: من هو هذا الذي تزعم أنه ربُّ العالمين؟ هل هناك إلهٌ غيري؟ لأنه كان يجحد الصانع ويقول لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي قال موسى: هو خالق السماوات والأرض، والمتصرف فيهما بالإحياء والإعدام، وهو الذي خلق الأشياء كلها من بحار وقفار، وجبال وأشجار، ونباتٍ وثمار، وغير ذلك من المخلوقات البديعة ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ أي إن كانت لكم قلوب موقنة، وأبصار نافذة، فهذا أمر ظاهر جلي ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ أي قال فرعون لمن حوله من أشرف قومه على سبيل التهكم والاستهزاء: ألا تسمعون جوابه وتعجبون من أمره؟ أسأله عن حقيقة الله فيجيبني عن صفاته، فأجاب موسى وزاد في البيان والحجة ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي هو خالقكم وخالق آبائكم الذين كانوا قبلكم، فوجودكم دليل على وجود القادر الحكيم، عدلٌ عن التعريف العام إلى التعريف الخاص لأنَّ الأنفس أقرب من دليل الآفاق، وأوضح عند التأمل ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] فعند ذلك غضب فرعون ونسب موسى إلى الجنون ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ سمَّاه رسولا استهزاء وأضافه إلى المخاطبين استنكافاً من نسبته له أي إن هذا الرسول لمجنون لا عقل له، أسأله عن شيء فيجيبني عن شيء، فلم يحفل موسى بسخرية فرعون وعاد إلى تأكيد الحجة بتعريف ثالث أوضح من الثاني ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي هو تعالى الذي يطلع الشمس من المشرق ويجعلها تغرب من المغرب، وهذا مشاهد كل يوم يبصره العاقل والجاهل ولهذا قال ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي إن كان لكم عقول أدرتكم أن هذا لا يقدر عليه إلا ربُّ العالمين، وهذا من أبلغ الحجج التي تقصم ظهر الباطل كقول إبراهيم في مناظرة النمرود: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ولما انقطع فرعون وأبلس في الحجة رجع إلى الاستعلاء متوعداً

(١) هذا معنى ما قاله مقاتل.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٦٤٥/٢.

(٣) «تفسير الطبري» ٤٣/١٩.

بالبطش ﴿قَالَ لَئِنْ أَخَذْتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ أي لئن اتخذت ربًّا غيري لألقينك في غياهب السجن^(١) قال المفسرون: وكان سجنه شديداً يحبس الشخص في مكان تحت الأرض وحده لا يبصر ولا يسمع فيه أحداً حتى يموت ولهذا لم يقل «لأسجننك» وإنما قال لأجعلنك من المسجونين؛ لأن سجنه كان أشدَّ من القتل قال في «التسهيل»: لما أظهر فرعون الجهل بالله فقال ﴿وَمَارَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أجابه موسى بقوله ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فقال ﴿أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ؟ تعجباً من جوابه، فزاد موسى في إقامة الحجة بقوله ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ لأن وجود الإنسان وآبائه أظهر الأدلة عند العقلاء، وأعظم البراهين، فإن أنفسهم أقرب الأشياء إليهم فيستدلون بها وجود خالقهم، فلما ظهرت هذه الحجة حاد فرعون عنها ونسب موسى إلى الجنون مغالطةً منه، وأيده بالازدراء والتهكم في قوله ﴿إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ فزاد موسى في إقامة الحجة بقوله ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ لأن طلوع الشمس وغروبها آية ظاهرة لا يُمكنُ أحداً^(٢) جحدها ولا أن يدعيها لغير الله، فلما انقطع فرعون بالحجة رجع إلى الاستعلاء والتغلب فهدهد بالسجن، فأقام موسى عليه الحجة بالمعجزة وذكرها له بتلطف طمعاً في إيمانه^(٣) ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ أي أتسجنني ولو جئتكَ بأمرٍ ظاهرٍ، وبرهان قاطع تعرف به صدقي؟ ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي فأت بما تقول إن كنت صادقاً في دعواك ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ أي رمى موسى عصاه فإذا هي حية عظيمة في غاية الجلاء والوضوح، ذات قوائم وفم كبير وشكل هائل مزعج ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِ﴾ أي وأخرج يده من جيبه فإذا هي تتلألأ كالشمس الساطعة، لها شعاع يكاد يغشي الأبصار ويسد الأفق ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي قال فرعون لأشراف قومه الذين كانوا حوله: إن هذا لساحرٌ عظيم بارع في فنِّ السحر. أراد أن يعمي على قومه تلك المعجزة برميهِ بالسحر خشية أن يتأثروا بما رأوا ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ﴾ أي يريد أن يستولي على بلادكم بسحره العظيم ﴿فَمَا ذَاتَا مُرُوتٍ﴾ أي فأي شيء تأمروني وبما تشيرون عليَّ أن أصنع به؟ لما رأى فرعون تلك الآيات الباهرة خاف على قومه أن يتبعوه، فتنزَّل إلى مشاورتهم بعد أن كان مستبداً بالرأي والتدبير ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي أخر أمرهما ﴿وَابْعَثْ

(١) (ش): الْغَيْهَبُ: الظُّلْمَةُ.

(٢) (ش): أي لا يُمكن لأحد، «أحداً» منصوبة على نزع الخافض، أي: بتقدير حرف جر نزع من مكانه وحذف، فنُصِبَ الاسم المجرور بعده - مفعولاً به - ليكون نُصْبُهُ بغير عامل نصبٍ دليلاً على المحذوف، وهي كقول المؤلف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ أي اختار موسى من قومه سبعين رجلاً.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٤٦.

فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٤٦﴾ أَيُّ وَأُرْسِلَ فِي أَطْرَافِ مَمْلَكَتِكَ مِنْ يَجْمَعُ لَكَ السَّحَرَةَ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴿٤٧﴾ يَأْتُونَكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٤٨﴾ أَيُّ يَجِيئُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ مَاهِرٍ، عَلِيمٍ بِضُرُوبِ السَّحَرِ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَكَانَ هَذَا مِنْ تَسْخِيرِ اللَّهِ تَعَالَى لِيَجْتَمَعَ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتُظْهِرَ آيَاتُ اللَّهِ وَحُجْجُهُ وَبِرَاهِينُهُ عَلَى النَّاسِ فِي النَّهَارِ جَهْرَةً ^(١) ﴿٤٩﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ أَيُّ فَاجْتَمَعَ السَّحَرَةُ لِلْمَوْعِدِ الْمَحْدَدِ وَهُوَ وَقْتُ الضُّحَى مِنْ يَوْمِ الزَّيْنَةِ، وَهُوَ الْوَقْتُ الَّذِي حَدَّدَهُ مُوسَى، لِيُظْهِرَ الْحَقَّ وَيُزْهِقَ الْبَاطِلَ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿٥١﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضَحَى ﴿٥٢﴾ [طه: ٥٩] ^(٢) ﴿٥٣﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٥٤﴾ لَعَلَّنَا نَبْنِئُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٥٥﴾ أَيُّ قِيلَ لِلنَّاسِ: بَادِرُوا إِلَى الْإِجْتِمَاعِ لِكَيْ نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ فِي دِينِهِمْ إِنْ غَلَبُوا مُوسَى ﴿٥٦﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَيْنَ لَنَا أَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٥٧﴾ أَيُّ إِنْ غَلَبْنَا بِسِحْرِنَا مُوسَى فَهَلْ تَكْرَمُنَا بِالْمَالِ وَالْأَجْرِ الْجَزِيلِ؟ ﴿٥٨﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٥٩﴾ أَيُّ قَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ: نَعَمْ أُعْطِيَكُمْ مَا تَرِيدُونَ وَأَجْعَلُكُمْ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ عِنْدِي وَمِنْ خَاصَّةِ جِلْسَائِي ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٦١﴾ فِي الْكَلَامِ إِيجَازٌ دَلٌّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ تَقْدِيرُهُ: فَقَالُوا لِمُوسَى عِنْدَ ذَلِكَ إِمَّا أَنْ تَلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمَلْقِينَ كَمَا ذَكَرَ فِي الْأَعْرَافِ فَأَجَابَهُمْ مُوسَى بِقَوْلِهِ ﴿٦٢﴾ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٦٣﴾ أَيُّ أَبْدُوا بِالْإِقْدَارِ مَا تَرِيدُونَ فَأَنَا لَا أَخْشَاكُمْ، قَالَهُ ثِقَةً بِنَصْرَةِ اللَّهِ لَهُ وَتَوَسُّلاً لِإِظْهَارِ الْحَقِّ ﴿٦٤﴾ فَأَلْقَوْا جِبَاهَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بَعْرَةٌ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٦٥﴾ أَيُّ فَأَلْقَوْا مَا بَأْيَدِيهِمْ مِنَ الْحِجَالِ وَالْعَصِيِّ وَقَالُوا عِنْدَ الْإِلْقَاءِ: نَقَسَمُ بِعِظْمَةِ فِرْعَوْنَ وَسُلْطَانِهِ إِنَّا الْغَالِبُونَ لِمُوسَى ﴿٦٦﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٦٧﴾ أَيُّ فَأَلْقَى مُوسَى الْعَصِيَّ فَانْقَلَبَتْ حَيَّةً عَظِيمَةً فَإِذَا هِيَ تَبْتَلَعُ وَتَزْدَرِدُ ^(٣) الْحِجَالِ وَالْعَصِيَّ الَّتِي اخْتَلَقَهَا بِاسْمِ السَّحَرِ حَيْثُ خَلَقَهَا لِلنَّاسِ حَيَاتٍ تَسْعَى، وَسَمَّى تِلْكَ الْأَشْيَاءَ إِفْكًا مَبَالِغَةً ﴿٦٨﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٦٩﴾ أَيُّ سَجَدُوا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، بَعْدَ مَا شَاهَدُوا الْبِرْهَانَ السَّاطِعَ، وَالْمَعْجِزَةَ الْبَاهِرَةَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٧٢﴾ أَيُّ وَقَالُوا عِنْدَ سَجُودِهِمْ: آمَنَّا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْكَبِيرِ الَّذِي يَدْعُونَا إِلَيْهِ مُوسَى وَهَارُونَ قَالَ الطَّبْرِيُّ: لَمَّا تَبَيَّنَ لِلْسَّحَرَةِ أَنَّ الَّذِي جَاءَهُمْ مُوسَى حَقٌّ لَا سِحْرَ، وَأَنَّهُ مِمَّا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ غَيْرُ اللَّهِ الَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، خَرَّوْا لَوُجُوهَهُمْ سَاجِدًا لِلَّهِ مُذْعِنِينَ لَهُ بِالطَّاعَةِ قَائِلِينَ: آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي دَعَانَا مُوسَى لِعِبَادَتِهِ، دُونَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ ^(٤) ﴿٧٣﴾ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴿٧٤﴾ أَيُّ قَالَ فِرْعَوْنَ لِلْسَّحَرَةِ: آمَنْتُمْ لِمُوسَى

(١) «تفسير الطبري» ٤٦ / ١٩.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٦٤٧ / ٢.

(٣) (ش): اَزْدَرَدَ اللَّقْمَةُ: التَّهَمَّهَا، ابْتَلَعَهَا بِسُرْعَةٍ.

(٤) «تفسير الطبري» ٤٦ / ١٩.

قبل أن تستأذنوني؟ ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ أي إنه رئيسكم الذي تعلمتم منه السحر وتواطأتم معه ليظهر أمره، أراد فرعون بهذا الكلام التلبس على قومه لئلا يعتقدوا أن السحرة آمنوا عن بصيرة وظهور حق قال ابن كثير: وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر؟ هذا لا يقوله عاقل^(١)، ثم توعدهم بقوله ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي سوف تعلمون عند عقابي وبأل ما صنعتكم من الإيمان به^(٢) ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾ أي لأقطعن يد كل واحد منكم اليمنى ورجله اليسرى ﴿وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي ولأصلبن كل واحد منكم على جذع شجرة وأتركه حتى الموت ﴿قَالُوا لَا صَبْرَ لَنَا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ أي لا ضرر علينا في وقوع ما أوعدتنا به، ولا نبالي به لأننا نرجع إلى ربنا مؤملين غفرانه ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا﴾ أي إنا نرجو أن يغفر لنا الله ذنوبنا التي سلفت منا قبل إيماننا به فلا يعاقبنا بها ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بسبب أن بادرنا قومنا إلى الإيمان وكنا أول من آمن بموسى.

البلاغة: تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبدیع نوجزها فيما يلي:

١ - الكناية اللطيفة ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ كنى به عن الذل والهوان الذي يلحقهم

بعد العز والكبرياء.

٢ - الوعيد والتهديد ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

٣ - التوبيخ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ﴾ الاستفهام للتوبيخ على تركهم النظر بعين الاعتبار.

٤ - المقابلة اللطيفة بين ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ و﴿وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾.

٥ - جناس الاشتقاق ﴿رَسُولٌ.. أَرْسِلْ﴾.

٦ - الجناس الناقص ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكْ﴾ فقد اتفقت الحروف بين (فعلت وبين فعلة)

واختلف الشكل فأصبح جناساً غير تام.

٧ - الإيجاز بالحذف ﴿قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكْ فِينَا وَلِيدًا﴾ دل على هذا الحذف السياق تقديره فأتيا فرعون فقال له ذلك فقال لموسى ﴿أَلَمْ تُرَبِّكْ﴾ وكذلك هناك إيجاز في ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ قال الزمخشري: أصله أرسل جبريل إلى هارون واجعله نبياً وآزرنى به واشدد به عضدي فأحسن في الاختصار غاية الإحسان^(٣).

(١) «الكشاف» ٣/ ٢٣٨. (ش): الصواب: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٤٦)؛ فالقائل ابن كثير وليس الزمخشري.

(٢) (ش): الوبال: سوء العاقبة.

(٣) «الكشاف» ٣/ ٢٣٨.

٨ - صيغة التعجب ﴿أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ .

٩ - التأكيد بأن واللام لأن السامع متشكك ومتردد ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ ومثله قول السحرة في بدء المناظرة ﴿إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ وهذا من خصائص علم البيان.

١٠ - الطباق بين ﴿الْمَشْرِقِ.. وَالْمَغْرِبِ﴾ ثم توافق الفواصل وهو من السجع البديع.

لطيفة: إن قيل كيف قال موسى في بدء مناظرته لفرعون وقومه ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ ثم قال آخرًا ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فالجواب أنه تلطّف ولا ين أولًا طمعًا في إيمانهم، فلما رأى منهم العناد والمغالطة وبخهم بقوله ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وجعل ذلك في مقابلة قول فرعون ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ.. لَمَجْنُونٌ﴾ فسلك موسى طريق الحكمة.

قال الله تعالى:

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْكُمْ فَتَعْبَهُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَلَأَيْنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَايِطُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ شُرَاقِبَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمَذْكُورُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزَلَفْنَا ثَمَ الْآخِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَبْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَأَتْلَوْا عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُلُّ لَهَا عِنْكِثِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَعِبَادُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِالصِّلَاحِ كَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَغْفِرْ لِأَيِّئِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَزَلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُنْقِنِينَ ﴿٩٠﴾ وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَنْ مَ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكَبَّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودٌ إِلَّا لَيْسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ دُسِّبَكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتُوكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ

المناسبة: ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه السورة سبع قصص: أولها قصة موسى

وهارون، وثانيها قصة إبراهيم، وثالثها قصة نوح، ورابعها قصة هود، وخامسها قصة صالح وسادسها قصة لوط وسابعها قصة شعيب، وكل تلك القصص لتسليية الرسول ﷺ عما يلقاه من المشركين، ولا تزال الآيات تتحدث عن قصة موسى عليه السلام.

اللغة: ﴿أَسْرَى﴾ من الأسراء وهو السير ليلاً فلا يقال لمن سار نهاراً أسرى وإنما هو خاص بالليل ﴿لِشْرَذِمَةٍ﴾ الشردمة: الجمع القليل الحقيق والجمع شرادم قال الجوهري: الشردمة الطائفة من الناس، والقطعة من الشيء، وثوب شرادم أي قطع^(١) ﴿وَأَزَلَفْنَا﴾ قربنا ومنه ﴿وَأَزَلَفَتِ الْجَنَّةُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي قربت قال الشاعر:

وَكُلَّ يَوْمٍ مَضَى أَوْ لَيْلَةٍ سَلَفَتْ
فِيهَا النَّفُوسُ إِلَى الْأَجَالِ تَزْدَلِفُ^(٢)

﴿فَكَبِكُوا﴾ كَبَبَ الشيء: قلبَ بعضه على بعض قال ابن عطية: وهو مضاعف من كبَّ وهو قول الجمهور مثل صرَّ، وصرَّصر، وقال الزمخشري: الكبكبة: تكرير الكبَّ جعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى كأنه إذا أُلقي في جهنم ينكبُّ مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها^(٣) ﴿حَمِيمٍ﴾ الحميم: الصديق الخالص الذي يهيمه ما أهَمَّك ﴿كَرَّةٍ﴾ الكرة: العودة والرجوع مرة أخرى.

التفسير: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اسْرِ بِعِبَادِي﴾ أي أمرنا موسى بطريق الوحي أن يسير ليلاً إلى جهة البحر ببني إسرائيل قال القرطبي: أمر الله موسى أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً، وسمَّاهم عباده لأنهم آمنوا بموسى^(٤) ﴿إِنَّا كَرَّمْتُمُوهُ﴾ أي يتبعكم فرعون وقومه ليردوكم إلى أرض مصر ويقتلوكم ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَلَأَيْنِ خَشِيرَيْنِ﴾ أي أرسل فرعون في طلبهم حين أخبر بمسيرهم وأمر أن يُجمع له الجيش من كل المُدُن قائلاً لهم ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ أي طائفة قليلة قال الطبري: كان بنو إسرائيل ستمائة وسبعين ألفاً^(٥) ولكنه قلَّ لهم بالنسبة إلى كثرة جيشه ﴿وَلَهُمْ لَنَا لَعَاطُونٌ﴾ أي وإنهم يفعلون أفعالاً تغيظنا وتضيق صدورنا ﴿وَلِإِنَّا لَجَمِيعٌ خَذِرُونَ﴾ أي ونحن قوم متيقظون منتبهون، من عادتنا التيقظ والحذر، واستعمال الحزم في الأمور قال الزمخشري: وهذه معاذير اعتذر بها إلى قومه لئلا يظن به ما يكسر من قهره وسلطانه^(٦)، قال تعالى ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي أخرجنا

(١) «تفسير القرطبي» ١٣/ ١٠١.

(٢) «التفسير الكبير» ٢٤/ ١٤٠.

(٣) «الكشاف» ٣/ ٢٥٣.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٣/ ١٠٠.

(٥) «تفسير الطبري» ١٩/ ٤٦. (ش): رواه ابن جرير الطبري عن أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن مسعود، وعامر بينه وبين موسى عليه السلام مئات أو آلاف السنين.

(٦) «الكشاف» ٣/ ٢٤٨.

فرعون وقومه من بساتين كانت لهم وأنهار جارية ﴿وَكُنُوزٌ وَمَقَارِكُ كَرِيمٍ﴾ أي وأخرجناهم من الأموال التي كنزوها من الذهب والفضة، ومن المنازل الحسنة والمجالس البهية ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي مثل ذلك الإخراج الذي وضعناه فعلنا بهم، وأورثنا بني إسرائيل ديارهم وأموالهم بعد إغراق فرعون وقومه ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ أي فلحقوهم وقت شروق الشمس ﴿فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ﴾ أي فلما رأى كل منهما الآخر، والمراد جمع موسى وجمع فرعون ﴿قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُونٌ﴾ أي: ملحقون يلحقنا فرعون وجنوده فيقتلوننا، قالوا ذلك حين رأوا فرعون الجبار وجنوده وراءهم، والبحر أمامهم، وساءت ظنونهم ﴿قَالَ كَلَّا﴾ أي قال موسى كلاً لن يدركوكم فارتدعوا عن مثل هذا الكلام وانزجروا ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ إِنَّ ربي معي بالحفظ والنصرة، وسيهديني إلى طريق النجاة والخلاص قال الرازي: قوى نفوسهم بأمرين: أحدهما أن ربه معه وهذا دلالة النصر والتكفل بالمعونة، والثاني قوله ﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي إلى طريق النجاة والخلاص، وإذا دلّه على طريق نجاته وهلاك أعدائه فقد بلغ النهاية في النصر^(١) ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ أي أمرنا موسى بطريق الوحي أن يضرب البحر بعصاه ﴿فَانْفَلَقَ﴾ أي فضربه فانشق وانفلق ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ أي فكان كل جزء منه كالجبل الشامخ الثابت قال ابن عباس: صار فيه اثنا عشر طريقاً لكل سبط منهم طريق^(٢) ﴿وَأَزَلَفْنَا ثَمَ الْآخِرِينَ﴾ أي وقربنا هناك فرعون وجماعته حتى دخلوا البحر على إثر دخول بني إسرائيل ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ أي أنجينا موسى والمؤمنين معه جميعاً ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾ أي أغرقنا فرعون وقومه قال المفسرون: لما انفلق البحر جعله الله ييساً لموسى وقومه، وصار فيه اثنا عشر طريقاً ووقف الماء بينها كالطود العظيم، فلما خرج أصحاب موسى وتكامل دخول أصحاب فرعون أمر الله البحر أن يطبق عليهم فغرقوا فيه، فقال بعض أصحاب موسى: ما غرق فرعون! فنبذ على ساحل البحر حتى نظروا إليه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي إِنَّ في إغراق فرعون وقومه لعبرة عظيمة على إنجاء الله لأوليائه، وإهلاكه لأعدائه ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ أي ومع مشاهدة هذه الآية العظمى لم يؤمن أكثر البشر، وفيه تسليّة للنبي ﷺ ووعيد لمن عصاه ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي المتقمم من أعدائه الرحيم بأوليائه ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ هذه بداية قصة إبراهيم

(١) «التفسير الكبير» ١٣٨/٢٤.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٦٤٩/٢.

أي اقصص عليهم يا محمد خبر إبراهيم الهام وشأنه العظيم^(١) ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي حين قال لأبيه وعشيرته: أي شيء تعبدون؟ سألهم مع علمه بأنهم يعبدون الأصنام ليبين لهم سفاهة عقولهم في عبادة ما لا ينفع، ويقيم عليهم الحجة ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُلُّ لَهَا عَكَفِينَ﴾ أي نعبد أصناماً فنبقى مقيمين على عبادتها لا نتركها، قالوا ذلك على سبيل الابتهاج والافتخار، وكان يكفيهم أن يقولوا: نعبد الأصنام ولكنهم زادوا في الوصف كالمفتخر بما يصنع ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ﴾ أي قال لهم إبراهيم على سبيل التبكيت والتوبيخ: هل يسمعون دعاءكم حين تلجأون إليهم بالدعاء؟ ﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ أي وهل يبذلون لكم منفعة، أو يدفعون عنكم مضرة؟ ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أي وجدنا آبائنا يعبدونهم ففعلنا مثلهم قال «أبو السعود»: اعترفوا بأنها لا تنفع ولا تضر بالمرّة، واضطروا إلى إظهار الحقيقة وهي أنه لا سند لهم سوى التقليد^(٢)، وهذا من علامات انقطاع الحجة ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُتِّمَ تَعْبُدُونَ﴾^(٣) أنتم وآبائكم الأقدمون ﴿أَيَّ قَالَ إِبْرَاهِيمَ: أَفَرَأَيْتُمْ هَذِهِ الْأَصْنَامَ الَّتِي عِبَدْتُمُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأُولُونَ؟﴾ ﴿فَأَنَّهُمْ عِدُوٌّ لِلَّهِ الْعَالَمِينَ﴾ أي فإن هذه الأصنام أعداء لي لا أعبدهم، ولكن أعبد الله رب العالمين فهو ولي في الدنيا والآخرة، أسند العداوة لنفسه تعريضاً به وهو أبلغ في النصيحة من التصريح ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أي الله الذي خلقني هو الذي يهديني إلى طريق الرشاد لا هذه الأصنام ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي﴾ أي هو تعالى الذي يرزقني الطعام والشراب فهو الخالق الرازق الذي ساق المُنْزَن، وأنزل المطر، وأخرج به أنواع الثمرات رزقاً للعباد ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي﴾ أي وإذا أصابني المرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره، وإنما أسند المرض إلى نفسه ﴿مَرِضْتُ﴾ وأسند الشفاء إلى الله رعاية للأدب، وإلا فالمرض والشفاء من الله جل وعلا فاستعمل في كلامه حسن الأدب ﴿وَالَّذِي يُبَسِّئُنِي ثُمَّ يُجْبِينِي﴾ أي وهو تعالى المحيي المميت لا يقدر على ذلك أحد سواه، يميئني إذا شاء ثم يجيئني إذا أراد بعد مماتي ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي أرجو من واسع رحمته أن يغفر لي ذنبي يوم الحساب والجزاء حيث يجازي العباد بأعمالهم، وفيه تعليم للأمة أن يستغفروا من ذنوبهم ويقرّوا بخطاياهم ﴿رَبِّ هَبْ

(١) قال «الفخر الرازي»: ذكر تعالى في أول السورة حزن النبي ﷺ بسبب كفر قومه، ثم ذكر قصة موسى ليعرف محمد أن مثل تلك المحنة كانت حاصلة لموسى، ثم ذكر عقبها قصة إبراهيم ليعرف محمد أيضاً أن حزن إبراهيم بهذا السبب كان أشد من حزنه، لأن من عظيم المحنة على إبراهيم أن يرى أباه وقومه في النار وهو لا يتمكن من إنقاذهم إلا بالدعاء والتنبه. «التفسير الكبير» ١٤٢/٢٤.

(٢) «أبو السعود» ١٠٩/٤.

لِيُحْكَمَ وَالْحَقِّنِي بِالصَّلَاحِ ﴿١﴾ أَي هب لي الفهم والعلم والحقني في زمرة عبادك الصالحين ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ﴾ أَي اجعل لي ذكراً حسناً وثناءً عاطراً ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ أَي فيمن يأتي بعدي إلى يوم القيامة، أذكر به ويُقْتَدَى بي ^(١) قال ابن عباس: هو اجتماع الأمم عليه، فكل أمة تتمسك به وتُعَظِّمُهُ ﴿وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ أَي من السعداء في الآخرة الذين يستحقون ميراث جنات الخلد ﴿وَأَغْفِرْ لَائِي﴾ أَي اصفح عنه واهده إلى الإيمان ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أَي ممن ضلَّ عن سبيل الهدى قال الصاوي: وقد أجابه الله تعالى في جميع دعواته سوى الدعاء بالغفران لأبيه ^(٢) وقال القرطبي: كان أبوه وعده أن يؤمن به فلذلك استغفر له، فلما بان له أنه لا يفي تبرأ منه ^(٣) ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أَي لا تذلني ولا تُهَنِّي يَوْمَ تَبْعَثُ الخلائق للحساب، وهذا تواضع منه أمام عظمة الله وجلاله وإلا فقد أثنى الله عليه بقوله ﴿إِنْ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠] الآية ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ أَي في ذلك اليوم العصيب لا ينفع أحداً فيه مالٌ ولا ولد ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى﴾ أَي: إلا من جاء ربّه في الآخرة ﴿اللَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أَي بقلب نقيٍّ طاهر، سليم من الشرك والنفاق، والحسد والبغضاء، وإلى هنا تنتهي دعوات الخليل إبراهيم ثم قال تعالى ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أَي قُرِبَتِ الجنة للمتقين لربهم ليدخلوها قال الطبري: وهم الذين اتقوا عقاب الله بطاعتهم إياه في الدنيا ^(٤) ﴿وَوُزِنَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ أَي وأظهرت النار للمجرمين الضالين حتى رأوها بارزة أمامهم مكشوفة للعيان، فالمتؤمنون يرون الجنة فتحصل لهم البهجة والسرور، والغاؤون يرون جهنم فتحصل لهم المساءة والأحزان ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أَي قيل للمجرمين على سبيل التوبيخ والتوبيخ ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ^(٥) مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿أَيَ أَيْنَ آلِهَتِكُمُ الَّذِينَ عِبَدْتُمُوهُمْ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ؟﴾ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿أَيَ هَلْ يَنْقُذُونَكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، أَوْ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَدْفَعُوهُ عَنْ أَنْفُسِهِمْ؟ وَهَذَا كُلُّهُ تَوْبِيخٌ﴾ فَكُفُّوا فِيهَا ﴿أَيَ أَلْقُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ فِي جَهَنَّمَ قَالَ مُجَاهِدٌ: «دُهِرُوا

(١) قال بعض العلماء: في الآية دليل على استحباب كسب الذكر الجميل إذ هو الحياة الثانية وأنشدوا: «قَدْ مَاتَ قَوْمٌ وَهُمْ فِي النَّاسِ أَحْيَاءٌ».

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ١٧٥ / ٣.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٣ / ١١٤. (ش:) الذي في «تفسير القرطبي»: «... لَكِنَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَغْفِرَنَّ لَكَ، إِنَّمَا جَرَى لِأَنَّهُ ظَنَّ أَنَّهُ أَسْلَمَ، فَلَمَّا بَانَ لَهُ أَنَّهُ لَمْ يُسَلِّمْ تَبَرَّأَ مِنْهُ». اهـ. وقد رد أبو حيان الأندلسي على من قال إن أزر قد وعد إبراهيم عليه السلام أن يؤمن به فقال في «البحر المحيط» في التفسير (٧ / ٢٧٢): «وَقَوْلُ مَنْ قَالَ إِنَّمَا اسْتَغْفِرُ لَهُ لِأَنَّهُ وَعَدَهُ أَنْ يُؤْمِنَ مُسْتَدِلًّا بِقَوْلِهِ «إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِلَهُهُ» فَجَعَلَ الْوَاعِدَ أَزَرَ وَالْمَوْعُودَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْسَ بِجَيِّدٍ؛ لِإِعْتِقَابِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْوَعْدَ بِالْإِسْتِغْفَارِ بَعْدَ ذَلِكَ الْقَوْلِ الْجَافِي فِي قَوْلِهِ «لَنْ لَمْ تَنْتَهُ» الْآيَةِ. فَكَيْفَ يَكُونُ وَعْدُهُ بِالْإِيمَانِ؟ وَلِأَنَّ الْوَاعِدَ هُوَ إِبْرَاهِيمُ».

(٤) «تفسير الطبري» ١٩ / ٥٥.

في جهنم»^(١). وقال الطبري: رُمي بعضهم على بعض، وطُرح بعضهم على بعض مُنكِّين على وجوههم^(٢) ﴿هُمُ وَالْغَاوُونَ﴾ أي الأصنام والمشركون والعابدون والمعبودون كقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ أي وأتباع إبليس قاطبة من الإنس والجن ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ أي قال العابدون لمعبودهم وهم في الجحيم يتنازعون ويتخاصمون ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي نقسم بالله لقد كنا في ضلال واضح وبعد عن الحق ظاهر ﴿إِذْ سَأَلْتُمْ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أي حين عبدناكم مع رب العالمين وجعلناكم مثله في استحقاق العبادة ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْأُمُجِرُونَ﴾ أي وما أضلنا عن الهدى إلا الرؤساء والكبراء الذين زينوا لنا الكفر والمعاصي ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ أي ليس لنا من يشفع لنا من هول هذا اليوم ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ أي ولا صديق خالص الود ينقذنا من عذاب الله ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أي لو أن لنا رجعة إلى الدنيا ﴿فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي فنؤمن بالله ونحسن عملنا ونطيع ربنا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي إن فيما ذكر من نبأ إبراهيم وقومه لعلبة يعتبر بها أولو الأبصار ﴿وَمَا كَانَ مِنْ نَبَأٍ إِلَّا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا كَانَ أَكْثَرُ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعَزُّ الرَّحِيمِ﴾ أي المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه.

البلاغة: تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الإيجاز بالحذف ﴿فَانْفَلَقَ﴾ أي فضرِب البحر فانفلق.
- ٢ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ أي كالجبل في رسوخه وثباته ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه.
- ٣ - الطباق بين ﴿أَوْ يَفْعَلُوكُمْ أَوْ يُضْرَبُونَ﴾ وكذلك بين ﴿يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي﴾.
- ٤ - مراعاة الأدب ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي﴾ لم يقل: وإذا أمرضني بل أسند المرض لنفسه تأدباً مع الله لأن الشر لا يُنسب إليه تعالى أدباً، وإن كان المرض والشفاء كلاهما من الله.
- ٥ - الاستعارة اللطيفة ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ﴾ استعار اللسان للذكر الجميل والثناء الحسن وهو من ألطف الاستعارات.
- ٦ - المقابلة البديعة ﴿وَوُزِنَتْ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ مقابل قوله عن السعداء ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُنْفِقِينَ﴾.

(١) (ش): ذَهَبَ الشَّيْءُ: جَمَعَهُ وَقَذَفَ بِهِ مِنْ أَعْلَى إِلَى أَسْفَلِ.

(٢) «تفسير الطبري» ١٩ / ٥٥.

٧ - مراعاة الفواصل في أواخر الآيات مثل ﴿لِّلْمُتَّقِينَ، لِلْعَاقِبِينَ، ضَلَّكُم مِّمِينَ﴾ وهو من السجع الحسن الذي يزيد في جمال البيان.

تنبيه: «روي أن إبراهيم يلقى أباهُ أَرَزَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَلَى وَجْهِهِ أَرَزَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي؟ فيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ. فيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ، إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خَزْيٍ أَحْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ؟ فيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ انْظُرْ تَحْتَ رِجْلِكَ فيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ - ذكر من الضباع - تَلْطِخُ، فيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فيُلْقَى فِي النَّارِ» رواه البخاري.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِيَّاهُ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عَلِمْتُمْ بِيَوْمِ يَعْلَمُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَنْ لَمَّا تَنْتَهِي يَنْتَوِجُ لَتَكُونَ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنْ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَأَفْنِ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا وَغِيًّا وَمِنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَجْنَبْنِي وَبَنِيَّ مِنْ مَعَهُ فِي الْفَلَاحِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِيَّاهُ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣١﴾ وَأَتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَعْلَمٍ وَبَيْنَ وَجْهَتِ وَعُيُونِ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تُنْفِقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِيَّاهُ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هُمْ بِأَمِينِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنَجُّتُونَ مِنْ أَلْجِبَالِ بُيُوتًا فَرَهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٥٠﴾ وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَاءً فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ

رَبِّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَايَةِ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولَى ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ يَوْمَ تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوه فَآخْذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ

المناسبة: لما قصَّ تعالى على نبيه محمد ﷺ خبر موسى وإبراهيم أتبعه بذكر قصة نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وكل ذلك تسلية لرسول الله ﷺ فيما يلقاه من قومه، وبيان لسنة في الله عقاب المكذبين.

اللغة: ﴿الْمُشْحُونُ﴾ المملوء يقال: شحنت السفينة أي ملاءها بالناس والدواب والطعام ﴿رَبِيعٌ﴾ الربيع: ما ارتفع من الأرض، والربيع: الطريق ﴿مَصَانِعُ﴾ المراد بها الحصون المشيدة وهو قول ابن عباس؛ قال الشاعر:

تَرَكْنَا دِيَارَهُمْ مِنْهُمْ قِفَارًا وَهَدَمْنَا الْمَصَانِعَ وَالْبُرُوجَا^(١)

﴿بَطْشَتُمْ﴾ البطش: السطوة والأخذ بالعنف يقال: بطش يبطش إذا أخذه بشدة وعنف ﴿وَالْجِبِلَّةَ﴾ الخليقة قال الهروي: الجبلَّة والجبل: الجمع ذو العدد الكثير من الناس ومنه قوله ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢] أي ناسًا كثيرين ويقال: جبل فلان على كذا أي خلق ﴿كِسْفًا﴾ جمع كسفة وهي القطعة من الشيء.

التفسير: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي كذب قوم نوح رسولهم نوحًا، وإنما قال: ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ لأن من كذب رسولاً فقد كذب الرسل ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ أي أخوهم في النسب لا في الدين لأنه كان منهم قال الزمخشري: وهذا من قول العرب: يا أخا بني

(١) «تفسير القرطبي» ١٣ / ١٢٣. (ش): تَرَكْنَا دِيَارَهُمْ مِنْهُمْ قِفَارًا: تَرَكْنَا دِيَارَهُمْ خالية مِنْهُمْ. بُرُوجٍ: حصون.

تميم يريدون يا واحداً منهم ومنه بيت الحماسة: «لَا يَسْأَلُونَ أَحَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ»^(١) ﴿لَا تَنْقُوتَ﴾ أي ألا تخافون عقاب الله في عبادة الأصنام؟ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي إني لكم ناصح، أمينٌ في نصحي لا أخون ولا أكذب ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ أي خافوا عذاب الله وأطيعوا أمري ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي لا أطلب منكم جزاءً على نصحي لكم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي ما أطلب ثوابي وأجري إلا من الله تعالى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ كرهه تأكيداً وتنبيهاً على أهمية الأمر الذي دعاهم إليه ﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ﴾ أي أنصدقك يا نوح فيما تقول ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ أي والحال أن أتباعك هم السفلة والفقراء والضعفاء؟ قال «البيضاوي»: وهذا من سخافة عقولهم، وقصور رأيهم فقد قصروا الأمر على حطام الدنيا حتى جعلوا اتباع الفقراء له مانعاً عن اتباعهم وإيمانهم بدعوة نوح^(٢) ﴿قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ليس عليّ أن أبحث عن خفايا ضمائرهم، وأن أنقب عن أعمالهم هل اتبعوني إخلاصاً أو طمعاً؟ قال القرطبي: كأنهم قالوا: إنما اتبعك هؤلاء طمعاً في العزة والمال فقال في جوابهم: إني لم أقف على باطن أمرهم وإنما إليّ ظاهرهم^(٣) ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أي ما حسابهم وجزاؤهم إلا على الله فإنه المطلع على السرائر والضمائر لو تعلمون ذلك ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لست بمبعد هؤلاء المؤمنين الضعفاء عني، ولا بطاردهم عن مجلسي قال أبو حيان: وهذا مشعرٌ بأنهم طلبوا منه ذلك كما طلب رؤساء قريش من رسول الله ﷺ أن يطرد من آمن من الضعفاء^(٤) ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما أنا إلا نذير لكم من عذاب الله، أخوفكم بأسه وسطوته فمن أطاعني نجاً سواءً كان شريفاً أو وضيعاً، أو جليلاً أو حقيراً ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْتَهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أي لئن لم تنته عن دعوى الرسالة وتقبيح ما نحن عليه لتكوننَّ من المرجومين بالحجارة، خوَّفوه بالقتل بالحجارة فعند ذلك حصل اليأس لنوح من فلاحهم فدعا عليهم ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَبُونَ﴾ أي قال نوح: يا رب إن قومي كذبوني ولم يؤمنوا بي ﴿فَأَفْتَحْ يَنِّي وَيَنْهَهُمْ فَتَحَّا﴾ أي فاحكم بيني وبينهم بما تشاء، واقض بيننا بحكمك العادل

(١) «الكشاف» ٣/ ٢٥٤. (ش):

لَا يَسْأَلُونَ أَحَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانًا.

نائبة: مصيبة شديدة، ما ينزل بالمرء من الكوارث والحوادث المؤلمة. أي لا يسألون صاحبهم دليلاً على ما قاله حين يناديهم برفع صوته في المصائب الشديدة.

(٢) «البيضاوي» ٢/ ٧٦.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٣/ ١٢٠.

(٤) «البحر المحيط» ٧/ ٣٢.

﴿وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أنقذني والمؤمنين معي من مكرهم وكيدهم ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ أي فأنجينا نوحاً ومن معه من المؤمنين في السفينة المملوءة بالرجال والنساء والحيوان ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ﴾ أي أغرقنا بعد إنجائهم الباقين من قومه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي لعبرة عظيمة لمن تفكر وتدبر ﴿وَمَا كَانَتْ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي وما أكثر الناس بمؤمنين ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي وإن ربك يا محمد لهو الغالب الذي لا يقهر، الرحيم بالعباد حيث لا يعاجلهم بالعقوبة، ثم شرع تعالى في ذكر قصة «هود» فقال ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي كذبت قبيلة عاد رسولهم هوداً، ومن كذب رسولاً فقد كذب جميع المرسلين ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي ألا تخافون عذاب الله وانتقامه في عبادتكم لغيره! ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي أمين على الوحي ناصح لكم في الدين ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ أي فخافوا عذاب الله وأطيعوا أمري ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي لا أطلب منكم على تبليغ الدعوة شيئاً من المال إنما أطلب أجري من الله، كررت الآيات للتنبيه إلى أن دعوة الرسل واحدة ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ؟﴾ استفهام إنكاري أي أتبنون بكل موضع مرتفع من الطريق بناءً شامخاً كالعلم لمجرد اللهو والعبث؟ قال ابن كثير: الريع المكان المرتفع كانوا يبنون عند الطرق المشهرة بنياناً محكمًا هائلاً باهراً لمجرد اللهو واللعب وإظهار القوة، ولهذا أنكر عليهم نبئهم عليه السلام ذلك لأنه تضييع للزمان، وإتعاث للأبدان، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة^(١) ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي وتتخذون قصوراً مشيدة محكمة ترجون الخلود في الدنيا كأنكم لا تموتون؟ ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ أي وإذا اعتديتم على أحد فعلتم فعل الجبارين من البطش دون رافة أو رحمة، وإنما أنكر عليهم ذلك لأنه صادر عن ظلم عادة الجبابرة المتسلطين^(٢) قال الفخر: وصفهم بثلاثة أمور: اتخاذ الأبنية العالية وهو يدل على السرف وحب العلو، واتخاذ المصانع - القصور المشيدة والحصون - وهو يدل على حب البقاء والخلود، والجبارية وهي تدل على حب التفرد بالعلو، وكل ذلك يشير على أن حب الدنيا قد استولى عليهم بحيث استغرقوا فيه حتى خرجوا عن حد العبودية، وحاموا حول ادعاء الربوبية، وحب الدنيا رأس كل خطيئة^(٣) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ أي خافوا الله واتركوا هذه الأفعال وأطيعوا أمري، ثم شرع يذكرهم

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٦٥٣/٢.

(٢) (ش): لعل الصواب: وإنما أنكر عليهم ذلك لأنه صادر عن ظلم وهو عادة الجبابرة المتسلطين.

(٣) «التفسير الكبير» بشيء من الاختصار ١٥٧/٢٤.

نِعَمَ اللَّهُ فَقَالَ ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أنعم عليكم بأنواع النعم والخيرات ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمٍ وَبَيْنَ﴾ (١٣٢) وَجَحَنَتْ وَعَيُونَ ﴿أي أعطاكم أصول الخيرات من المواشي والبنين، والبساتين، والنهار، وأغدق عليكم النعم فهو الذي يجب أن يُعبد ويُشكر ولا يُكفر﴾ ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي أخشى عليكم إن لم تشكروا هذه النعم واشركتم وكفرتم عذاب يوم هائل تشيب لهوله الولدان.

دعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب، وبلغ في دعائهم بالوعظ والتخويف النهاية القصوى في البيان فكان جوابهم ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ أي يستوي عندنا تذكيرك لنا وعذمه، فلا نبالي بما تقول، ولا نزعوي عما نحن عليه (١) قال أبو حيان: جعلوا قولهم عظاً على سبيل الاستخفاف وعدم المبالاة بما خوَّفهم به إذ لم يعتقدوا صحة ما جاء به، وأنه كاذب فيما ادَّعاه (٢) ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي ما هذا الذي جئنا به إلا كذبٌ وخرافات الأولين ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ أي لا بعث ولا جزاء ولا حساب ولا عذاب ﴿فَكَذَّبُوا فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ أي فكذبوا رسولهم هوداً فأهلكناهم بريح صرصر عاتية قال ابن كثير: وكان إهلاكهم بالريح الشديدة الهبوب، ذات البرد الشديد وهي الريح الصرصر العاتية، وكان سبب إهلاكهم من جنسهم، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره، فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد، فحصبته الريح كل شيء حتى كانت تأتي الرجل منهم فتقتلعه، وترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه، فتشدخ رأسه ودماغه (٣) ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ﴾ أي إن في إهلاكهم لعظة وعبرة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي وما آمن أكثر الناس مع رؤيتهم للآيات الباهرة ﴿وَأَنْ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي وإن ربك يا محمد لهو العزيز في انتقامه من أعدائه، الرحيم بعباده المؤمنين، ثم شرع تعالى في ذكر قصة «صالح» فقال ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي كذبت قبيلة ثمود نبيهم «صالحاً» ومن كذب رسولاً فقد كذب جميع المرسلين ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ؟ ألا تخافون عذاب الله وانتقامه في عبادتكم غيره! ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٤٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿كررت الآيات للتنبيه على أن دعوة الرسل واحدة، فكل رسول يذكر قومه بالغاية من بعثته ورسالته، وأنها لصالح البشر﴾ ﴿أَتَتْرَكُونَ فِي مَا هُنَاءَ مَنِينٍ﴾ أي أترككم ربكم في هذه الدنيا آمنين، مخلصين في النعيم، كأنكم باقون في الدنيا بلا موت؟ قال ابن عباس: كانوا معمرين لا يبقى البنيان مع أعمارهم، قال القرطبي: ودل على هذا قوله تعالى

(١) (ش): ارعوى الشخص عن غيئه: كف عنه وارتدع.

(٢) «البحر المحيط» ٣٣/٧.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/٦٥٤ بشيء من الإيجاز

﴿وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] فقرَّعهم صالح ووبَّخهم وقال: أتظنون أنكم باقون في الدنيا بلا موت^(١) ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي في بساتين وأنهار جاريات ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ أي وسهولٍ فسيحة فيها من أنواع الزروع والنخل الرطب اللين؟ أتركون في كل ذلك النعيم دون حساب ولا جزاء قال المفسرون: كانت أرض ثمود كثيرة البساتين والماء والنخل فذكرهم صالح بنعم الله الجليلة من إنبات البساتين والجنت، وتفجير العيون الجاريات، وإخراج الزروع والثمرات، ومعنى «الهضيم» اللطيف الدقيق وهو قول عكرمة، وقال ابن عباس معناه: اللين النضيج^(٢) ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ أي وتبنون بيوتًا في الجبال أشيرين بطيرين^(٣) من غير حاجة لسكنائها قال الرازي: وظاهر هذه الآيات يدل على أن الغالب على قوم «هود» هو اللذات الخيالية وهي الاستعلاء، والبقاء، والتجبر، والغالب على قوم «صالح» هو اللذات الحسية وهي طلب المأكول، والمشروب، والمساكن الطيبة^(٤) وقال الصاوي: كانت أعمارهم طويلة فإن السقوف والأبنة كانت تبلى قبل فناء أعمارهم، لأن الواحد منهم كان يعيش ثلاثمائة سنة إلى ألف^(٥) ﴿فَأَنقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ أي فاتقوا عقاب الله وأطيعوني في نصيحتي لكم ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي ولا تطيعوا أمر الكبراء المجرمين ﴿الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أي الذين عادتهم الفساد في الأرض لا الإصلاح قال الطبري: وهم الرهط التسعة الذين وصفهم الله بقوله ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةٌ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾^(٦) [النمل: ٤٨] ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ أي من المسحورين سُحِرَتْ حتى غلبَ على عقلك. قال المفسرون: والمُسَحَّرُ مبالغة من المسحور ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي لست يا صالح إلا رجلاً مثلاً، فكيف تزعم أنك رسول الله ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي فأتنا بمعجزة تدل على صدقك ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ﴾ أي هذه معجزتي إليكم وهي الناقة التي تخرج من الصخر الأصم بقدره الله قال المفسرون: روي أنهم اقترحوا عليه ناقة عُشراء - حامل - تخرج من

(١) «تفسير القرطبي» ١٣/ ١٢٧.

(٢) حكي القرطبي في معنى «الهضيم» اثني عشر قولاً كذا في «تفسيره» ١٣/ ١٢٨. (ش): ينع الثمر: نضج، طاب وحان قطافه. نضج: ناضج جيد النضج.

(٣) (ش): أشير الشخص، أشير، فهو أشير: بطر واستكبر ومرح ونشط. بطر الشخص، بطراً، فهو بطر: طغى وغالى في مَرَجِه وزهوّه واستخفاه، جاوز الحد كثيراً. بطر النعمة: استخفها وكفرها ولم يشكرها. بطر الحق ونحوه: أنكره ولم يقبله تكبراً وطغياناً.

(٤) «التفسير الكبير» ٢٤/ ١٥٩.

(٥) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/ ١٧٩.

(٦) «تفسير الطبري» ١٩/ ٦٣.

صخرة معينة وتلد أمامهم، فعد صالح عليه السلام يتفكر فجاءه جبريل فقال: صل ركعتين وسل ربك الناقة ففعل، فخرجت الناقة وولدت أمامهم وبركت بين أيديهم فقال لهم هذه ناقة يا قوم^(١) ﴿هَآ شَرِبٌ وَلَكُم شَرِبٌ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي تشرب ماءكم يوماً، ويوماً تشربون أنتم الماء قال قتادة: إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله، وشربهم في اليوم الذي لا تشرب هي فيه^(٢)، وتلك آية أخرى ﴿وَلَا تَمْسُوْهَا سَوْءٌ﴾ أي لا تنالوها بأي ضرر بالعقر أو بالضرب ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي فيصيبكم عذاب من الله هائل لا يكاد يوصف قال ابن كثير: حذرهم نعمة الله إن أصابوها بسوء، فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر، ترذ الماء وتأكل الورق والمرعى، ويتنفعون بلبنها يحلبون منها ما يكفيهم شرباً ورياً، فلما طال عليهم الأمد وحضر أشقاهم تمالئوا على قتلها وعقرها^(٣) ﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾ أي قتلوها مريماً بالسهم، رماها أشقاهم - قدار بن سالف - بأمرهم ورضاهم فأصبحوا نادمين على قتلها خوف العذاب قال الفخر: لم يكن ندمهم ندم التائبين، لكن ندم الخائفين من العذاب العاجل^(٤) ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي العذاب الموعد، وكان صيحة خمدت لها أبدانهم، وانشقت لها قلوبهم، وزلزلت الأرض تحتهم زلزالاً شديداً، وضبت عليهم حجارة من السماء فماتوا عن آخرهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي لعظة وعبرة لمن عقل وتدبر ﴿وَمَا كَانَتْ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ١٥٨ ﴿وَلِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ تقدم تفسيرها فيما سبق، ثم شرع تعالى في ذكر قصة «لوط» فقال ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي كذبوا رسولهم لوطاً ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي ألا تخافون عقاب الله وانتقامه في عبادتكم غيره! ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ١٦٢ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ١٦٣ ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ نفس الكلمات والألفاظ التي قالها من قبل صالح، وهوذ، ونوح مما يؤكد أن دعوة الرسل واحدة، وغايتها واحدة، وأن منشأها هو الوحي السماوي، ثم قال لهم لوط ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع أي أتتكحون الذكور في أدبارهم، وتنفردون بهذا الفعل الشنيع من بين سائر الخلق؟ ﴿وَتَدْرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ﴾ قال لمجاهد: تركتم فروج النساء إلى أدبار الرجال^(٥) ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ أي بل أنتم قوم مجاوزون الحد في الإجرام والفساد، وبخهم على إتيانهم الذكور، ثم أضرب

(١) انظر حاشية زاده على البضاوي ٤٧٧/٣.

(٢) (ش): أي ويشربوا هم في اليوم الذي لا تشرب هي فيه.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٦٥٦/٢. (ش): تمالأ القوم على كذا: اجتمعوا وتعاونوا عليه.

(٤) «تفسير الرازي» ٦٠/٢٤.

(٥) «زاد المسير» ١٤٠/٦.

عنه إلى ما هو أبلغ في التوبيخ كأنه يقول: خرجتم عن حدود الإنسانية إلى مرتبة البهيمية بعدوانكم وارتكابكم هذه الجريمة الشنيعة، فالذكر من الحيوان يأنف عن إتيان الذكر، وأنتم فعلتم ما يتورع عنه الحيوان ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ أي لئن لم تترك تقبيح ما نحن عليه لنُخرجنك من بين أظهرنا وننفيك من بلدنا كما فعلنا بمن قبلك، توعدوه بالنفي والطرْد ﴿قَالَ إِنِّي لَعَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ أي إني لعملكم القبيح من المبغضين غاية البغض وأنا بريء منكم ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي نجني من العذاب الذي يستحقونه بعملهم القبيح أنا وأهلي. قال تعالى ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ (٧٧) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَايَةِ ﴿أَي نَجَّيْنَاهُ مَعَ أَهْلِهِ جَمِيعًا إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْهَالِكِينَ الْبَاقِينَ فِي الْعَذَابِ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَالْمُرَادُ بِالْعَجُوزِ امْرَأَتُهُ فَقَدْ كَانَتْ عَجُوزًا سَوَاءً، بَقِيَتْ فَهَلَكَتْ مَعَ مَنْ بَقِيَ مِنْ قَوْمِهَا حِينَ أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَسْرِيَ بِأَهْلِهِ إِلَّا امْرَأَتَهُ (١) ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ﴾ أي أهلكناهم أَشَدَّ إِهْلَاكًا وَأَفْظَعَهُ بِالْخَسْفِ وَالْحَصْبِ (٢) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ أي أمطرنا عليهم حجارة من السماء كالمطر الزاخر ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ أي بئس هذا المطر مطر القوم المُنْذِرِينَ الذين أُنْذِرُهُمْ نَبِيَّهُمْ فَكَذَّبُوهُ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً وَعِظَةً لِأُولِي الْبَصَائِرِ ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿تَقْدِمُ تَفْسِيرَهُ، ثُمَّ شَرَعَ تَعَالَى فِي ذِكْرِ قِصَّةِ «شُعَيْبٍ» فَقَالَ: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْمِرْثَلِ﴾ أي كَذَّبَ أَصْحَابُ مَدِينِ نَبِيِّهِمْ شُعَيْبًا قَالَ الطَّبْرِيُّ: وَالْأَيْكَةُ: الشَّجَرُ الْمُلْتَفُّ وَهُمْ أَهْلُ مَدِينِ (٣) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْقِوُكُمْ (٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ سَبَقَ تَفْسِيرُهُ ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أي أَوْفُوا النَّاسَ حَقُّوهُمْ فِي الْكَيْلِ وَالْوِزْنِ

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٦٥٧/٢.

(٢) (ش): الْخَسْفُ: الْخَسْفُ: أَنْ تَنْهَارَ الْأَرْضُ بِالشَّيْءِ، خَسَفَ اللَّهُ بِهِمِ الْأَرْضَ: غَيَّبَهُمْ فِيهَا. الْحَصْبُ: أَنْ يُمَطَّرَهُمُ اللَّهُ بِحِجَارَةٍ مِنَ السَّمَاءِ فَتَقْتُلُهُمْ. وَالْقَوْلُ بِأَنْ عَذَابَ قَوْمِ لُوطَ كَانَ بِالْخَسْفِ وَالْحَصْبِ قَالَهُ الشُّوْكَانِيُّ فِي «فَتْحِ الْقَدِيرِ» (٤/ ١٣٢)، (٤/ ٢٣٣). وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥/ ٧٢٤). وَقَالَ الْمُؤَلِّفُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُظْلِمُهُمْ وَلَكِنَّ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ أي فَكَلَّا مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَجْرَمِينَ أَهْلَكْنَاهُ بِسَبَبِ ذَنْبِهِ وَعَاقِبْنَاهُ بِجُنَايَتِهِ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيِ وَكَانَتْ عِقَابُهُ بِمَا يَنَاسِيهِ ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ أَيِ رِيحًا عَاصِفَةً مَدْمَرَةً فِيهَا حَصَبَاءُ «حِجَارَةٌ» كَقَوْمِ لُوطَ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ أَيِ وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ صَيْحَةُ الْعَذَابِ مَعَ الرَّجْفَةِ كَثُودَ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ أَيِ خَسَفْنَا بِهِ وَبَأْمَلَاكِهِ الْأَرْضَ حَتَّى غَابَ فِيهَا كَقَارُونَ وَأَصْحَابِهِ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ أَيِ أَهْلَكْنَاهُ بِالْغَرَقِ كَقَوْمِ نُوحٍ وَفِرْعَوْنَ وَجَنْدَهُ.

(٣) «تفسير الطبري» ١٩/٦٥.

﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ أي من المُنْقِصِينَ الْمُطْفِفِينَ في المكيال والميزان ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي زنوا بالميزان العدل السوي ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي لا تُنقصوا حقوق الناس بأي طريق كان بالهضم أو الغبن أو الغصب ونحو ذلك ^(١) ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي ولا تُفسدوا في الأرض بأنواع الفساد من قطع الطريق، والغارة، والسلب والنهب ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَى﴾ أي خافوا الله الذي خلقكم وخلق الخليقة المتقدمين قال مجاهد: الجِلَّةُ: الخليقة ويعني بها الأمم السابقين ^(٢) ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ أي ما أنت إلا من المسحورين، سُحِرَتْ كثيراً حتى غلب على عقلك ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ أي أنت إنسان مثلاً ولست برسول ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي ما نظنك يا شعيب إلا كاذباً، تكذب علينا فتقول: أنا رسول الله ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي أنزل علينا العذاب قطعاً من السماء، وهو مبالغة في التكذيب ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي إن كنت صادقاً فيما تقول قال الرازي: وإنما طلبوا ذلك لاستبعادهم وقوعه، فظنوا أنه إذا لم يقع ظهر كذبه ^(٣) فعندها أجابهم شعيب ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي الله أعلم بأعمالكم، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به وهو غير ظالم لكم، وإن كنتم تستحقون عقاباً آخر فإليه الحكم والمشية، قال تعالى ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ أي فكذبوا شعيباً فأخذهم ذلك العذاب الرهيب عذاب يوم الظلة وهي السحابة التي أظلتهم، قال المفسرون: بعث الله عليهم حراً شديداً فأخذ بأنفاسهم، فخرجوا من البيوت هرباً إلى البرية ^(٤)، فبعث الله عليهم سحابةً أظلتهم من الشمس، فوجدوا لها برداً ونادى بعضهم بعضاً حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسل الله عليهم ناراً فاحترقوا جميعاً، وكان ذلك من أعظم العذاب ولهذا قال ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي كان عذاب يوم هائل، عظيم في الشدة والهول ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ^(١٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿وَالِى هُنَا يَنْتَهِي آخِرُ الْقِصَصِ السَّبعِ الَّتِي أَوْحَيْتَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَصَرْفِهِ عَنِ الْحِرْصِ عَلَى إِسْلَامِ قَوْمِهِ، وَقَطْعِ رَجَائِهِ وَدَفْعِ تَحْسِرِهِ عَلَيْهِمْ كَمَا قَالَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ: ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ففيها تسلية لرسول الله وتخفيفٌ عن أحزانه وآلامه، وإنما كرر في نهاية كل قصة

(١) (ش): هَضَمَ فَلَانًا: ظلمه، قهره. هَضَمَهُ حَقًّا: نقصه. غَبَنَهُ في البيع والشراء: غلبه ونقصه وخدعه. غَبَنَ شَخْصًا: حرّمه بعض حقّه. غَصَبَهُ مَالُهُ: أخذه منه قهراً وظلماً وعَنَوْهُ.

(٢) «تفسير الطبري» ١٩/٦٦.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٤/١٦٤.

(٤) (ش): الْبَرِّيَّةُ: الصَّحَرَاءُ، الْبَادِيَةُ.

قوله ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ليكون ذلك أبلغ في الاعتبار، وأشد تنبيهاً لذوي القلوب والأبصار.

البلاغة: تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبدیع نوجزها فيما يلي:

١ - إطلاق الكل وإرادة البعض ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ أراد بالمرسلين نوحاً وإنما ذكره بصيغة الجمع تعظيماً له وتنبيهاً على أن من كذب رسولا فقد كذب جميع المرسلين.

٢ - الاستفهام الإنكاري ﴿أَنْتُمْ مِنْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ﴾ ؟

٣ - الاستعارة اللطيفة ﴿فَأَفْتَحْ يَبْنَ وَيَنْهَهُمْ فَتَحًا﴾ أي احكم بيننا وبينهم بحكمك العادل، استعار الفتح للحاكم والفتح للحكم لأنه يفتح المغلق من الأمر ففيه استعارة تبعية.

٤ - الطباق ﴿يُفْسِدُونَ.. وَلَا يُصْلِحُونَ﴾.

٥ - الجناس غير التام ﴿قَالَ.. الْقَالِينَ﴾ الأول من القول والثاني من قلى إذا أبغض.

٦ - الإطناب ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ لأن وفاء الكيل هو في نفسه نهي عن الخسران، وفائدته زيادة التحذير من العدوان.

٧ - المبالغة ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ﴾ والمسخر مبالغة عن المسحور.

٨ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿يُفْسِدُونَ، يُصْلِحُونَ، الْأَرْذُلُونَ﴾.

قال الله تعالى:

وَلَئِنَّهُ لَنَزَّلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبْرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوْلَىٰ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفِعْذَابِنَا يُسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرَبَةٍ إِلَّا هَا مُنْذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا نَنْزِلُكَ بِهِ الشَّيْطَانُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرِنَكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلِّبَكَ فِي السَّجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا تَنْزَلُ الشَّيْطَانُ ﴿٢٢١﴾ نَزَلَ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٌ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾

وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٣١﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانصَرُوا
مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ

المناسبة: لما ذكر تعالى قصص الأنبياء لرسوله ﷺ أتبعه بذكر ما يدل على نبوته من تنزيل هذا القرآن المعجز على قلب خاتم الأنبياء والمرسلين.

اللغة: ﴿زُيِّرَ﴾ الزُّبُر: الكتب جمع زبور كرسول ورُسِّل ﴿الْأَعْجَمِينَ﴾ جمع أعجمي وهو الذي لا يُحسن العربية، يقال: رجل أعجمي إذا كان غير فصيح وإن كان عربياً، ورجلٌ عجمي أي غير عربي وإن كان فصيح اللسان ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿مُنْظَرُونَ﴾ مؤخرون ومُمهّلون يقال: أنظره أي أمهله ﴿أَفَّاكٍ﴾ كَذَابٍ ﴿مُنْقَلَبٍ﴾ مصير.

التفسير: ﴿وَأَنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي وإن هذا القرآن المعجز لتنزيل رب الأرباب ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ أي نزل به أمين السماء جبريل عليه السلام ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أي أنزله على قلبك يا محمد لحفظه وتنذر بآياته المكذبين ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ أي بلسانٍ عربي فصيح هو لسان قريش، لثلا يبقى لهم عذر فيقولوا: ما فائدة كلام لا نفهمه؟ قال ابن كثير: أنزلناه باللسان العربي الفصيح، الكامل الشامل، ليكون بيناً واضحاً، قاطعاً للعدر مقيماً للحجة، دليلاً إلى المحجة^(١) ﴿وَأَنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ أي وإن ذكر القرآن وخبره لموجود في كتب الأنبياء السابقين ﴿أَوَلَوْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع، أي: أولم يكن لكفار مكة علامة على صحة القرآن ﴿أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَوُا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي أن يعلم ذلك علماء بني إسرائيل الذين يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم كعبد الله بن سلام وأمثاله ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ أي لو نزلنا هذا القرآن بنظمه الرائق المعجز على بعض الأعجمين الذين لا يقدرّون على التكلم بالعربية ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ أي فقرأه على كفار مكة قراءة صحيحة فصيحة، وانضم إعجاز القرآن إلى إعجاز المقروء ما آمنوا بالقرآن لفرط عنادهم واستكبارهم^(٢) ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي كذلك أدخلنا القرآن في قلوب المجرمين، فسمعوا به وفهموه، وعرفوا فصاحته وبلاغته، وتحققوا من إعجازه ثم لم يؤمنوا به وجحدوه ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي لا يصدقون بالقرآن مع ظهور إعجازه ﴿حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي حتى يشاهدوا عذاب الله المؤلم فيؤمنوا حيث لا ينفع الإيمان ﴿فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ أي فيأتيهم عذاب الله فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٦٥٩/٢.

(٢) قال في «التسهيل» ومعنى الآية: أن القرآن لو نزل على من لا يتكلم، ثم قرأه عليهم لم يؤمنوا لفرط عنادهم، ففي ذلك تسلية للنبي ﷺ على كفرهم به مع وضوح برهانه. اهـ. «التسهيل» ٩٠/٣.

أي وهم لا يعلمون بمجيئه ولا يدرون ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ أي فيقولوا حين يُعْجَبُهم العذاب - تحسراً على ما فاتهم من الإيمان وتمنياً للإمهال - هل نحن مؤخرون لنؤمن ونصدق ﴿أَفِعْذَابُنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ إنكاراً وتوبيخاً، أي: كيف يستعجل العذاب هؤلاء المشركون ويقولون ﴿أَتَيْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] وحالهم عند نزول العذاب أنهم يطلبون الإمهال والنظرة^(١)؟ ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ أي أخبرني يا محمد إن متعناهم سنين طويلة، مع وفور الصحة ورغد العيش ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي ثم جاءهم العذاب الذي وعدوا به ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ﴾ أي ماذا ينفعهم حينئذ ما مضى من طول أعمارهم، وطيب معاشهم؟ هل ينفعهم ذلك النعيم في تخفيف الحزن، أو دفع العذاب؟ ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أي وما أهلكنا أهل قرية من القرى، ولا أمة من الأمم ﴿إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ أي إلا بعدما ألزمناهم الحجة بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين ﴿ذَكَرْنِي﴾ أي ليكون إهلاكهم تذكراً وعبرة لغيرهم فلا يعصوا مثل عصيانهم ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي وما كنا ظالمين في تعذيبهم، لأننا أقمنا الحجة عليهم وأعذرنا إليهم. ثم إنه تعالى بعد أن نبه على إعجاز القرآن وصدق نبوة محمد عليه السلام رد على قول من زعم من الكفار أن القرآن من إلقاء الجن والشياطين كسائر ما ينزل على الكهنة فقال ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ أي وما تنزلت بهذا القرآن الشياطين، بل نزل به الروح الأمين ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي وما يصح ولا يستقيم أن يتنزل بهذا القرآن الشياطين، ولا يستطيعون ذلك أصلاً ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ أي إنهم منعوا من استراق السمع منذ بعث محمد عليه السلام، وحيل بينهم وبين السمع بالملائكة والشهب، فكيف يستطيعون أن يتنزلوا به؟ قال ابن كثير: ذكر تعالى أنه يمتنع ذلك عليهم من ثلاثة أوجه: أحدها: أنه ما ينبغي لهم لأن سجايهم الفساد، وإضلال العباد، وهذا فيه نورٌ وهدى وبرهان عظيم، الثاني: أنه لو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك، وهذا من حفظ الله لكتابه وتأييده لشرعه الثالث: أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته لما وصلوا إلى ذلك، لأنهم بمعزلٍ عن استماع القرآن، لأن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً، فلم يخلص أحد من الشياطين لاستماع حرفٍ واحد منه لئلا يشبه الأمر^(٢) ﴿فَلَا نَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ والمراد غيره أي لا تعبد يا محمد مع الله معبوداً آخر ﴿فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ أي فيعذبك الله بنار جهنم قال ابن عباس: يُحذَّرُ به غيره يقول: أنت أكرم الخلق

(١) (ش): النظرة: الإنظار: الإمهال: أنظر الشيء: أخره، أجله وأمهله. النظرة: الانتظار، التمهّل والتأني والتأخير.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٦٠.

عليّ، ولو اتخذت من دوني إلهاً لعذبتك^(١)، ثم أمر تعالى رسوله بتبليغ الرسالة فقال ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ أي خوِّف أقاربك الأقرب منهم فالأقرب من عذاب الله إن لم يؤمنوا، روي أنه ﷺ قام حين نزلت عليه ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ فقال: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتُ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً»^(٢) قال المفسرون: وإنما أمر ﷺ بإنذار أقاربه أولاً لئلا يظن أحد به المحاباة واللطف معهم فإذا تشدد على نفسه وعلى أقاربه كان قوله أنفع، وكلامه أنجع ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي تواضع وألن جانبك لأتباعك المؤمنين ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي فإن لم يطيعوك وخالفوا أمرك فتنبرأ منهم ومن أعمالهم قال أبو حيان: لما كان الإنذار يترتب عليه الطاعة أو العصيان جاء التقسيم عليهما فكأن المعنى: من اتبعك مؤمناً فتواضع له، ومن عصاك فتنبرأ منهم ومن أعمالهم^(٣) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ أي فوِّض جميع أمورك إلى الله العزيز، الذي يقهر أعداءك بعزته، وينصرك عليهم برحمته ﴿الَّذِي يَرِنُكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي يراك حين تكون وحدك تقوم من فراشك أو مجلسك وقال ابن عباس: حين تقوم إلى الصلاة ﴿وَتَقَلُّكَ فِي السَّجْدِ﴾ أي ويرى تقلبك مع المصلين في الركوع والسجود والقيام^(٤)، والمعنى يراك وحدك ويراك في الجماعة ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي إنه تعالى السميع لما تقوله، العليم بما تخفيه ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ﴾؟ أي قل يا محمد لكفار مكة: هل أخبركم على من تنزل الشياطين؟ وهذا رد عليهم حين قالوا إنما يأتيه بالقرآن الشياطين ﴿تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيرٌ﴾ أي تنزل على كل كذاب فاجر، مبالغ في الكذب والعدوان، لا على سيّد ولد عدنان ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُهُمْ كَذِبٌ بُورٌ﴾ أي تلقى الشياطين ما استرقوه من السمع إلى أوليائهم الكهنة، وأكثرهم يكذبون فيما يوحون به إليهم وفي الحديث: «تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْحَقِّ يَخْطِفُهَا الْجَنِيُّ فَيَقْرِئُهَا - أي يلقياها - فِي أُذُنٍ وَلِيَّهِ كَقَرْقَرَةِ الدَّجَاجَةِ، فَيَخْلُطُونَ فِيهِ أَكْثَرُ مِنْ مِائَةِ كَذِبَةٍ»^(٥) ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ هم الشياطين كانوا قبل أن يُحجَّبوا بالرجم يسمعون إلى الملاء

(١) «زاد المسير» ١٤٧/٦.

(٢) أخرجه الشيخان.

(٣) «البحر المحيط» ٤٦/٧.

(٤) وهذا اختيار ابن جرير الطبري وقيل: المراد قلبه في أصلاب الأنبياء.

(٥) رواه البخاري. (ش): رواه البخاري ومسلم. (فَيَقْرِئُهَا فِي أُذُنٍ وَلِيَّهِ كَقَرْقَرَةِ الدَّجَاجَةِ) مَعْنَاهُ أَنَّ الْجَنِّيَّ يَقْذِفُ الْكَلِمَةَ إِلَىٰ وَلِيِّهِ الْكَاهِنِ فَتَسْمَعُهَا الشَّيَاطِينُ كَمَا تُؤْذِنُ الدَّجَاجَةُ بِصَوْتِهَا صَوَاحِبَهَا فَتَسْجَوُبُ.

الأعلى، فيختطفون بعض ما يتكلمون به مما اطلعوا عليه من الغيوب، ثم يوحون به إلى أوليائهم من الكهنة والمنتبة «وأكثرهم كاذبون فيما يوحون به إليهم، لأنهم يُسمعونهم ما لم يسمعوا»^(١)، ثم ردَّ تعالى على من زعم أن محمداً شاعر فقال ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ أي يتبعهم الضالون لا أهل البصيرة والرشاد ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ أي ألم تر أيها السامع العاقل أنهم يسلكون في المديح والهجاء كل طريق، يمدحون الشيء بعد أن ذمَّوه، ويعظمون الشخص بعد أن احتقروه قال الطبري: وهذا مثل ضربه الله لهم في افتتانهم في الوجوه التي يُفتنون فيها بغير حق، فيمدحون بالباطل قوماً ويهجون آخرين^(٢) ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ أي يكذبون فينسبون لأنفسهم ما لم يعملوه قال أبو حيان: أخبر تعالى عن الشعراء بالأحوال التي تخالف حال النبوة، إذ أمرهم كما ذكر من اتباع الغواية لهم، وسلوكهم أفانين الكلام من مدح الشيء وذمّه، ونسبة ما لا يقع منهم إليهم، وهذا مخالف لحال النبوة فإنها طريقة واحدة لا يتبعها إلا الراشدون^(٣)، ثم استثنى تعالى فقال ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي صدَّقوا في إيمانهم وأخلصوا في أعمالهم ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي لم يشغلهم الشعر عن ذكر الله ولم يجعلوه همهم وديندهم ﴿وَأَنصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ أي هجوا المشركين دفاعاً عن الحق ونصرة للإسلام ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وعيدٌ عام في كل ظالم، تتفتت له القلوب وتتصدع لهوله الأكباد أي وسيعلم الظالمون والمعادون لدعوة الله ومعهم الشعراء الغاؤون ﴿أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾؟ أي أي مرجع يرجعون إليه؟ وأي مصير يصيرون إليه؟ فإنَّ مرجعهم إلى العقاب وهو شرُّ مرجع، ومصيرهم إلى النار وهو أقبح مصير.

البلاغة: تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبدیع نوجزها فيما يلي:

- ١ - التأكيد بـ «وَاللَّام» ﴿وَلَنُفِخَ لِلْزَيْلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لأن الكلام مع المتشككين في صحة القرآن فناسب تأكيده بأنواع من المؤكدات.
- ٢ - الاستفهام للتوبيخ والتبكيت ﴿أَفَعِدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾؟
- ٣ - جناس الاشتقاق ﴿يَعْلَمُهُ، عَلِمُوا﴾.
- ٤ - المجاز المرسل ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ المراد به أهلها.
- ٥ - أسلوب التهيج والإلهاب ﴿فَلَا نَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الخطابُ للرسول بطريق التهيج لزيادة إخلاصه وتقواه.

(١) «الكشاف» ٢٦٩/٣.

(٢) «تفسير الطبري» ٧٨/١٩.

(٣) «البحر المحيط» ٤٩/٧.

٦ - الاستعارة التصريحية ﴿وَخَفِضَ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ شبه التواضع ولين الجانب بخفض الطائر جناحه عند إرادة الانحطاط فأطلق على المشبه اسم الخفض بطريق الاستعارة المكنية.

٧ - صيغتا المبالغة ﴿أَفَأَنْتَ أَكْبَرُ﴾ لأن (فَعَّال وفَعِيل) من صيغ المبالغة أي كثير الكذب كثير الفجور.

٨ - الطباق بين ﴿يَقُولُونَ .. يَفْعَلُونَ﴾ وبين ﴿وَأَنْصَرُوا .. ظَلِمُوا﴾.

٩ - الاستعارة التمثيلية البديعة ﴿فِي كُلِّ وَادِيٍّ يَهْيُمُونَ﴾ مثل لذهابهم عن سنن الهدى وإفراطهم في المديح والهداء بالتائه في الصحراء الذي هام على وجهه فهو لا يدري أين يسير، وهذا من ألطف الاستعارات، ومن أرشقتها وأبدعها.

١٠ - جناس الاشتقاق ﴿مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾.

١١ - مراعاة الفواصل مما يزيد في جمال الكلام ورويقه مثل ﴿يَهْيُمُونَ، يَنْقَلِبُونَ، يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ الخ.

لطيفة: ذكر أن عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بلحيته ثم قرأ قوله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٥٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ﴾ ثم يبكي وينشد:

نَهَارُكَ يَا مَغْرُورٌ سَهْوٌ وَعَفْلَةٌ	وَلَيْلُكَ نَوْمٌ وَالرَّدَىٰ لَكَ لَا زِمٌ
نُسْرٌ بِمَا يَفْنَىٰ وَتَفْرُحُ بِالْمَنَىٰ	كَمَا سُرَّ بِاللَّذَاتِ فِي النَّوْمِ حَالِمٌ
وَتَسْعَىٰ إِلَىٰ مَا سَوْفَ تَكْرَهُ غِبَّةٌ	كَذَلِكَ فِي الدُّنْيَا تَعِيشُ الْبَهَائِمُ ^(١)

تنبيه: الشعر بابٌّ من الكلام حسنه حسنٌ، وقبيحه قبيحٌ، وإنما ذمَّ تعالى الشعر لما فيه من المغالاة والإفراط في المديح أو الهجاء، ومجاوزة حدِّ القصد فيه حتى يفضلوا أجبن الناس على عنتره، وأشحهم على حاتم، ويبهتوا البريء ويفسقوا التقى، وربما رفعوا شخصاً إلى الأوج ثم إذا غضبوا عليه أنزلوه إلى الحضيض ^(٢)، وهذا مشاهد ملموس في أكثر الشعراء إلا من استثناهم الله عزَّ وجلَّ، والشاعر قد يمدح الشيء ويذمه بحلاوة لسانه وقوة بيانه، ومن ألطف ما سمعتُ من بعض شيوخنا ما قاله بعض الشعراء في العسل:

(١) «الكشاف» ٣/ ٢٧١. (ش): الغبُّ: عاقبة الشيء وآخره. وهذه القصة ليست في «الكشاف» بل في «تفسير القرطبي» (١٣/ ١٤١). وفيه بعد البيت الأول:

فَلَا أَنْتَ فِي الْأَيْقَاطِ بِقَطَانٍ حَازِمٌ وَلَا أَنْتَ فِي النَّوَامِ نَاجٍ فَسَالِمٌ
(ش): أوج: قمة، ذروة أو علو وارتفاع. حضيض: قرار قاع الأرض أو قرارها، وتطلق مجازاً على كل ما سفلى.

تَقُولُ هَذَا مِجَاجُ النَّحْلِ تَمْدَحُهُ وَإِنْ تَعِبَ قُلْتَ ذَا قَيْءِ الزَّنَابِيرِ
مَدْحًا وَذَمًّا وَمَا جَاوَزْتَ وَصَفَهُمَا سِحْرُ الْبَيَانِ يُرِي الظَّلَمَاءَ كَالنُّورِ^(١)

لطيفة: ذكر أن الفرزدق أنشد أبياتاً عند «سليمان بن عبد الملك» وكان في ضمنها قوله في النساء العذارى:

فَبِتْنِ كَأَنَّهُنَّ مُصَرَّعَاتٌ وَبِتْ أَفْضُ أَغْلَاقِ الْخِتَامِ^(٢)
فقال له سليمان: قد وجب عليك الحدّ، فقال: يا أمير المؤمنين إن الله قد درأ عني الحدّ بقوله ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾^(٣٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿فَعَفَا عَنْهُ﴾^(٣).

«انتهى تفسير سورة الشعراء»



(١) (ش): الْمُجَاجُ وَالْقَيْءُ لَا يَكُونَانِ إِلَّا مِنَ الْفَمِ. مُجَاج: بصاق، ما يَمُجُّهُ الشَّخْصُ من فمه. والمُجَاج من كل شيء: ما يلفظه كل بحسب طبيعته «مُجَاج العنب: ما سال من عصيره، خمره- مُجَاج النحل: العسل - مُجَاج المُن: المطر- مُجَاج الفم: الرِّيق». القَيْء: ما تقذفه المعدة بسبب سوء هضم أو غيره. زَنَابِير: جمع زُبُور: حشرة أليمة اللسع. وهناك بيتٌ قبل هذين البيتين:

فِي زُخْرُفِ الْقَوْلِ تَزْيِينٌ لِبَاطِلِهِ وَالْحَقُّ قَدْ يَعتَرِيهِ سُوءٌ تَغْيِيرٌ
قال ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٤١): «كل أهل نحلة ومقالة يكسبون نحلتهن ومقاتلتهن أحسن ما يقدرون عليه من الألفاظ ومقالة مخالفتهن أقبح ما يقدرون عليه من الألفاظ، ومن رزقه الله بصيرة فهو يكشف بها حقيقة ما تحت تلك الألفاظ من الحق والباطل ولا يغتر باللفظ».

(٢) (ش): أي فبتن مطروحات عن يميني وشمالي، وبِتْ أزيل بكارتهن.

(٣) «الكشاف» ٣/ ٢٧١.



مكية وآياتها ثلاث وتسعون

بين يدي السورة

* سورة النمل من السور المكية التي تهتم بالحديث عن أصول العقيدة «التوحيد، والرسالة، والبعث»^(١) وهي إحدى سور ثلاث نزلت متتالية، ووضعت في المصحف متتالية، وهي «الشعراء، والنمل، والقصص» ويكاد يكون منهاجها واحداً، في سلوك مسلك العظة والعبرة، عن طريق قصص الغابرين.

* تناولت السورة الكريمة القرآن العظيم، معجزة محمد الكبرى، وحجته البالغة إلى يوم الدين، فوضحت أنه تنزيل من حكيم عليم، ثم تحدثت عن قصص الأنبياء بإيجاز في البعض، وإسهاب في البعض، فذكرت بالإجمال قصة «موسى»، وقصة «صالح» وقصة «لوط»، وما نال أقوامهم من العذاب والنكال، بسبب إعراضهم عن دعوة الله، وتكذيبهم لرسوله الكرام.

* وتحدثت بالتفصيل عن قصة «داود» وولده «سليمان» وما أنعم الله عليهما من النعم الجليلة، وما خصهما به من الفضل الكبير بالجمع بين النبوة والملك الواسع، ثم ذكرت قصة «سليمان مع بلقيس» ملكة سبأ.

وفي هذه القصة مغزى دقيق لأصحاب الجاه والسلطان، والعظماء والملوك، فقد اتخذ سليمان المُلْك وسيلةً للدعوة إلى الله، فلم يترك حاكماً جائراً ولا ملكاً كافراً إلا دعاه إلى الله، وهكذا كان شأنه مع «بلقيس» حتى تركت عبادة الأوثان، وأتت مع جندها خاضعة مسلمة، مستجيبةً لدعوة الرحمن.

* وتناولت السورة الكريمة الدلائل والبراهين على وجود الله ووحدانيته، ومن آثار مخلوقاته وبدائع صنعه، وسأقت بعض الأحوال والمشاهد الربية، التي يراها الناس يوم الحشر الأكبر، حيث يفزعون ويرهبون، وينقسمون إلى قسمين: السعداء والأبرار، والذين يكونون على وجوههم في النار.

التسمية: سميت سورة النمل، لأن الله تعالى ذكر فيها قصة النملة، التي وعظت بني

(١) (ش): أصول العقيدة ستة: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، كما في حديث جبريل عليه السلام حين قال للنبي ﷺ: فَأَخْبَرَنِي عَنِ الْإِيمَانِ. فَقَالَ ﷺ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

جنسها وذكرت ثم اعتذرت عن سليمان وجنوده، ففهم نبي الله كلامها وتبسم من قولها، وشكر الله على ما منحه من الفضل والإنعام، وفي ذلك أعظم الدلالة على علم الحيوان، وأن ذلك من إلهام الواحد الديان^(١).

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْفُرْعَانِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ۝ (١) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ (٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زِينَتُهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝ (٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ۝ (٥) وَلَئِكَ لِنُلقِيَ الْفُرْعَانَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝ (٦) إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَاتِيكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسَ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُورِدَى أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ (٨) يَمْوَسَّىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ (٩) وَأَلْقَى عَصَاهُ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوَسَّى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ۝ (١٠) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي سَبْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَافِرُونَ فَاقْتُلِهِمْ ۝ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝ (١٣) وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ۝ (١٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ۝ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَاءَتِيهَا النَّاسُ عِلْمًا مِنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ۝ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَاءَتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ (١٨) فَنَبَسَّ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيْ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ

اللغة: ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون ويتحIRON، والعمه: التحير والتردد كما هو حال الضال عن الطريق قال الزاجر: «أعمى الهدى بالحائرين العمه» ﴿قَبَسَ﴾ القبس: النار المقبوسة من جمر وغيره ﴿تَصْطَلُونَ﴾ اصطلى يصطلي إذا استدفا من البرد قال الشاعر:

النَّارُ فَأكِهْهُ الشَّتَاءَ فَمَنْ يُرِدْ
أَكُلَ الْفَوَاكِهِ شَاتِيًا فَلْيَصْطَلْ^(٢)

﴿بُورِكَ﴾ من البركة وهي زيادة الخير والنماء قال الثعلبي: العرب تقول: باركك الله، وبارك فيك، وبارك عليك، وبارك لك، أربع لغات قال الشاعر:

(١) (ش): قبس النار: أخذ منها شعلة.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٣/ ١٥٧.

فَبُورِكَتْ مَوْلُودًا وَبُورِكَتْ نَاشِئًا وَبُورِكَتْ عِنْدَ الشَّيْبِ إِذْ أَنْتَ أَشَيْبٌ^(١)
 ﴿يُوزَعُونَ﴾ أصل الوزع الكف والمنع يقال: وزعه إذا كفّه عن الشيء ومنعه ومنه
 قول عثمان «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»^(٢)
 قال النابغة:

عَلَى حِينٍ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا وَقُلْتُ أَلَمَّا أَصَحُّ وَالشَّيْبُ وَانْعُ
التفسير: ﴿طَسَّ﴾ الحروف المقطعة للتنبية على إعجاز القرآن وقد تقدم الكلام عليها^(٣)
 ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْفُرْقَانِ﴾ أي هذه الآيات المنزلة عليك يا محمد هي آيات القرآن المعجز في
 بيانه، الساطع في برهانه ﴿وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي وآيات كتاب واضح مبين لمن تفكر فيه
 وتدبر، أبان الله فيه الأحكام، وهدى به الأنام ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي تلك آيات القرآن
 الهادي للمؤمنين إلى صراطٍ مستقيم، والمبشر لهم بجنان النعيم، خصّ المؤمنين بالذكر
 لانفعائهم به ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي يؤدونها على الوجه الأكمل بخشوعها، وآدابها،
 وأركانها ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي يدفعون زكاة أموالهم طيبة بها نفوسهم ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ
 يُوقِنُونَ﴾ أي يصدقون بالآخرة تصديقاً جازماً لا يخالجه شك أو ارتياب قال الإمام
 الفخر: والجملة اعتراضية كأنه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم
 الموقنون بالآخرة، فما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل
 الصالح، لأن خوف العقابة يحملهم على تحمل المشاق^(٤) وقال أبو حيان: ولما كان
 ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ ما يتجدد ولا يستغرق الأزمان جاءت الصلة فعلاً، ولما
 كان الإيمان بالآخرة بما هو ثابت ومستقر جاءت الجملة اسمية وأكّدت بتكرار الضمير
 ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ وجاء خبر المبتدأ فعلاً ليدل على الديمومة^(٥)، ولما ذكر تعالى
 المؤمنين الموقنين بالبعث، ذكر بعدها المنكرين المكذبين بالآخرة فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا
 يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي لا يصدقون بالبعث ﴿زَيْنًا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي زيناً لهم أعمالهم القبيحة
 حتى رأوها حسنة قال الرازي: والمراد من التزيين هو أن يخلق في قلبه العلم بما فيها من

(١) «البحر المحيط» ٥٥/٧. (ش): شاب شعره/ شاب رأسه: ابْيَضَّ، انتشر فيه الشَّيْبُ.

(٢) (ش): أي يمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والأنام ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن مع ما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد.

(٣) انظر تفصيل القول والتحقيق الدقيق في أول سورة البقرة.

(٤) «التفسير الكبير» ١٧٨/٢٤.

(٥) «البحر المحيط» ٥٣/٧.

المنافع واللذات، ولا يخلق في قلبه العلم بما فيها من المضار والآفات^(١) ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي فهم في ضلال أعمالهم القبيحة يترددون حيارى لا يميزون بين الحسن والقبيح ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أي لهم أشد العذاب في الدنيا بالقتل والأسر والتشريد ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ﴾ أي وخسارتهم في الآخرة أشد من خسارتهم في الدنيا لمصيرهم إلى النار المؤبدة والجحيم والأغلال ﴿وَأَنَّكَ لَتَلَقَى الْقُرْآنَ﴾ أي وإنك يا محمد لتتلقى هذا القرآن العظيم وتُعْطَاهُ ﴿مِّنْ لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي من عند الله الحكيم بتدبير خلقه، العليم بما فيه صلاحهم وسعادتهم قال الزمخشري: وهذه الآية بسط وتمهيد لما يريد أن يسوق بعدها من الأفاقيص، وما في ذلك من لطائف حكمته، ودقائق علمه^(٢) ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لَأَهْلِيهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ أي اذكر يا محمد حين قال موسى لأهله -: أي زوجته - إني أبصرتُ ورأيت نارا قال المفسرون: وهذا عندما سار من مدين إلى مصر، وكان في ليلة مظلمة باردة، وقد ضلَّ عن الطريق وأخذ زوجته الطَّلُقُ ﴿سَأَتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي سأتيكم بخبر عن الطريق إذا وصلت إليها ﴿أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ أي أو آتيكم بشعلة مقتبسة من النار ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي لكي تستدفئوا بها ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ أي فلما وصل إلى مكان النار رأى منظراً هائلاً عظيماً، حيث رأى النار تضطرم في شجرة خضراء، لا تزداد النار إلا توقداً ولا تزداد الشجرة إلا خضرةً ونُضرةً، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصلٌ بعنان السماء قال ابن عباس: لم تكن ناراً وإنما كانت نوراً يتوهج^(٣) فوقف موسى متعجباً ممّا رأى وجاءه النداء العلوي ﴿تُودِي أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي نودي من جانب الطور بأن بوركت يا موسى وبورك من حولك وهم الملائكة قال ابن عباس: معنى ﴿بُورِكَ﴾ تقدّس ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ الملائكة قال أبو حيان: وبدؤه بالنداء تبشير لموسى وتأنيس له ومقدمة لمناجاته، وجدير أن يبارك من في النار ومن حوالها إذ قد حدث أمرٌ عظيم وهو تكليم الله لموسى وتنبئته^(٤) ﴿وَسُبِّحَنَ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أي تقدّس وتنزه ربُّ العزة، العليُّ الشأن، الذي لا يشبهه شيء من مخلوقاته لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله ﴿يُمُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا

(١) «التفسير الكبير» ١٩٧/٢٤. (ش): هذا لا يصح، ولو كان كذلك لم يؤاخذوا وعذروا بالجهل. قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٦/ ١٧٨): ﴿زَيْنًا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: حسناً لهم ما هم فيه، ومددنا لهم في غيهم فهم يتيهون في ضلالهم. وكان هذا جزاء على ما كذبوا به من الدار الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

(٢) «الكشاف» ٣/ ٢٧٥.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٦٦.

(٤) «البحر المحيط» ٧/ ٥٦.

اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ أي أنا الله القويُّ القادر، العزيز الذي لا يُقهر، الحكيم الذي يفعل كل شيء بحكمةٍ وتدبير ﴿وَأَلْقَ عَصَاكَ﴾ عطفٌ على السابق أي ونودي أن ألق عصاك لترى معجزتك بنفسك فتأنس بها ﴿فَلَمَّارَةٌ أَهَّأْتَهَا أَتَهُزُّ كُلِّهَا جَانًّا﴾ أي فلما رآها تتحرك حركة سريعة كأنها ثعبان خفيف سريع الجري ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي ولَّى الأدبار منهزمًا ولم يرجع لِمَا دَهَاهُ من الخوف والفرع^(١) قال مجاهد: «لم يُعَقِّبْ» لم يرجع، وقال قتادة: لم يلتفت، لحقه ما لحق طبع البشر إذ رأى أمرًا هائلًا جدًّا وهو انقلاب العصا حيةً تسعى ولهذا ناداه ربه ﴿يَمُوسَى لَا تَخَفْ﴾ أي أقبل ولا تخف لأنك بحضرتي ومن كان فيها فهو آمن ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾ أي فأنت رسولي ورسلي الذين اصطفتيهم للنبوة لا يخافون غيري قال «ابن الجوزي»: نَبَّهَ عَلَى أَنَّ مِنْ آمَنَهُ اللَّهُ بِالْنبوةِ مِنْ عَذَابِهِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَخَافَ مِنْ حَيَّةٍ^(٢) ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾ الاستثناء منقطع أي لكن من ظلم من سائر الناس لا من المرسلين فإنه يخاف إلا إذا تاب وبَدَّلَ عمله السيئ إلى العمل الحسن ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة قال ابن كثير: وفيه بشارة عظيمة للبشر وذلك أن من كان على عمل سيء، ثم أفلح ورجع وتاب وأناب فإن الله يتوب عليه كقوله ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]^(٣) ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرِّجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ هذه معجزة أخرى لموسى تدل على باهر قدرة الله، والمعنى أدخل يا موسى يدك في فتحة ثوبك ثم أخرجها تخرج مضيئة ساطعة بيضاء تتلألأ كالبرق الخاطف دون مرضٍ أو برص ﴿فِي يَسْعَاءَ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ أي هاتان المعجزتان «العصا واليد» ضمن تسع معجزاتٍ أيدتك بها وجعلتها برهانًا على صدقك لتذهب بها إلى فرعون وقومه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي خارجين عن طاعتنا، ممعنين في الكفر والضلال ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ أَن بَدَّلْنَا بَصِيرَهُ﴾ أي فلما رأوا تلك المعجزات الباهرة، واطحة بينة ظاهرة ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي أنكروها وزعموا أنها سحرٌ واضح ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ أي كفروا وكذبوا بتلك الخوارق ﴿وَأَسْتَفْتَنَاهَا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي وقد أيقنوا بقلوبهم أنها من عند الله وليست من قبيل السحر ﴿ظُلُمُوا وَعُلُوا﴾ أي جحدوا بها ظلمًا من أنفسهم، واستكبارًا عن اتباع الحق، وأيُّ ظلمٍ أفحش ممن يعتقد ويستيقن أنها آيات بينة واضحة جاءت من عند الله، ثم يكابر بتسميتها سحرًا؟ ولهذا قال ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي انظر أيها السامع وتدبر بعين الفكر والبصيرة ماذا كان مآلُ

(١) (ش): أي بسبب ما أصابه من الخوف والفرع.

(٢) «زاد المسير» ١٥٦/٦.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٦٦٧/٢.

أمر الطاغين، من الإغراق في الدنيا، والإحراق في الآخرة؟ قال ابن كثير: وفحوى الخطاب كأنه يقول: احذروا أيها المكذبون لمحمد، الجاحدون لما جاء به من ربه، أن يصيبكم مثل ما أصابهم بطريق الأولى والأخرى، فإن محمداً ﷺ أشرف وأعظم من موسى، وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى، عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم^(١) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ هذه هي القصة الثانية في السورة الكريمة وهي قصة «داود وسليمان» والمعنى والله لقد أعطينا داود وابنه سليمان علماً واسعاً من علوم الدنيا والدين، وجمعنا لهما بين سعادة الدنيا والآخرة قال الطبري: وذلك علم كلام الطير والدواب وغير ذلك مما خصهم الله بعلمه^(٢) ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وقالوا شكراً لله: الحمد لله الذي فضلنا بما آتانا من النبوة، والعلم، وتسخير الإنس والجن والشياطين، على كثير من عباده المؤمنين ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ أي ورث سليمان أباه في النبوة، والعلم والمُلْك دون سائر أولاده قال الكلبي: كان لداود تسعة عشر ولداً فورث سليمان من بينهم نبوته وملكه، ولو كانت وراثته مال لكان جميع أولاده فيه سواء^(٣) ﴿وَقَالَ يَأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ أي وقال تحدثاً بنعمة الله: يا أيها الناس لقد أكرمنا الله فعلمنا منطق الطير وأصوات جميع الحيوانات ﴿وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي وأعطانا الله من كل شيء من خيرات الدنيا يُعْطَاهَا الْعِظَمَاءُ وَالْمُلُوكُ^(٤) ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ أي إن ما أعطيناه وما خصنا الله به من أنواع النعم لهو الفضل الواضح الجلي، قاله على سبيل الشكر والمحمدة لا على سبيل العلو والكبرياء ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ﴾ أي جمعت له جيوشه وعساكره وأحضرت له في مسيرة كبيرة فيها طوائف الجن والإنس والطير، يتقدمهم سليمان في أُبْهة وعظمة كبيرة ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي فهم يُكْفَنُونَ ويمنعون عن التقدم بين يديه قال ابن عباس: جعل كل صنف من يرُدُّ أولاهها على أخراها لئلا يتقدموا في المسير كما تصنع الملوك ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ﴾ أي حتى إذا وصلوا إلى وادٍ بالشام كثير النمل ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ﴾ أي قالت إحدى النملات لرفيقاتها: ادخلوا بيوتكم، خاطبتهم مخاطبة العقلاء لأنها أمرتهم بما يؤمر به العقلاء ﴿لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ﴾ أي لا يكسرَنَّكم سليمان وجيوشه بأقدامهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وهم لا يشعرون بكم ولا يريدون حطَمَكُم عن عمد، حذرت ثم اعتذرت لأنها علمت أنه نبيٌ رحيم، فسمع سليمان

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٦٧.

(٢) «تفسير الطبري» ١٩/ ٨٧.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٣/ ١٦٤.

(٤) «تفسير الطبري» ١٩/ ٨٨.

كَلَامَهَا وَفَهُمْ مَرَامِيهَا^(١) ﴿فَبَسَّسَ صَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا﴾ أي فتبسَّس سروراً بما سمع من ثناء النملة عليه وعلى جنوده، فإن قولها ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وصف لهم بالتقوى والتحفظ من مضرة الحيوان ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِي﴾ أي ألهمني ووفقني لشكر نعمائك وأفضالك التي أنعمت بها عليّ وعلى أبوي ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا﴾ أي ووفقني لعمل الخير الذي يقربني منك والذي تحبه وترضاه ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ أي وأدخلني الجنة دار الرحمة مع عبادك الصالحين^(٢).

البلاغة: تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبدیع نوجزها فيما يلي:

١ - الإشارة بالبعيد عن القريب ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ﴾ للإيذان ببعد منزلته في الفضل والشرف.

٢ - التنكير للتفخيم والتعظيم ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي كتاب عظيم الشأن رفيع القدر.

٣ - ذكر المصدر بدل اسم الفاعل للمبالغة ﴿هُدًى وَبُشْرًى﴾ أي هادياً ومبشراً.

٤ - تكرير الضمير لإفادة الحصر والاختصاص ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ومثله ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ وفيه المقابلة اللطيفة بين الجملتين.

٥ - التأكيد بأن واللام ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ﴾ لوجود المتشككين في القرآن.

٦ - إيجاز الحذف ﴿وَأَلْقَى عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ حذفت جملة فألقاها فانقلبت إلى حية إلخ وذلك لدلالة السياق عليه.

٧ - الطباق ﴿حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾. وبين ﴿وَلَىٰ مَذِيرًا.. وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾.

٨ - الاستعارة ﴿ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةٌ﴾ استعار لفظ الإبصار للوضوح والبيان لأن العينين يبصر الإنسان الأشياء.

٩ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كَأَنَّهُمَا جَانٌّ﴾ ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه فصار مرسلًا مجملًا.

١٠ - حسن الاعتذار ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

لطفة: قال بعض العلماء هذه الآية ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأْتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكَنَكُمْ..﴾

(١) (ش): مَرَمَى: ما يقصده الإنسان من فعله أو كلامه. والجمع: مَرَام. (٢) (ش): عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «سَدُّوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّهُ لَا يُدْخِلُ أَحَدًا الْجَنَّةَ عَمَلُهُ». قَالُوا وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَّعَمِدَنِي اللَّهُ بِفَضْلِ وَرَحْمَةٍ». (زَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). قال الإمام الطبري في تفسيره: (١٩ / ٤٤٠): (وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) يقول: وأدخلني برحمتك مع عبادك الصالحين، الذين اخترتهم لرسالتك وانتخبتهم لَوْحِكَ، يقول: أدخلني من الجنة مدخلهم.

من عجائب القرآن لأنها بلفظة «يا» نادَتْ «أيها» نَبَّهَتْ ﴿النَّمْلُ﴾ عَيَّنَتْ ﴿أَدْخُلُوا﴾ أَمَرَتْ ﴿مَسْكِنَكُمْ﴾ نَصَّتْ ^(١) ﴿لَا يَحِطَمَنَّكُمْ﴾ حَذَّرَتْ ﴿سُلَيْمَنُ﴾ خَصَّتْ ﴿وَجُودُهُ﴾ عَمَّتْ ﴿وَهُرَّ لَا يَشْعُرُونَ﴾ اعتذرت، فإيا لها من نملة ذكية!

قال الله تعالى:

وَنَفَقَدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْدُ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٣٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَنٍ مُبِينٍ ﴿٣١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ مَحِطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَا يُحْيِي ﴿٣٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فُصْدَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٣٤﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٣٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴿٣٧﴾ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ أَذْهَبَ بِكُنْيَتِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٣٩﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنَّهُ أَخْلَى إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٤١﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَى وَأُتُوْنِي مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٤٣﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ لِلَّهِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٤٤﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَازَ أَهْلِهَا آذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٤٥﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاطِرَةٌ بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ قَالَ أَمِئْتُ دُونِي بِمَا لِي فَمَا أَتَمَنَى اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا أَتَمَنَى بَلْ أَنْتُمْ يَهْدِيْتُمْ كَفَرَحُونَ ﴿٤٧﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِخُوزٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا آذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَتَيْتُمُونِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٤٩﴾ قَالَتْ عِفْرِيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا أَعَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٥٠﴾ قَالَتْ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٥١﴾ قَالَتْ تَكْرَرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَنْهَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٥٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ فَوَارِيرٍ ﴿٥٥﴾ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَنَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

المناسبة: لا تزال الآيات تتحدث عن «سليمان بن داود» الذي جمع الله له بين «النبوة والمُلْك» فكان نبيًّا ملكًا، وسخر له الإنس والجن وعلمه منطق الطير، وتذكر الآيات هنا قصته مع «بلقيس» ملكة سبأ وما كان من الأمور العجيبة التي حدثت في زمانه.

(١) (ش): أي حَدَّتْ وَعَيَّنَتْ.

اللغة: ﴿وَتَفَقَّدَ﴾ التفقد: طلب ما غاب عن الإنسان ﴿الْخَبَاءَ﴾ الشيء المخبوء من خبأت الشيء أخبؤه خبأ إذا سترته ﴿صَغُرُونَ﴾ أذلاء مهانون من الصغار وهو الذل ﴿عَفْرِيتٌ﴾ العفريب: القوي المارد من الشياطين ومن الإنس، والخبيث الماكر ﴿الصَّرْحَ﴾ القصر، وكل بناء عال مرتفع يسمى صرحاً ومنه قول فرعون ﴿يَهْمَكُنْ أَبْنِي لِي صَرْحًا﴾ ﴿مُمرَّدٌ﴾ الممرَّد: المملَّس، والأمرد الذي لم تخرج لحيته بعد إدراكه، وشجرة مرداء: لا ورق عليها ﴿قَوَارِيرَ﴾ جمع قارورة وهي الزجاجية.

التفسير: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ أي بحث سليمان وفتش عن جماعة الطير ﴿فَقَالَ مَالِكٌ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ﴾ أي لم لا أرى الهدهد هاهنا؟ قال المفسرون: كانت الطير تصحبه في سفره وتظله بأجنحتها، فلما فصل سليمان عن وادي النمل ونزل في قفر من الأرض عطش الجيش فسألوه الماء، وكان الهدهد يدلله على الماء فإذا قال: هاهنا الماء شقت الشياطين وفجرت العيون، فطلبه في ذلك اليوم فلم يجده فقال ما لي لا أراه^(١) ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ أم منقطعة بمعنى «بل» أي بل هو غائب، ذهب دون إذن مني ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ أي لأعاقبه عقاباً أليماً بالسجن أو

(١) (ش): قال الشيخ السعدي: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ دل هذا على كمال عزمه وحزمه وحسن تنظيمه لجنوده وتدريبه بنفسه للأمور الصغار والكبار، حتى إنه لم يهمل هذا الأمر وهو تفقد الطيور والنظر: هل هي موجودة كلها أم مفقود منها شيء؟ وهذا هو المعنى للآية. ولم يصنع شيئاً من قال: إنه تفقد الطير لينظر أين الهدهد منها ليدله على بعد الماء وقربه، كما زعموا عن الهدهد أنه يبصر الماء تحت الأرض الكثيفة، فإن هذا القول لا يدل عليه دليل بل الدليل العقلي واللفظي دال على بطلانه، أما العقلي فإنه قد عرف بالعادة والتجارب والملاحظات أن هذه الحيوانات كلها، ليس منها شيء يبصر هذا البصر الخارق للعادة، ينظر الماء تحت الأرض الكثيفة، ولو كان كذلك لذكره الله لأنه من أكبر الآيات. وأما الدليل اللفظي فلو أريد هذا المعنى لقال: «وطلب الهدهد لينظر له الماء فلما فقده قال ما قال» أو «فتش عن الهدهد» أو: «بحث عنه» ونحو ذلك من العبارات، وإنما تفقد الطير لينظر الحاضر منها والغائب ولزومها للمراكز والمواضع التي عينها لها. وأيضاً فإن سليمان عليه السلام لا يحتاج ولا يضطر إلى الماء بحيث يحتاج لهندسة الهدهد، فإن عنده من الشياطين والعفاريت ما يحفرون له الماء، ولو بلغ في العمق ما بلغ. وسخر الله له الريح غدوها شهر ورواحها شهر، فكيف - مع ذلك - يحتاج إلى الهدهد؟ وهذه التفاسير التي توجد وتشتهر بها أقوال لا يعرف غيرها، تنقل هذه الأقوال عن بني إسرائيل مجردة ويغفل الناقل عن مناقضتها للمعاني الصحيحة وتطبيقها على الأقوال، ثم لا تزال تتناقل وينقلها المتأخر مسلماً للمتقدم حتى يظن أنها الحق، فيقع من الأقوال الردية في التفاسير ما يقع، واللييب الفطن يعرف أن هذا القرآن الكريم العربي المبين الذي خاطب الله به الخلق كلهم عالمهم وجاهلهم وأمرهم بالتفكير في معانيه، وتطبيقها على ألفاظه العربية المعروفة المعاني التي لا تجهلها العرب العرباء، وإذا وجد أقوالاً منقولة عن غير رسول الله ﷺ ردها إلى هذا الأصل، فإن وافقته قبلها لكون اللفظ دالاً عليها، وإن خالفته لفظاً ومعنى أو لفظاً أو معنى ردها وجزم ببطلانها، لأن عنده أصلاً معلوماً مناقضاً لها وهو ما يعرفه من معنى الكلام ودلالته.

نتف الريش أو الذبح أو ليأتيني بحجة واضحة تبين عذره ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي فأقام الهدهد زماناً يسيراً ثم جاء إلى سليمان ﴿فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ أي اطلعت على ما لم تطّلع عليه وعرفت ما لم تعرفه ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَا يُقِينِ﴾ أي وأتيتك من مدينة سبأ - باليمن - بخبر هام، وأمر صادق وخطير ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرَاءَ تَمْلِكُكُمْ هُمْ﴾ أي من عجائب ما رأيت أن امرأة - تسمى بلقيس - هي ملكة لهم، وهم يدينون بالطاعة لها^(١) ﴿وَأُوتِيتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي وأعطيت من كل شيء من الأشياء التي يحتاج إليها الملوك من أسباب الدنيا من سعة المال وكثرة الرجال ووفرة السلاح والعتاد ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولها سرير كبير مكلّل بالدر والياقوت قال قتادة: كان عرشها من ذهب، قوائمه من جوهر، مكلّل باللؤلؤ قال الطبري: وعنى بالعظيم في هذا الموضع العظيم في قدرة وخطره، لا عظمه في الكبر والسعة، ولهذا قال ابن عباس: ﴿عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أي سرير كريم حسن الصنعة، وعرشها سرير من ذهب قوائمه من جوهر ولؤلؤ^(٢)، ثم أخذ يحدثه عما هو أعظم وأخطر فقال ﴿وَجَدْتُهُمَا وَقَوْمَهُمَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي وجدتهم جميعاً معجوساً يعبدون الشمس ويتركون عبادة الواحد الأحد ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي حسن لهم إبليس عبادتهم الشمس وسجودهم لها من دون الله ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي منعهم بسبب هذا الضلال عن طريق الحق والصواب ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ أي فهم بسبب إغواء الشيطان لا يهتدون إلى الله وتوحيده، ثم قال الهدهد متعجباً: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي أيسجدون للشمس ولا يسجدون لله الخالق العظيم، الذي يعلم الخفيا ويعلم كل مخبوء في العالم العلوي والسفلي؟^(٣) قال ابن عباس: يعلم كل خبيّة في السماء والأرض ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي ويعلم السرّ والعلن، ما ظهر وما بطن ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي هو تعالى المتفرد بالعظمة والجلال، ربّ العرش الكريم المستحق للعبادة والسجود، وخصّ العرش بالذكر لأنه أعظم المخلوقات، وإلى

(١) وجه العجب أن الملوك عادة من الرجال وأن النساء لا يصلحن لإدارة الممالك ويؤيده حديث: «لَنْ يُفْلَحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَتَرَهُمْ أُمْرَاءُ» هذا هو منطق الفطرة. (ش): الحديث رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

(٢) «تفسير الطبري» ٩٢ / ١٩.

(٣) هذا ما انقدح في ذهني من معنى الآية الكريمة، ولعله هو الأقرب إلى فهم روح النص القرآني فإن المجال مجال تعجب وإنكار، لا مجال حديث وإخبار، فما ذهب إليه بعض المفسرين من أن «لا» زائدة وأن المعنى فهم لا يهتدون أن يسجدوا لله، أو أن المعنى ألا يا هؤلاء فاسجدوا... الخ. غير ظاهر والله أعلم. (ش): الآراء التي ذكرها المؤلف ولم يرضها ذكرها ابن جرير الطبري وابن كثير وغيرهما. وقال الشيخ السعدي: ﴿أَلَا﴾ أي: هلاً.

هنا انتهى كلام الهدهد ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي قال سليمان: سننظر في قولك ونثبت هل أنت صادق أم كاذب فيه؟ قال «ابن الجوزي»: وإنما شك في خبره لأنه أنكر أن يكون لغيره سلطان، ثم كتب كتاباً وختمه بخاتمه ودفعه إلى الهدهد وقال ﴿أَذْهَبَ بِكَتَبِي هَكَذَا فَالْقَهْ إِلَيْهِمْ﴾ أي اذهب بهذا الكتاب وأوصله إلى ملكة سبأ وجندها ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي تنحَّ إلى مكان قريب مستتراً عنهم ﴿فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أي فانظر ماذا يردون من الجواب؟ قال المفسرون: أخذ الهدهد الكتاب وذهب إلى بلقيس وقومها، فرفرف فوق رأسها ثم ألقى الكتاب في حجرها ﴿قَالَتْ يَتَايَأُ آلْمُلُوكُ إِلَيَّ الْفَيَّ إِلَيَّ كِتَابُ كَرِيمٍ﴾ أي قالت لأشراف قومها: إنه أتاني كتاب عظيم جليل ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أي إن هذا الكتاب مرسل من سليمان ثم فتحته فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم وهو استفتاح شريف بارع فيه إعلان الربوبية لله ثم الدعوة إلى توحيد الله والانقياد لأمره ﴿أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأَنُؤِي مَسْلِمِينَ﴾ أي لا تتكبروا عليّ كما يفعل الملوك وجيئوني مؤمنين قال ابن عباس: أي موحدين، وقال سفيان: طائعين ﴿قَالَتْ يَتَايَأُ آلْمُلُوكُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ أي أشيروا عليّ في الأمر ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُون﴾ أي ما كنت لأقضي أمراً بدون حضوركم ومشورتكم ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوهُ قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي نحن أصحاب كثرة في الرجال والعتاد، وأصحاب شدة في الحرب ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أي وأمرنا إليك فمُرِّينَا بما شئت نمثلُ أمرك، وقولهم هذا دليل على الطاعة المفرطة قال القرطبي: أخذت في حسن الأدب مع قومها ومشاورتهم في أمرها في كل ما يعرض لها، فراجعها الملاء بما يقر عينها من إعلامهم إياها بالقوة والبأس، ثم سلّموا الأمر إلى نظرها، وهذه محاوراة حسنة من الجميع^(١) قال الحسن البصري: فَوَضُوا أَمْرَهُمْ إِلَىٰ عِلْجَةٍ^(٢) يضطرب ثدياها، فلما قالوا لها ما قالوا كانت هي أحزم منهم رأياً وأعلم^(٣) ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ أي إن عادة الملوك أنهم إذا استولوا على بلدة عنوة وقهراً خربوها ﴿وَجَعَلُوا أَهْلَهَا أَذِلَّةً﴾ أي أهانوا أشرافها وأذلّوهم بالقتل والأسر والتشريد ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أي وهذه عادتهم وطريقتهم في كل بلد يدخلونها قهراً، ثم عدلت إلى المهادنة والمسالمة فقالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي وإني سأبعث إليه بهدية عظيمة تليق بمثلها، فانظر هل يقبلها أن يردّها؟ قال قتادة: ما كان أعقلها في إسلامها وشركها! علمت أن

(١) «تفسير القرطبي» ١٣/ ١٩٤.

(٢) (ش): أي امرأة من كفّار العجم.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٧١.

الهدية تقع موقعاً من الناس، وقال ابن عباس: قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك يريد الدنيا فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي صادق فاتبعوه^(١) ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ قَالَ أُمِدُّونِي بِمَالٍ؟﴾ أي فلما جاء رسل بلقيس إلى سليمان بالهدية العظيمة قال منكرًا عليهم: أتصانعونني بالمال والهدايا لأترككم على كفركم وملكمكم؟ ﴿فَمَاءَ اتْنَيْنِ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ﴾ أي فما أعطاني الله من النبوة والملك والواسع خير مما أعطاكم من زينة الحياة فلا حاجة لي بهديتكم ﴿بَلْ أَتُوبُ بِهَدِيَّتِكُمْ فَنُفِرْحُونَ﴾ أي أنتم تفرحون بالهدايا لأنكم أهل مفاخرة ومكاثرة في الدنيا، ثم قال لرئيس الوفد: ﴿أُتِجَ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِيلَ لَهُمْ بِهَا﴾^(٢) أي ارجع إليهم بهديتهم فوالله لنأتيهم بجنود لا طاقة لهم بمقابلتها، ولا قدرة لهم على مقاتلتها ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أي ولنخرجهم من أرضهم ومملكتهم أذلاء حقيرين إن لم يأتوني مسلمين قال ابن عباس: لما رجعت رسل بلقيس إليها من عند سليمان وأخبروها الخبر قالت: قد عرفت ما هذا بملك، وما لنا به طاقة، وبعثت إلى سليمان إنني قادمة إليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك، وما تدعو إليه من دينك ثم ارتحلت إلى سليمان في اثني عشر ألف قائد^(٣) ﴿قَالَ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أي قال سليمان لأشراف من حضره من جنده: أيكم يأتيني بسريرها المرصع بالجواهر قبل أن تصل إلي مع قومها مسلمين؟ قال «البيضاوي»: أراد بذلك أن يريها بعض ما خصه الله به من العجائب، الدالة على عظيم القدرة، وصدقه في دعوى النبوة، ويختبر عقلها بأن ينكر عرشها فينظر أتعرفه أم تنكره^(٤)؟ ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ﴾ أي قال مارء من مردة الجن: أنا أحضره إليك قبل أن تقوم من مجلس الحكم - وكان يجلس من الصبح إلى الظهر في كل يوم - وغرضه أنه يأتيه به في أقل من نصف نهار ﴿وَلِيِّنِي عَلَيْهِ لَقَوِيَّ أَمِينٌ﴾ أي وإني على حمله لقادر، وأمين على ما فيه من الجواهر والدُر وغير ذلك ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ قال المفسرون: هو «أصف بن برخيا» كان من الصديقين يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وهو الذي أتى بعرش بلقيس وقال لسليمان: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، أي: آتيك به بلمح البصر فدعا الله فحضر العرش حالاً ﴿فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ أي فلما نظر سليمان ورأى العرش - السرير - حاضراً لديه قال: هذا من فضل الله عليّ، وإحسانه إليّ ﴿لِيُبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٦٧١ / ٢.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٦٧١ / ٢.

(٣) حاشية زاده على البيضاوي ٤٩٣ / ٣.

(٤) «البيضاوي» ٨٣ / ٢.

أَمْ أَكْفُرُ؟ أي ليختبرني أشكر إنعامه، أم أجد فضلته وإحسانه؟ ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أي ومن شكر فممنفعة الشكر لنفسه، لأنه يستزيد من فضل الله ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رِيَّ غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ أي ومن لم يشكر وجحد فضل الله فإن الله مُستغنٍ عنه وعن شكره، كريمٌ بالإنعام على مَنْ كفر نعمته.. ولما قُرب وصول ملكة سبأ إلى بلاده أمر بأن تُغيّر بعض معالم عرشها امتحاناً لها ﴿قَالَ نَكُرُوا هَآءَا عَرْشَهَا﴾ أي غيروا بعض أوصافه وهيئته كما يتنكر الإنسان حتى لا يُعرف ﴿نَظُرْ أَنَّهُ نَذِيٌّ أَمْ تَكُونُ مِنَّ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ أي لننظر إذا رآته هل تهتدي إلى أنه عرشها وتعرفه أم لا؟ أراد بذلك اختبار ذكائها وعقلها ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ؟﴾ أي أمثل هذا العرش الذي رأيته عرشك؟ ولم يقل: أهذا عرشك؟ لثلاثا يكون تلقيناً لها ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ أي يشبهه ويقاربه ولم تقل: نعم هو، ولا ليس هو. قال ابن كثير: وهذا غاية في الذكاء والحزم ^(١) ﴿وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ هذا من قول سليمان أي قال سليمان تحدثاً بنعمة الله: لقد أوتينا العلم من قبل هذه المرأة بالله وبقدرته وكنا مسلمين لله من قبلها، فنحن أسبقُ منها علماً وإسلاماً ^(٢) ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي منعها عن الإيمان بالله عبادتها القديمة للشمس والقمر ﴿إِنَّمَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أي بسبب كفرها ونشوتها بين قوم مشركين ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ أي ادخلي القصر العظيم الفخم ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا﴾ أي فلما رأت ذلك الصرح الشامخ ظنته لجة ماء - أي ماءً غمرأ كثيراً - وكشفت عن ساقها لتخوض فيه ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ أي قال سليمان: إنه قصر ممّلس من الزجاج الصافي ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أي قالت بلقيس حينئذ: ربّ إني ظلمت نفسي بالشرك وعبادة الشمس ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي وتابعتُ سليمان على دينه فدخلت في الإسلام مؤمنةً برب العالمين، قال ابن كثير: والغرض أن سليمان عليه السلام اتخذ قصراً عظيماً منيفاً من زجاج لهذه الملكة، ليرىها عظمة سلطانه وتمكنه، فلما رأت ما آتاه الله وجلالة ما هو فيه وتبصرت في أمره، انقادت لأمر الله تعالى وعرفت أنه نبي كريم، وملك عظيم، وأسلمت لله عزَّ وجلَّ ^(٣).

البَلاغَةُ: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

(١) «ابن كثير» ٦٧٣/٢.

(٢) (ش): قال الشيخ السعدي: ويحتمل أن هذا من قول ملكة سبأ: «وأوتينا العلم عن ملك سليمان وسلطانه وزيادة اقتداره من قبل هذه الحالة التي رأينا فيها قدرته على إحضار العرش من المسافة البعيدة فأدعنا له وجئنا مسلمين له خاضعين لسلطانه.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٦٧٤/٢.

- ١ - أسلوب التعجب ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ﴾^(١)
- ٢ - التأكيد المكرر ﴿لَا عَذْبَئِهِ... أَوْ لَا أَذْبَحَنَّهُ... أَوْ لِيَأْتِيَنِي﴾ لتأكيد الأمر.
- ٣ - طباق السلب ﴿أَحْطَتْ بِمَا لَمْ يُحِطْ بِهِ﴾ وكذلك ﴿تهتدي.. لَا يَهْتَدُونَ﴾.
- ٤ - الجناس اللطيف ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَاٍ﴾ ويسمى الجناس الناقص لتبدل بعض الحروف^(٢).

- ٥ - الطباق في اللفظ ﴿تُخَفُّونَ.. تُعْلِنُونَ﴾ وكذلك ﴿ءَأَشْكُرُكُمْ أَكْفُرُ﴾.
- ٦ - الطباق في المعنى ﴿أَصْدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾.

قال علماء البيان: والمطابقة هنا بالمعنى أبلغ من اللفظ لأنه عدول عن الفعل إلى الاسم فيفيد الثبات فلو قال: «أصدقت أم كذبت» لما أدّى هذا المعنى لأنه قد يكذب في هذا الأمر ولا يكذب في غيره، وأما قوله ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ فإنه يفيد أنه إذا كان معروفاً بالانخراط في سلك الكاذبين كان كاذباً لا محالة فلا يوثق به أبداً.

- ٧ - جناس الاشتقاق ﴿أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ وكذلك ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾.
- ٨ - التشبيه ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ أي كأنه عرشي في الشكل والوصف ويسمى «مرسلاً مجملاً».
- ٩ - الاستعارة البديعة ﴿قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ شبه سرعة مجيئه بالعرش برجع الطرف للإنسان، وارتداد الطرف معناه التقاء الجفنين وهو أبلغ ما يمكن أن يوصف به في السرعة ومثله ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ فاستعار للسرعة الفائقة ارتداد الطرف^(٣).

- ١٠ - توافق الفواصل في كثير من الآيات، ولها وقع في النفس رائع مثل ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ ﴿أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَاٍ بَقِينٍ﴾ إلى آخر ما هنالك.

لطيقة: أخذ بعض العلماء من قوله تعالى ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ استحباب تفقد الملك لأحوال الرعية، وكذلك تفقد الأصدقاء، والإخوان، والخلان وأنشد بعضهم:

سَنَ سُلَيْمَانُ لَنَا سَنَةً وَكَانَ فِيمَا سَنَهُ مُقْتَدَى
تَفَقَّدَ الطَّيْرَ عَلَى مُلْكِهِ فَقَالَ: مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ؟

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٦٧١ / ٢.

(٢) قال صاحب «الكشاف»: وهذا من محاسن الكلام يشترط بشرط أن يجيء مطبوعاً غير متكلف أو يصنعه عالم بجوهر الكلام، ولقد حسن في الآية وبدع لفظاً ومعنى، ألا ترى أنه لو وضع مكان «بنياً» لفظه «بخبز» لكان المعنى صحيحاً ولكن يفوت ما في النبأ من الزيادة التي معناها الخبر الهام والتي يطابقها وصف الحال.

(٣) انظر «تلخيص البيان» ٢٦١.

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فِئَكَيْنِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَتَقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطِيعْنَا بَكَ وَيَمَن مَعَكَ قَالَ طَاعُواكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ شِعْرَةٌ رَهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ طَآ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَيْنَكُمُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ مَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ءَأَلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ءَأَلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ءَأَلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا نَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ءَأَلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ءَأَلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ادْرُكْ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ

المناسبة: لما ذكر تعالى في أول السورة قصة موسى، ثم أعقبها بقصة داود وسليمان وما فيها من العجائب والغرائب، ذكر هنا قصة «صالح» ثم قصة «لوط» وكل هذه القصص غرضها التذكير والاعتبار، وبيان سنة الله في إهلاك المكذبين، ثم أتبعها بذكر البراهين الدالة على الوحدانية، والعلم، والقدرة.

اللغة: ﴿أَطِيعْنَا بِكَ﴾ من التطير وهو التشاؤم قال الزجاج: أصلها تطيّرنا فأدغمت التاء في الطاء واجتلبت الألف لسكون الطاء ﴿خَاوِيَةٌ﴾ خالية من خوى البطن إذا خلى، وخوى النجم إذا سقط ﴿الْفَلْحِشَةَ﴾ الفعلة القبيحة الشنيعة ﴿حَدَائِقَ﴾ جمع حديقة وهي البستان

الذي عليه سور قال الفراء: الحديقة البستان الذي عليه حائط فإن لم يكن عليه حائط فهو البستان^(١) ﴿قَرَارًا﴾ مستقرًا يثبت عليه الشيء ﴿حَاجِرًا﴾ الحاجز: الفاصل بين الشيئين.

التفسير: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ اللام جواب قسم محذوف أي والله لقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم - في النسب لا في الدين - صالحًا عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي فإذا هم جماعتان: مؤمنون وكافرون يتنازعون في شأن الدين قال مجاهد: «فريقان: مؤمنٌ، وكافر» واختصامهم: اختلافهم وجدالهم في الدين، وجاء الفعل بالجمع ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ حملًا على المعنى ﴿قَالَ يَوْمَ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي قال لهم صالح بطريق التلطف والرفق: يا قوم لم تطلبون العذاب قبل الرحمة؟ ولأي شيء تستعجلون بالعذاب ولا تطلبون الرحمة؟ ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي هلا تتوبون إلى الله من الشرك لكي يتوب الله عليكم ويرحمكم؟ قال المفسرون: كان الكفار يقولون لفرط الإنكار: يا صالح ائتنا بعذاب الله فقال لهم: هلا تستغفرون الله قبل نزول العذاب، فإن استعجال الخير أولى من استعجال الشر! ﴿قَالُوا أَطِيعْنَا بَكَ وَيَمْنُ مَعَكَ﴾ أي تشاء منا بك يا صالح وبأتباعك المؤمنين فإنكم سبب ما حل بنا من بلاء، وكانوا قد أصابهم القحط وجاعوا ﴿قَالَ طَبِئْتُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي حظكم في الحقيقة من خير أو شر هو عند الله وبقضائه، إن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم.. لما لا طفهم في الخطاب أغلظوا له في الجواب وقالوا تشاء منا بك وبمن معك، فأخبرهم أن شؤمهم بسبب عملهم لا بسبب صالح والمؤمنين ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي بل الحقيقة أنكم جماعة يفتنكم الشيطان بوسوسته وإغوائه ولذلك تقولون ما تقولون ﴿وَكُنَّا فِي الْمَدِينَةِ ثَمُودَ رَهْطٍ﴾ أي وكان في مدينة صالح - وهي الجِجْر - تسعة رجال من أبناء أشrafهم قال الضحاك: كان هؤلاء التسعة عظماء أهل المدينة ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أي شأنهم الإفساد، وإيذاء العباد بكل طريق ووسيلة قال ابن عباس: وهم الذين عقروا الناقة ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ أي قال بعضهم لبعض: احلفوا بالله ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي لنقتلن صالحًا وأهله ليلاً ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ أي ثم نقول لولي دمه ما حضرنا مكان هلاكه ولا عرفنا قاتله ولا قاتل أهله ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أي ونحلف لهم إنا لصادقون قال ابن عباس: أتوا دار صالح شاهرين سيوفهم، فرمتهم الملائكة بالحجارة فقتلتهم^(٢) قال تعالى ﴿وَمَكْرُوءٌ

(١) «تفسير القرطبي» ١٣ / ٢٢١.

(٢) «زاد المسير» ٦ / ١٨٢.

مَكْرًا ﴿١﴾ أَي دَبَّرُوا مَكِيدَةً لِقَتْلِ صَالِح ﴿٢﴾ وَمَكْرًا مَكْرًا ﴿٣﴾ أَي جَازَيْنَاهُمْ عَلَى مَكْرِهِمْ بِتَعْجِيلِ هَلَاكِهِمْ، سَمَّاهُ مَكْرًا بِطَرِيقِ الْمَشَاكِلَةِ (١)

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أَي مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرُونَ وَلَا يَعْلَمُونَ قَالَ أَبُو حَيَّانٍ: وَمَكْرُهُمْ مَا أَخَفَوْهُ مِنْ تَدْبِيرِ الْفِتْكِ بِصَالِحٍ وَأَهْلِهِ، وَمَكْرُ اللَّهِ إِهْلَاكُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢) ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أَي فَتَأَمَّلْ وَتَفَكَّرْ فِي عَاقِبَةِ أَمْرِهِمْ وَنَتِيجَةِ كَيْدِهِمْ، كَيْفَ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ وَكَانَ مَالَهُمْ الْخَرَابُ وَالْدَّمَارُ ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِبَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ أَي فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ وَدُورُهُمْ خَالِيَةٌ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ وَكُفْرِهِمْ لِأَنَّ أَهْلَهَا هَلَكُوا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أَي إِنَّ فِي هَذَا التَّدْمِيرِ الْعَجِيبِ لَعِبْرَةً عَظِيمَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ قُدْرَةَ اللَّهِ فَيَتَعَذَّلُونَ ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ أَي وَأَنجَيْنَا

(١) المشاكلة هي الاتفاق في اللفظ دون المعنى. (ش): صفات الله تعالى كلها صفات كمال، دالة على أحسن المعاني وأكملها، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠]. وقال الله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]. ومعنى المثل الأعلى أي الوصف الأكمل. والصفات ثلاثة أنواع: الأول: صفات كمال، لا نقص فيه بوجه من الوجوه. فهذه يوصف الله تعالى بها وصفاً مطلقاً ولا يقيد بشيء، مثال ذلك: العلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والرحمة... إلخ. الثاني: صفات نقص، لا كمال فيها، فهذه لا يوصف الله تعالى بها أبداً، كالنوم، والعجز، والظلم، والخيانة... إلخ. الثالث: صفات يمكن أن تكون كمالاً، ويمكن أن تكون نقصاً، على حسب الحال التي تُذكر فيها. فهذه لا يوصف الله تعالى بها على سبيل الإطلاق، ولا تنفى عن الله تعالى على سبيل الإطلاق، بل يجب التفصيل، ففي الحال التي تكون كمالاً يوصف الله تعالى بها، وفي الحال التي تكون نقصاً لا يوصف الله تعالى بها. ومثال هذا: المكر، والخديعة، والاستهزاء. فالمكر والخديعة والاستهزاء بالعدو صفة كمال، لأن ذلك يدل على كمال العلم والقدرة والسلطان... ونحو ذلك. أما المكر بالمؤمنين الصادقين فهو صفة نقص. ولذلك لم يرد وصف الله تعالى بهذه الصفات على سبيل الإطلاق، وإنما ورد مقيداً بما يجعله كمالاً. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]. فهذا خداع بالمنافقين. وقال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. وهذا مكر بأعداء الله الذين كانوا يَمْكُرُونَ برسول الله ﷺ. وقال عن المنافقين: ﴿وَإِذَا قَالُوا ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شُيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُنَ ۗ وَاللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٤-١٥]. وهذا استهزاء بالمنافقين. فهذه الصفات تعتبر كمالاً في هذا السياق الذي وردت فيه. ولهذا يقال: الله تعالى يستهزئ بالمنافقين، ويخادعهم، ويمكر بأعدائه... ونحو ذلك. ولا يجوز أن يوصف الله تعالى بالمكر والخداع وصفاً مطلقاً. لأنه حينئذ لا يكون كمالاً. فالله سبحانه وتعالى ينسب إلى نفسه أحسن هذه المعاني وما هو منها حكمة وصواب وجزاء للمسيء وذلك غاية العدل والحق كقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (١٥) ﴿وَإِكْدِيدًا﴾. وقوله: ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾. وقوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾. وقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾. وقوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾، فهذا منه سبحانه في أعلى مراتب الحُسن وإن كان من العبد قبيحاً سيئاً لأنه ظالم فيه وموقعه بمن لا يستحقه، والرب تعالى عادل فيه وموقعه بأهله ومن يستحقه.

من العذاب المؤمنين المتقين الذين آمنوا مع صالح ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ أي واذكر رسولنا «لوطاً» حين قال لقومه أهل سدوم ﴿أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ﴾ أي أنفعلون الفعل القبيحة الشنيعة وهي اللواط^(١) ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي وأنتم تعلمون علماً يقيناً أنها فاحشة وأنها عملٌ قبيح؟ ﴿أَيُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ تكريرٌ للتوبيخ أي أنكم أيها القوم لفرط سفهكم تشتهون الرجال وتكون النساء؟ ويكتفي الرجال بالرجال بطريق الفاحشة القبيحة ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهَلُونَ﴾ أي بل أنتم قوم سفهاء ماجنون ولذلك تفضلون العمل الشنيع على ما أباح الله لكم من النساء ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ أَلَا لَوْطٌ مِّنْ قَرَيْبِكُمْ﴾ أي فما كان جواب أولئك المجرمين إلا أن قالوا أخرجوا لوطاً وأهله من بلدكم ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ أي إنهم قوم يتنزهون عن القاذورات ويعبدون فعلنا قدراً، وهو تعليلٌ لجوب الطرد والإخراج قال قتادة: عابوهم والله بغير عيب بأنهم يتطهرون من أعمال السوء. وقال ابن عباس: هو استهزاء يستهزئون بهم بأنهم يتطهرون عن أدبار الرجال^(٢) ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ﴾ أي فخلصناه هو وأهله من العذاب الواقع بالقوم إلا زوجته ﴿قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَيْرِينَ﴾ أي جعلناها بقضائنا وتقديرنا من المهلكين، الباقيين في العذاب ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ أي أنزلنا عليهم حجارة من السماء كالمطر فأهلكتهم ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ أي بس العذاب الذي أمطروا به وهو الحجارة من سجيل منصود، ولما ذكر تعالى قصص الأنبياء أتبعه بذكر دلائل القدرة والوحدانية فقال ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِيكَ أَصْطَفَىٰ﴾ أي قل يا محمد: الحمد لله على إفضاله وإنعامه، وسلامٌ على عباده المرسلين الذين اصطفاهم لرسالتهم، واختارهم لتبليغ دعوته قال الزمخشري: أمر الله رسوله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الدالة على وحدانيته، الناطقة بالبراهين على قدرته وحكمته، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه، وفيه تعليم حسن، وتوقيفٌ على أدب جميل، وهو حمد الله والصلاة على رسله، ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابراً عن كابر هذا الأدب، فحمدوا الله وصلوا على رسوله أمام كل علم، وقبل كل عظة وتذكرة^(٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا لِلْبَاطِلِ حُكْمًا وَلَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي

(١) (ش): لواط: شذوذ جنسي بين رجلين. اللواط لغة: إتيان الذكر في الذكر، وهو عمل قوم نبي الله لوط عليه السلام. يقال: لاط الرجل لوطاً ولأوط، أي عمل عمل قوم لوط. واصطلاحاً: إدخال الحشفة في دبر ذكر. وحكمه حكم الزنى عند جمهور الفقهاء. (الحشفة): ما يكشف عنه الختان في عضو الذكر، (رأس الذكر وما فوق الختان).

(٢) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٢١٩.

(٣) «الكشاف» ٣/ ٢٩٥.

هل الخالق المبدع الحكيم خيرٌ أم الأصنام التي عبدوها وهي لا تسمع ولا تستجيب؟ ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَكُوتَ وَالْأَرْضَ﴾ برهان آخر على وحدانية الله أي أمَّنْ أبدع الكائنات فخلق تلك السماوات في ارتفاعها وصفائها، وجعل فيها الكواكب المنيرة، وخلق الأرض وما فيها من الجبال والسهول والأنهار والبحار، خيرٌ أمَّا يشركون؟ ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أي وأنزل لكم بقدرته المطر من السحاب فأخرج به الحدائق والبساتين، ذات الجمال والخضرة والنضرة، والمنظر الحسن البهيج^(١) ﴿مَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تَنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ أي ما كان للبشر ولا يتهيا لهم، وليس بمقدورهم ومستطاعهم أن ينبتوا شجرها فضلاً عن ثمرها ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَأْتِيَ الْبَرْقُ مِنْ سَحَابٍ مِثْلَ الْبَرْقِ﴾ استفهام إنكار أي هل معه معبود سواه^(٢) حتى تسوّوا بينهما وهو المتفرد بالخلق والتكوين؟ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ﴾ أي بل هم قوم يشركون بالله فيجعلون له عديلاً ومثيلاً، ويسوّون بين الخالق الرازق والوثن ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ برهان آخر أي جعل الأرض مستقرًا للإنسان والحيوان، بحيث يمكنكم الإقامة بها والاستقرار عليها ﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾ أي وجعل في شعابها وأوديتها الأنهار العذبة الطيبة، تسير خلالها شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ أي وجعل جبلاً شامخة ترسي الأرض وتثبتها لئلا تميد وتضطرب بكم ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ أي وجعل بين المياه العذبة والمالحة فاصلاً مانعاً يمنعها من الاختلاط، لئلا يفسد ماء البحار المياه العذبة^(٣) ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَأْتِيَ الْبَرْقُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي أمع الله معبود سواه^(٤)؟

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي أكثر المشركين لا يعلمون الحق فيشركون مع الله غيره ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ برهان ثالث أي أمَّنْ يجيب المكروب المجهود الذي مسّه الضر فيستجيب دعاءه ويلبي نداءه؟ ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ أي ويكشف عنه الضر والبأساء؟ ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أي ويجعلكم سكان الأرض تعمرونها جيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَأْتِيَ الْبَرْقُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي إله مع الله يفعل ذلك حتى تعبدوه؟ ﴿فَلْيَلَا مَا نَذَكَّرُوكَ﴾ أي ما أقل تذكركم واعتباركم فيما تشاهدون؟ ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ﴾

(١) (ش): نَصَرَ لُونَهُ / نَصَرَ وَجْهَهُ: كان ذا حُسْنٍ وإِشْرَاقٍ وَبَهْجَةٍ.

(٢) (ش): الأنسب أن يقال: «هل معه من يستحق العبادة سواه؟»؛ لأن المعبود معه موجود، وإنما السؤال عن الاستحقاق وعدمه لا عن وجود المعبود معه.

(٣) هذا قول الحسن واختاره ابن كثير وهو الأظهر. وقيل: المراد بحر فارس والروم.

(٤) (ش): الأنسب أن يقال: «أمع الله من يستحق العبادة سواه؟»؛ لأن المعبود معه موجود، وإنما السؤال عن الاستحقاق وعدمه لا عن وجود المعبود معه.

فِي ظُلُمَاتٍ أَلْبَرَا وَالْبَحْرِ؟ برهان رابع أي: أم من يرشدكم إلى مقاصدكم في أسفاركم في الظلام الدامس، في البراري، والفقار، والبحار؟ والبلاد التي تتوجهون إليها بالليل والنهار؟ ﴿وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾؟ أي: ومن الذي يسوق الرياح مبشرةً بنزول المطر الذي هو رحمة للبلاد والعباد؟ ﴿أَلَمْ لَهُمْ مَعَ اللَّهِ؟﴾ أي أإله مع الله يقدر على شيء من ذلك؟ ﴿تَعْلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تعظم وتمجد الله القادر الخالق عن مشاركة العاجز المخلوق ﴿أَمْ يَبْدؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ برهان خامس، أي: أمتن يبدأ خلق الإنسان ثم يعيده بعد فناءه؟ قال الزمخشري: كيف قال لهم ذلك وهم منكرون للإعادة؟ والجواب أنه قد أزيحت علتهم بالتمكين من المعرفة والإقرار، فلم يبق لهم عذر في الإنكار^(١) ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ومن ينزل عليكم من مطر السماء، ويُنبت لكم من بركات الأرض الزروع والثمار؟ قال أبو حيان: لما كان إيجاد بني آدم إنعاماً إليهم وإحساناً عليهم، ولا تتم النعمة إلا بالرزق قال ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي بالمطر ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي بالنبات^(٢) ﴿أَلَمْ لَهُمْ مَعَ اللَّهِ؟﴾ أي أإله مع الله يفعل ذلك؟ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي أحضروا حجتكم ودليلكم على ما تزعمون إن كنتم صادقين في أن مع الله إلهاً آخر^(٣) ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي هو سبحانه وحده المختص بعلم الغيب، فلا يعلم أحد من ملك أو بشر الغيب إلا الله علام الغيوب قال القرطبي: نزلت في المشركين حين سألوا النبي ﷺ عن قيام الساعة ﴿وَمَا يَسْأَلُونَكَ إِلَّا بِغَثْوٍ﴾ أي وما يدري ولا يشعر الخلاق متى يُبعثون بعد موتهم؟ ﴿بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي هل تتابع وتلاحق علم المشركين بالآخرة وأحوالها حتى يسألوا عن الساعة وقيامها؟ إنهم لا يصدقون بالآخرة فلماذا يسألون عن قيام الساعة؟ ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ إضراب عن السابق، أي: هم شاكون في الآخرة لا يصدقون بها ولذلك يعاندون ويكابرون ﴿بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ﴾ أي بل هم في عمى عنها، ليس لهم بصيرة يدركون بها دلائل وقوعها لأن

(١) «الكشاف» ٣ / ٢٩٧.

(٢) «البحر» ٧ / ٩٠.

(٣) قال في البحر: وناسب ختم كل استفهام بما تقدمه، فلما ذكر خلق العالم العلوي والسفلي وما امتن به من إنزال المطر ختمه بقوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ﴾ أي يعدلون به غيره مما هو مخلوق ولما ذكر جعل الأرض مستقراً وتفجير الأنهار، وكان فيه التنبيه على التفكير والتعقل ختمه بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولما ذكر إجابة المضطر وكشف سوء ختمه بقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ لأن الإنسان يتوالى عليه النسيان عندما يزول عنه اضطراؤه، ولما ذكر الهداية في الظلمات وإرساله الرياح مبشرات، ومعبوداتهم لا تهدي ولا تسعف وهم بشر كونها ختمه بقوله: ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (البحر المحيط) ٩١/٧.

اشتغالهم بالذات النفسانية من شهوة البطن والفرج صيرهم كالبهائم والأنعام لا يتدبرون ولا يبصرون قال ابن كثير: هم شاكئون في وقوعها ووجودها، بل هم في عمية وجهل كبير في أمرها^(١).

البلاغة: تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الطباق ﴿يُفْسِدُونَ.. وَلَا يُصْلِحُونَ﴾.
- ٢ - التحضيض ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ أي: هلاً تستغفرون الله.
- ٣ - جناس الاشتقاق ﴿أَطْرَفْنَا.. طَافِرُكُمْ﴾.
- ٤ - المشاكلة ﴿وَمَكْرُؤًا.. وَمَكْرَنَا﴾ سَمَى تعالى إهلاكهم وتدميرهم مكرًا على سبيل المشاكلة.

- ٥ - الطباق ﴿لَمْ تَسْتَعِجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ ؟
- ٦ - الاستفهام التوبيخي ﴿أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ ؟
- ٧ - أسلوب التبكيت والتهكم ﴿أَلَلَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ؟
- ٨ - الاستعارة اللطيفة ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي أمام نزول المطر فاستعار اليمين للأمام.

- ٩ - الطباق ﴿يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾.
- ١٠ - الاستعارة ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ استعار العمى للتعامي عن الحق وعدم التفكير والتدبر في آلاء الله.

١١ - مراعاة الفواصل مما يزيد في رونق الكلام وجماله، وله على السمع وقع خاص مثل ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾ ومثل ﴿إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ﴾. وأمثاله كثير، وفي القرآن روائع بيانية يعجز عن التعبير عنها اللسان، فسبحان من خصَّ نبيه الأُمِّي بهذا الكتاب المعجز!

قال الله تعالى:

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَنِنَا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِن هَٰذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾

(١) (ش): عمية: ضلال، غواية ولجاجة في الباطل.

قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمِمَّنْ غَابَتْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِنَانٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُضُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمِعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنِ ضَلَالَتِهِمْ ۚ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۖ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَخَشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آيَلًا لِّسَكْنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۖ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتُزْعَجُ مِنَ السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ۚ وَكُلُّ أَتَوِّهٍ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي لَّا تَأْنَقُ كُلُّ شَيْءٍ ۖ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مِّنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَرْعٍ يَوْمِذٍ مُّأْمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعْبِدَ رَبُّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيَّرَكُمْ بِإِذْنِهِ ۖ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

المناسبة: لما ذكر تعالى الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين، ذكر هنا شبهات المشركين في الإيمان بالآخرة والبعث والنشور، وأردفها بذكر الدلائل القاطعة، وذكر بعض الأحوال التي تكون بين يدي الساعة.

اللغة: ﴿رَدْفٌ﴾ اقتراب ودنا ﴿تُكِنُّ﴾ تُسِرُّ وتخفي ﴿دَاخِرِينَ﴾ ذليلين صاغرين ﴿فَوْجًا﴾ الفوج: الجماعة ﴿جَامِدَةً﴾ الجمود: سكون الشيء وعدم حركته ﴿أَتَقَنَّ﴾ الإتيان بالشيء على أحسن حالاته من التمام والكمال والإحكام ﴿كُبَّتْ﴾ الكبُّ: الطرح والإلقاء يقال: كببت الرجل ألقىته على وجهه، وكببت الإناء قلبته.

التفسير: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَئِنْ ذَاكُنَا تَرَايَا وَءَابَاؤُنَا إِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ أي قال مشركو مكة المنكرون للبعث: أئنذا متنا وأصبحنا رفاتاً وعظاماً بالية، فهل سنخرج من قبورنا ونحيا مرة ثانية؟ ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ أي لقد وعدنا محمد بالبعث كما وعد من قبله آباءنا الأولين، فلو كان حقاً لحصل ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ﴾ أي ما هذا إلا خرافات وأباطيل السابقين. ينكرون البعث وينسون أنهم خُلِقُوا من العدم، وأن الذي خلقهم أولاً

قادر على أن يعيدهم ثانيًا! ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي قل لهؤلاء الكفار: سيروا في أرجاء الأرض ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي فانظروا - نظر اعتبار - كيف كان مآل المكذبين للرسول؟ ألم يهلكهم الله ويدمرهم؟ فما حدث للمجرمين من قبل، يحدث للمجرمين من بعد، والآية وعيد وتهديد ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ تسلية للرسول عليه السلام أي لا تحزن يا محمد ولا تأسف على هؤلاء المكذبين إن لم يؤمنوا، ولا يضيق صدرك من مكرهم فإن الله يعصمك منهم ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي يقولون استهزاء: متى يجيئنا العذاب إن كنتم صادقين فيما تقولون؟ والخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي لعل الذي تستعجلون به من العذاب قد دنا وقرب منكم بعضه قال المفسرون: هو ما أصابهم من القتل والأسر يوم بدر ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أي لذو إفضال وإنعام على الناس بترك تعجيل عقوبتهم على معاصيهم وكفرهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي ولكن أكثرهم لا يعرفون حق النعمة، ولا يشكرون ربهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي وإنه تعالى ليعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوة الرسول وكيدهم له وسيجازيهم عليه ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي ليس من شيء في غاية الخفاء على الناس والغيوبة عنهم إلا وقد علمه الله وأحاط به، وأثبت في اللوح المحفوظ عنده، فلا تخفى عليه سبحانه خافية قال ابن عباس: معناه ما من شيء سر في السماوات والأرض أو علانية إلا وعند الله علمه^(١) ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُضُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ لما ذكر تعالى أمر المبدأ والمعاد والنبوة، وكان القرآن من أعظم الدلائل والبراهين على صدق محمد وصدق ما جاء به، أعقبه هنا بذكر القرآن المجيد وذكر أوصافه والمعنى: إن هذا القرآن المنزل على خاتم الرسل لهو الكتاب الحق الذي يبين لأهل الكتاب ما اختلفوا فيه من أمر الدين، ومن جملة اختلافهم في أمر المسيح وتفرقهم فيه فرقًا كثيرة حتى لعن بعضهم بعضًا، فلو كانوا منصفين لأسلموا، لأن القرآن جاءهم بالرأي الساطع، والخبر القاطع ﴿وَلِئِنْ هَدَيْتُمُوهُمْ إِلَى رَحْمَةِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وإنه لهداية لقلوب المؤمنين من الضلالة، ورحمة لهم من العذاب، قال القرطبي: وإنما خص المؤمنين بالذكر لأنهم المنتفعون به^(٢) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ﴾ أي إن ربك يا محمد يفصل بين بني إسرائيل يوم القيامة بحكمه العادل، وقضائه المبرم، فيجازي المحق والمبطل ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي المنيع

(١) «البحر المحيط» ٩٥/٧.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٣/٢٣١.

الغالب الذي لا يُرَدُّ أمره ﴿الْعَلِيمُ﴾ أي العليم بأفعال العباد فلا يخفى عليه شيء منهم ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي فَوَضَّ إِلَيْهِ أَمْرَكَ، واعتمد عليه في جميع شئونك فإنه ناصرٌ ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ أي إنك يا محمد على الدين الحق، الواضح المنير، فالعاقبة لك بالنصر على الكفار ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ أي لا تُسْمِعُ الكفار لتركههم التدبر والاعتبار، فهم كالموتى لا حسَّ لهم ولا عقل ﴿وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ أي ولا تُسْمِعُهُم دعاءك ونداءك إذا ذكَّرتهم بالله أو دعوتهم إلى الإيمان، لأنهم كالصَّم الذين في آذانهم وقر، فلا يستجيبون الدعاء، لا سيما إذا تولَّوا عنك معرضين، فإن الأصمَّ إذا تولى مدبراً ثم ناديته كان أبعد عن السماع حيث انضمَّ إلى صممه بُعد المسافة ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ أي وليس بوسعك يا محمد أن تصرف عمي القلوب عن كفرهم وضلالهم ﴿إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي ما تُسْمِعُ - سماع تدبر وإفهام - إلا المؤمنين، ولا يستجيب لدعوتك إلا أهل الإيمان، وهم الذين انقادوا وأسلموا وجوههم للرحمن. شبه من لا يسمع ولا يعقل بالموتى في أنهم لا يسمعون وإن كانوا أحياء، ثم شبههم ثانياً بالصم وبالعمي وإن كانوا سليمي الحواس، وأكد عدم سماعهم بقوله ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ لأن الأصمَّ إذا أدبر زاد صممه أو عدم سماعه بالكلية، والغرض من الآية كالموت وكالصم وكالعمي، لا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون، ولا يلتفتون إلى شيء من الدلائل الكونية، أو الآيات القرآنية ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ هذا بيان لما يكون بين يدي الساعة أي وإذا قَرَّبَ نزول العذاب وقيام الساعة، وحن وقت عذاب الكفار ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ أي أخرجنا للكفار هذه الآية الكبيرة «دابة الأرض» تكلم الناس وتناظرهم وتقول من جملة كلامها: ألا لعنة الله على الظالمين، الذين لا يصدِّقون ولا يؤمنون بآيات الله، وخروج الدابة من أشراط الساعة وفي الحديث «إِنَّ السَّاعَةَ لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ...» وعدَّ منها طُلُوع الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وخُرُوج الدَّابَّةِ^(١) الحديث قال ابن كثير: هذه الدابة تخرج في آخر الزمان، عند فساد الناس وتركهم أوامر الله، وتبديلهم الدين الحق، فتكلم الناس وتخطبهم مخاطبة قال ابن عباس: تكلمهم كلاماً فتقول لهم: إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون^(٢)، وروي أن خروجها حين ينقطع الخير، ولا يؤمر بمعروف ولا يُنهى عن منكر، ولا يبقى منيب ولا

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»، وفي صحيح مسلم: «إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى، وَآيُهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَلَا أُخْرَى عَلَى إِتْرَاهَا قَرِيًّا».

(ش): الحديث الأول رواه أيضاً أبو داود وصححه الألباني.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٦٨٢.

تائب، وهي آية خاصة خارقة للعادة، ثم ذكر تعالى بعض مشاهد القيامة فقال ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ أي واذكر يوم نجمع للحساب والعقاب من كل أمة من الأمم جماعة وزمرة ﴿مِمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا﴾ أي من الجاحدين المكذبين بآياتنا ورسلنا ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي فهم يُجمعون ثم يُساقون بعنف ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عُلَمَاءُ﴾ أي حتى إذا حضروا موقف الحساب والسؤال قال لهم تعالى مُوبِخًا ومُقرِّعًا^(١): أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِي الْمُنْزَلَةِ عَلَى رُسُلِي مِنْ غَيْرِ فِكْرٍ وَلَا نَظَرٍ يُوْدِي إِلَى إِحَاطَةِ الْعِلْمِ بِكُنْهَافِهَا، أَوْ مَعْرِفَةِ صَدَقِهَا؟ ﴿أَمَّا أَكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تَقْرِيعٌ وَتَوْبِيخٌ آخَرٌ، أَيُّ شَيْءٍ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فِي الدُّنْيَا؟ وَبَخْهَمُ أَوْ لَا بِقَوْلِهِ ﴿أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِي﴾ ثُمَّ أَضْرَبَ عَنْهُ إِلَى اسْتِفْهَامِ تَقْرِيرٍ وَتَبَكُّيتٍ كَأَنَّهُ قِيلَ: دَعُوا مَا نَسَبْتُهُ إِلَيْكُمْ مِنَ التَّكْذِيبِ وَقُولُوا لِي: أَيُّ شَيْءٍ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَهُ فِي الدُّنْيَا غَيْرَ التَّكْذِيبِ؟ ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا﴾ أَيُّ بُهْتُوا فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَوَابٌ، وَقَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ وَحَقٌّ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ، بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ وَهُوَ تَكْذِيبُهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴿فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ أَيُّ فَهُمْ لَا يَتَكَلَّمُونَ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ عَذْرٌ وَلَا حُجَّةٌ، وَقَدْ شَغَلُوا بِالْعَذَابِ عَنِ الْجَوَابِ.. ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَهْوَالَ الْقِيَامَةِ ذَكَرَ الْأَدْلَةَ وَالْبَرَاهِينَ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالْحَشْرِ وَالنَّشْرِ مَبَالِغَةً فِي الْإِرْشَادِ إِلَى الْإِيمَانِ فَقَالَ: ﴿الْمُرُّوا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَّ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أَيُّ أَلَمْ يَرَوْا قُدْرَةَ اللَّهِ فَيَعْتَبِرُوا أَنَّهُ تَعَالَى جَعَلَ اللَّيْلَ مَظْلَمًا لِيَنَامُوا وَيَسْتَرِيحُوا مِنْ تَعَبِ الْحَيَاةِ، وَجَعَلَ النَّهَارَ مُبْصِرًا لِيَتَصَرَّفُوا فِيهِ فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ وَالرِّزْقِ؟ ﴿إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أَيُّ إِنْ فِي تَقْلِيلِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنْ نَوْرِ إِلَى ظِلْمَةٍ، وَمِنْ ظِلْمَةٍ إِلَى نَوْرِ لَايَاتٍ بَاهِرَةٍ، وَدَلَائِلُ قَاطِعَةٍ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ لِقَوْمٍ يُصَدِّقُونَ^(٢)، ثُمَّ أَشَارَ تَعَالَى إِلَى أَحْوَالِ النَّاسِ فِي الْآخِرَةِ فَقَالَ ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أَيُّ وَاذْكَرْ يَوْمَ يَنْفَخُ إِسْرَافِيلُ فِي الصُّورِ «نَفْخَةُ الْفَزَعِ» فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ مِنَ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا خَافَ وَفَزِعَ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالشَّهَدَاءِ قَالَ الْمَفْسُرُونَ: هَذِهِ نَفْخَةُ الْفَزَعِ، ثُمَّ تَتْلُوهَا نَفْخَةُ الصَّعَقِ - وَهُوَ الْمَوْتُ - ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَفْخَةُ النَّشُورِ مِنَ الْقُبُورِ وَهِيَ نَفْخَةُ الْقِيَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: إِنْ الْمَلِكُ لَهُ فِي الصُّورِ ثَلَاثُ نَفَخَاتٍ: نَفْخَةُ الْفَزَعِ - وَهُوَ فَزَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا - وَلَيْسَ بِالْفَزَعِ الْأَكْبَرِ، وَنَفْخَةُ الصَّعَقِ، وَنَفْخَةُ الْقِيَامِ مِنَ الْقُبُورِ^(٣) ﴿وَكُلُّ أُنُوفٍ ذَخِيرٍ﴾ أَيُّ وَكُلُّ مِنَ الْأَمْوَاتِ الَّذِينَ أُحْيُوا

(١) (ش): قَرَعَ الشَّخْصَ: عَنَّفَهُ.

(٢) (ش): تَفْسِيرُ الْإِيمَانِ بِالتَّصْدِيقِ تَفْسِيرٌ قَاصِرٌ وَمُخَالَفٌ لِمَا عَلَيْهِ أَهْلُ السَّنَةِ مِنْ أَنَّ الْإِيمَانَ تَصْدِيقٌ بِالْقَلْبِ وَقَوْلٌ بِاللِّسَانِ وَعَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ.

(٣) «البحر المحيط» ٧/ ٩٩.

أَقْرَأَنَّ أَيُّ أُمِرْتُ أَيْضًا بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ لَتَنْكَشِفَ لِي حَقَائِقُهُ الرَّائِعَةُ، وَأَنْ أَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ ﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ أَيُّ فَمَنْ اهْتَدَىٰ بِالْقُرْآنِ، وَاسْتَنَارَ قَلْبُهُ بِالْإِيمَانِ، فَإِنَّ ثَمَرَةَ هِدَايَتِهِ رَاجِعَةٌ إِلَيْهِ ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ أَيُّ وَمَنْ ضَلَّ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى، فَوَبَالَ ضَلَالِهِ مُخْتَصٌّ بِهِ، إِذْ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَقَدْ بَلَّغْتُكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أَيُّ قُلْ يَا مُحَمَّدُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا خَصَّنِي بِهِ مِنْ شَرَفِ النَّبُوَّةِ وَالرَّسَالَةِ، وَمَا أَكْرَمَنِي مِنْ رَفِيعِ الْمَنْزِلَةِ وَالْمَقَامِ ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَعَرِّفُونَهَا﴾ تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَيُّ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ الْبَاهِرَةَ الدَّالَّةَ عَلَى عَظِيمِ قُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ فِي الْأَنْفُسِ وَالْأَفَاقِ فَتَعْرِفُونَهَا حِينَ لَا تَنْفَعُكُمُ الْمَعْرِفَةُ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أَيُّ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ بَلْ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ، وَفِيهِ وَعْدٌ وَوَعِيدٌ.

البَلَاغَةُ: تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبدیع نوجزها فيما يلي:

١ - الاستفهام الإنكاري ﴿أَءَاذًا كُنَّا تَرَبًّا وَعَابًاؤُنَا أَنِنَا لَمُخْرَجُونَ﴾ وتكرير الهمزة ﴿أَيْنَا﴾ للمبالغة في التعجب والإنكار.

٢ - الوعيد والتهديد ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

٣ - التأكيد بـ "بِ" واللام ﴿وَإِنْ رَبُّكَ لَذُو فَضْلٍ﴾ ﴿وَإِنْ رَبُّكَ لَيَعْلَمُ﴾ ﴿وَإِنَّهُ لَهْدَى﴾.

٤ - الطباق ﴿مَاتُكُنْ صُدُورُهُمْ وَمَا يَعْلَمُونَ﴾ لأن معنى ﴿تُكُنْ﴾ تخفي.

٥ - الاستعارة البديعة ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ﴾ لأن القصص لا يوصف به إلا الناطق المميز، ولكن القرآن لما تضمن نباء الأولين، كان كالشخص الذي يقصُّ على الناس الأخبار ففيه استعارة تبعية.

٦ - المبالغة ﴿الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ لأن صيغة (فعل) من صيغ المبالغة.

٧ - الاستعارة التمثيلية ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ التعبير بالموتى، والصُّمَّ، والعمى، جاء كله بطريق الاستعارة، وهو تمثيل لأحوال الكفار في عدم انتفاعهم بالإيمان بأنهم كالموتى والصُّمَّ والعمى.

٨ - أسلوب التوبيخ والتأنيب ﴿أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ؟

٩ - الطباق ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ جَاءَ.. وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾.

١٠ - التشبيه البليغ ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ أي تمرُّ كمرِّ السحاب في السرعة، حذفت

الأداة ووجه الشبه فأصبح تشبيهاً بليغاً مثل محمد قمر.

١١ - الإحتباك ﴿الْمُرُورُوا أَنَا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ حُذِفَ مِنْ أَوَّلِهِ مَا

أُثْبِتَ فِي آخِرِهِ وَبِالْعَكْسِ، أَصْلُهُ جَعَلْنَا اللَّيْلَ مَظْلَمًا لَتَسْكُنُوا فِيهِ، وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا لَتَتَصَرَّفُوا

فيه فحذف «مظلماً» لدلالة «مبصراً» عليه، وحذف «لتنصرفوا فيه» لدلالة ﴿لَيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ وهذا النوع يسمى الإحتباك وهو من المحسنات البديعية.

«انتهى تفسير سورة النمل»





مكية وآياتها ثمان وثمانون

بين يدي السورة

* سورة القصص من السور المكية التي تهتم بجانب العقيدة «التوحيد، والرسالة، والبعث» وهي تتفق في منهجها وهدفها مع سورتي «النمل، والشعراء» كما اتفقت في جو النزول، فهي تكمل أو تفصل ما أُجمل في السورتين قبلها.

* محور السورة الكريمة يدور حول فكرة الحق والباطل، ومنطق الإذعان والطغيان، وتصور قصة الصراع بين جند الرحمن، وجند الشيطان، وقد ساق في سبيل ذلك قصتين: أولاهما: قصة الطغيان بالحكم والسلطان، ممثلة في قصة فرعون الطاغية المتجبر الذي أذاق بني إسرائيل سوء العذاب، فذبح الأبناء، واستحيا النساء، وتعالى على الله حتى تجرأ على ادعاء الربوبية ﴿مَا عَلَّمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾، والثانية: قصة الاستعلاء والطغيان بالثروة والمال ممثلة في «قارون مع قومه» وكلتا القصتين رمزاً إلى طغيان الإنسان في هذه الحياة، سواء بالمال، أ والجاه، أو السلطان.

* ابتدأت السورة بالحديث عن طغيان فرعون وعلوه وفساده في الأرض، ومنطق الطغيان في كل زمان ومكان.

* ثم انتقلت إلى الحديث عن ولادة موسى وخوف أمه عليه من بطش فرعون، وإلهام الله تعالى لها بإلقائه في البحر ليعيش معزراً مكرماً في حجر فرعون كريحانة زكية تنبت وسط الأشواك والأوحال.

* ثم تحدثت عن بلوغ موسى سن الرشد، وعنتله للقبطي، وعن هجرته إلى أرض مدين وتزوجه بابنة شعيب^(١)، وتكليف الله له بالعودة إلى مصر لدعوة فرعون الطاغية إلى الله، وما كان من أمر موسى مع فرعون بالتفصيل إلى أن أغرقه الله، وتحدثت عن كفار مكة ووقوفهم في وجه الرسالة المحمدية، وبيّنت أن مسلك أهل الضلال واحد.

* ثم انتقلت إلى الحديث عن قصة قارون، وبيّنت الفارق العظيم بين منطق الإيمان، ومنطق الطغيان.

* وختمت السورة الكريمة بالإرشاد إلى طريق السعادة وهو طريق الإيمان الذي دعى إليه الرسل الكرام.

(١) (ش): ليس هناك دليل على أن الذي زوج بنته لموسى هو شعيب عليه السلام.

التسمية: سميت سورة «القصص» لأن الله تعالى ذكر فيها قصة موسى مفصلة موضحة من حين ولادته إلى حين رسالته، وفيها من غرائب الأحداث العجيبة ما يتجلى فيها بوضوح عناية الله بأوليائه وخذلانه لأعدائه.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَمَ ① تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ② نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ③ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَذِخُّ أُنْيَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ④ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِيكِ اسْتَضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ⑤ وَنُمَكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَمْلَهُمْ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ⑥ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا اخْفِيتْ عَلَيْهِ فَكَلِّبِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ⑦ فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمْلَهُمْ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ⑧ وَقَالَتْ أُمُّرَأْتُ فِرْعَوْنَ فَأُفِّرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ⑨ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَرَجًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ⑩ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ⑪ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيبٌ فَأَرْبَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ⑫ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ءَانَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ⑬ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ⑭ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ⑮ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ⑯ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ⑰ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَى أَرِيدُ أَنْ نَقْتُلِيكَ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ

اللغة: ﴿شِيَعًا﴾ فِرْقًا وَأَصْنَافًا ﴿وَسْتَحْيِي﴾ يتركه حيًّا ولا يقتله ﴿نَمُنَّ﴾ نتفضل ونُنعم ﴿الْيَمِّ﴾ البحر ﴿فَرَجًا﴾ خَالِيًا ﴿الْمَرَاضِعَ﴾ جمع مَرْضِع، وأما المَرْضَعَةُ فجمعها مَرْضَعَات وهي التي ترضع الطفل اللبن ﴿عَنْ جُنْبٍ﴾ عن بعد ومنه الأجنبي للبعيد غير القريب ﴿فَوَكَزَهُ﴾ الوَكَز: الضرب بجُمُع الكف أي بكفِّه مجموعة قال أهل اللغة: الوَكَزُ واللكز كلاهما بمعنى واحد وهو الضرب بجُمُع الكف على الصدر، وقيل: الوَكَزُ في

الصدر، واللكز في الظهر، وجمع الكف: الكف المقوضة الأصابع^(١) ﴿ظَهِيرًا﴾ عونا ﴿يَسْتَصْرِحُهُ﴾ يستعيثه والاستصراخ الاستغاثة وهو من الصراخ لأن المستغيث يصرخ ويرفع صوته طلباً للغوث قال الشاعر:

كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِحٌ فَرِحَ كَانَ الصُّرَاخُ لَهُ قَرْعَ الظَّنَائِبِ^(٢)

﴿يَبْطِشُ﴾ البطش: الأخذ بالشدة والعنف، بطش ويبطش ويبطش بالكسر والضم.

التفسير: ﴿طَسَمَ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، والإشارة إلى أن هذا الكتاب المعجز في فصاحته وبيانه مركبٌ من أمثال هذه الحروف الهجائية^(٣) ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي هذه آيات القرآن الواضح الجلي، الظاهر في إعجازه، الواضح في تشريعه وأحكامه ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ أي نقرأ عليك يا محمد بواسطة الروح الأمين من الأخبار الهامة عن موسى وفرعون من الحق الذي لا يأتيه الباطل، والصدق الذي لا ريب فيه ولا كذب ﴿لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لقوم يصدقون بالقرآن فينتفعون.. ثم بدأ بذكر قصة فرعون الطاغية فقال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي استكبر وتجبّر، وجاوز الحد في الطغيان في أرض مصر ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي جعل أهلها فرقاً وأصنافاً في استخدامه وطاعته ﴿يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ أي يستعبد ويستذل فريقاً منهم وهم بنو إسرائيل فيسومهم سوء العذاب ﴿يَذْبَحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ﴾ أي يقتل أبناءهم الذكور ويترك الإناث على قيد الحياة لخدمته وخدمة الأقباط قال المفسرون: سبب تقتيله الذكور أن فرعون رأى في منامه أن ناراً عظيمةً أقبلت من بيت المقدس وجاءت إلى أرض مصر فأحرقت القبط دون بني إسرائيل، فسأل عن ذلك المنجمين والكهنة، فقالوا له: إن مولوداً يولد في بني إسرائيل، يذهب ملكك على يديه، ويكون هلاكك بسببه فأمر أن يقتل كل ذكر من أولاد بني إسرائيل ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي من الراسخين في الفساد، المتجبرين في الأرض، ولذلك ادعى الربوبية وأمعن في القتل وإذلال العباد ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُّوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ونريد برحمتنا أن نتفضل ونُنعم على المستضعفين من بني إسرائيل فننجيهم من بأس فرعون وطغيانه ﴿وَجَعَلَهُمْ آيَةً﴾ أي ونجعلهم أئمة يُقتدى بهم في الخير بعد أن كانوا أذلاء مسخرين قال

(١) حاشية شيخ زاده على «البيضاوي» ٥٠٧/٣.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٣/٢٦٤. (ش): الصارخ: المستغيث. والظنائب جمع (الظنوب): وهو حرف العظم اليابس من الساق. ومن أمثالهم: قَرَعَ فَلَانٌ لَأَمْرِهِ ظُنُوبَهُ إِذَا جَدَّ فِيهِ. والمراد سرعة الإجابة لنداء المستغيث والاجتهاد في نصرته. وقَرَعَ الظنوب كناية عن ذلك.

(٣) انظر ما كتبه في أول سورة البقرة حول أوائل السور.

ابن عباس: ﴿أَيُّمَّةٌ﴾ قادة في الخير، وقال قتادة: ولاية وملوكاً ﴿وَنَجَعَلَهُمُ آلُورَثِيكَ﴾ أي نجعل هؤلاء الضعفاء وارثين لملك فرعون وقومه، يرثون ملكهم ويسكنون مساكنهم بعد أن كان القبط أسياد مصر وأعزتها ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي ونملكهم بلاد مصر والشام يتصرفون فيها كيف يشاءون قال «البيضاوي»: أصل التمكين أن تجعل للشيء مكاناً يتمكن فيه ثم استعير للتسليط وإطلاق الأمر ^(١) ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ أي ونري فرعون الطاغية، ووزيره «هامان» والأقباط من أولئك المستضعفين ما كانوا يخافونه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود من بني إسرائيل ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ أي قذفنا في قلبها بواسطة الإلهام قال ابن عباس: هو وحي إلهام وقال مقاتل: أخبرها جبريل بذلك. قال القرطبي: فعلى قول مقاتل هو وحي إعلام لا إلهام، وأجمع الكل على أنها لم تكن نبية، وإنما إرسال الملك إليها على نحو تكليم الملك للأقرع والأبرص والأعمى كما في الحديث المشهور ^(٢)، وكذلك تكليم الملائكة للناس من غير نبوة، وقد سلمت على «عمران بن حصين» فلم يكن نبياً ^(٣) ﴿فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَكَأَلَّقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ أي فإذا خفت عليه من فرعون فاجعليه في صندوق وألقيه في البحر - بحر النيل - ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ أي لا تخافي عليه الهلاك ولا تحزني لفراقه ﴿إِنَّا رَأَوْهُ إِلَيْكَ وَجَاءَهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي فإننا سنرده إليك ونجعله رسولاً نرسله إلى هذا الطاغية لننجي بني إسرائيل على يديه ﴿فَالنَّقْطَةُءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ أي فأخذه وأصابه أعوان فرعون لتكون عاقبة الأمر أن يصبح لهم عدواً ومصدر حزن وبلاء وهلاك قال القرطبي: اللام في «ليكون» لام العاقبة ولام الصيرورة، لأنهم إنما أخذوه ليكون لهم قرة عين، فكان عاقبة ذلك أن صار لهم عدواً وحزناً، فذكر الحال بالمآل كما قال الشاعر:

وَلِلْمَنَآيَا تُرَبِّي كُلُّ مُرْضِعَةٍ وَدُورُنَا لِخَرَابِ الدَّهْرِ نُبْنِيهَا ^(٤)

(١) «البيضاوي» ٨٨ / ٢.

(٢) (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٣) «تفسير القرطبي» ٢٥٠ / ١٣. (ش): قَالَ عِمْرَانُ بْنُ حَصِينٍ: «قَدْ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ حَتَّى أَكْتَوَيْتُ فَتَرَكْتُ ثُمَّ تَرَكْتُ الْكَيَّ فَعَادَ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). ورواه الحاكم بلفظ: «لَمْ تُسَلِّمْ عَلَيَّ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى ذَهَبَ عَنِّي أَثَرُ النَّارِ» (صححه الحاكم ووافقه الذهبي). عَنْ مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: أُرْسِلَ إِلَيَّ عِمْرَانُ بْنُ حَصِينٍ فِي مَرَضِهِ فَقَالَ: إِنَّهُ كَانَتْ تُسَلِّمُ عَلَيَّ - يعني: الملائكة - ؛ فَإِنْ عَشْتُ فَاكْتُمْ عَلَيَّ، وَإِنْ مِتُّ ؛ فَحَدِّثْ بِهِ إِنْ شِئْتَ. قَالَ الْأَلْبَانِي: «إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ».

(٤) «تفسير القرطبي» ٢٥٢ / ١٣. (ش): أي: إن التربية المقصود بها العافية والسعادة عاقبتها الموت يوماً ما، وكذلك ما نبنيه للاستمتاع به مصيره الخراب يوماً ما.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَنَّ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِعِينَ﴾ أي كانوا عاصين مشركين آثمين، قال العلماء: الخاطيء من تعمد الذنب والإثم، والمخطيء من فعل الذنب عن غير تعمد ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ أي قالت زوجة فرعون لفرعون: هذا الغلام فرحة ومسرة لي ولك لعلنا نُسَرُّ به فيكون قرّة عين لنا قال الطبري: ذُكر أن المرأة لما قالت هذا القول لفرعون قال لها: أمّا لك فنعم، وأمّا لي فليس بقرّة عين^(١)، وقال ابن عباس: لو قال قرّة عين لي لهداه الله به وآمن ولكنه أبى ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ أي: لا تقتله يا فرعون، خاطبته بلفظ الجمع كما يُخاطب الجبارون تعظيماً له ليساعدها فيما تريد ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ «عسى» أن ينفعنا في الكبر، أو نبناه فنجعله لنا ولدًا تقرّ به عيوننا قال المفسرون: وكانت لا تلد فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها قال تعالى ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وهم لا يشعرون أن هلاك فرعون وزبانيته سيكون على يديه وبسببه ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَرَجًا﴾ أي صار قلبها خالياً من ذكر كل شيء في الدنيا إلا من ذكر موسى^(٢)، وقيل المعنى: طار عقلها من فرط الجزع والغم حين سمعت بوقوعه في يد فرعون ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَى بِهِ﴾ أي إنها كادت أن تكشف أمره وتظهر أنه ابنها من شدة الوجد والحزن قال ابن عباس: كادت تصيح وابناه، وذلك حين سمعت بوقوعه في يد فرعون ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَّطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ أي لولا أن ثبتناها وألهمناها الصبر ﴿لَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لتكون من المصدقين بوعد الله برّده عليها ﴿وَقَالَتِ لَأُخْتِيهِ قُصِيهِ﴾ أي قالت أم موسى لأخت موسى: اتبعني أثره حتى تعلمي خبره قال مجاهد: قصي أثره وانظري ماذا يفعلون به؟ ﴿فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي فأبصرته عن بعد وهم لا يشعرون أنها أخته، لأنها كانت تمشي على ساحل البحر حتى وصل الصندوق إلى بيت فرعون وهي ترقبه مستخفية عنهم ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي ومنعنا موسى أن يقبل ثدي أي مرضعة من المرضعات اللاتي أحضروهن لإرضاعه من قبل مجيء أمه قال المفسرون: بقي أياماً كلما أتى بمرضع لم يقبل ثديها، فأهمهم ذلك واشتد عليهم الأمر فخرجوا به يبحثون له عن مرضعة خارج القصر فرأوا أخته ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ أي هل أدلكم على مرضعة له تكفله وترعاه؟ ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ أي لا يقصرون في إرضاعه وتربيته قال السدي: فدلّتهم على أم موسى فانطلقت إليها بأمرهم

(١) «تفسير الطبري» ٢٠/ ٢٢.

(٢) هذا قول ابن عباس ومجاهد والضحاك وجمهور المفسرين، والقول الثاني ذكره القرطبي عن ابن القاسم عن مالك، ولعله الأظهر.

فجاءت بها، والصبي على يد فرعون يعلله شفقة عليه وهو يبكي يطلب الرضاع، فدفعه إليها فلما وجد ريح أمه قبل ثديها، فقال فرعون: من أنت منه فقد أبى كل هدي إلا ثديك؟ فقالت: إني امرأة طيبة الريح، طيبة اللبن، لا أكاد أوتى بصبي إلا قبلني فدفعه إليها، فرجعت إلى بيتها من يومها ولم يبق أحد من آل فرعون إلا أهدى إليها وأتحنفها بالهدايا والجواهر فذلك قوله تعالى ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي أعدناه إليها تحقيقاً للوعد كي تسعد وتنبأ بلقائه ولا تحزن على فراقه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ أي ولتتحقق من صدق وعد الله برده عليها وحفظه من شر فرعون ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكن أكثر الناس يرتابون ويشكون في وعد الله القاطع ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ﴾ أي ولما بلغ كمال الرشد، ونهاية القوة، وتمام العقل والاعتدال قال مجاهد: هو سن الأربعين ﴿ءَايَنَّاكَ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي أعطيناه الفهم والعلم والتفقه في الدين مع النبوة ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي مثل هذا الجزاء الكريم نجازي المحسنين على إحسانهم ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أي دخل مصر وقت الظهيرة والناس يخلدون للراحة عند القيلولة ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ هَٰذَا وَمِنَ الْآخَرِ قَبْطِيٌّ مِّنْ جَمَاعَةِ يَتَفَاتِلَانِ: أَحَدُهُمَا مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِّنْ جَمَاعَةِ مُوسَىٰ، وَالْآخَرُ قَبْطِيٌّ مِّنْ جَمَاعَةِ فِرْعَوْنَ﴾ فاستغنه الذي من شيعته على الذي من عدوه ﴿أَي فاستنجد الإسرائيلي بموسى وطلب غوثه ليدفع عنه شر القبطي﴾ فوكزه موسى فقتله ﴿أَي ضربه موسى بجمع كفه فقتله، قال القرطبي: فعل موسى ذلك وهو لا يريد قتله إنما قصد دفعه فكانت فيه نفسه وكانت القاضية^(١)﴾ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴿أَي هذا من إغواء الشيطان فهو الذي هيَّج غضبي حتى ضربت هذا﴾ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿أَي إن الشيطان عدو لابن آدم فصل له عن سبيل الرشاد، ظاهر العداوة، قال الصاوي: نسبه إلى الشيطان من حيث إنه لم يؤمر بقتله القبطي وظهر له أن قتله خلاف الأولى لما يترتب عليه من الفتن، والشيطان تفرحه الفتن، ولذلك ندم على فعله^(٢)﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴿أَي إني ظلمت نفسي بقتل النفس فاعف عني ولا تؤاخذني بخطيئتي﴾ فَعَفَرَلَهُ إِنَّكَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿أَي إنه تعالى المبالغ في المغفرة للعباد، الواسع الرحمة لهم﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ عَوْنًا لِأَحَدٍ مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ﴿أَي بسبب إنعامك علي بالقوة وبحق ما أكرمتني به من الجاه والعز، فلن أكون عوناً لأحد من المجرمين^(٣)﴾، وهذه معاهدة عاهد

(١) «تفسير القرطبي» ١٣ / ٢٦١.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣ / ١١٢.

(٣) قال الرازي: وفي الآية دلالة على أنه لا يجوز معاونة الظلمة والفسقة.

موسى ربه عليها وقيل: هو قَسَمٌ، وهو ضعيف ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي فأصبح موسى في المدينة التي قتل فيها القبطي خائفاً على نفسه يتوقع ويتنظر المكروه، ويخاف أن يؤخذ بجريده ته ﴿فَإِذَا الَّذِي اَسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ﴾ أي فإذا صاحبه الإسرائيلي الذي خلّصه بالأمس يقاتل قبطياً آخر فلما رأى موسى أخذ يصيح به مستغيثاً لينصره من عدوه ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ أي قال موسى للإسرائيلي: إنك لبين الغواية والضلال، فإني وقعت بالأمس فيما وقعت فيه من قتل رجل بسيفك وتريد أن توقعني اليوم في ورطة أخرى؟ ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ أي فحين أراد موسى أن يبطش بذلك القبطي الذي هو عدو له وللإسرائيلي ﴿قَالَ يَمُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ أي قال القبطي: أتريد قتلي كما قتلت غيري بالأمس^(١)؟ ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ما تريد يا موسى إلا أن تكون من الجبابرة المفسدين في الأرض ﴿وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُحِينَ﴾ أي وما تريد أن تكون من الذين يصلحون بين الناس.

البلاغة: تضمنت الآيات من وجوه البيان والبديع ما يلي:

- ١ - الإشارة بالبعيد عن القريب لبعده مرتبته في الكمال ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.
- ٢ - حكاية الحالة الماضية ﴿وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ﴾ لاستحضار تلك الصورة في الذهن.
- ٣ - إثارة الجملة الإسمية على الفعلية ﴿إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَٰهًا وَجَاعَلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ﴾ ولم يقل سنده ونجعله رسولاً وذلك للاعتناء بالبشارة؛ لأن الجملة الإسمية تفيد الثبوت والإستمرار.
- ٤ - الاستعارة ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ شبه ما قذف الله في قلبها من الصبر بربط الشيء المنفلت خشية الضياع واستعار لفظ الربط للصبر.
- ٥ - صيغة التعظيم ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ تخاطب فرعون ولم تقل لا تقتله تعظيماً له.
- ٦ - صيغة المبالغة ﴿جَبَّارٌ، غَوِيٌّ، مُبِينٌ﴾ لأن (فعال وفعل) من صيغ المبالغة.
- ٧ - الطباق المعنوي ﴿جَبَّارًا.. وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُحِينَ﴾ لأن الجبار المفسد المخرب، المكسر للقتل وسفك الدماء ففيه طباق في المعنى.
- ٨ - الاستعطاف ﴿رَبِّ يَمَّا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾.
- ٩ - توافق الفواصل في كثير من الآيات مثل ﴿وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ﴾ ﴿وَهُمْ لَهُ نَصِيبٌ﴾ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

(١) هذا هو الظاهر أن القاتل هو القبطي لا الإسرائيلي لأن قوله: ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا﴾ لا يصدر من المؤمن وإنما من الكافر.

لطيفة: «حكى العلامة القرطبي عن الأصمعي أنه قال سمعت جارية أعرابية تنشد:

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِدُنْيِي كُلِّهِ قَبَلْتُ إِنْسَانًا بَغِيرَ حِلِّهِ
مِثْلَ الْغَزَالِ نَاعِمًا فِي دَلِّهِ فَانْتَصَفَ اللَّيْلُ وَلَمْ أَصْلِهِ^(١)

فقلت: قاتلك الله ما أفصحك؟ فقالت: أُوَيْعِدُ هَذَا فَصَاحَةً مع قول الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فِإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فقد جمع في آية واحدة بين أمرين، ونهيين، وخبرين وبشارتين^(٢).

قال الله تعالى:

وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّكَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِلَىٰ لَكَ مِنَ النَّصِيحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدْيَنُ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ أَبِى بِدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ، وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْتِيَنَّكَ اسْتَعِجْرُهُ إِنَّكَ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَعِجَرِ الْقَوَى الْأَمِينِ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكَحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمْنِي حَبِيبٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ۖ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمُوسَىٰ إِنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَن آتَىٰ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا نُتْزِعَتْ كَأَنَّهُمَا جَانٌّ وَلَىٰ مُدِيرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ أَسْأَلُكَ بِكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذُنُوكَ بِرُهْنَانٍ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾

(١) (ش): في الأصل: «قَتَلْتُ»، والتصحيح من القرطبي.

دَلَّتِ الْفَتَاةُ، دَلًّا وَدَلَالًا: اتَّصَفَتْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ، وَحُسْنُ هَيْئَتِهَا وَطَرِيقَتِهَا، وَيُوصَفُ بِهِ الرَّجُلُ كَذَلِكَ.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٣ / ٢٥٢.

وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾
 قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وََجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيْنِنَا إِنَّمَا وَمَنْ أَتَّبَعُكُمَا
 الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا
 فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ
 الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي
 فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطَّيْنِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ
 الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكَبرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ
 ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾
 وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكُونُ إِلَى الْتَكَارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ
 الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ

المناسبة: لا تزال الآيات تتحدث عن قصة موسى، وقد تناولت الآيات السابقة قصة ولادته وإرضاعه، وتربيته في بيت فرعون إلى أن شبَّ وبلغ سنَّ الرشد والكمال، ثم قُتِلَ للفرعوني، وتحدثت الآيات هنا عن هجرته إلى أرض مدين وتزوُّجِه بابنة شعيب^(١)، ثم عودته إلى مصر، ونزول النبوة عليه، وهلاك فرعون على يديه.

اللغة: ﴿يَأْتِمُرُونَ﴾ يتشاورون قال الأزهري: ائتمر القوم وتأمروا أي أمر بعضهم بعضاً ﴿تَذُودَان﴾ ذاد يذود إذا حبس ومنع، وذاد طرد قال الشاعر:

لَقَدْ سَلَبْتُ عَصَاكَ بَنُو تَمِيمٍ فَمَا تَذُرِي بِأَيِّ عَصَا تَذُودُ^(٢)

﴿حَظَبُكُمْ﴾ الخطب: الشأن قال رؤبة: «يَا عَجَبًا مَا خَطْبُهُ وَخَطْبِي» ﴿الرِّعَاءُ﴾ جمع راع، مثل صاحب وصحاب، وهو الذي يرعى الغنم ﴿حِجَجٍ﴾ جمع حجة بكسر الحاء وهي السنة ﴿جَذُورٍ﴾ الجذوة: الجمرة الملتهبة ﴿رِدْءًا﴾ عوناً قال الجوهري: أردأته أعنته، وكنْتُ له رِدْءًا أي عوناً ﴿المقبوحين﴾ الهالكين المبعدين أو القبيحين في الصورة يقال: قَبَحَه إذا جعله قبيحاً.

التفسير: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ أي وجاء رجل مؤمن من آل فرعون يكتُم إيمانه من أبعد أطراف المدينة يشتد ويسرع في مشيه قال ابن عباس: هذا الرجل هو مؤمن من آل فرعون ﴿قَالَ يَمُوسَى إِنَّكَ الْمَلَأُ يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيقْتُلُوكَ﴾ أي قال له موسى: إن أشرف فرعون، ووجوه دولته يتشاورون فيك بقصد قتلك ﴿فَأَخْرَجَ إِيَّيْكَ لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ أي

(١) (ش): تقدم أنه ليس هناك دليل على أن الذي زوّج بنته لموسى هو شعيب عليه السلام.

(٢) البيت لجريير يهجو الفرزدق كذا في «القرطبي» ٢٦٨/١٣.

فاخرج قبل أن يدركوك فأنا ناصحٌ لك من الناصحين ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي فخرج من مصر خائفاً على نفسه يترقب وينتظر الطلب أن يدركه فيأخذه، ثم التجأ إلى الله سبحانه بالدعاء لعلمه بأنه لا ملجأ سواه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي خلصني من الكافرين واحفظني من شرهم - والمراد بهم فرعون وملؤه - ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاءَ مَدْيَنَ﴾ أي قصد بوجهه ناحية مدين وهي بلدة شعيب عليه السلام ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي لعل الله يرشدني إلى الطريق السوي الذي يوصلني إلى مقصودي قال المفسرون: خرج خائفاً بغير زاد ولا ظهر - مركب - وكان بين مصر ومدين مسيرة ثمانية أيام، ولم يكن له علمٌ بالطريق سوى حسن ظنه بربه، فبعث الله إليه ملكاً فأرشده إلى الطريق، ويروى أنه لما وصل مدين كانت خُضْرَةُ الْبَقْلِ^(١) تترأى من بطنه من الهزال، لأنه كان في الطريق يتقوت ورق الشجر ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ أي ولما وصل إلى مدين بلدة شعيب وجد على البئر الذي يستقي منه الرعاة جمعاً كثيفاً من الناس يسقون مواشيهم ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي ووجد سوى الجماعة الرعاة امرأتين تكفان غنهما عن الماء ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا؟﴾ أي ما شأنكما تمنعان الغنم عن ورود الماء؟ ولم لا تسقيان مع السقاة؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِيكَ هَهُنَا وَلَكِن نَرْغَبُ الْمَاءَ﴾ أي من عادتنا الثاني حتى ينصرف الرعاة مع أغنامهم عن الماء، ولا طاقة لنا على مزاحمة الأقوياء، ولا نريد مخالطة الرجال، وأبونا رجل مُسِنَّ لا يستطيع لضعفه أن يباشر سقاية الغنم، ولذلك اضطررنا إلى أن نسقي بأنفسنا قال أبو حيان: فيه اعتذار لموسى عن مباشرتهما السقي بأنفسهما، وتنبيه على أن أباهما لا يقدر على السقي لشيخوخته وكبره، واستعطاف لموسى في إعانتتهما^(٢) ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ أي فسقى لهما غنهما رحمة بهما، ثم تنحى جانباً فجلس تحت ظل شجرة ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أي إني يا رب محتاجٌ إلى فضلك وإحسانك، وإلى الطعام الذي أسد به جوعي، طلب من الله ما يأكله وكان قد اشتد عليه الجوع قال الضحاك: مكث سبعة أيام لم يذق فيها طعاماً إلا بقل الأرض^(٣) وقال ابن عباس: سار موسى من مصر إلى «مدين» ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر، وكان حافياً فَمَا وَصَلَ مَدْيَنَ حَتَّى سَقَطَتْ نَعْلُ قَدَمِهِ، وجلس في الظل - وهو صفوة الله من خلقه - وإن بطنه للاصق

(١) (ش): الْبَقْلُ: كُلُّ نَبَاتٍ عُشْبِيٍّ يَغْتَذِي الْإِنْسَانُ بِهِ أَوْ يَجْزُهُ مِنْهُ كَالْخَسِّ وَالْخِيَارِ وَالْجَزْرِ، وَيَكْثُرُ إِطْلَاقُهُ الْآنَ عَلَى الْحُبُوبِ الْجَائِفَةِ لِبَعْضِ الْخَضِرَوَاتِ كَالْفَاصُولِيَا وَاللُّوبِيَا وَالْفُولِ وَالْعَدَسِ.

(٢) «البحر المحيط» ١١٣/٧.

(٣) «الرازي» ٢٤٠/٢٤.

بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل^(١) لترى من داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلى شق ثمرة^(٢) ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ في الكلام اختصار تقديره: فذهبتا إلى أبيهما سريعتين، وكان من عادتهما الإبطاء فحدثته بما كان من أمر الرجل، فأمر إحداهما أن تدعوه له فجاءته تمشي.. الخ أي جاءته حال كونها تمشي مشية الحرائر بحياء وخجل قد سترت وجهها بثوبها قال عمر: لم تكن بسلفع من النساء خراجة ولاجة^(٣) ﴿قَالَتْ إِبْرَئِيلُ أَأَبَىٰ يَدْعُوكَ لِجَعَلْتُكَ أَجْرًا مَا سَفَيْتَ لَنَا﴾ أي إن أبي يطلبك ليعوضك عن أجر السقاية لغنما قال ابن كثير: وهذا تأدب في العبارة لم تطلبه طلباً مطلقاً لئلا يوهم ريبة^(٤) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ، وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي فلما جاءه موسى وذكر له ما كان من أمره وسبب هربه من مصر قال له شعيب^(٥): لا تخف فأنت في بلد آمن لا سلطان لفرعون عليه وقد نجاك الله من كيد المجرمين ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأَبَىٰ أَسْتَجِرُّهُ﴾ أي استأجره لرعي أغنامنا وسقايته ﴿إِبْرَئِيلُ خَيْرٌ مِّنْ أَسْتَجَرْتَ الْقَوَى الْأَمِينَ﴾ أي إن أفضل من تستأجره من كان قوياً أميناً قال أبو حيان: وقولها كلام حكيم جامع لأنه إذ اجتمعت الكفاية والأمانة في القائم بأمر من الأمور فقد تم المقصود^(٦)، روي أن شعيباً^(٧) قال لها: وما أعلمك بقوته وأمانته؟ فقالت: إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال^(٨)، وإني لما جئت معه تقدمت أمامه فقال لي: كوني من ورائي ودليني على الطريق، ولما أتيت خفض بصره فلم ينظر إليّ، فرغب شعيب^(٩) في مصاهرته وتزويجه بإحدى بناته ﴿قَالَ إِبْرَئِيلُ أَرِيدُ أَنْ تُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ أي إني أريد أن أزوجك إحدى بنتي هاتين الصغرى

(١) (ش): البقل: كل نبات عشب يغذي الإنسان به أو يجزء منه كالخس والخيار والجزر، ويكثر إطلاقه الآن على الحبوب الجافة لبعض الخضروات كالفاصوليا واللوبيا والفول والعدس.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ١٠/٣.

(٣) «تفسير الطبري» ٣٩/٢٠، والسلفع: الجرثومة السليطة الجسور أفاده الجوهري. (ش): خراجة: صيغة مبالغة من الخروج، وكذلك الواجة صيغة مبالغة من الولوج أي الدخول، والمعنى أنها كثيرة الدخول كثيرة الخروج.

(٤) «ابن كثير» ١١/٣.

(٥) (ش): تقدم أنه ليس هناك دليل على أن الذي زوج بنته لموسى هو شعيب.

(٦) «البحر» ١١٤/٧.

(٧) (ش): تقدم أنه ليس هناك دليل على أن الذي زوج بنته لموسى هو شعيب عليه السلام.

(٨) (ش): عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ، وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ، فَلَمَّا فَرَّغُوا أَعَادُوا الصَّخْرَةَ عَلَى الْبِئْرِ، وَلَا يُطِيقُ رَفْعُهَا إِلَّا عَشْرَةُ رَجَالٍ، فَإِذَا هُوَ بِأَمْرَاتَيْنِ تَدُودَانِ، قَالَ: مَا خَطْبُكُمَا؟ فَحَدَّثَتْهُ، فَاتَى الْحَجَرَ فَرَفَعَهُ، ثُمَّ لَمْ يَسْتَقِ إِلَّا ذُتُوبًا وَاحِدًا حَتَّى رَوَيْتِ الْغَنَمَ. (رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» وصححه إسناده الحافظ ابن كثير).

(٩) (ش): تقدم أنه ليس هناك دليل على أن الذي زوج بنته لموسى هو شعيب عليه السلام.

أو الكبرى ﴿عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَبِيبٌ﴾ أي بشرط أن تكون أجيراً لي ثماني سنين ترعى فيها غنمي ﴿فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ أي فإن أكملتها عشر سنين فذلك تفضل منك، وليس بواجب عليك ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ أي وما أريد أن أوقعك في المشقة باسئراط العشر ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي ستجدني إن شاء الله حسن المعاملة، لئن الجانب، وفيما بالعهد قال القرطبي: في الآية عرض الولي ابنته على الرجل، وهذه سنة قائمة، عرض شعيب^(١) ابنته على موسى، وعرض عمر ابنته حفصة على أبي بكر وعثمان، وعرضت الموهوبة نفسها على النبي ﷺ فمن الحُسن عرض الرجل وليته على الرجل الصالح، اقتداءً بالسلف الصالح^(٢) ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَةَ عَلَيَّ﴾ أي قال موسى: إن ما قلته وعاهدتني عليه قائم بيننا جميعاً لا نخرج عنه، وأَيَّ المديتين الثماني أو العشر أديتها لك فلا إثم ولا حرج عليّ ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي والله شاهد على ما تعاهدنا وتواثقنا عليه ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾ أي فلما أتم موسى المدة التي اتفقا عليها قال ابن عباس: قضى أتم الأجلين وأكملهما وأوفاهما وهو عشر سنين ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ أي ومشى بزوجه مسافراً بها إلى مصر ﴿ءَأْسَفَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ أي أبصر من بعيد ناراً تنهض من جانب جبل الطور ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءَأَسَفْتُ نَارًا﴾ أي قال لزوجه: امكثي هنا فقد أبصرت ناراً عن بعد قال المفسرون: كانت ليلة باردة وقد أضلوا الطريق، وهبَّ ريح شديدة فرقت ماشيته، وأخذ أهله الطلق فعند ذلك أبصر ناراً بعيدة فسار إليها لعله يجد من يده على الطريق فذلك قوله تعالى ﴿لَعَلِّي ءَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي لعلني آتيكم بخير الطريق وأرى من يدلني عليه ﴿أَوْ جَذُوفٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي أو آتيكم بشعلة من النار لعلكم تستدفئون بها ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ أي فلما وصل إلى مكان النار لم يجدها ناراً وإنما وجدها نوراً، وجاءه النداء من جانب الوادي الأيمن في ذلك المكان المبارك من ناحية الشجرة ﴿أَنْ يَمْوِسَّىٰ إِنْ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: نودي يا موسى إن الذي يخاطبك ويكلمك هو أنا الله العظيم الكبير، المنزه عن صفات النقص، ربُّ الإنس والجن والخلائق أجمعين ﴿وَأَن لَّيْ عَصَاكَ﴾ أي ونودي بأن اطرَح عصاك التي في يدك ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا نَهَزُوا كَأَنَّهُمْ جَاءُوا مُدْبرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي فآلقها فانقلبت إلى حية فلما رآها تتحرك كأنها ثعبان خفيف سريع الحركة انهزم هارباً منها ولم يلتفت

(١) (ش): تقدم أنه ليس هناك دليل على أن الذي زوج بنته لموسى هو شعيب عليه السلام.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٣ / ٢٧١.

إليها قال ابن كثير: انقلبت العصى إلى حية وكانت كأنها جانٌّ في حركتها السريعة مع عظم خلقتها، واتساع فمها، واصطكاك أنيابها بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعته تنحدر في فمها تتقعقع كأنها حادرة في واد، فعند ذلك ولَّى مدبراً ولم يلتفت، لأن طبع البشرية ينفر من ذلك ﴿يَمُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ أي فنودي يا موسى: ارجع إلى حيث كنت ولا تخف فأنت آمنٌ من المخاوف، فرجع وأدخل يده في فم الحية فعادت عصا ﴿أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ﴾ أي أدخل يدك في جيب قميصك - وهو فتحة الثوب مكان دخول الرأس - ثم أخرجها تخرج مضيئةً منيرةً تتلألأ كأنها قطعة قمر في لمعان البرق من غير أذى ولا برص ﴿وَأَضْمَمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ قال ابن عباس: اضمم يدك إلى صدرك من الخوف يذهب عنك الرعب قال المفسرون: المراد بالجنح اليد لأن يدي الإنسان بمنزلة جناح الطائر، وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضده اليسرى فقد ضم جناحه إليه وبذلك يذهب عنه الخوف من الحية ومن كل شيء ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي فهذان - العصا واليد - دليان قاطعان، وحجتان نيرتان واضحتان من الله تعالى تدلان على صدقك^(١)، وهما آيتان إلى فرعون وأشراف قومه الطغاة المتجبرين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي خارجين عن طاعتنا، مخالفين لأمرنا ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ أي قال موسى يا رب إني قتل قبطياً من آل فرعون وأخشى إن أتيتهم أن يقتلوني به قال المفسرون: هو القبطي الذي وكزه فمات، فطلب من ربه ما يزداد به قوة على مجابهة فرعون بإرسال أخيه هارون معه فقال ﴿وَإِخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ أي هو أوضح بياناً، وأطلق لساناً، لأن موسى كان في لسانه حُبْسَةٌ من أثر الجمرة التي تناولها في صغره ﴿فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ أي فأرسله معي معيناً يبين لهم عني ما أكلهم به بتوضيح الحجج والبراهين ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ أي أخاف إن لم يكن لي وزير ولا معين أن يكذبوني لأنهم لا يكادون يفقهون عني، قال الرازي: والمعنى أرسل معي أخي هارون حتى يعاضدني على إظهار الحجة والبيان، وليس الغرض بتصديق هارون أن يقول ل: صدقت، أو يقول للناس: صدق موسى، وإنما هو أن يلخص بلسانه الفصيح وجوه الدلائل، ويجيب عن الشبهات، ويجادل به الكفار^(٢) ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ أي أجابه تعالى إلى طلبه وقال له: سنقويك بأخيك ونعينك به، ونجعل لكما غلبةً وتسلطاً

(١) (ش): نير: منيرٌ حسنٌ مُشرقٌ. النيران: الشمس والقمر.

(٢) «التفسير الكبير» للرازي ٣٤٩/٢٤.

على فرعون وقومه ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّنَّا﴾ أي لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب ما أيدتكما به من المعجزات الباهرات ﴿أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ أي العاقبة لكما ولأتباعكما في الدنيا والآخرة، وأنتم الغالبون على القوم المجرمين كقوله تعالى ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَا غَلِبَ إِلَّا أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي فلما جاءهم موسى بالبراهين الساطعة، والمعجزات القاطعة، الدالة على صدقه وأنه رسول من عند الله ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى﴾ أي ما هذا الذي جئتنا به من العصا واليد إلا سحرٌ مكذوبٌ مختلق، افتريته من قبل نفسك وتنسبه إلى الله ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ أي وما سمعنا بمثل هذه الدعوى -التوحيد- في آبائنا وأجدادنا السابقين ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ أجمل موسى في جوابهم تطفافاً في الخطاب، وإثارةً لأحسن الوجوه في المجادلة معهم. والمعنى: إن ما جئكم به حقٌ وهدى وليس بسحر، وربي عالمٌ بذلك يعلم أني مُحِقٌّ وأنتم مُبْطِلُونَ، ويعلم من تكون له العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي لا يسعد ولا ينجح من كان ظالماً فاجراً، كاذباً على الله ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ أي قال فرعون لأشراف قومه وسادتهم: ما علمتُ لكم إلهاً غيري قال ابن عباس: كان بين هذه القولة الفاجرة وبين قوله ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] أربعون سنة، وكذب عدوُّ الله بل علم أن له رباً هو خالقه وخالق قومه^(١) ﴿فَأَوْفِدَ لِيَنهَمُنْ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾ أي فاطبخ لي يا هامان الأجر^(٢) فاجعل لي منه قصراً شامخاً رفيعاً ﴿لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ أي لعلني أرى وأشهد إله موسى الذي زعم أنه أرسله، قال ذلك على سبيل التهكم ولهذا قال بعده ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي وإني لأظن موسى كاذباً في يادعائه أن في السماء رباً قال تعالى ﴿وَأَسْتَغْبِرهْهُ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي وتكبر وتعظم فرعون وقومه عن الإيمان بموسى في أرض مصر بالباطل والظلم ﴿وَضَنُّوا أَنَّهُمُ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ أي واعتقدوا أن لا بعث ولا نشور، ولا حساب ولا جزاء ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أي فأخذناه مع جنوده فطرحناهم في البحر، وأغرقناهم فلم يبق منهم أحد

(١) «تفسير القرطبي» ١٣ / ٢٨٨.

(٢) (ش): الأجر: جمع آجرة: طوب: لبنٌ محروقٌ مُعدٌّ للبناء، وتكون المادة المحرقة من الطين أو أي مخلوط آخر كالجير والرمل أو الأسمنت والرمل. واللبن: قوالب مربعة أو مستطيلة مضروبة من الطين تستعمل في البناء.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ أي فانظر يا محمد بعين قلبك نظر اعتبار كيف كان مآل هؤلاء الظالمين الذين بلغوا من الكفر والطغيان أقصى الغايات؟ ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ﴾ أي وجعلناهم في الدنيا قادة وزعماء في الكفر يقتدي بهم أهل الضلال ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي ويوم القيامة ليس لهم ناصر يدفع عنهم العذاب ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي جعلنا اللعنة تلحقهم في هذه الحياة الدنيا من الله والملائكة والمؤمنين ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ أي وفي الآخرة هم من المبعدين المطرودين من رحمة الله عز وجل.

البلاغة: تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - التأكيد بأن واللام ﴿إِنَّكَ أَلَمَّا يَأْتِمُرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ﴾ مناسبة لمقتضى الحال.
- ٢ - الاستعطف والترحم ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.
- ٣ - جناس الاشتقاق ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾.
- ٤ - التشبيه المرسل المجميل ﴿نَهْتُمْ كَأَنَّهُمْ جِآنٌ﴾ حذف وجه الشبه فأصبح مجملاً.
- ٥ - الطباق بين ﴿يُصَدِّقُنِي... يُكَذِّبُونِ﴾.
- ٦ - الكناية ﴿وَأَضْمَمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ كنى عن اليد بالجنح، لأنها للإنسان كالجنح للطائر.

٧ - المجاز المرسل ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ من إطلاق السبب وإرادة المسبب؛ لأن شد العضد يستلزم شد اليد، وشد اليد مستلزم للقوة، قال الشهاب، ويمكن أن يكون من باب الاستعارة التمثيلية، شبه حال موسى في تقويته بأخيه بحال اليد في تقويتها بيد شديدة. لطيفة: قال الزمخشري: إنما قال ﴿فَأَوْفِدْنِي يَهْمَنُ عَلَى الطِّينِ﴾ أي أوقد لي النار فأتخذ منه أجراً ولم يقل «أطبخ لي الآجر» لأن هذه العبارة أحسن طباقاً لفصاحة القرآن وعلو طبقته، وأشبه بكلام الجابرة، وهامان وزيره ومدبر رعيته.

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفُرْقَيْنِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا فِرْعَوْنَ فَطَوَّلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرَ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحِمَةً مِّنَ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَا أَن نُّصِيبَهُمْ مُّصِيبَةً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ

الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كُفْرٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ وَإِذَا يُنْزِلُ عَلَيْهِمْ قَوْلٌ أَمَّا بَعْدُ مِنْ رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٢﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِئُ الْجَهْلِيَّانِ ﴿٥٤﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَقَالُوا إِنَّا نَبْنِئُ الْهَدَىٰ مَعَكَ نَنْخَطِفُ مِنَ الْأَرْضِ نَجْرًا وَأُولَٰئِكَ نَجْمُكُنَّ لَهُمْ حَرَمًا أَمَّا يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِكَ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَنَالَكَ مَسْكَنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٧﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يُلَوِّحُ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٨﴾ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعِ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥٩﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَتَّعِ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِلَّا بَنَاءٌ يُعْبَدُونَ ﴿٦٢﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٤﴾ فَعِمِيتَ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءَ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَغَسَّيْنَا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٨﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

المناسبة: بعد أن ذكر تعالى نعمته على بني إسرائيل بإهلاك فرعون رأس الطغيان وتخليصهم من شره، ذكر هنا ما أنعم عليهم من إنزال التوراة التي فيها الهدى والنور، كما ذكر نعمته على العرب بإنزال القرآن العظيم خاتمة الكتب السماوية.

اللغة: ﴿ثَاوِيًا﴾ مقيماً وثوى بالمكان أقام به قال الشاعر:

«لَقَدْ كَانَ فِي حَوْلِ ثَوَاءِ ثَوِيَّتُهُ»^(١)...

(١) «البحر المحيط» ٧/ ١٠٣. (ش): حَوْل: سنة كاملة. والثَّوَاء: الإقامة مع الاستقرار. أي: إنه أقام سنة كاملة.

﴿وَيَذَرُون﴾ يدفعون، والدرء: الدفع وفي الحديث «ادرعوا الحدود بالشبهات»^(١)
 ﴿يُجِئُ﴾ يجمع، جبي الماء في الحوض جمعه، والجابية: الحوض العظيم ﴿بَطَرْتُ﴾
 البطر: الطغيان في النعمة ﴿الْأَنْبَاءُ﴾ الأخبار جمع نبأ وهو الخبر الهام.
سَبَبُ النَزول: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا عَمَّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا
 اللَّهُ أَشْهَدُ لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. قَالَ: كَوَلَا أَنْ تُعَيِّرَنِي قُرَيْشٌ يَقُولُونَ: إِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ
 الْجَزَعُ لَأَقْرَظُ بِهَا عَيْنَكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ
 يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(٢).

التفسير: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ السلام
 مُوطَّئَةً لِلْقَسَمِ^(٣) أي والله لقد أعطينا موسى التوراة من بعد ما أهلكنا الأمم التي كانت قبله
 كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم من المكذبين لرسولهم ﴿بَصَاكِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي
 ضياء لبني إسرائيل ونورا لقلوبهم يتبصرون بها الحقائق، ويميزون بها بين الحق والباطل
 ﴿وَهَدَى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي وهدى من الضلالة، ورحمة لمن آمن بها ليتعظوا
 بما فيها من المواعظ والإرشادات الإلهية ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ أي وما كنت يا محمد
 بجانب الجبل الغربي، وهو المكان الذي كلم الله تعالى به موسى ﴿وَإِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾
 أي حين أوحينا إلى موسى بالنبوة وأرسلناه إلى فرعون وقومه ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾
 أي وما كنت من الحاضرين في ذلك المكان، ولكن الله أوحى إليك ذلك ليكون حجة
 وبرهاناً على صدقك قال ابن كثير: يقول تعالى منبهاً على برهان نبوة محمد ﷺ
 حيث أخبر بالغيوب الماضية خبراً كأن سامعه شاهدٌ وراءه^(٤) لما تقدّم، وهو رجل أُمِّي
 لا يقرأ شيئاً من الكتب، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك، والمعنى ما كنت حاضراً

(١) (ش): رواه ابن عساکر في «تاريخ دمشق»، وضعفه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم، وانظر «زاد المسير» ٦/ ٢٣١. (ش): عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا
 طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
 «يَا عَمَّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ». فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ
 عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْزِضُهَا عَلَيْهِ وَيُعِيدُ لَهُ تِلْكَ الْمَقَالَةَ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا
 كَلِمَتُهُمْ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا وَاللَّهِ لَا أَسْتَغْفِرُ لَكَ
 مَا لَمْ أَتِهِ عَنْكَ». فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿مَا كُنْتَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ
 بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أُصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾. وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ
 أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾. [رَوَاهُ مُسْلِمٌ].

(٣) (ش): مُوطَّئَةً لِلْقَسَمِ: أي مُمَهَّدَةً له؛ لأنها التي تهيئ الذهن لمعرفة.

(٤) (ش): اسم فاعل من رأى، رؤيته، فهو راء، والمفعول مرئي.

لذلك ولكن الله أوحاه إليك لتخبرهم بتلك المغيبيات ^(١) ﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أي ولكننا خلقنا أُمماً وأجيالاً من بعد موسى، فتطاول عليهم الزمان، وطالت الفترة فنسوا ذكر الله، وبدّلوا وحرفوا الشرائع فأرسلناك يا محمد لتجدد أمر الدين قال «أبو السعود»: المعنى ولكننا خلقنا بين زمانك وزمان موسى قروناً كثيرة، فتمادى عليهم الأمر، فتغيرت الشرائع والأحكام، وعميت عليهم الأنباء فأوحينا إليك، فحذف المستدرَك اكتفاءً بذكر الموجب ^(٢) ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أي وما كنت يا محمد مقيماً في أهل مدين فتعلم خبر موسى وشعيب ^(٣) وابنتيه فتتلو ذلك على أهل مكة ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي ولكننا أرسلناك في أهل مكة وأخبرناك بتلك الأخبار، ولولا ذلك لما علمتها ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ أي وما كنت أيضاً بجانب جبل الطور وقت ندائنا لموسى وتكليمنا إياه ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي لم تشاهد شيئاً من أخبار وقصص الأنبياء، ولكننا أوحيناها إليك، وقصصناها عليك، رحمةً من ربك لتخوف قوماً ما جاءهم رسول قبلك يا محمد ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي لعلهم يتعظون بما جئتهم به من الآيات البيّنات، فيدخلوا في دينك قال المفسرون: المراد بالقوم الذي نكانوا في زمن الفترة بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما وهي نحو من ستمائة سنة ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمُ مُّصِيبَةٌ يَمَاقِدَتْ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي ولولا قولهم إذا أصابتهم عقوبة بسبب كفرهم ومعاصيهم ﴿فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي فيقولوا عند ذلك: ربنا هلاً أرسلت إلينا رسولاً يبلغنا آياتك فتبعتها ونكون من المصدقين بها! قال القرطبي: وجواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوف وتقديره لما بعثنا الرسل ^(٤)، وقال في «التسهيل»: ﴿لَوْلَا﴾ الأولى حرف امتناع، و﴿لَوْلَا﴾ الثانية عرض وتخصيص، والمعنى: لولا أن تصيبهم مصيبة بكفرهم لم نرسل الرسل، وإنما أرسلناهم على وجه الإعذار وإقامة الحجة

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ١٥/٣.

(٢) تفسير «أبو السعود» ١٥٥/٤. (ش): المستدرَك: التشريع الجديد الذي أوحاه الله سبحانه وتعالى إلى النبي ﷺ. الموجب: الباعث والسبب: وهو تبديل أهل الكتاب للشرائع والأحكام. في تفسير «أبي السعود»: ﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ أي ولكننا خلقنا بين زمانك وزمان موسى قروناً كثيرة ﴿فَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ وتمادى الأمر فتغيرت الشرائع والأحكام وعميت عليهم الأنباء لا سيما على آخرهم فافتضى الحال التشريع الجديد فأوحينا إليك، فحذف المستدرَك اكتفاءً بذكر ما يوجب ويدل عليه.

(٣) (ش): تقدم أنه ليس هناك دليل على أن الذي زوج بنته لموسى هو شعيب عليه السلام.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٣/٢٩٣.

عليهم لثلاثا يقولوا: رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ^(١)، ثم أخبر تعالى عن عناد المشركين وتعتتهم في ردِّ الحق فقال ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ أي فلما جاء أهل مكة الحق المبين وهو محمد بالقرآن المعجز من عندنا قالوا - على وجه التعنت والعناد - هَلَّا أُعْطِيَ مُحَمَّدٌ مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ، والحجج القاهرة مثل ما أُعْطِيَ مُوسَى مِنَ الْعَصَا وَالْيَدِ قَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ أي أو لم يكفر البشر بما أُوتِيَ موسى من تلك الآيات الباهرة؟ قال مجاهد: أمرت اليهود قريشاً أن يقولوا لمحمد: ائتنا بمثل ما جاء به موسى من المعجزات، فردَّ الله عليهم بأنهم كفروا بآيات موسى^(٢)، فالضمير في ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا﴾ لليهود، وهذا اختيار ابن جرير وقال أبو حيان: ويظهر عندي أن الضمير عائد على قريش الذين قالوا: لَوْلَا أُوتِيَ مُحَمَّدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى، وذلك أن تكذيبهم لمحمد ﷺ تكذيبٌ لموسى، ونسبتهم السحر للرسول نسبة السحر لموسى، إذ الأنبياء من وادٍ واحدٍ فمن نسب إلى أحد من الأنبياء ما لا يليق كان ناسباً ذلك إلى جميع الأنبياء، وتتناسق حينئذِ الضمائر كلها^(٣) ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ أي وقال المشركون. ما التوراة والقرآن إلا من قبيل السحر، فهما سحران تعاونا بتصديق كل واحدٍ منهما الآخر قال السُّدِّي: صدَّق كل واحدٍ منهما الآخر ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَفْرٍ﴾ أي إنا بكل من الكتابين كافرون قال «أبو السعود»: وهذا تصريحٌ بكفرهم بهما وذلك لغاية عتوهم وتماديهم في الكفر والطغيان^(٤) ﴿قُلْ قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ﴾ أمرٌ على وجه التعجيز أي قل لهم يا محمد إنكم إذ كفرتم بهذين الكتابين مع ما تضمننا من الرائع والأحكام ومكارم الأخلاق فأتونى بكتاب منزلٍ من عند الله أهدىٰ منهما وأصلح أتمسكُ به ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي في انهما سحران قال ابن كثير: وقد علّم بالضرورة لذوي الألباب أن الله تعالى لم ينزل كتاباً من السماء أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم من الكتاب الذي أنزله على محمد ﷺ وهو القرآن، وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله على موسى، وهو الكتاب الذي قال فيه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤] والإنجيل إنما أنزل متمماً للتوراة ومُحَلِّلاً لبعض ما حُرِّم على بني إسرائيل^(٥) ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا

(١) «التسهيل» ١٠٧/٣.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ١٧/٣.

(٣) «البحر المحيط» ١٢٣/٧.

(٤) «تفسير أبو السعود» ١٥٦/٤.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ١٧/٣.

يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴿١﴾ أَيِ فِإِنْ لَمْ يَجِيبُواكَ إِلَى مَا طَلَبْتَهُ مِنْهُمْ فاعلم أن كفرهم عنادٌ واتباع للأهواء لا بحجة وبرهان ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ أي لا أحد أضلُّ ممن اتبع هواه بغير رشاد ولا بيان من الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يوفق للحق من كان معانداً ظالماً، بالانهماك في اتباع الهوى، والإعراض عن سبيل الهدى ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي ولقد تابعنا ووالينا لقريش القرآن يتبع بعضه بعضاً، وعداً ووعيداً، وقصصاً وعبراً، ونصائح ومواعظ ليتعظوا ويتذكروا بما فيه قال «ابن الجوزي»: المعنى أنزلنا القرآن يتبع بعضه بعضاً، ويخبر عن الأمم الخالية كيف عذبوا لعلمهم يتعظون^(١) ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي الذين أعطيناهم التوراة والإنجيل من قبل هذا القرآن - من مسلمي أهل الكتاب - هم بهذا القرآن يصدقون قال ابن عباس: يعني من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب^(٢) ﴿وَإِذْ آتَيْنَاهُمُ الْوَأَمْنَ بَيْنَهُ إِنْهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي وإذا قرئ عليهم القرآن قالوا: صدقنا بما فيه ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ أي كنا من قبل نزوله موحدين لله، مستسلمين لأمره، مؤمنين بأنه سيبعث محمد وينزل عليه القرآن قال تعالى ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ أي أولئك الموصوفون بالصفات الجميلة يعطون ثوابهم مضاعفاً، مرة على إيمانهم بكتابهم، ومرة على إيمانهم بالقرآن وفي الحديث «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ ثُمَّ آمَنَ بِي...»^(٣) الحديث ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي بسبب صبرهم على اتباع الحق، وتحملهم الأذى في سبيل الله قال قتادة: نزلت في أناس من أهل الكتاب، كانوا على شريعة من الحق يأخذون بها ويتنهبون إليها، حتى بعث الله محمداً ﷺ فأمنوا به وصدقوه، فأعطاهم الله أجرهم مرتين بما صبروا، وذكر أن منهم سلمان وعبد الله بن سلام^(٤) ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي ويدفعون الكلام القبيح كالسب والشتيم بالحسنة، أي: الكلمة الطيبة الجميلة قال ابن كثير: لا

(١) «زاد المسير» ٢٨٨/٦.

(٢) «تفسير الطبري» ٥٦/٢٠.

(٣) أخرجه مسلم. (ش) قال ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ فَأَمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَقَهُ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ آدَى حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى وَحَقَّ سَيِّدِهِ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أَمَةٌ فَعَدَّاهَا فَأَحْسَنَ غِذَاءَهَا ثُمَّ أَدْبَاهَا فَأَحْسَنَ أَدْبَاهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ» رواه مسلم، ورواه البخاري بلفظ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ: الرَّجُلُ تَكُونُ لَهُ الْأَمَةُ فَيَعْلَمُهَا فَيُحْسِنُ تَعْلِيمَهَا، وَيُؤَدِّبُهَا فَيُحْسِنُ أَدْبَاهَا، ثُمَّ يُعْتِقُهَا فَيَتَزَوَّجَهَا، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَمُؤْمِنٌ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِي كَانَ مُؤْمِنًا، ثُمَّ آمَنَ بِالنَّبِيِّ ﷺ - فَلَهُ أَجْرَانِ، وَالْعَبْدُ الَّذِي يُؤَدِّي حَقَّ اللَّهِ وَيَنْصَحُ لِسَيِّدِهِ».

(٤) «تفسير الطبري» ٦٥/٢٠.

يقابلون السيئ بمثله ولكن يَعْفُونَ وَيَصْفَحُونَ^(١) ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي ومن الذين رزقناهم من الحلال ينفقون في سبيل الخير ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ أي وإذا سمعوا الشتم والأذى من الكفار وسمعوا ساقط الكلام، لم يلتفتوا إليه ولم يردُّوا على أصحابه ﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ أي لنا طريقنا ولكم طريقكم ﴿سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي سلام متاركة ومباعدة. قال الزجاج: لم يريدوا التحية وإنما أرادوا بيننا وبينكم المتاركة ﴿لَا بِنَبِيٍّ إِلَيْنَا﴾ أي لا نطلب صحبتهم ولا نريد مخالطتهم قال الصاوي: كان المشركون يسبون مؤمني أهل الكتاب ويقولون: تَبًّا لك أعرضت عن دينكم وتركتموه! فيعرضون عنهم ويقولون: لنا أعمالنا ولكم أعمالكم^(٢). مدحهم تعالى بالإيمان، ثم مدحهم بالإحسان، ثم مدحهم بالعفو والصفح عن أهل العدوان، ثم قال تعالى مخاطباً رسوله ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي إنك يا محمد لا تقدر على هداية أحد، مهما بذلت فيه من مجهود، وجاوزت في السعي كل حدٍّ معهود ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي ولكنه تعالى بقدرته يهدي من قدر له الهداية، فسلم أمرك إليه فإنه أعلم بأهل السعادة والشقاوة ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي هو تعالى العالم بمن فيه استعداد للهداية والإيمان فيهديه قال المفسرون: نزلت في عمه «أبي طالب»^(٣) حين عرض عليه الإسلام عند موته فأبى قال أبو حيان: ومعنى ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي لا تقدر على خلق الهداية فيه، ثم قال: ولا تنافي بين هذا وبين قوله ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] لأن معنى هذا: وإنك لترشد، وقد أجمع المسلمون على أنها نزلت في «أبي طالب» ثم ذكر تعالى شبهة من شبهات المسركين وردَّ عليها بالبيان الواضح فقال ﴿وَقَالُوا إِنَّا نَتَّبِعُ الْهُدَى مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ أي وقال كفار قريش: إن اتبعناك يا محمد على دينك وتركنا ديننا نخاف أن تتخطفنا العرب فيجتمعون على محاربتنا، ويخرجونا من أرضنا، قال المبرد: والتخطف الانتزاع بسرعة، قال تعالى ردًّا عليهم ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ أي أولم نعصم دماءهم ونجعل مكانهم حرمًا ذا أمن، بحرمة البيت العتيق؟ فكيف يكون الحرم آمناً لهم في حال كفرهم، ولا يكون آمناً لهم في حال إسلامهم؟ ﴿يُجِئُ إِلَيْهِ تَمَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ أي تجلب إليه الأرزاق من كل مكان مع أنه بوادٍ غير ذي زرع رزقاً لهم من عندنا ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكن أكثرهم جهلة لا يتفكرون في ذلك ولا يتفطنون

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ١٨/٣.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/٢٢١.

(٣) «البحر المحيط» ١٢٦/٧، وانظر سبب النزول الذي ذكرناه سابقاً.

قال أبو حيان: قطع الله حجتهم بهذا البيان الناصع إذ كانوا وهم كفاراً بالله، عباد أصنام قد آمنوا في حرمهم، والناس في غيره يتقاتلون وهم مقيمون في بلدٍ غير ذي زرع، يجيء إليهم ما يحتاجون من الأقوات، فكيف إذا آمنوا واهتدوا؟^(١) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي وكثير من أهل قرية طغت وأشرت وكفرت نعمة الله فدمر الله عليهم وخرّب ديارهم ﴿فَإِنَّكَ مَسْكَنُهُمْ وَلَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي فتلّك مساكنهم خاوية بما ظلموا لم تسكن من بعد تدميرهم إلا زماناً قليلاً إذ لا يسكنها إلا المارّة والمسافرون يوماً أو بعض يوم ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ أي وكنا نحن الوارثين لأملاكهم وديارهم قال في البحر: والآية تخويف لأهل مكة من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم، من إنعام الله عليهم بالرقود في ظلال الأمن، وخفض العيش، فكفروا النعمة وقابلوها بالأشر والبطر^(٢) فدمرهم الله وخرّب ديارهم^(٣) ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى﴾ أي ما جرت عادة الله جل شأنه أن يهلك أهل القرى الكافرة ﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَنْبَأُ عَنْهُمْ﴾ أي حتى يبعث في أصلها وعاصمتها رسولاً يبلغهم رسالة الله لقطع الحجب والمعاذير ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ أي وما كنا لنهلك القرى إلا وقد استحق أهلها الإهلاك، لإصرارهم على الكفر بعد الإذار إليهم ببعثة المرسلين قال القرطبي: أخبر تعالى أنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا الإهلاك بظلمهم، وفي هذا بيان لعدله وتقديسه عن الظلم، ولا يهلكهم - مع كونهم ظالمين - إلا بعد تأكيد الحجة والإلزام ببعثة الرسل، ولا يجعل علمه تعالى بأحوالهم حجة عليهم^(٤) ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّا﴾ أي وما أُعطيتم أيها الناس من مالٍ وخيرٍ فهو متاعٌ قليل تتمتعون به في حياتكم ثم ينقضي ويفنى قال ابن كثير: يخبر تعالى عن حقارة الدنيا وما فيها من الزينة الدنيئة، والزهرة الفانية، بالنسبة إلى ما أعدّه الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة، من النعيم العظيم المقيم^(٥) ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أي وما عنده من الأجر والثواب، والنعيم الدائم الباقي خير وأفضل من هذا النعيم الزائل ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ توبّخ لهم أي أفلا تعقلون أن

(١) «البحر المحيط» ١٢٦/٧.

(٢) (ش): أشر الشخص، أشرًا، فهو أَشَرُّ: بطر واستكبر ومرح ونشط. بطر الشخص، بطراً، فهو بطرٌ: طغى وغالى في مرجه وزهوّه واستخفافه، جاوز الحدَّ كثيراً. بطر النعمة: استخفها وكفرها ولم يشكرها. بطر الحق ونحوه: أنكره ولم يقبله تكبراً وطغياناً.

(٣) نفس المرجع السابق والصفحة.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٣ / ٣٠٢.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣ / ٢٠.

الباقى أفضل من الفاني؟ قال الإمام الفخر: يَبْنِ تعالى أن منافع الدنيا مشوبةٌ بالمضارِّ، بل المضارُّ فيها أكثر، ومنافع الآخرة غير منقطعة، بينما منافع الدنيا منقطعة، ومتى قوبل المتناهي بغير المتناهي كان عدماً، فكيف ونصيب كل أحدٍ من الدنيا كالذرة بالقياس إلى البحر، فمن لم يَرَجَحْ منافع الآخرة على منافع الدنيا يكون كأنه خارجٌ عن حدِّ العقل^(١) ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ أي أقم من وعدناه وعداً قاطعاً بالجنة وما فيها من النعيم المقيم الخالد، فهو لا محالة مدركه لأن وعد الله لا يتخلف ﴿كَمْ مِّنْ مَّنْعَةٍ مِّنْهُ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾؟ أي كمن متعناه بمتاع زائل، مشوب بالأكدار، مملوء بالمتاعب، مستتبِع للحسرة على انقطاعه؟ ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ أي ثم هو في الآخرة من المحضرين للعذاب، فهل يساوي العاقل بينهما؟ قال ابن جزري: والآية إيضاحٌ لما قبلها من البَوْنِ الشاسع بين الدنيا والآخرة^(٢)، والمراد بمن وعدناه المؤمنين، وبمن متعناه الكافرين^(٣) ﴿وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي واذكر حال المشركين يوم يناديهم الله فيقول لهم على سبيل التوبيخ والتفريع: أين هؤلاء الشركاء والآلهة من الأصنام والأنداد الذين عبدتموهم من دوني، وزعمتم أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم؟ ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي قال رؤساؤهم وكبراؤهم الذين وجب عليهم العذاب لضلالهم وطغيانهم ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ أي هؤلاء أتباعنا الذين أضللناهم عن سبيلك ﴿أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أي أضللناهم كما ضللنا، لا بالفسر والإكراه ولكن بطريق الوسوسة وتزيين القبيح فضللوا كما ضللنا نحن ﴿تَبَرَأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ أي تبرأنا إليك يا الله من عبادتهم إيانا، فما كانوا يعبدوننا وإنما كانوا يعبدون أهواءهم وشهواتهم ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ أي وقيل للكفار استغيثوا بالهتكُم التي عبدتموها في الدنيا لتنصركم وتدفع عنكم عذاب الله، وهذا على سبيل التهكم بهم ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ أي فاستغاثوا بهم فلم يجيبوهم ولم ينتفعوا بهم، وهذا من سخافة عقولهم ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ أي وتمنوا حين شاهدوا العذاب لو كانوا مهتدين قال الطبري: أي فودُّوا حين رأوا العذاب لو أنهم كانوا في الدنيا مهتدين للحق^(٤) ﴿وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ توبيخ آخر للمشركين أي ويوم يناديهم الله ويسألهم: ماذا أجبتُم رسلي؟ هل صدقتموهم أم كذبتموهم؟

(١) «التفسير الكبير» ٢٥/٢٦.

(٢) (ش): بُون/ بُون، بُعد، مسافة ما بين الشيئين. شاسع: كبير.

(٣) «التسهيل» ١٠٩/٣.

(٤) «تفسير الطبري» ٢٠/٦٣، وهذا على أن: ﴿لَوْ﴾ للتمني، وهو الذي أثبتناه وهو اختيار الطبري، وقال الزجاج:

جواب: ﴿لَوْ﴾ محذوف تقديره: لو كانوا يهتدون لما اتبعوهم ولما رأوا العذاب.

﴿فَعَمِيتَ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءَ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي فخفيت عليهم الحُجَجُ، وأظلمت عليهم الأمور، فلم يعرفوا ما يقولون، فهم حيارى واجمُون^(١)، لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب لفرط الدهشة والحيرة ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَغَسَّيْنَا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ أي فأما من تاب من الشرك، وجمع بين الإيمان والعمل الصالح فغسّينا أن يكون من الفائزين بجنات النعيم قال الصاوي: والترجي في القرآن بمنزلة التحقق، لأنه وعد كريم من ربِّ رحيم، ومن شأنه تعالى أنه لا يخلف وعده^(٢) ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ أي هو تعالى الخالق المتصرف، يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد، فلا اعتراض لأحد على حكمه قال مقاتل: نزلت في «الوليد بن المغيرة» حين قال ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْبَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]^(٣) ﴿مَا كَانَتْ لَهُمْ الْخِيَرَةُ﴾ أي ما كان لأحد من العباد اختيار، إنما الاختيار والإرادة لله وحده ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه الله العظيم الجليل وتقدس أن ينازعه أحد في ملكه، أو يشاركه في اختياره وحكمته قال القرطبي: المعنى وربك يخلق ما يشاء من خلقه، ويختار من يشاء لنبوته، والخيرة له تعالى في أفعاله، وهو أعلم بوجوه الحكمة، فليس لأحد من خلقه أن يختار عليه^(٤) ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي هو تعالى العالم بما تخفيه قلوبهم من الكفر والعداوة للرسول والمؤمنين، وما يظهره على ألسنتهم من الطعن في شخص رسوله الكريم حيث يقولون: ما أنزل الله الوحي إلا على يتيم أبي طالب! ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي هو جل وعلا الله المستحق للعبادة، لا أحد يستحقها إلا هو ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ أي له الثناء الكامل في الدنيا والفصل بين العباد ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ أي وله القضاء النافذ والفصل بين العباد ﴿وَلِإِيَّاهُ تُرْجَعُونَ﴾ أي إليه وحده مرجع الخلائق يوم القيامة، فيجازي كل عامل بعمله.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبدیع نوجزها فيما يلي:

١ - التشبيه البليغ ﴿بَصَاكِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي أعطيناه التوراة كأنها أنوار لقلوب الناس، حذف أداة الشبه ووجه الشبه فأصبح بليغاً قال في حاشية «البيضاوي»: أي مشبهاً بأنوار القلوب من حيث إن القلوب لو كانت خالية عن أنوار التوراة وعلومها لكانت عمياء

(١) (ش): وَجَمَ الشَّخْصُ: سَكَتَ وَعَجَزَ عَنِ الْكَلَامِ مِنْ شِدَّةِ الْغَيْظِ أَوْ الْخَوْفِ أَوْ الْهَمِّ أَوْ التَّعَجُّبِ. وَجَمَ الشَّخْصُ: عَبَسَ وَجْهُهُ لَشِدَّةِ الْحُزَنِ.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/ ٢٢٣.

(٣) (ش): رواه الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٣٠٥ بشيء من الاختصار.

لا تستبصر، ولا تعرف حقاً من باطل^(١).

٢ - المجاز العقلي ﴿أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ المراد به الأمم لأنهم يخلقون في تلك الأزمنة فنسب إلى القرون بطريق المجاز العقلي.

٣ - جناس الاشتقاق ﴿تُصِيبُهُمْ مُّصِيبَةٌ﴾.

٤ - المجاز المرسل ﴿يَمَّا قَدَّمْتُ أَيْدِيَهُمْ﴾ والمراد بما كسبوا وهو من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل قال الزمخشري: ولما كانت أكثر الأعمال تزاوُل بالأيدي جعل كل عمل معبراً عنه باجتراح الأيدي^(٢).

٥ - حذف الجواب لدلالة السياق ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ﴾ حذف منه الجواب وتقديره: ما أرسلناك يا محمد رسولا إليهم. وهو من باب الإيجاز بالحذف.

٦ - التحضيض ﴿لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ﴾ أي هلاً أوتي فهي للتحضيض وليست حرف امتناع لوجود.

٧ - التعجيز ﴿قُلْ فَأَنذَرْتُكُمْ﴾ فالأمر خرج عن حقيقته إلى معنى التعجيز.

٨ - طباق السلب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي.. وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي﴾.

٩ - المجاز العقلي ﴿حَرَمَاءَ آمِنًا﴾ نسب الأمن إلى الحرم وهو لأهله.

١٠ - أسلوب السخرية والتهكم ﴿أَيْنَ شُرَكَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا عَمُونَ﴾؟.

١١ - التشبيه المرسل ﴿أَعْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾.

١٢ - الاستعارة التصريحية التبعية ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ﴾ قال الشهاب: استعير

العمى لعدم الاهتداء، فهم لا يهتدون للأنباء، ثم قلب للمبالغة فجعل الأنباء لا تهتدي إليهم وأصله «فعموا عن الأنباء» وضمّن معنى الخفاء فعدي بـ ﴿عَلَى﴾ ففيه أنواع من البلاغة: الاستعارة، والقلب، والتضمين^(٣).

١٣ - الطباق بين ﴿تَكُنُّ.. يُعْلِنُونَ﴾ وبين ﴿الْأُولَىٰ.. وَالْآخِرَةَ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

تنبيه: ما ذكر أن «أبا طالب» مات على غير الإيمان هو الصحيح الذي دلّ عليه الكتاب والسنة، ونقل عن بعض شيوخ الصوفية أنه أسلم قبل موته، وهو معارض للنصوص الكريمة ولعلمهم أخذوه من بعض أشعار أبي طالب حيث يقول:

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٥١٥.

(٢) «الكشاف» ٣/ ٣٢٠.

(٣) نقلاً عن محاسن التأويل للقاسمي.

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَن دِينَ مُحَمَّدٍ
وَاللَّهُ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ
مِنْ خَيْرِ أَذْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينًا
حَتَّى أَوْسَدَ فِي الثُّرَابِ دَفِينًا
أقول: ماذا يعني هذا الكلام بعد امتناعه عن الدخول في الإسلام والنطق بالشهادة^(١)؟

قال الله تعالى:

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعِلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٥﴾ إِن قَرُونَ كَانَ مِنْ قَوْمٍ مُّوسَىٰ فَعَنَىٰ عَلَيْهِمْ وَأَينَنَّهُ مِنْ الْكُفْرِ مَا إِن مَفَاتِحَهُ، لَنَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَأَنْبَغَ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَرُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ،

(١) (ش): نحو هذين البيتين والآيات التالية رواها ابن إسحاق في «المغازي» بدون إسناد، وعنه البيهقي في «دلائل النبوة» والبيت الأخير فيها يدل على رفض أبي طالب الدخول في الإسلام، وهذه الآيات - مع أنها لا تثبت سندًا - توافق الأحاديث الصحيحة الواردة في أن أبا طالب مات على الكفر.

وَاللَّهُ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ
فَأَصْدَعُ بِأَمْرِكَ مَا عَلَيْكَ غَضَاظَةً
وَدَعَوْتَنِي وَزَعَمْتَ أَنَّكَ نَاصِحِي
وَعَرَضْتَ دِينًا قَدْ عَرَفْتُ بِأَنَّهُ
لَوْ لَا الْمَلَأَةُ أَوْ حِذَارِي سُبَّةٌ
أَوْسَدَ فِي الثُّرَابِ دَفِينًا: أي أدفن في التراب. توسد الأرض: نام عليها وجعلها وسادة له «توسد التراب». غضاظة: عيب، منقصة، ذل. وقَرَّ بِذَاكَ مِنْكَ عُيُونًا: قَرَّتْ عَيْنُهُ، بَرَدَ دَمْعُهَا، ضَدَّ سَخْنُهَا، وَيُكْنَى بِهِ عَنِ السُّرُورِ وَالِابْتِهَاجِ، وَقِيلَ لِأَنَّ لِلْسُّرُورِ دَمْعَةً بَارِدَةً وَلِلْحُزَنِ دَمْعَةً حَارَّةً. سُبَّةٌ: عَارٌ. لَوَجَدْتَنِي سَمَحًا بِذَاكَ مُبِينًا: سَمَحَ الشَّخْصُ، سَمَاحَةً، فَهُوَ سَمَحٌ: صَارَ مَتْسَاهِلًا كَرِيمًا. أَبَانَ الشَّخْصُ إِبَانَةً، فَهُوَ مُبِينٌ: أَفْصَحَ عَمَّا يُرِيدُ، أَظْهَرَ الْكَلَامَ.

مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَافُكُ اللَّهُ بِسُطِّ الرَّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَافُكُهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

المناسبة: لما ذكر تعالى أنه هو الخالق المختار، وسفّه المشركين في عبادتهم لغير الله، عقّبه بذكر بعض الأدلة والبراهين الدالة على عظمته وسلطانه، تذكيراً للعباد بوجوب شكر المنعم، ثم ذكر قصة «قارون» وهي قصة الطغيان بالمال، وما كان من نهايته المشؤمة حيث خسف الله به وبكنوزه الأرض، وهذه نتيجة الاستعلاء والغرور والطغيان.

اللغة: ﴿سَرَمَدًا﴾ السرمدة: الدائم الذي لا ينقطع ومنه قول طرفة: لَعَمْرُكَ مَا أَمْرِي عَلَى بَغْمَةٍ نَهَارِي وَلَا لَيْلِي عَلَى بَسْرَمَدٍ ^(١) ﴿مَفَاتِحُهُ﴾ جمع مفتاح بالكسر وهو ما يفتح به، وأما المفتاح فجمعه مفاتيح. ﴿لَنُؤْأَ﴾ ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله قال ذو الرمة: تَنُوءُ بِأُخْرَاهَا فَلَأَيَّا قِيَامَهَا وَتَمَشِّي الْهُوَيْنَا عَنْ قَرِيبٍ فَتَبْهَرُ ^(٢) ﴿بِالْعُصْبَةِ﴾ الجماعة الكثيرة ومثلها العصاة ومنه قوله تعالى ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف: ٨] سميت الجماعة عصابة لأن بعضهم يتعصب لبعض ويتقوى به ﴿وَيَكَافُكُ﴾ قال الجوهري: «وي» كلمة تعجب وقد تدخل على «كان» فتقول: ويكأن، وقيل: إنها كلمة تستعمل عند التنبيه للخطأ وإظهار الندم قال الخليل: إن القوم تنبهوا وقالوا نادمين على ما

(١) «تفسير القرطبي» ٣٠٧/١٣. (ش): (لَعَمْرُكَ): كلام أهل العلم أن هذه الكلمة ليست يميناً، بل تُذكر لتأكيد مضمون الكلام فقط؛ لأنها أقوى من سائر المؤكّدات، وأسلم من التأكيد بالقسم بالله لوجوب البر به. [انظر: المدونة الكبرى رواية الإمام سحنون بن سعيد التنوخي عن عبد الرحمن بن القاسم وغيره عن الإمام مالك (٢/ ٣٣٨)]. مَا أَمْرِي عَلَى بَغْمَةٍ: أي ليس أمري مبهماً أو ملتبساً عَلَيَّ.

(٢) «البحر المحيط» ١٣٢/٧. (ش): تَنُوءُ بِأُخْرَاهَا: مَعْنَاهُ: أَنَّ أُخْرَاهَا، وَهِيَ عَجِيزَتُهَا، تُنَبِّئُهَا إِلَى الْأَرْضِ لِضَخَامَتِهَا وَكَثْرَةِ لَحْمِهَا فِي أَرْضِهَا. وَيُقَالُ: نَاءَ يَنْوُءُ، إِذَا نَهَضَ يَثْقُلُ. فَلَأَيَّا قِيَامَهَا: اللَّأَيُّ: الْبُطءُ، أي إنها عند القيام تقوم ببطء وصعوبة. تَمَشِّي الْهُوَيْنَا: تَمَشِّي بَاتِّدَادٍ وَتَمَهَّلَ. فَتَبْهَرُ: فَيَنْقَطِعُ نَفْسُهَا مِنَ الْإِعْيَاءِ.

سلف منهم وَيَ ﴿١﴾ ظَهِيرًا ﴿٢﴾ معينًا ومساعدًا.

التفسير: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الجاحدين من كفار مكة: أخبروني لو جعل الله عليكم الليل دائماً مستمراً بلا انقطاع إلى يوم القيامة ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ﴾؟ أي من هو الإله الذي يقدر على أن يأتيكم بالنور الذي تستضيئون به في حياتكم غير الله تعالى؟ ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ أي أفلا تسمعون سماع فهم وقبول فتستدلوا بذلك على وحدانية الله تعالى؟ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ أي أخبروني لو جعل الله عليكم النهار دائماً مستمراً بلا انقطاع ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أي من هو الإله القادر على أن يأتيكم بليل تستريحون فيه من الحركة والنصب (٢) غير الله تعالى؟ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أي أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطأ والضلال؟ ثم نبه تعالى إلى كمال رحمته بالعباد فقال ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي ومن آثار قدرته، ومظاهر رحمته أن خلق لكم الليل والنهار يتعاقبان بدقة وإحكام ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي لتستريحوا بالليل من نصب الحياة وهمومها وأكدارها، ولتلتمسوا من رزقه بالمعاش والكسب في النهار ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولتشكروا ربكم على نعمه الجليلة التي لا تُحصى، ومنها نعمة الليل والنهار قال الإمام الفخر: نبه تعالى بهذه الآية على أن الليل والنهار نعمتان يتعاقبان على الزمان، لأن المرء في الدنيا مضطر إلى أن يتعب لتحصيل ما يحتاج إليه، ولا يتم له ذلك لولا ضوء النهار، ولولا الراحة والسكون بالليل، فلا بدّ منهما في الدنيا، وأما في الجنة فلا نصب ولا تعب فلا حاجة بهم إلى الليل، فلذلك يدوم لهم الضياء واللذات (٣) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ قال ابن كثير: هذا نداء ثانٍ على سبيل التوبيخ والتقريع لمن عبد مع الله إلهاً آخر، يناديهم الرب على رءوس الأشهاد: أين شركائي الذين زعمتموهم في الدنيا؟ (٤) ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي أخرجنا من كل أمة شهيداً منهم يشهد عليهم بأعمالهم وهو نبيهم ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي هاتوا حجتكم على ما كنتم عليه من الكفر، هذا إعدار لهم وتوبيخ وتعجيز ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أي فلموا حينئذ أن الحق لله ولرسله، وأنه لا إله إلا هو ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي وغاب عنهم غيبة الشيء الضائع ما كانوا يتخرونه في

(١) «التفسير الكبير» للرازي ١٩/٢٥.

(٢) (ش): نَصَبَ الشَّخْصُ نَصَبًا: أَعْيَا وَتَعَبَ.

(٣) «التفسير الكبير» ١١/٢٥.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢٢/٣.

الدنيا من الشركاء والأنداد، ثم ذكر تعالى قصة «قارون» ونتيجة الغرور والطغيان فقال: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ أي من عشيرته وجماعته قال ابن عباس: كان ابن عم موسى ﴿فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ أي تجبر وتكبر على قومه، واستعلى عليهم بسبب ما منحه الله من الكنوز والأموال قال الطبري: أي تجاوز حدّه في الكبر والتجبر عليهم^(١) ﴿وَأَيَّنْتُهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ أي أعطيناه من الأموال الوفيرة، والكنوز الكثيرة ما يثقل على الجماعة أصحاب القوة حملاً مفاتيح خزائنه لكثرتها وثقلها فضلاً عن حمل الخزائن والأموال. والآية تصوير لما كان عليه قارون من كثرة المال والغنى والشراء ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ﴾ أي لا تأثر ولا تبطر ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أي لا يحب البطرين الذين لا يشكرون الله على إنعامه، ويتكبرون بأموالهم على عباد الله ﴿وَأَبْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أي اطلب فيما أعطاك الله من الأموال رضى الله، وذلك بفعل الحسنات والصدقات والإنفاق من الطاعات ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ قال الحسن: أي لا تضيع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال وطلبك إياه^(٢) ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي أحسن إلى عباد الله كما أحسن الله إليك ﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي لا تطلب بهذا المال البغي والتطاول على الناس، والإفساد في الأرض بالمعاصي ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي لا يحب من كان مجرمًا باغيًا مفسدًا في الأرض ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ لمّا وعظه قومه أجابهم بهذا على وجه الرد عليهم والتكبر عن قبول الموعظة والمعنى: إنما أعطيت هذا المال على علم عندي بوجوه المكاسب، ولولا رضى الله عني ومعرفته بفضلي واستحقاقي له ما أعطاني هذا المال قال تعالى ردًا عليه ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ أي أولم يعلم هذا الأحمق المغرور أن الله قد أهلك من قبله من الأمم الخالية من هو أقوى منه بدنًا وأكثر مالاً؟ قال «البيضاوي»: والآية تعجب وتوبيخ على اغتراره بقوته وكثرة ماله، مع علمه بذلك لأنه قرأه في التوراة، وسمعه من حفاظ التواريخ^(٣) ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي لا حاجة أن يسألهم الله عن كيفية ذنوبهم لأنه عالم بكل شيء، ولا يتوقف إهلاكه إياهم على سؤالهم بل متى حق عليهم العذاب أهلكهم بغتة، ثم أشار تعالى إلى أن قارون لم يعتبر بنصيحة

(١) «تفسير الطبري» ٦٨/٢٠.

(٢) وقيل معناه: لا تضيع عمرك بترك الأعمال الصالحات وهو مروي عن ابن عباس ومجاهد، وما قاله الحسن وقتادة أظهر وهو اختيار ابن كثير.

(٣) «البيضاوي» ٩٥/٣.

قومه، بل تمادى في غطرسته وعيّه^(١) فقال تعالى ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ أي فخرج قارون على قوميه في أظهر زينة وأكملها قال المفسرون: خرج ذات يوم في زينة عظيمة بأتباعه الكثيرين، ركبانا متحليين بملابس الذهب والحريز، على خيول موشحة بالذهب، ومعها الجواري والغلمان في موكب حافل باهر ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ أي فلما رآه ضعفاء الإيمان ممن تخدعهم الدنيا بريقها وزخرفها وزينتها قالوا: يا ليت لنا مثل هذا والغنى الذي أعطيه قارون ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي ذو نصيب وافر من الدنيا ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي وقال لهم العقلاء من أهل العلم والفهم والاستقامة ﴿وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي ارتدعوا وانزجروا عن مثل هذا الكلام فإن جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين خير مما ترون وتتمنون من حال قارون قال الزمخشري: أصل ﴿وَيَلَكُمْ﴾ الدعاء بالهلاك ثم استعمل في الزجر والردع، والبعث على ترك ما لا يرتضى^(٢) ﴿وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْصَّكْرُوتُ﴾ أي ولا يعطى هذه المرتبة والمنزلة في الآخرة إلا الصابرون على أمر الله قال تعالى تنبيهاً لنهايته المشئومة: ﴿فَنَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ أي جعلنا الأرض تغور به وبكنوزها، جزاءً على عتوه وبطره ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ﴾ أي ما كان من له أحد من الأنصار والأعوان يدفعون عنه عذاب الله ﴿اللَّهُ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ أي وما كان المنتصرين بنفسه بل كان من الهالكين ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾ أي وصار الذين تمنوا منزلته وغناه بالأمس القريب بعد أن شاهدوا ما نزل به من الخسف ﴿يَقُولُونَ وَيَكَاكَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ أي يقولون ندماً وأسفاً على ما صدر منهم من التمني: اعجبوا أيها القوم من صنع الله، كيف أن الله يوسع الرزق لمن يشاء من عباده - بحسب مشيئته وحكمته - لا لكرامته عليه، ويضيّق الرزق على من يشاء من عباده - لحكمته وقضائه ابتلاءً - لا لهوانه عليه! قال الزمخشري: ﴿وَيَكَاكَ﴾ كلمتان «وي» مفصولة عن «كأن» وهي كلمة تنبيه على الخطأ وتندم، ومعناه أن القوم تنبهوا على خطئهم في تمنيههم منزلة قارون وتندموا^(٣) وقالوا ﴿لَوْلَا أَنَّ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: لولا أن الله لطف بنا، وتفضل علينا بالإيمان والرحمة،

(١) (ش): غطرسة: استعلاء وترفع على الآخرين، تكبر. غوى فلان، غيّا: أمعن في الضلال، حاد عن الحق ومال إلى هواه.

(٢) «الكشاف» ٣/ ٣٤١.

(٣) «الكشاف» ٣/ ٢٤٢، وهذا الذي قاله الزمخشري هو مذهب الخليل وسيبويه واختاره الجمهور، قال في «الجلالين» «وي» اسم فعل بمعنى أعجب أنا، والكاف بمعنى اللام، والمعنى: أعجب لأن الله يبسط، ونقل الطبري عن قتادة أن معنى ﴿وَيَكَاكَ﴾ ألم تر أن، وأنها كلمة واحدة، وهو اختيار الطبري، والله أعلم.

ولم يعطنا ما تمنيناه ﴿لَخَسَفَ بَنَّا﴾ أي لكان مصيرنا مصير قارون، وخسف بنا الأرض كما خسفها به ﴿وَيَكَاذِبُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أي أعجب من فعل الله حيث لا ينجح ولا يفوز بالسعادة الكافرون لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

وإلى هنا تنتهي «قصة قارون» وهي قصة الطغيان بالمال، بعد أن ذكر تعالى قصة الطغيان بالجاه والسلطان في قصة فرعون وموسى، ثم يأتي التعقيب المباشر في قوله تعالى ﴿تِلْكَ الْأَمْثَلُ الْآخِرَةُ لِمَن كَانَ لَأَرِيدُونَ غُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ الإشارة للتفخيم والتعظيم أي تلك الدار العالية الرفيعة التي سمعت خبرها، وبلغك وصفها هي دار النعيم الخالد السرمدي، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، نجعلها للمتقين الذين لا يريدون التكبر والطغيان، ولا الظلم والعدوان في هذه الحياة الدنيا ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي العاقبة المحمودة للذين يخشون الله ويراقبونه، ويتغون رضوانه ويحذرون عقابه ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أي من جاء يوم القيامة بحسنة من الحسنات فإن الله يضاعفها له أضعافاً كثيرة ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ومن جاء يوم القيامة بالسّيئات فلا يجزى إلا بمثلها، وهذا من فضل الله على عباده أنه يضاعف لهم الحسنات ولا يضاعف لهم السيئات ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي إن الذي أنزل عليك يا محمد القرآن وفرض عليك العمل به ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي لرادك إلى مكة كما أخرجك منها، وهذا وعد من الله بفتح مكة ورجوعه عليه السلام إليها بعد أن هاجر منها قال ابن عباس: معناه لرادك إلى مكة، وقال الضحاح: لما خرج النبي ﷺ من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة، فأنزل الله عليه هذه الآية ^(١) ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَن هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ربي أعلم بالمهتدي والضال هل أنا أو أنتم؟ فهو جلّ وعلا الذي يعلم المحسن من المسيء، ويجازي كلّاً بعمله، وهو جواب لقول كفار مكة: إنك يا محمد في ضلال مبين ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي وما كنت تتطمع أن تنال النبوة، ولا أن ينزل عليك الكتاب ولكن رحمتك الله بذلك ورحم العباد ببعثتك قال الفراء: وهذا استثناء منقطع. والمعنى إلا أن ربك رحمتك فأنزله عليك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾ أي لا تكن عوناً لهم على دينهم، ومساعداً لهم على ضلالهم، بالمداراة والمجاملة ولكن نابذهم وخالفهم قال المفسرون: دعا المشركون

(١) تفسير «ابن الجوزي» ٩٤٢/٦، و«مختصر تفسير ابن كثير» ٢٦/٣. (ش): سنده ضعيف جداً، رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره».

الرسول إلى دين آبائه، فأمر بالتحرز منهم وأن يصدع بالحق، والخطابُ بهذا وأمثاله له عليه السلام، والمراد أمته لثلاثا يظاهروا الكفار ولا يوافقوهم ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ أي ولا تلتفت إلى هؤلاء المشركين، ولا تركز إلى قولهم فيصدوك عن اتباع ما أنزل الله إليك من الآيات البينات ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ أي وادع الناس إلى توحيد ربك وعبادته ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي بمسايرتهم على أهوائهم، فإن من رضي بطريقتهم كان منهم ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي لا تعبد إلهاً سوى الله ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحق إلا الله تعالى قال «البيضاوي»: وهذا وما قبله للتهيج وقطع أطماع المشركين عن مساعدته لهم ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي كل شيء يفنى وتبقى ذاته المقدسة، أطلق الوجه وأراد ذات الله جلّ وعلا^(١) قال ابن كثير: وهذا إخبار بأنه تعالى الدائم الباقي، الحي القيوم، الذي تموت الخلائق ولا يموت، فعبر بالوجه عن الذات كقوله ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٧] (٢).

(١) (ش): الصواب أن يُقَالَ: إِنَّهُ أَسْنَدَ الْبَقَاءَ إِلَى الْوَجْهِ، وَيَلْزَمُ مِنْهُ بَقَاءُ الذَّاتِ؛ بَدَلًا مِنْ أَنْ يُقَالَ: أُلْطِقَ الْوَجْهَ وَأَرَادَ الذَّاتَ. قال الإمام ابن خزيمة (١/ ٢٤): «بَابُ ذِكْرِ إِبْثَاتِ وَجْهِ اللَّهِ الَّذِي وَصَفَهُ بِالْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وَنَفَى عَنْهُ الْهَلَاكَ إِذَا أَهْلَكَ اللَّهُ مَا قَدْ قَضَى عَلَيْهِ الْهَلَاكَ مِمَّا قَدْ خَلَقَهُ اللَّهُ لِلْفَنَاءِ لَا لِلْبَقَاءِ، جَلَّ رَبُّنَا، عَنْ أَنْ يَهْلِكَ شَيْءٌ مِنْهُ مِمَّا هُوَ مِنْ صِفَاتِ ذَاتِهِ، قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وَقَالَ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]» [التوحيد لابن خزيمة (١/ ٢٤)]. إن تأويل الوجه بالذات تأويل باطل؛ لأنه نفى لصفة ثابتة لله تعالى. والنصوص في إِبْثَاتِ الْوَجْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَا تُخَصِّصُ كَثْرَةً، وَكُلُّهَا تَنْفِي تَأْوِيلَ الَّذِينَ يُبَسِّرُونَ الْوَجْهَ بِالْجَهَةِ أَوْ الثَّوَابِ أَوْ الذَّاتِ، وَالَّذِي عَلَيْهِ أَهْلُ الْحَقِّ أَنَّ الْوَجْهَ صِفَةٌ غَيْرُ الذَّاتِ، وَلَا يَقْتَضِي إِبْثَاتُهُ كَوْنَهُ تَعَالَى مُرَكَّبًا مِنْ أَعْضَاءٍ، كَمَا يَقُولُهُ الْمَجَسَّمَةُ، بَلْ هُوَ صِفَةٌ لِلَّهِ عَلَى مَا يَلِيْقُ بِهِ، فَلَا يُشَبَّهُ وَجْهًا وَلَا يُشَبَّهُ وَجْهًا.

(٢) (ش): تَضَمَّنَتْ هَاتَانِ الْآيَاتَانِ إِبْثَاتَ صِفَةِ الْوَجْهِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. ولا يصح قول من استدلل بهما على أَنَّ الْمُرَادَ بِالْوَجْهِ الذَّاتَ؛ قَائِلًا إِنَّهُ لَا خُصُوصَ لِلْوَجْهِ فِي الْبَقَاءِ وَعَدَمِ الْهَلَاكِ، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ صِفَةٌ زَائِدَةٌ عَلَى الذَّاتِ لَكَانَ الْمَعْنَى الْمُرَادُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أَنَّ ذَاتَهُ تَهْلِكُ إِلَّا وَجْهَهُ. والجواب عن هذه الشبهة من وجهين: مجمل ومفصل: أما المجمل، فإنه يقال: قد دلّ الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها على أن الله تعالى وجهًا كما أن له يدين وسمعا وبصرا وعلمًا وحياة، وغير ذلك ممّا وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله محمد ﷺ، فيجب إثبات الوجه لله تعالى إِبْثَاتًا بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل؛ لأن الله ﷻ كَيْتَلُهُ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ [الشورى: الآية ١١]؛ فكما أننا نثبت لله تعالى ذاتًا لا تشبه الذوات، فكذلك نثبت لله تعالى وجهًا لا يشبه له ولا نظير. وأمّا الجواب المفصل؛ فمن وجوه: ١- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ قَالَ «أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ». (رواه أبو داود، وصححه الألباني). فقله ص: «وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ»: دليل على إثبات الوجه لله تعالى. وفي هذا ردٌّ على من زعم أن الوجه هو الذات؛ فالنبي ﷺ استعاذ أولاً بالله العظيم، ثم استعاذ ثانيًا بوجهه الكريم، والعطف يدل على أن الوجه غير الذات. ٢- إننا لو سلمنا أن المراد بقول الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾؛ أي: إلا ذاته، أو: إلا هو، لم يكن في ذلك دليل على نفي الوجه عن الله تعالى؛ لأن النصوص =

﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي له القضاء النافذ في الخلق، وإليه مرجعهم جميعاً يوم المعاد لا إلى أحدٍ سواه^(١).

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - التبكيت والتوبيخ ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ﴾ ؟ ومثله ﴿يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ﴾ ؟.
- ٢ - اللف والنشر المرتب ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ جمع الليل والنهار ثم قال ﴿لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ فأعاد السكّن إلى الليل، والابتغاء لطلب الرزق إلى النهار، ويسمى هذا عند علماء البديع اللف والنشر المرتب، لأن الأول عاد على الأول، والثاني عاد على الثاني وهو من المحسنات البديعية.
- ٣ - جناس الاشتقاق ﴿لَا تَفْرَحْ.. الْفَرِحِينَ﴾ ومثله ﴿الْفَسَادَ.. الْمُفْسِدِينَ﴾.
- ٤ - تأكيد الجملة بـ ﴿إِنَّ﴾ و (اللام) ﴿إِنَّهُ، لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ لأن السامع شاك ومتردّد.
- ٥ - الكناية ﴿تَمَتَّنَا مَكَانَهُ، بِالْأَمْسِ﴾ كنى عن الزمن الماضي القريب بلفظ الأمس.
- ٦ - الطباق ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ مِنْ.. وَيَقْدِرُ﴾.
- ٧ - المقابلة اللطيفة ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى﴾ لآية.
- ٨ - المجاز المرسل ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أطلق الجزء وأراد الكل أي ذاته المقدسة ففيه مجاز مرسل^(٢).

= كثيرة في إثبات الوجه لله تعالى. ٣- إن تأويل الوجه بالذات باطل؛ لأنه أضاف الوجه إلى نفسه فقال: ﴿وَجْهٌ رَبِّكَ﴾، والمضاف ليس كالمضاف إليه؛ لأن الشيء لا يضاف إلى نفسه. فقد ورد الوجه مضافاً إلى الذات الإلهية وأضاف النعت إلى الوجه في قول الحق تبارك وتعالى ﴿وَبَقِيَ وَجْهٌ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ﴾ فدل على أن الجلال والإكرام من صفات الوجه وأن الوجه من صفة الذات اللاتفة بجلال الله تعالى وعظمته فإضافته إلى الله تعالى من إضافة الصفة إلى موصوفها. ١- إن في هاتين الآيتين دلالة أن وجه الله صفة من صفات الله، صفات الذات، لا أن وجه الله هو الله؛ لأن وجه الله لو كان هو الله لقُرئ: (ويبقى وجه ربك ذي الجلال والإكرام)؛ ففي قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ﴿وَبَقِيَ وَجْهٌ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أضاف الله تبارك وتعالى الوجه إلى الذات ﴿وَجْهٌ رَبِّكَ﴾، ثم وجّه النعت ﴿ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ إلى الوجه. ولو كان الأمر كما قال هؤلاء المؤولون من أن الوجه هو الذات لقال بعد ذلك (ذي الجلال والإكرام) فتكون وصفاً للكلمة ﴿رَبِّكَ﴾ إلا أن رفعه لكلمة ﴿ذُو﴾ يدل على أنه نعتٌ للوجه وأن الوجه صفة لله تبارك وتعالى: ﴿وَبَقِيَ وَجْهٌ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ فأضاف الوجه إلى الذات ﴿وَجْهٌ رَبِّكَ﴾، وأضاف النعت إلى الوجه، فقال ﴿ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ فلما قال: ﴿ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ علمنا أنه نعتٌ للوجه، وهو صفةٌ للذات. وقد ذكر الحافظ ابن كثير أن النعت في الآية للوجه فقال في «تفسيره» (٧/ ٤٩٤): «وَقَدْ نَعَتْ تَعَالَى وَجْهَهُ الْكَرِيمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِأَنَّهُ «ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ» أَيُّ هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُجَلَّ فَلَا يُعْصَى، وَأَنْ يُطَاعَ فَلَا يُخَالَفُ».

(١) «البيضاوي» ٩٦/٢.

(٢) (ش): تَصَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ إِثْبَاتَ صِفَةِ الْوَجْهِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَالنُّصُوصُ فِي إِثْبَاتِ الْوَجْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَا تُحْصَى كَثْرَةً. (راجع التعليقات السابقة).

لَطِيفَةٌ: قال بعض العلماء: من لم تُشبعه القناعة لم يكفه ملكُ قارون وأنشدوا:

هِيَ الْقَنَاعَةُ لَا تَبْغِي بِهَا بَدَلًا فِيهَا النَّعِيمُ وَفِيهَا رَاحَةُ الْبَدَنِ
 انْظُرْ لِمَنْ مَلَكَ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا هَلْ رَاحَ مِنْهَا بَغَيْرِ الْقُطْنِ وَالْكَفَنِ

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القصص»





مكية وآياتها تسع وستون

بين يدي السورة

* سورة العنكبوت مكية وموضوعها العقيدة في أصولها الكبرى «الوحدانية، والرسالة، والبعث، والجزاء» ومحور السورة الكريمة يدور حول الإيمان و«سنة الابتلاء» في هذه الحياة لأن المسلمين في مكة كانوا في أقسى أنواع المحنة والشدة، ولهذا جاء الحديث عن موضوع الفتنة والابتلاء في هذه السورة مطولاً مفصلاً وبوجه خاص عند ذكر قصص الأنبياء.

* تبتدئ السورة الكريمة بهذا البدء الصريح ﴿الَمْ ۝ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ۚ أَمْنَا ۖ وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾؟ وتمضي السورة تتحدث عن فريق من الناس يحسبون الإيمان كلمة تقال باللسان، فإذا نزلت بهم المحنة والشدة انتكسوا إلى جحيم الضلال، وارتدوا عن الإسلام تخلصاً من عذاب الدنيا، كأن عذاب الآخرة أهون من عذاب الدنيا ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ۚ أَمْنَا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ...﴾ الآيات.

* وتمضي السورة تتحدث عن «محنة الأنبياء» وما لاقوه من شدائد وأهوال في سبيل تبليغ رسالة الله، بدءاً بقصة نوح، ثم إبراهيم، ثم لوط، ثم شعيب، وتتحدث عن بعض الأمم الطغاة المتجبرين كعاد وئمود، وقارون، وهامان وغيرهم وتذكر ما حل بهم من الهلاك والدمار ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ الآيات.

* وفي قصص الأنبياء دروس من المحن والابتلاء، تتمثل في ضخامة الجهد وضآلة الحيلة، فهذا نوح عليه السلام يمكث في قومه تسعمائة وخمسين سنة يدعوهم إلى الله فما يؤمن معه إلا قليل ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ وهذا أبو الأنبياء إبراهيم الخليل يحاول هداية قومه بكل وسيلة، ويجادلهم بالحجة والبرهان فما تكون النتيجة إلا العلو والطغيان ﴿قَالُوا أَتُتْلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ...﴾ الآيات.

* وفي قصة لوط يظهر التبجح بالرديلة دون خجل أو حياء ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ۖ إِنَّكُمْ لَنَا تُؤْمِنُونَ أَلْفَ حِشَّةٍ مَا سَبَقَكُمْ بِهِكَ مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ الآيات، وبعد ذلك الاستعراض السريع لمحنة الأنبياء، تمضي السورة الكريمة تبين صدق رسالة محمد ﷺ فهو رجل أمي لم يقرأ ولم يكتب ثم جاءهم بهذا الكتاب المعجز، وهذا من أعظم البراهين

على أنه كلام رب العالمين ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبْطِلُونَ ﴾ وتنتقل السورة للحديث عن الأدلة والبراهين على القدرة والوحدانية منبثقة من هذا الكون الفسيح، ثم تختتم ببيان جزاء الذين صبروا أمام المحن والشدائد. وجاهدوا بأنواع الجهاد النفسي والمالي، ووقفوا في وجه المحنة والابتلاء ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

التسمية: سميت «سورة العنكبوت» لأن الله ضرب العنكبوت فيها مثلاً للأصنام المنحوتة، والآلهة المزعومة ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا... ﴾ الآيات.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ٣ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ٤ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٥ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ٦ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ٧ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٨ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ٩ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَذَّابٌ لِلَّهِ وَلَكِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ١٠ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ١١ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ١٢ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتَا لَا مَعْ أَثْقَالَهُمْ وَلَيْسَ لَكَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ١٣ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ١٤ فَأَبْجَنِيَهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ ١٥ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ١٦ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ١٧ وَإِنْ تَكْذَبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ١٨ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ١٩ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكُونُ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَنًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَنُكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرَةٍ ﴿٢٥﴾ ﴿٢٦﴾ فَامَنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ

اللغة: ﴿فِتْنَةً﴾ الفتنة: الابتلاء والاختبار ﴿أَنفَالَهُمْ﴾ جمع ثقل وهو الحمل الثقيل الذي ينوء به الإنسان، والمراد بالأتقال هنا الذنوب والأوزار ﴿كَلِثٌ﴾ أقام ومكث ﴿إِفْكَاً﴾ كذباً وزوراً ﴿تُقْلَبُونَ﴾ ترجعون وتردون.

سَبَبُ النُّزُول: عن سعد بن أبي وقاص قال: «كنت رجلاً باراً بأمي فلما أسلمت، قالت: ما هذا الدين الذي أحدثت يا سعد؟ لتدعن دينك هذا أو لا أكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي فيقال: يا قاتل أمه، قلت: لا تفعلني يا أمه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء أبداً، قال: فمكثت يوماً وليلة لا تأكل، فأصبحت قد جُهدت، ثم مكثت يوماً آخر وليلة لا تأكل فلما رأيت ذلك قلت: تعلمين والله يا أمه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء أبداً، فإن شئت فكلني، وإن شئت فدعي، فلما رأيت ذلك أكلت فأنزل الله هذه الآية ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ الآية (١).

(١) أسباب النزول للواحدي ١٩٥، وفي بعض الروايات كان أولادها إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فأها أي أدخلوا فيه عوداً ليفتحوه. (ش): إسناده حسن. وعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ نَزَلَتْ فِيهِ آيَاتُ مِنَ الْقُرْآنِ - قَالَ - حَلَفْتُ أَمْ سَعْدُ أَنْ لَا تَكَلِّمَهُ أَبَدًا حَتَّى يَكْفُرَ بِدِينِهِ وَلَا تَأْكُلَ وَلَا تَشْرَبَ. قَالَتْ زَعَمْتُ أَنَّ اللَّهَ وَصَّاكَ بِالذِّبْكَ وَأَنَا أُمُّكَ وَأَنَا أُمُّكَ بِهِذَا. قَالَ مَكَثْتُ ثَلَاثًا حَتَّى غَشِيَ عَلَيْهَا مِنَ الْجَهْدِ فَقَامَ ابْنُ لَهَا يُقَالُ لَهُ: عُمَارَةُ. فَسَقَاهَا فَجَعَلَتْ تَدْعُو عَلَى سَعْدٍ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا﴾ ﴿وَأِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي﴾ وَفِيهَا ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [رواه مسلم]. وفي رواية أن أُمَّ سَعْدٍ قَالَتْ: «أَلَيْسَ اللَّهُ قَدْ أَمَرَهُمْ بِالْبِرِّ؟ فَوَاللَّهِ لَا أَطْعَمُ طَعَامًا، وَلَا أَشْرَبُ شَرَابًا حَتَّى أَمُوتَ، أَوْ تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ. قَالَ: فَكَانُوا إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَطْعَمُوهَا شَجَرُوا فَاهَا بِعَصَا ثُمَّ أَوْجَرُوهَا، قَالَ: فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا﴾ الآية [العنكبوت: ٨]. [رواه الإمام أحمد في «المُسْنَد»، والترمذي، وصححه الألباني]. (شَجَرُوا فَاهَا بِعَصَا) أي جعلوا في شجرها عوداً حَتَّى فَتَحُوهُ. وَالشَّجَرُ: مَا بَيْنَ الْحَنَكَيْنِ، وَهُوَ مَخْرُجُ الْفَمِ، وَمَا انْفَتَحَ مِنْ مَنْطِقِ الْفَمِ وَمِلَتْقَى اللَّهْزِمَتَيْنِ. وَاللَّهْزِمَةُ: عَظْمٌ نَاتِعٌ فِي اللَّحْيِ تَحْتَ الْحَنَكِ وَهُمَا لَهْزِمَتَانِ. (أَوْجَرُوهَا) أي صَبَّوْا الطَّعَامَ فِي فَمِهَا.

التفسير: ﴿الْم﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن^(١) ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري أي أظنَّ الناس أن يُتركوا من غير افتتنان لمجرد قولهم باللسان: «آمناء؟» لا ليس كما ظنوا بل لا بدَّ من امتحانهم لتمييز الصادق من المنافق قال ابن جزي: نزلت في قوم من المؤمنين كانوا بمكة مستضعفين، منهم «عمار بن ياسر» وغيره، وكان كفار قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام، فضاقت صدورهم بذلك فأنسهم الله بهذه الآية ووعظهم وأخبرهم أن ذلك اختبار، ليوطنوا أنفسهم على الصبر على الأذى، والثبات على الإيمان، وأعلمهم أن تلك سيرته في عباده يسلِّط الكفار على المؤمنين ليمحِّصهم بذلك، ويظهر الصادق في إيمانه من الكاذب^(٢) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي ولقد اختبرنا وامتحننا من سبقهم بأنواع التكليف والمصائب والمحن قال «البيضاوي»: والمعنى أن ذلك سنة قديمة، جارية في الأمم كلها، فلا ينبغي أن يتوقع خلافه^(٣) ﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَذِبِينَ﴾ أي فليميزنَّ الله بين الصادقين في دعوى الإيمان، وبين الكاذبين فيه، وعبر عن الصادقين بلفظ الفعل ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ وعن الكاذبين باسم الفاعل ﴿الْكَذِبِينَ﴾ للإشارة إلى أن الكاذبين وصفتهم مستمر وأن الكذب راسخ فيهم بخلاف الصادقين فإن الفعل يفيد التجدد، قال الإمام الفخر: إن اسم الفاعل يدل في كثير من المواضع على ثبوت المصدر ورسوخه فيه، والفعل الماضي لا يدل عليه كما يقال: فلان شرب الخمر، وفلان شارب الخمر، فإنه لا يفهم من صيغة الفعل الثبوت والرسوخ^(٤) ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفُتُونَا﴾ أي أظن المجرمون الذين يرتكبون المعاصي والموبقات أنهم يفوتون من عقابنا ويُعجزوننا؟ ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بس ما يظنون قال الصاوي: والآية انتقال من توبيخ إلى توبيخ أشد، فالأول توبيخ للناس على ظنهم أنهم يفوتون عذاب الله ويفرون منه مع دوامهم على كفرهم^(٥) ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ﴾ لما بيَّن تعالى أن العبد لا يُترك في الدنيا سُدىً، بيَّن هنا أن من اعترف بالآخرة وعمل لها لا يضيع عمله، ولا يخيب أمله. والمعنى من كان يرجو ثواب الله فليصبر في الدنيا على المجاهدة في طاعة الله حتى يلقي الله فيجازه، فإن لقاء الله قريب الإتيان، وكل ما هو آتٍ قريب، والآية تسلية للمؤمنين

(١) انظر ما كتبناه حول الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

(٢) «التسهيل» ١١٣/٣.

(٣) «البيضاوي» ٩٧/٢.

(٤) «التفسير الكبير» ٢٩/٢٥.

(٥) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٢٣٠/٣.

ووعدهم بالخير في دار النعيم ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي هو تعالى السميع لأقوال العباد، العليم بأحوالهم الظاهرة والباطنة ﴿وَمَنْ جَاهِدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ أي ومن جاهد نفسه بالصبر على الطاعات، والكف عن الشهوات، فممنفعة جهاده إنما هي لنفسه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي مستغن عن العباد، لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العصاةين ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي لنمحو عنهم سيئاتهم التي سلفت منهم بسبب إيمانهم وعملهم الصالح ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ونجزهم بأحسن أعمالهم الصالحة وهو الطاعات ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ أي أمرناه أمراً مؤكداً بالإحسان إلى والديه غاية الإحسان، لأنهما سبب وجوده ولهما عليه غاية الفضل والإحسان، الوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق قال الصاوي: وإنما أمر الله الأولاد ببر الوالدين دون العكس، لأن الأولاد جُبلوا على القسوة وعدم طاعة الوالدين، فكلفهم الله بما يخالف طبعهم، والآباء مَجْبُولُونَ على الرحمة والشفقة بالأولاد فوكلهم لما جُبلوا عليه^(١) ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي وإن بذلا كل ما في وسعهما، وحرصا كل الحرص على أن تكفر بالله وتشرك به شيئاً لا يصح أن يكون إلهاً ولا يستقيم، فلا تطعهما في ذلك لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله ﴿إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي إليّ مرجع الخلائق جميعاً، مؤمنهم وكافرهم، برّهم وفاجرهم، فأجازي كلّاً بما عمل، وفيه وعد حسن لمن برّ والديه واتبع الهدى، ووعد لمن عقوق والديه واتبع سبيل الردى ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ أي لندخلهم في زمرة الصالحين في الجنة قال القرطبي: كرّر تعالى التمثيل بحالة المؤمنين العاملين لتحريك النفوس إلى نيل مراتبهم، وفي ﴿الصَّالِحِينَ﴾ مبالغة أي الذين هم نهاية الصلاح وأبعد غاياته^(٢)، ولما ذكر تعالى ما أعدّه للمؤمنين الخُلص ذكر حال المنافقين المذبذبين فقال ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ أي ومن الناس فريق يقولون بألسنتهم: آمنا بالله، فإذا أُوذِيَ أحدهم بسبب إيمانه ارتد عن الدين وجعل ما يصيبه من أذى الناس سبباً صارفاً له عن الإيمان كعذاب الله الشديد الذي يصرف الإنسان عن الكفر قال المفسرون: والتشبيه ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ من حيث إن عذاب الله مانع للمؤمنين من الكفر، فكذلك المنافقون جعلوا أذاهم مانعاً لهم من الإيمان، وكان مقتضى إيمانهم أن يصبروا ويتشجعوا، ويروا في العذاب عذوبة، وفي المحنة منحة، فإن العاقبة للمتقين قال الإمام الفخر: أقسام المكلفين

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/ ٢٣١.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٣٢٩.

ثلاثة: مؤمنٌ ظاهر بحسن اعتقاده، وكافرٌ مجاهر بكفره وعناده، ومذبذبٌ بينهما يظهر الإيمان بلسانه ويضمّر الكفر في فؤاده، فلما ذكر تعالى القسمين بقوله ﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ ذكر القسم الثالث هنا ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاللّطِيفَةِ فِي الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ أَرَادَ بَيَانُ شَرَفِ الْمُؤْمِنِ الصَّابِرِ، وَخَسَّةَ الْمُنَافِقِ الْكَافِرِ، فَقَالَ هُنَاكَ: أَوْذَى الْمُؤْمِنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِيَتَرَكَ سَبِيلَهُ وَلَمْ يَتَرَكَهُ، وَأَوْذَى الْمُنَافِقِ الْكَافِرِ فَتَرَكَ اللَّهَ بِنَفْسِهِ، وَكَانَ يُمْكِنُهُ أَنْ يَظْهَرَ مُوَافَقَتُهُمْ وَيَكُونَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنًّا بِالْإِيمَانِ، وَمَعَ هَذَا لَمْ يَفْعَلْهُ بَلْ تَرَكَ اللَّهَ بِالْكَلِيَّةِ^(١)﴾ وَلَيْنَ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أَي وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ قَرِيبٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَفَتْحٌ وَمَغَانِمٌ قَالَ أُولَئِكَ الْمَذْبُذِبُونَ: إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ نَنْصُرُكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ، فَقَاسَمُونَا فِيمَا حَصَلَ لَكُمْ مِنَ الْغَنَائِمِ قَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾؟ اسْتَفْهَامٌ تَقْرِيرٌ أَيْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ هُوَ الْعَالَمُ بِمَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ الضَّمَائِرُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَبِمَا فِي قُلُوبِ النَّاسِ مِنْ إِيمَانٍ وَنِفَاقٍ؟ بَلَى إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، ثُمَّ أَكَّدَ تَعَالَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ أَي وَلِيُظْهِرَنَّ اللَّهُ لِعِبَادِهِ حَالَ الْمُؤْمِنِينَ وَحَالَ الْمُنَافِقِينَ حَتَّى يَتَمَيَّزُوا فَيَفْتَضِحَ الْمُنَافِقُ، وَيُظْهَرَ شَرَفُ الْمُؤْمِنِ الصَّادِقِ قَالَ الْمَفْسُرُونَ: وَالْمَرَادُ ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ﴾ إِظْهَارُ عِلْمِهِ لِلنَّاسِ حَتَّى يَصْبِحَ مَعْلُومًا لَدَيْهِمْ، وَإِلَّا فَاللَّهُ عَالِمٌ بِمَا كَانَ، وَمَا يَكُونُ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، فَهُوَ إِذَا عِلْمٌ إِظْهَارٌ وَإِبْدَاءٌ، لَا عِلْمٌ غَيْبٍ وَخَفَاءٌ بِالنِّسْبَةِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ فَسَّرَ ابْنُ عَبَّاسٍ الْعِلْمَ بِمَعْنَى الرُّؤْيَا^(٢) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ﴾ أَي قَالَ الْكَافِرُ لِلْمُؤْمِنِينَ اكْفُرُوا كَمَا كَفَرْنَا، وَاتَّبِعُوا دِينَنَا وَنَحْنُ نَحْمِلُ عَنْكُمْ الْإِثْمَ وَالْعِقَابَ، إِنْ كَانَ هُنَاكَ عِقَابٌ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ: أَفْعَلْ هَذَا وَخَطِيئَتِكَ فِي عُنْقِي^(٣)، فَإِنْ قِيلَ: ﴿وَلْنَحْمِلْ﴾ صِيغَةُ أَمْرٍ، فَكَيْفَ يَصِحُّ أَمْرُ النَّفْسِ مِنَ الشَّخْصِ؟ فنقول: الصِّيغَةُ أَمْرٌ وَالْمَعْنَى شَرْطٌ وَجَزَاءٌ، أَيْ إِنْ اتَّبَعْتُمُونَا حَمَلْنَا خَطَايَاكُمْ ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَي وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ شَيْئًا مِنْ خَطَايَاهُمْ، لِأَنَّهُ لَا يَحْمِلُ أَحَدٌ وَزَرَ أَحَدٍ ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أَي وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ فِي ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ﴿وَلْيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَتْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ أَي

(١) «التفسير الكبير» ٣٧/٢٥.

(٢) انظر ما كتبه العلامة ابن كثير في هذا الشأن ٢٨/٣. (ش): قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٦/٢٦٣): «وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ. وَهَذَا مُجْمَعٌ عَلَيْهِ عِنْدَ أَيْمَةِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ؛ وَلِهَذَا يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ فِي مِثْلِ: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ [البقرة: ١٤٣]: إِذَا لِنَرَى؛ وَذَلِكَ أَنَّ الرُّؤْيَا إِنَّمَا تَتَعَلَّقُ بِالْمَوْجُودِ، وَالْعِلْمُ أَعْمُ مِنَ الرُّؤْيَا، فَإِنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِالْمَعْدُومِ وَالْمَوْجُودِ».

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/٣٠.

وليحملنَّ أوزارهم وأوزار من أضلّوهم دون أن ينقص من أوزار أولئك شيء كما في الحديث «وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»^(١) ﴿وَلْيَسْأَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي وليسألنَّ سؤال توبيخ وتقريع ﴿عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي عما كانوا يخلقونه من الكذب على الله عزَّ وجلَّ، ثم ذكر تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم قصة نوح تسليّة له عما يلقيه من أذى المشركين فقال ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ أي ولقد بعثنا نوحًا إلى قومه فمكث فيهم تسعمائة وخمسين سنة يدعوهم إلى توحيد الله جلَّ وعلا، وكانوا عبدة أصنام فكذبوه ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي فأهلكهم الله بالطوفان وهم مصرّون على الكفر والضلال قال (أبو السعود): والطوفان: كل ما يطوف بالشيء على كثرة وشدة، من السيل والريح والظلام، وقد غلب على طوفان الماء^(٢) قال الرازي: وفي قوله ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ إشارة إلى لطيفة، وهي أن الله لا يعذب على مجرد وجود الظلم، وإنما يعذب على الإصرار على الظلم ولهذا قال ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ يعني أهلكهم وهم على ظلمهم^(٣) ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السِّفِينَةَ﴾ أي فأنجينا نوحًا من الغرق ومن ركب معه في السفينة من أهله وأولاده وأتباعه المؤمنين ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أي وجعلنا تلك الحادثة الهائلة عظة وعبرة للناس بعدهم يتعظون بها ﴿وَابْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ قال ابن كثير: يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله (إبراهيم) إمام الحنفاء، أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإخلاص له في التقوى، وطلب الرزق منه وحده، وتوحيده في الشكر فإنه المشكور على النعم لا مُسْدي لها غيره^(٤) ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي عبادة الله وتقواه خير لكم من عبادة الله الأوثان إن كنتم تعلمون الخير من الشر وتفرقون بينهما ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾ أي أنتم لا تعبدون شيئًا ينفع أو يضر، وإنما تعبدون أصنامًا من حجارة صنعتوها بأيديكم ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ أي وتصنعون كذبًا وباطلاً قال ابن عباس: تنحتون وتصورون إفكًا^(٥) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ

(١) الحديث في الصحيحين. (ش): قَالَ ص: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا». (زَوَاهُ مُسْلِمٌ، والحديث ليس في البخاري).

(٢) (أبو السعود) ١٦٦/٤.

(٣) (التفسير الكبير) ٤٢/٢٥.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٢. (ش): أَسَدَى إِلَيْهِ مَعْرُوفًا/ أَسَدَى لَهُ مَعْرُوفًا: قَدَّمَهُ لَهُ، أَذَاهُ لَهُ، أَحْسَنَ إِلَيْهِ.

(٥) هذا هو الظاهر أنها من الخلق وهو قول مجاهد والحسن واختاره ابن جرير، وقيل أنه من الاختلاق أي تخلقون وتقولون الكذب.

مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا ﴿١﴾ أَيِ إِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ هُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يَرْزُقوكُمْ ﴿٢﴾ فَأَبْنِعُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴿٣﴾ أَيِ فَاطْلِبُوا الرِّزْقَ مِنْ اللَّهِ وَحْدَهُ، فَإِنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى ذَلِكَ ﴿٤﴾ وَأَعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ ﴿٥﴾ أَيِ وَخُصُّوهُ وَحْدَهُ بِالْعِبَادَةِ وَاخْشَعُوا وَاخْضَعُوا لَهُ، وَاشْكُرُوهُ عَلَى نِعْمَةِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْكُمْ ﴿٦﴾ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧﴾ أَيِ إِلَيْهِ لَا إِلَى غَيْرِهِ مَرْجِعُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ﴿٨﴾ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أَمْرٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ ﴿٩﴾ لَمَّا فَرَّغَ مِنْ بَيَانِ التَّوْحِيدِ أَتَى بَعْدَهُ بِالْتَّهْدِيدِ أَيِ وَإِنْ تُكَذِّبُونِي فَلَنْ تَضُرُونِي بِتَكْذِيبِكُمْ وَإِنَّمَا تَضُرُّونَ أَنْفُسَكُمْ فَقَدْ سَبَقَ قَبْلَكُمْ أَمْرٌ كَذَبُوا رَسُلَهُمْ فَحَلَّ بِهِمْ عَذَابُ اللَّهِ، وَسَيَحْلُ بِكُمْ مَا حَلَّ بِهِمْ ^(١) ﴿١٠﴾ وَمَا عَلَى الرُّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ أَيِ وَلَيْسَ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا تَبْلِيغُ أَوْامِرِ اللَّهِ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ هِدَايَةُ النَّاسِ قَالَ الطَّبْرِيُّ: وَمَعْنَى ﴿الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أَيِ الَّذِي يُبَيِّنُ لِمَنْ سَمِعَهُ مَا يُرَادُ بِهِ، وَيَفْهَمُ بِهِ مَا يَعْنِي بِهِ ^(٢) ﴿١٢﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يَبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴿١٣﴾ الْإِسْتِفْهَامُ التَّوْبِيخُ لِمَنْكَرِي الْحَشْرِ أَيِ أَوْلَمْ يَرِ الْمَكْذُوبُونَ بِالْأَدْلَالِ السَّاطِعَةِ كَيْفَ خَلَقَ تَعَالَى الْخَلْقَ ابْتِدَاءً مِنَ الْعَدَمِ، فَيَسْتَدْلُونَ بِالْخَلْقَةِ الْأُولَى عَلَى الْإِعَادَةِ فِي الْحَشْرِ؟ قَالَ قَتَادَةُ: الْمَعْنَى أَوْلَمْ يَرَوْا بِالْأَدْلَالِ وَالنَّظَرِ كَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُعِيدَ اللَّهُ الْأَجْسَامَ بَعْدَ الْمَوْتِ؟ ﴿١٤﴾ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٥﴾ أَيِ سَهْلٌ عَلَيْهِ تَعَالَى فَكَيْفَ يَنْكُرُونَ الْبَعْثَ وَالنَّشُورَ؟ فَإِنْ مِنْ قَدَرٍ عَلَى الْبَدْءِ قَدَرٌ عَلَى الْإِعَادَةِ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَمَعْنَى الْآيَةِ عَلَى مَا قَالَهُ الْبَعْضُ: أَوْلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يَبْدِئُ اللَّهُ الثَّمَارَ فَتَحْيَا ثُمَّ تَفْنَى ثُمَّ يُعِيدُهَا أَبَدًا، وَكَذَلِكَ يَبْدَأُ خَلْقَ الْإِنْسَانِ ثُمَّ يَهْلِكُهُ بَعْدَ أَنْ خَلَقَ مِنْهُ وَلَدًا، وَخَلَقَ مِنَ الْوَلَدِ وَلَدًا، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْحَيَوَانَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ قُدْرَتَهُ عَلَى الْإِبْدَاءِ وَالْإِيجَادِ، فَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى الْإِعَادَةِ لِأَنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَمْرًا قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ^(٣) ﴿١٦﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴿١٧﴾ أَيِ قُلْ لَهُؤُلَاءِ الْمُنْكَرِينَ لِلْبَعْثِ: سِيرُوا فِي أَرْجَاءِ الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ أَنْشَأَ اللَّهُ الْعَظِيمُ الْقَدِيرُ خَلَقَ الْخَلْقَ عَلَى كَثْرَتِهِمْ وَتَفَاوُتِ هَيْئَاتِهِمْ، وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِهِمْ وَأَلْوَانِهِمْ وَطِبَائِعِهِمْ، وَانظُرُوا إِلَى مَسَاكِنِ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ وَدِيَارِهِمْ وَأَثَارِهِمْ كَيْفَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ، لَتَعْلَمُوا بِذَلِكَ كَمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ! ﴿١٨﴾ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴿١٩﴾ أَيِ ثُمَّ هُوَ تَعَالَى يُنْشِئُهُمْ عِنْدَ الْبَعْثِ نَشْأَةً أُخْرَى ﴿٢٠﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢١﴾ أَيِ لَا يَعْجِزُهُ تَعَالَى شَيْءٌ وَمِنَ الْبَدْءِ وَالْإِعَادَةِ ﴿٢٢﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ ﴿٢٣﴾ أَيِ هُوَ الْحَاكِمُ الْمُتَصَرِّفُ الَّذِي يَفْعَلُ

(١) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَالظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّ كُلَّ هَذَا مِنْ كَلَامِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَحْتَجُّ بِهِ عَلَيْهِمْ لِإثْبَاتِ الْمَعَادِ، لِقَوْلِهِ بَعْدَ هَذَا كَلَهُ: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ وَذَهَبَ الْإِمَامُ الطَّبْرِيُّ إِلَى أَنَّ هَذَا مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى لِكُفَّارِ مَكَّةَ وَمُرَادُهُ بِهِ تَسْلِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ وَلَيْسَ مِنْ كَلَامِ إِبْرَاهِيمَ، وَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ابْنُ كَثِيرٍ أَظْهَرَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(٢) «تفسير الطبري» ٨٩/٢٠.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٣/٣٣٦.

ما يشاء ويحكم ما يريد، فله الخلق والأمر، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ﴿وَلِيَّهِ تُقْلَبُونَ﴾ أي وإليه ترجعون يوم القيامة ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي لا تفوتون من عذاب الله، وليس لكم مهربٌ في الأرض ولا في السماء قال القرطبي: والمعنى لو كنتم في السماء ما أعجزتم الله كقوله ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] ^(١) ﴿وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي ليس لكم غير الله وليٌّ يحميكم من بلائه، ولا نصير ينصركم من عذابه ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ﴾ أي كفروا بالقرآن والبعث ^(٢) ﴿أُولَٰئِكَ يَكْسِبُونَ نَارًا﴾ أي أولئك المنكرون الجاحدون فظنوا من رحمتي قال ابن جرير: وذلك في الآخرة عند رؤية العذاب ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي لهم عذاب موجه مؤلم ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ أي فما كان ردُّ قومه عليه حين دعاهم إلى الله ونهاهم عن الأصنام إلا أن قال كبراًؤهم المجرمون: اقتلوه لتستريحوا منه أو حرقوه بالنار ﴿فَأَنجَيْنَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ أي فأنقذه في النار فجعلها برداً وسلاماً عليه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي إنَّ في إنجائنا لإبراهيم من النار لدلائل وبراهين ساطعة على قدرة الله لقوم يصدقون بوجود الله وكمال قدرته وجلاله ^(٣) ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾ أي قال إبراهيم لقومه توبيخاً لهم وتقريعاً: إنما عبدتم هذه الأوثان والأصنام وجعلتموها آلهة مع الله ﴿مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي من أجل أن تدوم المحبة والألفة بينكم في هذه الحياة باجتماعكم على عبادتها ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي ثم في الآخرة ينقلب الحال فتصبح هذه الصداقة والمودة عداوةً وبغضاء حيث يقع التناكر ويتبرأ القادة من الأتباع ويلعن الأتباع القادة، لأن صداقتهم في الدنيا لم تكن من أجل الله ﴿وَمَا وَابَكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّصِيرٍ﴾ أي ومصيركم جميعاً جهنم وليس لكم ناصر أو معين يخلصكم منها ﴿فَأَمَّن لَّهُ لُوطٌ﴾ أي فأمن معه لوط وصدقه وهو ابن أخيه وأول من آمن به لما رأى من الآيات الباهرة ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَيْحٍ﴾ أي وقال الخليل إبراهيم، إني تاركٌ وطني ومهاجرٌ من بلدي رغبةً في رضى الله قال المفسرون: هاجر من سواد العراق ^(٤) إلى فلسطين

(١) نفس المرجع السابق ١٣/ ٣٣٧.

(٢) «تفسير الطبري» ٩٠/ ٢٠.

(٣) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٤) (ش): سواد المدينة: ما حولها من القرى والريف. وسواد العراق: ما بين البصرة والكوفة وما حولهما من القرى.

والشام ابتغاء إظهار الدين والتمكن من نشره ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي هو العزيز الذي لا يذل من اعتمد عليه، الحكيم الذي يضع الأشياء مواضعها ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ أي وهبنا لإبراهيم - لما فارق قومه في الله - ولداً صالحاً هو إسحاق وولد ولد وهو يعقوب بن إسحاق ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ أي خصصناه بهذا الفضل العظيم حيث جعلنا كل الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته، وجعلنا الكتب السماوية نازلةً على الأنبياء من بنيه قال ابن كثير: وهذه خصلة سنيّة^(١) عظيمة مع اتخاذ الله إياه خليلاً، وجعله إماماً للناس، أن جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم إلا وهو من سلالته، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة ولده «يعقوب» ولم يوجد نبي من سلالة «إسماعيل» سوى النبي العربي عليه أفضل الصلاة والتسليم ﴿وَأَيُّنَهُ أُجْرُهُ فِي الدُّنْيَا﴾ أي وتركنا له الثناء الحسن في جميع الأديان ﴿وَأَيُّنَهُ فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّلَاحِينَ﴾ أي وهو في الآخرة في عداد الكاملين في الصلاح، وهذا ثناء عظيم على أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع فيما يلي:

- ١ - الاستفهام للتقريع والتوبيخ والإنكار ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا﴾.
- ٢ - الطباق بين ﴿صَدَقُوا.. الْكَذِبِينَ﴾ وبين ﴿آمَنُوا.. الْمُتَنَفِّقِينَ﴾ وبين ﴿يُعَذِّبُ.. وَيَرْحَمُ﴾ وبين ﴿يُبَدِّئُ.. يُعِيدُهُ﴾.
- ٣ - التأكيد بإن واللام ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ لأن المخاطب منكّر.
- ٤ - صيغة المبالغة ﴿الَسَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.
- ٥ - الجناس غير التام ﴿سَيُورُوا﴾.
- ٦ - التشبيه المرسل المجمل ﴿فَتَنَّا النَّاسَ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ حذف منه وجه الشبه فهو مجمل.
- ٧ - التفنن في التعبير ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ لم يقل إلا خمسين سنة تفنناً لأن التكرار في الكلام الواحد مخالف للبلاغة إلا إذا كان لغرض من تفخيم أو تهويل مثل ﴿أَلْفَ قَارِعَةٍ﴾ ① ما أَلْفَ قَارِعَةٍ.
- ٨ - أسلوب الإطناب ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا.. إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ لغرض التشنيع عليهم في عبادة الأوثان.

(١) (ش): سني / سني إلى: يسنى، سنًا وسنَاءً، فهو سنيّ: سني البرق: سنًا؛ أعضاء. سني إلى المعالي: سنا؛ علا وارتفع وارتقى.

٩ - أسلوب الإيجاز ﴿أَقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ أي حرقوه في النار ثم قال ﴿فَأَنْجَاهُ اللَّهُ﴾ أي ففعلوا فأنجاه الله من النار.

١٠ - الاستعارة اللطيفة ﴿وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ شبه الذنوب بالأثقال، لأنها تثقل كاهل الإنسان.

قال الله تعالى:

وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَنَآتُونَ الْفَدْحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَيْنُكُمْ لَنَآتُوكَ الرِّجَالُ وَتَقَطُّعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانَُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لَوْطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّه وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَافَكَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَانَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مَنَزَلُوكَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُومُ عَبْدُ اللَّهِ وَاللَّهُ وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِنِهِمْ وَزَيْتٍ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فصدَّهُمْ عَنْ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقُرُونًا وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ أَتُلْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ

المناسبة: لما ذكر تعالى قصة نوح وإبراهيم، وما فيهما من مواطن العظة والعبرة، ذكر

هنا قصص الأنبياء «لوط، شعيب، هود، صالح» على سبيل الاختصار لبيان عاقبة الله في المكذبين.. وكل ذلك لتأكيد ما ورد في صدر السورة الكريمة من أن الابتلاء سنة الحياة، وأنه من السنن الكونية على مر العصور والدهور.

اللغة: ﴿الْفَحِشَةَ﴾ الفعل المتناهية في القبح قال أهل اللغة: الفاحشة: القبيح الظاهر قُبْحُهُ، وكل فعل زاد في القبح والشناعة فهو فاحشة ﴿نَادِيَكُمْ﴾ النادي: المجلس الذي يجتمع فيه القوم للسمر أو المشورة أو غيرهما ﴿تَعْتَوُوا﴾ العتو والعُتْيُ أشدُّ الفساد يقال: عشي يعشي، وعثا يعثو بمعنى واحد^(١) ﴿رَجَزًا﴾ عذاباً ﴿جَثْمِينَ﴾ جثم: إذا قعد على ركبته ﴿سَكِينِينَ﴾ فائتين من عذابنا ﴿أَوْهَبَ﴾ أضعف، والوهن: الضعف.

التفسير: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ أي واذكر رسولنا لوطاً عليه السلام حين قال لقومه ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ أي إنكم يا معشر القوم لتتكون الفعل المتناهية في القبح ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي لم يسبقكم بهذه الشنيعة، والفعلة القبيحة - وهي اللواط - أحد من الخلق، ثم فسر تلك الشنيعة فقال ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ أي إنكم لتأتون الذكور في الأدبار وذلك منتهى القذارة والخسة قال المفسرون: لم يقدم أحد قبلهم عليها اشمئزازاً منها في طباعهم لإفراط قُبْحِها حتى أقدم عليها قوم لوط، ولم ينز ذكر على ذكر قبل قوم لوط^(٢) ﴿وَتَقَطَّعُوا السَّبِيلَ﴾ أي وتقطعون الطريق على المارة بالقتل وأخذ المال، وكانوا قطاع الطريق قال ابن كثير: كانوا يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم^(٣) ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ﴾ أي وتفعلون في مجلسكم ومتداكم ما لا يليق من أنواع المنكرات علناً وجهاً، أما كفاكم قُبْحُ فعلكم حتى ضممتم إليه قُبْحُ الإظهار؟! قال مجاهد: كانوا يأتون الذكور أمام الملاء يرى بعضهم بعضاً، وقال ابن عباس: كانوا يحذفون بالحصى من مرهم مع الفحش في المزاح، وحل الإزار، والصفيير وغير ذلك من القبائح^(٤) ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ أي فما كان رد قومه عليه حين نصحهم وذكرهم وحذَّهم ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ﴾ أي إلا أن قالوا على سبيل الاستهزاء: اتتنا يا لوط بالعذاب الذي تعدنا به ﴿إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي كنت صادقاً فيما تهددنا به من نزول العذاب قال الإمام الفخر: فإن قيل إن الله تعالى قال ها هنا ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا﴾ وقال في موضع آخر ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ [النمل: ٥٦]

(١) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٣٤٣.

(٢) نقلاً عن «البحر المحيط» ٧/ ١٤٩. (ش): نزا الثور: وثب على أُنثاه.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٥.

(٤) (ش): (يَحْذِفُونَ بِالْحَصَى): يرمون بالحصى. صَفَرَ الشَّخْصُ، صَفِيرًا: صَوَّتَ بِالنَّفْخِ مِنْ شَفَتَيْهِ أَوْ مِنْ أَدَاةٍ.

فكيف وجه الجمع بينهما؟ فنقول: إن لوطاً كان ثابتاً على الإرشاد، مكرراً عليهم النهي والوعيد، فقالوا أولاً: اتتنا بعذاب الله، ثم لما كثر منه ذلك ولم يسكت عنهم قالوا: أخرجوا آل لوط^(١)، ثم إن لوطاً لما يئس منهم طلب النصرة من الله ﴿قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي قال لوط: رَبِّ أَهْلِكُهُمْ وانصُرني عليهم فإنهم سفهاء مفسدون لا يُرجى منهم صلاح وقد أغرقوا في الغي والفساد قال الرازي: واعلم أن نبياً من الأنبياء ما طلب هلاك قوم إلا إذا علم أن عدمهم خير من وجودهم كما قال نوح ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ [نوح: ٢٧] فكذلك لوط لما رأى أنهم يفسدون في الحال، ولا يرجى منهم صلاح في المال طلب لهم العذاب^(٢) ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ المراد بالرسول هنا «الملائكة» والبشرى هي تبشير إبراهيم بالولد، أي لما جاءت الملائكة تبشّر إبراهيم بسلام حليم ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ أي جئنا لنهلك قرية قوم لوط ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانَُوا ظَالِمِينَ﴾ أي لأن أهلها مُمَعِنُونَ في الظلم والفساد^(٣)، طبعتهُم البغي والعناد قال المفسرون: لما دعا لوط على قومه، استجاب الله دعاءه، وأرسل ملائكته لإهلاكهم، فمروا بطريقهم على إبراهيم أولاً فبشروه بسلام وذرية صالحة، ثم أخبروه بما أرسلوا من أجله، فجادلهم بشأن ابن أخيه لوط ﴿قَالَ إِنَّكَ فِيهَا لُوطٌ﴾ أي كيف تهلكون أهل القرية وفيهم هذا النبي الصالح «لوط»؟ ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا﴾ أي نحن أعلم به وبمن فيها من المؤمنين قال الصاوي: وهذا بعد المجادلة التي تقدمت في سورة هود ﴿يَجِدُونَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤] حيث قال لهم: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا، إلى أن قال: أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد؟ قالوا: لا. فقال لهم: ﴿إِنَّكَ فِيهَا لُوطٌ﴾ فأجابوه بقولهم: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا﴾ ثم بشروه بإنجاء لوط والمؤمنين ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ، كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي سوف ننجيه مع أهله من العذاب، إلا امرأته فستكون من الهالكين لأنها كانت تماليئهم على الكفر^(٤)، ثم ساروا من عنده فدخلوا على «لوط» في صورة شبّان حسان ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَافَ بِهِمْ ذُرْعًا﴾ أي ولما دخلوا على لوط حزن بسببهم، وضاق صدره من مجيئهم لأنهم حسان الوجوه في صورة أضياف، فخاف عليهم

(١) «التفسير الكبير» ٥٩/٢٥.

(٢) «التفسير الكبير» ٥٩/٢٥.

(٣) (ش): أَمَعَنَ في الأمر: جدّ وبالغ في استقصائه وأطال التفكير فيه.

(٤) حاشية الصاوي ٢٣٦/٣.

(٥) (ش): أي تساعدهم على الكفر. يقال: مالاً صديقَه على الأمر / مالاً صديقَه في الأمر: ناصره، ماشاه وساعده وعاونه.

من قومه، فأعلموه أنهم رسل ربه ﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ أي لا تخف علينا ولا تحزن بسببنا، فلن يصل هؤلاء المجرمون إلينا ﴿إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تَكُ كَانَتْ مِنْكَ الْغَيْرِيبُ﴾ أي كانت من الهالكين الباقين في العذاب ﴿إِنَّا مُنْزِلُوكَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنْ رَبِّ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي منزلون عليهم عذاباً من السماء بسبب فسقهم المستمر قال ابن كثير: وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض، ثم رفعها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم، وأرسل عليهم حجارة من سجيل منصود، وجعل مكانها بحيرة خبيثة متنة، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد، وهم من أشد الناس عذاباً يوم المعاد^(١) ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً﴾ أي ولقد تركنا من هذه القرية علامة بينة واضحة، هي آثار منازلهم الخربة ﴿لَقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي لقوم يتفكرون ويتدبرون ويستعملون عقولهم في الاستبصار والاعتبار، ثم أخبر تعالى عن قصة شعيب فقال ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي وأرسلنا إلى قوم مدين أخاهم شعيباً ﴿فَقَالَ يَوْمَ يَقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أي فقال لقومه ناصحاً ومذكراً: يا قوم وحدوا الله وخافوا عقابه الشديد في اليوم الآخر ﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي لا تسعوا بالإفساد في الأرض بأنواع البغي والعدوان ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّحْفَةُ﴾ أي فكذبوا رسولهم شعيباً فأهلكهم الله برجفة عظيمة مدمرة زلزلت عليهم بلادهم، وصيحة هائلة أخرجت القلوب من حناجرها ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِمِينَ﴾ أي فأصبحوا هلكى باركين على الركب ميتين ﴿وَعَادَا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكَنِهِمْ﴾ أي وأهلكنا عاداً وثمود، وقد ظهر لكم يا أهل مكة من منازلهم بالحجاز واليمن آيتنا في هلاكهم أفلا يعتبرون؟ ﴿وَزَيْتَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ أي وحسن لهم الشيطان أعمالهم القبيحة من الكفر والمعاصي حتى رأوها حسنة ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي فمنعهم عن طريق الحق، وكانوا عقلاء متمكنين من النظر والاستدلال، لكنهم لم يفعلوا تكبراً وعناداً ﴿وَقُرُونُكَ وَفِرْعَوْنُكَ وَهَمْرُكَ﴾ أي وأهلكنا كذلك الجبابرة الظالمين، ﴿وَقُرُونُكَ﴾ صاحب الكنوز الكثيرة ﴿وَفِرْعَوْنُكَ﴾ صاحب الملك والسلطان، ووزيره ﴿وَهَمْرُكَ﴾ الذي كان يُعينه على الظلم والطغيان ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي ولقد جاءهم موسى بالحجج الباهرة، والآيات الظاهرة ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي فاستكبروا عن عبادة الله وطاعة رسوله ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ أي وما كانوا يثبِتوا من عذابنا قال الطبري: أي ما كانوا ليُفوتونا بل كنا مقتدرين عليهم^(٢) ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ أي فكلًّا من

(١) «مختصر تفسير ابن كثير».

(٢) «تفسير الطبري» ٩٦/٢٠.

هو لاء المجرمين أهلكناه بسبب ذنبه وعاقبناه بجنايته قال ابن كثير: أي وكانت عقوبته بما يناسبه^(١) ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ أي ريحاً عاصفة مدمرة فيها حصباء «حجارة» كقوم لوط ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ أي ومنهم من أخذته صيحة العذاب مع الرجفة كشمود ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ أي خسفنا به وبأملاكه الأرض حتى غاب فيها كقارون وأصحابه ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ أي أهلكناه بالغرق كقوم نوح وفرعون وجنده ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ﴾ أي وما كان الله ليعذبهم من غير ذنب فيكون لهم ظالماً ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي ولكن ظلموا أنفسهم فاستحقوا العذاب والدمار، ثم ضرب تعالى مثلاً للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله فقال ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنَكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ أي مثل الذين اتخذوا من دون الله أصناماً يعبدونها في اعتمادهم عليها ورجائهم نفعها كمثل العنكبوت في اتخاذها بيتاً لا يغني عنها في حر ولا برد، ولا مطر ولا أذى قال القرطبي: هذا مثل ضربه الله سبحانه لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره، كما أن بيت العنكبوت لا يقىها حرّاً ولا برداً^(٢) ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنَكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي وإن أضعف البيوت لبیت العنكبوت لتفاهته وحقارته، لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهما ما عبدوها ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي هو تعالى عالم بما عبده من دونه لا يخفى عليه ذلك، وسيجازيهم على كفرهم ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي وهو جل وعلا العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ أي وتلك الأمثال نبينها للناس في القرآن لتقريبها إلى أذهانهم ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ أي وما يدركها ويفهمها إلا العالمون الراسخون، الذين يعقلون عن الله عز وجل مراده ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي خلقهما بالحق الثابت لا على وجه العبث واللعب ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إن في خلقهما بذلك الشكل البديع، والصنع المحكم لعلامة ودلالة للمصدقين بوجود الله ووحدانيته^(٣) ﴿أَتُلْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي اقرأ يا محمد هذا القرآن المجيد الذي أوحاه إليك ربك، وتقرب إليه بتلاوته وترداده^(٤)، لأن فيه محاسن الآداب ومكارم الأخلاق ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أي دُم على إقامتها بأركانها

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣٧/٣.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٣/٣٤٥ نقلاً عن الفراء.

(٣) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح.

(٤) (ش): ترديد: تكرر وإعادة.

وشروطها وآدابها فإنها عماد الدين ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ أي إن الصلاة الجامعة لشروطها وآدابها، المستوفية لخشوعها وأحكامها، إذا أداها المصلي كما ينبغي، وكان خاشعاً في صلاته، لعظمة ربه، متدبراً لما يتلو، نهتاً عن الفواحش والمنكرات ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي ولذكر الله أكبر من كل شيء في الدنيا، وهو أن تتذكر عظمته وجلاله، وتذكره في صلاتك وفي بيعك وشرائك، وفي أمور حياتك ولا تغفل عنه في جميع شؤونك ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ أي يعلم جميع أعمالكم وأفعالكم فيجازيكم عليها أحسن المجازاة، قال أبو العالية: إن الصلاة فيها ثلاث خصال: الإخلاص، والخشية، وذكر الله؛ فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر الله - القرآن - يأمره وينهاه فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة^(١).

البلاغة: تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - التأكيد بعده مؤكدات والإطناب بتكرار الفعل تهجيناً لعملهم القبيح وتوبيخاً ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَحْشَاءَ النَّارِ أَيْنُكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ الآية.
- ٢ - الاستهزاء والسخرية ﴿أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وجواب الشرط محذوف دل عليه السابق أن إن كنت صادقاً فأتنا به.
- ٣ - التنكير لإفادة التهويل ﴿رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي رجزاً عظيماً هائلاً.
- ٤ - تقديم المفعول للعناية والاهتمام، والإجمال ثم التفصيل ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ إلخ.
- ٥ - التشبيه التمثيلي ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ شبه الله الكافرين في عبادتهم للأصنام بالعنكبوت في بنائها بيتاً ضعيفاً واهياً يتهاوى من هبة نسيم أو من نفخة فم، وسمي تمثلياً لأن وجه الشبه صورة منتزعة من متعدد.

- ٦ - توافق الفواصل في الحرف الأخير وما فيه من جرس عذب بديع مثل ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ .. إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿وَأَنَّ أَوَّهَكَ الْبُيُوتَ لَبِثَ الْعَنْكَبُوتِ﴾ ومثل ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ أَهْلَهَا﴾. آية بينة لقوم يعقلون ﴿إِلَخ﴾ وهو من خصائص القرآن.

تنبيه: أفادت الآية أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ

لما قيل له: إن فلاناً يصلي الليل سرق فقال: «سَتَمْنَعُهُ صَلَاتَهُ» رواه البزار^(١)، يريد عليه السلام أن الصلاة إذا كانت على الوجه الأكمل، تنهى صاحبها عن الفحشاء، ولا تزيده بعداً بل تزيده قرباً.

قال الله تعالى:

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي
أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ
الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا
الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَزَبْتَ الْمَبْطُلُونَ
﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبَيِّنُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾
وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾
أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتٌ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَى لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَسَتَجِدُنَا بِالْعَذَابِ
وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلِئِنْ
جِئْتَهُمْ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُقُوا مَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَجْعَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ
ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَنِّ مِنْ
دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ
مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي
الْفُلِكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا بَخَّسَهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ
وَلِيَسْتَمْنَعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُخَفِّطُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ

(١) (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّ فَلَانًا يُصَلِّي بِاللَّيْلِ، فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَقَ قَالَ: «إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ مَا تَقُولُ» [رواه أحمد، وصححه الألباني]. أما حديث: «مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزِدْهُ مِنَ اللَّهِ إِلَّا بَعْدًا» أو «فلا صلاة له»، فحديث لا يثبت، قال الألباني: وهو مع اشتغاره على الألسنة لا يصح من قِبَلِ إِسْنَادِهِ، ولا من جهة مَتْنِهِ.

أَفِإِلْبَاطِلٌ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ

المناسبة: لما بين تعالى ضلال من اتخذ أولياء من دون الله، وضرب المثل بيت العنكبوت، أمر هنا بالتلطف في دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان، ثم ذكر البراهين القاطعة على صدق محمد ﷺ وصحة القرآن، وختم السورة الكريمة ببيان المانع من التوحيد وهو اغترار الناس بالحياة الدنيا الفانية، وبين أن المشركين يوحدون الله وقت الشدة، وينسونه وقت الرخاء.

اللغة: ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة يقال: بَعَثَهُ إِذَا دَهَمَهُ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ ﴿يَغْشَهُمْ﴾ يَجْلِلُهُمْ وَيُغْطِيهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، والعشاء: الغطاء ﴿لَتُبَوَّثُنَّهُمْ﴾ بَوَّاهُ: أَنزَلَهُ فِي الْمَكَانِ عَلَى وَجْهِ الْإِقَامَةِ ﴿عُرْفًا﴾ منازل رفيعة عالية في الجنة ﴿يُؤَفِّكُونَ﴾ يُصَرِّفُونَ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ ﴿يَبْسُطُ﴾ يَوْسَعُ ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يَضِيقُ ﴿مَثْوًى﴾ المكان الذي يقيم فيه الإنسان.

سبب النزول: عن ابن عباس أن النبي ﷺ أمر المؤمنين بالهجرة حين آذاهم المشركون فقال لهم: اخرجوا إلى المدينة وهاجروا، ولا تَجَاوِرُوا الظلمة، قالوا: ليس لنا بها دار ولا عقار، ولا من يطعمنا ولا من يسقينا فنزلت ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۗ﴾ الآية^(١).

التفسير: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي لا تدعوا أهل الكتاب إلى الإسلام وتناقشوهم في أمر الدين إلا بالطريقة الحسنى كالدعاء إلى الله بآياته، والتنبيه على حججه وبياناته ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي إلا من كان ظالماً، محارباً لكم، مجاهداً في عداوتكم، فجادلوهم بالغلظة والشدة قال الإمام الفخر: إن المشرك لما جاء بالمرء الفظيع كان اللائق أن يجادل بالأخشن، ويبالغ في توهين شبهه وتهجين مذهبه، وأما أهل الكتاب فإنهم آمنوا بإنزال الكتب وإرسال الرسل إلا الاعتراف بالنبي عليه السلام، فلمقابلة إحسانهم يجادلون بالأحسن إلا الذين ظلموا منهم بإثبات الولد لله، والقول بثالث ثلاثة فإنهم يجادلون بالأخشن من تهجين مقالاتهم، وتبيين جهالتهم^(٢) ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ أي وقولوا لهم: آمنا بالقرآن الذي أنزل إلينا وبالتوراة

(١) «تفسير القرطبي» ١٣ / ٣٦٠. (ش): ذكره القرطبي عن ابن عباس بدون إسناد. وذكره «ابن الجوزي» في «زاد المسير» عن أبي صالح عن ابن عباس، وأبو صالح ضعيف.

(٢) «التفسير الكبير» ٢٥ / ٧٥.

والإنجيل التي أنزلت إليكم، قال أبو هريرة: كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَءُونَ التَّوْرَةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: ﴿ءَأَمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾»^(١) ﴿وَاللَّهُمَّ وَحْدُ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي ربنا وربكم واحد لا شريك له في الألوهية، ونحن له مطيعون، مستسلمون لحكمه وأمره ﴿وَكَذَلِكَ أُنْزِلَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ أي وكما أنزلنا الكتاب على مَنْ قَبْلَكَ يا محمد أنزلناه عليك ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا أَكْثَرُ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي فالذين أعطيناهم الكتاب كعبد الله ابن سلام وأمثاله ممن أسلم من اليهود والنصارى يؤمنون بالقرآن ﴿وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أي ومن أهل مكة من يؤمن بالقرآن كذلك ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ أي وما يكذب بآياتنا وينكرها مع ظهورها وقيام الحجة عليها إلا المتوغلون في الكفر، المصرون على العناد قال قتادة: وإنما يكون الجحود بعد المعرفة^(٢) ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ أي وما كنت يا محمد تعرف القراءة ولا الكتابة قبل نزول هذا القرآن لأنك أمي قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ أمياً لا يقرأ شيئاً ولا يكتب^(٣) ﴿إِذَا لَزَبْتَ الْمُبْطُلُونَ﴾ أي لو كنت تقرأ أو تكتب إذا لشك الكفار في القرآن وقالوا: لعله التقطه من كتب الأوائل ونسبه إلى الله، والآية احتجاج على أن القرآن من عند الله، لأن النبي أمي وجاءهم بهذا الكتاب المعجز، المتضمن لأخبار الأمم السابقة، والأمور الغيبية، وذلك أكبر برهان على صدقه ﷺ قال ابن كثير: المعنى قد لبثت في قومك يا محمد - من قبل أن تأتي بهذا القرآن - عمراً لا تقرأ كتاباً، ولا تحسن الكتابة، بل كل أحد من قومك يعرف أنك أمي لا تقرأ ولا تكتب، وهكذا كان رسول الله ﷺ دائماً إلى يوم الدين لا يحسن الكتابة، ولا يخط حرفاً ولا سطرأ بيده، بل كان له كتاب يكتبون له الوحي^(٤) ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ ﴿بَلْ﴾ للإضراب أي ليس الأمر كما حسب الظالمون والمبطلون بل هو آيات واضحات الإعجاز، ساطعات الدلالة على أنها من عند الله، محفوظة في صدور العلماء، قال المفسرون: من خصائص القرآن العظيم أن الله حفظه من التبديل والتغيير بطريقتين: الأولى: الحفظ في السطور، والثاني: الحفظ في الصدور، بخلاف غيره من الكتب فإنها مسطرة لديهم غير محفوظة في صدورهم ولهذا دخلها التحريف، وقد جاء في صفة هذه الأمة «أناجيلهم في صدورهم»^(٥)

(١) أخرجه البخاري كذا في القرطبي ١٣/ ٣٥١.

(٢) «تفسير الطبري» ٢١/ ٤.

(٣) نفس المرجع السابق.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٠.

(٥) (ش): رواه الطبراني وضعفه الألباني.

وقال الحسن: أُعْطِيَتْ هذه الأمةُ الحفظُ، وكان مَنْ قبلها لا يقرءون كتابهم إلا نظراً، فإذا أطبقوه لم يحفظ ما فيه إلا النبيون^(١) ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ أي وما يكذب بها إلا المتجاوزون الحد في الكفر والعناد ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي وقال كفار مكة: هلاً أنزل على محمد آيات خارقة من ربه تدل على صدقه مثل ناقة صالح، وعصا موسى، ومائدة عيسى! ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي قل لهم يا محمد: إنما أمر هذه الخوارق والمعجزات لله وليست بيدي، إن شاء أرسلها، وإن شاء منعها، وليس لأحد دخل فيها ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي وإنما أنا منذر أخوفكم عذاب الله، وليس من شأني أن آتي بالآيات ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾؟ الاستفهام للتوبيخ أي أولم يكف المشركين من الآيات هذا الكتاب المعجز الذي لا يزال يقرع أسماعهم؟ وكيف يطلبون آيةً والقرآن أعظم الآيات وأوضحها دلالة على صحة نبوتك؟ قال ابن كثير: بين تعالى كثرة جهلهم، وسخافة عقلهم، حيث طلبوا آيات تدل على صدق محمد ﷺ، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الذي هو أعظم من كل معجزة، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته، بل عن معارضة سورة منه، أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب، وجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى^(٢)؟ ولهذا قال بعده: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي إن في إنزال هذا القرآن لنعمة عظيمة على العباد بإنقاذهم من الضلالة، وتذكرة بليغة لقوم غرضهم الإيمان لا التعتُّت ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ أي قل لهم: كفى أن يكون الله جلّ وعلا شاهداً على صدقي، يشهد لي أني رسوله ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي لا تخفى عليه خافية من أمر العباد، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي والذين آمنوا بالأوثان وكفروا بالرحمن، أولئك هم الكاملون في الخسران حيث اشتروا الكفر بالإيمان ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ أي يستعجلوك يا محمد المشركون بالعذاب يقولون ﴿فَأَمْطَرْنَا عَلَيْكَ حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] وهو استعجال على جهة التكذيب والاستهزاء ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي لولا أن الله قدر لعذابهم وهلاكهم وقتاً محدوداً لجاءهم العذاب حين طلبوه ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وليأتينهم فجأة وهم ساهون لا هون لا يشعرون بوقت مجيئه ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ

(١) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٣٥٤.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤١.

يَا كَافِرِينَ ﴿١﴾ تعجب من قلة فطنتهم ومن تعنتهم وعنادهم. والمعنى: كيف يستعجلون العذاب والحال أن جهنم محيطَةٌ بهم يوم القيامة كإحاطة السوار بالمعصم، لا مفرّ لهم منها؟ ثم ذكر كيفية إحاطة جهنم بهم فقال ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي يوم يُجَلَّلُهُمْ ^(١) العذاب ويحيط بهم من فوقهم ومن تحتهم، ومن جميع جهاتهم ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي ويقول الله عزَّ وجلَّ لهم: ذوقوا جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا من الاستهزاء والإجرام، وسيئ الأعمال، ثم لما بيّن تعالى حال المكذبين الجاحدين، أعقبه بذكر حال الأبرار المتقين فقال ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةً﴾ خطابٌ تشریفٍ للتحريض على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، أي: يا من شرفكم الله بالعبودية له هاجروا من مكة إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان فيها، ولا تُجاوِروا الظلمة فأرض الله واسعة قال مقاتل: نزلت في ضعفاء مسلمي مكة ^(٢) ﴿فَأَيْنَى فَاعْبُدُونِ﴾ أي فخصّوني بالعبادة ولا تعبدوا أحداً سواي ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي أينما كنتم يُدْرِكُكم الموت، فكونوا دائماً وأبداً في طاعة الله، وحيث أمرتم فهاجروا فإن الموت لا بدّ منه ولا محيد عنه، ثم إلى الله المرجع والمآب ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي جمعوا بين إخلاص العقيدة وإخلاص العمل ﴿كُتِبَتْ لَهُمْ مِنْ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ أي لنزلّهم أعالي الجنة ولنسكنهم منازل رفيعة فيها ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهار الجنة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها إلى غير نهاية لا يخرجون منها أبداً ﴿نِعَمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ﴾ أي نعمت تلك المساكن العالية في جنات النعيم أجراً للعاملين ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ هذا بيان للعاملين أي هم الذين صبروا على تحمل المشاق من الهجرة والأذى في سبيل الله، وعلى ربهم يعتمدون في جميع أمورهم قال في البحر: وهذان جماع الخير كله: الصبر، وتفويض الأمر إليه تعالى ^(٣) ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي كم من دابة ضعيفة لا تقدر على كسب رزقها ولكن الله يرزقها مع ضعفها ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أي الله تعالى يرزقها كما يرزقكم، وقد تكفل برزق جميع الخلق، فلا تخافوا الفقر إن هاجرتهم، فالرازق هو الله قال في «التسهيل»: والقصد بالآية التقوية لقلوب المؤمنين إذا خافوا الفقر والجوع في الهجرة من أوطانهم، فكما يرزق الله

(١) (ش): يُجَلَّلُهُمْ: يُعْطِيهِمْ.

(٢) «زاد المسير» ٦/ ٢٨١. (ش): مقاتل نسبوه للكذب. وهذا الأثر ذكره القرطبي عن ابن عباس بدون إسناد.

وذكره «ابن الجوزي» في «زاد المسير» عن أبي صالح عن ابن عباس، وأبو صالح ضعيف.

(٣) «البحر المحيط» ٧/ ١٥٧.

الحيوانات الضعيفة كذلك يرزقكم إذا هاجرتم من بلدكم^(١) ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي هو السميع لأقوالكم، العليم بأحوالكم، ثم عاد الحديث إلى توبيخ المشركين في عبادة غير الله فقال ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ أي ولئن سألت المشركين من خلق العالم العلوي والسفلي وما فيهما من العجائب والغرائب؟ ومن ذلل الشمس والقمر وسخرهما لمصالح العباد يجريان بنظام دقيق؟ ليقولن: الله خالق ذلك ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف يُصرفون عن توحيدِه بعد إقرارهم بذلك؟ ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ أي هو جلّ وعلا الخالق وهو الرازق، يوسع الرزق لمن يشاء من عباده امتحاناً، ويضيق الرزق على من يشاء ابتلاءً، ليظهر الشاكر والصابر ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي إنه تعالى واسع العلم يفعل ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ توبيخ آخر وإقامة حجة أخرى عليهم، أي: ولئن سألت المشركين من الذي أنزل المطر من السماء فأخرج به أنواع الزروع والثمار بعد جذب الأرض ويسها؟ ليقولن: الله فاعل ذلك ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي قل يا محمد: حمداً لله على ظهور الحجة، بل أكثرهم لا يعقلون، حيث يُقرّون بأن الله هو الخالق الرازق ويعبدون غيره ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ﴾ أي وما الحياة في هذه الدنيا إلا غرور ينقضي سريعاً ويزول، كما يلعب الصبيان ساعة ثم يتفرقون ﴿وَلَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي وإن الآخرة هي الحياة الحقيقية التي لا موت فيها ولا تنغيص ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كان عندهم علم لم يُؤثروا دار الفناء على دار البقاء، لأن الدنيا حقيرة لا تزن عند الله جناح بعوضة^(٢)، ولقد أحسن من قال:

تَأَمَّلْ فِي الْوُجُودِ بَعَيْنَ فِكْرٍ تَرَى الدُّنْيَا الدُّنْيَةَ كَالْحَيَالِ
وَمَنْ فِيهَا جَمِيعًا سَوْفَ يَفْنَى وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ إقامة حجة ثالثة على المشركين في دعائهم الله عند الشدائد، ثم يشركون به في حال الرخاء. والمعنى: إذا ركبوا في السفن وخافوا الغرق دعوا الله مخلصين له الدعاء، لعلمهم أنه لا يكشف الشدائد عنهم إلا هو، وفي لفظ ﴿مُخْلِصِينَ﴾ ضرب من التهكم ﴿فَلَمَّا بَجَحْتُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي فلما

(١) «التسهيل» ١١٩/٣.

(٢) في الحديث الشريف: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدُلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بُعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةً مَاءً».

(ش): رواه الترمذي، وصححه الألباني.

خَلَّصَهُمْ مِنْ أَهْوَالِ الْبَحْرِ، وَنَجَاهَهُمْ إِلَى جَانِبِ الْبَرِّ إِذَا هُمْ يَعُودُونَ إِلَى كُفْرِهِمْ وَإِشْرَاكِهِمْ، نَاسِينَ رَبَّهُمَ الَّذِي أَنْقَذَهُمْ مِنَ الشَّدَائِدِ وَالْأَهْوَالِ ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أَمْرٌ عَلَى وَجْهِ التَّهْدِيدِ أَيْ فَلْيَكْفُرُوا بِمَا أُعْطَيْنَاهُمْ مِنْ نِعْمَةِ الْإِنِّجَاءِ مِنَ الْبَحْرِ، وَلِيَتَمَتَّعُوا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِبَاقِي أَعْمَارِهِمْ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ عَاقِبَةَ أَمْرِهِمْ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفِّطُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ أَيْ أَوَلَمْ يَرَوْا هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ، رُؤْيَا تَفَكَّرَ وَاعْتَبَرَ، أَنَا جَعَلْنَا بِلَدِهِمْ «مَكَّةَ» حَرَمًا مَصُونًا عَنِ السَّلْبِ وَالنَّهْبِ، آمِنًا أَهْلَهُ مِنَ الْقَتْلِ وَالسَّبْيِ، وَالنَّاسُ حَوْلَهُمْ يُسَبِّحُونَ وَيُثَنِّونَ^(١)؟

قال الضحاك: ﴿وَيُخَفِّطُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ أَيْ يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا^(٢) ﴿أَفِإِلَّا لِبَطِلٍ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ أَيْ أَفَبَعْدَ هَذِهِ النِّعَمِ الْجَلِيلَةِ يُؤْمِنُونَ بِالْأَوْثَانِ وَيَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ؟ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ أَيْ لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِمَّنْ عَبْدٌ غَيْرُ اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْقُرْآنِ حِينَ جَاءَهُ ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ ؟ أَيْ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَأْوًى وَمَوْضِعُ إِقَامَةٍ لِّلْكَافِرِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ جَزَاءَ افْتِرَائِهِمْ وَكُفْرِهِمْ؟ ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أَيْ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ وَالْهَوَى وَلِكُفْرَةِ أَعْدَاءِ الدِّينِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِنَا لِنَهْدِيَنَّهُمْ طَرِيقَ السَّيْرِ إِلَيْنَا ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أَيْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ بِالنَّصْرِ وَالْعَوْنِ.

البَلَاغَةُ: تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبدیع نوجزها فيما يلي:

- ١ - التحضيض ﴿لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ ءَايَاتٌ مِّن رَّبِّهِ﴾.
- ٢ - الطباق ﴿ءَامِنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾.
- ٣ - إفادة القصر ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أَيْ لَا غَيْرَهُمْ.
- ٤ - الإطناب بذكر العذاب مراتٍ للتشجيع على المشركين ﴿وَسَتَجِدُنَا بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾ ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ﴾ إلخ.
- ٥ - الإضافة للتشريف والتكريم ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.
- ٦ - الطباق ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ .. وَيَقْدِرُ﴾ ومثله ﴿أَفِإِلَّا لِبَطِلٍ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾.
- ٧ - المجاز العقلي ﴿حَرَمًا آمِنًا﴾ أَيْ آمِنًا أَهْلَهُ.
- ٨ - التشبيه البليغ ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ﴾ أَيْ كَالْهُوِّ وَكَالْعِبِّ حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً على حد قولهم: «زيدٌ أسد».

(١) (ش): سَبَى عَدُوَّهُ: أَسْرَهُ.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٣/ ٣٦٣.

- ٩ - الإيجاز بحذف جواب الشرط لدلالة السياق عليه ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كانوا يعلمون لما آثروا الدنيا على الآخرة، ولا الفانية على الباقية.
- ١٠ - مراعاة الفواصل لما لها من وقع عظيم على السمع يزيد الكلام رونقاً وجمالاً مثل ﴿أَفِإِلْبَاطِلٍ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ إلخ. **تنبيه:** لا ينبغي لمسلم أن يبقى بأرض لا يتيسر له فيها عبادة الله، فأرض الله واسعة، وقد أشارت الآيات إلى وجوب الهجرة إلى دار الإسلام وكما قيل: «وَكُلُّ مَكَانٍ يُنْبِتُ الْعِزَّ طَيِّبٌ».

«تم بعونه تعالى تفسير سورة العنكبوت»





مكية وآياتها ستون

بين يدي السورة

* سورة الروم مكية، وأهدافها نفس أهداف السور المكية، التي تعالج قضايا العقيدة الإسلامية في إطارها العام وميدانها الفسيح «الإيمان بالوحدانية، وبالرسالة، وبالبعث».

* ابتدأت السورة الكريمة بالتنبؤ عن حدث غيبي هام، أخبر عنه القرآن الكريم قبل حدوثه، ألا وهو انتصار الروم على الفرس في الحرب التي ستقع قريباً بينهما، وقد حدث كما أخبر عنه القرآن وبذلك تحققت النبوءة، وذلك من أظهر الدلائل على صدق محمد ﷺ فيما جاء به من الوحي، ومن أعظم معجزات القرآن.

* ثم تحدثت السورة عن حقيقة المعركة بين حزب الرحمن، وحزب الشيطان، وأنها معركة قديمة قدم هذه الحياة، فالحرب لا تهدأ ما دام هناك حق وباطل، وخير وشر، وما دام الشيطان يحشد أعوانه وأنصاره لإطفاء نور الله، ومحاربة دعوة الرسل الكرام، وقد ساقَت الآيات دلائل وشواهد على انتصار الحق على الباطل، في شتى العصور والدهور وتلك هي سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

* ثم تناولت السورة الحديث عن الساعة والقيامة، وعن المصير المشئوم لأهل الكفر والضلال في ذلك اليوم العصيب، حيث يكون المؤمنون في روضات يحبرون، ويكون المجرمون في العذاب محضرين، وتلك نهاية المطاف للأبرار والفجار، والعاقبة المؤكدة للمحسنين والمجرمين.

* وتناولت السورة بعد ذلك في بعض المشاهد الكونية، والدلائل الغيبية، الناطقة بقدرة الله ووحدانيته لإقامة البرهان على عظمة الواحد الديان، الذي تخضع له الرقاب، وتعنوا له الوجوه، وضربت بعض الأمثلة للتفريق والتمييز بين من يعبد الرحمن، وبين من يعبد الأوثان.

* وختمت السورة بالحديث عن كفار قريش، إذ لم تنفعهم الآيات والنذر ومهما رأوا من الآيات الباهرة، والبراهين الساطعة، لا يعتبرون ولا يتعظون، لأنهم كالموتى لا يسمعون ولا يبصرون، وكل ذلك بقصد التسلية لرسول الله ﷺ عما يلقيه من أذى المشركين، والصبر حتى يأتي النصر.

التسمية: سميت «سورة الروم» لذكر تلك المعجزة الباهرة، التي تدل على صدق أنباء

القرآن العظيم: ﴿الْم ١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ٢ ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ٤ ﴿وَتِلْكَ هِيَ بَعْضُ مَعْجَزَاتِ الْقُرْآنِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ١ ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ٣ ﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ ٤﴾ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفِرُّ الْمُؤْمِنُونَ ٥ ﴿يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٥﴾ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٦ ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ ٧﴾ أَوَلَمْ يَنْفَكُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِأَحَدٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ٨ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظِلِّمَهُمُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا السُّوءَى ١٠ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ١١ ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ١٢ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُؤْمِرُ بِأَنْ يُنْفَرُوا ١٤ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَائِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ١٦ ﴿فَسُبْحَنَّ اللَّهَ حِينَ تُنْسَوْنَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ١٨ ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ

اللغة: ﴿يُغْلِبُونَ﴾ يُهْزَمُونَ وَيُقَهَرُونَ ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾ حَرَثُوهَا وَقَلَبُوهَا لِلزَّرْعَةِ ﴿السُّوءَى﴾ تَأْنِيثُ الْأَسْوَى وَهُوَ الْأَفْجَحُ كَمَا أَنَّ الْحُسْنَى تَأْنِيثُ الْأَحْسَنِ، وَالسُّوءَى: الْعُقُوبَةُ الْمُتَنَاهِيَةُ فِي السُّوءِ ﴿يُحْبَرُونَ﴾ يُسَرُّونَ يُقَالُ: حَبَرَهُ إِذَا سَرَّهُ سُرُورًا تَهَلَّلَ لَهُ وَجْهَهُ وَظَهَرَ عَلَيْهِ أَثَرُهُ قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: الْحَبُورُ: السُّرُورُ، وَيُحْبَرُونَ: يُنْعَمُونَ وَيُسَرُّونَ ﴿وَعَشِيًّا﴾ الْعِشِيِّ: مِنْ صَلَاةِ الْمَغْرَبِ إِلَى الْعَتَمَةِ ^(١) ﴿تُظْهِرُونَ﴾ تَدْخُلُونَ وَقْتُ الظُّهْرِ.

(١) (ش): الْعَتَمَةُ: ظُلْمَةُ اللَّيْلِ. الْعَتَمَةُ: وَقْتُ صَلَاةِ الْعِشَاءِ: مِنْ مَغِيبِ الشَّمْسِ الْأَحْمَرِ إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ. قَالَ الْمُؤَلِّفُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَذْكُرَنَّكَ كَثِيرًا وَسَيَحْيِي الْعِشْيَ وَالْإِبْكَرَ﴾ [آل عمران: ٤١] ﴿بِالْعِشْيِ﴾ مِنْ حِينَ زَوَالَ الشَّمْسِ إِلَى غُرُوبِهَا. وَقَالَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَيَحْيِي الْعِشْيَ وَالْإِبْكَرَ﴾ [غافر: ٥٥] أَي نَزَهَ اللَّهُ عَنْ صِفَاتِ النِّقْصِ بِقَوْلِكَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، فِي آخِرِ النَّهَارِ وَأَوَّلِهِ.

التفسير: ﴿الْم﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن^(١) ﴿غَلَبَتِ الرُّومُ﴾^(٢) في أدنى الأَرْضِ ﴿أي هُزِم جيش الروم في أقرب أرضهم إلى فارس﴾ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿أي وهم من بعد انهزامهم وغلبة فارس لهم سيغلبون الفرس ويتصرون عليهم﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴿أي في فترة لا تتجاوز بضعة أعوام، والبضع: ما بين الثلاث إلى التسع قال المفسرون: كان بين فارس والروم حرب، فغلبت فارس الروم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه فشَقَّ ذلك عليهم، وفرح المشركون بذلك لأن أهل فارس كانوا مجوساً ولم يكن لهم كتاب، والروم أصحاب كتاب فقال المشركون لأصحاب رسول الله ﷺ: إنكم أهل كتاب، والروم أهل كتاب، ونحن أميون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم، فلنظَهَرَنَّ عليكم فقال أبو بكر: لا يقرُّ الله أعينكم فأنزل الله ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾^(٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴿وقد التقى الجيشان في السنة السابعة من الحرب، وغلبت الروم فارس وهزمتهم، وفرح المسلمون بذلك^(٤)﴾.

قال «أبو السعود»: وهذه الآيات من البينات الباهرة، الشاهدة بصحة النبوة، وكون القرآن من عند الله عزَّ وجلَّ حيث أخبر عن الغيب الذي لا يعلمه إلا العليم الخبير، ووقع كما أخبر^(٥)، وقال «البيضاوي»: والآية من دلائل النبوة لأنها إخبار عن الغيب^(٦)

(١) انظر ما كتبناه حول الحروف المقطعة في أول سورة البقرة من كتابنا هذا.

(٢) (ش): رواه الواحدي في «أسباب النزول» بإسناد ضعيف. عَنْ نَبَارِ بْنِ مُكْرَمٍ الْأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿الْم﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿١﴾ فِي أدنى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٢﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴿[الروم: ١ - ٤]، فَكَانَتْ فَارِسُ يَوْمَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فَاهْرِينَ لِلرُّومِ وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ ظُهُورَ الرُّومِ عَلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ وَفِي ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَيَوْمَ يُفْرِحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٤) يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿[الروم: ٤ - ٥]، فَكَانَتْ قُرَيْشٌ تُحِبُّ ظُهُورَ فَارِسَ لِأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ لَيْسُوا بِأَهْلِ كِتَابٍ وَلَا إِيْمَانٍ بَعَثَ فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَصِيحُ فِي نَوَاحِي مَكَّةَ ﴿الْم﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿١﴾ فِي أدنى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٢﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴿[الروم: ١ - ٤]، قَالَ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ لِأَبِي بَكْرٍ: «فَذَلِكَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ زَعَمَ صَاحِبُكُمْ أَنَّ الرُّومَ سَتَغْلِبُ فَارِسًا فِي بَضْعِ سِنِينَ أَفَلَا تَرَاهُنَّكَ عَلَى ذَلِكَ؟». قَالَ: «بَلَى». وَذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الرَّهَانِ. فَارْتَهَنَ أَبُو بَكْرٍ وَالْمُشْرِكُونَ وَتَوَاضَعُوا الرَّهَانَ وَقَالُوا لِأَبِي بَكْرٍ كَمْ تَجْعَلُ الْبَضْعَ ثَلَاثَ سِنِينَ إِلَى تِسْعِ سِنِينَ فَسَمَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ وَسَطًا تَنْتَهَى إِلَيْهِ. فَسَمَّوْا بَيْنَهُمْ سِتَّ سِنِينَ، فَصَصَّتِ السَّتُّ سِنِينَ قَبْلَ أَنْ يَظْهَرُوا فَأَخَذَ الْمُشْرِكُونَ زَهْنًا أَبِي بَكْرٍ فَلَمَّا دَخَلَتْ السَّنَةُ السَّابِعَةُ ظَهَرَتْ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ فَعَابَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ تَسْمِيَةَ سِتِّ سِنِينَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾. وَأَسْلَمَ عِنْدَ ذَلِكَ نَاسٌ كَثِيرٌ. (رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَحَسَنَهُ الْأَبَانِيُّ). الرَّهَانُ: الْمُخَاطَرَةُ: أَنْ يَتَرَاهَنَ شَخْصَانِ أَوْ جَزْبَانِ عَلَى شَيْءٍ يُمَكِّنُ حُصُولَهُ كَمَا يُمَكِّنُ عَدَمَ حُصُولِهِ بِذَوْنِهِ، كَأَنْ يَقُولَا مَثَلًا: إِنْ لَمْ تُمَطِّرِ السَّمَاءُ غَدًا فَلَنْكَ عَلَى كَذَا مِنَ الْمَالِ، وَإِلَّا فَلِي عَلَيْكَ مِثْلُهُ مِنَ الْمَالِ، وَالرَّهَانُ بِهَذَا الْمَعْنَى حَرَامٌ وَهُوَ صُورَةُ الْقِمَارِ الْمُحَرَّمِ.

(٣) «أبو السعود» ١٧٦/٤.

(٤) «البيضاوي» ١٠٣/٢.

﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أي الله عزَّ وجلَّ الأمر أولاً وآخرأ، من قبل الغلبة ومن بعد الغلبة، فكل ذلك بأمر الله وإرادته، ليس شيء منهما إلا بقضائه قال «ابن الجوزي»: المعنى: إن غلبة الغالب، وخذلان المغلوب، بأمر الله وقضائه^(١) ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٢) **بِنَصْرِ اللَّهِ** أي ويوم يهزم الروم الفُرس ويتغلبون عليهم، ويحل ما وعده الله من غلبتهم، يفرح المؤمنون بنصر الله لأهل الكتاب على المجوس، لأن أهل الكتاب أقرب إلى المؤمنين من المجوس، وقد صادف ذلك اليوم يوم غزوة بدر قال ابن عباس: كان يوم بدر هزيمة عبدة الأوثان، وعبدة النيران ﴿بِنَصْرِ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي ينصر من يشاء من عباده، وهو العزيز بانتقامه من أعدائه، الرحيم بأوليائه وأحبابه ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي ذلك وعدٌ مؤكد وعد الله به فلا يمكن أن يتخلف، لأن وعده حق وكلامه صدق ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون ذلك لجهلهم وعدم تفكيرهم ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي يعلمون أمور الدنيا ومصالحها وما يحتاجون إليه فيها من أمور الحياة كالزراعة والتجارة والبناء ونحو ذلك قال ابن عباس: يعلمون أمر معاشهم متى يزرعون، ومتى يحصدون، وكيف يغرسون، وكيف يبنون^(٣) ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ أي وهم عُمِّي عن أمر الآخرة، ساهون غافلون عن التفكير فيها والعمل لها قال الإمام الفخر: ومعنى الآية أن علمهم منحصر في الدنيا، وهم مع ذلك لا يعلمون الدنيا كما هي وإنما يعلمون ظاهرها، وهي ملاذها وملاعبها، ولا يعلمون باطنها وهي مضارها ومتاعبها، ويعلمون وجودها الظاهر ولا يعلمون فناءها وهم عن الآخرة غافلون^(٤)، ولعل في التعبير بقوله ﴿ظَاهِرًا﴾ إشارة إلى أنهم عرفوا القشور، ولم يعرفوا اللباب فكأن علومهم إنما هي علوم البهائم ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي أولم يتفكروا بعقولهم فيعلموا أن الله العظيم الجليل ما خلق السماوات والأرض عبثاً، وإنما خلقهما بالحكمة البالغة لإقامة الحق لوقت ينتهيان إليه وهو يوم القيامة؟ قال القرطبي: وفي هذا تنبيه على الفناء، وعلى أن لكل مخلوق أجلاً، وعلى ثواب المحسن وعقاب المسيء^(٥) ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِي رَبِّهِمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي وأكثر الناس منكرون جاحدون للبعث والجزاء ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي أولم يسافروا فينظروا مصارع الأمم قبلهم كيف أهلكوا بتكذيبهم

(١) «زاد المسير» ٦/ ٢٨٨.

(٢) «تفسير القرطبي» ٧/ ١٤.

(٣) «التفسير الكبير» ٩٧/ ٢٥.

(٤) «تفسير القرطبي» ٩/ ١٤.

رسلهم فيعتبروا!! ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي كانوا أقوى منهم أجساداً، وأكثر أموالاً وأولاداً ﴿وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي وحرثوا الأرض للزراعة، وحفروها لاستخراج المعادن، وعَمَرُوهَا بالأبنية المشيدة، والصناعات الفريدة أكثر مما عمرها هؤلاء قال «البيضاوي»: وفي الآية تهكم بأهل مكة من حيث إنهم مغترون بالدنيا، مفتخرون بها، وهم أضعف حالاً فيها، إذ مدار أمرها على السعة في البلاد، والتسلط على العباد، والتصرف في أقطار الأرض بأنواع العمارة، وهم ضعفاء مُلْجئون إلى دارٍ لا نفع فيها^(١) ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي وجاءتهم الرسل بالمعجزات الواضحات والآيات البينات فكذبوهم ﴿فَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ﴾ أي فما كان الله ليهلكهم بغير جُرم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر والتكذيب فاستحقوا الهلاك والدمار ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا الشَّوْءَ﴾ أي ثم كان عاقبة المجرمين العقوبة التي هي أسوأ العقوبات وهي نار جهنم ﴿أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي لأجل أنهم كذبوا بآياتنا المنزلة على رسلنا واستهزءوا بها ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي الله جل وعلا بقدرته ينشئ خلق الناس ثم يعيد خلقهم بعد موتهم ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي ثم إليه مرجعكم للحساب والجزاء ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي ويوم تقوم القيامة ويُحْشَرُ الناس للحساب يسكت المجرمون وتنقطع حجتهم، فلا يستطيعون أن ينسبوا بنت شفة قال ابن عباس: ﴿يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يبأس المجرمون، وقال مجاهد: يفتضح المجرمون قال القرطبي: والمعروف في اللغة: أبلس الرجل إذا سكت وانقطعت حجته^(٢) ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ﴾ أي ولم يكن لهم من الأصنام التي عبدوها شفعاء يشفعون لهم ﴿وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ أي تبرءوا منها وتبرأت منهم ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِذُّ يَنْفَرُوفُونَ﴾ كرر لفظ قيام الساعة للتحويل والتخويف لأن قيام الساعة أمر هائل أي ويوم تقوم القيامة يومئذ يتفرق المؤمنون والكافرون، ويصبحون فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير، ولهذا قال ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي فأما المؤمنون المتقون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ أي فهم في رياض الجنة يُسَرُّونَ وَيُعَمَّمُونَ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ أي وأما الذين جحدوا بالقرآن وكذبوا بالبعث بعد الموت ﴿فَأُولَٰئِكَ فِي

(١) «البيضاوي» ١٠٣/٢. (ش): هذا الوصف لا يليق بمكة المشرفة، التي فيها بيت الله الحرام وزمزم وما فيهما من منافع دينية ودنيوية.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٠/١٤.

أَلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١﴾ أَي فَاوَلَيْكَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ مَقِيمُونَ عَلَى الدَّوَامِ ﴿٢﴾ فَسُبِّحَنَ اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿٣﴾ أَي سَبَّحُوا اللَّهَ وَنَزَّهُوهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنْ صِفَاتِ النِّقْصِ، حِينَ تَدْخُلُونَ فِي الْمَسَاءِ، وَحِينَ تَدْخُلُونَ فِي الصَّبَاحِ ﴿٤﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿٥﴾ أَي وَهُوَ جَلَّ وَعَلَا الْمَحْمُودُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَحْمَدُهُ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ وَيُصَلُّونَ لَهُ ^(١)، قَالَ الْمَفْسُورُونَ: ﴿٦﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿٧﴾ جُمْلَةٌ اعْتَرَاظِيَّةٌ وَأَصْلُ الْكَلَامِ: ﴿٨﴾ فَسُبِّحَنَ اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ اللَّهُ .. وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿٩﴾ وَالْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ التَّوْفِيقَ لِلْعِبَادَةِ نِعْمَةٌ يَنْبَغِي أَنْ يَحْمَدَ عَلَيْهَا، وَالْعَشْيَ: مِنْ صَلَاةِ الْمَغْرَبِ إِلَى الْعَتَمَةِ ^(٢)، ﴿١٠﴾ تُظْهِرُونَ ﴿١١﴾ أَي تَدْخُلُونَ وَقْتُ الظُّهْرِ ﴿١٢﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴿١٣﴾ أَي يَخْرِجُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ، وَالْكَافِرَ مِنَ الْمُؤْمِنِ، وَالنَّبَاتَ مِنَ الْحَبِّ، وَالْحَبَّ مِنَ النَّبَاتِ، وَالْحَيَّوَانَ مِنَ النَّطْفَةِ، وَالنَّطْفَةَ مِنَ الْحَيَّوَانِ ﴿١٤﴾ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴿١٥﴾ أَي وَيُحْيِي الْأَرْضَ بِالنَّبَاتِ بَعْدَ يَسْسِهَا وَجَدْبِهَا ﴿١٦﴾ وَكَذَلِكَ تُخْرِجُونَ ﴿١٧﴾ أَي كَمَا يَخْرِجُ اللَّهُ النَّبَاتَ مِنَ الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَخْرِجُكُمْ مِنْ قُبُورِكُمْ لِلْبَعْثِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: بَيَّنَّ تَعَالَى كَمَالَ قُدْرَتِهِ، فَكَمَا يَحْيِي الْأَرْضَ بِإِخْرَاجِ النَّبَاتِ بَعْدَ هُمُودِهَا كَذَلِكَ يَحْيِيكُمْ بِالْبَعْثِ ^(٣).

البَلَاغَةُ: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الطباق بين ﴿عَلَيْتَ .. يُعْلَبُونَ﴾ وبين ﴿قَبْلُ .. بَعْدُ﴾.
- ٢ - طباق السلب ﴿لَا يَعْلَمُونَ .. يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.
- ٣ - صيغة المبالغة ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي المبالغ في العز، والمبالغ في الرحمة.
- ٤ - تكرير الضمير لإفادة الحصر ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ ووردوها اسمية للدلالة على استمرار غفلتهم ودوامها.
- ٥ - الإنكار والتوبيخ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾ الآية.
- ٦ - جناس الاشتقاق ﴿أَسْتَوُوا السُّوَاءَ﴾.

(١) «زاد المسير» ٦/ ٢٩٤. (ش): قال الإمام الطبري في تفسيره «جامع البيان في تأويل القرآن» (٢٠/ ٨٣): يقول تعالى ذكره: فسبحوا الله أيها الناس: أي صَلُّوا له (حِينَ تُمْسُونَ)، وذلك صلاة المغرب، (وَحِينَ تُصْبِحُونَ)، وذلك صلاة الصبح (وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) يقول: وله الحمد من جميع خلقه دون غيره (فِي السَّمَوَاتِ) من سكانها من الملائكة، (وَالْأَرْضِ) من أهلها، من جميع أصناف خلقه فيها، (وَعَشِيًّا) يقول: وَسَبَّحُوهُ أَيضًا عَشِيًّا، وذلك صلاة العصر (وَحِينَ تُظْهِرُونَ) يقول: وَحِينَ تَدْخُلُونَ فِي وَقْتُ الظُّهْرِ.

(٢) (ش): الْعَتَمَةُ: ظُلْمَةُ اللَّيْلِ. الْعَتَمَةُ: وَقْتُ صَلَاةِ الْعِشَاءِ: مِنْ مَغِيبِ الشَّمْسِ إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٤/ ١٦. (ش): هَمَدَتِ الْأَرْضُ، هُمُودًا: أَجْدَبَتْ، لَمْ يَكُنْ بِهَا حَيَاةٌ وَلَا نَبْتُ وَلَا مَطَرٌ.

- ٧ - الطباق بين ﴿يَبْدُوْا.. يُعِيْدُهُ﴾ وبين ﴿تُصَوِّرُكَ اللَّهُ.. تُصَيِّحُونَ﴾.
- ٨ - المقابلة بين حال السعداء والأشقياء ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ (١٥) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.
- ٩ - الاستعارة اللطيفة ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ﴾ استعار الحي للمؤمن، والميت للكافر، وهي استعارة في غاية الحسن والإبداع والجمال.
- ١٠ - مراعاة الفواصل في الحرف الأخير لما له من أجمل الوقع على السمع مثل ﴿ثُمَّ يُعِيْدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ ﴿فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.
- لطيفة: قال الزمخشري: دلّ قوله تعالى ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ على أن للدنيا ظاهراً وباطناً، فظاهرها ما يعرفه الجاهل من التمتع بزخارفها، والتنعم بملاذها، وباطنها وحقيقتها أنها معبرٌ للآخرة، يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة^(١). ولقد أحسن من قال:

أَبْنَىٰ إِنَّ مِنَ الرِّجَالِ بِهِيمَةً فِي صُورَةِ الرَّجُلِ السَّمِيعِ الْمُبْصِرِ
فَطِنٌ بِكُلِّ مُصِيبَةٍ فِي مَالِهِ فَإِذَا أَصِيبَ بِدِينِهِ لَمْ يَشْعُرِ

قال الله تعالى:

وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ بَرَكَاتٍ وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقَ السِّنِّينَ وَالْوُكُوفِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ مَا تَأْكُلُ مِنَ اللَّيْلِ مِنَ النَّارِ وَابْتِغَاءُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُونٌ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقَمَ لِدِينٍ حَنِيفًا فطُرَتْ اللَّهُ

أَلَمْ يَخْلُقْنَا عَلَيْنَا لَا نَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الْبَئِثُ الْقَائِمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُبِينٌ إِلَيْهِ وَاقْتُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلٌّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُبِينٌ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَنَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنْزَلْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَاتَّبِعْ مَا نَزَّلْنَا بِحَقِّهِ وَالْمُسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ رَبِّهَا لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ ذِكْوَةٍ يُزِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَُ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ

المناسبة: لما ذكر تعالى أحوال الناس في الآخرة، وقدرته على البدء والإعادة، ذكر هنا الأدلة على الربوبية والوحدانية، في خلق البشر، واختلاف الألسنة والصور، وإحياء الأرض بالمطر، وفي قيام الناس ومناهم، ثم ضرب الأمثال للمشركين في عبادتهم لغير الله مع أنه وحده الخالق الرازق.

اللغة: ﴿ءَايَاتِهِ﴾ جمع آية وهي العلامة على الربوبية والوحدانية ﴿تَنْتَشِرُونَ﴾ تتصرفون في شئون معاشكم ﴿لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ لتميلوا إليها وتألفوها ﴿فَيُنْزِلُونَ﴾ مطيعون منقادون لإرادته ﴿الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ الوصف الأعلى في الكمال والجلال ﴿الْقَائِمُ﴾ المستقيم الذي لا عوج فيه ﴿مُبِينٌ﴾ الإنابة: الرجوع بالتوبة والإخلاص.

التفسير: ﴿وَمَنْ ءَايَاتِهِ﴾ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴿أَي﴾ ومن آياته الباهر الدالة على عظمته وكمال قدرته أَنْ خَلَقَ أَصْلَكُمْ «آدم» من تراب، وإنما أضاف الخلق إلى الناس ﴿خَلَقَكُمْ﴾ لأن آدم أصل البشر ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ أي ثم أنتم تتطورون من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى بشر عقلاء، تتصرفون فيما هو قوام معاشكم قال ابن كثير: فسبحان مَنْ خَلَقَهُمْ وَسَيَّرَهُمْ وَصَرَّفَهُمْ فِي فُنُونِ الْمَعَاشِ وَالْمَكَاسِبِ، وَفَاوَتْ بَيْنَهُمْ فِي الْعُلُومِ وَالْفِكْرِ، وَالْحَسَنِ وَالْقَبْحِ، وَالْغِنَى وَالْفَقْرَ، وَالسَّعَادَةَ وَالشَّقَاوَةَ^(١)!! ﴿وَمَنْ ءَايَاتِهِ﴾ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴿أَي﴾ من آياته الدالة على عظمته وكمال قدرته أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ صَنَفِكُمْ وَجْنَاسًا أَدَمِيَّاتٍ مِثْلَكُمْ، وَلَمْ يَجْعَلْهُنَّ مِنْ جَنْسٍ آخَرَ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَلَوْ

أنه تعالى جعل الإناث من جنس آخر، من جان أو حيوان، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج، بل كانت تحصل النفرة، وذلك من تمام رحمته ببنّي آدم ^(١) ﴿لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ أي لتميلوا إليهن وتألفوهن ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ أي وجعل بين الأزواج والزوجات محبة وشفقة قال ابن عباس: المودة: حب الرجل امرأته، والرحمة شفقة عليها أن يصيبها بسوء ^(٢) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إن فيما ذكر لآياتاً عظيمة لقوم يتفكرون في قدرة الله وعظمته، فيدركون حكمته العلية ^(٣) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقَ السَّمَوَاتِ فِي ارتفاعها واتساعها، وخلق الأرض في كثافتها وانخفاضها، واختلاف اللغات من عريية وعجمية، وتركية، ورومية، واختلاف الألوان من أبيض وأسود وأحمر، حتى لا يشبهه شخص بشخص، ولا إنسان بإنسان، مع أنهم جميعاً من ذرية آدم ^(٤) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي لمن كان من ذوي العلم والفهم والبصيرة ^(٥) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي ومن آياته الدالة على كمال قدرته نومكم في ظلمة الليل، ووقت الظهيرة بالنهار راحة لأبدانكم ^(٦) ﴿وَأَبْغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ﴾ أي وطلبكم للرزق بالنهار ^(٧) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي يسمعون سماع تفهم واستبصار ^(٨) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي ومن آياته العظيمة الدالة على قدرته ووحدانيته أنه يريكم البرق خوفاً من الصواعق، وطمعاً في الغيث والمطر قال قتادة: خوفاً للمسافر، وطمعاً للمقيم ^(٩) ﴿وَيُرِزُّ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي وينزل المطر من السماء فينبت به الأرض بعد أن كانت هامدة جامدة لا نبات فيها ولا زرع ^(١٠) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي إن في ذلك المذكور لآياتاً عظيمة لقوم يتدبرون بعقولهم آلاء الله ^(١١) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ أي ومن آياته الباهرة الدالة على عظمته أن تستمسك السماوات بقدرته بلا عمد، وأن تثبت الأرض بتدبيره وحكمته فلا تنكفي بسكانها ولا تنقلب بأهلها ^(١٢) ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ أي إذا دُعيتم إلى الخروج من القبور، إذا أنتم فوراً تخرجون للجزاء والحساب، لا يتأخر خروجكم طرفة عين. قال المفسرون: وذلك حين ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية ويقول: يا أهل القبور قوموا، فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين، إلا قامت تنظر ^(١٣)

(١) نفس المرجع السابق والجزء والصفحة.

(٢) «تفسير الطبري» ٢١ / ٢٢.

(٣) «البحر المحيط» ١٦٨ / ٧. (ش): هكذا ذكره الزمخشري بدون إسناد، ونقله عنه صاحب «البحر المحيط»

وغيره من المفسرين. وجاء في «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» للبقاعي (١١ / ٤٤٠): أي يناديكم

المنادي من قبلة بالنفخة أو غيرها كأن يقول: «يا أهل القبور! قوموا إلى الجزاء»، أو نحو ذلك.

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي وله جل وعلا كل من في السماوات والأرض من الملائكة والإنس والجن ملكاً وخلقاً وتصرفاً لا يشاركه فيها أحد ﴿كُلُّ لَّهُ قَدِنُونٌ﴾ أي جميعهم خاشعون خاضعون منقادون لأمره تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي وهو تعالى يُنْشِئُ الخلق من العدم، ثم يعيدهم بعد موتهم للحساب والجزاء ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أي إعادة الخلق أهون عليه من بدئه قال ابن عباس: يعني أيسر عليه، وقال مجاهد: الإعادة أهون من البداءة، والبداءة عليه هيئة^(١) قال المفسرون: خاطب تعالى العباد بما يعقلون، فإذا كانت الإعادة أسهل من الابتداء في تقدير كرم وحُكمكم، فإن من قَدَّرَ على الإنشاء كان البعث أهونَ عليه حسب منطقكم وأصولكم^(٢) ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ أي له الوصف الأعلى الذي ليس لغيره ما يدانيه فيه من الجلال والكمال، والعظمة والسلطان ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي يَصِفُهُ به مَنْ فيهما وهو أنه الذي ليس كمثله شيء ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي القاهر لكل شيء الحكيم الذي كل أفعاله على مقتضى الحكمة والمصلحة، ثم وَضَحَ تعالى بطلان عبادتهم للأوثان بمثل فقال: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي ضرب لكم أيها القوم ربُّكم مثلاً واقعياً من أنفسكم ﴿هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي هل يرضى أحدكم أن يكون عبده ومملوكه شريكاً له في ماله الذي رزقه الله تعالى؟ فإذا لم يرض أحدكم لنفسه ذلك فكيف ترضون الله شريكاً له وهو في الأصل مخلوق وعبدٌ لله؟ ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ هذا من تنمة المثل أي لستم وعبيدكم سواء في أموالكم، ولستم تخافونهم كما تخافون الأحرار مثلكم، وأنتم لا ترضون أن يكون عبيدكم شركاء لكم في أموالكم، فكيف رضيتم الله شريكاً في خلقه وملكه؟ ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي مثل ذلك البيان الواضح نبين الآيات لقوم يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بل للإضراب أي ليس لهم حجة ولا معذرة في إراكتهم بالله بل ذلك بمجرد هوى النفس بغير علم ولا برهان قال القرطبي: لما قامت عليهم الحجة ذكر أنهم يعبدون الأصنام باتباع أهوائهم في عبادتها، وتقليد الأسلاف في ذلك^(٣) ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أي لا أحد يستطيع أن يهدي من أراد الله إضلاله ﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ﴾ أي ليس لهم من عذاب الله منقذ ولا ناصر ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٥٢/٣.

(٢) هذا قول، وذهب بعض المفسرين إلى أن أفعال التفضيل ليس على بابها فيكون معنى «أهون» أي وهو هين عليه.

(٣) «تفسير القرطبي» ٢٣/١٤.

أي أخلص دينك لله وأقبل على الإسلام بهمة ونشاط ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن كل دين باطل إلا إلى الدين الحق وهو الإسلام ﴿فَطَرَتَ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي هذا الدين الحق الذي أمرناك بالاستقامة عليه هو خلقة الله التي خلق الناس عليها وهو فطرة التوحيد كما الحديث «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ،»^(١) الحديث ﴿لَا بُدَّ لِلْخَلْقِ لِلَّهِ﴾ أي لا تغيير لتلك الفطرة السليمة من جهته تعالى قال «ابن الجوزي»: لَفْظُهُ لَفْظُ النفي ومعناه النهي أي لا تُبدِّلوا خلق الله فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها^(٢) ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي ذلك هو الدين المستقيم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي أكثر الناس جهلة لا يتفكرون فيعلمون أن لهم خالقاً معبوداً ﴿مُذِينًا إِلَيْهِ وَانْقَادُهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي أقيموا وجوهكم أيها الناس على الدين الحق حال كونكم منيبين إلى ربكم أي راجعين إليه بالتوبة وإخلاص العمل، وخافوه وراقبوه في أقوالكم وأفعالكم، وأقيموا الصلاة على الوجه الذي يرضي الله ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي لا تكونوا ممن أشرك بالله وعبد غيره ثم فسّرهم بقوله ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَاعًا﴾ أي من الذين اختلفوا في دينهم وغيروه وبدّلوا فأصبحوا شيعاً وأحزاباً، كل يتعصب لدينه، وكل يعبد هواه ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي كل جماعة وفرقة متمسكون بما أحدثوه، مسرورون بما هم عليه من الدين الموعوج، يحسبون باطلهم حقاً قال ابن كثير: أي لا تكونوا من المشركين الذين فرقوا دينهم، أي: بدلوه وغيروه، وآمنوا ببعض وكفروا ببعض، كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان، وسائر أهل الأديان الباطلة - مما عدا أهل الإسلام - فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومذاهب باطلة، وكل فرقة تزعم أنهم على شيء^(٣) ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ أي إذا أصاب الناس شدة وفقر ومرض وغير ذلك من أنواع البلاء ﴿دَعَا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي أفردوه تعالى بالتضرع والدعاء لينجوا من ذلك الضر، وتركوا أصنامهم لعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا الله تعالى، فلهم في ذلك الوقت إنابة وخضوع ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي ثم إذا أعطاهم السعة والرخاء والصحة وخلّصهم من ذلك الضر والشدة، إذا جماعة منهم يشركون بالله ويعبدون معه غيره، والغرض من الآية التشنيع على المشركين، فإنهم يدعون الله في الشدائد، ويشركون به في الرخاء ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ

(١) الحديث أخرجه الشيخان. (ش): قال ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ» رواه البخاري ومسلم.

(٢) «زاد المسير» ٦/ ٣٠٢.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٥.

تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ أَمَرَ عَلَى وَجْهِ التَّهْدِيدِ أَيَّ لِيَكْفُرُوا بِنِعْمِ اللَّهِ، وَلِيَتَمَتَّعُوا فِي هَذَا الدُّنْيَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ عَاقِبَةُ تَمَتُّعِكُمْ بِزِينَةِ الْحَيَاةِ وَنَعِيمِهَا الْفَانِي ﴿٢﴾ أَمْ أَنْزَلْنَاهُمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ الِاسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ وَالتَّوْبِيخِ. وَالْمَعْنَى: هَلْ أَنْزَلْنَا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ حُجَّةً وَاضِحَةً قَاهِرَةً عَلَى شُرَكَاهُمْ، أَوْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَهُوَ يَنْطِقُ وَيَشْهَدُ بِشُرْكِهِمْ وَبِصَحَّةِ مَا هُمْ عَلَيْهِ؟ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَتَصَوَّرُونَ، وَالْمُرَادُ لَيْسَ لَهُمْ حُجَّةٌ بِذَلِكَ ﴿٤﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ﴿٥﴾ أَيَّ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى النَّاسِ بِالْخَصْبِ وَالسَّعَةِ وَالْعَافِيَةِ اسْتَبْشَرُوا وَسُرُّوا بِهَا ﴿٦﴾ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٧﴾ أَيَّ وَإِنْ أَصَابَهُمْ بَلَاءٌ وَعَقُوبَةٌ بِسَبَبِ مَعَاصِيهِمْ إِذَا هُمْ يَبْأَسُونَ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالْفَرَجِ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَهَذَا إِنْكَارٌ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِلَّا مِنْ عَصْمَةِ اللَّهِ، إِذَا أَصَابَتْهُ نِعْمَةٌ بَطَرٌ، وَإِذَا أَصَابَتْهُ شِدَّةٌ قَنَطَ وَأَيْسَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴿٩﴾ أَيَّ أَوَلَمْ يَرَوْا قُدْرَةَ اللَّهِ فِي الْبَسْطِ وَالْقَبْضِ، وَأَنَّهُ تَعَالَى يَوْسَعُ الْخَيْرِ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ يَشَاءُ وَيَضِيقُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ؟ فَلَا يَجِبُ أَنْ يَدْعُوهُمْ الْفَقْرُ إِلَى الْقَنُوطِ مِنْ رَحْمَتِهِ تَعَالَى ﴿١٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ أَيَّ إِنْ فِي الْمَذْكُورِ لَدَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ لِقَوْمٍ يَصْدُقُونَ بِحِكْمَةِ الْخَالِقِ الرَّازِقِ ﴿١٢﴾ فَآتَاكَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ، وَالْمَسْكِينُ وَالْإِنْسَانُ السَّابِلُ ﴿١٣﴾ أَيَّ فَأَعْطَا الْقَرِيبَ حَقَّهُ مِنَ الْبِرِّ وَالصَّلَةِ وَكَذَلِكَ الْمَسْكِينُ وَالْمَسَافِرُ الَّذِي انْقَطَعَ فِي سَفَرِهِ اعْطَاهُ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالْإِحْسَانِ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: لَمَّا تَقَدَّمَ أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ وَيَقْدِرُ، أَمَرَ مَنْ وَسَّعَ عَلَيْهِ الرِّزْقُ أَنْ يُعْطِيَ الْفَقِيرَ كِفَايَتَهُ، لِيَمْتَحِنَ شُكْرَ الْغَنِيِّ، وَالْخُطَابُ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْمُرَادُ هُوَ وَأُمَّتُهُ ﴿١٤﴾ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴿١٥﴾ أَيَّ ذَلِكَ الْإِيْتَاءُ وَالْإِحْسَانُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِعَمَلِهِمْ وَجْهَ اللَّهِ وَيُرِيدُونَ ثَوَابَهُ ﴿١٦﴾ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٧﴾ أَيَّ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ بِالدرجات العالية ﴿١٨﴾ وَمَا آتَاكُمْ مِنْ رَبِّ لِيَرْبُؤْا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُؤُوا عِنْدَ اللَّهِ ﴿١٩﴾ أَيَّ وَمَا أُعْطِيْتُمْ مِنْ أَمْوَالِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَغْنِيَاءِ عَلَى وَجْهِ الرِّبَا لِيَزِيدَ مَالَكُمْ وَيَكْثُرَ بِهِ، فَلَا يَزِيدُ وَلَا يَزُكُو وَلَا يَضَاعَفُ عِنْدَ اللَّهِ لِأَنَّهُ كَسَبُ خَبِيثٍ لَا يَبَارِكُ اللَّهُ فِيهِ قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]

(١) المصدر السابق. (ش): بَطَرُ الشَّخْصِ: طَغَى وَغَالَى فِي مَرَجِهِ وَزَهْوِهِ وَاسْتِخْفَافِهِ. بَطَرُ النِّعْمَةِ: اسْتِخْفَافُهَا وَكَفَرُهَا وَلَمْ يَشْكُرْهَا. بَطَرُ الْحَقِّ وَنَحْوِهِ: أَنْكَرَهُ وَلَمْ يَقْبَلْهُ تَكْبَرًا وَطُغْيَانًا. أَيْسَ مِنَ الْأَمْرِ: يَيْسُ مِنْهُ، انْقَطَعَ أَمْلُهُ مِنْهُ وَانْتَفَى طَمَعُهُ فِيهِ، وَانْقَطَعَ رَجَاؤُهُ. قَنَطُ/ قَنَطَ الشَّخْصُ: يَيْسُ أَشَدَّ الْيَأْسِ وَسَخِطَ.

(٢) (ش): تَفْسِيرُ الْإِيمَانِ بِالتَّصْدِيقِ تَفْسِيرٌ قَاصِرٌ وَمُخَالَفٌ لِمَا عَلَيْهِ أَهْلُ السَّنَةِ مِنْ أَنَّ الْإِيمَانَ تَصْدِيقٌ بِالْقَلْبِ وَقَوْلٌ بِاللِّسَانِ وَعَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٣٥.

سواء بسواء^(١) ﴿وَمَا آتَيْنَا مِنْ ذَكْوَةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي وما أعطيتم من صدقة أو إحسان خالصاً لوجه الله الكريم ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغِفُونَ﴾ أي فأولئك هم الذين لهم الضعف من الأجر والثواب، الذين تضاعف لهم الحسنات ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ أي الله جل وعلا هو الخالق الرازق للعباد، يُخرج الإنسان من بطن أمه عرياناً لا علم له ولا سمع ولا بصر، ثم يرزقه بعد ذلك المال والمتاع والأموال ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي ثم يميتكم بعد هذه الحياة، ثم يحييكم يوم القيامة، ليجازيكم على أعمالكم ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ ؟ أي هل يستطيع أحد ممن تعبدونهم من دون الله أن يفعل شيئاً من ذلك؟ بل الله تعالى هو المستقل بالخلق والرزق والإحياء والإماتة ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزهه جل وعلا وتقدس عن أن يكون له شريك أو مثيل وتعالى عما يقول المشركون علواً كبيراً.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الطباق بين قوله ﴿خَوْفًا .. وَطَمَعًا﴾ وبين ﴿يَبْسُطُ .. وَيَقْدِرُ﴾ وبين ﴿يُمِيتُكُمْ .. يُحْيِيكُمْ﴾ وبين ﴿يَبْدَأُ .. وَيُعِيدُ﴾.
- ٢ - جناس الاشتقاق ﴿دَعَاكُمْ دَعْوَةً﴾ ﴿فَطَرَتَ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ﴾.
- ٣ - المقابلة بين قوله ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا﴾ وبين ﴿وَإِنْ نُصِيبَهُمْ سَيِّئَةً يَمَا فَدَمَتْ أَيْدِيَهُمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾.
- ٤ - المجاز المرسل ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ﴾ أطلق الجزء وأراد الكل، أي: توجه إلى الله بكنيتك.
- ٥ - السجع المرصع كأنه الدر المنظوم مثل ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ..﴾ إلخ.

قال الله تعالى:

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مِمَّا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ، مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ ﴿٤٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَنْ ءَايَنَهُ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَتٍ وَلِيُذِيقَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْأَنْفُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْقَمْنَا مِنْ

الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿١٩﴾ فَانْظُرْ إِلَى آثَرِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٢١﴾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الْأُصْغَرَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَوْ مَدْرَيْنَ ﴿٢٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ سَمِعُوا إِلَّا مَنْ يُوْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٢٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٢٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٢٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ

المناسبة: لما شنع على المشركين في عبادتهم لغير الله، ذكر في هذه الآيات الأسباب الموجبة للمحنة والابتلاء وهي الكفر، وانتشار المعاصي، وكثرة الفجور والموبقات، التي بسببها تقل الخيرات وترتفع البركات، وضرب الأمثال بهلاك الأمم السابقة، تنبيهاً لقريش وأمرأ لهم بالاعتبار بمن سبقهم من المشركين المكذبين كيف أهلكهم الله بسبب طغيانهم وإجرامهم.

اللغة: ﴿يَصْدَعُونَ﴾ يفرقون يقال: تصدع القوم إذا تفرقوا ومنه الصداع لأنه يفرق شعب الرأس ﴿يَمْهَدُونَ﴾ يجعلون لهم مهداً ويوطئون لهم مسكناً، والمهاد: الفراش ﴿كِسْفًا﴾ جمع كسفة وهي القطعة ﴿الْوَدْق﴾ المطر ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ يائسين مكتئين قد ظهر الحزن عليهم من شدة اليأس ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون، والإفك: الكذب ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يقال: استعتبته فأعتبني أي استرضيته فأرضاني.

التفسير: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ أي ظهرت البلايا والنكبات في بر الأرض وبحرها بسبب معاصي الناس وذنوبهم قال «البيضاوي»: المراد بالفساد الجذب وكثرة الحرق والغرق، ومحق البركات، وكثرة المضار بشؤم معاصي الناس أو بكسبهم إياه^(١) وقال ابن كثير: أي بأن النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي؛ لأن

صلاح الأرض والسماء بالطاعة^(١) ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أي لِيُذِيقَهُمْ وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بها جميعاً في الآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي لعلهم يتوبون ويرجعون عما هم عليه من المعاصي والآثام ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: سيروا في البلاد فانظروا إلى مساكن الذين ظلموا كيف كان آخر أمرهم وعاقبة تكذيبهم للرسل، ألم يخرب الله ديارهم ويجعلهم عبرة لمن يعتبر ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ أي كانوا كافرين بالله فأهلكوا ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ أي فتوجه بكلّيتك إلى الدين المستقيم دين الإسلام، واستقم عليه في حياتك قال القرطبي: أي أقم قصدك واجعل جهتك اتباع الدين القيم يعني الإسلام^(٢) ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ﴾ أي من قبل أن يأتي ذلك اليوم الرهيب، الذي لا يقدر أحدٌ على رده، لأن الله قضى به وهو يوم القيامة ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ﴾ أي يومئذ يتفارقون، فريق في الجنة وفريق في السعير ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي من كفر بالله فعليه أوزار كفره مع خلوده في النار المؤبدة ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ﴾ أي ومن فعل خيراً وأطاع الله فلا أنفسهم في الآخرة فراشاً ومسكناً وقراراً بالعمل الصالح، ومهدت الفراش أي بسطته ووطأته^(٣) ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي يمهدون لأنفسهم ليجزيهم الله من فضله الذي وعد به عباده المتقين ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ أي لا يحب الكافرين بل يمقتهم ويبغضهم، يجازي المؤمنين بفضله، والكافرين بعدله ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ أي ومن آياته الدالة على كمال قدرته أن يرسل الرياح تسوق السحاب مبشرة بنزول المطر والإنبات والرزق ﴿وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي ولينزل عليكم من رحمته الغيث الذي يحيي به البلاد والعباد ﴿وَلِتَجْزِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ﴾ أي ولتسير السفن في البحر عند هبوب الرياح بإذنه وإرادته ﴿وَلِتَبْنِعُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي ولتطلبوا الرزق بالتجارة في البحر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولتشكروا نعم الله الجليلة عليكم ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ تسلياً للرسول وتأنيس له بقرب النصر أي ولقد أرسلنا من قبلك يا محمد رسلاً كثيراً إلى قومهم المكذبين كما أرسلناك رسولاً إلى قومك ﴿فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي جاءوهم بالمعجزات الواضحات والحجج الساطعات الدالة على صدقهم ﴿فَأَنزَعْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَهُمْ﴾ أي فكذبوهم فانتقمنا من الكفرة المجرمين ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٥٧.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٤ / ٤٢.

(٣) نفس المرجع السابق والصفحة.

أي كان حقاً واجباً علينا أن ننصر المؤمنين على الكافرين، والآية اعتراضية جاءت بين الآيات المفصلة لأحكام الرياح تسليّة للنبي عليه السلام قال أبو حيان: والآية اعتراض بين قوله ﴿وَمَنْ آيَنِيهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَتٍ﴾ وبين قوله ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ جاءت تأنيساً للرسول ﷺ وتسليّة له، ووعداً له بالنصر، ووعداً لأهل الكفر^(١) ثم ذكر تعالى الحكمة من هبوب الرياح وهي إثارة السحب وإخراج الماء منه فقال ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ أي يبعث الرياح فتحرك السحاب وتسوقه أمامها ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي فينشره في أعالي الجو كيف يشاء خفيفاً أو كثيفاً، مُطْبِقاً أو غير مُطْبِقٍ^(٢) ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا﴾ أي ويجعله أحياناً قطعاً متفرقة ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي فترى المطر يخرج من بين السحاب ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي فإذا أنزل ذلك الغيث على من يشاء من خلقه إذا هم يسرون ويفرحون بالمطر ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ أي وإن كانوا قبل نزول المطر عليهم يائسين قانطين، قال «البيضاوي»: والتكرير للتأكيد والدلالة على تطاول عهدهم بالمطر واستحكام يأسهم^(٣) ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخْرِجُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي فانظر أيها العاقل نظر تدبر واستبصار إلى ما ينشأ عن آثار نعمة الله بالمطر من خضرة الأشجار، وتفتح الأزهار، وكثرة الثمار، وكيف أن الله يجعل الأرض تنبت بعد أن كانت هامدة جامدة؟ ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمُخِي الْمَوْتِ﴾ أي إن ذلك القادر على إحياء الأرض بعد موتها هو الذي يحيي الناس بعد موتهم ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي مبالغ في القدرة على جميع الأشياء، لا يعجزه شيء ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ أي ولئن أرسلنا على الزرع بعد خضرته ونموه ريحاً ضارة مفسدة فرأوا الزرع مصفراً من أثر تلك الرياح ﴿لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي لمكثوا بعد اصفرره يجحدون النعمة، فشأنهم أنهم يفرحون عند الخصب، فإذا جاءتهم مصيبة في زرعهم جحدوا سابق نعمة الله عليهم، ثم نبه تعالى إلى هؤلاء الكفار كالأموات لا ينفع معهم نصيح ولا تذكير فقال ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الضُّعْفَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَوْ أُمْدَرِينَ﴾ أي فإنك يا محمد لا تسمع الأموات ولا تسمع من كان في أذنيه صمّ تلك المواعظ المؤثرة، ولو أن أصمّ ولّى عنك مدبراً ثم ناديته لم يسمع فكذلك الكافر لا يسمع، ولا ينتفع بما يسمع قال المفسرون: هذا مثلٌ ضربه الله للكفار فشبهم بالموتى

(١) «البحر المحيط» ١٧٨/٧.

(٢) (ش): طَبَقَ الشَّيْءُ الشَّيْءَ: غَطَّاهُ، يُقَالُ: أَطْبَقَ السَّحَابُ السَّمَاءَ وَأَطْبَقَ الثَّلُجُ الْأَرْضَ.

(٣) «البيضاوي» ١٠٧/٢.

وبالصم والعمي ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَدِيَ الْعَمَىٰ عَنْ ضَلَالِهِمْ﴾ أي ولست بمرشد من أعماه الله عن الهدى ﴿إِنْ سَمِعَ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي ما تسمع إلا من يُصدق بآياتنا فهم الذين ينتفعون بالموعظة لخضوعهم وانقيادهم لطاعة الله ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ أي الله الذي خلقكم أيها الناس من أصل ضعيف وهو النطفة، وجعلكم تتقلبون في أطوار «الجنين، الوليد، الرضيع، المفطوم» وهي أحوال في غاية الضعف، فصار كأن الضعف مادة خلقتكم ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ أي ثم جعل من بعد ضعف الطفولة الشباب ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ أي ثم جعل من بعد قوة الشباب ضعف الهرم^(١) والشيخوخة، ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي يخلق ما يشاء من ضعف وقوة، وشباب وشيب ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ أي وهو العليم بتدبير الخلق، القدير على ما يشاء قال أبو حيان: وجعل الخلق من ضعف لكثرة ضعف الإنسان أول نشأته وطفولته، ثم حال الشيخوخة والهرم، والترداد في هذه الهيئات شاهد بقدره الصانع وعلمه^(٢) ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ أي ويوم تقوم القيامة ويُبعث الناس للحساب يحلف الكافرون المجرمون بأنهم ما مكثوا في الدنيا غير ساعة قال «البيضاوي»: وإنما استقلوا مدة لبثهم في الدنيا بالنسبة إلى مدة عذابهم في الآخرة أو نسياناً منهم^(٣) ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ أي كذلك كانوا في الدنيا يصرفون من الحق إلى الباطل، ومن الصدق إلى الكذب ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ أي وقال العقلاء من أهل الإيمان والعلم رداً عليهم وتكديفاً لهم: لقد مكثتم فيم كتبه الله في سابق علمه إلى يوم البعث الموعود ﴿فَهَكَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي فهذا يوم البعث الذي كنتم تنكرونه، ولكنكم لم تصدقوا به لتفريطكم في طلب الحق واتباعه، قال تعالى ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعِدَرُهُمْ﴾ أي ففي ذلك اليوم لا ينفع الظالمين اعتذارهم ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لا يقال لهم: أَرْضُوا رَبَّكُمْ بتوبة أو طاعة، لأنه قد ذهب وأن التوبة ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي ولقد بينّا في هذا القرآن العظيم ما يحتاج الناس إليه من المواعظ والأمثال والأخبار والعبر مما يوضح الحق ويزيل اللبس ﴿وَلَكِنْ جِئْتُم بِبَايَةٍ لِيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي ووالله لئن جئتهم يا محمد بما اقترحوا من الآيات كالعصا والناقة واليد ليقولنَّ المشركون من قومك لفرط

(١) (ش): هَرِمَ فَلَانَ يَهَرِمُ، هَرَمًا، فهو هَرِمٌ: بَلَغَ مَتْنَهُ الْكِبَرُ، كَبِرَ وَضَعُفَ.

(٢) «البحر المحيط» ٧/ ١٨٠.

(٣) «البيضاوي» ٢/ ١٠٨.

عنادهم: ما أنت وأصحابك إلا قوم مبطلون، تُدجلون علينا وتكذبون ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي مثل ذلك الطبع على قلوب الجهلة المجرمين، يختم الله على قلوب الكفرة الذين لا يعلمون توحيد الله ولا صفاته ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي فاصبر يا محمد على تكذيبهم وأذاهم؛ فإن وعد الله بنصرتك وإظهار دينك حق لا بد من إنجازه ﴿وَلَا يَسْتَخَفَّنَا الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ أي لا يحملنك على الخفة والقلق جزعاً مما يقوله أولئك الضالون الشاكون، ولا تترك الصبر بسبب تكذيبهم وإيذائهم.

البلاغة: تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الطباق بين ﴿الْبَرِّ... وَالْبَحْرِ﴾.
- ٢ - المجاز المرسل بإطلاق الجزء وإرادة الكل ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾.
- ٣ - جناس الاشتقاق ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾.
- ٤ - الاستعارة اللطيفة ﴿فَلَا نَفْسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ شبه من قدام الأعمال الصالحة بمن يمهّد فراشه ويوطئه للنوم عليه لئلا يصيبه في مضجعه ما يؤذيه وينغص عليه مرقده.
- ٥ - أسلوب الإطناب ﴿وَمَنْ آيَنِيهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِي...﴾ الآية وذلك لتعداد النعم الكثيرة وكان يكفي أن يقول: ﴿وَلْيَتَنَغَوْا مِنْ فَضْلِهِ﴾ ولكنه أسهب تذكيراً للعباد بالنعم.

- ٦ - جناس الاشتقاق ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا﴾.
- ٧ - الإيجاز بالحذف ﴿فَجَاءَ وَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنقَمْنَا﴾ حذف منه «فكذبوهم واستهزؤا بهم».
- ٨ - الاستعارة التصريحية ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ شبه الكفار بالموتى وبالصم في عدم إحساسهم وسماعهم للمواعظ والبراهين بطريق الاستعارة التصريحية.
- ٩ - الطباق بين ﴿ضَعِفَ... قُوَّةٌ﴾.

- ١٠ - صيغة المبالغة ﴿الْعَلِيمُ... الْقَدِيرُ﴾ لأن معناه المبالغ في العلم والقدرة.
- ١١ - الجناس التام ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُسْأَلُنَا عَنْ سَاعَةٍ﴾ المراد بالساعة أولاً القيامة وبالثانية المدة الزمنية؛ فبينهما جناس كامل، وهذا من المحسنات البديعية.

تنبيه: الصحيح أن الميت يسمع، لقوله ﷺ: «مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ مِنْهُمْ»^(١) وقوله «وإن

(١) (ش): رواه البخاري ومسلم. قال ﷺ: مخاطباً قتلى المشركين الذين جُعلوا في بئر بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ: يَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ وَيَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ حَقًّا فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي اللَّهُ حَقًّا؟ فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ تَكَلَّمُ أَجْسَادًا لَا أَرْوَاهُ فِيهَا؟. قَالَ: «مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُرَدُّوا عَلَى شَيْئٍ». (رواه مسلم).

الميت لَيْسَمَعُ قَرَعَ نِعَالِهِمْ»^(١) وأما قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ المراد منه سماع التدبُّر والاتعاظ، والله أعلم^(٢).

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الروم»



(١) (ش): قَالَ ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرَعَ نِعَالِهِمْ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(٢) (ش): اختلف العلماء في مسألة سماع الأموات كلام الأحياء، فمنهم من قال بأنهم يسمعون كلام الأحياء، ومنهم من نفى ذلك. وجاء في «فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء» (١/ ١٥١-١٥٢)، (٩/ ٨٢): «الأصل عدم سماع الأموات كلام الأحياء، إلا ما ورد فيه النص؛ لقول الله سبحانه يخاطب نبيه ﷺ: فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى الآية، وقوله سبحانه: وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ. فالأصل أن الأموات صالحين كانوا أو غير صالحين لا يسمعون كلام البشر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ سورة فاطر الآية ١٤ ولكن قد يُسمع الله الموتى صوت رسول من رسله لحكمة من الحكم، كما أسمع سبحانه قتلى بدر من الكفار صوت رسوله ﷺ؛ إهانةً وتبكيتاً لهم، وتكريماً لرسوله ﷺ؛ وأما سماع الميت حيث يوضع في قبره قرع نعال المشيعين فهو إسماع خاص ثبت في النص فلا يُزاد عليه لاستثنائه من الأدلة العامة الدالة على عدم سماع الموتى. (وراجع كتاب «الآيات البينات في عدم سماع الأموات على مذهب الحنفية السادات» للألوسي، بتحقيق الألباني).



مكية وآياتها أربع وثلاثون

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة «سورة لقمان» من السور المكية، التي تعالج موضوع العقيدة، وتُعنى بالتركيز على الأصول الثلاثة لعقيدة الإيمان، وهي: «الوحدانية، والنبوة، والبعث والنشور» كما هو الحال في السور المكية.

* ابتدأت السورة الكريمة بذكر الكتاب الحكيم، معجزة محمد الخالدة، الباقية الدائمة على مدى الزمان، وأقامت الحجج والبراهين على وحدانية رب العالمين، وذكرت دلائل القدرة الباهرة، والإبداع العجيب في هذا الكون الفسيح، المحكم النظام المتناسق في التكوين، في سمائه وأرضه، وشمسه وقمره، ونهاره وليله، وفي جباله وبحاره، وأمواجه وأمطاره، ونباته وأشجاره، وفي سائر ما يشاهده المرء من دلائل القدرة والوحدانية، مما يأخذ بالقلب ويبهز العقل، ويواجه الإنسان مواجهة جاهرة لا يملك معها إلا التسليم بقدرة الخالق العظيم.

* كما لفتت أنظار المشركين إلى دلائل القدرة والوحدانية منبهة في هذا الكون البديع، وهزت كيانهم هذا ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾.

* وختمت السورة الكريمة بالتحذير من ذلك اليوم الرهيب الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون ﴿ يَكَايُهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا... ﴾ الآية.

التسمية: سميت سورة لقمان لاشتمالها على قصة «لقمان الحكيم» التي تضمنت فضيلة الحكمة وسر معرفة الله تعالى وصفاته، وذم الشرك، والأمر بمكارم الأخلاق، والنهي عن القبائح، والمنكرات وما تضمنته كذلك من الوصايا الثمينة التي أنطقه الله بها، وكانت من الحكمة والرشاد بمكان!!.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٥) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُشْتَرِ لِهَوَى الْحَكِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ

عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرَاطٌ فَبَشِّرْهُ
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَمْ يَجْنُتْ النَّعِيمُ ﴿٨﴾ خَلْدَيْنِ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَن تَمِيدَ بِكُمْ
وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ
فَارُؤُفِ مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ

اللغة: ﴿الْحَكِيمِ﴾ المحكم الذي لا خلل فيه ولا تناقض ﴿يُوقِنُونَ﴾ اليقين: التصديق
الجازم ﴿لَهُوَ الْحَكِيثُ﴾ الباطل الملهي عن الخير والعبادة ﴿وَقَرَأَ﴾ ثقلًا وصممًا يمنع
من السماع ﴿عَمِدٍ﴾ جمع عماد وهو الدعامة التي يرتكز عليها الشيء ﴿رَوْسٍ﴾ جبلاً
وثواب، ورس السفينة: إذا ثبتت واستقرت ﴿تَمِيدُ﴾ تتحرك وتضطرب ﴿وَبَثَّ﴾ نشر
وفرق.

سَبَبُ النُّزُول: روي أن «النضر بن الحارث» كان يشتري المغنيات، فلا يظفر بأحدٍ
يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قيته «المغنية» فيقول لها: أطعميه، واسقيه الخمر، وغنيه،
ويقول: هذا خير مما يدعوك إليه محمد، من الصلاة والصيام، وأن تقاتل بين يديه فأنزل
الله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَّهُوَ الْحَكِيثُ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ ^(١) الآية.

التفسير: ﴿الْم﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن، وللإشارة إلى أن
هذا الكتاب المعجز الذي أفحم العلماء والأدباء والفصحاء والبلغاء منظوم من أمثال
هذه الحروف الهجائية «ألف، لام، ميم» وهي في متناول أيدي الناطقين بالعربية، وهم
عاجزون أن يؤلفوا منها كتاباً مثل هذا الكتاب بعد التحدي والإفحام، وهذا من أظهر
الدلائل وأوضح البراهين على أنه تنزيل الحكيم العليم ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي هذه
آيات الكتاب البديع، الذي فاق كل كتاب في بيانه، وتشريعه، وأحكامه ﴿الْحَكِيمِ﴾ أي
ذي الحكمة الفائقة، والعجائب الرائقة، الناطق بالحكمة والبيان، والإشارة بالبعيد عن
القريب «تلك» للإيذان ببعد منزلته في الفضل والشرف ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ أي
هداية ورحمة للمحسنين الذين أحسنوا العمل في الدنيا، وإنما خصوا بالذكر لأنهم هم
المنتفعون بما فيه، ثم وضع تعالى صفاتهم فقال ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي يؤدونها على
الوجه الأكمل بأركانها وخشوعها وآدابها ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي يدفعونها إلى مستحقيها

(١) انظر «أسباب النزول للواحيدي»، و«تفسير القرطبي» و«البحر المحيط». (ش): ضعيف جداً. رواه الواحيدي
في «أسباب النزول».

طيبة بها نفوسهم ابتغاء مرضاة الله ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي يصدقون بالدار الآخرة ويعتقدون بها اعتقاداً جازماً لا يخالطه شك ولا ارتياب، وكرر الضمير «هم» للتأكيد وإفادة الحصر ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي أولئك الموصوفون بتلك الصفات الجليلة على نور وبصيرة ومنهج واضح سديد، من الله العزيز الحميد ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي هم الفائزون السعداء في الدنيا والآخرة قال أبو حيان: وكرر الإشارة ﴿وَأُولَئِكَ﴾ تنبيهاً على عظم قدرهم وفضلهم^(١)، ولما ذكر تعالى حال السعداء، الذين اهتموا بكتاب الله وانتفعوا بسماعه، عطف عليهم بذكر حال الأشقياء، الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله، وأقبلوا على استماع الغناء والمزامير فقال ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ أي ومن الناس من يشتري ما يلهي عن طاعة الله، ويصُد عن سبيله، مما لا خير ولا فائدة فيه قال الزمخشري: واللغو كل باطل ألهي عن الخير، نحو السمر بالأساطير، والتحدث بالخرافات المضحكة، وفضول الكلام وما لا ينبغي^(٢)، وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه سئل عن الآية فقال: والله الذي لا إله إلا هو - يكررها ثلاثاً - إنما هو الغناء^(٣)، وقال الحسن البصري: نزلت هذه الآية في الغناء والمزامير^(٤) ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي ليضل الناس عن طريق الهدى، ويُبعدهم عن دينه القويم، بغير حجة ولا برهان ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ أي ويتخذ آيات الكتاب المجيد سخرية واستهزاءً، وهذا أدخل في القبح، وأعرق في الضلال ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي لهم عذاب شديد مع الذلة والهوان ﴿وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ أي وإذا قرئت عليه آيات القرآن ﴿وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي أعرض وأدبر متكبراً عنها كأنه لم يسمعها، شأن المتكبر الذي لا يلتفت إلى الكلام، ويجعل نفسه كأنها غافلة ﴿كَأَن فِي أذُنِهِ قُورٌ﴾ أي كأن في أذنيه ثقلاً وصمماً يمنعانه عن استماع آيات الله ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي أنذر به يا محمد بعذاب مؤلم، مُفْرِط في الشدة والإيلام، ووضع البشارة مكان الإنذار تهكم وسخرية، قال في البحر: تضمنت هذه الآية ذم المشتري من وجوه: التولية عن الحكمة، ثم الاستكبار عن الحق، ثم عدم الالتفات إلى سماع الآيات، ثم الإيغال في الإعراض مشبهاً حال من لم يسمعها، لكونه لا يلقي لها بالاً ولا يلتفت إليها، ثم التهكم به بالبشارة بأشد العذاب^(٥).

(١) «البحر المحيط» ١٨٣/٧.

(٢) «الكشاف».

(٣) «تفسير الطبري» ٣٩/٢١.

(٤) ابن كثير ١٦٣/٣، «المختصر» وانظر أسباب النزول في بدء السورة الكريمة.

(٥) «البحر المحيط» ١٨٤/٧.

ولما ذكر ما وعد به الكفار من العذاب الأليم، ذكر ما وعد به المؤمنين من جنات النعيم فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، وبين حسن النية وإخلاص العمل ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ أي لهم على إيمانهم واستقامتهم على شريعة الله جناتُ الخلد يتنعمون فيها بأنواع الملاذ، من المأكَل والمشارب والملابس، والنساء والحدود العيون، وسائر ما أكرمهم الله به من الفضل والإنعام، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي دائمين في تلك الجنات، لا يخرجون منها أبداً، ولا ييغون عنها حولاً ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ أي وعداً من الله قاطعاً، كائناً لا محالة، لا خُلْفَ فيه ^(١) لأن الله لا يخلف الميعاد ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي هو تعالى العزيز الذي لا يغلبه شيء ليمنعه عن إنجاز وعده، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.. ثم نبّه تعالى إلى دلائل قدرته، وآثار عظمته وجلاله لإقامة البراهين على وحدانيته فقال ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أي خلق السماوات في سعتها وعظمتها وإحكامها بدون دعائم ترتكز عليها، حال كونكم تشاهدونها كذلك واقفة من غير أن تستند على شيء، ولا تمسكها إلا قدرة الله العليّ الكبير ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ يَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي جعل فيها جبلاً ثوابت لئلا تتحرك وتضطرب بكم فتهلككم بأن تقلبكم عن ظهرها، أو تهدم بيوتكم بتزلزلها قال الإمام الفخر: واعلم أن الأرض ثباتها بسبب ثقلها، وإلا كانت تزول عن موضعها بسبب المياه والرياح، ولو خلقها تعالى مثل الرمل لما كانت تثبت للزراعة، كما نرى الأراضي الرملية ينتقل الرمل الذي فيها من موضع إلى موضع، فهذه هي حكمة إرسائها بالجبال ^(٢)، فسبحان الكبير المتعال ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي ونشر وفرّق في أرجاء الأرض من كل أنواع الحيوانات والدواب من مأكول ومركوب، مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي وأنزلنا لحفظكم وحفظ دوابكم المطر من السحاب ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي فأنبتنا في الأرض من كل نوع من النبات، ومن كل صنف من الأغذية والأدوية ﴿كَرِيمٍ﴾ أي كثير المنافع، بديع الخلق والتكوين ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ أي هذا الذي تشاهدونه وتعاينونه أيها المشركون هو من مخلوقات الله، فانظروا في السماوات والأرض، والإنسان، والنبات، والحيوان، وسائر ما خلق الله ثم تفكروا في آثار قدرته، وبديع صنعته ﴿فَارْؤُونِي﴾ ثم أخبروني ﴿مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي أي شيء خلقته آلهتكم التي

(١) (ش): خُلْفَ الوعد: عدم إنجازه.

(٢) «التفسير الكبير» للفخر الرازي ٢٥/١٤٣.

عبدتموها من دون الله من الأوثان والأصنام؟ وهو سؤال على جهة التهكم والسخرية بهم وبآلهتهم المزعومة، ثم أضرب عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالضلال الواضح فقال ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي بل المشركون في خسران ظاهر، وضلال واضح ما بعده ضلال، لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها، وعبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر، فهم أضل من الحيوان الأعجم، لأن من عبد صنماً جامداً، وترك خالقاً عظيماً مدبراً، يكون أخطأ شأنًا من الحيوان.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - وضع المصدر للمبالغة ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾.
- ٢ - الإشارة بالبعيد ﴿تِلْكَ آيَاتُ﴾ عن القريب ﴿هَذِهِ﴾ لبيان علو الرتبة ورفعة القدر والشأن.
- ٣ - الإطناب بتكرار الضمير واسم الإشارة ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ لزيادة الثناء عليهم والتكريم لهم، كما أن الجملة تفيد الحصر أي: هم المفلحون لا غيرهم.
- ٤ - الاستعارة التصريحية ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ شبه حالهم بحال من يشتري سلعة وهو خاسر فيها، واستعار لفظ يشتري لمعنى يستبدل بطريق الاستعارة التصريحية.
- ٥ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كَأَن فِي أذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ ذكرت أداة التشبيه وحذف الشبه فهو تشبيه «مرسل مجمل».
- ٦ - أسلوب التهكم ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأن البشارة إنما تكون في الخير، واستعمالها في الشر سخرية وتهكم.
- ٧ - الالتفات من الغيبة إلى التكلم ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ بعد قوله ﴿خَلَقَ، وَأَلْقَى، وَبَثَّ﴾ وكلها بضمير الغائب، ثم التفت فقال ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ لشأن الرحمن، وتوفية لمقام الامتنان، وهذا من المحسنات البديعية^(١).
- ٨ - إطلاق المصدر على اسم المفعول مبالغة ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ أي مخلوقه.

(١) قال «الفخر الرازي»: وفي هذا الالتفات فصاحة وحكمة، أما الفصاحة فهي أن السامع إذا سمع كلاماً طويلاً من نمط واحد، ثم ورد عليه نمط آخر يستطيه، ألا ترى أنك إذا قلت: قال زيد كذا، وقال خالد كذا، وقال عمرو كذا، ثم إن بكراً قال قولاً حسناً.. يستطاب لما قد تكرر القول مراراً، وأما الحكمة فهو أن إنزال الماء نعمة ظاهرة متكررة في كل زمان ومكان، فأُسند الإنزال إلى نفسه صريحاً ليتنبه الإنسان لشكر النعمة، فيزيد له في الرحمة، «التفسير الكبير» ٢٥/ ١٤٤.

٩ - الاستفهام للتوبيخ والتبكيث ﴿مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ ؟

١٠ - وضع الظاهر موضع الضمير لزيادة التوبيخ، وللتسجيل عليهم بغاية الظلم والجهل ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وكان الأصل أن يقال: بل هم في ضلالٍ مبين.

١١ - مراعاة الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ويسمى هذا النوع في علم البديع «سجعاً» وأفضله ما تساوت فقره، وكان سليماً من التكلف، خالياً من التكرار، وهو كثير في القرآن الكريم في نهاية الآيات الكريمة.

فائدة: وصف الكتاب بالحكمة في هذه السورة ﴿الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ مناسبٌ لجو السورة الكريمة لأن موضوع الحكمة قد تكرر فيها ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ فناسب أن يختار هذا الوصف من أوصاف الكتاب المجيد، على طريقة القرآن في التسيق بين الألفاظ والمواضيع.

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ ۖ وَهُوَ يَعِظُهُ ۖ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ ۖ وَهَنَا عَلَىٰ وَهْنٍ ۖ وَفَصَّلَهُ ۖ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَبْنَىٰ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَبْنَىٰ أَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ ۖ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۖ وَأَصِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ۖ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ۖ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ۖ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ

المناسبة: لما بين تعالى فساد اعتقاد المشركين، بسبب عنادهم وإشراكهم من لا يخلق شيئاً بمن هو خالق كل شيء، ذكر هنا وصايا «لقمان» الحكيم، وهي وصايا ثمينة في غاية الحكمة والدعوة إلى طريق الرشاد، وقد جاءت هذه الوصايا مبدوءةً بالتحذير من الشرك الذي هو أقبح الذنوب، وأعظم الجرائم عند الله.

اللغة: ﴿الْحِكْمَةَ﴾ الإصابة في القول والعمل، وأصلها وضع الشيء في موضعه قال في اللسان: أحكم الأمر أتقنه ويُقال للرجل إذا كان حكيماً: قد أحكمته التجارب، والحكيم: المتفنن للأمر^(١) ﴿يَعِظُهُ﴾ ينصحه ويذكره، والعظة والموعظة: النصيحة والإرشاد

(١) «لسان العرب» مادة حكم.

﴿وَهَنَّا﴾ الوهن: الضعف ومنه ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: ٤] أي ضَعُفَ ﴿وَفِصْلُهُ﴾ الفصال: الفطام وهو لفظ يستعمل في الرضاع خاصة، وأما الفصل فهو أعم، وفصلت المرأة ولدها، أي: فطمته وتركت إرضاعه ﴿أَنَابَ﴾ رجع، والمنيب الراجع إلى ربه بالتوبة والاستغفار ﴿نَضَعُ﴾ الصَّعَر: بفتحتين في الأصل داءٌ يصيب البعير فيلوي منه عنقه ثم استعمل في ميل العنق كبراً وافتخاراً قال عمرو التغلبي:

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ صَعَرَ خَدَّهُ
أَقْمَنَا لَهُ مِنْ مَيْلِهِ فَتَقَوَّمَا ^(١)
﴿مَرَحًا﴾ فرحاً وبطراً وخيلاء ﴿مُخَالٍ﴾ متبختر في مشيته ﴿وَأَقْصَدُ﴾ توسَّط، والقصد: التوسط بين الإسراع والبطء ﴿وَأَغْضُضُ﴾ عَضَّ الصوت خفضه قال جرير:

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نَمِيرٍ
فَلَا كَغَبَا بَلَّغْتَ وَلَا كِلَابَا
التفسير: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ أي والله لقد أعطينا لقمان الحكمة وهي الإصابة في القول، والسداد في الرأي، والنطق بما يوافق الحق، قال مجاهد: الحكمة: الفقه والعقل، والإصابة في القول، ولم يكن نبياً إنما كان حكيماً ^(٢) ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أي وقلنا له: اشكر الله على إنعامه وإفضاله عليك حيث خصَّك بالحكمة وجعلها على لسانك قال القرطبي: والصحيح الذي عليه الجمهور أن «لقمان» كان حكيماً ولم يكن نبياً وفي الحديث «لم يكن لقمان نبياً، ولكن كان عبداً كثير التفكير، حسن اليقين، أحبَّ الله تعالى فأحبه، فمنَّ عليه بالحكمة» ^(٣) ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أي ومن يشكر ربه فثواب شكره راجع لنفسه، وفائدته إنما تعود عليه، لأن الله تعالى لا ينفعه شُكْرُ مَنْ شَكَرَ، ولا يضره كُفْرُ مَنْ كَفَرَ ولهذا قال بعده ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي ومن جحد نعمة الله فإنما أساء إلى نفسه، لأن الله مستغن عن العباد، محمودٌ على كل حال، مستحق للحمد لذاته وصفاته قال الرازي: المعنى أن الله غير محتاج إلى شُكْرٍ حتى يتضرَّر بكُفْرُ الكافر، فهو في نفسه محمود سواء شكره الناس أم لم يشكروه ^(٤)، ثم ذكر تعالى بعض نصائح لقمان لابنه وبدأ بالتحذير له من الشرك، الذي هو نهاية القبح والشناعة فقال ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ أي واذكر لقومك موعظة لقمان الحكيم لولده، حين قال له واعظاً ناصحاً مرشداً: يا بني كن عاقلاً ولا تشرك بالله أحداً، بشراً أو صنماً أو ولداً

(١) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٦٩. (ش:) أي إذا أَمَالَ متكبِّر خَدَّهُ أَذْلَلْنَاهُ حَتَّى يَتَقَوَّمَ مَيْلُهُ.

(٢) «تفسير الطبري» ٢١/ ٤٣.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٥٩. (ش:) رواه ابن عساكر، وابن أبي حاتم في «تفسيره»، وضعَّه الحافظ ابن كثير، وذكره ابن عراق الكنافي في «تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة» (١/ ٢٤٤).

(٤) «التفسير الكبير» ٢٥/ ١٤٥.

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أي إن الشرك قبيح، وظلم صارخ لأنه وَضِعَ للشيء في غير موضعه، فمن سَوَّى بين الخالق والمخلوق، وبين الإله والصنم^(١) فهو - بلا شك - أحمقُ الناس، وأبعدُهم عن منطق العقل والحكمة، وَحَرِيٌّ به أن يُوصَفَ بالظلم ويُجَعَلَ في عداد البهائم^(٢) ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ﴾ أي أمرناه بالإحسان إليهما لا سيما الوالدة ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ، وَهَنَّا عَلَى وَهْنٍ﴾ أي حملته جنيناً في بطنها وهي تزداد كل يوم ضعفاً على ضعف، من حين الحمل إلى حين الولادة، لأن الحمل كلما ازداد وعظم، ازدادت به ثقلاً وضعفاً ﴿وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ﴾ أي وفطامه في تمام عامين ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَدِيكَ﴾ أي وقلنا له: اشكر ربك على نعمة الإيمان والإحسان، واشكر والديك على نعمة التربية ﴿إِلَى الْمَصِيرِ﴾ أي إليّ المرجع والمآب فأجازي المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته قال ابن جزي: وقوله ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾ تفسير للوصية، واعترض بينها وبين تفسيرها بقوله ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ، وَهَنَّا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ﴾ ليبين ما تكابده الأم بالولد مما يوجب عظيم حقها، ولذلك كان حقها أعظم من حق الأب^(٣) ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي وإن بذلا جهدهما، وأقصى ما في وسعهما، ليحملاك على الكفر والإشراك بالله فلا تطعهما، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أي وصاحبهما في الحياة الدنيا بالمعروف والإحسان إليهما - ولو كانا مشركين - لأن كفرهما بالله لا يستدعي ضياع المتاعب التي تحملها في تربية الولد، ولا التنكر بالجميل ﴿وَاتَّبَعَ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ أي واسلك طريق من رجع إلى الله بالتوحيد والطاعة والعمل الصالح ﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي مرجع الخلق إلى الله فيجازيهم على أعمالهم، والحكمة من ذكر الوصية بالوالدين - ضمن وصايا لقمان - تأكيد ما أفادته الآية الأولى من تقبيح أمر الشرك ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فكأنه تعالى يقول: مع أننا وصينا الإنسان بوالديه، وأمرناه بالإحسان إليهما والعطف عليهما، وألزمناه طاعتهما بسبب حقهما العظيم عليه، مع كل هذا فقد نهيناه عن طاعتهما في حالة الشرك والعصيان، لأن الإشراك بالله من أعظم الذنوب، وهو في نهاية القبح والشناعة. ثم رجع الكلام إلى وصايا لقمان فقال تعالى ﴿إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ أي يا ولدي إن الخطيئة والمعصية مهما كانت صغيرة حتى ولو كانت وزن حبة

(١) (ش): الصواب أن يقال: وبين الإله الحق والصنم، فهناك آلهة كثيرة تُعْبَدُ بالباطل.

(٢) (ش): حَرِيٌّ: جديرٌ.

(٣) «التسهيل» ٣/ ١٢٦.

الْخَرْدَلُ فِي الصِّغَرِ^(١) ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِيهَا اللَّهُ﴾ أي فتكن تلك السيئة - مع كونها في أقصى غايات الصغر - في أخفى مكان أحرزه، كجوف الصخرة الصماء، أو في أعلى مكان في السماء أو في الأرض يحضرها الله سبحانه ويحاسب عليه، والغرض التمثيل بأن الله لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي هو سبحانه لطيف بالعباد خبير، أي: عالم ببواطن الأمور ﴿يَبْنِي أَقْوَمَ الصَّلَاةِ﴾ أي حافظ على الصلاة في أوقاتها وبخشوعها وآدابها ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي وأمر الناس بكل فضيلة، وأنهم عن كل شر وذيلة ﴿وَأَصِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ أي اصبر على المحن والبلايا، لأن الداعي إلى الحق معرض لإيصال الأذى إليه قال أبو حيان: لما نهاه أولاً عن الشرك، وأخبره ثانياً بعلمه تعالى وباهر قدرته، أمره بآي تسول به إلى الله من الطاعات، فبدأ بأشرفها وهي الصلاة، ثم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم بالصبر على ما يصيبه من المحن بسبب الأمر بالمعروف، فكثيراً ما يؤذى فاعل ذلك^(٢) ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي إن ذلك المذكور مما عزمه الله وأمر به قال ابن عباس: من حقيقة الإيمان الصبر على المكروه وقال الرازي: معناه إن ذلك من الأمور الواجبة المعزومة، أي: المقطوعة، فالمصدر بمعنى المفعول^(٣) ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي لا تمل وجهك عنهم تكبراً عليهم قال القرطبي: أي لا تمل خدك للناس كبراً عليهم وإعجاباً، وتحقيقاً لهم، وهو قول ابن عباس^(٤) ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي لا تمش متبخرأ متكبراً ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ تعليل للنهي أي لأن الله يكره المتكبر الذي يرى العظمة لنفسه، ويتكبر على عباد الله، المتبخر في مشيته، والفخور الذي يفتخر على غيره، ثم لما نهاه عن الخلق الذميم، أمره بالخلق الكريم فقال ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي توسّط في مشيتك واعتدل فيها بين الإسراع والبطء ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ أي اخفض من صوتك فلا ترفعه عالياً فإنه قبيح لا يجمل بالعاقل ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ أي إن أوحش الأصوات صوت الحمير فمن رفع صوته كان ممثلاً لهم، وأتى بالمنكر القبيح قال الحسن: كان المشركون يتفاخرون برفع الأصوات فردّ عليهم بأنه لو كان خيراً لفصلتهم به الحمير، وقال قتادة:

(١) (ش): خَرْدَل، جمع خَرْدَلَة: نبات عشبي ينبت في الحقول وعلى حواشي الطرق، بذوره لاذعة تستعمل في الطب، ويُنبت بها الطعام، ويحبّه يضرب المثل في الصغر.

(٢) «البحر المحيط» ١٨٨ / ٧.

(٣) «التفسير الكبير» ١٤٩ / ٢٥.

(٤) «تفسير القرطبي» ٧٠ / ١٤.

أقبح الأصوات صوت الحمير، أوله زفير وآخره شهيق.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة والبدیع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الطباق بين ﴿شَكَرَ.. وَكَفَرَ﴾.
 - ٢ - صيغة المبالغة ﴿غَنَى حَمِيدٌ﴾ وكذلك ﴿لَطِيفٌ خَيْرٌ﴾ و ﴿فَخُورٍ﴾ لأن فاعل وفعول من صيغ المبالغة ومعناه كثير الحمد وكثير الفخر.
 - ٣ - ذكر الخاص بعد العام ﴿بَوْلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ﴾ وذلك لزيادة العناية والاهتمام بالخاص.
 - ٤ - تقديم ما حقه التأخير لإفادة الحصر مثل ﴿إِلَى الْمَصِيرِ﴾ ﴿إِلَى مَرْجِعِكُمْ﴾ أي لا إلى غيري.
 - ٥ - التمثيل ﴿إِنَّمَا إِنَّكَ مُثَقَّلَ حَبَةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ...﴾ مثل ذلك لسعة علم الله وإحاطته بجميع الأشياء صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيقها فإنه تعالى يعلم أصغر الأشياء في أخفى الأمكنة.
 - ٦ - التتميم ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ تَمَّ خفاءها في نفسها بخفاء مكانها، وهذا من البديع.
 - ٧ - المقابلة ﴿وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ثم قال ﴿وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فقابل بين اللفظين.
 - ٨ - الاستعارة التمثيلية ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ شبه الرافعين أصواتهم بالحمير، وأصواتهم بالنهيق، ولم يذكر أداة التشبيه بل أخرجه مخرج الاستعارة للمبالغة في الدم، والتنفير عن رفع الصوت.
- تنبيه:** حين أمر تعالى بشكر الوالدين قدَّم شكره تعالى على شكرهما فقال ﴿أَن اشْكُرْ لِي﴾ ثم أرفده بقوله ﴿وَلَوْلَايَكَ﴾ وذلك لإشعارنا بأن حق الله أعظم من حق الوالدين، لأنه سبحانه هو السبب الحقيقي في خلق الإنسان، والوالدان سبب في الصورة والظاهر، ولهذا حَرَّمَ تعالى طاعتهما على الإنسان إذا أراد إيجاباره على الكفر.

قال الله تعالى:

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٥١﴾ وَمَن يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عِقْبَةُ الْأُمُورِ ﴿٥٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهُ ۖ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَافٍ وَحَدِيدٌ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَجْرِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلُمِ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْقَارَ رِبَكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَازَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ

المناسبة: لما حذر تعالى من الشرك، وأكده بوصايا لقمان الحكيم في الإيمان ومكارم الأخلاق، ذكر هنا الأدلة الساطعة، والبراهين القاطعة على وحدانيته تعالى، ونبه بالصنعة على الصانع، وما له من نعم لا تُحصى من تسخير السماوات بما فيها من الشمس، والقمر، والنجوم، والسحاب، وتسخير الأرض وما فيها من الحيوان، والنبات، والمعادن، والبحار، وغير ذلك من الأدلة الشاهدة بوحدانيته، وختم السورة الكريمة ببيان «المغيبات الخمس».

اللغة: ﴿وَأَسْبَغَ﴾ أتم وأكمل يقال: سبغت النعمة سبوغاً إذا تمت ﴿أَسْتَمْسَكَ﴾ تمسك وتعلق واعتصم ﴿نَفِدَتْ﴾ فנית وفرغت ﴿يُوَلِّجُ﴾ يُدْخِلُ والإيلاج: الإدخال ومنه ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] ﴿الْفُلْكَ﴾ السفن ﴿كَالظُّلُمِ﴾ الظلل: جمع ظلة وهي كل ما أظلك من جبل أو سحاب ﴿خَتَّارٍ﴾ الختار: الغدار، والختر: أسوأ الغدر قال الشاعر:

وَإِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ أَبَا عُمَيْرٍ مَلَأْتَ يَدَيْكَ مِنْ غَدْرِ وَخَتَرٍ^(١)
﴿الْغُرُورُ﴾ ما يغرر ويخدع من شيطان وغيره، وجره الأمل: خدعه.

التفسير: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ألم تعلموا أيها الناس أن الله العظيم الجليل سخر لكم ما في السماوات من شمس وقمر ونجوم لتتفعلوا بها، وسخر لكم ما في الأرض من جبال وأشجار وثمار وأنهار وغير ذلك مما لا يحصى ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَهُ وَبَاطِنَهُ﴾ أي وأتم عليكم أيها الناس نعمه العديدة، الظاهرة

المرئية كنعمة السمع والبصر والصحة والإسلام، والباطنة الخفية كالقلب والعقل والفهم والمعرفة وما أشبه ذلك قال «البيضاوي»: أي أسبغ عليكم نعمه المحسوسة والمعقولة، ما تعرفونه وما لا تعرفونه^(١) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ أي ومن الناس فريق جاحدون يخاصمون ويجادلون في توحيد الله وصفاته بغير علم ولا فهم، ولا حجة ولا برهان، ولا كتاب منزل من عند الله قال القرطبي: نزلت في يهودي جاء إلى النبي ﷺ فقال يا محمد: أخبرني عن ربك من أي شيء هو؟ فجاءت صاعقة فأخذته^(٢)، والمنير: الواضح البين المنقذ من ظلمة الجهل والضلال ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء المجادلين بالباطل: اتبعوا ما أنزل الله على رسوله، وصدّقوا به فإنه يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال ﴿قَالُوا بَلْ نَنبَغُ مَا جَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي قالوا: نسير على طريقة آبائنا ونقتدي بهم في عبادة الأوثان والأصنام ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أيتبعونهم ولو كانوا ضالين، حتى ولو كان الشيطان يدعوهم إلى النار المستعرة^(٣) ذات العذاب الشديد؟ ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي ومن يقبل على طاعة الله وينقاد لأوامره، ويخلص قصده وعبادته لله ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي وهو مؤمن موحد قال القرطبي: لِأَنَّ الْعِبَادَةَ مِنْ غَيْرِ إِحْسَانٍ وَلَا مَعْرِفَةِ الْقَلْبِ لَا تَنْفَعُ^(٤)، ونظير الآية ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [طه: ١١٢]

(١) «البيضاوي» ١٠٩ / ٢.

(٢) «تفسير القرطبي» ٧٤ / ١٤، وقيل: نزلت في «النضر بن الحارث» و«أبي بن خلف» وأشباههما الذين كانوا يجادلون النبي ﷺ في وحدانيته تعالى وصفاته، من غير علم عقلي ولا دليل شرعي. (ش): عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: «جَاءَ يَهُودِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ رَبِّكَ، مِنْ أَيِّ شَيْءٍ هُوَ، مِنْ لَوْلُو أَوْ مِنْ يَأْقُوتٍ؟ فَجَاءَتْ صَاعِقَةٌ فَأَخَذَتْهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ [الرعد: ١٣] [ضعيف، رواه الطبري في «تفسيره»]. وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - بَعَثَ رَجُلًا مَرَّةً إِلَى رَجُلٍ مِنْ قَرَاعِنَةِ الْعَرَبِ، فَقَالَ: «اذْهَبْ فَادْعُهُ لِي»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ أَعْتَى مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: «اذْهَبْ فَادْعُهُ لِي»، قَالَ: فَذَهَبَ إِلَيْهِ فَقَالَ: يَدْعُوكَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: وَمَا اللَّهُ أَمِنْ ذَهَبٍ هُوَ أَوْ مِنْ فِضَّةٍ أَوْ مِنْ نَحَاسٍ؟ قَالَ فَارْجِعْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَأَخْبِرْهُ، وَقَالَ: قَدْ أَخْبَرْتُكَ أَنَّهُ أَعْتَى مِنْ ذَلِكَ، قَالَ لِي كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ: «ارْجِعْ إِلَيْهِ الثَّانِيَةَ فَادْعُهُ»، فَارْجِعْ إِلَيْهِ، فَعَادَ عَلَيْهِ مِثْلَ الْكَلَامِ الْأَوَّلِ، فَارْجِعْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبِرْهُ، فَقَالَ: «ارْجِعْ إِلَيْهِ»، فَارْجِعْ الثَّالِثَةَ فَاعَادَ عَلَيْهِ ذَلِكَ الْكَلَامَ، فَبَيْنَا هُوَ يَكْلُمُنِي إِذْ بَعَثَتْ إِلَيْهِ سَحَابَةٌ حِيَالَهُ رَأْسُهُ فَرَعَدَتْ فَوَقَعَتْ مِنْهَا صَاعِقَةٌ فَذَهَبَتْ بِقُحْفٍ رَأْسِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ [صحيح، رواه النسائي والبخاري وأبو يعلى].

(٣) (ش): اسْتَعْرَبَ النَّارَ: التَّهَيَّأَ، اسْتَعْلَتْ وَتَوَقَّدَتْ.

(٤) «تفسير القرطبي» ٧٤ / ١٤.

فلا بدَّ من الإيمان والإحسان ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ أي تَمَسَّكَ بحبل لا انقطاع له، وتعلَّقَ بأوثق ما يُتعلَّقُ به من الأسباب. قال صاحب «الكشاف»: هذا من باب التمثيل، مُثِّلَتْ حال المتوكل بحال من تدلَّى من شاهق فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عُروَةٍ، من حبل متينٍ مأمونٍ انقطاعه^(١) وقال الرازي: أوثق العُرَى جانبُ الله، لأن كل ما عداه هالك منقطع، وهو باقٍ لا انقطاع له^(٢) ﴿وَالِىَ اللَّهُ عَقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ أي إلى الله وحده - لا إلى أحد سواه - مرجع ومصير الأمور كلها فيجازي العامل عليها أحسن الجزاء ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾ تسليَةً للرسول ﷺ أي لا يهْمَنَّكَ يا محمد كُفْرُ مَنْ كَفَرَ، ولا ضلالٌ مَنْ ضَلَّ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، فإننا سنتنقم منهم إن عاجلاً أو آجلاً ﴿وَالِىْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي إلينا رجوعهم، فنخبرهم بأعمالهم التي عملوها في الدنيا ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي عليم بما في قلوبهم من المكر والكفر والتكذيب فيجازيهم عليها ﴿نُمْنِعُهُمْ قَلِيلاً﴾ أي نبقىهم في الدنيا مدة قليلة يتمتعون بها ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي ثم نلجئهم في الآخرة إلى عذاب شديد هو عذاب النار، الفظيع الشاق على النفس، ثم لما بيّن تعالى استحقاقهم للعذاب، بيّن تناقضهم في الدنيا وهو اعترافهم بأن الله خالق السماوات والأرض، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها ملكٌ له وأنها مخلوقاته فقال ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين من كفار مكة من خلق السماوات والأرض؟ ليقولن - لغاية وضوح الأمر - الله خلقهن فقد اضطرُّوا إلى الاعتراف به ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي قل لهم: الحمد لله على ظهور الحُجَّةِ عليكم، وعلى أن دلائل الإيمان ظاهرة للعيان ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي بل أكثر هؤلاء المشركين لا يفكرون ولا يتدبرون فلذلك لا يعلمون، ثم قال تعالى ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي له جلٌ وعلا ما في الكائنات ملكاً وخلقاً وتديراً ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي المستغني عن خلقه وعن عبادتهم، المحمود في صنعه وآلائه ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ﴾ أي ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ أي وجعل البحر بسعته حبراً ومداداً وأمدّه سبعة أبحر معه فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ﴾ أي لانتَهت وفينت تلك الأقلام والبحار وما انتهت كلمات الله، لأن الأشجار والبحار متناهية، وكلمات الله غير متناهية^(٣) قال القرطبي: لما ذكر تعالى

(١) «الكشاف» ٣/ ٣٩٥.

(٢) «التفسير الكبير» للفتوح الرازي ٢٥/ ١٥٤.

(٣) (ش): أي لا يمكن أن تكون لها نهاية.

أنه سخر لهم ما في السماوات وما في الأرض، وأنه أسبغ النعم، نبه على أن الأشجار لو كانت أقلاماً، والبحار لو كانت مداداً، فكتب بها عجائب صنع الله، الدالة على قدرته ووحدانيته لم تنفذ تلك العجائب^(١) وقال «ابن الجوزي»: وفي الكلام محذوف تقديره: فكتب بهذه الأقلام وهذه البحور كلمات الله، لتكسرت الأقلام ونفدت البحور ولم تنفذ كلمات الله أي لم تنقطع^(٢) ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي غالب لا يعجزه شيء، حكيم لا يخرج عن علمه وحكمته أمرٌ ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي ما خلقكم أيها الناس ابتداءً، ولا بعثكم بعد الموت انتهاءً إلا كخلق نفس واحدة وبعثها، لأنه إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، قال الصاوي: المعنى أن الله لا يصعب عليه شيء، بل خلق العلم وبعثه برمته كخلق نفس واحدة وبعثها^(٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي سميع لأقوال العباد، بصير بأعمالهم، ثم أشار تعالى إلى دلائل قدرته في الآفاق فقال ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾^(٢٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ أَي أَلَمْ تَعْلَمْ أَيُّهَا الْمُخَاطَبُ علماً قوياً جارياً مجرى الرؤية، أن الله العظيم الجليل يُدْخِلُ ظِلْمَةَ اللَّيْلِ عَلَى ضَوْءِ النَّهَارِ، وَيُدْخِلُ ضَوْءَ النَّهَارِ عَلَى ظِلْمَةِ اللَّيْلِ، ويزيد في هذا ويُنْقِصُ من هذا حسب الحكمة الأزلية ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ذلّلها بالطلوع والأقوال تقديرًا للأجال، وإتماماً للمنافع، كلٌّ منهما يسير في فلكه إلى غاية محدودة هي يوم القيامة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي وأنه تعالى عالم بأحوالكم وأعمالكم لا تخفى عليه خافية، فإن من شاهد مثل ذلك الصنع الرائق، والتدبير الفائق، لا يكاد يغفل عن كون صانعه جل وعلا محيطاً بكل أعماله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي ذلك الذي شاهدتموه من عجائب الصنع وباهر القدرة، لتأكدوا أن الله هو الإله الحق الذي يجب أن يُعْبَدَ وحده ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ أي وأن كل ما يعبدون من دون الله من الأوثان والأصنام باطل لا حقيقة له كما قال لبيدٌ «أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ»^(٤) فالجميع خلقه وعبده، ولا يملك أحدٌ منهم تحريك ذرة إلا بإذنه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أي وأنه تعالى هو العليُّ في صفاته، الكبير في ذاته ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ تذكيرٌ بنعمة أخرى أي أَلَمْ تَرَ أَيُّهَا

(١) «تفسير القرطبي» ١٤/٧٦. (ش): تفسير كلمات الله بعجائب صنع الله، تفسير باطل، لأن كلمات الله المراد بها كلامه الذي به يأمر وينهى ويشرع، وهو صفة من صفاته العلية التي لا تتناهى كسائر صفاته سبحانه.

(٢) «زاد المسير» ٦/٣٢٦.

(٣) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/٢٥٩.

(٤) (ش): قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

العاقل أن السفن العظيمة تسير في البحر بقدرة الله، وتسخيره ولطفه بالناس وإحسانه إليهم، لتهيئة أسباب الحياة قال ابن كثير: يخبر تعالى أنه هو الذي سخر البحر لتجري فيه الفلك بأمره أي بلطفه وتسخيره، فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن ما جرت^(١)، ولهذا قال بعده ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ أي ليرىكم عجائب صنعه، ودلائل قدرته ووحدانيته ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي إن في تسخير هذه السفن وما تحمله من الطعام والأرزاق والتجارات، آيات باهرة، وعبراً جلية لكل عبد منيب، صَبَّارٍ في الضراء، شكور في الرخاء. ولفظة «صَبَّار» و«شكور» مبالغة في الصبر والشكر ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلُلِ﴾ أي وإذا علا المشركين وغطاهم وهم في البحر موج كثيف كالجبال ﴿دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي أخلصوا دعاءهم لله حين علموا أنه لا منجي لهم غيره فلا يدعون لخلاصهم سواه ﴿فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ أي فلما أنقذهم من شدائد البحر، وأخرجهم إلى شاطئ النجاة في البر ﴿فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ﴾ في الآية حذف تقديره فمنهم مقتصد، ومنهم جاحد، ودل عليه قوله ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ والمقتصد: المتوسط في العمل قال ابن كثير: وهذا من باب الإنكار على من شاهد تلك الأحوال، والأمور العظام، ورأى الآيات الباهرة في البحر، ثم بعدما أنعم الله عليه بالخلاص كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام، والمبادرة إلى الخيرات، والدُّعُوب في العبادات^(٢)، فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً^(٣) ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ أي وما يكذب بآياتنا إلا كل غدار، مبالغ في كفران نعم الله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُورَ رَبِّكُمْ﴾ أي اتقوا ربكم بامثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿وَآخِشُوا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ أي وخافوا يوماً رهيباً عصيباً لا ينفع والد فيه ولده، ولا يدفع عنه مضرة، أو يقضي عنه شيئاً مما تحمله ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَانٌّ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ أي ولا ولد يغني أو يدفع عن والده شيئاً، أو يقضي عنه شيئاً من جنائته ومظالمه قال الطبري: المعنى لا يغني ولا تنفع عنده الشفاعة والوسائل، إلا وسليمة من صالح الأعمال التي أسلفها في الدنيا^(٤) ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي وعده بالثواب والعقاب، والبعث والجزاء حق لا يتخلف ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي لا تخدعكم الحياة الدنيا بمفاتنها ولذاتها فتركوا إليها ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ أي ولا يخدعنكم الشيطان الماكر الذي يغر الخلق

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٦٩/٣.

(٢) (ش): دَابَّ فُلَانٌ الشَّيْءَ/ دَابَّ فُلَانٌ عَلَى الشَّيْءِ دَابًّا وَدَابًّا وَدُوبًا، فَهُوَ دَائِبٌ وَدَيْبٌ وَدَعُوبٌ: لَازَمَهُ وَاعْتَادَهُ

دُونِ فَتُورٍ، اسْتَمَرَّ وَوَاطَبَ عَلَيْهِ.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٧٠/٣.

(٤) «تفسير الطبري» ٥٥/٢١.

وَيُمنِّهِمْ بِأَبَاطِيلِهِ وَيُلْهِيهِمْ عَنِ الْآخِرَةِ ﴿١﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴿٢﴾ هذه هي مفاتيح الغيب التي اختص الله بعلمها وهي خمس كما جاء في الحديث الصحيح «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ»، وتلا الآية (١) أي عنده تعالى معرفة وقت قيام الساعة التي تقوم فيها القيامة ﴿وَيُنْزِلُ الْغَيْثَ﴾ أي وعنده معرفة وقت نزول المطر ومحل نزوله ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ أي من ذكرٍ أو أنثى، شقي أو سعيد (٢) ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ أي

(١) أخرجه البخاري. (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٢) (ش): كيف نوفق بين الآية، وبين ما نراه من علم الأطباء بذكورة الجنين من أنوثته؟ لا يمكن أن يتعارض صريح القرآن الكريم مع الواقع أبداً، وإذا ظهر في الواقع ما ظاهره المعارضة فإما أن يكون الواقع مجرد دعوى لا حقيقة له، وإما أن يكون القرآن الكريم غير صريح في معارضته؛ لأن صريح القرآن الكريم، وحقيقة الواقع كلاهما قطعي، ولا يمكن تعارض القطعيين أبداً. وقد صرح بذلك كثير من الكتاب الغربيين المنصفين، ومنهم الكاتب الفرنسي (موريس بوكاي) كما في كتابه (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم)؛ حيث بين في هذا الكتاب أن التوراة المحرفة، والإنجيل المحرف الموجودين اليوم يتعارضان مع الحقائق العلمية، في الوقت الذي سجل فيه هذا الكاتب شهادات تفوق للقرآن الكريم سبق بها القرآن العلم الحديث. وأثبت من خلال ذلك أن القرآن لا يتعارض أبداً مع الحقائق العلمية، بل إنه يتفق معها تمام الاتفاق. أما اختصاص علم الله تعالى بما في الأرحام فإنه لا يقتصر على علمه بما فيها من ذكر أو أنثى فحسب، بل هو أعم من ذلك؛ فيشمل ما في الرحم من ذكر أو أنثى منذ اللحظة الأولى قبل التخليق، ويشمل ماذا في الرحم في كل لحظة وفي كل طور، ويشمل العلم بملامح الجنين، وخواصه، واستعداداته. ويشمل أيضاً العلم برزقه هل هو قليل أو كثير؟ وصفة ذلك الرزق هل هو حرام أو حلال؟ ويشمل العلم بأجله أقصر هو أم طويل؟ ويشمل العلم بعمله هل هو صحيح أو فاسد؟ ويشمل العلم بشقاوته من سعاده. فهذا من علم ما في الأرحام، وهو مما اختص الله تبارك وتعالى بعلمه، فلا يُظْهِرُ عليه أحداً إلا من ارتضى من رسول أو ملك أو غيرهما. وليس في الآية تصريح بذكر العلم بالذكورة والأنوثة، وكذلك لم تأت السنة بذلك. ومعرفة ما في الرحم هل هو ذكر أو أنثى لا يعلم إلا بعد تخليق الجنين. أما المدة التي لم يُخْلَقْ فيها الجنين فلا يعلم أحد فيها ذكورة الجنين من أنوثته؛ لأن ذلك من علم الغيب. وقد اتفق العلماء على أن نفخ الروح لا يكون إلا بعد أربعة أشهر. ونفخ الروح في الجنين لا يكون إلا بعد تمام صورته، أي بعد تخليقه. وبعد تخليقه لا يكون العلم بذكوره أو أنوثته من علم الغيب؛ لأنه بتخليقه صار من علم الشهادة، إلا أنه مستتر في الظلمات التي لو أزيلت لتبين أمره. ولا يبعد أن يكون فيما خلق الله تعالى من الأشعة أشعة قوية تخترق الظلمات حتى يتبين الجنين ذكراً أو أنثى. ولذلك فلا غرابة أن يعرف الجنين بعد أن يتخلق من خلال الأشعة؛ فهذا من علم الشهادة، ومن العلم بظاهر من الحياة الدنيا، والله _ عز وجل _ لم يَنْفِ ذلك عن البشر، بل أثبت لهم كما في قوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الروم: ٧٠]. فالمقصود من تفرّد الله عز وجل بعلم ما في الأرحام أمران: الأول: أنه يعلم ذلك علماً ذاتياً، أما الناس فيعلمون بوسيلة من الوسائل التي يخلقها الله لمن يشاء من عباده. ومن أمثلة ذلك التنبؤ بالكسوف أو الخسوف قبل وقوعه بفترة طويلة عن طريق ما سخره الله لهم من العلوم. الأمر الثاني: أن الله تعالى حينما قال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ [لقمان ٢٤] فمعنى ذلك أنه هو وحده فقط يعلم تفصيلاً ما في الأرحام، من حيث كونه ذكراً أو أنثى، وكونه تام الخلقة أم لا، وكونه شقي أو سعيداً وغير ذلك من التفاصيل التي يستحيل على العلم مهما علا أن يحيط بها علماً.

ما يدري أحد ماذا يحدث له في غد، وماذا يفعل من خير أو شر ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ أي ما يدري أحد أين يموت، ولا في أي مكان يقبر ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي مبالغ في العلم، يعلم كل الأمور، خبير بطواهر الأشياء وبواطنها.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الطباق بين قوله ﴿ظَاهِرَةً.. وَبَاطِنَةً﴾ وكذلك بين لفظ ﴿الْحَقُّ الشَّمْسُ﴾. البطل.
- ٢ - الإنكار والتوبيخ مع الحذف ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ﴾ أي أيتبعونهم ولو كان الشيطان إلخ.
- ٣ - المجاز المرسل ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ﴾ أطلق الجزء وأراد الكل ففيه مجاز مرسل.
- ٤ - التشبيه التمثيلي ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ شبه من تمسك بالإسلام بمن أراد أن يرقى إلى شاهق جبل فتمسك بأوثق جبل، وحذف أداة التشبيه للمبالغة.
- ٥ - المقابلة بين ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ﴾ إلى الله وهو محسن وبين ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾ الآية.
- ٦ - الاستعارة ﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ استعار الغلظ للشدة لأنه إنما يكون للإجرام فاستعير للمعنى.
- ٧ - تقديم ما حقه التأخير لإفادة الحصر ﴿وَالِإِلَهِ عَقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ أي إليه لا إلى غيره.
- ٨ - صيغ المبالغة في التالي ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ و ﴿خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ و ﴿عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ و ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ كما أن فيها توافق الفواصل وهو من المحسنات البديعية ويسمى بالسجع.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة لقمان»





مكية وآياتها ثلاثون

بين يدي السورة

سورة السجدة مكية، وهي كسائر السور المكية تعالج أصول العقيدة الإسلامية «الإيمان بالله، واليوم الآخر، والكتب والرسل، والبعث والجزاء»^(١)، والمحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هو موضوع «البعث بعد الفناء» الذي طالما جادل المشركون حوله، واتخذوه ذريعة لتكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام.

* تبتدئ السورة الكريمة بدفع الشك والارتياب عن القرآن العظيم، المعجزة الكبرى لرسول الله ﷺ، الذي لا تحوم حول ساحته الشبهات والأباطيل، ومع وضوح إعجازه، وسطوع آياته، وإشراقه بيبانه، وسمو أحكامه، اتهم المشركون الرسول بأنه افترى هذا القرآن، واختلقه من تلقاء نفسه، فجاءت السورة الكريمة ترد هذا البهتان، بروائع الحجة والبرهان.

* ثم تحدثت السورة عن دلائل القدرة والوحدانية، ببيان آثار قدرة الله في الكائنات العلوية والسفلية، على طريقة القرآن في لفت الأنظار إلى إبداع الواحد القهار.

* ثم ذكر القرآن شبهة المشركين السخيفة في إنكارهم للبعث والنشور، ورد عليها بالحجج القاطعة، والأدلة الساطعة، التي تنتزع الحجة من الخصم الجاحد العنيد، فلا يلبث أن يقر على نفسه بالهزيمة أمام قوارع القرآن، وروائع الحجة والبيان.

* وخُتِمت السورة بالحديث عن يوم الحساب، وما أعد الله فيه للمؤمنين المتقين من النعيم الدائم في جنات الخلد، وما أعدّه للمجرمين من العذاب والنكال في دار الجحيم.

التسمية: سميت «سورة السجدة» لما ذكر تعالى فيها من أوصاف المؤمنين الأبرار، الذين إذا سمعوا آيات القرآن العظيم ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ نَزِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِمَّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا

(١) (ش): أصول العقيدة ستة: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم، والآخر، وبالقدر خيره وشره، كما في حديث جبريل عليه السلام حين قال للنبي ص: فَأَخْبَرَنِي عَنِ الْإِيمَانِ. فَقَالَ ﷺ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». (رواه مسلم).

تَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الْأُمُورَ السَّمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يُعْرِجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ يَنفِقُكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَٰكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا يَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ نَتَجَافَىٰ جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

اللغة: ﴿أَفْتَرْتَهُ﴾ اختلق القرآن من تلقاء نفسه ﴿يُعْرِجُ﴾ يصعد ويرتفع إليه ﴿يُدَبِّرُ﴾ التدبير: رعاية شئون الغير ﴿سُلَالَةٍ﴾ خلاصة (١) ﴿مَّهِينٍ﴾ ضعيف حقير ﴿سَوَّاهُ﴾ قَوَّمَهُ بتصوير أعضائه وتكميلها ﴿ضَلَلْنَا﴾ ضلنا وهلكنا وأصله من قول العرب: ضلَّ اللبن في الماء إذا ذهب وضاع ﴿نَاكِسُوا﴾ مُطْرِقُوا، يقال: نكَّس رأسه إذا أطرقه (٢) ﴿الْجِنَّةُ﴾ الجن.

التفسير: ﴿المر﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن (٣) ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿أي﴾ هذا الكتاب الموحى به إليك يا محمد هو القرآن الذي لا شك أنه من عند الله عز وجل، تنزيل من رب العالمين ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرْتَهُ﴾ الضمير يعود لكفار قريش و ﴿أَمْ﴾ بمعنى بل والهمزة أي بل أيقول المشركون اختلق محمد القرآن وافتراه من تلقاء نفسه؟ لا ليس الأمر كما يدعون ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي بل هو القول الحق، والكلام الصدق المنزل من ربك قال «البيضاوي»: أشار أولاً إلى إعجازه، ثم رتب عليه أنه تنزيل من رب العالمين، وقرر ذلك بنفي الريب عنه، ثم أضرب عن ذلك إلى ما يقولون فيه على خلاف ذلك، إنكاراً له وتعجباً منه، ثم بين المقصود من إنزاله بقوله

(١) انظر معنى السلالة بالتوضيح في سورة المؤمنون.

(٢) (ش): أَطْرَقَ رَأْسَهُ/ أَطْرَقَ بِرَأْسِهِ: أمال رأسه إلى صدره وسكت، أو أرخى عَيْنَيْهِ إلى الأرض وأمسك عن الكلام.

(٣) انظر ما كتبناه حول الحروف المقطعة في أول سورة البقرة فيه غنية وكفاية.

﴿لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي أنزله إليك لتنذر به قوماً ما جاءهم رسول قبلك يا محمد^(١)، قال المفسرون: هم أهل الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام، وقد جاء الرسل قبل ذلك كإبراهيم وهو وصالح، ولكن لما طالت الفترة على هؤلاء أرسل الله إليهم محمداً ﷺ لينذرهم عذاب الله، ويقيم عليهم الحجة بذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي كي يهتدوا إلى الحق ويؤمنوا بالله العزيز الحميد، ثم شرع تعالى في ذكر أدلة التوحيد فقال ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي الله جلّ وعلا هو الذي خلق السماوات في ارتفاعها وإحكامها، والأرض في عجائبها وإبداعها، وما بينهما من المخلوقات في مقدار ستة أيام قال الحسن: من أيام الدنيا ولو شاء لخلقها بلمح البصر ولكن أراد أن يعلم عباده التآني في الأمور قال القرطبي: عرفهم تعالى كمال قدرته ليسمعوا القرآن ويتأملوه، ومعنى ﴿خَلَقَ﴾ أبدع وأوجد بعد العدم، وبعد أن لم تكن شيئاً^(٢) ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ استواء يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل^(٣) ﴿مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِّن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي ليس لكم أيها الناس من غير الله ناصر يمنعكم من عذابه، ولا شفيع يشفع لكم عنده إلا بإذنه، بل هو الذي يتولى مصالحكم ويدبر أموركم ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تتدبرون هذا فتؤمنون؟ ﴿يُدَبِّرُ الْأُمُورَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي يدبر أمر الخلائق جميعاً في العالم العلوي والسفلي، لا يهمل شأن أحد قال ابن عباس: أي ينزل القضاء والقدر من السماء إلى الأرض، وينزل ما دبره وقضاه ﴿ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ﴾ أي ثم يصعد إليه ذلك الأمر كله يوم القيامة ليفصل فيه ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي في يوم عظيم - هو يوم القيامة - طوله ألف سنة من أيام الدنيا لشدة أهواله^(٤) ﴿ذَلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي ذلك المدبر لأمر الخلق هو العالم بكل شيء، يعلم ما هو غائب عن المخلوقين،

(١) «البيضاوي» ١١١ / ٢.

(٢) «تفسير القرطبي» ٨٦ / ١٤.

(٣) انظر تفصيل معنى الاستواء وأقوال السلف في سورة الأعراف.

(٤) (ش:) ورد في سورة الحج قوله تعالى ﴿وَلَا يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وفي سورة السجدة ﴿ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وفي سورة المعارج ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، وقد كثرت أقوال أهل التفسير في تحديد هذه الأيام وأحسن ما يقال فيها أن اليوم الذي ذكر في سورة الحج هو عبارة عن الزمان وتقديره عند الله، وأن آية السجدة هي في نزول الملائكة بالأمر وعروجهم به في الدنيا، وأن آية المعارج هي في يوم القيامة. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : «مَا مِنْ صَاحِبٍ ذَهَبَ وَلَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْوِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُحْوَى بِهَا جَنَّتُهُ وَجَنَّتُهُ وَظَهَرَهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُفْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

وما هو مشاهد لهم قال القرطبي: وفي الآية معنى التهديد والوعيد، كأنه يقول: أخلصوا أعمالكم وأقوالكم فإنني مجازيكم عليها، ومعنى «الغيب والشهادة» ما غاب عن الخلق وما حضرهم^(١) ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي الغالب على أمره، الرحيم بعباده في تدبيره لشئونهم ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ أي أتقن وأحكم كل شيء أوجده وخلقه قال أبو حيان: وهذا أبلغ في الامتنان. ومعناه أنه وضع كل شيء في موضعه، ولهذا قال ابن عباس: ليست القردة بحسنة، ولكنها متقنة محكمة^(٢) قال بعض العلماء: لو تصورت مثلاً أن للفيل مثل رأس الجمل، وأن للأرنب مثل رأس الأسد، وأن للإنسان مثل رأس الحمار، لوجدت في ذلك نقصاً كبيراً، وعدم تناسب وانسجام، ولكنك إذا علمت أن طول عنق الجمل، وشق شفتيه ليُسَهِّلَ تناوله الكلاً عليه أثناء السير، وأن الفيل لولا خرطومه الطويل لَمَا استطاع أن يبرك بجسمه الكبير لتناول طعامه وشرابه، لو علمت كل هذا لتيقنت أنه صنع الله الذي أتقن كل شيء، ولقلت: تبارك الله أحسن الخالقين^(٣).

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ أي خلق أبا البشر آدم من طين ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ أي جعل ذريته يتناسلون من خلاصة من ماء ضعيف حقير هو المنى ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ أي قوّم أعضائه، وعدّل خلقته في رحم أمه، ونفخ بعد ذلك فيه الروح، فإذا هو في أكمل صورة وأحسن تقويم قال «أبو السعود»: وأضاف الروح إليه تعالى تشريفاً للإنسان، وإيداناً بأنه خلق عجيب، وصنعٌ بديع، وأن له شأنًا جليلاً مناسبةً إلى حضرة الربوبية^(٤) ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أي وخلق لكم هذه الحواس: السمع لتسمعوا به الأصوات، والبصر لتبصروا به الأشخاص، والعقل لتدركوا به الحق والهدى ﴿فَلَيْلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ أي قليلاً شُكْرُكم لربكم و﴿مَا﴾ لتأكيد القلة ﴿وَقَالُوا آءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي وقال كفار مكة المنكرون للبعث والنشور: أإذا هلكنا وصارت عظامنا ولحومنا تراباً مختلطاً بتراب الأرض حتى غابت فيه ولم تتميز عنه ﴿آءِذَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي سوف نخلق بعد ذلك خلقاً جديداً، ونعود إلى الحياة مرة ثانية؟ وهو استبعادٌ للبعث مع الاستهزاء ولهذا قال تعالى ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ أي بل هناك ما هو أبلغ وأشنع من الاستهزاء، وهو كفرهم وجحودهم بقاء الله في دار الجزاء ﴿قُلْ يَتُوفَّكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي نُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي قل لهم رداً على مزاعمهم الباطلة: يتوفاكم ملك الموت

(١) «تفسير القرطبي» ١٤ / ٨٩.

(٢) «البحر المحيط» ٧ / ١٩٩.

(٣) نقلاً عن أوضح التفاسير.

(٤) «أبو السعود» ٤ / ١٩٦. (ش): في تفسير أبي السعود (٧ / ٨١): «وأن له شأنًا له مناسبةً إلى حضرة الربوبية».

الذي وكل بقبض أرواحكم هو وأعوانه ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي ثم مرجعكم إلى الله يوم القيامة للحساب والجزاء قال ابن كثير: والظاهر أن ملك الموت شخص معين، وقد سُمي في بعض الآثار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «عزرائيل» وهو المشهور^(١)، وله أعوان - كما ورد في الحديث - ينتزعون الأرواح من سائر الجسد، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت^(٢) وقال مجاهد: جُمِعَتْ له الأرض فجعلت مثل الطست يتناول منها حيث يشاء^(٣)، ثم أخبر تعالى بحال المجرمين يوم القيامة وما هم فيه من الذل والهوان فقال ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي ولو ترى أيها المخاطب حال المجرمين يوم القيامة وهم مُطْرِقُونَ رُءُوسِهِمْ أمام ربهم من الخجل والحياء لرأيت العجب العجيب^(٤). قال «أبو السعود»: وجواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوف تقديره لرأيت أمراً فظيعاً لا يُقَادَرُ قَدْرُهُ^(٥) مِنْ هَوْلِهِ وفظاعته^(٦) ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي يقولون ربنا أبصرنا حقيقة الأمر وسمعنا ما كنا ننكر من أمر الرسل، وكنا عُميًا وصمًا ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ أي فَرَدْنَا إِلَىٰ دار الدنيا لنعمل صالحاً ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي فنحن الآن مصدقون تصديقاً جازماً، وموقنون أن وعدك حق، ولقاءك حق قال الطبري: أي أيقنا الآن بوحدانيتك، وأنه لا يصلح أن يُعبد سواك، ولا ينبغي أن يكون رب سواك، وأنك تحيي وتميت وتفعل ما تشاء^(٧)، قال تعالى ردّاً عليهم ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ أي لو أردنا هداية جميع الخلق لفعلنا ولكن ذلك ينافي حكمتنا، لأننا نريد منهم الإيمان بطريق الاختيار، لا بطريق الإكراه والإجبار ﴿وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ أي ولكن ثبت ووجب قولي بعذاب المجرمين، وتقرر وعيدي ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي لأملأَنَّ جهنم بالعصاة من الجن والإنس جميعاً ﴿فَذُوقُوا يَمَّا نُسَبِّحُ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي يقال لأهل النار على سبيل التقرير والتوبيخ:

(١) (ش): اشتهر أن اسم ملك الموت عزرائيل، إلا أنه لم ترد تسمية ملك الموت بهذا الاسم في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية الصحيحة، وإنما ورد ذلك في بعض الآثار والتي قد تكون من الإسرائيليات. وعلى هذا، لا ينبغي الجزم بالنفي ولا بالإثبات، فلا ثبت أن اسم ملك الموت عزرائيل، ولا نفي ذلك، بل نفوذ الأمر إلى الله تعالى ونسبته بما سماه الله تعالى به «ملك الموت».

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٧٣/٣. (ش): ثبت ذلك في حديث رواه أحمد وأبو داود وصححه الألباني.

(٣) «تفسير الطبري» ٦٢/٢١.

(٤) (ش): أطرق رأسه/ أطرق برأسه: أمال رأسه إلى صدره وسكت، أو أرخى عَيْنَيْهِ إلى الأرض وأمسك عن الكلام.

(٥) (ش): لا يُقَادَرُ قَدْرُهُ: لا يمكن وصفه أو تحديده هيئته وكيفيته.

(٦) «أبو السعود» ١٩٧/٤.

(٧) «تفسير الطبري» ٦٢/٢١.

ذوقوا - بسبب نسيانكم الدار الآخرة وانهماكم في الشهوات - هذا العذاب المخزي الأليم ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ أي نترككم اليوم في العذاب كما تركتم العمل بآياتنا^(١) ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي وذوقوا العذاب الدائم الخالد في جهنم بسبب كفركم وتكذيبكم، ثم لما ذكر حال الأشقياء وعاقبتهم الوخيمة، أتبعه بذكر حال السعداء وما أعدّه لهم من النعيم المقيم في دار الجزاء، ليظل العبد بين الرهبة والرغبة فقال ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا﴾ أي إنما يصدق بآياتنا المؤمنون المتقون الذين إذا وعظوا بآياتنا سقطوا على وجوههم ساجدين لله تعظيماً لآياته ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي وسبحوا ربهم على نعمائه وهم لا يستكبرون عن طاعته وعبادته ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ أي تتنحى وتتباعد أطرافهم عن الفراش ومواضع النوم، والغرض أن نومهم بالليل قليل لا نقطاعهم للعبادة كقوله ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾^(١٧) وبالأشجار هم يستغفرون^(١٨) [الذاريات: ١٧ - ١٨] قال مجاهد: يعني بذلك قيام الليل ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي يدعون ربهم خوفاً من عذابه وطمعاً في رحمته وثوابه ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي ومما أعطيناهم من الرزق ينفقون في وجوه البر والحسنات ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أي فلا يعلم أحد من الخلق مقدار ما يعطيهم الله من النعيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ثواباً لما قدموه في الدنيا من صالح الأعمال.

(١) (ش): للنسيان معنيان:

أحدهما: الذهول عن شيء معلوم مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وهذا المعنى للنسيان مُتَّفٍ عن الله عز وجل بالدليلين السمعي، والعقلي. أما السمعي: فقوله تعالى عن موسى: ﴿قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]. وأما العقلي: فإن النسيان نقص، والله تعالى منزّه عن النقص، موصوف بالكمال، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠]. وعلى هذا فلا يجوز وصف الله بالنسيان بهذا المعنى على كل حال. والمعنى الثاني للنسيان: الترك عن علم وعمد، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤] وهذا المعنى من النسيان ثابت لله تعالى عز وجل قال الله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ [السجدة: ١٤]. وقال تعالى في المنافقين: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧]. وفي صحيح مسلم أن الله لا يُلْقِي الْعَبْدَ فَيَقُولُ لَهُ: أَفْظَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِي فَيَقُولُ لَا. فَيَقُولُ فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي. وتركه للشيء صفة من صفاته الفعلية الواقعة بمشيئته التابعة لحكمته، قال الله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَاهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَأْبُصُرُونَ﴾ [البقرة: ١٧]. وقال الله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: ٩٩]. وقال: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً﴾ [العنكبوت: ٣٥]. والنصوص في ثبوت الترك وغيره من أفعاله المتعلقة بمشيئته كثيرة معلومة، وهي دالة على كمال قدرته وسلطانه. وقيام هذه الأفعال به سبحانه لا يماثل قيامها بالمخلوقين، وإن شاركه في أصل المعنى، كما هو معلوم عند أهل السنة. [باختصار من «فتاوى الشيخ ابن عثيمين» (١/ ١٧٢-١٧٤)].

قال الله تعالى:

أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنَذِيقَنَّ هُنَّ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا نَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانظُرْ إِلَيْهِمْ مِّنْ ظُرُوبٍ

المناسبة: لما ذكر تعالى حال المجرمين في الآخرة، وحال المؤمنين المتقين، وما أعدَّ لهم من الكرامة في دار النعيم، ذكر هنا أنه لا يتساوى الفريقان: فريق الأبرار، وفريق الفجار لأن عدالة الله تقتضي التمييز بين المؤمن الصالح، والفاسق الفاجر.

اللغة: ﴿فَاسِقًا﴾ الفاسق: الخارج عن طاعة الله ﴿نُزُلًا﴾ ضيافة وعطاء، والنُّزْل ما يهبأ للنازل والضيف قال الشاعر:

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ بِالْجَيْشِ ضَافَتَا جَعَلْنَا الْقَنَا وَالْمُرْهَفَاتِ لَهُ نُزُلًا ^(١)

﴿الْجُرْزُ﴾ اليابسة الجرداء التي لا نبات فيها، والجرز: القطع قال الزمخشري: الجرز: الأرض التي جرز نباتها أي قطع، إما لعدم الماء أو لأنه رُعي وأزيل، ولا يقال للتي لا تنبت كالسباح: جرز ^(٢) ﴿الْفَتْحُ﴾ الحكم ويقال للحاكم: فاتح وفتاح لأنه يفصل بين الناس بحكمه ﴿يُنْظَرُونَ﴾ يُمَهَّلُونَ وَيُؤَخَّرُونَ.

سَبَبُ النُّزُول: رُوِيَ أَنَّهُ كَانَ بَيْنَ «عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ» وَ «الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ» تَنَازُعٌ وَخُصُومَةٌ، فَقَالَ الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ لِعَلِيِّ: اسْكُتْ فَإِنَّكَ صَبِي، وَأَنَا وَاللَّهِ أَبْسَطُ مِنْكَ

(١) (ش): ضَافَ شَخْصًا، ضِيَاةً: أَضَافَهُ؛ ضَيْقَهُ؛ أَنْزَلَهُ ضَيْقًا عِنْدَهُ. ضَافَ شَخْصًا: نَزَلَ عِنْدَهُ ضَيْفًا. ضَافَهُ ضَيْفًا: نَزَلَ فِي ضَيْفَتِهِ. الْقَنَا: الرِّمَاحُ. الْمُرْهَفَاتِ: السُّيُوفُ.

(٢) «الكشاف» ٣/ ٤٠٨.

لِسَانًا، وَأَشْجَعُ مِنْكَ جَنَانًا، وَأَمْلَأُ مِنْكَ حَشَوًا فِي الْكَتِيبَةِ، فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: اسْكُتْ فَإِنَّكَ فَاسِقٌ فَنَزَلَتْ ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾^(١).

التفسير: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا﴾؟ أي أفمن كان في الحياة الدنيا مؤمنًا متقيًا لله، كمن كان فاسقًا خارجًا عن طاعة الله؟ ﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ أي لا يستوون في الآخرة بالثواب والكرامة، كما لم يستووا في الدنيا بالطاعة والعبادة، وهذه الآية كقوله تعالى ﴿أَفَنَجْعُلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥]؟ قال ابن كثير: يخبر تعالى عن عدله وكرمه، أنه لا يساوي في حكمه يوم القيامة من كان مؤمنًا بآياته متبعًا لرسله، بمن كان فاسقًا أي خارجًا عن طاعة ربه، مكذبًا رسل الله^(٢)، ثم فصل تعالى جزاء الفريقين فقال ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي أما المتقون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح^(٣) ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى﴾ أي لهم الجنات التي فيها المساكن والدور والغرف العالية يأوون إليها ويستمتعون بها قال «البيضاوي»: فالجنة هي المأوى الحقيقي، والدنيا منزلٌ مُرْتَحِلٌ عنه لا محالة^(٤) ﴿نُزُلًا يَمْكَاؤُنَا يَعْمَلُونَ﴾ أي ضيافةً مهیأةً ومعدةً لإكرامهم كما تُهَيَّأُ التَّحَفُ للضيف^(٥) وذلك بسبب ما قدموه من صالح الأعمال ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ أي وأما الذين خرجوا عن طاعة الله فلمَجُؤُهُمْ وَمَنْزِلُهُمْ نار جهنم ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ أي إذا دفعهم لهب النار إلى أعلاها رُدُّوا إلى موضعهم فيها قال الفضيل بن عياض: والله إن الأيدي لموثقة، وإن الأرجل لمقيّدة، وإن اللهب ليرفعهم والملائكة تقمعهم^(٦) ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ أي وتقول لهم خزنة جهنم تقرعًا وتوبيخًا: ذوقوا عذاب النار المخزي الذي كنتم تكذبون به في الدنيا وتهزون منه، ثم توعدهم بعذاب عاجلٍ في الدنيا فقال ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/ ٢٦٥، وانظر «تفسير القرطبي» ١٤/ ١٠٥، و«زاد المسير» ٦/ ٣٤٠. (ش): أخرجه الواحدي في «أسباب النزول» وإسناده ضعيف. والمحش: مَا تَحَرَّكَ بِهِ النَّارُ مِنْ حَدِيدٍ، وَكَذَلِكَ الْمَحْشَةُ؛ وَمِنْهُ قِيلَ لِلرَّجُلِ الشُّجَاعُ: نَعَمْ مَحَشُ الْكَتِيبَةِ. والوليد بن عقبة صحابي، وكم من قصص مكذوبة تسيء إلى الصحابة الكرام تذكرها كتب التاريخ بلا تثبت.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٧٦.

(٣) (ش): العمل الصالح من الإيمان، فهو داخل في حقيقته وعطفه على الإيمان من عطف الخاص على العام اهتمامًا به، مثل قوله تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾.

(٤) «البيضاوي» ٢/ ١١٢.

(٥) (ش): أي الإكرام الزائد عن المعتاد: ما يُقَدَّمُ للضيف مما هو ليس مطابقًا لعادة المضيف التي كان قد اعتادها، فيتكلف إذا نزل به الضيف ويزيد في البرِّ على ما يُحْضِرُهُ في سائر الأيام.

(٦) «المختصر» ٣/ ٧٦.

الْأَذْنَى ﴿١﴾ أي ولنذيقنهم من العذاب الأقرب وهو عذاب الدنيا من القتل والأسر والبلايا والمحن قال الحسن: العذاب الأدنى: مصائب الدنيا وأسقامها مما يُبتلى به العبيد حتى يتوبوا وقال مجاهد^(١): القتل والجوع^(٢) ﴿ذُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ أي قبل العذاب الأكبر الذي ينتظرهم وهو عذاب الآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي لعلهم يتوبون عن الكفر والمعاصي، ثم بعد أن توعددهم وهددهم بين استحقاقهم للعذاب فقال ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أي لا أحد أظلم لنفسه ممن وعظ ودُكر بآيات الرحمن، ثم ترك الإيمان وتناساها؟ ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ أي سانتقم ممن كذب بآياتي أشد الانتقام، ووضع الاسم الظاهر مكان الضمير^(٣) لتسجيل الإجماع عليهم ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي أعطينا موسى التوراة ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾ أي فلا تكن

(١) (ش): في أكثر من طبعة: وقال أبو مجاهد، والتصحيح من «تفسير الطبري» وغيره.

(٢) قال المفسرون: أصاب أهل مكة القحط والجذب سبع سنين حتى أكلوا فيها الجيف والعظام والكلاب. (ش): عن ابن عباس رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَتَشُدُّكَ اللَّهُ وَالرَّحِمَ لَقَدْ أَكَلْنَا الْعُلْهَ، - يَعْنِي الْوَبَرَ بِالْدِّمِ - فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضَعِعُونَ﴾ (رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره»، والبيهقي في «الدلائل» وإسناده جيد. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمَّا آتَى ثَمَامَةُ بْنُ أَنَالٍ الْحَنْفِيَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَسْلَمَ وَهُوَ أَسِيرٌ فَخَلَّى سَبِيلَهُ، فَلَجَعَ بِالْيَمَامَةِ فَحَالَ بَيْنَ أَهْلِ مَكَّةَ وَبَيْنَ الْمِيرَةِ مِنْ يَمَامَةَ وَأَخَذَ اللَّهُ تَعَالَى قُرَيْشًا بِسِنِي الْجَدْبِ حَتَّى أَكَلُوا الْعُلْهَ، فَجَاءَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ - فَقَالَ: أَتَشُدُّكَ اللَّهُ وَالرَّحِمَ أَلَيْسَ تَزْعُمُ أَنَّكَ بُعِثْتَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ؟ قَالَ: «بَلَى»، فَقَالَ: قَدْ قَتَلْتَ الْأَبَاءَ بِالسِّنِّ وَالْأَنْبَاءَ بِالْجُوعِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ. (رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره»، والبيهقي في «الدلائل» وإسناده جيد. الْمِيرَةُ: الطَّعَامُ مِنَ الْحَبِّ وَالْقَوْتِ. وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: إِنْ قُرَيْشًا أَبْطَنُوا عَنِ الْإِسْلَامِ فَدَعَا عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَيْهِمْ بِسَبْعِ كَسْبِ يَوْسُفَ»، فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ (وفي رواية: قَحْطٌ وَجَهْدٌ) حَصَّتْ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى هَلَكُوا فِيهَا، وَأَكَلُوا الْمَيْتَةَ وَالْجِيفَ، وَالْجُلُودَ وَالْعِظَامَ، وَبَرَى الرَّجُلُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ مِنَ الْجَهْدِ وَالْجُوعِ. فَجَاءَهُ أَبُو سُفْيَانَ، فَقَالَ: «يَا مُحَمَّدُ! إِنَّكَ تَأْمُرُ بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَبِصَلَةِ الرَّحِمِ، وَإِنْ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا؛ فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُمْ، فَدَعَا، ثُمَّ قَالَ: «تَعُودُونَ بَعْدَ هَذَا»، فَقَرَأَ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ۝ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، دَعَا: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝﴾ (١٠) أَيْ هُمْ الذِّكْرُ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ۝ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِثْلُنَا ۝ وَإِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ۝ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ۝. فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْتَسْقَى اللَّهُ لِمُضَرَ؛ فَإِنَّهَا قَدْ هَلَكَتْ. قَالَ: «لِمُضَرَ؟! إِنَّكَ لَجَرِيءٌ!». فَاسْتَسْقَى، فَسَقُوا الْغَيْثَ وَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمْ سَبْعًا، وَشَكَا النَّاسُ كَثْرَةَ الْمَطَرِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ۝ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ۝﴾، فَكَشَفَ عَنْهُمْ فَعَادُوا إِلَى كُفْرِهِمْ، فَانْتَقَمَ اللَّهُ مِنْهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ. (وفي رواية: فَمَطَرُوا فَلَمَّا أَصَابَتْهُمْ الرَّفَاهَةُ عَادُوا إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يَوْمَ بَدْرٍ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَاطِلَ أَكْثَرُ مِنْهُمُ مُنْتَقِمُونَ﴾. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). (بِسَبْعِ كَسْبِ يَوْسُفَ): أَيْ بِسَبْعِ سِنِينَ كَسَبَنِي يَوْسُفَ فِي الْقَحْطِ وَالْمَيْحَةِ وَالْبَلَاءِ. (السَّنَةُ)، هِيَ الْقَحْطُ وَالْجَدْبُ. (حَصَّتْ): اسْتَأْصَلَتْ.

(٣) (ش): الاسم الظاهر ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾، الضمير: هم. أي إن الله تعالى قال: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾، ولم يقل سبحانه وتعالى: إِنَّا مِنْهُمْ مُنتَقِمُونَ.

يا محمد في شك من تلقي القرآن^(١) كما تلقى موسى التوراة، والمقصود تقرير رسالته عليه السلام، وتحقيق أن ما معه من الكتاب وحى سماوي وكتاب إلهي ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي جعلنا التوراة هداية لبني إسرائيل من الضلالة ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً﴾ أي جعلنا منهم قادة وقادة يقتدى بهم في الخير ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي يدعون الخلق إلى طاعتنا ويرشدونهم إلى الدين بأمرنا وتكليفنا ﴿لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ أي حين صبروا على تحمل المشاق في سبيل الله، وكانوا يصدقون بآياتنا أشد التصديق وأبلغه قال «ابن الجوزي»: وفي هذا تنبيه لقريش أنكم إن أطعتم وآمنتم جعلت منكم أمة^(٢) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِفَصْلِ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي إن ربك يا محمد يقضي ويحكم بين المؤمنين والكفار، فيميز بين المحق والمبطل يوم القيامة، ويجازي كلا بما يستحق، فيما اختلفوا فيه من أمور الدين قال الطبري: فيما كانوا فيه يختلفون من أمور الدين، والبعث، والثواب والعقاب^(٣)، ثم نبه تعالى على آثار قدرته في مخلوقاته، وأقام الحجة على الكفار بالأمم السالفة الذين كفروا فأهلكوا فقال ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ أي أغفل هؤلاء المشركون ولم يتبين لهم كثرة من أهلكناهم من الأمم الماضية الذين كذبوا رسل الله؟ ﴿يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ﴾ أي حال كون أهل مكة يسرون في دورهم، ويشاهدون في أسفارهم منازل هؤلاء المهلكين أفلا يعتبرون؟ قال ابن كثير: أي وهؤلاء المكذوبون يمشون في مساكن أولئك الظالمين، فلا يرون فيها أحدا ممن كان يسكنها ويعمرها^(٤) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ أي إن في إهلاكهم لدلالات عظيمة على قدرتنا، أفلا يسمعون سماع تدبر واتعاظ؟ ثم ذكر تعالى دلائل الوحدانية فقال ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ أي أولم يشاهدوا كمال قدرتنا في سقنا الماء إلى الأرض اليابسة التي لا نبات فيها من شدة العطش لنحييها؟ ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ﴾ أي فنخرج بذلك الماء أنواع الزروع والثمار، تأكل منه دوابهم من الكلاء والحشيش، وأنفسهم من الحب والخضر والفواكه والبقول ﴿أَفَلَا يَبْصُرُونَ﴾ أي أفلا يبصرون ذلك فيستدلون به على كمال قدرته تعالى وفضله، ويعلمون أن الذي أحيا الأرض الميتة قادر على إعادتهم بعد وفاتهم؟ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

(١) ذهب بعض المفسرين إلى أن الضمير يعود إلى موسى أي فلا تكن في شك من لقاء موسى، وما ذكرناه أرجح

وهو اختيار البضاوي وأبي السعود.

(٢) «زاد المسير» ٦/ ٣٤٤.

(٣) «تفسير الطبري» ٢١/ ٧١.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٧٧.

أي ويقول كفار مكة للمسلمين على سبيل السخرية والتهكم: متى ستنصرون علينا ويكون لكم الغلبة والفتح علينا؟ إن كنتم صادقين في دعواكم قال الصاوي: كان المسلمون يقولون: إن الله سيفتح لنا على المشركين، ويفصل بيننا وبينهم، وكان أهل مكة إذا سمعواهم يقولون: -بطريق الاستعجال تكديباً واستهزاء- متى هذا الفتح فنزلت ^(١) ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد تويخاً وتبكيثاً: إن يوم القيامة هو يوم الفتح الحقيقي الذي يفصل تعالى فيه بيننا وبينكم، ولا ينفع فيه الإيمان ولا الاعتذار فلماذا تستعجلون؟ ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي ولا هم يؤخرون ويُمهلون للتوبة قال «البيضاوي»: ويوم الفتح هو يوم القيامة فإنه يوم نصر المؤمنين على الكافرين والفصل بينهم، وقيل: هو يوم بدر ^(٢) ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي فأعرض يا محمد عن هؤلاء الكفار ولا تُبالِ بهم ﴿وَأَنْتَظِرُ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾ أي وانتظر ما يحل بهم من عذاب الله، إنهم منتظرون كذلك ما يحل بكم قال القرطبي: أي ينتظرون بكم حوادث الزمان ^(٣).

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - جناس الاشتقاق مثل ﴿نُنْذِرُ.. وَنَذِيرٌ﴾ وكذلك مثل ﴿وَأَنْتَظِرُ.. إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾.

٢ - الطباق بين ﴿الْعَيْبِ.. وَالشَّهَادَةِ﴾ وبين ﴿خَوْفًا.. وَطَمَعًا﴾.

٣ - الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ والأصل «وجعل له» والنكتة أن الخطاب إنما يكون مع الحي فلما نفخ تعالى الروح فيه حسن خطابه مع ذريته.

٤ - الاستفهام الإنكاري وغرضه الاستهزاء ﴿أَمْ ذَا ضَلَلْنَاهُ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَأْتِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؟

٥ - الإضمار ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي يقولون: ربنا أبصرنا وسمعنا.

٦ - الاختصاص ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي إليه لا إلى غيره مرجعكم يوم القيامة.

٧ - حذف جواب «لو» للتهويل ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ﴾ أي لرأيت أمراً مهولاً.

٨ - المُشاكلة وهي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى ﴿فَسَيُتِمُّ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ..

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٢٢٦/٣. (ش): ضعيف، رواه الطبري في «تفسيره». بالي الأمر/ بالي بالأمر/ بالي للأمر مُبالاة، فهو مُبالٍ: اكْتَرَتْ لَهُ، واهْتَمَّ بِهِ، وَيَغْلِبُ اسْتِعْمَالُهُ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ «لا يُبَالِي كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ بِقِيَمَةِ الْوَقْتِ».

(٢) «البيضاوي» ١١٣/٢.

(٣) «تفسير القرطبي» ١١٢/١٤.

إِنَّا نَسِينَكُمُ ﴿٩﴾ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنْسَى وَإِنَّمَا الْمَرَادُ نَتْرَكُكُمْ فِي الْعَذَابِ تَرْكُ الشَّيْءِ الْمُنْسِيِّ.

٩ - المقابلة اللطيفة بين جزاء الأبرار وجزاء الفجار ﴿٩﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ ۖ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ... ﴿١١﴾ وهو من المحسنات البديعية.

١٠ - الكناية عن كثرة العبادة والتبتل ليلاً ﴿١٠﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴿١١﴾ - الاستفهام للتقريع والتوبيخ ﴿١١﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴿١٢﴾ ؟ ﴿١٣﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ ﴿١٤﴾ ؟ ﴿١٥﴾ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿١٦﴾ ؟ ﴿١٧﴾ أَفَلَا يَبْصُرُونَ ﴿١٨﴾ وكلها بقصد الزجر والتوبيخ.

١٢ - السجع مراعاةً للفواصل ورءوس الآيات مثل ﴿١٢﴾ إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٣﴾ ، ﴿١٤﴾ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴿١٦﴾ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧﴾ ﴿١٨﴾ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿١٩﴾ وهذا من المحسنات البديعية وهو كثير في القرآن الكريم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة السجدة»





مدنية وآياتها ثلاث وسبعون

بين يدي السورة

* سورة الأحزاب من السور المدنية، التي تناول الجانب التشريعي لحياة الأمة الإسلامية، شأن سائر السور المدنية، وقد تناولت حياة المسلمين الخاصة والعامة، وبالأخص أمر الأسرة فشرعت الأحكام بما يكفل للمجتمع السعادة والهناء، وأبطلت بعض التقاليد والعادات الموروثة مثل: «التبني، والظهار، واعتقاد وجود قلبين لإنسان» وطهرت من رواسب المجتمع الجاهلي، ومن تلك الخرافات والأساطير الموهومة التي كانت منتفشة في ذلك الزمان.

* ويمكن أن نلخص المواضيع الكبرى لهذه السورة الكريمة في نقاط ثلاثة:

أولاً: التوجيهات والآداب الإسلامية.

ثانياً: الأحكام والتشريعات الإلهية.

ثالثاً: الحديث عن غزوتي «الأحزاب، وبني قريظة».

* **أما الأولى:** فقد جاء الحديث عن بعض الآداب الاجتماعية كآداب الوليمة، وآداب الستر والحجاب وعدم التبرج، وآداب معاملة الرسول ﷺ واحترامه إلى آخر ما هنالك من آداب اجتماعية.

* **وأما الثانية:** فقد جاء الحديث عنها في بعض الأحكام التشريعية مثل حكم الظهار والتبني، والإرث، وزواج مطلقة الابن من التبني، وتعدد زوجات الرسول الطاهرات والحكمة منه، وحكم الصلاة على الرسول ﷺ وحكم الحجاب الشرعي، والأحكام المتعلقة بأمور الدعوة إلى الوليمة إلى غير ما هنالك من أحكام تشريعية.

* **وأما الثالثة:** فقد تحدثت السورة بالتفصيل عن غزوة الخندق التي تسمى «غزوة الأحزاب» وصورتها تصويراً دقيقاً بتقليب قوى البغي والشر على المؤمنين، وكشفت عن خفايا المنافقين، وحذرت من طرقهم في الكيد والتخذيل والتشيط، وأطالت الحديث عنهم في بدء السورة وفي ختمها، حتى لم تبق لهم سترًا، ولم تُخفِ لهم مكرًا، وذكّرت المؤمنين بنعمة الله العظمى عليهم في ردّ كيد أعدائهم بإرسال الملائكة والريح، كما تحدثت عن غزوة بني قريظة ونقض اليهود عهدهم مع الرسول ﷺ.

التسمية: سميت سورة الأحزاب؛ لأن المشركين تحزبوا على المسلمين من كل جهة، فاجتمع كفار مكة مع غطفان وبني قريظة وأوباش العرب على حرب المسلمين، ولكن

الله ردهم مدحورين وكفى المؤمنين القتال بتلك المعجزة الباهرة.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝ (٣) مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ النَّسَىٰ تَطْهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝ (٤) ادْعُوهُمْ لِأَسْمَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا أَسْمَاءَهُمْ فَاخُونُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوْلَاكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ۚ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ (٥) النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ۝ (٦) وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَبَيْنَ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ ۚ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ۝ (٧) لَيْسَ لِلصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ (٨) يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝ (٩) إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ۝ (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝ (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۝ (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنَ النَّبِيِّ يَقُولُونَ إِنَّا بِيُثْرَةَ عَوْرَةٍ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝ (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَا تَوَّاهَا وَمَا تَلَبَّسُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ۝ (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلَّفُوكَ إِلَّا ذَرِيرًا ۚ وَكَانَ عَاهِدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ۝ (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تَمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ (١٧) ۞ فَذِيعَلَمْ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ (١٨) أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ جَدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝ (١٩) يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوتُ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتُلُوبُ عَنْ أَنْبِيَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا

اللغة: ﴿أَدْعِيَاءَكُمْ﴾ جمع دعِي وهو الولد المتبنَّى من أبناء الغير قال في اللسان:

والدَّعِي: المنسوب إلى غير أبيه، قال الشاعر:

دَعِيَ الْقَوْمَ يَنْصُرُ مُدْعِيَهُ
أَبِي الْإِسْلَامُ لَا أَبَ لِي سِوَاهُ
لِيُلْحِقَهُ بِذِي النَّسَبِ الصَّمِيمِ
إِذَا افْتَحَرُوا بِقَيْسٍ أَوْ تَمِيمٍ^(١)
﴿أَقْسَطُ﴾ أَعْدَلُ يُقَالُ: أَقْسَطَ الرَّجُلُ إِذَا عَدَلَ، وَقَسَطَ إِذَا ظَلَمَ، وَالْقَسَطُ: الْعَدْلُ.
﴿مَسْطُورًا﴾ أَي مَسْطَرًّا مَكْتُوبًا لَا يُمَحَى ﴿مِثْنَقَهُمْ﴾ الْمِثَاقُ: الْعَهْدُ الْمُؤَكَّدُ بِمِمينٍ أَوْ
نَحْوِهِ. ﴿الْحَنَاجِرَ﴾ جَمْعُ حَنْجَرَةٍ وَهِيَ نَهَايَةُ الْحَلْقُومِ مَدْخُلُ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ. ﴿يَثْرِبَ﴾
اسْمُ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ وَسَمَّاها رَسُولُ اللَّهِ ﷺ طَبِيبَةً. ﴿عَوْرَةً﴾ خَالِيَةٌ مِنَ الرِّجَالِ غَيْرُ مُحَصَّنَةٍ
يُقَالُ: دَارٌ مُعَوَّرَةٌ إِذَا كَانَ يَسْهَلُ دُخُولُهَا، قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: الْعَوْرَةُ كُلُّ خَلَلٍ يُتَخَوَّفُ مِنْهُ فِي
ثَغْرِ أَوْ حَرْبٍ^(٢). ﴿أَقْطَارِهَا﴾ جَمْعُ قُطْرٍ وَهُوَ النَّاحِيَةُ وَالْجَانِبُ. ﴿يَعْصِمُكُمْ﴾ يَمْنَعُكُمْ.
﴿الْمُعَوِّقِينَ﴾ الْمُثْبِطِينَ مُشْتَقٌّ مِنْ عَاقَهُ إِذَا صَرَفَهُ^(٣).

سَبَبُ النِّزُولِ: أ - رَوَى أَنَّ رَجُلًا مِنْ قَرِيشٍ يُدْعَى «جَمِيلُ بْنُ مَعْمَرٍ» كَانَ لَبِيبًا حَافِظًا
لَمَا يَسْمَعُ فَقَالَتْ قَرِيشٌ: مَا حَفِظَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ إِلَّا وَلَهُ قَلْبَانِ فِي جَوْفِهِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ مَا جَعَلَ
اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ.. ﴿٤﴾ الْآيَةُ.
ب - وَرَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا أَرَادَ غَزْوَةَ تَبُوكَ أَمَرَ النَّاسَ بِالتَّجْهِزِ وَالْخُرُوجِ لَهَا، فَقَالَ

(١) (ش):

أَبِي الْإِسْلَامُ لَا أَبَ لِي سِوَاهُ
دَعِيَ الْقَوْمَ يَنْصُرُ مُدْعِيَهُ
وَمَا كَرِمٌ وَلَوْ شَرَفْتُ جُدُودُ
إِذَا هَتَفُوا بِبَكْرِ أَوْ تَمِيمٍ
فِيُلْحِقَهُ بِذِي النَّسَبِ الصَّمِيمِ
وَلَكِنَّ التَّقَى هُوَ الْكَرِيمُ
جاء في «الشعر والشعراء» لابن قتيبة الدينوري (١/ ٥٢٨) [أَنَّ قَاتِلَ الْآيَاتِ الثَّلَاثَةِ هُوَ نَهَارُ بْنُ تَوْسَعَةَ بْنِ أَبِي
عَتْبَانَ، وَكَانَ أَشْعَرُ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ بِخُرَاسَانَ.
وَالْآيَاتُ فِي «مَعْجَمِ الشُّعْرَاءِ» لِلْمَرْزُبَانِيِّ (ص: ٢٥٨) مَنْسُوبَةٌ لِعَيْسَى بْنِ حُدَيْرٍ أَحَدِ شُعْرَاءِ بَنِي بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ
بَلَفْظَ آخَرٍ:

أَبِي الْإِسْلَامُ لَا أَبَ لِي سِوَاهُ
كِلَا الْحَيَيْنِ يَنْصُرُ مُدْعِيَهُ
وَمَا حَسَبٌ وَلَوْ كَرُمْتَ عُرُوقُ
إِذَا فَخَرُوا بِبَكْرِ أَوْ تَمِيمٍ
لِيُلْحِقَهُ بِذِي النَّسَبِ الصَّمِيمِ
وَلَكِنَّ التَّقَى هُوَ الْكَرِيمُ

(٢) (ش):

(٣) (ش): ثَبُطٌ، تَثْبِيطٌ، فَهُوَ مُثَبِّطٌ. ثَبُطَ هِمَّتَهُ: أَوْهَنَهَا، أَضْعَفَهَا وَحَمَلَهَا عَلَى التَّرَاخِي. ثَبُطَ عَنْ سَعْيِهِ: عَوَّقَهُ عَنْهُ
وَبَطَّأَهُ، شَغَلَهُ وَمَنَعَهُ عَنِ الْمُضِيِّ فِيهِ.

(٤) «زاد المسير» ٦/ ٣٤٩. (ش): ضَعِيفٌ، رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرَيْهِمَا» وَالْوَاهِدِيُّ فِي
«أَسْبَابِ النِّزُولِ».

أناس: نستأذن آبائنا وأمهاتنا فأنزل الله ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ..﴾^(١) الآية.

التفسير: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ أُنْقَىٰ اللَّهُ﴾ النداء على سبيل التشريف والتكرمة لأن لفظ النبوة مُشعر بالتعظيم والتكريم أي اثبت على تقوى الله ودُم عليها، قال «أبو السعود»: في ندائه ﷺ بعنوان النبوة تنويهً بشأنه، وتنبيه على سمو مكانه، والمراد بالتقوى: المأمور به الثبات عليه والازدياد منه، فإن له باباً واسعاً ومكاناً عريضاً لا يُنَال مداه^(٢) ﴿وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أي ولا تطع أهل الكفر والنفاق فيما يدعونك إليه من اللين والتساهل، وعدم التعرض لآلهتهم بسوء، ولا تقبل أقوالهم وإن أظهروا أنها نصيحة، قال المفسرون: دعا المشركون رسول الله ﷺ أن يرفض ذكر آلهتهم بسوء، وأن يقول إن لها شفاعة، فكره ﷺ ذلك ونزلت الآية^(٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي إنه تعالى عالم بأعمال العباد وما يضمرونه في نفوسهم، حكيم في تدبير شئونهم ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي واعمل بما يوحيه إليك ربك من الشرع القويم، والدين الحكيم، واستمسك بالقرآن المنزل عليك ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي خبيراً بأعمالكم لا تخفى عليه خافية من شئوونكم، وهو مجازيكم عليها ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي اعتمد عليه، والجأ في أمورك إليه ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي حسبك أن يكون الله حافظاً وناصرًا لك ولأصحابك، ثم ردَّ تعالى مزاعم الجاهليين ببيان الحق الساطع فقال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ أي ما خلق الله لأحدٍ من الناس أيًا كان قلبين في صدره، قال مجاهد: نزلت في رجل من قريش كان يدعى «ذا القلبين» من دهائه وكان يقول: إنَّ في جوفي قلبين أعقل بكل واحدٍ منهما أفضل من عقل محمد^(٤) ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تَظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ أي وما جعل زوجاتكم اللواتي تظاهرون منهن أمهاتكم، قال «ابن الجوزي»: أعلم تعالى أن الزوجة لا تكون أمًا، وكانت الجاهلية تطلق بهذا الكلام وهو أن يقول لها: أنت علي كظهر أمي^(٥) ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ أي وما جعل الأبناء من التبني الذين ليسوا من

(١) الألوسي ١٥١/١٢. (ش): ذكره الألوسي في «تفسيره» بدون إسناد وبصيغة التمریض فقال: «وسبب نزول الآية على ما قيل ما روي من أنه عليه الصلاة والسلام أراد غزوة تبوك فأمر الناس بالخروج فقال أناس منهم: نستأذن آبائنا وأمهاتنا فنزلت».

(٢) «أبو السعود» ٢٠١/٤.

(٣) انظر «تفسير القرطبي» ١١٥/١٤، و«زاد المسير» ٣٤٧/٦. (ش): ذكره الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.

(٤) «تفسير القرطبي» ١١٦/١٤. (ش): ضعيف، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير الطبري في «تفسيريهما» والواحدي في «أسباب النزول».

(٥) «زاد المسير» ٣٥٠/٦.

أصلا بكم أبناء لكم حقيقة ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ أي دعاؤهم أبناء مجرد قول بالفم لا حقيقة له من الواقع ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ أي والله تعالى يقول الحق الموافق للواقع، والمطابق له من كل الوجوه ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ أي يرشد إلى الصراط المستقيم، والغرض من الآية التنبيه على بطلان مزاعم الجاهلية، فكما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه، فكذلك لا يمكن أن تصبح الزوجة المظاهر منها أمًا، ولا الولد المتبني ابنًا، لأن الأم الحقيقية هي التي ولدتها، والابن الحقيقي هو الذي وُلد من صلب الرجل، فكيف يجعلون الزوجات المظاهر منهن أمهات؟ وكيف يجعلون أبناء الآخرين أبناء لهم مع أنهم ليسوا من أصلابهم؟ ثم أمر تعالى برّد نسب هؤلاء إلى آبائهم فقال: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي انسبوا هؤلاء الذين جعلتموهم لكم أبناء لأبائهم الأصلاء ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي هو أعدل وأقسط في حكم الله وشرعه^(١) قال ابن جرير: أي دعاؤكم إياهم لأبائهم هو أعدل عند الله وأصدق وأصوب من دعائكم إياهم لغير آبائهم^(٢) ﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أي فإن لم تعرفوا آباءهم الأصلاء فتنسبواهم إليهم فهم إخوانكم في الإسلام ﴿وَمَوْلَاكُمْ﴾ أي أولياؤكم في الدين، فليقل أحدكم: يا أخي ويا مولاي يقصد أخوة الدين وولايته، قال ابن كثير: أمر تعالى برّد أنساب الأدياء إلى آبائهم إن عرفوا، فإن لم يعرفوا فهم إخوانهم في الدين ومواليهم، عوضاً عما فاتهم من النسب، ولهذا قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة: «أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا»^(٣) وقال ابن عمر: مَا كُنَّا نَدْعُو زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ إِلَّا زَيْدَ بْنَ مُحَمَّدٍ حَتَّى نَزَلَتْ ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٤) «وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ» أي وليس عليكم أيها المؤمنون ذنبٌ أو إثم فيمن نسبتموهم إلى غير آبائهم خطأ ﴿وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي ولكن الإثم فيما تقصدم وتعمدتم نسبته إلى غير أبيه ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي واسع المغفرة عظيم الرحمة يعفو عن المخطئ ويرحم المؤمن التائب، ثم بيّن تعالى شفقة الرسول ﷺ على أمته ونصحه لهم فقال: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي هو عليه السلام أرف بهم وأعطف عليهم، وأحقّ بهم من أنفسهم في كل شيء من أمور الدين والدنيا، وحكمه أنفذ وطاعته أوجب ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أي وزوجاته الطاهرات أمهات المؤمنين في وجوب تعظيمهن واحترامهن، وتحريم نكاحهن، قال «أبو السعود»: أي منزلات منزلة الأمهات،

(١) نقلاً عن كتابنا «تفسير آيات الأحكام» ٢/ ٢٥٤.

(٢) «تفسير الطبري» ٢١/ ٧٦.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٧٩، «ابن كثير» ٣/ ٨١. (ش): رواه البخاري.

(٤) أخرجه البخاري. (ش): رواه البخاري ومسلم.

في التحريم واستحقاق التعظيم، وأما فيما عدا ذلك فهنَّ كالأجنيات^(١) ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ أي أهل القربات ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ أي أحقُّ بالإرث من المهاجرين والأنصار في شرع الله ودينه ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ أي إلا أن تحسنوا إلى إخوانكم المؤمنين والمهاجرين في حياتكم، أو توصوا إليهم عند الموت فإن ذلك جائز، وبسط اليد بالمعروف مما حث الله عباده عليه، قال المفسرون: وهذا نسخ لما كان في صدر الإسلام من توارث المسلمين من بعضهم بالأخوة الإيمانية وبالهجرة ونحوها^(٢) ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ أي كان حكم التوارث بين ذوي الأرحام مكتوباً مسطراً في الكتاب العزيز لا يبدل ولا يُغير، قال قتادة: أي مكتوباً عند الله عزَّ وجلَّ ألا يرث كافر مسلماً^(٣) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ أي اذكر وقت أخذنا من النبيين عهدهم المؤكد باليمين، أن يَقُوا^(٤) بما التزموا، وأن يصدق بعضهم بعضاً وأن يؤمنوا برسالة محمد ﷺ ورسالاتهم ﴿وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي وأخذنا منك يا محمد الميثاق ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وهؤلاء هم أولو العزم ومشاهير الرسل، وإنما قدَّمه ﷺ في الذكر لبيان مزيد شرفه وتعظيمه، قال «البيضاوي»: خصَّهم بالذكر لأنهم مشاهير أرباب الشرائع، وقدَّم نبينا عليه الصلاة والسلام تعظيماً له وتكريماً لشأنه^(٥) وقال ابن كثير: بدأ بالخاتم لشرفه صلوات الله عليه، وبياناً لعظم مكانته، ثم رتبهم بحسب وجودهم في الزمان^(٦) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْهُمُ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أي وأخذنا من الأنبياء عهداً وثيقاً عظيماً على الوفاء بما التزموا به من تبليغ الرسالة ﴿لَتَسْلُكُنَّ الْأَصْدِيقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ أي ليسأل الله يوم القيامة الأنبياء الصادقين عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم، قال الصاوي: والحكمة في سؤال الرسل مع علمه تعالى بصدقهم هو التقيح على الكفار يوم القيامة وتبكيتهم^(٧) وقال القرطبي: وفي الآية تنبيه على أن الأنبياء إذا كانوا يُسألون يوم القيامة فكيف بمن سواهم؟ وفائدة سؤالهم توبيخ الكفار كما قال تعالى لعيسى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ﴾ [المائدة: ١١٦]^(٨)؟

(١) «أبو السعود» ٢٠٣/٤.

(٢) انظر «زاد المسير» لابن الجوزي ٣٥٤/٦.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٢٦/١٤.

(٤) (ش): وفى الشخص الوعد/ وفى الشخص الوعد: حافظ عليه وعمل به، أتمه وأنجزه، ضد غدر.

(٥) «البيضاوي» ١١٤/١.

(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» ٨٣/٣.

(٧) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٢٦٩/٣.

(٨) «تفسير القرطبي» ١٢٨/١٤.

﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وأعد الله للكافرين عذاباً مؤلماً موجعاً، بسبب كفرهم وإعراضهم عن قبول الحق، ثم شرع تعالى في ذكر «غزوة الأحزاب» وما فيها من نعم فائضة، وآيات باهرة للمؤمنين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي اذكروا فضله وإنعامه عليكم ﴿إِذْ جَاءَ تَكُمْ جُنُودٌ﴾ أي وقت مجيء جنود الأحزاب وتألبهم عليكم^(١)، قال «أبو السعود»: والمراد بالجنود الأحزاب وهم قريش، وغطفان، ويهود قريظة وبنو النضير، وكانوا زهاء اثني عشر ألفاً، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بإقبالهم ضرب الخندق على المدينة بإشارة «سلمان الفارسي»^(٢) ثم خرج في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب معسكره والخندق بينه وبين المشركين، واشتد الخوف وظنَّ المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق في المنافقين حتى قال «معتب بن قشير»: يעדنا محمد كنوز كسرى وقيصر ولا نقدر أن نذهب إلى الغائط^(٣) ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أي فأرسلنا على الأحزاب ريحاً شديدة وجنوداً من الملائكة لم تروهم وكانوا قرابة ألف، قال المفسرون: بعث الله عليهم ريحاً عاصفاً وهي ريح الصبا في ليلة شديدة البرد والظلمة، فقلعت بيوتهم، وكفأت قدورهم، وصارت تلقي الرجل على الأرض، وأرسل الله الملائكة فزلزلتهم ولم تقا بل أَلْقَتْ في قلوبهم الرعب^(٤) ﴿وَكَانَ اللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ بِصِيرًا﴾ أي وهو تعالى مطلع على ما تعملون من حفر الخندق، والثبات على معاونته النبي ﷺ في ذلك الوقت ﴿إِذْ جَاءَ وَكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ أي حين جاء تكم الأحزاب من فوق الوادي يعني من أعلاه قِبَلَ المشرق، ومنه جاءت أسد وغطفان ﴿وَمِنَ اسْفَلِ مِنْكُمْ﴾ أي ومن أسفل الوادي يعني أدناه قِبَلَ المغرب، ومنه جاء قريش وكنانة وأوباش العرب، والغرض أن المشركين جاءوهم من جهة المشرق والمغرب، وأحاطوا بالمسلمين إحاطة السوار بالمعصم، وأعانهم يهود بني قريظة فنقضوا العهد مع الرسول وانضموا إلى المشركين، فاشتد الخوف، وعظم البلاء ولهذا قال تعالى ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ أي وحين مالت

(١) (ش): تَأَلَّبَ عَلَى، تَأَلَّبَ النَّاسُ: تَجَمَّعُوا وَاحْتَشَدُوا. تَأَلَّبُوا عَلَى الْأَمْرِ: تَعَاوَنُوا وَتَضَافَرُوا عَلَيْهِ.

(٢) (ش): لم يثبت أن سلمان الفارسي رضي الله عنه هو الذي أشار بحفر الخندق.

اشتهر في كتب السيرة أن الرسول ﷺ لما سمع بقدوم الأحزاب لغزو المدينة، شاور أصحابه، فأشار عليه سلمان الفارسي - رضي الله عنه - بقوله: «إنا كنا بفارس إذا حُوصِرْنَا خَنَدَقْنَا عَلَيْنَا»، فأمر النبي ﷺ بحفر الخندق حول المدينة. [انظر: ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية للدكتور محمد عبد الله العوشن (ص: ١٦٢)].

(٣) «أبو السعود» ٤/ ٣٠٤.

(٤) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/ ٢٧١.

الْأَبْصَارَ عَنْ سَنَنِهَا وَمَسْتَوَى نَظَرِهَا حَيْرَةً وَشَخْوصًا لَشِدَّةِ الْهَوْلِ وَالرَّعْبِ ^(١) ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ أَي زَالَتْ عَنْ أَمَاكِنِهَا مِنَ الصَّدُورِ حَتَّى كَادَتْ تَبْلُغُ الْحَنَاجِرَ، وَهَذَا تَمْثِيلٌ لَشِدَّةِ الرَّعْبِ وَالْفَزَعِ الَّذِي دَهَاهُمْ، حَتَّى كَأَن أَحَدَهُمْ قَدْ وَصَلَ قَلْبُهُ إِلَى حَنَجْرَتِهِ مِنْ شِدَّةِ مَا يَلَاقِي مِنَ الْهَوْلِ ^(٢) ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ أَي وَكُنْتُمْ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ الشَّدِيدَةِ تَظُنُّونَ الظُّنُونِ الْمَخْتَلِفَةَ، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: ظَنُّ الْمُنَافِقِينَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ يُسْتَأْصِلُونَ، وَظَنُّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ يُنْصَرُونَ ^(٣)، فَالْمُؤْمِنُونَ ظَنُّوا خَيْرًا، وَالْمُنَافِقُونَ ظَنُّوا شَرًّا، وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: كَادَ الْمُؤْمِنُونَ يَضْطَرُّونَ وَيَقُولُونَ: مَا هَذَا الْخُلْفُ لِلْوَعْدِ؟ وَهَذِهِ عِبَارَةٌ عَنْ خَوَاطِرِ خَطَرَتِ لِلْمُؤْمِنِينَ لَا يُمْكِنُ لِلْبَشَرِ دَفْعُهَا، وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ فَتَعْجَلُوا وَنَطَقُوا وَقَالُوا: مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ^(٤) ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أَي فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ امْتَحَنَ الْمُؤْمِنُونَ وَاخْتَبَرُوا، لِيَتَمَيَّزَ الْمَخْلَصُ الصَّادِقُ مِنَ الْمُنَافِقِ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَكَانَ هَذَا الْإِبْتِلَاءُ بِالْخَوْفِ وَالْقِتَالِ، وَالْجُوعِ وَالْحَصْرِ وَالنِّزَالِ ^(٥) ﴿وَزُلْزِلُوا زَلَالًا شَدِيدًا﴾ أَي وَحُرِّكُوا تَحْرِيكًَا عَنِيفًا مِنْ شِدَّةِ مَا دَهَاهُمْ، حَتَّى لَكَانَ الْأَرْضُ تَتَزَلْزَلُ بِهِمْ وَتَضْطَرُّبُ تَحْتَ أَقْدَامِهِمْ، قَالَ ابْنُ جَزِيٍّ: وَأَصْلُ الزَّلْزَلَةِ شِدَّةُ التَّحْرِيكِ وَهُوَ هُنَا عِبَارَةٌ عَنْ اضْطِرَابِ الْقُلُوبِ وَتَزَعُّعِهَا ^(٦) ﴿وَلِذَاقِ الْمُنَافِقِينَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أَي وَاذْكُرْ حِينَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ، وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضُ النِّفَاقِ، لِأَنَّ الْإِيمَانَ لَمْ يَخَالِطْ قُلُوبَهُمْ ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أَي مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا بَاطِلًا وَخُدَاعًا، قَالَ الصَّاوِي: وَالْقَائِلُ هُوَ «مَعْتَبُ بْنُ قَشِيرٍ» الَّذِي قَالَ: بَعَدْنَا مُحَمَّدًا بَفَتْحِ فَارِسَ وَالرُّومِ، وَأَحْدُنَا لَا يَقْدِرُ أَنْ يَتَبَرَّزَ فِرْقًا، مَا هَذَا إِلَّا وَعْدُ غُرُورٍ ^(٧) يَغُرُّنَا بِهِ مُحَمَّدٌ ﴿وَلِذَاقِ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ أَي وَاذْكُرْ حِينَ قَالَتْ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَهُمْ: أَوْسُ بْنُ قِيْظِي وَأَتْبَاعُهُ، وَأُبَيُّ بْنُ سُلُولٍ وَأَشْيَاعُهُ ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ أَي يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ لَا قَرَارَ لَكُمْ هَهُنَا وَلَا إِقَامَةَ ﴿فَارْجِعُوا﴾ أَي فَارْجِعُوا إِلَى مَنَازِلِكُمْ

(١) تفسير الكشاف ٤٢٦/٣. (ش): سَنَنْ: طَرِيقَةٌ. حِينَ مَالَتْ الْأَبْصَارُ عَنْ سَنَنِهَا: أَي حِينَ اخْتَلَفَتْ طَبِيعَتُهَا. شَخْصَ الْبَصَرِ: اتَّسَعَ دُونَ أَنْ يَطْرَفَ. شَخْصَ بَصَرَهُ/ شَخْصَ بَصَرِهِ: أَطَالَ النَّظَرَ فَاتَحَا عَيْنِيهِ بِدُونَ أَنْ يَطْرَفَ بِهِمَا. أَي بِدُونَ أَنْ يَحْرُكَ جَفُونِ الْعَيْنَيْنِ.

(٢) قال القرطبي: وهذا القول منقول معناه عن عكرمة، والأظهر أنه أراد اضطراب القلب وضرباته حتى كأنه لشدة اضطرابه بلغ الحنجرة. اهـ.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٤٥/١٤.

(٤) نقلاً عن «البحر المحيط» ٢١٧/٧.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٤٦/١٤.

(٦) «التسهيل» ٣/١٣٤.

(٧) «حاشية الصاوي» ٢٧٢/٣.

واتركوا محمداً وأصحابه ﴿وَيَسْتَعِزُّنَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ النَّبِيَّ﴾ ويستأذن جماعة من المنافقين النبي ﷺ في الانصراف متعللين بعلل واهية ﴿يَقُولُونَ إِنِّي نُوْتْنَا عَوْرَةً﴾ أي غير حصينة فنخاف عليها العدوَّ والشرَّاق ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ تكذيب من الله تعالى لهم أي ليس الأمر كما يزعمون ﴿إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي ما يريدون بما طلبوا من الرسول ﷺ إلا الهرب من القتال، والفرار من الجهاد، والتعير بالمضارع ﴿وَيَسْتَعِزُّنَ﴾ لاستحضار الصورة في النفس، فكأن السامع يبصرهم الآن وهم يستأذنون، ثم فضحهم تعالى ويبين كذبهم ونفاقهم فقال: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ أي ولو دخل الأعداء على هؤلاء المنافقين من جميع نواحي المدينة وجوانبها ﴿ثُمَّ سَمِلُوا الْفِتْنَةَ لَا تَوْهَا﴾ أي ثم طلب إليهم أن يكفروا وأن يقاتلوا المسلمين لأعطوها من أنفسهم ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ أي لفعلوا ذلك مسرعين، ولم يتأخروا عنه لشدة فسادهم، وذهاب الحق من نفوسهم، فهم لا يحافظون على الإيمان ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع^(١)، وهذا ذم لهم في غاية الذم ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّوهُمُ الْأَدْبَرُ﴾ أي ولقد كان هؤلاء المنافقون أعطوا ربهم العهود والمواثيق من قبل غزوة الخندق وبعد بدر ألا يفروا من القتال ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ أي وكان هذا العهد منهم جديراً بالوفاء لأنهم سيسألون عنه، وفيه تهديد ووعد، قال قتادة: لما غاب المنافقون عن بدر، ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والنصر، قالوا لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن^(٢) ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ أي قل يا أيها النبي لهؤلاء المنافقين، الذين يفرون من القتال طمعاً في البقاء وحرصاً على الحياة، إن فراركم لن يطول أعماركم ولن يؤخر آجالكم، ولن يدفع الموت عنكم أبداً ﴿وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ولئن هربتم وفررتم فإذا لا تمتعون بعده إلا زمناً يسيراً، لأن الموت مأل كل حي، ومن لم يمُت بالسيف مات بغيره ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي من يستطيع أن يمنعكم منه تعالى ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي إن قدر هلاككم ودماركم، أو قدر بقاءكم ونصركم؟ ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي وليس لهم من دون الله مُجِير ولا مغيث، فلا قريب ينفعهم ولا ناصر ينصرهم ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ﴾ أي لقد علم الله تعالى ما كان من أمر أولئك المنافقين، والمشيطين للعرائم، الذين يعوقون الناس عن الجهاد، ويصدونهم عن القتال ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هُمْ إِلَيْنَا﴾ أي والذين

(١) هذا قول قتادة وابن زيد واختاره ابن جرير. قال القرطبي: وقال السدي والحسن والفراء المعنى: ما لبثوا بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا قليلاً حتى يهلكوا، والأول وقول أكثر المفسرين، وذلك لضعف نياتهم وفرط نفاقهم، فلو اختلط بهم الأعداء لأظهروا الكفر. اهـ. «تفسير القرطبي» ١٤/ ١٥٠.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٤/ ١٥٠.

يقولون لإخوانهم في الكفر والنفاق: تعالوا إلينا واتركوا محمداً وصحبه يهلكوا ولا تقاتلوا معهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ولا يحضرون القتال إلا قليلاً منهم رياءً وسمعة، قال الصاوي: لأن شأن من يثبّط غيره عن الحرب ألا يفعله إلا قليلاً لغرض خبيث^(١) وقال في البحر: المعنى: لا يأتون القتال إلا إتياناً قليلاً، يخرجون مع المؤمنين يؤهّمونهم أنهم معهم، ولا تراهم يقاتلون إلا شيئاً قليلاً إذا اضطروا إليه، فقتلهم رياء ليس بحقيقة^(٢) ﴿أَشْحَةً عَلَيْكُمْ﴾ أي بخلاء عليكم بالمودة والشفقة والنصح لأنهم لا يريدون لكم الخير ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي فإذا حضر القتال رأيت أولئك المنافقين في شدة رغب لا مثيل لها، حتى إنهم لتدور أعينهم في أحداقهم كحال المغشي عليه من معالجة سكرات الموت حذراً وخوراً، قال القرطبي: وصفهم بالجبن، وكذا سبيل الجبان ينظر يميناً وشمالاً محدداً بصره، وربما غشي عليه من شدة الخوف^(٣) ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِاللِّسَانِ حِدَادٍ﴾ أي فإذا ذهب الخوف عنهم وانجلت المعركة آذوكم بالكلام باللسنة سليطة، وبالغوا فيكم طعناً وذمّاً، قال قتادة: إذا كان وقت قسمة الغنيمة بسطوا ألسنتهم فيكم يقولون: أعطونا أعطونا فإننا قد شهدنا معكم، ولستم أحقّ بها منا، فأما عند البأس فأجبن قوم وأخذلهم للحق، وأما عند الغنيمة فأشح قوم وأبسطهم لساناً^(٤) ﴿أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ أي خاطبوكم بما خاطبوكم به حال كونهم أشحّة أي بخلاء على المال والغنيمة ﴿أُولَئِكَ لَمْ يُوْثِقُوا﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من صفات السوء، لم يؤثّقوا حقيقة بقلوبهم وإن أسلموا ظاهراً ﴿فَلَحَبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ﴾ أي أبطلها بسبب كفرهم ونفاقهم، لأن الإيمان شرط في قبول الأعمال ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي وكان الإحباط سهلاً هيناً على الله، ثم أخبر تعالى عنهم بما يدل على جبنهم فقال: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أي يحسب المنافقون من شدة خوفهم وجبنهم أن الأحزاب وهم كفار قريش ومن تحزب معهم بعد انضمامهم لم ينصرفوا عن المدينة وهم قد انصرفوا ﴿وَلِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُّوكَ فِي الْأَعْرَابِ﴾ أي وإن يرجع إليهم الكفار مرة ثانية للقتال يتمنوا لشدة جزعهم أن يكونوا في البادية من الأعراب لا في المدينة معكم حذراً من القتل وتربصاً للدوائر ﴿يَسْتَلُوكَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ﴾ أي يسألون عن أخباركم وما وقع لكم فيقولون: أهلك المؤمنون؟ أغلب أبو سفيان؟ ليعرفوا حالكم بالاستخبار لا

(١) «حاشية الصاوي» ٣/ ٢٧٣.

(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٢٢٠.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٤/ ١٥٣.

(٤) «زاد المسير» ٦/ ٣٦٦، و«تفسير القرطبي» ١٤/ ١٥٤.

بالمشاهدة ﴿وَلَوْ كُنَّا فِيكُمْ مَا قَاتَلْنَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ولو أنهم كانوا بينكم وقت القتال واحتدام المعركة ما قاتلوا معكم إلا قتلاً قليلاً، لجبنهم وذلتهم وحرصهم على الحياة.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - التنكير لإفادة الإستغراق والشمول ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ﴾ وإدخال حرف الجر الزائد لتأكيد الإستغراق، وذكر الجوف ﴿فِي جَوْفِهِ﴾ لزيادة التصوير في الإنكار.

٢ - جناس الإشتقاق ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

٣ - الطباق بين ﴿أَخْطَأْتُمْ حَكِيمًا .. تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ وبين ﴿سَوَاءٌ .. رَحْمَةً﴾ لأن المراد بالسوء الشر، وبالرحمة الخير.

٤ - التشبيه البليغ ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ حُذِفَ مِنْهُ وَجْهُ الشَّبْهِ وَأَدَاةُ التَّشْبِيهِ فَصَارَ بَلِيغًا، وأصل الكلام: وأزواجه مثل أمهاتهم في وجوب الإحترام والتعظيم، والإجلال والتكريم.

٥ - المجاز بالحذف ﴿أَوَّلَىٰ بِبَعْضِ﴾ أي أولى بميراث بعض.

٦ - ذكر الخاص بعد العام للتشريف ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ فقد دخل هؤلاء المذكورون في جملة النبيين ولكنه خصهم بالذكر تنويهاً بشأنهم وتشريفاً لهم.

٧ - الاستعارة ﴿مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ استعار الشيء الحسي وهو الغلظ الخاص بالأجسام للشيء المعنوي وهو بيان حرمة الميثاق وعظمه وثقل حمله.

٨ - الالتفات ﴿لَيْسَ لَكَ الصَّدِيقِينَ﴾ وغرضه التوبيخ والتقبيح للمشركين.

٩ - الطباق بين ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ .. أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾.

١٠ - التشبيه التمثيلي ﴿تُدَوِّرُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد.

١١ - المبالغة في التمثيل ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ صَوَّرَ الْقُلُوبَ فِي خَفَقَاتِهَا واضطرابها كأنها وصلت إلى الحلقوم.

١٢ - الكناية ﴿لَا يُؤَلُّوْا الْأَذْنَكَرَ﴾ كناية عن الفرار من الزحف.

١٣ - الاستعارة المكنية ﴿سَلَفُوكُمْ بِاللِّسَنِ حَدَادٍ﴾ شَبَّهَ اللِّسَانَ بِالسِّيفِ الْمَصْلُوتِ وحذف ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو السلق بمعنى الضرب على طريق الاستعارة المكنية، ولفظ ﴿حَدَادٍ﴾ ترشيح^(١).

(١) (ش): ترشيح الاستعارة أن يذكر فيها ما يلائم المشبه به، تقوية لها. مثل: خُلِقَ فُلَانٌ أَرْقًى مِنْ أَنْفَاسِ الصَّبَا إِذَا غَازَلَتْ أَزْهَارَ الرَّبِيِّ. الصَّبَا: رِيحٌ مَهْبُتَةٌ جَهَةِ الشَّرْقِ، وَالرَّبِّيُّ جَمْعُ رُبُوعَةٍ. وَهِيَ مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ بَيْنَ سَهْلَيْنِ نَهْرَيْنِ. (غَازَلَتْ أَزْهَارَ الرَّبِيِّ) ذَكَرَتْ لِتَلَاثِمِ الْمَشْبَهَةِ بِهِ وَهُوَ الْإِنْسَانُ فِي نَفْسِ تَصْوِيرِ عَمَلِ الصَّبَا فِي الرَّبِيِّ.

١٤ - توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا.. مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ ونحوه وهو يزيد في رونق الكلام وجماله، لما له من وقع رائع^(١)، وجرس عذب.

تنبيه: خاطب الله تعالى الأنبياء بأسمائهم فقال ﴿يَنُوحُ أَهْطِطِ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾ [هود: ٤٨]، ﴿وَنَذِيْنَهُ أَن يَتَابِرَ هَيْهٖٓ ۖ ۞ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ [الصفات: ١٠٥، ١٠٤]، ﴿يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلْمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤] ولم يخاطب الرسول إلا بلفظ النبوة والرسالة ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٤]، ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٦٧] إلخ ولا نجد في القرآن العظيم كله نداء له باسمه، وإنما النداء بلفظ النبوة والرسالة، وفي هذا تفخيم لشأنه، وتعظيم لمقامه، وإشارة إلى أنه سيد الأولين والآخرين، وإمام الأنبياء والمرسلين، وتعليم لنا الأدب معه ﷺ، فلا نذكره إلا مع الإجلال والإكرام، ولا نصفه إلا بالوصف الأكمل ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغْضَوْنَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الحجرات: ٣]^(٢) الآية.

لطيفة: إن قيل: ما الفائدة بأمر الله رسوله بالتقوى وهو سيد المتقين؟ فالجواب أنه أمر بالثبات والاستدامة على التقوى كقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا﴾ [النساء: ١٣٦] أي اثبتوا على الإيمان وكقول المسلم: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] وهو مهتد إليه وغرضه ثبتنا على الصراط المستقيم، أو نقول: الخطاب للرسول ﷺ والمراد أمته.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۖ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۖ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ۚ ۞ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ۚ ۞ لِّجَزَىٰ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ

(١) ذكرنا الأمثلة البلاغية بإيجاز على سبيل المثال لا الحصر، ليتذوق القارئ بعض الروائع البيانية وإلا فكلام الله معجز وفيه من الصور البلاغية والأسرار البيانية ما يتذوقها الإنسان ويعجز عن وصفها اللسان.

(٢) انظر ما كتبه أبو حيان في «البحر المحيط» ٧/ ٢١٠، وما كتبه القاضي عياض في كتابه «الشفا» فقد أجاد كل منهما وأفاد.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ
وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي
قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَبَيْتَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ
تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لَأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
وَزِينَتَهَا فَنَعَالَيْكَ أُمْتِعْكَ وَأُسرِّحْكَ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ
الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَنْسَاءُ النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَحْشَةٍ
مُبِينَةٍ يُضَعِّفْ لَهَا الْعَذَابَ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مِنْكُمْ
لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلَ صَلَاحًا تُوفِّيَهَا أَجْرًا مَرَّتَيْنِ وَاعْتَدْنَا لَهُمْ رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَنْسَاءُ النَّبِيُّ لَسْتُمْ
كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَقَيْتُمْ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا
﴿٣٢﴾ وَقرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ
وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا
﴿٣٣﴾ وَاذْكُرْ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا
﴿٣٤﴾ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ
وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ
وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْخَافِظِينَ وَالْخَافِظَاتِ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا
وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا

المناسبة: لما ذكر تعالى غزوة الأحزاب، وموقف المنافقين المذبذبين منها، بالعودة
عن الجهاد، وتشيط العزائم، أمر المؤمنين في هذه الآيات بالاعتداء بالرسول الكريم في
صبره وثباته، وتضحيت وجهاده، ثم جاء الحديث عن زوجات رسول الله الطاهرات،
وأمرهن بالاعتداء برسول الله ﷺ في زهده، وعدم التطلع إلى زهرة الدنيا لأنهن قدوة لسائر
نساء المؤمنين.

اللغة: ﴿أَسْوَةٌ﴾ الأسوة: القدوة وفيها لغتان كسر الهمزة وضمها يقال: اتسَى فلان
بفلان أي اقتدى به. ﴿نَحْبُهُ﴾ النحب: النذر والعهد يقال: نَحَبَ ينحب من باب قَتَلَ نَذَرَ،
ومن باب ضَرَبَ بَكَى، قال لبيد:

أَلَا تَسْأَلَانِ الْمَرْءَ مَاذَا يُحَاوِلُ أَنْحَبُ فَيَقْضَى أَمْ ضَلَّالٌ وَبَاطِلٌ^(١)

ويقال: قضى نَحْبَهُ إذا مات، وعبر به عن الموت لأن كل حي لا بد أن يموت، فكأنه
نَذَرُ لازم في رقبته فإذا مات فقد قضى نَحْبَهُ أي نذره^(٢). ﴿صَيَاصِيهِمْ﴾ حصونهم جمع

(١) «تفسير القرطبي» ١٤/ ١٥٨.

(٢) تفسير «الكشاف» ٣/ ٤٢١.

صيصية وهو ما يُتحصن به، قال الشاعر:

فَأَصْبَحَتِ الثِّرَانُ صَرْعَى وَأَصْبَحَتْ نِسَاءُ تَمِيمٍ يَبْتَدِرْنَ الصَّيَاصِيَا^(١)
﴿أَمْتَعَكُنَّ﴾ متعة الطلاق، وأصل المتاع ما يُتْبَلَّغ به من الزاد، ومنه متعة المطلقة لأنها تتنفع وتتمتع به^(٢). ﴿وَأَسْرَحَكُنَّ﴾ أَطْلَقَكُنَّ، وأصل التسريح في اللغة: الإرسال والإطلاق^(٣). ﴿تَبَرَّجَ﴾ تبرجت المرأة: أظهرت زينتها ومحاسنها للأجانب^(٤)، وأصله من الظهور ومنه سمي البرج لسعته وظهوره. ﴿وَقَرْنَ﴾ الزمن بيوتكن من قولهم: قررت بالمكان أقرُّ به إذا بقيت فيه ولزمته، والقرار: مصدر، وأصل «قرن» قررن حذف الراء وألقيت فتحتها على ما قبلها، واستغني عن ألف الوصل لتحرك القاف^(٥). ﴿الرَّجَسَ﴾ في اللغة: القذر والنجاسة، وعُبر به هنا عن الآثام لأن عرض المقترف للقبائح يتلوث بها ويتندس، كما يتلوث بدنه بالنجاسات^(٦).

سَبَبُ النُّزُولِ: أخرج ابن جرير الطبري عن أنس بن مالك قال: عَابَ عَمِي «أنس بن النضر» عن قتال يوم بدر، فقال: غِبْتُ عن أول قتالٍ مع رسول الله ﷺ؟ لئن أشهدني الله قتالاً ليرين الله ما أصنع؟ فلما كان يوم أُحُد انكشف المسلمون انهزموا فقال: اللهم إني أبرأ إليك مما فعل هؤلاء يعني المشركين وأعتذر إليك ممَّا صنع هؤلاء يعني المسلمين، ثم مشى بسيفه فلقبه «سعد بن معاذ» فقال: أي سعد والله إني لأجد ريح الجنة دون أحد! ثم قاتل حتى قتل، فقال سعد: يار رسول الله: ما استطعت أن أصنع ما صنع، قال أنس بن مالك: فوجدناه بين القتلى وبه بضع وثمانون جراحة بين ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، فما عرفناه حتى جاءت أخته فعرفته ببنانه رءوس الأصابع قال أنس: فكنا نتحدث أن هذه الآية ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ﴾ نزلت فيه وفي أصحابه^(٧). ب- وروى الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه قال: «أقبل أبو بكر رضي الله عنه يستأذن رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس فلم يؤذن له، ثم أقبل عمر رضي الله عنه فاستأذن فلم يؤذن له، ثم أذن لأبي بكر وعمر فدخلوا والنبي ﷺ جالسٌ وحوله نساؤه وهو ساكت، فقال عمر: لأكلمنَّ النبي ﷺ لعله يضحك

(١) «تفسير القرطبي» ١٤ / ١٦١. (ش): ابتدر القوم أمراً: تسارعوا إليه.

(٢) «المصباح المنير» ٢ / ٢٢٦.

(٣) «المعجم الوسيط» ١ / ٤٢٧.

(٤) «المصباح المنير» ١ / ٤٨.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٤ / ١٧٨.

(٦) «الكشاف» ٣ / ٤٢٥.

(٧) تفسير ابن جرير الطبري ٢٠ / ٨٥، وأسباب النزول للواحدى ٢٣٧. (ش): رواه البخاري ومسلم.

فقال يا رسول الله: لو رأيت ابنة زيد امرأة عمر سألتني النفقة أنفًا فوجأت عنقها، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال: «هَنَّ حَوْلِي يَسْأَلُنِي النَّفَقَةَ» فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها، وقام عمر إلى حفصه كلاهما يقولان: تسألان رسول الله ما ليس عنده؟ فنهاهما رسول الله ﷺ فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده، وأنزل الله آية الخيار ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ فبدأ بعائشة رضي الله عنها فقال لها: «إِنِّي أَذْكُرُكَ أَمْرًا مَا أَحِبُّ أَنْ تَعْجَلِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكَ»، قالت: ما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية فقالت: أفيك أستأمر أبوي؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت، فقال: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَعْثُبْنِي مُعْنَفًا وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا وَمُيسِّرًا، لَا تَسْأَلُنِي امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ إِلَّا أَخْبَرْتُهَا»^(١).

ج- عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ يا نبي الله: ما لي أسمع الرجال يُذكرون في القرآن، والنساء لا يُذكرن؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...﴾^(٢) الآية.

التفسير: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي لقد كان لكم أيها المؤمنون في هذا الرسول العظيم قدوة حسنة، تقتدون به ﷺ في إخلاصه، وجهاده، وصبره، فهو المثل الأعلى الذي يجب أن يقتدى به، في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، لأنه لا ينطق ولا يفعل عن هوى، بل عن وحي وتنزيل، فلذلك وجب عليكم تتبع نهجه، وسلوك طريقه ﴿لَمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أي لمن كان مؤمنًا مخلصًا يرجو ثواب الله، ويخاف عقابه ﴿وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي وأكثر من ذكر ربه، بلسانه وقلبه، قال ابن كثير: أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ في صبره ومصابرته، ومجاهدته ومrapطته، ولهذا قال للذين تَضَجَّرُوا وَتَزَلَّزَلُوا واضطربوا يوم الأحزاب: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ والمعنى: هَلَّا اقْتَدَيْتُمْ بِهِ وَتَأَسَّيْتُمْ بِشَمَائِلِهِ ﷺ! ثم حكى تعالى موقف المؤمنين الصادقين في غزوة الأحزاب أثناء رؤيتهم جنود قريش ومن تحزب معهم، وما صدر عن المؤمنين من إخلاصٍ و يقين، تظهر بوضوح روح الإيمان والتضحية فقال: ﴿وَلَمَّا رَأَى

(١) أخرجه الإمام أحمد كذا في «ابن كثير» ٩٢/٣. (ش): وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ.

قوله: «وَجَأَتْ عُنُقَهَا»، أي: ضربت. والناجد: آخر الأضراس، وللإنسان أربعة نواجذ، وهو الذي يقال له: ضرس العقل، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَأَ نَاجِدَهُ: كناية عن شدة الضحك وبلوغه فيه الغاية.

(٢) رواه النسائي في «سننه» عن أم سلمة. (ش): أخرجه النسائي في «تفسيره» ورواه الترمذي، وصححه الألباني.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٨٨/٣.

الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۖ وَأَيُّ لَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْكَفَّارَ قَادِمِينَ
 نحوهم وقد أحاطوا بهم من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم، قالوا: هذا ما وعدنا به الله
 ورسوله، من المحنة والابتلاء، ثم النصر على الأعداء ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أي صدق
 الله في وعده، ورسوله في، بشرنا به، قال المفسرون: «لما كان المسلمون يحفرون الخندق
 اعترضتهم صخرة عظيمة عجزوا عن تكسيرها، فأخبروا الرسول ﷺ بها فجاء وأخذ
 المعول وضربها ثلاث ضربات أضاعت له منها مدائن كسرى، وقصور الروم، فقال: «أَبَشِرُوا
 بِالنَّصْرِ»، فلما أقبلت جموع المشركين ورأوهم قالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾^(١) ﴿وَمَا
 زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ أي وما زادهم ما رأوه من كثرة جند الأحزاب، ومن شدة الضيق
 والحصار، إلا إيمانًا قويًا عميقًا بالله، واستسلامًا وانقيادًا لأوامره ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ
 صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أي ولقد كان من أولئك المؤمنين رجالٌ صادقون، نذروا أنهم
 إذا أدركوا حربًا مع رسول الله ﷺ ثبوا وقاتلوا حتى يستشهدوا ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾
 أي فمِنْهُمْ مَنْ وَفَىٰ بِنَذْرِهِ وَعَهْدِهِ حَتَّى اسْتَشْهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَأَنَّهُ كَانَسَ بِنِزْرِ وَحُمَزَةٍ
 ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ﴾ أي ومنهم من ينتظر الشهادة في سبيل الله ﴿وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ أي وما
 غَيَّرُوا عَهْدَهُم الَّذِي عَاهَدُوا عَلَيْهِ رَبَّهُمْ أَبَدًا ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي ليجزي
 الله الصادقين بسبب صدقهم وحسن صنيعهم أحسن الجزاء في الآخرة ﴿وَيُعَذِّبُ
 الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي ويعذب المنافقين الناقضين للعهود بأن يُمَيَّتَهُم
 على النفاق فيعذبهم، أو يتوب عليهم فيرحمهم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي واسع
 المغفرة رحيمًا بالعباد، قال ابن كثير: ولما كانت رحمته ورأفته تبارك وتعالى هي الغالبة
 لغضبه ختم بها الآية الكريمة^(٢) ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ﴾ أي وَرَدَّ اللَّهُ الْأَحْزَابَ الَّذِينَ
 تَأَلَّبُوا عَلَىٰ غَزْوِ الْمَدِينَةِ خَائِبِينَ خَاسِرِينَ، مَغِيْظِينَ مُخَنِّقِينَ^(٣)، لَمْ يَشْفِ صَدُورَهُمْ بَنِيْلَ مَا

(١) انظر حاشية الصاوي ٢٧٠/٣. (ش): عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ - رضي الله عنه - قَالَ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وآله وسلم - بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ، وَعَرَضَ لَنَا صَخْرَةٌ فِي مَكَانٍ مِنَ الْخَنْدَقِ لَا تَأْخُذُ فِيهَا الْمَعَاوِلُ، فَشَكَّوْهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وآله وسلم - فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وآله وسلم -، ثُمَّ هَبَطَ إِلَى الصَّخْرَةِ فَأَخَذَ الْمَعُولَ فَقَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ» فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ، وَقَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ السَّمَاءِ، وَاللَّهُ إِنِّي لَا أَبْصُرُ قُصُورَهَا الْخَمَرِ مِنْ مَكَانِي هَذَا». ثُمَّ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ» وَضَرَبَ أُخْرَى فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ فَقَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارَسَ وَاللَّهُ إِنِّي لَا أَبْصُرُ الْمَدَائِنَ، وَأَبْصُرُ قُصُورَهَا الْأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا». ثُمَّ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ» وَضَرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى فَقَلَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ فَقَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْبَيْتِ، وَاللَّهُ إِنِّي لَا أَبْصُرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا» (إسناده حسن رواه الإمام أحمد).

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٨٩/٣.

(٣) (ش): غَاظَهُ: أَغْضَبَهُ أَشَدَّ الْغَضَبِ. أَحَقَّ فَلَانًا: غَاظَهُ غَيْظًا شَدِيدًا.

أرادوا ﴿لَمَّا نَالُوا خَيْرًا﴾ أي حال كونهم لم ينالوا أي خير لا في الدنيا ولا في الآخرة، بل قد اكتسبوا الآثام في مبارزة الرسول عليه السلام وهمهم بقتله ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ أي كفاهم شر أعدائهم بأن أرسل عليهم الريح والملائكة حتى ولوا الأدبار منهزمين ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ أي قادراً على الانتقام من أعدائه، عزيزاً غالباً لا يقهر، ولهذا كان عليه السلام يقول: «لا إله إلا الله وحده، نصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده»^(١).
﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ أي وأنزل اليهود وهم بنو قريظة الذين أعانوا المشركين ونقضوا عهدهم وانقلبوا على النبي وأصحابه، أنزلهم من حصونهم وقلاعهم التي كانوا يتحصنون فيها ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ أي ألقى الله في قلوبهم الخوف الشديد حتى فتحوا الحصون واستسلموا، قال ابن جزي: نزلت الآية في يهود بني قريظة وذلك أنهم كانوا معاهدين لرسول الله ﷺ فنقضوا عهده وصاروا مع قريش^(٢)، فلما انهزم المشركون وانصرفت قريش عن المدينة حاصر رسول الله ﷺ بني قريظة حتى نزلوا على حكم «سعد بن معاذ» فحكم بأن يقتل رجالهم، ويُسبى نساؤهم وذريتهم^(٣) فذلك قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ يعني الرجال وقتل منهم يومئذ ما بين الثمانمائة والتسعمائة ﴿وَأُسْرُونَكَ فَرِيقًا﴾ يعني النساء والذرية ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَبَنَاتَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ أي وأورثكم يا معشر المؤمنين أرضي بني قريظة وعقارهم وخيلهم ومنازلهم وأموالهم التي تركوها ﴿وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا﴾ أي وأرضاً أخرى لم تطؤوها بعد بأقدامكم، وهي خير لأنها أخذت بعد قريظة، وكل أرض فتحها المسلمون بعد ذلك ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ أي قادراً على كل ما أراد، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، قال أبو حيان: ختم تعالى هذه الآية ببيان قدرته على كل شيء، وكأن في ذلك إشارة إلى فتحه على المسلمين الفتوح الكثيرة، فكما ملكهم هذه الأراضي فكذلك هو قادر على أن يملكهم غيرها من البلاد^(٤) ﴿يَتَأَيُّمُ النَّبِيُّ قُلُوبَ الْأَزْوَاجِ﴾ أي قل لزوجاتك اللاتي تأذيت منهن بسبب سؤالهن إياك الزيادة في النفقة ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا﴾ أي إن رغبتن في سعة الدنيا ونعيمها، ويهرجها الزائل ﴿فَنَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أي فتعالين حتى أدفع لكن متعة الطلاق ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي وأطلقكن طلاقاً من غير ضرار ﴿وَلِنْ كُنْتُمْ

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) (ش): ضعيف، أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى".

(٣) «التسهيل في علوم التنزيل» ٣/ ١٣٦، وانظر تفصيل القصة في «زاد المسير» ٦/ ٣٣٧. (ش): روى البخاري

ومسلم قصة حكم «سعد بن معاذ» بأن يقتل رجال بني قريظة، ويُسبى نساءهم وذريتهم.

(٤) «البحر المحيط» ٧/ ٢٢٥.

تُرِيدُكَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ ﴿١﴾ أي وإن كنتم ترغبن في رضوان الله ورسوله، والفوز بالنعيم الوفير في الدار الآخرة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٢﴾ جواب الشرط أي فإن الله تعالى قد هيا للمحسنات منكن بمقابلة إحسانهن ثواباً كبيراً لا يوصف، وهو الجنة التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، قال في البحر: لما نصر الله نبيه، وفرق عنه الأحزاب، وفتح عليه قريظة والنضير، ظن أزواجه أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم، فقعدهن حوله وقلن: يا رسول الله بنات كسرى وقصر في الحلي والحلل، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق! وآلمن قلبه بمطالبتهم له بتوسعة الحال، وأن يعاملهن بما يعامل به الملوك والأكابر أزواجهن، فأمره الله أن يتلو عليهن ما أنزل في أمرهن، وأزواجه إذ ذاك تسع زوجات ^(١) ﴿يُنْسَاءُ النِّسَاءُ مِنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحْشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ ﴿٣﴾ أي من تفعل منكن كبيرة من الكبائر، أو ذنباً تجاوز الحد في القبح، قال ابن عباس: يعني النشوز وسوء الخلق ^(٢) ﴿يُضَعَّفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ أي يكن جزاؤها ضعف جزاء غيرها من النساء، لأن زيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل والمرتبة ^(٣) ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي كان ذلك العقاب سهلاً يسيراً على الله، لا يمنعه منه كونهن أزواج ونساء النبي ﷺ، وفي الآية تلوين للخطاب، فبعد أن كانت المخاطبة لهن على لسان رسول الله ﷺ وجّه الخطاب إليهن هنا مباشرة لإظهار الاعتناء بأمرهن ونصحهن، قال الصاوي: وهذه الآيات خطاب من الله لأزواج النبي ﷺ إظهاراً لفضلهن، وعظم قدرهن عند الله تعالى، لأن العتاب والتشديد في الخطاب مُشْعِرٌ بِرَفْعَةِ رُتَبَتِهِنَّ، لشدة قربهن من رسول الله ﷺ ولأنهن أزواجه في الجنة، فبقدر القرب من رسول الله يكون القرب من الله ^(٤) ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي ومن تواظب منكن على طاعة الله وطاعة رسوله ﴿وَتَعْمَلْ صَالِحًا﴾ أي وتتقرب إليه بفعل الخير وعمل الصالحات ﴿تُؤْتِيَهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ أي نعطيها الثواب مضاعفاً ونثيبها مرتين: مرة على الطاعة والتقوى، وأخرى على طلبهن رضا رسول الله ﷺ بالقناعة وحسن المعاشرة ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ أي وهياً لها في

(١) نفس المرجع السابق ٢٢٧/٧. (ش): ذكره القسطلاني في «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» (٢/ ٣١٩) بدون إسناد. ولكن قصة تخيير النبي ﷺ لنسائه - رضي الله عنهن - رواها مسلم، انظر ما ورد في سبب النزول، رقم ب.

(٢) «زاد المسير» ٣٨٧/٦.

(٣) «الكشاف» ٤٢٤/٣.

(٤) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٢٧٦/٣.

الجنة زيادة على ما لها من أجر رزقاً حسناً مرضياً لا ينقطع، ثم أظهر فضيلتهنَّ على النساء فقال: ﴿يَسَاءَ اللَّيْلِ لَسْتُ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي أنتن تختلفن عن سائر النساء من جهة أنكنَّ أفضل وأشرف من غيركن، لكونكن زوجات خاتم الرسل، وأفضل الخلق محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم، فليست الواحدة منكنَّ كالواحدة من آحاد النساء ﴿إِنْ أَتَقَيْتُنَّ﴾ شرطٌ حذف جوابه لدلالة ما قبله أي إن اتقيتنَّ الله فأنتنَّ بأعلى المراتب، قال القرطبي: بيّن تعالى أن الفضيلة إنما تتم لهن بشرط التقوى، لما منحنَّ الله من صحة رسوله سيد الأولين والآخرين^(١)، وقال ابن عباس: يريد في هذه الآية: ليس قدركنَّ عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات، أنتنَّ أكرمُ عليَّ وثوابكنَّ أعظم إن اتقيتنَّ، فشرط عليهن التقوى بياناً أن فضيلتهن إنما تكون بالتقوى، لا بنفس اتصاليهن برسول الله ﷺ^(٢) ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ أي فلا ترققن الكلام عند مخاطبة الرجال ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ أي فيطمع من كان في قلبه فجور وريبة، وحب لمحادثة النساء ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ أي وقلن قولاً حسناً عفيفاً لا ريبة فيه، ولا لين ولا تكسّر عند مخاطبتكن للرجال^(٣) قال ابن كثير: ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم^(٤)، ولا تخاطب الأجانب كما تخاطب زوجها ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي الزمّن بيوتكن ولا تخرجن لغير حاجة، ولا تفعلن كما تفعل الغافلات، المتسكعات في الطرقات لغير ضرورة ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ أي لا تظهرن زينتكن ومحاسنكن للأجانب مثل ما كان نساء الجاهلية يفعلن، حيث كانت تخرج المرأة إلى الأسواق مظهرةً لمحاسنها، كاشفةً ما لا يليق كشفه من بدنها، قال قتادة: كانت لهن مشية فيها تكسّر وتغنّج^(٥) فنهى الله تعالى عن ذلك ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ﴾ أي حافظن على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، قال ابن كثير: نهاهنَّ أولاً عن الشر، ثم أمرهن بالخير، من إقامة الصلاة وهي عبادة الله وحده، وإيتاء الزكاة وهي الإحسان إلى المخلوقين^(٦) ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي أطعن الله

(١) «تفسير القرطبي» ١٤/ ١٧٧.

(٢) «زاد المسير» ٦/ ٣٧٨.

(٣) أقول: إذا كان القرآن يمنع المرأة أن تتلاين في كلامها مع الرجال الأجانب لئلا يطمع بها الفساق والفجار، فكيف بمن تثير الكوامن والشجون بالغناء الماجن الذي كله ميوعة وانحلال، وتختلط فيه أصوات المغنين مع المغنيات في الحفلات الساهرة الداعرة وتنقله الإذاعات، ثم نسمع بعض أدعياء العلم يُعَبِّدُون هذا بحجة أن صوت المرأة ليس بعورة؟ اللهم إنا نعوذ بك من شر هذا الزمان الذي فسق فيه الشبان، وطمغت فيه النساء وأصبح المنكر معروفاً، والمعروف منكراً، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(٤) (ش): تَرْخِيمُ الصَّوْتِ: جَعَلُهُ رَقِيقًا لَيِّنًا.

(٥) (ش): تَغَنَّجَتِ الْمَرْأَةُ: غَنَجَتْ؛ تَدَلَّكَتْ عَلَى زَوْجِهَا بِمَلَاخَةٍ (أي بظرافة) كأنها تخالفه وليس بها خلاف.

(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٩.

ورسوله في جميع الأوامر والنواهي لَتَنَلَنَّ مرتبة الْمُتَّقِيَّاتِ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾ أي إنما يريد الله أن يخلصكن من دنس المعاصي، ويطهركن من الآثام، التي يتندس بها عرض الإنسان كما يتلوث بدنه بالنجاسات ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ أي يا أهل بيت النبوة ﴿وَيُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيراً﴾ أي ويطهركم من أضرار الذنوب المعاصي تطهيراً بليغاً ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أي واقرأ آيات القرآن، وسنة النبي ﷺ، فإن فيهما الفلاح والنجاح، قال الزمخشري: ذكرهن أن بيوتهن مهابط الوحي، وأمرهن ألا ينسین ما يتلى فيها من الكتاب الجامع بين أمرين: آيات بينات تدل على صدق النبوة، وحكمة وعلوم وشرائع سماوية^(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَتْ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أي عالمًا بما يصلح لأمر العباد، خبيراً بمصالحهم ولذلك شرع لنا ما يسعدهم في دنياهم وآخرتهم، ثم أخبر تعالى أن المرأة والرجل في الجزاء والثواب سواء فقال: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ هم المتمسكون بأوامر الإسلام المتخلقون بأخلاقه رجالاً ونساءً ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي المصدقين بالله وآياته، وما أنزل على رسله وأنبيائه^(٢) ﴿وَالْقَانِئِينَ وَالْقَانِئَاتِ﴾ أي العابدين الطائعين، المداومين على الطاعة ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ أي الصادقين في إيمانهم، ونياتهم، وأقوالهم، وأعمالهم ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ أي الصابرين على الطاعات وعن الشهوات في المكروه والمنشط ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ أي الخاضعين الخائفين من الله جل وعلا، المتواضعين له بقلوبهم وجوارحهم ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ أي المتصدقين بأموالهم على الفقراء، بالإحسان وأداء الزكوات ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾ أي الصائمين لوجه الله شهر رمضان وغيره من الأيام، فالصوم زكاة البدن يزكيه ويطهره ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ أي عن المحارم والآثام، وعما لا يحل من الزنى وكشف العورات ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ أي المديمين ذكر الله بألسنتهم وقلوبهم في كل الأوقات والأمكنة ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي أعدَّ لهؤلاء المتقين الأبرار، المتصفين بالصفات الجليلة أعظم الأجر والثواب وهو الجنة، مع تكفير الذنوب بسبب ما فعلوه من الأعمال الحسنة.

البلاغة: تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبدیع نوجزها فيما يلي:

(١) «الكشاف» ٤٢٥ / ٣.

(٢) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح.

- ١ - الإطناب بتكرار الاسم الظاهر ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ كرر الاسم الكريم للتشريف والتعظيم.
- ٢ - الاستعارة ﴿قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ النحب، النذر، واستعير للموت، لأنه نهاية كل حي، فكأنه نذر لازم في رقبة الإنسان^(١).
- ٣ - الجملة الاعتراضية ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ للتنبيه على أن أمر العذاب أو الرحمة موكل لمشيئته تعالى.
- ٤ - المقابلة بين ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ وبين ﴿وَلِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَالذَّارَ الْآخِرَةَ﴾.
- ٥ - التشبيه البليغ ﴿وَلَا تَبْرَحْ تَبْرِجَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أي كتبرج أهل الجاهلية حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فصار بليغاً.
- ٦ - عطف العام على الخاص ﴿وَاطَّعَنَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ﴾ بعد قوله: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ﴾ فإن إطاعة الله ورسوله تشمل كل ما تقدم من الأوامر والنواهي.
- ٧ - الاستعارة ﴿لِيَذْهَبَ عَنْكُمُ الرِّجْسُ.. أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ استعار الرجس للذنوب، الطهر للتقوى لأن عرض المرتكب للمعاصي يتدنس، وأما الطاعة فالعرض معها نقي مصون كالثوب الطاهر.
- ٨ - الإيجاز بالحذف ﴿وَالْحَافِظَاتِ﴾ حذف المفعول لدلالة السابق عليه أي والحافظات فروجهن.
- ٩ - التغليب ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ﴾ غلب الذكور وجمع الإناث معهم ثم أدرجهم في الضمير.
- ١٠ - توافق الفواصل مثل ﴿يَسِيرًا، قَدِيرًا، كَثِيرًا﴾ وهو من المحسنات البديعية.

قال الله تعالى:

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يَلْبِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ

(١) انظر «البيضاوي» ٢/ ١١٦، و«الكشاف» ٣/ ٤٢١.

وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ فَمِيعُوهُنَّ وَسَرَحوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَانَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾ تَرْجَى مِنْ نَشَاءٍ مِنْهُمْ وَتَقْوَى إِلَيْكَ مِنْ نَشَاءٍ وَمِنْ ابْتِغَاءٍ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَانَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا

المناسبة: لما ذكر تعالى صفات المؤمنين وما نالوه من الدرجات الرفيعة، أعقبها ببيان أن طاعة الرسول من طاعة الله، وأمر الرسول من أمر الله، ثم ذكرهم تعالى بالنعمة العظمى وهي بعثة السراج المنير، المبعوث رحمة للعالمين ﷺ.

اللغة: ﴿الْخَيْرَةُ﴾ مصدر بمعنى الاختيار من تخيير على غير قياس مثل الطيرة من تطير^(١). ﴿مُبْدِيهِ﴾ أبدى الشيء: أظهره. ﴿وَطَرًا﴾ الوطر: الحاجة التي هي في النفس، قال الزجاج: الوطر الحاجة التي لك فيها همّة فإذا بلغها الإنسان يقال: قضى وطره، وقال المبرد: الوطر الشهوة يقال: ما قضيت من لقاءك وطرًا أي ما استمتعت بك كما تشتهي نفسي وأنشد:

وَكَيْفَ ثَوَائِي بِالْمَدِينَةِ بَعْدَ مَا قَضَى وَطَرًا مِنْهَا جَمِيلٌ بَنُ مَعْمَرٍ^(٢)
﴿حَرَجٌ﴾ ضيق وإثم. ﴿خَلَوْا﴾ مضو وذهبوا. ﴿قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ قضاء مقضيًا في الأزل
﴿بُكْرَةً﴾ البكرة: هي أول النهار. ﴿وَأَصِيلًا﴾ الأصيل: آخر النهار. ﴿تَرْجَى﴾ تؤخر يقال:

(١) «البحر المحيط» ٧/ ٢٣٣.

(٢) نفس المرجع ٧/ ٢٠٩. (ش): تَوَى بِالْمَكَانِ/ تَوَى فِي الْمَكَانِ، تَوَاء: أَقَامَ وَاسْتَقَرَّ.

أرجيت الأمر وأرجأته إذا أخرته^(١). ﴿وَتَقْوَى﴾ تضم ومنه ﴿ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ [يوسف: ٦٩].
سَبَبُ النَّزُولِ: عن ابن عباس قال: «خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لمولاه
 «زيد بن حارثة» فاستنكفت منه وكرهت وأبت فنزلت الآية ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا
 قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ الآية فأذعنت زينب حينئذ وتزوجته..
 وفي رواية «فامتنعت وامتنع أخوها عبد الله لنسبها من قريش فلما نزلت الآية جاء أخوها
 فقال يا رسول الله مُرْنِي بِمَا شِئْتَ قَالَ: «فَزَوِّجْهَا مِنْ زَيْدٍ»، فرضي وزوجها»^(٢).

التفسير: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ﴾ أي لا ينبغي ولا يصح ولا يليق بأي واحد من
 المؤمنين والمؤمنات ﴿إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ أي إذا أمر الله عز وجل وأمر رسوله
 بشيء من الأشياء، قال الصاوي: ذُكِرَ اسم الله للتعظيم وللإشارة إلى أن قضاء رسول الله
 هو قضاء الله لكونه لا ينطق عن الهوى^(٣) ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أي أن يكون لهم
 رأي أو اختيار، بل عليهم الانقياد والتسليم، قال ابن كثير: وهذه الآية عامة في جميع
 الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته، ولا اختيار لأحد ولا
 رأي ولا قول^(٤)، ولهذا شدد النكير فقال: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ أي
 ومن يخالف أمر الله وأمر رسوله فقد حاد عن الطريق السوي، وأخطأ طريق الصواب،
 وضل ضلالاً بعيداً واضحاً ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ أي اذكر أيها
 الرسول وقت قولك للذي أنعم الله عليه بالهداية للإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالتحريم من
 العبودية والإعتاق، قال المفسرون: هو زيد بن حارثة كان من سبي الجاهلية اشترته
 خديجة «ووهبته لرسول الله ﷺ فكان مملوكاً عنده ثم أعتقه وتبناه»^(٥)، وزوجه ابنة عمته

(١) «تفسير القرطبي» ١٤ / ٢١٤.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٤ / ١٨٧. (ش): ضعيف، رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره». وفي البخاري عن أنس بن
 مالك ﷺ أنه نزل في زينب بنت جحش وزيد بن حارثة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ
 عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ
 زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ
 مَفْعُولًا﴾. قال الدكتور أكرم ضياء العمري: «وقد يتصور البعض أن زيدا ﷺ لم يكن كفئاً للقرشيات، فالحق
 خلاف ذلك فهو من أوائل المسلمين السابقين، زوجه رسول الله بعد طلاقه زينب من عقيلات قريش أم كلثوم
 بنت عقبة وأروى بنت كريمة ودره بنت أبي لهب وهند بنت العوام أخت الزبير. [السيرة النبوية الصحيحة
 محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية (٢ / ٦٥٧)].»

(٣) حاشية الصاوي ٣ / ٢٧٨.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣ / ٩٧.

(٥) انظر قصة زيد في كتابنا روائع البيان ٢ / ٣٤٤.

زينب بنت جحش رضي الله عنها ﴿أَمْسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ أي أمسك زوجتك زينب في عصمتك ولا تطلقها، واتق الله في أمرها ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ ^(١) أي وتضمير يا محمد في نفسك ما سيظهره الله وهو إرادة الزواج بها ^(٢) قال في «التسهيل»: الذي أخفاه رسول الله ﷺ أمر جائز مباح لا إثم فيه ولا عتب، ولكنه خاف أن يقول الناس تزوج امرأة ابنه إذ كان قد تبناه، فأخفاه حياءً وحشمة وصيانة لعرضه من ألسنتهم، فالذي أخفاه ﷺ هو إرادة تزوجها ^(٣) لِيُطِلَّ حكم التبنّي فأبدى الله ذلك بأن قضى له بتزويجها ﴿وَتُخْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ أي تهاب أن يقول الناس: تزوج محمد حليلة ابنه، والله أحق أن تخشاه وحده، وأن تجهر بما أوحاه إليك من أنك ستزوج بها بعد أن يطلقها زيد، قال ابن عباس: خشي أن يقول المنافقون: تزوج محمد امرأة ابنه ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مَنَاسِكَهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا﴾ أي فلما قضى زيد حاجته من نكاحها وطلقها زوجها يا محمد، وهذا نص قاطع صريح على أن الذي أخفاه رسول الله ﷺ هو إرادة الزواج بها بعد تطليق زيد لها تنفيذاً لأمر الوحي، لا حبه لها كما زعم الأفاكون، ومعنى ﴿زَوَّجْنَاهَا﴾ جعلناها زوجة لك، قال المفسرون: إن الذي تولّى تزويجها هو الله جل وعلا، فلما انقضت عدتها

(١) (ش): عَنْ أَنَسٍ قَالَ جَاءَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ يَشْكُو فَجَعَلَ النَّبِيُّ - ﷺ - يَقُولُ «اتَّقِ اللَّهَ، وَأَمْسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ». قَالَتْ عَائِشَةُ لَوْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - كَاتِمًا شَيْئًا لَكُنْتُمْ هَذِهِ. رواه البخاري

(٢) يتشبه بعض أعداء الإسلام بروايات ضعيفة واهية، لا زمام لها ولا خطام، للطعن في الرسول الكريم والنيل من مقامه العظيم، وجدت في بعض كتب التفسير!! من هذه الروايات الباطلة التي تلقفها «المستشرقون» وخبوا فيها وأوضعوا، أن الرسول ﷺ رأى «زينب» وهي متزوجة بزید بن حارثة فأحبها ووقعت في قلبه فقال: «سبحان مقلب القلوب» فسمعتها زينب فأخبرت بها زيداً، فأراد أن يطلقها فقال له الرسول: ﴿أَمْسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ حتى نزل القرآن يعاتبه على إخفائه ذلك.. إلخ. وهذه روايات باطلة لم يصح فيها شيء كما قال العلامة: «أبو بكر بن العربي» رحمه الله، والآية صريحة في الرد على هذا البهتان، فإن الله سبحانه أخبر بأنه سيظهر ما أخفاه الرسول: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ فماذا أظهر الله تعالى؟ هل أظهر حب الرسول وعشقه لزينب، أم أن الذي أظهره هو أمره عليه السلام بالزواج بها لحكمة عظيمة جليلة هي إبطال «حكم التبنّي» الذي كان شائعاً في الجاهلية ولهذا صرح تعالى بذلك وأبداه علناً وجهاراً: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مَنَاسِكَهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِئَلَّا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ يا قوم اعقلوا وفكروا، وتفهموا الحق لوجه الحق بلا تلبيس ولا تشويش وتبصروا فيما تقولون فمن غير المعقول أن يعاتب الشخص لأنه لم يُجاهر بحبه لزوجة جاره؟ وحاشا الرسول الطاهر الكريم أن يتعلق قلبه بامرأة هي في عصمة رجل، وأن يُخفي هذا الحب حتى ينزل القرآن يعاتبه على إخفائه، فإن مثل هذا لا يليق بأي رجل عادي، فضلاً عن أشرف الخلق عليه أفضل الصلاة والتسليم، وغاية ما في الأمر - كما نقل في «البحر» - عن علي بن الحسين أنه قال: «أَعْلَمَ اللَّهُ نَبِيَهُ ﷺ أَنَّ زَيْنَبَ سَتَكُونُ مِنْ أَزْوَاجِهِ قَبْلَ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا، فَلَمَّا أَتَاهُ زَيْدٌ يَشْكُوهَا إِلَيْهِ قَالَ لَهُ: اتَّقِ اللَّهَ وَأَمْسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ، عَاتَبَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَهُ: أَخْبَرْتُكَ أَنَّي مَزَوَّجْتُهَا وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ!!» انظر رد الفرية في كتابنا النبوة والأنبياء ٩٩.

(٣) (ش): أي بعد أن يطلقها زيد رضي الله عنه امتثالاً لأمر الله له بذلك.

دخل عليها رسول الله ﷺ بلا إذنٍ ولا عقدٍ ولا مهرٍ ولا شهود، وكان ذلك خصوصية للرسول ﷺ^(١). روى البخاري عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «كَانَتْ زَيْنَبُ تَفْعَحُرُ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ تَقُولُ رَوَّجَكُنْ أَهَالِيكُنْ، وَرَوَّجَنِي اللهُ تَعَالَى مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ» ثم ذكر تعالى الحكمة من هذا الزواج فقال: ﴿لَكِنَّهُ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ أي لئلا يكون في تشريع الله على المؤمنين ضيق ومشقة وتأثم في حق تزوج مطلقات الأبناء من التبنّي، إذا لم يبق لأزواجهن حاجة فيهن، قال «ابن الجوزي»: المعنى زوجناك زينب وهي امرأة زيد الذي تبنته لكيلا يُظنَّ أن امرأة المتبنّي لا يحل نكاحها ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي وكان أمر الله لك، ووحى إليك بتزوج زينب مقدراً محتملاً كائناً لا محالة، ولما نفى الحرج عن المؤمنين، نفى الحرج عن سيد المرسلين بخصوصه على سبيل التكريم والتشريف فقال: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ أي لا حرج ولا إثم ولا عتاب على النبي فيما أباح الله له وقسم من الزوجات، قال الضحاك: كان اليهود عابوه بكثرة النكاح، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أي هذه سنة الله في جميع الأنبياء السابقين حيث وسَّع عليهم فيما أباح لهم، قال القرطبي: أي سنَّ لمحمد ﷺ في التوسعة عليه في النكاح، سنة الأنبياء الماضية كداود وسليمان، فكان لداود مائة امرأة وسليمان ثلاثمائة امرأة، عدا السُّرَيَاتِ^(٢) ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ أي قضاء مقضياً، وحكماً مقطوعاً به من الأزل، لا يتغيَّر ولا يتبدَّل، ثم أثنى تعالى على جميع الأنبياء والمرسلين بقوله: ﴿الَّذِينَ يُلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ أي هؤلاء الذين أخبرتك عنهم يا محمد وجعلت لك قدوة بهم، هم الذين يبلِّغون رسالات الله إلى من أرسَلوا إليه ﴿وَيَخْشَوْنَهُ، وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي يخافون الله وحده ولا يخافون

(١) (ش): ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا بِغَيْرِ إِذْنٍ. وروى الطبراني في «المعجم الكبير»، والدارقطني في «سننه»، والبيهقي في «السنن الكبرى»، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» بسند ضعيف جداً عن زينب بنت جحش قالت: «... فلما انقضت عدتي؛ لم أعلم إلا رسول الله ﷺ قد دخل عليّ بيتي وأنا مكشوفة الشعر، فقلت: إنه أمر من السماء، فقلت: يا رسول الله! بلا خطبة ولا إشهاد؟! فقال: «الله المزوج، وجبريلُ الشاهد».

(٢) «تفسير القرطبي» ١٤/١٩٥. (ش): السُّرَّةُ: الجارية المملوكة. سُرَّةٌ: الجمع: سَرَارِيٌّ. والذي في "القرطبي": "سُنَّ لِمُحَمَّدٍ ﷺ التَّوَسُّعَةُ عَلَيْهِ فِي النِّكَاحِ سُنَّةَ الْأَنْبِيَاءِ الْمَاضِيَةِ، كَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ. فَكَانَ لِدَاوُدَ مِائَةَ امْرَأَةٍ وَثَلَاثُمِائَةَ سُرَّةٍ. وَلِسُلَيْمَانَ ثَلَاثُمِائَةَ امْرَأَةٍ وَسَبْعُمِائَةَ سُرَّةٍ. اهـ. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ «قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ بِمِائَةِ امْرَأَةٍ، تَلِدُ كُلُّ امْرَأَةٍ غُلَامًا، يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ قُلْ إِنَّ شَاءَ اللَّهِ. فَلَمْ يَقُلْ وَتَسَى، فَاطَّافَ بِهِنَّ، وَلَمْ تَلِدْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةً نَصَفَ إِنْسَانٌ». قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - «لَوْ قَالَ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ لَمْ يَحْثُ، وَكَانَ أَرْجَى لِحَاجَتِهِ». رواه البخاري.

أحداً سواه، فافتد يا محمد بهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي يكفي أن يكون الله محاسباً على جميع الأعمال والأفعال، فينبغي أن لا يُخشي غيره، ثم أبطل تعالى حكم التبني الذي كان شائعاً في الجاهلية فقال: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ قال المفسرون: لما تزوج رسول الله ﷺ قال الناس: إن محمداً قد تزوج امرأة ابنه فنزلت هذه الآية ^(١) قال الزمخشري: أي لم يكن أبا رجل منكم على الحقيقة، حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح ^(٢) ﴿وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ أي ولكنه عليه السلام آخر الأنبياء والمرسلين، ختم الله به الرسالات السماوية، فلا نبى بعده، قال ابن عباس: يريد: لو لم أختم به النبيين لجعلت له ولداً يكون بعده نبياً ^(٣) ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أو هو العالم بأقوالكم وأفعالكم، لا تخفى عليه خافية من أحوالكم ﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا﴾ أي اذكروا الله ذكراً كثيراً ﴿أي اذكروا الله بالتهليل والتحميد، والتمجيد والتقديس ذكراً كثيراً، بالليل والنهار، والسفر والحضر﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿أي وسبحوا ربكم في الصباح والمساء، قال العلماء: خصّهما بالذكر لأنهما أفضل الأوقات بسبب تنزل الملائكة فيهما ^(٤) ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ أي هو جل وعلا يرحمكم على الدوام، ويعتني بأمركم، وبكل ما فيه صلاحكم وفلاحكم ﴿وَمَلَائِكَتُهُ﴾ أي وملائكته يصلون عليكم أيضاً بالدعاء والاستغفار وطلب الرحمة، قال ابن كثير: والصلاة من الله سبحانه ثناؤه على العبد عند الملائكة، وقيل: الصلاة من الله الرحمة، ومن الملائكة: الدعاء والاستغفار ^(٥) ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي لينقذكم من الضلالة إلى الهدى، ومن ظلمات العصيان إلى نور الطاعة والإيمان ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ أي واسع الرحمة بالمؤمنين، حيث يقبل القليل من أعمالهم، ويعفو عن الكثير من ذنوبهم، لإخلاصهم في إيمانهم ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ أي تحية هؤلاء المؤمنين يوم يلقون ربهم السلام والإكرام في الجنة من الملك العلام كقوله تعالى ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ أي وهياً لهم أجراً حسناً وهو الجنة وما فيها من النعيم المقيم، قال ابن كثير: والمراد بالأجر الكريم الجنة وما فيها من المآكل والمشارب، والملابس والمساكن، والملاذ والمناظر، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ^(٦)، ثم لما بين تعالى أنه أخرج

(١) رواه الترمذي عن عائشة. (ش): رواه الترمذي، وضعفه الألباني.

(٢) «الكشاف» ٤٣٠/٣.

(٣) «زاد المسير» ٣٩٣/٦.

(٤) «حاشية الصاوي» ٢٨١/٣.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ١٠١/٣.

(٦) رواه الترمذي عن عائشة.

المؤمنين من ظلمات الكفر والضلال إلى أنوار الهداية والإيمان، عقبه بذكر أوصاف السراج المنير الذي أضاء الله به الأكوان فقال: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾ أي شاهداً على أمتك وعلى جميع الأمم بأن أنبياءهم قد بلغوهم رسالة ربهم ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ أي مبشراً للمؤمنين بجنات النعيم ﴿وَنَذِيرًا﴾ أي ومنذراً للكافرين من عذاب الجحيم ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ أي وداعياً للخلق إلى توحيد الله وطاعته وعبادته، بأمره جل وعلا لَا مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسٍ ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ أي وأنت يا محمد كالسراج الوهاج المضيء للناس^(١)، يُهْتَدَى بِكَ فِي الدُّهُمَاءِ^(٢)، كما يُهْتَدَى بالشهاب في الظلماء، قال ابن كثير: أي أنت يا محمد كالشمس في إشراقها وإضاءتها لا يجحدها إلا معاند^(٣) وقال الزمخشري: شَبَّهَ بالسراج المنير لأن الله جلى به ظلمات الشرك، واهتدى به الضالون، كما يُجلى ظلام الليل بالسراج المنير ويُهْتَدَى به^(٤)، وصفه تعالى بخمسة أوصاف كلها كمال وجمال، وثناء وجلال، وختمها بأنه صلوات الله عليه هو السراج الوضاء الذي بدد الله به ظلمات الضلال، فصلوات ربي وسلامه عليه في كل حين وآن ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ أي وبشر يا محمد المؤمنين خاصة بأن لهم من الله العطاء الواسع الكبير في جنات النعيم ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أي لا تطعهم فيما يطلبونه منك من المساهلة والملاينة في أمر الدين، بل اثبت على ما أوحى إليك ﴿وَدَعْ أَذُنَهُمْ﴾ أي ولا تكثر بإذائهم لك، وصدّهم الناس عنك ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: واعتمد في جميع أمورك وأحوالك على الله ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: إن الله يكفي من توكل عليه في أمور الدنيا والآخرة، قال الصاوي: وفي الآية إشارة إلى أن التوكل أمره عظيم، فمن توكل على الله كفاه ما أهمه من أمور الدنيا والدين^(٥)، ولما كان الحديث عن نساء النبي ﷺ وقصة زيد وتطليقه لزينب، جاء الحديث عن نساء المؤمنين والطريقة المثلى في تطليقهن فقال تعالى ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي يا أيها المؤمنون الذين صدّقوا بالله ورسوله^(٦) إذا عقدتم عقد الزواج على المؤمنات وتزوجتموهن ﴿ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ١٠٢/٣.

(٢) (ش): الدُّهُمَاءُ: عامّة الناس وجماعتهم.

(٣) نفس المرجع السابق ١٠٣/٣.

(٤) «الكشاف» ٤٣٢/٣.

(٥) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٢٨٢/٣.

(٦) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح.

أي ثم طلقتموهنَّ من قبل أن تجامعوهنَّ، وإنما خصَّ المؤمنات بالذكر مع أن الكتابيات يدخلن في الحكم، للتنبيه على أن الأليق بالمسلم أن يتخير لنطقته، وألا ينكح إلا مؤمنة عفيفة^(١) ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوْنَهَا﴾ أي فليس لكم عليهن حق في العدة تستوفون عددها عليهن، لأنكم لم تعاشروهن فليس هناك احتمال للحمل حتى تحتسبوا المرأة من أجل صيانة نسبكم ﴿فَمَتَّعُوْهُنَّ﴾ أي فالواجب عليكم إكرامهن بدفع المتعة بما تطيب نفوسكم به من مال أو كسوة، تطيباً لخواطرهن، وتخفيفاً لشدة وقع الطلاق عليهن ﴿وَسَرَّحُوْهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً﴾ أي وخلصوا سبيلهنَّ تخليّةً بالمعروف^(٢)، من غير إضرار ولا إيذاء، ولا هضم لحقوقهن، قال أبو حيان: والسراحُ الجميلُ هو كلمة طيبة دون أذى ولا منع واجب^(٣)، ثم ذكر تعالى ما يتعلق بأحوال زوجات الرسول ﷺ فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ﴾ أي إنا قد أبخنا لك يا محمد أنواعاً من النساء، توسعةً عليك وتيسيراً لك في تبليغ الدعوة، فمن ذلك أننا أبخنا لك زوجاتك اللاتي تزوجتهن بصدائق مُسمًى، وهنَّ في عصمتك^(٤) ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ أي وأبخنا لك أيضاً النساء اللاتي تملكهن في الحرب بطريق الانتصار على الكفار، وإنما قيدهن بطريق الغنائم لأنهم أفضل من اللائي يملكن بالشراء، فقد بذل في إحرازهنَّ جهدٌ ومشقة لم يكن في الصنف الثاني ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ أي وأبخنا لك قريباتك من بنات الأعمام والعمات، والأخوال والخالات بشرط الهجرة معك ﴿وَأَمْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ أي وأحللنا لك النساء المؤمنات الصالحات اللواتي وهبن أنفسهن لك، حباً في الله ورسوله وتقرباً لك ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ أي إن أردت يا محمد أن تتزوج من شئت منهن بدون مهر ﴿خَالِصَةً لِّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي خاصة لك يا محمد من دون سائر المؤمنين، فإنه لا يحل لهم الزواج بدون مهر، ولا تصح الهبة، بل يجب مهر المثل ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي قد علمنا ما أوجبنا على المؤمنين من نفقة، ومهر، وشهود في العقد، وعدم تجاوز أربع من النساء، وما أبخنا لهم من ملك اليمين

(١) انظر «الكشاف» ٤٣٣/٣.

(٢) «تفسير الطبري» ١٤/٢٢.

(٣) «البحر المحيط» ٢٤٠/٧.

(٤) هذا أحد قولين للمفسرين، والآخر أن المراد جميع النساء فقد أباح الله لرسوله ﷺ أن يتزوج كل امرأة يعطيها مهرها، وهذا أوسع من الأول واختاره القرطبي واستدل بحديث عائشة: «ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء» انظر «تفسير القرطبي» ١٤/٢٠٧. (ش): ضعيف. ضعفه ابن العربي في «أحكام القرآن» والأرنؤوط في تعليقه على «المُسند».

عدا الحرائر، وأما أنت فقد خصصناك بخصائص تيسيراً لك ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ أي لئلا يكون عليك مشقة أو ضيق ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿تُرْجَىٰ مِنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُقْوَىٰ إِلَيْكَ مِنْ تَشَاءُ﴾ أي ولك أيها النبي الخيار في أن تطلق من تشاء من زوجاتك، وتُمسك من تشاء منهم^(١) ﴿وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ أي وإذا أحببت أن تؤوي إليك امرأة ممن عزلت من القسمة فلا إثم عليك ولا عتب ﴿ذَلِكَ أَدْفَىٰ أَنْ تَقْرَأَ عَنِّيهِمْ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَىٰ بِمَا آتَيْنَهُمْ كُلُّهُمْ﴾ أي ذلك التخيير الذي خيرناك في أمرهن أقرب أن ترتاح قلوبهن فلا يحزنن، ويرضين بصنيعك، لأنهن إذا علمن أن هذا أمر من الله، كان أطيب لأنفسهن فلا يشعرن بالحزن والألم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ خطاب للنبي على جهة التعظيم أي يعلم ما في قلبك يا محمد وما في قلب كل إنسان، من عدل أو ميل، ومن حب أو كراهية، وإنما خيرناك فيهن تيسيراً عليك فيما أردت ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ أي واسع العلم يعلم جميع ما تظهرون وما تخفون، حلماً يضع الأمور في نصابها ولا يعاجل بالعقوبة، بل يؤخر ويمهل لكنه لا يُمهل، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ وأقول: أتهب المرأة نفسها؟ فلما نزلت ﴿تُرْجَىٰ مِنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُقْوَىٰ إِلَيْكَ مِنْ تَشَاءُ وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ قلت: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك»^(٢) ثم قال تعالى ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْنِسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾ أي لا يحل لك أيها النبي النساء من بعد هؤلاء التسع اللائي في عصمتك ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ أي ولا يحل لك أن تطلق واحدة منهن وتنكح مكانها أخرى ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ أي ولو أعجبك جمال غيرهن من النساء ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أي إلا ما كان من الجواري والإماء فلا بأس في ذلك لأنهن لسن زوجات ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ أي مطلعاً على أعمالكم شاهداً عليها، وفيه تحذير من مجاوزة حدوده، وتخطي حلاله وحرامه. قال المفسرون: أباح الله لرسوله أصنافاً أربعة «المهورات، المملوكات، المهاجرات، الواهبات أنفسهن» توسعة عليه ﷺ وتيسيراً له في نشر الرسالة وتبليغ الدعوة، ولما نزلت آية التخيير ﴿قُلْ لَا زَوْجَ لَكَ إِن كُنْتَ تُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا...﴾ [الأحزاب: ٢٨] الآية، وخيرهن عليه السلام، واخترن الله ورسوله والدار الآخرة، أكرمهن الله تعالى بأن قصره عليهن، وحرّم عليه أن يتزوج بغيرهن.

(١) هذا قول ابن عباس، وقال مجاهد والضحاك: تقسم لمن شئت وتؤخر عنك من شئت، وتقلل لمن شئت وتكثر لمن شئت، لا حرج عليك في ذلك، كذا في «البحر المحيط» ٧/ ٢٤٧.

(٢) (ش): رواه البخاري ومسلم.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - التنكير لإفادة العموم ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ لأن النكرة في سياق النفي تفيد العموم، أي ليس لواحدٍ منهم أن يريد غير ما أراد الله ورسوله.
- ٢ - الطباق بين ﴿تُخْفَى.. مُبْدِيهِ﴾ وبين ﴿الظُّلُمَاتِ .. وَالنُّورِ﴾ وبين ﴿مُبَشِّرًا .. وَنَذِيرًا﴾ وهو من المحسنات البديعية.
- ٣ - جناس الاشتقاق ﴿قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾.
- ٤ - طباق السلب ﴿وَيُخْشَوْنَهُ، وَلَا يُخْشَوْنَ أَحَدًا﴾.
- ٥ - التشبيه البليغ ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ أصل التشبيه: أنت يا محمد كالسراج الوضاء في الهداية والإرشاد، حذفت منه أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً على حد قولهم: علي أسدٌ، ومحمدٌ قمر.
- ٦ - الكناية ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ تَمْسُوهُمْ﴾ كنى عن الجماع بالمس وهي من الكنايات المشهورة ومن الآداب القرآنية الحميدة لأن القرآن يتحاشى الألفاظ البذيئة. ٧ - الطباق بين ﴿بُكْرُهُ .. وَأَصِيلًا﴾ وبين ﴿تَرْجَى .. وَتُؤَيَّ﴾ وبين ﴿أَبْنَعَيْتَ عَزَلَتْ .. عَزَلَتْ﴾.
- ٨ - توافق الفواصل ممّا يزيد في الجمال والإيقاع عليل سمع مثل ﴿مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا .. وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ ومثل ﴿سِرَاحًا جَمِيلًا .. عَلِيمًا حَلِيمًا .. غَفُورًا رَحِيمًا﴾ وهذا من خصائص القرآن العظيم، وهو من المحسنات البديعية.

قال الله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظَرٍ إِنَّهُ
وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْشَرُوا وَلَا مَسْتَعْسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى
النَّبِيُّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ
حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا
أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِنْ بُدُوا شَيْئًا أَوْ تُخَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ
كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ
أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَأَقْفَيْنَ اللَّهُ إِبْرَ اللَّهِ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنْ اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا
تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾
وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا
﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ

يُعْرِضُونَ فَلَا يُؤْذِنُونَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥١﴾ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ مَلْعُونِينَ
أَيْنَمَا تَقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا نَفْتِيلًا ﴿٥٣﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ
اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٥٤﴾ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا
﴿٥٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٥٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٥٧﴾ يَوْمَ
تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٥٨﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا
وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ ﴿٥٩﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
أَنْقَرُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٦٢﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ
فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٦٣﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ
مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٦٤﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ
وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا

المناسبة: لما ذكر تعالى أحوال النبي ﷺ مع أزواجه، ذكر هنا الأدب التي ينبغي أن يتحلى بها المؤمنون عند دخولهم بيوت النبي ﷺ من الاستئذان وعدم الإيقال، ثم بين شرف الرسول بصلاة الله والملائكة عليه، وختم السورة الكريمة بالحديث عن الساعة وما يعقبها من أهوال لأهل الكفر والضلال، وحال الأشقياء والسعداء في دار البقاء.

اللغة: ﴿إِنَّهُ﴾ نضجه قال في «اللسان»: إني الشيء بلوغه وإدراكه والإني بكسر الهمزة والقصر: النضج^(١). ﴿مُسْتَعْسِينَ﴾ الاستئناس: طلب الأُنس بالحديث، تقول: استأنست بحديثه أي طلبت الأُنس والسُرور به، وما بالدار من أنيس، أي: ليس بها أحد يؤانسك أو يسليك. ﴿مَتَاعًا﴾ المتاع: الغرض والحاجة كالماعون وغيره^(٢).

﴿بُهْتَنًا﴾ البهتان: الافتراء والكذب الواضح، وأصله من البُهْت وهو القذف بالباطل^(٣). ﴿جَلِيلِيهِنَّ﴾ جمع جلباب وهو الثوب الذي يستر جميع البدن وهو يشبه الملاء «الملحفة» في زماننا، قال الشاعر:

تَمْشِي النَّسُورُ إِلَيْهِ، وَهِيَ لَاهِيَةٌ مَشْيَ الْعَذَارَى، عَلَيْهِنَّ الْجَلَابِيبُ^(٤)
﴿وَالْمُرْجِفُونَ﴾ جمع مرجف وهو الذي يشيع الكذب والباطل لإخافة الناس به،

(١) انظر «لسان العرب».

(٢) (ش): ماعون (والجمع مَوَاعِينُ): اسم جامعٌ لمنافع البيت كالقُدر والفأس والقصة ونحو ذلك، ممَّا تعود النَّاسُ إعارته، والعامةُ تخصَّصه فلا تطلقه إلا على الإناء الذي يؤكل به الطَّعام.

(٣) «المصباح المنير» ١/ ٧١.

(٤) «لسان العرب» لابن منظور.

قال الشاعر:

فَإِنَّا وَإِنْ عَيَّرْتُمُونَا بِقَتْلِهِ
وَأَرْجَفَ بِالْإِسْلَامِ بَاغٌ وَحَاسِدٌ^(١)
﴿لُغْرَيْنَاكَ﴾ أغراه به: حثه وسلطه عليه. ﴿سَعِيرًا﴾ ناراً شديدة الاستعار.

سَبَبُ النُّزُولِ: روي عن أنس أن النبي ﷺ لما تزوج «زينب بنت جحش» أولم عليها، فدعا الناس فلما طعموا جلس طوائف منهم يتحدثون في بيت رسول الله ﷺ وزوجته مولية وجهها إلى الحائط، فثقلوا على رسول الله ﷺ قال أنس: فما أدري أنا أخبرت النبي ﷺ أن القوم قد خرجوا أو أخبرني، قال: فانطلق حتى دخل البيت فذهبت أدخل معه فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب، ووعظ الناس بما وعظوا به وأنزل الله ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ...﴾^(٢).

ب- وقال ابن عباس: كان ناسٌ من المؤمنين يتحيتون طعام النبي ﷺ فيدخلون قبل أن يدرك الطعام، ويقعدون إلى أن يدرك، ثم يأكلون ولا يخرجون فنزلت^(٣).

ج- وعن عائشة أن عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجن فنزلت آية الحجاب ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَلُّوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣] ^(٤) الآية.

د- عن السدي أن الفساق كانوا يؤذون النساء إذا خرجن بالليل، فإذا رأوا المرأة عليها قناع تركوها وقالوا: هذه حرة، وإذا رأوها بغير قناع قالوا: أمة فأذوها فأنزل الله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ...﴾ ^(٥) الآية.

التفسير: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ الإضافة للتشريف والتكريم، والآية توجيه للمؤمنين لهذا الأدب السامي العظيم والمعنى: لا تدخلوا بيوت النبي في حالٍ من الأحوال إلا في حال الإذن لكم منه عليه السلام، مراعاةً لحقوق نسائه، وحرصاً على عدم إيذائه والإثقال عليه ﴿إِلَّا طَعَامٌ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ﴾ أي إلا حين يدعوكم إلى طعام غير منتظرين نُضِجَه ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ أي ولكن إذا دُعِيتُم

(١) «تفسير القرطبي» ١٤ / ٢٤٦.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٤ / ٢٢٤، وانظر كمال القصة في الصحيحين، وفيها معجزة لرسول الله ﷺ باهرة.

(٣) «التسهيل في علوم التنزيل» ٣ / ١٤٢، قال ابن جزي: والقول الأول المنقول عن أنس أشهر، وقول ابن عباس أليق بما في الآية من النهي عن الدخول حتى يؤذن لهم. (ش): (أليق) غير موجودة في أكثر من طبعة، والتصحيح من تفسير ابن جزي «التسهيل في علوم التنزيل». (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٤) أخرجه البخاري. (ش): ضعيف، أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٨ / ١٧٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» والواحدي في «أسباب النزول».

(٥) «زاد المسير» «لابن الجوزي» ٦ / ٤٢٢.

وأذن لكم في الدخول فادخلوا ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ أي فإذا انتهيتُم من الطعام فتفرقوا إلى دوركم ولا تمكثوا ﴿وَلَا مُسْتَغْنِينَ لِحَدِيثٍ﴾ معطوف على ﴿غَيْرَ نَظِيرِينَ﴾ أي لا الجلوس يستأنس بعضهم ببعض لحديث يحدثه به ^(١) ﴿إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾ أي إن صنيعكم هذا يؤذي الرسول، ويضايقه ويثقل عليه، ويمنعه من قضاء كثير من مصالحه وأموره ﴿فَيَسْتَحْيَ مِنْكُمْ﴾ أي فيستحي من إخراجكم، ويمنعه حياؤه أن يأمركم بالانصراف، لخلق الرفيع، وقلبه الرحيم ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيَ مِنْ الْحَقِّ﴾ أي والله جل وعلا لا يترك بيان الحق، ولا يمنعه مانع من إظهار الحق وتبينه لكم، قال القرطبي: هذا أدب أدب الله به الثقلاء، وفي كتاب الثعلبي: حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم ^(٢) ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أي وإذا أردتم حاجة من أزواجه الطاهرات فاطلبوها من وراء حجاب ﴿ذَلِكَكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي سؤالكم إياهن المتاع من وراء حجاب أزكى لقلوبكم وقلوبهن وأطهر، وأنقى للريبة وسوء الظن ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي وما ينبغي لكم ولا يليق بكم أن تؤذوا رسولكم الذي هداكم الله به في حياته ﴿وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ أي ولا أن تتزوجوا زوجاته من بعد وفاته أبداً، لأنهن كالأمهات لكم، وهو كالوالد فهل يليق بكم أن تؤذوه في نفسه أو أهله؟ ﴿إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي إن إيذاءه ونكاح أزواجه من بعده أمر عظيم، وذنب كبير لا يغفره الله لكم، قال «أبو السعود»: وفيه من تعظيمه تعالى لشأن رسوله ﷺ وإيجاب حرمة حياً وميتاً ما لا يخفى ^(٣) ثم قال الله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ أي إن تظهروا أمراً من الأمور أو تخفوه في صدوركم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي فإن الله عالم به وسيجازيكم عليه، قال «البيضاوي»: وفي هذا التعميم مع البرهان على المقصود مزيد تهويل ومبالغة في الوعيد ^(٤)، ثم لما أنزل تعالى الحجاب استثنى المحارم فقال: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أُنْثَىٰ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَاءِيهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ أي لا حرج ولا إثم على النساء في ترك الحجاب أمام المحارم من الرجال، قال القرطبي: لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء لرسول الله ﷺ: ونحن أيضاً نكلمهن من وراء حجاب؟ فنزلت هذه الآية ^(٥)،

(١) «البحر المحيط» ٢٤٧/٧.

(٢) «تفسير القرطبي» ٢٢٤/١٤.

(٣) «أبو السعود» ٢١٨/٤.

(٤) «البيضاوي» ١٢٠/٢.

(٥) «القرطبي» ٢٣١/١٤. (ش): ذكره القرطبي وغيره بدون إسناد.

والمراد بـ ﴿نَسَائِبَهُنَّ﴾ نساء المؤمنين، قال ابن عباس: لأن نساء اليهود والنصارى يصفن لأزواجهن النساء المسلمات، فلا يحل للمسلمة أن تُبدي شيئاً منها لثلاث تصفها لزوجها الكافر^(١) ﴿وَأَتَّقِينَ اللَّهَ﴾ أي اتقن يا معشر النساء الله، واخشينه في الخلوة والعلانية ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أي لا تخفى عليه خافية من أموركن، يعلم خطرات القلوب كما يعلم حركات الجوارح، قال الرازي: وهذا في غاية الحسن في هذا الموضع، لأن ما سبق إشارة إلى جواز الخلوة بهم والتكشف لهم، فختماها بأن الله شاهد عند اختلاء بعضهم ببعض، فالخلوة عنده مثل الجلوة^(٢) فعليهم أن يتقوا الله^(٣)، ثم بين تعالى قدر الرسول العظيم فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ أي إن الله جل وعلا يرحم نبيه، ويعظم شأنه، ويرفع مقامه، وملائكته الأبرار يدعون للنبي ويستغفرون له، ويطلبون من الله أن يمجّد عبده ورسوله ويُنيله أعلى المراتب، قال القرطبي: والصلاة من الله رحمته ورضوانه، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره^(٤) وقال الصاوي: وهذه الآية فيها أعظم الدليل على أنه ﷺ مهبط الرحمات^(٥)، وأفضل الأولين والآخرين على الإطلاق، إذ الصلاة من الله على نبيه رحمته المقرونة بالتعظيم، ومن الله على غير النبي مطلق الرحمة كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ [الأحزاب: ٥٣] فانظر الفرق بين الصلاتين، والفضل بين المقامين، وبذلك صار منبع الرحمات، ومنبع التجليات^(٦) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي فأنتم أيها المؤمنون أكثروا من الصلاة عليه والتسليم، فحقه عليكم عظيم، فقد كان المنقذ لكم من الضلالة إلى الهدى، والمخرج لكم من الظلمات إلى النور، فقولوا كلما ذكر اسمه الشريف «اللهم

(١) انظر حاشية الصاوي ٢٨٧/٣.

(٢) (ش): أي إن السر عنده مثل العلانية، فلا تخفى عليه خافية سبحانه وتعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٥/٢٢٧.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٤/٢٣٢.

(٥) (ش): هذا من الغلو في حقه ﷺ وإطراء قد نهى عنه ﷺ بقوله: «لَا تُطَرُّونِي كَمَا أَطَرَّتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ». رواه البخاري. (تُطَرُّونِي): تُمَدِّحُونِي، والإطراء هو الإفراط في المدح ومجاوزة الحد فيه. وقيل: هو المدح بالباطل والكذب فيه. (كما أطرت النصارى ابن مريم) أي بدعواهم فيه الألوهية وغير ذلك.

(٦) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٢٨٧/٣. (ش): هذا من الغلو في حقه ﷺ وإطراء قد نهى عنه ﷺ بقوله: «لَا تُطَرُّونِي كَمَا أَطَرَّتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ». رواه البخاري. (تُطَرُّونِي): تُمَدِّحُونِي، والإطراء هو الإفراط في المدح ومجاوزة الحد فيه. وقيل: هو المدح بالباطل والكذب فيه. (كما أطرت النصارى ابن مريم) أي بدعواهم فيه الألوهية وغير ذلك.

صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا» عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ قُلْنَا: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَرَفْنَا التَّسْلِيمَ عَلَيْكَ فَكَيْفَ الصَّلَاةُ عَلَيْكَ؟ فَقَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ^(١)...» الْحَدِيثُ، قَالَ الصَّاوِي: وَحَكْمُهُ صَلَاةُ الْمَلَائِكَةِ وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ تَشْرِيفُهُمْ بِذَلِكَ، حَيْثُ اقْتَدُوا بِاللَّهِ جَلَّ وَعَلَا فِي الصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَتَعْظِيمِهِ، وَمُكَافَأَةُ لِبَعْضِ حَقُوقِهِ عَلَى الْخَلْقِ، لِأَنَّهُ الْوَاسِطَةُ الْعَظْمَى فِي كُلِّ نِعْمَةٍ وَصَلَتْ لَهُمْ^(٢)، وَحَقٌّ عَلَى مَنْ وَصَلَ لَهُ نِعْمَةٌ مِنْ شَخْصٍ أَنْ يَكْفِئَهُ، وَلَمَّا كَانَ الْخَلْقُ عَاجِزِينَ عَنْ مُكَافَأَتِهِ ﷺ طَلَبُوا مِنَ الْقَادِرِ الْمَلِكِ أَنْ يَكْفِئَهُ، وَهَذَا هُوَ السِّرُّ فِي قَوْلِهِمْ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ^(٣)» ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أَيُّ يُوْذُونَ اللَّهَ بِالْكَفْرِ وَنِسْبَةِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ لَهُ، وَوَصْفِهِ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِ جَلَّ وَعَلَا كَقَوْلِ الْيَهُودِ: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] وَقَوْلِ النَّصَارَى: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] وَيُوْذُونَ الرَّسُولَ بِالتَّكْذِيبِ بِرِسَالَتِهِ، وَالطَّعْنِ فِي شَرِيعَتِهِ، وَالِاسْتِهْزَاءِ بِدَعْوَتِهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ طَعَنُوا عَلَى الرَّسُولِ ﷺ حِينَ

(١) المصدر السابق.

(٢) (ش): هَذَا مِنَ الْغُلُوِّ فِي حَقِّهِ - ﷺ - وَإِطْرَاءٍ قَدْ نَهَى عَنْهُ ﷺ بِقَوْلِهِ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ. (تُطْرُونِي): تُمْدَحُونِي، وَالِإِطْرَاءُ هُوَ الْإِفْرَاطُ فِي الْمَدِيحِ وَمَجَاوِزَةُ الْحَدِّ فِيهِ وَقِيلَ هُوَ الْمَدِيحُ بِالْبَاطِلِ وَالْكَذْبُ فِيهِ. (كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ) أَيُّ بِدَعْوَاهُمْ فِيهِ الْأُلُوهِيَّةَ وَغَيْرِ ذَلِكَ. لَيْسَ النَّبِيُّ ﷺ هُوَ الْوَاسِطَةُ فِي كُلِّ نِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَصَلَتْ لِلْخَلْقِ، وَلَكِنَّهُ الْوَاسِطَةُ فِي أَعْظَمِ النِّعَمِ وَأَنْفَعِهَا نِعْمَةُ الْإِيمَانِ، وَأَدَاءُ حَقِّهِ ﷺ فِي إِیْصَالِ هَذِهِ النِّعْمَةِ لَا يَكُونُ بِمُخَالَفَةِ أَمْرِهِ وَالمَبَالِغَةِ فِي مَدْحِهِ، بَلْ يَكُونُ بِمُحِبَّتِهِ وَاتِّبَاعِهِ ﷺ، قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأَمَّا السَّبَبُ فِي وَجُوبِ مُحِبَّتِهِ ﷺ وَتَعْظِيمِهِ أَكْثَرُ مِنْ أَيِّ شَخْصٍ فَلَأَنَّ أَعْظَمَ الْخَيْرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَا يَحْصُلُ لَنَا إِلَّا عَلَى يَدِ النَّبِيِّ ﷺ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَاتِّبَاعِهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا نَجَاةَ لِأَحَدٍ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَلَا وَصُولَ لَهُ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ إِلَّا بِوَسْطَةِ الرَّسُولِ؛ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَمُحِبَّتِهِ وَمُوَالَاتِهِ وَاتِّبَاعِهِ، وَهُوَ الَّذِي يَنْجِيهِ اللَّهُ بِهِ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَهُوَ الَّذِي يُوْصِلُهُ إِلَى خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. فَأَعْظَمُ النِّعَمِ وَأَنْفَعُهَا نِعْمَةُ الْإِيمَانِ، وَلَا تَحْصُلُ إِلَّا بِهِ وَهُوَ أَنْصَحُ وَأَنْفَعُ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنْ نَفْسِهِ وَمَالِهِ؛ فَإِنَّهُ الَّذِي يَخْرِجُ اللَّهَ بِهِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، لَا طَرِيقَ لَهُ إِلَّا هُوَ، وَأَمَّا نَفْسُهُ وَأَهْلُهُ فَلَا يَغْنُونُ عَنْهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا..» اهـ «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى» ٢٧/ ٢٤٦. وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِذَا تَأَمَّلَ الْعَبْدُ النَّفْعَ الْحَاصِلَ لَهُ مِنْ جِهَةِ الرَّسُولِ ﷺ الَّذِي أَخْرَجَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ، عَلِمَ أَنَّهُ سَبَبُ بَقَاءِ نَفْسِهِ الْبَقَاءَ الْأَبَدِيَّ فِي النَّعِيمِ السَّرْمَدِيِّ، وَعَلِمَ أَنَّ نَفْعَهُ بِذَلِكَ أَعْظَمُ مِنْ جَمِيعِ وُجُوهِ الْإِنْتِفَاعَاتِ، فَاسْتَحَقَّ لِذَلِكَ أَنْ يَكُونَ حَظُّهُ مِنْ مَحَبَّتِهِ أَزْوَاجًا مِنْ غَيْرِهِ، وَلَكِنَّ النَّاسَ يَتَفَاوَتُونَ فِي ذَلِكَ بِحَسَبِ اسْتِحْضَارِ ذَلِكَ وَالْغَفْلَةِ عَنْهُ، وَكُلٌّ مِنْ آمَنَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِيْمَانًا صَاحِحًا لَا يَخْلُو عَنْ وَجْدَانِ شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الْمَحَبَّةِ الرَّاجِحَةِ، غَيْرَ أَنَّهُمْ مُتَفَاوَتُونَ. فَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَ مِنْ تِلْكَ الْمَرْتَبَةِ بِالْحَظِّ الْأَوْفَى، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَ مِنْهَا بِالْحَظِّ الْأَدْنَى، كَمَنْ كَانَ مُسْتَعْرِقًا فِي الشَّهَوَاتِ مَحْجُوبًا فِي الْغَفَلَاتِ فِي أَكْثَرِ الْأَوْقَاتِ، لَكِنَّ الْكَثِيرَ مِنْهُمْ إِذَا ذَكَرَ النَّبِيَّ ﷺ اشْتَأَقَ إِلَى رُؤْيَيْهِ، بِحَيْثُ يُؤْثِرُهَا عَلَى أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ، غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ سَرِيعُ الزَّوَالِ بِتَوَالِي الْغَفَلَاتِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ. [انظر فتح الباري (١/ ٥٩)].

(٣) المصدر السابق.

اتخذ صفية بن حيي^(١) ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي طردهم من رحمته، وأحلّ عليهم سخطه وغضبه في الدنيا بالهوان والصغار، وفي الآخرة بالخلود في عذاب النار ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أي وهياً لهم عذاباً شديداً، بالغ الغاية في الإهانة والتحقير ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ أي يؤذون أهل الإيمان بغير ما فعلوه، وبغير جنائية واستحقاق للأذى ﴿فَقَدْ أَحْصَيْنَاهُ الْإِثْمَ وَالْعُدْوَانَ﴾ أي فقد حَمَلُوا أنفسهم البهتان والكذب، والزور، والذنب الواضح الجلي، قال القرطبي: أطلق إيذاء الله ورسوله، وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات، لأن إيذاء الله ورسوله لا يكون إلا بغير حق أبداً، وأما إيذاء المؤمنين والمؤمنات فمنه ومنه^(٢) ولما حرّم تعالى الإيذاء، أمر نبيه الكريم أن يوجه النداء إلى الأمة جمعاء، للتمسك بالإسلام وتعاليمه الرشيدة، وبالأخص في أمر اجتماعي خطير وهو «الحجاب» الذي يصون للمرأة كرامتها، ويحفظ عليها عفافها، ويحميها من النظرات الجارحة، والكلمات اللاذعة، والنوايا الخبيثة لئلا تتعرض لأذى الفساق فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ أي قل يا محمد لزوجاتك الطاهرات أمهات المؤمنين وبناتك الفضليات الكريمات، وسائر نساء المؤمنين، قل لهنّ يلبسن الجلباب الواسع، الذي يستر محاسنهن وزينتهن، ويدفع عنهم ألسنة السوء، ويميزهن عن صفات نساء الجاهلية، روى الطبري عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويبدن عينا واحدة^(٣)، وروى ابن كثير عن محمد بن سيرين قال: سألت عبيدة السلماني عن قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾

(١) «زاد المسير» ٦/ ٤٢٠. (ش): ضعيف جداً، أخرجه ابن جرير الطبري، وابن أبي حاتم في «تفسيريهما».

(٢) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٢٣٨.

(٣) هذا النص عن ابن عباس صريح في وجوب ستر الوجه، وكذا رواية ابن كثير عن محمد بن سيرين، وغيرهما من الروايات الصحيحة والصريحة بوجوب ستر المرأة للوجه، فأين أقوال السلف الصالح وأئمة علماء التفسير الأجلاء، من أقوال أدعياء العلم في هذا العصر والزمان، الذين يبيحون للمرأة أن تكشف وجهها أمام الأجانب!! وانظر أقوال المفسرين في كتابنا «روائع البيان» ٢/ ٣٨٢. (ش): ليس من الصواب وصف العلماء المجيزين لكشف الوجه بأدعياء العلم. ولا شك أن الراجح هو وجوب ستر المرأة لوجهها أمام الرجال الأجانب، خاصة في هذا الزمان، فإن ممن قال بجواز كشف المرأة لوجهها وكفيها اشترط أمن الفتنة، وأوجب سترهما لا لأنهما عورة عنده، لكن لانتشار الفساد، وغلبة الظن بحصول الفتنة، فضلاً عن تحققها. ولمعرفة الأدلة التفصيلية من الكتاب والسنة على وجوب ستر الوجه وكلام المذاهب الفقهية في ذلك، والرد على شبهات من أجاز كشف الوجه - انظر: «حراسة الفضيلة» للشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد، «عودة الحجاب» للدكتور محمد إسماعيل المقدم (المجلد الثالث)، «الدلالة المحكمة لآية الجلباب على وجوب غطاء الوجه»، للدكتور لطف الله بن ملا عبد العظيم خوجه.

فغَطَّى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى^(١) ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفَ فَلَا يُؤْذِنَ﴾ أي ذلك التستر أقرب بأن يُعرفن بالعفة والتستر والصيانة، فلا يطمع فيهن أهل السوء والفساد، وقيل: أقرب بأن يُعرفن أنهن حرائر، ويتميزن عن الإماء ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي إنه تعالى غفور لما سلف منهم من تفريط، رحيم بالعباد حيث راعى مصالحهم وشئوهم تلك الجزئيات^(٢). ثم هدد المولى جلَّ وعلا كل المؤذنين من جميع الأصناف بأنواع العقاب فقال: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُتَنَفِّقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي لئن لم يترك هؤلاء المنافقون -الذين يُظهرون الإيمان ويبطنون الكفر- نفاقهم، والزناة الذين في قلوبهم مرض فجور فجورهم ﴿وَالْمُرْجَفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي الذين ينشرون الأراجيف والأكاذيب لبلبله الأفكار، وخلخله الصفوف، ونشر أخبار السوء ﴿لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي لنسلطنك عليهم يا محمد ﴿ثُمَّ لَا يَجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ثم يخرجون من المدينة فلا يعودون إلى مجاورتك فيها إلا زمنًا قليلًا، ريثما يتأهبون للخروج، قال الرازي: وعد الله نبيه أن يخرج أعداءه من المدينة وينفيهم على يده، إظهاراً لشوكته^(٣) ﴿مَلْعُونِينَ﴾ أي مبعدين عن رحمته تعالى ﴿أَيْنَمَا يُفْقَهُوا أَخْذُوا وَقُتِلُوا نَفْتِيلًا﴾ أي أينما وجدوا وأدركوا أخذوا على وجه الغلبة والقهر ثم قتلوا كفرهم بالله تقتيلًا ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أي هذه سنة الله في المنافقين وعادته فيمن سبق منهم أن يفعل بهم ذلك، قال القرطبي: أي سنَّ الله عزَّ وجلَّ فيمن أرجف بالأنبياء وأظهر نفاقه أن يؤخذ ويُقتل^(٤) ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ بُدِيلًا﴾ أي ولن تتغير أو تتبدل سنة الله، لكونها بُنيت على أساس متين، قال الصاوي: وفي الآية تسليية للنبي ﷺ أي فلا تحزن على وجود المنافقين يا محمد، فإن ذلك سنة قديمة لم يَخُلْ منهم زمن من الأزمان^(٥) ثم ذكر تعالى الساعة وأهوالها فقال: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ أي يسألك يا محمد المشركون على سبيل الاستهزاء والسخرية عن وقت قيام الساعة ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي قل لهم: لست أعرف وقتها وإنما يعلم ذلك علام الغيوب، فإن الله أخفاها لحكمة ولم يُطلع عليها ملكًا مقربًا، ولا نبيًا مرسلًا ﴿وَمَا يَذُرُكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ أي وما يُعلمك أن الساعة تكون في وقت قريب؟ قال «أبو السعود»: وفيه تهديد للمستعجلين، وتبكيث للمتعتنين، والإظهار في موضع الإضمار

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ١١٤/٣.

(٢) (ش): هكذا في أكثر من طبعة، ولعل الصواب: راعى مصالحهم وشئوهم حتى تلك الجزئيات، (كما في «تفسير البيضاوي» والقاسمي وغيرهما عند تفسير هذه الآية).

(٣) «التفسير الكبير» ٢٥/٢٣١.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٤/٢٤٧.

(٥) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٢٨٨/٣.

للتهويل وزيادة التقرير ^(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي طرد الكافرين وأبعدهم عن رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ أي وهباً لهم ناراً شديدة مُسْتَعِرَةً ^(٢) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي مقيمين في السعير أبد الأبدين ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي لا يجدون لهم من ينجيهم وينقذهم من عذاب الله ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ أي يوم تتقلب وجوههم من جهة إلى جهة كاللحم يُشْوَى بالنار ﴿يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ أي يقولون متحسرين على ما فاتهم: يا ليتنا أطعنا الله ورسوله حتى لا نبتلى بهذا العذاب المهيمن ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ أي أطعنا القادة والأشراف فينا فأضلونا طريق الهدى والإيمان ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْهُمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي اجعل عذابهم ضعفي عذابنا، لأنهم كانوا سبب ضلالنا ﴿وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ أي والعنهم أشد أنواع اللعن وأعظمه، ثم حذر تعالى من إيذاء الرسول كما آذى اليهود نبيهم فقال: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ أي لا تكونوا أمثال بني إسرائيل الذين آذوا نبيهم موسى واتهموه ببرص في جسمه أو أذرة لفرط تسره وحيائه، فأظهر الله براءته وأكذبهم فيما اتهموه به، روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيًّا سَتِيرًا، لَا يَرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ، اسْتَحْيَاءً مِنْهُ، فَأَذَاهُ مَنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالُوا مَا يَسْتَتِرُ هَذَا التَّسْتُرُ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ، إِمَّا بَرَصٌ وَإِمَّا أَذْرَةٌ - انتفاخ الخصية - وَإِمَّا آفَةٌ. وَإِنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يُبْرِئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى فَخَلَا يَوْمًا وَحْدَهُ فَوَضَعَ ثِيَابَهُ عَلَى الْحَجَرِ ثُمَّ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا، وَإِنَّ الْحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ، فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الْحَجَرَ، فَجَعَلَ يَقُولُ ثَوْبِي حَجَرٌ، ثَوْبِي حَجَرٌ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلَأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ، وَأَبْرَأُهُ مِمَّا يَقُولُونَ» ^(٣) الحديث. ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِهاً﴾ أي وكان موسى ذا وجهة ورفعة ومكانة عند ربه، قال ابن كثير: أي له وجهة وجاه عند ربه، لم يسأل شيئاً إلا أعطاه ^(٤) ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي راقبوا الله في جميع أقوالكم وأفعالكم، وقولوا قولاً مستقيماً مرضياً لله، قال الطبري: أي قولاً قاصداً غير جائر، حقاً غير باطل ^(٥) ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي يوفقكم لصالح الأعمال ويتقبلها منكم، قال ابن عباس: يتقبل حسناتكم ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي يمح عنكم الذنوب والأوزار ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٢٠.

(٢) (ش): استعرت النار: التهيئ، وتوقدت.

(٣) البخاري ٦/ ٣١٢، وانظر «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١١٦.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١١٦.

(٥) «تفسير الطبري» ٢٢/ ٣٨.

فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿١﴾ أي ومن أطاع الله والرسول فقد نال غاية مطلوبه، ثم لما أرشداهم إلى مكارم الأخلاق، نبههم على قدر التكاليف الشرعية التي كلف الله بها البشرية فقال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أي عرضنا الفرائض والتكاليف الشرعية على السموات والأرض والجبال الراسيات فأعرضن عن حملها وخفن من ثقلها وشدتها، والغرض تصوير عظم الأمانة وثقل حملها^(١)، قال «ابن الجوزي»: لم يُرد بقوله ﴿فَأَبَيْنَ﴾ المخالفة، وإنما أُبَيِّنَ للخشية والمخافة، لأن العرض كان تخييراً لا إلزاماً^(٢) قال «أبو السعود»: والمعنى أن تلك الأمانة في عظم الشأن بحيث لو كلفت هاتيك الأجرام العظام التي هي مثل في القوة والشدة وكانت ذات شعور وإدراك على مراعاتها لأُبَيِّنَ قبولها وأشفقن منها^(٣) وقال ابن جزى: الأمانة هي التكاليف الشرعية من التزام الطاعات، وترك المعاصي، وقيل: هي الأمانة في الأموال، والصحيح العموم في التكاليف، وعرضها يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون الله خلق لها إدراكاً فعرضت عليها الأمانة حقيقة فأشفقت منها وامتنعت من حملها^(٤)، والثاني: أن يكون المراد تعظيم شأن الأمانة وأنها من الثقل بحيث لو عرضت على السموات والأرض والجبال، لأبَيْنَ من حملها وأشفقن منها^(٥)، فهذا ضرب من المعجاز كقولك: عرضت الحمل العظيم على الدابة فأبَتْ أن تحمله، والمراد أنها لا تقدر على حمله^(٦) ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ أي وتحملها الإنسان إنه كان شديد الظلم لنفسه، مبالغاً في الجهل بعواقب الأمور، قال «ابن الجوزي»: لم يُرد بقوله ﴿فَأَبَيْنَ﴾ المخالفة، وإنما أُبَيِّنَ للخشية والمخافة، لأن العرض كان تخييراً لا إلزاماً^(٧) ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ قال ابن كثير: أي إنما حمل بني آدم الأمانة وهي التكاليف ليعذب الله المنافقين الذين يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر، والمشركين الذين ظاهرهم

(١) (ش): إن كان المقصود من تصوير عظمها أن العرض المذكور غير حقيقي، فهذا خطأ، لأنه خلاف ظاهر الآية الكريمة من غير دليل، والأصل الحقيقة في كلام الله ورسوله ﷺ، وقد نقل المؤلف عن «ابن الجوزي» ما يدل على أن العرض حقيقي.

(٢) «زاد المسير» ٦/ ٤٢٨.

(٣) (ش): هذا خطأ، لأنه خلاف ظاهر الآية الكريمة من غير دليل، والأصل الحقيقة في كلام الله ورسوله ﷺ.

(٤) (ش): وهذا هو الصواب في تفسير الآية أنه عرض حقيقي، انظر: «تفسير الطبري» و «تفسير ابن كثير».

(٥) «أبو السعود» ٤/ ٢٢١.

(٦) «التسهيل في علوم التنزيل» ٣/ ١٤٥. (ش): هذا خطأ، لأنه خلاف ظاهر الآية الكريمة من غير دليل، والأصل الحقيقة في كلام الله ورسوله ﷺ.

(٧) «زاد المسير» ٦/ ٤٢٨.

وباطنهم على الكفر ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي ويرحم أهل الإيمان، ويعود عليهم بالتوبة والمغفرة والرضوان ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي واسع المغفرة للمؤمنين حيث عفا عما سلف منهم، ورحيماً بهم حيث أثابهم وأكرمهم بأنواع الكرامات.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الإضافة للتشريف ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ لأنها لما نسب للنبي تشرفت.
٢ - الطباق بين ﴿أَدْخُلُوا .. وَ.. فَانْتَشِرُوا﴾ وبين ﴿تَبَدُّوا .. تُخَفُّوهُ﴾ وبين ﴿تُفَقُّوْا .. وَ.. أُخَذُوا﴾.

٣ - طباق السلب ﴿فَيَسْتَحْيَ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيَ مِنْ الْحَقِّ﴾.

٤ - ذكر الخاص بعد العام ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْهَ الْمُتَفَقُّونَ .. وَالْمُرْجِفُونَ﴾ والمرجعون هم المنافقين، فعلم ثم خصص زيادة في التقييد والتشنيع عليهم.

٥ - ذكر اللفظ بصيغة «فعل» و «فعليل» للمبالغة مثل ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ﴿يَكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ إلخ.

٦ - الإتيان بالمصدر مع الفعل للتأكيد ﴿وَقَاتِلُوا تَفَرُّيلاً﴾ ﴿وَسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾.

٧ - التحسر والتفجع بطريق التمني ﴿يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾.

٨ - التشبيه ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ أَذَوْا مُوسَى﴾ ويسمى التشبيه المرسل المجمل.

٩ - الاستعارة التمثيلية ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ مثل للأمانة في ضخامتها وعظمتها وتفخيم شأنها بأنها من الثقل بحيث لو عرضت على السموات والأرض والجبال وهي من القوة والشدة بأعلى المنازل لأبت عن حملها وأشفقت منها، وهو تمثيل رائع لتحويل شأن الأمانة^(١).

١٠ - المقابلة اللطيفة بين ﴿لِعَذَابِ اللَّهِ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾ وبين ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ وفي ختم السورة بهذه الآية من البدائع ما يسميه علماء البديع «رد العجز على الصدر» لأن بدء السورة كان في ذم المنافقين، وختمها كان في بيان سوء عاقبة المنافقين، فحسن الكلام في البدء والختام.

١١ - الشناء على الرسول ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ﴾ ورد بهذه الصيغة وفيه دقائق

بيانية:

أ- جاء الخبر مؤكداً بـ «إِنَّ» اهتماماً به.

ب- وجيء بالجملة اسمية لإفادة الدوام.

(١) (ش): تقدم أن الصواب في تفسير الآية أنه عرض الأمانة حقيقي.

ج- وكانت الجملة اسمية في صدرها «إن الله» فعلية في عجزها «يصلون» للإشارة إلى أن هذا الثناء من الله تعالى على رسوله يتجدد وقتاً فوقتاً على الدوام، فتدبر هذا السر الدقيق.

١٢ - مراعاة الفواصل لما له من الوقع الحسن على السمع مثل ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا.. لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا.. وَالْعَنَهُمُ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ الخ وهو من المحسنات البديعية.

لطيفة: أشارت الآية الكريمة ﴿قُلْ لَا زَوْجَ لَكَ وَبَنَاتُكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى لطيفة وهي أن الدعوة لا تثمر إلا إذا بدأ الداعي بها في نفسه وأهله، وهذا هو السر في البدء بالحجاب الشرعي بنساء الرسول وبناته.

«الردُّ على من أباح كشف الوجه، وطائفة من أقوال المفسرين في وجوب ستره»

- ١ - قال ابن كثير: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن لحاجة أن يغطين وجوههن من وفق رؤوسهن بالجلابيب.
- ٢ - وقال «ابن الجوزي»: في قوله تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ﴾ أي يغطين رؤوسهن وجوههن ليُعلم أنهن حرائر.
- ٣ - وقال «أبو السعود»: ومعنى الآية أي يغطين بها وجوههن وأبدانهن إذا برزن لداعية من الدواعي.
- ٤ - وقال «الطبري»: أي لا تشبهن بالإماء في لباسهن إذا خرجن لحاجتهن فكشفن شعورهن وجوههن لئلا يعرض لهن فاسق.
- ٥ - وقال في «البحر»: والمراد بقوله: ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ أي على وجوههن، لأن الذي كان يبدو منهم في الجاهلية هو الوجه.
- ٦ - وقال الجصاص: وفي الآية دلالة على أن المرأة الشابة مأمورة بستر وجهها عن الأجانب لئلا يطمع فيها أهل الريب. فهذه جملة من أقوال أئمة التفسير في وجوب ستر وجه المرأة، والله يقول الحق ويهدي السبيل^(١).

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأحزاب»



(١) انظر شروط الحجاب الشرعي وكيفيته والحكمة التشريعية منه في كتابنا «روائع البيان في تفسير آيات الأحكام من القرآن» ٣٨٧/٢.



مكية وآياتها أربع وخمسون

بين يدي السورة

* سورة سبأ من السور المكية، التي تهتم بموضوع العقيدة الإسلامية، وتتناول أصول الدين، من إثبات الوحدانية، والنبوة، والبعث والنشور.

* ابتدأت السورة الكريمة بتمجيد الله جل وعلا، الذي أبدع الخلق، وأحكم شئون العالم، ودبر الكون بحكمته، فهو الخالق المبدع الحكيم، الذي لا يغيب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وهذا من أعظم البراهين على وحدانيته رب العالمين.

* وتحدثت السورة عن قضية هامة، هي إنكار المشركين للآخرة، وتكذيبهم بالبعث بعد الموت، فأمرت الرسول ﷺ أن يقسم بربه العظيم، على وقوع المعاد، بعد فناء الأجساد ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُم...﴾ الآية.

* وتناولت السورة قصص بعض الرسل، فذكرت «داود» وولده «سليمان» عليهما السلام، وما سخر الله لهما من أنواع النعم، كتسخير الريح لسليمان، وتسخير الطير والجمال تسبح مع «داود» إظهاراً لفضل الله عليهما في ذلك العطاء الواسع.

* وتناولت السورة بعض شبهات المشركين، حول رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين، ففندتها بالحجة الدامغة والبرهان الساطع، كما أقامت الأدلة والبراهين على وجود الله ووحدانيته.

* وختمت السورة بدعوة المشركين إلى الإيمان بالواحد القهار، الذي بيده تدبير أمور الخلق أجمعين.

التسمية: سميت سورة «سبأ» لأن الله تعالى ذكر فيها قصة سبأ، وهم ملوك اليمن، وقد كان أهلها في نعمة ورخاء، وسرور وهناء، وكانت مساكنهم حدائق وجنات، فلما كفروا النعمة دمرهم الله بالسيل العرم، وجعلهم عبرة لمن يعتبر.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ①
يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ②
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمْ غَيْرَ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي
السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ③ لِيَجْزِيَ

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي
 ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ
 مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ
 يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلُّ مُمْزِقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا
 يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ
 وَالْأَرْضِ إِن نَّشَاءُ نَخْصِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن فِي ذَٰلِكَ لَآيَةٌ لِّكُلِّ
 عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجْعَلُ أَوِيَّ مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ ﴿١٠﴾ أَن
 أَعْمَلَ سَبْعِينَ وَفَرَّ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلَسْلِمْنَا مِنَ الرِّيحِ غُدُوها
 شَهْرٌ وَرَوْحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ
 أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِّنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحْرِبٍ وَتَمْثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ
 رَّاسِيَةٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ
 مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي
 الْعَذَابِ الْمُهِينِ

اللغة: ﴿يَلِجُ﴾ يدخل، الولوج الدخول ومنه ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] يصعد، ومنه المعراج لأنه صعودٌ إلى السموات. ﴿يَعْرُبُ﴾ يغيب يقال: عذب عن عينه أي غاب عنها. ﴿وَمُقَالٌ﴾ وزن ومقدار. ﴿جَنَّةٌ﴾ بكسر الجيم بمعنى الجنون وبضمها بمعنى الوقاية والحجاب. ﴿كِسْفًا﴾ قطعاً. ﴿أَوِيَّ﴾ سبحي والتأويب: التسييح. ﴿سَبْعِينَ﴾ واسعات كاملات يقال: سبع الدرع والثوب إذا غطى كل البدن وفضل منه شيء قال أبو حيان: السابغات: الدروع وأصله الوصف بالسبوغ وهو التمام والكمال، وغلب على الدروع فصار كالأبطح^(١)، قال الشاعر:

عَلَيْهَا أُسُودٌ ضَارِيَاتٌ لَّبُوسُهُمْ سَوَابِغٌ بِيضٌ لَا يَخْرِقُهَا النَّبْلُ^(٢)
 ﴿السَّرْدُ﴾ النسيج، وهو نسج حلق الدروع قال القرطبي: وأصله من الإحكام، قال لبيد:
 صَنَعَ الْحَدِيدَ مُضَاعِفًا أُسْرَادَهُ لِيَنَالَ طَوَلَ الْعَيْشِ غَيْرَ مَرُومٍ^(٣)
 ﴿الْقِطْرُ﴾ النحاس المذاب. ﴿وَجِفَانٍ﴾ جمع جَفَنَةٍ وهي القصعة الكبيرة. ﴿كَالْجَوَابِ﴾

(١) (ش): أي أنها صفةٌ غاليةٌ مُستعملةٌ استعملَ الأسماء، مثل كلمة «الأبطح». بطح المكان: بسطه وسواه. والأبطح: سهل، أرض مُنبسطة فسيحة الأجزاء، يسيل فيها الماء تاركاً فيها الرمل وصغار الحصى، ومنه أبطح مكة.

(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٢٥٥. (ش): رام الشيء، رَوْماً، فهو رائم، والمفعول مَرُوم: طلبه، رغب فيه، أَراده ورجاه، يقال: كُلُّ شيءٍ على ما يُرام: أي على أحسن ما يُرجى ويُتوقع ويُنتظر.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٢٦٩.

جمع جابية وهي الحوض الكبير يجمع فيه الماء، قال الأعشى:

نَفَى الدَّمَّ عَنْ آلِ الْمُحَلَّقِ جَفْنَةً كَجَابِيَةِ الشَّيْخِ الْعِرَاقِيِّ تَفْهَقُ^(١)
 ﴿مِنْسَأَتُهُ﴾ الْمُنْسَاءُ: الْعَصَا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يُنْسَأُ بِهَا أَيُّ يُطْرَدُ وَيُزَجَّرُ، قَالَ الشَّاعِرُ:
 إِذَا دَبَبْتَ عَلَى الْمُنْسَاءِ مِنْ كِبَرٍ فَقَدْ تَبَاعَدَ عَنْكَ اللَّهُ وَالْغَزَلُ^(٢)

التفسير: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي الثناء الكامل على جهة التعظيم والتبجيل لله الذي له كل ما في الكون خلقاً وملكاً وتصرفاً، الجميع ملكه وعبيده وتحت قهره وتصرفه، فله الحمد في الدنيا لكمال، قدرته، وفي الآخرة لواسع رحمته ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي وله الحمد بأجمعه لا يستحقه أحد سواه، لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ أي الحكيم في صنعه، الخبير بخلقه، فلا اعتراض عليه من فعل من أفعاله ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ تفصيل لبعض معلوماته جلّ وعلا أي يعلم ما يدخل في جوف الأرض من المطر والكنوز والأموات، وما يخرج من الأرض من الزروع والنباتات وماء العيون والآبار ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجُفُ فِيهَا﴾ أي وما ينزل من السماء من المطر والملائكة والرحمة، ما يصعد إليها من الأعمال الصالحات، والدعوات الزاكيات ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ أي الرحيم بعباده، الغفور عن ذنوب التائبين حيث لا يعالجهم بالعقوبة، ثم حكى تعالى مقالة المنكرين للعبث والقيامة فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ أي وقال المشركون من قومك لا قيامة أبداً ولا بعث ولا نشور، قال «البيضاوي»: وهو إنكارٌ لمجيئها أو استبطاءٌ استهزاءً بالوعد به^(٣) ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ قل لهم يا محمد: أقسم بالله العظيم لتأتينكم الساعة، فإنها واقعة لا محالة، قال ابن كثير: هذه إحدى الآيات الثلاث التي أمر الله رسوله أن يقسم بربه العظيم على وقوعها، والثانية في يونس ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [يونس: ٥٣]^(٤)، والثالثة في التغابن ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧] ﴿عَلِمِ الْغَيْبُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي هو جلّ وعلا العالم بما خفي عن الأبصار، وغاب عن الأنظار، لا يغيب عنه مقدار وزن الذرة في العالم العلوي أو السفلي

(١) «تفسير القرطبي» ١٤ / ٢٧٥. (ش): الفَهَقُ: الامتلاء. فَهَقَ الْإِنَاءُ وَالْحَوْضُ: امْتَلَأَ. وخص العراقي لجبهله بالمياه لأنه حضري فإذا وجدها ملاً جابيته وأعدّها ولم يدر متى يجد المياه، وأما البدوي فهو عالم بالمياه فهو لا يُبَالِي ألا يُعْدّها.

(٢) «البحر المحيط» ٧ / ٢٥٥.

(٣) تفسير «البيضاوي» ٢ / ١٢٢.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣ / ١٢١.

﴿وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ﴾ أي ولا أصغر من الذرة ولا أكبر منها ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي إلا ويعلمه الله تعالى وهو في اللوح المحفوظ، والغرض أن الله تعالى لا تخفى عليه ذرة في الكون فكيف يخفى عليه البشر وأحوالهم؟ فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت، فهو تعالى عالم أين ذهبت وتفرقت، ثم يعيدها يوم القيامة ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي أثبت ذلك في الكتاب المبين لكي يشيب المؤمنين الذين أحسنوا في الدار الدنيا بأحسن الجزاء ﴿أُولَئِكَ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي لهم مغفرة لذنوبهم، ورزق حسن كريم في دار النعيم ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ أي وأما الذين بذلوا جهدهم وجدوا لإبطال القرآن مغالبيين لرسولنا، يظنون أنهم يعجزونه بما يثرونه من شبهات حول رسالته والقرآن ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أي فهؤلاء المجرمون لهم عذاب من أسوأ العذاب، شديد الإيلام، قال قتادة: الرجز: سوء العذاب ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي ويعلم أولو العلم من أصحاب النبي عليه السلام ومن جاء بعدهم من العلماء العاملين ﴿الَّذِينَ أَنْزَلَ إِلَهِكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي يعلمون أن هذا القرآن الذي أنزل عليك يا محمد هو الحق الذي لا يأتيه الباطل ﴿وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّعْزِيزٍ مُّحَمَّدٍ﴾ أي ويرشد من تمسك به إلى طريق الله الغالب الذي لا يقهر، الحميد أي المحمود في ذاته وصفاته وأفعاله، ثم ذكر تعالى أساليب المشركين في الصدد عن دين الله، والسخرية برسول الله فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي وقال الكافرون من مشركي مكة المنكرون للبعث والجزاء ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ﴾ أي هل نرشدكم إلى رجل يحدثكم بأعجب الأعاجيب؟ يعنون محمداً ﷺ ﴿إِذَا مَزِقَّنَا كُلَّ مَرْجٍ﴾ أي إذا بليتيم في القبور، وتفرقت أجسادكم في الأرض، وذهبت كل مذهب بحيث صرتم تراباً ورفاتاً ﴿إِنَّا لَنَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ؟ أي إنكم ستخلقون خلقاً جديداً بعد ذلك التمزق والتفريق؟ والغرض من هذا المقال هو السخرية والاستهزاء، قال أبو حيان: والقائلون هم كفار قريش قالوه على جهة التعجب والاستهزاء، كما يقول الرجل لمن يريد أن يعجبه: هل أدلك على قصة غريبة نادرة؟ ولما كان البعث عندهم من المحال جعلوا من يخبر عن وقوعه في حيز من يتعجب منه، ونكروا اسمه عليه ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ﴾ مع أن اسمه أشهر علم في قريش بطريق الاستهزاء^(١) ﴿أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي هل اختلق الكذب على الله، أم به جنون فهو يتكلم بما لا يدري؟ قال تعالى ردّاً عليهم: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ﴿بَلِ لِلْإِصْرَابِ أَيْ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَزْعُمُونَ مِنَ الْكُذْبِ وَالْجَنُونِ، بَلِ الَّذِينَ يَجْحَدُونَ الْبَعْثَ

(١) «تفسير البحر المحيط» ٧/ ٢٥٩.

ولا يصدقون بالآخرة ﴿فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْعِيدِ﴾ أي بل هؤلاء الكفار في ضلال وحيرة عن الحق توجب لهم عذاب النار، فهم واقعون في الضلال وهم لا يشعرون وذلك غاية الجنون والحماقة، ولما ذكر تعالى ما يدل على إثبات الساعة، ذكر دليلاً آخر يتضمن التوحيد مع التهديد فقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ألم يشاهدوا ما هو محيط بهم من جميع جوانبهم من السماء والأرض؟ فإن الإنسان أينما توجه وحيثما نظر رأى السماء والأرض أمامه وخلفه، وعن يمينه وشماله، وهما يدلان على وحدانية الصانع، أفلا يتدبرون ذلك فيعلمون أن الذي خلقهما قادر على بعث الناس بعد موتهم؟ ثم هدهم بقوله: ﴿إِنْ شَاءَ نَحْنُ يَهْمُ الْأَرْضِ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي لو شئنا لخسفنا بهم الأرض كما فعلنا بقارون، أو أسقطنا عليهم قطعاً من السماء كما فعلنا بأصحاب الأيكة، فمن أين لهم المهرب؟ قال «ابن الجوزي»: المعنى أنهم أين كانوا فأرضي وسمائي محيطة بهم، وأنا القادر عليهم، إن شئتُ خسفتُ بهم الأرض، وإن شئتُ أسقطت عليهم قطعة من السماء^(١) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ أي إن فيما يشاهدون من آثار القدرة والوحدانية لدلالة وعبرة لكل عبد تائب رجّاع إلى الله، متأمل فيما يرى، قال ابن كثير: يريد أن من قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها، وهذه الأرضين في انخفاضها وأطوالها وأعراضها، قادر على إعادة الأجسام، ونشر الرميم من العظام^(٢)، ثم ذكر تعالى قصة داود وما خصّه الله به من الفضل العظيم فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ اللام موطئة لقسم محذوف تقديره وعزة الله وجلاله لقد أعطينا داود منا فضلاً عظيماً واسعاً لا يُقدر، قال المفسرون: الفضل هو النبوة، والزيور، وتسخير الجبال، والطير والآلة الحديد، وتعليمه صنع الدروع إلى غير ذلك ﴿يَجِبَالُ أَوِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ أي وقلنا: يا جبال سبّحي معه ورجّعي التسبيح إذا سبّح وكذلك أنت يا طيور، قال ابن عباس: كانت الطير تسبح معه إذا سبّح، وكان إذا قرأ لم تبق دابة إلا استمعت لقراءته وبكت لبكائه^(٣) ﴿وَأَلْنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ أي جعلنا الحديد ليناً بين يديه حتى كان كالعجين، قال قتادة: سخر الله له الحديد فكان لا يحتاج أن يدخله ناراً، ولا يضره بمطرقة، وكان بين يديه كالشمع والعجين ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَيِّغَتٍ﴾ أي اعمل منه الدروع السابغة التي تقي الإنسان شر الحرب، قال المفسرون: كان يأخذ الحديد بيده فيصير كأنه عجين يعمل

(١) «زاد المسير» ٤٣٥/٦.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ١٢٢/٣.

(٣) «زاد المسير» ٤٣٦/٦.

به ما يشاء، ويصنع الدرع في بعض يوم يساوي ألف درهم فيأكل ويتصدق^(١)، والسباغات صفة لموصوف محذوف تقديره دروعات سباغات، وفي الدروع الكوامل التي تغطي لا بسها حتى تفضل عنه فيجرها على الأرض ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ أي وقدر في نسج الدروع بحيث تتناسب حلقاتها، قال الصاوي: أي جعل كل حلقة مساوية لأختها ضيقة لا ينفذ منها السهم لغلظها، ولا تثقل حاملها واجعل الكل بنسبة واحدة^(٢) ﴿وَأَعْمَلُوا صَلِحًا﴾ أي واعملوا يا آل داود عملاً صالحاً ولا تتكلموا على عز أبيكم وجاهه ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي إني مطلع على أعمالكم مراقب لها وسأجازيكم بها، قال الإمام الفخر: لأن الله لداود الحديد حتى كان في يده كالشمع وهو في قدرة الله يسير، فإنه يلين بالنار حتى يصبح كالمداد الذي يكتب به، فأني عاقل يستبعد ذلك على قدرة الله^(٣) وهو أول من صنع الدروع حلقة وكانت قبل ذلك صفائح ثقلاً كما قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، ثم ذكر تعالى ما أنعم به على ولده «سليمان» من النبوة والملك والجاه العظيم قال: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحُها شَهْرٌ﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح تسير بأمره، وسيرها من الصباح إلى الظهر مسيرة شهر للسائر المُجَدِّ^(٤)، ومن الظهر إلى الغروب مسيرة شهر، قال المفسرون: سخر الله له الريح تقطع به المسافات الشاسعة في ساعات معدودات، تحمله مع جنده فتنتقل به من بلدٍ إلى بلد، تغدو به مسيرة شهر إلى نصف النهار، وترجع به مسيرة شهر إلى آخر النهار، فقططع به مسيرة شهرين في نهار واحد ﴿وَأَسْلَمْنَا لَهُ الْفُطْرَ﴾ أي وأذبنا له النحاس حتى كان يجري كأنه عين ماء متدفقة من الأرض، قال المفسرون: أجرى الله لسليمان النحاس، كما لأن داود الحديد، آية باهرة، ومعجزة ظاهرة ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي وسخرنا له الجن تعمل بأمره وإرادته ما شاء مما يعجز عنه البشر، وكل ذلك بأمر الله وتسخيره ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي ومن يعدل منهم عما أمرناه به من طاعة سليمان^(٥) ﴿نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلْسَعِيرٍ﴾ أي نذقه النار المستعرة في الآخرة، ثم أخبر تعالى عما كلف به الجن من الأعمال فقال: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرُوبٍ﴾ أي يعمل هؤلاء الجن لسليمان ما يريد من القصور الشامخة ﴿وَتَمْثِيلٍ﴾ أي والتماثيل العجيبة من النحاس والزرجاج، قال الحسن: ولم تكن

(١) «تفسير القرطبي» ٢٦٦/١٤.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٢٩٤/٣.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٤٥/٢٥.

(٤) (ش): جد في السير فهو جاد: أسرع، عجل فيه. أجد السير/ أجد في السير فهو مُجد: أسرع فيه.

(٥) (ش): أي يحدد ويميل عن أمر الله فلا يطيع سليمان عليه السلام.

يومئذٍ محرمة، وقد حرمت من شريعتنا سداً للذريعة لئلا تعبد من دون الله ﴿وَحِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾ أي وقصاع ضخمة تشبه الأحواض، قال ابن عباس: «كالجواب» أي كالحياض ﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾ أي وقُدُورٍ كبيرة ثابتات لا تتحرك لكبرها وضخامتها، قال ابن كثير: والقُدُور الراسيات أي الثابتات في أماكنها لا تتحرك ولا تتحول عن أماكنها لعظمتها^(١) ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ أي وقلنا لهم اشكروا يا آل داود ربكم على هذه النعم الجليلة، فقد خصكم بالفضل العظيم والجاه العريض، واعملوا بطاعة الله شكرًا له جل وعلا ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي وقليل من العباد من يشكر الله على نعمه، قال ابن عطية: وفيه تنبيه وتحريض على شكر الله، ثم أخبر تعالى عن كيفية موت سليمان فقال: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ أي حكمنا على سليمان بالموت ونزل به الموت ﴿مَا دُفِنُوا عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ أي ما دلَّ الجن على موته إلا تلك الحشرة وهي الأرضة السوسة التي تأكل الخشب تأكل عصا سليمان ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ﴾ أي فلما سقط سليمان عن عصاه ظهر للجن واتضح لهم أنهم لو كانوا يعرفون الغيب كما زعموا ﴿مَا لِيُثَوِّفِي الْعَذَابَ الْمُهِينَ﴾ أي ما مكثوا في الأعمال الشاقة تلك المدة الطويلة، قال المفسرون: كانت الإنس تقول: إن الجن يعلمون الغيب الذي يكون في المستقبل، فوقف سليمان في محرابه يصلي متوكلًا على عصاه، فمات ومكث على ذلك سنة والجن تعمل تلك الأعمال الشاقة ولا تعلم بموته، حتى أكلت الأرضة عصا سليمان فسقط على الأرض فعلموا موته، وعلم الإنس أن الجن لا تعلم الغيب لأنهم لو علموه لما أقاموا هذه المدة الطويلة في الأعمال الشاقة وهم يظنون أنه حي وهو عليه السلام ميت.

البالغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان نوجزها فيما يلي:

١ - تعريف الطرفين لإفادة الحصر ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ومعناه لا يستحق الحمد الكامل إلا

الله.

٢ - الطباق بين ﴿يَلِجُ... وَيَخْرُجُ﴾ وبين ﴿يُنْزِلُ... وَيَعْرُجُ﴾ وبين ﴿أَصْغَرَ... وَكَبَّرَ﴾.

٣ - صيغة فاعل وفعول للمبالغة ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْحَبِيرُ﴾ ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾.

٤ - المقابلة بين ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ رَجُلًا﴾ الآية وبين ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ فقد جعل المغفرة والرزق الكريم جزاء المحسنين، وجعل العذاب والرجز الأليم جزاء المجرمين.

- ٥ - الاستفهام للسخرية والاستهزاء ﴿هَلْ نَذَلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ﴾ وغرضهم الاستهزاء بالرسول ولم يذكروا اسمه إمعاناً في التجهيل كأنه إنسان مجهول.
- ٦ - التنكير للتفخيم ﴿ءَأَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً﴾ أي فضلاً عظيماً، وتقديم داود على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر.
- ٧ - الإيجاز بالحذف ﴿غُدُوها شَهْرٌ وَرَوْحُها شَهْرٌ﴾ أي غدوها مسيرة شهر ورواحها مسيرة شهر.

٨ - التشبيه ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾ ويسمى التشبيه المرسل المجمل لذكر أداة التشبيه وحذف وجه الشبه.

قال الله تعالى:

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدٌ طَيِّبٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَفُورُ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قَرْيَ ظَهْرَةٍ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَأْتِيهِمْ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِیْظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا هُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ، حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُلْ لَا تُشْلَوْنَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُشَلُّ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلِ ارْوِنِي الَّذِينَ الْحَقَّقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّابٍ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَنْ كُنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنْخُ صَدَدْنَكُمْ عَنْ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ

مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

المناسبة: لما بين تعالى حال الشاكرين لنعمه بذكر «داود» و «سليمان» بين حال الكافرين لأنعمه بقصة سبأ، موعظة لقريش وتحذيراً وتنبهاً على ما جرى من المصائب والنكبات على من كفر بأنعم الله، ثم ذكر كفار مكة بنعمه ليعبدوه ويشكروه.

اللغة: ﴿سَبَأٌ﴾ قبيلة من العرب سكنت اليمن سميت باسم جدهم «سبأ بن يشجب بن قحطان». ﴿الْعَرِمُ﴾ الحاجز بين الشيتين، قال النحاس: وما يجتمع من مطربين جبلين، وفي وجهه مُسْنَاةٌ أي حاجز فهو العرم^(١). ﴿خَمَطٌ﴾ الخمط: المرُّ البشع، قال الزجاج: كل نبت فيه مرارة لا يمكن أكله فهو خمط، وقال المبرد: هو كل ما تغير إلى ما لا يُشْتَهَى، واللبن إذا حمض فهو خمط. ﴿وَأَثَلٌ﴾ الأثل: شجر لا ثمر له، قال الفراء: وهو شبيه بالطرفاء إلا أنه أعظم منه طولاً ومنه اتخذ منبر رسول الله ﷺ والواحدة أثلة. ﴿سِدرٌ﴾ قال الفراء: هو السَّرو، وقال الأزهري: السدر نوعان: سدر لا ينتفع به ولا يصلح ورقه للغسل وله ثمرة عصفه لا تؤكل، وسدر ينبت على الماء وثمره النبق وورقه غسول^(٢). ﴿ظَهيرٌ﴾ معين. ﴿الْفَتْاحُ﴾ القاضي والحاكم بالحق.

التفسير: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ﴾ اللام موطئة للقسم أي والله لقد كان لقوم سبأ في موضع سكنهم باليمن آية عظيمة دالة على الله جل وعلا وعلى قدرته على مجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، فإن قوم سبأ لما كفروا نعمة الله خَرَّ الله ملكهم، وشتَّت شملهم، ومزَّقهم شَرَّ مَمَزَّق، وجعلهم عبرة لمن يعتبر، ثم بين تعالى وجه تلك النعمة فقال: ﴿جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي حديقتان عظيمتان فيهما من كل أنواع الفواكه والثمار عن يمين الوادي بساتين ناضرة، وعن شماله كذلك، قال قتادة: كانت بساتينهم ذات أشجار وثمار، تسرُّ الناس بظلالها، وكانت المرأة تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مِكْتَلٌ أو زنبيل، فيتساقط من الأشجار ما يملؤه من غير كلفة ولا قطاف لكثرتهم ونضجه^(٣) وقال «البيضاوي»: ولم يُرَدَّ بستانين اثنين فحسب، بل أراد جماعتين من البساتين، جماعة عن يمين بلدهم، وجماعة عن شماله سميت كل جماعة منها جنة لكونها في تقاربها

(١) تفسير القرطبي «١٤/٢٨٦».

(٢) البحر المحيط «٧/٢٥٦».

(٣) مختصر تفسير ابن كثير «٣/١٢٦».

وتضامها كأنها جنة واحدة^(١) ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ أي وقلنا لهم على لسان الرسل: كلوا من فضل الله وإنعامه واشكروا ربكم على هذه النعم ﴿بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ﴾ أي هذه بلدتكم التي تسكنونها بلدة طيبة، كريمة التربة، حسنة الهواء، كثيرة الخيرات، وربكم الذي رزقكم وأمركم بشكره رب غفور لمن شكره ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ أي فأعرضوا عن طاعة الله وشكره، واتباع أوامر رسله، فأرسلنا عليهم السيل المدمر المخرب الذي لا يطاق لشدته وكثرته، فغرق بساتينهم ودورهم، قال الطبري: وحين أعرضوا عن تصديق الرسل، ثقب ذلك السد الذي كان يحبس عنهم السيول، ثم فاض الماء على جناتهم فغرقها، وخرب أرضهم وديارهم^(٢) ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ أي وأبدلناهم بتلك البساتين الغناء، بساتين قاحلة جرداء، ذات أكل مرشع ﴿وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ وشيء من الأشجار التي لا ينتفع بثمرها كشجر الأثل والسدر، قال الرازي: أرسل الله عليهم سيلاً غرق أموالهم، وخرب دورهم، والخمط كل شجرة لها شوك وثمرتها مرة، والأثل نوع من الطرفاء، ولا يكون عليه ثمرة إلا في بعض الأوقات، يكونه عليه شيء كالعفص أو أصغر منه في طعمه وطبعه، والسدر معروف وقال فيه: ﴿قَلِيلٍ﴾ لأنه كان أحسن أشجارهم، وقد بين تعالى بالآية طريقة الخراب، وذلك لأن البساتين التي فيها الناس تكون فيها الفواكة الطيبة بسبب العمارة، فإذا تركت سنين تصبح كالغيضة والأجمة تلتف الأشجار بعضها ببعض وتنبث المفسدات فيها، فتقل الثمار وتكثر الأشجار^(٣) قال المفسرون: وتسمية البدل «جنتين» فيه ضرب من التهكم، لأن الأثل والسدر وما كان فيه خمط لا يسمى جنة، لأنها أشجار لا يكاد ينتفع بها، وإنما جاء التعبير على سبيل المشاكلة ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا﴾ أي ذلك الجزاء الفظيع الذي عاقبناهم به إنما كان بسبب كفرهم ﴿وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَفُورُ﴾ أي وما ناجازي بمثل هذا الجزاء الشديد إلا الكافر المبالغ في كفره، قال مجاهد: أي ولا يعاقب إلا الكفور، لأن المؤمن يكفر الله عنه سيئاته، والكافر يجازى بكل سوء عمله^(٤) ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً﴾ هذا من تيمنة^(٥) ذكر ما أنعم الله به عليهم أي وجعلنا بين بلاد سبأ وبين القرى الشامية التي باركنا فيها للعالمين قرى متواصلة من اليمين إلى الشام،

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٨٥ و«الكشاف» ٣/ ٤٥٤.

(٢) نفس المصدر.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٢٨٨.

(٤) تفسير «الكشاف» ٣/ ٤٥٥.

(٥) (ش): تيمنة: ما يكون به تمام الشيء وتكملته.

يُرى بعضها من بعض لتقاربها، ظاهرة لأبناء السبيل ﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي جعلنا السير بين قراهم وبين قرى الشام سيراً مقدراً من منزل إلى منزل ومن قرية إلى قرية ﴿سَيِّرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ أي وقلنا لهم سيروا بين هذه القرى متى شئتم لا تخافون في ليل ولا في نهار، قال الزمخشري: كان الغادي منهم يقيل في قرية، والرائح يبيت في قرية إلى أن يبلغ الشام، لا يخاف جوعاً ولا عطشاً ولا عدواً، ولا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، وكانوا يسيرون آمنين لا يخفون شيئاً^(١) ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ إخبار بما قابلوا به النعم من الكفران أي أنهم حين بطروا النعمة، وملّوا العافية، وسئموا الراحة طلبوا من الله أن يباعد بين قراهم المتصلة ليمشوا في المفاوز ويتزودوا للأسفار، فعجّل الله إجابتهم، بتخريب تلك القرى وجعلها مفاوز قفاراً ﴿وَوَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي وظلموا أنفسهم بكفرهم وجحودهم النعمة ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي جعلناهم أخباراً تُروى للناس بعدهم ﴿وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي وفرقناهم في البلاد شذر مذر^(٢) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي إن فيما ذكر من قصتهم لعبراً وعظات لكل عبد صابر على البلاء، شاكر في النعماء، والمقصود من ذكر قصة سبأ تحذير الناس من كفران النعمة لئلا يحل بهم ما حلّ بمن قبلهم، ولهذا أصبحت قصتهم يُضربُ بها المثل فيقال: «ذهبوا أيدي سبأ»^(٣) ثم ذكر تعالى سبب ضلال المشركين فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ أي تحقق ظن إبليس اللعين في هؤلاء الضالين، حين ظنّ أنه يستطيع أن يغويهم بتزيين الباطل لهم، وأقسم بقوله: ﴿وَلَا غَوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩] فتحقق ما كان يظنه، قال مجاهد: ظنّ ظناً فكان كما ظن فصدّق ظنه^(٤) ﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي فاتبعه الناس فيما دعاهم إليه من الضلالة إلا فريقاً هم المؤمنون فإنهم لم يتبعوه، قال القرطبي: أي ما سلم من المؤمنين إلا فريق، وعن ابن عباس أنهم المؤمنون كلهم فتكون ﴿مِنَ﴾ على هذا للتبيين لا للتبعيض، وإنما علم إبليس صدق ظنه وهو لا يعلم الغيب، لأنه لما نفذ له في آدم ما نفذ، غلب على

(١) تفسير «الكشاف» ٤٥٥/٣.

(٢) (ش): شَذَرَ مَذَرَ: تركبٌ يفيد التفرُّق والتشتت، وَلَا يُقَالُ ذَلِكَ فِي الْإِقْبَالِ. تَفَرَّقُوا شَذَرَ مَذَرَ: ذَهَبُوا مَذَاهِبَ شَتَّى مُخْتَلِفِينَ، ذهبوا في كل اتجاه.

(٣) (ش): ذهبوا أيدي سبأ/ تَفَرَّقُوا أَيَّادِي سَبَأٍ/ تَفَرَّقُوا أَيَّادِي سَبَأٍ: أي تفرقوا في كل طريق ووجهة كما تفرقت قبائل اليمن في البلاد عندما غرقت أرضهم وذهبت جناتهم. إما على أَنَّ اليد بمعنى الجارحة، لأنهم كانوا، إذ كانوا مجتمعين، يدًا واحدة. فلما تفرقوا صارت اليد أيادي كثيرة؛ أو بمعنى النعمة، أي تفرقوا تَفَرَّقَ نِعَمَ سَبَأٍ، أو كائنين كَنِعَمَ أهل سبأ، أو بمعنى الطريق، أي تفرقوا في كل طريق أهل سبأ، حيث تمزقوا.

(٤) «تفسير الطبري» ٢٢/٦٠.

ظنه أنه ينفذ له مثل ذلك في ذريته وقد وقع له تحقيق ما ظن^(١) ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي وما كان لإبليس تسلط واستيلاء عليهم بالسوسة والإغواء ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْثِقُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ أي إلا لحكمة جليلة وهي أن نظهر علمنا للعباد بمن هو مؤمن مصدق بالآخرة، ومن هو شاك مرتاب في أمرها، فنجازي كلا بعمله، قال القرطبي: أي لم يقهرهم إبليس على الكفر، وإنما كان منه الدعاء والتزيين^(٢) وقال الحسن: والله ما ضربهم بعصا، ولا أكرههم على شيء، وما كان إلا غروراً وأمانى دعاهم إليها فأجابوه^(٣) ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي وربك يا محمد على كل شيء رقيب، لا تخفى عليه خافية من أفعال العباد، فهو الذي يحفظ عليهم أعمالهم، ويعلم نياتهم وأحوالهم، قال الصاوي: الشيطان سبب الإغواء لا خالق الإغواء، فمن أراد الله حفظه منع الشيطان عنه، ومن أراد إغواءه سلط عليه الشيطان، والكُلُّ فعل الله تعالى^(٤)، وإنما سبقت حكمته بتسليط الشيطان على الإنسان ابتلاءً وامتحاناً ليميز الله الخبيث من الطيب، والمراد بقوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي لنظهر للخلق علمنا، وإلا فالله تعالى عالم بما كان وما يكون ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين ادعوا شركاءكم الذين عبدتموهم من الأصنام، وزعتم أنهم آلهة من دون الله، ادعوهم ليجلبوا لكم الخير، ويدفعوا عنكم الضر، قال أبو حيان: والأمر بدعاء الآلهة للتعجيز وإقامة الحجة عليهم^(٥) ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي لا يملكون وزن ذرة من خير أو نفع أو ضر ﴿فِ السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي في العالم العلوي أو السفلي، وليسوا بقادرين على أمر من الأمور في الكون بأجمعه ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ﴾ أي وليس لتلك الآلهة شركة مع الله لا خلقاً ولا ملكاً ولا تصرفاً ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ أي وليس له تعالى من الآلهة معين يُعينه في تدبير أمرهما، بل هو وحده الخالق لكل شيء، المنفرد بالإيجاد والإعدام، ثم لما نفى عنها الخلق والملك، نفى عنها الشفاعة أيضاً فقال: ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ أي لا تكون الشفاعة لأحد عند الله من ملك أو نبي، حتى يؤذن له في الشفاعة،

(١) «تفسير القرطبي» ١٤ / ٢٩٢.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٣ / ٢٩٣.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣ / ١٢٨.

(٤) حاشية الصاوي ٣ / ٢٩٨. (ش): إن تجريد الشيطان من الفعل ونسبته إلى الله يتمشى مع مذهب الجبرية. والحق أن الشيطان وغيره من المخلوقين لهم أفعال حقيقية وهي لا تخرج عن خلق الله وتقديره: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، فأثبت الآية لنا عملاً مع أنه سبحانه وتعالى الخالق لكل شيء.

(٥) «البحر المحيط» ٣ / ١٢٩.

كيف يزعمون أن آلهتهم يشفعون لهم؟ قال ابن كثير: أي أنه تعالى لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجترأ أحد أن يشفع عنده في شيء إلا بعد إذنه له في الشفاعة كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨] وإنما كانت الشفاعة لسيد ولد آدم إظهاراً لمقامه الشريف، فهو أكبر شافع عند الله، وذلك حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلهم^(١) ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ أي حتى إذا زال الفزع والخوف عن قلوب الشفعاء، من الملائكة والأنبياء^(٢) ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾ أي قال بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم في أمر الشفاعة؟ فأجابوهم بقولهم: قد أذن فيها للمؤمنين، قال القرطبي: إن الله تعالى يأذن للأنبياء والملائكة في الشفاعة، وهم على غاية الفزع من الله، لما يقترن بتلك الحال من الأمر الهائل، والخوف الشديد أن يقع منهم تقصير، فإذا سُرِّي عنهم قالوا للملائكة فوقعهم: ماذا قال ربكم؟ أي بماذا أمر الله؟ قالوا: الحق أي إنه أذن لكم في الشفاعة للمؤمنين^(٣) ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أي هو تعالى المتفرد بالعلو والكبرياء، العظيم في سلطانه وجلاله، قال «أبو السعود»: وهذا من تمام كلام الشفعاء، قالوه اعترافاً بغاية عظمة جناب الله عز وجل، فليس لأحد أن يتكلم إلا بإذنه^(٤)، ثم وبَّخ تعالى المشركين في عبادتهم غير الخالق الرازق فقال: ﴿قُلْ مَنْ

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ١٢٩ / ٣.

(٢) (ش:) هذا تفسير للآية بغير ما ورد عن الرسول ﷺ والتفسير إذا جاء عنه ﷺ فلا يجوز العدول عنه إلى غيره، والمؤلف قد فسرها بما يحصل يوم القيامة عند طلب الشفاعة، وكلام النبي ﷺ يدل على أن هذا الفزع يحصل عندما يتكلم الله بالوحي فتأخذ السموات منه رجفة وتصعق الملائكة عند ذلك. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا تَكَلَّمَ اللَّهُ بِالْوَحْيِ سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ لِلسَّمَاءِ صَلَصلةً كَجَرِّ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصِّفَا فَيُصْعَقُونَ فَلَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ جِبْرِيلُ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ جِبْرِيلُ فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ». قَالَ: «فَيَقُولُونَ: يَا جِبْرِيلُ مَاذَا قَالَ رَبُّكَ فَيَقُولُ: الْحَقُّ فَيَقُولُونَ: الْحَقُّ الْحَقَّ». (رواه أبو داود، وصححه الألباني). وَقَالَ ﷺ: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ، قَالُوا لِلَّذِي قَالَ الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ. (صَلَصلة) هِيَ صَوْتُ وَفُوعِ الْحَدِيدِ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ (كَجَرِّ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصِّفَا) جَمْعُ صَفَاةٍ وَهِيَ الصَّخْرَةُ وَالْحَجَرُ الْأَمْلَسُ (إِذَا قَضَى اللَّهُ فِي السَّمَاءِ أَمْرًا) أَيْ إِذَا حَكَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ (ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا) بِفَتْحَتَيْنِ مِنَ الْخُضُوعِ وَبِضَمٍّ أَوَّلُهُ وَسُكُونٍ ثَانِيهِ (خُضْعَانًا) وَهُوَ مُصَدَّرٌ بِمَعْنَى خَاضِعِينَ (لِقَوْلِهِ) أَيْ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى (كَأَنَّهُ) أَيْ الْقَوْلُ الْمَسْمُوعُ (سِلْسِلَةٌ) أَيْ مِنَ الْحَدِيدِ (عَلَى صَفْوَانٍ) هُوَ الْحَجَرُ الْأَمْلَسُ. وليس المراد تشبيه صوت الله تعالى بهذا؛ لأن الله ﷻ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، بل المراد تشبيه ما يحصل لهم من الفزع عندما يسمعون كلامه بفزع مَنْ يسمع سلسلة على صفوان. (فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ) أَيْ كُشِفَ عَنْهُمْ الْفَزَعُ وَأُزِيلَ (قَالُوا) أَيْ سَأَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا قَالُوا الْحَقَّ) أَيْ قَالَ اللَّهُ الْقَوْلُ الْحَقَّ. (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) أَيْ ذُو الْعُلُوِّ وَالْكِبَرِيَاءِ.

(٣) «تفسير القرطبي» ٢٩٥ / ١٤.

(٤) «أبو السعود» ٢٣١ / ٤.

يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿١﴾ أَيُّ قُلُوبٍ لَّهُمْ يَا مُحَمَّدٌ مِنَ الَّذِي يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ بِإِنزَالِ الْمَطَرِ، وَمِنَ الْأَرْضِ بِإِخْرَاجِ النَّبَاتِ وَالثَّمَرَاتِ؟ ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ أَيُّ قُلُوبٍ لَهُمْ: اللَّهُ الرَّازِقُ لَا آلَهِتَكُمْ، قَالَ «ابن الجوزي»: وَإِنَّمَا أُمِرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَسْأَلَ الْكَفَّارَ عَنْ هَذَا احْتِجَاجًا عَلَيْهِمْ بِأَنَّ الَّذِي يَرْزُقُ هُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ، وَهُمْ لَا يَثْبُتُونَ رَازِقًا سِوَاهُ، وَلِهَذَا جَاءَ الْجَوَابُ ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ لِأَنَّهُمْ لَا يَجِيبُونَ بغير هذا ^(١) ﴿وَإِنَّا أَوْلِيَاكُمْ لَعَلَّاهُدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أَيُّ وَاحِدِ الْفَرِيقَيْنِ مِنَّا أَوْ مِنْكُمْ لَعَلَّاهُدَىٰ أَوْ ضَلَالٍ بَيْنَ، وَهَذَا نَهَايَةُ الْإِنْصَافِ مَعَ الْخَصْمِ، قَالَ أَبُو حَيَّانٍ: أَخْرَجَ الْكَلَامَ مَخْرَجَ الشُّكِّ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ عَبْدَ اللَّهِ وَحْدَهُ كَانَ مَهْتَدِيًا، وَمَنْ عَبْدٌ غَيْرُهُ مِنْ جَمَادٍ كَانَ ضَالًّا، وَفِي هَذَا إِنْصَافٌ وَتَلَطُّفٌ فِي الدَّعْوَى، وَفِيهِ تَعْرِيفٌ بِضَلَالَتِهِمْ وَهُوَ أَبْلَغُ مِنَ الرَّدِّ بِالتَّصْرِيحِ، وَنَحْوُهُ قَوْلُ الْعَرَبِ: أَخْزَىٰ اللَّهُ الْكَاذِبَ ^(٢) مِنِّي وَمَنْكَ، مَعَ تَيَقُّنِ أَنَّ صَاحِبَهُ هُوَ الْكَاذِبُ ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُنْشِئُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أَيُّ لَا تُؤَاخِذُونَ عَلَيَّ مَا ارْتَكَبْنَا مِنْ إِجْرَامٍ، وَلَا نُوَاخِذُ نَحْنُ بِمَا اقْتَرَفْتُمْ، وَإِنَّمَا يَعَاقِبُ كُلُّ إِنْسَانٍ بِجَرِيرَتِهِ، وَهَذَا مَلَاطِفَةٌ وَتَنْزِيلٌ ^(٣) فِي الْمَجَادَلَةِ إِلَى غَايَةِ الْإِنْصَافِ، قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ: وَهَذَا أَدْخَلَ فِي الْإِنْصَافِ وَأَبْلَغُ مِنَ الْأَوَّلِ، حَيْثُ أَسْنَدَ الْإِجْرَامَ لَأَنْفُسِهِمْ وَالْعَمَلَ إِلَى الْمَخَاطِبِينَ ^(٤) ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أَيُّ يَجْمَعُ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَحْكُمُ بَيْنَنَا وَيَفْصِلُ بِالْحَقِّ ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ أَيُّ وَهُوَ الْحَاكِمُ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَظْلُمُ أَحَدًا، الْعَالَمُ بِأَحْوَالِ الْخَلْقِ، فَيَدْخُلُ الْمَحَقُّ الْجَنَّةَ، وَالْمُبْطَلُ النَّارَ ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾ تَوْبِيخٌ آخَرٌ عَلَى إِشْرَاكَهُمْ وَإِظْهَارٌ لِّخَطِيئَتِهِمْ الْعَظِيمِ أَيُّ أَرُونِي هَذِهِ الْأَصْنَامَ الَّتِي أَلْحَقْتُمُوهَا بِاللَّهِ وَجَعَلْتُمُوهَا شُرَكَاءَ مَعَهُ فِي الْأُلُوْهِيَةِ، لِأَنْظُرَ بِأَيِّ صِفَةٍ اسْتَحَقَّتِ الْعِبَادَةَ مَعَ الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ؟ قَالَ «أَبُو السَّعُودِ»: وَفِيهِ مَزِيدٌ تَبَكُّيَّةٍ لَهُمْ بَعْدَ إِلْزَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ^(٥) ﴿كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ رَدُّ لَهْجَرٍ وَزَجْرٍ أَيُّ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمْتُمْ مِنْ اعْتِقَادِ شَرِيكَ لَهُ، بَلْ هُوَ الْإِلَهِ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ، الْغَالِبُ عَلَى أَمْرِهِ، الْحَكِيمُ فِي تَدْبِيرِهِ لَخَلْقِهِ، فَلَا يَكُونُ لَهُ شَرِيكَ فِي مَلِكِهِ أَبَدًا ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أَيُّ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ لِلْعَرَبِ خَاصَّةً وَإِنَّمَا أَرْسَلْنَاكَ لِعُمُومِ الْخَلْقِ، مُبَشِّرًا لِلْمُؤْمِنِينَ بِجَنَاتِ النِّعَمِ، وَمُنْذِرًا لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ الْجَحِيمِ ﴿وَلَكِنَّ

(١) تفسير «ابن الجوزي» ٤٥٤ / ٦.

(٢) «البحر المحيط» ٢٧٩ / ٧.

(٣) (ش): تَنْزِيلٌ: تَنَزَّلَ.

(٤) «الكشاف» ٣.

(٥) تفسير أبي السَّعُودِ ٢٣١ / ٤.

أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ أَي وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ لَا يَعْلَمُونَ ذَلِكَ فِيحْمِلُهُمْ جَهْلُهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْغَيِّ وَالضَّلَالِ ﴿٢﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣﴾ أَي وَيَقُولُ الْمُشْرِكُونَ عَلَى سَبِيلِ الْاسْتِهْزَاءِ وَالسَّخَرَةِ: مَتَى هَذَا الْعَذَابُ الَّذِي تَخَوَّفُونَا بِهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِيمَا تَقُولُونَ؟ وَالخُطَابُ لِلنَّبِيِّ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعْرِضُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٥﴾ أَي لَكُمْ زَمَانٌ مَعَيَّنٌ لِلْعَذَابِ يَجِيءُ فِي أَجَلِهِ الَّذِي قَدَرَهُ اللَّهُ لَهُ، لَا يَسْتَأْخِرُ لِرَغْبَةِ أَحَدٍ، وَلَا يَتَقَدَّمُ لِرَجَاءِ أَحَدٍ، فَلَا تَسْتَعْجِلُوا عَذَابَ اللَّهِ فَهُوَ آتٍ لَا مَحَالَةَ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَمَادِي الْمُشْرِكِينَ فِي الْعِنَادِ وَالتَّكْذِيبِ فَقَالَ ﴿٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿٧﴾ أَي لَنْ نَصَدِّقَ بِالْقُرْآنِ وَلَا بِمَا سَبَقَهُ مِنَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَةِ الدَّالَّةِ عَلَى الْبُعْثِ وَالنَّشُورِ ﴿٨﴾ وَلَوْ رَأَوْا الظَّلِمَةَ مُوقِفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴿٩﴾ أَي وَلَوْ شَاهَدَتْ يَا مُحَمَّدُ حَالِ الظَّالِمِينَ الْمُنْكَرِينَ لِلْبُعْثِ وَالنَّشُورِ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ ﴿١٠﴾ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ ﴿١١﴾ أَي يُلُومُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيُؤْنِبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَجَوَابُ ﴿لَوْ﴾ مَحْذُوفٌ لِلتَّهْوِيلِ تَقْدِيرُهُ لَرَأَيْتُ أَمْرًا فَظِيعًا مَهُولًا ﴿١٢﴾ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ أَي يَقُولُ الْآتِبَاعُ لِلرُّؤَسَاءِ: لَوْلَا إِضْلَالُكُمْ لَنَا لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ مَهْتَدِينَ ﴿١٤﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ﴿١٥﴾ أَي قَالَ الرُّؤَسَاءُ جَوَابًا لِلْمُسْتَضْعَفِينَ: أَنَحْنُ مَنَعْنَاكُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بَعْدَ أَنْ جَاءَكُمْ؟ لَا، لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُونَ ﴿١٦﴾ بَلْ كُنْتُمْ تُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ أَي بَلْ أَنْتُمْ كَفَرْتُمْ مِنْ ذَاتِ أَنْفُسِكُمْ، بِسَبَبِ أَنْكُمْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ رَاسِخِينَ فِي الْإِجْرَامِ ﴿١٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴿١٩﴾ أَي وَقَالَ الْآتِبَاعُ لِلرُّؤَسَاءِ: بَلْ مَكْرُكُمْ بَنَا فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ هُوَ الَّذِي صَدَّنَا عَنِ الْإِيمَانِ ﴿٢٠﴾ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴿٢١﴾ أَي وَقْتُ دَعْوَتِكُمْ لَنَا إِلَى الْكُفْرِ بِاللَّهِ، وَأَنْ نَجْعَلَ لَهُ شُرَكَاءَ، وَلَوْلَا تَزْيِينُكُمْ لَنَا الْبَاطِلَ مَا كَفَرْنَا ﴿٢٢﴾ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ ﴿٢٣﴾ أَي أَخْفَى كُلُّ مَنْ الْفَرِيقَيْنِ النَّدَامَةَ عَلَى تَرْكِ الْإِيمَانِ حِينَ رَأَوْا الْعَذَابَ، أَخْفَوَهَا مَخَافَةَ التَّعْيِيرِ ﴿٢٤﴾ وَجَعَلْنَا الْأَعْلَلَ فِيْ أَغْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٢٥﴾ أَي وَجَعَلْنَا السَّلَاسِلَ فِي رِقَابِ الْكَفَّارِ زِيَادَةً عَلَى تَعْذِيبِهِمْ بِالنَّارِ ﴿٢٦﴾ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ أَي لَا يَجْزَوْنَ إِلَّا بِأَعْمَالِهِمُ الَّتِي عَمَلُوهَا وَلَا يَعَاقِبُونَ إِلَّا بِكُفْرِهِمْ وَإِجْرَامِهِمْ.

البَلَاغَةُ: تضمنت الآية الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين لفظ ﴿يَمِينٍ.. وَ.. وَشِمَالٍ﴾ وبين ﴿بَشِيرًا.. وَ.. وَنَذِيرًا﴾ وبين ﴿وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ.. تَسْتَعْرِضُونَ﴾ وبين ﴿اسْتَضَعَفُوا.. وَأَسْتَكْبَرُوا﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٢ - جناس الاشتقاق ﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيْرُوا﴾ فإن كلمة ﴿سَيْرُوا﴾ مشتقة من السير .

٣ - التعجيز بدعاء الجماد الذي لا يسمع ولا يحس ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ .

٤ - التوبيخ والتبكيت ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ؟﴾

٥ - حذف الخبر لدلالة السياق عليه ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾ أي قل الله الخالق الرازق للعباد ودل على المحذوف سياق الآية .

٦ - المبالغة بذكر صيغ المبالغة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فإن، فعَّال وفعل وفعل، من صيغ المبالغة ومثلها ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ .

٧ - حذف الجواب للتهويل والتفريع ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْفُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ حذف الجواب للتهويل أي لو ترى حالهم لرأيت أمراً فظيعاً مهولاً .

٨ - المجاز العقلي ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أسند المكر إلى الليل والمراد مكر المشركين بهم في الليل ففيه مجاز عقلي .

٩ - الاستعارة ﴿لَنْ نُؤْمِرَ بِهِذَا الْقُرْآنَ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ليس للقرآن يدان ولكنه استعارة لما سبقه من الكتب السماوية المنزلة من عند الله .

١ - مراعاة الفواصل لما لها من وقع حسن على السمع مثل ﴿وَهَلْ يُخْرِجُ إِلَّا الْكُفُورَ﴾ .. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إلخ .

قال الله تعالى:

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيْبَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ، وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا نُتِلَّىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُ ءَابَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ

هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٢﴾ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٣﴾
وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾
قُلْ إِنَّمَا أَعْطِيَكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِثْلٍ خَفًى وَفُردَى ثُمَّ تَنْفَكُّوْا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ
إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٥﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى
اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٦﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَـمُ الْغُيُوبِ ﴿٤٧﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ
وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ
﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥٠﴾ وَقَالُوا ءَأَمْنَا بِهِ وَلَئِنْ هُمْ إِلَّا تَنَـآوُشُ
مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥١﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَحِيلَ
بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ

المناسبة: لما ذكر تعالى قصة أهل سبأ وكفرهم بنعم الله، وما أعقب ذلك من تبديل النعمة إلى النقمة، ذكر هنا اغترار المشركين بالمال والبنين، وتكذيبهم لرسول الله ﷺ، وختم السورة الكريمة ببيان مصرع الغابرين، تسلياً لرسول الله ﷺ وتخويفاً وتحذيراً للمشركين.

اللغة: ﴿مُتَرَفُوهاً﴾ المترف: المُنْعَم المتقلب في الغنى والعز والجاه. ﴿بَسْطُ﴾ يوسّع. ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يُمْتَر. ﴿زُلْفَى﴾ قُرْبَى. ﴿إِفْكُ﴾ كذب مختلق. ﴿مِعْشَارُ﴾ المعشار: العشر، قال الجوهرى: ومعشار الشيء عشرة^(١)، فهما لغتان. ﴿نَكِيرِ﴾ أصلها نكيري حذفت الياء لمراعاة الفواصل، قال الزجاج: النكير: اسم بمعنى الإنكار. ﴿جِنَّةٍ﴾ بكسر الجيم أي جنون. ﴿قُوَّةَ﴾ نجاة ومهرب. ﴿التَّـنَـاُوُشُ﴾ التناول، قال الزمخشري: والتناول والتناول أخوان، إلا أن التناول تناول سهل لشيء قريب^(٢)، ومنه المناوشة في القتال وذلك عند تداني الفريقين، قال ابن السكيت: يقال للرجل إذا تناول رجلاً ليأخذه: نأشه.

التفسير: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ﴾ أي لم نبعث في أهل قرية رسولاً من الرسل ينذرهم عذابنا ﴿إِلَّا قَالَ مُتَرَفُوهاً﴾ أي إلا قال أهل الغنى والتنعيم في الدنيا ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي لا نؤمن برسالتكم ولا نصدقكم بما جئتم به، قال قتادة: المترفون هم جبابرهم وقادتهم ورؤساؤهم في الشر^(٣)، وهم الذين يبادرون إلى تكذيب الأنبياء، والقصد بالآية تسلية النبي ﷺ على تكذيب أكابر قريش له ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا﴾ أي

(١) «تفسير القرطبي» ١٤ / ٣١٠.

(٢) «الكشاف» ٣ / ٤٦٨.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٤ / ٣٠٥.

وقال مشركو مكة: نحن أكثر أموالاً وأولاداً من هؤلاء الضعفاء المؤمنين ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ أي إن الله لا يعذبنا لأنه راضٍ عنا، ولو لم يكن راضياً عنا لما بسط لنا من الرزق، قاسوا أمر الدنيا على الآخرة، وظنوا أن الله كما أعطاهم الأموال والأولاد في الدنيا لا يعذبهم في الآخرة، قال أبو حيان: نصّ تعالى على المترفين لأنهم أول المكذبين للرسول، لما شغلوا به من زخرف الدنيا، وما غلب على عقولهم منها، فقلوبهم أبداً مشغولة منهمكة، بخلاف الفقراء فإنهم خالون من مستلذات الدنيا^(١)، فقلوبهم أقبل للخير^(٢) ولذلك كانوا أكثر أتباع الأنبياء^(٣) ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن توسعة الرزق وتضييقه ليس دليلاً على رضى الله، فقد يوسع الله على الكافر والعاصي، ويضيق على المؤمن والمطيع ابتلاءً وامتحاناً، فلا تظنوا أن كثرة الأموال والأولاد دليل على المحبة والسعادة، بل هي تابعة للحكمة والمشئمة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَر النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكن أكثر هؤلاء الكفرة لا يعلمون الحقيقة، فيظنون أن كثرة الأموال والأولاد للشرف والكرامة، وكثيراً ما يكون للاستدراج^(٤) كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] ولهذا أكد ذلك بقوله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾ أي ليست أموالكم ولا أولادكم التي تفتخرون بها وتكاثرون هي التي تقربكم من الله قربي، وإنما يقرب الإيمان والعمل الصالح، قال الطبري: الزلفى: القربى، ولا يعتبر الناس بكثرة المال والولد^(٥)، ولهذا قال تعالى بعده: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي إلا المؤمن الصالح الذي ينفق ماله في سبيل الله، ويعلم ولده الخير ويربيه على الصلاح فإن هذا الذي يقرب من الله^(٦) ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي تضاعف حسناتهم، الحسنة بعشر أمثالها وبأكثر إلى سبعمئة ضعف ﴿وَهُمْ فِي الْعُرْفَةِ ءَامِنُونَ﴾ أي وهم في منازل الجنة العالية آمنون من كل عذاب ومكروه، ولما ذكر جزاء المؤمنين، ذكر عقاب الكافرين، ليظهر التباين بين الجزاءين فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ أي يسعون في الصدد عن سبيل الله، واتباع آياته ورسله، معاندين لنا يظنون أنهم يفوتونا بأنفسهم ﴿أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي فهم مقيمون في العذاب، محضرون يوم

(١) (ش): الخالي من مستلذات الدنيا: الذي ليس عنده شيء منها.

(٢) (ش): أقبل للخير: أي أكثر قبولاً للخير.

(٣) «البحر المحيط» ٧/ ٢٨٥.

(٤) «البيضاوي» ٢/ ١٢٦.

(٥) «تفسير الطبري» ٢٢/ ٦٨.

(٦) «البيضاوي» ٢/ ١٢٦.

القيامة للحساب ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ أي قل يا محمد: إن ربي يوسع الرزق لمن يشاء من خلقه، ويقتر على من يشاء، فلا تغتروا بالأموال التي رزقكم الله إياها، قال في «التسهيل»: كررت الآية لاختلاف القصد، فإن القصد بالأول الكفار، والقصد هنا ترغيب المؤمنين بالإنفاق^(١) ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ أي وما أنفقتُمْ في سبيل الله قليلاً أو كثيراً فإن الله تعالى يعوضه عليكم إما عاجلاً أو آجلاً ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي هو تعالى خير المعطين^(٢)، فإن عطاء غيره بحساب، وعطاؤه تعالى بغير حساب، قال المفسرون: لما بين أن الإيمان والعمل الصالح هو الذي يقرب العبد إلى ربه، ويكون مؤدياً إلى تضعيف حسناته، بين أن نعيم الآخرة لا ينافي سعة الرزق في الدنيا، بل الصالحون قد ييسط لهم الرزق في الدنيا مع ما لهم في الآخرة من الجزاء الأوفى والمثوبة الحسنی بمقتضى الوعد الإلهي^(٣) ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعاً﴾ أي واذكر يوم يحشر الله المشركين جميعاً من تقدم ومن تأخر للحساب والجزاء ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ؟ الاستفهام للتقريع والتوبيخ للمشركين أي هؤلاء عبدوكم من دوني وأنتم أمرتموهم بذلك؟ قال الزمخشري: هذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار، وارد على المثل السائر «إياك أعني واسمعي يا جارة» ونحوه قوله تعالى ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَإِيمَى إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] ؟ وقد علم سبحانه أن الملائكة وعيسى منزّهون عما نُسب إليهم، والغرض من السؤال والجواب أن يكون تقريع للمشركين أشد، وخجلهم أعظم^(٤) ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِئِنَّا مِنْ دُونِهِمْ﴾ أي تعاليت وتقدست يا ربنا عن أن يكون معك إله، أنت ربنا ومعبودنا الذي نتولاه ونعبده ونخلص له العبادة، ونحن ننبرأ إليك منهم ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي بل كانوا يعبدون الشياطين لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة غير الله فأطاعوهم ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ قال الطبري: أي أكثرهم بالجنّ مصدقون يزعمون أنهم بنات الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً^(٥) قال تعالى رداً على مزاعم المشركين ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً﴾ أي في هذا اليوم يوم الحساب لا ينفع العابدون ولا المعبودون بعضهم لبعض، لا بشفاعاة ونجاة، ولا بدفع عذاب وهلاك، قال «أبو السعود»: يخاطبون بذلك على رؤوس الأشهاد إظهاراً

(١) «التسهيل» ١٥٢/٣.

(٢) «زاد المسير» ٦/٦٤٢.

(٣) حاشية زاده على البيضاوي ٩٣/٣.

(٤) «الكشاف» ٤٦٣/٣.

(٥) «تفسير الطبري» ٦٩/٢٢.

لعجزهم وقصورهم عن نفع عابديهم، وإظهاراً لخيبة رجائهم بالكلية، ونسبة عدم النفع والضرر إلى البعض للمبالغة في المقصود، كأن نفع الملائكة لعبدتهم في الاستحالة كنفع العبد لهم^(١) ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي ونقول للظالمين الذين عبدوا غير الله ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي ذوقوا عذاب جهنم التي كذبتُم بها في الدنيا فما قد وردتموها، ثم بين تعالى لونا آخر من كفرهم وضلالهم فقال: ﴿وَإِذَا نَتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي وإذا تليت على هؤلاء المشركين آيات القرآن واضحات المعاني، بينات الإعجاز، وسمعوها غضة طرية من لسان رسولنا محمد ﷺ ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾ أي ما هذا الذي يزعم الرسالة إلا رجلٌ مثلكم يريد أن يمنعكم عما كان يعبد أسلافكم من الأوثان والأصنام ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ أي ما هذا القرآن إلا كذبٌ مختلق على الله ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي وقال أولئك الكفرة المتمردون بجراءتهم على الله ومكابرتهم للحق النير: ما هذا القرآن إلا سحرٌ واضح ظاهر لا يخفى على لبيب، وقال الزمخشري: وفيه تعجبٌ من أمرهم بليغ، حيث بتوا القضاء على أنه سحر^(٢)، ثم بتوه على أنه بين ظاهر، كل عاقل تأمله سمّاه سحراً وفي قوله: ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ المبادهة^(٣) بالكفر من غير تأمل^(٤)، ثم بين تعالى أنهم لم يقولوا ذلك عن بينة، ولم يكذبوا محمداً عن يقين، بل عن ظنٍّ وتخمين فقال: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أي وما أنزلنا على أهل مكة كتاباً قبل القرآن يقرؤون فيه ويتدارسونه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ أي وما بعثنا إليهم قبلك يا محمد رسولا ينذرهم عذاب الله، فمن أين كذبوك؟ قال الطبري: أي ما أنزل الله على العرب كتاباً قبل القرآن، ولا بعث إليهم نبياً قبل محمد ﷺ ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي وكذب قبلهم أقوام من الأمم السابقين وما بلغ كفار مكة عشر ما آتينا الأمم التي كانت قبلهم من القوة والمال وطول العمر، قال ابن عباس: ﴿مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي من القوة في الدنيا^(٥) ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي وحيث كذبوا رسلي جاءهم إنكاري بالتدمير والاستئصال، ولم يُغن عنهم ما كانوا فيه من القوة، فكيف

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٣٤.

(٢) (ش): أي إنهم بلا تردد حكموا على القرآن بأنه سحرٌ.

(٣) (ش): باده الشخص بالأمر: فاجأه به.

(٤) «الكشاف» ٣/ ٤٦٤.

(٥) «تفسير الطبري» ٢٢/ ١٠، وهذه رواية قتادة.

(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١٣٥.

حال هؤلاء إذا جاءهم العذاب والهلاك؟ وفيه تهديد لقريش ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَحْدَةٍ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين إنما أنصحكم وأوصيكم بخصلة واحدة ثم فسرهما بقوله: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَلٍ﴾ أي هي أن تتحرروا الحق لوجه الله والتقرب له مجتمعين ووحداً، أو اثنين اثنين وواحدًا وواحدًا، قال القرطبي: وهذا القيام إلى طلب الحق، لا القيام الذي هو ضد القعود^(١) ﴿ثُمَّ تَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ أي ثم تفكروا في أمر محمد لتعلموا أن من ظهر على يديه هذا الكتاب المعجز لا يمكن أن يكون به مس من الجنون أو يكون مجنوناً، قال أبو حيان: ومعنى الآية: إنما أعظكم بواحدة فيها إصابتكم الحق وهي أن تقوموا لوجه الله متفرقين اثنين اثنين، وواحدًا واحدًا، ثم تفكروا في أمر محمد وما جاء به، وإنما قال ﴿مِثْلَ خِيَلٍ﴾ لأن الجماعة يكون من اجتماعهم تشويش خاطر والمنع من التفكير، كما يكون في الدروس التي يجتمع بها الجماعة، وأما الاثنان إذا نظرا نظراً إنصاف وعرض كل واحد منهما على صاحبه ما ظهر له فلا يكاد الحق أن يعدو هما، وإذا كان الواحد جيد الفكر عرف الحق، فإذا تفكروا عرفوا أن نسبته عليه السلام للجنون لا يمكن^(٢)، ولا يذهب إلى ذلك عاقل^(٣) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي ما هو إلا رسول منذر لكم إن كفرتم من عذاب شديد في الآخرة ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ أي لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً، قال الطبري: المعنى إني لم أسألكم على ذلك جُعلاً^(٤) فتتهموني وتظنون أنني إنما دعوتكم إلى اتباعي لمال أخذه منكم^(٥) ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي ما أجري وثوابي إلا على الله رب العالمين ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي هو تعالى رقيب وحاضر على أعمالي وأعمالكم، لا يخفى عليه شيء وسيجازي الجميع، قال «أبو السعود»: أي هو مطلع يعلم صدقي وخلوص نيتي^(٦) ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي يبين الحجة ويظهرها، قال ابن عباس: يقذف الباطل بالحق كقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]^(٧) ﴿عَلَّمَ الْغُيُوبِ﴾ أي هو تعالى الذي أحاط علماً بجميع الغيوب التي غابت وخفيت عن الخلق ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ أي

(١) «تفسير القرطبي» ١٤ / ٣١١.

(٢) (ش): أي لا يمكن أن يُنسب النبي عليه السلام للجنون ويُوصف به.

(٣) «البحر المحيط» ٧ / ٢٠١، بشيء من الاختصار.

(٤) (ش): الجُعْلُ: مَا جُعِلَ عَلَى الْعَمَلِ مِنْ أَجْرٍ.

(٥) «تفسير الطبري» ٢٢ / ٧١.

(٦) «أبو السعود» ٤ / ٢٣٥.

(٧) «الكشاف» ٣ / ٤٦٧.

جاء نور الحق وسطع ضאוؤه وهو الإسلام ﴿وَمَا يَذِّقُ الْبَاطِلُ وَمَا يَعِيدُ﴾ أي ذهب الباطل بالمرّة فليس له بدءٌ ولا عودٌ، قال الزمخشري: إذا هلك الإنسان لم يبقَ له إبداءٌ ولا إعادة، فجعلوا قولهم: لا يبدئ ولا يعيد مثلاً في الهلاك والمعنى: جاء الحق وهلك الباطل كقوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١] ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن حصل لي ضلالٌ كما زعمتم فإن إثم ضلالي على نفسي لا يضر غيري ﴿وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رِيتُ﴾ أي وإن اهتديت إلى الحق فبهديته الله وتوفيقه ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ أي سميعٌ لمن دعاه، قريب الإجابة لمن رجاه، قال «أبو السعود»: يعلم قول كل من المهتدي والضال وفعله وإن بالغ في إخفائهما^(١) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ ذُفِرْعَوُ﴾ أي ولو ترى يا محمد حال المشركين عند فزعهم إذا خرجوا من قبورهم ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ أي فلا مخلص لهم ولا مهرب ﴿وَأُخْذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي أخذوا من الموقف أرض المحشر إلى النار، وجواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوف تقديره: لرأيت أمراً عظيماً وخطباً جسيماً ترتعد له الفرائص ﴿وَقَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ﴾ أي قالوا عندما عاينوا العذاب: أمنا بالقرآن وبالرسول ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي ومن أين لهم تناول الإيمان وهم الآن في الآخرة ومحل الإيمان في الدنيا، وقد ذهبت الدنيا فصارت منهم بمكان بعيد؟ قال أبو حيان: مثل حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من بُعدٍ كما يتناوله الآخر من قرب^(٢) ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي والحال أنهم قد كفروا بالقرآن وبالرسول من قبل ذلك في الدنيا، فكيف يحصل لهم الإيمان بهما في الآخرة ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي يرمون بظنونهم في الأمور المغيبة فيقولون: لا بعث ولا حساب، ولا جنة ولا نار، قال القرطبي: والعرب تقول لكل من تكلم بما لا يعرف هو يقذف ويرجم بالغيب، وعلى جهة التمثيل لمن يرمي ولا يصيب^(٣) ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي وحيل بينهم وبين الإيمان ودخول الجنان ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي كما فعل بأشباحهم في الكفر من الأمم السابقة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ أي كانوا في الدنيا في شك وارتياب من أمر الحساب والعذاب وقوله: ﴿مُرِيبٍ﴾ من باب التأكيد كقولهم: عجبٌ عجيب.

(١) «أبو السعود» ٢٣٥/٤.

(٢) «البحر المحيط» ٢٩٣/٧.

(٣) المصدر السابق.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿يَبْسُطُ .. وَيَقْدِرُ﴾ وبين ﴿نَفَعًا .. ضَرًّا﴾ وبين ﴿مَثْنَى .. وَفُرْدَى﴾.

٢ - المقابلة بين عاقبة الأبرار والفجار ﴿إِلَّا مَنْ ءَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ و﴿الَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيْءِ آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾.

٣ - الالتفات من الغائب إلى المخاطب ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ والغرض المبالغة في تحقيق الحق.

٤ - أسلوب التقرير والتوبيخ ﴿أَهَؤُلَاءِ إِنَّا كُنَّا نُوَعِّدُونَ﴾ ؟ الخطاب للملائكة تقريراً للمشركين.

٥ - وضع الظاهر موضع الضمير لتسجيل جريمة الكفر عليهم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ والأصل (وقالوا).

٦ - الإيجاز بالحذف لدلالة السياق عليه ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾ حذف خبر الأول لدلالة الثاني عليه، أي: ما أموالكم بالتي تقربكم ولا أولادكم بالذين يقربونكم عندنا.

٧ - الاستعارة ﴿بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ استعار لفظ اليدين لما يكون من الأحوال والشدائد أمام الإنسان.

٨ - الكناية اللطيفة ﴿وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ كناية عن زهوق الباطل ومحو أثره.

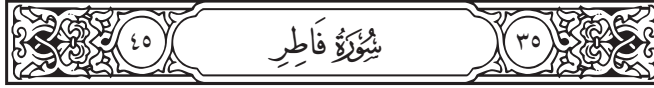
٩ - الاستعارة التصريحية ﴿وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ شبه الذي يقول بغير علم، ويظن ولا يتحقق، بالإنسان يرمي غرضاً وبينه وبينه مسافة بعيدة فلا يكون سهمه صائباً، واستعار لفظ القذف للقول.

١٠ - توافق الفواصل لما له من جميل الوقع على السمع مثل ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ

كُفِّرُونَ﴾، ﴿أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة سبأ»





مكية وآياتها خمس وأربعون

بين يدي السورة

* سورة فاطر مكية نزلت قبل هجرة رسول الله ﷺ، فهي تسير في الغرض العام الذي نزلت من أجله الآيات المكية، والتي يرجع أغلبها إلى المقصد الأول من رسالة كل رسول، وهو قضايا العقيدة الكبرى «الدعوة إلى توحيد الله، وإقامة البراهين على وجوده، وهدم قواعد الشرك، والحث على تطهير القلوب من الرذائل، والتحلي بمكارم الأخلاق».

* تحدثت السورة الكريمة في البدء عن الخالق المبدع، الذي فطر الأكوان، وخلق الملائكة والإنس والجان، وإقامة الأدلة والبراهين، على البعث والنشور، في صفحات هذا الكون المنظور، بالأرض تحيا بعد موتها، بنزول الغيث، وبخروج الزروع والفواكه والثمار، وبتعاقب الليل والنهار، وفي خلق الإنسان في أطوار، وفي إيلاج الليل في النهار، وغير ذلك من دلائل القدرة والوحدانية.

* وتحدثت عن الفارق الكبير بين المؤمن والكافر، وضربت لهما الأمثال بالأعمى والبصير، والظلمات والنور، والظل والحرور.

* ثم تحدثت عن دلائل القدرة في اختلاف أنواع الثمار، وفي سائر المخلوقات من البشر والدواب والأنعام، وفي اختلاف أشكال الجبال والأحجار، وتنوعها ما بين أبيض وأسود وأحمر، وكلها ناطقة بعظمة الواحد القهار.

* وتحدثت بعد ذلك عن ميراث هذه الأمة المحمدية للأشرف الرسالات السماوية، بإنزال هذا الكتاب المجيد الجامع لفضائل كتاب الله، ثم انقسام الأمة إلى ثلاث أنواع: «المقصر، والمحسن، والسابق بالخيرات».

* وختمت السورة بتقريع المشركين في عبادتهم للأوثان والاصنام والأحجار.

التسمية: سميت «سورة فاطر» لذكر هذا الاسم الجليل، والنعت الجميل في طليعتها، لما في هذا الوصف من الدلالة على الإبداع والاختراع والإيجاد لا على مثال سابق، ولما فيه من التصوير الدقيق المشير إلى عظمة ذي الجلال، وباهر قدرتهن وعجيب صنعه، فهو الذي خلق الملائكة وابدع تكوينهم بهذا الخلق العجيب.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَّتَنًى وَتِلْكَ وَرُبُّكَ يَزِيدُ فِي

الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَ تُوَفَّكُونَ ﴿٣﴾ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَعْرَتُكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَنْ زُينَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ بِالْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾ مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْورُ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبٌ فَرَاتٌ سَابِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبْلَهُ تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَاقِرٌ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكَكُمْ وَلَا يَنْبُتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ

اللغة: ﴿فَاطِرٌ﴾ الفاطر: الخالق، وأصل الفطر الشَّقُّ يقال: فطره فانفطر أي انشق، ومنه ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ [المزمل: ١٨] وفطر الله الخلق: خلقهم وبرأهم. ﴿تُوَفَّكُونَ﴾ تُصَرَّفُونَ من الإفك بمعنى الكذب سُمِّيَ إفكًا لأنه مصروف عن الحق والصواب. ﴿حَسْرَتٌ﴾ جمع حسرة وهي الغم الذي يلحق النفس على فوات الأمر، وفي المختار: الحسرة أشدُّ التلطف على الشيء الفاقد^(١). ﴿النُّشُورُ﴾ مصدر نَشَرَ المِيتَ إِذَا حَيَّى، قال الأعشى:

حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ مِمَّا رَأَوْا
يَا عَجَبًا لِلْمَيِّتِ النَّاشِرِ

﴿يُبْورُ﴾ يهلك يقال: بار يبور أي هلك وبطل، والبور: الهلاك. ﴿فَرَاتٌ﴾ حلو شديد الحلاوة. ﴿أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة قال في القاموس: أجاج الماء أجوجًا إذا اشتدت ملوحته^(٢). ﴿قِطْمِيرٍ﴾ القطمير: القشرة الرقيقة البيضاء التي بين التمرة والنواة.

(١) «مختار الصحاح» مادة جسر.

(٢) «القاموس المحيط» مادة أجاج.

التفسير: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي الثناء الكامل، والذكر الحسن، مع التعظيم والتبجيل لله جلّ وعلا، خالق السموات والأرض ومنشئها ومخترعها من غير مثل سبق، قال «البيضاوي»: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي مبدعهما وموجدهما على غير مثال^(١) ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِئِكَةِ رُسُلًا﴾ أي جاعل الملائكة وسائط بين الله وأنبيائه لتبليغهم أوامر الله، قال «ابن الجوزي»: يرسلهم إلى الأنبياء وإلى ما شاء من الأمور^(٢) ﴿أُولِي الْأَجْنَحَةِ مَتْنًى وَتِلْكَ وَرُبْعٌ﴾ أي: أصحاب أجنحة، قال قتادة: بعضهم له جناحان وبعضهم له ثلاثة، وبعضهم له أربعة، ينزلون بها من السماء إلى الأرض، ويعرجون بها إلى السماء^(٣) ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ أي يزيد في خلق الملائكة كيف يشاء، من ضخامة الأجسام، وتفاوت الأشكال، وتعدد الأجنحة، وقد رأى رسول الله ﷺ جبريل ليلة الإسراء وله ستمائة جناح، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب^(٤) وقال قتادة: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ الملائحة^(٥) في العينين، والحسن في الأنف، والحلاوة في الفم^(٦) ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي هو تعالى قادر على ما يريد، له الأمر والقوة والسلطان، لا يمتنع عليه فعل شيء أراد، ولا يتأبى عليه خلق شيء أراد، وصف تعالى نفسه في هذه الآيات بصفتين جليلتين تحمل كل منهما صفة القدرة وكمال الإنعام الأولى: أنه فاطر السموات الأرض أي خالقهما ومبدعهما من غير مثال يحتذيه، ولا قانون ينتحيه، وفي ذلك دلالة على كمال قدرته، وشمول نعمته، فهو الذي رفع السماء بغير عمد، وجعلها مستوية من غير أود^(٧)، وزينها

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٩٨/٣.

(٢) «زاد المسير» ٤٧٣/٦.

(٣) «تفسير القرطبي» ٣١٩/١٤.

(٤) الحديث أخرجه مسلم عن ابن مسعود قال: «رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته له ستمائة جناح».

(ش): في أكثر من طبعة: «عن ابن مسعود قال الزمخشري: «رأى رسول الله»، وهو خطأ طباعي ظاهر. وكلام ابن مسعود رواه البخاري ومسلم، وليس فيهما: بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب. وهذه الزيادة ذكرها الحافظ ابن كثير في تفسير الآية ولكن بدون إسناد. وروى أبو الشيخ الأصبهاني في كتاب «العظمة» بإسناد ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «إِنَّ جِبْرِيلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَقَائِمٌ بَيْنَ يَدَيِ الْجَبَّارِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، تَرَعْدُ فَرَاتُصُهُ فَرَقًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى، يَقُولُ: سُبْحَانَكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، مَا عَبْدُكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، إِنَّ مَا بَيْنَ مَنْكِبَيْهِ كَمَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ».

(٥) (ش): الملائحة: حُسْنُ الْمَنْظَرِ.

(٦) «تفسير القرطبي» ٣٢٠/١٤، والآية عامة تتناول كل زيادة في الخلق من طول قامته، واعتدال صورة، وحصافة في العقل، وذلاقة في اللسان، وما أشبه ذلك مما لا يحيط به وصف. (ش): الحصافة في العقل: استحكامه وجودة الرأي. الذلاقة في اللسان: الفصاحة والبلاغة.

(٧) (ش): أود: أعرج، عاج، ميل، انحناء.

بالكواكب والنجوم، وهو الذي بسط الأرض، وأودعها الأرزاق والأقوات، وبثَّ فيها البحار والأنهار، وفجَّر فيها العيون والآبار، إلى غير ما هنالك من آثار قدرته العظيمة، وآثار صنعته البديعة، وعبرَ عن ذلك كله بقوله: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، والثانية: اختيار الملائكة ليكونوا رسلاً بينه وبين أنبيائه، وقد أشار إلى طرفٍ من عظمتهم وكمال قدرته جل وعلا بأن خلق الملائكة بأشكال عجيبة، وصور غريبة، وأجنحة عديدة، فمنهم من له جناحان ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له ستمائة جناح، ما بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب، كما هو وصف جبريل عليه السلام، ومنهم من لا يعلم حقيقة خلقته وضخامة صورته إلا الله جل وعلا، فقد روى الزهري أن جبريل قال للنبي ﷺ: «يا محمد كيف رأيت إسرائيل إنَّ له لاثنين عشر ألف جناح، منها جناح بالمشرق وجناح بالمغرب، وإنَّ العرش لعلَّى كاهله»^(١) ولو كشف لنا الحجاب لرأينا العجب العجائب، فسبحان الله ما أعظم خلقه، وما أبدع صنعه! ثم بين تعالى نفاذ مشيئته، ونفوذ أمره في هذا العالم الذي فطره ومن فيه، وأخضعه لإرادته وتصرفه فقال: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ أي أيُّ شيء يمنحه الله لعباده ويتفضل به عليهم من خزائن رحمته، من نعمة، وصحة، وأمن، وعلم وحكمة، ورزق، وإرسال رسل لهداية الخلق، وغير ذلك من صنوف نعمائه التي لا يحيط بها عدٌّ، فلا يقدر أحدٌ على إمساكه وحرمان خلق الله منه، فهو الملك الوهاب الذي لا مانع لما أعطى، ولا مُعطي لما منع ﴿وَمَا يُمَسِّكُ فَلَا مُمْسِكَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي وأيُّ شيء يمسكه ويحبسه عن خلقه من خيري الدنيا والآخرة، فلا أحد يقدر على منحه للعباد بعد أن أمسكه جل وعلا ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي هو تعالى الغالب على كل شيء، الحكيم في صنعه، الذي يفعل ما يريد على مقتضى الحكمة والمصلحة، قال المفسرون: والفتح والإمساك عبارة عن العطاء والمنع، فهو الذي يضر وينفع، ويعطي ويمنع، وفي الحديث: «أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُنَّا لَكَ عَبْدًا: اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطَى لِمَا مَنَعْتَ وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ»^(٢) ثم ذكَّروهم تعالى بنعمه الجليلة عليهم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي اشكروا ربكم على نعمه التي

(١) «الكشاف» ٣/ ٤٧٠. (ش): رَوَاهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي «كِتَابِ الزُّهْدِ» وَالتَّغْلِيْبِي فِي «تَفْسِيرِهِ» بِإِسْنَادٍ ضَعِيفٍ. وَالكَاهِلُ، مَا بَيْنَ الظَّهْرِ وَالْعُنُقِ.

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه. (ش): (أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُنَّا لَكَ عَبْدًا: اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ): أي أَحَقُّ قَوْلِ الْعَبْدِ أَنْ يَقُولَ: لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطَى لِمَا مَنَعْتَ... إِلَى آخِرِهِ، وَاعْتَرَضَ بَيْنَهُمَا: وَكُنَّا لَكَ عَبْدًا. (وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ): الْجَدُّ: الْحَظُّ وَالسَّعَادَةُ وَالْغِنَى. وَمَعْنَاهُ لَا يَنْفَعُ ذَا الْغِنَى وَالْحَظُّ مِنْكَ غِنَاهُ.

لا تُعَدُّ ولا تُحْصى التي أنعم بها عليكم، قال الزمخشري: ليس المراد بذكر النعمة ذكرها باللسان فقط، ولكن المراد حفظها من الكفران، وشكرها بمعرفة حقها، والاعتراف بها، وإطاعة موليها^(١)، ومنه قول الرجل لمن أنعم عليه: اذكر أيادي عندك^(٢) ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ﴾ استفهام إنكاري بمعنى النفي، أي: لا خالق غيره تعالى، لا ما تعبدون من الأصنام ﴿يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي حال كونه تعالى هو المنعم على العباد بالرزق والعطاء، فهو الذي ينزل المطر من السماء، ويخرج النبات من الأرض، فكيف تشركون معه ما لا يخلق ولا يرزق من الأوثان والأصنام؟ ولهذا قال تعالى بعده: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا رب ولا معبود إلا الله الواحد الأحد^(٣) ﴿فَأَنزَلْنَا نُوفُكُوتَ﴾ أي فكيف تُصرفون بعد هذا البيان، ووضوح البرهان، إلى عبادة الأوثان؟ والغرض: تذكير الناس بنعم الله، وإقامة الحجة على المشركين، قال ابن كثير: نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى الاستدلال على توحيده، بوجوب إفراد العبادة له، فكما أنه المستقل بالخلق والرزق، فكذلك يجب أن يُفرد بالعبادة، ولا يُشرك به غيره من الأصنام والأوثان^(٤) ﴿وإن يكذبوك فقد كذبت رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ﴾ تسليية للنبي ﷺ على تكذيب قومه له: والمعنى: وإن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون فلا تحزن لتكذيبهم، فهذه سنة الله في الأنبياء من قبلك، فقد كذبوا وأودوا حتى أتاهم نصرنا، فلك بهم أسوة، ولا بد أن ينصرك الله عليهم ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ أي إلى الله تعالى وحده مرجع أمرك وأمرهم، وسيجزي كلاً بعمله، وفيه وعيد وتهديد للمكذبين. ثم ذكرهم تعالى بذلك الموعد المحقق فقال: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ أي إن وعده لكم بالبعث والجزاء حق ثابت لا محالة لا خلف فيه ﴿فَلَا تَعْرَتُكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي فلا تلهيكم الحياة الدنيا بزخرفها ونعيمها عن الحياة الآخرة، قال ابن كثير: أي لا تتلهوا عن تلك الحياة الباقية، بهذه الزهرة الفانية^(٥) ﴿وَلَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ أي ولا يخدعنكم الشيطان المبالغ في الغرور فيطمعكم في عفو الله وكرمه، ويُمْنِيكم بالمغفرة مع الإصرار على المعاصي. ثم بين تعالى عداوة الشيطان للإنسان فقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي إن الشيطان لكم أيها الناس عدو لدود، وعداوته قديمة لا تكاد تزول فعادوه كما عاداكم ولا تطيعوه، وكونوا على حذر منه، قال بعض العارفين: يا عجباً لمن عصي

(١) (ش): الإطاعة: إتيان الطاعة واستعمالها. مولي النعم: مانحها ومُعْطِيها.

(٢) «الكشاف» ٤٧١/٣.

(٣) (ش): الصواب أن يقال: «لا معبود بحق إلا الله»؛ لأن هناك معبودات كثيرة بالباطل لا تستحق العبادة.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ١٣٩/٣.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ١٣٩/٣.

المُحْسِن بعد معرفته بإحسانه، وأطاع اللعين بعد معرفته بعداوته ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي إنما غرضه أن يقذف بأتباعه في نار جهنم المستعرة^(١) التي تشوي الوجوه والجلود، لا غرض له إلا هذا، فهل يليق بالعاقل أن يستجيب لنداء الشيطان اللعين؟ قال الطبري: أي إنما يدعو شيعته ليكونوا من المخلدين في نار جهنم التي تتوقد على أهلها^(٢) ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي الذين جحدوا بالله ورسله لهم عذاب دائم شديد لا يُقَادَرُ قَدْرُهُ^(٣)، ولا يُوصَفُ هَوْلُهُ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي لهم عند ربهم مغفرةٌ لذنوبهم، وأجر كبير وهو الجنة، وإنما قرن الإيمان بالعمل الصالح ليشير إلى أنهما لا يفترقان، فالإيمان تصديق، وقول، وعمل ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ الاستفهام للإنكار وجوابه محذوف والتقدير: أفمن زَيَّنَ له الشيطان عمله السيئ حتى رآه حسناً^(٤) واستحسن ما هو عليه من الكفر والضلال، كمن استقبحه واجتنبه واختار طريق الإيمان؟ ودلَّ على هذا الحذف قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي الكل بمشيئة الله، فهو تعالى الذي يصرف من يشاء عن طريق الهدى، ويهدي من يشاء بتوفيقه للعمل الصالح والإيمان ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ أي فلا تَغْتَمَّ يا محمد ولا تُهْلِكَ نفسك حسرةً على تركهم الإيمان ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمْ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ أي هو جل وعلا العالم بما يصنع هؤلاء من القبائح ومجازيهم عليها، وفيه وعيد لهم بالعقاب على سوء صنيعهم ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ﴾ أي والله تعالى بقدرته هو الذي أرسل الرياح مبشرة بنزول المطر ﴿فَتَثِيرُ سَحَابًا﴾ أي فحركت السحاب وأهاجته، والتعبير بالمضارع عن الماضي ﴿فَتَثِيرُ﴾ لاستحضار تلك الصورة البديعة، الدالة على كمال القدرة والحكمة^(٥) ﴿فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ أي فسقنا السحاب الذي يحمل الغيث إلى بلدٍ مجذب قاحل ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ بِالْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فيه حذف تقديره: فأنزلنا به الماء فأحيينا به الأرض بعد جدها وبيسها ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ أي كما أحيانا الله الأرض الميتة بالماء، كذلك يحيي الموتى من قبورهم، روى الإمام أحمد عن أبي رَزِينِ الْعُقَيْلِيِّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى؟ وَمَا آيَةُ ذَلِكَ فِي خَلْقِهِ؟ قَالَ: «أَمَّا مَرَرْتُ بِوَادِي أَهْلِكَ مُمَجَّلًا؟» قَالَ: بَلَى، قَالَ: «أَمَّا مَرَرْتُ بِهِ يَهْتَزُّ خَضِرًا؟» قَالَ:

(١) (ش): استعرت النَّارَ: التَّهَبَتْ، وتوقَّدت.

(٢) (تفسير الطبري) ٧٨/٢٢.

(٣) (ش): لا يُقَادَرُ قَدْرُهُ: لا يمكن وصفه أو تحديد هيئته وكيفيته.

(٤) انظر «الكشاف» ٤٧٤/٣.

(٥) «أبو السعود» ٢٣٩/٤.

قُلْتُ: بَلَى قَالَ: «ثُمَّ مَرَرْتُ بِهِ مُمَجَّلًا؟» قَالَ: بَلَى قَالَ: «فَكَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَذَلِكَ آيَتُهُ فِي خَلْقِهِ»^(١) قال ابن كثير: كثيراً ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها، فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها، فإذا أرسل الله إليها السحاب تحمل الماء وأنزل به عليها ﴿أَهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥] كذلك الأجساد إذا أراد الله بعثها ونشورها^(٢)، ثُمَّ نَبَّه تعالى عباده إلى السبيل الذي تنال به العزة فقال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي من كان يطلب العزة الكاملة، والسعادة الشاملة، فليطلبها من الله تعالى وحده، فإن العزة كلها لله جلّ وعلا قال بعض العارفين: من أراد عزّ الدارين فليطع العزيز^(٣) ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ أي إليه جلا وعلا يرتفع كل كلام طيب من ذكر، ودعاء، وتلاوة قرآن، وتسبيح وتمجيد ونحوه، قال الطبري: إلى الله يصعد ذكرُ العبد إِيَّاهُ وثنائُه عليه ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ أي والعمل الصالح يتقبله الله تعالى ويُثَبِّتُ صاحبه عليه، قال قتادة: لا يقبل الله قولاً إلا بعمل، من قال وأحسن العمل قبل الله منه، نقله الطبري ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ هذا بيان للكلم الخبيث، بعد بيان حال الكلام الطيب أي والذين يحتالون بالمكر والخديعة لإطفاء نور الله، والكيد للإسلام والمسلمين، لهم في الآخرة عذاب شديد في نار جهنم ﴿وَمَكْرُؤٌ لَوَّكٍ هُوَ يُبَوِّرُ﴾ أي ومكر أولئك المجرمين هالك وباطل، لأنه ما أسرَّ أحدُ سوءاً ودبره إلا أبداه الله وأظهره^(٤)

(١) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه. (ش): وحسنه الألباني.

محل المكان: أجذب ولم يُثَبِّت. مُمَجَّل: مُجْدِب: أي أصابه المَحْلُ، وهو القحط والشدة.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ١٤٠ / ٣.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٤ / ٣٢٩.

(٤) (ش): قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَفْضَحُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ: ثَلَاثٌ مِنْ فَعَلْنَهُ لَمْ يَنْجُ حَتَّىٰ يَنْزَلَ بِهِ مِنْ مَكْرٍ أَوْ بَغْيٍ أَوْ نَكْتٍ، وَتَصْدِيقُهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾. ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ [يُونُس: ٢٣]، ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ [الفتح: ١٠]. [تفسير ابن كثير (٥٥٩ / ٦)]. أما ذنوب المؤمن فقد يسترها الله عليه في الدنيا والآخرة، فَعَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ قَالَ قَالَ: رَجُلٌ لِابْنِ عَمَرَ كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي النَّجْوَى؟ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، وَيَسْتَرْهُ فَيَقُولُ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ. حَتَّىٰ إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَىٰ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. فَيُعْطَىٰ كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ، أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» (رواه البخاري ومسلم). النَّجْوَى هِيَ مَا تَكَلَّمَ بِهِ الْمَرْءُ يُسْمِعُ نَفْسَهُ وَلَا يُسْمِعُ غَيْرَهُ أَوْ يُسْمِعُ غَيْرَهُ سِرًّا دُونَ مَنْ يَلِيهِ، وَالْمُرَادُ بِهَا هُنَا الْمُنَاجَاةُ الَّتِي تَقَعُ مِنَ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ. (إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ) الحديث على ظاهره، وهو أَنَّ الْمُؤْمِنَ يُدْنَى وَيُقَرَّبُ مِنْ خَالِقِهِ، وَهَذَا مَعْلُومٌ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ، أَمَّا الْكَيْفِيَّةُ فَلَمْ يُطْلَعْنَا اللَّهُ عَلَيْهَا وَهُوَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِهَا. (كَنَفُهُ) جَاءَ الْكَنَفُ مَفْسُورًا فِي الْحَدِيثِ بِأَنَّهُ السِّرُّ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ تَعَالَى يَسْتَرُ عَبْدَهُ عَنْ رُؤْيَا =

﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣] قال المفسرون: والإشارة هنا إلى مكر قریش برسول الله ﷺ حين اجتمعوا في دار الندوة وأرادوا أن يقتلوه، أو يحبسوه، أو يخرجوه كما حكى القرآن الكريم ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] ^(١) ثم ذكَّره تعالى بدلائل التوحيد والبعث، بعد أن ذكَّره بآيات قدرته وعزته فقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ أي خلق أصلكم وهو آدم من تراب ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أي ثم خلق ذريته من ماء مهين وهو المنى الذي يُصبُّ في الرحم ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي خلقكم ذكورا وإناثا، وزوَّد بعضهم من بعض ليطم البقاء في الدنيا إلى انقضاءها ^(٢) قال الطبري: أي زوج منهم الأنثى من الذكر ^(٣) ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي وما تحمل أنثى في بطنها من جنين، ولا تلد إلا بعلمه تعالى، يعلم أذكر هو أو أنثى، ويعلم أطوار هذا الجنين في بطن أمه، لا يخفى عليه شيء من أحواله ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أي وما يطول عُمر أحد من الخلق فيصبح هرما، ولا يُنقص من عُمر أحد فيموت وهو صغير أو شاب إلا وهو مسجَّل في اللوح المحفوظ، لا يُزاد فيما كتب الله ولا يُنقص ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي سهل هين، لأن الله قد أحاط بكل شيء علما، ثم ضرب تعالى مثلاً للمؤمن والكافر فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ أي وما يستوي ماء البحر وماء النهر ^(٤) ﴿هَذَا عَذَبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾ أي هذا ماء حلو شديد الحلاوة يكسر وهج العطش، ويسهل انحداره في الحلق لعذوبته ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي وهذا ماء شديد الملوحة، يُحرق حلق الشارب لمرارته وشدة ملوحته، فكما لا يتساوى البحران: العذب، والملح، فكذلك لا يتساوى المؤمن مع الكافر، ولا البرُّ مع الفاجر، قال «أبو السعود»: هذا مثلٌ ضرب للمؤمن والكافر، والفراث الذي يكسر العطش، والسائغ الذي يسهل انحداره لعذوبته، والأجاج الذي يُحرق بملوحته ^(٥) ﴿وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ أي ومن كل واحدٍ منهما تأكلون سمكا غضا طريا، مختلف الأنواع والطعوم والأشكال ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا﴾ أي وتستخرجون منهما اللؤلؤ والمرجان للزينة والتحلي

= الخلق له؛ لئلا يفتضح أمامهم فيخزي؛ لأنه حين السؤال والتقرير بذنوبه تتغير حاله، ويظهر على وجهه الخوف الشديد، ويتبين فيه الكرب والشدة.

(١) انظر «الكشاف» ٣/ ٤٧٣.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٣٣٢.

(٣) «تفسير الطبري» ٢٢/ ٨١.

(٤) سمي النهر بحرا من باب التغليب.

(٥) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٤١.

﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ﴾ أي وترى أيها المخاطب السفن العظيمة، تمخرُ عباب البحر مقبلة ومدبرة، تحمل على ظهرها الأثقال والبضائع والرجال، وهي لا تغرق فيه لأنها بتسخير الله جل وعلا^(١) ﴿لَتَبْنَعُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي لتطلبوا بركوبكم هذه السفن العظيمة من فضل الله بأنواع التجارات، والسفر إلى البلدان البعيدة في مدة قريبة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولكي تشكروا ربكم على إنعامه وإفضاله في تسخيره ذلك لكم، ثم انتقل إلى آية أخرى من آيات قدرته وسلطانه في الآفاق فقال: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي يدخل الليل في النهار، ويدخل النهار في الليل، فيضيف من هذا إلى هذا وبالعكس، فيتفاوت بذلك طول الليل والنهار بالزيادة والنقصان، حسب الفصول والأمصار، حتى يصل النهار صيفاً في بعض البلدان إلى ست عشرة ساعة، وينقص الليل حتى يصل إلى ثمان ساعات، آية من آيات الله تُشاهد لا يستطيع إنكارها جاحد أو مؤمن، ويحس بأثارها الأعمى والبصير.

آية شاهدة على قدرة الله، ودقة تصرفه في خلقه، وهذه الظاهرة الكونية دستور لا يتغير، ونظام محكم لا يأتي بطريق الصدفة، وإنما هو من صنع الله الذي أتقن كل شيء خلقه، فسبحان المدبر الحكيم العليم! ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ذلّلها لمصالح العباد، كل منهما يسير ويدور في مداره الذي قدره الله له لا يتعداه، إلى أجل معلوم هو يوم القيامة^(٢) ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ أي ذلكم الفاعل لهذه الأمور البديعة، هو ربكم العظيم الشأن، الذي له الملك والسلطان والتصرف الكامل في الخلق ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ أي والذين تعبدون من دون الله من الأوثان والأصنام لا يملكون شيئاً ولو بمقدار القطمير، وهو القشرة الرقيقة التي بين التمرة والنواة، قال المفسرون: وهو مثل يضرب في القلة والحقارة، والأصنام لضعفها، وهوان شأنها وعجزها عن أي تصرف صارت مضرب المثل في حقارتها بأنها لا تملك فتيلاً ولا قطميراً^(٣)، ثم أكد تعالى ذلك بقوله: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ أي

(١) راجع نظرية طفو الأجسام والإعجاز العلمي للقرآن الكريم.

(٢) كان المظنون أن الشمس ثابتة في موضعها ولكن أثبت العلم الحديث أنها تجري في اتجاه واحد في القضاء الكوني الهائل بسرعة حسبيها الفلكيون باثني عشر ميلاً في الثانية، والله الخبير العليم يخبر بسيرها وجرياتها: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾، وحين تنصور أن حجم هذه الشمس يبلغ نحو مليون ضعف حجم أرضنا هذه، وأن هذه الكتلة الهائلة تتحرك وتجري في الفضاء لا يسندها شيء إلا هو، ندرك طرفاً من صفة القدرة التي تصرف هذا الوجود عن قوة وعن علم. «تفسير الجوهري».

(٣) (ش): القطمير: القشرة الرقيقة على النواة كاللغافة لها، القشرة الرقيقة بين النواة والتمر. والنقيير: حفرة مستديرة في ظهر نواة البلح. والفيتل: خيط في شق النواة أو قشرة في بطنها.

إن دعوتهم هذه الأصنام لم يسمعوا دعاءكم ولم يستجيبوا لندائكم، لأنها جمادات لا تسمع ولا تفهم ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ أي ولو سمعوا لدعائكم على الفرض والتسليم ما استجابوا لكم لأنها ليست ناطقة فتجيب ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ﴾ أي وفي الآخرة حين يُنطقهم الله يتبرءون منكم ومن عبادتكم إياهم ﴿وَلَا يَنْبُتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي ولا يخبرك يا محمد على وجه اليقين أحدٌ إلا أنا الله الخالق العليم الخبير، قال قتادة: يعني نفسه عزَّ وجلَّ.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان نوجزها فيما يلي:

١ - الاستعارة التمثيلية ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ شبه فيه إرسال النعم بفتح الخزائن للإعطاء وكذلك حبس النعم بالإمساك، واستعير الفتح للإطلاق والإمساك للمنع.

٢ - الطباق بين ﴿يَفْتَحُ .. يُمْسِكُ﴾ وكذلك بين ﴿يُضِلُّ .. وَيَهْدِي﴾ وبين ﴿تَحْمِلُ .. وَتَضَعُ﴾ وبين ﴿يُعَمِّرُ .. يُنْقِصُ مِنْ عُمرِهِ﴾.

٣ - المقابلة بين جزاء الأبرار والفجار ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ .. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وكذلك بين قوله: ﴿هَذَا عَذَابٌ فَرَاتٌ﴾ .. ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ وكل من الطباق والمقابلة من المحسنات البديعية إلا أن الأول يكون بين شيئين والثاني بين أكثر.

٤ - حذف الجواب لدلالة اللفظ عليه ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ ؟ حذف منه ما يقابله أي كمن لم يُزَيَّنْ له سوء عمله ؟ ودل على هذا المحذوف قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

٥ - الإطناب بتكرار الفعل ﴿فَلَا تَعْرَضْكُمْ أَلْحِيوَةُ الدُّنْيَا﴾ ثم قال ﴿وَلَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾.

٦ - الكناية ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ كناية عن الهلاك لأن النفس إذا ذهبت هلك الإنسان.

٧ - الالتفات من الغيبة إلى التكلم للإشعار بالعظمة ﴿أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرٌ سَحَابًا فُسِقَتْهُ﴾.

٨ - السجع لما له من وقع حسن على السمع مثل ﴿لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وأمثال ذلك وهو من المحسنات البديعية.

قال الله تعالى:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ

جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهَةٍ لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُمُ وَلَا الْحُرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزَّبْرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ أَلْوَانٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ۚ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّنْ تَكْوَرَ ﴿٢٩﴾ لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ

المناسبة: لَمَّا عَدَّدَ تَعَالَى نِعَمَهُ عَلَى الْعِبَادِ، وَأَقَامَ الْأَدْلَةَ وَالْبَرَاهِينَ عَلَى قُدْرَتِهِ وَعِزَّتِهِ وَسُلْطَانِهِ، ذَكَرَهُمْ هُنَا بِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ، وَاسْتِغْنَائِهِ جُلَّ وَعَلَا عَنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ، وَضَرَبَ الْأَمْثَالَ لِلتَّفْرِيقِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، وَالْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، بِالْأَعْمَى وَالْبَصِيرِ، وَالظَّلَامِ وَالنُّورِ، «فَبُضِّدَهَا تَتَمِيزُ الْأَشْيَاءُ».

اللغة: ﴿وَزَرَ﴾ الوزرُ: الجبل المنيع الذي يعتصم به ومنه ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ [القيامة: ١١] ثم قيل للتثقيب: وَزَرَ تشبيهاً له بالجبل، ثم استعير للذنب لما فيه من إثقال كاهل الإنسان. ﴿نُنذِرُ﴾ تُخَوِّفُ، والإنذار التخويف. ﴿بِالْغَيْبِ﴾ ما غاب عن الإنسان ولم تدركه حواسه، قال الشاعر:

وَبِالْغَيْبِ آمَنَّا وَقَدْ كَانَ قَوْمُنَا يُصَلُّونَ لِلْأَوْتَانِ قَبْلَ مُحَمَّدٍ
﴿الْحُرُورُ﴾ شدة حر الشمس، قال في «المصباح»: الحرُّ خلاف البرد والاسم الحرارة، وَحَرَّتِ النَّارُ: تَوَقَّدَتْ وَاسْتَعَرَتْ، وَالْحُرُورُ: الرِّيحُ الْحَارَّةُ^(١). ﴿جُدَدٌ﴾ جمع جُدَّةٍ بالضم وهي الطريقة والعلامة، قال الجوهري: وَالْجُدَّةُ: الْخُطَّةُ الَّتِي فِي ظَهْرِ الْحِمَارِ تَخَالَفَ لَوْنُهُ، وَالْجُدَّةُ الطَّرِيقَةُ وَالْجَمْعُ جُدَدٌ وَهِيَ الطَّرَائِقُ الْمُخْتَلِفَةُ الْأَلْوَانُ^(٢)، قال القرطبي: قال

(١) المصباح المنير.

(٢) الصحاح للجوهري.

الأخفش: لو كان جمع جديد لقال ﴿جَدِّدُ﴾ بضم الجيم والdal نحو سُرُر. ﴿غَرَابِيبُ﴾ جمع غريب وهو الشديد السواد، يقال: أسود غريب أي شديد السواد، قال امرؤ القيس: **الْعَيْنُ طَامِحَةٌ وَالْيَدُ سَابِحَةٌ... وَالرَّجُلُ لَافِحَةٌ وَالْوَجْهُ غَرِيبٌ** ^(١) التفسير: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ أَفْقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ الخطاب لجميع البشر لتذكيرهم بنعم الله الجليلة عليهم أي أنتم المحتاجون إليه تعالى في بقائكم وكل أحوالكم، وفي الحركات والسكنات ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي وهو جل وعلا الغني عن العالم على الإطلاق، المحمود على نعمه التي لا تُحصى، قال أبو حيان: هذه آية موعظة وتذكير، وأن جميع الناس محتاجون إلى إحسان الله تعالى وإنعامه، في جميع أحوالهم، لا يستغني أحدٌ عنه طرفة عين، وهو الغني عن العالم على الإطلاق، المحمود على ما يُسديهِ ^(٢) من النعم، المستحق للحمد والثناء ^(٣)، ثم قرر استغناؤه عن الخلق بقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي لو شاء تعالى لأهلككم وأفناكم وأتى بقوم آخرين غيركم، وفي هذا وعيد وتهديد ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي وليس ذلك بصعب أو ممتنع على الله، بل هو سهل يسير عليه سبحانه، لأنه يقول للشيء: كن فيكون ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي لا تحمل نفس أثمةً إثم نفسٍ أخرى، ولا تعاقب بذنب غيرها كما يفعل جبابرة الدنيا من أخذ الجار بالجار، والقريب بال قريب ^(٤) ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي وإن تدع نفس مثقلةً بالأوزار أحداً ليحمل عنها بعض أوزارها لا يتحمل عنها ولو كان المدعو قريباً لها كالأب والابن، فلا غياث يومئذٍ لمن استغاث، وهو تأكيد لما سبق في أن الإنسان لا يتحمل ذنب غيره، قال الزمخشري: فإن قلت فما الفرق بين الآيتين؟ قلت: الأول في الدلالة على عدل الله تعالى في حكمه، وأنه تعالى لا يؤاخذ نفساً بغير ذنبها، والثاني في أنه لا غياث يومئذٍ لمن استغاث ^(٥) ﴿إِنَّمَا نُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أي إنما تنذر يا محمد بهذا القرآن الذين يخافون عقاب ربهم يوم القيامة ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي وأدّوا الصلاة على الوجه الأكمل، فضموا إلى طهارة نفوسهم طهارة أبدانهم بالصلاة المفروضة

(١) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٣٤٣. (ش): (الْعَيْنُ طَامِحَةٌ): طَمَحَ بَصَرُهُ إِلَيْهِ: ارْتَفَعَ. (وَالْيَدُ سَابِحَةٌ) يعني إذا جرى فرسه مدّ يديه فكأنه سابح في الماء. واليَدُ: الطرف الأمامي للحيوان. (وَالرَّجُلُ لَافِحَةٌ): لَفَحَتِ النَّارُ: أَحْرَقَتْ. حَرًّا لَافِحًا: مُحْرِقًا، شديد اللهب.

(٢) (ش): يُسْدِيهِ: يُعْطِيهِ.

(٣) «البحر المحيط» ٧/ ٣٠٧.

(٤) نفس المرجع السابق والصفحة.

(٥) «الكشاف» ٣/ ٤٩.

في أوقاتها ﴿وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾ أي ومن طهر نفسه من أدناس المعاصي فإنما ثمرة ذلك التطهر عائدة عليه، فصلاحه وتقواه مختص به ولنفسه ﴿وَالِإِلَهِ الْمَصِيرُ﴾ أي إليه تعالى وحده مرجع الخلائق يوم القيامة فيجازي كلا بعمله، وهو إخبار متضمن معنى الوعيد ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ هذا مثل ضرب به الله للمؤمن والكافر^(١) أي كما لا يتساوى الأعمى مع البصير فكذلك لا يتساوى المؤمن المستنير بنور القرآن، والكافر الذي يتخبط في الظلام، ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ أي لا يتساوى كذلك الكفر والإيمان، كما لا يتساوى النور والظلام ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ أي وكذلك لا يستوي الحق والباطل، والهدى والضلال كما لا يستوي الظل الظليل مع شدة حر الشمس والتموهجة، قال المفسرون: ضرب الله الظل مثلاً للجنة وظلها الظليل، وأشجارها اليانعة تجري من تحت الأنهار، كما جعل الحرور مثلاً للنار وسعيرها، وشدة أوارها وحرها، وجعل الجنة مستقراً للأبرار، والنار مستقراً للفجار كما قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠] ثم أكد ذلك فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ أي كما لا يستوي العقلاء والجهلاء، قال أبو حيان: وترتيب هذه الأشياء في بيان عدم الاستواء جاء في غاية الفصاحة، فقد ذكر الأعمى والبصير مثلاً للمؤمن والكافر، فذكر ما عليه الكافر من ظلمة الكفر، وما عليه المؤمن من نور الإيمان، ثم ذكر مآلهما وهو الظل والحرور، فالؤمن بإيمانه في ظل وراحة، والكافر بكفره في حر وتعب، ثم ذكر مثلاً آخر على أبلغ وجه وهو الحي والميت، فالأعمى قد يكون فيه بعض النفع بخلاف الميت، وجمع الظلمات لأن طرق الكفر متعددة، وأفرد النور لأن التوحيد والحق واحد لا يتعدد، وقدم الأشرف في المثلين الأخيرين وهما «الظل، والحي» وقدم الأوضح في المثلين الأولين وهما «الأعمى، والظلمات» ليظهر الفرق جلياً، ولا يقال ذلك لأجل السجع لأن معجزة القرآن ليست في مجرد اللفظ، بل في المعنى أيضاً، فله سرُّ القرآن^(٢)، ثم زاد في الإيضاح والبيان فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أي إن الله يسمع من يشاء إسماعه دعوة الحق، فيحببه بالإيمان ويشرح صدره للإسلام، وما أنت يا محمد بمُسْمِعٍ هؤلاء الكفار، لأنهم أموات القلوب لا يدركون ولا يفقهون، قال «ابن الجوزي»: أراد بمن في القبور الكفار، وشبههم بالموتى^(٣)، أي فكما لا يقدر أن يسمع من في القبور كتاب الله

(١) «البحر المحيط» ٣٠٨/٧.

(٢) «البحر المحيط» ٣٠٩/٧، بشيء من الإيجاز والتصرف.

(٣) تفسير «ابن الجوزي» ٤٨٤/٦.

ويتنفع بمواعظه، فكَذَلِكَ مَنْ كَانَ مَيِّتَ الْقَلْبِ لَا يَتَنَفَّعُ بِمَا يَسْمَعُ^(١) ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي ما أنت إلا رسول منذر، تخوِّف هؤلاء الكفار من عذاب النار ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي بعثناك بالهدى ودين الحق، بشيرًا للمؤمنين ونذيرًا للكافرين ﴿وَمَنْ أَمَةٍ إِلَّا خَلَّافُهَا نَذِيرٌ﴾ أي ما من أمة من الأمم في العصور والأزمنة الخالية إلا وقد جاءها رسول ﴿وَلَنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ تسلية للنبي ﷺ للتأسي بالأنبياء في الصبر على تحمل الأذى والبلاء، قال الطبري: أي وإن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون من قومك فقد كذب الذين من قبلهم من الأمم السابقة رسلهم ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي جاءتهم الرسل بالمعجزات البينات، والحجج الواضحات فكذبوهم وأنكروا ما جاؤوا به من عند الله^(٢) ﴿وَبِالْزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أي وجاءوهم بالزُّبُر، أي: الصحف المنزلة على الأنبياء، وبالكتب السماوية المقدسة المنيرة الموضحة وهي أربعة: «التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان» ومع ذلك كذبوهم وردوا عليهم رسالتهم فاصبر كما صبروا ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ثم بعد إمهالهم أخذت هؤلاء الكفار بالهلاك والدمار ﴿فَكَيْفَ كَانَتْ نَكِيرٌ﴾ أي فكيف كانت عقوبتي لهم وإنكاري عليهم؟ ألم آخذهم أخذ عزيز مقتدر؟ ألم أبدل نعمتهم نقمة، وسعادتهم شقاوة، وعمارتهم خراباً؟ وهكذا أفعل بمن كذب رسلي، ثم عاد إلى تقرير وحدانية الله بالأدلة السماوية والأرضية فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي ألم ترأيها المخاطب أن الله العظيم الكبير الجليل أنزل من السحاب المطر بقدرته؟^(٣) ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ أي فأخرجنا بذلك الماء أنواع النباتات والفواكه والثمار، المختلفات الأشكال والألوان والطعوم، قال الزمخشري: أي مختلف أجناسها من الرمان والتفاح والتين والعنب وغيرها ما لا يحصر، أو هيئاتها من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها^(٤) ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ أي وخلق الجبال كذلك فيها الطرائق^(٥) المختلفة الألوان وإن كان الجميع حجراً أو تراباً، فمن الجبال جُدَد، أي: طرائق مختلفة الألوان، بَيَضٌ مختلفة البياض، وَحُمْرٌ مختلفة في حمرتها ﴿وَعَرَابِيْبٌ سُودٌ﴾ أي وجبال سود غرايب أي شديدة السواد، قال ابن جزي: قدَّم

(١) «تفسير الطبري» ٢٢ / ٨٥.

(٢) «تفسير الطبري» ٢٢ / ٨٦.

(٣) الآية بيقت للحث والتحريض على النظر في عجائب صنعه تعالى، وآثار قدرته ليؤدي ذلك إلى العلم بعظمة الله وجلاله، ويؤدي العلم إلى خشيته ولذلك ختمها بقوله: فتدبر سر القرآن.

(٤) تفسير «الكشاف» ٣ / ٤٨١.

(٥) (ش): أي الطُرُق في الجبال.

الوصف الأبلغ وكان حقه أن يتأخر، وذلك لقصد التأكيد وكثيراً ما يأتي مثل هذا في كلام العرب^(١)، والغرض بيان قدرته تعالى، فليس اختلاف الألوان قاصراً على الفواكه والثمار بل إن في طبقات الأرض وفي الجبال الصلبة ما هو أيضاً مختلف الألوان، حتى لتجد الجبل الواحد ذا ألوانٍ عجيبة، وفيه عروق تشبه المرجان، ولا سيما في صخور «المرمر» فسبحان القادر على كل شيء ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ، كَذَلِكَ﴾ أي وخلق من الناس، والدواب، والأنعام، خلقاً مختلفاً ألوانه كاختلاف الثمار والجبال، فهذا أبيض، وهذا أحمر، وهذا أسود، والكل خلق الله فتبارك الله أحسن الخالقين. ثم لما عدد آيات الله، وأعلام قدرته، وآثار صنعه، وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس أتبع ذلك بقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ أي إنما يخشاه تعالى العلماء لأنهم عرفوه حق معرفته، قال ابن كثير: أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير أتم، والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر^(٢) ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ أي غالب على كل شيء بعظمته، غفور لمن تاب وأناب من عباده، ثم أخبر عن صفات هؤلاء الذين يخافون الله ويرجون رحمته فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ أي يداومون على تلاوة القرآن آناء الليل وأطراف النهار ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي أدوها على الوجه الأكمل في أوقاتها، بخشوعها وآدابها، وشروطها وأركانها ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي وأنفقوا بعض أموالهم في سبيل الله وابتغاء رضوانه في السر والعلن ﴿يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّنْ تَكْوَرَ﴾ أي يرجون بعملهم هذا تجارة رابحة، لن تكسد ولن تهلك بالخسران أبداً ﴿لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي ليوفيهم الله جزاء أعمالهم، وثواب ما فعلوا من صالح الأعمال، ويزيدهم فوق أجورهم من فضله وإنعامه وإحسانه، قال في «التسهيل»: توفية الأجور هو ما يستحقه المطيع من الثواب، والزيادة: التضعيف فوق ذلك أو النظر إلى وجه الله^(٣) ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي مبالغ في الغفران لأهل القرآن، شاكر لطاعتهم، قال ابن كثير: كان مطرف إذا قرأ هذه الآية قال: هذه آية القراءة^(٤) ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي والذي أوحيناه إليك يا محمد من الكتاب المنزل القرآن العظيم هو الحق الذي لا شك فيه، ولا ريب في صدقه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي حال كونه مصدقاً لما سبقه من الكتب

(١) «التسهيل» ١٥٨/٣.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ١٤٦/٣.

(٣) «التسهيل» ١٥٨/٣.

(٤) «المختصر» ١٤٦/٣.

الإلهية المنزلة كال்தورة والإنجيل والزبور، قال أبو حيان: وفي الآية إشارة إلى كونه وحياً، لأنه عليه السلام لم يكن قارئاً ولا كاتباً وأتى ببيان ما في كتب الله، ولا يكون ذلك إلا من الله^(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أي هو جل وعلا خبير بعباده محيط ببواطن أمورهم وظواهرها، بصيرٌ بهم لا خفى عليه خافية من شئونهم.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبدیع نوجزوها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿يَذْهَبُ..و..يَأْتِ﴾ وبين ﴿الْأَعْمَى..و..وَالْبَصِيرُ﴾ و﴿الْظُلُمْتُ..و..النُّورُ﴾ و﴿الظُّلُّ الْحُرُورُ..و..الْحُرُورُ﴾ و﴿الْأَحْيَاءُ الْحُرُورُ..و..الْأَمْوَتُ﴾ وبين ﴿وَنَذِيرًا..بَشِيرًا﴾ وبين ﴿سِرًّا..وَعَلَانِيَةً﴾.

٢ - جناس الاشتقاق ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ ﴿حِمْلَهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ﴾.

٣ - الاستعارة التصريحية ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ..﴾ الآية. شبه الكافر بالأعمى، والمؤمن بالبصير بجامع ظلام الطريق وعدم الاهتداء على الكفار، ووضوح الرؤية والاهتداء للمؤمن، ثم استعار المشبه به ﴿الْأَعْمَى﴾ للكافر، واستعار ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ للمؤمن بطريق الاستعارة التصريحية.

٤ - الالتفات من الغيبة إلى التكلم ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا﴾ بدل (فأخرج) لما في ذلك من الفخامة وبيان كمال العناية بالفعل، لما فيه من الصنع البديع، المنبئ عن كمال قدرة الله وحكمته.

٥ - قصر صفة على موصوف ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فقد قصر الخشية على العلماء.

٦ - الإستفهام التقريري وفيه معنى التعجب ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ الآية.

٧ - الاستعارة ﴿يَرْجُونَ تَحْرَةً لَّنْ تَكْبُورَ﴾ استعار التجارة للمعاملة مع الله تعالى لنيل ثوابه، وشبهها بالتجارة الدنيوية وهي معاملة الخلق بالبيع والشراء لنيل الربح ثم رشحها بقوله: ﴿لَّنْ تَكْبُورَ﴾.

٨ - توافق الفواصل مما يزيد في جمال الكلام ورونقه ووقعه في النفس مثل ﴿يَرْجُونَ تَحْرَةً لَّنْ تَكْبُورَ﴾ ﴿إِنَّهُ عَفُورٌ شَكُورٌ﴾ ومثل ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ ﴿فَكَيْفَ كَانَتْ نَكِيرٌ﴾ وهكذا.

قال الله تعالى:

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ

سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُاذِنُ اللَّهُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْنًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خُسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ بِمِيسَلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يَوَٰخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَابِكَةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَأَبَتْ أَلَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا

المناسبة: لما أثنى تعالى على الذين يتلون كتاب الله، ذكر هنا انقسام الأمة الإسلامية أمام هذا الكنز الثمين إلى ثلاثة أقسام: الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات، ثم ذكر مآل الأبرار والفجار، ليظل العبد بين الخوف والرجاء، والرغبة والرغبة.

اللغة: ﴿نُصِبٌ﴾ تعب ومشقة جسمانية. ﴿لُغُوبٌ﴾ اللُّغُوب: الإعياء والضعف والفتور ومنه ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]. ﴿يَصْطَرِّحُونَ﴾ من الصراخ وهو الصياح بصوت عال، والصارخ: المستغيث، والمُصْرَخ: المغيث، قال سلامة بن جندب:

كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِخٌ فَرِغَ كَانَ الصَّارِخُ لَهُ قَرْعُ الظَّنَائِبِ^(١)

(١) «تفسير القرطبي» ١٤/ ٣٥٢. (ش): الصارخ: المستغيث. والظَّنَائِب جمع (الظَّنْبُوب): وهو حرف العظم اليابس من الساق. ومن أمثالهم: قَرَعَ فُلَانٌ لَأَمْرِهِ ظُنْبُوبَهُ إِذَا جَدَّ فِيهِ. والمراد سرعة الإجابة لنداء المستغيث والاجتهاد في نصرته. وقَرَعَ الظنوب كناية عن ذلك.

﴿النَّذِيرُ﴾ المنذر الذي يخوف الناس من عذاب الله. ﴿خَلِّفَ﴾ جمع خليفة وهو الذي يخلف غيره في أمر من الأمور. ﴿مَقَنَّا﴾ المقت: أشد البغض والغضب. ﴿خَسَارًا﴾ هلاكًا وضللاً. ﴿يَحْيِئُ﴾ حاق به الشيء: نزل وأحاط.

التفسير: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي ثم أورثنا هذا القرآن العظيم لأفضل الأمم وهم أمة محمد عليه السلام الذين اختارهم على سائر الأمم، وخصصناهم بهذا الفضل العظيم، القرآن المعجز خاتمة الكتب السماوية، قال الزمخشري: والذين اصطفاهم الله هم أمة محمد من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى يوم القيامة^(١). ثم قسمهم إلى ثلاثة أصناف فقال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ﴾ أي فمن هؤلاء الذين أورثناهم الكتاب من هو مقصّر في عمل الخير، يتلو القرآن ولا يعمل به وهو الظالم لنفسه، ومنهم من هو متوسط في فعل الخيرات والصالحات، يعمل بالقرآن في أغلب الأوقات، ويقصّر في بعض الفترات وهو المقتصد، ومنهم من هو سباق في العمل بكتاب الله، يستبق الخيرات وقد أحرز قصب السبق في فعل الطاعات بتوفيق الله وتيسيره وهو السابق بالخيرات بإذن الله، قال ابن جزي: وأكثر المفسرين أن هذه الأصناف الثلاثة في أمة محمد ﷺ فالظالم لنفسه: العاصي، والسابق: التقى، والمقتصد: بينهما^(٢) وقال الحسن البصري: السابق من رجحت حسناته على سيئاته، والظالم لنفسه من رجحت سيئاته، والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته، وجميعهم يدخلون الجنة^(٣) ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي ذلك الإرث والاصطفاء لأمة محمد عليه السلام لحمل أشرف الرسالات والكتب السماوية هو الفضل العظيم الذي لا يدانيه فضل ولا شرف، فقد تفضل الله عليهم بهذا القرآن المجيد، الباقي مدى الدهر، وأنعم به من فضل! ثم أخبر تعالى عما أعدّه للمؤمنين في جنات النعيم فقال: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ أي جنات إقامة ينعمون فيها بأنواع النعيم، وهي مراتب ودرجات متفاوتة حسب تفاوت الأعمال، وإنما جمع ﴿جَنَّاتُ﴾ لأنها جنات كثيرة وليست جنة واحدة، فهناك جنة الفردوس، جنة عدن، وجنة النعيم، وجنة المأوى، وجنة الخلد، وجنة السلام، وجنة عيلين، وفي كل جنة مراتب ونزل بحسب مراتب العاملين ﴿يُحَلَّلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ أي يزينون في الجنة بأساور من ذهب مرصعة باللؤلؤ ﴿وَلِبَاسُهُمْ

(١) «الكشاف» ٤٨٤ / ٣.

(٢) «التسهيل في علوم التنزيل» ١٥٨ / ٣.

(٣) «زاد المسير» ٤٩٠ / ٦، والقول بأن هذه الأصناف الثلاثة من أمة محمد ﷺ هو الأرجح وهو اختيار ابن جرير وقد أورد العلامة ابن كثير أحاديث تدل على ذلك.

فِيهَا حَرِيرٌ ﴿١﴾ أي وجميع ما يلبسونه في الجنة من الحرير، بل فرشهم وستورهم كذلك، قال القرطبي: لما كانت الملوك تلبس في الدنيا الأساور والتيجان، جعل الله ذلك لأهل الجنة، وليس أحد من أهل الجنة إلا في يده ثلاثة أسورة: سوار من ذهب، وساور من فضة، وسوار من لؤلؤ^(١) ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ أي وقالوا عند دخولهم الجنة الحمد لله الذي أذهب عنا جميع الهموم والأكدار والأحزان، قال المفسرون: عبر بالماضي ﴿وَقَالُوا﴾ لتحقيق وقوعه، والحزن يُعْمُّ كل ما يُكْدِّرُ صَفْوَ الإنسان من خوف المرض، والفقر، والموت، وأهوال القيامة، وعذاب النار وغير ذلك^(٢) ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَعَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي: واسع المغفرة للمذنبين، شكور لطاعة المطيعين، وكلت اللفظتين للمبالغة أي واسع لغفران عظيم الشكر والإحسان ﴿الَّذِي أَحْلَنَّا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي أنزلنا الجنة: وأسكننا فيها، وجعلها مقررًا لنا وسكنًا، لا نتحول عنها أبدًا، وكل ذلك من إنعامه وتفضله علينا ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي لا يصيبنا فيها تعب ولا مشقة ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي ولا يصيبنا فيها إعياء ولا فتور، قال ابن جزي: وإنما سميت الجنة ﴿دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ لأنهم يقومون فيها ويمكثون ولا يخرجون منها، والنصبُ تعبُ البدن، واللغوبُ تعب النفس الناشئ عن تعب البدن^(٣). ولما ذكر تعالى حال السعداء الأبرار، ذكر حال الأشقياء الفجار فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ أي والذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسله فإن لهم نار جهنم المستعرة جزاءً وفاقاً على كفرهم ﴿لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوْثُوهُ﴾ أي لا يحكم عليهم بالموت فيها حتى يستريحوا من عذاب النار ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ أي ولا يخفف عنهم شيء من العذاب، بل هم في عذاب دائم مستمر لا ينقطع كقوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧] ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي مثل ذلك العذاب الشديد الفظيع، نجازي ونعاقب كل مبالغ في الكفر والعصيان ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ﴾ أي وهم يتصارخون في جهنم ويستغيثون برفع أصواتهم قائلين: ربنا أخرجنا من النار ورددنا إلى الدنيا لنعمل عملاً صالحاً يقربنا منك، غير الذي كنا نعمله، قال القرطبي: أي نؤمن بدل الكفر، ونطيع بدل المعصية، ونمثّل أمر الرسل^(٤).. وفي قولهم: ﴿غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ اعترافٌ بسوء عملهم، وتندُّمٌ عليه

(١) «تفسير القرطبي» ١٢/٥٢.

(٢) انظر «تفسير أبي السعود» ٤/٢٤٥، و«تفسير الطبري» ٢٢/٩١.

(٣) «التسهيل في علوم التنزيل» ٣/١٥٩.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٤/٣٥٢.

وتحسر^(١)، قال تعالى ردّاً عليهم وموبخاً لهم: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرَكُمْ مَا تَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكَّرْ﴾ أي أولم نترككم ونمهلكم في الدنيا عمراً مديداً يكفي لأن يتذكر فيه من يريد التذكر والتفكير؟ فماذا صنعتم في هذه المدة التي عشتموها؟ وما لكم تطلبون عمراً آخر؟ وفي الحديث «أَعَذَّرَ اللَّهُ إِلَى أَمْرٍ آخَرَ أَجَلُهُ حَتَّى بَلَغَهُ سِتِّينَ سَنَةً»^(٢) ومعنى «أعذر» أي بلغ به أقصى العذر ﴿وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ أي وجاءكم الرسول المنذر وهو محمد ﷺ الذي بُعث بين يدي الساعة، وقيل: ﴿النَّذِيرُ﴾ هو الشيب والأول أظهر^(٣) ﴿فَذَوْقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ أي ذوقوا العذاب يا معشر الكافرين، فليس لكم اليوم ناصر ولا معين يدفع عنكم عذاب الله، قال الإمام الفخر: والأمر أمر إهانة ﴿فَذَوْقُوا﴾ وفيه إشارة إلى الدوام^(٤)، وإنما وضع الظاهر ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ موضع الضمير «لكم» لتسجيل الظلم عليهم، وأنهم بكفرهم وظلمهم ليس لهم نصير أصلاً لا من الله ولا من العباد، ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هو تعالى العالم الذي أحاط علمه بكل ما خفي في الكون من غيب السموات والأرض، لا يخفى عليه شأن من شئونهما ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي يعلم جل وعلا مضمرات الصدور، وما تخفيه من الهواجس والوساوس، فكيف لا يعلم أعمالهم الظاهرة؟ قال المفسرون: والجملة لتأكيد ما سبق من دوام عذاب الكفار في النار، لأن الله تعالى يعلم من الكافر أنه تمكن الكفر في قلبه بحيث لو دام في الدنيا إلى الأبد ما آمن بالله ولا عبده، فالعذاب الأبدي مساوٍ لكفرهم الأبدي، فلا ظلم ولا زيادة ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، قال القرطبي: والمعنى في الآية: علم أنه لو ردكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحاً كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوا لِمَا نُهُوْا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]^(٥) ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي هو تعالى جعلكم أيها الناس خلائف في الأرض، بعد عاد وثمود ومن مضى قبلكم من الأمم، تخلفونهم في مساكنهم جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن ﴿فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي فمن كفر بالله فعليه

(١) «التسهيل في علوم التنزيل» ١٥٩ / ٣.

(٢) أخرجه البخاري وترجم له بقوله: «باب مَنْ بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً فَقَدْ أَعَذَّرَ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي الْعُمُرِ» وذكر الآية، قال ابن كثير: «وهذا هو الصحيح في مقدار العمر». (ش): وفي الحديث إشارة إلى أَنَّ اسْتِكْمَالَ السِّتِّينَ مَطْلَقٌ لِانْقِضَاءِ الْأَجَلِ. وقال ص: «أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَى السَّبْعِينَ وَأَقْلَهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ». (رواه الترمذي) (رواه ابن ماجه، وصححه الألباني).

(٣) ترجم الإمام البخاري: ﴿وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ يعني الشيب وروى هذا عن ابن عباس وعكرمة قال ابن كثير: وما روى عن قتادة أن النذير هو رسول الله ﷺ هو الصحيح وهو اختيار ابن جرير وهو الأظهر.

(٤) «التفسير الكبير» ٢٦ / ٣٠.

(٥) «تفسير القرطبي» ٢٢ / ٣٥٥.

وبال كفره، لا يضر بذلك إلا نفسه ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أي ولا يزيدهم كفرهم إلا طرداً من رحمة الله وبعداً وبغضاً شديداً من الله ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي ولا يزيدهم كفرهم إلا هلاكاً وضللاً وخسران العمر الذي ما بعده شر وخساراً، قال أبو حيان: وفي الآية تنبيه على أنه تعالى استخلفهم بدل من كان قبلهم، فلم يتعمظوا بحال من تقدمهم من المكذبين للرسول وما حلَّ بهم من الهلاك، ولا اعتبروا بمن كفر، ولا اتعظوا بمن تقدم، والمقت أشد الاحتقار والبغض، والخسارُ خسارُ العمر، كأنَّ العمر رأس مال الإنسان فإذا انقضى في غير طاعة الله فقد خسره، واستعاض به بدل الربح سخط الله وغضبه، بحيث صار إلى النار المؤبدة^(١)، ثم وبخ تعالى المشركين في عبادتهم ما لا يسمع ولا ينفع فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟﴾ قال الزمخشري: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ معناها أخبروني كأنه قال: أخبروني عن هؤلاء الشركاء وعمما استحقوا به الإلهية والشركة^(٢)، ومعنى الآية: قل يا محمد تبكيتاً لهؤلاء المشركين: أخبروني عن شأن آلهتكم الأوثان والأصنام، الذين عبدتموهم من دون الله، وأشركتموهم معه في العبادة، بأي شيء استحقوا هذه العبادة؟ ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي أروني أي شيء خلقوه في هذه الدنيا من المخلوقات حتى عبدتموهم من دون الله؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي أم شاركوا الله في خلق السموات فاستحقوا بذلك الشركة معه في الألوهية؟ ﴿أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ﴾ أي أم أنزلنا عليهم كتاباً ينطق بأنهم شركاء الله فهم على بصيرة وحجة وبرهان في عبادة الأوثان ﴿بَلْ إِنْ يَعْذُبُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ إضرابٌ عن السابق وبيانٌ للسبب الحقيقي أي إنما اتخذوهم آلهة بتضليل الرؤساء للاتباع بقولهم: الأصنام تشفع لهم، وهو غرور باطل وزور، قال «أبو السعود»: لما نفى أنواع الحُجج أضرب عنه بذكر ما حملهم عليه، وهو تغيير الأسلاف للأخلاف، وإضلال الرؤساء للاتباع بأنهم يشفعون لهم عند الله^(٣). ثم ذكر تعالى دلائل قدرته ووحدانيته فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ أي هو جل وعلا بقدرته وبديع حكمته، يمنع السموات والأرض من الزوال، والسقوط، والوقوع كما قال الله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥] قال القرطبي: لما بين أن آلهتهم لا تقدر على خلق شيء من السموات والأرض، بين أن خالقهما وممسكهما هو الله، فلا يوجد حادث إلا

(١) «تفسير البحر المحيط» ٣١٧/٧.

(٢) تفسير «الكشاف» ٤٨٧/٣.

(٣) تفسير أبي السعود ٢٤٦/٤.

بإيجاده، ولا يبقى إلا ببقائه^(١) ﴿وَلَيْنَ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي ولئن زالتا عن أماكنهما - فرضاً - ما أمسكهما أحد بعد الله، بمعنى أنه لا يستطيع أحد على إمساكهما^(٢)، إنما هما قائمتان بقدرة الواحد القهار ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أي إنه تعالى حلیم لا يعجل العقوبة للكفار مع استحقاقهم لها، واسع المغفرة والرحمة لمن تاب منهم وأناب ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾ أي حلف المشركون بالله أشد الأيمان وأبلغها، قال الصاوي: كانوا يحلفون بآبائهم وأصنامهم فإذا أرادوا التأكيد والتشديد حلفوا بالله^(٣) ﴿لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أي لئن جاءهم رسول منذر ﴿لَيَكُونَنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ أي ليكوننَّ أهدى من جميع الأمم الذين أرسل الله إليهم الرسل من أهل الكتاب، قال «أبو السعود»: بلغ قريشاً قبل مبعث رسول الله ﷺ أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا: لعن الله اليهود والنصارى، اتهم الرسل فكذبوهم، فوالله لئن أتانا رسول لنكوننَّ أهدى من اليهود والنصارى وغيرهم^(٤) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أي فلما جاءهم محمد ﷺ أشرف المرسلين ﴿مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي ما زادهم مجيئه إلا تباعداً عن الهدى والحق وهرباً منه ﴿أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ أي نفروا منه بسبب استكبارهم عن اتباع الحق، وعتوهم وطغيانهم في الأرض، ومن أجل المكر السيئ بالرسول وبالمؤمنين، ليفتنوا ضعفاء الإيمان عن دين الله، قال أبو حيان: أي سبب النفور هو الاستكبار والمكر السيئ يعني أن الحامل لهم على الابتعاد عن الحق هو الاستكبار، والمكر السيئ وهو الخداع الذي يرومونه برسول الله ﷺ والكيد له^(٥)، قال تعالى رداً عليهم: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ أي ولا يحيط وبال المكر السيئ إلا بمن مكره ودبره كقولهم: من حفر حفرة لأخيه وقع فيها. ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي فهل ينتظر هؤلاء المشركون إلا عادة الله وسنته في الأمم المتقدمة، من تعذيبهم وإهلاكهم بتكذيبهم للرسل؟ ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي لن تتغير ولن تتبدل سنته تعالى في خلقه ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أي ولا يستطيع أحد أن يحول العذاب عنهم إلى غيرهم، قال القرطبي: أجرى الله العذاب على الكفار، فلا يقدر أحد أن يُبدل ذلك، ولا أن يُحوّل العذاب عن نفسه إلى غيره، والسُّنة هي الطريقة^(٦).. ثم

(١) «تفسير القرطبي» ١٤/٣٥٦.

(٢) (ش): هكذا في أكثر من طبعة، والصواب: لا يستطيع أحد إمساكهما.

(٣) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/٣١٥.

(٤) تفسير أبي السعود ٤/٢٤٦.

(٥) «تفسير البحر المحيط» ٧/٣١٩.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٤/٣٦٠.

حُثِّمَ تَعَالَى عَلَى مَشَاهِدَةِ آثَارِ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْمَكْذِبِينَ لِيَعْتَبَرُوا فَقَالَ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ؟ أَوَلَمْ يَسَافِرُوا وَيَمْرُوا عَلَى الْقُرَى الْمَهْلَكَةِ فَيَرَوْا آثَارَ دِمَارِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ حِينَ كَذَبُوا رُسُلَهُمْ مَاذَا صَنَعَ اللَّهُ بِهِمْ؟ ﴿وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أَيُّ وَكَانُوا أَقْوَى مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ أَجْسَادًا، وَأَكْثَرَ مِنْهُمْ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيُّ إِنَّهُ سَبْحَانَهُ لَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ، وَلَا يَصْعَبُ عَلَيْهِ أَمْرٌ فِي هَذَا الْكُونِ ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ أَيُّ بِالْغِ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ، عَالِمٌ بِشُئُونِ الْخَلْقِ، قَادِرٌ عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِمَّنْ عَصَاهُ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبَةٍ﴾ بَيَانٌ لِحِلْمِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ، أَيُّ: لَوْ أَخَذَهُمْ بِجَمِيعِ ذُنُوبِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَحَدًا يَدِبُ عَلَيْهَا مِنْ إِنْسَانٍ أَوْ حَيَوَانٍ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: يَرِيدُ جَمِيعَ الْحَيَوَانِ مِمَّا دَبَّ وَدَرَجَ ^(١) ﴿وَلَا يَكُنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أَيُّ وَلَكِنَّهُ تَعَالَى مِنْ رَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ، وَلُطْفِهِ بِهِمْ، يَمَهِّلُهُمْ إِلَى زَمَنٍ مَعْلُومٍ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَلَا يَعَجِلُ لَهُمُ الْعَذَابَ ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ أَيُّ فَإِذَا جَاءَ ذَلِكَ الْوَقْتُ جَازَاهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٍ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٍّ، لِأَنَّهُ تَعَالَى الْعَالَمِ بِشُئُونِهِمُ الْمَطْلَعِ عَلَى أَحْوَالِهِمْ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: بَصِيرًا بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ، وَبِمَنْ يَسْتَوْجِبُ الْكِرَامَةَ ^(٢)، وَفِي الْآيَةِ وَعِيدٌ لِلْمَجْرِمِينَ وَوَعْدٌ لِلْمُتَّقِينَ.

البَلَاغَةُ: تَضَمَّنَتِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَةَ وَجُوهًا مِنَ الْبَيَانِ وَالْبَدِيعِ نَوَاجِذَهَا فِيمَا يَلِي:

١ - الإِطْنَابُ بِتَكْرِيرِ الْفِعْلِ ﴿لَا يَمْسُنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمْسُنَا فِيهَا نُغُوبٌ﴾ لِلْمِبَالِغَةِ فِي انْتِفَاءِ كُلِّ مِنْهُمَا اسْتِقْلَالًا، وَكَذَلِكَ الْإِطْنَابُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ لَزِيَادَةِ التَّشْنِيعِ وَالتَّقْيِيقِ عَلَى مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ.

٢ - التَّهْكُمُ فِي صَغْبَةِ الْأَمْرِ ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ مِثْلُ ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

٣ - الْمِبَالِغَةُ مِثْلُ ﴿غَفُورٌ، شَكُورٌ، كَفُورٌ﴾ وَمِثْلُ ﴿حَلِيمًا، عَلِيمًا، قَدِيرًا﴾ فَإِنَّهَا مِنْ صِيغِ الْمِبَالِغَةِ.

٤ - الْإِسْتِفْهَامُ الْإِنْكَارِي لِلتَّوْبِيخِ ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ ؟ وَكَذَلِكَ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ ؟

(١) «تفسير القرطبي» ١٤ / ٣٦١. (ش): دَبَّ الْإِنْسَانُ أَوْ الْحَيَوَانُ عَلَى الْأَرْضِ: مَشَى مَعَ إِحْدَاثِ صَوْتٍ بِقَدَمَيْهِ. دَبَّ: مَشَى مَشْيًا بَطِيئًا مَتَمَهِّلًا. دَرَجَ: دَبَّ، مَشَى بِيْطَاءٍ وَتَمَهَّلَ. دَرَجَ الْقَوْمُ: مَاتُوا، انْقَرَضُوا وَفُتُوا. دَرَجَ فُلَانٌ: مَاتَ وَمَا تَرَكَ نَسْلًا. أَكْذَبَ مَنْ دَبَّ وَدَرَجَ: أَكْذَبَ الْأَحْيَاءُ وَالْأَمْوَاتُ.

(٢) «تفسير الطبري» ٢٢ / ٩٦.

- ٥ - الاستعارة المكنية ﴿مَا تَرَكْنَا عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ شَبَّهَ الأرض بدابة تحمل على ظهرها أنواع المخلوقات ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الظهر بطريق الاستعارة المكنية.
- ٦ - السجع غير المتكلف، البالغ نهاية الروعة والجمال مثل ﴿وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة فاطر»

تم بحمد الله المجلد الثاني



فهرس أحاديث المجلد الثاني

الراوي	الصفحة	طرف الحديث
الشيخان	٣٠	«رحم الله أخي لو طأ لقد كان يأوى إلى ركن شديد»
مسلم والترمذي	٤٠	«الصلوات الخمس كفارة لما بينها ما اجتنبت الكبائر»
أصحاب السنن	٤٠	«ما من مسلم يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر له» «كان ﷺ إذا سمع الرعد قال: سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته»
البخاري	٨٩	«اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»
الترمذي	١٢٧	«الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»
البخاري	١٣١	«كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئناً بالإيمان، قال: فإن عادوا فعد»
الطبري	١٥٨	«لما دخل ﷺ مكة كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً فحطمها...»
البخاري	١٩٤	«سئل رسول الله ﷺ كيف يحشر الناس على وجوههم؟ فقال: الذي أمشاهم على وجوههم قادر...»
الشيخان	٢٠٠	«سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، هن الباقيات الصالحات»
أحمد	٢١٩	«لقيت إبراهيم ليلة أُسري بي، فقال: يا محمد، أقرئ أمتك من السلام...»
الترمذي	٢٢٢	«إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فسئل أي الناس أعلم؟...»
الشيخان	٢٣٠	«إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يجاء بالموت يوم القيامة...»
مسلم	٢٤٧	«ما يمنعك يا جبريل أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فنزل ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾...»
البخاري	٢٤٨	«قال خباب: كنت رجلاً قتيلاً - حداداً - وكان لي على العاص بن وائل دين...»
الشيخان	٢٥٤	«إن الله تعالى إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحبه...»
مسلم	٢٥٩	«إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة...»
الترمذي	٢٦٣	«الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض...»
أحمد والترمذي	٢٧٤	«ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ إلا استجيب له»
أبو داود	٣١٢	«أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة، عراة، غرلاً...»
مسلم	٣١٥	

الراوي	الصفحة	طرف الحديث
ابن عساكر	٣١٦	«إنما أنا رحمة مهداة»
الترمذي	٣٢٧	«إن الحميم ليصبُّ على رءوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه...»
أحمد	٣٢٨	«لو وضعت مقمعة منها في الأرض فاجتمع عليها الثقلان ما أقلوها»
الترمذي	٣٦٧	«تشويه النار فتتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه...»
أحمد والنسائي	٣٧٢	«البينة أو حدٌ في ظهره...»
البخاري	٣٨٤	«يرحم الله المهاجرات الأوَّل لما أنزل الله ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾...»
أحمد والترمذي	٣٨٧	«ثلاثة حق على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء...»
مسلم	٤٠١	«إن الله زوى لي الأرض -أي جمعها- فرأيت مشارقها ومغاربها...»
أحمد	٤١٩	«والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة...»
مسلم	٤٢٩	«إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة، وآخر أهل النار خروجا من النار...»
البخاري	٤٤٧	«يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترٌ وغبرة...»
الشيخان	٤٥٩	«يا معشر قریش اشتروا أنفسكم من الله، لا أغنى عنكم من الله شيئا...»
البخاري	٤٥٩	«تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيقرقها في أذن وليه كقرقرة الدجاج...»
البخاري	٤٧٢	«لن يفلح قوم ولَّوا أمرهم امرأة»
مسلم	٥٠٧	«لما حضرت أبا طالب الوفاة قال له الرسول ﷺ: يا عم، قل: لا إله إلا الله...»
مسلم	٥١٠	«ثلاثة يؤتون أجرهم مؤتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنية ثمن آمن بي...»
الشيخان	٥٥٩	«كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه...»
البخاري	٦٠١	«ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى نزلت...»
أحمد	٦١٠	«أقبل أبو بكر يستأذن رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس...»
النسائي	٦١١	«ما لي أسمع الرجال يذكرون في القرآن والنساء لا يذكرون...»
الترمذي	٦٢٠	«لما تزوج رسول الله ﷺ زينب قال الناس: إن محمداً تزوج امرأة ابنه...»

الصفحة	الراوي	طرف الحديث
٦٢٨	البخاري	«إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ولو أمرتهن أن يحتجبن...»
٦٦٣	مسلم	«رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته له ستمائة جناح...» «أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد، لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت...»
٦٦٤	مسلم	
٦٦٦	أحمد وابن ماجه	«أما مررت بوادي أهلك ممحلاً، ثم مررت به يهتز خضراً...»

لعفوه، طالبون لإحسانه وفضله.

ساق تعالى هذه القصة ليُعلمنا أن مصير البخيل ومانع الزكاة إلى التلف، وأنه يرضى ببعض ماله في سبيل الله فيهلك كل ماله مصحوباً بغضب الله، ولذلك عقب تعالى بعد ذكر هذه القصة بقوله ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي مثل هذا العذاب الذي نزل بأهل الجنة ينزل بقريش، ولعذاب الآخرة أعظم وأشد من عذاب الدنيا لو كان عندهم فهم وعلم، قال ابن عباس: هذا مثل لأهل مكة حين خرجوا إلى بدر، وحلفوا ألا يرجعوا إلى مكة حتى يقتلوا محمداً ﷺ وأصحابه، ويشربوا الخمر، وتضرب القينات - المغنيات - على رؤوسهم، فأخلف الله ظنهم، فقتلوا وأُسرُوا وانهزموا كأهل هذه الجنة لما خرجوا عازمين على الصرام فخابوا^(١).. ثم أخبر تعالى عن حال المؤمنين المتقين بعد أن ذكر حال المجرمين من كفار مكة فقال ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النِّعَمَ﴾ أي إن للمتقين في الآخرة حقائق وبساتين ليس فيها إلا النعيم الخالص، الذي لا يشوبه كدر ولا منغص كما هو حال الدنيا ﴿فَنَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْجُرِيمِ﴾؟ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أفسأوي بين المطيع والعاصي، والمحسن والمجرم؟ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟ تعجب منهم حيث إنهم يسوون المطيع بالعاصي، والمؤمن بالكافر، فإن مثل هذه لا يصدر عن عاقل ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾؟ أي هل عندكم كتاب منزل من السماء تقرأون وتدرسون فيه ﴿إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَحْيَوْنَ﴾ هذه الجملة مفعول لتدرسون أي تدرسون في هذا الكتاب أن لكم ما تشتهون وتطلبون؟ وهذا توبيخ آخر للمشركين فيما كانوا يزعمونه من الباطل حيث قالوا: إن كان ثمة بعث وجزاء، فسنعطى خيراً من المؤمنين كما أعطينا في الدنيا قال الطبري: وهذا توبيخ لهؤلاء القوم وتقريع لهم فيما كانوا يقولون من الباطل، ويتمنون من الأمان الكاذبة^(٢) ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَنُ عَلَيْنَا بَلِغَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ أي هل لكم عهود ومواثيق مؤكدة من جهتنا ثابتة إلى يوم القيامة؟ ﴿إِنْ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ﴾ هذا جوابه أي إن لكم الذي تريدونه وتحكمون به؟ قال ابن كثير: المعنى أمعكم عهود ومواثيق مؤكدة أنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون^(٣) ﴿سَلِّمُوا إِلَهُكُمْ بِذَلِكَ رَعِيمٌ﴾ أي سل يا محمد هؤلاء المكابرين أيهم كفيل وضامن بهذا الذي يزعمون؟ وفيه نوع من السخرية والتهكم بهم، حيث يحكمون بأمور خارجة عن العقول، يرفضها المنطق وتأبأها العدالة ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فُلْيَا تَوْشِكًا بِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أي أم لهم شركاء وأرباب يكلفون لهم بذلك، فليأتوا بهم إن كانوا صادقين في دعواهم قال في التسهيل: وهذا تعجيز للكفار والمراد إن كان لكم شركاء يقدرتون على شيء، فأتوا بهم

(١) «تفسير القرطبي» ١٨/٢٤٦.

(٢) «تفسير الطبري» ٢٩/٢٣.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/٥٣٧.

وأحضرهم حتى نرى حالهم^(١). ولما أبطل مزاعمهم وسفه أحلامهم، شرع في بيان أهوال الآخرة وشدائدها فقال ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ أي اذكر يا محمد لقومك ذلك اليوم العصيب الذي يكشف فيه عن أمر فظيع شديد في غاية الهول والشدة، قال ابن عباس: هو يوم القيامة يوم كرب وشدة^(٢)

قال القرطبي: والأصل فيه أن من وقع في شيء يحتاج فيه إلى الجِدِّ سَمَّرَ عن ساقه، فاستعير الساق والكشف عنها موضع الشدة^(٣) كقول الراجز:

قَدْ سَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا فَشُدُّوا وَجَدَّتِ الْحَرْبُ بِكُمْ فَحِدُّوا
﴿وَيَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي ويدعى الكفار للسجود لرب العالمين فلا يستطيعون

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤ / ١٤٠.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣ / ٥٣٨. (ش): هذا أحد القولين في تفسير الآية: أن المراد بها شدة الهول يوم القيامة، وعليه فليست من آيات الصفات. والقول الثاني: أن المراد في الآية هنا أن الله يكشف عن ساقه، ويدل على هذا قول النبي ﷺ: «يُكْشَفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِثَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا» (رواه البخاري ومسلم).

وسبب الخلاف في تفسير الآية أنه ليس في ظاهرها أن ذلك صفة لله تعالى؛ لأنه قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾، ولم يُقَلْ: عن ساق الله، ولا قال: يكشف الرب عن ساقه، وإنما ذكر ساقاً نكرة غير مُعرَّفة ولا مضافة، وهذا اللفظ بمجرد لا يدل على أنها ساق الله، والذين جعلوا ذلك من صفات الله تعالى أثبتوه بالحديث الصحيح المفسر للقرآن. واستدلوا أيضاً بما يلي:

١- إن تنكير الساق في الآية للتعظيم والتفخيم، كأنه قال: يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ عظيمة؛ جلَّتْ عظمتها، وتعالى شأنها أن يكون لها نظير أو مثل أو شبيه.

٢- إن حمل الآية على الشدة لا يصح، لأن اللغة في مثل ذلك أن يقال: كُشِفَتِ الشُّدَّةُ عن القوم، لا كُشِفَ عنها، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الزخرف: ٥٠]، وقال: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ﴾ [المؤمنون: ٧٥]؛ فالعذاب والشدة هو المكشوف لا المكشوف عنه، وأيضاً يوم القيامة تحدث الشدة وتشتد، ولا تزال إلا بدخول الجنة، وهناك - أي في الجنة - لا يُدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ، وإنما يدعون إليه أشد ما كانت الشدة.

٣- أنه أخبر أنه يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ويدعون إلى السجود، والسجود لا يصلح إلا لله، فعلم أنه هو الكاشف عن ساقه، وهذا لا يظهر من مجرد لفظة سَاقٍ، بل بالتركيب والسياق وتدبر المعنى المقصود. ومما يجب أن يُعْلَمَ أن الذين فسروا الآية بالتفسير الأول - أي شدة الهول يوم القيامة - لم ينفوا عن الله تعالى صفة الساق التي ثبتت بها السنة، لكنهم لم يروا أن الآية دالة عليها ولم يعدوها من آيات الصفات، إنما أثبتوا صفة الساق بالسنة ولا منافاة بين القولين، فإله يكشف عن ساقه يوم شدة الهول، وذلك بخلاف المعطلة الذين ينفون صفة الساق، ولا يُثبتونها لا بالقرآن ولا بالسنة، بل حملوا الآية والحديث على شدة الأمر. وهذا وإن كان محتملاً في الآية لكنه لا يحتمل في تفسير الحديث، لورود الساق مضافة إلى الضمير العائد على الله تعالى: «يُكْشَفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ». [انظر: «الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة»، لابن قيم الجوزية (١ / ٢٥٣). «أنوار الهالين في التعقبات على الجلالين» للدكتور محمد بن عبد الرحمن الخميس، (ص: ٣٢-٣٤).]

(٣) «تفسير القرطبي» ١٨ / ٢٤٩.

لأن ظهر أحدهم يصبح طبقاً واحداً، وفي الحديث «يَسْجُدُ لِلَّهِ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لَيْسَ يَسْجُدُ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا»^(١) ﴿خَشَعَةً أَبْصَرُهُمْ﴾ أي ذليلة متواضعة أبصارهم لا يستطيعون رفعها ﴿رَهَقُهُمْ ذُلٌّ﴾ أي تغشاهم وتلحقهم الذلة والهوان ﴿وَقَدْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِمُونَ﴾ أي والحال أنهم كانوا في الدين يدعون إلى السجود وهم أصحاء الجسم مُعَافُونَ فَيَأْتُونَ. قال الإمام الفخر: لا يدعون إلى السجود تعبداً وتكليفاً، ولكن توبيخاً وتعنيفاً على تركهم السجود في الدنيا، ثم إنه تعالى يسلب عنهم القدرة على السجود ويحول بينهم وبين الاستطاعة حتى تزداد حسرتهم وندامتهم على ما فرطوا فيه، حين دُعُوا إليه في الدنيا وهم سالموا الأطراف والمفاصل^(٢) ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ أي اتركني يا محمد ومن يكذب بهذا القرآن لأكفيك شره وأنتقم لك منه!! وهذا منتهى الوعيد ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي سنأخذهم بطريق الاستدرج بالنعم، إلى الهلاك والدمار، من حيث لا يشعرون قال الحسن: كم من مفتون بالثناء عليه، وكم من مغرور بالستر عليه^(٣) قال الرازي: الاستدرج أن يستنزله إليه درجة درجة حتى يورطه فيه، فكلما أذنبوا ذنباً جدّد الله لهم نعمة وأنساهم الاستغفار، فالاستدرج إنما حصل لهم من الإنعام عليهم، لأنهم يحسبونه تفضيلاً لهم على المؤمنين، وهو في الحقيقة سبب لهلاكهم^(٤) ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي أمهلهم وأطيل في أعمارهم ليزدادوا إثماً ﴿إِنْ كِيدَىٰ مِتْنٌ﴾ أي إن انتقامي من الكافرين قوي شديد وفي الحديث «إِنَّ اللَّهَ يُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» ثُمَّ قَرَأَ ﷻ ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِيمٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾^(٥) وإنما سمي إحسانه كيذاً كما سماه استدرجاً لكونه في صورة الكيد، فما وقع لهم من سعة الأرزاق، وطول الأعمار، وعافية الأبدان، إحساناً في الظاهر، وبلاء في الباطن، لأن المقصود معاقبتهم وتعذيبهم به ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ أي أتسألهم يا محمد غرامة مالية على تبليغ الرسالة، فهم مُعْرِضُونَ عن الإيمان بسبب ذلك التكليف الثقيل بذلهم المال؟ والغرض توبيخهم في عدم الإيمان فإن الرسول لا يطلب منهم شيئاً من الأجر قال الخازن: المعنى أطلب منهم أجراً فيثقل عليهم

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري ومسلم. (ش): (فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا): أي يصبح عظاماً بلا مفاصل لا ينشئ عند الرفع والخفض. ساق المؤلف آخر هذا الحديث: (يَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ) ولم يذكر أوّله (يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ) الذي فيه بيان المراد بالساق. (راجع التعليق السابق).

(٢) «التفسير الكبير» ٩٦/٣٠.

(٣) «تفسير القرطبي» ٢٥١/١٨.

(٤) «التفسير الكبير» ٩٦/٣٠.

(٥) أخرجه الشيخان.

محمل الغرامات في أموالهم فيشطهم عن الإيمان^(١) ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ أي أم هل عندهم اللوح المحفوظ الذي فيه الغيب، فهم ينقلون منه أنهم خير من أهل الإيمان، فلذلك أصرروا على الكفر والطغيان؟ وهو استفهام على سبيل الإنكار والتوبيخ ﴿فَأَصْرَارًا لِّكُرْبِكَ﴾ أي فاصبر يا محمد على أذاهم، وامض لما أمرت به من تبليغ رسالة ربك ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ أي ولا تكن في الضجر والعجلة، كيونس بن متى عليه السلام، لما غضب على قومه لأنهم لم يؤمنوا فتركهم وركب البحر ثم التقمه الحوت، وكان من أمره ما كان ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي حين دعا ربه في بطن الحوت وهو مملوء غمًا وغيظًا بقوله ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] ﴿لَوْلَا أَن تَدْرِكُكُمْ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي لولا أن تداركته رحمة الله ﴿لَنُذِيبَ الْعَظْمَ أَوْ هُوَ مَذْمُومٌ﴾ أي لطرح في الفضاء الواسع الخالي من الأشجار والجبال، وهو مُلَامٌ على ما ارتكب، ولكن الله أنعم عليه بالتوفيق للتوبة فلم يبق مذمومًا ﴿فَاجْنِبْهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي فاصطفاه ربه واختاره لنفسه فجعله من المقربين قال ابن عباس: رد الله إليه الوحي وشفعه في قومه^(٢) ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِ﴾ أي ولقد كاد الكفار من شدة عداوتهم لك يا محمد أن يصرعوك بأعينهم ويهلكوك، من قولهم نظر إلي نظرًا كاد يصرعني قال ابن كثير: وفي الآية دليل على أن العين وإصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل، ويؤيده حديث «لَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ»^(٣) ﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ أي حين سمعوك تقرأ القرآن، ويقولون من شدة بغضهم وحسدهم لك إن محمدًا مجنون، قال تعالى ردًا عليهم ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي وما هذا القرآن المعجز إلا موعظة وتذكير للإنس والجن، فكيف ينسب من نزل عليه إلى الجنون؟! ختم تعالى السورة ببيان عظمة القرآن، كما بدأها ببيان عظمة الرسول، ليتناسق البدء مع الختام في أروع بيان وأجمل ختام.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من الفصاحة والبيان نوجزها فيما يلي:

- ١ - الجناس الناقص بين لفظي ﴿لَمَجْنُونٌ﴾ و ﴿مُتْنُونٌ﴾ لا اختلاف الحرف الثاني.
- ٢ - الوعيد والتهديد ﴿فَسَبِّحْهُ وَبُصِّرْهُ ۝٥﴾ بِأَيْتِكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿وَحَذَفَ الْمَفْعُولَ لِلتَّهْوِيلِ.
- ٣ - صيغ المبالغة في ﴿حَلَّافٍ، هَمَّازٍ، مَشَّاءٍ، مَنَاعٍ﴾ وكذلك في ﴿أَيْمٍ... زَنِيمٍ﴾.
- ٤ - الاستعارة القائمة ﴿سَسِيمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ استعارة الخرطوم لأنف لأن أصل الخرطوم للفيل، واستعارته لأنف الإنسان تجعله في غاية الإبداع لأن الغرض الاستهانة به والاستخفاف.
- ٥ - الطباق بين ﴿الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ وبين ﴿صَلَّ... بِالْمُهْتَدِينَ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

(١) «تفسير الخازن» ٤ / ١٤٠.

(٢) «التفسير الكبير» ٣٠ / ٩٩.

(٣) الحديث رواه أحمد والترمذي قال الترمذي: حسن صحيح. (ش): ورواه مُسْلِمٌ.

- ٦ - جناس الاشتقاق ﴿قَطَافٌ عَلَيْهَا طَافٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُرٌّ نَّاطِقُونَ﴾ .
- ٧ - التقرير والتوبيخ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (٣٦) أم لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ؟ والجمل التي بعدها.
- ٨ - التشبيه المقلوب بجعل المشبه به مشبهاً والعكس ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾؟ لأن الأصل أفنجعل المجرمين كالمسلمين في الأجر والمثوبة؟ فقلب التشبيه ليكون أبلغ وأروع.
- ٩ - الكناية الرائقة الفائقة ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ كناية عن شدة الهول، وتفاقم الخطب يوم القيامة^(١).
- ١٠ - السجع المرصع المحبوك، كأنه الدر المنظوم اقرأ الآيات الكريمة ﴿تَّ وَالْقَلِيمَ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (١) مَا أَنْتَ بِغَمَّةٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿ إلخ وتدبر روعة القرآن!

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القلم»



(١) (ش): تقدم أن هناك قولين في تفسير الآية: القول الأول: أن المراد بها شدة الهول يوم القيامة، وعليه فليست من آيات الصفات. والقول الثاني: أن المراد في الآية هنا أن الله يكشف عن ساقه، ويدل على هذا قول النبي ﷺ: «يُكْشَفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِثَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُوذَ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا» (رواه البخاري ومسلم).

سُورَةُ الْحَاقَّةِ

مكية وآياتها ثنتان وخمسون

بين يدي السورة

* سورة الحاقة من السور المكية، شأنها شأن سائر السور المكية في تثبيت العقيدة والإيمان، وقد تناولت أموراً عديدة كالحديث عن القيامة وأهوالها، والساعة وشدائدها، والحديث عن المكذبين وما جرى لهم، مثل قوم عاد، وthumbود، وقوم لوط، وفرعون، وقوم نوح، وغيرهم من الطغاة المفسدين في الأرض، كما تناولت ذكر السعداء والأشقياء، ولكن المحور الذي تدور عليه السورة هو «إثبات صدق» القرآن وأنه كلام الحكيم العليم، وبراءة الرسول ﷺ مما اتهم به أهل الضلال.

* ابتدأت السورة الكريمة ببيان أهوال القيامة والمكذبين بها، وما عاقب تعالى به أهل الكفر والعناد ﴿الْحَاقَّةُ﴾ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَبَتْ ثُمُودُ بِعَادٍ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثُمُودُ فَأَهْلِكُوا بِطَٰغِيَةٍ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ... ﴿الآيات.﴾

* ثم تناولت الوقائع والفجائع التي تكون عند النفخ في الصور، من خراب العالم، واندكاك الجبال، وانشقاق السماوات إلخ ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّنَا ذَكَّةً وَاحِدَةً﴾ ﴿الآيات.﴾

* ثم ذكرت حال السعداء والأشقياء في ذلك اليوم المفزع، حيث يعطى المؤمن كتابه بيمينه، ويلقى الإكرام والإنعام، ويعطى الكافر كتابه بشماله ويلقى الذل والهوان ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابِهِ بِمِيزَانِهِ... وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابِهِ بِشِمَالِهِ...﴾ ﴿الآيات.﴾

* وبعد هذا العرض لأحوال الأبرار والفجار، جاء القسم بالبليغ بصدق الرسول، وصدق ما جاء به من الله، ورد افتراءات المشركين الذين زعموا أن القرآن سحر أو كهانة ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصَرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصَرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾.

* ثم ذكرت البرهان القاطع على صدق القرآن، وأمانة الرسول ﷺ في تبليغه الوحي كما نزل عليه، بذلك التصوير الذي يهز القلب هزاً، ويثير في النفس الخوف والفرع من هول الموضوع ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ...﴾ ﴿الآيات.﴾

* وختمت السورة بتمجيد القرآن وبيان أنه رحمة للمؤمنين وحسرة على الكافرين ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمَنَّ أَنَّكُمْ مُّكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْبَقِيَّةِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَبَتْ ثُمُودُ بِالقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثُمُودُ فَأَهْلِكُوا
 بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ
 حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ
 وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُ كُرْحُ فِي
 الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَنَعْيًا أَدْنَى (١٢) إِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ
 فَدُكْدَكَةٌ وَاحِدَةٌ (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا
 وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ
 بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابَهُ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ حِسَابِيَةٍ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ
 عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْغَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ
 بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ بَلِّغْ بِلِيَّانِي لَمْ أُوتِ كِتَابَهُ (٢٥) وَلَوْ أَدْرَاكَ حِسَابِيَةٍ (٢٦) يَلِيَّتْهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِي (٢٨)
 هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ (٢٩) خَذُوهُ فَعْلُوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢)
 إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حِسْمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ
 غَسَلِينَ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧) فَلَا أَقِيمٌ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا
 هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا نَذْكُرُونَ (٤٢) نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) وَلَوْ لَقَوْلُ عَلَيْنَا بَعْضُ
 الْأَقْوَابِلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ
 لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ
 الْعَظِيمِ

اللغة: ﴿الْحَاقَّةُ﴾ القيامة سُمِّيَتْ حاقَّةً لأنها حقٌّ، مقطوعٌ بوقوعها ﴿صَرْصَرٍ﴾ شديدة
 الصوت والبرد ﴿حُسُومًا﴾ متتابعة لا تنقطع من الحسم وهو القطع قال الشاعر:
 فَذَارَتْ عَلَيْهِمْ فَكَانَتْ حُسُومًا^(١)

﴿رَابِيَةً﴾ زائدة في الشدة والعذاب ﴿وَاهِيَةً﴾ ساقطة القوة، ضعيفة متراخية من قولهم:
 وهي البناء اذا ضعف وتداعى للسقوط ﴿هَؤُلَاءِ﴾ اسم فعل أمر بمعنى خذوا ﴿قُطُوفُهَا﴾
 جمع قُطْف وهو ما يُجْتَنَى من الثمر ويُقَطَف ﴿غَسَلِينَ﴾ صديد أهل النار قال الكلبي: هو ما
 يسيل من أهل النار من القيح والصديد والدم إذا عذبوا فهو ﴿غَسَلِينَ﴾ فعلين^(٢) من الغسل^(٣)

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٣١٩.

(٢) (ش): أي على وزن فعلين.

(٣) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١١٦.

﴿الْوَيْتَنَ﴾ عرق متصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه ويسمى الأبر وفي الحديث «مَا زَالَتْ أَكْلَةُ خَيْرٍ تُعَاوِدُنِي فَهَذَا أَوَانُ انْقِطَاعِ أَبْهَرِي» ^(١) ﴿حَسْرَةً﴾ ندامة عظيمة.

التفسير: ﴿الْحَاقَّةُ﴾ اسم للقيامة سميت بذلك لتحقيق وقوعها، فهي حق قاطع، وأمر واقع، لا شك فيه ولا جدال ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾؟ التكرار لتفخيم شأنها، وتعظيم أمرها، وكان الأصل أن يقال: ما هي؟ ولكنه وضع الظاهر موضع الضمير زيادة في التعظيم والتهويل ﴿وَمَا أَذْرَبُكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾؟ وما أعلمك يا محمد ما القيامة؟ إنك لا تعلمها إذ لم تعانها، ولم تر ما فيها من الأهوال، فإنها من العظم والسدة بحيث لا يحيط بها وصف ولا خيال ^(٢)، وهذا على طريقة العرب فإنهم إذا أرادوا تشويق المخاطب لأمر أتوا بصيغة الاستفهام يقول: أتدري ماذا حدث؟ والآية من هذا القبيل زيادة في التعظيم والتهويل كأنه قال: إنها شيء مريع وخطب فظيع.. ثم بعد أن عظم أمرها وفخم شأنها، ذكر من كذب بها وما حل بهم بسبب التكذيب، تذكيراً للكفار مكة وتخويفاً لهم فقال ﴿كَذَبْتَ ثُمُودٌ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ أي كذب قوم صالح، وقوم هود بالقيامة، التي تفرع القلوب بأهوالها ﴿فَأَمَّا ثُمُودٌ فَأُهْلِكُوا بِالطَّائِفَةِ﴾ أي فأمّا ثمود قوم صالح فأهلكوا بالصيحة المدمرة، التي جاوزت الحد في الشدة قال قتادة: هي الصيحة التي خرجت عن حد كل صيحة ^(٣) ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ أي وأما قوم هود فأهلكوا بالريح العاصفة ذات الصوت الشديد وهي الدبور وفي الحديث «نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكْتُ عَادٌ بِالدَّبُورِ» ^(٤) ﴿عَاتِيَةً﴾ أي متجاوزة الحد في الهبوب والبرودة، كأنها عتت على خزائنها فلم يتمكنوا من ضبطها ^(٥)، قال ابن عباس: ما أرسل الله من ريح قط إلا بمكيال، ولا أنزل قطرة قط إلا بمكيال، إلا يوم نوح ويوم عاد، فإن الماء يوم نوح طغى على الخزان فلم يكن لهم عليه سبيل ثم قرأ ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ ^(٦) ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أي سلطها الله عليهم

(١) نفس المراجع السابق ١١٩/٣٠. (ش): بهذا اللفظ رواه البزار، وابن السنّي، وأبو نعيم في «الطب النبوي»، وصححه الألباني. ورواه البخاري بلفظ: «مَا زَالَ أَجْدُ أَلَمِ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْرٍ، فَهَذَا أَوَانُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السَّمَ».

(٢) قال «أبو السعود»: والتكرار تأكيد لهولها وفضاعتها، ببيان خروجها عن دائرة علم المخلوقات، على معنى أن عظم شأنها ومدى هولها لا تكاد تبلغه دراية أحدٍ ولا وهمه اهـ.

(٣) روي عن مجاهد أن معنى الآية أهلكوا بطغيانهم، والأول أرجح لمقابلته بعذاب عاد، «أبو السعود» ١٨٨/٥.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم. (ش): (نُصِرْتُ بِالصَّبَا) الصَّبَا: هي الرياح الشرقية، الرياح التي تهب من مشرق الشمس ونُصِرْتُ بها ﷺ كانت يوم الخندق إذا أرسلها الله تعالى على الأحزاب باردة في ليلة شاتية فقلعت خيامهم وأطفأت نيرانهم وقلبت قدورهم وكان ذلك سبب رجوعهم وانزاعهم. (وَأُهْلِكْتُ عَادٌ بِالدَّبُورِ) الدَّبُور: هي الرياح الغربية، الرياح التي تهب من مغرب الشمس وبها كان هلاك قوم عاد كما قص علينا القرآن الكريم.

(٥) هذا قول علي وهو مروي عن الكلبي وابن عباس.

(٦) «تفسير الطبري» ٣٢/٢٩، وقد رفعه القرطبي والصحيح أنه موقوف على ابن عباس. (ش): (رفعه القرطبي): =

سبع ليالٍ وثمانية أيام متتابعة لا تفتر ولا تنقطع ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى﴾ أي فترى أيها المخاطب القوم في منازلهم موتى، لا حراك بهم ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ أي كأنهم أصول نخل متأكلة الأجواف قال المفسرون: كانت الريح تقطع رءوسهم كما تقطع رءوس النخل، وتدخُل من أفواههم وتخرج من أدبارهم حتى تصرعهم، فيصبحوا كالنخلة الخاوية الجوف ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾؟ أي فهل ترى أحداً من بقاياهم؟ أو تجد لهم أثراً؟ لقد هلكوا عن آخرهم كقوله تعالى ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ أي وجاء فرعون الجبار، ومن تقدّمه من الأمم الطاغية التي كفرت برسالتها ﴿وَالْمُؤَنَفَكْتُ﴾ أي والأمم الذين انقلبت بهم ديارهم قرى قوم لوط حيث جعل الله عاليها سافلها قال الصاوي: ﴿وَالْمُؤَنَفَكْتُ﴾ أي المنقلبات وهي قرى قوم لوط، التي اقتلعها جبريل ورفعها على جناحه قرب السماء ثم قلبها، وكانت خمس قرى ^(١) ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ أي بالفعلّة الخاطئة المنكرة، وهي الكفر والعصيان ^(٢) ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي فعصى فرعون رسول الله موسى، وعصى قوم لوط رسولهم لوطاً ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ أَخْذَةً زَانِدَةً فِي الشَّدَةِ﴾ على عقوبات من سبّهم، كما أن جرائمهم زادت في القُبْح والشناعة على سائر الكفار ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْبَارِيَةِ﴾ أي لما تجاوز الماء حدّه حتى علا كل شيء وارتفع فوقه حملناكم في السفينة ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ أي لنجعل تلك الحادثة عظةً للناس وعبرة، تدل على انتقام الله ممن كذب رسله ﴿وَتَعِيَهَا أَذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ أي وتحفظها وتذكرها أذن واعية للمواعظ، تنتفع بما تسمع قال القرطبي: والمقصود من قصص هذه الأمم وذكر ما حلّ بهم من العذاب، زجر هذه الأمة عن الاقتداء بهم في معصية الرسول ﷺ ^(٣)، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿وَتَعِيَهَا أَذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ قال قتادة: الواعية هي التي عقلت عن الله وانتفعت بما سمعت من كتاب الله عزّ وجلّ ^(٤). ولما ذكر قصص المكذبين، أتبعه بذكر أهوال القيامة وشدائدها فقال ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي فإذا نفخ إسرافيل في الصور نفخةً واحدة لخراب العالم قال ابن عباس: هي النفخة الأولى التي يحصل عنها خراب الدنيا ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ أي ورفعت الأرض والجبال عن أماكنها، فضرِب بعضها

= أي ذكره منسوباً إلى النبي ص. وما ذكره القرطبي رواه أبو الشيخ الأصبهاني في «العظمة» بإسناد ضعيف. والكلام المنسوب لابن عباس رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف أيضاً.

(١) حاشية الصاوي ٤/ ٢٤٠.

(٢) وقال مجاهد: ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ أي بالذنوب والخطايا التي كانوا يفعلونها. (ش): فعلة: اسم مرّة من فعل: كلمة يُشار بها إلى العمل المُستنكر.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٦٣.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٣٢٢.

بعض حتى تندق وتفتت وتصير كشيأ مهيلًا^(١) ﴿فَيَوْمَذِ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أي ففي ذلك الحين قامت القيامة الكبرى، وحدثت الداهية العظمى ﴿وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَفُيَ يَوْمَذِ وَاهِيَةً﴾ أي وانصدعت السماء فهي يومئذ ضعيفة مسترخية، ليس فيها تماسك ولا صلابة ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ أي والملائكة على أطرافها وجوانبها قال المفسرون: وذلك لأن السماء مسكن الملائكة، فإذا انشقت السماء وقفوا على أطرافها فرعًا مما داخلهم من هول ذلك اليوم^(٢)، ومن عظمة ذي الجلال، الكبير المتعال ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَذِ ثَمِينَةً﴾ أي ويحمل عرش الرحمن ثمانية من الملائكة العظام فوق رؤوسهم وقال ابن عباس: ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله^(٣) ﴿يَوْمَذِ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب، تعرضون على ملك الملوك ذي الجلال للحساب والجزاء، لا يخفى عليه منكم أحد، ولا يغيب عنه سر من أسراركم، لأنه العالم بالظواهر والسرائر والضمائر ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء في ذلك اليوم فقال ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَكَ كُنُوبَهُ بِيَمِينِهِ﴾ أي فأما من أعطي كتاب أعماله بيمينه لأنه من السعداء ﴿فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَأَكْنِيَّةُ﴾ أي فيقول ابتهاجًا وسرورًا: خذوا اقراءوا كتابي، والهاء في ﴿كُنُوبِهِ﴾ هاء السكت^(٤) وكذلك في ﴿حِسَابِيَّةٍ﴾ و ﴿مَالِيَّةٍ﴾ و ﴿سُلْطَانِيَّةٍ﴾ قال الرازي: ويدل قوله ﴿هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَأَكْنِيَّةُ﴾ على أنه بلغ الغاية في السرور، لأنه لما أعطي كتابه بيمينه، علم أنه من الناجين ومن الفائزين بالنعيم، فأحب أن يظهر ذلك لغيره حتى يفرحوا بما ناله^(٥) ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْئِقٌ حِسَابِيَّةٍ﴾ أي إني أيقنت وتحققت بأني سألقى حسابي وجزائي يوم القيامة، فأعددت له العدة من الإيمان، والعمل الصالح قال الحسن: إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل، وإن المنافق أساء الظن بربه فأساء العمل^(٦) وقال الضحاك: كل ظن في القرآن من المؤمن فهو

(١) (ش): قال المؤلف في تفسير قوله تعالى في سورة المزمل: ﴿وَكُنْتَ الْجِبَالُ كِثْبًا مَهِيلًا﴾: أي وتصبح الجبال على

صلابتها تلاً من الرمل سائلاً متناثراً، بعد أن كانت صلبة جامدة.

(٢) (ش): داخل الأمر فلاناً: تسرب إلى نفسه ووقع فيها.

(٣) القول الأول قول ابن زيد وهو الأظهر، ويؤيده حديث «حملة العرش اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة قواهم الله بأربعة آخرين فكانوا ثمانية» وانظر «تفسير الطبري» ٣٨ / ٢٩. (ش): هذا الحديث رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف.

(٤) (ش): هاء السكت - وتسمى: هاء الاستراحة: هاء تضاف في نهاية الكلمة بعد حركة طويلة أو قصيرة عند الوقف مثل: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَتْهُمْ أَقْتَدَةُ﴾ [الأنعام: ٩٠].

(أَقْتَدَةُ): أَقْتَدَ. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةُ﴾ [القارعة: ١٠] [مَا هِيَّةُ]: مَا هِيَ. فنأديت القبور فلم يُجِبْنَهُ، (فلم يُجِبْنَهُ): فلم يُجِبْنَ. غامت السماء ولم تصف. (وَلَمْ تَصْفُ): لم تصف.

(عَمَّةُ؟): عَم؟ (لَمَّةُ؟): لِم؟ (فِيَمَّةُ؟): فِيم؟

(٥) «التفسير الكبير» ١١١ / ٣٠.

(٦) «تفسير القرطبي» ٢٧٠ / ١٨.

يقين، ومن الكافر فهو شك^(١).. قال تعالى مبيناً جزاءه ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أي فهو في عيشة هنيئة مرضية، يرضى بها صاحبها، لما ورد في الصحيح «أنهم يعيشون فلا يموتون أبداً، ويصحون فلا يمرضون أبداً، وينعمون فلا يرون بؤساً أبداً»^(٢) ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي في جنة رفيعة القدر، وقصور عالية شاهقة ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ أي ثمارها قريبة، يتناولها القائم، والقاعد، والمضطجع قال في التسهيل: القُطُوف جمع قُطِف وهو ما يجتنى من الثمار ويقطف كالعنقود، روي أن العبد يأخذها بفمه من شجرها وهو قائم أو قاعد أو مضطجع^(٣) ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ أي يقال لهم تفضلاً وإنعاماً: كلوا واشربوا أكلاً وشرَباً هنيئاً، بعيداً عن كل أذى، سالماً من كل مكروه ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ أي بسبب ما قدمتم من الأعمال الصالحة في الأيام الماضية يعني أيام الدنيا.. ولما ذكر حال السعداء أعقبه بذكر حال الأشقياء فقال ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالٍ﴾ أي وأما من أعطي كتابه بشماله وهذه علامة الشقاوة والخسران ﴿فَيَقُولُ يَلَيِّنِي لَرَأُوتُ كِتَابِيَّةً﴾ أي فيقول إذا رأى قبائح أعماله: يا ليتني لم أعط كتابي قال المفسرون: وذلك لما يحصل له من الخجل والافتضاح فيتمنى عندئذ أنه لم يعط كتاب أعماله، ويندم أشد الندم ﴿وَلَمْ أَذِرْ مَا يَجَاسِيَةٌ﴾ أي ولم أعرف عظم حسابي وشدته، والاستفهام للتعظيم والتهويل ﴿يَلَيِّنَهَا كَأَنَّ الْقَاضِيَةَ﴾ أي ياليت الموتة الأولى التي مِتُّها في الدنيا، كانت القاطعة لحياتي، فلم أبعث بعدها ولم أعذب قال قتادة: تمنى الموت^(٤) ولم يكن شيء عنده أكره من الموت، لأنه رأى تلك الحالة أشنع وأمر ممّا ذاقه من الموت ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةُ﴾ أي ما نفعتني مالي الذي جمعته ولا دفع عني من عذاب الله شيئاً ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾ أي زال عني ملكي وسلطاني، ونسبي وجاهي، فلا معين لي ولا مجير، ولا صديق ولا نصير ﴿خُذُوهُ فَعُلُوهُ﴾ أي يقول تعالى لزبانية جهنم: خذوا هذا المعجرم الأثيم فشدوه بالأغلال قال القرطبي: فيبتدره مائة ألف ملك، ثم تجمع يده الى عنقه، فذلك قوله تعالى: ﴿فَعُلُوهُ﴾^(٥) ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلَّوهُ﴾ أي ثم أدخلوه النار العظيمة المتأججة، ليصلّى حرّها ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ أي ثم أدخلوه في سلسلة حديدية طولها سبعون ذراعاً قال ابن عباس: بذراع الملك، تدخل السلسلة من دبره،

(١) نفس المراجع السابق والصفحة.

(٢) (ش): عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله، حدثنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: «لَبَنَةٌ ذَهَبٌ وَلَبَنَةٌ فِضَّةٌ، وَمِلَاطُهَا الْمِسْكُ الْأَذْفَرُ، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ، وَتُرَابُهَا الرَّعْقَرَانُ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ وَلَا يَبْئَسُ، وَيَخْلُدُ وَلَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى سَبَابُهُ» (رواه أحمد والترمذي، وصححه الألباني). (مِلَاطُ): طين يُجعل بين حجرين في البناء، مؤنة البناء. (أَذْفَرُ): أي: طيب الريح.(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٤٣. (ش): قال البراء بن عازب رضي الله عنه في هذه الآية قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ: «يتناول الرجل من فواكهها وهو نائم» (رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد صحيح).

(٤) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٣٩.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٧٢.

وتخرج من حلقة، ثم يجمع بين ناصيته وقدميه^(١) والسلسلة هي حلق منتظمة، كل حلقة منها في حلقة، يلف بها حتى لا يستطيع حراكًا. لَمَّا بَيَّنَّ العذاب الشديد بَيَّنَّ سببه فقال ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ أي كان لا يصدّق بوحدانية الله وعظمته^(٢) قال في البحر: بدأ بأقوى أسباب تعذيبه وهو كفره بالله، وهو تعليل مستأنف كأن قائلًا قال: لم يعذب هذا العذاب البليغ؟ فأجيب إنه كان لا يؤمن بالله^(٣) ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ أي ولا يحث نفسه ولا غيره على إطعام المسكين قال المفسرون: ذكر الحَضُّ دون الفعل للتنبيه على أن تارك الحَضِّ بهذه المنزلة، فكيف بتارك الإحسان والصدقة؟ ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ﴾ أي فليس له في الآخرة صديق يدفع عنه العذاب، لأن الأصدقاء يتحاشون، ويفرون منه ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ أي وليس له طعام إلا صديد أهل النار، الذي يسيل من جراحاتهم^(٤) ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ أي لا يأكله إلا الآثمون المجرمون المرتكبون للخطايا والآثام قال المفسرون: ﴿الْخَاطِئُونَ﴾ جمع خاطئ وهو الذي يتعمّد الذنب، والمخطيء الذي يفعل الشيء خطأً دون قصد، ولهذا قال ﴿الْخَاطِئُونَ﴾ ولم يقل المخطئون.. ولما ذكر أحوال السعداء من أهل الجنة، ثم أحوال الأشقياء من أهل النار، ختم الكلام بتعظيم القرآن فقال ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصَرُونَ﴾^(٥) وَمَا لَا تُبْصَرُونَ﴾ أي فأقسم بالمشاهدات والمغيبات، أقسم بما ترونه وما لا ترونه، مما هو واقعٌ تحت الأبصار، وما غاب وخفي عن الأنظار^(٥)، و﴿لَا﴾ في قوله ﴿فَلَا أَقْسِمُ﴾ لتأكيد القسم وليست نافية^(٦) قال الإمام الفخر: والآية تدل على العموم والشمول، لأنها لا تخرج عن قسمين: مبصر وغير مبصر، فشملت الخالق والخلق، والدنيا والآخرة، والأجسام والأرواح، والإنس والجن، والنعم الظاهرة والباطنة^(٧) قال قتادة: هو عام في جميع مخلوقاته جلّ وعلا، وقال عطاء: ما تبصرون

(١) «التفسير الكبير» ٣٠/١١٤، وقال الحسن: الله أعلم بأي ذراع هو؟.

(٢) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح.

(٣) «البحر المحيط» ٨/٣٢٦.

(٤) نقله الطبري عن ابن عباس، وقال قتادة: شر الطعام وأخبثه وأبشعه.

(٥) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الخالق يُقسم بما شاء من خلقه، وأن المخلوق لا ينبغي له أن يُقسم إلا بالخالق. قال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». وفي رواية: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ» (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه أدرك عمر ابن الخطاب في ركب وهو يخلف أبيه، فتأذاهم رسول الله ﷺ: «أَلَا، إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ» (رواه البخاري ومسلم).

(٦) هذا هو القول الراجح بدليل ذكر جواب القسم: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وقيل: إنها نافية كأنه قال: لا يحتاج الأمر إلى قسم لوضوح الحق وسطوعه.

(٧) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/١١٦.

من آثار القدرة، وما لا تبصرون من أسرار القدرة^(١) ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أي إن هذا القرآن كلام الرحمن، يتلوه ويقرؤه رسول كريم، هو محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم قال القرطبي: والرسول ههنا محمد ﷺ ونسب القول إليه لأنه تاليه ومبلغه عن الله تعالى^(٢) ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ أي وليس القرآن كلام شاعر كما تزعمون، لأنه مُبَيِّنٌ لأوزان الشعر كلها^(٣)، فليس شعراً ولا نثراً ﴿قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ﴾ أي قلما تؤمنون بهذا القرآن قال مقاتل: يعني بالقليل أنهم لا يصدقون بأن القرآن من الله، بمعنى لا يؤمنون به أصلاً، والعرب تقول: قلما يأتيها يريدون لا يأتيها^(٤) ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ﴾ أي وليس هو بقول كاهن يدعي معرفة الغيب، لأن القرآن يُغَايِرُ بأسلوبه سجع الكهان^(٥) ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي قلما تتذكرون وتتعتون ﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي هو تنزيل من رب العزة جل وعلا كقوله تعالى: ﴿وَلَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء] والغرض من الآية تبرئة الرسول ﷺ مما نسب إليه المشركون من دعوى السحر والكهانة، ثم أكد ذلك بأعظم برهان على أن القرآن من عند الله فقال ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ أي لو اختلق محمد الأقوال، ونسب إلينا ما لم نقله ﴿لَاخْذَنَامُنُهُ بِالْإِمِينِ﴾ أي لا نتقمنا منه بقوتنا وقدرتنا^(٦) ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾

(١) «تفسير الألوسي» ٢٩ / ٥٢.

(٢) القرطبي ١٨ / ٢٧٤.

(٣) (ش): مُبَايِنٌ: مُخَالَفٌ.

(٤) «التفسير الكبير» ٣٠ / ١١٧.

(٥) (ش): يُغَايِرُ: يُخَالَفُ.

(٦) هذا قول ابن عباس ومجاهد. (ش): قال الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٣ / ٥٩٢ - ٥٩٣): ﴿لَاخْذَنَامُنُهُ بِالْإِمِينِ﴾ يقول: لأخذنا منه بالقوة منا والقدرة، ثم لقطعنا منه نياط القلب، وإنما يعني بذلك أنه كان يعاجله بالعقوبة، ولا يؤخره بها. وقد قيل: إن معنى قوله: ﴿لَاخْذَنَامُنُهُ بِالْإِمِينِ﴾: لأخذنا منه باليد اليمينية من يديه؛ قالوا: وإنما ذلك مثل، ومعناه: إنا كنا ندله ونهينه، ثم نقطع منه بعد ذلك الوتين، قالوا: وإنما ذلك كقول ذي السلطان إذا أراد الاستخفاف ببعض من بين يديه لبعض أعوانه، خذ بيده فأقمه، وافعل به كذا وكذا، قالوا: وكذلك معنى قوله: ﴿لَاخْذَنَامُنُهُ بِالْإِمِينِ﴾ أي لأهناه كالذي يفعل بالذي وصفنا حاله اهـ. والنياط: عرق غليظ ممتد من الرئتين ومتصل بالقلب، فإذا قطع مات صاحبه. وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٨ / ٢١٨): ﴿لَاخْذَنَامُنُهُ بِالْإِمِينِ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ لَا نَتَقَمَّنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ؛ لِأَنَّهَا أَشَدُّ فِي الْبَطْشِ، وَقِيلَ: لَاخْذَنَامُنُهُ بِالْيَمِينِ اهـ. إذن في تفسير الآية قولان: ١ - قول ينسب اليمين لله. ٢ - قول يقول: إن معنى الآية: لأخذنا بيده اليمينية، والأخذ في الآية معناه الإهانة والإذلال. وليس في أحد القولين تأويل بمعناه الاصطلاحي أي: إخراج النص عن ظاهره، إذ كلا القولين في تفسير الآية محتتمل من غير مرجح لأحدهما، فيمكن أن يكون المعنى لأخذنا يمينه أي بيمين العبد، ويمكن أن يقال لأخذنا منه باليمين، أي: بأيماننا، ويمكن أن يقال أن المراد بأيماننا أي: بأيدينا، ويمكن أن يكون المعنى مجازياً بمعنى القوة والقدرة، وهذه الآراء سائغة في تفسير الآية، والقول بأن هذه التفسيرات تأويل للنص غير صحيح، فإن دلالة النص غير قطعية ولا ظاهرة في معنى خاص، وإنما النص بذاته محتتمل، فالقول بأحد القولين السابقين في تفسير الآية ليس تأويلاً بالمعنى الاصطلاحي، وإنما هو من خلاف التنوع في التفسير. =

أي ثم لقطعنا نياط قلبه^(١) حتى يموت قال القرطبي: والوتين عرق يتعلق به القلب، إذا انقطع مات صاحبه^(٢) والغرض أنه تعالى يعاجله بالعقوبة ولا يمهلها، لو نسب إلى الله شيئاً ولو قليلاً، فإن تسمية الأقوال بالأقويل للتصغير والتحقير ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزٌ﴾ أي فما يقدر أحد منكم أن يحجز بيننا وبينه، لو أردنا حينئذ عقوبته، ولا أن يدفع عنه عذابنا قال الخازن: المعنى: إن محمداً لا يتكلم الكذب علينا لأجلكم، مع علمه أنه لو تكلم لعاقبناه، ولا يقدر أحد على دفع عقوبتنا عنه^(٣) ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي وإن هذا القرآن لعظة للمؤمنين والملتزمين الذين يخشون الله، وخص المتقين بالذكر لأنهم المنتفعون به ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّكُمْ مِّمَّنْ كَاذِبِينَ﴾ أي ونحن نعلم أن منكم من يكذب بهذا القرآن مع وضوح آياته، ويزعم أنه أساطير الأولين، وفي الآية وعيد لمن كذب بالقرآن^(٤) ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي وإنه لحسرة عليهم في الآخرة، لأنهم يتأسفون إذا رأوا ثواب من آمن به ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي وإنه لحق يقيني لا يحوم حوله ريب، ولا يشك عاقل أنه كلام رب العالمين ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي فزهدك ربك العظيم عن السوء والنقائص، واشكره على ما أعطاك من النعم العظيمة، التي من أعظمها نعمة القرآن.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من الفصاحة والبيان نوجزها فيما يلي:

- ١ - الإطناب بتكرار الاسم للتهويل والتعظيم ﴿الْحَاقَّةُ﴾ إلخ.
- ٢ - التفصيل بعد الإجمال زيادة في البيان ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ ثم فصله بقوله ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَاهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾^(٥) وأما عاد ﴿وَأَمَّا عادٌ﴾ الآية وفيه لف ونشر مرتب.
- ٣ - التشبيه المرسل المجمل ﴿فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ ذكرت الأداة وحذف وجه الشبه.
- ٤ - الاستعارة اللطيفة الفائقة ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ الطغيان من صفات الإنسان، فشبه ارتفاع الماء وكثرته، بطغيان الإنسان على الإنسان بطريق الاستعارة.
- ٥ - جناس الاشتقاق مثل ﴿وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ ومثل ﴿لَا تَخَفْنِي مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾.
- ٦ - المقابلة البديعة ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كُنْبَهُ بِإِيمَانِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَوْفَىٰ كُنْبِي﴾ قابلها بقوله ﴿وَأَمَّا

= وقد ثبتت صفة اليد اليمنى لله بنصوص أخرى دالة على حقيقة اليد من القرآن والسنة الصحيحة. فقد وردت صفة اليد مضافة لله في آيات كثيرة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُفَقِّ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ فأثبتت هذه الآية صفة البدين لله تعالى، ووصفتها بالبسط دلالة على سعة الكرم والعطاء. وقوله تعالى: ﴿يَا إِبْرَاهِيمَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ نَبِيًّا وَتَزَكَّىٰ وَنَسَبْنَا سَمَّكَ بِأَبِيكَ وَإِسْمُكَ كَانَ مِنْ أَقْسَامِهِ أَنْ يَدْعُوا بِهِ نَحْنُ وَنَحْنُ الْمُسْلِمُونَ﴾ والمسلم عند إثباته صفة اليد لله وغيرها يجب عليه تجنب كل سبيل لتخيل هذه الصفة أو تلك، فالله ليس كمثله شيء، وصفاته ليست كصفات المخلوقين.

(١) (ش): النياط: عرق غليظ ممتد من الرئتين ومتصل بالقلب، فإذا قطع مات صاحبه.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٨ / ٢٧٦.

(٣) «تفسير الخازن» ٤ / ١٤٨.

(٤) الظاهر أن الضمير يعود إلى القرآن. وقال الطبري: وإن التكذيب لحسرة وندامة على الكافرين، وهو قول مقاتل.

مَنْ أَوْفَى كَيْدَهُ بِشِمَالِهِ... ﴿الخب وهي من المحسنات البديعية.

٧ - طباق السلب ﴿فَلَا أَقِيمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿.

٨ - الكناية ﴿لَاخْذَنَامُهُ بِالْيَمِينِ﴾ لفظ اليمين كناية عن القوة والقدرة^(١).

٩ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (١١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿(٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ ومثل ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿(٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ ويسمى في علم البديع السجع المرصع والله أعلم.

تنبيه: روى الحافظ ابن كثير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: خرجت أعترض سول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد فقامت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن، قال فقلت في نفسي: هذا والله شاعر كما قالت قريش، فقرأ ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿ فقلت: كاهن، فقرأ ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تُذَكِّرُونَ﴾ الخ السورة، قال: فوقع في قلبي الإسلام كل موقع، حتى هداني الله تعالى له.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحاقة»



(١) (ش): راجع التعليق على تفسير الآية.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ

مكية وآياتها أربع وأربعون

بين يدي السورة

* سورة المعارج من السور المكية، التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية، وقد تناولت الحديث عن القيامة وأهوالها، والآخرة وما فيها من سعادة وشقاوة، وراحة ونصب، وعن أحوال المؤمنين والمجرمين، في دار الجزاء والخلود، والمحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هو الحديث عن كفار مكة وإنكارهم للبعث والنشور، واستهزاؤهم بدعوة الرسول ﷺ.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن طغيان أهل مكة، وعن تمردهم على طاعة الرسول ﷺ، واستهزائهم بالإنذار والعذاب الذي خُوفوا به، وذكرت مثلاً لطغيانهم بما طلبه بعض صناديدهم وهو «النضر بن الحارث» حين دعا أن ينزل الله عليه وعلى قومه العذاب العاجل، ليستمتعوا به في الدنيا قبل الآخرة، وذلك مكابرة في الجحود والعناد ﴿سَأَلُوكَ بِعَذَابِ الْوَاقِعِ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ الآيات.

* ثم تناولت الحديث عن المجرمين في ذلك اليوم الفظيع الذي تنفطر فيه السماوات، وتتطاير فيه الجبال فتصير كالصوف الملون ألواناً غريبة ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلْهِلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلَا يَنْتَلِ حِمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُصْرُوهُمْ يُودُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَحْبِهِ وَآخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾.

* ثم استطردت السورة إلى ذكر طبيعة الإنسان، فإنه يجزع عند الشدة، ويطر عند النعمة، فيمنع حق الفقير والمسكين ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾.

* ثم تحدثت عن المؤمنين وما اتصفوا به من جلائل الصفات، وفضائل الأخلاق، وبينت ما أعد الله لهم من عظيم الأجر في جنات الخلد والنعيم ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ﴾ الآيات.

* ثم تناولت الكفرة المستهزئين بالرسول، الطامعين في دخول جنات النعيم ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧) يُطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾.

* وختمت السورة الكريمة بالقسم الجليل برب العالمين على أن البعث والجزاء حق لا ريب فيه، وعلى أن الله تعالى قادر على أن يخلق خيراً منهم ﴿فَلَا أَقِيمُ رَبًّا لِمَشْرِقٍ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَى أَنْ نَبْدِلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ...﴾ إلى قوله: ﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَأَصْبَرَ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْتَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا ﴿١٠﴾ يَبْصُرُونَهُ يَوْمَذُ الْمُجْرِمِ وَلَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَكَّلُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَأُظْلَى ﴿١٥﴾ نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى ﴿١٦﴾ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴿١٧﴾ وَجَمْعَ فَاوَعَى ﴿١٨﴾ إِنْ الْإِنْسَانُ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمَصْلِينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّنَاتٍ مِنَ اللَّهِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنْ أَبْغَى وِرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِيلَ لَهُمْ مَهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَنْطَمَعَ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا أَقْسِمُ رَبِّي لِلْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَى أَنْ نُبْدِلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْتُورِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرَهُمْ يَحْزَنُونَ وَلَبِعُوا حَتَّى يَلْقَوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَشِيعَةً ابْصُرُهُمْ زُرْهَهُمْ ذَلِكَ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ

اللغة: ﴿المعارج﴾ المصاعد والمدارج التي يرتقي بها الإنسان جمع معراج وهو المصعد، والعروج الارتفاع إلى السماء ومنه معراج النبي ﷺ ﴿كأنهم﴾ النحاس المذاب ﴿كأنهم﴾ الصوف المنفوش ﴿وفصيلته﴾ الفصيلة: العشيرة الذين فصل عنهم وتوَلَّى منهم ﴿لظنى﴾ اسم لجهنم سميت بذلك لأن نيرانها تتلظى؛ أي: تلتهب ﴿للشوى﴾ جمع شواة وهي جلدة الرأس قال الأعشى:

قَالَ قَتِيلَةُ مَا لَهُ قَدْ جُلَلْتُ شَيْبًا شَوَاتُهُ^(١)

﴿هلوعاً﴾ كثير الجزع والضجر، قال أبو عبيدة: الهلوع هو الذي إذا مسه الخير لم يشكر، وإذا مسه الضر لم يصبر^(٢) ﴿عزِينَ﴾ جماعات متفرقين جمع عِزَّة وهي الجماعة المتفرقة قال الشاعر:

فَجَاءُوا يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ حَتَّى يَكُونُوا حَوْلَ مِنْبَرِهِ عَزِينًا^(٣)

(١) التفسير الكبير ٣٠/١٢٨. (ش): جُلَلْتُ شَيْبًا شَوَاتُهُ: أي غَطَّى الشَّيْبُ جِلْدَةَ رَأْسِهِ.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٨/٢٩٠.

(٣) روح المعاني ٢٩/٦٤. (ش): يُهْرَعُونَ: يُسْرَعُونَ.

﴿يُوفُونَ﴾ يسرعون يقال: أوفض البعير إذا أسرع السير^(١).

سَبَبُ التَّزُولِ: عن ابن عباس أن النضر بن الحارث قال حين خَوَّفَهُمْ رسول الله ﷺ من عذاب الله ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ ① ﴿لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾^(٢).

التفسير: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي دعا داع من كفار مكة لنفسه ولقومه عذاب واقع لا محالة قال المفسرون: السائل هو «النضر بن الحارث» من صناديد قريش وطواغيتها، لما خوفهم رسول الله عذاب الله قال ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ وَأَثْبِتْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] فأهلكه الله يوم بدر، ومات شرب ميتة، ونزلت الآية بزمه ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ أي دعا بهذا العذاب على الكافرين ﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ أي لا راد له إذا أراد الله وقوعه، وهو نازل بهم لا محالة، سواء طلبوه أو لم يطلبوه، وإذا نزل العذاب فلن يرفع أو يدفع ﴿مَنْ أَلَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ أي هو صادر من الله العظيم الجليل، صاحب المصاعد التي تصعد بها الملائكة، وتنزل بأمره ووحيه، ثم فصل ذلك بقوله ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ أي تصعد الملائكة الأبرار وجبريل الأمين^(٣) الذي خصه الله بالوحي إلى الله عز وجل ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مَقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي في يوم طوله خمسون ألف سنة من سني الدنيا^(٤) قال ابن عباس: هو يوم القيامة جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة ثم يدخلون النار للاستقرار^(٥) قال المفسرون: الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى في سورة السجدة ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مَقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥] أن القيامة مواقف ومواطن، فيها خمسون موطنًا كل موطن ألف سنة، وأن هذه المدة الطويلة تخف على المؤمن حتى تكون أخف عليه من صلاة مكتوبة^(٦) ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ أي فاصبر يا محمد على استهزاء قومك وأذاهم ولا

(١) «البحر المحيط» ٨ / ٣٣٢.

(٢) (ش): عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال في قوله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾: «هو النضر بن الحارث بن كلفة». (حسن، رواه النسائي في «تفسيره»، والحاكم، وصححه ووافقه الذهبي).

(٣) إنما أفرد جبريل بالذكر وإن كان من جملة الملائكة لشرفه وفضل منزلته، وهو المسمى بالروح لقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾.

(٤) (ش): حذفت النون للإضافة. فكلمة «سنون» ترفع بالواو، وتنصب وتجر بالياء، لأنها ملحقة بجمع المذكر السالم، وذهب قومٌ منهم الفراء إلى أنه يجوز في سنين أن تلزمها الياء ويكون الإعراب على النون فتقول: هذه سنين، ورأيت سنينًا، ومررت بسنين. وهي لغة غير مشهورة.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٨ / ٢٨٢.

(٦) أخرج الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: قيل: يا رسول الله ما أطول هذا اليوم! فقال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ، حَتَّى يَكُونَ أَخَفُّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيَهَا فِي الدُّنْيَا». (ش): رواه أحمد وابن حبان بإسناد ضعيف. (ش): ورد في سورة الحج قوله تعالى ﴿وَلَا تَجِدُ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ وفي سورة السجدة ﴿تُعْرَجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مَقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ وفي سورة المعارج =

تضجر، فإن الله ناصرٌك عليهم، وهذا تسليّةٌ له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لأن استعجال العذاب إنما كان على وجه الاستهزاء برسول الله ﷺ فأمره الله بالصبر قال القرطبي: والصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه، ولا شكوى لغير الله ^(١) ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ أي إن هؤلاء المستهزئين يستبعدون العذاب ويعتقدون أنه غير نازل، لأنكارهم للبعث والحساب ﴿وَرَنَّهُ قَرِيبًا﴾ أي ونحن نراه قريبًا لأن كل ما هو آتٍ قريب. ثم أخبر تعالى عن هول العذاب وشدته وعن أهوال يوم القيامة فقال ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلْهِلْ﴾ أي تكون السماء سائلة غير متماسكة، كالرصاص المذاب قال ابن عباس: كدُرْدِي الزَّيْتِ أي كَعَكْرِ الزَّيْتِ ^(٢) ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ أي وتكون الجبال متناثرة متطايرة، كالصوف المنفوش إذا طَيَّرْتُهُ الريح قال القرطبي: العهن الصوف الأحمر أو ذو الألوان، شبه الجبال به في تلونها ألوانًا، وأول ما تتغير الجبال تصير رملاً مهياً، ثم عنها منفوشاً، ثم هباءً منثوراً ^(٣).. هذه حال السماء والأرض في ذلك اليوم المفزع، أما حال الخلائق فهي كما قال تعالى ﴿وَلَا يَسْتَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا﴾ أي لا يسأل صديق صديقه، ولا قريب قريبه عن شأنه، لشغل كل إنسان بنفسه، وذلك لشدة ما يحيط بهم من الهول والفرع ﴿يُبْصَرُونَهُمْ﴾ أي يرونهم ويعرفونهم، حتى يرى الرجل أباه وأخاه وقرباته وعشيرته، فلا يسأله ولا يكلمه بل يفر منه كقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ^(٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ^(٥) وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ ^(٦) لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧] قال ابن عباس: ﴿يُبْصَرُونَهُمْ﴾ أي يعرف بعضهم بعضاً ويتعارفون بينهم، ثم يفر بعضهم من بعض ^(٤) ﴿يُودُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ أي يتمنى الكافر مرتكب جريمة الجحود والتكذيب لو يفدي نفسه من عذاب الله، بأعز من كان عليه في الدنيا من ابن، وزوجة، وأخ ﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَكَّلُ﴾ أي وعشيرته التي كانت تضمه إليها،

= ﴿مَعْرِجُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، وقد كثرت أقوال أهل التفسير في تحديد هذه الأيام وأحسن ما يقال فيها إن اليوم الذي ذكر في سورة الحج هو عبارة عن الزمان وتقديره عند الله، وأن آية السجدة هي في نزول الملائكة بالأمر وعروجهم به في الدنيا، وإن آية المعارج هي في يوم القيامة. قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: «مَا مِنْ صَاحِبٍ ذَهَبَ وَلَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صَفَّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُخِصِي عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيَكْوَى بِهَا جَنْبَهُ وَجَبِينَهُ وَظَهْرَهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ». (رواه مسلم).

(١) «تفسير القرطبي» ١٨ / ٢٨٤.

(٢) وهذا قول مجاهد كذا في «الطبري» ٢٦ / ٤٦. (ش): (عَكَرَ الزَّيْتِ): الدَّنَسُ والدرن الذي تحت الزيت.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٨ / ٢٨٥. (ش): قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَغِيَابٍ مَهِيلاً﴾ [المزمل: ١٤] أي رملاً سائلاً متناثراً. وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] أي

كالصوف متعدد الألوان الذي يُنْفَش باليد، فيصير هباءً ويُرْوَل. وقال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ^(٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا﴾ [الواقعة: ٥، ٦] وَفُتَّتِ الجبال تفتيتاً دقيقاً، فصارت غباراً متطيراً في الجو قد ذرَّته الريح.

(٤) «تفسير الطبري» ٢٦ / ٤٦.

ويتكل في نوائبه عليها، وليس هذا فحسب بل يتمنى لو يفتدي بجميع أهل الأرض ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ أي وبجميع من في الأرض من البشر وغيرهم ثم ينجو من عذاب الله، ولكن هيهات أن ينجو المجرم من العذاب، أو ينقذه ذلك من شدة الكرب، وفادح الخطب، قال الإمام الفخر: ﴿ثُمَّ﴾ لا استبعاد للإنجاء يعني يتمنى لو كان هؤلاء جميعاً تحت يده، وبذلهم في فداء نفسه ثم ينجيه ذلك، وهيهات أن ينجيه^(١) ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْلَى﴾ ﴿كَلَّا﴾ أداة زجر وتعنيف أي لينزجر هذا الكافر الأثيم وليرتدع عن هذه الأمانى، فليس ينجيه من عذاب الله فداء، بل أمامه جهنم، تتلظى نيرانها وتلتهب ﴿نَزَاعَةً لِّلشَّوَى﴾ أي تنزع بشدة حرها جلدة الرأس^(٢) من الإنسان كلما قلعت عادت كما كانت زيادة في التكيل والعذاب، وخصّها بالذكر لأنها أشد الجسم حساسيةً وتأثراً بالنار ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ أي تنادي جهنم وتهتف بمن كذب بالرحمن، وأعرض عن الإيمان، قال ابن عباس: تدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم بلسان فصيح تقول: إِيَّيَّيَا كَافِرٍ، إِيَّيَّيَا مُنَافِقٍ، ثم تلتقطهم كما يلتقط الطير الحب^(٣) ﴿رَجَعَ فَأَوْعَى﴾ أي وتدعو من جمع المال وخبأه وكنزه في الخزائن والصناديق، ولم يؤد منه حق الله وحق المساكين قال المفسرون: والآية وعيدٌ شديد لمن يبخل بالمال، ويحرص على جمعه، فلا ينفقه في سبيل الخير، ولا يخرج منه حق الله وحق المسكين، وقد كان الحسن البصري يقول: يا ابن آدم سمعت وعيد الله ثم وعيت الدنيا جمعتها من حلالٍ وحرام!! ثم أخبر تعالى عن طبيعة الإنسان، وما جبل عليه من الحرص الشديد على جمع حطام الدنيا فقال ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ أي إن الإنسان جبل على الضجر، لا يصبر على بلاء، ولا يشكر على نعماء قال المفسرون: الهلع: شدة الحرص وقلة الصبر، يقال: جاع فهِلَعَ^(٤)، والمراد بالإنسان العموم بدليل الاستثناء، والاستثناء معيار العموم، ثم فسره تعالى بقوله ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ أي إذا نزل به مكروه من فقر، أو مرض، أو خوف، كان مبالغاً في الجزع مكثراً منه، واستولى عليه اليأس والقنوط ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ أي وإذا أصابه خيرٌ من غنى، وصحة وسعة رزق كان مبالغاً في المنع والإمساك، فهو إذا أصابه الفقر لم يصبر، وإذا أغناه الله لم ينفق قال ابن كيسان: خلق الله الإنسان يحب ما يسره، ويهرب مما يكرهه، ثم تعبده بإنفاق ما يحب والصبر على ما يكره^(٥) ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ استثناءهم من أفراد البشر الموصوفين بالهلع، لأن صلاتهم تحملهم

(١) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١٢٧.

(٢) هذا قول ابن عباس وقال مقاتل: تنزع النَّارُ الهامة والأطراف فلا تترك لحماً ولا جِلْدًا إلا أحرقتَه.

(ش): الهامة: الرأس.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٨٩.

(٤) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١٢٨.

(٥) «تفسير البغوي» ٤/ ١٥١.

على قلة الاكثراث بالدنيا، فلا يجوزون من شرها ولا ييخلون بخيرها ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ أي مواظبون على أداء الصلاة، لا يشغلهم عنها شاغل، لأن نفوسهم صفت من أكراد الحياة، بتعرضهم لنفحات الله ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ أي في أموالهم نصيب معين فرضه الله عليهم وهو الزكاة ﴿لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ﴾ أي للفقير الذي يسأل ويتكفف الناس، والمحروم الذي يتعفف عن السؤال، فيظن أنه غني فيحرم كقوله تعالى ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ الْعَقْفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَاتٍ﴾ أي يؤمنون بيوم الحساب والجزاء، ويصدقون بمجيئه تصديقاً جازماً لا يشوبه شك أو ارتياب، فيستعدون له بالأعمال الصالحة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ أي خائفون على أنفسهم من عذاب الله، يرجون الثواب ويخافون العقاب ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ أي لأن عذاب الله لا ينبغي أن يأمنه إنسان، إلا من آمنه الرحمن والأمر بخواتيمها.. إن هؤلاء المصدقين المشفقين قلما تردهم الدنيا، أو يبطرهم نعيمها^(١)، أو يجزعون على ما فاتهم من حطامها، فسواء عليهم أخصروا حظوظ الدنيا أم غنموا، إذ إن لديهم من الفكر في جلال ربهم، وذكر معادهم، ما يشغلهم عن الجزع إذا مسهم الشر، ويربأ بهم عن المنع^(٢) إذا مسهم الخير، ثم ذكر تعالى الفريق الخامس من الموفقين للخيرات وفعل الطاعات فقال ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ أي أعفاء^(٣) لا يرتكبون المحارم، ولا يتلوثون بالمآثم، قد صانوا أنفسهم عن الزنى والفواحش ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي يقتصرون على ما أحل الله لهم من الزوجات المنكوحات، والرقائق المملوكات ﴿فَأَنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ أي فإنهم غير مؤاخذين لأن وضع الشهوة فيما أباح الله من الزوجات والمملوكات، حلال يؤجر عليه الإنسان، لما فيه من تكثير النسل والذرية^(٤)

(١) (ش): ازدهى الشخص: حمّله على العجب. أبطره المال ونحوه: جعله متكبراً طاغياً، جعله يغالي في زهوه واستخفافه ويتغطرس.

(٢) (ش): أي يرفههم ويُنزّههم عن المنع.

(٣) (ش): جمع عفيف.

(٤) (ش): عَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ يُصَلُّونَ كَمَا يُصَلُّوْنَ وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَيَصَدِّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ. قَالَ «أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ إِنَّ بَ كُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ وَفِي بَضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتُهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ قَالَ «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وَزْرٌ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ». (رواه مسلم). الدُّثُورُ: جَمْعُ دُثْرٍ، وَهُوَ الْمَالُ الْكَثِيرُ. (وفي بَضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ) البَضْعُ يُطْلَقُ عَلَى الْجَمَاعِ وَيُطْلَقُ عَلَى الْفَرَجِ نَفْسِهِ وَكِلَاهُمَا نَصِيحٌ إِزَادَتُهُ هُنَا، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُبَاحَاتِ تَصِيرُ طَاعَاتٍ بِالنِّيَّاتِ الصَّادِقَاتِ فَالْجَمَاعُ يَكُونُ عِبَادَةً إِذَا تَوَيَّ بِهَ قَضَاءَ حَقِّ الزَّوْجَةِ وَمُعَاشَرَتَهَا بِالْمَعْرُوفِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ أَوْ طَلَبَ وَلَدٍ صَالِحٍ أَوْ إِعْقَافَ نَفْسِهِ أَوْ إِعْقَافَ الزَّوْجَةِ وَمَنْعَهَا جَمِيعًا مِنَ النَّظَرِ إِلَى حَرَامٍ أَوْ الْفِكْرِ فِيهِ أَوْ الِهَمِّ بِهِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الصَّالِحَةِ. [انظر: شرح النووي على مسلم (٩١/٧ - ٩٢)].

﴿فَمَنْ ابْنَىٰ وَرَكَ ذَلِكْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أي فمن طلب لقضاء شهوته غير الزوجات والمملوكات، فقد تعدى حدود الله وعرض نفسه لعذاب الله قال الطبري: من التمس لفرجه منكحاً سوى زوجته أو ملك يمينه، ففاعلوا ذلك هم العادون، الذين تعدوا حدود ما أحل الله لهم، إلى ما حرّمه عليهم، فهم الملوّمون^(١) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ زَعُونَ﴾ أي يؤدون الأمانات، ويحفظون العهود، فإذا اتّمنوا لم يخونوا، وإذا عاهدوا لم يغدروا ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ أي يشهدون بالحق على القريب والبعيد، ولا يكتمون الشهادة ولا يغيرونها، بل يؤدونها على وجهها الكامل، بحيث تصان بها حقوق الناس ومصالحه، وخصّصها بالذكر مع اندراجها في الأمانات، تنبيهاً على فضلها لأن في إقامتها إحياء للحقوق، وفي تركها تضييع للحقوق ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ هذا هو الوصف الثامن من أوصاف المؤمنين الذين وفقهم الله إلى تطهير نفوسهم من خلق الهلع المذموم أي يراعون شرائط الصلاة ويلتزمون آدابها، ولا سيما الخشوع والتدبر ومراقبة الله فيها، وإلا كانت حركات صورية لا يجني العبد ثمرتها، فإن فائدة الصلاة أن تكف عن المحارم ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(٢) [العنكبوت: ٤٥] ولما كانت الصلاة عمود الإسلام بولغ في التوكيد فيها، فذكرت في أول الخصال الحميدة وفي آخرها، ليعلم مرتبتها في الأركان التي بني عليها الإسلام^(٣)، قال القرطبي: ذكر تعالى من أوصافهم في البدء ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ ثم قال في الختم ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ والدوام غير المحافظة، فدوامهم عليها أن يحافظوا على أدائها، لا يخلون بها ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل، ومحافظتهم عليها أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقبتها، ويقوموا أركانها، ويكملوها بسننها وآدابها، ويحفظوها من الإحباط باقتراف المآثم، فالدوام يرجع إلى نفس الصلوات، والمحافظة ترجع إلى أحوالها^(٤)، وبعد أن ذكر تعالى أوصاف المؤمنين المتقين، ذكر مآلهم وعاقبتهم فقال ﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ أي أولئك المتصفون بتلك

(١) «تفسير الطبري» ٥٣/٢٩.

(٢) (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّ فَلَانًا يُصَلِّي بِاللَّيْلِ، فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَقَ قَالَ: «إِنَّهُ سَيِّئُهُ مَا تَقُولُ» (رواه أحمد، وصححه الألباني).

أما حديث: «مَنْ لَمْ تَنْهَ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزِدْهُ مِنَ اللَّهِ إِلَّا بَعْدًا» أو «فلا صلاة له»، فحديث لا يثبت، وقد رواه الطبراني، وابن أبي حاتم، قال الألباني: «وهو مع اشتغاره على الألسنة لا يصح من قبل إسناده، ولا من جهة متنه... فأنت ترى أن النبي ﷺ أخبر أن هذا الرجل سيتهي عن السرقة بسبب صلاته - إذا كانت على الوجه الأكمل طبعاً كالخشوع فيها والتدبر في قراءتها - ولم يقل: إنه لا يزداد بها إلا بعداً» مع أنه لمّا ينته عن السرقة». [انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (١/ ٥٤، ٥٨)].

(٣) قال ابن كثير: افتتح تعالى الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها، فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها. اهـ.

«مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٥٠.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٩٢.

الأوصاف الجليلة، والمناقب الرفيعة، مستقرون في جنات النعيم، التي أكرمهم الله فيها بأنواع الكرامات، مع الإنعام والتكريم بأنواع المآذ والمشتبهات، لا تصافهم بمكارم الأخلاق ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا بِكَ مُهْطِعِينَ﴾؟ أي ما لهؤلاء الكفرة المجرمين، مسرعين نحوك يا محمد، مادّين أعناقهم إليك، مقبلين بأبصارهم عليك؟ قال المفسرون: كان المشركون يجتمعون حول النبي ﷺ خلقاً خلقاً، يسمعون كلامه ويستهنئون به وبأصحابه، ويقولون: إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلها قبلهم فنزلت الآية ^(١) ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ أي جالسين عن يمينك وعن شمالك فرقاً فرقاً، وجماعات جماعات يتحدثون ويتعجبون؟ قال أبو عبيدة: عزين أي جماعات جماعات في تفرقة، ومنه «ما لي أراكم عزين، ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها» ^(٢) ﴿يُطَمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ استفهام إنكاري مع التقريع والتوبيخ، أي: أيطمع كل واحد من هؤلاء الكفار، أن يدخله الله جنات النعيم، وقد كذب خاتم المرسلين؟ ﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر أي ليس الأمر كما يطمعون، فإنهم لا يدخلونها أبداً ثم قال ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي خلقناهم من الأشياء المستقدرة، من نقطة، ثم من علقه، ثم من مضغة، فمن أين يتشرفون بدخول جنات النعيم قبل المؤمنين، وليس لهم فضل يستوجبون به دخول الجنة؟ وإنما يستوجب دخول الجنة من أطاع الله قال القرطبي: كانوا يستهنئون بفقراء المسلمين ويتكبرون عليهم فقال تعالى ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي من القدر فلا يليق بهم هذا التكبر ^(٣) ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أي فأقسم برب مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ ^(٤) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ أي قادرون على إهلاكهم، واستبدالهم بقوم أفضل منهم وأطوع لله ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْبِقِينَ﴾ أي ولسنا بعاجزين عن ذلك ﴿فَذَرَهُمْ خَوْضًا وَيُلْبَؤُاْ﴾ أي اتركهم يا محمد يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم، واشتغل أنت بما أمرت به، وهو أمر على جهة الوعيد والتهديد للمشركين ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ أي حتى يلاقوا ذلك اليوم العصيب الرهيب، الذي لا ينفعهم فيه توبة ولا ندم ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْجَنَّةِ سِرَاعًا﴾ ويوم يخرجون من القبور إلى أرض المحشر مسرعين ﴿كَانَهُمْ إِلَى نَضَبٍ يُوفُّونَ﴾ أي كأنهم يسعون ويستبقون إلى أصنامهم التي نصبوها ليعبدوها، شبه حالة إسراعهم إلى موقف الحساب، بحالة إسراعهم وتسابقهم في الدنيا، إلى آلهتهم وطواغيتهم، وفي هذا التشبيه تهكم بهم،

(١) انظر «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٩٥، و«تفسير الخازن» ٤/ ١٥٢.

(٢) «تفسير القرطبي» ٨/ ٢٩٣ والحديث أخرجه مسلم. (ش): عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرَأَانَا حُلُقًا فَقَالَ «مَا لِي أَرَاكُمْ عِزِينَ». قَالَ: ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ: «أَلَا تَصِفُونَ كَمَا تَصِفُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا». فَقُلْنَا: «يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ تَصِفُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟». قَالَ: «يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُولَى وَيَتَرَاوُونَ فِي الصَّفِّ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). (فَرَأَانَا حُلُقًا) - بِكَسْرِ الْحَاءِ وَفَتْحِهَا - جَمْعُ حَلَقَةٍ.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٩٤.

وتعريض بسخافة عقولهم، إذ عبدوا ما لا يستحق العبادة، وتركوا عبادة الواحد الأحد ﴿خَشَعَةً أَبْصَرُهُمْ﴾ أي خاضعة منكسرة أبصارهم إلى الأرض لا يرفعونها خجلاً من الله ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي يغشاهم الذل والهوان من كل مكان، وعلى وجوههم آثار الذلة والانكسار ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي هذا هو اليوم الذي وعدوا به في الدنيا وكانوا يهزءون ويكذبون، فاليوم يرون عقابهم وجزاءهم!!

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبدیع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الطباق بين ﴿بَعِيدًا.. قَرِيبًا﴾ وبين ﴿الْيَمِينِ.. الشِّمَالِ﴾ وبين ﴿الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾.
- ٢ - جناس الاشتقاق ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ وكذلك ﴿الْمَعَارِجِ.. تَعْرُجُ﴾.
- ٣ - ذكر الخاص بعد العام تنبيهاً لفضله وتشريفاً له ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾ الروح هو جبريل.
- ٤ - التشبيه المرسل المجمل ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلْهِلِ ۝٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿ لحذف وجه الشبه.

- ٥ - ذكر العام بعد الخاص ﴿لَوْ يَفْقَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بَيْنِيهِ ۝١١﴾ وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ.. وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴿ جاء بالعموم بعد الخصوص لبيان هول الموقف.
- ٦ - المقابلة اللطيفة ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ قابله بقوله ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾.
- ٧ - الاستفهام الإنكاري للتقريع والتوبيخ ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ؟﴾
- ٨ - الكناية الفاتكة الرائقة ﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ كناية عن المني القدر، مع النزاهة التامة في التعبير، وحسن الإيقاظ والتذكير، بألفاظ عبارة وأبلغ إشارة.
- ٩ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ وفي تشبيههم بذلك تهكم بهم، وتعريض بسخافة عقولهم، وتسجيل عليهم بالجهل المشين بالإسراع في عبادة غير من يستحق العبادة.
- ١٠ - السجع المرصع كأنه الدر والياقوت مثل ﴿كَلَّا إِنَّمَا طَلَىٰ ۝١٥﴾ نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى ۝١٦﴾ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿ الخ.

تنبيه: نبه تعالى بقوله ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ الآيات. إلى طبائع البشر، فبين أن الإنسان يتسرع إلى مشتهاه، اتباعاً لهواه، وأنه مفرط في الهلع والجزع، فإن مسه خير شحت به نفسه، وإن نزل به شر اشتد له قلقه، ثم استثنى من ذلك الخلق الذميمة أصنافاً من البشر، وهم الذين جمعوا مع الإيمان صالح الأعمال^(١).

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المعارج»



(١) (ش): العمل الصالح من الإيمان، فهو داخل في حقيقته، وعطفه على الإيمان من عطف الخاص على العام اهتماماً به، مثل قوله تعالى. ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾.

Y

* وختمت السورة الكريمة بدعاء نوح عليه السلام على قومه بالهلاك والدمار، بعد أن مكث فيهم تسعمائة وخمسين سنة يدعوهم إلى الله، فما لانت قلوبهم، ولا انتفعت بالتذكير والإنذار ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِيَ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (٦٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يُضِلُّوكَ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٦٧﴾ رَبِّ آغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ۖ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَوِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا بَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَهْدِمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعَهُمْ فِيَءِذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَسِّرْ لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ تَالِكُمْ لَا تُرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مِنْ لَدُنْهِ مَالَهُ، وَوَلَدَهُ، وَلَا خُسَارَاءَ ﴿٢١﴾ وَمَكْرُؤًا مَكْرًا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ يَمَّا خَطَّيْنِهِمْ أَعْرِفُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَفْضُلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ آغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَارًا

اللغة: ﴿وَأَسْتَغْشَوْ﴾ غطوا غشاه أي غطاه، والغشاء الغطاء ﴿مِدْرَارًا﴾ غزيرًا متتابعًا ﴿أَطْوَارًا﴾ أحوالًا مختلفة طورًا بعد طور قال الشاعر:

وَالْمَرْءُ يُخْلَقُ طَوْرًا بَعْدَ أَطْوَارٍ ^(١)

﴿فَجَاءَ﴾ واسعات جمع فج وهو الطريق الواسعة ﴿كَبْرًا﴾ كبيرًا بالغ الغاية في الكبر
﴿دَيَارًا﴾ أحدًا يدور أو يتحرك على ظهر الأرض ﴿نَبْرًا﴾ هلاكًا ودمارًا.

التفسير: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ أي بعثنا شيخ الأنبياء نوحًا عليه السلام إلى سكان جزيرة العرب قال الألوسي: واشتهر أنه عليه السلام كان يسكن أرض الكوفة وهناك أرسل ﴿أَنْ أُنْذِرَ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي بأنْ خَوْفُ قَوْمِكَ وَحَذَرُهُمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ مُؤْلَمٍ، وهو عذاب الطوفان في الدنيا، وعذاب النار في الآخرة ﴿قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي فدعاهم إلى الله وقال لهم: إني لكم منذر، موضح لحقيقة الأمر، أنذركم وأخوفكم عذاب الله، فأمرني ووضح ودعوتي ظاهرة قال المفسرون: نوح عليه السلام أول نبي أرسل،

(١) «البحر المحيط» ٨ / ٣٣٧.

(٢) روح المعاني ٢٩ / ٦٩.

ويقال له: شيخ المرسلين، لأنه أطولهم عمراً فقد مكث في قومه كما قص القرآن الكريم ﴿أَلَفَ سَنَةً إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤] يدعوهم إلى الله، ومع طول هذه المدة لم يؤمن معه إلا قليل، وقد أفرد القرآن قصته في هذه السورة الكريمة التي تسمى «سورة نوح» من بدء الدعوة إلى نهايتها، حيث أهلك الله قومه بالطوفان، وهو أحد الرسل الكبار من أولي العزم وهم خمسة «نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، محمد» صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقد شاع الكفر في زمانه وذاع، واشتهر قومه بعبادة الأوثان، واكثروا من البغي والظلم والعصيان، فبعث الله لهم نوحاً عليه السلام وكان من خبرهم مع نبيهم ما قصه الله علينا في القرآن ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ أي فقال لهم: اعبدوا الله وحده، واتركوا محارمه، واجتنبوا مآثمه، وأطيعوني فيما أمرتكم به من طاعة الله، وترك عبادة الأوثان والأصنام ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أي إنكم إن فعلتم ما أمرتكم به، يمح الله عنكم ذنوبكم التي اقترفتموها، وإنما قال ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أي بعض ذنوبكم التي حصلت قبل الإسلام، لأن الإيمان يجب ما قبله من الذنوب لا ما بعده^(١) ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ويمد في أعماركم إن أطعتم ربكم، إلى وقت مقدر ومقرر في علم الله تعالى، مع التمتع بالحياة السعيدة، والعيش الرغيد قال المفسرون: المراد بتأخير الأجل هو التأخير بلا عذاب، أي يمهلهم في الدنيا بدون عذاب إلى انتهاء آجالهم، وأما العمر فهو محدود لا يتقدم ولا يتأخر ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] ولهذا قال بعده ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ أي إن عمر الإنسان عند الله محدود، لا يزيد ولا ينقص، وإنما أضيف الأجل إلى الله سبحانه لأنه هو الذي كتبه وأثبتته^(٢) ﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي لو كنتم تعلمون ذلك لسارعتم إلى الإيمان ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي قال نوح بعد أن بذل غاية الجهد، وضاعت عليه الحيل: يا رب إني دعوت قومي إلى الإيمان والطاعة، في الليل والنهار، من غير فتور ولا توانٍ ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي فلم يزدهم دعائي لهم إلى الإيمان إلا هرباً، وشروداً عن الحق، وإعراضاً عنه.

ثم وصف نفورهم وصور إعراضهم أبلغ تصوير فقال ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي ك لما دعوتهم إلى الإقرار بوحداية الله والعمل بطاعته، ليكون سبباً في مغفرة ذنوبهم قال في التسهيل: ذكر المغفرة التي هي سبب عن الإيمان، والعمل بطاعته، ليكون سبباً في مغفرة ذنوبهم قال في التسهيل: ذكر المغفرة التي هي سبب عن الإيمان، ليظهر قبح إعراضهم عنه، فإنهم أعرضوا عن سعادتهم^(٣) ﴿جَعَلُوا أَصْغَعُومًا إِذَا دُعِيتُمْ﴾ أي سدوا آذانهم لئلا يسمعوا دعوتي

(١) هذا ما رجحه أبو حيان في البحر، واختار الطبري أن «من» ليست للتبعيض وإنما هي بمعنى «عن» أي يغفر لكم عن ذنوبكم بمعنى لكم جميع الذنوب، والأول أرجح.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤ / ٢٤٩.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤ / ١٤٩.

﴿وَأَسْتَغْفِرُوا ثِيَابَهُمْ﴾ أي غطوا رءوسهم ووجوههم بثيابهم، لئلا يسمعوا كلامي أو يروني قال في البحر: والظاهر أن ذلك حقيقة، سدوا مسامعهم حتى لا يسمعوا ما دعاهم إليه، وتغطوا بثيابهم حتى لا ينظروا إليه، كراهة وبغضا من سماع النصيح ورؤية الناصح، ويجوز أن يكون ذلك كناية عن المبالغة في إعراضهم عما دعاهم إليه، فهم بمنزلة من سد سمعه، ومنع بصره^(١) ﴿وَأَصْرُواْ وَأَسْتَكْبَرُواْ اسْتِكْبَارًا﴾ أي واستمروا على الكفر والطغيان، واستكبروا عن الإيمان استكبارا عظيما، وفيه إشارة إلى فرط عنادهم، وغلوهم في الضلال ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ أي دعوتهم علنا على رءوس الأشهاد، مجاهرا بدعوتي لهم دون خوف أو تحفظ ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ أي أخبرتهم سرا وعلنا، خيفة وجهرا، وسلكت معهم كل طريق في الدعوة إليك قال المفسرون: والعطف بثم يشعر بأن الإعلان والإسرار الأخيرين، كانا طريقة ثالثة سلكها نوح في الدعوة، غير طريقة السر المحضة، وغير طريقة الجهر المحضة، فكان في الطريقة الثالثة يعلن لهم الدعوة مرة حيث يصلح الإعلان، ويسرها لهم أخرى حيث يتوقع نفع الإسرار، ثم وضح ما وعظهم به سرا وعلانية فقال ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ أي آمنوا بالله وتوبوا عن الكفر والمعاصي، فإن ربكم ثواب رحيم، يغفر الذنب ويقبل التوب ﴿يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ أي ينزل المطر عليكم غزيرا متتابعًا، شديد الانسكاب^(٢) ﴿وَيُمَدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ أي يكثر أموالكم وأولادكم ﴿وَيَجْعَلْ لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ أي ويجعل لكم الحدائق الفسيحة، ذات الأشجار المظلة المثمرة، ويجعل لكم الأنهار تجري خلالها.. أطمعهم نوح عليه السلام بالحصول على بركات السماء وبركات الأرض، إن هم آمنوا بالله الذي بيده مفاتيح هذه الخزائن، وأتاهم من طريق القلب لتحريك العواطف، وليبين أن ما هم فيه من انحباس الأمطار، وما حرموه من الرزق والذرية، إنما سببه كفرهم بالله الذي بيده وحده إرسال المطر، وإغداق الرزق، والإمداد بالأموال والبنين، وأنه لا ينبغي لهم أن يكفروا بهذا الإله القادر، ويعبدوا آلهة أخرى اخترعوها، لا تضر ولا تنفع، ثم عاد فهز نفوسهم هزا، وعطفها نحو الإيمان بأسلوب آخر من أساليب البيان فقال ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي ما لكم أيها القوم لا تخافون عظمة الله وسلطانه، ولا ترهبون له جانبا! قال ابن عباس: أي ما لكم لا تعظمون الله حق عظمتة^(٣) ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي وقد خلقكم في أطوار مختلفة، وأدوار متباينة، طورًا نطفة، وطورًا علقة، وطورًا مضغة، إلى سائر الأحوال العجيبة، فتبارك الله أحسن الخالقين ثم نبههم إلى دلائل القدرة والوحدانية، المنبثة في هذا الكون الفسيح فقال

(١) «البحر المحيط» ٨ / ٣٣٨.

(٢) (ش): انسكب الماء ونحوه: انصبَّ وسال.

(٣) «تفسير الطبري» ٢٩ / ٥٩.

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ أي ألم تشاهدوا يا معشر القوم عظمة الله وقدرته، وتنبؤوا نظر اعتبار وتفكر وتدبر، كيف أن الله العظيم الجليل خلق سبع سموات سماء فوق سماء، متطابقة بعضها فوق بعض، وهي في غاية الإبداع والإتقان! ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي وجعل القمر في السماء الدنيا، منورًا لوجه الأرض في ظلمة الليل قال الإمام الفخر: القمر في السماء الدنيا وليس في السموات بأسرها، وهذا كما يقال: السلطان في العراق ليس المراد أن ذاته حاصلة في كل أنحاء، بل إن ذاته في حيز من جملة أنحاء العراق، فكذا ههنا^(١) وقال في البحر: والقمر في السماء الدنيا، وصح كون السموات ظرفًا للقمر لأنه لا يلزم من الظرف أن يملأ المظروف، تقول زيد في المدينة وهو في جزء منها^(٢) ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ أي وجعل الشمس مصباحًا مضيئًا يستضيء به أهل الدنيا كما يستضيء الناس بالسراج في بيوتهم، ولما كان نور الشمس أشد، وأتم، وأكمل في الانتفاع من نور القمر، عبر عن الشمس بالسراج لأنه يضيء بنفسه، وعبر عن القمر بالنور لأنه يستمد نوره من غيره، ويؤيده ما تقرر في علم الفلك من أن نور الشمس ذاتي فيها، ونور القمر عرضي مكتسب من نورها، فسيحان من أحاط بكل شيء علمًا ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ بعد أن ذكر دليل الآفاق، ذكر هنا دليل الأنفس، وذلك لأن في ذكر هذه الأمور، دلالة واضحة على عظمة الله، وقدرته وباهر مصنوعاته. والمعنى: خلقكم وأنشأكم من الأرض كما يخرج النبات، وسلككم من تراب الأرض كما يُسَلُّ النبات منها^(٣) قال المفسرون: لما كان إخراجهم وإنشاؤهم إنما يتم بتناولهم عناصر الغذاء الحيوانية والنباتية المستمدة من الأرض، كانوا من هذه الجهة مشاهين للنباتات التي تنمو بامتصاص غذائها من الأرض، فلذا سمي خلقهم وإنشاءهم إنباتًا، أو يكون ذلك إشارة إلى خلق آدم حيث خلق من تراب الأرض، ثم جاءت منه ذريته، فصح نسبتهم إلى أنهم أنبتوا من الأرض^(٤)

(١) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ١٤٠.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٣٤٠. أقول: ليس ثمة نص صريح على أن القمر داخل السماوات إلا هذا النص، وقد عرفت تأويله، وإذا كان القمر أقرب الكواكب إلى الأرض، وثبت بالنص القاطع أن الله تعالى جعل الكواكب زينة للسماء، وجعلها في السماء الدنيا: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ فإنه لا يُستبعد أن يصل الناس إلى القمر، لأنه دون السماء الأولى، كما وصلت إليه المركبة الفضائية في زماننا وكما أثبت العلم الحديث إمكان ذلك، فليس ثمة محذور ديني على غزو الكواكب والفضاء، وأما الوصول إلى السماء واختراقها فذلك أمر مستحيل ودونه خطر القتاد لأن الله تعالى يقول: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ﴾. (ش): القتاد: شجر صلب له شوك كالإبر. والخروط: التقطيع. دونه خروط القتاد: مثل يضرب للشيء لا يُنال إلا بمشقة عظيمة.

(٣) (ش): سل الشيء من الشيء: انتزعه وأخرجه برفق.

(٤) انظر ما كتبه العلامة أبو حيان في تفسيره «البحر المحيط» ٨/ ٣٤٠، وتفسير جزء تبارك للشيخ عبد القادر المغربي ص ١٣١.

﴿ثُمَّ نُعِيدُكُمْ فِيهَا وَنُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ أي يرجعكم إلى الأرض بعد موتكم فتدفنون فيها، ثم يخرجكم منها يوم البعث والحشر للحساب والجزاء، وأكده بالمصدر ﴿إِخْرَاجًا﴾ لبيان أن ذلك واقع لا محالة، وهذه الآية كقوله تعالى ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥] ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ أي جعلها فسيحة ممتدة ممهدة لكم، تتقبلون عليها كما يتقبل الرجل على بساطه قال في التسهيل: شبه الأرض بالبساط في امتدادها واستقرار الناس عليها، وأخذ بعضهم من الآية أنها غير كروية، وفي ذلك نظر^(١) وقال الألوسي: وليس في الآية دلالة على أن الأرض مبسوطة غير كروية، لأن الكرة العظيمة يرى كل من عليها ما يليه مسطحًا، ثم إن اعتقاد الكرية أو عدمها ليس بلازم في الشريعة، لكن كرتها كالأمر اليقيني، ومعنى جعلها بساطًا أي تتقبلون عليها كالبساط^(٢) ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ أي لتسلكوا في الأرض طرقًا واسعة في أسفاركم، وتنقلكم في أرجائها؟ ولما أصرروا على العصيان، وقابلوه بأفبح الأقوال والأفعال، حكى عنهم ما قصه القرآن ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ أَنِ إِنَّمَا عَصَوْتُكَ أَيُّهُمْ بِالْغَوَا فِي تَكْذِيبِي وَعَصِيَانِ أَمْرِي﴾ وَأَتَّبَعُوا مَنْ لَزِيذُهُ مَالُهُ، وَوَلَدُهُ، وَالْأَخْسَارُ أَي أَتَّبَعُوا أَغْنِيَاءَهُمْ وَرُؤَسَاءَهُمْ، الَّذِينَ أَبْطَرَتْهُمُ الْأَمْوَالُ وَالْأَوْلَادُ^(٣)، فهلكوا وخسروا سعادة الدارين، فصاروا أسوة لهم في الخسار ﴿وَمَكْرُؤًا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ أي ومكرهم الرؤساء مكرًا عظيمًا مُتَنَاهِيًا فِي الْكِبَرِ^(٤) قال الألوسي: ﴿كَبِيرًا﴾ مبالغة في الكبر، أي: كبيرًا في الغاية، وذلك احتيالهم في الدين، وصددهم الناس عنه، وإغراؤهم وتحريضهم على أذية نوح عليه السلام^(٥) ﴿وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ أي لا تتركوا عبادة الأوثان والأصنام، وتعبدوا رب نوح ﴿وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ أي ولا تتركوا على وجه الخصوص هذه الأصنام الخمسة ودًا، وسواعًا، ويغوث، ويعوق، ونسرًا قال الصاوي: وهذه أسماء أصنام كانوا يعبدونها^(٦)، وكانت أكبر أصنامهم وأعظمهم عندهم، ولذا خصوها بالذكر^(٧)، وهذا من شدة كفرهم، وفرط تعنتهم في المكر والاحتيال، فقد كانوا يلبسون ثوب المتنصح المخلص، ويسلكون في تثبيت الضعفاء على عبادة الآباء شتى الأساليب في المكر والخداع ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ أي وقد

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ١٥١/٤.

(٢) روح المعاني ٧٦/٢٩، وانظر ما كتبه حول كروية الأرض في سورة لقمان من هذا التفسير.

(٣) (ش): أَبْطَرَهُ الْمَالُ وَنَحْوُهُ: جعله متكبرًا طاغيًا، جعله يُغالي في زهوه واستخفافه ويتعطرس.

(٤) (ش): تَنَاهَى، تَنَاهَى، فَهُوَ مُتَنَاهٍ: بلغ نهايته. يُقَالُ: «مُتَنَاهٍ فِي الدَّقَّةِ/ مُتَنَاهٍ فِي الصَّغَرِ».

(٥) «روح المعاني» ٧٦/٢٩.

(٦) (ش): هذه العبارة تخالف ما ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنْ انْصَبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَصَابًا، وَسَمَوْهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَسَخَّرَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ.

(٧) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٢٥١/٤.

أضل كبراءهم خلقاً وناساً كثيرين، بما زينوا لهم من طرق الغواية والضلال، ثم دعا عليهم بالضلال فقال ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ أي ولا تزددهم يا رب على طغيانهم وعدوانهم، إلا ضلالاً فوق ضلالهم قال المفسرون: دعا عليهم لما يئس من إيمانهم بإخبار الله له بقوله ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦] فاستجاب الله دعاءه وأغرقهم، ولهذا قال تعالى ﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُغْرِقُوا فَأَذَلُّوهُمُ نَارًا﴾ أي من أجل ذنوبهم وإجرامهم، وإصرارهم على الكفر والطغيان، أغرقوا بالطوفان وأدخلوا النار، قال في التسهيل: وهذا من كلام الله تعالى إخباراً عن أمرهم، و﴿مَا﴾ في ﴿مِمَّا﴾ زائدة للتأكيد^(١)، وإنما قدم هذا المجرور للتأكيد أيضاً، ليبين أن إغراقهم وإدخالهم النار إنما كان بسبب خطاياهم وهي الكفر وسائر المعاصي^(٢) ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ أي لم يجدوا من ينصرهم أو يدفع عنهم عذاب الله قال أبو السعود: وفيه تعريض باتخاذهم آلهة من دون الله تعالى، وأنها غير قادرة على نصرهم، وتهكم بهم^(٣) ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ أي لا تترك أحداً على وجه الأرض من الكافرين قال في التسهيل: و﴿دَيَّارًا﴾ من الأسماء المستعملة في النفي العام يقال: ما في الدار ديار أي ما فيها أحد^(٤) ثم علل ذلك بقوله ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَفْسُدُوا عِبَادَكَ﴾ أي إنك إن أبقيت منهم أحداً، أضلوا عبادك عن طريق الهدى ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِاجِرًا كَفَّارًا﴾ أي ولا يأتي من أصلابهم إلا كل فاجر وكافر قال الإمام الفخر: فإن قيل: كيف عرف نوح ذلك؟ قلنا بالاستقراء، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فعرف طباعهم وجربهم، وكان الرجل ينطلق بابنه إليه ويقول: يا بني احذر فإنه كذاب، وإن أبي أوصاني بمثل هذه الوصية، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك، فلذلك قال ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِاجِرًا كَفَّارًا﴾.. ولما دعا على الكفار أعقبه بالدعاء للمؤمنين فقال ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ بدأ بنفسه ثم بأبويه، ثم عمم لجميع المؤمنين والمؤمنات، ليكون ذلك أبلغ وأجمع ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا﴾ أي ولا تزد يا رب من جحد بآياتك وكذب رسلك، إلا هلاكاً وخساراً في الدنيا والآخرة.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿أَعْلَنْتُ.. وَأَسْرَرْتُ﴾ وبين ﴿جَهَارًا.. وَإِسْرَارًا﴾ وبين ﴿لَيْلًا.. وَنَهَارًا﴾ وبين ﴿يُعَذِّبُكُمْ.. وَيُخْرِجُكُمْ﴾.

٢ - المجاز المرسل ﴿جَعَلُوا أَصْعَبَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ المراد رءوس الأصابع فهو من إطلاق الكل وإرادة الجزء.

(١) (ش): مِمَّا: من ما.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ١٥١/٤.

(٣) «تفسير أبي السعود» ١٩٩/٥.

(٤) «التسهيل» ١٥١/٤. (ش): الدَّيَّار: ساكن المنزل.

- ٣ - الاستعارة التبعية ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ شبه إنشاءهم وخلقهم في أدوار بالنبات الذي تخرجه الأرض، واشتق من لفظ النبات أنبتكم على طريق الاستعارة التبعية.
- ٤ - ذكر المصدر للتأكيد مثل ﴿وَيَخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ و﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ و﴿وَأَسْتَكْبِرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ ويسمى هذا في علم البديع بالإطناب.
- ٥ - ذكر الخاص بعد العام ﴿وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ الْهَتَكُ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًا وَلَا سُوَاعًا﴾ الآية وعكسه ذكر العام بعد الخاص ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ وكلاهما من باب الإطناب، وهو من المحسنات البديعية.
- ٦ - السجع المرصع مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿يَذَرَارًا، أَنْهَرًا، وَقَارًا، أَطْوَارًا﴾ إلخ.
- فائدة:** استدل العلماء على عذاب القبر بقوله تعالى ﴿مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ قالوا: المراد بها نار القبر وعذابه، لأنه تعالى عطف بالفاء، والفاء تفيد الترتيب مع التعقيب، ونار الآخرة لم يذوقوها بعد، فدل على أن المراد عذاب القبر، وهو استدلال لطيف.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة نوح»





مكية وآياتها ثمان وعشرون

بين يدي السورة

* سورة الجن مكية وهي تعالج أصول العقيدة الإسلامية «الوحدانية، الرسالة، البعث والجزاء» ومحور السورة يدور حول الجن، وما يتعلق بهم من أمور خاصة، بدءاً من استماعهم للقرآن، إلى دخولهم في الإيمان، وقد تناولت السورة بعض الأنباء العجيبة الخاصة بهم، كاستراقهم للسمع، ورميهم بالشهب المحرقة، وإطلاعهم على بعض الأسرار الغيبية، إلى غير ذلك من الأخبار المثيرة.

* ابتدأت السورة الكريمة بالإخبار عن استماع فريق من الجن للقرآن، وتأثرهم بما فيه من روعة البيان، حتى آمنوا به فور استماعه^(١) ودعوا قومهم إلى الإيمان ﴿قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ الآيات.

* ثم انتقلت للحديث عن تمجيدهم وتنزيههم لله جل وعلا، وإفرادهم له بالعبادة، وتسفيههم لمن جعل لله ولداً ﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ (٢) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ الآيات.

* ثم تحدثت السورة عن استراق الجن للسمع، وإحاطة السماء بالحرس من الملائكة، وإرسال الشهب على الجن بعد بعثة رسول الله ﷺ، وتعجبهم من هذا الحديث الغريب ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلَمَّتَةً حَرَّ سَائِدِيدَا وَشُهْبًا﴾ (٨) وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسْمِيعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا...﴾ الآيات.

* ثم تحدثت السورة عن انقسام الجن إلى فريقين: مؤمنين، وكافرين ومال كل من الفريقين ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾.

* ثم انتقلت للحديث عن دعوة رسول الله ﷺ، وعن التفاف الجن حوله حين سمعوه يتلو القرآن ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ (١٩) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾.

* ثم أمرت الرسول عليه السلام بأن يعلن استسلامه وخضوعه لله، ويفرده جل وعلا بإخلاص العمل، وأن يتبرأ من الحول والطول ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَن أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾.

* وختمت السورة ببيان اختصاص الله جل وعلا بمعرفة الغيب، وإحاطته بعلم جميع ما

(١) (ش): آمنوا به فور استماعه: آمنوا به بعد استماعه مباشرةً.

في الكائنات ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٦١) إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يُسَلِّكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا... ﴿الآيات إلى آخر السورة الكريمة.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَكَأَمْنَاهُ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صُحْبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَتْ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مِثْلُ ثُوْبٍ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ فَمَن يَسْمِعْ أَلاَّنْ يَحْدِلْهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا ﴿١١﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَعِجْزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ءَأَمْنَاهُ بِهٖ فَمَن يُّؤْمِنُ بِرَبِّهٖ فَلَا يَخَافُ بَحْسَ وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَوْ اسْتَقَمُّوْا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِنَفْنِيَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهٖ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَن الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يَحِيرُنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَن أَجِدُ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرِسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْجَعُونَ مِّنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلِّ عُدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِن أَدْرَيْتُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يُسَلِّكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَتَ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا

اللغة: ﴿الرُّشْدُ﴾ الحق والصواب ﴿جَدُّ﴾ الجد لغة: العظمة والجلال والسلطان يقال: جَدَّ فلانٌ في عيني، أي: عَظُمَ وَجَلَّ، والجد: الحظُّ، وأبو الأب ﴿حَرَسًا﴾ جمع حارس أو اسم جمع كخدم يقال: حرس وحراس، والحارس: الحافظ للشيء يرعاه ويرقبه ﴿قِدْدًا﴾ متفرقة مختلفة جمع قِدَّة قال الشاعر:

إِذْ هُمْ طَرَائِقُ فِي أَهْوَائِهِمْ قِدْدٌ^(١)

﴿غَدَقًا﴾ كثيرًا واسعًا ﴿الْقَاسِطُونَ﴾ الجائرون عن طريق الحق، يقال قسط الرجل إذا جار ﴿صَعَدًا﴾ شاقًا يعلو الإنسان ويغلبه فلا يطيقه يقال: فلان في صعد من أمره أي في مشقة

(١) «البحر المحيط» ٨ / ٣٤٤. (ش): أي فِرَّقَ شتى من الناس تختلف آراؤهم وأهواؤهم.

﴿يَسْلُكُهُ﴾ يُدْخِلُهُ ﴿لِبَدَأِ﴾ متراكمين بعضهم فوق بعض يقال: تلبد الشيء أي تراكم بعضه فوق بعض ﴿مُلْتَحِدًا﴾ ملجأ وحرزًا يتحصن به الإنسان.

التفسير: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ أي قل يا محمد لقومك: إن ربي أوحى إلى جماعة من الجن استمعوا لتلاوتي للقرآن، فأمنوا به وصدقوه وأسلموا ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ أي فقالوا لقومهم حين رجعوا إليهم: إنا سمعنا قرآنًا عجيبيًا، مؤثرًا في حُسن نَظْمِهِ، وبلاغة أسلوبِهِ، وما حَوَاه من بديع الحُكْم والعظا ت و ﴿عَجَبًا﴾ مصدر وُصِف به للمبالغة قال المفسرون: استمعوا إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن في صلاة الفجر، ولم يشعر بهم ولا باستماعهم، وإنما أخبر به الرسول بواسطة الوحي ^(١) بدليل قوله ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ﴾ ويؤيده ما قصه الله على نبيه في سورة الأحقاف من خبرهم ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] والغرض من الإخبار عن استماع الجن، توبيخ وتقريع قريش والعرب في كونهم تباطؤوا عن الإيمان، إذ كانت الجن خيرًا منهم وأسرع إلى الإيمان، فإنهم من حين ما سمعوا القرآن استعظموه وآمنوا

(١) هذا قول ابن عباس ويدل عليه ما رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس: «مَا قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْجِنِّ وَمَا رَأَاهُمْ» الحديث، ورَوَى عن ابن مسعود خلافة. (ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: انْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقٍ عُكَاظٍ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَيْرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ فَقَالُوا: «مَا لَكُمْ؟». فَقَالُوا: «حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَيْرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ». قَالُوا: «مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَيْرِ السَّمَاءِ إِلَّا مَا حَدَثَ، فَاضْرِبُوا مَسَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا فَانْظُرُوا مَا هَذَا الْأَمْرُ الَّذِي حَدَثَ». فَانْطَلَقُوا فَضْرِبُوا مَسَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا يَنْظُرُونَ مَا هَذَا الْأَمْرُ الَّذِي حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَيْرِ السَّمَاءِ. قَالَ: فَانْطَلَقَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِنَخْلَةٍ، وَهُوَ عَمَادٌ إِلَى سُوقٍ عُكَاظٍ، وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ تَسَمَّعُوا لَهُ فَقَالُوا: «هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَيْرِ السَّمَاءِ». فَهَنَّاكَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا: «يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ، وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا». وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ وَإِنَّمَا أُوْحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الْجِنِّ. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَقْدَنَاهُ فَالْتَمَسْنَاهُ فِي الْأَوْدِيَةِ وَالشَّعَابِ فَقَلْنَا اسْتَطِيرَ أَوْ اغْتِيلَ فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا هُوَ جَاءَ مِنْ قَبْلِ حِرَاءٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَدْنَاكَ فَطَلَبْنَاكَ فَلَمْ نَجِدْكَ فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ. فَقَالَ: «أَتَانِي الْجِنُّ فَذَهَبَتْ مَعَهُ فَقَرَأَتْ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ». قَالَ فَانْطَلَقَ بِنَا فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ وَسَلَّوْهُ الرَّادَ فَقَالَ «لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْ فَرَّ مَا يَكُونُ لَحْمًا وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفَ لِدَوَابِّكُمْ». فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِنْوَائِكُمْ». (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). الْأَوْدِيَةُ: جَمْعُ الْوَادِي وَهُوَ مَنْفَرَجٌ بَيْنَ جِبَالٍ أَوْ تِلَالٍ يَكُونُ مَنْفَذًا لِلْسَّلِيلِ وَالشَّعَابِ: جَمْعُ الشَّعْبِ وَهُوَ فَجْوَةٌ أَوْ انْفِرَاجٌ بَيْنَ جَبَلَيْنِ، طَرِيقٌ أَوْ مَمَرٌ جَبَلِيٌّ. اسْتَطِيرَ: طَارَتْ بِهِ الْجِنُّ. اغْتِيلَ: قُتِلَ سِرًّا، وَالْغِيلَةُ هِيَ الْقَتْلُ فِي خَفِيَّةٍ. قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٧/ ٢٩١): «قَالَ الْحَافِظُ الْبَيْهَقِيُّ: «وَهَذَا الَّذِي حَكَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، إِنَّمَا هُوَ فِي أَوَّلِ مَا سَمِعَتِ الْجِنُّ قِرَاءَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلِمَتْ حَالَهُ، وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتُ لَمْ يَقْرَأْ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَرَهُمْ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ دَاعِي الْجِنِّ فَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، وَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا رَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ».

ورجعوا إلى قومهم منذرين، بخلاف العرب الذين نزل بلسانهم، فإنهم كذبوا واستهزءوا وهم يعلمون أنه كلام مُعْجَز، وأن محمداً أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب، وشتَّان ما بين موقف الإنس والجن! ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ أي يهدي هذا القرآن إلى الحق والرشاد والصواب فصدقنا به ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ أي ولن نعود إلى ما كنا عليه من الشرك، ولن نجعل لله شريكاً بعد اليوم من خلقه قال الخازن: وفي الآية دليل على أن أولئك النفر كانوا مشركين^(١) ﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا أَيُّ تَعَالَتْ عِظْمَةُ رَبِّنَا وَجَلَّالَهُ﴾ مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿أي ليس له زوجة ولا ولد، لأن الزوجة تَتَّخَذُ لِلْحَاجَةِ، والولد للاستئناس، والله تعالى مُنَزَّهٌ عَنِ النَّقَائِصِ﴾ وَأَنَّهُ كَانَتْ يَقُولُ سَفِيهًا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿أي وأن الأحمق الجاهل فينا كان ينسب إلى الله ما لا يليق بجلاله وقديسيته ويقول قولاً شططاً بعيداً عن الحق وَحَدَّ الاعتدال قال مجاهد: السفية هو إبليس دعاهم إلى عبادة غير الله^(٢)﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنَّ لَنْ نقُولَ الْإِنْسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿أي كنا نظن أن أحداً لن يكذب على الله تعالى لا من الإنس ولا من الجن في نسبة الصاحبة والولد إليه، فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله في ذلك^(٣)﴾ قال الطبري: وإنما أنكر هؤلاء النفر من الجن أن تكون علمت أن أحداً يجترئ على الكذب على الله لما سمعت القرآن، لأنهم قبل أن يسمعه وقبل أن يعلموا تكذيب الله للزاعمين الله الصاحبة والولد كانوا يحسبون أن إبليس صادق، فلما سمعوا القرآن أيقنوا أنه كان كاذباً في ذلك فسموه سفيةً^(٤)﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ ﴿أي كان خلائق من الإنس يستجيرون برجال من الجن﴾ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿أي فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بهم إثمًا وطغيانًا، وعتوًا وضلالًا قال أبو السعود: كان الرجل إذا أمسى في وادٍ قفر وخاف على نفسه قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه يريد الجن وكبيرهم، فإذا سمعوا بذلك استكبروا وقالوا: سُدْنَا الْإِنْسَ وَالْجِنُّ، فزاد الرجال الجن تكبراً وعتوًا، فذلك قوله ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾^(٥)﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنَّ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿أي وأن كفار الإنس ظنوا كما ظننتم يا معشر الجن، أن الله لن يبعث أحداً بعد الموت، فقد أنكروا البعث كما أنكروا الموت﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ١٥٨.

(٢) «تفسير القرطبي» ٩/ ١٩.

(٣) هذا خلاصة رأي ابن كثير نقلناه مع شيء من التصرف.

(٤) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٦٨.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٠٠.

(٦) هذا هو ظاهر من سياق الآيات أنه من كلام الجن لقومهم وهو اختيار الطبري، واختار بعض المفسرين أنه من الوحي الذي أوحاه الله إلى رسوله وأن المعنى: وأن الجن كانوا ينكرون البعث كإنكاركم يا معشر قريش، فلما سمعوا القرآن اهتموا، فهلاً اهتمتيم؟

شَدِيدًا وَشَهَبًا ﴿١﴾ يقول الجن: وأنا طلبنا بلوغ السماء لاستماع كلام أهلها، فوجدناها قد ملئت بالملائكة الكثيرين الذين يحرسونها، وبالشهب المحرقة التي تقذف من يحاول الاقتراب منها ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسْمَعِ ﴿٢﴾ أي كنا قبل بعثة محمد بطرق السماء لنستمع إلى أخبارها ونلقينا إلى الكهان ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَّصَدًا ﴿٣﴾ أي فمن يحاول الآن استراق السمع، يجد شهابًا ينتظره بالمرصاد يحرقه ويهلكه ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ ﴿٤﴾ أي لا نعلم نحن معشر الجن ما الله فاعل بسكان الأرض، ولا نعلم هل امتلاء السماء بالحرس والشهب لعذاب يريد الله أن يُنزله بأهل الأرض؟ ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿٥﴾ أي أم لخير يريد الله بهم، بأن يبعث فيهم رسولاً مرشداً يرشدهم إلى الحق؟ وهذا من أدب الجن حيث نسبوا الخير إلى الله، ولم ينسبوا الشر إليه فقالوا ﴿أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿٦﴾ قال ابن كثير: وقد كانت الكواكب يرمى بها قبل ذلك، وهذا هو الذي حملهم على تطلب السبب، فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغارها، فأووا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه في الصلاة، فعرفوا أن هذا هو الذي حُفِظَتْ من أجله السماء، فدنوا منه حرصاً على سماع القرآن ثم أسلموا^(١) ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ﴿٧﴾ أي منا قوم صالحون أبرار، عاملون بما يرضي الله، ومنا قوم ليسوا صالحاء قال في التسهيل: وأرادوا بقولهم ﴿دُونَ ذَلِكَ ﴿٨﴾ أي الذي ليس صلاحهم كاملاً، أو الذين ليس لهم صلاح^(٢) ﴿كُنَّا طَرِيقَ قِدْدًا ﴿٩﴾ أي كنا فرقاً شتى، ومذاهب مختلفة، فمننا الصالح ومننا الطالح، وفيما التقي والشقي ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٠﴾ أي علمنا وأيقنا أن الله قادر علينا، وأنها في قبضته وسلطانه أينما كنا، لن نعجزه بهرب، ولن نتفلت من عقابه إذا أراد بنا سوءاً قال القرطبي: أي علمنا بالاستدلال والتفكير في آيات الله، أنا في قبضته وسلطانه لن نفوته بهرب ولا غيره^(٣) ثم عادوا إلى شكر الله تعالى على نعمة الإيمان واهتدائهم بسماع آيات القرآن فقالوا ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ءَامَنَّا بِهِ ﴿١١﴾ أي لما سمعنا القرآن العظيم آمنا به وبمن أنزله، وصدقنا محمداً ﷺ في رسالته ﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٢﴾ أي فمن يؤمن بالله تعالى فلا يخشى نقصاً من حسناته ولا ظلماً بزيادة سيئاته قال ابن عباس: لا يخاف أن ينقص من حسناته، ولا أن يزداد في سيئاته، لأن البخس النقصان، والرهق العدوان^(٤) ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ﴿١٣﴾ أي وأنا بعد سماعنا القرآن منا من أسلم، وصدق برسالة محمد ﷺ، ومنا من جار عن الحق وكفر قال المفسرون: يقال: قسط الرجل إذا جَارَ، وأقسط إذا عَدَلَ، اسم الفاعل من الأول قاسط، ومن الثاني مُقْسِط ومنه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١٤﴾

(١) «مختصر ابن كثير» ٥٥٧/٣. (ش): راجع حديث ابن عباس في التعليق السابق.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ١٥٣/٤.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/١٩.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٦/١٩.

وأما القاسط فهو الظالم الجائر ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ أي فمن اعتنق الإسلام واتبع الرسول عليه السلام، فأولئك الذين قصدوا الرشد، واهتدوا إلى طريق السعادة والنجاة ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أي وأما الكافرون الجائرون عن طريق الحق والإيمان، فسيكونون وقودًا لجهنم، توقد بهم كما توقد بكفار الإنس.. وإلى هنا انتهى كلام الجن^(١)، مما يدل على قوة إيمانهم، وصدقهم وإخلاصهم، ثم قال تعالى مخبراً عن أهل مكة ﴿وَأَلَوْ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ أي لو آمن هؤلاء الكفار، واستقاموا على شريعة الله ﴿لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ أي لیسطننا لهم في الرزق، ووسعنا عليهم في الدنيا، زيادة على ما يحصل لهم في الآخرة من النعيم الدائم، وبذلك يحوزون عز الدنيا والآخرة قال في التسهيل: الماء الغدق: الكثير، وذلك استعارة في توسيع الرزق، والطريقة هي الإسلام وطاعة الله والمعنى: لو استقاموا على ذلك لوسع الله أرزاقهم فهو كقوله ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىءِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَاهُمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]^(٢) ﴿لِنُقْنِئَهُمْ فِيهِ﴾ أي لنختبرهم به أيشركون أم يكفرون؟ ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي ومن يعرض عن طاعة الله وعبادته، يدخله ربه عذاباً شديداً شاقاً لا راحة فيه قال قتادة: ﴿صَعَدًا﴾ عذاباً لا راحة فيه^(٣) وقال عكرمة: هو صخرة ملساء في جهنم يكلف صعودها، فإذا انتهى إلى أعلاها حُدِرَ إلى جهنم^(٤) ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ هذا من جملة الموحى به للرسول ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ﴾ والمعنى وأوحى إلي أن المساجد وبيوت العبادة هي مختصة بالله، فلا تعبدوا فيها غيره وأخلصوا له العبادة فيها قال مجاهد: كان اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم، أشركوا بالله فيها، فأمر الله عز وجل نبيه والمؤمنين أن يخلصوا الدعوة لله إذا دخلوا المساجد كلها^(٥) ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ أي وأنه لما قام محمد ﷺ يعبد ربه ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أي كاد الجن يركب بعضهم بعضاً من شدة الازدحام، حرصاً على سماع القرآن قال ابن عباس: كادوا ينقضون عليه لاستماع القرآن^(٦)، وإنما وصفه تعالى بالعبودية، ولم يذكره باسمه زيادة في تشريفه وتكريمه عليه السلام ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار الذين طلبوا منك أن ترجع عن دينك: إنما أعبد ربي وحده، ولا أشرك مع الله غيره بشراً ولا صنماً قال الصاوي: سبب نزولها أن كفار قريش قالوا له: إنك جئت بأمر عظيم، وقد عاديت الناس كلهم، فارجع عن هذا فنحن نجيرك وننصرك فتزلت^(٧) ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ أي قل يا محمد في

(١) هذا هو قول الجمهور، وأن الكلام بعده من كلام الله تعالى الذي أوحاه لرسوله لا من كلام الجن.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ١٥٤ / ٤.

(٣) «تفسير الطبري» ٧٣ / ٢٩.

(٤) «البحر المحيط» ٣٥٢ / ٨.

(٥) «تفسير القرطبي» ٢١ / ١٩.

(٦) «البحر المحيط» ٣٥٣ / ٨.

(٧) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٢٥٧ / ٤. (ش): ضعيف، رواه البغوي في «تفسيره».

محاجة هؤلاء: إني لا أقدر أن أدفع عنكم ضرًا، ولا أجلب لكم نفعًا، وإنما الذي يملك هذا هو الله رب العالمين ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ أي قل لهم أيضًا: إنه لن ينقذني من عذاب الله أحد إن عصيته، ولن أجد لي نصيرًا ولا ملجأ منه، فكيف أجيبكم إلى ما طلبتم؟ قال قتادة: ﴿مُلْتَحَدًا﴾ ملجأ ونصيرًا^(١) ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ أي لا أجد ملجأ إلا إذا بلغت رسالة ربي، ونصحتكم وأرشدتكم كما أمرني الله فحيثُذ يجيرني ربي من العذاب كقوله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧] قال ابن كثير: أي لا يجيرني منه ويخلصني إلا بإلاغي الرسالة التي أوجب أداءها عليّ^(٢) ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ أي ومن كذب الله ورسوله، ولم يؤمن بقاء الله، وأعرض عن سماع الآيات وتدبر الرسالات، فإن جزاءه جهنم لا يخرج منها أبدًا - وإنما جمع ﴿خَالِدِينَ﴾ حملاً على معنى ﴿وَمَنْ﴾ لأن لفظها مفرد ومعناها جمع - ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ أي حتى إذا رأى المشركون ما يوعدون من العذاب ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَاصِرًا وَأَقْلَعَدًا﴾ أي فسيعلمون حينئذٍ من هم أضعف ناصراً ومعيناً، وأقل نفراً وجنداً؟ هل هم أم المؤمنون الموحدون؟ ولا شك أن الله ناصر عباده المؤمنين، فهم الأقوى ناصراً والأكثر عدداً، لأن الله معهم وملائكته الأبرار ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ﴾؟ أي قل لهم يا محمد: ما أدري هل هذا العذاب الذي وعدتم به قريبٌ زمنه ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ أي أم هو بعيد له مدة طويلة وأجل محدود؟ قال المفسرون: كان ﷺ كلما خوف المكذبين نار جهنم، وحذرهم أهوال الساعة، أظهروا الاسخفاف بقوله، وسألوه متى هذا العذاب؟ ومتى تقوم هذه الساعة؟ فأمره تعالى أن يقول لهم: لا أدري وقت ذلك، هل هو قريب أم بعيد؟ ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ أي هو جل وعلا عالمٌ بما غاب عن الأبصار، وخفي عن الأنظار، فلا يُطلع على غيبه أحدًا من خلقه ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾ أي إلا من اختاره الله وارتضاه لرسالته ونبوته، فيُظهره الله على ما يشاء من الغيب قال المفسرون: لا يُطلع الله على غيبه أحدًا إلا بعض الرسل، فإنه يُطلعهم على بعض الغيب، ليكون معجزةً لهم، فإن الرسل مؤيدون بالمعجزات، ومنها الإخبار عن بعض المغيبات، كما قال عن عيسى ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩] ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ أي فإنه تعالى يرسل من أمام الرسول ومن خلفه، ملائكة وحرساً يحفظونه من الجن، ويحرسونه في ضبط ما يلقيه تعالى إليه من علم الغيب قال الطبري: أي فإنه تعالى يرسل من أمامه ومن خلفه حرساً وحفظاً يحفظونه من الجن^(٣) ﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي ليعلم الله علم

(١) «تفسير الطبري» ٧٦/٢٩.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٥٦٠/٣.

(٣) «تفسير الطبري» ٧٧/٢٩.

ظهور^(١) فإنه تعالى عالم بما كان وما يكون أن رسله الكرام قد بلغوا عنه وَحْيَهُ كما أوحاه إليهم محفوظاً من الزيادة والنقصان قال ابن كثير: المعنى أن الله يحفظ رسله بملائكته لئلا يتمكنوا من أداء رسالاته، ويحفظ ما ينزله إليهم من الوحي، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم، مع العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعاً لا محالة^(٢) ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي أحاطَ عِلْمُهُ بما عند الرسل، فلا يخفى عليه شيء من أمورهم ﴿وَأَخَصَّ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ أي علم تعالى علم ضبط واستقصاء جميع الأشياء، المُنبِئَةُ في الأرضين والسموات من القَطَرِ^(٣)، والرمل، وورق الشجر، وزبد البحار، فلا يغيب عنه شيء، ولا يخفى عليه أمر، فكيف لا يحيط علماً بما عند رسله من رسالاته ووحيه، التي أمرهم بتبليغها إلى خلقه؟ وكيف يمكن لرسله أن يفرطوا في تلك الرسالات، أو يزيدوا أو ينقصوا أو يحرفوا فيها أو يغيروا، وهو تعالى محيط بها، مُخَصِّص لجميع الأشياء جليلها وحقيرها؟

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الوصف بالمصدر للمبالغة ﴿قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ أي عجباً في حسن إيجازه، وروعة إعجازه.
- ٢ - طباق السلب ﴿فَتَأْمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرَكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ لأن الإيمان نفي للشرك.
- ٣ - جناس الاشتقاق ﴿تَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدُ لِّلسَّمْعِ﴾ لما بين اللفظتين من الاشتقاق اللطيف.
- ٤ - الأسلوب الرفيع بنسبة الخير إلى الله، دون الشر أدباً مع الخالق ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾؟ وبين لفظ «الشر» و «الرشد» طباق في المعنى.
- ٥ - الطباق بين ﴿الْإِنْسِ.. وَالْحِنِّ﴾ وبين ﴿ضَرًّا.. رَشَدًا﴾ وبين ﴿الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾.
- ٦ - الاستعارة اللطيفة ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا﴾ استعارة الطرائق للمذاهب المختلفة، وهو من لطيف الاستعارة.

- ٧ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿أَحَدًا، وَلَدًا، رَصَدًا، رَشَدًا، صَعَدًا، عَدَدًا﴾ إلخ وهو ما يسمى في علم البديع بالسجع المرصع والله أعلم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الجن»



(١) قال المفسرون: ما جاء في القرآن من تعليل لعلم الله كقوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾، وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ فإنما هو علم ظهور لا علم بقاء، فإنه تعالى عالم بالأشياء أزلاً وإنما يُظهِر علمه لعباده.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٦١.

(٣) (ش): المُنبِئَةُ: المنتشرة. القَطَرُ: المطر.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ

٧٣

٢٠

مكية وآياتها عشرون

بين يدي السورة

* سورة المزمل مكية، وهي تتناول جانباً من حياة الرسول الأعظم ﷺ في تبتله، وطاعته، وقيامه الليل، وتلاوته لكتاب الله عز وجل، ومحور السورة يدور حول الرسول عليه الصلاة والسلام، ولهذا سميت «سورة المزمل».

* ابتدأت السورة الكريمة بثناء الرسول ﷺ نداء شفيقاً لطيفاً، ينم عن لطف الله عز وجل ورحمته بعبده ورسوله محمد ﷺ الذي كان يجهد نفسه في عبادة الله ابتغاء مرضاته ﴿يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ ١﴾ فَرَأَيْتَ الْإِلَّاهَ قَلِيلاً ٢﴾ نَصَفَهُ ٣﴾ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلاً ٤﴾ أَوْ زِدَ عَلَيْهِ وَرَبِّ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ٥﴾.

* ثم تناولت السورة موضوع ثقل الوحي الذي كلف الله به رسوله، ليقوم بتبليغه للناس بجد ونشاط، ويستعين على ذلك بالاستعداد الروحي بإحياء الليل في العبادة ﴿إِنَّا سَأَلْنَاكَ قَوْلًا نَفِيلاً ٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً ٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً ٧﴾.

* وأمرت السورة الرسول عليه السلام بالصبر على أذى المشركين، وهجرهم هجراً جميلاً، إلى أن ينتقم الله منهم ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ٨﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ٩﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً ١٠﴾... الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بتخفيف الله عن رسوله وعن المؤمنين من قيام الليل رحمة به وبهم، ليتفرغ الرسول وأصحابه لبعض شئون الحياة ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ ١١﴾ وَتُلْئِيهِمْ وَطِيفَةً مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ١٢﴾... إلى قوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ نَّحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا ١٣﴾ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٤﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ ١﴾ فَرَأَيْتَ الْإِلَّاهَ قَلِيلاً ٢﴾ نَصَفَهُ ٣﴾ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلاً ٤﴾ أَوْ زِدَ عَلَيْهِ وَرَبِّ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ٥﴾ إِنَّا سَأَلْنَاكَ قَوْلًا نَفِيلاً ٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً ٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً ٧﴾ وَأَذْكُرُ اسْمَ رَبِّكَ وَبَنَيْتُ إِلَيْهِ تَبْيِيلاً ٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ٩﴾ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْجِرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً ١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ١٥﴾ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ١٧﴾ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ١٨﴾ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ١٩﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ٢٠﴾

فَمَنْ شَاءَ أَخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۖ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ، وَثُلُثَهُ، وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۗ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَنْ لَّنْ نَّخْصُوهُ فَاتَّبَعَ عَلَيْهِمْ فَقَرَأُوا مَا يَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَّرْضَىٰ ۚ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۚ وَآخَرُونَ يَقْنَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَقْرَأُ مَا يَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَقَرُضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ يَّجِدْهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

اللغة: ﴿الْمُزْمَلُ﴾ المتلفف بشيابه يقال: تَزَمَّلَ بثوبه، أي: التَفَّ به وتَغَطَّى، وزَمَّلَ غيره إذا غَطَّاه قال امرؤ القيس:

كَبِيرُ أَنَاسٍ فِي بَجَادٍ مُّزْمَلٍ^(١)

﴿سَبَحًا﴾ تصرفاً وتقلباً في مهماتك، وأصل السَّبْح العومُ على وجه الماء، واستعير للتصرف والتقلب في شئون الحياة ﴿أَنكَالًا﴾ جمع نكل وهو القيد الثقيل الذي يقيد به المجرم ﴿كَيْبًا﴾ الكتيب: الرمل المجتمع ﴿مَهِيلًا﴾ سائلاً متناثراً منهاراً قال أهل اللغة: المهيل الذي إذا وطئته بالقدم زلَّ من تحتها، وإذا أخذ أسفله انهال، وأصله مهول كميكل أصله مكيول ﴿وَيْلًا﴾ شديداً وخيم العاقبة.

التفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزْمَلُ﴾ أي يا أيها المتلفف بشيابه، وأصله المتزمل وهو الذي تلفف وتغطى، وخطابه ﷺ بهذا الوصف ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزْمَلُ﴾ فيه تأنيس وملاطفة له عليه السلام قال السهيلي: إن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك معاتبته سَمَّوه باسم مشتق من حالته التي هو عليها كقول النبي ﷺ لعلي حين غاضب فاطمة وقد نام ولصق بجنبه التراب: «قُمْ أَبَا تَرَابٍ، قُمْ أَبَا تَرَابٍ»، إشعاراً بأنه ملاطفٌ له، وغير عاتب عليه^(٢)، والفائدة الثانية، التنبيه لكل متزمل راقد ليله، ليتنبه إلى قيام الليل وذكر الله تعالى، لأنه الاسم المشتق من الفعل، يشترك فيه المخاطب، وكل من اتصف بتلك الصفة^(٣)، وسبب هذا التزمل ما روي في الصحيح «أن رسول الله ﷺ لما جاءه جبريل وهو في غار حراء في ابتداء الوحي رجع إلى خديجة يرجف فؤاده فقال: «رَمَلُونِي رَمَلُونِي، لَقَدْ خَشِيتُ عَلَىٰ نَفْسِي»، وأخبرها بما جرى^(٤)، فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزْمَلُ﴾ «أي يا أيها الذي تلفف بقطيفته، واضطجع في زاوية بيته، وقد أشبه من يؤثر

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٣٥٨. (ش): البجَاد: الكساء المخطط.

(٢) (ش): عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْتَ فَاطِمَةَ، فَلَمْ يَجِدْ عَلَيْهَا فِي الْبَيْتِ فَقَالَ: «أَيْنَ ابْنُ عَمِّكَ». قَالَتْ: «كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ شَيْءٌ، فَغَاضَبَنِي فَخَرَجَ فَلَمْ يَقُلْ عِنْدِي». فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَنَسَانَ: «انْظُرْ أَيْنَ هُوَ». فَجَاءَ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، هُوَ فِي الْمَسْجِدِ رَاقِدٌ»، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ، قَدْ سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ شِقِّهِ، وَأَصَابَهُ تُرَابٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْسَحُهُ عَنْهُ وَيَقُولُ «قُمْ أَبَا تَرَابٍ، قُمْ أَبَا تَرَابٍ». (رواه البخاري ومسلم).

(٣) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٣٣.

(٤) (ع) راجع صحيح البخاري «باب أول نزول الوحي». (ش): رواه البخاري ومسلم.

الراحة والسكون، ويحاول التخلص مما كُلف به من مهمات الأمور ^(١) ﴿قِرَ اللَّيْلَ لِأَقِيلًا﴾ أي دع التزمل والتلفف، وانشط لصلاة الليل، والقيام فيه ساعات في عبادة ربك، لنستعد للأمر الجليل، والمهمة الشاقة، ألا وهي تبليغ دعوة ربك للناس، وتبصيرهم بالدين الجديد... ثم وَضَحَ المقدار الذي ينبغي أن يصرفه في عبادة الله فقال ﴿يَصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ ^(٢) أَوْزِدْ عَلَيْهِ أي قم للصلاة والعبادة نصف الليل، أو أقل من النصف قليلاً، أو أكثر من النصف، والمراد أن تكون هذه الساعات طويلة بحيث لا تقل عن ثلث الليل، ولا تزيد على الثلثين قال ابن عباس: إن قيام الليل كان فريضة على رسول الله ﷺ لقوله ﴿قِرَ اللَّيْلَ﴾ ثم نسخ بقوله تعالى ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَسْرَمْتُهُ﴾ وكان بين أول هذا الوجوب ونسخه سنة ^(٣)، وهذه هي السورة التي نسخ آخرها أولها، حيث رحم الله المؤمنين فأنزل التخفيف عليهم بقوله ﴿إِنْ رَكَعُكَ تَقُومُ أَذَى مِنْ ثُلَاثِي أَلَيْلٍ وَيَصْفَهُ، وَثُلَاثُهُ، وَطَافَةُ مَنْ لَيْلَيْنِ مَعَكَ﴾ الآية ﴿وَرَزَّلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ أي اقرأ القرآن أثناء قيامك في الليل قراءة تثبت وتؤددة وتمهل، ليكون عوناً لك على فهم القرآن وتدبره، قال الخازن: لما أمره تعالى بقيام الليل أتبعه بترتيل القرآن، حتى يتمكن المصلي من حضور القلب، والتفكر والتأمل في حقائق الآيات ومعانيها، فعند الوصول إلى ذكر الله يستشعر بقلبه عظمة الله وجلاله، وعند ذكر الوعد والوعيد يحصل له الرجاء والخوف، وعند ذكر القصص والأمثال يحصل له الاعتبار، فسيتميز القلب بنور معرفة الله، والإسراع في القراءة يدل على عدم الوقوف على المعاني، فظهر بذلك أن المقصود من الترتيل، إنما هو حضور القلب عند القراءة ^(٤)، وقد كان رسول الله ﷺ يقطع القراءة حرفاً حرفاً أي يقرأ القرآن بتمهل، ويخرج الحروف واضحة

(١) (ش): هذه الألفاظ لا تليق بمقام النبي ﷺ.

(٢) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠ / ١٧١، وإنما كلف رسول الله ﷺ وأصحابه بقيام الليل، ليكون ذلك حافزاً لهم على الاستعداد الكامل لمجابهة خصوم الدعوة، وتربيتهم التربية «الجسمية والروحية» على أكمل الوجه، حتى يصبروا على تحمل المشاق والمصاعب، وتَجَشَّمُ الأهوال والأخطار، ويستفيدوا من هذه التربية الكريمة ما يجعلهم يتغلبون على كل أمر عسير يعرض لهم، وقد كان من أثر هذه «التربية الروحية» أن ملك المسلمون مشارق الأرض ومغاربها بجهادهم وصبرهم وتحملهم للأذى في سبيل الله. عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ أَنَّهُ سَأَلَ قَالَ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «يَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ حَدِّثِي عَن خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ». قَالَتْ: «أَلَسْتُ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَإِنْ خُلِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ». قَالَ: «حَدِّثِي عَن قِيَامِ اللَّيْلِ». قَالَتْ: «أَلَسْتُ تَقْرَأُ ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ﴾؟». قَالَ: «بَلَى». قَالَتْ: «فَإِنَّ أَوَّلَ هَذِهِ السُّورَةِ نَزَلَتْ فَقَامَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى انْتَفَخَتْ أَقْدَامُهُمْ حِسَّ خَاتِمَتِهَا فِي السَّمَاءِ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا ثُمَّ نَزَلَ آخِرُهَا فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعًا بَعْدَ فَرِيضَةٍ». (رواه مسلم). وعن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-؛ قال: «لما نزلت أول المزمل؛ كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان، حتى نزل آخرها، وكان بين أولها وآخرها سنة» (رواه أبو داود وصححه الألباني).

(ش): تَجَشَّمُ الأهوال والأخطار: تحمّلها عن كُرْهٍ ومشَقَّةٍ.

(٣) «تفسير الخازن» ٤ / ١٦٥.

لا يمر بآية رحمةٍ إلا وقف وسأل، ولا يمر بآية عذابٍ إلا وقف وتعوذ^(١) ثم بعد أن أمره تعالى باطراح النوم، وقيام الليل، وتدبر القرآن وتفهمه، انتقل إلى بيان السبب في هذه الأوامر الثلاثة، ذات التكليف الصعب الشاق فقال ﴿إِنَّا سَأَلْنَاكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أي سننزل عليك يا محمد كلامًا عظيمًا جليلاً، له هيبه وروعة وجلال، لأنه كلام الملك العلام قال الإمام الفخر: والمراد من كونه ثقیلاً هو عظم قدره، وجلالة خطره، وكل شيء نفس وعظم خطره فهو ثقیل، وهذا معنى قول ابن عباس: ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ يعني كلامًا عظيمًا، وقيل: المراد ما في القرآن من الأوامر والنواهي، التي هي تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين، ووجه النظم عندي أنه لما أمره بصلاة الليل فكأنه قال: إنما أمرتُك بصلاة الليل، لأننا سألناك عليك قولاً عظيمًا، ولا بد أن تصير نفسك مستعدة لذلك القول العظيم، وذلك بصلاة الليل، فإن الإنسان إذا اشتغل بعبادة الله في الليلة الظلماء، وأقبل على ذكره والتضرع بين يديه، استعدت نفسه لإشراق وجلال الله فيها^(٢) أقول: وهذا المعنى لطيف في الربط بين قيام الليل، وتلاوة القرآن، فإن الله تعالى كلف رسوله أن يدعو الناس إلى دين جديد، فيه تكاليف شاقة على النفس، وأن يكلفهم العمل بشرائعه وأحكامه، ولا شك أن مثل هذا التكليف، يحتاج إلى مجاهدة للنفس ومصابرة، لما فيه من حملهم على ترك ما ألفوه من العقائد، ونبذ ما ورثوه من أسلافهم من العادات، فأنت يا محمد مُعَرِّضٌ لمتاعب كثيرة، وأخطار جمة في سبيل هذه الدعوة، وحمل الناس على قبولها، فكيف يمكنك أن تقوم بهذه المهمة الكبيرة، وأنت على ما أنت عليه من التزمل والتكف، والخلود إلى الراحة والسكون^(٣)، والبعد عن المشاق، ومجاهدة النفس بطول العبادة وكثرة التهجد، ودراسة آيات القرآن دراسة تفهم وتدبر؟ فانشط من مضجعك إذاً، واسهر معظم ليلك في مناجاة ربك، استعداداً لتحمل مشاق الدعوة، والتبشير بهذا الدين الجديد، ويا لها من لفتة كريمة، تيقظ لها قلبُ النبي الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فشمر عن ساعد الجد والعمل، وقام بين يدي ربه حتى تشقت قدماه ثم بين تعالى فضل إحياء الليل بالعبادة فقال ﴿إِنَّا نَشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ أي إن ساعات الليل وأوقاته التي فيها التفرغ والصفاء، وما يُنشئه المرء ويُحدثه من طاعة وعبادة، يقوم لها من مضجعه بعد هدأة من الليل^(٤) ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْأً﴾ أي هي أشد على المصلي

(١) انظر ما كتبه العلامة ابن كثير عن تلاوة الرسول عليه السلام وعن فضائل تلاوة القرآن ٣/ ٥٦٢. (ش): عَنْ حَدِيثِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ صَلَّى مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَكَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ». وَفِي سُجُودِهِ «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى». وَمَا أَتَى عَلَى آيَةِ رَحْمَةٍ إِلَّا وَقَفَ وَسَأَلَ وَمَا أَتَى عَلَى آيَةِ عَذَابٍ إِلَّا وَقَفَ وَتَعَوَّذَ. (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

(٢) «التفسير الكبير للرازي» ٢٩.

(٣) (ش): هذه الألفاظ لا تليق بمقام النبي ﷺ.

(٤) (ش): هدأة من الليل: جزء من الليل.

وأثقل من صلاة النهار، لأن الليل جعل للنوم والراحة، فقيامه على النفس أشد وأثقل، ومن شأن هذه الممارسة الصعبة أن تقوّي النفوس، وتشد العزائم، وتصلب الأبدان، ولا ريب أن مصاوله الجاحدين أعداء الله تحتاج إلى نفوس قوية، وأبدان صلبة ﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ أي أثبت وأبين قولاً، لأن الليل تهدأ فيه الأصوات، وتنقطع فيه الحركات، فتكون النفس أصفى، والذهن أجمع، فإن هدوء الصوت في الليل، وسكون البشر فيه، أعون للنفس على التدبر والتفطن، والتأمل في أسرار القرآن ومقاصده ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ أي إن لك في النهار تصرفاً وتقلباً، واشتغالاً طويلاً في شئونك، فاجعل ناشئته الليل لتعبدك وعبادتك قال في التسهيل: السبح هنا عبارة عن التصرف في الأعمال والأشغل والمعنى: يكفيك النهار للتصرف في أشغالك، وتفرغ بالليل لعبادة ربك^(١).. وبعد أن قرر الخطاب الإلهي هذه المقدمات التي هي بمثابة تمهيد وبساطٍ للدعوة، انتقل إلى أمر الرسول ﷺ بتبليغ الدعوة، وتعليمه كيفية السير فيها عملاً، بعد أن مهدا له نظراً فقال ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ أي استعن على دعوتك بذكر الله ليلاً ونهاراً، وانقطع إليه انقطاعاً تاماً في عبادتك وتوكلك عليه، ولا تعتمد في شأن من شئونك على غيره تعالى قال ابن كثير: أي أكثر من ذكره وانقطع إليه جلّ وعلا، وتفرغ لعبادته إذا فرغت من أشغالك مع إخلاص العبادة له^(٢) ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أي هو جل وعلا الخالق المتصرف بتدبير شئون الخلق، وهو المالك لمشارك الأرض ومغارها، لا إله غيره ولا رب سواه، فاعتمد عليه وفوض أمورك إليه ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ أي اصبر على أذى هؤلاء السفهاء المكذبين فيما يتقولونه عليك من قولهم: «ساحر، شاعر، مجنون» فإن الله ناصرك عليهم ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ أي اتركهم ولا تتعرض لهم بأذى ولا شتيمة، قال المفسرون: الهجر الجميل هو الذي لا عتاب معه^(٣)، ولا يشوبه أذى ولا شتم، وقد كان هذا قبل أن يؤمر بالقتال كما قال سبحانه ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيِنِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨] ثم أمر ﷺ بقتالهم وقتلهم، والحكمة في هذا أن المؤمنين كانوا بمكة قلة مستضعفين، فأمرُوا بالصبر وبالمجاهدة الليلية، حتى يُعِدُّوا أنفسهم بهذه التربية الروحية على مناجزة الأعداء، وحتى يكثُر عددهم فيقفوا في وجه الطغيان، أما قبل الوصول إلى هذه المرحلة فينبغي الصبر والاقصار على الدعوة باللسان ثم قال تعالى متوعداً ومتهدداً صناديد قريش ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ﴾ أي دعني يا محمد وهؤلاء المكذبين بآياتي، أصحاب الغنى، والتعّم في الدنيا، والترف والبطر فأنا أكفيك شرهم قال الصاوي: المعنى اتركني أنتقم منهم،

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ١٥٧/٤.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٥٦٤/٣.

(٣) كذا قال ابن كثير ٥٦٤/٣.

ولا تشفع لهم^(١)، وهذا من مزيد التعظيم له ﷺ، وإجلال قدره^(٢) ﴿وَمَهْلَهْمُ قَلِيلًا﴾ أي وأمهلهم مناسيئاً حتى ينالوا العذاب الشديد قال المفسرون: أمهلهم الله تعالى إلى أن هاجر رسول الله ﷺ من مكة، فلما خرج منها سلط عليهم السنين المجذبة وهو العذاب العام، ثم قتل صناديدهم ببدر وهو العذاب الخاص^(٣).. ثم وصف تعالى ما أعده لهم من العذاب في الآخرة فقال ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحِمِيمًا﴾ أي إن لهم عندنا في الآخرة قيوداً عظيمة ثقيلة يقيدون بها، وناراً مستعرة هي نار الجحيم يحرقون بها قال في التسهيل: الأنكال جمع نكل وهو القيد من الحديد، وروي أنها قيود سود من نار^(٤) ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ أي وطعاماً كريهاً غير سائغ، يغص به الإنسان^(٥) وهو الزقوم والضريع قال ابن عباس: شوك من نار يعترض في حلوقهم لا يخرج ولا ينزل^(٦) ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وعذاباً وجيعاً مؤلماً، زيادة على ما ذكر من النكال والأغلال.. ثم ذكر تعالى وقت هذا العذاب فقال ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ أي يوم تنزل الأرض وتهتز بمن عليها اهتزازاً عنيفاً شديداً هي وسائر الجبال، وذلك يوم القيامة ﴿وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَيْفًا مَهِيلًا﴾ أي وتصبح الجبال على صلابتها تلاً من الرمل سائلاً متناثراً، بعد أن كانت صلبة جامدة قال ابن كثير: أي تصير الجبال ككثبان الرمال، بعد ما كانت جحارة صماء، ثم إنها تُنسَفُ نسفاً فلا يبقى منها شيء إلا ذهب^(٧) كقوله تعالى ﴿وَسَتُلَوْنُكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۖ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧] أي لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع.. ذكر تعالى العذاب المؤلم الذي أعده للمشركين، ومكانه وهو الجحيم، وآلاته وهي القيود وطعام الزقوم، ووقته وهو عند اضطراب الأرض وتزلزلها بمن عليها، وأراد بذلك تخويف المكذبين وتهديدهم بأنه تعالى سيعاقبهم بذلك كله، إن بقوا مُستمرِّين في تكذيبهم لرسول الله عليه الصلاة والسلام، ثم أعقبه بتذكيرهم بما حلّ بالأمم الباغية التي قد خلت من قبلهم، وكيف عصت وتمردت فأنزل بها من أمره ما أنزل، وضرب لهم المثل بفرعون الجبار فقال ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكَ﴾ أي بعثنا لكم يا أهل مكة محمداً ﷺ شاهداً على أعمالكم، يشهد عليكم بما صدر منكم من الكفر والعصيان ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا

(١) (ش): تعبير الصاوي غير سليم؛ لأنه لا أحد يشفع عند الله إلا من بعد إذنه، فكيف يليق بالرسول ﷺ أن يشفع قبل الإذن حتى يُنهى عن ذلك. وأيضاً النبي ﷺ لا يشفع للمشركين.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٢٦٠/٤.

(٣) حاشية الصاوي ٢٦٠/٤.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ١٥٨/٤. (ش): روى ابن جرير الطبري في «تفسيره» عن حماد بن أبي سليمان أنه قال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا﴾ قال: «قيودا سوداء من نار جهنم». وحماد بن أبي سليمان من صغار التابعين.

(٥) (ش): غص بالطعام أو الماء ونحوهما: اعترض في حلقه فمنعه التقيس والبلع.

(٦) «البحر المحيط» ٣٦٤/٨.

(٧) «مختصر ابن كثير» ٥٦٥/٣.

إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١﴾ أَيُّ كَمَا بَعَثْنَا إِلَىٰ ذَلِكَ الطَّاغِيَةِ فِرْعَوْنَ الْعَجَبِ، رَسُولًا مِنْ أَوْلَئِكَ الرُّسُلِ الْعِظَامِ «أُولِي الْعِزْمِ» وَهُوَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ قَالَ الْخَازِنُ: وَإِنَّمَا خَصَّ فِرْعَوْنَ وَمُوسَى بِالذِّكْرِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأُمَمِ وَالرُّسُلِ، لِأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ آذَاهُ أَهْلُ مَكَّةَ وَاسْتَخَفُّوا بِهِ لِأَنَّهُ وُلِدَ فِيهِمْ، كَمَا أَنَّ فِرْعَوْنَ أَزْدَرَى بِمُوسَى وَأَذَاهُ لِأَنَّهُ رَبَّاهُ ^(١) ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ أَيُّ فَكَذَّبَ فِرْعَوْنَ بِمُوسَى وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ، وَعَصَى أَمْرَهُ كَمَا عَصَيْتُمْ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ مُحَمَّدًا ﷺ وَكَذَّبْتُمْ بِرِسَالَتِهِ ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ أَيُّ فَأَهْلَكَنَاهُ إِهْلَاكًَا شَدِيدًا فَظِيْعًا، خَارِجًا عَنْ حُدُودِ التَّصَوُّرِ، وَذَلِكَ بِإِغْرَاقِهِ فِي الْبَحْرِ مَعَ قَوْمِهِ قَالَ أَبُو السَّعُودِ: وَفِي الْآيَةِ التَّنْبِيْهُ عَلَى أَنَّهُ سَيَحْقِيقُ هَؤُلَاءِ مَا حَاقَ بِأَوْلَئِكَ لَا مُحَالَةَ، وَ«الْوَبِيلُ» الثَّقِيلُ الْغَلِيظُ مِنْ قَوْلِهِمْ كَلًّا وَبَيْلٌ أَيُّ وَخِيمٌ لَا يُسْتَمَرُّ لِثِقَلِهِ ^(٢) وَبَعْدَ أَنْ ذَكَرَ اللَّهُ أَخْذَهُ لِفِرْعَوْنَ، وَأَنَّ مُلْكَهُ وَجَبْرُوتَهُ لَمْ يَدْفَعَا عَنْهُ الْعَذَابَ، عَادَ فَذَكَرَ كِفَارَ مَكَّةَ بِالْقِيَامَةِ وَأَهْوَالَهَا لِيُبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ لَنْ يَفْلَتُوا مِنَ الْعَذَابِ كَمَا لَمْ يَفْلِتْ فِرْعَوْنَ مِمَّا حَدَثَ لَهُ فَقَالَ ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ أَيُّ كَيْفَ لَا تَحْذَرُونَ وَتَخَافُونَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ عَذَابَ يَوْمٍ هَائِلٍ إِنْ كَفَرْتُمْ بِاللَّهِ وَلَمْ تُؤْمِنُوا بِهِ؟ وَكَيْفَ تَأْمَنُونَ ذَلِكَ الْيَوْمَ الرَّهِيْبَ الَّذِي يَشِيْبُ فِيهِ الْوَلِيدُ مِنْ شِدَّةِ هَوْلِهِ، وَفُظَاعَةِ أَمْرِهِ؟ قَالَ الطَّبْرِيُّ: وَإِنَّمَا تَشِيْبُ الْوِلْدَانُ مِنْ شِدَّةِ هَوْلِهِ وَكُرْبِهِ، وَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ اللَّهُ لِآدَمَ: أَخْرِجْ مِنْ ذَرِيَّتِكَ بَعَثَ النَّارَ، مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَتِسْعُونَ، فَيَشِيْبُ هُنَالِكَ كُلُّ وَلِيدٍ ^(٣) ثُمَّ زَادَ فِي وَصْفِهِ وَهَوْلِهِ فَقَالَ ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ أَيُّ السَّمَاءُ مُتَشَقِّقَةٌ وَتَمْتَدُّعَةٌ مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ الرَّهِيْبِ الْعَصِيْبِ ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ أَيُّ كَانَ وَعْدُهُ تَعَالَى بِمَجِيئِهِ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَاقِعًا لَا مُحَالَةَ، لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ أَيُّ إِنَّ هَذِهِ الْآيَاتُ الْمَخَوِّفَةُ، الَّتِي فِيهَا الْقَوَارِعُ وَالزَّوْاجِرُ، عِظَةٌ وَعِبْرَةٌ لِلنَّاسِ ﴿فَمَنْ شَاءَ أَخْذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أَيُّ فَمَنْ شَاءَ مِنَ الْغَافِلِينَ النَّاسِيْنَ، أَنْ يَسْتَفِيدَ مِنْ هَذِهِ التَّذَكُّرَةِ قَبْلَ فَوَاتِ الْأَوَانِ، فَلْيَسْلُكْ طَرِيقًا مُوَصِّلًا إِلَى الرَّحْمَنِ، بِالْإِيْمَانِ وَالطَّاعَةِ، فَالْأَسْبَابُ مُيسِرَةٌ، وَالسُّبُلُ مُعَبَّدَةٌ ^(٤)، قَالَ الْمَفْسُورُونَ: وَالْغَرَضُ

(١) «تفسير الخازن» ١٦٩/٤.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٢٠٥/٥. (ش): وَخُمُ الطَّعَامُ: ثَقُلَ وَكَانَ فَاسِدًا. اسْتَمَرَّ الطَّعَامُ وَغَيْرُهُ: وَجَدَهُ مَقْبُولًا مُسْتَسَاغًا، اسْتَطَابَهُ.

(٣) «تفسير الطبري» ٨٦/٢٩، و«مختصر ابن كثير» ٥٦٥/٣. (ش): عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ. فَيَقُولُ أَخْرِجْ بَعَثَ النَّارَ. قَالَ: وَمَا بَعَثَ النَّارَ قَالَ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيْبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى، وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّا ذَلِكَ الْوَاحِدُ قَالَ «أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلًا، وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفٌ». ثُمَّ قَالَ «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي أَرَجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ». فَكَبَّرْنَا. فَقَالَ «أَرَجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ». فَكَبَّرْنَا. فَقَالَ «أَرَجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ». فَكَبَّرْنَا. فَقَالَ «مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ نَوْرٍ أَبْيَضٍ، أَوْ كَشَعْرَةِ بَيْضَاءٍ فِي جِلْدِ نَوْرٍ أَسْوَدَ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

(٤) (ش): عَبْدُ الطَّرِيقِ وَنَحْوُهُ: ذَلِكَ وَمَهْدُهُ.

الحض على الإيمان وطاعة الله عز وجل، والترغيب في الأعمال الصالحة، لتبقى ذخراً في الآخرة.. ثم عادت الآيات الكريمة للحديث عما بداؤه في أول السورة من قيام الليل فقال تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ، وَثُلُثَهُ، وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ أي إن ربك يا محمد يعلم أنك تقوم مع أصحابك^(١) للتهجد والعبادة أقل من ثلثي الليل، وتارة تقومون نصفه، وتارة ثلثه كقوله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧-١٨] ﴿وَاللَّهُ يَقْدَرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي والله جل وعلا هو العالم بمقادير الليل والنهار، وأجزائهما وساعاتهما، لا يفوته علم ما تفعلون من قيام هذه الساعات في غلس الظلام ابتغاء رضوانه، وهو تعالى المدبر لأمر الليل والنهار ﴿عِلْمُ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي علم تعالى أنكم لن تطيقوا قيام الليل كله ولا معظمه، فرحمكم ورجع عليكم بالتخفيف قال الطبري: أي علم ربكم أن لن تطيقوا قيامه، فتاب عليكم بالتخفيف عنكم^(٢) ﴿فَأَقْرَءُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ أي فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل، وإنما عبر عن الصلاة بالقراءة، لأن القراءة أحد أجزاء الصلاة قال ابن عباس: سقط عن أصحاب رسول الله قيام الليل وصارت تطوعاً، وبقي ذلك فرضاً على رسول الله ﷺ^(٣) ثم بين تعالى الحكمة في هذا التخفيف فقال ﴿عِلْمُ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ﴾ أي علم تعالى أنه سيوجد فيكم من يعجزه المرض عن قيام الليل، فخفف عنكم رحمة بكم ﴿وَأَخْرُونَ يَصْرَبُونَ فِي الْأَرْضِ يَنْتَعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي وقوم آخرون يسافرون في البلاد للتجارة، يطلبون الرزق وكسب المال الحلال ﴿وَأَخْرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ﴾ أي وقوم آخرون وهم الغزاة المجاهدون، يجاهدون في سبيل الله لإعلاء كلمته ونشر دينه، وكل من هذه الفرق الثلاثة يشق عليهم قيام الليل، فلذلك خفف الله عنهم، ذكر تعالى في هذه الآية الأعذار التي

(١) الآية نص صريح على أن قيام الليل كان واجباً على الرسول وعلى أصحابه، وقد كُلفوا أن يقوموا ساعات من الليل طويلاً، لا تقل على ثلثه، ولا تزيد على ثلثيه، فإن قيام الليل وإحياء بأنواع الطاعات المختلفة من ذكر، وصلاة، وتلاوة قرآن، يقوي أبدانهم، ويزكي أرواحهم، ويعودهم الخشونة في العيش، واجتناب ما عليه المترفون من الراحة والرخاوة والانغماس في الملذات، كلفهم الله تعالى بذلك ليعدهم إعداداً روحياً وجسمياً للقيام بأعباء الدعوة الجديدة، وتحمل المشاق في سبيل نشر هذا الدين، وبإلها من تربية كريمة مجيدة، تُنشئ الرجال والأبطال.

(٢) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٨٨.

(٣) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ١٨٧. (ش): لم أجده بهذا اللفظ إلا في بعض التفاسير بدون إسناد. وروى عن ابن عباس رضيه الله عنه أنه قال: ﴿وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ يعني بالنافلة أنها للنبي ﷺ خاصة، أمر بقيام الليل وكتب عليه. (رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف). وقد اختلف العلماء في قيام الليل، هل كان فرضاً على صلوات الله وسلامته عليه أو لم يكن فرضاً، مع اتفاقهم على عدم فرضيته على الأمة. [انظر: الموسوعة الفقهية ٢/ ٢٥٧-٢٥٨، (٣٤/ ١١٨)]. أما حديث: «ثَلَاثُ هُنَّ عَلَىٰ فَرَاثُصٍ، وَهُنَّ لَكُمْ تَطَوُّعٌ: الْوُتْرُ، وَالنَّحْرُ، وَصَلَاةُ الضُّحَى» فقد رواه أحمد وضعفه أحمد شاكر والأرنؤوط. ورواه الحاكم بلفظ: «ثَلَاثُ هُنَّ عَلَىٰ فَرَاثُصٍ وَلَكُمُ تَطَوُّعٌ: النَّحْرُ، وَالْوُتْرُ، وَرَكَعَتَا الْفَجْرِ»، وضعفه الذهبي والألباني.

تكون للعباد تمنعهم من قيام الليل، فمنها المرض، ومنها السفر للتجارة، ومنها الجهاد في سبيل الله، ثم كرر الأمر بقراءة ما تيسر من القرآن تأكيداً للتخفيف عنهم قال الإمام الفخر: أما المرضى فإنهم لا يمكنهم الاشتغال بالتهجد لمرضهم، وأما المسافرون والمجاهدون فهم مشغولون في النهار بالأعمال الشاقة، فلو لم يناموا في الليل لتوالت أسباب المشقة عليهم، فلذلك خفف الله عنهم وصار وجوب التهجد منسوخاً في حقهم^(١) ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ أي فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل، واقرأوا في صلاتكم ما تيسر من القرآن ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي وأدوا الصلاة المفروضة على الوجه الأكمل، والزكاة الواجبة عليكم إلى مستحقيها قال المفسرون: قلما يُذكر الأمر بالصلاة في القرآن، إلا ويُقرن معه الأمر بالزكاة، فإن الصلاة عماد الدين بين العبد وربّه، والزكاة عماد الدين بينه وبين إخوانه، والصلاة أعظم العبادات البدنية، والزكاة أعظم العبادات المالية ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي تصدقوا في وجوه البر والإحسان ابتغاء وجه الله قال ابن عباس: يريد سائر الصدقات سوى الزكاة، من صلة الرحم، وقرى الضيف وغيرهما^(٢) ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي أي شيء تفعلوه أيها الناس من وجوه البر والخير تلقوا أجره وثوابه عند ربكم ﴿هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾ أي تجدوا ذلك الأجر والثواب يوم القيامة خيراً لكم مما قدمتم في الدنيا من صلح الأعمال، فإن الدنيا فانية والآخرة باقية، وما عند الله خيرٌ للأبرار ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ أي اطلبوا مغفرة الله في جميع أحوالكم، فإن الإنسان قلما يخلو من تقصير أو تفريط ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي عظيم المغفرة، واسع الرحمة ختم تعالى السورة بإرشاد المنفقين المحسنين، إلى أن يطلبوا من الله الصفح والعفو، إذ ربما كانوا لم يخلصوا النية في الإنفاق، أو لم يحسنوا العمل في الإقراض، فيضعوا النفقة في غير مواضعها، أو ينفقوها فيما لهم فيه غرض وشهوة، وهو ختم يتناسق مع موضوع الإنفاق، فسبحان منزل القرآن بأوضح بيان!!

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الطباق بين ﴿أَنْقَضَ مِنْهُ.. أَوْزَدَ عَلَيْهِ﴾ وبين ﴿الْمُسْرِقِ.. وَالْمَغْرِبِ﴾ وبين ﴿الَيْلِ وَالنَّهَارِ﴾.
- ٢ - جناس الاشتقاق ﴿أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾.
- ٣ - تأكيد الفعل بالمصدر مثل ﴿وَرَلَّ الْقُرْآنَ رَئِيلاً﴾ ﴿وَبَنَلَّ إِلَيْهِ بَنِيلاً﴾ ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً﴾ زيادة في البيان والإيضاح.
- ٤ - الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ ولو جرى على الأصل لقال: إنا أرسلنا إليهم، والغرض من الالتفات التقرير والتوبيخ على عدم الإيمان.

(١) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١٨٧.

(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ١٧١. (ش): قرى الضيف: أضافه وأكرمه، أحسن إليه.

- ٥ - المجاز المرسل ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَسَّرَ مِنْهُ﴾ أراد به الصلاة، فأطلق اسم الجزء على الكل، لأن القراءة أحد أجزاء الصلاة.
- ٦ - ذكر العام بعد الخاص ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ عمم بعد ذكر الصلاة، والزكاة، والإنفاق ليعم جميع الصالحات.
- ٧ - الاستعارة التبعية ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ فَرْضًا حَسَنًا﴾ شبه الإحسان إلى الفقراء والمساكين بإقراض رب العالمين، وهو من لطيف الاستعارة.
- ٨ - السجع المُرصَّع مثل ﴿إِنْ لَدَيْنَا أَنْكَالٌ وَحِمِيمًا ۝١٢﴾ و﴿طَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ النخ.

«انتهى تفسير سورة المزمل»



سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ

٧٤

٥٦

مكية وآياتها ست وخمسون

بين يدي السورة

* سورة المدثر مكية، شأنها كسابقتها -سورة المزمل- تتحدث عن بعض جوانب من شخصية الرسول الأعظم ﷺ، ولهذا سميت سورة المدثر.

* ابتدأت السورة الكريمة بتكليف الرسول بالنهوض بأعباء الدعوة، والقيام بمهمة التبليغ بجد ونشاط، وإنذار الكفار، والصبر على أذى الفجار، حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ﴿يَأْتِيهَا الْمُدَّثِّرُ ١﴾ ثُمَّ فَاَنْذِرْ ٢ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ٣ وَتَبَارَكَ فَطَهِّرْ ٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ٥ وَلَا تَمْنُنْ فَتَسْتَخِيرُ ٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ٧.

* ثم توالى السورة تنذر وتهدد أولئك المعجزمين بيوم، عاصب شديد لا راحة لهم فيه، لما فيه من الأهوال والشدائد ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي الْأَقْصَارِ ٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ غَيْرٌ مُبِينٌ ٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ مُبِينٍ ١٠.

* وبعد ذلك البيان الذي يرتعد له الإنسان، تحدثت السورة عن قصة ذلك الشقي الفاجر «الوليد بن المغيرة» الذي سمع القرآن وعرف أنه كلام الله، ولكنه في سبيل الزعامة وحب الرئاسة زعم أنه من قبيل السحر الذي تعارفه البشر ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ١١ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ١٢ وَبَنِينَ شُهودًا ١٣ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا ١٦ سَازِغُهُ، صَعُودًا ١٧ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَرُ ١٩ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ٢٠﴾.

* ثم تحدثت السورة عن النار التي أوعدها الله بها الكفار، وعن خزنتها الأشداء، وزبائنها الذين كلّفوا بتعذيب أهلها، وعددهم والحكمة من تخصيص ذلك العدد ﴿وَمَا أَزِيدُكَ مَا سَقَرُ ٢٧﴾ لَا بَقِيَّ وَلَا نَذْرٌ ٢٨ لَوَاعَةُ اللَّبْثِ ٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ٣٠ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا... ﴿الآيات.

(١) (ش): عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَكَانَهُ رَقَّ لَهُ فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: «يَا عَمُّ، إِنْ قَوْمُكَ يَرَوْنَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَالًا». قَالَ: «كَمْ؟». قَالَ: «لِيُعْطَوْكَ فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لَتُعْرِضَ لِمَا قِيلَ». قَالَ: «قَدْ عَلِمْتُ قُرَيْشٌ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا». قَالَ: «فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكَرٌ لَهُ أَوْ أَنَّكَ كَارِهِ لَهُ». قَالَ: «وَمَاذَا أَقُولُ؟» فَوَاللَّهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمُ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمُ بِرَجَزٍ وَلَا بِقَصِيدَةٍ مِنِّي وَلَا بِأَشْعَارِ الْجَنِّ، وَاللَّهُ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا وَوَاللَّهِ إِنْ لَقَوِي لَيَقُولَنَّ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ». قَالَ: «لَا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ». قَالَ: «فَدَعْنِي حَتَّى أَفَكِّرَ»، فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: «هَذَا سِحْرٌ يُؤَثِّرُ يَأْثُرُهُ مِنْ غَيْرِهِ فَتَزَلْتُ» ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا. (رواه الحاكم في المستدرک، وصحّحه، ووافقه الذهبي، والألباني). (الرجز): إنشاد الشعر، وهو بحر من بحوره عند العروضيين. (أثر الحديث): ذكره ونقله عن غيره. (طَلَاوَةٌ / طَلَاوَةٌ / طَلَاوَةٌ): حُسْنٌ، وَرَوْقٌ. (مُغْدِقٌ): كثير المياہ.

* وأقسمت السورة بالقمر وضيائه^(١)، والصبح وبهائه، على أن جهنم إحدى البلايا العظام ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ٣٣ وَالصُّبْحِ إِذَا أَفْجَرُ ٣٤ إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكُبَرِ ٣٥ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ٣٦ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ٣٧.

* ثم تحدثت السورة عن الحوار الذي يجري بين المؤمنين والمجرمين، في سبب دخولهم الجحيم ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ ٤٠ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ٤١ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ٤٢ قَالُوا لَوْ نَكُنْ مِنَ الْمُصْلِينَ ٤٣ وَلَوْ نَكُنْ نَظْعُمُ الْمُسْكِينَ ٤٤ وَكُنَّا نَحُوسُ مَعَ الْخَافِضِينَ ٤٥ الْآيَاتِ.

* وختم السورة ببيان سبب إعراض المشركين عن الإيمان ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ٥٤ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ٥٥ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ النَّفْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ٥٦.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ ١ قُمْ فَأَنْذِرْ ٢ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ٣ وَيَا بَابَ فَطَحْ ٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ٥ وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَنْتَكِرُ ٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ٧ فَإِذَا نَقَرُ فِي النَّاقُورِ ٨ فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ ٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ١٠ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ١١ وَجَعَلْتُ لَهُ مَا لَا مَمْدُودًا ١٢ وَبَنِينَ شُهودًا ١٣ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ١٥ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِأَيُّنَا عُيُونًا ١٦ سَاهِقَهُ صَعُودًا ١٧ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَرُ ١٩ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرُ ٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ٢٣ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ٢٤ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ٢٥ سَاطِئِهِ سَفَرٌ ٢٦ وَمَا آدِرُكَ مَا سَفَرٌ ٢٧ لَا بُقْيَ وَلَا نَذْرٌ ٢٨ لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ ٢٩ عَلَيْنَا نَسْعُهُ عَشْرٌ ٣٠ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا لِمَلَائِكَةٍ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفِينَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَيزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْنَابَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ٣١ كَلَّا وَالْقَمَرِ ٣٢ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ٣٣ وَالصُّبْحِ إِذَا أَفْجَرُ ٣٤ إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكُبَرِ ٣٥ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ٣٦ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ٣٧ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةٌ ٣٨ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ٣٩ فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ ٤٠ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ٤١ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ٤٢ قَالُوا لَوْ نَكُنْ مِنَ الْمُصْلِينَ ٤٣ وَلَوْ نَكُنْ نَظْعُمُ الْمُسْكِينَ ٤٤ وَكُنَّا نَحُوسُ مَعَ الْخَافِضِينَ ٤٥ وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ٤٦ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ٤٧ فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّفِيعِينَ ٤٨ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ ٤٩ كَانَهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنَفِرَةٌ ٥٠ فَزَرَتْ مِنْ قَسْرَةٍ ٥١ بَلْ يَرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً ٥٢ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ٥٣ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ٥٤ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ٥٥ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ النَّفْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ٥٦

(١) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الخالق يُقسم بما شاء من خلقه، وأن المخلوق لا ينبغي له أن يُقسم إلا بالخالق. قال عليه السلام: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». وفي رواية: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ» (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه أذرك عمر ابن الخطاب في ركب وهو يخلف أبيه، فناداهم رسول الله ﷺ: «أَلَا، إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تُحْلِفُوا بَابَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيُحْلِفْ بِاللَّهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ» (رواه البخاري ومسلم).

اللغة: ﴿الْمُدَّثِّرُ﴾ المتغطي بثيابه، تدثر: لبس الدثار وهو الثوب الذي فوق الشعار، والشعار الثوب الذي يلي الجسد، ومنه حديث «الْأَنْصَارُ شِعَارٌ وَالنَّاسُ دِثَارٌ»^(١)

﴿النَّافُورُ﴾ الصور الذي ينفخ فيه، والنقر في كلام العرب الصوت، سمي ناقورًا لأنه يخرج منه صوت عظيم رهيب، يَفْزَعُ الناس منه ويموتون^(٢) ﴿عَبَسَ﴾ قَطَّبَ بين عينيه^(٣) ﴿وَبَسَّرَ﴾ كَلَح وجهه وتغير لونه^(٤) قال الليث: عَبَسَ إِذَا قَطَّبَ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَإِنْ أَبَدَى عَنْ أَسْنَانِهِ فِي عُبُوسِهِ قِيلَ: كَلَحَ، فَإِنْ أَهْتَمَّ فِي الْأَمْرِ وَفَكَرَ فِيهِ قِيلَ: بَسَّرَ، فَإِنْ غَضِبَ مَعَ ذَلِكَ قِيلَ: بَسَلَ^(٥) ﴿أَسْفَرَ﴾ أَضَاءَ وانكشف ﴿الْكُفْرُ﴾ الدواهي وعظام المصائب والعقوبات قال الرازي:

يَا ابْنَ الْمُعَلَى نَزَلَتْ إِحْدَى الْكُفْرِ دَاهِيَةُ الدَّهْرِ وَصَمَاءُ الْغَبَرِ^(٦)

﴿فَسَوْرَةٍ﴾ أسد، من القسر وهو القهر، سمي بذلك لأنه يقهر السباع، وقيل: هم جماعة الرماة الذين يتصيدون، قال الأزهري: هو اسم جمع للرماة لا واحد له من جنسه قال لبيد:

إِذَا مَا هَتَفْنَا هَتَفَةً فِي نَدْيِنَا أَتَانَا الرِّجَالُ الصَّائِدُونَ الْقَسَاوِرُ^(٧)

سبب النزول: روي أنه لما نزل قوله تعالى ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم إن ابن أبي كبشة -يعني محمداً ﷺ- يتوعدنا ويخوفنا بجهنم، ويخبر أن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الجمع العظيم، أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم!! فقال «أبو الأشد الجمحي»: أنا أكفيكم منهم سبعة عشر، واكفوني اثنين، فأنزل الله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ الآية^(٨).

التفسير: ﴿يَتْلَاهَا الْمُدَّثِّرُ﴾^(٩) فَوَافِزٌ أَي يَا أَيُّهَا الْمَتَّغِي بِقُطَيْفَتِهِ يَرِيدُ النَّوْمَ وَالرَّاحَةَ، قَمَ مِنْ

(١) (ش): رواه البخاري ومسلم. (الْأَنْصَارُ شِعَارٌ وَالنَّاسُ دِثَارٌ): أَي: انهم بمنزلة ذلك الثوب، وإنهم الخاصة والبطانة وألصق الناس بي، والناس هم العامة.

(٢) (ش): الصور: بوقٌ يُنْفَخُ فِيهِ.

(٣) (ش): أَي ضَمَّ جِلْدَ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَجِلْدَ جَبْهَتِهِ، وَصَارَ كَرِيهِ الْوُجْهِ.

(٤) (ش): كَلَحَ الشَّخْصُ: عَبَسَ وَأَفْرَطَ فِي الْعُبُوسِ مِنْ ضَيْقٍ أَوْ حُزْنٍ.

(٥) «التفسير الكبير للرازي» ٢٠١/٣٠.

(٦) «تفسير القرطبي» ٨٣/١٩.

(٧) «البحر المحيط» ٣٦٩/٨. (ش): هَتَفَ الشَّخْصُ: صَاحَ مَادًّا صَوْتَهُ. النَّدْيُ: النَّادِي: الْمُتَنَدِّي: مَجْلِسُ الْقَوْمِ وَمُتَحَدِّثُهُمْ، مَكَانٌ يَجْلِسُ الْقَوْمُ فِيهِ وَيَتبادلون الحديث.

(٨) «التفسير الكبير» ٢٠٣/٣٠، و«تفسير الخازن» ١٧٧/٤. (ش): دَاهِيَةُ الدَّهْرِ وَصَمَاءُ الْغَبَرِ: أَي بَلِيَّةٌ لَا تَكَادُ تَذْهَبُ، إِنْ ذُكِرَتْ يَقُولُونَ لَا تَسْمَعُوهَا فَإِنَّهَا عَظِيمَةٌ. (ش): لَمْ أَجِدْهُ إِلَّا فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ بِدُونِ إِسْنَادٍ. وَعَنْ السَّيِّدِ؛ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾؛ قَالَ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ يَدْعِي أَبَا الْأَشْدِينَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! لَا يَهْوِلُنَاكَمُ التَّسْعَةُ عَشْرَ، أَنَا أَدْفَعُ عَنْكُمْ بِمَنْكِبِي الْأَيْمَنِ عَشْرَةَ وَبِمَنْكِبِي الْأَيْسَرِ التَّسْعَةَ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ -تَعَالَى-: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ (ضعيف جداً، ذكره السيوطي في «الدر المنثور»، و«الباب النقول» ونسبه لابن أبي حاتم).

مضجعك قيام عزم وتصميم، وحذر الناس من عذاب الله إن لم يؤمنوا، خوطب ﷺ بهذا اللفظ «المدثر» مؤانسة له ﷺ وتلطفاً، كما خوطب بلفظ ﴿الْمُرْئِلُ﴾ في السورة السابقة قال المفسرون: كان ﷺ يتعبد في غار حراء فجاءه جبريل بالآيات الكريمة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ...﴾ [العلق: ١] الآيات وهي أول ما نزل عليه من القرآن، فرجع يرجف فؤاده فقال لخديجة: زملوني، زملوني فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الْمُرْئِلُ ①﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ②﴾ [المزمل: ١٢] الآيات ثم فتر الوحي فحزن ﷺ فبينما هو يمشي سمع صوتاً من السماء، فرفع رأسه فإذا الملك الذي جاءه بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فعراه ﷺ من رؤيته الرعب والفرع^(١)، فجاء إلى أهله فقال: دثروني، دثروني فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ③﴾ ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ ④﴾ قال القرطبي: وفي هذا النداء ملاطفة في الخطاب، من الكريم إلى الحبيب، إذ ناداه بوصفه ولم يقل «يا محمد» ليستشعر اللين والملاطفة من ربه، ومثله قول النبي ﷺ لحذيفة بن اليمان يوم الخندق: «قم يا نومان»^(٢)

(١) (ش): عَرَاهُ: أصابه، غَشِيَهُ، أَلَمَ بِهِ.

(٢) هذه الرواية ذكرها الطبري عن جابر بن عبد الله كذا في الطبري ٢٩ / ٩٠. (ش): عن جابر بن عبد الله الأنصاري رحمه الله قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فِتْرَةِ الْوَحْيِ - قَالَ فِي حَدِيثِهِ: «فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحَرَاءٍ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «فَجِئْتُ مِنْهُ فَرَقًا فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ زَمَلُونِي زَمَلُونِي. فَدَثَرُونِي فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ③﴾ ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ ④﴾ وَرَبِّكَ فَكَيِّرْ ⑤ وَبَابُكَ فَطَهِّرْ ⑥ وَالرَّجْزُ فَاهْجُرْ ⑦ وَهِيَ الْأَوْتَانُ قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ الْوَحْيُ. (رواه البخاري ومسلم).

فَجِئْتُ: ففزعت.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٩ / ٦٠. (ش): عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ حُدَيْفَةَ فَقَالَ رَجُلٌ: لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَاتَلْتُ مَعَهُ وَأَبْلَيْتُ فَقَالَ حُدَيْفَةُ: أَنْتَ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؟ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ وَأَخَذْتَنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرَّ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». فَسَكَنَّا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ قَالَ «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». فَسَكَنَّا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ قَالَ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». فَسَكَنَّا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنْ أَحَدٍ فَقَالَ «قُمْ يَا حُدَيْفَةُ فَأَتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ». فَلَمْ أَجِدْ بَدَأَ إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ. قَالَ: «إِذْ هَبْ فَأَتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَلَا تَدْعُرْهُمْ عَلَيَّ». فَلَمَّا وَلَيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حِمَامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ فَرَأَيْتُ أَبَا سَفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كِبِدِ الْقَوْسِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ فَذَكَّرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ «وَلَا تَدْعُرْهُمْ عَلَيَّ». وَلَوْ رَمَيْتُهُ لَأَصَبْتُهُ فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحِمَامِ فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَفَرَعْتُ قُرْرْتُ فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ فَضْلِ عِبَادَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يَصْلِي فِيهَا فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتُ فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ: «قُمْ يَا نَوْمَانُ». (رواه مسلم). قَوْلُهُ (كُنَّا) عِنْدَ حُدَيْفَةَ فَقَالَ رَجُلٌ لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَاتَلْتُ مَعَهُ وَأَبْلَيْتُ فَقَالَ لَهُ حُدَيْفَةُ مَا قَالَ (مَعَنَا) أَنْ حُدَيْفَةَ فَهَمَّ مِنْهُ أَنَّهُ لَوْ أَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ لَبَالَغَ فِي نُصْرَتِهِ وَلَزَادَ عَلَى الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَأَخْبَرَهُ بِخَبَرِهِ فِي لَيْلَةِ الْأَحْزَابِ وَقَصَدَ رَجْرُهُ عَنْ ظَنِّهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ أَكْثَرَ مِنْ فِعْلِ الصَّحَابَةِ. (قُرْ: بَرَدٌ. قُرْرْتُ: أَيُّ بَرَدْتُ. وَلَا تَدْعُرْهُمْ عَلَيَّ) لَا تُفْرَعُهُمْ عَلَيَّ وَلَا تُحَرِّكُهُمْ عَلَيَّ وَقِيلَ مَعْنَاهُ لَا تُنْفِرْهُمْ وَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ الْمَعْنَى الْأَوَّلِ وَالْمُرَادُ لَا تُحَرِّكُهُمْ عَلَيْكَ فَإِنَّهُمْ إِنْ أَخَذُواكَ كَانَ ذَلِكَ ضَرَرًا عَلَيَّ لِأَنَّكَ رَسُولِي وَصَاحِبِي. (كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حِمَامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ) يَعْنِي أَنَّهُ لَمْ يَجِدَ الْبَرْدَ الَّذِي يَجِدُهُ النَّاسُ وَلَا مِنْ تِلْكَ الرِّيحِ الشَّدِيدَةِ شَيْئًا بَلْ عَافَاهُ اللَّهُ مِنْهُ بِرَكَّةٍ إِبَاقِيَةٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَذَهَابِهِ فِيهَا وَجْهَهُ لَهُ وَدَعَاهُ ﷺ لَهُ وَاسْتَمَرَّ ذَلِكَ اللَّطْفُ بِهِ وَمُعَافَاتُهُ مِنَ الْبَرْدِ حَتَّى عَادَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا رَجَعَ وَوَصَلَ =

﴿وَرَبِّكَ فَكِّرْ﴾ أي عظم ربك، وخُصَّه بالتمجيد والتقديس، وأفردَه بالعظمة والكبرياء، فليس هناك من هو أكبر من الله قال الألوسي: أي اخصص ربك بالتكبير، وهو وصفه تعالى بالكبرياء والعظمة، اعتقادًا وقولاً^(١)، وإنما ذكرت هذه الجملة بعد الأمر بالإنذار، تنبيهًا للنبي ﷺ على عدم الاكتراث بالكفار، فإن نواصي الخلائق بيد الجبار، فلا ينبغي أن يبالي الرسول بأحد من الخلق، ولا أن يرهب سوى الله، فإن كل كبير مقهور تحت عظمته تعالى وكبريائه ﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي وثيابك فطهرها من النجاسات والمستقدرات، فإن المؤمن طيب طاهر، لا يليق منه أن يحمل الخبيث، قال ابن زيد: كان المشركون لا يتطهرون، فأمره الله أن يتطهر وأن يطهر ثيابه^(٢) وقال ابن عباس: كنى بالثياب عن القلب. والمعنى: وقلبك فطهر من الإثم والمعاصي واستشهد بقول غيلان:

فَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ لَا ثَوْبَ فَاجِرٍ لَيْسْتُ وَلَا مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ^(٣)

يقول العرب: فلان طاهر الثياب أو نقي الثياب، يريدون وصفه بالنقاء من المعاييب وذميم الصفات، ويقولون: فلان دنس الثياب إذا كان موصوفًا بالأخلاق الذميمة قال الرازي: والسبب في حسن هذه الكناية، أن الثوب كالشيء الملازم للإنسان، فلهذا السبب جعلوا الثوب كناية عن الإنسان، فقالوا: المجد في ثوبه، والعفة في إزاره^(٤) ﴿وَالرُّجْزَ فَهْجُرْ﴾ أي اترك عبادة الأصنام والأوثان ولا تقربها^(٥) قال ابن زيد: الرجز: الآلهة التي كانوا يعبدونها، فأمره أن يهجرها فلا يأتيها ولا يقربها وقال الإمام الفخر: الرجز: اسم للقبیح المستقدر كالرجس قال تعالى ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠] وقوله ﴿وَالرُّجْزَ فَهْجُرْ﴾ كلام جامع لمكارم الأخلاق، كأنه قيل له: اهجر الجفاء، والسفَه، وكُلَّ قبیح، ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين، والمراد بالهجر الأمر بالمداومة على ذلك الهجران، كما يقول المسلم: ﴿أَهْدِنَا

= عَادَ إِلَيْهِ الْبَرْدُ الَّذِي يَجِدُهُ النَّاسُ وَهَذِهِ مِنْ مُعْجَزَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَلَفْظَةُ الْحَمَامِ عَرَبِيَّةٌ وَهُوَ مُذَكَّرٌ مُشْتَقٌّ مِنَ الْحَمِيمِ وَهُوَ الْمَاءُ الْحَارُّ. (يَصْلِي ظَهْرَهُ) أَي يُدْفِنُهُ وَيُدْنِيهِ مِنْهَا. (كَبِدَ الْقَوْسِ) هُوَ مِقْبَضُهَا وَكَبِدُ كُلِّ شَيْءٍ وَسَطُهُ. (أَصْبَحْتُ) أَي طَلَعَ الْفَجْرُ. (فَمَ يَا تَوْمَانُ) التَّوْمَانُ: كَثِيرُ النَّوْمِ وَأَكْثَرُ مَا يُسْتَعْمَلُ فِي النَّدَاءِ. [باختصار من شرح صحيح مسلم للنووي (١٢/١٤٥-١٤٦)].

(١) روح المعاني ١١٦/٢٩.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٥٦٨/٣.

(٣) «تفسير الطبري» ٩١/٢٩، واختار ابن جرير القول الأول وقال: هو أظهر. (ش): بِحَمْدِ اللَّهِ: وَالْحَمْدُ لِلَّهِ. لَا ثَوْبَ فَاجِرٍ لَيْسْتُ: لَمْ أَلِيسْ ثَوْبَ فَاجِرٍ، أَي لَمْ أَفْعَلْ فِعْلَ الْفَجَّارِ. أَتَقَنَّعُ: أَسْتُرُ وَجْهِي. غَدْرَ فَلَانًا/ غَدَرَ بفلان: خانه، نقض عهده وترك الوفاء به. وَلَا مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ: أَي لَمْ أَغْدِرْ بِأَحَدٍ فَاسْتَرْتُمَنِ النَّاسَ مِنْ عَارِ ذَلِكَ الْفِعْلِ.

(٤) «التفسير الكبير» ١٩٢/٣٠.

(٥) «تفسير الطبري» ٩٣/٢٩.

أَصْرَطَ الْمُسْتَقِيمَ [الفاتحة: ٦] ليس معناه أنه ليس على الهداية، بل المراد ثبتنا على هذه الهداية^(١) ﴿وَلَا تَمَنَّيَنَّ سَكَتًا﴾ أي ولا تعط الناس عطاء وتستكثره، لأن الكريم يستقل ما يعطي وإن كان كثيرًا^(٢)، وأعط عطاء من لا يخاف الفقر وقال ابن عباس: لا تُعْطِ عَطِيَّةً تَلْتَمِسُ بِهَا أَفْضَلَ مِنْهَا^(٣) بمعنى: لا تُعْطِ شَيْئًا لَتُعْطِيَ أَكْثَرَ مِنْهُ، وسر النهي أن يكون العطاء خاليًا عن انتظار العوض تعففًا وكمالًا، فإن النبي ﷺ مأمور بأشرف الآداب وأجل الأخلاق ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ أي اصبر على أذى قومك، ابتغاء وجه ربك.. ثم أخبر تعالى عن أهوال القيامة وشدائدها فقال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي النُّافُورِ﴾ أي فإذا نفخ في الصور، نفخة البعث والنشور، وعبر عن النفخ وعن الصور، بالنقر في الناقور لبيان هول الأمر وشدته، فإن النفر في كلام العرب معناه الصوت وإذا اشتد الصوت أصبح مفرغًا، فكأنه يقول: إصبر على أذاهم، فبين أيديهم يوم هائل يلقون فيه عاقبة أذاهم، وتلقى عاقبة صبرك، ولهذا قال بعده ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ عَسِيرٌ﴾ أي فذلك اليوم يوم شديد هائل، يشتد فيه الهول ويعسر الأمر عليهم، والإشارة بالبعيد ﴿فَذَلِكَ﴾ للإيدان ببعده منزلته في الهول والفظاعة^(٤) ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ أي هو عسير على الكافرين، غير هين ولا يسير عليهم، لأنهم يُناقشون الحساب^(٥)، وتُسَوَّدُ وجوههم، ويُحْشَرُونَ زُرْقًا، ويفتضحون على رؤوس الأشهاد، قال الصاوي: ودلت الآية على أنه يسير على المؤمنين، لأنه قيد عسره بالكافرين، وفيها زيادة وعيد وغيظ للكافرين، وبشرى وتسلية للمؤمنين^(٦). ثم أخبر عن قصة ذلك الشقي الكافر «الوليد بن المغيرة» وقوله الشنيع في القرآن فقال ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾

(١) «التفسير الكبير» ١٩٣/٣٠.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ١٦٠/٤.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٥٦٨/٣.

(٤) «تفسير أبي السعود» ٢٠٨/٥.

(٥) (ش): عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ حُوسِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَّبَ». فَقُلْتُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ فَقَالَ «لَيْسَ ذَلِكَ الْحِسَابُ إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرْضُ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَّبَ». وفي رواية: «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ هَلَكَ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). (مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَّبَ): نُوقِشَ: أَسْتَفْصِيَ عَلَيْهِ. (عَذَّبَ): أَي أَنَّهُ مُفْضٍ إِلَى الْعَذَابِ بِالنَّارِ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ التَّفْصِيرَ غَالِبٌ فِي الْعِبَادِ فَمَنْ أَسْتَفْصِيَ عَلَيْهِ وَلَمْ يُسَامَحْ هَلَكَ وَدَخَلَ النَّارَ وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغْفُو وَيَغْفِرُ مَا دُونَ الشَّرِّ لِمَنْ يَشَاءُ. (إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرْضُ) أَي تُعْرَضُ الْأَعْمَالُ عَلَى الشَّخْصِ حَتَّى يُقَرَّرَ؛ فَإِذَا أَقَرَّ بِهَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: «سَتَرْتَهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ». قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، وَيَسْتَرُّهُ فَيَقُولُ أَعْرِفْ ذَنْبَكَ كَذَا أَعْرِفْ ذَنْبَكَ كَذَا فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ. حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ سَتَرْتَهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. فَيُعْطَى كِتَابُ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ، أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ». (رواه البخاري ومسلم). فمن يشأ الله أن يعفو عنه يحاسبه الحساب اليسير الذي فسرهُ النبي ﷺ بالعرض. أما الذين يدخلون النار بذنوبهم فهم ممن يُناقش الحساب.

(٦) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٢٦٥/٤.

أي دعني يا محمد وهذا الشقي، الذي خلقته في بطن أمه وحيداً فريداً، لا مال ولا ولد، ولا حول له ولا مدد، ثم كفر بي وكذب بآياتي قال المفسرون: نزلت في «الوليد بن المغيرة» كان من أكابر قريش، ولذلك لقب الوحيد وريحانة قريش، وقد أنعم الله عليه بنعم الدنيا من المال والبنين، وأغدق عليه الرزق فكان ماله كالنهر الدافق، وكان للوليد بستان في الطائف لا ينقطع ثمره صيفاً ولا شتاء، فكفر بأنعم الله وبدلها كفرًا، وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها، وفيه نزل ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ وهو أسلوب بليغ في التهديد، كما نزلت فيه الآيات المتقدمة في سورة نون^(١)، ﴿وَلَا تَطْعَمُ كُلُّ هَالَفٍ مَّهِينٍ...﴾ إلى ﴿سَتِيسْمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ [القلم] وهو الذي أذى رسول الله ﷺ وكاد له، فإن صناديد قريش لما برؤوا برسول الله^(٢)، وضاعت عليهم الحيل في إسكاته، وإطفاء نور دعوته، لجئوا إلى الوليد فأشار عليهم بأن يلقبوه ﷺ بالساحر، ويأمروا عبيدهم وصبيانهم أن ينادوا بذلك في مكة، فجعلوا ينادون: إن محمدًا ساحر، فحزن لذلك رسول الله ﷺ فنزلت الآيات الكريمة في معرض تهديده وتخويفه، ليكون ذلك أدعى للكسر من كبريائه ثم قال تعالى ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا﴾ أي جعلت له المال الواسع المبسوط، من الإبل، والخيول، والغنم، والبساتين النضرة قال البيضاوي: ﴿مَمْدُودًا﴾ أي مبسوطًا كثيرًا، وكان له الزرع والضرع والتجارة^(٣) قال ابن عباس: كان ماله ممدودًا ما بين مكة والطائف وقال مقاتل: كان له بستان لا ينقطع نفعه شتاء ولا صيفًا^(٤) ﴿وَبَيْنَ شُهُودًا﴾ أي وأولادًا مقيمين معه في بلده، يحضرون معه المحافل والمجامع، يستأنس بهم ولا يتنقص عيشه لفراقهم قال المفسرون: كان له عشرة بنين لا يفارقونه سفرًا ولا حضرًا، وكان مستأنسًا بهم وله بهم عز ومنعة، أسلم منهم ثلاثة: «خالد، وهشام، والوليد»^(٥) وبعد أن ذكر من مظاهر النعم

(١) انظر ما كتبه في سورة «ن» حول قصة الوليد بن المغيرة من هذا التفسير. (ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَكَانَتْ رَقٌّ لَهُ فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: «يَا عَمُّ، إِنَّ قَوْمَكَ يَرَوْنَ أَنَّ يَجْمَعُونَ لَكَ مَالًا». قَالَ: «كَمْ؟». قَالَ: «لِيُعْطَوْكَ فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لَتُعَرِّضَ لِمَا قَبْلَهُ». قَالَ: «قَدْ عَلِمْتُ قُرَيْشٌ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا». قَالَ: «فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكَرٌ لَهُ أَوْ أَنَّكَ كَارَةٌ لَهُ». قَالَ: «وَمَاذَا أَقُولُ؟ فَوَاللَّهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمُ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمُ بِرَجَزٍ وَلَا بِقَصِيدَةٍ مِنِّي وَلَا بِأَشْعَارِ الْجَنِّ، وَاللَّهِ مَا يُشَبِّهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا وَوَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَكُمُومٌ أَعْلَاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يَعْلى وَإِنَّهُ لَيَحْطُمُ مَا تَحْتَهُ». قَالَ: «لَا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ». قَالَ: «فَدَعَنِي حَتَّى أَفْكُرَ»، فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: «هَذَا سِحْرٌ يُؤَثِّرُ يَأْثُرُهُ مِنْ غَيْرِهِ فَتَزَلَّتْ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا». (رواه الحاكم في المستدرک، وصحَّحه، ووافقه الذهبي، والألباني). (الرجز): إنشاد الشعر، وهو بحر من بحوره عند العروضيين. (أثر الحديث): ذكره ونقله عن غيره. (طَلَاوَةٌ / طَلَاوَةٌ): حُسْنٌ، وَرَوْنَقٌ. (مُغْدِقٌ): كثير المياه.

(٢) (ش): بَرُّمُوا: مَلُّوا وَصَحَّرُوا.

(٣) «تفسير البيضاوي» ٢/ ٤٩٢.

(٤) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١٩٨.

(٥) ذكر بعض المفسرين تبعًا للزمخشري أن الذين أسلموا «خالد، وعمار، وهشام» والصحيح أنه الوليد فأما عمار فإنه مات كافرًا، وانظر حاشية الشهاب ٨/ ٢٧٤.

المال والبنين عاد فعمم الخيرات الدنيوية التي أنعم بها الله عليه فقال ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ أي بسطت بين يديه الدنيا بسطًا، ويسرت له تكاليف الحياة، ومظاهر الجاه والعز والسيادة، فكان في قریش عزيزًا منيعًا، وسيدًا مطاعًا ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ أي ثم بعد هذا العطاء الجزيل يطمع أن أزيد له في ماله وولده وقد كفر بي قال الفخر الرازي: لفظ ﴿ثُمَّ﴾ هنا للإنكار والتعجب، كما تقول لصاحبك: أنزلتك داري، وأطعمتك وأكرمتك ثم أنت تشتمني! (١) (أي ومع كل هذا الإنعام والإكرام فقد كفر ووجد، وبدل أن يشكر الوليد لربه هذا الإحسان، ويقابله بالطاعة والإيمان، عكس الأمر وقابله بالجحود والكفران ﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر أي ليرتدع هذا الفاجر الأثيم عن ذلك الطمع الفاسد، ثم علل ذلك بقوله ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يَتَنَبَّأَ عَيْنِدَا﴾ أي لأنه معاند للحق، جاحد بآيات الله، مكذب لرسوله، فكيف يطمع بالزيادة هذا الشقي العنيد؟ ﴿سَأَرْهُقُهُ صَعُودًا﴾ أي سأكلفه وألجئه إلى عذاب صعب شاق لا يطاق، تَصْعَفُ عنه قوته كما تضعف قوة من يصعد في الجبل قال القرطبي: ﴿صَعُودًا﴾ صخرة ملساء يُكَلِّفُ صعودها، فإذا صار في أعلاها حذر في جهنم، فيهوي ألف عام قبل أن يبلغ قرارها (٢) وفي الحديث «الصَّعُودُ: جَبَلٌ مِنْ نَارٍ، يَصْعَدُ فِيهِ سَبْعِينَ خَرِيفًا، ثُمَّ يَهْوِي بِهِ كَذَلِكَ فِيهِ أَبَدًا» (٣) ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ أي إنه فكر في شأن النبي والقرآن، وأجال رؤية وذهنه الثاقب، ثم رتب وهياً كلاماً في نفسه، ماذا يقول في القرآن؟ وبماذا يطعن فيه؟ قال تعالى دعاء عليه: ﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ أي قاتله الله وأخزاه على تلك الكلمة الحمقاء التي أجالها في نفسه، حيث قال عن القرآن، إنه سحر، وقال عن محمد إنه ساحر، وفي الآية استهزاء به وتهكُّم، حيث قَدَّرَ ما لا يصح تقديره، ولا يسوغ أن يقوله عاقل (٤) قال في البحر: يقول العرب عند استعظام الأمر والتعجب منه: قاتله الله، ومرادهم أنه قد بلغ المبلغ الذي يُحسد عليه ويُدعى عليه من حُسَّاده، والاستفهام في قوله ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾؟ في معنى ما أعجب تقديره وما أغربه به؟ كقولهم أي رجل هذا؟ أي ما أعظمه! (٥) ﴿ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ كرر العبارة تأكيداً لذمه وتبجيحاً لحاله، ولغاية التهكم به، كأنه قال: قاتله الله ما أروع تفكيره، وأبداع رأيه الحصيف! (٦) حيث قال عن القرآن إنه سحر يؤثر؟ قال المفسرون: مر الوليد بالنبي ﷺ وهو يصلي ويقرأ القرآن، فاستمع لقراءته وتأثر بها، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم فقال: والله لقد سمعت من محمد أنفًا كلامًا، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام

(١) «التفسير الكبير» ٣٠ / ١٩٩.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٩ / ٧٢.

(٣) أخرجه الترمذي والحاكم وصححه. (ش): رواه أحمد والترمذي، وضعفه الألباني.

(٤) (ش): لا يسوغ: لا يجوز ولا يُباح.

(٥) «البحر المحيط» ٨ / ٣٧٤.

(٦) هذا كما قال الزمخشري: ثناء عليه بطريق الاستهزاء والتهكم بمعنى أن ما أتى به في غاية الركاكة والسقوط.

الجن، والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلّو وما يُعلّى عليه، ثم انصرف إلى منزله، فقالت قريش: لقد صبأ والله الوليد، ولتصبأ قريش كلها. فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه، فانطلق حتى جلس إلى جانب الوليد حزينا، فقال له الوليد: مالي أراك حزينا يا ابن أخي؟ فقال: كيف لا أحزن وهذه قريش تجمع لك ما لا يعينوك به على كبر سنك، ويزعمون أنك زينت كلام محمد وصبأت لتصيب من فضل طعامه، وتنال من ماله، فغضب الوليد وقال: ألم تعلم قريش أني من أكثرهم مالا وولدا؟ وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام حتى يكون لهم فضل طعام؟ ثم قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه فقال لهم: تزعمون أن محمداً مجنون. فهل رأيتموه، يُخنق؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كاهن. فهل رأيتموه تكهن قط؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه شاعر: فهل رأيتموه نطق بشعر قط؟ قالوا اللهم لا، قال: تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه كذبا قط؟ قالوا اللهم لا، فقالت قريش للوليد: فما هو؟ ففكر في نفسه ثم قال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله وولده، وما هذا الذي يقوله إلا سحر يؤثر، فذلك قوله تعالى ﴿إِنَّهُ فَعَكَرَ وَقَدَرُ﴾ الآيات^(١) تركنا الوليد يفكر ويقدر، ولنرجع إليه لنرى ماذا فعل بعد، قال تعالى ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أي أجال النظر مرة أخرى متفكرا في شأن القرآن ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ أي ثم قطب وجهه وكلّحه ضيقا بما يقول ﴿وَبَسَرَ﴾ أي وزاد في القبض والكُلُوح، كالمهتم المتفكر في أمر يدبره قال في التسهيل: البُسُور تغطي الوجه وهو أشد من العُبُوس^(٢) ﴿ثُمَّ أَذْبَرُ وَأَسْتَكْبِرُ﴾ أي ثم أعرض عن الإيمان، وتكبر عن اتباع الهدى والحق ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِسْرٌ يُؤْتَرُ﴾ أي فقال: ما هذا الذي يقوله محمد إلا سحر ينقله ويرويه عن السحرة ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ أي ليس هذا كلام الله، وما هو إلا كلام المخلوقين، يخدع به محمد القلوب، ويؤثر فيها كما يؤثر السحر بالمسحور قال الألوسي: هذا كالتأكيد للجملة الأولى، لأن المقصود منهما نفي كونه قرآنا أو من كلام الله تعالى، ولذلك لم يعطف عليها بالواو، وفي وصف إشكاله واستنباطه هذا القول السخيف استهزاء به، وإشارة إلى أنه عن الحق بمعزل، ويظهر من تتبع أحوال الوليد، أنه إنما قال ذلك عنادا وحمية جاهلية، لا جهلا بحقيقة الحال^(٣)، ألا ترى ثناءه على القرآن ونفيه عنه جميع ما نسبوا إليه من الشعر والكهانة والجنون!! ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ أي سأدخله جهنم يتلظى حرها، ويذوق عذابها ﴿وَمَا أَذْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾؟ استفهام للتهويل والتفظيع، أي: وما أعلمك أي شيء هي سقر؟ ﴿لَا بُقِيَ وَلَا نَذْرُ﴾ أي لا تبقى على شيء فيها إلا أهلكته، ولا تترك أحدا من الفجار إلا أحرقته قال

(١) انظر «تفسير القرطبي» ٧٣/١٩ و«الخازن» ١٧٦/٤ و«التفسير الكبير» ٣٠/٢٠١ وانظر «السيرة النبوية» لابن

هشام. (ش:) وانظر التعليق في مقدمة السورة.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ١٦١/٤.

(٣) «روح المعاني» ١٢٤/٢٩.

ابن عباس: لا تبقي من الدم والعظم واللحم شيئاً، فإذا أعيد خلقهم من جديد تعاود إحراقهم بأشد مما كانت وهكذا أبداً^(١) ﴿لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ أي تلوح وتظهر لأنظار الناس من مسافات بعيدة لعظمتها وهو لها كقوله تعالى ﴿وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ [النازعات: ٣٦] قال الحسن: تلوح لهم من مسيرة خمسمائة عام حتى يروها عياناً^(٢) فهي بارزة إلى أنظارهم، يرونها من غير استشراف ولا مد أعناق ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي خزنتها الموكلون عليها تسعة عشر ملكاً من الزبانية الأشداء كقوله تعالى ﴿عَلَيْهَا مَلَكُتُهُ غَلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦] قال ابن عباس: «ما بين منكبي الواحد منهم مسيرة سنة، وقوة الواحد منهم أن يضرب بالمقمع فيدفع بتلك الضربة سبعين ألف إنسان في قعر جهنم»^(٣) قال الألوسي: روي عن ابن عباس أنها لما نزلت ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم، أسمع ابن أبي كبشة - يعني محمداً - يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الدَّهَم أي العدد الشجاعان، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم؟ فقال أبو الأشد الجمحي: وكان شديد البطش أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني أنتم اثنين، فأنزل الله ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾^(٤) أي وما جعلنا خزنة النار إلا من الملائكة الغلاظ الشداد، ولم نجعلهم من البشر حتى يصار عوهم ويغالبوهم ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَدَتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي لم نجعل ذلك العدد إلا سبباً لفتنة وضلال المشركين، حين استقلوا بعددهم واستهزءوا حتى قال أبو جهل: أفيعجز كل مائة منكم أن يبطشوا بواحد منهم ثم تخرجون من النار؟^(٥) قال الطبري: وإنما جعل الله الخبر عن عدة خزنة جهنم فتنة للكافرين، لتكذيبهم بذلك وقول بعضهم لأصحابه على سبيل الاستهزاء أنا أكفيكموهم^(٦) ﴿لَيْسَتِ يَفْقَهُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي ليتيقن أهل الكتاب من صدق

(١) «التفسير الكبير» ٢٠٢/٣٠.

(٢) اختار بعض المفسرين أن معنى: ﴿لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ أي محرقة للجلود مسودة لها، تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل وإن: «البشر» جمع بشرة وهي جلدة الإنسان الظاهرة، والظاهر ما ذكرناه لأن الله تعالى ذكر من وصفها بتسويد البشرة بعد ذلك، وما اخترناه هو ما رجحه القرطبي ونسبه إلى ابن عباس وكذلك ما رجحه الإمام الفخر الرازي والله أعلم.

(٣) (ش): ذكره القرطبي في «تفسيره» بدون إسناد.

مِقْمَع: مِقْمَعَة: خشبة أو حديدة معوجة الرأس يُضْرَبُ بها رأس الإنسان أو الحيوان لإهانتته وإذلاله. والجمع مَقَامِع. وَقِيلَ: الْمَقَامِعُ: الْمَطَارِقُ.

(٤) «تفسير الألوسي» ١٢٦/٢٩. (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد. وعن السدي: قال: لما نزلت: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾؛ قال رجل من قريش يدعى أبا الأشدين: يا معشر قريش! لا يهولنكم التسعة عشر، أنا أدفع عنكم بمنكبي الأيمن عشرة وبمنكبي الأيسر التسعة؛ فأنزل الله - تعالى -: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ (ضعيف جداً، ذكره السيوطي في «الدر المنثور»، و«لباب النقول» ونسبه لابن أبي حاتم).

(٥) تفسير القرطبي ٧٩/١٩.

(٦) «تفسير الطبري» ١٠١/٢٩.

محمد، وأن هذا القرآن من عند الله، إذ يجدون هذا العدد في كتبهم المنزلة ﴿وَيَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ أي ويزداد المؤمنون تصديقاً لله ورسوله، بما يشهدان من صدق أخبار نبيهم ﷺ وتسليم أهل الكتاب لما جاء في القرآن موافقاً للتوراة والإنجيل ﴿وَلَا يَرْثَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي ولا يشك أهل الكتاب والمؤمنون في عددهم، وهذا تأكيد لما قبله لأنه لما ذكر اليقين نفى عنهم الشك، فكان قوله ﴿وَلَا يَرْثَابَ﴾ مبالغة وتأكيذاً^(١)، وهو ما يسميه علماء البلاغة الإطناب ﴿وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ أي وليقول الذين في قلوبهم شك ونفاق والكافرون من أهل مكة: أي شيء أراد الله بهذا القول العجيب، الذي هو مثل في الغرابة والبداعة؟ ولماذا يخوفنا بواسطته من سقر وخزنتها التسعة عشر؟ قال الرازي: إثبات اليقين في بعض الأحوال لا ينافي حصول الارتباب بعد ذلك، فالمقصود من إعادة هذا الكلام هو أنه حصل لهم يقين جازم بحيث لا يحصل عقيب البتة شك ولا ريب، وقد كان ﷺ يعلم من حال قريش أنه متى أخبرهم بهذا العدد العجيب فإنهم يستهزئون به ويضحكون منه، ولذلك بين تعالى الغاية من ذكر هذا الخبر أو ضح بيان^(٢) ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أي مثل ما أضل الله أبا جهل وأصحابه، يضل الله عن الهداية والإيمان من أراد إضلاله، ويهدي من أراد هدايته^(٣)، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي وما يعلم عدد الملائكة، وقوتهم وضخامة خلقهم، وكثرتهم إلا الله رب العالمين، وفي الآية رد على أبي جهل حين قال: أما لرَبِّ محمد أعوان إلا تسعة عشر؟ ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ أي وما هذه النار التي وصفها لكم الجبار، إلا موعظة وتذكرة للخلق ليخافوا ويطيعوا ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ﴾ ﴿كَلَّا﴾ كلمة ردع وزجر ثم أقسم الله تعالى بالقمر على أن سقر حق^(٤)، ونشر ضياءه على الأرجاء

(١) نقل هذا القول صاحب التسهيل عن الزمخشري.

(٢) «التفسير الكبير» بشيء من التصرف ٢٠٦/٣٠.

(٣) قال علماء التوحيد: ليس معنى إضلال الله لفريق وهدايته لفريق أنه تعالى يجبر كلا منهما على الضلالة والهدى، ولا أنه تعالى يكرههم على سلوك سبيلي الخير والشر، كلا فإن هذا الإكراه مُنافٍ للعدل الإلهي بل مُنافٍ لحكمة التشريع السماوي، ولا يتفق مع نصوص الشريعة المتواترة القاطعة، الدالة على أن العبد له إرادة واختيار، هما مناط التكليف والمواخذة وكذلك فهم الصحابة والسلف الصالح سأل رجل علياً رضي الله عنه فقال: أكان مسيرك إلى الشام - يعني لقتال أهلها - بقضاء الله وقدره؟ فقال له: ويحك، لعلك ظننت قضاء لازماً، وقدراً حاتماً، ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد إن الله سبحانه أمر عباده بتخييراً، ونهاهم تحذيراً وكلف يسيراً ولم يكلف عسيراً، ولم ينزل الكتب للعباد عبثاً، ولا خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً: ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ اهـ، وعلى ضوء هذا يفهم معنى الهداية والإضلال.

(٤) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الخالق يُقسم بما شاء من خلقه، وأن المخلوق لا ينبغي له أن يُقسم إلا بالخالق. قال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». وفي رواية: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ» (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه أدرك عمر ابن الخطاب في ركب وهو يحلف بأبيه، فناداهم رسول الله ﷺ: «ألا، إن الله ينهاكم أن =

﴿إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكُبَرِ﴾ أي إن جهنم لإحدى الدواهي الكبيرة، والبلايا الخطيرة، فكيف يستهزئون بها ويكذبون؟ قال أبو حيان: أقسم تعالى بهذه الأشياء تشريفاً لها، وتنبهاً على ما يظهر فيها من عجائب الله وقدرته، وقوام الوجود بإيجادها، أقسم على أن جهنم إحدى الدواهي العظيمة التي تلا نظير لها^(١) وفي الآية إيماء إلى أن الشمس والقمر مخلوقان لله، وأنهما في حركاتهما وإدبارهما وإسفارهما، ونشوء الليل والنهار عنهما، مسخران لأمره تعالى، ساجدان بين يدي قدرته وقهره، فكيف يحسن بالبشر أن يعبدوهما ويكفروا بالإله الذي خلقهما؟ ثم قال تعالى عن جهنم ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ أي هي إنذار للخلق ليتقوا ربهم ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ أي لمن أراد من العباد أن يتقرب إلى ربه بفعل الخيرات أو يتأخر بفعل الموبقات قال في البحر: والمراد بالتقدم والتأخر: السبق إلى الخير والتخلف عنه كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُزِمْنَا مِنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾^(٢) [الكهف: ٢٩] قال ابن عباس: من شاء اتبع طاعة الله، ومن شاء تأخر عنها بمعصيته^(٣) ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ﴾ أي كل نفس محبوسة بعملها، مرهونة عند الله بكسبها، ولا تفك حتى تؤدي ما عليها من الحقوق والعقوبات ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ أي إلا فريق السعداء المؤمنين، فإنهم فكوا رقابهم وخلصوها من السجن والعذاب، بالإيمان وطاعة الرحمن ﴿فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ^(٤) عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي هم في جنات وبساتين لا يدرك وصفها، يسأل بعضهم بعضاً عن حال المجرمين الذين في النار، والسؤال لزيادة تبيكت أولئك المجرمين وتوبيخهم، وإدخال الألم والحسرة على نفوسهم، يقولون لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾؟ ما الذي أدخلكم جهنم، وجعلكم تذوقون سعيها؟ قال في البحر: وسؤالهم سؤال توبيخ لهم وتحقير، وإلا فهم عالمون ما الذي أدخلهم النار^(٥) ﴿قَالُوا لَوْ نَكُنُ مِنَ الْمُصْلِينَ﴾ أي قال المجرمون مجيبين للسائلين: لم نكن من المصلين في الدنيا لرب العالمين ﴿وَلَوْ نَكُنُ نَاطِقِينَ﴾ أي ولم نكن نتصدق ونحسن إلى الفقراء والمساكين قال ابن كثير: مرادهم في الآيتين: ما عبدنا ربنا، ولا أحسننا إلى خلقه من جنسنا^(٥) ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْفَاطِيضِينَ﴾ أي وكنا نتحدث بالباطل مع أهل الغواية والضلالة، ونقع معهم فيما لا ينبغي من الأباطيل قال في التسهيل: والخوض هو كثرة الكلام

= تَحَلَّفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ، أَوْ لِيَصُمْتُ (رواه البخاري ومسلم). والمعنى ليرتدع أولئك المستهزئون بالوحي والقرآن عن فعلهم وسوء صنيعهم، وأقسم بالقمر ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَذْبَرُوا﴾ أي وأقسم بالليل حين ولَّى بظلمته ذاهباً ﴿وَالصُّبْحَ إِذَا أَشْفَرُوا﴾ أي وبالصبح إذا تبلى وأضاء. (ش): تَبَلَّجَ الصُّبْحُ: أَشْرَقَ وَأَضَاءَ.

(١) «البحر المحيط» ٨ / ٣٧٨.

(٢) «البحر المحيط» ٨ / ٣٧٩.

(٣) «تفسير الطبري» ٢٩ / ١٠٣.

(٤) «البحر المحيط» ٨ / ٣٨٠.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣ / ٥٧٣.

بما لا ينبغي من الباطل وشبهه^(١) ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي نكذب بيوم القيامة، وبالجزاء والمعاد، وإنما أخر التكذيب بيوم الدين تعظيماً له، لأنه أعظم جرائمهم وأفحشها ﴿حَتَّى أَتَنَّا أَلْيَقِينَ﴾ أي حتى جاءنا الموت ونحن في تلك المنكرات والضلالات، قال تعالى معقبا على اعترافهم بتلك الجرائم ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ أي ليس لهم شافع ينقذهم من عذاب الله، ولو شفع لهم أهل الأرض ما قُبِلَتْ شفاعتهم فيهم قال ابن كثير: من كان متصفاً بمثل هذه الصفات، فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعاة شافع فيه، لأن الشفاعاة إنما تنجع إذا كان المحل قابلاً، فأما من وافي الله كافراً فإنه مخلد في النار أبداً^(٢) ولما ذكر تعالى قبائحهم وشنائعهم عاد بالتوبيخ والتقريع عليهم فقال ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾؟ فما لهؤلاء المشركين معرضين عن القرآن وآياته، وما فيه من المواعظ البليغة والنصائح والإرشادات؟ ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنَفَرَةٌ﴾ أي كأن هؤلاء الكفار حمر وحشية نافرة وشاردة ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ أي هربت ونفرت من الأسد من شدة الفزع قال في البحر: شبههم تعالى بالحمر النافرة مذمة لهم وتهجيناً^(٣) وقال ابن عباس: الحمر الوحشية إذا عاينت الأسد هربت، كذلك هؤلاء المشركون إذا رأوا محمداً ﷺ هربوا منه كما يهرب الحمار من الأسد ثم قال: والقسورة: الأسد^(٤) ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً﴾ أي بل يطمع كل واحد من هؤلاء المجرمين أن ينزل عليه كتاب من الله كما أنزل على محمد ﷺ، ويريد أن يتنزل عليه الوحي كما تنزل على الرسل والأنبياء، والغرض من الآية بيان إمعانهم في الضلالة وكأنه يقول: دع عنك ذكر إعراضهم وغبواتهم ونفارهم نفار العجماوات مما فيه خيرهم وسعادتهم، واستمع لما هو أعجب وأغرب، وذلك طمع كل فرد منهم أن يكون رسولاً يوحى إليه، وهيهات أن يصل الأشقياء إلى مراتب الأنبياء، ثم قال تعالى ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ أي ليرتدعوا وينزجروا عن مثل ذلك الطمع، بل الحقيقة أنهم قوم لا يصدقون بالبعث والحساب، ولا يؤمنون بالنعيم والعذاب، وهذا هو الذي أفسدهم وجعلهم يعرضون عن مواعظ القرآن ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ﴾ كَرَّرَ الردع والزجر لهم بقوله ﴿كَلَّا﴾ ثم قال ﴿إِنَّهُ تَذَكُّرٌ﴾ أي إن هذا القرآن موعظة بليغة، كافية لاتعاضهم لو أرادوا لأنفسهم السعادة ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾ أي فمن شاء اتعظ بما فيه، وانتفع بهداه ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي وما يتعظون به إلا أن يشاء الله لهم الهدى فيتذكروا ويتعظوا، وفيه تسلية للنبي ﷺ وترويح عن قلبه الشريف، مما كان يخامرهم من إعراضهم وتكذيبهم له ﴿هُوَ أَهْلُ الْقُوَى وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ﴾ أي هو جل وعلا أهل لأن يتقى لشدة عقابه، وأهل لأن يعفر الذنوب لكرمه

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤ / ١٦٢.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣ / ٥٧٣.

(٣) «البحر المحيط» ٨ / ٣٨٠. (ش): هَجَّنَ الأمر، تهجيناً: قَبَّحه وعَابَه.

(٤) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠ / ٢١٢.

وسعة رحمته، قال الألوسي: حقيق بأن يتقى عذابه ويؤمن به ويطاع وحقيق بأن يغفر لمن آمن به وأطاعه^(١). وفي الحديث عن أنس «أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ﴿هُوَ أَهْلُ النَّقْوَى وَأَهْلُ الْغَفْرِ﴾ ثم قال: «قَالَ رَبُّكُمْ: أَنَا أَهْلُ أَنْ اتَّقَى، فَلَا يُجْعَلُ مَعِيَ إِلَهٌ، فَمَنْ اتَّقَى أَنْ يُجْعَلَ مَعِيَ إِلَهًا، كَانَ أَهْلًا أَنْ أَعْفَرَ لَهُ»^(٢).

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الطباق بين ﴿عَسِيرٌ.. يَسِيرٌ﴾ كما أن بين اللفظتين جناس الاشتقاق.
- ٢ - المقابلة بين ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ﴾ وبين ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾.
- ٣ - الإطناب بتكرار الجملة ﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَرُ﴾^(١٩) ثم قِيلَ كَيْفَ قَدَرُ زيادة في التوبيخ والتشنيع.
- ٤ - جناس الاشتقاق ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ﴾.
- ٥ - تقديم المفعول لإفادة الاختصاص ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرُ﴾^(٢٠) و﴿يَا بَكَ فَطَهِّرُ﴾^(٢١) و﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرُ﴾.
- ٦ - الطباق بين ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ وبين ﴿يَقْدَمُ أَوْ يَأْخُرُ﴾.
- ٧ - أسلوب التقرير والتوبيخ بطريق الاستفهام ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ؟﴾
- ٨ - التشبيه التمثيلي ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾^(٢٥) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد.

- ٩ - الإيجاز بحذف بعض الجمل ﴿يَسَاءَ لَوْ أَنَّ﴾^(٢٦) عَنِ الْمُجْرِمِينَ^(٢٧) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ؟ أي قائلين لهم: ما سلككم في سقر، فحذف اعتماداً على فهم المخاطبين.
- ١٠ - الاستفهام للتفهيم والتفخيم ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ؟﴾
- ١١ - ذكر الخاص بعد العام ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ خصه بالذكر مع أنه داخل في الخوض بالباطل مع الخائضين لبيان تعظيم هذا الذنب^(٣).
- ١٢ - السجع المرصع مثل ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ﴾^(٣٢) وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ^(٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ^(٣٤) إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكُبَرِ ﴿وَمِثْلُ﴾^(٣٥) وَكُنَّا نَحْضُضُ مَعَ الْخَاطِئِينَ^(٣٦) وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ^(٣٧) حَتَّى أَتَيْنَا الْيَقِينَ^(٣٨) إلخ.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المدثر»



(١) ٢٩ / ١٣٥.

(٢) رواه أحمد والترمذي وحسنه. (ش): ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي، وأشار الحافظ ابن كثير إلى ضعفه، وضعفه الألباني والأرنؤوط.

(٣) (ش): قال تعالى: ﴿وَكُنَّا نَحْضُضُ مَعَ الْخَاطِئِينَ﴾^(٤٥) وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿[المدثر: ٤٥، ٤٦].

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

مكية وآياتها أربعون

بين يدي السورة

* سورة القيامة مكية، وهي تعالج موضوع «البعث والجزاء» الذي هو أحد أركان الإيمان، وتركز بوجه خاص على القيامة وأهوالها، والساعة وشدائدها، وعن حالة الإنسان عند الاحتضار، وما يلقاه الكافر في الآخرة من المصاعب والمتاعب، ولذلك سميت سورة القيامة.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة، على أن البعث حق لا ريب فيه ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ (١) ﴿وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ الْوَلَامَةِ﴾ (٢) ﴿يُحَسِّبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ (٣) ﴿بَلَىٰ قَدَرِينَ عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ﴾.

* ثم ذكرت طرفاً من علامات ذلك اليوم المهول، الذي يخسف فيه القمر، ويتحير البصر، ويجمع فيه الخلائق والبشر للحساب والجزاء ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ (٧) ﴿وَحُفَّتِ الْقَمَرُ﴾ (٨) ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ (٩) ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَقَرُّ﴾ (١٠) ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ (١١) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾.

* وتحدثت السورة عن اهتمام الرسول بضبط القرآن عند تلاوة جبريل عليه، فقد كان عليه السلام يجهد نفسه في متابعة جبريل، ويحرك لسانه معه ليسرع في حفظ ما يتلو، فأمره تعالى أن يستمع للتلاوة ولا يحرك لسانه به ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) ﴿إِنْ عَلَيْنَا جُمُعَةٌ وَقرء أنه﴾ (١٧) ﴿فَإِذَا قرأته فأتبع قرء أنه﴾ (١٨) ﴿ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا نَبَإُهُ﴾.

* وذكرت السورة انقسام الناس في الآخرة إلى فريقين: سعداء وأشقياء، فالسعداء وجوههم مضيئة تتلألأ بالأنوار، ينظرون إلى الرب جل وعلا، والأشقياء وجوههم مظلمة قاتمة يعلوها الذل والفترة ﴿وَجْهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرٌ﴾ (٢٢) ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ (٢٣) ﴿وَجْهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرٌ﴾ (٢٤) ﴿تَطُنُّ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾.

* ثم تحدثت السورة عن حال المرء وقت الاحتضار، حيث تكون الأهوال والشدائد، ويلقى الإنسان من الكرب والضيق ما لم يكن في الحسبان ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَافِيَ﴾ (٢٦) ﴿وَقِيلَ مَنْ رَافٍ﴾ (٢٧) ﴿وَطَنَّ أَنَّهُ الْفِرَافُ﴾ (٢٨) ﴿وَالْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ (٢٩) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ (٣٠) ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ (٣١) ﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ (٣٢) ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمُتُّ﴾.

* وختمت السورة الكريمة بإثبات الحشر والمعاد بالأدلة والبراهين العقلية ﴿يُحَسِّبُ

الْإِنْسَانُ أَنْ يَبْرُكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ؟

قال الله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ (١) وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ الْوَامَةِ (٢) أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلْ قَدِيرِينَ عَلَى أَنْ تُسَوَّى بَنَانُهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجَرَأَمَامَهُ (٥) يُسْئَلُ أَإِنْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ (٦) فَإِذَا بَرَأَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ الْمَفْرُ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (١٥) لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقَرَعْنَاهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتِهِ (١٩) كَلَّابٌ خُبُونٌ الْعَاجِلَةِ (٢٠) وَيَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وَجْهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَاللَّفَبُ السَّاقِ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (٣٣) أَوَلَى لَكَ فَأُولَى (٣٤) ثُمَّ أَوَلَى لَكَ فَأُولَى (٣٥) أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُبْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (٤٠)

اللغة: ﴿بَنَانُهُ﴾: البنان: أطراف الأصابع أو الأصابع نفسها جمع بنانة قال النابغة:

بِمُخَضَّبٍ رَخَصَ كَأَنَّ بَنَانَهُ عَنَّمْ يَكَادُ مِنَ اللَّطَافَةِ يُعْقَدُ (١)

﴿بَرَقَ﴾: فرغ وبُهِتَ وتَحَيَّرَ، وأصله النظر إلى البرق فيدهش البصر قال ذو الرمة:

وَلَوْ أَنَّ لِقُفْمَانَ الْحَكِيمِ تَعَرَّضْتَ لِعَيْنَيْهِ مَيَّ سَافِرًا كَادَ يَبْرُقُ (٢)

﴿وَزَرَ﴾: ملجأً وحصن يتلجى إليه ﴿نَاضِرَةٌ﴾: حَسَنَةٌ مُشْرِقة متهللة، والنُضرة: النعمة وجمال

البشرة والإشراق الجميلة ﴿بَاسِرَةٌ﴾: شديدة الكلوحة والعبوس يقال: بَسَرَ وجهه إذا اشتد في

عبوسه وكلاحتَه (٣) ﴿فَاقِرَةٌ﴾: الفاقة: الداهية والأمر العظيم يقال: فَقَرْتَهُ المصيبة، أي: كسرت

(١) «تفسير القرطبي» ٩٢/١٩. (ش): النابغة الذبياني شاعر جاهلي من الطبقة الأولى. سَقَطَ النَصِيفُ وَلَمْ تُرَدْ إِسْقَاطُهُ فَنَاقَوْهُ وَاتَّقَنَّا بِالْيَدِ بِمُخَضَّبٍ رَخَصَ كَأَنَّ بَنَانَهُ عَنَّمْ يَكَادُ مِنَ اللَّطَافَةِ يُعْقَدُ النَصِيفُ: الخمار: ما تغطي به المرأة رأسها ووجهها وعنقها وجيها. وَاتَّقَنَّا بِالْيَدِ: احترست بيدها. أي إنها عندما سقط خمارها عن وجهها، التقطته بيدها، وغطت وجهها بيدها الأخرى. بِمُخَضَّبٍ رَخَصَ: رَخَصَ: رطب. يقصد يدها اللينة الملساء المخضبة، أي التي تغير لونُها بالحناء. كَأَنَّ بَنَانَهُ عَنَّمْ يَكَادُ مِنَ اللَّطَافَةِ يُعْقَدُ: شبه أصابع يدها بشجر لين الأغصان. وفي البيت إقواء: وهو اختلاف حركة الروي (الحَرْفُ الذي بُنِيَ عليه القصيدة). فحركة الروي في البيت الأول الكسرة (باليد). وفي البيت الثاني تغيرت حركة الروي من الكسرة إلى الضمة (يُعْقَدُ).

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٣٨٢. (ش): سَافِرًا: بارزة الوجه قد أَلْقَتْ عنها نقابها. يَبْرُقُ: يبقى مفتوح العين كالمتحير.

(٣) (ش): كَلَحَ الشَّخْصُ: عَبَسَ وَأَفْرَطَ فِي الْعَبُوسِ مِنْ ضَيْقٍ أَوْ حُزْنٍ.

فَقَارَ ظَهْرَهُ^(١) ﴿يَبْتَطِئُ﴾ يَتَبَخَّرُ فِي مَشِيَّتِهِ اخْتِيَالًا وَكِبَرًا.

التفسير: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ أَي أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، يَوْمَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ أَي وَأُقْسِمُ بِالنَّفْسِ الْمُؤْمِنَةِ التَّقِيَّةِ، الَّتِي تَلُومُ صَاحِبَهَا عَلَى تَرْكِ الطَّاعَاتِ، وَفَعَلَ الْمَوْبَقَاتِ قَالَ الْمَفْسَرُونَ: ﴿لَا﴾ لِتَأْكِيدِ الْقِسْمِ، وَقَدْ اشْتَهَرَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ زِيَادَةُ ﴿لَا﴾ قَبْلَ الْقِسْمِ لِتَأْكِيدِ الْكَلَامِ، كَأَنَّهُ مِنَ الْوُضُوحِ وَالْجَلَاءِ بَحِثٌ لَا يَحْتَاجُ إِلَى قِسْمٍ، وَجَوَابُ الْقِسْمِ مُحَذُوفٌ تَقْدِيرُهُ «لَتُبْعَثَنَّ وَلَتَحَاسَبَنَّ» دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ ﴿أَلَيْحَسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾؟^(٢).. أُقْسِمُ تَعَالَى بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ لِعِظَمِهِ وَهُوْلِهِ، وَأُقْسِمُ بِالنَّفْسِ الَّتِي تَلُومُ صَاحِبَهَا عَلَى التَّقْصِيرِ فِي جَنْبِ اللَّهِ، وَتَسْتَغْفِرُ وَتُنِيبُ مَعَ طَاعَتِهَا وَإِحْسَانِهَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: هِيَ نَفْسُ الْمُؤْمِنِ، إِنْ الْمُؤْمِنُ مَا تَرَاهُ إِلَّا يُلُومُ نَفْسَهُ: مَاذَا أَرَدْتُ بِكَلَامِي؟ وَمَاذَا أَرَدْتُ بِعَمَلِي؟ وَإِنَّ الْكَافِرَ يَمْضِي وَلَا يَحَاسِبُ نَفْسَهُ وَلَا يَعَاتِبُهَا^(٣) ﴿أَلَيْحَسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع، أَي أَيُّظَنُ هَذَا الْإِنْسَانُ الْكَافِرَ، الْمَكْذِبُ لِلْبَعْثِ وَالنَّشُورِ، أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَى جَمْعِ عِظَامِهِ بَعْدَ تَفَرُّقِهَا؟ قَالَ الْمَفْسَرُونَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي «عَدِي بْنِ رِبِيعَةَ» جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، حَدَّثَنِي عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، مَتَى يَكُونُ؟ وَكَيْفَ أَمْرُهُ؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: لَوْ عَايَنْتُ ذَلِكَ الْيَوْمَ لَمْ أَصْدُقْكَ يَا مُحَمَّدُ وَلَمْ أَوْ مِنْ بَكَ، كَيْفَ يَجْمَعُ اللَّهُ الْعِظَامَ؟ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ^(٤)، قَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِ^(٥) ﴿بَلَى قَدِيرِينَ عَلَى أَنْ تُسَوَّى بَنَانُهُ﴾ أَي بَلَى نَجْمَعُهَا وَنَحْنُ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ نَعِيدَ أَطْرَافَ أَصَابِعِهِ، الَّتِي هِيَ أَصْغَرُ أَعْضَائِهِ، وَأَدْقَهَا أَجْزَاءً وَالْطَفْهَ النَّتْمًا، فَكَيْفَ بِكِبَارِ الْعِظَامِ؟ وَإِنَّمَا ذَكَرَ تَعَالَى الْبَنَانَ، وَهِيَ رِءُوسُ الْأَصَابِعِ لِمَا فِيهَا مِنْ غَرَابَةِ الْوَضْعِ، وَدَقَّةِ الصَّنْعِ، لِأَنَّ الْخُطُوطَ وَالتَّجَاوِيفَ الدَّقِيقَةَ الَّتِي فِي أَطْرَافِ أَصَابِعِ إِنْسَانٍ، لَا تَمَاطِلُهَا خُطُوطٌ أُخْرَى فِي أَصَابِعِ شَخْصٍ آخَرَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، وَلِذَلِكَ يَعْتَمِدُونَ عَلَى بَصْمَاتِ الْأَصَابِعِ فِي تَحْقِيقِ شَخْصِيَّةِ الْإِنْسَانِ فِي هَذَا الْعَصْرِ ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرْ أَمَامَهُ﴾ أَي بَلْ يَرِيدُ الْإِنْسَانُ هَذَا الْإِنْكَارَ أَنْ يَسْتَمِرَّ عَلَى الْفُجُورِ، وَيَقْدِمَ عَلَى الشَّهَوَاتِ وَالْآثَامِ، دُونَ وَازِعٍ مِنْ خُلُقٍ أَوْ دِينٍ، وَيَنْطَلِقَ كَالْحَيَوَانِ لَيْسَ لَهُ هَمٌّ إِلَّا نَيْلُ شَهَوَاتِهِ الْبَهِيمِيَّةِ، وَلِذَلِكَ يَنْكُرُ الْقِيَامَةَ وَيَكْذِبُ بِهَا ﴿يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ أَي

(١) (ش): فَقَارَ: واحدة من عظام السلسلة العظمية الظهرية الممتدة من الرأس إلى العنق، وهي خرزات منضدة بعضها فوق بعض وفيها النخاع الشوكي وتتفرع خلالها الأعصاب الشوكية. والجمع فقار.

(٢) انظر التسهيل ٤/ ١٦٣، والألوسي ٢٩/ ١٣٥، وحاشية الصاوي ٤/ ٢٧٠.

(٣) «تفسير الخازن» ٤/ ١٨٢.

(٤) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ٢٧١. (ش): ذكره الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.

(٥) ثبت علميًا أن بشرة الأصابع مغطاة بخطوط دقيقة متناهية في الدقة، منها ما هو على كل شكل «أقواس» أو عراوٍ، أو دَوَامَاتٍ وهذه الخطوط لا يمكن أن يشابه إنسان فيها آخر، ولهذا اعتمدتها الدول رسميًا وأصبحت تميز الإنسان ببصمة الإبهام، فتبارك الله أحسن الخالقين. انظر ما كتبناه في كتابنا «التيان في علوم القرآن» حول هذه المعجزة العلمية ص ١٣٦.

يسأل هذا الكافر الفاجر على سبيل الاستهزاء والتكذيب متى يكون هذا اليوم يوم القيامة؟^(١) قال الرازي: والسؤال هنا سؤال مُتَعَنِّتٌ ومُسْتَبَعِدٌ لقيام الساعة، ونظيره ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ [يونس: ٤٨]؟ ولذلك ينكر المعاد ويكذب بالبعث والنشور، والغرض من الآية ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ أن الإنسان الذي يميل طبعه إلى الاسترسال في الشهوات، والاستكثار من اللذات، لا يكاد يُقَرُّ بالحشر والنشر، وبعث الأموات، لثلاث تنغصص عليه اللذات الجسمانية، فيكون أبداً منكراً لذلك، قائلاً على سبيل الهزاء والسخرية: أَيْانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، قال تعالى ردّاً على هؤلاء المنكرين: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ أي فإذا زاغ البصر وتحير، وانبهر من شدة الأهوال والمخاطر ﴿وَحُصِفَ الْقَمَرُ﴾ أي ذهب ضوؤه وأظلم ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أي جمع بينهما يوم القيامة، وأُلْقِيَ في النار ليكونا عذاباً على الكفار قال عطاء: يُجْمَعَانِ يوم القيامة ثم يُقَذَّفَانِ في البحر، فيكون نار الله الكبرى^(٢) ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ أي يقول الفاجر الكافر في ذلك اليوم: أين المهرب؟ وأين الفرار والمنجى من هذه الكارثة الداهية؟ يقول قول الآيس، لعلمه بأنه لا فرار حيثئذٍ ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ ردع له عن طلب الفرار، أي لِيَرْتَدِعْ وِيَنْزَجِرَ عن ذلك القول، فلا ملجأ له، ولا مُغِيث من عذاب الله ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَفَرُّ﴾ أي إلى الله وحده مصير ومرجع الخلائق قال الألوسي: إليه جل وعلا وحده استقرار العباد، لا ملجأ ولا منجى لهم غيره^(٣)... والمقصود من الآيات بيان أهوال الآخرة، فالأبصار تنبهر يوم القيامة، وتخشع وتحار من شدة الأهوال^(٤)؛ ومن عظم ما تشاهده من الأمور العظيمة، والإنسان يطيش عقله، ويذهب رشده، ويبحث عن النجاة والمخلص، ولكن هيهات فقد جاءت القيامة وانتهت الحياة ﴿يُبَيِّتُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أي يُخبر الإنسان في ذلك اليوم بجميع أعماله، صغيرها وكبيرها، عظيمها وحقيقها، ما قدّمه منها في حياته، ما أخره بعد مماته، من سنة حسنة أو سيئة، ومن سمعة طيبة أو قبيحة^(٥) وفي الحديث «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»^(٦) ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ أي بل هو شاهد على نفسه،

(١) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/٢١٨.

(٢) «تفسير الطبري» ٢٩/١١٣، وروى عن مجاهد أن المراد كُورًا كقوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ وقيل: المراد جُوعاً فطلياً من المغرب، ولا يناسبه لأن الكلام عن القيامة.

(٣) «روح المعاني» ٢٩/١٤٠.

(٤) (ش): حار بصره: ارتد بعد أن عجز عن مواصلة النظر إلى الشيء.

(٥) هذا معنى ما روى عن ابن عباس وابن مسعود وهو الأرجح. وقيل: بما قدم في أول عمره وما أخر في آخره.

(٦) الحديث في الصحيح. (ش): عَنِ الْمُثَنِّبِ بْنِ جَرِيرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ قَالَ: فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاءَ عُرَاةٍ مُجْتَابِي النَّمَارِ أَوْ الْعَبَاءِ مُتَقَلِّدِي السُّبُوفِ عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرٍّ بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرٍّ فَتَمَعَّرَ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَذَنَ وَأَقَامَ فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ =

وسوء عمله، وقُبْح صَنْيعِهِ، لا يحتاج إلى شاهد آخر كقوله ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] والهَاءُ فِي ﴿بَصِيرَةٍ﴾ للمبالغة كراوية وعلامة قال ابن عباس: الإنسان شاهد على نفسه وحده، يشهد عليه سمعه، وبصره، ورجلاه، وجوارحه^(١) ﴿وَلَوْ أَلْفَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ أي ولو جاء بكل معذرة ليبرر إجرامه وفجوره، فإنه لا ينفعه ذلك، لأنه شاهد على نفسه، وحجة بينه عليها قال الفخر: المعنى أن الإنسان وإن اعتذر عن نفسه، وجادل عنها، وأتى بكل عذر وحجة، فإنه لا ينفعه ذلك لأنه شاهد على نفسه بما جنت واقتربت من الموبقات^(٢). وبعد هذا البيان انتقل الحديث إلى القرآن، وطريقة تلقي الوحي عن جبريل فقال تعالى مخاطباً رسوله: ﴿لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ أي لا تحرك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحي عليك بواسطة جبريل، لأجل أن تتعجل بحفظه مخافة أن يتفلت منك ﴿إِنَّا عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ﴾ أي إن علينا أن نجمله في صدرك يا محمد وأن تحفظه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ أي فإذا قرأه عليك جبريل، فأنصت

= ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْفُؤا رَيْكُمُ الَّذِي خَلَقْتُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَ﴾ إلى آخر الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ قَرِيبًا﴾ والآية التي في الحشر ﴿أَنْفُؤا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَأَنْفُؤا اللَّهَ﴾ تصدق رجل من ديناره من درهمه من ثوبه من صاع بره من صاع تمره - حتى قال - ولو يسق تمره. قال فجاء رجل من الأنصار بصره كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت - قال - ثم تتابع الناس حتى رأيت كؤمين من طعام وثياب حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبه فقال رسول الله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء». (رواه مسلم). المجتاب: اللابس. المذهبة: الشيء المموه بالذهب. النمار: جمع نمره وهي كساء فيه خطوط بيض وسود تلبسه الأعراب قال الإمام الشاطبي رحمه الله: «ليس المراد بالحديث الإشتان بمعنى الاختراع، وإنما المراد به العمل بما ثبت من السنة النبوية، وذلك لو جهين: أحدهما: أن السبب الذي جاء لأجله الحديث هو الصدقة المشروعة؛ فدل على أن السنة هاهنا مثل ما فعل ذلك الصحابي، وهو العمل بما ثبت كونه سنة، فكانها كانت سنة أيقظها رضي الله تعالى عنه بفعله، فليس معناه: من اخترع سنة وابتدعها ولم تكن ثابتة. فإذا: قوله: «من سن سنة»، معناه: من عمل بسنة، لا من اخترع سنة. والوجه الثاني من وجهي الجواب: أن قوله: «من سن سنة حسنة، ومن سن سنة سيئة» لا يمكن حمله على الاختراع من أصل، لأن كونها حسنة أو سيئة لا يعرف إلا من جهة الشرع، فلزم أن تكون السنة في الحديث إما حسنة في الشرع وإما قبيحة بالشرع، فلا يصدق إلا على مثل الصدقة المذكورة وما أشبهها من السنن المشروعة، وتبقى السنة السيئة منزلة على المعاصي التي ثبت بالشرع كونها معاصي، كالقتل المنيب عليه في حديث ابن آدم، حيث قال عليه السلام: «لأنه أول من سن القتل»، وعلى البدع، لأنه قد ثبت ذمها والنهي عنها بالشرع، (انظر: الاعتصام ١/ ١٧٩ - ١٨١). فالحديث لا يثبت الابتداء الحسن في الإسلام، فقد قال ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة»، ولم يقل: «من ابتدع في الإسلام بدعة حسنة». وقد رد النبي ﷺ قول الثلاثة الذين قال أحدهم: «أما أنا فأنا أصلي الليل أبداً»، وقال آخر: «أنا أصوم الدهر ولا أفطر» وقال آخر: «أنا أعزل النساء فلا أتزوج أبداً»، وقال لهم: «من رغب عن سنتي فليس مني» (رواه البخاري). مع أن لفعلهم هذا أصلاً في الشرع من الصلاة والصيام؟

(١) «تفسير الطبري» ٢٩ / ١١٥.

(٢) «التفسير الكبير» ٣٠ / ٢٢٢.

لاستماعه حتى يفرغ، ولا تحرّك شفّيتك أثناء قراءته ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ أي ثم إن علينا بيان ما أشكل عليك فهمه يا محمد من معانيه وأحكامه، قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك به لسانه وشفّيته، مخافة أن ينفلت منه يريد أن يحفظه فأنزل الله ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ الآيات، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل عليه السلام أطرق^(١) واستمع، فإذا ذهب قرأه كما وعد الله عزّ وجلّ^(٢) قال ابن عباس ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ قال: فاستمع وأنصت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ قال: أن نبينه بلسانك^(٣) وقال ابن كثير: كان رسول الله ﷺ يبادر إلى أخذ القرآن، ويسابق الملك في قراءته، فأمره الله عزّ وجلّ أن يستمع له، وتكفل له أن يجمعه في صدره، وأن يبينه له ويوضحه، فالحالة الأولى جمعه في صدره، والثانية تلاوته، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه^(٤) ثم عاد الحديث عن المكذبين بيوم الدين فقال تعالى مخاطباً كفار مكة: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ ﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ أي ارتدعوا يا معشر المشركين، فليس الأمر كما زعمتم أن لا بعث ولا حساب ولا جزاء، بل أنتم قوم تحبون الدنيا الفانية، وتتركون الآخرة الباقية، ولذلك لا تفكرون في العمل للآخرة مع أنها خير وأبقى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ لما ذكر تعالى أن الناس يؤثرون الدنيا ولذا نذها الفانية على الآخرة ومسراتها الباقية، وصّف ما يكون يوم القيامة من انقسام الخلق إلى فريقين: أبرار، وفجّار، والمعنى وجوه أهل السعادة يوم القيامة مشرقة حسنة مضيئة، من أثر النعيم، وبشاشة السرور عليها، كقوله تعالى ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤] ﴿إِلَى رَيْحَانٍ نَّاطِرَةٌ﴾ أي تنظر إلى جلال ربها، وتهيم في جماله، أعظم نعيم لأهل الجنة رؤية المولى جلّ وعلا والنظر إلى وجهه الكريم بلا حجاب. قال الحسن البصري: تنظر إلى الخالق، وحقّ لها أن تنضر وهي تنظر إلى الخالق^(٥)، وبذلك وردت النصوص الصحيحة^(٦) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ أي ووجوه يوم القيامة عابسة كالحة، شديدة العبوس والكلوح، وهي وجوه الأشقياء أهل الجحيم ﴿تُظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ أي تتوقع أن

(١) (ش): (أطرق): سكت وأرعى عينيه ينظر إلى الأرض منصتاً متفهّماً.

(٢) أخرجه الشيخان وأحمد.

(٣) هذه الرواية عن ابن عباس ثابتة في الصحيحين.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٥٧٦/٣.

(٥) «تفسير الطبري» ١٢٠/٢٩.

(٦) هذا هو مذهب أهل السنة، ويؤيده ما ورد في الصحيحين: «إِنَّكُمْ سَرَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ» الحديث وفي صحيح مسلم: «فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ» وأنكر المعتزلة رؤية الله في الآخرة وأولوا الآية: ﴿نَاطِرَةٌ﴾ بمعنى منتظرة تنتظر ثواب ربها، وهذا باطل لأن «نظر» بمعنى انتظر يتعدى بغير حرف الجر، وانظر الأدلة وافية في «تفسير الخازن» ١٨٦/٤.

(ش): المعنى أن «نظر» بمعنى «انتظر» يتعدى بغير حرف الجر، فلا يقال: نظر إلى الثواب، بمعنى انتظر الثواب. بل يقال: نظر الثواب - بدون حرف الجر «إلى».

تنزل بها داهية عظمى، تقصم فقار الظهر، قال ابن كثير: هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة كالحة عابسة، تستيقن أنها هالكة^(١)، وتتوقع أن تحل بها داهية تكسر فقار الظهر ﴿لَا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ ﴿لَا﴾ ردع وزجر عن إشار العاجلة، أي: ارتدعوا يا معشر المشركين عن ذلك، وتنبهوا لما بين أيديكم من الأهوال والمخاطر، فإن الدنيا دار الفناء، ولا بد أن تتجرعوا كأس المنيّة^(٢)، وإذا بلغت الروح ﴿التَّرَاقِيَ﴾ أعالي الصدر^(٣)، وشارف الإنسان على الموت ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ أي وقال أهله وأقرباؤه: من يرقيه ويشفيه ممّا هو فيه؟ قال في البحر: ذكّهم تعالى بصعوبة الموت، وهو أول مراحل الآخرة، حين تبلغ الروح التراقي وهي عظام أعلى الصدر فقال أهله: من يرقى ويطبّ ويشفي هذا المريض؟^(٤) ﴿وَلَمَّا أَتَاهُ الرَّاقِ﴾ أي وأيقن المحتضر أنه سيفارق الدنيا والأهل والمال، لمعاينته ملائكة الموت ﴿وَالْفَتَى السَّاقِ﴾ أي والتفت إحدى ساقى المحتضر على الأخرى، من شدة كرب الموت وسكراته قال الحسن: هما ساقاه إذا التفتا في الكفن^(٥)، وروي عن ابن عباس أن المراد اجتمعت عليه شدة مفارقة الدنيا، مع شدة كرب الآخرة، كما يقال: شمرت الحرب عن ساق، استعاراً لشدتها^(٦) ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ أي إلى الله جل وعلا مساق العباد، يجتمع عنده الأبرار والفجار، ثم يُساقون إلى الجنة أو النار قال الخازن: أي مرجع العباد إلى الله تعالى، يُساقون إليه يوم القيامة ليفصل بينهم ثم أخبر تعالى عن حال الجاحد المكذب فقال ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا أَصْلَى﴾^(٧) أي لم يصدق بالقرآن، ولم يصل للرحمن قال أبو حيان: والجمهور على أنها نزلت في «أبي جهل» وكادت أن تصرح به في قوله ﴿يَتَمَطَّى﴾ فإنها كانت مشيته ومشية قومه بني مخزوم، وكان يكثر منها^(٨) ﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ أي ولكن كذب بالقرآن، وأعرض عن الإيمان ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ﴾ يَتَمَطَّى أي ذهب يتبختر في مشيته، وذلك عبارة عن التكبر والخيلاء ﴿أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى﴾ أي ويل لك يا أيها الشقي ثم ويل لك قال المفسرون: هذه العبارة في لغة العرب ذهبت مذهب المثل في التخويف والتحذير والتهديد وأصلها أنها أفعل تفضيل من وليه الشيء إذا قاربه ودنا منه، أي: وليك الشر وأوشك أن يصيبك، فاحذر وانتبه لأمرك... روي أن النبي ﷺ أخذ بيد أبي جهل ثم

(١) «مختصر ابن كثير» ٥٧٨/٣.

(٢) (ش): المنيّة: الموت.

(٣) قال الفخر الرازي: واعلم أنه يكنى ببلوغ النفس التراقي عن القرب من الموت، ومنه قول ابن الصّمة: وَرُبَّ عَظِيمَةٍ دَافَعَتْ عَنْهَا وَقَدْ بَلَغَتْ نَفْسُهُمُ التَّرَاقِيَ.

(٤) «تفسير الطبري» ١٢٣/٢٩. (ش): يطبّ: يداوي ويعالج.

(٥) انظر البحر المحیط ٣٩٠/٨.

(٦) «تفسير الخازن» ١٨٧/٤.

(٧) «البحر المحیط» ٣٨٩/٨.

(٨) «البحر المحیط» ٣٩١/٨. (ش): رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف جداً.

قال له: ﴿أَوَلَيْكَ فَآوَىٰ﴾ (٣٤) ﴿ثُمَّ أَوَلَيْكَ فَآوَىٰ﴾ فقال أبو جهل: أتتوعدني يا محمد وتهديني؟ والله لا تستطيع أنت وربك أن تفعلوا بي شيئاً، والله إني لأعزُّ أهل الوادي، ثم لم يلبث أن قُتل ببدر شر قتلة^(١) ﴿ثُمَّ أَوَلَيْكَ فَآوَىٰ﴾ كرهه مبالغة في التهديد والوعيد، كأنه يقول: إني أكرر عليك التحذير والتخويف، فاحذر وانتبه لنفسك، قبل نزول العقوبة بك. . ولما ذكر في أول السورة إمكان البعث، ذكر في آخر السورة الأدلة على البعث والنشور فقال ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾؟ أي أفيظن الإنسان أن يُترك هملأً، من غير بعثٍ ولا حساب ولا جزاء؟ وبدون تكليف بحيث يبقى كالبهائم المرسلة؟ لا ينبغي له ولا يليق به هذا الحساب ﴿أَلَمْ يَكُنْ نَفْثَةً مِنْ مَّيِّ يَتَّبِعُ﴾ الاستفهام للتقرير أي أما كان هذا الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين، يُراقُ ويصَّبُ في الأرحام؟ والغرض بيان حقارة حاله كأنه يقول: إنه مخلوق من المني الذي يجري مجرى البول ﴿ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخُلِقَ فَسَوًى﴾ أي ثم أصبح بعد ذلك قطعة من دم غليظ متجمد يشبه العلقة، فخلقه الله بقدرته في أجمل صورة، وسَوًى صورته وأتقنها في أحسن تقويم ﴿فَجَعَلْنَاهُ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ أي فجعل من هذا الإنسان صنفين، ذكراً وأنثى بقدرته تعالى، هذا هو أصل الإنسان وتركيبه، فكيف يليق بمثل هذا الضعيف أن يتكبر على طاعة الله؟ ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ أي أليس ذلك الإله الخالق الحكيم، الذي أنشأ هذه الأشياء العجيبة، وأوجد الإنسان من ماء مهين، بقادرٍ على إعادة الخلق بعد فنائهم؟ بلى إنه على كل شيء قدير. روي أن النبي ﷺ إذا قرأ هذه الآية قال: «سبحانك اللهم بلى»^(٢).

(١) (ش): عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرَ﴾ [المدر: ٣٠] إلى قوله: ﴿وَزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدر: ٣١]، فلما سمع أبو جهل بذلك؛ قال لقريش: نكلتكم أمهاتكم، أَسْمَعُ ابن أبي كبشة يخبركم: أن خَزَنَةَ النار تسعة عشر وأنتم الدَّهْمُ، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟ فأوحى إلى رسول الله ﷺ أن يأتي أبا جهل فيأخذ بيده في بطحاء مكة، فيقول له: ﴿أَوَلَيْكَ فَأُولَى﴾ (٣٤) ثُمَّ أَوَلَيْكَ فَأُولَى، فلما فعل ذلك به رسول الله ﷺ؛ قال أبو جهل: والله لا تفعل أنت وربك شيئا، فأخذه الله يوم بدر (رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف جدا). وعن قتادة: قال: في قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ فَأُولَى﴾ (٣٥) ثُمَّ أَوَلَيْكَ فَأُولَى، وعيد على وعيد كما تسمعون، زعم أن هذا أنزل في عدو الله أبي جهل، ذكر لنا أن نبي الله ﷺ أخذ بمجامع ثيابه، فقال: ﴿أَوَلَيْكَ فَأُولَى﴾ (٣٦) ثُمَّ أَوَلَيْكَ فَأُولَى، فقال عدو الله أبو جهل: أبوعدي محمد؟! والله ما تستطيع لي أنت ولا ربك شيئا؛ والله لأنأ عز من مشى بين جليلها (رواه ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم في «تفسيريهما» بإسناد ضعيف).

[illegible]

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الطباق بين ﴿قَدَّمَ.. وَأَخَّرَ﴾ وكذلك بين ﴿صَدَقَ.. وَكَذَّبَ﴾^(١).
- ٢ - الاستفهام الإنكاري بغرض التوبيخ ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾؟ ومثله ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾؟ لأن الغاية التوبيخ والتفريع.
- ٣ - استبعاد تحقق الأمر ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَمَةِ﴾ فالغرض من الاستفهام الاستبعاد والإنكار.
- ٤ - الجناس غير التام بين ﴿بَنَانُهُ﴾ و ﴿بَيَّانُهُ﴾ لاختلاف بعض الحروف.
- ٥ - المقابلة اللطيفة بين نضارة وجوه المؤمنين، وكلاحة وجوه المجرمين ﴿وُجُوهُ يُؤْمِنُونَ﴾ و ﴿وُجُوهُ يُؤْمِنُونَ﴾.
- ٦ - الجناس الناقص بين لفظ ﴿السَّائِئُ﴾ و ﴿الْمَسَائِئُ﴾.
- ٧ - المجاز المرسل ﴿وُجُوهُ يُؤْمِنُونَ﴾ عبر بالوجه عن الجملة فهو من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل.
- ٨ - الالتفات ﴿أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى المخاطب تقييحاً له وتشنيعاً.
- ٩ - توافق الفواصل ويسمى في علم البديع السجع المرصع مثل ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾^(٧) و ﴿خَسَفَ الْقَمَرُ﴾^(٨) و ﴿جُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾^(٩) يقول الإنسان يومئذٍ إِنَّ الْمَفْرُءَ وهذا من خصائص القرآن، معجزة محمد عليه الصلاة والسلام.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القيامة»



سُورَةُ الْإِنْسَانِ

٣١

٧٦

مدنية وآياتها إحدى وثلاثون

بين يدي السورة

* سورة الدهر من السور المدنية، وهي تعالج أموراً تتعلق بالآخرة، وبوجه خاص تتحدث عن نعيم المتقين الأبرار، في دار الخلد والإقامة في جنات النعيم، ويكاد يكون جو السورة هو جو السور المكية لإحياءاتها وأسلوبها ومواضيعها المتنوعة.

* ابتدأت السورة الكريمة ببيان قدرة الله في خلق الإنسان في أطوار، وتبَيَّنَتْه ليقوم بما كلف به من أنواع العبادة، حيث جعل الله تعالى له السمع والبصر وسائر الحواس ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾.

* ثم تحدثت عن النعيم الذي أعده الله في الآخرة لأهل الجنة ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ (٥) عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾.

* ثم ذكرت أوصاف هؤلاء السعداء بشيء من الإسهاب، فوصفتهم بالوفاء بالنذر، وإطعام الفقراء الذي تكلح فيه الوجوه (١) ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ (٧) وَيُطْعَمُونَ عَلَى يَدَيْهِمْ مِّنْ مَّسْكِينٍ وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿٩﴾ الآيات.

* وأشادت -بعد ذكر أوصافهم- بما لهم عند الله من الأجر والكرامة في دار الإقامة، وبما حباهم الله من الفضل والنعيم يوم الدين ﴿وَجَزَّيْنَهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ (١٢) مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ أَرْسُلُهَا نَذِيرًا ﴿١٤﴾.

* وتتابع السورة في سرد أهل الجنة في مأكلهم، ومشربهم، وملبسهم، وخدمهم الذين يطوفون عليهم صباح مساء ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِذَاتِيٍّ مِّنْ فَضَّةٍ وَكَأْسٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾ (١٥) قَوَارِيرًا مِّنْ فَضَّةٍ قَدَرُهَا وَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنَا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا ﴿١٨﴾ وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ لَدُنْ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنُونًا ﴿١٩﴾.

* وختمت السورة الكريمة ببيان أن هذا القرآن تذكرة لمن كان له قلب يعي، أو فكر ثاقب يستضيء بنوره ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (٢١) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٢﴾ يَدْخُلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٣﴾.

(١) (ش): كَلَحَ الشَّخْصُ: عَبَسَ وَأَفْرَطَ فِي الْعُبُوسِ مِنْ ضَبَقٍ أَوْ حَزَنٍ.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ^(١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ
نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ^(٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ^(٣) إِنَّا أَعْتَدْنَا
لِلكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَلَآ وَسَعِيرًا ^(٤) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ^(٥)
عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ^(٦) يُوفُونَ بِالْأَنذَرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ^(٧) وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ
عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ^(٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لُوحِجِهِ اللَّهُ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ^(٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا
قَطَرِيرًا ^(١٠) فَوْقَهُمُ اللَّهُ شَرُّ ذَلِكَ الْبُورِ وَلَفَّهْمُ نَصْرَةٌ وَسُرُورًا ^(١١) وَجَزَّيْنَهُمَا صَبْرًا وَجَهَنَّا ^(١٢) مُتَكَبِّرِينَ فِيهَا
عَلَى الْأَرَاكِلِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا ^(١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا ^(١٤) وَطُفَاتٍ عَلَيْهِمْ بَانِيَةٌ مِّنَ
فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ^(١٥) قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ^(١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ^(١٧) عَيْنًا فِيهَا
تَسْمَى سَلْسِيلًا ^(١٨) وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانٌ مُّخْلَدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا ^(١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَيْمًا وَمَلَكًا
كَبِيرًا ^(٢٠) عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوعًا أَسَاوِرٌ مِّنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ^(٢١) إِنَّ هَذَا
كَانَ لَكُمُ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ^(٢٢) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ^(٢٣) فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ
أَنِيمًا أَوْ كَثُورًا ^(٢٤) وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ^(٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ^(٢٦)
إِنَّكَ هَؤُلَاءِ بِحُكْمِ الْعَاجِلَةِ يَذْرَؤْنَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا نَّفِيلًا ^(٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا
بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ^(٢٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اخْتَدِ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ^(٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ
اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ^(٣٠) يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ^(٣١)

اللغة: ﴿أَمْشَاجٍ﴾ أخلاط جمع مشج ومشيج مثل شريف وأشراف، يقال للشيء إذا خلط بغيره: مشيجٌ كخَلِيط لفظًا ومعنى ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ منتشرًا غاية الانتشار يقال: استطار الشيء انتشر ﴿قَطَرِيرًا﴾ القمطير: الشديد العصيب الذي يطول بلاؤه قال الأخفش: القمطير أشد ما يكون من الأيام وأطولُه في البلاء ^(١) ﴿وَدَانِيَةً﴾ قريبة ﴿وَذُلَّتْ﴾ سُخِّرَتْ وَقُرُبَتْ ﴿سَلْسِيلًا﴾ السلسيل: الشراب اللذيذ الذي هو غاية في السلاطة، والذي يسهل في الحلق لعذوبته وصفائه ﴿سُنْدُسٍ﴾ السندس: الرقيق من ثياب الحرير ﴿إِسْتَبْرَقٌ﴾ ثياب الحرير الغليظة ويسمى الديباج ﴿أَسْرَهُمْ﴾ الأسر في الأصل: الشدُّ والربط، ثم أطلق على الخلق يقال: شدَّ أسره، أي: أحسن خلقه وأحكم تكوينه، قال الأخطل:

مِنْ كُلِّ مُجْتَنِبٍ شَدِيدٍ أَسْرُهُ سَلِسِ الْقِيَادِ تَخَالُهُ مُخْتَالًا ^(٢)

(١) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٣٣.

(٢) نفس المرجع السابق ١٩/ ١٤٩. (ش): مُجْتَنِبٌ: على وزن مُفْتَعَل، من الجَنَبَةِ: وهي الفرس تُقَاد ولا تركب وكانوا يركبون الإبل ويجنبون الخيل فإذا صاروا إلى الحرب ركبوا الخيل. وكل طائِعٍ مُنْقَادٍ جَنِبٌ. =

التفسير: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ أي قد مضى على الإنسان وقت طويل من الزمان ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ أي كان من العدم، لم يكن له ذكر ولا وجود قال ابن كثير: يخبر تعالى عن الإنسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئاً يُذكر لحقارته وضمّعه^(١) قال المفسرون: ﴿هَلْ أَتَى﴾ بمعنى قد أتى كما تقول: هل رأيت صنيع فلان، وقد علمت أنه قد رآه، وتقول: هل أكرمتك، هل وعظمتك؟ ومقصودك أن تقرره بأنك قد أكرمته ووعظته، والمراد بالإنسان الجنس، وبالحين مدة لبثه في بطن أمه^(٢)، والغرض من الآية تذكير الإنسان بأصل نشأته، فقد كان شيئاً منسياً لا يُفطن له، وكان في العدم جرثومة في صلب أبيه، وماء مهيناً لا يعلم به إلا الذي يريد أن يخلقه، ومرّ عليه حينٌ من الدهر كانت الكرة الأرضية خالية منه، ثم خلقه الله، وأبدع تكوينه وإنشائه، بعد أن كان مغموراً ومنسياً لا يعلم به أحد... وبعد أن قرر أن الإنسان مرّ عليه وقت لم يكن موجوداً، أخذ يشرح كيف أفاض عليه نعمة الوجود، واختبره بالتكاليف الشرعية بعد أن متّعه بنعمة العقل والحواس فقال ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي نحن بقدرتنا خلقنا هذا الإنسان من ماء مهين وهو المنّي الذي ينطف من صلب الرجل، ويختلط بماء المرأة «البويضة الأنثوية» فيتكون منهما هذا المخلوق العجيب قال ابن عباس: ﴿أَمْشَاجٍ﴾ يعني أخلاط، وهو ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطتا، ثم ينتقل بعد من طور إلى طور، ومن حال إلى حال^(٣) ﴿بِتَلْكِهِ﴾ أي لنختبره بالتكاليف الشرعية، والأوامر الإلهية، لننظر أيُشكر أم يكفر؟ وهل يستقيم في سيره أم ينحرف ويزيغ؟ ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ أي فجعلناه من أجل ذلك عاقلاً مميزاً، ذا سمع وبصر، ليسمع الآيات التنزيلية، ويصير الدلائل الكونية، على وجود الخالق الحكيم قال الإمام الفخر: أعطاه تعالى ما يصح معه الابتلاء وهو السمع والبصر، وهما كنيّتان عن الفهم والتمييز، كما قال تعالى حاكياً عن إبراهيم: ﴿لَمْ نَعْبُدْكَ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾^(٤) [مريم: ٤٢]؟ وقد يراد بهما الحاستان المعروفتان، وخصّهما بالذكر لأنهما أعظم الحواس وأشرفها^(٥) ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ أي بينّا للإنسان

= سَلَسَ الْفِيَادِ: طَبَعَ: سهل الانقياد. تَخَالَهُ: تَطَنَّه. اخْتَالَ الشَّخْصُ: تكبر، تصرّف بطريقة تدل على التباهي. اختال في مشيه: تبختر، تمايل كثيراً.

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٥٨٠/٣.

(٢) انظر «التفسير الكبير للرازي» ٢٣٥/٣٠.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٥٨٠/٣.

(٤) (ش:) أنكر إبراهيم عليه السلام، على أبيه عندما عبّد ما لا يبصر ولا يسمع، ﴿قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]. فدل هذا على أن الذي لا يسمع ولا يبصر لا يغني شيئاً، وأنه لا يستحق العبادة، والله عز وجل مستحق للعبادة، وهو الخالق سبحانه وتعالى، فلزم من ذلك: أنه سميع بصير.

(٥) «تفسير الفخر الرازي» ٢٣٧/٣٠.

وعرفناه طريق الهدى والضلال، والخير والشر، ببعثة الرسل، وإنزال الكتب.. أخبر تعالى أنه بعد أن ركه وأعطاها الحواس الظاهرة والباطنة، بين له سبيل الهدى والضلال، ومنحه العقل وترك له حرية الاختيار، ثم هو بعد ذلك إما أن يشكر، أو يكفر، ولهذا قال بعده: ﴿إِنَّمَا شَاكِرًا وَإِنَّمَا كَفُورًا﴾ أي إما أن يكون مؤمنًا شاكرًا لنعمة الله، فيسلك سبيل الخير والطاعة، وإما أن يكون شقيًا فاجرًا، فيكفر بنعمة الله ويسلك سبيل الشر والفجور قال المفسرون: المراد هديناه السبيل ليكون إما شاكرًا وإما كفورًا، فالله تعالى دل الإنسان على سبيل الشكر والكفر، وعلى الإنسان أن يختار سلوك هذا أو ذاك، وهذه الآية من جملة الآيات الكثيرة الدالة على أن للإنسان إرادة واختيارًا هما مناط التكليف، كقوله تعالى ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾ [الإسراء: ١٨] إلى ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾^(١) [الإسراء: ١٩]. وكقوله ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] فلا إكراه لأحد ولا إجبار، وإنما هو بمحض الإرادة والاختيار^(٢).. ثم بعد هذا البيان الواضح، بين ما أعدّه للأبرار والفجار في دار القرار فقال ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكِينًا وَاعْلَلًا وَسَعِيرًا﴾ أي هيأنا للكافرين المجرمين قيودًا تُشدُّ بها أرجلهم، وأغللاً تُغلُّ بها أيديهم إلى أعناقهم، وسعيرًا أي: نارًا موقدة مستعرة يُحرقون بها كقوله تعالى ﴿إِذْ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ﴾^(٣) في الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿[غافر]﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ أي الذين كانوا في الدنيا أبرارًا بطاعتهم الجبار، فإنهم يشربون كأسًا من الخمر، ممزوجة بأنفس أنواع الطيب وهو الكافور، قال المفسرون: الكافور طيبٌ معروف يستحضر من أشجار بيلاد الهند والصين، وهو من أنفس الطيب عند العرب، والمراد أن من شرب تلك الكأس وجدها في طيب رائحتها، وفوحان شذاها كالكافور^(٤). قال ابن عباس: الكافور اسم عين ماء في الجنة يقال له: عين الكافور تمتزج الكأس بماء هذه العين وتختم بالمسك فتكون ألذ شراب، ولهذا قال تعالى ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ أي هذا الكافور يتدفق من عين جارية من عيون الجنة يشرب منها عباد الله الأبرار، وصفهم بالعبودية تكريمًا لهم وتشريفًا بإضافتهم إليه تعالى ﴿عِبَادُ اللَّهِ﴾ والمراد بهم المؤمنون المتقون ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي يجرونها حيث شاءوا من الدور والقصور قال الصاوي: المراد أنها سهلة لا تمتنع عليهم، ورد أن الرجل منهم يمشي في بيوته، ويصعد إلى قصوره ويده قضيب يشير به إلى الماء، فيجري معه حيثما دار في منازل،

(١) (ش): قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩]

(٢) انظر «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ٢٣٨.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٢٣. (ش): فاح الشيء، فوحًا وفوحانًا: انتشرت رائحته. الشذا: قوة الرائحة.

ويتبعه حيثما صعد إلى أعلى قصوره^(١) ولما ذكر ثواب الأبرار، بين صفاتهم الجليلة التي استحقوا بها ذلك الأجر الجزيل فقال ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ أي يوفون بما قطعوه على أنفسهم من نذر في طاعة الله^(٢)، إذا نذروا طاعة فعلوها قال الطبري: النذر كل ما أوجبه الإنسان على نفسه من فعل، فإذا نذروا برّوا وبفائهم لله بالنذور التي في طاعة الله، من صلاة، وزكاة، وحج، وصدقة قال المفسرون: وهذا مبالغة في وصفهم بأداء الواجبات، لأن من وفى بما أوجبه هو على نفسه، كان بما أوجبه الله عليه أوفى^(٣) ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ أي ويخافون هول يوم عظيم كانت أهواله وشدائده - من تفتّر السموات، وتناثر الكواكب، وتطأير الجبال، وغير ذلك من الأهوال - ممتدة منتشرة فاشية، بالغة أقصى حدود الشدة والفرع، قال قتادة: استطار والله شر ذلك اليوم حتى بلغ السموات السبع والأرض^(٤) ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَى حَيْثُ﴾ أي يطعمون الطعام مع شهوتهم له، وحاجتهم إليه ﴿مُسْكِينًا وَيتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ أي فقيرًا لا يملك من حطام الدنيا شيئًا، ویتیمًا مات أبوه وهو صغير، فعدم الناصر والكفيل، وأسيرًا وهو من أُسر في الحرب من المشركين قال الحسن البصري: كان رسول الله ﷺ يؤتى بالأسير، فيدفعه إلى بعض المسلمين ويقول له: أحسن إليه فيكون عنده اليومين والثلاثة فيؤثره على نفسه^(٥).. نبّه تعالى إلى أن أولئك الأبرار مع حاجتهم إلى ذلك الطعام، في سدّ جوعتهم وجوعه عيالهم، يطيبون نفسًا عنه للبؤساء، ويؤثرونهم به على أنفسهم كقوله تعالى ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ أي إنما نحسن إليكم ابتغاء مرضاة الله وطلب ثوابه ﴿لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ أي لا نبتغي من وراء هذا الإحسان مكافأة، ولا نقصد الحمد والثناء منكم قال مجاهد: أما والله ما قالوه بالسنتهم، ولكن علم الله به في قلوبهم، فأثنى عليهم به، ليرغب في ذلك راغب^(٦) ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا﴾ أي إنما نفعل ذلك رجاء أن يقينا الله هول يوم شديد، تعبس فيه الوجوه من فظاعة أمره، وشدة هوله، وهو يوم قمطير أي شديد عصيب^(٧) ﴿فَوْقَهُمْ اللَّهُ شَرُّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ أي حماهم الله ودفع عنهم شر ذلك اليوم وشدته ﴿وَلَقَنَّهُمْ نَصْرَهُ وَسُرُورًا﴾ أي وأعطاهم نصره في الوجه، وسرورًا في القلب، والتنكير في ﴿وَسُرُورًا﴾ للتعظيم

(١) حاشية الصاوي ٢٧٤/٤. (ش): روى أبو نعيم في «حلية الأولياء» عن عبد الله بن شاذب (وهو من أتباع التابعين) أنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾: «معهم قضبان الذهب يفجرون ما ينبع بقضبانهم، حيث مالوا مالت معهم».

(٢) «تفسير الطبري» ١٢٩/٢٩.

(٣) انظر «التفسير الكبير» ٢٤١/٣٠.

(٤) «تفسير الطبري» ١٢٩/٢٩.

(٥) «روح المعاني» ١٥٥/٢٩. (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٦) «مختصر ابن كثير» ٥٨٢/٣.

(٧) قال الطبري: «قمطير» شديد يقال: يوم قمطير أي شديد عصيب. اهـ. ١٣١/٢٩.

والتفخيم ﴿وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ أي وأثابهم بسبب صبرهم على مرارة الطاعة والإيثار بالمال، جنة واسعة وألبسهم فيها الحرير كما قال تعالى ﴿وَلَبَّاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣].. وفي الآية إيجاز، أخذ بأطراف الإعجاز، فقد أشار تعالى بقوله ﴿جَنَّةً﴾ إلى ما يتمتع به أولئك الأبرار في دار الكرامة من أصناف الفواكه والثمار، والمطاعم والمشارب الهنية، فإن الجنة لا تسمى جنة إلا وفيها كل أسباب الراحة كما قال تعالى ﴿وَفِيهَا مَا شَتَّاهِ الْآنْفُسُ وَكَلَّذُ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١] وأشار بقوله ﴿وَحَرِيرًا﴾ إلى ما يتمتعون به من أنواع الزينة واللباس، التي من أنفسها وأغلاها عند العرب الحرير، فقد جمع لهم أنواع الطعام والشراب واللباس، وهو قصارى ما تتطلع له نفوس الناس.. ولما ذكر طعامهم ولباسهم وصف نعيمهم ومسكنهم فقال ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ أي مضطجعين في الجنة على الأسيرة المزينة بفاخر الثياب والستور قال المفسرون: الأرائك جمع أريكة وهي السرير ترخى عليه الحجلة - والحجلة هي ما يسدل على السرير من فاخر الثياب والستور - وإنما خصهم بهذه الحالة لأنها أتم حالات المتنعّم ﴿لَا يَرْوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أي لا يجدون فيها حرًا ولا بردًا، لأن هواءها معتدل فلا حر ولا قَرٌّ^(١)، وإنما هي نسيمات تهب من العرش تحيي الأنفاس ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا﴾ أي ظلال الأشجار في الجنة قريبة من الأبرار ﴿وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا﴾ أي أدنيت ثمارها منهم، وسهل عليهم تناولها قال ابن عباس: إذا هم أن يتناول من ثمارها تدلت إليه حتى يتناول منها ما يريد^(٢).. ولما وصف طعامهم ولباسهم ومسكنهم، وصف بعد ذلك شراهم فقال ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِثَانِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ﴾ أي يدور عليهم الخدم بالأواني الفضية فيها الطعام والشراب على عادة أهل الترف والنعيم في الدنيا فيتناول كل واحد منهم حاجته، وهذه الأواني هي الصّحاف بعضها من فضة وبعضها من ذهب كما قال تعالى ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٧١] قال الرازي: ولا منافاة بين الآيتين، فتارة يسقون بهذا، وتارة بذلك^(٣) ﴿وَأَكْوَابُ كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾ أي وأكواب وهي كالأقداح رقيقة شفافة كالزجاج في صفائه قال في البحر: ومعنى ﴿كَانَتْ﴾ أن الله تعالى أوجدها بقدرته، فيكون تفخيماً لتلك الخلقة العجيبة الشأن، الجامعة بين بياض الفضة ونصوعها، وشفيف القوارير وصفائها^(٤) ﴿قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ﴾ أي هي جامعة بين صفاء الزجاج، وحسن الفضة قال ابن عباس: ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء يعني أن ما في الجنة أسمى وأشرف وأعلى ولو أخذت فضة من فضة الدنيا، فضربت بها حتى جعلتها مثل

(١) (ش): القَرُّ: البرد.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٣٧ / ١٩.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٤٩ / ٣٠.

(٤) «البحر المحيط» ٣٩٧ / ٨.

جناح الذباب، لم يُر الماء من ورائها، ولكن قوارير الجنة بياض الفضة، مع صفاء القوارير^(١) ﴿قَدَرُوا نَفْثَ الْيَتِيمِ﴾ أي قدرها السُّقاة على مقدار حاجتهم، لا تزيد ولا تنقص، وذلك ألدُّ وأشهى قال ابن عباس: أتواها على قدر الحاجة لا يفضلون شيئاً، ولا يشتهون بعدها شيئاً^(٢) ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ أي يسقى هؤلاء الأبرار في الجنة كأساً من الخمر ممزوجةً بالزنجبيل، والعرب تستلذ من الشراب ما مزج بالزنجبيل لطيب رائحته قال القرطبي: فرغبوا في نعيم الآخرة بما اعتقدوه نهاية النعمة الطيب^(٣) قال قتادة: الزنجبيل اسمٌ لِعَيْنٍ في الجنة يشرب منها المقربون صِرْفًا، وتُمزج لسائر أهل الجنة^(٤) ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾ أي يشربون من عين في الجنة تسمى السلسبيل، لسهولة مساعها وانحدارها في الحلق قال المفسرون: السلسبيل: الماء العذب، السهل الجريان في الحلق لعدوبته وصفائه، وإنما وصف بأنه سلسبيل، لأن ذلك الشراب يكون في طعم الزنجبيل، ولكن ليس فيه لذعته، فيشعر الشاربون بطعمه، لكنهم لا يشعرون بحرأفته^(٥)، فيبقى الشراب سلسبيلًا، سهل المساغ في الحلق ثم وصف بعد ذلك خدم أهل الجنة فقال ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ أي ويدور على هؤلاء الأبرار، غلمانٌ يُنشئهم الله تعالى لخدمة المؤمنين ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ أي دائمون على ما هم عليه من الطراوة والبهاء قال القرطبي: أي باقون على ما هم عليه من الشباب، والنضارة، والغضاضة، والحسن، لا يهرمون ولا يتغيرون، ويكونون على سن واحدة على مر الأزمنة^(٦) ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمُ اللَّوْلُؤَ امْتَنُورًا﴾ أي إذا نظرتهم منتشرين في الجنة لخدمة أهلها، خلتهم لحسنهم وصفاء ألوانهم وإشراق وجوههم، كأنهم اللؤلؤ المنثور قال الرازي: هذا من التشبيه العجيب، لأن اللؤلؤ إذا كان متفرقًا يكون أحسن في المنظر، لوقوع شعاع بعضه على بعض فيكون أزوع وأبدع^(٧) ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلُكًا كَبِيرًا﴾ أي وإذا رأيت هناك ما في الجنة من مظاهر الأُنس والسرور، رأيت نعيمًا لا يكاد يُوصف، وملكًا واسعًا عظيمًا لا غاية له، كما في الحديث القدسي «أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»^(٨) قال ابن كثير: وثبت في الصحيح أن «أقل أهل الجنة منزلةً من له قدر الدنيا وعشرة أمثالها»^(٩) فإذا كان هذا عطاءه تعالى لأدنى

(١) «تفسير الألوسي» ١٥٩/٢٩.

(٢) «تفسير الألوسي» ١٦٠/٢٩.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٤٠/١٩.

(٤) «تفسير البحر المحيط» ٣٩٨/٨.

(٥) (ش): الحرَافَة: حِدَّةٌ فِي الطَّعْمِ تَحْرِقُ اللِّسَانَ وَالْفَمَ وَتَلْذَعُهُمَا كَأَثَرِ الْفُلْفُلِ وَغَيْرِهِ.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٤١/١٩.

(٧) «التفسير الكبير» ٢٥١/٣٠.

(٨) (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٩) (ش): رواه البخاري ومسلم.

من يكون في الجنة، فما ظنك بمن هو أعلى منزلةً وأحظى عنده تعالى؟^(١) ثم زاد تعالى في بيان وصف نعيمهم فقال ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ أي تعلقوهم الثياب الفاخرة الخضراء، المزينة بأنواع الزينة، من الحرير الرقيق وهو السندس والحرير الثخين وهو الإستربق فلباسهم في الجنة الحرير كما قال تعالى ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣] قال المفسرون: السندس ما رَقَّ من الحرير، والإستربق ما غُلِظ من الحرير، وهذا لباس الأبرار في الجنة، وإنما قال ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لِيُنْبَهَ على أن لهم عِدَّةً من الثياب، ولكن الذي يعلوها هي هذه، فتكون أفضلها ﴿وَحُلُوتُهَا أَزْوَاجٌ﴾ أي وألبسوا في الجنة أساور فضية للزينة والحلية وعبر بالماضي إشارة لتحقيق وقوعه قال الصاوي: فإن قيل: كيف قال هنا ﴿أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ وفي سورة الكهف ﴿يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [فاطر: ٣٣]؟ فالجواب أنهم تارة يلبسون الذهب فقط، وتارة يلبسون الفضة، وتارة يلبسون اللؤلؤ فقط على حسب ما يشتهون، ويمكن أن يجمع في يد أحدهم أسورة الذهب والفضة واللؤلؤ^(٢) ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ أي سقاهاهم الله فوق ذلك النعيم شراباً طاهراً لم تدنسه الأيدي، وليس بنجس كخمر الدنيا قال الطبري: سُقي هؤلاء الأبرار شراباً طهوراً، ومن طهره أنه لا يصير بولاً نجساً، بل رشحاً من أبدانهم كرشح المسك، روي أن الرجل من أهل الجنة يقسم له شهوة مائة رجل من أهل الدنيا، فإذا أكل سقي شراباً طهوراً، فيصير رشحاً يخرج من جلده أطيّب ريحاً من المسك الأذقر^(٣) ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ أي يقال لهم بعد دخولهم الجنة ومشاهدتهم نعيمها: هذا مقابل أعمالكم الصالحة في الدنيا ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مُشْكُورًا﴾ أي وكان عملكم مقبولاً مرضياً، جوزيتهم عليه أحسن الجزاء، مع الشكر والثناء. . مرّ في الآيات السابقة أن الله تعالى أعدّ للكافرين السلاسل والأغلال، كما هيئاً للأبرار أرائك يتكئون عليها، وعليهم ثياب السندس والإستربق، وفي معاصمهم أساور الفضة، وبين أيديهم ولدان مخلصون كأنهم اللؤلؤ المنشور، يطوفون على أولئك الأبرار بصحاف الفضة وأكوابها الصافية النقية، وقد ملئت شراباً ممزوجاً بالزجبل والكافور، وكل ذلك للترغيب والترهيب، على

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٨٤. (ش:) حظي فلان عند الناس: علا شأنه عندهم وأحبوه، فهو حظي.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٧٨.

(٣) «تفسير الطبري» ٢٩/ ١٣٧. (ش:) في أكثر من طبعة: «أطيّب ريحاً من المسك الإذخر»، والتصحيح من «تفسير الطبري». المسك الأذقر: المسك شديد الرائحة. والإذخر: جمع إذخرة: نبات طيب الرائحة. وما ذكره المؤلف رواه الطبري عن إبراهيم التيمي في تفسيره للآية. وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يُعْطَى قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ فِي الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالشَّهْوَةِ وَالْجَمَاعِ». فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ: «فَإِنَّ الَّذِي يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ تَكُونُ لَهُ الْحَاجَةُ». فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «حَاجَةُ أَحَدِهِمْ عَرَقٌ يَفِيضُ مِنْ جِلْدِهِ، فَإِذَا بَطَنَهُ قَدْ ضَمَّرَ» (رواه أحمد، وصححه الألباني والأرنؤوط). ضَمَّرَ الشَّيْءُ: انكمش وانضمم بعضه إلى بعض.

طريقة القرآن في المقارنة بين أحوال الأبرار والفجار.. وبعد هذا الوضوح والبيان، كان المشركون يقابلون كل هذه الآيات بالصد والإعراض، والاستهزاء بالقرآن وبمحمد عليه الصلاة والسلام، وكان الرسول يتألم ويحزن لموقف المعاندين، لذلك جاءت الآيات تشد من عزمته، وتسلية وتخفف عن قلبه الشريف آثار الهم والضجر ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ أي نحن الذين أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن مقررًا، لتذكركم بما فيه من الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، فلا تبتس ولا تحزن ولا تضجر^(١)، فالقرآن حق ووعد صدق ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي اصبر يا محمد وانتظر لحكم ربك وقضائه، فلا بد أن ينتقم منهم، ويقر عينك بإهلاكهم، إن عاجلاً أو آجلاً^(٢) ﴿وَلَا تَطْغَ مِنْهُمْ أَثِمًا﴾ أي ولا تطع من هؤلاء الفجرة من كان ﴿أَثِمًا﴾ منغمساً في الشهوات، غارقاً في الموبقات ﴿أَوْ كُفُورًا﴾ أي ولا تطع من كان مبالغاً في الكفر والضلال، لا ينزجر ولا يرعوي^(٣)، وصيغة ﴿كُفُورًا﴾ من صيغ المبالغة ومعناها المبالغ في الكفر والجحود قال المفسرون: نزلت في «عتبة بن ربيعة» و«الوليد بن المغيرة» قالاً للنبي ﷺ: إن كنت تريد النساء والمال فارجع عن هذا الأمر ونحن نكفيك ذلك، فقال عتبة: أنا أزوجك ابنتي وأسوقها لك من غير مهر، وقال الوليد: أنا أعطيك من المال حتى ترضى فنزلت^(٤)، والأحسن أنها على العموم لأن لفظها عام فهي تشمل كل فاسق وكافر ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ أي صلّ لربك وأكثر من عبادته وطاعته ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي في أول النهار وآخره، في الصباح والمساء ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ﴾ أي ومن الليل فصلّ له، متهجداً مستغرقاً في مناجاته ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ أي وأكثر من التهجد والقيام لربك في جناح الظلام^(٥) والناس نيام كقوله تعالى ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] والمقصود أن يكون عابداً لله ذاكراً له في جميع الأوقات، في الليل والنهار، والصباح والمساء، بقلبه ولسانه، ليتقوى على مجابهة أعدائه.. وبعد تسليية النبي الكريم، عاد إلى شرح أحوال الكفرة المجرمين فقال ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُونَ الْعَاجِلَةَ﴾ أي إن هؤلاء المشركين يفضلون الدنيا على الآخرة، وينهمكون في لذائذها الفانية ﴿وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ أي ويتركون أمامهم يوماً عسيراً شديداً، عظيم الأحوال والشدائد، وهو يوم القيامة ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ أي: نحن بقدرتنا أوجدناهم من العدم، وأحكمنا ربط مفصلهم بالأعصاب والعروق، حتى كانوا أقوياء أشداء ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْنَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أي ولو أردنا أهلكناهم، ثم

(١) (ش): ضَجَرَ: تَرَمَّ وَقَلِقَ، ضَاقَ، اغْتَمَّ.

(٢) (ش): أَقَرَّ اللَّهُ عَيْنَهُ: أَعْطَاهُ مَا يَشْتَهُهُ وَيَرْضَاهُ.

(٣) (ش): يَرْعُو: يَرْتَدِّعُ.

(٤) انظر «التفسير الكبير» ٣٠/٢٥٨، و«تفسير القرطبي» ١٩/١٤٧، وحاشية الصاوي ٤/٢٧٨. (ش): لم أجده

إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٥) (ش): جَنَاح: جانب. جُنْحُ اللَّيْلِ/ جَنْحُ اللَّيْلِ: ظلامه.

بدلنا خيراً منهم يكونون أعبدَ لله وأطوعَ، وفي الآية تهديدٌ ووعدٌ ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ أي هذه الآيات الكريمة بمعناها الدقيق، ولفظها الرشيق، موعظة وذكرى، يتذكر بها العاقل، وينزجر بها الجاهل ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أي فمن أراد الانتفاع والاعتبار وسلوك طريق السعادة، فليعتبر بآيات القرآن، وليستتر بنوره وضياؤه، وليتخذ طريقاً موصلاً إلى ربه، بطاعته وطلب مرضاته، فأَسباب السعادة ميسورة، وسبل النجاة ممهدة ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي وما تشاءون أمراً من الأمور، إلا بتقدير الله ومشئته، ولا يحصل شيء من الطاعة والاستقامة إلا بإذنه تعالى وإرادته، قال ابن كثير: أي لا يقدر أحد أن يهدي نفسه، ولا يدخل في الإيمان، ولا يجر لنفسه نفعاً، إلا بمشيئة الله تعالى ^(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي عالماً بأحوال خلقه، حكيماً في تدبيره وصنعه، يعلم من يستحق الهداية فيسرها له، ومن يستحق الضلالة فيسهل له أسبابها، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ﴿يُدْخِلْ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي يدخل من شاء من عباده جنته ورضوانه حسب مشيئته وحكمته وهم المؤمنون ﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وأما المشركون الظالمون فقد هيأ لهم عذاباً شديداً مؤلماً في دار الجحيم، ختم السورة الكريمة ببيان مآل المتقين، ومآل الكفرة المجرمين.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الطباق بين ﴿شَاكِرًا.. كَفُورًا﴾ وبين ﴿بُكْرَةً.. وَأَصِيلًا﴾ وبين ﴿شَمْسًا.. زَمْهَرِيرًا﴾.
- ٢ - اللف والنشر المشوش ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا﴾ فإنه قدّم أولاً ذكر الشاكر ثم الكافر ﴿شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ثم عاد بالذكر على الثاني دون الأول ففيه لف ونشر غير مرتب.
- ٣ - المجاز العقلي ﴿يَوْمًا عَبُوسًا﴾ إسناد العبوس إلى اليوم من إسناد الشيء إلى زمانه كـ (نهاره صائم).

- ٤ - الجناس غير التام ﴿فَوْقَهُمْ.. وَلَقَنَهُمْ﴾ فبين وقاهم ولقاهم جناس.
- ٥ - جناس الاشتقاق ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ﴾.
- ٦ - الطباق ﴿يُحِبُّونَ.. وَيَذَرُونَ﴾.
- ٧ - الإيجاز بالحذف ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ أي يقال لهم: إن هذا.. إلخ.
- ٨ - التشبيه البديع الرائع ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَبِيبَتَهُمْ لَوْلُوا مُتُورًا﴾ أي كاللؤلؤ المنتثر.
- ٩ - المقابلة اللطيفة ﴿يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ قابل بين المحبة والترك وبين العاجلة والباقية.

- ١٠ - السجع المرصع مثل ﴿لَوْلُوا مُتُورًا.. شَرَابًا طَهُورًا.. وَكَانَ سَعِيرًا مُشْكُورًا.. إِنَّمَا أَوْكَفُورًا﴾ إلخ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الدهر»



سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ

مكية وآياتها خمسون
بين يدي السورة

* سورة المرسلات مكية، وهي كسائر السور المكية، تعالج أمور العقيدة، وتبحث عن شئون الآخرة، ودلائل القدرة والوحدانية، وسائر الأمور الغيبية.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بأنواع الملائكة^(١)، المكلفين بتدبير شئون الكون، على أن القيامة حق، وأن العذاب والهلاك واقع على الكافرين ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ عُرْفًا﴾^(١) فَأَلْعَصَفْتُ عَصْفًا^(٢) وَالنَّشْرِتُ نَشْرًا^(٣) فَالْفَرْقَتُ فَرْقًا^(٤) فَأَلْمَلَقْتُ ذِكْرًا^(٥) عَذْرًا أَوْ نَذْرًا^(٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَفْعٍ^(٧).
* ثم تحدثت عن وقت ذلك العذاب الذي وعد به المجرمون ﴿وَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾^(٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ^(٩) وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِفَتْ^(١٠) وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْنَتْ^(١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ^(١٢) لِيَوْمِ الْفُضْلِ^(١٣).

* وتناولت السورة بعد ذلك دلائل قدرة الله الباهرة على إعادة الإنسان بعد الموت، وإحيائه بعد الفناء ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾^(١٥) أَلَمْ نُنْهِكِ الْأَوَّلِينَ^(١٦) ثُمَّ نُنْعِمُهُمُ الْآخِرِينَ^(١٧) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ^(١٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ^(١٩) أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ^(٢٠) * ثم تحدثت عن مآل المجرمين في الآخرة وما يلقون فيه من نكال وعقاب ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾^(٢٨) أَنْظِلُّوْا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ^(٢٩) أَنْظِلُّوْا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ^(٣٠) لَا ظِلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِّ^(٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّ كَالْفَصْرِ^(٣٢) كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ^(٣٣) الآيات.

* وبعد الحديث عن المجرمين، تحدثت السورة عن المؤمنين المتقين، وذكرت ما أعدّه الله تعالى لهم من أنواع الإفضال والإكرام ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّلٍ وَعُيُونٍ﴾^(٤١) وَفَوْكِهِ مِمَّا يَشْتَهُونَ^(٤٢) كُلُّوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ^(٤٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ^(٤٤).

* وختمت السورة الكريمة ببيان سبب امتناع الكفار، عن عبادة الله الواحد القهار، وهو الطغيان والإجرام ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾^(٤٥) كُلُّوا وَتَمَنَعُوا فَلِيلاً^(٤٦) إِنَّكُمْ تَجْرُمُونَ^(٤٧) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ^(٤٨) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَرْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ^(٤٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ^(٥٠) فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدُهُ يُؤْمِنُونَ^(٥١).

(١) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الخالق يُقسم بما شاء من خلقه، وأن المخلوق لا ينبغي له أن يُقسم إلا بالخالق. قال عليه السلام: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». وفي رواية: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ» (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه أذرك عمر بن الخطاب في ركب وهو يحلف بأبيه، فناداهم رسول الله ﷺ: «أَلَا، إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَخْلُقُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ خَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ، أَوْ لِيَصُمْتُ» (رواه البخاري ومسلم).

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَتِ عُرْفًا ۚ (١) فَالْعَصْفَتِ عَصْفًا ۚ (٢) وَالنَّشِيرَتِ نَشْرًا ۚ (٣) فَالْفَرْقَتِ فَرْقًا ۚ (٤) فَالْمُلْقِيَتِ ذِكْرًا ۚ (٥) عُدْرًا أَوْ
 نَذْرًا ۚ (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوُفْعٍ ۚ (٧) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ۚ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ۚ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِفَتْ ۚ (١٠) وَإِذَا
 الرُّسُلُ أَقْنَتْ ۚ (١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ ۚ (١٢) يَوْمَ الْفَصْلِ ۚ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ ۚ (١٤) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۚ (١٥)
 أَلَمْ يَهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ۚ (١٦) ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخَرِينَ ۚ (١٧) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ۚ (١٨) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۚ (١٩) أَلَمْ
 تَخْلُقْهُمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ۚ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۚ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۚ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ۚ (٢٣) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ
 لِّلْمُكَذِّبِينَ ۚ (٢٤) أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۚ (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ۚ (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوْشَىٰ شَاحِبَاتٍ وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فُرَاتًا ۚ (٢٧)
 وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۚ (٢٨) أَنْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ۚ (٢٩) أَنْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلِّ ذِي ثُلُثٍ شَعْبٍ ۚ (٣٠) لَا
 ظِلِّيلَ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِّ ۚ (٣١) إِنَّمَا تَرْمِي بِشَكْرِ كَالْقَصْرِ ۚ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمْلَتٌ صُفْرٌ ۚ (٣٣) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۚ (٣٤)
 هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ۚ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْبُدُونَ ۚ (٣٦) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۚ (٣٧) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمْعَنُكُمْ وَالْأَوَّلِينَ
 ۚ (٣٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا ۚ (٣٩) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۚ (٤٠) إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي ظُلُلٍ وَعِیُونٍ ۚ (٤١) وَفُورِكَه مِمَّا
 يَشْتَهُونَ ۚ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ (٤٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۚ (٤٤) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۚ (٤٥)
 كُلُوا وَتَمَنَعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْزَوْنَ ۚ (٤٦) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۚ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ۚ (٤٨) وَيَلَّ
 يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۚ (٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ

اللغة: ﴿فُرِجَتْ﴾: فُتِحَتْ وَشُقَّتْ يُقَالُ: فَرَجْتُ الشَّيْءَ فَاَنْفَرَجَ، أَي: فَتَحْتَهُ فَانْفَتَحَ ﴿كِفَاتًا﴾

الكفت في اللغة: الصَّمُّ والجمعُ قال الشاعر:

فَأَنْتَ الْيَوْمَ فَوْقَ الْأَرْضِ حَيٌّ وَأَنْتَ عَدَا تَضُمُّكَ فِي كِفَاتٍ^(١)

﴿شَاحِبَاتٍ﴾: عاليات مرتفعات، يقال: شَمَخَ بَأْنْفِهِ إِذَا رَفَعَهُ كِبْرًا ﴿فُرَاتًا﴾: عَذَابًا شَدِيدَ

الحلاوة ﴿بِشَكْرِ﴾: الشَّرُّ: مَا تَطَايَرُ مِنَ النَّارِ وَتَفَرَّقُ، جَمْعُ شَرَرَةٍ.

التفسير: ﴿وَالْمُرْسَلَتِ عُرْفًا﴾: أَي أَقْسَمَ بِالرِّيحِ حِينَ تَهَبُ مُتَتَابِعَةً، يَقْفُو بَعْضُهَا أَثَرَ بَعْضٍ^(٢)،

قال المفسرون: هي رِيَا حِ الْعَذَابِ الَّتِي يَهْلِكُ اللَّهُ بِهَا الظَّالِمِينَ ﴿فَالْعَصْفَتِ عَصْفًا﴾: أَي

(١) «تفسير القرطبي» ١٩ / ٥٩.

(٢) اختلف المفسرون اختلافًا كبيرًا في تفسير هذه الآيات الخمس فبعضهم حملها جميعًا على الرياح وبعضهم حملها جميعًا على الملائكة وبعضهم فصل، وتوقف الإمام ابن جرير. وقد اخترنا ما ذهب إليه ابن كثير وما رجحه صاحب التسهيل حيث قال: «والأظهر في: ﴿وَالْمُرْسَلَتِ﴾ و﴿فَالْعَصْفَتِ﴾: أَنَّهَا الرِّيحُ لِأَنَّ وَصْفَ الرِّيحِ بِالْعَصْفِ حَقِيقَةٌ وَالْأظهر في: ﴿وَالنَّشِيرَتِ﴾ و﴿فَالْفَرْقَتِ﴾: أَنَّهَا الْمَلَائِكَةُ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَالْمُلْقِيَتِ ذِكْرًا﴾ الْمَذْكُورَةُ بَعْدَهَا هِيَ الْمَلَائِكَةُ وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ إِنَّهَا الرِّيحُ وَلِذَلِكَ عَطَفَ الْمُتَجَانِسِينَ بِالْفَاءِ فَقَالَ: ﴿وَالْمُرْسَلَتِ﴾ و﴿فَالْعَصْفَتِ﴾ ثُمَّ عَطَفَ مَا لَيْسَ مِنْ جِنْسِهَا بِالْوَاوِ فَقَالَ: ﴿وَالنَّشِيرَتِ﴾ ثُمَّ عَطَفَ بِالْفَاءِ، وَهُوَ قَوْلُ جَدِّهِ. (ش): قَفَا الْأَثَرَ: تَبَّعَهُ.

وَأُقْسِمُ بِالْمَلَائِكَةِ الْمَوْكَلِّينَ بِالسَّحَابِ سُوفُوفُهَا حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ، لَتَنْشُرَ رَحْمَةُ اللَّهِ - الْمَطَرُ - فَتُحْيِي بِهِ الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ ﴿فَالْفَرْقَتِ فَرْقًا﴾ أَيُّ وَأُقْسِمُ بِالْمَلَائِكَةِ الَّتِي تَفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ^(١) ﴿فَالْمُلْقِيَتِ ذِكْرًا﴾ أَيُّ وَأُقْسِمُ بِالْمَلَائِكَةِ تَنْزِيلَ الْوَحْيِ، وَتُلْقِي كِتَابَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ^(٢) ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ أَيُّ تُلْقِي الْوَحْيَ إِعْذَارًا مِنْ اللَّهِ لِلْعِبَادِ لئَلَّا يَبْقَى لَهُمْ حُجَّةٌ عِنْدَ اللَّهِ، أَوْ إِذْذَارًا مِنَ اللَّهِ لِلْخَلْقِ بِالنَّقْمَةِ وَالْعَذَابِ ﴿إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَوْفَعٌ﴾ أَيُّ وَأُقْسِمُ بِالرِّيحِ الشَّدِيدَةِ الْهَبُوبِ، إِذَا أُرْسِلَتْ عَاصِفَةً شَدِيدَةً، قَلَعَتِ الْأَشْجَارَ، وَخَرَبَتِ الدِّيَارَ، وَغَيَّرَتِ الْأَثَارَ ﴿وَالنَّشْرِتِ نَشْرًا﴾ هَذَا هُوَ جَوَابُ الْقِسْمِ، أَيُّ: إِنَّ مَا تُوْعَدُونَ بِهِ مِنْ أَمْرِ الْقِيَامَةِ، وَأَمْرِ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ، كَائِنْ لَا مُحَالَةَ قَالَ الْمَفْسُورُونَ: أَقْسَمَ تَعَالَى بِخَمْسَةِ أَشْيَاءَ، تَنْبِيْهَا عَلَى جَلَالَةِ قَدْرِ الْمَقْسَمِ بِهِ، وَتَعْظِيمًا لِمَا شَأْنُ الْمَقْسَمِ عَلَيْهِ، فَأُقْسِمُ بِالرِّيحِ الَّتِي تَحْمِلُ الرَّحْمَةَ وَالْعَذَابَ، وَتَسُوقُ لِلْعِبَادِ الْخَيْرَ أَوْ الشَّرَّ، وَبِالْمَلَائِكَةِ الْأَبْرَارِ، الَّتِي يَنْزِلُونَ بِالْوَحْيِ لِلْإِعْذَارِ وَالْإِذْذَارِ، أَقْسَمَ عَلَى أَنْ أَمْرَ الْقِيَامَةِ حَقٌّ لَا شَكَّ فِيهِ، وَأَنْ مَا أُوْعِدَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ الْمَكْذِبِينَ، مِنْ مَجِيءِ السَّاعَةِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، كَائِنْ لَا مُحَالَةَ، فَلَا يَنْبَغِي الشَّكَّ وَالِامْتِرَاءَ ^(٣).. ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى وَفَصَّلَ وَقْتُ وَقُوعِ ذَلِكَ فَقَالَ ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ أَيُّ مُحِيتِ النُّجُومُ وَذَهَبَ نُورُهَا وَضِيَائُهَا ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُزِّجَتْ﴾ أَيُّ شَقَّتِ السَّمَاءُ وَتَصَدَّعَتْ ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِّتْ﴾ أَيُّ تَطَايَرَتِ الْجِبَالُ وَتَنَاطَرَتْ حَتَّى أَصْبَحَتْ هَبَاءً تَذَرُوهُ الرِّيحُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥] ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْنَتْ﴾ أَيُّ جُعِلَ لِلرُّسُلِ وَقْتُ وَأَجَلٌ، لِلْفَصْلِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْأُمَمِ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ^(٤) كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩]؟ وَأَصْلُ ﴿أُقْنَتْ﴾ وَوَقْتُتُ مِنَ الْوَقْتِ أَيُّ يُجْعَلُ لَهَا وَقْتُ مُحَدَّدٌ، قَالَ الطَّبْرِيُّ: أَيُّ أُجْلَتْ لِلْاجْتِمَاعِ لَوْقَتِهَا يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ الْوَقْتُ الَّذِي يَحْضُرُونَ فِيهِ لِلشَّهَادَةِ عَلَى أَمَمِهِمْ ^(٥) ﴿لَا يُؤْمِرُ أُجْلَتْ﴾؟ اسْتَفْهَامٌ لَتَعْظِيمِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَالتَّعَجُّبِ لِمَا يَقَعُ فِيهِ مِنَ الْهَوْلِ وَالشَّدَةِ، أَيُّ: لَا يُؤْمِرُ عَظِيمٌ أُخْرَتِ الرُّسُلُ؟ ثُمَّ قَالَ ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ أَيُّ لِيَوْمِ الْقَضَاءِ وَالْفَصْلِ بَيْنَ الْخَلَائِقِ، يَوْمَ يَفْصِلُ اللَّهُ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ وَأَمَمِهِمُ الْمَكْذِبِينَ بِحُكْمِهِ الْعَادِلِ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾؟ اسْتَفْهَامٌ

(١) «البحر المحيط» ٤٠٤ / ٨.

(٢) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الخالق يُقسم بما شاء من خلقه، وأن المخلوق لا ينبغي له أن يُقسم إلا بالخالق. قال **رحمته**: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». وفي رواية: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ» (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعن ابن عمر **رحمتهما** أنه أذرك عمر بن الخطاب في ركب وهو يخلف بأبيه، فناداهم رسول الله **رحمته**: «أَلَا، إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ، أَوْ لِيَصُمْتُ» (رواه البخاري ومسلم).

(٣) انظر «التفسير الكبير» ٣٠ / ٢٦٥.

(٤) «تفسير الطبري» ٢٩ / ١٤٣.

(٥) «التفسير الكبير» ٣٠ / ٢٦٩.

للتعظيم والتهويل، أي: وما أعلمك أيها الإنسان بيوم الفصل وشدته وهوله؟ فإن ذلك اليوم أعظم من أن يعرف أمره إنسان، أو يحيط به عقل أو وجدان، ووضع الظاهر ﴿مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ مكان الضمير «ما هو» لزيادة تفضيع وتهويل أمره قال الإمام الفخر: عَجَّبَ العباد من تعظيم ذلك اليوم فقال: لأي يوم أُجِلَّتْ الأمور المتعلقة بهؤلاء الرسل، وهي تعذيب من كذبهم، وتعظيم من آمن بهم، وظهور ما كانوا يدعون الخلق إلى الإيمان به، من الأحوال والعرض والحساب، ثم إنه تعالى بين ذلك فقال ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ وهو يوم يفصل الرحمن بين الخلائق، ثم أتبع ذلك تعظيمًا ثانيًا فقال ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ أي وما أعلمك ما يوم الفصل وشدته ومهابته؟^(١) وجواب الشرط ﴿فَإِذَا النُّجُومُ﴾ إلخ محذوف لدلالة الكلام عليه تقديره: وقع ما توعدون به، وجرى ما أخبركم به الرسل من مجيء القيامة، والحذف على هذه الصورة من أساليب الإيجاز البياني الذي امتاز به القرآن ﴿وَلِيَوْمِذٍ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك عظيم وخسار كبير في ذلك اليوم لأولئك المكذبين بهذا اليوم الموعود قال المفسرون: كرر هذه الجملة ﴿وَلِيَوْمِذٍ الْمُكَذِّبِينَ﴾ في هذه السورة عشر مرات لمزيد الترغيب والترهيب، وفي كل جملة وَرَدَتْ إخبارًا عن أشياء عن أحوال الآخرة، وتذكيرًا بأحوال الدنيا، فناسب أن يذكر الوعيد عقيب كل جملة منها بالويل والدمار للكفرة الفجار، ولما كان في سورة الإنسان السابقة ذكر بعضًا من أحوال الكفار في الآخرة، وأطنب في وصف أحوال المؤمنين هناك، جاء في هذه السورة بالإطناب في وصف الكفار، والإيجاز في وصف المؤمنين. ثم بعد أن أكد الخبر بيوم القيامة وأنه حق كائن لا محالة، وبعد أن خَوَّفَ المكذبين من شدة هول ذلك اليوم، وفظاعة ما يقع فيه، عاد فخوَّفَهم من بطش الله وانتقامه بأسلوب آخر فقال ﴿أَلَمْ نَهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾؟ أي ألم نهلك السابقين بتكذيبهم للرسل، كقوم نوح وعاد وثمود؟ ﴿ثُمَّ نُنْعِمُهُمُ الْآخِرِينَ﴾؟ أي ثم ألحقنا بهم المتأخرين ممن كانوا مثلهم في التكذيب والعصيان، كقوم لوط وشعيب وقوم موسى «فرعون وأتباعه» ومن على شاكلتهم ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أي مثل ذلك الإهلاك الفظيع نفعل بهؤلاء المجرمين «كفار مكة» لتكذيبهم لسيد المرسلين ﷺ ﴿وَلِيَوْمِذٍ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار لكل مكذب بالتوحيد والنبوة، والبعث والحساب ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ تذكير للمكذبين وتعجيب من غفلتهم وذهولهم عن أبسط الأمور المشاهدة، وهي أن مَنْ خلقهم من النطفة الحقيرة الضعيفة كان قادرًا على إعادة خلقهم للبعث والحساب والمعنى: ألم نخلقكم يا معشر الكفار من ماءٍ ضعيف حقير هو منيُّ الرجل؟ وفي الحديث القدسي يقول الله عزَّ وجلَّ: «ابْنُ آدَمَ أَتَى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ» الحديث^(٢) ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ أي

(١) «التفسير الكبير» ٢٧٠ / ٣٠.

(٢) هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند، ورواه ابن ماجه في سننه، وتماهه أن رسول الله ﷺ بصق يومًا في كفه، فَوَضَعَ عَلَيْهَا أَصْبَعَهُ، ثُمَّ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ: ابْنُ آدَمَ أَتَى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، حَتَّى إِذَا سَوَيْتُكَ =

فجعلنا هذا الماء المهين في مكان حريز^(١) وهو رحم المرأة ﴿إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي إلى مقدار من الزمن محدّد معيّن، معلوم عند الله تعالى وهو وقت الولادة ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدَرُونَ﴾ أي فقدّرنا على خلقه من النطفة، نعم القادرون نحن حيث خلقناه في أحسن الصور، وأجمل الأشكال ﴿وَلَّيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار للمكذّبين بقدرتنا قال الصاوي: هذه الآية تذكير من الله تعالى للكفار بعظيم إنعامه عليهم، وقدرته على ابتداء خلقهم، والقادر على الابتداء قادر على الإعادة، فيها ردّ على المُنكرين للبعث^(٢).. ثم ذكّرهم بنعمة إيجادهم على الأرض حال الحياة، وموآراتهم في باطنها بعد الموت^(٣) فقال ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كَهَاتَا^(٤)﴾ ^(٥) ^(٦) ^(٧) ^(٨) ^(٩) ^(١٠) ^(١١) ^(١٢) ^(١٣) ^(١٤) ^(١٥) ^(١٦) ^(١٧) ^(١٨) ^(١٩) ^(٢٠) ^(٢١) ^(٢٢) ^(٢٣) ^(٢٤) ^(٢٥) ^(٢٦) ^(٢٧) ^(٢٨) ^(٢٩) ^(٣٠) ^(٣١) ^(٣٢) ^(٣٣) ^(٣٤) ^(٣٥) ^(٣٦) ^(٣٧) ^(٣٨) ^(٣٩) ^(٤٠) ^(٤١) ^(٤٢) ^(٤٣) ^(٤٤) ^(٤٥) ^(٤٦) ^(٤٧) ^(٤٨) ^(٤٩) ^(٥٠) ^(٥١) ^(٥٢) ^(٥٣) ^(٥٤) ^(٥٥) ^(٥٦) ^(٥٧) ^(٥٨) ^(٥٩) ^(٦٠) ^(٦١) ^(٦٢) ^(٦٣) ^(٦٤) ^(٦٥) ^(٦٦) ^(٦٧) ^(٦٨) ^(٦٩) ^(٧٠) ^(٧١) ^(٧٢) ^(٧٣) ^(٧٤) ^(٧٥) ^(٧٦) ^(٧٧) ^(٧٨) ^(٧٩) ^(٨٠) ^(٨١) ^(٨٢) ^(٨٣) ^(٨٤) ^(٨٥) ^(٨٦) ^(٨٧) ^(٨٨) ^(٨٩) ^(٩٠) ^(٩١) ^(٩٢) ^(٩٣) ^(٩٤) ^(٩٥) ^(٩٦) ^(٩٧) ^(٩٨) ^(٩٩) ^(١٠٠) ^(١٠١) ^(١٠٢) ^(١٠٣) ^(١٠٤) ^(١٠٥) ^(١٠٦) ^(١٠٧) ^(١٠٨) ^(١٠٩) ^(١١٠) ^(١١١) ^(١١٢) ^(١١٣) ^(١١٤) ^(١١٥) ^(١١٦) ^(١١٧) ^(١١٨) ^(١١٩) ^(١٢٠) ^(١٢١) ^(١٢٢) ^(١٢٣) ^(١٢٤) ^(١٢٥) ^(١٢٦) ^(١٢٧) ^(١٢٨) ^(١٢٩) ^(١٣٠) ^(١٣١) ^(١٣٢) ^(١٣٣) ^(١٣٤) ^(١٣٥) ^(١٣٦) ^(١٣٧) ^(١٣٨) ^(١٣٩) ^(١٤٠) ^(١٤١) ^(١٤٢) ^(١٤٣) ^(١٤٤) ^(١٤٥) ^(١٤٦) ^(١٤٧) ^(١٤٨) ^(١٤٩) ^(١٥٠) ^(١٥١) ^(١٥٢) ^(١٥٣) ^(١٥٤) ^(١٥٥) ^(١٥٦) ^(١٥٧) ^(١٥٨) ^(١٥٩) ^(١٦٠) ^(١٦١) ^(١٦٢) ^(١٦٣) ^(١٦٤) ^(١٦٥) ^(١٦٦) ^(١٦٧) ^(١٦٨) ^(١٦٩) ^(١٧٠) ^(١٧١) ^(١٧٢) ^(١٧٣) ^(١٧٤) ^(١٧٥) ^(١٧٦) ^(١٧٧) ^(١٧٨) ^(١٧٩) ^(١٨٠) ^(١٨١) ^(١٨٢) ^(١٨٣) ^(١٨٤) ^(١٨٥) ^(١٨٦) ^(١٨٧) ^(١٨٨) ^(١٨٩) ^(١٩٠) ^(١٩١) ^(١٩٢) ^(١٩٣) ^(١٩٤) ^(١٩٥) ^(١٩٦) ^(١٩٧) ^(١٩٨) ^(١٩٩) ^(٢٠٠) ^(٢٠١) ^(٢٠٢) ^(٢٠٣) ^(٢٠٤) ^(٢٠٥) ^(٢٠٦) ^(٢٠٧) ^(٢٠٨) ^(٢٠٩) ^(٢١٠) ^(٢١١) ^(٢١٢) ^(٢١٣) ^(٢١٤) ^(٢١٥) ^(٢١٦) ^(٢١٧) ^(٢١٨) ^(٢١٩) ^(٢٢٠) ^(٢٢١) ^(٢٢٢) ^(٢٢٣) ^(٢٢٤) ^(٢٢٥) ^(٢٢٦) ^(٢٢٧) ^(٢٢٨) ^(٢٢٩) ^(٢٣٠) ^(٢٣١) ^(٢٣٢) ^(٢٣٣) ^(٢٣٤) ^(٢٣٥) ^(٢٣٦) ^(٢٣٧) ^(٢٣٨) ^(٢٣٩) ^(٢٤٠) ^(٢٤١) ^(٢٤٢) ^(٢٤٣) ^(٢٤٤) ^(٢٤٥) ^(٢٤٦) ^(٢٤٧) ^(٢٤٨) ^(٢٤٩) ^(٢٥٠) ^(٢٥١) ^(٢٥٢) ^(٢٥٣) ^(٢٥٤) ^(٢٥٥) ^(٢٥٦) ^(٢٥٧) ^(٢٥٨) ^(٢٥٩) ^(٢٦٠) ^(٢٦١) ^(٢٦٢) ^(٢٦٣) ^(٢٦٤) ^(٢٦٥) ^(٢٦٦) ^(٢٦٧) ^(٢٦٨) ^(٢٦٩) ^(٢٧٠) ^(٢٧١) ^(٢٧٢) ^(٢٧٣) ^(٢٧٤) ^(٢٧٥) ^(٢٧٦) ^(٢٧٧) ^(٢٧٨) ^(٢٧٩) ^(٢٨٠) ^(٢٨١) ^(٢٨٢) ^(٢٨٣) ^(٢٨٤) ^(٢٨٥) ^(٢٨٦) ^(٢٨٧) ^(٢٨٨) ^(٢٨٩) ^(٢٩٠) ^(٢٩١) ^(٢٩٢) ^(٢٩٣) ^(٢٩٤) ^(٢٩٥) ^(٢٩٦) ^(٢٩٧) ^(٢٩٨) ^(٢٩٩) ^(٣٠٠) ^(٣٠١) ^(٣٠٢) ^(٣٠٣) ^(٣٠٤) ^(٣٠٥) ^(٣٠٦) ^(٣٠٧) ^(٣٠٨) ^(٣٠٩) ^(٣١٠) ^(٣١١) ^(٣١٢) ^(٣١٣) ^(٣١٤) ^(٣١٥) ^(٣١٦) ^(٣١٧) ^(٣١٨) ^(٣١٩) ^(٣٢٠) ^(٣٢١) ^(٣٢٢) ^(٣٢٣) ^(٣٢٤) ^(٣٢٥) ^(٣٢٦) ^(٣٢٧) ^(٣٢٨) ^(٣٢٩) ^(٣٣٠) ^(٣٣١) ^(٣٣٢) ^(٣٣٣) ^(٣٣٤) ^(٣٣٥) ^(٣٣٦) ^(٣٣٧) ^(٣٣٨) ^(٣٣٩) ^(٣٤٠) ^(٣٤١) ^(٣٤٢) ^(٣٤٣) ^(٣٤٤) ^(٣٤٥) ^(٣٤٦) ^(٣٤٧) ^(٣٤٨) ^(٣٤٩) ^(٣٥٠) ^(٣٥١) ^(٣٥٢) ^(٣٥٣) ^(٣٥٤) ^(٣٥٥) ^(٣٥٦) ^(٣٥٧) ^(٣٥٨) ^(٣٥٩) ^(٣٦٠) ^(٣٦١) ^(٣٦٢) ^(٣٦٣) ^(٣٦٤) ^(٣٦٥) ^(٣٦٦) ^(٣٦٧) ^(٣٦٨) ^(٣٦٩) ^(٣٧٠) ^(٣٧١) ^(٣٧٢) ^(٣٧٣) ^(٣٧٤) ^(٣٧٥) ^(٣٧٦) ^(٣٧٧) ^(٣٧٨) ^(٣٧٩) ^(٣٨٠) ^(٣٨١) ^(٣٨٢) ^(٣٨٣) ^(٣٨٤) ^(٣٨٥) ^(٣٨٦) ^(٣٨٧) ^(٣٨٨) ^(٣٨٩) ^(٣٩٠) ^(٣٩١) ^(٣٩٢) ^(٣٩٣) ^(٣٩٤) ^(٣٩٥) ^(٣٩٦) ^(٣٩٧) ^(٣٩٨) ^(٣٩٩) ^(٤٠٠) ^(٤٠١) ^(٤٠٢) ^(٤٠٣) ^(٤٠٤) ^(٤٠٥) ^(٤٠٦) ^(٤٠٧) ^(٤٠٨) ^(٤٠٩) ^(٤١٠) ^(٤١١) ^(٤١٢) ^(٤١٣) ^(٤١٤) ^(٤١٥) ^(٤١٦) ^(٤١٧) ^(٤١٨) ^(٤١٩) ^(٤٢٠) ^(٤٢١) ^(٤٢٢) ^(٤٢٣) ^(٤٢٤) ^(٤٢٥) ^(٤٢٦) ^(٤٢٧) ^(٤٢٨) ^(٤٢٩) ^(٤٣٠) ^(٤٣١) ^(٤٣٢) ^(٤٣٣) ^(٤٣٤) ^(٤٣٥) ^(٤٣٦) ^(٤٣٧) ^(٤٣٨) ^(٤٣٩) ^(٤٤٠) ^(٤٤١) ^(٤٤٢) ^(٤٤٣) ^(٤٤٤) ^(٤٤٥) ^(٤٤٦) ^(٤٤٧) ^(٤٤٨) ^(٤٤٩) ^(٤٥٠) ^(٤٥١) ^(٤٥٢) ^(٤٥٣) ^(٤٥٤) ^(٤٥٥) ^(٤٥٦) ^(٤٥٧) ^(٤٥٨) ^(٤٥٩) ^(٤٦٠) ^(٤٦١) ^(٤٦٢) ^(٤٦٣) ^(٤٦٤) ^(٤٦٥) ^(٤٦٦) ^(٤٦٧) ^(٤٦٨) ^(٤٦٩) ^(٤٧٠) ^(٤٧١) ^(٤٧٢) ^(٤٧٣) ^(٤٧٤) ^(٤٧٥) ^(٤٧٦) ^(٤٧٧) ^(٤٧٨) ^(٤٧٩) ^(٤٨٠) ^(٤٨١) ^(٤٨٢) ^(٤٨٣) ^(٤٨٤) ^(٤٨٥) ^(٤٨٦) ^(٤٨٧) ^(٤٨٨) ^(٤٨٩) ^(٤٩٠) ^(٤٩١) ^(٤٩٢) ^(٤٩٣) ^(٤٩٤) ^(٤٩٥) ^(٤٩٦) ^(٤٩٧) ^(٤٩٨) ^(٤٩٩) ^(٥٠٠) ^(٥٠١) ^(٥٠٢) ^(٥٠٣) ^(٥٠٤) ^(٥٠٥) ^(٥٠٦) ^(٥٠٧) ^(٥٠٨) ^(٥٠٩) ^(٥١٠) ^(٥١١) ^(٥١٢) ^(٥١٣) ^(٥١٤) ^(٥١٥) ^(٥١٦) ^(٥١٧) ^(٥١٨) ^(٥١٩) ^(٥٢٠) ^(٥٢١) ^(٥٢٢) ^(٥٢٣) ^(٥٢٤) ^(٥٢٥) ^(٥٢٦) ^(٥٢٧) ^(٥٢٨) ^(٥٢٩) ^(٥٣٠) ^(٥٣١) ^(٥٣٢) ^(٥٣٣) ^(٥٣٤) ^(٥٣٥) ^(٥٣٦) ^(٥٣٧) ^(٥٣٨) ^(٥٣٩) ^(٥٤٠) ^(٥٤١) ^(٥٤٢) ^(٥٤٣) ^(٥٤٤) ^(٥٤٥) ^(٥٤٦) ^(٥٤٧) ^(٥٤٨) ^(٥٤٩) ^(٥٥٠) ^(٥٥١) ^(٥٥٢) ^(٥٥٣) ^(٥٥٤) ^(٥٥٥) ^(٥٥٦) ^(٥٥٧) ^(٥٥٨) ^(٥٥٩) ^(٥٦٠) ^(٥٦١) ^(٥٦٢) ^(٥٦٣) ^(٥٦٤) ^(٥٦٥) ^(٥٦٦) ^(٥٦٧) ^(٥٦٨) ^(٥٦٩) ^(٥٧٠) ^(٥٧١) ^(٥٧٢) ^(٥٧٣) ^(٥٧٤) ^(٥٧٥) ^(٥٧٦) ^(٥٧٧) ^(٥٧٨) ^(٥٧٩) ^(٥٨٠) ^(٥٨١) ^(٥٨٢) ^(٥٨٣) ^(٥٨٤) ^(٥٨٥) ^(٥٨٦) ^(٥٨٧) ^(٥٨٨) ^(٥٨٩) ^(٥٩٠) ^(٥٩١) ^(٥٩٢) ^(٥٩٣) ^(٥٩٤) ^(٥٩٥) ^(٥٩٦) ^(٥٩٧) ^(٥٩٨) ^(٥٩٩) ^(٦٠٠) ^(٦٠١) ^(٦٠٢) ^(٦٠٣) ^(٦٠٤) ^(٦٠٥) ^(٦٠٦) ^(٦٠٧) ^(٦٠٨) ^(٦٠٩) ^(٦١٠) ^(٦١١) ^(٦١٢) ^(٦١٣) ^(٦١٤) ^(٦١٥) ^(٦١٦) ^(٦١٧) ^(٦١٨) ^(٦١٩) ^(٦٢٠) ^(٦٢١) ^(٦٢٢) ^(٦٢٣) ^(٦٢٤) ^(٦٢٥) ^(٦٢٦) ^(٦٢٧) ^(٦٢٨) ^(٦٢٩) ^(٦٣٠) ^(٦٣١) ^(٦٣٢) ^(٦٣٣) ^(٦٣٤) ^(٦٣٥) ^(٦٣٦) ^(٦٣٧) ^(٦٣٨) ^(٦٣٩) ^(٦٤٠) ^(٦٤١) ^(٦٤٢) ^(٦٤٣) ^(٦٤٤) ^(٦٤٥) ^(٦٤٦) ^(٦٤٧) ^(٦٤٨) ^(٦٤٩) ^(٦٥٠) ^(٦٥١) ^(٦٥٢) ^(٦٥٣) ^(٦٥٤) ^(٦٥٥) ^(٦٥٦) ^(٦٥٧) ^(٦٥٨) ^(٦٥٩) ^(٦٦٠) ^(٦٦١) ^(٦٦٢) ^(٦٦٣) ^(٦٦٤) ^(٦٦٥) ^(٦٦٦) ^(٦٦٧) ^(٦٦٨) ^(٦٦٩) ^(٦٧٠) ^(٦٧١) ^(٦٧٢) ^(٦٧٣) ^(٦٧٤) ^(٦٧٥) ^(٦٧٦) ^(٦٧٧) ^(٦٧٨) ^(٦٧٩) ^(٦٨٠) ^(٦٨١) ^(٦٨٢) ^(٦٨٣) ^(٦٨٤) ^(٦٨٥) ^(٦٨٦) ^(٦٨٧) ^(٦٨٨) ^(٦٨٩) ^(٦٩٠) ^(٦٩١) ^(٦٩٢) ^(٦٩٣) ^(٦٩٤) ^(٦٩٥) ^(٦٩٦) ^(٦٩٧) ^(٦٩٨) ^(٦٩٩) ^(٧٠٠) ^(٧٠١) ^(٧٠٢) ^(٧٠٣) ^(٧٠٤) ^(٧٠٥) ^(٧٠٦) ^(٧٠٧) ^(٧٠٨) ^(٧٠٩) ^(٧١٠) ^(٧١١) ^(٧١٢) ^(٧١٣) ^(٧١٤) ^(٧١٥) ^(٧١٦) ^(٧١٧) ^(٧١٨) ^(٧١٩) ^(٧٢٠) ^(٧٢١) ^(٧٢٢) ^(٧٢٣) ^(٧٢٤) ^(٧٢٥) ^(٧٢٦) ^(٧٢٧) ^(٧٢٨) ^(٧٢٩) ^(٧٣٠) ^(٧٣١) ^(٧٣٢) ^(٧٣٣) ^(٧٣٤) ^(٧٣٥) ^(٧٣٦) ^(٧٣٧) ^(٧٣٨) ^(٧٣٩) ^(٧٤٠) ^(٧٤١) ^(٧٤٢) ^(٧٤٣) ^(٧٤٤) ^(٧٤٥) ^(٧٤٦) ^(٧٤٧) ^(٧٤٨) ^(٧٤٩) ^(٧٥٠) ^(٧٥١) ^(٧٥٢) ^(٧٥٣) ^(٧٥٤) ^(٧٥٥) ^(٧٥٦) ^(٧٥٧) ^(٧٥٨) ^(٧٥٩) ^(٧٦٠) ^(٧٦١) ^(٧٦٢) ^(٧٦٣) ^(٧٦٤) ^(٧٦٥) ^(٧٦٦) ^(٧٦٧) ^(٧٦٨) ^(٧٦٩) ^(٧٧٠) ^(٧٧١) ^(٧٧٢) ^(٧٧٣) ^(٧٧٤) ^(٧٧٥) ^(٧٧٦) ^(٧٧٧) ^(٧٧٨) ^(٧٧٩) ^(٧٨٠) ^(٧٨١) ^(٧٨٢) ^(٧٨٣) ^(٧٨٤) ^(٧٨٥) ^(٧٨٦) ^(٧٨٧) ^(٧٨٨) ^(٧٨٩) ^(٧٩٠) ^(٧٩١) ^(٧٩٢) ^(٧٩٣) ^(٧٩٤) ^(٧٩٥) ^(٧٩٦) ^(٧٩٧) ^(٧٩٨) ^(٧٩٩) ^(٨٠٠) ^(٨٠١) ^(٨٠٢) ^(٨٠٣) ^(٨٠٤) ^(٨٠٥) ^(٨٠٦) ^(٨٠٧) ^(٨٠٨) ^(٨٠٩) ^(٨١٠) ^(٨١١) ^(٨١٢) ^(٨١٣) ^(٨١٤) ^(٨١٥) ^(٨١٦) ^(٨١٧) ^(٨١٨) ^(٨١٩) ^(٨٢٠) ^(٨٢١) ^(٨٢٢) ^(٨٢٣) ^(٨٢٤) ^(٨٢٥) ^(٨٢٦) ^(٨٢٧) ^(٨٢٨) ^(٨٢٩) ^(٨٣٠) ^(٨٣١) ^(٨٣٢) ^(٨٣٣) ^(٨٣٤) ^(٨٣٥) ^(٨٣٦) ^(٨٣٧) ^(٨٣٨) ^(٨٣٩) ^(٨٤٠) ^(٨٤١) ^(٨٤٢) ^(٨٤٣) ^(٨٤٤) ^(٨٤٥) ^(٨٤٦) ^(٨٤٧) ^(٨٤٨) ^(٨٤٩) ^(٨٥٠) ^(٨٥١) ^(٨٥٢) ^(٨٥٣) ^(٨٥٤) ^(٨٥٥) ^(٨٥٦) ^(٨٥٧) ^(٨٥٨) ^(٨٥٩) ^(٨٦٠) ^(٨٦١) ^(٨٦٢) ^(٨٦٣) ^(٨٦٤) ^(٨٦٥) ^(٨٦٦) ^(٨٦٧) ^(٨٦٨) ^(٨٦٩) ^(٨٧٠) ^(٨٧١) ^(٨٧٢) ^(٨٧٣) ^(٨٧٤) ^(٨٧٥) ^(٨٧٦) ^(٨٧٧) ^(٨٧٨) ^(٨٧٩) ^(٨٨٠) ^(٨٨١) ^(٨٨٢) ^(٨٨٣) ^(٨٨٤) ^(٨٨٥) ^(٨٨٦) ^(٨٨٧) ^(٨٨٨) ^(٨٨٩) ^(٨٩٠) ^(٨٩١) ^(٨٩٢) ^(٨٩٣) ^(٨٩٤) ^(٨٩٥) ^(٨٩٦) ^(٨٩٧) ^(٨٩٨) ^(٨٩٩) ^(٩٠٠) ^(٩٠١) ^(٩٠٢) ^(٩٠٣) ^(٩٠٤) ^(٩٠٥) ^(٩٠٦) ^(٩٠٧) ^(٩٠٨) ^(٩٠٩) ^(٩١٠) ^(٩١١) ^(٩١٢) ^(٩١٣) ^(٩١٤) ^(٩١٥) ^(٩١٦) ^(٩١٧) ^(٩١٨) ^(٩١٩) ^(٩٢٠) ^(٩٢١) ^(٩٢٢) ^(٩٢٣) ^(٩٢٤) ^(٩٢٥) ^(٩٢٦) ^(٩٢٧) ^(٩٢٨) ^(٩٢٩) ^(٩٣٠) ^(٩٣١) ^(٩٣٢) ^(٩٣٣) ^(٩٣٤) ^(٩٣٥) ^(٩٣٦) ^(٩٣٧) ^(٩٣٨) ^(٩٣٩) ^(٩٤٠) ^(٩٤١) ^(٩٤٢) ^(٩٤٣) ^(٩٤٤) ^(٩٤٥) ^(٩٤٦) ^(٩٤٧) ^(٩٤٨) ^(٩٤٩) ^(٩٥٠) ^(٩٥١) ^(٩٥٢) ^(٩٥٣) ^(٩٥٤) ^(٩٥٥) ^(٩٥٦) ^(٩٥٧) ^(٩٥٨) ^(٩٥٩) ^(٩٦٠) ^(٩٦١) ^(٩٦٢) ^(٩٦٣) ^(٩٦٤) ^(٩٦٥) ^(٩٦٦) ^(٩٦٧) ^(٩٦٨) ^(٩٦٩) ^(٩٧٠) ^(٩٧١) ^(٩٧٢) ^(٩٧٣) ^(٩٧٤) ^(٩٧٥) ^(٩٧٦) ^(٩٧٧) ^(٩٧٨) ^(٩٧٩) ^(٩٨٠) ^(٩٨١) ^(٩٨٢) ^(٩٨٣) ^(٩٨٤) ^(٩٨٥) ^(٩٨٦) ^(٩٨٧) ^(٩٨٨) ^(٩٨٩) ^(٩٩٠) ^(٩٩١) ^(٩٩٢) ^(٩٩٣) ^(٩٩٤) ^(٩٩٥) ^(٩٩٦) ^(٩٩٧) ^(٩٩٨) ^(٩٩٩) ^(١٠٠٠) ^(١٠٠١) ^(١٠٠٢) ^(١٠٠٣) ^(١٠٠٤) ^(١٠٠٥) ^(١٠٠٦) ^(١٠٠٧) ^(١٠٠٨) ^(١٠٠٩) ^(١٠١٠) ^(١٠١١) ^(١٠١٢) ^(١٠١٣) ^(١٠١٤) ^(١٠١٥) ^(١٠١٦) ⁽

شُعْبٍ ﴿١﴾ أَيِ اذْهَبُوا فَاسْتَظَلُّوا بِدُخَانٍ كَثِيفٍ مِنْ دُخَانِ جَهَنَّمَ، يَتَفَرَّعُ مِنْهُ ثَلَاثُ شُعَبٍ ﴿٢﴾ لَا ظِلِيلٍ وَلَا يُعْنِي مِنَ الْهَبِّ ﴿٣﴾ أَيِ لَا يُظِلُّ مَنْ يَكُونُ تَحْتَهُ، وَلَا يَقِيهِ حَرُّ الشَّمْسِ كَمَا هُوَ حَالُ الظِّلِّ الْمَمْدُودِ، وَلَا هُوَ يَدْفَعُ عَنْهُ أَيْضًا أَلْسِنَةُ النَّارِ الْمُنْدَلَعَةِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ قَالَ الطَّبْرِيُّ: لَا هُوَ يُظِلُّهُمْ مِنْ حَرِّهَا، وَلَا يَكُنُّهُمْ مِنْ لَهَبِهَا^(١)، وَذَلِكَ أَنَّهُ يَرْتَفِعُ مِنْ وَقُودِ جَهَنَّمَ الدُّخَانُ، فَإِذَا تَصَاعَدَ تَفَرَّقَ شُعْبًا ثَلَاثَةً^(٢) قَالَ الْمَفْسُورُونَ: سَمَّى الْعَذَابَ ظِلًّا تَهَكُّمًا وَاسْتَهْزَاءً بِالْمُعَذِّبِينَ، فَالْمُؤْمِنُونَ فِي ظِلَالِ وَعُيُونٍ، وَالْمُجْرِمُونَ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ، وَظِلٌّ مِنْ يَحْمُومٍ، وَالْيَحْمُومُ دُخَانٌ أَسْوَدٌ قَاتِمٌ، فَكَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يُسَمَّى مَا هُمْ فِيهِ ظِلًّا إِلَّا عَلَى طَرِيقِ التَّهَكُّمِ وَالِاسْتَهْزَاءِ؟ ثُمَّ زَادَ تَعَالَى فِي وَصْفِ جَهَنَّمَ وَأَهْوَالِهَا فَقَالَ ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ أَيِ إِنَّ جَهَنَّمَ تَقْدِفُ بِشَرِّ عَظِيمٍ مِنَ النَّارِ، كُلِّ شَرَارَةٍ مِنْهَا كَأَنَّهَا الْقَصْرَ الْعَظِيمَ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: يَتَطَايَرُ الشَّرُّ مِنْ لَهَبِهَا كَالْحَصُونِ^(٣) ﴿كَأَنَّهُ جَمَلَتْ صُفْرٌ﴾ أَيِ كَأَنَّ شَرْرَ جَهَنَّمَ الْمَتَطَايِرَ مِنْهَا الْإِبِلُ الصَّفَرُ فِي لَوْنِهَا وَسُرْعَةُ حَرَكَتِهَا قَالَ الرَّازِيُّ: شَبَّهَ تَعَالَى الشَّرَّ فِي الْعِظَمِ بِالْقَصْرِ، وَفِي اللَّوْنِ وَالْكَثْرَةِ وَسُرْعَةَ الْحَرَكَةِ بِالْجَمَالَاتِ الصَّفَرِ^(٤)، وَهَذَا التَّشْبِيهُ مِنْ رَوَائِعِ صُورِ التَّشْبِيهِ، لِأَنَّ الشَّرَارَةَ إِذَا كَانَتْ مِثْلَ الْقَصْرِ الضَّخْمِ، فَكَيْفَ تَكُونُ حَالُ تِلْكَ النَّارِ الْمَلْتَهَبَةِ؟ أَجَارَنَا اللَّهُ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ ﴿وَلَيْلٌ يُؤَمِّدُ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أَيِ هَلَاكُ وَدِمَارُ لِلْمُكَذِّبِينَ بَأَيَاتِ اللَّهِ ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ أَيِ هَذَا الْيَوْمَ الرَّهِيْبُ، الَّذِي لَا يَنْطِقُ فِيهِ أَوْلَئِكَ الْمَكْذُوبُونَ وَلَا يَكْتُمُونَ كَلَامًا يَنْفَعُهُمْ، فَهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ خُرُسٌ بُكْمٌ ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْذِرُونَ﴾ أَيِ وَلَا يَقْبَلُ لَهُمْ عَذْرٌ وَلَا حُجَّةٌ فِيمَا أَتَوَاهُ مِنَ الْقَبَائِحِ وَالْجَرَائِمِ، بَلْ لَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فِي أَنْ يَعْتَذِرُوا، لِأَنَّهُ لَا تَسْمَعُ مِنْهُمْ تِلْكَ الْحُجَجِ وَالْأَعْذَارِ وَلَا تَقْبَلُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ [غافر: ٥٢] ﴿وَلَيْلٌ يُؤَمِّدُ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾^(٢٧) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمْعُكُمْ وَالْأَوَّلِينَ أَيِ يُقَالُ لَهُمْ: هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ بَيْنَ الْخَلَائِقِ، الَّذِي يَفْصِلُ اللَّهُ فِيهِ بِحُكْمِهِ الْعَادِلِ بَيْنَ السَّعْدَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ، جَمْعُنَاكُمْ فِيهِ مَعَ مَنْ تَقَدَّمَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ لِنُحْكَمَ بَيْنَكُمْ جَمِيعًا ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا﴾ أَيِ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ حِيلَةٌ فِي الْخَلَاصِ مِنَ الْعَذَابِ فَاحْتَالُوا، وَأَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ بَطْشِ اللَّهِ وَانْتِقَامِهِ إِنْ قَدَرْتُمْ، وَهَذَا تَعَجِيزٌ لَهُمْ وَتَوْبِيخٌ ﴿وَلَيْلٌ يُؤَمِّدُ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أَيِ هَلَاكُ يَوْمِئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ يَوْمَ الدِّينِ.. وَبَعْدَ أَنْ ذَكَرَ أَحْوَالَ الْأَشْقِيَاءِ الْمُجْرِمِينَ، أَعْقَبَهُ بِذِكْرِ أَحْوَالَ السَّعْدَاءِ الْمُتَّقِينَ فَقَالَ ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّلٍ وَعُيُونٍ﴾ أَيِ الَّذِينَ خَافُوا رَبَّهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَاتَّقَوْا عَذَابَهُ بِامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، هُمْ يَوْمَ

(١) (ش): كَنَّ الشَّيْءَ: أَخْفَاهُ وَسَتَرَهُ وَصَانَهُ.

(٢) «تفسير الطبري» ١٤٦/٢٩.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٥٨٨/٣.

(٤) «التفسير الكبير» ٥٧٧/٣٠.

القيامة في ظلال الأشجار الوارقة، وعيون الماء الجارية، يتنعمون في دار الخلد، والكرامة، على عكس أولئك المجرمين المكذبين، الذين هم في ظل من يحوم وهو دخان جهنم الأسود الذي لا يقي حرًا، ولا يدفع عطشًا، ولا يجد المستظل به مما يشتهي لراحته سوى شرر النار الهائل ﴿وَفُوكَهُمْ مَّاءٌ يَشْتَهُونَ﴾ أي وفواكه كثيرة متنوعة مما يستلذون ويستطيبون ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي ويقال لهم على سبيل الأنس والتكريم: كلوا أكلاً لذيذاً واشربوا شرباً هنيئاً، بسبب ما قدمتم في الدنيا من صالح الأعمال ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي إننا مثل ذلك الجزاء العظيم نجزي من أحسن عمله، وأخلص نيته، واتقى ربه ﴿وَلَيْلُ يَوْمِئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار للمكذبين بيوم الدين ﴿كُلُوا وَتَمْنَعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ﴾ أي يقال للكفار على سبيل التهديد والوعيد: كلوا من لذائذ الدنيا، واستمتعوا بشهواتها الفانية، كما هو شأن البهائم التي همها ملء بطونها ونيل شهواتها زماناً قليلاً إلى منتهى آجالكم، فإنكم مجرمون لا تستحقون الإنعام والتكريم ﴿وَلَيْلُ يَوْمِئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار يوم القيامة للمكذبين بنعم الله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَزْكِعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء المشركين صلوا لله، واخشعوا في صلاتكم لعظمته وجلاله، لا يخشعون ولا يصلون، بل يظنون على استكبارهم يصرون قال مقاتل: نزلت هذه الآية في ثقيف، امتنعوا عن الصلاة وقالوا لرسول الله ﷺ: حط عنا الصلاة فإننا لا ننحني، إنها مسبة علينا، فأبى وقال: «لا خير في دين لا صلاة فيه»^(١) ﴿وَلَيْلُ يَوْمِئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار يوم القيامة للمكذبين بأوامر الله ونواهيه ﴿فَنَأْيُ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾؟ أي فبأي كتاب وكلام بعد هذا القرآن المعجز الواضح يصدقون إن لم يؤمنوا بالقرآن؟ فإذا كذبوا بالقرآن ولم يؤمنوا به، مع بلوغه الغاية في الإعجاز، ونصوع الحجة، وروعة البيان، فبأي شيء بعد ذلك يؤمنون؟ قال القرطبي: كرر قوله ﴿وَلَيْلُ يَوْمِئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ عشر مراتٍ للتخويف والوعيد، وقيل: إنه ليس بتكرار، لأنه أراد بكل قولٍ منه غير الذي أراده بالآخر، كأنه ذكر شيئاً فقال: ويل لمن يكذب بهذا، ثم ذكر شيئاً آخر فقال: ويل لمن يكذب بهذا، وهكذا إلى آخر السورة الكريمة^(٢).

(١) «تفسير البحر المحيط» ٤٠٨/٨. (ش): هذا اللفظ رواه الثعلبي في «تفسيره» عن مقاتل بدون إسناد، ومقاتل متروكٌ ومتهمٌ بالكذب. ورواه أحمد وأبو داود بلفظ: «لَا خَيْرَ فِي دِينٍ لَيْسَ فِيهِ رُكُوعٌ» في قصة وقد ثَقِيفٌ لَمَّا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وضعفه الألباني.

والصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام، وقد أمر الله بالمحافظة عليها في السفر، والحضر، والسلم، والحرب، وفي حال الصحة، والمرض. وقد قال ﷺ: «بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ: تَرْكُ الصَّلَاةِ» (رواه مسلم). وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ» (رواه أحمد والترمذي والنسائي، وصححه الألباني).

(٢) «تفسير القرطبي» ١٦٧/١٩.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - التأكيد بذكر المصدر زيادة في البيان وتقوية للكلام مثل ﴿فَالْعَصْفَتِ عَصْفًا﴾ (٢) وَالشَّيْرَتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَرْقَتِ فَرْقًا ﴿ وهو من المحسنات اللفظية.
- ٢ - الطباق بين ﴿عَذْرًا.. نُدْرًا﴾ وبين ﴿أَحْيَاءَ.. وَأَمْوَاتًا﴾ وبين ﴿الْأَوَّلِينَ مَرْثُومٌ.. وَالْآخِرِينَ﴾ وكلها من المحسنات البديعية.
- ٣ - وضع الظاهر مكان الضمير، والمجيء بصيغة الاستفهام ﴿لَأَيَّ يَوْمٍ أُخِلَّتِ﴾ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣) وَمَا أَذْرَبَكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ ﴿؟ لزيادة تفضيع الأمر وتهويله.
- ٤ - الاستفهام التقريري ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾؟ ومثله ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾؟
- ٥ - الجناس غير التام بين لفظتي ﴿مَهِينٍ﴾ و ﴿مَكِينٍ﴾.
- ٦ - التشبيه المرسل المجمل ﴿إِنَّمَا تَرْمِي بِشَجَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ والمرسل المفصل ﴿كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ﴾.
- ٧ - المقابلة بين نعيم الأبرار وعذاب الفجار ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّلٍ وَعُيُونٍ﴾ (٤١) وَفَوْكَهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُّوْا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ قابل ذلك بقوله ﴿كُلُّوْا وَتَمَنَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ﴾.
- ٨ - أسلوب التهكم ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ (٣٠) لَا ظِلِّيلٍ ﴿ سَمَى الْعَذَابِ ظِلًّا تَهْكَمًا وسخرية بهم.
- ٩ - المجاز المرسل ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ أطلق الركوع وأراد به الصلاة فهو من باب إطلاق البعض وإرادة الكل، أي: وإذا قيل لهم: صلوا لا يصلون.
- ١٠ - توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْنَذِرُونَ.. إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّلٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوْكَهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿ إلخ ويسمى بالسجع المرصع وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المرسلات»



سُورَةُ النَّبَاِ

مكية وآياتها أربعون

بين يدي السورة

* سورة عم مكية وتسمى (سورة النبأ) لأن فيها الخبر الهام عن القيامة والبعث والنشور، ومحور السورة يدور حول إثبات «عقيدة البعث» التي طالما أنكرها المشركون.

* ابتدأت السورة الكريمة بالإخبار عن موضوع القيامة، والبعث والجزاء، هذا الموضوع الذي شغل أذهان الكثيرين من كفار مكة، حتى صاروا فيه ما بين مصدق ومكذب ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ^(١) عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ.. ﴿الآيات.

* ثم أقامت الدلائل والبراهين على قدرة رب العالمين، فإن الذي يقدر على خلق العجائب والبدائع، لا يعجزه إعادة خلق الإنسان بعد فناءه ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ ^(٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ^(٧) وَخَلَقْنَاهُ أَزْوَاجًا ^(٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ^(٩) ﴿الآيات.

* ثم أعقبت ذلك بذكر البعث، وحددت وقته وميعاده، وهو يوم الفصل بين العباد، حيث يجمع الله الأولين والآخرين للحساب ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ ^(١٧) يَوْمَ يُفْعُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ^(١٨) ﴿الآيات.

* ثم تحدثت عن جهنم التي أعدها الله للكافرين، وما فيها من ألوان العذاب المهين ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ ^(٢١) لِلطَّاعِنِينَ مَطَابًا ^(٢٢) لِّبَئْسَ لِمَنِ فِيهَا أَحْقَابًا ^(٢٣) ﴿الآيات.

* وبعد الحديث عن الكافرين، تحدثت عن المتقين، وما أعد الله تعالى لهم من ضروب النعيم، على طريقة القرآن في الجمع بين الترهيب والترغيب ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ ^(٣١) حُدُوقًا وَأَعْنَابًا ^(٣٢) وَكُوعًا أَزْوَاجًا ^(٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا ^(٣٤) ﴿الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بالحديث عن هول يوم القيامة، حيث يتمنى الكافر أن يكون ترابًا فلا يحشر ولا يحاسب ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تَرَابًا﴾ ^(٤٠).

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ^(١) عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ ^(٢) الَّذِي هُوَ فِيهِ يُخْلِفُونَ ^(٣) كَلَّا سِعَامُونَ ^(٤) قُلْ كَلَّا سِعَامُونَ ^(٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ^(٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ^(٧) وَخَلَقْنَاهُ أَزْوَاجًا ^(٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ^(٩) وَجَعَلْنَا أَيْلًا لِّبَاسًا ^(١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ^(١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ^(١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ^(١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ^(١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ^(١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ^(١٦) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ^(١٧) يَوْمَ يُفْعُ فِي الصُّورِ

فَنَاتُونُ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّغْيِينَ مَتَابًا ﴿٢٢﴾ لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ أَخْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَارًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَزْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسَادِهَا قَافًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْغَوْى فَمَنْ شَاءَ اخْذِلْ إِلَى رَبِّهِ مَتَابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا

اللغة: ﴿سُبَابًا﴾ السَّبْتُ في اللغة: القطع، سمي الليل سُبَاتًا لأنه يقطع العمل والحركة ﴿وَهَاجًا﴾ الوَهَّاج: المتقد المتألى من قولهم: وَهَجَتِ النَّارُ إِذَا أَضَاءَتْ ﴿تَجَاجًا﴾ شديد الانصباب يقال: تَجَّ إِذَا سَالَ بكَثْرَةً وفي الحديث «أَفْضَلُ الْحَجِّ: الْعَجُّ وَالثَّجُّ»^(١) العَجُّ: رفع الصوت بالتلبية، والثَّجُّ: إِرَاقَةُ الدَّمَاءِ وَذُبْحُ الْهَدَايَا ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ جمع كَاعَبَ وهي التي برز نَهْدُهَا^(٢) مع ارتفاع يسير ﴿دِهَاقًا﴾ مملوءة يقال: أدهقت الكأس أي ملأها قال الشاعر:

أَنَا عَامِرٌ يَبْغِي قِرَانَا فَأَتَرَعْنَا لَهُ كَأْسًا دِهَاقًا^(٣)

التفسير: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾؟ أي: عن أي شيء يسأل هؤلاء الجاحدون بعضهم بعضًا؟ وأصل ﴿عَمَّ﴾ عَنْ مَا، أدغمت الميم في النون وحذفت ألف ﴿مَا﴾ الاستفهامية، وليس المراد هنا مجرد الاستفهام وإنما المراد تفخيم الأمر وتعظيمه، وقد كان المشركون يتساءلون عن البعث فيما بينهم، ويخوضون فيه إنكارًا واستهزاء فجاء اللفظ بصيغة الاستفهام للتفخيم والتهويل وتعجيب السامعين من أمر المشركين، ثم ذكر تعالى ذلك الأمر الخطير فقال ﴿عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾ أي يتساءلون عن الخبر العظيم الهام وهو أمر البعث^(٤) ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ أي الذي اختلفوا فيه ما بين شاك في وقوعه، ومكذب منكر لحصوله ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ردع وزجر، أي: ليرتدع أولئك المكذبون عن التساؤل عن البعث، فسيعلمون حقيقة الحال، حين يرون البعث أمرًا واقعًا، ويرون عاقبة استهزائهم ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ تأكيد للوعيد مع التهويل أي سيعلمون

(١) (ش): عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ عليه السلام أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ أَيُّ الْحَجِّ أَفْضَلُ؟ قَالَ «الْعَجُّ وَالثَّجُّ». (رواه الترمذي وحسنه الألباني).

(٢) (ش): نَهْدٌ: ثَدْيٌ.

(٣) «البحر المحيط» ٤٠٩/٨، والقرطبي ١٨١/١٩. (ش): أَتَرَعُ الْإِنَاءَ: مَلَأَهُ.

(٤) هذا هو الراجح أن المراد بالنبا العظيم أمر البعث لأنه ذكر بعده دلائل القدرة على إمكان البعث من قوله: ﴿أَلَمْ تَجْعَلْ لِّلْأَرْضِ مَهْدًا...﴾ إلخ. وذكر منها تسعة أمور، وقيل: المراد بالنبا القرآن أو النبوة وما ذكرناه هو الراجح وهو اختيار العلامة أبي السعود.

ما يحل بهم من العذاب والنكال.. ثم أشار تعالى إلى الأدلة الدالة على قدرته تعالى، ليقيم الحجة على الكفار فيما أنكروه من أمر البعث، وكأنه يقول: إن الإله الذي قدر على إيجاد هذه المخلوقات العظام، قادرٌ على إحياء الناس بعد موتهم فقال ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ أي ألم يجعل هذه الأرض التي تسكنونها ممهدة للاستقرار عليها، والتقلب في أنحائها؟ جعلناها لكم كالفراش والبساط لتستقروا على ظهرها، وتستفيدوا من سهولها الواسعة بأنواع المزروعات؟ ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أي وجعلنا الجبال كالأوتاد للأرض تثبتها لئلا تميد بكم كما يثبت البيت بالأوتاد قال في التسهيل: شبهها بالأوتاد لأنها تمسك الأرض أن تميد^(١) ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي وجعلناكم أيها الناس أصنافاً ذكوراً وإناثاً، لينتظم أمر النكاح والتناسل، ولا تنقطع الحياة عن ظهر هذا الكوكب الأرضي^(٢) ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي وجعلنا النوم راحة لأبدانكم، قاطعاً لأشغالكم، تتخلصون به من مشاق العمل بالنهار ﴿وَجَعَلْنَا لَيَلًا لِبَاسًا﴾ أي جعلنا الليل كاللباس يغشاكم ويستركم بظلامه، كما يستركم اللباس، وتُغطيكم ظلمته كما يغطي الثوب لابسهُ قال في التسهيل: شبهه بالثياب التي تلبس لأنه سترٌ عن العيون^(٣) ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ أي وجعلنا النهار سبباً لتحصيل المعاش، تنصرفون فيه لقضاء حوائجكم قال ابن كثير: جعلناه مشرقاً مضيئاً ليمكن الناس من التصرف فيه، بالذهاب والمجيء للمعاش والتكسب والتجارات وغير ذلك^(٤) ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ أي وبينا فوقكم أيها الناس سبع سموات محكمة الخلق بديعة الصنع، متينة في إحكامها وإتقانها، لا تتأثر بمرور العصور والأزمان، خلقناها بقدرتنا لتكون كالسقف للأرض كقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢] وقوله ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ أي وأنشأنا لكم شمساً منيرة ساطعة، يتوهج ضوءها ويتوقد لأهل الأرض كلهم، دائمة الحرارة والتوقد قال المفسرون: الوهَّاج المتوقد الشديد الإضاءة، الذي يضطرم ويلتهب من شدة لهبه وقال ابن عباس: المنير المتلألئ^(٥) ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ أي وأنزلنا من السحب التي حان وقت إمطارها ماءً دافقاً منهمراً بشدة وقوة قال في التسهيل: المعصرات هي السحب،

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ١٧٣/٤. (ش): مَاذَ الشَّيْءُ: تحرَّك واضطرب.

(٢) (ش): تسمية الأرض كوكباً إطلاقاً غريباً عن نصوص الوحيين الشريفيين، فالكواكب في السماء، والأرض في السُّفْل، ولم يطلق على الكواكب اسم: الأرض، ومن لازم هذا الإطلاق أن تكون الأرض زينة للسماء الدنيا، وجعلها رجوماً للشياطين، وهذا باطل. [انظر: «معجم المناهي اللفظية» للشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد (ص: ١١٨)].

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ١٧٣/٤.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٥٩٠/٣.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٧٠/١٩.

مأخوذة من العصر لأن السحاب ينعصر فينزل منه الماء^(١)، شبهت السحابة التي حان وقت إمطارها بالجارية التي قد دنا حيضها ﴿لَنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ أي لنخرج بهذا الماء أنواع الحبوب والزرورع، التي تنبت في الأرض غذاءً للإنسان والحيوان ﴿وَجَنَّتِ الْأَفْأَفُ﴾ أي وحدائق وبساتين كثيرة الأشجار والأغصان، ملتفة بعضها على بعض لكثرة أغصانها وتقارب أشجارها.. ذكر تعالى هذه الأدلة التسع على قدرته تعالى، كبرهان واضح على إمكان البعث والنشور^(٢)، فإن من قدر على هذه الأشياء قادرٌ على البعث والإحياء ولهذا قال بعده ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتًا﴾ أي إن يوم الحساب والجزاء، ويوم الفصل بين الخلائق، له وقت محدودٌ معلوم في علمه تعالى وقضائه، لا يتقدم ولا يتأخر ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ ^(١٣) وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿[هود: ١٠٣-١٠٤] قال القرطبي: سمي يوم الفصل لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه، وقد جعله وقتاً وميعاداً للأولين والآخرين^(٣)﴾ ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ أي يكون ذلك يوم أن ينفخ في الصور نفخة القيام من القبور، فتحضرون جماعات جماعات، وزمراً زمراً للحساب والجزاء، ثم ذكر تعالى أوصاف ذلك اليوم الرهيب فقال ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ أي تشققت السماء من كل جانب، حتى كان فيها صدوعٌ وفُتُوحٌ كالأبواب في الجدران، من هول ذلك اليوم كقوله تعالى ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الإنشاق: ١] وعبر بالماضي ﴿وَفُتِحَتِ﴾ لتحقيق الوقوع ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أي ونسفت الجبال وقلعت من أماكنها، حتى أصبح يخيل إلى الناظر أنها شيء وليست بشيء، كالسراب يظنه الرائي ماءً وليس بماء قال القرطبي: صارت الجبال بعد نسفها هباءً منبثاً^(٤)، لعين الناظر كالسراب الذي يظنه من يراه ماءً وهو في الحقيقة هباء^(٥) ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ أي إن جهنم تنتظر وتترقب نزلاءها الكفار، كما يترصد الإنسان ويترقب عدوه ليأخذه على حين غرة قال المفسرون: المرصاد المكان الذي يرصد فيه الراصد العدو، وجهنم تترصد أعداء الله لتعذبهم بسعيرها، وهي مترقبة ومتطلعة لمن يمرُّ عليها من الكفار الفجار لتلتقطهم إليها ﴿لِلطَّغِينِ مَثَابًا﴾ أي هي مرجع ومأوى ومنزل للطغاة المعجremen ﴿لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ أي ماكثين في النار دهوراً متتابعة لا نهاية

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ١٧٣/٤.

(٢) (ش): قول المؤلف: «ذكر تعالى هذه الأدلة التسع على قدرته تعالى، كبرهان واضح على إمكان البعث والنشور»، تعبير غير سليم، لأنه يعطي معنى التشبيه بمعنى أنها تشبه البرهان وليست برهاناً، وهذا تعبير صحفي دارج لا يليق بأسلوب التفسير.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٧٣/١٩.

(٤) (ش): أي صارت غباراً متطايراً في الجو قد ذرته الريح.

(٥) «تفسير الطبري» ٧/٣٠.

لها^(١) قال القرطبي: أي ماكثين في النار ما دامت الأحقاب أي: الدهور - وهي لا تنقطع، كلما مضى حُقب جاء حُقبٌ، لأن أحقاب الآخرة لا نهاية لها^(٢) قال الربيع وقتادة: هذه الأحقاب لا انقضاء لها ولا انقطاع^(٣) ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ أي لا يذوقون في جهنم برودة تخفف عنهم حرَّ النار، ولا شرابًا يسكن عطشهم فيها ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ أي إلا ماءً حارًّا بالغًا الغاية في الحرارة، وغساقًا - أي صديدًا يسيل من جلود أهل النار - ﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾ أي يعاقبهم الله بذلك جزاءً موافقاً لأعمالهم السيئة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي لم يكونوا يتوقعون الحساب والجزاء، ولا يؤمنون بقاء الله، فجازاهم الله بذلك الجزاء العادل ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾ أي وكانوا يكذبون بآيات الله الدالة على البعث وبالآيات القرآنية تكذيباً شديداً ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ أي وكل ما فعلوه من جرائم وآثام ضبطناه في كتاب لنجازيهم عليه ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ أي فذوقوا يا معشر الكفار فلن نزيدكم على استغاثتكم إلا عذاباً فوق عذابكم قال المفسرون: ليس في القرآن على أهل النار آية هي أشد من هذه الآية، كلما استغاثوا بنوع من العذاب أغيثوا بأشد منه^(٤) ولما ذكر تعالى أحوال الأشقياء أهل النار، ذكر بعدها أحوال السعداء الأبرار فقال ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ أي إن للمؤمنين الأبرار الذين أطاعوا ربهم في الدنيا، موضع ظفر وفوز بجنات النعيم، وخلاص من عذاب الجحيم، ثم فسّر هذا الفوز فقال ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ أي بساتين ناضرة فيها من جميع الأشجار والأزهار، وفيها كروم الأعناب الطيبة المتنوعة من كل ما تشتهي النفوس ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ أي ونساء عذارى نواهد قد برزت أندأهن، وهن في سن واحدة قال في التسهيل: الكواعب جمع كاعب وهي الجارية التي خرج ثديها^(٥) ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ أي وكأساً من الخمر مملئة صافية قال القرطبي: المراد بالكأس الخمر كأنه قال: وخمر ذات دِهَاقٍ، أي: مملوءة قد عُصِرَتْ وَصُفِّيتْ^(٦) ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا﴾ أي لا يسمعون في الجنة كلاماً فارغاً لا فائدة فيه، ولا كذباً من القول لأن الجنة دار السلام، وكل ما فيها سالمٌ من الباطل والنقص ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ أي جازاهم الله بذلك الجزاء العظيم، تفضلاً منه وإحساناً كافياً على حسب أعمالهم ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا

(١) ليس في الآية الكريمة ما يدل على تناهي تلك الأحقاب، لأن الحقب في كلام العرب لا يكاد يستعمل إلا فيما هو متتابع متلاحق، وهو كناية التأييد، فخاطبهم بما تذهب إليه أوهامهم وما يعرفون، وقيل: إنها في عصاة المؤمنين وهذا خطأ لأنها في الكفار لقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾.

(٢) «تفسير الطبري» ١٩ / ١٧٥.

(٣) «انظر القرطبي» ١٩ / ١٨٠، و«حاشية الصاوي» ٤ / ٢٨٥.

(٤) انظر «القرطبي» ١٩ / ١٨٠، و«حاشية الصاوي» ٤ / ٢٨٥.

(٥) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤ / ١٧٤.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٩ / ١٨١.

الرَّحْمَنِ ﴿أَيُّ هَذَا الْجَزَاءِ صَادِرٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الَّذِي شَمِلَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ﴿لَا يَلِكُونُ مِنْهُ خُطَابًا﴾
 أَيُّ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخَاطِبَهُ فِي دَفْعِ بَلَاءٍ، أَوْ رَفْعِ عَذَابٍ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، هَيْبَةٌ وَجَلَالًا ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ أَيُّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الرَّهيبِ يَقِفُ جِبْرِيلُ وَالْمَلَائِكَةُ مُصْطَفِينَ خَاشِعِينَ
 ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أِذْنُ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ أَيُّ لَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ أِذْنُ اللَّهِ لَهُ بِالْكَلَامِ
 وَالشَّفَاعَةِ وَنُطْقٍ بِالصَّوَابِ قَالَ الصَّاوِي: وَإِذَا كَانَ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ هُمْ أَفْضَلُ الْخَلَائِقِ وَأَقْرَبُهُمْ
 مِنَ اللَّهِ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَشْفَعُوا إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَكَيْفَ يَمْلِكُ غَيْرُهُمْ؟^(١) ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ﴾ أَيُّ ذَلِكَ
 هُوَ الْيَوْمُ الْكَائِنُ الْوَاقِعُ لَا مُحَالَةٍ ﴿فَمَنْ شَاءَ أَخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَتَابًا﴾ أَيُّ فَمَنْ شَاءَ أَنْ يَسْلُكَ إِلَىٰ
 رَبِّهِ مَرْجِعًا كَرِيمًا بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ فَلْيَفْعَلْ، وَهُوَ حَثٌّ وَتَرْغِيبٌ ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا
 قَرِيبًا﴾ الْخُطَابُ لِكُفَّارِ قَرِيشِ الْمُنْكَرِينَ لِلْبَعْثِ أَيُّ إِنَّا حَذَرْنَاكُمْ وَخَوَّفْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا وَقَوَعَهُ
 هُوَ عَذَابُ الْآخِرَةِ، سَمَاءٌ قَرِيبًا لِأَنَّ كُلَّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أَيُّ يَوْمَ
 يَرَىٰ كُلُّ إِنْسَانٍ مَا قَدَّمَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ مِثْبَتًا فِي صَحِيفَتِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾
 [الكهف: ٤٩] ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ بَلِّغْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ أَيُّ وَيَتَمَنَّى الْكَافِرُ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ وَلَمْ يُكَلَّفْ وَيَقُولُ:
 يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تَرَابًا حَتَّى لَا أَحَاسِبَ وَلَا أَعَاقِبَ قَالَ الْمَفْسُرُونَ: وَذَلِكَ حِينَ يَحْشُرُ اللَّهُ الْحَيَوَانَ
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقْتَصُّ لِلْجَمَاءِ مِنَ الْقُرْنَاءِ، وَبَعْدَ ذَلِكَ يَصِيرُهَا تَرَابًا، فَيَتَمَنَّى الْكَافِرُ أَنْ لَوْ كَانَ
 كَذَلِكَ حَتَّى لَا يَعْذِبَ^(٢).

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الإطناب بتكرار الجملة للوعيد والتهديد ﴿كَلَّا سِعَامُونَ﴾^(٤) ﴿كَلَّا سِعَامُونَ﴾.
- ٢ - الإيجاز بحذف الفعل لدلالة المتقدم عليه ﴿عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ﴾ أَيُّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ.
- ٣ - التشبيه البليغ ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْنًا﴾^(٦) ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾؟ أصل الكلام جعلنا الأرض كالمهاد الذي يفرشه النائم، والجبال كالأوتاد التي تثبت الدعائم، فحذف أداة التشبيه ووجه الشبه؛ فأصبح بليغاً، ومثله ﴿وَجَعَلْنَا أَيْلًا لِّبَاسًا﴾ أَيُّ كَالْبِاسِ فِي السِّرِّ وَالْخَفَاءِ.
- ٤ - المقابلة اللطيفة بين ﴿وَجَعَلْنَا أَيْلًا لِّبَاسًا﴾ وبين ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ قابل بين الليل والنهار، والراحة والعمل، وهو من المحسنات البديعية.
- ٥ - التشبيه البليغ ﴿فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ أَيُّ كَالْأَبْوَابِ فِي التَّشَقُّقِ وَالانْصِدَاعِ، فحذفت الأداة

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٢٨٦/٤.

(٢) (ش): قال ﷺ: «يَقْضِي اللَّهُ بَيْنَ خَلْقِهِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ، وَإِنَّهُ لَيَقِيدُ يَوْمَئِذٍ الْجَمَاءَ مِنَ الْقُرْنَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ تَبَعَةٌ عِنْدَ وَاحِدَةٍ لِأُخْرَى، قَالَ اللَّهُ: كُونُوا تَرَابًا، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ الْكَافِرُ: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تَرَابًا» (رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره»، وصححه الألباني). تَبَعَةٌ: ظُلَامَةٌ، مَظْلَمَةٌ. الْجَمَاءُ: التي ليس لها قرون. الْقُرْنَاءُ: التي لها قرون.

ووجه الشبه فأصبح بليغاً.

٦ - الأمر الذي يراد به الإهانة والتحقير ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ وفيه أيضاً التفات من الغيبة إلى الخطاب زيادة في التوبيخ والإهانة.

٧ - الطباق بين ﴿بَرْدًا..حَمِيمًا﴾.

٨ - ذكر العام بعد الخاص ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ الروح وهو «جبريل» داخل في الملائكة، فقد ذكر مرتين مرة استقلالاً، ومرة ضمن الملائكة، تنبيهاً على جلالة قدره.

٩ - السجع المرصع مثل ﴿أَلْفَافًا، أَفْوَاجًا، أَبْوَابًا، مَنَابًا، أَحْقَابًا﴾ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النبأ»



سُورَةُ النَّازِعَاتِ

مكية وآياتها ست وأربعون

بين يدي السورة

* سورة النازعات مكية، شأنها كشأن سائر السور المكية، التي تعنى بأصول العقيدة «الوحدانية الرسالة، البعث والجزاء»، ومحور السورة يدور حول القيامة وأحوالها، والساعة وأهوالها، وعن مآل المتقين، ومآل المجرمين.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالملائكة الأبرار^(١) التي تنزع أرواح المؤمنين بلطف ولين، وتنزع أرواح المجرمين بشدة وغلظة، والتي تدبر شئون الخلائق بأمر الله جل وعلا ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ (١) ﴿وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا﴾ (٢) ﴿وَالسَّيِّحَاتِ سَبْحًا﴾ (٣) ﴿فَالسَّيِّغَاتِ سَبْحًا﴾ (٤) ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ (٥) الآيات.

* ثم تحدثت عن المشركين، المنكرين للبعث والنشور، فصورت حالتهم في ذلك اليوم الفظيع ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَحِيفَةٌ﴾ (٨) ﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾ (٩) ﴿يَقُولُونَ أَيْنَا لِمَرُدُّوْنَ فِي الْخَافِرَةِ﴾ (١٠) ﴿أَيْنَا ذَا كُنَّا عِظْمًا تَحْرَجُهُ﴾ (١١) الآيات.

* ثم تناولت السورة «فرعون» الطاغية، الذي ادعى الربوبية وتمادى في الجبروت والطغيان، فقصمه الله وأهلكه بالغرق هو وقومه الأقباط ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (١٥) ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ (١٦) ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ (١٧) ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبُ﴾ (١٨) الآيات.

* وتحدثت السورة عن طغيان أهل مكة وتمردهم على رسول الله ﷺ، وذكرتهم بأنهم أضعف من كثير من مخلوقات الله ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ (٢٧) ﴿رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ (٢٨) ﴿وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ (٢٩) الآيات.

* وختمت السورة الكريمة ببيان وقت الساعة الذي استبعده المشركون وأنكروه وكذبوا بحدوثه ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ (٤٢) ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾ (٤٣) ﴿إِلَىٰ رَيْكِ مِنْهُنَّ﴾ (٤٤) ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنِ يَخْشَاهَا﴾ (٤٥) ﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَوْ يَبْكَسُونَ إِلَّا عَصِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ (٤٦).

(١) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الخالق يُقسم بما شاء من خلقه، وأن المخلوق لا ينبغي له أن يُقسم إلا بالخالق. قال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». وفي رواية: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ» (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه أذرك عمر بن الخطاب في ركب وهو يحلف بأبيه، فناداهم رسول الله ﷺ: «أَلَا، إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تُخْلِفُوا آبَاءَكُمْ، فَمَنْ كَانَ خَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ، أَوْ لِيَصُمْتُ» (رواه البخاري ومسلم).

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتُ غَرَقًا ۝^(١) وَالتَّشْيِطُ نَشْطًا ۝^(٢) وَالسَّيْحَاتُ سَبْحًا ۝^(٣) فَالسَّيْقَتِ سَبَقًا ۝^(٤) فَالْمَدِيرَاتُ أَمْرًا ۝^(٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝^(٦) تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ۝^(٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝^(٨) أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ۝^(٩) يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝^(١٠) أَيْنَا ذَا كُنَّا عِظَمًا نَخِرَةً ۝^(١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝^(١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝^(١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ۝^(١٤) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۝^(١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝^(١٦) أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۝^(١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ۝^(١٨) وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَخَشَى ۝^(١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ۝^(٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَى ۝^(٢١) ثُمَّ أَذْبَرَ سَعْيَ ۝^(٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَى ۝^(٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ۝^(٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ۝^(٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ۝^(٢٦) أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝^(٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ۝^(٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝^(٢٩) وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۝^(٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۝^(٣١) وَالْجِبَالِ أَرْسَاهَا ۝^(٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ۝^(٣٣) فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ۝^(٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ۝^(٣٥) وَبُورِزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ۝^(٣٦) فَأَمَّا مَنْ طَغَى ۝^(٣٧) وَءَاثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۝^(٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ۝^(٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝^(٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ۝^(٤١) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۝^(٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ۝^(٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنْهَاهَا ۝^(٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا ۝^(٤٥) كَانَتْهُمْ يَوْمَ بَرُوزِهَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا

اللغة: ﴿وَاجِفَةٌ﴾ خائفة فزعاً يقال: وجف القلب وجيفاً إذا خفق واضطرب من شدة الفزع ﴿الْحَافِرَةُ﴾ الرجوع إلى الحالة التي كان عليها يقال: رجع فلان في حافرتة، أي: رجع من حيث جاء قال الشاعر:

أَحَافِرَةٌ عَلَى صَلَعٍ وَشَيْبٍ مَعَاذَ اللَّهِ مِنْ سَفْهِ وَعَارٍ^(١)
﴿بِالسَّاهِرَةِ﴾ وجه الأرض، والعرب تسمي وجه الأرض والفلاة ساهرة لأنه يُسهر عليها
﴿سَمَكُهَا﴾ السمك: العلو والارتفاع، وبناءً ممسوك أي عال مرتفع ﴿وَأَغْطَشَ﴾ أظلم يقال: غطش الليل وأغطشه الله أي صار مظلمًا وأظلمه الله ﴿دَحَاهَا﴾ بسطها وسوّاها قال زيد بن عمرو:

دَحَاهَا فَلَمَّا اسْتَوَتْ شَدَّهَا بِأَيْدٍ وَأَرْسَى عَلَيْهَا الْجِبَالَ^(٢)
﴿الطَّامَةُ﴾ الداهية العظمى التي لا تُستطاع، قال الشاعر:

(١) أنشده ابن الأعرابي والمراد: أأرجع إلى ما كنت عليه في شبابي من الغزل والصبا بعد أن شُبْتُ وَصَلْتُ؟
(ش): الصبا: الحنين والشوق. الصبا: صَعْرٌ سِنَّ وَحْدَانُهُ. شاب الرجل: تقدّم في السن. صلب الشخص: سقط شعر مُتَقَدِّمَ رأسه أو وسطه.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٤١٨. (ش): بَأَيْدٍ بقوة وقدرة عظيمة.

إِنَّ بَعْضَ الْحَبِّ يُعْمِي وَيُصِمُّ وَكَذَلِكَ الْبُغْضُ أَذْهَى وَأَطَمُّ^(١)

التفسير: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْاقًا﴾ أي أقسم بالملائكة التي تنزع أرواح الكفار نزعا بالغاً أقصى الغاية في الشدة والعسر^(٢) ﴿وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا﴾ أي وأقسم بالملائكة التي تنزع أرواح المؤمنين بسهولة ويسر، وتسلبها سلاً رقيقاً قال ابن مسعود: إن ملك الموت وأعوانه ينزعون روح الكافر كما ينزع السّفود - سيخ الحديد - الكثير الشعب من الصوف المبتل، فتخرج نفس الكافر كالغريق في الماء، وينزع روح المؤمن برفق ولين، ويقبضها كما ينشط العقال من يد البعير^(٣) قال ابن كثير: أقسم سبحانه بالملائكة حين تنزع أرواح بني آدم، فمنهم من تأخذ روحه بعسر فتغرق في نزعها، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وكأنما حلتته من نشاط^(٤) ﴿وَالسَّيِّحَاتِ سَبْحًا﴾ أي وأقسم بالملائكة التي تنزل بأمر الله ووحيه من السماء كالذي يسبح في الماء، مسرعين لتنفيذ أمر الله ﴿فَالسَّيِّغَاتِ سَبْقًا﴾ أي الملائكة التي تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ أي الملائكة تدبر شؤون الكون بأمره تعالى، في الرياح، والأمطار، والأرزاق، والأعمار، وغير ذلك من شؤون الدنيا، أقسم سبحانه بهذه الأصناف الخمسة على أن القيامة حق، وجواب القسم محذوف تقديره: لتبعثن ولتحاسبن، وقد دل عليه قوله ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾^(٥) ﴿تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ أي يوم ينفخ في الصور النفخة الأولى التي يرتجف ويتزلزل لها كل شيء، تتبعها النفخة الثانية وهي نفخة القيام من القبور قال ابن عباس: الراجفة والرادفة هما النفختان الأولى والثانية، أما الأولى فتميت كل شيء بإذن الله تعالى، وأما الثانية فتحيي كل شيء بإذن الله تعالى^(٥).. ثم ذكر تعالى حالة المكذبين وما يلقونه من الشدائد والأحوال فقال ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ أي قلوب الكفار في ذلك اليوم خائفة وجله مضطربة ﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾ أي أبصار أصحابها ذليلة حقيرة مما عاينت من الأحوال ﴿يَقُولُونَ أَيْنَا الْمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ أي يقولون في الدنيا استهزاء واستبعاداً للبعث: أنرد بعد الموت فنيصر أحياء بعد فنانا ونرجع كما كنا أول مرة؟ قال القرطبي: إذا قيل لهم: إنكم تبعثون بعد والعرب تقول:

(١) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٠٤.

(٢) (ش): تقدّم كثيراً أن الخالق يُقسم بما شاء من خلقه، وأن المخلوق لا يجوز أن يُقسم إلا بالخالق.

(٣) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٠٤. (ش): السّفود: عود من حديد له شعب، أي أسنان، يُغرز فيها اللحم ليُسوى. وقد صح عن النبي ﷺ أن روح العبد المؤمن تخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، وأن روح العبد الكافر يتزعجها ملك الموت كما يتزعج السّفود من الصوف المبلول. (رواه أحمد، وصححه الألباني). أنشط العقدة: حلها وفك أنشطتها، وهي عقدة يسهل انحلالها إذا أخذ بأحد طرفيها. وأنشط الدابة عن عقالها: أطلقها منه. والعقال: الحبل الذي يُشد به البعير.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٩٥ ثم قال: وهذا هو الصحيح وعليه الأكثرون. (ش): وكأنما حلتته من نشاط: أي: كأنما كان مربوطاً فحلت رباطه.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٩٣.

رجع فلان في حافرته أي رجع من حيث جاء^(١) ﴿أَلَمْ يَكُنَّا عَظْمًا نَّخْرَةً﴾ أي هل إذا صرنا عظاماً بالية متفتتة سَنُرَدُّ وَنُبْعَثُ من جديد؟ ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذْ أَكْرَهْتَ حَاسِرَةً﴾ أي إن كان البعث حقاً، وَبُعِثْنَا بعد موتنا فسوف نكون من الخاسرين لأننا من أهل النار، قال تعالى ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي فإنما هي بحة واحدة، يُنْفَخُ فيها في الصور للقيام من القبور ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ أي فإذا الخلائق جميعاً على وجه الأرض بعدما كانوا في بطنها. ثم ذكر تعالى قصة موسى مع فرعون تسلياً لرسول الله ﷺ وتحذيراً لقومه أن يحل بهم ما حل بالطغاة المكذبين من قوم فرعون فقال ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ أسلوب تشويق وترغيب لسماع القصة، أي: هل جاءك يا محمد خبر موسى الكليم؟ ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْقَدَسِ طُوًى﴾ أي حين ناجاه ربه بالوادي المطهر المبارك المسمى ﴿طُوًى﴾ في أسفل جبل طور سيناء، قائلاً له ﴿أَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ أي إذهب إلى فرعون الطاغية الجبار، الذي جاوز الحد في الظلم والطغيان ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبَهُ؟﴾ أي هل لك رغبةٌ وميلٌ إلى أن تتطهر من الذنوب والآثام؟ ﴿وَاهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ أي وأرشدك إلى معرفة ربك وطاعته فتتقيه وتخشاه؟ قال الزمخشري: ذكر الخشية لأنها ملاك الأمر، من خشية الله أتى منه كل خير، وبدأ مخاطبته بالاستفهام الذي معناه العَرَضُ كما يقول الرجل لضيفه: هل لك أن تنزل بنا؟ وأردفه الكلام الرفيق الرقيق ليستدعيه بالتلطف، ويستنزله بالمدارة من عتوه كما في قوله تعالى ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَنَّا﴾ [طه: ٤٤]^(٢) ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ في الكلام محذوف، أي: فذهب موسى إليه ودعاه وكلمه، فلما امتنع عن الإيمان أراه المعجزة الكبرى، وهي قلب العصا حية تسعى قال القرطبي: أراه العلامة العظمى وهي المعجزة قال ابن عباس: هي العصا^(٣) ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ أي فكذب فرعون نبي الله موسى، وعصى أمر الله بعد ظهور تلك المعجزة الباهرة ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ سَعْيَهُ﴾ أي ولَّى مدبراً هارباً من الحية، يُسْرِعُ في مشيه من هول ما رأى ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ أي فجمع السحرة والجنود والأتباع، ووقف خطيباً في الناس ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ أي فقال لهم بصوت عال: أنا ربكم المعبود العظيم الذي لا ربَّ فوقِي ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْأَخْزَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ أي فأهلكه الله عقوبةً له على مقالته الأخيرة ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ والأولى هي قوله ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾^(٤) [القصص: ٣٨] ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ أي إن فيما ذكر من قصة فرعون وطغيانه، وما حلَّ به من العذاب والنكال، لَعِظَةٌ واعتباراً لمن يخاف الله عَزَّ وَجَلَّ ويخشى عقابه.. ولما انتهى الحديث عن قصة الطاغية فرعون، رجع إلى

(١) نفس المرجع السابق ١٩/١٩٤.

(٢) «تفسير الكشاف» ٤/٦٩٥.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٩/٢٠٢.

(٤) هذا قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة، قال ابن عباس: كان بين كلمتيه الفاجرتين أربعون سنة، فأمهله الله ثم أخذه.

منكري البعث من كفار قريش فنبههم إلى آثار قدرته، ومظاهر عظمته وجلاله فقال ﴿ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ﴾؟ الاستفهام للتقريع والتوبيخ. والمعنى هل أنتم يا معشر المشركين أشق وأصعب خلقاً أم خلق السماء العظيمة البديعة؟ فإن من رفع السماء على عظمها، هين عليه خلقكم وإحياءكم بعد مماتكم، فكيف تنكرون البعث؟ قال الرازي: نبههم على أمر يعلم بالمشاهدة، وذلك لأن خلق الإنسان على صغره وضعفه، إذا أضيف إلى خلق السماء على عظمها وعظم أحوالها يسير، وإذا كان كذلك فإعادتهم سهلة فكيف ينكرون ذلك؟^(١) كقوله تعالى ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] ﴿بَنَاهَا﴾ أي رفعها عالية فوقكم محكمة البناء، بلا عمد ولا أوتاد، ثم زاد في التوضيح والبيان فقال ﴿رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَهَا﴾ أي رفع جرمها وأعلى سقفها فوقكم فجعلها مستوية لا تفاوت فيها ولا شقوق ولا فطور^(٢) قال ابن كثير: أي جعلها عالية البناء، بعيدة الفناء، مستوية الأرجاء، مكللة بالكواكب في الليلة الظلماء^(٣) ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أي جعل ليلاً مظلمة حالكة، ونهارها مشرقاً مضيئاً قال ابن عباس: أظلم ليلاً وأنار نهارها^(٤) ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ أي والأرض بعد خلق السماء بسطها ومهداها لسكنى أهلها^(٥) ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ أي أخرج من الأرض عيون الماء المتفجرة، وأجرى فيها الأنهار، وأنبت فيها الكلاً والمرعى مما يأكله الناس والأنعام ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ أي والجبال أثبتها في الأرض، وجعلها كالأوتاد لتستقر وتسكن بأهلها ﴿مَنْعًا لَكُمْ وَلِأَنْعِمَ كُمْ﴾ أي فعل ذلك كله، فأنبع العيون، وأجرى الأنهار، وأنبت الزرع والأشجار، كل ذلك منفعة للعباد وتحقيقاً لمصالحهم ومصالح أنعامهم ومواشيهم، قال الرازي: أراد بمرعاها ما يأكله الناس والأنعام، بدليل قوله ﴿مَنْعًا لَكُمْ وَلِأَنْعِمَ كُمْ﴾ وانظر كيف دلّ بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ على جميع ما أخرجه من الأرض قوتاً ومتاعاً للأنعام والأنعام من العشب، والشجر، والحب، والتمر، والعصف، والحطب، واللباس والدواء، حتى الملح والنار، فالمالح متولد من الماء، والنار من الأشجار^(٦).. ولما ذكر تعالى خلق السموات والأرض، وما أبدع فيهما من عجائب الخلق والتكوين، ليقيم الدليل على إمكان الحشر عقلاً، أخبر

(١) «التفسير الكبير للرازي» ٤٣/١٣.

(٢) (ش): فطور: شقوق.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير».

(٤) نفس المرجع السابق والصفحة.

(٥) لا ينافي هذا القول بكروية الأرض، فإن ذلك مقطوع به حتى قال الإمام الفخر ما نصه: «كانت الأرض أولاً كالكرة المجمعة، ثم إن الله تعالى مدها وبسطها، وليس معنى: ﴿دَحَاهَا﴾ مجرد البسط، بل المراد أنه بسطها بسطاً مهياً لنبات الأقوات، يدل عليه قوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ والجسم العظيم يكون ظاهره كالسطح المستوي...» اهـ. «التفسير الكبير» ٤٨/٣١.

(٦) «التفسير الكبير» ٤٩/٣١.

بعد ذلك عن وقوعه فعلاً فقال ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى﴾ أي فإذا جاءت القيامة وهي الداهية العظمى، التي تعمُّ بأهوالها كل شيء، وتعلو على سائر الدواهي قال ابن عباس: هي القيامة سميت بذلك لأنها تطمُّ على كل أمر هائل مُفْطَع^(١) ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ أي في ذلك اليوم يتذكر الإنسان ما عمله من خير أو شر، ويراه مدوَّناً في صحيفة أعماله ﴿وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ بَرَى﴾ أي أظهرت جهنم للناظرين فرآها الناس عياناً، بادية لكل ذي بصر.. وبعد أن وصف حال القيامة وأهوالها، ذكر انقسام الناس إلى فريقين: أشقياء وسعداء فقال ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ أي جاوز الحد في الكفر والعصيان ﴿وَأَثَرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي فضل الحياة الفانية على الآخرة الباقية، وانهك في شهوات الحياة المحرمة، ولم يستعد لآخرته بالعمل الصالح ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ أي فإن جهنم المتأججة^(٢) هي منزله ومأواه، لا منزل له سواها ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي وأما من خاف عظمة ربه وجلاله، وخاف مقامه بين يدي ربه يوم الحساب، لعلمه وبقينه بالمبدأ والمعاد ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ أي وزجر نفسه عن المعاصي والمحارم، وكفَّها عن الشهوات التي تؤدي بها إلى المعاطب ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ أي فإن منزله ومصيره هي الجنة دار النعيم، ليس له منزل غيرها^(٣).. ثم ذكر تعالى موقف المكذبين بالقيامة، المستهزئين بأخبار الساعة فقال ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي يسألك يا محمد هؤلاء المشركون عن القيامة متى وقوعها وقيامها؟ قال المفسرون: كان المشركون يسمعون أبناء القيامة، ووصفها بالأوصاف الهائلة مثل «طامة، وصاخة، وقارعة» فيقولون على سبيل الاستهزاء: متى يوجدها الله ويقيمها، ومتى تحدث وتقع؟ فنزلت الآية^(٤) ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا﴾ أي ليس علمها إليك حتى تذكرها لهم، لأنها من الغيوب التي استأثر الله بعلمها، فلماذا يسألونك عنها ويُلْحُونَ في السؤال؟ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَلَا﴾ أي مردُّها ومراجعتها إلى الله عزَّ وجلَّ، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين، لا يعلمه أحد سواه ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَخْشَهَا﴾ أي ما واجبك يا محمد إلا إنذار من يخاف القيامة، لا الإعلام بوقتها، وخصَّ الإنذار بمن يخشى، لأنه هو الذي ينتفع بذلك

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٥٩٨/٣.

(٢) (ش): تَأَجَّجَتِ النَّارُ: اشتعلت، التهمت وتوقدت.

(٣) هذه الآيات الكريمة هي «الميزان الدقيق» لمعرفة الإنسان نفسه، هل هو من أهل الجنة أم من أهل النار؟ وهل هو من السعداء أم من الأشقياء؟ فمن طغى وبغى، وأثر شهوات الحياة على طاعة ربه فهو الشقي المعذب بالجحيم، ومن أطاع الله واتفاه، وسارع إلى مرضاة مولاه، ونهى النفس عما تهواه فهو السعيد المكرم في دار النعيم، فليضع الإنسان نفسه في هذا الميزان.

(٤) (ش): عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- قال: إن مشركي أهل مكة سألوا النبي ﷺ، فقالوا: متى تقوم الساعة -استهزاء منهم-؟ فنزلت: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾؛ (ضعيف جداً، ذكره السيوطي في «لباب النقول»، ونسبه لابن أبي حاتم. وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «لَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُسْأَلُ عَنِ السَّاعَةِ حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا﴾^(٤٢) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَلَا». (صحيح، رواه الحاكم وابن جرير الطبري في «تفسيره»).

الإِذار ﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ أي كأن هؤلاء الكفار يوم يشاهدون القيامة وما فيها من الأهوال، لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار، بمقدار عشيّة أو ضحاها^(١). قال ابن كثير: يستقصرون مدة الحياة الدنيا، حتى كأنها عندهم عشيّة يوم، أو ضحى يوم.. ختم تعالى السورة الكريمة، بما أقسم عليه في أولها من إثبات «الحشر، والبعث» فكان ذلك كالدليل والبرهان على مجيء القيامة والساعة^(٢)، وليتناسق البدء مع الختام.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الطباق بين الآخرة والأولى في قوله ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ لأن المراد كلمتيه الشيعتين الأولى والأخيرة، والطباق كذلك بين ﴿عَشِيَّةً .. ضُحًى﴾.
- ٢ - جناس الاشتقاق في قوله ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجَافَةُ﴾.
- ٣ - المقابلة بين قوله ﴿السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ (٢٧) ﴿رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ (٢٨) وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحًى﴾ وبين ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (٣٠) ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَهَا﴾ وكذلك المقابلة بين ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ (٣٧) وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ وبين ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ الآيات.
- ٤ - أسلوب التشويق ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾؟ فإن المراد منه التشويق الى معرفة القصة.
- ٥ - الطباق بين ﴿الْجَنَّةَ .. الْجَحِيمَ﴾ وبين ﴿السَّمَاءَ .. الْأَرْضَ﴾ الوارد في الآيات.
- ٦ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾.
- ٧ - الاستعارة التصريحية ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَهَا﴾ شبه أكل الناس برعي الأنعام، واستعير الرعي للإنسان بجامع أكل الإنسان والحيوان من النبات، ففيه استعارة لطيفة.
- ٨ - توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿ضُحًى، دَحَاهَا، وَمَرْعَهَا، أَرْسَهَا﴾ وهو من المحسنات البديعية وسمى السجع.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النازعات»



(١) (ش): الْعَشِيُّ: الْوَقْتُ مِنْ بَعْدِ الظُّهْرِ إِلَى الْمَغْرَبِ، أَوْ مِنْ صَلَاةِ الْمَغْرَبِ إِلَى الْعَتَمَةِ، وَالْعَتَمَةُ: ظُلْمَةُ اللَّيْلِ. وَالْعَتَمَةُ: وَقْتُ صَلَاةِ الْعِشَاءِ: مِنْ مَغِيبِ الشَّفَقِ الْأَحْمَرِ إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ. الضُّحَى: الْوَقْتُ مِنْ طُلُوعِ الشَّمْسِ إِلَى وَقْتِ الظُّهْرِ.

(٢) (ش): قول المؤلف: «فكان ذلك كالدليل والبرهان على مجيء القيامة والساعة»، تعبير غير سليم، لأنه يعطي معنى التشبيه بمعنى أنها تشبه الدليل والبرهان وليست دليلاً ولا برهاناً، وهذا تعبير صحفي دارج لا يليق بأسلوب التفسير.



مكية وآياتها ثنتان وأربعون

بين يدي السورة

* سورة عبس من السور المكية، وهي تتناول شئناً تتعلق بالعقيدة وأمر الرسالة، كما أنها تحدث عن دلائل القدرة، والوحدانية في خلق الإنسان، والنبات، والطعام، وفيها الحديث عن القيامة وأحوالها، وشدة ذلك اليوم العصيب.

* ابتدأت السورة الكريمة بذكر قصة الأعمى «عبد الله بن أم مكتوم» الذي جاء إلى رسول الله ﷺ يطلب منه أن يعلمه مما علمه الله، ورسول الله ﷺ مشغول مع جماعة من كبراء قريش يدعوهم إلى الإسلام فعبس ﷺ وجهه وأعرض عنه، فنزلت القرآن بالعتاب ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۝١ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي ۝٣ أَوْ بِذِكْرِ فَتَنْفَعُهُ الذِّكْرَى ۝٤ أَمَانٍ اسْتَغْنَى ۝٥ فَانْتَ لَهُ تَصَدَّى ۝٦﴾ الآيات.

* ثم تحدثت عن جحود الإنسان، وكفره الفاحش بربه مع كثرة نعم الله تعالى عليه ﴿قَدْ لَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ ۝١٧ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٨ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ۝١٩ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ ۝٢٠﴾ الآيات.

* ثم تناولت دلائل القدرة في هذا الكون، حيث يسر الله للإنسان سبل العيش فوق سطح هذه المعمورة ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۝٢٤ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَبْثْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعَبَا وَقَضَا ۝٢٨ وَزَيَّنَّا وَنَخَلًا ۝٢٩﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة ببيان أهوال القيامة، وفرار الإنسان من أحبابه من شدة الهول والفرع، وبينت حال المؤمنين وحال الكافرين في ذلك اليوم العصيب ﴿فَإِذَا جَاءَتْ الْأَصَاخَةُ ۝٣٢ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَدِيقِهِ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاكِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَافِرٌ ۝٤٠ تَرَهَقَهَا فَغَرَةٌ ۝٤١ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ۝٤٢﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّى ۝١ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي ۝٣ أَوْ بِذِكْرِ فَتَنْفَعُهُ الذِّكْرَى ۝٤ أَمَانٍ اسْتَغْنَى ۝٥ فَانْتَ لَهُ تَصَدَّى ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي ۝٧ وَأَمَانٍ جَاءَكَ يَسْعَى ۝٨ وَهُوَ يَحْشَى ۝٩ فَانْتَ عَنْهُ لَهْفَى ۝١٠ كَلَّا ۝١١ إِنَّا لَنَذِكْرُهُ ۝١٢ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرُهُ ۝١٣ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ۝١٤ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ۝١٥ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٦ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝١٧ قَدْ لَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ ۝١٨ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٩ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ۝٢٠ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ ۝٢١ ثُمَّ أَنَاءَهُ ۝٢٢ فَأَقْبَرَهُ ۝٢٣ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ۝٢٤ كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُهُ ۝٢٥ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۝٢٦ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۝٢٧ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٨ فَأَبْثْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٩ وَعَبَا وَقَضَا ۝٣٠ وَزَيَّنَّا وَنَخَلًا ۝٣١ وَحَدَّاقِينَ غُلَبًا ۝٣٢ وَفَكَهَنًا وَآبَاءَ ۝٣٣ مَنَعًا لَكُمُ

وَلَا تَعْمَلُوا ۖ (٣٢) فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَدِيقِهِ (٣٦) وَبَنِيهِ (٣٧) لِكُلِّ أُمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ

اللغة: ﴿عَبَسَ﴾ كَلَح وجهه وقَطَبَ ﴿نَصَدَّى﴾ تتعرض له وتصغي لكلامه ﴿سَفَرَةً﴾ السفرة: الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد جمع سافر مثل كاتب كتبه ﴿فَأَقْبَرَهُ﴾ جعل له قبراً وأمر أن يُقْبَرَ ﴿وَقَضَبًا﴾ القَضْبُ: كل ما يقطع من البقول فينبت أصله مثل البرسيم «الفصة» والباقيلاء، والكُرَّاث وغيرها^(١) ﴿غُلْبًا﴾ كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان جمع غلباء ﴿وَأَبًا﴾ الأبُّ: المرعى وكل ما أنبت الأرض مما تأكله البهائم كالكلأ والعشب ﴿الصَّلَاةُ﴾ الصلحة التي تُصَمُّ الأذان لشدها ﴿مُسْفِرَةٌ﴾ مشرقة مضيئة ﴿غَبَرَةٌ﴾ غبار ودخان ﴿قَتَرَةٌ﴾ سواد وظلمة.

سَبَبُ النَّزُول: روي أن النبي ﷺ كان مشغولاً مع صناديد قريش يدعوهم إلى الإسلام، وكان يطمع في إسلامهم رجاء أن يسلم أتباعهم، فبينما رسول الله ﷺ مشغول بمن عنده من وجوه قريش، جاء إليه «عبد الله بن أم مكتوم» وهو أعمى، فقال: يا رسول الله، علمني مما علمك الله، وكرّر ذلك وهو لا يعلم أن الرسول مشغول مع هؤلاء المشركين؛ فكره رسول الله ﷺ قطعة لكلامه وعبس وأعرض عنه وقال في نفسه: «يقول هؤلاء إنما أتباعه العميان والسفلة والعبيد، فعبس وجهه وأقبل على القوم يكلمهم فأنزل الله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ الآيات (٢).

التفسير: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ أي كَلَح وجهه وقَطَبَهُ (٣) وأعرض عنه كارهاً، لأن جاءه الأعمى يسأل عن أمور دينه قال الصاوي: إنما أتى بضمائر الغيبة ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ تلطفاً به ﷺ وإجلالاً له، لما في المشافهة بتاء الخطاب ما لا يخفى من الشدة والصعوبة (٤) واسم الأعمى «عبد الله بن أم مكتوم» وكان بعد نزول آيات العتاب إذا جاءه يقول له: «مرحبا بمن

(١) (ش): بأقلاء: نبات عُشْبِيّ حَوْلِيّ تُوَكِّلُ قُرُونُهُ مَطْبُوخَةً وَكَذَلِكَ بِذَوْرِهِ، مِثْلُ الْفُولِ وَاللُّوبِيَا. وَقِيلَ: الْقَضْبُ هُوَ عَلَفُ الدَّوَابِّ.

(٢) حاشية الصاوي ٢٩٢/٤، و«تفسير القرطبي» ١٩/٢١٠. (ش): عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: أَنْزَلْتُ عَبَسَ وَتَوَلَّى فِي ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ الْأَعْمَى فَقَالَتْ: أَتَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَعَلَ يَقُولُ: أَرْشُدْنِي، قَالَتْ: وَعِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ عَظَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ، قَالَتْ: فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعْرِضُ عَنْهُ، وَيُقْبِلُ عَلَى الْآخَرِ وَيَقُولُ: «أَتَرَى بِمَا أَقُولُ بَأْسًا» فَيَقُولُ: «لَا» فَبَيَّنَ هَذَا أَنْزَلْتُ عَبَسَ وَتَوَلَّى (صحيح، رواه الترمذي، والحاكم، والطبري في «تفسيره»).

(أَتَرَى بِمَا أَقُولُ بَأْسًا): أَيِ هَلْ تَرَى فِي كَلَامِي خَطَأً؟ أَلَيْسَ كَلَامِي صَوَابًا؟، أَلَيْسَ مَا أَقُولُهُ حَقًّا؟

(٣) (ش): أَيِ صَمٍّ جِلْدٌ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَجِلْدُ جَبْهَتِهِ، وَظَهَرَ أَثَرُ التَّغَيُّرِ عَلَى وَجْهِهِ.

(٤) (ش): فَلَمْ يَقُلْ: عَبَسْتُ وَتَوَلَّيْتُ، وَلَمَّا انْتَهَى الْعِتَابُ وَجَّهَ إِلَيْهِ الْخُطَابَ بِصِبْغَةِ الْمَخَاطَبِ، قَالَ - تَعَالَى -: ﴿وَمَا يَذْكُرُكَ إِلَّا لَئَلَّهِ يَرْكُ﴾ [عبس: ٣]... إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ.

عاتبني فيه ربي، ويسط له رداءه»^(١) ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَنُّ﴾ أي وما يُعلمك ويخبرك يا محمد لعل هذا الأعمى الذي عبست في وجهه، يتطهر من ذنوبه بما يتلقاه عنك من العلم والمعرفة! ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرُ﴾ أي أويتعظ بما يسمع فتنتفعه موعظتك ﴿أَمَّا مَنْ اسْتَعْنَى﴾ أي أما من استغنى عن الله وعن الإيمان، بما له من الثروة والمال ﴿فَأَن تَصَدَّقْ﴾ أي فأنت تتعرض له وتصغي لكلامه، وتهتم بتبليغه دعوتك ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَنُّ﴾ أي ولا حرج عليك أن لا يتطهر من دنس الكفر والعصيان، ولست بمطالب بهدايته، إنما عليك البلاغ قال الألوسي: وفيه مزيد تنفير له ﷺ عن مصاحبتهم، فإن الإقبال على المُدْبِر مُخِلٌ بِالْمُرُوءَةِ كما قال القائل:

وَاللَّهُ لَوْ كَرِهَتْ كَفَى مُصَاحِبَتِي يَوْمًا لَقُلْتُ لَهَا عَنْ صُحْبَتِي بِنِي^(٢)

﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ أي وأما من جاءك يسرع ويمشي في طلب العلم لله ويحرص على طلب الخير ﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾ أي وهو يخاف الله تعالى ويتقي محارمه ﴿فَأَن تَعَنَّيَ﴾ أي فأنت يا محمد تتشاغل عنه، وتلهي بالانصراف عنه إلى رؤساء الكفر والضلال ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أي لا تفعل بعدم اليوم مثل ذلك، فهذه الآيات موعظة وتبصرة للخلق، يجب أن يتعظ بها ويعمل بموجبها العقلاء ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾ أي فمن شاء من عباد الله اتعظ بالقرآن، واستفاد من إرشاداته وتوجيهاته، قال المفسرون: كان ﷺ بعد هذا العتاب، لا يعبس في وجه فقير قط، ولا يتصدى لغني أبداً، وكان الفقراء في مجلسه أمراء^(٣)، وكان إذا دخل عليه «ابن أم مكتوم» يسط له رداءه ويقول: مرحباً بما عاتبني فيه ربي^(٤). ثم بعد هذا البيان أخبر عن جلالة قدر

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» / ٢٩١. (ش): عن قتادة؛ قال: نزلت في ابن أم مكتوم أربع آيات: ﴿لَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى عَلَى الْقَعْدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ﴾، ونزل فيه: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾، ونزل فيه: ﴿فَلَا تَحْزَنْ أَلِ الْأَنْفُسِ﴾، ونزل فيه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ [عبس: ١]؛ فدعا به النبي ﷺ، فأدناه وقربه، وقال: «أنت الذي عاتبني فيك ربي». (ضعيف، ذكره السيوطي في «الدر المنثور»، ونسبه لابن المنذر). وعن أنس بن مالك قال: جاء ابن أم مكتوم إلى النبي ﷺ وهو يكلم أبي بن خلف؛ فأعرض عنه؛ فأنزله الله - عز وجل - ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾؛ قال: فكان النبي ﷺ بعد ذلك بكرمه. (صحيح، رواه ابن جرير الطبري «تفسيره»).

(٢) روح المعاني للألوسي ٤٠/٣٠. (ش): أي لو كرهتني يدي ما صحبتي. بِنِي: أي انفصلي. بان الشخص عنه/ بان الشخص منه: بعد وانفصل، انقطع عنه وفارقه.

يُنسب لذي الإصبع العدواني قوله:

لَا أَبْتَغِي وَصْلاً لِمَنْ لَا يَبْتَغِي صَلَاتي
وَاللَّهُ لَوْ كَرِهَتْ كَفَى مُصَاحِبَتِي
وَلَا أَلِينُ لِمَنْ لَا يَسْتَفِي لِيْنِي
لَقُلْتُ لِلْكَفِّ بِسِيْنِي إِذْ كَرِهْتُمِيْنِي

(٣) (ش): ما روي من أنه ﷺ كان بعد هذا العتاب، لا يعبس في وجه فقير قط، ولا يتصدى لغني أبداً، وكان

الفقراء في مجلسه أمراء، لم أجد إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٤) عن قتادة؛ قال: نزلت في ابن أم مكتوم أربع آيات: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَعْدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ﴾، ونزل فيه: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾، ونزل فيه: ﴿فَلَا تَحْزَنْ أَلِ الْأَنْفُسِ﴾، ونزل فيه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ [عبس: ١]؛ فدعا به النبي ﷺ، فأدناه وقربه، وقال: «أنت الذي عاتبني فيك ربي». (ضعيف، ذكره السيوطي في «الدر المنثور»، =

القرآن فقال ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ أي هو في صحفٍ مكرمة عند الله ﴿مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ أي عالية القدر والمكانة، منزهة عن أيدي الشياطين، وعن كل دنسٍ ونقص ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ أي بأيدي ملائكة جعلهم الله سفراء بينه وبين رسله ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ أي مكرمين معظمين عند الله، أتقياء صُلحاء ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦] ثم ذَكَرَ تعالى قُبْحَ جريمة الكافر، وإفراطه في الكفر والعصيان مع كثرة إحسان الله إليه فقال ﴿قُلِ الْإِنْسَنُ مَا أَكْفَرُهُ﴾ أي لِعِن الكافر وطُرد من رحمة الله، ما أشدَّ كفره بالله مع كثرة إحسانه إليه وأياديه عنده! ^(١) قال الألوسي: والآية دعاءٌ عليه بأشنع الدعوات وأفظعها، وتعجيبٌ من إفراطه في الكفر والعصيان، وهذا في غاية الإيجاز والبيان ^(٢) ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ أي من أي شيء خلق الله هذا الكافر حتى يتكبر على ربه؟ ثم وَصَحَ ذلك فقال ﴿مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾ أي من ماءٍ مهين حقير بدأ خلقه، فَقَدَرَهُ في بطن أمه أطوارًا من نطفة ثم من علقة إلى أن تَمَّ خَلْقُهُ قال ابن كثير: قَدَّرَ رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد ^(٣) ﴿ثُمَّ النَّسِيلَ يَسْرَهُ﴾ أي ثم سَهَّلَ له طريق الخروج من بطن أمه ^(٤) قال الحسن البصري: كيف يتكبر من خرج من سبيل البول مرتين؟ ^(٥) يعني الذَّكَرَ والفَرْجَ ﴿ثُمَّ أَمَّأَهُ، فَأَقْبَرَهُ﴾ أي ثم أَمَّأته وجعل له قبراً يُورَى فيه إكراماً له، ولم يجعله مُلقًى للسباع والوحوش والطيور. قال الخازن: وهذه تكرمة لبني آدم على سائر الحيوانات ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ أي ثم حين يشاء الله إحياءه، يُحْيِيهِ بعد موته للبعث والحساب والجزاء ^(٦)، وإنما قال ﴿إِذَا شَاءَ﴾ لأن وقت البعث غير معلوم لأحد، فهو إلى مشيئة الله تعالى، متى شاء أن يحيي الخلق أحياءهم ﴿كَلَّا لَمَّا يَقُضْ مَا أَمَرُهُ﴾ أي ليرتدع وينزجر هذا الكافر عن تكبره وتجبره، فإنه لم يؤد ما فرض عليه، ولم يفعل ما كلفه به ربه من الإيمان والطاعة.. ولما ذكر خلق الإنسان، ذكر بعده رزقه، ليعتبر بما أغدق الله عليه من أنواع النعم، فيشكر ربه ويطيعه فقال ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَنُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ أي فلينظر هذا الإنسان الجاحد نظر تفكر واعتبار، إلى أمر حياته، كيف خلقه بقدرته، ويسره برحمته، وكيف هيأ له أسباب المعاش، وخلق له الطعام الذي به قوام حياته؟! ثم فَصَّلَ ذلك فقال

= ونسبه لابن المنذر). وعن أنس بن مالك قال: جاء ابن أم مكتوم إلى النبي ﷺ وهو يكلم أبي بن خلف؛ فأعرض عنه؛ فأُنزل الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾؛ قال: فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه». (صحيح، رواه ابن جرير الطبري «تفسيره»).

(١) (ش): أي مع كثرة إحسانه إليه ونعمه عنده.

(٢) روح المعاني للألوسي ٤٣/٣٠.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٦٠٠/٣.

(٤) (ش): وقيل: ﴿ثُمَّ النَّسِيلَ يَسْرَهُ﴾ أي ثم يَبِّنَ له طريق الخير والشر.

(٥) «تفسير القرطبي» ٢١٦/١٩.

(٦) «تفسير الخازن» ٢١٠/٤.

﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ أي أنا بقدرتنا أنزلنا الماء من السحاب على الأرض إنزالاً عجيباً ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ أي شققنا الأرض بخروج النبات منها شقاً بديعاً ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ (٢٧) ﴿وَعَبْنَا وَقَضَبًا﴾ أي فأخرج بذلك الماء أنواع الحبوب والنباتات: حباً يقتات الناس به ويدخرونه، وعنباً شهياً لذيذاً، وسائر البقول مما يؤكل رطباً ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ أي وأخرجنا كذلك أشجار الزيتون والنخيل، يخرج منها الزيت والرطب والتمر (١) ﴿وَحَدَائِقَ غُلَبًا﴾ أي وبساتين كثيرة الأشجار، ملتفة الأغصان ﴿وَفِكَهَةً وَأُنَابًا﴾ أي وأنواع الفواكه والثمار، كما أخرجنا ما تراعه البهائم قال القرطبي: الأب ما تأكله البهائم من العشب (٢) ﴿مَنْعًا لِّكُلِّ لَوْحٍ وَلَا نَعِيمًا﴾ أي أخرجنا ذلك وأنبتناه ليكون منفعة ومعاشاً لكم أيها الناس ولأنعامكم قال ابن كثير: وفي هذه الآيات امتنان على العباد وفيها استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة، على إحياء الأجسام بعدما كانت عظاماً باليةً وأوصالاً متفرقة (٣) ثم ذكر تعالى بعد ذلك أهوال القيامة فقال ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَافَةُ﴾ أي فإذا جاءت صيحة القيامة التي تصخ الأذان حتى تكاد تصمها ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ (٣٤) ﴿وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ (٣٥) ﴿وَصَجِيهِ وَبَنِيهِ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب يهرب الإنسان من أحبابه، من أخيه، وأمه، وأبيه، وزوجته، وأولاده لاشتغاله بنفسه قال في التسهيل: ذكر تعالى فرار الإنسان من أحبابه، ورتبهم على مراتبهم في الحنو والشفقة (٤)، فبدأ بالأقل وختم بالأكثر، لأن الإنسان أشد شفقة على بنيه من كل من تقدم ذكره (٥) ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي لكل إنسان منهم في ذلك اليوم العصيب، شأن يشغله عن شأن غيره، فإنه لا يفكر في سوى نفسه، حتى إن الأنبياء صلوات الله عليهم ليقول الواحد منهم يومئذ «نَفْسِي نَفْسِي» (٦) .. ولما بين تعالى حال القيامة وأهوالها، بين بعدها حال الناس وانقسامهم في ذلك اليوم إلى سعداء وأشقياء، فقال في وصف السعداء: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفَرَةٌ﴾ أي وجوه في ذلك اليوم مضيئة مشرقة من البهجة والسرور ﴿صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ أي فرحة مسرورة بما رآته من كرامة الله ورضوانه، ومستبشرة بذلك النعيم الدائم ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ أي ووجوه في ذلك اليوم عليها غبارٌ ودخان ﴿رَهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أي تغشاها وتعلوها ظلمةٌ وسواد ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُ الْفَجَرَةُ﴾ أي أولئك الموصوفون بسواد الوجوه، هم الجامعون بين الكفر والفجور، قال الصاوي: جمع الله تعالى إلى سواد وجوههم

(١) (ش): التمر: ما ييس من البلح (ثمر النخل)، أي جف بعد رطوبة، وهو كالزبيب من العنب. الرطب: ما نضج من البلح قبل أن يصير تمرًا. أي ما صار لينا حلواً قبل أن يصير تمرًا.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٢٠.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٦٠١/ ٣.

(٤) (ش): حنا على فلان: عطف وأشفق عليه.

(٥) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٨٠.

(٦) هذا جزء من حديث في الشفاعة أخرجه البخاري ومسلم.

الغبرة كما جمعوا الكفر إلى الفجور^(١).

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الالتفات من الغيبة إلى الخطاب زيادة في العتاب ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾.
- ثم قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي﴾؟ فالتفت تنبيهاً للرسول ﷺ إلى العناية بشأن الأعمى.
- ٢ - جناس الاشتقاق بين ﴿يَذْكُرُ..الَّذِكْرَى﴾.
- ٣ - الكناية الرائقة ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ﴾ كنى بالسبيل عن خروجه من فرج الأم.
- ٤ - أسلوب التعجب ﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ﴾؟ تعجب من إفراط كفره، مع كثرة إحسان الله إليه.

- ٥ - الطباق بين ﴿صَدَى﴾ وبين ﴿لَهَى﴾ لأن المراد بهما تتعرض وتنشغل.
- ٦ - التفصيل بعد الإجمال ﴿مِنْ أَى شَىءٍ خَلَقَهُ﴾ ثم فصل ذلك وبينه بقوله ﴿مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾^(١٩) ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ﴾^(٢٠) ﴿ثُمَّ أَمَانَهُ فَاقْبَرَهُ﴾.
- ٧ - المقابلة اللطيفة بين السعداء والأشقياء ﴿وَجْهُهُ يُؤْمِزُ مُسْفِرَهُ﴾^(٢٨) ضاحكة مستبشرة ﴿قابله﴾ بقوله ﴿وَوَجْهُهُ يُؤْمِزُ عَلَيْهَا غَبْرَهُ﴾^(٤٠) ترهقها قنرة.
- ٨ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات، وهو من المحسنات البديعية ويسمى السجع مثل ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾^(١) ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾^(٢) ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي﴾ ومثل ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾^(١٢) ﴿مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾^(١٤) ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾^(١٥) ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ يَذْكُرُ﴾. إلخ.

لطيفة: اقتبس بعض الأدباء من قوله تعالى ﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ﴾؟ هذين البيتين:

يَتَمَنَّى الْمَرْءُ فِي الصَّيْفِ الشِّتَا	فَإِذَا جَاءَ الشِّتَا أَنْكَرَهُ
فَهُوَ لَا يَرْضَى بِحَالٍ وَاحِدٍ	قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ^(٢)

«انتهى تفسير سورة عبس»



(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤ / ٢٩٤.

(٢) (ش): الشِّتَا: الشِّتَاء.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

مكية وآياتها تسع وعشرون

بين يدي السورة

* سورة التكوير من السور المكية، وهي تعالج حقيقتين هامتين هما: «حقيقة القيامة» وحقيقة «الوحي والرسالة» وكلاهما من لوازم الإيمان.

* ابتدأت السورة الكريمة ببيان القيامة وما يصاحبها من انقلاب كوني هائل، يشمل الشمس، والنجوم، والجبال، والبحار، والأرض، والسماء، والأنعام، والوحوش، كما يشمل البشر، ويهز الكون هزاً عنيفاً طويلاً، ينتشر فيه كل ما في الوجود، ولا يبقى شيء إلا وقد تبدل وتغير من هول ما يحدث في ذلك اليوم الرهيب ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١) ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ (٢) ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ (٣) ﴿وَإِذَا الْعُشُورُ عُطِّلَتْ﴾ (٤) ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ (٥) ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ (٦) الآيات.

* ثم تناولت حقيقة الوحي، وصفة النبي الذي يتلقاه، ثم شأن القوم المخاطبين بهذا الوحي الذي نزل لينقلهم من ظلمات الشرك والضلال، إلى نور العلم والإيمان ﴿فَلَا أُقِيمُ بِالْخُنُوسِ﴾ (١٥) ﴿الْجَوَارِ الْكُنُوسِ﴾ (١٦) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ (١٧) ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ (١٨) إِنَّهُ، لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿الآيات.

* وختمت السورة الكريمة ببيان بطلان مزاعم المشركين حول القرآن العظيم، وذكرت أنه موعظة من الله تعالى لعباده ﴿فَأَن تَذَهَبُونَ﴾ (٢١) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿لَمِنْ شَأْنِكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١) ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ (٢) ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ (٣) ﴿وَإِذَا الْعُشُورُ عُطِّلَتْ﴾ (٤) ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ (٥) ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ (٦) ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ (٧) ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّلَتْ﴾ (٨) ﴿يَأْتِي ذَنْبٌ فَيُلْتَمَسُ﴾ (٩) ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ (١٠) ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ (١١) ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ (١٢) ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ (١٣) ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ (١٤) ﴿فَلَا أُقِيمُ بِالْخُنُوسِ﴾ (١٥) ﴿الْجَوَارِ الْكُنُوسِ﴾ (١٦) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ (١٧) ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ (١٨) إِنَّهُ، لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ (٢٠) ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (٢١) ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ (٢٢) ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِ الْمُبِينِ﴾ (٢٣) ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ (٢٤) ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ (٢٥) ﴿فَأَن تَذَهَبُونَ﴾ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿لَمِنْ شَأْنِكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿

اللغة: ﴿انْكَدَرَتْ﴾ تناثرت ﴿الْعُشُورُ﴾ جمع عُشراء وهي الناقة التي مرَّ على حملها عشرة أشهر ﴿كُشِطَتْ﴾ نَزَعَتْ وَقُلِعَتْ يقال: كَشِطْتُ جِلْدَ الشَّاةِ أَي نَزَعْتَهُ وَسَلَخْتَهُ عَنْهَا ﴿الْخُنُوسِ﴾ الكواكب المضئية التي تخنس نهاراً وتختفي عن البصر جمع خانس ﴿الْكُنُوسِ﴾ النجوم التي

تغيب يقال: كنس إذا دخل الكناس وهو المكان الذي تأوي إليه الطَّيَّاء ﴿عَسَسَ﴾ أقبل بظلامه. قال الخليل: عسس الليل: إذا أقبل أو أدبر فهو من الأضداد قال الشاعر:

حَتَّى إِذَا الصُّبْحُ لَهَا تَنَفَّسًا وَأَنْجَابَ عَنْهَا لَيْلُهَا وَعَسَسَا^(١)

التفسير: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ هذه الآيات بيان لأحوال القيامة وما يكون فيها من الشدائد والكوارث، وما يعترى الكون والوجود من مظاهر التغير والتخريب. والمعنى: إذا الشمس لُفَّتْ ومُحِي ضَوْءُهَا ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ أي وإذا النجوم تساقطت من مواضعها وتناثرت ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أي وإذا الجبال حُرِّكَتْ من أماكنها، وسُيِّرَتْ في الهواء حتى صارت كالهَبَاءِ^(٢) كقوله تعالى ﴿وَيَوْمَ نُسِفُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧] ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ أي وإذا النوق^(٣) الحوامل تركت هَمَلًا بلا راع ولا طالب، وخصَّ النوق بالذكر لأنها كرائم أموال العرب^(٤) ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أي وإذا الوحوش جُمِعَتْ من أوكارها وأجحارها ذاهلة من شدة الفزع^(٥) ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أي وإذا البحار تأججت نارا، وصارت نيرانا تضطرم وتلتهب ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أي وإذا النفوس قُرِنَتْ بأشباهها، فُقِرْنَ الفاجرُ مع الفاجر، والصالحُ مع الصالح، قال الطبري: يُقَرَّن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، وبين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار^(٦)

﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّلَتْ﴾ أي وإذا البنت التي دفنت وهي حية سئلت توبيخا لقاتلها: ما ذنبها حتى قتلت؟ قال في التسهيل: الموءدة هي البنت التي كان بعض العرب يدفنها حيَّة من كراهته لها أو غيِّره عليها، فتُسأل يوم القيامة ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾؟ على وجه التوبيخ لقاتلها^(٧) ﴿وَإِذَا الْأَشْجُرُ نُشِرَتْ﴾ أي وإذا صحف الأعمال نُشِرَتْ وُبَسِطَتْ عند الحساب ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ أي وإذا السماء أزيلت ونُزِعَتْ من مكانها كما يُنزع الجلد عن الشاة ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ﴾ أي وإذا نار جهنم أوقدت وأضرمَّت لأعداء الله تعالى ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنْفِلَتْ﴾ أي وإذا الجنة أُذِنَتْ

(١) «البحر المحيط» ٨ / ٤٣٠.

(٢) (ش): الهَبَاءُ: ما يرى في ضوء الشمس من الغبار الخفيف.

(٣) (ش): النوق: جمع ناقة: وهي الأنثى من الإبل، أنثى الجميل.

(٤) (ش): كرائم الأموال: نفائسها وخيارها.

(٥) (ش): أوكار: جمع وكْر: عُش الطائر الذي يبيض فيه ويُفَرِّخ، سواء أكان ذلك في جبل أم شجر أم غيرهما. أَجْحَار: جمع جَحْر: حُفرة تأوي إليها وصغار الحيوانات والهوام. والهوام جمع هامة: ما كان له سم قاتل، كالحية.

(٦) هذه رواية الطبري عن عمر بن الخطاب، وقيل المراد: قَرُنُ الأجساد بالأرواح، والأول أرجح والله أعلم.

(ش): هكذا في «تفسير الطبري»، ولعل الصواب: يُقَرَّن الرجلُ الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، والرجل السوء مع الرجل السوء في النار، أو: يُقَرَّن بين الرجل الصالح والرجل الصالح في الجنة، وبين الرجل السوء والرجل السوء في النار.

(٧) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤ / ١٨١.

وَقُرَّبَتِ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٠٠﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٠١﴾ أَي عَلِمَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَحْضَرَتْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وهذه الجملة ﴿١٠٠﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴿١٠١﴾ هي جواب ما تقدم من أول السورة ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ إلى هنا. والمعنى إذا حدثت تلك الأمور العجيبة الغريبة، علمت حيثئذ كل نفس ما قدَّمته من صالح أو طالح.. ثم أقسم تعالى على صدق القرآن، وصحة رسالة محمد عليه السلام فقال ﴿فَلَا أُقِيمُ بِالْحَنِينِ﴾ أي فأقسم قسمًا مؤكدًا بالنجوم المضئية التي تختفي بالنهار، وتظهر بالليل^(١) ﴿الْجَوَارِ الْكُنْزِ﴾ أي التي تجري وتسير مع الشمس والقمر ثم تستر وقت غروبها، كما تستر الظباء في كناسها - مغاراتها - قال القرطبي: النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل، وتنكس وقت غروبها أي تستر، كما تنكس الظباء في المغار وهو الكناس^(٢) ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا عَسَّسَ﴾ أي وأقسم بالليل إذا أقبل بظلامه حتى غطى الكون^(٣) ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا نَفَّسَ﴾ أي وبالصبح إذا أضاء وتبَّجَّج، واتَّسع ضياؤه حتى صار نهارًا واضحًا ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ هذا هو المُقَسَّم عليه، أي: إن هذا القرآن الكريم، لكلام الله المنزل بواسطة ملك عزيز على الله هو جبريل كقوله تعالى ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤] قال المفسرون: أراد بالرسول «جبريل» وأضاف القرآن إليه لأنه جاء به، وهو في الحقيقة قول الله تعالى، ومما يدل على أن المراد به جبريل قوله بعده ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي شديد القوة، صاحب مكانة رفيعة، ومنزلة سامية عند الله جلَّ وعلا ﴿مُطَاعٌ تَتَمُّ أَمِينٌ﴾ أي مطاع هناك في الملاء الأعلى، تطيعه الملائكة الأبرار، مؤتمن على الوحي الذي ينزل به على الأنبياء ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ أي وليس محمد الذي صاحبتموه يا معشر قريش، وعرفتم صدقه ونزاهته ورجاحة عقله بمجنون كما زعمتم قال الخازن: أقسم تعالى على أن القرآن نزل به جبريل الأمين، وأن محمدًا ﷺ ليس بمجنون كما يزعم أهل مكة، فنفى تعالى عنه الجنون، وكون القرآن من عند نفسه^(٤) ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأَفْقِ الْمُنِينِ﴾ أي وأقسم لقد رأى محمد ﷺ جبريل في صورته الملكية التي خلقه الله عليها بجهة الأفق الأعلى البين من ناحية المشرق حيث تطلع الشمس قال في البحر: وهذه الرؤية بعد أمر غار حراء، حين رأى جبريل على كرسي بين السماء والأرض، في صورته له ستمائة جناح قد سدَّ ما بين المشرق والمغرب^(٥) ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ أي وما محمد على الوحي ببخيل

(١) هذا قول علي وابن عباس ومجاهد والحسن، كذا في «الطبري» ٤٨/٣٠.

(٢) «تفسير القرطبي» ٢٣٥/١٩.

(٣) هذا القول أرجح لمقابلته بالصبح فكأنه يقول: أقسم بالليل حين يقبل بظلامه، وبالنهار حين يقبل بضياؤه، وهو اختيار ابن كثير.

(٤) «تفسير الخازن» ٢١٥/٤.

(٥) «البحر المحيط» ٤٣٤/٨. (ش:) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ لَهُ سِتْمِائَةٌ =

يقصّر في تبليغه وتعليمه، بل يبلغ رسالة ربه بكل أمانة وصدق ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ أي وما هذا القرآن بقول شيطان ملعون كما يقول المشركون ﴿فَإِنَّ تَذْهَبُونَ﴾ أي فأني طريق تسلكون في تكذيبكم للقرآن، واتهامكم له بالسحر والكهانة والشعر، مع وضوح آياته وسطوع براهينه؟ وهذا كما تقول لمن ترك الطريق المستقيم: هذا الطريق الواضح فأين تذهب؟ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي ما هذا القرآن إلا موعظة وتذكرة للخلق أجمعين ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ أي لمن شاء منكم أن يتبع الحق، ويستقيم على شريعة الله، ويسلك طريق الأبرار ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي وما تقدرون على شيء إلا بتوفيق الله ولطفه، فاطلبوا من الله التوفيق إلى أفضل طريق.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الجناس الناقص بين ﴿بِالْحُسْنِ﴾ و ﴿بِالْكُسْنِ﴾.
- ٢ - الاستعارة التصريحية ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا نَفَسَ﴾ شبه إقبال النهار وسطوع الضياء بنسمات الهواء العليل التي تحيي القلب، واستعار لفظ التنفس لإقبال النهار بعد الظلام الدامس، وهذا من لطيف الاستعارة وأبلغها تصويراً حيث عبر عنه بتنفس الصبح^(١).
- ٣ - الكناية اللطيفة ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ كنى عن محمد ﷺ بلفظ ﴿صَاحِبُكُمْ﴾.
- ٤ - الطباق بين لفظ ﴿الْجَحِيمُ سُعِرَتْ... الْجَنَّةُ﴾.
- ٥ - الجناس غير التام بين ﴿أَمِينٍ... مَكِينٍ﴾.
- ٦ - توافق الفواصل رعاية لرءوس الآيات مثل ﴿كُورَتْ، سِيرَتْ، سُحِرَتْ، سُعِرَتْ﴾ ومثل ﴿بِالْحُسْنِ، الْكُسْنِ، عَسَسَ، نَفَسَ﴾ الخ.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التكويد»



= جَنَاح. (رواه البخاري ومسلم). عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَرِ جَبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ، أَمَّا مَرَّةً، فَإِنَّهُ سَأَلَهُ أَنْ يُرِيهَ نَفْسَهُ فِي صُورَتِهِ، فَأَرَاهُ صُورَتَهُ فَسَدَّ الْأَفْقَ، وَأَمَّا الْأُخْرَى، فَإِنَّهُ صَعِدَ مَعَهُ حِينَ صَعِدَ بِهِ. (رواه أحمد، وقال أحمد شاكراً: إسناده صحيح). وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فِتْرَةِ الْوَحْيِ - قَالَ فِي حَدِيثِهِ: «فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «فَجِئْتُ مِنْهُ فَرَقًا فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي. فَدَثَرُونِي فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدْيَنِيُّ﴾ ﴿١﴾ ﴿فَإِنْذِرْ﴾ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَيِّرْ﴾ ﴿٣﴾ وَيَا بَلَكُ فَطَهِّرْ﴾ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ وَهِيَ الْأَوْتَانُ قَالَ ثُمَّ تَتَابَعِ الْوَحْيُ. (رواه البخاري ومسلم). فَجِئْتُ: ففزعت.

(١) (ش): السَّيْم: رِيح خَفِيفَةٌ لَا تُحَرِّكُ شَجَرًا وَلَا تُغْفِي أَثَرًا. الْهَوَاءُ الْعَلِيلُ: نَسِيمٌ رَقِيقٌ لِيْنُ الْهَوْبِ، مُنْعَشٌ لَطِيفٌ. دَمَسَ الظَّلَامُ: اشْتَدَّ سَوَادُهُ.



مكية وآياتها تسع عشرة

بين يدي السورة

* سورة الانفطار من السور المكية، وهي تعالج - كسابقتها سورة التكوين - الانقلاب الكوني الذي يصاحب قيام الساعة، وما يحدث في ذلك اليوم الخطير من أحداث جسام^(١)، ثم بيان حال الأبرار، وحال الفجار، يوم البعث والنشور.

* ابتدأت السورة الكريمة ببيان مشاهد الانقلاب الذي يحدث في الكون، من انفطار السماء وانتشار الكواكب، وتفجير البحار، وبعثرة القبور، وما يعقب ذلك من الحساب والجزاء ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ (١) ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ (٢) ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ﴾ (٣) ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ﴾ (٤) ﴿عِلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾.

* ثم تحدثت عن جحود الإنسان وكفرانه لنعم ربه، وهو يتلقى فيوض النعمة منه جل وعلا، ولكنه لا يعرف للنعمة حقها، ولا يعرف لربه قدره، ولا يشكر على الفضل والنعمة والكرامة ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (٦) ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ فَعَدْلَكَ﴾ (٧) ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (٩)!

* ثم ذكر علة هذا الجحود والإنكار، ووضحت أن الله تعالى وكل بكل إنسان ملائكة يسجلون عليه أعماله، ويتعقبون أفعاله ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالذِّينِ﴾ (٩) ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ (١٠) ﴿كِرَامًا كَنِينٍ﴾ (١١) ﴿يَعْمُونَ مِمَّا فَعَلُوا﴾.

* وذكرت السورة انقسام الناس في الآخرة إلى قسمين: أبرار، وفجار، وبينت مآل كل من الفريقين ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (١٣) ﴿وَإِنَّ الْفُجَارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ (١٤) ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الذِّينِ﴾ (١٥) الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بتصوير ضخامة يوم القيامة وهوله، وتجرد النفوس يومئذ من كل حول وقوة، وتفرد الله جل وعلا بالحكم والسلطان ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الذِّينِ﴾ (١٧) ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الذِّينِ﴾ (١٨) ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ (١) ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ (٢) ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ﴾ (٣) ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ﴾ (٤) ﴿عِلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ (٥) ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (٦) ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ فَعَدْلَكَ﴾ (٧) ﴿فِي

(١) (ش): أحداث جسام: أحداث عظيمة.

أَيُّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كَرَامًا كِنِينٍ ﴿١١﴾ يَعْمَلُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ

اللغة: ﴿أَنْفَطَرْتُ﴾ انشقت، والفَطْرُ: الشَّقُّ ومنه فطر نابُ البعير ﴿أَنْثَرْتُ﴾ تساقطت وتهاوت ﴿بُعِثَرْتُ﴾ قُلِبْتُ يقال: بعثرت المتاع قَلْبَتَهُ ظَهَرًا لِبَطْنٍ ﴿غَرَّكَ﴾ خدعك ﴿سَوَّكَ﴾ جعل أعضائك سليمة سوية ﴿يَصَلُّونَهَا﴾ يدخلونها ويدفون لها بها وحرها.

التفسير: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ﴾ أي إذا السماء انشقت بأمر الله لنزول الملائكة كقوله تعالى ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالسَّحَابِ وَنُزُلِ الْمَلَكِ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥] ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْثَرَتْ﴾ أي وإذا النجوم تساقطت وتناثرت، وزالت عن بروجها وأماكنها ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ أي وإذا البحار فُتِحَ بعضها إلى بعض، فاختلط عذبها بمالحها، وأصبحت بحرًا واحدًا ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثِرَتْ﴾ أي وإذا القبور قُلِبَتْ، ونُبِشَ ما فيها من الموتى^(١)، وصار ما في بطنها ظاهرًا على وجهها ﴿عِلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ هذا هو الجواب أي علمت عندئذ كل نفس ما أسلفت من خير أو شر، وما قدمت من صالح أو طالح قال الطبري: ما قدمت من عمل صالح، وما أخرت من شيء سَنَّهُ فَعْمَلٌ به بعده^(٢) ثم بعد ذكر أحوال الآخرة وأهوالها، انتقلت الآيات لتذكير الإنسان الغافل الجاهل بما أمامه من أهوال وشدائد فقال تعالى ﴿يَتَأْتِيَ الْإِنْسَانَ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ أي شيء خدعك بربك الحليم الكريم، حتى عصيته وتجرات على مخالفة أمره، مع إحسانه إليك وعطفه عليك؟^(٣) وهذا توبيخ وعتاب كأنه قال: كيف قابلت إحسان ربك بالعصيان، ورأفته بك بالتمرد والطغيان ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]؟ ثم عدَّد نعمه عليه فقال ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّكَ﴾ أي الذي أوجدك من العدم، فجعلك سويًا سالم الأعضاء، تسمع وتعمل وتبصر ﴿فَعَدَّلَكَ﴾ أي جعلك معتدل القامة منتصبًا في أحسن الهيئات والأشكال ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ أي رَكَّبَكَ في أي صورة شاءها واختارها لك من الصور الحسنة العجيبة ولم يجعل في الشكل كالبهيمة كقوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].. ثم وبَّخَ المشركين على تكذيبهم بيوم الدين فقال ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ أي ارتدعوا يا أهل مكة، ولا تغتروا بحلم الله، بل أنتم تكذبون بيوم الحساب والجزاء ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ أي والحال أن عليكم ملائكة حفظة يضبطون أعمالكم ويراقبون تصرفاتكم قال القرطبي: أي

(١) (ش): أي قُلِبَتْ بُرَائِبُهَا، وَخَرَجَ الْأَمْوَاتُ مِنْهَا.

(٢) «تفسير الطبري» ٣٠ / ٥٤.

(٣) هذه الآية واردة على سبيل التوبيخ والتعجب من حال الإنسان الجاحد لنعم ربه، وليست واردة على سبيل تلقين الحجة كما قال البعض حتى قالوا: يُلَقِّنُهُ أَنْ يَقُولَ: غَرَّيْنِي كَرْمُكَ، ويؤيد ما ذكرناه قول عمر: «غره حُمَقُهُ وَجَهْلُهُ».

عليكم رقباء من الملائكة^(١) ﴿كِرَامًا كَانِينَ﴾ أي كرامًا على الله، يكتبون أقوالكم وأعمالكم ﴿يَعْمَلُونَ مَا تَقْعَلُونَ﴾ أي يعلمون ما يصدر منكم من خير وشر، ويسجلونه في صحائف أعمالكم، لتُجَازَوْا به يوم القيامة.. ثم يَبَيِّنُ تعالى انقسام الخلق يوم القيامة إلى أبرار وفجار، وذكر مآل كلٍّ من الفريقين فقال ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ أي إن المؤمنين الذين اتقوا ربهم في الدنيا، لفي بهجة وسرور لا يُوصَف، يتنعمون في رياض الجنة بما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وهم مخلدون في الجنة ﴿وَالِ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ أي وإن الكفرة الفجار، الذين عصوا ربهم في الدنيا، لفي نار محرقة، وعذاب دائم مقيم في دار الجحيم ﴿يَصَلُّونَهَا يَوْمَ ذَلِكَ﴾ أي يدخلونها ويقاسون حرها يوم الجزاء الذي كانوا يكذبون به ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ أي وليسوا بغائبين عن جهنم، بعيدين عنها لا يرونها، بل هي أمامهم يَصَلُّونَ ويدوقون سعيها ولا يخرجون منها أبدًا ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ تعظيمٌ له وتهويل أي ما أعلمك ما يوم الدين؟ وأي شيء هو في شدته وهوله؟ ﴿ثُمَّ مَا أَذْرَكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾؟ كرر ذكره تعظيمًا لشأنه، وتهويلًا لأمره كقوله ﴿الْحَاقَّةُ ١﴾ ﴿الْحَاقَّةُ ٢﴾ ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ١٣]؟ كأنه يقول: إن يوم الجزاء من شدته بحيث لا يدري أحد مقدار هوله وعظمته، فهو فوق الوصف والبيان ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي هو ذلك اليوم الرهيب الذي لا يستطيع أحد أن ينفع أحدًا بشيء من الأشياء، ولا أن يدفع عنه ضرًا ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَ ذِي قُرْآنٍ﴾ أي والأمر في ذلك اليوم لله وحده لا ينازعه فيه أحد.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الطباق بين ﴿قَدَمَتْ﴾ و ﴿وَأَخَرَتْ﴾ وهو من المحسنات البديعية.
- ٢ - المقابلة اللطيفة بين الأبرار والفجار ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ١٣﴾ ﴿وَالِ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ فقد قابل الأبرار بالفجار، والنعيم بالجحيم وفيه أيضًا من المحسنات البديعية ما يسمى بالترصيع.
- ٣ - الاستعارة المكنية ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ شبه الكواكب بجواهر قُطِعَ سِلْكُهَا^(٢) فتناثرت متفرقة، وطوى ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الانتشار على طريق الاستعارة المكنية.

- ٤ - الاستفهام للتوبيخ والإنكار ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾؟
- ٥ - التنكير في كل من لفظة ﴿نَعِيمٍ﴾ و ﴿جَحِيمٍ﴾ للتعظيم والتهويل.
- ٦ - الإطناب بإعادة الجملة ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ١٧﴾ ﴿ثُمَّ مَا أَذْرَكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾؟ لتعظيم

(١) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٤٥.

(٢) (ش): سلك: خيط يُنْظَم فيه الخرز ونحوه أو يخاط به.

هول ذلك اليوم وبيان شدته كأنه فوق الوصف والخيال.

٧ - السجع المرصع وهو من المحسنات البديعية مثل ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ﴾ (١) ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ
انْتَثَرَتْ﴾ ومثل ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ (١٠) ﴿كَرَامًا كُنِينٍ﴾ ومثل ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (١٣) ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي
جَحِيمٍ﴾.

لطيفة: روي أن الخليفة «سليمان بن عبد الملك» قال لأبي حازم المزني: ليت شعري أين
مصيرنا يوم القيامة؟ وما لنا عند الله؟ فقال له: اعرض عملك على كتاب الله تجد ما لك عند
الله (فقال: وأين أجد ذلك في كتاب الله؟ قال: عند قوله تعالى ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (١٣) ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ
لَفِي جَحِيمٍ﴾ قال سليمان: فإين إذا هي رحمة الله؟ فأجابه بقوله ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ
الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الانفطار»



سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ

مكية وآياتها ست وثلاثون

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مكية، وأهدافها نفس أهداف السور المكية، تعالج أمور العقيدة وتحدث عن الدعوة الإسلامية في مواجهة خصومها الألداء.

* ابتدأت السورة الكريمة بإعلان الحرب على المطففين في الكيل والوزن، الذين لا يخافون الآخرة ولا يحسبون حساباً للوقفة الرهيبة بين يدي أحكم الحاكمين ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝٤ لِّيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾.

* ثم تحدثت عن الأشقياء الفجار، وصورت جزاءهم يوم القيامة، حيث يساقون إلى الجحيم مع الزجر والتهديد ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ۝٧ وَمَا أَذْرَكَ مَا سَحِبْنَاهُ ۝٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيَلْلُومُنَادٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠﴾ الآيات.

* ثم عرضت لصفحة المتقين الأبرار، وما لهم من النعيم الخالد الدائم، في دار العز والكرامة، وذلك في مقابلة ما أعد الله للأشقياء الأشرار، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَمُهُ مِسْكَ ۝٢٦ فِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ۝٢٧﴾.

* وختمت السورة الكريمة بمواقف أهل الشقاء والضلال، من عباد الله الأخيار، حيث كانوا يهزءون بهم في الدنيا ويسخرون عليهم لإيمانهم وصلاحهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ۝٢٨ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٢٩﴾ إلى آخر السورة الكريمة.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝٤ لِّيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ۝٧ وَمَا أَذْرَكَ مَا سَحِبْنَاهُ ۝٨ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيَلْلُومُنَادٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ۝١١ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعَذِّبٍ ۝١٢ إِذَا نُنَادِي عَلَيْهِ ءَايَتُنَا قَالَ أَسْطِطِرَ الْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ۝١٧ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ ۝١٨ وَمَا أَذْرَكَ مَا عَلَيْنَا ۝١٩ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ۝٢١ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَمُهُ مِسْكَ ۝٢٦

وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ ﴿٣٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِنَ تَسْنِيمٍ ﴿٣٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٣٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٣٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٤٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٤١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٤٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ﴿٤٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٤٤﴾ عَلَىٰ الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٤٥﴾ هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ

اللغة: ﴿لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ جمع مُطَفَّف وهو الذي يُنْقِص في الكيل والوزن، والتطفيف: النقصان وأصله من الطفيف وهو الشيء اليسير، لأن المطفف لا يكاد يسرق في الكيل والوزن إلا الشيء اليسير ﴿رَانَ﴾ غطى وغشى كالصدأ يغشى السيف، وأصله الغلبة يقال: رانت الخمر على عقل شارها أي غلبته قال الشاعر:

وَكَمْ رَانَ مِنْ ذَنْبٍ عَلَى قَلْبٍ فَاجِرٍ^(١)

﴿رَحِيقٌ﴾ أجود الخمر وأصفاه وفي الصحاح: الرحيق صفوة الخمر وقال الأخفش: هو الشراب الذي لا غش فيه قال الحسن:

بَرَدَى يُصَفِّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسِلِ^(٢)

﴿فَكِهِينَ﴾ معجبين متلذذين ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ يشيرون إليهم بالأعين استهزاء ﴿تُؤِيبُ﴾ جُوزِي ﴿تَسْنِيمٍ﴾ عَيْنٌ عالية شرابها أشرف شراب، وأصل التسنيم الارتفاع ومنه سنّام البعير^(٣).

سَبَبُ النُّزُول: عن ابن عباس قال «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، كانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك»^(٤).

التفسير: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ أي هلاك وعذاب ودمار، لأولئك الفجار الذين ينقصون المكيال والميزان، ثم بيّن أوصافهم القبيحة بقوله ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ أي إذا أخذوا الكيل من الناس أخذوه وافيًا كاملاً لأنفسهم ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ أي وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم، ينقصون الكيل والوزن قال المفسرون: نزلت في رجل يُعرف بـ «أبي جهينة» كان له صاعان، يأخذ بأحدهما ويعطي بالآخر^(٥)، وهو وعيدٌ لكل من طَفَّف الكيل والوزن، وقد أهلك الله قوم شعيب لبخسهم المكيال والميزان، وفي الحديث «ولا

(١) «البحر المحيط» ٤٣٨ / ٨.

(٢) «تفسير القرطبي» ٢٦٤ / ١٩. (ش): البيت يُنسب لحسان بن ثابت، يمدح الغساسنة في الجاهلية. بَرَدَى: أي ماءٌ بَرَدَى، نهر بدمشق. يُصَفِّقُ: يُمَزِّج. سَلْسِل: عَدَبٌ صَافٍ سَلِسٌ سهل.

(٣) (ش): سنّام البعير: سنّام الجمال: كتلة كبيرة من الشَّعْم مُحْدَبَةٌ على ظهره.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٦١٣ / ٣. (ش): حسن، رواه الحاكم، وابن ماجه، وابن حبان، وابن جرير الطبري في «تفسيره».

(٥) (ش): ضعيف، رواه الواحدي في «أسباب النزول».

طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين»^(١) ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ أي ألا يعلم ويستيقن أولئك المطففون أنهم سيعثون ليوم عصيب، شديد الهول، كثير الفزع؟! ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي يوم يقفون في المحشر حفاة عراة، خاشعين خاضعين لرب العالمين^(٢) قال في البحر: وفي هذا الإنكار والتعجب، ووصف اليوم بالعظم، وقيام الناس لله خاضعين، ووصفه برب العالمين، دليل على عظم هذا الذنب وهو التطفيف^(٣)، وفي الحديث عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أَذُنِهِ^(٤).. ثم ذكر تعالى مآل الفجار، ومآل الأبرار فقال ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينَ﴾ أي ليرتدع هؤلاء المطففون عن الغفلة عن البعث والجزاء، فإن كتاب أعمال الأشقياء الفجار، لفي مكان ضيق في أسفل سافلين ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا سَحِيلٌ﴾ استفهام للتعظيم والتهويل أي هل تعلم ما سجين؟ ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ أي هو كتاب مكتوب كالرقم في الثوب^(٥)، لا يسى ولا يمحي، أثبت فيه أعمالهم الشريفة قال ابن كثير: ﴿سِجِّينَ﴾ مأخوذ من السجن وهو الضيق، ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهي أسفل سافلين، وهي تجمع الضيق والسفول، أخبر تعالى أنه كتاب مرقوم، أي: مكتوب مفروغ منه، لا يزداد فيه أحد ولا ينقص منه أحد^(٦) ﴿وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار للمكذبين ﴿الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي يكذبون يوم الحساب والجزاء ﴿وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أي وما يكذب بيوم الحساب والجزاء ألا كل متجاوز الحد في الكفر والضلال، مبالغ في العصيان والطغيان، كثير الآثام، ثم وضح من إجرامه فقال ﴿إِذَا نُئِلَ عَلَيْهِ أَنِ انشَأْ فَالِاسْطِيزْ الْأَوَّلِينَ﴾ أي إذا تليت عليه آيات القرآن، الناطقة بحصول البعث والجزاء، قال

(١) جزء من حديث أخرجه الحاكم والطبراني عن ابن عباس مرفوعاً، وانظر الألويسي ٧١/٣٠. (ش): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رضي الله عنهما - قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وآله وسلم - فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فُشَا فِيهِمُ الطَّاعُونَ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَشْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا. وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أَخَذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمُتَوَنَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ. وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُبِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْ لَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا. وَلَمْ يَنْقُصُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَذَابًا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ. وَمَا لَمْ تَحْكَمْ أُمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ» (حسن رواه ابن ماجه).

(٢) (ش): عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - عَنِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وآله وسلم - قَالَ: «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حَفَاةٌ عُرَاةٌ غُرُلَاءٌ»، ثُمَّ قَرَأَ «كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ» (رواه البخاري). (غُرُلَاءٌ): غَيْرَ مَحْشُورِينَ.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٤٤٠.

(٤) أخرجه الشيخان ومالك. (ش): الرشح: العرق.

(٥) (ش): رَقَمَ الثَّوبَ وَنَحَوَهُ: طَرَزَهُ وَخَطَطَهُ.

(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦١٤.

عنها: هذه حكايات وخرافات الأوائل، سطورها وزخرفوها في كتبهم ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي ليرتدع هذا الفاجر عن ذلك القول الباطل، فليس القرآن أساطير الأولين، بل غَطَّى على قلوبهم ما كسبوا من الذنوب، فطمَسَ بصائرهم فصاروا لا يعرفون الرشد من الغي قال المفسرون: الرّان هو الذنب على الذنب حتى يَسْوَدَ القلب ^(١) ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ أي ليرتدع هؤلاء المكذبون عن غيِّهم وضلالهم، فهم في الآخرة محجوبون عن رؤية المولى جل وعلا فلا يروونه قال الشافعي: وفي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يروونه عَزَّ وَجَلَّ - وقال مالك: لما حجب أعداءه فلم يرووه، تجلَّى لأوليائه حتى رآوه ^(٢) - ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ أي ثم إنهم مع الحرمان عن رؤية الرحمن، لداخلو الجحيم وذائقو عذابها الأليم ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي ثم تقول لهم خزنة جهنم على وجه التقرع والتوبيخ: هذا العذاب الذي كنتم تكذبون به في الدنيا ﴿أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥].. وبعد الحديث عن حال الفجار، ذكر تعالى نعيم الأبرار فقال ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ﴾ ﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر، أي: ليس الأمر كما يزعمون من مساواة الفجار بالأبرار، بل كتابه في سجين، وكتاب الأبرار في عليين، وهو مكان عالٍ مشرف في أعلى الجنة، قال في التسهيل: ولفظ ﴿عِلِّيَّينَ﴾ للمبالغة، وهو مشتق من العلو لأنه سبب في ارتفاع الدرجات في الجنة، أو لأنه في مكان عليّ رفيع فقد روي أنه تحت العرش ^(٣) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ تفخيم وتعظيم لشأنه أي وما أعلمك يا محمد ما عليون؟ ﴿كِتَابٌ مَرْفُوعٌ﴾ ^(٤) يشهده المقربون ﴿أَي كِتَابُ الْأَبْرَارِ كِتَابٌ مُسَطَّرٌ، مكتوب فيه أعمالهم، وهو في عليين في أعلى درجات الجنة، يشهده المقربون من الملائكة قال المفسرون: إن روح المؤمن إذا قبضت صعد بها إلى العرش، فيخرج لهم رق فيكتب فيه ويختتم عليه بالنجاة من الحساب والعذاب ويشهده المقربون ^(٥) ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾

(١) وفي الحديث: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نَكَتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةً سَوْدَاءٌ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ؛ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبُهُ وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾». رواه الترمذي. (ش): ورواه أحمد وأحمد وحسنه الألباني. (نَكَتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةً سَوْدَاءً) أَي جُعِلَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ أَي أَثَرٌ قَلِيلٌ كَالنَّقْطَةِ شَبَّهَ الْوَسْخَ فِي الْمِرَاةِ وَالسَّيْفِ وَنَحْوِهِمَا. (نَزَعَ) أَي كَفَّ نَفْسَهُ وَانْتَهَى عَنِ ارْتِكَابِ الْمَعَاصِي. (صُقِلَ قَلْبُهُ) أَي نُظِفَ، وَصُفِّيتْ مِرَاةُ قَلْبِهِ؛ لِأَنَّ التَّوْبَةَ بِمَنْزِلَةِ الْمُصْقَلَةِ تَمْحُو وَسَخَ الْقَلْبِ. (وَإِنْ عَادَ) أَي الْعَبْدُ فِي الذَّنْبِ وَالْخَطِيئَةِ (زِيدَ فِيهَا) أَي فِي النُّكْتَةِ السَّوْدَاءِ (حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبُهُ) أَي تَعْلُوَ النُّكْتُ قَلْبُهُ، أَي تُظْفَى نَوْرُ قَلْبِهِ فَتُعْمَى بِصِيرَتِهِ (وَهُوَ) أَي الْأَثَرُ الْمُسْتَقْبَحُ الْمُسْتَعْلَى (الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ) أَي فِي كِتَابِهِ.

(٢) «تفسير القرطبي» ٢٥٩/١٩.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ١٨٥/٤. (ش): رواه الطبري من كلام قتادة في تفسير الآية.

(٤) ذكره القرطبي عن كعب ٢٦٠/١٩. (ش): هو كعب بن ماته الحميري، المعروف بكعب الأبحار، من كبار التابعين، كان من أهل اليمن، وكان على دين اليهود، فأسلم في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، وتوفي في آخر خلافة عثمان رضي الله عنه. وعن حماد بن زيد عن بُدَيْلٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «إِذَا خَرَجَتْ رُوحٌ =

أي إن المطيعين لله في الجنات الوارفة، والظلال الممتدة يتنعمون ﴿عَلَى الْأَرَاكِ يَنْظُرُونَ﴾ أي هم على السُرر المُرَيَّة بفاجر الثياب والسُّتور، ينظرون إلى ما أعدَّ الله لهم من أنواع الكرامة والنعيم في الجنة ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ أي إذا رأيتهم تعرف أنهم أهل نعمة، لما ترى في وجوههم من النور والبياض والحسن، ومن بهجة السرور ورواقه^(١) ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ أي يسقون من خمر في الجنة، بيضاء طيبة صافية، لم تُكدرها الأيدي، قد خُتم على تلك الأواني فلا يفك ختمها إلا الأبرار ﴿خَتَمُهَا مِسْكٌ﴾ أي آخر الشراب تفوح منه رائحة المسك ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلَيْتَنَافَسُ الْمُتَنَفِّسُونَ﴾ أي وفي هذا النعيم والشراب الهنيء، فليرغب بالمبادرة إلى طاعة الله، وليتسابق المتسابقون قال الطبري: التنافس مأخوذ من الشيء النفيس الذي يحرص عليه الناس، وتشتهيه وتطلبه نفوسهم. والمعنى: فليستبقوا في طلب هذا النعيم، ولتحرص عليه نفوسهم^(٢) ﴿وَمَزَاجُهُمْ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ أي يمزج ذلك الرحيق من عين عالية رفيعة، هي أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه تسمى «التسним» ولهذا قال بعده ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي هي عين في الجنة يشرب منها المقربون صرفاً، وتمزج لسائر أهل الجنة قال في التسهيل: تسنيم أسم لعين في الجنة يشرب منها المقربون صرفاً، ويمزج منه الرحيق الذي يشرب منه الأبرار، فدل ذلك على إن درجة المقربين فوق درجة الأبرار^(٣) ولما ذكر تعالى نعيم الأبرار، أعقبه بذكر مآل الفجار، تسلياً للمؤمنين وتقوية لقلوبهم فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ أي: إن المجرمين الذين من طبيعتهم الإجمام وارتكاب الآثام، كانوا في الدنيا يضحكون من المؤمنين استهزاء بهم قال في التسهيل: نزلت هذه الآية في صناديد قريش كأبي جهل وغيره، مرَّ بهم علي بن أبي طالب وجماعة من المؤمنين، فضحكوا

= الْمُؤْمِن تَلَقَّاهَا مَلَكَانِ يُصْعِدَانِهَا. قَالَ حَمَّادٌ: فَذَكَرَ مِنْ طَيْبِ رِيحِهَا وَذَكَرَ الْمِسْكَ. قَالَ: «وَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ: «رُوحٌ طَيِّبَةٌ جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الْأَرْضِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ وَعَلَى جَسَدٍ كُنْتَ تَعْمُرُ بِهِ». فَيَنْطَلِقُ بِهِ إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ يَقُولُ: «انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الْأَجَلِ». قَالَ: «وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ - قَالَ حَمَّادٌ: وَذَكَرَ مِنْ تَنْبِهَا وَذَكَرَ لَعْنًا - وَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ: «رُوحٌ خَبِيثَةٌ جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الْأَرْضِ». قَالَ: فَيَقَالُ: «انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الْأَجَلِ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَردَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رِبْطَةً كَانَتْ عَلَيْهِ عَلَى أَنْفِهِ هَكَذَا. (رواه مسلم). قال النووي: «قوله في رُوحِ الْمُؤْمِنِ (ثُمَّ يَقُولُ انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الْأَجَلِ ثُمَّ قَالَ فِي رُوحِ الْكَافِرِ فَيَقَالُ انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الْأَجَلِ) قَالَ الْقَاضِي الْمُرَادُ بِالْأَوَّلِ انْطَلِقُوا بِرُوحِ الْمُؤْمِنِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنتَهَى وَالْمُرَادُ بِالثَّانِي انْطَلِقُوا بِرُوحِ الْكَافِرِ إِلَى سَجِّينَ فَهِيَ مُنْتَهَى الْأَجَلِ وَيَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ إِلَى انْقِضَاءِ أَجَلِ الدُّنْيَا. قَوْلُهُ (فَرَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رِبْطَةً كَانَتْ عَلَيْهِ عَلَى أَنْفِهِ) الرِّبْطَةُ بِفَتْحِ الرَّاءِ وَإِسْكَانِ الْيَاءِ وَهُوَ تَوْبٌ رَقِيقٌ وَقِيلَ هِيَ الْمَلَاءَةُ وَكَانَ سَبَبُ رَدِّهَا عَلَى الْأَنْفِ بِسَبَبِ مَا ذَكَرَ مِنْ تَنْ رِيحِ رُوحِ الْكَافِرِ» [شرح النووي على مسلم (١٧/ ٢٠٥)].

(١) (ش): رَوَتْ: حُسْنُ وَبَهَاءٍ وَإِشْرَاقٍ.

(٢) «تفسير الطبري» ٦٨/ ٣٠.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ١٨٥/ ٤.

منهم واستخفوا بهم^(١) ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ أي وإذا مرَّ هؤلاء المؤمنين بالكفار، غمز بعضهم بعضاً بأعينهم سخرية واستهزاء بهم قال المفسرون: كان المشركون إذا مرَّ بهم أصحاب رسول الله، تغامزوا بأعينهم عليهم احتقاراً لهم وازدراءً يقولون: جاءكم ملوك الدنيا، يسخرون منهم لإيمانهم واستمسكهم بالدين ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ أي وإذا انصرف المشركون ورجعوا إلى منازلهم وأهلهم، رجعوا متلذذين يتفكهون بذكر المؤمنين والاستخفاف بهم قال في البحر: أي رجعوا متلذذين بذكرهم وبالضحك منهم استخفافاً بأهل الإيمان^(٢) ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ أي وإذا رأى الكفار المؤمنين قالوا: إن هؤلاء لضالون لإيمانهم بمحمد، وتركهم شهوات الحياة قال تعالى ردّاً عليهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ﴾ أي وما أرسل الكفار حافظين على المؤمنين، يحفظون أعمالهم ويشهدون برشدتهم أو ضلالهم، وفيه تهكم وسخرية بالكفار كأنه يقول: أنا ما أرسلتكم رُقباء^(٣)، ولا وكَّلتهم بحفظ أعمال عبادي المؤمنين، حتى يرشدوهم إلى مصالحهم، فلم يشغلون أنفسهم فيما لا يعينهم؟ ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ أي ففي هذا اليوم يوم القيامة يضحك المؤمنون من الكفار، كما ضحك الكفار منهم في الدنيا، جزاءً وفاقاً ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ أي والمؤمنون على أسرة الدر والياقوت، ينظرون إلى الكفار ويضحكون عليهم قال القرطبي: يقال لأهل النار وهم في النار: اخرجوا، فتفتح لهم أبواب النار، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك، فإذا انتهوا إلى أبوابها أغلقت دونهم، فيضحك منهم المؤمنون^(٤) ﴿هَلْ ثَوَبَ الْكُفَّارِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي هل جوزي الكفار في الآخرة بما كانوا يفعلونه بالمؤمنين من السخرية والاستهزاء؟ نعم.

البلاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - التنكير للتهويل والتفخيم ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾.
- ٢ - الطباق بين ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ و ﴿يُخْسِرُونَ﴾.
- ٣ - المقابلة بين حال الفجار والأبرار ﴿كَلَّا إِنَّ كُتُبَ الْفَجَّارِ مَرْفُومٌ﴾. إلخ و ﴿كَلَّا إِنَّ كُتُبَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ مَرْفُومٌ﴾. إلخ. ٤ - التفخيم والتعظيم لمراتب الأبرار ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ؟﴾
- ٥ - جناس الاشتقاق ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِّسُونَ﴾.
- ٦ - الإطناب بذكر أوصاف ونعيم المتقين ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾^(٢٢) على الأرائك ينظرون^(٢٣) تعرف في وجوههم نصرّة النعيم.

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٨٦. (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٤٤٣.

(٣) (ش): رُقباء: جمع رقيب.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٦٨.

- ٧ - التشبيه البليغ ﴿خَتَمَهُ مِصْكٌ﴾ أي كالمسك في الطيب والبهجة، فحذف منه الأداة ووجه الشبه فأصبح بليغاً.
- ٨ - توافق الفواصل مراعاةً لرءوس الآيات مثل ﴿يَضْحَكُونَ، يَنْظُرُونَ، يَكْسِبُونَ، يَفْعَلُونَ﴾ إلخ.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المطففين»



سُورَةُ الْإِنْشِقَاقِ

مكية وآياتها خمس وعشرون

بين يدي السورة

* سورة الانشقاق مكية، وقد تناولت الحديث عن أهوال القيامة، كشأن سائر السور المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية.

* ابتدأت السورة الكريمة بذكر بعض مشاهد الآخرة، وصورت الانقلاب الذي يحدث في الكون عند قيام الساعة ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ (١) ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ (٢) ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ (٣) ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ (٤) ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾.

* ثم تحدثت عن خلق الإنسان الذي يكذب ويتعب في تحصيل أسباب رزقه ومعاشه؛ ليقدم لآخرته ما يشتهي من صالح أو طالح^(١)، ومن خير أو شر، ثم هناك الجزاء العادل ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا فَلَمْلَقِيهِ﴾ (٦) ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ (٧) ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ الآيات.

* ثم تناولت موقف المشركين من هذا القرآن العظيم، وأقسمت بأنهم سيلقون الأهوال والشدائد ويركبون الأخطار والأهوال في ذلك اليوم العصيب الذي لا ينفع فيه مال ولا ولد ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالسَّفَاقِ﴾ (١٦) ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ (١٧) ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ (١٨) ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بتوبيخ المشركين على عدم إيمانهم بالله، مع وضوح آياته وسطوع براهينه، وبشرتهم بالعذاب الأليم في دار الجحيم ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٠) ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ (٢١) ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾ (٢٢) ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ (٢٣) ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٤) ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا فَلَمْلَقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا (١١) وَيَصْلِي سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥) فَلَا أُقْسِمُ بِالسَّفَاقِ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (١٩) فَمَا لَهُمْ

(١) (ش): طالح: شرير، فاسد، خلاف صالح.

لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ

اللغة: ﴿كَذَبَا﴾ الكدح: الجد والاجتهاد وجهد النفس في العمل قال الشاعر:

وَمَضَتْ بِشَاشَةٍ كُلَّ عَيْشٍ صَالِحٍ وَبَقِيَتْ أَكْدَحُ لِلْحَيَاةِ وَأَنْصَبُ ^(١)
﴿يُحَوَّرُ﴾ يرجع يقال: حار يحور إذا رجع؛ ومنه حديث «أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكُورِ» أي الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة ^(٢) ﴿بِالشَّفَقِ﴾ الحمرة التي تكون بعد مغيب الشمس
﴿وَسَقَى﴾ جمع وضم ولف ﴿أَسَقَى﴾ اجتمع وتكامل وتم نوره ﴿مَمْنُونٍ﴾ مقطوع.

التفسير: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ هذه الآيات بيان لأحوال القيامة، وتصوير لما يحدث بين يدي الساعة من كوارث وأحوال يفزع لها الخيال. والمعنى: إذا تشققت السماء وتصدعت مُؤَدَّةً بخراب الكون ^(٣) قال الألوسي: تشقق لهول يوم القيامة ^(٤) ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ أي واستمعت لأمر ربها وانقادت لحكمه وحق لها أن تسمع وتطيع، وأن تشقق من أحوال القيامة ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أي وإذا الأرض زادت سعة بإزالة جبالها وأكامها، وصارت مستوية لا بناء فيها ولا وهاد ولا جبال ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ أي رمت ما في جوفها من الموتى والكنوز والمعادن وتخلت عنهم قال القرطبي: أخرجت أمواتها وتخلت عنهم، وألقت ما في بطنها من الكنوز والمعادن كما تلقى الحامل ما في بطنها من الحمل، وذلك يُؤَذِّنُ بعظم الهول ^(٥) ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ أي واستمعت لأمر ربها وأطاعت، وحق لها أن تسمع وتطيع.. وجواب ﴿إِذَا﴾ محذوف ليكون أبلغ في التهويل أي إذا حدث كل ما تقدم، لقي الإنسان من الشدائد والأحوال، ما لا يحيط به الخيال.. ثم أخبر تعالى عن كد الإنسان وتعبه في هذه الحياة، وأنه يلقي جزاءه عند الله فقال ﴿يَكَايُهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ الخطاب عام لكل إنسان، أي: أنت يا ابن آدم جاهد ومُجِدُّ بأعمالك التي عاقبتُها الموت، والزمان يطير وأنت في كل لحظة تقطع شوطاً من عمرك القصير، فكأنك سائر مسرعاً إلى الموت، ثم تلاقي ربك فيكافئك على عملك، إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشرُّ قال في البحر: كادح أي جاهد في عملك من خير وشر

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٤٤٤. (ش): أَنْصَبُ: أَتَعَبَ.

(٢) (ش): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَرْجَسٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سَافَرَ يَتَعَوَّدُ مِنْ وَعَثَاءِ السَّفَرِ وَكَاتِبَةِ الْمُتَقَلَّبِ وَالْحَوْرِ بَعْدَ الْكُورِ، وَدَعْوَةِ الْمُظْلَمِ، وَسُوءِ الْمُنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). الْحَوْرُ: النقصان. الْكُورُ: الزيادة. الْوَعَثَاءُ: الشدة والمشقة.

(٣) (ش): أي مُعْلِمَةٌ بقراب خراب الكون. يقال: أذن بالأمر: نادى وأعلم به. أذنت الشمس بالغروب: أوشكت أن تغرب.

(٤) «روح المعاني» ٧٨/ ٣٠.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٦٨. (ش): يُؤَذِّنُ: يُعْلِمُ، يُخَبِّرُ، يدل على.

طول حياتك إلى لقاء ربك، فملاقى جزاء كدحك من ثواب وعقاب^(١).. ثم ذكر تعالى انقسام الناس إلى سعداء وأشقياء وإلى من يأخذ كتابه بيمينه، ومن يأخذ كتابه بشماله فقال ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ أي فأما من أعطي كتاب أعماله بيمينه، وهذه علامة السعادة ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ أي فسوف يكون حسابه سهلاً هيناً، يُجَازَى على حسناته، ويتجاوز عن سيئاته، وهذا هو العرض كما جاء في الحديث الصحيح^(٢) ﴿وَيَقْلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ أي ويرجع إلى أهله في الجنة مبتهجاً مسروراً بما أعطاه الله من الفضل والكرامة ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ أي وأما من أعطي كتاب أعماله بشماله من وراء ظهره، وهذه علامة الشقاوة ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ أي يصيح بالويل والثبور، ويتمنى الهلاك والموت ﴿وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾ أي ويدخل ناراً مستعرة، يقاسي عذابها وحرها ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ أي لأنه كان في الدنيا مسروراً مع أهله، غافلاً لا هياً، لا يفكر في العواقب، ولا تخطر بباله الآخرة قال ابن زيد: وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء في الدنيا، فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة، ووصف أهل النار بالسرور بالدنيا والضحك فيها، فأعقبهم به الحزن الطويل^(٣) ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ أي إنه ظن أن لن يرجع إلى ربه، ولن يحييه الله بعد موته للحساب والجزاء، فلذلك كفر وفجر ﴿بَلَى إِنْ رَبُّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ أي بلى سعيده الله بعد موته، ويجازيه على أعماله كلها خيرها وشرها، فإنه تعالى مُطَّلِعٌ على العباد، لا تخفى عليه خافية من شئونهم ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ ﴿فَلَا﴾ لتأكيد القسم أي فأقسم قسمًا مؤكداً بحمرة الأفق بعد غروب الشمس ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أي وبالليل وما جمع وضَمَّ إليه، وما لفَّ في ظلمته من الناس والدواب والأنعام، فكل يأوي إلى مكانه وسربه، ولهذا امتن تعالى على العباد فقال ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦] فإذا جاء النهار انتشروا،

(١) «البحر المحيط» ٤٤٦/٨.

(٢) المراد بالحساب اليسير في الآية هو «العرض» لما روى أن النبي ﷺ قال: «مَنْ حُوسِبَ عُذَّبَ». فقالت عائشة: «أَوَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾، فَقَالَ ﷺ: «إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرْضُ، وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذَّبَ» رواه البخاري ومسلم. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، وَيُسْتَرُّهُ فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ. حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ» فهذا هو المراد من الحساب اليسير. (ش: حديث «إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ» رواه البخاري ومسلم. (مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذَّبَ): نُوقِشَ: أُسْتَقْصِي عَلَيْهِ. (عُذَّبَ): أي إنه مُقْضَى إِلَى الْعَذَابِ بِالنَّارِ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ التَّقْصِيرَ غَالِبٌ فِي الْعِبَادِ فَمَنْ أُسْتَقْصِيَ عَلَيْهِ وَلَمْ يُسَامَحْ هَلَكَ وَدَخَلَ النَّارَ وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْفُو وَيَغْفِرُ مَا دُونَ الشَّرِّ لِمَنْ يَشَاءُ. (إِنَّمَا ذَاكَ الْعَرْضُ) أي تعرض الأعمال على الشخص حتى يُقَرَّ؛ فإذا أَقَرَّهَا قال الله تعالى له: «سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ». فمن يَسَأَ اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُ يحاسبه الحساب اليسير الذي فسره النبي ﷺ بالعرض. أما الذين يدخلون النار بذنوبهم فهم ممن يُنَاقَشُ الحساب.

(٣) «تفسير القرطبي» ٢٧١/١٩.

وإذا جاء الليل أوى كل شيء إلى مأواه ﴿وَالْقَمَرَ إِذَا آتَقَ﴾ أي وأقسم بالقمر إذا تكامل ضوءه ونوره، وصار بدرًا ساطعًا مضيئًا ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ هذا جواب القسم أي لتلاقن يا مشعر الناس أهوالًا وشدائد في الآخرة عصبية قال الألوسي: يعني لتركن أهوالًا بعد أحوال، هي طبقات في الشدة بعضها أرفع من بعض، وهي الموت وما بعده من موطن القيامة وأهوالها^(١) وقال الطبري: المراد أنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأهواله أحوالاً^(٢) ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ استفهام يقصد به التوبيخ، أي: فيما لهؤلاء المشركين لا يؤمنون بالله، ولا يصدقون بالبعث بعد الموت، بعد وضوح الدلائل وقيام البراهين على وقوعه؟ ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ أي وإذا سمعوا آيات القرآن، لم يخضعوا ولم يسجدوا للرحمن؟ ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾ أي بل طبيعة هؤلاء الكفار التكذيب والعناد والجحود، ولذلك لا يخضعون عند تلاوته ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أي والله أعلم بما يؤعون؟ ﴿يُوعُونَ﴾ أي يضمرون من عداوة الرسول ﷺ والمؤمنين^(٣) ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي فبشرهم على كفرهم وضلالهم بعذاب مؤلم موجه، واجعل ذلك بمنزلة البشارة لهم قال في التسهيل: ووضع البشارة في موضع الإنذار تهكم بالكفار^(٤) ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي لكن الذين صدقوا الله ورسوله^(٥)، وجمعوا بين الإيمان وصلاح الأعمال^(٦) ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي لهم ثواب في الآخرة غير منقوص ولا مقطوع، بل هو دائم مستمر. ختم تعالى السورة الكريمة ببيان نعيم الأبرار، بعد أن ذكر مآل الفجار، وهو توضيح لما أجمله في أول السورة من ملاقة كل عامل لجزائه في قوله ﴿يَتَأَيَّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَلْيَقِهِ﴾.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الطباق بين لفظ ﴿السَّمَاءِ﴾ و ﴿الْأَرْضِ﴾.
- ٢ - المقابلة بين ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ، يَمِينَهُ﴾ وبين ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ، وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾.
- ٣ - الكناية ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ كنى به عن الشدة والأهوال التي يلقاها الإنسان.

(١) «روح المعاني» للألوسي ٨٢ / ٣٠.

(٢) «تفسير القرطبي» ٨٠ / ٣٠.

(٣) «البحر المحيط» ٤٤٨ / ٨. (ش): يُضْمِرُونَ: يُخْفُونَ.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ١٨٨ / ٤.

(٥) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح.

(٦) (ش): العمل الصالح من الإيمان، فهو داخل في حقيقته وعطفه على الإيمان من عطف الخاص على العام اهتماماً به، مثل قوله تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾.

- ٤ - الجناس الناقص بين كلمتي ﴿وَسَقَ﴾ و ﴿أَنسَقَ﴾ .
- ٥ - الأسلوب التهكمي ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ استعمال البشارة في موضع الإنذار تهكم وسخرية بالكفار.
- ٦ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ ١ ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ ومثل ﴿فَلَا أُفْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ ١٦ ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ ١٧ ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ ١٨ ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ ويسمى بالسجع وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الانشقاق»



سُورَةُ الْبُرُوجِ

مكية وآياتها ثنتان وعشرون

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة من السور المكية، وهي تعرض لحقائق العقيدة الإسلامية، والمحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هي حادثة «أصحاب الأخدود» وهي قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة والإيمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالسماء ذات النجوم الهائلة، ومداراتها الضخمة، التي تدور فيها تلك الأفلاك، وبالיום العظيم المشهود وهو يوم القيامة، وبالرسل والخلائق على هلاك ودمار المجرمين، الذين طرحوا المؤمنين في النار ليفتنوهم عند دينهم ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ﴾ (١) وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُلْ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ الآيات.

* ثم تلاها الوعيد والإنذار لأولئك الفجار على فعلتهم القبيحة الشنيعة ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنُّوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ لَمْ يَنْبُؤُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

* وبعد ذلك تحدثت عن قدرة الله على الانتقام من أعدائه الذين فتنوا عباده وأوليائه ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يَدِي وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾.

* وختمت السورة الكريمة بقصة الطاغية الجبار «فرعون» وما أصابه وقومه من الهلاك والدمار بسبب البغي والطغيان ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قَرِيبٌ أَنْ تُجِيبَ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ وهو ختم رائع يناسب موضوع السورة الكريمة.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُلْ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَنُّوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ لَمْ يَنْبُؤُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يَدِي وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَقَالَ لِمَا يَرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قَرِيبٌ أَنْ يُجِيبَ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ

اللغة: ﴿الْأَخْدُودُ﴾ الشَّقُّ العظيم المستطيل في الأرض كالخندق، وجمعه أخاديد ﴿قُلْ﴾ لَعْنُ أَشَدَّ اللَّعْنِ ﴿نَقَمُوا﴾ عابوا وكرهوا ﴿بَطَشَ﴾ البطش: الأخذ بشدة ﴿يُبْدِئُ﴾ يخلق ابتداءً بقدرته ﴿الْمَجِيدُ﴾ العظيم الجليل المتعالي.

التفسير: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ أي وأقسم بالسماء البديعة ذات المنازل الرفيعة، التي تنزلها الكواكب أثناء سيرها قال المفسرون: سميت هذه المنازل بروجاً لظهورها، وشبهت بالقصور لعلوها وارتفاعها لأنها منازل للكواكب السيارة ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ أي وأقسم باليوم الموعود وهو يوم القيامة، الذي وعد الله به الخلائق بقوله ﴿لِيَجْمَعَ كُفْرُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء: ٨٧] ﴿وَشَهِدِ وَمَشْهُودٍ﴾ أي وأقسم بمحمد والأنبياء الذين يشهدون على أمهم يوم القيامة، وبجميع الأمم والخلائق الذين يجتمعون في أرض المحشر للحساب كقوله تعالى ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] وقيل: الشاهد هذه الأمة، المشهود سائر الأمم ودليله ﴿لَنَكُونُوا أَشْهَادًا عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] ^(١) ﴿قُلْ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ﴾ هذا هو جواب القسم، والجملة دُعائية أي قاتل الله ولعن أصحاب الأخدود، الذين شقوا الأرض طويلاً وجعلوها أخاديد، وأضرموها فيها النار ليحرقوا بها المؤمنين قال القرطبي: الأخدودُ الشَّقُّ العظيم المستطيل في الأرض كالخندق وجمعه أخاديد، ومعنى ﴿قُلْ﴾ أي لعن، قال ابن عباس: كل شيء في القرآن ﴿قُلْ﴾ فهو لعن ^(٢).. ثم فصل تعالى المراد من الأخدود فقال ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ﴾ أي النار العظيمة المتأججة، ذات الحطب ^(٣) واللهب، التي أضرمتها الكفار في تلك الأخاديد لإحراق المؤمنين قال أبو السعود: وهذا وصف لها بغاية العظم، وارتفاع اللهب، وكثرة ما فيها من الحطب، والقصد وصف النار بالشدة والهول.. ثم بالغ تعالى في وصف المجرمين فقال ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۖ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ أي حين هم جلوس حول النار؛ يتشفون بإحراق المؤمنين فيها، ويشهدون ذلك الفعل الشنيع ^(٤) والغرض تخويف كفار قريش، فقد

(١) اختلف المفسرون في تفسير: «الشاهد» و «المشهود» اختلافاً كبيراً حتى ذكر بعضهم فيها ستة عشر قولاً، فقيل: الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة، وقيل: الشاهد هو محمد والمشهود هو يوم القيامة، وقيل: الشاهد هو جوارح الإنسان والمشهود عليه هو ابن آدم.. إلخ. قال الصاوي: والأحسن أن يراد ما هو أعم؛ ولذلك نكرهما ليعم كل شاهد ومشهود.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٩ / ٢٨٤.

(٣) «تفسير أبي السعود» ٥ / ٢٥٢.

(٤) خلاصة القصة: «أن ملكاً ظالماً كافراً أسلم أهل بلده، فأمر بالأخدود فشق في أفواه السكك، وأضرمت فيها النيران، ثم أمر زبائنه وجنوده أن يأتوا بكل مؤمن ومؤمنة ويعرضوه على النار، فمن لم يرجع عن دينه فليلقوه فيها ففعلوا، حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمّاه اصبري فإنك على الحق» انظر تفصيل القصة في صحيح مسلم. (ش): (السكك): الطُّرُق، وأقواهاها: أبواها. (تقاعست): تَوَقَّفتْ وَلَزِمَتْ مَوْضِعَهَا، وَكَرِهَتْ الدُّخُولَ فِي النَّارِ.

كانوا يعذبون من أسلم من قومهم، ليرجعوا عن الإسلام، فذكر الله تعالى قصة «أصحاب الأخدود» وعيداً للكفار، وتسليّة للمؤمنين المعذبين، ثم قال تعالى ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ أي وما كان لهم ذنب ولا انتقموا منهم، إلا لأنهم آمنوا بالله العزيز الحميد الغالب الذي لا يُضَام مَنْ لا ذنبنا به^(١)، الحميد في جميع أقواله وأفعاله، والغرض أن سبب البطش بهم، وتحريقهم بالنار، لم يكن إلا إيمانهم بالله الواحد الأحد، وهذا ليس بذنب يستحقون به العقوبة، ولكنه الطغيان والإجرام^(٢) ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هذا الإله الجليل المالك لجميع الكائنات، المستحق للمجد والثناء قال في البحر: وإنما ذكر الأوصاف التي يستحق بها تعالى أن يؤمن به، وهي كونه تعالى ﴿عَزِيزًا﴾ أي غالباً قادراً يُخَشَى عقابُه ﴿حَمِيدًا﴾ أي مُنْعَمًا يجب له الحمد على نعمه ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي وكل من فيهما يحق عليه عبادته والخشوع له، إنما ذكر ذلك تقريراً لأن ما نقموا منهم هو الحق الذي لا ينقمه إلا مُبْطِلٌ مُنْهَمِكٌ في الغي^(٣) ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي هو تعالى مطلع على أعمال عباده، لا تخفى عليه خافية من شئونها، وفيه وعد للمؤمنين، ووعد للمجرمين ثم شدد تعالى النكير على المجرمين الذين عذبوا المؤمنين فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنَوْا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي عذبوا وأحرقوا المؤمنين والمؤمنات بالنار ليفتنوهم عن دينهم ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ أي ثم لم يرجعوا عن كفرهم وطغيانهم ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمُ وَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ أي فلهم عذاب جهنم المخزي بكفرهم، ولهم العذاب المحرق بإحراقهم المؤمنين.. ولما ذكر مصير المجرمين أعقبه بذكر مصير المؤمنين فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي الذين جمعوا بين الإيمان الصادق والعمل الصالح ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي لهم البساتين والحدائق الزاهرة، التي تجري من تحت قصورها أنهار الجنة قال الطبري: هي أنهار الخمر واللبن والعسل^(٤) ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ أي ذلك هو الظفر العظيم بغاية المطلوب، الذي لا سعادة ولا فوز بعده.. ثم أخبر تعالى عن انتقامه الشديد من أعداء رسله وأوليائه فقال ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أي إن انتقام الله وأخذه الجبارة والظلمة، بالغ الغاية في الشدة قال أبو السعود: البطش الأخذ بعنف، وحيث وصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم، وهو بطشه بالجبارة والظلمة وأخذه إياهم بالعذاب والانتقام^(٥) ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ﴾ أي هو جل وعلا الخالق القادر، الذي يبدأ الخلق من العدم، ثم يعيدهم أحياء بعد الموت ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾

(١) (ش): أي لا يُدَلَّ مَنْ لجأ إليه واستعان به.

(٢) (ش): الطغيان والإجرام من هؤلاء المشركين.

(٣) «البحر المحيط» ٨ / ٤٥١.

(٤) «تفسير الطبري» ٣٠ / ٨٨.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٥ / ٢٥٣.

أي وهو الساتر لذنوب عباده المؤمنين، اللطيف المحسن إلى أوليائه، المحب لهم قال ابن عباس: يَوَدُّ أوليائه كما يَوَدُّ أحدكم أخاه بالبشرى والمحبة^(١) ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ أي صاحب العرش العظيم، وإنما أضاف العرش إلى الله وخصه بالذكر، لأن العرش أعظم المخلوقات، وأوسع من السموات السبع، وخلق به هذا الوصف يدل على عظمة خالقه ﴿الْمَجِيدُ﴾ أي هو تعالى المجيد، العالي على جميع الخلائق، المتصف بجميع صفات الجلال والكمال ﴿فَعَالٌ لَمَّا يُرِيدُ﴾ أي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه قال القرطبي: أي لا يمتنع عليه شيء يريده^(٢). روي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قيل له وهو في مرض الموت: هل نظر إليك الطبيب؟ قال: نعم، قالوا: فماذا قال لك؟ قال قال لي: ﴿فَعَالٌ لَمَّا يُرِيدُ﴾^(٣) ﴿هَلْ أُنْتُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾؟ استفهامٌ للتشويق أي هل بلغك يا محمد خبر الجموع الكافرة، الذين تجندوا لحرب الرسل والأنبياء؟ هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس، وما أنزل عليهم من النقمة والعذاب؟ قال القرطبي: يؤنس به ذلك ويسليه، ثم بين تعالى من هم فقال ﴿فَرَعُونَ وَنَمُودَ﴾ أي هم فرعون وثمود، أولي البأس والشدة، فقد كانوا أشد بأساً، وأقوى مراساً من قومك، ومع ذلك فقد أخذهم الله تعالى بذنوبهم ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ أي لم يعتبر كفار قريش بما حل بأولئك الكفرة المكذبين، بل هم مستمرون في التكذيب فهم أشد منهم كفراً وطغياناً ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ أي والله تعالى قادرٌ عليهم، لا يفوتونه ولا يعجزونه، لأنهم في قبضته في كل حين وزمان ﴿بَلْ هُوَ قَوِيٌّ بِحُدُوبِ الْبَلَدِ﴾ أي بل هذا الذي كذبوا به، كتابٌ عظيم شريف، متناهٍ في الشرف والمكانة، قد سما على سائر الكتب السماوية، في إعجازه ونظمه وصحة معانيه ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ أي هو في اللوح المحفوظ الذي في السماء، محفوظ من الزيادة والنقص، والتحريف والتبديل.

البَلاَغَةُ: تضمنت السورة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الطباق بين ﴿يُبْدِئُ.. وَيُعِيدُ﴾.
- ٢ - جناس الاشتقاق ﴿شَاهِدٌ.. وَمَشْهُودٌ﴾.
- ٣ - تأكيد المدح بما يشبه الذم ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ كأنه يقول: ليس لهم جريمة إلا إيمانهم بالله، وهذا من أعظم المفاز والمآثر.
- ٤ - المقابلة بين مصير المؤمنين ومصير المجرمين ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ الآية قابله قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ جَنَّاتُ...﴾ إلخ.

(١) «تفسير القرطبي» ٢٩٤/١٩.

(٢) «القرطبي» ٢٩٥/١٩.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٦٢٥/٣.

- ٥ - أسلوب التشويق لاستماع القصة ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾؟
- ٦ - صيغة المبالغة مثل ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ ﴿الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ﴾ وأمثال ذلك.
- ٧ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ ﴿وَشَهِيدٍ مَّشْهُودٍ﴾ ﴿قُنُلٍ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ﴾ ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ﴾. إلخ. وهو من المحسنات البديعية ويسمى بالسجع والله أعلم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة البروج»



سُورَةُ الطَّارِقِ

١٧

٨٦

مكية وآياتها سبع عشرة

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة من السور المكية، وهي تعالج بعض الأمور المتعلقة بالعتيدة الإسلامية، ومحور السورة يدور حول الإيمان بالبعث والنشور، وقد أقامت البرهان الساطع والدليل القاطع على قدرة الله جل وعلا على إمكان البعث، فإن الذي خلق الإنسان من العدم قادر على إعادته بعد موته.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالسماء ذات الكواكب الساطعة^(١)، التي تطلع ليلاً لتضيء للناس سبلهم، ليهدوا بها في ظلمات البر والبحر، على أن كل إنسان قد وكل به من يحرسه، ويتعهد أمره من الملائكة الأبرار ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ٣﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ٤﴾.

* ثم ساق الأدة والبراهين، على قدرة رب العالمين، على إعادة الإنسان بعد فناءه ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ٧﴾ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ٨﴾. ثم أخبرت عن كشف الأسرار، وهتك الأستار في الآخرة، حيث لا معين للإنسان ولا نصير ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ٩﴾ فَالَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ١٠﴾.

* وختمت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن العظيم، معجزة محمد ﷺ الخالدة، وحجته البالغة إلى الناس أجمعين، وبينت صدق هذا القرآن، وأوعدت الكفرة المجرمين بالعذاب الأليم ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ١٣﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا هَزْلٌ ١٤﴾ لَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ١٦﴾ فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رُوبًا ١٧﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ٣﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ٤﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ٧﴾ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ٩﴾ فَالَهُ مِنْ

(١) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الخالق يُقسم بما شاء من خلقه، وأن المخلوق لا ينبغي له أن يُقسم إلا بالخالق. قال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». وفي رواية: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ» (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه أدرَكَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَذَاذَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا، إِنَّ اللَّهَ يَنْهَأكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ خَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ» (رواه البخاري ومسلم).

قُوَّةً وَلَا نَاصِرَ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّالِعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا هَزْلٌ ﴿١٤﴾ لِيَمْزَجَكُمْ إِذْ
﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُمْ رُؤُوسًا

اللغة: ﴿الطَّارِقُ﴾ مأخوذ من الطرق بمعنى الضرب بشدة، ومنه المطرقة، وكل ما جاء
بليل يسمى طارقاً ﴿دَافِقٍ﴾ مصبوب بقوة وشدة يقال: دفع الماء دفقاً إذا انصبَّ بدفع وشدة
﴿وَالْتَرَائِبِ﴾ عظام الصدر جمع تربية مثل فصيلة وفصائل قال امرؤ القيس:

تَرَائِبُهَا مَصْقُولَةٌ كَالسَّجَنَجِلِ^(١)

﴿الرَّجْعِ﴾ المطر سمي به لرجوعه إلى الأرض مراراً ﴿الصَّالِعِ﴾ النبات الذي تنشق عنه
الأرض ﴿رُؤُوسًا﴾ قليلاً أو قريباً.

التفسير: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ أي أقسم بالسماء والكواكب النيرة، التي تظهر ليلاً وتختفي
نهاراً قال المفسرون: سمي النجم طارقاً لأنه إنما يظهر بالليل ويختفي بالنهار، وكل ما يجيء
ليلاً فهو طارق ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا الطَّارِقُ﴾ استفهام للتفخيم والتعظيم أي وما الذي أعلمك يا محمد
ما حقيقة هذا النجم؟ ثم فسره بقوله ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ أي النجم المضيء الذي يثقب الظلام
بضياؤه قال الصاوي: قد كثر منه تعالى في كتابه المجيد ذكر الشمس والقمر والنجوم، لأن
أحوالها في أشكالها وسيرها ومطالعها، ومغارها عجيبة دالة على انفراد خالقها بالكمالات،
لأن الصنعة تدل على الصانع^(٢) ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ هذا جواب القسم أي ما كل نفس
إلا عليها حافظ من الملائكة، يحفظ عملها ويحصى عليها ما تكسب من خيرٍ وشرٍ كقوله
﴿وَأَنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ﴾ ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠-١١] قال ابن كثير: أي كل نفس عليها من
الله حافظ يحرسها من الآفات^(٣).. ثم أمر تعالى بالنظر والتفكير في خلق الإنسان، تنبيهاً على
إمكان البعث والحشر فقال ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾؟ أي فليُنظر الإنسان في أول نشأته نظرة
تكفر واعتبار، من أي شيء خلقه الله؟ ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ أي خلق من المني المتدفق، الذي
ينصب بقوة وشدة، يتدفق من الرجل والمرأة فيتكون منه الولد بإذن الله ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ
وَالْتَرَائِبِ﴾ أي يخرج هذا الماء من بين الصلب وعظم الصدر، من الرجل والمرأة^(٤) ﴿إِنَّهُ عَلَى
رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ أي إن الله تعالى الذي خلق الإنسان ابتداءً، قادر على إعادته بعد موته قال ابن كثير:
نبه تعالى الإنسان على ضعف أصله الذي خلق منه، وأرشده إلى الاعتراف بالمعاد، لأن من
قدر على البداءة، فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى ﴿يَوْمَ بُلِيَ السَّارِكُ﴾ أي يوم تمتحن القلوب

(١) «روح المعاني» للألوسي ٣٠/٩٧. (ش): السَّجَنَجِلُ: المرأة. والسَّجَنَجِلُ: الذهب. وسبائك الفضة.

(٢) «حاشية الصاوي» ٤/٣٠٩.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/٦٢٩.

(٤) الصلب: فقار الظهر ويسمى سلسلة الظهر، والترائب: عظام الصدر، وكنى بالصلب عن الرجل، وبالترائب
عن المرأة.

وَتُخْتَبَرُ، وَيُعْرَفُ مَا بَهَا مِنَ الْعَقَائِدِ وَالنِّيَّاتِ، وَيُمَيَّزُ بَيْنَ مَا طَابَ مِنْهَا وَمَا خَبِثَ ﴿فَالَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ أي فليس للإنسان في ذلك الوقت قوة تدفع عنه العذاب، ولا ناصر ينصره ويجيره، قال في التسهيل: لما كان دفع المكاره في الدنيا إما بقوة الإنسان، أو بنصرة غيره له، أخبره الله تعالى أنه يعدمهما يوم القيامة^(١)، فلا قوة له في نفسه، ولا أحد ينصره من الله. ولما ذكر تعالى أمر المبدأ والمعاد، عاد فأقسم على صدق هذا الكتاب المعجز فقال ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الرَّجْعِ﴾ أي أقسم بالسماء ذات المطر، الذي يرجع على العباد حيناً بعد حين قال ابن عباس: الرجوع المطر ولولاه لهلك الناس وهلكت مواشيهم^(٢) ﴿وَالْأَرْضَ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ أي وأقسم بالأرض التي تتصدع وتنشق، فيخرج منها النبات والأشجار والأزهار قال ابن عباس: هو انصداعها عن النبات والثمار^(٣).. أقسم سبحانه وتعالى بالسماء التي تفيض علينا الماء، والأرض التي تخرج لنا الثمار والنبات، والسماء للخلق كالأب، والأرض لهم كالأم، ومن بينهما تتولد النعم العظيمة، والخيرات العظيمة، التي بها بقاء الإنسان والحيوان ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾ أي إن هذا القرآن لقول فاصل بين الحق والباطل، قد بلغ الغاية في بيانه وتشريعه وإعجازه ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ أي ليس فيه شيء من اللهو والباطل والعبث، بل هو جدُّ كله، لأنه كلام أحكم الحاكمين، فجديرٌ بقرائه أن يتعظ بآياته، ويستنير بتوجيهاته وإرشاداته ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي إن هؤلاء المشركين كفار مكة يعملون المكائد لإطفاء نور الله، وإبطال شريعة محمد ﷺ ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ أي وأجازيهم على كيدهم بالإمهال ثم النكال^(٤)، حيث أخذهم أخذ عزيز مقتدر كقوله تعالى ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] قال أبو السعود: أي أقابلهم بكيد متين لا يمكن رده حيث أستدرجهم من حيث لا يعلمون^(٥) ﴿فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَهْلُهَا رُوِيَ﴾ أي لا تستعجل في هلاكهم والانتقام منهم، وأمهلهم قليلاً فسوف ترى ما أصنع بهم، وهذا منتهى الوعيد والتهديد.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الاستفهام للتفخيم والتعظيم ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ؟﴾
- ٢ - الطباق بين ﴿السَّمَاءِ.. وَالْأَرْضِ﴾ وبين ﴿الْفَصْلِ.. بِالْهَزْلِ﴾.
- ٣ - جناس الاشتقاق ﴿يَكِيدُونَ.. كَيْدًا﴾.
- ٤ - الإطناب بتكرار الفعل مبالغة في الوعيد ﴿فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَهْلُهَا رُوِيَ﴾.

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ١٩٢/٤.

(٢) مختصر ابن كثير ٦٢٨/٣.

(٣) تفسير الطبري ٩٥/٣٠.

(٤) (ش): النكال: العقاب.

(٥) تفسير أبي السعود ٤٣٨/٨.

٥ - الكناية اللطيفة ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ كنى بالصلب عن الرجل، وبالترائب عن المرأة، وهذا من لطيف الكنايات.

٦ - السجع الرصين الذي يزيد في جمال الأسلوب ورشاقته ونضارته مثل ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْرِجِّعِ﴾ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الطارق»



سُورَةُ الْأَعْلَى

١٩

٨٧

مكية وآياتها تسع عشرة

بين يدي السورة

- * سورة الأعلى من السور المكية، وهي تعالج باختصار المواضيع الآتية:
- ١- الذات العلية وبعض صفات الله جل وعلا، والدلائل على القدرة والوحانية.
 - ٢- الوحي والقرآن المنزل على خاتم الرسل ﷺ وتيسير حفظه عليه ﷺ.
 - ٣- الموعظة الحسنة التي ينتفع بها أهل القلوب الحيّة، ويستفيد منها أهل السعادة والإيمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بتنزيه الله جلّ وعلا، الذي خلق فأبدع، وصور فأحسن وأخرج العشب، والنبات، رحمة بالعباد ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿الآيات.

* ثم تحدثت عن الوحي والقرآن، وأنست الرسول ﷺ بالبشارة بتحفيظه هذا الكتاب المجيد، وتيسير حفظه عليه، بحيث لا ينساه أبداً ﴿سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنسَى﴾ (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴿.

- * ثم أمرت بالتذكير بهذا القرآن، الذي سيفيد من نوره المؤمنون، ويتعظ بهديه المتقون، ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ (٩) سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَيَنْجِبُهَا الْأَشَقَى ﴿الآيات.
- * وختمت السورة ببيان فوز من طهر نفسه من الذنوب والآثام، وزكاها بصالح الأعمال ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿إلى نهاية السورة الكريمة.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥) سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَنُبَشِّرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى (٩) سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَيَنْجِبُهَا الْأَشَقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفٍ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى

اللغة: ﴿غُثَاءً﴾ الغطاء: ما يقذف به السيل على جانب الوادي من الحشائش والأوراق والنباتات ﴿أَحْوَى﴾ أسود مأخوذ من الحوة وهي السواد أو السمرة ﴿يَصْلَى﴾ يدخل ويقاسي حرّها يقال: أصليته ناراً وجعلته يذوق حرّها.

التفسير: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ أي نزهه يا محمد ربك العلي الكبير عن صفات النقص، وعمّا يقوله الظالمون، مما لا يليق به سبحانه وتعالى من النقائص والقبائح، وفي الحديث أنه ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال: «سبحان ربي الأعلى»^(١). ثم ذكر من أوصافه الجليلة، ومظاهر قدرته الباهرة، ودلائل وحدانيته وكماله فقال ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى﴾ أي خلق المخلوقات جميعها، فأتقن خلقها، وأبدع صنعها، في أجمل الأشكال، وأحسن الهيئات قال في البحر: أي خلق كل شيء فسواه، بحيث لم يأت متفاوتاً، بل متناسباً على إحكام وإتقان، للدلالة على أنه صادر من عالم حكيم^(٢) ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ أي قدر في كل شيء خواصه ومزاياه بما تجل عنه العقول والأفهام، وهدى الإنسان لوجه الانتفاع بما أودعه فيها، وهدى الأنعام إلى مراعيها، ولو تأملت ما في النباتات من الخواص، وما في المعادن من المزايا والمنافع، واهتداء الإنسان لاستخراج الأدوية والعقاقير النافعة من النباتات، واستخدام المعادن في صنع المدافع والطائرات، لعلمت حكمة العلي القدير، الذي لولا تقديره وهدايته لكننا نهيم في دياجير الظلام كسائر الأنعام قال المفسرون: إنما حذف المفعول لإفادة العموم أي قدر لكل مخلوق وحيوان ما يصلحه، فهده إله وعرفه وجه الانتفاع به^(٣) ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ أي أنبت ما ترعاه الدواب، من الحشائش والأعشاب ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ أي فصيره بعد الخضرة أسود بالياً، بعد أن كان ناضراً زاهياً، ولا يخفى ما في المرعى من المنفعة بعد صيرورته هشيمًا يابسًا، فإنه يكون طعاماً جيداً لكثير من الحيوانات، فسبحان من أحكم كل شيء و﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]!! وبعد أن ذكر دلائل قدرته ووحدانيته، ذكر فضله وإنعامه على رسوله فقال ﴿سُقِّرْتُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ أي سنقرئك يا محمد هذا القرآن العظيم فتحفظه في صدرك ولا تنساه ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي لكن ما أراد الله نسخه فإنك تنساه.. وفي هذه الآية معجزة له عليه الصلاة والسلام، لأنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وكان مع ذلك لا ينسى ما أقرأه جبريل عليه السلام، وكونه يحفظ هذا الكتاب العظيم من غير دراسة ولا تكرار ولا ينساه أبداً، من أعظم البراهين على صدق نبوته ﷺ قال ابن كثير: هذا إخبار من الله تعالى ووعدٌ لرسوله ﷺ بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها^(٤) ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ أي هو تعالى عالم بما يجهر به العباد وما يخفونه من الأقوال والأفعال، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ﴿وَنُيِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ أي ونوفقك للشرعية السمحة البالغة اليسر، التي هي أيسر وأسهل الشرائع السماوية، وهي شريعة الإسلام ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ أي فذكر يا محمد بهذا القرآن حيث

(١) أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس. (ش): ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي والألباني.

(٢) «البحر المحيط» ٤٥٨ / ٨.

(٣) «انظر روح المعاني» ١٠٤ / ٣٠، و«التسهيل لعلوم التنزيل» ١٩٣ / ٤.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٦٣٠ / ٣.

تنفع الموعظة والتذكرة كقوله ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] قال ابن كثير: ومن ههنا يؤخذ الأدب في نشر العلم، فلا يضعه عند غير أهله، كما قال علي رضي الله عنه «مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةٌ» وقال: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله»^(١)؟ ﴿سَيَذَكِّرْ مَنْ يَخْشَى﴾ أي سيتنفع بهذه الذكرى والموعظة من يخاف الله تعالى ﴿وَيَنْجَنِيهَا الْأَشَقَى﴾ أي ويرفضها ويتعد عن قبول الموعظة الكافر المبالغ في الشقاوة ﴿الَّذِي يَصِلُ النَّارَ الْكُبْرَى﴾ أي الذي يدخل نار جهنم المستعرة، العظيمة الفظيعة قال الحسن: النار الكبرى نار الآخرة، والصغرى نار الدنيا^(٢) ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ أي لا يموت فيستريح، ولا يحيا الحياة الطيبة الكريمة، بل هو دائم في العذاب والشقاء^(٣) ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ أي قد فاز من طهر نفسه بالإيمان، وأخلص عمله للرحمن ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ أي وذكر عظمة ربه وجلاله، فصلى خشوعاً وامثالاً لأمره ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي بل تفضلون أيها الناس هذه الحياة الفانية على الآخرة الباقية، فتشتغلون لها وتنسون الآخرة ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أي والحال أن الآخرة خير من الدنيا وأبقى، لأن الدنيا فانية، والآخرة باقية، والباقي خير من الفاني، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى؟ وكيف يهتم بالغرور، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلود؟ قرأ ابن مسعود هذه الآية فقال لأصحابه: أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة؟ قالوا: لا، قال: لأن الدنيا أُحْضِرَتْ وعُجِّلَتْ لنا بطعامها، وشرابها، ونسائها، ولذاتها، وبهجتها، وإن الآخرة عُيِّتْ وزُوِيَتْ عنا^(٤)، فأحببنا العاجل، وتركنا الآجل^(٥) ﴿إِنْ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾^(٦) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿أَيُّ إِنْ هَذِهِ الْمَوَاعِظُ الْمَذْكُورَةُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، مثبتة في الصحف القديمة المنزلة على إبراهيم وموسى عليهما السلام، فهي مما توافقت فيه الشرائع، وسطرته الكتب السماوية، كما سطره هذا الكتاب المجيد.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الطباق ﴿لَا يَمُوتُ .. وَلَا يَحْيَى﴾ وكذلك ﴿الْجَهَنَّمَ .. وَمَا يَخْفَى﴾.
- ٢ - جناس الاشتقاق ﴿وَيُسِيرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ و ﴿فَذَكِّرْ .. الذِّكْرَى﴾.
- ٣ - المقابلة بين ﴿سَيَذَكِّرْ مَنْ يَخْشَى﴾ وبين ﴿وَيَنْجَنِيهَا الْأَشَقَى﴾.

(١) نفس المرجع السابق والصفحة. (ش): كلام علي رضي الله عنه رواه مسلم. وكلام ابن مسعود رضي الله عنه رواه البخاري تعليقا.

(٢) «البحر المحيط» ٤٥٩/٨.

(٣) قال الطبري: العرب إذا وصفت الرجل بوقوعه في شدة شديدة قالوا: لا هو حي ولا هو ميت فخاطبهم الله بما

يعرفون «الطبري» ٥٩/٣.

(٤) (ش): زُوِيَتْ: أُخْفِيَتْ.

(٥) «تفسير الخازن» ٢٣٦/٤.

٤ - حذف المفعول ليفيد العموم في قوله ﴿خَلَقَ فَسَوَّى﴾ وفي ﴿قَدَرَفَهْدَى﴾ لأن المراد خلق كل شيء فسواه، وقدر كل شيء فهداه.

٥ - السجع غير المتكلف وهو كثير في القرآن مثل ﴿أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ ٤ ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ ٥ ﴿سُنُقَرُوكَ فَلَا تَنْسَى﴾ ٦ وهو من المحسنات البديعية.

تنبيه: صحف موسى غير التوراة، وقد رُود أنه أعطي عشر صحف وكانت كلها عبراً، قال أبو ذر: سألت رسول الله ﷺ عن صحف موسى ما كانت؟ قال: «كانت عبراً كلها: عجب لمن أيقن بالموت كيف يفرح، عجب لمن أيقن بالنار كيف يضحك، عجب لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها، عجب لمن أيقن بالقدر ثم ينصب، عجب لمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل»^(١).

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأعلى»



(١) (ش): رواه ابن حبان وضعفه الألباني. النص: التّعَب.

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

مكية وآياتها ست وعشرون

بين يدي السورة

* سورة الغاشية مكية، وقد تناولت موضوعين أساسيين وهما:

١ - القيامة وأحوالها وأهوالها، وما يلقاه الكافر فيها من العناء والبلاء، وما يلقاه المؤمن فيها من السعادة والهناء.

٢ - الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين، وقدرته الباهرة، في خلق الإبل العجيبة، والسماء البديعة، والجبال المرتفعة، والأرض الممتدة الواسعة، وكلها شواهد على وحدانية الله وجلال سلطانه، وختمت السورة الكريمة بالتذكير برجوع الناس جميعاً إلى الله سبحانه للحساب والجزاء.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ① وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ② عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ③ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ④ تُشَقَّى مِنْ عَيْنٍ أَنِيَّةٍ ⑤ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ⑥ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ⑦ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ⑧ لَسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ⑨ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ⑩ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِلْغِيَةِ ⑪ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ⑫ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ⑬ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ⑭ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ⑮ وَزَرَارٍ مَبْنُوتَةٌ ⑯ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ⑰ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ⑱ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ⑲ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ⑳ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ㉑ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ㉒ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ㉓ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ㉔ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ㉕ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ

اللغة: ﴿الْغَاشِيَةِ﴾ القيامة تغشى الناس بأهوالها ﴿خَاشِعَةٌ﴾ ذليلة خاضعة ﴿نَاصِبَةٌ﴾ من النصب وهو التعب ﴿ضَرِيعٍ﴾ شيء في النار كالشوك مرّ مُتِنٌ ﴿نَاعِمَةٌ﴾ ذات حُسن وبهجة ونضارة ﴿وَنَمَارِقُ﴾ وسائد ومرافق^(١) يُتَكَأُ عليها جمع نمرة، قال زهير:

كُھولاً وَشَبَانًا حِسَانًا وَجُوهُهُمْ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَنَمَارِقٍ^(٢)
﴿وَزَرَارٍ﴾ بُسْط فاخرة جمع زَرْبِيَّةٍ وقال الفراء: هي الطنافس التي لها خَمَل رقيق^(٣)،

(١) (ش): المرفق: مِخْدَةٌ أَوْ أَيُّ شَيْءٍ آخَرَ مِمَّا يُتَكَأُ عَلَيْهِ.

(٢) «روح المعاني» ٣٠/١١٥.

(٣) (ش): بُسْط: فُرْش تُبْسَطُ للجلوس عليها. الطنفسة: البساط. (الخَمَل) الخَمْل: هُدْبُ القِطِيفَةِ وَنَحْوَهَا (أي حاشيتها، أطرافها) مِمَّا يُنْسَجُ وَتَفْضُلُ لَهُ فُضُولٌ.

﴿مَبْنُوءَةٌ﴾ مَفْرَقَةٌ فِي الْمَجَالِسِ ﴿إِيَابَهُمْ﴾ رَجُوعُهُمْ.

التفسير: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ الاستفهام للتشويق الى استماع الخبر، وللتنبيه والتفخيم لشأنها، أي: هل جاءك يا محمد خبرُ الداهية العظيمة التي تَغْشَى النَّاسَ وتَعْمَهُمُ بشدائدها وأهوالها، وهي القيامة؟ قال المفسرون: سميت غاشية لأنها تَغْشَى الْخَلَائِقَ بأهوالها وشدائدها، وتَعْمَهُمُ بما فيها من المكاره والكوارث العظيمة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ أي وجوهٌ في ذلك اليوم ذليلة خاضعةٌ مهينة ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ أي دائبة العمل فيما يُعْبِهَا ويُشْقِيهَا في النار قال المفسرون: هذه الآية في الكفار، يتعبون ويشقون بسبب جر السلاسل والأغلال، وخوضهم في النار خوض الإبل في الوَحْل، والصعود والهبوط في تلالها ودركاتها كما قال تعالى ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ (٧١) فِي الْحَمِيرِ تُرْفَى النَّارُ يُسْجَرُونَ ﴿غَافِرًا﴾ وهذا جزاء تكبرهم في الدنيا عن عبادة الله، وانهماكهم في اللذات والشهوات ﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ أي تدخل نارًا مسعرة شديدة الحر قال ابن عباس: قد حَمِيَتْ فِيهِ تَتَطَلَّى عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ (١) ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ﴾ أي تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ مَتْنَاهِيَةِ الْحَرَارَةِ، وَصَلَّ حَرُّهَا وَغَلِيَانُهَا دَرَجَةَ النِّهَايَةِ ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ أي ليس لأهل النار طعام إلا الضريع وهو نبتٌ ذو شوك تسميه قريش «الشَّبرِق» وهو أخبث طعام وأبشعه وهو سُومٌ قَاتِلٌ قَالَ قَتَادَةُ: هُوَ شَرُّ الطَّعَامِ وَأَبْشَعُهُ وَأَخْبَثُهُ (٢) .. ذَكَرَ تَعَالَى هُنَا أَنَّ طَعَامَهُمُ الضَّرِيعُ ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ وَقَالَ فِي الْحَاقَةِ ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسَلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٦] وَلَا تَنَافِي بَيْنَهُمَا (٣)، لِأَنَّ الْعَقَابَ أَلْوَانَ، وَالْمَعْدَبُونَ أَنْوَاعٌ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ طَعَامُهُ الزَّقُومُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ طَعَامُهُ الضَّرِيعُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ طَعَامُهُ الْغَسَلِينَ، وَهَكَذَا يَتَنَوَّعُ الْعَذَابُ ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ أي لَا يَفِيدُ الْقُوَّةَ وَالسَّمْنَ (٤) فِي الْبَدَنِ، وَلَا يَدْفَعُ الْجُوعَ عَنْ أَكْلِهِ قَالَ أَبُو السَّعُودِ: أَيُّ لَيْسَ مِنْ شَأْنِ الْإِسْمَانِ وَالْإِشْبَاعِ، كَمَا هُوَ شَأْنُ طَعَامِ الدُّنْيَا، وَقَدْ رَوَى أَنَّهُ يُسَلِّطُ عَلَيْهِمُ الْجُوعَ بَحِيثٌ يَضْطَرُّهُمْ إِلَى أَكْلِ الضَّرِيعِ، فَإِذَا أَكَلُوهُ يُسَلِّطُ عَلَيْهِمُ الْعَطَشَ فَيَضْطَرُّهُمْ إِلَى شَرْبِ الْحَمِيمِ، فَيَشْوِي وَجُوهَهُمْ وَيَقْطَعُ أَمْعَاءَهُمْ (٥)

(١) «تفسير الخازن» ٤ / ٢٣٧.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣ / ٦٣٢.

(٣) (ش): التَّنَافِي: التَّعَارُضُ.

(٤) (ش): سَمِنَ / سَمْنُ الْإِنْسَانِ أَوْ الْحَيَوَانِ: كَثُرَ لَحْمُهُ وَشَحْمُهُ.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٥ / ٢٥٩. (ش): رُوِيَ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُلْقَى عَلَى أَهْلِ النَّارِ الْجُوعُ فَيَعْدِلُ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ؛ فَيَسْتَعِيشُونَ؛ فَيَعَاثُونَ بِطَعَامٍ مِنْ ضَرِيعٍ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ؛ فَيَسْتَعِيشُونَ بِالطَّعَامِ؛ فَيَعَاثُونَ بِطَعَامِ ذِي غُصَّةٍ؛ فَيَذْكُرُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُجِيزُونَ الْغُصَصَ فِي الدُّنْيَا بِالشَّرَابِ فَيَسْتَعِيشُونَ بِالشَّرَابِ، فَيَرْفَعُ إِلَيْهِمُ الْحَوِيمُ بِكَالِيبِ الْحَدِيدِ، فَإِذَا دَنَتْ مِنْ وَجْهِهِمْ شَوَتْ وَجُوهُهُمْ فَإِذَا دَخَلَتْ بَطُونُهُمْ قَطَعَتْ مَا فِي بَطُونِهِمْ» (رواه الترمذي، وضعفه الألباني).

﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].. ولما ذكر حال الأشقياء أهل النار، أَتْبَعَهُ بذكر حال السعداء أهل الجنة فقال ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ أي وجوه المؤمنين يوم القيامة ناعمة ذات بهجة وحُسن، وإشراق ونضارة كقوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٣٤] ﴿لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ﴾ أي لعملها الذي عملته في الدنيا وطاعتها لله راضية مطمئنة، لأن هذا العمل أورثها الفردوس دار المتقين ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي في حدائق وبساتين مرتفعة مكاناً وقدرًا، وهم في الغرفات آمنون ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً﴾ أي لا تسمع في الجنة شتمًا، أو سبًا، أو فُحشًا قال ابن عباس: لا تسمع أذى ولا باطلاً^(١) ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ أي فيها عيون تجري بالماء السلسيل لا تنقطع أبدًا قال الزمخشري: التنوين في ﴿عَيْنٌ﴾ للتكثير أي عيون كثيرة تجري مياهها^(٢) ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ أي في الجنة أسرة مرتفعة، مُكَلَّلَةٌ بالزبرجد والياقوت، عليها الحور العين، فإذا أراد وليُّ الله أن يجلس على تلك السُرر العالية تواضعت له^(٣) ﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ أي وأقداح موضوعة على حافات العيون، معدة لشرابهم لا تحتاج إلى من يملؤها ﴿وَمَنَارٌ مَّصْفُوفَةٌ﴾ أي ووسائد - مَخَدَّات -^(٤) قد صُفِّ بعضها إلى جانب بعض ليستندوا عليها ﴿وَزَرَائِبُ مَبْنُوتَةٌ﴾ أي وفيها طنافس فاخرة لها خمل رقيق مبسوطة في أنحاء الجنة^(٥). ثم ذكر تعالى الدلائل والبراهين الدالة على قدرته ووحدانيته فقال ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ أي أفلا ينظر هؤلاء الناس نظر تفكر واعتبار، إلى الإبل - الجمال - كيف خلقها الله خلقًا عجيبًا بديعًا يدل على قدرة خالقها؟ قال في التسهيل: في الآية حض على النظر في خلقتها، لما فيها من العجائب في قوتها، وانقيادها مع ذلك لكل ضعيف، وصبرها على العطش، وكثرة المنافع التي فيها، من الركوب والحمل عليها، وأكل لحومها، وشرب ألبانها وغير ذلك^(٦) ﴿وَلِإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾

(١) «تفسير الطبري» ٣٠ / ١٠٤.

(٢) روح المعاني ٣٠ / ١١٥.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣ / ٦٣٣.

(٤) (ش): مَخَدَّة: وسادة يُوضع عليها الخد أو الرأس عند النوم.

(٥) (ش): الطنفسة: البساط. البُسْط: فُرْش تُبْسَط للجلوس عليها. (الخَمَل) الخَمْل: هُدْب القطيفة وَخَوَهَا (أي حاشيتها، أطرافها) مِمَّا يَنْسَجُ وَتَفْضُلُ لَهُ فُضُولٌ.

(٦) «التسهيل» ٤ / ١٩٦ إنما خص تعالى الإبل بالذكر، لأنها أفضل دواب العرب، وأكثرها نفعًا ولهذا تسمى «سفينة الصحراء» فانظر إلى خلقها العجيب، فإنها في غاية القوة والشدة، وهي مع ذلك تنقاد مع الطفل الضعيف، وهي تجلس لتضع عليها حملتها عن قرب، ثم تقوم بما تحمله بما ينوء عنه العصبة أولو القوة، ثم صبرها على الجوع والعطش الأيام المديدة، ثم بلوغها المسافات الطويلة، ورعيها بكل نبات في البراري، =

أي وإلى السماء البديعة المحكمة، كيف رفع الله بناءها، وأعلى سَمَكَهَا بلا عمد ولا دعائم^(١)؟ ﴿وَالْيَ الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ أي إلى الجبال الشاهقة كيف نُصِبَتْ على الأرض نصباً ثابتاً راسخاً لا يتزلزل؟ ﴿وَالْيَ الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ أي وإلى الأرض التي يعيشون عليها، كيف بُسِطَتْ ومُهَدَّتْ حتى صارت شاسعة واسعة يستقرون عليها، ويزرعون فيها أنواع المزروعات؟! قال الألوسي: ولا ينافي هذا، القول بأنها كرة أو قريبة من الكرة لمكان عِظَمِهَا^(٢) والحكمة في تخصيص هذه الأشياء بالذكر، أن القرآن نزل على العرب وكانوا يسافرون كثيراً في الأودية والبراري منفردين عن الناس، والإنسان إذا ابتعد عن المدينة أقبل على التفكير، فأول ما يقع بصره على البعير الذي يركبه فيرى نظراً عجيباً، وإن نظر فوق لم يرَ غير السماء، وإن نظر يميناً وشمالاً لم يرَ غير الجبال، وإن نظر تحت لم يرَ غير الأرض، فلذلك ذكر هذه الأشياء قال ابن كثير: نبه تعالى البدوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكبٌ عليه، والسماء التي فوق رأسه، والجبل الذي تجاهه، والأرض التي تحته، على قدرة خالق ذلك وصانعه، وأنه الرب العظيم، الخالق المالك المتصرف، الذي لا يستحق العبادة سواه^(٣). ولما ذكر تعالى دلائل التوحيد ولم يعتبر بذلك الكفار، أمر نبيه ﷺ بوعظهم وتذكيرهم فقال ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ أي فعظهم يا محمد وخوفهم، ولا يهمنك أنهم لا ينظرون ولا يتفكرون، فإنما أنت واعظ ومرشد ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ أي لست بمُتَسَلِّطٍ عليهم ولا قاهرٍ لهم حتى تجبرهم على الإيمان ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ أي لكن من أعرض عن الوعظ والتذكير، وكفر بالله العلي القدير ﴿فَعَذِّبْهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ أي فيعذبه الله بنار جهنم الدائم عذابها قال القرطبي: وإنما قال ﴿الْأَكْبَرَ﴾ لأنهم عذبوا في الدنيا بالجوع والقحط والقتل والأسر^(٤) ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ أي إلينا وحدنا رجوعهم بعد الموت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ أي ثم إن علينا وحدنا حسابهم وجزاءهم.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - أسلوب التشويق ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾؟

= وغير ذلك من عجائب الخلق والتكوين، فسبحان الحكيم العليم! (ش): بما ينوء عنه العصبية أولو القوة: أي لا يستطيعون حملَه. البراري: الصحاري.

(١) (ش): سَمَكَهَا: سَقَفَهَا.

(٢) أثبت علماءنا أن الأرض كروية كالإمام الفخر الرازي، وأبي السعود، والألوسي، كما نقلنا بعض ذلك في سورة لقمان، وأما كونها مسطحة أو مبسوطة فإنما هي بالنسبة لعظمها وسمتها، أو بالنسبة للناظرين، فليس في القرآن ما يخالف الحقائق العلمية.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٦٣٤.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٣٧.

- ٢ - المجاز المرسل بإطلاق الجزء وإرادة الكل ﴿وَجْهٌ يُومِذُ خَشِيعَةً﴾ المراد أصحابها.
- ٣ - الطباق في الحرف بين ﴿إِنَّا يَا بَهُمْ .. عَلَيْنَا حِسَابُهُمْ﴾.
- ٤ - جناس الاشتقاق ﴿فَذَكَّرٌ .. مُذَكَّرٌ﴾ وبين ﴿فَعَذِبُهُ .. الْعَذَابَ﴾.
- ٥ - المقابلة بين وجوه الأبرار ووجوه الفجار ﴿وَجْهٌ يُومِذُ نَاعِمَةً﴾ (٨) ﴿لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ﴾ قابل بينها وبين سابقتها ﴿وَجْهٌ يُومِذُ خَشِيعَةً﴾ (٢) ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾.
- ٦ - السجع الرصين غير المتكلف مثل ﴿لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ﴾ (٩) ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ (١٠) ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لُغِيَةً﴾ .. إلخ.
- تنبيه:** روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما قدم الشام، أتاه راهب شيخ كبير عليه سواد، فلما رآه عمر بكى، ف قيل له: ما يبكيك يا أمير المؤمنين إنه نصراني؟ فقال: ذكرت قول الله عز وجل ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ (٣) ﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ فبكيت رحمة عليه (١).

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الغاشية»



سُورَةُ الْفَجْرِ

٣٠

٨٩

مكية وآياتها ثلاثون

بين يدي السورة

* سورة الفجر مكية، وهي تتحدث عن أمور ثلاثة رئيسة وهي:

- ١- ذكر قصص بعض الأمم المكذبين لرسول الله، كقوم عاد، وثمود، وقوم فرعون، وبيان ما حل بهم من العذاب والدمار، بسبب طغيانهم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ...﴾ الآيات.
- ٢- بيان سنة الله تعالى في ابتلاء العباد في هذه الحياة بالخير والشر، والغنى والفقر، وطبيعة الإنسان في حبه الشديد للمال ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ...﴾ الآيات.
- ٣- الآخرة وأهلها وشدائدها، وانقسام الناس يوم القيامة إلى سعداء وأشقياء، وبيان مآل النفس الشريرة، والنفس الكريمة الخيرة ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًا ۖ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۚ﴾ الآية (٢٢) وجاء يومئذ بحجهم يومئذ يندكر الإنسان وأنى له الذكرى ﴿إلى نهاية السورة الكريمة.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرَ ۝٤ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبَلَدِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخِرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْنَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبَلَدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِلْ مُرْصِدٍ ۝١٤ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ۝١٦ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرَمُونَ الْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَخْضُوتَ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ ۝١٨ وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًا ۝٢١ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢ وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِحِجْرٍ يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى

اللغة: ﴿حِجْرٌ﴾ عَقْلٌ وَلُبٌّ قال الفراء: العرب تقول: إنه لذو حجر إذا كان قاهرًا لنفسه ضابطًا لها، وأصل الحجر المنع، وسمي العقل حجرًا؛ لأنه يمنع عن السفه قال الشاعر:

وَكَيْفَ يُرْجَى أَنْ تَتُوبَ وَإِنَّمَا يُرْجَى مِنَ الْفَتْيَانِ مَنْ كَانَ ذَا حِجْرٍ ^(١)

﴿جَابُوا﴾ قطعوا ومنه قولهم: فلان يجوب البلاد أي يقطعها ﴿الثَّراث﴾ الميراث ﴿لَمًّا﴾

(١) «تفسير القرطبي» ١٩ / ٤٣.

شديداً وأصله الجمع ومنه قولهم: لَمْ اللَّهُ شَعْنُهُ ^(١)

﴿جَمًّا﴾ كثيراً عظيماً كبيراً قال الشاعر:

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلَمَّا ^(٢)

التفسير: ﴿والفجر وليالٍ عشرٍ﴾ هذا قَسَمٌ ^(٣) أي أقسم بضوء الصبح عند طارده ظلمة الليل، وبالليالي العشر المباركات من أول ذي الحجة، لأنها أيام الاشتغال بأعمال الحج ^(٤) قال المفسرون: أقسم تعالى بالفجر لما فيه من خشوع القلب في حضرة الرب، وبالليالي الفاضلة المباركة وهي عشر ذي الحجة، لأنها أفضل أيام السنة، كما ثبت في صحيح البخاري: «مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ - يَعْنِي أَيَّامَ الْعَشْرِ -» قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا رَجُلًا خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، ثُمَّ لَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ» ^(٥).

﴿وَالشَّفَعُ وَالْوَتْرُ﴾ أي وأقسم بالزوج والفرد من كل شيء فكأنه تعالى أقسم بكل شيء، لأن الأشياء إما زوج وإما فرد، أو هو قسم بالخلق والخالق، فإن الله تعالى واحد «وتر» والمخلوقات ذكرٌ وأنثى «شفع» ^(٦) ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَسِرُ﴾ أي وأقسم بالليل إذا يمضي بحركة الكون العجيبة، والتقيد بسريانه لما فيه من وضوح الدلالة على كمال القدرة، ووفور النعمة ﴿هَلْ فِي

(١) (ش): لَمْ اللَّهُ شَعْنُهُ: أَيَّ جَمَعَ مَا تَفَرَّقَ مِنْ أُمُورِهِ. لَمْ اللَّهُ شَعْنُهُم: جَمَعَ شَمَلَهُمْ وَضَمَّ شَتَاتَهُمْ بَعْدَ تَفَرُّقٍ.

(٢) (ش): اللَّيْلُ لَأُمِّيَّةَ بْنِ الصَّلْتِ، وَقَدْ أَنْشَدَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢] قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمَّا» (رواه الترمذي، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي والألباني). (الكبائر) كُلُّ ذَنْبٍ تَوَعَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالنَّارِ أَوْ مَا عَيْنَ لَهُ حَدًّا أَوْ دَمَ فَاعِلُهُ دَمًا شَدِيدًا. وَالْفَوَاحِشُ جَمْعُ فَاحِشَةٍ وَهِيَ كُلُّ ذَنْبٍ فِيهِ وَعِيدٌ أَوْ مُخْتَصٌ بِالزَّوْنِ. (الَلَمَمُ) أَيُّ الصَّغَائِرِ. «إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا» أَيُّ كَثِيرًا كَبِيرًا. وَإِنْ تَغْفِرْ) لَيْسَ لِلشَّكِّ بَلْ لِلتَّعْلِيلِ نَحْوُ إِنْ كُنْتُ سُلْطَانًا فَأَعْطِ الْجَزِيلَ، أَيُّ لِأَجْلِ أَنَّكَ غَفَّارٌ غَفِيرٌ جَمًّا. (وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمَّا) أَيُّ لَمْ يَلَمْ بِمَعْصِيَةٍ يُقَالُ أَلَمَ إِذَا فَعَلَ اللَّمَمَ. أَيُّ مِنْ شَأْنِكَ غَفَّرَ أَنْ كَثِيرٌ مِنْ ذُنُوبٍ عَظَامٍ. وَأَمَّا الْجَرَائِمُ الصَّغِيرَةُ فَلَا تُنْسَبُ إِلَيْكَ لِأَنَّ أَحَدًا لَا يَخْلُو عَنْهَا وَأَنَّهَا مُكْفَرَةٌ بِاجْتِنَابِ الْكَبَائِرِ.

(٣) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الخالق يقسم بما شاء من خلقه، وأن المخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق. قال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». وفي رواية: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ» (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعن ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ ابْنَ الْخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَتَأَذَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا، إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ، أَوْ لِيَصُمْتُ» (رواه البخاري ومسلم).

(٤) هذا قول الجمهور وهو مروي عن ابن عباس، وقيل هي العشر الأخير من رمضان؟ لأن فيها ليلة القدر، وهي رواية أيضاً عن ابن عباس، والأول أرجح.

(٥) (ش): (لَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ): أَيُّ ذَهَبَ مَالُهُ وَاسْتَشْهَدَ.

(٦) هذا القول روي عن مجاهد وابن عباس، وروي عن ابن عباس أيضاً أن الشفع يوم النحر لكونه العاشر، والوتر يوم عرفة لكونه التاسع، وذكرت أقوال أخرى كثيرة غير هذه.

ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حَجْرِ ﴿١﴾ أي هل فيما ذُكِرَ من الأشياء قَسَمٌ مُّقْنِعٌ لذي لُبٍّ وعقل؟ والاستفهام تقريرٌ لفخامة شأن الأمور المقسَم بها، كأنه يقول: إن هذا القَسَمَ عَظِيمٌ عند ذوي العقول والألباب، فمن كان ذا لُبٍّ وعقل عَلمَ أن ما أقسم الله عَزَّ وَجَلَّ به من هذه الأشياء فيها عجائب ودلائل تدل على توحيده وربوبيته، فهو حقيق بأن يُقسم له لدلالته على الإله الخالق العظيم قال القرطبي: قد يُقسم الله بأسمائه وصفاته لعلمه، ويُقسم بأفعاله لقدرته كما قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقَ الذِّكْرَ وَالْأُنْثَى﴾ [الليل: ٣] ويُقسم بمفعولاته لعجائب صنعه كما قال ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١] ﴿وَالسَّمَاءَ وَالطَّارِقَ﴾ [الطارق: ١]، ﴿وَالْفَجَرَ﴾ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وجواب القسم محذوب تقديره: ورب هذه الأشياء ليعذبن الكفار (٢)، ويدل عليه قوله ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَرَّبُّكَ عِبَادَ﴾؟ أي ألم يبلغك يا محمد ويصل إلى علمك، ماذا فعل الله بعباد قوم هود؟ ﴿إِرمَ ذَاتَ الْعِمَادِ﴾ أي عاد الأولى أهل إرم ذات البناء الرفيع، الذين كانوا يسكنون بالأحقاف بين عُمان وحضر موت ﴿أَلَيْسَ لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ﴾ أي تلك القبيلة التي لم يخلق الله مثلهم في قوتهم، وشدتهم، وضخامة أجسامهم، والمقصود من ذلك تخويف أهل مكة بما صنع تعالى بعباد، وكيف أهلكهم وكانوا أطول أعمارًا، وأشدَّ قوة من كفار مكة! قال ابن كثير: وهؤلاء «عاد الأولى» وهم الذين بعث الله فيهم رسوله «هودًا» عليه السلام فكذبوه وخالفوه، وكانوا عتاة متمردين جبارين، خارجين عن طاعة الله مكذبين لرسله، فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمَّرهم، وجعلهم أحاديث وعبراً (٣) ﴿وَتُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ أي وكذلك تُمود الذين قطعوا صخر الجبال، ونحتوا بيوتاً بوادي القرى ﴿وَكَاثِبَ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢] وكانت مساكنهم في الحجر بين الحجاز وتبوك قال المفسرون: أول من نحت الجبال والصخور والرخام قبيلة تُمود وكانوا لقوتهم يُخْرِجون الصخور، وَيَنْقُبُونَ الجبال (٤) فيجعلونها بيوتاً لأنفسهم، وقد بنوا ألفاً وسبعمائة مدينة كلها بالحجارة بوادي القرى (٥) ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَارِ﴾ أي وكذلك فرعون الطاغية الجبار، ذي الجنود والجموع والجيوش التي تشد ملكه قال أبو السعود: وصف بذلك لكثرة جنوده وخيامهم التي يضربونها في منازلهم أو لتعذيبه بالأوتاد (٦) ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ﴾ أي أولئك المتجبرين «عادًا، وتُمود، وفرعون» الذين تمردوا وعتوا عن أمر الله، وجاوزوا

(١) «تفسير القرطبي» ٤١/١٩.

(٢) انظر «روح المعاني» للألوسي ١٢٢/٣٠.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٦٣٦/٣.

(٤) (ش): نَقَبَ الْبَنَاءُ أو نَقَبَ الْحَائِطَ: ثَقَبَهُ، وفتح فيه نُغْرَةً.

(٥) انظر القرطبي ٤٨/١٩، والبحر المحيط ٤٧٠/٨.

(٦) «تفسير أبي السعود» ٢٦٢/٥.

الحَدِّ فِي الظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ أي فأكثروا في البلاد الظلم والجور^(١) والقتل، وسائر المعاصي والآثام ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي أنزل عليهم ربك ألواناً شديدة من العذاب بسبب إجرامهم وطغيانهم قال المفسرون: استعمل لفظ الصب لاقتضائه السرعة في النزول على المضروب، كما قال القائل «صَبَبْنَا عَلَيْهِمْ ظَالِمِينَ سَيَاطِنًا» والمراد أنه تعالى أنزل على كل طائفة نوعاً من العذاب، فأهلكك عاداً بالريح، وشمود بالصيحة، وفرعون وجنوده بالغرق كما قال تعالى ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠] ^(٢) ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِيَالْمُرْصَادِ﴾ أي إن ربك يا محمد ليرقب عمل الناس، ويحصيه عليهم، ويجازيهم به. قال في التسهيل: المرصاد المكان الذي يترقب فيه الرصد^(٣)، والمراد أنه تعالى رقيب على كل إنسان، وأنه لا يفوته أحد من الجبارة والكفار، وفي ذلك تهديد لكفار قريش^(٤).. ولما ذكر تعالى ما حل بالطغاة المتجبرين، ذكر هنا طبيعة الإنسان الكافر، الذي يطر عند الرخاء، ويقنط عند الضراء فقال ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾ أي إذا اختبره وامتحنه ربه بالنعمة ﴿فَأَكْرَمَهُ، وَنَعَّمَهُ﴾ أي فأكرمه بالغنى واليسار^(٥)، وجعله مُنْعَمًا في الدنيا بالبنين والجاه والسلطان ﴿فَيَقُولُ رَيْتَ أَكْرَمَنِي﴾ أي فيقول: ربي أحسن إليّ بما أعطاني من النعم التي أستحقها، ولم يعلم أن هذا ابتلاء له أيشكر أم يكفر؟ ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ أي وأما إذا اختبره وامتحنه ربه بالفقر وتضييق الرزق ﴿فَيَقُولُ رَيْتَ أَهَنَّنِي﴾ أي فيقول غافلاً عن الحكمة: إن ربي أهانني بتضييقه الرزق عليّ قال القرطبي: وهذه صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث، وإنما الكرامة عنده والهوان بكثرة الحظ في الدنيا وقلته، وأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته وتوفيقه المؤدي إلى حظ الآخرة، وإن وسّع عليه في الدنيا حمده وشكره^(٦)، وإنما أنكر تعالى على الإنسان قوله ﴿رَيْتَ أَكْرَمَنِي﴾ وقوله ﴿رَيْتَ أَهَنَّنِي﴾ لأنه إنما قال ذلك على وجه الفخر والكبر، لا على وجه الشكر، وقال: أهانن على وجه التشكي من الله وقلة الصبر، وكان الواجب عليه أن يشكر على الخير، ويصبر على الشر، ولهذا ردعه وزجره بقوله ﴿كَلَّا﴾ ^(٧) أي ليس الإكرام بالغنى، والإهانة بالفقر كما تظنون، بل الإكرام والإهانة بطاعة الله ومعصيته

(١) (ش): الجور: الظلم.

(٢) سورة العنكبوت: آية ٤٠، وانظر «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٣١٧.

(٣) (ش): رصد: راصد، مراقب.

(٤) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٩٧.

(٥) (ش): يسار: غنى وثروة، رخاء، سعة.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٥١.

(٧) (ش): في أكثر من طبعة: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾، والمثبت هنا هو الصواب ويدل عليه ما بعده.

ولكنكم لا تعلمون، ثم قال ﴿بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ أي بل أنتم تفعلون ما هو شر من ذلك، وهو أنكم لا تكرمون اليتيم مع إكرام الله لكم بكثرة المال! ﴿وَلَا تَخْضَوْنَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ أي ولا يحض بعضكم بعضاً ولا يحثه على إطعام المحتاج وعون المسكين ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾ أي وتأكلون الميراث أكلاً شديداً، لا تسألون أمن حلال هو أم من حرام؟ قال في التسهيل: هو أن يأخذ في الميراث نصيبه ونصيب غيره، لأن العرب كانوا لا يعطون من الميراث أثى ولا صغيراً، بل ينفرده الرجال^(١) ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبَّ جَمًّا﴾ أي وتحبون المال حباً كثيراً مع الحرص والشره^(٢)، وهذا ذم لهم لتكالبهم على المال، وبخلهم بإنفاقه ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ ﴿كَلَّا﴾ للردع أي: ارتدعوا أيها الغافلون وانزجروا عن ذلك، فأمامكم أهوال عظيمة في ذلك اليوم العصيب، وذلك حين تُزلزل الأرض وتُحرك تحريكاً متتابعاً، قال الجلال: أي زُلزِلَتْ حَتَّى يَنْهَدَمَ كُلُّ بِنَاءٍ عَلَيْهَا وَيَنْعَدِمَ^(٣) ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أي وجاء ربك يا محمد لفصل القضاء بين العباد، وجاء الملائكة صفوفاً متتابعة صففاً بعد صف، قال في التسهيل: قال المنذر بن سعيد: معناه ظهوره للخلق هنالك، وهذه الآية وأمثالها مما يجب الإيمان به من غير تكيف ولا تمثيل^(٤) وقال ابن كثير: قام الخلائق من قبورهم لربهم، وجاء ربك لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعدما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم محمد ﷺ، فيجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفاً^(٥) ﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ أي وأحضرت جهنم ليراها المجرمون كقوله ﴿وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ [النازعات: ٣٧] وفي الحديث «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ١٩٨/٤.

(٢) (ش): الشره: شدة الحرص.

(٣) «تفسير الجلالين» ٣١٨/٤.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ١٩٨/٤. (ش): ما ذكره المؤلف في بداية تفسير الآية هو الصواب، فالماجيء صفة من صفات الله على الحقيقة على ما هو لائق بالله بلا معرفة الكيف. وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ لا يصح تأويله بظهور الله للخلق. بل هذا مع مخالفته لظاهر القرآن يخالف نص السنة الصحيحة، فعن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قَالَ: يَجْمَعُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ، قِيَامًا أَرْبَعِينَ سَنَةً شَاخِصَةً أَبْصَارُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ، يَنْظُرُونَ فَضْلَ الْقَضَاءِ، وَيَنْزِلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ظِلِّهِ مِنَ الْعَمَامِ مِنَ الْعَرْشِ إِلَى الْكُرْسِيِّ (رواه ابن أبي الدنيا والطبراني، والحاكم وصححه، وحسنه الذهبي، وصححه الألباني). وبذلك قال أئمة التفسير. قال الإمام الطبري في تفسيره (٢٤/ ٤١٧): «يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَإِذَا جَاءَ رَبُّكَ يَا مُحَمَّدٌ وَأَمْلَأَهُ صُفُوفًا صَفًّا بَعْدَ صَفٍّ». اهـ. ثم أورد من الأحاديث والآثار ما يدل لقوله ويثبت مجيء الله تعالى. وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٨/ ٣٩٩): ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ يَعْنِي: لِفَضْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ خَلْقِهِ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا يَسْتَشْفِعُونَ إِلَيْهِ بِسَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ مُحَمَّدٌ ﷺ... فَيَذْهَبُ فَيَشْفَعُ عِنْدَ اللَّهِ فِي أَنْ يَأْتِيَ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ فَيَشْفَعُهُ اللَّهُ فِي ذَلِكَ... فَيَجِيءُ الرَّبُّ تَعَالَى لِفَضْلِ الْقَضَاءِ كَمَا يَشَاءُ، وَالْمَلَائِكَةُ يَجِيئُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ صُفُوفًا صُفُوفًا».

(٥) «مختصر ابن كثير» ٦٣٨/٣.

سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يُحْرُونََهَا»^(١) ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْذَكُرُ الْإِنْسَانُ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب، والموقف العصيب، يتذكر الإنسان علمه، ويندم على تفريطه وعصيانه، ويريد أن يُقْلَعَ^(٢) ويتوب ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ أي ومن أين يكون له الانتفاع بالذكرى وقد فات أوانها؟! ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ أي يقول نادماً متحسراً: يا ليتني قدمت عملاً صالحاً ينفعني في آخرتي، لحياتي الباقية قال تعالى ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ﴾ أي ففي ذلك اليوم ليس أحد أشد عذاباً من تعذيب الله من عصاه ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدٌ﴾ أي ولا يُقَيِّدُ أَحَدٌ بالسلاسل والأغلال مثل تقييد الله للكافر الفاجر، وهذا في حق المجرمين من الخلائق، فأما النفس الزكية المطمئنة فيقال لها ﴿يَتَأَيَّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ أي يا أيتها النفس الطاهرة الزكية، المطمئنة بوعد الله التي لا يلحقها اليوم خوف ولا فرع ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ أي ارجعي إلى رضوان ربك وجنته، راضية بما أعطاك الله من النعم، مرضيةً عنده بما قدمت من عمل قال المفسرون: هذا الخطاب والنداء يكون عند الموت، فيقال للمؤمن عند احتضاره تلك المقالة: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبْدِي﴾ أي فادخلي في زمرة عبادي الصالحين ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ أي وادخلي جنتي دار الأبرار الصالحين.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يليك

- ١ - الاستفهام التقريري ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾؟
- ٢ - الطباق بين ﴿وَالشَّعْثُ... وَالْوُرُ﴾.
- ٣ - جناس الاشتقاق ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ﴾ ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدٌ﴾ ﴿يَنْذَكُرُ... الذِّكْرَى﴾.
- ٤ - المقابلة ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ وبين ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ الآية فقد قابل بين ﴿أَكْرَمَ﴾ و ﴿أَهَنَ﴾ وبين توسعة الرزق^(٣).
- ٥ - الاستعارة اللطيفة الفائقة ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمُ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ شبه العذاب الشديد الذي نزل عليهم بسياطٍ لاذعة تكوي جسد المعذب واستعمل الصبَّ للإنزال.
- ٦ - الالتفات ﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرَمُونَ الْيَتِيمَ﴾ فيه التفات من ضمير الغائب إلى الخطاب زيادة في التوبيخ والعتاب، والأصل ﴿بل لا يكرمون﴾.
- ٧ - الإضافة للتشريف ﴿فَادْخُلِي فِي عِبْدِي﴾.
- ٨ - السجع الرصين غير المتكلف مثل ﴿وَلَيْلٍ عَشْرٍ﴾^(٤) ﴿وَالشَّعْثُ وَالْوُرُ﴾^(٥) ﴿وَالْيَلَّ إِذَا بَسَّرَ﴾^(٦) ومثل ﴿وَتُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾^(٧) ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْدَادِ﴾^(٨) ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ﴾ الآيات.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفجر»



(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً.

(٢) (ش): أي يُقْلَعُ عن الذنوب، أُلْعِقَ عن الشيء: كَفَّ عنه وتركه، امتنع وتوقَّف عنه.

(٣) (ش): هكذا في أكثر من طبعة، ولعل الصواب: وبين توسعة الرزق وتضييق الرزق.

سُورَةُ الْبَلَدِ

مكية وآياتها عشرون

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مكية، وأهدافها نفس أهداف السور المكية، من تثبيت العقيدة والإيمان، والتركيز على الإيمان بالحساب والجزاء، والتمييز بين الأبرار والفجار.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالبلد الحرام، الذي هو سكنُ النبي عليه الصلاة والسلام، تعظيمًا لشأنه، وتكريمًا لمقامه الرفيع عند ربه، ولفتحًا لأنظار الكفار إلى أن إيذاء الرسول في البلد الأمين من أكبر الكبائر عند الله تعالى.

* ثم تحدثت عن بعض كفار مكة، الذين اغتروا بقوتهم، فعاندوا الحق، وكذبوا رسول الله ﷺ وأنفقوا أموالهم في المباهاة والمفاخرة، ظنًا منها أن إنفاق الأموال يدفع عنهم عذاب الله، وقد ردت عليهم الآيات بالحجة القاطعة والبرهان الساطع.

* ثم تناولت أهوال القيامة وشدائدها، وما يكون بين يدي الإنسان في الآخرة من مصاعب ومتاعب وعقبات لا يستطيع أن يقطعها يجتازها إلا بالإيمان والعمل الصالح.

* وختمت السورة الكريمة بالتفريق بين المؤمنين والكفار في ذلك اليوم العصيب، وبينت مآل السعداء، ومآل الأشقياء، في دار الجزاء.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ① وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ② وَاللَّيْلُ وَنَارُ الْيَوْمِ ③ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ④
أَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ⑤ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ ⑥ أَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهِ أَحَدٌ ⑦ أَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ⑧
وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ⑨ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ⑩ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ⑪ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ⑫ فَكُ رَقَبَةً ⑬
أَوْ إِطْعَمَ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ⑭ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ⑮ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ⑯ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ⑰ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ⑱ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَابِعُنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ⑲
عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ

اللغة: ﴿كَبَدٍ﴾ الكبد: الشدة والمشقة، وأصله من كَبَد الرجل كَبَدًا إذا وجعته كَبَدَهُ ثم استعمل في كل تعب ومشقة، ومنه المكابدة لمقاساة الشدائد ﴿اقْتَحَمَ﴾ الاقتحام: الدخول بسرعة وشدة يقال: اقتحم الأمر، واقتحم الحصن إذا رمى نفسه فيه بدون رَوِيَّة ⑴ ﴿الْعَقَبَةُ﴾

(ش): رَوِيَّة: نَظَرٌ وتفكيرٌ في الأمور.

الطريق الوعر في الجبل ^(١) ﴿فَكُّ﴾ الفكُّ تخلص الشيء من الشيء يقال: فككت الحبل، وفككت الأسير، أي: خلصته من الأسر ﴿مَسْعَبٍ﴾ مسعاة يقال: سَعَبَ الرجل إذا جاع وقال الراغب: هو الجوع مع التعب ^(٢) ﴿مَرَبَةٍ﴾ افتقار يقال: ترب الرجل إذا افتقر ولصق بالتراب، وأترب إذا استغنى وكذلك أثرى ^(٣) ﴿مُؤَصَّدَةٍ﴾ مُطَبَّقة من أوَصَد الباب إذا أغلقه وأطبَّقه ^(٤).

التفسير: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ هذا قسمٌ، أقسم سبحانه بالبلد الحرام «مكة» ^(٥) التي شرَّفها الله تعالى بالبيت العتيق قبلة أهل الشرق والغرب، وجعلها مهبط الرحمات ^(٦)، وإليها تُجَبى ثمرات كل شيء، وجعلها حرماً آمناً، وجعل حرمتها منذ خلق السموات والأرض ^(٧)، فلما استجمعت تلك المزايا والفضائل أقسم الله تعالى بها قال في التسهيل: أراد بالبلد «مكة» باتفاق، وأقسم بها تشريفاً لها ^(٨) ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أي وأنت يا محمد ساكنٌ ومقيم بمكة بلد الله الأمين قال البيضاوي: أقسم بالبلد الحرام وقيده بحلولة عليه السلام فيه أي إقامته فيه إظهاراً لمزيد فضله، وإشعاراً بأن شرف المكان بشرف أهله ^(٩) ﴿وَوَالِدٍ وَمَوْلَدٍ﴾ أي وأقسم بآدم وذريته الصالحين قال مجاهد: الوالد آدم عليه السلام ﴿وَمَوْلَدٍ﴾ جميع ذريته قال ابن كثير: وما ذهب إليه مجاهد وأصحابه حسنٌ قوي، لأنه تعالى لما أقسم بأُم القرى وهي المساكن، أقسم بعده بالساكين وهو «آدم» أبو البشر وولده ^(١٠). وقال الخازن: أقسم الله تعالى بمكة لشرفها وحرمتها، وبآدم وبالأَنْبياء والصالحين من ذريته، لأن الكافر وإن كان من ذريته لا حرمة له

(١) (ش): طريق وعر: طريق صلب، والسَّير فيه صعبٌ، مخيف، مُوحِش.

(٢) روح المعاني ١٣٨/٣٠.

(٣) «البحر المحيط» ٤٧٣/٨.

(٤) (ش): أطبق: أغلق.

(٥) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الخالق يُقسم بما شاء من خلقه، وأن المخلوق لا ينبغي له أن يُقسم إلا بالخالق. قال عليه السلام: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». وفي رواية: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ» (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه أذرك عمر بن الخطاب في ركب وهو يحلف بأبيه، فتأذاهم رسول الله ﷺ: «أَلَا، إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفاً فَلْيُحْلِفْ بِاللَّهِ، أَوْ لِيَصُمْتُ» (رواه البخاري ومسلم).

(٦) (ش): أي مكان نزول الرحمات. مهبط / مهبط: مكان النزول.

(٧) في الحديث الذي رواه الشيخان: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهِيَ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَإِنَّمَا أَجَلْتُ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ». الحديث. (ش): أي يسر الله وصول الثمرات والأمتعة والأرزاق من كل مكان إلى أهل الحرم.

(٨) التسهيل لعلوم التنزيل ١٩٩/٤.

(٩) «تفسير البيضاوي» ٦٦٠/٣.

(١٠) «مختصر تفسير ابن كثير» ٦٤٠/٣.

حتى يقسم به^(١) ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ هذا هو المقسم عليه أي لقد خلقنا الإنسان في تعب ومشقة، فإنه لا يزال يقاسي أنواع الشدائد، من وقت نفخ الروح فيه إلى حين نزعها منه قال ابن عباس: ﴿فِي كَبَدٍ﴾ أي في مشقة وشدة، من حمله، وولادته، ورضاعه، وطفامه، ومعاشه، وحياته، وموته^(٢)، وأصل الكبد: الشدة، وقيل: لم يخلق الله خلقاً يكابد ما يكابد ابن آدم، وهو مع ذلك أضعف الخلق^(٣) قال أبو السعود: والآية تسليّة لرسول الله ﷺ مما كان يكابده من كفار مكة^(٤).. ثم أخبر تعالى عن طبيعة الإنسان الجاحد بقدرة الله، والمكذب للبعث والنشور فقال ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ أي أيظن هذا الشقي الفاجر، المغتر بقوته، أن الله تعالى لا يقدر عليه لشدته وقوته؟ قال المفسرون: نزلت في «أبي الأشد بن كلدة» كان شديداً مغترّاً بقوته، وكان يسطر له الأديم الجلد فيوضع تحت قدميه، ويقول: «مَنْ أزالني عنه فله كذا»، فيجذبه عشرة فيتقطع قطعاً ولا تزلّ قدماه^(٥)، ومعنى الآية: أيظن هذا القوي المارد، المستضعف للمؤمنين، أنه لن يقدر على الانتقام منه أحد؟ ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا لُبْدًا﴾ أي يقول هذا الكافر: أنفقت ما لا كثيراً في عداوة محمد ﷺ قال الألوسي: أي يقول فخراً ومباهاة على المؤمنين: أنفقت ما لا كثيراً، وأراد بذلك ما أنفقه «رياءً وسمعةً» وعبر عن الإنفاق بالإهلاك، إظهاراً لعدم الاكتراث، وأنه لم يفعل ذلك رجاء نفع، فكانه جعل المال الكثير ضائعاً، وقيل: يقول ذلك إظهاراً لشدّة عداوته لرسول الله ﷺ^(٦) ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾؟ أي أيظن أن الله تعالى لم يره حين كان ينفق، ويظن أن أعماله تخفى على رب العباد؟ ليس الأمر كما يظن، بل إن الله رقيب مطلع عليه، سيسأله يوم القيامة ويجازيه عليه. ثم ذكره تعالى بنعمه عليه ليعتبر ويتعظ فقال ﴿أَلَمْ جَعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ أي ألم نجعل له عينين يُبصر بهما؟ ﴿وَلِسَانًا﴾ أي ولساناً ينطق به فيعبر عما في ضميره؟ ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ أي وشفتين يُطَبِّقُهُمَا^(٧) على فمه، ويستعين بهما على الأكل والشرب والنفخ وغير ذلك، قال الخازن: يريد أن نعم الله على عبده مُتَظَاهِرَةً، يقرره بها كي يشكره^(٨) ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ أي وبيّنا له طريقي الخير والشر، والهدى والضلال، ليسلك طريق السعادة، ويتجنب طريق الشقاوة قال ابن مسعود: ﴿النَّجْدَيْنِ﴾ الخير والشر كقوله تعالى

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٤٨.

(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٤٨.

(٣) نفس المرجع السابق.

(٤) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٦٥.

(٥) (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد. وفيه مبالغة ظاهرة في قوة هذا الرجل.

(٦) «تفسير الألوسي» ٣٠/ ١٣٦.

(٧) (ش): يُطَبِّقُهُمَا: يُعْلِقُهُمَا.

(٨) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٤٩.

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] ^(١) ﴿فَلَا أَفْنَحُمُ الْعُقْبَةَ﴾ أي فهلأ أنفق ماله في اجتياز العقبة الكئود ^(٢)، بدل أن ينفقه في عداوة محمد ﷺ؟! قال في البحر: والعقبة استعارة للعمل الشاق على النفس، من حيث فيه بذل المال، تشبيهاً لها بعقبة الجبل وهو ما صعب منه وقت الصعود، فإنه يلحقه مشقة في سلوكها، ومعنى اقتحمها دخلها بسرعة وشدة ^(٣)، وهو مثل ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس، والهوى، والشيطان، حتى ينال رضى الرحمن ﴿وَمَا أَذْرَنَّاكَ مَا الْعُقْبَةُ﴾ ^(٤) أي وما أعلمك ما اقتحام العقبة؟ وفيه تعظيم لشأنها وتهويل... ثم فسر لها تعالى بقوله ﴿فَكَرِهِي﴾ أي هي عتق الرقبة في سبيل الله، وتخليص صاحبها من الأسر والرق، فمن أعتق رقبة كانت له فداء من النار ^(٥) ﴿أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ أي أو أن يطعم الفقير في يوم عصيب ذي مجاعة. قال الصاوي: وقيد الإطعام بيوم المجاعة، لأن إخراج المال فيه أشد على النفس ^(٦) ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي أطعم اليتيم الذي بينه وبينه قرابة ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أو المسكين الفقير البائس الذي قد لصق بالتراب من فقره وضربه، وهو كناية عن شدة الفقر والبؤس قال ابن عباس: هو المطروح على ظهر الطريق لا يقيه من التراب شيء ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي عمل هذه القربات لوجه الله تعالى، وكان مع ذلك مؤمناً صادق الإيمان قال المفسرون: وفي الآية إشارة أن هذه القرب والطاعات لا تنفع إلا مع الإيمان ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ أي وأوصى بعضهم بعضاً بالصبر على الإيمان وطاعة الرحمن، وبالرحمة والشفقة على الضعفاء والمساكين ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ أي هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات الجليلة، هم أصحاب الجنة الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، ويسعدون بدخول جنات النعيم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَبَّأُنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ قرن بين الأبرار والفجار على طريقة القرآن في الترهيب والترهيب، لبيان المفارقة الهائلة بين أهل الجنة وأهل النار، وبين السعداء والأشرار، أي: والذين جحدوا نبوة محمد وكذبوا بالقرآن هم أهل الشمال أهل النار لأنهم يأخذون كتبهم بشمائلهم، وعبر عنهم بضمير الغائب إشارة إلى أنهم غائبون عن حضرة قدسه، وكرامة أنسه ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ أي عليهم نارٌ مُطَبَّقة مُغلقة، لا يدخل فيها رَوْحٌ ولا رِيحَانٌ ^(٧)، ولا يخرجون

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٦٤١ / ٣.

(٢) (ش): كَادَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ: اشْتَدَّ وَصَعِبَ. عقبة كئود: صعبة، يصعب صعودها وتجاوزها.

(٣) «تفسير البحر المحيط» ٤٧٦ / ٨.

(٤) (ش): في أكثر من طبعة: ﴿وَمَا أَذْرَنَّاكَ مَا الْعُقْبَةُ﴾ ^(١٢) ﴿فَكَرِهِي﴾، والمُثَبَّت هنا هو الصواب ويدل عليه ما بعده.

(٥) (ش): قَالَ ﷺ: «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُّؤْمِنَةً أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عَظْمٍ مِنْهُ عَظْمًا مِنَ النَّارِ حَتَّى يُعْتِقَ فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(٦) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣٢٢ / ٤.

(٧) (ش): رَوْحٌ: رَاحَةٌ أَوْ رَحْمَةٌ.

منها أبَدَ الزمان^(١). اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، ونجنا من ذلك يا رب.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - زيادة ﴿لَا﴾ لتأكيد الكلام، وهو مستفيض في كلام العرب ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أي أقسم بهذا البلد، وفائدتها تأكيد القسم كقولك: لا والله ما ذاك كما تقول، أي: والله. قال امرؤ القيس: «لَا وَأَيُّكَ ابْنَةُ الْعَامِرِيِّ...»^(٢).

٢ جناس الاشتقاق ﴿وَالِدٍ وَمَوْلَدٍ﴾ فكل من الوالد والولد مشتق من الولادة.

٣ - الاستفهام الإنكاري للتوبيخ ﴿يَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾؟ ومثله ﴿يَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾؟

٤ - الاستفهام التقريري للتذكير بالنعم ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ ⑧ ولساناً وشفئتين؟

٥ - الاستفهام للتهويل والتعظيم ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعُقْبَةُ﴾؟ لأن الغرض تعظيم شأنها.

٦ - الاستعارة اللطيفة ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ أي طريقي الخير والشر، وأصل النجد الطريق

المرتفع، استعير كل منهما لسلوك طريق السعادة، وسلوك طريق الشقاوة.

٧ - الاستعارة كذلك في قوله ﴿فَلَا أَقْنَمَ الْعُقْبَةَ﴾ لأن أصل العقبة الطريق الوعر في الجبل،

واستعيرت هنا للأعمال الصالحة لأنها لا تصعب وتشق على النفوس، ففيه استعارة تبعية.

٨ - الجناس الناقص بين ﴿مَقْرَبَةٍ﴾ و﴿مَتَرَبَةٍ﴾ لتغير بعض الحروف.

٩ - المقابلة اللطيفة بين ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْإِيمَنَةِ﴾ وبين ﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾.

١٠ - مراعاة الفواصل ورءوس الآيات مثل ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ... وَالِدٍ وَمَوْلَدٍ﴾ ② لَقَدْ خَلَقْنَا

الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ومثل ﴿عَيْنَيْنِ﴾ ⑧ ولساناً وشفئتين وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة البلد»



(١) اقتبسنا هذا التفسير من الطبري والقرطبي و«البحر المحيط» وتفسير ابن كثير وغيرها من أمهات كتب التفسير.

(ش): رَوْحٌ: رَحْمَةٌ وَاسِعَةٌ، وَاسْتِرَاحَةٌ، وَفَرَحٌ. رِيحَانٌ: رِزْقٌ حَسَنٌ، وَرَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، وَجَمِيعٌ مَا تَطِيبُ بِهِ نَفْسُهُ.

(٢) (ش):

لَا وَأَيُّكَ ابْنَةُ الْعَامِرِيِّ لَا يَدْعِي الْقَوْمُ إِلَيَّ أَفِرُّ

(ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الخالق يُقسم بما شاء من خلقه، وأن المخلوق

لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسَمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ③: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». وفي رواية: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ

كَفَرَ» (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعن ابن عمر ④: أَنَّهُ أَذْرَكَ عَمَرَ

ابْنَ الْخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَخْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا، إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَخْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ

كَانَ خَالِفاً فَلْيَخْلِفْ بِاللَّهِ، أَوْ لِيَصْنُتْ» (رواه البخاري ومسلم).

سُورَةُ الشَّمْسِ

مكية وآياتها خمس عشرة

بين يدي السورة

* سورة الشمس مكية، وقد تناولت موضوعين اثنين وهما:

١ - موضوع النفس الإنسانية، وما جبلها الله عليه من الخير والشر، والهدى والضلال.

٢ - وموضوع الطغيان ممثلاً في ﴿ثُمُودُ﴾ الذين عقروا الناقة فأهلكهم الله ودمرهم.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بسبعة أشياء من مخلوقات الله جل وعلا، فأقسم تعالى بالشمس وضوئها الساطع، والقمر إذا أعقبها وهو طالع، ثم بالنهار إذا جلى ظلمة الليل بضياءه، وبالليل إذا غطى الكائنات بظلامه، ثم بالقادر الذي أحكم بناء السماء بلا عمد، وبالأرض الذي بسطها على ماء جمد، وبالنفس البشرية التي كملها الله وزينها بالفضائل والكمالات، وأقسم بهذه الأمور على فلاح الإنسان ونجاحه إذا اتقى الله، وعلى شقاوته وخسرانه إذا طغى وتمرد.

* ثم ذكر تعالى قصة ﴿ثُمُودُ﴾ قوم صالح حين كذبوا رسولهم، وطغوا وبغوا في الأرض، وعقروا الناقة التي خلقها الله تعالى من صخر أصم^(١)

معجزة لرسوله صالح عليه السلام، وما كان من أمر هلاكهم الفظيع الذي بقى عبرة لمن يعتبر، وهو نموذج لكل كافر فاجر مكذب لرسول الله.

* وقد ختمت السورة الكريمة بأنه تعالى لا يخاف عاقبة إهلاكهم وتدميرهم، لأنه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ① وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا ② وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ③ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ④ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ⑤
وَالْأَرْضِ وَمَا طَرَاهَا ⑥ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ⑦ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ⑧ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ⑨ وَقَدْ
خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ⑩ كَذَّبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَاهَا ⑪ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ⑫ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ
وَسُقَاهَا ⑬ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ⑭ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا

اللغة: ﴿وَضُحَاهَا﴾ ضوؤها، والضحى وقت ارتفاع الشمس أول النهار قال المبرد: الضحى مشتق من الضح وهو نور الشمس^(٢) ﴿طَرَاهَا﴾ بسطها ومدّها قال الجوهري: طَحَوْتُه مثل

(١) (ش): صخر أصم: صُلْبٌ مَتِينٌ، مُضْمَتٌ لَا فَرَاغَ فِيهِ.

(٢) «روح المعاني» للألوسي ٣٠/ ١٤٠.

دَحَوْتُهُ أَي بَسَطْتُهُ^(١) ﴿دَسَّهَا﴾ أَخْفَاهَا وَأَصْلُ الْكَلِمَةِ دَسَّسَهَا أُبْدِلْتُ السَّيْنَ الثَّانِيَةَ أَلْفًا تَخْفِيفًا ﴿فَدَمْدَمَ﴾ الدَّمْدَمَةُ: إِطْبَاقُ الشَّيْءِ عَلَى الشَّيْءِ^(٢) يُقَالُ: دَمَدَمَ عَلَيْهِ الْقَبْرُ، أَي: أَطْبَقَهُ، وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا إِطْبَاقُ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ بِمَعْنَى إِهْلَاكِهِمْ بِطَرِيقِ الْإِسْتِصَالِ ﴿عُقْبَهَا﴾ عَاقِبَتُهَا وَتَبَعَتُهَا.

التفسير: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾^(١) وَالْقَمَرُ إِذَا نَلَّهَا^(٢) وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا^(٣) وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا^(٤) وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا أَي أَقْسَمَ بِالشَّمْسِ وَضَوْئِهَا السَّاطِعِ إِذَا أَنْارَ الْكَوْنُ وَبَدَّدَ الظَّلَامَ^(٥) ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا نَلَّهَا﴾ أَي وَأَقْسَمَ بِالْقَمَرِ إِذَا سَطَعَ مَضِيئًا، وَتَبَعَ الشَّمْسُ طَالِعًا بَعْدَ غُرُوبِهَا قَالَ الْمَفْسُورُونَ: وَذَلِكَ فِي النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الشَّهْرِ، إِذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ تَلَاهَا الْقَمَرُ فِي الْإِضَاءَةِ وَخَلَفَهَا فِي النُّورِ، وَحِكْمَةُ الْقِسْمِ بِالشَّمْسِ أَنَّ الْعَالَمَ فِي وَقْتِ غِيَابَةِ الشَّمْسِ عَنْهُمْ كَالْأَمْوَاتِ، فَإِذَا ظَهَرَ الصَّبْحُ وَبَزَغَتِ الشَّمْسُ دَبَّتْ فِيهِمُ الْحَيَاةُ، وَصَارَ الْأَمْوَاتُ أَحْيَاءً فَانْتَشَرُوا لِأَعْمَالِهِمْ وَقَتِ الضَّحْوَةِ، وَهَذِهِ الْحَالَةُ تَشْبِهُ أَحْوَالِ الْقِيَامَةِ، وَوَقْتُ الضَّحَى يَشْبِهُ اسْتِقْرَارَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيهَا، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مَخْلُوقَانِ لِمَصَالِحِ الْبَشَرِ، وَالْقِسْمُ بِهِمَا لِلتَّنْبِيهِ عَلَى مَا فِيهِمَا مِنَ الْمَنَافِعِ الْعَظِيمَةِ^(٦) ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا﴾ أَي وَأَقْسَمَ بِالنَّهَارِ إِذَا جَلَّ ظِلْمَةُ اللَّهِ بَضِيئًا، وَكَشَفَهَا بَنُورَهُ وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: إِذَا جَلَّى الْبَسِيطَةَ وَأَضَاءَ الْكَوْنُ بَنُورَهُ^(٥) ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ أَي وَأَقْسَمُ بِاللَّيْلِ إِذَا غَطَّى الْكَوْنُ بِظِلَامِهِ، وَلَفَّهَ بِشَبَحِهِ، فَالنَّهَارُ يُجَلِّي الْمَعْمُورَةَ وَيُظْهِرُهَا، وَاللَّيْلُ يَغْطِيهَا وَيَسْتُرُهَا، قَالَ الصَّادِقُ: وَأَتَى بِالْفِعْلِ مُضَارِعًا ﴿يَغْشَاهَا﴾ وَلَمْ يَقُلْ ﴿غَشَاهَا﴾ مُرَاعَاةً لِلْفَوَاصِلِ^(٦) ﴿وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا﴾ أَي وَأَقْسَمَ بِالْقَادِرِ الْعَظِيمِ الَّذِي بَنَى السَّمَاءَ، وَأَحْكَمَ بِنَاءَهَا بِمَا عَمِدَ قَالَ الْمَفْسُورُونَ: ﴿وَمَا﴾ اسْمُ مُوَصُولٍ بِمَعْنَى «مِنْ» أَيِ وَالسَّمَاءِ وَمِنْ بِنَائِهَا وَالْمُرَادُ بِهِ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ بَعْدَهُ ﴿فَالْهَمَّهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ كَأَنَّهُ قَالَ: وَالْقَادِرُ الْعَظِيمُ الشَّأْنُ الَّذِي بَنَاهَا، فَدَلَّ بِنَاؤُهَا وَإِحْكَامُهَا عَلَى وَجُودِهِ، وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ^(٧) ﴿وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَّهَا﴾ أَي وَأَقْسَمُ بِالْأَرْضِ وَمِنْ بَسْطِهَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَجَعَلَهَا مُمْتَدَّةً مُمَهَّدَةً، صَالِحَةً لِسُكْنَى الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ^(٨)، وَهَذَا لَا يَنَافِي كُرُوبِهَا كَمَا

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٦٤٤ / ٣.

(٢) (ش): أَطْبَقَ الشَّيْءُ الشَّيْءَ: غَطَّاهُ.

(٣) (ش): تَقَدَّمَ كَثِيرًا أَنَّ الْخَالِقَ يُقْسِمُ بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، وَأَنَّ الْمَخْلُوقَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ.

(٤) انظر «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣٢٣ / ٤.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ٦٤٤ / ٣.

(٦) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣٢١ / ٤.

(٧) (ش): لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ ذِكْرِ الْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ مَجْرَدِ اسْتِدْلَالِ عَلَى وَجُودِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ الْمَخَاطِبِينَ يُقَرُّونَ بِذَلِكَ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ اسْتِدْلَالُ عَلَى إِفْرَادِهِ بِالْعِبَادَةِ وَهُوَ الَّذِي يَجْحَدُهُ الْمَخَاطِبُونَ. وَمِمَّا يُؤَيِّدُ أَنَّ الْمُرَادَ اسْتِدْلَالُ عَلَى إِفْرَادِهِ بِالْعِبَادَةِ أَنَّ الْمُؤَلَّفَ قَدْ قَالَ بَعْدَ قَلِيلٍ: إِنَّ اللَّهَ أَقْسَمَ بِسَبْعَةِ أَشْيَاءَ «الشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ، وَاللَّيْلُ، وَالنَّهَارُ، وَالسَّمَاءُ، وَالْأَرْضُ، وَالنَّفْسُ الْبَشَرِيَّةُ» إِظْهَارًا لِعَظَمَةِ قُدْرَتِهِ، وَانْفِرَادِهِ بِالْأَلُوْهِةِ.

(٨) (ش): سَكَنَ الْمَكَانَ / سَكَنَ بِالْمَكَانِ / سَكَنَ فِي الْمَكَانِ: أَقَامَ بِهِ وَاسْتَوَظَنَهُ.

قال المفسرون،^(١) لأن الغرض من الآية الامتنان بجعل الأرض ممتدة واسعة، ميسرة للزراعة والفلاحة^(٢) وسكنى الإنسان ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا﴾ أي وأقسم بالنفس البشرية وبالذي أنشأها وأبدعها، وجعلها مستعدة لكمالها، وذلك بتعديل أعضائها، وقواها الظاهرة والباطنة، ومن تمام تسويتها أن وهبها العقل الذي تميز به بين الخير والشر، والتقوى والفجور، ولهذا قال ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أي وعرفها الفجور والتقوى وما تميز به بين رشدها وضلالها قال ابن عباس: بين لها الخير والشر، والطاعة والمعصية، وعرفها ما تأتي وما تتقي^(٣)، قال المفسرون: أقسم سبحانه بسبعة أشياء «الشمس، والقمر، والليل، والنهار، والسماء، والأرض، والنفس البشرية» إظهاراً لعظمة قدرته، وانفراده بالألوهية، وإشارة إلى كثرة مصالح تلك الأشياء وعظم نفعها وأنها لا بد لها من صانع ومدبر لحرركاتها وسكناتها وقال الإمام الفخر: لما كانت الشمس أعظم المحسوسات، ذكرها تعالى مع أوصافها الأربعة الدالة على عظمها، ثم ذكر سبحانه ذاته المقدسة، ووصفها جلّ وعلا بصفات ثلاث^(٤) ليحظى العقل بإدراك جلال الله تعالى وعظمته، كما يليق به جلّ جلاله، فكان ذلك طريقاً إلى جذب العقل من حضيض عالم المحسوسات، إلى بيداء أوج كبريائه جلّ شأنه^(٥) ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ هذا هو جواب القسم، أي: لقد فاز وأفلح من زكّى نفسه بطاعة الله، وطهرها من دنس المعاصي والآثام ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ أي وقد خسر وخاب من حقر نفسه بالكفر والمعاصي، وأورد لها موارد الهلكة، فإن من طاولع هواه، وعصى أمر مولاه، فقد نقص من عداد العقلاء^(٦)، والتحق بالجهلة الأغبياء ثم ضرب تعالى مثلاً لمن طغى وبغى، ولم يطهر نفسه من دنس الكفر والعصيان، فذكر ﴿ثُمُودٌ﴾ قوم صالح عليه السلام فقال ﴿كَذَّبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ أي كذبت ثمود نبيها بسبب طغيانها ﴿إِذْ أُنْبِئَتْ أَشَقُّهَا﴾ أي حين انطلق أشقى القوم بسرعة ونشاط يعقر الناقة قال ابن كثير: وهو «قدار بن سالف» الذي قال الله فيه ﴿فَادَاؤُا صَاحِبِهِمْ فَطَاعُوا هُفَعْرَ﴾ [القمر: ٢٩] وكان عزيزاً شريفاً في قومه، ورئيساً مطاعاً فيهم، وهو أشقى القبيلة^(٧) ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي فقال لهم صالح عليه السلام ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ أي احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء،

(١) انظر أقوال المفسرين في إثبات كروية الأرض في سورة لقمان.

(٢) (ش): الفلاحة: الزراعة؛ القيام بشئون الأرض الزراعية من حرث وزرع وزَيِّ وغير ذلك.

(٣) (ش): أي عرفها ما يجب عليها أن تفعله، وما يجب عليها ألا تفعله.

(٤) (ش): هذه الصفات الثلاث في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَيْنَهَا﴾ ٥ ﴿وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَّهَا﴾ ٦ ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا﴾ [الشمس: ٥ - ٧]، قال الرازي: «ثُمَّ ذَكَرَ ذَاتَهُ الْمُقَدَّسَةَ بَعْدَ ذَلِكَ وَوَصَفَهَا بِصِفَاتٍ ثَلَاثَةٍ وَهِيَ تَدْبِيرُهُ سُبْحَانَهُ لِلْسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلِلْمُرَكَّبَاتِ، وَنَبَّهَ عَلَى الْمُرَكَّبَاتِ بِذِكْرِ أَشْرَفِهَا وَهِيَ النَّفْسُ» [التفسير الكبير] (٣١ / ١٧٥).

(٥) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠. (ش): أوج: قمة، ذروة أو علو وارتفاع.

(٦) (ش): أي لم يعد منهم. يقال: فلان في عداد الصالحين: أي من بينهم، في جملتهم، معدود منهم.

(٧) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣ / ٦٤٥.

واحذروا أيضًا أن تمنعوها من سُقياها، أي: شربها ونصيبها من الماء كما قال تعالى ﴿لَهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ أي فكذبوا نبيه صالحًا وقتلوا الناقة، ولم يلتفتوا إلى تحذيره ﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي فأهلكهم الله ودمرهم عن آخرهم بسبب إجرامهم وطغيانهم قال الخازن: والدمدمة: هلاك باستئصال. والمعنى: أطبق عليهم العذاب طبقًا فلم ينفلت منهم أحد^(١) ﴿فَسَوَّيْنَاهَا﴾ أي فسوى بين القبيلة في العقوبة فلم يفلت منهم أحد، لا صغير ولا كبير، ولا غني ولا فقير ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ أي ولا يخاف تعالى عاقبة إهلاكهم وتدميرهم، كما يخاف الرؤساء والملوك عاقبة ما يفعلون، لأنه تعالى لا يُسأل عما يفعل.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الطباق بين ﴿وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ﴾ و ﴿وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وبين ﴿فَجُورُهَا وَتَقْوَاهَا﴾.
- ٢ - المقابلة اللطيفة بين ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ وبين ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ وبين ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ وبين ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ وكل من الطباق والمقابلة من المحسنات البديعية.
- ٣ - الإضافة للتكريم والتشريف ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ نسبت إلى الله تشريفًا لأنها خرجت من حجر أصم معجزةً لصالح عليه السلام.
- ٤ - التهويل والتفطيع ﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ فإن التعبير بالدمدمة يدل على هول العذاب.
- ٥ - السجع المرصع مراعاة للفواصل ورءوس الآيات وهو ظاهرٌ جليٌّ في السورة الكريمة.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الشمس»



سُورَةُ اللَّيْلِ

مكية وآياتها إحدى وعشرون

بين يدي السورة

* سورة الليل مكية، وهي تتحدث عن سعي الإنسان وعمله، وعن كفاحه ونضاله في هذه الحياة، ثم نهايته إلى النعيم أو إلى الجحيم.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالليل^(١) إذا غشي الخليفة بظلامه، وبالنهار إذا أثار الوجود بإشراقه وضياؤه، وبالخالق العظيم الذي أوجد النوعين الذكر والأنثى، أقسم على أن عمل الخلائق مختلف، وطريقهم متباين ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ۝ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ۝ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ۝ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ۝﴾.

* ثم وضحت سبيل السعادة، وسبيل الشقاء، ورسمت الخط الباني لطالب النجاة، وبينت أوصاف الأبرار والفقار، وأهل الجنة وأهل النار ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۝ وَأَمَّا مَنْ كَبَلَ وَاسْتَعْتَى ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۝﴾.

* ثم نهت إلى اغترار بعض الناس بأموالهم التي جمعوها، واثرواتهم التي كدسوها، وهي لا تنفعهم في القيامة شيئاً، وذكرتهم بحكمة الله في توضيحه لعباده طريق الهداية وطريق الضلالة ﴿وَمَا يَنْفَعِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ۝ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ۝ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ۝﴾.

* وختمت السورة بذكر نموذج للمؤمن الصالح، الذي ينفق ماله في وجوه الخير، ليزكي نفسه ويصونها من عذاب الله، وضربت المثل بابي بكر الصديق رضي الله عنه حين اشترى بلالاً وأعتقه في سبيل الله ﴿وَسَيَجْزِيهِ الْآلَتْقَى ۝ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ۝ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ الْأَعْلَى ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ۝﴾^(٢).

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ۝ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ۝ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ۝ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ۝ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۝ وَأَمَّا مَنْ كَبَلَ وَاسْتَعْتَى ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۝

(١) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الخالق يُقسم بما شاء من خلقه، وأن المخلوق لا ينبغي له أن يُقسم إلا بالخالق. قال عليه السلام: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». وفي رواية: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ» (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه أذرك عمر بن الخطاب في ركب وهو يحلف بأبيه، فناداهم رسول الله ﷺ: «أَلَا، إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفاً فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ، أَوْ لِيَصُمْتُ» (رواه البخاري ومسلم).

(٢) (ش): انظر التعليق التالي.

وَمَا يُعْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَبَ وَتَوَلَّى ﴿١٦﴾ وَسَيَجْزِيهَا الْآلُفَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُوَفِّي مَالَهُ يَتْرَكِي ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ

اللغة: ﴿تَجَلَّى﴾ انكشف وظهر ﴿لَشَقَّى﴾ متفرق ومختلف ﴿بِالْحُسْنَى﴾ الكلمة الحسنی وهي كلمة التوحيد ﴿لِلْيُسْرَى﴾ الخصلة المؤدية إلى اليسر والراحة وهي الجنة ﴿لِلْعُسْرَى﴾ الخصلة المؤدية إلى العسر والشدة وهي جهنم ﴿تَرَدَّى﴾ هلك وسقط في الهاوية ﴿تَلَظَّى﴾ أصلها تتلظى أي تتلهب وتتوقد ﴿يَصْلَاهَا﴾ يدخلها ويقاسي حرها.

المناسبة: روي أن بلالاً رضي الله عنه كان عبداً مملوكاً لـ «أمية بن خلف» وكان سيده يعذبه لإسلامه، ويخرجه إذا حميت الشمس فيطره على ظهره ببطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد! (فيقول وهو في تلك الحالة: أحد، أحد، فمر به أبو بكر الصديق وهم يصنعون به ذلك، فقال لأمية: ألا تتقي الله في هذا المسكين)! فقال له: أنت أفسدته علي فأنقذه مما ترى، فاشتراه أبو بكر منه وأعتقه في سبيل الله، فقال المشركون: إنما أعتقه ليد كانت له عنده فنزلت ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾^(١).

التفسير: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ أي أقسم بالليل إذا غطى بظلمته الكون، وستر بشبهه الوجود ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ أي أقسم بالنهار إذا تجلى وانكشف، وأنار العالم وأضاء الكون قال المفسرون: أقسم تعالى بالليل لأنه سكن لكافة الخلق، يأوي فيه الإنسان والحيوان إلى مأواه، ويسكن عن الاضطراب والحركة، ثم أقسم بالنهار لأن فيه حركة الخلق وسعيهم إلى اكتساب

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣٢٦/٤، و«تفسير الخازن» ٢٥٦/٤. (ش): رواه الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد. وهناك رواية أخرى أن سبب نزولها إعتاق أبي بكر لبلال رضي الله عنه خصوصاً، رواها الآجري في «الشرعية» وأبو الشيخ، والواحدي في «أسباب النزول» بإسناد ضعيف. وعن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، قال: «نزلت هذه الآية ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ٢٠] في أبي بكر الصديق رضي الله عنه». (حسن، رواه البزار). عن عبد الله بن الزبير، قال: قال أبو فحافة لأبي بكر: «أراك نعتق رقاباً ضعافاً فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجلاً جليداً يمتعونك ويقومون دونك». فقال أبو بكر: «يا أبت إنني إنما أريد ما أريد»، قال: فتيحدث ما نزل هؤلاء الآيات إلا فيه، وفيما قال أبوه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَانْفَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ يَجَلِّ وَأَسْفَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُعْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَبَ وَتَوَلَّى ﴿١٦﴾ وَسَيَجْزِيهَا الْآلُفَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُوَفِّي مَالَهُ يَتْرَكِي ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ٦]. (رواه أحمد في فضائل الصحابة، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي). جُلِّدًا: جمع جلد: قوي، شديد البأس. قال: فتيحدث ما نزل هؤلاء الآيات إلا فيه... هذا من كلام عبد الله بن الزبير. وقد ثبت أن أبا بكر أعتق بلالاً رضي الله عنه، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان عمر يقول: «أبو بكر سيّدنا، وأعتق سيّدنا». يعنى بلالاً. رواه البخاري.

الرزق، والحكمة في هذا القسم ما في تعاقب الليل والنهار من مصالح لا تحصي فإنه لو كان العمر كله ليلاً لتعذر المعاش، ولو كان كله نهاراً لما سكن الإنسان إلى الراحة، ولَا خَتَلَتْ مصالحُ البشر ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ أي وأقسمُ بالقادر العظيم الذي خلق صفتي الذكر والأنثى، من نطفة إذا تُمْنَى.. أقسم تعالى بذاته على خلق النوعين ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ للتنبية على أنه الخالق المبدع الحكيم، إذ لا يُعقل أن هذا التخالف بين الذكر والأنثى يحصل بمحض الصدفة من طبيعة بلهاء لا شعور لها فإن الأجزاء الأصلية في المَنيّ متساوية، فتكوينُ الولد من عناصر واحدة تارةً ذكراً، وتارةً أنثى، دليلٌ على أن واضع هذا النظام عالم بما يفعل، مُحْكِمٌ لما يصنع ﴿إِنْ سَعَيْكُمْ لَشَيْءٌ﴾ هذا هو جواب القسم أي إن عملكم لمختلف، فمنكم تقِيٌّ ومنكم شَقِيٌّ، ومنكم صالحٌ ومنكم طالحٌ^(١)، ثم فسّره بقوله ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ أي فأما من أعطى ماله وأنفق ابتغاء وجه الله، واتقى ربه فكف عن محارم الله قال ابن كثير: أعطى ما أمر بإخراجه، واتقى الله في أموره^(٢) ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ أي وصدق بالجنة التي أعدّها الله للأبرار ﴿فَسَيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ أي فسهيّئه لعمل الخير، ونسهّل عليه الخصلة المؤدية لليسر، وهي فعل الطاعات وترك المحرمات ﴿وَأَمَّا مَنْ يَخِلْ وَاسْتَغْنَى﴾ أي وأمّا من بخل بإنفاق المال، واستغنى عن عبادة ذي الجلال قال ابن عباس: بخل بماله، واستغنى عن ربه عز وجل ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ أي وكذب بالجنة ونعيمها ﴿فَسَيَسِّرُهُ لِّلْعُسْرَى﴾ أي فسهيّئه للخصلة المؤدية للعسر، وهي الحياة السيئة في الدنيا والآخرة وهي طريق الشر قال المفسرون: سمى طريقة الخير يسرى؛ لأن عاقبتها اليسر وهي دخول الجنة دار النعيم، وسمى طريقة الشرّ عسرى؛ لأن عاقبتها العسر وهو دخول الجحيم ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ استفهام إنكاري أي شيء ينفعه ماله إذا هلك وهو في نار جهنم؟ هل نفعه المال، ويدفع عنه الوبال؟ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ أي إنّ علينا أن نبين للناس طريق الهدى من طريق الضلالة، ونوضح سبيل الرشd من سبيل الغيّ كقوله ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] ﴿وَلِنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ أي لنا ما في الدنيا والآخرة، فمن طلبهما من غير الله فقد أخطأ الطريق ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ أي فحذرتكم يا أهل مكة ناراً تتوقّد وتتوهج من شدة حرارتها ﴿لَا يَصْلَحْنَهَا إِلَّا الْآسَفَى﴾ أي لا يدخلها للخلود فيها ولا يذوق سعيها، إلا الكافر الشقي.. ثم فسّره تعالى بقوله ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ أي كذب الرسل وأعرض عن الإيمان ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ أي وسيعد عن النار التقيّ النقيّ، المبالغ في اجتناب الشرك والمعاصي.. ثم فسّره تعالى بقوله ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ أي الذي ينفق ماله في وجوه الخير ليزكي نفسه ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ أي وليس لأحدٍ عنده نعمة حتى يكافئه عليها،

(١) (ش): طالح: شرير، فاسد، خلاف صالح.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٤٦.

وإنما ينفق لوجه الله قال المفسرون: نزلت الآيات في حق «أبي بكر الصديق» حين اشترى بلالاً وأعتقه في سبيل الله فقال المشركون: إنما فعل ذلك ليد كانت له عنده فنزلت ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ الْأَعْلَى﴾^(١) قَالَ أَي لَيْسَ لَهُ غَايَةٌ إِلَّا مَرْضَاةُ اللَّهِ ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ أَي وَلَسَوْفَ يُعْطِيهِ اللَّهُ فِي الْآخِرَةِ مَا يَرْضِيهِ وَهُوَ وَعْدُ كَرِيمٍ مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الطباق بين لفظة ﴿الْأَشَقَى﴾ و ﴿الْأَنفَى﴾ وبين ﴿لَيْسَ رِضَى﴾ و ﴿لَعُسْرَى﴾.
 - ٢ - المقابلة اللطيفة ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَى﴾^(٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى وبين ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى﴾^(٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿الآيات.
 - ٣ - جناس الاشتقاق ﴿فَسَيُسِيرُهُ لَلْعُسْرَى﴾ لأن اليسرى من التيسير فبينهما مجانسة.
 - ٤ - حذف المفعول للتعميم ليذهب ذهن السامع كل مذهب ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَى﴾.. الآيات.
 - ٥ - السجع الرصين غير المتكلف كقوله ﴿لَا يَصْلَحُهَا إِلَّا الْأَشَقَى.. وَسَيَجْنِبُهَا الْأَنفَى﴾ إلخ.
- كان عمر رضي الله عنه يقول: أعتق سيدنا سيدنا يريد أعتق سيدنا أبو بكر سيدنا بلالاً، فما أروع هذه النفوس! اللهم ارزقنا محبة أصحاب الرسول جميعاً^(٢).

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الليل»



(١) مُحَقَّقُهُ: انظر التعليق التالي.

(٢) (ش): عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ عُمَرُ يَقُولُ: «أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا، وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا». يَعْْنِي بِلَالًا. (رواه البخاري).

سُورَةُ الضُّحَى

مكية وآياتها إحدى عشرة

بين يدي السورة

* سورة الضحى مكية، وهي تتناول شخصية النبي الأعظم ﷺ، وما حباه الله به من الفضل والإنعام في الدنيا والآخرة^(١)، ليشكر الله على تلك النعم الجليلة.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم على جلالة قدر الرسول ﷺ وأن ربه لم يهجره ولم يغيضه كما زعم المشركون، بل هو عند الله رفيع القدر، عظيم الشأن والمكانة ﴿وَالضُّحَى ١﴾
وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ٣﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ٤﴾.

* ثم بشرته بالعطاء الجزيل في الآخرة، وما أداه الله تعالى لرسوله من أنواع الكرامات، ومنها الشفاعة العظمى ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ٥﴾.

* ثم ذكرته بما كان عليه في الصغر، من اليتيم، والفقر، والفاقة، والضياع، فأواه ربه وأغناه وأحاطه بكلئه وعنايته ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ٨﴾.

* وختمت السورة بتوصيته ﷺ بوصايا ثلاث، مقابل تلك النعم الثلاث، ليعطف على اليتيم ويرحم المحتاج، ويمسح دموعه البائس المسكين ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ١١﴾ وهو ختم يتناسق فيه جمال اللفظ مع روعة البيان.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَى ١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ٣﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ٤﴾ وَلَسَوْفَ
يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ٨﴾
فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ١١﴾

اللغة: ﴿سَجَى﴾ سجد الليل: اشتد ظلامه ﴿قَلَى﴾ أبغض قال الراغب: القَلَى: شدة البُغْض، يقال: قلاه ويقليه أي أبغضه^(٢) ﴿فَآوَى﴾ ضمّه إلى من يراعه ﴿عَائِلًا﴾ فقيرًا معدمًا وهو من اشتد به الفقر قال جرير:

اللَّهُ نَزَلَ فِي الْكِتَابِ فَرِيضَةً لِّابْنِ السَّبِيلِ وَلِلْفَقِيرِ الْعَائِلِ^(٣)

(١) (ش): يقال: حباه الله الخير: أي أعطاه بلا جزاء.

(٢) «مفردات القرآن» للراغب الأصفهاني.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٤٨٦.

﴿نَهَرَ﴾ تَذَلُّهُ وَتَحْقِرُهُ ﴿نَهَرَ﴾ تَرْجُرُهُ وَتَغْلِظُ عَلَيْهِ فِي الْكَلَامِ.

سَبَبُ النُّزُولِ: اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقيم ليلتين أو ثلاثاً فجاءت امرأة وهي أم جميل امرأة أبي لهب فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك! لم أره قربك ليلتين أو ثلاثاً فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَاقَلَىٰ ۝٣﴾^(١).

التفسير: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ أقسم تعالى بوقت الضحى وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس، وأقسم بالليل إذا اشتد ظلامه، وغطى كل شيء في الوجود قال ابن عباس: ﴿سَجَىٰ﴾ أَقْبَلَ بِظَلَامِهِ^(٢) قال ابن كثير: هذا قسمٌ منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من الضياء، وبالليل إذا سكن فأظلم وادلهم^(٣)، وذلك دليل ظاهر على قدرته تعالى^(٤) ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَاقَلَىٰ﴾ أي ما تركك ربك يا محمد منذ اختارك، ولا أبغضك منذ أحبك، وهذا ردٌّ على المشركين حين قالوا: هجره ربه، وهو جواب القسم ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ أي وللدائر الآخرة خيرٌ لك يا محمد من هذه الحياة الدنيا، لأن الآخرة باقية، والدنيا فانية، ولهذا كان عليه السلام يقول: «اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ»^(٥) ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَفَرِّضْ﴾ أي سوف يعطيك ربك في الآخرة من الثواب، والكرامة، والشفاعة، وغير ذلك إلى أن ترضى قال ابن عباس: هي الشفاعة في أمته حتى يرضى، لما روي أن النبي ﷺ ذكر أمته فقال: اللَّهُمَّ أُمْتِي أُمْتِي. وَبَكَى فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ فَسَلُهُ مَا يُبْكِيكَ فَآتَاهُ جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا قَالَ. وَهُوَ أَعْلَمُ. فَقَالَ: اللَّهُ يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ إِنَّا سَنَرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ^(٦)، وفي الحديث «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ فَتَعَجَّلْ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لَأُمْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٧) الحديث

(١) الحديث في الصحيحين بدون ذكر اسم المرأة. (ش): وقد ورد ذكر اسم المرأة في حديث ضعيف رواه الحاكم عن زيد بن أرقم - رضي الله عنه - قال: لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ٤ - ٥]؛ قال: فقبل لامرأة أبي لهب: إن محمداً قد هجأك؛ فأنت رسول الله ﷺ وهو جالس في الملاء، فقالت: يا محمد! على ما تهجونى؟ قال: فقال: «والله ما هجوتك، ما هجأك إلا الله»، قال: فقالت: هل رأيتني أحمل حطباً أو رأيت في جيدي حبلاً من مسد، ثم انطلقت فمكث رسول الله ﷺ أياماً لا ينزل عليه؛ فأنته فقالت: يا محمد! ما أرى صاحبك إلا قد ودعك وفلاك؛ فأنزل الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَاقَلَىٰ ۝٣﴾.

(٢) تفسير الخازن ٨٥٢ / ٤.

(٣) (ش): ادلهم الليل / ادلهم الظلام: كُتِفَ واسودَّ، اشتدَّ سواده.

(٤) أخرجه مسلم.

(٥) (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٦) أخرجه مسلم.

(٧) أخرجه الشيخان.

قال الخازن: والأولى حملُ الآية على ظاهرها ليشمل خيرى الدنيا والآخرة معاً، فقد أعطاه الله تعالى في الدنيا النصر والظفر على الأعداء، وكثرة الأتباع والفتوح، وأعلى دينه، وجعل أمته خير الأمم، وأعطاه في الآخرة الشفاعة العامة، والمقام المحمود، وغير ذلك من خيرى الدنيا والآخرة^(١).. ثم لما وعده بهذا الوعد الجليل، ذكره بنعمه عليه في حال صغره ليشكر ربه فقال ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَكَأْوًى﴾ أي ألم تكن يا محمد يتيماً في صغرك، فأواك الله إلى عمك أبي طالب وضمك إليه؟ قال ابن كثير: وذلك أن أباه توفي وهو حملٌ في بطن أمه، ثم توفيت أمه وله من العمر ست سنين، ثم كان في كفالة جده «عبد المطلب» إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين، فكفله عمه «أبو طالب» ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره حتى ابتعثه الله على رأس الأربعين وأبو طالب على عبادة الأوثان مثل قومه ومع ذلك كان يدفع الأذى عن رسول الله ﷺ، وكل هذا من حفظ الله له، وكلاءته وعنايته به^(٢) ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ أي ووجدك تائهاً عن معرفة الشريعة والدين فهداك إليها كقوله تعالى ﴿مَا كُنْتَ تَدْرَى مَا أَلْكَتُبُ وَلَا أَلَايْمُنُ﴾ [الشورى: ٥٢] قال الإمام الجلال: أي وجدك ضالاً عما أنت عليه الآن من الشريعة فهداك إليها^(٣)، وقيل: ضلٌ في بعض شعاب مكة وهو صغير فردّه الله إلى جده^(٤) قال أبو حيان: لا يمكن حملُه على الضلال الذي يقابله الهدى، لأن الأنبياء معصومون من ذلك قال ابن عباس: هو ضلاله وهو في صغره في شعاب مكة، وقيل: ضلٌ وهو مع عمه طريق الشام^(٥) ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ أي ووجدك فقيراً محتاجاً فأغناك عن الخلق، بما يس لك من أسباب التجارة.. ولما عدّد عليه هذه النعم الثلاث، وصّاه بثلاث وصايا مقابلة فقال ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ أي فأما اليتيم فلا تحتقره ولا تغلبه على ماله قال مجاهد: أي لا تحتقره وقال سفيان: لا تظلمه بتضييع ماله، والمراد كن لليتيم كالأب الرحيم، فقد كنت يتيماً فأواك الله ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي وأمّا السائل المُسْتَجِدِّي^(٦) الذي يسأل عن حاجة وفقر، فلا تزجره إذا سألَكَ ولا تُغلظ له القول بل أعطه أو ردّه ردّاً جميلاً قال قتادة: ردّ المسكين برفقٍ ولين ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أي حدّث الناس بفضل الله وإنعامه عليك، فإن التحدث بالنعمة شكر لها قال الألوسي: كنت يتيماً وضالاً وعائلاً، فأواك الله وهداك وأغناك، فلا تنس نعمة الله عليك في هذه الثلاث، فتعطف على اليتيم، وترحم على السائق، فقد دُفّت اليُتم والفقر، وأُرشد العباد

(١) «تفسير الخازن» ٢٥٨/٤.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٦٥٠/٣.

(٣) «تفسير الجلالين» ٣٣٠/٤.

(٤) «تفسير الخازن» ٢٦٠/٤.

(٥) «البحر المحيط» في التفسير ٤٨١/٨.

(٦) (ش): المُسْتَجِدِّي: مَنْ يَسْتَجِدِّي النَّاسَ، أَيْ يَطْلُبُ مِنْهُمْ الْعَطِيَّةَ مُسْتَرْحِمًا مُتَوَسِّلًا.

إلى طريق الرشاد، كما هداك ربُّك^(١).

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الطباق بين ﴿وَلِلْآخِرَةِ﴾ و ﴿الْأُولَى﴾ لأن المراد بالأولى الدنيا وهي تطابق الآخرة.
- ٢ - المقابلة اللطيفة ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى .. وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ قابلها بقوله ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ^(١) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ وهي من لطائف علم البديع.
- ٣ - الجناس الناقص بين ﴿فَقْهَرْ﴾ و ﴿نَنْهَرْ﴾ لتغير الحرف الثاني من الكلمتين.
- ٤ - السجع المرصع كأنه الدر المنظوم في عقد كريم ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى^(٢) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى^(٣) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ إلخ.

«تم بحمده تعالى تفسير سورة الضحى»



سُورَةُ الشَّرْحِ

٩٤

٨

مكية وآياتها ثمان

بين يدي السورة

✽ سورة الانشراح مكية، وهي تتحدث عن مكانة الرسول الجليلة، ومقامه الرفيع عند الله تعالى، وقد تناولت الحديث عن نعم الله العديدة على عبده ورسوله محمد ﷺ، وذلك بشرح صدره بالإيمان، وتنوير قلبه بالحكمة والعرفان، وتطهيره من الذنوب والأوزار، وكل ذلك بقصد التسليّة لرسول الله عليه السلام عما يلقيه من أذى الفجار، وتطيب خاطر الشريف بما منحه الله من الأنوار ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ ﴿الَّذِي أَقْنَصَ ظَهْرَكَ﴾ (٢).

✽ ثم تحدثت عن إعلاء منزلة الرسول، ورفع مقامه في الدنيا والآخرة، وقرن اسمه ﷺ باسم الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.

✽ وتناولت السورة دعوة الرسول ﷺ وهو بمكة يقاسى مع المؤمنين الشدائد والأهوال من الكفرة المكذبين، فأنسه بقرب الفرج وقرب النصر على الأعداء ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (٥) فَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (٦) فَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ.

✽ وختمت بالتذكير للمصطفى ﷺ بواجب التفرغ لعبادة الله، بعد انتهائه من تبليغ الرسالة، شكرًا لله على ما أولاّه من النعم الجليلة ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ. قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَقْنَصَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ

التفسير: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ استفهام بمعنى التقرير، أي: قد شرحنا لك صدرك يا محمد بالهدى والإيمان، ونور القرآن كقوله تعالى ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] قال ابن كثير: أي نورناه وجعلناه فسيحًا، رحيبًا، واسعًا، وكما شرح الله صدره كذلك جعل شرعه فسيحًا، سمحًا، سهلًا، لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق^(١) وقال أبو حيان: شرح الصدر تنويره بالحكمة، وتوسيعه لتلقي ما يوحي إليه وهو قول الجمهور، وقيل: هو شق جبريل لصدره في صغره وهو مروي عن ابن عباس^(٢) ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾ أي حططنا

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢٥٦/٣.

(٢) «تفسير البحر المحيط» ٤٨٧/٨، والرواية التي أشار إليها ذكرت في صحيح مسلم، فعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب فاستخرج منه =

عنك حملك الثقيل ﴿الَّذِي أَنْفَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي الذي أثقل وأوهن ظهرك قال المفسرون: المراد بالوزر الأمور التي فعلها ﷺ، وَوَضَعُهَا عَنْهُ هو غفرانها له كقوله تعالى ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] وليس المراد بالذنوب المعاصي والآثام، فإن الرسل معصومون من مقارفة الجرائم، ولكن ما فعله عليه السلام عن اجتهاد وعوتب عليه، كإذنه ﷺ للمنافقين في التخلف عن الجهاد حين اعتذروا، وأخذ الفداء من أسرى بدر، وعبسه في وجه الأعمى ونحو ذلك، قال في التسهيل: وإنما وصفت ذنوب الأنبياء بالثقل، وهي صغائر مغفورة لهم، لهم بها وتحسرهم عليها؛ فهي ثقيلة عندهم لشدة خوفهم من الله وهذا كما ورد في الأثر: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ، فَقَالَ بِهِ هَكَذَا»^(١) والنقيض هو الصوت الذي يسمع من المحمل فوق ظهر البعير من شدة الحمل ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ أي رفعنا شأنك، وأعلينا مقامك في الدنيا والآخرة، وجعلنا اسمك مقروناً باسمي قال مجاهد: لا أذكر إلا ذُكِرْتَ معي وقال قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب، ولا مُتَشَهِّد، ولا صاحب صلاة إلا ينادي: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وفي الحديث «أتاني جبريل فقال لي يا محمد: إن ربك يقول: أتدري كيف رفعت ذكرك؟ قلت: الله تعالى أعلم، قال: إِذَا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ معي»^(٢)

قال في البحر: قرن الله ذكر الرسول بذكره جل وعلا في كلمة الشهادة، والأذان والإقامة، والتشهد، والخطب، وفي غير موضع من القرآن، وأخذ على الأنبياء وأممهم أن يؤمنوا به^(٣)

= عَلَقَةً فَقَالَ: «هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ». ثُمَّ عَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءٍ زَمْزَمَ ثُمَّ لَأَمَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ وَجَاءَ الْغُلَمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ - يَعْنِي ظِئْرَةَ الْمُرْضِعَةِ - فَقَالُوا: «إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ». فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُتَّقِعُ اللَّوْنِ. قَالَ أَسْرُ: وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْيُحْيِي فِي صَدْرِهِ. (رواه مسلم). (ش): الْعَلَقَةُ: الدَّمُ الْغَلِيظُ الْمُتَعَقِدُ. (الطَّسْتُ): الطَّسْتُ: إِنَاءٌ مَعْرُوفٌ: إِنَاءٌ كَبِيرٌ مُسْتَدِيرٌ مِنْ نُحَاسٍ أَوْ نُحُوهِ يُسْتَعْمَلُ لِلغَسِيلِ. (لَأَمَهُ): جَمَعَهُ وَضَمَّ بَعْضَهُ إِلَى بَعْضٍ. (ظِئْرَةُ) وَهِيَ الْمُرْضِعَةُ غَيْرُ وَلَدِهَا، وَيُقَالُ أَيْضًا لِرُجِّ الْمُرْضِعَةِ: ظِئْرٌ. (مُتَّقِعُ اللَّوْنِ) أَيُّ مُتَغَيَّرِ اللَّوْنِ. (الْيُحْيِي) الْإِبْرَةُ.

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٢٠٦/٤. (ش): رواه البخاري من كلام عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. (إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ) السَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ مُنَوَّرٌ فَإِذَا رَأَى مِنْ نَفْسِهِ مَا يُخَالِفُ مَا يُنَوِّرُ بِهِ قَلْبَهُ عَظُمَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ وَالْحِكْمَةُ فِي التَّمَثِيلِ بِالْجَبَلِ أَنَّ غَيْرَهُ مِنَ الْمُهْلِكَاتِ قَدْ يَحْصُلُ التَّسَبُّبُ إِلَى النَّجَاةِ مِنْهُ بِخِلَافِ الْجَبَلِ إِذَا سَقَطَ عَلَى الشَّخْصِ لَا يَنْجُو مِنْهُ عَادَةً وَحَاصِلُهُ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الْخَوْفُ لِقُوَّةِ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْإِيمَانِ فَلَا يَأْمَنُ الْعُقُوبَةَ بِسَبَبِهَا وَهَذَا شَأْنُ الْمُسْلِمِ أَنَّهُ دَائِمُ الْخَوْفِ وَالْمُرَاقَبَةِ يَسْتَصْغِرُ عَمَلَهُ الصَّالِحَ وَيَخْشَى مِنْ صَغِيرِ عَمَلِهِ السَّيِّئِ (وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ) أَيُّ ذَنْبِهِ سَهْلٌ عِنْدَهُ لَا يَحْتَدِثُ أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُ بِسَبَبِهِ كَبِيرٌ ضَرَرٌ كَمَا أَنَّ ضَرَرَ الذُّبَابِ عِنْدَهُ سَهْلٌ وَكَذَا دَفْعُهُ عَنْهُ. (فَقَالَ بِهِ هَكَذَا) أَيُّ نَحَاهُ بِيَدِهِ أَوْ دَفَعَهُ هُوَ مِنْ إِطْلَاقِ الْقَوْلِ عَلَى الْفِعْلِ. [فتح الباري لابن حجر (١١/ ١٠٥)].

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٦٥٢/٣. (ش): رواه ابن حبان، وابن جرير الطبري وابن أبي حاتم في «تفسيريهما» وضعفه الألباني.

(٣) «تفسير البحر المحيط» ٤٨٨/٨.

كما قال حسان بن ثابت:

وَضَمَّ إِلَهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَذِّنُ أَشْهَدُ
وَشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِجَلِّهِ فَذُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدٌ^(١)

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ أي بعد الضيق يأتي الفرج، وبعد الشدة يكون المخرج قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ كما عدّد عليه النعم في أول السورة تسليّة وتأنيساً له، لتطيب نفسه ويقوى رجاؤه، وكأن الله تعالى يقول: إِنَّ الذي أنعم عليك بهذه النعم الجليلة، سينصرك عليهم، ويظهر أمرك، ويبدّل لك هذا العسر يُسر قريب، ولذلك كرره مبالغة فقال: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ أي سيأتي الفرج بعد الضيق، واليسر بعد العسر فلا تحزن ولا تضجر وفي الحديث «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرُ يُسْرَيْنِ»^(٢) ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ أي فإذا فرغت يا محمد من دعوة الخلق، فاجتهد في عبادة الخالق، وإذا انتهيت من أمور الدنيا، فأتعب نفسك في طلب الآخرة ﴿وَالْإِلَهِكَ فَارْغَبْ﴾ أي اجعل همّك ورغبتك فيما عند الله، لا في هذه الدنيا الفانية قال ابن كثير: المعنى إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها، وقطعت علائقها، فانصب إلى العبادة، وقم إليها نشيطاً فارغ البال، وأخلص لربك النية والرغبة^(٣).

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الاستفهام التقريري للامتنان والتذكير بنعم الرحمن ﴿الَّذِي أَنْشَرَ لَكَ صَدْرَكَ...﴾ إلخ.
- ٢ - الاستعارة التمثيلية ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾^(٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿شَبَّهَ الذُّنُوبَ بِحَمَلٍ ثَقِيلٍ يَرَهُ قَاهِلُ الْإِنْسَانِ وَيَعْجِزُ عَنْ حَمْلِهِ بِطَرِيقِ الاستعارة التمثيلية.
- ٣ - التنكير للتفخيم والتعظيم ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ نكر اليسر للتعظيم كأنه قال يسراً كبيراً.
- ٤ - الجناس الناقص بين لفظ ﴿يُسْرًا﴾ و ﴿الْعُسْرَ﴾.
- ٥ - تكرير الجملة لتقرير معناها في النفوس وتمكينها في القلوب ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾^(٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ويسمى هذا بالإطناب.
- ٦ - السجع المرصّع مراعاة لرءوس الآيات ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ ومثلها ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾^(٦) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الشرح»



(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٦٥٢/٣.

(٢) أخرجه الحاكم والبيهقي. (ش): ضعفه الذهبي والألباني.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٦٥٣/٣.

سُورَةُ التِّينِ

مكية وآياتها ثمان

بين يدي السورة

* سورة التين مكية، وهي تعالج موضوعين بارزين هما:

الأول: تكريم الله جل وعلا للنوع البشري.

الثاني: موضوع الإيمان بالحساب والجزاء.

* ابتدأت السورة بالقسم بالبقاع المقدسة والأماكن المشرفة، التي خصها الله تعالى بإنزال الوحي فيها على أنبيائه ورسله، وهي «بيت المقدس» و «جبل الطور» و «مكة المكرمة» على أن الله تعالى كرم الإنسان، فخلقه في أجمل صورة، وأبدع شكل، وإذا لم يشكر نعمة ربه فسيرد إلى أسفل دركات الجحيم ﴿وَالَّذِينَ وَالزَّيْتُونَ ١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ٣﴾.

* ووبخت الكافر على إنكاره للبعث والنشور، بعد تلك الدلائل الباهرة التي تدل على قدرة رب العالمين، في خلقه للإنسان في أحسن شكل، وأجمل صورة ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ٤﴾.

* وختمت ببيان عدل الله بإثابة المؤمنين، وعقاب الكافرين ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ بِالذِّينِ ٥﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ٦﴾؟ وفيها تقرير للجزاء، وإثبات للمعاد.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالَّذِينَ وَالزَّيْتُونَ ١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ٦﴾ فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ بِالذِّينِ ٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ

اللغة: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ هو جبل الطور الذي كلم الله عليه موسى ومعنى ﴿سِينِينَ﴾ المبارك ﴿تَقْوِيمٍ﴾ تعديل يقال: قَوَّمْتُ العودَ أي عدَّله وجعله مستقيماً، وقَوَّمَهُ الدهرُ جعله متزناً حصيف الرأي والعقل ^(١) ﴿مَمْنُونٍ﴾ مقطوع ﴿بِالذِّينِ﴾ الجزاء مأخوذ من دان بمعنى جازى، ومنه الحديث الشريف «كَمَا تَدِينُ تَدَانُ» ^(٢) أي كما تفعل تُجازى.

التفسير: ﴿وَالَّذِينَ وَالزَّيْتُونَ﴾ هذا قسم أي أقسم بالتين والزيتون لبركتهما وعظيم منفعتيهما ^(٣).

(١) (ش): حصيف: ذكي حكيم. رأيي مُحْكَمٌ لا خلل فيه.

(٢) (ش): رواه البيهقي وغيره، وضعفه الألباني.

(٣) (ش): تقدم كثيراً أن الخالق يُقسِمُ بما شاء من خلقه، وأن المخلوق لا يُقسِمُ إلا بالخالق.

قال ابن عباس: هو تينكم الذي تأكلون، وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت^(١) وقال عكرمة: أقسم الله تعالى بمنابت التين والزيتون، فإن التين ينبت كثيراً بدمشق، والزيتون بيت المقدس^(٢).. وهو الأظهر، ويدل عليه أن الله تعالى عطف عليه الأماكن «جبل الطور» و «البلد الأمين» فيكون قسمًا بالبقاع المقدسة التي شرفها الله تعالى بالوحي والرسالات السماوية ﴿وَطُورِ سَيْنٍ﴾ أي وأقسم بالجبل المبارك الذي كلم الله عليه موسى وهو «طور سيناء» ذو الشجر الكثير، الحسن المبارك قال الخازن: سمي «سينين» و «سيناء» لحسنه ولكونه مباركًا، وكل جبل فيه أشجارٌ مثمرة يسمى سينين وسيناء^(٣) ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ أي وأقسم بالبلد الأمين «مكة المكرمة» التي يأمن فيها من دخلها على نفسه وماله كقوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مِّنَّا وَيُخَفَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]! قال الألوسي: هذه أقسام^(٤) ببقاع مباركة شريفة على ما ذهب إليه الكثيرون، فأما البلد الأمين فمكة المكرمة حماها الله بلا خوف، وأما طور سينين فالجبل الذي كلم الله تعالى موسى عليه، ويقال له: طور سيناء، وأما التين والزيتون فروي عن قتادة أن المراد بهما جبلان: أحدهما بدمشق، والثاني بيت المقدس، وعنى بالتين والزيتون منبتيهما، وقيل: المراد بهما الشجران المعروفان وهو قول ابن عباس ومجاهد، والغرض من القسم بتلك الأشياء الإبانة عن شرف البقاع المباركة، وما ظهر فيها من الخير والبركة ببعثة الأنبياء والمرسلين^(٥) وقال ابن كثير: ذهب بعض الأئمة إلى أن هذه محال ثلاث، بعث الله في كل منها نبيًا مرسلًا من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار فالأول: محلة التين والزيتون وهي «بيت المقدس» التي بعث الله فيها عيسى عليه السلام. والثاني: طور سينين وهو «طور سيناء» الذي كلم الله عليه موسى بن عمران. والثالث: البلد الأمين الذي من دخله كان آمنًا، وهو الذي أرسل الله فيه محمدًا ﷺ، وقد ذكر في آخر التوراة هذه الأماكن الثلاثة «جاء الله من طور سيناء الجبل الذي كلم الله عليه موسى وأشرق من ساعير يعني جبل المقدس الذي بعث الله منه عيسى واستعلن من جبال فاران يعني جبال مكة التي أرسل الله منها محمدًا ﷺ» فذكرهم بحسب ترتيبهم بالزمان، وأقسم بالأشرف ثم الأشرف منه، ثم بالأشرف منهما^(٦)، وجواب القسم هو قوله ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أي خلقنا جنس الإنسان في أحسن شكل، متصفاً بأجمل وأكمل الصفات، من حُسن الصورة،

(١) «تفسير القرطبي» ١٩ / ١١٠.

(٢) «البحر المحيط» ٨ / ٤٨٩.

(٣) «تفسير الخازن» ٤ / ٢٦٦.

(٤) (ش): أقسامٌ: جمع قسم.

(٥) «روح المعاني» ٣٠ / ١٧٣ بشيء من الإيجاز.

(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣ / ٦٥٤.

وانتصاب القامة، وتناسب الأعضاء، مُزَيَّنًا بالعلم والفهم، والعقل والتمييز، والنطق والأدب، قال مجاهد: ﴿أَحْسَنَ تَقْوِيمٍ﴾ أحسن صورة، وأبدع خلق^(١) ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ أي ثم أنزلنا درجته إلى أسفل سافلين، لعدم قيامه بموجب ما خلقناه عليه، حين لم يشكر نعمة خلقنا له في أحسن صورة، ولم يستعمل ما خصصناه به من المزايا في طاعتنا، فلذلك سنده إلى أسفل سافلين وهي جهنم قال مجاهد والحسن: ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ أسفل دركات النار وقال الضحاك: أي رددناه إلى أرذل العمر، وهو الهرم بعد الشباب، والضعف بعد القوة^(٢) قال الألوسي: والمتبادر من السياق الإشارة إلى حالة الكافر يوم القيامة، وأنه يكون على أقبح صورة وأبشعها، بعد أن كان على أحسن صورة وأبدعها^(٣) ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي إلا المؤمنين المتقين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح^(٤) ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي فلهم ثواب دائم غير مقطوع عنهم، وهو الجنة دار المتقين ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالذِّينِ﴾ الخطاب للإنسان على طريقة الالتفات أي فما سبب تكذيبك أيها الإنسان، بعد هذا البيان وبعد وضوح الدلائل والبراهين؟ فإن خلق الإنسان من نطفة، وإيجاده في أجمل شكل وأبدع صورة، من أوضح الدلائل على قدرة الله عزَّ وجلَّ على البعث والجزاء، فما الذي يدعوك إلى التكذيب بيوم الدين بعد هذه البراهين؟ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ أي أليس الله الذي خلق وأبدع، بأعدل العادلين حكمًا وقضاءً وفصلاً بين العباد؟ وفي الحديث «أن النبي ﷺ كان إذا قرأها قال: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين». ويروى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَنْ قَرَأَ مِنْكُمْ ﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ﴾ فَاَنْتَهَى إِلَى آخِرِهَا ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ فَلْيُقِلْ بَلَى وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ»^(٥).

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - المجاز العقلي بإطلاق الحال وإرادة المحل^(٦).
- ﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ﴾ أراد موضعهما الشام وبيت المقدس على القول الراجح.
- ٢ - الطباق بين ﴿أَحْسَنَ تَقْوِيمٍ﴾ وبين ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾.

(١) «تفسير الطبري» ١٥٦/٣٠.

(٢) «تفسير القرطبي» ١١٥/١٩. (ش): قد استثنت الآيات الذين آمنوا وعملوا الصالحات من أن يُردُّوا أسفل سافلين، ومنهم من يصيبه الهرم بعد الشباب، والضعف بعد القوة.

(٣) «تفسير الطبري» ١٧٦/٣٠.

(٤) (ش): هذا التعبير يعطي أن الإيمان غير العمل، وهذا خلاف مذهب أهل السنة والجماعة من أن العمل داخل في مسمى الإيمان بحيث لا يتحقق الإيمان بدونه، وعطف العمل على الإيمان عندهم من عطف الخاص على العام اهتماماً به، كما قال تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨].

(٥) (ش): المحل: المكان، والحال: الموجود بالمكان.

(٦) رواه أبو داود والترمذي، وضعفه الألباني.

٣ - جناس الاشتقاق ﴿بِأَحْكَمِ الْحَكَمِينَ﴾.

٤ - الالتفات من الغيبة إلى الخطاب زيادة في التوبيخ والعتاب ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾؟

٥ - الاستفهام التقريري ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَكَمِينَ﴾؟

٦ - السجع المرصع ﴿الْبَلَدِ الْأَمِينِ.. أَسْفَلَ سَفَلِينَ.. بِأَحْكَمِ الْحَكَمِينَ﴾ والله أعلم.

لطيفة: ذكر الإمام القرطبي: أن «عيسى الهاشمي» كان يحب زوجته حباً شديداً، فقال لها يوماً: أنت طالق ثلاثاً إن لم تكوني أحسن من القمر! فاحتجبت عنه وقالت: طلقني، فحزن حزناً شديداً وذهب إلى الخليفة «المنصور» وأخبره الخبر، فاستحضر الفقهاء واستفتاهم، فقال جميع من حضر: قد طُلِّقت، إلا رجلاً واحداً من أصحاب أبي حنيفة فقد بقي ساكناً فقال له المنصور: ما لك لا تتكلم؟ فقال له الرجل يا أمير المؤمنين: يقول الله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ فليس شيء أحسن من الإنسان، فقال: صدقت، وردّها إلى زوجها.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التين»



سُورَةُ الْعَلَقِ

١٩

٩٦

مكية وآياتها تسع عشرة

بين يدي السورة

* سورة العلق وتسمى «سورة اقرأ» مكية، وهي تعالج القضايا الآتية:

أولاً: موضوع بدء نزول الوحي على خاتم الأنبياء محمد ﷺ.

ثانياً: موضوع طغيان الإنسان بالمال وتمرده على أوامر الله.

ثالثاً: قصة الشقي «أبي جهل» ونبيه الرسول ﷺ عن الصلاة^(١).

* ابتدأت السورة ببيان فضل الله على رسوله الكريم ﷺ بإنزاله هذا القرآن «المعجزة الخالدة» وتذكيره بأول النعماء^(٢) وهو يتعبد ربه بغار حراء، حيث تنزل عليه الوحي بآيات الذكر الحكيم ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ^(١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ^(٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ^(٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ^(٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

* ثم تحدثت عن طغيان الإنسان في هذه الحياة بالقوة والثراء، وتمرده على أوامر الله بسبب نعمة الغنى، وكان الواجب عليه أن يشكر ربه على إفضاله^(٣)، لا أن يجحد النعماء، وذكرته بالعودة إلى ربه لينال الجزاء ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَاجٍ^(٦) أَن رَّاهُ اسْتَغْنَى^(٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعُ﴾.

* ثم تناولت قصة «أبي جهل» فرعون هذه الأمة، الذي كان يتوعد الرسول ويتهدهده، وينهاه عن الصلاة، انتصاراً للأوثان والأصنام ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى^(٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ الآيات.

* وختمت السورة بوعيد ذلك الشقي الكافر، بأشد العقاب إذا استمر على ضلاله وطغيانه، كما أمرت الرسول الكريم ﷺ بعدم الإصغاء إلى وعيد ذلك المجرم الأثيم ﴿كَلَّا لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ إلى ختام السورة ﴿كَلَّا لَا تَطِعُهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾.

* وقد بدأت السورة بالدعوة إلى القراءة والتعلم، وختمت بالصلاة والعبادة، ليقترن العلم بالعمل، ويتناسق البدء مع الختام.

(١) (ش): عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: «مَرَّ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ: أَلَمْ أَنْهَكَ، أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَذَا أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَذَا أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَذَا فَأَنْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَنْتَهَرَهُ، فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ: «لِمَ تَنْتَهَرُنِي يَا مُحَمَّدٌ؟ فَوَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا بَهَا رَجُلٌ أَكْثَرَ نَادِيًا مِنِّي»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ^(٧) سَدَّعَ الزَّيْبَانِيَةَ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «فَوَاللَّهِ لَوْ دَعَا نَادِيَهُ لَأَخَذَتْهُ رَبَّانِيَةُ اللَّهِ». (صحيح، رواه أحمد والترمذي).

انتهره: زجره بعنف وأغضبه.

(٢) النعماء: النعمة.

(٣) (ش): الإفضال: الإنعام.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَفَرَأَى بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) أَفَرَأَى رَّبُّكَ الْأَكْرَمَ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ طَغْيٍ (٦) أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْفَى (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ لَهْدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَمِ أَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كُلَّ لَيْلٍ لَمَنِ لَبَسَهُ لَسَفَعًا بِالْأَنَاصِيَةِ (١٥) أَنَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تَطْعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ

اللغة: ﴿علق﴾ جمع علقه وهي الدَّم الجامد، سُمِّيت علقه لأنها تعلَّق بالرحم (١) ﴿لنسفعًا﴾ السَّفْع: الجذب بشدة وقوة قال أهل اللغة: سفعت بالشيء إذا قبضت عليه وجذبتة جذبًا شديدًا، وسفع بناصية فرسه جذبها قال الشاعر:

قَوْمٌ إِذَا كَثُرَ الصِّيَاحُ رَأَيْتَهُمْ مِنْ بَيْنِ مُلْجِمٍ مُهْرِهِ أَوْ سَافِعٍ (٢)
﴿بِالْأَنَاصِيَةِ﴾ شعر مُقَدَّم الرأس ﴿الزَّبَانِيَةَ﴾ مأخوذ من الزَّبَن وهو الدفع، والمراد بهم ملائكة العذاب، الغلاظ الشداد، والعرب يطلقون هذا الاسم على من اشتد بطشه قال الشاعر:

مَطَاعِيْمٌ فِي الْقُصْوَى زَبَانِيَةٌ غُلْبٌ عِظَامٌ حُلُومُهَا (٣)
مَطَاعِيْنٌ فِي الْوَعَى
رُوي «أن أبا جهل قال لأصحابه يومًا: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟- يريد هل يصلي ويسجد أمامكم- قالوا: نعم، فقال: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَأَطَانَّ عَلَى رَقَبَتِهِ أَوْ لَأَعْفَرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، فجاء يومًا فوجد رسول الله ﷺ يصلي، فأقبل يريد أن يطمأ على رقبته، فَمَا فَجَّهْتُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَى عَقْبِيهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهُوَ لَا وَاجِنِحَةَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ دَنَا مِنِّي لَأَخْتَطَفْتُهُ الْمَلَائِكَةُ عَضْوًا عَضْوًا». فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ إلى آخر السورة (٤).

(١) (ش): علق: تعلَّق. يقال: علق الشوك بثوبه.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٤٩١. (ش): لَجِمَ/ ألجم الفرس: ألبسه اللجام. وَضَعَ فِي فَمِهَا حَدِيدَةً لِقِيَادَتِهَا.

المُهْر: ولد الفرس. والسافع: المُتَمَسِّكُ بِرَأْسِ فَرَسِهِ لِيَرْكَبَهُ بِسُرْعَةٍ مِنْ غَيْرِ لَجَامٍ.

(٣) «روح المعاني» ٣٠/ ١٨٨. (ش): مَطَاعِيْمٌ: جمع مِطْعَامٍ: كثير الإطعام، كثير الأضياف. الْقُصْوَى: الغاية البعيدة، غاية ما يمكن بلوغه من الشيء. مَطَاعِيْنٌ: جَمْعُ مِطْعَانٍ: كثير الطَّعْن. غُلْبٌ: جمع أَغْلَبَ وهو الغليظ الرقة. والعرب تصف السادة بغلظ الرقة وطولها. والحُلُوم: جمع الحِلْم وهو العقل.

(٤) أخرجه مسلم عن أبي هريرة، وانظر «مختصر ابن كثير» ٣/ ٦٥٨، والخازن ٤/ ٢٧٠. (ش): وروى البخاري

بعضه.

(هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ) أَي يَسْجُدُ وَيُلْصِقُ وَجْهَهُ بِالْعَفْرِ وَهُوَ التُّرَابُ. (فَجَّهْتُمْ) فَجَّاهُمْ، أَي إِنْ ذَلِكَ حَدَثَ فِي وَقْتٍ لَمْ يَتَوَقَّعُوهُ فِيهِ. (يَنْكُصُ): يَرْجِعُ عَلَى عَقْبِيهِ، يَمْشِي عَلَى وَرَائِهِ. (الْهَوْلُ): فَرَقَ وَرَهْبَةً. والجمع أهوال.

التفسير: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ هذا أول خطاب إلهي إلى النبي ﷺ وفيه دعوة إلى القراءة والكتابة والعلم، لأنه شعار دين الإسلام، أي: اقرأ يا محمد القرآن مُبْتَدَأً وَمُسْتَعِينًا باسم ربك الجليل، الذي خلق المخلوقات، وأوجد جميع العوالم، ثم فسّر الخلق تفخيماً لشأن الإنسان فقال ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ أي خلق هذا الإنسان البديع الشكل، الذي هو أشرف المخلوقات من العلقه - وهي الدودة الصغيرة ^(١) - وقد أثبت الطب الحديث أن المني الذي خلق منه الإنسان مُحتَوٍ على حيواناتٍ وديدانٍ صغيرة لا تُرى بالعين، وإنما ترى بالمجهر الدقيق (الميكروسكوب) وأن لها رأساً وذنباً، فتبارك الله أحسن الخالقين ^(٢) قال القرطبي: خصّ الإنسان بالذكر تشريفاً له، والعلقه قطعة من دم رطب، سُميت بذلك لأنها تعلّق لرطوبتها بما تمرُّ عليه ^(٣) ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ أي اقرأ يا محمد وربك العظيم الكريم، الذي لا يساويه ولا يدانيه كريم، وقد دلّ على كمال كرمه أنه علّم العباد ما لم يعلموا ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ ^(٤) علّم الإنسان ما لم يعلم أي الذي علّم الخطّ والكتابة بالقلم، وعلّم البشر ما لم يكونوا يعرفونه من العلوم والمعارف، فنقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، فكما علّم سبحانه بواسطة الكتابة بالقلم، فإنه يعلمك بلا واسطة وإن كنت أمياً لا تقرأ ولا تكتب قال القرطبي: نبّه تعالى على فضل علم الكتابة، لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إنسان، وما دُوّنّت العلوم ولا قيّدت الحُكْم، ولا ضُبِطت أخبارُ الأولين ومقالاتهم، ولا كتُب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولاها ما استقامت أمور الدنيا والدين ^(٥). وهذه الآيات الخمس هي أول ما تنزل من القرآن، كما ثبت في الصحاح أن النبي ﷺ نزل عليه الملك وهو يتعبّد بغار حراء، فقال: «اقْرَأْ». فقال: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ» ^(٦).. إلخ. قال ابن كثير: أول شيء نزل من القرآن هذه الآيات المباركات، وهنّ أول رحمةٍ رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم، وفيها

(١) (ش): أي خُلِقَ من شيء يُشبه الدودة الصغيرة، والعلقه في اللغة: واحدة العلق، وتُطلق على الدم الغليظ والجامد، وعلى دودة في المياه الراكدة تعلّق بالجسد فتمتص دمه، وعلى كل ما يعلّق بغيره أو يعلّق عليه، ويبدأ طور العلقه بعد أربعين يوماً من بدء الحمل، كما جاء في الحديث الشريف الذي رواه البخاري ومسلم. وفي طور العلقه يصبح الجنين كاللودة العالقة بالرحم. وهذه العلقه جامدة في طبيعتها، لونها أحمر بسواد، تتعلّق بجدار الرحم، تمتص منه غذاءها كما يمتص العلقُ من الدابة غذاءه. فالعلق في لغة العرب على ثلاثة معانٍ: الدم، والشيء الذي يعلّق بغيره، وما يقوم على غيره، وهذه المعاني غير متناقضة ويشملها كلها حال الجنين.

(٢) اقرأ كتاب «الطب محراب الإيمان» ٥٣/٢.

(٣) «تفسير القرطبي» ١١٩/١٩.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٢٠/١٩.

(٥) أخرج الشيخان عن عائشة قالت: «أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْهُ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، فَكَانَ يَأْتِي غَارَ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّنُ - أَيَّ يَتَعَبَّدُ - فِيهِ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ الحديث.

التنبية على ابتداء خلق الإنسان من علقه، وأن من كرمه تعالى أن علم الإنسان ما لم يعلم، فشرفه وكرمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به «آدم» على الملائكة^(١).. ثم أخبر تعالى عن سبب بطر الإنسان وطغيانه^(٢) فقال ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ طَافٍ﴾ أي حقاً إن الإنسان ليتجاوز الحد في الطغيان، واتباع هوى النفس، ويستكبر على ربه عز وجل ﴿أَن رَّأَاهُ اسْتَغْنَى﴾ أي من أجل أن رأى نفسه غنياً، وأصبح ذا ثروة ومال أشر واطر^(٣)، ثم توعدّه ونهّده بقوله ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ أي إن إلى ربك أيها الإنسان المرجع والمصير فيجازيك على أعمالك، وفي الآية تهديد وتحذير لهذا الإنسان من عاقبة الطغيان، ثم هو عام لكل طاغ متكبر قال المفسرون: نزلت هذه الآيات إلى آخر السورة في «أبي جهل»^(٤) بعد نزول صدر السورة بمدة طويلة، وذلك أن أبا جهل كان يطغى بكثرة ماله، ويبالغ في عداوة الرسول ﷺ -والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب-^(٥) ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ تعجب من حال ذلك الشقي الفاجر أي أخبرني يا محمد عن ذلك المجرم الأثيم، الذي ينهى عبداً من عباد الله عن الصلاة، ما أسخف عقله، وما أشنع فعله! قال أبو السعود: هذه الآية تقيح وتشنع لحال الطاغى وتعجيب منها، وإيدان بأنها من الشناعة والغرابة بحيث يقضى منها العجب^(٦)، وقد أجمع المفسرون على أن العبد المصلي هو محمد ﷺ، وأن الذي نهاه هو اللعين «أبو جهل» حيث قال: لئن رأيت محمداً يصلي لأطأن على عنقه^(٧) ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ أي أخبرني إن كان هذا العبد المصلي وهو النبي ﷺ الذي تنهاه عن الصلاة صالحاً مهتدياً، على الطريقة المستقيمة في قوله وفعله ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ﴾ أي أو كان أمراً بالإخلاص والتوحيد، داعياً إلى الهدى والرشاد، كيف تزجره وتنهاه^(٨) فما أبلهك^(٩) أيها الغيبي الذي تنهى من هذه أو صافه: عبدٌ لله مطيعٌ مهتدٍ منيبٌ، داعٍ إلى الهدى والرشاد؟ وما أعجب هذا! ثم عاد لخطاب الرسول ﷺ فقال ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي أخبرني يا محمد إن كذب بالقرآن، وأعرض عن الإيمان ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ أي

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٦٥٦/٣.

(٢) (ش): بطر الشخص، بطراً، فهو بطرٌ: طغى وغالى في مَرَجِه وزهوّه واستخفافه، جاوز الحد كثيراً. بطر النعمة: استخفها وكفرها ولم يشكرها. بطر الحق ونحوه: أنكره ولم يقبله تكبراً وطغياناً.

(٣) (ش): أشر الشخص، أشراً، فهو أشرٌ: بطر واستكبر ومرح ونشط.

(٤) (ش): رواه مسلم.

(٥) انظر «حاشية الصاوي» ٣٣٦/٤، و«تفسير القرطبي» ١٩/١٢٣.

(٦) «تفسير أبي السعود» ٥/٢٧٤.

(٧) انظر سبب النزول المتقدم.

(٨) هذا هو الظاهر أن الذي هو على الهدى، أو أمر بالتقوى هو محمد ﷺ، وهو اختيار ابن عطية والجمهور، وذهب الزمخشري إلى أنها في الناهي، وهو ضعيف.

(٩) (ش): بلة الشخص، بلهاً وبلاهةً، فهو أبله: ضَعَفَ عقله وغلبت عليه الغفلة وقَلَّ تمييزه.

ألم يعلم ذلك الشقي أن الله مُطَّلَع على أحواله، مُرَاقِب لأفعاله، وسيجازيه عليها ﴿ وَيَلَهُ أَجْهَلُهُ وَأَغْبَاهُ! ثُمَّ رَدَّعَهُ وَزَجَرَهُ فَقَالَ ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ﴾ أي ليرتدع هذا الفاجر «أبو جهل» عن غييه وضلاله، فوالله لئن لم ينته عن أذى الرسول، ويكف عما هو عليه من الكفر والضلال ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ أي لنأخذنه بناصيته مقدم شعر الرأس فلنجرنه إلى النار بعنفٍ وشدة ونقذفه فيها ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أي صاحب هذه الناصية كاذبٌ، فاجرٌ، كثير الذنوب والإجرام قال في التسهيل: ووصفها بالكذب والخطيئة مجازٌ، والكاذب الخاطيء في الحقيقة صاحبها، والخطيء الذي يفعل الذنب متعمداً، والمخطيء الذي يفعله بدون قصد^(١) ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ أي فليدع أهل ناديه^(٢) وليستنصر بهم ﴿سَدْعُ الزَّبَانَةِ﴾ أي سندعو خزنة جهنم، الملائكة الغلاظ الشداد، روي «أن أبا جهل مرَّ على النبي ﷺ وهو يصلي عند المقام فقال: ألم أنك عن هذا يا محمد، فأغلظ له رسول الله ﷺ القول، فقال أبو جهل: بأي شيء تهددني يا محمد؛ والله إني لأكثر أهل الوادي هذا نادياً فأنزل الله ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ ﴿سَدْعُ الزَّبَانَةِ﴾ قال ابن عباس: لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته^(٣)

﴿كَلَّا لَا تُطَعُّهُ﴾ أي ليرتدع هذا الفاجر، ولا تطعه يا محمد فيما دعاك إليه من ترك الصلاة ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ وأي وواظب على سجودك وصلاتك، وتقرب بذلك إلى ربك وفي الحديث «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»^(٤).

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الإطناب بتكرار الفعل ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ..﴾ ثم قال: ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ لمزيد الاهتمام بشأن القراءة والعلم.
- ٢ - الجناس الناقص بين ﴿خَلَقَ﴾ و ﴿عَلَقَ﴾.
- ٣ - طباق السلب ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.
- ٤ - الكناية ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿عَبْدًا﴾ كَنَّى بالعبد عن رسول الله ﷺ ولم يقل: ينهك تفخيماً لشأنه وتعظيماً لقدره.

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٢٠٩/٤.

(٢) (ش): قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٨/ ٤٣٨): «﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ أي: قَوْمَهُ وَعَشِيرَتَهُ».

(٣) «تفسير القرطبي» ١٢٧/١٩. (ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: «مَرَّ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ: أَلَمْ أَنْهَكَ، أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَذَا أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَذَا أَنْهَكَ عَنْ هَذَا فَانْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ - فَانْتَهَرَهُ، فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ: لِمَ تَنْتَهَرُنِي يَا مُحَمَّدٌ؟ فَوَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا بَهَا رَجُلٌ أَكْثَرَ نَادِيًا مِنِّي»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ ﴿سَدْعُ الزَّبَانَةِ﴾ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «فَوَاللَّهِ لَوْ دَعَا نَادِيَهُ لَأَخَذَتْهُ زَبَانِيَةُ اللَّهِ». (صحيح، رواه أحمد والترمذي). انتَهَرَهُ: زَجَرَهُ بَعْنَفٍ وَأَغْضَبَهُ.

(٤) رواه مسلم في «صحيحه».

- ٥ - الاستفهام للتعجيب من شأن الناهي ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى﴾ ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾ ؟
- ٦ - المجاز العقلي ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أي كاذب صاحبها خاطئ فأسند الكذب إليها مجازاً.
- ٧ - السجع المرصع مثل ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾.

«تم بحمده تعالى تفسير سورة العلق»



سُورَةُ الْقَدْرِ

مكية وآياتها خمس

بين يدي السورة

* سورة القدر مكية، وقد تحدثت عن بدء نزول القرآن العظيم، وعن فضل ليلة القدر على سائر الأيام والشهور، لما فيها من الأنوار والتجليات القدسية، والنفحات الربانية، التي يفيضها الباري جل وعلا على عباده المؤمنين، تكريماً لنزول القرآن المبين، كما تحدثت عن نزول الملائكة الأبرار حتى طلوع الفجر، فيا لها من ليلة عظيمة القدر، هي خير عند الله من ألف شهر!

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمٍ ﴿٤﴾ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ

التفسير: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ أي نحن أنزلنا هذا القرآن المعجز في ليلة القدر والشرف قال المفسرون: سميت ليلة القدر لعظمها وقدرها وشرفها، والمرادُ بإنزال القرآن إنزاله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزل به جبريل إلى الأرض في مدة ثلاث وعشرين سنة كما قال ابن عباس: أنزل الله القرآن جملةً واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مُفَصَّلاً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ تعظيمٌ وتفخيمٌ لأمرها أي وما أعلمك يا محمد ما ليلة القدر والشرف؟ قال الخازن: وهذا على سبيل التعظيم لها والتشويق لخبرها كأنه قال: أي شيء يبلغ علمك بقدرها ومبلغ فضلها؟^(١) ثم ذكر فضلها من ثلاثة أوجه فقال تعالى ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أي ليلة القدر في الشرف والفضل خيرٌ من ألف شهر، لما اختصت به من شرف إنزال القرآن الكريم فيها قال المفسرون: العمل الصالح في ليلة القدر خيرٌ من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، وقد روي أن رجلاً لبس السلاح وجاهد في سبيل الله ألف شهر، فعجب رسول الله والمسلمون من ذلك، وتمنى رسول الله ﷺ لأُمته فقال «يا رب،

(١) انظر «مختصر ابن كثير» ٣/ ٦٥٩، والقرطبي ١٩/ ١٣٠. (ش): عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «نَزَلَ الْقُرْآنُ جُمْلَةً إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ نَزَلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي عِشْرِينَ سَنَةً» (رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي وابن كثير).

(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٧٥.

جعلت أمتي أقصر الأمم أعماراً، وأقلها أعمالاً فأعطاه الله ليلة القدر، وقال: ليلة القدر خير لك ولأمتك من ألف شهر، جاهد فيها ذلك الرجل^(١) قال مجاهد: عملها وصيامها وقيامها خير من ألف شهر، وهذا هو الوجه الأول من فضلها ثم قال تعالى: ﴿نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي تنزل الملائكة^(٢) وجبريل إلى الأرض في تلك الليلة بأمر ربهم من أجل كل أمر قدره الله وقضاه لتلك السنة إلى السنة القابلة، وهذا هو الوجه الثاني من فضلها، والوجه الثالث قوله تعالى ﴿سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ أي هي سلام من أول يومها إلى طلوع الفجر، تسلم فيها الملائكة على المؤمنين، ولا يُقدَّر الله فيها إلا الخير والسلامة لبني الإنسان.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الإطناب بذكر ليلة القدر ثلاث مرات، زيادة في الاعتناء بشأنها، وتفخيماً لأمرها.
- ٢ - الاستفهام بغرض التفخيم والتعظيم ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ؟﴾
- ٣ - ذكر الخاص بعد العام ﴿نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ﴾ فذكر جبريل بعد الملائكة لينبّه على جلالة قدره.
- ٤ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿الْقَدْرِ، شَهْرٍ، أَمْرٍ، الْفَجْرِ﴾ وهو من المحسنات البديعية اللفظية والله أعلم.

«تم بحمده تعالى تفسير سورة القدر»



(١) روى هذا عن ابن عباس ومجاهد. (ش): لم أجده بهذا السياق إلا في بعض التفاسير بدون إسناد. وَرَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَبَسَ السِّلَاحَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَلْفَ شَهْرٍ، فَعَجَبَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝﴾ الَّتِي لَبَسَ ذَلِكَ الرَّجُلُ السِّلَاحَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَلْفَ شَهْرٍ (رواه ابن أبي حاتم بإسناد ضعيف).

وَروى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَرَى أَعْمَارَ النَّاسِ قَبْلَهُ فَنَقَالَهَا، أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ، فَكَانَتْ تَقَاصِرُ أَعْمَارُ أُمَّتِهِ، أَنْ لَا يَبْلُغُوا مِنَ الْعَمَلِ مِثْلَ الَّذِي بَلَغَ غَيْرُهُمْ فِي طُولِ الْعُمُرِ، فَأَعْطَاهُ اللَّهُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ. (رواه مالك في الموطأ بإسناد ضعيف).

(٢) (ش): أي تنزل.

سُورَةُ الْبَيِّنَاتِ

٨

٩٨

مدنية وآياتها ثمان

بين يدي السورة

* سورة البينة وتسمى ﴿سورة لم يكن﴾ مدنية، وهي تعالج القضايا الآتية:

١- موقف أهل الكتاب من رسالة محمد ﷺ.

٢- موضوع إخلاص العبادة لله جل وعلا.

٣- مصير كل من السعداء والأشقياء في الآخرة.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن «اليهود والنصارى» وموقفهم من دعوة رسول الله ﷺ، بعد أن بان لهم الحق وسطعت أنوارهن وبعد أن عرفوا أوصاف النبي المبعوث آخر الزمان، وكانوا ينتظرون بعثته ومجيئه، فلما بعث خاتم الرسل كذبوا برسالته، وكفروا وعاندوا.

* ثم تحدثت السورة عن عنصر هام من عناصر الإيمان، وهو «إخلاص العبادة» لله العلي الكبير، الذي أمر به جميع أهل الأديان، وإفراده جل وعلا بالذكر، والقصد، والتوجه في جميع الأقوال والأفعال والأعمال، خالصة لوجهه الكريم.

* كما تحدثت عن مصير أهل الإجمام - شر البرية - من أهل الكتاب والمشركين، وخلودهم في نار الجحيم، وعن مصير المؤمنين، أصحاب المنازل العالية - خير البرية - وخلودهم في جنات النعيم، من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، جزاء طاعتهم وإخلاصهم لرب العالمين.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ (١) رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتِبَ قِیمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ

اللغة: ﴿مُنْفَكِينَ﴾ مُتَّهِنِينَ زَائِلِينَ، وَأَصْلُ الْفَكَ: الْفَتْحُ وَمِنْهُ فَكَّ الْكِتَابَ، وَفَكَ الْخَلْخَالَ (١)

(١) (ش): الْخَلْخَالُ: جَلِيَّةٌ مِنْ فِصَّةٍ كَالسَّوَارِ تُحَلِّي الْمَرْأَةَ بِهَا رِجْلَيْهَا، تُلْبَسُ حَوْلَ الْكَعْبِ.

﴿الْبَيِّنَةُ﴾ الحجة الواضحة، والدلالة القاطعة ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ مُنَزَّهَةٌ عن الباطل والشبهات ﴿قِيَمَةٌ﴾ مستقيمة عادلة ﴿حُنْفَاءٌ﴾ مائلين عن الباطل إلى الدين الحق، وأصل الحنف: الميل ﴿الْبَرِيَّةُ﴾ الخلق من قولهم: برأ الله الخلق، ومنه البرأى أي الخالق.

التفسير: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي لم يكن أهل الكفر والجحود، الذين كفروا بالله وبرسوله، ثم بينهم بقوله ﴿مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ أي من اليهود والنصارى أهل الكتاب، ومن المشركين عبدة الأوثان والأصنام ﴿مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ أي منفصلين ومُنتهين عما هم عليه من الكفر، حتى تأتيهم الحجة الواضحة^(١)، وهي بعثة محمد ﷺ ولهذا فسرها بقوله ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أي هذه البينة هي رسالة محمد ﷺ المرسل من عند الله تعالى ﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ أي يقرأ عليهم صحفاً منزَّهة عن الباطل عن ظهر قلب، لأن النبي ﷺ أمي لا يقرأ ولا يكتب قال القرطبي: أي يقرأ ما تتضمن الصحف من المكتوب، يتلوها عن ظهر قلبه لا عن كتاب، لأنه عليه السلام كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ^(٢) قال ابن عباس: ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ من الزور، والشك والنفاق، والضلالة وقال قتادة: مطهرة عن الباطل^(٣) ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ﴾ أي فيها أحكام قيِّمة لا عوج فيها، تبين الحق من الباطل قال الصاوي: المراد بالصحف القراطيس^(٤) التي يكتب فيها القرآن، والمراد بالكتب الأحكام المكتوبة فيها، وإنما قال ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ﴾ لأن القرآن جمع ثمرة كتب الله المتقدمة^(٥).. ثم ذكر تعالى من لم يؤمن من أهل الكتاب فقال ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ أي وما اختلف اليهود والنصارى في شأن محمد ﷺ، إلا من بعد ما جاءتهم الحجة الواضحة، الدالة على صدق رسالته، وأنه الرسول الموعود به في كتبهم قال أبو السعود: والآية مسوقة لغاية التشنيع على أهل الكتاب خاصة^(٦)، وتغليظ جناياتهم، ببيان أن تفرقهم لم يكن إلا بعد وضوح الحق، وتبين الحال، وانقطاع الأعذار بالكلية، كقوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾^(٧)

(١) لم تذكر السورة أنهم منفكون عن ماذا؟ لكنه معلوم إذ المراد هو الكفر والضلالة التي كانوا عليها فقد أتاهم رسول الله ﷺ بالقرآن المبين فبين لهم ضلالتهم وشركهم وما كانوا عليه من الجاهلية ودعاهم إلى الإيمان فآمن منهم من آمن، واهتدى منهم من اهتدى، فأنقذهم الله من الجهالة والضلالة ولم يكونوا منفصلين عن كفرهم قبل بعثته ﷺ إليهم، والآية فيمن آمن من الفريقين: المشركين وأهل الكتاب.

(٢) «تفسير القرطبي» ٢٩/ ١٤٢.

(٣) نفس المرجع السابق والصفحة.

(٤) (ش): قُرْطَاس / قُرْطَاس: صحيفة، ما يكتب فيه من ورق وغيره مُفَرَّقًا.

(٥) «حاشية الصاوي» ٤/ ٣٤٢.

(٦) (ش): أي إن الغرض منها التشنيع على أهل الكتاب خاصة. يُقال ساق الحديث: سرده، أورده بسهولة وسلاسة. ساق القصة: قصها.

(٧) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٧٧.

[آل عمران: ١٩] وقال في التسهيل: أي ما اختلفوا في نبوة سيدنا محمد ﷺ إلا من بعد ما علموا أنه حق، وإنما خصَّ أهل الكتاب هنا بالذكر، لأنهم كانوا يعلمون صحة نبوته، بما يجدون في كتبهم من ذكره ^(١) ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي والحال أنهم ما أمروا في التوراة والإنجيل إلا بأن يعبدوا الله وحده، مخلصين العبادة جلَّ وعلا، ولكنهم حَرَفُوا وبدَّلُوا، فعبدوا أحبارهم ورهبانهم كما قال تعالى ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [التوبة: ٣١] ﴿حُفَاءً﴾ أي مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام، مستقيمين على دين إبراهيم، دين الحنيفية السمحة، الذي جاء به خاتم المرسلين ﴿وَيَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي وأمروا بأن يؤدوا الصلاة على الوجه الأكمل، في أوقاتها بشروطها وخشوعها وآدابها، ويعطوا الزكاة لمستحقها عن طيب نفس قال الصاوي: وخصَّ الصلاة والزكاة لشرفهما ^(٢) ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ أي وذلك المذكور من العبادة والإخلاص، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، هو دين الملة المستقيمة دين الإسلام فلماذا لا يدخلون فيه؟ ثم ذكر تعالى مآل كل من الأبرار والأشرار، في دار الجزاء والقرار فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي إن الذين كذبوا بالقرآن وبنبوة محمد عليه السلام، من اليهود والنصارى وعبدة الأوثان، هؤلاء جميعهم يوم القيامة في نار جهنم، ماكثين فيها أبداً لا يخرجون منها ولا يموتون ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ أي أولئك هم شر الخلق على الإطلاق قال الإمام الفخر: فإن قيل: لم ذكر ﴿كَفَرُوا﴾ بلفظ الفعل، ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ باسم الفاعل؟ فالجواب تنبيهاً على أن أهل الكتاب ما كانوا كافرين من أول الأمر، لأنهم كانوا مصدقين بالتوراة والإنجيل، ومقرين بمبعث محمد ﷺ ثم إنهم كفروا بذلك بعد مبعثه عليه السلام، بخلاف المشركين فإنهم وُلِدُوا على عبادة الأوثان، وإنكار الحشر والقيامة ^(٣)، وقوله ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ لإفادة الحصر أي شر من السراق لأنهم سرقوا من كتاب الله صفة محمد ﷺ وشر من قطاع الطريق، لأنهم قطعوا طريق الحق عن الخلق ^(٤)، ولما ذكر مقرَّ الأشقياء، ذكر بعده مقرَّ السُّعداء فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي إن المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال ^(٥) ﴿أُولَئِكَ

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٢١٢/٤.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣٤٣/٤.

(٣) (ش): هم وُلِدُوا على الفطرة ولكن آباءهم هم الذين أضلوهم. قال ﷺ: «مَا مِنْ مُؤَلَّدٍ إِلَّا يُؤَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ أَوْ نَصْرَانِيَّةٌ أَوْ يَمَجَّسَانِهِ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(٤) «التفسير الكبير» للرازي ٤٩/٣١.

(٥) (ش): هذا التعبير يعطي أن الإيمان غير العمل، وهذا خلاف مذهب أهل السنة والجماعة من أن العمل داخل في معنى الإيمان بحيث لا يتحقق الإيمان بدونه، وعُطِفَ العمل على الإيمان عندهم من عطف الخاص على العام اهتماماً به، كما في قوله تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالْزَكَاةِ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿١﴾ أي هم خير الخليفة التي خلقها الله وبرأها ﴿١﴾ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴿٢﴾ أي ثوابهم في الآخرة على ما قدموا من الإيمان والأعمال الصالحة ﴿٣﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿٤﴾ أي جنات إقامة تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٦﴾ أي ماكثين فيها أبدًا، لا يموتون ولا يخرجون منها، وهم في نعيم دائم لا ينقطع ﴿٧﴾ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴿٨﴾ أي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بما قدموا في الدنيا من الطاعات وفعل الصالحات، ورضوا عنه بما أعطاهم من الخيرات والكرامات ﴿٩﴾ ذَلِكَ لِمَنْ حَشَى رَبَّهُ ﴿١٠﴾ أي ذلك الجزاء والثواب الحسن لمن خاف الله واتقاه، وانتهى عن معصية مولاه.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

- ١ - الإجمال ثم التفصيل ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ ثم فصلها بقوله ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾.
- ٢ - الطباق بين ﴿خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ و ﴿شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾.
- ٣ - الاستعارة التصريحية ﴿يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ لفظه مطهرة فيها استعارة حيث شبه تنزه الصحف عن الباطل بطهارتها عن الأنجاس.
- ٤ - المقابلة بين نعيم الأبرار وعذاب الفجار ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ..﴾ الآية وبين ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية.
- ٥ - توافق الفواصل وهو من المحسنات البديعية مثل ﴿الْبَيِّنَةُ، قِيمَةُ، خَيْرُ الْبَرِيَّةِ، شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ ونحو ذلك.

تنبيه: الإخلاص هو لبُّ العبادة وقد جاء في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشُرْكَهُ» ^(٢) وقد قسم العلماء الأعمال إلى ثلاثة أقسام: «مأمورات، ومنهيات، ومباحات» فأما المأمورات فالإخلاص فيها بأن يقصد بعمله وجه الله، وإن كانت النية لغير وجه الله، فالعمل رياءً محضٌ مردود، وأما المنهيات فإن تركها بدون نية خرج عن عهدها، ولم يكن له أجر في تركها، وإن تركها ابتغاء وجه الله كان مأجورًا على تركها، وأما المباحات كالأكل والنوم والجماع وشبه ذلك، فإن فعلها بغير نية لم يكن بها أجر، وإن فعلها بنية وجه الله فله فيها أجر، فإن كل مباح يمكن أن يصير قربةً إذا قصد به وجه الله، مثل أن يقصد بالأكل القوة على العبادة ويقصد بالجماع التعفف عن الحرام ^(٣).

«تم بعونه تعالى تفسير سورة البينة»



(١) (ش): بَرَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ: خَلَقَهُمْ؛ أَوْجَدَهُمْ مِنَ الْعَدَمِ.

(٢) (ش): رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

(٣) (ش): قَالَ رَبِّهِ: «إِنَّكَ لَنْ تُنْفَقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَجَرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّى اللَّقْمَةُ تَجْعَلَهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). فِي فِي امْرَأَتِكَ: فِي فَمِ امْرَأَتِكَ.

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

مدنية وآياتها ثمان

بين يدي السورة

* سورة الزلزلة مدنية، وهي في أسلوبها تشبه السور المكية، لما فيها من أهوال وشدائد يوم القيامة، وهي هنا تتحدث عن الزلزال العنيف الذي يكون بين يدي الساعة، حيث يندك كل صرح شامخ، وينهار كل جبل راسخ^(١)، ويحصل من الأمور العجيبة الغريبة ما يندهش له الإنسان كإخراج الأرض ما فيها من موتى، وإلقائها ما في بطنها من كنوز ثمينة من ذهب وفضة، وشهادتها على كل إنسان بما عمل على ظهرها، تقول: عملت يوم كذا، كذا وكذا، وكل هذا من عجائب ذلك اليوم الرهيب، كما تتحدث عن انصراف الخلائق من أرض المحشر إلى الجنة أو النار، وانقسامهم إلى أصناف ما بين شقي وسعيد.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ① وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ② وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ③ يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أَخْبَارَهَا ④ إِنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ⑤ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيرَوْا أَعْمَالَهُمْ ⑥ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ⑦ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ

اللغة: ﴿زُلْزِلَتْ﴾ حُرِّكَتْ تحريكاً عنيفاً ﴿أَثْقَالَهَا﴾ الموتى الذين في جوفها، جمع ثقل وهو الشيء الثقيل ومنه ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ [النحل: ٧] قال الأخفش: إذا كان الميت في بطن الأرض فهو ثقل لها، وإن كان فوقها فهو ثقل عليها^(٢) ﴿يَصْدُرُ﴾ ينصرف ويخرج، والصُّدُورُ ضدُّ الوُرُودِ، فالواردُ الآتي، والصادرُ المنصرف ﴿أَشْتَاتًا﴾ متفرقين جمع شَتَّ يقال: ذهبوا أشتاتاً، أي: متفرقين.

التفسير: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أي إذا حُرِّكَتْ الأرض تحريكاً عنيفاً، واضطربت اضطراباً شديداً، واهتزت بمن عليها اهتزازاً يقطع القلوب ويُفزع الأبواب كقوله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] قال المفسرون: إنما أضاف الزلزلة إليها ﴿زِلْزَالَهَا﴾ تهويلاً كأنه يقول: الزلزلة التي تليق بها على عظم جرمها، وذلك عند قيام الساعة تنزل وتتحرك تحريكاً متتابعاً، وتضطرب بمن عليها، ولا تسكن

(١) (ش): يندك: يهدم حتى يسوى بالأرض. الصَّرح: القصر العالي. ينهار: يسقط وينهدم. راسخ: ثابت.

(٢) «التفسير الكبير» ٣١/ ٥٨.

حتى تُلقي ما على ظهرها من جبل وشجر وبناء وقلاع^(١) ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أي وأخرجت الأرض ما في بطنها من الكنوز والموتى قال ابن عباس: أخرجت موتاتها وقال منذر بن سعيد: أخرجت كنوزها وموتاتها^(٢) وفي الحديث «تَقَىءُ الْأَرْضُ أَفْلَاحَ كَبِدِهَا أَمْثَالَ الْأُسْطُوَانِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ فَيَجِيءُ الْقَاتِلُ فَيَقُولُ فِي هَذَا قَتَلْتُ. وَيَجِيءُ الْقَاطِعُ فَيَقُولُ فِي هَذَا قَطَعْتُ رَحِمِي. وَيَجِيءُ السَّارِقُ فَيَقُولُ فِي هَذَا قُطِعَتْ يَدِي ثُمَّ يَدْعُوهُ فَلَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ شَيْئًا»^(٣) ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا هَٰذَا؟﴾ أي وقال الإنسان: ما للأرض تزلزلت هذه الزلزلة العظيمة، ولفظت ما في بطنها^(٤)؟! يقول ذلك دهشةً وتعجبًا من تلك الحالة الفظيعة ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أي في ذلك اليوم العصيب يوم القيامة تحدث الأرض وتخبر بما عمل عليها من خير أو شر، وتشهد على كل إنسان بما صنع على ظهرها، عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ فقال: «أتدرون ما أخبارها» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبدٍ أو أمةٍ بما عمل على ظهرها، تقول عمل يوم كذا، كذا وكذا، فهذه أخبارها»^(٥) وفي الحديث: «تحفظوا من الأرض فإنها أمكم، وإنه ليس من أحدٍ عامل عليها خيرًا أو شرًّا إلا وهي مخبرة به»^(٦) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُوبِ﴾ أي ذلك الإخبار بسبب أن الله جلّت عظمته أمرها بذلك، وأذن لها أن تنطق بكل ما حدث وجرى عليها، فهي تشكو العاصي وتشهد عليه، وتشكر المطيع وتثني عليه، والله على كل شيء قدير ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشُنَانًا﴾ أي في ذلك اليوم يرجع الخلائق من موقف الحساب، وينصرفون متفرقين فرقًا فرقًا، فأخذ ذات اليمين إلى الجنة، وأخذ ذات الشمال إلى النار ﴿لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ أي لينالوا جزاء أعمالهم من خير أو شر^(٧) ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ أي فمن يفعل من الخير زنة ذرة من التراب^(٨)، يجده في صحيفته يوم القيامة ويلقّ جزاءه عليه.. قال الكلبي: الذرة أصغر النمل وقال ابن عباس: إذا وضعت راحتك على الأرض ثم رفعتها، فكل واحد مما

(١) انظر «التسهيل» ٤/ ٢١٣، و«الخازن» ٤/ ٢٨٠. (ش): قلاع: جمع قلعة: حصن مَنيع على مكان مرتفع.

(٢) تفسير الألوسي ٣٠/ ٢٠٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه. (ش): الفلذ: القطعة من كبد البعير أو القطعة من اللحم. ومعنى الحديث: التَّشْبِيهُ أَي تُخْرِجُ مَا فِي جَوْفِهَا مِنَ الْقِطْعِ الْمَذْفُونَةِ فِيهَا. وَالْأُسْطُوَانُ جَمْعُ أُسْطُوَانَةٍ، وَهِيَ السَّارِقَةُ وَالْعَمُودُ، وَشَبَّهَ بِالْأُسْطُوَانِ لِعَظَمَةِ وَكْثَرَتِهِ.

(٤) (ش): لَفَظَتْ ما في بطنها: أَخْرَجَتْ ما في بطنها.

(٥) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح. (ش): ورواه أحمد وضعفه الألباني والأرنؤوط.

(٦) أخرجه الطبراني في معجمه. (ش): ضعفه الألباني

(٧) (ش): قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ٤٦١): «لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ أَي: لِيَعْمَلُوا وَيُجَازُوا بِمَا عَمِلُوهُ فِي الدُّنْيَا، مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ.

(٨) (ش): زنة: وَزَنَ وَقَدَّرَ.

لصق به من التراب ذرة^(١) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ أي ومن يفعل من الشر زنة ذرة من التراب، يجده كذلك ويلقى جزاءه عليه. قال القرطبي: وهذا مثل ضربه الله تعالى في أنه لا يغفل من عمل ابن آدم صغيرة ولا كبيرة، وهو مثل قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾^(٢) [النساء: ٤٠].

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الإضافة للتحويل والتفطيع ﴿زَلَّاهَا﴾.
 - ٢ - الإظهار في مقام الإضمار ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ﴾ لزيادة التقرير والتوكيد.
 - ٣ - الاستفهام للتعجب والاستغراب ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾
 - ٤ - جناس الاشتقاق ﴿زُلْزِلَتْ .. زَلَّاهَا﴾.
 - ٥ - المقابلة بين ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا ..﴾ وبين ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا ..﴾.
 - ٦ - السجع المرصع كأنه الذهب السبيك أو الدر والياقوت مثل ﴿زَلَّاهَا، أَثْقَالَهَا، أَوْحَى لَهَا، أَخْبَارَهَا، مَا لَهَا﴾ وهو من المحسنات البديعية.
- فائدة:** سَمَّى رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ..﴾ الجامعة الفأدة حين سئل عن زكاة الحُمُر. فقال: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ فِيهَا إِلَّا هَذِهِ الْآيَةَ الْفَادَّةُ الْجَامِعَةُ»: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ أخرجه البخاري^(٣).

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الزلزلة»



(١) «التفسير الكبير» ٦١ / ٣١.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥٠ / ٢٠.

(٣) (ش): رواه البخاري ومسلم. (الفأدة): القليلة النظير. (الجامعة): العامة المتناولة لكل خير ومعروف.

سُورَةُ الْعَادِيَاتِ

مكية وآياتها إحدى عشرة

بين يدي السورة

* سورة العاديات مكية، وهي تتحدث عن خيل المجاهدين في سبيل الله، حين تغير على الأعداء، فيسمع لها عند عدوها ^(١) بسرعة صوتٌ شديد، وتقذح بحوافرها ^(٢) الحجارة فيتطاير منها النار، وتثير التراب والغبار، وقد بدأت السورة بالقسم بخيل الغزاة -إظهاراً لشرفها وفضلها عند الله- على أن الإنسان كفور لنعمة الله تعالى عليه ^(٣)، جحود لآلائه وفيوض نعمائه، وهو معلن لهذا الكفران والجحود بلسان حاله ومقاله، كما تحدثت عن طبيعة الإنسان وحببه الشديد للمال، وختمت السورة الكريمة ببيان أن مرجع الخلائق إلى الله للحساب والجزاء، ولا ينفع في الآخرة مال ولا جاه، وإنما ينفع العمل الصالح.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ^(١) فَالْمُورِيَتِ قَدْحًا ^(٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ^(٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ^(٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ^(٥)
إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ^(٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ^(٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ^(٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ^(٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ^(١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ
اللَّغَةُ: ﴿ضَبْحًا﴾ الضبح: صوت أنفاس الخيل إذا عدت ^(٤)

قال عنتره:

وَالْخَيْلُ تَكْدَحُ حِينَ تَضْبَحُ فِي حِيَاضِ الْمَوْتِ ضَبْحًا ^(٥)
﴿فَأَثَرْنَ﴾ هَيَّجْنَ ﴿نَقْعًا﴾ النَّقْع: الغبار ﴿لَكَنُودٌ﴾ كَفُور جَحُود لنعمة الله، من كند النعمة إذا كفرها ولم يشكرها قال الشاعر:
كَنُودٌ لِنِعْمَاءِ الرِّجَالِ وَمَنْ يَكُنْ كَنُودًا لِنِعْمَاءِ الرِّجَالِ يَبْعُدُ ^(٦)
﴿بُعْثِرَ﴾ أُثِيرَ وَقِيلَ، مَنْ بَعَثَرَتِ الْمَتَاعُ إِذَا جَعَلَتْ أَسْفَلَهُ أَعْلَاهُ.

(١) (ش): عدا الحصان، عدّوا: جرى، ركض، سار بخطى متباعدة، قفز قفزات متتابعة.

(٢) (ش): قذح النار/ قذح النار من الزند: أخرجها منه، أشعلها بالاحتكاك. والزند: العود الأعلى الذي تقذح به النار، والأسفل هو الزند.

(٣) (ش): جحد الأمر: أنكره مع علمه به. فيوض نعمائه: كثرة نعمه.

(٤) (ش): عدا الحصان، عدّوا: جرى، ركض، سار بخطى متباعدة، قفز قفزات متتابعة.

(٥) «الألوسي» ٢١٥/٣٠. (ش): تكدح: تجهّد نفسها.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٦٠/٢٠.

التفسير: ﴿وَالْعَدِيَّتِ صَبَحًا﴾ أي أقسم بخيل المجاهدين المسرعات في الكرّ على العدو، يُسمع لأنفاسها صوتٌ جهير هو الضبحُ قال ابن عباس: الخيل إذا عدت قالت: أُح، أُح فذلك ضبحُها. قال أبو السعود: أقسم سبحانه بخيل الغزاة التي تعدو نحو العدو وتصبح ضبحًا وهو صوت أنفاسها عند عدوها^(١) ﴿فَالْمُورِبَتِ قَدَحًا﴾ أي فالخيل التي تخرج شرر النار من الأرض بوقع حوافرها على الحجارة من شدة الجري ﴿فَالْمُغِيرَتِ صُبْعًا﴾ أي فالخيل التي تغير على العدو وقت الصباح قبل طلوع الشمس قال الألوسي: هذا هو المعتاد في الغارات، كانوا يعدون ليلاً لئلا يشعر بهم العدو، ويهجمون صباحاً ليروا ما يأتون وما يدرون^(٢) ﴿فَأَثَرَنَ بِهِ نَقْعًا﴾ أي فأثارت الخيل الغبار الكثيف لشدة العدو، في الموضع الذي أغرن به ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ أي فتوسطن به جموع الأعداء، وأصبحن وسط المعركة.. أقسم سبحانه وتعالى بأقسام ثلاثة على أمور ثلاثة، تعظيمًا للمقسم به وهو خيل المجاهدين في سبيل الله، التي تُسرّع على أعداء الله، وتقذح النار بحوافرها، وتُغير على الأعداء وقت الصباح، فتثير الغبار، وتتوسط العدو فتصيبه بالرعب والفرع، أما الأمور التي أقسم عليها فهي قوله ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ أي إن الإنسان لجاحد لنعم ربه، شديد الكفران قال ابن عباس: جاحدٌ لنعم الله وقال الحسن: يذكر المصائب وينسى النعم^(٣) ﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ أي وإن الإنسان لشاهد على كُنوده، لا يقدر أن يجحده لظهور أثره عليه ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ أي وإنه لشديد الحب للمال حريصٌ على جمعه، وهو لحبّ عبادة الله وشكر نعمه ضعيفٌ متقاعس^(٤) ثم بعد أن عدّد عليه قبائح أفعاله خوّفه فقال ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَمًا فِي الْقُبُورِ﴾ أي أفلا يعلم هذا الجاهل إذا أُثير ما في القبور وأُخرج ما فيها من الأموات ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي وُجِّع وأبرز ما في الصدور من الأسرار والخفايا التي كانوا يُسرُّونها ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ أي إن ربهم لعالمٌ بجميع ما كانوا يصنعون، ومُجَازِيهم عليه أوفر الجزاء، وإنما خص علمه بهم في ذلك اليوم يوم القيامة لأنه يوم الجزاء، بقصد الوعيد والتهديد، فهو تعالى عالم بهم في ذلك اليوم وغيره.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - التأكيد بـ"إن" واللام في مواضع مثل ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ زيادة في التقرير والبيان.

(١) «أبو السعود» ٢٨٠/٥.

(٢) «روح المعاني» ٣٠/٢١٥. (ش): أي ما يفعلون وما لا يفعلون.

(٣) «تفسير القرطبي» ٢٠/١٦٠.

(٤) (ش): متقاعس: مهمل، متكاسل، غير مُهْتَم.

- ٢ - الجناس غير التام بين ﴿لَشَهِيدٌ﴾ و ﴿لَشَدِيدٌ﴾ وكذلك ﴿ضَبْحًا﴾ و ﴿صُبْحًا﴾ .
- ٣ - الاستفهام الإنكاري للتهديد والوعيد ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ ؟
- ٤ - التضمن ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ ضمَّن لفظ ﴿لَّخَبِيرٌ﴾ معنى المجازاة أي يجازيهم على أعمالهم .
- ٥ - توافق الفواصل مثل ﴿لَشَهِيدٌ﴾ و ﴿لَشَدِيدٌ﴾ إلخ . ويسمى «السجع المرصع» وهو من المحسنات البديعية .

«تم بعونه تعالى تفسير سورة العاديات»



سُورَةُ الْقَارِعَةِ

مكية وآياتها إحدى عشرة

بين يدي السورة

* سورة القارعة مكية، وهي تتحدث عن القيامة وأهوالها، والآخرة وشدائدها، وما يكون فيها من أحداث وأهوال عظام، كخروج الناس من القبور، وانتشارهم في ذلك اليوم الرهيب كالفراش المتطاير، المنتشر هنا وهناك، يجيئون ويذهبون على غير نظام من شدة حيرتهم وفزعهم.

* كما تحدثت عن نسف الجبال وتطايرها حتى تصبح كالصوف المنبث^(١) المتطاير في الهواء، بعد أن كانت صلبة راسخة فوق الأرض، وقد قرنت بين الناس والجبال تنبيهاً على تأثير تلك القارعة في الجبال حتى صارت كالصوف المندوف^(٢)، فكيف يكون حال البشر في ذلك اليوم العصيب؟

* وختمت السورة الكريمة بذكر الموازين التي توزن بها أعمال الناس وانقسام الخلق إلى سعداء وأشقياء حسب ثقل الموازين وخفتها، وسميت السورة الكريمة بالقارعة لأنها تفرع القلوب والأسماع بهولها.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ ١ مَا الْقَارِعَةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٥ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ١٠ نَارُ حَامِيَةٍ

اللغة: ﴿الْقَارِعَةُ﴾ اسم من أسماء القيامة، سميت بها لأنها تفرع الخلائق بأهوالها وأفزاعها، وأصل القرع الضرب بشدة وقوة، تقول العرب: قرعتهُم القارعة وفقرتهم الفارقة، إذا وقع بهم أمر فظيع ﴿الْمَبْثُوثِ﴾ المنتشر المتفرق ﴿كَالْعِهْنِ﴾ الصوف ذو الألوان أو المصبوغ ﴿هَاوِيَةٌ﴾ اسم لجهنم سميت بذلك لأن الناس يهوون بها، أي: يسقطون.

(١) (ش): «الْمُنْبَثُّ: الْمُنْتَشِر».

(٢) (ش): «نَدَفَ الْقَطْنُ: طَرَقَهُ وَضَرَبَهُ بِالْمِنْدَفِ لِيَرِقَّ وَيَزُولَ تَلْبُدُهُ. وَالْمِنْدَفُ وَالْمِنْدَفَةُ: خَشَبَةٌ يُطْرَقُ بِهَا الْقَطْنُ لِيَرِقَّ وَيَزُولَ تَلْبُدَهُ، أَي: يَزُولُ تَدَاخُلُهُ وَالتَّصَابُقُ بَعْضُهُ بَعْضًا».

التفسير: ﴿الْقَارِعَةُ ١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿﴾ أي القيامة وأي شيء هي القيامة؟ إنها في الفظاعة والفخامة بحيث لا يدركها خيال، ولا يبلغها وهم إنسان فهي أعظم من أن تُوصَف أو تُصَوَّر، ثم زاد في التفخيم والتهويل لشأنها فقال ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾؟ أي أي شيء أعلمك ما شأن القارعة في هولها على النفوس؟ إنها تُفزع القلوب فحسب، بل تؤثر في الأجرام العظيمة، فتؤثر في السموات بالإنشقاق، وفي الأرض بالزلزلة، وفي الجبال بالدك والنسف، وفي الكواكب بالانثثار، وفي الشمس والقمر بالتكوير والانكدار إلى غير ما هنالك ^(١) قال أبو السعود: سميت القيامة قارعة لأنها تفرع القلوب والأسماع بفنون الأهوال والأفراع، ووضع الظاهر موضع الضمير ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ ^(٢) تأكيداً للتهويل. والمعنى: أي شيء عجيب هي في الفخامة والفظاعة، ثم أكد هولها وفظاعتها بقوله ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾؟ ببيان خروجها عن دائرة علوم الخلق، بحيث لا تكاد تنالها دراية أحد ^(٣).. وبعد هذا التخويف والتشويق إلى معرفة شيء من أحوالها، جاء التوضيح والبيان بقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ أي ذلك يحدث عندما يخرج الناس من قبورهم فزعين، كأنهم فراش متفرق منتشر هنا وهناك، يموج بعضهم في بعض من شدة الفزع والحيرة قال الرازي: شبه تعالى الخلق وقت البعث ههنا بالفراش المبعوث، وفي آية أخرى بالجراد المنتشر، أما وجه التشبيه بالفراش، فلأن الفراش إذا ثار لم يتجه إلى جهة واحدة، بل كل واحدة منها تذهب إلى غير جهة الأخرى، فدل على أنهم إذا بُعثوا فزعوا، وأما وجه التشبيه بالجراد فهو في الكثرة، يصبحون كغوغاء ^(٤) الجراد يركب بعضه بعضاً، فكذلك الناس إذا بُعثوا يُموج بعضهم في بعض ^(٥) كالجراد والفراش كقوله تعالى ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: ٩٩] ^(٦) ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ هذا هو الوصف الثاني من صفات ذلك اليوم المهول ^(٧) أي وتصير الجبال كالصوف المنتشر المتطاير، تتفرق أجزاءها وتتطاير في الجو، حتى تكون كالصوف المتطاير عند الندف ^(٨) قال الصاوي: وإنما جمع بين حال الناس وحال الجبال، تبييناً على

(١) (ش): فتنتشق السماء، ويختل نظامها، وتُلَف الشمس ويذهب ضوؤها، ويذهب ضوء القمر، وتزلزل الأرض، وتزال الجبال عن أماكنها فيجعلها الله هباءً منبثاً، وتتساقط الكواكب، وتتناثر النجوم، ويذهب نورها.

(٢) (ش): وضع الظاهر (القارعة) موضع الضمير (هي)، أي لم يقل: ما هي؟ بل قال: ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾.

(٣) «أبو السعود» ٢٨١/٥.

(٤) (ش): غوغاء: ضوضاء، صياح.

(٥) (ش): ماج القوم: دخل بعضهم في بعض.

(٦) «التفسير الكبير» ٧٢/٣١.

(٧) (ش): مهول: مُرعب، مُخيف.

(٨) (ش): ندف القطن: طرقة وضربه بالندف ليرق ويحول تلبده. والندف والندفة: خشبة يطرق بها القطن ليرق ويحول تلبده، أي: يزول تداخله والتصاق بعضه ببعض.

أن تلك القارعة أثّرت في الجبال العظيمة الصلبة، حتى تصير كالصوف المندوف مع كونها غير مكلفة، فكيف حال الإنسان الضعيف المقصود بالتكليف والحساب^(١)!! ثم ذكر تعالى حالة الناس في ذلك اليوم، وانقسامهم إلى شقي وسعيد فقال ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي رجحت موازين حسناته، وزادت حسناته على سيئاته ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أي فهو في عيش هنيء رغيد سعيد، في جنان الخلد والنعيم^(٢) ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي نقصت حسناته عن سيئاته، أو لم يكن له حسنات يُعتدُّ بها ﴿فَأَمَّهُ هَكَاوِيَةٌ﴾ أي فمسكنه ومصيره نار جهنم يهوي في قعرها، سمّاها أمّ لأن الأم مأوى الولد ومفرّغه، فنار جهنم تؤوي هؤلاء المجرمين، كما يأوي الأولاد إلى أمهم، وتضمهم إليها كما تضم الأم الأولاد إليها قال أبو السعود: ﴿هَكَاوِيَةٌ﴾ اسم من أسماء النار، سميت بها لغاية عمقها وبُعد مهواها، روي أن أهل النار يهوون فيها سبعين خريفاً^(٣) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ﴾ استفهام للتفخيم والتهويل أي وما أعلمك ما الهاوية؟ ثم فسرها بقوله ﴿نَارُ حَامِيَةٍ﴾ أي هي نار شديدة الحرارة، قد خرجت عن الحد المعهود، فإن حرارة أي نار إذا سُعرت وأُلقي فيها أعظم الوقود لا تعادل حرارة جهنم، أجارنا الله منها بفضله وكرمه.

البلاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

- ١ - الاستفهام للتفخيم والتهويل ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾؟ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ﴾؟
- ٢ - وضع الظاهر مكان الضمير للتخويف والتهويل ﴿الْقَارِعَةُ﴾^(١) ما الْقَارِعَةُ؟ والأصل أن يقال: القارعة ما هي؟
- ٣ - التشبيه المرسل المجمل ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه، أي: في الكثرة والانتشار، والضعف والذلة، ومثله ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوثِ﴾ أي في تطايرها وخفة سيرها فيسمى مراسلاً مجعلاً.
- ٤ - المقابلة ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾^(١) ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ ثم قابلها بقوله ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾^(٨) ﴿فَأَمَّهُ هَكَاوِيَةٌ﴾ وهو من المحسنات البديعية.
- ٥ - المجاز العقلي ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أي راضٍ بها صاحبها ففيه إسناد مجازي.

(١) «حاشية الصاوي» ٣٤٧/٤.

(٢) (ش): رَغْدٌ/ رَغْدَ الْعِيشِ: اتَّسَعَ وَنَعِمَ وَطَاب.

(٣) «تفسير أبي السعود» ٢٨٢/٥، ونقل عن قتادة أن المراد بقوله: ﴿فَأَمَّهُ هَكَاوِيَةٌ﴾ أي فأم رأسه هاوية في قعر جهنم لأنه يُطْرَح فيها منكوساً، والأول أظهر. (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ سَمِعَ وَجِبَةً فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «تَدْرُونَ مَا هَذَا؟». قَالَ: قُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مِنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). الْوَجِبَةُ: صَوْتُ وَقَعَ الْقَدَمُ عَلَى الْأَرْضِ.

٦ - الاحتباك وهو أن يحذف من كل نظير ما أثبتته في الآخر، فقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ (٨) فَأَمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةٌ ﴿١٠﴾ حذف من الأول (فأمة الجنة) وذكر فيها ﴿عِشَّةٍ رَاضِيَةٍ﴾ وحذف من الآية الثانية (فهو في عيشة ساخطة) وذكر ﴿فَأَمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ فحذف من كل نظير ما أثبتته في الآخر، وهو من المحسنات البديعية.

٧ - توافق الفواصل في الحرف الأخير، وهو واضح في السورة الكريمة.

تنبيه: الجمهور على أن الميزان حقيقي له كِفَتَانِ ولسان، توزن فيه الصحف المكتوب فيها الحسنات والسيئات، وروي عن ابن عباس أنه يؤتى بالأعمال الصالحة على صور حسنة، وبالأعمال السيئة على صور قبيحة، فتوضع في الميزان، فمن رجحت حسناته سُعِدَ، ومن رجحت سيئاته شَقِيَ، والله أعلم^(١).

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القارعة»



(١) (ش): أخبر الله أنه يضع الموازين لوزن الأعمال، ليرى العباد أعمالهم ممثلة ليكونوا على أنفسهم شاهدين. قال الله تعالى: ﴿وَنُضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكُنْ مِنْ سَاحِسِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] والميزان ميزان حقيقي، لا يقدر قدره إلا الله تعالى، قَالَ ﷺ: «يُوضَعُ الْمِيزَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَوْ وُزِنَ فِيهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ لَوَسِعَتْ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: «يَا رَبِّ لِمَنْ يَزُنُ هَذَا؟»، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «لِمَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي»، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: «سُبْحَانَكَ مَا عَبْدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ» (رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي والألباني). وقد دلت الأحاديث الصحيحة على أنه يوزن في الميزان ثلاثة: الأعمال، وصحائف الأعمال، والعامل نفسه.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

مكية وآياتها ثمان

بين يدي السورة

* سورة التكاثر مكية، وهي تتحدث عن انشغال الناس بمغريات الحياة، وتكالهم على جمع حطام الدنيا، حتى يقطع الموت عليهم متعتهم، ويأتيهم فجأة وبغته، فينقلهم من القصور إلى القبور.

الموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل
* وقد تكرر في هذه السورة الزجر والإنذار تخويفاً للناس، وتنبيهاً لهم على خطئهم، باشتغالهم بالفانية عن الباقية ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٢) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾. * وختمت السورة الكريمة ببيان المخاطر والأحوال التي سيلقونها في الآخرة، والتي لا يجوزها^(١) ولا ينجو منها إلا المؤمن الذي قدم صالح الأعمال.

أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ

اللغة: ﴿أَلْهَكُمُ﴾ الإلهاء: الشغل والانصراف عن الشيء الهام إلى ما يدعو إليه الهوى، وأصل اللهو الغفلة ثم شاع في كل شاغل قال الراغب: اللهو ما يشغلك عما يعني ويهمُّ ﴿التَّكَاثُرُ﴾ التباهي بكثرة المال والجاه وهو بمعنى المكاثرة ﴿الْمَقَابِرَ﴾ القبور جمع مقبرة، والقبور جمع القبر قال الشاعر:

أَرَى أَهْلَ الْقُصُورِ إِذَا أُمِيتُوا بَنَوْا فَوْقَ الْمَقَابِرِ بِالْصُّخُورِ
أَبَوْا إِلَّا مُبَاهَاةً وَفَخْرًا عَلَى الْفُقَرَاءِ حَتَّى فِي الْقُبُورِ

التفسير: ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ أي شغلكم أيها الناس التفاخر بالأموال والأولاد والرجال عن طاعة الله، وعن الاستعداد للآخرة ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أي حتى أدرككم الموت، ودُفِنْتُمْ في المقابر، والجملة خبر يراد به الوعظ والتوبيخ قال القرطبي: المعنى شغلكم المباهاة بكثرة المال والأولاد عن طاعة الله، حتى مُتُّم ودُفِنْتُمْ في المقابر^(٢) ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ زجرٌ وتهديدٌ أي ارتدعوا أيها الناس وانزجروا عن الاشتغال بما لا ينفع ولا يفيد، فسوف تعلمون

(١) (ش): جازَ الموضع / جازَ بالموضع: سلكه وتركه خلفه، سار فيه وقطعه.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٦٨/٢٠، وقال ابن كثير: شغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها، عن طلب الآخرة وابتغائها، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت، وزرتم المقابر وصيرتم من أهلها.

عاقبة جهلكم وتفريطكم في جنب الله، وانشغالكم بالفاني عن الباقي ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وعيدٌ إثر وعيد، زيادة في الزجر والتهديد، أي: سوف تعلمون عاقبة تكاثركم وتفاخركم إذا نزل بكم الموت وعائنتم أهواله وشدائده قال ابن عباس: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ ما ينزل بكم من العذاب في القبر ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي في الآخرة إذا حلَّ بكم العذاب^(١) ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي ارتدعوا وانزعجوا فلو علمتم العلم الحقيقي الذي لا شك فيه ولا امتراء، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف لقصد التهويل أي لو عرفتم ذلك لما ألهاكم التكاثر بالدنيا عن طاعة الله، ولما خدعتم بنعيم الدنيا عن أهوال الآخرة وشدائدها كما قال ﷺ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمَ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»^(٢) الحديث. قال في التسهيل: وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف تقديره: لو تعلمون لازدجرتم واستعددتُم للآخرة، وإنما حذف لقصد التهويل، فيقدر السامع أعظم ما يخطر بباله^(٣) كقوله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُفِّقُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧] ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ أي أقسم وأؤكد بأنكم ستشاهدون الجحيم عيانًا ويقينًا قال الألوسي: هذا جواب قسم مُضْمَرٌ^(٤) أكَّد به الوعيد، وشدَّد به التهديد، وأوضح به ما أنذروه بعد إيهامه تفخيماً^(٥) أي والله لتروُنَّ الجحيم ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ أي ثم لتروُنَّها رؤية حقيقية بالمشاهدة العينية قال في البحر: زاد التوكيد بقوله ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ نفياً لتوهم المجاز في الرؤية الأولى^(٦) ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ أي ثم لتسألنَّ في الآخرة عن نعيم الدنيا من الأمن والصحة، وسائر ما يتلذذ به من مطعم، ومشرب، ومركب، ومفرش.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

- ١ - الوعظ والتوبيخ ﴿أَلْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ فقد خرج الخبر عن حقيقته إلى التذكير والتوبيخ.
- ٢ - التكرار للتهديد والإنذار ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وعطفه بـ ﴿ثُمَّ﴾ للتنبيه على أن الثاني أبلغ من الأول، كما يقول العظيم لعبده: أقول لك ثم أقول لك: لا تفعل، ولكونه أبلغ نزل منزلة المغايرة فعطف بـ ﴿ثُمَّ﴾^(٧).
- ٣ - حذف جواب ﴿لَوْ﴾ للتهويل ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي لرأيتم ما تشيب له الرؤوس، وتفرع له النفوس من الشدائد والأهوال.

(١) «تفسير القرطبي» ١٧٢/٢٠.

(٢) جزء من حديث رواه البخاري. (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٣) «التسهيل» ٢١٦/٤.

(٤) (ش): مُضْمَرٌ: غير ظاهر.

(٥) «الألوسي» ٢٢٥/٣٠.

(٦) «البحر المحيط» ٥٠٨/٨.

(٧) (ش): فالعطف يقتضي المغايرة - أي الاختلاف - بين المعطوف والمعطوف عليه.

- ٤ - الإطناب بتكرار الفعل ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ لبيان شدة الهول.
- ٥ - الكناية ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ كنى عن الموت بزيارة القبور، والمراد حتى تُثم.
- ٦ - المطابقة بين ﴿النَّعِيمِ .. الْجَحِيمِ﴾.
- ٧ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات وهو من المحسنات البديعية.

تنبيه: روى الترمذي عن عبد الله بن الشخير قال: «انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ فقال: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي، وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتُ فَأَقْنَيْتَ أَوْ لَبِستَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟»^(١).

لطيفة: روى مسلم عن أبي هريرة قال: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقَالَ ﷺ: «مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟». قَالَا: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «وَأَنَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا أَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا قُومُوا». فَقَامُوا مَعَهُ فَأَتَى رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ قَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا. فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيْنَ فُلَانٌ؟». قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مِنَ الْمَاءِ. إِذْ جَاءَ الْأَنْصَارِيُّ فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَاحِبَيْهِ ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي. فَاِنْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ بِعَذْقٍ - عُنُقُودٍ - فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطْبٌ فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هَذِهِ. وَأَخَذَ الْمُدِّيَّةَ - السَّكِينَ - فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِيَّاكَ وَالْحُلُوبَ». فَذَبَحَ لَهُمْ فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعَذْقِ وَشَرَبُوا فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - لأبي بكرٍ وعمرَ - «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُسْأَلَنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَخْرَجَكُمُ مِنْ بُيُوتِكُمُ الْجُوعُ ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّىٰ أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ»^(٢).

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التكاثر»



(١) (ش): وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ.

(٢) (ش): (ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا الْمَاءَ) أَيِ يَأْتِينَا بِمَاءٍ عَذْبٍ. (إِذْ جَاءَ الْأَنْصَارِيُّ) أَيِ هُمْ فِي ذَلِكَ إِذْ جَاءَ الْأَنْصَارِيُّ. (الْعَذْقُ) الْغُصْنُ مِنَ النَّخْلِ. (الْحُلُوبُ): ذَاتُ اللَّبَنِ.



مكية وآياتها ثلاث

بين يدي السورة

* سورة العصر مكية، وقد جاءت في غاية الإيجاز والبيان، لتوضح سبب سعادة الإنسان أو شقاوته، ونجاحه في هذه الحياة أو خسارانه ودماره.

* أقسم تعالى بالعصر وهو الزمان الذي ينتهي فيه عمر الإنسان، وما فيه من أصناف العجائب، والعبر الدالة على قدرة الله وحكمته، على أن جنس الإنسان في خسارة ونقصان، إلا من اتصف بالأوصاف الأربعة وهي (الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والاعتصام بالصبر) وهي أسس الفضيلة، وأساس الدين، ولهذا قال الإمام الشافعي رحمه الله: لو لم ينزل الله سوى هذه السورة لكفت الناس.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ

التفسير: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ أي أقسمُ بالدهر والزمان^(١) لِمَا فيه من أصناف الغرائب والعجائب، والعبر والعظات، على أن الإنسان في خسران، لأنه يفضل العاجلة على الآجلة وتغلب عليه الأهواء والشهوات قال ابن عباس: العصر هو الدهر أقسم تعالى به لاشتماله على أصناف العجائب وقال قتادة: العصر هو آخر ساعات النهار، أقسم به كما أقسم بالضحى لما فيهما من دلائل القدرة الباهرة، والعظة البالغة^(٢).. وإنما أقسم تعالى بالزمان لأنه رأس عمر الإنسان، فكل لحظة تمضي فإنها من عمرك ونقص من أجلك، كما قال القائل:

إِنَّا لَنَفْرَحُ بِالْأَيَّامِ نَقْطَعُهَا وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى نَقْصٌ مِنَ الْأَجَلِ
قال القرطبي: أقسم الله عز وجل بالعصر وهو الدهر لما فيه من التنبيه بتصرف الأحوال وتبدلها، وما فيه من الدلائل على الصانع، وقيل: هو قَسَمٌ بصلاة العصر؛ لأنها أفضل

(١) (ش): تقدم كثيراً أن الخالق يُقسم بما شاء من خلقه، وأن المخلوق لا يُقسم إلا بالخالق.

(٢) «البحر» ٥٠٩ / ٨.

الصلوات^(١) فهو لاء هم الفائزون لأنهم باعوا الخسيس بالنفيس^(٢)، واستبدلوا الباقيات الصالحات عوضاً عن الشهوات العاجلات ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ أي أوصى بعضهم بعضاً بالحق، وهو الخير كله، من الإيمان، والتصديق، وعبادة الرحمن ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ أي وتواصوا بالصبر على الشدائد والمصائب، وعلى فعل الطاعات، وترك المحرمات.. حكم تعالى بالخسار على جميع الناس إلا من أتى بهذه الأشياء الأربعة وهي: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.. فإن نجا الإنسان لا تكون إلا إذا كَمَلَ الإنسان نفسه بالإيمان والعمل الصالح، وكَمَلَ غيره بالنصح والإرشاد، فيكون قد جمع بين حق الله، وحق العباد، وهذا هو السرُّ في تخصيص هذه الأمور الأربعة.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

- ١ - إطلاق البعض وإرادة الكل ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ أي الناس بدليل الاستثناء.
 - ٢ - التنكير للتعظيم ﴿لَقِيَ خُسْرًا﴾ أي في خسر عظيم ودمار شديد.
 - ٣ - الإطناب بتكرار الفعل ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ لإبراز كمال العناية به.
 - ٤ - ذكر الخاص بعد العام ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ بعد قوله ﴿بِالْحَقِّ﴾ فإن الصبر داخل في عموم الحق، إلا أنه أفرد بالذكر إشادة بفضيلة الصبر.
 - ٥ - السجع غير المتكلف مثل ﴿وَالْعَصْرِ، وَالصَّبْرِ، خُسْرًا﴾ وهو من المحسنات البديعية.
- تنبيه:** أخرج البيهقي في الشعب عن «أبي حذيفة» وكانت له صحبة قال: كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيَا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة ﴿وَالْعَصْرِ﴾ ثم يُسَلِّمُ أحدهما على الآخر^(٣).

«تم بعونه تعالى تفسير سورة العصر»

(١) «تفسير القرطبي» ٢٠ / ١٧٩. (ش): قال تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]. عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ - يَوْمَ الْخَنْدَقِ، فَقَالَ: «شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى صَلَاةَ الْعَصْرِ؛ مَلَأَ اللَّهُ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا» (رواه البخاري ومسلم). ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي جمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال، (ش): هذا التعبير يعطي أن الإيمان غير العمل، وهذا خلاف مذهب أهل السنة والجماعة من أن العمل داخل في مسمى الإيمان بحيث لا يتحقق الإيمان بدونه، وعطف العمل على الإيمان عندهم من عطف الخاص على العام اهتماماً به، كما قال تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨].

(٢) (ش): خسيس: فقير. نفيس: عظيم القيمة.

(٣) (ش): ورواه الطبراني، وصحَّح إسناده الألباني.

وهذا الأثر يدل على أن التسليم عند الافتراق، وقراءة سورة العصر قبل التفرُّق كانا من هدي الصحابة رضي الله عنهم. أما اشتمال دعاء كفارة المجلس على سورة العصر فلم يرد به دليل، وإنما ورد فضل قراءتها عند التلاقي من غير تحديد وقتٍ معيَّن لذلك.

سُورَةُ الْهَمْزَةِ

مكية وآياتها تسع
بين يدي السورة

* سورة الهمزة مكية، وقد تحدثت عن الذين يعيون الناس، ويأكلون أعراضهم، بالطعن والانتقاص والازدراء، وبالسخرية والاستهزاء فعل السفهاء.

* كما ذمت الذين يشتغلون بجمع الأموال، وتكديس الثروات، كأنهم مخلصون في هذه الحياة يظنون - لفرط جهلهم وكثرة غفلتهم - أن المال سيخلصهم في الدنيا.

* وختمت بذكر عاقبة هؤلاء التعساء الأشقياء، حيث يدخلون نارًا لا تخدم أبدًا، تحطم المجرمين ومن يلقي فيها من البشر، لأنها الحطمة نار سقر!

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ، ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ، ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُبَدِّلَنَّا فِي الْخُطْمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخُطْمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمَوْفُودَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمْدٍ مُّمدَّدَةٍ

اللغة: ﴿هُمَزَةٍ﴾ الهمَّاز: الذي يغتاب الناس ويطعن في أعراضهم، وبناءً «فُعلة» يدل على الاعتياد فلا يقال: لُعنة وضحكة إلا للمُكثِّر المعْتاد ﴿لُمَزَةٍ﴾ اللَّماز: الذي يعيب الناس وينال منهم بالحاجِب والعين ﴿الْخُطْمَةِ﴾ نار جهنم سميت بذلك لأنها تكسر كل ما يُلقى فيها وتحطمه وتهشمه ﴿مُوصَّدَةٌ﴾ مُطَبَّقة مُغلَّقة من أوصد الباب إذا أغلقه.

التفسير: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ أي عذاب شديد وهلاك ودمار، لكل من يعيب الناس ويغتابهم ويطعن في أعراضهم، أو يلزمهم سرًّا بعينه أو حاجبه قال المفسرون: نزلت السورة في «الأخنس بن شريق» لأنه كان كثير الوقعة في الناس، يلزمهم ويعييبهم مقبلين ومدبرين، والحكم عام لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب^(١)، ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ أي الذي جمع مالًا كثيرًا وأحصاه، وحافظ على عدده لئلا ينقص فمنعه من الخيرات قال الطبري: أي أحصى عدده ولم ينفقه في سبيل الله ولم يؤدِّ حقَّ الله فيه ولكنه جمعه فأوعاه وحفظه^(٢) ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ أي يظن هذا الجاهل لفرط غفلته أن ماله سيتركه مخلصًا في الدنيا

(١) انظر «تفسير القرطبي» ١٨٣/٢٠، و«الرازي» ٩١/٣١. (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٢) «تفسير الطبري» ١٨٩/٣٠. (ش): أَوْعَى مَالَهُ: وضعه في وعاءٍ جَرَصًا عَلَيْهِ، وضعه في خزائنه، ولم يؤدِّ حق الله فيه.

لا يموت ﴿كَلَّا لَيُبَدِّلَنَّ فِي الْخُطْمَةِ﴾ أي ليرتدع عن هذا الظن فوالله ليُطرحَ حنَّ في النار التي تحطم كل ما يُلقى فيها وتلتهمه ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخُطْمَةُ﴾ تفخيم وتهويل لشأنها أي وما الذي أعلمك ما حقيقة هذه النار العظيمة؟ إنها الخطمة التي تحطم العظام وتأكل اللحوم، حتى تهجم على القلوب، ثم فسرها بقوله ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ أي هي نار الله المسعرة بأمره تعالى وإرادته، ليست كسائر النيران فإنها لا تخدم أبداً، وفي الحديث «أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة»^(١) ﴿الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْنَدَةِ﴾ أي التي يبلغ المٌها ووجعها إلى القلوب فتحرقها قال القرطبي: وخص الأفندة لأن الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه، فإنهم في حال من يموت وهم لا يموتون كما قال تعالى ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [الأعلى: ١٣] فهم إذا أحياء في معنى الأموات^(٢) ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ﴾ أي إن جهنم مطبقة مغلقة عليهم، لا يدخل إليهم روح ولا ريحان^(٣) ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ أي وهم موقوفون^(٤) في سلاسل وأغلال، تشدُّ بها أيديهم وأرجلهم، بعد إطباق أبواب جهنم عليهم، فقد يسسوا من الخروج بإطباق الأبواب عليهم، وتمدد العمدة إيداناً بالخلود إلى غير نهاية.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

- ١ - صيغة المبالغة ﴿هُمَزَرٍ، لَمَزَرٍ﴾ لأن بناء «فُعلة» يدل على أنها عادة مستمرة.
- ٢ - التنكير للتفخيم ﴿جَمَعَ مَالًا﴾ أي مالاً كثيراً لا يكاد يحصى.
- ٣ - التفخيم والتهويل ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخُطْمَةُ﴾؟ تهويلاً لشأن جهنم.
- ٤ - الجناس غير التام بين ﴿هُمَزَرٍ﴾ و﴿لَمَزَرٍ﴾ ويسمى الجناس الناقص.
- ٥ - توافق الفواصل مثل ﴿وَعَدَدُهُ، أَخْلَدُهُ، الْمُوقَدَةُ، مُمَدَّدَةٍ﴾ ويسمى بالسجع.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الهزمة»



(١) رواه الترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً، قال: والأصح أنه موقوف. (ش): ضَعَفَهُ الألباني.

(٢) «تفسير القرطبي» ٢٠ / ١٨٥.

(٣) (ش): رُوحٌ: رَحْمَةٌ وَأَسْرَاحَةٌ، وَفَرَحٌ. رِيحَانٌ: رِزْقٌ حَسَنٌ، وَرَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، وَجَمِيعٌ مَا تَطْيَبُ بِهِ نَفْسُهُ.

(٤) (ش): في أكثر من طبعة: مَوْثُوقُونَ. والمُثَبَّتُ هنا هو الصواب، يقال: أوثق الأسير ونحوه، إثاقاً، فهو مَوْثُوقٌ، والمفعول مَوْثُوقٌ: شَدَّهُ في الوثاق أي القيد بحبل أو سلسلة. ويقال: وِثِقَ بالشَّخْصِ / وِثِقَ في الشَّخْصِ / وِثِقَ من الشَّخْصِ، ثِقَةً وَوُثُوقًا وَوِثَاقَةً، فهو وِثِيقٌ، والمفعول مَوْثُوقٌ به: ائتمنه، صدَّقه، وضع ثقته به.

سُورَةُ الْفِيلِ

مكية وآياتها خمس

بين يدي السورة

* سورة الفيل مكية، وهي تتحدث عن قصة «أصحاب الفيل» حين قصدوا هدم الكعبة المشرفة، فرد الله كيدهم في نحورهم، وحمى بيته من تسلطهم وطغيانهم، وأرسل على جيش «أبرهة الأشرم» وجنوده أضعف مخلوقاته، وهي الطير التي تحمل في أرجلها ومناقيرها حجارة صغيرة، ولكنها أشد فتكاً وتدميراً من الرصاصات القاتلة، حتى أهلكهم الله وأبادهم عن آخرهم، وكان ذلك الحدث التاريخي الهام في عام ميلاد سيد الكائنات محمد بن عبد الله (ص)، سنة سبعين وخمسمائة ميلادية وكان من أعظم الإرهاصات (٢) الدالة على صدق نبوته (ص).

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ

اللغة: ﴿أَبَابِيلَ﴾ جماعات جماعات بعضها في إثر بعض. قال الجوهرى: وهو من الجمع الذي لا واحد له يقال: جاءت إبلك أبابيل أي فرقا وجماعات قال الشاعر:

كَادَتْ تُهْدُّ مِنَ الْأَصْوَابِ رَاحِلَتِي إِذْ سَالَتْ الْأَرْضُ بِالْجُرْدِ الْأَبَابِيلِ (٣)

﴿سِجِيلٍ﴾ طين متحجر ﴿كَعَصْفٍ﴾ ورق الزرع بعد الحصاد كالتين وقشر الحنطة، سمى عصفاً لأن الريح تعصف به فتفرقه ذات اليمين وذات الشمال.

التفسير: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ أي ألم يبلغك يا محمد وتعلم علماً يقينياً كأنه مشاهد بالعين، ماذا صنع الله العظيم الكبير بأصحاب الفيل الذين قصدوا الاعتداء على البيت الحرام؟ قال المفسرون: روى أن «أبرهة الأشرم» ملك اليمن، بنى كنيسةً بصنعاء وأراد

(١) (ش): وصف الرسول (ص) بأنه سيد الكائنات، وصف فيه غلو وإطراء، وقد نهى النبي (ص) عن مثل ذلك، فلو قال المؤلف: «سيد البشر» لكان ذلك صحيحاً مطابقاً لقوله - (ص) - : «أَنَا سَيِّدُ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (رواه مسلم)، أما سيادته على الكائنات فهذا لا دليل عليه.

(٢) (ش): الإرهاص: أمر خارق للعادة يُظهره الله قبل بعثة نبي، يكون من مُقَدِّمات نبوته.

(٣) «البحر المحيط» ٥١١ / ٨. (ش): هذَّ الحائط: هدمه بشدة صوت. هذَّ الأمر: أوهنه وبلغ منه. الجُرد: خيل قصيرة شعر الجلد. سَالَتْ الْأَرْضُ بهم: أنهم كثير كأنهم السيل، أي الطوفان، وهو ماء كثير يسيل، أو ماء المطر إذا تجمع فوق الأرض وجرى مسرعاً غزيراً.

أن يصرف إليها الحجيح، فجاء رجلٌ من كنانة وتغوَّط فيها ليلاً ولطخ جدرانها بالنجاسة احتقاراً لها، فغضب «أبرهة» وحلف أن يهدم الكعبة، وجاء مكة بجيش كبير على أفيال، يتقدمهم فيل هو أعظم الفيلة، فلما وصل قريباً من مكة فرَّ أهلها إلى الجبال، خوفاً من جنده وجبروته، وأرسل الله تعالى على جيش أبرهة طيوراً سوداً، مع كل طائر ثلاثة أحجار، جحر في منقاره وحجران في رجليه، فرمَّتهم الطيور بالحجارة، فكان الحجر يدخل في رأس الرجل ويخرج من دبره فيرميه جثة هامدة، حتى أهلكهم الله ودمَّرهم عن آخرهم، وكانت قصتهم عبرة للمعتبرين^(١) قال أبو السعود: وتعليقُ الرؤية بكيفية فعله جل وعلا ﴿كَيْفَ فَعَلَ﴾ لا بنفسه بأن يقال: «ألم تر ما فعل ربك» الخ لتهويل الحادثة، والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة، وهيئة عجيبة دالة على عظم قدرة الله تعالى، وكمال علمه وحكمته وشرف رسوله ﷺ فإن ذلك من الإرهاصات لما روي أن القصة وقعت في السنة التي ولد فيها النبي عليه الصَّلاة والسَّلام^(٢) ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي ألم يهلكهم ويجعل مكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة في ضياع وخسار؟! ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ أي وسلَّط عليهم من جنوده طيراً أتتهم جماعات، متتابعة بعضها في إثر بعض، وأحاطت بهم من كل ناحية ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي تقدفهم بحجارة صغيرة من طين متحجر، كأنها رصاصات ثقابة لا تصل إلى أحدٍ إلا قتلته ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ مَّا أُكُولُ﴾ أي فجعلهم كورق الشجر الذي عصفت به الريح، وأكلته الدواب ثم رائته^(٣)، فأهلكهم عن بكرة أبيهم، وهذه القصة تدل على كرامة الله للكعبة، وإنعامه على قريش بدفع العدو عنهم، فكان يجب عليهم أن يعبدوا الله ويشكروه على نعمائه، وفيها مع ذلك عجائب وغرائب من قدرة الله على الانتقام من أعدائه قال في البحر: كان صرْفُ ذلك العدو العظيم عام مولده السعيد عليه السلام، إرهاباً بنبوته إذ مجيء تلك الطيور على الوصف المنقول، من خوارق العادات والمعجزات المتقدمة بين أيدي الأنبياء عليهم السلام، وقد أهلكهم الله تعالى بأضعف جنوده وهي الطير التي ليست من عاداتها أنها تقتل^(٤).

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

(١) انظر «التفسير الكبير» ٩٦/٣١، و«تفسير القرطبي» ١٨٧/٢٠. (ش): لا تكاد الروايات التاريخية لقصة أصحاب الفيل تخرج عن الوصف القرآني إلا في تحديد جزئيات وتفصيلات يسيرة. [انظر: السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية (١/ ٩٧)].

(٢) «أبو السعود» ٢٨٥/٥. (ش): إن القرائن التاريخية المحققة بالروايات التي تفيد مولد النبي ﷺ عام الفيل قوية، ويرى ابن القيم ويتابعه القسطلاني أن مولد النبي كان في عام الفيل بعد حادثة الفيل، لأن قصة الفيل توطئة وإرهاباً لظهوره، حيث دفع الله نصارى الحبشة عن الكعبة دون حَوْلٍ من العرب المشركين تعظيماً لبيته. [انظر: السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية (١/ ٩٨)].

(٣) (ش): (رَأَتْ): أَلْقَى غَائِطَهُ، أَيِ بَرَاةً، مَا تَطَرَّحُهُ الْأُمَمَاءُ مِنْ فَضَلَاتٍ.

(٤) «البحر المحيط» ٥١٢/٨.

- ١ - الاستفهام للتقرير والتعجيب ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ..﴾ الآية.
- ٢ - الخطاب للنبي ﷺ بإضافته إلى اسم الجلالة ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾ تشریف للنبي العظيم، وإشادةً بقدرة الله تعالى.
- ٣ - التشبيه المرسل المجمل ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ ذكرت الأداة وحذف وجه الشبه.
- ٤ - توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿الْفِيلِ، تَضَلَّلِي، سِجِّيلٍ، أَبَايَلٍ﴾ إلخ.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفيل»



سُورَةُ قُرَيْشٍ

مكية وآياتها أربع

بين يدي السورة

* تحدثت هذه السورة عن نعم الله الجلييلة على أهل مكة، حيث كانت لهم رحلتان: في الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى الشام من أجل التجارة، وقد أكرم الله تعالى قريشاً بنعمتين عظيمتين من نعمه الكثيرة هما: نعمة الأمن والاستقرار، ونعمة الغنى واليسار^(١) ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ﴾ (٢) ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾. قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ ۖ (١) إِيْلَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۖ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ (٣) ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾

التفسير: ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ ۖ﴾ (١) إِيْلَفِهِمْ هذه اللام متعلقة بالفعل الذي بعدها ﴿فَلْيَعْبُدُوا ۖ﴾ ومعنى ﴿لَا يَلْفُ ۖ﴾ الإلف والاعتقاد يقال: أَلَفَ الرَّجُلُ الْأَمْرَ إِلْفًا؛ وَآلَفَهُ غَيْرُهُ إِيْلَافًا. والمعنى: من أجل تسهيل الله على قريش وتيسيره لهم ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام كما قال تعالى: ﴿رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۖ﴾ أي في رحلتي الشتاء والصيف، حيث كانوا يسافرون للتجارة، ويأتون بالأطعمة والثياب، ويربحون في الذهاب والإياب، وهم آمنون مطمئنون لا يتعرض لهم أحد بسوء، لأن الناس كانوا يقولون: هؤلاء جيران بيت الله وسكان حرمة، وهم أهل الله لأنهم ولاية الكعبة، فلا تؤذوهم ولا تظلموهم، ولما أهلك الله أصحاب الفيل، وردّ كيدهم في نحورهم، ازداد وقع أهل مكة في القلوب، وازداد تعظيم الأمراء والملوك لهم، فازدادت تلك المنافع والمتاجر، فلذلك جاء الامتنان على قريش، وتذكيرهم بنعم الله ليوحدوه ويشكروه ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ﴾ أي فليعبدوا الله العظيم الجليل، رب هذا البيت العتيق، وليجعلوا عبادتهم شكرًا لهذه النعمة الجلييلة التي خصّهم بها قال المفسرون: وإنما دخلت الفاء ﴿فَلْيَعْبُدُوا ۖ﴾ لما في الكلام من معنى الشرط كأنه قال: إن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه من أجل إلفهم الرحلتين، التي هي من أظهر نعمه عليهم؛ لأنهم في بلاد لا زرع فيها ولا ضرع^(٢)، ولهذا قال بعده ﴿الَّذِي

(١) (ش): يسار: غنى وثروة، رخاء، سعة.

(٢) (ش): الضرع: مدرّ اللبن في ذوات الظلف والخف، وهو كالثدي للمرأة، صرع البقرة / الشاة. والظلف: ظفر مشقوق، للبقرة والشاة والظبي ونحوهم، وهو بمنزلة الحافر للفرس والظفر للإنسان. خف البعير: ما يقابل =

أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿١﴾ أي هذا الإله الذي أطعمهم بعد شدة جوع، وآمنهم بعد شدة خوف، فقد كانوا يسافرون آمنين لا يتعرض لهم أحد، ولا يُغير عليهم أحد لا في سفرهم ولا في حضرهم كما تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفِّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧] وذلك ببركة دعوة أبيهم الخليل إبراهيم عليه السلام حيث قال ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦] وقوله ﴿وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٢٦] أفلا يجب على قريش أن يفرّدوا بالعبادة هذا الإله الجليل، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف؟!

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

- ١ - الطباق بين ﴿الشِّتَاءِ .. وَالصَّيْفِ﴾ وبين الجوع والإطعام ﴿أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ وبين الأمن والخوف ﴿وَأَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾.
- ٢ - الإضافة للتكريم والتشريف ﴿رَبِّ هَذَا الْبَيْتِ﴾.
- ٣ - تقديم ما حقه التأخير ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ﴾ والأصل (لِيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ لَا يَلْفُهُمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ) فقدّم الإيلاف تذكيراً بالنعمة.
- ٤ - التنكير في لفظة ﴿جُوعٍ﴾ ولفظة ﴿خَوْفٍ﴾ لبيان شدتهما أي جوع شديد، وخوف عظيم.

تنبيه: قال الإمام الفخر: أعلم أنّ الإنعام على قسمين: أحدهما دفع ضرر وهو ما ذكره في سورة الفيل، والثاني: جلب النفع وهو ما ذكره في هذه السورة، ولما دفع الله عنهم الضرر، وجلب لهم النفع، وهما نعمتان عظيمتان أمرهم بالعبودية وأداء الشكر ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ..﴾ الآيات.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة قريش»



= القدم عند الإنسان والحافر عند الفرس. الزُّرْعُ وَالصَّرْعُ: الزَّرَاعَةُ وَالْمَاشِيَةُ. ما له زَرْع ولا صَرْع: ليس له شيء من أرض أو حيوان.

سُورَةُ الْمَاعُونِ

مكية وآياتها سبع

بين يدي السورة

* هذه السورة مكية، وقد تحدثت بإيجاز عن فريقين من البشر هما:
 أ- الكافر الجاحد لنعم الله، المكذب بيوم الحساب والجزاء.
 ب- المنافق الذي لا يقصد بعمله وجه الله، بل يراني في أعماله وصلاته.
 * أما الفريق الأول: فقد ذكر تعالى من صفاتهم الذميمة، أنهم يهينون اليتيم ويزجرونه^(١) غلظة لا تأديباً، ولا يفعلون الخير، حتى ولو بالتذكير بحق المسكين والفقير، لا هم أحسنوا في عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه.
 * وأما الفريق الثاني: فهم المنافقون، الغافلون عن صلاتهم، الذين لا يؤدونها في أوقاتها، والذين يقومون بها «صورة» لا «معنى» المرءون بأعمالهم وقد توعدت الفريقين بالويل والهلاك، وشنعت عليهم أعظم تشنيع، بأسلوب الاستغراب والتعجيب من ذلك الصنيع!!

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يُحِضُّ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ

اللغة: ﴿يَدْعُ﴾ يدفع بعنفٍ وشدة يقال: دَعَا دَعَاءً أي دفعه دفعاً ومنه ﴿يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاءً﴾ [الطور: ١٣] ﴿يَحِضُّ﴾ الحَضُّ: الحَثُّ والترغيب ﴿سَاهُونَ﴾ جمع سَاهٍ يقال: سَاهَا عن كذا يسهو سهواً إذا تركه عن غفلة ﴿الْمَاعُونَ﴾ الشيء القليل، من المَعْن وهو القلة تقول العرب: «مَا لَهُ مَعْنَةٌ وَلَا سَعْنَةٌ» أي ما له قليل ولا كثير من المال، قال المبرد والزجاج: الماعون كل ما فيه منفعة كالفأس والقدر والدلو وغير ذلك.

التفسير: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ﴾؟ استفهام للتعجيب والتشويق، أي: هل عرفت الذي يكذب بالجزاء والحساب في الآخرة؟ هل عرفت من هو، وما أوصافه إن أردت تعرفه^(٢)؟ ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ أي فذلك هو الذي يدفع اليتيم دفعاً عنيفاً بجفوة وغلظة، ويقهره ويظلمه ولا يعطيه حقه ﴿وَلَا يُحِضُّ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ أي ولا يحث على

(١) (ش): زجر الشخص: طرده صائحاً به محتقراً له.

(٢) (ش): هكذا في أكثر من طبعة، ولعل الصواب: إن أردت أن تعرفه؟

إطعام المسكين قال أبو حيان: وفي قوله ﴿وَلَا يَحْضُ﴾ إشارة إلى أنه هو لا يُطعم إذا قدر، وهذا من باب الأولى لأنه إذا لم يَحْضْ غيره بُخلاً، فلأن يترك هو ذلك فعلاً أو لى وأخرى^(١) وقال الرازي: فإن قيل: لِمَ قال ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ ولم يقل: ولا يُطعم المسكين؟ فالجواب أنه إذا منع اليتيم حقه، فكيف يُطعم المسكين من مال نفسه؟ بل هو بخيل من مال غيره، وهذا هو النهاية في الخسة، ويدل على نهاية بخله، وقساوة قلبه، وخساسة طبعه^(٢)، والحاصل أنه لا يُطعم المسكين ولا يأمر بإطعامه، لأنه يكذب بالقيامة، ولو آمن بالجزاء وأيقن بالحساب لما صدر عنه ذلك ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ أي هلاكٌ وعذابٌ للمصلين المنافقين، المتصفين بهذه الأوصاف القبيحة ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أي الذين هم غافلون عن صلاتهم، يؤخرونها عن أوقاتها تهاوناً بها قال ابن عباس: هو المصلي الذي إن صلى لم يَرْجُ لها ثواباً، وإن تركها لم يخشَ عليها عقاباً^(٣) وقال أبو العالية: لا يصلونها لمواقيتها، ولا يُتِمُّون ركوعها ولا سجودها^(٤)، وقد سئل رسول الله ﷺ عن الآية فقال: «هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها»^(٥) قال المفسرون: لَمَّا قال تعالى ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ بلفظة ﴿عَنْ﴾ علم أنها في المنافقين، ولهذا قال بعض السلف: الحمد لله الذي قال ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ﴾ ولم يقل (في صلاتهم) لأنه لو قال (في صلاتهم) لكانت في المؤمنين، والمؤمن قد يسهو في صلاته، والفرق بين السهوين واضح، فإن سهو المنافق سهو ترك وقلة التفات إليها، فهو لا يتذكرها ويكون مشغولاً عنها، والمؤمن إذا سهوا في صلاته تداركه في الحال وجبره بسجود السهو، فظهر الفارق بين السهوين، ثم زاد في بيان أوصافهم الذميمة فقال ﴿الَّذِينَ هُمْ يَرَاءُونَ﴾ أي يُصَلُّون أمام الناس رياءً لِيُقَالَ: إنهم صلحاء، ويتخشعون لِيُقَالَ: إنهم أتقياء، ويتصدقون لِيُقَالَ: إنهم كرماء، وهكذا سائر أعمالهم للشهرة والرياء ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ أي ويمنعون الناس المنافع اليسيرة، من كل ما يستعان به كالإبرة، والفأس، والقدر، والملح، والماء وغيرها قال مجاهد: الماعون العارية للأمتعة وما يتعاطاه الناس بينهم كالفأس والدلو والآنية وقال الطبري: أي يمتنعون الناس منافع ما عندهم، وأصل الماعون من كل شيء منفعة^(٦). وفي الآية زجر عن البخل بهذه الأشياء القليلة الحقيرة؛ فإن البخل بها نهاية البخل وهو مغل بالمروءة.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

(١) «البحر المحط» ٥١٧/٨.

(٢) «التفسير الكبير» ١٦٢/٣١.

(٣) «تفسير القرطبي» ٢٠/٢١١.

(٤) نفس المرجع السابق.

(٥) أخرجه ابن جرير. (ش): ضعفه الألباني.

(٦) «تفسير الطبري» ٣٠/٢٠٣.

- ١ - الاستفهام الذي يراد به تشويق السامع إلى الخبر والتعجب منه ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْذِّينِ﴾؟
- ٢ - الإيجاز بالحذف ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ حذف منه الشرط، أي: إن أردت أن تعرفه فذلك الذي يدعُ اليتيم، وهذا من أساليب البلاغة.
- ٣ - الذم والتوبيخ ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ ووضع الظاهر مكان الضمير ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ﴾ زيادة في التوبيخ لأنهم مع التكذيب ساهون عن الصلاة.
- ٤ - الجنس الناقص ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾.
- ٥ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿سَاهُونَ، يُرَاءُونَ، الْمَاعُونَ﴾ إلخ.

«انتهى تفسير سورة الماعون»





مكية وآيتها ثلاث

بين يدي السورة

* سورة الكوثر مكية، وقد تحدثت عن فضل الله العظيم على نبيه الكريم، بإعطائه الخير الكثير والنعم العظيمة في الدنيا والآخرة، ومنها «نهر الكوثر» وغير ذلك من الخير العظيم العميم، وقد دعت الرسول إلى إدامة الصلاة، ونحر الهدى شكرًا لله.

* وختمت السورة ببشارة الرسول ﷺ بخزي أعدائه، ووصفت مبغضيه بالذلة والحقارة، والانقطاع من كل خير في الدنيا والآخرة، بينما ذكر الرسول مرفوع على المنابر والمنابر^(١)، واسمه الشريف على لسان، خالد إلى آخر الدهر والزمان.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ

اللغة: ﴿الْكَوْثَرَ﴾ الخير الكثير وهو مبالغة من الكثرة، والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد، والقدر والخطر كَوَثْرًا قال الشاعر:

وَأَنْتَ كَثِيرٌ يَا ابْنَ مَرْوَانَ طَيْبٌ
وَكَانَ أَبُوكَ ابْنُ الْعَقَائِلِ كَوْثَرًا^(٢)
﴿وَأَنْحَرْ﴾ النَّحْرُ خاص بالإبل، وهو بمنزلة الذبح في البقر والغنم ﴿شَانِئَكَ﴾ الشانئ: المُبْغِض من الشنآن بمعنى العداوة والبغض ومنه ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ﴾ [المائدة: ٢] أي بُغْضَهُم ﴿الْأَبْتَرُ﴾ المنقطع عن كل خير، من البتر وهو القطع يقال: بترت الشيء بترًا قطعته، والسيف البائر: القاطع، ويقال للذي لا نسل له أبتر، لأنه انقطع نسبه، وسميت خطبة زياد بالخطبة البتراء لأنه لم يحمد الله فيها ولم يصل على النبي ﷺ^(٣).

التفسير: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ تكريماً لمقامه الرفيع وتشريفاً، أي: نحن أعطيناك يا محمد الخير الكثير الدائم في الدنيا والآخرة، ومن هذا الخير «نهر الكوثر» وهو كما ثبت في الصحيح «نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ حَافَتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ وَمَجْرَاهُ عَلَى الدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ تُرْبَتُهُ

(١) (ش): المَنَارَةُ: المِثْدَنَةُ.

(٢) «تفسير القرطبي» ٢٠/٢١٦. (ش): العقيلة: الزَّوْجَةُ الْكَرِيمَةُ، وسيد القَوْمِ، والجمعُ عقائل.

(٣) (ش): الخطبة منسوبة لزياد بن أبيه، يُروى أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه اختاره والياً على البصرة، وكانت معقلاً للخارجيين على الخلافة الأموية ولهذا فقد كانت الفتن والثورات على بني أمية تنبع منها. فلما وصل زياد إلى البصرة صعد المنبر وألقى هذه الخطبة.

أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ وَمَاؤُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَأَيُّضُ مِنَ الثَّلَجِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرِبَهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا»^(١).

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ «أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَةُ سُورَةٍ». فَقَرَأَ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْسِرْ ﴿٢﴾ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾». ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟». فَقُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّ نَهْرًا وَعَدْنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ هُوَ حَوْضٌ تَرْدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ آيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ فَيَخْتَلِجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ - أَيْ يُتَنَزَعُ وَيَقْتَطَعُ مِنْهُمْ - فَأَقُولُ: «رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي». فَيَقُولُ: «مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَ بَعْدُكَ»^(٢) قَالَ أَبُو حَيَّانٍ: وَذَكَرَ فِي الْكَوْثَرِ سِتَّةَ وَعَشْرُونَ قَوْلًا، وَالصَّحِيحُ هُوَ مَا فَسَّرَهُ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «هُوَ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ، حَافَتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ، وَمَجْرَاهُ عَلَى الدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ، تُرْبَتُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وَمَاؤُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ». وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْكَوْثَرُ: الْخَيْرُ الْكَثِيرُ ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْسِرْ﴾ أَيْ فَصَلِّ لِرَبِّكَ الَّذِي أَفَاضَ عَلَيْكَ مِنَ الْخَيْرِ خَالِصًا لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَأَحْسِرْ الْإِبِلَ الَّتِي هِيَ خِيَارُ أَمْوَالِ الْعَرَبِ شُكْرًا لَهُ عَلَى مَا أَوْلَاكَ رَبُّكَ^(٣) مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالْكَرَامَاتِ قَالَ فِي التَّسْهِيلِ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَصِلُونَ مُكَاءً وَتَصَدِيَةً^(٤)، وَيَنْحَرُونَ لِلْأَصْنَامِ فَقَالَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ: صَلِّ لِرَبِّكَ وَحْدَهُ، وَأَنْحِرْ لَوَجْهِهِ لَا لغيره، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَمْرًا بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ ﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أَيْ إِنْ مُبْغِضُكَ يَا مُحَمَّدٌ هُوَ الْمُنْقَطِعُ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ قَالَ الْمَفْسُرُونَ: لَمَّا مَاتَ «الْقَاسِمُ» ابْنُ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ الْعَاصُ بْنُ وَائِلٍ: دَعَاهُ فَإِنَّهُ رَجُلٌ أَبْتَرٌ لَا عَقِبَ لَهُ - أَيْ لَا نَسْلَ لَهُ - فَإِذَا هَلَكَ انْقَطَعَ ذِكْرُهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ السُّورَةَ^(٥)، وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ هَذَا الْكَافِرُ هُوَ الْأَبْتَرُ وَإِنْ كَانَ لَهُ أَوْلَادٌ، لِأَنَّهُ مَبْتُورٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، أَيْ مَقْطُوعٌ عَنْهَا، وَلِأَنَّهُ لَا يُذَكَّرُ إِلَّا ذِكْرًا بِاللْعَنَةِ، بِخِلَافِ النَّبِيِّ ﷺ فَإِنْ ذَكَرَهُ خَالَدٌ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ، مَرْفُوعٌ عَلَى الْمَآذِنِ وَالْمَنَابِرِ، مَقْرُونٌ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى،

(١) رواه الترمذي. (ش): صححه الألباني.

(٢) رواه مسلم والترمذي.

(٣) (ش): أولًا ربك: أعطاك ربك.

(٤) (ش): أي صفيًا وتصفيًا.

(٥) (ش): موضوع، رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى». وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا قَدِمَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ مَكَّةَ قَالَتْ قُرَيْشٌ: «أَلَا تَرَى هَذَا الصُّنْبُورَ الْمُنْبِرَ مِنْ قَوْمِهِ؟ يَزْعُمُ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنَّا، وَنَحْنُ أَهْلُ الْحَجِيجِ، وَأَهْلُ السَّدَانَةِ، وَأَهْلُ السَّقَايَةِ!». قَالَ: «أَنْتُمْ خَيْرٌ». فَتَنَزَّلَتْ: ﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣] وَنَزَلَ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ [٥١] أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ مَجْدَلَهُ نَصِيرًا [النساء: ٥٢، ٥١]. (رواه الطبراني والبراء وابن جرير، وصححه الألباني). (الصُّنْبُورُ): الرَّجُلُ الْفَرْدُ الضَّعِيفُ الدَّلِيلُ بِلَا أَهْلٍ وَعَقِبٍ وَنَاصِرٍ. الْمُنْبِرُ: الْمُنْقَطِعُ.

والمؤمنون من زمانه إلى يوم القيامة أتباعه فهو كالوالد لهم صلوات الله وسلامه عليه.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

- ١ - صيغة الجمع الدالة على التعظيم ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ﴾ ولم يقل: أنا أعطيتك.
- ٢ - تصدير الجملة بحرف التأكيد الجاري مجرى القسم ﴿إِنَّا﴾ لأن أصلها إن ونحن.
- ٣ - صيغة الماضي المفيدة للوقوع ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ ولم يقل: سنعطيك لأن الوعد لما كان محققاً عبّر عنه بالماضي مبالغة كأنه حدث ووقع.
- ٤ - المبالغة في لفظة الكوثر.
- ٥ - الإضافة للتكريم والتشريف ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾.
- ٦ - إفادة الحصر ﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.
- ٧ - المطابقة بين أول السورة وآخرها بين ﴿الْكُوثَرُ وَالْأَبْتَرُ﴾ فالكوثر الخير الكثير، والأبتر المنقطع عن كل خير، فهذه السورة على وجازتها جمعت فنون البلاغة والبيان فسبحان مُنزل القرآن!

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الكوثر»



سُورَةُ الْكَافُرُونَ

مكية وآياتها ست

بين يدي السورة

* سورة الكافرون مكية، وهي سورة التوحيد والبراءة من الشرك والضلال، فقد دعا المشركون رسول الله ﷺ إلى المهادنة، وطلبوا منه أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدوا إلهه سنة فنزلت السورة^(١) تقطع أطماع الكافرين، وتفصل النزاع بين الفريقين: أهل الإيمان، وعبدة الأوثان، وترد على الكافرين تلك الفكرة السخيفة في الحال والاستقبال.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَتَّيِّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عِبِدُونِ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عِبِدُونِ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ

التفسير: ﴿قُلْ يَتَّيِّهَا الْكَافِرُونَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار الذين يدعونك إلى عبادة الأوثان والأحجار: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي لا أعبد هذه الأصنام والأوثان التي تعبدونها، فأنا بريء من آلهتكم ومعبوداتكم التي لا تضر ولا تنفع ولا تُغني عن عابدها شيئاً. قال المفسرون: إن قريشاً طلبت من الرسول ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدوا إلهه سنة، فقال: معاذ الله أن نشرك بالله شيئاً. فقالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك، فنزلت السورة فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملاء من قريش، فقام على رؤوسهم فقرأها عليهم فأيسوا منه^(٢) وأذوه وأذوا أصحابه وفي قوله ﴿قُلْ﴾ دليل على أنه مأمور بذلك من عند الله، وخطابه ﷺ لهم بلفظ ﴿يَتَّيِّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ونسبتهم إلى الكفر وهو يعلم أنهم يغضبون من أن يُنسبوا إلى ذلك دليل على أنه محروس من عند الله، فهو لا يبالي بهم ولا بطواغيتهم ﴿وَلَا أَنْتُمْ عِبِدُونِ مَا أَعْبُدُ﴾ أي ولا أنتم يا معشر المشركين عابدون إلهي الحق الذي أعبدوه وهو الله وحده، فأنا أعبد الإله الحق هو الله رب العالمين، وأنتم تعبدون الأحجار والأوثان، وشتان بين عبادة الرحمن، وعبادة الهوى والأوثان!! ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ تأكيد لما سبق من البراءة من عبادة الأحجار، وقطع لأطماع الكفار كأنه قال: لا أعبد هذه الأوثان في

(١) (ش): ضعيف، رواه ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم في «تفسيريهما».

(٢) انظر روح المعاني للألوسي ٣/ ٢٥٠، و«تفسير القرطبي» ٢٠/ ٢٢٥. (ش): لم أجده بهذا السياق إلا في بعض التفاسير بدون إسناد، وذكر بعضه السيوطي في «الدر المنثور» ونسبه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه.

الحال ولا في الاستقبال، فأنا لا أعبد ما تعبدونه أبداً ما عشتُ، لا أعبد أصنامكم الآن، ولا فيما يستقبل من الزمان ﴿وَلَا أَنْتُمْ عِبِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أي ولستم أنتم في المستقبل بعابدين إلهي الحق الذي أعبد ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ أي لكم شرككم، ولي توحيدي، وهذا غاية في التبرؤ من عبادة الكفار، والتأكيد على عبادة الواحد القهار، قال المفسرون: معنى الجملتين الأوليين: الاختلاف التام في المعبود، فإنه المشركين الأوثان، وإله محمد الرحمن، ومعنى الجملتين الأخريين: الاختلاف التام في العبادة، كأنه قال: لا معبودنا واحد، ولا عبادتنا واحدة.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

- ١ - الخطاب بالوصف ﴿يَتَأَيَّهَا الْكَافِرُونَ﴾ للتوبيخ والتشنيع على أهل مكة.
- ٢ - طباق السلب ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ فالأول نفْي والثاني إثبات.
- ٣ - المقابلة بين كل من الجملتين الأوليين ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿وَلَا أَنْتُمْ عِبِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أي في الحال، والمقابلة بين الجملتين الأخريين ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ ﴿وَلَا أَنْتُمْ عِبِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أي في الاستقبال، وفي هذه المقابلة نفْي لعبادة الأصنام في الحال والاستقبال^(١) وهو من المحسنات البديعية.
- ٤ - توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿يَتَأَيَّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الكافرون»



(١) (ش): أي في الحاضر والمستقبل.

سُورَةُ النَّصْرِ

مدنية وآياتها ثلاث

بين يدي السورة

* سورة النصر مدنية، وهي تتحدث عن «فتح مكة» الذي عز به المسلمون، وانتشر الإسلام في الجزيرة العربية، وتقلعت أظافر الشرك والضلال، وبهذا الفتح المبين دخل الناس في دين الله، واضمحلت ملة الأصنام، وكان الإخبار بفتح مكة قبل وقوعه، من أظهر الدلائل على صدق نبوته عليه أفضل الصلاة والسلام.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا

التفسير: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، يذكره ربه بالنعمة والفضل عليه وعلى سائر المؤمنين. والمعنى: إذا نصرك الله يا محمد على أعدائك، وفتح عليك مكة أم القرى قال المفسرون: الإخبار بفتح مكة قبل وقوعه إخباراً بالغيب، فهو من أعلام النبوة ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ أي ورأيت العرب يدخلون في الإسلام جماعاتٍ جماعاتٍ من غير حربٍ ولا قتال، وذلك بعد فتح مكة صارت العرب تأتي من أقطار الأرض طائفة قال ابن كثير: إن أحياء العرب كانت تنتظر فتح مكة، يقولون: إن ظهر على قومه فهو نبي، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجا فلم تمض سنتان حتى استوثقت جزيرة العرب إيماناً، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهرٌ للإسلام ﴿١﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴿٢﴾ أي فسبح ربك وعظمه مُتَلَبِّسًا بحمده على هذه النعم، واشكره على ما أولاك ﴿٢﴾ من النصر على الأعداء، وفتح البلاد، وإسلام العباد ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَهُ﴾ أي اطلب منه المغفرة لك ولأمتك ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ أي إنه جلّ وعلا كثير التوبة، عظيم الرحمة لعباده المؤمنين.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - ذكر الخاص بعد العام ﴿نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ نصر الله يشمل جميع الفتوحات فعطف عليه (فتح مكة) تعظيماً لشأن هذا الفتح واعتناءً بأمره.

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٦٨٧/٣، وقال القرطبي: و«إذا» بمعنى «قد» أي قد جاء نصر الله لأن نزولها بعد الفتح.

(٢) (ش): أولاك: أعطاك.

٢ - إطلاق العموم وإرادة الخصوص ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ﴾ لفظ الناس عام والمراد به العرب.

٣ - دين الله هو الإسلام ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ وأضافه إليه تشريفاً وتعظيماً، كَبِيتَ الله وناقاة الله.

٤ - صيغة المبالغة ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ لأن صيغة «فعال» للمبالغة.

تنبيه: هذه السورة الكريمة فيها نعي النبي ﷺ ولهذا تسمى سورة (التوديع) وحين نزلت قال رسول الله ﷺ لعائشة: «ما أراه إلا حضور أجلي»^(١)، وقال ابن عمر: نزلت هذه السورة بمنى في حجة الوداع، ثم نزلت ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] الآية. فعاش بعدهما النبي ﷺ ثمانين يوماً^(٢). وروى الإمام البخاري عن ابن عباس قال: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاحِ بَدْرٍ، فَكَانَ بَعْضُهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ فَقَالَ: «لِمَ تَدْخِلُ هَذَا مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءُ مِثْلُهُ؟» فَقَالَ عُمَرُ: «إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ عَلِمْتُمْ». فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ، وَدَعَانِي مَعَهُمْ، فَمَا رَأَيْتُ أَنَّهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ. فَقَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟». فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَمَرْنَا بِأَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ، إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا. وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا فَقَالَ لِي: «أَكْذَاكَ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟». فَقُلْتُ: «لَا». قَالَ: «فَمَا تَقُولُ؟». قُلْتُ: «هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَعْلَمَهُ اللَّهُ لَهُ، قَالَ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وَذَلِكَ عَلَامَةٌ أَجْلِكَ ﷺ فَسَيَحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرُهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾». فَقَالَ عُمَرُ: «مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَقُولُ»^(٣).

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النصر»



(١) (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

وعن ابن عباس، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاطِمَةَ فَقَالَ: «قَدْ نَعَيْتُ إِلَيَّ نَفْسِي»، فَبَكَتْ، فَقَالَ: «لَا تَبْكِي فَإِنَّكَ أَوَّلُ أَهْلِي لِحَاقًا بِي»، فَضَجَّكَتْ، فَرَأَاهَا بَعْضُ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فَقُلْنَ: يَا فَاطِمَةُ، رَأَيْنَاكِ بَكَيتِ ثُمَّ ضَجَّكَتِ؟ قَالَتْ: إِنَّهُ أَخْبَرَنِي أَنَّهُ قَدْ نَعَيْتُ إِلَيْهِ نَفْسَهُ فَبَكَيتُ، فَقَالَ لِي: «لَا تَبْكِي فَإِنَّكَ أَوَّلُ أَهْلِي لِأَحَقِّ بِي» فَضَجَّكَتْ (رواه البيهقي والدارمي بإسناد صحيح). وعن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «نَعَيْتُ إِلَيَّ نَفْسِي» بأنه مقبوض في تلك السنة. (رواه أحمد، وصححه أحمد شاكر).

(٢) (تفسير القرطبي) ٢٠/٢٣٣. (ش): رُوِيَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: أُنْزِلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْسَطَ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، فَعَرَفَ أَنَّهُ الْوَدَاعُ، فَأَمَرَ بِرَاجِلَتِهِ الْقُصُوءِ فَرَحَلَتْ، ثُمَّ قَامَ فَخَطَبَ النَّاسَ، فَذَكَرَ خُطْبَتَهُ الْمَشْهُورَةَ (رواه البزار والبيهقي بإسناد ضعيف).

(٣) «جمع الفوائد وأعذب الموارد» ٢/٢٨٥.

سُورَةُ الْمَسَدِ

مكية وآياتها خمس

بين يدي السورة

* سورة المسد مكية، وتسمى سورة «الهرب»، وسورة «تبت»، وقد تحدثت عن هلاك «أبي لهب» عدو الله ورسوله، الذي كان شديد العداء لرسول الله ﷺ، يترك شغله ويتبع الرسول ﷺ ليفسد عليه دعوته، ويصد الناس عن الإيمان به، وقد توعدته السورة في الآخرة بنار موقدة يصلها ويشوى بها، وقرنت زوجته به في ذلك، واختصتها بلون من العذاب شديد، هو ما يكون حول عنقها من حبل من ليف تجذب به في النار، زيادة في التنكيل والدمار.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ

اللغة: ﴿تَبَّتْ﴾ هلكَتْ، والتبَّابُ: الهلاك والخسران ومنه قوله تعالى ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٧] وقال الشاعر: «فَتَبًّا لِلَّذِي صَنَعُوا»... ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ ذات اشتعال وتلهَّب ﴿جِيدِهَا﴾ عنقها قال امرؤ القيس:

وَجِيدٍ كَجِيدِ الرَّيْمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ^(١)

﴿مَسَدٍ﴾ ليف قال الواحدي: المسد في كلام العرب: القتل، يقال: مسد الحبل يمسده مسدًا إذا أجاد قتله، وكل شيء قتل من الليف والخصوص فهو مسد^(٢).

سبب النزول: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا فَجَعَلَ يُنَادِي «يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ». لِيُطَوِّنَ قُرَيْشَ حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِّيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ فَقَالَ: «أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغَيِّرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ». قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا. قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيِ عَذَابٍ شَدِيدٍ». فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبَّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، أَلْهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَنَزَلَتْ ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾^(٣).. السورة.

(١) «تفسير القرطبي» ٢٠ / ٢٤١. (ش): الرِّيم: الظُّيِّي الأبيض الخالص البياض. لَيْسَ بِفَاحِشٍ: ليس بكريه

المنظر. (ش): خصوص: جمع خُوصة: ورق النخل وما شابهه.

(٢) «التفسير الكبير» ٣١ / ١٧٣.

(٣) «روح المعاني» ٣٠ / ٢٦٠. (ش): رواه البخاري.

ب- عَنْ طَارِقِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمُحَارِبِيِّ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِسُوقِ ذِي الْمَجَازِ وَأَنَا فِي بِيَاعَةٍ لِي فَمَرَّ عَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَقْلُحُوا» وَرَجُلٌ يَتَّبِعُهُ يَرْمِيهِ بِالْحِجَارَةِ قَدْ أَدْمَى عُرْقُوبِيهِ - مؤخر القدم - وَكَعْبِيهِ وَهُوَ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تُطِيعُوا هَذَا فَإِنَّهُ كَذَّابٌ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟، فَقِيلَ: غُلَامٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قُلْتُ: فَمَنْ هَذَا الَّذِي يَتَّبِعُهُ، يَرْمِيهِ بِالْحِجَارَةِ؟. قِيلَ: هَذَا عَمُّهُ عَبْدُ الْعَزَى أَبُو لَهَبٍ^(١).

التفسير: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ أي هلك يد ذلك الشقي ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ وخاب وخسر وضلَّ عمله ﴿وَتَبَّ﴾ أي وقد هلك وخسر، الأول دعاء، والثاني إخبار كما يقال: أهلكه الله وقد هلك قال المفسرون: التباب هو الخسار المفضي إلى الهلاك^(٢)، والمراد من اليد صاحبها، على عادة العرب من التعبير ببعض الشيء عن كله وجميعه، وأبو لهب هو «عبد العزى بن عبد المطلب» عم النبي ﷺ وامرأته العوراء «أم جميل» أخت أبي سفيان، وقد كان كل منهما شديد العداوة للرسول ﷺ فلما سمعت امرأته ما نزل في زوجها وفيها، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر رضي الله عنه، وفي يدها فهر - قطعة من الحجارة -، فلما دنت من الرسول ﷺ أخذ الله بصرها عنه فلم تر إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر: بلغني أن صاحبك يهجوني، فوالله لو وجدته لضربت بهذا الحجر فاه، ثم أنشدت تقول: مُدَمِّمًا أَيْنَا وَدِينَهُ قَلْبِنَا وَأَمْرُهُ عَصِينَا، ثم انصرفت فقال أبو بكر: يا رسول الله: أما تراها رأتك؟ قال: ما رأني لقد أخذ الله بصرها عني^(٣)، وكانت قريش يسبون الرسول ﷺ يقولون: مذممًا بدل «محمد» وكان يقول صلوات الله عليه: «ألا تعجبون كيف صرف الله عني أذى قريش؟ يسبون ويهجون مذممًا وأنا محمد»؟!^(٤) قال الخازن: فإن قلت: لم كناه وفي التكنية

(١) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ٢٣٦. (ش): رواه ابن حبان والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي والألباني. (سوق ذي المجاز): موضع بمكة كانت به سوق في الجاهلية. وقيل: سوق كانت لهم على فرسخ من عرفة. والفرسخ: مقياس للطول يُقدَّر بثلاثة أميال (٤٨٢٧ مترًا)، أو أربعة كيلو مترات.

(٢) (ش): أي المؤذي إلى الهلاك.

(٣) (ش): عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ) [المسد: ١] أَقْبَلَتِ الْعُورَاءُ أُمُّ جَمِيلُ بِنْتُ حَرْبٍ وَلَهَا وَلَوْْلَةٌ وَفِي يَدِهَا فَهْرٌ وَهِيَ تَقُولُ: مُدَمِّمًا أَيْنَا وَدِينَهُ قَلْبِنَا وَأَمْرُهُ عَصِينَا، وَالنَّبِيُّ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ فَلَمَّا رَأَاهَا أَبُو بَكْرٍ قَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ أَقْبَلَتْ وَأَنَا أَخَافُ أَنْ تَرَكَ». فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي لَنْ تَرَانِي». وَقَرَأَ قُرْآنًا فَأَعْتَصَمَ بِهِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: وَقَرَأْ ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥] فَوَقَفْتُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَلَمْ تَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: «يَا أبا بَكْرٍ، إِنِّي أَخْبَرْتُ أَنَّ صَاحِبَكَ هَجَانِي». فَقَالَ: «لَا وَرَبِّ هَذَا الْبَيْتِ مَا هَجَاكَ». فَوَلَّتْ وَهِيَ تَقُولُ: «قَدْ عَلِمْتُ قُرَيْشٌ أَنَّي بِنْتُ سَيِّدَهَا» (رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي والألباني). (وَلَوْْلَةٌ): الْوَلْوَلَةُ: الدَّعَاءُ بِالْوَيْلِ. (فَهْرٌ): حَجَرٌ. (هَجَانِي): دَمَنِي وَعَدَدَ مَعَايِي. قُلِي فَلَانًا: أَبْغَضَهُ وَاشْتَدَّ كُرْهُهُ لَهُ فَهَجَرَهُ.

(٤) انظر «تفسير القرطبي» ٢٠/ ٢٣٤، و«الألوسي» ٣٠/ ٢٦٤. (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا تَعْجَبُونَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللَّهُ عَنِّي سُبْحَانَ قُرَيْشٍ وَلَعْنَهُمْ، يَسْتَمُونَ مُدَمِّمًا وَيَلْعَنُونَ مُدَمِّمًا وَأَنَا مُحَمَّدٌ» رواه البخاري.

تشریف و تکرمة؟ فالجواب من وجوه: أحدهما: أنه كان مشتهراً بالكنية دون الاسم، فلو ذكره باسمه لم يعرف. الثاني: أنه كان اسمه «عبد العزى» فعدل عنه إلى الكنية لما فيه من الشرك لأن العزى صنم فلم تضاف العبودية إلى صنم. الثالث: أنه لما كان من أهل النار، وماله إلى النار، والنار ذات لهب، وافقت حاله كنيته وكان جديراً بأن يُذكر بها^(١) ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ أي لم يُفدْهُ ماله الذي جمعه، ولا جاهه وعزه الذي اكتسبه قال ابن عباس ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ من الأولاد، فإن ولد الرجل من كسبه.. روي أن الرسول ﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان، قال أبو لهب: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً، فإني أفندي نفسي من العذاب بمالي وولدي فنزلت^(٢) قال الألوسي: كان لأبي لهب ثلاثة أبناء «عُتْبَة» و «متعب» و «عُتْبِيَة» وقد أسلم الأولان يوم الفتح، وشهدا حينئذٍ والطائف، وأما «عُتْبِيَة» فلم يسلم، وكانت «أم كلثوم» بنت رسول الله ﷺ عنده، وأختها «رُقِيَة» عند أخيه عُتْبَة، فلما نزلت السورة قال أبو لهب لهما: رأسي ورأسكما حرام إن لم تطلقا ابنتي محمد، فطلقاها ولما أراد «عُتْبِيَة» بالتصغير الخروج إلى الشام مع أبيه قال: «لَا تَيْنَ مُحَمَّدًا وَأُوذِيَنَّهُ» فأتاه فقال: «يا محمد إني كافر بالنجم إذا هوى، وبالذي دنا فتدلى»، ثم تفل أمام النبي ﷺ وطلق ابنته «أم كلثوم» فغضب ﷺ ودعا عليه فقال: «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك» فافترسه الأسد^(٣)، وهلك أبو لهب بعد وقعة بدر بسبب ليالٍ بمرضٍ معدٍ كالطاعون يسمى «العدسة» وبقي ثلاثة أيام حتى أتن، فلما خافوا العار حفروا له حفرة ودفعوه إليها بعود حتى وقع فيها ثم قذفوه بالحجارة حتى واروه، فكان الأمر كما أخبر به القرآن^(٤) ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أي سيدخل ناراً حامية، ذات اشتعال وتوقد عظيم، وهي نار جهنم ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ أي وستدخل معه نار جهنم، أمرأته العوراء «أم جميل» التي كانت تمشي بالنميمة بين الناس، وتوقد بينهم نار العداوة والبغضاء قال أبو السعود: كانت تحمل حزمة من الشوك والحسك^(٥) فتشرها بالليل في طريق النبي ﷺ لا يذائه^(٦) وقال ابن عباس: كانت تمشي بالنميمة بين الناس لتفسد بينهم^(٧) ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ أي في عنقها حبلٌ من ليف قد قُتل فتلاً شديداً، تُعَذَّب به يوم

(١) «تفسير الخازن» ٣١٧/٤. (ش): أي لم ينتفع به.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٩٠. (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٣) (ش): عَنْ أَبِي تَوْفَلِ بْنِ أَبِي عَفْرَبٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ لَهُبٌ بْنُ أَبِي لَهَبٍ يَسُبُّ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبَكَ» فَخَرَجَ فِي قَافِلَةٍ يُرِيدُ الشَّامَ فَتَزَلَّ مَنَزَلاً، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ دَعْوَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ قَالُوا لَهُ: كَلَّا، فَحَطُّوا مَتَاعَهُمْ حَوْلَهُ وَقَعَدُوا يَحْرُسُونَهُ فَجَاءَ الْأَسَدُ فَأَنْتَزَعَهُ فَذَهَبَ بِهِ (رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي).

(٤) «روح المعاني» ٣٠/ ٢٦٢. (ش): رواه ابن إسحاق في «السيرة» والبيهقي في «دلائل النبوة» بإسناد ضعيف.

(٥) (ش): حَسَكٌ: جمع حَسَكَةٍ: نبات عُشْبِيٌّ بَرِّيٌّ شَائِكٌ.

(٦) «أبو السعود» ١٩٢/٥.

(٧) «الألوسي» ٣٠/ ٢٦٣.

القيامة قال مجاهد: هو طوق من حديد وقال ابن المسيب: كان لها قلادة فاخرة من جوهر، فقالت: واللات والعزى لأنفقنها في عداوة محمد، فأعقبها الله منها حبلاً في جيدها من مسد النار^(١).

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

- ١ - الجناس المرسل ﴿يَدَا أَيْ لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ أطلق الجزء وأراد الكل أي هلك أبو لهب.
- ٢ - الجناس بين ﴿أَيْ لَهَبٍ﴾ وبين ﴿نَارَا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ فالأول كنية والثاني وصف للنار.
- ٣ - الكنية للتصغير والتحقير ﴿أَيْ لَهَبٍ﴾ فليس المراد تكريمه بل تشهيره، كأبي جهل.
- ٤ - الاستعارة اللطيفة ﴿حَمَالَةَ الْحَطَبِ﴾ مستعار للنميمة وهي استعارة مشهورة قال الشاعر: «وَلَمْ تَمْشِ بَيْنَ الْحَيِّ بِالْحَطَبِ الرَّطْبِ»^(٢).
- ٥ - النصب على الشتم والذم ﴿وَأَمْرَانَهُ حَمَالَةَ الْحَطَبِ﴾ أي أخص بالذم حمالة الحطب^(٣).
- ٦ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المسد»



(١) «تفسير القرطبي» ٢٠ / ٢٤٢.

(٢) (ش): يَعْنِي: لَمْ تَمْشِ بِالنَّمَائِمِ، وَجَعَلَ الْحَطَبَ رَطْبًا لِيُدَّلَّ عَلَى التَّدخينِ، الَّذِي هُوَ زِيَادَةٌ فِي الشَّرِّ.

(٣) (ش): أي نصب كلمة ﴿حَمَالَةَ﴾ فما قبلها مرفوع.

سُورَةُ الْإِخْلَاصِ

مكية وآياتها أربع
بين يدي السورة

* سورة الإخلاص مكية، وقد تحدثت عن صفات الله جل وعلا الأحد، الجامع لصفات الكمال، المقصود على الدوام، الغني عن كل ما سواه، المتنزه عن صفات النقص، وعن المجانسة والمماثلة، وردت على النصارى القائلين بالتثليث، وعلى المشركين الذين جعلوا لله الذرية والبنين.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا ۝ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ

اللغة: ﴿الصَّمَدُ﴾ السيد المقصود في قضاء الحاجات قال الشاعر:

أَلَا بَكَرَ النَّاعِي بِخَيْرِ بَنِي أَسَدٍ بَعْمَرُ بْنُ مَسْعُودٍ وَبِالسَّيِّدِ الصَّمَدِ^(١)
﴿كُفُوًا﴾ الكُفُوءُ: النظير والشبيه قال أبو عبيدة: كُفُوٌ وَكُفَاءٌ وَكِفَاءٌ كلها بمعنى واحد وهو المثل والنظير^(٢).

سَبَبُ النِّزُول: روي أن بعض المشركين جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد صف لنا ربك، أمِن ذهب هو، أم مِن فضة، أم مِن زبرجد، أم مِن ياقوت؟! فنزلت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾.. السورة^(٣).

التفسير: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين المستهزين: إن ربي الذي أعبدته، والذي أدعوكم لعبادته هو واحد أحد لا شريك له، ولا شبيه له ولا نظير، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فهو جل وعلا واحد أحد، ليس كما يعتقد النصارى بالتثليث «الآب، والابن، وروح القدس» ولا كما يعتقد المشركون بتعدد الآلهة قال في

(١) «البحر المحيط» ٥٢٧/٨. (ش): بَكَرَ: بادر، عَجَلَ وأسرع. نَعَى فلاناً: أذاع خبرَ موته.

(٢) انظر «التفسير الكبير» ٣١/ ١٧٥.

(٣) (ش): ضعيف جداً، رواه الهروي في «ذم الكلام». وعن أبي بن كعب -رضي الله عنه-: أن المشركين قالوا لرسول الله -ﷺ-: انسب لنا ربك؛ فأنزل الله -عز وجل-: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾؛ فالصمد: الذي لم يلد ولم يولد؛ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، ولا شيء يموت إلا سيورث، وإن الله -عز وجل- لا يموت ولا يورث، ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا﴾؛ قال: لم يكن له شبيه ولا عدل وليس كمثل شيء. (حسن، رواه أحمد والترمذي).

التسهيل: واعلم أن وصف الله تعالى بالواحد له ثلاثة معاني، كلها صحيحة في حقه تعالى: الأول: أنه واحد لا ثاني معه فهو نفى للعدد. والثاني: أنه واحد لا نظير له ولا شريك له، كما تقول: فلان واحد في عصره أي لا نظير له والثالث: أنه واحد لا ينقسم ولا يتبعص، والمراد بالسورة نفى الشريك ردًا على المشركين، وقد أقام الله في القرآن براهين قاطعة على وحدانيته تعالى، وذلك كثير جدًا، وأوضحها أربعة براهين: الأول؛ قوله تعالى ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]؟ وهذا دليل الخلق والإيجاد فإذا ثبت أن الله تعالى خالق لجميع الموجودات، لم يصح أن يكون واحد منها شريكًا له والثاني: قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وهو دليل الإحكام والإبداع الثالث: قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا تُبْعِثُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢] وهو دليل القهر والغلبة. الرابع: قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] وهو دليل التنازع والاستعلاء^(١) ثم أكد تعالى وحدانيته واستغناؤه عن الخلق فقال ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ أي هو جل وعلا المقصود في الحوائج على الدوام، يحتاج إليه الخلق وهو مُسْتَعْنٍ عن العالمين قال الألوسي: الصَّمَدُ السيد الذي ليس فوقه أحد، الذي يُصَمَدُ إليه أي يلجأ إليه الناس في حوائجهم وأمورهم^(٢) ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ يَدٌ﴾ أي لم يتخذ ولدًا، وليس له أبناء وبنات، فكما هو متصف بالكمالات، منزّه عن النقائص قال المفسرون: في الآية ردٌّ على كل من جعل لله ولدًا، كاليهود في قولهم ﴿عَزَّزْتُ أَبْنَاءَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] والنصارى^(٣) في قولهم ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] وكمشركي العرب في زعمهم أن (الملائكة بنات الله) فردَّ الله تعالى على الجميع في أنه ليس له ولد، لأن الولد لا بدَّ أن يكون من جنس والده، والله تعالى ليس له زوجة وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]؟! ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ أي ولم يولد من أب ولا أم، لأن كل مولود حادث، والله تعالى قديم أزلي، فلا يصح أن يكون مولودًا ولا أن يكون له والد، وقد نفت الآية عنه تعالى إحاطة النسب من جميع الجهات، فهو الأول الذي لا ابتداء لوجوده، القديم الذي كان ولم يكن معه شيء غيره^(٤) ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أي وليس له جل وعلا مثيل، ولا

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٢٢٣/٤، وقد ذكر في «التسهيل» هذه النصوص الكريمة دون بيان وجه الدلالة، وما ذكر بين المعترضين مثل: دليل الخلق والإيجاد، دليل الإحكام والإبداع فهو من كلامنا.

(٢) «روح المعاني» ٢٧٣/٣٠.

(٣) يعتقد النصارى بأن الإله ثلاثة أقانيم «الآب، والابن، وروح قدس» وهي عقيدة التثليث التي أشار إليها القرآن الكريم بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ رَبَّنَا اللَّهُ ثَلَاثَةٌ تِلْكَ تِلْكَ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ﴾ الآية ويعتقدون بأن

الثلاثة واحد، والواحد ثلاثة، ويزعمون أنهم موحدون، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

(٤) (ش): قال ﷺ: اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

نظير، ولا شبيه أحد في خلقه، لا من ذاته، ولا من صفاته، ولا من أفعاله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(١) وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿الشورى: ١١﴾ قال ابن كثير: هو مالك كل شيء وخالقه، فكيف يكون له من خلقه نظير يساميه، أو قريب يدانيه؟ تعالى وتقدس وتنزه، وفي الحديث القدسي «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُوًا أَحَدٌ»^(٢).

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

- ١ - ذكر الاسم الجليل بضمير الشأن ﴿قُلْ هُوَ﴾ للتعظيم والتفخيم.
- ٢ - تعريف الطرفين ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ لإفادة التخصيص.
- ٣ - الجنس الناقص ﴿لَمْ يَكِلِدْ﴾ ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لتغير الشكل وبعض الحروف.
- ٤ - التجريد فإن قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يقتضي نفى الكفاء، والولد، وقوله ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ هو تخصيص الشيء بالذكر بعد دخوله في العموم وذلك زيادة في الإيضاح والبيان.

٥ - السجع المرصع وهو من المحسنات البديعية ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٣) ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾. **لطيفة:** هذه السورة الكريمة مؤلفة من أربع آيات، وقد جاءت في غاية الإيجاز والإعجاز، وأوضحت صفات الجلال والكمال، ونزهت الله جل وعلا عن صفات العجز والنقص، فقد أثبتت الآية الأولى الوحدانية، ونفت التعدد ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وأثبتت الثانية كماله تعالى، ونفت النقص والعجز ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ وأثبتت الثالثة أزليته وبقائه ونفت الذرية والتناسل ﴿لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وأثبتت الرابعة عظمته وجلاله ونفت الأنداد والأضداد ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ فالسورة إثبات لصفات الجلال والكمال، وتنزيه للرب بأسمى صور التنزيه عن النقائص.

فائدة: روي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ قَرَأَ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فَكَأَنَّمَا قَرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»^(٤) قال العلماء: وذلك لما تضمنته من المعاني والعلوم والمعارف، فإن علوم القرآن ثلاثة: «توحيد، وأحكام، وقصص» وقد اشتملت هذه السورة على التوحيد، فهي ثلث القرآن بهذا الاعتبار، وقيل: إن ذلك في الثواب، أي: لمن قرأها من الأجر مثل أجر من قرأ ثلث القرآن، والله أعلم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الإخلاص»

(١) (ش): رواه البخاري.

(٢) أخرجه الإمام أحمد والنسائي من حديث أبي بن كعب مرفوعاً. (ش): صححه الألباني.

سُورَةُ الْفَلَقِ

مكية وآياتها خمس

بين يدي السورة

* سورة الفلق مكية، وفيها تعليم للعباد أن يلجئوا إلى حمى الرحمن، ويستعيذوا بجلاله وسلطانه من شر مخلوقاته، ومن شر الليل إذا أظلم، لما يصيب النفوس فيه من الوحشة، ولا انتشار الأشرار والفجار فيه، ومن شر كل حاسد وساحر، وهي إحدى المعوذتين اللتين كان ﷺ يعوذ نفسه بهما.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ

اللغة: ﴿الْفَلَقُ﴾ الفلق: الصبح تقول العرب: هو أبيض من فلق الصبح، والفلق بالكسر الداهية والأمر العجب، وأصله من فلق الشيء أي شققته، فكل ما انفلق من شيء من حيوان، وحب، ونوى فهو فلق، ومنه «فالق الإصباح» قال ذو الرمة:

حَتَّى إِذَا مَا انْجَلَى عَنْ وَجْهِهِ فَلَقٌ

أي انجلى الصبح عن وجهه ﴿غَاسِقٍ﴾ الغاسق: الليل إذا اشتد ظلامه، والغسق أول ظلمة الليل يقال: غسق الليل أي أظلم قال الشاعر:

إِنَّ هَذَا اللَّيْلَ قَدْ غَسَقَا وَاشْتَكَتِ الْهَمَّ وَالْأَرْقَا ^(١)

﴿وَقَبَ﴾ دخل بظلامه، والوقوب: الدخول ﴿النَّفَّاثَاتِ﴾ النفث: شبه النفخ دون تفل بالريق، فإذا كان معه ريق فهو التفل قال عنتر:

فَإِنْ يَبْرَأَ فَلَمْ أَنْفِثْ عَلَيْهِ وَإِنْ يُفْقَدَ فَحَقَّ لَهُ الْفُقُودُ ^(٢)

التفسير: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ أي قل يا محمد ألتجئ وأعتصم برب الصبح الذي ينفلق عنه الليل، وينجلي عنه الظلام قال ابن عباس: ﴿الْفَلَقُ﴾ الصبح كقوله تعالى ﴿فَالِقُ

(١) «التفسير الكبير» ٣٠ / ١٩٤.

(٢) «تفسير القرطبي» ٢٠ / ٢٥٧. (ش): كانت العرب تزعم أن الرجل إذا طعن آخر فنفت عليه الطاعن ورّقه، أن المطعون يبرأ من طعنته.

الْإَصْبَاحِ ﴿١﴾ [الأنعام: ٩٦] ^(١) وفي أمثال العرب: هو أبيضٌ من فلَقَ الصبح قال المفسرون: سبب تخصيص الصبح بالتعوذ أن انبثاق نور الصبح بعد شدة الظلمة، كالمثل لمجيء الفرج بعد الشدة، فكما أن الإنسان يكون منتظرًا لطلوع الصباح، فكذلك الخائف يترقب مجيء النجاة ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أي من شر جميع المخلوقات من الإنس، والجن، والدواب، والهوام، ومن شر كل مؤذ خلقه الله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أي ومن شر الليل إذ أظلم واشتد ظلامه، فإن ظلمة الليل ينتشر عندها أهل الشر من الإنس والجن ولهذا قالوا في المثل: «الليل أخفى للويل» ^(٢) قال الرازي: وإنما أمر أن يتعوذ من شر الليل، لأن في الليل تخرج السباع من آجامها، والهوام من مكانها، ويهجم السارق والمكار، ويقع الحريق، ويقل فيه الغوث ^(٣) ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ أي ومن شر السواحر اللواتي يعقدن عقداً في خيوط وينفنن، أي: ينفخن فيها ليضروا عباد الله بسحرهن، ويفرقوا بين الرجل وزوجه ﴿وَمَا هُمْ بِضَاكِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] قال في البحر: وسبب نزول المعوذتين قصة «ليبيد بن الأعصم» الذي سحر رسول الله ﷺ في مُشْطٍ ومُشَاطَةٍ، وجُفٍّ - قشر الطلع - طُلْعَةٍ ذَكَرَ، ووترٍ معقود فيه إحدى عشرة عقدة، مغرورٍ بالإبر، فأنزلت عليه المعوذتان، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد في نفسه خفة ﷺ حتى انحلت العقدة الأخيرة فقام فكأنما نُشِطَ من عقال ^(٤)

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٦٩٤ / ٣.

(٢) (ش): أي افعل ما تريد ليلاً، فإنه أسترّ لسرك.

(٣) «التفسير الكبير» للرازي ٣١ / ١٩٥. (ش): أجمّة الأسد: مأواه في الأدغال. المُكَايِر: الطاغية، مُتَجَاوِزِ الحدّ. غائنه، غَوْنًا / أغائنه، إغائنه: أعانه ونصره، قدّم له المساعدة.

(٤) «البحر المحيط» ٨ / ٥٣٠. (ش): بهذا السياق الذي فيه ذُكر الإبر المغروزة ضعيف جداً، رواه البيهقي في «دلائل النبوة». ولكن قصة سحر ليبيد بن أعصم للنبي ﷺ ثابتة في البخاري ومسلم. وكون هذه القصة سبباً لنزول المعوذتين ثابتٌ أيضاً في مُسند عبد بن حميد بسند صحيح عن زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ: سَحَرَ النَّبِيُّ ﷺ - رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ. قَالَ: فَاشْتَكَى، فَاتَاهُ جَبْرِيلُ، فَنَزَلَ عَلَيْهِ بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ وَقَالَ: «إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ سَحَرَكَ، وَالسَّحَرُ فِي بَيْتِ فُلَانٍ». قَالَ: فَأَرْسَلَ عَلِيًّا فَجَاءَ بِهِ، قَالَ: فَأَمَرَهُ أَنْ يَحُلَّ الْعُقَدَ «وَتَقْرَأَ» آيَةً، فَجَعَلَ يَقْرَأُ وَيَحُلُّ، حَتَّى قَامَ النَّبِيُّ ﷺ - كَأَنَّمَا أُنْشِطَ مِنْ عِقَالٍ. فَمَا ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - لَذَلِكَ الْيَهُودِيُّ شَيْئًا مِمَّا صَنَعَ بِهِ، وَلَا أَرَاهُ فِي وَجْهِهِ». كان ليبيد بن أعصم غلاماً يهودياً يخدم النبي ﷺ. (مُشْطٌ ومُشَاطَةٌ) المشط معروف، والمُشَاطَةُ هي الشعر الذي يسقط من الرأس أو اللحية عند تسريحه. (جُفٍّ طُلْعَةٍ ذَكَرَ) وعاء للقاح النخل، وغشاؤه - قشره - إذا جف. كَأَنَّمَا أُنْشِطَ مِنْ عِقَالٍ: يقال: أُنْشِطَ الحبل: حَلَلْتَهُ، والعِقال: ما يُشَدُّ به البعير من الحبل. (فَمَا ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - لَذَلِكَ الْيَهُودِيُّ شَيْئًا مِمَّا صَنَعَ بِهِ. وَلَا أَرَاهُ فِي وَجْهِهِ): أي إن النبي ﷺ لم يقتل ذلك الرجل ولم يُسْعِرْه حتى في تعابير وجهه عليه السلام أنه يضمّر له شيئاً؛ فلم يكن عليه السلام ينتقم لنفسه.

تنبيه: السحر الذي أصابه ﷺ لم يكن ليمس عقله الشريف ولا يؤثر في تبليغ الرسالة بل كان عارضاً كعوارض الأمراض المختلفة التي تصيب الصالح والطالح والكبير والصغير، والنبي ﷺ مشرع لذا تحدث هذه =

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

مكية وآياتها سبع أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

تفسير الاستعاذة: المعنى: أستجير بجناب الله وأعتصم به من شر الشيطان العاتي المتمرد، أن يضربني في ديني أو دنيائي، أو يصدني عن فعل ما أمرت به، وأحتمي بالخالق السميع العليم من همزه ولمزه ووساوسه، فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله رب العالمين.. عن النبي ﷺ أنه كان إذا قام من الليل، استفتح صلاته بالتكبير ثم يقول: «أعوذ بالله السميع العليم، من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير البسملة: المعنى: أبدأ بتسمية الله وذكره قبل كل شيء، مستعيناً به جل وعلا في جميع أموري، طالباً منه وحده العون، فإنه الرب المعبود ذو الفضل والجود، واسع الرحمة كثير التفضل والإحسان، الذي وسعت رحمته كل شيء، وعم فضله جميع الأنام.

تنبيه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ افتتح الله بهذه الآية سورة الفاتحة وكل سورة من سور القرآن -ماعدا سورة التوبة- ليرشد المسلمين إلى أن يبدءوا أقوالهم باسم الله الرحمن الرحيم التماساً لمعونته وتوفيقه ومخالفة للوثنيين الذين يبدءون أعمالهم وأقوالهم بأسماء آلهتهم أو طواغيتهم فيقولون: باسم اللات، أو باسم العزى، أو باسم الشعب، أو باسم هبل.

قال «الطبري»: «إن الله تعالى ذكره وتقديست أسمائه، أدب نبيه محمداً ﷺ بتعليمه ذكر أسمائه الحسنی أمام جميع أفعاله، وجعل ذلك لجميع خلقه سنة يستنون بها، وسبيلاً يتبعونه عليها فقول القائل: بسم الله الرحمن الرحيم إذا افتتح تالياً سورة ينبي عن أن مراده: أقرأ باسم الله، وكذلك سائر الأفعال»^(٢).



(١) أخرجه أصحاب السنن.

(ش): وصححه الألباني. (هَمْزُهُ): الْمُؤَنَّةُ: نَوْعٌ مِنَ الْجُنُونِ وَالصَّرْعُ يَعْتَرِي الْإِنْسَانَ، فَإِذَا أَفَاقَ، عَادَ إِلَيْهِ كَمَا لَ الْعَقْلُ، وَنَفْثُهُ): الشَّعْرُ، وَنَفْخُهُ): الْكِبْرِيَاءُ.

(٢) «جامع البيان للطبري».

تفسير سورة الفاتحة

بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

هذه السورة الكريمة مكية وآياتها سبعٌ بالإجماع، وتسمى «الفاتحة» لافتتاح الكتاب العزيز بها حيث إنها أول القرآن في الترتيب لا في النزول، وهي - على قصرها ووجازتها - قد حوت معاني القرآن العظيم، واشتملت على مقاصده الأساسية بالإجمال، فهي تتناول أصول الدين وفروعه، تتناول العقيدة، والعبادة، والتشريع، والاعتقاد باليوم الآخر، والإيمان بصفات الله الحسنى، وإفراده بالعبادة والاستعانة والدعاء، والتوجه إليه جلّ وعلا بطلب الهداية إلى الدين الحق والصراط المستقيم، والتضرع إليه بالتثبيت على الإيمان ونهج سبيل الصالحين، وتجنب طريق المغضوب عليهم والضالين، وفيها الإخبار عن قصص الأمم السابقين، والإطلاع على معارج السعداء ومنازل الأشقياء، وفيها التعبّد بأمر الله سبحانه ونهيه، إلى غير ما هنالك من مقاصد وأغراض وأهداف، فهي كالأم بالنسبة لبقية السور الكريمة ولهذا تسمى «أم الكتاب» لأنها جمعت مقاصده الأساسية.

فضّلها: أ - روى الإمام أحمد في المسند أن «أبي بن كعب» قرأ عليّ النبي ﷺ أم القرآن فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»^(١) فهذا الحديث الشريف يشير إلى قوله تعالى في سورة الحجر ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧].

ب - وفي صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال لأبي سعيد بن المعلى: «لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن: الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»^(٢).

التسمية: تسمى «الفاتحة»، وأم الكتاب، والسبع المثاني، والشفافية، والوافية، والكافية، والأساس، والحمد» وقد عدّها العلامة «القرطبي» وذكر أن لهذه السورة اثني عشر اسمًا.

(١) (ش): صححه الألباني.

(٢) (ش): (أعظم سورة: اعتبارًا بعظم قدرها، وتفردا بالخاصية التي لم يشاركها فيها غيرها من السور، ولا شتمالها على فوائد ومعاني كثيرة مع وجازة ألفاظها. وقيل: (أعظم سورة): أي من حيث كثرة الثواب لقارئها (السبع المثاني) قيل: لأنها تتنّى كلّ ركعة، أي: تُعاد - أي تكرر - قراءتها في كل ركعة من التنية وهي التكرير. وقيل: لأنها يُتلى بها على الله تعالى، وفي الحديث دليل على أن الفاتحة سبع آيات فهي سبع آيات. وأما عطف «القرآن» على «السبع المثاني» المراد منه الفاتحة، فمن باب عطف العام على الخاص. ونظيره في النسق «لكن» من عطف الخاص على العام قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ
نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ
غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

اللغة: ﴿الْحَمْدُ﴾ الثناء بالجميل على جهة التعظيم، والتبجيل مقرونًا بالمحبة وهو نقيض الذم وأعمُّ من الشكر، لأن الشكر يكون مقابل النعمة بخلاف الحمد ﴿اللَّهُ﴾ اسم علم للذات المقدسة لا يشاركه فيه غيره، قال القرطبي: هذا الاسم ﴿اللَّهُ﴾ أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها، وهو اسم للموجود الحق، الجامع لصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المنفرد بالوجود الحقيقي لا إله إلا هو سبحانه^(١). ﴿رَبِّ﴾ الرب: مشتق من التربية وهي إصلاح شئون الغير ورعاية أمره قال الهروي: «يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه: قد ربّه ومنه الربانيون لقيامهم بالكتب»^(٢) والربُّ يطلق على عدة معان وهي «المالك، والمصلح، والمعبود، والسيد المطاع» ﴿الْعَالَمِينَ﴾ العالم: اسم جنس لا واحد له من لفظه كالرُحط، وهو يشمل: الإنس والجن والملائكة والشياطين كذا قال الفراء، وهو مشتق من العلامة لأن العالم علامة على وجود الخالق جل وعلا ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ صفتان مشتقتان من الرحمة^(٣)، وقد روعي في كل من ﴿الرَّحْمَنِ﴾ و﴿الرَّحِيمِ﴾ معنى لم يراع في الآخر فالرحمن بمعنى عظيم الرحمة لأن «فَعْلَان» صيغة مبالغة في كثرة الشيء وعظمته ولا يلزم منه الدوام كغضبان وسكران، والرحيم بمعنى دائم الرحمة لأن صيغة (فعليل) تستعمل في الصفات الدائمة ككريم وظريف فكأنه قيل: العظيم الرحمة الدائم الإحسان^(٤).

(١) (ش): أسماء الله توقيفية، وليس منها «الموجود الحق»، ولا «المنفرد بالوجود الحقيقي». ووجود الله معلوم من الدين بالضرورة، وهو صفة لله بإجماع المسلمين، بل صفة لله عند جميع العقلاء حتى المشركين لا ينزع في ذلك إلا ملحد دهرى. ولا يلزم من إثبات الوجود صفة لله أن يكون له مُوجِدٌ؛ لأن الوجود نوعان: الأول: وجود ذاتي وهو ما كان وجوده ثابتاً له في نفسه لا مكسوباً له من غيره، وهذا هو وجود الله سبحانه وصفاته، فإن وجوده لم يسبقه عدم ولا يلحقه عدم: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

الثاني: وجود حادث وهو ما كان حادثاً بعد عدم فهذا الذي لا بد له من موجد يوجده وخالق يحدّثه وهو الله سبحانه، قال تعالى اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ. وعلى هذا يوصف الله تعالى بأنه موجود ويخبر عنه بذلك في الكلام فيقال: الله موجود، وليس الوجود اسماً، بل صفة. و«الواجد» ليس اسماً من أسماء الله ولا صفة من صفاته، والحديث الذي ورد فيه تسميته بذلك ليس بصحيح. انظر: فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (٣/ ١٨٩-١٩٤).

(٢) «القرطبي» ١٣٣/١.

(٣) (ش): الصواب أنهما اسمان من أسماء الله الحسنى متضمنان لصفة الرحمة.

(٤) «كشف المعاني» تفسير ابن جماعة.

قال الخطابي: الرحمن ذو الرحمة الشاملة التي وسعت الخلق في أرزاقهم ومصالحهم وعمت المؤمن والكافر، والرحيم خاص بالمؤمن كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿الَّذِينَ﴾ الجزاء ومنه الحديث «كما تدين تُدان»^(١) أي: كما تفعل تُجزي ﴿نَعْبُدُ﴾ قال الزمخشري: العبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل ولذلك لم تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى لأنه مولى أعظم النعم فكان حقيقة بأقصى الخضوع^(٢) ﴿الصِّرَاطَ﴾ الطريق وأصله بالسین من الاستراط بمعنى الابتلاع كأن الطريق يبتلع السالك قَالَ الشَّاعِرُ:

شَحْنًا أَرْضَهُمْ بِالْخَيْلِ حَتَّى تَرَكْنَاهُمْ أَذْلًا مِنَ الصِّرَاطِ
﴿الْمُسْتَقِيمَ﴾ الذي لا عوج فيه ولا انحراف «آمين» أي استجب دعاءنا. وهي ليست من القرآن الكريم إجماعاً.

التفسير: علمنا الباري جلّ وعلا كيف ينبغي أن نحمده ونقدسه ونثني عليه بما هو أهله فقال ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: قولوا يا عبادي إذا أردتم شكري وثنائي: الحمد لله، اشكروني على إحساني وجميلي إليكم، فأنا الله ذو العظمة والمجد والسؤدد، المتفرد بالخلق والإيجاد، رب الإنس والجن والملائكة، ورب السماوات والأرضين، فالثناء والشكر لله رب العالمين دون ما يُعبد من دونه ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أي: الذي وسعت رحمته كل شيء، وعمّ فضله جميع الأنام، بما أنعم على عباده من الخلق والرزق والهداية إلى سعادة الدارين، فهو الرب الجليل عظيم الرحمة دائم الإحسان ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي: هو سبحانه المالك للجزاء والحساب، المتصرف في يوم الدين تصرف المالك في ملكه ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الأنفطار: ١٩] ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: نخصك يا الله بالعبادة، ونخصك بطلب الإعانة، فلا نعبد أحداً سواك، لك وحدك نذل ونخضع ونستكين ونخشع، وإيّاك ربنا نستعين على طاعتك ومرضاتك، فإنك المستحق لكل إجلال وتعظيم، ولا يملك القدرة على عوننا أحدٌ سواك ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: دلنا وأرشدنا يا رب إلى طريقك الحق ودينك المستقيم، وثبتنا على الإسلام الذي بعثت به أنبياءك ورسلك، وأرسلت به خاتم المرسلين، واجعلنا ممن سلك طريق المقربين ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي طريق من تفضلت عليهم بالجلود والإنعام، من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقاً ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ أي: لا تجعلنا يا الله من زمرة أعدائك الحائدين عن الصراط المستقيم، السالكين غير المنهج القويم، من اليهود المغضوب عليهم أو النصارى الضالين، الذين ضلوا عن شريعتك القدسية،

(١) (ش): رواه ابن عدي، وضعفه الألباني.

(٢) «الكشاف» ١ / ١١.

فاستحقوا الغضب واللعنة الأبدية^(١). اللهم آمين.

البلاغة: ١ - ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الجملة خبرية لفظاً إنشائية معنى أي قولوا «الحمد لله» وهي مفيدة لقصر الحمد عليه تعالى كقوله: م: الكرم في العرب.

٢ - ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ولو جرى الكلام على الأصل لقال: إياه نعبد، وتقديم المفعول يفيد القصر أي: لا نعبد سواك كما في قوله: ﴿وَأِيَّتَى فَأَرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

٣ - قال في «البحر المحيط»: وفي هذه السورة الكريمة من أنواع الفصاحة والبلاغة أنواع:

الأول: حسن الافتتاح وبراعة المطلع.

الثاني: المبالغة في الثناء لإفادة «أل» الاستغراق.

الثالث: تلوين الخطاب إذ صيغته الخبر ومعناه الأمر أي: قولوا الحمد لله.

الرابع: الاختصاص في قوله ﴿لِلَّهِ﴾.

الخامس: الحذف كحذف صراط من قوله ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ تقديره غير صراط المغضوب عليهم وغير صراط الضالين.

السادس: التقديم والتأخير في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

السابع: التصريح بعد الإبهام ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ثم فسر به بقوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.

الثامن: الالتفات في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

التاسع: طلب الشيء والمراد به دوامه واستمراره في ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ﴾ أي: ثبتنا عليه.

العاشر: السجع المتوازي في قوله: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ... أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وقوله: ﴿نَسْتَعِينُ ... أَصْلَاحِينَ﴾.

الفوائد: الأولى: الفرق بين ﴿اللَّهِ﴾ و «الإله» أن الأول اسم علم للذات المقدسة ذات البارئ جل وعلا ومعناه المعبود بحق والثاني معناه المعبود بحق أو باطل فهو اسم يطلق على الله تعالى وعلى غيره.

الثانية: وردت الصيغة بلفظ الجمع «نعبد ونستعين» ولم يقل «إياك أعبد وإياك أستعين» بصيغة المفرد وذلك للاعتراف بقصور العبد عن الوقوف في باب ملك الملوك فكأنه يقول: أنا يا رب العبد الحقير الذليل، لا يليق بي أن أقف هذا الموقف في مناجاتك بمفردتي، بل أنضم إلى سلك المؤمنين الموحدين فتقبل دعائي في زمرتهم فنحن جميعاً نعبدك ونستعين بك.

الثالثة: نسب النعمة إلى الله عز وجل ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ولم ينسب إليه الإضلال والغضب

(١) «البحر المحيط» لأبي حيان ١/ ٣١.

فلم يقل: غضبت عليهم أو الذين أضللتهم وذلك لتعليم العباد الأدب مع الله تعالى، فالشر لا ينسب إلى الله تعالى أدباً وإن كان منه تقديرًا «الخير كله بيدك والشر لا ينسب إليك»^(١).



(١) (ش): عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: «وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي، وَنُسُكِي، وَمَحْيَايَ، وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْتَ رَبِّي، وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذُنُوبِي، فَاعْفُ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

خاتمة

في بيان الأسرار القدسية في فاتحة الكتاب العزيز

[يقول شهيد الإسلام الشيخ حسن البنا في رسالته القيمة «مقدمة في التفسير» ما نصه: «لا شك أن من تدبر الفاتحة الكريمة رأى من غزارة المعاني وجمالها، وروعة التناسب وجلاله ما يأخذ بلبه، ويضيء جوانب قلبه، فهو يبتدئ ذاكرًا تاليًا متيمناً باسم الله، الموصوف بالرحمة التي تظهر آثار رحمته متجددة في كل شيء، فإذا استشعر هذا المعنى ووقر في نفسه انطلق لسانه بحمد هذا الإله ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ وذكره الحمد بعظيم نعمه وكريم فضله، وجميل آلائه البادية في تربيته للعوالم جميعاً، فأجال بصيرته في هذا المحيط الذي لا ساحل له، ثم تذكر من جديد أن هذه النعم الجزيلة والتربية الجليلة، ليست عن رغبة ولا رهبة، ولكنها عن تفضل ورحمة، فنطق لسانه مرة ثانية بـ ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ومن كمال هذا الإله العظيم أن يقرن الرحمن بـ «العدل» ويذكر بالحساب بعد الفضل فهو مع رحمته السابعة المتجددة سيدين عباده ويحاسب خلقه يوم الدين ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩] فتربيته لخلقه قائمة على الترغيب بالرحمة، والترهيب بالعدالة والحساب ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾ وإذا كان الأمر كذلك فقد أصبح العبد مكلفاً بتحري الخير، والبحث عن وسائل النجاة، وهو في هذا أشد ما يكون حاجة إلى من يهديه سواء السبيل، ويرشده إلى الصراط المستقيم، وليس أولى به في ذلك من خالقه ومولاه فليجأ إليه وليعتمد عليه وليخاطبه بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وليسأله الهداية من فضله إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم بمعرفة الحق واتباعه، غير المغضوب عليهم بالسلب بعد العطاء، والنكوص بعد الاهتداء، وغير الضالين التائهين، الذين يضلون عن الحق أو يريدون الوصول إليه فلا يوفقون للعثور عليه، آمين. ولا جرم أن «أمين» براعة مقطع في غاية الجمال والحسن، وأي شيء أولى بهذه البراعة من فاتحة الكتاب، والتوجه إلى الله بالدعاء؟ فهل رأيت تناسقاً أدق، أو ارتباطاً أوثق، مما تراه بين معاني هذه الآية الكريمة، وتذكر وأنت تهيم في أودية هذا الجمال ما يرويه رسول الله ﷺ عن ربه في الحديث القدسي «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدني ما سأل..» الحديث^(١).

(١) (ش): (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

وَأَدِّمْ هَذَا التَّدْبِيرَ وَالْإِنْعَامَ^(١)، واجتهد أن تقرأ في الصلاة وغيرها على مكث وتمهّل، وخشوع وتذلّل، وأن تقف على رؤوس الآيات، وتعطى التلاوة حقها من التجويد أو النغمات، من غير تكلف ولا تطريب، واشتغال بالألفاظ عن المعاني، فإن ذلك يعين على الفهم، ويشير ما غاض من شأبيب الدمع^(٢)، وما نفع القلب شيء أفضل من تلاوة في تدبرٍ وخشوع^(٣).

«انتهى تفسير سورة الفاتحة»



(١) (ش): الصواب «وَأَدِّمْ هَذَا التَّدْبِيرَ وَالْإِنْعَامَ»، والتصحيح من «مقدمة في التفسير»، (والإنعام) هو الإمعان: يُقَالُ: أَنْعَمَ النَّظَرَ فِي الشَّيْءِ، وَأَمْعَنَ فِي الشَّيْءِ النَّظَرَ: إِذَا أَطَالَ الْفِكْرَةَ فِيهِ. «أَمْعَنَ» و«أَنْعَمَ» يتفقان في المعنى وفي الحروف عددًا ونوعًا.

(٢) (ش): الشُّبُوبُ: الدُّفْعَةُ مِنَ الْمَطَرِ.

(٣) «مقدمة في التفسير» ص ٥٩ .



مدنية بلا خلاف، وهي من أوائل ما نزل، وآياتها مائتان وثمانون وست آيات بَيْن يَدَي السُّورَةِ

* سورة البقرة أطول سور القرآن على الإطلاق، وهي من السور المدنية التي تُعنى بجانب التشريع، شأنها كشأن سائر السور المدنية، التي تعالج النظم والقوانين التشريعية التي يحتاج إليها المسلمون في حياتهم الاجتماعية.

* اشتملت هذه السورة الكريمة على معظم الأحكام التشريعية: في العقائد، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، وفي أمور الزواج، والطلاق، والعدة، وغيرها من الأحكام الشرعية. * وقد تناولت الآيات في البدء الحديث عن صفات المؤمنين، والكافرين، والمنافقين، فوضّحت حقيقة الإيمان، وحقيقة الكفر والنفاق، للمقارنة بين أهل السعادة وأهل الشقاء.

* ثم تحدثت عن بدء الخليقة فذكرت قصة أبي البشر «آدم» ﷺ، وما جرى عند تكوينه من الأحداث والمفاجآت العجيبة التي تدل على تكريم الله جل وعلا للنوع البشري.

* ثم تناولت السورة الحديث بالإسهاب عن أهل الكتاب، وبوجه خاص بني إسرائيل "اليهود" لأنهم كانوا مجاورين للمسلمين في المدينة المنورة، فنبهت المؤمنين إلى خبثهم ومكرهم، وما تنطوي عليه نفوسهم الشريرة من اللؤم والغدر والخيانة، ونقض العهود والمواثيق، إلى غير ما هنالك من القبائح والجرائم التي ارتكبتها هؤلاء المفسدون، مما يوضح عظيم خطرهم، وكبير ضررهم، وقد تناول الحديث عنهم ما يزيد على الثلث من السورة الكريمة، بدءاً من قوله تعالى: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤].

* وأما بقية السورة الكريمة فقد تناولت جانب التشريع، لأن المسلمين كانوا - وقت نزول هذه السورة - في بداية تكوين «الدولة الإسلامية» وهم في أمس الحاجة إلى المنهاج الرباني، والتشريع السماوي، الذي يسرون عليه في حياتهم سواء في العبادات أو المعاملات، ولذا فإن جماع السورة تتناول الجانب التشريعي، وهو باختصار كما يلي:

«أحكام الصوم مفصلة بعض التفصيل، أحكام الحج والعمرة، أحكام الجهاد في سبيل الله، شئون الأسرة وما يتعلق بها من الزواج، والطلاق، والرضاع، والعدة، تحريم نكاح المشركات، والتحذير من معاشرتة النساء في حالة الحيض^(١) إلى غير ما هنالك من أحكام تتعلق بالأسرة،

(١) (ش): كان الأصح أن يقول: «والتحذير من جماع النساء في حالة الحيض» لأن المعاشرتة بغير الجماع ليست ممنوعة. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ فِيهِمْ لَمْ يَوَاكِلُوهَا، وَلَمْ يُجَامِعُوهُنَّ فِي =

لأنها النواة الأولى للمجتمع الأكبر».

* ثم تحدثت السورة الكريمة عن «جريمة الربا» التي تهدد كيان المجتمع وتقوض بنيانه، وحملت حملة عنيفة شديدة على المرابين، بإعلان الحرب السافرة من الله ورسوله على كل من يتعامل بالربا أو يقدم عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتِغُوا فَلََكُمْ رَأْسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿[البقرة: ٢٧٨-٢٧٩].

* وأعقبت آيات الربا بالتحذير من ذلك اليوم الرهيب، الذي يجازى فيه الإنسان على عمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١] وهو آخر ما نزل من القرآن الكريم، وآخر وحي تنزل من السماء إلى الأرض، وبنزول هذه الآية انقطع الوحي، وانتقل الرسول ﷺ إلى جوار ربه، بعد أن أدى الرسالة وبلغ الأمانة^(١).

* وختمت السورة الكريمة بتوجيه المؤمنين إلى التوبة والإنابة، والتضرع إلى الله جلّ وعلا برفع الأغلال والأصار، وطلب النصرة على الكفار، والدعاء لما فيه سعادة الدارين: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وهكذا بدأت السورة بأوصاف المؤمنين، وختمت بدعاء المؤمنين ليتناسق البدء مع الختام، ويلتئم شمل

= النُّبُوتِ فَسَأَلَ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ النَّبِيَّ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَجِيْزِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْبِرُوا ۚ﴾ [البقرة: ٢٢٢] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ» فَبَلَغَ ذَلِكَ الْيَهُودَ، فَقَالُوا: مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدَّعَىٰ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا إِلَّا خَالَفْنَا فِيهِ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

وذكر النووي في شرحه على صحيح مسلم (٣/ ٢٠٥) أن مَبَاشَرَةَ الْحَائِضِ أَقْسَامُ: أَحَدُهَا: أَنْ يَبَاشَرَهَا بِالْجَمَاعِ فِي الْفَرْجِ، فَهَذَا حَرَامٌ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ. بَنَصَ الْقُرْآنَ الْعَزِيزِ وَالسُّنَّةَ الصَّحِيحَةَ. الْقِسْمُ الثَّانِي: الْمَبَاشَرَةُ فِيمَا فَوْقَ الشُّرَّةِ وَتَحْتَ الرُّكْبَةِ بِالذِّكْرِ أَوْ بِالْقَبْلَةِ أَوْ الْمُعَانَقَةِ أَوْ اللَّمَسِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، وَهُوَ حَلَالٌ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ.

الْقِسْمُ الثَّالِثُ: الْمَبَاشَرَةُ فِيمَا بَيْنَ الشُّرَّةِ وَالرُّكْبَةِ فِي غَيْرِ الْقَبْلِ وَالذِّبْرِ، وَفِيهَا ثَلَاثَةٌ أَوْجُهٌ: أَنَّهَا حَرَامٌ. وَالثَّانِي: أَنَّهَا لَيْسَتْ بِحَرَامٍ، وَلَكِنَّهَا مَكْرُوهَةٌ كَرَاهَةً تَنْزِيهِ، وَالْوَجْهُ الثَّالِثُ: إِنْ كَانَ الْمُبَاشِرُ يَضْبِطُ نَفْسَهُ عَنِ الْفَرْجِ، وَيَتَّقِي مِنْ نَفْسِهِ بِاجْتِنَابِهِ إِمَّا لِيُضْعِفَ شَهْوَتَهُ، وَإِمَّا لِيَشَدَّ وَرَعَهُ، جَازٍ وَإِلَّا فَلَا. وَقَالَ: إِنْ الْوَجْهُ الثَّانِي أَقْوَى مِنْ حَيْثُ الدَّلِيلُ.

(١) (ش): اختلف أهل العلم في آخر آية نزلت من القرآن، على أقوال متعددة، تكلم فيها كل بما أداه إليه اجتهاده، وذلك بناءً على ما ورد عن الصحابة رضوان الله عليهم، ويحتمل أن كلاً منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي ﷺ في اليوم الذي مات فيه أو قبل مرضه بقليل، وليس في شيء من ذلك خبر عن المعصوم ﷺ، يمكن القطع به. وأكثر العلماء على أن آخر آية نزولاً هي قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

السورة أفضل النام!

التسمية: سميت السورة الكريمة «سورة البقرة» إحياءً لذكرى تلك المعجزة الباهرة، التي ظهرت في زمن موسى الكليم، حيث قُتل شخص من بني إسرائيل ولم يعرفوا قاتله، فعرضوا الأمر على موسى لعله يعرف القاتل، فأوحى الله تعالى إليه أن يأمرهم بذبح بقرة، وأن يضربوا الميت بجزءٍ منها فيحيا بإذن الله ويخبرهم عن القاتل، وتكون برهاناً على قدرة الله جل وعلا في إحياء الخلق بعد الموت، وستأتي القصة مفصلة في موضعها إن شاء الله.

فضلها: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة» أخرجه مسلم والترمذي. وقال ﷺ: «اقرأوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة» يعني السحرة. رواه مسلم في صحيحه. قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ١ ذَلِكِ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٥

اللغة: ﴿رَيْبٌ﴾ الرِّيبُ: الشك وعدم الطمأنينة يقال: ارتاب، وأمرٌ مرِيب إذا كان فيه شك وريبة، قال الزمخشري: الريب مصدر رآبه إذا أحدث له الريبة وهي قلق النفس واضطرابها، ومنه رُبُّ الزمان لنوائبه^(١) ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أصل التقوى مأخوذ من اتقاء المكروه بما تجعله حاجزاً بينك وبينه، قال النابغة:

سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تُرَدْ إِسْقَاطُهُ فَتَنَاوَلَتْهُ وَاتَّقَتْنَا بِالْيَدِ^(٢)

فالمتقي هو الذي يقي نفسه مما يضرها، وهو الذي يتقي عذاب الله بطاعته، وجماع التقوى أن يمثل العبد الأوامر، ويجتنب النواهي ﴿بِالْغَيْبِ﴾ ما غاب عن الحواس، وكل شيء مستور فهو غيب، كالجنة، والنار، والحشر والنشر قال الراغب: الغيب ما لا يقع تحت الحواس^(٣).

(١) «الكشاف» ٢٧/١.

(ش): في تفسير الزمخشري (١/ ٣٤): ومنه: رب الزمان، وهو ما يقلق النفوس ويشخص بالقلوب من نوائبه. (ش): النصيف: الخمار، قال ﷺ: «وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَطْلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمَلَأَتْهُ رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» (رواه البخاري). ومعنى البيت أنها كانت عليها النصيف فلما (سَقَطَ النَّصِيفُ) -ومن عفاها أنها (لَمْ تُرَدْ إِسْقَاطُهُ)- فتناولت النَّصِيفُ ياحدى اليدين وسترت وجهها باليد الأخرى.

(٣) «مفردات القرآن» للراغب.

﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ الفلاح: الفوز والنجاح^(١) قال أبو عبيدة: كل من أصاب شيئاً من الخير فهو مفلح^(٢) وقال البيضاوي: المفلح: الفائز بالمطلوب كأنه الذي انفتحت له وجوه الظفر^(٣)، وأصل الفلح في اللغة: الشق والقطع، ومنه قولهم: «إن الحديد بالحديد يفلح» أي: يشق، ولذلك سمي الفلاح فلاحاً لأنه يشق الأرض بالحراثة ﴿كَفَرُوا﴾ الكفر لغة: ستر النعمة ولهذا يسمى الكافر كافراً لأنه يجحد النعمة ويسترها، ومنه قيل للزراع وللليل: كافر، قال تعالى: ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ﴾ أي: أعجب الزُّرَّاع، وسمى الليل كافراً لأنه يغطي كل شيء بسواده ﴿أَنْذَرْتَهُمْ﴾ الإنذار: الإعلام مع التخويف، فإن خلا من التخويف فهو إعلام وإخبار، لا إنذار ﴿خَتَمَ﴾ الختم: التغطية على الشيء والطبع عليه حتى لا يدخل شيء، ومنه ختم الكتاب^(٤). ﴿غَشَاوَهُ﴾ الغشاوة: الغطاء من غشاه إذا غطاه، ومنه الغاشية وهي القيامة، لأنها تغشى الناس بأهوالها.

التفسير: ابتدأت السورة الكريمة بذكر أوصاف المتقين، وابتداء السورة بالحروف المقطعة ﴿الْم﴾ وتصديرها بهذه الحروف الهجائية يجذب أنظار المعرضين عن هذا القرآن، إذ يطرق أسماعهم لأول وهلة ألفاظ غير مألوفة في تخاطبهم، فينتبهون إلى ما يُلقى إليهم من آياتِ بينات، وفي هذه الحروف وأمثالها تنبيهٌ على «إعجاز القرآن» فإن هذا الكتاب منظومٌ من عين ما ينظمون منه كلامهم، فإذا عجزوا عن الإتيان بمثله، فذلك أعظم برهان على إعجاز القرآن. يقول العلامة ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها، وهو قول جمع من المحققين، وقد قرره الزمخشري في «تفسيره» «(الكشاف)» ونصره أتم نصر، وإليه ذهب الإمام «ابن تيمية» ثم قال: ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف، فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته مثل ﴿الْم﴾ ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان: ١ - ٢] ﴿الْمَصِّ﴾ ﴿كُنْتُ أَنْزِلُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١ - ٢] ﴿الْم﴾ ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان: ١ - ٢] وغير ذلك من الآيات الدالة على إعجاز القرآن^(٥)، ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هذا القرآن المنزل عليك يا محمد هو الكتاب الذي لا يدانيه كتاب ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك في أنه من عند الله لمن تفكر

(١) «مفردات القرآن» للراغب.

(٢) «مجاز القرآن» لأبي عبيدة ص ٢٩.

(٣) «البيضاوي» ١٠ / ١.

(٤) (ش): الكتاب: رسالة أو صحيفة مكتوبة، والختم: الخاتم، ما يُختم به على الأوراق، يصنع عادة من المعدن أو المطاط، وله مَقْبَض.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ١ / ٢٧٠.

وتدبر، أو ألقى السمع وهو شهيد ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: هادٍ للمؤمنين المتقين، الذين يتقون سخط الله بامتنال أوامره واجتناب نواهيه، ويدفعون عذابه بطاعته، قال ابن عباس: المتقون هم الذين يتقون الشرك، ويعملون بطاعة الله، وقال الحسن البصري: اتقوا ما حُرِّمَ عليهم، وأدُّوا ما افترض عليهم. . ثم بيَّن تعالى صفات هؤلاء المتقين فقال: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: يصدقون بما غاب عنهم ولم تدركه حواسهم من البعث، والجنة، والنار، والصراط، والحساب، وغير ذلك من كل ما أخبر عنه القرآن أو النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي: يؤدونها على الوجه الأكمل بشروطها وأركانها، وخشوعها وآدابها قال ابن عباس: إقامتها: إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع^(١) ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْفُونَ﴾ أي: ومن الذي أعطيناهم من الأموال ينفقون ويتصدقون في وجوه البر والإحسان، والآية عامة تشمل الزكاة، والصدقة، وسائر النفقات، وهذا اختيار ابن جرير، وروي عن ابن عباس أن المراد بها زكاة الأموال، قال ابن كثير: كثيراً ما يقرن تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال، لأن الصلاة حقُّ الله وهي مشتملة على توحيده وتمجيده والثناء عليه، والإنفاق هو الإحسان إلى المخلوقين وهو حق العبد، فكلٌّ من النفقات الواجبة، والزكاة المفروضة داخل في الآية الكريمة^(٢): ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي يصدقون بكل ما جئت به عن الله تعالى ﴿وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي وبما جاءت به الرسل من قبلك، لا يفرقون بين كتب الله ولا بين رسله ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي ويعتقدون اعتقاداً جازماً لا يلابسه شك أو ارتياب بالدار الآخرة التي تتلو الدنيا، بما فيها من بعثٍ وجزاءٍ، وجنةٍ، ونار، وحساب، وميزان، وإنما سميت الدار الآخرة لأنها بعد الدنيا ﴿وَأُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي أولئك المتصفون بما تقدم من الصفات الجليلة، على نور وبيان وبصيرة من الله ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي وأولئك هم الفائزون بالدرجات العالية في جنات النعيم.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - المجاز العقلي ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أسند الهداية للقرآن وهو من الإسناد للسبب، والهادي في الحقيقة هو الله ربُّ العالمين ففيه مجاز عقلي.
- ٢ - الإشارة بالبعيد عن القريب ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ للإيذان بعلو شأنه، وبعد مرتبته في الكمال، فنزل بُعد المرتبة منزلة البعد الحسي.
- ٣ - تكرير الإشارة ﴿وَأُولَئِكَ عَلَى هُدًى﴾ ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ للعناية بشأن المتقين، وجيء بالضمير ﴿هُمُ﴾ ليفيد الحصر كأنه قال: هم المفلحون لا غيرهم.
- ٤ - التيئيس من إيمان الكفار ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فالجملة

(١) اقتبسنا التفسير من «الطبري» وابن كثير وتفسير الجلالين.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣٠ / ١.

سبقت للتنبيه على غلوهم في الكفر والطغيان، وعدم استعدادهم للإيمان، ففيها تبيّن وإقناط من إيمانهم.

٥ - الاستعارة التصريحية اللطيفة ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ شبه قلوبهم لتأبيها^(١) عن الحق، وأسماعهم وأبصارهم لامتناعها عن تلمّح نور الهداية، بالوعاء المختوم عليه، المسدود منافذه، المغشّى بغشاء يمنع أن يصله ما يصلحه، واستعار لفظ الختم والغشاوة لذلك بطريق الاستعارة التصريحية^(٢).

قال الله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى صفات المؤمنين في الآيات السابقة، أعقبها بذكر صفات الكافرين، ليظهر الفارق الواضح بين الصنفين، على طريقة القرآن الكريم في المقارنة بين الأبرار والفجار، والتميز بين أهل السعادة وأهل الشقاوة «وبضدها تتميز الأشياء».

التفسير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي إن الذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسالة محمد ﷺ ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي يتساوى عندهم ﴿أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ أي سواء أخطرهم يا محمد من عذاب الله وخوفتهم منه أم لم تحذرهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يصدقون بما جئتهم به، فلا تطمع في إيمانهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ عن تكذيب قومه له ... ثم بين تعالى العلة في سبب عدم الإيمان فقال: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي طبع على قلوبهم فلا يدخل فيها نور، ولا يشرق فيها إيمان. قال المفسرون: الختم التغطية والطبع، وذلك أن القلوب إذا كثرت عليها الذنوب طمست نور البصيرة فيها، فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر عنها مخلص كما قال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]^(٣) ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ﴾ أي وعلى أسماعهم وعلى أبصارهم غطاء، فلا يبصرون هدى، ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون، لأن أسماعهم وأبصارهم كأنها مغطاة بحجب كثيفة، لذلك يرون الحق فلا يتبعونه، ويسمعونه فلا يعونه قال أبو حيان: شبه تعالى قلوبهم لتأبيها عن الحق، وأسماعهم لإضرابها عن سماع داعي الفلاح، وأبصارهم لامتناعها عن تلمّح نور الهداية، بالوعاء المختوم عليه، المسدود منافذه، المغشّى بغشاء يمنع أن يصله ما يصلحه، وذلك لأنها كانت - مع صحتها وقوة إدراكها - ممنوعة عن قبول الخير وسماعه، وتلمّح نوره،

(١) (ش): تأبى عليه: تكبر وامتنع.

(٢) انظر «تلخيص البيان» للشريف الرضى ٣/١، و«البحر المحيط» لأبي حيان ٥١/١.

(٣) انظر ما كتبه العلامة ابن كثير حول معنى الختم فيه تحقيق وتفصيل جميل.

وهذا بطريق الاستعارة^(١) ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب شديد لا ينقطع، بسبب كفرهم وإجرامهم وتكذيبهم بآيات الله.

قال الله تعالى:

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ فَمَا رَحِمَتْ بَنَاتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَةٍ لَّا يَبْصُرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَةٌ وَرَعَدٌ وَبُرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيْٓ أَذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ سَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى في أول السورة صفات المؤمنين، وأعقبها بذكر صفات الكافرين، ذكر هنا «المنافقين» وهم الصنف الثالث، الذين يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر، وأطنب بذكرهم في ثلاث عشرة آية لينبه إلى عظيم خطرهم، وكبير ضررهم، ثم عقب ذلك بضرب مثلين زيادة في الكشف والبيان، وتوضيحاً لما تنطوي عليه نفوسهم من ظلمة الضلال والنفاق، وما يؤول إليه حالهم من الهلاك والدمار.

اللغة: ﴿يُخَادِعُونَ﴾ الخِدَاع: المكر والاحتيال وإظهار خلاف الباطن، وأصله الإخفاء، ومنه سُمِّيَ الدَّهْرُ خَادِعًا لِمَا يُخْفِي مِنْ غَوَائِلِهِ^(٢)، وسُمِّيَ الْمَخْدَعُ مَخْدَعًا لِتَسْتَرِ أَصْحَابِ الْمَنْزِلِ فِيهِ ﴿مَرَضٌ﴾ المرض: السُّقْم وهو ضد الصحة وقد يكون حسيًّا كمرض الجسم، أو معنويًّا كمرض النفاق ومرض الحسد والرياء، قال ابن فارس: المرضُ كل ما خرج به الإنسان عن حد الصحة من علة، أو نفاق: أو تقصير في أمر ﴿تُفْسِدُوا﴾ الفساد: العدول عن الاستقامة وهو ضد الصلاح ﴿السُّفَهَاءُ﴾ جمع سفيه وهو الجاهل، الضعيف الرأي، القليل المعرفة، بمواضع المنافع والمضار، وأصل السُّفَه، الخِفَّة، والسفيه: الخفيف العقل. قال علماء اللغة: السُّفَه خِفَّةٌ

(١) «تفسير البحر المحيط» لأبي حيان ٥١/١.

(٢) (ش): غائلة: فساد، شر، هلكة.

وسخافة رأى يقتضيان نقصان العقل، والحِلْمُ يقابله ^(١) ﴿طَغَيْنَهُمْ﴾ الطغيان: مجاوزة الحد في كل شيء ومنه ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ [الحاقة: ١١] أي: ارتفع وعلا وجاوز حده، والطاغية: الجبار العنيد ﴿يَعْمَهُونَ﴾ العمه: التحير والتردد في الشيء يقال: عمه يعمه فهو عمه قال رؤبة:

أعمى الهدى بالحائرين العمه

قال الفخر الرازي: العمه مثل العمى، إلا أن العمى عام في البصر والرأي، والعمه في الرأي خاصة، وهو التردد والتحير لا يدري أين يتوجه ^(٢) ﴿أَشْتَرُوا﴾ حقيقة الاشتراء: الاستبدال، وأصله بذل الثمن لتحصيل الشيء المطلوب، والعرب تقول لمن استبدل شيئاً بشيء: اشتراه قال الشاعر:

فإن تزعميني كنت أجهل فيكم
فإنني شريت الحلم بعذك بالجهل ^(٣)
﴿صُمُّ﴾ جمع أصم وهو الذي لا يسمع ﴿بُكْمٌ﴾ جمع أبكم وهو الآخرس الذي لا ينطق
﴿عُمَى﴾ جمع أعمى وهو الذي فقد بصره ﴿كَصِيبٍ﴾ الصيب: المطر الغزير مأخوذ من
الصوب وهو النزول بشدة قال الشاعر:

سقتك روابيا المزن حيث تصوب ^(٤)

﴿الصَوَائِقِ﴾ جمع صاعقة وهي نارٌ محرقة لا تمر بشيء إلا أتت عليه، مشتقة من الصَّعَق وهو شدة الصوت ﴿السَّمَاءِ﴾ السماء في اللغة: كلُّ علاك فأظلك، ومنه قيل لسقف البيت سماء، ويسمى المطر سماءً لنزوله من السماء قال الشاعر:

إذا سقط السماء بأرض قوم
رعيناه وإن كانوا غضابا ^(٥)
﴿يَخْطَفُ﴾ الخطف: الأخذ بسرعة ومنه ﴿إِلَّا مَنْ خَطَفَ الْخُطْفَةَ﴾ [الصفات: ١٠] وسُمي الطير خُطَافاً لسرعته، والخاطف الذي يأخذ الشيء بسرعة شديدة.

سبب النزول: قال ابن عباس: نزلت هذه الآيات في منافقي أهل الكتاب منهم «عبد الله بن أبي ابن سلول، ومعتب بن قشير، والجد بن قيس» كانوا إذا لقوا المؤمنين يظهرون الإيمان والتصديق ويقولون: إننا لنجد في كتابنا نعتة وصفته ^(٦).

(١) انظر: «تهذيب اللغة»، «والصحيح»، «والقاموس».

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ٧١/٢.

(٣) (ش): معنى البيت: إن كنت تزعمين أني كنت أجهل في هواي لكم فقد شريت بذلك الجهل حلماً وعقلاً، ورجعت عما كنت عليه.

(٤) (ش): (الرواية): المزاودة: وعاء الماء في السفر. روايا المزن: التي تروي بكثرة مائها. صاب المطر الأرض: أنصب ونزل.

(٥) (ش): رعيناه من الرعي، أي: رعيْنَا نبات الأرض في مكان نزول المطر. قصد بلفظ السماء أولاً المطر الذي ينزل من السماء، وأعاد الضمير عليه مريداً به النبات الذي يَبُتُّ في الأرض بسبب ارتواء الأرض بالمطر.

(٦) تفسير الفخر الرازي ٦١/٢. (ش): هكذا ذكره الفخر الرازي بدون إسناد.

التفسير: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ أي ومن الناس فريق يقولون بألسنتهم: صدّقنا بالله وبما أنزل على رسوله من الآيات البينات ﴿وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي وصدّقنا بالبعث والنشور ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي وما هم على الحقيقة بمصدقين ولا مؤمنين، لأنهم يقولون ذلك قولاً دون اعتقاد، وكلاماً دون تصديق. قال البيضاوي: هذا هو القسم الثالث المذبذب بين القسمين، وهم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وهم أخبث الكفرة وأبغضهم إلى الله، لأنّهم مؤهوا الكفر وخطوا به خداعاً واستهزاء، ولذلك أطال في بيان خبثهم وجهلهم، واستهزأ بهم وتهكّم بأفعالهم، وسجّل عليهم الضلال والطغيان، وضرب لهم الأمثال^(١) ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي يعملون عمل المخادع بإظهار ما أظهره من الإيمان مع إصرارهم على الكفر، يعتقدون - بجهلهم - أنهم يخدعون الله بذلك، وأن ذلك نافعهم عنده، وأنه يروج عليه كما قد يروج على بعض المؤمنين، وما علموا أن الله لا يخدع لأنه لا تخفى عليه خافية قال ابن كثير: النفاق هو إظهار الخير، وإسراؤ الشر وهو أنواع: اعتقادي وهو الذي يخلد صاحبه في النار، وعملي وهو من أكبر الذنوب والأوزار، لأن المنافق يخالف قوله فعله، وسرّه علانيته. وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية لأن مكة لم يكن بها نفاق بل كان خلافه^(٢) ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي وما يخدعون في الحقيقة إلا أنفسهم لأن وبال فعلهم راجع عليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي ولا يحسّون بذلك ولا يفتنون إليه، لتماذي غفلتهم، وتكامل حماقتهم ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ أي في قلوبهم شك ونفاق فزادهم الله رجساً فوق رجسهم، وضللاً فوق ضلالهم، والجملة دُعائية

قال ابن أسلم: هذا مرض في الدين، وليس مرضاً في الجسد، وهو الشك الذي دخلهم في الإسلام فزادهم الله رجساً وشكاً^(٣) ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ أي ولهم عذاب مؤلم بسبب كذبهم في دعوى الإيمان، واستهزائهم بآيات الرحمن. ثم شرع تعالى في بيان قبائحهم، وأحوالهم الشنيعة فقال ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي وإذا قال لهم بعض المؤمنين: لا تسعوا في الأرض بالإفساد بإثارة الفتن، والكفر والصدّ عن سبيل الله. قال ابن مسعود: الفساد في الأرض هو الكفر، والعمل بالمعصية، فمن عصى الله فقد أفسد في الأرض ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أي ليس شأننا الإفساد أبداً، وإنما نحن أناس مصلحون، نسعى للخير والصلاح فلا يصح مخاطبتنا بذلك قال البيضاوي: تصوّروا الفساد بصورة الصلاح، لما في قلوبهم من المرض فكانوا كمن قال الله فيهم: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوُّ عَمَلِهِ فَرَأَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨] ولذلك ردّ الله

(١) «تفسير البيضاوي» ١/ ١١.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ١/ ٣٣.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ١/ ٣٣.

عليهم أبلغ ردّ بتصدير الجملة بحرفي التأكيد ﴿أَلَا﴾ المنبهة و﴿إِنَّ﴾ المقررة، وتعريف الخبر، وتوسيط الفصل، والاستدراك بعدم الشعور^(١) فقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي ألا فانتبهوا أيها الناس، إنهم هم المفسدون حقاً لا غيرهم، ولكن لا يفتنون ولا يحسون، لانطماس نور الإيمان في قلوبهم ﴿وَلَا إِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾ أي وإذا قيل للمنافقين: آمنوا إيماناً صادقاً لا يشوبه نفاق ولا رياء، كما آمن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، وأخلصوا في إيمانكم وطاعتكم لله ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾ الهمة للإنكار مع السخرية والاستهزاء أي قالوا أتؤمن كإيمان هؤلاء الجهلة أمثال «صهيب، وعمار، وبلال» ناقصي العقل والتفكير؟! قال البيضاوي: وإنما سفههم لاعتقادهم فساد رأيهم، أو لتحقير شأنهم، فإن أكثر المؤمنين كانوا فقراء ومنهم موال كصهيب وبلال^(٢) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ألا إنهم هم السفهاء حقاً، لأن من ركب متن الباطل كان سفهياً بلا امتراء، ولكن لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل، وذلك أبلغ في العمى، والبعد عن الهدى.

أكد وتبّه وحصر السفاهة فيهم، ثم قال تعالى منبهاً إلى مصانعتهم ونفاقهم ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامِنَّا﴾ أي وإذا رأوا المؤمنين وصادفوهم أظهروا لهم الإيمان والموالة نفاقاً ومصانعة ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شُطُوبِهِمْ﴾ أي وإذا انفردوا ورجعوا إلى رؤسائهم وكبرائهم، أهل الضلال والنفاق ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ﴾ أي قالوا لهم: نحن على دينكم وعلى مثل ما أنتم عليه من الاعتقاد، وإنما نستهزئ بالقوم ونسخر منهم بإظهار الإيمان، قال تعالى ردّاً عليهم ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي الله يجازيهم على استهزائهم بالإمهال ثم بالنكال قال ابن عباس: يسخر بهم للنقمة منهم ويُملي لهم كقوله: ﴿وَأْمُرْ لَهُمْ إِنَّكَ كَلِدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣] قال ابن كثير: هذا إخبار من الله أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء، ومعاقبتهم عقوبة الخداع، فأخرج الخبر مخرج الخبر عن الفعل الذي استحقوا العقاب عليه، فاللفظ متفق والمعنى مختلف^(٣)، وإليه وجهوا كل ما في القرآن من نظائر مثل ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلُهَا﴾ ومثل ﴿فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعْدَدُوا عَلَيْهِ﴾ فالأول ظلم والثاني عدل^(٤) ﴿وَيَمْدُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي ويزيدهم - بطريق

(١) «البيضاوي» ١٢/١.

(٢) «البيضاوي» ١٢/١.

(٣) يسمى هذا النوع عند علماء البيان «المشاكلة» وهو أن تتفق الجملتان في اللفظ وتختلفا في المعنى كقوله:

قَالُوا: افْتَرَحْ شَيْئاً نَجِدْ لَكَ طَبِخَهُ قُلْتُ: اطْبُخُوا لِي جُبَّةً وَقَمِيصاً

(ش): (نجد) من الإجادة. (اطبخوا لي جُبَّةً وَقَمِيصاً): أي خيطوا لي جُبَّةً وَقَمِيصاً، فذكر الخياطة بلفظ الطبخ لوقوعه في صحبة طبخ الطعام.

(٤) (ش): صفات الله تعالى كلها صفات كمال، دالة على أحسن المعاني وأكملها، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ =

الإمهال والترك - في ضلالهم وكفرهم يتخبطون ويترددون حيارى، لا يجدون إلى المخرج - منه سبيلاً لأن الله طبع على قلوبهم وأعمى أبصارهم، فلا يبصرون رشداً ولا يهتدون سبيلاً. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى﴾ أي استبدلوا الكفر بالإيمان، وأخذوا الضلالة ودفعوا ثمنها الهدى ﴿فَمَا رَیَحَتْ بِحَرْتُهُمْ﴾ أي ما ربحت صفقتهم في هذه المعارضة والبيع ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أي وما كانوا راشدين في صنيعهم ذلك، لأنهم خسروا سعادة الدارين ثم ضرب تعالى مثلين وضح فيهما خسارتهم الفادحة فقال ﴿مِثْلُهُمْ كَمِثْلِ الَّذِينَ اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ أي مثالهم في نفاقهم وحالهم العجيبة فيه كحال شخص أوقد ناراً ليستدفئ بها ويستضيء، فما اتقدت حتى انطفأت، وتركته في ظلام دامس وخوف شديد ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أي فلما أنارت المكان الذي حوله فأبصر وأمن، واستأنس بتلك النار المشعة المضيئة ذهب الله بنورهم أي أطفأها الله بالكلية، فتلاشت النار وعُدم النور ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ أي وأبقاهم في ظلمات كثيفة وخوف شديد، يتخبطون فلا يهتدون قال ابن كثير: ضرب الله

= [الروم: ٢٧]. ومعنى المثل الأعلى أي الوصف الأكمل. والصفات ثلاثة أنواع:

الأول: صفات كمال، لا نقص فيه بوجه من الوجوه. فهذه يوصف الله تعالى بها وصفاً مطلقاً ولا يقيد بشيء، مثال ذلك: العلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والرحمة... إلخ.

الثاني: صفات نقص، لا كمال فيها، فهذه لا يوصف الله تعالى بها أبداً، كالنوم، والعجز، والظلم، والخيانة... إلخ.

الثالث: صفات يمكن أن تكون كمالاً، ويمكن أن تكون نقصاً، على حسب الحال التي تذكر فيها.

فهذه لا يوصف الله تعالى بها على سبيل الإطلاق، ولا تنفى عن الله تعالى على سبيل الإطلاق، بل يجب التفصيل، ففي الحال التي تكون كمالاً يوصف الله تعالى بها، وفي الحال التي تكون نقصاً لا يوصف الله تعالى بها. ومثال هذا: المكر، والخديعة، والاستهزاء، فالمكر والخديعة والاستهزاء بالعدو صفة كمال، لأن ذلك يدل على كمال العلم والقدرة والسلطان. ونحو ذلك. أما المكر بالمؤمنين الصادقين فهو صفة نقص. ولذلك لم يرد وصف الله تعالى هذه الصفات على سبيل الإطلاق، وإنما ورد مقيداً بما يجعله كمالاً. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]. فهذا خداع بالمنافقين. وقال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرُورِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. وهذا مكر بأعداء الله الذين كانوا يَمْكُرُونَ برسول الله ﷺ. وقال عن المنافقين: ﴿وَإِذْ لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شُيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾ [البقرة: ١٤-١٥]. وهذا استهزاء بالمنافقين. فهذه الصفات تعتبر كمالاً في هذا السياق الذي وردت فيه. ولهذا يقال: الله تعالى يستهزئ بالمنافقين، ويخادعهم، ويمكر بأعدائه... ونحو ذلك. ولا يجوز أن يوصف الله تعالى بالمكر والخادع وصفاً مطلقاً. لأنه حينئذ لا يكون كمالاً.

فالله سبحانه وتعالى ينسب إلى نفسه أحسن هذه المعاني وما هو منها حكمة وصواب وجزاء للمسيء وذلك غاية العدل والحق كقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [١٥] وَأَكِيدُ كَيْدًا. وقوله: ﴿وَمَكُرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾. وقوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾. وقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾. وقوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾، فهذا منه سبحانه في أعلى مراتب الحُسن وإن كان من العبد قبيحاً سيئاً لأنه ظالم فيه وموقعه بمن لا يستحقه، والرب تعالى عادل فيه وموقعه بأهله ومن يستحقه.

للمنافقين هذا المثل، فشبههم في اشتراطهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى، بمن استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها، وتأنس بها وأبصر ما عن يمينه وشماله .. فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره، وصار في ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدي، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى، واستحبابهم الغي على الرشد، وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا، ولذلك ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات الشك والكفر والنفاق لا يهتدون إلى سبيل خير، ولا يعرفون طريق النجاة^(١) ﴿صُمُّوا﴾ أي هم كالصم لا يسمعون خيراً ﴿بُكِّمُوا﴾ أي كالخرص لا يتكلمون بما ينفعهم ﴿عُمِّيُوا﴾ أي كالعمي لا يبصرون الهدى ولا يتبعون سبيله ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي لا يرجعون عما هم فيه من الغي والضلال. ثم نثى تعالى بتمثيل آخر لهم زيادة في الكشف والإيضاح فقال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي أو مثلهم في حيرتهم وترددهم كمثل قوم أصابهم مطر شديد، أظلمت له الأرض، وأرعدت له السماء، مصحوب بالبرق والرعد والصواعق ﴿فِيهِ ظُلُمٌ وَّرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ أي في ذلك السحاب ظلمات داجية، ورعد قاصف، وبرق خاطف ﴿يَجْعَلُونَ أَصْأَعَهُمْ فِيءَ آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ﴾ أي يضعون رءوس أصابعهم في آذانهم لدفع خطر الصواعق، وذلك من فرط الدهشة والفرع كأنهم يظنون أن ذلك ينجيهم ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ أي خشية الموت من تلك الصواعق المدمرة ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ جملة اعتراضية أي والله تعالى محيط بهم بقدرته، وهم تحت إرادته ومشيتته لا يفوتونه، كما لا يفوت من أحاط به الأعداء من كل جانب ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ أي يقارب البرق لشدة وقوته وكثرة لمعانه أن يذهب بأبصارهم فيأخذها بسرعة ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّنْشَرٌ فِيهِ﴾ أي كلما أثار لهم البرق الطريق مشوا في ضوئه ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ أي وإذا اختفى البرق وفتر لمعانه وقفوا عن السير وثبتوا في مكانهم. . وفي هذا تصوير لما هم فيه من غاية التحير والجهل، فإذا صادفوا من البرق لمعة - مع خوفهم أن يخطف أبصارهم - انتهزوها فرصة فخطوا خطوات يسيرة وإذا خفي وفتر لمعانه وقفوا عن السير، وثبتوا في أماكنهم خشية التردى في حفرة ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾ أي لو أراد الله لزداد في قصف الرعد فأصمهم وذهب بأسماعهم، وفي ضوء البرق فأعماهم وذهب بأبصارهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي إنه تعالى قادر على كل شيء، لا يعجزه أحد في الأرض ولا في السماء قال ابن جرير: إنما وصف تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع، لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته، وأخبرهم أنه بهم محيط، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قادر^(٢).

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة والبدیع نوجزها فيما يلي:

(١) «مختصر ابن كثير» ٣٦/١.

(٢) «تفسير الطبري» ٧٩/١.

أولاً: المبالغة في التكذيب لهم ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ كان الأصل أن يقول: «وما آمنوا» ليطابق قول من يقول «آمنا» ولكنه عدل عن الفعل إلى الاسم لإخراج ذواتهم من عداد المؤمنين وأكد به الباء للمبالغة في نفي الإيمان عنهم.

ثانياً: الاستعارة التمثيلية ﴿يُخَذِّعُونَ اللَّهَ﴾ شبه حالهم مع ربهم في إظهار الإيمان وإخفاء الكفر بحال رعية تخادع سلطانهم واستعير اسم المشبه به للمشبه بطريق الاستعارة.

ثالثاً: صيغة القصر ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ وهذا من نوع «قصر الموصوف على الصفة» أي نحن مصلحون ليس إلا.

رابعاً: الكناية اللطيفة ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ المرض في الأجسام حقيقة وقد كنى به عن النفاق؛ لأن المرض فسادٌ للبدن، والنفاق فساد للقلب.

خامساً: تنويع التأكيد ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ جاءت الجملة مؤكدة بأربعة تأكيدات ﴿أَلَا﴾ التي تفيد التنبيه، و﴿إِنَّ﴾ التي هي للتأكيد، وضمير الفصل ﴿هُمْ﴾ ثم تعريف الخبر ﴿الْمُفْسِدُونَ﴾ ومثلها في التأكيد ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ وهذا ردٌّ من الله تعالى عليهم بأبلغ ردٍّ وأحكمه.

سادساً: المشاكلة ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ سمى الجزء على الاستهزاء استهزاءً بطريق المشاكلة وهي الاتفاق؛ في اللفظ مع الاختلاف في المعنى.

سابعاً: الاستعارة التصريحية ﴿أَشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدْيِ﴾ المراد استبدلوا الغي بالرشاد، والكفر بالإيمان فخرست صفقتهم ولم تبيع تجارتهم، فاستعار لفظ الشراء للاستبدال ثم زاده توضيحاً بقوله: ﴿فَمَا رِيحَتْ بِجَنَرَتِهِمْ﴾ وهذا هو الترشيح الذي يبلغ بالاستعارة الذروة العليا^(١).

ثامناً: التشبيه التمثيلي ﴿مِثْلُهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ وكذلك ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ﴾ شبه في المثال الأول المنافق بالمستوفد للنار، وإظهاره الإيمان بالإضاءة، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار، وفي المثال الثاني شبه الإسلام بالمطر لأن القلوب تحيا به كحياة الأرض بالماء، وشبه شبهاة الكفار بالظلمات، وما في القرآن من الوعد والوعيد بالبرق. . إلخ^(٢).

تاسعاً: التشبيه البليغ ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَى﴾ أي هم كالصم والبكم العمي في عدم الاستفادة من هذه الحواس حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً.

عاشراً: المجاز المرسل ﴿يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِيءًا ذَاتَهُمْ﴾ وهو من إطلاق الكل وإرادة الجزء أي رعوس أصابعهم لأن دخول الأصبع كلها في الأذن لا يمكن.

(١) قال الزمخشري: وهذا من الصنعة البديعية التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا، انظر «الكشاف» ١/ ٥٣ .

(٢) قال الفخر الرازي: والتشبيه ههنا في غاية الصحة، لأنهم بإيمانهم أولاً اكتسبوا نوراً، ثم بنفاقهم ثانياً أبطلوا ذلك النور، ووقعوا في حيرة عظيمة لأنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين لخسران نفسه أبد الأبدن. الرازي ٢/ ٧٣ .

الحادي عشر: توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات، وهذا له وقع في الأذن حسن، وأثر في النفس رائع مثل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ﴿وَيَبْدُوهُمْ فِي طَغْيَنِهِمْ بِعَمَهُونَ﴾ إلخ وهو من المحسنات البديعية^(١).

الفوائد الأولى: الغاية من ضرب المثل: تقريب البعيد، وتوضيح الغامض حتى يصبح كالأمر المشاهد المحسوس، وللأمثال تأثير عجيب في النفس ﴿وَلَيْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

الثانية: وصف تعالى المنافقين في هذه الآيات بعشرة أوصاف كلها شنيعة وقبيحة تدل على رسوخهم في الضلال وهي (الكذب، الخداع، المكر، السفه، الاستهزاء، الإفساد في الأرض، الجهل، الضلال، التذبذب، السخرية بالمؤمنين) أعادنا الله من صفات المنافقين.

الثالثة: حكمة كفه عليه الصلاة والسلام عن قتل المنافقين مع أنهم كفار وعلمه ﷺ بأعيان بعضهم ما أخرجه البخاري أن النبي ﷺ قال لعمر: «أكره أن يتحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه»^(٢).

لطيفة: قال العلامة ابن القيم: تأمل قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل: «ذهب الله بنارهم» مع أنه مقتضى السياق ليطابق أول الآية ﴿أَسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ فإن النار فيها إشراق وإحراق، فذهب الله بما فيها من الإشراق وهو «النور» وأبقى ما فيها من الإحراق وهو «النارية»!! وتأمل كيف قال: ﴿بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل بضوئهم، لأن الضوء زيادة في النور، فلو قيل: ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل! وتأمل كيف قال ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ فوحد النور ثم قال ﴿وَوَرَكَّهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ فجمعها، فإن الحق واحد هو صراط الله المستقيم، الذي لا صراط يوصل سواه، بخلاف طرق الباطل فإنها متعددة ومتشعبة، ولهذا أفرد سبحانه «الحق» وجمع «الباطل» في آيات عديدة مثل قوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [المائدة: ١٦] وقوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] وقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فجمع سبل الباطل ووحد سبيل الحق^(٣).

قال الله تعالى:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِن الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ

(١) ذكرنا الأمثلة البلاغية على سبيل المثال لا الحصر، ليتذوق القارئ بعض روائع القرآن، وإلا فكلام الله معجز وفيه من الروائع البيانية، والصور البلاغية، ما يتذوقه الإنسان ويعجز عن وصفه اللسان.

(٢) ذكرها ابن كثير كذا في «المختصر» ٣٣/١.

(٣) نقلاً عن «محاسن التأويل» للقاسمي.

أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِمْ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى الأصناف الثلاثة «المؤمنين، والكافرين، والمنافقين» وذكر ما تميزوا به من سعادة أو شقاوة، أو إيمان أو نفاق، وضرب الأمثال ووضح طرق الضلال أعقبه هنا بذكر الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين، وعرف الناس بنعمه ليذكروه عليها، وأقبل عليهم بالخطاب ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وهو خطاب لجميع الفئات ممتناً عليهم بما خلق ورزق، وأبرز لهم «معجزة القرآن» بأنصع بيان وأوضح برهان ليقطع من القلوب جذور الشك والارتياب.

اللغة: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ الخلق: الإيجاد والاختراع بلا مثال، وأصله في اللغة التقدير يقال: خَلَقَ النعل إذا قَدَّرَها وسَوَّاهَا بالمقياس، وخلق الأديم للسقاء إذا قَدَّرَه. قال الحجاج: ما خلقت إلا فريت، ولا وعدت إلا وفيت «أي ما قدرت شيئاً إلا أمضيته، ولا وعدت بشيء إلا وفيت به». ﴿فِرَاشًا﴾ الفراش: الوطاء والمهاد الذي يقعد عليه الإنسان وينام ﴿بِنَاءً﴾ البناء: ما يُبنى من قبة أو خباء أو بيت ﴿أَنْدَادًا﴾ جمع نَدٍّ وهو الكفاء والمثيل والنظير، ومنه قول علماء التوحيد «ليس لله نَدٌّ ولا ضِدٌّ» قال حسان:

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِنَدٍّ فَشَرُّكُمْ لَخَيْرِكُمَْا الْفِدَاءِ^(١)

وقال الزمخشري: «النَدُّ: المثل ولا يقال إلا للمخالف المناوئ، قال جرير:

أَتَيْمًا تَجْعَلُونَ إِلَيَّ نَدًّا؟^(٢)

﴿وَقُودُهَا﴾ الوقود: الحطب الذي توقد به النار قال «القرطبي»: الوقود بالفتح الحطب، وبالضم مصدر بمعنى التوقد^(٣) ﴿أُعِدَّتْ﴾ هُيئت، وأعدنا هيأنا قال البيضاوي: ﴿أُعِدَّتْ﴾ هُيئت لهم وجُعِلَتْ عُدَّةٌ لعذابهم^(٤) ﴿وَبَشِّرِ﴾ البشارة: الخبر السار الذي يتغير به بشرة الوجه من السرور، وإذا استعمل في الشر فهو تهكم مثل ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤] ﴿أَزْوَاجٌ﴾ جمع زوج ويطلق على الذكر والأنثى ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ﴾ [البقرة: ٣٥] فالمرأة زوج الرجل،

(١) «القرطبي» ١/ ٢٣٠.

(٢) «الكشاف» ١/ ٧٢.

(٣) «القرطبي» ١/ ٢٣٨.

(٤) «البيضاوي» ١/ ١٨.

والرجل زوج المرأة قال الأصمعي: لا تكاد العرب تقول زوجة ﴿خَلْدُوتٌ﴾ باقون دائمون. **التفسير:** يقول تعالى منبهاً العباد إلى دلائل القدرة والوحدانية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ أي يا معشر بني آدم اذكروا نعم الله الجليلة عليكم، وابدعوا الله ربكم الذي رباكم وأنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً، اعبدوه بتوحيده، وشكروه، وطاعته ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي الذي أوجدكم بقدرته من العدم، وخلق من قبلكم من الأمم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لتكونوا في زمرة المتقين، الفائزين بالهدى والفلاح قال البيضاوي: لما عدّد تعالى فرق المكلفين، أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات، هذا للسامع، وتنشيطاً له، واهتماماً بأمر العبادة وتفخيماً لشأنها، وإنما كثر النداء في القرآن بـ ﴿يَا أَيُّهَا﴾ لاستقلاله بأوجه من التأكيد، وكل ما نادى الله له عباده من حيث إنها أمور عظام من حقها أن يتفطنوا لها، ويقبلوا بقلوبهم عليها وأكثرهم عنها غافلون حقيق بأن يُنادى له بالأكّد الأبلغ^(١)، ثم عدّد تعالى نعمه عليهم فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَشًا﴾ أي جعلها مهاداً وقراراً، تستقرون عليها وتفتشونها كالبساط المفروش مع كرويتها، وإلا ما أمكنكم العيش والاستقرار عليها. قال البيضاوي: جعلها مهياة لأن يقعدوا ويناموا عليها كالفرش المبسوط، وذلك لا يستدعي كونها مسطحة لأن كروية شكلها مع عظم حجمها لا يأبى الافتراض عليها^(٢) ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَاءً﴾ أي وسقفاً للأرض مرفوعاً فوقها كهيئة القبة ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي مطراً عذباً فرائاً أنزله بقدرته من السحاب ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ أي فأخرج بذلك المطر أنواع الثمار والفواكه والخضار غذاءً لكم ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي فلا تتخذوا معه شركاء من الأصنام والبشر تشركونهم مع الله في العبادة، وأنتم تعلمون أنها لا تخلق شيئاً ولا تزرُق، وأنَّ الله هو الخالق الرازق وحده، ذو القوة المتين قال ابن كثير: شرع تعالى في بيان وحدانية ألوهيته بأنه هو المنعم على عبده بإخراجهم من العدم، وإسباغهم عليهم النعم، والمراد بالسَّماء هنا السحاب، فهو تعالى الذي أنزل المطر من السحاب في وقته عند احتياجهم إليه، فأخرج لهم به أنواع الزروع والثمار ورزقاً لهم ولأنعامهم، ومضمونه أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم، فبهذا يستحق أن يُعبد وحده ولا يُشرك به غيره^(٣)، ثم ذكر تعالى بعد أدلة التوحيد الحجة على النبوة، وأقام البرهان على إعجاز القرآن فقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ أي وإذا كنتم أيها الناس في شك وارتياب من صدق هذا القرآن، المعجز في بيانه، وتشريع، ونظمه،

(١) «البيضاوي» ١٦/١.

(٢) نفس المرجع السابق والصفحة، ورأي الإمام البيضاوي صريح في كروية الأرض قبل أن يدور رواد الفضاء حولها في هذا العصر.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣٨/١.

الذي أنزلناه على عبدنا ورسولنا محمد ﷺ ﴿فَأَتُوا سُورَةَ مِنْ مِثْلِهِ﴾ أي فأتوا بسورة واحدة من مثل هذا القرآن، في البلاغة والفصاحة والبيان ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي وادعوا أعوانكم وأنصاركم الذين يساعدونكم على معارضة القرآن غير الله سبحانه، والمراد استعينوا بمن شئتم غيره تعالى. قال البيضاوي: المعنى ادعوا للمعارضة من حضركم أو رجوتهم معونته من إنسكم وجنكم وآلهتكم غير الله سبحانه وتعالى، فإنه لا يقدر أن يأتي بمثله إلا الله ^(١) ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي أنه مختلق وأنه من كلام البشر، وجوابه محذوف دل عليه ما قبله. ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ أي فإن لم تقدروا على الإتيان بمثل سورة من سوره، وعجزتم في الماضي عن الإتيان بما يساويه أو يداويه، مع استعانتكم بالفصحاء والعباقره والبلغاء ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ أي ولن تقدروا في المستقبل أيضًا على الإتيان بمثله، والجملة اعتراضية للإشارة إلى عجز البشر في الحاضر والمستقبل كقوله: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] أي: معينًا قال ابن كثير: تحداهم القرآن وهم أفصح الأمم ومع هذا عجزوا، ﴿وَلَنْ﴾ لنفي التأييد ^(٢) في المستقبل أي ولن تفعلوا ذلك أبدًا، وهذه أيضًا معجزة أخرى وهو أنه أخبر خبرًا جازمًا قاطعًا، غير خائف ولا مشفق أن هذا القرآن لا يُعارض بمثله أبد الأبدین ودهر الداهرين، وكذلك وقع الأمر لم يُعارض من لدنه إلى زماننا هذا، ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجه الإعجاز فنونًا ظاهرة وخفية، من حيث اللفظ ومن حيث المعنى، والقرآن جميعه فصيح في غاية نهايات الفصاحة والبيان عند من يعرف كلام العرب، ويفهم تصاريف الكلام ^(٣) ﴿فَأْتُوا النَّارَ﴾ أي فخافوا عذاب الله، واحذروا نار الجحيم التي جعلها الله جزاء المكذبين ﴿الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ أي اتقوا النار التي مادتها التي تُشعل بها وتُضرم لإيقادها هي الكفار والأصنام التي عبدوها من دون الله كقوله: تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] قال مجاهد: حجارة من كبريت أتت من الجيفة يعذبون بها مع النار ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي هيئت تلك النار وأرصدت للكافرين الجاحدين، ينالون فيها ألوان العذاب المهيمن.

ثم لما ذكر ما أعدّه لأعدائه، عطف عليه بذكر ما أعدّه لأوليائه، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب، للمقارنة بين حال الأبرار والفجار فقال: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي وبشر يا محمد المؤمنين المتقين، الذين كانوا في الدنيا محسنين، والذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي بأن

(١) «البيضاوي» ١/ ١٧.

(٢) (ش): الصواب: أن يقال النفي المؤبد؛ لأن نفي التأييد معناه عدم التأييد.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ١/ ٤١.

لهم حدائق وبساتين ذات أشجار ومساكن، تجري من تحت قصورها ومساكنها أنهار الجنة^(١) ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا﴾ أي كلما أعطوا عطاءً ورزقوا رزقاً من ثمار الجنة ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي هذا مثل الطعام الذي قُدِّمَ إلينا قبل هذه المرة. قال المفسرون: إن أهل الجنة يُرزقون من ثمارها، تأتيهم به الملائكة، فإذا قُدِّمَ لهم مرة ثانية قالوا: هذا الذي أتيتونا به من قبل فتقول الملائكة: كل يا عبد الله فاللون واحدٌ والطعم مختلف^(٢) قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾ أي متشابهاً في الشكل والمنظر، لا في الطعم والمخبر. قال ابن جرير: يعني في اللون والمرأى وليس يشبهه في الطعم قال ابن عباس: لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي ولهم في الجنة زوجاتٌ من الحور العين مطهَّرات من الأقدار والأدناس الحسية والمعنوية. قال ابن عباس: مطهَّرة من القدر والأذى وقال مجاهد: مطهَّرة من الحيض والنفاس، والغائط والبول والنخام، وورد أن نساء الدنيا المؤمنات يكنَّ يوم القيامة أجمل من الحور العين كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنِشَاءً﴾^(٣٥) ﴿فَجَعَلْنَهُنَّ أَزْوَاجًا﴾^(٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿[الواقعة: ٣٥ - ٣٧] وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي دائمون، وهذا هو تمام السعادة، فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين، يعيشون مع زوجاتهم في هناءٍ خالد لا يعتريه انقطاع.

البلاغة: ١ - ذكر الربوبية ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ مع إضافته إلى المخاطبين للتفخيم والتعظيم.

٢ - الإضافة ﴿عَلَى عَبْدِنَا﴾ للتشريف والتخصيص، وهذا أشرف وصفٍ لرسول الله ﷺ.

٣ - التعجيز ﴿فَأَنزَلْنَا سُورَةَ﴾ خرج الأمر عن صيغته إلى معنى التعجيز، وتكثير السورة لإرادة العموم والشمول.

٤ - المقابلة اللطيفة ﴿جَعَلْ لَّكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً﴾ فقد قابل بين الأرض والسماء، والفرش والبناء، وهذا من المحسنات البديعية.

٥ - الجملة الاعتراضية ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ لبيان التحدي في الماضي والمستقبل وبيان العجز التام في جميع العصور والأزمان.

٦ - الإيجاز البديع بذكر الكناية ﴿فَأَنفُتُوا النَّارَ﴾ أي فإن عجزتم فخافوا نار جهنم بتصديقكم بالقرآن.

(١) جاء في الحديث أن أنهار الجنة تجري في غير أخدود.

(ش): ضعفه أبو إسحق الحويني. وعن مسروق قال: «أنهار الجنة تجري في غير أخدود، وثمرها كالقلال، كلما أخذ ثمرةً عادت مكانها أخرى، والعنقود: اثنا عشر ذراعاً». رواه أبو نعيم في «صفة الجنة» وقال الحويني: «سنده صحيح». أخرجه ابن مردويه في «تفسيره» - كما في ابن كثير (٢٩٧/٧) - وأبو نعيم في «الحلية» (٢٠٥/٦)، وفي «صفة الجنة»

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى قوله: ﴿هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي في الدنيا، وهذا قول مرجوح والصحيح ما روي عن ابن عباس وغيره أن هذا في الجنة وأنه ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء.

قال الله تعالى:

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ ءَمُوتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٩﴾

المناسبة: لما بين تعالى بالدليل الساطع، والبرهان القاطع، أن القرآن كلام الله لا يطرأ إليه شك، وإنه كتاب معجز أنزله على خاتم المرسلين، وتحداهم أن يأتوا بمثل سورة من أقصر سوره، وذكر هنا شبهة أوردها الكفار للقدح فيه وهي أنه جاء في القرآن ذكر (النحل، والذباب، والعنكبوت، والنمل) إلخ وهذه الأمور لا يليق ذكرها بكلام الفصحاء فضلاً عن كلام رب الأرباب، فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة، وردَّ عليهم بأن صغر هذه الأشياء لا يقدح في فصاحة القرآن وإعجازه، إذا كان ذكر المثل مشتملاً على حكم بالغة.

اللغة: ﴿لَا يَسْتَحْيِي﴾ الحياء: تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به ويذم، والمراد به هنا لازمه وهو الترك، قال الزمخشري: أي لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحيي من ذكرها لحقارتها^(١) ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ فما دونها في الصغر ﴿الْفَاسِقِينَ﴾ أصل الفسق في كلام العرب: الخروج عن الشيء، والمنافق فاسق لخروجه عن طاعة ربه، قال الفراء: الفاسق

(١) «الكشاف» ١/ ٨٥.

(ش): هذا تأويل للحياء في حق الله تعالى بغير معناه الحقيقي، فالحياء والاستحياء صفة خبرية ثابتة لله عزَّ وجلَّ بالكتاب والسنة، و (الحيي) من أسمائه تعالى. وحياءه تعالى وُصفٌ يليق به، ليس كحياء المخلوقين، الذي هو تغير وانكسار يعتري الشخص عند خوف ما يُعَابُ أو يُذَمُّ. بل هو حياء الكمال يليق بالله عزَّ وجلَّ، والله سبحانه وتعالى يوصف بهذه الصفة لكن ليس مثل المخلوقين، فالقول في الحياء والاستحياء كالقول في سائر ما أثبتته الله عزَّ وجلَّ لنفسه وأثبتته له رسوله ﷺ من الصفات، والواجب في جميع ذلك هو الإثبات مع نفي مماثلة المخلوقات. قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فيوصف ربنا سبحانه وتعالى بالحياء والاستحياء كما في النصوص الشرعية على وجه لا نقص فيه، بل على الوجه اللائق من غير تكليف ولا تعطيل ولا تحريف ولا تمثيل. ولا يجوز تأويلها بغير معناها الظاهر من لوازمها وغير ذلك. عن أبي أيوب وأبيد اللبيخي، أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ، وذَهَبَ واحدٌ، قال: فَوَقَفَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا: فَرَأَى فُرْجَةً فِي الْحَلْفَةِ فَجَلَسَ فِيهَا، وَأَمَّا الْآخَرُ: فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ، وَأَمَّا الثَّالِثُ: فَأَذْبَرَ ذَاهِبًا، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَىٰ إِلَى اللَّهِ فَأَوَاهُ اللَّهُ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللَّهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ» (رواه البخاري ومسلم). وقال رسول الله ﷺ: «إِنْ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حَيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ». (رواه أبو داود والترمذي وصححه الألباني). وقال رسول الله ﷺ: «إِنْ اللَّهُ عزَّ وجلَّ حَيٌّ سِتِيرٌ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسَّتْرَ فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتِزِرْ». (رواه أبو داود وصححه الألباني).

مأخوذ من قولهم: «فسقت الرطبة من قشرها» أي خرجت، ويسمى الفاسق فاسقاً لخروجه عن طاعة الله، وتسمى الفأرة فويسقه لخروجها لأجل المضرة^(١)، ﴿يَنْقُضُونَ﴾ النقض: فسخ التركيب وإفساد ما أبرمته من بناء، أو حبل، أو عهد قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَقَتْ غَزَلَهَا﴾ [النحل: ٩٢] وقال: ﴿فِيمَا نَقَضَهُمْ مِيثَقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥] أي: فبنقضهم الميثاق ﴿عَهْدَ﴾ العهد: الموثق الذي يعطيه الإنسان لغيره ويقال عهد إليه أي أوصاه ﴿الْمِيثَاقَ﴾ العهد المؤكد باليمين وهو أبلغ من العهد. ﴿أَسْتَوَى﴾ الاستواء في الأصل: الاعتدال والاستقامة يقال: استوى العود إذا قام واعتدل، واستوى إليه كالسهم إذا قصده قصداً مستوياً، وقال ثعلب: الاستواء: الإقبال على الشيء^(٢)، ﴿فَسَوَّيْنَهُنَّ﴾ خلقهن وأتقنهن وقيل معناه: صيّرهن.

سَبَبُ النُّزُول: لما ذكر الله تعالى الذباب والعنكبوت في كتابه، وضرب للمشركين به المثل ضحكت اليهود وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله، وما أراد بذكر هذه الأشياء الخسيسة؟ فأنزل الله الآية^(٣).

التفسير: يقول تعالى في الرد على مزاعم اليهود والمنافقين: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ أي إن الله لا يستنكف ولا يمتنع عن أن يضرب أي مثل كان، بأي شيء كان، صغيراً كان أو كبيراً ﴿بِعُوضَةٍ فَمَا وَفَّاهَا﴾ أي سواء كان هذا المثل بالبعوضة أو بما هو دونها في الحقارة والصغر، فكما لا يستنكف عن خلقها، كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أما المؤمنون فيعلمون أن الله حق، لا يقول غير الحق، وأن هذا المثل من عند الله ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾؟ وأما الذين كفروا فيتعجبون ويقولون: ماذا أراد الله من ضرب الأمثال بمثل هذه الأشياء الحقيرة؟ قال تعالى في الرد عليهم: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ أي يضل بهذا المثل كثيراً من الكافرين لكفرهم به، ويهدي به كثيراً من المؤمنين لتصدقهم به، فيزيد أولئك ضلالة، وهؤلاء هدى ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ أي ما يضل بهذا المثل أو بهذا القرآن إلا الخارجين عن طاعة الله، الجاحدين بآياته ثم عدّد تعالى أوصاف هؤلاء الفاسقين فقال: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ أي ينقضون ما عهده إليهم في الكتب السماوية، من الإيمان بمحمد ﷺ من بعد توكيده عليهم، أو ينقضون كل عهد وميثاق من الإيمان بالله، والتصديق بالرسول، والعمل بالشرائع ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ من صلة الأرحام والقربات،

(١) «التفسير الكبير» للرازي ١٤٧/٢.

(٢) الصاوي على الجلالين ١٩/١، «و«الكشاف» ٩٢/١. (ش): قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (١/٢١٣): ﴿أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: قَصَدَ إِلَى السَّمَاءِ، وَالْإِسْتَوَاءُ هَاهُنَا تَصَمَّنُ مَعْنَى الْقَصْدِ وَالْإِقْبَالِ؛ لِأَنَّهُ عُدِّي بِ(إِلَى).

(٣) «القرطبي» ١/٢٤٤، والصاوي ١٧/١. (ش): ضعيف جداً، أخرجه الواحدي في «أسباب النزول».

واللفظ عام في كل قطيعة لا يرضاها الله كقطع الصلة بين الأنبياء، وقطع الأرحام، وترك موالاته المؤمنين ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالمعاصي، والفتن، والمنع عن الإيمان، وإثارة الشبهات حول القرآن ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي أولئك المذكورون، الموصوفون بتلك الأوصاف القبيحة هم الخاسرون لأنهم استبدلوا الضلالة بالهدى، والعذاب بالمغفرة، فصاروا إلى النار المؤبدة ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ استفهام للتوبيخ والإنكار والمعنى كيف تجحدون الخالق، وتنكرون الصانع ﴿وَكُنْتُمْ أَفْوَاحًا﴾ أي وقد كنتم في العدم نطفًا في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات ﴿فَأَخْرَجَكُمُ﴾ أي أخرجكم إلى الدنيا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء الآجال ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بالبعث من القبور ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للحساب والجزاء يوم النشور.

ثم ذكر تعالى برهانًا على البعث فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي خلق لكم الأرض وما فيها لتنتفعوا بكل ما فيها، وتعتبروا بأن الله هو الخالق الرازق ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي ثم وجه إرادته إلى السماء ﴿فَسَوَّيْنَهَا سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ أي صيَّرهن وقضاهن سبع سماوات محكمة البناء وذلك دليل القدرة الباهرة ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي وهو عالم بكل ما خلق وذرا، أفلا تعتبرون بأن القادر على خلق ذلك - وهي أعظم منكم - قادر على إعدادكم؟! بلى إنه على كل شيء قدير.

البالغة: ١ - قوله: ﴿لَا يَسْتَحْيٰ﴾ مجاز من باب إطلاق الملزوم وإرادة اللازم، والمعنى: لا يترك فعبّر بالحياة عن الترك، لأن الترك من ثمرات الحياة، ومن استحيا من فعل شيء تركه^(١).
٢ - قوله: ﴿يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ فيه (استعارة مكنية) حيث شبه العهد بالجبل، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو النقص على سبيل الاستعارة المكنية.

٣ - قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ هو من باب (الالتفات) للتوبيخ والتقريع، فقد كان الكلام بصيغة الغيبة ثم التفت فخطبهم بصيغة الحضور، وهو ضرب من ضروب البديع.
٤ - قوله ﴿عَلِيمٌ﴾ من صيغ المبالغة، ومعناه الواسع العلم الذي أحاط علمه بجميع الأشياء، قال أبو حيان: وصف تعالى نفسه بـ (عالم وعليم وعلام) وهذان للمبالغة، وقد أدخلت العرب الهاء لتأكيد المبالغة في (علامة) ولا يجوز وصفه به تعالى^(٢).

الفوائد: الأولى: قال الزمخشري: التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى، ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب، فليس العظم والحقارة في المضروب به المثل إلا أمرًا تستدعيه حال الممثل له، ألا ترى إلى الحق لما كان أبلج واضحًا جليًا، كيف تمثل له بالضياء

(١) أفاده الزمخشري.

(ش): تقدم قبل قليل أن هذا تأويل للحياة في حق الله تعالى بغير معناه الحقيقي، وأن هذا لا يجوز.

(٢) «البحر المحيط» ١/ ١٣٦.

والنور؟ وإلى الباطل لما كان بضد صفته كيف تمثل له بالظلمة؟ ولما كان حال الآلهة التي جعلها الكفار أندادًا لله تعالى ليس أحقر منها وأقل، لذلك ضرب لها المثل بيت العنكبوت في الضعف والوهن ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِئْتًا﴾ [العنكبوت: ٤١] وجعلت أقل من الذباب وأحسن قدرًا ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ. وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: ٧٣] والعجب منهم كيف أنكروا ذلك وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور، والحشرات والهوام، وهذه أمثال العرب بين أيديهم سائرة في حواضرهم وبواديهام^(١).
الثانية: قدّم الإضلال على الهداية ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ ليكون أول ما يقرع أسماعهم من الجواب أمرًا فظيغًا يسوءهم ويفت في أعضادهم، وأوثر صيغة الاستقبال إيدانًا بالتجدد والاستمرار، أفاده العلامة أبو السعود^(٢).

الثالثة: قال ابن جزى في «التسهيل»: وهذه الآية ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ تقتضي أنه خلق السماء بعد الأرض، وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠] ظاهره خلاف ذلك، والجواب من وجهين: أحدهما أن الأرض خلقت قبل السماء، ودحيت بعد ذلك فلا تعارض، والآخر تكون ﴿ثُمَّ﴾ لترتيب الأخبار^(٣).

قال الله تعالى:

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالُوا لَا نَعْلَمُ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٣﴾ قَالَ يَتَّخِذُونَ الْأَسْمَاءَ بِأَسْمَاءِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٤﴾

المناسبة: لما امتنَّ تعالى على العباد بنعمة الخلق والإيجاد وأنه سخر لهم ما في الأرض جميعًا، وأخرجهم من العدم إلى الوجود، أتبع ذلك ببدء خلقهم، وامتنَّ عليهم بتشريف أبيهم وتكريمه، بجعله خليفة، وإسكانه دار الكرامة، وإسجاد الملائكة تعظيمًا لشأنه، ولا شك أن الإحسان إلى الأصل إحسان إلى الفرع، والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء، ولهذا ناسب أن يذكرهم بذلك، لأنه من وجوه النعم التي أنعم بها عليهم.

اللغة: ﴿وَإِذْ﴾ ظرف زمان منصوب بفعل محذوف تقديره: اذكر حين أو اذكر وقت، وقد يصرح بالمحذوف كقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾ [الأففال: ٢٦] قال المبرد: إذا جاء

(١) «الكشاف» ٨٣/١.

(٢) «إرشاد العقل السليم» ٦٠/١.

(٣) «التسهيل في علوم التنزيل» ٤٣/١.

«إِذْ» مع مستقبل كان معناه ماضيًا، نحو قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] معناه إِذْ مَكُرُوا، وَإِذَا جَاءَ «إِذَا» مع الماضي كان معناه مستقبلًا كقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى﴾ [النازعات: ٣٤] و﴿وَإِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ [النصر: ١] أي يجيء^(١)، ﴿خَلِيفَةً﴾ الخليفة: من يخلف غيره وينوب منابه، فعيل بمعنى فاعل والتاء للمبالغة، سمي خليفة لأنه مستخلف عن الله عَزَّ وَجَلَّ في إجراء الأحكام وتنفيذ الأوامر الربانية قال تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦] الآية^(٢) ﴿وَيَسْفِكُ﴾ السفك: الصب والإراقة لا يستعمل إلا في الدم قال في «المصباح»: وسفك الدم: إراقة وبابه ضرب ﴿سُيِّحُ﴾ التسبيح: تنزيه الله وتبرئته عن السوء^(٣)، وأصله من السَّبَح وهو الجري والذهاب قال تعالى ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [المزمل: ٧] فالمسَّبَح جارٍ في تنزيه الله تعالى ﴿وَتُقَدَّسُ﴾ التقديس: التطهير ومنه الأرض المقدسة، وروح القدس، وضده التنجيس، وتقديس الله معناه: تمجيده وتعظيمه وتطهير ذكره عما لا يليق به وفي «صحيح مسلم» أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ ﴿أَنِئُتُونِي﴾ أَخْبَرُونِي والنَّبَأُ: الخبر الهام ذو الفائدة العظيمة قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ [ص: ٦٧] ﴿يُبْدُونَ﴾ تظهرون ﴿تَكْنُتُونَ﴾ تخفون ومنه كتم العلم، أي: إخفاؤه.

التفسير: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ أي اذكر يا محمد حين قال ربك للملائكة واقصص على قومك ذلك: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي خالق في الأرض ومتخذ فيها خليفة يخلفني في تنفيذ أحكامي فيها وهو آدم أو قومًا يخلف بعضهم بعضًا قرآنًا بعد قرن، وجيلًا بعد جيل ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ أي قالوا على سبيل التعجب والاستعلام: كيف تستخلف هؤلاء، وفيهم من يفسد في الأرض بالمعاصي ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ أي يريق الدماء بالبغي والاعتداء! ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ أي ننزهك عما لا يليق بك متلبسين بحمدك ﴿وَتُقَدَّسُ لَكَ﴾ أي نعظم أمرك ونظهر ذكرك مما نسبته إليك الملحدون ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أعلم من المصالح ما هو خفي عليكم، ولي حكمة في خلق الخليقة لا تعلمونها

(١) «القرطبي» ١/ ٢٦٢ .

(٢) (ش): ذكر الشيخ بكر أبو زيد في «معجم المناهي اللفظية» (ص: ٢٤٧-٢٤٨) أن لفظ «خليفة الله» اختلف فيه أهل العلم على ثلاثة أقوال: الأول: الجواز، فيجوز أن يقال: فلان خليفة الله في أرضه. الثاني: منع هذا الإطلاق؛ لأن خليفة إنما يكون عمن يغيب ويخلفه غيره، والله تعالى شاهد غير غائب، فمحال أن يخلفه غيره بل هو سبحانه وتعالى الذي يخلف عبده المؤمن فيكون خليفته. والثالث: - وهو ما قرره ابن القيم - إن أريد بالإضافة إلى الله: أنه خليفة عنه، فالصواب قول الطائفة المانعة فيها. وإن أريد بالإضافة: أن الله استخلفه عن غيره ممن كان قبله فهذا لا يمتنع فيه الإضافة. وحقيقتها: خليفة الله الذي جعله الله خلفًا عن غيره.

(٣) روى طلحة بن عبيد الله قال: سألت رسول الله ﷺ عن تفسير سبحانه الله فقال: «هو تنزيه الله عز وجل عن كل سوء» «القرطبي» ١/ ٢٧٦ .

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ أي أسماء المسميات كلها قال ابن عباس: علمه اسم كل شيء حتى القصعة والمغرفة ﴿عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ أي عرض المسميات على الملائكة وسألهم على سبيل التبيكيت^(١) ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي﴾ أي أخبروني ﴿بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ أي بأسماء هذه المخلوقات التي ترونها ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي في زعمكم أنكم أحق بالخلافة ممن استخلفته. الحاصل أن الله تعالى أظهر فضل آدم للملائكة بتعليمه ما لم تعلمه الملائكة، وخصه بالمعرفة التامة دونهم، من معرفة الأسماء والأشياء، والأجناس، واللغات، ولهذا اعترفوا بالعجز والقصور ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ أي ننزهك يا الله عن النقص ونحن لا علم لنا إلا ما علمتنا إياه ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة ﴿قَالَ يَتَدَبَّرُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أي أعلمهم بالأسماء التي عجزوا عن علمها، واعترفوا بتقاصر همهم عن بلوغ مرتبتها ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أي أخبرهم بكل الأشياء، وسمي كل شيء باسمه، وذكر حكمته التي خلق لها ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْني أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي قال تعالى للملائكة: ألم أنبئكم بأني أعلم ما غاب في السماوات والأرض عنكم ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ أي ما تظهرون ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي تُسرُّون من دعوكم أن الله لا يخلق خلقاً أفضل منكم، روي أنه تعالى لما خلق آدم ﷺ، رأت الملائكة فطرته العجيبة، وقالوا: ليكن ما شاء فلن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أكرم عليه منه^(٢).

البلاغه: ١ - التعرض بعنوان الربوبية ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ مع الإضافة إلى الرسول ﷺ للتحريف والتكريم لمقامه العظيم وتقديم الجار والمجرور ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾ للاهتمام بما قدم، والتشويق إلى ما أخر.

(١) (ش): التَّبَكُّيتُ: التَّفْرِيعُ والتَّوْبِيخُ. وَالْعَلْبَةُ بِالْحُجَّةِ: أي أَنْ تُكَلِّمَ خَصْمَكَ حَتَّى تَنْقَطِعَ حُجَّتُهُ. ولعل المعنى الثاني هو المقصود هنا، فقد ذكر المؤلف قبل ذلك أنهم إنما قالوا ما قالوا على سبيل التعجب والاستعلاء، فإذا كان سؤالهم عن الحكمة، لا على وجه الاعتراض، فعَلَامَ يكون التَّفْرِيعُ والتَّوْبِيخُ؟!

(٢) «مختصر ابن كثير» ٥٢/١، «وأبو السعود» ٦٩/١.

(ش): ذكره المؤلف هنا بصيغة التمريض «رُوي» التي تشير إلى ضعف الرواية، ولم أجد في ذلك حديثاً ثابتاً عن النبي ﷺ نستدل به على هذا الأمر الغيبي، وما في «تفسير ابن كثير» قاله قتادة بصيغة التمريض عن ابن عباس حيث قال: وَذَكَرَ لَنَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ لَمَّا أَخَذَ فِي خَلْقِ آدَمَ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: «مَا اللَّهُ خَالِقُ خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنَّا وَلَا أَعْلَمَ مِنَّا»، فَأَنْبِئُونَا بِخَلْقِ آدَمَ، وَكُلُّ خَلْقٍ مُبْتَلَى كَمَا ابْتُلِيَ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ بِالطَّاعَةِ فَقَالَ: «أَنْبِئُونَا أَوْ كَرِهًا قَالْنَا أَنْبِئَا طَائِعِينَ» [فَصَلَّتْ: ١١].

وفي «تفسير الطبري» (١/ ٥٣٢) عن الحسن البصري أنه قال: إِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ آدَمَ رَأَتْ الْمَلَائِكَةُ خَلْقًا عَجِيبًا، فَكَانَتْهُمْ دَخَلُهُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَأَسْرَوْا ذَلِكَ بَيْنَهُمْ، فَقَالُوا: «وَمَا يُهْمُكُمْ مِنْ هَذَا الْمَخْلُوقِ إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْ خَلْقًا إِلَّا كُنَّا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْهُ».

- ٢ - الأمر في قوله تعالى ﴿أَنْبِئُونِي﴾ خرج عن حقيقته إلى التعجيز والتبكيث^(١).
- ٣ - ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ فيه مجاز بالحذف والتقدير: فأنبأهم بها فلما أنبأهم؛ حذف لفهم المعنى.
- ٤ - ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ هو من باب التغليب لأن الميم علامة الجمع للعقلاء الذكور، ولو لم يغلب لقال ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ أو عرضهن.
- ٥ - إبراز الفعل في قوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ﴾ ثم قال ﴿وَأَعْلَمُ مَا بُدُونَ﴾ للاهتمام بالخبر والتنبيه على إحاطة علمه تعالى بجميع الأشياء، ويسمى هذا بالإطناب.
- ٦ - تضمنت آخر هذه الآية من علم البديع ما يسمى بـ «الطباق» وذلك في كلمتي ﴿بُدُونَ﴾ و﴿تَكْنُونُ﴾.

الفوائد الأولى: قال بعض العلماء: في إخبار الله تعالى للملائكة عن خلق آدم واستخلافه في الأرض، تعليم لعباده المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها^(٢).

الثانية: الحكمة من جعل آدم ﷺ خليفة هي الرحمة بالعباد - لا لافتقار الله - وذلك أن العباد لا طاقة لهم على تلقي الأوامر والنواهي من الله بلا واسطة، ولا بواسطة ملك، فمن رحمته ولطفه وإحسانه إرسال الرسل من البشر.

الثالثة: قال الحافظ ابن كثير: وقول الملائكة: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ الآية. يس هذا على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك، يقولون: ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض؟^(٣)

وقال في «التسهيل»: وإنما علمت الملائكة أن بني آدم يفسدون بإعلام الله إياهم بذلك، وقيل: كان في الأرض جن فأفسدوا، فبعث الله إليهم ملائكة فقتلتهم، فقاس الملائكة بني آدم عليهم^(٤).

الرابعة: سئل الشعبي: هل لإبليس زوجة؟ قال: ذلك عرس لم أشهده؟ قال: ثم قرأت قوله تعالى: ﴿أَفَتَخَذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ [الكهف: ٥٠] فعلمت أنه لا يكون له ذرية إلا من زوجة، فقلت: نعم^(٥).

(١) أفاده أبو السعود .

(٢) (ش): قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢١٧) تعليقا على ما روي عن السدي أن الله - استشار الملائكة في خلق آدم. قال: «وهذه العبارة إن لم ترجع إلى معنى الإخبار ففيها تساهل».

وقال الشيخ عبد العزيز الراجحي في «تفسير سورة البقرة»: «هذه الاستشارة لا محل لها هنا، ولا وجه لها، لكن يحمل على أن المراد أخبرهم».

(٣) «مختصر ابن كثير» ٩٤٩/١ .

(٤) «التسهيل لابن جزي» ٤٣/١ .

(٥) «محاسن التأويل» ١٠٤/٢ .

قال الله تعالى:

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَقُلْنَا يَتَّادِمُ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾

المناسبة: أشارت الآيات السابقة إلى أن الله تعالى خصَّ آدم ﷺ بالخلافة، كما خصَّه بعلم غزير وقفت الملائكة عاجزة عنه، وأضافت هذه الآيات الكريمة بيان نوع آخر من التكريم أكرمه الله به ألا وهو أمر الملائكة بالسجود له، وذلك من أظهر وجوه التشريف والتكريم لهذا النوع الإنساني ممثلًا في أصل البشرية آدم ﷺ.

اللغة: ﴿اسْجُدُوا﴾ أصل السجود: الانحناء لمن يُسجد له والتعظيم، وهو في اللغة: التذلل والخضوع، وفي الشرع: وضع الجبهة على الأرض ﴿إِبْلِيسَ﴾ اسم للشيطان وهو أعجمي، وقيل: إنه مشتق من الإبلas وهو الإياس ﴿أَبَى﴾ امتنع، والإباء: الامتناع مع التمكن من الفعل ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ الاستكبار: التكبر والتعاضم في النفس ﴿رَغَدًا﴾ واسعًا كثيرًا لا عناء فيه، والرغد: سعة العيش، يقال: رَغِدَ عِيشُ الْقَوْمِ إِذَا كَانُوا فِي رِزْقٍ وَاسِعٍ قَالَ الشَّاعِرُ:

بَيْنَمَا الْمَرْءُ تَرَاهُ نَاعِمًا يَأْمَنُ الْأَحْدَاثَ فِي عَيْشٍ رَغَدٍ
﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ أصله من الزلل وهو عثور القدم يقال: زلت قدمه أي: زلقت، ثم استعمل في ارتكاب الخطيئة مجازًا يقال: زلَّ الرجل إِذَا أَخْطَأَ وَأَتَى مَا لَيْسَ لَهُ إِتْيَانُهُ، وَأَزَلَّهُ غَيْرُهُ: إِذَا سَبَّبَ لَهُ ذَلِكَ ^(١) ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ موضع استقرار ﴿وَمَتْنَعٌ﴾ المتاع ما يتمتع به من المأكول والمشروب والملبوس ونحوه ﴿فَتَلَقَّى﴾ التلقي في الأصل: الاستقبال تقول: خرجنا نتلقى الحجاج، أي: نستقبلهم، ثم استعمل في أخذ الشيء وقبوله تقول: تلقيت رسالة من فلان، أي: أخذتها وقبلتها ﴿فَتَابَ﴾ التوبة في أصل اللغة الرجوع، وإذا عدت بـ (عن) كان معناها الرجوع عن المعصية، وإذا عدت بـ (على) كان معناها قبول التوبة.

التفسير: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ أي اذكر يا محمد لقومك حين قلنا للملائكة ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ لِأَدَمَ لِأَدَمَ﴾ أي سجدود تحية وتعظيم لا سجدود عبادة ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ أي سجدوا جميعًا له غير إبليس ﴿إِبْنِ وَاسْتَكْبَرَ﴾ أي امتنع مما أمر به وتكبر عنه ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي صار بإبائه واستكباره من الكافرين حيث استقبح أمر الله بالسجود لآدم ﴿وَقُلْنَا يَتَّادِمُ أَسْكُنْ أَنْتَ

وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴿١﴾ أَي اسكن في جنة الخلد مع زوجك حواء ﴿وَكَلَّا مِنْهَا رَعْدًا﴾ ﴿٢﴾ أي كلا من ثمار الجنة أكلًا رعدًا واسعًا ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أي من أي مكان في الجنة أردتما الأكل فيه ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ أي لا تأكلا من هذه الشجرة. قال ابن عباس: هي الكرمة ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي فتصيرا من الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أي أوقعهما في الزلّة بسببها وأغواهما بالأكل منها هذا إذا كان الضمير عائداً إلى الشجرة، أما إذا كان عائداً إلى الجنة فيكون المعنى أبعدهما وحولهما من الجنة^(١) ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أي من نعيم الجنة ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾ أي اهبطوا من الجنة إلى الأرض والخطاب لآدم وحواء وإبليس ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي الشيطان عدو لكم فكونوا أعداء له كقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي لكم في الدنيا موضع استقرار بالإقامة فيها ﴿وَمَتَّعُ إِلَى حِينٍ﴾ أي تمتع بنعيمها إلى وقت انقضاء آجالكم ﴿فَلَنَلَقَّ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ﴾ أي استقبل آدم دعوات من ربه ألهمه إياها فدعاه بها وهذه الكلمات مفسرة في موطن آخر في سورة الأعراف ﴿قَالَ رَبُّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ الآية^(٢) ﴿فَنَابَ عَلَيْهِ﴾ أي قبل ربه توبته ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي إن الله كثير القبول للتوبة، واسع الرحمة للعباد ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ كرر الأمر بالهبوط للتأكيد وليبان أن إقامة آدم وذريته في الأرض لا في الجنة ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْهُ هُدًى﴾ أي رسول أبعته لكم، وكتاب أنزله عليكم ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ أي من آمن بي وعمل بطاعتي ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي لا ينالهم خوف ولا حزن في الآخرة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي جحدوا بما أنزلت وبما أرسلت ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي هم مخلدون في الجحيم. أعادنا الله منها.

البلاغة: أولاً: صيغة الجمع ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ للتعظيم، وهي معطوفة على قوله ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ [البقرة: ٣٠] وفيه إلتفات من الغائب إلى المتكلم لتربية المهابة وإظهار الجلالة.

ثانياً: أفادت الفاء في قوله: ﴿فَسَجَدُوا﴾ أنهم سارعوا في الإمتثال ولم يتشبثوا فيه، وفي الآية إيجاز بالحذف، أي: فسجدوا له وكذلك ﴿أَبْنَى﴾ مفعوله محذوف أي أبى السجود.

ثالثاً: قوله ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ المنهي عنه هو الأكل من ثمار الشجرة، وتعليق النهي بالقرب منها ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ لقصد المبالغة في النهي عن الأكل، إذ النهي عن القرب نهي عن الفعل بطريق أبلغ كقوله: تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ﴾ [الإسراء: ٣٢] فنهي عن القرب من الزنى ليقطع الوسيلة إلى ارتكابه.

رابعاً: التعبير بقوله: ﴿مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أبلغ في الدلالة على فخامة الخيرات مما لو قيل: من

(١) وهذا ما ذهب إليه السيوطي والمحلي في «تفسير الجلالين»، والأول اختيار «الطبري».

(٢) (ش): وتماها: ﴿قَالَ رَبُّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]

النعيم أو الجنة، فإن من أساليب البلاغة في الدلالة على عظم الشيء أن يعبر عنه بلفظ مبهم نحو ﴿مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ لتذهب نفس السامع في تصور عظمتة وكماله إلى أقصى ما يمكنها أن تذهب إليه.

خامساً: ﴿التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ من صيغ المبالغة أي كثير التوبة واسع الرحمة.

الفوائد الأولى: كيف يصح السجود لغير الله؟ والجواب: أن سجود الملائكة لآدم كان للتحية وكان سجود تعظيم وتكريم لا سجود صلاة وعبادة، قال الزمخشري: السجود لله تعالى على سبيل العبادة، ولغيره على وجه التكرمة كما سجدت الملائكة لآدم، ويعقوب وأبناؤه ليوسف^(١).

الثانية: قال بعض العارفين: سابق العناية لا يؤثر فيه حدوث الجنانية، ولا يحط عن رتبة الولاية، فمخالفة آدم التي أوجبت له الإخراج من دار الكرامة لم تخرجه عن حظيرة القدس، ولم تسلبه رتبة الخلافة، بل أجزل الله له في العطية فقال: ﴿ثُمَّ اجْعَلْنَاهُ رَبًّا﴾ [طه: ١٢٢] وَقَالَ الشَّاعِرُ:
وَإِذَا الْحَبِيبُ أَتَى بِذَنْبٍ وَاحِدٍ جَاءَتْ مَحَاسِنُهُ بِأَلْفِ شَفِيعٍ^(٢)

الثالثة: هل كان إبليس من الملائكة؟ الجواب: اختلف المفسرون على قولين: ذهب بعضهم إلى أنه من الملائكة بدليل الاستثناء ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ وقال آخرون: الاستثناء منقطع وإبليس من الجن وليس من الملائكة وإليه ذهب الحسن وقتادة واختاره الزمخشري، قال الحسن البصري: لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين، ونحن نرجح القول الثاني للأدلة الآتية:
١ - الملائكة منزهون عن المعصية ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [التحریم: ٦] وإبليس قد عصى أمر ربه.

٢ - الملائكة خلقت من نور وإبليس خلق من نار فطبيعتهما مختلفة.

٣ - الملائكة لا ذرية لهم وإبليس له ذرية ﴿أَفْتَخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ [الكهف: ٥٠] ؟

٤ - النص الصريح الواضح في سورة الكهف على أنه من الجن وهو قوله تعالى: ﴿إِلَّا لَا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ﴾ [الآية: ٥٠] وكفى به حجة وبرهاناً^(٣).

(١) «الكشاف» ٩٥ / ١ .

(٢) «البحر المحيط» ١ / ١٤١ .

(ش): كيف يُستدلُّ بقصة آدم على أن المعاصي لا تؤثر في الولاية؟ وقد قال تعالى: ﴿لَا يَنْبَغُ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿ [يونس: ٦٢، ٦٣] إن آدم ﷺ قد تاب من معصيته والتائب من الذنب كمن لا ذنب له. إن كلام المؤلف قد يُفهم منه أن الولي تسقط عنه التكليف. (٣) انظر التحقيق المفصل في كتابنا «النبوة والأنبياء».

قال الله تعالى:

يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا اذْكُرُوْا اَللّٰهَ الَّذِيْ اَنْعَمْتَ عَلَيْكُمْ وَاَوْفُوْا بِعَهْدِيْ اُوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَاِيْنِيْ فَاَرْهَبُوْنَ ﴿٤٠﴾ وَاٰمِنُوْا بِمَا اَنْزَلْتُ مُّصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُوْنُوْا اَوَّلَ كٰفِرٍ بِهٖ وَلَا تَشْتَرُوْا بِاٰيٰتِيْ ثَمَنًا قَلِيْلًا وَاِيْنِيْ فَاَنْقُوْنَ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوْا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنْهُمَا الْحَقَّ وَاَنْتُمْ تَعْمُوْنَ ﴿٤٢﴾ وَاَقِيْمُوا الصَّلٰوةَ وَاَتُوْا الزَّكٰوةَ وَاَرْكَعُوْا مَعَ الرّٰكِعِيْنَ ﴿٤٣﴾

المناسبة: من بداية هذه الآية إلى الآية (١٤٢) ورد الكلام عن بني إسرائيل، وقد تحدث القرآن الكريم بالإسهاب عنهم فيما يقرب من جزء كامل، وذلك يدل على عناية القرآن بكشف حقائق اليهود، وإظهار ما انطوت عليه نفوسهم الشريرة من خبث وكيد وتدمير حتى يحذرهم المسلمون، أما وجه المناسبة فإن الله تعالى لما دعا البشر إلى عبادته وتوحيده، وأقام للناس الحجج الواضحة على وحدانيته ووجوده، ثم ذكرهم بما أنعم به على أبيهم آدم عليه السلام، دعا بني إسرائيل خصوصاً - وهم اليهود - إلى الإيمان بخاتم الرسل وتصديقه فيما جاء به عن الله، لأنهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة، وقد تفنن في مخاطبتهم فتارة دعاهم بالملاطفة، وتارة بالتخويف، وتارة بالتذكير بالنعم عليهم وعلى آبائهم، وأخرى بإقامة الحجة والتوبيخ على سوء أعمالهم وهكذا انتقل من التذكير بالنعم العامة على البشرية في تكريم أبي الإنسانية، إلى التذكير بالنعم الخاصة على بني إسرائيل.

اللغة: اسم أعجمي ومعناه: عبد الله وهو اسم يعقوب عليه السلام، وقد صرح به في سورة آل عمران ﴿لَا مَحْرَمَ إِسْرَءِيلَ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [آل عمران: ٩٣] الآية ﴿وَأَوْفُوا﴾ الوفاء: الإتيان بالشيء على التمام والكمال، يقال أوفى ووفى أي أداه وافيًا تامًا. ﴿تَلْبِسُوا﴾ اللبس: الخلط تقول العرب: لبست الشيء بالشيء خلطته، واللبس به إختلط، قال تعالى ﴿وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَّا يَلَبْسُونَ﴾ [الأنعام: ٩] وفي «المصباح»: لبس الثوب من باب تعب لبسًا بضم اللام، ولبست عليه الأمر لبسًا من باب ضرب خلطته، واللبس الأمر: أشكل. ﴿الزَّكَاةَ﴾ مشتقة من زكاه الزرع يزكو أي: نما لأن إخراجها يجلب البركة، أي هي من الزكاة أي الطهارة لأنها تطهر المال قال تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٦].

التفسير: ﴿يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا اذْكُرُوْا اَللّٰهَ الَّذِيْ اَنْعَمْتَ عَلَيْكُمْ﴾ اذكروا ما أنعمت به عليكم وعلى آبائكم من نعم لا تعد ولا تحصى ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِيْ﴾ أي أدوا ما عاهدتموني عليه من الإيمان والطاعة ﴿أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ﴾ بما عاهدتكم عليه من حسن الثواب ﴿وَاِيْنِيْ فَاَرْهَبُوْنَ﴾ أي اخشوني دون غيري ﴿وَمَا اَنْزَلْتُ﴾ من القرآن العظيم ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أي من التوراة في أمور التوحيد والنبوة ﴿وَلَا تَكُوْنُوْا اَوَّلَ كٰفِرٍ بِهٖ﴾ أي أول من كفر من أهل الكتاب فحقكم أن تكونوا أول من آمن ﴿وَلَا تَشْتَرُوْا بِاٰيٰتِيْ ثَمَنًا قَلِيْلًا﴾ أي لا تستبدلوا

بآياتي البينات التي أنزلتها عليكم حطام الدنيا الفانية ﴿وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ﴾ أي خافون دون غيري ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ أي لا تخلطوا الحق المنزل من الله بالباطل الذي تخترعونه، ولا تحرفوا ما في التوراة بالبهتان الذي تفترونه ﴿وَتَكْنُهِوْا الْحَقَّ﴾ أي ولا تخفوا ما في كتابكم من أوصاف محمد عليه الصلاة والسلام ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق أو حال كونكم عالمين بضرر الكتمان ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي أدوا ما وجب عليكم من الصلاة والزكاة، وصلوا مع المصلين بالجماعة، أو مع أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام.

البلاغة: أولاً: في إضافة النعمة إليه سبحانه ﴿نَعِمَتِي﴾ إشارة إلى عظم قدرها، وسعة برّها، وحسن موقعها لأن الإضافة تفيد التشريف كقوله: «بيت الله» و ﴿نَافَةُ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣].

ثانياً: قوله ﴿وَلَا تَشْرَوْا بِمَا بَيْنِي﴾ الشراء هنا ليس حقيقياً بل هو على سبيل الاستعارة كما تقدم في قوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة: ١٦].

ثالثاً: تكرير الحق في قوله: ﴿تَلْبِسُوا الْحَقَّ﴾ وقوله: ﴿وَتَكْنُهِوْا الْحَقَّ﴾ لزيادة تقبيح المنهي عنه إذ في التصريح ما ليس في التأكيد ويسمى هذا الإطناب أضعف من سواه.

رابعاً: قوله ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ هو من باب تسمية الكل باسم الجزء، أي: صلوا مع المصلين أطلق الركوع وأراد به الصلاة ففيه مجاز مرسل.

خامساً: ﴿وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ﴾ و ﴿وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ﴾ يفيد الاختصاص.

فائدة: قال بعض العارفين: عبيد النعم كثيرون، وعبيد المنعم قليلون، فالله تعالى ذكر بني إسرائيل بنعمه عليهم، حتى يعرفوا نعمة المنعم فقال: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِي﴾ وأما أمة محمد ﷺ فقد ذكرهم بالمنعم فقال ﴿فَأَذْكُرُوا فِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] ليتعرفوا من المنعم على النعمة وشتان بين الأمرين.

قال الله تعالى:

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَبْنِي إِسْرَاءَ بِلْ أَذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

اللغة: ﴿بِالْبِرِّ﴾ البر: سعة الخير والمعروف، ومنه البرُّ والبرية للسعة، وهو اسم جامع لأعمال الخير، ومنه بر الوالدين وهو طاعتهما وفي الحديث «البرُّ لا يبلى والذنوب لا ينسى»^(١) ﴿وَتَنْسَوْنَ﴾ : تتركون والنسيان يأتي بمعنى الترك كقوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] وهو المراد هنا ويأتي بمعنى ذهاب الشيء من الذاكرة كقوله: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه: ١١٥]

(١) (ش): أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٧٩) وابن الجوزي في «ذم الهوى» وضعفه الألباني.

﴿تَتْلُونَ﴾: تقرأون وتدرسون ﴿الْخَاشِعِينَ﴾ الخاشع: المتواضع وأصله من الاستكانة والذل قال الزجاج: الخاشع الذي يرى أثر الذل والخشوع عليه، وخشعت الأصوات: سكنت^(١) ﴿يُظَنُّونَ﴾ الظنُّ هنا بمعنى اليقين لا الشك، وهو من الأضداد قال أبو عبيدة: العرب تقول لليقين ظنٌّ^(٢)، وللشك ظنٌ وقد كثر استعمال الظن بمعنى اليقين ومنه ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ﴾ [الحاقة: ٢٠] ﴿فَطَنُوا أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣]، ﴿شَفَعَةٌ﴾ الشفاعة مأخوذة من الشفع ضد الوتر، وهي ضم غيرك إلى جاهك ووسيلتك ولهذا سميت شفاعة، فهي إذاً إظهارٌ لمنزلة الشفيع عند المشفع ﴿عَدْلٌ﴾ بفتح العين فداء وبكسرهما معناه: المثل يقال: عدلٌ وعديل للذي يماثلك.

المناسبة: لا تزال الآيات تتحدث عن بني إسرائيل، وفي هذه الآيات ذمٌ وتوبيخ لهم على سوء صنيعهم، حيث كانوا يأمرُونَ بالخير ولا يفعلونه، ويدعون الناس إلى الهدى والرشاد ولا يتبعونه.

سَبَبُ النَّزُولِ: نزلت هذه الآية في بعض علماء اليهود، كانوا يقولون لأقربائهم الذين أسلموا: اثبتوا على دين محمد فإنه حق، فكانوا يأمرُونَ الناس بالإيمان ولا يفعلونه^(٣).

التفسير: يخاطب الله أحبار اليهود فيقول لهم على سبيل التقرير والتوبيخ: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ أي أأدعون الناس إلى الخير وإلى الإيمان بمحمد ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي تتركونها فلا تؤمنون ولا تفعلون الخير ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أي حال كونكم تقرأون التوراة وفيها صفة ونعت محمد عليه الصلاة والسلام ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تفطنون وتفقهون أن ذلك قبيح فترجعون عنه؟! ثم يبين لهم تعالى طريق التغلب على الأهواء والشهوات، والتخلص من حب الرياسة وسلطان المال فقال: ﴿وَاسْتَعِينُوا﴾ أي اطلبوا المعونة على أموركم كلها ﴿بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ أي بتحمل ما يشق على النفس من تكاليف شرعية، وبالصلاة التي هي عماد الدين ﴿وَأَنهَا﴾ أي الصلاة ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ أي شاقة وثقيلة ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ أي المتواضعين المستكينين الذين صفت نفوسهم لله ﴿الَّذِينَ يُظَنُّونَ﴾ أي يعتقدون اعتقاداً جازماً لا يخالجه شك ﴿أَنَّهُمْ مُّلتَقُوا رَبَّهُمْ﴾ أي سيلقون ربهم يوم البعث فيحاسبهم على أعمالهم ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أي معادهم إليه يوم الدين. ثم ذكرهم تعالى بنعمه وآلائه العديدة مرة أخرى فقال: ﴿يَبْنَیْ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ بالشكر عليها بطاعتي ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُ آبَاءَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي عالمي زمانهم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وجعلهم سادة وملوكاً،

(١) «القرطبي» ١/ ٣٧٤.

(٢) «مجاز القرآن» ص ٣٩.

(٣) الصاوي ٢٦/ ١ و«القرطبي» ١/ ٣٦٥. (ش): موضوع ذكره الواحدي -معلقاً- في «أسباب النزول».

وتفضيل الآباء شرفٌ للأبناء ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي خافوا ذلك اليوم الرهيب الذي لا تقضي فيه نفسٌ عن أخرى شيئاً من الحقوق ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ أي لا تقبل شفاعاة في نفس كافرة بالله أبداً ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي لا يقبل منها فداء ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي ليس لهم من يمنعهم وينجيهم من عذاب الله.

البلاغة: أولاً: ﴿اتَّامُرُونَ﴾ الاستفهام خرج عن حقيقته إلى معنى التوبيخ والتقريع.

ثانياً: أتى بالمضارع ﴿اتَّامُرُونَ﴾ وإن كان قد وقع ذلك منهم لأن صيغة المضارع تفيد التجدد والحدوث، وعبر عن ترك فعلهم بالنسيان ﴿وَتَنَسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ مبالغة في الترك فكأنه لا يجري لهم على بال، وعلقه بالأنفس توكيداً للمبالغة في الغفلة المفرطة، ولا يخفى ما في الجملة الحالية ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ من التبكيت والتقريع والتوبيخ.

ثالثاً: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ هو من باب عطف الخاص على العام لبيان الكمال، لأن النعمة اندرج تحتها التفضيل المذكور، فلما قال ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾ [البقرة: ٤٠] عمم جميع النعم فلما عطف ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ كان من باب عطف الخاص على العام.

رابعاً: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ التنكير للتهويل أي يوماً شديداً الهول، وتنكير النفس ﴿نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ﴾ ليفيد العموم والإقناط الكلي.

الفوائد: الفائدة الأولى: قال «القرطبي»: إنما خص الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات تنويهاً بذكرها وقد كان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه (أغمه) أمرٌ فرع إلى الصلاة^(١)، وكان يقول: «أرحنا بها يا بلال»^(٢).

الثانية: قال علي كرم الله وجهه: «قصم ظهري رجلاً: عالم مهتك، وجاهل متنسك» ومن دعا غيره إلى الهدى ولم يعمل به كان كالسراج يضيء للناس ويحرق نفسه قال الشاعر:

فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمٌ فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْ غِيَّهَا
فَهُنَاكَ يُقْبَلُ إِنْ وَعَظْتَ وَيُقْتَدَى فَبِأَبْدَأُ بِنَفْسِكَ فَانْهَاجَ عَنْ غِيَّهَا

وقال أبو العتاهية:

وَصَفْتُ التَّقَى حَتَّى كَأَنَّكَ ذُو تَقَى وَرِيحُ الْخَطَايَا مِنْ ثِيَابِكَ تَسْطَعُ

وقال آخر:

وَعَبْرُ تَقِيٍّ يَأْمُرُ النَّاسَ بِالتَّقَى طَبِيبٌ يُدَاوِي النَّاسَ وَهُوَ عَلِيلٌ

(١) (ش): عَنْ حُدَيْفَةَ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى (رواه أبو داود وحسنه الألباني).

(٢) (ش): عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ قَالَ رَجُلٌ لِيَتْنِي صَلَّيْتُ فَاسْتَرَحْتُ فَكَأَنَّهُمْ عَابُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَا بِلَالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرْحَنَاهَا». (رواه أبو داود، وصححه الألباني).

قال الله تعالى:

وَإِذْ جَعَلْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْنَا الْعَجَلَ مِنَ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَقَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِلَهُكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعَجَلَ فَتَوَبُّوا إِلَى بَارِيكُمْ فَإِنَّكُمْ أَنْفُسُكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

المناسبة: لما قدّم تعالى ذكر نعمه على بني إسرائيل إجمالاً، بيّن بعد ذلك أقسام تلك النعم على سبيل التفصيل؛ ليكون أبلغ في التذكير وأدعى إلى الشكر، فكانه قال: اذكروا نعمتي، واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون، واذكروا إذ فرقنا بكم البحر. . إلى آخره. وكل هذه النعم تستدعي شكر المنعم جل وعلا لا كفرانه وعصيانه.

اللغة: ﴿آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أصل «آل» أهل ولذلك يصغر بأهيل فأبدلت هاؤه ألفاً، وخُصَّ استعماله بأولي الخطر والشأن كالملوك وأشباههم، فلا يقال آل الإسكاف والحجام، ﴿فِرْعَوْنَ﴾ علم لمن ملك العمالة كقيصر لملك الروم وكسرى ملك الفرس^(١)، ولُعْتُو الفراعنة اشتقوا (تَفَرَّعْنَ) إذا عتا وتجر^(٢) ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يذيقونكم من سامه إذا أذاقه وأولاه قال «الطبري»: يوردونكم ويذيقونكم. ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾ يستبقون الإناث على قيد الحياة ﴿بَلَاءٌ﴾ اختبار ومحنة، ويستعمل في الخير والشر كما قال تعالى ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] ﴿فَرَقْنَا﴾ الفرق: الفصل والتمييز ومنه ﴿وَفَرَّقْنَا فِرْقَتَهُ﴾ [الإسراء: ١٠٦] أي فصلناه وميزناه بالبيان ﴿بَارِيكُمْ﴾ الباري هو الخالق للشيء على غير مثال سابق، والبرية: الخلق.

التفسير: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَاكُمْ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم حين نجيت آباءكم ﴿مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي من بطش فرعون وأشياعه العتاة، والخطاب للأبناء المعاصرين للنبي ﷺ إلا أن النعمة على الآباء نعمة على الأبناء ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي يولونكم ويذيقونكم أشد العذاب وأفظعه ﴿يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ أي يذبحون الذكور من الأولاد ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أي يستبقون الإناث على قيد الحياة للخدمة ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي فيما ذكر من العذاب المهين من الذبح والاستحياء، محنة واختبار عظيم لكم من جهته تعالى بتسليطهم

(١) (ش): قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٥٨): «وَفِرْعَوْنُ عَلِمَ عَلَى كُلِّ مَنْ مَلَكَ مِصْرَ، كَافِرًا مِنَ الْعَمَالِيْقِ وَغَيْرِهِمْ، كَمَا أَنَّ قَيْصَرَ عَلِمَ عَلَى كُلِّ مَنْ مَلَكَ الرُّومَ مَعَ الشَّامِ كَافِرًا، وَكِسْرَى لِكُلِّ مَنْ مَلَكَ الْفُرْسَ، وَتَبَعَ لِمَنْ مَلَكَ الْيَمَنَ كَافِرًا، وَالنَّجَاشِيُّ لِمَنْ مَلَكَ الْحَبَشَةَ».

(٢) «الكشاف» ١/ ١٠٢.

عليكم ليتميز البر من الفاجر ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ أي اذكروا أيضًا إذ فلقنا لكم البحر حتى ظهرت لكم الأرض اليابسة فمشيتم عليها ﴿فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أي أنجيناكم من الغرق وأغرقنا فرعون وقومه ﴿وَأَنتُمْ تُنْظَرُونَ﴾ أي وأنتم تشاهدون ذلك فقد كان آية باهرة من آيات الله في إنجاء أوليائه وإهلاك أعدائه ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ أي وعدنا موسى أن نعطيهِ التوراة بعد أربعين ليلة وكان ذلك بعد نجاتكم وإهلاك فرعون ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ أي عبدتم العجل ﴿مِّنْ بَعْدِهِ﴾ أي بعد غيبته عنكم حين ذهب لميقات ربه ﴿وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي معتدون في تلك العبادة ظالمون لأنفسكم ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ أي تجاوزنا عن تلك الجريمة الشنيعة ﴿مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي بعد ذلك الاتخاذ المتناهي في القبح ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لكي تشكروا نعمة الله عليكم وتستمروا بعد ذلك على الطاعة ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ أي واذكروا نعمتي أيضًا حين أعطيت موسى التوراة الفارقة بين الحق والباطل وأيدته بالمعجزات ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي لكي تهتدوا بالتدبر فيها والعمل بما فيها من أحكام.

ثم بين تعالى كيفية وقوع العفو المذكور بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَهْدِيكُمْ إِلَىٰ طَرِيقٍ﴾ أي اذكروا حين قال موسى لقومه بعدما رجع من الموعد الذي وعده ربه فرآهم قد عبدوا العجل يا قوم لقد ظلمتم أنفسكم ﴿بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ أي بعبادتكم للعجل ﴿فَتَوَبُّوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ﴾ أي توبوا إلى من خلقكم بريئاً^(١) من العيب والنقصان^(٢) ﴿فَأَقْضُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي ليقتل البريء منكم المجرم ﴿ذَلِكَ﴾ أي القتل ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾ أي رضاكم بحكم الله ونزولكم عند أمره خير لكم عند الخالق العظيم ﴿فَنَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي قبل توبتكم ﴿إِنَّهُ هُوَ الْتَوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي عظيم المغفرة واسع التوبة.

البلاغة: أولاً: قال ابن جزي: ﴿يَسْأَلُونَكَ سَاءَ الْعَذَابِ﴾ أي يلزمونهم به وهو استعارة من السؤم في البيع وفسر سوء العذاب بقوله ﴿يَذْهَبُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ ولذلك لم يعطفه هنا.

ثانياً: التنكير في كل من ﴿بَلَاءٌ﴾ و ﴿عَظِيمٌ﴾ للتفخيم والتهويل.

ثالثاً: صيغة المفاعلة في قوله ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا﴾ ليست على بابها لأنها لا تفيد المشاركة من الطرفين، وإنما هي بمعنى الثلاثي ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا﴾.

رابعاً: قال أبو السعود: ﴿فَتَوَبُّوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ﴾ التعرض بذكر البارئ للإشعار بأنهم بلغوا من الجهالة أقصاها ومن الغواية انتهاها، حيث تركوا عبادة العليم الحكيم، الذي خلقهم بلطف حكمته، إلى عبادة البقر الذي هو مثل في الغباوة^(٣).

(١) (ش): الصواب «بريئين» أو «برآء».

(٢) (ش): الخالق من يوجد الشيء على غير مثال سابق، والبارئ من يوجد الشيء بريئاً من العيب.

(٣) أبو السعود ١/ ٨١.

الفوائد الأولى: العطف في قوله: ﴿الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ هو من باب عطف الصفات بعضها على بعض، لأن الكتاب هو التوراة والفرقان هو التوراة أيضاً، وحسن العطف لكون معناه أنه آتاه جامعاً بين كونه كتاباً منزلاً وفرقاً يفرق بين الحق والباطل^(١).

الثانية: سبب تقتيل الذكور من بني إسرائيل ما رواه المفسرون أن فرعون رأى في منامه كأن نارا أقبلت من بيت المقدس وأحاطت بمصر، وأحرقت كل قبضي بها ولم تتعرض لبني إسرائيل فهاله ذلك وسأل الكهنة عن رؤياه فقالوا: يولد في بني إسرائيل غلام يكون هلاكك وزوال ملكك على يده، فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد في بني إسرائيل.

الثالثة: قال القشيري: من صبر في الله على قضاء الله، عوّضه الله صحبة أوليائه، هؤلاء بنو إسرائيل، صبروا على مقاساة الضر من فرعون وقومه، فجعل منهم أنبياء، وجعل منهم ملوكاً، وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين^(٢).

قال الله تعالى:

وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ تُشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرَ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَتَرِيزُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

المناسبة: بعد أن ذكرهم تعالى بالنعم، بين لونا من ألوان طغيانهم وجحودهم، وتبديلهم لأوامر الله، وهم مع الكفر والعصيان، يعاملون باللطف والإحسان، فما أقبحهم من أمة وما أخزاهم! قال «الطبري»: لما تاب بنو إسرائيل من عبادة العجل أمر الله تعالى موسى أن يختار من قومه رجالاً يعتذرون إليه من عبادتهم العجل، فاختار موسى سبعين رجلاً من خيارهم كما قال تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥] وقال لهم: صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم ففعلوا، وخرج بهم إلى «طور سيناء» فقالوا لموسى: اطلب لنا أن نسمع كلام ربنا فقال: أفعل، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً، فسمعوا الله يكلم موسى يأمره وينهاه، فلما انكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم فقالوا لموسى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾^(٣).

(١) قاله الزجاج واختاره الزمخشري.

(٢) «البحر المحيط» ١/ ١٩٤.

(٣) انظر «مختصر ابن كثير» ١/ ٦٦.

اللغة: ﴿جَهْرَةً﴾ علانية، وأصل الجهر: الظهور، ومن؛ الجهر بالقراءة والجهر بالمعاصي يعني المظاهرة بها، تقول: رأيت الأمير جهاًراً وجهرة أي غير مستتر بشيء، وقال ابن عباس: جهرة عياناً. ﴿الصَّعِقَةُ﴾ صيحة العذاب أو هي نار محرقة ﴿بَعَثْنَاكُمْ﴾ أحييناكم. قال «الطبري»: وأصل البعث: إثارة الشيء من محله ﴿الْغَمَامَ﴾ جمع غمامة كسحابة وسحاب وزناً ومعنى، لأنها تغم السماء أي تسترها، وكل مغطى فهو مغموم، وغمّ الهلال: إذا غطاه الغيم فلم ير ﴿حِطَّةٌ﴾: مصدر من حطّ عنا ذنوبنا^(١)، وهي كلمة استغفار ومعناها: اغفر خطايانا. ﴿رِجْزًا﴾ عذاباً ومنه ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ﴾ [الأعراف: ١٣٤] أي: العذاب! ﴿يَفْسُقُونَ﴾ الفسق: الخروج عن الطاعة وقد تقدم.

التفسير: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين خرجتم مع موسى لتعبدوا إلى الله من عبادة العجل فقلتم ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ أي لن نصدق لك بأن ما نسمعه كلام الله ﴿حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي: حتى نرى الله علانية ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ﴾ أي أرسل الله عليهم ناراً من السماء فأحرقهم ﴿وَأَنْتُمْ تُنْظَرُونَ﴾ أي ما حلّ بكم. ثم لما ماتوا قام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل وقد أهلكت خيارهم، وما زال يدعو ربه حتى أحياهم قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ أي أحييناكم بعد أن مكثتم ميتين يوماً وليلة، فقاموا وعاشوا ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لتشكروا الله على إنعامه عليكم بالبعث بعد الموت.

ثم ذكرهم تعالى بنعمته عليهم وهم في التيه لما امتنعوا من دخول مدينة الجبارين وقتالهم وقالوا لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا﴾ [المائدة: ٢٤] فعوقبوا على ذلك بالضياح أربعين سنة يتيهون في الأرض فقال تعالى: ﴿وَوَلَلْنَا عَنْكُمْ الْغَمَامَ﴾ أي سترناكم بالسحاب من حر الشمس وجعلناه عليكم كالظلة ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ﴾ أي أنعمنا عليكم بأنواع من الطعام والشراب من غير كد ولا تعب، والمَنَّاءُ كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه^(٢)، والسَّلْوَى طير يشبه السَّمَانَى لذيذ الطعم^(٣) ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي وكلنا لهم: كلوا من لذائذ نعم الله ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي إنهم كفروا هذه النعم الجليلة، وما ظلمونا ولكن ظلموا أنفسهم، لأن وبال العصيان راجع عليهم ﴿وَإِذْ قُلْنَا أَذْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ أي واذكروا أيضاً نعمتي عليكم حين قلنا لكم بعد خروجكم من التيه، ادخلوا بيت المقدس ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ أي كلوا منها أكلاً واسعاً هنيئاً ﴿وَادْخُلُوا أَبْوَاعَ

(١) «مجاز القرآن» ١/ ٤١.

(٢) هو قول الربيع بن أنس.

(٣) قول جمهور المفسرين.

سُجَّدًا ﴿١﴾ أي وادخلوا باب القرية ساجدين لله شكرًا على خلاصكم من التيه ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي قولوا يا ربنا: حطَّ عنا ذنوبنا واغفر لنا خطايانا ﴿تَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾ أي نمح ذنوبكم ونكفر سيئاتكم ﴿وَسَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي نزيد من أحسن إحسانًا، بالثواب العظيم، والأجر الجزيل. ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي غيرَ الظالمون أمر الله فقالوا ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ حيث دخلوا يزحفون على أستاههم أعني «أدبارهم» وقالوا على سبيل الاستهزاء: «حبة في شعيرة» وسخروا من أوامر الله ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي أنزلنا عليهم طاعونًا وبلاءً ﴿يَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب عصيانهم وخروجهم عن طاعة الله، روي أنه مات بالطاعون في ساعة واحدة منهم سبعون ألفًا.

البلاغة: أولاً: إنما قيّد البعث بعد الموت ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ لزيادة التأكيد على أنه موت حقيقي، ولدفع ما عساه يتوهم أن بعثهم كان بعد إغماء أو بعد نوم.

ثانيًا: في الآية إيجاز بالحذف في قوله: ﴿كُلُوا﴾ أي قلنا لهم كلوا وفي قوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ تقديره فظلموا أنفسهم بأن كفروا وما ظلمونا بذلك دل على هذا الحذف قوله: ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ والجمع بين صيغتي الماضي والمضارع ﴿ظَلَمُونَا﴾ و﴿يَظْلِمُونَ﴾ للدلالة على تماديهم في الظلم واستمرارهم على الكفر^(١).

ثالثًا: وضع الظاهر مكان الضمير في قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولم يقل «فأنزلنا عليهم» لزيادة التقييح والمبالغة في الذم والتقريع، وتنكير ﴿رِجْزًا﴾ للتوهيل والتفخيم^(٢).

تنبيه: قال الراغب: تخصيص قوله ﴿رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ هو أن العذاب ضربان^(٣): ضَرْبٌ قد يمكن دفاعه وهو كل عذاب جاء على يد آدمي، أو من جهة المخلوقات كالهدم والغرق، وضَرْبٌ لا يمكن دفاعه بقوة آدمي كالطاعون والصاعقة والموت وهو المراد بقوله: ﴿رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾^(٤).

قال الله تعالى:

وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضْرًا وَقَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُلُّوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُّوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ لَنْ نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاجِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّنَا يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهَبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا

(١) «الفتوحات الإلهية» ٥٧ / ١ .

(٢) «إرشاد العقل السليم» ٨٣ / ١ .

(٣) (ش): ضَرْبٌ: نوع.

(٤) «محاسن التأويل» ١٣٥ / ٢ .

سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

المناسبة: لا تزال الآيات تعدد النعم على بني إسرائيل، وهذه إحدى النعم العظيمة عليهم حين كانوا في التيه، وعطشوا عطشاً شديداً كادوا يهلكون معه، فدعا موسى ربه أن يغيثهم فأوحى الله إليه أن يضرب بعصاه الحجر، فتفجرت منه عيون بقدر قبائلهم، وكانوا اثنتي عشرة قبيلة فجري لكل منهم جدول خاص، يأخذون منه حاجتهم لا يشاركهم فيه غيرهم، وكان موضوع السقيا آية باهرة ومعجزة ظاهرة لسيدنا موسى ﷺ ومع ذلك كفروا ووجدوا.

اللغة: ﴿أَسْتَسْقَى﴾ طلب السقيا لقومه لأن السين للطلب مثل: استنصر واستخبر قال أبو حيان: الإستسقاء: طلب الماء عند عدمه أو قلته، ومفعوله محذوف، أي: استسقى موسى ربه^(١). ﴿فَانْفَجَرَتْ﴾ الانفجار: الانشقاق ومنه سمي الفجر لانشقاق ضوئه، وانفجر وانبجس بمعنى واحد قال تعالى: ﴿فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، ﴿مَشَرِبَهُمْ﴾ جهة وموضع الشرب ﴿تَعْتَوُا﴾ العيث: شدة الفساد، قال: عثي يعثي: وعثا يعثو إذا أفسد فهو عاث^(٢)، قال «الطبري»: معناه تطغوا وأصله شدة الإفساد ﴿وَقَوْمَهَا﴾ القوم: الثوم وقيل: الحنطة ﴿أَسْتَبْدَلُوا﴾ الاستبدال: ترك شيء لآخر وأخذ غيره مكانه ﴿أَذْفُ﴾ أخس وأحقر يقال: رجل دنيء إذا كان يتتبع الخسائس ﴿الذَّلَّةُ﴾ الذل والهوان والحقارة ﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾ الفاقة^(٣) والخشوع مأخوذة من السكون لأن المسكين قليل الحركة لما به من الفقر ﴿وَبَاءُوا﴾ رجعوا وانصرفوا قال الرازي: ولا يقال: باء إلا بشر ﴿يَعْتَدُونَ﴾ الاعتداء: تجاوز الحد في كل شيء واشتهر في الظلم والمعاصي.

التفسير: ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين طلب موسى السقيا لقومه وقد عطشوا في التيه ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ أي اضرب أي حجر كان؛ يتفجر بقدرتنا العيون منه ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ أي فضرِب فتدفق الماء منه بقوة وخرجت منه اثنتا عشرة عيناً بقدر قبائلهم ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشَرِبَهُمْ﴾ أي علمت كل قبيلة مكان شربها لئلا يتنازعا ﴿كُلُّوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ أي قلنا لهم: كلوا من المن والسلوى، واشربوا من هذا الماء، من غير كد منكم ولا تعب، بل هو من خالص إناعام الله ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ﴾

(١) «البحر المحيط» ٢٢٦/١.

(٢) كذا في «المصباح».

(٣) (ش): فاقة؛ فقر؛ حاجة؛ ضيق الحال.

مُفْسِدِينَ ﴿١﴾ أَي وَلَا تَطْغَوْا فِي الْأَرْضِ بِأَنْوَاعِ الْبَغْيِ وَالْفُسَادِ. ﴿٢﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسِي ﴿٣﴾ أَي اذْكُرُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ قُلْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ مُوسَى وَأَنْتُمْ فِي الصَّحْرَاءِ تَأْكُلُونَ مِنَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى: ﴿٤﴾ لَنْ نَصِيرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴿٥﴾ أَي عَلَى نَوْعٍ وَاحِدٍ مِنَ الطَّعَامِ وَهُوَ الْمَنُّ وَالسَّلْوَى ﴿٦﴾ فَادْعُ لِنَارِكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْثِي الْأَرْضُ ﴿٧﴾ أَي ادْعُ اللَّهُ أَنْ يَرْزُقَنَا غَيْرَ ذَلِكَ الطَّعَامِ فَقَدْ سَمْنَا الْمَنَّ وَالسَّلْوَى وَكَرِهْنَاهُ وَنَرِيدُ مَا تَخْرُجُهُ الْأَرْضُ مِنَ الْحَبُوبِ وَالْبَقُولِ ﴿٨﴾ مِنْ بَقْلِهَا ﴿٩﴾ مِنْ خَضَرَتِهَا كَالنَّعْنَاعِ وَالكَرْفَسِ وَالْكُرَّاثِ ﴿١٠﴾ وَفَشَائِبِهَا ﴿١١﴾ يَعْنِي الْقَتَّةَ الَّتِي تَشَبَّهُ الْخِيَارَ ﴿١٢﴾ وَفُومَهَا ﴿١٣﴾ أَي الثُّومَ ﴿١٤﴾ وَعَدَسِيهَا وَبَصَلِيهَا ﴿١٥﴾ أَي الْعَدَسَ وَالْبَصَلَ الْمَعْرُوفِينَ ﴿١٦﴾ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴿١٧﴾ أَي قَالَ لَهُمْ مُوسَى مِنْكَرًا عَلَيْهِمْ: وَيَحْكُمُ أَتَسْتَبْدِلُونَ الْخَسِيسَ بِالْغَنِيِّسِ! وَتَفْضِلُونَ الْبَصَلَ وَالْبَقْلَ وَالثُّومَ عَلَى الْمَنِّ وَالسَّلْوَى؟ ﴿١٨﴾ أَهَيْطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَآسًا أَتُمْ ﴿١٩﴾ أَي ادْخُلُوا مِصْرًا مِنَ الْأَمْصَارِ وَبِلَدًا مِنَ الْبُلْدَانِ أَيَّا كَانَ لَتَجِدُوا فِيهِ مِثْلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْهًيًا عَلَى ضَلَالِهِمْ وَفُسَادِهِمْ وَبَغْيِهِمْ وَعَدْوَانِهِمْ: ﴿٢٠﴾ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴿٢١﴾ أَي لَزِمَهُمُ الذَّلُّ وَالْهَوَانُ وَضُرِبَ عَلَيْهِمُ الصَّغَارُ وَالْخِزْيُ الْأَبْدِيُّ الَّذِي لَا يَفَارِقُهُمْ مَدَى الْحَيَاةِ ﴿٢٢﴾ وَبَاءُوا بِغَضَبِ اللَّهِ ﴿٢٣﴾ أَي انْصَرَفُوا وَرَجَعُوا بِالْغَضَبِ وَالسَّخَطِ الشَّدِيدِ مِنَ اللَّهِ ﴿٢٤﴾ ذَلِكَ ﴿٢٥﴾ أَي مَا نَالُوهُ مِنَ الذَّلِّ وَالْهَوَانِ وَالسَّخَطِ وَالْغَضَبِ بِسَبَبِ مَا اقْتَرَفُوهُ مِنَ الْجَرَائِمِ الشَّنِيعَةِ ﴿٢٦﴾ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴿٢٧﴾ أَي بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ جَحُودًا وَاسْتِكْبَارًا، وَقَتْلِهِمْ رُسُلَ اللَّهِ ظُلْمًا وَعَدْوَانًا ﴿٢٨﴾ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٢٩﴾ أَي بِسَبَبِ عَصْيَانِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ وَتَمَرُدِهِمْ عَلَى أَحْكَامِ اللَّهِ. ثُمَّ دَعَا تَعَالَى أَصْحَابَ الْمَلَلِ وَالنَّحْلِ «الْمُؤْمِنِينَ، وَالْيَهُودَ، وَالنَّصَارَى، وَالصَّابِئِينَ» إِلَى الْإِيمَانِ الصَّادِقِ وَإِخْلَاصِ الْعَمَلِ لِلَّهِ وَسَاقَهُ بِصِيغَةِ الْخَبَرِ فَقَالَ: ﴿٣٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴿٣١﴾ الْمُؤْمِنُونَ أَتْبَاعُ مُحَمَّدٍ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هَادُوا ﴿٣٣﴾ الْيَهُودُ أَتْبَاعُ مُوسَى ﴿٣٤﴾ وَالنَّصَارَى ﴿٣٥﴾ أَتْبَاعُ عِيسَى ﴿٣٦﴾ وَالصَّابِئِينَ ﴿٣٧﴾ قَوْمٌ عَدَلُوا عَنِ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَعَبَدُوا الْمَلَائِكَةَ ﴿٣٨﴾ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿٣٩﴾ أَي مَنْ آمَنَ مِنْ هَذِهِ الطَّوَائِفِ إِيمَانًا صَادِقًا فَصَدَّقَ بِاللَّهِ، وَآيَقَنَ بِالْآخِرَةِ ﴿٤٠﴾ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴿٤١﴾ أَي عَمِلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ فِي دَارِ الدُّنْيَا ﴿٤٢﴾ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴿٤٣﴾ أَي لَهُمْ ثَوَابُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ لَا يُضِيعُ مِنْهُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴿٤٤﴾ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٥﴾ أَي لَيْسَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ خَوْفٌ فِي الْآخِرَةِ، حِينَ يَخَافُ الْكُفَّارُ مِنَ الْعِقَابِ، وَيَحْزَنُ الْمُقْصِرُونَ عَلَى تَضْيِيعِ الْعُمْرِ وَتَفْوِيتِ الثَّوَابِ ^(١).

البَلَاغَةُ: أَوَّلًا: فِي إِضَافَةِ الرِّزْقِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ﴿٤٦﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ ﴿٤٧﴾ تَعْظِيمٌ لِلْمِنَّةِ وَالْإِنْعَامِ وَإِيمَاءٌ إِلَى أَنَّهُ رِزْقٌ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ وَلَا مَشَقَّةٍ.

(١) (ش): قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (١/ ٢٨٤): «نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّ مَنْ أَحْسَنَ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ وَأَطَاعَ، فَإِنَّ لَهُ جَزَاءَ الْحُسْنَى، وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ؛ كُلٌّ مَنْ اتَّبَعَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ فَلَهُ السَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ عَلَى مَا يَتْرُكُونَهُ وَيُخَلِّفُونَهُ».

ثانيًا: في التصريح بذكر الأرض ﴿وَلَا تَعْبَثُوا فِي الْأَرْضِ﴾ مبالغة في تقييح الفساد وقوله: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة، ووجه فصاحة هذا الأسلوب أن المتكلم قد تشدد عنايته بأن يجعل الأمر أو النهي لا يحوم حوله لبس أو شك، ومن مظاهر هذه العناية التوكيد فقوله: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ يكسو النهي عن الفساد قوة، ويجعله بعيداً من أن يُغفل عنه أو يُنسى.

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ﴾ المنبت الحقيقي هو الله سبحانه ففيه مجاز يسمى (المجاز العقلي) وعلاقته السببية لأن الأرض لما كانت سبباً للنبات أسند إليها.

رابعًا: قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ كناية^(١) عن إحاطتهما بهم كما تحيط القبة بمن ضربت عليه كما قال الشاعر:

إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالْمُرُوءَةَ وَالنَّدَى
فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الْحَشْرِجِ^(٢)

خامسًا: تقييد قتل الأنبياء بقوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ مع أن قتلهم لا يكون بحق البتة إنما هو لزيادة التشنيع بقبح عدوانه.

الفوائد: الأولى: حكى المفسرون أقوالاً كثيرة في الحجر الذي ضربه موسى فجرت منه العيون ما هو؟ وكيف وصفه؟ وقد ضربنا صفحاً عن هذه الأقوال والذي يكفي في فهم معنى الآية أن واقعة انفجار الماء إنما كان على وجه «المعجزة» وأن الحجر الذي ضربه موسى كان من الصخر الأصم الذي ليس من شأنه الانفجار بالماء، وهنا تكون المعجزة أوضح، والبرهان أسطع. قال الحسن البصري: لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه قال: وهذا أظهر في الحجة وأبين في القدرة^(٣).

الثانية: فإن قيل ما الحكمة في جعل الماء اثنتي عشرة عيناً؟ فالجواب: أن قوم موسى كانوا كثيرين وكانوا في الصحراء، والناس إذا اشتدت بهم الحاجة إلى الماء ثم وجدوه فإنه يقع بينهم تشاجر وتنازع، فأكمل الله هذه النعمة بأن عيّن لكل سبط منهم ماءً معيناً على عددهم لأنهم كانوا اثني عشر سبطاً، وهم ذرية أبناء يعقوب الاثني عشر والله أعلم.

الثالثة: ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالفوم في قوله ﴿وَفُومَهَا﴾ الحنطة والأرجح أن المراد به الثوم بدليل قراءة ابن مسعود ﴿وِثُومَهَا﴾^(٤) وبدليل اقتران البصل بعده. قال الفخر الرازي: الثوم أوفق للعدس والبصل من الحنطة، واستدل «القرطبي» على ذلك بقول حسان:

(١) تسمى الاستعارة بالكناية كما نبّه على ذلك أبو السعود.

(٢) (ش): لم يصرح بثبوت هذه الصفات المذكورة لابن الحشر بل كنى عن ذلك في قبة مضروبة عليه فأفاد إثباتها له. والقبة: خيمة صغيرة أعلاها مستدير.

(٣) «الكشاف» ١/ ١٠٧.

(٤) (ش): قراءة ابن مسعود ﴿وِثُومَهَا﴾. أخرجها سعيد بن منصور في سننه (١٩١ - التفسير) وابن أبي داود في المصاحف ص ٥٤ بأسانيد ضعيفة.

وَأَنْتُمْ أَنْاسٌ لِّئَامٍ الْأُصُولِ طَعَامُكُمْ الْفُومُ وَالْحَوْقُلُ
يَعْنِي الثُّومَ وَالْبَصَلَ ^(١).

قال الله تعالى:

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ
^(١٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ^(١٤) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ
الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ^(١٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا
خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ^(١٦)

المناسبة: لما ذكرهم تعالى بالنعم الجليلة العظيمة، أردف ذلك ببيان ما حل بهم من نقم، جزاء كفرهم وعصيانهم وتمردهم على أوامر الله، فقد كفروا النعمة، ونقضوا الميثاق، واعتدوا في السبت فمسخهم الله إلى قردة، وهكذا شأن كل أمة عتت عن أمر ربها وعصت رسله.

اللغة: ﴿مِيثَاقُكُمْ﴾ الميثاق: العهد المؤكد بيمين ونحوه، والمراد به هنا العمل بأحكام التوراة ﴿الطُّور﴾ هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى ﷺ ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بحزم وعزم ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ التولي: الإعراض عن الشيء والإدبار عنه ﴿خَاسِئِينَ﴾ جمع خاسئ وهو الدليل المهين قال أهل اللغة: الخاسئ: الصاغر المبعد المطرود كالكلب إذا دنا من الناس قيل له: اخسأ أي تباعد وانطرد صاغراً. ﴿نَكَالًا﴾ النكال: العقوبة الشديدة الزاجرة ولا يقال لكل عقوبة نكال حتى تكون زاجرة رادعة.

التفسير: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا منكم العهد المؤكد على العمل بما في التوراة ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ أي نتقناه حتى أصبح كالظلة فوقكم وقلنا لكم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أي اعملوا بما في التوراة بجد وعزيمة ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي حفظوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لتتقوا الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة، أو رجاء منكم أن تكونوا من فريق المتقين ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أعرضتم عن الميثاق بعد أخذه ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي بقبول التوبة ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ بالعفو عن الزلة ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي لكنتم من الهالكين في الدنيا والآخرة ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ أي عرفتم ما فعلنا بمن عصى أمرنا حين خالفوا واصطادوا يوم السبت وقد نهيناهم عن ذلك ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أي مسخناهم قردة بعد أن كانوا بشرًا مع الذلة والإهانة ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أي المسخة ﴿نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ أي عقوبة زاجرة لمن يأتي بعدها من الأمم ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي جعلنا مسخهم قردة عبرة لمن شهدها وعينها وعبرة لمن جاء بعدها

ولم يشاهدها^(١) ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي عظة وذكرى لكل عبد صالح متقٍ لله سبحانه وتعالى.
البلاغة: أولاً: ﴿حُدُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي قلنا لهم خذوا فهو كما قال الزمخشري على إرادة القول.

ثانياً: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ خرج الأمر عن حقيقته إلى معنى الإهانة والتحقير، وقال بعض المفسرين: هذا أمر تسخير وتكوين، فهو عبارة عن تعلق القدرة بنقلهم من حقيقة البشرية إلى حقيقة القرادة^(٢).

ثالثاً: ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ كناية عمن أتى قبلها أو أتى بعدها من الأمم والخلائق، أو عبرة لمن تقدم ومن تأخر.

الفوائد: الأولى: قال القفال: إنما قال ﴿مِثْقَلَكُمْ﴾ ولم يقل «موثقكم» لأنه أراد ميثاق كل واحد منكم كقوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ [غافر: ٦٧] أي يخرج كل واحد منكم طفلاً^(٣).

الثانية: قال بعض أهل اللطائف: كانت نفوس بني إسرائيل من ظلمات عصيانها تخبط في عشواء حالكة الجلباب، وتخطر من غلوائها وعلوها في حلتي كبر وإعجاب، فلما أمروا بأخذ التوراة ورأوا ما فيها من أثقال ثارت نفوسهم فرفع الله عليهم الجبل فوجدوه أثقل مما كلّفوه، فهان عليهم حمل التوراة قال الشاعر:

إِلَى اللَّهِ يُدْعَى بِالْبَرَاهِينِ مَنْ أَبَى
 فَإِنْ لَمْ يُجِبْ نَادَتْهُ بِيضُ الصَّوَارِمِ^(٤)
الثالثة: إنما خصّ المتقين بإضافة الموعظة إليهم ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأنهم هم الذين ينتفعون بالعظة والتذكير قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

(١) (ش): قال الشيخ السعدي رحمه الله: جعل الله هذه العقوبة ﴿نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ أي: لمن حضرها من الأمم، وبلغه خبرها، ممن هو في وقتهم. ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي: من بعدهم.

ورجح الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٩٢-٢٩٣) أن المراد ما بين يديها وما خلفها في المكان، أي لما بين يديها من القرى وما خلفها من القرى. وردّ على من يقولون: المراد ما بين يديها وما خلفها في الزمان، بأن هذا مستقيم بالنسبة إلى من يأتي بعدهم من الناس أن يكون أهل تلك القرية عبرة لهم، وأما بالنسبة إلى من سلف قبلهم من الناس فكيف يصحّ هذا الكلام أن تُفسّر الآية به، وهو أن يكون عبرة لمن سبّهم؟ هذا لعلّ أحداً من الناس لا يقوله بعد تصوّره، فتعيّن أن المراد بما بين يديها وما خلفها في المكان، وهو ما حولها من القرى.

وقال: «وَأَرْجَحُّ الْأَقْوَالِ أَنَّ الْمُرَادَ بِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا: مَنْ بَحْضَرَتْهَا مِنَ الْقُرَى الَّتِي يُبَلِّغُهُمْ خَبَرَهَا، وَمَا حَلَّ بِهَا، فَجَعَلَهُمْ عِبْرَةً وَنَكَالًا لِمَنْ فِي زَمَانِهِمْ، وَعِبْرَةً لِمَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ بِالْخَبَرِ الْمُتَوَاتِرِ عَنْهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾».

(٢) «الفتوحات الإلهية» ١/ ٦٣.

(٣) «البحر المحيط» ١/ ٢٤٣.

(٤) «البحر المحيط» ١/ ٢٤٥.

قال الله تعالى:

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَ خَدُّنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَأَفْعَلُوا مَا تَأْمُرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْ هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَةٍ فِيهَا قَالُوا أَنِىْ جِئْتِ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْفَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى بعض قبائح اليهود وجرائمهم، من نقض المواثيق، واعتدائهم في السبت، وتمردهم على الله عز وجل في تطبيق شريعته المنزلة، أعقبه بذكر نوع آخر من مساويهم ألا وهو مخالفتهم للأنبياء وتكذيبهم لهم، وعدم مسارعتهم لامثال الأوامر التي يوحىها الله إليهم، ثم كثرة اللجاج والعناد للرسول صلوات الله عليهم، وجفائهم في مخاطبة نبيهم الكريم موسى عليه السلام، إلى آخر ما هنالك من قبائح ومساوي.

اللغة: ﴿هُزُؤًا﴾ الهزؤ: السخرية بضم الزاي وقلب الهمزة واوا ﴿هُزُؤًا﴾ مثل ﴿كُفُؤًا﴾ أحدٌ [الإخلاص: ٤] والمعنى على حذف مضاف أي اتخذنا موضع هزؤ، أو يحمل المصدر على معنى اسم المفعول أي أتجعلنا مهزوءًا بنا ﴿فَارِضٌ﴾ الفارض: الفتية التي لم تلد من الصغر ولم يلقحها الفحل لصغرها قال الشاعر:

لَعَمْرِي لَقَدْ أُعْطِيتَ ضَيْفَكَ فَارِضًا تُسَاقُ إِلَيْهِ مَا تَقُومُ عَلَى رِجْلِ
وَلَمْ تُعْطِهِ بِكْرًا فَيَرِضَنِي سَمِينَهُ فَكَيْفَ تَجَازَى بِالْمَوَدَّةِ وَالْفَضْلِ^(١)

﴿عَوَانٌ﴾ وسط ليست بمُسِنَّة ولا صغيرة، وقيل: هي التي ولدت بطنًا أو بطنين، ﴿فَاقِعٌ﴾ الفقوع: شدة الصفرة يقال: أصفر فاقع، أي: شديد الصفرة كما يقال: أحمر قاني أي شديد الحمرة قال «الطبري»: وهو نظير النصوص في البياض ﴿ذَلُولٌ﴾ أي مذلة للعمل يقال: دابة ذلول أي رِيضة

(١) (ش): الْبِكْرُ: الصَّغِيرَةُ الَّتِي لَمْ تَلِدْ مِنَ الصَّغَرِ. وَقِيلَ: الَّتِي وَلَدَتْ وَلَدًا وَاحِدًا.

(لَعَمْرِي): كلام أهل العلم أن هذه الكلمة ليست يمينًا، بل تُذكر لتأكيد مضمون الكلام فقط؛ لأنها أقوى من سائر المؤكّدات، وأسلم من التأكيد بالقسم بالله لوجوب البر به. [انظر: المدونة الكبرى رواية الإمام سحنون ابن سعيد التنوخي عن عبد الرحمن بن القاسم وغيره عن الإمام مالك (٢/ ٣٣٨)].

زالت صعوبتها فقوله: ﴿لَا ذُلُّ لَكُمْ﴾ أي لم تذلل لإثارة الأرض، أي: لحرثها ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ من السلامة، أي: خالصة ومبرأة من العيوب ﴿شَيْءٌ﴾ الشَّيْءُ: الممعة المخالفة لبقية اللون الأصلي قال «الطبري»: ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ أي لا بياض ولا سواد يخالف لونها ﴿فَأَذَرْتُمْ﴾ أي تدافعتم واختلغتم وتنازعتم وأصلها تدارأتم أذغمت التاء في الدال، وأُتي بهمزة الوصل ليتوصل بها إلى النطق بالسكن فصار أذَارَاتُمْ، ومعنى الدرع: الدفع لأن كلاً من الفريقين كان يدرأ على الآخر أي يدفع، وفي الحديث «ادرءوا الحدود بالشبهات»^(١) ﴿فَسَتَّ﴾ القسوة: الصلابة ونقيضها الرقة ﴿يَشَقُّ﴾ التشقق: التصدع بطول أو عرض ﴿يَهْبِطُ﴾ الهبوط: النزول من أعلى إلى أسفل^(٢).

«معجزة إحياء الميت وقصة البقرة»

ذكر القصة: روى ابن أبي حاتم عن عبيدة السلماني قال: «كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه فقتله ثم احتمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض، فقال ذوو الرأي منهم والنهي: علام يقتل بعضنا بعضاً وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسى ﷺ فذكروا ذلك له فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ قال: ولو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة، ولكنهم شددوا فشدّد الله عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال: والله لا أنقصها من ملء جلدتها ذهباً، فاشتروها بملء جلدتها ذهباً فذبحوها فضربوه ببعضها فقام، فقالوا: من قتلك؟ قال: هذا وأشار إلى ابن أخيه ثم مال ميتاً، فلم يعط من ماله شيئاً فلم يورث قاتل بعد»^(٣).

وفي رواية «فأخذوا الغلام فقتلوه».

التفسير: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين قال لكم نبيكم موسى: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴿قَالُوا أَنْتَ جَاهِلُونَ﴾ أي فكان جوابكم الوقح لنبيكم أن قلتم: أتهزأ بنا يا موسى ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي ألتجئ إلى الله أن أكون في زمرة المستهزئين الجاهلين ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ أي ما هذه البقرة وأي شيء صفتها؟ ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ أي لا كبيرة هرمة، ولا صغيرة لم يلقحها الفحل ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي وسط بين الكبيرة والصغيرة ﴿فَأَفْعَلُوا مَا نُؤْمَرُونَ﴾ أي افعلوا ما أمركم به ربكم ولا تتعنّوا ولا تشددوا فيشدّد الله عليكم ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْْنُهَا﴾ أي ما لونها أبيض أم أسود أم غير ذلك؟ ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ أي إنها بقرة صفراء شديدة الصفرة، حسن منظرها تسر كل

(١) (ش): رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق»، وضعفه الألباني.

(٢) «مختصر الطبري» ٤٧/١.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٧٦/١.

من رآها. ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ أعادوا السؤال عن حال البقرة بعد أن عرفوا سننها ولونها ليزدادوا بياناً لوصفها، ثم اعتذروا بأن البقر الموصوف بكونه عواناً وبالصفرة الفاقعة كثير ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ أي التبس الأمر علينا فلم ندر ما البقرة المأمور بذبحها ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ أي سنتهدي إلى معرفتها إن شاء الله، ولو لم يقولوا ذلك لم يهتدوا إليها أبداً كما ثبت في الحديث ^(١) ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ أي ليست هذه البقرة مسخرة لحرثة الأرض، ولا لسقاية الزرع ﴿مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي سليمة من العيوب ليس فيها لون آخر يخالف لونها فهي صفراء كلها ﴿قَالُوا لَكِن جِئْتُ بِالْحَقِّ﴾ أي الآن بيئتها لنا بياناً شافياً لا غموض فيه ولا لبس. قال تعالى إخباراً عنهم ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ لغلاء ثمنها أو خوف الفضيحة ثم أخبر تعالى عن سبب أمرهم بذبح البقرة، وعما شهدوه من آيات الله الباهرة، فقال ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين قتلتم نفساً ﴿فَإِذْرَہُ ثُمَّ فِيهَا﴾ أي تخاصمتم وتدافعتم بشأنها، وأصبح كل فريق يدفع التهمة عن نفسه وينسبها لغيره ﴿وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي مظهر ما تخفونه ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا﴾ أي اضربوا القاتل بشيء من البقرة يحيا ويخبركم عن قاتله ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ أي كما أحيا هذا القاتل أمام أبصاركم يحيي الموتى من قبورهم ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي يريكم دلائل قدرته لتتفكروا وتتدبروا وتعلموا أن الله على كل شيء قدير.

ثم أخبر تعالى عن جفائهم وقسوة قلوبهم فقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي صلبت قلوبكم يا معشر اليهود فلا يؤثر فيها وعظ ولا تذكير ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي من بعد رؤية المعجزات الباهرة ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً﴾ أي بعضها كالحجارة وبعضها أشد قسوة من الحجارة كالحديد ﴿وَإِنْ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَفْجُرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ أي تتدفق منها الأنهار الغزيرة ﴿وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْفَقُ فَيَخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ﴾ أي من الحجارة ما يتصدع إشفاقاً من عظمة الله فينبع منه الماء ﴿وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي ومنها ما يتفتت ويتردى من رعوس الجبال من خشية الله، فالحجارة تلين وتخشع وقلوبكم يا معشر اليهود لا تتأثر ولا تلين ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي إنه تعالى رقيب على أعمالهم لا تخفى عليه خافية، وسيجازيهم عليها يوم القيامة، وفي هذا وعيد تهديد. **البلاغة: أولاً:** قوله تعالى: ﴿فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ من إيجاز القرآن أن حذف من صدر هذه الجملة جملتين مفهوميتين من نظم الكلام والتقدير: فطلبوا البقرة الجامعة للأوصاف السابقة وحصلوها، فلما اهتدوا إليها ذبحوها وهذا من الإيجاز بالحذف.

(١) (ش): الحديث لم يثبت.

رُوي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالُوا: ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ لَمَا أُعْطُوا، وَلَكِنْ اسْتَشْنَوْا» (رواه ابن أبي حاتم في التفسير (١/٢٢٣)، وضعفه الألباني). والاستثناء: قَوْلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

ثانيًا: قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ هذه الجملة اعتراضية بين قوله: ﴿فَأَذَرْتُمْ﴾ وقوله: ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ﴾ والجملة المعترضة بين ما شأنهما الاتصال تجيء تحلية يزداد بها الكلام البليغ حسنًا، وفائدة الاعتراض هنا إشعار المخاطبين بأن الحقيقة ستنجلي لا محالة.

ثالثًا: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ وصف القلوب بالصلابة والغلظ يراد منه نبؤها عن الاعتبار، وعدم تأثرها بالمواعظ ففيه استعارة تصريحية قال أبو السعود: القسوة عبارة عن الغلظ والجفاء والصلابة كما في الحجر استعيرت لنبو قلوبهم عن التأثر بالعظات والقوارع التي تميم منها الجبال وتلين بها الصخور^(١).

رابعًا: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارِ﴾ فيه تشبيه يسمى (مرسلًا مجملًا) لأن أداة الشبه مذكورة ووجه الشبه محذوف.

خامسًا: ﴿لَمَّا يَنْفَجْرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ أي ماء الأنهار، والعرب يطلقون اسم المحل كالنهر على الحال فيه كالماء والقرينة ظاهرة؛ لأن التفجر إنما يكون للماء، ويسمى هذا مجازًا مرسلًا.

الفوائد: الفائدة الأولى: نبه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ على أن الاستهزاء بأمر من أمور الدين جهل كبير، وقد منع المحققون من أهل العلم استعمال الآيات كأمثال يضرّبونها في مقام المزح والهزل، وقالوا: إنما أنزل القرآن للتدبر والخشوع لا للتسلي والتفكه والمزاح.

الثانية: الخطاب في قوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ لليهود المعاصرين للنبي ﷺ وقد جرى على الأسلوب المعروف في مخاطبة الأقسام، إذ ينسب إلى الخلف ما فعل السلف إذا كانوا سائرين على نهجهم، راضين بفعلهم، وفيه توبيخ وتقريع للغابرين والحاضرين.

الثالثة: هذه الواقعة واقعة (قتل النفس) جرت قبل أمرهم بذبح البقرة، وإن وردت في الذكر بعده، والسر في ذلك التشويق إلى معرفة السبب في ذبح البقرة، التكرير في التقريع والتوبيخ قال العلامة ابن السعود: وإنما غيّر الترتيب لتكرار التوبيخ وتثنية التقريع، فإن كل واحد من قتل النفس المحرمة، والاستهزاء بموسى ﷺ والافتئات على أمره جناية عظيمة جدية بأن تنعى عليهم^(٢).

الرابعة: ذكر تعالى إحياء الموتى في هذه السورة الكريمة في خمسة مواضع: أ - في قوله ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٦] ب - وفي هذه القصة ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ ج - وفي قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف ﴿فَقَالَ لَهُمْ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣] د - وفي قصة عزيز ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ [البقرة: ٢٥٩] هـ - وفي قصة إبراهيم ﴿رَبِّ أَرِنِي

(١) «إرشاد العقل السليم» ١/ ٩٠. (ش): النبؤ: الإستعصاء وعدم الانقياد. القوارع: المصائب.

(٢) «إرشاد العقل السليم» ١/ ٩٠.

كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴿البقرة: ٢٦٠﴾ .

الخامسة: ﴿أَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ بمعنى «بَل» أي بل أشد قسوة كقوله: تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصفات: ١٤٧] وقال بعضهم: هي للترديد، أو التخيير فمن عرف حالها شبهها بالحجارة أو بما هو أفسى كالحديد، ومن لم يعرفها شبهها بالحجارة أو قال: هي أفسى من الحجارة.

السادسة: ذهب بعض المفسرين إلى أن الخشية هنا حقيقية، وأن الله تعالى جعل لهذه الأحجار خشية بقدرها كقوله: تعالى ﴿وَلَنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] وقال آخرون: بل هو من باب المجاز كقول القائل: قال الحائط للمسمار: لم تشقني؟ قال: سل من يدقني والله أعلم؟^(١).

قال الله تعالى:

أَفَنظَمُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ لَآ يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتُخَذُكُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَكِينَةً وَأَحْطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى عناد اليهود، وعدم امتثالهم لأوامر الله تعالى، ومجادلتهم للأنبياء الكرام، وعدم الانقياد والإذعان، عقب ذلك بذكر بعض القبائح والجرائم التي ارتكبوها كتحرif كلام الله تعالى، وادعائهم بأنهم أحباب الله، وأن النار لن تمسهم إلا بضعة أيام قليلة، إلى آخر ما هم عليه من أمانى كاذبة ورثوها عن آبائهم وأجدادهم، وقد بدأ تعالى الآيات بتأسيس المسلمين من إيمانهم لأنهم فطروا على الضلال، وجبلوا على العناد والمكابرة.

اللغة: ﴿أَفَنظَمُونَ﴾ الطمع: تعلق النفس بشيء مطلوب تعلقاً قوياً، فإذا اشتد فهو طمع، وإذا ضعف كان رجاءً ورغبةً ﴿فَرِيقٌ﴾ الفريق: الجماعة وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه كالرُحط والقوم ﴿يُحَرِّفُونَهُ﴾ التحريف: التبديل والتغيير وأصله من الانحراف عن الشيء ﴿عَقَلُوهُ﴾ عقل الشيء أدركه بعقله والمراد فهموه وعرفوه ﴿أُمِّيُونَ﴾ جمع أمي وهو الذي

(١) أفاده العلامة ابن كثير .

لا يحسن القراءة والكتابة، سمي بذلك نسبة إلى الأم، لأنه باقٍ على ما ولدته عليه أمه من عدم المعرفة ﴿أَمَانِيَّ﴾ جمع أمانة وهي ما يتمناه الإنسان ويشتهي، أو يقدر في نفسه من مئى ولذلك تطلق على الكذب قال أعرابي لإنسان: «أهذا شيء رأيته أم تمنيته» أي اختلقته، وتأتي بمعنى قرأ قال حسان:

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ ^(١)

﴿فَوَيْلٌ﴾ الويل: الهلاك والدمار وقيل: الفضيحة والخزي، وهي كلمة تستعمل في الشر والعذاب قال القاضي: هي نهاية الوعيد والتهديد كقوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١] وقال سيبويه: ويلٌ لمن وقع في الهلكة، وويح لمن أشرف عليها.

سَبَبُ النُّزُول: ١ - نزلت في الأنصار كانوا حلفاء لليهود وبينهم جوارٌ ورضاعة وكانوا يودون لو أسلموا فأنزل الله تعالى ﴿أَفَنُظْمِعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ ^(٢) الآية.

٢ - وروى مجاهد عن ابن عباس أن اليهود كانوا يقولون: إن هذه الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نَعُذُ بِكُلِّ أَلْفِ سَنَةٍ يَوْمًا فِي النَّارِ، وإنما هي سبعة أيام معدودة فأنزل الله تعالى ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ ^(٣).

التفسير: يخاطب الله تعالى عباده المؤمنين فيقول: ﴿أَفَنُظْمِعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أي أترجون يا معشر المؤمنين أن يسلم اليهود ويدخلوا في دينكم ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ أي والحال قد كان طائفة من أحبارهم وعلماهم يتلون كتاب الله ويسمعونه بينًا جليًا ﴿ثُمَّ يُخَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي يغيرون آيات التوراة بالتبديل أو التأويل، من بعد ما فهموه وضبطوه بعقولهم ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم يرتكبون جريمة، أي إنهم يخالفونه على بصيرة لا عن خطأ أو نسيان ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامِنَّا﴾ أي إذا اجتمعوا بأصحاب النبي ﷺ قال المنافقون من اليهود آمنا بأنكم على الحق، وأن محمدًا هو الرسول المبشّر به ﴿وَإِذَا خَلَا بِعُضْبِهِمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي إذا انفردوا واختلوا بعضهم ببعض ﴿قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي قالوا عاتبين عليهم أتخبرون أصحاب محمد بما بين الله لكم في التوراة من صفة محمد ﷺ ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ أي لتكون الحجة للمؤمنين عليكم في الآخرة في ترك اتباع الرسول مع العلم بصدقه ﴿أَفَلَا نَعْقِلُونَ﴾ ؟ أي أفليست لكم عقول تمنعكم من

(١) (ش): قال حسان بن ثابت رحمته الله لما قتل القتلة عثمان بن عفان رحمته الله وهو يذكر الله ويقرأ القرآن: تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ ... وَآخِرَهُ لَأَقَى حِمَامَ الْمَقَادِرِ (تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ) أي: تلا كتاب الله من (أَوَّلَ لَيْلِهِ)، حتى إذا بلغ آخر الليل قام عليه القتلة فقتلوه، فتلقى حمام قدره رحمته الله.

(٢) «البحر المحيط» ١/ ٢٧١. (ش): هكذا ذكره أبو حيان الأندلسي في «البحر المحيط» بدون إسناد.

(٣) «مختصر ابن كثير» ١/ ٨٢. (ش): أخرجه ابن إسحاق في «السيرة»، وابن أبي حاتم في «التفسير»، وابن جرير في «جامع البيان»، والواحدي في «أسباب النزول»، وسنده ضعيف؛ فيه محمد - شيخ ابن إسحاق - مجهول.

أن تحدثوهم بما يكون لهم فيه حجة عليكم؟ والقائلون ذلك هم اليهود لمن نافق منهم. قال تعالى ردًا عليهم وتوبيخًا: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي ألا يعلم هؤلاء اليهود أن الله يعلم ما يخفون وما يظهرون، وأنه تعالى لا تخفى عليه خافية، فكيف يقولون ذلك ثم يزعمون الإيمان!

ولما ذكر تعالى العلماء الذين حرّفوا وبدّلوا، ذكر العوام الذين قلدوهم ونبّه أنهم في الضلال سواء فقال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ أي ومن اليهود طائفة من الجهلة العوام، الذين لا يعرفون القراءة والكتابة ليطلعوا على ما في التوراة بأنفسهم ويتحققوا بما فيها ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾ أي إلا ما هم عليه من الأمانى التي منّاها بها أحبارهم، من أن الله يعفو عنهم ويرحمهم، وأن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة، وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، إلى غير ما هنالك من الأمانى الفارغة ﴿وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي ما هم على يقين من أمرهم، بل هم مقلّدون للآباء تقليد أهل العمى والغباء.

ثم ذكر تعالى جريمة أولئك الرؤساء المضلّين، الذين أضلّوا العامة في سبيل حطام الدنيا فقال ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي هلاك وعذاب لأولئك الذين حرّفوا التوراة، وكتبوا تلك الآيات المحرفة بأيديهم ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي يقولون لأتباعهم الأمين هذا الذي تجدونه هو من نصوص التوراة التي أنزلها الله على موسى ﷺ مع أنهم كتبوها بأيديهم ونسبوها إلى الله كذبًا وزورًا ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي لينالوا به عرض الدنيا وحطامها الفاني ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي فشدّة عذاب لهم على ما فعلوا من تحريف الكتاب ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ أي وويل لهم مما يصيبون من الحرام والسحت ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ أي لن ندخل النار إلا أيامًا قلائل، هي مدة عبادة العجل، أو سبعة أيام فقط ﴿قُلْ أَخَذْتُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ أي قل لهم يا محمد على سبيل الإنكار والتوبيخ: هل أعطاكم الله الميثاق والعهد بذلك؟ فإذا كان قد وعدكم بذلك ﴿فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ لأن الله لا يخلف الميعاد ﴿أَمْ نَقُولُ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أم تكذبون على الله فتقولون عليه ما لم يقله، فتجمعون بين جريمة التحريف لكلام الله، والكذب والبهتان عليه جل وعلا.

ثم بين تعالى كذب اليهود، وأبطل مزاعمهم بأن النار لن تمسهم وأنهم لا يخلدون فيها فقال: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ أي بلى تمسك النار وتخلدون فيها، كما يخلد الكافر الذي عمل الكبائر، وكذلك كل من اقترف السيئات ﴿وَأَخْطَأَ بِهِ خَطِئَتُهُ﴾ أي غمرته من جميع جوانبه، وسدّت عليه مسالك النجاة، بأن فعل مثل فعلكم أيها اليهود ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي فالنار ملازمة لهم لا يخرجون منها أبدًا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

أَصْلِحَتْ ﴿١﴾ أي وأما المؤمنون الذين جمعوا بين الإيمان، والعمل الصالح فلا تمسهم النار، بل هم في روضات الجنات يحبرون ﴿٢﴾ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣﴾ أي مخلصون في الجنان لا يخرجون منها أبداً، اللهم اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

البلاغة: أولاً: قوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ جملة مفيدة لكمال قبح صنيعهم، فتحريفهم للتوراة كان عن قصد وتصميم لا عن جهل أو نسيان، ومن يرتكب المعصية عن علم يستحق الدم والتوبيخ أكثر ممن يرتكبها وهو جاهل.

ثانياً: قوله ﴿يَكْتُوبُونَ الْكَتَبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ ذكر الأيدي هنا لدفع توهم المجاز، وللتأكيد بأن الكتابة باسروها بأنفسهم كما يقول القائل: كتبتة يميني، وسمعتة بأذني.

ثالثاً: قوله: ﴿مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بـ (الطباق) حيث جمع بين لفظتي «يسرون» و «يعلمون» وهو من نوع طباق الإيجاب.

رابعاً: التكرير في قوله ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكَتَبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وقوله: ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ للتوبيخ والتقريع وليان أن جريمتهم بلغت من القبح والشناعة الغاية القصوى.

خامساً: قوله ﴿وَأَخْطَأْتُ بِهِ خَطِئَتُهُ﴾ هو من باب الاستعارة حيث شبه الخطايا بجيش من الأعداء نزل على قوم من كل جانب فأحاط بهم إحاطة السوار بالمعصم، واستعار لفظة الإحاطة لغلبة السيئات على الحسنات، فكأنها أحاطت بها من جميع الجهات^(١).

الفوائد الأولى: تحريف كلام الله يصدق بتأويله تأويلاً فاسداً، ويصدق بمعنى التغيير وتبديل كلام بكلام، وقد وقع من أhabar اليهود التحريف بالتأويل، وبالتغيير، كما فعلوا في صفته ﷺ قال العلامة أبو السعود: روي أن أhabar اليهود خافوا زوال رياستهم فعمدوا إلى صفة النبي ﷺ في التوراة وكانت هي فيها «حسن الوجه، حسن الشعر، أكحل العينين، أبيض ربعة» فغيروها وكتبوا مكانها «طوال، أزرق، سبط الشعر» فإذا سألهم العامة عن ذلك قرءوا ما كتبوا فيجدونه مخالفاً لما في التوراة فيكذبونه^(٢).

الثانية: التحريف بقسميه وقع في الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل كما قال تعالى ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦] أما التحريف بمعنى التأويل الباطل فقد وقع في القرآن من الجهلة أو الملاحدة، وأما التحريف بمعنى إسقاط الآية ووضع كلام بدلها فقد حفظ الله منه كتابه العزيز ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

الثالثة: روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ أُهْدِيَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ شاةٌ

(١) انظر «تلخيص البيان» ٨ / ١.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٩٤ / ١.

فِيهَا سُمَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اجْمَعُوا لِي مَنْ كَانَ مِنَ الْيَهُودِ هُنَا» فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَبُوكُمْ؟»، قَالُوا: فُلَانٌ، قَالَ: «كَذَبْتُمْ، بَلْ أَبُوكُمْ فُلَانٌ»، فَقَالُوا: صَدَقْتَ، وَبَرَرْتَ ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: «هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟»، فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، وَإِنْ كَذَبْنَا عَرَفْتَ كَذَبْنَا كَمَا عَرَفْتَهُ فِي آيِنَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟»، فَقَالُوا: نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا، ثُمَّ تَخَلَّفُونَا فِيهَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اخْسُوا وَاللَّهِ لَا نَخْلُقُكُمْ فِيهَا أَبَدًا»، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟»، قَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، قَالَ: «هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا؟»، فَقَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «فَمَا حَمَلَكُمُ عَلَى ذَلِكَ؟»، فَقَالُوا: أَرَدْنَا إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا نَسْتَرِيحُ مِنْكَ، وَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ^(١).

قال الله تعالى:

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَنْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْسِلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِلْغَامِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَىٰ تَقْدُواهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

المناسبة: لا تزال الآيات الكريمة تعدد جرائم اليهود، وفي هذه الآيات أمثلة صارخة على عدوانهم وطغيانهم وإفسادهم في الأرض، فقد نقضوا الميثاق الذي أخذ عليهم في التوراة، وقتلوا النفس التي حرم الله، واستباحوا أكل أموال الناس بالباطل، واعتدوا على إخوانهم في الدين فأخرجوهم من الديار، فاستحقوا اللعنة والخزي والدمار.

اللغة: ﴿مِيثَاقٌ﴾ الميثاق: العهد المؤكد باليمين غاية التأكيد، فإن لم يكن مؤكداً سمي عهداً ﴿حُسْنًا﴾ الحُسْنُ: اسم عام جامع لمعاني الخير، ومنه لين القول، والأدب الجميل، والخلق الكريم، وضده القُبْحُ والمعنى: قولوا قولاً حَسَنًا فهو صفة لمصدر محذوف ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ التولي عن الشيء: الإعراض عنه ورفضه وعدم قبوله كقوله: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا﴾ [النجم: ٢٩] وفرق بعضهم بين التولي والإعراض فقال: التولي بالجسم، والإعراض

(١) «مختصر ابن كثير» ٨٢/١. (ش): الرواية التي في الأصل نقلها المؤلف من «تفسير ابن كثير» وهي ليست رواية البخاري بل رواية الحافظ أبي بكر بن مردويه، وقد ذكرها الحافظ ابن كثير ثم قال: «وَرَوَاهُ أَحْمَدُ، وَالبُخَارِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ، مِنْ حَدِيثِ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ، بَنحوه». فذكرت هنا نص رواية البخاري بدلاً منها.

بالقلب^(١) ﴿تَظَاهَرُونَ﴾ تتعاونون وهو مضارع حذف منه أحد التاءين، كأن المتظاهرين يستند كل واحد منهما ظهره إلى الآخر، والظهير: المعين ﴿الْإِثْمُ﴾ الذنب الذي يستحق صاحبه الملامة وجمعه آثام ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ تجاوز الحد في الظلم ﴿خِزْيٌ﴾ الخزي: الهوان والمقت والعقوبة.

التفسير: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي اذكروا حين أخذنا على أسلافكم يا معشر اليهود العهد المؤكد غاية التأكيد ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ بأن لا تعبدوا غير الله ﴿وَبِأُولَئِينَ إِحْسَانًا﴾ أي وأمرناهم بأن يحسنوا إلى الوالدين إحسانًا ﴿وَزِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ أي وأن يحسنوا أيضًا إلى الأقرباء، واليتامى الذين مات آبائهم وهم صغار، والمساكين الذين عجزوا عن الكسب ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي قولاً حسناً بخفض الجناح، ولين الجانب، مع الكلام الطيب ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي صلوا وزكوا كما فرض الله عليكم من أداء الركنتين العظيمين «الصلاة، والزكاة» لأنهما أعظم العبادات البدنية والمالية ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ أي ثم رفضتم أنتم وأسلافكم الميثاق رفضاً باتاً، وأعرضتم عن العمل بموجبه إلا قليلاً منكم ثبتوا عليه ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ أي اذكروا أيضًا يا بني إسرائيل حين أخذنا عليكم العهد المؤكد بأن لا يقتل بعضكم بعضاً ﴿وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ﴾ ولا يعتدي بعضكم على بعض بالإخراج من الديار، والإجلاء عن الأوطان ﴿ثُمَّ أَفْرَضْتُمْ وَأَنْتُمْ شَاهِدُونَ﴾ أي ثم اعترفتم بالميثاق وبوجوب المحافظة عليه، وأنتم تشهدون بلزومه ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي ثم نقضتم أيضًا الميثاق يا معشر اليهود بعد إقراركم به، فقتلتهم إخوانكم في الدين، وارتكبتم ما نهيتهم عنه من القتل ﴿وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ﴾ أي كما طردتموهم من ديارهم من غير التفات إلى العهد الوثيق ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ أي تتعاونون عليهم بالمعصية والظلم ﴿وَأِنْ يَأْتُواكُمُ اسْكُرُوا لَهُمْ﴾ أي إذا وقعوا في الأسر فاديتموهم، ودفعتم المال لتخليصهم من الأسر ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ أي فكيف تستبيحون القتل والإخراج من الديار، ولا تستبيحون ترك الأسرى في أيدي عدوهم؟ ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾؟ أي أفتؤمنون ببعض أحكام التوراة وتكفرون ببعض؟ والغرض التوبيخ لأنهم جمعوا بين الكفر والإيمان، والكفر ببعض آيات الله كفرٌ بالكتاب كله ولهذا عقب تعالى ذلك بقوله: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي ما عقوبة من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض إلا ذلٌ وهوان، ومقتٌ وغضب في الدنيا ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ أي وهم صائرون في الآخرة إلى

عذاب أشد منه، لأنه عذاب خالد لا ينقضي ولا ينتهي ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وفيه وعيد شديد لمن عصى أوامر الله! ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك العصيان والعدوان فقال ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من الأوصاف القبيحة هم الذين استبدلوا الحياة الدنيا بالآخرة بمعنى اختاروها وآثروها على الآخرة ﴿فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ أي لا يُفْتَرَّ عنهم العذاب ساعة واحدة ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي وليس لهم ناصر ينصرهم، ولا مجير ينقذهم من عذاب الله الأليم.

تنبيه: كانت (بنو قريظة) و(بنو النضير) من اليهود، فحالفت بنو قريظة الأوس، وبنو النضير الخزرج، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق من اليهود مع حلفائه، فيقتل اليهودي أخاه اليهودي من الفريق الآخر، ويخرجونهم من بيوتهم، وينهبون ما فيها من الأثاث والمتاع والمال، وذلك حرام عليهم في دينهم وفي نص التوراة، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها أفتكوا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾^(١).

البلاغة: ١ - ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ خبرٌ في معنى النهي، وهو أبلغ من صريح النهي كما قال أبو السعود لما فيه من إبهام أن المنهَى حقه أن يسارع إلى الانتهاء فكأنه انتهى عنه، فجاء بصيغة الخبر وأراد به النهي^(٢).

٢ - ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ وقع المصدر موقع الصفة أي قولاً حسناً أو ذا حسنٍ للمبالغة فإن العرب تضع المصدر مكان اسم الفاعل أو الصفة بقصد المبالغة فيقولون: هو عدل.

٣ - التنكير في قوله ﴿خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ للتفخيم والتهويل.

٤ - ﴿تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ عبر عن قتل الغير بقتل النفس لأن من أراق دم غيره فكأنما أراق دم نفسه فهو من باب المجاز لأدنى ملازمة.

٥ - ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ﴾ الهمزة للإنكار التوبيخي.

الفوائد: الفائدة الأولى: جاء الترتيب في الآية بتقديم الأهم فالأهم، فقدّم حق الله تعالى لأنه المنعم في الحقيقة على العباد، ثم قدم ذكر الوالدين لحقهما الأعظم في تربية الولد، ثم القرابة لأن فيهم صلة الرحم وأجر الإحسان، ثم اليتامى لقلة حيلتهم، ثم المساكين لضعفهم ومسكنتهم.

الثانية: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ ولم يقل: وقولوا لإخوانكم أو قولوا للمؤمنين حسناً ليدل على أن الأمر بالإحسان عامٌ لجميع الناس، المؤمن والكافر، والبر والفاجر، وفي هذا حُصٌّ على

(١) «مختصر ابن كثير» ٨٥/١.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٩٦/١.

مكارم الأخلاق، بليغ الكلام، وبسط الوجه، والأدب الجميل، والخلق الكريم قال أحد الأدباء.
بُنِيَ إِنَّ الْبِرَّ شَيْءٌ هَيِّنٌ وَجَهٌ طَلِيقٌ وَلِسَانٌ لَيِّنٌ

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَتَ وَأَيْدَتْنَاهُ رُوحَ
الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا
قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ
وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى
الْكُفْرِينَ ﴿٨٩﴾ بَشَرًا أَشْرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِثْنَا إِيَّاهُ مِنْ فَضْلِهِ
عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ بَاءً مُبْعَضٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِيتٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ
قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيْنَتِ ثُمَّ
اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾

اللغة: ﴿الْكِتَابُ﴾ التوراة ﴿وَفَقَيْنَا﴾ أردفنا وأتبعنا وأصله من القفا يقال: قفاه إذا
أتبعه، وقفاه بكذا إذا أتبعه إياه ﴿الْبَيْنَتِ﴾ المعجزات الباهرات كإبراء الأكمه والأبرص،
وإحياء الموتى ﴿وَأَيْدَتْنَاهُ﴾ قويناه مأخوذ من الأيد وهو القوة ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ جبريل عليه السلام،
والقدس: الطهر والبركة ﴿تَهْوَى﴾ تحب من هوى إذا أحب ومصدره الهوى ﴿غُلْفٌ﴾ جمع
أغلف، والغلاف: الغطاء، يقال سيف أغلف إذا كان في غلافه، وقلب أغلف أي مستور عن
الفهم والتميز، مستعار من الأغلف الذي لم يختن ^(١) ﴿لَعَنَهُمُ﴾ أصل اللعن في كلام العرب:
الطرْدُ والإبعاد يقال: ذُب لعين أي مطرود مبعد والمراد: أقصاهم وأبعدهم عن رحمته
﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ يستنصرون من الاستفتاح وهو طلب الفتح أي النصر ﴿بَشَرًا﴾ أصلها
بش ما أي بش الذي، و«بش» فعل للذم، كما أن «نعم» للمدح ﴿بَعِثْنَا﴾ البغي: الحسد
والظلم، وأصله الفساد من بغى الجرح إذا فسد، قاله الأصمعي ^(٢) ﴿بَاءً مُبْعَضٍ﴾ رجعوا وأكثر ما
يستعمل في الشر ﴿مُهِيتٌ﴾ مخزٍ مذل مأخوذ من الهوان بمعنى الذل.

المناسبة: لا تزال الآيات تتحدث عن بني إسرائيل، وفي هذه الآيات الكريمة تذكير لهم
بضرب من النعم التي أمدهم الله بها ثم قابلوها بالكفر والإجرام، كعادتهم في مقابلة الإحسان
بالإساءة، والنعمة بالكفران والجحود.

التفسير: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي أعطينا موسى التوراة ﴿وَفَقَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾

(١) «الكشاف» ١/ ١٢٢.

(٢) «البحر المحيط» ١/ ٢٩٨.

بِالرُّسُلِ ﴿ أَيَاتُنَا وَأَرْسَلْنَا عَلَىٰ أَثَرِهِ الْكَثِيرِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ﴾
 أَيِ أُعْطَيْنَا عِيسَى الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالْمُعْجَزَاتِ الْوَاضِحَاتِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ نُبُوته ﴿ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ
 الْقُدُسِ ﴾ أَيِ قُوَيْنَاهُ وَشَدَدْنَا أَرْزَهُ بِجِبْرِيلَ ﷺ ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ ﴾
 أَيِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ رَسُولٌ بِمَا لَا يُوَافِقُ هَوَاكُمْ ﴿ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا
 تَقْتُلُونَ ﴾ أَيِ تَكْبَرْتُمْ عَنْ اتِّبَاعِهِ فَطَائِفَةٌ مِنْهُمْ كَذَبْتُمُوهُمْ، وَطَائِفَةٌ قَتَلْتُمُوهُمْ. . ثم أَخْبَرَ تَعَالَى
 عَنْ الْيَهُودِ الْمَعَاصِرِينَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَبَيَّنَّ ضَلَالَهُمْ فِي اقْتِدَائِهِمْ بِالْأَسْلَافِ فَقَالَ حِكَايَةُ عَنْهُمْ
 ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ أَيِ فِي أَكُنَّةٍ لَا تَفْقَهُ وَلَا تَعِي مَا يَقُولُهُ يَا مُحَمَّدٌ، وَالْغَرَضُ إِقْنَانُهُ ﷺ
 مِنْ إِيْمَانِهِمْ، قَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ ﴿ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ أَيِ طَرَدَهُمْ وَأَبْعَدَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ
 بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَضَلَالَتِهِمْ ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيِ قَلِيلٌ مِنْ يَوْمِنَ مِنْهُمْ، أَوْ يُؤْمِنُونَ إِيْمَانًا قَلِيلًا
 وَهُوَ إِيْمَانُهُمْ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَكُفْرُهُمْ بِالْبَعْضِ الْآخَرِ ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ
 لِمَا مَعَهُمْ ﴾ وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ خَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ، مُصَدِّقًا لِمَا فِي التَّوْرَةِ ﴿ وَكَانُوا
 مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا ﴾ أَيِ وَقَدْ كَانُوا قَبْلَ مَجِيئِهِ
 يَسْتَنْصِرُونَ بِهِ عَلَىٰ أَعْدَائِهِمْ وَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ انصِرْنَا بِالنَّبِيِّ الْمُبْعُوثِ آخِرِ الزَّمَانِ، الَّذِي نَجَدُ
 نَعْتَهُ فِي التَّوْرَةِ ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ أَيِ فَلَمَّا بَعَثَ مُحَمَّدٌ ﷺ الَّذِي عَرَفُوهُ
 حَقَّ الْمَعْرِفَةِ كَفَرُوا بِرِسَالَتِهِ ﴿ فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكُفْرَيْنِ ﴾ أَيِ لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْيَهُودِ الَّذِينَ كَفَرُوا
 بِخَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ ﴿ بِنَسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ﴾ أَيِ بِشَيْءٍ الْتَفَاهٍ الَّذِي بَاعَ بِهِ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ
 أَنْفُسَهُمْ ﴿ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ أَيِ كُفْرُهُمْ بِالْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ ﴿ بَغْيًا ﴾ أَيِ حَسَدًا
 وَطَلَبًا لِمَا لَيْسَ لَهُمْ ﴿ أَنْ يُزِيلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أَيِ حَسَدًا مِنْهُمْ لِأَجْلِ أَنْ
 يَنْزِلَ اللَّهُ وَحِيًّا مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَيُصْطَفِيهِ مِنْ خَلْقِهِ ﴿ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ أَيِ
 رَجَعُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ زِيَادَةً عَلَىٰ سَابِقِ غَضَبِهِ عَلَيْهِمْ ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِيتٌ ﴾ أَيِ وَلَهُمْ
 عَذَابٌ شَدِيدٌ مَعَ الْإِهَانَةِ وَالْإِذْلَالِ لِأَنْ كَفَرُوا بِسَبَبِ التَّكْبَرِ وَالْحَسَدِ فَقَبِلُوا بِالْإِهَانَةِ وَالصَّغَارِ
 ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ أَيِ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْقُرْآنِ وَصَدَّقُوهُ وَاتَّبِعُوهُ ﴿ قَالُوا
 نُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا ﴾ أَيِ يَكْفِينَا الْإِيْمَانُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا مِنَ التَّوْرَةِ ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ، وَهُوَ
 الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ﴾ أَيِ يَكْفُرُونَ بِالْقُرْآنِ مَعَ أَنَّهُ هُوَ الْحَقُّ مُوَافِقًا لِمَا مَعَهُمْ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ ﴿ قُلْ
 فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أَيِ قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ إِذَا كَانَ إِيْمَانُكُمْ بِمَا
 فِي التَّوْرَةِ صَحِيحًا فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ إِذَا كُنْتُمْ فَعَلًا مُؤْمِنِينَ؟ ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ
 مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أَيِ بِالْحُجُجِ الْبَاهِرَاتِ ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعُجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ أَيِ
 عِبَدْتُمُ الْعُجْلَ مِنْ بَعْدِ ذَهَابِهِ إِلَى الطُّورِ، وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ فِي هَذَا الصَّنِيعِ.

البَلَاغَةُ: ١ - تقديم المفعول في الموضعين ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾ و﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ للاهتمام

وتشويق السامع إلى ما يلقي إليه.

٢- التعبير بالمضارع ﴿وَفَرِحًا فَتَنُّوْا﴾ ولم يقل قتلتم كما قال كذبتم، لأن الفعل المضارع - كما هو المؤلف في أساليب البلاغة - يستعمل في الأفعال الماضية التي بلغت من الفضاة مبلغًا عظيمًا، فكأنه أحضر صورة قتل الأنبياء أمام السامع، وجعله ينظر إليها بعينه، فيكون إنكاره لها أبلغ، واستفطاعه لها أعظم.

٣ - وضع الظاهر مكان الضمير ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ولم يقل «عليهم» لِيُشْعِرَ بَأْنَ سبب حلول اللعنة هو كفرهم.

٤ - الخبر في قوله ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يراد به التبكيث والتوبيخ على عدم اتباع الرسول.

٥ - أسندت الإهانة إلى العذاب فقال: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ لأن الإهانة تحصل بعذابهم، ومن أساليب البيان إسناد الأفعال إلى أسبابها.

فائدة: قال الحسن البصري: إنما سمي جبريل «روح القدس» لأن القدس هو الله، وروحه جبريل، فالإضافة للتشريف، قال الرازي: ومما يدل على أن روح القدس جبريل قوله تعالى في سورة النحل: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الآية: ١٠٢].^(١)

قال الله تعالى:

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قُلْ إِنْ كَأَنْتُمْ لَكُمْ الذَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمْنُوا الْوَمُوتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾ وَلَنَجْذِثُنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْضَاهُ ۚ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾

المناسبة: هذه طائفة أخرى من جرائم اليهود، فقد نقضوا الميثاق حتى رفع جبل الطور عليهم وأمروا أن يأخذوا بما في التوراة، فأظهروا القبول والطاعة ثم عادوا إلى الكفر والعصيان، فعبدوا العجل من دون الله، وزعموا أنهم أحباب الله، وأن الجنة خالصة لهم من دون الناس لا يدخلها أحد سواهم، وعادوا الملائكة الأطهار وعلى رأسهم جبريل عليه السلام، وكفروا بالأنبياء والرسل، وهكذا شأنهم في سائر العصور والدهور.

(١) «محاسن التأويل» ١٨٦/٢.

اللغة: ﴿مِثْقَلُمْ﴾ الميثاق: العهد المؤكد يمين ﴿الطُّور﴾ هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى ﷺ ﴿يَقُوتٌ﴾ بعزم وجدّ ﴿وَأَشْرَبُوا﴾ أشرب: سُقي جعلت قلوبهم تشربه، يقال: أشرب قلبه حبّ كذا قال زهير:

فَصَحَوْتُ عَنْهَا بَعْدَ حُبِّ دَاخِلٍ وَالْحُبُّ تَشْرِبُهُ فَوَادَكَ دَاءٌ^(١)
 ﴿خَالِصَةٌ﴾ مصدر كالعافية والعاقبة بمعنى الخلوص أي خاصة بكم لا يشارككم فيها أحد ﴿أَحْرَصَ﴾ الحرص: شدة الرغبة في الشيء وفي الحديث «إِحْرَصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ»^(٢).
 ﴿يُمَرْحِجُهُ﴾ الزحزحة: الإبعاد والتنحية قال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْجَ عَنِ الْكَارِ﴾
 [آل عمران: ١٨٥] أي أبعد وقال الشاعر:

خَلِيلِي مَا بَالُ الدَّجَى لَا يَزْحَجُ وَمَا بَالُ ضَوْءِ الصُّبْحِ لَا يَتَوَضَّحُ
التفسير: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا عليكم العهد المؤكد على العمل بما في التوراة، ورفعنا فوقكم جبل الطور قائلين: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أي بعزم وحزم وإلا طرحنا الجبل فوقكم ﴿وَأَسْمِعُوا﴾ أي سماع طاعة وقبول ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي سمعنا قولك، وعصينا أمرك ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ أي خالط حبه قلوبهم، وتغلغل في سويدائهم والمراد أن حب عبادة العجل امتزج بدمائهم ودخل في قلوبهم، كما يدخل الصبغ في الثوب، والماء في البدن ﴿يَكْفُرِهِمْ﴾ أي بسبب كفرهم ﴿قُلْ يَسْكَايَا مُرْكُم بِهِ إِيْمَنُكُمْ﴾ أي قل لهم على سبيل التهكم بهم بس هذا الإيمان الذي يأمركم بعبادة العجل ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم تزعمون الإيمان فبئس هذا العمل والصنيع والمعنى: لستم بمؤمنين لأن الإيمان لا يأمر بعبادة العجل ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ الْدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ أي قل لهم يا محمد إن كانت الجنة لكم خاصة لا يشارككم في نعيمها أحد كما زعمتم ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي اشتاقوا الموت الذي يوصلكم إلى الجنة، لأن نعيم هذه الحياة لا يساوي شيئاً إذا قيس بنعيم الآخرة. ومن أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها قال تعالى راداً عليهم تلك الدعوة الكاذبة ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي لن يتمنوا الموت ما عاشوا بسبب ما اجترحوه من الذنوب والآثام ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي عالم بظلمهم وإجرامهم وسيجازيهم على ذلك ﴿وَلَنَجْذِثَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي ولتجذب اليهود أشد الناس حرصاً على الحياة، وأحرص من المشركين أنفسهم، وذلك لعلمهم بأنهم صائرون إلى النار لإجرامهم ﴿يَوْمَ أَخَذْتُمُ لَوِيعَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي يتمنى الواحد منهم أن يعيش ألف سنة

(١) «القرطبي» ٣١/٢.

(٢) (ش): رواه مسلم.

﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزٍهُ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ أي وما طول العمر - مهما عمر - بمبعده ومنجيه من عذاب الله ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي مطلع على أعمالهم فيجازيهم عليها ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ أي قل لهم يا محمد من كان عدوًّا لجبريل فإنه عدو لله، لأن الله جعله واسطة بينه وبين رسله فمن عاداه فقد عادى الله ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي فإن جبريل الأمين نزل هذا القرآن على قلبك يا محمد بأمر الله تعالى ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيَّنَّ يَدِيهِ﴾ أي مصدقًا لما سبقه من الكتب السماوية ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وفيه الهداية الكاملة، والبشارة السارة للمؤمنين بجنات النعيم ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ أي من عادى الله وملائكته ورسله، وعادى على الوجه الأخص «جبريل وميكائيل» فهو كافر عدو لله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ لأن الله يبغض من عادى أحدًا من أوليائه، ومن عاداهم عاداه الله، ففيه الوعيد والتهديد الشديد.

سَبَبُ التَّرْوِل: روي أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: إنه ليس نبيٌّ من الأنبياء إلا يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة وبالوحي، فمن صاحبك حتى نتابعك؟ قال: جبريل قالوا: ذاك الذي ينزل بالحرب وبالقتال ذاك عدونا! لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالقطر وبالرحمة تابعنك فأنزل الله ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ ^(١) الآية.

البلاغه: ١ - ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعَجَلَ﴾ فيه استعارة مكنية، شبه حبَّ عبادة العجل بمشروب لذيق سائغ الشراب، وطوى ذكر المشبه به ورمز بشيء من لوازمه وهو الإشراب على طريق الاستعارة المكنية، قال في «تلخيص البيان»: «وهذه استعارة والمراد وصف قلوبهم بالمبالغة في حب العجل فكانها تشربت حبة فمازجها ممازجة المشروب، وخالطها مخالطة الشيء المملوذة» ^(٢).

٢ - ﴿قُلْ بِسْمَايَا مُرْكُم بِهِ إِيمَنُكُمْ﴾ إسناد الأمر إلى الإيمان تهكم بهم كقوله: ﴿أَصَلُّوْا تَأْمُرُكُمْ﴾ [هود: ٨٧] وكذلك إضافة الإيمان إليهم، أفاده الزمخشري.

٣ - التنكير في قوله ﴿عَلَى حَيَوتٍ﴾ للتنبيه على أن المراد بها حياة مخصوصة، وهي الحياة المتطاولة التي يعمر فيها الشخص آلاف السنين.

٤ - ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ الجملة واقعة في جواب الشرط وجيء بها اسمية لزيادة التقبيح لأنها تفيد الثبات، ووضع الظاهر موضع الضمير فقال: ﴿عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ بدل (عدو لهم) لتسجيل صفة الكفر عليهم، وأنهم بسبب عداوتهم للملائكة أصبحوا من الكافرين.

٥ - ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ وجاء بعد ذكر الملائكة فهو من باب ذكر الخاص بعد العام

(١) رواه الترمذي وانظر «القرطبي» ٣٦/٢. (ش): صحيح، ورواه أيضًا الإمام أحمد في «المُسْنَدِ».

(٢) «تلخيص البيان» للشريف الرضوي ص ٩.

للتشريف والتعظيم.

الفوائد: الأولى: ليس معنى السمع في قوله ﴿وَأَسْمَعُوا﴾ إدراك القول فقط، بل المراد سماع ما أمروا به في التوراة سماع تدبير وطاعة والتزام فهو مؤكد ومقرر لقوله ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾.

الثانية: خصّ القلب بالذكر ﴿نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ لأنه موضع العقل والعلم وتلقي المعارف كما قال تعالى ﴿هُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦].

الثالثة: الحكمة في الإتيان هنا بـ «لن» ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ وفي الجمعة بـ «لا» ﴿وَلَا يَمْنُونَهُ أَبَدًا﴾ [الآية: ٧] أن ادعاءهم هنا أعظم من ادعائهم هناك، فإنهم ادعوا هنا اختصاصهم بالجنة، وهناك كونهم أولياء الله من دون الناس، فناسب هنا التوكيد بـ «لن» المفيدة للنفي في الحاضر والمستقبل، وأما هناك فاكتمى بالنفي^(١).

الرابعة: الآية الكريمة من المعجزات لأنها إخبار بالغيب وكان الأمر كما أخبر، ويكفي في تحقق هذه المعجزة أن لا يقع تمنى الموت من اليهود الذين كانوا في عصره ﷺ وفي الحديث الشريف «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار»^(٢).

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ أَوْكَلِمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنٍ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِن أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ وَلَئِنَّ سِكْرَآءَهُمْ لَوِ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى ما جبل عليه اليهود، من خبث السريرة ونقض العهود، والتكذيب لرسول الله ومعاداة أوليائه، حتى انتهى بهم الحال إلى عداوة السفير بين الله وبين خلقه وهو «جبريل» الأمين ﷺ، أعقب ذلك بيان أن من عادة اليهود عدم الوفاء بالعقود، وتكذيب الرسل، واتباع طرق الشعوذة والضلال، وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ حيث سلكوا معه هذه

(١) الصاوي على الجلالين ٤٩/١.

(٢) «القرطبي» ٣٢/٢. (ش): رواه البزار وابن جرير، وصححه الألباني.

الطريقة، في عدم الأخذ بما انطوى عليه كتاب الله من التبشير ببعثة السراج المنير، وإلزامهم الإيمان به واتباعه، فنبذوا الكتاب وراء ظهورهم، واتبعوا ما ألقى إليهم الشياطين من كتب السحر والشعوذة، ونسبوا إلى سليمان عليه السلام وهو منها بريء، وهكذا حالهم مع جميع الرسل الكرام، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات.

اللغة: ﴿نَبَذَ﴾ النَّبَذُ: الطَّرْحُ وَالْإِلْقَاءُ، ومنه سمي اللقيط منبذاً لأنه يُنبَذُ على الطريق قال الشاعر:

إِنَّ الَّذِينَ أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعْدِلُوا نَبَذُوا كِتَابَكَ وَاسْتَحَلُّوا الْمَحْرَمَ ^(١)
﴿تَنَلُّوْا﴾ تحدث وتروي من التلاوة بمعنى القراءة، أو من التلاوة بمعنى الإتيان قال «الطبري»: ولقول الفائل: «هو يتلو كذا» في كلام العرب معنيان: أحدهما الإتيان كما تقول: تلوت فلاناً إذا مشيت خلفه وتبعته أثره، والآخر: القراءة والدراسة كقولك: فلان يتلو القرآن أي يقرؤه ^(٢) ﴿السَّحَرُ﴾ قال الجوهري: كل ما لطف مأخذه ودق فهو سحر، وسحره أيضاً بمعنى خدعه ^(٣) وفي الحديث «إن من البيان لسحراً» ^(٤) ﴿فَتَنَةٌ﴾: الإبتلاء والإختبار ومنه قولهم: فتنت الذهب إذا امتحنته بالنار لتعرف سلامته أو غشه ﴿حَلَقِي﴾ الخلاق: النصيب قال الزجاج: هو النصيب الوافر من الخير، وأكثر ما يستعمل في الخير ﴿لَمْثُوبَةٌ﴾: المثوبة: الثواب والجزاء.

التفسير: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي والله لقد أنزلنا إليك يا محمد آيات واضحة دالات على نبوتك ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ أي وما يجحد بهذه الآيات ويكذب بها إلا الخارجون عن الطاعة الماردون على الكفر ﴿أَوْ كَلَّمَا عَلَيْهِمْ عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ أي يكفرون بالآيات وهي في غاية الوضوح وكلما أعطوا عهداً نقضه جماعة منهم؟ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي بل أكثر اليهود لا يؤمن بالتوراة الإيمان الصادق، لذلك ينقضون العهود والمواثيق ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وهو محمد عليه السلام ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ أي مصدقاً للتوراة وموافقاً لها في أصول الدين ومقرراً لنبوة موسى عليه السلام ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ أي طرح أحبارهم وعلماءهم التوراة وأعرضوا عنها بالكلية لأنها تدل على نبوة محمد عليه السلام فجحدوا وأصروا على إنكار نبوته ﴿كَانَتْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي كأنهم لا يعلمون من دلائل نبوته شيئاً ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾ أي اتبعوا طرق السحر والشعوذة التي كانت تحدثهم بها

(١) «القرطبي» ٤٠ / ٢.

(٢) «الطبري» ٤٠٧ / ٢.

(٣) «الصحيح للجوهري».

(٤) (ش): رواه البخاري. و(البيان): الفصاحة.

الشياطين في عهد ملك سليمان ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾ أي وما كان سليمان ساحراً ولا كفر بتعلمه السحر ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ أي ولكن الشياطين هم الذين علموا الناس السحر حتى فشا أمره بين الناس ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ أي وكما اتبع رؤساء اليهود السحر كذلك اتبعوا ما أنزل على الملكين وهما هاروت وماروت بمملكة بابل بأرض الكوفة، وقد أنزلهما الله ابتلاءً وامتحاناً للناس ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي إن الملكين لا يعلمان أحداً من الناس السحر حتى يبذلا له النصيحة ويقولان إن هذا الذي نَصِفُه لك إنما هو امتحان من الله وابتلاء، فلا تستعمله للإضرار ولا تكفر بسببه، فمن تعلمه ليدفع ضرره عن الناس فقد نجا، ومن تعلمه ليلحق ضرره بالناس فقد هلك وضل^(١).. قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ أي يتعلمون منهما من علم السحر ما يكون سبباً في التفريق بين الزوجين، فبعد أن كانت المودة والمحبة بينهما يصبح الشقاق والفراق ﴿وَمَا هُمْ بِضَآئِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ﴾ أي وما هم بما استعملوه من السحر يضررون أحداً إلا إذا شاء الله ﴿وَيَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ أي والحال أنهم بتعلم السحر يحصلون على الضرر لا على النفع ﴿وَلَقَدْ عَلَّمُوا لِمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ أي ولقد علم اليهود الذين نبذوا كتاب الله واستبدلوا به السحر، أنهم ليس لهم حظ من رحمة الله ولا من الجنة لأنهم أثروا السحر على كتاب الله ﴿وَلَيْسَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولبس هذا الشيء الذي باعوا به أنفسهم لو كان لهم علم أو فهم وإدراك ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَآتَقَوْا﴾ أي ولو أن أولئك الذين يتعلمون السحر آمنوا بالله وخافوا عذابه ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي لأثابهم الله ثواباً أفضل مما شغلوا به أنفسهم من السحر، الذي لا يعود عليهم إلا بالويل والخسار والدمار.

سَبَبُ النُّزُول: لما ذكر رسول الله ﷺ سليمان في المرسلين، قال بعض أحبار اليهود: ألا تعجبون لمحمد يزعم أن ابن داود كان نبياً!! والله ما كان إلا ساحراً فنزلت هذه الآية ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾^(٢).

البَلَاغَةُ: ١ - ﴿رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ التنكير للتفخيم ووصف الرسول بأنه آتٍ من عند الله

(١) (ش): لا يجوز تعلّم السحر ليحل به السحر أو لمقاصد أخرى، بل هو من نواقض الإسلام، لأنه لا يمكن تعلمه إلا بالوقوع في الشرك، وذلك بعبادة الشياطين من الذبح لهم، والنذر لهم، ونحو ذلك من أنواع العبادة، والذبح والتقرب إليهم بما يحبون حتى يخدموه بما يحب. ولا يجوز استخدام السحر لأي مقصد من المقاصد، حسناً كان أم سيئاً، لأن السحر من أعظم الموبقات، فلا يجوز تعلمه ولا تعليمه ولا تعاويه، لأن النبي ﷺ قد نهى عن ذلك وحذر منه أشد التحذير، ورتب عليه أشد أنواع الوعيد وهو الحكم بكفر من يفعل ذلك.

(٢) «زاد المسير» ١/ ١٢٠، و«القرطبي» ٢/ ٤١. (ش): أخرجه ابن جرير في «جامع البيان»، وسنده ضعيف جداً.

لإفادة مزيد التعظيم.

٢ - ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ مثل يُضْرَب للإعراض عن الشيء جملةً تقول العرب: جعل هذا الأمر وراء ظهره أي تولى عنه معرضاً، لأن ما يجعل وراء الظهر لا ينظر إليه، فهو كناية عن الإعراض عن التوراة بالكلية.

٣ - ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ هذا جارٍ على الأسلوب المعروف في فنون البلاغة، من أن العالم بالشيء إذا لم يجر على موجب علمه قد ينزل منزلة الجاهل به، وينفى عنه العلم كما ينفى عن الجاهلين.

٤ - ﴿لَمُتَوْبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ جيء بالجملة الاسمية بدل الفعلية للدلالة على الشبوت والاستقرار.

فائدة: الحكمة من تعليم الملوك الناس السحر، أن السحرة كثروا في ذلك العهد واخترعوا فنوناً غريبة من السحر، وربما زعموا أنهم أنبياء، فبعث الله تعالى الملوك ليعلموا الناس وجوه السحر حتى يتمكنوا من التمييز بينه وبين المعجزة، ويعرفوا أن الذين يدعون النبوة كذباً إنما هم سحرة لا أنبياء^(١).

قال الله تعالى:

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَحْدُثْهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

المناسبة: لما ذكر تعالى قبائح اليهود، وما اختصوا به من ضروب السحر والشعوذة، أعقبه ببيان نوع آخر من السوء والشر، الذي يضمرونه للنبي ﷺ والمسلمين، من الطعن والحقْد والحسد، وتمني زوال النعمة عن المؤمنين، واتخاذهم الشريعة الغراء هدفاً للطعن والتجريح بسبب النسخ لبعض الأحكام الشرعية.

(١) (ش): لم أجد روايات ثابتة تدل على ذلك.

اللغة: ﴿رَعَيْنَا﴾ من المراعاة وهي الإنظار والإمهال، وأصلها من الرعاية وهي النظر في مصالح الإنسان، وقد حرفها اليهود فجعلوها كلمة مسبة مشتقة من الرعونة وهي الحُمق ولذلك نهي عنها المؤمنون ﴿أَنْظُرْنَا﴾ من النظر والإنظار تقول: نظرتُ الرجل إذا انتظرته وارتقبته أي انتظرنا وتأنَّ بنا ﴿يُودُّ﴾ يتمنى ويحب ﴿نَنْسَخُ﴾ النسخ في اللغة: الإبطال والإزالة يقال: نسخت الشمس الظل أي أزالته وفي الشرع: رفع حكم شرعي وتبديله بحكم آخر ﴿نُنْسِهَا﴾ من أنسى الشيء جعله منسياً فهو من النسيان الذي هو ضد الذكر أي نمحها من القلوب ﴿وَلِيَّ﴾ الولي: من يتولى أمور الإنسان ومصلحته ﴿نَصِيرُ﴾ النصير: المعين مأخوذ من قولهم نصره إذا أعانه ﴿أَمْ﴾ بمعنى بل وهي تفيد الانتقال من جملة إلى جملة كقوله: تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ [يونس: ٣٨] أي بل يقولون ﴿يَتَّبَدَّلُ﴾ يقال: بدَّل وتبدل واستبدل أي جعل شيئاً موضع آخر، وتبدل الكفر بالإيمان معناه أخذه بدل الإيمان ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي وسط الطريق، والسواء من كل شيء: الوسط، والسبيل معناه الطريق ﴿فَاعْفُوا﴾ العفو: ترك المؤاخذه على الذنب ﴿وَأَصْفَحُوا﴾ والصفح: ترك التأنيب عنه.

سَبَبُ النُّزُول: روي أن اليهود قالوا: ألا تعجبون لأمر محمد؟ أمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً، فما هذا القرآن إلا كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه، يناقض بعضه بعضاً فنزلت ^(١) ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ ^(٢).

التفسير: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ هذا نداء الله جل شأنه للمؤمنين يخاطبهم فيه فيقول ﴿لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا﴾ أي راقبنا وأمهلنا حتى نتمكن من حفظ ما تلقينه علينا ﴿وَقُولُوا أَنْظُرْنَا﴾ أي انتظرنا وارتقبنا ﴿وَأَسْمِعُوا﴾ أي أطيعوا وأوامر الله ولا تكونوا كاليهود حيث قالوا سمعنا وعصينا ﴿وَاللَّكَفْرِ بَرِئَ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ أي ولليهود الذين نالوا من الرسول وسبوه، عذاب أليم موجع ﴿مَا يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي ما يحب الكافرون من اليهود والنصارى ولا المشركون أن ينزل عليكم شيء من الخير، بغضاً فيكم وحسداً لكم ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يختص بالنبوة والوحي والفضل والإحسان. من شاء من عباده ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ والله واسع الفضل والإحسان ثم قال تعالى ردّاً على اليهود حين طعنوا في القرآن بسبب النسخ: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾ أي ما نبطل من حكم آية فنغيره بآخر أو ننسها يا محمد أي نمحها من قلبك ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ أي نأت بخير لكم منها أيها المؤمنون بما هو أنفع لكم في العاجل أو الآجل، إما برفع المشقة عنكم، أو بزيادة الأجر والثواب لكم ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ

(١) «الكشاف» ١/ ١٣١. (ش): رواه الواحدي في «أسباب النزول» بدون سند.

(٢) انظر حكمة النسخ وتفصيل أحكامه في كتابنا «روائع البيان» ١/ ١٠٠.

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ أَي أَلَمْ تَعْلَمْ أَيُّهَا الْمَخَاطَبُ أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ قَدِيرٌ، لَا يَصْدُرُ مِنْهُ إِلَّا كُلُّ خَيْرٍ وَإِحْسَانٍ لِلْعِبَادِ! ﴿٢﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿٣﴾ أَي أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ فِي شَيْئِ الْخَلْقِ يَحْكُمُ بِمَا شَاءَ وَيَأْمُرُ بِمَا شَاءَ؟ ﴿٤﴾ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٥﴾ أَي مَا لَكُمْ وَلِيٌّ يَرْعَى شَيْئَكُمْ أَوْ نَاصِرٌ يَنْصُرُكُمْ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ نَعْمُ النَّاصِرُ وَالْمَعِينُ ﴿٦﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ﴿٧﴾ أَي بَلْ أَتْرِيدُونَ يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَسْأَلُوا نَبِيَّكُمْ كَمَا سَأَلَ قَوْمُ مُوسَى نَبِيَّهُمْ مِنْ قَبْلِ وَيَكُونُ مِثْلُكُمْ مِثْلَ الْيَهُودِ الَّذِينَ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَاءَهُمْ مِنَ اللَّهِ جَهْرَةٌ ﴿٩﴾ [النساء: ١٥٣] فَتَضَلُّوا كَمَا ضَلُّوا ﴿١٠﴾ وَمَنْ يَتَّبِدِلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ ﴿١١﴾ أَي يَسْتَبْدِلُ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَيَأْخُذُ الْكُفْرَ بِدَلِّ الْإِيمَانِ ﴿١٢﴾ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٣﴾ أَي فَقَدْ حَادَ عَنْ الْجَادَةِ وَخَرَجَ عَنِ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ ﴿١٤﴾ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴿١٥﴾ أَي تَمْنَى كَثِيرٌ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ﴿١٦﴾ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا ﴿١٧﴾ أَي لَوْ يَصِيرُونَكُمْ كُفَّارًا بَعْدَ أَنْ آمَنْتُمْ ﴿١٨﴾ حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴿١٩﴾ أَي حَسَدًا مِنْهُمْ لَكُمْ حَمَلَتْهُمْ عَلَيْهِ أَنْفُسُهُمُ الْخَبِيثَةُ ﴿٢٠﴾ مِّنْ بَعْدِ مَا نَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴿٢١﴾ أَي مِنْ بَعْدِ مَا ظَهَرَ لَهُمْ بِالْبُرَاهِينِ السَّاطِعَةِ أَنَّ دِينَكُمْ هُوَ الْحَقُّ ﴿٢٢﴾ فَأَعْفُوا وَاصْفَحُوا ﴿٢٣﴾ أَي أَتَرْكُوهُمْ وَأَعْرَضُوا عَنْهُمْ فَلَا تَوَاضَعُوا لَهُمْ ﴿٢٤﴾ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ﴿٢٥﴾ أَي حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ لَكُمْ بِقِتَالِهِمْ ﴿٢٦﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٧﴾ أَي قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَيَنْتَقِمُ مِنْهُمْ إِذَا حَانَ الْأَوَانُ ﴿٢٨﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴿٢٩﴾ أَي حَافِظُوا عَلَى عَمُودِي الْإِسْلَامِ وَهُمَا «الصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ» وَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِالْعِبَادَةِ الْبَدَنِيَّةِ وَالْمَالِيَّةِ ﴿٣٠﴾ وَمَا نَقُذُّمُوْا لِأَنْفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ﴿٣١﴾ أَي مَا تَقَرَّبُوا بِهِ إِلَى اللَّهِ مِنْ صَلَاةٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ عَمَلٍ صَالِحٍ فَرَضًا كَانَ أَوْ تَطَوُّعًا تَجِدُوا ثَوَابَهُ عِنْدَ اللَّهِ ﴿٣٢﴾ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٣﴾ أَي رَقِيبٌ عَلَيْكُمْ مُطَّلِعٌ عَلَى أَعْمَالِكُمْ فَيَجَازِيكُمْ عَلَيْهَا يَوْمَ الدِّينِ.

البَلَاغَةُ: ١ - الإضافة في قوله ﴿مِّنْ رَبِّكُمْ﴾ للتشريف. وفيها تذكير للعباد بتربته لهم.
٢ - تصدير الجملتين بلفظ الجلالة ﴿وَاللَّهُ يَخْنُصُ﴾ ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ للإيدان بفخامة الأمر.

٣ - ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ الاستفهام للتقرير والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

٤ - وضع الإسم الجليل موضع الضمير ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ ﴿مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ لترتبة الروعة والمهابة في النفوس.

٥ - ﴿ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ من إضافة الصفة للموصوف أي الطريق المستوي، وفي التعبير به نهاية التبكيت والتشنيع لمن ظهر له الحق فعدل عنه إلى الباطل.

الفوائد: الأولى: خاطب الله المؤمنين بقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ في ثمانية

وثمانين موضعاً من القرآن، وهذا أول خطاب خوطب به المؤمنون في هذه السورة بالنداء الدال على الإقبال عليهم، ونداء المخاطبين بإسم المؤمنين يذكرهم بأن الإيمان يقتضي من صاحبه أن يتلقى أوامر الله ونواهيه بحسن الطاعة والامتثال.

الثانية: نهي المسلمون أن يقولوا في خطاب النبي عليه الصلاة والسلام: ﴿رَاعِنَا﴾ وأمروا بأن يقولوا مكانها ﴿أَنْظَرْنَا﴾ وفي ذلك تنبيه لأدب جميل هو أن الإنسان يتجنب في مخاطبته الألفاظ التي توهم الجفاء أو التنقيص في مقام يقتضي إظهار المودة أو التعظيم.

الثالثة: كانت اليهود تستعمل كلمة ﴿رَاعِنَا﴾ يعنون بها المسبة والشتيمة وروى أن سعد ابن معاذ سمعها منهم فقال: يا أعداء الله عليكم لعنة الله والذي نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله لأضربن عنقه فقالوا: أولستم تقولونها؟ فنزلت هذه الآية ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا أَنْظَرْنَا﴾^(١).

قال الله تعالى:

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِعَ عَلَيْهِ ﴿١١٥﴾

المناسبة: في هذه الآيات الكريمة بيان آخر لأباطيل أهل الكتاب، حيث ادعى كل من الفريقين اليهود والنصارى أن الجنة خاصة به وطعن في دين الآخر، فاليهود يعتقدون بكفر النصارى وضلالهم، ويكفرون بعیسی وبالإنجيل، والنصارى يعتقدون بكفر اليهود لعدم إيمانهم بالمسيح وقد جاء لإتمام شريعتهم، ونشأ عن هذا النزاع عداوة اشتدت بها الأهواء حتى صار كل فريق يطعن في دين الآخر ويزعم أن الجنة وقف عليه، فأكذب الله الفريقين، وبيّن أن الجنة إنما يفوز بها المؤمن التقي الذي عمل الصالحات.

اللغة: ﴿هُودًا﴾ أي يهودًا جمع هائد، والهائد: التائب الراجع مشتق من هاد إذا تاب ﴿إِنَّا هَدَيْنَا إِلَيْكَ﴾، ﴿أَمَانِيُّهُمْ﴾ جمع أمانة وهي ما يتمناه الإنسان ويشتهي، ﴿بُرْهَانَكُمْ﴾ البرهان: الدليل والحجة الموصلان إلى اليقين، ﴿أَسْلَمَ﴾ استسلم وخضع، ﴿خَرَابِهَا﴾

(١) (ش): عزاه السيوطي في «الباب النقول» لأبي نعيم في «الدلائل» وقال: «هذا السند واه». وفيه أن الصحابي هو سعد بن عبادة وليس سعد بن معاذ.

الخراب: الهدم والتدمير وهو حَسِيٌّ كتخريب بيوت الله، ومعنوي كتعطيل إقامة الشعائر فيها، ﴿خَزْيٌ﴾ هوانٌ وذلة، ﴿فَتَمَّ﴾ بفتح التاء أي هناك ظرفٌ للمكان ﴿وَجْهَ اللَّهِ﴾ الوجه: الجهة والمراد بوجه الله: الجهة التي إرتضاها وأمر بالتوجه إليها.

سَبَبُ النُّزُول: عن ابن عباس قال: لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار اليهود فتنازعوا عند رسول الله ﷺ فقال رافع بن حرملة: ما أنتم على شيء وكفر بعيسى وبالإنجيل، وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء ووجد نبوة موسى وكفر بالتوراة فأنزل الله ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ﴾^(١) الآية^(٢).

التفسير: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى﴾ أي قال اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديًا، وقال النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيًا ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ أي تلك خيالاتهم وأحلامهم ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي قل لهم يا محمد أتتوني بالحجة الساطعة على ما تزعمون إن كنتم صادقين في دعوكم ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أي بلى يدخل الجنة من استسلم وخضع وأخلص نفسه لله ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي وهو مؤمن مصدق متبع لرسول الله ﷺ ﴿فَلَهِ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي فله ثواب عمله ولا خوف عليهم في الآخرة ولا يعترهم حزنٌ أو كدر بل هم في نعيم مقيم ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ﴾ أي كفر اليهود بعيسى وقالوا ليس النصارى على دين صحيح معتد به فدينهم باطل ﴿وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ أي وقال النصارى في اليهود مثل ذلك وكفروا بموسى ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أي والحال أن اليهود يقرءون التوراة والنصارى يقرءون الإنجيل فقد كفروا عن علم ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي كذلك قال مشركو العرب مثل قول أهل الكتاب قالوا: ليس محمد على شيء ﴿قَالَهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي يحكم بين اليهود والنصارى ويفصل بينهم بقضائه العادل فيما اختلفوا فيه من أمر الدين ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ استنكار واستبعاد لأن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك أي لا أحد أظلم ممن منع الناس من عبادة الله في بيوت الله، وعمل لخرابها بالهدم كما فعل الرومان ببيت المقدس، أو بتعطيلها من العبادة كما فعل كفار قريش^(٣) ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ أي ما ينبغي لأولئك أن يدخلوها إلا وهم في خشية وخضوع فضلاً عن التجرؤ على تخريبها أو تعطيلها ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي لأولئك المذكورين هوانٌ وذلة في الدنيا ﴿وَلَهُمْ فِي

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ١٠٨.

(٢) (ش): أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» بسند ضعيف.

(٣) (ش): أي كما فعل كفار قريش ببيت الله الحرام.

الْآخِرَةَ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ وهو عذاب النار.

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أي الله مكان شروق الشمس ومكان غروبها والمراد جميع الأرض ﴿فَأَيْنَمَا تُولُونَ﴾ فثم وجه الله ﴿أي إلى أي جهة توجهتم بأمره فهناك قبلته التي رضيها لكم، وقد نزلت الآية فيمن أضعاف جهة القبلة^(١)﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ وَسِعُ عِلْمُهُ﴾ أي يسع الخلق بالجلود والإفضال، عليهم بتدبير شؤونهم، لا تخفى عليه خافية من أحوالهم.

البلاغة: ١ - ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ الجملة اعتراضية وفائدتها بيان بطلان الدعوى وأنها دعوى كاذبة.

٢ - ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ الأمر هنا للتبكيك والتفريع.

٣ - ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ خص الوجه بالذكر لأنه أشرف الأعضاء والوجه هاهنا (استعارة) أي من أقبل على عبادة الله وجعل توجهه إليه بجملته^(٢).

٤ - ﴿عِنْدَ رَبِّي﴾ العندية للتشريف ووضع اسم الرب مضافاً إلى ضمير من أسلم موضع ضمير الجلالة لإظهار مزيد اللطف به.

٥ - ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيه توبيخ عظيم لأهل الكتاب لأنهم نظموا أنفسهم - مع علمهم - في سلك من لا يعلم أصلاً.

٦ - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الاستفهام بمعنى النفي أي لا أحد أظلم منه.

٧ - ﴿فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ التنكير للتهويل أي خزي هائل فطبع لا يكاد يوصف لهوله.

٨ - ﴿عَلِيمٌ﴾ صيغة فعيل للمبالغة. أي واسع العلم.

فائدة: قال الإمام الفخر: إسلام الوجه لله يعني إسلام النفس لطاعة الله وقد يكنى بالوجه عن النفس كما قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] وقال زيد بن نفييل.

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ لَهُ الْأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقَالًا
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ لَهُ الْمُزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زُلَالًا^(٣)

(١) (ش:) عَنْ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ، فَلَمْ نَذَرِ أَيْنَ الْقِبْلَةُ، فَصَلَّى كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا عَلَى حَيْالِهِ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا ذَكَرْنَا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَنَزَلَ: ﴿فَأَيْنَمَا تُولُونَ﴾ فثم وجه الله ﷻ. (رواه الترمذي، وحسنه الألباني). وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي وَهُوَ مُقْبِلٌ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ عَلَى رَاحِلَتِهِ حَيْثُ كَانَ وَجْهَهُ، قَالَ: وَفِيهِ نَزَلَتْ ﴿فَأَيْنَمَا تُولُونَ﴾ فثم وجه الله ﷻ [البقرة: ١١٥].»

(٢) «تلخيص البيان» ص ١٠.

(٣) التفسير الكبير ٤/ ٤.

(ش:) تأويل الوجه بالذات تأويل باطل؛ لأنه نفى لصفة ثابتة لله تعالى.

قال الله تعالى:

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَنِينٌ ﴿١٣٦﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١٣٩﴾ وَلَن رَّضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ وَلَئِن أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٤٠﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٤١﴾ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٤٣﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى افتراء اليهود والنصارى أن الجنة خاصة بهم لا يشاركون فيها أحد أعقبه بذكر بعض قبائحهم وقبائح المشركين في ادعائهم أن لله ولدا حيث زعم اليهود أن عزيزاً ابن الله، وزعم النصارى أن المسيح ابن الله، وزعم المشركون أن الملائكة بنات الله فأكذبهم الله وردّ دعواهم بالحجة الدامغة والبرهان القاطع.

اللغة: ﴿سُبْحَنَهُ﴾ سبّحان مصدر سبّح بمعنى نزه ومعناه التبرئة والتنزيه عما لا يليق بجلاله تعالى ﴿قَنِينٌ﴾ مطيعون خاضعون من القنوت وهو الطاعة والخضوع ﴿بَدِيعٌ﴾ البديع: المبدع من الإبداع، والإبداع: اختراع الشيء على غير مثال سبق ﴿قَضَىٰ﴾ أراد وقدر ﴿بَشِيرًا﴾ البشير: المبشّر وهو المخبر بالأمر الصادق السار ﴿وَنَذِيرًا﴾ النذير: المنذر وهو المخبر بالأمر المخوف ليحذر منه ﴿الْجَحِيمِ﴾ المتأجج من النار ﴿مِلَّتَهُمْ﴾ أي دينهم وجمعها ملل وأصل الملة: الطريقة المسلوكة ثم جعلت اسماً للشيعة التي أنزلها الله ﴿عَدْلٌ﴾ فداء.

التفسير: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ هو قول اليهود والنصارى والمشركين فاليهود قالوا: عزيز ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، والمشركون قالوا: الملائكة بنات الله فأكذب الله الجميع في دعواهم فقال: ﴿سُبْحَنَهُ﴾ أي تقدس وتزّه عما زعموا تنزهاً بليغاً ﴿بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بل للإضراب أي ليس الأمر كما زعموا بل هو خالق جميع الموجودات التي من جملتها عزيز والمسيح والملائكة ﴿كُلُّ لَّهُ قَنِينٌ﴾ أي الكل منقادون له لا يستعصي شيء منهم على تكوينه وتقديره ومشيتته ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي إذا أراد إيجاد شيء حصل من غير امتناع ولا مهلة فمتى أراد شيئاً وجد بلمح البصر، فمراده نافذ وأمره لا يتخلف ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القم: ٥٠] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ المراد بهم جهلة

المشركين وهم كفار قريش ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ أي هلا يكلمنا الله مشافهة أو بإنزال الوحي علينا بأنك رسوله ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ أي تكون برهاناً وحجة على صدق نبوتك، قالوا ذلك استكباراً وعناداً ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي مثل هذا الباطل الشنيع قال المكذبون من أسلافهم لرسولهم ﴿تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي قلوب هؤلاء ومن قبلهم في العمى والعناد والتكذيب للأنبياء وفي هذا تسلية له ﷺ ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي قد وضحنا الأدلة وأقمنا البراهين لقوم يطلبون الحق واليقين، وكلها ناطقة بصدق ما جئت به. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي أرسلناك يا محمد بالشرعية النيرة والدين القويم بشيراً للمؤمنين بجنات النعيم، ونذيراً للكافرين من عذاب الجحيم ﴿وَلَا تُشْغَلْ عَنْ أَحْبَابِ الْجَحِيمِ﴾ أي أنت لست مسئولاً عمن لم يؤمن منهم بعد أن بذلت الجهد في دعوتهم ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] ﴿وَلَنَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ أي لن نرضى عنك الطائفتان «اليهود والنصارى» حتى تترك الإسلام المنير وتتبع دينهم الأعوج ﴿قُلْ إِن هُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ أي قل لهم يا محمد إن الإسلام هو الدين الحق وما عداه فهو ضلال ﴿وَلَنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي ولنن سايرتهم على آرائهم الزائفة وأهوائهم الفاسدة بعدما ظهر لك الحق بالبراهين الساطعة والحجج القاطعة ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وِئَالٍ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي ليس لك من يحفظك أو يدفع عنك عقابه الأليم ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ مبتدأ وهم طائفة من اليهود والنصارى أسلموا ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ أي يقرءونه قراءة حقة كما أنزل ﴿وَأُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ هذا خبر المبتدأ أي فأولئك هم المؤمنون حقاً دون المعاندين المحرفين لكلام الله ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي ومن كفر بالقرآن فقد خسر دنياه وآخرته ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي اذكروا نعمتي الكثيرة عليكم وعلى آبائكم ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ أي واذكروا تفضيلي لكم على سائر الأمم في زمانكم ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَىٰ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي خافوا ذلك اليوم الرهيب الذي لا تغني فيه نفس عن نفس ولا تدفع عنها من عذاب الله شيئاً، لأن كل نفس بما كسبت رهينة ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي لا يقبل منها فداء ﴿وَلَا نُنْفَعُهَا شَفَعَةً﴾ أي لا تفيدها شفاعاة أحد لأنها كفرت بالله ﴿فَمَا نُنْفَعُهَا شَفَعَةُ الشَّفِيعِينَ﴾ [المدر: ٤٨] ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي لا يدفع عنهم أحد عذاب الله ولا يجيرهم من سطوة عقابه^(١).

البلاغة: ١ - ﴿سُبْحَنَهُ﴾ جملة اعتراضية وفائدتها بيان بطلان دعوى الظالمين الذين زعموا لله الولد قال أبو السعود: وفيه من التنزيه البليغ من حيث الاشتقاق من «السبح» ومن جهة النقل إلى التفعيل «التسبيح» ومن جهة العدول إلى المصدر ما لا يخفى والمراد أنزهه تنزيهاً لا تقا به.

٢ - ﴿كُلُّ لَهُ قَلْبٌ فَتَنُونَ﴾ صيغة جمع العقلاء في ﴿فَتَنُونَ﴾ للتغليب أي تغليب العقلاء على غير العقلاء، والتغليب من الفنون المعدودة في محاسن البيان.

٣ - التعبير عن الكافرين والمكذبين بكلمة ﴿أَصْحَابِ الْحَجِيمِ﴾ إيداناً بأن أولئك المعاندين من المطبوع على قلوبهم فلا يرجى منهم الرجوع عن الكفر والضلال إلى الإيمان والإذعان.

٤ - إيراد الهدى معرّفاً بـ «أل» في قوله: ﴿هُوَ الْهُدَى﴾ مع اقترانه بضمير الفصل «هو» يفيد قصر الهداية على دين الله فهو من باب قصر الصفة على الموصوف فالإسلام هو الهدى كله وما عداه فهو هوى وعمى.

٥ - ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ هذا من باب التهيج والإلهاب.

تنبيه: قال «القرطبي»: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي منشئها وموجدتها ومبدعها ومخترعها على غير حد ولا مثال، وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له: مبدع، ومنه أصحاب البدع، وسميت البدعة بدعة لأن قائلها ابتدعها من غير فعل أو مقال إمام^(١) وفي البخاري «نعمت البدعة هذه» يعني قيام رمضان^(٢).

(١) (ش): الأصل في العبادات المنع حتى يأتي دليل من القرآن أو السنة الصحيحة، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحَدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ» (رواه البخاري ومسلم). قال الحافظ ابن رجب: «فمن تقرب إلى الله بعمل لم يجعله الله ورسوله قربة إلى الله فعمله باطل مردود» [جامع العلوم والحكم (١/ ١٧٨)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : «الأصل الذي بنى الإمام أحمد وغيره من الأئمة عليه مذاهبهم أن أعمال الخلق تنقسم إلى عبادات يتخذونها ديناً ينتفعون بها في الآخرة أو في الدنيا والآخرة، وإلى عادات ينتفعون بها في معاشهم. فالأصل في العبادات أن لا يشرع منها إلا ما شرعه الله. والأصل في العادات أن لا يحظر منها إلا ما حظره الله» «اقضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (ص ٢٥٨٢)».

(٢) (ش): عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ الْقَارِيِّ أَنَّهُ قَالَ خَرَجْتُ مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لَيْلَةً فِي رَمَضَانَ، إِلَى الْمَسْجِدِ، فَإِذَا النَّاسُ أَوْزَاعٌ مُتَفَرِّقُونَ يُصَلِّي الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ، وَيُصَلِّي الرَّجُلُ فَيُصَلِّي بِصَلَاتِهِ الرَّهْطُ فَقَالَ عُمَرُ: إِنِّي أَرَى لَوْ جُمِعَتْ هَؤُلَاءِ عَلَى قَارِيٍّ وَاحِدٍ لَكَانَ أَمْثَلُ. ثُمَّ عَزَمَ فَجَمَعَهُمْ عَلَى أَبِي بِنِ كَعْبٍ، ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَهُ لَيْلَةً أُخْرَى، وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلَاةِ قَارِئِهِمْ، قَالَ عُمَرُ نِعَمَ الْبِدْعَةُ هَذِهِ، وَالَّتِي يَنَامُونَ عَنْهَا أَفْضَلُ مِنَ الَّتِي يَقُومُونَ. يُرِيدُ آخِرَ اللَّيْلِ، وَكَانَ النَّاسُ يَقُومُونَ أَوَّلَهُ. (رواه البخاري).

قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٤/ ٢٥٣): (قَوْلُهُ: قَالَ عُمَرُ: «نِعَمَ الْبِدْعَةُ». فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: «نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ» بِزِيَاةِ تَاءٍ). اهـ. وهي رواية مالك في «الموطأ».

وهذا القول من عمر رضي الله عنه قد يكون على سبيل الرد والمناظرة، ومعناه: إذا كان هذا الفعل بدعة، فنعم البدعة هذه، كأنه كان جواباً على معترض، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ لِكُفٍّ فَأَنَّا أَوَّلُ الْعَادِينَ﴾ [الزخرف: ٨١].

أو أنه قصد البدعة اللغوية، أي أنها بدعة باعتبار إحيائها وإعادة العمل بها بعد أن توقف. فصلاة التراويح جماعة وراء إمام واحد لم يكن معهوداً ولا معمولاً زمن خلافة أبي بكر وشطراً من خلافة عمر فهي بهذا الاعتبار حادثة ولكن بالنظر إلى أنها موافقة لما فعله رضي الله عنه فهي سنة وليست بدعة وما وصفها بالحسن إلا لذلك. ومراده أن هذا الفعل لم يكن على هذا الوجه قبل هذا الوقت، ولكن له أصول في الشريعة يرجع إليها، فمنها أن النبي ﷺ =

ثم قال: وكل بدعة صدرت من مخلوق فلا يخلو أن يكون لها أصل في الشرع أو لا؟ فإن كان لها أصل فهي في حيز المدح ويعضده قول عمر: «نعمت البدعة هذه» وإلا فهي في حيز الذم والإنكار وقد بين هذا الحديث الشريف «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها.. ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها..»^{(١) (٢)}.

= كان يبحث على قيام رمضان وُترغب فيه، وكان الناس في زمنه يقومون في المسجد جماعات متفرقة ووحداً، وهو ﷺ صلى بأصحابه في رمضان غير ليلة، ثم امتنع بعد ذلك معللاً بأنه خشي أن يكتب عليهم، فيعجزوا عن القيام به (رواه البخاري)، وهذا قد أُمنَّ بعده ﷺ وروى عنه أنه كان يقوم بأصحابه ليالي العشر الأواخر (رواه أبو داود وصححه الألباني). ومنها أنه ﷺ أمر باتباع سنة الخلفاء الراشدين، وهذا قد صار من سنة خلفائه الراشدين، فإن الناس اجتمعوا عليه في زمن عمر وعثمان وعلي (ﷺ). (انظر: «الاعتصام» (١/ ١٩٠). «جامع العلوم والحكم» (ص ٣٦٦، ٣٦٧).)

(١) «القرطبي» ٨٧/٢.

(٢) (ش): عَنِ الْمُثَنَّرِ بْنِ جَرِيرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ قَالَ فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاءَ عُرَاهُ مُجْتَابِي النَّمَارِ أَوْ الْعَبَاءِ مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ عَامَتُهُمْ مِنْ مُضَرٍّ بَلَّ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرٍّ فَتَمَعَرَّ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ فَأَمَرَ بِلَا فَاذَنْ وَأَقَامَ فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا» وَالْآيَةُ الَّتِي فِي الْحَشْرِ «اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ» تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ ذَرَاهِمِهِ مِنْ تَوْبِهِ مِنْ صَاعٍ بَرٍّ مِنْ صَاعٍ تَمَرِهِ - حَتَّى قَالَ - وَلَوْ بَشِقَ تَمْرَةٌ. قَالَ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بَصْرَةَ كَادَتْ كَفُهُ تَعْجُزُ عَنْهَا بَلَّ قَدْ عَجَزَتْ - قَالَ - ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ». (رواه مُسْلِمٌ). المجتنب: اللابس. المذهبة: الشيء المموه بالذهب. النمار: جمع نمرة وهي كساء فيه خطوط بيض وسود تلبسه الأعراب. قال الإمام الشاطبي رحمه الله: «لَيْسَ الْمُرَادُ بِالْحَدِيثِ الْإِسْتِثْنَانِ بِمَعْنَى الْإِخْتِرَاعِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِهِ الْعَمَلُ بِمَا ثَبَتَ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، وَذَلِكَ لَوْجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ السَّبَبَ الَّذِي جَاءَ لِأَجْلِهِ الْحَدِيثُ هُوَ الصَّدَقَةُ الْمَشْرُوعَةُ فَذَلِكَ عَلَى أَنَّ السُّنَّةَ هَاهُنَا مِثْلُ مَا فَعَلَ ذَلِكَ الصَّحَابِيُّ، وَهُوَ الْعَمَلُ بِمَا ثَبَتَ كَوْنُهُ سُنَّةً، فَكَأَنَّهَا كَانَتْ سُنَّةً أَبْقَطَهَا رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ بِفِعْلِهِ، فَلَيْسَ مَعْنَاهُ: مَنْ اخْتَرَعَ سُنَّةً وَابْتَدَعَهَا وَلَمْ تَكُنْ ثَابِتَةً. فَإِذَا قَوْلُهُ: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً» مَعْنَاهُ: مَنْ عَمِلَ بِسُنَّةٍ، لَا مَنْ اخْتَرَعَ سُنَّةً. وَالْوَجْهُ الثَّانِي مِنْ وَجْهَيْ الْجَوَابِ: أَنَّ قَوْلَهُ: مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً لَا يُمَكِّنُ حَمْلَهُ عَلَى الْإِخْتِرَاعِ مِنْ أَصْلٍ لِأَنَّ كَوْنَهَا حَسَنَةً أَوْ سَيِّئَةً لَا يُعْرَفُ إِلَّا مِنْ جِهَةِ الشَّرْعِ فَلَزِمَ أَنْ تَكُونَ السُّنَّةُ فِي الْحَدِيثِ إِذَا حَسَنَةً فِي الشَّرْعِ وَإِذَا قَبِيحَةً بِالشَّرْعِ، فَلَا يَصْدُقُ إِلَّا عَلَى مِثْلِ الصَّدَقَةِ الْمَذْكُورَةِ وَمَا أَشْبَهَهَا مِنَ السُّنَنِ الْمَشْرُوعَةِ، وَتَبْقَى السُّنَّةُ السَّيِّئَةُ مُنْزَلَةً عَلَى الْمَعَاصِي الَّتِي ثَبَتَ بِالشَّرْعِ كَوْنُهَا مَعَاصِي كَالْقَتْلِ الْمُتَبَّعِ عَلَيْهِ فِي حَدِيثِ ابْنِ آدَمَ، حَيْثُ قَالَ ﷺ: «لَأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ»، (رواه البخاري). وَعَلَى الْبِدْعِ لِأَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ دُمُومُهَا وَالنَّهْيُ عَنْهَا بِالشَّرْعِ (انظر: الاعتصام (١/ ١٧٩ - ١٨١)).

فالحديث لا يثبت الابتداء الحسن في الإسلام، فقد قال ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً»، ولم يقل: «من ابتدع في الإسلام بدعة حسنة». وقد ردَّ النبي ﷺ قول الثلاثة الذين قال أحدهم: «أما أنا فأنا أصلى الليل أبداً»، وقال آخر: «أنا أصوم الدهر ولا أفطر» وقال آخر: «أنا أعزل النساء فلا أتزوج أبداً»، وقال لهم: «من رغب عن سنتي فليس مني» (رواه البخاري). مع أن لفعلهم هذا أصلاً في الشرع من الصلاة والصيام؟

قال الله تعالى:

وَإِذْ أُنْتَلَىٰ إِلَٰهَهُمْ رَبُّهُ، بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْآيَةَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمَّا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

المناسبة: بعد أن ذكر الله تعالى في الآيات السابقة نعمه على بني إسرائيل، وبين كيف كانوا يقابلون النعم بالكفر والعناد، ويأتون منكرات في الأقوال والأعمال، وصل حديثهم بقصة إبراهيم أبي الأنبياء الذي يزعم اليهود والنصارى انتماءهم إليه ويقرون بفصله، ولو كانوا صادقين لوجب عليهم اتباع هذا النبي الكريم «محمد» ﷺ ودخولهم في دينه القويم لأنه أثر دعوة إبراهيم الخليل حين دعا لأهل الحرم، ثم هو من ولد إسماعيل عليه السلام فكان أولى الاتباع والتمسك بشريعته الحنيفية السمحة التي هي شريعة الخليل عليه السلام.

اللغة: ﴿أُنْتَلَى﴾ امتحن والابتلاء: الاختبار ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أتى بهن على التمام والكمال ﴿إِمَامًا﴾ الإمام: القدوة الذي يؤتم به في الأقوال والأفعال ﴿مَثَابَةً﴾ مرجعاً من ثاب يثوب إذا رجع أي أنهم يترددون إليه لا يقضون منه وطهرهم قَالَ الشَّاعِرُ:

جُعِلَ الْبَيْتُ مَثَابًا لَهُمْ
لَيْسَ مِنْهُ الدَّهْرُ يَقْضُونَ الْوَطْرُ
﴿وَأَمَّا﴾ الأمن: السلامة من الخوف والطمأنينة في النفس والأهل ﴿وَعَهْدًا﴾ أمرنا وأوحينا ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ جمع طائف من الطواف وهو الدوران حول الشيء ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ جمع عاكف من العكوف وهي الإقامة على الشيء والملازمة له والمراد المقيمون في الحرم بقصد العبادة ﴿فَأُمَتِّعُهُ﴾ من التمتع وهو إعطاء الإنسان ما ينتفع به ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠] ﴿الْقَوَاعِدَ﴾ جمع قاعدة وهي الأساس ﴿مَنَاسِكَنَا﴾ جمع منسك وهي العبادة والطاعة ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ العلم النافع المصحوب بالعمل والمراد بها السنة النبوية المطهرة ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ من التزكية وهي في الأصل التنمية يقال: زكا الزرع إذا نما ثم استعملت في معنى الطهارة النفسية قال تعالى ﴿فَدَأْفَلَحَ مِن زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩].

التفسير: ﴿وَإِذْ أُنْتَلَىٰ إِلَٰهَهُمْ رَبُّهُ، بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي اذكر يا محمد حين اختبر الله عبده إبراهيم الخليل، وكلفه بجملة من التكاليف الشرعية «أوامر ونواه» فقام بهن خير قيام ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ

لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴿١٦٩﴾ أَي قَالَ لَهُ رَبِّهِ إِنِّي جَاعِلُكَ قُدْوَةً لِلنَّاسِ وَمَنَارًا يَهْتَدِي بِكَ الْخَلْقُ ﴿١٧٠﴾ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴿١٧١﴾ أَي قَالَ إِبْرَاهِيمُ وَاجْعَلْ يَا رَبُّ أَيْضًا أُمَّةً مِنْ ذُرِّيَّتِي ﴿١٧٢﴾ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٧٣﴾ أَي لَا يَنَالُ هَذَا الْفَضْلَ الْعَظِيمَ أَحَدٌ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴿١٧٥﴾ أَي وَاذْكُرْ حِينَ جَعَلْنَا الْكَعْبَةَ الْمَعْظُمَةَ مَرْجَعًا لِلنَّاسِ يَقْبَلُونَ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿١٧٦﴾ وَأَمَّا ﴿١٧٧﴾ أَي مَكَانَ أَمْنٍ يَأْمَنُ مِنْ لُجَا إِلَيْهِ، وَذَلِكَ لَمَّا أَوْدَعَ اللَّهُ فِي قُلُوبِ الْعَرَبِ مِنْ تَعْظِيمِهِ وَإِجْلَالِهِ ﴿١٧٨﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴿١٧٩﴾ أَي وَقَلْنَا لِلنَّاسِ اتَّخَذُوا مِنَ الْمَقَامِ - وَهُوَ الْحَجَرُ الَّذِي كَانَ يَقُومُ عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ لِبِنَاءِ الْكَعْبَةِ مُصَلًّى أَي صَلُّوا عِنْدَهُ ﴿١٨٠﴾ وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ﴿١٨١﴾ أَي أَوْصَيْنَا وَأَمَرْنَا إِبْرَاهِيمَ وَوَلَدَهُ إِسْمَاعِيلَ ﴿١٨٢﴾ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٨٣﴾ أَي أَمَرْنَاهُمَا بِأَنْ يَصُونَا الْبَيْتَ مِنَ الْأَرْجَاسِ وَالْأَوْثَانِ لِيَكُونَ مَعْقَلًا لِلطَّائِفِينَ حَوْلَهُ وَالْمَعْتَكِفِينَ الْمُلَازِمِينَ لَهُ وَالْمُصَلِّينَ فِيهِ، فَالْآيَةُ جَمَعَتْ أَصْنَافَ الْعَابِدِينَ فِي الْبَيْتِ الْحَرَامِ: الطَّائِفِينَ، وَالْمَعْتَكِفِينَ، وَالْمُصَلِّينَ..

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ دَعْوَةِ الْخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ فَقَالَ: ﴿١٨٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ﴿١٨٥﴾ أَي اجْعَلْ هَذَا الْمَكَانَ - وَالْمَرَادُ مَكَّةَ الْمَكْرَمَةَ - بَلَدًا ذَا أَمْنٍ يَكُونُ أَهْلُهُ فِي أَمْنٍ وَاسْتِقْرَارٍ ﴿١٨٦﴾ وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴿١٨٧﴾ مِنْ أَمْرٍ مِّنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿١٨٨﴾ أَي وَارْزُقْ يَا رَبُّ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِهِ وَسَكَانِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الثَّمَرَاتِ، لِيَقْبَلُوا عَلَى طَاعَتِكَ وَيَتَفَرَّغُوا لِعِبَادَتِكَ وَخَصَّ بِدَعْوَتِهِ الْمُؤْمِنِينَ فَقَطْ قَالَ تَعَالَى جَوَابًا لَهُ ﴿١٨٩﴾ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ﴿١٩٠﴾ أَي قَالَ اللَّهُ وَارْزُقْ مِنْ كَفَرٍ أَيْضًا كَمَا أَرْزُقُ الْمُؤْمِنَ، أَأَخْلَقَ خَلْقًا ثُمَّ لَا أَرْزُقُهُمْ؟ أَمَّا الْكَافِرُ فَأُمَتِّعُهُ فِي الدُّنْيَا مَتَاعًا قَلِيلًا وَذَلِكَ مَدَّةَ حَيَاتِهِ فِيهَا ﴿١٩١﴾ ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ﴿١٩٢﴾ أَي ثُمَّ أُلْجِئُهُ فِي الْآخِرَةِ وَأَسْوَقُهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ فَلَا يَجِدُ عَنْهَا مَحِيصًا ^(١)

﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أَي وَبِئْسَ الْمَالُ وَالْمَرْجِعُ لِلْكَافِرِ أَنْ يَكُونَ مَأْوَاهُ نَارُ جَهَنَّمَ. قَاسَ الْخَلِيلُ الرِّزْقَ عَلَى الْإِمَامَةِ فَفَنَبِهَهُ تَعَالَى عَلَى أَنَّ الرِّزْقَ رَحْمَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ شَامِلَةٌ لِلْبَرِّ وَالْفَاجِرِ بِخِلَافِ الْإِمَامَةِ فَإِنَّهَا خَاصَّةٌ بِالْخَوَاصِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ قِصَّةِ بِنَاءِ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿١٩٣﴾ وَإِذْ رَفَعَ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴿١٩٤﴾ أَي وَاذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ ذَلِكَ الْأَمْرَ الْغَرِيبَ وَهُوَ رَفْعُ الرُّسُولِينَ الْعَظِيمِينَ «إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ» قَوَاعِدَ الْبَيْتِ وَقِيَامَهُمَا بِوَضْعِ أُسَاسِهِ وَرَفْعِ بِنَائِهِ وَهُمَا يَقُولَانِ بِخُضُوعٍ وَإِجْلَالٍ ﴿١٩٥﴾ رَبَّنَا اقْبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٩٦﴾ أَي يَنْبِيانُ وَيَدْعَوَانِ هَذِهِ الدَّعَوَاتِ الْكَرِيمَةَ قَائِلِينَ يَا رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا أَيِ اقْبَلْ مِنَّا عَمَلَنَا هَذَا وَاجْعَلْهُ خَالِصًا لِّوَجْهِكَ الْكَرِيمِ فَإِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ لِدَعَائِنَا الْعَلِيمِ بِنِيَاتِنَا ﴿١٩٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴿١٩٨﴾ أَي اجْعَلْنَا خَاضِعِينَ لَكَ مُنْقَادِينَ لِحُكْمِكَ ﴿١٩٩﴾ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴿٢٠٠﴾ أَي وَاجْعَلْ مِنْ ذُرِّيَّتِنَا مَنْ يَسْلُمُ وَجْهَهُ لَكَ وَيَخْضَعُ لِعَظَمَتِكَ ﴿٢٠١﴾ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴿٢٠٢﴾ أَي وَعَلِّمْنَا شَرَائِعَ عِبَادَتِنَا وَمَنَاسِكَ حِجْنَا ﴿٢٠٣﴾ وَتَبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٢٠٤﴾ أَي تَبَّ عَلَيْنَا وَارْحَمْنَا فَإِنَّكَ عَظِيمُ الْمَغْفِرَةِ وَاسِعُ الرَّحْمَةِ ﴿٢٠٥﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ

(١) (ش): أَي لَيْسَ لَهُ مِنْهَا مَفْرُوعٌ وَلَا مَهْرَبٌ.

رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴿١﴾ أَي ابْعَثْ فِي الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ وهذا من جملة دعواتهما المباركة فاستجاب الله الدعاء ببعثة السراج المنير محمد ﷺ ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِنَّ ءَايَاتِكَ﴾ أي يقرأ آيات القرآن ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي يعلمهم القرآن العظيم والسنة المطهرة ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يطهرهم من رجس الشرك ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ العزيز الذي لا يُقهر ولا يُغلب، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

البلاغة: ١ - التعرض لعنوان الربوبية ﴿أَبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ﴾ تشریف له ﷺ وإيدان بأن ذلك الابتلاء تربية له وترشيح لأمر خطير، والمعنى عامله سبحانه معاملة المختبر حيث كلفه بأوامر ونواه يظهر بها استحقاقه للإمامة العظمى.

٢ - إيقاع المصدر موقع اسم الفاعل في قوله ﴿ءَامَنَّا﴾ للمبالغة والإسناد مجازي أي آمنا من دخله كقوله: تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٨] وخير ما فسره بالوارد.

٣ - إضافة البيت إلى ضمير الجلالة ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ [الحج: ٢٦] للتشريف والتعظيم.

٤ - قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ﴾ ورد التعبير بصيغة المضارع حكاية عن الماضي ولذلك وجه معروف في محاسن البيان وهو استحضار الصورة الماضية وكأنها مشاهدة بالعيان فكأن السامع ينظر ويرى إلى البنيان وهو يرتفع والبناء هو إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قال أبو السعود: وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة المنبئة عن المعجزة الباهرة^(١).

٥ - ﴿التَّوَابُّ الرَّجِيمُ﴾ صيغتان من صيغ المبالغة لأن (فعال وفعليل) من صيغ المبالغة.

الفوائد: الفائدة الأولى: تقديم المفعول في قوله ﴿وَإِذْ أَبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ﴾ واجب لاتصال الفاعل بضمير يعود على المفعول، فلو قُدِّمَ الفاعل لزم عود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة قال ابن مالك:

وَشَاعَ نَحْوُ خَافَ رَبَّهُ عُمَرُ وَشَدَّ نَحْوَ زَانَ نَوْرُهُ الشَّجَرُ^(٢)

الثانية: الاختبار في الأصل الامتحان بالشئ ليعلم صدق ذلك الشخص أو كذبه وهو مستحيل على الله لأنه عالم بذلك قبل الاختبار، فالمراد أنه عامله معاملة المختبر ليظهر ذلك للخلق.

الثالثة: اختلف المفسرون في الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم ﷺ وأصح هذه الأقوال ما روي عن ابن عباس أنه قال: «الكلمات التي ابتلى الله بهن إبراهيم فآتمهن: فراق قومه في الله

(١) «تفسير أبي السعود» ١/ ١٢٤.

(٢) (ش:) (النور) بفتح النون، هو الزهر أو الأبيض منه. (وَشَدَّ نَحْوَ زَانَ نَوْرُهُ الشَّجَرُ) أي شذ في كلامهم تقديم الفاعل المتصل بضمير المفعول المتأخر.

حين أمر بمفارقتهم، ومحااجة نمرود في الله، وصبره على قذفهم إياه في النار لحرقوه، والهجرة من وطنه حين أمر بالخروج عنهم، وما ابتلي به من ذبح ابنه حين أمر بذبحه»^(١).

الرابعة: المراد من الإمامة في الآية الكريمة «الإمامة في الدين» وهي النبوة التي حرمها الظالمون، ولو كانت الإمامة الدنيوية لخالف ذلك الواقع إذ نالها كثير من الظالمين، فظهر أن المراد الإمامة في الدين خاصة.

الخامسة: ذكر العلامة ابن القيم أن السرّ في تفضيل البيت العتيق ظاهر في انجذاب الأئمة، وهوى القلوب ومحبتها له، فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد، فهم يثوبون إليه من جميع الأقطار ولا يقضون منه وطراً، بل كلما ازدادوا له زيارة، ازدادوا له اشتياقاً. لا يرجع الطرف عنها حين يبصرها حتى يعود إليها الطرف مشتاقاً^(٢).

قال الله تعالى:

وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفِهَةِ نَفْسِهِ، وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ عَابِدُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى مآثر الخليل إبراهيم عليه السلام، وقصة بنائه للبيت العتيق منار التوحيد، أعقبه بالتوبيخ الشديد للمخالفين لملة الخليل من اليهود والنصارى والمشرّكين، وأكد أنه لا يرغب عن ملته إلا كل شقي سفيه الرأي، خفيف العقل، متبع لخطوات الشيطان.

اللغة: ﴿سَفِهَةِ نَفْسِهِ﴾ امتهنها واستخف بها وأصل السفه: الخفة ومنه زمام سفيه، أي: خفيف ﴿اصْطَفَيْنَاهُ﴾ أي جعلناه صافياً من الأدناس، مشتق من الصفة ومعناه تخير الأصفى والمراد اصطفاؤه بالرسالة والخلة والإمامة العظمى ﴿وَوَصَّى﴾ التوصية: إرشاد الغير إلى ما فيه صلاح وقربة ﴿شُهَدَاءَ﴾ جمع شاهد أي حاضر ﴿خَلَتْ﴾ مضت وانقرضت.

التفسير: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفِهَةِ نَفْسِهِ﴾ أي لا يرغب عن دين إبراهيم وملته الواضحة الغراء إلا من استخف نفسه وامتهنها ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾ أي اخترناه من بين سائر الخلق بالرسالة والنبوة والإمامة ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي من المقربين الذين لهم الدرجات العلى ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾ أي استسلم لأمر ربك وأخلص نفسك له

(١) «الدر المنثور» ١/ ١١.

(٢) «محاسن التأويل» ٢/ ٢٤٧.

﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي استسلمت لأمر الله وخضعت لحكمه ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ أي وصى الخليل أبناءه باتباع ملته وكذلك يعقوب أوصى بملة إبراهيم ﴿يَبْنِيَنَّ اللَّهُ أَصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ﴾ أي اختار لكم دين الإسلام ديناً وهذا حكاية لما قال إبراهيم ويعقوب لأبنائهما ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي اثبتوا على الإسلام حتى يدرككم الموت وأنتم متمسكون به ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ أي بل أكنتم شهداء حين احتضر يعقوب وأشرف على الموت وأوصى بنيه باتباع ملة إبراهيم ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾ أي أي شيء تعبدونه بعدي؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَاكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أي لا نعبد إلا إلهاً واحداً هو الله رب العالمين إله آبائك وأجدادك السابقين ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي نحن له وحده مطيعون خاضعون، والغرض تحقيق البراءة من الشرك. قال تعالى مشيراً إلى تلك الذرية الطيبة ﴿تِلْكَ أُمَمٌ قَدْ خَلَتْ﴾ والإشارة إلى إبراهيم وبنيه أي تلك جماعة وجيل قد سلف ومضى ﴿لَهُمَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي لها ثواب ما كسبت ولكم ثواب ما كسبتم ﴿وَلَا تُشْعَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي لا تسألون يوم القيامة عما كانوا يعملون في الدنيا بل كل نفس تتحمل وحدها تبعه ما اكتسبت من سوء.

البلاغة: ١ - ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ﴾ استفهام يراد به الإنكار والتفريع، وقع فيه معنى النفي أي لا يرغب عن ملة إبراهيم إلا السفيه والجملة واردة مورد التوبيخ للكافرين.

٢ - التأكيد بـ «إن» و «اللام» ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّلَاحِينَ﴾ لأنه لما كان إخباراً عن حالة مغيبة في الآخرة احتاجت إلى تأكيد بخلاف حال الدنيا فإنه معلوم ومشاهد.

٣ - ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾ هو من باب الالتفات إذ السياق ﴿إِذْ قَالَ﴾ والالتفات من محاسن البيان، والتعرض بعنوان الربوبية ﴿رَبُّهُ﴾ لإظهار مزيد اللطف والإعناء بتربيته كما أن جواب إبراهيم جاء على هذا المنوال ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ولم يقل: أسلمت لك للإيدان بكمال قوة إسلامه وللإشارة إلى أن من كان رباً للعالمين لا يليق إلا أن يتلقى أمره بالخضوع وحسن الطاعة.

٤ - قوله ﴿ءَابَاكَ﴾ شمل العم والأب والجد، فالجد إبراهيم والعم إسماعيل والأب إسحاق وهو من باب «التغليب» وهو من المجازات المعهودة في فصيح الكلام.

فائدة: قال أبو حيان: «كنى بالموت عن مقدماته لأنه إذا حضر الموت نفسه لا يقول المحتضر شيئاً، وفي قوله ﴿حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ كناية غريبة وهو أنه غائب ولا بد أن يقدم ولذلك يقال في الدعاء: واجعل الموت خيراً غائباً تنتظره»^(١).

تنبيه: ظاهر قوله تعالى ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ النهي عن الموت إلا على هذه

الحالة من الإسلام، والمقصود الأمر بالثبات على الإسلام إلى حين الموت، أي فاثبتوا على الإسلام ولا تفارقوه أبداً واستقيموا على محجته البيضاء حتى يدرككم الموت وأنتم على الإسلام الكامل، كقولك: لا تصل إلا وأنت خاشع.

قال الله تعالى:

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى أن ملة إبراهيم هي ملة الحنيفية السمحة، وأن من لم يؤمن بها ورغب عنها فقد بلغ الذروة العليا في الجهالة والسفاهة، ذكر تعالى ما عليه أهل الكتاب من الدعاوى الباطلة من زعمهم أن الهداية في اتباع اليهودية والنصرانية، ويبيّن أن تلك الدعاوى لم تكن عن دليل أو شبهة بل هي مجرد جحود وعناد، ثم عقب ذلك بأن الدين الحق هو في التمسك بالإسلام، دين جميع الأنبياء والمرسلين.

اللغة: ﴿حَنِيفًا﴾ الحنيف: المائل عن الدين الباطل إلى الدين الحق، والحنف الميل وبه سمي الأحنف لميل في إحدى قدميه قال الشاعر:

وَلَكُنَّا خُلِقْنَا إِذْ خُلِقْنَا حَنِيفًا دِينُنَا عَنْ كُلِّ دِينٍ ^(١)

﴿وَالْأَسْبَاطِ﴾ جمع سبط وهم حفدة يعقوب أي ذريات أبنائه وكانوا اثني عشر سبطاً وهم في بني إسرائيل كالقبائل في العرب ﴿شِقَاقٍ﴾ الشقاق: المخالفة والعداوة وأصله من الشق وهو الجانب أي صار هذا في شق وهذا في شق ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾ من الكفاية بمعنى الوقاية ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ الصبغة مأخوذة من الصبغ وهو تغيير الشيء بلون من الألوان والمراد بها الدين ﴿أَتُحَاجُّونَنَا﴾ أتجادلوننا من المحاجة وهي المجادلة ﴿مُخْلِصُونَ﴾ الإخلاص أن يقصد بالعمل وجه الله وحده.

التفسير: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ أي قال اليهود كونوا على ملتنا يهوداً

تهتدوا وقال النصارى: كونوا نصارى تهتدوا فكل من الفريقين يدعو إلى دينه المعوج ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي قل لهم يا محمد بل نتبع ملة الحنيفية السمحة وهي ملة إبراهيم حال كونه مائلاً عن الأديان كلها إلى الدين القيم وما كان إبراهيم من المشركين بل كان مؤمناً موحداً وفيه تعريض بأهل الكتاب وإيدان بأن ما هم عليه إنما هو شرك وضلال. ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ أي قولوا أيها المؤمنون: آمنا بالله وما أنزل إلينا من القرآن العظيم ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ﴾ واسْمِعِلْ وإِسْحَقْ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ ﴿أي وآمنا بما أنزل إلى إبراهيم من الصحف والأحكام التي كان الأنبياء متعبدين بها وكذلك حفدة إبراهيم وإسحاق وهم الأسباط حيث كانت النبوة فيهم﴾ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى ﴿أي من التوراة والإنجيل﴾ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ﴿أي ونؤمن بما أنزل على غيرهم من الأنبياء جميعاً ونصدق بما جاءوا به من عند الله من الآيات والبيانات والمعجزات الباهرات﴾ لَا تَفْرُقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴿أي لا تؤمن بالبعض ونكفر بالبعض كما فعلت اليهود والنصارى﴾ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿أي منقادون لأمر الله خاضعون لحكمه﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا ﴿أي إن آمن أهل الكتاب بنفس ما آمنتم به معشر المؤمنين فقد اهتدوا إلى الحق كما اهتديتم﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴿أي وإن أعرضوا عن الإيمان بما دعوتهم إليه فاعلم أنهم إنما يريدون عداوتك وخلافك، وليسوا من طلب الحق في شيء﴾ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ﴿أي سيكفيك يا محمد شرهم وأذاهم ويعصمك منهم﴾ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿أي هو تعالى يسمع ما ينطقون به ويعلم ما يضمرونه في قلوبهم من المكر والشر﴾ صَبَغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صَبْغَةً ﴿أي ما نحن عليه من الإيمان هو دين الله الذي صبغنا به وفطرنا عليه فظهر أثره علينا كما يظهر الصبغ في الثوب، ولا أحد أحسن من الله صبغة أي ديناً﴾ وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ ﴿أي ونحن نعبده جل وعلا ولا نعبد أحداً سواه﴾ قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ ﴿أي أتجادلوننا في شأن الله زاعمين أنكم أبناء الله وأحياءه، وأن الأنبياء منكم دون غيركم؟﴾ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴿أي رب الجميع على السواء وكلنا عبده﴾ وَلَنَّا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ ﴿أي لنا جزاء أعمالنا ولكم جزاء أعمالكم لا يتحمل أحد وزر غيره﴾ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿أي قد أخلصنا الدين والعمل لله﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى ﴿أي أم تدعون يا معشر أهل الكتاب أن هؤلاء الرسل وأحفادهم كانوا يهوداً أو نصارى﴾ قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴿أي أنتم أعلم بديانتهم أم الله؟﴾ وقد شهد الله لهم بملة الإسلام وبرأهم من اليهودية والنصرانية.

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران: ٦٧] فكيف تزعمون أنهم على دينكم؟ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي لا أحد أظلم ممن أخفى وكتم ما اشتملت عليه آيات التوراة والإنجيل من البشارة برسول الله، أو لا أحد أظلم ممن كتم ما

أخبر البارئ عنه من أن الأنبياء الكرام كانوا على الإسلام ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي مطلع على أعمالهم ومجازيهم عليها وفيه وعيد شديد ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كررها لأنها تضمنت معنى التهديد والتخويف، أي إذا كان أولئك الأنبياء - على فضلهم وجلالة قدرهم - يجازون بكسبهم فأنتم أحرى، وقد تقدم «تفسيره» فأغنى عن الإعادة^(١).

البلاغة: ١ - ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ فيه إيجاز بالحذف أي قال اليهود: كونوا يهودًا وقال النصارى: كونوا نصارى، وليس المعنى أن الفريقين قالوا ذلك لأن كل فريق يعدّ دين الآخر باطلاً.

٢ - ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمْ﴾ فيه إيجاز ظاهر أن يكفيك الله شرهم، وتصدير الفعل بالسين دون سوف مشعر بأن ظهوره عليهم واقع في زمن قريب.

٣ - ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ من صيغ المبالغة ومعناه الذي أحاط سمعه وعلمه بجميع الأشياء.

٤ - ﴿صَبْغَةَ اللَّهِ﴾ سمي الدين صبغةً بطريق الاستعارة حيث تظهر سمته على المؤمن كما يظهر أثر الصبغ في الثوب^(٢).

٥ - ﴿أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾ الاستفهام وارد على جهة التوبيخ والتقريع.

الفوائد: الفائدة الأولى: تكرر ورود هذه الآية في مواطن من القرآن ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ قال أبو حيان: ولا تأتي الجملة إلا عقب ارتكاب معصية فتجيء متضمنة وعيدًا ومعلمة أن الله لا يترك أمرهم سدى^(٣).

الثانية: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ النَّصَارَى كَانُوا إِذَا وُلِدَ لِأَحَدِهِمْ وَلَدٌ فَاتَى عَلَيْهِ سَبْعَةُ أَيَّامٍ، صَبَّغُوهُ فِي مَاءٍ لَهُمْ يُقَالُ لَهُ: الْمَعْمُودِيُّ، لِيُطَهَّرُوهُ بِذَلِكَ، وَيَقُولُونَ: هَذَا طَهُورٌ مَكَانَ الْخِتَانِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ قَالُوا: الْآنَ صَارَ نَصْرَانِيًّا حَقًّا^(٤)، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ^(٥).

الثالثة: كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَأُونَ التَّوْرَةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ، وَلَا تُكْذِبُوهُمْ وَقُولُوا... وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا». الآية . رواه البخاري.

(١) راجع تفسير الآية ١٣٤.

(٢) «تلخيص البيان» ص ١١.

(٣) «البحر المحيط» ٤١٦/١.

(٤) (ش): في الأصل: فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ صَارَ نَصْرَانِيًّا حَقًّا، والتصحيح من «أسباب النزول» للواحيدي.

(٥) (ش): أي قوله تعالى: صَبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صَبْغَةً، وما رُوِيَ عن ابن عباس ذكره الواحيدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.

(٦) «أسباب النزول» للواحيدي ص ٢٢.

قال الله تعالى:

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ١٤٣ ﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عِبَانَهُ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ١٤٤ ﴾ قَدْ زُرِيَ ثَقَلْبُ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ١٤٥

المناسبة: زعم اليهود والنصارى أن إبراهيم والأنبياء معه كانوا يهوداً ونصارى وقد كانت قبلة الأنبياء بيت المقدس وكان صلوات الله عليه وهو بمكة يستقبل بيت المقدس فلما أمر ﷺ بالتوجه إلى الكعبة المشرفة طعن اليهود في رسالته واتخذوا ذلك ذريعة لليل من الإسلام وقالوا: لقد اشتاق محمد إلى مولده وعن قريب يرجع إلى دين قومه، فأخبر الله رسوله الكريم بما سيقوله السفهاء ولقنه الحجة الدامغة ليرد عليهم، ويوطن نفسه على تحمل الأذى منهم عند مفاجأة المكروه، وكان هذا الإخبار قبل تحويل القبلة معجزة له ﷺ.

اللغة: ﴿السُّفَهَاءُ﴾ جمع سفيه وهو الجاهل ضعيف الرأي، قليل المعرفة بالمنافع والمضار، وأصل السفه الخفة والرقّة من قولهم: ثوب سفيه إذا كان خفيف النسيج ﴿وَلَّاهُمْ﴾ صرفهم يقال: ولّى عن الشيء وتولّى عنه، أي: انصرف ﴿وَسَطًا﴾ قال «الطبري»: الوسط في كلام العرب: الخيار وقيل: العدل^(١)، وأصل هذا أن خير الأشياء أوساطها وأن الغلو والتقصير مذمومان ﴿عَقِبَيْهِ﴾ ثنية عقب وهو مؤخر القدم ﴿لَكَبِيرَةً﴾ شاقة وثقيلة ﴿شَطْرَ﴾ الشطر في اللغة يأتي بمعنى الجهة كقول الشاعر: تَعْدُو بِنَا شَطْرَ نَجْدٍ وَهِيَ عَاقِدَةٌ، ويأتي بمعنى النصف ومنه الحديث «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ»^(٢).

سبب النزول: عن البراء قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة صَلَّى نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحِبُّ أَنْ يَتَوَجَّهَ نَحْوَ الْكَعْبَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ زُرِيَ ثَقَلْبُ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ الآية، فَقَالَ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ - وَهُمْ الْيَهُودُ - مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾^(٣) إلى آخر الآية، أخرج البخاري.

التفسير: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ أي سيقول ضعفاء العقول من الناس ﴿وَلَّاهُمْ﴾ ما ولّاهم

(١) «مختصر الطبري» ١ / ٥٥.

(٢) رواه مسلم.

(٣) «أسباب النزول» للواحدي ص ٢٣.

عَنْ قِبَلِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴿١﴾ أَي ما صرفهم وحولهم عن القبلة التي كانوا يصلون إليها وهي بيت المقدس، قبله المرسلين من قبلهم؟ ﴿٢﴾ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴿٣﴾ أَي قل لهم يا محمد: الجهات كلها لله له المشرق والمغرب فأينما ولينا وجوهنا فهناك وجه الله ﴿٤﴾ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥﴾ أَي يهدي عباده المؤمنين إلى الطريق القويم الموصل لسعادة الدارين ﴿٦﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴿٧﴾ أَي كما هديناكم إلى الإسلام كذلك جعلناكم يا معشر المؤمنين أمة عدولاً خياراً ﴿٨﴾ لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿٩﴾ أَي لتشهدوا على الأمم يوم القيامة أن رسلكم بلغتهم، ويشهد عليكم الرسول أنه بلغكم ﴿١٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا ﴿١١﴾ أَي وما أمرناك بالتوجه إلى بيت المقدس ثم صرفناك عنها إلى الكعبة ﴿١٢﴾ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ ﴿١٣﴾ أَي إِلَّا لِنختبر إيمان الناس فنعلم من يصدق الرسول، ممن يشكك في الدين ويرجع إلى الكفر لضعف يقينه ﴿١٤﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ لَكِبْرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴿١٥﴾ أَي وإن كان هذا التحويل لشاقاً وصعباً إلا على الذين هداهم الله ﴿١٦﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عَمَلَكُمْ ﴿١٧﴾ أَي ما صحَّ ولا استقام أن يضيع الله صلاتكم إلى بيت المقدس بل يثيبكم عليها، وذلك حين سأله ﷺ عمن مات وهو يصلي إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة فنزلت، وقوله: تعالى ﴿١٨﴾ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٩﴾ تعليل للحكم أي: إنه تعالى عظيم الرحمة بعباده لا يضيع أعمالهم الصالحة التي فعلوها ﴿٢٠﴾ قَدْ رَزَى تَقَلُّبُ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴿٢١﴾ لأنه كثيراً ما رأينا تردّد بصرك يا محمد جهة السماء تشوقاً لتحويل القبلة ﴿٢٢﴾ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴿٢٣﴾ أَي فلنوجهنك إلى قبلة تحبها، - وهي الكعبة - قبله أبيك إبراهيم ﴿٢٤﴾ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴿٢٥﴾ أَي توجه في صلاتك نحو الكعبة المعظمة ﴿٢٦﴾ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴿٢٧﴾ أي وحيثما كنتم أيها المؤمنون فتوجهوا في صلاتكم نحو الكعبة أيضاً ﴿٢٨﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴿٢٩﴾ أَي إن اليهود والنصارى ليعلمون أن هذا التحويل للقبلة حق من عند الله ولكنهم يفتنون الناس بالقاء الشبهات ﴿٣٠﴾ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿٣١﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمالهم وسيجازيهم عليها، وفيه وعيد وتهديد لهم.

البلاغة: ١ - في قوله ﴿يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ استعارة تمثيلية حيث مثل لمن يرتد عن دينه بمن ينقلب على عقبه. أفاده الإمام الفخر.

٢ - ﴿لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ الرأفة: شدة الرحمة وقدّم الأبلغ مراعاة للفاصلة وهي الميم في قوله ﴿صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وقوله: ﴿لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ كلاهما من صيغ المبالغة.

٣ - ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ﴾ أطلق الوجه وأراد به الذات كقوله: ﴿وَبَقِيَ وَجْهَ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧]

وهذا النوع يسمى «المجاز المرسل» من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل ^(١).

(١) (ش): تأويل الوجه بالذات تأويل باطل؛ لأنه نفى لصفة ثابتة لله تعالى.

الفوائد: الأولى: أخرج البخاري في «صحيحه» أن رسول الله ﷺ قال: «يُدعى نوح عليه السلام يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته فيشهدون أنه قد بلغ» فذلك قوله عز وجل: ﴿لَنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ .

الثانية: سمي الله تعالى الصلاة «إيمانًا» في قوله ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي صلاتكم لأن الإيمان لا يتم إلا بها، ولأنها تشتمل على نية وقول وعمل.

الثالثة: في التعبير عن الكعبة بالمسجد الحرام إشارة إلى أن الواجب مراعاة الجهة دون العين، لأن في إصابة عين الكعبة من البعيد حرًا عظيمًا على الناس.

قال الله تعالى:

وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ بِتَابِعِ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَيْنَ آتَيْتَهُمْ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ وُجْهٍ هُوَ مُوَلِّيًا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمَنْ حَبِثَ خَرَجَتْ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمَنْ حَبِثَ خَرَجَتْ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ إِلَّا يُكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِنَّكُمْ عَلَيَّكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى ما قاله السفهاء من اليهود عند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المعظمة، وأمر رسوله بأن يتوجه في صلاته نحو البيت العتيق، ذكر في هذه الآيات أن أهل الكتاب قد انتهوا في العناد والمكابرة إلى درجة اليأس من إسلامهم، فإنهم ما تركوا قبلتك لشبهة عارضة تزيلها الحجة، وإنما خالفوك عنادًا واستكبارًا، وفي ذلك تسلية له ﷺ من جحود وتكذيب أهل الكتاب.

اللغة: ﴿آيَةٍ﴾ الحجة والعلامة ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ جمع هوى مقصور، وهوى النفس: ما تحبه وتميل إليه ﴿الْمُمْتَرِينَ﴾ المتردد: الشك، امتري في الشيء شك فيه ومنه المراء والمرية ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيَّةٍ مِنْهُ﴾ [الحج: ٥٥] أي: شك ﴿وَجْهَهُ﴾ قال الفراء: وجهة وجهة ووجه بمعنى واحد والمراد بها القبلة ﴿هُوَ مُوَلِّيًا﴾ أي هو موليها وجهه فاستغنى عن ذكر الوجه قال الفراء: أي مستقبلها ﴿فاستبقوا﴾ أي: بادروا وسارعوا ﴿الْخَيْرَاتِ﴾ الأعمال الصالحة جمع خيرة ﴿تَخْشَوْهُمْ﴾ تخافوهم والخشية: الخوف.

التفسير: ﴿وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ أي والله لئن جئت

اليهود والنصارى بكل معجزة على صدقك في أمر القبلة ما اتبعوك يا محمد ولا صلّوا إلى قبلتك ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ﴾ أي ولست أنت بمتبع قبلتهم بعد أن حولك الله عنها، وهذا لقطع أطماعهم الفارغة حيث قالت اليهود: لو ثبتت على قبلتنا لكنا نرجو أن تكون صاحبنا الذي نتظره تغرياً له ﷺ ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ أي إن النصارى لا يتبعون قبلة اليهود، كما أن اليهود لا يتبعون قبلة النصارى، لما بينهم من العداوة والخلاف الشديد مع أن الكل من بني إسرائيل ﴿وَلَكِنْ أَتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْكَ الْإِلْمُ﴾ أي ولئن فرض وقدر أنك سايرتهم على أهوائهم، واتبعت ما يهونونه ويحبونه بعد وضوح البرهان الذي جاءك بطريق الوحي ﴿إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي تكون ممن ارتكب أفحش الظلم، والكلام وارد على سبيل الفرض والتقدير وإلا فحاشاه ﷺ من اتباع أهواء الكفرة المجرمين، وهو من باب التهيج للثبات على الحق. ﴿الَّذِينَ اتَّبَعَتْهُمْ إِذَا بَيَّعُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ أي يعرفون محمداً معرفة لا امتراء فيها كما يعرف الواحد منهم ولده معرفة يقين ﴿وَأِنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي وإن جماعة منهم - وهم رؤسائهم وأخبارهم - ليخفون الحق ولا يعلنونه ويخفون صفة النبي مع أنه منعوت لديهم بأظهر النعوت ﴿الَّذِي يَخْتَفُونَ مِنْهُ، مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فهم يكتُمون أوصافه عن علم وعرفان ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي ما أوحاه الله إليك يا محمد من أمر القبلة والدين هو الحق فلا تكونن من الشاكين، والخطاب للرسول والمراد أمته ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيًا فَاسْتَفِوا الْخَيْرَاتِ﴾ أي لكل أمة من الأمم قبلة هو موليها وجهه أي مائل إليها بوجهه فبادروا وسارعوا أيها المؤمنون إلى فعل الخيرات ﴿أَيُّنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي في أي موضع تكونون من أعماق الأرض أو قمم الجبال يجمعكم الله للحساب فيفصل بين المحق والمبطل ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي هو قادر على جمعكم من الأرض وإن تفرقت أجسامكم وأبدانكم ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي من أي مكان خرجت إليه للسفر فتوجه بوجهك في صلاتك جهة الكعبة ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بَغَافِلٌ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تقدم «تفسيره» وكرره لبيان تساوي حكم السفر والحضر. ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ هذا أمر ثالث باستقبال الكعبة المشرفة، وفائدة هذا التكرار أن القبلة كان أول ما نسخ من الأحكام الشرعية، فدعت الحاجة إلى التكرار لأجل التأكيد والتقرير وإزالة الشبهة قال تعالى ﴿لَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي عرفكم أمر القبلة لثلا يحتج عليكم اليهود فيقولوا: يجحد ديننا ويتبع قبلتنا فيكون لهم حجة عليكم أو كقول المشركين: يدعى محمد ملة إبراهيم ويخالف قبلته ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ أي إلا الظلمة المعاندين الذين لا يقبلون أي

تعليل فلا تخافوهم وخافوني ﴿وَلَا تَمَنَّيْ عَلَى مَن يَكْفُرْ عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي أتم فضلي عليكم بالهداية إلى قبله أبيكم إبراهيم والتوفيق لسعادة الدارين.

البلاغة: ١ - وُضِعَ اسم الموصول موضع الضمير في قوله ﴿أَوْثُوا الْكِتَابَ﴾؛ للإيدان بكمال سوء حالهم من العناد^(١).

٢ - ﴿وَلَكِنْ أَتَّبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ﴾ هذا من باب التهيج والإلهاب للثبات على الحق.

٣ - ﴿وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبَلَتِهِمْ﴾ هذه الجملة أبلغ في النفي من قوله ﴿مَا تَعْبُو قِبَلَتَكَ﴾ لأنها جملة اسمية أولاً ولتأكيد نفيتها بالباء ثانياً ذكره صاحب «الفتوحات الإلهية».

٤ - ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ﴾ فيه تشبيه «مرسل مفصل» أي يعرفون محمداً معرفة واضحة كمعرفة آبائهم الذين من أصلابهم.

الفوائد: الأولى: روي أن عمر بن الخطاب قال لعبد الله بن سلام: أتعرف محمداً كما تعرف ولدك؟ قال وأكثر، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته ولست أشك فيه أنه نبي، وأما ولدي فلا أدري ما كان من أمه فلعلها خانت، فقبل عمر رأسه^(٢).

الثانية: توجه الوعيد على العلماء أشد من توجهه إلى غيرهم، ولهذا زاد الله في ذم أهل الكتاب بقوله ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فإنه ليس المرتكب ذنباً عن جهل كمن يرتكبه عن علم.

الثالثة: تكرر الأمر باستقبال الكعبة ثلاث مرات قال «القرطبي»: والحكمة في هذا التكرار أن الأول لمن هو بمكة، والثاني لمن هو ببقية الأمصار، والثالث لمن خرج في الأسفار^(٣).

قال الله تعالى:

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَادْكُرُوا فِي آذَانِكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

المناسبة: بدأت الآيات الكريمة بمخاطبة المؤمنين، وتذكيرهم بنعمة الله العظمى عليهم، ببعثة خاتم المرسلين ﷺ، بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن بني إسرائيل، وذكرت بالتفصيل نعم الله عليهم التي قابلوها بالجحود والكفران فيما يزيد على ثلث السورة الكريمة، وقد

(١) (ش): أي ﴿وَلَكِنْ أَتَّبَعْتُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ بدلاً من (ولئن أتيتهم).

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ١٤٠، و«محاسن التأويل» ٢/ ٣٠٥.

(٣) «القرطبي» ٢/ ١٦٨.

عدّد القرآن الكريم جرائمهم ليعتبر ويتعظ بها المؤمنون، ولما انتهى الحديث عن اليهود بعد ذلك البيان الواضح جاء دون التذكير للمؤمنين بالنعم الجليلة والتشريعات الحكيمة التي بها سعادتهم في الدارين.

اللغة: ﴿الْكِتَابَ﴾ القرآن العظيم ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ السنّة النبوية ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ أصل الذكر التنبيه بالقلب للمذكور، وسُمّي الذكر باللسان ذكرًا لأنه علامة على الذكر القلبي ﴿وَلَنْبَلُونَكُمْ﴾ أصل البلاء المحنة، ثم قد يكون بالخير أو بالشر ﴿وَنَبَلُوكُمْ بِالْأَشْرِّ وَالْخَيْرِ﴾ [الأنبياء: ٣٥] ﴿مُصِيبَةً﴾ المصيبة: كل ما يؤذي المؤمن ويصيبه في نفسه أو ماله أو ولده ﴿صَلَوَاتُ﴾ الأصل في الصلاة الدعاء وهي من الله بمعنى الرحمة ومن الملائكة بمعنى الاستغفار.

التفسير: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ﴾ الكلام متعلق بما سبق في قوله ﴿وَلَا تُتِمَّ نِعْمَتِي﴾ [البقرة: ١٥٠] والمعنى كما أتممت عليكم نعمتي كذلك أرسلت فيكم رسولًا منكم ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ أي يقرأ عليكم القرآن ﴿وَيُزَكِّيَكُمُ﴾ أي يطهركم من الشرك وقيح الفعال ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي يعلمكم أحكام الكتاب المجيد، والسنّة النبوية المطهرة ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ أي يعلمكم من أمور الدنيا والدين الشيء الكثير الذي لم تكونوا تعلمونه ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ أي اذكروني بالعبادة والطاعة أذكركم بالشواب والمغفرة^(١) ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ أي اشكروا نعمتي عليكم ولا تكفروها بالجحود والعصيان، روي أن موسى عليه السلام قال: يا رب كيف أشكرك؟ قال له ربه: «تذكرني ولا تنساني، فإذا ذكرتني فقد شكرتني، وإذا نسيتني فقد كفرتني»^(٢) ثم نادى تبارك وتعالى عباده المؤمنين بلفظ الإيمان ليستنهض همهم إلى امتثال الأوامر الإلهية، وهو النداء الثاني الذي جاء في هذه السورة الكريمة فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ أي استعينوا على أمور دنياكم وآخرتكم بالصبر والصلاة فالصبر تنالون كل فضيلة، وبالصلاة تنتهون عن كل رذيلة

(١) (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ» رواه البخاري ومسلم.

(٢) «ابن كثير المختصر» ١/ ١٤٢.

(ش): هذا الأثر لا يثبت عن النبي ﷺ، وقد ذكره المؤلف هنا بصيغة التمرّض «رُوي» التي تشير إلى ضعف الرواية. وقد ورد عن زيد بن أسلم أن موسى عليه السلام قال لربه: أَي رَبِّ أَخْبِرْنِي كَيْفَ أَشْكُرُكَ. قَالَ لَهُ رَبُّهُ: تَذْكُرُنِي وَلَا تَنْسَانِي، فَإِذَا ذَكَرْتَنِي فَقَدْ شَكَرْتَنِي. (رواه ابن أبي حاتم الرازي في «تفسيره»).

وفي تفسير ابن كثير (١/ ٤٦٥) قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ، عَنْ هِشَامِ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: أَنَّ مُوسَى عليه السلام قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَشْكُرُكَ؟ قَالَ لَهُ رَبُّهُ: تَذْكُرُنِي وَلَا تَنْسَانِي، فَإِذَا ذَكَرْتَنِي فَقَدْ شَكَرْتَنِي، وَإِذَا نَسَيْتَنِي فَقَدْ كَفَرْتَنِي.

وزيد بن أسلم هو مولى عمر بن الخطاب، روى عن أنس وجابر بن عبد الله وسلمة بن الأكوع وابن عمر وأبي هريرة وعائشة، وهو فقيه مفسر، من أهل المدينة. كان مع عمر بن عبد العزيز أيام خلافته. وكان ثقة، توفي سنة ١٣٦ هـ. فينه وبين موسى عليه السلام مفاوز.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أي معهم بالنصر والمعونة والحفظ والتأييد ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ﴾ أي لا تقولوا للشهداء: إنهم أموات ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي بل هم أحياء عند ربهم يرزقون ولكن لا تشعرون بذلك، لأنهم في حياة برزخية أسمى من هذه الحياة ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ أي ولنختبرنكم بشيء يسير من ألوان البلاء مثل الخوف والجوع، وذهاب بعض الأموال، وموت بعض الأحباب، وضياح بعض الزروع والثمار ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ أي بشر الصابرين على المصائب والبلايا بجنات النعيم ثم بين تعالى تعريف الصابرين بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أي استرجعوا وأقروا بأنهم عبيد الله يفعل بهم ما يشاء ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر لهم ثناء وتمجيد ورحمة من الله، وهم المهتدون إلى طريق السعادة.

البلاغة: ١ - بين كلمتي ﴿أَرْسَلْنَا﴾ و﴿رَسُولًا﴾ جناس الاشتقاق وهو من المحسنات البديعية.

٢ - ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ بعد قوله ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ هو من باب ذكر العام بعد الخاص لإفادة الشمول ويسمى هذا في البلاغة بـ (الإطناب).

٣ - ﴿أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي لا تقولوا هم أموات بل هم أحياء (وبينهما طباق).

٤ - التنكير في قوله ﴿بَشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ﴾ للتقليل أي بشيء قليل.

٥ - ﴿صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ التثنية فيهما للتفخيم، والتعرض بعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم ﴿رَبِّهِمْ﴾ لإظهار مزيد العناية بهم.

٦ - ﴿هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ صيغة قصر وهو من نوع قصر الصفة على الموصوف.

الفوائد: الأولى: روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «ما أصابتني مصيبة إلا وجدت فيها ثلاث نعم: الأولى: أنها لم تكن في ديني، الثانية: أنها لم تكن أعظم مما كانت، الثالثة: أن الله يجازي عليها الجزاء الكبير ثم تلا قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾.»

الثانية: قال عليه السلام: «إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: فماذا قال عبدي؟ فيقولون حميدك واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد»^(١).

(١) أخرجه أحمد والترمذي.

قال الله تعالى:

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

المناسبة: لما أمر تعالى بذكره وشكره ودعا المؤمنين إلى الاستعانة بالصبر والصلاة، أعقب ذلك ببيان أهمية الحج وأنه من شعائر دين الله، ثم نبه تعالى على وجوب نشر العلم وعدم كتمانها، وذكر خطر كتمان ما أنزل الله من البينات والهدى، كما فعل اليهود والنصارى في كتبهم فاستحقوا اللعنة والغضب والدمار.

اللغة: ﴿شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ جمع شعيرة وهي في اللغة: العلامة ومنه الشعار، وأشعر الهدي جعل له علامة ليعرف بها، والشعائر: كل ما تعبدها الله به من أمور الدين كالطواف والسعي والأذان ونحوه. ﴿حَجَّ﴾ الحج في اللغة: القصد، وفي الشرع: قصد البيت العتيق لأداء المناسك من الطواف والسعي ﴿اعْتَمَرَ﴾ العمرة في اللغة: الزيارة ثم صار علمًا لزيارة البيت للنسك ﴿جُنَاحَ﴾ الجُنَاح: الميل إلى الإثم وقيل: هو الإثم نفسه سمي به لأنه ميل إلى الباطل يقال: جَنَحَ إِلَى كَذَا إِذَا مَالَ قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ .. وَأَيْنَمَا وَرَدَ فَمَعْنَاهُ الْإِثْمُ وَالْمِيلُ ﴿يَكْتُمُونَ﴾ الكتمان: الإخفاء والستر ﴿يُنْظَرُونَ﴾ يُمهَلون.

التفسير: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ اسم الجبلين بمقربة من البيت الحرام ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أي من أعلام دينه ومناسكه التي تعبدها الله بها ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ﴾ أي من قصد بيت الله للحج أو قصده للزيارة بأحد النسكين «الحج» أو «العمرة» ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ أي لا حرج ولا إثم عليه أن يسعى بينهما، فإذا كان المشركون يسعون بينهما ويتمسحون بالأصنام، فاسعوا أنتم لله رب العالمين، ولا تتركوا الطواف بينهما خشية التشبه بالمشركين ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي من تطوع بالحج والعمرة بعد قضاء حجته المفروضة عليه، أو فعل خيرًا فرضًا كان أو نفلًا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي إنه سبحانه شاكرٌ له طاعته ومجازيه عليها خير الجزاء، لأنه عليم بكل ما يصدر من عباده من الأعمال فلا يضيع عنده أجر المحسنين ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾ أي يخفون ما أنزلناه من الآيات البينات، والدلائل الواضحات التي تدل على صدق محمد ﷺ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾ أي من بعد توضيحه لهم في التوراة أو في الكتب السماوية كقوله: تعالى ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عَنْدهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ أي أولئك الموصوفون

بقبيح الأعمال، الكاتمون لأوصاف الرسول، المحرّفون لأحكام التوراة يلعنهم الله فيبعدهم من رحمته، وتلعنهم الملائكة والمؤمنون ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أي إلا الذين ندموا على ما صنعوا، وأصلحوا ما أفسدوه بالكتمان، وبينوا للناس حقيقة ما أنزل الله فأولئك يقبل الله توبتهم ويشملهم برحمته ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي كثير التوبة على عبادي، واسع الرحمة بهم، أصفح عما فرط منهم من السيئات ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي كفروا بالله واستمروا على الكفر حتى داهمهم الموت وهم على تلك الحالة ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي يلعنهم الله وملائكته وأهل الأرض جميعاً، حتى الكفار فإنهم يوم القيامة يلعن بعضهم بعضاً ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي خالدين في النار - وفي إضممارها تفخيم لشأنها - ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ أي إن عذابهم في جهنم دائم لا ينقطع لا يخفف عنهم طرفة عين ﴿لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥] ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي ولا يمهلون أو يؤجلون بل يلاقىهم العذاب حال مفارقة الحياة الدنيا.

سَبَبُ النُّزُول: عن أنس رضي الله عنه أنه سئل عن الصفا والمروة فقال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ ^(١).

البلاغة: ١ - ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أي من شعائر دين الله ففيه إيجاز بالحذف.

٢ - ﴿شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي يشب على الطاعة قال أبو السعود: عبّر عن ذلك بالشكر مبالغة في الإحسان على العباد فأطلق الشكر وأراد به الجزاء بطريق المجاز ^(٢).

٣ - ﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ فيه التفات من ضمير المتكلم إلى الغيبة إذ الأصل «نلعنهم» ولكن في إظهار الاسم الجليل ﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ إلقاء الروعة والمهابة في القلب.

٤ - ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ فيه جناس الاشتقاق. وهو من المحسنات البديعية.

٥ - ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي في اللعنة أو في النار وأضمرت النار تفخيماً لشأنها وتهويلاً لأمرها.

٦ - ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ إيثار الجملة الإسمية لإفادة دوام النفي واستمراره.

الفوائد: الأولى: كان على الصفا صنم يقال له: «إساف» وعلى المروة صنم يقال له: «نائلة» فكان المشركون إذا طافوا تمسحوا بهما فخشي المسلمون أن يتشبهوا بأهل الجاهلية ولذلك تخرجوا من الطواف لهذا السبب فنزلت الآية تبين أنهما من شعائر الله وأنه لا حرج عليهم في السعي بينهما فالمسلمون يسعون لله لا للأصنام.

الثانية: الشكر معناه مقابلة النعمة والإحسان بالثناء والعرفان، وهذا المعنى محال على الله إذ ليس لأحد عنده يد ونعمة حتى يشكره عليها ولهذا حملة العلماء على الثواب والجزاء أي

(١) أخرجه البخاري، وانظر «الدر المنثور» للسيوطي ١/ ١٥٩. (ش): (رواه البخاري ومسلم).

(٢) (ش): الشاكر والشكور، من أسماء الله تعالى.

إنه تعالى يشبه ولا يضيع أجر العاملين. أقول: والصحيح ما عليه السلف من إثبات الصفات كما وردت، فهو شكر يليق بجلاله وكماله^(١).

قال الله تعالى:

﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (١٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَيْلِ
وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْيَارَ بِهِ الْأَرْضُ بَعْدَ
مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ (١٤) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ
وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٥) إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا
مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمْ الْأَسْبَابُ (١٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِكُ
فَنَتَّبِعُ مَنْهُمْ كَمَا تَبِعُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٧)

المناسبة: لما ذكر تعالى حال الكافرين الجاحدين لآيات الله وما لهم من العذاب والنكال في الآخرة، ذكر هنا أدلة القدرة والوحدانية، وأتى بالبراهين على وجود الخالق الحكيم، فبدأ بذكر العالم العلوي ثم العالم السفلي، ثم بتعاقب الليل والنهار، ثم بالسفن التي تمر عبر البحار، ثم بالأمطار التي فيها حياة الزروع والنفوس، ثم بما بث في الأرض من أنواع الحيوانات العجيبة، ثم بالرياح والسحب التي سخرها الله لفائدة الإنسان وختم ذلك بالأمر بالتفكير في بدائع صنع الله، وإعمال العقل في جميل خلقه، ليستدل العاقل بالأثر على وجود المؤثر، وبالصنعة على عظمة الخالق المدبر الحكيم.

اللغة: ﴿وَاللَّهُمَّ﴾ الإله: المعبود بحق أو باطل والمراد به هنا المعبود بحق وهو الله رب العالمين ﴿وَالْفَلَكَ﴾ ما عظم من السفن وهو اسم يطلق على المفرد والجمع ﴿وَبَثَّ﴾ فرق ونشر ومنه ﴿كَأَلْفَرَّاشٍ الْمُبْثُوثِ﴾ [القارة: ٤] ﴿دَابَّةٍ﴾ الدابة في اللغة: كل ما يدب على الأرض من إنسان وحيوان مأخوذ من الدبيب وهو المشي رويداً وقد خصّه العرف بالحيوان، ويدل على المعنى اللغوي قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ

(١) (ش): الشاكر والشكور، من أسماء الله تعالى، الذي يقبل من عباده السير من العمل، ويجازيهم عليه العظيم من الأجر، الذي إذا قام عبده بأوامره، وامتل طاعته، أعانه على ذلك، وأثنى عليه ومدحه، وجازاه في قلبه نوراً وإيماناً وسعة، وفي بدنه قوة ونشاطاً، وفي جميع أحواله زيادة بركة ونماء، وفي أعماله زيادة توفيق. ثم بعد ذلك، يقدم على الثواب الآجل عند ربه كاملاً موفراً، لم تنقصه هذه الأمور. ومن شكره لعبده، أن من ترك شيئاً لله أعاضه الله خيراً منه، ومن تقرب منه شبراً، تقرب منه ذراعاً، ومن تقرب منه ذراعاً؛ تقرب منه باعاً، ومن أتاه يمشي؛ أتاه هرولة، ومن عامله؛ ربح عليه أضعافاً مضاعفة. ومع أنه شاكر، فهو عليم بمن يستحق الثواب الكامل، بحسب نيته وإيمانه وتقواه، ممن ليس كذلك، عليم بأعمال العباد، فلا يضيعها، بل يجدها أوفر ما كانت، على حسب نياتهم التي اطلع عليها العليم الحكيم.

يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ﴿٤٥﴾ [النور: ٤٥] فجمع بين الزواحف والإنسان والحيوان ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾ جمع ريح وهي نسيم الهواء، وتصريفها تقليبها في الجهات ونقلها من حال إلى حال، فتهب حارة وباردة، وعاصفة ولينة، وملقحة للنبات وعقيماً ﴿الْمُسْحَرِ﴾ من التسخير وهو التذليل والتيسير ﴿أَنْدَادًا﴾ جمع نَد وهو المماثل والمراد بها الأوثان والأصنام ﴿الْأَسْبَابُ﴾ جمع سبب وأصله الحبل والمراد به ما يكون بين الناس من روابط كالنسب والصدقة ﴿كُرَّةٌ﴾ الكُرَّة: الرجعة والعودة إلى الحالة التي كان فيها ﴿حَسَرَتِ﴾ جمع حَسْرَة وهي أشد الندم على شيء فائت وفي التنزيل ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

سَبَبُ النُّزُولِ: عن عطاء قال: أنزلت بالمدينة على النبي ﷺ ﴿وَاللَّهُكُمُ﴾ فقالت كفار قريش بمكة: كيف يسعُ الناس إلهٌ واحد؟ فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ... إلى قوله: ﴿لَا يَتَّبِعُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(١).

التفسير: ﴿وَاللَّهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي إلهكم المستحق للعبادة إلهٌ واحد، لا نظير له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ أي لا معبود بحق إلا هو جلّ وعلا مولى النعم ومصدر الإحسان^(٢) ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي إن في إبداع السماوات والأرض بما فيهما من عجائب الصنعة ودلائل القدرة ﴿وَاخْتَلَفِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ أي تعاقبهما بنظام محكم، يأتي الليل فيعقبه النهار، وينسلخ النهار فيعقبه الليل، ويطول النهار ويقصر الليل والعكس ﴿وَالْفُلُكُ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ أي السفن الضخمة الكبيرة التي تسير في البحر على وجه الماء وهي موقرة بالأنقال ﴿يَمَافِنَعُ النَّاسَ﴾ أي بما فيه مصالح الناس من أنواع المتاجر والبضائع ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ﴾ أي وما أنزل الله من السحاب من المطر الذي جاء به حياة البلاد والعباد ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي أحيا بهذا الماء الزروع والأشجار، بعد أن كانت يابسة مجدبة ليس فيها حبوب ولا ثمار ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي نشر وفرّق في الأرض من كل ما يدب عليها من أنواع الدواب المختلفة في أحجامها وأشكالها وألوانها وأصواتها ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾ أي تقليب الرياح في هبوبها جنوباً وشمالاً، حارة وباردة، ولينة وعاصفة ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسْحَرِينَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي السحاب المذلّل بقدرة الله، يسير حيث شاء الله وهو يحمل الماء الغزير ثم يصبّه على الأرض قطرات قطرات، قال كعب

(١) «أسباب النزول» للواحدى ص ٢٥، و«القرطبي» ١٩١ / ٢. (ش): أخرجه ابن جرير في «جامع البيان»، وابن

أبي حاتم في «تفسيره»، والواحدى في «أسباب النزول» بسند ضعيف.

(٢) (ش): الرحمن الرحيم: اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء. والنعم كلها من آثار رحمته.

الأخبار: السحاب غربال المطر ولولا السحاب لأفسد المطر ما يقع عليه من الأرض^(١) ﴿لَا يَنْتَبِهُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي لدلائل وبراهين عظيمة دالة على القدرة القاهرة، والحكمة الباهرة، والرحمة الواسعة لقوم لهم عقول تعي وأبصار تدرك، وتتدبر بأن هذه الأمور من صنع إله قادر حكيم ثم أخبر تعالى عن سوء عاقبة المشركين الذين عبدوا غير الله فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ أي ومن الناس من تبلغ بهم الجهالة أن يتخذ من غير الله أندادًا أي رؤساء وأصنامًا ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أي يعظمونهم ويخضعون لهم كحب المؤمنين لله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ أي حب المؤمنين لله أشد من حب المشركين للأنداد ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي لو رأى الظالمون حين يشاهدون العذاب المعد لهم يوم القيامة أن القدرة كلها لله وحده ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ أي وأن عذاب الله شديد أليم وجواب «لو» محذوف أي لرأوا ما لا يوصف من الهول والفضاعة ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ أي تبرأ الرؤساء من الأتباع ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ أي حين عاينوا العذاب وتقطعت بينهم الروابط وزالت المودات ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرَأُ فَنَبْرَأَ مِنْهُمْ﴾ أي تمنى الأتباع لو أن لهم رجعة إلى الدنيا ليتبرءوا من هؤلاء الذين أضلوهما السبيل ﴿كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ أي كما تبرأ الرؤساء من الأتباع في ذلك اليوم العصيب.. قال تعالى ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي إنه تعالى كما أراهم شدة عذابه كذلك يريهم أعمالهم القبيحة ندامات شديدة وحسرات تتردد في صدورهم كأنها شرر الجحيم ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ أي ليس لهم سبيل إلى الخروج من النار، بل هم في عذاب سرمدي وشقاء أبدي.

البلاغة: ١ - ﴿وَلِلَّهِ كُزَّةٌ وَلِلَّهِ وَجْدٌ﴾ ورد الخبر خاليًا من التأكيد تنزيلاً للمنكر منزلة غير المنكر، وذلك لأن بين أيديهم من البراهين الساطعة والحجج القاطعة ما لو تأملوه لوجدوا فيه غاية الإقناع.

٢ - ﴿لَا يَنْتَبِهُ﴾ التنكير في آيات للتفخيم أي آيات عظيمة دالة على قدرة القاهرة وحكمة باهرة.
٣ - ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ فيه تشبيه (مرسل مجمل) حيث ذكرت الأداة وحذف وجه التشبيه.
٤ - ﴿أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ التصريح بالأشدية أبلغ من أن يقال «أحبُّ لله» كقوله: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] مع صحة أن يقال: أو أقسى.

٥ - ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وضع الظاهر موضع الضمير ﴿إِذْ يَرْوْنَ﴾ لإحضار الصورة في ذهن السامع وتسجيل السبب في العذاب الشديد وهو الظلم الفادح.

٦ - في قوله ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ﴾ و﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ من علم البديع ما يسمى بـ «الترصيع» وهو أن يكون الكلام مسجوعًا.

٧ - ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ الجملة إسمية وإيرادها بهذه الصيغة لإفادة دوام الخلود.

الفوائد: الأولى: ذكر تعالى في الآية من عجائب مخلوقاته ثمانية أنواع تنبئها على ما فيها من العبر واستدلالاً على الوحداية من الأثر، الأول: خلق السماوات وما فيها من الكواكب والشمس والقمر، الثاني: الأرض وما فيها من جبال وبحار وأشجار وأنهار ومعادن وجواهر، الثالث: اختلاف الليل والنهار بالطول والقصر والنور والظلمة والزيادة والنقصان، الرابع: السفن العظيمة كأنها الراسيات من الجبال وهي موقرة بالأنقال والرجال تجري بها الرياح مقبلة ومدبرة، الخامس: المطر الذي جعله الله سبباً لحياة الموجودات من حيوان ونبات وإنزاله بمقدار، السادس: ما بث في الأرض من إنسان وحيوان مع اختلاف الصور والأشكال والألوان، السابع: تصريف الرياح والهواء جسم لطيف وهو مع ذلك في غاية القوة بحيث يقلع الصخر والشجر ويخرب البنيان العظيمة وهو مع ذلك حياة الوجود فلو أمسك طرفه عين لَمَات كل ذي روح وأتت ما على وجه الأرض، الثامن: السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة التي تسيل منها الأودية الكبيرة يبقى معلقاً بين السماء والأرض بلا علاقة تمسكه ولا دعامة تسنده فسبحان الواحد القهار.

الثانية: ورد لفظ الرياح مفردة ومجموعة، فجاءت مجموعة مع الرحمة مفردة مع العذاب كقوله: ﴿وَمَنْ آيَنتهُ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَةً﴾ [الروم: ٤٦] وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا يَنْفِثُ بِهَا رَحْمَةً يَكُونُ غَاشِقًا لِلْأَشْجَارِ﴾ [الفرقان: ٤٨] وقوله: ﴿الرِّيحُ أَعْلَمُ﴾ [الذاريات: ٤١] وروي أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا هبت الريح «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً»^(١).

قال الله تعالى:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَيَعْقِلُونَ سَيِّئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيُسْتَرُونَ بِهِ - ثَمَّا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

(١) (ش): رواه الطبراني، وضعفه الألباني.

المناسبة: لما بين تعالى التوحيد ودلائله، وما للمؤمنين المتقين والكفرة العاصين، أتبع ذلك بذكر إنعامه على الكافر والمؤمن، ليدل على أن الكفر لا يؤثر في قطع الإنعام، لأنه تعالى رب العالمين، فإحسانه عام لجميع الأنام دون تمييز بين مؤمن وكافر وبر وفاجر، ثم دعا المؤمنين إلى شكر المنعم جل وعلا والأكل من الطيبات التي أباحها الله، واجتناب ما حرمه الله من أنواع الخبائث.

اللغة: ﴿خُطُوبَ الشَّيْطَانِ﴾ جمع خطوة وهي في الأصل ما بين القدمين عند المشي وتستعمل مجازاً في تتبع الآثار ﴿بِالسُّوءِ﴾ أصل السُّوء ما يسوء الإنسان أي يحزنه، ويطلق على المعصية قولاً أو فعلاً أو اعتقاداً لأنها تسوء صاحبها أي تحزنه في الحال أو المال ﴿وَالْفَحْشَاءِ﴾ ما يستعظم ويستفحش من المعاصي فهي أقبح أنواع المعاصي ﴿أَلْفَيْنَا﴾ وجدنا ومنه ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ [يوسف: ٢٥] و﴿إِنَّهُمْ أَلَفُوا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ [الصفات: ٦٩] أي وجدوا ﴿يَنْعِقُ﴾ يصيح يقال: نعق الراعي بغنمه ينقع نعيقاً إذا صاح بها وزجرها. قال الأخطل:

فَانْعَقَ بَضَائِكَ يَا جَرِيرُ فَإِنَّمَا مَتَنَكَ نَفْسُكَ فِي الْخَلَاءِ ضَالًّا

﴿أَهْلٌ﴾ الإهلال: رفع الصوت يقال: أهلَّ المحرم إذا رفع صوته بالتلبية، ومنه إهلال الصبي وهو صياحه عند الولادة، وكان المشركون إذا ذبحوا ذكروا اللات والعزى ورفعوا بذلك أصواتهم ﴿أَضْطَرَّ﴾ ألجئ أي ألجأته الضرورة إلى الأكل من المحرمات ﴿بَاجٍ وَلَا عَادٍ﴾ الباغي من البغي والعادي من العدوان، وهما بمعنى الظلم وتجاوز الحد ﴿يُزَكِّيهِمْ﴾ يطهرهم، من التزكية وهي التطهير ﴿شِقَاقٍ﴾ الشقاق: الخلاف والعداوة.

التفسير: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّهُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَّالًا طَيِّبًا﴾ الخطاب عام لجميع البشر أي كلوا ممَّا أحله الله لكم من الطيبات حال كونه مستطاباً في نفسه غير ضار بالأبدان والعقول ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ﴾ أي لا تقتدوا بآثار الشيطان فيما يزينه لكم من المعاصي والفواحش ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي إنه عظيم العداوة لكم وعداوته ظاهرة لا تخفى على عاقل ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾ أي لا يأمركم الشيطان بما فيه خير إنما يأمركم بالمعاصي والمنكرات وما تنهى في القبح من الرذائل ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ أي وأن تفتروا على الله بتحريم ما أحل لكم وتحليل ما حرم عليكم فتحلوا وتحرموا من تلقاء أنفسكم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي وإذا قيل للمشركين: اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الوحي والقرآن واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، قال تعالى في الرد عليهم: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا آبَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ سَيِّئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي يتبعون آباءهم ولو كانوا سفهاء أغبياء ليس لهم عقل يردعهم عن الشر ولا بصيرة تنير لهم الطريق؟ والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتعجب من حالهم في تقليدهم الأعمى للآباء، ثم ضرب تعالى مثلاً للكافرين في غاية

الوضوح والجلاء فقال تعالى ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ﴾ أي ومثل الكفار في عدم انتفاعهم بالقرآن وحججه الساطعة ومثل من يدعوهم إلى الهدى كمثل الراعي الذي يصيح بغنمه ويزجرها فهي تسمع الصوت والنداء دون أن تفهم الكلام والمراد، أو تدرك المعنى الذي يقال لها، فهؤلاء الكفار كالذباب السارحة لا يفهمون ما تدعوهم إليه ولا يفقهون، يسمعون القرآن ويصمّون عنه الآذان ﴿إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤] ولهذا قال تعالى ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي صمٌّ عن سماع الحق، بكم أي خرسٌ عن النطق به، عُمَىٰ عن رؤيته؛ فهم لا يفقهون ما يقال لهم لأنهم أصبحوا كالذباب فهم في ضلالهم يتخبطون. وخلاصة المثل - والله أعلم - مثل الذين كفروا كالبهائم التي لا تفقه ما يقول الراعي أكثر من سماع الصوت دون أن تفهم المعنى وهو خلاصة قول ابن عباس ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ خاطب المؤمنين لأنهم الذين ينتفعون بالتوجيهات الربانية. والمعنى كلوا يا أيها المؤمنون من المستلذات وما طاب من الرزق الحلال الذي رزقكم الله إياه ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي واشكروا الله على نعمه التي لا تحصى إن كنتم تخصونه بالعبادة ولا تعبدون أحداً سواه ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ﴾ أي ما حرم عليكم إلا الخبائث كالميتة والدم ولحم الخنزير ﴿وَمَا أَهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ أي وما ذبح للأصنام فذكر عليه اسم غير الله كقوله: م باسم اللات والعزى ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاعٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي فمن ألجأته ضرورة إلى أكل شيء من المحرمات بشرط ألا يكون ساعياً في فساد، ولا متجاوزاً مقدار الحاجة ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي فلا عقوبة عليه في الأكل ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي يغفر الذنوب ويرحم العباد ومن رحمته أن أباح المحرمات وقت الضرورة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ﴾ أي يخفون صفة النبي ﷺ المذكورة في التوراة وهم اليهود قال ابن عباس: نزلت في رؤساء اليهود حين كتبوا نعت النبي ﷺ ﴿وَيَسْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي يأخذون بدله عوضاً حقيراً من حطام الدنيا ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ أي إنما يأكلون ناراً تأجج في بطونهم يوم القيامة لأن أكل ذلك المال الحرام يفضي بهم إلى النار ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي لا يكلمهم كلام رضى كما يكلم المؤمنين بل يكلمهم كلام غضب كقوله: ﴿قَالَ أَخَشُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي لا يطهرهم من دنس الذنوب ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي عذاب مؤلم وهو عذاب جهنم ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ أي أخذوا الضلالة بدل الهدى والكفر بدل الإيمان ﴿والعذاب بالمغفرة﴾ أي واستبدلوا الجحيم بالجنة ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ أي ما أشدَّ صبرهم على نار جهنم؟ وهو تعجيب للمؤمنين من جراءة أولئك الكفار على اقتراف أنواع المعاصي ثم قال تعالى مبيناً سبب النكال والعذاب ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي ذلك العذاب الأليم بسبب أن الله أنزل كتابه ﴿التوراة﴾

ببيان الحق فكتموا وحرفوا ما فيه ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ﴾ أي اختلفوا في تأويله وتحريفه ﴿لِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي في خلاف بعيد عن الحق والصواب، مستوجب لأشد العذاب.

سَبَبُ النُّزُولِ: قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في رؤساء اليهود: كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحبي بن أخطب كانوا يأخذون من أتباعهم الهدايا، فلما بعث محمد ﷺ خافوا انقطاع تلك المنافع فكتموا أمر محمد وأمر شرائعه فنزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ﴾ (١) الآية (٢).

البَلَاغَةُ: ١ - ﴿خُطُوتِ الشَّيْطَانِ﴾ استعارة عن الاقتداء به واتباع آثاره قال في «تلخيص البيان»: وهي أبلغ عبارة عن التحذير من طاعته فيما يأمر به وقبول قوله فيما يدعو إلى فعله (٣).

٢ - ﴿بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾ هو من باب «عطف الخاص على العام» لأن السوء يتناول جميع المعاصي، والفحشاء أقبح وأفحش المعاصي.

٣ - ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيه تشبيه (مرسل ومجمل) مرسل لذكر الأداة ومجمل لحذف وجه الشبه فقد شبه الكفار بالبهايم التي تسمع صوت المنادي دون أن تفقه كلامه وتعرف مراده.

٤ - ﴿صُمُّكُمْ عُمًى﴾ حذف أداة الشبه ووجه الشبه فهو «تشبيه بليغ» أي هم كالصم في عدم سماع الحق والعمي وكالبكم في عدم الانتفاع بنور القرآن.

٥ - ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ مجاز مرسل باعتبار ما يؤول إليه أي إنما يأكلون المال الحرام الذي يفضي بهم إلى النار. وقوله: ﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾ زيادة تشنيع وتقبيح لحالهم وتصويرهم بمن يتناول رصف جهنم، وذلك أفظع سماعاً وأشد إيجاعاً.

٦ - ﴿أَشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ استعارة والمراد استبدلوا الكفر بالإيمان وقد تقدّم في أول السورة إجراء هذه الاستعارة.

الفوائد: الأولى: عن ابن عباس قال: تليت هذه الآية عند النبي ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ﴾ فقام سعد بن أبي وقاص فقال يا رسول الله: ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة! فقال: «يا سعد؛ أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يوماً، وأيمًا عبد نبت لحمه من السُّحْتِ والربا فالنار أولى به» (٤) (٥).

(١) الفخر الرازي ٢٨/٥.

(٢) (ش): موضوع، أخرجه الثعلبي، وذكره الواحدي في «أسباب النزول» معلقاً.

(٣) «تلخيص البيان» ص ١١.

(٤) أخرجه الحافظ ابن مردويه.

(٥) (ش): أخرجه الطبراني، وضعفه الألباني. ويُغني عنه قوله ﷺ: كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به، (رواه أبو نُعيم في «الحلية» وأحمد في «الزهد» وصححه الألباني). وحديث أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ =

الثانية: قال بعض السلف: «يدخل في اتباع خطوات الشيطان كل معصية لله، وكل نذر في المعاصي قال الشعبي: نذر رجل أن ينحر ابنه فأفناه مسروقٌ بذبح كبش وقال: هذا من خطوات الشيطان»^(١).

الثالثة: قال ابن القيم في «إعلام الموقعين» عن قوله تعالى ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ قال: لك أن تجعل هذا من التشبيه المركب، وأن تجعله من التشبيه المفرق، فإن جعلته من المركب كان تشبيهاً للكفار - في عدم فقههم وانتفاعهم - بالغنم التي ينقع بها الراعي فلا تفقه من قوله شيئاً غير الصوت المجرد الذي هو الدعاء والنداء، وإن جعلته من التشبيه المفرق: فالذين كفروا بمنزلة البهائم، ودعاء داعيهم إلى الطريق والهدى بمنزلة الذي ينقع بها، ودعاؤهم إلى الهدى بمنزلة النعق، وإدراكهم مجرد الدعاء والنداء كإدراك البهائم مجرد صوت الناعق. والله أعلم.

قال الله تعالى:

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبُيُوتِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَتَأْتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لَمَّا كُنْتُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَلَدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَأَنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

المناسبة: من هنا بداية النصف الثاني من السورة الكريمة على وجه التقريب، ونصف السورة السابق كان متعلقاً بأصول الدين وبقبائح بني إسرائيل، وهذا النصف غالبه متعلق بالأحكام التشريعية الفرعية، ووجه المناسبة أنه تعالى ذكر في الآية السابقة أن أهل الكتاب

= «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ: أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يُمِدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟» (رواه مسلم).

(١) «محاسن التأويل» ٣/ ٣٦٨. (ش): قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَذَرُ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَكَفَارَتِهِ كَفَارَةً يَمِينٍ». (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

اختلفوا في دينهم اختلافًا كبيرًا صاروا بسببه في شقاق بعيد، ومن أسباب شقاقهم أمر القبلة إذ أكثروا الخوض فيه وأنكروا على المسلمين التحول إلى استقبال الكعبة، وادّعى كل من الفريقين - اليهود والنصارى - أن الهدى مقصور على قبلته، فردّ الله عليهم بين أن العبادة الحقّة وعمل البرّ ليس بتوجه الإنسان جهة المشرق والمغرب، ولكن بطاعة الله وامتنال أوامره وبالإيمان الصادق الراسخ.

اللغة: ﴿الْبَرِّ﴾ اسم جامع للطاعات وأعمال الخير ﴿الرِّقَابِ﴾ جمع رقبة وهي في الأصل العُنُقُ، وتطلق على البدن كله كما تطل العين على الجاسوس والمراد في الآية الأسرى^(١) والأرقاء ﴿الْبِاسَاءِ﴾ الفقر ﴿وَالضَّرَاءِ﴾ السقم والوجع ﴿الْبَاسِ﴾ القتال وأصل البأس في اللغة: الشدّة ﴿كُذِّبَ﴾ فرض ﴿الْفِصَاصُ﴾ العقوبة بالمثل من قتل أو جرح مأخوذ من القصّ وهو تتبع الأثر ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتَيْهِ فَصِّبِي﴾ [القصص: ١١] اتبعى أثره ﴿الْقَتْلَى﴾ جمع قتيل يستوي فيه المذكر والمؤنث يقال: رجل قتيل وامرأة قتيل ﴿الْأَلْبَبِ﴾ العقول جمع لب مأخوذ من لبّ النخلة ﴿إِنَّمَا﴾ الإثم: الذنب ﴿جَنَفًا﴾ الجنف: العدول عن الحق على وجه الخطأ.

سبب النزول: عن قتادة أن أهل الجاهلية كان فيهم بغى وطاعة للشيطان، وكان الحيّ منهم إذا كان فيهم منعة فقتل عبدّهم عبد آخرين قالوا لن نقتل به إلا حرًا، وإذا قتلت امرأة منهم امرأة من آخرين قالوا: لن نقتل بها إلا رجلًا فأنزل الله ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾^(٢).

التفسير: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أي ليس فعل الخير وعمل الصالح محصورًا في أن يتوجه الإنسان في صلاته جهة المشرق والمغرب ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي ولكن البرّ الصحيح هو الإيمان بالله واليوم الآخر ﴿وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ أي وأن يؤمن بالملائكة والكتب والرسول ﴿وَعَاقَى أَلْمَالِ عَلَى حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبِ﴾ أي أعطى المال على محبته له ذوى قرابته فهم أولى بالمعروف ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ أي وأعطى المال أيضًا لليتامى الذين فقدوا آباءهم والمساكين الذين لا مال لهم، وابن السبيل المسافر المنقطع عن ماله ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ أي الذين يسألون المعونة بدافع الحاجة وفي تخليص الأسرى والأرقاء بالفداء ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَعَاقَى الزَّكَاةَ﴾ أي وأتى

(١) (ش): أي الأسرى من المسلمين.

(٢) «الدر المنثور» ١/ ١٧٣. (ش): ضعيف، أخرجه ابن جرير في «جامع البيان»، والبيهقي في «السنن الكبرى». وعن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-؛ قال: كان قبلكم يقتلون القاتل بالقتل لا تقبل منه الدية؛ فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ إلى آخر الآية: ﴿ذَلِكَ لِكُفَيْفٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٍ﴾ يقول: فخفف عنكم ما كان على من قبلكم؛ أي: الدية لم تكن تقبل، فالذي يقبل الدية؛ فذلك عفو؛ فاتباع بالمعروف، ويؤدي إليه الذي عفي من أخيه بإحسان. (أخرجه ابن جرير في «جامع البيان»، وابن حبان في «صحيحه» بسند حسن).

بأهم أركان الإسلام وهما الصلاة والزكاة ﴿وَالْمُؤْفُوكَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ أي ومن يوفون بالعهد ولا يخلفون الوعود ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أي الصابرين على الشدائد وحين القتال في سبيل الله، وهو منصوب على المدح ﴿وَأُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ أي أهل هذه الأوصاف هم الذين صدقوا في إيمانهم وأولئك هم الكاملون في التقوى، وفي الآية ثناء على الأبرار وإحياء إلى ما يلاقونه من اطمئنان وخيراتٍ حسان.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ أي فرض عليكم أن تقتصوا للمقتول من قاتله بالمساواة دونبغي أو عدوان ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ أي اقتصوا من الجاني فقط فإذا قتل الحرُّ الحرَّ فاقتلوه به، وإذا قتل العبد العبد فاقتلوه به، وكذلك الأنثى إذا قتلت الأنثى، مثلاً بمثل ولا تعتدوا فتقتلوا غير الجاني، فإن أخذ غير الجاني ليس بقصاص بل هو ظلم واعتداء ﴿فَمَنْ عَنِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ أي فمن ترك له من دم أخيه المقتول شيء، بأن ترك وليه القود^(١) وأسقط القصاص راضياً بقبول الدية ﴿فَأَنْبِئْهُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ أي فعلى العافي اتباعاً للقاتل بالمعروف بأن يطالبه بالدية بلا عنف ولا إرهاب، وعلى القاتل أداءً للدية إلى العافي - ولي المقتول - بلا مطل ولا بخس ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أي ما شرعته لكم من العفو إلى الدية تخفيف من ربكم عليكم ورحمة منه بكم، ففي الدية تخفيف على القاتل ونفع لأولياء القاتل وقد جمع الإسلام في عقوبة القتل بين العدل والرحمة، فجعل القصاص حقاً لأولياء المقتول إذا طالبوا به وذلك عدل، وشرع الدية إذا أسقطوا القصاص عن القاتل وذلك رحمة ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى بِكَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي فمن اعتدى على القاتل بعد قبول الدية فله عذاب أليم في الآخرة ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي ولكم - يا أولي العقول - فيما شرعت من القصاص حياة أي حياة لأنه من علم أنه إذا قتل نفساً قتل بها يرتدع وينزجر عن القتل، فيحفظ حياته وحياة من أراد قتله وبذلك تُصان الدماء وتحفظ حياة الناس ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لعلكم تنزجرون وتتقون محارم الله ومآثمه ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي فرض عليكم إذا أشرف أحدكم على الموت وقد ترك مالا كثيراً ﴿الْوَصِيَّةَ لِلْوَلَدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ أي وجب عليه الإيصال للوالدين والأقربين ﴿بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ أي بالعدل بأن لا يزيد على الثلث وألا يوصي للأغنياء ويترك الفقراء، حقاً لازماً على المتقين لله. وقد كان هذا واجباً قبل نزول آية المواريث ثم نسخ بآية المواريث ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ﴾ أي من غير هذه الوصية بعد ما علمها من وصي أو شاهد ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ أي إثم هذا التبديل على الذين بدّلوه لأنهم خانوا وخالفوا حكم الشرع ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فيه وعيد شديد للمبدلين ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوَصَّيِّنَا﴾ أي فمن علم أو ظنَّ

(١) (ش): الْقَوْدُ: الْقِصَاصُ.

من الموصي ميلاً عن الحق بالخطأ ﴿أَوْثِمًا﴾ أي: ميلاً عن الحق عمداً ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي أصلح بين الموصي والموصى له فلا ذنب عليه بهذا التبديل ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي واسع المغفرة والرحمة لمن قصد بعمله الإصلاح.

البلاغة: ١ - ﴿وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مَنْ ءَامَنَ﴾ جعل البر نفس من آمن على طريق المبالغة وهذا معهود في كلام البلغاء إذ تجددهم يقولون: السخاء حاتم، والشعر زهير أي: إن السخاء سخاء حاتم، والشعر شعر زهير، وعلى هذا خرجه سيويه حيث قال في كتابه قال عز وجل: ﴿وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مَنْ ءَامَنَ﴾ وإنما هو ولكن البر من آمن بالله انتهى^(١) ونظير ذلك أن تقول: ليس الكرم أن تبذل درهمًا ولكن الكرم بذل الآلاف، فلا يناسب: «ولكن الكريم من يبذل الآلاف».

٢ - ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ إيجاز بالحذف أي وفي فك الرقاب يعني فداء الأسرى، وفي لفظ الرقاب «مجاز مرسل» حيث أطلق الرقبة وأراد به النفس وهو من إطلاق الجزء وإرادة الكل.

٣ - ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾ الأصل أن يأتي مرفوعاً كقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾ وإنما نصب على الاختصاص أي وأخص بالذكر الصابرين وهذا الأسلوب معروف بين البلغاء فإذا ذكرت صفات للمدح أو الذم وخولف الإعراب في بعضها فذلك تفننٌ ويسمى قطعاً لأن تغيير المؤلف يدل على مزيد اهتمام بشأنه وتشويق لسماعه.

٥ - ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ الجملة جاء الخبر فيها فعلاً ماضياً «صدقوا» لإفادة التحقيق وأن ذلك وقع منهم واستقر، وأتى بخبر الثانية جملة اسمية ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ ليدل على الثبوت وأنه ليس متجدداً بل صار كالسجدة لهم ومراعاة للفاصلة أيضاً.

٦ - ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ ذكر المتقين من باب الإلهاب والتهيج.

٧ - الطباق بين ﴿فَأَنْبِئْهُمْ﴾ و﴿وَأَدَّاءُ﴾ و﴿وَالْحَزُّ﴾ و﴿وَالْعَبْدُ﴾.

الفوائد: الأولى: في ذكر الأخوة تعطف داع إلى العفو فقد سمى الله القاتل أخاً لولي المقتول ﴿فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ تذكيراً بالأخوة الدينية والبشرية حتى يهز عطف كل واحد منهما إلى الآخر فيقع بينهم العفو والاتباع بالمعروف والأداء بالإحسان.

الثانية: كان في بني إسرائيل القصاص ولم يكن فيهم الدية، وكان في النصارى الدية ولم يكن فيهم القصاص، فأكرم الله هذه الأمة المحمدية وخيرها بين القصاص والدية والعفو، وهذا من يسر الشريعة الغراء التي جاء بها سيد الأنبياء ﷺ.

الثالثة: اتفق علماء البيان على أن هذه الآية ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ بالغة أعلى درجات البلاغة، ونقل عن العرب في هذا المعنى قولهم: القتل أنفى للقتل، ولكن لورود الحكمة في القرآن فضلٌ من ناحية حسن البيان، وإذا شئت أن تزداد خبرة بفضل بلاغة القرآن وسمو مرتبته

على مرتبة ما نطق به بلغاء البشر فانظر إلى العبارتين فإنك تجد من نفحات الإعجاز ما ينبهك لأن تشهد الفرق بين كلام الخالق وكلام المخلوق. أما الحكمة القرآنية فقد جعلت سبب الحياة القصاص وهو القتل عقوبة على وجه التماثل، والمثل العربي جعل سبب الحياة القتل، ومن القتل ما يكون ظلمًا فيكون سببًا للفناء. وتصحيح العبارة أن يقال: القتل قصاصًا أنفي للقتل ظلمًا، والآية جاءت خالية من التكرار اللفظي والمثل كرر فيه لفظ القتل فمسّه بهذا التكرار من الثقل ما سلمت منه الآية، ومن الفروق الدقيقة بينهما أن الآية جعلت القصاص سببًا للحياة والمثل جعل القتل سببًا لنفي القتل وهو لا يستلزم الحياة إلخ. وقد عدّ العلماء عشرين وجهًا من وجوه التفريق بين الآية القرآنية واللفظة العربية وقد ذكرها السيوطي في «الإتقان» فارجع إليه تجد فيه شفاء الغليل.

قال الله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾
 أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ
 فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ
 رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ
 الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا
 يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾
 وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا
 بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةُ الصِّيَامِ الرِّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ
 لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَحْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَشِّرُوهُمْ وَابْتَغُوا
 مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ
 إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَنْكُمُوهُمْ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ
 ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

المناسبة: ذكر تعالى في الآيات السابقة حكم القصاص ثم عقبه بحكم الوصية للوالدين والأقربين، ثم بأحكام الصيام على وجه التفصيل لأن هذا الجزء من السورة الكريمة يتناول جانب الأحكام التشريعية، ولما كان الصوم من أهم الأركان ذكره الله تعالى هنا ليهيئ عباده إلى منازل القدس ومعارج المتقين الأبرار.

اللغة: ﴿الصِّيَامُ﴾ في اللغة: الإمساك عن الشيء قال أبو عبيدة: كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم قال الشاعر:

خَيْلٌ صِيَامٌ وَخَيْلٌ غَيْرُ صَائِمَةٍ تَحْتَ الْعَجَاجِ وَأُخْرَى تَعْلُكُ اللَّجْمَا^(١)
وفي الشرع: الإمساك عن الطعام والشراب والجماع في النهار مع النية ﴿يُطِيقُونَهُ﴾ أي
يصومونه بعسر ومشقة قال الراغب: الطاقة اسمٌ لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله مع المشقة
وشبهه بالطوق المحيط بالشيء^(٢) ﴿فَذِيَّةٌ﴾ ما يفدي به الإنسان نفسه من مالٍ وغيره ﴿شَهْرٌ﴾
من الاشتهار وهو الظهور ﴿رَمَضَانَ﴾ من الرَّمَض وهو شدة الحر والرمضاء شدة حر الشمس
وسمي رمضان لأنه يرمض الذنوب أي يحرقها ﴿الرَّفَثُ﴾ الجماع ودواعيه وأصله قولُ الفحش
ثم كني به عن الجماع قَالَ الشَّاعِرُ:

وَيُرَيْنَ مِنْ أُنْسِ الْحَدِيثِ زَوَانِيَا وَبِهِنَّ عَنْ رَفَثِ الرِّجَالِ نِفَارٌ^(٣)
﴿تَحْتَاوُونَ﴾ قال في اللسان: خانه واختانه والمخانة مصدر من الخيانة وهي ضد الأمانة
وسئل بعضهم عن السيف فقال: أخوك وإن خانك ﴿عَكِفُونَ﴾ الإعتكاف في اللغة: اللبث
والزوم، وفي الشرع: المكث في المسجد للعبادة ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ الحد في اللغة: المنع وأصله
الحاجز بين الشيئين المتقابلين، وسميت الأحكام حدودًا لأنها تحجز بين الحق والباطل.

سَبَبُ النُّزُولِ: روي أن جماعة من الأعراب سألوا النبي ﷺ فقالوا: يا محمد أقریب ربنا
فمناجیه أم بعيد فننادیه؟ فأنزل الله ﴿عَلَّمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَحْتَاوُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية ﴿وَإِذَا
سَأَلْتُكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ الآية^(٤).

التفسير: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ناداهم بلفظ الإيمان ليحرك فيهم مشاعر الطاعة ويذكّرهم
فيهم جدوة الإيمان ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ أي فرض عليكم صيام شهر رمضان ﴿كَمَا كُتِبَ
عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي كما فرض على الأمم قبلكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لتكونوا من
المتقين لله المجتنبين لمحارمه ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ أي والصيام أيامه معدودات وهي أيام
قلائل، فلم يفرض عليكم الدهر كله تخفيفاً ورحمة بكم ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ
فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي من كان به مرض أو كان مسافراً فأفطر فعليه قضاء عدة ما أفطر من
أيام غيرها ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾ أي وعلى الذين يستطيعون صيامه
مع المشقة لشيخوخة أو ضعف إذا أفطروا فعليهم فدية بقدر طعام مسكين لكل يوم ﴿فَمَن
تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي فمن زاد على القدر المذكور في الفدية ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ ثم قال تعالى ﴿وَأَن
تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي والصوم خير لكم من الفطر والفدية إن كنتم تعلمون

(١) (ش): خَيْلٌ صِيَامٌ: أَي خَيْلٌ ثَابِتَةٌ مُمَسِّكَةٌ عَنِ الْجَرْيِ وَالْحَرَكَةِ. وَعَلَى الْفَرَسِ اللَّجْمَا: أَي مَضْغُهُ وَعَضُّهُ.

(٢) «مفردات القرآن» ص ٣١٢.

(٣) (ش): نِفَار: ابتعاد، إغراض، وصدود.

(٤) (ش): أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره»، وابن جرير في «جامع البيان» وضعّفه الحافظ ابن حجر والشيخ أحمد شاكر.

ما في الصوم من أجر وفضيلة، ثم بيّن تعالى وقت الصيام فقال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ أي والأيام المعدودات التي فرضتها عليكم أيها المؤمنون هي شهر رمضان الذي ابتداء فيه نزول القرآن حال كونه هداية للناس لما فيه من إرشاد وإعجاز وآيات واضحات تفرق بين الحق والباطل ﴿فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ أي من حضر منكم الشهر فليصمه ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي ومن كان مريضًا أو مسافرًا فأفطر فعليه صيام أيام آخر، وكرر لئلا يتوهم نسخه بعموم لفظ شهود الشهر ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ أي يريد الله بهذا الترخيص التيسير عليكم لا التعسير ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ أي ولتكمّلوا عدة شهر رمضان بقضاء ما أفطرتُم ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُكُمْ﴾ أي ولتحمّدوا الله على ما أرشدكم إليه من معالم الدين ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولكي تشكروا الله على فضله وإحسانه.. ثم بيّن تعالى أنه قريب يجب دعوة الداعين ويقضي حوائج السائلين فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ أي أنا معهم أسمع دعاءهم، وأرى تضرعهم وأعلم حالهم كقوله: ﴿وَمَن قَرَّبُوا إِلَيَّ مِنْ حَبْلٍ أَوْ رِيدٍ﴾ [ق: ١٦] ﴿أَجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ أي أجيب دعوة من دعاني إذا كان عن إيمان وخشوع قلب ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي إذا كنت أنا ربكم الغني عنكم أجيب دعاءكم فاستجيبوا أنتم لدعوتي بالإيمان بي وطاعتي ودوموا على الإيمان لتكونوا من السعداء الراشدين.. ثم شرع تعالى في بيان تنمة أحكام الصيام بعد أن ذكر آية القرب والدعاء فقال ﴿أَحِلَّ لَكُمُ اللَّيْلَةُ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ أي أبيع لكم أيها الصائمون غشيان النساء في ليالي الصوم ﴿هُنَّ لِيَاسُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسُ لَهُنَّ﴾ قال ابن عباس: هنّ سكنّ لكم وأنتم سكنّ لهنّ ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي تخونونها بمقارفة الجماع ليلة الصيام وكان هذا محرّمًا في صدر الإسلام ثم نسخ، روى البخاري عن البراء رضي الله عنه قال: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ أي فقبل توبتكم وعفا عنكم لما فعلتموه قبل النسخ ﴿فَأَلْفَنَ بِشِرْهُنَّ وَأَتَعَوْا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي جامعوهن في ليالي الصوم واطلبوا بنكاحهن الولد ولا تباشروهن لقضاء الشهوة فقط ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ أي كلوا واشربوا إلى طلوع الفجر ﴿ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى الْآيِلِ﴾ أي أمسكوا عن الطعام والشراب والنكاح إلى غروب الشمس ﴿وَلَا تُبْشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ أي لا تقربوهن ليلاً أو نهاراً ما دتم معتكفين في المساجد ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ أي تلك أوامر الله وزواجره وأحكامه التي شرعها لكم فلا تخالفوها ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي يتقون المحارم.

البَلَاغَةُ: ١ - ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ التشبيه في الفرضية لا في الكيفية أي فرض الصيام عليكم كما فرض على الأمم قبلكم وهذا التشبيه يسمى «مرسلاً مجملاً» .

٢ - ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي من كان مريضاً فأفطر، أو على سفر فأفطر فعليه قضاء أيام بعدد ما أفطر .

٣ - ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ في تفسير الجلالين قدّره بحذف «لا» أي لا يطيقونه، ولا ضرورة لهذا الحذف لأن معنى الآية يطيقونه بجهدٍ شديد وذلك كالشيخ الهرم والحامل والمرضع فهم يستطيعونه لكن مع المشقة الزائدة، والطاقة اسم لمن كان قادراً على الشيء مع الشدة والمشقة .

٤ - ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بـ «طباق السلب» .

٥ - ﴿الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ الرفث كناية عن الجماع وعدّي بـ «إلى» لتضمنه معنى الإفضاء وهو من الكنايات الحسنة كقوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] وقوله: ﴿فَأَتُوا حَرْثَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] وقوله: ﴿فَأَلْقَيْنَ بَشِيرُوهُنَّ﴾ قال ابن عباس: إن الله عزَّ وجلَّ كريمٌ حلِيمٌ يكني^(١) .

٦ - ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ استعارة بديعة شَبَّه كل واحد من الزوجين لاشتماله على صاحبه في العناق والضم باللباس المشتمل على لباسه قال في «تلخيص البيان»: «المراد قرب بعضهم من بعض واشتمال بعضهم على بعض كما تشتمل الملابس على الأجسام فاللباس استعارة^(٢) .

٧ - ﴿الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ قال الشريف الرضي: وهذه استعارة عجيبة والمراد بها بياض الصبح وسواد الليل والخيطان هاهنا مجاز وإنما شبههما بذلك لأن بياض الصبح يكون في أول طلوعه مشرقاً خافياً، ويكون سواد الليل منقضيّاً مولياً، فهما جميعاً ضعيفان إلا أن هذا يزداد انتشاراً وهذا يزداد استساراً، وذهب الزمخشري إلى أنه من التشبيه البليغ .

الفوائد: الأولى: روي عن الحسن أنه قال: إن الله تعالى فرض صيام رمضان على اليهود والنصارى، أما اليهود فإنها تركت هذا الشهر وصامت يوماً من السنة زعموا أنه يوم غرق فيه فرعون، وأما النصارى فإنهم صاموا رمضان فصادفوا فيه الحر الشديد فحولوه إلى وقت لا يتغير ثم قالوا عند ذلك: نزيد فيه. فزادوا عشراً، ثم بعد زمانٍ اشتكى^(٣) ملكهم فنذر سبعا فزادوه، ثم جاء بعد ذلك ملك آخر فقال: ما بال هذه الثلاثة فأتمه خمسين يوماً وهذا معنى قوله

(١) «روائع البيان» ١/ ١٩٠، و«تلخيص البيان» ص ١٢ .

(٢) انظر «الكشاف» ١/ ١٧٥ .

(٣) اشتكى: أي مرضاً .

تعالى ﴿ اتَّخَذُوا أَعْبَارَهُمْ وَرَضُّهُمْ أَزْكَاءًا ﴾ ^(١) [التوبة: ٣١] .

الثانية: قال الحافظ ابن كثير: وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ﴾ إرشادٌ إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة بل وعند كل فطر لحديث «إِنَّ للصائم عند فطره دعوة ما تُرد» وكان عبد الله بن عمرو يقول إذا أفطر: اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفر لي .

الثالثة: ظاهر نظم الجملة ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ﴾ أنهم سألوا عن الله، والسؤال لا يكون عن الذات وإنما يكون عن شأن من شئونها فقوله في الجواب ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ يدل على أنهم سألوا عن جهة القرب أو البعد، ولم يصدر الجواب بـ «قل» أو فقل كما وقع في أجوبة مسائلهم الواردة في آيات أخرى نحو ﴿ وَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾ [طه: ١٠٥] بل تولى جوابهم بنفسه إشعاراً بفرط قربه منهم، وحضوره مع كل سائل بحيث لا تتوقف إجابته على وجود واسطة بينه وبين السائلين من ذوي الحاجات .

الرابعة: قال الإمام ابن تيمية «وهو سبحانه فوق العرش رقيب على خلقه مهيمن عليهم مطلعٌ إليهم فدخل في ذلك الإيمان بأنه قريب من خلقه» وفي الصحيح «إِنَّ الَّذِي تَدْعُوهُ أَقْرَبُ إِلَيَّ أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ» ^(٢) وما ذكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته لا ينافي ما ذكر من علوه وفوقيته فإنه سبحانه ليس كمثله شيء ^(٣) .

الخامسة: عبر المولى جل وعلا عن المباشرة الجنسية التي تكون بين الزوجين بتعبير سام لطيف، لتعليمنا الأدب في الأمور التي تتعلق بالجنس والنساء ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنه : إن الله عز وجل كريم حلیم يکنی .

قال الله تعالى:

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِنَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَفَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِيَّاهُ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْتَنُوهُمْ وَآخِزُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوهُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلَوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنَّهُوَا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَفَتَلُواهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنَّهُوَا فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ

(١) «التفسير الكبير» ٧٦/٥ .

(٢) (ش): رواه مسلم بلفظ: «وَالَّذِي تَدْعُوهُ أَقْرَبُ إِلَيَّ أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَةٍ أَحَدِكُمْ» .

(٣) (ش): اختصره المؤلف من مجموع الفتاوى (٣/ ١٤٢-١٤٣) .

الْحَرَامَ وَالْحُرْمَتِ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

المناسبة: لما بين تعالى في الآيات السابقة أحكام الصيام وأباح للمؤمنين الاستمتاع بالطعام والشراب والنكاح في ليالي رمضان عقبه بالنهي عن أكل الأموال بغير حق، لأن المسلم لا يصح له أن يستمتع بالمال الحرام لا في ليالي رمضان ولا غيره، ولما كان حديث الصيام يتصل برؤية الهلال وهذا ما يحرك في النفوس خاطر السؤال عن الأهلة جاءت الآيات الكريمة تبين أن الأهلة مواقيت لعبادات الناس في الصيام وسائر أنواع القربات.

اللغة: ﴿بِالْبَطْلِ﴾ في اللغة: الزائل الذاهب يقال: بطل الشيء بطولاً فهو باطل. وفي الشرع: هو المال الحرام كالغصب والسرقة والقمار والربا ﴿وَتَذَلُّوا﴾ الإدلاء في الأصل: إرسال الدلو في البئر ثم جعل كل إلقاء أو دفع لقول أو فعل إدلاءً يقال: أدلى بحجته أي أرسلها، والمراد بالإدلاء هنا الدفع إلى الحاكم بطريق الرشوة ﴿الْأَهْلَةَ﴾^(١) جمع هلال وهو أول حال القمر حين يراه الناس ثم يصبح قمراً ثم بدرًا حين يتكامل نوره ﴿مَوَاقِيتُ﴾ جمع ميقات وهو الوقت كالميعاد بمعنى الوعد وقيل: الميقات منتهى الوقت ﴿تَقِفُ الشَّيْءَ﴾ إذا ظفر به ووجده على جهة الأخذ والغلبة، ورجل تقف سريع الأخذ لأقرانه قَالَ الشَّاعِرُ: فَمَا تَتَقَفُونِي فَاقْتُلُونِي فَمَنْ أَتَقَفَ فَلَيْسَ إِلَى خُلُودِ ﴿التَّهْلُكَةِ﴾ الهلاك يقال: هلك هلاكًا وتهلكت.

سبب النزول: روي أن بعض الصحابة قالوا: يا رسول الله: ما بال الهلال يبدو دقيقًا مثل الخيط ثم يزيد حتى يمتلئ ويستوي ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا لا يكون على حالة واحدة كالشمس فنزلت ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ...﴾ الآية^(٢).

ثانيًا: روي أن الأنصار كانوا إذا أحرَمَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لم يدخل بيتًا من بابه بل كان يدخل من نقب في ظهره، أو يتخذ سلمًا يصعد فيه فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾^(٣).

التفسير: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَطْلِ﴾ أي لا يأكل بعضكم أموال بعض بالوجه الذي لم يبيحه الله ﴿وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ أي تدفعوها إلى الحكام رشوة ﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾ أي ليعينوكم على أخذ طائفة من أموال الناس بالباطل ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

(١) «الرازي» ١٣٢/٥، و«أسباب النزول» للواحدي ص ٢٨.

(٢) (ش:) (موضوع) أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في «معرفة الصحابة»، وابن منده في «معرفة الصحابة».

(٣) (ش:) عَنْ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِينَا، كَانَتْ الْأَنْصَارُ إِذَا حَجُّوا فَجَاءُوا، لَمْ يَدْخُلُوا مِنْ قِبَلِ أَبْوَابِ بُيُوتِهِمْ، وَلَكِنْ مِنْ ظُهُورِهَا، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَدَخَلَ مِنْ قِبَلِ بَابِهِ، فَكَانَتْ عُبْرَ ذَلِكَ، فَتَرَكْتُ: «وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِنْ آتَقَى، وَآتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا» [البقرة: ١٨٩] (رواه البخاري ومسلم).

أنكم مبطلون تأكلون الحرام ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾ أي يسألونك يا محمد عن الهلال لم يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يعظم ويستدير ثم ينقص ويدق حتى يعود كما كان؟ ﴿قُلْ هِيَ مَوْقِيتٌ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ أي فقل لهم إنها أوقات لعبادتك ومعالم تعرفون بها مواعيد الصوم والحج والزكاة ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ أي ليس البر بدخولكم المنازل من ظهورها كما كنتم تفعلون في الجاهلية ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى﴾ أي ولكن العمل الصالح الذي يقربكم من الله في اجتناب محارم الله ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ ادخلوها كعادة الناس من الأبواب ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي اتقوا الله لتسعدوا وتظفروا برضاه ﴿وَقَتِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمْ﴾ أي قاتلوا لإعلاء دين الله من قاتلكم من الكفار ﴿وَلَا تَقْتَدُوا إِلَيْكَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي لا تبدءوا بقتالهم فإنه تعالى لا يحب من ظلم أو اعتدى، وكان هذا في بدء أمر الدعوة ثم نسخ بآية براءة ﴿وَقَتِّلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [الآية: ٣٦] وقيل: نسخ بالآية التي بعدها وهي قوله ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْبَلُونَهُمْ﴾ أي اقتلوهم حيث وجدتموهم في حل أو حرم ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي شردوهم من أوطانهم وأخرجوهم منها كما أخرجوكم من مكة ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي فتنه المؤمن عن دينه أشد من قتله، أو كفر الكفار أشد وأبلغ من قتلهم لهم في الحرم، فإذا استعظموا القتال فيه فكفروهم أعظم ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَتِّلُوكُمْ فِيهِ﴾ أي لا تبدءوهم بالقتال في الحرم حتى يبدءوا هم بقتالكم فيه ﴿فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ أي إن بدءوكم بالقتال فلكم حينئذ قتالهم لأنهم انتهكوا حرمة والبادي بالشر أظلم ﴿كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ أي هذا الحكم جزاء كل من كفر بالله ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي فإن انتهوا عن الشرك وأسلموا فكفوا عنهم فإن الله يغفر لمن تاب وأتاب ﴿وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ أي قاتلوا المحاربين حتى تكسروا شوكتهم ولا يبقى شرك على وجه الأرض ويصبح دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أي فإن انتهوا عن قتالكم فكفوا عن قتلهم فمن قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم ولا عدوان إلا على الظالمين، أو فإن انتهوا عن الشرك فلا تعتدوا عليهم ثم بين تعالى أن قتال المشركين في الشهر الحرام يبيح للمؤمنين دفع العدوان فيه فقال: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ﴾ أي إذا قاتلوكم في الشهر الحرام فقاتلوهم في الشهر الحرام، فكما هتكوا حرمة الشهر واستحلوا دماءكم فافعلوا بهم مثله^(١) ﴿فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُّوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ﴾ أي ردوا عن أنفسكم العدوان فمن قاتلكم في الحرم أو في الشهر الحرام فقابلوه وجازوه بالمثل ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ

(١) وقيل معناه الشهر الحرام الذي دخلتم فيه مكة بالشهر الحرام الذي صددتم فيه عن دخولها، وكان ذلك لما صد الكفار النبي ﷺ عن دخول مكة عام الحديبية في شهر ذي القعدة.

الجهاد وفي سائر وجوه القربات ولا تبخلوا في الإنفاق فيصيبكم الهلاك ويتقوى عليكم الأعداء وقيل معناه: لا تتركوا الجهاد في سبيل الله وتشتغلوا بالأموال والأولاد فتهلكوا ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي أحسنوا في جميع أعمالكم حتى يحبكم الله وتكونوا من أوليائه المقربين.

البلاغة: ١ - ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَيِّجُ﴾ هذا النوع من البديع يسمى «الأسلوب الحكيم» فقد سألوا الرسول ﷺ عن الهلال لم يبدو صغيراً ثم يزداد حتى يتكامل نوره؟ فصرّفهم إلى بيان الحكمة من الأهلة وكأنه يقول: كان الأولى بكم أن تسألوا عن حكمة خلق الأهلة لا عن سبب تزايدها في أول الشهر وتناقصها في آخره، وهذا ما يسميه علماء البلاغة «الأسلوب الحكيم»^(١).

٢ - ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ فيه إيجاز بالحذف تقديره: هتُك حُرمة الشهر الحرام تقابل بهتُك حُرمة الشهر الحرام ويسمى حذف الإيجاز.

٣ - ﴿فَمَنْ أَعَدَّيْ عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ﴾ سمي جزاء العدوان عدواناً من قبيل «المشاكلة» وهي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى كقوله: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] قال الزجاج: العرب تقول ظلمني فلان فظلمته، أي: جازيته بظلمه.

فائدة: لا يذكر في القرآن الكريم لفظ القتال أو الجهاد إلا ويقرن بكلمة «سبيل الله» وفي ذلك دلالة واضحة على أن الغاية من القتال غاية شريفة نبيلة هي إعلاء كلمة الله لا السيطرة أو المغنم أو الاستعلاء في الأرض أو غيرها من الغايات الدنيئة.

تنبيه: كل ما ورد في القرآن بصيغة السؤال أجيب عنه بـ «قل» بلا فاء إلا في طه ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [الأنعام: ١٠٥] فقد وردت بالفاء، والحكمة أن الجواب في الجميع كان بعد وقوع السؤال وفي طه كان قبله إذ تقديره إن سئلت عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً^(٢).

فائدة: روي أن رجلاً من المسلمين حمل على جيش الروم حتى دخل فيهم فصاح الناس: سبحان الله ألقى بيديه إلى التهلكة فقال أبو أيوب الأنصاري: إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار حين أعز الله الإسلام وكثر فصره قلنا: لو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها فنزلت ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وترك الجهاد في سبيل الله فما زال أبو أيوب شاخصاً في سبيل الله حتى استشهد ودفن بأرض الروم^(٣).

(١) (ش): تقدم أن هذه الرواية لم تثبت.

(٢) «الفتوحات الإلهية» ١/ ١٥٢.

(٣) (ش): (رواه أبو داود والترمذي وصححه الألباني).

قال الله تعالى:

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعًا إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١٦﴾ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فُضِّضَ فِيهِمْ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴿١١٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّلَاةِ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مَتَسَكِّكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمَنْ الْكَاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿١٢٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٢١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٢٢﴾ ﴿١٢٣﴾ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ تُحْشَرُونَ ﴿١٢٤﴾

المناسبة: لما ذكر الله تعالى في الآيات السابقة أحكام الصيام، أعقب ذلك بذكر أحكام الحج لأن شهوره تأتي مباشرة بعد شهر الصيام، وأما آيات القتال فقد ذكرت عَرْضًا لبيان حكم هام وهو بيان الأشهر الحرام والقتال فيها وفيما لو تعرض المشركون للمؤمنين وهم في حالة الإحرام هل يباح لهم ردُّ العدوان عن أنفسهم والقتال في الأشهر الحرم؟ فقد وردت الآيات السابقة تبيِّن حكمة الأهلة وأنها مواقيت للصيام والحج ثم بيَّنت الآيات بعدها موقف المسلمين من القتال في الشهر الحرام وذلك حين أراد رسول الله ﷺ العمرة وصدّه المشركون ومنعوه من دخول مكة ووقع صلح الحديبية ثم لما أراد القضاء في العام القابل وخشي أصحابه غدر المشركين بهم وهم في حالة الإحرام نزلت الآيات تبيِّن أنه ليس لهم أن ينتهكوا هذه الحرمات على سبيل الابتداء بل على سبيل القصاص ودفع العدوان، ثم عاد الكلام إلى أحكام الحج وحكم الإحصار فيه فهذا هو الارتباط بين الآيات السابقة واللاحقة.

اللغة: ﴿أُخْصِرْتُمْ﴾ الإحصار: معناه المنع والحبس يقال حَصَرَهُ عن السفر وأحصره إذا حبسه ومنعه. قال الأزهرى: حُصِرَ الرجلُ في الحبس، وأحصر في السفر من مرض أو انقطاع به ﴿الْهَدْيِ﴾ هو ما يُهدى إلى بيت الله من أنواع النعم كالإبل والبقر والغنم وأقله شاة ﴿مَحَلَّهُ﴾: المَحَلُّ: الموضع الذي يحل به نحر الهدْي وهو الحرام أو مكان الإحصار للمَحْصَر ﴿نُسُكٍ﴾

جمع نسيكة وهي الذبيحة ينسكها العبد لله تعالى ﴿جُنَاحٌ﴾ إثم وأصله من الجنوح وهو الميل عن القصد ﴿أَفْضُتُمْ﴾ أي دفعتم وأصله من فاض الماء إذا سال منصباً ومعنى ﴿أَفْضُتُمْ﴾ مَرَّ عَرَفَتٍ ﴿أي دفعتم منها بقوة تشبيهاً بفيض الماء.﴾ ﴿خَلَقَ﴾ نصيب من رحمة الله تعالى ﴿تُحْشَرُونَ﴾ تجمعون للحساب.

الفوائد: أولاً: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون: نحن المتوكلون فإذا قدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله عز وجل ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ الْتَقْوَى﴾ ^(١).

ثانياً: وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة وكانوا يسمون الحُمْس وسائر العرب يقفون بعرفات فلما جاء الإسلام أمر الله تعالى نبيه أن يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها، وكانت قريش تفيض من جمع من المشعر الحرام فأنزل الله تعالى ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ ^(٢).

التفسير: ﴿وَأَنِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أي أدوهما تامين بأركانهما وشروطهما لوجه الله تعالى ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي إذا منعتكم عن إتمام الحج أو العمرة بمرض أو عدو وأردتم التحلل فعليكم أن تذبحوا ما تيسر من بدنة أو بقرة أو شاة ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ أي لا تتحللوا من إحرامكم بالحلقة أو التقصير حتى يصل الهدى المكان الذي يحل ذبحه فيه وهو الحرم أو مكان الإحصار ﴿فَنَ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفَدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ أي فمن كان منكم معسر المخرجين مريضاً مرضاً يتضرر معه بالشعر فحلقة، أو كان به أذى من رأسه كقمل وصداع فحلقة في الإحرام، فعليه فدية وهي إما صيام ثلاثة أيام أو يتصدق بثلاثة أصع على ستة مساكين أو يذبح ذبيحة وأقلها شاة ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ أي كنتم آمنين من أول الأمر، أو صرتم بعد الإحصار آمنين ﴿فَنَ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي من اعتمر في أشهر الحج واستمتع بما يستمتع به غير المحرم من الطيب والنساء وغيرها، فعليه ما تيسر من الهدى وهو شاة يذبحها شكراً لله تعالى ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ أي من لم يجد ثمن الهدى فعليه صيام عشرة أيام، ثلاثة حين يحرم بالحج وسبعة إذا رجع إلى وطنه ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ أي عشرة أيام كاملة تجزئ عن الذبح، وثوابها كثوابه من غير نقصان ﴿ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرًا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ أي ذلك التمتع أو الهدى خاص بغير أهل الحرم، أما سكان الحرم فليس لهم تمتع وليس عليهم هدي ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي خافوا الله تعالى بامتنال أو امره واجتناب نواهيه، واعلموا أن عقابه شديد لمن خالف أمره.

(١) «أسباب النزول» ٣٢ / ١ للواحدى. (ش): رواه البخاري.

(٢) «أسباب النزول» ٣٢ / ١ للواحدى. (ش): رواه البخاري.

ثم بين تعالى وقت الحج فقال: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ﴾ أي وقت الحج هو تلك الأشهر المعروفة بين الناس وهي: شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ أي من ألزم نفسه الحج بالإحرام والتلبية ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ أي لا يقرب النساء ولا يستمتع بهن فإنه مقبل على الله قاصد لرضاه، فعليه أن يترك الشهوات، وأن يترك المعاصي والجدال والخصام مع الرفقاء ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ أي وما تقدموا لأنفسكم من خير يجازكم عليه الله خير الجزاء ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ أي تزودوا لآخرتكم بالتقوى فإنها خير زاد ﴿وَاتَّقُوا بَنَاءَ أُولَى الْأَلْبَابِ﴾ أي خافون واتقوا عقابي يا ذوي العقول والأفهام ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي لا حرج ولا إثم عليكم في التجارة في أثناء الحج فإن التجارة الدنيوية لا تنافي العبادة الدينية، وقد كانوا يتأثمون من ذلك فنزلت؛ الآية تبيح لهم الاتجار في أشهر الحج ﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ أي إذا دفعتم من عرفات بعد الوقوف بها فاذكروا الله بالدعاء والتضرع والتكبير والتهليل عند المشعر الحرام بالمزدلفة ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّاكِلِينَ﴾ أي اذكروه ذكرًا حسنًا كما هداكم هداية حسنة، واشكروه على نعمة الهداية والإيمان فقد كنتم قبل هدايته لكم في عداد الضالين، الجاهلين بالإيمان وشرائع الدين ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ أي ثم انزلوا من عرفة حيث ينزل الناس لا من المزدلفة، والخطاب لقريش حيث كانوا يترفعون على الناس أن يقفوا معهم وكانوا يقولون: نحن أهل الله وسكان حرمه فلا نخرج منه فيقفون في المزدلفة لأنها من الحرم ثم يفيضون منها وكانوا يسمون «الحُمس» فأمر الله تعالى رسول الله ﷺ أن يأتي عرفة ثم يقف بها ثم يفيض منها ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي استغفروا الله عما سلف منكم من المعاصي فإن الله عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ مَنَسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ أي إذا فرغتم من أعمال الحج وانتهيت منها فأكثرُوا ذكره وبالغوا في ذلك كما كنتم تذكرون آباءكم وتعدون مفاخرهم بل أشد، قال المفسرون: كانوا يقفون بمنى بين المسجد والجبل بعد قضاء المناسك فيذكرون مفاخر آبائهم ومحاسن أيامهم فأمرُوا أن يذكروا الله وحده ﴿فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ أي من الناس من تكون الدنيا همه فيقول: اللهم اجعل عطائي ومنحتي في الدنيا خاصة وما له في الآخرة من حظ ولا نصيب ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ أي ومنهم من يطلب خيري الدنيا والآخرة وهو المؤمن العاقل، وقد جمعت هذه الدعوة كل خيرٍ وصرفت كل شر، فالحسنة في الدنيا تشمل الصحة والعافية، والدار الرحبة، والزوجة الحسنة، والرزق الواسع إلى غير ما هنالك

والحسنة في الآخرة تشمل الأمن من الفزع الأكبر، وتيسير الحساب ودخول الجنة، والنظر إلى وجه الله الكريم إلخ ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي نجنا من عذاب جهنم ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي هؤلاء الذين طلبوا سعادة الدارين لهم حظ وافر مما عملوا من الخيرات والله سريع الحساب يحاسب الخلائق بقدر لمحة بصر^(١) ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ أي كبروا الله في أعقاب الصلوات وعند رمي الجمرات في أيام التشريق الثلاثة بعد يوم النحر ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي من استعجل بالنفر من منى بعد تمام يومين فنفر فلا حرج عليه ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي ومن تأخر حتى رمى في اليوم الثالث - وهو النفر الثاني - فلا حرج عليه أيضًا ﴿لِمَنِ انْتَقَى﴾ أي ما ذكر من الأحكام لمن أراد أن يتقي الله فيأتي بالحج على الوجه الأكمل ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي خافوا الله تعالى واعلموا أنكم مجموعون إليه للحساب فيجازيكم بأعمالكم.

البلاغة: ١ - ﴿يَبْلُغُ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ كناية عن ذبحه في مكان الإحصار.

٢ - ﴿فَن كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا﴾ فيه إيجاز بالحذف أي كان مريضًا فحلق أو به أذى من رأسه فحلق فعليه فدية.

٣ - ﴿وَسَبْعًا إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ فيه التفات من الغائب إلى المخاطب وهو من المحسنات البديعية.

٤ - ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ فيه إجمال بعد التفصيل وهذا من باب «الإطناب» وفائدته زيادة التأكيد والمبالغة في المحافظة على صيامها وعدم التهاون بها أو تنقيص عددها.

٥ - ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾ إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لترتبة المهابة وإدخال الروعة.

٦ - ﴿فَلَا رَفَتْ وَلَا فُسُوفَ﴾ صيغته نفْيٌ وحقيقته نهْيٌ أي لا يرفث ولا يفسق وهو أبلغ من النهي الصريح لأنه يفيد أن هذا الأمر مما لا ينبغي أن يقع أصلاً فإن ما كان منكراً مستقبلاً في نفسه ففي أشهر الحج يكون أقبح وأشنع ففي الإتيان بصيغة النفي وإرادة النهي مبالغة واضحة.

٧ - ﴿فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ فيه تشبيه تمثيلي يسمى (مرسلاً مجملاً).

٨ - المقابلة اللطيفة بين ﴿فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ وبين ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً...﴾ الآية.

فائدة: أصل النسك: العبادة، وسميت ذبيحة الأنعام نسكاً لأنها من أشرف العبادات التي يتقرب بها المؤمن إلى الله تعالى.

(١) (ش): قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ١٣٦): وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: يُحَاسِبُ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ، كَمَا يُحَاسِبُ نَفْسًا وَاحِدَةً، كَمَا قَالَ: ﴿مَا خَلَقْتُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الْقَمَان: ٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [الْقَمَر: ٥٠].

فائدة ثانية: زاد الدنيا يوصل إلى مراد النفس وشهواتها، وزاد الآخرة يوصل إلى النعيم المقيم في الآخرة؛ ولهذا ذكر تعالى زاد الآخرة وهو الزاد النافع وفي هذا المعنى يقول الأعشى:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بِزَادٍ مِنَ التَّقَى وَلَا قَيْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدَا
نَدِمْتَ عَلَى أَنْ لَا تَكُونَ كَمِثْلِهِ لَمْ تَرُصِدْ كَمَا كَانَ أَرْصَدَا

قال الله تعالى:

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾
وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا
قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي
نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلْمِ
كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ
مَا جَاءَتْكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ
مِّنَ الْعَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَهُم مِّنْ
ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
وَيَسْعُرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى في الآيات السابقة العبادات التي تطهر القلوب، وتزكي النفوس كالصيام، والصدقة، والحج، وذكر أن في الناس من يطلب الدنيا ولا غاية له وراءها، ومنهم من تكون غايته نيل رضوان الله تبارك وتعالى، أعقبها بذكر نموذج عن الفريقين: فريق الضلالة الذي باع نفسه للشيطان، وفريق الهدى الذي باع نفسه للرحمن، ثم حذر تبارك وتعالى من اتباع خطوات الشيطان، وبين لنا عداوته الشديدة.

اللغة: ﴿الَّذُ﴾ اللدُّ: شدة الخصومة قال «الطبري»: اللدُّ: الشدائد الخصومة، وفي الحديث: «إِنَّ أَبْعَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدُّ الْخَصِمُ»^(١).

﴿الْحَرْثُ﴾: الزرع لأنه يزرع ثم يحرق ﴿وَالنَّسْلُ﴾ الذرية والولد، وأصله الخروج بسرعة ومنه ﴿إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: ٥١] وسمي نسلاً لأنه ينسل - يسقط - من بطن أمه بسرعة. ﴿الْعِزَّةُ﴾ الأنفة والحمية. ﴿فَحَسْبُهُ﴾ حسب اسم فعل بمعنى كافيته. ﴿الْمِهَادُ﴾: الفراش الممهّد للنوم. ﴿يَشْرِي﴾: يبيع. ﴿ابْتِغَاءَ﴾ طلب. ﴿السِّلْمِ﴾ بكسر السين بمعنى الإسلام وافتتحها بمعنى الصلح، وأصله من الاستسلام وهو الخضوع والانقياد قَالَ الشَّاعِرُ:
دَعَوْتُ عَشِيرَتِي لِلِسَّلْمِ حَتَّى رَأَيْتُهُمْ تَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ^(٢)

(١) (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٢) (ش): السِّلْمُ: الاستسلام والانقياد، والسَّلْمُ: الإسلام، ومنه قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾، أي الإسلام وَشَرَّائِعُهُ كُلُّهَا.

﴿زَلَّكُمُ الزَّلَّةُ﴾ الانحراف عن الطريق المستقيم، وأصله في القدم، ثم استعمل في الأمور المعنوية، ﴿ظُلِّلَ﴾ جمع ظلّة وهي ما يستر الشمس ويحجب أشعتها عن الرؤية.

سَبَبُ النُّزُولِ: ١ - روي أن الأحنس بن شريق أتى النبي ﷺ فأظهر له الإسلام وحلف أنه يحبه، وكان منافقاً حسن العلانية خبيث الباطن، ثم خرج من عند النبي ﷺ فمرّ بزرع لقوم من المسلمين وحُمِر فأحرق الزرع وقتل الحُمِر فأنزل الله تعالى فيه الآيات ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ...﴾ الآية وإلى قوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ...﴾ (١) الآية (٢).

٢ - وروي أن صهيياً الرومي لما أراد الهجرة إلى المدينة المنورة لحقه نفر من قريش من المشركين ليردوه فنزل عن راحلته ونثر ما في كنانته وأخذ قوسه ثم قال: يا معشر قريش لقد علمتم أني من أركامكم رجلاً، وإيم الله لا تصلون إليّ حتى أرمي بما في كنانتي، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء ثم افعلوا ما شئتم، قالوا: جئنا صعلوكاً لا تملك شيئاً وأنت الآن ذو مال كثير! فقال: أرايتم إن دللتكم على مالي تخلصون سبيلي؟ قالوا: نعم، فدلّهم على ماله بمكة فلما قدم المدينة دخل على رسول الله ﷺ فقال له ﷺ: «رَبِّحَ الْبَيْعَ صُهَيْبُ رَبِّحَ الْبَيْعَ صُهَيْبُ» وأنزل الله عز وجل فيه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ...﴾ (٣) الآية (٤).

التفسير: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ﴾ أي ومن الناس فريق يروقك كلامه يا محمد ويشير إعجابك بخلافة لسانه وقوة بيانه، ولكنه منافق كذاب ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي في هذه الحياة فقط أما الآخرة فالحاكم فيها علام الغيوب الذي يطّلع على القلوب والسرائر ﴿وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ أي يظهر لك الإيمان ويبارز الله بما في قلبه من الكفر والنفاق ﴿وَهُوَ الَّذِي الْخَصَامُ﴾ أي شديد الخصومة يجادل بالباطل ويتظاهر بالدين والصلاح بكلامه المعسول ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ أي وإذا انصرف عنك عاث في الأرض فساداً، وقد نزلت في الأحنس ولكنها عامة في كل منافق يقول بلسانه ما ليس في قلبه [كقوله]:

يُعْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةً وَيَرُوعُ مِنْكَ كَمَا يَرُوعُ الثَّعْلَبُ

﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ أي يهلك الزرع وما تناسل من الإنسان، والحيوان ومعناه أن فساده عام يشمل الحاضر والباد، فالحرث محل نماء الزروع والثمار، والنسل وهو نتاج

(١) الفخر الرازي ٢١٥/٥، و«أسباب النزول» ص ٣٤.

(٢) (ش): أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» وسنده ضعيف جداً.

(٣) المرجع السابق.

(٤) (ش): أخرجه الحاكم، وصححه، وسكت عنه الذهبي. وقال الشيخ مقبل بن هادي: الحديث له طرق ... وهي بمجموعها تزيد الحديث قوة وتدلل على ثبوته.

الحيوانات التي لا قوام للناس إلا بهما، فإفسادهما تدمير للإنسانية ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ أي يبغيض الفساد ولا يحب المفسدين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ أي إذا وعظ هذا الفاجر وذكر وقيل له انزع عن قولك وفعلك القبيح، حملته الأنفة وحمية الجاهلية على الفعل بالإثم والتكبر عن قبول الحق، فأغرق في الإفساد وأمعن في العناد ﴿فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلِكُنَّ أَلْمِهَادُ﴾ أي يكفيه أن تكون له جهنم فراشاً ومهاداً، وبئس هذا الفراش والمهاد ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ هذا هو النوع الثاني وهم الأخيار الأبرار، فبعد أن ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة أتبعه بذكر صفات المؤمنين الحميدة والمعنى ومن الناس فريق من أهل الخير والصلاح باع نفسه لله، طلباً لمرضاته ورغبة في ثوابه لا يتحرى بعمله إلا وجه الله ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعَبَادِ﴾ أي عظيم الرحمة بالعباد يضاعف الحسنات ويعفو عن السيئات ولا يعجل العقوبة لمن عصاه.. ثم أمر تعالى المؤمنين بالانقياد لحكمه والاستسلام لأمره والدخول في الإسلام الذي لا يقبل الله ديناً سواه فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً﴾ أي ادخلوا في الإسلام بكليته في جميع أحكامه وشرائعه، فلا تأخذوا حكماً وتركوا حكماً، لا تأخذوا بالصلاة وتمنعوا الزكاة مثلاً فالإسلام كل لا يتجزأ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي لا تتبعوا طرق الشيطان وإغواءه فإنه عدو لكم ظاهر العداوة ﴿فَإِنْ زَكَرْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَكُمْ أَلْبَسْنَاهُ﴾ أي إن انحرفتم عن الدخول في الإسلام من بعد مجيء الحجج الباهرة والبراهين القاطعة على أنه حق ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي اعلموا أن الله غالب لا يعجزه الانتقام ممن عصاه حكيم في خلقه وصنعه ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أي ما ينتظرون شيئاً إلا أن يأتيهم الله يوم القيامة لفصل القضاء بين الخلائق^(١) حيث تنشق السماء وينزل الجبار عز وجل في

(١) ذهب الإمام الفخر إلى أن معنى قوله: ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ أي يأتيهم أمره وبأسه فهو على حذف مضاف مثل قوله: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ وهو مجاز مشهور يقال ضرب الأمير فلاناً وصلبه وأعطاه والمراد أنه أمر بذلك واستدل على صحة هذا التأويل بالآية الأخرى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ وما أثبتناه من تفسير ابن كثير هو مذهب السلف وهو عدم التأويل وتفويض معنى الآية على سبيل التفصيل إلى الله تعالى. (ش:) مذهب السلف هو إثبات الصفات وعدم تأويلها وتفويض كيفية الصفة إلى الله تعالى، وليس تفويض معنى الآية كما ذكر المؤلف. فالتفويض في أسماء الله تعالى وصفاته له معنيان: الأول: معنى صحيح، وهو إثبات اللفظ ومعناه الذي يدل عليه، ثم تفويض علم كیفیته إلى الله، فثبت لله تعالى أسماءه الحسنى، وصفاته العلى، ونعرف معانيها ونؤمن بها، غير أننا لا نعلم كیفیته. فنؤمن بأن الله تعالى قد استوى على العرش، استواء حقيقياً يليق بجلاله سبحانه، ليس كاستواء البشر، ولكن كيفية الاستواء مجهولة بالنسبة لنا؛ ولذا، فإننا نفوض كیفیته إلى الله، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة: إثبات صفات الله تعالى، إثباتاً بلا تمثيل ولا تكييف، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. والمعنى الثاني للتفويض - وهو معنى باطل - : إثبات اللفظ من غير معرفة معناه. فيثبتون الألفاظ فقط، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ثم يقولون: لا ندري معناه، ولا ماذا أراد الله به!

ظلل من الغمام وحملة العرش والملائكة الذين لا يعلم كثرتهم إلا الله ولهم زجل من التسبيح يقولون: سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان ذي العزة والجبروت، سبحان الحي الذي لا يموت، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت، سبح قدوس رب الملائكة والروح^(١) ﴿وَفُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ أي انتهى أمر الخلائق بالفصل بينهم فريق في الجنة وفريق في السعير، وإلى الله وحده مرجع الناس جميعاً. والمقصود تصوير عظمة يوم القيامة وهولها وشدها وبيان أن الحاكم فيها هو ملك الملوك جل وعلا الذي لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه وهو أحكم الحاكمين. ثم قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ أي سل يا محمد بني إسرائيل - توبيخاً لهم وتقريعاً - كم شاهدوا مع موسى من معجزات باهرات وحجج قاطعات تدل على صدقه ومع ذلك كفروا ولم يؤمنوا ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي من يبدل نعم الله بالكفر والجحود بها فإن عقاب الله له أليم وشديد ﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي زينت لهم شهوات الدنيا ونعيمها حتى نسوا الآخرة وأشربت محبتها في قلوبهم حتى تهافتوا عليها وأعرضوا عن دار الخلود. ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي وهم مع ذلك يهزءون ويسخرون بالمؤمنين يرمونهم بقلبة العقل لتركهم الدنيا وإقبالهم على الآخرة كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٢٩] قال تعالى رداً عليهم: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي والمؤمنون المتقون لله فوق أولئك الكافرين منزلة ومكانة، فهم في أعلى عليين وأولئك في أسفل سافلين، والمؤمنون في الآخرة في أوج العز والكرامة والكافرون في حضيض الذل والمهانة ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي والله يرزق أوليائه رزقاً واسعاً رغداً، لا فناء له ولا انقطاع كقوله: ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠] أو يرزق في الدنيا من شاء من خلقه ويوسع على من شاء مؤمناً كان أو كافراً، براً أو فاجراً على حسب الحكمة والمشیئة دون أن يكون له محاسب سبحانه وتعالى.

البلاغة: ١ - ﴿أَخَذَتِ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ ذكر لفظ الإثم بعد قوله العزة يسمى عند علماء البديع بـ «التميم» لأنه ربما يتوهم أن المراد عزة الممدوح فذكر بالإثم ليشير إلى أنها عزة مذمومة.

٢ - ﴿وَلَبَسُوا أَلْبَاسًا﴾ هذا من باب التهكم أي جعلت لهم جهنم غطاءً ووطاءً فأكرم بذلك كما تكرم الأم ولدها بالغطاء والوطاء اللئيين.

٣ - ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ استفهام إنكاري في معنى النفي بدليل مجيء إلا بعدها أي ما ينتظرون.

٤ - ﴿فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْعَمَامِ﴾ التنكير للتهويل فهي في غاية الهول والمهابة لما لها من الكثافة

(١) (ش): جزء من حديث طويل رواه الإمام محمد بن جرير «الطبري» في «تفسيره» «جامع البيان في تأويل القرآن» وضعفه الشيخ أحمد محمد شاكر في تحقيقه له (٤/٢٦٧).

التي تغم على الرائي ما فيها. وقوله: ﴿وَقَضَى الْأَمْرَ﴾ هو عطف على المضارع ﴿يَأْتِيهِمُ اللَّهُ﴾ وإنما عدل إلى صيغة الماضي دلالة على تحققه فكأنه قد كان.

٥ - ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة.

٦ - ﴿زَيْنَ... وَيَسْخَرُونَ﴾ أورد التزيين بصيغة الماضي لكونه مفروغاً منه مركزاً في طبيعتهم وعطف عليه بالفعل المضارع ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ للدلالة على استمرار السخرية منهم لأن صيغة المضارع تفيد الدوام والاستمرار.

تنبيه: قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في رسالته «التدمرية»^(١): «وَصَفَّهُ تَعَالَى نَفْسَهُ بِالْإِتْيَانِ فِي ظِلٍّ مِنَ الْغَمَامِ كَوْصَفِهِ بِالْمَجِيءِ فِي آيَاتٍ آخَرَ وَنَحْوَهُمَا مِمَّا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ أَوْ صَحَّ عَنْ رَسُولِهِ ﷺ وَالْقَوْلُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ وَهُوَ مَذْهَبُ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَثْمَتِهَا، أَنَّهُمْ يَصِفُونَهُ سُبْحَانَهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَلَا تَكْيِيفٍ وَلَا تَمَثِيلٍ، وَالْقَوْلُ فِي صِفَاتِهِ كَالْقَوْلِ فِي ذَاتِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ فَلَوْ سَأَلَ سَائِلٌ: كَيْفَ يَجِيءُ سُبْحَانَهُ؟ فَلْيُقِلَّ لَهُ: كَمَا لَا تَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ ذَاتِهِ كَذَلِكَ لَا تَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ صِفَاتِهِ»^(٢).

قال الله تعالى:

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينُ وَالْآقَرِبِينَ وَلِلْعَلَمِ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقِتَالِ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ

(١) (ش): ما نقله المؤلف ليس في «التدمرية» لابن تيمية بل هو كلام القاسمي في «تفسيره» «محاسن التأويل» (٢/ ٨٨).

(٢) (ش): في تفسير القاسمي: فلو سأل سائل: كيف يجيء سبحانه أو كيف يأتي؟.. فليقل له: كيف هو في نفسه؟ فإذا قال: لا أعلم كيفية ذاته! فليقل له: وكذلك لا تعلم كيفية صفاته..! فإن العلم بكيفية الصفة يتبع العلم بكيفية الموصوف. وقد أطلق غير واحد، ممن حكى إجماع السلف، منهم الخطابي: مذهب السلف أن صفاته تعالى تجري على ظاهرها مع نفي الكيفية والتشبيه عنها.

فِيمَتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

المناسبة: ذكر سبحانه وتعالى في الآيات السابقة أن الناس فريقان: فريق يسعى في الأرض فساداً ويُضِلُّ الناس بخلافة لسانه وقوة بيانه، وفريق باع نفسه للحق يبتغي به رضى الله ولا يرجو أحداً سواه، ولما كان لا بد من التنازع بين الخير والشر - ولا بد للحق من سيفٍ مُصَلَّتٍ^(١) إلى جانبه - لذا شرع الله للمؤمنين أن يحملوا السيف مناضلين وشرع الجهاد دفعاً للعدوان وردعاً للظلم والطغيان^(٢).

اللغة: ﴿بَغْيًا﴾ البغي: العدوان والطغيان. ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ مأخوذ من زلزلة الأرض وهو اضطرابها والزلزلة: التحريك الشديد. ﴿كُرْهُ﴾ مكروهٌ تكرهه نفوسكم قال ابن قتيبة: الكُرْهُ بالضم المشقة وبالفتح الإكراه والقهر. ﴿وَصَدُّ﴾ الصدُّ: المنع يقال: صدّه عن الشيء أي منعه عنه. ﴿يَرْتَدِدُ﴾ يرجع والردة الرجوع من الإيمان إلى الكفر قال الراغب: الارتداد والردة: الرجوع في الطريق الذي جاء به منه لكن الردّة تختص بالكفر، والارتداد يستعمل فيه وفي غيره قال تعالى: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْتَدَّ إِلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾^(٣) [الكهف: ٦٤] ﴿حَبِطَتْ﴾ بطلت وذهبت قال في «اللسان»: حَبِطَ: عَمِلَ عَمَلًا ثُمَّ أَفْسَدَهُ. وفي التَّنْزِيلِ: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٩] أي أبطل ثوابهم ﴿يَرْجُونَ﴾ الرجاء: الأمل والطمع في حصول ما فيه نفعٌ ومصلحة^(٤).

(١) (ش): يُقَالُ: أَصْلَتِ السِّيفُ جَرْدَهُ مِنْ غَمْدِهِ، أَي مِنْ جَرَابِهِ فَهُوَ مُصَلَّتٌ. وَصَرَبَهُ بِالسِّيفِ صَلَّتًا وَصُلَّتًا أَي صَرَبَهُ بِهِ وَهُوَ مُصَلَّتٌ. وَيُقَالُ: سَيْفٌ مُصَلَّتٌ: أَي حَادٌّ سَرِيعُ الْقَطْعِ فِيمَنْ يَضْرِبُهُ.

(٢) (ش): شرع الجهاد إعلاءً لكلمة الله تعالى، ودفعاً للعدوان وردعاً للظلم والطغيان، فجهاد الكفار بالقتال نوعان: جهاد دفع، وجهاد طلب. النوع الأول: جهاد الدفع: فإذا داهم العدو بلدًا إسلاميًا، أو قاتل العدو إحدى البلاد الإسلامية، فالجهاد حينئذ واجب، فإن قامت الكفاية بأهل تلك البلاد، فيها ونعمت، فالبقية يساندونهم بالمال والدعاء، وإن لم تقم الكفاية بأهل تلك البلاد، وجب على من كان قريباً منهم أن يقوم معهم، كل على قدر طاقته، فهذا بماله، وهذا بلسانه، وهذا بنفسه وسلاحه. النوع الثاني: جهاد الطلب: وهو أن يغزو المسلمون الكفار في ديارهم حتى يُسَلِّمُوا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَسْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ» [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ]. وقبل الجهاد يُخَيِّرُهُم المسلمون بين أمور ثلاثة: إما الإسلام وإما الجزية وإما القتال. وشرع هذا النوع من الجهاد للحكم والمصالح العظيمة المترتبة عليه، ولما في تركه من أضرار ومفاسد. فالهدف الرئيس للجهاد هو تعبيد الناس لله وحده، وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد.

(٣) «مفردات القرآن» للراغب.

(٤) «لسان العرب» مادة رجا.

سبب النزول: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش على سرية ليرصدوا عيراً لقريش فيها «عمر و بن الحضرمي» وثلاثة معه فقتلوه وأسرُوا اثنين واستاقوا العير بما فيها من تجارة، وكان ذلك أول يوم من رجب وهم يظنون من جمادى الآخرة فقالت قريش: قد استحل محمد الشهر الحرام، شهراً يأمن فيه الخائف ويتفرق فيه الناس إلى معاشهم وعظم ذلك على المسلمين فنزلت ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَتَالٍ فِيهِ...﴾ الآية.

التفسير: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي كانوا على الإيمان والفطرة المستقيمة فاختلغوا وتنازعوا ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ أي بعث الأنبياء لهداية الناس مبشرين للمؤمنين بجنات النعيم ومنذرين للكافرين بعذاب الجحيم ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي وأنزل معهم الكتب السماوية لهداية البشرية حال كونها منزلة بين الناس في أمر الدين الذي اختلفوا فيه ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي وما اختلف في الكتاب الهادي المنير المنزل لإزالة الاختلاف إلا الذين أعطوا الكتاب أنهم عكسوا الأمر حيث جعلوا ما أنزل لإزالة الاختلاف سبباً لاستحكامه ورسوخه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي من بعد ظهور الحجج الواضحة والدلائل القاطعة على صدق الكتاب فقد كان خلافهم عن بيّنة وعلم لا عن غفلة وجهل ﴿بَغِيّاً بَيْنَهُمْ﴾ أي حسداً من الكافرين للمؤمنين ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ أي هدى الله المؤمنين للحق الذي اختلف فيه أهل الضلالة بتيسيره ولطفه ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي يهدي من يشاء هدايته إلى طريق الحق الموصل إلى جنات النعيم ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ﴾ أي بل ظننتم يا معشر المؤمنين أن تدخلوا الجنة بدون ابتلاء وامتحان واختبار ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي والحال لم ينلكنم مثل ما نال من سبقكم من المؤمنين من المحن الشديدة، ولم تُبتلوا بمثل ما ابتلوا به من النكبات ﴿مَسَّتْهُمْ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ﴾ أي أصابتهم الشدائد والمصائب والنوائب ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ أي أزعجوا إزعاجاً شديداً شبهها بالزلزلة حتى وصل بهم الحال أن يقول الرسول والمؤمنون معه متى نصر الله؟ أي متى يأتي نصر الله وذلك استبطاءً منهم للنصر^(١) لتناهي الشدة عليهم، وهذا غاية الغايات في تصوير شدة المحنة، فإذا كان الرسل - مع علو كعبهم في الصبر والثبات - قد عيّل صبرهم وبلغوا هذا المبلغ من الضجر والضيق كان ذلك دليلاً على أن الشدة بلغت متنهاها^(٢) قال تعالى جواباً لهم: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ أي ألا فأبشروا فإنه حان أوانه ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّهُ

(١) (ش): مع يقينهم به.

(٢) (ش): قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٥٧٢): «أي: يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَيَدْعُونَ بِقُرْبِ الْفَرَجِ وَالْمَخْرَجِ، عِنْدَ ضَيْقِ الْحَالِ وَالشَّدَّةِ».

اللَّهُ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ» [الحج: ٤٠] ثم قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ أي يسألونك يا محمد ماذا ينفقون وعلى من ينفقون؟ وقد نزلت لما قال بعض الصحابة: يا رسول الله، ماذا نفق من أموالنا وأين نضعها؟^(١) ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّهِ وَلِلَّذِينَ وَاللَّذِينَ أَلْتَمَتِ الْمَسْكِينُ وَالْبَنِي السَّبِيلِ﴾ أي قل لهم يا محمد اصرفوها في هذه الوجوه ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ أي وكل معروف تفعلونه يعلمه الله وسيجزىكم عليه أوفر الجزاء، ثم قال تعالى مبيناً حكمة مشروعية القتال في الإسلام ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَكُمْ﴾ أي فرض عليكم قتال الكفار أيها المؤمنون وهو شاق ومكروه على نفوسكم لما فيه من بذل المال وخطر هلاك النفس ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي ولكن قد تكره نفوسكم شيئاً وفيه كل النفع والخير ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ أي وقد تحب نفوسكم شيئاً وفيه كل الخطر والضرر عليكم، فعمل لكم في القتال - وإن كرهتموه - خيراً لأن فيه إما الظفر والغنيمة أو الشهادة والأجر، ولعل لكم في تركه - وإن أحببتموه - شراً لأن فيه الذل والفقر وحرمان الأجر ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي الله أعلم بعواقب الأمور منكم وأدرى بما فيه صلاحكم في دنياكم وآخرتكم فبادروا إلى ما يأمركم به ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ أي يسألك أصحابك يا محمد عن القتال في الشهر الحرام أبحل لهم القتال فيه؟ ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أي قل لهم القتال فيه أمره كبير ووزره عظيم ولكن هناك ما هو أعظم وأخطر وهو ﴿وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي ومنع المؤمنين عن دين الله وكفرهم بالله وصددهم عن المسجد الحرام - يعني مكة - وإخراجكم من البلد الحرام وأنتم أهله وحماته، كل ذلك أعظم وزراً وذنوباً عند الله من قتل من قتلتم من المشركين، فإذا استعظموا قتالكم لهم في الشهر الحرام فليعلموا أن ما ارتكبوه في حق النبي والمؤمنين أعظم وأشنع ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي فتنة المسلم عن دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه أكبر عند الله من القتل ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ أي ولا يزالون جاهدين في قتالكم حتى يعيدوكم إلى الكفر والضلال إن قدروا فهم غير نازعين عن كفرهم وعدوانهم ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ دِينَكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي ومن يستجب لهم منكم فيرجع عن دينه ويرتد عن الإسلام ثم يموت على الكفر فقد بطل عمله الصالح في الدارين وذهب ثوابه ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي وهم مخلدون في جهنم لا يخرجون منها أبداً ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي إن المؤمنين الذين فارقوا الأهل والأوطان وجاهدوا الأعداء لإعلاء دين الله ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكرهم الجديرون

(١) (ش): ضعيف، أخرجه ابن جرير في «جامع البيان».

بأن ينالوا رحمة الله والله عظيم المغفرة، واسع الرحمة.

البلاغة: ١ - ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فيه إيجاز بالحذف أي كانوا أمة واحدة على الإيمان متمسكين بالحق فاختلّفوا فبعث الله النبيين ودلّ على المحذوف قوله: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾.

٢ - ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أم منقطعة والهمزة فيها للإنكار والاستبعاد أي بل أحسبتم ففيه استفهام إنكاري.

٣ - ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ﴾ لمّا تدل على النفي مع توقع وقوع المنفي كما قال الزمخشري والمعنى: لمّا ينزل بكم مثل ما نزل بمن قبلكم وسينزل فإن نزل فاصبروا قال المبرد: إذا قال القائل: لم يأتي زيد فهو نفي لقولك أذاك زيد؟ وإذا قال: لما يأتي فمعناه أنه لم يأتي بعد وأنا أتوقعه وعلى هذا يكون إتيان الشدائد على المؤمنين متوقعًا منتظرًا.

٤ - ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ في هذه الجملة عدة مؤكّدات تدل على تحقق النصر أولاً: بدء الجملة بأداة الاستفتاح «ألا» التي تفيد التأكيد. ثانيًا: ذكر «إن» الدالة على التوكيد أيضًا. ثالثًا: إثارة الجملة الاسمية على الفعلية فلم يقل «ستنصرون» والتعبير بالجملة الاسمية يفيد التأكيد. رابعًا: إضافة النصر إلى رب العالمين القادر على كل شيء.

٥ - ﴿وَهُوَ كَرُهٌ لَّكُمْ﴾ وضع المصدر موضع اسم المفعول «كره» مكان «مكروه» للمبالغة كقول الخنساء:

فَلِإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ...^(١)

٦ - ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا... وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا﴾ بين الجملتين من المحسنات البديعية ما يسمى بـ «المقابلة» فقد قابل بين الكراهية والحب، وبين الخير والشر.

٧ - ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ طباق بالسلب.

فائدة: عبّر تعالى بصيغة الواحد عن كتب النبيين ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ للإشارة إلى أن كتب النبيين وإن تعددت هي في لبّها وجوهرها كتاب واحد لا شتمالها على شرع واحد في أصله كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ...﴾ [الشورى: ١٣] الآية.

تنبيه: روى البخاري عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ

(١) (ش): قالت الخنساء في قصيدة ترثي بها أخاها صخرًا.

تَرْتَعُ مَا رَتَعْتَ حَتَّى إِذَا أَكْثَرَتْ
فَلِإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ
ومعنى: (ترتع) ترعى. تصف ناقة أو بقرة فقدت ولدها، فكلما غفلت عنه رتعت، فإذا اذكرته حنت إليه فأقبلت وأدبرت، فضربت بها مثلاً لفقدتها أخاها صخرًا.

الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدده ذلك عن دينه، والله ليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون».

قال الله تعالى:

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الِئْتِمَانِ قُلْ إِصْلَاحٌ لَكُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ عَنْ اللَّهِ غَزِيرٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ وَلَا أُمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاءُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ شَتْمٌ وَقَدْ مَوَّاهُوا أَنْفُسَكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَفَّوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْغَوِي فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى في الآيات السابقة أحكام القتال، وبين الهدف السامي من مشروعيته وهو نصره الحق وإعزاز الدين وحماية الأمة من أن يلتهمها العدو الخارجي، ذكر بعدها ما يتعلق بإصلاح المجتمع الداخلي على أسس من الفضيلة والخلق الكريم، ولا بد للدولة من الإصلاح الداخلي والخارجي لتقوم دعائهم على أسس متينة وتبقى صرحاً شامخاً لا تؤثر فيه الأعاصير.

اللغة: ﴿الْخَمْرُ﴾ المسكر من الأشربة سميت خمراً؛ لأنها تستر العقل وتغطيته، ومنه خمرت الإناء أي غطيته. ﴿وَالْمَيْسِرُ﴾ القمار وأصله من اليسر لأنه كسب من غير كد ولا تعب، وقيل من اليسار لأنه سبب الغنى. ﴿إِثْمٌ﴾ الإثم: الذنب وجمعه آثام وتسمى الخمر بـ «الإثم» لأن شربها سبب في الإثم قَالَ الشَّاعِرُ:

شَرِبْتُ الْإِثْمَ حَتَّى ضَلَّ عَقْلِي كَذَلِكَ الْإِثْمُ يَذْهَبُ بِالْعُقُولِ
﴿الْعَفْوُ﴾ الفضل والزيادة على الحاجة. ﴿لَأَغْنَتْكُمْ﴾ أوقعكم في الحرج والمشقة، وأصل العنت: المشقة. ﴿وَلَا أُمَةٌ﴾ الأمة: المملوكة بملك اليمين وهي تقابل الحرية وجمعها إماء. ﴿الْمَحِيضُ﴾ مصدر بمعنى الحيض كالمعيش بمعنى العيش، وأصل الحيض: السيلان يقال:

حاض السيل وفاض وحاضت الشجرة أي: سألت ويقال للمرأة: حائض وحائضة وأنشد الفراء:
كَحَائِضَةٍ يُزْنَى بِهَا غَيْرَ طَاهِرٍ ...

﴿حَرْثٌ﴾ الحرث: إلقاء البذر في الأرض قاله الراغب، وقال الجوهري: الحرث: الزرع،
والحارث الزارع ومعنى حرث، أي: مزرع ومنبت للولد على سبيل التشبيه^(١). ﴿عُرْضَةٌ﴾
مانعاً وكل ما يعترض فيمنع عن الشيء فهو عُرْضَةٌ، ولهذا يقال للسحاب: عارض لأنه يمنع
رؤية الشمس. ﴿بِاللَّغْوِ﴾ الساقط الذي لا يعتد به سواء كان كلاماً أو غيره ولغو الطائر: تصويته.
سَبَبُ النَّزُولِ: أ - جاء جماعة من الأنصار فيهم عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ فقالوا:
أفتنا في الخمر والميسر فإنهما مذهبٌ للعقل مسلبةٌ للمال فأنزل الله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ
وَالْمَيْسِرِ...﴾ الآية^(٢).

ب - عن ابن عباس قال: لما أنزل الله ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]
انطلق من كان عنده مال يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل الشيء
من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، واشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ
فأنزل الله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتِيمِ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ...﴾ الآية^(٣).

ج - عن أنس أن اليهود كانت إذا حاضت منهم امرأة أخرجوها من البيت فلم يؤاكلوها
ولم يشاربوها ولم يجامعوها في البيت، فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى...﴾ الآية^(٤).

التفسير: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ أي يسألونك يا محمد عن حكم الخمر وحكم
القمار ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ أي قل لهم إن في تعاطي الخمر والميسر ضرراً
عظيماً وإثماً كبيراً ومنافع مادية ضئيلة ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ أي وضررهما أعظم من
نفعهما؛ فإن ضياع العقل وذهاب المال وتعريض البدن للمرض في الخمر، وما يجرّه القمار
من خراب البيوت ودمار الأسر وحدوث العداوة والبغضاء بين اللاعبين، كل ذلك محسوس

(١) «الصحيح للجوهري» مادة حرث.

(٢) (ش): عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ قَالَ عُمَرُ اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيِّنَاتًا شَافِيَةً. فَنَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي
فِي الْبَقَرَةِ فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ فَقَالَ عُمَرُ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيِّنَاتًا شَافِيَةً. فَنَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي النَّسَاءِ
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ فَكَانَ مُنَادَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَقَامَ الصَّلَاةَ نَادَى لَا
تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيِّنَاتًا شَافِيَةً. فَنَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي
فِي الْمَائِدَةِ فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ فَلَمَّا بَلَغَ ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ انْتَهَيْنَا انْتَهَيْنَا. (رواه النسائي،
وصححه الألباني).

(٣) (ش): (حسن لغيره، رواه أبو داود والنسائي). وتكملته: فخلطوا طعامهم بطعامهم، وشرابهم بشاربهم.

(٤) (ش): رواه مسلم، وأبو داود.

مشاهد، وإذا قيس الضرر الفادح بالنفع التافه ظهر خطر المنكر الخبيث ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ﴾ أي ويسألك ماذا ينفقون وماذا يتركون من أموالهم؟ قل لهم: أنفقوا الفاضل عن الحاجة ولا تنفقوا ما تحتاجون إليه وتضيعوا أنفسكم ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ أي كما يبين لكم الأحكام يبين لكم المنافع والمضار والحلال والحرام ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢١٩) في الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أي لتفكروا في أمر الدنيا والآخرة فتعلموا أن الأولى فانية والآخرة باقية فتعملوا لما هو أصلح، والعاقل من أثر ما يبقى على ما يفنى. ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلِ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ أي ويسألك يا محمد عن مخالطة اليتامى في أموالهم أياخالطوهم أم يعتزلوهم؟ فقل لهم: مداخلتهم على وجه الإصلاح خير من اعتزالهم ﴿وَإِنْ تَخَاطَبُوهُمْ فَاخْوَانُكُمْ﴾ أي إذا خلطتم أموالهم بأموالكم على وجه المصلحة لهم فهم إخوانكم في الدين، وأخوة الدين أقوى من أخوة النسب، ومن حقوق هذه الأخوة المخالطة بالإصلاح والنفع ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ أي والله تعالى أعلم وأدرى بمن يقصد بمخالطتهم الخيانة والإفساد لأموالهم، ويعلم كذلك من يقصد لهم الإصلاح فيجازي كلاً بعمله ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ أي لو شاء تعالى لأوقعكم في الحرج والمشقة وشدد عليكم ولكنه يسر عليكم الدين وسهله رحمة بكم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي هو تعالى الغالب الذي لا يمتنع عليه شيء، الحكيم فيما يشرع لعباده من الأحكام ثم قال تعالى محذراً من زواج المشركات اللواتي ليس لهن دين سماوي ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمَنَّ﴾ أي لا تتزوجوا أيها المسلمون بالمشركات من غير أهل الكتاب حتى يؤمن بالله واليوم الآخر ﴿وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ أي ولأمة مؤمنة خير وأفضل من حرة مشركة، ولو أعجبتكم المشركة بجمالها ومالها وسائر ما يوجب الرغبة فيها من حسب أو جاه أو سلطان ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ أي ولا تتزوجوا بناتكم من المشركين - وثنيين كانوا أو أهل كتاب - حتى يؤمنوا بالله ورسوله ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ أي ولأن تزوجوهن من عبد مؤمن خير لكم من أن تزوجوهن من حر مشرك مهما أعجبكم في الحسب والنسب والجمال ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي أولئك المذكورون من المشركين والمشركات الذين حُرِّمَتْ عليكم مصاهرتهم ومناكحتهم يدعونكم إلى ما يوصلكم إلى النار وهو الكفر والفسوق فحقكم ألا تتزوجوا منهم ولا تزوجوهم ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ أي هو تعالى يريد بكم الخير ويدعوكم إلى ما فيه سعادتكم وهو العمل الذي يوجب الجنة ومغفرة الذنوب ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي يوضح حججه وأدلته للناس ليتذكروا فيميزوا بين الخير والشر والخبيث والطيب. ثم بين تعالى أحكام الحيض فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى﴾ ويسألك يا محمد عن إتيان النساء في حالة الحيض أيحل أم يحرم؟ فقل لهم: إنه شيء مستقذر ومعاشرتهن في هذه الحالة

فيه أذى للزوجين ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ أي اجتنبوا معاشرة النساء في حالة الحيض ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ أي لا يجامعوهن حتى ينقطع عنهن دم الحيض ويغتسلن. والمراد التنبيه على أن الغرض عدم المعاشرة لا عدم القرب منهن وعدم مؤاكلتهن ومجالستهن كما كان يفعل اليهود إذا حاضت عندهم المرأة^(١) ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي فإذا تطهرن بالماء فأتوهن في المكان الذي أحله الله لكم، وهو مكان النسل والولد القبل لا الدبر ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي يحب التائبين من الذنوب، المنتزهين عن الفواحش والأفذار ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ﴾ أي نساؤكم مكان زرعكم وموضع نسلكم وفي أرحامهن يتكون الولد، فأتوهن في موضع النسل والذرية ولا تتعدوه إلى غيره قال ابن عباس: اسق نباتك من حيث ينبت. ومعنى ﴿أَتَى شَيْئُكُمْ﴾ أي كيف شئتم قائمة وقاعدة ومضطجعة بعد أن يكون في مكان الحرث «الفرج» وهو رد لقول اليهود: إذا أتى الرجل امرأته في قبلها من دبرها جاء الولد أحول ﴿وَقَدِمُوا إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ أي قدموا صالح الأعمال التي تكون لكم ذخراً في الآخرة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ﴾ أي خافوا الله باجتناب معاصيه وأيقنوا بأن مصيركم إليه فيجازيكم بأعمالكم ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بشرهم بالفوز العظيم في جنات النعيم ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ أي لا تجعلوا الحلف بالله سبباً مانعاً عن فعل الخير فتتعللوا باليمين بأن يقول أحدهم: قد حلفت بالله ألا أفعله وأريد أن أبر بيمينتي بل افعلوا الخير وكفروا عن أيمانكم^(٢) قال ابن عباس: لا تجعلن الله عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير ﴿أَنْ تَبْرُوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي لا تجعلوه تعالى سبباً مانعاً عن البر والتقوى والإصلاح بين الناس وقد نزلت في «عبد الله بن رواحة» حين حلف ألا يكلم ختنه «النعمان بن بشير» ولا يصلح بينه وبين أخته^(٣) ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوالكم عليم بأحوالكم. ثم قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ أي لا يؤاخذكم بما جرى على لسانكم من ذكر اسم الله من غير قصد الحلف كقول أحدهم: بلى والله، ولا والله لا يقصد به اليمين ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي يؤاخذكم بما قصدتم إليه وعقدتم القلب عليه من الإيمان إذا حشتم فيها ﴿وَاللَّهُ عَفْوٌ حَلِيمٌ﴾ أي واسع المغفرة لا يعاجل عباده بالعقوبة.

البلاغة: ١ - ﴿يَسْأَلُونَاكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي عن شرب الخمر وتعاطي الميسر.

(١) (ش): المحرم هو الجماع فقط كما تقدم.

(٢) وقيل المعنى: لا تكثروا الحلف فتجعلوا الله هدفاً لأيمانكم تبتذلون اسمه الأعظم في كل شيء قليل أو كثير، أو حقير إرادة أن تبروا وتتقوا وتصلحوا فإن الحلاف لا يكون برّاً ولا تقياً.

(٣) (ش): ضعيف، ذكره البغوي في «معالم التنزيل»، والواحد في «أسباب النزول». والختن: أقرب أقرباء المرأة كأيها وأخيها. وزوج الابنة أو الأخت.

٢ - ﴿وَإِنَّهُمْ أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ هذا من باب التفصيل بعد الإجمال وهو ما يسمى في البلاغة بـ «الإطناب» .

٣ - ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ فيه تشبيه مرسل مجمل .

٤ - ﴿الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ في الآية طباق بين كلمة «المفسد» و «المصلح» وهو من المحسنات البديعية .

٥ - ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ﴾ كذلك يوجد طباق بين كلمة «النار» وكلمة «الجنة» .

٦ - ﴿قُلْ هُوَ أَذَى﴾ فيه تشبيه بليغ حيث حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً، وأصله الحيض شيء مستقذر كالأذى فحذف ذلك مبالغة على حد قولهم: عليّ أسدٌ .

٧ - ﴿وَلَا تَقْرُبُوهْنَ﴾ كناية عن الجماع .

٨ - ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثُكُمْ﴾ على حذف مضاف، أي: موضع حرث، أو على سبيل التشبيه، فالمرأة كالأرض، والنطفة كالبذر، والولد كالنبات الخارج، فالحرث بمعنى المحرث سمي به على سبيل المبالغة .

الفوائد: الأولى: تسمى الخمر أم الخبائث؛ لأنها سبب في كل فعل قبيح، روى النسائي عن عثمان رضي الله عنه أنه قال: «اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل ممن قبلكم متعبداً فعلقته امرأة غوية فأرسلت إليه جاريتها فقالت له: إنا ندعوك للشهادة فانطلق مع جاريتها، فطفقت كلما دخل باب أغلقته دونه حتى أفضى إلى امرأة وضيئة، عندها غلامٌ وباطية خمر فقالت: إني ما دعوتك للشهادة ولكن دعوتك لتقع عليّ أو تشرب من هذه الخمر كأساً أو تقتل هذا الغلام، قال فاسقيني من هذه الخمر كأساً فسقته كأساً فقال: زيدوني فزادوه فلم يبرح حتى وقع عليها وقتل النفس، فاجتنبوا الخمر فإنها والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر إلا ليوشك أن يُخرج أحدهما صاحبه» .

الثانية: كيف يكون في الخمر منافع مع أنها تذهب بالعقل والمال؟ والجواب أن المراد بالمنافع في الآية «المنافع المادية» حيث كانوا يتاجرون بها فيربحون منها الربح الفاحش، ويحتمل أن يراد بالنفع تلك اللذة والنشوة المزعومة التي عبر عنها الشاعر بقوله:

وَنَشْرَبُهَا فَتَشْرِكُنَا مُلُوكًا وَأُسْدًا مَا يُنْهِنُهُنَّ اللَّقَاءُ^(١)

قال «القرطبي»: وشارب الخمر يصير ضحكة للعقلاء فيلعب ببوله وعذرتة وربما يمسح وجهه حتى رئي بعضهم يمسح وجهه ببوله ويقول: اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين، ورئي بعضهم والكلب يلحس وجهه وهو يقول: أكرمك الله كما أكرمتني^(٢) .

(١) (ش): يُنْهِنُهَا: النَّهْنَةُ: الكف والمنع .

(٢) «القرطبي» ٥٧/٣ .

الثالثة: قال الزمخشري: ﴿فَاعْزِلُوا النِّسَاءَ﴾ ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ ﴿فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنِّي شِئْتُمْ﴾ من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة، وهذه وأشباهها في كلام الله آداب حسنة، على المؤمنين أن يتعلموها ويتأدبوا بها ويتكلفوا مثلها في محاورتهم ومكاتبتهم^(١).

قال الله تعالى:

لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرِيصٌ أَرْبَعَةٌ أَشْهُرٌ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٣٧﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٣٨﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيُعْلِنَنَّ أَحَدُهُنَّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٣٩﴾ الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَمَّا آتَيْنَهُمْ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٤٠﴾ فَإِنْ طَلَقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٤١﴾

المناسبة: ذكر تعالى في الآيات السابقة بعض الأمراض الاجتماعية التي تنخر جسم الأمة وتحل عرى الجماعة وتوقع بينهم العداوة والبغضاء كالخمر والميسر، ثم انتقل إلى الحديث عن الأسرة باعتبار أنها النواة الأولى لبناء المجتمع الفاضل، فبصلاح الأسرة يصلح المجتمع وبفسادها يفسد المجتمع، وابتدأ من أحكام الأسرة بالعلاقة الزوجية ونبه على ضرورة أن يكون الاختيار على أساس الدين لتظل العلاقة موثقة بروابط المودة والرحمة والإخلاص، فالمشركة لا يحل لها أن تكون في حجر المسلم، والمؤمنة لا يحل لها أن تكون تحت سلطان الرجل المشرك ولهذا حرم الإسلام الزواج بالمشركات وتزويج المشركين بالمؤمنات، ثم بين في هذه الآيات الكريمة بعض الأمراض التي تحل بالأسرة وتهدد كيانه فذكر منها الإيلاء، والطلاق، والخلع، وبين العلاج الناجع لمثل هذه المشاكل التي تقوّض ببناء الأسرة.

اللغة: ﴿يُؤْلُونَ﴾ الإيلاء لغة: الحلف يقال: ألى يؤالي إيلاءً قال الشاعر:

فَأَلَيْتُ لَا أَنْفُكَ أَحَدُو قَصِيدَةٍ تَكُونُ وَإِيَاهَا بِهَا مَثَلًا بَعْدِي

وفي الشرع: اليمين على ترك وطء الزوجة ﴿تَرِيصٌ﴾ التريص: الانتظار، ومنه ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: ٣١] أي: انتظروا. ﴿فَاءُوا﴾ الفياء: الرجوع، ومنه قيل للظل: فيء لأنه يرجع بعد أن تقلص قال الفراء: العرب تقول: فلان سريع الفياء أي سريع الرجوع بعد الغضب، قال الشاعر:

فَفَاءَتْ وَلَمْ تَقْضِ الَّذِي أَقْبَلَتْ لَهُ وَمِنْ حَاجَةِ الْإِنْسَانِ مَا لَيْسَ قَاضِيًا

﴿قُرُوءٍ﴾ جمع قرء اسم يقع على الحيض والطهر فهو من الأضداد وأصل القرء: الاجتماع سمي به الحيض لاجتماع الدم في الرحم قال في «القاموس»: القرء بالفتح ويضم: الحيض والطهر والوقت، وجمع الطهر قروء، وجمع الحيض أقرأء. ﴿وَيُؤْلِنُ﴾ جمع بعل ومعناه الزوج. ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢] والمرأة بعللة. ﴿دَرَجَةً﴾ الدرجة: المنزلة الرفيعة. ﴿أَطْلَقُ﴾ مصدر طلق المرأة ومعنى الطلاق: حل عقد النكاح وأصله الانطلاق والتخلى يقال: ناقة طالت أي: مهملة تركت في المرعى بلا قيد ولا راع، فسميت المرأة المخلى سبيلها طالقاً لهذا المعنى. ﴿تَسْرِحُ﴾ التسريح: إرسال الشيء ومنه تسريح الشعر ليجلص البعض من البعض، وسرح الماشية أرسلها، قال الراغب: والتسريح في الطلاق مستعارٌ من تسريح الإبل كالطلاق مستعار من إطلاق الإبل^(١).

سَبَبُ النَّزُولِ: كان الرجل في الجاهلية يطلق امرأته ما شاء من الطلاق ثم يراجعها قبل أن تنقضي عدتها ولو طلقها ألف مرة كان له الحق في مراجعتها، فعمد رجل لامرأته فقال لها: «لا أويك ولا أدعك تحلين». قالت: وكيف؟ قال: «أطلقك فإذا دنا مُضِيَّيَّ عدتك راجعتك»، فشكت المرأة أمرها للنبي ﷺ فأنزل الله ﴿أَطْلَقْ مَرَّتَانِ﴾ الآية^(٢).

التفسير: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ أي للذين يحلفون ألا يجامعوا نساءهم للإضرار بهن انتظار أربعة أشهر ﴿فَإِنْ فَأَوْفَيْنَ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي إن رجعوا إلى عشرة أزواجهن بالمعروف - وهو كناية عن الجماع - أي رجعوا عن اليمين إلى الوطء؛ فإن الله يغفر ما صدر منهم من إساءة ويرحمهم ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي وإن صمموا على عدم المعاشرة والامتناع عن الوطء؛ فإن الله سميعٌ لأقوالهم عليم بنياتهم، والمراد من الآية أن الزوج إذا حلف ألا يقرب زوجته تنتظره الزوجة مدة أربعة أشهر فإن عاشرها في المدة فيها ونعمت ويكون قد حنث في يمينه وعليه الكفارة، وإن لم يعاشرها وقعت الفرقة والطلاق بمُضِيِّ تلك المدة عند أبي حنيفة، وقال الشافعي: ترفع أمره إلى الحاكم فيأمره إما بالفئة أو الطلاق، فإن امتنع عنهما طلق عليه الحاكم هذا هو خلاصة حكم الإيلاء. ثم قال تعالى مبيناً أحكام العدة والطلاق الشرعي ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ أي الواجب على المطلقات المدخول بهن أن ينتظرن مدة ثلاثة أطهار - على قول الشافعي ومالك - أو ثلاث حيض على قول أبي حنيفة وأحمد ثم تتزوج إن شاءت بعد انتهاء عدتها، وهذا في المدخول بها أما غير المدخول بها فلا عدة عليها لقوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ﴾ [الأحزاب: ٤٩] ﴿وَلَا يَحِلُّ لهنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ أي لا يباح للمطلقات أن يخفين ما في أرحامهن

(١) «المفردات» ص ٢٢٩.

(٢) (ش): أخرجه مالك في «الموطأ» والترمذي، وضعفه الألباني.

من حبل أو حيض استعجالاً في العدة وإبطالاً لحق الزوج في الرجعة ﴿إِنْ كُنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
 الْآخِرِ﴾ أي إن كنَّ حقاً مؤمنات بالله ويخشين من عقابه، وهذا تهديد لهنَّ حتى يخبرن بالحق
 من غير زيادة ولا نقصان، لأنه أمر لا يُعلم إلا من جهتهنَّ ﴿وَيَعْلَمَنَّ أَحَقُّ بِرَبِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا
 إِصْلَاحًا﴾ وأزواجهنَّ أحقُّ بهنَّ في الرجعة من التزويج للأجانب إذا لم تنقض عدتهن وكان
 الغرض من الرجعة الإصلاح لا الإضرار، وهذا في الطلاق الرجعي ﴿وَكُنَّ مِثْلَ الَّذِي عَلَيْهِنَّ
 بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي ولهنَّ على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن، بالمعروف الذي أمر تعالى
 من حسن العشرة وترك الضرر ونحوه ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أي وللرجال على النساء ميزة
 وهي فيما أمر تعالى به من القوامة والإنفاق والإمرة ووجوب الطاعة فهي درجة تكليف لا
 تشريف؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَكِيمٌ﴾ أي
 غالب ينتقم ممن عصاه، حكيم في أمره وتشريعه ثم بيّن تعالى طريقة الطلاق الشرعية فقال:
 ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَاِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَنٍ﴾ أي الطلاق المشروع الذي يملك به الزوج
 الرجعة مرتان وليس بعدهما إلا المعاشرة بالمعروف مع حسن المعاملة أو التسريح بإحسان
 بآلا يظلمها من حقها شيئاً ولا يذكرها بسوء ولا ينفر الناس عنها ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا
 ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ أي لا يحل لكم أيها الأزواج أن تأخذوا مما دفعتم إليهن من المهور شيئاً ولو
 قليلاً ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي إلا أن يخاف الزوجان سوء العشرة وألا يريا حقوق
 الزوجية التي أمر الله تعالى ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ أي فإن خفتم
 سوء العشرة بينهما وأرادت الزوجة أن تختلع بالنزول عن مهرها أو بدفع شيء من المال لزوجها
 حتى يطلقها فلا إثم على الزوج في أخذه ولا على الزوجة في بذله ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْدُواهَا﴾
 أي هذه الأحكام العظيمة من الطلاق والرجعة والخلع وغيرها هي شرائع الله وأحكامه فلا
 تخالفوها ولا تتجاوزوها إلى غيرها مما لم يشرعه الله ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾
 أي من خالف أحكام الله فقد عرّض نفسه لسخط الله وهو من الظالمين المستحقين للعقاب
 الشديد ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ أي فإن طلق الرجل المرأة ثالث مرة
 فلا تحل له بعد ذلك حتى تتزوج غيره وتطلق منه، بعد أن يذوق عُسَيْلَتَهَا وتذوق عُسَيْلَتَهُ كما
 صرّح به الحديث الشريف^(١)، وفي ذلك زجر عن طلاق المرأة ثلاثاً لمن له رغبة في زوجته
 لأن كل ذي مروءة يكره أن يفترش امرأته آخر ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا
 حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي إن طلقها الزوج الثاني فلا بأس أن تعود إلى زوجها الأول بعد انقضاء العدة إن
 كان ثمة دلائل تشير إلى الوفاق وحسن العشرة ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي تلك

(١) (ش): رواه البخاري ومسلم. العُسَيْلَةُ: تصغير غسل والمراد لذة الجماع.

شرائع الله وأحكامه يوضحها ويبينها لذوي العلم والفهم الذين ينظرون في عواقب الأمور^(١).

البلاغة: ١ - ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ خرج الخبر عن ظاهره إلى معنى الوعيد والتهديد.

٢ - ﴿وَالْمُطَلَّقَتُ يَرْبِضَنَّ﴾ خبر في معنى الأمر وأصل الكلام وليتربص المطلقات، قال الزمخشري: وإخراج الأمر في صيغة الخبر تأكيد للأمر وإشعاراً بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله، فكأنهن امتثلن الأمر فهو يخبر عنه موجوداً، وبناءً على المبتدأ مما زاده فضل تأكيد^(٢).

٣ - ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ﴾ ليس الغرض منه التقييد بالإيمان بل هو للتسهيل وتهويل الأمر في نفوسهن.

٤ - ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾ فيه إيجاز وإبداع لا يخفى على المتمكن من علوم البيان، فقد حذف من الأول بقرينة الثاني، ومن الثاني بقرينة الأول. والمعنى: لهنّ على الرجال من الحقوق مثل الذي للرجال عليهن من الحقوق، وفيه من المحسنات البديعية أيضاً الطباق بين «لهنّ» و «عليهنّ» وهو طباق بين حرفين.

٥ - ﴿فَإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ﴾ بين لفظ «إمساك» ولفظ «تسريح» طباقاً أيضاً.

٦ - ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ وضع الاسم الجليل موضع الضمير لتربية المهابة وإدخال الروعة في النفوس، وتعقيب النهي بالوعيد للمبالغة في التهديد.

٧ - ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قصر صفة على موصوف.

فائدة: أول خلع كان في الإسلام في امرأة (ثابت بن قيس) «أنت رسول الله ﷺ» فقالت يا رسول الله، لا يجمع الله رأسي ورأسه شيء أبداً، والله ما أعيب عليه في خلقي ولا دين ولكن أكره الكفر بعد الإسلام فقال لها (عليه السلام): «أتردّين عليه حديثه؟» قالت: نعم ففرق بينهما^(٣).

لطيفة: روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إني لأحب أن أتزين لامرأتي كما تتزين لي لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

قال الله تعالى:

وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُنَّ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّعَعْنَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣١﴾ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُنَّ أَجْلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ

(١) انظر الحكمة التشريعية للطلاق في كتابنا «روائع البيان» ١/ ٣٤٣.

(٢) «الكشاف» ١/ ٢٠٥.

(٣) (ش): رواه البخاري

مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

المناسبة: لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن أحكام الطلاق وتوضح طريقته وشروطه وأدابه، وتنهى عن الإيذاء والإضرار، فوجه المناسبة إذاً ظاهر.

اللغة: ﴿فَلَنْ أَجْلَهُنَّ﴾ أي قاربين من الانتهاء من العدة. ﴿ضَرَارًا﴾ أي بقصد الإضرار، قال القفال: الضرر هو المضارة كقوله: ﴿مَسْجِدًا ضَرَارًا﴾ [التوبة: ١٠٧] أي ليضاروا المؤمنين. ﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾ العَضْل: المنع والتضييق يقال: أعضل الأمر أي أشكل وضاعت فيه الحيل، وداء عَضَال، أي: عسير أعياء الأطباء، قال الأزهري: وأصله من عضلت الناقة إذا نشب ولدها فلم يسهل خروجه^(١). ﴿يُوعِظُ بِهِ﴾ يوصى ويؤمر به. ﴿أَزْكَى﴾ أنمى وأنفع يقال: زكا الزرع إذا نما بكثرة وبركة. ﴿وَأَطْهَرُ﴾ الطهارة: التنزه عن الدنس والمعاصي.

سَبَبُ النِّزُول: روي أن «معقل بن يسار» زوج أخته رجلاً من المسلمين على عهد النبي ﷺ فكانت عنده ما كانت ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت العدة، فهورها وهويته ثم خطبها مع الخطاب فقال له: يا لكع، أي «يا لثيم» أكرمتك بها وزوجتك فطلقتها!! والله لا ترجع إليك أبداً فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعْلِها فأنزل الله ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾. الآية فلما سمعها معقل قال: سمعاً لربي وطاعة. ثم دعاه فقال: أزوجك وأكرمك^{(٢) (٣)}.

التفسير: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلَهُنَّ﴾ أي إذا طلقتم يا معشر الرجال النساء طلاقاً رجعيّاً وقاربين انقضاء العدة ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَخُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي فراجعوهن من غير ضرار ولا أذى أو اتركوهن حتى تنقضي عدتهن بإحسان من غير تطويل العدة عليهن ﴿وَلَا تُنْسِكُوهُنَّ ضَرَارًا لِنَعْتُدُوا﴾ أي لا تراجعوهن إرادة الإضرار بهن لتظلموهن بالإلجاء إلى الافتداء، وفيه زجر لما كان عليه الناس حيث كان الزوج يترك المعتدة حتى إذا شارفت انقضاء العدة

(١) «تهذيب اللغة» مادة عضل.

(٢) رواه البخاري وانظر التاج ٤/٦٣.

(٣) (ش): عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ أَنَّهُ زَوَّجَ أُخْتَهُ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَانَتْ عِنْدَهُ مَا كَانَتْ ثُمَّ طَلَقَهَا تَطْلِيقَةً لَمْ يَرَجِعْهَا حَتَّى انْقَضَتِ الْعِدَّةُ فَهَوِيَتْ وَهَوِيَتْ ثُمَّ خَطَبَهَا مَعَ الْخَطَّابِ فَقَالَ لَهُ: يَا لَكْعُ، أَكْرَمْتِكَ بِهَا وَزَوَّجْتَكِهَا فَطَلَقْتَهَا وَاللَّهِ لَا تَرْجِعْ إِلَيْكَ أَبَدًا أَخْرَجَ مَا عَلَيْكَ قَالَ: فَعَلِمَ اللَّهُ حَاجَتَهَا إِلَيْهَا وَحَاجَتَهَا إِلَى بَعْلِهَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلَهُنَّ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فَلَمَّا سَمِعَهَا مَعْقِلٌ قَالَ سَمِعًا لِرَبِّي وَطَاعَةً ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ أَرْوِّجْكَ وَأَكْرِمْكَ. (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

أما رواية البخاري: فعن معقل بن يسار أنها تزكت فيه قال زوجت أختاً لي من رجل فطلقها، حتى إذا انقضت عدتها جاء يخطبها، فقلت له زوجتك وفرشتك وأكرمتك، فطلقتها، ثم جئت تخطبها، لا والله لا تعود إليك أبداً، وكان رجلاً لا بأس به وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه فأنزل الله هذه الآية ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ فقلت الآن أفعل يا رسول الله. قال فزوجها إياه.

يراجعها للإضرار بها ليطول عليها العدة لا للرغبة فيها ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أي من يمسكها للإضرار بها أو ليكرهها على الافتداء فقد ظلم بذلك العمل نفسه لأنه عرّضها لعذاب الله ﴿وَلَا تَنْخِذُوا بِآيَاتِ اللَّهِ هُزُوا﴾ أي لا تهزءوا بأحكام الله وأوامره ونواهيه فتجعلوا شريعته مهزوءاً بها بمخالفتكم لها ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أي اذكروا فضل الله عليكم بهدايتكم للإسلام وما أنعم به عليكم من القرآن العظيم والسنة المطهرة ﴿يَعْظُمُ بِهِ﴾ أي يرشدكم ويذكركم بكتابه وهدى رسوله إلى سعادتكم في الدارين ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي خافوا الله وراقبوه في أعمالكم واعلموا أنه تعالى لا تخفى عليه خافية من أحوالكم ثم أمر تعالى الأولياء بعدم عضل النساء الراغبات في العودة إلى أزواجهن فقال: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُنْفَاكِهِنَّ﴾ أي إذا طلقتم النساء وانقضت عدتهن ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي فلا تمنعهن يا معشر الأولياء من العودة لأزواجهن إذا صلحت الأحوال بين الزوجين، وظهرت أمارات الندم ورضي كل منهما إلى العودة لصاحبه والسير بما يرضي الله ﴿ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي ما نهيتكم عنه من الإضرار والعضل يُنصح به ويوعظ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر لأنه هو المنتفع بالمواعظ الشرعية ﴿ذَلِكَ أَرْزَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي الاتعاض بما ذكر والتمسك بأوامر الله خير وأنفع لكم وأطهر من الآثام وأوضار الذنوب^(١) ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي والله يعلم ما هو أصلح لكم من الأحكام والشرائع وأنتم لا تعلمون ذلك، فامثلوا أمره تعالى ونهيه في جميع ما تأتون وما تدرّون.

البلاغة: ١ - ﴿فَلْيُنْفَاكِهِنَّ﴾ أي قاربن انقضاء عدتهن أطلق اسم الكل على الأكثر فهو مجاز مرسل؛ لأنه لو انقضت العدة لما جاز له إمساكها والله تعالى يقول: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ بمَعْرُوفٍ .

٢ - ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ هو من باب عطف الخاص على العام لأن النعمة يراد بها نعم الله والكتاب والسنة من أفراد هذه النعم.

٣ - ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ بين كلمة «اعلموا» و«عليم» من المحسنات البديعية ما يسمى بجناس الاشتقاق.

٤ - ﴿يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ يراد بأزواجهن «المطلقين» لهن فهو من باب المجاز المرسل والعلاقة اعتبار ما كان.

فائدة: قال الإمام الفخر: الحكمة في إثبات حق الرجعة أنّ الإنسان ما دام مع صاحبه لا يدري هل تشق عليه المفارقة أو لا؟ فإذا فارقه فعند ذلك يظهر، فلو جعل الله الطلقة الواحدة

(١) (ش): أوضار: أوساخ.

مانعةً من الرجوع لعظمت المشقة على الإنسان إذ قد تظهر المحبة بعد المفارقة، ثم لما كان كمال التجربة لا يحصل بالمرة الواحدة أثبت تعالى حق المراجعة مرتين، وهذا يدل على كمال رحمته تعالى ورأفته بعباده^(١).

قال الله تعالى:

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا بِأَوْلَادِكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّفَقَا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرِيضْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنَكُمْ سَتَذْكُرُوهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ ذَلِيلٌ ﴿٣٥﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمُقَرَّبِ قَدَرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَوَضَعُوهَا فِي حَقِّهَا أَوْ يَعْفُوا أَوْ يَعْفُوا الَّذِي يَدِيهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٧﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى جملة من الأحكام المتعلقة بالنكاح والطلاق والعدة والرجعة والعُضْل، ذكر في هذه الآية الكريمة حكم الرضاع؛ لأنَّ الطلاق يحصل به الفراق فقد يطلق الرجل زوجته ويكون لها طفل ترضعه وربما أضعفت الطفل أو حرمت الرضاع انتقاماً من الزوج وإيذاءً له في ولده، لذلك وردت هذه الآية لندب الوالدات المطلقات إلى رعاية الأطفال والاهتمام بشأنهم، ثم أعقب ذلك بيان حكم الفراق بين الزوجين بالموت وما يجب على المرأة من العدة فيه رعاية لحق الزوج، كما ذكر تعالى موضع خطبة المرأة في حالة العدة، وموضوع استحقاق المرأة لنصف المهر أو كامل المهر بعد الفراق أو الطلاق.

اللغة: ﴿فَصَالًا﴾ الفصال والفصل: الفطام سمي به؛ لأنَّ الولد ينفصل عن لبن أمه إلى غيره من الأقوات، قال المبرد: الفصال أحسن من الفصل لأنه إذا انفصل عن أمه فقد انفصلت عنه فبينهما فصال كالقتال والضراب ﴿وَتَشَاوُرٍ﴾ التشاور: استخراج الرأي ومثله المشاورة؛ والمشورة مأخوذ من الشَّوْر وهو استخراج العسل. ﴿وَيَذَرُونَ﴾ يتركون وهذا الفعل لا يستعمل منه الماضي ولا المصدر. ﴿عَرَّضْتُمْ﴾ التعريض: الإيماء والتلويح من غير كشفٍ

وإظهار، مأخوذ من عَرَضَ الشيء، أي: جانبه كقول الفقير للمحسن: جئت لأنظر إلى وجهك الكريم ﴿خُطْبَةً﴾ بكسر الخاء طلب النكاح، وبالضم الموعظة كخطبة الجمعة والعيدين. ﴿أَكْنَثُمْ﴾ سترتم وأضمتم والإكثان: السر والخفاء. ﴿عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ من العقد وهو الشد، وفي المثل «يا عاقد اذكر حلاً»^(١) قال الراغب: العقدة اسم لما يعقد من نكاح أو يمين أو غيرهما. ﴿حَلِيمٌ﴾ يمهل العقوبة فلا يعجل بها للعاصي. ﴿الْمُقْتَرِ﴾ الفقير يقال: أقتر الرجل إذا افتقر.

سَبَبُ النِّزُول: روي «أن رجلاً من الأنصار تزوج امرأة من بني حنيفة ولم يسم لها مهراً ثم طلقها قبل أن يمسها فنزلت الآية ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ فقال له النبي ﷺ «مَتَّعَهَا وَلَوْ بِقَلْنُسٍ»^(٢)»^(٣).

التفسير: ﴿وَالْوَلَدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ أي الواجب على الأمهات أن يرضعن أولادهن لمدة سنتين كاملتين ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَمِيزَ الرِّضَاعَةَ﴾ أي إذا شاء الوالدان إتمام الرضاعة ولا زيادة عليه ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي وعلى الأب نفقة الوالدات المطلقات وكسوتهن بما هو متعارف بدون إسراف ولا تقتير لتقوم بخدمته حق القيام ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا مَا وُسْعُهَا﴾ أي تكون النفقة بقدر الطاقة لأنه تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها ﴿لَا تَضَارَّ وَلَدُهُ بَوْلْدِهَا وَلَا مَوْلُودُهُ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ أي لا يضر الوالدان بالولد فيفطرط في تعهده ويقصر في ما ينبغي له، أو يضار أحدهما الآخر بسبب الولد فترفض الأم إرضاعه لتضر أباه بتربته، ويتنزع الأب الولد منها إضراراً بها مع رغبتها في إرضاعه ليغيظ أحدهما صاحبه، قاله مجاهد ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ أي وعلى الوارث مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على الأم والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها، والمراد به وارث الأب، وقيل: وارث الصبي، والأول اختيار «الطبري» ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي فإذا اتفق الوالدان على فطامه قبل الحولين ورأيا في ذلك مصلحة له بعد التشاور فلا إثم عليهما ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَاءً أَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي وإن أردتم أيها الآباء أن تطلبوا مرضعة لولدكم غير الأم بسبب عجزها أو إرادتها الزواج فلا إثم عليكم شريطة أن تدفعوا لها ما اتفقتم عليه من الأجر، فإن المرضع إذا لم تكرم لا تهتم بالطفل ولا تعنى بإرضاعه ﴿وَأَنفِقُوا لِلَّهِ وَأَعْمُوا أَنَّ اللَّهَ يَمَّا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي راقبوا الله في جميع أفعالكم فإنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأحوالكم ﴿وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَرْوَاجًا يَرْبِضْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ أي على النساء اللواتي

(١) (ش): أي إنك ستحلها إذا استقلت، فلا تحكم شديداً.

(٢) «القرطبي» ٣/ ٢٠٢.

(٣) (ش): ضعيف جداً، ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير». والقَلْنُسُ: غطاء للرأس.

يموت أزواجهن أن يمكثن في العدة أربعة أشهر وعشرة أيام حداً على أزواجهن وهذا الحكم لغير الحامل أما الحامل فعدتها وضع الحمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤] ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي فإذا انقضت عدتهن فلا إثم عليكم أيها الأولياء في الإذن لهن بالزواج وفعل ما أباحه لهن الشرع من الزينة^(١) والتعرض للخطاب^(٢) ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي عليم بجميع أعمالكم فيجازيكم عليها ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ أي لا إثم عليكم أيها الرجال في التعريض بخطبة النساء المتوفى عنهن أزواجهن في العدة، بطريق التلميح لا التصريح، قال ابن عباس: كقول الرجل: وددت أن الله يسر لي امرأةً سالحة، وإن النساء لمن حاجتي ﴿وَأَوْ كُنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أي ولا إثم عليكم أيضاً فيما أخفيتموه في أنفسكم من رغبة الزواج بهن ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تَأْذَنُونَهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ أي قد علم الله أنكم ستذكروهن في أنفسكم ولا تصبرون عنهن فرفع عنكم الحرج، فاذكروهن ولكن لا توأدوهن بالنكاح سراً إلا بطريق التعريض والتلويح وبالمعروف الذي أقره لكم الشرع ﴿وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ أي ولا تعقدوا عقد النكاح حتى تنتهي العدة ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ أي احذروا عقابه في مخالفتكم أمره ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ حَلِيمٌ﴾ أي يمحو ذنب من أناب ولا يعاجل العقوبة لمن عصاه. ثم ذكر تعالى حكم المطلقة قبل المساس فقال: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي لا إثم عليكم أيها الرجال إن طلقتم النساء قبل المسيس «الجماع» وقبل أن تفرضا لهن مهراً، فالطلاق في مثل هذه الحالة غير محظور إذا كان لمصلحة أو ضرورة ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمُنْكَاحِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمَقْتِرِ قَدْرَهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ أي فإذا طلقتموهن فادفعوا لهن المتعة تطبيقاً لخاطرهن وجبراً لو حشة الفراق، على قدر حال الرجل في الغنى والفقر، الموسر بقدر يساره، والمعسر بقدر إعساره، تمتعاً بالمعروف حقاً على المؤمنين المحسنين ﴿وَأِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ أي وإذا طلقتموهن قبل الجماع وقد كنتم ذكرتم لهن مهراً معيناً فالواجب عليكم أن تدفعوا نصف المهر المسمى لهن لأنه طلاق قبل المسيس ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ أي إلا إذا أسقطت المطلقة حقها أو أسقط ولي أمرها الحق إذا كانت صغيرة، وقيل: هو الزوج لأنه هو الذي يملك عقد النكاح وذلك بأن يسامحها بكامل المهر الذي دفعها لها واختاره ابن جرير،

(١) (ش): أي داخل بيتها. فليس المعنى أن تخرج إلى الأسواق والطرق متجملة سافرة الوجه.

(٢) (ش): فبعد انقضاء عدتها، يراها الخطيب داخل بيتها.

وقال الزمخشري: القول بأنه الولي ظاهر الصحة^(١) ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ الخطاب عام للرجال والنساء، قال ابن عباس: أقرهما للتقوى الذي يعفو ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي لا تنسوا أيها المؤمنون الجميل والإحسان بينكم، فقد ختم تعالى الآيات بالتذكير بعدم نسيان المودة والإحسان والجميل بين الزوجين، فإذا كان الطلاق قد تم لأسباب ضرورية قاهرة فلا ينبغي أن يكون هذا قاطعاً لروابط المصاهرة ووشائج القرى.

البلاغة: ١ - ﴿وَالْوِلْدَاتُ رُضِعْنَ﴾ أمر أخرج مخرج الخبر مبالغة في الحمل على تحقيقه أي ليرضعن كالأية السابقة ﴿وَالْمُطَلَقَاتُ يَرَرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

٢ - ﴿أَنْ تَسْرِضِعُوا وَلَدَكُمْ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي يسترضعوا المراضع لأولادكم، كما أن فيه الالتفات من الغيبة إلى الخطاب لأن ما قبله ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا﴾ وفائدة هذا الالتفات هز مشاعر الآباء نحو الأبناء.

٣ - ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عَقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ ذكر العزم للمبالغة في النهي عن مباشرة النكاح، فإذا نهى عنه كان النهي عن الفعل من باب أولى.

٤ - ﴿مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ كنى تعالى بالمس عن الجماع تأديباً للعباد في اختيار أحسن الألفاظ فيما يتخاطبون به.

٥ - ﴿وَأَنْ تَعْفُوا﴾ و﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ﴾ الخطاب عام للرجال والنساء ولكنه ورد بطريق التغليب.

٦ - ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾ إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة والروعة. **الفوائد: الأولى:** التعبير بلفظ «الوالدات» دون قوله «والمطلقات» أو النساء المطلقات لاستعطافهن نحو الأولاد، فحصول الطلاق لهن لا ينبغي أن يحرمهن عاطفة الأمومة.

الثانية: أضاف تعالى الولد في الآية الكريمة إلى كل من الأبوين في قوله: ﴿وَالِدَهُ يُؤْلِدُهَا﴾ و﴿مَوْلُودٌ لَهُ، يُولَدُهُ﴾ وذلك لطلب الاستعطاف والإشفاق عليه، فالولد ليس أجنبياً عن الوالدين هذه أمه وذاك أبوه فمن حقهما أن يشفقا عليه ولا تكون العداوة بينهما سبباً للإضرار به.

الثالثة: الحكمة في إيجاب المتعة للمطلقة هي جبر إحاش الطلاق قال ابن عباس: إن كان معسراً متعها بثلاثة أثواب، وإن كان موسراً متعها بخادم.

الرابعة: روي أن الحسن بن علي متع زوجته بعشرة آلاف درهم فقالت المرأة: «متاع قليل من حبيب مفارق» وسبب طلاقه إياها ما روي أنه لما أصيب علي كرم الله وجهه وبويع الحسن

(١) هذا القول مروى عن ابن عباس وهو مذهب مالك وقول الشافعي في القديم قال الناصر في تعليقه على كلام الزمخشري: وصدق الزمخشري أنه قول ظاهر الصحة، عليه رونق الحق وطلاوة الصواب لوجوه ستة ساقها بالطف بيان فانظرها في «الكشاف» ١/ ٢١٧.

بالخلافة قالت له: لتهنك الخلافة يا أمير المؤمنين! فقال: يُقتل عليّ وتظهرين السماتة؟ اذهبي فأنت طالق ثلاثاً، فتلفت بجلباها وقعدت حتى انقضت عدتها فبعث إليها بعشرة آلاف متعة وبقية ما بقي لها من صداقها فقالت ذلك، فلما أخبره الرسول بكى وقال: لولا أنني طلقته ثلاثاً لراجعتها^(١).

قال الله تعالى:

حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَنِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلَمَّا طَلَّقْتَ مَتْعَةً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

المناسبة: توسطت آيات المحافظة على الصلاة خلال الآيات الكريمة المتعلقة بأحكام الأسرة وعلاقات الزوجين عند الطلاق أو الافتراق وذلك لحكمة بليغة، وهي أن الله تعالى لما أمر بالعتف والتسامح وعدم نسيان الفضل بعد الطلاق بين بعد ذلك أمر الصلاة، لأنها أعظم وسيلة إلى نسيان هموم الدنيا وأكدارها ولهذا كان ﷺ إذا حزبه همٌّ فزع إلى الصلاة. فالطلاق يولد الشحناء والبغضاء، والصلاة تدعو إلى الإحسان والتسامح وتنتهي عن الفحشاء والمنكر، وذلك أفضل طريق لتربية النفس الإنسانية.

اللغة: ﴿حَفِظُوا﴾ المحافظة: المداومة على الشيء والمواظبة عليه. ﴿الْوُسْطَى﴾ مؤنث الأوسط، ووسط الشيء خيره وأعدله، قَالَ أَعْرَابِيٌّ يَمْدَحُ الرَّسُولَ ﷺ: يَا أَوْسَطَ النَّاسِ طُرًّا فِي مَفَاخِرِهِمْ وَأَكْرَمَ النَّاسِ أُمًّا بَرَّةً وَأَبَا^(٢)

﴿قَنِينَ﴾ أصل القنوت في اللغة: المداومة على الشيء وقد خصه القرآن بالدوام على الطاعة والملازمة لها على وجه الخشوع والخضوع قال تعالى: ﴿يَمْرِمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ﴾ [آل عمران: ٤٣]. ﴿فَرِجَالًا﴾ جمع راجل وهو القائم على القدمين قال الراغب: اشتق من الرُّجْل راجلٌ للماشي بالرجل ويقال: رَجُلٌ رَاجِلٌ أي قَوِيٌّ على المشي^(٣). ﴿رُكْبَانًا﴾ جمع راكب وهو من يركب الفرس والدابة ونحوهما.

التفسير: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ أي واطبوا أيها المؤمنون وداوموا على أداء الصلوات في أوقاتها وخاصة صلاة العصر فإن الملائكة تشهدها ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَنِينَ﴾

(١) «القرطبي» ٢٠٢/٣.

(٢) (ش): طُرًّا أي جَمِيعًا.

(٣) «مفردات الراغب» مادة رجل.

أي داوموا على العبادة والطاعة بالخشوع والخضوع، أي: قوموا لله في صلاتكم خاشعين ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرَجَالًا أَوْ زُرُبَانًا﴾ أي فإذا كنتم في خوفٍ من عدو أو غيره فصلوا ماشين على الأقدام أو راكبين على الدواب ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ أي فإذا زال الخوف وجاء الأمن فأقيموا الصلاة مستوفية لجميع الأركان كما أمركم الله وعلى الوجه الذي شرعه لكم وهذه كقوله: ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ١٠٣] والذكر في الآية يراد به الصلاة الكاملة المستوفية للأركان، قال الزمخشري: المعنى اذكروه بالعبادة كما أحسن إليكم بما علمكم من الشرائع وكيف تصلون في حال الخوف والأمن. ثم قال تعالى مبيناً أحكام العدة ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ أي والذين يموتون من رجالكم ويتركون زوجاتهم على هؤلاء أن يوصوا قبل أن يُحتضروا بأن تمتع أزواجهن بعدهم حولاً كاملاً - يُنفق عليهن من تركته ولا يُخرجن من مساكنهن - وكان ذلك في أول الإسلام ثم نسخت المدة إلى أربعة أشهر وعشرة أيام ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ﴾ أي فإن خرجن مختارات راضيات فلا إثم عليكم يا أولياء الميت في تركهن أن يفعلن ما لا ينكره الشرع كالترزين والتطيب^(١) والتعرض للخطاب^(٢) ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي هو سبحانه غالبٌ في ملكه حكيم في صنعه ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ أي واجبٌ على الأزواج أن يمتنعوا المطلقات بقدر استطاعتهم جبراً لو حشة الفراق وهذه المتعة حقٌ لازم على المؤمنين المتقين لله ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي مثل ذلك البيان الشافي الذي يوجه النفوس نحو المودة والرحمة يبين الله سبحانه لكم آياته الدالة على أحكامه الشرعية لتعقلوا ما فيها وتعملوا بموجبها.

البلاغة: ١ - ﴿وَالصَّلَاةُ أَلْوَسَطَى﴾ عطف خاص على عام؛ لبيان مزيد فضلها.

٢ - ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ بين لفظ (خفتمخ) و(أمنتم) طباق وهو من المحسنات البديعية، قال أبو السعود: وفي إيراد الشرطية بكلمة «إن» المنبئة عن عدم تحقق وقوع الخوف، وإيراد الثانية بكلمة «إذا» المنبئة عن تحقق وقوع الأمن وكثرته مع الإيجاز في جواب الأولى والإطناب في جواب الثانية من الجزالة ولطف الاعتبار ما فيه عبرة لأولي الأبصار^(٣).

تنبيه: الصلاة الوسطى على الراجح من الأقوال هي صلاة العصر لأنها وسط بين الفجر والظهر والمغرب والعشاء ويقوي هذا ما ورد في «الصحيحين»: «شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى

(١) (ش): أي داخل بيتها. فليس المعنى أن تخرج إلى الأسواق والطرق متجملة سافرة الوجه.

(٢) (ش): فيعد انقضاء عدتها، يراها الخطأ داخل بيتها.

(٣) «تفسير أبي السعود» ١/ ١٨٠.

صَلَاةِ الْعَصْرِ مَلَأَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَيُوتِيهِمْ نَارًا» وفي الحديث: «الَّذِي تَقُوْتُهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ فَكَأَنَّمَا وَتَرَأَهُلُهُ وَمَالُهُ» أخرجه الشيخان وغير ذلك من الأحاديث الصحيحة.

قال الله تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَمْضَاعًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَمِ مَنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى أحكام الأسرة بالتفصيل والنظم التي تربط بين أفرادها، وسعى لإصلاحها^(١) باعتبار أنها النواة واللبنة التي يشاد منها صرح المجتمع الفاضل، ذكر بعدها أحكام الجهاد وذلك لحماية العقيدة وصيانة المقدسات، وتأمين البيئة الصالحة للأسرة المسلمة التي تنشأ الحياة الكريمة، فلا صلاح للأسرة إلا بصلاح المجتمع، ولا بقاء لها ولا خلود إلا ببقاء الحق وأنصاره، ولهذا أمر تعالى بالقتال وضرب عليه الأمثال بالأمم السابقة، كيف جاهدت

(١) (ش): قول المؤلف عن الله أنه سعى لإصلاح الأسرة تعبير غير مناسب في حق الله لأنه لم يرد وصفُ الله بالسعي.

في سبيل الحق وانتصرت القلة مع إيمانها على الكثرة مع كفرها وطغيانها، فليست العبرة بكثرة أنصار الباطل بل بصمود أهل الحق والتزامهم له وجهادهم في سبيله.

اللغة: ﴿الْوُفُ﴾ جمع ألف جمع كثرة وفي القلة آلاف، ومعناه كثرة كاثرة وألوف مؤلفة. ﴿حَذَرَ﴾ خشية وخوف ﴿يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ﴾ القبض: ضم الشيء والجمع عليه والمراد به التقدير والبسط ضده والمراد به التوسيع قال أبو تمام: تَعَوَّدَ بَسْطَ الْكَفِّ حَتَّى لَوَانَهُ

دَعَاها لِقَبْضٍ لَمْ تَجِبْهُ أَنَامِلُهُ ﴿الْمَلَا﴾ الأشراف من الناس سموا بذلك لأنهم يملؤون العين مهابة وإجلالا. ﴿فَصَلَ﴾ انفصل من مكانه يقال: فصل عن الموضوع انفصل عنه وجاوزه. ﴿مُبْتَلِيَكُمْ﴾ مختبركم. ﴿يَظُنُّونَ﴾ يستيقنون ويعلمون. ﴿فِتْنَةٍ﴾ الفتنة: الجماعة من الناس لا واحد له كالحرط والنفر. ﴿أَفْرِغْ﴾ أفرغ الشيء صبّه وأنزله.

التفسير: ﴿الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ أي ألم يصل إلى سمعك يا محمد أو أيها المخاطب حال أولئك القوم الذين خرجوا من وطنهم وهم ألوف مؤلفة ﴿حَذَرَ أَلَمُوتٍ﴾ أي خوفاً من الموت وقراراً منه، والغرض من الاستفهام التعجيب والتشويق إلى سماع قصتهم وكانوا سبعين ألفاً ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ أي أماتهم الله ثم أحياهم، وهم قوم من بني إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد فهربوا خوفاً من الموت فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم بدعوة نبيهم «حزقيل» فعاشوا بعد ذلك دهراً، وقيل: هربوا من الطاعون فأماتهم الله. قال ابن كثير: وفي هذه القصة عبرة على أنه لا يغني حذر من قدر، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أي ذو إنعام وإحسان على الناس حيث يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة ما يبصرهم بما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي لا يشكرون الله على نعمه بل ينكرون ويجحدون ﴿وَقَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي قاتلوا الكفار لإعلاء دين الله، لا لحظوظ النفس وأهوائها واعلموا أن الله سميع لأقوالكم، عليم بنياتكم وأحوالكم فيجازيكم عليها، وكما أن الحذر لا يغني من القدر فكذلك الفرار من الجهاد لا يقرب أجلاً ولا يبعده ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ أي من الذي يبذل ماله وينفقه في سبيل الخير ابتغاء وجه الله، ولإعلاء كلمة الله في الجهاد وسائر طرق الخير، فيكون جزاؤه أن يضاعف الله تعالى له ذلك القرض أضعافاً كثيرة؟ لأنه قرض لأغنى الأغنياء رب العالمين جل جلاله وفي الحديث «مَنْ يُقْرِضْ غَيْرَ عَدِيمٍ وَلَا ظُلُومٍ»^(١) ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ﴾ أي يقتر على من يشاء ويوسع على

(١) حديث قدسي ذكره ابن كثير عند هذه الآية من حديث النزول، وانظر «مختصر ابن كثير» ٢٢٢/١.

(٢) (ش): قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَنْزِلُ اللَّهُ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا لِسَطْرِ اللَّيْلِ أَوْ لُثْلُ اللَّيْلِ الْآخِرِ فَيَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي؟ فَأَسْتَجِيبُ لَهُ أَوْ يَسْأَلُنِي فَأَعْطِيهِ. ثُمَّ يَقُولُ مَنْ يُقْرِضُ غَيْرَ عَدِيمٍ وَلَا ظُلُومٍ؟. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

من يشاء ابتلاءً وامتحاناً ﴿وَالَّذِينَ تَرْجِعُونَ﴾ أي يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم ﴿أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْمَلَا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدَ مُوسَى﴾ أي ألم يصل خبر القوم إليك؟ وهو تعجيب وتشويق للسامع كما تقدم وكانوا من بني إسرائيل وبعد وفاة موسى ﷺ كما دلت عليه الآية ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ أَرْبَعُونَ﴾ أي حين قالوا لنبيهم «شمعون» - وهو من نسل هارون^(١) أقم لنا أميراً واجعله قائداً لنا لنقاتل معه الأعداء في سبيل الله ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ أي قال لهم نبيهم: أخشى أن يفرض عليكم القتال ثم لا تقاتلوا عدوكم وتجنبوا عن لقائه ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا﴾ أي أي سبب لنا في ألا نقاتل عدونا وقد أخذت منا البلاد وسُبيت الأولاد؟ قال تعالى بياناً لما انطوت عليه نفوسهم من الهلع والجبن ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لما فرض عليهم القتال نكل أكثرهم عن الجهاد إلا فئة قليلة منهم صبروا وثبتوا، وهم الذين عبروا النهر مع طالوت، قال «القرطبي»: وهذا شأن الأمم المتنعة المائلة إلى الدعة، تتمنى الحرب أوقات الأنفة فإذا حضرت الحرب جُبنت وانقادت لطبعها^(٢) ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وعيدٌ لهم على ظلمهم بترك الجهاد عصيانياً لأمره تعالى ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ أي أخبرهم نبيهم بأن الله تعالى قد ملك عليهم طالوت ليكونوا تحت إمرته في تدبير أمر الحرب واختاره ليكون أميراً عليهم ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ أي قاموا معترضين على نبيهم كيف يكون ملكاً علينا والحال أننا أحق بالملك منه لأن فينا من هو من أولاد الملوك وهو مع هذا فقير لا مال له فكيف يكون ملكاً علينا؟ ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ أي أجابهم نبيهم على ذلك الاعتراض فقال: إن الله اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم، والعمدة في الاختيار أمران: العلم ليتمكن به من معرفة أمور السياسة، والأمر الثاني قوة البدن ليعظم خطره في القلوب، ويقدر على مقاومة الأعداء ومكابدة الشدائد، وقد خصه الله تعالى منهما بحظ وافر، قال ابن كثير: ومن هاهنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم، وشكل حسن، وقوة شديدة في بدنه ونفسه^(٣)، ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يعطي الملك لمن شاء من عباده من غير إرث أو مال ﴿وَاللَّهُ وَسِعُ عِلْمُهُ﴾ أي واسع الفضل عليم بمن هو أهل له فيعطيه إياه.. ولما طلبوا آية تدل على اصطفاء الله لطالوت أجابهم إلى ذلك ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ أي علامة ملكه واصطفائه عليكم ﴿أَنْ يَأْتِيَكُمُ

(١) قاله مقاتل وهو من أنبياء بني إسرائيل

(٢) «القرطبي» ٣/ ٢٤٥.

(٣) «مختصر ابن كثير» ١/ ٢٢٤.

أَلَتَابُوتُ ﴿١﴾ أَي يَرَدُّ اللهُ إِلَيْكُمْ التَّابُوتَ الَّذِي أَخَذَ مِنْكُمْ، وَهُوَ كَمَا قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ: صَنْدُوقُ التَّوْرَةِ الَّذِي كَانَ مُوسَى ﷺ إِذَا قَاتَلَ قَدَّمَهُ فَكَانَتْ تَسْكُنُ نَفُوسَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا يَفْرُونَ فِيهِ سَكِينَةً مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ﴿٢﴾ أَي: فِي التَّابُوتِ السَّكُونُ وَالطَّمَأْنِينَةُ وَالْوَقَارُ، وَفِيهِ أَيْضًا بَقِيَّةٌ مِنْ آثَارِ آلِ مُوسَى وَآلِ هَارُونَ وَهِيَ عَصَا مُوسَى وَثِيَابُهُ وَبَعْضُ الْأَلْوَاحِ الَّتِي كَتَبَتْ فِيهَا التَّوْرَةُ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: جَاءَتْ الْمَلَائِكَةُ تَحْمِلُ التَّابُوتَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ حَتَّى وَضَعُوهُ بَيْنَ يَدَيْ طَالُوتَ وَالنَّاسِ يَنْظُرُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤﴾ أَيِ إِنْ فِي نَزُولِ التَّابُوتِ لَعَلَامَةٌ وَاضِحَةٌ أَنَّ اللَّهَ اخْتَارَهُ لِيَكُونَ مَلَكًا عَلَيْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿٥﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ ﴿٦﴾ أَيِ خَرَجَ بِالْجَيْشِ وَانْفَصَلَ عَنِ بَيْتِ الْمَقْدَسِ وَجَاوَزَهُ وَكَانُوا ثَمَانِينَ أَلْفًا أَخَذَ بِهِمْ فِي أَرْضٍ قَفْرَةٍ فَاصَابَهُمْ حَرٌّ وَعَطَشٌ شَدِيدٌ ﴿٧﴾ قَالَ إِنَّكَ اللَّهُ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ أَيِ مُخْتَبِرُكُمْ بِنَهَرٍ وَهُوَ نَهْرُ الشَّرِيعَةِ الْمَشْهُورِ بَيْنَ الْأُرْدُنِّ وَفِلَسْطِينَ ﴿٨﴾ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ﴿٩﴾ أَيِ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَا يَصْحَبُنِي - وَأَرَادَ بِذَلِكَ أَنْ يَخْتَبِرَ إِرَادَتَهُمْ وَطَاعَتَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَخُوضَ بِهِمْ غَمَارَ الْحَرْبِ - ﴿١٠﴾ وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴿١١﴾ أَيِ مَنْ لَمْ يَشْرَبْ مِنْهُ وَلَمْ يَذُقْهُ فَإِنَّهُ مِنْ جُنْدِي الَّذِينَ يَقَاتِلُونَ مَعِي ﴿١٢﴾ إِلَّا مَنْ أَغْرَقَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴿١٣﴾ أَيِ لَكِنْ مَنْ أَغْرَقَ قَلِيلًا مِنَ الْمَاءِ لِيَبَلَّ عَطَشُهُ وَيَنْقَعُ غُلَّتُهُ فَلَا بِأَسْ بِذَلِكَ ^(١)، فَأَذِنَ لَهُمْ بِرَشْفَةِ مِنَ الْمَاءِ تَذْهَبُ بِالْعَطَشِ ﴿١٤﴾ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴿١٥﴾ أَيِ شَرِبَ الْجَيْشُ مِنْهُ إِلَّا فِتَّةً قَلِيلَةً صَبَرَتْ عَلَى الْعَطَشِ، قَالَ السُّدِّيُّ: شَرِبَ مِنْهُ سِتَّةٌ وَسَبْعُونَ أَلْفًا وَتَبَقِيَ مَعَهُ أَرْبَعَةُ آلَافٍ ﴿١٦﴾ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ﴿١٧﴾ أَيِ لَمَّا اجْتَازَ النَّهْرَ مَعَ الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى الْعَطَشِ وَالتَّعَبِ وَرَأَوْا كَثْرَةَ عَدُوِّهِمْ وَاعْتَرَاهُمُ الْخَوْفُ فَقَالَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ﴿١٨﴾ لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴿١٩﴾ أَيِ لَا قُدْرَةَ لَنَا عَلَى قِتَالِ الْأَعْدَاءِ مَعَ قَائِدِ جَيْشِهِمْ جَالُوتَ فَنَحْنُ قَلَّةٌ وَهُمْ كَثْرَةٌ كَاثِرَةٌ ﴿٢٠﴾ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ ﴿٢١﴾ أَيِ قَالَ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ بِلِقَاءِ اللَّهِ وَهُمْ الصَّفْوَةُ الْأَخْيَارُ وَالْعُلَمَاءُ الْأَبْرَارُ مِنْ أَتْبَاعِ طَالُوتَ ﴿٢٢﴾ كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿٢٣﴾ أَيِ كَثِيرًا مَا غَلَبَتِ الْجَمَاعَةُ الْقَلِيلَةُ الْجَمَاعَةَ الْكَثِيرَةَ بِإِرَادَةِ اللَّهِ وَمَشِئَتِهِ، فَلَيْسَ النَّصْرُ عَنْ كَثْرَةِ الْعَدَدِ وَإِنَّمَا النَّصْرُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٥﴾ أَيِ مَعَهُمُ بِالْحِفْظِ وَالرَّعَايَةِ وَالتَّأْيِيدِ وَمَنْ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ فَهُوَ مَنْصُورٌ بِحَوْلِ اللَّهِ ﴿٢٦﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴿٢٧﴾ أَيِ ظَهَرُوا فِي الْفَضَاءِ الْمَتَسِّعِ وَجَهًا لَوَجْهٍ أَمَامَ ذَلِكَ الْجَيْشِ الْجَارِ جَيْشِ جَالُوتَ الْمَدْرَبِ عَلَى الْحُرُوبِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴿٢٩﴾ دَعَا اللَّهُ ضَارِعِينَ إِلَيْهِ بِثَلَاثِ دَعَوَاتٍ تَفِيدُ إدْرَاكَ أَسْبَابِ النَّصْرِ فَقَالُوا أَوَّلًا: رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا يَعْظُمُنَا فِي جَمْعِنَا وَفِي خَاصَّةِ نَفُوسِنَا لِنَقْوَى عَلَى قِتَالِ أَعْدَائِكَ ﴿٣٠﴾ وَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا ﴿٣١﴾ أَيِ ثَبَّتْنَا فِي مِيدَانِ الْحَرْبِ

(١) (ش): نَقَعَ الْمَاءُ غُلَّتَهُ أَيِ أَرَوَى عَطَشَهُ.

ولا تجعل للفرار سبيلاً إلى قلوبنا وهي الدعوة الثانية ﴿وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي انصرنا على من كفر بك وكذب رسلك وهم جالوت وجنوده وهي الدعوة الثالثة قال تعالى إخباراً عنهم: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي هزموا جيش جالوت بنصر الله وتأنيده إجابة لدعائهم وانكسر عدوهم رغم كثرته ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ أي وقتل داود - وكان في جيش المؤمنين مع طالوت - رأس الطغيان جالوت واندحر جيشه ﴿وَعَاتَكَهُ اللَّهُ الْمَلِكُ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ أي أعطى الله تعالى داود الملك والنبوة وعلمه ما يشاء من العلم النافع الذي أفاضه عليه، قال ابن كثير: كان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته ويشاطره نعمته، ويشركه في أمره، فوفى له ثم آل الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه الله من النبوة العظيمة ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ أي لولا أن يدفع الله شر الأشرار بجهاد الأخيار لفسدت الحياة، لأن الشر إن غلب كان الخراب والدمار ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي ذو تفضل وإنعام على البشر حيث لم يُمكن للشر من الاستعلاء ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي ما قصصنا عليك يا محمد من الأمور الغريبة والقصص العجيبة التي وقعت في بني إسرائيل هي من آيات الله وأخباره المغيبة التي أوحاها إليك بالحق بواسطة جبريل الأمين ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي وإنك يا محمد لمن جملة الرسل الذين أرسلهم الله لتبليغ دعوة الله عز وجل.

البلاغة: ١ - قال أبو حيان: تضمنت الآية الكريمة من ضروب البلاغة وصنوف البيان أموراً كثيرة منها الاستفهام الذي أجري مجرى التعجب في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ﴾ والحذف بين ﴿مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ أي فماتوا ثم أحياهم، والطباق في قوله: ﴿مُوتُوا﴾ و ﴿أَحْيَاهُمْ﴾ كذلك في قوله: ﴿يَقْبِضُ﴾ و ﴿وَيَبْصِطُ﴾ والتكرار في قوله: ﴿فَضْلٌ عَلَى النَّاسِ﴾ و ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ والالتفات في ﴿وَقَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والتشبيه بدون الأداة في قوله: ﴿قَرَضًا حَسَنًا﴾ شبه قبوله تعالى إنفاق العبد في سبيله بالقرض الحقيقي فأطلق اسم القرض عليه، والتجنيس المغاير في قوله: ﴿فِيضُكَفُّهُ﴾ وقوله: ﴿أَضْعَافًا^(١)﴾.

٢ - ﴿أَفَرِحَ عَلَيْكَ صَبْرًا﴾ فيه استعارة تمثيلية فقد شبه حالهم والله تعالى يفيض عليهم بالصبر بحال الماء يصب ويفرغ على الجسم فيعمه كله، ظاهره وباطنه فيلقي في القلب برداً وسلاماً وهدوءاً واطمئناناً.

الفوائد الأولى: أسند الاستقراض إلى الله في قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ وهو المنزه عن الحاجات ترغيباً في الصدقة كما أضاف الإحسان إلى المريض والجائع والعطشان إلى نفسه تعالى في قوله جلّ وعلا في الحديث القدسي: «ابن آدم مرضت فلم تعطني» و «استطعمتك فلم

تطعمني» و«استسقيتك فلم تسقني» الحديث الذي رواه الشيخان^(١).

الثانية: روي أنه لما نزلت الآية الكريمة «جاء أبو الدحداح الأنصاري إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله: وإن الله ليريد منا القرض؟ قال: «نعم يا أبا الدحداح!» قال: أرني يدك يا رسول الله، فناولته يده قال: فإني قد أقرضت ربي حائطي - أي بستانتي وكان فيه ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها - فجاء أبو الدحداح فنادها: يا أم الدحداح قالت: لبيك، قال: اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل^(٢)، وفي رواية قالت: ربح بيعك يا أبا الدحداح وخرجت منه مع عيالها^(٣).

الثالثة: قال البقاعي: ولعل ختام بني إسرائيل بهذه القصة لما فيها للنبي ﷺ من واضح الدلالة على صحة رسالته؛ لأنها مما لا يعلمه إلا القليل من حذاق علماء بني إسرائيل^(٤).

قال الله تعالى:

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى في الآيات السابقة اصطفاء طالوت على بني إسرائيل، وتفضيل

(١) (ش): قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرَضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُوذُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَانًا مَرَضَ فَلَمْ تَعُدَّهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطَعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أَطْعَمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطَعَمَكَ عَبْدِي فَلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي. يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتَكَ فَلَمْ تَسْقِنِي. قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فَلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). والحديث ليس في «صحيح البخاري». وإنما رواه البخاري في كتاب «الأدب المفرد».

(٢) أخرجه البزار والطبراني عن ابن مسعود

(٣) (ش): ضَعَفَهُ البوصيري والألباني. عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّ لِفُلَانٍ نَخْلَةً، وَأَنَا أُقِيمُ حَائِطِي بِهَا، فَأَمَرُهُ أَنْ يُعْطِيَنِي حَتَّى أُقِيمَ حَائِطِي بِهَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَعْطَاهَا إِيَّاهُ بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ» فَأَبَى، فَأَتَاهُ أَبُو الدَّحْدَاحِ فَقَالَ: بَعْثِي نَخْلَتَكَ بِحَائِطِي. ففعل، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي قَدْ ابْتِغْتُ النَخْلَةَ بِحَائِطِي. قَالَ: فَأَجْعَلْهَا لَهُ، فَقَدْ أُعْطِيَكَهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَمْ مِنْ عَذْقٍ رَدَّاحٍ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ فِي الْجَنَّةِ» فَأَلْهَا مِرَارًا. قَالَ: فَأَتَى امْرَأَتَهُ فَقَالَ: يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ اخْرُجِي مِنَ الْحَائِطِ، فَإِنِّي قَدْ بَعَثْتُ بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ. فَقَالَتْ: رَيْحَ الْبَيْعِ. أَوْ كَلِمَةً تُشَبِّهُهَا. (رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَالْأَلْبَانِيُّ). «عَذْقٌ» قِيلَ: بِالْكَسْرِ الْغَصْنُ، وَبِالْفَتْحِ النَخْلَةُ أَوْ الْحَائِطُ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ هُنَا النَخْلَةَ. «رَدَّاحٌ»: ثَقِيلٌ لِكَثْرَةِ مَا فِيهِ مِنَ الثَّمَارِ.

(٤) «محاسن التأويل» ٣/ ٦٥٠.

داود عليهم بالملك والنبوة ثم خاطب رسوله ﷺ بأنه من المرسلين، وكان ظاهر اللفظ يقتضي التسوية بين الرسل، ذكر في هذه الآية أن المرسلين ليسوا في درجة واحدة بل بعضهم أفضل من بعض كما يكون التفاضل بين البشر.

اللغة: ﴿دَرَجَتٍ﴾ جمع درجة وهي المنزلة الرفيعة السامية. ﴿أَلْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات. ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ قويناه من التأييد بمعنى التقوية. ﴿رُوحَ الْقُدُسِ﴾ القدس: الطهارة وروح القدس جبريل عليه السلام وقد تقدم. ﴿خُلَّةٌ﴾ الصداقة والمودة سميت بذلك؛ لأنها تتخلل الأعضاء أي تدخل خلالها ومنه الخليل. ﴿شَفَعَةٌ﴾ مأخوذة من الشفع بمعنى الضم، والشفاعة الانضمام إلى آخر ناصراً له وسائلاً عنه.

التفسير: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي أولئك الرسل الكرام الذين قصصنا عليك من أنبيائهم يا محمد هم رسل الله حقاً، وقد فضلنا بعضهم على بعض في الرفعة والمنزلة والمراتب العالية ﴿مِنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ أي منهم من خصه الله بالتكليم بلا واسطة كموسى عليه السلام ﴿وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَتٍ﴾ أي ومنهم من خصه الله بالمرتبة الرفيعة السامية كخاتم المرسلين محمد ﷺ فهو سيد الأولين والآخرين في الدنيا والآخرة، وكأبي الأنبياء إبراهيم الخليل ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي ومنهم من أعطاه الله المعجزات الباهرات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار عن المغيبات ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي قويناه بجبريل الأمين وهو عيسى ابن مريم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي لو أراد الله ما أقتل الأمم الذين جاؤوا بعد الرسل من بعد الحجج الباهرة والبراهين الساطعة التي جاءتهم بها رسلهم، فلو شاء الله ما تنازعوا ولا اختلفوا ولا تقاتلوا، ولجعلهم متفقين على اتباع الرسل كما أن الرسل متفقون على كلمة الحق ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فِيهِمْ مِّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ﴾ أي ولكن الله لم يشأ هدايتهم بسبب اختلافهم في الدين وتشعب مذاهبهم وأهوائهم، فمنهم من ثبت على الإيمان ومنهم من حاد وكفر ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنْ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أي لو شاء الله لجعل البشر على طبيعة الملائكة لا يتنازعون ولا يقتتلون ولكن الله حكيم يفعل ما فيه المصلحة، وكل ذلك عن قضاء الله وقدره فهو الفعال لما يريد ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي أنفقوا في سبيل الله من مال الله الذي منحكم إياه، ادفعوا الزكاة وأنفقوا في وجوه الخير والبر والصالحات ﴿مَنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ﴾ أي من قبل مجيء ذلك اليوم الرهيب الذي لا تستطيعون أن تفتدوا نفوسكم بمال تقدمونه فيكون كالبيع، ولا تجدون صديقاً يدفع عنكم العذاب، ولا شافعاً يشفع لكم ليحط عنكم من سيئاتكم إلا أن يأذن الله رب العالمين ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي لا أحد أظلم ممن وافى الله يومئذ كافراً، والكافر بالله هو الظالم المعتدي الذي يستحق العقاب.

البلاغة: ١- ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾ الإشارة بالعبيد لبعيد مرتبتهم في الكمال.

- ٢ - ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ...﴾ الآية تفصيلٌ لذلك التفضيل ويسمى هذا في البلاغة: التقسيم وكذلك في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ﴾ وبين لفظ «آمن» و «كفر» طباقٌ.
- ٣ - الإطناب وذلك في قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا﴾ حيث كرر جملة ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾.
- ٤ - ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قصر صفة على الموصوف، وقد أكدت بالجملة الاسمية وبضمير الفصل^(١).

فائدة: روي عن عطاء بن دينار أنه قال: الحمد لله الذي قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ولم يقل: «والظالمون هم الكافرون» ومراده أنه لو نزل هكذا لكان قد حكم على كل ظالم بالكفر فلم يخلص منه إلا من عصمه الله.

تنبيه: يحتمل أن يراد بالكفر المعنى الحقيقي أو المجازي فيكون المراد بالكافر تارك الزكاة كما ذهب إليه الرمخشري حيث قال: أراد والتاركون للزكاة هم الظالمون، وإيثاره عليه للتغليظ والتهديد كما في آية الحج ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ [البقرة: ١٢٦] مكان «ومن لم يحج» ولأنه جعل ترك الزكاة من صفات الكفار في قوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٦] الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ [فصلت: ٦ - ٧].

قال الله تعالى:

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى تفضيل بعض الأنبياء على بعض، ويبيّن أن الخلائق قد اختلفوا من بعدهم وتنازعوا وتقاتلوا بسبب الدين، ذكر أن هذا التفضيل بين الأنبياء لا يستدعي الصراع بين الأتباع ولا الخصام والنزاع، فالرسل صلوات الله عليهم وإن كانوا متفاوتين في الفضل إلا أنهم جميعاً جاءوا بدعوة واحدة هي «دعوة التوحيد» فرسالتهم واحدة ودينهم واحد، وأنه لا إكراه في الدين فقد سطع نور الحق وأشرق ضياؤه.

اللغة: ﴿الْحَيُّ﴾ ذو الحياة الكاملة ومعناه الباقي الدائم الذي لا سبيل للفناء عليه ﴿الْقَيُّومُ﴾ القائم بتدبير الخلق ﴿سِنَّةٌ﴾ بكسر السين النعاس وهو ما يسبق النوم من فتور قال الشاعر:

وَسَنَانُ أَقْصَدِهِ النُّعَاسُ فَرَنْقَتْ فِي عَيْنِهِ سِنَّةٌ وَلَيْسَ بِنَائِمٍ^(٢)

(١) (ش): ضمير الفصل «هم».

(٢) (ش): رنق النوم في عينه: خالطها.

﴿يُؤَدُّهُ﴾ يُثْقَلُهُ وَيُتْعَبُهُ ﴿الْعَلِيُّ﴾ المراد علو المنزلة والشأن الذي تعالى في جلاله وعظم في سلطانه^(١) ﴿إِكْرَاهَ﴾ الإكراه: حمل الشخص على ما يكره بطريق القسر والجبر ﴿بِالْأَطْعُوتِ﴾ من الطغيان وهو كل ما يطغي الإنسان ويضله عن طريق الحق والهدى ﴿الْوُثْقَى﴾ مؤنث الأوثق وهو الشيء المحكم الموثق ﴿أَنْفِصَامَ﴾ الانفصام: الانكسار قال الفراء: الانفصام والانقصام لغتان وبالفاء أفصح وقال بعضهم: الفصم انكسار بغير بينونة والقصم انكسار بينونة.

سَبَبُ النُّزُولِ: كان لرجل من الأنصار ابنان تنصرا قبل بعثة النبي ﷺ ثم قدما المدينة في نفر من التجار يحملون الزيت، فلزمهما أبوهما وقال: لا أدعكما حتى تسلما فنزلت ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾^(٢). الآية (٣).

التفسير: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ أي هو الله جل جلاله الواحد الأحد الفرد الصمد، ذو الحياة الكاملة، الباقي الدائم الذي لا يموت، القائم على تدبير شئون الخلق بالرعاية والحفظ والتدبير ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ أي لا يأخذه نعاس ولا نوم كما ورد في

(١) (ش): لم يذكر المؤلف علو الذات الذي أثبت في تفسيره آيات الاستواء، حيث ذكر أن الله سبحانه وتعالى فوق العرش، وأثبت لله ﷻ استواء يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تحريف كما هو مذهب السلف، وفسر الاستواء بالعلو والاستقرار وأنه سبحانه وتعالى علا فوق العرش علواً يليق بجلاله، وأنا لا نعلم كيفية الاستواء. من أسماء الله الحسنى (العليّ الأعلى) وذلك دال على أن جميع معاني العلو ثابتة لله من كل وجه، فله علو الذات، وهو أنه مستو على عرشه، فوق جميع خلقه، مبين لهم، وهو مع هذا مطلع على أحوالهم، مشاهد لهم، مدبر لأموالهم الظاهرة والباطنة متكلم بأحكامه القدريّة، وتدبيراته الكونية، وبأحكامه الشرعية. وأما علو القدر فهو علو صفاته، وعظمتها فلا يماثلها صفة مخلوق، بل لا يقدر الخلاق كلهم أن يحيطوا ببعض معاني صفة واحدة من صفاته، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾ وبذلك يعلم أنه ليس كمثله شيء في كل نوعه. وله علو القهر فإنه الواحد القهار الذي قهر بعزته وعلوه الخلق كلهم، فنواصيهم بيده، وما شاء كان لا يمانعه فيه ممانع، وما لم يشأ لم يكن فلو اجتمع الخلق على إيجاد ما لم يشأه الله لم يقدرُوا، ولو اجتمعوا على منع ما حكمت به مشيئته لم يمنعه، وذلك لكمال اقتداره، ونفوذ مشيئته وشدة افتقار المخلوقات كلها إليه من كل وجه.

(٢) «القرطبي» ٣/ ٢٨٠.

(٣) (ش): ضعيف، ذكره البغوي في «معالم التنزيل»، والواحدي في «أسباب النزول». عن ابن عباس قال كانت المرأة تكون مقلاتاً فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهودَ فلما أُجْلِيَتْ بُنُو النَّصِيرِ كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا: لا ندع أبناءنا فأنزل الله عز وجل ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ قال أبو داود: المقلات التي لا يعيش لها ولد. (رواه أبو داود، وصححه الألباني). (مقلاتاً) المرأة التي لا يعيش لها ولد. (فتجعل على نفسها) أي تنذر (أن تهودَ) إذا عاش الولد جعلته في اليهود (فلما أُجْلِيَتْ) بصيغة المجهول، جلا عن الوطن يجلو، وأجلى يجلو: إذا خرج مفارقاً (بنو النصير) قبيلة من يهود (فقالوا) أي الأنصار (لا ندع) أي لا نترك. قال الخطابي: في الحديث دليل على أن من انتقل من كفر وشرك إلى يهودية أو نصرانية قبل مجيء دين الإسلام فإنه يُقَرَّرُ على ما كان انتقل إليه وكان سبيله سبيل أهل الكتاب في أخذ الجزية منه وجواز مناكحته واستباحة ذبيحته.

الحديث «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ»^(١)، ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي جميع ما في السماوات والأرض ملكه وعبيده وتحت قهره وسلطانه ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي لا أحد يستطيع أن يشفع لأحد إلا إذا أذن له الله تعالى قال ابن كثير: وهذا بيان لعظمته وجلاله وكبريائه بحيث لا يتجاسر أحد على الشفاعة إلا بإذن المولى ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي يعلم ما هو حاضر مشاهد لهم وهو الدنيا وما خلفهم أي أماتهم وهو الآخرة فقد أحاط علمه بالكائنات والعوالم ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ أي لا يعلمون شيئاً من معلوماته إلا بما أعلمهم إياه على السنة الرسل ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي أحاط كرسيه بالسماوات والأرض لبسطته وسعته، والسماوات السبع والأرضون بالنسبة للكرسي كحلقة ملقاة في فلاة، وروي عن ابن عباس ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ قال: علمه بدلالة قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] فأخبر أن علمه وسع كل شيء^(٢) وقال الحسن البصري: الكرسي هو العرش قال ابن كثير: والصحيح

(١) (ش): رواه مسلم.

(وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ) مَعْنَاهُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَنَامُ وَأَنَّهُ يَسْتَحِيلُ فِي حَقِّهِ النَّوْمُ فَإِنَّ النَّوْمَ أَنْعِمَاءٌ وَعَلَبَةٌ عَلَى الْعَقْلِ يَسْقُطُ بِهِ الْإِحْسَاسُ وَاللَّهُ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ وَهُوَ مُسْتَحِيلٌ فِي حَقِّهِ جُل وَعِلَا. (يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ): الْقِسْطُ الْمِيزَانُ وَسُمِّيَ قِسْطًا لِأَنَّ الْقِسْطَ الْعَدْلُ وَالْمِيزَانُ يَقَعُ الْعَدْلُ. وَالْمُرَادُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَخْفِضُ الْمِيزَانَ وَيَرْفَعُهُ بِمَا يُوزَنُ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ الْمُرْتَبِعَةِ وَيُوزَنُ مِنْ أَرْزَاقِهِمُ النَّازِلَةِ وَهَذَا تَمَثِيلٌ لِمَا يُقَدَّرُ تَنْزِيلُهُ فَشَبَّهَ بِوَزَنِ الْمِيزَانِ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْقِسْطِ الرِّزْقُ الَّذِي هُوَ قِسْطُ كُلِّ مَخْلُوقٍ يَخْفِضُهُ فَيَقْتَرُهُ وَيَرْفَعُهُ فَيُوسِّعُهُ.

(٢) قال ابن جرير: وقول ابن عباس هذا يدل على صحته ظاهر القرآن، ولأن أصل الكرسي العلم، ومنه يقال للعلماء: كراسي لأنهم المعتمد عليهم كما يقال: أوتاد الأرض انتهى والصحيح ما قاله ابن كثير.

(ش): عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «وَالْكَرْسِيُّ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ» (رواه الذهبي في «مختصر العلو»، وصححه الألباني). ورواه أبو الشيخ أيضاً في «العظمة» (٢/ ٦٢٧) عن أبي موسى الأشعري، وصححه الألباني. قال الإمام «الطبري» بعد أن ذكر بعض الأقوال في تفسير الكرسي: ولكل قول من هذه الأقوال وجه ومذهب، غير أن الذي هو أولى بتأويل الآية ما جاء به الأثر عن رسول الله ﷺ... [تفسير «الطبري»، جامع البيان (٥/ ٣٩٩)]. ثم قال بعد صفحتين ما نقله المؤلف: «وأما الذي يدل على صحته ظاهر القرآن فقول ابن عباس الذي رواه جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبيرة، عنه أنه قال: «هو علمه» [جامع البيان: (٥/ ٤٠١)].

وقد أنكر الشيخ محمود محمد شاكر في تحقيقه لتفسير «الطبري» «جامع البيان» (٥/ ٤٠١) على ابن جرير «الطبري» ما اعتبره تناقضاً. ونقل عن أبي منصور الأزهري أن الصحيح عن ابن عباس أنه قال: «الكرسي موضع القدمين». وأن هذه رواية اتفق أهل العلم على صحتها. وأن من روى عنه في الكرسي أنه العلم، فقد أبطل. ثم قال الشيخ محمود محمد شاكر: «وهذا هو قول أهل الحق إن شاء الله. وقد أراد «الطبري» أن يستدل بعد بأن الكرسي هو «العلم»، بقوله تعالى: «ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً»، فلم لم يجعل «الكرسي» هو «الرحمة»، وهما في آية واحدة؟ ولم يجعلها كذلك لقوله تعالى في سورة الأعراف: ١٥٦: «قال عذابي أصيب به من أشاء آية ورحمتي وسعت كل شيء»؟ واستخراج معنى الكرسي من هذه الآية كما فعل «الطبري»، ضعيف جداً، يُجَلَّ عنه من كان مثله حذراً ولطفاً ودقةً.

أن الكرسي غير العرش وأن العرش أكبر منه كما دلت على ذلك الآثار والأخبار ﴿وَلَا يَتُودُّهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ أي لا يثقله ولا يعجزه حفظ السماوات والأرض ومن فيهما وهو العلي فوق خلقه ذو العظمة والجلال كقوله: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩] ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ أي لا إكراه ولا إجبار لا أحد على الدخول في دين الإسلام، فقد بان ووضح الحق من الباطل والهدى من الضلال ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ أي من كفر بما يعبد من غير الله كالشيطان والأوثان وآمن بالله تمسك من الدين بأقوى سبب ﴿لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ أي لا انقطاع لها ولا زوال ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوال عباده عليم بأفعالهم ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي الله ناصر المؤمنين وحافظهم ومتولي أمورهم، يخرجهم من ظلمات الكفر والضلالة إلى نور الإيمان والهداية ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ أَطَّاعُواهُمْ أَطَّاعُوا يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ أي وأما الكافرون فأولياؤهم الشياطين يخرجونهم من نور الإيمان إلى ظلمات الشك والضلال ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي ماكنون في نار جهنم لا يخرجون منها أبداً.

البلاغة: ١ - في آية الكرسي أنواع من الفصاحة وعلم البيان منها حسن الافتتاح لأنها افتتحت بأجل أسماء الله تعالى، وتكرار اسمه ظاهراً ومضمراً في ثمانية عشر موضعاً، والإطناب بتكرار الصفات، وقطع الجمل حيث لم يصلها بحرف العطف، والطباق في ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أفاده صاحب «البحر المحيط».

٢ - ﴿اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ استعارة تمثيلية حيث شبه المستمسك بدين الإسلام بالمستمسك بالجل المحكم، وعدم الانفصام ترشيح^(١).

٣ - ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ استعارة تصريحية حيث شبه الكفر بالظلمات والإيمان بالنور قال في «تلخيص البيان»: وذلك من أحسن التشبيهات لأن الكفر كالظلمة التي يتسكع فيها الخابط ويضل القاصد، والإيمان كالنور الذي يؤمه الجائر ويهتدي به الحائر، وعاقبة الإيمان مضيئة بالنعيم والثواب، وعاقبة الكفر مظلمة بالجحيم والعذاب^(٢).

فائدة: أفرد النور وجمع الظلمات لأن الحق واحد لا يتعدد، وأما طرق الضلال فكثيرة ومتشعبة.

= وأما ما ساقه بعد من الشواهد في معنى «الكرسي»، فإن أكثره لا يقوم على شيء، وبعضه منكّر التأويل. وكان بحسبه شاهداً ودليلاً أنه لم يأت في القرآن في غير هذا الموضع، بالمعنى الذي قالوه، وأنه جاء في الآية الأخرى بما ثبت في صحيح اللغة من معنى «الكرسي»، وذلك قوله تعالى في «سورة ص»: «ولقد فتنا سليمان وألقينا على آية كرسيه جسداً ثم أناب».

(١) (ش): حيث قرئت الاستعارة بما يلائم المشبه به، فعدم الانفصام يلائم العروة والتمسك بها. والترشيح إكمال للاستعارة يقويها.

(٢) «تلخيص البيان» ص ١٥.

تنبيه: آية الكرسي لها شأن عظيم وقد صحَّ الحديث عن رسول الله ﷺ بأنها أفضل آية في كتاب الله ^(١) وفيها اسم الله الأعظم كما جاء في الحديث الشريف: «اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب في ثلاث: سورة البقرة وآل عمران وطه» ^(٢) وقال هشام: أما البقرة فقولهُ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وفي آل عمران: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [الآيات: ١ - ٢] وفي طه ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [الآية: ١١١] قال ابن كثير: وقد اشتملت على عشر جملٍ مستقلة، متعلقة بالذات الإلهية وفيها تمجيد الواحد الأحد ^(٣).

قال الله تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى جَمْرِكَ وَلِيَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخَذَ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصَرَّهِنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ جَعَلَ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى الإيمان بالله وصفاته القدسية العلية، وذكر ولايته للمؤمنين وولاية الطاغوت للكافرين، ذكر هنا نموذجًا عن تحكم الطغيان في نفوس الكفرة المعاندين ومجادلتهم في وحدانية الله، فذكر هاهنا قصصًا ثلاثة: الأولى في بيان إثبات الخالق الحكيم والثانية والثالثة في إثبات الحشر والبعث بعد الفناء.

اللغة: ﴿حَاجَّ﴾ المحاجة: المغالبة يقال: حاججته فحججته، وحاجه أي بادلته الحجة ﴿فَبُهِتَ﴾ انقطع وسكت متحيرًا قال العذري:

فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ أَرَاهَا فُجَاءَةً فَابْهَتُ حَتَّى مَا أَكَادُ أُجِيبُ
﴿خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة ﴿عُرُوشَهَا﴾ العرش: سقف البيت، وكلُّ ما يهياً لِيُظَلَّ أو يُكْنَ فهو عريش

(١) (ش): عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ». قَالَ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ». قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ. قَالَ فَصَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ «وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).
(لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ) أي ليكن العلم هنيئًا لك، وفي الحديث مَنْقَبَةٌ عَظِيمَةٌ لِأَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَدَلِيلٌ عَلَى كَثْرَةِ عِلْمِهِ.

(٢) (ش): رواه الحاكم وابن ماجه وحسنه الألباني.

(٣) ابن كثير المختصر ١/ ٢٣٠

﴿يَتَسَنَّهٗ﴾ يتغير ويتبدل من تَسَنَّتْ النخلة إذا أتت عليها السنون وغيرتها ﴿نُنَشِّرُهَا﴾ نركب بعضها فوق بعض من النشاز وهو الرفع يقال لما ارتفع من الأرض: نشز ومنه نشوز المرأة ﴿فَصَرُّهُنَّ﴾ ضمهنَّ إليك ثم اقطعهنَّ من صار الشيء يصوره إذا قطعه.

التفسير: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهٖ﴾ تعجب للسامع من أمر هذا الكافر، المجادل في قدرة الله أي ألم ينته علمك إلى ذلك المارد وهو «النمرود بن كنعان» الذي جادل إبراهيم في وجود الله؟ ﴿أَنۢ ءَاتٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ أي لأن آتاه الله الملك حيث حمله بطره بنعم الله على إنكار وجود الله، فقابل الجود والإحسان بالكفر والطغيان ﴿إِذۡ قَالَ إِبْرٰهُمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحۡيِىۡ وَيُمِيتُ﴾ أي حين قال له إبراهيم مستدلاً على وجود الله إن ربي هو الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد فهو وحده ربُّ العالمين ﴿قَالَ أَنَاہ أَحۡيِىۡ وَأُمِيتُ﴾ أي قال ذلك الطاغية وأنا أيضًا أحبي وأميت، روي أنه دعا برجلين حكم عليهما بالإعدام فأمر بقتل أحدهما فقال: هذا قتلته، وأمر بإطلاق الآخر وقال: هذا أحيتته، ولما رأى الخليل حماقته ومشاغبته في الدليل عدل إلى دليل آخر أجدى وأروع وأشدَّ إفحاماً ﴿قَالَ إِبْرٰهُمُ فَإِنۡكُمۡ بِٱللَّهِ ئَتِى بِٱلسَّمۡسِ مِنۡ ٱلْمَشْرِقِ فَأَتِ بِهَا مِنۡ ٱلْمَغْرِبِ﴾ أي إذا كنت تدعي الألوهية وأنك تحيي وتميت كما يفعل رب العالمين جل جلاله فهذه الشمس تطلع كل يوم من المشرق بأمر الله ومشيتته فأطلعها من المغرب بقدرتك وسلطانك ولو مرة واحدة ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ أي أُخِرِسَ ذلك الفاجر بالحجة القاطعة، وأصبح مبهوراً دَهْشاً لا يستطيع الجواب ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلْقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا يُلْهِمُهُمُ الحجة والبيان في مقام المناظرة والبرهان بخلاف أوليائه المتقين ﴿أَوۡ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ وهذه هي القصة الثانية وهي مثل لمن أراد الله هدايته والمعنى ألم ينته إلى علمك كذلك مثل الذي مرَّ على قرية وقد سقطت جدرانها على سقوفها وهي قرية بيت المقدس لما خرَّ بها بُخْتَنَصَّرُ ﴿قَالَ أَنۡىَ يُحۡيِىۡ هَٰذِهِۦ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ أي قال ذلك الرجل الصالح واسمه «عزير» على الرأي الأشهر: كيف يحيي الله هذه البلدة بعد خرابها ودمارها؟ قال ذلك استعظماً لقدرة الله تعالى وتعجباً من حال تلك المدينة وما هي عليه من الخراب والدمار، وكان راكباً على حماره حينما مرَّ عليها ﴿فَأَمَّا ٱللَّهُ مِٔةَ ٱمۡرَٔةٍ عَٰمِرُٔةٍ بَعۡثُهُۥ﴾ أي أمات الله ذلك السائل واستمر ميتاً مائة سنة ثم أحياه الله ليريه كمال قدرته ﴿قَالَ كُمۡ لَٔيۡتُ قَآلَ لَٔيۡتُ يَوۡمَآ أَوْ بَعۡضَ يَوۡمٍ﴾ أي قال له ربه بواسطة الملك كم مكثت في هذه الحال؟ قال يوماً ثم نظر حوله فرأى الشمس باقية لم تغب فقال: أو بعض يوم أي أقل من يوم فخاطبه ربه بقوله: ﴿قَالَ بَلۡ لَٔيۡتُ مِٔةَ عَٰمٍ﴾ أي بل مكثت ميتاً مائة سنة كاملة ﴿فَٱنۡظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لِمَ يَتَسَنَّهٗ﴾ أي إن شككت فانظر إلى طعامك لم يتغير بمرور الزمان، وكان معه عنب وتينٌ وعصير فوجدها على حالها

لم تفسد ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾ أي كيف تفرقت عظامه ونخرت وصار هيكلاً من البلى ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أي فعلنا ما فعلنا لتدرك قدرة الله سبحانه ولنجعلك معجزة ظاهرة تدل على كمال قدرتنا ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا﴾ أي تأمل في عظام حمارك النخرة كيف نركب بعضها فوق بعض وأنت تنظر ثم نكسوها لحماً بقدرتنا ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿أي فلما رأى الآيات الباهرات قال: أيقنت وعلمت علم المشاهدة أن الله على كل شيء قدير﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴿وهذه هي القصة الثالثة وفيها الدليل الحسي على الإعادة بعد الفناء والمعنى: اذكر حين طلب إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيى الموتى، سأل الخليل عن الكيفية مع إيمانه الجازم بالقدرة الربانية، فكان يريد أن يعلم بالعيان ما كان يوقن به بالوجدان، ولهذا خاطبه ربه بقوله: ﴿قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أي أولم تصدق بقدرتي على الإحياء؟ قال بلى آمنت ولكن أردت أن أزداد بصيرةً وسكون قلب برؤية ذلك ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي خذ أربعة طيور فضمهن إليك ثم اقطعهن ثم اخلط بعضهن ببعض حتى يصبحن كتلة واحدة ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا﴾ أي فرّق أجزاءهن على رؤوس الجبال ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ أي نادهن يأتينك مسرعات قال مجاهد: كانت طاووساً وغراباً وحمامة وديكاً فذبجهن ثم فعل بهن ما فعل ثم دعاهن فأتين مسرعات ﴿وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي لا يعجز عما يريده حكيم في تدبيره وصنعه. قال المفسرون: ذبحهن ثم قطعهن ثم خلط بعضهن ببعض حتى اختلط ريشها ودماؤها ولحومها ثم أمسك برءوسها عنده وجزأها أجزاءً على الجبال ثم دعاهن كما أمره تعالى فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم حتى عادت طيراً كما كانت وأتينه يمشين سعياً ليكون أبلغ له في الرؤية لما سأل. ذكره ابن كثير.

البلاغة: ١ - ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الرؤية قلبية والاستفهام للتعجب.

٢ - ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ التعبير بالمضارع يفيد التجدد والاستمرار، والصيغة تفيد القصر ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ لأن المبتدأ والخبر وردا معرفتين والمعنى أنه وحده سبحانه هو الذي يحيي ويميت، وبين كلمتي «يحيي» و«يميت» طباق وهو من المحسنات البديعية وكذلك بين لفظ «المشرق» و«المغرب».

٣ - ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ التعبير بالنص السامي^(١) يُشْعِرُ بالعلة وأن سبب الحيرة هو كفره ولو قال فبهت الكافر لما أفاد ذلك المعنى الدقيق.

٤ - ﴿أَنِّي يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ موت القرية هو موت السكان فهو من قبيل إطلاق

(١) (ش): أي ما دُكر من كلام الله عز وجل.

المحل وإرادة الحال ويسمى المجاز المرسل.

٥ - ﴿ثُمَّ نَكَّسُوهَا لَحْمًا﴾ نسترها به كما يستر باللباس قال أبو حيان: الكسوة حقيقة هي ما وراء الجسد من الثياب واستعارها هنا لما أنشأ من اللحم الذي غطى العظم وهي استعارة في غاية الحسن^(١).

الفوائد الأولى: قال مجاهد: ملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة: مؤمنان، وكافران فالؤمنان «سليمان بن داود» و«ذو القرنين» والكافران «النمرود» و«بُخْتَنَصْر»^(٢) الذي خرب بيت المقدس.

الثانية: لما رأى الخليل تجاهل الطاغية معنى الحياة والموت وسلوكه مسلك التلبس والتمويه على الرعاع، وكان بطلان جوابه من الجلاء بحيث لا يخفى على أحد، انتقل إبراهيم إلى حجة أخرى لا تجري فيها المغالطة ولا يتيسر للطاغية أن يخرج عنها بمكابرة أو مشاغبة فقال ﴿فَإِنَّكَ اللَّهُ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ فلوى خليل الله عنقه حتى أراه عجزه وأخرس لسانه.

الثالثة: سؤال الخليل ربه بقوله ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ ليس عن شك في قدرة الله ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء ويدل عليه وروده بصيغة ﴿كَيْفَ﴾ وموضوعها السؤال عن الحال ويؤيد المعنى قول النبي ﷺ «نحن أحق بالشك من إبراهيم»^(٣) ومعناه: ونحن لم نشك فلأن لا يشك إبراهيم أخرى وأولى.

قال الله تعالى:

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُنْبِتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يَضْعَفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٦١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٣٦٣﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلَ لَوْ صَدَقْتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٦٤﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَمَاتَتْ أَكْطُلُهَا ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٦٥﴾ أَيْوَدُ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ

(١) «البحر المحيط» ٢/ ٢٩٤.

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٢٣٤.

(٣) (ش): رواه البخاري ومسلم.

وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ
لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٣٧﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ
الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفِيرٌ حَمِيدٌ
﴿٣٨﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ
عَلِيمٌ ﴿٣٩﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا
أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٤٠﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى في الآيات السابقة أن الناس فريقان: أولياء الله وهم المؤمنون، وأولياء الطاغوت وهم الكافرون ثم أعقبه بذكر نموذج للإيمان ونموذج للطغيان، ذكر هنا ما يرغب في الإنفاق في سبيل الله وخاصة في أمر الجهاد لأعداء الله، لأن الجهاد في سبيل الحق ميادين ثلاثة: أولها الإقناع بالحجة والبرهان وثانيها الجهاد بالنفس وثالثها الجهاد بالمال، فلما ذكر فيما سبق جهاد الدعوة وجهاد النفس شرع الآن في ذكر الجهاد بالمال.

اللغة: ﴿بِالْمَنْ﴾ أن يعتد بإحسانه على من أحسن إليه، وأن يذكره النعمة على سبيل التناول والتفضل قال الشاعر:

أَفْسَدَتْ بِالْمَنْ مَا أَسْدَيْتَ مِنْ حَسَنِ لَيْسَ الْكَرِيمُ إِذَا أَسْدَى بِمَنَانٍ
﴿رِثَاءُ النَّاسِ﴾ لا يريد بإنفاقه رضى الله وإنما يريد ثناء الناس وأصله من الرؤية وهو أن يرى الناس ما يفعله حتى يشنوا عليه ويعظموه ﴿صَفْوَانٍ﴾ الصفوان: الحجر الأملس الكبير قال الأخفش: وهو جمعٌ واحدُه صفوانة وقيل: هو اسم جنس كالحجر ﴿وَابِلٌ﴾ الوابل: المطر الشديد ﴿صَلْدًا﴾ الصلْد: الأملس من الحجارة وهو كل ما لا ينبت شيئاً ومنه جبينٌ أصلد ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ الربوة: المكان المرتفع من الأرض يقال: ربوة وراية وأصله من ربا الشيء إذا زاد وارتفع ﴿فَطْلٌ﴾ الطل: المطر الخفيف الذي تكون قطراته صغيرة وقال قوم منهم مجاهد: الطل الندى ﴿إِعْصَارٌ﴾ الإعصار: الريح الشديدة التي تهب من الأرض وترتفع إلى السماء كالعمود ويقال لها: الزوبعة ﴿تَيَمَّمُوا﴾ تقصدوا ﴿تُغْمِضُوا﴾ من أغمض الرجل في أمر كذا إذا تساهل فيه وهذا كالإغضاء عند المكروه.

سَبَبُ النُّزُول: نزلت في عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف في غزوة تبوك، حيث جهز عثمان ألف بعير بأحلاسها وأقتابها ووضع بين يدي رسول الله ﷺ ألف دينار، فصار رسول الله ﷺ يقلبها ويقول: «ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم»، وأتى عبد الرحمن بن عوف النبي ﷺ بأربعة آلاف درهم فقال: يا رسول الله كان عندي ثمانية آلاف درهم فأمسكت منها لنفسي ولعيالي أربعة آلاف وأربعة آلاف أقرضتها ربي، فقال له رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما

أمسكت وفيما أعطيت»، فنزلت فيهما الآية ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾^(١) الآية.

التفسير: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ﴾ قال ابن كثير: هذا مثل ضرب به الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف أي مثل نفقتهم كمثال حبة زُرعت فأنبتت سبع سنابل ﴿فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ أي كل سنبلَةٍ منها تحتوي على مائة حبة فتكون الحبة قد أغلَّتْ سبعمائة حبة، وهذا تمثيل لمضاعفة الأجر لمن أخلص في صدقته ولهذا قال تعالى ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي يضاعف الأجر لمن أراد على حسب حال المنفق من إخلاصه وابتغائه بنفقته وجه الله ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي واسع الفضل عليم بنية المنفق ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ أي لا يقصدون بإنفاقهم إلا وجه الله، ولا يُعَقِّبُونَ ما أنفقوا من الخيرات والصدقات بالمنِّ على من أحسنوا إليه كقوله: قد أحسنتُ إليك وجبرتُ حالك، ولا بالأذى كذكره لغيره فيؤذيه بذلك ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي لهم ثواب ما قدموا من الطاعة عند الله ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي لا يعترهم فزع يوم القيامة ولا هم يحزنون على فائت زهرة الدنيا ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ أي ردُّ السائل بالتي هي أحسن والصفح عن إلحاحه، خيرٌ عند الله وأفضل من إعطائه ثم إيذائه أو تعييره بذل السؤال ﴿وَاللَّهُ عَنِّي حَلِيمٌ﴾ أي مستغن عن الخلق حليم لا يعاجل العقوبة لمن خالف أمره. ثم أخبر تعالى عما يبطل الصدقة ويضيع ثوابها فقال: ﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَبِطُلُوءَ صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ أي لا تحبطوا أجراها بالمنِّ والأذى ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ﴾ أي كالمرائي الذي يبطل إنفاقه بالرياء ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي لا يصدق بقاء الله ليرجو ثواباً أو يخشى عقاباً فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ أي مثل ذلك المرائي بإنفاقه كمثال الحجر الأملس الذي عليه شيء من التراب يظنه الظان أرضاً طيبةً منبثةً ﴿فَأَصَابَهُ، وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أي فإذا أصابه مطر شديد أذهب عنه التراب فيبقى صلداً أملس ليس عليه شيء من الغبار أصلاً كذلك هذا المنافق يظن أن له أعمالاً صالحة فإذا كان يوم القيامة اضمحلت وذهبت، ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ أي لا يجدون له ثواباً في الآخرة فلا ينتفع بشيء منها أصلاً ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي لا يهديهم إلى طريق الخير والرشاد. ثم ضرب تعالى مثلاً آخر للمؤمن المنفق ماله ابتغاء مرضاة الله فقال: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتُبَيِّنَاتٍ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي ينفقونها طلباً لمرضاته وتصديقاً ببقائه تحقيقاً للثواب عليه ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ أي كمثال بستان كثير الشجر بمكانٍ مرتفع من الأرض، وخصَّتْ بالربوة لحسن شجرها وزكاء ثمرها

(١) «أسباب النزول» للواحدى ص ٤٧.

﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَأَنَّتْ أَكُلَهَا ضَعْفَيْنِ﴾ أي أصابها مطر غزير فأخرجت ثمارها جنيّة مضاعفة، ضَعْفَيْنِ ثمر غيرها من الأرض ﴿فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ﴾ أي فإن لم ينزل عليها المطر الغزير فكيفها المطر الخفيف أو يكفيها الندى لجودتها وكرم منبتها ولطافة هوائها فهي تنتج على كل حال ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ أي يحب أحدكم أن تكون له حديقة غنّاء فيها من أنواع النخيل والأعناب والثمار الشيء الكثير ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي تمر الأنهار من تحت أشجارها ﴿لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي ينبت له فيها جميع الثمار ومن كل زوج بهيج ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾ أي أصابته الشيخوخة فضعف عن الكسب وله أولاد صغار لا يقدر على الكسب ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ أي أصاب تلك الحديقة ريح عاصفة شديدة معها نار فأحرقت الثمار والأشجار أخرج ما يكون الإنسان إليها ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي مثل هذا البيان الواضح في هذا المثل الرائع المحكم يبين الله لكم آياته في كتابه الحكيم لكي تتفكروا وتدبروا بما فيها من العبر والعظات ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي أنفقوا من الحلال الطيب من المال الذي كسبتموه ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الحبوب والثمار ﴿وَلَا تَبْخَسُوا الْخَيْثَ مِنْهُ تَنْفِقُونَ﴾ أي ولا تقصدوا الرديء الخسيس فتصدقوا منه ﴿وَلَسْتُمْ بِأَخْذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ أي لستم تقبلونه لو أعطيتكمه إلا إذا تساهلتم وأغمضتم البصر فكيف تؤدون منه حق الله! ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَنِّي حَكِيمٌ﴾ أي إنه سبحانه غني عن نفقاتكم حميد يجازي المحسن أفضل الجزاء. ثم حذر تعالى من وسوسة الشيطان فقال ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي الشيطان يخوفكم من الفقر إن تصدقتم وبغريكم بالبخل ومنع الزكاة ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾ أي وهو سبحانه يعدكم على إنفاقكم في سبيله مغفرةً للذنوب وخلفاً لما أنفقتموه زائداً عن الأصل ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي واسع الفضل والعطاء عليم بمن يستحق الثناء ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يعطي العلم النافع المؤدّي إلى العمل الصالح من شاء من عباده ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي من أعطي الحكمة فقد أعطي الخير الكثير لمصير صاحبها إلى السعادة الأبدية ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولَؤُلَآءِ الْأَلْبَابِ﴾ أي ما يتعظ بأمثال القرآن وحكمه إلا أصحاب العقول النيرة الخالصة من الهوى.

البلاغة: ١ - ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ شبه سبحانه الصدقة التي تنفق في سبيله بحبة زرعت وباركها المولى فأصبحت سبعمئة حبة، ففيه تشبيه «مرسل مجمل» لذكر أداة التشبيه وحذف وجه الشبه قال أبو حيان: وهذا التمثيل تصوير للأضعاف كأنها ماثلة بين عيني الناظر^(١).

٢ - ﴿أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ﴾ إسناد الإنبات إلى الحبة إسنادٌ مجازي ويسمى «المجاز العقلي» لأن المنبت في الحقيقة هو الله تعالى.

٣ - ﴿مَنَا وَلَا أَدَى﴾ من باب ذكر العام بعد الخاص لإفادة الشمول؛ لأن الأذى يشمل المن.

٤ - ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ فيه تشبيه يسمى «تشبيهاً تمثيلاً» لأن وجه الشبه منتزع من متعدد وكذلك يوجد تشبيه تمثيلي في قوله ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾.

٥ - ﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ...﴾ الآية، لم يذكر المشبه ولا أداة التشبيه وهذا النوع يسميه علماء البلاغة «استعارة تمثيلية» وهي تشبيه حال بحال لم يذكر فيه سوى المشبه به فقط وقامت قرائن تدل على إرادة التشبيه، والهمزة للاستفهام، والمعنى على التباعد والنفي أي ما يود أحد ذلك.

٦ - ﴿تُعْمَضُونَ فِيهِ﴾ المراد به هنا التجاوز والمساهلة لأن الإنسان إذا رأى ما يكره أغمض عينيه لئلا يرى ذلك، ففي الكلام مجاز مرسل أو استعارة^(١).

الفوائد الأولى: قال الزمخشري: المن أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه، وفي نوابغ الكلم «صنوان: من منح سائله ومن، ومن منع نائله وضمن»^(٢) و«طعم الآلاء أحلى من المن، وهي أمر من الآلاء مع المن»^(٣) وقال الشاعر^(٤):

وإن امرؤ أسدى إلى صنيعة
ودكر فيها مرةً للئيم^(٥)

الثانية: المطر أوله رش ثم طش ثم طل ثم نضح ثم هطل ثم وبل، والمطر الوابل الشديد الغزير.

الثالثة: قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب النبي ﷺ فيم ترون هذه الآية نزلت ﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ قالوا: الله أعلم. فعضب عمر فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم. فقال ابن عباس في نفسه منها شيء يا أمير المؤمنين. قال عمر: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك. قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل غني يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله» أخرجه البخاري.

(١) «الفتوحات الإلهية» ٢٢٣/١.

(٢) (ش): الصنن: النظير والمثيل النازل: المعطي. نال عليه هدية/ نال له هدية: جاد، أعطاه إياها.

(٣) «الكشاف» ٢٣٨/١، والآلاء بالفتح شجر حسن المنظر مر الطعم كذا في الصحاح.

(٤) (ش): الآلاء الأولى: النعم. والآلاء الثانية: شجر ممر الورق، والمن الأول: شيء يشبه العسل يقع كالندى على بعض شجر البادية. والمن الثاني: تذكير المنعم عليه بالنعمة. والمعنى أن طعم النعم أحلى من العسل، ولكنها إن صاحبها المن فهي أشد مراً من شجر ورقه مر.

(٥) (ش): أي لو أن رجلاً أعطاني عطيةً وذكرني بها مرةً واحدةً، فإنه لئيم.

الرابعة: قال الحسن البصري: هذا مثل قلّ والله من يعقله: شيخ كبير، ضعف جسمه، وكثر صيبانه أفقر ما كان إلى جنته فجاءها الإعصار فأحرقها، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا.

قال الله تعالى:

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ. وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٢٧٠)
 ﴿إِنْ تَبَدُّوا لَاصِدَقْتُمْ فَبِعَمَلِهِمْ وَتُحْفُوها وَتُؤْتُوها الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٧١) ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسْكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (٢٧٢) ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٢٧٣) ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٧٤)

المناسبة: لا تزال الآيات تتحدث عن الإنفاق في وجوه البر والخير، وأعلاها الجهاد في سبيل الله والإنفاق لإعلاء كلمته، وترغب في إخفاء الصدقات لأنها أبعد عن الرياء، فوجه المناسبة ظاهر.

اللغة: ﴿فَبِعَمَلِهِمْ﴾ أصلها «نعم ما» أدغمت الميمان فصارت نعمًا قال الزجاج: أي نعم الشيء هو ﴿أُحْصِرُوا﴾ الحصر: الحبس أي: حبسوا أنفسهم على الجهاد وقد تقدم معنى الحصر ﴿التَّعَفُّفُ﴾ من العفة يقال: عَفَّ عن الشيء أمسك عنه وتنزّه عن طلبه والمراد التعفف عن السؤال ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ السِّما: العلامة التي يعرف بها الشيء، ويقال: سيمياء كالكيماء وأصلها من السمة بمعنى العلامة قال تعالى ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩] ﴿إِلْحَافًا﴾ الإلحاف: الإلحاح في السؤال يقال: ألحف: إذا ألحّ ولجّ في السؤال والطلب.

سبب النزول: عن سعيد بن جبیر أن المسلمين كانوا يتصدقون على فقراء أهل الذمة فلما كثر فقراء المسلمين قال رسول الله ﷺ «لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم» فنزلت هذه الآية ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ مبيحة للصدقة على من ليس من دين الإسلام^(١) (٢).

التفسير: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ أي ما بذلتم أيها المؤمنون من مال أو نذرتكم من شيء في سبيل الله فإن الله يعلمه ويجازيكم عليه ﴿وَمَا

(١) «القرطبي» ٣/ ٣٣٧.

(٢) (ش): ضعيف، رواه الواحد في «أسباب النزول».

لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٠﴾ أي وليس لمن منع الزكاة أو صرف المال في معاصي الله، من معين أو نصير ينصرهم من عذاب الله ﴿١١﴾ إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ﴿١٢﴾ أي إِنْ تَظْهَرُوا صَدَقَاتِكُمْ فَنَعَمْ هَذَا الشَّيْءُ الَّذِي تَفْعَلُونَهُ ﴿١٣﴾ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴿١٤﴾ أي وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتَدْفَعُوهَا لِلْفُقَرَاءِ فَهُوَ أَفْضَلُ لَكُمْ لِأَنَّ ذَلِكَ أَبْعَدُ عَنِ الرِّبَاءِ ﴿١٥﴾ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴿١٦﴾ أي يزيل بجميل أعمالكم سيء آثامكم ﴿١٧﴾ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨﴾ أي هو سبحانه مطلع على أعمالكم يعلم خفاياكم، والآية ترغيب في الإسرار ﴿١٩﴾ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴿٢٠﴾ أي ليس عليك يا محمد أن تهدي الناس فإنك لست بمؤاخذ بجريرة من لم يهتد، إنما أنت ملزم بتبليغهم فحسب، والله يهدي من شاء من عباده إلى الإسلام ﴿٢١﴾ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسْكُمْ ﴿٢٢﴾ أي أي شيء تنفقونه من المال فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيركم لأن ثوابه لكم ﴿٢٣﴾ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا لِيُتَّقِيَ اللَّهُ وَجْهَ اللَّهِ ﴿٢٤﴾ خبر بمعنى النهي، أي: لا تجعلوا إنفاقكم إلا لوجه الله لا لغرض دنيوي ﴿٢٥﴾ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ أي فَإِنْ أَجْرُهُ وَثَوَابُهُ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً تَنَالُونَهُ أَنْتُمْ وَلَا تَنْقُصُونَ شَيْئًا مِنْ حَسَنَاتِكُمْ ﴿٢٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٢٨﴾ أي اجعلوا ما تنفقونه للفقراء الذين حبسوا أنفسهم للجهاد والغزو في سبيل الله ﴿٢٩﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ ﴿٣٠﴾ أي لا يستطيعون بسبب الجهاد السفر في الأرض للتجارة والكسب ﴿٣١﴾ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعْقُفِ ﴿٣٢﴾ أي يظنهم الذي لا يعرف حالهم أغنياء موسرين من شدة تعففهم ﴿٣٣﴾ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْتَلُونَ النَّاسَ الْحَقَّاقًا ﴿٣٤﴾ أي تعرف حالهم أيها المخاطب بعلامتهم من التواضع وأثر الجهد، وهم مع ذلك لا يسألون الناس شيئًا أصلاً فلا يقع منهم إلحاح وقيل معناه: إِنْ سَأَلُوا سَأَلُوا بِلُطْفٍ وَلَمْ يَلْحَوْا ﴿٣٥﴾ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ أي ما أنفقتموه في وجوه الخير فإن الله يجازيكم عليه أحسن الجزاء ﴿٣٧﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْلِ وَالْثَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴿٣٨﴾ أي الذين ينفقون في سبيل الله ابتغاء مرضاته، في جميع الأوقات، من ليل أو نهار، وفي جميع الأحوال من سر وجهر ﴿٣٩﴾ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٠﴾ أي لهم ثواب ما أنفقوا ولا خوف عليهم يوم القيامة ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا.

البلاغة: ١ - ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ﴾ بين أنفقتم ونفقة جناس الاشتقاق وكذلك بين نذرتم ونذر.

٢ - ﴿إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ﴾ في الإبداء والإخفاء طباق لفظي، وكذلك بين لفظ «الليل والنهار» و «السر والعلانية» وهو من المحسنات البديعية.

٣ - ﴿وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ إطناب لورودها بعد قوله: ﴿يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ﴾ الذي معناه يصلكم وافيًا غير منقوص.

فَائِدَةٌ: قال بعض الحكماء: إذا اصطنعت المعروف فاستره، وإذا اصطنع إليك فانشره وأنشدوا:

يُخْفِي صَنَائِعَهُ وَاللَّهُ يُظْهِرُهَا إِنَّ الْجَمِيلَ إِذَا أَخْفَيْتَهُ ظَهَرَ

قال الله تعالى:

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

المناسبة: لما أمر تعالى بالإنفاق من طيبات ما كسبوا، وحض على الصدقة، ورغب في الإنفاق في سبيل الله، ذكر هنا ما يقابل ذلك وهو الربا الكسب الخبيث ذو الوجه الكالِح الطالِح، الذي هو شحٌ وقذارة ودنس، بينما الصدقة عطاء وسماحة وطهارة، وقد جاء عرضه مباشرة بعد عرض ذلك الوجه الطيب من الإنفاق في سبيل الله ليظهر الفارق بجلاء بين الكسب الطيب والكسب الخبيث وكما قيل «وبضدها تتميز الأشياء».

اللغة: ﴿الرِّبَا﴾ لغة: الزيادة يقال: ربا الشيء إذا زاد ومنه الربوة والرابية: شرعاً: زيادة على أصل المال يأخذها الدائن من المدين مقابل الأجل^(١) ﴿يَتَخَبَّطُهُ﴾ التخبط: الضرب على غير استواء كخبط البعير الأرض بأخفافه ويقال للذي يتصرف ولا يهتدي: خبط في عشواء وتورط في عمياء، وتخبطه الشيطان إذا مسه بخبل أو جنون ﴿الْمَسِّ﴾ الجنون وأصله من المس باليد كأن الشيطان يمس الإنسان فيحصل له الجنون ﴿سَلَفَ﴾ مضى وانقضى ومنه سالف الدهر أي ماضيه ﴿يَمْحَقُ﴾ المحق: نقصان الشيء حالاً بعد حال ومنه المحاق في الهلال يقال: محقه

(١) (ش): هذا التعريف للربا خاص بالزيادة في الدين، وهو ربا النسئبة، وهناك رباً آخر هو ربا الفضل. وقد جاءت الشريعة بتحريمه أيضاً، وهو زيادة في أحد الجنسين إذا بيع أحدهما بالآخر. بحيث إذا بيع ذهب بذهب فإنه لا يجوز إلا مثلاً بمثل ويداً بيد، فاشترط فيه التقابض والتماثل فمن زاد أو استزاد فقد أربى، فإذا باع صاع قمح بصاعين ولو كان يداً بيد فقد وقع في الربا. وقد حرمت الشريعة الإسلامية ربا الفضل في ستة أشياء: الذهب، والفضة، والبر، والشعير، والتمر، والملح.

الله فانهحق وامتحق ﴿أَئِمْ﴾ كثير الإثم المتماذي في الذنوب والآثام.

سَبَبُ النُّزُول: كان لبني عمرو بن ثقيف ديون ربا على بني المغيرة فلما حلَّ الأجل أرادوا أن يتقاضوا الربا منهم فنزلت الآية ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨) فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿الآية﴾. فقالت ثقيف: لا يد لنا «أي لا طاقة لنا» بحرب الله ورسوله وتابوا وأخذوا رءوس أموالهم فقط (١) (٢).

التفسير: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ أي الذين يتعاملون بالربا ويمتصون دماء الناس لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع من جنونه، يتعثر ويقع ولا يستطيع أن يمشي سويًا، يقومون مخبلين كالمصروعين تلك سيماهم يعرفون بها عند الموقف هتكا لهم وفضيحة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ أي ذلك التخبط والتعثر بسبب استحلالهم ما حرّمه الله، وقوله:م: الربا كالبيع فلماذا يكون حرامًا؟ قال تعالى ردًا عليهم: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ أي أحل الله البيع لما فيه من تبادل المنافع، وحرّم الربا لما فيه من الضرر الفادح بالفرد والمجتمع، لأن فيه زيادة مقتطعة من جهد المدين ولحمه ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ أي من بلغه نهى الله عن الربا فانتهى عن التعامل به فله ما مضى قبل التحريم ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي أمره موكل إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي ومن عاد إلى التعامل بالربا واستحلّه بعد تحريم الله له فهو من المخلدين في نار جهنم ﴿يَمْحُو اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ﴾ أي يذهب ريعه ويمحو خيره وإن كان زيادة في الظاهر، ويكثر الصدقات وينميها وإن كانت نقصانًا في الشاهد ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ أي لا يحب كل كفور القلب، أثيم القول والفعل، وفي الآية تغليظ في أمر الربا وإيدان بأنه من فعل الكفار، ثم قال تعالى مادحًا المؤمنين المطيعين أمره في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ﴾ أي صدّقوا بالله وعملوا الصالحات التي من جملتها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي لهم ثوابهم الكامل في الجنة، ولا يخافون يوم الفزع الأكبر ولا يحزنون على ما فاتهم في الدنيا ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ أي اخشوا ربكم وراقبوه فيما تفعلون، واتركوا ما لكم من الربا عند الناس إن كنتم مؤمنين بالله حقًا ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي وإن لم تتركوا التعامل بالربا فأيقنوا بحرب الله ورسوله لكم قال ابن عباس: يقال لأكل الربا يوم القيامة: خذ سلاحك للحرب ﴿وَإِنْ تُبْتِغُوا رُءُوسَ أَمْوَالِكُمْ

(١) «البحر المحيط» ٢/ ٣٣٧.

(٢) (ش): موضوع، أخرجه أبو يعلى في «مسنده» والواحيدي في «أسباب النزول».

لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿١﴾ أي إن رجعتُم عن الربا وتركتُموه فلكم أصل المال الذي دفعتموه من غير زيادة ولا نقصان ﴿وَأِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ أي إذا كان المستدين معسرًا فعليكم أن تمهلوه إلى وقت اليسر لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه: إمّا أن تقضي وإمّا أن تُزبي ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إن تجاوزتم عمّا لكم عنده فهو أكرم وأفضل، إن كنتم تعلمون ما فيه من الذكر الجميل والأجر العظيم ثم حذر تعالى عباده من ذلك اليوم الرهيب الذي لا ينفع فيه إلا العمل الصالح فقال: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي احذروا يومًا سترجعون فيه إلى ربكم ثم توفى كل نفس حسابها وأنتم لا تظلمون، وقد ختمت هذه الآيات الكريمة بهذه الآية الجامعة المانعة التي كانت آخر ما نزل من القرآن وبنزولها انقطع الوحي، وفيها تذكير العباد بذلك اليوم العصيب الشديد^(١).

قال ابن كثير: هذه الآية آخر ما نزل من القرآن العظيم وقد عاش النبي ﷺ بعد نزولها تسع ليال ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى.

البلاغة: ١ - ﴿إِنَّمَا أَلْبَيْعٌ مِّثْلُ الرِّبَا﴾ فيه تشبيه يسمى (التشبيه المقلوب) وهو أعلى مراتب التشبيه حيث يجعل المشبه مكان المشبه به كقول الشاعر: كأن ضياء الشمس غرة جعفر والأصل في الآية أن يقال: الربا مثل البيع ولكنه بلغ من اعتقادهم في حل الربا أن جعلوه أصلاً يقاس عليه فشبهوا به البيع.

٢ - ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ بين لفظ «أحلّ» و«حرّم» طباق وكذلك بين لفظ «يمحق» و«يربي».

٣ - ﴿كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ صيغة فعّال وفعليل للمبالغة فقوله: ﴿كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ أي عظيم الكفر شديد الإثم.

٤ - ﴿فَأَذْنُوا بِحَرْبٍ﴾ التنكير للتهويل أي بنوعٍ من الحرب عظيم لا يُقَادَرُ قَدْرُهُ، كائن من عند الله، أفاده أبو السعود.

٥ - ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى «الجناس الناقص» لاختلاف الشكل.

(١) (ش): اختلف أهل العلم في آخر آية نزلت من القرآن، على أقوال متعددة، تكلم فيها كلُّ بما أداه إليه اجتهاده، وذلك بناءً على ما ورد عن الصحابة رضي الله عنهم، ويحتمل أن كلّاً منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي ﷺ في اليوم الذي مات فيه أو قبل مرضه بقليل، وليس في شيء من ذلك خبر عن المعصوم عليه السلام، يمكن القطع به. وأكثر العلماء على أن آخر آية نزلت هي قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]

٦ - ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا﴾ التنكير للتفخيم والتهويل.

الفوائد: الأولى: عبر بقوله: ﴿يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ عن الانتفاع به لأن الأكل هو الغالب في المنافع وسواء في ذلك المعطي والآخذ لقول جابر في الحديث الشريف «لعن رسول الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه وقال: هم سواء»^(١).

الثانية: شبه تعالى المرابين بالمصروعين الذين تتخططهم الشياطين، وذلك لأن الله عز وجل أربى في بطونهم ما أكلوا من الربا فأثقلهم فصاروا مخبلين ينهضون ويسقطون قال سعيد بن جبير تلك علامة آكل الربا يوم القيامة.

الثالثة: أخرج البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كان رجل يداين الناس فكان يقول لفتاه إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه لعل الله أن يتجاوز عنا، فلقي الله فتجاوز عنه»^(٢).

قال الله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضُوا مِنَ الشَّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلٍ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدَقُّ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَّ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى الربا وبين ما فيه من قباحة وشناعة، لأنه زيادة مقتطعة من عرق المدين ولحمه وهو كسب خبيث يمقته الإسلام ويحرمه، أعقبه بذكر القرض الحسن بلا فائدة، وذكر الأحكام الخاصة بالدين والتجارة والرهن، وكلها طرق شريفة لتنمية المال وزيادته بما فيه صلاح الفرد والمجتمع وآية الدين أطول آيات القرآن على الإطلاق مما يدل على عناية الإسلام بالنظم الاقتصادية.

(١) (ش): عَنْ جَابِرٍ قَالَ: لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ آكِلَ الرِّبَا وَمُوَكَّلَهُ وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدِيهِ، وَقَالَ: هُمْ سَوَاءٌ. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).
مُوكِّلُ الرِّبَا: مُطْعِمُهُ، أَيْ الْمُؤَمِّكُنْ مِنْهُ غَيْرُهُ.

(٢) انظر الأدوار التي مر بها تحريم الربا والحكمة التشريعية في كتابنا روائع البيان ١/ ٣٨٩.

اللغة: ﴿وَلِيُمْلِلْ﴾ من الإملاء وهو أن يُلقَى عليه ما يكتبه يقال: أَمَلْ وأَمَلَى ﴿يَبْخَسُ﴾ البخس: النقص ﴿سَمِعُوا﴾ السام والسامة: الملل من الشيء والضجر منه ﴿أَفْسَطُ﴾ القسط: بكسر القاف العَدْلُ يقال: أفسط الرجل إذا عدل، وبفتح القاف الجورُ يقال: قسط أي جار ومنه ﴿وَأَمَّا الْفَاسِقُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥] ﴿تَضَلُّ﴾ قال أبو عبيد: معنى تضل أي تنسى والضلال عن الشهادة نسيان جزءٍ منها ﴿وَأَدْنَى﴾ أقرب ﴿تَرْتَابُوا﴾ تشكوا من الريب بمعنى الشك ﴿فَرِهْنُ﴾ جمع رهن وهو ما يدفع إلى الدائن توثيقاً للدين.

التفسير: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ أي إذا تعاملتم بدين مؤجل فاكْتُبُوهُ، وهذا إرشاد منه تعالى لعباده بكتابة المعاملات المؤجلة ليكون ذلك أحفظ وأوثق لمقدارها وميقاتها ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ أي وليكتب لكم كاتب عادل مأمون لا يجور على أحد الطرفين ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ أي ولا يمتنع أحد من الكتابة بالعدل كما علمه الله ﴿فَلْيَكْتُبْ وَلِيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ أي وليمل على الكاتب ويلقي عليه المدين وهو الذي عليه الحق لأنه المقر المشهود عليه ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أي وليخش الله رب العالمين ولا ينقص من الحق شيئاً ﴿إِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا﴾ أي إن كان المدين ناقص العقل مبذراً أو كان صبيهاً أو شيخاً هرمًا ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ أي لا يستطيع الإملاء بنفسه لعي أو خرس أو عَجْمَةٌ فليُملل قيمه أو وكيله بالعدل من غير نقص أو زيادة ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ أي اطلبوا مع الكتابة أن يشهد لكم شاهدان من المسلمين زيادة في التوثيق ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ﴾ أي فإن لم يكن الشاهدان رجلين، فليشهد رجل وامرأتان ممن يوثق بدينهم وعدالتهم ﴿أَنْ تَضَلَّ أَحَدُهُمَا فَتَذَكَّرَ أَحَدُهُمَا الْأُخْرَى﴾ أي تنسى إحدى المرأتين الشهادة فتذكرها الأخرى، وهذا علةٌ لوجوب الاثنين لنقص الضبط فيهن ﴿وَلَا يَأْبَ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ أي ولا يمتنع الشهاء عن أداء الشهادة أو تحملها إذا طلب منهم ذلك ﴿وَلَا سَمِعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ﴾ أي لا تملوا أن تكتبوا الدين صغيراً كان أو كبيراً، قليلاً أو كثيراً إلى وقت حلول ميعاده ﴿ذَلِكَمْ أَفْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ أي ما أمرناكم به من كتابة الدين أعدل في حكمه تعالى، وأثبت للشهادة لثلاث تنسى، وأقرب أن لا تشكوا في قدر الدين والأجل ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ أي إلا إذا كان البيع حاضرًا يدا بيد والتمن مقبوضاً ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ أي فلا بأس بعدم كتابتها لانتفاء المحذور ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ أي أشهدوا على حقكم مطلقاً سواء كان البيع ناجزاً أو بالدين لأنه أبعد عن النزاع والاختلاف ﴿وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ أي لا يضر صاحب الحق الكتاب والشهود ﴿وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ أي إن فعلتم ما نهيتم عنه

فقد فسقتم بخروجكم عن طاعة الله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ أي خافوا الله وراقبوه يمنحكم العلم النافع الذي به سعادة الدارين ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي عالم بالمصالح والعواقب فلا يخفى عليه شيء من الأشياء ﴿وَلِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقْبُوضَةً﴾ أي إن كنتم مسافرين وتديتكم إلى أجل مسمى ولم تجدوا من يكتب لكم، فليكن بدل الكتابة رهان مقبوضة يقبضها صاحب الحق وثيقة لدينه ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فُلْيَوِّدِ الَّذِي أُوتِئْنَ أَمْنَتُهُ. وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ أي فإن أمن الدائن المدين فاستغنى عن الرهن ثقة بأمانة صاحبه فليدفع ذاك المؤتمن الدين الذي عليه وليتق الله في رعاية حقوق الأمانة ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِيَّائِمْ قَلْبُهُ﴾ أي إذا دعيتكم إلى أداء شهادة فلا تكتمونها فإن كتمانها إثم كبير، يجعل القلب آثمًا وصاحبه فاجرًا، وخُصَّ القلب بالذكر لأنه سلطان الأعضاء، إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمال وأفعال العباد.

البلاغة: ١ - في الآية من ضروب الفصاحة «الجناس المغاير» في قوله ﴿تَدَايِنْتُمْ بِدَيْنٍ﴾ وفي ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ﴾ وفي ﴿أَوْتِئْنَ أَمْنَتَهُ﴾ وفي ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ... عَلِيمٌ﴾ .
٢ - الطباق في قوله ﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ وفي ﴿تَضِلَّ ... فَتُذَكَّرَ﴾ لأن الضلال هنا بمعنى النسيان.

٤ - الإيجاز بالحذف وذلك كثير وقد ذكر أمثله صاحب «البحر المحيط» .
٥ - كرر لفظ الجلالة في الجمل الثلاث ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ و﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ و﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لإدخال الروعة وتربية المهابة في النفوس .
٦ - ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ جمع ما بين الاسم الجليل والنعته الجميل مبالغة في التحذير .
فائدة: العلم نوعان: كسبيٌّ ووهبيٌّ، أما الأول فيكون تحصيله بالاجتهاد والمثابرة والمذاكرة، وأما الثاني فطريقه تقوى الله والعمل الصالح كما قال تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ وهذا العلم يسمى العلم اللدني ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ وهو العلم النافع الذي يهبه الله لمن شاء من عباده المتقين^(١) وإليه أشار الإمام الشافعي بقوله:

(١) (ش): قال الشيخ بكر أبو زيد: «هذا الاصطلاح من مخترعات الصوفية ومواضعاتها، وإلا فإن العلم اللدني هو: العلم العندي، ف«عند»، و«لدن» في الآية معناهما واحد في لغة العرب التي بها نزل القرآن، فما لم يكن العلم من عند الله على لسان رسول الله؛ فلا يكون من لدنه، والأمور مرهونة بحقائقها». [معجم المناهي اللفظية (ص: ٣٨٥)]. قال الإمام ابن القيم: «العلم اللدني: ما قام الدليل الصحيح عليه أنه جاء من عند الله على لسان رُسليه، وما عداه فلدني من لدن نفس الإنسان، منه بدأ وإليه يعود، وقد انبثق سد العلم اللدني، ورخص سَعْرُهُ، حَتَّى ادَّعَتْ كُلُّ طَائِفَةٍ أَنَّ عِلْمَهُمْ لَدُنِّي، وَصَارَ مَنْ تَكَلَّمَ فِي حَقَائِقِ الْإِيمَانِ وَالسُّلُوكِ وَبَابِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ بِمَا يَسْتَحِقُّ لَهُ، وَيُلْقِيهِ شَيْطَانُهُ فِي قَلْبِهِ: يَزْعُمُ أَنَّ عِلْمَهُ لَدُنِّي، فَمَلَا حِدَةَ الْإِتِّحَادِيَّةِ، وَرَنَادَفَهُ الْمُتَسَبِّبِينَ

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي
وَأَخْبَرَنِي بِأَنَّ الْعِلْمَ نُورٌ
فَأرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي
وَنُورُ اللَّهِ لَا يَهْدِي لِعَاصِي

قال الله تعالى:

لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْلَمُ
لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ
وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا
كَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تَأْخُذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى
الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

المناسبة: ناسب ختم هذه السورة الكريمة بهذه الآيات لأنها اشتملت على تكاليف كثيرة في الصلاة والزكاة والقصاص والصوم والحج والجهاد والطلاق والعدة وأحكام الربا والبيع والدين إلخ. فناسب تكليفه إيانا بهذه الشرائع أن يذكر أنه تعالى مالك لما في السماوات وما في الأرض فهو يكلف من يشاء بما يشاء والجزاء على الأعمال إنما يكون في الدار الآخرة، فختم هذه السورة بهذه الآيات على سبيل الوعيد والتهديد.

اللغة: ﴿إِصْرًا﴾ الإِصْرُ في اللغة: الثَّقْلُ والشَّدَّةُ، قال النابغة:

يَا مَانِعَ الضِّيمِ أَنْ يَغْشَى سَرَائِهِمْ
وَالْحَامِلِ الْإِصْرَ عَنْهُمْ بَعْدَ مَا غَرَّقُوا^(١)

وسميت التكاليف الشاقة إِصْرًا لأنها تثقل كاهل صاحبها كما يسمى العهد إِصْرًا لأنه ثَقِيلُ. ﴿طَاقَةً﴾ الطاقة: القدرة على الشيء من أطاق الشيء وهو مصدر جاء على غير قياس الفعل ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾ العفو: الصفح عن الذنب ﴿وَاعْفِرْ لَنَا﴾ الغفران: ستر الذنب ومحوه.

سَبَبُ النَزُول: لما نزل قوله تعالى ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ الآية، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله فقالوا: كُلُّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا

إِلَى السُّلُوكِ يَقُولُونَ: إِنْ عَلِمَهُمْ لَدُنِّي، وَقَدْ صَنَّفَ فِي الْعِلْمِ اللَّذَنِّي مَتَهَوَّكُو الْمُتَكَلِّمِينَ، وَزَادَهُ الْمُتَصَوِّفِينَ، وَجَهَلَهُ الْمُتَفَلِّسِينَ، وَكُلُّ يَزْعُمُ أَنَّ عِلْمَهُ لَدُنِّي، وَصَدَّقُوا وَكَذَّبُوا فَإِنَّ اللَّذَنِّي مَسْئُوبٌ إِلَى «لَدُنْ» بِمَعْنَى عِنْدَ، فَكَانَتْهُمْ قَالُوا: الْعِلْمُ الْعِنْدِي، وَلَكِنَّ الشَّأْنَ فِيمَنْ هَذَا الْعِلْمُ مِنْ عِنْدِهِ وَمِنْ لَدُنْهُ، وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى بِأَبْلِغِ الدَّمَ مَنْ يَنْسِبُ إِلَيْهِ مَا لَيْسَ مِنْ عِنْدِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَوْلِ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣] [مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٤٠٠)].

(١) (ش): (الضِّيمُ): الظُّلْمُ. السَّراة: جمع السَّرِي: الشريف، الكريم الحساب.

نطبق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطقها فقال ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣] قولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ «فلما قرأها القوم وجرت بها ألسنتهم أنزل الله تعالى ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ ونسخها الله تعالى فأنزل ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ ^(١) الآية»

التفسير: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي هو سبحانه المالك لما في السماوات والأرض المطَّلَع على ما فيهن ﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ أي إن أظهرتم ما في أنفسكم من السوء أو أسررتموه فإن الله يعلمه ويحاسبكم عليه ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي يغفو عمن يشاء ويعاقب من يشاء وهو القادر على كل شيء الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي صدَّق محمد ﷺ بما أنزل الله إليه من القرآن والوحي وكذلك المؤمنون ﴿كُلُّ ءَاَمَنٍ بِاللَّهِ وَمَلَيْكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي الجميع من النبي والأتباع صدَّق بوحداية الله، وآمن بملائكته وكتبه ورسله ﴿لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ أي لا تؤمن بالبعض ونكفر بالبعض كما فعل اليهود والنصارى بل تؤمن بجميع رسل الله دون تفریق ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أي أجبنا دعوتك وأطعنا أمرك فنسألك يا الله المغفرة لمن اقترفناه من الذنوب، وإليك وحدك يا الله المرجع والمآب.

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي لا يكلف المولى تعالى أحداً فوق طاقته ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ أي لكل نفس جزاء ما قدمت من خير، وجزاء ما اقترفت من شر ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أي قولوا ذلك في دعائكم. والمعنى: لا تعذبنا يا الله بما يصدر عنا بسبب النسيان أو الخطأ ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ أي ولا تكلفنا بالتكاليف الشاقة التي نعجز عنها كما كلفت بها من قبلنا من الأمم قتل النفس في التوبة وقرض موضع النجاسة ^(٢) ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ أي لا تحملنا ما لا قدرة لنا عليه من التكاليف والبلاء ﴿وَاغْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ أي امحُ عنا ذنوبنا واستر سيئاتنا فلا تفضحنا يوم الحشر الأكبر وارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي أنت يا الله ناصرنا ومتولي أمورنا فلا تخذلنا، وانصرنا على أعدائنا وأعداء دينك من القوم الكافرين، الذين جحدوا دينك وأنكروا وحدانيتك وكذبوا

(١) أخرجه مسلم وانظر «أسباب النزول» للواحدى ص ٥١.

(٢) (ش): الْقَرْضُ: الْقَطْعُ.

برسالة نبيك ﷺ. روي أنه ﷺ لما دعا هذه الدعوات قيل له عند كل دعوة: قد فعلت^(١).
البلاغة: ١ - تضمنت الآية من أنواع الفصاحة وضروب البلاغة أشياء منها «الطباق» في قوله
 ﴿وَأِنْ تُبَدُّوا... أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ وبين «يعذر» و «يعذب» ومنها الطباق المعنوي بين ﴿كَسَبَتْ﴾
 و ﴿اَكْتَسَبَتْ﴾ لأن (كسب) في الخير و(اكتسب) في الشر.
 ٢ - ومنها الجناس ويسمى الجناس الاشتقاق في قوله ﴿ءَامَنَ... وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.
 ٣ - ومنها الإطناب في قوله ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾.
 ٤ - ومنها الإيجاز بالحذف في قوله ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي آمَنُوا بالله ورسله. ومواضع أخرى.
فائدة: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ
 فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ» أخرجه البخاري^(٢) وفي رواية لمسلم أن ملكاً نزل من السماء فأتى النبي ﷺ
 فقال له: «أَبَشِّرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيَتْهُمَا لَمْ يُوْتِيهمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ. لَنْ
 تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيَتْهُ».

«تم بعونه تعالى تفسير سورة البقرة»



(١) (ش): عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَأِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ قَالَ: دَخَلَ قُلُوبُهُمْ مِنْهَا شَيْءٌ لَمْ يَدْخُلْ قُلُوبَهُمْ مِنْ شَيْءٍ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا». قَالَ: فَأَلْقَى اللَّهُ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ - قَالَ قَدْ فَعَلْتُ ﴿وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٢) (ش): رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

فهرس موضوعات المجلد الثاني

١١- سورة هود

معنى تفصيل الآيات.....	٥
الأخنس بن شريق وعداوته للرسول ﷺ.....	٧
تحريضه ﷺ على تبليغ الدعوة.....	٧
الاستغفار مع الإصرار على الذنب توبة الكاذبين.....	٩
التدرج في التحدي من عشر سور إلى سورة.....	١٢
الأنوار التسعة المشتملة على وجوه الإعجاز.....	١٢
تسليية الرسول ﷺ بكذر قصص الأنبياء.....	١٤
القصة الأولى قصة نوح عليه السلام.....	١٤
القصة الثانية قصة هود عليه السلام.....	٢٠
القصة الرابعة قصة إبراهيم عليه السلام.....	٢١
السر في التفريق بين شهادة الله والقوم.....	٢١
القصة الخامسة قصة لوط عليه السلام.....	٢١
القصة السادسة قصة شعيب عليه السلام.....	٢٨
أنواع العذاب الذي أصاب أهل مدين والسر في ذكر الصيحة والرجفة... إلخ.....	٣١
القصة السابعة قصة موسى وهارون عليهما السلام.....	٣٥
معنى آيه ﴿خَلِّدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾.....	٣٨
المراد من الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾.....	٣٨
الميل إلى الظلمة موجب لنار جهنم.....	٤٠
ضرورة هجران أهل الفسق والمعاصي.....	٤٠
معنى قوله تعالى: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾.....	٤١
تنبيه على خلود أهل الجنة والنار.....	٤٢
فائدة إلى لطيفة من الأسرار القرآنية.....	٤٢

١٢- سورة يوسف

السورة أسلوب فريد في ألفاظها وتعبيرها وأدائها أفراد الحديث في هذه السورة عن قصة يوسف الصديق.....	٤٣
سورة يوسف مما يتفكه به أهل الجنة في الجنة.....	٤٣
السر في تكرار قصص الأنبياء في القرآن.....	٤٣

٤٤.....	تأمر أخوة يوسف على أخيهم.....
٤٧.....	المحنة الأولى ليوسف: إلقاءه في الحب.....
٤٨.....	المحنة الثانية: تعرضه للاسترقاق والاستبعاد.....
٤٨.....	لطيفة في امرأة تحاكت على شريح فبكت.....
٥٠.....	التحقيق في أن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء.....
٥٠.....	المحنة الثالثة: عشق امرأة العزيز له ومراودته عن نفسها.....
٥١.....	معنى آية ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾.....
٥٢.....	أقوال المفسرين في الهمّ والبرهان.....
٥٢.....	المحنة الرابعة: محنة دخول السجن.....
٥٦.....	دعوته إلى الله وهو في السجن.....
٥٦.....	فائدة في عتاب جبريل ليوسف.....
٥٨.....	القرآن يجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة.....
٥٩.....	شطحات بعض المفسرين في تفسير الهم.....
٥٩.....	عشرة وجوه من القرآن تشير إلى براءته عليه السلام.....
٦٠.....	الرؤيا التي رآها الملك في منامه وطلب تعبيرها.....
٦٠.....	تفسير الصديق لرؤيا الملك.....
٦١.....	امتناع يوسف عن الخروج من السجن إلا بعد البراءة.....
٦٢.....	سبب مجيء إخوة يوسف لمصر.....
٦٣.....	ثناء الرسول ﷺ على يوسف في صبر وكرمه وحلمه.....
٦٤.....	لطيفة في ميل النساء نحو يوسف حتى نبأه الله.....
٦٦.....	سبب فقد يعقوب لبصره حزنه على ولديه.....
٧٦.....	لطيفة ذكرها القاضي عياض.....
٨٠.....	تنبيه على وجه الاعتبار بقصة يوسف.....

١٣ - سورة الرعد

٨١.....	وجه التسمية بسورة الرعد.....
٨٢.....	جمع في السحاب بين الرحمة والعذاب.....
٨٣.....	قصة الجبار من الفراعنة الذي هلك بالصاعقة.....
٨٣.....	معنى الاستواء على العرش والتحقيق فيه.....
٨٣.....	لا منافاة بين لطف البسط وكروية الأرض.....

- معنى آية ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ ٨٣
- البراهين والأدلة على وجود الله من مخلوقاته ٨٤
- لماذا سميت الملائكة معقبات؟ ٨٩
- ماذا يُقال عند سماع الرعد؟ ٩١
- مثالان ضربهما القرآن للحق والباطل ٩١
- المثل الأول للماء النازل من السماء ٩١
- المثل الثاني للمعادن التي يوقد عليها الناس ٩١
- فائدة في أن النسب لا ينفع بدون العمل الصالح ٩٦
- تنبيه على احتجاج القرآن البليغ على المشركين ٩٦
- لطيفة في أن نقصان الأرض بموت علمائها ٩٨

١٤ - سورة إبراهيم

- السر في تسمية السورة سورة إبراهيم ١٠١
- كل نبي أرسل بلغة قومه ١٠٢
- فائدة السر في التفريق بين لفظة «يذبحون في البقرة» و«يذبحون هنا» ١٠٤
- خطبة إبليس البتراء في جهنم ١٠٩
- مثالان لكلمتي الكفر والإيمان ١٠٩
- تثبيت المؤمن في القبر عند سؤال الملكين ١١٠
- كفر أهل مكة لنعمة الله ١١٢
- الدلائل والبراهين على وجود الخالق ١١٣
- إبراهيم حصن التوحيد والإيمان ١١٤
- دعوات الخليل إبراهيم لأهل مكة ١١٦
- مشاهد القيامة وما فيها من أهوال ١١٦
- الحكمة من تعريف البلد هنا وتنكيره في البقرة ١١٧

١٥ - سورة الحجر

- الحروف المقطعة للإشارة إلى إعجاز القرآن ١٢٠
- اتهام الكفار للرسول ﷺ باجلنون ١٢١
- حفظ الله للقرآن من الزيادة والنقصان ١٢١
- البراهين الدالة على وحدانية الله ١٢٥
- قصة الرجل الذي أراد أن يمتحن الأديان ١٢٥

- ١٢٦ قصة ضيف إبراهيم الخليل
١٣٢ تنبيه إلى الجمع بين آيتين في القرآن

١٦ - سورة النحل

- ١٣٣ وسائل حديثة في عصرنا أشار إليها القرآن
١٣٣ المشركون يجلسون بمدخل مكة يحذرون من الرسول ﷺ
١٣٣ مكر المجرمين بأنبيائهم لإطفاء نور الله
١٣٣ سبب تسمية سورة النحل بسورة النعم
١٣٥ معنى سجود الظلام للواحد الديان
١٤٠ استنباط دقيق أن النبوة خاصة بالرجال
١٤١ تنبيه إلى أن الاحتجاج بالقدر حجة باطلة
١٤٢ العبرة الإلهية في خروج اللبن بين الفرث والدم
١٤٢ المناسبة اللطيفة بذكر العقل في آية الخمر
١٤٥ السر في خروج العسل من النحل
١٤٥ مثلاً لبطلان عبادة الأوثان
١٤٥ التعليل لجريمة الردة عن الإسلام
١٥٧ عمار ملي إيماناً من فرقه إلى قدمه
١٥٧ السر في الاستعاذة قبل قراءة القرآن
١٦٨ مثل ضربه الله تعالى لأهل مكة
١٦٨ إبراهيم خليل الرحمن أمة وحده الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة

١٧ - سورة الإسراء

- ١٦٩ لماذا بُدئت سورة الإسراء بالتسبيح؟
١٧٦ الحكمة في إسرائه إلى بيت المقدس
١٨٣ مقام العبودية أشرف المقامات العلية
١٩٠ مكارم الأخلاق التي دعا إليها القرآن
١٩٧ لطيفة في دقائق التعبير القرآن
٢٠٢ ما هي الآيات التسع التي أعطىها موسى؟

١٨ - سورة الكهف

- ٢٠٤ قصة أصحاب الكهف كما ذكرها المفسرون
٢٠٥ معنى آية ﴿وَإِذْ ذُكِّرْتُكَ إِذَا نَسِيتُ﴾

٢١٣	قصة صاحب الجنتين الظالم لنفسه
٢١٣	مثلٌ للحياة الدنيا يصوره القرآن معنى الباقيات الصالحات
٢٢٢	قصة موسى عليه السلام مع الخضر
٢٣٠	الكرامات التي ظهرت على يد الخضر
٢٣٢	تنبيه على كرامات الأولياء من الآيات والأخبار
٢٣٢	قصة ذي القرنين ورحلاته الثلاث
٢٣٦	من هم يأجوج ومأجوج؟ والسر في بناء السد

١٩ - سورة مريم

٢٣٩	قصة نبي الله زكريا وولده يحيى
٢٤٠	قصة مريم العذراء وولدها عيسى
٢٤٧	السر في تمثيل جبريل لمريم بصورة إنسان
٢٤٨	كيف حملت العذاب بعيسى عليه السلام؟
٢٥٣	تنبيه في عمر إبراهيم والمدة بينه وبين آدم
٢٥٥	قصة خَبَّاب مع العاص بن وائل
٢٥٧	التحقيق في معنى الورود على جهنم
٢٥٩	لطيفة في نصيحة ابن السماك للمؤمن

٢٠ - سورة طه

٢٦١	الحكمة من إخفاء وقت الساعة والموت
٢٦٨	فائدة في نفع موسى لأخيه هارون
٢٦٨	تنبيه على من الله العديدة على موسى
٢٧٠	سبب عبادة بني إسرائيل العجل
٢٧٥	معنى الحياة الضنك لمن عصى الله
٢٨٠	لطيفة في سر بديع من بلاغة القرآن
٢٨٠	فائدة في التمثيل بالعرش واليوم

٢١ - سورة الأنبياء

٢٨٨	معنى آية ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٌ﴾
٢٩٤	فائدة في كيفية تسييح الملائكة عليهم السلام
٣٠١	تفسير ابن عباس لمعنى ﴿كَأَنَّا رَفَقًا فَفَقَّقْنَاهُمَا﴾
٣٠١	قصة إبراهيم وتحطيمه للأصنام

- ٣٠٨ قصة داود وسليمان
 ٣٠٨ قصة أيوب وابتلائه بأنواع المحن
 ٣١١ سيدنا محمد ﷺ الرحمة العظمى لجميع الخلق

٢٢ - سورة الحج

- ٣١٨ سبب تسميتها بسورة الحج
 ٣٢٠ معنى آية ﴿مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾
 ٣٢٠ فائدة في الفرق بين الموضع والمرضة
 ٣٢٦ تنبيه على من تحدث في المشيئة والقدر
 ٣٣٣ إبراهيم وبناء البيت العتيق
 ٣٤٠ أصح ما قيل في تفسير ﴿إِذَا تَمَنَّيَ الْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾، وانظر الحاشية
 ٣٤٣ مثل للأصنام وعابديها من روائع الأمثال

٢٣ - سورة المؤمنون

- ٣٤٥ الأطوار التي مر بها خلق الإنسان
 ٣٤٦ تنبيه في ذكر أربعة دلائل من دلائل القدرة
 ٣٥٠ فائدة في فضل الآيات العشر من سورة المؤمنون
 ٣٥٥ لفظ «البشر» يطلق على المفرد والجمع
 ٣٦٢ قصة إسلام «ثمame بن أثال»
 ٣٦٧ العوالم ثلاثة «عالم الدنيا، والبرزخ، والآخرة»

٢٤ - سورة النور

- ٣٧١ سبب تسميتها بسورة النور
 ٣٧٣ أحسن ما قيل في تفسير ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾
 ٣٧٨ حادثة الإفك ومعنى ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾
 ٣٨١ لماذا بدئ في الزنى بالمرأة وفي السرقة بالرجل؟
 ٣٨٩ تنبيه إلى فائدة ذكر الإحصان
 ٣٩٠ لطيفة: لماذا عدل عن قوله: ﴿تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾
 ٣٩٨ معنى آية ﴿الْحَيِّثُ لِلْحَيِّثِينَ﴾
 ٣٩٨ فائدة: ما رضى الله لعائشة ببراءة صبي ولا نبي حتى برأها الله في القرآن
 ٣٩٨ لطيفة في قصة قسيس أراد الطعن في عائشة
 ٣٩٨ لطيفة في إسلام أحد علماء الطبيعة

- وجوب تعظيم مقام الرسول ﷺ وتفخيم شأنه ٤٠٠
فائدة في أن من حكم السنة نطق بالحكمة، ومن حكم الهوى نطق بالبدعة ٤٠٦
قليل لبعضهم: من أحب إليك أخوك أم صديقك؟ ٤٠٧

٢٥- سورة الفرقان

- ما أكرام الله به الرسول ﷺ ٤٠٨
لطيفة في أن الله يعطي على حسب الحكمة ٤١٥
قصة «عقبة بن أبي معيط» وما نزل فيه ٤٢٢
تنبيه: هجران القرآن أنواع، وكلام ابن القيم ٤٢٢
الأشياء تعرف بأضدادها ٤٢٥
الفرق بني «ميت» و «ميت» ٤٢٧
وصف تعالى «عباد الرحمن» بإحدى عشرة خصلة ٤٢٩

٢٦- سورة الشعراء

- معنى قوله «محدث» أي في نزوله لا في وصفه ٤٣٣
المناظرة التي جرت بين موسى الكليم وفرعون ٤٣٤
لطيفة في تدرج موسى بالمناظرة بطريق الحكمة ٤٣٦
راعي الخليل جانب الأدب في نسبة المرض إلي نفسه ٤٤١
تنبيه إلى لقاء إبراهيم لأبيه آزر في القيامة ٤٤٧
معجزة صالح في خروج الناقة من صخر أصم ٤٤٨
إنذاره ﷺ لعشيرته وأقربائه ٤٥٢
لطيفة فيما كان ينشده عمر بن عبد العزيز ٤٥٥
تنبيهك الشعر حسنه حسن وقبيحه قبيح ٤٥٥
لطيفة فيما أنشده الفرزدق لسليمان بن عبد الملك ٤٥٦

٢٧- سورة النمل

- سبب تسمية السورة بسورة النمل ٤٦٣
لطيفة في بيان ذكاء النملة في خطابها ٤٦٦
من هو الذي عنده علم من الكتاب؟ ٤٦٩
استحباب تفقدك الملك لأحوال الرعية ٤٧٠
الدلائل والبراهين على وحدانية رب العالمين ٤٧٤
خروج الدابة التي تكلم الناس ٤٧٧

٤٨٤ حرمة البلد الأمين بلد الإسلام.

٢٨- سورة القصص

٤٩٢ قصة موسى وتربيته في بيت فرعون.

٤٩٨ قتل موسى للقبطي وخروجه من مصر.

٥٠٥ قصة الأصمعي مع الجارية.

٥١٦ تنبيه على موت أبي طالب على غير الإيمان.

٥١٦ طغيان قارون بسبب الغنى.

٥٢٤ لطيفة في القناعة وفضلها.

٢٩- سورة العنكبوت

٥٢٦ سبب تسمية السورة بسورة العنكبوت.

٥٢٨ قصة سعد بن ابي وقاص مع أمه المشتركة.

٥٣٣ فاحشة اللواط خاصة بقوم لوط.

٥٣٥ مثل رائع ضربه القرآن للأوثان وعابديها.

٥٤٠ قصة الذي كان يقوم الليل ثم يسرق.

٥٤٣ الحياة الدنيا كما يصورها القرآن.

٥٤٨ وجوب الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام.

٣٠- سورة الروم

٥٤٩ أهداف سورة الروم.

٥٥٢ معجزة غيبية أخبر عنها القرآن.

٥٥٦ الكفار يعلمون ظاهر الحياة الدنيا.

٥٥٦ آيات الله الجليلة المنبثة في الكون.

٥٦٦ تنبيه على سماع الميت وإحساسه.

٣١- سورة لقمان

٥٦٨ وصايا لقمان الحكيم لابنه.

٥٧٨ تنبيه على أن شكر الله مقدم على شكر الوالدين.

٥٨٤ مفتاح الغيب خمس لا يعملها إلا الله.

٣٢- سورة السجدة

٥٨٥ أهداف السورة الكريمة.

٥٩١ الأحكام والإتقان في خلق الرحمن.

٥٩٥	صفات المؤمنين الأبرار
٥٦٩	دلائل القدرة والوحدانية

٣٣- سورة الأحزاب

٥٩٧	المقاصد الأساسية للسورة الكريمة
٥٩٩	قصة «جميل بن معمر الفهري» ذي القلبين
٦٠٠	من هم الأحزاب؟ وما هو موقف المنافقين
٦٠٠	تنبيه هام إلى قدر الرسول عليه السلام
٦١٨	ما الفائدة بأمر الرسول ﷺ بالتقوى وهو سيد المتقين؟
٦٢١	سبب نزول آية الخيار وتخيير الرسول ﷺ لزوجاته
٦٢٥	هل صوت المرأة عورة؟
٦٢٥	رد شبهات المستشرقين حول زواج الرسول ﷺ بزینب
٦٣٧	الرد على من أباح كشف الوجه وطائفة من أقوال الأئمة المفسرين

٣٤- سورة سبأ

٦٣٨	سبب تسميتها بسورة سبأ
٦٤٤	قصة الجنيتين وسيل العرم
٦٥٠	اعتزاز المشركين بالمال والبنين
٦٥٩	سؤال الملائكة لتفريع وتوبيخ المشركين
٦٦٠	نصيحة الرسول ﷺ لأهل مكة

٣٥- سورة فاطر

٦٦١	أهداف سورة فاطر
٦٦٧	الملائكة وسائط بين الله ورسله
٦٦٧	الشیطان عدو لدود للإنسان
٦٦٨	الوراثة الربانية للأمة المحمدية
٦٧١	انقصام الأمة إلى ظالم ومقتصد وسابق
٦٧١	استغاثة الكفار في جهنم
٦٧٢	معنى آية ﴿وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾
٦٨٣	بيان لحلم الله ورحمته بعباده
٦٨٥	فهرس أحاديث المجلد الثاني
٦٨٨	فهرس موضوعات المجلد الثاني

﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ أي ومن شر الحاسد الذي يتمنى زوال النعمة عن غيره، ولا يرضى بما قسمه الله تعالى له.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

- ١ - الجناس الناقص بين ﴿الْفَلَقِ﴾ و ﴿خَلَقَ﴾.
- ٢ - الإطناب بتكرار الاسم ﴿شَرِّ﴾ مراتٍ في السورة ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ﴾ ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ﴾ إلخ تنبيهاً على شناعة هذه الأوصاف.
- ٣ - ذكر الخاص بعد العام للاعتناء بالمذكور ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ فإنه عموم يدخل تحته شر الغاسق، وشر النفاثات، وشر الحاسد.
- ٤ - جناس الاشتقاق بين ﴿حَاسِدٍ﴾ و ﴿حَسَدَ﴾.
- ٥ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفلق»



= الحوادث معه لبيان جواز حدوثها مع غيره ﷺ مهما بلغ قدراً عالياً في العبادة، وهو أمر جائز عقلاً ونقلاً. فهو كحديث نسيان النبي ﷺ في الصلاة، وهو الذي ينزل عليه الوحي، وهو أخشع الخلق في الصلاة ﷺ وذلك لتعليم الأمة الإسلامية من خلال هذا الحدث.

سُورَةُ النَّاسِ

مكية وآياتها ست

بين يدي السورة

* سورة الناس مكية، وهي ثاني المعوذتين، وفيها الاستجارة والاحتماء برب الأرباب من شر أعدى الأعداء، إبليس وأعوانه من شيطان الإنس والجن، الذين يغوون الناس بأنواع الوسوسة والإغواء.

* وقد ختم الكتاب العزيز بالمعوذتين وبدى بالفاتحة، ليجمع بين حسن البدء، وحسن الختم، وذلك غاية الحسن والجمال، لأن العبد يستعين بالله ويلتجئ إليه، من بداية الأمر إلى نهايته.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ١﴾ ﴿مَلِكِ النَّاسِ ٢﴾ ﴿إِلَهِ النَّاسِ ٣﴾ ﴿مِنْ شَرِّ أَلْوَسَّاسِ الْخَنَاسِ ٤﴾ ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ٥﴾ ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ٦﴾

اللغة: ﴿أَلْوَسَّاسِ﴾ الشيطان الموسوس، مشتق من الوسوسة وهي الكلام الخفي وحديث النفس قال الأعشى:

تَسْمَعُ لِلْحَلِيِّ وَسْوَاسًا إِذَا انْصَرَفَتْ ^(١)...

﴿الْخَنَاسِ﴾ الذي عادته أن يخنس أي يتوارى ويختفي ويتأخر يقال: خنس الظبي إذا اختفى، وسمي الشيطان خناساً لأنه يتوارى ويختفي إذا ذكر العبد ربّه، فإذا غفل عن ذكر الله عاد فوسوس له، والخنوس: التأخر ﴿الْجِنَّةِ﴾ بكسر الجيم الجنُّ جمع جنّي، وبضم الجيم الوقاية وفي الحديث «الصَّوْمُ جُنَّةٌ» ^(٢) أي وقاية من عذاب الله.

التفسير: ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ أي قل يا محمد أعتصم وألتجئ وأستجير ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ أي بخالق الناس ومربيهم ومدبر شئونهم، الذي أحياهم وأوجدتهم من العدم، وأنعم عليهم بأنواع النعم قال المفسرون: إنما خصّ الناس بالذكر وإن كان -جلت عظمته- رب جميع الخلائق تشریفاً وتكريماً لهم، من حيث إنه تعالى سخر لهم ما في الكون، وأمدّهم بالعقل والعلم، وأسجد لهم ملائكة قُدُسِهِ، فهم أفضل المخلوقات على الإطلاق ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ أي مالك جميع الخلق حاكمين ومحكومين، ملكاً تامّاً شاملاً كاملاً، يحكمهم، ويضبط أعمالهم، ويدبّر

(١) «تفسير القرطبي» ٢٠ / ٢٦١.

(٢) جزء من حديث رواه الشيخان.

شئونهم، فيعز ويذل، ويغني ويفقّر ﴿إِلَهُ النَّاسِ﴾ أي معبودهم الذي لا ربّ لهم سواه قال القرطبي: وإنما قال ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ ﴿٢﴾ ﴿إِلَهُ النَّاسِ﴾ لأن في الناس ملوكًا فذكر أنه ملكهم، وفي الناس من يعبد غيره فذكر إنه إلههم ومعبودهم، وأنه الذي يجب أن يستعاذ به ويُلجأ إليه، دون الملوك والعظماء، وترتيب السورة بهذا الشكل في منتهى الإبداع، وذلك لأن الإنسان أولاً يعرف أن له ربًّا، لما يشاهده من أنواع التربية ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ثم إذا تأمل عرف أن هذا الرب متصرفٌ في خلقه، غنيٌّ عن خلقه فهو الملك لهم ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ ثم إذا زاد تأمله عرف أنه يستحق أن يُعبد، لأنه لا عبادة إلا للغني عن كل ما سواه، المفتقر إليه كل ما عده ﴿إِلَهُ النَّاسِ﴾ وإنما كرر لفظ الناس ثلاثاً ولم يكتف بالضمير، لإظهار شرفهم وتعظيمهم والاعتناء بشأنهم، كما حسن التكرار في قوله الشاعر:

لَا أَرَى الْمَوْتَ يَسْبِقُ الْمَوْتَ شَيْءٌ نَعَصَ الْمَوْتُ ذَا الْغِنَى وَالْفَقِيرَا ^(١)

قال ابن كثير: هذه ثلاث صفات من صفات الرب عز وجل «الربوبية» و«الملكية» و«الإلهية» فهو ربُّ كل شيء ومليكه وإلهه، وجميع الأشياء مخلوقة ومملوكة له، فأمر المستعبد أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ أي من شر الشيطان الذي يلقي حديث السوء في النفس، ويوسوس للإنسان ليغريه بالعصيان ﴿الْخَنَّاسِ﴾ الذي يخنس أن يختفي ويتأخر إذا ذكر العبد ربه، فإذا غفل عن الله عاد فوسوس له وفي الحديث: «إِنَّ الشَّيْطَانَ وَاضِعُ خَطْمُهُ - أَنْفُهُ - عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِنْ ذَكَرَ خَنَسَ، وَإِنْ نَسِيَ اتَّقَمَ قَلْبُهُ، فَذَلِكَ الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ» ^(٢) ﴿الَّذِي يُوسَّوْسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ أي الذي يلقي لشدة خبثه في قلوب البشر صنوف الوسواس والأوهام قال القرطبي: ووسوسته هو الدعاء لطاعته بكلام خفي يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع صوت ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ ﴿مِنْ﴾ بَيَانِيَّةٌ أي هذا الذي يوسوس في صدور الناس، هو من شياطين الجن والإنس كقوله تعالى ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] فالآية استعاذة من شر الإنس والجن جميعاً، ولا شك أن شياطين الإنس، أشدُّ فتكاً وخطراً من شياطين الجن، فإن شيطان الجن يخنس بالاستعاذة، وشيطان الإنس يُزَيِّن له الفواحش ويُغريه بالمنكرات، ولا يَتَنَبَّهُ عن عزمه شيء، والمعصوم من عصمه الله ^(٣).

البَلَاغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الإضافة للتشريف والتكريم ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ وفي الآيتين بعدها.

(١) (ش): نَعَصَ أخاه: كدَّه. نَعَصَ عليه الأمر: قطع عليه ما كان يحبُّ الاستكثارَ منه.

(٢) رواه الحافظ الموصلي. (ش): رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في «مُسْنَدِهِ» بإسناد ضعيف.

(٣) (ش): أغراه بالشَّيء / أغراه على الشَّيء: حَضَّه عليه. ثَنَاهُ عن الأمر: صَرَفَهُ عنه، رَدَّه وأبعده. عصمه الله عن المكروه / عصمه الله من المكروه: مَنَعَهُ، حَفِظَهُ وَوَقَاهُ.

- ٢ - الإطناب بتكرار الاسم ﴿يَرْبِّ النَّاسِ﴾ ١ مَلِكِ النَّاسِ ﴿زيادة في التعظيم لهم، والاعتناء بشأنهم، ولو قال (ملكهم، إلههم) لما كان لهم هذا الشأن العظيم.
- ٣ - الطباق بين ﴿الْجَنَّةِ﴾ و﴿وَالنَّاسِ﴾.
- ٤ - جناس الاشتقاق ﴿يُوسُوسُ.. أَلْوَسَّاسِ﴾ ثم ما في السورة من الجرس الموسيقي، الذي يفضل الألحان بعدوبة البيان، وذلك من خصائص القرآن.
- تنبيه:** عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ» (١).

يقول راجي عفوره الجليل، الشيخ محمد علي الصابوني ابن الشيخ جميل: إنه قد تم بعون الله وتوفيقه - تفسير القرآن العظيم، في مهبط الوحي - مكة المكرمة - البلد الأمين، وقد مكثت في تأليف هذا التفسير خمس سنين، وكان الفراغ منه في الثامن عشر من شهر جمادى الثانية ١٣٩٨ هـ سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة بعد الألف من هجرة سيد المرسلين، ونسأل الله حسن القبول، وأن يمنحنا التوفيق والسداد والحمد لله في البدء والختام، وصلى الله على عبده ورسوله، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين

وكتبه

محمد علي الصابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

مكة المكرمة - جامعة الملك عبدالعزيز

تم بحمد الله المجلد الثالث



(١) رواه أهل السنن. (ش): رواه البخاري.

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

مدنية وآياتها مائتان

بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

سورة آل عمران من السور المدنية الطويلة، وقد اشتملت هذه السورة الكريمة على ركنين هامين من أركان الدين هما: **الأول:** ركن العقيدة وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية الله جلَّ وعلا. **الثاني:** التشريع وبخاصة فيما يتعلق بالمغازي والجهاد في سبيل الله.. أما الأول فقد جاءت الآيات الكريمات لإثبات الوحدانية، والنبوة، وإثبات صدق القرآن، والرد على الشبهات التي يثيرها أهل الكتاب حول الإسلام والقرآن وأمر محمد عليه الصلاة والسلام، وإذا كانت سورة البقرة قد تناولت الحديث عن الزمرة الأولى من أهل الكتاب وهم «اليهود» وأظهرت حقيقتهم وكشفت عن نواياهم وخباياهم، وما انطوت عليه نفوسهم من خبث ومكر، فإن سورة آل عمران قد تناولت الزمرة الثانية من أهل الكتاب وهم «النصارى» الذين جادلوا في شأن المسيح وزعموا ألوهيته وكذبوا برسالة محمد وأنكروا القرآن، وقد تناول الحديث عنهم ما يقرب من نصف السورة الكريمة، وكان فيها الرد على الشبهات التي أثاروها بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة، وبخاصة فيما يتعلق بشأن مريم وعيسى عليه السلام، وجاء ضمن هذا الرد الحاسم بعض الإشارات والتفريعات لليهود، والتحذير للمسلمين من كيد ودسائس أهل الكتاب. أما الركن الثاني فقد تناول الحديث عن بعض الأحكام الشرعية كفرضية الحج والجهاد وأمور الربا وحكم مانع الزكاة، وقد جاء الحديث بالإسهاب عن الغزوات كغزوة بدر، وغزوة أحد والدروس التي تلقاها المؤمنون من تلك الغزوات، فقد انتصروا في بدر، وهُزموا في أحد بسبب عصيانهم لأمر الرسول ﷺ وسمعوا بعد الهزيمة من الكفار والمنافقين كثيراً من كلمات الشماتة والتخذيل، فأرشدهم تعالى إلى الحكمة من ذلك الدرس، وهي أن الله يريد تطهير صفوف المؤمنين من أرباب القلوب الفاسدة، ليميز بين الخبيث والطيب، كما تحدثت الآيات الكريمة بالتفصيل عن النفاق والمنافقين وموقفهم من تثييط همم المؤمنين، ثم ختمت بالتفكير والتدبر في ملكوت السماوات والأرض وما فيهما من إتقان وإبداع، وعجائب وأسرار تدل على وجود الخالق الحكيم، وقد ختمت بذكر الجهاد والمجاهدين في تلك الوصية الفذة الجامعة، التي بها يتحقق الخير، ويعظم النصر، ويتم الفلاح والنجاح ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَاصْبِرُوا وَرَاطِبُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

فضلها: عن النواس بن سميان قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: «يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلُهُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَأَلْ عِمْرَانَ»^(١)

التسمية: سميت السورة بـ «آل عمران» لورود لعل الأولى: لمجيء ذكر قصة تلك الأسرة الفاضلة «آل عمران» والد مريم أم عيسى، وما تجلى من مظاهر القدرة الإلهية بولادة مريم البتول وابنها عيسى ﷺ.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْعَمَّ ١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ٢) نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا نَزَّلَ اللَّهُ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ٤) إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٦) هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَكِّرُ إِلَّا أُولَؤُلَآءِ ٧) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ ٩)

اللغة: ﴿الْحَيُّ﴾ الباقي الدائم الذي لا يفنى ولا يموت ﴿الْقَيُّومُ﴾ القائم على تدبير شئون العباد ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾ التصوير: جعل الشيء على صورة معينة أي يخلقكم كما يريد ﴿الْأَرْحَامُ﴾ جمع رحم وهو محل تكوّن الجنين ﴿مُحْكَمَاتٌ﴾ المحكم: ما كان واضح المعنى قال «القرطبي»: «المحكم ما عُرف تأويله وفهم معناه وتفسيره، والمتشابه: ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر تعالى بعلمه دون خلقه مثل الحروف المقطعة في أوائل السور، هذا أحسن ما قيل فيه»^(١) ﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أصل الكتاب وأساسه وعموده ﴿زَيْغٌ﴾ ميلٌ عن الحق يقال: زاغ زغيًا أي مال ميلاً ﴿تَأْوِيلُهُ﴾ التأويل: التفسير وأصله المرجع والمصير من قولهم آل الأمر إلى كذا إذا صار إليه^(٢). ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ الراسخ: الثبوت في الشيء والتمكّن منه، قال الشاعر:

لَقَدْ رَسَخْتُ فِي الْقَلْبِ مِنِّي مَوَدَّةٌ لِلَّيْلِ أَبَتْ أَيَّامُهَا أَنْ تُغَيِّرَا^(٣)

سَبَبُ النُّزُول: نزلت هذه الآيات في وفد نصارى نجران وكانوا ستين راكبًا، فيهم أربعة عشر من أشرافهم ثلاثة منهم أكابرهم «عبد المسيح» أميرهم و «الأيهم» مُشِيرُهُمْ^(٤) و «أبو حارثة بن علقمة» حَبْرُهُمْ، فقدموا على النبي ﷺ فتكلم منهم أولئك الثلاثة معه فقالوا تارة: عيسى هو «الله» لأنه كان يحيي الموتى، وتارة هو «ابن الله» إذ لم يكن له أب، وتارة إنه «ثالث ثلاثة» لقوله

(١) «القرطبي» ٩/٤.

(٢) (ش): قوله: التأويل التفسير فيه نقص؛ لأن التأويل قد يراد به التفسير، وقد يراد به الحقيقة التي يثول إليها الشيء والمراد هنا المعنى الثاني.

(٣) «القرطبي» ١٩/٤.

(٤) (ش): أشار عليه بكذا: أرشده، ونصحه أن يفعل كذا، مُبَيِّنًا ما فيه من الصواب.

تعالى: «فعلنا وقلنا» ولو كان واحداً لقال «فعلت وقلت» فقال لهم رسول الله ﷺ: «ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت وأن عيسى يموت»! قالوا: بلى، قال: «ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه» قالوا: بلى، قال: «ألستم تعلمون أن ربنا قائم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه فهل يملك عيسى شيئاً من ذلك؟» قالوا: لا، قال: «ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فهل يعلم عيسى شيئاً من ذلك إلا ما علم؟» قالوا: لا، قال: «ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث وأن عيسى كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث»! قالوا: بلى فقال ﷺ: «فكيف يكون كما زعمتم؟» فسكتوا وأبوا إلا الجحود فأنزل الله من أول السورة إلى نيّف وثمانين آية^(١).

التفسير: ﴿الَمْ﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية وقد تقدّم في أول البقرة ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا ربّ سواه ولا معبود بحق غيره ﴿الْحَى الْقَيُّومُ﴾ أي الباقي الدائم الذي لا يموت، القائم على تدبير شئون عباده ﴿زَلَّ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ﴾ أي نزل عليك يا محمد القرآن بالحجج والبراهين القاطعة ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي من الكتب المنزلة قبله المطابقة لما جاء به القرآن ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ من قبل هدى للناس أي أنزل الكتابين العظيمين «التوراة» و «الإنجيل» من قبل إنزال هذا القرآن هداية لبني إسرائيل ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ أي جنس الكتب السماوية لأنها تفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وقيل: المراد بالفرقان القرآن وكرّر تعظيماً لشأنه^(٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي جحدوا بها وأنكروها وردّوها بالباطل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي عظيم أليم في الآخرة ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو نِقَامٍ﴾ أي غالب على أمره لا يعزب، منتقم ممن عصاه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي لا يغيب ولا يغرب عن علمه أمرٌ من الأمور، فهو مطلع على كل ما في الكون لا تخفى عليه خافية ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي يخلقكم في أرحام أمهاتكم كما يشاء من ذكر وأنثى، وحسن وقبح ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي لا ربّ سواه، متفرد بالوحدانية والألوهية، العزيز في ملكه الحكيم في صنعه، وفي الآية ردٌّ على النصارى حيث ادعوا ألوهية عيسى فنّبّه تعالى بكونه مصوراً في الرحم، وأنه لا يعلم الغيب على أنه عبد كغيره من العباد ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي أنزل عليك يا محمد القرآن العظيم ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي فيه آيات بينات واضحات الدلالة، لا التباس فيها ولا غموض كآيات الحلال والحرام، هنّ أصل الكتاب وأساسه ﴿وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ﴾ أي وفيه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة

(١) «الفخر الرازي» ١/٧، ١٦٥، و«ابن كثير المختصر» ١/٢٨٨.

(ش): ذكره الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.

(٢) وهو قول قتادة والربيع واختار ابن جرير أن الفرقان بمعنى الفارق بين الغي والرشاد والهدى والضلال لتقدم ذكر القرآن في قوله: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ﴾.

على كثير من الناس، فمن ردّ التشابه إلى الواضح المحكم فقد اهتدى، وإن عكس فقد ضلّ ولهذا قال تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ﴾ أي فأما من كان في قلبه ميلٌ عن الهدى إلى الضلال فيتبع التشابه منه ويفسره على حسب هواه ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ أي طلباً لفتنة الناس في دينهم، وإيهاماً للأتباع بأنهم يبتغون تفسير كلام الله، كما فعل النصاري الضالون حيث احتجوا بقوله تعالى في شأن عيسى: ﴿وَكَلَّمَتْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ ^(١) على أن عيسى ابن الله أو هو جزء من الله فادعوا ألوهيته وتركوا المحكم وهو قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩] الدالّ على أنه عبد من عباد الله ورسوله من رسله ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي لا يعلم تفسير التشابه ومعناه الحقيقي إلا الله وحده ^(٢) ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ أي الثابتون المتمكنون من العلم يؤمنون بالتشابه وأنه من عند الله ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ أي كل من التشابه والمحكم حقٌ وصدق لأنه كلام الله، قال تعالى ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولَ الْأُكْبَابِ﴾ أي ما يتعظ ويتدبر إلا أصحاب العقول السليمة المستنيرة ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ أي لا تملها عن الحق ولا تضلنا ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أي بعد أن هديتنا إلى دينك القويم وشرعك المستقيم ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ أي امنحنا من فضلك وكرمك رحمةً تثبتنا بها على دينك الحق ﴿إِنَّكَ أَنْتَ أَلْوَهَابُ﴾ أي أنت يا رب المتفضل على عبادك بالعطاء والإحسان ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي جامع الخلائق في ذلك اليوم الرهيب «يوم الحساب» الذي لا شك فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْعَهْدَ﴾ أي وعده حق وأنت يا رب لا تخلف الموعد، كقوله تعالى ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ﴾ إلى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿[النساء: ٨٧] ؟!

(١) (ش): ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أي من الأرواح التي خلقها، وكلّما بالصفات الفاضلة والأخلاق الكاملة، أرسل الله تعالى جبريل عليه السلام، فنفخ في فرج مريم عليها السلام فحملت بإذن الله بعيسى عليه السلام.

(٢) (ش): هنا تناقض مع ما سبق أن قاله المؤلف من أن التشابه يُردُّ إلى المحكم، فإن كان لا يعلم تفسير التشابه ومعناه الحقيقي إلا الله فكيف يُردُّ إلى المحكم.

للمفسرين في الوقوف على ﴿اللَّهُ﴾ من قوله ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ قولان، جمهورهم يقفون عندها، وبعضهم يعطف عليها ﴿والراسخون في العلم﴾ وذلك كله محتمل، فإن التأويل إن أريد به علم حقيقة الشيء وكنهه كان الصواب الوقوف على ﴿إلا الله﴾ لأن التشابه الذي استأثر الله بعلم كنهه وحقيقته، نحو حقائق صفات الله وكنهيتها، وحقائق أوصاف ما يكون في اليوم الآخر ونحو ذلك، فهذه لا يعلمها إلا الله، ولا يجوز التعرض للوقوف عليها، لأنه تعرض لما لا يمكن معرفته. وإن أريد بالتأويل التفسير والكشف والإيضاح، كان الصواب عطف ﴿الراسخون﴾ على ﴿اللَّهُ﴾ فيكون الله قد أخبر أن تفسير التشابه وردّه إلى المحكم وإزالة ما فيه من الشبهة لا يعلمها إلا هو تعالى والراسخون في العلم يعلمون أيضًا، فيؤمنون بها ويردونها للمحكم ويقولون ﴿كل﴾ من المحكم والتشابه ﴿من عند ربنا﴾ وما كان من عنده فليس فيه تعارض ولا تناقض بل هو متفق يصدق بعضه بعضًا ويشهد بعضه لبعض.

البلاغة: ١ - ﴿زَلَّ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ عبّر عن القرآن بالكتاب الذي هو اسم جنس إيداناً بكمال تفوقه على بقية الكتب السماوية كأنه هو الحقيق بأن يطلق عليه اسم الكتاب.

٢ - ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ كناية عما تقدمه وسبقه من الكتب السماوية فسمى ما مضى بين يديه لغاية ظهوره واشتهاره.

٣ - ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ أي أنزل سائر ما يفرق بين الحق والباطل فهو من باب عطف العام على الخاص حيث ذكر أولاً الكتب الثلاثة ثم عمّ الكتب كلها لإفادة الشمول مع العناية بالخاص.

٤ - ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ قال الشريف الرضي: هذه استعارة والمراد بها أن هذه الآيات جماع الكتاب وأصله فهي بمنزلة الأم له، وكأن سائر القرآن يتبعها أو يتعلق بها كما يتعلق الولد بأمه ويفزع إليها في مهمة^(١).

٥ - ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ وهذه استعارة المراد بها المتمكنون في العلم تشبيهاً برسوخ الشيء الثقيل في الأرض الخوارة وهو أبلغ من قوله والثابتون في العلم^(٢).

الفوائد: الأولى: روى مسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ تلا ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ﴾ الآية ثم قال: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ»^(٣).

الثانية: قال «القرطبي»: أحسن ما قيل في المتشابه والمحكم: أن المحكم ما عُرف تأويله وفهم معناه وتفسيره، والمتشابه ما استأثر الله تعالى بعلمه دون خلقه ولم يكن لأحدٍ إلى علمه سبيل، قال بعضهم: وذلك مثل وقت قيام الساعة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج الدجال، وعيسى، ونحو الحروف المقطعة في أوائل السور^(٤).

الثالثة: آيات القرآن قسمان: محكمات ومتشابهات كما دلت عليه الآية الكريمة، فإن قيل: كيف يمكن التوفيق بين هذه الآية وبين ما جاء في سورة هود أن القرآن كله محكم ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [الآية: ١] وما جاء في (الزمر) أن القرآن كله متشابه ﴿زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا﴾ [الآية: ٢٣]؟! فالجواب أنه لا تعارض بين الآيات إذ كل آية لها معنى خاص غير ما نحن في صدد قوله: ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود: ١] بمعنى أنه ليس به عيب، وأنه كلامٌ حق فصيح الألفاظ، صحيح المعاني وقوله: ﴿كِتَابًا مُتَشَبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] بمعنى أنه يشبه بعضه بعضاً في الحسن ويصدق بعضه بعضاً، فلا تعارض بين الآيات.

(١) «تلخيص البيان» ص ١٧.

(٢) «تلخيص البيان» ص ١٧.

(٣) (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٤) «القرطبي» ٩/٤.

الرابعة: روى البخاري عن سعيد بن جبير أن رجلاً قال لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ، قال: ما هو؟ قال قوله تعالى: ﴿فَلَا أُنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] وقال: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصفات: ٢٧] وقال تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢] وقال ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] فقد كتموا في هذه الآية، وفي النازعات ذكر خلق السماء قبل خلق الأرض، وفي فصلت ذكر خلق الأرض قبل خلق السماء، وقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦] ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨] ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤] فكأنه كان ثم مضى. فقال ابن عباس: ﴿فَلَا أُنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] في النفخة الأولى ﴿فَصَعَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون، ثم في النفخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون، وأما قوله ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢] فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم فيقول المشركون تعالوا نقول: لم نكن مشركين، فختم الله على أفواههم فننطق جوارحهم بأعمالهم لهم فعند ذلك عرف أن الله لا يكتف حديثاً وعنده يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين، وخلق الله الأرض في يومين ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات في يومين، ثم دحا الأرض أي بسطها فأخرج منها الماء والمرعى وخلق فيها الجبال والأشجار والآكام وما بينها في يومين آخرين فذلك قوله ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠] فخلقت الأرض وما فيها في أربعة أيام وخلقت السماء في يومين، وقوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦] فسمي نفسه ذلك أي لم يزل ولا يزال كذلك، ويحك فلا يختلف عليك القرآن فإن كلاً من عند الله.

قال الله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُنْفِكَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ⑩
كَذَّابٍ ⑪ أَلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ⑫ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ⑬ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ اللَّتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ⑭ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ ⑮ قُلْ أَوْفَيْتُكُمْ بِحَيْثُ مِنْ ذَلِكَ لَلَّذِينَ آتَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ⑯ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَعْمَانَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ⑰ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ⑱

المناسبة: لما حكى تعالى عن المؤمنين دعاءهم وتضرعهم أن يشتمهم الله على الإيمان، حكى عن الكافرين سبب كفرهم وهو اغترارهم في هذه الحياة بكثرة المال والبنين، ويبن أنها لن تدفع عنهم عذاب الله، كما لن تغني عنهم شيئاً في الدنيا، وضرب على ذلك الأمثال بغزوة بدر حيث التقى فيها جند الرحمن بجند الشيطان، وكانت النتيجة اندحار الكافرين مع كثرتهم وانتصار المؤمنين مع قلتهم، فلم تنفعهم الأموال ولا الأولاد، ثم أعقب تعالى ذلك بذكر شهوات الدنيا ومُتَع الحياة التي يتنافس الناس فيها، ثم ختمها بالتذكير بأن ما عند الله خير للأبرار.

اللغة: ﴿تُغْنِيكَ﴾ الإغناء: الدفع والنفع ﴿وَقُودُ النَّارِ﴾ القود بفتح الواو الحطب الذي توقد به النار، وبالضم مصدر بمعنى الاتقاد ﴿كَذَّابٍ﴾ الدَّابُّ: العادة والشأن وأصله من دأب الرجل في عمله إذا جدَّ فيه واجتهد ثم أطلق الدَّابُّ على العادة والشأن لأن من دأب على شيء أمداً طويلاً صار له عادة ﴿آيَةً﴾ علامة ﴿فَعَةً﴾ جماعة، وسميت الجماعة من الناس فئةً لأنه يُفَاء إليها في وقت الشدة^(١) ﴿لَعِبْرَةً﴾ العبرة: الاتعاظ ومنه يقال: اعتبر، واشتقاقها من العبور وهو مجاوزة الشيء إلى الشيء، ومنه عبور النهر، فالاعتبار انتقال من حالة الجهل إلى حالة العلم ﴿زَيْنٌ﴾ التزيين: تحسين الشيء وتجميله في عين الإنسان ﴿الشَّهَوَاتِ﴾ الشهوة: ما تدعو النفس إليه وتشتهيه، والفعل منه اشتهى وتُجمع على شهوات ﴿وَالْقَنَاطِيرِ﴾ جمع قنطار وهو العُقْدَةُ الكبيرة من المال أو المال الكثير الذي لا يحصى ﴿الْمُقَنْطَرَةِ﴾ المضعفة وهو التأكيد كقولك ألوف مؤلفة وأضعاف مضاعفة قاله «الطبري»، وروي عن الفراء أنه قال: القناطر جمع القنطار، والمقنطرة جمع الجمع فيكون تسع قناطر^(٢) ﴿الْمُسَوِّمَةِ﴾ المعلمة بعلامة تجعلها حسنة المنظر تجتلب الأنظار وقيل المسوومة: الراعية وقال مجاهد وعكرمة: إنها الخيل المُطَهَّمَةُ^(٣) الحسان^(٤) ﴿الْمَقَابِ﴾ المرجع يقال: أب الرجل إياباً ومآباً قال تعالى ﴿إِنْ إِلَيْنَا إِيَابُهُمْ﴾ ﴿يَالْأَسْحَارِ﴾ السحر: الوقت الذي قبل طلوع الفجر.

سَبَبُ النُّزُول: لَمَّا أَصَابَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُرَيْشًا يَوْمَ بَدْرٍ وَرَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ جَمَعَ الْيَهُودَ فَقَالَ لَهُمْ: «يَا مَعْشَرَ يَهُودَ أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قُرَيْشًا». قَالُوا يَا مُحَمَّدُ لَا يَعْرَنُكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنَّكَ قَتَلْتَ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ كَانُوا أَغْمَارًا - يَعْنِي جُهَالًا - لَا يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ إِنَّكَ لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَّا نَحْنُ النَّاسُ وَأَنْتَ لَمْ تَلَقْ مِثْلَنَا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿قُلْ لِّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾

(١) (ش): أي يُرْجَعُ إليها في وقت الشدة.

(٢) «القرطبي» ٣١/٤.

(٣) (ش): خَيْلٌ مُطَهَّمَةٌ: مُقَرَّبَةٌ مُكْرَمَةٌ عَزِيزَةٌ الْإِنْسَانِ.

(٤) «تفسير الرازي» ٧/٢١١.

الآية (١) «(٢)».

التفسير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ أي لن تفيدهم الأموال والأولاد، ولن تدفع عنهم من عذاب الله في الآخرة ﴿مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي من عذاب الله وأليم عقابه ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ وَقُودُ النَّارِ﴾ أي هم حطب جهنم الذي تُسَجَّر وتوقد به النار ﴿كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي حال هؤلاء الكفار وشأنهم كحال وشأن آل فرعون، وصنيعهم مثل صنيعهم ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي من قبل آل فرعون من الأمم الكافرة كقوم هود وصالح وشعيب ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي كذبوا بالآيات التي تدل على رسالات الرسل ﴿فَلَاخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي أهلكهم وعاقبهم بسبب الكفر والمعاصي ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي أليم العذاب شديد البطش، والغرض من الآية أن كفار قريش كفروا كما كفر أولئك المعاندون من آل فرعون ومن سبقهم، فكما لم تنفع أولئك أموالهم ولا أولادهم فكذلك لن تنفع هؤلاء ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقَهُمْ﴾ أي قل يا محمد لليهود ولجميع الكفار ﴿سُتُعْلَبُونَ﴾ أي تهزمون في الدنيا ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي تُجمعون وتساقون إلى جهنم ﴿وَيُبَسَّسَ الْمَهَادُ﴾ أي بُسَّس المهاد والفراش الذي تمتهدونه نار جهنم ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أي قد كان لكم يا معشر اليهود عظة وعبرة ﴿فِي فِتْنَةِ الْتَقَاتِ﴾ أي في طائفتين التقتا للقتال يوم بدر ﴿فِتْنَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي طائفة مؤمنة تقاتل لإعلاء دين الله ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ أي وطائفة أخرى كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت وهم كفار قريش ﴿يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَيْهِمْ﴾ أي يرى الكافرون المؤمنين أكثر منهم مرتين ﴿رَأَىٰ الْعَيْنُ﴾ أي رؤية ظاهرة مكشوفة بالعين المجردة لا بالوهم والخيال، وقيل: المراد يرى المؤمنون ضعفيهم في العدد، وذلك أن الله أكثر المؤمنين في أعين الكافرين ليرهبوهم ويجنبوا عن قتالهم، والقول الأول اختيار ابن جرير وهو الأظهر لقوله تعالى ﴿رَأَىٰ الْعَيْنُ﴾ أي رؤية حقيقية لا بالخيال ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصَرَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يقوي بصره من يشاء ﴿إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ﴾ أي لآية وموعظة ﴿لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي لذوي العقول السليمة والأفكار المستقيمة، ومغزى الآية أن القوة المادية ليست كل شيء، وأن النصر لا يكون بكثرة العدد والعتاد، وإنما يكون بمعونة الله وتأييده كقوله: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠] ثم أخبر تعالى عن اغترار الناس بشهوات الحياة الفانية فقال: ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢٦٨/١ و«أسباب النزول» للواحدي ص ٥٤.

(ش): أخرجه ابن جرير، والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما بسند حسن.

(٢) (ش): رواه أبو داود، وضعفه الألباني.

(٣) (ش): «المهاد»: الفراش الممهّد للنوم. مَهْدُ الْفِرَاشِ امْتَدَّه: بَسَطَهُ وَوَطَّاهُ وَجَعَلَهُ لِيُنَاسِئَ الْقَعُودَ وَالنَّوْمَ عَلَيْهِ، أَعَدَّهُ وَهَيَّاهُ.

النِّسَاءِ ﴿١﴾ أَي حُسْنِ إِلَيْهِمْ وَحُبِّ إِلَى نفوسهم المَيْلِ نحو الشهوات، وبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد، والالتذاذ بهن أكثر وفي الحديث «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرَّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ» ^(١) ثم ذكر ما يتولد منهن فقال ﴿وَالْبَيْنِ﴾ وإِنَّمَا نُنَى بالبنين؛ لأنهم ثمرات القلوب وقررة الأعين كما قال القائل:

وَإِنَّمَا أَوْلَادُنَا بَيْنَنَا أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ
لَوْ هَبَّتِ الرِّيحُ عَلَى بَعْضِهِمْ لَأَمْتَنَعَتْ عَيْنِي مِنَ الْغَمَضِ
وقدّموا على الأموال لأن حب الإنسان لولده أكثر من حبه لماله ﴿وَالْقَنَاطِيرُ الْمُقَنْطَرَةُ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ أي الأموال الكثيرة المكدّسة من الذهب والفضة، وإِنَّمَا كَانَ الْمَالُ محبوباً لأنه يحصل به غالب الشهوات، والمرء يتركب الأخطار في تحصيله ﴿وَتُحْبَوْنَ أَمْالًا حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢] والذهب والفضة أصل التعامل ولذا خُصَّ بالذكر ﴿وَالْخَيْلُ الْمُسَوَّمَةُ﴾ أي الأصيلة الحسان ﴿وَالْأَنْعَامُ﴾ أي الإبل والبقر والغنم فمنها المَرْكَبُ والمَطْعَمُ والزينة ﴿وَالْحَرْثُ﴾ أي الزرع والغراس لأن فيه تحصيل أقواتهم ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي إِنَّمَا هَذِهِ الشَّهَوَاتُ زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ﴾ أي حسن المرجع والثواب ﴿قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ﴾ أي قل يا محمد أخبركم بخير مما زُيِّن للناس من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها الزائل؟ والاستفهام للتقرير ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي للمتقين يوم القيامة جناتٌ فسيحات تجري من خلال جوانبها وأرجائها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبد الآباد ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي منزّهة عن الدنس والخبث، الحسي والمعنوي، لا يتغوّطن ولا يتبوّلن ولا يحضّضن ولا ينفسن، ولا يعترين ما يعترى نساء الدنيا ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي ولهم مع ذلك النعيم رضوانٌ من الله وأيّ رضوان، وقد جاء في الحديث «أَحِلَّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا» ^(٢) ﴿وَاللَّهُ بِصِيرُكُمْ بِالْعِبَادِ﴾ أي عليم بأحوال العباد يعطي كلّاً بحسب ما يستحقه من العطاء. ثم بيّن تعالى صفات هؤلاء المتقين الذين أكرمهم بالخلود في دار النعيم فقال: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَعْمَانَا﴾ أي آمنا بك وبكتبك ورسلك ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي اغفر لنا بفضلِكَ ورحمتِكَ ذُنُوبَنَا ونجنا من عذاب النار ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِيتِينَ﴾ أي الصابرين على البأساء والضراء، والصادقين في إيمانهم وعند اللقاء، والمطيعين لله في الشدة والرخاء ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ أي الذين يبذلون أموالهم في وجوه الخير ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ أي وقت السحر قبيل طلوع الفجر ^(٣).

(١) أخرجه البخاري.

(٢) (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٣) «تفسير أبي السعود» ١/ ٢٢١.

البَلَاغَةُ: ١- ﴿مَنْ اللَّهُ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي من عذاب الله ٢- ﴿شَيْئًا﴾ التنكير للتقليل أي لن تنفعهم أي نفع ولو قليلاً. ٣- ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ الجملة إسمية للدلالة على ثبوت الأمر وتحققه. ٤- ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الحاضر والأصل فأخذناهم. ٥- ﴿لَكُمْ آيَةٌ﴾ الأصل «آية لكم» وقدم للإعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر، والتنكير في آية للتفخيم والتهويل أي آية عظيمة ومثله التنكير في ﴿وَرَضَوْنَهُ مِنْ رَبِّكَ﴾ [آل عمران: ١٦٢] ٦- وقوله تعالى ﴿يَرَوْنَهُمْ﴾ و ﴿رَأَى الْعَيْنِ﴾ بينهما جناس الاشتقاق ٧- ﴿حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ يراد به المشتبهات قال الزمخشري: عبر بالشهوات مبالغة كأنها نفس الشهوات، وتنبهها على خستها لأن الشهوة مسترذلة عند الحكماء. ٨- ﴿يَخَيَّرُ مِنْ ذَلِكَكُمْ﴾ إيهام الخير لتفخيم شأنه والتشويق لمعرفته ٩- ﴿اتَّقُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قال «أبو السعود»: التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المتقين لإظهار مزيد اللطف بهم. ١٠- ﴿وَالْقَنَاطِيرُ الْمُقَنْطَرَةُ﴾ بينهما من المحسنات البديعية ما يسمى بالجناس الناقص.

فَائِدَةٌ: الأولى: من المزين للشهوات؟ قيل: هو الشيطان ويدل عليه قوله تعالى ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [النمل: ٢٤] وتزيين الشيطان: وسوسته وتحسينه الميل إليها وقيل: المزين هو الله ويدل عليه ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧] وتزيين الله للابتلاء ليظهر عبد الشهوة من عبد المولى وهو ظاهر قول عمر: «اللهم لا صبر لنا على ما زينتنا لنا إلا بك»^(١).

الثانية: تخصيص الأسحار بالاستغفار لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة، لأن النفس أصفى، والروح أجمع، والعبادة أشق فكانت أقرب إلى القبول، قال ابن كثير: كان عبد الله بن عمر يصلي من الليل ثم يقول يا نافع: هل جاء السحر؟ فإذا قال: نعم أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح^(٢).

قال الله تعالى:

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَسْلَمُوا عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا سَلَمُوا وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةِينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بَعْدَ حَقِّهِمْ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ

(١) رواه البخاري.

(ش): لم أجده في البخاري بهذا اللفظ، لكن رواه البخاري مُعَلِّقًا بصيغة الجزم بلفظ آخر فقال: قَالَ عُمَرُ اللَّيْثُ إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ إِلَّا أَنْ نَفْرَحَ بِمَا زَيَّنَتْهُ لَنَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تُنْفِقَهُ فِي حَقِّهِ.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ١/ ٢٧١.

يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتِ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ تَوَلَّى فَوَاقٍ مِنْهُمْ وَمُتَّعُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي ذَنُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَقْرَأُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

المناسبة: لما مدح تعالى المؤمنين وأثنى عليهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَاكَ بِالدِّينِ﴾. ثم بين أن دلائل الإيمان ظاهرة جليلة فقال ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ثم بين أن الإسلام هو الدين الحق الذي ارتضاه الله لعباده، وأمر الرسول بأن يعلن استسلامه لله وانقياده لدين الله، وأعقبه بذكر ضلالات أهل الكتاب واختلافهم في أمر الدين اختلافاً كبيراً، وإعراضهم عن قبول حكم الله.

اللغة: ﴿شَهِدَ﴾ الشهادة: الإقرار والبيان ﴿بِالْقِسْطِ﴾ العدل ﴿الَّذِينَ﴾ أصل الدين في اللغة: الجزاء ويطلق على الملة وهو المراد هنا ﴿أَلَا سَلَّمُ﴾ الإسلام في اللغة: الاستسلام والانقياد التام قال ابن الأثير: المسلم معناه المخلص لله عبادته من قولهم: سلم الشيء لفلان أي خلس له؛ فالإسلام معناه إخلاص الدين والعقيدة لله تعالى ﴿حَاجُّوكَ﴾ جادلوك ونازعوك ﴿وَعَرَّهُمْ﴾ فتنهم ﴿يَقْرَأُونَ﴾ يكذبون.

سبب النزول: لما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة قدم عليه حبران من أحبار الشام، فلما دخلا عليه عرفاه بالصفة والنعت فقالا له: أنت محمد؟ قال: نعم، قالوا: وأنت أحمد؟ قال: نعم، قالوا: نسألك عن شهادة فإن أنت أخبرتنا بها آمنة بك وصدقناك، فقال لهما رسول الله ﷺ: سلاني، فقالوا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله فنزلت ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية فأسلم الرجلان^(١) وصدقوا برسول الله ﷺ.

التفسير: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي بين وأعلم تعالى عباده بانفراده بالوحدانية، قال الزمخشري: شُهِتَ دلالة على وحدانيته بشهادة الشاهد في البيان والكشف ﴿وَأَلَمَلِكُهُ وَأَوَّلُوا الْعِلْمَ﴾ أي وشهدت الملائكة وأهل العلم بوحدانيته بدلائل خلقه وبديع صنعه ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ أي حال كونه مقيماً للعدل فيما يقسم من الآجال والأرزاق ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود في الوجود بحق إلا هو ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي العزيز في ملكه الحكيم في صنعه ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْأَسْلَمُ﴾ أي الشرع المقبول عند الله هو الإسلام، ولا دين يرضاه الله سوى الإسلام ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي وما اختلف

(١) (ش): موضوع، ذكره الواحدي في «أسباب النزول».

(٢) «القرطبي» ١/ ١٤٠، و«البحر المحيط» ٢/ ٤٠١.

اليهود والنصارى في أمر الإسلام ونبوة محمد عليه السلام، إلا بعد أن علموا بالحجج النيرة والآيات الباهرة حقيقة الأمر، فلم يكن كفرهم عن شبهة وخفاء وإنما كان عن استكبار وعناد، فكانوا ممن ضلَّ عن علم ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي حسدًا كائنًا بينهم حملهم عليه حب الرئاسة ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وهو وعيد وتهديد أي من يكفر بآياته تعالى فإنه سيصير إلى الله سريعًا فيجازيه على كفره ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ أي إن جادلوك يا محمد في شأن الدين فقل لهم: أنا عبدُ الله قد استسلمتُ بكليتي لله، وأخلصت عبادتي له وحده، لا شريك له ولا يد ولا صاحبة ولا ولد ﴿وَمَنْ اتَّبَعَني﴾ أي أنا وأتباعي على ملة الإسلام، مستسلمون منقادون لأمر الله ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ﴾ أي قل لليهود والنصارى والوثنيين من العرب ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ أي هل أسلمتم أم أنتم باقون على كفركم فقد أتاكم من البينات ما يوجب إسلامكم؟ ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ أي فإن أسلموا كما أسلمتم فقد نفعوا أنفسهم بخروجهم من الضلال إلى الهدى ومن الظلمة إلى النور ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ﴾ أي وإن أعرضوا فلن يضروك يا محمد إذ لم يكلفك الله هدايتهم وإنما أنت مكلف بالتبليغ فحسب والغرض منها تسلية النبي ﷺ ﴿وَاللَّهُ بِصِيرُكُمْ بِالْعِبَادِ﴾ أي عالم بجميع أحوالهم فيجازيهم عليها، روي أن رسول الله ﷺ لما قرأ هذه الآية على أهل الكتاب قالوا: أسلمنا فقال عليه السلام لليهود: أتشهدون أن عيسى كلمة الله وعبده ورسوله «فقالوا: معاذ الله، فقال للنصارى: أتشهدون أن عيسى عبد الله ورسوله» فقالوا: معاذ الله أن يكون عيسى عبدًا وذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ (١). ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي يكذبون بما أنزل الله ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي يقتلون أنبياء الله بغير سبب ولا جريمة إلا لكونهم دعوهم إلى الله، وهم اليهود قتلوا زكريا وابنه يحيى وقتلوا أنبياء الله، قال ابن كثير: «قتلت بنو إسرائيل ثلاثمائة نبيٍّ من أول النهار، وأقاموا سوق بقلهم من آخره» ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ﴾ أي أخبرهم بما يسرهم وهو العذاب الموجه للمهين، والأسلوب للتهكم وقد استحقوا ذلك لأنهم جمعوا ثلاثة أنواع من الجرائم: الكفر بآيات الله، وقتل الأنبياء، وقتل الدعاة إلى الله، قال تعالى مبينًا عاقبة إجرامهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي بطلت أعمالهم التي عملوها من البر والحسنات، ولم يبق لها أثر في الدارين، بل بقي لهم اللعنة والخزي في الدنيا والآخرة ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ أي ليس لهم من ينصرهم من عذاب الله أو يدفع عنهم عقابه. ثم ذكر تعالى طرفًا من لجاج وعناد أهل الكتاب

(١) «تفسير أبي السعود» ٣٢٢/١.

(ش): موضوع، ذكره الحافظ ابن حجر العسقلاني في «العجاب في بيان الأسباب». وهو في «تفسير أبي السعود» بدون سند بصيغة التمريض «رُوي» التي ذكرها المؤلف.

فقال ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ أي ألا تعجب يا محمد من أمر هؤلاء الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب فالصيغة صيغة تعجب للرسول أو لكل مخاطب قال الزمخشري: يريد أحبار اليهود وأنهم حصلوا نصيبًا وافراً من التوراة ﴿يَدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أي يدعون إلى التوراة كتابهم الذي بين أيديهم والذي يعتقدون صحته، ليحكم بينهم فيما تنازعوا فيه فيأبون ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ أي ثم يعرض فريق منهم عن قبول حكم الله، وهو استبعاد؛ لتوليهم بعد علمهم بوجوب الرجوع إليه، وجملة ﴿وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ تأكيد للتولي أي وهم قوم طبيعتهم الإعراض عن الحق، والإصرار على الباطل والآية كما يقول المفسرون تشير إلى قصة تحاكم اليهود إلى النبي ﷺ لما زنى منهم إثنان فحكم عليهما بالرجم فأبوا وقالوا: لا نجد في كتابنا إلا التحميم فجاء بالتوراة فوجد فيها الرجم فرجما، فغضبوا فشنع تعالى عليهم بهذه الآية ^(١) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمْسَنَا أَلَنَّا إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ أي ذلك التولي والإعراض بسبب افتراءهم على الله وزعمهم أنهم أبناء الأنبياء وأن النار لن تصيبهم إلا مدة يسيرة - أربعين يوماً - مدة عبادتهم للعجل ﴿وَعَرَّضُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْرُغُونَ﴾ أي غرهم كذبهم على الله ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي كيف يكون حالهم يوم القيامة حين يجمعهم الله للحساب ! وهو استعظام لما يدهمهم ^(٢) من الشدائد والأحوال ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي نالت كل نفس جزاءها العادل ﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ أي لا يظلمون بزيادة العذاب أو نقص الثواب.

البلاغة: ١ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَأَسْلَمُ﴾ الجملة معرفة الطرفين فتفيد الحصر أي لا دين إلا الإسلام.

٢ - ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ التعبير عن اليهود والنصارى بقوله «أوتوا الكتاب» لزيادة التشنيع والتقبيح عليهم فإن الاختلاف مع علمهم بالكتاب في غاية القبح والشناعة.

٣ - ﴿بَيَّأَنَتِ اللَّهُ فَايَكَ اللَّهُ﴾ إظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة في النفس.

٤ - ﴿أَسْلَبْتُ وَجْهِي﴾ أطلق الوجه وأراد الكل فهو مجاز مرسل من إطلاق الجزء وإرادة الكل.

٥ - ﴿فَبَشَّرَهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الأصل في البشارة أن تكون في الخير واستعمالها في الشر للتهكم ويسمى «الأسلوب التهكمي» حيث نزل الإنذار منزلة البشارة السارة كقوله: ﴿بَشِّرِ الْمُتَنِفِينَ بِأَنَّهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٣٨] وهو أسلوب مشهور.

فائدة: قال «القرطبي»: في هذه الآية دليل على فضل العلم، وشرف العلماء، فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن اسم العلماء، وكفي في شرف

(١) انظر القصة في «صحيح البخاري» كتاب التفسير.

(٢) (ش): دهم الأمر فلاناً: فجأه، أنه، غشيه وفجأه.

عِلْمُ الْعَلِيمِ وَعَقْلُ الْعَاقِلِ اخْتَلَفَا
فَالْعِلْمُ قَالَ أَنَا أَحْرَزْتُ غَايَتَهُ
فَأَفْصَحَ الْعِلْمُ إِفْصَاحًا وَقَالَ لَهُ:
فَبَانَ لِلْعَقْلِ أَنَّ الْعِلْمَ سَيِّدُهُ
مَنْ ذَا الَّذِي فِيهِمَا قَدْ أَحْرَزَ الشَّرْفَا
وَالْعَقْلُ قَالَ أَنَا الرَّحْمَنُ بَنِي عُرْفَا
بِأَيُّنَا اللَّهُ فِي فُرْقَانِهِ اتِّصَفَا
وَقَبَّلَ الْعَقْلُ رَأْسَ الْعِلْمِ وَانْصَرَفَا

قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ۚ
يَسِّرُكَ اللَّهُ الْحَيَّرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ
وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ
وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ
﴿٢٨﴾ قُلْ إِنْ تَخْشَوْنَ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُنْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَبِعَلَّمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ
أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾

اللغة: ﴿اللَّهُمَّ﴾ أصله يا الله حذفت أداة النداء واستعيض عنها بالميم المشددة هكذا قال الخليل وسيبويه ﴿وَتَنَزَّعُ﴾ تسلب ويعبر به عن الزوال يقال: نزع الله عنه الشر، أي أزاله: ﴿تَوَلَّجُ﴾ الإيلاج: الإدخال يقال: ولج يلج ولوجًا ومنه ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] ﴿أَمَدًا﴾ الأمد: غاية الشيء ومنتهاه وجمعه آماد ﴿تُقَنَّةٌ﴾ تقيةٌ وهي مداراة الإنسان مخافة شره.

سَبَبُ النَّزُول: أ - لما افتتح رسول الله ﷺ مكة ووعده أمته ملك فارس والروم، قال المنافقون

(٢) رواه الطبرانی في «الكبير». (ش:) وضعفه الألبانی.

واليهود: هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم!! هم أعز وأمنع من ذلك ألم يكفه مكة حتى طمع في ملك فارس والروم فأُنزل الله ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ...﴾ الآية^(١).

ب - عن ابن عباس أن «عبادة بن الصامت» - وكان بدرياً تقياً - كان له حلفٌ مع اليهود، فلما خرج النبي ﷺ يوم الأحزاب قال له عبادة: يا نبي الله إن معي خمسمائة من اليهود وقد رأيت أن يخرجوا معي فأستظهر بهم على العدو فأُنزل الله ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ الآية^(٢).

التفسير: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ﴾ أي قل: يا الله يا مالك كل شيء ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ أي أنت المتصرف في الأكوان، تهب الملك لمن تشاء وتخلع الملك ممن تشاء ﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ أي تعطي العزة لمن تشاء والذلة لمن تشاء ﴿يَبْدُوكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي بيدك وحدك خزائن كل خير وأنت كل على كل شيء قدير ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي تدخل الليل في النهار كما تدخل النهار في الليل، فتزيد في هذا وتنقص في ذاك والعكس، وهكذا في فصول السنة شتاءً وصيفاً ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي تخرج الزرع من الحب والحب من الزرع، والنخلة من النواة والنواة من النخلة، والبيضة من الدجاجة والدجاجة من البيضة، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن هكذا قال ابن كثير، وقال «الطبري»: «وأولى التأويلات بالصواب تأويل من قال: يخرج الإنسان الحي والأنعام والبهائم من النطف الميته، ويخرج النطفة الميته من الإنسان الحي والأنعام والبهائم الأحياء» ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي تعطي من تشاء عطاءً واسعاً بلا عدٍّ ولا تضيق. ثم نهى تعالى عن اتخاذ الكافرين أنصاراً وأحباباً فقال ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لا توالوا أعداء الله وتركوا أوليائه فمن غير المعقول أن يجمع الإنسان بين محبة الله وبين محبة أعدائه قال الزمخشري: «نُها أن يوالوا الكافرين لقربة بينهم أو صداقة أو غير ذلك من الأسباب التي يُتصادق بها ويُتعاشر ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي من يوال الكفرة فليس من دين الله في شيء ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَةً﴾ أي إلا أن تخافوا منهم محذوراً أو تخافوا أذاهم وشرهم، فأظهروا موالاتهم باللسان دون القلب، لأنه من نوع مداراة السفهاء كما روي «إِنَّا لَنَبْشُ فِي وَجْهِهِ أَقْوَامٍ

(١) «القرطبي» ٥٢/٤.

(ش): ذكره الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.

(٢) «روائع البيان» ٣٩٩/١.

(ش): ضعيف جداً، ذكره الواحدي في «أسباب النزول».

وقلوبنا تلعنهم»^(١) ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي يخوفكم الله عقابه الصادر منه تعالى^(٢) ﴿وَالِإِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي المنقلب والمرجع فيجازي كل عامل بعمله ﴿قُلْ إِنْ تَخْفَوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُدُّوا يَعْلَمَهُ اللَّهُ﴾ أي إن أخفيتم ما في قلوبكم من موالاة الكفار أو أظهرتموه فإن الله مطلع عليه لا يخفى عليه خافية ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي عالم بجميع الأمور، يعلم كل ما هو حادث في السماوات والأرض ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي وهو سبحانه قادر على الانتقام ممن خالف حكمه وعصى أمره، وهو تهديد عظيم ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ أي يوم القيامة يجد كل إنسان جزاء عمله حاضرًا لا يغيب عنه، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، فإن كان عمله حسنًا سره ذلك وأفرحه ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ أي وإن كان عمله سيئًا تمنى أن لا يرى عمله، وأحب أن يكون بينه وبين عمله القبيح غاية في نهاية البعد أي مكان بعيد كما بين المشرق والمغرب ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي يخوفكم عقابه^(٣) ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي رحيم بخلقه يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ أي قل لهم يا محمد إن كنتم حقا تحبون الله فاتبعوني لأنني رسوله؛ يحبكم الله ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي باتباعكم الرسول وطاعتكم لأمره يحبكم الله ويغفر لكم ما سلف من الذنوب قال ابن كثير: «هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه تلك حتى يتبع الشرع المحمدي في جميع أقواله وأفعاله»^(٤) ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا عن الطاعة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا

(١) (ش): (ليس بحديث).

ولكن رواه البخاري معللاً بصيغة التمرير التي تدل على الضعف فقال: وَيُذَكِّرُ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ: «إِنَّا لَنَكْشُرُ فِي وُجُوهِ أَقْوَامٍ، وَإِنْ قُلُوبُنَا لَتَلْعَنُهُمْ». (نكثير): نبسم حتى تظهر أسناننا. بش بفلان. بش لفلان: فرح به وسرّ ولقيه بوجه ضاحك. والبشاشة: طلاقة الوجه.

(٢) (ش): الواجب على المسلم في باب الأسماء والصفات أن يثبت ما أثبتته الله تعالى لنفسه وما أثبتته له رسوله ﷺ، والمسلم يعتقد اعتقاداً جازماً أنه تعالى ﴿ليس كمثل شيء﴾ فما يثبتته المسلم لربه تعالى من الصفات لا يماثل صفات المخلوقات. ولفظه «النفس» ثابتة لله تعالى في كتابه الكريم وفي سنة النبي ﷺ الصحيحة، ولذا فلا يسع المسلم إلا إثباتها: و«النفس» في الآيات والأحاديث الصحيحة ليست ذاتاً منفكة عن الصفات، وليست صفة من صفات الله تعالى كالسمع والبصر، بل معناها في الآيات والأحاديث: ذاته تعالى المقدسة. قال شيخ الإسلام: «ومعلوم أن نفس الله، التي هي ذاته المقدسة، الموصوفة بصفات الكمال، ليست مثل نفس أحد من المخلوقين» (درء تعارض العقل والنقل ١٠/ ٣٠٨). وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين: «وليس النفس صفة كسائر الصفات كالسمع والعلم والقدرة، فالنفس يعني: الذات، فقلوه (وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ) يعني: ذاته. (شرح الأربعين النووية ص ٢٢٨).

(٣) (ش): راجع الهامش السابق.

(٤) «مختصر ابن كثير» ١/ ٢٢٧.

يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٨﴾ أي لا يحب من كفر بآياته وعصى رسله بل يعاقبه ويخزيه ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [التحریم: ٨].

البلاغة: جمعت هذه الآيات الكريمة من ضروب الفصاحة وفنون البلاغة ما يلي:

١ - الطباق في مواضع مثل «تؤتي وتنزع» و «تعز وتذل» و «الليل والنهار» و «الحي والميت» و «تخفوا وتبدوا» وفي «خير وسوء» و «محضرًا وبعيدًا» .

٢ - والجناس الناقص في «مالك الملك» وفي «تحبون ويحبكم» و جناس الاشتقاق بين «تتقوا وتقاة» وبين «يغفر وغفور» .

٣ - رد العجز على الصدر في ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ ﴿وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ .

٤ - التكرار في جمل للتفخيم والتعظيم كقوله ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ .

٥ - الإيجاز بالحذف في مواطن عديدة كقوله ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ أي من تشاء أن تؤتیه ومثلها وتنزع، وتعز، وتذل .

٦ - ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ قال في «تلخيص البيان»: وهذه استعارة عجيبة وهي عبارة عن إدخال هذا على هذا، وهذا على هذا فما ينقصه من الليل يزيده في النهار والعكس، ولفظ الإيلاج أبلغ لأنه يفيد إدخال كل واحد منهما في الآخر بلطف الممازجة وشديد الملازمة .

٧ - ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ الحي والميت مجاز عن المؤمن والكافر فقد شبه المؤمن بالحي والكافر بالميت^(١) والله أعلم .

فائدة: في الاقتصار على ذكر الخير ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ دون ذكر الشر تعليم لنا الأدب مع الله فالشر لا ينسب إلى الله تعالى أدبًا وإن كان منه خلقًا وتقديرًا ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]^(٢) .

تنبيه: روى مسلم في «صحيحه» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا

(١) هذا على رأي من فسر الآية بالوجه الآخر وهو أن المراد يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ﴾ وهو قول الحسن البصري .

(ش): وتكملة الآية: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]

(٢) (ش): عَنْ أَبِي طَالِبٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: «وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي، وَنُسُكِي، وَمَحْيَايَ، وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْتَ رَبِّي، وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذُنُوبِي، فَاعْفُ عَنِّي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ» (رواه مسلم).

جِبْرِيلُ فَقَالَ: إِنِّي أَحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيَحِبُّهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ. فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ. وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: «إِنِّي أَبْغَضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ»، فَيَبْغِضُهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، فَيَبْغِضُونَهُ ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ».

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ٣٢﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٣ ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٣٤﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٣٥ ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُ إِنِّي لَأَكِلُ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٣٦﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ٣٧ ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا لِّكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ٣٨﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ لِمَنْ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ٣٩ ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَنْ لَا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّعْشِ وَالْإِبْكَرِ ٤٠﴾

المناسبة: لما بين تعالى أن محبته لا تتم إلا بمتابعة الرسل وطاعتهم، بين علو درجات الرسل وشرف مناصبهم، فبدأ بآدم وأولهم، وثنى بنوح أبي البشر الثاني، ثم أتى ثالثاً بآل إبراهيم فاندرج فيهم رسول الله ﷺ لأنه من ولد إسماعيل، ثم أتى رابعاً بآل عمران فاندرج فيهم عيسى عليه السلام، وأعقب ذلك بذكر ثلاث قصص: قصة ولادة مريم، وقصة ولادة يحيى، وقصة ولادة عيسى، وكلها خوارق للعادة تدل على قدرة العلي القدير.

اللغة: ﴿اصْطَفَىٰ﴾ اختار وأصله من الصفوة، أي: جعلهم صفوة خلقه ﴿مُحَرَّرًا﴾ مأخوذ من الحرية وهو الذي يُجعل حراً خالصاً، والمراد الخالص لله عزَّ وجلَّ الذي لا يشوبه شيء من أمر الدنيا ﴿أُعِيذُهَا﴾ عاذ بكذا: اعتصم به ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ الكفالة: الضمان يقال كفَّلَ فهو كافل، وهو الذي ينفق على إنسان ويهتم بمصالحه وفي الحديث «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين»^(١) ﴿الْمِحْرَابُ﴾ الموضع العالي الشريف: قال أبو عبيدة: سيد المجالس وأشرفها ومقدمها وكذلك هو من المسجد^(٢) ﴿وَحَصُورًا﴾ من الحصر وهو الحبس، وهو الذي يحبس نفسه عن الشهوات، وللمفسرين في معناه قولان نختار منهما ما اختاره المحققون: أنه الذي لا يأتي النساء لا لعجز

(١) (ش): (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ، وَالتِّرْمِذِيُّ).

(٢) «البحر المحيط» ٢/ ٤٣٣.

بل للعفة^(١) ﴿عَاقِرٌ﴾ عقيم لا تلد. والعافر من لا يولد له من رجل أو امرأة ﴿رَمَزًا بِالْعَشِيِّ﴾ الرمز: الإشارة باليد أو بالرأس أو بغيرهما قال «الطبري»: الإيماء بالشفيتين وقد يستعمل في الحاجبين والعينين^(٢) ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ من حين زوال الشمس إلى غروبها ﴿وَالْإِبْكَرِ﴾ من طلوع الشمس إلى وقت الضحى قَالَ الشَّاعِرُ:

فَلَا الظِّلُّ مِنْ بَرْدِ الضُّحَى تَسْتَطِيعُهُ وَلَا الْفَيءُ مِنْ بَرْدِ الْعَشِيِّ تَذُوقُ

التفسير: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ﴾ أي اختار للنبوّة صفوة خلقه منهم آدم أبو البشر ﴿وَنُوحًا﴾ شيخ المرسلين ﴿وَعَالِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي عشيرته وذوي قريبه وهم إسماعيل وإسحاق والأنبياء من أولادهما ومن جملتهم خاتم المرسلين ﴿وَعَالِ عِمْرَانَ﴾ أي أهل عمران ومنهم عيسى بن مريم خاتم أنبياء بني إسرائيل ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي عالمي زمانهم قال «القرطبي»: وخص هؤلاء بالذكر من بين الأنبياء لأن الأنبياء والرسل جميعاً من نسلهم ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ أي اصطفاهم متجانسين في الدين والتقوى والصلاح ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوال العباد عليم بضمائرهم ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ أي اذكر لهم وقت قول امرأة عمران واسمها «حنّة بنت فاقود» ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾ أي نذرت لعبادتك وطاعتك ما أحمله في بطني ﴿مُحَرَّرًا﴾ أي مخلصاً للعبادة والخدمة ﴿فَتَقَبَّلَ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع لدعائي العليم بنتي ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ أي لَمَّا ولدتها قالت على وجه التحسر والاعتذار يا رب إنها أنثى قال ابن عباس: إنما قالت هذا لأنه لم يكن يُقبل في النذر إلا الذكور فقبل الله مريم. قال تعالى ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ أي والله أعلم بالشيء الذي وضعت قالت ذلك أو لم تقله ﴿وَلَيْسَ الذَّكَوُكُ إِلَّا أُنْثَىٰ﴾ أي ليس الذكر الذي طلبته كالأنثى التي وُهبَها بل هذه أفضل والجملتان معترضان من كلامه تعالى تعظيماً لشأن هذه المولودة وما علّق بها من عظام الأمور وجعلها وابنها آية للعالمين ﴿وَإِنِّي سَمِيتُهَا مَرْيَمَ﴾ من تتمة كلام امرأة عمران والأصل إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمِيتُهَا مَرْيَمَ أي أسميت هذه الأنثى مريم ومعناه في لغتهم العابدة خادمة الرب ﴿وَإِنِّي أَعِيدُهَا بِلَيْكِ وَدُرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أي أجيرها بحفظك وأولادها من شر الشيطان الرجيم، فاستجاب الله لها ذلك قال تعالى ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي قبلها الله قبولاً حسناً قال ابن عباس: سلك بها طريق السعداء ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أي ربّأها تربية كاملة ونشأها تنشئة صالحة ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي جعل زكريا كافلاً لها ومتعهداً للقيام بمصالحها، حتى إذا بلغت مبلغ النساء انزوت في محرابها تتعبد الله ﴿كَلَّمَهَا مِنْ فِيْهِ فَغَبَّهَا عَنْهَا رَبُّهَا﴾ أي كلما دخل عليها زكريا حجرتها ومكان عبادتها وجد عندها فاكهة وطعاماً، قال مجاهد:

(١) «تفسير الفخر الرازي» ٨ / ٣٩، وبنحوه في «الطبري» و«القرطبي».

(٢) «الطبري» ٦ / ٣٨٦.

وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف ﴿قَالَ يَمْرُؤُا إِنَّ لَكَ هَذَا؟﴾ أي من أين لك هذا؟ ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي رزقاً واسعاً بغير جهد ولا تعب ﴿هَذَا لَكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ أي في ذلك الوقت الذي رأى فيه زكريا كرامة الله لمريم دعا ربه متوسلاً ومتضرعاً ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أي أعطني من عندك ولداً صالحاً - وكان شيخاً كبيراً وامرأته عجوزاً وعاقراً - ومعنى طيبة صالحة مباركة ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أي مجيب لدعاء من ناداك ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ أي ناداه جبريل حال كون زكريا قائماً في الصلاة^(١) ﴿أَنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِحَيٍّ﴾ أي يبشرك بغلام اسمه يحيى ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي مصدقاً بوعسى مؤمناً برسالته، وسمي عيسى كلمة الله لأنه خلق بكلمة «كن» من غير أب ﴿وَسَيِّدًا﴾ أي يسود قومه ويفوقهم ﴿وَحَصُورًا﴾ أي يحبس نفسه عن الشهوات عفة وزهداً ولا يقرب النساء مع قدرته على ذلك، وما قاله بعض المفسرين أنه كان عنيماً فباطل لا يجوز على الأنبياء لأنه نقص وذم والآية وردت مورد المدح والثناء^(٢) ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي ويكون نبياً من الأنبياء الصالحين قال ابن كثير: وهذه بشارة ثانية بنبوته بعد البشارة بولادته وهي أعلى من الأولى كقوله لأم موسى: ﴿إِنَّا رَأَوُهَا إِلَيْنَا وَجَاءَهَا مِنْ رَبِّ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٣) [الفصل: ٧] ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ أي كيف يأتينا الولد ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ أي أدركتني الشيخوخة وكان عمره حينذاك مائة وعشرين سنة ﴿وَأَمْرَأتِي عَاقِرٌ﴾ أي عقيم لا تلد وكانت زوجته بنت ثمان وسبعين سنة، فقد اجتمع فيهما الشيخوخة والعقم في الزوجة وكل من السبعين مانع من الولد ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أي لا يعجزه شيء ولا يتعاضمه أمر ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أي علامة على حمل امرأتي ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرَمًا﴾ أي علامتك عليه أن لا تقدر على كلام الناس إلا بالإشارة ثلاثة أيام بلياليها مع أنك سوي صحيح والغرض أنه يأتيه مانع سماوي يمنعه من الكلام بغير ذكر الله ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾ أي اذكر الله ذكراً كثيراً بلسانك شكراً على النعمة، فقد منع عن الكلام ولم يُمنع عن الذكر لله والتسبيح له وذلك أبلغ في الإعجاز ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ أي

(١) (ش): لا يوجد دليل صحيح على تفسير الملائكة بجبريل، قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٣٧): قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ أي: خَاطَبَتْهُ الْمَلَائِكَةُ شِفَاهَا خِطَابًا أَسْمَعَتْهُ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مِحْرَابٍ عِبَادَتِهِ، وَمَحَلُّ خَلْوَتِهِ، وَمَجْلِسُ مُنَاجَاتِهِ، وَصَلَاتِهِ.

(٢) قال ابن كثير نقلاً عن القاضي عياض: «اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان حصوراً ليس كما قاله بعضهم إنه كان عنيماً أو لا ذكر له، بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين، وقالوا: هذه نقيصه وعيب ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب أي لا يأتيها كأنه حصور أو يمنع نفسه من الشهوات، وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم يمنعها إما بمجاهدة عيسى أو بكفاية من الله كيحيى عليه السلام» انتهى.

(٣) «مختصر ابن كثير» ١/ ٢٨١.

نزه الله عن صفات النقص بقولك: سبحان الله في آخر النهار وأوله. وقيل: المراد صلّ الله، قال (الطبري): يعني عظم ربك بعبادته بالعشي والإبكار.

البلاغة: ١ - ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ جملتان معترضان لتعظيم الموضوع ورفع منزلة المولود.

٢ - ﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا﴾ صيغة المضارع للدلالة على الاستمرار والتجدد.

٣ - ﴿وَأُنَبِّئُهَا نَبَأًا حَسَنًا﴾ شبهها في نموها وترعرعها بالزرع الذي ينمو شيئاً فشيئاً، والكلام مجاز عن تربيتها بما يصلحها في جميع أحوالها بطريق الاستعارة التبعية.

٤ - ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ المنادي جبريل وعبر عنه باسم الجماعة تعظيماً له لأنه رئيسهم^(١).

٥ - ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ بين كلمتي العشي والإبكار طباق وهو من المحسنات البديعية.

الفوائد: الأولى: روي أن «حنة» امرأة عمران كانت عجوزاً فبينما هي ذات يوم تحت ظل شجرة إذ رأت طائراً يطعم فرخه فحنّت إلى الولد وتمنّته وقالت: اللهم إن لك عليّ نذراً إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من سدّته^(٢) ثم هلك عمران وهي حامل وهذا سر النذر^(٣).

الثانية: قال ابن كثير عند قوله تعالى ﴿كَلَّمَآ دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ قال: والآية فيها دلالة على كرامات الأولياء، وفي السنة بهذا نظائر كثيرة وساق بسنده عن جابر قصة الجفنة وخلاصتها «أن النبي ﷺ جاع أياماً فدخل على ابنته فاطمة الزهراء يسألها عن الطعام فلم يكن عندها شيء وأرسلت إليها جارتها برغيفين وقطعة لحم فوضعتها في جفنة ثم رأت الجفنة وقد امتلأت لحماً وخبزاً»^(٤).

قال الله تعالى:

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرَيْمُ أَفَنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الزَّكَاةِ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَكْفُلٌ مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيَكْلَمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ

(١) (ش): تقدم أنه لا يوجد دليل صحيح على تفسير الملائكة بجبريل.

(٢) (ش): السادن: خادِم الكعبة المشرفة، خادِمُ المعبد.

(٣) «تفسير أبي السعود» ١/ ٢٣٠.

(٤) (ش): القصة رواها أبو يعلى، وضعفها الألباني.

كَهَيْسَةَ الطَّيْرِ فَأَنْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُزْبِئِ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأُحْلِلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى قصة ولادة «يحيى بن زكريا» من عجوز عاقر وشيخ قد بلغ من الكبر عتياً، وذلك بمقتضى السنن الكونية شيء خارق للعادة، أعقبها بما هو أبلغ وأروع في خرق العادات، فذكر قصة ولادة السيد المسيح عيسى من غير أب وهي شيء أعجب من الأول، والغرض من ذكر هذه القصة الرد على النصارى الذين ادعوا ألوهية عيسى، فذكر ولادته من مريم البتول^(١) ليدل على بشريته، وأعقبه بذكر ما أيده به من المعجزات ليشير إلى رسالته، وأنه أحد الرسل الكرام الذين أظهر الله على أيديهم خوارق العادات، وليس له شيء من أوصاف الربوبية.

اللغة: ﴿أَنْبَاءٌ﴾ جمع نبأ وهو الخبر الهام ﴿نُوحِيهِ﴾ الوحي: إلقاء المعنى في النفس في خفاء ﴿أَقْلَمَهُمْ﴾ القلم معروف وهو الذي يكتب به وقد يطلق على السهم الذي يقترع به وهو المراد هنا ﴿الْمَسِيحُ﴾ لقب من الألقاب المشرفة كالصديق والفاروق وأصله مشيحاً بالعبرانية ومعناه المبارك^(٢) ﴿وَجِيهًا﴾ شريفاً ذا جاهٍ وقدر، والوجاهة الشرف والقدر ﴿الْمَهْدُ﴾ فراش الطفل ﴿وَكَهْلًا﴾ الكهل: ما بين الشاب والشيخ والمرأة كهلة ﴿الْأَكْمَهَ﴾ الذي يولد أعمى ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ المصاب بالبرص وهو بياض يعتري الجلد وداء عضال.

التفسير: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرِيمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ أي اذكر وقت قول الملائكة، أي: جبريل^(٣) يا مريم إن الله اختارك من بين سائر النساء فخصك بالكرامات ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ من الأدناس والأقذار ومما اتهمك به اليهود من الفاحشة ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ أي اختارك على سائر نساء العالمين لتكوني مظهر قدرة الله في إنجاب ولد بدون أب ﴿يَمْرِيمُ أَقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ أي إلزمني عبادته وطاعته شكراً على اصطفائه ﴿وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي صلي لله مع المصلين ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك من قصة امرأة عمران وابنتها مريم البتول ومن قصة زكريا يحيى إنما هو من الأنباء المغيبة والأخبار الهامة التي أوحيناها إليك يا محمد ما كنت تعلمها من قبل ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ

(١) (ش): الْبَتُولُ مِنَ النِّسَاءِ: الْعَذْرَاءُ الْمُنْقَطِعَةُ مِنَ الْأَزْوَاجِ، وَيُقَالُ: هِيَ الْمُنْقَطِعَةُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ الدُّنْيَا. وَالتَّبَتُّلُ: تَرْكُ الزَّوْاجِ وَالزَّهْدُ فِيهِ وَالْإِنْقِطَاعُ عَنْهُ.

(٢) «الكشاف» ٢٧٨/١.

(٣) (ش): تقدم أنه لا يوجد دليل صحيح على تفسير الملائكة بجبريل.

يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴿١﴾ أَي ما كنت عندهم إذ يختصمون ويتنافسون على كفالة مريم حين ألقوا سهامهم للقرعة كل يريد لها في كنفه ورعايته ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿٢﴾ أي يتنازعون فيمن يكفلها منهم، والغرض أن هذه الأخبار كانت وحياً من عند الله العليم الخبير. . . روي أن حنة حين ولدتها لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأخبار وهم في بيت المقدس كالحجبة في الكعبة فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة، فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم ثم اقترحوا فخرجت في كفالة زكريا فكفلها^(١) قال ابن كثير: وإنما قدر الله كون زكريا كافلاً لها لسعادتها لتقتبس منه علماً جماً وعملاً صالحاً ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ أي بمولود يحصل بكلمة من الله بلا واسطة أب ﴿أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي اسمه عيسى ولقبه المسيح، ونسبه إلى أمه تنبيهاً على أنها تلده بلا أب ﴿وَجِئَها فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي سيدياً ومعظماً فيهما ﴿وَمِنَ الْمُفَرِّقِينَ﴾ عند الله ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي طفلاً قبل وقت الكلام ويكلّمهم كهلاً قال الزمخشري «ومعناه يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة»^(٢) ولا شك أن ذلك غاية في الإعجاز ﴿وَمِنَ الصّٰلِحِينَ﴾ أي وهو من الكاملين في التقى والصلاح ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ أي كيف يأتيني الولد وأنا لست بذات زوج؟ ﴿قَالَ كَذٰلِكَ أَلٰهٌ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء يخلق بسبب من الوالدين وبغير سبب ﴿إِذَا قَضٰى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي إذا أراد شيئاً حصل من غير تأخير ولا حاجة إلى سبب، يقول له كن فيكون ﴿وَيَعْلَمُ الْكِنٰبَ﴾ أي الكتابة ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي السداد في القول والعمل أو سنن الأنبياء ﴿وَالْتَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ أي ويجعله يحفظ التوراة والإنجيل قال ابن كثير: وقد كان عيسى يحفظ هذا وهذا ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي ويرسله رسولاً إلى بني إسرائيل قائلاً لهم ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي بأني قد جئتكم بعلامات تدل على صدقي وهي ما أيدني الله به من المعجزات، وآية صدقي ﴿أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ أي أصور لكم من الطين مثل صورة الطير ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي أنفخ في تلك الصورة فتصبح طيراً بإذن الله. قال ابن كثير: وكذلك كان يفعل، يصور الطين شكل طير ثم ينفخ فيه فيطير عياناً بإذن الله عز وجل الذي جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله^(٣)، وهذه المعجزة الأولى ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ﴾ أي أشفي الذي ولد أعمى كما أشفي المصاب بالبرص، وهذه المعجزة الثانية ﴿وَأُحْيِ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي أحيي بعض الموتى لا بقدرتي ولكن بمشيئة

(١) «الطبري» ٦/ ٣٥١.

(٢) «الكشاف» ١/ ٢٧٨.

(٣) «مختصر ابن كثير» ١/ ٢٨٤.

الله وقدرته، وقد أحيا أربعة أنفس: عازر وكان صديقاً له، وابن العجوز، وبنو العاشر، وسام بن نوح هكذا ذكر «القرطبي» وغيره، وكرر لفظ «بِإِذْنِ اللَّهِ» دفعاً لتوهم الألوهية، وهذه المعجزة الثالثة ﴿وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أي وأخبركم بالمغيبات من أحوالكم التي لا تشكون فيها فكان يخبر الشخص بما أكل وما ادخر في بيته وهذه هي المعجزة الرابعة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ أي فيما أتيتكم به من المعجزات علامة واضحة تدل على صدقي إن كنتم مصدقين بآيات الله؛ ثم أخبرهم أنه جاء مؤيداً لرسالة موسى فقال: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي جئتكم مصدقاً لرسالة موسى، مؤيداً لما جاء به في التوراة ﴿وَلَا حِلَّ لَكُمْ بِعَظْمِ الَّذِي هُتِمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي ولأحل لكم بعض ما كان محرماً عليكم في شريعة موسى قال ابن كثير: وفيه دليل على أن عيسى نسخ بعض شريعة التوراة وهو الصحيح ﴿وَجِئْتَكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي جئتكم بعلامة شاهدة على صحة رسالتي وهي ما أيدني الله به من المعجزات وكرّر تأكيداً ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ أي خافوا الله وأطيعوا أمري ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ أي أنا وأنتم سواء في العبودية له جل وعلا ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي فإن تقوى الله وعبادته، والإقرار بوحدانيته هو الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه.

البلاغة: ١ - ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ أطلق الملائكة وأريد به جبريل فهو من باب تسمية الخاص باسم العام تعظيماً له ويسمى المجاز المرسل^(١).

٢ - ﴿أَصْطَفَيْنَاكَ وَلَهَّرْنَاكَ وَأَصْطَفَيْنَاكَ﴾ تكرر لفظ اصطفاك كما تكرر لفظ «مريم» وهذا من باب الإطناب.

٣ - ﴿وَلَمْ يَمَسَّ سِنِي بَشَرٍ﴾ كنى عن الجماع بالمس كما كنى عنه بالحرث واللباس والمباشرة.
٤ - ﴿وَلَا حِلَّ لَكُمْ بِعَظْمِ الَّذِي هُتِمَ عَلَيْكُمْ﴾ بين لفظ ﴿وَلَا حِلَّ﴾ و﴿هُتِمَ﴾ من المحسنات البديعية الطباق، كما ورد الحذف في عدة مواضع والإطناب في عدة مواضع، وهناك نواح بلاغية أخرى ضربنا عنها صفحاً خشية الإطالة.

فائدة: جاء التعبير هنا بقوله ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ وفي قصة يحيى ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٠] والسر في ذلك هو أن خلق عيسى من غير أب إبداع واختراع من غير سبب عادي فناسبه ذكر الخلق، وهناك الزوجة والزوج موجودان ولكن وجود الشيوخوخة والعقم مانع في العادة من وجود الولد فناسبه ذكر الفعل، والله أعلم.

تنبيه: قال بعض العلماء: الحكمة في أن الله لم يذكر في القرآن امرأة باسمها إلا «مريم» هي الإشارة من طرف خفي إلى رد ما قاله النصارى من أنها زوجته فإن العظيم يأنف من ذكر اسم زوجته بين الناس ولينسب إليها عيسى باعتبار عدم وجود أب ولهذا قال في الآية

(١) (ش): تقدم أنه لا يوجد دليل صحيح على تفسير الملائكة بجبريل.

﴿أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ^(١).

قال الله تعالى:

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٤﴾ وَمَكْرُؤًا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٥﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُم بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَ بِهِمُ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَالَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يَجِبُ الظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٩﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٠﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦١﴾ فَمَنْ حَاكَمَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَبَنَاتَنَا وَنِسَاءَنَا وَنَفْسَنَا وَنَفْسَكُمْ ثُمَّ نَنْبَتِلْ فَتَنْبَتِلْ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٦٢﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَصْلُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٣﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

المناسبة: لا تزال الآيات تتحدث عن قصة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، وقد ذكر تعالى في الآيات السابقة بشارة مريم بالسيد المسيح، ثم أعقبها بذكر معجزاته وكلها براهين ساطعة تدل على نبوته عليه السلام، ومع كل البراهين والمعجزات التي أيدها الله بها فإن الكثيرين من بني إسرائيل لم يؤمنوا به وقد عزم أعداء الله «اليهود» على قتله فنجاه الله من شرهم ورفعاه إلى السماء. **اللغة:** ﴿أَحَسَّ﴾ عرف وتحقق وأصله من الإحساس وهو الإدراك ببعض الحواس الخمس ﴿الْخَوَارِثُ﴾ جمع حواري وهو صفوة الرجل وخاصته، ومنه قيل للحضرىات: حواريات لخلوص ألوانهن وبياضهن قَالَ الشَّاعِرُ:

فَقُلْ لِلْحَوَارِيَّاتِ يَبْكِينَ غَيْرَنَا وَلَا تَبْكُنَا إِلَّا الْكِلَابُ النَّوَابِغُ

والحواريون أتباع عيسى كالصحابة لرسول الله ﷺ سَمَّوْا حَوَارِينَ لصفاء قلوبهم ونقاء سرائرهم ﴿وَمَكْرُؤًا﴾ المكر: الخداع وأصله السعي بالفساد في خفية قال الزجاج: يقال مكر الليل وأمكر إذا أظلم، ومكر الله استدراجه لعباده من حيث لا يعلمون حكى عن الفراء وغيره ﴿نَبَتِلْ﴾ نتضرع في الدعاء، وأصل الابتهاال: الاجتهاد في الدعاء باللعن، والبهلة: اللعنة.

سبب النزول: لما قدم وفد نصارى نجران، وجادلوا رسول الله ﷺ في أمر عيسى، قالوا للرسول ﷺ: ما لك تشتم صاحبنا؟ قال: وما أقول؟ قالوا: تقول إنه عبد قال: أجل إنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول، فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنساناً قط من غير

(١) انظر الجزء الأول من «حاشية الصاوي على الجلالين».

أب؟ فَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَأَرْنَا مِثْلَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿إِنْ مِثْلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ﴾ الآية^(١). وروى أنه عليه السلام لما دعاهم إلى الإسلام قالوا: قد كنا مسلمين قبلك، فقال: كذبتكم يمنعكم من الإسلام ثلاث: قولكم اتخذ الله ولداً، وأكلكم الخنزير، وسجودكم للصليب فقالوا: فمن أبوه فأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿إِنْ مِثْلَ عِيسَى﴾. إلى قوله ﴿ثُمَّ نَبْتَلُ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فدعاهم النبي ﷺ إلى المباهلة، فقال بعضهم لبعض: إن فعلتم اضطرم الوادي عليكم ناراً. فقالوا: أما تعرض علينا سوى هذا؟ فقال: الإسلام أو الجزية أو الحرب فأقروا بالجزية^(٢).

التفسير: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ أي استشعر من اليهود التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال وإرادتهم قتله ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي من أنصاري في الدعوة إلى الله قال مجاهد: أي من يتبعني إلى الله ﴿قَالَ الْخَوَارِثُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ أي قال المؤمنون الأصفياء من أتباعه نحن أنصار دين الله ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي صدقنا بالله وبما جئتنا به واشهد بأننا منقادون لرسالتك مخلصون في نصرتك ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي آمنا بآياتك واتبعنا رسولك عيسى فاكتبنا مع من شهد لك بالوحدانية ولرسولك بالصدق ثم أخبر تعالى عن اليهود المتأمرين الذين أرادوا قتل عيسى فقال ﴿وَمَكُرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ﴾ أي أرادوا قتله فنجاه الله من شرهم ورفعهم إلى السماء دون أن يمس بأذى وألقى شبهه على ذلك الخائن «يهودا» وسمي مكرًا من باب المشاكلة^(٣) ولهذا قال ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ﴾ أي أقواهم مكرًا بحيث جعل تدميرهم في تدبيرهم^(٤)

(١) (ش): ضعيف جداً، رواه ابن جرير في «جامع البيان».

(٢) «القرطبي» ٤/ ١٠٣، و«أسباب النزول» للواحدي ص ٥٨.

(ش): ضعيف، رواه ابن جرير في «جامع البيان».

(٣) المشاكلة: الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى، وقد تقدم.

(٤) (ش): صفات الله تعالى كلها صفات كمال، دالة على أحسن المعاني وأكملها، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]. ومعنى المثل الأعلى أي الوصف الأكمل.

والصفات ثلاثة أنواع: الأول: صفات كمال، لا نقص فيها بوجه من الوجوه. فهذه يوصف الله تعالى بها وصفاً مطلقاً ولا يقيد بشيء، مثال ذلك: العلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والرحمة... إلخ. الثاني: صفات نقص، لا كمال فيها، فهذه لا يوصف الله تعالى بها أبداً، كالنوم، والعجز، والظلم، والخيانة... إلخ. الثالث: صفات يمكن أن تكون كمالاً، ويمكن أن تكون نقصاً، على حسب الحال التي تذكر فيها. فهذه لا يوصف الله تعالى بها على سبيل الإطلاق، ولا تنفى عن الله تعالى على سبيل الإطلاق، بل يجب التفصيل، ففي الحال التي تكون كمالاً يوصف الله تعالى بها، وفي الحال التي تكون نقصاً لا يوصف الله تعالى بها. ومثال هذا: المكر، والخديعة، والاستهزاء. فالمكر والخديعة والاستهزاء بالعدو صفة كمال، لأن ذلك يدل على كمال العلم والقدرة والسلطان. ونحو ذلك. أما المكر بالمؤمنين الصادقين فهو صفة نقص. ولذلك لم يرد وصف الله تعالى بهذه الصفات على سبيل الإطلاق، وإنما ورد مقيداً بما يجعله كمالاً. قال الله تعالى: =

وفي الحديث «اللهم امكّر لي ولا تمكّر عليّ»^(١) ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اذْكُرْ بِكُنُوتِكَ إِذْ أَخَذْتَ الظِّلَّ مِنْ رَبِّكَ إِذْ قَامَ الصَّلَاةَ وَرَأَيْتَ الْمَلَائِكَةَ خَافِئَةً أَعْمَامًا أَنْزَلَ عَلَيْهِ الرُّوحَ قَالَ إِنَّكَ الْمَوْعُودُ﴾^(٢) أي إني رافعك إلى السماء ثم مميتك بعد استيفائك كامل أجلك والمقصود بشارته بنجاته من اليهود ورفعهم إلى السماء سالمًا دون أذى قال قتادة: هذا من المقدم والمؤخر تقديره إني رافعك إليّ ثم متوفيك بعد ذلك، وقد ذكره «الطبري» فقال: وقال آخرون معنى ذلك: إذ قال الله يا عيسى إني رافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا، ومتوفيك بعد إنزالي إليك إلى الدنيا^(٣) ﴿وَمُطَهَّرَكُم مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي مخلصك من شر الأشرار الذين أرادوا قتلك قال الحسن: طهره من اليهود والنصارى والمجوس ومن كفر قومه ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي جاعل أتباعك الذين آمنوا بك فوق الذين جحدوا نبوتك ظاهرين على من ناوهم إلى يوم القيامة وقال في «تفسير الجلالين»: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾ أي صدّقوا نبوتك من المسلمين والنصارى ﴿فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهم اليهود يعلّونهم بالحجة والسيف ﴿ثُمَّ إِنِّي مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي ثم مصيركم إلى الله فأقضي

= ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]. فهذا خداع بالمنافقين. وقال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. وهذا مكر بأعداء الله الذين كانوا يمكرون برسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال عن المنافقين: ﴿وَإِذَا قَالُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا هَلَكُوا إِلَى سَيِّئِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾ [١١] ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدِّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٤-١٥]. وهذا استهزاء بالمنافقين. فهذه الصفات تعتبر كمالات في هذا السياق الذي وردت فيه. ولهذا يقال: الله تعالى يستهزئ بالمنافقين، ويخادعهم، ويمكر بأعدائه. . . ونحو ذلك. ولا يجوز أن يوصف الله تعالى بالمكر والخداع وصفاً مطلقاً. لأنه حينئذ لا يكون كمالاتاً. فالله سبحانه وتعالى ينسب إلى نفسه أحسن هذه المعاني وما هو منها حكمة وصواب وجزاء للمسيء وذلك غاية العدل والحق كقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [١٥] ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾. وقوله: ﴿وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ﴾. وقوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾. وقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾. وقوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾، فهذا منه سبحانه في أعلى مراتب الحُسن وإن كان من العبد قبيحاً سيئاً لأنه ظالم فيه وموقعه بمن لا يستحقه، والرب تعالى عادل فيه وموقعه بأهله ومن يستحقه.

(١) عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه: «رَبِّ اعْنِي وَلَا تُعِنِّ عَلَيَّ، وَانصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَسِرِّ الْهُدَى لِي، وَانصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ» (رواه الإمام أحمد وأصحاب السنن، وصححه الألباني).

(٢) «الطبري» ٤٥٨/٦، وأما قول بعض المفسرين: إنه توفي ثلاث ساعات من نهار ثم رفع. وقول بعضهم: المراد بالوفاة وفاة النوم فضعيف فقد رده المحققون قال «القرطبي»: «والصحيح أن الله تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وابن زيد وهو اختيار «الطبري» وهو الصحيح عن ابن عباس».

(ش:) قال الإمام «الطبري» في تفسيره «جامع البيان» (٦/ ٤٥٨): «وأولى هذه الأقوال بالصحة عندنا، قول من قال: «معنى ذلك: إني قابضك من الأرض ورافعك إليّ»، لتواتر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الدجال، ثم يمكث في الأرض مدة ذكرها، اختلفت الرواية في مبلغها، ثم يموت فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه».

بين جميعكم بالحق فيما كنتم تختلفون فيه من أمر عيسى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي أما الكافرون بنبوتك المخالفون لمثلتك فإني معذبهم عذاباً شديداً في الدنيا بالقتل والسبي، وبالآخرة بنار جهنم ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَصِيرِينَ﴾ أي ليس لهم ناصر يمنع عنهم عذاب الله ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي وأما المؤمنون فيعطيههم جزاء أعمالهم الصالحة كاملة غير منقوصة ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يحب من كان ظالماً فكيف يظلم عباده؟ ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ أي هذه الأنباء التي نقصها عليك يا محمد ﴿مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ أي من آيات القرآن الكريم المحكم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ أي إن شأن عيسى إذ خلقه بلا أب - وهو في بابه غريب - كشأن آدم ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي خلق آدم من غير أب ولا أم ثم قال له كن فكان، فليس أمر عيسى بأعجب من أمر آدم ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي هذا هو القول الحق في عيسى فلا تكن من الشاكين ﴿فَمَنْ حَاجَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي من جادلَكَ في أمر عيسى بعدما وضح لك الحق واستبان ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ أي هلموا نجتمع ويدعو كل منا ومنكم أبناءه ونسائه ونفسه إلى المباهلة وفي صحيح مسلم لما نزلت هذه الآية دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا فَقَالَ: «اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي». ﴿ثُمَّ نَبْتَلِ فَنَبْجَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي نتضرع إلى الله فنقول: اللهم العن الكاذب منا في شأن عيسى، فلما دعاهم إلى المباهلة امتنعوا وقبلوا بالجزية عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قَالَ: لَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَرَجَعُوا لَا يَجِدُونَ مَا لَا وَلَا أَهْلًا^(١). قال أبو حيان: «وفي ترك النصارى الملاعة لعلمهم بصدقه شاهد عظيم على صحة نبوته»^(٢) ثم قال تعالى ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا شك فيه ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي لا يوجد إله غير الله^(٣)، وفيه ردٌّ على النصارى في قولهم بالتثليث ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي هو جل شأنه العزيز في ملكه الحكيم في صنعه ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أي إن أعرضوا عن الإقرار بالتوحيد فإنهم مفسدون والله عليم بهم وسيجازيهم على ذلك شر الجزاء.

البلاغة: ١ - ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ﴾ قال أبو حيان: فيها استعارة إذ الكفر ليس بمحسوس وإنما يعلم ويفطن به فإطلاق الحس عليه من نوع الاستعارة.

(١) (ش): (رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَصَحَّحَهُ الْأَبَانِي).

(٢) «البحر المحيط» ٢/ ٤٨٠.

(٣) (ش): الصواب أن يقال: «لا يوجد إله حق غير الله» لأن هناك آلهة باطلة.

٢ - ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمُنْكَرِينَ﴾ بين لفظ (مكروا والماكرين) جناس الاشتقاق وهو من باب المشاكلة.

٣ - ﴿فَيُوقِئُهُمْ أَجُورَهُمْ﴾ فيه التفات من ضمير التكلم إلى ضمير الغيبة للتنوع في الفصاحة.

٤ - ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى الرسول لتشريفه عليه الصلاة والسلام.

٥ - ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ هو من باب الإلهاب والتهيج لزيادة الثبوت أفاده «أبو السعود».

لطيفة: قال صاحب «البحر المحيط»: «وَسَأَلَ رَجُلٌ الْجَنِيْدَ، فَقَالَ: كَيْفَ رَضِيَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِنَفْسِهِ الْمَكْرَ وَقَدْ عَابَ بِهِ غَيْرُهُ؟ فَقَالَ: لَا أَدْرِي مَا تَقُولُ، وَلَكِنْ أَتَشَدَّنِي فَلَانُ الظُّهْرَانِي: وَيَقْبُحُ مَنْ سَوَاكَ الْفِعْلُ عِنْدِي ثُمَّ قَالَ: قَدْ أَجَبْتُكَ إِنْ كُنْتَ تَعْقِلُ^(١)».

قال الله تعالى:

قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتٰبِ تَعَالَوْا۟ اِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اَلَّا نَعْبُدَ اِلَّا اللّٰهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا اَرْبَابًا مِّنْ دُوْنِ اللّٰهِ فَاِنْ تَوَلَّوْا۟ فَقُوْلُوْا اَشْهَدُوْا بِاَنَّا مُسْلِمُوْنَ ﴿٦٤﴾ يٰٓأَهْلَ الْكِتٰبِ لِمَ تَحٰجُّوْنَ فِى۟ اِبْرٰهِيْمَ وَمَا اُنْزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْاِنْجِيْلُ اِلَّا مِنْۢ بَعْدِوْهُۥ اَفَلَا تَعْقِلُوْنَ ﴿٦٥﴾ هٰتٰنْتُمْ هٰٓؤُلَآءِ حٰجَجْتُمْ فِىمَا لَكُمْ بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحٰجُّوْنَ فِىمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِۦ عِلْمٌ وَاللّٰهُ يَعْلَمُ وَاَنْتُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِاِبْرٰهِيْمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلٰكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مَّسْلُوْمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ ﴿٦٧﴾ اِنَّ اَوَّلَ النَّاسِ بِاِبْرٰهِيْمَ لِلَّذِيْنَ اتَّبَعُوْهُ وَهٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِيْنَ ءَامَنُوْا وَاللّٰهُ وَلِىُّ الْمُؤْمِنِيْنَ ﴿٦٨﴾ وَدَّتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ اَهْلِ الْكِتٰبِ لَوْ يَضِلُّوْكُمْ وَمَا يَضِلُّوْنَ اِلَّا اَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُوْنَ ﴿٦٩﴾ يٰٓأَهْلَ الْكِتٰبِ لِمَ تَكْفُرُوْنَ بِآيٰتِ اللّٰهِ وَاَنْتُمْ تَشْهَدُوْنَ ﴿٧٠﴾ يٰٓأَهْلَ الْكِتٰبِ لِمَ تَلْبِسُوْنَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُمُوْنَ الْحَقَّ وَاَنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ ﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ اَهْلِ الْكِتٰبِ ءَامِنُوْا بِالَّذِيْ اُنْزِلَ عَلٰى الَّذِيْنَ وَجَّهَ النَّهَارَ وَآخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُوْنَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُوْمِنُوْا اِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِيْنََكُمْ قُلْ اِنَّ الْهُدٰى هٰذِى۟ اَللّٰهُ اَنْ يُؤَفِّقَ اَحَدًا مِّثْلَ مَا اُوْتِيتُمْ اَوْ يَهْجُوْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ اِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّٰهِ يُؤْتِيْهِ مَن يَشَآءُ وَاللّٰهُ وَسِعَ عَلِيْمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْنُصُ بِرَحْمَتِهٖۤ مَن يَشَآءُ وَاللّٰهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيْمِ ﴿٧٤﴾

المناسبة: لما أقام القرآن الحجة على النصارى وأبطل دعواهم في شأن ألوهية المسيح، دعا الفريقين «اليهود والنصارى» إلى التوحيد، والافتداء بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، إذ كانت ملته الحنيفية السمحة وهي ملة الإسلام، ولم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا كما زعم كل من الفريقين، ثم بين أن أحق الناس بالانتساب إلى إبراهيم محمد ﷺ وأُمَّته.

(١) «البحر المحيط» ٢/ ٤٧٢.

(ش): المقصود أن مكر الله - غير مكر المخلوقين، وأن فعل الله كله حسن في غاية الإتقان، لا عيب فيه ولا نقصان.

اللغة: ﴿سَوَاءٌ﴾ السَّوَاءُ: الْعَدْلُ وَالنَّصَفُ، قَالَ أَبُو عبيدة: يقال: قد دعاك إلى السَّوَاءِ فاقبل منه قال زهير:

أُرُونَا خُطَّةً^(١) لَا عَيْبَ فِيهَا يُسَوِّي بَيْنَنَا فِيهَا السَّوَاءُ
﴿أَوَّلِي﴾ أَحَقُّ ﴿وَدَّتْ﴾ تَمَنَّتْ ﴿تَلْسُوتُ﴾ اللَّبْسُ: الْخُلْطُ. يقال: أَلْبَسَ الأمرُ عليه إذا اشتبه واختلط ﴿وَجْهَ النَّهَارِ﴾ أوله سميَّ وجهًا لأن أول ما يواجهه من النهار أوله قَالَ الشَّاعِرُ:
مَنْ كَانَ مَسْرُورًا بِمَقْتَلِ مَالِكٍ فَلَيَأْتِ نِسْوَتَنَا بِوَجْهِ نَهَارٍ^(٢)

سَبَبُ النَّزُولِ: روي عن ابن عباس أن أبحار اليهود ونصارى نجران اجتمعوا عند رسول الله ﷺ فتنازعوا في إبراهيم فقال اليهود: ما كان إلا يهوديًا، وقالت النصارى: ما كان إلا نصرانيًا فأنزل الله ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ الآية^(٣).

التفسير: ﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي قل لهم يا معشر اليهود والنصارى هلموا إلى كلمة عادلة مستقيمة فيها إنصاف من بعضنا لبعض ﴿أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا﴾ أي أن نفرد الله وحده بالعبادة ولا نجعل له شريكًا ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي لا يعبد بعضنا بعضًا كما عبد اليهود والنصارى عيسى، وأطاعوا الأبحار والرهبان فيما أحلوا لهم وحرّموا، روي أن الآية لما نزلت قال عدي بن حاتم: ما كنا نعبدكم يا رسول الله، فقال ﷺ «أما كانوا يحلّون لكم ويحرّمون فتأخذون بقولهم؟» فقال: نعم فقال النبي ﷺ: «هو ذاك»^(٤). ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي فإن أعرضوا عن التوحيد ورفضوا قبول تلك الدعوة العادلة فقولوا أنتم اشهدوا يا معشر أهل الكتاب بأننا موحدون مسلمون، مقرّون لله بالوحدانية مخلصون له العبادة ﴿يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ أي يا معشر اليهود والنصارى لم تجادلون وتنازعون في إبراهيم وتزعمون أنه على دينكم ﴿وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي والحال أنه ما حدثت هذه الأديان إلا من بعده بقرون كثيرة فكيف يكون من أهلها؟ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بطلان قولكم؟ فقد كان بين إبراهيم وموسى ألف سنة، وبين موسى وعيسى ألفا سنة فكيف

(١) (ش): (الْخُطَّةُ): الأمر أو الحالة، والسَّوَاءُ هنا هو العدل.

(٢) «مجاز القرآن» لأبي عبيدة ص ٩٧.

(ش): معنى البيت أنه إذا نظر إلى النساء وما يصنعن لمقتل مالك عليم أن ثأر مثله لا يُترك.

(٣) «مجمع البيان» ٤٥٦/٢.

(ش): ضعيف، أخرجه ابن إسحاق في «السيرة»، وابن جرير في «جامع البيان»، والبيهقي في «دلائل النبوة».

(٤) (ش): عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ. فَقَالَ: «يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَتْنَ». وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةِ ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قَالَ «أَمَّا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحْلَوْا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحْلَوْهُ وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ». (رواه الترمذي، وحسنه الألباني).

يقول بذلك عاقل؟ والاستفهام للتوبيخ ﴿هَتَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجِبَتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي ها أنتم يا معشر اليهود والنصارى جادلتم وخاصتم في شأن عيسى وقد عشتم زمانه فزعمتم ما زعمتموه ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي فلم تخاصمون وتجادلون في شأن إبراهيم ودينه وتنسبونه إلى اليهودية أو النصرانية بدون علم؟ أفليست هذه سفاهة وحماقة؟ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي والله يعلم الحق من أمر إبراهيم وأنتم لا تعلمون ذلك، قال أبو حيان: «وهذا استدعاء لهم أن يسمعوا كما تقول لمن تخبره بشيء لا يعلمه: اسمع فإنني أعلم ما لا تعلم»^(١) ثم أكذبهم الله تعالى في دعوى إبراهيم فقال ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ أي ما كان إبراهيم على دين اليهودية ولا على دين النصرانية، فإن اليهودية ملة محرّفة عن شرع موسى، وكذلك النصرانية ملة محرّفة عن شرع عيسى ﴿وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مَّسْلَمًا﴾ أي مائلاً عن الأديان كلها إلى الدين القيم ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي كان مسلماً ولم يكن مشركاً، وفيه تعريض بأنهم مشركون في قولهم عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، وردّ لدعوى المشركين أنهم على ملة إبراهيم ﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ أي أحق الناس بالانتساب إلى إبراهيم أتباعه الذين سلكوا طريقه ومنهجه في عصره وبعده ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ أي محمد ﷺ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي المؤمنون من أمة محمد فهم الجديرون بأن يقولوا نحن على دينه لا أنتم ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي حافظهم وناصرهم. ولما دعا اليهود بعض الصحابة إلى اليهودية نزل قوله: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾ أي تمنّوا إضلالكم بالرجوع إلى دينهم حسداً وبغياً ﴿وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ أي لا يعود وبال ذلك إلا عليهم إذ يضاعف به عذابهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي ما يفتنون لذلك، ثم وبّخهم القرآن على فعلهم القبيح فقال ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي بالقرآن المنزل على محمد ﷺ ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي تعلمون أنه حق ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ أي لم تخلصون بين الحق والباطل بإلقاء الشبهة والتحريف والتبديل؟ ﴿وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تكتُمون ما في كتبكم من صفة محمد ﷺ وأنتم تعلمون ذلك، ثم حكى تعالى نوعاً آخر من مكروهم وخبثهم، وهو أن يظهروا الإسلام في أول النهار ثم يرتدوا عنه في آخره ليشككوا الناس في دين الإسلام فقال ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ﴾ قال ابن كثير: وهذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وهو أنهم تشاوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلّوا مع المسلمين فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس: إنما ردهم إلى دينهم اطلعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين^(٢) ﴿وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾

(١) «البحر المحيط» ٢/ ٤٨٦.

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٢٩١.

أي اكفروا بالإسلام آخر النهار ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي لعلهم يَشْكُونَ في دينهم فيرجعون عنه ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ هذا من تنمة كلام اليهود حكاها الله عنهم والمعنى: لا تصدقوا ولا تظهروا سرّكم وتطمئنوا لأحدٍ إلا إذا كان على دينكم ﴿قُلْ إِنَّ أَلْهَدَىٰ هَدَىٰ اللَّهُ﴾ أي قل لهم يا محمد الهدى ليس بأيديكم وإنما الهدى هدى الله، يهدي من يشاء إلى الإيمان ويثبته عليه كما هدى المؤمنين، والجملة اعتراضية، ثم ذكر تعالى بعد ذلك الاعتراض بقية كلام اليهود فقال ﴿أَن يُؤْتِيَ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ أي يقول اليهود بعضهم لبعض: لا تصدقوا إلا لمن تبع دينكم، وانظروا فيمن ادعى النبوة فإن كان متبعاً لدينكم فصدّقوه وإلا فكذبوه، ولا تقروا ولا تعترفوا لأحدٍ بالنبوة إلا إذا كان على دينكم، خشية أن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم وخشية أن يحاجوكم به عند ربكم، فإذا أقررتهم بنبوة محمد ولم تدخلوا في دينه تكون له الحجة عليكم يوم القيامة، وغرضهم نفي النبوة عن رسول الله ﷺ ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي قل لهم يا محمد: أمر النبوة ليس إليكم وإنما هو بيد الله والفضل والخير كله بيد الله يؤتيه من يشاء ﴿وَاللَّهُ وَسِعَ عَلِيمٌ﴾ أي كثير العطاء واسع الإنعام يعلم من هو أهل له ﴿يَخْنُصُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي يختص بالنبوة من شاء ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي فضله واسع عظيم لا يُحَدُّ ولا يُمْنَعُ.

البلاغة: جمعت هذه الآيات من ضروب الفصاحة والبلاغة ما يأتي: المجاز في قوله ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ حيث أطلق اسم الواحد على الجمع، والتشبيه في قوله ﴿أَرْبَابًا﴾ حيث شبه طاعتهم لرؤساء الدين في أمر التحليل بالرب المستحق للعبادة، والطباق في قوله ﴿الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ﴾ والجناس التام في قوله ﴿يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ﴾ وجناس الاشتقاق في ﴿أَوَّلَى﴾ و﴿وَلَى﴾ والتكرار في عدة مواطن، والحذف في عدة مواطن^(١).

فائدة: كتب رسول الله ﷺ كتاباً إلى «هرقل» ملك الروم يدعوه فيه إلى الإسلام واستشهد فيه بالآية الكريمة التي فيها إخلاص الدعوة لعبادة الله وحده، ونصّ الكتاب كما هو في صحيح مسلم «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَىٰ هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ سَلَامٌ عَلَىٰ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ أَمَّا بَعْدُ فإني أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ أَسْلِمَ تَسْلَمَ وَأَسْلِمَ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ وَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ - يعني الفلاحين والخدم - وَ يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ»^(٢).

(١) نقلا عن «البحر المحيط».

(٢) انظر «صحيح البخاري» ومسلم.

قال الله تعالى:

وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدَّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِن تَأْمَنهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدَّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتَيْنِ سَكِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونِ السِّنْتَهِمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

المناسبة: لما حكي تعالى قبائح أهل الكتاب، وما هم عليه من الخبث والكيد والمكر، عقبه بذكر بعض أوصاف اليهود خاصة وهي خيانتهم من الناحيتين: المالية والدينية، فقد خانوا الله والناس بتحريفهم كلام الله عن معناه، واستحلالهم أكل أموال الناس بالباطل.

اللغة: ﴿يَقْنَطَارٍ﴾ القنطار المال الكثير وقد تقدم ﴿قَائِمًا﴾ ملازمًا ومدامًا على مطالبته ﴿الْأُمِّيَّتَيْنِ﴾ المراد بهم العرب. وأصل الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب. والعرب كانوا كذلك ﴿يَلُونُ﴾ من اللي وهو اللف والقتل تقول: لويت يده إذا قتلها والمراد أنهم يقتلون ألسنتهم ليميلوها عن الآيات المنزلة إلى العبارات المحرفة ﴿لَا خَلْقَ﴾ أي لا نصيب لهم من رحمة الله ﴿رَبَّيْنَيْنِ﴾ جمع رباني وهو المنسوب إلى الرب قال «الطبري» معناه: كونوا حكماء علماء^(١).

سبب النزول: عن الأشعث بن قيس قال: كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني فقدمته إلى النبي ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ: هل لك بيته؟ قلت: لا، قال لليهودي: احلف قلت: إذا يحلف فيذهب بما لي فأنزل الله ﷻ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ...﴾^(٢) الآية.

التفسير: ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدَّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِن تَأْمَنهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدَّهِ إِلَيْكَ﴾ أي من اليهود من إذا ائتمنته على المال الكثير آذاه إليك لأمانته كعبد الله بن سلام أودعه قرشي ألف أوقية ذهباً فأداها إليه ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِن تَأْمَنهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدَّهِ إِلَيْكَ﴾ أي ومنهم من لا يؤتمن على دينار لخيانته كفنحاص بن عازوراء ائتمنه قرشي على دينار فجحده ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ أي إلا إذا كنت ملازمًا له ومُشهدًا عليه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتَيْنِ سَكِيلٌ﴾ أي إنما حملهم على الخيانة زعمهم أن الله أباح لهم أموال الأميين - يعني العرب -

(١) «الطبري» ٥٤٠ / ٦.

(٢) «القرطبي» ١٢٠ / ٤. (ش): (رواه البخاري ومسلم).

روى أن اليهود قالوا ﴿تَحْنُ أَبْنَوْاُ اللَّهَ﴾ [المائدة: ١٨] والخلق لنا عبيد، فلا سبيل لأحد علينا إذا أكلنا أموال عبيدنا، وقيل: إنهم قالوا: إن الله أباح لنا مال من خالف ديننا ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي يكذبون على الله بادعائهم ذلك وهم يعلمون أنهم كاذبون مفترون، روي أنهم لما قالوا ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَنَ سَبِيلٌ﴾ قال نبي الله ﷺ: كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا هو تحت قدمي هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر^(١) ثم قال تعالى ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي ليس كما زعموا بل عليهم فيه إثم لكن من أدى الأمانة منهم وآمن بمحمد ﷺ واتقى الله واجتنب محارمه فإن الله يحبه ويكرمه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَنَهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي يستبدلون بالعهد الذي عاهدوا عليه من التصديق بمحمد، وبأيمانهم الكاذبة حطام الدنيا وعرضها الخسيس الزائل ﴿أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي ليس لهم حظ ولا نصيب من رحمة الله تعالى ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي لا يكلمهم كلام أنسٍ ولطف، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة يوم القيامة ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي لا يطهرهم من أوضار^(٢) الأوزار، ولهم عذاب مؤلم على ما ارتكبه من المعاصي ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾ أي وإن من اليهود طائفة يفتلون ألسنتهم في حال قراءة الكتاب لتحريف معانيه وتبديل كلام الله عن المراد منه قال ابن عباس: يحرفونه بتأويله على غير مراد الله ﴿لِيَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي لتظنوا أن هذا المحرف من كلام الله وما هو إلا تضليل وهتان ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي ينسبونه إلى الله وهو كذب على الله ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كذبوا وافتروا على الله، ثم قال تعالى ردًا على النصارى لما زعموا أن عيسى أمرهم أن يعبدوه ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُوْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ أي لا يصح ولا ينبغي لأحد من البشر أعطاه الله الكتاب والحكمة والنبوة ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي ثم يقول للناس اعبدوني من دون الله، والنفي في مثل هذه الصيغة ﴿مَا كَانَ﴾ إنما يؤتى به للنفي العام الذي لا يجوز عقلاً ثبوته والغرض أنه لا يصح أصلاً ولا يتصور عقلاً صدور دعوى الألوهية من نبي قط أعطاه الله النبوة والشرعية فضلاً عن أن يحصل ذلك بالفعل لأن الرسول سفير بين الله وخلقه ليرشد الناس إلى عبادة الله فكيف يدعوهم إلى عبادة نفسه؟ ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ نَعْبُدُكُمْ﴾ أي ولكن يقول لهم كونوا ربانيين قال ابن عباس: حكماء علماء حلماء والمعنى: لا أدعوكم إلى أن تكونوا عباداً لي ولكن أدعوكم أن تكونوا علماء فقهاء مطيعين لله ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

(١) «القرطبي» ١١٩/٤. (ش): ضعيف، رواه ابن أبي حاتم في تفسيره، ورواه «الطبري» في تفسيره (٥٢٢/٦).

لكن ثبت منه قوله ﷺ: «أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْصُوعٍ» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٢) (ش): أوضار: أوساخ.

الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿١﴾ أَيُّ بِتعليمكم الناس الكتاب ودراسكم إياه ﴿٢﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْكَلْبَةِ وَالنِّسَاءِ أَرْبَابًا ﴿٣﴾ أَيُّ وما كان له أن يأمركم بعبادة غير الله - ملائكة أو أنبياء - لأن مهمة الرسل الدعوة إلى الله وإخلاص العبادة له ﴿٤﴾ أَيُّأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥﴾ أَيُّ يأمركم نبيكم بالكفر وجحود وحدانية الله، بعد أن أسلمتم ودخلتم في دين الله؟ والاستفهام إنكاري تعجبي.

البلاغة: ١ - ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ الإشارة بالبعيد للإيذان بكمال غلوهم في الشر والفساد.
٢ - ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُتَيْنِ سَبِيلٌ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي ليس علينا في أكل الأموال الأمين سبيل.

٣ - ﴿يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ فيه استعارة فقد استعار لفظ الشراء للاستبدال.
٤ - ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ مجاز عن شدة غضبه وسخطه تعالى عليهم وكذلك في الآتي بعدها^(١).

٥ - ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ قال الزمخشري: مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم لأن من اعتد بإنسان التفات إليه وأعاره نظر عينيه^(٢).
٦ - بين لفظ ﴿وَأَتَقَى﴾ و﴿الْمُتَّقِينَ﴾ جناس الاشتقاق وبين لفظ ﴿بِالْكَفْرِ﴾ و﴿مُسْلِمُونَ﴾ طباق.

فائدة: روي أن رجلاً قال لابن عباس: «إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة، قال ابن عباس: فماذا تقولون؟ قالوا نقول: ليس علينا بذلك بأس، قال: هذا كما قال أهل الكتاب ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُتَيْنِ سَبِيلٌ﴾ إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم» ذكره ابن كثير.

قال الله تعالى:

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ - وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَاَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ

(١) (ش): من التأويل الباطل القول بأن عدم تكليم الله للمجرمين مجاز عن شدة غضبه.

(٢) (ش): من التأويل الباطل القول بأن عدم نظر الله إلي المجرمين مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم.

الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٩١﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى خيانة أهل الكتاب بتحريفهم كلام الله عن مواضعه، وتغييرهم أوصاف رسول الله ﷺ الموجودة في كتبهم حتى لا يؤمنوا به، ذكر تعالى هنا ما تقوم به الحجة عليهم وهو أن الله قد أخذ الميثاق على أنبيائهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ إن أدركوا حياته، وأن يكونوا من أتباعه وأنصاره، فإذا كان الأنبياء قد أخذ عليهم العهد أن يؤمنوا به ويبشروا بمبعثه فكيف يصح من أتباعهم التكذيب برسالته؟ ثم ذكر تعالى أن الإيمان بجميع الرسل شرط لصحة الإيمان وبيّن أن الإسلام هو الدين الحق الذي لا يقبل الله دينًا سواه.

اللغة: ﴿مِيثَاقٌ﴾ الميثاق: العهد المؤكد بيمين ونحوه وقد تقدم ﴿إِصْرِي﴾ عهدي وأصله في اللغة الثقل قال الزمخشري: وسمي إصرًا لأنه مما يؤصر أي يشد ويعقد^(١) ﴿الْفَلْسِيقُونَ﴾ الخارجون عن طاعة الله ﴿طَوْعًا﴾ انقيادًا عن رغبة ﴿وَكَرْهًا﴾ إجبارًا وهو كاره ﴿وَالْأَسْبَاطُ﴾ جمع سبط وهو ابن الإبن والمراد به هنا قبائل بني إسرائيل من أولاد يعقوب ﴿يُنظَرُونَ﴾ يُمَهَّلُونَ يقال: أنظره يعني أمهله والنظرة: الإمهال ﴿الْخَسِرِينَ﴾ الخسران: انتقاص رأس المال يقال: خسر فلان أي أضاع من رأس ماله ﴿الضَّالُّونَ﴾ التائهون في مهامه^(٢) الكفر.

سبب النزول: عن ابن عباس قال: ارتد رجل من الأنصار عن الإسلام ولحق بالشرك ثم ندم، فأرسل إلى قومه: سلوا لي رسول الله ﷺ هل من توبة فإني قد ندمت؟ فنزلت الآية ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا...﴾ إلى قوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فكتب بها قومه إليه فرجع فأسلم^(٣).

التفسير: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ أي اذكروا يا أهل الكتاب حين أخذ الله العهد المؤكد على النبيين ﴿لَمَّا آتَيْنَكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ أي لمن أجل ما آتيتكم من الكتاب والحكمة قال «الطبري»: المعنى لمهما آتيتكم أيها النبيون من كتاب وحكمة ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ

(١) «الكشاف» ١/ ٢٩٠.

(٢) (ش): الْمَهْمَةُ، وَالْمَهْمَةُ: الْمَفَازَةُ الْبَعِيدَةُ لَمْاءَ بِهَا وَلَا أَنْيَسَ، وَالْجَمْعُ الْمَهَامَةُ.

(٣) أخرجه النسائي وانظر «القرطبي» ٤/ ١٢٩.

(ش): صحيح، أخرجه أحمد والنسائي

مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ ﴿١﴾ أي: جاءكم رسول من عندي بكتاب مصدق لما بين أيديكم وهو محمد ﷺ ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ أي لتصدقنه ولتنصرنه، قال ابن عباس: ما بعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمنن به ولننصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته ﴿قَالَ أَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ أي أقررتم واعترفتم بهذا الميثاق وأخذتم عليه عهدي؟ ﴿قَالُوا أَفَرَرْنَا﴾ أي اعترفنا ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي اشهدوا على أنفسكم وأتباعكم وأنا من الشاهدين عليكم وعليهم ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي أعرض ونكت عهده ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي هم الخارجون عن طاعة الله ﴿أَفَعَيِّرَ دِينَ اللَّهِ يَعْذُوبُكَ﴾ الهمزة للإنكار التوبيخي أي أيتغي أهل الكتاب ديناً غير الإسلام الذي أرسل الله به رسله؟ ﴿وَلَهُ ٱسْلَمَ مِن فِى السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي لله استسلم وانقاد وخضع أهل السماوات والأرض ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ أي طائعين ومكرهين قال قتادة: المؤمن أسلم طائعاً والكافر أسلم كارهاً حين لا ينفعه ذلك ^(١) قال ابن كثير: فالمؤمن مستسلم بقلبه وقاله الله طوعاً، والكافر مستسلم لله كارهاً فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يُخالف ولا يُمانع ^(٢) ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ أي يوم المعاد فيجازي كلأ بعمله ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أي قل يا محمد أنت وأمتك: آمنا بالله وبالقرآن المنزل علينا ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا إِلَّا بِإِذْنِهِمْ﴾ أي لا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض كما فعل اليهود والنصارى بل نؤمن بالكل ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي مخلصون في العبادة مقرّون له بالألوهية والربوبية لا نشرك معه أحداً أبداً، ثم أخبر تعالى بأن كل دين غير الإسلام باطل ومرفوض فقال ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ أي يطلب شريعة غير شريعة الإسلام بعد بعثة النبي عليه الصلوة والسلام ليدين بها فلن يتقبل الله منه ﴿وَهُوَ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخٰسِرِينَ﴾ أي مصيره إلى النار مخلداً فيها ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمٰنِهِمْ﴾ استفهام للتعجب والتعظيم لكفرهم أي كيف يستحق الهداية قوم كفروا بعد إيمانهم ﴿وَشَهِدُوا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾ أي بعد أن جاءتهم الشواهد ووضح لهم الحق أن محمداً رسول الله ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنٰتُ﴾ أي جاءتهم المعجزات والحجج البينات على صدق النبي ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا يوفقهم لطريق السعادة، قال الحسن: هم اليهود والنصارى رأوا صفة محمد ﷺ في كتابهم، وشهدوا أنه حق فلما بعث من

(١) «الطبري» ٥٧٦/٦.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٢٧٩/١.

غيرهم حسدوا العرب فكفروا بعد إيمانهم^(١) ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي جزاؤهم على كفرهم اللعنة من الله والملائكة والخلق أجمعين ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي ماكثين في النار أبد الأبد، لا يُفْتَر عنهم العذاب ولا هم يمهلون ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أي إلا من تاب وأناب وأصلح ما أفسد من عمله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي متفضل عليه بالرحمة والغفران ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ نزلت في اليهود كفروا بعبسى بعد إيمانهم بموسى ثم ازدادوا كفراً حيث كفروا بمحمد والقرآن ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ أي لا تقبل منهم توبة ما أقاموا على الكفر ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ أي الخارجون عن منهج الحق إلى طريق الغي، ثم أخبر تعالى عمّن كفر ومات على الكفر فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي كفروا ثم ماتوا على الكفر ولم يتوبوا وهو عام في جميع الكفار ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ اقْتَدَى بِهِ﴾ أي لن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي مؤلم موجه ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ أي ما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله ولا يجيرهم من أليم عقابه.

البلاغة: ١ - الالتفات ﴿لَمَّا آتَيْنَاكُمْ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الحاضر لأن قبله ﴿مِثْقَ النَّيِّتِ﴾.

٢ - بين لفظ ﴿فَاشْهَدُوا﴾ و ﴿الشَّاهِدِينَ﴾ جناس الاشتقاق وكذلك بين لفظ ﴿كَفَرُوا﴾ و ﴿كُفَّارًا﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٣ - الطباق بين ﴿طَوْعًا﴾ و ﴿وَكَرْهًا﴾ وكذلك يوجد الطباق بين لفظ الكفر والإيمان.

٤ - ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ قصر صفة على موصوف ومثله ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

٥ - ﴿وَمَا أَوْقَى مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ﴾ هو من باب عطف العام على الخاص.

٦ - ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي مؤلم. والعدول إلى صيغة فعيل للمبالغة.

فائدة: الآيات الكريمة قسمت الكفار إلى ثلاثة أقسام:

١ - قسم تاب توبة صادقة فنفعته وإليهم الإشارة بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾.

٢ - وقسم تاب توبة فاسدة فلم تنفعه وإليهم الإشارة بقوله: ﴿كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾.

٣ - وقسم لم يتب أصلاً ومات على الكفر وإليهم الإشارة بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.

تنبيه: روى الشيخان عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَأَهْلِي النَّارِ

عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ تَفْتَدِي؟ بِهِ يَقُولُ نَعَمْ . فَيَقُولُ: أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي».

قال الله تعالى:

لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴿١٣﴾ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ جَلًا لِنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤﴾ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦﴾ إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾ قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ تَكْفُورٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لَمْ تَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ آمَنَ تَبِعُونَهَا عَوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ طُغِيَوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ﴿٢١﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى حال الكفار ومآلهم في الآخرة، وبين أن الكافر لو أراد أن يفتدي نفسه بملء الأرض ذهباً ما نفعه ذلك، ذكر عنا - استطراداً - ما ينفع المؤمن لئيل رضى الله والفوز بالجنة، ثم عاد الكلام لرفع الشبهات التي أوردتها أهل الكتاب حول النبوة والرسالة وصحة دين الإسلام، ثم جاء بعده التحذير من مكائدهم ودسائسهم التي يدبرونها للإسلام والمسلمين لتفرقة الصف وتشيت الشمل.

اللغة: ﴿الْبِرَّ﴾ كلمة جامعة لوجوه الخير والمراد بها هنا الجنة ﴿جَلًا﴾ حلالاً وهو مصدر نعت به ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ﴿إِسْرَءِيلَ﴾ هو يعقوب عليه السلام ﴿بِكَّةَ﴾ اسم لمكة فتسمى «بكة» و«مكة» سميت بذلك لأنها تبك أي تدق أعناق الجبابة فلم يقصدها جبار بسوء إلا قصمه الله ﴿مُبَارَكًا﴾ البركة: الزيادة وكثرة الخير ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ محل قيام إبراهيم وهو الحجر الذي قام عليه لما ارتفع بناء البيت ﴿عَوَجًا﴾ العوج: الميل قال أبو عبيدة: في الدين والكلام والعمل، وبالفتح عوج في الحائط والجذع ﴿يَعْتَصِمُ﴾ يتمسك ويلتجئ وأصله المنع قال «القرطبي»: وكل متمسك بشيء معتصم وكل مانع شيئاً فهو عاصم ^(١) ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [هود: ٤٣] ﴿شَفَا﴾ الشفا: حرف كل شيء وحده ومثله

الشفير: وشفها الحفرة: حرفها قال تعالى ﴿عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَاكِ﴾ [التوبة: ١٠٩].

سَبَبُ التَّوَلُّ: يروى أن «شاس بن قيس» اليهودي مرَّ على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج في مجلس لهم يتحدثون، فغاظه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة فقال: ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار، ثم أمر شابًا من اليهود أن يجلس إليهم ويذكّرهم يوم «بُعَاث» ويُشدهم بعض ما قيل فيه من الأشعار - وكان يومًا اقتتل فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس - ففعل فتنازع القوم عند ذلك وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا: السلاح السلاح، فبلغ النبي ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار فقال: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم؟» فعرف القوم أنها كانت نزعة من الشيطان وكيدًا من عدوهم، فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضًا ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فِرْعَانَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ (١) الآية.

التفسير: ﴿لَن نَّأْلُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أي لن تكونوا من الأبرار ولن تدرکوا الجنة حتى تنفقوا من أفضل أموالكم ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ أي وما تبدلوا من شيء من سبيل الله فهو محفوظ لكم تجزون عنه خير الجزاء ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي كل الأطعمة كانت حلالًا لبني إسرائيل ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي إلا ما حرّمه يعقوب على نفسه وهو لحم الإبل ولبنها ثم حرمت عليهم أنواع من الأطعمة كالشحوم وغيرها عقوبة لهم على معاصيهم ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْزَلَ التَّوْرَةُ﴾ أي كانت حلالًا لهم قبل نزول التوراة ﴿قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي قل لهم يا محمد: اتوني بالتوراة واقرأوها عليّ إن كنتم صادقين في دعواكم أنها لم تحرم عليكم بسبب بغيتكم وظلمكم قال الزمخشري: وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبغي والظلم والصدّ عن سبيل الله فلما حاجّهم بكتابهم وبكتّهم بهتوا وانقلبوا صاغرين ولم يجسر أحد منهم على إخراج التوراة، وفي ذلك الحجة البينة على صدق النبي ﷺ (٢) ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي اختلق الكذب من بعد قيام الحجة ظهور البينة ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي المعتدون المكابرون بالباطل ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ أي صدق الله في كل ما أوحى إلى محمد وفي كل ما أخبر ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي اتركوا اليهودية واتبعوا ملة الإسلام التي هي ملة إبراهيم ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلًا عن الأديان الزائفة كلها ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ برأه مما نسبته اليهود والنصارى إليه من اليهودية والنصرانية،

(١) «أسباب النزول» «ص ٦٦» و«الكشاف» ١/ ٣٠١.

(ش: ضعيف، أخرجه ابن إسحاق في «المغازي» و«الطبري» في «جامع البيان»، وابن أبي حاتم في «تفسيره».

(٢) «الكشاف» ١/ ٢٩٥.

وفيه تعريض بإشراكهم ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ أي أول مسجد بني في الأرض لعبادة الله المسجد الحرام الذي هو بمكة ﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ أي وضع مباركاً كثيراً الخير والنفع لمن حَجَّهَ واعْتَمَرَهَ، ومصدر الهداية والنور لأهل الأرض لأنه قبلتهم، ثم عدد تعالى من مزايه ما يستحق تفضيله على جميع المساجد فقال ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي فيه علامات واضحات كثيرة تدل على شرفه وفضله على سائر المساجد منها ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهو الذي قام عليه حين رفع القواعد من البيت، وفيه زمزم والحطيم^(١)، وفيه الصفا والمروة والحجر الأسود، أفلا يكفي برهاناً على شرف هذا البيت وأحقية أن يكون قبله للمسلمين؟ ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ وهذه آية أخرى وهي أن من دخل الحرم بدعوة الخليل إبراهيم ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ أي فرض لازم على المستطيع حج بيت الله العتيق ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي من ترك الحج فإن الله مستغن عن عبادته وعن الخلق أجمعين، وعبر عنه بالكفر تغليظاً عليه قال ابن عباس: من جحد فريضة الحج فقد كفر والله غني عنه^(٢)، ثم أخذ يُبَيِّنُ أهل الكتاب على كفرهم فقال ﴿قُلْ يَتَاهُلَ الْكِتَابِ لَمْ تَكْفُرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي لم تجحدوا بالقرآن المنزل على محمد مع قيام الدلائل والبراهين على صدقه ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ أي مطلع على جميع أعمالكم فيجازيكم عليها ﴿قُلْ يَتَاهُلَ الْكِتَابِ لَمْ تَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ﴾ أي لم تصرفون الناس عن دين الله الحق، وتمنعون من أراد الإيمان به؟ ﴿تَبْعُونَهَا أَوْجًا﴾ أي تطلبون أن تكون الطريق المستقيمة معوجة، وذلك بتغيير صفة الرسول، والتليس على الناس بإيهامهم أن في الإسلام خللاً وعوجاً ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ أي عالمون بأن الإسلام هو الحق والدين المستقيم ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد ووعد، وقد جمع اليهود والنصارى الوصفين: الضلال والإضلال كما أشارت الآيتان الكريمتان فقد كفروا بالإسلام ثم صدّوا الناس عن الدخول فيه بإلقاء الشبهة والشكوك في قلوب الضعفة من الناس ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي إن طيعوا طائفة من أهل الكتاب ﴿يُرَدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾ أي يصيروكم كافرين بعد أن هداكم الله للإيمان، والخطاب للأوس والخزرج إذ كان اليهود يريدون فتنهم كما في سبب النزول. واللفظ في الآية عام ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ إنكار واستبعاد أي كيف يتطرق إليكم الكفر والحال أن آيات الله لا تزال تنزل عليكم والوحي لم ينقطع ورسول الله حي بين أظهركم؟ ﴿وَمَنْ يَعْنَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي من

(١) (ش): الْحَطِيمُ: الْحَجَرُ: الْقِسْمُ الْخَارِجُ عَنْ جِدَارِ الْكَعْبَةِ، وَهُوَ مَحْظُوطٌ مُدَوَّرٌ عَلَى صُورَةِ نَصْفِ دَائِرَةٍ وَيُسَمَّى (حَجَرِ إِسْمَاعِيلَ).

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٣٠٣.

يتمسك بدينه الحق الذي بيَّنه بآياته على لسان رسوله فقد اهتدى إلى أقوم طريق، وهي الطريق الموصلة إلى جنات النعيم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ أي اتقوا الله تقوى حقة أو حق تقواه قال ابن مسعود: «هُوَ أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى، وَيُذَكَّرَ فَلَا يُنْسَى، وَيَشْكُرَ فَلَا يُكْفَرُ» والمراد بالآية ﴿حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ أي كما أن يُتَّقَى وذلك باجتنب جميع معاصيه ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي تمسكوا بالإسلام وعُضُّوا عليه بالنواجذ حتى يدرككم الموت وأنتم على تلك الحالة فتموتون على الإسلام والمقصود الأمر بالإقامة على الإسلام ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ أي تمسكوا بدين الله وكتابه جميعًا ولا تفرقوا عنه ولا تختلفوا في الدين كما اختلف من قبلكم من اليهود والنصارى ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي اذكروا إنعامه عليكم يا معشر العرب ﴿إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ أي حين كنتم قبل الإسلام أعداء ألداء فألف بين قلوبكم بالإسلام وجمعكم على الإيمان ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ أي وكنتم مشرفين على الوقوع في نار جهنم فأنقذكم الله منها بالإسلام ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ أي مثل ذلك البيان الواضح يبين الله لكم سائر الآيات ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي لكي تهتدوا بها إلى سعادة الدارين^(١).

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة نوجزها فيما يلي:

- ١ - ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ﴾ الأمر للتبكيك والتوبيخ للدلالة على كمال القبح.
- ٢ - ﴿لِلَّذِي بِيَكَّة﴾ أي للبيت الذي بيكة وفي ترك الموصوف من التفضيم ما لا يخفى.
- ٣ - ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ وضع هذا اللفظ موضع «ومن لم يحج» تأكيداً لوجوبه وتشديداً على تاركه قال «أبو السعود»: «ولقد حازت الآية الكريمة من فنون الاعتبار ما لا مزيد عليه وهي قوله ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ﴾ حيث أثمرت صيغة الخبر الدالة على التحقيق وأبرزت في صورة الجملة الاسمية الدالة على الثبات والاستمرار، على وجه يفيد أنه حق واجب لله سبحانه في ذمم الناس، وسلك بهم مسلك التعميم ثم التخصيص، والإبهام ثم التبيين، والإجمال ثم التفصيل»^(٢).

- ٤ - ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ شبه القرآن بالحبل واستعير اسم المشبه به وهو الحبل للمشبه وهو القرآن على سبيل الاستعارة التصريحية والجامع بينهما النجاة في كل.
- ٥ - ﴿شَفَا حُفْرَةٍ﴾ شبه حالهم الذي كانوا عليه بالجاهلية بحال من كان مشرفاً على حفرة عميقة وهوة سحيقة ففيه استعارة تمثيلية والله أعلم.

تنبيه: وردت الآيات الكريمة لدفع شبهتين من شبه أهل الكتاب:

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٣٠٤.

(٢) «أبو السعود» ١/ ٢٥٥.

الشبهة الأولى: أنهم قالوا: للنبي ﷺ: إنك تدعي أنك على دين إبراهيم وقد خالفت شريعته فأنت تبيح لحوم الإبل وألبانها مع أن ذلك كان حراماً في دين إبراهيم؟ فرد الله عليهم بقوله ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّنَّبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ﴾ الآية.

الشبهة الثانية: قالوا إن «بيت المقدس» قبلة جميع الأنبياء؛ وهو أول المساجد وأحق بالاستقبال فكيف ترك يا محمد التوجه إليه ثم تزعم أنك مصدق لما جاء به الأنبياء فرد الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ الآية.

قال الله تعالى:

وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ ففِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتُلُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١١١﴾ ضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ أَنْ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

المناسبة: لما حذر تعالى من مكاييد أهل الكتاب، وأمر بالاعتصام بحبل الله والتمسك بشرعه القويم، دعا المؤمنين إلى القيام بواجب الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأمر بالائتلاف وعدم الاختلاف، ثم ذكر ما حلَّ باليهود من الذل والصغار بسبب البغي والعدوان.

اللغة: ﴿أُمَّةٌ﴾ طائفة وجماعة ﴿الْبَيِّنَاتُ﴾ الآيات الواضحات ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ ما أمر به الشرع واستحسنه العقل السليم ﴿الْمُنْكَرُ﴾ ما نهى عنه الشرع واستقبحه العقل السليم ﴿الْأَدْبَارَ﴾ جمع دبر وهو مؤخر كل شيء يقال: ولاه دبره أي هرب من وجهه ﴿تُقِفُوا﴾ وجدوا وصدفوا ﴿بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ﴾ الحبل معروف والمراد به هنا: العهد وسمي حبلًا لأنه سبب يحصل به الأمن وزوال الخوف ﴿وَبَاءُوا﴾ رجعوا ﴿الْمَسْكَنَةُ﴾ الفقر.

التفسير: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ أي ولتقم منكم طائفة للدعوة إلى الله ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي للأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر ﴿وَأُولَٰئِكَ

﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي هم الفائزون ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي لا تكونوا كاليهود والنصارى الذين تفرقوا في الدين واختلفوا فيه بسبب اتباع الهوى من بعد ما جاءتهم الآيات الواضحات ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي لهم بسبب الاختلاف عذاب شديد يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ أي يوم القيامة تبيض وجوه المؤمنين بالإيمان والطاعة، وتسود وجوه الكافرين بالكفر والمعاصي ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ هذا تفصيل لأحوال الفريقين بعد الإجمال. والمعنى أما أهل النار الذين اسودت وجوههم فيقال لهم على سبيل التوبيخ: أكفرتم بعد إيمانكم أي بعد ما وضحت لكم الآيات والدلائل ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي ذوقوا العذاب الشديد بسبب كفركم ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ﴾ أي وأما السعداء الأبرار الذين ابيضت وجوههم بأعمالهم الصالحات ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي فهم في الجنة مخلدون لا يخرجون منها أبداً^(١) ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي هذه آيات الله نتلوها عليك يا محمد حال كونها متلبسة بالحق ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي وما كان الله ليظلم أحداً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي الجميع ملك له وعبيد ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي هو الحاكم المتصرف في الدنيا والآخرة ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي أنتم يا أمة محمد خير الأمم لأنكم أنفع الناس للناس ولهذا قال ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي أخرجت لأجلهم ومصلحتهم، روى البخاري عن أبي هريرة ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: خَيْرُ النَّاسِ لِلنَّاسِ، تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلَاسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ. ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهذا بيان لوجه الخيرية كأنه قيل: السبب في كونكم خير أمة هذه الخصال الحميدة روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ تِلْكَ الْأُمَّةِ فَلْيُؤَدِّ شَرْطَ اللَّهِ فِيهَا»^(٢) ثم قال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا﴾ أي لو آمنوا بما أنزل على محمد وصدقوا بما جاء به لكان ذلك خيراً لهم في الدنيا والآخرة ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي منهم فئة قليلة مؤمنة كالنجاشي وعبد الله بن سلام^(٣)، والكثرة الكثيرة فاسقة خارجة عن طاعة الله، ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ أي لن يضرركم إلا ضرراً يسيراً بألسنتهم من سب و طعن ﴿وَلَنْ يَقْتُلُوكُمْ يُولُوكُمُ الْأَذْبَارَ﴾ أي ينهزموا من غير أن ينالوا منكم شيئاً ﴿ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾ أي

(١) (ش): فالجنة أثراً من آثار رحمته تعالى، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، في جوار

أرحم الراحمين سبحانه وتعالى.

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٣١١.

(٣) (ش): فقد دخلوا الإسلام وآمنوا بالنبي ﷺ.

ثم شأنهم الذي أبشركم به أنهم مخذولون لا ينصرون والجملة استثنائية^(١) ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾ أي لزمهم الذل والهوان أينما وجدوا وأحاط بهم كما يحيط البيت المضروب بساكنه ﴿إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ﴾ أي إلا إذا اعتصموا بذمة الله وذمة المسلمين قال ابن عباس: بعهد من الله وعهد من الناس ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي رجعوا مستوجبين للغضب الشديد من الله ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ أي لزمتهم الفاقة والخشوع فهي محيطة بهم من جميع جوانبهم ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي ذلك الذل والصغار والغضب والدمار، بسبب جحودهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء ظلماً وطغياناً ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي بسبب تمردهم وعصيانهم وأوامر الله تعالى.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - ﴿وَيَا مُرُوتَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَهْوَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة.

٢ - ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فيه قصر صفة على موصوف حيث قصر الفلاح عليهم.

٣ - ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ بين كلمتي ﴿تَبْيَضُّ﴾ و﴿تَسْوَدُّ﴾ طباق.

٤ - ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ مجاز مرسل أطلق الحال وأريد المحل أي ففي الجنة لأنها مكان تنزل الرحمة.

٥ - ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ فيه استعارة حيث شبه الذل بالخباء المضروب على أصحابه وقد تقدمت في البقرة.

٦ - ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ﴾ التنكير للتفخيم والتهويل.

فائدة: قوله تعالى ﴿ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾ جملة مستأنفة ولهذا ثبتت فيها النون قال الزمخشري: «وعدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداءً كأنه قيل: ثم أخبركم أنهم مخذولون مُتَّفٍ عنهم النصر، ولو جزم لكان نفي النصر مقيداً بقتالهم بينما نفي النصر وعدٌ مطلق»^(٢).

تنبيه: الاختلاف الذي أشارت إليه الآية ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ إنما يراد به الاختلاف في العقيدة وفي أصول الدين، وأما الاختلاف في الفروع كما اختلف الأئمة المجتهدون فذلك من اليسر في الشريعة كما نبه على ذلك العلماء ولا بن تيمية رَحِمَهُ اللهُ رسالة قيمة أسماها «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» فارجع إليها فإنها رائعة ومفيدة^(٣).

(١) (ش): الجملة الاستثنائية: هي التي يُبْتَدَأُ بها معنى جديدٌ بعد كلام سابق، كالجملة الثانية والثالثة في قولنا: «أَحْزَنْتَكَ وشاية فلان، لا تلتفت إليها، إني لم أصدقها».

(٢) «الكشاف» ٣٠٨/١ باختصار.

(٣) (ش): أنواع الاختلاف الواقع بين المسلمين:

قال الله تعالى:

لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ
وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ
﴿١١٦﴾ مِثْلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمِثْلِ رِبْحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَنَخِذُوا بِطَانَةً مِّنْ
دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ
بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَتَأْتُمْ أَولَاءَ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ
قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتَاوُا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ يَدَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن
نَمْسِكُمْ حَسَنَةً نَّسُودْهُمْ وَإِن تُضَيِّبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن نَصِّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ
شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

المناسبة: لما وصف تعالى أهل الكتاب بالصفات الذميمة، ذكر هنا أنهم ليسوا بدرجة

= ١ - اختلاف التنوع: وهو ما لا يكون فيه أحد الأقوال منافياً للأقوال الأخرى بل كل الأقوال صحيحة، وهذا
مثل القراءات وأنواع الشُّهَدَات، فمن يقرأ في التشهد بتشهد ابن مسعود لا يرى مانعاً من تشهد ابن عباس
- رضي الله عنهما - أو تشهد عمر - رضي الله عنه - أو غيره من الصيغ، بل اتفق العلماء على جواز كل منها،
وإنما اختلافهم في اختيار كل منهم لما يراه الأفضل لاعتبارات يراها.
٢ - اختلاف التضاد: وهو أن يكون كل قول من أقوال المختلفين يضاد الآخر ويحكم بخطئه أو بطلانه، وهو
يكون في الشيء الواحد يقول البعض بحرمة والبعض بجله. وينقسم اختلاف التضاد إلى: أولاً: اختلاف
سائغ غير مذموم: وهو ما لا يخالف نصاً من كتاب أو سنة صحيحة، أو إجماعاً أو قياساً جلياً. أمثلة الاختلاف
السائغ: - وجوب المضمضة والاستنشاق أو استحبابهما. - وضع اليمنى على اليسرى على الصدر بعد
الركوع أو إرسالهما. - النزول على الركبتين أو على اليدين في السجود. ثانياً: اختلاف غير سائغ مذموم: وهو
ما خالف نصاً من كتاب أو سنة أو إجماعاً أو قياساً جلياً لا يختلف فيه. أمثلة للاختلاف غير السائغ: - القول
بصحّة النكاح دون وليّ وهو مصادم لنص الحديث الصحيح: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ نَكَحَتْ بِغَيْرِ إِذْنٍ وَلِيِّهَا فَنِكَاحُهَا
بَاطِلٌ» ثلاثاً. - القول بجواز المعازف وسماعها وهو مصادم لنص الحديث الصحيح: «لَيْكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ
يَسْتَجْلُونَ الْجَرَ وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ» رواه البخاري. - تهنة الكفار من النصارى وغيرهم بأعيادهم
الكفرية أو بمناصبهم الطاغوتية بزعم سماحة الإسلام أو مصلحة الدعوة؛ فإن هذا عند كل أهل العلم من
موالاتهم وهي محرمة بالكتاب والسنة والإجماع. وليس معنى أن الخلاف في المسألة خلاف سائغ أنه يجوز
لكل واحد أن يتنقي بالتشهي أيّاً من القولين دون اجتهاد، فهذا سبيل إلى الزندقة والانحلال، وقد أجمع العلماء
فيما نقل الإمام أبو عمر بن عبد البر أنه: «لا يجوز تتبع رخص العلماء فضلاً عن الزلات والسقطات». [جامع
بيان العلم وفضله (ص ٣٦٠)].

واحدة ففيهم المؤمن والكافر والبر والفاجر^(١)، ثم ذكر تعالى عقاب الكافرين وأن أموالهم وأولادهم لن تنفعهم يوم القيامة شيئاً، وأعقب ذلك بالنهي عن اتخاذ أعداء الدين أولياء ونبه إلى ما في ذلك من الضرر الجسيم في الدنيا والدين.

اللغة: ﴿ءَانَاءَ﴾ أوقات وساعات مفرداً إِنَى على وزن مَعَى ﴿يُكْفَرُوهُ﴾ يُجحدوه من الكفر بمعنى الجحود، سمي منعُ الجزاء كفراً لأنه بمنزلة الجحد والستر ﴿صِرُّهُ﴾ الصرُّ: البرد الشديد قاله ابن عباس. وأصله من الصرير الذي هو الصوت ويراد به الريح الشديدة الباردة ﴿حَرَّثَ﴾ زرع وأصله من حرث الأرض إذا شقها للزرع والبذر ﴿بِطَانَةً﴾ بطانة الرجل: خاصته الذين يفضي إليهم بأسراره شبه ببطانة الثوب لأنه يلي البدن ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ﴾ أي لا يقصرون قال الزمخشري: يقال ألا في الأمر يألو إذا قصر فيه ﴿حَبَالًا﴾ الخبال: الفساد والنقصان ومنه رجل مخبول إذا كان ناقص العقل ﴿عَنِتُّمْ﴾ العنت: شدة الضرر والمشقة ﴿الْأَنَامِلُ﴾ أطراف الأصابع. **سبب النزول:** لما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه قال أحبار اليهود، ما آمن بمحمد إلا شرارنا ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وقالوا لهم: لقد كفرتم وخسرتم فأنزل الله ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾^(٢) الآية.

التفسير: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ أي ليس أهل الكتاب مستوين في المساوىء، وهنا تم الكلام. ثم ابتدأ تعالى بقوله ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ أي منهم طائفة مستقيمة على دين الله ﴿يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي يتعبدون في الليل بتلاوة آيات الله حال الصلاة ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي يؤمنون بالله على الوجه الصحيح^(٣) ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي يدعون إلى الخير وينهون عن الشر ولا يداهنون ﴿وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي يعملونها بمبادرين غير متثاقلين ﴿وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي وهم في زمرة عباد الله الصالحين ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ أي ما عملوا من عمل صالح فلن يضيع عند الله ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ أي لا يخفى عليه عمل عامل، ولا يضيع لديه أجر المتقين، ثم أخبر تعالى عن مآل الكافرين فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي لن تدفع عنهم أموالهم التي تهالكوا على اقتنائها ولا أولادهم الذين تفانوا في حبهم من عذاب الله شيئاً ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي مخلدون في عذاب جهنم ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ أي مثل ما ينفقونه في الدنيا

(١) (ش): فمنهم من آمن بالنبي ﷺ ودخل الإسلام.

(٢) «أسباب النزول» للواحدى ﷺ ٦٨. (ش): ضعيف، أخرجه ابن إسحاق؛ في «السيرة» و«الطبري» في «جامع البيان».

(٣) (ش): ومن أركان الإيمان الإيمان بالنبي ص، قال ﷺ: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ. (رواه مسلم).

بقصد الثناء وحسن الذكر كمثل ريح عاصفة فيها بردٌ شديد ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ أي أصابت تلك الريح المدمرة زرع قوم ظلموا أنفسهم بالمعاصي فأفسدته وأهلكته فلم ينتفعوا به؛ وكذلك الكفار يمحق الله أعمالهم الصالحة كما يذهب هذا الزرع بذنوب صاحبه ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي وما ظلمهم الله بإهلاك حرثهم ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما يستوجب العقاب، ثم حذر تعالى من اتخاذ المنافقين بطانة يطلعونهم على أسرارهم فقال ﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ﴾ أي لا تتخذوا المنافقين أصدقاء تودونهم وتطلعونهم على أسراركم وتجعلونهم أولياء من غير المؤمنين ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي لا يقصرون لكم في الفساد ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ أي تمنوا مشقتكم وما يوقعكم في الضرر الشديد ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي ظهرت أمارات العداوة لكم على ألسنتهم فهم لا يكتفون ببغضكم بقلوبهم حتى يصرحوا بذلك بأفواههم ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ أي وما يبطنونكم من البغضاء أكثر مما يظهرهونه ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أي وضحنا لكم الآيات الدالة على وجوب الإخلاص في الدين، وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي إن كنتم عقلاء، وهذا على سبيل الهز والتحريك للنفوس كقولك: إن كنت مؤمنًا فلا تؤذ الناس وقال ابن جرير: المعنى: إن كنتم تعقلون عن الله أمره ونهيه، ثم بين سبحانه ما هم عليه من كراهية المؤمنين فقال ﴿هَتَأْتُمْ أَزْوَاجًا تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ أي ها أنتم يا معشر المؤمنين خاطئون في موالاتكم إذ تحبونهم ولا يحبونكم، تريدون لهم النفع وتبدلون لهم المحبة وهم يريدون لكم الضرر ويضمرون لكم العداوة ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أي وأنتم تؤمنون بالكتب المنزلة كلها وهم مع ذلك يبغضونكم، فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم؟ وفيه توبيخ شديد بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ أي وهذا من خبثهم إذ يُظهرون أمامكم الإيمان نفاقًا ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أي وإذا خلت مجالسهم منكم عضوا أطراف الأصابع من شدة الحقد والغضب لما يرون من اتلافكم، وهو كناية عن شدة الغيظ والتأسف لما يفوتهم من إذاية المؤمنين ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ هو دعاء عليهم، أي: قل يا محمد: أدام الله غيظكم إلى أن تموتوا^(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي إن الله علام بما تكنه سرائركم من البغضاء والحسد للمؤمنين، ثم أخبر تعالى بما يترقبون نزوله من البلاء والمحنة بالمؤمنين فقال ﴿إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً سَوْهُمْ﴾ أي إن أصابكم ما يسركم من رخاءٍ وخصبٍ ونصرةٍ وغنيمةٍ ونحو ذلك ساءتكم ﴿وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ أي وإن أصابكم ما يضركم من شدةٍ وجذبٍ وهزيمةٍ وأمثال ذلك سرتهم، فبين تعالى بذلك فرط

(١) هذا قول «الطبري» وكثير من المفسرين وقيل المراد منه: التفرع والإغاظة. والمعنى: أنهم لا يدركون ما يؤملون فإن الموت دون ذلك كذا في «القرطبي» ١/ ١٨٣.

عداوتهم حيث يسوءهم ما نال المؤمنين من الخير ويفرحون بما يصيبهم من الشدة ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي إن صبرتم على أذاهم واتقيتم الله في أقوالكم وأعمالكم لا يضركم مكرهم وكيدهم، فشرط تعالى نفي ضررهم بالصبر والتقوى ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي هو سبحانه عالم بما يدبرونه لكم من مكائد فيصرف عنكم شرهم ويعاقبهم على نواياهم الخبيثة.

البلاغة: ١ - ﴿مَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ أُمَّةٌ﴾ جيء بالجملة اسمية للدلالة على الاستمرار كما جيء بعدها بصيغة المضارع ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ للدلالة على التجدد ومثله في ﴿يَسْجُدُونَ﴾ .
٢ - ﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الإشارة بالبعيد لبيان علو درجتهم وسمو منزلتهم في الفضل.

٣ - ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ فيه تشبيه وهو من نوع التشبيه التمثيلي، شبه ما كانوا ينفقونه في المفاهر وكسب الثناء بالزرع الذي أصابته الريح العاصفة الباردة فدمرته وجعلته خطأً.
٤ - ﴿لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً﴾ شبه دخلاء الرجل وخواصه بالبطانة لأنهم يستبطنون دخيل أمره ويلازمونه ملازمة شعاره لجسمه ففيه استعارة أفاده في «تلخيص البيان»^(١).

٥ - ﴿عَصُوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ﴾ قال أبو حيان: يوصف المغتاط والنادم بعص الأنامل فيكون حقيقة ويحتمل أنه من مجاز التمثيل عبر بذلك عن شدة الغيظ والتأسف لما يفوتهم من إذابة المؤمنين^(٢).

٦ - في الآيات من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة وذلك في قوله ﴿إِنْ تَمَسَّسَكُمْ حَسَنَةٌ سَوَّاهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ حيث قابل الحسنة بالسيئة والمساءة بالفرح وهي مقابلة بديعة، كما أن فيها جناس الاشتقاق في ﴿ظَلَمَهُمْ﴾ و﴿يَظْلِمُونَ﴾ وفي ﴿أَلْغَيْطُ﴾ و﴿يَغِيظُكُمْ﴾ وفي ﴿وَتُؤْمِنُونَ﴾ و﴿ءَامَنَّا﴾ .

لطيفة: عبر بالمس في قوله ﴿إِنْ تَمَسَّسَكُمْ حَسَنَةٌ﴾ وبالإصابة في قوله ﴿وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ وذلك للإشارة إلى أن الحسنة تسوء الأعداء وحتى ولو كانت بأيسر الأشياء ولو مساً خفيفاً، وأما السيئة فإذا تمكنت الإصابة بها إلى الحد الذي يرثي له الشامت فإنهم لا يرثون بل يفرحون ويسرون، وهذا من أسرار بلاغة التنزيل، نقلاً عن «حاشية الكشف».

قال الله تعالى:

وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٦﴾ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدَرِّ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا

(١) «تلخيص البيان» ص ٢١.

(٢) «البحر المحيط» ٤١ / ٣.

اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٣٦﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ﴿١٣٧﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٣٨﴾ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ. وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٣٩﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبَ غُلَامًا يَتَّبِعُهُمْ فِي الْغَلَاةِ ﴿١٤٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤١﴾ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٤٢﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٤٣﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٤٤﴾

المناسبة: يبدأ الحديث عن الغزوات من هذه الآيات الكريمة، وقد انتقل السياق من معركة الجدل والمناظرة إلى معركة الميدان والقتال، والآيات تتحدث عن غزوة «أحد» بالإسهاب وقد جاء الحديث عن غزوة بدر في أثنائها اعتراضاً ليدكرهم بنعمته تعالى عليهم لما نصرهم ببدر وهم أدلة قليلون في العدد والعدد، وهذه الآية هي افتتاح القصة عن غزوة أحد وقد أنزل فيها ستون آية، ومناسبة الآيات لما قبلها أنه تعالى لما حذر من اتخاذ بطانة السوء ذكر هنا أن السبب في همّ الطائفتين من الأنصار بالفشل إنما كان بسبب تشييط المنافقين لهم وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول رأس النفاق فالمناسبة واضحة، روى الشيخان عن جابر قال: فِينَا نَزَلَتْ ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ قَالَ: نَحْنُ الطَّائِفَتَانِ بَنُو حَارِثَةَ وَبَنُو سَلِمْةٍ وَمَا نَحِبُّ أَنَّهَا لَمْ تَنْزَلْ لِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ .

اللغة: ﴿عُدُوْتُ﴾ خرجت غُدوة وهي الساعات الأولى من الصبح ﴿نَفْشَلَا﴾ الفشل: الجبن والضعف ﴿تُبُوُّيُّ﴾ تُنْزَلُ يقال: بُوَاتُهُ مَنْزِلًا وَبُوَاتُ لَهُ مَنْزِلًا أَي أَنْزَلْتَهُ فِيهِ وَأَصْلُ التَّبَوُّوْ اتِّخَاذُ الْمَنْزِلِ ﴿أَذَلَّةٌ﴾ أَي قِلَّةٌ فِي الْعَدَدِ وَالسَّلَاحِ ﴿فُورِهِمْ﴾ الفور: السرعة وأصله شدة الغليان من فارت القدِرُ إِذَا غَلَتِ ثُمَّ اسْتَعْمَلَتْ لِلسَّرْعَةِ تَقُولُ: مِنْ فُورِهِ أَي مِنْ سَاعَتِهِ ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ بفتح الواو بمعنى معلّمين على القتال وبكسرهما بمعنى لهم علامة وكانت سيماهم يوم بدر عمائم بيضاء^(١) ﴿طَرَفًا﴾ طائفة وقطعة ﴿يَكْتَسِبُ﴾ الكبت: الهزيمة والإهلاك وقد يأتي بمعنى الغيظ والإذلال ﴿خَائِبِينَ﴾ الخيبة: عدم الظفر بالمطلوب.

سبب النزول: ثبت «في صحيح مسلم» أن النبي ﷺ كُسِرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ يَوْمَ أَحَدٍ وَشَجَّ فِي رَأْسِهِ فَجَعَلَ يَسْلُتُ الدَّمَ^(٢) عَنْهُ وَيَقُولُ «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ وَكَسَرُوا رِبَاعِيَّتَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ

(١) (ش): أخرج الطبراني عن ابن عباس قال: «كان سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض، قد أرسلوها إلى ظهورهم، ويوم حنين عمائم حمراء». (وضعه الألباني).

(٢) (ش): يَسْلُتُ الدَّمَ: يقطع نزوله ويزيله. رِبَاعِيَّةٌ: سِنَّةٌ بَيْنَ الثَّنِيَّةِ وَالنَّابِ، وهي أربع: اثنتان في الفك الأعلى واثنتان في الفك الأسفل. وَالثَّنِيَّةُ: إحدى الأسنان الأربع في مُقَدِّمِ الفم، اثنتان من فوق واثنتان من تحت.

إِلَى اللَّهِ». فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

التفسير: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي اذكر يا محمد حين خرجت إلى أحد من عند أهلِكَ ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ أي تُنْزِلُ الْمُؤْمِنِينَ أَمَاكِنَهُمْ لِقِتَالِ عَدُوهِمْ ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوالكم عليمٌ بأحوالكم ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ أي حين كادت طائفتان من جيش المسلمين أن تجبنا وتضعفا وهمتا بالرجوع وهما «بنو سلمة» و«بنو حارثة» وذلك حين خرج رسول الله ﷺ لأحد بألفٍ من أصحابه فلما قاربوا عسكر الكفرة وكانوا ثلاثة آلاف انخذل «عبد الله بن أبي» بثلاث الجيش وقال: علامَ نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فَهَمَّ الْحَيَّانُ مِنَ الْأَنْصَارِ بِالرَّجُوعِ فَعَصَمَهُمُ اللَّهُ فَمَضَوْا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وذلك قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي ناصرهما ومتولي أمرهما ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي في جميع أحوالهم وأمورهم، ثم ذَكَرَهُمُ تَعَالَى بِالنَّصْرِ يَوْمَ بَدَرَ لِقَوَى قُلُوبَهُمْ وَيَتَسَلَّوْا عَمَّا أَصَابَهُمْ مِنَ الْهَزِيمَةِ يَوْمَ أَحَدٍ فَقَالَ ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أي نصركم يوم بدر مع قلة العدد والسلاح لتعلموا أن النصر من عند الله لا بكثرة العدد والعدد ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ أي اشكروه على ما مَنَّ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنَ النَّصْرِ ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ أي إذ تقول يا محمد لأصحابك أما يكفيكم أن يعينكم الله بإمداده لكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين لنصرتكم ﴿بَلَى إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا﴾ بلى تصديق للوعد، أي: بلى يمدكم بالملائكة إن صبرتم في المعركة واتفقتم الله وأطعتم أمره ﴿وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا﴾ أي يأتاكم المشركون من ساعتهم هذه ﴿يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ أي يَزِدُّكُمْ اللَّهُ مَدَدًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُعَلِّمِينَ عَلَى السَّالِحِ وَمُدَرِّبِينَ عَلَى الْقِتَالِ (١) ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ أي وما جعل الله ذلك الإمداد بالملائكة إلا بشارة لكم أيها المؤمنون لتزدادوا ثباتًا ﴿وَلِنُطْمِئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ أي ولتسكن قلوبكم فلا تخافوا من كثرة عدوكم وقلة عددكم ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي فلا تتوهموا أن النصر بكثرة العدد والعدد، ما النصر في الحقيقة إلا بعون الله وحده، لا من الملائكة ولا من غيرهم ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي الغالب الذي لا يُغْلَبُ فِي أَمْرِهِ، الْحَكِيمُ الَّذِي يَفْعَلُ مَا تَقْتَضِيهِ حُكْمَتُهُ الْبَاهِرَةُ ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ذلك التدبير الإلهي لِيُهْلِكَ طَائِفَةً مِنْهُمْ بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ، وَيَهْدِمَ رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ الشَّرِكِ ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ أي يغيظهم ويخزيهم بالهزيمة ﴿فَيَنْقَلِبُوا خَآئِبِينَ﴾ أي يرجعوا غير ظافرين بمبتغاهم، وقد فعل تعالى ذلك بهم في بدر حيث قتل المسلمون من صناديدهم سبعين وأسرُوا سبعين وأعزَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَذَلَ الشَّرِكَ وَالْمُشْرِكِينَ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ هذه الآية وردت اعتراضًا وهي

(١) وقيل: معنى مسوِّمين: معلَّمون بعلامة، قال عروة بن الزبير: كانت الملائكة على خيل بلق عليهم عمائم بيض قد أرسلوها بين أكتافهم، انظر «الطبري» و«الكشاف». (ش): ضعيف.

في قصة أحد، وذلك لما كسرت رباعيته ﷺ وشج وجهه الشريف قال: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم؟ فنزلت ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أي ليس لك يا محمد من أمر تدبير العباد شيء وإنما أمرهم إلى الله ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي فالله مالك أمرهم فإما أن يهلكهم، أو يهزمهم، أو يتوب عليهم إن أسلموا، أو يعذبهم إن أصرّوا على الكفر فإنهم ظالمون يستحقون العذاب ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي له جل وعلا ملك السماوات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء وهو الغفور الرحيم ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ هذا نهى من الله تعالى لعباده المؤمنين عن تعاطي الربا مع التوبيخ بما كانوا عليه في الجاهلية من تضعيفه قال ابن كثير: كانوا في الجاهلية إذا حلّ أجل الدين يقول الدائن: إمّا أن تقضي وإمّا أن تُربي فإن قضاه وإلاّ زاده في المدة وزاده في القدر وهكذا كلّ عام فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيرًا مضاعفًا^(١) ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي اتقوا عذابه بترك ما نهى عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ أي لتكونوا من الفائزين ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي احذروا نار جهنم التي هيئت للكافرين ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي أطيعوا الله ورسوله لتكونوا من الأبرار الذين تنالهم رحمة الله.

البلاغة: ١ - ﴿إِذْ تَقُولُ﴾ صيغة المضارع لحكاية الحال الماضي باستحضار صورتها في الذهن.
٢ - ﴿أَنْ يُعَذِّبَكُمْ رَبُّكُمْ﴾ التعرض لعنوان الربوبية مع إضافته للمخاطبين لإظهار كمال العناية بهم. أفاده «أبو السعود».

٣ - ﴿يَغْفِرُ - وَيُعَذِّبُ﴾ بينهما طباق.

٤ - ﴿أَضْعَفًا مُّضَاعَفَةً﴾ جناس الاشتقاق.

٥ - ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾ سمي الأخذ أكلاً لأنه يتول إليه فهو مجاز مرسل.

تنبيه: ذكر الأضعاف المضاعفة في الآية ليس للقيّد ولا للشرط، وإنما هو لبيان الحالة التي كان الناس عليها في الجاهلية، وللتشجيع عليهم بأن في هذه المعاملة ظلماً صارخاً وعدواناً مبيناً حيث كانوا يأخذون الربا أضعافاً مضاعفة قال أبو حيان: «نہوا عن الحالة الشنعاء التي يوقعون الربا عليها فربما استغرق بالنزر اليسير مال المدين، وأشار بقوله: ﴿مُضَاعَفَةً﴾ إلى أنهم كانوا يكررون التضعيف عامّاً بعد عام، والربا محرم بجميع أنواعه، فهذه الحال ليست قيّداً في النهي»^(٢).

(١) «مختصر ابن كثير» ٣١٨/١.

(٢) «البحر المحيط» ٤٥/٣.

قال الله تعالى:

وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٢﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاَسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ اللَّهُ ذُنُوبَهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٤﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٥﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٣٦﴾ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٧﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٨﴾ إِن يَمَسُّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ فَتَحَ لَكُم مِّن قَبْلِهِ مَنَاسِكَ مِّن مَّا تَحْتَ الْفَلَاحِ وَكَانَ أُولَٰئِكَ لَكُم مِّن قَبْلِهِ مَنَاسِكًا وَلِيَمَّحُصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمَّحُصَ الْكَافِرِينَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مَنكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّادِرِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤١﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَن يَمَسُّهُ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كُتِبَ مُوَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٣﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٥﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٦﴾

المناسبة: لما حث تعالى على الصبر والتقوى ونبه المؤمنين إلى إمداد الله لهم بالملائكة في غزوة بدر، عقبه بالأمر بالمسارعة إلى نيل رضوان الله، ثم ذكر بالتفصيل غزوة أحد وما نال المؤمنين فيها من الهزيمة بعد النصر بسبب مخالفة أمر الرسول، ثم بين أن الابتلاء سنة الحياة، وأن قتل الأنبياء لا ينبغي أن يدخل الوهن إلى قلوب المؤمنين، ثم توالى الآيات الكريمة في بيان الدروس والعبر من غزوة أحد.

اللغة: ﴿وَسَارِعُوا﴾ بادروا ﴿السَّرَّاءِ﴾ الرخاء ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ الشدة والضيق ﴿وَالْكُظُمِينَ﴾ كظم الغيظ: رده في الجوف يقال: كظم غيظه، أي: لم يظهره مع قدرته على إيقاعه بالعدو مأخوذ من كظم القرية إذا ملأها وشد رأسها ﴿فَحِشَّةٌ﴾ الفاحشة: العمل الذي تنهى في القبح ﴿خَلَّتْ﴾ مضت ﴿سُنَنٌ﴾ السُّنَن: جمع سُنَّة وهي الطريقة التي يقتدى بها ومنها سُنَّة النبي ﷺ والمراد بها هنا الوقائع التي حصلت للمكذبين ﴿فَرَحٌ﴾ جرح بالفتح والضم قال الفراء: هو بالفتح الجرح وبالضم ألمه^(١)، وأصل الكلمة الخلوص، ومنه ماء قراح ﴿نُدَّاءُ لَهَا﴾ نصرَها

والمداولة: نقل الشيء من واحد إلى آخر يقال: تداولته الأيدي إذا انتقل من شخص إلى شخص ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ التمحيص: التخلص يقال: محصته إذا خلصته من كل عيب وأصله في اللغة: التنقية والإزالة ﴿وَيَمَحِّقُ﴾ المحق: نقص الشيء قليلاً قليلاً ﴿أَعْقَبَكُمْ﴾ جمع عقب وهو مؤخر الرجل يقال: انقلب على عقبه أي رجع إلى ما كان عليه ﴿مُؤَجَّلًا﴾ له وقت محدّد لا يتقدم ولا يتأخر ﴿وَكَايْنٍ﴾ كم وهي للتكثير وأصلها (أي) دخلت عليها كاف التشبيه فأصبح معناها التكثير ﴿رَبِّيُّونَ﴾ جمع ربّي نسبة إلى الربّ كالربانيين وهم العلماء الأتقياء العابدون لربهم وقيل: نسبة إلى الرّبة وهي الجماعة ﴿أَسْتَكَانُوا﴾ خضعوا وذلّوا وأصله من السكون لأن الخاضع يسكن لصاحبه ليصنع به ما يريد.

التفسير: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي بادروا إلى ما يوجب المغفرة بطاعة الله وامتنال أوامره ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي وإلى جنة واسعة عرضها السماء والأرض كما قال في سورة «الحديد» ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الآية: ٢١] والغرض بيان سعتها فإذا كان هذا عرضها فما ظنك بطولها؟ ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي هيئت للمتقين لله ﴿الَّذِينَ يُفْقُونَ فِي السَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي يبذلون أموالهم في اليسر والعسر، وفي الشدة والرخاء، ﴿وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ﴾ أي يمسكون غليظهم مع قدرتهم على الانتقام ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أي يعفون عمن أساء إليهم وظلمهم ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي يحب المتصفين بتلك الأوصاف الجليلة وغيرها ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾ أي ارتكبوا ذنباً قبيحاً كالكبائر ^(١) ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بإتيان أي ذنب ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا الذُّنُوبَ﴾ أي تذكروا عظمة الله ووعيده لمن عصاه فأقلعوا عن الذنب وتابوا وأنابوا ﴿وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ استفهام بمعنى النفي، أي: لا يغفر الذنوب إلا الله وهي جملة اعتراضية لتطيب نفوس العباد وتنشطهم للتوبة وليبان أن الذنوب - وإن جلّت ^(٢) - فإن عفوه تعالى أجل ورحمته أوسع ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي لم يقيموا على قبيح فعلهم وهم عالمون بقبحه بل يقلعون ويتوبون ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي الموصوفون بتلك الصفات الحميدة جزاؤهم وثوابهم العفو عما سلف من الذنوب ﴿وَجَنَّتْ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي ولهم جنات تجري خلال أشجارها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ﴾ أي نعمت الجنة جزاء لمن أطاع الله، ثم ذكر تعالى تمة تفصيل غزوة أحد بعد تمهيد مبادئ الرشد والصلاح فقال ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ أي قد مضت سنة الله في الأمم الماضية بالهلاك والاستئصال بسبب مخالفتهم الأنبياء ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ

(١) قال ابن عباس: الفاحشة الزنى وظلم النفس ما دونه من النظر واللمسة.

(٢) (ش): جَلَّ الأمر: عَظُمَ.

عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١﴾ أي تعرفوا أخبار المكذبين، وما نزل بهم لتتعظوا بما ترون من آثار هلاكهم ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ أي هذا القرآن ^(١) فيه بيان شاف للناس عامة ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي وهداية لطريق الرشاد وموعظة وذكرى للمتقين خاصة، وإنما خص المتقين بالذكر لأنهم هم المنتفعون به دون سائر الناس، ثم أخذ يسليهم عما أصابهم من الهزيمة في وقعة أحد فقال ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي لا تضعفوا عن الجهاد ولا تحزنوا على ما أصابكم من قتل أو هزيمة ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي وأنتم الغالبون لهم المتفوقون عليهم فإن كانوا قد أصابوكم يوم أحد فقد أبليتكم فيهم يوم بدر ^(٢) ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم حقاً مؤمنين فلا تنهوا ولا تحزنوا ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ أي إن أصابكم قتل أو جراح فقد أصاب المشركين مثل ما أصابكم ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي الأيام دُول، يومٌ لك ويومٌ عليك، ويوم تُسَاء ويوم تُسَرُّ ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي فعل ذلك ليمتحنكم فيرى من يصبر عند الشدائد ويميز بين المؤمنين والمنافقين ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ أي وليكرم بعضكم بنعمة الشهادة في سبيل الله ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يحب المعتدين ومنهم المنافقون الذين انخدلوا عن نبيه يوم أحد ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي ينفهم ويظهرهم من الذنوب ويميزهم عن المنافقين ﴿وَيَمَحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ أي يهلكهم شيئاً فشيئاً ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ استفهام على سبيل الإنكار أي هل تظنون يا معشر المؤمنين أن تنالوا الجنة بدون ابتلاء وتمحيص؟ ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ أي ولما تجاهدوا في سبيله فيعلم الله جهادكم وصبركم على الشدائد؟ ^(٣)

قال «الطبري» المعنى: أظننتم يا معشر أصحاب محمد أن تنالوا كرامة ربكم ولما يتبين لعبادي المؤمنين المجاهدون منكم في سبيل الله والصابرون عند البأس على ما ينالهم في ذات الله من ألم ومكروه ^(٤)!! ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾ أي كنتم تتمنون لقاء الأعداء لتحطوا بالشهادة ﴿قَبْلَ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ﴾ أي من قبل أن تذوقوا شدته، والآية عتاب في حق من انهزم ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمْوهُ وَأَنْتُمْ تُنْظَرُونَ﴾ أي رأيتموه بأعينكم حين قُتل من إخوانكم وشارفتم ^(٥) أن تُقتلوا، ونزل لما

(١) اختار «الطبري» وبعض المفسرين أن تكون الإشارة راجعة إلى ما تقدم ذكره والمعنى: هذا الذي أوضحت لكم وعرفتكم به من أخبار هلاك الأمم السابقة فيه بيان للناس من العمى وهدى من الضلالة وموعظة للمتقين.

(٢) (ش): أبلى في الحَرْب ونحوها: اجتهد فيها، وأظهر فيها بأساً.

(٣) (ش): لمّا: حرف نفْي يجزم المضارع، ويقبله إلى ماضٍ ممتدٍّ حتَّى وقت الحديث مع توقُّع حدوثه في المستقبل القريب. «لَمَّا يَذَاكِرْ دَرَسَهُ»: لم يفعلْهُ إلى وقت الحديث. ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾: لم يدخل الإيمان حتَّى الآن.

(٤) «تفسير الطبري».

(٥) (ش): شارَفَ المُسَافِرُ البلدَ/ شارَفَ المُسَافِرُ على البلد: قاربه، دنا منه.

أشاع الكافرون أن محمداً قد قتل وقال المنافقون: إن كان قد قتل فتعالوا نرجع إلى ديننا الأول ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي ليس محمد إلا رسول الله مضت قبله رسل، والرسول منهم من مات ومنهم من قتل ﴿أَفَايُنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ أفإن أماته الله أو قتله الكفار ارتددتم كفاراً بعد إيمانكم؟ ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً﴾ أي ومن يرتد عن دينه فلا يضر الله، وإنما يضر نفسه بتعريضها للسخط والعذاب ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ أي يثيب الله المطيعين وهم الذين ثبتوا ولم ينقلبوا، ثم أخبر تعالى أنه جعل لكل نفس أجلاً لا يتقدم ولا يتأخر فقال ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بإرادته ومشئته ﴿كَتَبْنَا مُوَجَلًّا﴾ أي كتب لكل نفس أجلها كتاباً مؤقتاً بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر، والغرض تحريضهم على الجهاد وترغيبهم في لقاء العدو، فالجبن لا يزيد في الحياة، والشجاعة لا تنقص منها، والحذر لا يدفع القدر والإنسان لا يموت قبل بلوغ أجله وإن خاض المهالك واقتحم المعارك ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي من أراد بعمله أجر الدنيا أعطيناه منها وليس له في الآخرة من نصيب، وهو تعريض بالذين رغبوا في الغنائم، فبين تعالى أن حصول الدنيا للإنسان ليس بموضع غبطة^(١) لأنها مبدولة للبر والفاجر ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي ومن أراد بعمله أجر الآخرة أعطيناه الأجر كاملاً مع ما قسمنا له من الدنيا كقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدْ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى: ٢٠] ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ أي سنعطيه من فضلنا ورحمتنا بحسب شكرهم وعملهم ﴿وَكَايُنْ مَنِ نَحْيَ قَتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ﴾ أي كم من الأنبياء قاتل لإعلاء كلمة الله وقاتل معه علماء ربانيون^(٢) وعُباد صالحون قاتلوا فقتل منهم من قتل ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي ما جنوا ولا ضعفت همهم لما أصابهم من القتل والجراح ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ عن الجهاد ﴿وَمَا اسْتَكَاثُوا﴾ أي ما ذلوا ولا خضعوا لعدوهم ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ أي يحب الصابرين على مقاساة الشدائد والأهوال في سبيل الله ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي ما كان قولهم مع ثباتهم وقوتهم في الدين إلا طلب المغفرة من الله ﴿وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ أي وتفريطنا وتقصيرنا في واجب طاعتك وعبادتك ﴿وَوَثِّبْتَ أَقْدَامَنَا﴾ أي ثبتنا في مواطن الحرب ﴿وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي انصرنا على الكفار ﴿فَكَانَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ أي جمع الله لهم بين جزاء الدنيا بالغنيمة والعز والظفر والتمكين لهم بالبلاد وبين جزاء الآخرة بالجنة ونعيمها ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي يحب من أحسن عمله وأخلص نيته، وخصَّ ثواب الآخرة بالحسن إشعاراً بفضله وأنه المعتمد به عند الله.

(١) (ش): غبط فلاناً: تمنى مثل ما له من النعمة من غير أن يحسده أو يريد زوالها عنه.

(٢) ذهب «الطبري» إلى معنى «رِيثُونَ كَثِيرٌ» أي جموع كثيرة. وهذا قول قتادة، وعن الحسن أن المراد علماء كثيرون.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبدیع نوجزها فيما يلي:

- ١ - ﴿عَرَضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي كعرض السماوات والأرض حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه. يسمى هذا «التشبيه البليغ» .
- ٢ - ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ﴾ من باب تسمية الشيء باسم سببه أي إلى موجبات المغفرة.
- ٣ - ﴿السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ فيه الطباق وهو من المحسنات البديعية.
- ٤ - ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ استفهام يقصد منه النفي أي لا يغفر إلا الله.
- ٥ - ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَّغْفِرَةٌ﴾ الإشارة بالبعيد للإشعار ببُعد منزلتهم وعلو طبقتهم في الفضل.

- ٦ - ﴿وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَمَلَيْنِ﴾ المخصوص بالمدح محذوف أي ونعم أجر العاملين ذلك.
 - ٧ - ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ﴾ هو من باب الالتفات لأنه جاء بعد لفظ ﴿تَدَاوُلُهَا﴾ فهو التفتات من الحاضر إلى الغيبة، والسُر في هذا الالتفات تعظيم شأن الجهاد في سبيل الله.
 - ٨ - ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ قصر موصوف على صفة.
 - ٩ - ﴿أَنفَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ قال في «تلخيص البيان»: هذه استعارة والمراد بها الرجوع عن دينه، فشبه سبحانه الرجوع في الارتياب بالرجوع على الأعقاب^(١).
- الفوائد الأولى:** في هذه الآيات الكريمة ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ﴾ أمهات مكارم الأخلاق من البذل وكظم الغيظ والعفو عن المسيئين والتوبة من الذنوب، وكل منها مصدر لفضائل لا تدخل تحت الحصر.

الثانية: قدم المغفرة على الجنة لأن التخلية مقدمة على التحلية فلا يستحق دخول الجنة من لم يتطهر من الذنوب والآثام.

الثالثة: تخصيص العرض بالذكر للمبالغة في وصف الجنة بالسعة والبسطة فإذا كان هذا عرضها فكيف يكون طولها؟ قال ابن عباس: كسبع سماوات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض^(٢).

الرابعة: كتب هرقل إلى النبي ﷺ إنك دعوتني إلى جنة عرضها السماوات والأرض فأين النار؟ فقال عليه السلام: «سبحان الله أين الليل إذا جاء النهار»^(٣).

الخامسة: أمر تعالى بالمسارعة إلى عمل الآخرة في آيات عديدة ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ﴾

(١) «تلخيص البيان» ص ٢١.

(٢) «البحر المحيط» ٥٨/٣.

(٣) أخرجه أحمد، (ش): وضعفه الألباني.

وَسَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ ﴿[الحديد: ٢١]﴾ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴿[البقرة: ١٤٨]﴾ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴿[الجمعة: ٩]﴾ فَلْيَتَنَفَّسْ الْمُتَنَفِّسُونَ ﴿[المطففين: ٢٦]﴾ وَأَمَّا لَعْمَلِ الدُّنْيَا فَاْمُرْ بِالْهُوْنِي ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ ﴿[الملك: ١٥]﴾ وَءَاخِرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ ﴿[المزمل: ٢٠]﴾ فَتُدْبِرُ السَّرَّ الدَّقِيقَ.

قال الله تعالى:

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أُرْسِلْتُمْ بِهِ تَحِثُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلَوْنَهَا عَلَىٰ أَحَدٍ ۚ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَابِكُمْ فَأَتَوْنَاكُمْ عَنْمَاءَ بَغْمٍ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يَخْفَوْنَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنْ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ۚ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَّوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَٰكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتِمَّتْ لِمَغْفِرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَٰكِنْ مَّتِّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

المناسبة: لا تزال الآيات الكريمة تتناول سرد أحداث غزوة أحد وما فيها من العظات والعبر، فهي تتحدث عن أسباب الهزيمة وموقف المنافقين الفاضح في تلك الغزوة، وتأميرهم على الدعوة الإسلامية بتبسيط عزائم المؤمنين.

اللغة: ﴿سُلْطَانًا﴾ حجة وبرهاناً وأصله القوة ومنه قيل للوالي: سلطان ﴿مَثْوَى﴾ المكان الذي يكون مقر الإنسان ومأواه من قولهم ثوى بالمكان إذا أقام فيه ﴿تَحُسُّونَهُمْ﴾ تقتلونهم قال الزجاج: الحس الاستئصال بالقتل وأصله الضرب على مكان الحس قال الشاعر:

حَسَنَانَهُمْ بِالسَّيْفِ حَسًّا فَأَصْبَحَتْ بِقِيَّتُهُمْ قَدْ شَرُّدُوا وَتَبَدَّدُوا ﴿تَصْعَدُونَ﴾ الإصعاد: الذهاب والإبعاد في الأرض، والفرق بينه وبين الصعود أن الإصعاد يكون في مستوى من الأرض، والصعود يكون في ارتفاع ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أي لا تلتفتون إلى أحد كما يفعل المنهزم وأصله من لبي العنق للإلتفات ﴿أُخْرِتُكُمْ﴾ أخركم ﴿فَأَتْبَكُكُمْ﴾ جازاكم ﴿أَمَنَّةٌ﴾ أمانًا واطمئنانًا ﴿يَعْشَى﴾ يستر ويغطي ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ التمهيص: التنقية وتخليص الشيء مما فيه من عيب ﴿أَسْزَلَهُمْ﴾ أوقعهم في الزلة وهي الخطيئة ﴿عُزِّي﴾ جمع غاز وهو الخارج في سبيل الله.

سَبَبُ النزول: لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وقد أصيبوا بما أصيبوا يوم أحد، قال ناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟ فأنزل الله ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ...﴾ إلى قوله مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا يعني الرماة الذين فعلوا ما فعلوا يوم أحد^(١)

التفسير: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي إن أطعتم الكفار والمنافقين فيما يأمرونكم به ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ أي يردوكم إلى الكفر ﴿فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ أي ترجعوا إلى الخسران، ولا خسران أعظم من أن تبدلوا الكفر بالإيمان قال ابن عباس: هم المنافقون قالوا للمؤمنين لما رجعوا من أحد لو كان نبيًا ما أصابه الذي أصابه فارجعوا إلى إخوانكم ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ بل للإضراب أي ليسوا أنصارًا لكم حتى تطيعوهم بل الله ناصركم فأطيعوا أمره ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ أي هو سبحانه خير ناصر وخير معين فلا تستنصروا بغيره، ثم بشر تعالى المؤمنين بالقاء الرعب في قلوب أعدائهم فقال ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ أي سنقذف في قلوبهم الخوف والفرع ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي بسبب إشراكهم بالله وعبادتهم معه آلهة أخرى من غير حجة ولا برهان ﴿وَمَا أَوْلَاهُمْ النَّارُ﴾ أي مستقرهم النار ﴿وَيَبْتَئِسُ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ أي بئس مقام الظالمين نار جهنم، فهم في الدنيا مرعوبون وفي الآخرة معذبون وفي الحديث «نصرت بالرعب مسيرة شهر» ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي وفي الله لكم ما وعدكم به من النصر على عدوكم ﴿إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ أي تقتلونهم قتلاً ذريعاً وتحصدونهم بسيوفكم بإرادة الله وحكمه ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ﴾ أي حتى إذا جبتكم وضعفتكم واختلفتم في أمر المقام في الجبل ﴿وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَانَكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ أي عصيتم أمر الرسول ﷺ بعد أن كان النصر حليفكم، روي أن النبي ﷺ وضع خمسين من الرماة فوق الجبل وأمرهم أن يدفخوا عن المسلمين وقال لهم: لا تبرحوا أماكنكم حتى ولو رأيتمونا

(١) «أسباب النزول» للواحدى ص ٢٧. (ش): ضعيف.

تخطفتنا الطير، فلما التقى الجيشان لم تقو خيل المشركين على الثبات بسبب السهام التي أخذتهم في وجوههم من الرماة فانهمز المشركون، فلما رأى الرماة ذلك قالوا: الغنيمة الغنيمة ونزلوا لجمع الأسلاب، وثبت رئيسهم ومعه عشرة فجاءهم المشركون من خلف الجبل فقتلوا البقية من الرماة ونزلوا على المسلمين بسيوفهم من خلف ظهورهم فانقلب النصر إلى هزيمة للمسلمين فذلك قوله تعالى ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ أي من بعد النصر ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ أي الغنيمة وهم الذين تركوا الجبل ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ أي ثواب الله وهم العشرة الذين ثبتوا في مركزهم مع أميرهم «عبد الله بن جبير» ثم استشهدوا ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أي ردكم بالهزيمة عن الكفار ليمتحن إيمانكم ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ أي صفح عنكم مع العصيان، وفيه إعلان بأن الذنب كان يستحق أكثر مما نزل بهم لولا عفو الله عنهم ولهذا قال ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ذو منٍّ ونعمة على المؤمنين في جميع الأوقات والأحوال ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾ أي اذكروا يا معشر المؤمنين حين وليتم الأديار تبعدون في الفرار ولا تلتفتون إلى ما وراءكم ولا يقف واحد منكم لآخر ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَبِكُمْ﴾ أي ومحمد ﷺ يناديكم من ورائكم يقول «إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ، إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ، فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ مَن يَكُرْ لَهُ الْجَنَّةُ»^(١) وأنتم تمنعون في الفرار ﴿فَأَثْبَكُمْ غَمًّا بُعِيدًا﴾ أي جازاكم على صنعكم غمًّا بسبب غمكم للرسول ﷺ ومخالفتكم أمره^(٢) ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ أي لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الغنيمة ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ أي من الهزيمة، والغرض بيان الحكمة من الغم، وهو أن ينسيهم الحزن على ما فاتهم وما أصابهم وذلك من رحمته تعالى بهم ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي يعلم المخلص من غيره ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنًا نَّعَاسًا﴾ وهذا امتنان منه تعالى عليهم، أي: ثم أرسل عليكم بعد ذلك الغم الشديد النعاس للسكينة والطمأنينة ولتأمنوا على أنفسكم من عدوكم فالحائف لا ينام، روى البخاري عن أنس أن أبا طلحة قال: غَشِينَا النُّعَاسَ وَنَحْنُ فِي مَصَافِنَا يَوْمَ أُحُدٍ فَجَعَلَ سِنْفِي يَسْقُطُ مِن يَدِي وَأَخْذُهُ، وَيَسْقُطُ وَأَخْذُهُ. ثم ذكر سبحانه أن تلك الأمانة لم تكن عامة بل كانت لأهل الإخلاص، وبقي أهل النفاق في خوف وفزع فقال ﴿يَغْشَى طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ﴾ أي يغشى النوم فريقاً منكم وهم المؤمنون المخلصون

(١) (ش): ذكره هذا اللفظ في تفسيره: الرازي، والنسفي، والبيضاوي، والألوسي، والزمخشري، ورواه ابن جرير «الطبري» في تفسيره «جامع البيان»، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «والرسول يدعوكم في أخراكم»، «إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ارْجِعُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ارْجِعُوا!». (يَكُرْ): يرجع.

(٢) ذهب «الطبري» إلى أن الباء بمعنى على والمعنى: فجازاكم على معصيتكم ومخالفتكم أمر الرسول غمًّا على غم، كقوله: ﴿وَلَا أُصَلِّتُكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ أي على جدوع النخل، وقد رجح هذا القول ابن القيم واعتمده ابن كثير ١/ ٣٢٠.

﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي وجماعة أخرى حملتهم أنفسهم على الهزيمة فلا رغبة لهم إلا نجاتها وهم المنافقون، وكان السبب في ذلك توعد المشركين بالرجوع إلى القتال، فقعد المؤمنون متهيئين للحرب فأنزل الله عليهم الأمانة فناموا، وأما المنافقون الذين أزعجهم الخوف بأن يرجع الكفار عليهم فقد طار النوم من أعينهم من الفزع والجزع ﴿يُطْئُونُكَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أي يظنون بالله الظنون السيئة مثل ظن أهل الجاهلية، قال ابن كثير: وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة^(١)، وأن الإسلام قد باد وأهله، وهذا شأن أهل الريب والشك، إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة^(٢) ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي ليس لنا من الأمر شيء، ولو كان لنا اختيار ما خرجنا لقتال ﴿قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ أي قل يا محمد لأولئك المنافقين: الأمر كله بيد الله يصرفه كيف شاء ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ أي يُبْطِنُونَ في أنفسهم ما لا يُظْهِرُونَ ذلك ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا ههنا﴾ أي لو كان الاختيار لنا لم نخرج فلم نُقتل ولكن أكرهنا على الخروج، وهذا تفسير لما يبطنونه قال الزبير: أرسل علينا النوم ذلك اليوم وإنني لأسمع قول «معتب بن قشير» والنعاس يغشاني يقول: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا^(٣) ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَيْكُمْ مَضَاجِعُهُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد لو لم تخرجوا من بيوتكم وفيكم من قَدَّرَ الله عليه القتل لخرج أولئك إلى مصارعهم، فَقَدَّرَ الله لا مناص منه ولا مفر ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي ليختبر ما في قلوبكم من الإخلاص والنفاق ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي ولينقي ما في قلوبكم ويظهره فعَل بكم ذلك ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي عالم بالسرائر مطلع على الضمائر وما فيها خير أو شر، ثم ذكر سبحانه الذين انهزموا يوم أحد فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا مِنْكُمْ﴾ أي انهزموا منكم من المعركة ﴿يَوْمَ اتَّخَذَ الْجَمْعَانِ﴾ أي جمع المسلمين وجمع المشركين ﴿إِنَّمَا أَسْتَرْ لَهُمُ الشَّيْطَانُ بَعْضَ مَا كَسَبُوا﴾ أي إنما أزلهم الشيطان بوسوسته وأوقعهم في الخطيئة ببعض ما عملوا من الذنوب وهو مخالفة أمر الرسول ﷺ ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي تجاوز عن عقوبتهم وصفح عنهم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي واسع المغفرة حلِيم لا يعجل العقوبة لمن عصاه، ثم نهى سبحانه عن الاقتداء بالمنافقين في أقوالهم وأفعالهم فقال ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي لا تكونوا كالمنافقين ﴿وَقَالُوا لِأَخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي وقالوا لِأَخْوَانِهِمْ من أهل

(١) (ش): أي المعركة الفاصلة.

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٣٣٠.

(٣) تفسير «القرطبي» ٤/ ٢٤٢. (ش): حسن، أخرجه «الطبري» في «جامع البيان»، وابن أبي حاتم في «تفسيره»، والبيهقي في «دلائل النبوة».

النفاق إذا خرجوا في الأسفار والحروب ﴿أَوْ كَانُوا غُزًى﴾ أو خرجوا غازين في سبيل الله ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَاقُتِلُوا﴾ أي لو أقاموا عندنا ولم يخرجوا لما ماتوا ولا قتلوا، قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي قالوا ذلك ليصير ذلك الاعتقاد الفاسد حسرة في نفوسهم ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ ردُّ على قولهم واعتقادهم أي هو سبحانه المحيي المميت فلا يمنع الموت قعود ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي مُطَّلِعٌ على أعمال العباد فيجازيهم عليها ﴿وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي استشهدتم في الحرب والجهاد ﴿أَوْ مُتُّمُ﴾ أي جاءكم الموت وأنتم قاصدون قتالهم ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي ذلك خير من البقاء في الدنيا وجمع حطامها الفاني ﴿وَلَكِنْ مُتُّمُ أَوْ قُتِلْتُمْ لِّإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي وسواء متم على فراشكم أو قتلتم في ساحة الحرب فإن مرجعكم إلى الله فيجازيكم بأعمالكم، فأثروا ما يقربكم إلى الله ويوجب لكم رضاه من الجهاد في سبيل الله والعمل بطاعته، والله در القائل حيث يقول:

فَإِنْ تَكُنِ الْأَبْدَانُ لِلْمَوْتِ أُنْشِئَتْ
فَقَتْلُ امْرِئٍ بِالسَّيْفِ فِي اللَّهِ أَفْضَلُ

البلاغة: ١ - ﴿يُرْذَوُكُمْ عَلَىٰ عَقَبِكُمْ﴾ أي يرجعوكم من الإيمان إلى الكفر وهو من باب الاستعارة وقد تقدم.

- ٢ - بين لفظ ﴿ءَامَنُوا﴾ و﴿كَفَرُوا﴾ في الآية طباق وكذلك بين ﴿يُخْفُونَ﴾ و﴿يُبْدُونَ﴾ وبين ﴿فَاتَكُمْ﴾ و﴿أَصَابَكُمْ﴾ وهو من المحسنات البديعية.
- ٣ - ﴿وَبِئْسَ مَثْوًى الظَّالِمِينَ﴾ لم يقل وبئس مثواهم بل وضع الظاهر مكان الضمير للتغليظ وللإشعار بأنهم ظالمون لوضعهم الشيء في غير موضعه والمخصوص بالذم محذوف أي بئس مَثْوًى الظالمين النار أفاده «أبو السعود»^(١).
- ٤ - ﴿ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ التنكير للتفخيم. وقوله ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ دون «عليهم»^(٢) فيه الإظهار في موضع الإضمار للتشريف والإشعار بعلّة الحكم.
- ٥ - ﴿يَطْنُونُ بِاللَّهِ... ظَنَّ﴾ بينهما جناس الاشتقاق وكذلك في ﴿فَتَوَكَّلْ... الْمُتَوَكِّلِينَ﴾
- [آل عمران: ١٥٩].

- ٦ - ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ فيه استعارة تشبيهًا للمسافر في البر بالساحب الضارب في البحر. لأنه يضرب بأطرافه في غمرة الماء شقًا لها واستعانة على قطعها كذا في «تلخيص البيان»^(٣).
- فائدة:** من الذين ثبتوا في المعركة بأحد الأسد المقدام «أنس بن النضر» عم أنس بن مالك، فلما هزم المسلمون وأشاع المنافقون أن محمدًا ﷺ قد قتل قال: اللهم إني أعترز إليك مما

(١) «أبو السعود» ٢٨٢/١.

(٢) (ش): أي قال: ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، ولم يقل: «عليهم».

(٣) «تلخيص البيان» ص ٢٢.

صنع هؤلاء - يعني المسلمين - وأبرأ إليك مما فعل هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدم بسيفه فلقبه «سعد بن معاذ» فقال: أين يا سعد؟ والله إني لأجد ريح الجنة دون أحد، فمضى فقتل ومثل به المشركون فلم يعرفه أحد إلا أخته عرفته من بنانه ورئى وبه بضع وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم^(١).

فَائِدَةٌ: روى ابن كثير عن ابن مسعود قال: إن النساء كنَّ يومَ أحد خلف المسلمين يُجهِزن على جَرَحِي المشركين، فلو حلفت يومئذ رجوت أن أبرَّ أنه ليس أحد منا يريد الدنيا حتى أنزل الله ﴿مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾^(٢) فلما خالف أصحاب رسول الله ﷺ وعصوا ما أمروا به أفرَدَ النبي ﷺ في تسعة وهو عاشرهم، فلما أرهقوه قال: رحم الله رجلاً ردهم عنا فلم يزل يقول ذلك حتى قتل سبعة منهم^(٣)، فنظروا فإذا حمزة قد بقر بطنه وأخذت هند كبده فلاكتها فلم تستطيع أن تأكلها^(٤)، وحزن عليه رسول الله ﷺ حزناً شديداً، وصلى عليه يومئذ سبعين صلاة^(٥).

قال الله تعالى:

فِيمَا رَحِمَهُ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ بِدَلٍّ قَدْ غَلِظَ الْقَلْبُ لَأَنْفَضُنَّ مِنْ حَوْلِكَ فَأَعُفْ عَنْهُمْ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَن يَغُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَن أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا وَهَّ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمْ

(١) انظر قصته في «صحيح البخاري». (ش): القصة رواها البخاري ومسلم.

(٢) (ش): رواه الإمام أحمد، وضعفه الحافظ ابن كثير والألباني.

(٣) (ش): عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أفرَدَ يومَ أحدٍ في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش فلما رهقوه قال: «مَن يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ». فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ ثُمَّ رَهَقُوهُ أَيْضًا فَقَالَ: «مَن يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ». فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى قُتِلَ السَّبْعَةُ (رواه مسلم).

(٤) (ش): (فلاكتها): اللوك: أهون المصغ، أو مضغ صلب. لم يثبت أن هند بنت عتبة أكلت من كبده حمزة، انظر: ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية للدكتور محمد بن عبد الله العوشن (ص: ١٤٧). وعلى فرض ثبوته فإن هنداً - رضي الله عنها - أسلمت، والإسلام يهدم ما كان ما قبله.

(٥) (ش): ما رواه الإمام أحمد من أن النبي ﷺ صلى على شهداء أحد، وأنه صلى على حمزة سبعين صلاة بتعدادهم، قد وضعفه الحافظ ابن كثير والألباني. بل روى البخاري أن النبي ﷺ أمر بدفنه بدمائهم، ولم يصل عليهم، ولم يُعْسَلُوا. وقد ثبت في صحيح البخاري ومسلم أنه صلى عليهم بعد ذلك ببضع سنين كالمودع للأحياء.

أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتِي الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَتَّبِعُنَا هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِلْإِخْوَانِ هُمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَتَلُوا قُلْ فَادْرءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾

المناسبة: لا تزال الآيات تتحدث عن غزوة أحد، فقد ذكر تعالى فيما سبق انهزام المسلمين وما أصيبوا به من غم واضطراب، وأرشدتهم إلى موطن الداء ووصف لهم الدواء، وفي هذه الآيات الكريمة إشادة بالقيادة الحكيمة، فمع مخالفة بعض الصحابة لأوامر الرسول ﷺ فقد وسعهم عليه السلام بخلقه الكريم وقلبه الرحيم، ولم يخاطبهم بالغلظة والشدّة وإنما خاطبهم باللطف واللين، ولذلك اجتمعت القلوب حول دعوته، وتوحدت تحت قيادته، والآيات تتحدث عن أخلاق النبوة، وعن المنّة العظمى ببعثة الرسول الرحيم والقائد الحكيم وعن بقية الأحداث الهامة في تلك الغزوة.

اللغة: ﴿فَطَّأ﴾ الفطّ: الغليظ الجافي قال الواحدي هو الغليظ سيئ الخلق
قال الشاعر^(١):

أَخْشَى فِطَاظَةً عَمَّ أَوْ جَفَاءً أَخْ أَخْشَى عَلَيْهَا مِنْ أَدَى الْكَلِمِ
 ﴿غَلِظَ الْقَلْبُ﴾ هو الذي لا يتأثر قلبه ولا يرقّ ومن ذلك قول الشاعر:
 يُبْكِي عَلَيْنَا وَلَا نُبْكِي عَلَى أَحَدٍ لَنَحْنُ أَغْلَطُ أَكْبَادًا مِنَ الْإِبِلِ^(٢)
 ﴿لَا نَفْضُوا﴾ تفرقوا وأصل الفض الكسر ومنه قولهم: لا يفضض الله فاك (يغل) الغلول:
 الخيانة وأصله أخذ الشيء في الخفية يقال: غل فلان في الغنيمة، أي: أخذ شيئاً منها في خفية
 (باء) رجع (سخط) السخط: الغضب الشديد (مأواه) منزله ومثواه (يزكيهم) يطهرهم (من)
 المنّة: الإنعام والإحسان (فادرءوا) الدرء: الدفع ومنه ﴿وَيَذَرُوهَا لِلْعَذَابِ﴾ .

سبب النزول: فقدت قطيفة حمراء يوم بدر من المغنم فقال بعض الناس لعل النبي ﷺ أخذها فأنزله الله ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَعْلَ﴾^(٣) الآية.

التفسير: ﴿فِيمَا رَحِمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ﴾ أي فبسبب رحمة من الله أودعها الله في قلبك يا محمد كنت حينئذ هيناً لئن الجانب مع أصحابك مع أنهم خالفوا أمرك وعصوك ﴿وَلَوْ كُنْتَ فِطًّا غَلِظَ الْقَلْبُ لَا نَفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ أي لو كنت جافي الطبع قاسي القلب، تعاملهم بالغلظة والجفاء، لتفرقوا عنك ونفروا منك، ولما كانت الفطاطة في الكلام نفى الجفاء عن لسانه والقسوة عن

(١) (ش): قَالَه الشَّاعِرُ فِي ابْنَةِ لَهُ.

(٢) «البحر المحيط» ٨١/٣.

(٣) «أسباب النزول» للواحدي ص ٧٢. (ش): حسن، أخرجه أبو داود، والترمذي.

قلبه ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي فتجاوز عما نالك من أذاهم يا محمد، واطلب لهم من الله المغفرة وشاورهم في جميع أمورك ليقندي بك الناس قال الحسن: «ما شاور قوم قط إلا هُتدوا لأرشد أمورهم»^(١) وكان عليه السلام كثير المشاورة لأصحابه ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي إذا عقدت قلبك على أمر بعد الاستشارة فاعتمد على الله وفوض أمرك إليه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ أي يحب المعتمدين عليه، المفوضين أمورهم إليه ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ أي إن أراد الله نصركم فلا يمكن لأحد أن يغلبكم ﴿وَإِنْ يَخْذُكُمُ فَمنَ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ﴾ أي وإن أراد خذلانكم وترك معونتكم فلا ناصر لكم، فمهما وقع لكم من النصر كيوم بدر أو من الخذلان كيوم أحد بمشيئته سبحانه فالأمر كله لله، بيده العزة والنصرة والإدلال والخذلان ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي وعلى الله وحده فليلجأ وليعتمد المؤمنون ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ أي ما صحَّ ولا استقام شرعاً ولا عقلاً لنبيٍّ من الأنبياء أن يخون في الغنيمة، والنفي هنا نفي للشأن وهو أبلغ من نفي الفعل لأن المراد أنه لا يتأتى ولا يصحُّ أن يتصور فضلاً عن أن يحصل ويقع ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي ومن يخن من غنائم المسلمين شيئاً يأت حاملاً له على عنقه يوم القيامة فضيحة له على رءوس الأشهاد ﴿ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ أي تعطى جزاء ما عملت وافيّاً غير منقوص ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي تنال جزاءها العادل دون زيادة أو نقص، فلا يزداد في عقاب العاصي، ولا ينقص من ثواب المطيع ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي لا يستوي من أطاع الله وطلب رضوانه، ومن عصى الله فاستحق سخطه وباء بالخسران ﴿وَمَا أُولَٰئِهِمْ جَهَنَّمُ وَبَسَّ الْمَصِيرُ﴾ أي مصيره ومرجعه جهنم وبئست النار مستقرا له ﴿هُم دَرَجَتٌ عِندَ اللَّهِ﴾ أي متفاوتون في المنازل قال «الطبري»: هم مختلفو المنازل عند الله، فلمن اتبع رضوان الله الكرامة والثواب الجزيل، ولمن باء بسخط من الله المهانة والعقاب الأليم^(٢) ﴿وَاللَّهُ بِصِيرُكُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي لا تخفى عليه أعمال العباد وسيجزيهم عليها، ثم ذكر تعالى المؤمنين بالمنة العظمى عليهم ببعثة خاتم المرسلين فقال ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي والله لقد أنعم الله على المؤمنين حين أرسل إليهم رسولا عربياً من جنسهم، عرفوا أمره وخبروا شأنه، وخصَّ تعالى المؤمنين بالذكر وإن كان رحمة للعالمين، لأنهم هم المتفعون ببعثته ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ﴾ أي يقرأ عليهم الوحي المنزل ﴿وَيُرَكِّبُهُمْ﴾ أي يطهرهم من الذنوب ودنس الأعمال ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي يعلمهم القرآن المجيد والسنة المطهرة ﴿وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي وإنه الحال والشأن كانوا قبل بعثته في ضلال ظاهر،

(١) «الطبري» ٧ / ٣٣٤.

(٢) «الطبري» ٧ / ٣٦٧.

فنفقوا من الظلمات إلى النور، وصاروا أفضل الأمم ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ أي أو حين أصابتكم أيها المؤمنون كارثة يوم أحد فقتل منكم سبعون ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾ أي في بدر حيث قتلتم سبعين وأسرتم سبعين ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ أي من أين هذا البلاء، ومن أين جاءتنا الهزيمة وقد وعدنا بالنصر، وموضع التفرع قولهم ﴿أَنَّى هَذَا﴾ مع أنهم سبب النكسة والهزيمة ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن سبب المصيبة منكم أنتم بمعصيتكم أمر الرسول وحرصكم على الغنيمة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي يفعل ما يشاء لا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَا ذُنَّ اللَّهِ﴾ أي وما أصابكم يوم أحد، يوم التقى جمع المسلمين وجمع المشركين فبقضاء الله وقدره وبإرادته الأزلية وتقديره الحكيم، لتمييز المؤمنون عن المنافقين ﴿وَلْيَعْلَمْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ليعلم أهل الإيمان الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا ﴿وَلْيَعْلَمْ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا﴾ أي وليعلم أهل النفاق كعبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه الذين انخذلوا يوم أحد عن رسول الله ﷺ ورجعوا وكانوا نحواً من ثلاثمائة رجل فقال لهم المؤمنون: تعالوا قاتلوا المشركين معنا أو ادفعوا بتكثيركم سوادنا ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَجْعَلُنَا﴾ أي قال المنافقون لو نعلم أنك تلقون حرباً لقاتلنا معكم، ولكن لا نظن أن يكون قتال ﴿هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ أي بإظهارهم هذا القول صاروا أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي يظهرون خلاف ما يضمرون ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ أي بما يخفونه من النفاق والشرك ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا﴾ أي وليعلم الله أيضاً المنافقين الذين قالوا لإخوانهم الذين هم مثلهم وقد قعدوا عن القتال ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ أي لو أطاعنا المؤمنون وسمعوا نصيحتنا فرجعوا كما رجعنا ما قتلوا هنالك ﴿قُلْ فَأَدْرَأُ عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي قل يا محمد لأولئك المنافقين: إن كان عدم الخروج ينجي من الموت فادفعوا الموت عن أنفسكم إن كنتم صادقين في دعواكم، والغرض منه التوبيخ والتبكيت وأن الموت آتٍ إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة.

البلاغة: ١ - ﴿إِنْ نَضْرُكُمُ... وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ﴾ بينهما مقابلة وهي من المحسنات البديعية.

٢ - ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ تقديم الجار والمجرور لإفادة الحصر.

٣ - ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ أي ما صح ولا استقام والنفي هنا للشأن وهو أبلغ من نفي الفعل.

٤ - ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾ قال أبو حيان: «هذا من الاستعارة

البديعة جعل ما شرعه الله كالدليل الذي يتبعه من يهتدي به، وجعل العاصي كالشخص الذي

أمر بأن يتبع شيئاً فنكص عن اتباعه ورجع بدونه»^(١).

٥ - ﴿يَسْخَطُ مِنَ اللَّهِ﴾ التنكير للتهويل أي بسخط عظيم لا يكاد يوصف.

٦ - ﴿هُمْ دَرَجَتٌ﴾ على حذف مضاف أي ذوو درجات متفاوتة، فالمؤمن من درجته مرتفعة والكافر من درجته متضعة^(٢).

٧ - ﴿لِلْكَافِرِ... لِلْإِيمَنِ﴾ بينهما طباق وكذلك بين ﴿يُبَدُونَ... يُخْفُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

٨ - ﴿أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ بينهما جناس الاشتقاق، وهو من المحسنات البديعية.

تنبيه: في هذه الآية ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَهِمْ﴾ دلالة على اختصاص نبينا بمكارم الأخلاق، ومن عجب أمره ﷺ أنه كان أجمع الناس لدواعي العظمة ثم كان أذناهم إلى التواضع، فكان أشرف الناس نسباً وأوفرهم حسباً وأزكاهم عملاً وأسخاهم كرماً وأفصحهم بياناً وكلها من دواعي العظمة، ثم كان من تواضعه عليه السلام أنه كان يرقع الثوب ويخصف النعل ويركب الحمار ويجلس على الأرض ويجبب دعوة العبد المملوك فصلوات الله وسلامه على السراج المنير بحر المكارم والفضائل.

فائدة: التوكل على الله من أعلى المقامات لوجهين: أحدهما محبة الله للعبد ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ والثاني الضمان في كنف الرحمن ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(٣) [الطلاق: ٣].

قال الله تعالى:

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٣٩﴾ فَوَجِبَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٤٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٤٢﴾ الَّذِينَ قَالَتْ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٤٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٤٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخُوفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤٥﴾ وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يَسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٤٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤٨﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَاتَّبِعُوا بِاللَّهِ وَرُسُلَهُ وَإِنْ تُؤْمِنُوا

(١) «البحر المحيط» ١٠١/٣.

(٢) «تلخيص البيان» ص ٢٢. (ش): اتضع فلان: وضع، صار دنياً مخطوطاً القدر.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ١/١٢٢.

وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَاءِ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ مِنَ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ سَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٩﴾

المناسبة: لا تزال الآيات الكريمة تتابع أحداث أحد، وتكشف عن أسرار المنافقين ومواقفهم المخزية، وتوضح الدروس والعبر من تلك الغزوة المجيدة.

اللغة: ﴿وَيَسْتَبِشِرُونَ﴾ يفرحون وأصله من البشارة لأن الإنسان إذا فرح ظهر أثر السرور في وجهه قال ابن عطية: وليست استفعل في هذا الموضع بمعنى طلب البشارة وإنما هي بمعنى الفعل المجرد كقوله تعالى ﴿وَأَسْتَعَى اللَّهَ﴾ [التغابن: ٦] ﴿الْقَرْحُ﴾ بالفتح الجرح وبالضم ألم الجرح وقد تقدم ﴿حَسْبُنَا﴾ كافينا مأخوذ من الإحساب بمعنى الكفاية قَالَ الشَّاعِرُ:

فَتَمَلَأَ بَيْتَنَا إِقْطًا^(١) وَسَمْنَا وَحَسْبُكَ مِنْ غِنَى شَبَعٍ وَرِيَّ
﴿حَظًّا﴾ الحظ: النصيب ويستعمل في الخير والشر وإذا لم يقيد يكون للخير ﴿نُمْلِي﴾
الإملاء: التأخير والإمهال قال «القرطبي»: والمراد بالإملاء هنا طول العمر ورغد العيش^(٢)
﴿يُمَيِّزُ﴾ يُمَيِّزُ يقال: ماز وميز أي فصل الشيء من الشيء ومنه ﴿وَأَمْتَنُوا أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾
[يس: ٥٩] ﴿يَجْتَنِي﴾ يختار ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ من الطوق وهو القلادة أي يلزمون به لزوم الطوق في العنق.

سَبَبُ النُّزُول: أ - عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأَحَدٍ جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خَضِرٍ تَرُدُّ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ مِنْ ثَمَارِهَا وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلٍ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ. فَلَمَّا وَجَدُوا طَيْبَ مَا كُلُّهُمْ وَمَشَرَبَهُمْ وَمَقِيلَهُمْ قَالُوا: مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا أَنَّا أَحْيَاءُ فِي الْجَنَّةِ نُرْزَقُ لَيْلًا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ وَلَا يَنْكَلُوا عِنْدَ الْحَرْبِ فَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: أَنَا أَبْلُغُهُمْ عَنْكُمْ. قَالَ: فَانْزَلَ اللَّهُ ﷻ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ﷻ». إِلَى آخِرِ الْآيَةِ^(٣).

ب - عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَقِينِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِي: «يَا جَابِرُ مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اسْتَشْهَدَ أَبِي قَتْلَ يَوْمٍ أَحَدٍ وَتَرَكَ عِيَالًا وَدِينًا. قَالَ: «أَفَلَا أَبْشُرَكَ بِمَا لَقِيَ اللَّهُ بِهِ أَبَاكَ». قَالَ قُلْتُ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ «مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ وَأَخِيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا^(٤)» فَقَالَ: يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَىَّ أُعْطِكَ. قَالَ: يَا رَبِّ تُحْسِنِي فَأَقْتُلْ فِيكَ ثَانِيَةً. قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُونَ. فَانْزَلَ اللَّهُ ﷻ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ

(١) (ش): (الْأَقْطُ): لبن محض يُجَمَّدُ حَتَّى يَسْتَحْجَرَ، أَيْ يَصِيرُ صَلْبًا، وَيُطَبَّخُ أَوْ يُطَبَّخُ بِهِ. (وَحَسْبُكَ مِنْ غِنَى شَبَعٍ وَرِيَّ): يحتمل معنيين: أحدهما أعط كل ما كان لك وراء شبعك وريك، والآخر القناعة باليسير. أَيْ اقْنَعْ مِنَ الْغِنَى بِمَا يُشْبِعُكَ وَيُرْوِيكَ وَجُدْ بِمَا فَضَّلَ، وَهَذَا الْمَثَلُ لَامِرٌ الْقَيْسَ يَذْكُرُ مِعْزَى كَانَتْ لَهُ.

(٢) «القرطبي» ٢٨٦/٤.

(٣) «أسباب النزول» ص ٧٣ و«القرطبي» ٢٦٨/٤. (ش): (رواه أبو داود وحسنه الألباني).

(٤) كِفَاحًا: أَيْ مُوَاجَهَةً بَدُونِ حِجَابٍ وَلَا رَسُولٍ.

فَقُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ﴿١﴾ الْآيَةُ (١).

التفسير: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ أي لا تظنن الذين استشهدوا في سبيل الله لإعلاء دينه أَمْوَاتًا لا يُحْسِنُونَ ولا يتنعمون ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ أي بل هم أحياء متنعمون في جنات الخلد يرزقون من نعيمها غدواً وعشيّاً قال الواحدي: الأصح في حياة الشهداء ما روي عن النبي ﷺ من أن أرواحهم في أجواف طيور خضر وأنهم يُرزقون ويأكلون ويتنعمون (٢) ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي هم منعمون في الجنة فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي يستبشرون بإخوانهم المجاهدين الذين لم يموتوا في الجهاد بما سيكونون عليه بعد الموت إن استشهدوا فهم لذلك فرحون مستبشرون ﴿أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي بأن لا خوف عليهم في الآخرة ولا هم يحزنون على مفارقة الدنيا لأنهم في جنات النعيم ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أكد استبشارهم ليذكر ما تعلق به من النعمة والفضل. والمعنى: يفرحون بما حباهم الله تعالى من عظيم كرامته وبما أسبغ عليهم من الفضل وجزيل الثواب، فالنعمة ما استحقوقه بطاعتهم، والفضل ما زادهم من المضاعفة في الأجر ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ أي الذين أطاعوا الله وأطاعوا الرسول من بعد ما نالهم الجراح يوم أحد قال ابن كثير: وهذا كان يوم «حمراء الأسد» (٣) وذلك أن المشركين لما أصابوا من المسلمين كرواً راجعين إلى بلادهم ثم ندموا لم لا تتموا على أهل المدينة وجعلوها الفيصلة (٤)، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليرعبهم ويريههم أن بهم قوة وجلدًا، ولم يأذن لأحد سوى من حضر أحدًا فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والإثخان طاعة لله عز وجل ولرسوله ﷺ (٥) ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي لمن أطاع منهم أمر الرسول وأجابه إلى الغزو - على ما به من جراح وشدائد - الأجر العظيم والثواب الجزيل

(١) أخرجه ابن ماجه والترمذي كذا في «القرطبي» ٢٦٨/٤. (ش): حسنه الألباني.

(٢) (ش): عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّهِ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ قَالَ أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ «أَرَوَاهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خَضِرٍ لَهَا فَنَادِيلٌ مُعَلَّقَةٌ بِالْعُرْشِ تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْفَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ أَطْلَاعَةً فَقَالَ: هَلْ تَسْتَهْوَنَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَىَّ شَيْءٍ نَسْتَهْوِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا؟ فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسَأَلُوا قَالُوا: يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى. فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تَرُكُوا». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٣) حمراء الأسد مكان على بعد ثمانية أميال من المدينة المنورة.

(٤) (ش): أي ندموا على عدم القضاء على أهل المدينة وجعل «أحد» المعركة الفاصلة.

(٥) «مختصر ابن كثير» ٣٣٨/١.

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ أي الذين أرجف لهم المرجفون من أنصار المشركين فقالوا لهم: إن قريشاً قد جمعت لكم جموعاً لا تحصى فخافوا على أنفسهم فما زادهم هذا التخويف إلا إيماناً ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ أي قال المؤمنون: الله كافينا وحافظنا ومتولي أمرنا ونعم الملجأ والنصير لمن توكل عليه جل وعلا ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أي فرجعوا بنعمة السلامة وفضل الأجر والثواب ﴿لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ﴾ أي لم ينالهم مكروه أو أذى ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ أي نالوا رضوان الله الذي هو سبيل السعادة في الدارين ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ أي ذو إحسان عظيم على العباد ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائِهِ﴾ أي إنما ذلكم القائل ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ بقصد تشييط العزائم هو الشيطان يخوفكم أوليائه وهم الكفار لترهبوهم ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ أي فلا تخافوهم ولا ترهبوهم فإني متكفل لكم بالنصر عليهم، ولكن خافوا إن كنتم مؤمنين حقا أن تعصوا أمري فتهلكوا، والمراد بالشيطان «نعيم ابن مسعود الأشجعي» الذي أرسله أبو سفيان ليشبط المسلمين، قال أبو حيان: وإنما نسب إلى الشيطان لأنه ناشئ عن وسوسته وإغوائه وإلقاءه^(١). ﴿وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يَسْتَرْعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ تسلية للنبي ﷺ أي لا تحزن ولا تتألم يا محمد لأولئك المنافقين الذين يبادرون نحو الكفر بأقوالهم وأفعالهم، ولا تبال بما يظهر منهم من آثار الكيد للإسلام وأهله ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أي إنهم بكفرهم لن يضرروا الله شيئا وإنما يضررون أنفسهم ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي يريد تعالى بحكمته ومشيتته ألا يجعل لهم نصيباً من الثواب في الآخرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولهم فوق الحرمان من الثواب عذاب عظيم في نار جهنم ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي الذين استبدلوا الكفر بالإيمان وهم المنافقون المذكورون قبل، لن يضرروا الله بكفرهم وارتدادهم ولهم عذاب مؤلم ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ أي لا يظنن الكافرون أن إمهالنا بدون جزاء وعذاب، وإطالنا لأعمارهم خير لهم ﴿إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ أي إنما نمهلهم ونؤخر آجالهم ليكتسبوا المعاصي فتزداد آثامهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب يهينهم ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ

(١) «مختصر ابن كثير» ١ / ٣٤٠.

(ش): ليس في «تفسير ابن كثير» بل في «البحر المحيط» في التفسير» لأبي حيان الأندلسي (٣ / ٤٤٠). فقال: «وقيل: المراد بالشيطان نعيم بن مسعود».

(ش): قول من قال: إن الآية نزلت في خروج النبي ﷺ إلى بدر الصغرى لميعاد أبي سفيان، وإن الناس هنا هو نعيم بن مسعود - قول ضعيف. (تفسير الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٢ / ١٤١). قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٢ / ١٧٢): ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائِهِ﴾ أي: يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَائِهِ، وَيُوْهِمُكُمْ أَنَّهُمْ ذَوُو بَأْسٍ وَذَوُو شِدَّةٍ.

يَمِيزَ الْخَيْبَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴿١﴾ هذا وعدٌ من الله لرسوله بأنه سيميّز له المؤمن من المنافق. والمعنى: لن يترك الله المؤمنين مختلطين بالمنافقين حتى يتليهم فيفصل بين هؤلاء وهؤلاء، كما فعل في غزوة أحد حيث ظهر أهل الإيمان وأهل النفاق قال ابن كثير: «أي لا بدّ أن يعقد شيئاً من المحنة يظهر فيها وليُّه ويُفصح بها عدوه، يُعرف به المؤمن الصابر من المنافق الفاجر، كما ميّز بينهم يوم أحد»^(١). ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ قال «الطبري»: وأولى الأقوال بتأويله: أي وما كان الله ليطلعكم على قلوب عباده فتعرفوا المؤمن من المنافق والكافر، ولكنه يميز بينهم بالمحن والإبتلاء كما ميّز بينهم يوم أحد بالبأساء وجهاد عدوه^(٢) ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يختار من رسله من يشاء فيطلعهم على غيبه كما أطلع النبي ﷺ على المنافقين ﴿فَاتَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي آمنوا إيماناً صحيحاً بأن الله وحده المطلع على الغيب وأن ما يخبر به الرسول من أمور الغيب إنما هو بوحى من الله ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي وإن تصدّقوا ربكم بطاعته فلكم ثواب عظيم ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ لما بالغ تعالى في التحريض على بذل النفس في الجهاد شرع هنا في التحريض على بذل المال في سبيل الله، وذكر الوعيد الشديد لمن يبخل بماله. والمعنى: لا يحسن البخل أن جمعه المال وبخله بإنفاقه ينفعه، بل هو مضرة عليه في دينه ودنياه ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾ أي ليس كما يظنون بل ذلك البخل شرٌّ لهم ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي سيجعل الله ما بخلوا به طوقاً في أعناقهم يعذبون به يوم القيامة كما جاء في «صحيح البخاري»: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ - أي ثعباناً عظيماً - لَهُ زَيْبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُ بِلَهْزِمَتَيْهِ - يعني بشِدْقَيْهِ - ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ ثُمَّ تَلَا ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ الْآيَةَ»^(٣). ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي جميع ما في الكون ملك له يعود إليه بعد فناء خلقه ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي مطلع على أعمالكم.

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٣٤٠.

(٢) «الطبري» ٧/ ٤٢٧.

(٣) (ش): (مُثِّلَ لَهُ) أَي صَوَّرَ. وَالْمِرَاثُ الشُّجَاعُ: الْحَيَّةُ الذَّكْرُ، وَقِيلَ: الَّذِي يَقُومُ عَلَى ذَنْبِهِ وَيُؤَاتِي الْفَارِسَ. وَالْأَقْرَعَ مِنْ الْحَيَّاتِ الَّذِي يُبَيِّضُ رَأْسَهُ مِنَ السَّمِّ. (لَهُ زَيْبَتَانِ) هُمَا النُّكَّتَانِ السُّودَاوَانِ فَوْقَ عَيْنَيْهِ، وَقِيلَ: نُقْطَتَانِ يَكْتَنِفَانِ فَاهُ، وَقِيلَ: لَحْمَتَانِ عَلَى رَأْسِهِ مِثْلَ الْقُرْنَيْنِ، وَقِيلَ: نَابَانِ يَخْرُجَانِ مِنْ فِيهِ. (يُطَوَّقُهُ) أَي يُصِيرُ لَهُ ذَلِكَ الثَّعْبَانِ طَوَقًا. (ثُمَّ يَأْخُذُ بِلَهْزِمَتَيْهِ) فَاعِلٌ يَأْخُذُ هُوَ الشُّجَاعُ، وَالْمَأْخُوذُ يَدٌ صَاحِبُ الْمَالِ كَمَا وَرَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَكُونُ كَنْزُ أَحَدِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ يَقْرَأُ مِنْهُ صَاحِبُهُ، فَيُطْلَبُ وَيَقُولُ: أَنَا كَنْزُكَ» قَالَ: «وَاللَّهُ لَنْ يَزَالَ يَطْلُبُهُ حَتَّى يَبْسُطَ يَدَهُ فَيَلْقِمَهَا فَاهُ». (رواه البخاري). قَوْلُهُ: (بِلَهْزِمَتَيْهِ): الشَّدَقَيْنِ، وَقِيلَ: هُمَا الْعِظْمَانِ الْفَانَتَانِ فِي اللَّحْمَيْنِ تَحْتَ الْأُذُنَيْنِ. وَقِيلَ: هُمَا لَحْمُ الْخَدَيْنِ الَّذِي يَتَحَرَّكُ إِذَا أَكَلَ الْإِنْسَانُ. (ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ) فَاتِّدَهُ هَذَا الْقَوْلُ الْحَسْرَةَ وَالزِّيَادَةَ فِي التَّعْذِيبِ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُ النَّدَمُ، وَفِيهِ نَوْعٌ مِنَ التَّهَكُّمِ.

البلاغة: قال في «البحر»: تضمنت هذه الآيات فنوناً من البلاغة والبديع: الإطناب في ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وفي ﴿لَنْ يَضُرُّوْا﴾ وفي اسم الجلالة في مواضع، والطباق في ﴿أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ﴾ وفي ﴿الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ والاستعارة في ﴿أَشْتَرُوا الْكُفْرَ﴾ وفي ﴿يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ وفي ﴿الْحَيْثِ وَالطَّيِّبِ﴾ يراد به المؤمن والمنافق والحذف في مواضع^(١).

فائدة: قوله تعالى ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ هي الكلمة التي قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار قال السيوطي في «الإكليل»: يستحب قول هذه الكلمة عند الغم والأمور العظيمة.

قال الله تعالى:

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بَقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ إِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتَّةٌ مِّنْ غَيْرٍ ﴿١٨٥﴾ لَتَجُوبُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا قِيلَ مِن مَّا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُونَ أَنَّ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾

المناسبة: بعد أن انتهى الاستعراض القرآني لمعركة أحد وما فيها من أحداث جسيمة، وتناولت الآيات ضمن ما تناولت مكائد المنافقين ودسائسهم، وما انطوت عليه نفوسهم من الكيد للإسلام والغدر بالمسلمين وتثييط عزائمهم عن الجهاد في سبيل الله، أعقبه تعالى بذكر دسائس اليهود وأساليبهم الخبيثة في محاربة الدعوة الإسلامية عن طريق التشكيك والبلبل، والكيد والدس، ليحذر المؤمنين من خطرهم كما حذرهم من المنافقين، والآيات الكريمة تتحدث عن اليهود وموقفهم المخزي من الذات الإلهية، واتهامهم لله عز وجل بأشنع الاتهامات بالبخل والفقر، ثم نقضهم للعهد، وقتلهم للأنبياء، وخيانتهم للأمانة التي حملهم الله إيّاها، إلى آخر ما هنالك من جرائم وشنائع اتصف بها هذا الجنس الملعون.

اللغة: ﴿عَهْدَ إِلَيْنَا﴾ أوصانا ﴿يُقْرَبَانِ﴾ القربان: ما يذبح من الأنعام تقرباً إلى الله تعالى ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الآيات الواضحات والمراد هنا المعجزات ﴿وَالزُّبُرِ﴾ جمع زبور وهو الكتاب من الزُّبُر وهو الكتابة، والزبور بمعنى المزبور أي المكتوب كالزُّكُوب بمعنى المركوب قال الزجاج: الزبور كل كتاب ذي حكمة ﴿رُحِزَ﴾ الرحزة: التنحية والإبعاد تكرير الزح وهو الجذب بعجلة ﴿فَازَ﴾ ظفر بما يؤمل ونجا مما يخاف ﴿الْفُرُورِ﴾ مصدر غرّه يغره غروراً أي خدعه ﴿مَتَّعَ﴾ المتاع: ما يُتَمَتَّعُ به ويُتَمَتَّعُ ثم يزول ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ لَتُمَتَّحُنَّ، من بلاء أي امتحنه ﴿عَزَمَ الْأُمُورَ﴾ أصل العزم ثبات الرأي على الشيء والمراد هنا صواب التدبير والرأي وهو مما ينبغي لكل عاقل أن يعزم عليه ﴿بِمَقَازَةٍ﴾ بمنجاة من قولهم: فاز فلان إذا نجا.

سَبَبُ النُّزُول: أ - عن ابن عباس قال: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ذَاتَ يَوْمٍ بَيْتَ مَدْرَاسِ الْيَهُودِ، فَوَجَدَ نَاسًا مِنَ الْيَهُودِ قَدْ اجْتَمَعُوا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ: فَنَحَاصُ بْنُ عَازُورَاءَ، وَكَانَ مِنْ عُلَمَائِهِمْ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِفَنَحَاصٍ: أَتَقِ اللَّهَ وَأَسْلِمَ، فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ قَدْ جَاءَكُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَكُمْ فِي التَّوْرَةِ، فَأَمِنْ وَصَدِّقْ وَأَقْرَضِ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُدْخِلُكَ الْجَنَّةَ وَيُضَاعِفُ لَكَ الثَّوَابَ، فَقَالَ فَنَحَاصٌ: يَا أَبَا بَكْرٍ تَزْعُمُ أَنَّ رَبَّنَا يَسْتَقْرِضُنَا أَمْوَالَنَا وَمَا يَسْتَقْرِضُ إِلَّا الْفَقِيرُ مِنَ الْغَنِيِّ فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا، فَإِنَّ اللَّهَ إِذَا لَفَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ، وَلَوْ كَانَ غَنِيًّا مَا اسْتَقْرِضَنَا أَمْوَالَنَا، فَغَضِبَ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَضَرَبَ وَجْهَ فَنَحَاصٍ ضَرْبَةً شَدِيدَةً وَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ لَضَرَبْتُ عُنُقَكَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، فَذَهَبَ فَنَحَاصٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، انْظُرْ إِلَى مَا صَنَعَ بِي صَاحِبُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِأَبِي بَكْرٍ: «مَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ عَدُوَّ اللَّهِ قَالَ قَوْلًا عَظِيمًا، زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَأَنَّهُمْ عَنْهُ أَغْنِيَاءُ، فَغَضِبْتُ لِلَّهِ وَضَرَبْتُ وَجْهَهُ، فَحَدَّ ذَلِكَ فَنَحَاصٌ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - رَدًّا عَلَى فَنَحَاصٍ وَتَصْدِيقًا لِأَبِي بَكْرٍ: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ الآية^(١).

ب - عن ابن عباس قال: جاء جماعة من اليهود إلى رسول الله ﷺ - منهم كعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، وفنحاص بن عازوراء - وغيرهم فقالوا: يا محمد تزعم أنك رسول الله وأنه تعالى أنزل عليك كتاباً، وقد عهد الله إلينا في التوراة ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقرآن تأكله النار، فإن جئتنا بهذا صدقناك فنزلت هذه الآية ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نؤمنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ الآية^(٢).

(١) «أسباب النزول» للواحدي ص ٧٦ و«مختصر ابن كثير» ٣٤٢ / ١.

(ش): إسناده حسن، أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره»، و«الطبري» في «جامع البيان».

(٢) «التفسير الكبير» للرازي ١٢١ / ٩. (ش): موضوع.

التفسير: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ هذه المقالة الشيعة مقالة أعداء الله اليهود عليهم لعنة الله زعموا أن الله فقير، وذلك حين نزل قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] قالوا: إن الله فقير يقترض منا كما قالوا: ﴿يُدُّ اللَّهُ مَغْلُولَةَ﴾ [المائدة: ٦٤] قال «القرطبي»: وإنما قالوا هذا تمويهًا على ضعفائهم لا أنهم يعتقدون هذا، وغرضهم تشكيك الضعفاء من المؤمنين وتكذيب النبي ﷺ أي إنه فقير على قول محمد لأنه اقترض منا^(١) ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي سنأمر الحفظة بكتابة ما قالوه في صحائف أعمالهم ونكتب جريمتهم الشيعة بقتل الأنبياء بغير حق، والمراد بقتلهم الأنبياء رضاهم بفعل أسلافهم ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي ويقول الله لهم في الآخرة على لسان الملائكة: ذوقوا عذاب النار المحرقة الملتهبة ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ﴾ أي ذلك العذاب بما اقترفته أيديكم من الجرائم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي وأنه سبحانه عادل ليس بظالم للخلق، والمراد أن ذلك العقاب حاصل بسبب معاصيكم، وعدل الله تعالى فيكم، قال الزمخشري: ومن العدل أن يعاقب المسيء ويثيب المحسن^(٢) ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ أي هم الذين قالوا: إن الله أمرنا وأوصانا في التوراة ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ أي أمرنا بأن لا نصدق لرسول حتى يأتينا بآية خاصة وهي أن يقدم قربانًا فتنزل نار من السماء فتأكله، وهذا افتراء على الله حيث لم يعهد إليهم بذلك ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد توبيخًا وإظهارًا لكذبهم: قد جاءكم رسل قبلي بالمعجزات الواضحات والحجج الباهرات الدالة على صدق نبوتهم وبالذي ادعيتهم ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي فلم كذبتموهم وقتلتموهم إن كنتم صادقين في دعوكم الإيمان بالله والتصديق برسله؟ ثم قال تعالى مسليًا لرسوله ﷺ: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ﴾ أي لا يحزنك يا محمد تكذيب هؤلاء لك، فإنهم إن فعلوا ذلك فقد كذبت أسلافهم من قبل رسل الله فلا تحزن فلك بهم أسوة حسنة ﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي كذبوهم مع أنهم جاءوهم بالبراهين القاطعة والمعجزات الواضحة ﴿وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْأَمِينِ﴾ أي بالكتب السماوية المملوءة بالحكم والمواعظ، والكتاب الواضح الجلي كاللؤلؤة والإنجيل ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ أي مصير الخلائق إلى الفناء وكل نفس ميّنة لا محالة كقوله ﴿كُلٌّ مِّنْ عَلَيْنَا فَاِنَّ﴾ [الرحمن: ٢٦] ﴿وَأَنَّمَا نُؤَفِّقُكُمُ الْيُسْرَىٰ وَأَوْرَثَكُمُ الْيُسْرَىٰ﴾ أي تعطون جزاء أعمالكم وافيًا يوم القيامة ﴿فَمَنْ رُّحِجَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ أي فمن نحي عن النار وأبعد عنها، وأدخل الجنة فقد فاز بالسعادة السَّرمَدِيَّةِ^(٣) والنعيم المخلّد

(١) «القرطبي» ٣٩٤/٤.

(٢) «الكشاف» ٣٤٤/١.

(٣) (ش): سَرْمَدِي: دائم متصل لا ينقطع.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ أي ليست الدنيا إلا دار الفناء يستمتع بها الأحقق المغرور قال ابن كثير: الآية فيها تصغير لشأن الدنيا وتحقير لأمرها وأنها فانية زائلة^(١) ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ أي والله لَتُمتَحَنَنَّ وَتُخَبَّرَنَّ في أموالكم بالفقر والمصائب، وفي أنفسكم بالشدائد والأمراض ﴿وَلَسَّمَعَكُمْ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ أي وَلَيَنَالَنَّكُمْ من اليهود والنصارى والمشركين - أعدائكم - الأذى الكثير، وهذا إخبارٌ منه جلّ وعلا للمؤمنين بأنه سينالهم بلايا وأكدار من المشركين والفجار، وأمرٌ لهم بالصبر عند وقوع ذلك لأن الجنة حُفَّتْ بالمكارة^(٢) ولهذا قال ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا﴾ أي وإن تصبروا على المكارة وتتقوا الله في الأقوال والأعمال ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي الصبر والتقوى من الأمور التي ينبغي أن تعزموا وتحزموا عليها لأنها مما أمر الله بها ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي اذكر يا محمد حين أخذ الله العهد المؤكد على اليهود في التوراة ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ أي لتظهرنَّ ما في الكتاب من أحكام الله ولا تخفونها، قال ابن عباس: هي لليهود أخذ عليهم العهد والميثاق في أمر رسول الله ﷺ فكتموا وبذوه^(٣) ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي طرحوا ذلك العهد وراء ظهورهم واستبدلوا به شيئاً حقيراً من حُطام الدنيا ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ أي بئس هذا الشراء وبئست تلك الصفقة الخاسرة ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا﴾ أي لا تظننَّ يا محمد الذين يفرحون بما آتوا من إخفاء أمرك عن الناس ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ أي ويحبون أن يحمدهم الناس على تمسكهم بالحق وهم على ضلال ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّاهُمْ بِمَقَارَةِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي فلا تظننهم بمنجاة من عذاب الله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي عذاب مؤلم قال ابن عباس: نزلت في أهل الكتاب سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموا وبذوه وإياه وأخبروه بغيره وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم إياه ما سألهم عنه^(٤) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي له سبحانه جميع ما في السماوات والأرض فكيف يكون من له ما في السماوات والأرض فقيراً؟ والآية ردٌّ على الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي هو تعالى قادر على عقابهم. البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يأتي: ١ - ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ أكد اليهود الجملة بـ ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ على سبيل المبالغة، فحيث نسبوا إلى أنفسهم الغنى لم يؤكدوا بل أخرجوا الجملة مخرج ما لا يحتاج إلى تأكيد كأن الغنى وصف لهم لا يمكن فيه نزاع فيحتاج إلى تأكيد وهذا دليل على تمردهم في الكفر والطغيان.

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٣٤٣.

(٢) (ش): قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ». رواه مسلم.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ١/ ١٢٦.

(٤) «الكشاف» ١/ ٣٤٥.

- ٢ - ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ فيه مجاز يسمى المجاز العقلي أي ستكتب ملائكتنا ولما كان الله لا يكتب^(١) وإنما يأمر بالكتابة أسند الفعل إليه مجازاً.
- ٣ - ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ﴾ فيه مجاز مرسل من إطلاق اسم الجزء وإرادة الكل وذكر الأيدي لأن أكثر الأعمال تراول بهن.
- ٤ - ﴿تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ إسناد الأكل إلى النار بطريق الاستعارة إذ حقيقة الأكل إنما تكون في الإنسان والحيوان وكذلك توجد استعارة في قوله ﴿ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ لأن حقيقة الذوق ما يكون بحاسة اللسان.
- ٥ - ﴿مَتَّعَ الْغُرُورَ﴾ قال الزمخشري: «شبه الدنيا بالمتاع الذي يدلس به على المُستَم»^(٢) ويُغَر حتى يشتره والشیطان هو المدلس الغرور»^(٣) فهو من باب الاستعارة.
- ٦ - ﴿فَبَدَّلُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ كذلك توجد استعارة في النبذ والاشتراء شبه عدم التمسك والعمل به بالشيء الملقى خلف ظهر الإنسان وباشترائه ثمن قليل ما تعوضه من الحطام على كتم آيات الله.
- ٧ - وفي الآيات الكريمة من المحسنات البديعية الطباق في ﴿فَقِيرٌ - أَغْنِيَاكُمْ﴾ والمقابلة ﴿فَمَنْ رُحِّجَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ﴾ وفي ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ... وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ والجناس المغاير في ﴿قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ وفي ﴿كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ﴾. فائدة: صيغة فعال في الآية ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [فصلت: ٤٦] ليست للمبالغة وإنما هي للنسب مثل عطار ونجار وتمار كلها ليست للمبالغة وإنما هي للنسب قال ابن مالك.
- وَمَعَ فَاعِلٍ وَفَعَّالٍ فَعِلٌ فِي نَسَبٍ أَغْنَى عَنِ الْيَا فَقُبِلَ^(٤)
- تنبيه:** إنما وصف تعالى عيش الدنيا ونعيمها بأنه متاع الغرور، لِمَا تُنْمِيهِ لَذَاتُهَا وشهواتُها من طول البقاء وأمل الدوام فتخدعه ثم تصرعه، ولهذا قال بعض السلف: الدنيا متاعٌ متروكٌ يوشك أن يضمحلَّ ويزول، فخذوا من هذا المتاع واعملوا فيه بطاعة الله ما استطعتم والله المستعان.

(١) (ش): ما الدليل على هذا النفي وفي الحديث الصحيح أن الله ﷻ كَتَبَ لِمُوسَى ﷺ التَّوْرَةَ بِيَدِهِ.

(٢) (ش): السَّوْمُ: عَرْضُ السَّلْعَةِ عَلَى الْبَيْعِ. وَيُقَالُ: اسْتَمَّ مَنِّي سِلْعَتِي اسْتِيْمًا إِذَا كَانَ هُوَ الْعَارِضَ عَلَيْكَ الثَّمَنَ. وَسَامَنِي الرَّجُلُ سِلْعَتَهُ سَوْمًا: وَذَلِكَ حِينَ يَذْكُرُ لَكَ هُوَ ثَمَنَهَا.

(٣) «الكشاف» ١/ ٣٤٥.

(٤) (ش): (ومع فاعل وفَعَّال فعل) هذه ثلاث صيغ للمبالغة، (في نسب أغنى عن اليا)؛ يعني: ياء النسب، معناه أنه يصاغ على وزن فاعل، وعلى وزن فَعَّال، وعلى وزن فَعَل، للنسبة عوضاً عن الياء، فيقال في الرجل كثير البيع للتمر: تامر، وكذلك الرجل كثير بيع اللبن، أو كثير شرب اللبن، يقال: لابن. والفَعَّال كثير ولاسيما في الحرف، مثل بناء ونجار وحداد وصناع. وأما فَعِل فهو قليل، لكنه موجود مثل نَهر: نسبة إلى النهار.

قال الله تعالى:

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١١٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١١١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١١٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١١٣﴾ رَبَّنَا وَءَايَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١١٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلٌ مِّنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُثِيَ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا تُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّتِي بَجَرِي مِنْ تَحْتِهَا أَلْأَنْهَرُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١١٥﴾ لَا يَغْرُوكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ ﴿١١٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسُوسُ إِلَهُادُ ﴿١١٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزِّلَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١١٨﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِعَابَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١١٩﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصِدْرًا مُّوَصَّيًّا وَرَاطِبُوا ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٢٠﴾

المناسبة: بدأ تعالى هذه السورة الكريمة بذكر أدلة التوحيد والألوهية والنبوة، وختمها بذكر دلائل الوجدانية والقدرة ودلائل الخلق والإيجاد، ليستدل منها الإنسان على البعث والنشور فكان ختام مسك، ولما كان المقصود من هذا الكتاب العظيم جذب القلوب والأرواح عن الاشتغال بالخلق إلى معرفة الإله الحق، جاءت الآيات الكريمة تثير القلوب بأدلة التوحيد والإلهية والكبرياء والجلال، فلفتت الأنظار إلى التفكير والتدبر في ملكوت السماوات والأرض، ليخلص الإنسان إلى الاعتراف بوجدانية الله وباهر قدرته وهو يتأمل في كتاب الله المنظور «الكون الفسيح» بعد أن تأمل في كتاب الله المنظور «القرآن العظيم» وفي الكتاب المسطور إشارات عديدة لآيات الكتاب المنظور وهو يدعو إلى معرفة الحقائق باستخدام الحواس ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ .

اللغة: ﴿الْأَلْبَابِ﴾ العقول ﴿بَطْلًا﴾ عبثًا بدون حكمة ﴿سُبْحَنَكَ﴾ تنزيه لله عن السوء ﴿أَخْرَجْتَهُ﴾ أذللته وأهنته ﴿وَكَفَّرَ عَنَّا﴾ استر وامح ﴿الْأَبْرَارِ﴾ جمع برّ أو بار، وهم المستمسكون بالشرعية ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ بمعنى أجاب ﴿نُزِّلَا﴾ النزل: ما يُهَيَّأ للنزول وهو الضيف من أنواع الإكرام ﴿وَرَاطِبُوا﴾ المراقبة: ترصد العدو في الشغور.

سبب النزول: عن أم سلمة قالت: قلت: يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة

بشيء فأَنْزَلَ اللهُ ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُفِي﴾ الآية (٢).
التفسير: ﴿إِنِّي فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي إن في خلق السماوات والأرض على ما بهما من إحكام وإبداع ﴿وَاخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي وتعاقب الليل والنهار على الدوام ﴿لَا يَنبَغِي لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي علامات واضحة على الصانع وباهر حكمته، ولا يظهر ذلك إلا لذوي العقول الذين ينظرون إلى الكون بطريق التفكير والاستدلال لا كما تنظر البهائم (٣)، ثم وصف تعالى أولي الأبواب فقال ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أي يذكرون الله بألستهم وقلوبهم في جميع الأحوال في حال القيام والقعود والاضطجاع فلا يغفلون عنه تعالى في عامة أوقاتهم، لاطمئنان قلوبهم بذكره واستغراق سرائرهم في مراقبته ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي يتدبرون في ملكوت السماوات والأرض، في خلقهما بهذه الأجرام العظام وما فيهما من عجائب المصنوعات وغرائب المبتدعات قائلين ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ أي ما خلقت هذا الكون وما فيه عبثًا من غير حكمة ﴿سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي ننزهك يا الله عن العبث فأَجْرْنَا واحِمْنا من عذاب جهنم ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ﴾ أي من أدخلته النار فقد أذلته وأهنته غاية الإهانة وفضحته على رؤوس الأشهاد ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ﴾ أي ليس لهم من يمنعهم من عذاب الله، والمراد بالظالمين الكفار كما قال ابن عباس وجمهور المفسرين وقد صرح به في البقرة ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ أي داعيًا يدعو إلى الإيمان وهو محمد ﷺ ﴿أَنۡءَامُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ أي يقول هذا الداعي أيها الناس آمنوا بربكم واشهدوا له بالوحدانية فصدقنا بذلك واتبعناه ﴿رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي استر لنا ذنوبنا ولا تفضحنا بها ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ أي امح بفضلك ورحمتك ما ارتكبناه من سيئات ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ أي أَلْحِقْنَا بِالصالحين قال ابن عباس: الذنوب هي الكبائر والسيئات هي الصغائر ويؤيده ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] فلا تكرر إذا ﴿رَبَّنَا وَءَاثِمْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ تكرير النداء للتضرع ولإظهار كمال الخضوع أي أعطنا ما وعدتنا على ألسنة رسلك وهي الجنة لمن أطاع قاله ابن عباس ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي لا تفضحنا كما فضحت الكفار ﴿رَبَّنَا وَءَاثِمْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي لا تخلف وعدك وقد وعدت من آمن بالجنة ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ أي لا تخلف وعدك وقد وعدت من آمن بالجنة ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا

(١) «الطبري» ٤٨٨/٧، و«أسباب النزول» ص ٨٠.

(٢) (ش): عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا أَسْمَعُ اللَّهَ ذَكَرَ النِّسَاءَ فِي الْهَجْرَةِ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿إِنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُفِي بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾. (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

(٣) «البحر المحيط» ١٤٢/٣.

أُضِيعَ عَمَلٌ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى ﴿١﴾ أَيُّ أَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَهُمْ بِقَوْلِهِ إِنِّي لَا أَبْطُلُ عَمَلٌ مِنْ عَمَلٍ خَيْرًا ذَكَرًا كَانَ الْعَامِلُ أَوْ أَنْثَى قَالَ الْحَسَنُ: مَا زَالُوا يَقُولُونَ رَبَّنَا، رَبَّنَا، حَتَّى اسْتَجَابَ لَهُمْ ^(١) ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أَيُّ الذَّكَرِ مِنَ الْأُنْثَى، وَالْأُنْثَى مِنَ الذَّكَرِ، فَإِذَا كُنْتُمْ مُشْتَرِكِينَ فِي الْأَصْلِ فَكَذَلِكَ أَنْتُمْ مُشْتَرِكُونَ فِي الْأَجْرِ ^(٢) ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ أَيُّ هَجَرُوا أَوْ طَانَهُمْ فَارْتَيْنَ بَدِينَهُمْ، وَالْجَاهُ الْمَشْرُكُونَ إِلَى الْخُرُوجِ مِنَ الدِّيَارِ ﴿وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾ أَيُّ تَحْمَلُوا الْأَذَى مِنْ أَجْلِ دِينِ اللَّهِ ﴿وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ أَيُّ وَقَاتَلُوا أَعْدَائِي وَقَتَلُوا فِي سَبِيلِي ﴿لَا كُفْرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أَيُّ الْمَوْصُوفُونَ بِمَا تَقْدَمُ لَا مُحَوَّنَ ذُنُوبُهُمْ بِمَغْفِرَتِي وَرَحْمَتِي ﴿وَلَا دَخَلْنَاهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ تَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أَيُّ وَلَا دَخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النِّعَمِ جَزَاءً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَلَى أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ أَيُّ عِنْدَهُ حَسَنُ الْجَزَاءِ وَهِيَ الْجَنَّةُ الَّتِي فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، ثُمَّ نَبِهَ تَعَالَى إِلَى مَا عَلَيْهِ الْكُفَّارُ فِي هَذَا الدَّارِ مِنَ النِّعْمَةِ وَالْغِبْطَةِ وَالسُّرُورِ، وَبَيَّنَّ أَنَّهُ نَعِيمٌ زَائِلٌ فَقَالَ ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْآلَمِ﴾ أَيُّ لَا يَخْدَعَنَّكَ أَيُّهَا السَّمَاعُ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ طَلَبًا لِّكَسْبِ الْأَمْوَالِ وَالْجَاهِ وَالرَّتَبِ ﴿مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أَيُّ إِنَّمَا يَتَنَعَّمُونَ بِذَلِكَ قَلِيلًا ثُمَّ يَزُولُ هَذَا النِّعَمِ، وَمَصِيرُهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَى النَّارِ، وَبِئْسَ الْفَرَّاشُ وَالْقَرَارُ نَارُ جَهَنَّمَ. ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَيُّ: لَكِنَّ الْمُتَّقُونَ لِلَّهِ لَهُمُ النِّعَمُ الْمُقِيمُ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ مُخْلِدينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أَيُّ ضِيَافَةً وَكَرَامَةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ أَيُّ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الثَّوَابِ وَالْكَرَامَةِ لِلْأَخْيَارِ الْأَبْرَارِ، خَيْرٌ مِّمَّا يَتَقَلَّبُ فِيهِ الْأَشْرَارُ الْفَجَّارُ مِنَ الْمَتَاعِ الْقَلِيلِ الزَّائِلِ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ إِيمَانِ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ فَقَالَ ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ أَيُّ وَمِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَرِيقٌ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ حَقَّ الْإِيمَانِ، وَيُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَهُوَ الْقُرْآنُ وَبِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ وَهُوَ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ، وَالنَّجَاشِي وَأَتْبَاعِهِ ^(٣) ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ أَيُّ خَاضِعِينَ مُتَذَلِّلِينَ لِلَّهِ ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أَيُّ لَا يَحْرِفُونَ نَعْتَ مُحَمَّدٍ وَلَا أَحْكَامَ الشَّرِيعَةِ الْمَوْجُودَةِ فِي كِتَابِهِمْ لِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا خَسِيسٍ كَمَا فَعَلَ الْأَحْبَارُ وَالرُّهْبَانُ ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أَيُّ ثَوَابُ إِيمَانِهِمْ يُعْطَوْنَهُ مُضَاعَفًا كَمَا قَالَ ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ ﴿إِنَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أَيُّ سَرِيعُ حِسَابِهِ لِنَفُوذِ عِلْمِهِ بِجَمِيعِ الْمَعْلُومَاتِ، يَعْلَمُ مَا لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ:

(١) «القرطبي» ٣١٨/٤.

(٢) قال «الطبري»: بعضكم من بعض في النصرة والملة والدين، وما ذكرناه رأي الجلالين وهو أظهر.

(٣) (ش): فقد دخلوا الإسلام وآمنوا بالنبي ﷺ.

نزلت في النجاشي وذلك أنه لما مات نعاه جبريل لرسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ لأصحابه: قوموا فصلوا على أخيكم النجاشي، فقال بعضهم لبعض: يأمرنا أن نصلي على عليج^(١) من علوج الحبشة فأنزل الله ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾^(٢) الآية ثم ختم تعالى السورة الكريمة بهذه الوصية الجامعة لسعادة الدارين فقال: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا﴾ أي اصبروا على مشاق الطاعات وما يصيبكم من الشدائد ﴿وَصَابِرُوا﴾ أي غالبوا أعداء الله بالصبر على أهوال القتال وشدائد الحروب ﴿وَرَاطِبُوا﴾ أي لازموا ثغوركم مستعدين للكفاح والغزو ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي خافوا الله فلا تخالفوا أمره لتفوزوا بسعادة الدارين.

البلاغة: تضمنت هذه الآيات من ضروب البيان والبديع ما يلي:

- ١ - الإطناب في قوله ﴿رَبَّنَا﴾ حيث كرر خمس مرات والغرض منه المبالغة في التضرع.
- ٢ - الطباق في قوله ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ و ﴿الَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ و ﴿قِيَمًا وَقُعُودًا﴾ و ﴿ذُكْرٍ وَأُنْثَى﴾.
- ٣ - الإيجاز بالحذف ﴿مَا وَعَدْنَاهُ عَلَى رُسُلِكَ﴾ أي على ألسنة رسلك وكذلك في قوله ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي قائلين ربنا.
- ٤ - الجناس المغاير في قوله ﴿ءَامِنُوا... فَعَامِنَا﴾ وفي ﴿عَمَلٍ عَمِلٍ﴾ وفي ﴿مُنَادِيًا يُنَادِي﴾.
- ٥ - ﴿لَا كَيْتَ لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ التنكير للتفخيم ودخلت اللام في خبر إن لزيادة التأكيد.
- ٦ - الاستعارة في قوله ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ استعير القلب للضرب في الأرض لطلب المكاسب والله أعلم.

الفوائد: الأولى: إنما خصص التفكير بالخلق للنهي عن التفكير في الخالق ففي الحديث الشريف «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنكم لا تقدرون الله قدره»^(٣) وذلك لعدم الوصول إلى كنهه^(٤) ذاته وصفاته قال بعض العلماء: المتفكر في ذات الله كالناظر في عين الشمس لأنه تعالى ليس كمثله شيء.

الثانية: تكرر النداء بهذا الاسم الجليل ﴿رَبَّنَا﴾ خمس مرات كل ذلك على سبيل الاستعطاف

(١) (ش): العُلج: الرجل من كفار العجم وَغَيْرِهِمْ.

(٢) «البحر المحيط» ١٤٨/٣، و«القرطبي» ٣٢٢/٤.

عن أنس؛ قال: لما جاء نَعْيُ النجاشي؛ قال رسول الله ﷺ: «صَلُّوا عَلَيْهِ»، قالوا: يا رسول الله! نصلي على عبد حبشي؟ فأنزل الله - عز وجل -: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ﴾ (صحيح، أخرجه النسائي في «تفسيره»، والطبراني في «الأوسط»).

(٣) (ش): (رواه أبو الشيخ، وضعفه الألباني). وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وآله وسلم -: «تَفَكَّرُوا فِي آلَاءِ اللَّهِ، وَلَا تَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ - عز وجل -» رواه الطبراني وغيره، وحسنه الألباني).

(٤) (ش): كُنْهُ الشَّيْءِ: جوهر وأصله وحقيقته.

وتطلب رحمة الله بندائه بهذا الاسم الشريف الدال على التربية والملك والإصلاح.

الثالثة: سئلت السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عن أعجب ما رآته من رسول الله ﷺ فبكت وقالت: كل أمره كان عجباً، «أتاني في ليلتي حتى مسّ جلده جلدي ثم قال: «ذريني أتعبد لربي عزَّ وجلَّ» فقلت: والله إني لأحب قربك وأحب هواك، فقام إلى قربة من ماء في البيت فتوضأ ولم يكثر صبّ الماء ثم قام يصلي فبكى حتى بلّ لحيته، ثم سجد فبكى حتى بلّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح فقال: يا رسول الله: ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال «ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله عليّ في هذه الليلة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ ...﴾ الآية ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»^(١).

«تم بعونه تعالى تفسير سورة آل عمران»



(١) أخرجه ابن مردويه، وانظر «ابن كثير» ٣٤٨/١.

(ش): سئلت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عن أعجب شيء رآته من رسول الله ﷺ قالت: لَمَّا كَانَ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي قَالَ: «يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعْبُدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي». قُلْتُ: «وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّ قُرْبَكَ وَأُحِبُّ مَا يُسُرُّكَ». قَالَتْ: فَفَقَامَ فَتَطَهَّرَ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ حِجْرُهُ. قَالَتْ: وَكَانَ جَالِسًا فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي ﷺ حَتَّى بَلَ لِحْيَتَهُ. قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى حَتَّى بَلَ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَأَهُ يَبْكِي، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟ لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةُ آيَةٌ، وَيْلَ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَيْلِ الْبَيْتِ وَالنَّهَارِ اللَّيْلِ وَاللَّيْلِ وَاللَّيْلِ وَاللَّيْلِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

رواه ابن حبان وحسنه الألباني. وقوله ﷺ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟» رواه البخاري.



مدنية وآياتها ست وسبعون ومائة

بين يدي السورة

سورة النساء إحدى السور المدنية الطويلة، وهي سورة مليئة بالأحكام الشرعية، التي تنظم الشؤون الداخلية والخارجية للمسلمين، وهي تعني بجانب التشريع كما هو الحال في السور المدنية، وقد تحدثت السورة الكريمة عن أمور هامة تتعلق بالمرأة، والبيت، والأسرة، والدولة، والمجتمع ولكن معظم الأحكام التي وردت فيها كانت تبحث حول موضوع النساء ولهذا سميت «سورة النساء»!

تحدثت السورة الكريمة عن حقوق النساء والأيتام - وبخاصة اليتيمات - في حجور الأولياء والأوصياء، فقررت حقوقهن في الميراث والكسب والزواج، واستنقذنهن من عسف الجاهلية وتقاليدها الظالمة المهينة.

* وتعرضت لموضوع المرأة فصانت كرامتها، وحفظت كيانها، ودعت إلى إنصافها بإعطائها حقوقها التي فرضها الله تعالى لها كالمهر، والميراث، وإحسان العشرة.

* كما تعرضت بالتفصيل إلى «أحكام المواريث» على الوجه الدقيق العادل، الذي يكفل العدالة ويحقق المساواة، وتحدثت عن المحرمات من النساء «بالنسب، والرضاع، والمصاهرة».

* وتناولت السورة الكريمة تنظيم العلاقات الزوجية وبينت أنها ليست علاقة جسد وإنما علاقة إنسانية، وأن المهر ليس أجراً ولا ثمناً، وإنما هو عطاء يوثق المحبة، ويديم العشرة، ويربط القلوب.

* ثم تناولت حق الزوج على زوجته، وحق الزوجة على زوجها، وأرشدت إلى الخطوات التي ينبغي أن يسلكها الرجل لإصلاح الحياة الزوجية، عندما يبدأ الشقاق والخلاف بين الزوجين، وبينت معنى «قوامة الرجل» وأنها ليست قوامة استعباد وتسخير، وإنما هي قوامة نصح وتأديب كالتي تكون بين الراعي ورعيته.

* ثم انتقلت من دائرة الأسرة إلى «دائرة المجتمع» فأمرت بالإحسان في كل شيء، وبينت أن أساس الإحسان التكافل والتراحم، والتناصح والتسامح، والأمانة والعدل، حتى يكون المجتمع راسخ البناء قوي الأركان.

* ومن الإصلاح الداخلي انتقلت الآيات إلى الاستعداد للأمن الخارجي الذي يحفظ على الأمة استقرارها وهدوءها، فأمرت بأخذ العدة لمكافحة الأعداء.

* ثم وضعت بعض قواعد المعاملات الدولية بين المسلمين والدول الأخرى المحايدة أو المعادية.

واستتبِع الأمر بالجهد حملة ضخمة على المنافقين، فهم نابتة السوء وجرثومة الشر التي ينبغي الحذر منها، وقد تحدثت السورة الكريمة عن مكائدهم وخطرهم.

* كما نبهت إلى خطر أهل الكتاب وبخاصة اليهود وموقفهم من رسل الله الكرام.

* ثم ختمت السورة الكريمة ببيان ضلالات النصارى في أمر المسيح عيسى ابن مريم حيث غالوا فيه حتى عبده ثم زعموا أنه صُلِبَ^(١) مع اعتقادهم بألوهيته، واخترعوا فكرة التثليث فأصبحوا كالمشركين الوثنيين، وقد دعتهم الآيات إلى الرجوع عن تلك الضلالات إلى العقيدة السليمة الصافية «عقيدة التوحيد» وصدق الله حيث يقول: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدٌ﴾ [النساء: ١٧١].

التسمية: سميت سورة النساء لكثرة ما ورد فيها من الأحكام التي تتعلق بهن، بدرجة لم توجد في غيرها من السور ولذلك أطلق عليها «سورة النساء الكبرى» في مقابلة «سورة النساء الصغرى» التي عرفت في القرآن بسورة الطلاق.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝ (١) وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدِلُوا الْوَصِيَّةَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝ (٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِمَّا مِثْلُ وَلَدِكُمْ ۚ وَارْبَعُ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَلِكَ أَذَىٰ ۖ لَا تَعْلَمُونَ ۝ (٣) وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنَاءً مَرِيئًا ۝ (٤) وَلَا تَتَّبِعُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۝ (٥) وَابْنُلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ۚ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۚ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ۝ (٦) لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ۝ (٧) وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۝ (٨) وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَسْتَقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ (٩) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝ (١٠)

(١) وقد أحسنَ مَنْ قال:

يَهُودِيٌّ فَمَا هَذَا إِلَّا لَهُ؟

إِذَا صُلِبَ إِلَهُ بِفِعْلِ عَبْدٍ

اللغة: ﴿وَبَتَّ﴾ نشر وفرق ومنه ﴿وَزَرَأِيْ مُبْتَوِّئَةً﴾ [الغاشية: ١٦] ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ جمع رحم وهو في الأصل مكان تكون الجنين في بطن أمه، ثم أطلق على القرابة ﴿رَقِيْبًا﴾ الرقيب: الحفيظ المطلع على الأعمال ﴿حُوبًا﴾ الحُوب: الذنب والاثم ﴿تَعُولُوا﴾ تميّلوا وتجوروا يقال: عال الميزان إذا مال، وعال الحاكم إذا جار ﴿صَدَقْتِهِنَّ﴾ جمع صدقة وهو المهر ﴿مُحَلَّةً﴾ هبة وعطية ﴿السُّفَهَاءَ﴾ ضعفاء العقول والمراد به هنا المبذرون للأموال ﴿ءَاثَمْتُمْ﴾ أبصرتهم من أنس الشيء أبصره ﴿وَيَدَارًا﴾ أي مبادرة، بمعنى مسارعة، أي يسارع في تبذيرها قبل أن يكبر اليتيم فيتسلّمها منه ﴿سَدِيدًا﴾ من السداد بمعنى الاستقامة.

سَبَبُ النُّزُول: أ - عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا﴾ فقالت: يا ابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله، ويعجبها ماله وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يُقسط في صداقها فيعطيهما مثل ما يعطيها غيره، فنهوا عن ذلك إلا أن يُقسطوا لهنَّ ويبلغوا لهنَّ أعلى ستهن في الصداق، فأمرُوا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهنَّ، وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ [النساء: ١٢٧] ^(١) الآية.

ب - عن مقاتل بن حيان أن رجلاً من غطفان يقال له «مرثد بن زيد» ولي مال ابن أخيه وهو يتيم صغير فأكله فأنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا...﴾ ^(٢) الآية.

التفسير: افتتح الله جل ثناؤه سورة النساء بخطاب الناس جميعاً ودعوتهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، منبهاً لهم على قدرته، ووحدانيته فقال ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي خافوا الله الذي أنشأكم من أصل واحد وهو نفس أبيكم آدم ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي أوجد من تلك النفس الواحدة زوجها وهي حواء ﴿وَبَتَّ مِنْهُمَا رَجُلًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ أي نشر وفرق من آدم وحواء خلائق كثيرين ذكورا وإناثا ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ أي خافوا الله الذي يناشد بعضكم بعضاً به حيث يقول: أسألك بالله، وأنشدك بالله، واتقوا الأرحام أن تقطعوها ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيْبًا﴾ أي حفيظاً مطلعاً على جميع أحوالكم وأعمالكم، وقد أكد تعالى الأمر بتقوى الله في موطنين: في أول الآية، وفي آخرها ليشير إلى عظم حق الله على عباده، كما قرن تعالى بين التقوى وصلة الرحم ليدل على أهمية هذه الرابطة الإنسانية، فالناس جميعاً من أصل واحد، وهم إخوة في الإنسانية والنسب، ولو أدرك الناس هذا لعاشوا في سعادة وأمان، ولما كانت هناك حروب طاحنة مدمرة تلتهم الأخضر واليابس، وتقضي على الكهل والوليد،

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) «القرطبي» ٥/ ٥٣، و«أسباب النزول» ص ٨٣.

(ش): لا يصح لانتقاطه، فمقاتل بن حيان تُوفِّي في حُدُودِ الْحَمْسِينَ وَمِائَةٍ.

ثم ذكر تعالى اليتامى فأوصى بهم خيرًا وأمر بالمحافظة على أموالهم فقال ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ أي أعطوا اليتامى الذين مات أبائهم وهم صغار أموالهم إذا بلغوا ﴿وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيِّثَ بِالْطَّيِّبِ﴾ أي لا تستبدلوا الحرام وهو مال اليتامى بالحلال وهو مالكم ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ أي لا تخلطوا أموال اليتامى بأموالكم فتأكلوها جميعًا ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ أي ذنبًا عظيمًا، فإن اليتيم بحاجة إلى رعاية وحماية لأنه ضعيف، وظلم الضعيف ذنب عظيم عند الله، ثم أرشد تعالى إلى ترك الزوج من اليتيمة إذا لم يعطها مهر المثل فقال ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ أي إذا كانت تحت جبر أحدكم يتيمة وخاف ألا يعطيها مهر مثلها فليتركها إلى ما سواها فإن النساء كثير ولم يضيق الله عليه^(١) ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ﴾ أي انكحوا ما شئتم من النساء سواهن إن شاء أحدكم اثنتين وإن شاء ثلاثًا وإن شاء أربعًا ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُعَدِّلُوا فَوْحَةً﴾ أي إن خفتهم من عدم العدول بين الزوجات فالزموها الاقتصار على واحدة ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي اقتصروا على نكاح الإماء لملك اليمين إذ ليس لهن من الحقوق كما للزوجات ﴿ذَلِكَ أَذْفَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ أي ذلك الاقتصار على الواحدة أو على ملك اليمين أقرب ألا تميلوا وتجوروا ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتَيْنِ نَحْلَةً﴾ أي أعطوا النساء مهورهن عطية عن طيب نفس ﴿فَإِنْ طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾ أي فإن طابت نفوسهن بهية شيء من الصداق ﴿فَكُلُّوهُ هِنَاءً مَرِيئًا﴾ أي فخذوا ذلك الشيء الموهوب حلا لا طيبًا ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ أي لا تعطوا المبذرين من اليتامى أموالهم التي جعلها الله قيامًا للأبدان ولمعايشكم فيضيعوها قال ابن عباس: السفهاء هم الصبيان والنساء قال «الطبري»: لا تؤت سفهًا ماله وهو الذي يفسده بسوء تدبيره، صبيًا كان أو رجلًا، ذكرًا كان أو أنثى^(٢) ﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ أي أطعموهم منها واكسوهم ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ أي قولًا لنا كقولكم إذا رشدتم سلمنا إليكم أموالكم ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ أي اختبروا اليتامى حتى إذا بلغوا سن النكاح وهو بلوغ الحلم الذي يصلحون عنده للنكاح ﴿فَإِنْ ءَاثَسْتُم مِّنْهُمْ رُّشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ أي إن أبصرتهم منهم صلاحًا في دينهم ومالهم فادفعوا إليهم أموالهم بدون تأخير ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ أي لا تسرعوا في إنفاقها وتبذروها قائلين ننفق كما نشتهي قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ أي من كان منكم غنيًا أيها الأولياء فليعف عن مال اليتيم ولا يأخذ أجرًا على وصايته ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي ومن كان فقيرًا فليأخذ بقدر حاجته الضرورية وبقدر أجرة عمله ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا

(١) اختار «الطبري» أن المعنى: إن خفتهم ألا تعدلوا في اليتامى فخافوا أيضًا ألا تعدلوا بين النساء إذا نكحتموهن، وما أثبتناه هو الموافق لسبب النزول وهو اختيار ابن كثير.

(٢) «الطبري» ٥٦٥/٧.

عَلَيْهِمْ ﴿١﴾ أَيِ فَإِذَا سَلِمْتُمْ إِلَى الْيَتَامَى أَمْوَالِهِمْ بَعْدَ بَلُوغِهِم الرِّشْدَ فَأَشْهَدُوا عَلَى ذَلِكَ لئَلَّا يَجْحَدُوا تَسْلِمَهَا ﴿٢﴾ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣﴾ أَيِ كَفَى بِاللَّهِ مُحَاسِبًا وَرَقِيبًا، ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ لِلرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ نَصِيبًا مِّن تَرَكَ الْأَقْرَبَاءِ فَقَالَ ﴿٤﴾ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ﴿٥﴾ أَيِ لِلْأَوْلَادِ وَالْأَقْرَبَاءِ حِظٌّ مِّن تَرَكَ الْمَيِّتِ كَمَا لِلْبَنَاتِ وَالنِّسَاءِ حِظٌّ أَيْضًا الْجَمِيعِ فِيهِ سَوَاءٌ يَسْتَوُونَ فِي أَصْلِ الْوَرَاثَةِ وَإِنْ تَفَاوَتُوا فِي قَدَرِهَا، وَسَبَبِهَا أَنْ بَعْضُ الْعَرَبِ كَانُوا لَا يُوَرِّثُونَ النِّسَاءَ وَالْأَطْفَالَ وَكَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّمَا يَرِثُ مَنْ يَحَارِبُ وَيُدْبُّ عَنِ الْحَوَازِ (١) فَأَبْطَلَ اللَّهُ حُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴿٦﴾ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ﴿٧﴾ أَيِ سَوَاءٌ كَانَتِ التَّرَكَةُ قَلِيلَةً أَوْ كَثِيرَةً ﴿٨﴾ نَصِيبًا مَّقْرُوضًا ﴿٩﴾ أَيِ نَصِيبًا مَقْطُوعًا فَرَضَهُ اللَّهُ بِشَرْعِهِ الْعَادِلِ وَكِتَابِهِ الْمُبِينِ ﴿١٠﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ ﴿١١﴾ أَيِ إِذَا حَضَرَ قِسْمَةَ التَّرَكَةِ الْفُقَرَاءُ مِنْ قَرَابَةِ الْمَيِّتِ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ مِنْ غَيْرِ الْوَارِثِينَ فَأَعْطُوهُمْ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ التَّرَكَةِ تَطْيِيبًا لِّخَاطِرِهِمْ ﴿١٢﴾ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿١٣﴾ أَيِ قَوْلًا جَمِيلًا بِأَنْ تَعْتَذِرُوا إِلَيْهِمْ أَنَّهُ لِلصَّغَارِ وَأَنْكُمْ لَا تَمْلِكُونَهُ ﴿١٤﴾ وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ ﴿١٥﴾ نَزَلَتْ فِي الْأَوْصِيَاءِ، أَيِ: تَذَكَّرْ أَيُّهَا الْوَصِيُّ ذَرِيَّتَكَ الضَّعَافَ مِنْ بَعْدِكَ وَكَيْفَ يَكُونُ حَالُهُمْ وَعَامِلُ الْيَتَامَى الَّذِينَ فِي حِجْرِكَ بِمِثْلِ مَا تَرِيدُ أَنْ يُعَامَلَ بِهِ أَبْنَاؤُكَ بَعْدَ فَقْدِكَ ﴿١٦﴾ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿١٧﴾ أَيِ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ فِي أَمْرِ الْيَتَامَى وَلْيَقُولُوا لَهُمْ مَا يَقُولُونَهُ لِأَوْلَادِهِمْ مِنْ عِبَارَاتِ الْعُطْفِ وَالْحَنَانِ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا ﴿١٩﴾ أَيِ يَأْكُلُونَهَا بِدُونِ حَقِّ ﴿٢٠﴾ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴿٢١﴾ أَيِ مَا يَأْكُلُونَ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا نَارًا تَتَّجَجُ فِي بُطُونِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٢٢﴾ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿٢٣﴾ أَيِ سَيَدْخُلُونَ نَارًا هَائِلَةً مُسْتَعْرَةً وَهِيَ نَارُ السَّعِيرِ.

البلاغَة: تضمنت الآيات من ضروب الفصاحة والبيان ما يلي:

١ - الطباق في ﴿غَنِيًّا - فَقِيرًا﴾ وفي ﴿قَلَّ - كَثُرَ﴾ وفي ﴿رِجَالًا - وَنِسَاءً﴾ وفي ﴿الْخَبِيثَ - بِالطَّيِّبِ﴾ .

٢ - والجناس المغاير في ﴿دَفَعْتُمْ - فَأَدْعُوا﴾ وفي ﴿وَقُولُوا - قَوْلًا﴾ .

٣ - والإطناب في ﴿فَأَدْعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ... فَأَذَادَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ وفي ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ ... وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ .

٤ - والمجاز المرسل في ﴿وَأَنُؤُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ أي الذين كانوا يتامى فهو باعتبار ما كان وكذلك ﴿يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ مجاز مرسل وهو باعتبار ما يُتَوَلَّى إليه كقوله ﴿إِنِّي أَرِنِّي أَخَصِرُ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٣٦] أي عنبًا يَتَوَلَّى إلى الخمر.

٥ - المقابلة اللطيفة بين ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ . . وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ .

(١) (ش): دَبَّ عَنْهُ: دَفَعَ وَمَنَعَ. حَوَازَةُ الرَّجُلِ: مَلِكُهُ.

٦ - والإيجاز في مواضع مثل ﴿رَجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ أي ونساء كثيرات ... إلخ.

الفوائد: الأولى: في الافتتاح بتذكير الناس أنهم خلقوا من نفس واحدة تمهيد جميل وبراعة مطلع لما في السورة من أحكام الأنكحة والمواريث والحقوق الزوجية وأحكام المصاهرة والرضاع وغيرها من الأحكام الشرعية.

الثانية: الأغلب أنه إذا كان الخطاب بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وكان للكافرين فقط أو للكافرين وغيرهم أعقب بدلائل الوجدانية والربوبية مثل ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] و﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [فاطر: ٥] وإذا كان الخطاب للمؤمنين أعقب بذكر النعم كما هنا أفاده صاحب «البحر»^(١).

الثالثة: ذكر البطون مع أن الأكل لا يكون إلا فيها للتأكيد والمبالغة فهو كقولك: أبصرتُ بعيني وسمعت بأذني ومثله قوله تعالى ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤].

الرابعة: أضاف تعالى أموال اليتامى إلى الأوصياء مع أنها أموال اليتامى^(٢) للتنبيه إلى «التكافل بين الأمة» والحث على حفظ الأموال وعدم تضييعها فإن تبذير السفينة للمال فيه مضرّة للمجتمع كله.

«كلمة حول تعدد الزوجات»

مسألة تعدد الزوجات ضرورة اقتضتها ظروف الحياة وهي ليست تشريعاً جديداً انفرد به الإسلام، وإنما جاء الإسلام فوجده بلا قيود ولا حدود وبصورة غير إنسانية فنظّمه وشدّبه^(٣) وجعله علاجاً ودواءً لبعض الحالات الاضطرابية التي يعاني منها المجتمع وفي الحقيقة فإن تشريع التعدد مفخرة من مفاخر الإسلام لأنه استطاع أن يحل «مشكلة اجتماعية» هي من أعقد المشاكل التي تعانيها الأمم والمجتمعات اليوم فلا تجد لها حلاً... إن المجتمع كالميزان يجب أن تتعادل كِفَتَاهُ فماذا نصنع حين يختل التوازن ويصبح عدد النساء أضعاف عدد الرجال؟ أنحرّم المرأة من نعمة الزوجية و«نعمة الأمومة» ونتركها تسلك طريق الفاحشة والزيلة، أم نحل هذه المشكلة بطرق فاضلة نصون فيها كرامة المرأة وطهارة الأسرة وسلامة المجتمع؟ وأقرب الأمثلة شاهداً على ما نقول ما حدث في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية حيث زاد عدد النساء زيادة فاحشة على عدد الرجال فأصبح مقابل كل شاب ثلاث فتيات وهي حالة اختلال اجتماعي فكيف يواجهها المشرّع؟ لقد حلّ الإسلام المشكلة بتشريع الإسلام الرائع، بينما وقفت المسيحية حائرة مكتوفة الأيدي لا تبدي ولا تُعيد... إن الرجل الأوربي لا يبيح له دينه التعدد، لكنه يبيح لنفسه مصاحبة المئات من الفتيات بطريق الرذيلة، يرى الوالد

(١) «البحر المحيط» ١٥٣/٣.

(٢) (ش): في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾.

(٣) (ش): شدّب الشجرة: هذبها، قطع ما تفرّق من عيدانها.

منهم فئاته مع عشيقها فيُسَرَّ ويغتبط بل ويمهد لهما جميع السبل المؤدية لراحتهما حتى أصبح ذلك عرفاً سارياً اضطرت معه الدول إلى الاعتراف بمشروعية العلاقات الآثمة بين الجنسين ففتحت باب التدهور الخلقي على مصراعيه، ووافقت على قبول مبدأ «تعدد الزوجات» ولكن تحت ستار المخادنة وهو زواج حقيقي لكنه غير مسجل بعقد^(١)، ويستطيع الرجل أن يطردها متى شاء دون أن يتقيد حيالها بأي حق من الحقوق، والعلاقة بينهما علاقة جسد لا علاقة أسرة وزوجية، فاعجب من منع «تعدد الزوجات» بالحلال وإباحته بالحرام حتى نزلوا بالمرأة من مرتبة الإنسانية إلى مرتبة الحيوانية.

رَبِّ إِنَّ الْهُدَى هُدَاكَ وَآيَا
تُكْ حَقُّ تَهْدِي بِهَا مَنْ تَشَاءُ

قال الله تعالى:

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ عَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُن لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دِينَ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلِيلَةً أَوْ أَمْرَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ غَيْرِ مَضَاكِرٍ وَصِيَّةٍ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾

المناسبة: لما أوصى تعالى في الآيات السابقة بالأيتام وذكر ضمنها حق الأقارب بالإجمال، أعقبه بذكر أحكام الموارث بالتفصيل ليكون ذلك توضيحاً لما سبق من الإجمال فذكر نصيب الأولاد بنين وبنات، ثم ذكر نصيب الآباء والأمهات، ثم نصيب الأزواج والزوجات، ثم نصيب الإخوة والأخوات.

(١) (ش): كيف يكون زواجاً حقيقياً وهو بدون عقد، ولعل المؤلف يقصد أن الرجل في الغرب يعيش مع المرأة في الحرام كما يعيش الرجل المسلم مع زوجته في الحلال، فكيف ينكرون التعدد وهو موجود بينهم؟! ومما يدل على ذلك قول المؤلف بعد ذلك: «فأعجب من منع «تعدد الزوجات» بالحلال وإباحته بالحرام».

اللغة: ﴿يُوصِيكُمُ﴾ الوصية: العهد بالشيء والأمر به، ولفظ الإيصاء أبلغ وأدل على الاهتمام من لفظ الأمر لأنه طلب الحرص على الشيء والتمسك به ﴿فَرِيضَةً﴾ أي حقا فرضه الله وأوجبه ﴿كَكَلَّةٍ﴾ أن يموت الرجل ولا ولد له ولا والد أي لا أصل له ولا فرع لأنها مشتقة من الكَلَّ بمعنى الضعف يقال: كَلَّ الرجل إذا ضَعُفَ وزهبت قُوَّتُهُ ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ أحكامه وفرائضه المحدودة التي لا تجوز مجاوزتها.

سَبَبُ النَزول: روي أن امرأة «سعد بن الربيع» جاءت رسول الله ﷺ بابنتها فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قُتِلَ أبوهما سعد معك بأحد شهيداً، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا، ولا تنكحان إلا بمال فقال ﷺ: «يقضي الله في ذلك» فنزلت آية الموارث ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ الآية فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما أن أعط ابنتي سعد الثلثين، وأمهما الثمن، وما بقي فهو لك^(١).

التفسير: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ أي يأمركم الله ويعهد إليكم بالعدل في شأن ميراث أولادكم ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ أي للابن من الميراث مثل نصيب البنتين ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ أي إن كان الوارث إنثى فقط اثنتين فأكثر ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثُ مَا تَرَكَ﴾ أي فللبنتين فأكثر ثُلُثُ التركة ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ أي وإن كانت الوارثة بنتاً واحدة فلها نصف التركة. . بدأ تعالى بذكر ميراث الأولاد ثم ذكر ميراث الأبوين، لأن الفرع مقدم في الإرث على الأصل فقال تعالى ﴿وَلِلْأَبَوَيْنِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ﴾ أي للأب السدس وللأم السدس ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ أي من تركة الميت ﴿إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي إن وجد للميت ابن أو بنت لأن الولد يطلق على الذكر والأنثى ﴿فَإِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ﴾ أي فإن لم يوجد للميت أولاد وكان الوارث أبواه فقط أو معهما أحد الزوجين ﴿فَلِلْأُمِّ الثُّلُثُ﴾ أي فللأم ثلث المال أو ثلث الباقي بعد فرض أحد الزوجين والباقي للأب ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْأُمِّ الشُّدُسُ﴾ أي فإن وجد مع الأبوين إخوة للميت «اثنان فأكثر» فالأم ترث حينئذ السدس فقط والباقي للأب،

(١) رواه أبو داود والترمذي.

(ش): عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى جِئْنَا امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ فِي الْأَسْوَاقِ فَجَاءَتِ الْمَرْأَةَ بَابْتَيْنِ لَهَا فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَاتَانِ بِنْتَانِ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ قُتِلَ مَعَكَ يَوْمَ أُحُدٍ وَقَدْ اسْتَقَمَّ عَمُهُمَا مَالُهُمَا وَمِيرَاثُهُمَا كُلُّهُ فَلَمْ يَدَعْ لِهَمَا مَالًا إِلَّا أَخَذَهُ فَمَا تَرَى يَا رَسُولَ اللَّهِ فَوَاللَّهِ لَا تُنْكَحَانِ أَبَدًا إِلَّا وَلَهُمَا مَالٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقْضِي اللَّهُ فِي ذَلِكَ». قَالَ وَنَزَلَتْ سُورَةُ النِّسَاءِ ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ الآية. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ادْعُوا لِي الْمَرْأَةَ وَصَاحِبَهَا». فَقَالَ لِعَمَّهُمَا «أَعْطِيَهُمَا الثُّلُثَيْنِ وَأَعْطِ أُمَّهُمَا الثَّمْنَ وَمَا بَقِيَ فَلَكَ». قَالَ أَبُو دَاوُدَ أَخْطَأَ بِشْرُ فِيهِ إِنَّمَا هُمَا ابْنَتَا سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ وَثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ قُتِلَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ.

وحسنه الألباني. وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ عَادَنِي النَّبِيُّ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ فِي بَنَى سَلَمَةَ يَمْشِيَانِ فَوَجَدَنِي لَا أَعْقِلُ فَدَعَا بَمَاءٍ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ رَشَ عَلَيَّ مِنْهُ فَأَفَقْتُ فَقُلْتُ كَيْفَ أَصْنَعُ فِي مَالِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَنَزَلَتْ ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ (رواه البخاري ومسلم).

والحكمة أن الأب مكلف بالنفقة عليهم دون أمهم فكانت حاجته إلى المال أكثر ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ أي إن حق الورثة يكون بعد تنفيذ وصية الميت وقضاء ديونه فلا تقسم التركة إلا بعد ذلك ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنْ اللَّهِ﴾ أي إنه تعالى تولى قسمة الموارث بنفسه وفرض الفرائض على ما علمه من الحكمة، فقسم حيث توجد المصلحة وتتوفر المنفعة ولو ترك الأمر إلى البشر لم يعلموا أيهم أنفع لهم فيضعون الأموال على غير حكمة ولهذا أتبعه بقوله ﴿كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي إنه تعالى عليم بما يصلح لخلقه حكيم فيما شرع وفرض.. ثم ذكر تعالى ميراث الزوج والزوجة فقال ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ أي ولكم أيها الرجال نصف ما ترك أزواجكم من المال إن لم يكن لزوجاتكم أولاد منكم أو من غيركم ﴿إِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ﴾ أي من ميراثهن، وألحق بالولد في ذلك ولد الإبن بالإجماع ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ أي من بعد الوصية وقضاء الدين ﴿وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ﴾ أي ولزوجاتكم واحدة فأكثر الربع مما تركتم من الميراث إن لم يكن لكم ولد منهن أو من غيرهن ﴿إِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ﴾ أي فإن كان لكم ولد منهن أو من غيرهن فلزوجاتكم الثمن مما تركتم من المال ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ وفي تكرير ذكر الوصية والدين من الاعتناء بشأنيهما ما لا يخفي ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً﴾ أي وإن كان الميت يورث كلاله أي لا والد له ولا ولد وورثة أقاربه البعيدون لعدم وجود الأصل أو الفرع ﴿أَوْ امْرَأَةً﴾ عطف على رجل والمعنى أو امرأة تورث كلاله ﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ أي وللمورث أخ أو أخت من أم ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ أي فللأخ من الأم السدس وللأخت السدس أيضًا ﴿إِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ أي فإن كان الإخوة والأخوات من الأم أكثر من واحد فإنهم يقتسمون الثلث بالسوية ذكورهم وإناثهم في الميراث سواء، قال في «البحر»: وأجمعوا على أن المراد في هذه الآية الإخوة للأم ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَاعَرٍ﴾ أي بقصد أن تكون الوصية للمصلحة لا بقصد الإضرار بالورثة أي في حدود الوصية بالثلث لقوله عليه السلام: «الثلث والثلث كثير»^(١) ﴿وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أي أوصاكم الله بذلك وصية ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ أي عالم بما شرع حليم لا يعاجل العقوبة لمن خالف أمره ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي تلك الأحكام المذكورة شرائع الله التي حدها لعباده ليعملوا بها ولا يعتدوها ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي من يطع أمر الله فيما حكم وأمر رسوله فيما بين، يدخله جنات النعيم التي تجري من تحت أشجارها وأبنيتها الأنهار

(١) (ش): رواه البخاري ومسلم.

﴿خَلِيدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي الفلاح العظيم ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾ أي ومن يعص أمر الله وأمر الرسول يتجاوز ما حده تعالى له من الطاعات ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾ أي يجعله مخلداً في نار جهنم لا يخرج منها أبداً ﴿وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي وله عذاب شديد مع الإهانة والإذلال والعذاب والنكال.

البلاغة: تضمنت الآيات من أصناف البديع ما يلي:

١ - الطباق في لفظ ﴿الَّذِينَ﴾ و ﴿الَّذِينَ﴾ وفي ﴿وَمَنْ يُطِيعِ﴾ و ﴿وَمَنْ يَعِصِ﴾ وفي ﴿ءَابَاؤُكُمْ﴾ و ﴿وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ .

٢ - الإطناب في ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصِيهِ بِهَا أَوْ دِينَ﴾ و ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصِيهِ بِهَا أَوْ دِينَ﴾ والفائدة التأكيد على تنفيذ ما ذكر.

٣ - جناس الاشتقاق في ﴿وَصِيَّةٍ يُوصِي﴾ .

٤ - المبالغة في ﴿عَلِيمٌ، حَلِيمٌ﴾ .

فائدة: استنبط بعض العلماء من قوله تعالى ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ أنه تعالى أرحم من الوالدة بولدها حيث أوصى الوالدين بأولادهم ويؤيده ما ورد «اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلِدِهَا»^(١).

تنبيه: وجه الحكمة في تضعيف نصيب الذكر هو احتياجه إلى مؤنة النفقة ومعاناة التجارة والتكسب وتحمل المشاق، فنفاقه أكثر والتزاماته أضخم فهو إلى المال أحوج^(٢).

قال الله تعالى:

وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَدْحَسَةُ مِنْ نِسَائِكَ فَاستَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى تَوَفَّيْنَهُنَّ الْمَوْتَ أَوْ يُجْعَلَ لَهُنَّ سَبِيلًا^(١٥) وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا^(١٦) إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا^(١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ أَفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا^(١٨) يَتَأْتِيهَا

(١) (ش): عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ: قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِسَبْيٍ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَبْتَغِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِطَنْهَا وَأَرْضَعَتْهُ فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اتْرُونِ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ». قُلْنَا لَا وَاللَّهِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلِدِهَا» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(٢) انظر الحكمة التشريعية في «كتابنا الموارث في الشريعة الإسلامية» ص ١٨.

الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمُ إحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِنَّمَا مُبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾

المناسبة: لما بيّن سبحانه وتعالى حكم الرجال والنساء في باب النكاح والميراث، بيّن حكم الحدود فيهن إذا ارتكبن الحرام، ثم أعقبه بالتحذير عن عادات الجاهلية من ظلم النساء، وأكل مهورهن، وعدم معاملتهن المعاملة الإنسانية الشريفة.

اللغة: ﴿وَأَلْتِي﴾ جمع التي على غير قياس ﴿أَلْفَحِشَةً﴾ الفعل القبيحة والمراد بها هنا الزنا ﴿وَالَّذَانِ﴾ تشية الذي ﴿التَّوْبَةُ﴾ أصل التوبة الرجوع وحقيقتها الندم على فعل القبيح ^(١) ﴿كَرِهًا﴾ بفتح الكاف بمعنى الإكراه وبضمها بمعنى المشقة ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهًا﴾ [الأحقاف: ١٥] ﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾ تمنعهن يقال عضل المرأة إذا منعها الزواج ﴿بُهْتَنًا﴾ ظلمًا وأصله الكذب الذي يتحير منه صاحبه ﴿أَفْضَى﴾ وصل إليها، وأصله من الفضاء وهو السعة ﴿مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ عهدًا شديدًا مؤكدًا وهو عقد النكاح.

سَبَبُ النَّزُول: روي أن أهل الجاهلية كانوا إذا مات الرجل جاء ابنه من غيرها أو وليه فورث امرأته كما يرث ماله وألقى عليها ثوبًا، فإن شاء تزوجها بالصدّاق الأول وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها فأنزل الله ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾. ^(٢)

التفسير: ﴿وَأَلْتِي يَأْتِيَنَّ أَلْفَحِشَةً مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ أي اللواتي يزني من أزواجكم فاطلبوا أن يشهد على اقترافهن الزنا أربعة رجال من المسلمين الأحرار ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ أي فإن ثبت بالشهود جريمتهن فاحبسوهن في البيوت ﴿حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ﴾ أي احبسوهن فيها إلى الموت ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ أي يجعل الله لهنّ مخلصًا بما يشرعه من الأحكام قال ابن كثير: كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبيّنة العادلة حبست في بيت فلا تُمكن من الخروج منه إلى أن تموت،

(١) (ش): قَالَ الْعُلَمَاءُ: التَّوْبَةُ وَاجِبَةٌ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ، فَإِنْ كَانَتْ الْمَعْصِيَةُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى لَا تَعَلَّقُ بِحَقِّ آدَمِيٍّ، فَلَهَا ثَلَاثَةُ شُرُوطٍ: أَحَدُهَا: أَنْ يُقْلَعَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ. وَالثَّانِي: أَنْ يَنْدَمَ عَلَى فِعْلِهَا. وَالثَّالِثُ: أَنْ يَعْزِمَ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَيْهَا أَبَدًا. فَإِنْ قُدَّ أَحَدُ الثَّلَاثَةِ لَمْ تَصِحَّ تَوْبَتُهُ. وَإِنْ كَانَتْ الْمَعْصِيَةُ تَعَلَّقَ بِآدَمِيٍّ فَشُرُوطُهَا أَرْبَعَةٌ: هَذِهِ الثَّلَاثَةُ، وَأَنْ يَبْرَأَ مِنْ حَقِّ صَاحِبِهَا، فَإِنْ كَانَتْ مَالًا أَوْ نَحْوَهُ رَدَّهُ إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَتْ حَدَّ قَدْفٍ وَنَحْوَهُ مَكَّنَهُ مِنْهُ أَوْ طَلَبَ عَفْوَهُ، وَإِنْ كَانَتْ غِيبةً اسْتَحْلَلَهُ مِنْهَا.

(٢) «زاد المسير» ٣٩/٢.

(ش): رواه البخاري

حتى أنزل الله سورة فنسخها بالجلد أو الرجم^(١) ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ﴾ أي واللذان يفعلان الفاحشة والمراد به الزاني والزانية بطريق التغليب ﴿فَعَاذُوهُمَا﴾ أي بالتوبيع والتقريع والضرب بالنعال ﴿فَإِنْ تَابَا وَأُصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ أي فإن تابا عن الفاحشة وأصلحا سيرتهما فكفوا عن الإيذاء لهما ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ أي مبالغاً في قبول التوبة واسع الرحمة. قال الفخر الرازي: «خص الحبس في البيت بالمرأة وخص الإيذاء بالرجل لأن المرأة إنما تقع في الزنا عند الخروج والبروز فإذا حبست في البيت انقطعت مادة هذه المعصية، وأما الرجل فإنه لا يمكن حبسه في البيت لأنه يحتاج إلى الخروج في إصلاح معاشه واكتساب قوت عياله فلا جرم جعلت عقوبتهما مختلفة»^(٢) ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ أي إنما التوبة التي كتب الله على نفسه قبولها هي توبة من فعل المعصية سفهاً وجهالة مقدراً قبح المعصية وسوء عاقبتها ثم ندم وأناب ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ أي يتوبون سريعاً قبل مفاجأة الموت ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي يتقبل الله توبتهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي عليماً بخلقه حكيماً في شرعه ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِثْنَ﴾ أي وليس قبول التوبة ممن ارتكب المعاصي واستمر عليها حتى إذا فاجأه الموت تاب وأناب فهذه توبة المضطر وهي غير مقبولة وفي الحديث «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يَغْرَرَ»^(٣) ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي يموتون على الكفر فلا يقبل إيمانهم عند الاحتضار ﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي هيأنا وأعدنا لهم عذاباً مؤلماً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ أي لا يحل لكم أن تجعلوا النساء كالمتاع ينتقل بالإرث من إنسان إلى آخر وترثوهن بعد موت أزواجهن كرهاً عنهن قال ابن عباس: كانوا في الجاهلية إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاءوا تزوجها أحدهم، وإن شاءوا زوجوها غيرهم، وإن شاءوا منعوها الزواج^(٤) ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٦٦.

(٢) «التفسير الكبير» للرازي ٩/ ٢٣٥.

(٣) (ش): رواه الترمذي، وحسنه الألباني. وَالْعَرَّغَةَ هي وصول الروح للحلقوم، وهذا هو الوقت الذي قد يعاين فيه بعض الناس الملائكة. وقد دلت الأحاديث على أن من تاب إلى الله عز وجل وهو يرجو الحياة فإن توبته مقبولة، وأما متى وقع الإياس من الحياة وعاین الملك وحشرت الروح في الحلق وضاق بها الصدر فلا توبة مقبولة حينئذ. ويشرع دعوة الكافر عند احتضاره إلى الإسلام، ويدل على ذلك أن النبي ﷺ قد عرض الإسلام على عمه أبي طالب لما حضرته الوفاة فجاءه رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وقال له: «يَا عَمَّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةُ أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ». فَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وكذلك عرض ﷺ الإسلام على الغلام اليهودي الذي كان يخدمه فأسلم. رواه البخاري. والتوفيق بين الآيات والحديث هو أن الغلام لم يبلغ درجة الغرغرة، والله تعالى يقبل توبة كل من المسلم والكافر إذا تاب توبة صادقة قبل الغرغرة.

(٤) «القرطبي» ٥/ ٩٤.

بَعْضُ مَا أَتَيْتُمُوهُنَّ ﴿١﴾ أَي لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَمْنَعُوهُنَّ مِنَ الزَّوْجِ أَوْ تَضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا دَفَعْتُمُوهُ لِهِنَّ مِنَ الصَّدَاقِ ﴿٢﴾ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ ﴿٣﴾ أَي إِلَّا فِي حَالِ إِتْيَانِهِنَّ بِفَاحِشَةِ الزَّنا وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْفَاحِشَةُ الْمُبَيَّنَةُ النِّشْوَزُ وَالْعَصْيَانُ ﴿٤﴾ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴿٥﴾ أَي صَاحِبُوهُنَّ بِمَا أَمَرَكَمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ طَيِّبِ الْقَوْلِ وَالْمَعَامَلَةِ بِالْإِحْسَانِ ﴿٦﴾ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿٧﴾ أَي فَإِنْ كَرِهْتُمْ صَحْبَتَهُنَّ فَاصْبِرُوا عَلَيْهِنَّ وَاسْتَمِرُّوا فِي الْإِحْسَانِ إِلَيْهِنَّ فَعَسَى أَنْ يَرْزُقَكُمْ اللَّهُ مِنْهُنَّ وَلَدًا صَالِحًا نَقَرُ بِهِ أَعْيُنَكُمْ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ فِي الشَّيْءِ الْمَكْرُوهِ الْخَيْرُ الْكَثِيرُ وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ «لَا يَفْرُكُ» أَي «لَا يُبْغِضُ» مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ»^(١). ثُمَّ حَذَّرَ تَعَالَى مِنْ أَخْذِ شَيْءٍ مِنَ الْمَهْرِ بَعْدَ الطَّلَاقِ فَقَالَ ﴿وَأِنْ أَرَدْتُمْ أَسْبَدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ﴾ أَي وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ نِكَاحَ امْرَأَةٍ مَكَانَ امْرَأَةٍ طَلَقْتُمُوهَا ﴿وَأَتَيْتُمْ أَحَدَهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ أَي وَالْحَالِ أَنْكُمْ كُنْتُمْ قَدْ دَفَعْتُمْ مَهْرًا كَبِيرًا يَبْلُغُ قِنطَارًا ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ أَي فَلَا تَأْخُذُوا وَلَوْ قَلِيلًا مِنْ ذَلِكَ الْمَهْرِ ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ اسْتَفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ أَي أَتَأْخُذُونَهُ بَاطِلًا وَظُلْمًا؟ ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أَي كَيْفَ يَبَاحُ لَكُمْ أَخْذُهُ وَقَدْ اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِنَّ بِالْمَعَاشِرَةِ الزَّوْجِيَّةِ؟ ﴿وَأَخَذْتَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أَي أَخَذَنْ مِنْكُمْ عَهْدًا وَثِيقًا مُؤَكَّدًا هُوَ «عَقْدُ النِّكَاحِ» قَالَ مُجَاهِدٌ: الْمِيثَاقُ الْغَلِيظُ عَقْدَةُ النِّكَاحِ وَفِي الْحَدِيثِ «اتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانٍ مِنَ اللَّهِ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ»^(٢).

البَلَاغَةُ: تضمنت الآيات أنواعًا من البيان والبديع وهي بإيجاز كما يلي:

- ١ - المجاز العقلي في قوله ﴿يَتَوَفَّيْنَهُنَّ الْمَوْتُ﴾ والمراد يتوفاهنَّ الله أو ملائكته.
 - ٢ - الاستعارة ﴿وَأَخَذْتَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ استعار لفظ الميثاق للعقد الشرعي.
 - ٣ - الجناس المغاير في ﴿فَإِنْ تَابَا... تَوَابَا﴾ وفي ﴿كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى... أَنْ تَكْرَهُوا﴾.
 - ٤ - المبالغة في تفخيم الأمر وتأكيده ﴿وَأَتَيْتُمْ أَحَدَهُنَّ قِنطَارًا﴾ لتعظيم الأمر والمبالغة فيه.
- فَائِدَةٌ:** كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْجَمَاعِ بِلَفْظِ الْإِفْضَاءِ ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ لَتَعْلِيمِ الْمُؤْمِنِينَ الْأَدَبَ الرَّفِيعَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «الْإِفْضَاءُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْجَمَاعُ وَلَكِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ يَكْنِي»^(٣).

(١) (ش): رواه مسلم

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) «القرطبي» ١٠٢/٥.

تنبيه: خطب عمر رضي الله عنه فقال: أيها الناس لا تغالوا في مهور النساء فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله ﷺ ما أصدق امرأة من نسائه ولا أحداً من بناته فوق اثنتي عشرة أوقية، فقامت إليه امرأة فقالت: يا عمر، يعطينا الله وتحرمنا؟ يقول تعالى ﴿وَأَتَيْتُمُ إحْدَنَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ فقال رضي الله عنه: أصابت امرأة وأخطأ عمر^(١).

قال الله تعالى:

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبُكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِجْلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرْضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ مِنْ فَنَيْتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنْ أَتَيْتُمْ بِفَحِشَةٍ فَقَلْبَيْنِ نِصْفٍ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونِ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَدُوًّا وظَلَمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نَكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

المناسبة: لما أوصى تعالى بحسن معاشره الأزواج، وحذر من إيذاهن أو أكل مهورهن، عقبه بذكر المحرمات من النساء اللواتي لا يجوز الزواج بهن بسبب القرابة أو المصاهرة أو الرضاع.

(١) «الكشاف» ١/ ٣٧٩. (ش): هذه القصة باطلة. وقد ضعفها الألباني وغيره.

اللغة: ﴿سَلَفَ﴾ مضى ﴿وَمَقَّتًا﴾ المقت: البغض الشديد لمن تعاطى القبيح وكان العرب يسمون زواج الرجل امرأة أبيه «نكاح المقت» ﴿وَرَبَّيْبُكُمْ﴾ جمع ربيبة وهي بنت المرأة من آخر سميت به لأنها تربي في حجر الزوج ﴿حُجُورَكُمْ﴾ جمع حَجْرٌ ^(١) أي في تربيتمكم يقال: فلان في حجر فلان إذا كان في تربيته قال أبو عبيدة: في حجورك أي في بيوتكم ﴿وَحَلِيلٌ﴾ جمع حليلة بمعنى الزوجة سميت بذلك لأنها تحل لزوجها ﴿مُحْصِنِينَ﴾ متعفين عن الزنى ﴿مُسْفِحِينَ﴾ السفاح: الزنى وأصله في اللغة من السفح وهو الصبّ وسمي سفاحاً لأنه لا غرض للزاني إلا سفح النطفة وقضاء الشهوة ﴿طَوَلًا﴾ سعةً وغنى ﴿أَخْدَانٍ﴾ جمع خَدَنٌ وهو الصديق للمرأة يزني بها سرّاً ﴿أَلْعَنَتَ﴾ الفجور وأصله الضرر والفساد ﴿سُنَنَ﴾ جمع سنة وهي الطريقة ﴿نُصْلِيهِ﴾ ندخله.

سَبَبُ النُّزُول: أ - لما توفي «أبو قيس بن الأسلت» وكان من صالحى الأنصار، خطب ابنه قيس امرأة أبيه فقالت: إني أعدك ولداً! ولكنني آتي رسول الله ﷺ أستأمره فأثته فأخبرته فأنزل الله ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ...﴾ ^(٢) الآية.

ب - عن أبي سعيد الخدري قال: أصبنا سبايا يوم أوطاس لهن أزواج، فكرهنا أن نفع عليهن فسالنا النبي ﷺ: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ...﴾ الآية قال: فاستحللناهن ^(٣).

التفسير: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي لا تتزوجوا ما تزوج آباؤكم من النساء لكن ما سبق فقد عفا الله عنه ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا﴾ أي فإن

(١) (ش): حَجْرٌ / حَجَرٌ - بالفتح والكسر مع سكون الجيم - هو ما يحويه مجتمع الرجلين للجالس المترجّع. والمراد به هنا الحضانة والكفالة والعطف.

(٢) «القرطبي» ١٠٤/٥.

(ش): ضعيف جداً بهذا السياق، رواه الطبراني وغيره. وعن ابن عباس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرَاهًا وَلَا تَعْضَلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ قَالَ كَانُوا إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ كَانَ أَوْلِيَاؤُهُ أَحَقُّ بِأَمْرَاتِهِ، إِنْ شَاءَ بَعْضُهُمْ تَزَوَّجَهَا، وَإِنْ شَاءُوا زَوَّجُوا، وَإِنْ شَاءُوا لَمْ يَزَوَّجُوا، فَهُمْ أَحَقُّ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا، فَتَرَكْتُ هَذِهِ الْآيَةَ فِي ذَلِكَ. رواه البخاري. وعن سهل بن حنيف - رضي الله عنه - قال: لما توفي أبو قيس بن الأسلت؛ أراد ابنه أن يتزوج امرأته، وكان ذلك لهم في الجاهلية؛ فأنزل الله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرَاهًا﴾. صحيح، أخرجه النسائي في «التفسير»، وابن أبي حاتم في «تفسيره»، و«الطبري» في «جامع البيان».

(٣) «أسباب النزول» ص ٨٥.

(ش): عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - يَوْمَ حُنَيْنٍ بَعَثَ جَيْشًا إِلَى أَوْطَاسٍ فَلَقُوا عَدُوًّا فَقَاتَلُوهُمْ فَظَهَرُوا عَلَيْهِمْ وَأَصَابُوا لَهُمْ سَبَايَا فَكَانَ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - تَحَرَّجُوا مِنْ غَشْيَانِهِنَّ مِنْ أَجْلِ أَرْوَاجِهِنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذَلِكَ (وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) أَيْ فَهِنَّ لَكُمْ حَلَالٌ إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ. (رواه مسلم).

نكاحهن أمر قبيح قد تناهى في القبح والشناعة، وبلغ الذروة العليا في الفظاعة والبشاعة، إذ كيف يليق بالإنسان أن يتزوج امرأة أبيه وأن يعلوها بعد وفاته وهي مثل أمه ﴿وَسَاءَ سَكِيلًا﴾ أي بشئ ذلك النكاح القبيح الخبيث طريقاً، ثم بين تعالى المحرمات من النساء فقال ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ أي حُرِّمَ عليكم نكاح الأمهات وشمل اللفظ الجدات من قبل الأب أو الأم ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ وشمل بنات الأولاد وإن نزلن ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ أي شقيقة كانت أو لأب أو لأم ﴿وَعَمَّاتُكُمْ﴾ أي أخوات آبائكم وأجدادكم ﴿وَحَلَائِكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ أي بنت الأخ وبنت الأخت ويدخل فيهن أولادهن، وهؤلاء المحرمات بالنسب وهن كما تقدم «الأمهات، البنات، الأخوات، العمات، الخالات، بنات الأخ، بنات الأخت» ثم شرع تعالى في ذكر المحرمات من الرضاع فقال ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضْعَةِ﴾ نزل الله الرضاعة منزلة النسب حتى سُمي المرضعة أما للرضيع أي كما يحرم عليك أمك التي ولدتك، كذلك يحرم عليك أمك التي أرضعتك، وكذلك أختك من الرضاع، ولم تذكر الآية من المحرمات بالرضاع سوى «الأمهات والأخوات» وقد وضحت السنة النبوية أن المحرمات بالرضاع سبع كما هو الحال في النسب لقوله عليه السلام: «يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ»^(١). ثم ذكر تعالى المحرمات بالمصاهرة فقال ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ أي وكذلك يحرم نكاح أم الزوجة سواء دخل بالزوجة أو لم يدخل لأن مجرد العقد على البنت يحرم الأم ﴿وَرَبَّائِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ أي بنات أزواجكم اللاتي ربيتموهن، وذكر الحجر ليس للقيد وإنما هو للغالب لأن الغالب أنها تكون مع أمها ويتولى الزوج تربيتهما وهذا بالإجماع^(٢) ﴿مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ الدخول هنا كناية عن الجماع أي من نسائكم اللاتي أدخلتموهن الستر قاله ابن عباس فإن لم تكونوا أيها المؤمنون قد دخلتم بأمهاتهن وفارقتموهن فلا جناح عليكم في نكاح بناتهن ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ أي وحُرِّمَ عليكم نكاح زوجات أبناءكم الذين ولدتموهم من أصلابكم بخلاف من تَبَنَيْتُمُوهم فلهم نكاح حلالتهم ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي وحُرِّمَ عليكم الجمع بين الأختين معاً في النكاح إلا ما كان منكم في الجاهلية فقد عفا الله عنه ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي غفوراً لما سلف رحيماً بالعباد ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) (ش): هذا مذهب جمهور السلف والخلف، ومذهب الأئمة الأربعة. قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره»

(٢/٢٥١): «وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَرَبَّائِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ فَجَمْعُهُنَّ الْأَيْمَةُ عَلَى أَنَّ الرَّبِيَّةَ حَرَامٌ سَوَاءً كَانَتْ فِي

حِجْرِ الرَّجُلِ أَوْ لَمْ تَكُنْ فِي حِجْرِهِ، قَالُوا: وَهَذَا الْخِطَابُ خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ»

أي وحرّم عليكم نكاح المتزوجات من النساء إلا ما ملكتموهن بالسبّي فيحل لكم وطؤهاً بعد الاستبراء ولو كان لهنّ أزواج في دار الحرب لأنّ بالسبّي تنقطع عصمة الكافر ﴿وَلَا تُمَسِّكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [المتحنة: ١٠].^(١) ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي هذا فرض الله عليكم ﴿وَأَحَلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ أي أحلّ لكم نكاح ما سواهنّ ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾ أي إرادة أن تطلبوا النساء بطريق شرعي فتدفعوا لهنّ المهور حال كونكم متزوجين غير زانين ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي فما تلذذتم به من النساء بالنكاح فآتوهنّ مهورهنّ فريضةً فرضها الله عليكم بقوله: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: ٤] ثم قال تعالى ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ أي لا إثم عليكم فيما أسقطن من المهر برضاهنّ كقوله: ﴿فَإِنْ طَبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: ٤] قال ابن كثير: أي إذا فرضت لها صداقاً فأبرأتك منه أو عن شيء منه فلا جناح عليك ولا عليها في ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي عليماً بمصالح العباد حكيمًا فيما شرع لهم من الأحكام ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي من لم يكن منكم ذا سعة وقدرة أن يتزوج الحرائر والمؤمنات ﴿فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيِّاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي فله أن ينكح من الإماء المؤمنات اللاتي يملكنهنّ المؤمنون ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ جملة معترضة لبيان أنه يكفي في الإيمان معرفة الظاهر والله يتولى السرائر ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أي إنكم جميعاً بنو آدم ومن نفس واحدة فلا تستنكفوا من نكاحهنّ قُرْبَ أُمَّةٍ خَيْرٌ مِنْ حُرَّةٍ، وفيه تأنيس لهم بنكاح الإماء فالعبرة بفضل الإيمان لا بفضل الأحساب والأنساب ﴿فَأَنكِحُوهُنَّ بِأَذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ أي تزوجوهنّ بأمر أسيادهنّ وموافقة مَوَالِيهِنَّ ﴿وَأَنَّهُنَّ أُجُورُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي ادفعوا لهنّ مهورهنّ عن طيب نفس ولا تبخسوهنّ منه شيئاً استهانة بهنّ لكونهنّ إماء مملوكات ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ﴾ أي عفيفات غير مجاهرات بالزنى ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ أي ولا متسرات بالزنى مع أخدانهنّ قال ابن عباس: الخدنّ هو الصديق للمرأة يزني بها سراً فنهى الله تعالى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن^(٢) ﴿فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنْ أَتَيْتُمْ بِفَحْشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي فإذا أُحصِنَ بالزواج ثم زنين فعليهنّ نصف ما على الحرائر^(٣) من عقوبة الزنى ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ أي إنما يباح نكاح الإماء لمن

(١) (ش): الاستدلال على جواز نكاح المسلم المسيئة المَرْوُجَةِ من كافر بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمَسِّكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾، استدلال غير صحيح لأن الآية تمنع تزوّج المسلم من كافرة. وإنما الدليل قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ كما تقدم في حديث أبي سعيد الخدري الذي رواه مسلم.

(٢) «البحر المحيط» ٣/ ٢٢٢.

(٣) أخرجه ابن ماجه عن أنس مرفوعاً.

خاف على نفسه الوقوع في الزنى ﴿وَأَنْ تَصِيرُوا خَيْرَ لَكُمْ﴾ أي صبركم وتعففكم عن نكاحهن أفضل لئلا يصير الولد رقيقاً في الحديث «من أراد أن يلقي الله طاهراً مطهراً فليتكح الحرائر»^(١) ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي واسع المغفرة عظيم الرحمة ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي يريد الله أن يفصل لكم شرائع دينكم ومصالح أموركم ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي يرشدكم إلى طرائق الأنبياء والصالحين لتقتدوا بهم ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي يقبل توبتكم فيما اقترفتموه من الإثم والمحارم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بأحوال العباد حكيم في تشريعه لهم ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ كَرَّره ليؤكد سعة رحمته تعالى على العباد أي يحب بما شرع من الأحكام أن يطهركم من الذنوب والآثام، ويريد توبة العبد ليتوب عليه ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ أي ويريد الفجرة أنبأ الشيطان أن تعدلوا عن الحق إلى الباطل وتكونوا فسقة فجرة مثلهم ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَوِّفَ عَنْكُمْ﴾ أي يريد تعالى بما يسر أن يسهل عليكم أحكام الشرع ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ أي عاجزاً عن مخالفة هواه لا يصبر عن إتباع الشهوات، ثم حذر تعالى من أكل أموال الناس بالباطل فقال ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ أي يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله^(٢) لا يأكل بعضكم أموال بعض بالباطل وهو كل طريق لم تُبَحَّه الشريعة كالسرقة والخيانة والغصب والربا والقمار وما شاكل ذلك ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بِحُكْمٍ عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ أي إلا ما كان بطريق شرعي شريف كالتجارة التي أحلها الله قال ابن كثير: الاستثناء منقطع أي لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال لكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراض من البائع والمشتري فافعلوها^(٣) ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي لا يسفك بعضكم دم بعض، والتعبير عنه بقتل النفس للمبالغة في الزجر، أو هو على ظاهره بمعنى الانتحار وذلك من رحمته تعالى بكم ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدُوًّا وظُلْمًا﴾ أي ومن يرتكب ما نهى الله عنه معتدياً ظالماً لا سهواً ولا خطأً ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ أي ندخله ناراً عظيمة يحترق فيها ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي هيناً يسيراً لا عسر فيه لأنه تعالى لا يُعْجِزُهُ شيء ﴿إِنْ يَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي إن تركوا أيها المؤمنون الذنوب الكبائر التي نهاكم الله عَزَّ وَجَلَّ عنها نَمَحُ عنكم صغائر الذنوب بفضلنا ورحمتنا ﴿وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾ أي ندخلكم الجنة دار الكرامة والنعيم، التي فيها ما لا عين

(١) (ش): رواه ابن ماجه بلفظ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ طَاهِرًا مَطْهَرًا فَلْيَتَزَوَّجِ الْحَرَائِرَ» وضعفه الألباني.

(٢) (ش): تفسير الإيمان بأنه التصديق، مخالف لتعريفه عند جمهور أهل السنة، وموافق لقول المرجئة. فالإيمان عند أهل السنة: اعتقاد بالقلب - وتصديق القلب يدخل فيه أعمال القلب -، وقول باللسان وعمل بالجوارح.

يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية .

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣٨٧/١.

رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر!

البلاغة: تضمنت الآيات أنواعاً من البيان والبدیع نوجزها فيما يلي:

١ - المجاز المرسل في ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ أي حَرَّمَ عليكم نكاح الأمهات فهو على حذف مضاف.

٢ - الطباق في ﴿حُرِّمَتْ... وَأُجِلَّ﴾ وفي ﴿مُحْصِنِينَ... مُسَفِّحِينَ﴾ وفي ﴿كَبَّارٍ... سِقَاتِكُمْ﴾ لأن المراد بالسيئات الصغائر من الذنوب.

٣ - الكناية في ﴿الَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ فهو كناية عن الجماع كفولهم: بنى عليها، وضرب عليها الحجاب.

٤ - الاستعارة في ﴿فَكَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ استعار لفظ الأجور للمهور، لأن المهر يشبه الأجر في الصورة.

٥ - الجناس المغاير في ﴿تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ﴾ وفي ﴿أَرْضَعْنَكُمْ... مِنْ الرُّضْعَةِ﴾ وفي ﴿مُحْصَنَاتٍ... فَإِذَا أَحْصَيْتُ﴾ والإطناب في مواضع، والحذف في مواضع.

الفوائد الأولى: استنباط العلماء في آية المحرمات القاعدة الآتية وهي «العقد على البنات يحرم الأمهات، والدخول بالأمهات يحرم البنات».

الثانية: حمل بعض الروافض والشيعة قوله تعالى ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ على نكاح المتعة وهو خطأ فاحش لأن الغرض من الاستمتاع هنا التمتع بالأزواج عن طريق الجماع لا نكاح المتعة فقد ثبت حرمة نكاح المتعة بالسنة والإجماع ولا عبرة بما خالف ذلك^(١).

الثالثة: قال ابن عباس: الكبيرة كل ذنب ختمه الله بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب.

الرابعة: روى سعيد بن جبير أن رجلاً قال لابن عباس: الكبائر سبع؟ قال: هي إلى السبعمئة أقرب منها إلى السبع، ولكن لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار، ذكره «القرطبي».

قال الله تعالى:

وَلَا تَنْمَنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يُكَلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلًى مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَنُكُمْ فَكَاتُوهُمْ نَصِيبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالَّذِينَ حَتَّتْ الْقَدَمَاتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّذِي يَخَافُونَ نُشُورَهُمْ فَعِظُواهُمْ وَاهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُواهُمْ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَ سَبِيلًا إِنَّ

(١) انظر تفصيل البحث وأدلة التحريم للمتعة في كتابنا «روائع البيان» ٤٥٧/١ فيه بحث هام.

(ش): بل قد ورد في كتب الشيعة ما يدل على تحريم الزنا الذي يسمونه زواج المتعة.

اللَّهُ كَانَتْ عَلَيْهِمْ كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٥﴾ * وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْعًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَخْلُونِ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَّضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَذِيَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوْا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ بَنَاتُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَايِبِ أَوْ لَمْ تَمْسَسُوا السَّائِلَةَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى المحرمات من النساء وذكر قبلها تفضيل الله الرجال عليهن في الميراث، جاءت الآيات تنهى عن تمني ما خصَّ الله به كلاً من الجنسين لأنه سبب للحسد والبغضاء، ثم ذكر تعالى حقوق كل من الزوجين على الآخر، وأرشد إلى الخطوات التي ينبغي التدرج بها في حالة الشور والعصيان.

اللغة: ﴿مَوْلَى﴾ المولى: الذي يتولى غيره يقال للعبد: مولى: وللسيد مولى: لأن كلاً منهما يتولى الآخر والمراد به هنا الورثة والعصبة ﴿قَوَّموه﴾ قوام: مبالغة من القيام على الأمر بمعنى حفظه ورعايته، أي يقومون عليهن قيام الولاية على الرعية ﴿قَنَيْتُ﴾ مطيعات، وأصل القنوت دوام الطاعة ﴿نُشِزْهُنَّ﴾ عصيانهن وترفعهن وأصله المكان المرتفع، ومنه تل ناشز ويقال: نشزت المرأة إذا ترفعت على زوجها وعصته ﴿الْمَصَاحِجُ﴾ جمع مضجع وهو المرقد ﴿شِقَاقٌ﴾ الشقاق: الخلاف والعداوة مأخوذ من الشق بمعنى الجانب لأن كلاً من المتشاقين يكون في شق غير شق صاحبه أي في ناحية ﴿بِالْجَنُبِ﴾ البعيد الذي ليس له قرابة تربطه بجاره، وأصل الجنابة: البعد ﴿مُخْتَالًا﴾ المختال: ذو الخيلاء والكبر ﴿مِثْقَالٌ﴾ وزن ﴿الْغَايِبُ﴾ الحدث وأصله المطمئن^(١) من الأرض وكانوا إذا أرادوا قضاء الحاجة أتوا منخفضاً من الأرض فكني عن الحدث بالغائط.

سَبَبُ النُّزُول: أ - عن مجاهد قال: قالت «أم سلمة» يا رسول الله: يغزو الرجال ولا نغزو

(١) (ش): الْمُطْمَئِنُّ مِنَ الْأَرْضِ: السَّهْلُ الْمُنْفَخُضُ.

وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^(١) الآية^(٢).
 ب - روي أن سعد بن الربيع - وكان نقيباً من نقباء الأنصار - نشزت عليه امرأته «حبيبة بنت زيد» فلطمها فانطلق أبوها معها إلى رسول الله ﷺ فقال: أفرشته كريمتي فلطمها فقال النبي ﷺ لتقتص منه فنزلت ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ فقال ﷺ: «أردنا أمراً وأراد الله أمراً والذي أراد الله خير»^(٣).

التفسير: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي لا تتمنوا أيها المؤمنون ما خص الله تعالى به غيركم من أمر الدنيا أو الدين ذلك يؤدي إلى التحاسد والتباغض قال الزمخشري: نهوا عن الحسد وعن تمنى ما فضل الله بعض الناس على بعض من الجاه والمال؛ لأن ذلك التفضيل قسمة من الله صادرة عن حكمة وتدبير وعلم بأحوال العباد ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ أي لكل من الفريقين في الميراث نصيب معين المقدار قال «الطبري»: كل له جزاء على عمله بحسبه إن خيراً فخير وإن شراً فشر^(٤) ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي وسألوا الله من فضله يعطكم فإنه كريم وهاب ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ أي ولذلك جعل الناس طبقات ورفع بعضهم درجات ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلًى مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ أي ولكل إنسان جعلنا عصبه يرثون ماله مما تركه الوالدان والأقارب من الميراث ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أي والذين حالفتموهم في الجاهلية على النصرة والإرث فأعطوهم حظهم من الميراث، وقد كان هذا في ابتداء الإسلام ثم نسخ قال الحسن: كان الرجل يحالف الرجل ليس بينهما نسب فيرث أحدهما الآخر فنسخ الله ذلك بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥] وقال ابن عباس: كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه بالأخوة التي آخى رسول الله ﷺ بينهم فلما نزلت ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلًى﴾ نسخت^(٥) ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾ أي مطلعاً على كل شيء وسيجازيكم عليه. ثم بين تعالى أن الرجال يتولون أمر النساء في المسؤولية والتوجيه فقال ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ أي قائمون عليهن بالأمر والنهي، والإنفاق والتوجيه كما يقوم الولاة على الرعية ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي بسبب ما منحهم الله من العقل والتدبير، وخصهم

(١) «أسباب النزول» ص ٨٥.

(٢) (ش): صحيح، أخرجه أحمد، والترمذي، و«الطبري» في «جامع البيان».

(٣) «الكشاف» ١/ ٢٩٠. (ش): ضعيف، أخرجه ابن مردويه.

(٤) «الطبري» ٨/ ٢٦٧.

(٥) «مختصر ابن كثير» ١/ ٣٨٤.

به من الكسب والإفناق، فهم يقومون على النساء بالحفظ والرعاية والإفناق والتأديب قال أبو السعود: «والتفضيل للرجل لكمال العقل وحسن التدبير ورزانة الرأي ومزيد القوة، ولذلك خصوا بالنبوة والإمامة والولاية والشهادة والجهاد وغير ذلك»^(١) ﴿فَأَصْدِلِحْتُ قَنِينْتُ حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ هذا تفصيل لحال النساء تحت رياسة الرجل، وقد ذكر تعالى أنهن قسمان: قسم صالحات مطيعات، وقسم عاصيات متمردات، فالنساء الصالحات مطيعات لله ولأزواجهن، قائمات بما عليهن من حقوق، يحفظن أنفسهن عن الفاحشة وأموال أزواجهن عن التبذير كما أنهن حافظات لما يجري بينهن وبين أزواجهن مما يجب كتمه ويكمل ستره وفي الحديث «إِنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةَ يَوْمَ الْفِيَامَةِ الرَّجُلُ يُفْضَى إِلَى أَمْرَاتِهِ وَتُفْضَى إِلَيْهِ ثُمَّ يَنْشُرُ سَرَّهَا»^(٢) ﴿وَالَّذِي تَخَاوَفُنَّ شَوْرَهُنَّ﴾ هذا القسم الثاني وهن النساء العاصيات المتمردات أي واللاتي يتكبرن ويتعاليين عن طاعة الأزواج فعليكم أيها الرجال أن تسلكوا معهن سبل الإصلاح ﴿فَعُظُّوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرُثُوهُنَّ﴾ أي فخوفوهن الله بطريق النصح والإرشاد، فإن لم ينجح الوعظ والتذكير فاهجروهن في الفراش فلا تكلموهن ولا تقربوهن قال ابن عباس: الهجر ألا يجامعها وأن يضاجعها على فراشها ويوليها ظهره^(٣)، فإن لم يرتدعن فاضربوهن ضرباً غير مبرح ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ أي فإن أطعن أمركم فلا تلتمسوا طريقاً لا يذانهن ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيرًا﴾ أي فإن الله تعالى أعلى منكم وأكبر وهو وليهن ينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن. . انظر كيف يعلمنا سبحانه أن نؤدب نساءنا وانظر إلى ترتيب العقوبات ودقتها حيث أمرنا بالوعظ ثم بالهجران ثم بالضرب ضرباً غير مبرح ثم ختم الآية بصفة العلو والكبر لينبه العبد على أن قدرة الله فوق قدرة الزوج عليها وأنه تعالى عون الضعفاء وملاذ المظلومين! ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أي وإن خشيتم أيها الحكام مخالفة وعداوة بين الزوجين فوجّهوا حكماً عدلاً من أهل الزوج وحكماً عدلاً من أهل الزوجة يجتمعان فينظران في أمرهما ويفعلان ما فيه المصلحة ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ أي إن قصدا إصلاح ذات البين وكانت نيتهما صحيحة وقلوبهما ناصحة لوجه الله، بورك في وساطتهما وأوقع الله بين الزوجين الوفاق والألفة وألقى في نفوسهما المودة والرحمة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيمًا﴾ أي عليماً بأحوال العباد حكيماً في تشريعه لهم ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي وحدوه وعظموه ولا تشركوا به شيئاً من الأشياء صنماً أو غيره، واستوصوا بالوالدين برّاً وإنعاماً وإحساناً وإكراماً

(١) «إرشاد العقل السليم» ١/ ٣٣٩٩.

(۲) (ش): رواہ مسلم.

(۳) «مختصر این کثیر» ۱/۳۸۶.

﴿وَبِذَى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ أي وأحسنوا إلى الأقارب عامة وإلى اليتامى والمساكين خاصة ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي الجار القريب فله عليك حق الجوار وحق القرابة ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ أي الجار الأجنبي الذي لا قرابة بينك وبينه ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ﴾ قال ابن عباس: هو الرفيق في السفر، وقال الزمخشري: «هو الذي صحبتك إما رفيقاً في سفر، أو جاراً ملاصقاً، أو شريكاً في تعلم علم، أو قاعداً إلى جنبك في مجلس أو غير ذلك، من له أدنى صحبة التأمت بينك وبينه فعليك أن ترعى ذلك الحق ولا تنساه وقيل: هي المرأة»^(١) ﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ أي المسافر الغريب الذي انقطع عن بلده وأهله ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي المماليك من العبيد والإماء ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُحْتَلاً فَخُوراً﴾ أي متكبراً في نفسه يأنف عن أقاربه وجيرانه فخوراً على الناس مترفعاً عليهم يرى أنه خير منهم، وهذه آية جامعة جاءت حثاً على الإحسان واستطراداً لمكارم الأخلاق، ومن تدبرها حق التدبر أغنته عن كثير من مواظب البلغاء، ونصائح الحكماء، ثم بين تعالى صفات هؤلاء الذين يبغضهم الله فقال ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ أي يمتنعون ما أوجب الله عليهم من الإنفاق في سبيل الله ويأمرون غيرهم بترك الإنفاق، والآية في اليهود نزلت في جماعة منهم كانوا يقولون للأنصار: لا تنفقوا أموالكم في الجهاد والصدقات، وهي مع ذلك عامة ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي يخفون ما عندهم من المال والغنى، ويخفون نعمة عليه السلام الموجود في التوراة^(٢) ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً﴾ أي هيأنا للجاحدين نعمة الله عذاباً أليماً مع الخزي والإذلال لهم ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ﴾ أي ينفقونها للفخار والشهرة لا ابتغاء وجه الله ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي ولا يؤمنون بالإيمان الصحيح بالله واليوم الآخر، والآية في المنافقين ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً﴾ أي من كان الشيطان صاحباً له وخليلاً يعمل بأمره فساء هذا القرين والصاحب ﴿وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي ماذا يضيرهم وأي تبعة وبال عليهم في الإيمان بالله والإنفاق في سبيله؟ قال الزمخشري: وهذا كما يقال للمنتقم: ما ضرك لو عفوت؟ وللعاق: ما كان يرزؤك لو كنت باراً؟ وهو ذم وتوبيخ وتجهيل بمكان المنفعة^(٣) ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً﴾ وعيد لهم بالعقاب أي سيجازيهم بما عملوا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظِلُّمُ مَثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي لا يبغس أحداً من عمله شيئاً ولو كان وزن ذرة وهي الهباءة^(٤)

(١) «الكشاف» ١/ ٣٩٣ وهذا الرأي اختيار «الطبري» أيضاً.

(٢) هذا ما رجحه «الطبري» و«أبو السعود».

(٣) «الكشاف» ١/ ٣٩٥.

(٤) (ش): الهباءة: جزء من الهباء: غبار، تراب تطيرهُ الرِّيحُ ويلزق بالأشياء، أو ينبثُ في الهواء فلا يبدو إلا في ضوء الشمس.

وذلك على سبيل التمثيل تنبيهاً بالقليل على الكثير ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا﴾ أي وإن كانت تلك الذرة حسنة يُمنّ بها ويجعلها أضعافاً كثيرة ﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي ويُعطى من عنده تفضلاً وزيادة على ثواب العمل أجراً عظيماً وهو الجنة ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ أي كيف يكون حال الكفار والفجار حين نأتي من كل أمة بنبيها يشهد عليها، ونأتي بك يا محمد على العصاة والمكذبين من أمتك تشهد عليهم بالجحود والعصيان؟ كيف يكون موقفهم؟ وكيف يكون حالهم؟ والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ﴾ أي في ذلك اليوم العصيب يتمنى الفجار الذين جحدوا وحادية الله وعصوا رسوله ﴿لَوْ سُئِلَ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ أي لو يدفنون في الأرض ثم سُئِلَ بِهِمْ كَمَا سُئِلَ بِالْمَوْتِ، أو لو تنشق الأرض فتبتلعهم ويكونون تراباً كقوله ﴿يَوْمَ يُنْظَرُ أَلَمْ يَأْتِ مَا قَدَّمَتْ بِدَاهٍ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبا: ٤٠] وذلك لما يرون من أهوال يوم القيامة ﴿وَلَا يَكْنُفُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ أي لا يستطيعون أن يكتموا الله حديثاً لأن جوارحهم تشهد عليهم بما فعلوه^(١). ثم أمر تعالى باجتنب الصلاة في حال السكر والجنابة فقال ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ أي لا تصلوا في حالة السكر لأن هذه الحالة لا يتأتى معها الخشوع والخضوع بمناجاته سبحانه وتعالى، وقد كان هذا قبل تحريم الخمر روى الترمذي عن علي كرم الله وجهه^(٢) أنه قال «صَنَعَ لَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ طَعَامًا فَدَعَانَا وَسَقَانَا مِنَ الْخَمْرِ فَأَخَذَتِ الْخَمْرُ مِنَّا وَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَقَدَّمُونِي فَقَرَأْتُ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَنَحْنُ نَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ. قَالَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ الآية^(٣) وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ أي ولا تقربوها وأنتم جنب أي غير طاهرين بإنزال أو إيلاج إلا إذا كنتم مسافرين ولم تجدوا الماء فصلوا على تلك الحالة بالتيمم ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ أي وإن كنتم مرضى

(١) هذا التفسير على أن الجملة مستأنفة وهو الظاهر وقيل: إن الجملة معطوفة على السابق أي يودون أن يدفونوا تحت الأرض وأنهم لم يكتموا ولم يكذبوا في قولهم: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ لأنهم إذا كنتموا افتضحوا فلشدة الأمر يتمنون أن تسوى بهم الأرض، انظر «الكشاف» ٣٩٦/١.

(ش): الجملة الاستثنائية: هي التي يُبتدأ بها معنى جديد بعد كلام سابق، كالجملة الثانية والثالثة في قولنا: «أَحْزَنْتُكَ وَشَايَةُ فُلَانٍ، لَا تَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، إِنِّي لَمْ أَصْدُقْهَا».

(٢) (ش): سُئِلَ الشَّيْخُ ابْنُ بَازٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - عَنْ تَخْصِيصِ عَلِيٍّ عليه السلام بِلَفْظِ (عليه السلام) فقال: «لَا يَنْبَغِي تَخْصِيصُ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِهَذَا اللَّفْظِ بَلِ الْمَشْرُوعُ أَنْ يُقَالَ فِي حَقِّهِ وَحَقِّ غَيْرِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ (رضي الله عنه) أَوْ (رحمه الله) لَعْدَمِ الدَّلِيلِ عَلَى تَخْصِيصِهِ بِذَلِكَ، وَهَكَذَا قَوْلُ بَعْضِهِمْ: «كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ» فَإِنَّ ذَلِكَ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ وَلَا وَجْهَ لِتَخْصِيصِهِ بِذَلِكَ، وَالْأَفْضَلُ أَنْ يُعَامَلَ كَغَيْرِهِ مِنَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَلَا يُخَصُّ بِشَيْءٍ دُونَهُمْ مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي لَا دَلِيلَ عَلَيْهَا». (مجموع الفتاوى ٦ / ٥٠١)

(٣) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. (ش): صححه الألباني.

ويضرركم الماء، أو مسافرين وأنتم مُخْدِتُونَ أو أحدثتم بيولٍ أو غائطٍ ونحوهما حدثاً أصغر ولم تجدوا الماء ﴿أَوْ لَمْ تَسْمُوا الْمَسَاءَ﴾ قال ابن عباس: هو الجماع ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ أي فلم تجدوا الماء الذي تتطهرون به ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ أي اقصدوا عند عدم وجود الماء التراب الطاهر فتطهروا به وامسحوا وجوهكم وأيديكم بذلك التراب ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ أي يرحص ويسهل على عباده لئلا يفعلوا في الحرج.

البلاغة: تضمنت هذه الآيات من الفصاحة والبيان والبدیع ما يلي:

- ١ - الإطناب في قوله ﴿نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا... نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَا﴾ وفي ﴿حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ وفي ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾.
- ٢ - الاستعارة ﴿مِّمَّا اكْتَسَبُوا﴾ شبه استحقاقهم للارث وتملكهم له بالاكْتِسَاب واشتق من لفظ الاكْتِسَاب اكتسبوا على طريقة الاستعارة التبعية.
- ٣ - الكناية في ﴿وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ فقد كنى بذلك عن الجماع وكذلك في ﴿لَمْ تَسْمُوا الْمَسَاءَ﴾ قال ابن عباس معناه: جامعتم النساء كما كنى عن الحدث بالغائط في قوله ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾.
- ٤ - صيغة المبالغة في ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ﴾ لأن فَعَّال من صيغ المبالغة ومجيء الجملة إسمية لإفادة الدوام والاستمرار.
- ٥ - السؤال عن المعلوم لتوبيخ السامع في قوله ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا﴾ يراد بها التقرير والتوبيخ.

- ٦ - جناس الاشتقاق في ﴿حَفِظْتُ... حَفِظَ﴾ وفي قوله ﴿بَشْهيدٍ... شَهِيدًا﴾.
 - ٧ - التعريض في ﴿مُتَحَاتِلًا فَخُورًا﴾ عرّض بذلك إلى ذم الكبر المؤدي لاحتقار الناس.
 - ٨ - الحذف في عدة مواضع مثل ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي أحسنوا إلى الوالدين إحساناً.
- الفوائد: الأولى:** لم يذكر الله تعالى في الآية إلا «الإصلاح» في قوله ﴿إِنْ يُرِيدَ إِصْلَاحًا﴾ ولم يذكر ما يقابله وهو التفريق وفي ذلك إشارة لطيفة إلى أنه ينبغي للحكمين أن يبذلا جهدهما للإصلاح لأن في التفريق خراب البيوت وتشيت الأولاد وذلك مما ينبغي أن يجتنب.
- الثانية:** ختم تعالى الآية بهذين الإسمين العظيمين ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ وذلك لتهديد الأزواج عند التعسف في استعمال الحق فكأن الآية تقول: لا تغتروا بكونكم أعلى يداً منهن وأكبر درجة منهن فإن الله عليّ قاهر ينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن، فالله أعلى منكم وأقدر عليكم منكم عليهن فاحذروا عقابه.

الثالثة: روى البخاري «عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ اقرأ عليّ القرآن فقلت يا رسول الله: اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: نعم فإني أحب أن أسمع من

غيري!! فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ فقال: حسبك الآن فنظرت فإذا عيناه تذرفان^(١).

تنبيه: ورد النظم الكريم ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ ولو قال: بتفضيلهم عليهم لكان أخصر وأوجز ولكن التعبير ورد بتلك الصيغة لحكمة جليلة وهي إفادة أن المرأة من الرجل بمنزلة عضو من جسم الإنسان وكذلك العكس، فالرجل بمنزلة الرأس، والمرأة بمنزلة عضو على عضو، فالأذن لا تغني عن العين، واليد لا تغني عن القدم، ولا عار على الشخص أن يكون قلبه أفضل من معدته ورأسه أشرف من يده فالكل يؤدي دوره بانتظام ولا غنى لواحد عن الآخر وهذا هو سر التعبير بقوله ﴿بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ فظهر أن الآية في نهاية الإيجاز والإعجاز.

«كلمة حول تأديب النساء»

لعل أخبت ما يتخذه أعداء الإسلام للطعن في الشريعة الإسلامية زعمهم أن الإسلام أهان المرأة حين سمح للرجل أن يضربها ويقولون: كيف يسمح القرآن بضرب المرأة ﴿وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ أفليس هذا إهانة للمرأة واعتداء على كرامتها؟ والجواب: نعم لقد أذن الحكيم العليم بضربها ولكن متى يكون الضرب؟ ولمن يكون؟ إن الضرب - ضرباً غير مبرح - كما ورد به الحديث الشريف^(٢) أحد الطرق في معالجة نشوز المرأة وعصيانها لأمر الزوج، فحين تسيء المرأة عشرة زوجها وتركب رأسها وتسير بقيادة الشيطان وتقلب الحياة الزوجية إلى جحيم لا يطاق فماذا يصنع الرجل في مثل هذه الحالة؟ لقد أرشدنا القرآن الكريم إلى الدواء فأمر بالصبر والأناة، ثم بالوعظ والإرشاد، ثم بالهجر في المضاجع، فإذا لم تنجح كل هذه الوسائل فلا بد من سلوك طريق آخر هو الضرب غير المبرح لكسر الغطرسة والكبرياء، وهذا أقل ضرراً من إيقاع الطلاق عليها، وإذا قيس الضرر الأخف بالضرر الأكبر كان حسناً وجميلاً وما أحسن ما قيل «وَعِنْدَ ذِكْرِ الْعَمَى يُسْتَحْسَنُ الْعَوْرُ» فالضرب طريق من طرق العلاج ينفع في بعض الحالات التي يستعصي فيها الإصلاح باللطف والإحسان والجميل ﴿فَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨]!

قال الله تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكَثْبِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ

(١) (ش): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ». قُلْتُ أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ؟ قَالَ: «فَإِنِّي أَحْبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي». فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النَّسَاءِ حَتَّى بَلَغْتُ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قَالَ «أَمْسِكْ». فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ. رواه البخاري.

(٢) (ش): رواه مسلم.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: لَمَّا قَدِمَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ مَكَّةَ قَالَتْ قُرَيْشٌ: «لَا تَرَى هَذَا الصُّبُورَ الْمُتَبَيِّرَ مِنْ قَوْمِهِ؟ يَزْعُمُ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنَّا، وَنَحْنُ أَهْلُ الْحَجَّجِ، وَأَهْلُ السَّدَانَةِ، وَأَهْلُ السَّقَايَةِ!». قَالَ: «أَنْتُمْ خَيْرٌ». فَتَرَكْتُمْ: ﴿لَا تَرَى شَانِعَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣] وَنَزَلَ: ﴿لَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْرُونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَتُخَلَّوْا السَّبِيلَ﴾ ٤٤ وَأَلَّهِ أَعْلَمُ بِعَادَاتِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥١، ٥٢]. (رواه الطبراني في المعجم الكبير وابن جرير، وصححه الألباني). (الصُّبُورُ) (وفي رواية الضُّبَيْرِ) بالتصغير: الرَّجُلُ الْفَرْدُ الضَّعِيفُ الذَّلِيلُ بِلا أَهْلٍ وَعَقِبٍ وَنَاصِرٍ. أَيِ ابْتَرَّ لَا عَقَبَ لَهُ وَلَا أَحَ فَإِذَا مَاتَ انْقَطَعَ ذِكْرُهُ.

اللغة: ﴿وَرَعْنَا﴾ راقبنا وانظرنا وهي كلمة سب في العبرية وكان اليهود يقولونها ويعنون بها معنى الرعونة^(١) ﴿وَأَقَوْمٌ﴾ أعدل وأصوب ﴿تَطْمِسُ﴾ الطمس: المحو وإذهاب أثر الشيء ﴿فَتِيلًا﴾ الفتيل: الخيط الذي في شق النواة ﴿يَالْجِبَّتِ﴾ اسم الصنم ثم صار مستعملاً لكل باطل ﴿وَالطُّغُوتِ﴾ كل ما عبد من دون الله من حجر أو بشر أو شيطان وقيل.. هو اسم للشيطان ﴿نَقِيرًا﴾ النقير: النقطة التي على ظهر النواة ﴿نُصْلِيهِمْ﴾ ندخلهم.

التفسير: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ الاستفهام للتعجب من سوء حالهم والتحذير عن موالاتهم، أي: ألم تنظروا يا محمد إلى الذين أعطوا حظاً من علم التوراة وهم أحبار اليهود ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾ أي يختارون الضلالة على الهدى ويؤثرون الكفر على الإيمان ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ أي ويريدون لكم يا معشر المؤمنين أن تضلوا طريق الحق لتكونوا مثلهم ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ أي هو تعالى أعلم بعداوة هؤلاء اليهود الضالين منكم فاحذروهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ أي حسبكم أن يكون الله ولياً وناصرًا لكم فثقوا به واعتمدوا عليه وحده فهو تعالى يكفيكم مكرهم.. ثم ذكر تعالى طرفاً من قبائح اليهود اللُعناء فقال ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أي من هؤلاء اليهود فريق يبدلون كلام الله في التوراة ويفسرونه بغير مراد الله قصداً وعمداً فقد غيروا نعت محمد ﷺ وأحكام الرجم وغير ذلك ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي ويقولون لك إذا دعوتهم للإيمان سمعنا: قولك وعصينا أمرك قال مجاهد: سمعنا ما قلته يا محمد ولا نطيعك فيه، وهذا أبلغ في الكفر والعناد ﴿وَأَسْمَعُ غَيْرُ مُسْمِعٍ﴾ أي اسمع ما نقول لا سمعت، والكلام ذو وجهين يحتمل الخير والشر وأصله للخير أي لا سمعت مكرهاً ولكن اليهود الخبثاء كانوا يقصدون به الدعاء على الرسول ﷺ أي لا أسمعك الله وهو دعاء بالصمم أو بالموت ﴿وَرَعْنَا﴾ أي ويقولون في أثناء خطابهم راعنا وهي كلمة سب من الرعونة وهي الحُمق، فكانوا سخريّة وهزواً برسول الله ﷺ يكلمونه بكلام محتمل ينون به الشتيمة والإهانة ويظهرون به التوقيير والإكرام ولهذا قال تعالى ﴿لِيَأْ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي أَلْدِينِ﴾ أي فتلاً وتحريفاً عن الحق إلى الباطل وقدحاً في الإسلام قال ابن عطية: وهذا موجود حتى الآن في اليهود وقد شاهدناهم يربون أولادهم الصغار على ذلك ويحفظونهم ما يخاطبون به المسلمين مما ظاهره التوقيير ويريدون به التحقير^(٢) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي عوضاً من قولهم: سمعنا وعصينا ﴿وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا﴾ أي عوضاً عن قولهم: غير مسمع وراعنا أي لو أن هؤلاء اليهود قالوا للرسول ﷺ ذلك القول اللطيف بدل ذلك القول الشنيع ﴿لَكَانَ

(١) (ش): زُعُونَةٌ: رَعَنَ الشَّخْصُ: كَانَ أَهْوَاجٌ فِي مَنْطِقِهِ، حُمَقٌ وَطَاشٌ فِيمَا يَقُولُ أَوْ يَفْعَلُ.

(٢) «البحر المحيط» ٣/ ٢٦٤.

خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ ﴿١﴾ أي لكان ذلك القول خيرًا لهم عند الله وأعدل وأصوب ﴿وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي أبعدهم الله عن الهدى وعن رحمته بسبب كفرهم السابق فلا يؤمنون إلا إيمانًا قليلًا قال الزمخشري: أي ضعيفًا ركيكًا لا يُعْبَأُ بِهِ ^(١) وهو إيمانهم ببعض الكتاب والرسول.. ثم توعدهم تعالى بالطمس وإذهاب الحواس فقال ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنًا بِمَا نَزَّلْنَا﴾ أي يا معشر اليهود آمنوا بالقرآن الذي نزلناه على محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أي مصدقًا للتوراة ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ أي انطمس منها الحواس من أنفٍ أو عين أو حاجب حتى تصير كالأدبار، وهذا تشويه عظيم لمحاسن الإنسان وهو قول ابن عباس ^(٢) ﴿أَوَلَعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ أي نمسخهم كما مسخنا أصحاب السبت وهم الذين اعتدوا في السبت فمسخهم الله قردة وخنازير ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي إذا أمر بأمر فإنه نافذ كائن لا محالة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي لا يغفر الشرك ويغفر ما سوى ذلك من الذنوب لمن شاء من عباده ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ أي من أشرك بالله فقد اختلق إثمًا عظيمًا قال «الطبري»: قد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة ففي مشيئة الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه عليه ما لم تكن كبيرته شركًا بالله ^(٣). ثم ذكر تعالى تركية اليهود أنفسهم مع كفرهم وتحريفهم الكتاب فقال ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي ألم يبلغك خبر هؤلاء الذين يمدحون أنفسهم ويصفونها بالطاعة والتقوى والاستفهام للتعجب من أمرهم قال قتادة: ذلكم أعداء الله اليهود زكّوا أنفسهم فقالوا ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ وقالوا: لا ذنوب لنا ^(٤) ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ أي ليس الأمر بتزكيتهم بل بتزكية الله فهو أعلم بحقائق الأمور وغوامضها يزكي المرتضين من عباده وهم الأطهار الأبرار لا اليهود الأشرار ﴿وَلَا يَظْلِمُونَ قِتِيلًا﴾ أي لا يُنْقِصُونَ من أعمالهم بقدر الفتيل وهو الخيط الذي في شق النواة وهو مثل للقلة كقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠] ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ﴾ هذا تعجب من افتراءهم وكذبهم أي انظر يا محمد كيف اختلقوا على الله الكذب في تزكيتهم أنفسهم وادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ﴿وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي كفى بهذا الافتراء وزرًا بينًا وجرمًا عظيمًا ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ الاستفهام للتعجب والمراد بهم أيضًا اليهود أعطوا حظًا من التوراة وهم مع ذلك

(١) «الكشاف» ١/ ٤٠١.

(٢) وهو اختيار «الطبري» حيث قال: أي من قبل أن نطمس أبصارهم ونمحو آثارها فنسويها كالآقفاء فنجعل أبصارها في أدبارها فيمشون القهقري.

(٣) «الطبري» ٨/ ٤٥٠.

(٤) «الطبري» ٨/ ٤٥٢.

يؤمنون بالأوثان والأصنام وكل ما عبد من دون الرحمن ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ أي يقول اليهود لكفار قريش أنتم أهدى سبيلاً من محمد وأصحابه قال ابن كثير: يفضلون الكفار على المسلمين بجهلهم وقلة دينهم وكفرهم بكتاب الله الذي بأيديهم^(١) قال تعالى إخباراً عن ضلالهم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي طردهم وأبعدهم عن رحمته ﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ نَجْدَهُ نَصِيرًا﴾ أي من يطرده من رحمته فمن ينصره من عذاب الله؟ ويمنع عنه آثار اللعنة وهو العذاب العظيم ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾ أي أم لهم حظ من الملك؟ وهذا على وجه الإنكار يعني ليس لهم من الملك شيء ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ أي لو كان لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون أحداً مقدار نقير لفرط بخلهم، والنقير مثل في القلة كالفتيل والقطمير وهو النكتة في ظهر النواة^(٢)، ثم انتقل إلى خصلة ذميمة أشد من البخل فقال ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ قال ابن عباس: حسدوا النبي ﷺ على النبوة وحسدوا أصحابه على الإيمان والمعنى: بل أيحسدون النبي ﷺ والمؤمنين على النبوة التي فضل الله بها محمداً وشرّف بها العرب ويحسدون المؤمنين على ازدياد العز والتمكين؟ ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَٰهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ أي فقد أعطينا أسلافكم من ذرية إبراهيم النبوة وأنزلنا عليهم الكتب وأعطيناهم الملك العظيم مع النبوة كداود وسليمان فلا شيء تخصون محمداً ﷺ بالحسد دون غيره ممن أنعم الله عليهم؟ والمقصود الرد على اليهود في حسدهم للنبي ﷺ وإلزام لهم بما عرفوه من فضل الله على آل إبراهيم ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِءٌ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ أي من اليهود من آمن بمحمد ﷺ وهم قلة قليلة ومنهم من أعرض فلم يؤمن وهم الكثرة كقوله ﴿فَمِنْهُمْ مُّهُتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦] ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ أي كفى بالنار المسعرة عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم. ثم أخبر تعالى بما أعده للكفرة الفجرة من الوعيد والعذاب الشديد فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ أي سوف ندخلهم ناراً عظيمة هائلة تشوي الوجوه والجلود ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أي كلما انشوت جلودهم واحترقت آثاراً تاماً بدلناهم جلوداً غيرها ليدوم لهم ألم العذاب، قال الحسن: تنضجهم النار في اليوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم: عودوا فعدوا كما كانوا وقال الربيع: جلد أحدهم أربعون ذراعاً، وبطنه لو وضع فيه جبل لوسعه، فإذا أكلت النار جلودهم بدلوا جلوداً غيرها وفي الحديث «يعظم أهل النار في النار حتى إن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام، وإن غلظ جلده سبعون ذراعاً وإن

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٤٠٣.

(٢) (ش): القِشْرَةُ الرَّقِيقَةُ على النواة كاللِّفَافَةِ لَهَا، القِشْرَةُ الرَّقِيقَةُ بَيْنَ النَّوَةِ وَالتَّمْرَةِ. والنَّقِيرُ: حفرة

مستديرة في ظهر نواة البلح.

والفتيل: خِيطٌ فِي شَقِّ النَّوَةِ أَوْ قَشْرَةِ فِي بطنها.

ضرسه مثل أحد»^(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي عزيزاً لا يمتنع عليه شيء حكيم لا يعذب إلا بعدل ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ هذا إخبار عن مآل السعداء أي سندخلهم جنات تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها وأرجائها حيث شاءوا وأين أرادوا مقيمين في الجنة لا يموتون ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ أي لهم في الجنة زوجات مطهرات من الأذى والأفذار قال مجاهد: مطهرات من البول والحيض والنخام والبزاق والمني والولد ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ أي ظلاً دائماً لا تنسخه الشمس ولا حر فيه ولا برد قال الحسن: وُصف بأنه ظليل لأنه لا يدخله ما يدخل ظل الدنيا من الحرّ والسموم، وفي الحديث «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها»^(٢).

البلاغة: تضمنت هذه الآيات من الفصاحة والبلاغة والبديع ما يلي بالإيجاز:

- ١ - المجاز المرسل في ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ المراد به محمد ﷺ من باب تسمية الخاص باسم العام إشارة إلى أنه جمعت فيه كمالات الأولين والآخرين.
- ٢ - الاستعارة في ﴿يَسْتَرْوُونَ الصَّلَافَةَ﴾ وفي ﴿يَلْدُوهُمُ الْعَذَابُ﴾ لأن أصل الذوق باللسان فاستعير إلى الألم الذي يصيب الإنسان وفي ﴿لَيَأْتِيَنَّهُمْ﴾ لأن أصل الليّ قتل الحبل فاستعير للكلام الذي قصد به غير ظاهره وفي ﴿نَطْمِسُ وُجُوهًا﴾ وهي عبارة عن مسخ الوجوه تشبيهاً بالصحيفة المطموسة التي عُميت سطورها وأشكلت حروفها.
- ٣ - الاستفهام الذي يراد به التعجب في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ في موضعين.
- ٤ - التعجب بلفظ الأمر في ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْرَءُونَ﴾ وتلوين الخطاب في ﴿يَقْرَءُونَ﴾ وإقامته مقام الماضي للدلالة على الدوام والاستمرار.
- ٥ - الاستفهام الذي يراد منه التوبيخ والتفريع في ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ﴾ وفي ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ﴾.
- ٦ - التعريض في ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ عرّض بشدة بخلهم.
- ٧ - الطباق في ﴿وُجُوهٌ... وَأَدْبَرَ﴾ وفي ﴿ءَامَنُوا... كَفَرُوا﴾.
- ٨ - جناس الاشتقاق في ﴿نَلْعَنُهُمْ... لَعْنَا﴾ وفي ﴿يُؤْتُونَ... ءَاتَهُمْ﴾ وفي ﴿ظِلًّا ظَلِيلًا﴾.
- ٩ - الإطناب في مواضع، والحذف في مواضع.

قال الله تعالى:

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ

(١) أخرجه أحمد في المسند. (ش): ضعيف هذا السياق.
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ضَرْسُ الْكَافِرِ أَوْ نَابُ الْكَافِرِ مِثْلُ أُحُدٍ وَغُلَطٌ جُلْدُهُ مَسِيرَةُ ثَلَاثٍ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِ أَحَدِهِمْ وَبَيْنَ عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِينَ خَرِيفًا (رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ).
(٢) أخرجه الشيخان.

بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَنَفِّقِينَ يُصَدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ يُمْسِكُمْ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَذَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنْبِيئًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى حال اليهود وما هم عليه من الحسد والعناد والجحود، وذكر ما أعده لهم من العذاب والنكال في الآخرة، أعقبه بتوجيه المؤمنين إلى طريق السعادة بطاعة الله ورسوله وأداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس، ثم ذكر صفات المنافقين التي ينبغي الحذر منها والبعد عنها.

اللغة: ﴿فَعَمَّا﴾ أصلها نِعَمَ مَا أي نِعَمَ الشيء يعظكم به ﴿تَأْوِيلًا﴾ مآلاً وعاقبة ﴿يَزْعُمُونَ﴾ الزعم: الاعتقاد الظني قال الليث: أهل العربية يقولون: زعم فلان إذا شكوا فيه فلم يعرفوا أكذب أو صدق وقال ابن دريد: أكثر ما يقع على الباطل ومنه قولهم «زعموا مطيئة الكذب»^(١) ﴿وَتَوْفِيقًا﴾ تأليفاً والوفاق والوفق ضد المخالفة ﴿بَلِيغًا﴾ مؤثراً ﴿شَجَرَ﴾ اختلف واختلط، ومنه الشجر لتداخل أغصانه واختلاط بعضها في بعض ﴿حَرَجًا﴾ ضيقاً وشكاً قال الواحدي: يقال للشجر الملفت الذي لا يكاد يوصل إليه حرج.

سَبَبُ التَّرْوِل: أ - روي أن رسول الله ﷺ لما دخل مكة يوم الفتح أغلق «عثمان بن طلحة» باب الكعبة وصعد السطح وأبى أن يدفع المفتاح لرسول الله ﷺ وقال: لو علمت أنه رسول الله

(١) (ش): عن حذيفة قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «بَشَسَ مَطِيَّةُ الرَّجُلِ رَعْمُوا» (رواه أبو داود وصححه الألباني). الْمَطِيَّةُ بِمَعْنَى الْمَرْكُوبِ (رَعْمُوا) الرِّعْمُ قَرِيبٌ مِنَ الظَّنِّ، أَيُّ أَسْوَأَ عَادَةٍ لِلرَّجُلِ أَنْ يَتَّخِذَ لَفْظَ (رَعْمُوا) مَرْكَبًا إِلَى مَقَاصِدِهِ فَيُخْبِرَ عَنْ أَمْرِ تَقْلِيدًا مِنْ غَيْرِ تَثَبُّتٍ فَيُحْطَى.

لم أمنعه فلوى عليّ يده وأخذه منه وفتح بابها فدخل رسول الله ﷺ وصلى ركعتين فلما خرج أمر عليّاً أن يردّ المفتاح إلى عثمان بن طلحة ويعتذر إليه فقال له عثمان: آذيت وأكرهت ثم جئت تترفق!! فقال لقد أنزل الله في شأنك قرأنا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا..﴾ وقرأ عليه الآية فأسلم عثمان فقال النبي ﷺ: «خذوها يا بني طلحة خالدة تالدة لا يأخذها منكم إلا ظالم»^(١).

ب - عن ابن عباس أن رجلاً من المنافقين يقال له: «بشر» كان بينه وبين يهودي خصومة فقال اليهودي: تعال نتحاكم إلى محمد فقال المنافق: بل نتحاكم إلى «كعب بن الأشرف» - وهو الذي سماه الله الطاغوت - فأبى اليهودي أن يخاصمه إلا إلى رسول الله ﷺ ف قضى رسول الله لليهودي على المنافق، فلما خرج من عنده لم يرض المنافق وقال: تعالى نتحاكم إلى عمر بن الخطاب فأتيا عمر فقال اليهودي: كان بيني وبين هذا خصومة فتحاكما إلى محمد ف قضى لي عليه فلم يرض بقضائه وزعم أنه يخاصمني إليك فقال عمر للمنافق: أكذلك هو؟ فقال: نعم فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما فدخل عمر فاشتمل عليه سيفه ثم خرج فضرب به المنافق حتى برد - أي مات - وقال: هكذا أقضي فيمن لم يرض بقضاء الله ورسوله فنزلت الآية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ..﴾^(٢) الآية.

التفسير: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ الخطاب عام لجميع المكلفين كما أن الأمانات تعم جميع الحقوق المتعلقة بالذمم سواء كانت حقوق الله أو العباد قال الزمخشري: الخطاب عام لكل أحد في كل أمانة^(٣)، والمعنى يأمركم الله أيها المؤمنون بأداء الأمانات إلى أربابها قال ابن كثير: يأمر تعالى بأداء الأمانات إلى أهلها وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله عز وجل على عباده من الصلاة والزكاة والصيام والكفارات وغيرها، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغيرها^(٤) ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ أي ويأمركم أن تعدلوا بين الناس في أحكامكم ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعَمًا يُعْطِيكُمْ بِهِ﴾ أي نعم الشيء الذي يعظكم به ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ فيه وعد ووعد أي سميع لأقوالكم بصير بأفعالكم

(١) «الفخر الرازي» ١٠/ ١٣٨، و«أسباب النزول» ص ٩٠.

(ش): ضعيف، ذكره الثعلبي في «تفسيره» بغير سند جازماً به، وفيه زيادات منكورة. والثابت أن رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا نَزَلَ بِمَكَّةَ وَاطْمَأَنَّ النَّاسُ، خَرَجَ حَتَّى جَاءَ الْبَيْتَ، فَطَافَ بِهِ سَبْعًا عَلَى رَاحِلَتِهِ، يَسْتَلِمُ الرُّكْنَ بِمِخْجَنٍ فِي يَدِهِ، فَلَمَّا قَضَى طَوَافَهُ، دَعَا عَثْمَانَ بْنَ طَلْحَةَ، فَأَخَذَ مِنْهُ مِفْتَاحَ الْكُعْبَةِ، فَقَتَحَتْ لَهُ، (أخرجه ابن إسحاق في «السيرة»). وحسنه الحافظ ابن حجر). مِخْجَنٍ: عصا مُعْجَجة الرأس.

(٢) «الكشاف» ١/ ٤٠٦، و«القرطبي» ٥/ ٢٦٤. (ش): موضوع، أخرجه الثعلبي في «تفسيره».

(٣) «الكشاف» ١/ ٤٥٠.

(٤) «مختصر ابن كثير» ١/ ٤٥٠.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ أي أطيعوا الله وأطيعوا رسوله بالتمسك بالكتاب والسنة، وأطيعوا الحكام إذا كانوا مسلمين متمسكين بشرع الله إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وفي قوله ﴿مِنْكُمْ﴾ دليل على أن الحكام الذين تجب طاعتهم يجب أن يكونوا مسلمين حسناً ومعنى، لحماً ودماً، لا أن يكونوا مسلمين صورة وشكلاً ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَزِدْهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي فإن اختلفتم في أمر من الأمور فاحتكموا فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي إن كنتم مؤمنين حقاً وهو شرط حذف جوابه لدلالة ما سبق أي فردوه إلى الله والرسول والغرض منه الحث على التمسك بالكتاب والسنة كما يقول القائل: إن كنت ابني فلا تخالفني ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله خير لكم وأصلح وأحسن عاقبة ومآلاً. ثم ذكر تعالى صفات المنافقين الذين يدعون الإيمان وقلوبهم خاوية منه فقال ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ تعجب من أمر من يدعي الإيمان ثم لا يرضى بحكم الله أي ألا تعجب من صنيع هؤلاء المنافقين الذين يزعمون الإيمان بما أنزل إليك وهو القرآن وما أنزل من قبلك وهو التوراة والإنجيل^(١) ﴿يُرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ أي يريدون أن يتحاكموا في خصومتهم إلى الطاغوت قال ابن عباس هو «كعب بن الأشرف» أحد طغاة اليهود سمي به لإفراطه في الطغيان وعداوته للرسول عليه السلام ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ أي والحال أنهم قد أمروا بالإيمان بالله والكفر بما سواه كقوله ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمَسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦] ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي ويريد الشيطان بما زين لهم أن يحرفهم عن الحق والهدى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ أي وإذا قيل لأولئك المنافقين: تعالوا فتحاكموا إلى كتاب الله وإلى الرسول ليفصل بينكم فيما تنازعتم فيه ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ أي رأيتهم لنفاقهم يعرضون عنك إعراضاً ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي كيف يكون حالهم إذا عاقبهم الله بذنوبهم وبما جنته أيديهم من الكفر والمعاصي أيقرون أن يدفعوا عنهم العذاب؟ ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا أَحْسَنًا وَتَوْفِيقًا﴾ أي ثم جاءك هؤلاء المنافقون للاعتذار عما اقترفوه من الأوزار يقسمون بالله ما أردنا بالتحاكم إلى غيرك إلا الصلح والتأليف بين الخصمين وما أردنا رفض حكمك قال تعالى تكذيباً لهم ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي هؤلاء المنافقون يكذبون والله يعلم ما في قلوبهم من النفاق والمكر والخديعة وهم يريدون أن يخدعوك بهذا الكلام

(١) (ش): هذا التعبير خطأ، لأنه يتضمن نفْي التعجب عن الله، وقد ثبت في الأدلة أنه سبحانه يَعْجَب، والصواب أن يقول: هذا تعجب من الله.

المعسول ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عن معاقبتهم للمصلحة ولا تظهر لهم علمك بما في بواطنهم ولا تهتك سترهم حتى يبقوا على وجل وحذر ﴿وَعَظُّهُمْ﴾ أي ازجرهم عن الكيد والنفاق بقوارع الآيات ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أي انصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ مؤثر يصل إلى سويداء قلوبهم يكون لهم رادعاً ولنفاقهم زاجراً، ثم أخبر تعالى عن بيان وظيفة الرسل فقال ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي لم نرسل رسولاً من الرسل إلا ليطاع بأمر الله تعالى فطاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ أي لو أن هؤلاء المنافقين حين ظلموا أنفسهم بعدم قبول حكمك جاءوك تائبين من النفاق مستغفرين الله من ذنوبهم معترفين بخطئهم ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ أي واستغفرت لهم يا محمد أي سألت الله أن يغفر لهم ذنوبهم ﴿لَوْجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ أي لعلمو كثرة توبة الله على عباده وسعة رحمته لهم ثم بين تعالى طريق الإيمان الصادق فقال ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ اللام لتأكيد القسم أي فوربك يا محمد لا يكونون مؤمنين حتى يجعلوك حكماً بينهم ويرضوا بحكمك فيما تنازعوا فيه واختلفوا من الأمور ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي ثم لا يجدوا في أنفسهم ضيقاً من حكمك وينقادوا انقياداً تاماً كاملاً لقضائك، من غير معارضة ولا مدافعة ولا منازعة، فحقيقة الإيمان الخضوع والإذعان ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ أي لو فرضنا على هؤلاء المنافقين ما فرضنا على ما قبلهم من المشقات وشددنا التكليف عليهم فأمرناهم بقتل النفس والخروج من الأوطان كما فرض ذلك على بني إسرائيل ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ أي ما استجاب ولا انقاد إلا قليل منهم لضعف إيمانهم ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا﴾ أي ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به من طاعة الله وطاعة رسوله لكان خيراً لهم في عاجلهم وآجلهم وأشد تثبيتاً لإيمانهم، وأبعد لهم عن الضلال والنفاق ﴿وَإِذَا لَا تَجِدُ فِيهِمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي أعطيناهم ثمرة الطاعة ثواباً كثيراً ﴿وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ثم ذكر تعالى ثمرة الطاعة لله ورسوله فقال ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي ومن يعمل بما أمره الله به ورسوله ويجتنب ما نهى الله عنه ورسوله، فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته في دار الخلد مع المقربين ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ أي مع أصحاب المنازل العالية في الآخرة وهم الأنبياء الأطهار والصدِّيقون الأبرار وهم أفاضل أصحاب الأنبياء والشهداء الأخيار وهم الذين استشهدوا في سبيل الله ثم مع بقية عباد الله الصالحين ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ أي ونعمت رفقة هؤلاء وصحبتهم، وحسن رفيق أولئك الأبرار، عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت النبي ﷺ في شكواه التي قبض فيها يقول ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ

النَّبِيِّ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءَ وَالصَّالِحِينَ ﴿فَعَلِمْتُ أَنَّهُ خَيْرٌ﴾ ^(١) ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي ما أعطيه المطيعون من الأجر العظيم إنما هو بمحض فضله تعالى ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ أي وكفى به تعالى مجازيًا لمن أطاع عالمًا بمن يستحق الفضل والإحسان.

البَلاغة: تضمنت الآيات الكريمة من ضروب الفصاحة والبدیع ما يلي باختصار:

- ١ - الاستفهام المراد به التعجب في ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ .
- ٢ - الالتفات في ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ تفخيماً لشأن الرسول وتعظيماً لاستغفاره ولو جرى على الأصل لقال ﴿وَاسْتَغْفِرْتَ لَهُمْ﴾ .
- ٣ - إيراد الأمر بصورة الإخبار وتصديره بـ ﴿إِنَّ﴾ المفيدة للتحقيق في قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ للتفخيم وتأکید وجوب العناية والامثال.
- ٤ - الجناس المغاير في ﴿يُضِلُّهُمْ ضَلَالًا﴾ وفي ﴿وَقُلْ لَهُمْ... قَوْلًا﴾ وفي ﴿وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾ وفي ﴿يُصْذَوْنَ... صُذُودًا﴾ وفي ﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا﴾ [النساء: ٧٣] .
- ٥ - الاستعارة في قوله ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ استعار ما اشتبك وتضايق من الشجر للتنازع الذي يدخل به بعض الكلام في بعض استعارة للمعقول بالمحسوس.
- ٦ - تكرير الاسم الجليل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعَمًا يُعْظِمُكُمْ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا﴾ لتربية المهابة في النفوس.
- ٧ - الإطناب في مواضع والحذف في مواضع.

فَائِدَةٌ: عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنك لأحب إلي من نفسي وأحب إلي من أهلي، وإنني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين وإن دخلت الجنة خشيت أن لا أراك فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى أنزل الله ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية ^(٢).

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٤١١.

(ش): عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كُنْتُ أَسْمَعُ أَنَّهُ لَنْ يَمُوتَ نَبِيٌّ حَتَّى يُخَيَّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ - قَالَتْ - فَسَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ وَأَخَذَتْهُ بُحَّةٌ يَقُولُ: (مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) قَالَتْ: فَظَنَنْتُهُ خَيْرَ حَبِيبٍ. (رواه مسلم).

(٢) أخرجه ابن مردويه.

(ش): رواه الطبراني وغيره، وصححه الشيخ أحمد شاكر، وهو في «السلسلة الصحيحة» للألباني. عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ إِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، وَإِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي وَمَالِي، وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَلَدِي، وَإِنِّي لَأَكُونُ فِي الْبَيْتِ فَأَذْكُرُكَ فَمَا أَصْبِرُ حَتَّى آتِيكَ فَأَنْظُرَ إِلَيْكَ، وَإِذَا ذَكَرْتُ مَوْتِي وَمَوْتَكَ عَرَفْتُ أَنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ رُفِعْتَ مَعَ النَّبِيِّينَ، وَإِنِّي إِذَا دَخَلْتُ الْجَنَّةَ خَشِيتُ أَنْ لَا أَرَاكَ، =

قال الله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَن لَّيْطَأَنَّ فَإِنْ أَصَبْتُمْ مُصِيبَةً قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَبَكُمْ فَضَلٌّ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴿٧٤﴾ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٥﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٦﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تَظْلُمُونَ فَنِيْلًا ﴿٧٨﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَإِنِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٩﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٨٠﴾ مَن يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨١﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِّنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨٢﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ مِنْ عِندِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ آخِذًا كَثِيرًا ﴿٨٣﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٤﴾ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْلَفْ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكْفِيَ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٥﴾ مَن يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيبًا ﴿٨٦﴾ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِنَحِيَةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنِهَا أَوْ رَدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٨﴾

المناسبة: لما حذر تعالى من النفاق والمنافقين وأوصى بطاعة الله وطاعة رسوله، أمر هنا بأعظم الطاعات والقربات وهو الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته وإحياء دينه، وأمر بالاستعداد والتأهب حذرًا من مباغته الكفار، ثم بيّن حال المتخلفين عن الجهاد المشبطين للعزائم من المنافقين وحذر المؤمنين من شرهم.

= فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا حَتَّى نَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩] «الآية».

اللغة: ﴿ثُبَاتٍ﴾ جمع ثُبَّة وهي الجماعة، أي جماعة بعد جماعة ﴿بُرُوجٍ﴾ جمع برج وهو البناء المرتفع والقصر العظيم والمراد به هنا الحصون ﴿مُسَيَّدَةٍ﴾ مرتفعة البناء ﴿بَيْتٍ﴾ دبر الأمر ليلاً، والبيات أن يأتي العدو ليلاً ومنه قول العرب: أمرٌ بُيَّتَ ليلٌ ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾ أشاعوه ونشروه ﴿يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾ يستخرجونه مأخوذ من استنبط الماء إذا استخرجته، ومنه استنباط الأحكام من الكتاب والسنة ﴿وَحَرَضَ﴾ التحريض: الحث عن الشيء ﴿تَنكِيلًا﴾ تعذيباً والنكال: العذاب ﴿كَفَلُ﴾ نصيب وأكثر ما يستعمل الكفل في الشر ﴿مُقِينًا﴾ مقتدرًا من أقات على الشيء قدر عليه ^(١) قَالَ الشَّاعِرُ:

وَذِي ضَعْنٍ ^(٢) كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ وَكَانَ عَلَى إِسَاءَتِهِ مُقِينًا

سبب النزول: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ وَأَصْحَابًا لَهُ اتَّوَا النَّبِيَّ ﷺ بِمَكَّةَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي عِزٍّ وَنَحْنُ مُشْرِكُونَ فَلَمَّا آمَنَّا صِرْنَا أَذِلَّةً. فَقَالَ « إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ فَلَا تُقَاتِلُوا ». فَلَمَّا حَوَّلَنَا اللَّهُ إِلَى الْمَدِينَةِ أَمَرْنَا بِالْقِتَالِ فَكَفُّوا فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ...﴾ ^(٣) الآية.

التفسير: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ أي يا معشر المؤمنين احترزوا من عدوكم واستعدوا له ﴿فَأَنْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ أي اخرجوا إلى الجهاد جماعات متفرقين، سرية بعد سرية أو اخرجوا مجتمعين في الجيش الكثيف، فخيرهم تعالى في الخروج إلى الجهاد متفرقين ومجتمعين ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾ أي ليتأخَّلَّ ويتخلفن عن الجهاد، والمراد بهم المنافقون وجعلوا من المؤمنين باعتبار زعمهم وباعتبار الظاهر ^(٤) ﴿فَإِنْ أَصَبَكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ أي قتل وهزيمة ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ أي قال ذلك المنافق: قد تفضل الله عليّ إذ لم أشهد الحرب معهم فأقتل ضمن من قتلوا ﴿وَلَكِنْ أَصَبَكُمْ فَضَّلُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي ولئن أصابكم أيها المؤمنون نصر وظفر وغنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ

(١) (ش): وقيل: المُقِيت الذي أوصل إلى كل موجود ما به يقتات وأوصل إليها أرزاقها وصرفها كيف يشاء بحكمه وحملده.

(٢) (ش): ضَعْنٌ، ضَعْنٌ: حقد شديد، بُغْضٌ، حَسَدٌ.

(٣) «أسباب النزول» ص ٩٦، و«القرطبي» ٥/ ٢٨١. (ش): رواه النسائي وصححه الألباني وغيره.

(٤) (ش): قال الشيخ السعدي: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ﴾ أي: أيها المؤمنون ﴿لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾ أي: يتأخَّل عن الجهاد في سبيل الله ضعفاً وخوراً وجبنًا، هذا الصحيح. وقيل معناه: ليبطئن غيره أي: يزهده عن القتال، وهؤلاء هم المنافقون، ولكن الأول أولى لو جهين: أحدهما: قوله ﴿مِنْكُمْ﴾ والخطاب للمؤمنين. والثاني: قوله في آخر الآية: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ فإن الكفار من المشركين والمنافقين قد قطع الله بينهم وبين المؤمنين المودة. وأيضاً فإن هذا هو الواقع، فإن المؤمنين على قسمين: صادقون في إيمانهم أو جب لهم ذلك كمال التصديق والجهاد. وضعفاء دخلوا في الإسلام فصار معهم إيمان ضعيف لا يقوى على الجهاد. كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ إلى آخر الآيات.

مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿١﴾ أي ليقولنَّ هذا المنافق قول نادم - متحسر كأن لم يكن بينكم وبينه معرفة وصداقة - يا ليتني كنت معهم في الغزو لأنال حظًا وافراً من الغنيمة، وجملة ﴿كَانَ لَمْ تَكُنْ﴾ اعتراضية للتنبيه على ضعف إيمانهم، وهذه المودة في ظاهر المنافق لا في اعتقاده فهو يتمنى أن لو كان مع المؤمنين لا من أجل عزة الإسلام بل طلباً للمال وتحصيلاً للحطام، ولما ذم تعالى المبطلين عن القتال في سبيل الله رغب المؤمنين فيه فقال ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم وأموالهم في سبيل الله الذين يبيعون الحياة الفانية بالحياة الباقية ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهذا وعدٌ منه سبحانه بالأجر العظيم لمن قاتل في سبيل الله سواء غلب أو غلب أي من يقاتل في سبيل الله لإعلاء كلمة الله فيستشهد أو يظفر على الأعداء فسوف نعطيه ثواباً جزيلاً فهو فائز بإحدى الحسنين: الشهادة أو الغنيمة كما في الحديث «تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادٌ فِي سَبِيلِي وَإِيمَانٌ بِي وَتَصَدِيقٌ بِرُسُلِي فَهُوَ عَلَى ضَامِنٍ أَنْ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ أَرْجَعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرِ أَوْ غَنِيمَةٍ»^(١) ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ الاستفهام للحث والتحريض على الجهاد أي وما لكم أيها المؤمنون لا تقاتلون في سبيل الله وفي سبيل خلاص المستضعفين من إخوانكم الذين صدَّهم المشركون عن الهجرة فبقوا مستذلين مستضعفين يلقون أنواع الأذى الشديد؟ وقوله ﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ بيان للمستضعفين قال ابن عباس: كنتُ أنا وأمِّي من المستضعفين، وهم الذين كان يدعو لهم الرسول ﷺ فيقول: «اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ إِنْخَ كَمَا فِي الصَّحِيحِ»^(٢) ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ أي الذين يدعون ربهم لكشف الضر عنهم قائلين: ربنا أخرجنا من هذه القرية وهي مكة إذ إنها كانت موطن الكفر ولذا هاجر الرسول ﷺ منها ﴿الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ بالكفر وهم صناديد قريش الذين منعوا المؤمنين من الهجرة ومنعوا من ظهور الإسلام فيها ﴿وَأَجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ أي اجعل لنا من هذا الضيق فرجاً ومخرجاً وسخر لنا من عندك ولياً وناصراً، وقد استجاب الله دعاءهم فجعل لهم خير ولي وناصر وهو محمد ﷺ حين فتح مكة ولما خرج منها ولَّى عليهم «عتاب بن أسيد» فأَنصَفَ مَظْلُومَهُمْ مِنْ ظَالِمِهِمْ، ثم شجع تعالى المجاهدين ورغبهم في الجهاد فقال ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي المؤمنون يقاتلون لهدف سام وغاية نبيلة وهي نصر دين الله وإعلاء كلمته ابتغاء مرضاته فهو تعالى وليهم وناصرهم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ أي وأما الكافرون فيقاتلون في سبيل

(١) أخرجه مسلم.

(٢) (ش): رواه البخاري ومسلم.

الشیطان الداعي إلى الكفر والطغيان ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ أي قاتلوا يا أولياء الله أنصار وأعوان الشيطان فإنكم تغلبونهم، فشتان بين من يقاتل لإعلاء كلمة الله وبين من يقاتل في سبيل الشيطان، فمن قاتل في سبيل الله فهو الذي يغلب لأن الله وليه وناصره، ومن قاتل في سبيل الطاغوت فهو المخذول المغلوب ولهذا قال ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ أي سعي الشيطان في حد ذاته ضعيف فكيف بالقياس إلى قدرة الله؟ ﴿قال الزمخشري: كيد الشيطان للمؤمنين إلى جنب كيد الله للكافرين أضعف شيء وأوهنه^(١)﴾ ﴿الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي ألا تعجب يا محمد من قوم طلبوا القتال وهم بمكة فقيل لهم: أمسكوا عن قتال الكفار فلم يحزن وقتة وأعدوا نفوسكم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ أي فلما فرض عليهم قتال المشركين إذا جماعة منهم يخافون ويجنبون ويفزعون من الموت كخشيتهم من عذاب الله أو أشد من ذلك، قال ابن كثير: كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة والصبر على أذى المشركين وكانوا يتحرقون لو أمروا بالقتال ليستنفوا من أعدائهم فلما أمروا بما كانوا يودونه جزع بعضهم وخاف من مواجهة الناس خوفاً شديداً^(٢) ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ أي وقالوا جزعاً من الموت ربنا لم فرضت علينا القتال؟ ﴿لَوْ لَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ لَوْلَا لَتُحْضِيضُ بِمَعْنَى هَلَّا أَي هَلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ حَتَّى نَمُوتَ بِأَجَالِنَا وَلَا نَقْتُلَ فَيَفْرَحَ بِنَا الْأَعْدَاءُ!﴾ ﴿قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾ أي قل لهم يا محمد: إن نعيم الدنيا فإن ونعيم الآخرة باقٍ فهو خير من ذلك المتاع الفاني لمن اتقى الله وامتنل أمره ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي لا تنقصون من أجور أعمالكم أدنى شيء ولو كان فتيلًا وهو الخيط الذي في شق النواة قال في «التسهيل»: إن الآية في قوم من الصحابة كانوا قد أمروا بالكف عن القتال فتمنوا أن يؤمروا به، فلما أمروا به كرهوه لا شكاً في دينهم ولكن خوفاً من الموت، وقيل هي في المنافقين وهو أليق في سياق الكلام^(٣) ﴿أَتَيْنَاكُمْ كُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ﴾ أي في أي مكان وجدتم فلا بد أن يدرركم الموت عند انتهاء الأجل ويفاجئكم ولو تحصنتم منه بالحصون المنيعة فلا تخشوا القتال خوف الموت ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي إن تصب هؤلاء المنافقين حسنة من نصر وغنيمة وشبه ذلك يقولوا: هذه من جهة الله ومن تقديره لما علم فينا من الخير ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي وإن تنلهم سيئة من هزيمة

(١) «الكشاف» ١/ ٤١٤.

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٤١٣.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ١/ ١٤٨، واختار هذا «القرطبي» وأبو حيان وهو الأرجح قال في «البحر»: إن القائلين هذا هم منافقون لأن الله تعالى إذا أمر بشيء لا يسأل عن علته من هو خالص الإيمان ولهذا السياق بعده: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ وهذا لا يصدر إلا من منافق. اهـ. «البحر» ٣/ ٩٢٨.

وجوع وشبه ذلك يقولوا هذه بسبب اتباعنا لمحمد ودخولنا في دينه يعنون بشؤم محمد ودينه قال السدي: يقولون هذا بسبب تركنا ديننا واتباعنا محمداً أصابنا هذا البلاء كما قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿وَلِنْ تَصْبِهِمْ سَيِّئَةً يَبْطِرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١] ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أمر ﷺ بأن يرد زعمهم الباطل ويلقمهم الحجر ببيان أن الخير والشر بتقدير الله أي قل يا محمد لهؤلاء السفهاء: الحسنه والسيئه والنعمة والنقمة كل ذلك من عند الله خلقاً وإيجاداً لا خالق سواه فهو وحده النافع الضار وعن إرادته تصدر جميع الكائنات ﴿فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ أي ما شأنهم لا يفقهون أن الأشياء كلها بتقدير الله؟ وهو توبيخ لهم على قلة الفهم. ثم قال تعالى مبيناً حقيقة الإيمان ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ الخطاب لكل سامع أي ما أصابك يا إنسان من نعمة وإحسان فمن الله تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً وامتحاناً، وما أصابك من بلية ومصيبة فمن عندك لأنك السبب فيها بما ارتكبت يداك كقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَمِمَّا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]. ثم قال تعالى مخاطباً الرسول ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي وأرسلناك يا محمد رسولاً للناس تبلغهم شرائع الله وحسبك أن يكون الله شاهداً على رسالتك، ثم رغب تعالى في طاعة الرسول فقال ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ أي من أطاع أمر الرسول فقد أطاع الله، لأنه مبلغ عن الله ﴿وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ أي ومن أعرض عن طاعتك فما أرسلناك يا محمد حافظاً لأعمالهم ومحاسباً لهم عليها إن عليك إلا البلاغ ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِّنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ أي ويقول المنافقون: أمرك يا محمد طاعة كقول القائل «سمعاً وطاعة» فإذا خرجوا من عندك دبر جماعة منهم غير الذي تقوله لهم وهو الخلاف والعصيان لأمرك ﴿يَكْتُمُ مَا يَدْعُونَ﴾ أي يأمر الحفظة بكتابته في صحائف أعمالهم ليُجازوا عليه ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي اصفح عنهم وفوض أمرك إلى الله وثق به ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي فهو سبحانه يتقم لك منهم وكفى به ناصرًا ومعينًا لمن توكل عليه، ثم عاب تعالى المنافقين بالإعراض عن التدبر في القرآن في فهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة ففي تدبره يظهر برهانه ويسطع نوره وبيانه ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ أي لو كان هذا القرآن مختلفاً كما يزعم المشركون والمنافقون لوجدوا فيه تناقضاً كبيراً في أخباره ونظمه ومعانيه ولكنه منزّه عن ذلك فأخبره صدق، ونظمه بليغ، ومعانيه محكمة، فدل على أنه تنزيل الحكيم الحميد ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ أَلْحَافٍ أَذَاعُوا بِهِ﴾ أي إذا جاء المنافقين خبر من الأخبار عن المؤمنين بالظفر والغنيمة أو النكبة والهزيمة أذاعوا به أي أفسوه وأظهروه وتحدثوا به قبل أن يقفوا على حقيقته وكان في إذاعتهم له مفسدة على المسلمين ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ أي

لو ترك هؤلاء الكلام بذلك الأمر الذي بلغهم وردوه إلى رسول الله ﷺ وإلى كبراء الصحابة وأهل البصائر منهم لعلمه الذين يستخرجونه منهم أي من الرسول وأولي الأمر ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لو لا فضل الله عليكم أيها المؤمنون بإرسال الرسول ورحمته بإنزال القرآن لاتبعتم الشيطان فيما يأمركم به من الفواحش إلا قليلاً منكم، ثم أمر الرسول بالجهد فقال ﴿فَقَنِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ أي قاتل يا محمد لإعلاء كلمة الله ولو وحدك فإنك موعود النصر ولا تهتم بتخلف المنافقين عنك ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي شجّعهم على القتال ورغّبهم فيه ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِيَ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذا وعد من الله بكفهم ﴿عَسَى﴾ من الله تفيد التحقيق أي بتحريضك المؤمنين يكف الله شره الكفرة الفجار، وقد كفهم الله بهزيمتهم في بدر وفتح مكة ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ أي هو سبحانه أشد قوة وسطوة، وأعظم عقوبة وعذاباً ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾ أي من يشفع بين الناس شفاعاً موافقة للشرع يكن له نصيب من الأجر ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾ أي ومن يشفع شفاعاً مخالفة للشرع يكن له نصيب من الوزر بسببها ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِينًا﴾ أي مقتدرًا فيجازي كل أحد بعمله ^(١) ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِنَحِيَةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ أي إذا سلم عليكم المسلم فردوا عليه بأفضل مما سلم أو ردّوا عليه بمثل ما سلم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ أي يحاسب العباد على كل شيء من أعمالهم الصغيرة والكبيرة ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هذا قسم من الله بجمع الخلائق يوم المعاد أي الله الواحد الذي لا معبود سواه ^(٢) ليحشرنكم من قبوركم إلى حساب يوم القيامة الذي لا شك فيه وسيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد للحساب ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ لفظه استفهام ومعناه النفي أي لا أحد أصدق في الحديث والوعد من الله رب العالمين.

البلاغة: تضمنت هذه الآيات أنواعاً من الفصاحة والبيان والبدیع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الاستعارة في قوله ﴿يَشْرُوكَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي يبيعون الفانية بالباقية فاستعار لفظ الشراء للمبادلة وهو من لطيف الاستعارة.
- ٢ - الاعتراض في ﴿كَأَنَّهُمْ يَبِغُونَ مَوَدَّةَ﴾ .
- ٣ - التشبيه المرسل المجمل في ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ .
- ٤ - الطباق في ﴿الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ﴾ .

(١) (ش): وقيل: المُقيت الذي أوصل إلى كل موجود ما به يقتات وأوصل إليها أرزاقها وصرفها كيف يشاء بحكمه وحمده.

(٢) (ش): الصواب أن يقال: «لا معبود بحق سواه»؛ لأن هناك معبودات بغير حق.

٥ - جناس الاشتقاق في ﴿أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ وفي ﴿حَيِّتُمْ... فَحْيُوا﴾ وفي ﴿يَشْفَعُ شَفْعَةً﴾ وفي ﴿يَبْتَئُونَ... يَبْتَئُونَ﴾.

٦ - الاستفهام الذي يراد به الإنكار في ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾.

٧ - المقابلة في قوله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقِيلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ وكذلك في قوله ﴿مَنْ يَشْفَعُ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعُ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾ وهذه من المحسنات البديعية وهي أن يؤتى بمعنيين أو أكثر ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب.

تنبيه: لا تعارض بين قوله تعالى ﴿كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي كل من الحسنة والسيئة وبين قوله ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فِنْ نَفْسِكَ﴾ إذ الأولى على الحقيقة أي خلقاً وإيجاداً والثانية تسبباً وكسباً بسبب الذنوب ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] أو نقول: نسبة الحسنة إلى الله، والسيئة إلى العبد هو من باب الأدب مع الله في الكلام وإن كان كل شيء منه في الحقيقة كقوله ﷺ: «الخير كله بيدك والشر ليس إليك» والله أعلم^(١).

قال الله تعالى:

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكُمُهم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتٌ صُدُّوهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يَقْتُلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقْتُلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلْتُمْ فَلَقْتُلُوكُمْ فَلَمَّ يَقْتُلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿٩١﴾ وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسْلِمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسْلِمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ

(١) (ش): عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: «وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي، وَنُسُكِي، وَمَحْيَايَ، وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْتَ رَبِّي، وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذُنُوبِي، فَاعْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَاتِي لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَاتِي إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ» (رواه مسلم).

شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿١٣﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرِئْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْبِلُونَ أَلْفًا يَنْقُوتُوا لِمَن أَلْفَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٤﴾ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٥﴾ دَرَجَتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى مواقف المنافقين المخزية، عقبه بذكر نوع آخر من أحوال المنافقين الشنيعة، ثم ذكر حكم القتل الخطأ والقتل العمد، وأمر بالتثبت قبل الإقدام على قتل إنسان لئلا يُفضي إلى قتل أحد من المسلمين، ثم ذكر تعالى مراتب المجاهدين ومنازلهم الرفيعة في الآخرة.

اللغة: ﴿أَرْكَسَهُمْ﴾ رَدَّهم إلى الكفر أو نكسهم وأصل الركن رُدُّ الشيء مقلوبًا قَالَ الشَّاعِرُ: فَأَرْكَسُوا فِي حَمِيمِ النَّارِ أَنَّهُمْ كَانُوا عُصَاةً وَقَالُوا الْإِفْكَ وَالزُّورَا ^(١) ﴿حَصَرَتْ﴾ ضاقت من الحصر وهو الضيق ﴿السَّلَامُ﴾ الاستسلام والانتقاد ﴿تَفَقَّطُوهُمْ﴾ صادفتموهم ووجدتموهم ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ فتبينوا ﴿أَرْكَسُوا فِيهَا﴾ قلبوا فيها.

سبب النزول: أ - عن زيد بن ثابت أن النبي ﷺ خرج إلى أحد فرجع ناسٌ ممن كان معه، فكان أصحاب النبي ﷺ فيهم فرقتين فقال بعضهم: نقتلهم، وقال بعضهم: لا، فأنزل الله ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُتَنَفِّقِينَ فَتْنَيْنِ﴾ الآية فقال ﷺ: «إنها طيبة تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الحديد» أخرجه الشيخان.

ب - يروى أن «الحارث بن يزيد» كان شديدًا على النبي ﷺ فجاء مهاجرًا وهو يريد الإسلام فلقيه «عياش بن أبي ربيعة» - والحارث يريد الإسلام وعياش لا يشعر - فقتله فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً...﴾ ^(٢) الآية.

ج - عن ابن عباس قال: لقي المسلمون رجلًا في غنيمته له فقال: السلام عليكم فقتلوه وأخذوا غنيمته فنزلت هذه الآية ﴿وَلَا لِمَن أَلْفَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا...﴾ ^(٣) الآية.

التفسير: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُتَنَفِّقِينَ فَتْنَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ أي ما لكم أيها المؤمنون

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت.

(٢) «أسباب النزول» ص ٩٧. (ش): ضعيف، أخرجه «الطبري» في «جامع البيان»، وابن أبي حاتم في «تفسيره».

(٣) رواه البخاري. (ش): رواه البخاري ومسلم، (غُنَيْمَةٌ) تصغير «غنم» أي قطع صغير من الغنم.

أصبحتم فرقتين في شأن المنافقين، بعضكم يقول نقتلهم وبعضكم يقول لا نقتلهم والحال أنهم منافقون والله نكسهم وردهم إلى الكفر بسبب النفاق والعصيان ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أي أتريدون هداية من أضله الله، والاستفهام للإنكار والتوبيخ في الموضعين والمعنى لا تختلفوا في أمرهم ولا تظنوا فيهم الخير، لأن الله حكم بضلالهم ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أي من يضلله الله فلن تجد له طريقاً إلى الهدى والإيمان ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُوا سَوَاءً﴾ أي تمنى هؤلاء المنافقون أن تكفروا مثلهم فستتوا أنتم وهم وتصبحوا جميعاً كفاراً ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي لا توالوا ولا تصادقوا منهم أحداً حتى يؤمنوا ويحققوا إيمانهم بالهجرة والجهاد في سبيل الله ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فُخِّدُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ أي إن أعرضوا عن الهجرة في سبيل الله فخذوهم أيها المؤمنون واقتلوهم حيث وجدتموهم في حلٍّ أو حرم ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي لا تستنصروهم ولا تستنصحوهم ولا تستعينوا بهم في الأمور ولو بذلوا لكم الولاية والنصرة ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ أي إلا الذين ينتهون ويلجئون إلى قوم عاهدوكم فدخلوا فيهم بالحلف فحكمهم حكم أولئك في حقن دمائهم ﴿أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يَقْتُلُوا قَوْمَهُمْ﴾ وهذا استثناء أيضاً من القتل أي وإلا الذين جاؤوكم وقد ضاقت صدورهم عن قتالكم وقتال قومهم فهم قوم ليسوا معكم ولا عليكم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَنَلُوكُمْ﴾ أي من لطفه بكم أن كفهم عنكم ولو شاء لقواهم وجراهم عليكم فقاتلوكم ﴿فَإِنْ اعْتَرَفْتُمْ فَلَمْ يَقْتُلُوكُمْ وَالْقَوَالُ إِلَيْكُمْ أَلْسَلَّمَ فَأَجْعَلِ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ أي فإن لم يعترضوا لكم بقتال وانقادوا واستسلموا لكم فليس لكم أن تقتلوهم طالما سالموكم ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ أي ستجدون قوماً آخرين من المنافقين يريدون أن يأمنوكم بإظهار الإيمان ويأمنوا قومهم بإظهار الكفر إذا رجعوا إليهم قال «أبو السعود»: هم قوم من «أسد وغطفان» كانوا إذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا ليأمنوا من المسلمين فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا ونكثوا عهودهم ليأمنوا قومهم ﴿كُلُّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا﴾ أي كلما دُعوا إلى الكفر أو قتال المسلمين عادوا إليه وقلبوا فيه على أسوأ شكل فهم شر من كل عدو شرير ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْزِلُواكُمْ وَيَلْقُوا إِلَيْكُمْ أَلْسَلَّمَ وَيَكْفُرُوا بِيَدِيهِمْ﴾ أي فإن لم يجتنبوكم ويستسلموا إليكم ويكفوا أيديهم عن قتالكم ﴿فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ﴾ أي فأسروهم واقتلوهم حيث وجدتموهم وأصبتموهم ﴿وَأُولَئِكَ كَمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أي جعلنا لكم على أخذهم وقتلهم حجة واضحة وبرهاناً بيناً بسبب غدرهم وخيانتهم ﴿وَمَا كُنَّا لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً﴾ أي لا ينبغي لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا على وجه الخطأ لأن الإيمان زاجر عن العدوان

﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ أي ومن قتل مؤمناً على وجه الخطأ فعليه إعتاق رقبة مؤمنة لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها، وعليه كذلك دية مؤداة إلى ورثة المقتول إلا إذا عفا الورثة عن القاتل فأسقطوا الدية، وقد أوجب الشارع في القتل الخطأ شيئين: الكفارة وهي تحرير رقبة مؤمنة في مال القاتل، والدية وهي مائة من الإبل على العاقلة^(١) ﴿فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أي إن كان المقتول خطأ مؤمناً وقومه كفاراً أعداء وهم المحاربون فإنما على قاتله الكفارة فقط دون الدية لثلاثا يستعينوا بها على المسلمين ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أي وإن كان المقتول خطأ من قوم كفرة بينكم وبينهم عهد كأهل الذمة فعلى قاتله دية تدفع إلى أهله لأجل معاهدتهم ويجب أيضاً على القاتل إعتاق رقبة مؤمنة ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أي فمن لم يجد الرقبة فعليه صيام شهرين متتابعين عوضاً عنها شرع تعالى لكم ذلك لأجل التوبة عليكم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي عليماً بخلقه حكيماً فيما شرع.. ثم بين تعالى حكم القتل العمد وجريمته النكراء وعقوبته الشديدة فقال ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ أي ومن يُقدم على قتل مؤمن عالماً بإيمانه متعمداً لقتله فجزاؤه جهنم مخلداً فيها على الدوام، وهذا محمول عند الجمهور على من استحل قتل المؤمن كما قال ابن عباس لأنه باستحلال القتل يصبح كافراً^(٢) ﴿وَعَظِمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ أي وبناله السخط الشديد من الله والطرده من رحمة الله والعذاب الشديد في الآخرة^(٣) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ أي إذا سافرت في الجهاد لغزو الأعداء فتشبهوا ولا تعجلوا في القتل حتى يتبين لكم المؤمن من الكافر ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ أَلْسَلَمْنَا لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ أي ولا تقولوا لمن حياكم بتحية الإسلام لست مؤمناً وإنما قلت هذا خوفاً من القتل فتقتلوه ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي حال كونكم طالبين لماله الذي هو خطأ سريع الزوال ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ أي فعند الله ما هو خير من ذلك وهو ما أعدّه لكم من جزيل الثواب والنعيم ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾ أي كذلك كنتم كفاراً فهداكم للإسلام ومنّ عليكم بالإيمان فتبينوا أن تقتلوا مؤمناً وقيسوا حاله بحالكم ﴿إِنَّكَ اللَّهُ كَانَتْ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي مطلعاً على أعمالكم فيجازيكم عليها، ثم أخبر تعالى بفضيلة المجاهدين فقال ﴿لَا يَسْتَوِي

(١) (ش): عاقلة القاتل هم عصبته كالأب والابن والإخوة والأعمام ونحوهم.

(٢) (ش): هذا الكلام فيه خلط بين مذهب الجمهور ومذهب ابن عباس في عقوبة قتل العمد.

(٣) انظر تفصيل حكم القاتل عمداً في البحر ٣/ ٣٢٦، وفي ابن كثير ١/ ٤٢٢ من المختصر.

أَلْقِعْدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴿١﴾ أي لا يتساوى من قعد عن الجهاد من المؤمنين مع من جاهد بماله ونفسه في سبيل الله غير أهل الأعذار كالأعمى والأعرج والمريض قال ابن عباس: هم القاعدون عن بدر والخارجون إليها، ولما نزلت الآية قام ابن أم مكتوم فقال يا رسول الله: هل لي من رخصة فوالله لو أستطيع الجهاد لجاهدت - وكان أعمى - فأنزل الله ﴿عَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ ﴿١﴾. ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ أي فضل الله المجاهدين على القاعدين من أهل الأعذار درجة لاستوائهم في النية كما قال ﷺ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلَا قَطَعْتُمْ وَاِدْيَا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ». قالوا يا رسول الله وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ قَالَ «وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ الْعُدْرُ» ﴿٢﴾ «وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى» أي وكلاً من المجاهدين والقاعدين بسبب ضرر لحقهم وعدهم الله الجزاء الحسن في الآخرة ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي وفضل الله المجاهدين في سبيل الله على القاعدين بغير عذر بالشواب الوافر العظيم ﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي منازل بعضها أعلى من بعض مع المغفرة والرحمة وفي الحديث «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» ﴿٣﴾.

البلاغة: تضمنت هذه الآيات من البلاغة والبيان والبديع أنوعاً نوجزها فيما يلي:

- ١ - الاستفهام بمعنى الإنكار في ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ﴾ ؟ وفي ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا﴾ ؟
- ٢ - الطباق في ﴿أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ وكذلك ﴿الْقَاعِدُونَ ... وَالْمُجَاهِدُونَ﴾ .
- ٣ - والجناس المغاير في ﴿تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا﴾ وفي ﴿وَمَغْفِرَةً ... غَفُورًا﴾ .
- ٤ - الإطناب في ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ... وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾ وكذلك في ﴿أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَا﴾ ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَا﴾ .
- ٥ - الاستعارة في ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ استعار الضرب للسعي في قتال الأعداء واستعار السبيل لدين الله، ففيه استعارة الضرب للجهاد، واستعارة السبيل لدين الله.
- ٦ - المجاز المرسل في ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أطلق الجزء وأراد الكل أي عتق مملوك.

الفوائد: القتل العمد من أعظم الجرائم في نظر الإسلام ولهذا كانت عاقبته في غاية التغليظ والتشديد وقد قال ﷺ «من أعان على قتل مسلم مؤمن بشرط كلمة جاء يوم القيامة مكتوبٌ

(١) (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) أخرجه النسائي. (ش): رواه البخاري

بين عينيه آيس من رحمة الله»^(١) وفي الحديث أيضًا «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مؤمن»^(٢)

تنبيه: أمر تعالى في القتل الخطأ بإعتاق رقبة مؤمنة والحكمة في هذا - والله أعلم - أنه لما أخرج نفسًا مؤمنة من جملة الأحياء لزمه أن يدخل نفسًا مثلها في جملة الأحرار إذ أن إطلاقها من قيد الرق إحياء لها، والعبد الرقيق في الإسلام له من الحقوق ما ليس للأحرار في الأمم الأخرى وليس أدل على ذلك من قوله تعالى ﴿فَمَا لِلَّذِينَ فَضَّلُوا بِرَادَىٰ رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ [النحل: ٧١]^(٣). وقوله ﷺ في مرضه الذي مات فيه «الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون»^(٤) ومن يطلع على معاملة الزوج في أمريكا يتضح له جليًا صحة ما نقول وها هي الأمم الغربية تحرم استرقاق العبيد في حين أنها تسترق الأحرار، وتحرم استرقاق الأفراد وتسترق الجماعات والأمم والشعوب، باسم الاستعمار والانتداب، فأين هذه الحضارة المزعومة والمدنية الزائفة من حضارة الإسلام ومدنيته الصادقة التي حررت الشعوب والأمم والأفراد؟!

قال الله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ جَبَلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿١٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿١٩﴾ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٢١﴾ وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَافِيفَةً مِنْهُمْ مَعَكَ وَلِيَاخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلَتَأْتِ طَافِيفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلِيَاخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) أخرجه ابن ماجه. (ش): رواه ابن ماجه بلفظ: مَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ آيسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، ، وضعفه الألباني).

(٢) أخرجه البيهقي. (ش): رواه الترمذي بلفظ: «لَزَوَالِ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ» ، وصححه الألباني).

(٣) (ش): لم يتبين لي وجه استدلال المؤلف بالآية على حقوق الرقيق، فقد قال في تفسيرها: أي ليس هؤلاء الأغنياء بمشركين لعبيدهم المماليك فيما رزقهم الله من الأموال حتى يستتروا في ذلك مع عبيدهم، وهذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين قال ابن عباس: لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني؟

(٤) (ش): عَنْ عَلِيٍّ ت قَالَ كَانَ آخِرُ كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ «الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ اتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ». رواه أبو داود وصححه الألباني. وقال ﷺ: وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ» رواه البخاري

لَوْ تَعَفَّلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَتَأْتُمْ هَتُوءًا جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى ثواب المجاهدين الأبرار، أتبعه بذكر عقاب القاعدين عن الجهاد الذين سكنوا في بلاد الكفر، ثم رغب تعالى في الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان وذكر ما يترتب عليها من السعة والأجر والثواب، ثم لما كان الجهاد والهجرة سببا لحدوث الخوف بين تعالى صلاة المسافرين وطريقة صلاة الخوف، ثم أتبع ذلك بذكر أروع مثل في الانتصار للعدالة سجله التاريخ ألا وهو إنصاف رجل يهودي اتهم ظلماً بالسرقة وإدانة الذين تأمروا عليه وهم أهل بيت من الأنصار في المدينة المنورة.

اللغة: ﴿مُرْعَمًا﴾ مذهباً ومتحولاً مشتق من الرغام وهو التراب قال ابن قتيبة: المرغام والمهاجر واحد وأصله أن الرجل كان إذا أسلم خرج عن قومه مرغاماً لهم أي مغاضباً فقيل للمذهب مرغاماً وسمي مصيرة إلى النبي ﷺ هجرة^(١) ﴿وَسَعَةً﴾ اتساعاً في الرزق ﴿نَقَصَرُوا﴾ القصر: النقص يقال قصر صلاته إذا صلى الرباعية ركعتين قال أبو عبيد: فيها ثلاث لغات قصرت الصلاة وقصرتها وأقصرتها^(٢) ﴿تَعَفَّلُوا﴾ الغفلة: السهو الذي يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ ﴿مَوْقُوتًا﴾ محدود الأوقات لا يجوز إخراجه عن وقته ﴿تَهِنُوا﴾

(١) تفسير غريب القرآن ص ١٣٤.

(٢) «القرطبي» ٣٦٠/٥.

تضعفوا ﴿خَصِيمًا﴾ الخصيم بمعنى المخاصم أي المنازع والمدافع ﴿خَوَانًا﴾ مبالغاً في الخيانة.

سَبَبُ النَّزُول: أ - عن ابن عباس قال: كان قوم من المسلمين أقاموا بمكة - وكانوا يستخفون بالإسلام - فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم فأصيب بعضهم فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكروهوا على الخروج فنزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ...﴾^(١) الآية.

ب - كان ضمرة بن القيس^(٢) من المستضعفين بمكة وكان مريضاً فلما سمع ما أنزل الله في الهجرة قال لأولاده احملوني فإني لست من المستضعفين وإني لأهتدي الطريق، والله لا أبيت الليلة بمكة فحملوه على سرير ثم خرجوا به فمات في الطريق بالتنعيم فأنزل الله ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾^(٣).

ج - روي أن رجلاً من الأنصار يقال له «طُعمة بن أبيرق» من بني ظفر سرق درعاً من جاره «قتادة ابن النعمان» في جراب دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه فخبأها عند «زيد بن السمين» اليهودي فالتصمت الدرع عند طعمة فلم توجد وحلف ما أخذها وما له بها علم فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودي فأخذوها فقال: دفعها إلي طُعمة وشهد له ناس من اليهود فقالت بنو ظفر: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وشهدوا ببراءته وسرقة اليهودي فهم رسول الله ﷺ أن يفعل فنزلت الآية ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ...﴾ الآية وهرب طُعمة إلى مكة وارتد ونقب حائطاً بمكة ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله^(٤).

(١) «مختصر ابن كثير» ٤٢٧/١. (ش): أخرجه «الطبري» في «جامع البيان»، وصححه الشيخ أحمد شاكر.

(٢) (ش): الصواب: ضمرة بن جندب.

(٣) «القرطبي» ٣٤٩/٥. (ش): صحيح، أخرجه أبو يعلى في «المسند»، والطبراني في «المعجم الكبير» وابن أبي حاتم في «تفسيره».

(٤) «أبو السعود» ٣٨٠/١. (ش): ضعيف جداً، أخرجه «الطبري» في «جامع البيان». ما ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً * وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا * هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا * وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا * وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلَوْكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصْرِوْكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا * =

= روى الترمذي عن قتادة بن النعمان قال: كان أهل بيت منّا يقال لهم بنو أبيرق بشر وبشير ومبشر وكان بشير رجلاً منافقاً يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ ثم ينحله بعض العرب ثم يقول قال فلان كذا وكذا قال فلان كذا وكذا فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث أو كما قال الرجل وقالوا ابن أبيرق قالها قال وكان أهل بيت حاجة وفاقة في الجاهلية والإسلام وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت صافطة من الشام من الدرمك ابتاع الرجل منها فخص بها نفسه وأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير فقدمت صافطة من الشام فابتاع عمو رفاعه بن زيد حملاً من الدرمك فجعله في مشربة له وفي المشربة سلاح ودرع وسيف فعدى عليه من تحت البيت فنقبت المشربة وأخذ الطعام والسلاح فلما أصبح أتاني عمي رفاعه فقال يا ابن أخي إنه قد عدى علينا في ليلتنا هذه فنقبت مشربتنا فذهب بطعامنا وسلاحنا. قال فتحسبنا في الدار وسألنا فقبل لنا قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة ولا ترى فيما ترى إلا على بعض طعامكم. قال وكان بنو أبيرق قالوا ونحن نسأل في الدار والله ما نرى صاحبكم إلا ليبد بن سهل رجل منا له صلاح وإسلام فلما سمع ليبد اخترط سيفه وقال أنا أسرق فوالله ليخالطكم هذا السيف أو لتبينن هذه السرقة. قالوا إليك عنها أيها الرجل فما أنت بصاحبها. فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها فقال لي عمي يا ابن أخي لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له. قال قتادة فأتيت رسول الله ﷺ فقلت إن أهل بيت منّا أهل جفاء عمدوا إلى عمي رفاعه بن زيد فنقبوا مشربة له وأخذوا سلاحه وطعامه فليروا علينا سلاحنا فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه. فقال النبي ﷺ « سأمروني بذلك ». فلما سمع بنو أبيرق أتوا رجلاً منهم يقال له أسير بن عروة فكلّموه في ذلك فاجتمع في ذلك ناس من أهل الدار فقالوا يا رسول الله إن قتادة بن النعمان وعمه عمداً إلى أهل بيت منّا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبوت. قال قتادة فأتيت رسول الله ﷺ فكلّمته فقال « عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير ثبوت ولا بينة ». قال فرجعت ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك فأتاني عمي رفاعه فقال يا ابن أخي ما صنعت فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ فقال الله المستعان فلم يلبث أن نزل القرآن ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِثِينَ خَصِيماً﴾ بنى أبيرق « واستغفر الله » أي مما قلت لقتادة « إن الله كان غفوراً رحيماً لا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله » إلى قوله « غفوراً رحيماً » أي لو استغفروا الله لعفّر لهم « ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه » إلى قوله « إنما ميسناً » قولهم للبيد « ولولا فضل الله عليكم ورحمته » إلى قوله « فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » فلما نزل القرآن أتى رسول الله ﷺ بالسلاح فردّه إلى رفاعه فقال قتادة لما أتيت عمي بالسلاح وكان شيخاً قد عسى أو عشى في الجاهلية وكنت أرى إسلامه مدخولاً فلما أتيت بالسلاح قال يا ابن أخي هو في سبيل الله فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشرّكين فنزل على سلاقة بنت سعد ابن سمية فأنزل الله « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً » إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضللاً بعيداً « فلما نزل على سلاقة رماها حسان بن ثابت بأبيات من شعره فأخذت رحله فوضعتها على رأسها ثم خرجت به فرمت به في الأبطح ثم قالت أهديت لي شعر حسان ما كنت تأتيني بخير. (حسنه الألباني).

شرح الحديث: (ثم ينحله بعض العرب) أي ينسبه إليهم من النحلة وهي النسبة بالباطل (أو كما قال الرجل) أو للشك من الراوي، أي قال لفظ الخبيث. أو قال لفظ الرجل (وقال ابن أبيرق قالها) أي هذه الأشعار (وكانوا) أي بنو أبيرق (إذا كان له يسار) أي غنى (فقدمت صافطة من الشام) الضافط والضفاط: من يجلب الميرة والمتاع إلى المدن، والمكاري: الذي يكرى الأحمال وكانوا يؤمّنون قوماً من الألباط يحملون =

التفسير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي تتوفاهم الملائكة حال كونهم ظالمي أنفسهم بالإقامة مع الكفار في دار الشرك وترك الهجرة إلى دار الإيمان ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي تقول لهم الملائكة في أي شيء كنتم من أمر دينكم؟ وهو سؤال توبيخ وتقريع قالوا معتذرين: كنا مستضعفين في أرض مكة عاجزين عن إقامة الدين فيها ﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا﴾ ؟ أي قالت لهم الملائكة توبيخاً: أليست أرض الله واسعة فهاجروا من دار الكفر إلى دار تقدر فيها إقامة دين الله كما فعله من هاجر إلى المدينة وإلى الحبشة؟ قال تعالى بياناً لجزائهم ﴿فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي مقرهم النار وساءت مقرًا ومصيرًا، ثم استثنى تعالى منهم الضعفة والعاجزين عن الهجرة فقال ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ أي لكن من كان منهم مستضعفًا كالرجال والنساء والأطفال الذين استضعفهم المشركون وعجزوا لإعسارهم وضعفهم عن الهجرة ولا يستطيعون الخلاص ولا يهتدون الطريق الموصل لدار الهجرة ﴿قَالُوا لَيْكَ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ﴾ أي لعل الله أن يعفو عنهم لأنهم لم يتركوا الهجرة اختيارًا ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ أي يعفو ويغفر لأهل الأعذار، وعسى في كلام الله تفيد التحقيق ﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ هذا ترغيب في الهجرة أي من يفارق وطنه ويهرب فرارًا بدينه من كيد الأعداء يجد مهاجرًا ومتجولًا في الأرض كبيرًا يُراغم به أنف عدوه ويجد سعة في الرزق فأرض الله واسعة ورزقه سابع على العباد ﴿يَاعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُون﴾ [العنكبوت: ٥٦] ﴿وَمَنْ يُخْرِجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أخبر تعالى أن من خرج من بلده مهاجرًا من أرض الشرك فارًا بدينه إلى الله ورسوله ثم مات قبل بلوغه دار الهجرة فقد ثبت أجر هجرته على الله تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا رَحِيمًا﴾ أي سائرًا على العباد رحيمًا بهم ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ

= إلى المدينة الدقيق والزيت وغيرهما) من الدرمك (هو الدقيق الحواري) (فجعلته) أي فوضعه (في مشربة) المشربة: الغرفة (سلاح) بكسر السين وهو اسم جامع لآلات الحرب والقتال يذكر ويؤنث (دِرْعٌ وَسَيْفٌ) بيان لسلاح (فُعِدِي عَلَيْهِ) بصيغة المجهول أي سرق ماله وظلم، (فَنُقِبْتُ) من التقيب أو النقب (فَتَحَسَّنَا) التجسس: تطلب معرفة الأخبار، (رَجُلٌ مِنَّا) أي هو رجل منا (اخترط سيفه) أي استلّه (إليك عنها) أي نتج عنها (فَمَا أَنْتَ بِصَاحِبِهَا) أي لست بصاحب السرفة (حتى لم نشك أنهم) أي بني أبيرق (أهل جفاء) الجفاء: ترك البر والصلة. (ولا تكن للخائنين خصيمًا) بني أبيرق، قوله بني أبيرق تفسير وبيان للخائنين (مِمَّا قُلْتَ لِقَادَةَ)، هذا تفسير وبيان لما أمر الله نبيه بالاستغفار منه (أي لو استغفروا الله لغفر لهم) هذا تفسير يتعلق بقوله تعالى في الآية، (وَمَنْ يَفْعَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا)، (قَوْلُهُمْ لِلْبَيْدِ) هذا تفسير لقوله تعالى في الآية، (ثُمَّ يَرَمُ بِهِ بَرِيئًا). (وَكَانَ سَيِّئًا قَدْ عَسَا أَوْ عَسَا: أَي قُلْ بَصْرُهُ وَضَعْفٌ. عَسَا: أَي كَبُرَ وَأَسَنَّ. وَكُنْتُ أَرَى) بِضَمِّ الهمزة أي أَظُنُّ (مَدْخُولًا) الدخل: العيب والغش والفساد، يعني أن إيمانه كان مترلرلاً فيه نفاق.

أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴿١﴾ أَي وَإِذَا سافرتُم للغزو أو التجارة أو غيرهما فلا إثم عليكم أن تقصروا من الصلاة فتصلوا الرباعية ركعتين ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَقْبِذَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَي إِنْ خَشِيتُمْ أَنْ يَنَالَكُمْ مكروه من أعدائكم الكفرة، وذكرُ الخوف وليس للشرط وإنما هو لبيان الواقع حيث كانت أسفارهم لا تخلو من خوف العدو لكثرة المشركين ويؤيده حديث «يعلى بن أمية» قال قلت لعمر بن الخطاب: إِنْ الله يقول ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ وقد أَمِنَ الناس فقال: عَجِبْتُ مما عَجِبْتَ منه فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال «صَدَقَ تَصَدَّقَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فَأَقْبَلُوا صَدَقَتَهُ» ^(١) ﴿إِنْ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ أَي إِنْ الْكَافِرِينَ أَعْدَاءُ لَكُمْ مَظْهُرُونَ لِلْعَدَاوَةِ وَلَا يَمْنَعُهُمْ فُرْصَةُ اشْتِغَالِكُمْ بِمَنَاجَاةِ اللَّهِ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْ تُفَنِّدَهُمْ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أَي وَإِذَا كُنْتَ مَعَهُمْ يَا مُحَمَّدُ وَهُمْ يَصَلُونَ صَلَاةَ الْخَوْفِ فِي الْحَرْبِ فَلَتَأْتَمُّ بِكَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مَدْجُجُونَ بِأَسْلِحَتِهِمْ احْتِبَاطًا وَلِتَقُمَ الطَّائِفَةُ الْآخَرَى فِي وَجْهِ الْعَدُوِّ ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ رَآئِكُمْ وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ أَي فَإِذَا فَرَغْتَ الطَّائِفَةُ الْأُولَى مِنَ الصَّلَاةِ فَلَتَأْتِ الطَّائِفَةُ الَّتِي لَمْ تَصَلِّ إِلَى مَكَانِهَا لِتُصَلِّيَ خَلْفَكَ ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ أَي وَلْيَكُونُوا حَذَرِينَ مِنْ عَدُوِّهِمْ مُتَأَمِّينَ لِقِتَالِهِمْ بِحُمْلِهِمُ السَّلَاحَ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغَفَّلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مِيلَةً وَاحِدَةً﴾ أَي تَمْنَى أَعْدَاؤُكُمْ أَنْ تَشْغَلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَأْخُذُوكُمْ غَرَةً، وَيَشْدُوا عَلَيْكُمْ شِدَّةً وَاحِدَةً فَيَقْتُلُونَكُمْ وَأَنْتُمْ تَصَلُونَ وَالْمَعْنَى لَا تَشْتَغَلُوا بِأَجْمَعِكُمْ بِالصَّلَاةِ فَيَتِمَكَّنْ عَدُوُّكُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنْ أَقِيمُوهَا عَلَى مَا أَمَرْتُمْ بِهِ ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾ أَي لَا إِثْمَ عَلَيْكُمْ فِي حَالَةِ الْمَطَرِ أَوْ الْمَرَضِ أَنْ لَا تَحْمِلُوا أَسْلِحَتَكُمْ إِذَا ضَعَفْتُمْ عَنْهَا ﴿وَحُذُّوا حِذْرَكُمْ﴾ أَي كُونُوا مُتَّقِظِينَ وَاحْتَرِزُوا مِنْ عَدُوِّكُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴿إِنْ اللَّهُ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أَي أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُخْزِيًا مَعَ الْإِهَانَةِ، رَوَى ابْنُ كَثِيرٍ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ أَبِي عِيَّاشٍ الزُّرْقِيُّ قَالَ: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْثَانِ فَاسْتَقْبَلَنَا الْمُشْرِكُونَ عَلَيْهِمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ - وَهُمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَبْلَةِ - فَصَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الظُّهْرَ فَقَالُوا: لَقَدْ كَانُوا عَلَى حَالٍ لَوْ أَصَبْنَا غُرَّتَهُمْ ثُمَّ قَالُوا: يَأْتِي عَلَيْهِمُ الْآنَ صَلَاةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَبْنَائِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ قَالَ: فَنَزَلَ جَبْرِيلُ بِهَذِهِ الْآيَاتِ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ» ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ ^(٢) الْآيَةُ ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى بِكَثْرَةِ ذِكْرِهِ عَقِبَ صَلَاةِ الْخَوْفِ فَقَالَ ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ أَي فَإِذَا فَرَغْتُمْ مِنَ الصَّلَاةِ فَأَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ فِي حَالِ قِيَامِكُمْ وَقُعُودِكُمْ وَاضْطِجَاعِكُمْ وَادْكُرُوهُ فِي جَمِيعِ الْحَالَاتِ لَعَلَّ يَنْصَرِّكُمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ

(١) (ش): (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٢) «مختصر ابن كثير» ٤٣١/١. (ش): صحيح، أخرجه وأبو داود، والنسائي، وابن حبان.

فَاقِمُْوا الصَّلَاةَ ﴿١﴾ أَيِ إِذَا أُنْتُمْ وَذَهَبَ الْخَوْفُ فَأَتَمُّوا الصَّلَاةَ وَأَقِيمُوا كَمَا أُمِرْتُمْ بِخُشُوعِهَا وَرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَجَمِيعِ شُرُوطِهَا ﴿٢﴾ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿٣﴾ أَيِ فَرَضًا مُحَدَّدًا بِأَوْقَاتٍ مَعْلُومَةٍ لَا يَجُوزُ تَأْخِيرُهَا عَنْهُ، ثُمَّ حَثَّ تَعَالَى عَلَى الْجِهَادِ وَالصَّبْرِ عِنْدَ الشَّدَائِدِ فَقَالَ ﴿٤﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ﴿٥﴾ أَيِ لَا تَضَعُفُوا فِي طَلَبِ عَدُوِّكُمْ بَلْ جِدُّوا فِيهِمْ وَقَاتِلُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴿٦﴾ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴿٧﴾ أَيِ إِنْ كُنْتُمْ تَتَأْلَمُونَ مِنَ الْجِرَاحِ وَالْقِتَالِ فَإِنَّهُمْ يَتَأْلَمُونَ أَيْضًا مِنْهُ كَمَا تَتَأْلَمُونَ وَلَكِنْكُمْ تَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ الشَّهَادَةَ وَالْمُثُوبَةَ وَالنَّصْرَ حَيْثُ لَا يَرْجُونَهُ هُمْ ﴿٨﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩﴾ أَيِ عَلِيمًا بِمَصَالِحِ خَلْقِهِ حَكِيمًا فِي تَشْرِيعِهِ وَتَدْبِيرِهِ، قَالَ «القرطبي»: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي حَرْبِ أَحَدٍ حَيْثُ أُمِرَ ﷺ بِالْخُرُوجِ فِي آثَارِ الْمُشْرِكِينَ وَكَانَ بِالْمُسْلِمِينَ جَرَاحَاتٌ وَكَانَ أَمْرُ الْأَخْرِجِ مَعَهُ إِلَّا مِنْ حَضَرٍ فِي تِلْكَ الْوَقْعَةِ ^(١)، وَقِيلَ: هَذَا فِي كُلِّ جِهَادٍ ^(٢). ﴿١٠﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْكِتَابِ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ ﴿١١﴾ أَيِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ الْقُرْآنَ مُتَلَبِّسًا بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا عَرَفَكَ اللَّهُ وَأَوْحَى بِهِ إِلَيْكَ ﴿١٢﴾ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٣﴾ أَيِ لَا تَكُنْ مَدَافِعًا وَمَخَاصِمًا عَنِ الْخَائِنِينَ تَجَادُلُ وَتُدَافِعُ عَنْهُمْ، وَالْمُرَادُ بِهِ «طُعْمَةُ بْنُ أَبِي رَيْقٍ» وَجَمَاعَتُهُ ﴿١٤﴾ وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ ﴿١٥﴾ أَيِ اسْتَغْفِرِ اللَّهَ مِمَّا هَمَمْتَ بِهِ مِنَ الدَّفَاعِ عَنْ طُعْمَةَ اطْمِئْنَانًا لَشَهَادَةِ قَوْمِهِ بِصِلَاةِ رَبِّكَ اللَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾ أَيِ مَبَالِغًا فِي الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ لِمَنْ يَسْتَغْفِرُهُ ﴿١٧﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ﴿١٨﴾ أَيِ لَا تَخَاصِمِ وَتُدَافِعِ عَنِ الَّذِينَ يَخُونُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالْمَعَاصِي ﴿١٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿٢٠﴾ أَيِ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مَفْرَطًا فِي الْخِيَانَةِ مِنْهُمْ كَمَا فِي الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ ﴿٢١﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ ﴿٢٢﴾ أَيِ يَسْتَرُونَ مِنَ النَّاسِ خَوْفًا وَحَيَاءً وَلَا يَسْتَحْيُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ أَحَقُّ بِأَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ وَيَخَافُ مِنْ عِقَابِهِ ﴿٢٣﴾ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ ﴿٢٤﴾ أَيِ وَهُوَ مَعَهُمْ جَلَّ وَعَلَا عَالَمٌ بِهِمْ وَبِأَحْوَالِهِمْ يَسْمَعُ مَا يَدْبُرُونَهُ فِي الْخِيفَةِ وَيُضْمِرُونَهُ فِي السِّرِّ مِنْ رَمِي الْبَرِيِّ وَشَهَادَةِ الزُّورِ وَالْحَلْفِ الْكَاذِبِ ﴿٢٥﴾ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿٢٦﴾ أَيِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ شَيْءٌ مِنْهَا وَلَا يَفُوتُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى تَوْبِيخًا لِقَوْمِ طُعْمَةَ ﴿٢٧﴾ هَآنَتْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿٢٨﴾ أَيِ هَآنَتْ يَا مَعْشَرَ الْقَوْمِ دَافَعْتُمْ عَنِ السَّارِقِ وَالْخَائِنِينَ فِي الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿٣٠﴾ أَيِ فَمَنْ يَدَافِعُ عَنْهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِذَا أَخَذَهُمُ اللَّهُ بِعَذَابِهِ؟ ﴿٣١﴾ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٣٢﴾ ؟؟ أَيِ مَنْ يَتَوَلَّى الدَّفَاعَ عَنْهُمْ وَنَصْرَتَهُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَانْتِقَامِهِ؟ ثُمَّ دَعَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الْإِنَابَةِ وَالتَّوْبَةِ فَقَالَ ﴿٣٣﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ﴿٣٤﴾ أَيِ مَنْ يَعْمَلُ أَمْرًا قَبِيحًا يَسُوءُ بِهِ غَيْرَهُ كَاثِمًا بَرِيءًا أَوْ يَرْتَكِبُ جَرِيمَةً يَظْلِمُ بِهَا نَفْسَهُ

(١) (ش): ذكره «القرطبي»، بدون إسناد.

(٢) «القرطبي» ٣٧٤/٥.

كالسرقة ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَحْدِ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي ثم يتوب من ذنبه يجد الله عظيم المغفرة واسع الرحمة قال ابن عباس: عرض الله التوبة بهذه الآية على بني أبيرق ﴿إِنَّمَا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي من يقترب إنَّمَا متعمداً فإنما يعود وبال ذلك على نفسه وكان الله عليماً بذنبه حكيماً في عقابه ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا﴾ أي من يفعل ذنباً صغيراً أو إنَّمَا كبيراً ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ أي ثم ينسب ذلك إلى بريء ويتهمه به فقد تحمّل جرماً وذنباً واضحاً، ثم بين تعالى فضله على رسوله فقال ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ أي لولا فضل الله عليك بالنبوة ورحمته بالعصمة لَهَمَّتْ جماعة منهم أن يضلوك عن الحق، وذلك حين سألوا الرسول ﷺ أن يرى صاحبهم «طُعْمَةً» من التهمة ويلحقها باليهودي فتفضل الله عز وجل على رسوله بأن أطلعه على الحقيقة ﴿وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ أي وبأل إضلالهم راجع عليهم ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي وما يضرّونك يا محمد لأن الله عاصمك من ذلك ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي أنزل الله عليك القرآن والسنة فكيف يضلونك وهو تعالى يُنزل عليك الكتاب ويوحى إليك بالأحكام ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ أي علمك ما لم تكن تعلمه من الشرائع والأمر الغيبية وكان فضله تعالى عليك كبيراً بالوحي والرسالة وسائر النعم الحسيمة.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة من البلاغة والبيان والبدیع أنواعاً نوجزها فيما يلي:

- ١ - الاستفهام الذي يراد به التوبيخ والتفريع في ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ ؟ وفي ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً﴾ ؟
- ٢ - إطلاق العام وإرادة الخاص ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ أريد بها صلاة الخوف.
- ٣ - الجناس المغاير في ﴿يَعْقُو ... عَفُوا﴾ وفي ﴿يُهَاجِرُ ... مُهَاجِرًا﴾ وفي ﴿يَخْتَانُونَ ... خَوَانًا﴾ وفي ﴿يَسْتَغْفِرُ ... عَفُورًا﴾.
- ٤ - إطلاق الجمع على الواحد في ﴿تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ يراد به ملك الموت وذكر بصيغة الجمع تفخيماً له وتعظيماً لشأنه^(١).
- ٥ - طباق السلب ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾.
- ٦ - الإطناب بكرر لفظ الصلاة تنبيهاً على فضلها ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾.

(١) (ش): ملك الموت واحد كما هو ظاهر حديث الصحيحين أن موسى عليه السلام جاءه ملك الموت فقال «أَجِبْ رَبَّكَ»، وكما دل عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١] غير أن له أعواناً. قال الله تعالى: ﴿تَوَفَّيْنَاهُمْ رُسُلَنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]. وقال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ [الأنعام: ٣٧].

قال الله تعالى:

لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنشَاءً وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا يُخَذُّنَ مِن عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَا ضُلَّةَ لَهُمْ وَلَا يُنَبِّئُهُمْ وَلَا مُنَبِّئَهُمْ فَلَيُبَيِّنَنَّ ءَاذَاتِ الْإِنْعَامِ وَلَا تُرْمَهُمْ فَلْيَغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانُ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَخْرُجُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَن أَحْسَنَ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتْلَىٰ النِّسَاءَ الَّتِي لَا تَوْلُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَرَّعُونَ أَن تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوُلَدِ وَأَن تَقُومُوا لِلنِّسَاءِ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِن أَمْرًا خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَعْدِلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَنفَرَا يُعْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يُشَاءُ يَذْهَبِكُمْ أَتْيَا النَّاسِ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى قصة طُعْمَة وحادثة السرقة التي اتهم بها اليهودي البريء ودفاع قومه عنه وتأميرهم في السرّ لإيقاع البريء بها، ذكر تعالى هنا أن موضوع النجوى لا يخفى على الله وأن كل تدبير في السرّ يعلمه الله، وأنه لا خير في التناجي إلا ما كان بقصد الخير والإصلاح،

ثم ذكر تعالى أن مخالفة أمر الرسول ﷺ جرمٌ عظيم وحذرٌ من الشيطان وطرق إغوائه، ثم عاد الحديث إلى التحذير من ظلم النساء في ميراثهن ومهورهن وأكد على وجوب الإحسان إليهن، وأعقبه بذكر النشوز والطريق إلى الإصلاح بين الزوجين إمّا بالوفاق أو بالفراق.

اللغة: ﴿نَجَوْنَهُمْ﴾ النجوى: السرُّ بين الاثنين قال الواحدي: ولا تكون النجوى إلا بين اثنين ﴿يُشَاقِقِ﴾ يخالف والشقاق: الخلاف مع العداوة لأن كلاً من المتخالفين يكون في شقٍ غير شق الآخر ﴿مَرِيداً﴾ المريد: العاقي المتمرد من مرد إذا عتا وتجرى قال الأزهرى: مرد الرجل إذا عتا وخرج عن الطاعة فهو ما رد ومريد ﴿فَلْيَبْتَكَ﴾ البتْك: القطع، ومنه سيفٌ باتك أي قاطع ﴿مَحِيصاً﴾ مهرباً من حاص إذا هرب ونفر وفي المثل «وقعوا في حَيْصٍ بَيْصٍ» أي فيما لا يقدر على التخلص منه ﴿خَلِيلاً﴾ من الخلعة وهي صفاء المودة قال ثعلب: سمي الخليل خليلاً لأن محبته تتخلل القلب فلا تدع فيه خللاً إلا ملأته قال بشار:

قَدْ تَخَلَّلَتْ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي وَبِهِ سُمِّيَ الْخَلِيلُ خَلِيلاً^(١)

﴿الشح﴾ شدة البخل ﴿المعلقة﴾ هي التي ليست ذات بعل ولا مطلقة.

سبب النزول: أ- لما سرق «طعمة بن أبيرق» وحكم النبي ﷺ عليه بالقطع هرب إلى مكة وارتد عن الإسلام فأنزل الله ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى^(٢)﴾ الآية.

ب- قال قتادة: تفاخر المؤمنون وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابتنا قبل كتابكم ونحن أحق بالله منكم، وقال المؤمنون: نبينا خاتم النبيين وكتابتنا يقضي على سائر الكتب فنزلت ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ^(٣)﴾ الآية.

التفسير: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾ أي لا خير في كثير مما يُسرّه القوم ويتناجون به في الخفاء ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي إلا نجوى من أمر بصدقةٍ ليعطيها سراً أو أمر بطاعة الله قال «الطبري»: المعروف هو كل ما أمر الله به أو ندب إليه من أعمال البر والخير، والإصلاح هو الإصلاح بين المختصمين^(٤) ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أي ومن يفعل ما أمر به من البر والمعروف والإصلاح طلباً لرضى الله تعالى لا لشيء من أغراض الدنيا ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ أي فسوف نعطيه ثواباً جزيلاً هو الجنة قال الصاوي: والتعبير بـ «سوف» إشارة إلى أن جزاء الأعمال الصالحة في الآخرة لا في الدنيا لأنها ليست دار جزاء ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى﴾ أي يخالف أمر الرسول

(١) «القرطبي» ٤٠٠/٥.

(٢) «القرطبي» ٣٨٥/٥. (ش): راجع حديث الترمذي الطويل الذي حسنه الألباني والمذكور في هامش قبل صفحات.

(٣) «أسباب النزول» ص ١٠٤. (ش): أخرجه «الطبري» في «جامع البيان».

(٤) «الطبري» ٢٠١/٩.

فيما جاء به عن الله من بعد ما ظهر له الحق بالمعجزات ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يسلك طريقاً غير طريق المؤمنين ويتبع منهاجاً غير منهاجهم ﴿تَوَلَّاهُ مَا تَوَلَّى وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾ أي نتركه مع اختياره الفاسد وندخله جهنم عقوبة له ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي وساءت جهنم مرجعاً لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي لا يغفر ذنب الشرك ويغفر ما دونه من الذنوب لمن يريد ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي فقد بُعد عن طريق الحق والسعادة بعداً كبيراً ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتًا﴾ أي ما يدعو هؤلاء المشركون وما يعبدون من دون الله إلا أوثاناً سموها بأسماء الإناث «اللات والعزى ومناة» قال في التسهيل: كانت العرب تسمي الأصنام بأسماء مؤنثة^(١) ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ أي وما يعبدون إلا شيطاناً متمرداً بلغ الغاية في العتو والفجور وهو إبليس الذي فسق عن أمر ربه ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا تَخُذَنْ مِنْ عِبَادِكِ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ أي أبعد الله عن رحمته فأقسم الشيطان قائلاً: لأتخذن من عبادك الذين أبعدتني من أجلهم نصيباً أي حظاً مقدراً معلوماً أدعوهم إلى طاعتي من الكفرة والعصاة وفي صحيح مسلم يقول الله تعالى لآدم يوم القيامة: «أَخْرِجْ بَعَثُ النَّارِ. قَالَ وَمَا بَعَثُ النَّارِ قَالَ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ» ﴿وَلَا أُضِلَّنَّهُمْ وَلَا مُنِيتُهُمْ﴾ لأصرفنهم عن طريق الهدى وأعدهم الأمان الكاذبة وألقي في قلوبهم طول الحياة وأن لا يبعث ولا حساب ﴿وَلَا مَرَنَّهُمْ فَلَيَبْتَئِكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ أي ولا امرنهم بتقطيع آذان الأنعام قال قتادة: يعني تشقيقها وجعلها علامة للبحيرة والسائبة^(٢) كما كانوا يفعلون في الجاهلية ﴿وَلَا مَرَنَّهُمْ فَلَيَغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ أي ولا امرنهم بتغيير خلق الله كخصاء العبيد والحيوان والوشم وغيره وقيل: المراد به تغيير دين الله بالكفر والمعاصي^(٣) وإحلال ما حرم الله وتحريم ما أحل الله ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي ومن يتول الشيطان ويطيعه ويترك أمر الله ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ أي خسر دنياه وآخرته لمصيره إلى النار المؤبدة وأي خسران أعظم من هذا؟ ثم قال تعالى عن إبليس ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُؤْمِنُهُمْ﴾ أي يعدهم بالفوز والسعادة ويمنيهم بالكاذب والأباطيل قال ابن كثير: هذا إخبار عن الواقع فإن

(١) هذا اختيار «الطبري» وقيل: إن المراد بالإناث الملائكة كقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا بِرَبِّهَا﴾ فقد زعم المشركون أن الملائكة بنات الله.

(٢) (ش): البَحِيرَةُ: هِيَ الْوَاحِدَةُ مِنَ الْأَنْعَامِ الَّتِي يَبْحَرُونَ أَذْنَهَا، أَيْ يَسْقُونَهَا شَقًّا وَاسِعًا، وَكَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ إِذَا انْتَجَتْ خُمُسَةً أَبْطُنَ وَكَانَ الْخَامِسُ أَثْنَى. وَكَانُوا يَجْعَلُونَ دَرَّهَا لِلطَّوَاعِيتِ، فَلَا يَحْلِيهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ، وَيُسَبِّغُونَهَا لِأَلِهَتِهِمْ. السَّائِبَةُ: وَهِيَ الَّتِي تُسَبَّبُ بِأَنْ يَنْذُرَهَا لِأَلِهَتِهِمْ، فَتَرَعَى حَيْثُ تَشَاءُ، وَلَا يُحْمَلُ عَلَيْهَا شَيْءٌ، وَلَا يُجَزُّ صُوفُهَا، وَلَا يُحَلَبُ لَبْنُهَا إِلَّا لَصِيفٍ.

(٣) هذا مروى عن ابن عباس ومجاهد والضاحك وهو اختيار «الطبري».

الشيطان يعد أوليائه ويمنيهم بأنهم هم الفائزون في الدنيا والآخرة وقد كذب وافتري في ذلك^(١) ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي وما يعدهم إلا باطلاً وضلالاً قال ابن عرفة: الغرور ما له ظاهر محبوب وباطن مكروه، فهو مُزَيِّن الظاهر فاسد الباطن ﴿أُولَئِكَ مَاؤُهُمُ جَهَنَّمُ﴾ أي مصيرهم ومآلهم يوم القيامة نار جهنم ﴿وَلَا يَحِذُونَهَا مَحِيصًا﴾ أي ليس لهم منها مفر ولا مهرب، ثم ذكر تعالى حال السعداء الأبرار وما لهم من الكرامة في دار القرآن فقال ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي مخلصين في دار النعيم بلا زوال ولا انتقال ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ أي وعداً لا شك فيه ولا ارتياب ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ أي ومن أصدق من الله قولاً؟ والاستفهام معناه النفى أي لا أحد أصدق قولاً من الله قال «أبو السعود». والمقصود معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه^(٢) ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي ليس ما وعد الله تعالى من الثواب يحصل بأمانيتكم أيها المسلمون ولا بأماني أهل الكتاب وإنما يحصل بالإيمان والعمل الصالح قال الحسن البصري: ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل، إن قومًا ألتههم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا نحسن الظن بالله، وكذبوا لو أحسنوا الظن به لأحسنوا العمل ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ أي من يعمل السوء والشر ينال عقابه عاجلاً أو آجلاً ﴿وَلَا يَحِذُلُهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي لا يجد من يحفظه أو ينصره من عذاب الله ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي ومن يعمل الأعمال الصالحة سواء كان ذكراً أو أنثى بشرط الإيمان ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾^(٣) أي يدخلهم الله الجنة ولا ينقصون شيئاً حقيراً من ثواب أعمالهم كيف ولا والمجازي أرحم الراحمين! وإنما قال ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لبيان أن الطاعة لا تنفع من دون الإيمان، ثم قال تعالى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أي لا أحد أحسن ديناً ممن انقاد لأمر الله وشرعه وأخلص عمله لله ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي مطيع لله مجتنب لنواهيه ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي واتبع الدين الذي كان عليه إبراهيم خليل الرحمن، مستقيماً على منهاجه وسبيله وهو دين الإسلام ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ أي صديقاً اصطفاه لمحبهته وخلته قال ابن كثير: فإنه انتهى إلى درجة الخلّة التي هي أرفع مقامات

(١) «مختصر ابن كثير» ٤٣٩/١.

(٢) «أبو السعود» ٣٨٤/١.

(٣) (ش): النقيير: حفرة مستديرة في ظهر نواة البلح. والقطمير: القشرة الرقيقة على النواة كاللغافة لها، القشرة الرقيقة بين النواة والتمرة. والفيل: خيط في شق النواة أو قشرة في بطنها.

المحبة وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه ^(١) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي جميع ما في الكائنات ملكه وعبيده وخلقه وهو المتصرف في جميع لذلك، لا راد لما قضى ولا معقب لما حكم ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ أي علمه نافذ في جميع ذلك لا تخفى عليه خافية ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ أي يسألونك عما يجب عليهم في أمر النساء ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ أي قل لهم يا محمد: يبين الله لكم ما سألتكم في شأنهن ويبين لكم ما يتلى في القرآن من أمر ميراثهن ﴿فِي يَتَمَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ أي ويفتيكم أيضًا في اليتيمات اللواتي ترغبن في نكاحهن لجمالهن أو لمالهن ولا تدفعون لهن مهورهن فنهاهم الله عز وجل عن ذلك قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبدًا فإن كانت جميلة واحبها تزوجها وأكل مالها، وإن كانت دميمة منعها الرجال حتى تموت فإذا ماتت ورثها، فحرم الله ذلك ونهى عنه ﴿وَالْمُسْتَضَعْفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُولُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾ أي ويفتيكم في المستضعفين الصغار أن تعطوهم حقوقهم وأن تعدلوا مع اليتامى في الميراث والمهر، وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون الصغار ولا النساء ويقولون: كيف نعطي المال من لا يركب فرسًا ولا يحمل سلاحًا ولا يقاتل عدوًا فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم أن يعطوهم نصيبهم من الميراث ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ وما تفعلوه من عدل وبر في أمر النساء واليتامى فإن الله يجازيكم عليه قال ابن كثير: وهذا تهيب على فعل الخيرات وامثال الأوامر وأن الله سيجزي عليه أوفر الجزاء، ثم ذكر تعالى حكم نشوز الرجل فقال ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ أي وإذا علمت امرأة أو شعرت من زوجها الترفع عليها أو الإعراض عنها بوجهه بسبب الكره لها لدمامتها أو لكبر سنها وطموح عينه إلى من هي أشب وأجمل منها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ أي فلا حرج ولا إثم على كل واحد من الزوجين من المصالحة والتوفيق بينهما بإسقاط المرأة بعض حقوقها من نفقة أو كسوة أو مبيت لتستعطفه بذلك وتستديم مودته وصحبته، روى ابن جرير عن عائشة أنها قالت: هذا الرجل يكون له امرأتان إحدهما قد عجزت أو هي دميمة وهو لا يحبها فتقول: لا تطلقني وأنت في حل من شأني ^(٢) ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ أي والصلح خير من الفراق ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ أي جبلت الأنفس على الشح وهو شدة البخل فالمرأة لا تكاد تسمح بحقوقها من النفقة والاستمتاع، والرجل لا تكاد نفسه تسمح بأن يقسم لها وأن يمسكها إذا رغب عنها

(١) «مختصر ابن كثير» ٤٢٢/١.

(ش:) وفي هذه الآية، إثبات صفة الخلّة لله - وهي أعلى مقامات المحبة، والاصطفاء.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٤٤٣/١.

وَأَحَبُّ غَيْرِهَا ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ أي وإن تحسنوا في معاملة النساء وتتقوا الله بترك الجور عليهن ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي فإن الله عالم بما تعملون وسيجزيكُم عليه أوفر الجزاء^(١).. ثم ذكر تعالى أن العدل المطلق بين النساء بالغ من الصعوبة مبلغاً لا يكاد يطاق، وهو كالخارج عن حد الاستطاعة فقال ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾ أي لن تستطيعوا أيها الرجال أن تحققوا العدل التام الكامل بين النساء وتسووا بينهن في المحبة والأنس والاستمتاع ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ أي ولو بذلتم كل جهدكم لأن التسوية في المحبة وميل القلب ليست بمقدور الإنسان ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا هَآ كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ أي لا تميلوا عن المرغوب عنها ميلاً كاملاً فتجعلوها كالمعلقة التي ليست بذات زوج ولا مطلقة، شبهت بالشيء المعلق بين السماء والأرض، فلا هي مستقرة على الأرض ولا هي في السماء، وهذا من أبلغ التشبيه ﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا﴾ أي وإن تصلحوا ما مضى من الجور وتتقوا الله بالتمسك بالعدل ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي يغفر ما فرط منكم ويرحمكم ﴿وَإِنْ يَفْرَقَا يَغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾ أي وإن يفارق كل واحد منهما صاحبه، فإن الله يغنيه بفضله ولطفه، بأن يرزقه زوجاً خيراً من زوجة، وعيشاً أهنأ من عيشه ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَسِعًا حَكِيمًا﴾ أي واسع الفضل على العباد حكيمًا في تدبيره لهم ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ملكاً وخلقاً وعبداً ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي وصينا الأولين والآخرين وأمرناكم بما أمرناهم به من امتثال الأمر والطاعة ﴿أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي وصيناكم جميعاً بتقوى الله وطاعته ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي وإن تكفروا فلا يضره تعالى كفركم لأنه مستغن عن العباد وهو المالك لما في السماوات والأرض ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ أي غنياً عن خلقه، محموداً في ذاته، لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي كفى به حافظاً لأعمال عباده ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ أي لو أراد الله لأهلككم وأفناكم وأتى بآخرين غيركم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ أي قادراً على ذلك ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ أي من كان يريد بعمله أجر الدنيا فعند الله ما هو أعلى وأسمى وهو أجر الدنيا والآخرة فلم يطلب الأخس ولا يطلب الأعلى؟ فليسأل العبد ربه خيري الدنيا والآخرة فهو تعالى سميع لأقوال العباد بصير بأعمالهم.

البَلَاغَةُ: تضمنت الآيات أنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الاستعارة في ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ استعار الوجه للقصد والجهة وكذلك في قوله ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ لأن الشح لما كان غير مفارق للأنفس ولا متباعد عنها كان كأنه

أحضرها وحمل على ملازمتها فاستعار الإحضار للملازمة^(١).

٢ - الجنس المغاير في ﴿ضَلَّ... ضَلُّلاً﴾ وفي ﴿خَسِرَ... خُسْرَانًا﴾ وفي ﴿أَحْسَنُ... مُحْسِنٌ﴾ وفي ﴿صَلَحًا... وَالصُّلَحُ﴾ وفي ﴿تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ .

٣ - التشبيه في ﴿فَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ وهو مرسل مجمل.

٤ - الإطناب والإيجاز في عدة مواضع.

تنبيه: العدل المقصود في هذه الآية هو العدل في المحبة القلبية فقط وإلا لتناقضت الآية مع الآية السابقة ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ﴾ [النساء: ٣] وقد كان ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ويقول «اللهم هذا قسْمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك»^(٢) يعني بذلك المحبة القلبية ويدل على هذا قوله تعالى ﴿فَتَذَرُوهَا كَأَمْلَاقَةٍ﴾ ، وأما ما يدعو إليه بعض من يتسمون بـ «المجددين» من وجوب التزوج بواحدة فقط بدليل هذه الآية فلا عبرة به لأنه جهل بفهم النصوص وهو باطل محض تَرُدُّهُ الشريعة الغراء، والسنة النبوية المطهرة، وكفانا الله شر علماء سوء.

قال الله تعالى :

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ
إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّٰهُ أَوَّلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّا أَوْ تُرْضُوا فَإِنَّ اللّٰهَ
كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللّٰهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَلَ عَلَىٰ رَسُوْلِهِ
وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِٱللّٰهِ وَمَلَٰئِكَتِهِ ۖ وَكُتُبِهِ ۖ وَرُسُلِهِ ۖ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ
ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللّٰهُ لِيَغْفِرْ
لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّهُمْ عَذَابَ ٱلْأَلِيمِ ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِنْ
دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيْبِنُغُواثٌ ۖ عِنْدَهُمُ ٱلْعِزَّةُ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَعَيْتُمْ
ءَايَتِ ٱللّٰهُ يَكْفُرْ بِهَا وَيُسَنِّزْهَا بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۖ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ۖ إِنَّ ٱللّٰهَ
جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرَبُّونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللّٰهِ فَقَالُوا
ٱلْمَنَ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْكُمْ عَلَيْنَكُمْ وَنُمْنَعَكُمْ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ فَٱللّٰهُ يَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَمَةِ ۚ وَلَنْ يَجْعَلَ ٱللّٰهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَدِّعُونَ ٱللّٰهَ وَهُوَ
خَدِيعُهُمْ ۖ وَإِذَا قَامُوا إِلَى ٱلصَّلَٰةِ قَامُوا كَسَٰلَىٰ رَءَاوُنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللّٰهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُذَبِّذِينَ

(١) «تلخيص البيان» ص ٢٦.

(٢) (ش): (رواه أبو داود وضعفه الألباني. وَقَالَتْ عَائِشَةُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يُفَضِّلُ بَعْضَنَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْقِسْمِ مِنْ مَكْنَاهِ عِنْدَنَا وَكَانَ قَلَّ يَوْمٌ إِلَّا وَهُوَ يَطُوفُ عَلَيْنَا جَمِيعًا فَيَكُونُ مِنْ كُلِّ امْرَأَةٍ مِنْ غَيْرِ مَسِيْسٍ حَتَّى يَبْلُغَ إِلَى الَّتِي هُوَ يَوْمُهَا فَيَسْتَعِينُهَا) (رواه أبو داود ، وصححه الألباني).

بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا اللَّهَ عَالِيَكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

المناسبة: لما أمر تعالى بالإحسان إلى النساء والعدل في معاملتهن، أمر هنا بالعدل العام في جميع الأحكام، ودعا إلى أداء الشهادة على الوجه الأكمل سواء كان المشهود عليه غنياً أو فقيراً، وحذر من إتباع الهوى، ثم دعا إلى الإيمان بجميع الملائكة، والكتب والرسل، ثم أعقب ذلك بذكر أوصاف المنافقين المخزية وما له من العذاب والنكال في دركات الجحيم.

اللغة: ﴿تَلَوُا﴾ اللي: الدفع يقال لويت فلاناً حقه إذا دفعته ومطلته ومنه الحديث «ليّ الواجد ظلم» أي مظل الغني ظلم^(١) ﴿يُخَوِّضُوا﴾ الخوض: الاقتحام في الشيء ومنه خوض الماء ﴿نَسْتَحِذُ﴾ الاستحواذ: الاستيلاء والتغلب يقال استحوذ على كذا إذا غلب عليه ومنه قوله تعالى ﴿أَسْتَحِذُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ [المجادلة: ١٩] ﴿مُذَبِّبِينَ﴾ الذبذبة: التحريك والاضطراب يقال ذبذبه فتذبذب والمذبذب المتردد بين أمرين ﴿الدَّرَكُ﴾ بسكون الراء وفتحها بمعنى الطبقة وهي لما تسافل قال ابن عباس: الدَّرَكُ لأهل النار كالدرج لأهل الجنة إلا أن الدرجات بعضها فوق بعض، والدركات بعضها أسفل من بعض^(٢). التفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ أي ما من أمتكم بالله وصدقتم بكتابه كونوا مجتهدين في إقامة العدل والاستقامة وأتى بصيغة المبالغة في ﴿قَوَّامِينَ﴾ حتى لا يكون منهم جور أبداً ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ أي تقيمون شهادتكم لوجه الله دون تحيز ولا محاباة ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ أي ولو كانت تلك الشهادة على أنفسكم أو على آبائكم أو أقربائكم فلا تمنعكم القرابة ولا المنفعة عن أداء الشهادة على الوجه الأكمل فإن الحق حاكم على كل إنسان ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ أي إن يكن المشهود عليه غنياً فلا يراعى لغناه، أو فقيراً فلا يمتنع من الشهادة عليه ترحمًا وإشفاقًا ﴿فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أي فالله أولى بالغني والفقير وأعلم بما فيه صلاحهما فراعوا أمر الله فيما أمركم به فإنه أعلم بمصالح العباد منكم ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا هَوًى أَنْ تَعْدِلُوا﴾ أي فلا تتبعوا هوى النفس مخافة أن تعدلوا بين الناس قال ابن كثير: أي لا يحملنكم الهوى

(١) (ش): قَالَ «مَظْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ» رواه البخاري. وَقَالَ ﷺ «لِيَ الْوَاجِدِ يُحِلُّ عِرْضَهُ وَعُقُوبَتُهُ». رواه البخاري.
قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ يُحِلُّ عِرْضَهُ يُعْلِظُ لَهُ، وَعُقُوبَتُهُ يُحْبَسُ لَهُ.

(٢) البحر ٣/ ٣٨٠.

والعصبية وبغض الناس إليكم على ترك العدل في شئونكم بل الزموا العدل على كل حال^(١) ﴿وَإِنْ تَلَوْتُمْ أَوْ لَعَنْتُمْ أَوْ عُصِبْتُمْ﴾ أي وإن تلوا أو لعنوا أو عصبتم عن شهادة الحق أو تعرضوا عن إقامتها رأساً ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيجازيكم عليه ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي اثبتوا على الإيمان ودوموا عليه ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْقُرْآنِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ أي آمنوا بالقرآن الذي نزل على محمد ﷺ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي وبالكتب السماوية التي أنزلها من قبل القرآن قال «أبو السعود»: المراد بالكتاب الجنس المنتظم لجميع الكتب السماوية^(٢) ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي ومن يكفر بشيء من ذلك فقد خرج عن طريق الهدى، وبُعد عن القصد كل البعد ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا﴾ هذه الآية في المنافقين^(٣) آمنوا ثم ارتدوا ثم آمنوا ثم ارتدوا ثم ماتوا على الكفر قال ابن عباس: دخل في هذه الآية كل منافق كان في عهد النبي ﷺ في البر والبحر وقال ابن كثير: يخبر تعالى عمن دخل في الإيمان ثم رجع فيه ثم عاد إلى الإيمان ثم رجع واستمر على ضلاله وازداد حتى مات فإنه لا توبة له بعد موته ولا يغفر الله له ولا يجعل له مما هو فيه فرجاً ولا مخرجاً ولا طريقاً إلى الهدى^(٤) ولهذا قال تعالى ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ أي لم يكن الله ليسامحهم على ذلك ولا ليهديهم طريقاً إلى الجنة قال الزمخشري: ليس المعنى أنهم لو أخلصوا الإيمان بعد تكرار الردة لم يُقبل منهم ولم يُغفر لهم ولكنه استبعاد له واستغراب كأنه أمر لا يكاد يكون، وهكذا ترى الفاسق الذي يتوب ثم يرجع ثم يتوب ثم يرجع لا يكاد يرجي منه الثبات، والغالب أنه يموت على شر حال^(٥)، ثم أخبر تعالى عن مآل المنافقين فقال ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عبر تعالى بلفظ ﴿بَشِّرِ﴾ تهكمًا بهم أي أخبر يا محمد المنافقين بعذاب النار الأليم ﴿الَّذِينَ يَتَخَذُونَ الْكُفْرَيْنَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أولئك هم الذين يوالون الكافرين ويتخذونهم أعواناً وأنصاراً لما يتوهمونه فيهم من القوة ويتركون ولاية المؤمنين ﴿أَيَبْنَعُونَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ﴾ أي يطلبون بموالاته الكفار القوة والغلبة؟ والاستفهام إنكاري أي إن الكفار لا عزة لهم فكيف تُبغى منهم! ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي العزة لله ولأوليائه قال ابن كثير والمقصود من هذا التهيج على طلب العزة من جناب الله ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ أي نزل عليكم في القرآن، والخطاب لمن

(۱) «مختصر ابن کثیر» ۱/ ۴۴۷.

(٢) «أبو السعود» ١/٣٨٩.

(٣) وقيل إنها في اليهود آمنوا بموسى ثم كفروا بعبادة العجل ثم آمنوا بعد عودة موسى إليهم ثم كفروا بعباسي ثم ازدادوا كفراً بكفرهم بمحمد وهو قول قتادة واختاره «الطبري»

(۴) «مختصر ابن کثیر» ۱/ ۴۴۸.

(٥) «الكشاف» ١ / ٤٤٧.

أظهر الإيمان من مؤمن ومناق ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ أي أنزل عليكم أنه إذا سمعتم القرآن يكفر به الكافرون ويستهزئ به المستهزئون ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أي لا تجلسوا مع الكافرين الذين يستهزئون بآيات الله حتى يتحدثوا بحديث آخر ويتركوا الخوض في القرآن ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ﴾ أي إنكم إن قعدتم معهم كنتم مثلهم في الكفر ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ أي يجمع الفريقين الكافرين والمنافقين في الآخرة في نار جهنم لأن المرء مع من أحب، وهذا الوعيد منه تعالى للتحذير من مخالطتهم ومجالستهم.. ثم ذكر تعالى تربصهم السوء بالمؤمنين فقال ﴿الَّذِينَ يَرَبَّضُونَ بِكُمْ﴾ أي ينتظرون بكم الدوائر ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أي غلبة على الأعداء وغيمة ﴿قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ أي فأعطونا مما غنمتموه من الكافرين ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ أي ظفر عليكم يا معشر المؤمنين ﴿قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي قالوا للمشركين ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم وأسركم فأبقينا عليكم وثبطنا عزائم المؤمنين حتى انتصرتهم عليهم؟ فهاتوا نصيبنا مما أصبتم لأننا نوالكم ولا نترك أحداً يؤذيكم قال تعالى بيانا لمآل الفريقين ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي يحكم بين المؤمنين والكافرين ويفصل بينهم بالحق ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي لن يمكن الكفرة من رقاب المؤمنين فيسبواهم ويستأصلوهم^(١) قال ابن كثير: وذلك بأن يسلطوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة^(٢) ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ أي يفعلون ما يفعل المخادع من إظهار الإيمان وإبطال الكفر والله يجازيهم على خداعهم ويستدرجهم بأمر المؤمنين بحقق دمائهم، وقد أعد لهم الدرك الأسفل من النار في الآخرة، فسمى تعالى جزاءهم خداعاً بطريق المشاكلة لأن وبأل خداعهم راجع عليهم ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا﴾ أي يصلون وهم متناقلون متكاسلون، لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ أي يقصدون بصلاتهم الرياء والسمعة ولا يقصدون وجه الله ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لا يذكرون الله سبحانه إلا ذكراً قليلاً ﴿مُذَبِّحِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي مضطربين مترددين بين الكفر والإيمان، وصفهم تعالى بالحيرة في دينهم ﴿لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ أي لا ينتسبون إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾

(١) ذكر «القرطبي» خمسة أقوال للمفسرين في هذه الآية هذا أحدها وهو الذي رجحناه وقيل: إن المراد بالسبيل الحجة وقيل هذا يوم القيامة وقد رجحه «الطبري» حيث قال: يعني حجة يوم القيامة واستدل له بما روى أن رجلاً سأل علياً عن هذه الآية فقال: ادن مني ثم قرأ: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي يوم القيامة وقد ضعف هذا الرأي ابن العربي انظر «القرطبي» ٥/ ٤١٩.

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٤٤٩.

أي ومن يضلله الله فلن تجد له طريقاً إلى السعادة والهدى، ثم حذر تعالى المؤمنين من موالاة أعداء الدين فقال ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لا تتركوا موالاة المؤمنين وتوالوا الكفرة المجرمين بالمصاحبة والمصادقة ﴿أُرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أي أتريدون أن تجعلوا الله حجة بالغة عليكم أنكم منافقون؟ قال ابن عباس: كل سلطان في القرآن حجة، ثم أخبر تعالى عن مآل المنافقين فقال ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ أي في الطبقة التي في قعر جهنم وهي سبع طبقات قال ابن عباس: أي في أسفل النار، وذلك لأنهم جمعوا مع الكفر الاستهزاء بالإسلام وأهله، والنار دركات كما أن الجنة درجات ﴿وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ أي لن تجد لهم لواء المنافقين ناصراً ينصرهم من عذاب الله ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ وهذا استثناء أي تابوا عن النفاق ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أي أعمالهم ونياتهم ﴿وَأَعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾ أي تمسكوا بكتاب الله ودينه ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ أي لم يبتغوا بعملهم إلا وجه الله ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي في زمرة يوم القيامة ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي يعطيهم الأجر الكبير في الآخرة وهو الجنة ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ أي أي منفعة له سبحانه في عذابكم؟ أيتشفى به من الغيظ، أم يدرك به الثأر، أم يدفع به الضر ويستجلب النفع وهو الغنى عنكم؟ ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ أي شاكراً لطاعة العباد مع غناه عنهم يعطي على العمل القليل الثواب الجزيل.

البلاغة: تضمنت الآيات أنواعاً من الفصاحة والبدیع نوجزها فيما يلي:

- ١ - المبالغة في الصيغة في ﴿قَوْمِينَ بِالْأَقْصَى﴾ أي مبالغين في العدل.
- ٢ - الطباق بين ﴿غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ وبين ﴿ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ .
- ٣ - الجناس الناقص في ﴿ءَامَنُوا ءَامَنُوا﴾ لتغير الشكل.
- ٤ - جناس الاشتقاق في ﴿يُخَذِّعُونَ... خَدَعَهُمْ﴾ وفي ﴿جَامِعٌ... جَمِيعًا﴾ وفي ﴿شَكَرْتُمْ... شَاكِرًا﴾ .
- ٥ - الأسلوب التهكمي في ﴿بَشِيرَ الْمُتَنَفِّقِينَ﴾ حيث استعمل لفظ البشارة مكان الإنذار تهكماً.
- ٦ - الاستعارة في ﴿وَهُوَ خَدَعَهُمْ﴾ استعار اسم الخداع للمجازاة على العمل، والله تعالى منزّه عن الخداع^(١).

(١) (ش): صفات الله تعالى كلها صفات كمال، دالة على أحسن المعاني وأكملها، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]. ومعنى المثل الأعلى أي الوصف الأكمل. والصفات ثلاثة أنواع: الأول: صفات كمال، لا نقص فيه بوجه من الوجوه. فهذه يوصف الله تعالى بها وصفاً مطلقاً ولا يقيد بشيء، مثال ذلك: العلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والرحمة... إلخ. الثاني: صفات نقص، لا كمال فيها، فهذه لا يوصف الله تعالى بها أبداً، كالنوم، والعجز، والظلم، والخيانة... إلخ. الثالث: صفات يمكن أن تكون كمالاً، =

٧ - الاستفهام الإنكاري في ﴿أَيَنْتَعُونَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ﴾ والغرض منه التقرير والتوبيخ.
الفوائد: الأولى: قوله تعالى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُونَ﴾ ليس تكراراً وإنما معناه اثبتوا على الإيمان ودوموا عليه كقول المؤمن ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] أي ثبتنا على الصراط المستقيم.

الثانية: سمى تعالى ظفر المؤمنين فتحاً عظيماً ونسبه إليه ﴿فَتَحُّ مِنَ اللَّهِ﴾ وظفر الكافرين نصيباً ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ ولم ينسبه إليه وذلك لتعظيم شأن المسلمين، وتخسيس حظ الكافرين.

الثالثة: قال المفسرون: النار سبع دركات أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعيرة، ثم سقرن ثم الجحيم، ثم الهاوية وقد تسمى بعض الطبقات باسم بعض لأن لفظ النار يجمعها، كذا في البحر.

تنبيه: المنافق أخطر من الكافر ولهذا كان عذابه أشد ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ وقد شرط تعالى للتوبة على الكافر الانتهاء عن الكفر فقط ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَآ قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وأما المنافق فشرط عليه أربعاً: التوبة، والإصلاح، والاعتصام، وإخلاص الدين له فقال ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ فدل على أن المنافقين شر من كفر به وأولاهم بمقتته، وأبعدهم من الإنابة

= ويمكن أن تكون نقصاً، على حسب الحال التي تذكر فيها. فهذه لا يوصف الله تعالى بها على سبيل الإطلاق، ولا تنفى عن الله تعالى على سبيل الإطلاق، بل يجب التفصيل، ففي الحال التي تكون كملاً يوصف الله تعالى بها، وفي الحال التي تكون نقصاً لا يوصف الله تعالى بها. ومثال هذا: المكر، والخديعة، والاستهزاء. فالمكر والخديعة والاستهزاء بالعدو صفة كمال، لأن ذلك يدل على كمال العلم والقدرة والسلطان. . ونحو ذلك. أما المكر بالمؤمنين الصادقين فهو صفة نقص. ولذلك لم يرد وصف الله تعالى بهذه الصفات على سبيل الإطلاق، وإنما ورد مقيداً بما يجعله كملاً. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]. فهذا خداع بالمنافقين. وقال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. وهذا مكر بأعداء الله الذين كانوا يمكرون برسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال عن المنافقين: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ * الله يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٤-١٥]. وهذا استهزاء بالمنافقين. فهذه الصفات تعتبر كملاً في هذا السياق الذي وردت فيه. ولهذا يقال: الله تعالى يستهزئ بالمنافقين، ويخادعهم، ويمكر بأعدائه. . . ونحو ذلك. ولا يجوز أن يوصف الله تعالى بالمكر والخداع وصفاً مطلقاً. لأنه حينئذ لا يكون كملاً. فالله سبحانه وتعالى ينسب إلى نفسه أحسن هذه المعاني وما هو منها حكمة وصواب وجزاء للمسيء وذلك غاية العدل والحق كقوله: إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا. وقوله: وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ. وقوله: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ. وقوله: وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ، فهذا منه سبحانه في أعلى مراتب الحُسن وإن كان من العبد قبيحاً سيئاً لأنه ظالم فيه وموقعه بمن لا يستحقه، والرب تعالى عادل فيه وموقعه بأهله ومن يستحقه.

إليه ثم قال ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقل فأولئك هم المؤمنون ثم قال ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ولم يقل «وسوف يؤتيهم» بغضاً لهم وإِعْرَاضاً عنهم وتفضيلاً لما كانوا عليه من عظم كفر النفاق، زادنا الله فهماً لأسرار كتابه.

قال الله تعالى:

لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفَوْهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْأَلُ أَهْلَ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرُوا بِنَائِتِ اللَّهِ وَقُلْنَا لَهُمُ الْآيَاتُ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقُولِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَيَكْفُرُهُمْ عَلَىٰ مَرْبَمٍ مُهْتَنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقُولِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاءُ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَيُظَاهَرُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبَعَتْ أُحْلَتْ لَهُمْ وَبَصَدَهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلَهُمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَكِنَّ الرَّاْسِيخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى المنافقين وفضحهم في الآيات السابقة، ذكر هنا أنه لا يحب إظهار الفضائح والقبايح، إلا في حق من زاد ضرره وعظم خطره، فلا عجب أن يكشف الله عن المنافقين الستر، ثم تحدث عن اليهود وعدد بعض جرائمهم الشنيعة مثل طلبهم لرؤية الله، وعبادتهم للعجل وادعائهم صلب المسيح، واتهامهم مريم البتول بالفاحشة إلى غير ما هنالك من قبايح وجرائم شنيعة.

اللغة: ﴿جَهْرَةً﴾ عياناً ﴿مُهْتَنًا﴾ البهتان: الكذب الذي يُتَحِيرُ فيه من شدته وعظمته ﴿شِبِّهَ﴾ وقع الشبه بين عيسى والمقتول الذي صلبوه ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ هيأنا ﴿الرَّاْسِيخُونَ﴾ المتمكنون من العلم.

سَبَبُ النُّزُولِ: روي أن كعب بن الأشرف وجماعة من اليهود قالوا يا محمد: إن كنت نبياً فأتنا بكتاب من السماء جملةً كما أتى موسى بالتوراة جملةً فأنزل الله ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ...﴾^(١) الآية^(٢).

التفسير: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي لا يحب الله الفُحْشَ في القول والإيذاء باللسان إلا المظلوم فإنه يباح له أن يجهر بالدعاء على ظالمه وأن يذكره بما فيه من السوء قال ابن عباس: المعنى لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً^(٣) ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ أي سمياً لدعاء المظلوم عليماً بالظالم ﴿إِنْ بُدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ أي إن أظهرتم أيها الناس عمل الخير أو أخفيتموه أو عفيتم عن أساء إليكم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي كان مبالغاً في العفو مع كمال قدرته على المؤاخذه، قال الحسن يعفوا عن الجانين مع قدرته على الانتقام فعليكم أن تقتدوا بسنة الله تعالى^(٤) حث تعالى على العفو وأشار إلى أنه عفوٌ مع قدرته فكيف لا تعفون مع ضعفكم وعجزكم؟! ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ الآية في اليهود والنصارى لأنهم آمنوا بأنبيائهم وكفروا بمحمد ﷺ وغيره، جعل كفرهم ببعض الرسل كفراً بجميع الرسل، وكفرهم بالرسول كفراً بالله تعالى ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ التفريق بين الله ورسله أن يؤمنوا بالله ويكفروا برسله، وكذلك التفريق بين الرسل هو الكفر ببعضهم والإيمان ببعضهم وقد فسره تعالى بقوله بعده ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمُنُ بِبَعْضِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ أي نؤمن ببعض الرسل ونكفر ببعض قال قتادة: أولئك أعداء الله اليهود والنصارى، آمنت اليهود بالتوراة وموسى وكفروا بالإنجيل وعيسى، وآمنت النصارى بالإنجيل وعيسى وكفروا بالقرآن وبمحمد ﷺ وتركوا الإسلام دين الله الذي بعث به رسله^(٥) ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أي طريقاً وسطاً بين الكفر والإيمان ولا واسطة بينهما ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ أي هؤلاء الموصوفون بالصفات القبيحة هم الكافرون يقيناً ولو ادعوا الإيمان ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي هيأنا لهم عذاباً شديداً مع الإهانة والخلود في نار جهنم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي صدقوا الله وأقروا بجميع الرسل وهم المؤمنون أتباع محمد ﷺ لم يفرقوا بين أحد من رسله بل آمنوا بجميعهم ﴿أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ﴾ أي سنعطيهم ثوابهم الكامل

(١) مجمع البيان ٣/ ١٣٣.

(٢) (ش): ضعيف جداً، أخرجه «الطبري» في «جامع البيان».

(٣) «مختصر ابن كثير» ١/ ٤٥٢.

(٤) «أبو السعود» ١/ ٣٩٣.

(٥) «الطبري» ٩/ ٣٥٤.

على الإيمان بالله ورسوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي غفوراً لما سلف منهم من المعاصي والآثام متفضلاً عليهم بأنواع الإنعام ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ نزلت في أحبار اليهود حين قالوا للنبي ﷺ إن كنت نبياً فأتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى به موسى جملة، وإنما طلبوا ذلك على وجه التعنت والعناد، فذكر تعالى سؤالهم ما هو أرفع وأشنع تسلياً للنبي ﷺ للتأسي بالرسول فقال ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي سألوا موسى رؤية الله عز وجل عياناً ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الضُّعْفَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ أي جاءتهم من السماء نار فأهلكتهم بسبب ظلمهم ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا الْعِجْلَ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي ثم اتخذوا العجل إلهاً وعبدوه من بعد ما جاءتهم المعجزات والحجج الباهرات من العصا واليد وفلق البحر وغيرها قال «أبو السعود»: وهذه المسألة - وهي طلب رؤية الله - وإن صدرت عن أسلافهم لكنهم لما كانوا مقتدين بهم في كل ما يأتون ويذرون أسندت إليهم^(١) ﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾ أي عفونا عما ارتكبهوه مع عظيم جريمتهم وخيانتهم ﴿وَعَاثَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ أي حجة ظاهرة تظهر صدقة وصحة نبوته قال «الطبري»: وتلك الحجة هي الآيات البينات التي أتاه الله إياها^(٢) ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ أي رفعا الجبل فوقهم لما امتنعوا عن قبول شريعة التوراة بسبب الميثاق ليقبلوه ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي ادخلوا باب بيت المقدس مُطَّاطِئِينَ رءوسكم خضوعاً لله فخالفوا ما أمروا به ودخلوا يزحفون على أستاههم وهم يقولون حنطة في شعرة استهزاء ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ أي لا تعتدوا باصطياد الحيتان يوم السبت فخالفوا واصطادوا ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أي عهداً وثيقاً مؤكداً ﴿فِيمَا نَقَضَهُمْ مِّيثَقَهُمْ﴾ أي فبسبب نقضهم الميثاق لعناهم وأذللناهم و ﴿مَا﴾ لتأكيد المعنى ﴿وَكُفِّرْهُمْ بِثَايِبَاتِ اللَّهِ﴾ أي وبجحودهم بالقرآن العظيم ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ الْآيَاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ كزكريا ويحيى عليه السلام ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي قولهم للنبي ﷺ قلوبنا مغطاة بأغشية لا تعي ما تقوله يا محمد، قال تعالى ردّاً عليهم ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي بل ختم تعالى عليها بسبب الكفر والضلال فلا يؤمن منهم إلا القليل كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿وَيَكْفُرْهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ أي وبكفرهم بعيسى عليه السلام أيضاً ورميهم مريم بالزنى وقد فضلها الله على نساء العالمين ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي قتلنا هذا الذي يزعم أنه رسول الله، وهذا إنما قالوه على سبيل «التهكم والاستهزاء» كقول فرعون ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] وإلا فهم يزعمون أن عيسى ابن زنى وأمه زانية ولا يعقدون أنه رسول الله قال تعالى ﴿وَمَا قُلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي وما قتلوا عيسى

(١) «أبو السعود» ١/ ٣٩٤.

(٢) «الطبري» ٩/ ٣٦٠.

ولا صلبوه ولكن قتلوا وصلبوا من أُلقي عليه شبهه قال البيضاوي: روي أن رجلاً كان ينافق لعيسى فخرج ليدل عليه فألقى الله عليه شبهه فأخذ وصلب وهم يظنون أنه عيسى ^(١) ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أَخْتَلَفُوا فِيهِ لِفِي شَكِّ مَنَّهُ﴾ أي وإن الذين اختلفوا في شأن عيسى لفي شك من قتله، روي أنه لما رُفع عيسى وأُلقي شبهه على غيره فقتلوه قالوا: إن كان هذا المقتول عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟ فاختلفوا فقال بعضهم هو عيسى وقال بعضهم ليس هو عيسى بل هو غيره، فأجمعوا أن شخصاً قد قتل واختلفوا من كان ^(٢) ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ أي ما لهم بقتله علم حقيقي ولكنهم يتبعون فيه الظن الذي تخيلوه ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ ^(٣) بل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ أي وما قتلوه متيقنين أنه هو بل شاكين متوهمين ونجاء الله من شرهم فرفعه إلى السماء حياً بجسده وروحه كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة ^(٤) ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي عزيزاً في ملكه حكيماً في صنعه ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أي ليس أحد من اليهود والنصارى إلا ليؤمننَّ قبل موته بعيسى وبأنه عبد الله ورسوله حين يعاين ملائكة الموت ولكن لا ينفعه إيمانه قال ابن عباس: لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى قيل له: أرايت إن ضربت عنق أحدهم؟ قال: يلجلج بها لسانه وكذا صحَّ عن مجاهد وعكرمة وابن سيرين ^(٥) ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي يشهد عيسى على اليهود بأنهم كذبوه وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله ﴿فِي ظُلُمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحُلَّتْ لَهُمْ﴾ أي بسبب ظلم اليهود وما ارتكبه من الذنوب العظيمة حرماً عليهم أنواعاً من الطيبات التي كانت محللة لهم ﴿وَبَصَدَّ هُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ أي ويمنعهم كثيراً من الناس عن الدخول في دين الله قال مجاهد: صدوا أنفسهم وغيرهم عن الحق ﴿وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ أي تعاطيهم الربا وقد حرمه الله عليهم في التوراة ﴿وَأَكْثَرَهُمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْإِطْلَاقِ﴾ أي بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وهياً لمن كفر من هؤلاء اليهود العذاب المؤلم الموجه ﴿لَنَكِينِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ أي لكن المتمكنون في العلم منهم والثابتون فيه كعبد الله بن

(١) البيضاوي ص ١٤١.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ١/ ١٦٣.

(٣) منها ما رواه الشيخان: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِزْيِرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ» الحديث وانظر كتاب «النصر يح بما تواتر في نزول المسيح» للكشميري تحقيق الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة.

(ش:) (يَضَعُ الْجِزْيَةَ) لَا يَقْبَلُهَا، وَلَا يَقْبَلُ مِنَ الْكُفَّارِ إِلَّا الْإِسْلَامَ، وَمَنْ بَدَلَ مِنْهُمْ الْجِزْيَةَ لَمْ يَكْفَ عَنْهَا، بَلْ لَا يَقْبَلُ إِلَّا الْإِسْلَامَ أَوْ الْقَتْلَ.

(٤) اختار «الطبري» أن الضمير في: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ يعود على عيسى ويصبح المعنى: لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن بعيسى قبل موت عيسى لما ينزل قرب الساعة، وما ذكرناه هو اختيار أبي السعود و«الكشاف» والجلالين.

سلام وجماعته ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي من المهاجرين والأنصار أصحاب النبي ﷺ من غير أهل الكتاب ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي يؤمنون بالكتب والأنبياء^(١) ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ أي أمدحُ المُقيمِينَ الصلاة؛ فهو نصبٌ على المدح ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي المعطون زكاة أموالهم ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي والمؤمنون بوحدانية الله وبالبعث بعد الموت ﴿أُولَئِكَ سَنُوْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي هؤلاء الموصوفون بالأوصاف الجليلة سنعطيهـم ثوابًا جزيلاً على طاعتهم وهو الخلود في الجنة.

البلاغة: تضمنت الآيات أنواعاً من الفصاحة والبدیع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الطباق بين ﴿بُذُّوا... أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ وبين ﴿نُؤْمِنُ... وَنَكْفُرُ﴾.
 - ٢ - التعريض والتهكم في ﴿فَقُلْنَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ قالوه على سبيل التهكم والاستهزاء لأنهم لا يؤمنون برسالته.
 - ٣ - زيادة الحرف لمعنى التأكيد ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ﴾ أي فبنقضهم.
 - ٤ - الاستعارة في ﴿الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ استعار الرسوخ للثبوت في العلم والتمكن فيه وكذلك الاستعارة في ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ استعار الغلاف بمعنى الغطاء لعدم الفهم والإدراك أي لا يتوصل إليها من الذكر والموعظة.
 - ٥ - الاعتراض في ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ ردًا لمزاعمهم الفاسدة.
 - ٦ - الالتفات في ﴿أُولَئِكَ سَنُوْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ والأصل سيؤتيهم وتنكير الأجر للتفخيم.
 - ٧ - المجاز المرسل في ﴿وَقُلْنَاهُمُ الْأَنْبِيَاءُ﴾ حيث أطلق الكل وأريد البعض وكذلك في ﴿وَكُفِّرْهُمْ بِثَايِتٍ إِلَهِ﴾ لأنهم كفروا بالقرآن والإنجيل ولم يكفروا بغيرهما^(٢).
- الفوائد:** قال في التسهيل: إن قيل كيف قالوا فيه رسول الله وهم يكفرون به ويسبونونه؟ فالجواب من ثلاثة أوجه: أحدها: أنهم قالوا ذلك على وجه التهكم والاستهزاء، والثاني: أنهم قالوه على حسب اعتقاد المسلمين فيه كأنهم قالوا: رسول الله عندهم أو بزعمكم والثالث: أنه من قول الله لا من قولهم فيوقف قبله وفائدته تعظيم ذنبهم وتقبيح قولهم إنا قتلناه وقوله تعالى ﴿وَمَا قُلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ ردُّ على اليهود وتكذيبٌ لهم وردُّ على النصارى في قولهم إنه صلب حتى عبدوا الصليب من أجل ذلك، والعجب كل العجب من تناقضهم في قولهم إنه إله أو ابن إله ثم يقولون إنه صلب^(٣).

(١) (ش): وفي مقدمتهم النبي ﷺ؛ قال ﷺ: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ. (رواه مسلم).

(٢) (ش): لما رَضُوا بفعل أسلافهم شاركوهم في الجريمة، ولما كفروا بكتابه واحد كفروا بالكل حقيقة لا مجازاً.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ١/ ١٦٣.

تنبيه: دلّ قوله تعالى ﴿وَمَا قُلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ على أن الله تعالى نجّى رسوله عيسى من شر اليهود الخبثاء فلم يُقتل ولم يصلب وإنما صلبوه شخصاً غيره ظنوه عيسى وهو الذي ألقى الله الشبه عليه فقتلوه وهم يحسبونه عيسى، وهذا هو الاعتقاد الحق الذي يتفق مع العقل والنقل، وأما النصارى فيعتقدون أنه صلب وأن اليهود أهانوه ووضعوا الشوك على رأسه وأنه تضرّع وبكى مع زعمهم أنه هو «الله» أو «ابن الله» وأنه جاء ليخلص البشرية من أوزارها إلى غير ما هنالك من التناقض العجيب الغريب ولقد أحسن من قال:

عَجَبًا لِلْمَسِيحِ بَيْنَ النَّصَارَى	وَأَلَى أَيِّ وَالِدٍ نَسَبُوهُ!
أَسْلَمُوهُ إِلَى الْيَهُودِ وَقَالُوا	إِنَّهُمْ بَعْدَ ضَرْبِهِ صَلَبُوهُ
فَإِذَا كَانَ مَا يَقُولُونَ حَقًّا	وَصَحِيحًا فَأَيْنَ كَانَ أَبُوهُ؟
حِينَ خَلَّى ابْنَهُ رَهَيْنَ الْأَعَادِي	أَتَرَاهُمْ أَرْضُوهُ أَمْ أَعْصَبُوهُ؟
فَلَيْنَ كَانَ رَاضِيًا بِأَذَاهُمْ	فَاحْمَدُوهُمْ لَا تَنْهَمُ عَذْبُوهُ
وَلَيْنَ كَانَ سَاخِطًا فَاتْرَكُوهُ	وَاعْبُدُوهُمْ لَا تَنْهَمُ غَلْبُوهُ

قال الله تعالى:

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٣٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٣٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٣٥﴾ لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٣٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٣٩﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكَمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٤٠﴾ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٤١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمُ إِلَٰهُ جَمِيعًا ﴿١٤٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٤٣﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٤٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ

وَأَعْتَصِمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمْرُؤُا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أُتْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

المناسبة: لما حكى تعالى جرائم اليهود التي من ضمنها كفرهم بعيسى ومحمد وزعمهم أنهم صلبوا المسيح، ذكر تعالى هنا أن الإيمان بجميع الرسل شرط لصحة الإيمان، وأنه أرسل سائر المرسلين مبشرين ومنذرين، ثم دعا النصارى إلى عدم الغلو في شأن المسيح باعتقادهم فيه أنه ابن الله أو ثالث ثلاثة، فليس هو ابن الله كما يزعم النصارى وليس ابن زنى كما يزعم اليهود فكلما الفريقين واقع بين الإفراط والتفريط، ثم ختمت السورة الكريمة بما ابتدأت به من رعاية حقوق الورثة من الأقرباء.

اللغة: ﴿تَعْلُوا﴾ الغلو: مجاوزة الحد ومنه غلا السعر ﴿يَسْتَنْكِفُ﴾ يأنف والاستنكاف الأنفة والترفع قال الزجاج: مأخوذ من نكفت الدمع إذا نحيته بأصبعك عن خدك ﴿بُرْهَنٌ﴾ البرهان: الدليل والمراد به هنا المعجزات ﴿وَأَعْتَصِمُوا﴾ لا ذوا ولجأوا والعصمة الامتناع ﴿الْكَلَالَةُ﴾ من لا ولد له ولا والد وقد تقدم.

سَبَبُ النَّزُولِ: جاء وفد من النصارى إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد: لم تعيب صاحبنا؟ قال: ومن صاحبكم؟ قالوا عيسى قال: وأي شيء أقول فيه؟ قالوا تقول: إنه عبد الله ورسوله، فقال لهم: إنه ليس بعار أن يكون عبداً لله قالوا: بلى فأنزل الله ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ الآية (١).

التفسير: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي نحن أوحينا إليك يا محمد كما أوحينا إلى نوح والأنبياء من بعده، وإنما قدم ﷺ في الذكر وإن تأخرت نبوته لتقدمه في الفضل ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ﴾ أي وأوحينا إلى سائر النبيين إبراهيم وإسماعيل الخ، خصص تعالى بالذكر هؤلاء تشرiffاً وتعظيماً لهم وبدأ بعد محمد ﷺ بنوح لأنه شيخ الأنبياء وأبو البشر الثاني ثم ذكر إبراهيم لأنه الأب الثالث ومنه تفرعت شجرة النبوة كما قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] وقدم عيسى على أنبياء كانوا قبله لشدة العناية بأمره لغلو اليهود في الطعن فيه والنصارى وفي تقديمه ﴿وَعَائِشَةَ دَاوُدَ زُورًا﴾ أي وخصصنا داود بالزبور قال «القرطبي»: كان فيه مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم من الأحكام وإنما

هي حِكْمٌ ومواعظ^(١) ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي وأرسلنا رسلاً منهم من ذكرنا أخبارهم لك يا محمد في غير هذه السورة ﴿وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ أي ورسلاً آخرين لم نخبرك عن أحوالهم ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ أي وخصَّ الله موسى بأن كلمه بلا واسطة ولهذا سُمي الكليم، وإنما أكَّد ﴿تَكْلِيمًا﴾ رفعا لاحتمال المجاز قال ثعلب: لولا التأكيد لجاز أن تقول: قد كلمت لك فلانا بمعنى كتبت إليه رقعة أو بعثت إليه رسولا فلما قال تكلِيمًا لم يكن إلا كلاما مسموعا من الله تعالى^(٢) ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ أي يبشرون بالجنة من أطاع وينذرون بالنار من عصى ﴿لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ أي بعثهم الله ليقطع حجة من يقول لو أرسل إليَّ رسول لآمنت وأطعت فقطع الله حجة البشر بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي عزيزا في ملكه حكيما في صنعه، ثم ذكر تعالى رداً على اليهود حين أنكروا نبوة محمد فقال ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ أي إن لم يشهد لك هؤلاء بالنبوة فالله يشهد لك بذلك بما أنزل إليك من القرآن المعجز ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ أي أنزله بعلمه الخاص الذي لا يعلمه غيره بأسلوب يعجز عنه كل بليغ، والملائكة يشهدون كذلك بما أنزل الله إليك ويشهدون بنبوتك ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي كفى الله شاهداً فشهادته تعالى تغنيك وتكفيك وإن لم يشهد غيره ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي كفروا بأنفسهم ومنعوا الناس عن الدخول في دين الله قد ضلوا عن طريق الرشاد ضلالاً بعيداً لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال فضلالهم في أقصى الغايات ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾ قال الزمخشري: أي جمعوا بين الكفر والمعاصي^(٣) ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَخْغِرْ لَهُمْ وَلَا يَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ أي لن يعفو الله عنهم ولن يهديهم إلى طريق الجنة لأنهم ماتوا على الكفر ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي لن يهديهم إلا إلى الطريق الموصلة إلى جهنم جزاء لهم على ما أسلفوه من الكفر والظلم مخلدين فيها أبداً ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي تخليدهم في جهنم لا يصعب عليه ولا يستعظمه ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي يا أيها الناس قد جاءكم محمد بالدين الحق والشرعية السمحة من عند ربكم ﴿فَقَامُوا خَيْرَ لَكُمْ﴾ أي صدقوا ما جاءكم من عند ربكم يكن الإيمان خيراً لكم ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي وإن تستمروا على الكفر فإن الله غني عنكم لا يضره كفركم إذ لو له ما في الكون ملكاً وخلقاً وعبداً ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي عليماً بأحوال العباد حكيماً فيما دبره لهم، ولما ردَّ تعالى على شبه اليهود فيما سبق أخذ في الرد على ضلالات

(١) «القرطبي» ٦.

(٢) البحر ٣/٣٩.

(٣) وقال «الطبري»: أي جحدوا رسالة محمد ﷺ فكفروا بالله وظلموا بمقامهم على الكفر.

النصارى في إفراطهم في تعظيم المسيح حيث عبدوه من دون الله فقال ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لَا تَعْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أي يا معشر النصارى لا تتجاوزوا الحد في أمر الدين بإفراطكم في شأن المسيح وادعاء ألوهيته ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أي لا تصفوا الله بما لا يليق من الحلول والاتحاد^(١) واتخاذ الصاحبة والولد ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي ما عيسى إلا رسول من رسل الله وليس ابن الله كما زعمتم ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أي وقد خلق بكلمته تعالى «كن» من غير واسطة أب ولا نطفة ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي ذو روح مُبْتَدَأَةٌ من الله^(٢) وهو أثر نفخة جبريل في صدر مريم حيث حملت بتلك النفخة بعيسى، وإنما أضيف إلى الله تشريفاً وتكريماً ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي آمنوا بوحدانيته وصدقوا رسله أجمعين ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ أي لا تقولوا الآلهة ثلاثة: الله، والمسيح، ومريم، أو الله ثلاثة: الأب والابن وروح القدس، فنهاهم تعالى عن التثليث وأمرهم بالتوحيد لأن الإله منزّه عن التركيب وعن

(١) (ش): الحلول والاتحاد من العقائد الكُفْرِيَّة: والحلول: هو الاعتقاد بحلول الله - عز وجل - في مخلوقاته، أو بعض مخلوقاته. وينقسم الحلول إلى قسمين: ١- حلول عام: وهو اعتقاد أن الله تعالى قد حلَّ في كل شيء. ٢- حلول خاص: وهو اعتقاد أن الله - جل وعلا - قد حلَّ في بعض مخلوقاته، كاعتقاد بعض فرق النصارى أن الله جل وعلا - حلَّ بعيسى عليه السلام -، وكذلك اعتقاد بعض غلاة الرافضة - كالنصيرية - أن الله - عز وجل - حلَّ في علي بن أبي طالب، وأنه هو الإله؛ حيث حلت فيه الألوهية، وذلك من عقائدهم الأساسية. والاتحاد: هو الاعتقاد باتحاد الله - عز وجل - بمخلوقاته، أو ببعض مخلوقاته. أي: اعتقاد أن وجود الكائنات أو بعضها هو عين وجود الله تعالى. و«الاتحاد» ينقسم إلى قسمين: ١- الاتحاد العام - وهو ما يطلق عليه أيضاً: «وحدة الوجود» - وهو اعتقاد كون الوجود هو عين الله عز وجل. بمعنى: أن الخالق متحد بالمخلوقات جميعها، وهذا هو معنى «وحدة الوجود»، والقائلون به يسمون «الاتحادية»، أو «أهل وحدة الوجود»، كابن الفارض، وابن عربي، وغيرهما. ٢- الاتحاد الخاص: هو اعتقاد أن الله عز وجل اتحد ببعض المخلوقات دون بعض. فالقائلون بذلك نزوه من الاتحاد بالأشياء القادرة القبيحة، فقالوا: إنه اتحد بالأنبياء، أو الصالحين، أو الفلاسفة، أو غيرهم، فصاروا هم عين وجود الله جل وعلا. الفرق بينهما يتلخص فيما يلي: ١- أن الحلول إثبات لوجودين، بخلاف الاتحاد فهو إثبات لوجود واحد. ٢- أن الحلول يقبل الانفصال، أما الاتحاد فلا يقبل الانفصال. ومن الأمثلة التي يتيبن بها الفرق بين الحلول والاتحاد: أ. السُّكَّر إذا وضعته في الماء دون تحريك: فهو حلول؛ لأنه ثمَّ ذاتان، أما إذا حركته فذاب في الماء: صار اتحاداً؛ لأنه لا يقبل أن ينفصل مرة أخرى. أما لو وضعت شيئاً آخر في الماء كأن تضع حصة: فهذا يسمَّى حلولاً، لا اتحاداً؛ لأن الحصة شيء، والماء شيء آخر، وهما قابلان للانفصال. ولا ريب أن القول بالحلول أو الاتحاد هو من أعظم الكفر والإلحاد - عياداً بالله - ولكن الاتحاد أشد من الحلول؛ لأنه اعتقاد ذاتٍ واحدة، بخلاف الحلول، ثم إن القول بأنه اتحد في كل شيء أعظم من القول بأنه اتحد في بعض مخلوقاته. وبالجملة: فإن اعتقاد «الحلول والاتحاد» اعتقاد ظاهر البطلان، وقد جاء الإسلام بمحوه من عقول الناس؛ لأنه اعتقاد مأخوذ من مذاهب وفلسفات ووثنيات هندية ويونانية ويهودية ونصرانية وغيرها، تقوم على الدجل، والخرافة.

(٢) (ش): ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي من الأرواح التي خلقها الله عز وجل.

نِسْبَةِ الْمُرَكَّبِ إِلَيْهِ ^(١) ﴿أَنْتَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي انتهوا عن التثليث يكن ذلك خيراً لكم ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ أي منفرد في ألوهيته ليس كما تزعمون أنه ثالث ثلاثة ﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي تنزه الله عن أن يكون له ولد ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً وعبداً وهو تعالى لا يماثله شيء حتى يتخذه ولداً ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ تنبيه على غناه عن الولد أي كفى الله أن يقوم بتدبير مخلوقاته وحفظها فلا حاجة له إلى ولد معين لأنه مالك كل شيء، ثم ردّ تعالى على النصارى مزاعمهم الباطلة فقال ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ أي لن يأنف ويتكبر المسيح الذي زعمتم أنه إله عن أن يكون عبداً لله ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي لا يستنكفون أيضاً أن يكون عبيداً لله ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ أي ومن يأنف ويتكبر عن عبادة الله سبحانه فسيعذبهم يوم القيامة للحساب والجزاء ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي يوفيهم ثواب أعمالهم ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي بإعطائهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وأما الذين أنفوا وتعظموا عن عبادته فسيعذبهم عذاباً موجعاً شديداً ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي ليس لهم من يتولاهاهم أو ينصرهم من عذاب الله ﴿يَتَأَيَّمُوا النَّاسُ فَدَجَاءَكُمْ بُرْهَنٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي أتاكم حجة من الله وهو محمد رسول الله المؤيد بالمعجزات الباهرة ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ تُورًا مُبِينًا﴾ أي أنزلنا عليكم القرآن ذلك النور الوضاء ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ أي صدقوا بوحدانية الله وتمسكوا بكتابه المنير ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ﴾ أي سيدخلهم في جنته دار الخلود ^(٢) ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي يهديهم إلى دين الإسلام في الدنيا وإلى طريق الجنة في الآخرة ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ أي يستفتونك يا محمد في شأن الميت إذا لم يكن له والد أو ولد من يرثه ﴿إِنْ أَمْرُهُ أَهْلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي قل لهم من مات وليس له والد أو ولد وهي الكلاله ﴿وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ أي وله أخت شقيقة أو أخت لأب فلها نصف ما ترك أخوها ﴿وَهُوَ بِرِثَتِهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ أي وأخوها الشقيق أو لأب يرث جميع ما تركت إن لم يكن لها ولد ﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ أي إن كانت الأختان اثنتين فأكثر فلهما الثلثان مما ترك أخوهما ﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا

(١) (ش): ليس هذا من تعبيرات السلف. والتركيب لم يرد نفيه ولا إثباته في حق الله تعالى فيجب السكوت عنه، والحق أن يقال ما قاله الله عن نفسه: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾. والأصل الذي عليه أهل السنة والجماعة: أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ، فلا يتجاوز القرآن والحديث.

(٢) (ش): فالجنة أثر من آثار رحمته تعالى، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، في جوار أرحم الراحمين سبحانه وتعالى.

وَيَسَاءَ فَلَلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيْنِ ﴿١﴾ أَي وَإِنْ كَانَ الْوَرِثَةُ مَخْتَلَطِينَ إِخْوَةً وَأَخَوَاتٍ فَلِلذَكَرِ مِنْهُمْ مِثْلُ نَصِيبِ الْأُنثَيْنِ ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ أَي يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَحْكَامَهُ وَشَرَائِعَهُ خَشِيَةً أَنْ تَضِلُّوا ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أَي يَعْلَمُ مَا فِيهِ مَصْلَحَتُكُمْ وَمَنْفَعَتُكُمْ فَهُوَ تَعَالَى الْعَالَمِ بِمَصَالِحِ الْعِبَادِ فِي الْحَيَاةِ وَالْمَمَاتِ.

البلاغه: ١ - تخصيص بعض الأنبياء بالذكر ﴿كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ﴾ الخ للتشريف وإظهار فضل المذكورين وفيه تشبيه يسمى «مرسلاً مفصلاً» .

٢ - قوله ﴿يَتَأَهَّلَ الْكَتَبُ﴾ اللفظ للعموم ويراد منه الخصوص وهم «النصارى» بدليل قوله بعده ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ وهي قوله النصارى.

٣ - قوله ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ فيه قصر وهو من نوع قصر موصوف على صفة.

٤ - في قوله ﴿يَشْهَدُونَ... شَهِيدًا﴾ جناس الاشتقاق.

الفوائد: لفظة «من» تكون للتبويض وقد تأتي لابتداء الغاية كما في قوله تعالى ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ يحكى أن طبيباً نصرانياً للرشيدي ناظر الإمام الواقدي ذات يوم فقال له: إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى جزء من الله وتلا هذه الآية ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ فقال الواقدي قال تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] فيجب إذا كان عيسى جزءاً من الله أن يكون ما في السماوات وما في الأرض جزءاً منه فانقطع النصراني وأسلم، وفرح الرشيدي بذلك فرحاً شديداً ووصل الواقدي بصلة عظيمة^(١).

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النساء»

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

١٢٠

مدنية وآياتها عشرون ومائة

بين يدي السورة

✽ **سورة المائدة** من السور المدنية الطويلة، وقد تناولت كسائر السور المدنية جانب التشريع بإسهاب مثل سورة البقرة، والنساء، والأنفال، إلى جانب موضوع العقيدة وقصص أهل الكتاب، قال أبو ميسرة: المائدة من آخر ما نزل من القرآن ليس فيها منسوخ وفيها ثمانى عشرة فريضة^(١).

✽ **نزلت هذه السورة** ورسول الله ﷺ من الحديدية، وجماعها يتناول الأحكام الشرعية لأن الدولة الإسلامية كانت في بداية تكوينها وهي بحاجة إلى المنهج الرباني الذي يعصمها من الزلل، ويرسم لها طريق البناء والاستقرار.

✽ **أما الأحكام** التي تناولتها السورة فنلخصها فيما يلي: «أحكام العقود، الذبائح، الصيد، الإحرام، نكاح الكتابيات، الردة، أحكام الطهارة، حد السرقة، حد البغي والإفساد في الأرض، أحكام الخمر والميسر، كفارة اليمين، قتل الصيد في الإحرام، الوصية عند الموت، البحيرة والسائبة، الحكم على من ترك العمل بشريعة الله» إلى آخر ما هنالك من الأحكام التشريعية.

✽ وإلى جانب التشريع قص تعالى علينا في هذه السورة بعض القصص للعظة والعبرة، فذكر قصة بني إسرائيل مع موسى وهي قصة ترمز إلى التمرد والطغيان ممثلة في هذه الشردة الباغية من «اليهود» حين قالوا لرسولهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] وما حصل لهم من التشرد والضياع إذ وقعوا في أرض التيه أربعين سنة.

✽ **ثم قصة** ابني آدم وهي قصة ترمز إلى الصراع العنيف بين قوتي الخير والشر، ممثلة في قصة «قائيل وهابيل» حيث قتل قاييل أخاه (هابيل) وكانت أول جريمة نكراء تحدث في الأرض أريق فيها الدم البريء الطاهر، والقصة تعرض لنموذجين من نماذج البشرية: نموذج النفس الشريرة الأثيمة، ونموذج النفس الخيرة الكريمة ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠] كما ذكرت السورة قصة «المائدة» التي كانت معجزة لعيسى ابن مريم ظهرت على يديه أمام الحواريين.

والسورة الكريمة تعرض أيضاً لمناقشة «اليهود والنصارى» في عقائدهم الزائفة، حيث نسبوا إلى الله ما لا يليق من الذرية والبنين، ونقضوا العهود والمواثيق، وحرّفوا التوراة والإنجيل، وكفروا برسالة محمد عليه السلام إلى آخر ما هنالك من ضلالات وأباطيل، وقد

(١) «القرطبي» ٦/ ٣٠.

ختمت السورة الكريمة بالموقف الرهيب يوم الحشر الأكبر حيث يُدعى السيد المسيح عيسى ابن مريم على رءوس الأَشهاد ويسأله ربه تبيكياً للنصارى الذين عبدوه من دون الله ﷻ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَإِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ ﷻ ويا له من موقف مخزٍ لأعداء الله، تشيب لهوله الرءوس، وتتفطر من فزعها النفوس!

فضلها: عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بن العاص رضي الله عنه قال: أنزلت على رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سُورَةُ الْمَائِدَةِ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى رَاحِلَتِهِ، فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَحْمِلَهُ، فَنَزَلَ عَنْهَا^(١).

التسمية: سميت سورة «المائدة» [لمجيء] ذكر المائدة فيها حيث طلب الحواريون من عيسى عليه السلام آية تدل على صدق نبوته وتكون لهم عيداً وقصتها أعجب ما ذكر فيها لاشتمالها على آيات كثيرة ولطف عظيم من الله العلي الكبير.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ① يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْلُوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَافِينَ اللَّيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَن صَدَّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ② حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنَازِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، وَالْمُخْنَقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُرْدِيَّةُ وَالطَّيْحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّعِىُّ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبَحَ عَلَى النُّصَبِ وَأَن تَسْنَقُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فَسُقُ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْطَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ③ سَأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ يَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَنْقُوا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ④ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْنَهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ⑤ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَجْزَائِكُم إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا

(١) أخرجه أحمد. (ش): صححه الشيخ أحمد شاكر.

بُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ
وَلِيُنِمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِثْلَهُ الَّذِي
وَأَنفَكَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
كُونُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ
لِلتَّقْوَىٰ وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾

اللغة: ﴿إِلْعُقُودٌ﴾ أصل العقد في اللغة: الربط تقول: عقدتُ الحبل بالحبل، ثم استعير
للمعاني قال الزمخشري: العقد العهد الموثق شبه بعقد الحبل قال الحطيئة:

قَوْمٌ إِذَا عَقَدُوا عَقْدًا لِحَارِهِمْ شَدُّوا الْعِنَاجَ وَشَدُّوا فَوْقَهُ الْكِرْبَا^(١)

﴿بِهَيْمَةٍ أَلَانَعِمَ﴾ البهيمة ما لا نطق له لما في صوته من الإبهام، والأنعام جمع نَعَم وهي الإبل
والبقر والغنم ﴿أَلْقَلَدِيدَ﴾ جمع قلادة وهي ما يُقْلَدُ به الهدى من لحاء الشجر ليُعلم أنه هدي^(٢)
﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ يكسبنكم يقال: جرم ذنباً أي كسبه وأجرم اكتسب الإثم ﴿شَنَانُ﴾ الشنان:
البغض ﴿وَالْمَوْفُودَةُ﴾ الوقذ: ضرب الشيء حتى يسترخي ويشرف على الموت ﴿النُّصْبُ﴾
صنمٌ وحجر كانت الجاهلية تنصبه وتذبح عنده وجمعه أنصاب كذا في «اللسان» ﴿بِالْأَزْلَامِ﴾
القداح جمع زَلَمَ كان أحدهم إذا أراد سفراً أو غزواً أو تجارة ضرب بالقداح وهو الاستقسام
بالأزلام^(٣) ﴿مَخْبَصَةٍ﴾ مجاعة لأن البطون فيها تُخَمَص، أي تضمُر والخَمَصُ ضمور البطن
﴿الْجَوَارِحُ﴾ الكواصب من سباع البهائم والطيور كالكلب والفهد والصقر والشاهين.

سَبَبُ النُّزُول: عن ابن عباس أن المشركين كانوا يحجون البيت ويهدون الهدايا ويعظمون
الشعائر وينحرون، فأراد المسلمون أن يُغيروا عليهم فنزلت ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ
اللَّهِ...﴾^(٤) الآية.

«التفسير»: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ الخطاب بلفظ الإيمان للتكريم والتعظيم
أي يا معشر المؤمنين أوفوا بالعقود وهو لفظ يشمل كل عقدٍ وعهد بين الإنسان وربّه وبين

(١) «الكشاف» ٤٦٦/١. (ش:) الْعِنَاجُ: حَبْلٌ أَوْ سَيْرٌ يُشَدُّ تَحْتَ الدَّلْوِ وَيَتَصَلُّ طَرَفَاهُ مِنْ أَعْلَاهَا بِمَا تَتَصَلُّ بِهِ أَذَانَهَا
فَإِذَا انْقَطَعَتْ أَذَانُهَا أَمْسَكَهَا أَنْ تَقَعَ فِي الْبُئْرِ، وَالْكَرْبُ: الْحَبْلُ الَّذِي يُشَدُّ عَلَى الدَّلْوِ، بَعْدَ الْمَمِينِ، وَهُوَ الْحَبْلُ
الْأَوَّلُ، فَإِذَا انْقَطَعَ الْمَمِينُ بَقِيَ الْكَرْبُ. وهذه أمثال ضربها الحطيئة لإيفائهم بالعهد.

(٢) (ش:) قَلَدُهُ قِلَادَةٌ: وَضَعَهَا فِي عُنُقِهِ، كَانُوا يَضَعُونَ الْقِلَادَةَ، وَهِيَ ضِفَائِرٌ مِنْ صُوفٍ أَوْ وَبَرٍ فِي الرِّقَابِ عِلَامَةٌ
عَلَى أَنَّ الْبَهِيمَةَ هَدْيٌ وَأَنَّ الرَّجُلَ يَرِيدُ الْحَجَّ، وَالْهَدْيُ: مَا يُهْدَى إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ - الْإِبِلِ
وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ - تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

(٣) «البحر» ٤١٠/٣.

(٤) «الطبري» ٤٦٣/٩. (ش:) حسن، أخرجه «الطبري» في «جامع البيان»، وابن أبي حاتم.

الإنسان والإنسان قال ابن عباس: العقود العهود وهي ما أحلَّ الله وما حرَّم وما فرض في القرآن كله من التكليف والأحكام^(١) ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أي أُبيح لكم أكل الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم بعد ذبحها إلا ما حرَّم عليكم في هذه السورة وهي الميتة والدم ولحم الخنزير إلخ غَيْرَ مُحِلَّى الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ﴿أي أُحِلَّتْ لَكُمْ هذه الأشياء من غير أن تستحلوا الصيد وأنتم محرمون﴾ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿أي يقضي في خلقه بما يشاء لأنه الحكيم في أمره ونهيه﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْلُوا شَعِيرَ اللَّهِ ﴿أي لا تستحلوا حُرُمَاتِ اللَّهِ ولا تتعدوا حدوده قال الحسن: يعني شرائعه التي حدّها لعباده وقال ابن عباس: ما حرَّم عليكم في حال الإحرام^(٢)﴾ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ ﴿أي ولا يستحلوا الشهر الحرام بالقتال فيه، ولا ما أهدي إلى البيت أو قُلْد بقلادة ليعرف أنه هدي بالتعرض له ولأصحابه﴾ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْبَغُونَ فَضُلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ﴿أي ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام لحج أو عمرة، نهى تعالى عن الإغارة عليهم أو صدهم عن البيت كما كان أهل الجاهلية يفعلون﴾ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴿أي إذا تحللتم من الإحرام فقد أُبيح لكم الصيد﴾ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا ﴿أي لا يحملنكم بغض قوم كانوا قد صدوكم عن المسجد الحرام على أن تعتدوا عليهم﴾ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴿أي تعاونوا على فعل الخيرات وترك المنكرات، وعلى كل ما يقرب إلى الله﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿أي خافوا عقابه فإنه تعالى شديد العقاب لمن عصاه﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ ﴿أي حُرِّمَ عليكم أيها المؤمنون أكل الميتة وهي ما مات حتف أنفه من غير ذكاة والدم المسفوح ولحم الخنزير قال الزمخشري: كان أهل الجاهلية يأكلون هذه المحرمات: البهيمة التي تموت حتف أنفها والفصيد وهو الدم في الأمعاء يشوونه ويقولون: لم يحرم من فُزد - أي فصد - له^(٣) وإنما ذكر لحم الخنزير لبيّن أنه حرام بعينه حتى ولو ذبح بالطريق الشرعي﴾ وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴿أي ما ذكر عليه غير اسم الله أو ذبح لغير الله كقولهم: باسم اللات والعزى﴾ وَالْمُنْخَنِقَةُ ﴿هي التي تُخنق بحبل وشبهه﴾ وَالْمَوْفُوذَةُ ﴿هي المضروبة بعصا أو حجر﴾ وَالْمَرْدِيَّةُ ﴿هي التي تسقط من جبل ونحوه﴾ وَالنَّطِيطَةُ ﴿هي التي نطحتها بهيمة أخرى فماتت بالنطح﴾ وَمَا أَكَلَ السَّعُعُ ﴿أي أكل بعضه﴾

(١) هذا القول اختاره «الطبري» والزمخشري، والأرجح العموم فهو أمر بالوفاء بكل عقد وهو اختيار صاحب «البحر» وجمع من المفسرين. قال ابن أسلم هي ستة: عهد الله، وعقد الحلف، وعقد الشركة، وعقد البيع، وعقد النكاح، وعقد اليمين كذا في «ابن كثير».

(٢) القول الأول أرجح وهو اختيار «الطبري» لعموم الآية.

(٣) «الكشاف» ١/ ٤٦٨.

السبع فمات ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ أي إلا ما أدركتم فيه الروح من هذه الأشياء فذبحتموه الذبح الشرعي قبل الموت قال «الطبري» معناه: إلا ما طهرتموه بالذبح الذي جعله الله طهوراً^(١) ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ أي وما ذبح على الأحجار المنصوبة قال قتادة: النُّصُبُ حجارة كان أهل الجاهلية يعبدونها ويذبحون لها فنهى الله عن ذلك قال الزمخشري: كانت لهم حجارة منصوبة حول البيت يذبحون عليها ويُسَرِّحون اللحم عليها، يعظمونها بذلك ويتقربون به إليها فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع ﴿وَأَنْ تَسَنَّفِسُوا بِالْأَزْلَمِ﴾ أي وحُرِّم عليكم الاستقسام بالأزلام أي طلب معرفة ما قُسم له من الخير والشر بواسطة ضرب القداح قال في «الكشاف»: كان أحدهم إذا أراد سفراً أو غزواً أو تجارة أو نكاحاً أو أمراً من معازم الأمور ضرب بالقداح وهي مكتوب على بعضها: نهاني ربي، وعلى بعضها أمرني ربي، وبعضها غُفْلٌ^(٢) فإن خرج الأمر مضى لغرضه وإن خرج الناهي أمسك وإن خرج الغفل أعاد^(٣) ﴿ذَلِكَكُمْ فَسْقٌ﴾ أي تعاطيه فسقٌ وخروجٌ عن طاعة الله لأنه دخولٌ في علم الغيب الذي استأثر الله به علام الغيوب^(٤) ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ أي انقطع طمع الكافرين منكم ويئسوا أن ترجعوا عن دينكم قال ابن عباس: يئسوا أن ترجعوا إلى دينهم أبداً ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ﴾ أي لا تخافوا المشركين ولا تهابوهم وخافون أنصركم عليهم وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أي أكملت لكم الشريعة ببيان الحلال والحرام ﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ بالهداية والتوفيق إلى أقوم طريق ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أي اخترت لكم الإسلام ديناً من بين الأديان وهو الدين المرضي الذي لا يقبل الله ديناً سواه ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَحْصَةِ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي فمن ألجأته الضرورة إلى تناول شيء من المحرمات المذكورة، في مجاعة حال كونه غير مائل إلى الإثم ولا متعمد لذلك، فإن الله لا يؤاخذ به بأكمله، لأن الضرورات تبيح المحظورات ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ﴾ أي يسألونك يا محمد ما الذي أحل لهم من المطاعم والمأكول؟ ﴿قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ أي قل لهم: أبيح لكم المستلذات وما ليس منها بخبيث، وحُرِّم كل مستقذر كالخنافس والفئران وأشباهاها ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ أي وأحل لكم صيد ما علمتم من الجوارح وهي الكلاب ونحوها مما يُصطاد به ﴿مُكَلِّينَ﴾ أي مُعلمين للكلاب الاصطياد قال الزمخشري: المكَلَّبُ

(١) «الطبري» ٩/ ٥٠٢.

(٢) (ش): غُفْلٌ: ليس فيها علامة.

(٣) «الكشاف» ١/ ٤٦٩.

(٤) هذا إذا قلنا إن الإشارة عائدة على الاستقسام بالأزلام لعوده على أقرب المذكور وهو قول ابن عباس وهو الراجح، واختار «الطبري» أن الإشارة تعود إلى المحرمات. وكل صحيح.

مؤدب الجوارح ورائضها واشتقاقه من الكلب، لأن التأديب أكثر ما يكون في الكلاب^(١) ﴿تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ أي تعلمونهن طرق الاصطياد وكيفية تحصيل الصيد، وهذا جزء مما علمه الله للإنسان ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ أي فكلوا مما أمسكن لكم من الصيد إذا لم تأكل منه، فإن أكلت فلا يحل أكله لحديث «إِذَا أُرْسِلَتْ كَلْبُكَ الْمُعَلَّمُ فَقَتَلَ فُكُلًا، وَإِذَا أَكَلَ فَلَا تَأْكُلْ، فَإِنَّمَا أَمْسَكَهُ عَلَى نَفْسِهِ»^(٢) وعلامة المعلم أن يسترسل إذا أرسل، وينزجر إذا زجر، وأن يمسك الصيد فلا يأكل منه، وأن يذكر اسم الله عند إرساله فهذه أربعة شروط لصحة الأكل من صيد الكلب المعلم^(٣) ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي عند إرساله ﴿وَأَنْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي راقبوا الله في أعمالكم فإنه سريع المجازاة للعباد ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ أي أبيع لكم المستلذات من الذبائح وغيرها ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ أي ذبائح اليهود والنصارى حلال لكم ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ أي ذبائحكم حلال لهم فلا حرج أن تطعموهم وتبيعوهم لهم ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي وأبيع لكم أيها المؤمنون زواج الحرائر العفيفات من المؤمنات ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي وزواج الحرائر من الكتابيات (يهوديات أو نصرانيات) وهذا رأي الجمهور وقال عطاء: قد أكثر الله المسلمات وإنما رخص لهم يومئذ^(٤) ﴿إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أي إذا دفعتم لهن مهرهن ﴿مُحْصَنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ﴾ أي حال كونكم أعفاء بالنكاح غير مجاهرين بالزنى ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ أي وغير متخذين عشيقات وصديقات تزنون بهن سرًا قال «الطبري»: المعنى ولا منفردًا ببغيه قد خادنها وخادنته واتخذها

(١) «الكشاف» ١/ ٤٧١.

(٢) أخرجه البخاري من حديث عدي بن حاتم.

(٣) (ش): لم يذكر المؤلف إلا شرطين: التعليم وذكر اسم الله.

(٤) (ش): الزواج من اليهودية أو النصرانية جائز في قول جماهير أهل العلم، قال ابن المنذر: ولا يصح عن أحد من الأوائل أنه حرم ذلك، والنصارى واليهود كفار مشركون بنص القرآن، لكن إباحة نساءهم مخصص لقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١] وهذا أظهر الوجوه في الجمع بين الآيتين. وقد وصفهم الله بالشرك في قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١] فهم كفار مشركون، لكن الله تعالى أحل ذبائحهم ونساءهم إذا كن محصنات، وهذا تخصيص لعموم آية البقرة. لكن ينبغي أن يُعلم أن الأولى والأسلم ترك نكاح الكتابيات، لاسيما في هذا الزمن، قال الشيخ ابن باز رحمه الله: (إذا كانت الكتابية معروفة بالعفة والبعد عن وسائل الفواحش جاز؛ لأن الله أباح ذلك وأحل لنا نساءهم وطعامهم. لكن في هذا العصر يخشى على من تزوجهن شر كثير، وذلك لأنهن قد يدعونهن إلى دينهن وقد يسبب ذلك تنصّر أولاده، فالخطر كبير، والأحوط للمؤمن ألا يتزوجها، ولأنها لا تؤمن في نفسها في الغالب من الوقوع في الفاحشة، وأن تعلق عليه أولادًا من غيره... لكن إن احتاج إلى ذلك فلا بأس حتى يعف بها فرجه ويغض بها بصره، ويجتهد في دعوتها إلى الإسلام، والحذر من شرها وأن تجره هي إلى الكفر أو تجر الأولاد) اهـ. فتاوى إسلامية ٣/ ١٧٢.

لنفسه صديقة يفجر بها^(١) ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ أي ومن يرتد عن الدين ويكفر بشرائع الإيمان فقد بطل عمله وهو من الهالكين، ثم أمر تعالى بإسباغ الوضوء عند الصلاة فقال ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة وأنتم مُحَدِّثُونَ^(٢) ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ أي اغسلوا الوجوه والأيدي مع المرافق ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ أي امسحوا رؤوسكم واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين أي معهما قال الزمخشري: وفائدة المجيء بالغاية ﴿إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ لدفع ظن من يحسبها ممسوحة لأن المسح لم تضرب له غاية في الشريعة وفي الحديث: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ»^(٣) وهذا الحديث يردُّ على الإمامية الذين يقولون بأن الرجلين فرضهما المسح لا الغسل، والآية صريحة لأنها جاءت بالنصب^(٤) ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ فهي معطوفة على المغسول وجيء بالمسح بين المغسولات لإفادة الترتيب ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ أي إن كنتم في حالة جنابة فطهروا بغسل جميع البدن ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أي إن كنتم مرضى ويضركم الماء، أو كنتم مسافرين ولم تجدوا الماء ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ أي أتى من مكان البراز ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ أي جامعتموهن ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أي ولم تجدوا الماء بعد طلبه فاقصدوا التراب الطاهر للتميم به ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ أي امسحوا وجوهكم وأيديكم بالتراب بضربتين كما وضحت السنة النبوية ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي ما يريد بما فرض عليكم من الوضوء والغسل والتميم تضييقاً عليكم ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي يطهركم من الذنوب وأدناس الخطايا بالوضوء والتميم، ولتيم نعمته عليكم ببيان شرائع الإسلام لتشكروه على نعمه التي لا تحصى ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ الخطاب للمؤمنين والنعمة هنا للإسلام وما صاروا إليه من اجتماع الكلمة والعزة، أي: اذكروا يا أيها المؤمنون نعمة الله العظمى عليكم بالإسلام وعهده الذي عاهدكم عليه رسوله حين بايعتموه على السمع والطاعة

(١) «الطبري» ٥٩٠/٩.

(٢) (ش): الْحَدَّثُ: هو وصف قائم بالبدن يمنع من الصلاة ونحوها مما يشترط له الطهارة. وهو نوعان: حدث أصغر؛ وهو الذي يقوم بأعضاء الوضوء كالخارج من السبيلين من بول وغائط، ويرتفع هذا بالوضوء، وحدث أكبر؛ وهو الذي يقوم بالبدن كله، كالجنابة، وهذا يرتفع بالغسل.

(٣) «الكشاف» ٤٧٤/١. (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٤) (ش): الإمامية: الشيعة، وقد ورد في كتبهم المعتبرة عندهم روايات عن الأئمة الذين يدعون أنهم معصومون تُناقض ما ذهبوا إليه، بل تدل على وجوب تخليل أصابع القدمين.

في العسر واليسر، والمنشط والمكره ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي اتقوا الله فإنه عالم بخفايا نفوسكم فيجازيكم عليها ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ أي كونوا مبالغين في الاستقامة بشهادتكم لله وصيغة (قوام) للمبالغة ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ أي تشهدون بالعدل ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ أي لا يحملنكم شدة بغضكم للأعداء على ترك العدل فيهم والاعتداء عليهم ﴿أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي العدل مع من تبغضونهم أقرب لتقواكم لله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي مطلع على أعمالكم ومجازيكم عليها قال الزمخشري: وفي هذا تنبيه عظيم على أن العدل إذا كان واجباً مع الكفار الذين هم أعداء الله وكان بهذه الصفة من القوة، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه^(١) ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي وعد الله المؤمنين المطيعين ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي لهم في الآخرة مغفرة للذنوب وثواب عظيم وهو الجنة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ لما ذكر مآل المؤمنين المتقين وعاقبتهم ذكر مآل الكافرين المجرمين وأنهم في دركات الجحيم دائمون في العذاب قال أبو حيان: وقد جاءت الجملة فعلية بالنسبة للمؤمنين متضمنة الوعد بالماضي الذي هو الدليل على الوقوع، وفي الكافرين جاءت الجملة إسمية دالة على ثبوت هذا الحكم لهم وأنهم أصحاب النار فهم دائمون في عذاب الجحيم^(٢).

البلاغة: ١ - ﴿لَا تَحِلُّوْا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ فيه استعارة استعار الشعيرة وهي العلامة للمتعبات التي تعبد الله بها العباد من الحلال والحرام.

٢ - ﴿وَلَا أَلْفَلَكِيَدَ﴾ أي ذوات القلائد وهي من باب عطف الخاص على العام لأنها أشرف الهدى كقوله: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: ٩٨].

٣ - ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة.

٤ - ﴿وَطَعَامَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أطلق العام وأراد به الخاص وهو الذبائح.

٥ - ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ﴾ بينهما طباق لأن معنى محصنين أي أعفاء ومسافحين أي زناة.

٦ - ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة فعبر عن إرادة الفعل بالفعل وأقام المسبب مقام السبب للملازمة بينهما^(٣)، وفي الآية إيجاز بالحذف أيضاً إذا قمتم إلى الصلاة وأنتم محدثون.

(١) «الكشاف» ١/ ٤٧٦.

(٢) «البحر» ٣/ ٤٤١.

(٣) أفاده الزمخشري في «الكشاف» ١/ ٤٧٣.

الفوائد الأولى: يحكى أن أصحاب الكِنْدِيِّ - الفيلسوف - قال له أصحابه: أيها الحكيم إعمل لنا مثل هذا القرآن فقال: نعم أعمل مثل بعضه، فاحتجب أياماً كثيرة ثم خرج فقال: والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد، إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء، ونهى عن النكث، وحلّل تحليلاً عاماً، ثم استثنى استثناءً، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين ولا يقدر أحد أن يأتي بهذا إلا في مجلدات^(١).

الثانية: جرت سنة الجاهلية على مبدأ العصبية العمياء الذي عبّر عنه الشاعر الجاهلي بقوله: **وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةٍ إِنْ غَوَتْ غَوَيْتُ، وَإِنْ تَرَشَّدَ غَزِيَّةٌ أَرَشُدَ** فجاء الإسلام بهذا المبدأ الإنساني الكريم ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ وشتان بين المبدئين.

الثالثة: روي أن رجلاً من اليهود جاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تفرقونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً! قال أي آية تعني؟ قال ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية فقال عمر: إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه، والساعة التي نزلت فيها، نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية عرفة في يوم الجمعة^(٢).

قال الله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ لَا يَسْطُونَا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى

(١) «القرطبي» ٦ / ٣١.

(٢) أخرجه الشيخان.

صَرَطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأَمَّتُهُ. وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَنْقُورُ أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا عَلَى أَذْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَانْكَبُوا غُلُبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنَنْدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى ما شرعه لعباده المؤمنين في هذه السورة الكريمة من الأحكام، ومن أعظمها بيان الحلال والحرام، ذكر هنا نعمته عليهم بالهداية إلى الإسلام ودفع الشرور عنهم والآثام، ثم أعقبه ببيان نعمته تعالى على أهل الكتاب «اليهود والنصارى» وأخذ العهد والميثاق عليهم ولكنهم نقضوا العهد فألزمهم الله العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، ثم دعا الفريقين إلى الاهتداء بنور القرآن والتمسك بشريعة خاتم المرسلين، وترك ما هم عليه من ضلالات وأوهام.

اللغة: ﴿نَقِيبًا﴾ النقيب: كبير القوم الذي يبحث عن أحوالهم ومصالحهم فهو كالكفيل عن الجماعة ﴿وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾ التعزيز: التعظيم والتوقير ﴿سَوَاءُ السَّبِيلِ﴾ قصد الطريق ووسطه ﴿قَسِيَّةٌ﴾ صلبة لا تعي خيراً والقاسية والعاتية بمعنى واحد ﴿خَائِنَةٌ﴾ خيانة ويجوز أن يكون صفة للخائن كما يقال: رجل طاغية وراوية للحديث ﴿فَأَغْرَيْنَا﴾ هَيَّجْنَا وَأَلْزَمْنَا مَأْخُودٌ من الغراء، وغري بالشيء إذا لصق به ﴿فَتَرَقَّ﴾ انقطاع ﴿يَتِيهُونَ﴾ التيه: الحيرة والضياغ.

سبب النزول: أراد بنو النضير أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحي وأن يغدروا به وبأصحابه فأنزل الله ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ

يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ. ﴿١﴾ الآية.

«التفسير»: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي اذكروا فضل الله عليكم بحفظه إياكم من أعدائكم ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾^(١) أي يبطشوا بكم بالقتل والإهلاك ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ أي عصمكم من شرهم وردَّ أذاهم عنكم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي فليثق المؤمنون بالله فإنه كافيهم وناصرهم، ثم ذكر تعالى أحوال اليهود وما تنطوي عليه نفوسهم من الخيانة ونقض الميثاق فقال ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾

أي عهدهم المؤكد باليمين ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ أي وأمرنا موسى بأن يأخذ اثني عشر نقيباً - والنقيب كبير القوم القائم بأمرهم - من كل سبط^(٢) نقيب يكون كفيلاً على قومه بالوفاء بالعهد توثقاً عليهم قال الزمخشري: لما استقر بنو إسرائيل بمصر بعد هلاك فرعون أمرهم الله تعالى بالسير إلى «أريحاء» بأرض الشام كان يسكنها الكنعانيون الجبابرة وقال لهم: إني كتبته لكم داراً وقراراً فجاهدوا من فيها فإني ناصركم، وأمر موسى بأن يأخذ من كل سبط نقيباً فاختار النقباء وسار بهم فلما دنا من أرض كنعان بعثهم يتجسسون الأخبار فرأوا قوماً أجسامهم عظيمة ولهم قوة وشوكة فهابوهم ورجعوا وحدثوا قومهم وكان موسى قد نهاهم أن يتحدثوا بما يرون فنكثوا الميثاق وتحدثوا إلا اثنين منهم^(٣) ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أي ناصركم ومعينكم ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾ اللام للقسم أي وأقسم لكم يا بني إسرائيل لئن أردتم ما فرضت عليكم من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿وَوَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ أي وصدقتهم برسلي ونصرتهموهم ومنعتموهم من الأعداء ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي بالإنفاق في سبيل الخير ابتغاء مرضاة الله ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي لأمحون عنكم ذنوبكم، وهذا جواب القسم، قال «البيضاوي»: وقد سدَّ مسدَّ جواب الشرط^(٤) ﴿وَلَا دُخْلَنَكُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾

(١) (ش): ضعيف جداً، أخرجه «الطبري» في «جامع البيان».

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٤٩٦.

(٣) (ش): السبط من اليهود كالقبيلة من العرب.

(٤) «الكشاف» ١/ ٤٧٨.

(٥) «البيضاوي» ص ١٤٧ قال ابن مالك:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمٍ
جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهُوَ مُلْتَزَمٌ
(ش): القسم كالشرط في احتياجه إلى جواب إلا أن جوابه مؤكد باللام أو إن أو منفي، فإذا اجتمع شرط وقسم حُذِفَ جواب المتأخر منهما لدلالة جواب الأول عليه فتقول: إن قام زيد والله يقيم عمرو فتحذف جواب القسم لدلالة جواب الشرط عليه، وتقول: والله إن يقيم زيد ليقوم عمرو. فتحذف جواب الشرط لدلالة جواب القسم عليه.

أي تجري من تحت غرفها وأشجارها أنهار الماء واللبن والخمر والعسل ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي من كفر بعد ذلك الميثاق، فقد أخطأ الطريق السويّ وضلّ ضلالاً لا شبهة فيه ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ﴾ أي بسبب نقضهم الميثاق طردناهم من رحمتنا ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَسِيَةً﴾ أي جافة جافية لا تلين لقبول الإيمان^(١) ﴿يُخْرِفُونَ أَلْكَامَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ قال «ابن كثير»: تأولوا كتابهم - التوراة - على غير ما أنزله وحملوه على غير مراده وقالوا على الله ما لم يقل^(٢)، ولا جُرم أعظم من الاجترار على تغيير كلام الله عزّ وجلّ ﴿وَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي تركوا نصيباً وافياً مما أمروا به في التوراة ﴿وَلَا نَزَالَ تَطْلُعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ أي لا تزال يا محمد تظهر على خيانة منهم^(٣) بنقض العهود وتدبير المكاييد، فالغدر والخيانة عادتهم وعادة أسلافهم إلا قليلاً منهم ممن أسلم ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي لا تعاقبهم واصفح عمن أساء منهم، وهذا منسوخ بآية السيف والجزية كما قال الجمهور ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ﴾ أي ومن الذين ادعوا أنهم أنصار الله وسمّوا أنفسهم بذلك أخذنا منهم أيضاً الميثاق على توحيد الله والإيمان بمحمد رسول الله ﴿فَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي فتركوا ما أمروا به في الإنجيل من الإيمان بالأنبياء ونقضوا الميثاق ﴿فَاغْرَبْنَا بينهم الْعداوةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ أي ألزمتنا وألصقنا بين فرق النصارى العداوة والبغضاء إلى قيام الساعة قال «ابن كثير»: ولا يزالون متباغضين متعادين، يكفر بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً، وكل فرقة تمنع الأخرى دخول معبدها^(٤).

وهكذا نجد الأمم الغربية - وهم أبناء دين واحد - يتفنن بعضهم في إهلاك بعض، فمن مخترع للقنبلة الذرية إلى مخترع للقنبلة الهيدروجينية وهي مواد مدمرة لا يمكن أن يتصور العقل ما تحدثه من تلف بالغ وهلاك شامل ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٥] ثم قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ تهديد لهم أي سيلقون جزاء عملهم القبيح ﴿يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ الخطاب لليهود والنصارى أي يا معشر أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا محمد ﷺ بالدين الحق يبين لكم الكثير مما كنتم تكتمونه في كتابكم من الإيمان به، ومن آية الرجم، ومن قصة أصحاب السبت الذين مسخوا

(١) هذا قول ابن عباس كما في «البحر».

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٤٩٧.

(٣) (ش): ظهر على الأمر: أطلع عليه: تعرّف عليه، علم به.

(٤) «مختصر ابن كثير» ١/ ٤٩٨.

قردة وغير ذلك مما كنتم تخفونه ﴿وَيَعْمُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي يتركه ولا يبيّنه وإنما بيّين لكم ما فيه حجة على نبوته وشهادته على صدقه، ولو ذكر كل شيء لفَضَحَكُمْ قال في «التسهيل»: وفي الآية دليل على صحة نبوته لأنه بيّن ما أَخْفَوْهُ في كُتُبِهِمْ وهو أُمِّي لم يقرأ كتبهم^(١) ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ أي جاءكم نور هو القرآن لأنه مزيل لظلمات الشرك والشك وهو كتاب مبين ظاهر الإعجاز ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ أي يهدي بالقرآن من اتبع رضا الله طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾ أي يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان بتوفيقه وإرادته ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هو دين الإسلام، ثم ذكر تعالى إفراط النصارى في حق عيسى حيث اعتقدوا ألوهيته فقال ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي جعلوه إلهًا وهم فرقة من النصارى زعموا أن الله حلّ في عيسى ولهذا نجد في كتبهم «وجاء الرب يسوع» وأمثاله، ويسوع عندهم هو عيسى^(٢) ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي قل لهم يا محمد: لقد كذبتكم فمن الذي يستطيع أن يدفع عذاب الله لو أراد أن يهلك المسيح وأمه وأهل الأرض جميعًا؟ فعيسى عبد مقهور قابل للفناء كسائر المخلوقات ومن كان كذلك فهو بمعزل عن الألوهية ولو كان إلهًا لقدر على تخليص نفسه من الموت ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي من الخلق والعجائب ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي هو قادر على أن يخلق ما يريد ولذلك خلق عيسى من غير أب ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لا يعجزه شيء، ثم حكى عن اليهود والنصارى افتراءهم فقال ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا اللَّهَ﴾ أي نحن من الله بمنزلة الأبناء من الآباء ونحن أحبّاءه لأننا على دينه قال «ابن كثير»: أي نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه وله بهم عناية وهو يحبنا^(٣) ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ أي لو كنتم كما تدعون أبناءه وأحبّاءه فلم أعد لكم نار جهنم على كفركم وافتراءكم ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ أي أنتم بشر كسائر الناس وهو سبحانه الحاكم في جميع عبادته ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أي يغفر لمن شاء من عبادته ويعذب من شاء لا اعتراض لحكمه

(١) «التسهيل» ١/ ١٧٢.

(٢) قال أبو حيان: ذكر سبحانه أن من النصارى من قال: إن المسيح هو الله، ومنهم من قال: هو ابن الله، ومنهم من قال: هو ثالث ثلاثة، ومن بعض اعتقاد النصارى استنبط من تستر بالإسلام ظاهرًا وانتمى إلى الصوفية حلول الله في الصور الجميلة ومن ذهب من ملاحدهم إلى القول بـ «الاتحاد والوحدة» كالحلاج والصفار وابن اللباج وأمثالهم وإنما ذكرتهم نصحًا لدين الله وقد ألع جهلة من ينتمي إلى التصوف بتعظيم هؤلاء وادعائهم أنهم صفوة الله وأوليائه، «البحر المحيط» ٣/ ٤٤٨.

(٣) «مختصر ابن كثير» ١/ ٤٩٩.

ولا رادَّ لأمره ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه وإليه المرجع والمآب، ثم دعاهم إلى الإيمان بخاتم المرسلين فقال ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أي يا معشر اليهود والنصارى لقد جاءكم محمد ﷺ يوضح لكم شرائع الدين على انقطاع من الرسل ودُروس^(١) من الدين، وكانت الفترة بين عيسى ومحمد ومدتها خمسمائة وستون سنة لم يُبعث فيها رسول ﴿أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ أي لئلا تحتجوا وتقولوا: ما جاءنا من رسول يبشر بالخير وينذر من الشر ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ هو محمد ﷺ ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال ابن جرير: أي قادرٌ على عقاب من عصاه وثواب من أطاعه، ثم ذكر تعالى ما عليه اليهود من العناد والجحود فقال ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ ادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي اذكروا يا محمد حين قال موسى لبني إسرائيل: يا قوم تذكروا نعمة الله العظمى عليكم واشكروه عليها ﴿إِذْ جَعَلْ فِيكُمْ أَنْبِيََاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ أي حين بعث فيكم الأنبياء يرشدونكم إلى معالم الدين وجعلكم تعيشون كالملوك لا يغلبكم غالب بعد أن كنتم مملوكين لفرعون مقهورين فأنقذكم منه بإغراقه قال «البيضاوي»: لم يُبعث في أمة ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء^(٢) ﴿وَعَاتَيْنَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي من أنواع الإنعام والإكرام من فلق «البحر» وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى ونحوها ﴿يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ قال «البيضاوي»: هي أرض بيت المقدس سميت بذلك لأنها كانت قرار الأنبياء ومسكن المؤمنين^(٣) ومعنى ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي التي وعدكموها على لسان أبيكم إسرائيل وقضى أن تكون لكم ﴿وَلَا تُرْثَدُوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ أي ولا ترجعوا مدبرين خوفاً من الجبابة قال في «التسهيل»: روي أنه لما أمرهم موسى بدخول الأرض المقدسة خافوا من الجبارين الذين فيها وهموا أن يرجعوا إلى مصر^(٤) ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ أي عظام الأجسام طوال القامة لا قدرة لنا على قتالهم وهم العمالقة من بقايا عاد ﴿وَلِئَا نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ أي لن ندخلها حتى يسلموها لنا من غير قتال ﴿فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ أي لا يمكننا الدخول ما داموا فيها فإن خرجوا منها دخلناها ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ أي فلما جنبوا حرضهم رجلا من النقباء ممن يخاف أمر الله ويخشى عقابه وفيهما الصلاح واليقين ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي قالوا لهم لا يهولنكم عظم

(١) (ش): دَرَسَ الرِّسْمُ / دَرَسَ الْمَكَانُ: امَّحَى وَذَهَبَ أَثَرُهُ، خَلَقَ وَبَلَى .

(٢) «البيضاوي» ص ١٤٨ .

(٣) «البيضاوي» ص ١٤٨ .

(٤) «التسهيل» ١/ ١٧٣ .

أجسامهم، فأجسامهم عظيمة وقلوبهم ضعيفة فإذا دخلتم عليهم باب المدينة غلبتموهم بإذن الله ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي اعتمدوا على الله فإنه ناصركم إن كنتم حقاً مؤمنين ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَن نَذْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ وهذا إفراط في العصيان وفي سوء الأدب بعبارة تقتضي الكفر والاستهانة بالله ورسوله - وأين هؤلاء من الصحابة الأبرار الذين قالوا لرسول الله ﷺ: لسنا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل ولكن نقول لك: اذهب أنت وربك فقاتلا إِنَّا معكما مقاتلون؟! ^(١) - ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي قال موسى حينذاك معتذراً إلى الله متبرئاً من مقالة السفهاء: يا رَبِّ لا أملك قومي، لا أملك إلا نفسي وأخي هارون فافصل بيننا وبين الخارجين عن طاعتك بحكمك العادل ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ استجاب الله دعاءه وعاقبهم في التيه أربعين سنة والمعنى: قال الله لموسى إن الأرض المقدسة محرم عليهم دخولها مدة أربعين سنة يتيهون في الأرض ولا يهتدون إلى الخروج ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي لا تحزن عليهم فإنهم فاسقون مستحقون للعقاب قال في «التسهيل»: روي أنهم كانوا يسيرون الليل كله فإذا أصبحوا وجدوا أنفسهم في الموضع الذي كانوا فيه ^(٢).

البلاغة: ١ - ﴿أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بسط الأيدي كناية عن البطش والفتك، وكف الأيدي كناية عن المنع والحبس.

٢ - ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ﴾ فيه التفات عن الغيبة إلى المتكلم ومقتضى الظاهر وبعث وإنما التفت اعتناءً بشأنه.

٣ - ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ فيه استعارة استعار الظلمات للكفر والنور للإيمان.

٤ - ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ فيه تشبيه بليغ أي كالمملوك في رغد العيش وراحة البال فحذف أداة الشبه ووجه الشبه فأصبح بليغاً.

(١) (ش): قَالَ الْمُقَدَّادُ بْنُ الْأَسْوَدِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ وَلَكِنْ: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمْ مُقَاتِلُونَ (رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَقَالَ الْحَافِظُ «ابْنُ كَثِيرٍ»: «وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ». وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: شَهِدْتُ مِنَ الْمُقَدَّادِ بْنِ الْأَسْوَدِ مَشْهَدًا، لِأَنَّهُ أَكُونُ صَاحِبَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا عُدِلَ بِهِ، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَدْعُو عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: لَا نَقُولُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ وَلَكِنَّا نَقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ وَبَيْنَ يَدَيْكَ وَخَلْفَكَ. فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَشْرَقَ وَجْهُهُ وَسَرَّهُ. يَعْنِي قَوْلَهُ.

(٢) «التسهيل» ١/ ١٧٤.

٥ - الطباقي بين ﴿يَغْفِرُ... وَيُعَذِّبُ﴾ .

٦ - ﴿أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ جملة اعتراضية لبيان فضل الله على عباده الصالحين .

الفوائد الأولى: إنما سميت الأرض المقدسة أي المطهرة لسكنى الأنبياء المطهرين فيها فشرفت وطهرت بهم فالظرف طاب بالمظروف .

الثانية: قال بعض العارفين لبعض الفقهاء: أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فسكت ولم يرد عليه فتلا عليه هذه الآية ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ ففي الآية دليل على أن المحب لا يعذب حبيبه ذكره «ابن كثير»^(١) .

قال الله تعالى:

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقْبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِى سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُوزِلْنِي أَعْيَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِى سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جَزَاءُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ فَمَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ مَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى تمرّد بني إسرائيل وعصيانهم لأمر الله في قتال الجبارين، ذكر قصة

(١) (ش): قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُمْ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ فهم إن كانوا أحبّاءه حقاً لما عذبهم.

ابني آدم وعصيان «قاييل» أمر الله وإقدامه على قتل النفس البريئة التي حرّمها الله، فاليهود اقتفوا في العصيان أول عاصي الله في الأرض، فطبيعة الشر فيهم مستقاة من ولد آدم الأول، فاشتبهت القصتان من حيث التمرد والعصيان، ثم ذكر تعالى عقوبة قُطَاع الطريق والسَّرَاق الخارجين على أمن الدولة والمفسدين في الأرض.

اللغة: ﴿قُرْبَانًا﴾ القربان ما يُتَقَرَّب به إلى الله ﴿تَبَوُّأً﴾ ترجع يقال: بَاء إذا رجع إلى المباءة وهي المنزل ﴿فَطَوَّعَتْ﴾ سَوَّلَتْ وسَهَّلَتْ يقال: طاع الشيء إذا سهل وانقاد وطوَّعه له أي سهَّله ﴿يَبْحَثُ﴾ يفتش وينقب ﴿سَوَاءَ﴾ السوأة: العورة ﴿يُؤَيِّلَتِي﴾ كلمة تحسر وتلهف قال سيبويه: كلمة تقال عند الهلكة ﴿يُنْفَوُا﴾ نفاه: طرده وأصله الإهلاك ومنه النقابة لردى المتاع ﴿خِزْيُ﴾ الخزي الفضيحة والذل يقال: أخزاه الله أي فضحه وأذله ﴿الْوَسِيكَةَ﴾ كل ما يتوسل به إلى الله ﴿نَكَلًا﴾ عقوبة.

سبب النزول: عن أنس أن رهطاً من عُرينة قدموا على رسول الله ﷺ فاجتوا المدينة - استوخموها - فبعث رسول الله ﷺ إلى إبل الصدقة وأمرهم أن يشربوا من ألبانها وأبوالها، فلما صحوا قتلوا راعي النبي ﷺ في آثارهم فجاء بهم فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمرت أعينهم وألقوا في الحرة حتى ماتوا فنزلت ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^(١). الآية.

(التفسير): ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ أي اقرأ يا محمد على هؤلاء الحسدة من اليهود وأشباههم خبر «قاييل وهابيل» ابني آدم ملتبسةً بالحق والصدق وذكرهم بهذه القصة فهي قصة حق ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ أي حين قَرَّب كل منهما قرباناً فُتُقبِل من هابيل ولم يُتقبِل من قاييل قال المفسرون: سبب هذ القربان أن حواء كانت تلد في كل بطن ذكراً وأنثى وكان يزوّج الذكر من هذا البطن الأنثى من البطن الآخر فلما أراد آدم أن يزوّج قاييل أخت هابيل ويزوّج هابيل أخت قاييل رضي هابيل وأبى قاييل لأن توأمته كانت أجمل فقال لهما آدم: قَرَّبَا قرباناً فمن أيكما تُقبِل تزوجها، وكان قاييل صاحب زرع فقرب أردل زرعه وكان هابيل صاحب غنم فقرب أحسن كبش عنده فقبل قربان هابيل بأن نزلت ناراً فأكلته فازداد قاييل حسداً وسخطاً وتوعده بالقتل^(٢) ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ أي قال قاييل لأخيه هابيل لأقتلنك قال: لم؟ قال لأنه تقبل قربانك ولم يتقبل قرباني قال: وما ذنبي؟ ﴿قَالَ إِنَّمَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي إنما يتقبل ممن اتقى ربه وأخلص نيته قال «البيضاوي»: توعده بالقتل لفرط الحسد له على تقبل قربانه فأجابه بأنك أتيت من قبل نفسك بترك التقوى لا من

(١) «القرطبي» ٦/ ١٤٨. (ش): (رواه أبو داود والنسائي وصححه الألباني).

(٢) «الكشاف» ١/ ٤٨٤، و«القرطبي» ٦/ ١٤٣.

قَبْلِي وفيه إشارة إلى أن الطاعة لا تقبل إلا من مؤمن متقٍ لله ^(١) ﴿لَنْ أَبْسُطَ إِلَيْكَ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِإِدْيِ إِلَيْكَ لَا قَتْلَكَ﴾ أي لئن مددت إلي يدك ظلمًا لأجل قتلي ما كنت لأقابلك بالمثل قال ابن عباس المعنى: ما أنا بمنتصر لنفسي ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أي لا أمدُّ يدي إليك لأنني أخاف رب العالمين قال الزمخشري: قيل: كان هابيل أقوى من القاتل ولكنه تخرج عن قتل أخيه خوفًا من الله ^(٢) ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي إن قتلتني فذاك أحب إلي من أن أقتلك قال أبو حيان: المعنى إن سبق بذلك قدر فاختياري أن أكون مظلومًا ينتصر الله لي لا ظالمًا ^(٣) وقال ابن عباس: المعنى لا أبدؤك بالقتل لترجع بإثم قتلي إن قتلتني، وإثمك الذي كان منك قبل قتلي فتصير من أهل النار ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ أي عقاب من تعدى وعصى أمر الله ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي زينت له نفسه وسهلت له قتل أخيه فقتله فخر وشقي قال ابن عباس: خوفه بالنار فلم ينته ولم ينزجر ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِثُ سَوْءَ أَخِيهِ﴾ أي أرسل الله غرابًا يحفر بمنقاره ورجله الأرض ليرى القاتل كيف يستر جسد أخيه قال مجاهد: بعث الله غرابين فاقتلا حتى قتل أحدهما صاحبه ثم حفر له فدفنه، وكان ابن آدم هذا أول من قُتل، وروي أنه لما قتله تركه بالعراء ولم يدر كيف يدفنه حتى رأى الغراب يدفن صاحبه فلما رآه ﴿قَالَ يَوَلَيْتَنِي أَعَزَّجْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِثُ سَوْءَ أَخِي﴾ أي قال قابيل متحسرًا: يا ويلي ويا هلاكي أضعفت أن أكون مثل هذا الطير فأستر جسد أخي في التراب كما فعل هذا الغراب؟ ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ أي صار نادمًا على عدم الاهتمام إلى دفن أخيه لا على قتله قال ابن عباس: ولو كانت ندامته على قتله لكانت الندامة توبةً له ^(٤) ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي من أجل حادثة «قابيل وهابيل» وبسبب قتله لأخيه ظلمًا فرضنا وحكمنا على بني إسرائيل أن من قتل منهم نفسًا ظلمًا بغير أن يقتل نفسًا فيستحق القصاص وبغير فسادٍ يوجب إهدار الدم كالردة وقطع الطريق ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي فكأنه قتل جميع الناس قال «البيضاوي»: من حيث إنه هتك حرمة الدماء وسنَّ القتل وجرأ الناس عليه، والمقصود منه تعظيم قتل النفس وإحيائها في القلوب ترهيبًا عن التعرض لها وترغيبًا في المحاماة عليها ^(٥) ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي ومن تسبب لبقاء حياتها واستنقاذها من الهلكة فكأنه

(١) «البيضاوي» ص ١٤٩.

(٢) «الكشاف» ١/ ٤٨٥.

(٣) «البحر» ٣/ ٤٦٣.

(٤) «القرطبي» ٦/ ١٤٢.

(٥) «البيضاوي» ص ١٥١.

أحيا جميع الناس قال ابن عباس في تفسير الآية: من قتل نفساً واحدةً حرّمها الله فهو مثل من قتل الناس جميعاً ومن امتنع عن قتل نفس حرّمها الله وصان حرمتها خوفاً من الله فهو كمن أحيا الناس جميعاً^(١) ﴿وَلَقَدْ جَاءَ تَهُمَ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بعدما كتبنا على بني إسرائيل هذا التشديد العظيم جاءتهم رسلنا بالمعجزات والآيات الواضحات ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ أي ثم إنهم بعد تلك الزواجر كلها يسرفون في القتل ولا يبالون بعظمته قال «ابن كثير»: هذا تقرّيعٌ لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها وقال «الرازي»: إن اليهود مع علمهم بهذه المبالغة العظيمة أقدموا على قتل الأنبياء والرسل وذلك يدل على غاية قساوة قلوبهم ونهاية بُعْدِهِم عن طاعة الله تعالى، ولما كان الغرض من ذكر هذه القصص تسليّة الرسول ﷺ لأنهم عزموا على الفتك به وبأصحابه كان تخصيص بني إسرائيل بهذه المبالغة العظيمة مناسباً للكلام ومؤكداً للمقصود^(٢)، ثم ذكر تعالى عقوبة قُطَاع الطريق فقال ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي يحاربون شريعة الله ودينه وأوليائه ويحاربون رسوله^(٣) ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي يفسدون في الأرض بالمعاصي وسفك الدماء ﴿أَن يُقَتَّلُوا﴾ أي يقتلوا جزاء بغيتهم ﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ أي يُقَتَّلُوا وَيُصَلَّبُوا زَجراً لغيرهم، والصيغة للتكثير ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ﴾ معناه أن تُقَطَّعَ أَيْدِيهِم اليمنى وأرجلهم اليسرى ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي يُطْرَدُوا وَيُيْعَدُوا مِنْ بِلَدٍ إِلَى بِلَدٍ آخَرَ^(٤) ﴿ذَلِكَ لَهُمْ جِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أي ذلك الجزاء المذكور ذلّ لهم وفضيحة في الدنيا ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هو عذاب النار، قال بعض العلماء: الإمام بالخيار إن شاء قتل، وإن شاء صلب، وإن شاء قطع الأيدي والأرجل، وإن شاء نفى وهو مذهب مالك وقال ابن عباس: لكلّ رُتْبة من الجِزَاة^(٥) رُتْبة من العقاب فمن قُتِل قُتِل، ومن قُتِل وأخذ المال قُتِل وصُلِب، ومن اقتصر على أخذ المال قُطعت يده ورجله من خلاف، ومن أخاف فقط نُفِيَ من الأرض، وهذا قول الجمهور^(٦) ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي لكن الذين تابوا من المحاربين وقطاع الطريق قبل القدرة على أخذهم وعقوبتهم ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَّحِيمٌ﴾ أي

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٥٠٩.

(٢) «التفسير» الكبير ١١/ ٢١١.

(٣) (ش): قال الشيخ السعدي: المحاربون لله ولرسوله، هم الذين بارزوه بالعداوة، وأفسدوا في الأرض بالكفر والقتل، وأخذ الأموال، وإخافة السبل.

(٤) قال الشافعي: النفي من بلد إلى بلد لا يزال يطلب وهو هاربٌ فرعاً، وقال أبو حنيفة: النفي السجن. واختار ابن جرير أن المراد بالنفي هاهنا أن يخرج من بلده إلى بلد آخر فيسجن فيه.

(٥) (ش): الجِزَاة: قُطْعُ الطريق على المارة وسلبهم بقوة السّلاح.

(٦) «الفخر الرازي» ١١/ ٢١٥.

واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وأناب يقبل توبته ويغفر زلته، ثم أمر تعالى المؤمنين بالتقوى والعمل الصالح فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ أي خافوا عقابه واطلبوا ما يقربكم إليه من طاعته وعبادته قال قتادة: تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي جاهدوا لإعلاء دينه لتفوزوا بنعيم الأبد ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ أي لو كان لكل كافر جميع ما في الأرض من خيرات وأموال ومثله معه ﴿لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ﴾ أي وأراد أن يفتدي بها نفسه من عذاب الله ما نفعه ذلك وله عذاب مؤلم موجه ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي دائم لا ينقطع وفي الحديث: «يُجَاءُ بِالْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيُقَالُ لَهُ: قَدْ كُنْتَ سَأَلْتَ مَا هُوَ أَيْسَرُ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا، أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي، فَأَبَيْتَ فَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ»^{(١)(٢)}.

ثم ذكر تعالى عقوبة السارق فقال ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ أي كل من سرق رجلاً كان أو امرأة فاقطعوا يده ﴿جَزَاءُ يَمَا كَسَبَا﴾ أي مجازاة لهما على فعلهما القبيح ﴿نَكَلًا مِنَ اللَّهِ﴾ أي عقوبة من الله ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي حكيم في شرعه فلا يأمر بقطع اليد ظلمًا ﴿فَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾ أي رجع عن السرقة ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي أصلح سيرته وعمله ﴿فَارْتَأَى اللَّهُ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ أي يقبل توبته فلا يعذبه في الآخرة ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي مبالغ في المغفرة والرحمة، ثم نبه تعالى على واسع ملكه وأنه لا معقب لحكمه فقال ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ألم تعلم أيها المخاطب أن الله تعالى له السلطان القاهر والملك الباهر ويده ملكوت السماوات والأرض والاستفهام للتقرير ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي يعذب من يشاء تعذيبه ويغفر لمن يشاء غفران ذنبه وهو القادر على كل شيء الذي لا يعجزه شيء.

البلاغة: ١ - الطباق بين كلمة ﴿قَتَلَ... أَحْيَا﴾ وهو من المحسنات البديعية وكذلك بين ﴿يُعَذِّبُ... وَيَغْفِرُ﴾.

٢ - ﴿يُحَارِبُونَ اللَّهَ﴾ هو على حذف مضاف أي يحاربون أولياء الله لأن الله لا يُحارب

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاب.

(٢) (ش): قال ﷺ «يُجَاءُ بِالْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيُقَالُ لَهُ: قَدْ كُنْتَ سَأَلْتَ مَا هُوَ أَيْسَرُ مِنْ ذَلِكَ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وبقيّة الحديث رواه الإمام أحمد وغيره، وصححه الألباني.

ولا يُغالب فالكلام على سبيل المجاز^(١).

٣ - الاستعارة ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ لأن المراد استبقاها ولم يتعرض لقتلها، وإحياء النفس بعد موتها لا يقدر عليه إلا الله تعالى.

٤ - ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ﴾ قال الزمخشري: هذا تمثيل للزوم العذاب لهم وأنه لا سبيل لهم إلى النجاة منه بوجه من الوجوه^(٢).

٥ - طباق السلب ﴿لَيْنُ بَسَطْتَ... مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي﴾.

الفوائد: الأولى: النفي من الأرض كما يكون بالطرد والإبعاد يكون بالحبس ولهذا قال

مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: النفي: السجن ينفي من سعة الدنيا إلى ضيقها قال الشاعر وهو في السجن:

خَرَجْنَا عَنِ الدُّنْيَا وَعَنْ أَهْلِهَا فَلَسْنَا مِنَ الْأَحْيَاءِ وَلَسْنَا مِنَ الْمَوْتَى
إِذَا جَاءَنَا السَّجَّانُ يَوْمًا لِحَاجَةٍ عَجِبْنَا وَقُلْنَا جَاءَ هَذَا مِنَ الدُّنْيَا^(٣)

الثانية: السر في تقديم السارق على السارقة هنا وتقديم الزانية على الزاني في قوله ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا﴾ [النور: ٢] أن الرجل على السرقة أجرة، والزنى من المرأة أشنع وأقبح فناسب ذكر كل منهما المنام.

الثالثة: قال الأصمعي: قرأت يوماً هذه الآية ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ وإلى جنبي أعرابي فقلت ﴿اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ سهواً فقال الأعرابي: كلام من هذا؟ قلت: كلام الله. قال: ليس هذا بكلام الله أعذ فاعدت وتبهمت فقلت: ﴿وَاللَّهُ غَزِيرٌ حَكِيمٌ﴾ فقال: نعم هذا كلام الله. فقلت: أنقرأ القرآن؟ قال: لا قلت: فمن أين علمت أني أخطأت؟ فقال: يا هذا عزّ فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع^(٤).

الرابعة: اعترض بعض الملحدين على الشريعة الغراء في قطع يد السارق بالقليل من المال ونظم ذلك شعراً فقال^(٥):

يَدٌ بِخُمْسٍ مِثْنِ عَسْجَدٍ وَدِيَتْ مَا بِأَلْهَا قُطِعَتْ فِي رُبْعٍ دِينَارٍ؟
تَحَكُّمٌ مَا لَنَا إِلَّا السُّكُوتُ لَهُ وَأَنْ نَعُوذَ بِمَوْلَانَا مِنَ النَّارِ
فأجابه بعض العلماء بقوله:

(١) (ش): قال الشيخ السعدي: المحاربون لله ولرسوله، هم الذين بارزوه بالعداوة، وأفسدوا في الأرض بالكفر والقتل، وأخذ الأموال، وإخافة السبل.

(٢) «الكشاف» ١/ ٤٤٨.

(٣) «الفخر الرازي» ١١/ ٢١٦.

(٤) «زاد المسير» لابن الجوزي ٢/ ٣٥٤.

(٥) (ش): عَسَجَدَ: ذَهَبَ. يَدٌ بِخُمْسٍ مِثْنِ عَسْجَدٍ وَدِيَتْ: أي دِيَتْهَا خَمْسَمِائَةِ دِينَارٍ مِنَ الذَّهَبِ.

عِزُّ الْأَمَانَةِ أَعْلَاهَا، وَأَرْخَصَهَا ذُلُّ الْخِيَانَةِ فَافْهَمْ حِكْمَةَ الْبَارِي

أي لما كانت أمانة كانت ثمينة، فلما خانت هانت، ويا له من قول سديد.

«كلمة وجيزة حول قطع يد السارق»

يعيب بعض الغربيين على الشريعة الإسلامية قطع يد السارق ويزعمون أن هذه العقوبة صارمة لا تليق بمجتمع متحضر ويقولون: يكفي في عقوبته السجن ردةً له، وكان من أثر هذه الفلسفة التي لا تستند على منطق سليم أن زادت الجرائم وكثرت العصابات وأصبحت السجون ممتلئة بالمجرمين وقطاع الطريق الذين يهددون الأمن والاستقرار، يسرق السارق وهو آمن مطمئن لا يخشى شيئاً اللهم إلا ذلك السجن يُطعم ويكسى فيه فيقضي مدة العقوبة التي فرضها عليه القانون الوضعي ثم يخرج منه وهو إلى الإجرام أميل وعلى الشر أقدر، يؤكد هذا ما نقرؤه ونسمعه عن تعداد الجرائم وزيادتها يوماً بعد يوم، وذلك لقصور العقل البشري عن الوصول إلى الدواء الناجع والشفاء النافع لمعالجة مثل هذه الأمراض الخطيرة، أما الإسلام فقد استطاع أن يقتلع الشر من جذوره ويد واحدة تقطع كافية لردع المجرمين فيا له من تشريع حكيم!!

قال الله تعالى:

يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكَفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْنُوكَ يُخَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَأَحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحْكِمُكَ اللَّهُ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَآخِشُوا وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيتِي تَمَنَّا قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَاللِّسْنَ بِاللِّسَنِ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَفَقِينَا عَلَى مَا أَثَرِهِمْ يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ

اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ أَحْكَمْتُمْ بَيْنَهُمْ يَمَّا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى قصة ابني آدم وإقدام الأخ على قتل أخيه بسبب البغي والحسد وذكر أحكام الحراية والسرقة، أعقبه بذكر أمر المنافقين وأمر اليهود في حسدهم للنبي ﷺ وتربصهم به وبأصحابه الدوائر، وأمر رسوله ﷺ ألا يحزن لما يناله من أذى من أعداء الإنسانية فالله سيعصمه من شرهم، وينجيهم من مكرهم، ثم يذكر ما أنزل الله من أحكام نورانية في شريعة التوراة.

اللغة: ﴿يَحْزُنُكَ﴾ الحزن والحزن خلاف السرور ﴿السُّحَّتْ﴾ الحرام: سمي بذلك لأنه يسحَّت الطاعات، أي: يذهبها ويستأصلها وأصل السحت: الهلاك قال تعالى ﴿فَيُسْحِتُكُمْ بِعَذَابٍ﴾ [طه: ٦١] أي يستأصلكم ويهلككم ﴿وَالْأَحْبَارُ﴾ جمع حبر وهو العالم مأخوذ من التحبير وهو التحسين ﴿وَقَفَيْنَا﴾ أتبعنا ﴿وَمُهَيِّمًا﴾ المهيمن: الرقيب على الشيء^(١) الحافظ له، من هيمن عليه أي راقبه ويأتي بمعنى العالي والمرتفع على الشيء ﴿شِرْعَةً﴾ الشريعة: السُّنة والطريقة يقال: شرع لهم، أي: سنَّ لهم ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ المنهاج: الطريق الواضح.

سبب النزول: عن البراء بن عازب قال: «مرَّ على النبي ﷺ يهودي محمَّمًا مجلوداً فدعاهم فقال: هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قالوا: نعم: فدعا رجلاً من علمائهم فقال: أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم ولكنه كثر في أشرافنا فكننا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد فقلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع فاجتمعنا على التحميم والجلد مكان الرجم فقال رسول الله ﷺ: اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه فأمر به فرجم» فأنزل الله ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنُكَ الَّذِي يُسْكِرُ غَوْنًا فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قوله ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾ يقولون: اتوا محمداً فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا^(٢).

التفسير: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنُكَ الَّذِي يُسْكِرُ غَوْنًا فِي الْكُفْرِ﴾ الخطاب للرسول ﷺ

(١) «القرطبي» ٦/ ٢١٠.

(٢) رواه مسلم.

على وجه التسلية أي لا تتأثريا محمد ولا تحزن لصنيع الذين يتسابقون نحو الكفر ويقعون فيه بسرعة ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ أي من المنافقين الذين لا يجاوز الإيمان أفواههم يقولون بألسنتهم: آمنا وقلوبهم كافرة ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أي ومن اليهود ﴿سَمْعُوتَ لِلْكَذِبِ﴾ أي هم مبالغون في سماع الأكاذيب والأباطيل وفي قبول ما يفتره أخبارهم من الكذب على الله وتحريف كتابه ﴿سَمْعُوتَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي مبالغون في قبول كلام قوم آخرين لم يحضروا مجلسك تكبرا وإفراطا في العداوة والبغضاء وهم يهود خيبر، والسماعون للكذب بنو قريظة ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ أي يُزِيلُونَهُ وَيُمِيلُونَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ بَعْدَ أَنْ وَضَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا، والمراد تحريف أحكام الله وتغييرها بأحكام أخرى قال ابن عباس: هي حدود الله في التوراة غيروا الرجم بالجلد والتحميم^(١) - يعني تسويد الوجه - ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ أي إن أمركم محمد بالجلد فاقبلوا وإن أمركم بالرجم فلا تقبلوا قال تعالى ردًا عليهم ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي ومن يُردِ الله كُفْرَهُ وضلالته فلن يقدر أحدٌ على دفع ذلك عنه ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ أي لم يُردِ الله أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ مِنْ رَجَسِ الْكُفْرِ وَخَبَثِ الضَّلَالَةِ لِقَبْحِ صَنِيعِهِمْ وَسُوءِ اخْتِيَارِهِمْ ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي ذُلٌّ وَفُضِيحَةٌ ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هو الخلود في نار جهنم قال أبو حيان: والآية جاءت تسلية للرسول ﷺ وتخفيفًا عنه من ثقل حزنه على مسارعته في الكفر وقطعًا لرجائه من فلاحهم^(٢) ﴿سَمْعُوتَ لِلْكَذِبِ﴾ أي الباطل كرره تأكيدًا وتفخيماً ﴿أَكْتَلُونِ لِلشَّحْتِ﴾ أي الحرام من الرشوة والربا وشبه ذلك ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي إن تحاكموا إليكم يا محمد فيما شجر بينهم من الخصومات فأنت مخير بين أن تحكم بينهم وبين أن تعرض عنهم قال «ابن كثير»: أي إن جاءوك يتحاكمون إليك فلا عليك ألا تحكم بينهم لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق بل ما يوافق أهواءهم^(٣) ﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾ أي لأن الله عاصمك وحافظك من الناس ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي فاحكم بينهم بالعدل والحق وإن كانوا ظلمةً خارجين عن طريق العدل لأن الله يحب العادلين، ثم قال تعالى منكرًا عليهم مخالفتهم لأحكام التوراة ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُوكَ عِنْدَهُمُ التَّوْرَةَ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ أي كيف يحكمكم يا محمد هؤلاء اليهود ويرضون بحكمكم وعندهم التوراة فيها حكم الله يرونه ولا يعملون به؟ قال «الرازي»: هذا تعجيبٌ من الله تعالى

(١) «البحر» ٤٨٨/٣.

(٢) «البحر» ٤٨٨/٣.

(٣) «مختصر تفسير «ابن كثير» ٥١٩/١.

لنبيه ﷺ^(١) بتحكيم اليهود إياه بعد علمهم بما في التوراة من حد الزاني ثم تركهم قبول ذلك الحكم، فعدلوا عما يعتقدونه حكماً حقاً إلى ما يعتقدونه باطلاً طلباً للرخصة فظهر بذلك جهلهم وعنادهم^(٢) ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي يعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم بعد أن وضع لهم الحق وبأن ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ليسوا بمؤمنين لأنهم لا يؤمنون بكتابهم «التوراة» لإعراضهم عنه وعن حكمك الموافق لما فيه قال في «التسهيل»: وهذا إلزامٌ لهم لأن من خالف كتاب الله وبدّله فدعواه الإيمان باطلة^(٣)، ثم مدح تعالى التوراة بأنها نور وضياء فقال ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ أي أنزلنا التوراة على موسى فيها بيان واضح ونور ساطع يكشف ما اشتبه من الأحكام ﴿يَحْكُمُ بِهَا الَّذِينَ آذَيْنِ أَسْلَمُوا﴾ أي يحكم بالتوراة أنبياء بني إسرائيل الذين انقادوا لحكم الله ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ أي يحكمون بالتوراة لليهود لا يخرجون عن حكمها ولا يُبدّلونها ولا يُحرّفونها ﴿وَالرَّبَّنِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ﴾ أي العلماء منهم والفقهاء ﴿أَسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي بسبب أمر الله إياهم بحفظ كتابه من التحريف والتضييع ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ أي رقباء لئلا يُبدّل ويُغير ﴿فَلَا تَخْشَوْا﴾ أَلْكَاسَ وَآخْشُونَ أي لا تخافوا يا علماء اليهود الناس في إظهار ما عندكم من نعت محمد ﷺ والرجم بل خافوا مني في كتمان ذلك ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي ولا تستبدلوا آياتي حطام الدنيا الفاني من الرشوة والجاه والعرض الخسيس ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أي من لم يحكم بشرع الله كائناً من كان فقد كفر. وقال الزمخشري: ومن لم يحكم بما أنزل الله مستهيناً به فأولئك هم الكافرون والظالمون والفاستقون وصف لهم بالعتوّ في كفرهم حين ظلموا آيات الله بالاستهزاء والاستهانة وتمردوا بأن حكموا بغيرها^(٤) قال أبو حيان: والآية وإن كان الظاهر من سياقها أن الخطاب فيها لليهود إلا أنها عامة في اليهود وغيرهم^(٥).. وكل آية وردت في الكفار تجرُّ بذيلها على عصاة المؤمنين ﴿وَكُنِينَا عَلَيْهِمْ﴾ أي فرضنا على اليهود في التوراة أن النفس تقتل بالنفس ﴿وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾ أي تُفَقَّ بالعين إذا فقت بدون حق ﴿وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ﴾ أي يجدد بالأنف إذا قطع ظملاً ﴿وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ﴾ أي تقطع بالأذن ﴿وَاللِّسَنَ بِاللِّسَنِ﴾ أي يقلع بالسنن ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ أي يُقتص من جانبها بأن يُفعل به مثل ما فعله بالمجني عليه وهذا في الجراح التي

(١) (ش): هذا التعبير خطأ، لأنه يتضمن نفْي التعجب عن الله، وقد ثبت في الأدلة أنه سبحانه يَعْجَب، والصواب أن يقول: هذا تعجبٌ من الله.

(٢) «الفخر الرازي» ١١/٢٣٦.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ١/١٧٨.

(٤) «الكشاف» ١/٤٩٦.

(٥) «البحر» ٣/٤٩٢.

يمكن فيها المماثلة ولا يُخاف على النفس منها ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ، فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ قال ابن عباس: أي فمن عفا عن الجاني وتصدق عليه فهو كفارة للمطلوب وأجر للطالب^(١) وقال «الطبري»: من تصدق من أصحاب الحق وعفا فهو كفارة له أي للمصدق ويكفر الله ذنوبه لعفوه وإسقاطه حقه^(٢) ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي المبالغون في الظلم لمخالفة شرع الله ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي أتبعنا على آثار النبيين بعيسى ابن مريم وأرسلناه عقيبه^(٣) مصداقاً لما تقدمه من التوراة ﴿وَأَتَيْنَهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ أي أنزلنا عليه الإنجيل فيه هدى إلى الحق ونور يستضاء به في إزالة الشبهات ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي مُعترفًا بأنها من عند الله، والتكرير لزيادة التقرير ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي وهادياً وواعظاً للمتقين ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي وآتيناه عيسى بن مريم الإنجيل وأمرناه وأتبعه بالحكم به ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي المتمردون الخارجون عن الإيمان وطاعة الله ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي وأنزلنا إليك يا محمد القرآن بالعدل والصدق الذي لا ريب فيه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي مصدقاً للكتب السماوية التي سبقته ﴿وَمُهِيمًا عَلَيْهِ﴾ أي مؤتمناً عليه وحاكماً على ما قبله من الكتب قال الزمخشري: أي رقيباً على سائر الكتب لأنه يشهد لها بالصحة والثبات^(٤) قال «ابن كثير»: اسم المهيم يتضمن ذلك فهو أمينٌ وشاهدٌ وحاكمٌ على كل كتاب قبله جمع الله فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس في غيره^(٥) ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي فاحكم يا محمد بين الناس بما أنزل الله إليك في هذا الكتاب العظيم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي لا توافقهم على أغراضهم الفاسدة عادلاً عما جاءك في هذا القرآن قال «ابن كثير»: أي لا تنصرف عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء^(٦) ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أي لكل أمة جعلنا شريعة وطريقاً بيناً واضحاً خاصاً بتلك الأمة قال أبو حيان: لليهود شرعةٌ ومنهاجٌ وللنصارى كذلك والمراد في الأحكام وأما المعتقد فواحدٌ لجميع الناس توحيدٌ وإيمانٌ بالرسول وجميع الكتب وما تضمنته من المعاد والجزاء^(٧) ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي لو أراد الله لجميع الناس كلهم على دين

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٥٢٢.

(٢) «الطبري» ١٠/ ٣٦٩.

(٣) (ش): الْعَقِيبُ: كُلُّ شَيْءٍ أَعْقَبَ شَيْئًا. وَهُمَا يَتَعَابَانِ وَيَعْتَقِبَانِ أَيِ إِذَا جَاءَ هَذَا، ذَهَبَ هَذَا.

(٤) «الكشاف» ١/ ٤٩٧.

(٥) «مختصر ابن كثير» ١/ ٥٢٤.

(٦) «ابن كثير» «المختصر» ١/ ٥٢٤.

(٧) «البحر» ٣/ ٥٠٢.

واحد وشريعة واحدة لا ينسخ شيء منها الآخر ﴿وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ أي شرع الشرائع مختلفة ليختبر العباد هل يذعنون لحكم الله أم يعرضون، فخالف بين الشرائع لينظر المطيع من العاصي ﴿فَاسْتَفِئُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أي فسارعوا إلى ما هو خير لكم من طاعة الله واتباع شرعه ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي معادكم ومصيركم أيها الناس إلى الله يوم القيامة فيخبركم بما اختلفتم فيه من أمر الدين ويجازيكم بأعمالكم ﴿وَأَن أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي احكم بين أهل الكتاب بهذا القرآن ولا تتبع أهواءهم الزائفة ﴿وَأَحْذَرُهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي احذر هؤلاء الأعداء أن يصرفوك عن شريعة الله فإنهم كذبة كفرة خونة ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاَعْلَمْنَا أَنَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ دُذُوبِهِمْ﴾ أي فإن أعرضوا عن الحكم بما أنزل الله وأرادوا غيره فاعلم يا محمد أنما يريد الله أن يعاقبهم ببعض إجرامهم ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ أي أكثر الناس خارجون عن طاعة ربهم مخالفون للحق منهمكون في المعاصي ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والمعنى يتولون عن حكمك ويتبعون غير حكم الله وهو حكم الجاهلية؟ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي ومن أعدل من الله في حكمه، وأصدق في بيانه، وأحكم في تشريعه لقوم يصدقون بالعلي الحكيم!!

البلاغة: ١ - ﴿يَتَأَيَّهَا الرَّسُولُ﴾ الخطاب بلفظ الرسالة للتشريف والتعظيم.

٢ - ﴿يُكْسِرُ عُنُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إيثار كلمة «في» على كلمة «إلى» للإيماء إلى أنهم مستقرون في الكفر لا يبرحونه وإنما ينتقلون بالمسارعة عن بعض فتونه إلى بعض آخر^(١).

٣ - ﴿سَمْعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ صيغة فعال للمبالغة أي مبالغون في سماع الكذب.

٤ - ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ تنكير الخزي للتفخيم وتكرير لهم ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ لزيادة التقرير والتأكيد وبين كلمتي «الدنيا والآخرة» طباق.

٥ - ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ﴾ تعجب من تحكيمهم لرسول الله ﷺ وهم لا يؤمنون به ولا بكتابه.

٦ - ﴿وَمَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ الإشارة بالبعيد للإيذان ببعدهم درجتهم في العتو والمكابرة.

٧ - ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّكَاسَ﴾ خطاب لرؤساء اليهود وعلمائهم بطريق الإلتفات والأصل «فلا يخشوا».

٨ - ﴿فَاسْتَفِئُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أي بادروا فعل الخيرات وفيه استعارة حيث شبهه بالمتسابقين على ظهور الخيل إذ كل واحد ينافس صاحبه في سبق لبلوغ الغاية المقصودة^(٢).

(١) «أبو السعود» ٢٧/٢.

(٢) تلخيص البيان ص ٣١.

الفوائد: قال «الفخر الرازي»: خاطب الله محمداً ﷺ بقوله ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأحزاب: ١] في مواضع كثيرة وما خاطبه بقوله ﴿يَتَأَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ إلا في موضعين أحدهما ﴿يَتَأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْرُوكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ والثاني في هذه السورة أيضاً وهو قوله ﴿يَتَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٦٧] وهذا الخطاب لا شك أنه خطاب تشريف وتعظيم^(١).

تنبيه: يقول شهيد الإسلام الجزم بالشهادة لمعين لا يجوز إلا بنص من الكتاب أو السنة الصحيحة، لكن المسلم يرجو للمحسنين ويخاف على المسيئين من المسلمين.

قال الله تعالى:

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ قَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنهَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوعًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ هَلْ تَنْقُمُونَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَلَاقِبْنَا بَيْنَهُمُ الْعُدَّةَ وَابْعَثْنَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَتَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

المناسبة: لما حكى تعالى عن أهل الكتاب أنهم تركوا العمل بالتوراة والإنجيل وحكم عليهم بالكفر والظلم والفسوق، حذر تعالى في هذه الآيات من موالاته اليهود والنصارى، ثم عدّد جرائم اليهود وما اتهموا به الذات الإلهية المقدسة من شنيع الأقوال وقبيح الفعال.

اللغة: ﴿دَائِرَةٌ﴾ واحدة الدوائر وهي صُروفُ الدهر ونوازله قال الراجز:

تَرُدُّ عَنْكَ الْقَدَرُ الْمَقْدُورَا وَدَائِرَاتِ الدَّهْرِ أَنْ تَدُورَا^(١)

﴿حِطَّتْ﴾ بطلت وذهبت ﴿تَتَقِمُونَ﴾ تنكرون وتعيون ﴿السُّحَّتْ﴾ الحرام وقد تقدم ﴿مَعْلُولَةٌ﴾ مقبوضة والغُلُّ: القيد يوضع في اليد وهو كناية عن البخل، وغلّه وضع القيد في يده ﴿أَطْفَاهَا﴾ الإطفاء: الإخماد حتى لا يبقى هناك أثر ﴿مُقْتَصِدَةٌ﴾ أي عادلة غير متغالية من القصد وهو الاعتدال.

سَبَبُ النَّزُول: ١ - عن ابن عباس قال: كان «رفاعة بن زيد» و«سويد بن الحارث» قد أظهرّا الإسلام ثم نافقا، وكان رجال من المسلمين يوادونهما فأُنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا...﴾^(٢) الآية^(٣).

ب - عن ابن عباس قال: جاء نفرٌ من اليهود إلى النبي ﷺ فسألوه عمن يؤمن به من الرسل عليهم السلام، فقال: «أومن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل إلى قوله» «ونحن له مسلمون» فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا: والله ما نعلم أهل دينٍ أقلَّ حظًّا في الدنيا والآخرة منكم، ولا دينًا شرًّا من دينكم فأُنزل الله ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٤) الآية^(٥).

(التفسير): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ نهى تعالى المؤمنين عن موالاته اليهود والنصارى ينصرونهم ويستنصرون بهم ويصافونهم ويعاشرهم معاشره المؤمنين^(٦) ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي هم يدٌ واحدة على المسلمين لاتحادهم في الكفر والضلال، وملهُ الكفر واحدة ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي من جملتهم وحكمه حكمهم قال الزمخشري: وهذا تغليظٌ من الله وتشديدٌ في مجانبه المخالف في الدين واعتزاله كما قال ﷺ: «لا تراءى

(١) «الطبري» ١٠/ ٤٠٤.

(٢) «أسباب النزول» للواحدى ص ١١٤.

(٣) (ش): حسن، أخرجه ابن إسحاق في «المغازي»؛ و«الطبري» في «جامع البيان».

(٤) «القرطبي» ٦/ ٢٣٣، و«مجمع البيان» ٣/ ٢١٤.

(٥) (ش): أخرجه ابن جرير، وإسناده حسن.

(٦) «البحر» ٣/ ٥٠٧.

نارهما»^(١)(٢).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يهديهم إلى الإيمان ﴿فَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي شك ونفاق كعبد الله بن أبي وأصحابه يسارعون في موالاتهم ومعاونتهم ﴿يَقُولُونَ نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ أي يقولون معتذرين عن موالاة الكافرين نخاف حوادث الدهر وشروره أن يظفر اليهود بالمسلمين فلا يتم الأمر لمحمد قال تعالى رداً على مزاعمهم الفاسدة: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ يعني فتح مكة^(٣) وهذه بشارة للنبي ﷺ والمؤمنين بوعده تعالى بالفتح والنصرة ﴿أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ أي يهلكهم بأمر من عنده لا يكون فيه تسبب لمخلوق كاللقاء الرعب في قلوبهم كما فعل ببني النضير ﴿فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِينَةً﴾ أي يصير المنافقون نادمين على ما كان منهم من موالاة أعداء الله من اليهود والنصارى ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي يقول المؤمنون تعجباً من حال المنافقين إذا هتك الله سترهم ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ أَنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ أي حلفوا لكم يا معشر اليهود بأغلظ الإيمان إنهم لمعكم بالنصرة والمعونة كما حكى تعالى عنهم ﴿وَإِنْ قُوَّتُمْ لِتَنْصُرُنَا كُمْ﴾ [الحشر: ١١] ﴿حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ أي بطلت أعمالهم بنفاقهم فصاروا خاسرين في الدنيا والآخرة ﴿يَكْفُرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ رَتَدَ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ خطابٌ على وجه التحذير والوعيد والمعنى: يا معشر المؤمنين من يرجع منكم عن دينه الحق ويبدله بدين آخر ويرجع عن الإيمان إلى الكفر^(٤) ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ

(١) (ش): عَنْ جَبْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً إِلَى خَثْعَمَ فَأَعْتَصَمَ نَاسٌ مِنْهُمْ بِالسُّجُودِ فَأَسْرَعَ فِيهِمُ الْقَتْلُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ؟ قَالَ: «لَا تَرَأَى نَارَاهُمَا». (رواه أبو داود والترمذي، وصححه الألباني). ﴿بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي بَيْنَهُمْ، ﴿لَا تَرَأَى نَارَاهُمَا﴾ مِنَ التَّرَائِي تَفَاعُلٌ مِنَ الرُّؤْيَةِ، يُقَالُ تَرَأَى الْقَوْمُ إِذَا رَأَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا، تَرَأَى الشَّيْءُ أَيْ ظَهَرَ حَتَّى رَأَيْتَهُ. وَالْأَصْلُ فِي تَرَأَى تَتَرَأَى، فَحُذِفَتْ إِحْدَى التَّاءَيْنِ تَخْفِيفًا. وَإِسْنَادُ التَّرَائِي إِلَى النَّارِ مَجَازٌ مِنْ قَوْلِهِمْ دَارِي نَنْظُرُ مِنْ دَارِ فُلَانٍ أَيْ تَقَابُلَهَا. أَيْ يَلْزَمُ الْمُسْلِمُ وَيَجِبُ أَنْ يَتَّبَاعِدَ مَنْزِلُهُ عَنْ مَنْزِلِ الْمُشْرِكِ، وَلَا يَنْزِلُ بِالْمَوْضِعِ الَّذِي إِنْ أَوْقَدَتْ فِيهِ نَارُهُ تَلَوُّحٌ وَتَظْهَرُ لِلْمُشْرِكِ إِذَا أَوْقَدَهَا فِي مَنْزِلِهِ، وَلَكِنَّهُ يَنْزِلُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، هُوَ حُثٌّ عَلَى الْهَجْرَةِ. قَالَ الْخَطَّابِيُّ فِي مَعْنَاهُ ثَلَاثَةٌ وَجُوهٌ: قِيلَ: مَعْنَاهُ لَا يَسْتَوِي حُكْمُهُمَا. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَنَّ اللَّهَ فَرَّقَ بَيْنَ دَارِي الْإِسْلَامِ وَالْكَفْرِ، فَلَا يَجُوزُ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَسَاكِنَ الْكَفَّارَ فِي بِلَادِهِمْ حَتَّى إِذَا أَوْقَدُوا نَارًا كَانَ مِنْهُمْ حَيْثُ يَرَاهَا. وَقِيلَ مَعْنَاهُ لَا يَتَّسِمُ الْمُسْلِمُ بِسِمَةِ الْمُشْرِكِ وَلَا يَتَّسِبُهُ بِهِ فِي هَدْيِهِ وَشَكْلِهِ. [انظر: تحفة الأحوذى (٥/ ١٩٠).]

(٢) «الكشاف» ٤٩٩/١.

(٣) هذا قول السدى. وقال ابن عباس: هو ظهور النبي ﷺ والمسلمين على جميع الخلق بانتصاره عليهم.

(٤) في الآية إعلامٌ بارتداد بعض المسلمين فهو إخبار بالغيب قبل وقوعه وقد ارتد عن الإسلام فرقٌ كثيرة منهم من ارتد في عهد رسول الله ﷺ ومنهم في عهد أبي بكر ﷺ وقد ارتد بنو حنيفة قومٌ مُسْلِمَةٌ الْكَذَّابِ وَكُتِبَ مُسْلِمَةٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الْأَرْضَ نِصْفَهَا لِي وَنِصْفَهَا لَكَ فَاجَابَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ، إِلَى مُسْلِمَةِ الْكَذَّابِ: السَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى. أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، =

وَيُحِبُّونَهُ ۖ أَيُّ فَسُوفَ يَأْتِي اللَّهُ مَكَانَهُمْ بِأَنَاسٍ مُّؤْمِنِينَ يُحِبُّهُمْ اللَّهُ وَيُحِبُّونَ اللَّهَ ۖ ﴿١﴾ أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
 أَعَزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ۖ أَيُّ رَحَمَاءٍ مُّتَوَاضِعِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَشَدَّاءٍ مُّتَعَزِّزِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ قَالَ «ابن
 كثير»: وهذه صفات المؤمنين الكمل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه متعزراً على عدوه^(١)
 كقوله تعالى ﴿أَشَدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] ومن علامة حب الله تعالى للمؤمن أن
 يكون لِيَنَ الجانب متواضعاً لإخوانه المؤمنين متسرِبلاً بالعزة حيال الكافرين والمنافقين
 ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ أي يجاهدون لإعلاء كلمة الله ولا يبالون بمن لا مهم
 فهم صلاب في دين الله لا يخافون في ذات الله أحداً ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي من اتصف
 بهذه الأوصاف الحميدة فإنما هو من فضل الله عليه وتوفيقه له ﴿وَاللَّهُ وَسِعَ عَلِيمٌ﴾ أي واسع
 الإفضال والإحسان عليمٌ بمن يستحق ذلك، ثم لما نهاهم تعالى عن موالاته الكفرة ذكر هنا
 من هم حقيقون بالموالاته فقال ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ليس اليهود والنصارى
 بأوليائكم إنما أولياؤكم الله ورسوله والمؤمنون ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾
 أي المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف الجليلة من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهم خاشعون
 متواضعون لله عَزَّ وَجَلَّ قال في «التسهيل»: ذكر تعالى الولي بلفظ المفرد إفراداً لله تعالى بهما،
 ثم عطف على اسمه تعالى الرسول ﷺ والمؤمنين على سبيل التبع، ولو قال «إنما أولياؤكم»
 لم يكن في الكلام أصلٌ وتبع^(٢) ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حَرْبَ اللَّهِ هُمْ الْغَالِبُونَ﴾ أي
 من يتول الله ورسوله والمؤمنين فإنه من حزب الله وهم الغالبون القاهرون لأعدائهم ﴿يَكُونُ
 الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا﴾ أي لا تتخذوا أعداء الدين الذين يسخرون من
 دينكم ويهزءون ﴿مَنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارُ أَوْلِيَاءُ﴾ أي من هؤلاء المستهزئين
 اليهود والنصارى وسائر الكفرة أولياء لكم تودونهم وتحبونهم وهم أعداء لكم، فمن اتخذ
 دينكم سخرية لا يصح لكم أن تصادقوه أو توالوه بل يجب أن تبغضوه وتعادوه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ
 كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ أي اتقوا الله في موالاته الكفار والفجار إن كنتم مؤمنين حقاً، ثم بين تعالى جانباً
 من استهزائهم فقال ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُؤًا وَلَعِبًا﴾ أي وإذا أذنتم إلى الصلاة ودعوتهم
 إليها سخروا منكم ومن صلاتكم قال في «البحر»: حسد اليهود الرسول ﷺ حين سمعوا الأذان
 وقالوا: ابتدعت شيئاً لم يكن للأنبياء فمن أين لك الصياح كصياح العير فما أقبحه من صوت

= وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ. (ش): كَانَ مُسْلِمَةً كَتَبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. (رواه أبو داود، وصححه الألباني). أما كتاب
 النبي ﷺ إلى مُسْلِمَةَ فرواه ابن إسحاق في «السيرة» بإسناد رجاله ثقات.

(١) «مختصر تفسير (ابن كثير)» ٥٢٨ / ١.

(٢) «التسهيل» ١٨١ / ١.

فأنزل الله هذه الآية^(١) نبّه تعالى على أن من استهزأ بالصلاة ينبغي أن لا يتخذ ولياً بل يهجر ويطرد، وهذه الآية جاءت بالتوكيد للآية قبلها ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي ذلك الفعل منهم بسبب أنهم فجرة لا يعقلون حكمة الصلاة ولا يدركون غايتها في تطهير النفوس، ونفى العقل عنهم لكونهم لم ينتفعوا به في أمر الدين وإن كان لهم عقول يدركون بها مصالح الدنيا ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا﴾ أي قل يا محمد: يا معشر اليهود والنصارى هل تعيبون علينا وتنكرون منا ﴿إِلَّا أَنَّا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ﴾ أي إلا إيماننا بالله وبما جاء به رسل الله قال «ابن كثير»: أي هل لكم علينا مطعن أو عيب إلا هذا؟ وهذا ليس بعيب ولا مذمة فيكون الاستثناء منقطعاً^(٢) ﴿وَأَنَّا أَكْثَرُكُمْ فُسِقُونَ﴾ أي خارجون عن الطريق المستقيم ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ﴾ أي هل أخبركم بما هو شر من هذا الذي تعيبونه علينا؟ ﴿مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي ثواباً وجزاءً ثابتاً عند الله قال في «التسهيل»: ووضع الثواب موضع العقاب تهكمًا بهم نحو قوله^(٣) ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] ﴿مَنْ لَعْنَهُ اللَّهُ﴾ أي طرده من رحمته ﴿وَعُصْبٌ عَلَيْهِ﴾ أي سخط عليه بكفره وانهماكه في المعاصي بعد وضوح الآيات ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ أي ومسح بعضهم قردة وخنازير ﴿وَعَبَدَ الطَّغُوتِ﴾ أي وجعل منهم من عبد الشيطان بطاعته ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي هؤلاء الملعونون الموصوفون بتلك القبائح والفضائح شرّ مكاناً في الآخرة وأكثر ضللاً عن الطريق المستقيم قال «ابن كثير» والمعنى: يا أهل الكتاب الطاعنين في ديننا الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبادة دون ما سواه كيف يصدر منكم هذا وأنتم قد وجد منكم جميع ما ذكر^(٤)؟ قال «القرطبي»: ولما نزلت هذه الآية قال المسلمون لهم: يا إخوة القردة والخنازير فنكسوا رؤوسهم افتضاحاً وفيهم يقول الشاعر:

فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ إِنَّ الْيَهُودَ إِخْوَةُ الْقُرُودِ^(٥)

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ الضمير يعود إلى المنافقين من اليهود أي إذا جاءوكم أظهروا الإسلام ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ أي والحال قد دخلوا إليك كفاراً وخرجوا كفاراً لم ينتفعوا بما سمعوا منك يا محمد من العلم، ولا نجعت^(٦). فيهم المواعظ والزواجر ﴿وَاللَّهُ

(١) «البحر» ٣/ ٥١٥، وقال «أبو السعود» عند هذه الآية: روى أن نصرانياً بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمداً رسول الله يقول: أحرقت الله الكاذب، فدخل خادمه ذات ليلة بنارٍ وأهله نيام فتطارت منه شرارة في البيت فأحرقته وأهله جميعاً «أبو السعود» ٢/ ٤٠.

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٥٣٠.

(٣) «التسهيل» ١/ ١٨٢.

(٤) «ابن كثير» ١/ ٥٣١.

(٥) «القرطبي» ٦/ ٢٣٦.

(٦) (ش): نجع الشّيء: نفع، وظهر أثره.

أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٤٥٥﴾ أي من كفرهم ونفاقهم وفيه وعيد شديد لهم ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْأَثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ أي وترى كثيراً من اليهود يسابقون في المعاصي والظلم ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ أي أكلهم الحرام ﴿لَيْتَسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي بئس أعمالهم القبيحة تلك الأخلاق الشنيعة ﴿لَوْ لَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ أي هلاً يجرهم علماءهم وأخبارهم ﴿عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ أي عن المعاصي والآثام وأكل الحرام ﴿لَيْتَسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أي بئس صنيعهم ذلك تركهم النهي عن ارتكاب محارم الله قال ابن عباس: ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية - يعني على العلماء - وقال أبو حيان: تضمنت هذه الآية توبيخ العلماء والعباد على سكوتهم عن النهي عن معاصي الله وأنشد ابن المبارك:

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ وَأَخْبَارُ سُوءٍ وَرُءْبَانُهَا ^(٧)

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي قال اليهود اللُّعْنَاءُ: إن الله بخيل ^(٨) يقتّر الرزق على العباد قال ابن عباس: مغلولة أي بخيلة أمسك ما عنده بخلاً ليس يعنون أن يد الله موثقة ولكنهم يقولون: إنه بخيل ﴿عُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دعاء عليهم بالبخل المذموم والفقير والنكد ﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ أي أبعدهم الله من رحمته بسبب تلك المقالة الشنيعة ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي بل هو جواد كريم سابع الإنعام يرزق ويعطي كما يشاء ^(٩) قال «أبو السعود»: وتضييق الرزق ليس لقصور في فيضه بل لأن إنفاقه تابع لمشيئته المبنية على الحكيم وقد اقتضت الحكمة بسبب ما فيهم من شؤم المعاصي أن يضيق عليهم ^(١٠) ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي وليزيدنهم هذا القرآن الذي أنزل عليك يا محمد كفراً فوق كفرهم وطغياناً فوق طغيانهم إذ كلما نزلت آية كفروا بها فيزداد طغيانهم وكفرهم كما أن الطعام للأصحاء يزيد المرضى مرضاً قال «الطبري»: أعلم تعالى نبيه أنهم أهل عتو وتمرد على ربهم وأنهم لا يدعنون للحق وإن علموا صحته ولكنهم يعاندونه يسلي بذلك نبيه ﷺ في ذهابهم عن الله وتكذيبهم إياه ^(١١) ﴿وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي ألقينا بين اليهود العدواة والبغضاء فكلمتهم مختلفة وقلوبهم شتى لا يزالون متباغضين متعادين إلى قيام الساعة ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ أي كلما أرادوا إشعال حربٍ على رسول الله ﷺ أطفأها الله ﷻ ويسعون في الأرض فساداً ﴿أَيُّ مَنْ يَجْتَهِدُونَ فِي الْكَيْدِ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ وَيَسْعُونَ لِإِثَارَةِ الْفِتَنِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ قال «ابن كثير»: أي من

(٧) «البحر المحيط» ٥٢٢/٣.

(٨) «الطبري» ٤٥٢/١٠.

(٩) (ش): كُلُّ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةُ وَإِجْمَاعُ السَّلَفِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ وَصَفَ نَفْسَهُ بِصِفَةِ الْيَدَيْنِ.

(١٠) «أبو السعود» ٤٣/٢.

(١١) «الطبري» ٤٥٧/١٠.

سَجَّيْتَهُمْ^(١) أَنَّهُمْ دَائِمًا يَسْعُونَ فِي الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ أَي لَا يَحِبُّ مِنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتُهُ^(٢) ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أَي لَوْ أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى آمَنُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ حَقَّ الْإِيمَانِ وَاتَّقَوْا مُحَارِمَ اللَّهِ فَاجْتَنَبُوهَا ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أَي مَحَوْنَا عَنْهُمْ ذُنُوبَهُمُ الَّتِي اقْتَرَفُوهَا ﴿وَلَا دَخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أَي وَلَا دَخَلْنَاهُمْ مَعَ ذَلِكَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أَي وَلَوْ أَنَّهُمْ اسْتَقَامُوا عَلَى أَمْرِ اللَّهِ وَعَمَلُوا بِمَا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَبِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ فِي هَذَا الْكِتَابِ الْجَلِيلِ الَّذِي نَزَلَ عَلَى خَاتَمِ الرُّسُلِ ﷺ ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أَي لَوَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الرِّزْقَ وَأَغْدَقَ عَلَيْهِمُ الْخَيْرَاتِ بِإِفَاضَةِ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ عَلَيْهِمْ ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ أَي مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ مُعْتَدِلَةٌ مُسْتَقِيمَةٌ غَيْرُ غَالِيَةٍ وَلَا مُقَصِّرَةٍ، وَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَالنَّجَاشِيِّ وَسَلَمَانَ ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أَي وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ أَشْرَارُ بَشَرٍ مَا يَعْمَلُونَ مِنْ قَبِيحِ الْأَقْوَالِ وَسُوءِ الْفِعَالِ.

- البَلَاغَةُ: ١ -** ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ بَيْنَ لَفْظِ «أَعِزَّةٌ» وَ «أَذَلَّةٌ» طَبَاقٌ وَهُوَ مِنَ الْمَحْسَنَاتِ الْبَدِيعِيَّةِ وَكَذَلِكَ بَيْنَ لَفْظِ ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ.. وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾.
- ٢ - ﴿لَوْ مَآءٌ لَأَيَّمٌ﴾ فِي تَنْكِيرِ لَوْ مَآءٌ وَلَا تَمَّ مَبَالِغَةٌ لَا تَخْفَى لِأَنَّ اللَّوْمَةَ الْمَرَّةَ مِنَ اللَّوْمِ.
- ٣ - ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ هَذَا عَلَى سَبِيلِ التَّهْيِيجِ.
- ٤ - ﴿هَلْ تَنْقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا﴾ يُسَمَّى مِثْلُ هَذَا عِنْدَ عُلَمَاءِ الْبَيَانِ تَأْكِيدَ الْمَدْحِ بِمَا يَشْبَهُ الذَّمَّ وَبِالْعَكْسِ فَقَدْ جَعَلُوا التَّمَسُّكَ بِالْإِيمَانِ مُوجِبًا لِلْإِنْكَارِ وَالتَّقِيَّةَ مَعَ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْعَكْسِ.
- ٥ - ﴿مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ هَذَا مِنْ بَابِ التَّهْكُمِ حَيْثُ اسْتَعْمَلَتِ الْمَثُوبَةُ فِي الْعُقُوبَةِ.
- ٦ - ﴿شَرُّ مَكَانٍ﴾ نَسَبُ الشَّرِّ لِلْمَكَانِ وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ لِأَهْلِهِ وَذَلِكَ مَبَالِغَةٌ فِي الذَّمِّ.
- ٧ - ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ غُلُّ الْيَدِ كُنَايَةٌ عَنِ الْبَخْلِ وَبَسْطُهَا كُنَايَةٌ عَنِ الْجُودِ^(٣).
- ٨ - ﴿أَوْقِدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ﴾ يُقَادُ النَّارُ فِي الْحَرْبِ اسْتِعَارَةً لِأَنَّ الْحَرْبَ لَا نَارَ لَهَا وَإِنَّمَا شَبِهَتْ بِالنَّارِ لِأَنَّهَا تَأْكُلُ أَهْلَهَا كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ حَطَبَهَا.
- ٩ - ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ اسْتِعَارَةٌ أَيْضًا عَنْ سَبُوحِ النِّعَمِ وَتَوْسِعَةِ الرِّزْقِ عَلَيْهِمْ كَمَا يُقَالُ: عَمَّ الرِّزْقُ مَنْ فَوْقَهُ إِلَى قَدَمِهِ.

الفَوَائِدُ: الأولى: رَوَى أَنَّ عُمَرَ بَلَغَهُ أَنَّ كَاتِبًا نَصْرَانِيًّا قَدْ اسْتَعْمَلَهُ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ فَكَتَبَ إِلَى أَبِي مُوسَى: لَا تَكْرُمُوهُمْ إِذْ أَهَانَهُمُ اللَّهُ، وَلَا تَأْمَنُوهُمْ إِذْ خَوَّنَهُمُ اللَّهُ، وَلَا تُدْنُوهُمْ إِذْ أَقْصَاهُمْ

(١) (ش): سَجَّيَّةٌ: طَبِيعَةٌ، خُلُقٌ، صِفَةٌ فِطْرِيَّةٌ فِي الْإِنْسَانِ.

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٥٣٢.

(٣) (ش): كَلَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَإِجْمَاعُ السَّلَفِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ وَصَفَ نَفْسَهُ بِصِفَةِ الْيَدَيْنِ.

الله فقال له أبو موسى: لا قوام للبصرة إلا به فقال عمر: مات النصراني فماذا تفعل^(١)؟
الثانية: قُتِلَ مسيلمة الكذاب في عهد أبي بكر على يد «وحشي» قاتل حمزة وكأن يقول: قُتِلْتُ
 خَيْرَ النَّاسِ فِي الجاهلية - يريد حمزة - وَشَرَّ النَّاسِ فِي الإسلام - يريد مسيلمة الكذاب^(٢) (٣).
الثالثة: قال المفسرون: «عسى» من الله واجب لأن الكريم إذا أطمع في خير فعله فهو بمنزلة
 الوعد لتعلق النفس به^(٤).

الرابعة: قال «البيضاوي» في قوله تعالى ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ﴾ فيها تحضيض لعلمائهم
 للنهي عن ذلك فَإِنَّ ﴿لَوْلَا﴾ إذا دخل على الماضي أفاد التوبيخ وإذا دخل على المستقبل أفاد
 التحضيض^(٥).

قال الله تعالى:

يَتَأْتِيَ الرُّسُولَ بَلَّغٌ مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ
 إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ
 وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَئِنْ يَدْرِكْ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَيْنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ
 الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ
 صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا
 كَمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ
 فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ
 ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا
 اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ
 أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثُلُثٍ وَمِمَّا مِنْ إِلَهِ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ
 يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ
 وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ

(١) «البحر» ٥٠٧/٣.

(٢) (ش): عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: قلت لعمر - رضي الله عنه - : «إن لي كاتبًا نصرانيًا»،
 قال: «ما لك؟ قاتلك الله، أما سمعت الله يقول: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾
 [المائدة: ٥١] ألا اتخذت حنيفًا؟» قال: قلت: «يا أمير المؤمنين لي كتابته وله دينه»، قال: «لا أكرمهم إذا هانهم
 الله ولا أعزهم إذا ذلهم الله، ولا أدنهم إذا أقصاهم الله». [رواه ابن أبي شيبة والبيهقي بسند حسن].

(٣) «محاسن التأويل» ٦/٢٠٣٤.

(٤) (ش): قال وَحْشِيٌّ: قُتِلْتُ خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقُتِلْتُ شَرَّ النَّاسِ. رواه ابن إسحاق «السيرة النبوية»
 بإسناد صحيح.

(٥) «الرازي» ١٦/١٢.

(٦) «البيضاوي» ص ١٥٦.

الرُّسُلَ وَأُمَّهُ صِدِّيقَةً ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظَرُ كَيْفَ نَبِّتَ لَهُمُ الْآلَايَتِ ثُمَّ أَنْظَرَ أَنَّ يُؤَفَّكَوْكَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا أَنْزَلْ إِلَيْهِ مَا آخَذَهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَنْ كُنَّا كَثِيرًا مِنْهُمْ فَتَسْفُوتَ ﴿٨١﴾

المناسبة: لما حذر تعالى المؤمنين من موالاة الكافرين، وكانت رسالته ﷺ تتضمن الطعن في أحوال الكفرة والمخالفين، وهذا يستدعي مناصبتهم العداء له ولأتباعه أمره تعالى في هذه الآيات بتبليغ الدعوة، ووعده بالحفظ والنصرة، ثم ذكر تعالى طرفاً من عقائد أهل الكتاب الفاسدة وبخاصة النصراني الذين يعتقدون بالوهمية عيسى وأنه ثالث ثلاثة، وردّ عليهم بالدليل القاطع والبرهان الساطع.

اللغة: ﴿يَعْصِمُكَ﴾ العصمة: الحفظ والحماية ﴿طُغَيْنَا﴾ الطغيان: تجاوز الحد في الظلم والغلو فيه ﴿تَأْسَ﴾ تحزن يقال: أَسَى يَأْسِي، والأسى: الحزن قال: وَأَنْحَلَبَتْ عَيْنَاهُ مِنْ فَرْطِ الْأَسَى ^(١) ... ﴿خَلَّتْ﴾ مضت ﴿صِدِّيقَةً﴾ الصديق: المبالغ في الصدق وفعل من أبنية المبالغة كما يقال رجل سَكِيت أي مبالغ في السكوت، و سَكِير أي كثير السكر ﴿يُؤَفَّكَوْكَ﴾ يُصْرَفُونَ عن الحق يقال: أَفَّكَه إذا صرفه ومنه ﴿أَجِئْنَا لِنَأْفِكَكَ﴾ [الأحقاف: ٢٢] ﴿تَعْلَمُوا﴾ الغلو: التجاوز في الحد والتشدد في الأمر يقال: غلا في دينه غلواً تشدد فيه حتى جاوز الحد.

سَبَبُ النُّزُول: أ - عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «لما بعثني الله برسالته ضقت بها ذرعاً وعرفت أن من الناس من يكذبني فأنزل الله ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ ^(٢) ﴿الآية﴾ ^(٣).

ب - وعن ابن عباس قال: «جاء جماعة من اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: ألسنت تقرأ أن التوراة حق من عند الله؟ قال: بلى فقالوا: فإننا نؤمن بها ولا نؤمن بما عداها» فأنزل الله ﴿قُلْ

(١) «القرطبي» ٦ / ٢٤٥.

(٢) «أسباب النزول» ص ١١٥.

(٣) (ش): ضعيف، رواه الواحدي في «أسباب النزول».

يَتَّاهِلَ الْكَتَبِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ... ﴿١﴾ (الآية ٢).

التفسير: ﴿يَتَّاهِلُ الرَّسُولُ بَلَّغَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ هذا نداءٌ تشریفٍ وتعظيمٍ ناداه تعالى بأشرف الأوصاف بالرسالة الربانية أي بَلَّغَ رسالة ربك غير مراقبٍ أحداً ولا خائفٍ أن ينالك مكروه ﴿وَلِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ (٣) قال ابن عباس: المعنى بَلَّغَ جميع ما أُنْزِلَ إليك من ربك فإن كتمت شيئاً منه فما بَلَغْتَ رسالته، وهذا تأديبٌ لِحَمَلَةِ العلم من أمته ألا يكتُموا شيئاً من أمر شريعته ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي يمنعك من أن ينالك بسوء قال الزمخشري: هذا وعدٌ من الله بالحفظ والكلاءة والمعنى: والله يضمن لك العصمة من أعدائك فما عذرك في مراقبتهم؟ «روي أن رسول الله ﷺ كَانَ يُحَرِّسُ حَتَّى نَزَلَتْ فَأَخْرَجَ رَأْسَهُ مِنْ قُبَّةِ آدَمَ وَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ انْصَرِفُوا فَقَدْ عَصَمَنِي اللَّهُ» (٤) (٥). ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي إنما عليك البلاغ والله هو الذي يهدي من يشاء فمن قضى له بالكفر لا يهتدي أبداً ﴿قُلْ يَتَّاهِلَ الْكَتَبِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى: لستم على شيء من الدين أصلاً حتى تعملوا بما في التوراة والإنجيل وتقيموا أحكامهما على الوجه الأكمل، ومن إقامتهما الإيمان بمحمد ﷺ ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ قال ابن عباس: يعني القرآن العظيم ﴿وَلَنْ يَذُوقَ كَثِيرًا مِمَّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَنًا وَكُفْرًا﴾ اللام للقسم أي وأقسم ليزيدن هذا القرآن المنزل عليك يا محمد الكثير منهم غلوًا في التكذيب وجحوداً لنبوتك (٦) وإصراراً على الكفر والضلال ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي لا تحزن عليهم فإن تكذيب الأنبياء عادتهم ودأبهم، وهذه تسليّة للنبي ﷺ وليس بنهي عن الحزن (٧) ثم قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي صدّقوا الله ورسوله وهم المسلمون ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وهم اليهود ﴿وَالصَّابِرُونَ﴾ وهم طائفة من النصارى عبدوا الكواكب (٨) ﴿وَالنَّصَارَى﴾ وهم أتباع عيسى ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي مَنْ آمَنَ مِنْ هَؤُلَاءِ المذكورين إيماناً

(١) «القرطبي» ٦ / ٢٤٥.

(٢) (ش): ضعيف، أخرجه «الطبري» في «جامع البيان».

(٣) «القرطبي» ٦ / ٢٤٢.

(٤) «الكشاف» ١ / ٥١٤.

(٥) (ش): حسن، أخرجه الترمذي، و«الطبري» في «جامع البيان». وَالْقُبَّةُ مِنَ الْخِيَامِ: بَيْتٌ صَغِيرٌ مُسْتَدِيرٌ، وَهُوَ مِنْ بَيُوتِ الْعَرَبِ. وَالْأَدَمُ: جَمْعُ أَدِيمٍ أَيْ جَلْدٍ.

(٦) «الطبري» ١٠ / ٤٧٤.

(٧) «القرطبي» ٦ / ٥٤٢.

(٨) (ش): الصواب أنهم قوم باقون على فطرتهم، ولا دين مقرر لهم يتبعونه.

صحيحاً خالصاً لا يشوبه ارتيابٌ بالله وبالיום الآخر وعمل صالحاً يقربه من الله ^(١) ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي فلا خوفٌ عليهم فيما قدموا عليه من أهوال يوم القيامة ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم من الدنيا بعد معايتهم جزيل ثواب الله ^(٢) قال «ابن كثير»: والمقصود أن كل فرقة آمنت بالله واليوم الآخر وعملت عملاً صالحاً - ولا يكون ذلك كذلك حتى يوافق الشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقليين - فمن اتصف بذلك فلا خوفٌ عليهم فيما يستقبلونه ولا هم يحزنون على ما تركوه وراء ظهورهم ^(٣) ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي أخذنا من اليهود العهد المؤكد على الإيمان بالله ورسله قال في «البحر»: هذا إخبار بما صدر من أسلاف اليهود من نقض الميثاق الذي أخذه تعالى عليهم وما اجترحوه من الجرائم العظام من تكذيب الأنبياء وقتل بعضهم، وهؤلاء أخلاف أولئك فغير بدع ما يصدر منهم للرسول من الأذى والعصيان إذ ذاك شنيئة من أسلافهم ^(٤) ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ رُسُلًا﴾ أي أرسلنا لهم الرسل ليرشدوهم ويبينوا لهم أمر الدين ﴿كَلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ﴾ أي كلما جاءهم رسول من أولئك الرسل بما يخالف أهواءهم وشهواتهم ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ أي كذبوا طائفة من الرسل ويقتلون طائفة أخرى منهم قال «البيضاوي»: وإنما جيء بـ «يَقْتُلُونَ» موضع «فَقَتَلُوا» على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها واستفظاعاً للقتل وتنبهاً على أن ذلك من ديدنهم ماضياً ومستقبلاً ومُحافظةً على رءوس الآي ^(٥) ^(٦).

﴿وَحَسِبُوا أَنَّا لَآتِكُونَ فِتْنَةً﴾ أي وظن بنو إسرائيل أن لا يصيبهم بلاءٌ وعذاب بقتل الأنبياء وتكذيب الرسل اغتراراً بامهال الله عز وجل لهم ﴿فَعَمَّوْا وَصَمَّوْا﴾ أي تماردوا في الغي والفساد فعمَّوا عن الهدى وصمَّوا عن سماع الحق وهذا على التشبيه بالأعمى والأصم لأنه لا يهتدي إلى طريق الرشد في الدين لإعراضه عن النظر ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ قال «القرطبي»: في الكلام إضمارٌ أي أوقعت بهم الفتنة فتابوا فتاب الله عليهم ^(٧) ﴿ثُمَّ عَمَّوْا وَصَمَّوْا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ أي عمي كثير منهم وصم بعد تبين الحق له ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي عليم بما عملوا وهذا وعيدٌ لهم وتهديد، ثم ذكر تعالى عقائد النصارى الضالة في المسيح فقال ﴿لَقَدْ كَفَرَ

(١) (ش): ومن أركان الإيمان الإيمان بالنبي محمد ﷺ الكامل، وبما جاء به.

(٢) «الطبري» ٤٧٦/١٠.

(٣) «مختصر ابن كثير» ١/ ٥٣٥.

(٤) «البيضاوي» ص ١٥٧. (ش): الشَّيْئَةُ: الطَّيْبَةُ، والْعَادَةُ الغالبة.

(٥) «القرطبي» ٦/ ٢٤٨.

(٦) (ش): الآي: الآيات. أي لتوافق مع نَظْمٍ أواخرِ الآياتِ ﴿يَحْزَنُونَ / يَقْتُلُونَ / يَعْمَلُونَ﴾.

(٧) «أبو السعود» ٢/ ٤٩.

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴿٦٩﴾ قال «أبو السعود»: هذا شروعٌ في تفصيل قبائح النصارى وإبطال أقوالهم الفاسدة بعد تفصيل قبائح اليهود وهؤلاء الذين قالوا: إن مريم ولدت إلهًا هم «اليعقوبية» زعموا أن الله تعالى حلَّ في ذات عيسى واتحد به، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً ﴿٧٠﴾ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴿٧١﴾ أي أنا عبدٌ مثلكم فاعبدوا خالقي وخالقكم الذي يذلُّ له كل شيء ويخضع له كل موجود قال «ابن كثير»: كان أول كلمة نطق بها وهو صغير أن قال ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠] ولم يقل: إني أنا الله، ولا ابن الله بل قال ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ أَتَنَبَّيْتُ الْكَتَبَ وَجَعَلْتُ نَبِيًّا﴾^(٨) [مريم: ٣٠] وقال «القرطبي»: ردَّ الله عليهم ذلك بحجة قاطعة مما يُقرُّون به فقال ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ فإذا كان المسيح يقول: يا رب، ويا الله فكيف يدعو نفسه أم كيف يسألها؟ هذا محال^(٩) ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ أي من يعتقد بالوهية غير الله فلن يدخل الجنة أبداً لأنها دار الموحدين ﴿وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ أي مصيره نار جهنم ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أي فلا ناصر ولا منقذ له من عذاب الله ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ أي أحد ثلاثة الإلهية وهذا قول فرقة من النصارى يسمون «التسطورية والملكانية» القائلين بالتثليث وهم يقولون: إن الإلهية مشتركة بين الله، وعيسى، ومريم وكل واحدٍ من هؤلاء إله ولهذا اشتهر قولهم «الأب والأبْن وروح القدس»^(١٠) ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ﴾ أي والحال أنه ليس في الوجود إلا إله واحد

(٨) «القرطبي» ٦/ ٢٤٩.

(٩) «القرطبي» ٦/ ٢٤٩.

(١٠) قال السدي: نزلت في جعلهم المسيح وأمه إلهين مع الله فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار وقال في «البحر»: يقولون جوهر واحد وثلاثة أقانيم: «أب وابن وروح قدس» وهذه الثلاثة إله واحد كما أن الشمس تناول القرص والشمع والحرارة وزعموا أن الأب إله والابن إله والروح إله والكل إله واحد، وهذا معلوم البطلان ببدهة العقل أن الثلاثة لا تكون واحداً وأن الواحد لا يكون ثلاثة.

(ش): وقد كانت أحد أجوبة الفطرة سبباً في هداية الداعية يوسف إسمتس، وانتقاله من النصرانية إلى الإسلام بعد أن كان قساً، فأصبح الآن من الدعاة إلى الله عز وجل، يجوب أقطار الدنيا، ويسلم على يديه الآلاف، بل عشرات الآلاف، وكان كل هدف يوسف إسمتس أن يحول هذا الشخص المسلم إلى النصرانية. وقد ذكر في قصة إسلامه حواراً دار بينه وبين رجل أعمال مصري مسلم اسمه محمد عبد الرحمن، قال يوسف إسمتس: «لم أكن وحدي أنوي تحويل محمد عبد الرحمن إلى النصرانية حتى أنجيه من النار، لقد التحق بنا في البيت قس آخر كاثوليكي، وأنا كنت قساً بروتستانتيًا، وكذلك أبي وأمي كانا يعملان بالتبشير، وزوجتي كذلك، فكنا خمسة بالبيت، وكان هدفنا الأسمى أن نحول محمد عبد الرحمن إلى النصرانية. ضربنا له مثلاً: أن عقيدة التثليث هي العقيدة الصحيحة، انظر إلى التفاحة، لها قشر أحمر، ولها قلب أبيض، وفيها بذور، وهي تفاحة واحدة، ولكنها تحتوي على ذلك كله. فسألني: إذا كنتم فيها من بذرة؟ - وهو يشير إليّ بذلك - إذا كنتم أكثر من إله، وليس إلهًا واحدًا كما تدعون. ثم ضربنا له مثلاً آخر عن الثالوث، قلنا: البيضة لها قشرة، ثم بياض، ثم صفار، وهكذا ثلاثة في واحد. فأجاب عبد الرحمن: وكيف الحال إذا كان بالبيضة الواحدة أكثر من صفار =

موصوفٌ بالوحدانية متعالٍ عن المثلث والنظير ﴿وَإِنْ لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي وإن لم يكفوا عن القول بالثلاثية ﴿لَيَمَسَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ليمسهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ الاستفهام للتوبيخ أي أفلا يتوبون عن تلك العقائد الزائفة والأقاويل الباطلة ويستغفرون الله مما نسبوه إليه من الاتحاد والحلول^(١)؟ ﴿وَاللَّهُ عَفُوزٌ رَحِيمٌ﴾ أي يغفر لهم ويرحمهم إن تابوا قال «البيضاوي»: وفي هذا الاستفهام ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ﴾ تعجبٌ من إصرارهم على الكفر ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي ما المسيح إلا رسولٌ كالرسل الخالية الذين تقدموه خصه الله تعالى ببعض الآيات الباهرات إظهاراً لصدقه كما خصَّ بعض الرسل، فإن أحياء الموتى على يده فقد أحياء العصا في يد موسى. وجعلت حية تسعى وهو أعجب، وإن خلق من غير أب فقد خلق آدم من غير أب ولا أم وهو أغرب، وكل ذلك من جنابه عز وجل وإنما موسى وعيسى مظاهر شئونه وأفعاله^(٢) ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ أي مبالغة في الصدق ﴿كَأَنَّا يَأْكُلَانِ الطَّلْعَامَ﴾ أي أنه مخلوق كسائر المخلوقين مركبٌ من عظم ولحم وعروق وأعصاب وفيه إشارة لطيفة إلى أن من يأكل الطعام لا بد أن يكون في حاجة إلى إخراجهِ ومن يكن هذا حاله فكيف يُعبد، أو كيف يُتوهم أنه إله؟ ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ بُيِّنْتُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ تعجبٌ من حال الذين يدعون ألوهيته هو وأمّه أي انظر كيف نوضح لهم الآيات الباهرة على بطلان ما اعتقدوه ﴿ثُمَّ أَنْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَعْبُدُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا أي كيف يُصرفون عن استماع الحق وتأمله بعد هذا البيان مع أنه أوضح من الشمس في رابعة النهار^(٣) ﴿قُلْ أَعْبُدُوا﴾ أي قل يا محمد أتوجهون عبادتكم إلى من لا يقدر لكم على النفع والضرر؟^(٤) ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوالكم العليم بأحوالكم وتضمنت الآية

= كصفارين، إذاً في هذه الحالة البيضة لها أربعة أجزاء، إذاً الإله أربعة، وليس ثلاثة. وضرينا له أمثلة عديدة جدا، ولم نكن مقتنعين من الداخل بهذه الأمثلة، وفي الأخير لما يتسنا قلنا له: أخبرنا عن حقيقة إلهك. قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿١﴾ ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ ﴿٢﴾ ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ﴿٣﴾، ثم أعطانا معاني هذه السورة العظيمة. وهنا، بدأ الإسلام يدب، وبدأت عقيدة التوحيد تدب في قلوب الحضور.

(١) (ش): الحلول والاتحاد من العقائد الكُفَرِيَّة: والحلول: هو الاعتقاد بحلول الله - عز وجل - في مخلوقاته، أو بعض مخلوقاته. والاتحاد: هو الاعتقاد باتحاد الله - عز وجل - بمخلوقاته، أو ببعض مخلوقاته. أي: اعتقاد أن وجود الكائنات أو بعضها هو عين وجود الله تعالى. تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

(٢) (ش): هذا التعبير غير مناسب؛ لأنه يشبه تعبير الصوفية.

(٣) (ش): رابعة النهار: وسطه.

(٤) (قال في «البحر»): لما بين تعالى بدليل النقل والعقل انتفاء الألوهية عن عيسى ودعاهم للتوبة وطلب الغفران =

الإنكار عليهم حيث عبدوا من هو مُتَّصِفٌ بالعجز عن دفع ضررٍ أو جلب نفع ﴿قُلْ يَكَاهِلُ
الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي يا معشر اليهود والنصارى لا تتجاوزوا الحد
في دينكم وتُفَرِّطُوا كما أفرط أسلافكم فتقولوا عن عيسى: إنه إله^(١) أو ابن إله قال «القرطبي»:
وغلوا اليهود قولهم في عيسى إنه ليس ولد رشدة - أي هو ابن زنا - وغلوا النصارى قولهم إنه
إله ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي لا تتبعوا أسلافكم وأئمتكم الذين كانوا
على الضلال قبل بعثة النبي ﷺ ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ أي أضلوا كثيراً من الخلق بإغوائهم
لهم ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي ضلوا عن الطريق الواضح المستقيم قال «القرطبي»:
وتكرير ضلوا للإشارة إلى أنهم ضلوا من قبل وضلوا من بعد، والمراد الأسلاف الذين سنوا
الضلالة وعملوا بها من رؤساء اليهود والنصارى^(٢) ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ
عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي لعنهم الله عز وجل في الزبور، والإنجيل قال ابن
عباس: لعنوا بكل لسان، لعنوا على عهد موسى في التوراة، وعلى عهد داود في الزبور، وعلى
عهد عيسى في الإنجيل وعلى عهد محمد في القرآن^(٣) قال المفسرون: إن اليهود لما اعتدوا في
السبب دعا عليهم داود فمسخهم الله قردة، وأصحاب المائدة لما كفروا بعيسى دعا عليهم
عيسى فمسخوا خنازير ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي ذلك اللعن بسبب عصيانهم
واعتدائهم، ثم بين تعالى حالهم الشنيع فقال ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾
أي لا ينهى بعضهم بعضاً عن قبيح فعلوه ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي بس شيء فعلوه
قال الزمخشري: تعجيب من سوء فعلهم مؤكداً بالقسم فيا حسرتا على المسلمين في إعراضهم
عن التناهي عن المنكر كأنه ليس من الإسلام في شيء مع ما يتلون من كتاب الله من المبالغات
في هذا الباب^(٤) وقال في «البحر»: وذلك أنهم جمعوا بين فعل المنكر، والتجاهر به، وعدم
النهي عنه، والمعصية إذا فعلت ينبغي أن يُستتر بها لحديث «من ابتلي منكم بشيء من هذه
القاذورات فليستتر».

فإذا فعلت جهاراً وتواطأ الناس على عدم الإنكار كان ذلك تحريضاً على فعلها وسبباً
مثيراً لإفشائها وكثرتها^(٥) ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ترى كثيراً

= أنكر عليهم ووبخهم من وجه آخر وهو عجز عيسى عن دفع ضررٍ وجلب نفع وأن من كان لا يدفع عن نفسه
حرى أن لا يدفع عنكم؛ «البحر» ٣/ ٥٣٨.

(١) «القرطبي» ٦/ ٢٥٢.

(٢) «القرطبي» ٦/ ٢٥٢.

(٣) «البحر» ٣/ ٥٣٩.

(٤) «الكشاف» ١/ ٥١٩.

(٥) «البحر» ٣/ ٥٤٠.

من اليهود يوالون المشركين بغضاً لرسول الله ﷺ والمؤمنين والمراد «كعب بن الأشرف» وأصحابه ﴿لَيْسَ مَا قَدَمْتَ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي بئس ما قدموا من العمل لمعادهم في الآخرة ﴿أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وهذا هو المخصوص بالذم أي بئس ما قدموه لآخرتهم سخط الله وغضبه عليهم ﴿وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ أي وفي عذاب جهنم مخلدون أبد الأبدين ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي لو كان هؤلاء اليهود يصدقون بالله ونبِيِّهم وما جاءهم من الكتاب ما اتخذوا المشركين أولياء ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ أي ولكن أكثرهم خارجون عن الإيمان وطاعة الله عزَّ وجلَّ.

البلاغة: ١ - ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ في هذا التعبير من التحقير والتصغير ما لا غاية وراءه^(١).

٢ - ﴿إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أضاف الاسم الجليل إليهم تلطفاً معهم في الدعوة.

٣ - ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ لم يقل (عليهم) وإنما وضع الظاهر مكان الضمير للتسجيل عليهم بالرسوخ في الكفر.

٤ - ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ صيغة المضارع بدل الماضي ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورتها الفظيعة ومراعاة لرءوس الآيات.

٥ - ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتحويل الأمر وتربية المهابة.

٦ - الاستعارة ﴿فَعَمُوا وَصَمُوا﴾ استعار العمى والصمم للإعراض عن الهداية والإيمان.

٧ - ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ بُيِّنْتُ﴾ ﴿ثُمَّ أَنْظِرْ أَنْ يُؤْفَكُونَ﴾ قال «أبو السعود»: تكرير الأمر بالنظر للمبالغة في التعجيب ولفظ «ثم» لإظهار ما بين العجبين من التفاوت أي إن بياننا للآيات أمرٌ بديع بالغ أقصى الغايات من الوضوح والتحقيق وإعراضهم عنها أعجب وأبدع^(٢).

٨ - ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ تقييحٌ لسوء أعمالهم وتعجيبٌ منه بالتوكيد مع القسم.

الفوائد: قال بعض المحققين في قوله تعالى ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ إذا كان هذا في حق عيسى النبي فما ظنك بولي من الأولياء هل يملك لهم نفعاً ولا ضرراً؟!

تنبيه: قال «ابن كثير»: دلت الآية ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ على أن مريم ليست نبية كما زعمه ابن حزم وغيره ممن ذهب إلى نبوة «سارة» ونبوة «أم موسى» استدلالاً منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرجال ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩] وحكى الأشعري الإجماع على ذلك^(٣).

(١) «أبو السعود» ٤٦/٢.

(٢) «أبو السعود» ٥٠/٢.

(٣) «ابن كثير» ٥٣٧/١.

قال الله تعالى:

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ قَسِيسٌ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثْبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتْ نَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خِلَافِهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْهُ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسَوْتُمْهُمْ أَوْ حَرِيرٍ رَقِيَةً فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بَشْيَاءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنْ أَعْدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٩٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهُ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أَجَلَ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتْنَعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحَرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى اليهود والنصارى وما هم عليه من الزيف والضلال، ذكر هنا أنَّ اليهود في غاية العداوة للمسلمين، ولذلك جعلهم قرناء للمشركين في شدة العداوة، وذكر أنَّ النصارى أليْنُ عريكة^(١) من اليهود وأقرب إلى المسلمين منهم، ثم لما استقصى المناظرة مع أهل الكتاب عاد إلى بيان الأحكام الشرعية فذكر منها كفارة اليمين، وتحريم الخمر والميسر، وجزاء قتل الصيد في حالة الإحرام.

اللغة: ﴿قَسِيسٌ﴾ القسُّ والقسييس اسم لرئيس النصارى ومعناه العالم ﴿وَرُهْبَانًا﴾

(١) (ش): عريكة: طبيعة. (لِينُ العريكة): سهل الانقياد. (شديد العريكة): صُلْب، صَعْبُ الانقياد، شديد النفس، أَيْبِي. (صَعْبُ العريكة): خَشِنٌ سَيِّءُ الْخُلُقِ.

جمع راهب وأصله من الرهبة بمعنى المخافة، والرهبانية التعب في الصومعة^(١) ﴿تَفِضُ﴾
الفيض أن يمتلئ الإناء ويسيل من شدة الامتلاء يقال: فاض الماء وفاض الدمع قال الشاعر:
فَفَاضَتْ دُمُوعُ الْعَيْنِ مِنِّي صَبَابَةً عَلَى النَّحْرِ حَتَّى بَلَ دَمْعِي مَحْمَلِي^(٢)
﴿رَجَسُ﴾ قال الزجاج: الرجس اسم لكل ما استقذر من عمل ويقال للعدرة والأقذار:
رجس لأنها قذارة ونجاسة ﴿الْجَحِيمُ﴾ النار الشديدة الانتقاد ﴿الصَّيْدُ﴾ كل ما يصطاد من
حيوانٍ وطيرٍ وغيره فالصيد يطلق على المصيد قال الشاعر:

صَيْدُ الْمُلُوكِ أَرَانِبٌ وَتَعَالِبٌ وَإِذَا رَكِبْتُ فَصَيْدِي الْأَبْطَالُ

سَبَبُ النُّزُول: أ - عن ابن عباس أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني إذا أكلت
هذا اللحم انتشرت للنساء وأخذتني شهوتي وإني حرمت علي اللحم فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾^(٣) الآية^(٤).

ب - عن أنس قال: كنتُ ساقِي القوم يوم حُرِّمَتِ الخمر في بيت «أبي طلحة» وما شراهم
إلا الفضيخ والبسر والتمر، وإذا منادٍ ينادي إن الخمر قد حرمت قال: فأريقت في سكك المدينة
فقال أبو طلحة إذهب فأهرقها فقال بعض القوم: قُتِلَ قَوْمٌ وَهِيَ فِي بَطُونِهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿لَيْسَ عَلَى
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾^(٥).

«التفسير»: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ اللام
للقسم أي قسمًا لتجدَنَّ يا محمد اليهود والمشركين أشدَّ الناس عداوةً للمؤمنين
﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ﴾ نزلت في
النجاشي ملك الحبشة وأصحابه^(٦) قال الزمخشري: وصف الله شدة شكيمة اليهود
وصعوبة إجابتهم إلى الحق، ولين عريكة النصارى وسهولة ميلهم إلى الإسلام، وجعل
اليهود قرناء المشركين في شدة العداوة للمؤمنين بل نبه على زيادة عداوتهم وبتقديمهم
على الذين أشركوا^(٨) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ تعليلٌ لقرب مودتهم
أي كونهم أقرب مودة بسبب أن منهم علماء وعُباداً ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي

(١) «القرطبي» ٢٥٨ / ٦.

(٢) (ش): صَبَابَةً: اشتبأً. المحمل: العلاقة التي يُعَلَّقُ بها السَّيْفُ.

(٣) «أسباب النزول» ١١٧، و«القرطبي» ٢٦٠ / ٦.

(٤) (ش): (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

(٥) «القرطبي» ٢٩٣ / ٦، و«أسباب النزول» ١٢٠.

(٦) (ش): (رواه البخاري ومسلم).

(٧) (ش): أخرج ابن جرير والنسائي والطبراني عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال: نزلت في النجاشي
وأصحابه ﴿وَإِذَا سَمِعُوا﴾ ... الآية وإسناده صحيح.

(٨) «الكشاف» ٥٢١ / ١.

يتواضعون لوداعتهم ولا يتكبرون كاليهود قال «البيضاوي»: وفيه دليل على أن التواضع والإقبال على العلم والعمل والإعراض عن الشهوات، محمود وإن كان من كافر^(١) ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ أي إذا سمعوا القرآن المُنزَّل على محمد رسول الله ﴿رَكَعَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضٌ مِّنَ الدَّمْعِ﴾ أي فاضت أعينهم بالدمع من خشية الله لركة قلوبهم وتأثرهم بكلام الله الجليل ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ أي من أجل معرفتهم أنه كلام الله وأنه حق ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ أي يقولون يا ربنا صدقنا بنبيك وكتابك ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي مع أمة محمد عليه السلام الذين يشهدون على الأمم يوم القيامة قال ابن عباس: نزلت هذه الآيات في النجاشي وأصحابه الذين حين تلا عليهم «جعفر بن أبي طالب» بالحبشة القرآن بكوا حتى أخضلوا لحاهم^(٢) (٣). ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ أي ما الذي يمنعنا عن الإيمان ويصدنا عن اتباع الحق وقد لاح لنا الصواب وظهر الحق المنير؟ قالوا ذلك في جواب من عيّرهم بالإسلام من اليهود قال في «البحر»: هذا إنكار واستبعاد لانتفاء الإيمان منهم مع قيام موجه وهو عرفان الحق^(٤) ﴿وَنَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ أي والحال أننا نطمع أن يدخلنا ربنا الجنة بصحبة الصالحين من عباده الأبرار ﴿فَأَتْنَبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾ أي جازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق ﴿جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي ذلك الأجر والثواب جزاء من أحسن عمله وأصلح نيته، ثم أخبر تعالى عن حال الأشقياء فقال ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي جحدوا بآيات الله وأنكروا نبوة محمد ﷺ فهم أهل الجحيم المعذبون فيها قال «أبو السعود»: وذكرهم بمقابلة المصدقين بآيات الله جمعاً بين الترغيب والترهيب^(٥) ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَبِئَتْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ روى «الطبري» عن عكرمة قال: كان أناسٌ من أصحاب النبي ﷺ هموا بالخصاء^(٦) وترك اللحم والنساء فنزلت هذه الآية^(٧) أي لا

(١) «البيضاوي» ص ١٥٩.

(٢) «ابن كثير» ٥٣٩/١.

(٣) (ش): عن عبد الله بن الزبير قال: نزلت هذه الآية في النجاشي وأصحابه ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ رَكَعَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضٌ مِّنَ الدَّمْعِ﴾ الآية. أخرجه ابن جرير وهو في الصحيح المسند من «أسباب النزول»، للشيخ مُقبل ابن هادي. وأخضَلَ الشيء: بَلَّه. بكوا حتى أَخَضَلُوا لحاهم: بكوا حتى بَلَّوْهَا بالدموع.

(٤) «البحر» ٦/٤.

(٥) «أبو السعود» ٥٥/٢.

(٦) (ش): الخُصْيُ والخُصْيَةُ، بضمهما وكسرهما: من أعضاء التَّنَاسُلِ، وهاتانِ خُصْيَتَانِ وخُصْيَانِ، وَخِصَاءُ خِصَاءً: سَلْ خُصْيَةٍ، فهو خُصْيٌ ومُخْصِيٌّ.

(٧) «الطبري» ٥١٤/١٠.

تمنعوا أنفسكم تلك اللذائذ وتقولوا حرّمنّاها على أنفسنا مبالغة في تركها وتقشفاً وتزهداً ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ أي ولا تتعدّوا حدود ما أحل الله لكم بتجاوز الحلال إلى الحرام ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي يبغض المتجاوزين الحد، والإسلام يدعو إلى القصد بدون إفراط أو تفريط ولهذا قال: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ أي كلوا ما حلّ لكم وطاب مما رزقكم الله قال في «التسهيل»: أي تمتعوا بالماكل الحلال وبالنساء وغير ذلك، وإنما خصّ الأكل بالذكر لأنه أعظم حاجات الإنسان ^(١) ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ هذا استدعاء إلى التقوى باللفظ الوجه كأنه يقول: لا تضيّعوا إيمانكم بالتقصير في طاعة الله عزّ وجلّ فتكون عليكم الحسرة العظمى فإن الإيمان بالله تعالى يوجب المبالغة في تقوى الله ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ أي لا يؤاخذكم بما يسبق إليه اللسان من غير قصد الحلف كقولكم: لا والله، وبلى والله ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ أي ولكن يؤاخذكم بما وقّعتُم الأيمان عليه بالقصد والنية إذا حثمت ^(٢) ﴿فَكَفَّرْنَاهُ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أي كفارة اليمين عند الحنث أن تطعموا عشرة مساكين من الطعام الوسط الذي تطعمون منه أهليكم قال ابن عباس: أي من أعدل ما تطعمون أهليكم وقال ابن عمر: الأوسط الخبز والتمر، والخبز والزبيب، وخير ما نطعم أهلينا الخبز واللحم ^(٣) ﴿أَوْ كَسَوْتُهُمْ﴾ أي كسوة المساكين لكل مسكين ثوبٌ يستر البدن ﴿أَوْ تَحَرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي إعتاق عبد مملوك لوجه الله قال في «البحر»: وأجمع العلماء على أن الحانث مُخَيَّر بين الإطعام والكسوة والعتق ^(٤) ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ أي فمن لم يجد شيئاً من الأمور المذكورة فكفارته صيام ثلاثة أيام ^(٥) ﴿ذَلِكَ كَفَّرةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ أي هذه كفارة اليمين الشرعية عند الحنث ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ أي احفظوها عن الابتدال ولا تحلفوا إلا لضرورة قال ابن عباس: أي لا تحلفوا وقال ابن جرير: أي لا تتركوها بغير تكفير ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي مثل ذلك التبين يبين الله لكم الأحكام الشرعية ويوضحها لشكروه على هدايته وتوفيقه لكم ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ قال ابن عباس: الخمر جميع الأشربة التي تُسكر، والميسر القمار كانوا يتقامررون به في الجاهلية ﴿وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْنَامُ﴾ أي الأصنام المنصوبة للعبادة والأقداح التي كانت عند سدنة البيت وخُدّام الأصنام قال ابن عباس ومجاهد: الأنصاب حجارة كانوا يذبحون قربانهم عندها والأزلام:

(١) «التسهيل» ص ١٨٦.

(٢) (ش): حِنْثٌ بِيَمِينِهِ/ حِنْثٌ فِي يَمِينِهِ: تراجع فيه، لم يبرّ في قَسَمِهِ وَأَيْمَانِهِ.

(٣) «ابن كثير» ١/ ٥٤٣.

(٤) «البحر» ١١/ ٤.

(٥) شرط الأحناف والحنابلة التابع في الأيام، وقال الشافعي ومالك، لا يجب التابع. واختار «الطبري» أنه كيفما صامهن مفرقة أو متتابعة أجزأه كذا في «الطبري» ١٠/ ٥٦٢.

قداح كانوا يستقسمون بها^(١) ﴿رَجَسَ مَنْ عَمِلَ الشَّيْطَانَ﴾ أي قذر ونجس تعافه العقول، وخبيث مستقذر من تزيين الشيطان ﴿فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي اتركوه وكونوا في جانب آخر بعيدين عن هذه القاذورات لتفوزوا بالثواب العظيم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ أي ما يريد الشيطان بهذه الرذائل إلا إيقاع العداوة والبغضاء بين المؤمنين في شرهم الخمر ولعبهم بالقمار ﴿وَيُضِدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ أي ويمنعكم بالخمر والميسر عن ذكر الله الذي به صلاح دنياكم وآخرتكم وعن الصلاة التي هي عماد دينكم قال أبو حيان: ذكر تعالى في الخمر والميسر مفسدتين: إحداها دنيوية، والأخرى دينية، فأما الدنيوية فإن الخمر تثير الشرور والأحقاد وتتول بشارها إلى التقاطع، وأما الميسر فإن الرجل لا يزال يقامر حتى يبقى سليباً لا شيء له وينتهي إلى أن يقامر حتى على أهله وولده، وأما الدينية فالخمر لغلبة السرور والطرب بها تلهي عن ذكر الله وعن الصلاة، والميسر - سواء كان غالباً أو مغلوباً - يلهي عن ذكر الله^(٢) ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ الصيغة للاستفهام ومعناه الأمر، أي: انتهوا ولذلك قال عمر: انتهينا ربنا انتهينا. • قال في «البحر»: وهذا الاستفهام من أبلغ ما ينهى به كأنه قيل: قد تلي عليكم ما فيهما من المفاسد التي توجب الانتهاء فهل أنتم منتهون أم باقون على حالكم^(٣)؟ ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله واحذروا مخالفتهما ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي أعرضتم ولم تعملوا بأمر الله ورسوله ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ أي ليس عليه هدايتكم وإنما عليكم تبليغكم الرسالة وجزاءكم علينا قال «الطبري»: وهذا من الله وعيد لمن تولى عن أمره ونهيه يقول تعالى ذكره لهم: فإن توليتم عن أمري ونهى فتوقعوا عقابي واحذروا سخطي^(٤) وقال أبو حيان: وفي هذا من الوعيد البالغ ما لا خفاء به إذ تضمن أن عقابكم إنما يتولاه المرسل لا الرسول^(٥) ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ قال الإثم والذم إنما يتعلق بفعل المعاصي والذين ماتوا قبل التحريم ليسوا بعاصين ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي ليس عليهم جناح فيما تناولوه من المأكول والمشروب إذا اتقوا المحرم وثبتوا على الإيمان والأعمال الصالحة ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا﴾ أي اتقوا المحرم وآمنوا بتحريمه بمعنى اجتنبوا ما حرّمه الله معتقدين حرمة ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا﴾ أي ثم استمروا على تقوى الله واجتناب المحارم وعملوا الأعمال الحسنة التي تقرهم من الله

(١) «البحر المحيط» ١٥/٤.

(٢) «البحر المحيط» ١٥/٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) «الطبري» ١٠/٥٧٥.

(٥) «البحر» ١٥/٤.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي يحب المتقربين إليه بالأعمال الصالحة. قال في «التسهيل»: كرر التقوى بالغة. وقيل: الرتبة الأولى: إتقاء الشرك، والثانية: إتقاء المعاصي، والثالثة: إتقاء ما لا بأس به حذراً مما به البأس^(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَبِئْسَ شَيْءٌ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ أي لِيَحْتَبِرَنَّكُمْ اللَّهُ في حال إحرامكم بالحج أو العمرة بشيء من الصيد تنال صغاره الأيدي وكباره الرماح، قال «البيضاوي»: نزل في عام الحديبية ابتلاهم الله سبحانه وتعالى بالصيد وكانت الوحوش تغشاهم في رحالهم بحيث يتمكنون من صيدها أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم وهم محرمون^(٢) قال في «البحر»: وكان الصيد مما تعيش به العرب وتتلذذ باقتناصه ولهم فيه الأشعار والأوصاف الحسنة^(٣) ﴿لَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي ليميز الخائف من الله بطريق الغيب لقوة إيمانه ممن لا يخاف الله لضعف إيمانه ﴿فَمَن أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَعَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي فمن تعرض للصيد بعد هذا الإعلام والإنذار فله عذاب مؤلم موجه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ أي لا تقتلوا الصيد وأنتم محرمون بحج أو عمرة ﴿وَمَن قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ أي من قتل الصيد في حالة الإحرام فعليه جزاء مماثل ما قتل من النعم وهي الإبل والبقر والغنم ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ أي يحكم بالمثل حكمان عادلان من المسلمين ﴿هَذِي بَلِغْ أَلْكَعْبَةَ﴾ أي حال كونه هدياً يُنحر ويُتصدق به على مساكينه فإن لم يكن للصيد مثل من النعم كالعصفور والجراد فعليه قيمته ﴿أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾ أي وإذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم فيقوم الصيد المقتول ثم يشتري به طعام فيصرف لكل مسكين مد منه ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّذَوْقٍ وَبَالَ أَمْرٍ﴾ أي عليه مثل ذلك الطعام صياماً يصومه عن كل مد يوماً ليدوق سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام قال في «التسهيل»: عدد تعالى ما يجب في قتل المحرم للصيد، فذكر أولاً الجزاء من النعم، ثم الطعام، ثم الصيام ومذهب مالك والجمهور أنها على التخيير وهو الذي يقتضيه العطف بـ «أو» وعن ابن عباس أنها على الترتيب^(٤) ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ سَلَفٌ﴾ أي من قتل الصيد قبل التحريم ﴿وَمَن عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ أي ومن عاد إلى قتل الصيد وهو محرم فينتقم الله منه في الآخرة ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ أي غالب في أمره منتقم ممن عصاه ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ أي أحل لكم أيها الناس صيد «البحر» سواء كنتم محرمين أو غير محرمين ﴿وَطَعَامُهُمْ مِّتْعًا لَّكُمْ وَلِلْسَيَّارَةِ﴾ أي وما يطعم من صيده كالسمك وغيره منفعة وقوتاً لكم وزاداً للمسافرين يتزودونه في أسفارهم ﴿وَحُرْمَ عَلَيْكُمْ صَيْدِ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أي وحرم عليكم صيد

(١) «التسهيل» لعلوم التنزيل ١/ ١٨٧.

(٢) «البيضاوي» ص ١٦٠.

(٣) «البحر» ٤/ ١٦.

(٤) «التسهيل» ١/ ١٨٨.

البر ما دمتم محرمين ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي خافوا الله الذي تبعثون إليه يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم وهو وعيد وتهديد.

البَلَاغَةُ: ١ - بين لفظ ﴿عَدَاوَةٌ..مَوَدَّةٌ﴾ طباق وهو من المحسنات البديعية.

٢ - ﴿تَفِيضُ مَرَبِّ الدَّمْعِ﴾ أي تمتلئ بالدمع فاستعير له الفيض الذي هو الانصباب عن الامتلاء مبالغة، أو جعلت أعينهم من فرط البكاء تفيض بأنفسها^(١).

٣ - ﴿مُخْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ مجاز مرسل أطلق الجزء وأراد الكل أي عتق إنسان.

٤ - ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ الاستفهام يراد به الأمر أي: انتهوا وهو من أبلغ ما يُنهى به قال «أبو السعود»: ولقد أكد تحريم الخمر والميسر في هذه الآية الكريمة بفنون التأكيد حيث صدرت الجملة بـ «إنما» وقرنا بالأصنام والأزلام، وسُميا رجسًا من عمل الشيطان، وأمر بالاجتناب عن عينهما وجعل ذلك سببًا للفلاح، ثم ذكر ما فيهما من المفاصل الدنيوية والدنيوية، ثم أعيد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ إيدانًا بأن الأمر في الزجر والتحذير قد بلغ الغاية القصوى^(٢).

فَائِدَةٌ: التعبير بقوله تعالى ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ نصٌّ في التحريم ولكنه أبلغ في النهي والتحريم من لفظ «حُرْم» لأن معناه البعد عنه بالكلية فهو مثل قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ﴾ [الإسراء: ٣٢] لأن القرب منه إذ كان حرامًا فيكون الفعل محرمًا من باب أولى وكذلك هنا.

تنبيه: لم يذكر في القرآن الكريم تعليل الأحكام الشرعية إلا بالإيجاز أمّا هنا فقد ذكرت العلة بالتفصيل فذكر تعالى منها إلقاء العداوة والبغضاء بين المؤمنين، والصد عن سبيل الله وذكره، وشغل المؤمنين عن الصلاة، ووصف الخمر والميسر بأنهما رجس وأنهما من عمل الشيطان وأن الشيطان يريد إغواء الإنسان وكل ذلك ليشير إلى ضرر وخطر هاتين الرذيلتين «القمار والخمر» فتدبر أسرار القرآن العظيم^(٣).

قال الله تعالى:

جَعَلَ اللَّهُ الْكَفَّكَةَ أَبَيْتَ الْحَرَامِ قِيمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْتِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهِ ﴿١٧﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿١٩﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثَرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَىٰ أَلْبَابًا لَّعَلَّكُمْ تَفْهَمُونَ ﴿٢٠﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُوكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلَ الْقُرْآنُ تُبَدِّلُكُمْ عَفَا اللَّهُ

(١) انظر «حاشية الكشف» ١/ ٥٢١.

(٢) «أبو السعود» ٥٦/ ٢.

(٣) «روائع البيان» ١/ ٥٦٢.

عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلٍّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذُو عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحْتُمْ مَصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُوهُمَا مِّنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ اَرْتَبْتُمْ لَا نُشْرِيْ بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْنَا أَحَقَّ مِنْ شَهِدَتِيهِمَا وَمَا أَعْتَدْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ أَذَقْنَاهُمْ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى في الآية المتقدمة أن الصيد على المحرم حرام، ونهى عن قتل الطير والوحش في حالة الإحرام، ذكر تعالى في هذه الآية أنه جعل الكعبة قياماً للناس إذ ركز في قلوبهم تعظيمها بحيث لا يقع فيها أذى لأحد، فكما أن الحرم سبب لأمن الوحش والطير فكذلك هو سبب لأمن الناس عن الآفات والمخافات^(١)، وسبب لحصول الخيرات والسعادات في الدنيا والآخرة^(٢).

اللغة: ﴿بَحِيرَةٍ﴾ من «البحر» وهو الشق قال أبو عبيدة: وهي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن آخرها ذكرٌ شقوا أذنها وخلوا سبيلها فلا تُركب ولا تُحلب^(٣) ﴿سَائِبَةٍ﴾ البعير يُسَيَّبُ^(٤)

(١) (ش): هذا لا دليل عليه وفيه مبالغة واعتقادٌ فاسدٌ بغير الله.

(٢) (ش): قال تعالى: ﴿إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]. ووجه البركة، أن الطواف بالبيت فيه مغفرة للذنوب فهذه بركة، فقد قال ﷺ: «مَنْ طَافَ بِهِذَا الْبَيْتِ أُسْبُوعًا فَأَحْصَاهُ كَانَ كَعَتَقِ رَقَبَةٍ وَلَا يَضَعُ قَدَمًا وَلَا يَرْفَعُ أُخْرَىٰ إِلَّا حَطَّ اللَّهُ عَنْهُ خَطِيئَةً وَكَتَبَ لَهُ بِهَا حَسَنَةً» [رواه الترمذي، وصححه الألباني]. طَافَ أُسْبُوعًا: أَي سَبَعَ مَرَّاتٍ. والصلاة فيه بمائة ألف صلاة، وأي بركة أعظم من هذا، قَالَ ﷺ: «صَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيَمَا سِوَاهُ» [رواه ابن ماجه، وصححه الألباني].

وزمزم قال عنها رسول الله ﷺ: «إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ؛ إِنَّهَا طَعَامٌ طَعْمٌ» [رواه مسلم]. «إِنَّهَا طَعَامٌ طَعْمٌ» أَي تُشْبِعُ شَارِبَهَا كَمَا يُشْبِعُهُ الطَّعَامُ. وقال ﷺ: «خَيْرُ مَاءٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مَاءُ زَمْزَمَ؛ فِيهِ طَعَامٌ مِّنَ الطَّعْمِ وَشِفَاءٌ مِّنَ السُّقْمِ» (صحيح رواه الطبراني). (وَشِفَاءٌ مِّنَ السُّقْمِ) أي شفاء من الأمراض إذا شرب بنية صالحة. وقال ﷺ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ» (رواه ابن ماجه وصححه الألباني). وماء زَمْزَمَ حَمَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْأَدَاوَى وَالْقُرْبَ وَكَانَ يَصُبُّ عَلَى الْمَرْضَى وَيَسْقِيهِمْ. (رواه البيهقي، وصححه الألباني). (الإداوة) إناء صغير يُحْمَلُ فِيهِ الْمَاءُ. (القربة): وعاء مِّنْ جِلْدٍ يُخْرَزُ مِنْ جَانِبٍ وَاحِدٍ يَسْتَعْمَلُ لِحِفْظِ السَّوَالِ.

(٣) «البحر» ٢٨/٤.

(٤) (ش): سَيَّبَهُ: تَرَكَهُ، أَطْلَقَهُ، خَلَّاهُ يَذْهَبُ حَيْثُ شَاءَ.

بنذر ونحوه ﴿وَصِيلَ﴾ الوصيلة من الغنم كانوا إذا ولدت الشاة سبعة أبطن وكان السابع ذكراً وأنثى قالوا: قد وصلت أخاها فلم تُذبح^(١) ﴿حَامٍ﴾: الفحل إذا نتج من صلبه عشرة أبطن يقال قد حمى ظهره فلا يُركب ولا يمنع من كلاً ولا ماء ﴿عُرٍ﴾ ظهر يقال: عثرت منه على خيانة، أي: اطلعت وظهرت لي ﴿الْأُولَئِكَ﴾ تشية أولى بمعنى أحق.

سَبَبُ النَّزُولِ: أ - عن ابن عباس قال: كان قومٌ يسألون النبي ﷺ استهزاء فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله ﴿يَكَايُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ...﴾ الآية^(٢).

ب - وعن ابن عباس قال: كان تميم الداري وعدي بن بداء يختلفان إلى مكة فخرج معهما فتى من «بني سهم» فتوفي بأرض ليس بها مسلم، فأوصى إليهما فدعفا تركته إلى أهله وحبسا جاماً من فضة مخصوصاً بالذهب، فاستحلفهما رسول الله ﷺ ما كتمتما ولا اطلعتما!! ثم وجد الجام بمكة فقالوا: اشتريناه من عدي وتميم فجاء رجلان من ورثة السهمي فحلفا أن هذا الجام للسهمي ولشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا فأخذوا الجام وفيهما نزلت هذه الآية ﴿يَكَايُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةُ بَيْنِكُمْ...﴾ الآية^(٣).

(التفسير): ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْكِبْرَىٰ قَيْمًا لِلنَّاسِ﴾ أي جعل الله الكعبة المشرفة وهي البيت المحرم صلاحاً ومعاشاً للناس لقيام أمر دينهم ودنياهم إذ هو سبب لانتعاشهم في أمور معاشهم ومعادهم، يلوذ به الخائف، ويأمن فيه الضعيف، ويربح فيه التجار، ويتوجه إليه الحجاج والعمار ﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ أي الأشهر الحرم «ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب» قياماً لهم لأنهم القتال فيها ﴿وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَدَ﴾ أي الهدى الذي يهدي للحرم من الأنعام، والبُدن ذوات القلائد التي تقلد من شجر الحرم لتأمن هي وأصحابها جعلها الله أيضاً قياماً للناس ﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي جعل هذه الحرمة للبيت الحرام والشهر الحرام والهدي والقلائد لتعلموا أيها الناس أن الله يعلم تفاصيل أمور السماوات والأرض ويعلم مصالحكم لذلك جعل الحرم آمناً يسكن فيه كل شيء، فانظروا لطفه بالعباد مع كفرهم وضلالهم ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي اعلموا أيها الناس أن الله شديد العقاب لمن عصاه وأنه غفور رحيم لمن تاب وأطاع وأناب، فلا تسيئكم نعمته ولا تطمعنكم رحمته ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ أي ليس على الرسول إلا أداء الرسالة وتبليغ الشريعة وقد بلغ ما وجب عليه فلا عذر لأحد في التفريط

(١) «غريب القرآن» ص ١٤٧.

(٢) «أسباب النزول» ص ١٢٠.

(٣) «القرطبي» ٦/ ٣٤٦.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأعمالكم وسيجازيكم عليها قال أبو حيان: الجملة فيها تهديد إذ أخبر تعالى أنه مُطَّلِعٌ على حال العبد ظاهراً وباطناً فهو مجازيه على ذلك ثواباً أو عقاباً^(١) ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ أي قل: يا محمد لا يتساوى الخبيث والطيب ولو أعجبك -أيها السامع- كثرة الخبيث وهو مثلٌ ضربه الله للتمييز بين الحلال والحرام، والمطيع والعاصي، والرديء والجيد قال «القرطبي»: اللفظ عامٌ في جميع الأمور يتصور في المكاسب، والأعمال، والناس، والمعارف، من العلوم وغيرها، فالخبيث من هذا كله لا يُفْلَح ولا يُنْجِب ولا تَحْسَن له عاقبة وإن كثر، والطيب - وإن قل - نافعٌ حميدٌ جميل العاقبة^(٢) وقال أبو حيان: الظاهر أن الخبيث والطيب عامان فيندرج تحتهما المال وحرامه، وصالح العمل وفاسده، وجيد الناس ورديئهم، وصحيح العقائد وفاسدها ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ، وَالَّذِي رَبَّيْتُمُ وَالَّذِي خَبْتُمْ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكَبًا﴾ [الأعراف: ٨٥]^(٣) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأْوِي إِلَيْكُمُ الْإِنْسَانُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي فاتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه يا ذوي العقول لتفعلوا وتفوزوا برضوان الله والنعيم المقيم ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ بُدِّعْتُمْ عَنْهَا﴾ أي لا تسألوا الرسول عن أمور لا حاجة لكم بها إن ظهرت لكم ساءتكم قال الزمخشري: أي لا تكثروا مسألة رسول الله ﷺ حتى تسألوه عن تكاليف شاقة عليكم إن أفتاكم بها وكلفكم إياها تغمكم وتشق عليكم وتندموا على السؤال عنها^(٤) ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَلْ لَكُمْ﴾ أي وإن تسألوا عن هذه التكاليف الصعبة في زمان نزول الوحي تظهر لكم تلك التكاليف التي تسؤكم فلا تسألوا عنها^(٥) ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ أي عفا الله عن مسائلكم السالفة التي لا ضرورة لها وتجاوز عن عقوبتكم الأخروية فلا تعودوا إلى مثلها ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي واسع المغفرة عظيم الفضل والإحسان ولذلك عفا عنكم ولم يعاجلكم بالعقوبة ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي سأل أمثال هذه المسائل قومٌ قبلكم فلما أعطوها وفُرضت عليهم كفروا بها ولهذا قال ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ أي صاروا بتركهم العمل بها كافرين وذلك أن بني إسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم عن أشياء فإذا أمروا بها تركوها فهلكوا ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ كان أهل الجاهلية

(١) «البحر» ٢٧ / ٤.

(٢) «القرطبي» ٣٢٧ / ٦.

(٣) «البحر» ٢٧ / ٤.

(٤) «الكشاف» ٥٣٣ / ١.

(٥) وقال ابن عباس في تفسير الآية: لا تسألوا عن أشياء في ضمن الإخبار عنها مساءة لكم إما لتكليف شرعي يلزمكم، وإما خبر يسوءكم مثل الذي قال أين أبي؟ ولكن إذا نزل القرآن بشيء وأبتدأكم ربكم بأمر فحيث إن سألتم عن بيانه بين لكم وأبدى. نقلاً عن «البحر المحيط» ٣١ / ٤.

إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنبا أي شقوها وحرموها ركوبها وهي البحيرة، وكان الرجل يقول: إذا قدمت من سفري أو برئت من مرضي فناقتي سائبة، وجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها، وإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم وإن ولدت ذكراً فهو لألھتهم وإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها وهي الوصيلة، وإذا أنتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا: قد حمى ظهره وهو الحام، فلما جاء الإسلام أبطل هذه العادات كلها فلا بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام، ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ أَكْثَرُهمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي ولكن الذين كفروا بالله يختلقون الكذب على الله وينسبون التحريم إليه فيقولون الله أمرنا بهذا وأكثرهم لا يعقلون أن هذا افتراء؛ لأنهم يقتلدون فيه الآباء ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء الضالين: هلموا إلى حكم الله ورسوله فيما حللتم وحرمتهم ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي يكفيننا دين آبائنا ﴿أُولَئِكَ كَانَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ الهمزة للإنكار والغرض التوبيخ أي أيتبعون آباءهم فيما هم عليه من الضلال ولو كانوا لا يعلمون شيئاً من الدين ولا يهتدون إلى الحق؟ ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي احفظوها عن ملابسة المعاصي والإصرار على الذنوب والزموا إصلاحها ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ أي لا يضركم ضلال من ضل من الناس إذا كنتم مهتدين قال الزمخشري: كان المسلمون تذهب أنفسهم حسرة على الكفرة يتمنون دخولهم في الإسلام فقل لهم عليكم أنفسكم بإصلاحها والمشي بها في طرق الهدى لا يضرركم الضلال عن دينكم إذا كنتم مهتدين كما قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ (١) [فاطر: ٨] وقال «أبو السعود»: ولا يتوهم أحد أن في الآية رخصة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن من جملة الاهتداء أن ينكر وقد روي أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ، أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابِهِ» (٢) «إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا» أي مصيركم ومصير جميع

(١) «الكشاف» ١/ ٥٣٤.

(٢) «أبو السعود» ٢/ ٦٥ ويؤيده حديث: «اتَّبِعُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْتَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي بَرَاءَةٍ، فَعَلَيْكَ نَفْسُكَ، وَدَعِ أَمْرَ الْعَوَامِّ» أخرجه الحاكم. (ش): حديث: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ، أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابِهِ» (رواه أحمد، وصححه الألباني). أما حديث: «اتَّبِعُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْتَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي بَرَاءَةٍ، فَعَلَيْكَ نَفْسُكَ، وَدَعِ أَمْرَ الْعَوَامِّ» فرواه ابن حبان، وضعفه الألباني، وحسنه الشيخ ابن باز.

ورواه الحاكم بلفظ: «مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْتَرَةً وَرَأَيْتَ أَمْرًا لَا بُدَّ لَكَ مِنْ طَلَبِهِ فَعَلَيْكَ نَفْسُكَ وَدَعِ أَمْرَهُمْ وَعَوَامَّهُمْ»، (وصححه الحاكم والذهبي والطحاوي). (الشُّحُّ): البخل الشديد، وطاعته: أن يتبع الإنسان هوى نفسه ليخله، وينقاد له. (دُنْيَا مُؤْتَرَةً): أي: مَحْبُوبَةٌ مُشْتَهَاةٌ. (وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي بَرَاءَةٍ): أي: أن يعجب الإنسان برأيه ولا يعول على نصوص الكتاب والسنة، =

الخلائق إلى الله ﴿فَيَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي فيجازيكم بأعمالكم قال «البيضاوي»: هذا وعدٌ ووعد للفريقين، وتنبه على أن أحداً لا يؤخذ بذنب غيره ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ أي يا أيها المؤمنون إذا شارف أحدكم على الموت وظهرت علامته^(١) فينبغي أن يُشهد على وصيته ﴿أَتْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ ءَاخِرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي يُشهد على الوصية شخصين عدلين من المسلمين أو اثنين من غير المسلمين إن لم تجدوا شاهدين منكم ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرِيئُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحْتُمْ مَّصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ أي إن أنتم سافرتم فقاربكم الأجل ونزل بكم الموت ﴿تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ أَصْلَاقِهِمَا﴾ أي توقفونهما من بعد صلاة العصر لأنه وقت اجتماع الناس وكذا فعل رسول الله ﷺ استحلف عدلياً وتميماً بعد العصر عند المنبر ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ﴾ أي يحلفان بالله إن شككتم وارتبتم في شهادتهما قال «أبو السعود»: أي إن ارتاب بهما الوارث منكم بخيانةٍ وأخذ شيء من التركة فاحبسوهما وحلفوهما بالله^(٢) ﴿لَا تَشْرِي بِهِمَا ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أي يحلفان بالله قائلين: لا نحابي بشهادتنا أحداً ولا نستبدل بالقسم بالله عرضاً من الدنيا أي لا نحلف بالله كاذبين من أجل المال ولو كان من نقسم له قريباً لنا ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهْدَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ أي ولا نكتم الشهادة التي أمرنا الله تعالى بإقامتها إِنَّا إِنْ فَعَلْنَا ذَلِكَ كُنَّا مِنَ الْآثِمِينَ ﴿فَإِنْ عُرِيَ عَنْهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ أي فإن اطلع بعد حلفهما على خيانتها أو كذبهما في الشهادة ﴿فَعَاخِرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَايَيْنِ﴾ أي فرجلان آخران من الورثة المستحقين للتركة يقومان مقام الشاهدين الخائنين وليكونا من أولى من يستحق الميراث ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهْدَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهْدَتِهِمَا﴾ أي يحلفان بالله لشهادتنا أصدق وأولى بالسمع والاعتبار من شهادتهما لأنهما خانا ﴿وَمَا أَعْتَدَيْنَا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي وما اعتدنا فيما قلنا فيهما من الخيانة إِنَّا إِذَا كَذَبْنَا عَلَيْهِمْ نَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿ذَلِكَ أَدَّى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهْدَةِ عَلَى وَجْهَيْهَا﴾ أي ذلك الحكم أقرب أن يأتوا بالشهادة على حقيقتها من غير تغيير ولا تبديل ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي يخافوا أن يحلف غيرهم بعدهم فيفتضحوا ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمِعُوا﴾ أي خافوا ربكم وأطيعوا أمره ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي والله لا يهدي الخارجين عن طاعته إلى جنته ورحمته.

البلاغة: ١ - ﴿وَأَلْهَدَى وَأَقْلَيْدَ﴾ عطفُ القلائد على الهدى من عطف الخاص على العام، خُصِّت بالذكر لأن الثواب فيها أكثر، وبهاء الحج بها أظهر.

= وإنما يُعَوَّل على رأيه. (فَعَلَيْكَ نَفْسُكَ وَدَعَهُمْ وَعَوَّاهَهُمْ) عند ذلك عليك أن تجتهد في خلاصك ونجاتك، وتدع عنك الناس، وذلك لقلة الجدوى والفائدة؛ لأنها حصلت هذه الأمور التي انشغلوا بها عن الاستجابة والالتزام بما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ.

(١) (ش): علامته: علاماته.

(٢) «أبو السعود» ٢/٦٦.

٢ - ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلَعُ﴾ أطلق المصدر البلاغ وأراد به التبليغ للمبالغة.
 ٣ - ﴿الْخَيْثُ وَالطَّيْبُ﴾ بينهما طباق، وبين ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مَصِيبَهُ﴾ جناس الاشتقاق وكلاهما من المحسنات البديعية.

٤ - ﴿شَهْدَةُ بَيْنِكُمْ﴾ جملة خبرية لفظاً إنشائية معنى يراد منها الأمر أي ليشهد بينكم.

الفوائد: قال الإمام الشاطبي: الإكثار من الأسئلة مذموم وله مواضع نذكر منها عشرة:

أحدها: السؤال عما لا ينفع في الدين كسؤال بعضهم: من أبي؟

ثانيها: أن يسأل ما يزيد عن الحاجة كسؤال الرجل عن الحج: أكل عام؟

ثالثها: السؤال من غير احتياج إليه في الوقت ويدل عليه: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ»^(١)

رابعها: أن يسأل عن صعاب المسائل وشرارها كما جاء في النهي عن الأغلوطات^(٢).

خامسها: أن يسأل عن علة الحكم في التعبدات كالسؤال عن قضاء الصوم للحائض دون الصلاة^(٣).

سادسها: أن يبلغ بالسؤال حدّ التكلف والتعمق كسؤال بني إسرائيل عن البقرة وما هي ولونها؟

سابعها: أن يظهر من السؤال معارضة الكتاب والسنة بالرأي ولذلك قال سعيد: أعراقي أنت^(٤)؟

(١) (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا». فَقَالَ رَجُلٌ أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ قُلْتَ نَعَمْ لَوَجِبَتْ وَلَكُمَا اسْتَطَعْتُمْ - ثُمَّ قَالَ - ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ». [رَوَاهُ مُسْلِمٌ].

(٢) (ش): عَنْ مُعَاوِيَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنِ الْأَغْلُوطَاتِ. (رواه أحمد وأبو داود، وضعفه الألباني). والأغلوطات: ما لا يحتاج إليه من كيف وكيف. الأغلوطات: جمع أغلوطة، من الغلط: «شِدَادُ الْمَسَائِلِ وَصِعَابُهَا: أَنْ يُقَابِلَ الْعَالِمَ بِصِعَابِ الْمَسَائِلِ الَّتِي يَكْثُرُ فِيهَا الْغَلَطُ، لِيُسْتَزَلَّ وَيُسْتَسْقَطَ فِيهَا رَأْيُهُ».

(٣) (ش): عَنْ مُعَاذَةَ قَالَتْ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ: مَا بَالُ الْحَائِضِ تَقْضِي الصَّوْمَ وَلَا تَقْضِي الصَّلَاةَ؟ فَقَالَتْ: أَحْرُورِيَّةٌ أَنْتِ؟ قُلْتُ: لَسْتُ بِحَرْورِيَّةٍ وَلَكِنِّي أَسْأَلُ. قَالَتْ: كَانَ بُصِيْبًا ذَلِكَ فَنُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ وَلَا نُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّلَاةِ. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). (حَرْورِيَّةٌ أَنْتِ) نِسْبَةٌ إِلَى حَرْوَرَاءَ وَهِيَ قَرْيَةٌ بَقُرْبِ الْكُوفَةِ كَانَ أَوَّلُ اجْتِمَاعِ الْخَوَارِجِ بِهَا. وَمَعْنَى قَوْلِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ طَائِفَةً مِنَ الْخَوَارِجِ يُوجِبُونَ عَلَى الْحَائِضِ قَضَاءَ الصَّلَاةِ الْفَائِتَةِ فِي زَمَنِ الْحَيْضِ وَهُوَ خِلَافُ إِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ وَهَذَا إِسْتِفْهَامُ الَّذِي اسْتَفْهَمَتْهُ عَائِشَةُ هُوَ اسْتِفْهَامُ انْكَارٍ، أَيْ: هَذِهِ طَرِيقَةُ الْحَرْورِيَّةِ وَبُنْسَتِ الطَّرِيقَةَ.

(٤) (ش): سعيد هو سعيد بن المسيب والسائل ربيعة بن أبي عبد الرحمن.

«أعراقي أنت؟» أي: تأخذ بالقياس المخالف للنص. (والحوار رواه مالك في «الموطأ»).

(ش): الصواب: أن يقال: عن كيفية الاستواء لأن السائل قال: «كيف استوى؟». فقال مالك: «الاستواء معلوم والكيف مجهول». ولم يسأله عن معنى الاستواء.

تاسعها: السؤال عما حصل بين السلف وقد قال عمر بن عبد العزيز: تلك دماء كَفَّ الله عنها يدي فلا أُلطِّخ بها لساني.

ثامنها: السؤال عن المتشابهات ومن ذلك سؤال مَنْ سأل مالكا عن الاستواء فقال: الاستواء معلوم... إلخ.

عاشرها: سؤال التعنت والإفحام وطلب الغلبة في الخصام ففي الحديث: «أَبْغَضُ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ أَلَاذِلُّهُ الْخَصِمُ»^(١).

قال الله تعالى:

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ قَالَوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلْتَ لَهُمُ الْبَيْنَتَ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالَوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْخَوَارِجُ لِيَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالَوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِئَنَ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقَتْنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَنَّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى الوصية عند دنو الأجل وأمر بتقوى الله والسمع والطاعة، أعقبه بذكر اليوم المهلل المخيف وهو يوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين للجزاء والحساب، ثم ذكر المعجزات التي أيدها عبده ورسوله «عيسى» ومنها المائدة من السماء،

(١) نقلاً عن «محاسن التأويل» للقاسمي ٢١٧٦/٦.

(ش): رواه البخاري ومسلم، (الألذُّ الْخَصِمُ): هُوَ الدَّائِمُ فِي الْخُصُومَةِ.

وختم السورة الكريمة ببراءة السيد المسيح من دعوى الألوهية.

اللغة: ﴿كَفَفْتُ﴾ منعْتُ وصرفتُ ومنه الكفيف لأنه مُنِعَ الرؤية ﴿أَيَّدْتُكَ﴾ قوّيتُك مأخوذ من الأيد وهو القوة ﴿أَوْحَيْتُ﴾ الوحي: إلقاء المعنى إلى النفس خفية وهو على أقسام: وحيٌّ بمعنى الإلهام ووحيٌّ بمعنى الإعلام في اليقظة والمنام، ووحيٌّ بمعنى إرسال جبريل إلى الرسل عليهم السلام ^(١) ﴿مَّأَيَّدَةً﴾ المائدة: الخُوان الذي عليه الطعام أي السُفرة فإن لم يكن عليه طعام فليس بمائدة ^(٢) ﴿الرَّقِيبَ﴾ المراقب الشاهد على الأفعال ﴿أَبَدًا﴾ أي بلا انقطاع.

«التفسير»: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ أي اذكروا أيها الناس ذلك اليوم الرهيب يوم القيامة حين يجمع الله الرسل والخلائق للحساب والجزاء ﴿فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ﴾ أي ما الذي أجابتمكم به أممكم؟ وما الذي ردّ عليكم قومكم حين دعوتموهم إلى الإيمان والتوحيد؟ ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ أي لا علم لنا إلى جنب علمك قال ابن عباس: أي لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا ^(٣) ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ أي تعلم ما لا نعلم ممّا ظهر وبطن قال «أبو السعود»: وفيه إظهارٌ للشكوى ورد للأمر إلى علمه تعالى بما لقوا من قومهم من الخطوب وكابدوا من الكروب والتجاء إلى ربهم في الانتقام منهم ^(٤) ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَلْعَسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكَرٌ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ﴾ قال «ابن كثير»: يذكر تعالى ما من به على عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام بما أجرأه على يديه من المعجزات وخوارق العادات، أي: اذكر نعمتي عليك في خلقي إياك من أمّ بلا ذكر وجعلني إياك آية قاطعة على كمال قدرتي، وعلى والدتك حيث جعلتك برهاناً على براءتها ممّا اتهمها به الظالمون من الفاحشة ^(٥) وقال «القرطبي»: هذا من صفة يوم القيامة كأنه قال: اذكر يوم يجمع الله الرسل وإذ يقول لعيسى كذا ^(٦) وذكر بلفظ الماضي ﴿إِذْ قَالَ﴾ تقريباً للقيامة لأن ما هو آت قريب ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي حين قوّيتك بالروح الطاهرة المقدسة «جبريل» عليه السلام ﴿تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا﴾ أي تكلم الناس في المهد صبيّاً وفي الكهولة نبياً ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ أي واذكر نعمتي عليك حين علمتك الكتابة والحكمة وهي العلم النافع مع التوراة والإنجيل ﴿وَإِذْ خَلَقْنَا مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ أي واذكر أيضاً حين كنت تصوّر الطين كصورة الطير بتيسيري وأمري ﴿فَتَنْفَخُ فِيهَا

(١) «القرطبي» ٦ / ٣٦٣.

(٢) «البحر» ٤ / ٣٠.

(٣) «القرطبي» ٦ / ٣٦١، قال «ابن كثير»: وهذا من باب التأدب مع الرب جل جلاله أي لا علم بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء فأنت المطلع على كل شيء فعلمنا لا شيء بالنسبة لعلمك المحيط.

(٤) «أبو السعود» ٢ / ٧٠.

(٥) «ابن كثير» ١ / ٥٦١.

(٦) «القرطبي» ٦ / ٣٦٢.

فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴿١﴾ أَي تفتنخ في تلك الصورة والهيئة فتصبح طيراً بأمر الله ومشيتته ﴿وَتَبْرِيءُ
الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ أَي تشفي الأعمى الذي لا يبصر والأبرص الذي استعصى شفاؤه
بأمرى ومشيتي ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ أَي تحيي الموتى بأمرى ومشيتي، وكرر لفظ
﴿بِإِذْنِي﴾ مع كل معجزة رداً على من نسب الربوبية إلى عيسى وليان أن تلك الخوارق من
جهته سبحانه أظهرها على يديه معجزة له ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ
بِالْبَيْنَتِ﴾ أَي واذكر حين منعت اليهود من قتلك لما هموا وعزموا على الفتك بك حين جئتهم
بالحجج والمعجزات ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُؤْتِي﴾ أَي قال الذين جحدوا
نبوتك ولم يؤمنوا بك ما هذه الخوارق إلا سحرٌ ظاهر واضح ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ
أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرِسُولِي﴾ وهذا أيضاً من الامتنان على عيسى أي واذكر حين أمرت الحواريين
وقذفت في قلوبهم أن صدقوا بي وبرسولي عيسى ابن مريم ﴿قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾
أي قال الحواريون: صدقنا يا رب بما أمرتنا واشهد بأننا مخلصون في هذا الإيمان خاضعون
لأمر الرحمن ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ
السَّمَاءِ﴾ أَي واذكر حين قال الحواريون: يا عيسى هل يقدر ربك على إنزال مائدة من السماء
علينا؟ قال «القرطبي»: وكان هذا السؤال في ابتداء أمرهم قبل استحكام معرفتهم بالله عزَّ وجلَّ
ويجوز أن يكون ذلك صدر ممن كان معهم من الجهال كما قال بعض قوم موسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا
إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءِلَٰهَةٌ﴾^(١) [الأعراف: ١٣٨] وقال أبو حيان: وهذا اللفظ يقتضي ظاهره الشك في قدرة
الله تعالى على أن ينزل مائدة من السماء وهذا ما ذهب إليه الزمخشري^(٢)، وأما غيره من أهل
«التفسير» فأطبقوا على أن الحواريين: كانوا مؤمنين وهم خواص عيسى وأنهم لم يشكوا في
ذلك حتى قال الحسن: لم يشكوا في قدرة الله وإنما سألوه سؤال مستخبر هل ينزل أم لا؟ فإن
كان ينزل فاسأله لنا^(٣) فسؤالهم كان للاطمئنان والتثبت ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أَي
اتقوا الله في أمثال هذه الأسئلة إن كنتم مصدقين بكمال قدرته تعالى ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا
وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ أَي قال الحواريون نريد بسؤالنا المائدة أن نأكل منها تبركاً وتسكن نفوسنا
بزيادة اليقين ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقَتْنَا﴾ أَي ونعلم علماً يقيناً لا يحوم حوله شائبة من الشك
بصدقك في دعوى النبوة ﴿وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أَي نشهد بها عند من لم يحضرها

(١) «القرطبي» ٦/ ٣٦٤.

(٢) قال الزمخشري: فإن قلت: كيف قالوا: هل يستطيع ربك بعد إيمانهم وإخلاصهم؟ قلت: ما وصفهم الله
بالإيمان والإخلاص وإنما حكى ادعاءهم لهما فدعواهم كانت باطلة وإنهم كانوا شاكين: وهذا كلام لا يردُّ
مثله عن مؤمنين معظمين لربهم! «الكشاف» ١/ ٥٤٠.

(٣) «البحر» ٤/ ٥٣.

من الناس ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أجابهم عيسى إلى سؤال المائدة لإلزامهم بالحجة الدامغة وروى أنه لما الدعاء لبس جبة شعر ورداء شعر وقام يصلي ويدعو ربه ويبيكي قال «أبو السعود»: نادى عيسى ربه مرتين: مرة بوصف الألوهية الجامعة لجميع الكمالات، ومرة بوصف الربوبية المنبئة عن التربية إظهاراً لغاية التضرع^(١) ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ أي يكون يوم فرح وسرور لنا ولمن يأتي بعدنا ﴿وَعَايَةً مِنَّا وَآرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي ودلالة وحجة شاهدة على صدق رسولك وارزقنا يا الله فإنك خير من يعطي ويرزق لأنك الغني الحميد ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ أي أجاب الله دعاءه فقال: إني سأُنزل عليكم هذه المائدة من السماء ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أَعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي من كفر بعد تلك الآية الباهرة فسوف أعذبه عذاباً شديداً لا أعذب مثل ذلك التعذيب أحداً من البشر وفي الحديث «أُنْزِلَتِ الْمَائِدَةُ مِنَ السَّمَاءِ خُبْرًا وَلَحْمًا وَأَمْرًا أَنْ لَا يَخُونُوا وَلَا يَدْخُرُوا لَغَدٍ فَخَانُوا وَادْخَرُوا وَرَفَعُوا لَغَدٍ فَمُسَّخُوا قِرْدَةً وَخَنَازِيرَ»^(٢) قال في «التسهيل»: جرت عادة الله عز وجل بعقاب من كفر بعد اقتراح آية فأعطيتها، ولما كفر بعض هؤلاء مسخهم الله خنازير^(٣) ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ هذا عطف قصة على قصة ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى﴾ قال ابن عباس: هذا القول يكون من الله يوم القيامة على رءوس الخلائق ليعلم الكفار أنهم كانوا على باطل^(٤) والمعنى: اذكر للناس يوم يخاطب الله عبده ورسوله عيسى ابن مريم في الآخرة توبيخاً للكفرة وتبكيماً لهم قائلاً، يا عيسى أنت دعوت الناس إلى عبادتك والاعتقاد بالوحياتك وألوهية أملك؟! قال «القرطبي»: إنما سأله عن ذلك توبيخاً لمن ادعى ذلك عليه ليكون إنكاره بعد السؤال أبلغ في التكذيب وأشد في التوبيخ والتقريع^(٥) ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ﴾ أي أنزهك عما لا يليق بك يا رب فما ينبغي لي أن أقول قولاً لا يحق لي أن أقوله ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ أي إن كان ذلك صدر مني فإنك لا تخفى عليك شيء وأنت العالم بأنني لم أقله، وهذا اعتذار وبراءة من ذلك القول ومبالغة في الأدب وإظهار الذلة والمسكنة في حضرة ذي الجلال ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ﴾ أي تعلم حقيقة ذاتي وما انطوت عليه ولا أعلم حقيقة ذاتك وما احتوت عليه من صفات الكمال إنك أنت العالم

(١) «أبو السعود» ٧٣/٢.

(٢) أخرجه الترمذي في باب «التفسير». (ش): وضعفه الألباني.

(٣) «التسهيل» ١٩٤/١.

(٤) «البحر» ٥٨/٤.

(٥) «القرطبي» ٣٧٥/٦.

بالخفايا والنوايا وعلمك محيط بما كان وما يكون ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾ أي ما أمرتهم إلا بما أمرتني به قال «الرازي»: وضع القول موضع الأمر نزولاً على موجب الأدب لئلا يجعل نفسه وربه أمرين معاً ﴿ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ أي قلت لهم اعبدوا الله خالقي وخالقكم فأنا عبد مثلكم ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ أي كنت شاهداً على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي فلما قبضتني إليك بالرفع إلى السماء كنت يا الله الحفيظ لأعمالهم، والشاهد على أفعالهم ﴿ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي وأنت المطلع على كل شيء لا يخفى عليك شيء ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ أي إن تعذبهم فأنت مالكمهم تتصرف فيهم كيف شئت لا اعتراض عليك ﴿ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أي وإن تغفر لمن تاب منهم فإنك أنت الغالب على أمره الحكيم في صناعه ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ أي يوم القيامة ينفع الصادقين في الدنيا صدقهم لأنه يوم الجزاء ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أي لهم جنات تجري من تحت غرفها وأشجارها الأنهار ما كثر فيها لا يخرجون منها أبداً ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أي نالوا رضوان الله لصدقهم ورضوا عن الله فيما أثابهم وجازاهم ذلك هو الظفر والفوز الكبير بجنات النعيم ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي الجميع ملكه وتحت قهره ومشيتته وهو القادر على كل شيء.

تنبيه: روى الإمام مسلم في صحيحه «أن النبي ﷺ تلا قول الله عَزَّ وَجَلَّ في إبراهيم: ﴿ رَبِّ إِنِّي أَضَلَلْتُ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ يَتَّبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وقول عيسى: ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ فرفع يديه وقال: اللهم أمتي أمتي وبكى فقال الله تعالى: يا جبريل: اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فاسأله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم، فقال الله يا جبريل: اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك».

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المائدة»



سُورَةُ الْأَنْعَامِ

مكية وآياتها خمس وستون ومائة

بين يدي السورة

سورة الأنعام إحدى السور المكية الطويلة التي يدور محورها حول «العقيدة وأصول الإيمان» وهي تختلف في أهدافها ومقاصدها عن السور المدنية التي سبق الحديث عنها كالبقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، فهي لم تعرض لشيء من الأحكام التنظيمية لجماعة المسلمين، كالصوم والحج والعقوبات وأحكام الأسرة، ولم تذكر أمور القتال ومحاربة الخارجين على دعوة الإسلام كما لم تتحدث عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ولا على المنافقين، وإنما تناولت القضايا الكبرى الأساسية لأصول العقيدة والإيمان، وهذه القضايا يمكن تلخيصها فيما يلي:

١ - قضية الألوهية. ٢ - قضية الوحي والرسالة. ٣ - قضية البعث والجزاء.

* نجد الحديث في هذه السورة مستفيضاً يدور بشدة حول هذه الأصول الأساسية للدعوة الإسلامية، ونجد سلاحها في ذلك الحجة الدامغة، والدلائل الباهرة، والبرهان القاطع في طريق الإلزام والإقناع لأن السورة نزلت في مكة على قوم مشركين. ومما يلفت النظر في السورة الكريمة أنها عرضت لأسلوبين بارزين لا نكاد نجدهما بهذه الكثرة في غيرها من السور هما:

١ - أسلوب التقرير. ٢ - أسلوب التلقين.

* **أما الأول:** «أسلوب التقرير» فإن القرآن يعرض الأدلة المتعلقة بتوحيد الله والدلائل المنصوبة على وجوده وقدرته، وسلطانه وقهره، في صورة الشأن المسلّم، ويضع لذلك ضمير الغائب عن الحس الحاضر في القلب الذي لا يماري فيه قلب سليم ولا عقل راشد في أنه تعالى المبدع للكائنات صاحب الفضل والإنعام فيأتي بعبارة «هو» الدالة على الخالق المدبر الحكيم، استمع قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ...﴾، ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ...﴾، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ...﴾، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ...﴾، ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ...﴾ إلخ.

* **أما الثاني:** «أسلوب التلقين» فإنه يظهر جلياً في تعليم الرسول ﷺ لتلقين الحجة ليقذف بها في وجه الخصم بحيث تأخذ عليه سمعه، وتملك عليه قلبه فلا يستطيع التخلص أو التفلت منها، ويأتي هذا الأسلوب بطريق السؤال والجواب يسألهم ثم يجيب استمع إلى الآيات الكريمة ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ...﴾، ﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ...﴾، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَنَّمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ

مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ... ﴿١﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُزِلَّ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ وهكذا تعرض السورة الكريمة لمناقشة المشركين وإفحامهم بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة التي تقصم ظهر الباطل. ومن هنا كانت سورة الأنعام بين السور المكية ذات شأن في تركيز الدعوة الإسلامية^(١)، تقرر حقائقها، وثبتت دعائمها، وتنفذ به المعارضين لها بطريق التنويع العجيب في المناظرة والمجادلة، فهي تذكر توحيد الله جلّ وعلا في الخلق والإيجاد، وفي التشريع والعبادة، وتذكر موقف المكذبين للرسول وتقصص عليهم ما حاق بأمثالهم السابقين، وتذكر شبههم في الوحي والرسالة، وتذكر يوم البعث والجزاء، وتبسط كل هذا بالتنبيه إلى الدلائل في الأنفس والآفاق، وفي الطبائع البشرية وقت الشدة والرخاء.. وتذكر أبا الأنبياء إبراهيم وجملة من أنبائه الرسل وترشد الرسول ﷺ إلى اتباع هداهم وسلوك طريقهم في احتمال المشاق وفي الصبر عليها، وتعرض لتصوير حال المكذبين يوم الحشر، وتفيض في هذا بألوان مختلفة ثم تعرض لكثير من تصرفات الجاهلية التي دفعهم إليها شركهم فيما يختص بالتحليل والتحريم وتقضي عليه بالتنفيذ والإبطال، ثم تختم السورة بعد ذلك - في ربع كامل - بالوصايا العشر التي نزلت في كل الكتب السابقة، ودعا إليها جميع الأنبياء السابقين ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ...﴾ الآية. وتنتهي بآية فذة تكشف للإنسان عن مركزه عند ربه في هذه الحياة. وهو أنه خليفة في الأرض، وأن الله سبحانه جعل عمارة الكون تحت يد الإنسان تتعاقب عليها أجياله، ويقوم اللاحق منها مقام السابق، وأن الله سبحانه قد فاوت في المواهب بين أفراد الإنسان لغاية سامية وحكمة عظيمة وهي «الابتلاء والاختبار» في القيام بتبعات هذه الحياة، وذلك شأن يرجع إليه كماله المقصود من هذا الخلق وذلك النظام ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

التسمية: سميت بـ «سورة الأنعام» لورود ذكر الأنعام فيها ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا...﴾ ولأن أكثر أحكامها الموضحة لجهلات المشركين تقرباً بها إلى أصنامهم مذكورة فيها، ومن خصائصها ما روى عن ابن عباس أنه قال: نَزَلَتْ سُورَةُ الْأَنْعَامِ بِمَكَّةَ لَيْلًا جُمْلَةً وَاحِدَةً، حَوْلَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ مَلِكٍ يَجَارُونَ حَوْلَهَا بِالتَّسْبِيحِ^(٢).

(١) يقول الإمام «الرازي»: «امتازت هذه السورة بنوعين من الفضيلة: أحدهما أنها نزلت دفعة واحدة، وثانيهما أنه شيعها سبعون ألفاً من الملائكة، والسبب في هذا الامتياز أنها مشتملة على دلائل التوحيد، والعدل، والنبوة، والمعاد، وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين» ويقول الإمام «القرطبي»: إن هذه السورة أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين، ومن كذب بالبعث والنشور» وهذا يقتضي إنزالها جملة واحدة.

(٢) «محاسن التأويل» ٦/ ٢٢٣٢. (ش): رواه الطبراني بإسناد ضعيف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمْسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا مَلَكًا لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَسْنَزَيْنَا بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنْزٌ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الْإِلِّ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَ يَمْيِزْ فِقْدَ رَحْمَةٍ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بَخِيرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْغَنِيُّ ﴿١٨﴾

اللغة: ﴿يَعْدِلُونَ﴾ يسوون به غيره ويجعلون له عدلاً وشريكاً يقال: عدل فلاناً بفلان أي سواه به ﴿تَمْتَرُونَ﴾ تشكون يقال: امتري في الأمر إذا شك فيه ﴿قَرْنٍ﴾ القرن: الأمة المقترنة في مدة من الزمان ومنه حديث «خير القرون قرني»^(١) وأصل القرن مائة سنة ثم أصبح يطلق على الأمة من الناس التي تعيش في ذلك قال الشاعر:

إِذَا ذَهَبَ الْقَرْنُ الَّذِي كُنْتُ فِيهِمْ
وَحُلِفَتْ فِي قَرْنٍ فَأَنْتَ غَرِيبٌ^(٢)
﴿مِدْرَارًا﴾ غزيرة دائمة ﴿قُرْطَاسٍ﴾ القرطاس: الصحيفة التي يكتب فيها ﴿وَلَلَبَسْنَا﴾ خلطنا يقال لبست عليه الأمر أي خلطته عليه حتى اشتبه ﴿فَحَاقَ﴾ نزل بهم وأصابهم ﴿وَلِيًّا﴾ ناصراً ومعيناً.

(١) (ش): اللفظ الثابت «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» [رواه البخاري ومسلم]. و«خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» رواه البخاري ومسلم، والمشهور على السنة الناس (خير القرون قرني) ونبه الشيخ الألباني أن هذا خطأ في الرواية.

(٢) «القرطبي» ٦/ ٣٩١.

سَبَبُ النُّزُولِ: روي أن مشركي مكة قالوا: يا محمد والله لا نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله وأنت رسوله فأنزل الله ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾^(١).

«التفسير»: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ بدأ تعالى هذه السورة بالحمد لنفسه تعليمًا لعباده أن يحمده بهذا الصيغة الجامعة لصنوف التعظيم والتبجيل والكمال وإعلامًا بأنه المستحق لجميع المحامد فلا ند له ولا شريك، ولا نظير ولا مثل ومعنى الآية: احمداوا الله ربكم المتفضل عليكم بصنوف الإنعام والإكرام الذي أوجد وأنشأ وابتدع خلق السماوات والأرض بما فيهما من أنواع البدائع وأصناف الروائع، وبما اشتملا عليه من عجائب الصنعة وبدائع الحكمة، بما يدهش العقول والأفكار تبصرة وذكرى لأولي الأبصار ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ أي وأنشأ الظلمات والأنوار وخلق الليل والنهار يتعاقبان في الوجود لفائدة العوالم بما لا يدخل تحت حصر أو فكر، وجمع الظلمات لأن شعب الضلال متعددة، ومسالكه متنوعة، وأفرد النور لأن مصدره واحد هو الرحمن منور الأكوان قال في «التسهيل»: وفي الآية ردٌّ على المجوس في عبادتهم للنار وغيرها من الأنوار، وقولهم إن الخير من النور والشر من الظلمة، فإن المخلوق لا يكون إلهاً ولا فاعلاً لشيء من الحوادث^(٢) ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي ثم بعد تلك الدلائل الباهرة والبراهين القاطعة على وجود الله ووحدانيته يشرك الكافرون بربه فيساوون به أصناماً نحتوها بأيديهم، وأوهاماً ولدوها بخيالهم، ففي ذلك تعجيب من فعلهم وتوبيخ لهم قال ابن عطية: والآية دالة على قبح فعل الكافرين لأن المعنى أن خلقه السماوات والأرض وغيرها قد تقرر، وآياته قد سطعت، وإنعامه بذلك قد تبين، ثم بعد هذا كله قد عدلوا بربه فهذا كما تقول: يا فلان أعطيتك وأكرمتك وأحسنْتُ إليك ثم تشتمني؟ أي بعد وضوح هذا كله^(٣) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ أي خلق أباكم آدم من طين ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ أي حكم وقدر لكم أجلاً من الزمن تموتون عند انتهائه ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ أي وأجل آخر مسمى عنده لبعثكم جميعاً، فالأجل الأول الموت والثاني البعث والنشور ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ أي ثم أنتم أيها الكفار تشكون في البعث وتنكرونه بعد ظهور تلك الآيات العظيمة ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ أي هو الله المعظم المعبود في السماوات والأرض قال «ابن كثير»: أي: يَعْبُدُهُ وَيُوحِّدُهُ وَيَقْرَأُ لَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَيَسْمُوهُ اللَّهُ^(٤) ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ

(١) «أسباب النزول» ص ١٢٢. (ش): موضوع، ذكره البغوي في «تفسيره»، والواحد في «أسباب النزول».

(٢) «التسهيل» ٢/٢.

(٣) «البحر المحيط» ٦٨/٦.

(٤) «ابن كثير» ١/٥٦٨.

وَجَهَرَكُمُ ﴿١﴾ أَي يَعْلَمُ سِرَكُمْ وَعَلَنَكُمْ ﴿٢﴾ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ أَي مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ وَسَيَجَازِيكُمْ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ عِنَادِهِمْ وَإِعْرَاضِهِمْ فَقَالَ ﴿٤﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ ﴿٥﴾ أَي مَا يَظْهَرُ لَهُمْ دَلِيلٌ مِنَ الْأَدَلَّةِ أَوْ مُعْجَزَةٌ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ أَوْ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ ﴿٦﴾ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٧﴾ أَي إِلَّا تَرَكُوا النَّظَرَ فِيهَا وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهَا قَالَ «القرطبي»: والمراد تركهم النظر في الآيات التي يجب أن يستدلوا بها على توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ، والمعجزات التي أقامها لِنَبِيِّهِ ﷺ التي يستدل بها على صدقه في جميع ما أتى به عن ربه ^(١) ﴿٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴿٩﴾ أَي كَذَّبُوا بِالْقُرْآنِ الَّذِي جَاءَهُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنتَؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ أَي سَوْفَ يَحِلُّ بِهِمُ الْعِقَابُ إِنْ عَاجَلُوا أَوْ آجَلًا وَيَظْهَرُ لَهُمْ خَبَرُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ، وهذا وعيدٌ بالعذاب والعقاب على استهزائهم، ثُمَّ حَضَّاهُمْ تَعَالَى عَلَى الْإِعْتِبَارِ بِمَنْ سَبَقَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ فَقَالَ ﴿١٢﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ﴿١٣﴾ أَي أَلَا يَعْتَبِرُونَ بِمَنْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْأُمَمِ قَبْلَهُمْ لَتُكْذِبِيهِمُ الْأَنْبِيَاءُ أَلَمْ يَعْرِفُوا ذَلِكَ؟ ﴿١٤﴾ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنَ الْأَمْنِ شَيْءٌ ﴿١٥﴾ أَي مَنْحَنَاهُمْ مِنْ أَسْبَابِ السَّعَةِ وَالْعَيْشِ وَالتَّمَكِينِ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نَعْطِكُمْ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿١٦﴾ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا ﴿١٧﴾ أَي أَنْزَلْنَا الْمَطَرَ غَزِيرًا مُتَتَابِعًا يَدْرُ عَلَيْهِمْ دَرًّا ﴿١٨﴾ وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ ﴿١٩﴾ أَي مِنْ تَحْتِ أَشْجَارِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ حَتَّىٰ عَاشُوا فِي الْخَصْبِ وَالرِّيفِ بَيْنَ الْأَنْهَارِ وَالْثَمَارِ ﴿٢٠﴾ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴿٢١﴾ أَي فَكَفَرُوا وَعَصَوْا فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ، وهذا تهديدٌ للكفار أن يصيبهم مثل ما أصاب هؤلاء على حال قوتهم وتمكينهم في الأرض ﴿٢٢﴾ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٢٣﴾ أَي أَحْدَثْنَا مِنْ بَعْدِ إِهْلَاكِ الْمَكْذِبِينَ قَوْمًا آخَرِينَ غَيْرَهُمْ قَالَ أَبُو حَيَّانٍ: وفيه تعريضٌ للمخاطبين بِإِهْلَاكِهِمْ إِذَا عَصَوْا كَمَا أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِمْ ^(٢) ﴿٢٤﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي فِرْطَاسٍ ﴿٢٥﴾ أَي لَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ كِتَابًا مَكْتُوبًا عَلَى وَرَقٍ كَمَا اقْتَرَحُوا ﴿٢٦﴾ فَلَمَّسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴿٢٧﴾ أَي فَعَايَنُوا ذَلِكَ وَمَسَّوْهُ بِالْيَدِ لِيَرْتَفِعَ عَنْهُمْ كُلُّ إِشْكَالٍ وَيَزُولَ كُلُّ ارْتِيَابٍ ﴿٢٨﴾ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢٩﴾ أَي لَقَالَ الْكَافِرُونَ عِنْدَ رُؤْيَا تِلْكَ الْآيَةِ الْبَاهِرَةِ تَعْتَنًا وَعِنَادًا: مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ وَاضِحٌ، والغرضُ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ أَوْضَحُ الْآيَاتِ وَأَظْهَرَ الدَّلَائِلِ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴿٣١﴾ أَي هَلَّا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ مَلَكٌ يَشْهَدُ بِنُبُوَّتِهِ وَصَدْقِهِ وَ﴿٣٢﴾ لَوْلَا ﴿٣٣﴾ بِمَعْنَى هَلَّا لِلتَّحْضِيضِ ^(٣) قَالَ «أَبُو السَّعُودِ»: أَي هَلَّا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ بَحِيثٌ نَرَاهُ وَيَكْلَمُنَا أَنَّهُ نَبِيٌّ وَهَذَا مِنْ أَبَاطِيلِهِمُ الْمُحَقَّقَةِ وَخِرَافَتِهِمُ الْمَلْفُفَةِ الَّتِي يَتَعَلَّلُونَ بِهَا كُلَّمَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْحِيلُ وَعَيَّيْتُ بِهِمُ الْعِلَلُ ^(٤)

(١) «القرطبي» ٦ / ٣٩٠.

(٢) «البحر المحيط» ٤ / ٧٧.

(٣) (ش): حَضَّضَهُ عَلَى الْأَمْرِ: حَضَّه، حَثَّ عَلَيْهِ بِقُوَّةٍ وَأَغْرَاه، شَجَّعَهُ وَحَمَّسَهُ.

(٤) «أَبُو السَّعُودِ» ٢ / ٨٣.

(ش): عَيَّيْتُ بِأَمْرِهِ: عَجَزَ عَنْهُ وَلَمْ يُطِيقْ إِحْكَامَهُ، أَوْ لَمْ يَهْتَدِ لَوْجُهُ مُرَادَهُ. (عَيَّيْتُ فِي مَنْطِقِهِ): عَيَّيْتُ، عَجَزَ عَنْهُ فَلَمْ يَسْتَطِعْ بَيَانُ مُرَادِهِ.

﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَفُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي لو أنزلنا الملك كما اقترحوا وعاینوه ثم كفروا لَحَقَّ إهلاكهم^(١) كما جرت عادة الله بأن من طلب آية ثم لم يؤمن أهلكه الله حالاً ﴿ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ﴾ أي ثم لا يمهلون ولا يؤخرون، والآية كالتعليل لعدم إجابة طلبهم، فإنهم - في ذلك الاقتراح - كالباحث عن حثفه بظلفه^(٢) ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ أي لو جعلنا الرسول ملكاً لكان في صورة رجل لأنهم لا طاقة لهم على رؤية الملك في صورته ﴿وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَكِيلًا سُبُوتًا﴾ أي لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم وعلى ضعفائهم، فإنهم لو رأوا الملك في صورة إنسان قالوا: هذا إنسان وليس بملك قال ابن عباس: لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا في صورة رجل لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النور^(٣)، ثم قال تعالى تسلياً للنبي ﷺ ﴿وَلَقَدْ أَسْهَزَيْتُمْ بُرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي والله لقد استهزأ الكافرون من كل الأمم بأنبيائهم الذين بعثوا إليهم ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي أحاط ونزل بهؤلاء المستهزين بالرسول عاقبة استهزائهم، وفي هذا الإخبار تهديد للكفار ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المستهزين الساخرين: سافروا في الأرض فانظروا وتأملوا ماذا حلَّ بالكفرة قبلكم من العقاب وأليم العذاب لتعتبروا بآثار من خلا من الأمم كيف أهلكهم الله وأصبحوا عبرة للمعتبرين ﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي قل يا محمد: لمن الكائنات جميعاً خلقاً وملكاً وتصرفاً؟ والسؤال لإقامة الحجة على الكفار فهو سؤال تبكيت ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾ أي قل لهم تقريراً وتنبيهاً هي لله لأن الكفار يوافقون على ذلك بالضرورة لأنه خالق الكل إما باعترافهم أو بقيام الحجة عليهم ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي ألزم نفسه الرحمة تفضلاً وإحساناً والغرض التلطف في دعائهم إلى الإيمان وإنابتهم إلى الرحمن ﴿يَجْمَعَنَّكُمْ﴾^(٤) إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴿أَي لِيَحْشُرَنَّكُمْ مِنْ قُبُورِكُمْ مَبْعُوثِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ لِيَجْزِيَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ﴾ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿

(١) وقيل: المعنى لو أنزلنا ملكاً لماتوا من هول رؤيته إذ لا يطيقون رؤيته وهو منقول عن ابن عباس كذا في «القرطبي» ٢٩٣/٦.

(٢) (ش): من أمثال العرب: «بَحَثَ عَنْ حَتْفِهِ بِظُلْفِهِ» البحث: التفتيش. والحتف: الهلاك. والظلف - بكسر الظاء - للشاة والبقرة والظبي بمنزلة القدم للإنسان. ويضرب هذا المثل في الحاجة تؤدي بصاحبها إلى التلف وجناية الإنسان على نفسه. وأصله أن ماعزة لبعض العرب كانوا أرادوا ذبحها، فلم يجدوا شفرة يذبحونها بها فجعلت تبش برجلها في الأرض حتى استخرجت بنبشها شفرة كانت ضاعت لهم في الأرض، فذبحوها بها وقالوا: بحثت عن حثفها بظلفها. فذهبت مثلاً.

(٣) «ابن كثير» ٥٦٩/١ «المختصر».

(٤) قال «أبو السعود»: هذا جواب قسم والجملة استئناف مسوق للوعيد على إشراكهم وإغفالهم النظر أي والله ليجمعنكم في القبور.. إلخ.

أي أضاعوها بكفرهم وأعمالهم السيئة في الدنيا فهم لا يؤمنون ولهذا لا يقام لهم وزن في الآخرة وليس لهم نصيب فيها سوى الجحيم والعذاب الأليم ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الْإِلِّ وَالنَّهَارِ﴾ أي لله عز وجل ما حل واستقر في الليل والنهار لجميع عباده وخلقه وتحت قهره وتصرفه، والمراد عموم ملكه تعالى لكل شيء ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوال العباد العليم بأحوالهم ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَخِيذًا وَلِيًّا﴾ الاستفهام للتوبيخ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين أغير الله أتخذ معبوداً؟ ﴿فَاطِرُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سابق ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي هو جل وعلا يرزق ولا يرزق قال «ابن كثير»: أي هو الرازق لخلقه من غير احتياج إليهم^(١) ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن ربي أمرني أن أكون أول من أسلم الله من هذه الأمة ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي وقيل لي: لا تكونن من المشركين قال الزمخشري ومعناه: أُمِرْتُ بالإسلام ونُهِيتُ عن الشرك^(٢) ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي قل لهم أيضاً إنني أخاف إن عبتُ غير ربي عذاب يوم عظيم هو يوم القيامة ﴿مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ أي من يصرف عنه العذاب فقد رَحِمَهُ اللهُ ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أي النجاة الظاهرة ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ أي إن تنزل بك يا محمد شدة من فقر أو مرض فلا رافع ولا صارف له إلا هو ولا يملك كشفه سواه ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي وإن يصبك بخير من صحة ونعمة فلا راد له لأنه وحده القادر على إيصال الخير والضرر قال في «التسهيل»: والآية برهان على الوحدانية لانفراد الله تعالى بالضرر والخير وكذلك ما بعد هذا من الأوصاف براهين ورد على المشركين^(٣) ﴿وَهُوَ أَفْقَاهُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ قال «ابن كثير»: أي هو الذي خضعت له الرقاب وذلت له الجبابرة وعنت له الوجوه وقهر كل شيء وهو الحكيم في جميع أفعاله الخبير بمواضع الأشياء^(٤).

البلاغة: ١ - ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الصيغة تفيد القصر أي لا يستحق الحمد والثناء إلا الله رب العالمين.

٢ - ﴿الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ﴾ فيه من المحسنات البديعية الطباق.

٣ - ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ فيه استبعاد أن يعدلوا به غيره بعد وضوح آيات قدرته ووضع الرب ﴿رَبِّهِمْ﴾ موضع الضمير لزيادة التشنيع والتقييح.

(١) «مختصر ابن كثير» ١ / ٥٧٠.

(٢) «الكشاف» ٢ / ٧.

(٣) «التسهيل» ٢ / ٤. (ش): وهذا دليل على وجوب إفراذه بالألوهية فلا يُعْبَدُ إلا هو ﷻ.

(٤) «ابن كثير» ١ / ٥٧١.

- ٤ - ﴿سِرْكُمُ وَجَهْرَكُمُ﴾ بينهما طباق.
 ٥ - ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ أي أهل قرن فهو مجاز مرسل.
 ٦ - ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِّدْرَارًا﴾ أي المطر عبر عنه بالسماء لأنه ينزل من السماء فهو مجاز أيضاً.

٧ - ﴿أَسْنُوزِي بُرْسِلٍ﴾ تنكير رسل للتفخيم والتكثير.

٨ - ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ من صيغ المبالغة.

فَائِدَةٌ: في القرآن العظيم خمس سور ابتدأت بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وهي سورة الفاتحة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الآية: ٢] والأنعام ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الآية: ١] وسورة الكهف ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الآية: ١] وسورة سبأ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الآية: ١] وسورة فاطر ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الآية: ١].

قال الله تعالى:

قُلْ أَى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّى بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّا سُرَّكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ لَوْ كُنْتُمْ فَتَنُّهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿١٥﴾ أَنْتُمْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٦﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءَهُكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ عَنْهُ وَيَتَنَوَّعُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْسَٰ نَارُ وَلَا تُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَكَوْنُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢١﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَٰ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٢﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْشَرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٢٣﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ الدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَقْنُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٢٧﴾

المناسبة: لما أفاض جل ذكره في إقامة الدلائل والبراهين على قدرته ووحدانيته من أول

السورة الكريمة ذكر هنا شهادته تعالى على صدق نبوة محمد عليه السلام ثم ذكر موقف الجاحدين للقرآن المكذبين للوحي، وحسرتهم الشديدة يوم القيامة.

اللغة: ﴿لَا تُذِرْكُم﴾ الإنذار: إخبار فيه تخويف ﴿فَتَنْتَهُم﴾ الفتنة الاختبار ﴿أَكِنَّةٌ﴾ جمع كِنَان وهو الغطاء ﴿وَقَرًا﴾ ثقلاً يقال وقرت أذنه إذا ثَقُلَتْ أو صُمَّتْ ﴿أَسْطِيرُ﴾ خرافات وأباطيل جمع أسطورة قال الجوهري الأساطير: الأباطيل والترهات^(١) ﴿وَيَنْتَوَتْ﴾ يبعدون يقال نأى عنه إذا ابتعد ﴿بَعْتَةً﴾ فجأة يقال: بغته إذا فجأه ﴿فَرَطْنَا﴾ فرط: قصر مع القدرة على ترك التقصير قال أبو عبيد: فرط: ضييع ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ ذنوبهم جمع وزر ﴿يَزِرُونَ﴾ يحملون ﴿وَلَهُوٌ﴾ اللهو: صرف النفس عن الجد إلى الهزل، وكل ما شغلك فقد ألهاك.

سَبَبُ النُّزُول: أ - روي أن رؤساء مكة قالوا: يا محمد ما نرى أحداً يصدقك بما تقول من أمر الرسالة، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكرٌ ولا صفة فأرنا من يشهد لك أنك رسول كما تزعم؟ فأنزل الله ﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾^(٢) الآية.

ب - عن ابن عباس أن «أبا سفيان» و «الوليد بن المغيرة» و «النضر بن الحارث» جلسوا إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن فقالوا للنضر: ما يقول محمد؟ فقال أساطير الأولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية فأنزل الله ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ...﴾^(٣) الآية.

ج - روي أن «الأخنس بن شريق» التقى بـ «أبي جهل بن هشام» فقال له: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس عندنا أحدٌ غيرنا فقال أبو جهل: والله إن محمداً لصادق وما كذب قط، ولكن إذا ذهب «بنو قصي» باللواء، والسقاية، والحجابه، والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟ فأنزل الله ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ...﴾^(٤) الآية.

(١) «مجمع البيان» ٢٨٦/٤.

(٢) «أسباب النزول» ص ١٢٢. (ش): موضوع، ذكره الواحدي في «أسباب النزول».

(٣) «القرطبي» ٦/٤١٤. (ش): ضعيف لانقطاعه. ذكره الواحدي في «أسباب النزول».

(٤) «التفسير الكبير» ١٢/٢٠٥. (ش): ضعيف لانقطاعه. ذكره الواحدي في «أسباب النزول».

والحجابه: حجابة الكعبة: سدانة البيت؛ أي تَوَلَّى مفاتيحه. والسقاية: إسقاء الحجاج الماء العذب الذي كان عزيزاً بمكة، وإسقاؤهم كذلك نبذ التمر. الرفادة: أموال تُخْرِجها قريش من أموالها في كل عام يصنع منه طعام للحجاج. واللواء راية يلوونها على رمح وينصبونها علامة للعسكر إذا توجهوا إلى عدو. والقيادة إمارة الجيش إذا خرجوا إلى حرب، والندوة رياسة الاجتماع كل أيام العام، وكانت هذه المناصب كلها معتبرة في مكة وكأنها تحيط بالكعبة مُتَّجِهَةً أنظار العرب جميعاً في عباداتهم.

التفسير: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةً﴾ أي قل لهم يا محمد: أي شيء أعظم شهادة حتى يشهد لي بأني صادق في دعوى النبوة؟ ﴿قُلْ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾^(١) أي أجبههم أنت وقل لهم: الله يشهد لي بالرسالة والنبوة وكفى بشهادة الله لي شهادة قال ابن عباس: قال الله لنبىه محمد ﷺ قل لهم أي شيء أكبر شهادة؟ فإن أجابوك وإلا فقل لهم: الله شهيد بيني وبينكم^(٢) ﴿وَأُوحِيَ إِلَى هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ أي وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به يا أهل مكة وأنذر كل من بلغه القرآن من العرب والعجم إلى يوم القيامة قال ابن جزى: والمقصود بالآية الاستشهاد بالله - الذي هو أكبر شهادة - على صدق رسول الله ﷺ وشهادة الله بهذا هي علمه بصحة نبوة سيدنا محمد ﷺ وإظهار معجزته الدالة على صدقه ﴿إِنَّمَا كُنْتُمْ لَشَٰهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾ استفهام توبيخ أي أنتم أيها المشركون لتقرون بوجود آلهة مع الله؟ فكيف تشهدون أن مع الله آلهة أخرى بعد وضوح الأدلة وقيام الحجة على وحدانية الله؟ ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ أي قل لهم: لا أشهد بذلك ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أي قل يا محمد إنما أشهد بأن الله واحد أحد، فرد صمد ﴿وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي وأنا بريء من هذه الأصنام، ثم ذكر تعالى أن الكفار بين جاهل ومعانده فقال ﴿الَّذِينَ اتَّخَذْتَهُمُ الْكُتُبَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ يعني اليهود والنصارى الذين عرفوا وعاندوا يعرفون النبي ﷺ بحليته ونعته على ما هو مذكور في التوراة والإنجيل كما يعرف الواحد منهم ولده لا يشك في ذلك أصلاً قال الزمخشري: وهذا استشهاد لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب وبصحة نبوته^(٣) ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي أولئك هم الخاسرون لأنهم لم يؤمنوا بمحمد ﷺ بعد وضوح الآيات ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ الاستفهام إنكاري ومعناه النفي، أي: لا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب أو كذب بالقرآن والمعجزات الباهرة وسماها سحراً قال «أبو السعود»: وكلمة ﴿أَوْ﴾ للإيدان بأن كلاً من الافتراء والتكذيب وحده بالغ غاية الإفراط في الظلم، فكيف وهم قد جمعوا بينهما فأثبتوا ما نفاه الله ونفوا ما أثبتته! قاتلهم الله أنى يؤفكون^(٤) ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي لا يفلح المفترى ولا المكذب وفيه إشارة إلى أن مدعى الرسالة لو كان كاذباً مفترياً على الله فلا يكون محلاً لظهور المعجزات ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي اذكر يوم نحشرهم جميعاً للحساب ونقول لهم على رؤوس الأشهاد ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي أين آلهتكم التي جعلتموها شركاء

(١) «البحر» ٩٠ / ٤.

(٢) «التسهيل» ٥ / ٢.

(٣) «الكشاف» ٩ / ٢.

(٤) «أبو السعود» ٨٨ / ٢.

الله؟ قال «البيضاوي»: والمراد من الاستفهام التوبيخ و﴿تَزْعُمُونَ﴾ أي تزعمونهم آلهة وشركاء مع الله فحذف المفعولان ولعله يحال بينهم وبين آلهتهم حينئذ ليفقدوها في الساعة التي علقوا بها الرجاء فيها^(١) قال ابن عباس: كل زعم في القرآن فهو كذب^(٢) ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتَهُمْ﴾ أي لم يكن جوابهم حين اختبروا بهذا السؤال ورأوا الحقائق ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ أي أقسموا كاذبين بقولهم والله يا ربنا ما كنا مشركين قال «القرطبي»: تبرءوا من الشرك وانتفوا منه؛ لما رأوا من تجاوزه ومغفرته للمؤمنين قال ابن عباس: يغفر الله لأهل الإخلاص ذنوبهم فإذا رأى المشركون ذلك قالوا تعالوا نقول: إننا كنا أهل ذنوب ولم نكن مشركين، فيختم على أفواههم وتنطق أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي انظر يا محمد كيف كذبوا على أنفسهم بنفي الإشراك عنها أمام علام الغيوب، وهذا التعجب من كذبهم الصريح ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي تلاشى وبطل ما كانوا يظنونونه من شفاعة آلهتهم وغاب عنهم ما كانوا يفترونه على الله من الشركاء، ثم وصف تعالى حال المشركين حين استماع القرآن فقال ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أي ومن هؤلاء المشركين من يصغي إليك يا محمد حين تتلو القرآن ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أي جعلنا على قلوبهم أغطية لئلا يفقهوا القرآن ﴿وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي ثقلاً وصمماً يمنع من السمع قال ابن جزي: والمعنى أن الله حال بينهم وبين فهم القرآن إذا استمعوه وعبر بالأكنة والوقر مبالغة^(٣) ﴿وَلَنْ يَرَوْا كَلَّ ءَايَةٍ إِلَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أي مهما رأوا من الآيات والحجج البينات لا يؤمنوا بها لفرط العناد ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي بلغوا من التكذيب والمكابرة إلى أنهم إذا جاءوك مجادلين يقولون عن القرآن: ما هذا إلا خرافات وأباطيل الأولين ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ﴾ أي هؤلاء المشركون المكذبون ينهون الناس عن القرآن وعن اتباع محمد عليه السلام ويبعدون هم عنه ﴿وَأِنْ يَهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وما يهلكون بهذا الصنيع إلا أنفسهم وما يشعرون بذلك قال «ابن كثير»: فهم قد جمعوا بين الفعلين القبيحين لا ينتفعون ولا يدعون أحداً ينتفع ولا يعود وباله إلا عليهم وما يشعرون^(٤) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقُفُّوا عَلَى النَّارِ﴾ أي لو ترى يا محمد هؤلاء المشركين إذ عرضوا على النار لرأيت أمراً عظيماً تشيب لهوله الرءوس قال «البيضاوي»: وجواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوف تقديره لرأيت أمراً شنيعاً^(٥) وإنما حذف

(١) «البيضاوي» ص ١٦٩.

(٢) «القرطبي» ٤٠١/٦.

(٣) «التسهيل» ٦/٢.

(٤) «ابن كثير» ٥٧٣/١.

(٥) «البيضاوي» ص ١٦٩.

ليكون أبلغ ما يقدره السامع ﴿فَقَالُوا يَلَيِّنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ يَا أَيَّتُهَا رَبَّنَا﴾ أي تمنوا الرجوع إلى الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً ولا يكذبوا بآيات الله ﴿وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إذا رجعنا إلى الدنيا نصدق ونؤمن بالله إيماناً صادقاً فتمنوا العودة ليصلحوا العمل ويتداركوا الزلل قال تعالى ردّاً لذلك التمني ﴿بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي ظهر لهم يوم القيامة ما كانوا يخفون في الدنيا من عيوبهم وقبائحهم فتمنوا ذلك ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُمْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي لو ردّوا - على سبيل الفرض لأنه لا رجعة إلى الدنيا بعد الموت - لعادوا إلى الكفر والضلال وإنهم لكاذبون في وعدهم بالإيمان ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أي قال أولئك الكفار الفجار: ما هي إلا هذه الحياة الدنيا ولا بعث ولا نشور ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ أي لو ترى حالهم إذ حُسبوا للحساب أمام رب الأرباب كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيده للعقاب وجواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوف للتهويل من فظاعة الموقف ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أي أليس هذا المعاد بحق؟ والهمزة للتقريع على التكذيب ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا﴾ أي قالوا: بلى والله إنه الحق ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي ذوقوا العذاب بسبب كفركم في الدنيا وتكذيبكم رسل الله، ثم أخبر تعالى عن هؤلاء الكفار فقال ﴿فَدَخَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ أي لقد خسر هؤلاء المكذبون بالبعث ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي حتى إذا جاءتهم القيامة فجأة من غير أن يعرفوا وقتها قال «القرطبي»: سميت القيامة بالساعة لسرعة الحساب فيها^(١) ﴿قَالُوا يَحْسَرُنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾ أي قالوا يا ندامتنا على ما قصّرنا وضيعنا في الدنيا من صالح الأعمال ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ أي والحال أنهم يحملون أثقال ذنوبهم على ظهورهم قال «البيضاوي»: وهذا تمثيل لاستحقاقهم آصار الآثام^(٢) وقال ﴿عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ لأن العادة حمل الأثقال على الظهر، قال ابن جزي: وهذا كناية عن تحمل الذنوب، وقيل: إنهم يحملونها على ظهورهم حقيقة فقد روي أن الكافر يركبه عمله بعد أن يتمثل له في أقبح صورة، وأن المؤمن يركب عمله بعد أن يتمثل له في أحسن صورة^(٣) ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ أي بشس ما يحملونه من الأوزار ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ باطل وغرور لقصر مدتها وفناء لذتها ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي الآخرة وما فيها من أنواع النعيم خير لعباد الله المتقين من دار الفناء، لأنها دائمة لا يزول عنهم نعيمها ولا يذهب عنهم سرورها ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تعقلون أن الآخرة خير من الدنيا؟ ثم سأل تعالى نبيه لتكذيب قومه له فقال ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ أي قد أحطنا علماً بتكذيبهم لك وحزنك وتأسفك عليهم قال الحسن: كانوا يقولون: إنه ساحر وشاعر وكاهن ومجنون

(١) «القرطبي» ٦/ ٤١٢.

(٢) «البيضاوي» ص ١١٩.

(٣) «التسهيل» ٧/ ٢.

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ أي فإنهم في دخيلة نفوسهم لا يكذبونك بل يعتقدون صدقك ولكنهم يجحدون عن عناد فلا تحزن لتكذيبهم قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يسمى الأمين فعرفوا أنه لا يكذب في شيء ولكنهم كانوا يجحدون فكان أبو جهل يقول: ما نكذبك يا محمد وإنك عندنا لمصدق وإنما نكذب ما جئتنا به^(١) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا﴾ أي صبروا على ما نالهم من قومهم من التكذيب والاستهزاء ﴿وَأُودُوا حَتَّى أَنَّهُمْ نَصَرْنَا﴾ أي وأودوا في الله حتى نصرهم الله، وفي الآية إرشاد إلى الصبر، ووعد له بالنصر ﴿وَلَا مُبَدِّل لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: أي لمواعيد الله، وفي هذا تقوية للوعد ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي ولقد جاءك بعض أخبار المرسلين الذين كذبوا وأودوا كيف أنجيناهم ونصرناهم على قومهم فتسلل ولا تحزن فإن الله ناصر كما نصرهم ﴿وَإِنْ كَانَ كِبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي إن كان إعراضهم عن الإسلام قد عظم وشق عليك يا محمد ﴿فَإِنْ أَسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْنَعَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي إن قدرت أن تطلب سرباً^(٢) ومسكناً في جوف الأرض ﴿أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ أي مصعداً تصعد به إلى السماء فتأتيهم بآية مما اقترحوه فافعل ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي لو أراد الله لهداهم إلى الإيمان فلا تكونن يا محمد من الذين يجهلون حكمة الله ومشيتته الأزلية.

البلاغة: ١ - ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ فيه تشبيه يسمى «المرسل المجمل» .

٢ - ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي تزعمونهم شركاء .

٣ - ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَّبُوا﴾ الصيغة للتعجب من كذبهم الغريب .

٤ - ﴿ءَاذَانَهُمْ وَقُرْ﴾ عبر بالأكنة في القلوب والوقر في الأذان وهو تمثيل بطريق الاستعارة لإعراضهم عن القرآن .

٥ - ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وضع الظاهر موضع الضمير لتسجيل الكفر عليهم .

٧ - ﴿يَنْهَوْنَ... وَيَنْتَوْنَ﴾ وردت الصيغة مؤكدة بمؤكدين «إن» و«اللام» للتنبيه على أن الكذب طبعتهم .

٨ - ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ تشبيه بليغ حيث جعلت الدنيا نفس اللعب واللهو مبالغة كقول الخنساء: «فإنما هي إقبال وإدبار» .

٩ - ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام للتوبيخ .

١٠ - ﴿كُذِّبَتْ رَسُولٌ﴾ تنوين رسل للتفخيم والتكثير .

تنبيه: قال الإمام الفخر: قوله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾ يقتضي له جواباً وقد حذف

(١) «البحر المحيط» ٤/ ١١٢ .

(٢) (ش): سَرَبٌ: بُيْتُتٌ تَحْتَ الْأَرْضِ لَا مُنْغِذَ لَهُ، وَهُوَ الْوَكْرُ.

تفخيماً للأمر وتعظيماً للشأن، وأشباهه كثير في القرآن والشعر، وحذف الجواب في هذه الأشياء أبلغ في المعنى من إظهاره ألا ترى أنك لو قلت لغلامك: والله لئن قمْتُ إليك - وسكتَ عن الجواب - ذهب فكره إلى أنواع المكروه من الضرب، والقتل، والكسر، وعظم خوفه لأنه لم يدر أي الأقسام تبغي، ولو قلت: والله لئن قمْتُ إليك لأضربنك فأتيتَ بالجواب لعلم أنك لم تبلغ شيئاً غير الضرب، فثبت أن حذف لجواب أقوى تأثيراً في حصول الخوف^(١).

قال الله تعالى:

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمِمَّنْ دَانَتْ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَقْنَاهُ فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَعْبَرِ اللَّهُ يُدْعَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُنْكِرُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّاسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَاهُ عَلَيْهِمْ أَنْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فُزِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَنَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذَفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَانْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَوِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَنْتُمْ أَهْوَاءُكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُضِ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصْلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾

المناسبة: لما ذكر الله تعالى إعراض المشركين عن القرآن وعن الإيمان بالنبى عليه السلام، ذكر في هذه الآيات السبب في ذلك وهو أن القرآن نور وشفاء يهتدي به المؤمنون، وأما الكافرون فهم بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون ولا يستجيبون، ثم ذكر اقتراح المشركين بعض الآيات وشبههم بالصُّمِّ البكم الذين لا يعقلون.

اللغة: ﴿تَضَرَّعُوا﴾ التضرع من الضراعة وهي الذلة يقال: ضرع فهو ضارع ﴿أَبْسَاءُ﴾ من البؤس وهو الفقر ﴿وَالْفَرَّاءُ﴾ من الضر وهو البلاء قال «القرطبي»: البأساء في الأموال، والضراء في الأبدان، هذا قول الأكثر^(١) ﴿مُبْلِسُونَ﴾ المبلِس: اليائس من الخير من أبلس الرجل إذا يئس ومنه «إبليس» لأنه أبلس من رحمة الله عزَّ وجلَّ^(٢) ﴿دَابِرٌ﴾ الدابر: الآخر ودابر القوم: خلفهم من نسلهم قال قطرب: يعني استؤصلوا وأهلكوا قال الشاعر:

فَأَهْلِكُوا بِعَذَابٍ حَصَّ دَابِرَهُمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ صَرْفًا وَلَا انْتَصَرُوا^(٣)
يَصْدِفُونَ ﴿صَدَفَ﴾ عن الشيء أعرض عنه ﴿تَطْرُدُ﴾ الطرد: الإبعاد مع الإهانة ﴿الْفَصِيلَيْنِ﴾ الحاكمين.

سبب النزول: عن ابن مسعود قال: مرَّ الملاء من قريش على رسول الله ﷺ وعنده «صهيب»، وخبَّاب، وبلال، وعمَّار وغيرهم من ضعفاء المسلمين فقالوا: يا محمد، أَرْضَيْتَ بِهِؤْلَاءَ مِنْ قَوْمِكَ؟ أَفَنَحْنُ نَكُونُ تَبَعًا لَهُمْ؟ أَهَؤْلَاءَ الَّذِينَ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ؟ اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم اتَّبَعْنَاكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدُوفِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ الآية^(٤).

(التفسير): ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي إنما يستجيب للإيمان الذين يسمعون سماع قبول وإصغاء، وهنا تمَّ الكلام ثم ابتدأ فقال ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ قال «ابن كثير»: يعني بذلك الكفار لأنهم موتى القلوب فشبههم الله بأموات الأجساد، وهذا من باب التهكم بهم والإضرار

(١) «القرطبي» ٦/ ٤٢٤.

(٢) «غريب القرآن» لابن قتيبة ص ٢٣.

(٣) البيت لأمية بن أبي الصلت كذا في «القرطبي» ٦/ ٤٢٧. (ش): حَصَّ الشَّعْرَ: حَلَقَهُ.

(٤) «أسباب النزول» ص ١٢٤. (ش): عَنْ سَعْدٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ اطْرُدْ هَؤُلَاءَ لَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا. قَالَ وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ وَبِلَالٌ وَرَجُلَانِ لَسْتُ أَسْمِيَهُمَا فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقَعَ فَحَدَّثَ نَفْسَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدُوفِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). وفي سنن ابن ماجه عَنْ سَعْدٍ قَالَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فَبَيْنَا سِتَّةٌ: فِيَّ وَفِي ابْنِ مَسْعُودٍ وَصُهَيْبٍ وَعَمَّارٌ وَالْمَقْدَادِيُّ وَبِلَالٌ. قَالَ: قَالَتْ قُرَيْشٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِنَّا لَا نَرْضَى أَنْ نَكُونَ أَتْبَاعًا لَهُمْ فَاطْرُدْهُمْ عَنْكَ. قَالَ فَدَخَلَ قَلْبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْخُلَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدُوفِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ الآية. (صححه الألباني).

عليهم^(١) وقال «الطبري»: يعني والكفار يبعثهم الله مع الموتى، فجعلهم تعالى ذكره في عداد الموتى الذين لا يسمعون صوتاً، ولا يعقلون دعاءً، ولا يفقهون قولاً، إذ كانوا لا يتدبرون حجج الله ولا يعتبرون بآياته ولا يتذكرون فينزعرون عن تكذيب رسل الله^(٢) ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يَرْجَعُونَ﴾ أي ثم مرجعهم إلى الله فيجازيهم بأعمالهم ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي قال كفار مكة: هَلَّا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ مَعْجِزَةٌ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ كَالنَّاقَةِ وَالْعَصَا وَالْمَائِدَةِ قَالَ «القرطبي» وكان هذا منهم تعنتاً بعد ظهور البراهين وإقامة الحجة بالقرآن الذي عجزوا أن يأتوا بسورة من مثله^(٣) ﴿قُلْ إِنْ اللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً﴾ أي هو تعالى قادرٌ على أن يأتيهم بما اقترحوا ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون أن إنزالها يستجلب لهم البلاء لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا لعاجلهم بالعقوبة كما فعل بالأمم السابقة ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي ما من حيوان يمشي على وجه الأرض ﴿وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ أي ولا من طائر يطير في الجو بجناحيه ﴿إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالِكُمْ﴾ أي إلا طوائف مخلوقة مثلكم خلقها الله وقدر أحوالها وأرزاقها وأجالها قال «البيضاوي»: والمقصود من ذلك الدلالة على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره ليكون كالدليل على أنه قادر على أن ينزل آية^(٤) ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي ما تركنا وما أغفلنا في القرآن شيئاً من أمر الدين يحتاج الناس إليه في أمورهم إلا بينأه، وقيل: إن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ ويكون المعنى: ما تركنا في اللوح المحفوظ شيئاً فلم نكتبه^(٥) ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أي يجمعون فيقضي بينهم قال الزمخشري: يعني الأمم كلها من الدواب والطيور فيعوضها ويُنصف بعضها من بعض كما روي أنه يأخذ للجماة من القرناء^(٦) ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا صُمْ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي والذين كذبوا بالقرآن صم لا يسمعون كلام الله سماع قبول بُكْم لا ينطقون بالحق خابطون في ظلمات الكفر قال «ابن كثير»: وهذا مثل أي مثلهم في جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصم وهو الذي لا يسمع، أبكم وهو الذي لا يتكلم، وهو مع هذا في ظلمات لا يبصر، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق أو يخرج مما هو فيه^(٧)

(١) «ابن كثير» ١/ ٥٧٦.

(٢) «الطبري» ١١/ ٣٤١.

(٣) «القرطبي» ٦/ ٤١٩.

(٤) «البيضاوي» ص ١٧٠.

(٥) هذا اختيار «الطبري» والزمخشري والجلالين ورجح أبو حيان في «البحر المحيط» أن المراد بالكتاب القرآن العظيم ثم قال: وهذا الذي يقتضيه سياق الآية والمعنى وبه بدأ ابن عطية.

(٦) «الكشاف» ٢/ ١٦. (ش): قَالَ ﷻ: «تَوَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَىٰ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّىٰ يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنََاءِ» (رواه مسلم) (الْقَرْنََاءُ) التي لها قرنان، وَالْجَلْحَاءُ هِيَ الْجَمَاءُ الَّتِي لَا قَرْنَ لَهَا. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٧) «ابن كثير» ١/ ٥٧٧.

﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي من يشأ الله يضله ومن يشأ هدايته يرشده إلى الهدى ويوفقه لدين الإسلام ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ﴾ استفهام تعجيب أي أخبروني إن أتاكم عذاب الله كما أتى من قبلكم أو أتتكم القيامة بغتة من تدعون؟ ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي أتدعون غير الله لكشف الضر عنكم؟ إن كنتم صادقين في أن الأصنام تنفعكم ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ أي بل تَحْضُونَهُ تعالى بدعائكم في الشدائد فيكشف الضر الذي تدعونه إلى كشفه إن شاء كشفه ﴿وَنَسْنُوْنَ مَا دُشِّرْ كُونُ﴾ أي تتركون الآلهة فلا تدعونها لاعتقادكم أن الله تعالى هو القادر على كشف الضر وحده دون سواه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ هذه تسليية لرسول الله ﷺ أي والله لقد أرسلنا رسلاً إلى أمم كثيرين من قبلك فكذبوهم ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ أي بالفقر والبؤس والأسقام والأوجاع ﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ أي لكي يتضرعوا إلى الله بالتذلل والإنابة ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ (لولا) للتحضيض أي فهلا تضرعوا حين جاءهم العذاب، وهذا عتاب على ترك الدعاء وإخبار عنهم أنهم لم يتضرعوا مع قيام ما يدعوههم إلى التضرع ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي ولكن ظهر منهم النقيض حيث قست قلوبهم فلم تلن للإيمان ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي زين لهم المعاصي والإصرار على الضلال ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي لما تركوا ما وُعدوا به ﴿فَتَحْنَأَ عَلَيْهِمُ أَبْوَابُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي من النعم والخيرات استدراجاً لهم ﴿حَتَّى إِذَا فُزِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ أي فرحوا بذلك النعيم وازدادوا بطراً ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ أي أخذناهم بعدابنا فجأة فإذا هم يائسون قانطون من كل خير ﴿فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي استؤصلوا وهلكوا عن آخرهم ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي على نصر الرسل وإهلاك الكافرين قال الحسن: مكر بالقوم ورب الكعبة، أعطوا حاجتهم ثم أخذوا^(١) وفي الحديث «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ» ثم قرأ ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَأَ عَلَيْهِمُ أَبْوَابُ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فُزِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾^(٢).

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المكذبين المعاندين من أهل مكة أخبروني لو أذهب الله حواسكم فأصمكم وأعماكم ﴿وَحَنَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ أي طبع على قلوبكم حتى زال عنها العقل والفهم ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ أي هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم؟ ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذَفُونَ﴾ أي انظر

(١) «مختصر ابن كثير» ٥٧٨/١.

(٢) أخرجه الإمام أحمد. (ش): صححه الألباني.

كيف نبين ونوضح الآيات الدالة على وحدانيتنا ثم هم بعد ذلك يعرضون عنها فلا يعتبرون ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ أي قل لهؤلاء المكذبين: أخبروني إن أناكم عذاب الله العاجل فجأة أو عياناً بالليل أو بالنهار ﴿هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى النفي أي ما يهلك بالعذاب إلا أنتم لأنكم كفرتم وعاندتم ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي ما نرسل الرسل إلا لتبشير المؤمنين بالثواب، وإنذار الكافرين بالعقاب، وليس إرسالهم ليأتوا بما يقترحه الكافرون من الآيات ﴿فَمَنْ أَمِنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي فمن آمن بهم وأصلح عمله فلا خوف عليهم في الآخرة ولا هم يحزنون والمراد أنهم لا يخافون ولا يحزنون لأن الآخرة دار الجزاء للمتقين ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بَيَاثَاتٍ مِمَّا مَسَّهُمُ الْعَذَابُ يَمَّا كَانُوا يَقْسِفُونَ﴾ أي وأما المكذبون بآيات الله فيمسهم العذاب الأليم بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله قال ابن عباس: يفسقون أي يكفرون^(١) ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفرة الذين يقترحون عليك تنزيل الآيات وخوارق العادات: لست أدعي أن خزائن الله مفوضة إليّ حتى تقترحوا عليّ تنزيل الآيات ولا أدعي أيضاً أني أعلم الغيب حتى تسألوني عن وقت نزول العذاب ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي ولست أدعي أني من الملائكة حتى تكلفوني الصعود إلى السماء وعدم المشي في الأسواق وعدم الأكل والشرب قال الصاوي: وهذه الآية نزلت حين قالوا له: إن كنت رسولاً فاطلب من ربك أن يوسع علينا ويغني فقرنا وأخبرنا بمصالحنا ومضارنا فأخبر أن ذلك بيد الله سبحانه لا بيده^(٢).

والمعنى: إني لا أدعي شيئاً من هذه الأشياء الثلاثة حتى تجعلوا عدم إجابتي إلى ذلك دليلاً على عدم صحة رسالتي ﴿إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيْكُمْ﴾ أي ما أتبع فيما أدعوكم إليه إلا وحي الله الذي يوحى إليّ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ أي هل يتساوى الكافر والمؤمن والضال والمهتدي؟ ﴿أَفَلَا تَنْفَكُّوْنَ﴾ تفريع وتوبيخ أي أستمعون فلا تتفكرون؟ ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي خوفاً يا محمد بهذا القرآن المؤمنين المصدقين بوعد الله ووعيده الذين يتوقعون عذاب الحشر قال أبو حيان: وكأنه قيل: أُنذر بالقرآن من يرجي إيمانه وأما الكفرة المعرضون فدعهم ورأيهم^(٣) ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي ليس لهم غير الله وليّ ينصرهم ولا شفيع يشفع لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي أُنذرهم لكي يتقوا الكفر والمعاصي ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي لا تطرد هؤلاء المؤمنين الضعفاء

(١) «زاد المسير» ٤٢/٣.

(٢) «حاشية الصاوي» على الجلالين ١٦/٢.

(٣) «البحر» ١٣٤/٤.

من مجلسك يا محمد الذين يعبدون ربهم دوما في الصباح والمساء يلتمسون بذلك القرب من الله والدنو ثم رضاه قال «الطبري»: نزلت الآية في سبب جماعة من ضعفاء المسلمين قال المشركون لرسول الله ﷺ: لو طردت هؤلاء عنك لغشيناك وحضرنا مجلسك^(١) وأراد النبي ﷺ ذلك طمعاً في إسلامهم ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي لا تؤاخذ بأعمالهم وذنوبهم كقول نوح: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَيَّ رَئِي﴾ [الشعراء: ١١٣] قال الصاوي: هذا كالتعليل لما قبله والمعنى لا تؤاخذ بذنوبهم ولا بما في قلوبهم إن أرادوا بصحبتك غير وجه الله، وهذا على فرض تسليم ما قاله المشركون وإلا فقد شهد الله لهم بالإخلاص بقوله ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾^(٢) ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ وهذا التأكيد لمطابقة الكلام والمعنى لا تؤاخذ أنت بحسابهم ولا هم بحسابك فلم تطردهم؟ وقيل: إن المراد بالحساب الرزق، والمعنى ليس رزقهم عليك ولا رزقك عليهم وإنما يرزقك وإياهم الله رب العالمين^(٣) ﴿فَطَرْدُهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا تطردهم فإنك إن طردتهم تكون من الظالمين - وهذا لبيان الأحكام وحاشاه من وقوع ذلك منه عليه السلام قال «القرطبي»: وهذا كقوله تعالى ﴿لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبُطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وقد علم الله منه أنه لا يشرك ولا يحبط عمله^(٤) - ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي ابتلينا الغني بالفقير والشريف بالوضيع ﴿لِيَقُولُوا أَهْؤُلَاءِ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي ليقول الأشراف والأغنياء أهؤلاء الضعفاء والفقراء من الله عليهم بالهداية والسبق إلى الإسلام من دوننا! قالوا ذلك إنكاراً واستهزاء كقولهم ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١] قال تعالى ردّاً عليهم ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾؟ أي الله أعلم بمن يشكر فيهديه ومن يكفر فيخزيه، والاستفهام للتقرير ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ﴾ قال «القرطبي»: نزلت في الذين نهى الله نبيه عليه الصلاة والسلام عن طردهم فكان إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبداهم بالسلام»^(٥) وأمر ﷺ بأن يبدأهم

(١) «الطبري» ١١/ ٣٧٤.

(٢) «حاشية الصاوي» ١٧/ ٢.

(٣) ذهب إلى هذا «الطبري» وبعض المفسرين.

(٤) «القرطبي» ٦/ ٤٣٤.

(٥) نفس المرجع ٦/ ٤٣٥. (ش): ضعيف. رواه: البغوي في «التفسير»، والواحد في «أسباب النزول».

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَهْلٍ بْنِ حُنَيْفٍ، قَالَ: «نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ فِي بَعْضِ آيَاتِهِ: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَصِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨]، خَرَجَ يَلْتَمِسُهُمْ، فَوَجَدَ قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ مِنْهُمْ ثَائِرُ الرَّأْسِ، وَجَافُ الْجِلْدِ، وَذُو الثُّوبِ الْوَاحِدِ، فَلَمَّا رَأَاهُمْ جَلَسَ مَعَهُمْ، فَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي أُمَّتِي مَنْ أَمَرَنِي أَنْ أَصْبِرَ نَفْسِي مَعَهُمْ» (رواه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» والطبراني، وقال الهيثمي: «وَرَجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ»، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَهْلٍ بْنُ حُنَيْفٍ ذَكَرَهُ الطَّبْرَانِيُّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فِي الصَّحَابَةِ. وَذَكَرَهُ الصَّغَانِي فِي مَنْ فِي صُحْبَتِهِ نَظَرُ، وَقَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَهْلٍ بْنُ حُنَيْفٍ الْأَنْصَارِيُّ ذَكَرَهُ ابْنُ أَبِي دَاوُدَ فِي الصَّحَابَةِ، =

بالسلام إكراماً لهم وتطيباً لقلوبهم ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي ألزم نفسه الرحمة تفضلاً منه وإحساناً ﴿أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُم سُوْءَ الْجَهْلَةِ﴾ أي خطيئة من غير قصد^(١) قال مجاهد: أي لا يعلم حلالاً من حرام ومن جهالته ركب الأمر ﴿ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي ثم تاب من بعد ذلك الذنب وأصلح عمله فإن الله يغفر له، وهو وعدٌ بالمغفرة والرحمة لمن تاب وأصلح ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أي كما فصلنا في هذه السورة الدلائل والحجج على ضلالات المشركين كذلك نبين ونوضح لكم أمور الدين ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي ولتوضح وتظهر طريق المجرمين فينكشف أمرهم وتستبين سبلهم ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين إني نهيت أن أعبد هذه الأصنام التي زعمتموها آلهة وعبدتموها من دون الله ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَ كُمْ﴾ أي في عبادة غير الله، وفيه تنبيه على سبب ضلالهم ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ أي قد ضللت إن اتبعت أهواءكم ولا أكون في زمرة المهتدين ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها إلي ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ أي وكذبتُم بالحق الذي جاءني من عند الله ﴿مَا عِنْدِي مَّا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أي ليس عندي ما أبادركم به من العذاب قال الزمخشري: يعني العذاب الذي استعجلوه في قولهم ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]^(٢) ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي ما الحكم في أمر العذاب وغيره إلا لله وحده ﴿يَقُضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصْلِينَ﴾ أي يخبر الحق ويبينه البيان الشافي وهو خير الحاكمين بين عباده ﴿قُلْ لَوْ أَن عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أي لو أن بيدي أمر العذاب الذي تستعجلونه ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي لعجلته لكم لأستريح منكم ولكنه بيد الله، قال ابن عباس: لم أمهلهم ساعة ولا هلكتكم^(٣) ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي هو تعالى أعلم بهم إن شاء عاجلهم وإن شاء أخر عقوبتهم، وفيه وعيد وتهديد.

البلاغة: ١ - ﴿وَالْمَوْتُ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ فيه استعارة لأن الموتى عبارة عن الكفار لموت قلوبهم.

= وَلَا يَصِحُّ. (ثائر الرأس): قائم شعره منتفش منتشر.

(١) (ش): قال المؤلف في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧] أي إنما التوبة التي كتب الله على نفسه قبولها هي توبة من فعل المعصية سفهاً وجهالةً مُقدَّراً قبح المعصية وسوء عاقبتها ثم ندم وأناب.

قال الشيخ السعدي: ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ أي: جهالة منه بعاقبتها وإيجابها لسخط الله وعقابه، وجهل منه بنظر الله ومراقبته له، وجهل منه بما تتول إليه من نقص الإيمان أو إعدامه، فكل عاص لله، فهو جاهل بهذا الاعتبار وإن كان عالماً بالتحريم. بل العلم بالتحريم شرط لكونها معصية معاقباً عليها.

(٢) «الكشاف» ٣٢/٢.

(٣) «زاد المسير» ٥٢/٣.

٢ - ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ تأكيد لدفع توهم المجاز لأن الطائر قد يستعمل مجازاً للعمل كقوله: ﴿الزَّمَنَةُ طَيْرٌ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣] .

٣ - ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ تشبيه بليغ أي كالصم والبكم في عدم السماع وعدم الكلام فحذفت منه الأداة ووجه الشبه.

٤ - ﴿إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ فيه قصر أي لا تدعون غيره لكشف الضر، فهو قصر صفة على موصوف.

٥ - ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ﴾ كناية عن إهلاكهم بعذاب الاستئصال.

٦ - ﴿الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ استعارة عن الكافر والمؤمن.

٧ - ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ في هاتين الجملتين من أنواع البديع ما يسمى رد الصدر على العجز^(١).

فائدة: قال الزمخشري في قوله تعالى ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هذا إيذان بوجوب الحمد عند هلاك الظلمة وأنه من أجل النعم وأجل القسم^(٢).

فائدة: قال بعض المفسرين: إن الواجب في الدعاء الإخلاص به لأنه تعالى قال ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ وهكذا جميع الطاعات لا ينبغي أن تكون لشيء من أغراض الدنيا.

قال الله تعالى:

وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رَدُّوهُ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ لَا لَهُ الْخِطْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنَ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَفَنُحَنَّا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ اللَّهُ يُنْجِيكُم مِّنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجَالِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ۗ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصَرَفِ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْتَقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرُنَا لَعَلَّهُمْ يَنْتَفُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَاهُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِ ۚ

(١) (ش): رد العجز على الصدر أن يجعل أحد اللفظين المكررين، أو المتجانسين، في أول الفقرة والآخر في آخرها.

(٢) «الكشاف» ١٨/٢ .

أَنْ تَسْأَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَلَ كُلُّ عَدَلٍ لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى انْتَظِرْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأُمرْنَا لِلْإِسْلَامِ لِلرَّبِّ الْعَلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكُوتَ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَنَّا الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

المناسبة: لما أقام تعالى الأدلة والبراهين على وجوده ووحدانيته، أعقبه بذكر الأدلة على صفاته القدسية: علمه، وقدرته، وعظمته، وجلاله، وسائر صفات الجلال والجمال، ثم ذكر نعمته على العباد بإنجائهم من الشدائد، وقدرته على الانتقام ممن خالف أمره وعصى رسله.

اللغة: ﴿كَرْبٍ﴾ الكرب: الغم الذي يأخذ بالنفس ﴿شَيْعًا﴾ الشيعة: الفرقة تتبع الأخرى ويجمع على شيع وأشياع ﴿أُبْسِلُوا﴾ الإيسال: تسليم الإنسان نفسه للهلاك ﴿عَدَلٍ﴾ فدية ﴿حَمِيمٍ﴾ الحميم: الماء الحار ﴿حَيْرَانٌ﴾ الحيرة: التردد في الأمر لا يهتدى إلى مخرج منه ﴿الْغَيْبِ﴾ ما غاب عن الحواس ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ ما كان مُشاهداً ظاهراً للعيان ﴿تُحْشَرُونَ﴾ تجمعون.

التفسير: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ أي عند الله خزائن الغيب وهي الأمور المغيبة الخفية لا يعلمها ولا يحيط بها إلا هو ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي ويعلم ما في البر و«البحر» من الحيوانات جملة وتفصيلاً وفي كل عوالم وعجائب وسعها علمه وقدرته ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ مبالغة في إحاطة علمه بالجزئيات أي لا تسقط ورقة من الشجر إلا يعلم وقت سقوطها والأرض التي تسقط عليها ﴿وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ﴾ أي ولا حبة صغيرة في باطن الأرض إلا يعلم مكانها وهل تنبت أو لا وكم تنبت ومن يأكلها ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي ولا شيء فيه رطوبة أو جفاف إلا وهو معلوم عند الله ومسجل في اللوح المحفوظ^(١) قال أبو حيان:

وانظر إلى حسن ترتيب هذه المعلومات: بدأ أولاً بأمر معقول لا ندركه نحن بالحس وهو ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ ثم ثانياً بأمر ندرك كثيراً منه بالحس وهو ﴿الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ثم ثالثاً بجزأين لطيفين أحدهما علوي وهو سقوط الورقة من علو والثاني سفلي وهو اختفاء حبة في بطن الأرض فدل ذلك على أنه تعالى عالم بالكلّيات والجزئيات^(٢) ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ

(١) «البحر المحيط» ٤/ ١٤٦.

(٢) «القرطبي» ٥/ ٧.

بِالْإِيلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴿١﴾ أَيُؤْنَسُكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا كَسَبْتُمْ مِنَ الْعَمَلِ بِالنَّهَارِ قَالَ «القرطبي»: وليس ذلك موتاً حقيقة بل هو قبض الأرواح، قال ابن عباس: يقبض أرواحكم في منامكم^(١)، وفي هذا اعتبار واستدلال على البعث الأخروي ﴿ثُمَّ يُبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقَاضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي ثم يوقظكم في النهار لتبلغوا الأجل المسمى لانقطاع حياتكم، والضمير عائد على النهار لأن غالب اليقظة فيه وغالب النوم بالليل ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي ثم مرجعكم إليه يوم القيامة ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يخبركم بأعمالكم ويجزيكم عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ثم ذكر تعالى جلال عظمته وكبريائه فقال ﴿وَهُوَ أَفْهَرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أي هو الذي قهر كل شيء وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ أي ملائكة تحفظ أعمالكم وهم الكرام الكاتبون قال «أبو السعود»: وفي ذلك حكمة ونعمة جليلة لأن المكلف إذا علم أن أعماله تحفظ عليه وتعرض على رءوس الأشهاد كان ذلك أزر له عن تعاطي المعاصي والقبائح^(٢) ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أي حتى إذا انتهى أجل الإنسان توفته الملائكة الموكلون بقبض الأرواح. والمعنى أن حفظ الملائكة للأشخاص ينتهي عند نهاية الأجل فهم مأمورون بحفظ ابن آدم ما دام حياً فإذا انتهى أجله فقد انتهى حفظهم له ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أي لا يقصرون في شيء مما أمروا به من الحفاظ والتوفي ﴿ثُمَّ رُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ أي ثم يردُّ العباد بعد البعث إلى الله خالقهم ومالكهم الذي له الحكم والتصرف والذي لا يقضي إلا بالعدل ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ أي إنه جل وعلا الحكم وحده يوم القيامة وله الفصل والقضاء لا يشغله حساب عن حساب ولا شأن عن شأن، يحاسب الخلائق كلهم في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا كما ورد به الحديث وروي أنه يحاسب الناس في مقدار حلب شاة^(٣) ﴿قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفرة من ينقذكم ويخلصكم في أسفاركم من شدائد وأهوال البر والبحر؟ ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي تدعون ربكم عند معاينة هذه الأهوال مخلصين له الدعاء مظهرين الضراعة، تضرعاً بالسنتكم وخفية في أنفسكم قال ابن عباس المعنى: تدعون ربكم علانية وسراً قائلين: ﴿لَيْنَ أُنْجِنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي لئن خلصتنا من هذه الظلمات والشدائد لنكونن من المؤمنين الشاكرين والغرض: إذا خفتن الهلاك دعوتنموه فإذا نجاكم كفرتتموه قال «القرطبي»: وبخهم الله في دعائهم إياه عند الشدائد وهم يدعون معه في حالة الرخاء غيره^(٤)

(١) «زاد المسير» ٥٥ / ٣.

(٢) «أبو السعود» ١٠٧ / ٢.

(٣) (ش): لم أجده إلا في بعض كتب «التفسير» بدون إسناد.

(٤) «القرطبي» ٨ / ٧.

﴿قُلِ اللَّهُ يُجِيبُكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ أي الله وحده ينجيكم من هذه الشدائد ومن كل كرب وغم ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ تفرغ وتوبخ أي ثم أنتم بعد معرفتكم بهذا كله وتحققه تشركون به ولا تؤمنون ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفرة إنه تعالى قادر على إهلاككم بإرسال الصواعق من السماء وما تلقيه البراكين من الأحجار والحُمَم وكالرجم بالحجارة والظوفان والصيحة والريح كما فعل بمن قبلكم ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ﴾ بالخسف والزلازل والرجفة كما فعل بقارون وأصحاب مدين ﴿أَوْ يَلْسِكُمْ سُيَاقًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ أي يجعلكم فرقًا متحزبين يقاتل بعضهم بعضًا قال «البيضاوي»: أي يخلطكم فرقًا متحزبين على أهواء شتى فينشب القتال بينكم^(١) وقال ابن عباس: أي يث فيكم الأهواء المختلفة فتصبرون فرقًا^(٢)، والكل متقارب والغرض منه الوعيد ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نَصَرْتُ لَأْتِ لَهُمْ يَفْقَهُوهُ﴾ أي انظر كيف نبين ونوضح لهم الآيات بوجوه العير والعظات ليفهموا ويتدبروا عن الله آياته وبراهينه وحججه، عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: أعوذ بوجهك ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ﴾ قال: أعوذ بوجهك ﴿أَوْ يَلْسِكُمْ سُيَاقًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال رسول الله ﷺ: هذه أهون أو أيسر^(٣) ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ أي وكذب بهذا القرآن قومك يا محمد - وهم قريش - وهو الكتاب المنزل بالحق ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي لست عليكم بحفيظ ومتسلط إنما أنا منذر ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي لكل خبر من أخبار الله عز وجل وقت يقع فيه من غير خُلْفٍ ولا تأخير ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مبالغة في الوعيد والتهديد أي سوف تعلمون ما يحل بكم من العذاب ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ أي إذا رأيت هؤلاء الكفار يخوضون في القرآن بالطعن والتكذيب والاستهزاء ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أي لا تجالسهم وقم عنهم حتى يأخذوا في كلام آخر ويدعوا الخوض والاستهزاء بالقرآن قال السدي: كان المشركون إذا جالسوا المؤمنين وقعوا في النبي ﷺ والقرآن فسبوه واستهزءوا به فأمرهم الله ألا يقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره^(٤) ﴿وَمَا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ أي إن أنساك الشيطان النهي عن مجالستهم فجالسهم ثم تذكرت ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا تجلس بعد تذكر النهي مع الكفرة والفساق الذين يهزءون بالقرآن والدين قال ابن عباس: أي قم إذا ذكرت النهي ولا تقعد مع المشركين ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْفُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي ليس على المؤمنين

(١) «البيضاوي» ص ١٧٣.

(٢) «زاد المسير» ٥٩/٣.

(٣) أخرجه البخاري.

(٤) «الطبري» ٤٣٧/١١.

شيء من حساب الكفار على استهزائهم وإضلالهم إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم ﴿وَلَكِنْ ذَكَّرُوا لَهُمْ يَنْقُوتُ﴾ أي ولكن عليهم أن يذكروهم ويمنعوهم عما هم عليه من القبائح بما أمكن من العظة والتذكير^(١)، ويظهروا لهم الكراهة لعلهم يجتنبون الخوض في القرآن حياة من المؤمنين إذا رأوهم قد تركوا مجالستهم قال ابن عطية: ينبغي للمؤمن أن يمثل حكم هذه الآية مع الملحدين وأهل الجدل والخوض فيه^(٢) ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ أي اترك هؤلاء الفجرة الذين اتخذوا الدين الذي كان ينبغي احترامه وتعظيمه لعباً ولهواً باستهزائهم به ﴿وَعَرَّيْنَاهُمْ أَلْحِيَةَ الدُّنْيَا﴾ أي خدعتهم هذه الحياة الفانية حتى زعموا أن لا حياة بعدها أبداً ﴿وَذَكَّرْنَاهُ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي وذكّر بالقرآن الناس مخافة أن تُسَلَمَ نفسٌ للهلاك وتُرهَنَ بسوء عملها ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي ليس لها ناصرٌ ينجيها من العذاب ولا شفيع يشفع لها عند الله ﴿وَلَنْ نَعْدِلَ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ أي وإن تُعْطِ تلك النفس كل فدية لا يقبل منها قال قتادة: لو جاءت بملء الأرض ذهباً لم يقبل منها^(٣) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾ أي أُسْلِمُوا لعذاب الله بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الشنيعة ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي لهؤلاء الضالين شرابٌ من ماء مغلي يتجرجر في بطونهم وتتقطع به أمعاؤهم، ونارٌ تشتعل بأبدانهم بسبب كفرهم المستمر فلهم مع الشراب الحميم العذاب الأليم والهوان المقيم ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي قل لهم يا محمد أتعبد ما لا ينفعنا إن دعونا ولا يضرنا إن تركناه؟ والمراد به الأصنام ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾ أي نرجع إلى الضلالة بعد الهدى ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ﴾ أي بعد أن هدانا الله للإسلام ﴿كَأَلَيْكَ اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي فيكون مثلاً كمثل الذي اختطفته الشياطين وأضلته وسارت به في المفاوز والمهالك فألقته في هوة سحيقة ﴿حَيْرَانَ﴾ أي متحيراً لا يدرى أين يذهب ﴿لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أَتَيْنَا﴾ أي إلى الطريق الواضح يقولون: اتتنا فلا يقبل منهم ولا يستجيب لهم ﴿قُلْ إِنَّكُمْ هُدًى اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ أي قل لهؤلاء الكفار: إن ما نحن عليه من الإسلام هو الهدى وحده وما عداه ضلال ﴿وَأْمُرْنَا لِلْإِسْلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي أمرنا بأن نستسلم لله عز وجل ونخلص له العبادة في جميع أمورنا وأحوالنا، وهذا تمثيل لمن ضل عن الهدى وهو يُدعى إلى الإسلام فلا يُجيب قال ابن عباس: هذا مثلٌ ضرب به الله للآلهة ومن يدعو إليها وللدعاة الذين يدعون إلى الله، كمثل رجل ضل عن الطريق تائهاً ضالاً إذ ناداه منادٍ يا فلان هلم إلى الطريق وله أصحاب يدعونه يا فلان

(١) ذهب «الطبري» إلى أن معنى الآية: ولكن ليعرضوا عنهم حينئذٍ ذكرى لأمر الله ليقبوا الله.

(٢) «البحر» ١٥٤/٤.

(٣) «الطبري» ١١/٤٤٧.

هَلُمَّ إِلَى الطَّرِيقِ، فَإِنْ اتَّبَعَ الدَّاعِي الْأَوَّلَ انْطَلَقَ بِهِ حَتَّى يَلْقِيَهُ فِي الْهَلَكَةِ وَإِنْ أَجَابَ مَنْ يَدْعُوهُ إِلَى الْهُدَى اهْتَدَى إِلَى الطَّرِيقِ يَقُولُ: مَثَلٌ مَنْ يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ الْأَلِهَةَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يَرَى أَنَّهُ فِي شَيْءٍ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمَوْتُ فَيَسْتَقْبِلُ الْهَلَكَةَ وَالنَّدَامَةَ^(١) ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أَيِ وَأَمْرُنَا بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَبِتَقْوَى اللَّهِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أَيِ تَجْمَعُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أَيِ هُوَ سُبْحَانَهُ الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُدَبِّرُ لِلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِمَا خَلَقَهُمَا بِالْحَقِّ وَلَمْ يَخْلُقْهُمَا بَاطِلًا وَلَا عَبَثًا ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أَيِ وَاتَّقُوهُ وَاتَّقُوا عِقَابَهُ وَالشَّدَائِدَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ^(٢) قَالَ أَبُو حَيَّانٍ: وَهَذَا تَمَثُّلٌ لِإِخْرَاجِ الشَّيْءِ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ وَسُرْعَتِهِ لَا أَنَّ شَيْئًا يَوْمَرُ^(٣) ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ أَيِ قَوْلُهُ الصَّدَقُ الْوَاقِعُ لَا مُحَالَةٌ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ أَيِ يَوْمَ يَنْفَخُ إِسْرَافِيلُ فِي الصُّورِ النَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ وَهِيَ نَفْخَةُ الْإِحْيَاءِ ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أَيِ يَعْلَمُ مَا خَفِيَ وَمَا ظَهَرَ وَمَا يَغِيبُ عَنِ الْحَوَاسِ وَالْأَبْصَارِ وَمَا تَشَاهَدُونَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ أَيِ الْحَكِيمُ فِي أَفْعَالِهِ الْخَبِيرُ بِشُؤْنِ عِبَادِهِ.

البَلَاغَةُ: ١ - ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ اسْتِعَارَ الْمَفَاتِحَ لِلْأُمُورِ الْغَيْبِيَةِ كَأَنَّهَا مَخَازِنُ خُزِنَتْ فِيهَا الْمَغِيبَاتُ قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: مَفَاتِحُ عَلَى طَرِيقِ الاسْتِعَارَةِ لِأَنَّ الْمَفَاتِحَ يَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى مَا فِي الْمَخَازِنِ الْمَغْلُوقَةِ بِالْأَقْفَالِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ الْعَالَمُ بِالْمَغِيبَاتِ وَحْدَهُ^(٤).

٢ - ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ اسْتَعِيرَ التَّوْفِيَّ مِنَ الْمَوْتِ لِلنَّوْمِ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمَشَارَكَةِ فِي زَوَالِ الْإِحْسَاسِ وَالتَّمْيِيزِ.

٣ - ﴿فَلَا تَقْعُدُوا بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وَضَعَ الظَّاهِرَ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ «مَعَهُمْ» لِلتَّسْجِيلِ عَلَيْهِمْ بِشَنَاعَةِ مَا ارْتَكَبُوا حَيْثُ وَضَعُوا التَّكْذِيبَ وَالِاسْتِهْزَاءَ مَكَانَ التَّصْدِيقِ وَالتَّعْظِيمِ.

٤ - ﴿وَنُرِذُّ عَلَى أَعْقَابِنَا﴾ عَبَّرَ بِالرَّدِّ عَلَى الْأَعْقَابِ عَنِ الشَّرْكِ لِزِيَادَةِ تَقْيِيحِ الْأَمْرِ وَتَشْنِيعِهِ.

٥ - ﴿وَإِنْ تَعَدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾ بَيْنَهُمَا جَنَاسُ الْإِسْتِقَاقِ.

٦ - مِنَ الْمَحْسَنَاتِ الْبَدِيعَةِ الطَّبَاقُ فِي كُلِّ مَنْ ﴿رَطَبٍ..يَابِسٍ﴾ وَ﴿أَيْلٍ وَالنَّهَارِ﴾ وَ﴿فَوْقَ وَتَحْتَ﴾ وَ﴿يَنْفَعُنَا وَيَضُرُّنَا﴾ وَ﴿الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ وَالسَّجْعُ فِي ﴿شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ

(١) «الطبري» ٤٥٢ / ١١.

(٢) (ش): قَالَ الْحَافِظُ «ابْنُ كَثِيرٍ» فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣ / ٢٨١): وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يَعْنِي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الَّذِي يَقُولُ اللَّهُ: ﴿كُنْ﴾ فَيَكُونُ عَنْ أَمْرِهِ كَلَمْحِ الْبَصَرِ، أَوْ هُوَ أَقْرَبُ.

(٣) «البحر» ١٦٠ / ٤.

(٤) «الكشاف» ٢ / ٢٤.

أَلِيمٌ ۝ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

تنبيه: قال الحاكم: دلّ قوله تعالى ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ على بطلان قول الإمامية^(١): إن الإمام يعلم شيئاً من الغيب^(٢)، انتهى. أقول: هذا كذب وبهتان؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا الله. قال الله تعالى:

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَازَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا ۖ إِلَٰهَٔ إِنِّي أَرَىٰ أَنَّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ ٱلْأَفْلَٰكَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى ٱلْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَّمْ يَهْدِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ الضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى ٱلشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوِّمُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضَ خَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحْكُمُونَنِي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ۖ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمُ ٱللَّهَ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطٰنًا فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمٰنَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرٰهِيْمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ رَفَعْنَا دَرَجَتِهِ مَن نَّشَآءُ ۖ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَذَكَرْنَا وَيْحَ عِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلِّ مَن ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِن ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ يَشَآءُ وَمِن عِبَادِهِ ۖ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فِيهِدْنَاهُمْ أَفْتَدِهٖ قُلْ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۖ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ لِيَجْعَلُوهُنَّ قُرَٰطِيسَ يُبَدُّونَهَا وَخَفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبُ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَن حَوْلَهَا ۖ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوْحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَاتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْرَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ ءَايَتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا

(١) (ش): الإمامية: الشيعة.

(٢) مجالس التأويل ٦/ ٢٣٤٣.

فَرَدَّيْ كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُم مَّا خَوَّلْتَكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى الحجاج الدامغة الدالة على التوحيد وبطلان عبادة الأوثان، ذكر هنا قصة أبي الأنبياء «إبراهيم» لإقامة الحجة على مشركي العرب في تقديسهم الأصنام، فإنه جاء بالتوحيد الخالص الذي يتنافى مع الإشراف بالله، وجميع الطوائف والملل معترفة بفضل إبراهيم وجلالة قدره، ثم ذكر شرف الرسل من أبناء إبراهيم، وأمر رسوله بالاعتداء بهديهم الكريم.

اللغة: ﴿مَلَكُوتَ﴾ ملك والواو والتاء للمبالغة في الوصف كالرغبوت والرهبوت من الرغبة والرغبة ﴿جَنَّ﴾ ستره بظلمته قال الواحدي: جَنَّ عليه الليل وأجَنَّهُ الليل ويقال لكل ما سترته: جَنَّ وَأَجَنَّ ومنه الجنة، والجَنُّ، والجنون، والجنين، وكل هذا يعود أصله إلى الستر والاستتار^(١) ﴿بَارِغًا﴾ طالعا يقال: بزغ القمر إذا ابتدأ في الطلوع قال الأزهرى: كأنه مأخوذ من البَرْغ وهو الشق لأنه بنوره يشق الظلمة شقاً^(٢) ﴿أَفَلَّ﴾ غاب يقال: أفل أفولاً إذا غاب ﴿سُلْطَنًا﴾ حجة ﴿يَلْبِسُوا﴾ يخلطوا يقال: لبس الأمر خلطه ولبس الثوب اكتسى به ﴿وَأَجْنَبَيْهِمْ﴾ اصطفيانهم ﴿قَرَّاطِيسَ﴾ جمع قرطاس وهو الورق قال الشاعر:

اَسْتَوْدَعُ الْعِلْمَ قَرَّطَاسًا فَضَيَّعُهُ فَبَشَسَ مُسْتَوْدَعُ الْعِلْمِ الْقَرَّاطِيسُ
﴿غَمَرَتْ﴾ الغمرة: الشدة المذهلة وأصله من غمرة الماء وهي ما يغطي الشيء ﴿خَوَّلْتَكُمْ﴾ أعطيناكم وملكناكم والتحويل: المنح والإعطاء ﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ﴾ ضاع وبطل.

سبب النزول: «عن سعيد بن جبير» أن مالك بن الصَّيْف «من اليهود جاء يخاصم النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى أما تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين؟ - وكان حبراً سميناً - فغضب وقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء فقال له أصحابه الذين معه ويحك ولا على موسى؟ فقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء فأنزل الله ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ...﴾ (٣) الآية».

(التفسير): ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرَأْتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ أي واذكر يا محمد لقومك عبدة الأوثان وقت قول إبراهيم - الذي يدعون أنهم على ملته - لأبيه أزر منكراً عليه أتخذ أصناماً آلهة تعبدوها وتجعلها رباً دون الله الذي خلقك فسواك ورزقك؟ ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي

(١) «تفسير الرازي» ٤٦/١٣.

(٢) تهذيب اللغة مادة بزغ.

(٣) «أسباب النزول» ص ١٢٦ و«القرطبي» ٣٧/٧. (ش): ضعيف، أخرجه «الطبري» في «جامع البيان»، وابن أبي حاتم في «تفسيره».

ضَلَّكَ مُبِينٌ ﴿١﴾ أَي فأنت وقومك في ضلال عن الحق مبين واضح لا شك فيه ﴿وَكَذَلِكَ نُرَىٰ
إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي نرى إبراهيم المُلْك العظيم والسلطان الباهر ﴿وَلْيَكُونَ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَي وليكون من الراسخين في اليقين أريناه تلك الآيات الباهرة قال مجاهد:
فُرِجَتْ لَهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ فَرَأَىٰ بِبَصَرِهِ الْمَلَكُوتَ الْأَعْلَى وَالْمَلَكُوتَ الْأَسْفَلَ^(١) ﴿فَلَمَّا
جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكَوْكَبَ﴾ أَي فلما ستر الليل بظلمته كل ضياء رأى كوكباً مضيئاً في السماء هو
الزهرة أو المشتري ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ أَي على زعمكم قاله على سبيل الرد عليهم والتوبيخ لهم
واستدراجاً لهم لأجل أن يعرفهم جهلهم وخطأهم في عبادة غير الله قال الزمخشري: كان أبوه
وقومه يعبدون الأصنام والكواكب فأراد أن ينبههم على ضلالهم ويرشدهم إلى الحق من
طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤدَّ إلى ألا يكون شيء منها إلهاً وأن
وراءها محدثاً أحدثها، ومدبراً دبّر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها. وقوله ﴿هَذَا رَبِّي﴾ قول
من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطلٌ، فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه لأن ذلك
أدعى إلى الحق ثم يكرُّ عليه فيبطله بالحجة^(٢) ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ أَي فلما
غاب الكوكب قال: لا أحب عبادة من كان كذلك، لأن الرب لا يجوز عليه التغيُّر والانتقال لأن
ذلك من صفات الأجرام^(٣) ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ أَي فلما رأى القمر طالعاً
منتشر الضوء قال: هذا ربي، على الأسلوب المتقدم لفتاً لأنظار قومه إلى فساد ما يعبدونه
وتسفيهاً لأحلامهم ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ أَي فلما غاب
القمر قال إبراهيم لئن لم يثبتني ربي على الهدى لأكوننَّ من القوم الضالين، وفيه تعريض لقومه
بأنهم على ضلال ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ أَي هذا أكبر من الكوكب
والقمر ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أَي فلما غابت الشمس قال أنا بريء من
إشراككم وأصنامكم قال أبو حيان: لما أوضح لهم أن هذا الكوكب الذي رآه لا يصلح أن يكون
رباً ارتقب ما هو أنور منه وأضوأ فرأى القمر أول طلوعه، ثم لما غاب ارتقب الشمس إذ كانت
أنور من القمر وأضوأ، وأكبر جرمًا وأعم نفعاً، فقال ذلك على سبيل الاحتجاج عليهم وبين
أنها مساوية للنجم في صفة الحدوث^(٤) وقال «ابن كثير»: والحق أن إبراهيم عليه السلام كان في
هذا المقام مناظراً لقومه مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الأصنام والكواكب السيارة

(١) «البحر» ٤ / ١٦٥.

(٢) «الكشاف» ٢ / ٣١.

(٣) (ش): جِزْم: جسم. ونفي الانتقال ونفي الجِزْم عن الله لم يرد به دليل من الكتاب والسنة، وما كان كذلك
وَجِبَ التوقف فيه.

(٤) «البحر المحيط» ٤ / ١٦٧.

وأشدهن إضاءة الشمس ثم القمر ثم الزهرة فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿قَالَ يَنْقُومُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾^(١) ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ أي قصدت بعبادتي وتوحيدي ﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي الله الذي أبدع العالم وخلق السماوات والأرض ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي لست ممن يعبد مع الله غيره ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾^(٢) أي جادلوه وناظروه في شأن التوحيد قال ابن عباس: جادلوه في آلهتهم وخوفوه بها فأجابهم منكرًا عليهم ﴿قَالَ أَتُحْكُمُونَ فِي اللَّهِ﴾ أي أتجادلونني في وجود الله ووحدانيته ﴿وَقَدْ هَدَانِي﴾ أي وقد بصّرني وهداني إلى الحق ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ أي لا أخاف هذه الآلهة المزعومة التي تعبدونها من دون الله لأنها لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع وليست قادرة على شيء مما تزعمون ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أي إلا إذا أراد ربي أن يصيبني شيء من المكروه فيكون ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي أحاط علمه بجميع الأشياء ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ استفهام للتوبيخ أي أفلا تعتبرون وتتعظون؟ وفي هذا تنبيه لهم على غفلتهم التامة حيث عبدوا ما لا يضر ولا ينفع وأشركوا مع ظهور الدلائل الساطعة على وحدانيته سبحانه ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ أي كيف أخاف آلهتكم التي أشركتموها مع الله في العبادة! ﴿وَلَا تَخَافُوتَ أَنْتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ أي وأنتم لا تخافون الله القادر على كل شيء الذي أشركتم به بدون حجة ولا برهان ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي أيُّنا أحق بالأمن ونحن وقد عرفنا الله بأدلة وخصصناه بالعبادة أم أنتم وقد أشركتم معه الأصنام وكفرتهم بالواحد الديان؟ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ أي لم يخلطوا إيمانهم بشرك ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ أي لهم الأمن من العذاب وهم على هداية ورشاد، روي أن هذه الآية لما نزلت أشفق منها أصحاب النبي ﷺ فقالوا: وأيُّنا لا يظلم نفسه؟ فقال ﷺ: «ليس كما تظنون وإنما هو كما قال لقمان لابنه ﴿يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]»^(٣)

(١) «مختصر ابن كثير» ٥٩٢/١.

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن قول إبراهيم عن الكوكب: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ إنما كان في حال الطفولة قبل استحكام النظر في معرفة الله جلا وعلا، والصحيح ما ذهب إليه الجمهور من أن هذا القول كان في مقام المناظرة لقومه لإقامة الحجة عليهم في بطلان عبادة الكواكب والشمس والقمر، وأن الموافقة في العبارة على طريق الإلزام على الخصم من أبلغ الحجج وأوضح البراهين، ومما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ وقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ فالمقام مقام مناظرة - كما قال الحافظ «ابن كثير» - لا مقام نظر، وحاشا الخليل أن يشك في الرب الجليل وهو أبو الأنبياء وإمام الحنفاء، وقد ساق «الفخر الرازي» اثنتي عشرة حجة في تأييد مذهب الجمهور في «تفسيره الكبير» ٤٧/١٣، وهذا اختيار أساطين المفسرين ك«القرطبي» والزمخشري وأبي السعود و«ابن كثير» وصاحب «البحر المحيط». والله أعلم.

(٣) الحديث أصله في الصحيحين.

﴿وَبِكَ حُجَّتْنَا أَتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ الإشارة إلى ما تقدم من الحجج الباهرة التي أيد الله بها خليله عليه السلام أي هذا الذي احتج به إبراهيم على وحدانية الله من أفول الكواكب والشمس والقمر من أدلتنا التي أرشدناه لها لتكون له الحجة الدامغة على قومه ﴿نَزَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾ أي بالعلم والفهم والنبوة ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي حكيم يضع الشيء في محله عليم لا يخفى عليه شيء ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أي وهبنا لإبراهيم ولداً وولد ولد لتقر عينه ببقاء العقب ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾ أي كلاً منهما أرشدناه إلى سبيل السعادة وآتيناه النبوة والحكمة قال «ابن كثير»: يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحق بعد أن طعن في السن وأيس من الولد، وبُشِّرَ بنبوته وبأن له نسلًا وعقبًا وهذا أكمل في البشارة وأعظم في النعمة، وكان هذا مجازاةً لإبراهيم حين اعتزل قومه وهاجر من بلادهم لعبادة الله، فعوّضه الله عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه لتقر بهم عينه^(١) ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل إبراهيم، وذكر تعالى نوحًا لأنه أبو البشر الثاني فذكر شرف أبناء إبراهيم ثم ذكر شرف آبائه ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ أي ومن ذرية إبراهيم هؤلاء الأنبياء الكرام^(٢)، وبدأ تعالى بذكر داود وسليمان لأنهما جمعا الملك مع النبوة وسليمان ابن داود فذكر الأب والابن ﴿وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ﴾ قرنهما لاشتراكهما في الامتحان والبلاء ﴿وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾ قرنهما لاشتراكهما في الأخوة وقدم موسى لأنه كلم الله ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الكريم لإبراهيم نجزي من كان محسنًا في عمله صادقًا في إيمانه ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ﴾ قرن بينهم لاشتراكهم في الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا ﴿كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي الكاملين في الصلاح ﴿وِإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا﴾ إسماعيل هو ابن إبراهيم، ويونس بن متى، ولوط بن هاران وهو ابن أخي إبراهيم ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٣) أي كلا من هؤلاء المذكورين في هذه الآية فضلناه بالنبوة على عالمي عصرهم ﴿وَمِنَ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ أي وهدينا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم جماعات كثيرة ﴿وَأَجْنِبْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي اصطفيناهم وهديناهم إلى الطريق الحق المستقيم الذي لا عوج فيه قال ابن عباس: هؤلاء الأنبياء كلهم مضافون إلى ذرية إبراهيم وإن كان فيهم من لا يلحقه بولادة من قبل أم ولا أب^(٤) ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ﴾ أي ذلك الهدى إلى الطريق

(١) «مختصر ابن كثير» ٥٩٦/١.

(٢) الضمير في: «ذريته» يرجع إلى نوح، واختاره الفراء وابن جرير، وقيل إنه يرجع إلى إبراهيم وهو قول عطاء واختاره «أبو السعود»، لأن مساق الآية لبيان شئون إبراهيم العظيمة. (ش): ومما يؤيد أن الضمير يرجع إلى نوح أن لوطًا ليس من ذرية إبراهيم فهو من ذرية نوح - عليه السلام -.

(٣) «البحر» ١٧٣/٢. (ش): فلو طُ عليه ليس من ذرية إبراهيم عليه.

المستقيم هو هدى الله يهدي به من أراد من خلقه ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي لو أشرك هؤلاء الأنبياء مع فضلهم وعلو قدرهم لبطل عملهم فكيف بغيرهم؟ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ أي أنعمنا عليهم بإنزال الكتب السماوية والحكمة الربانية والنبوة والرسالة ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ أي فإن يكفر بآياتنا كفار عصرك يا محمد فقد استحفظناها واسترعيناها رسلنا وأنبياءنا^(١) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فِيمَهُدْلَهُمْ أَقْتَدَ﴾ أي هؤلاء الرسل المتقدم ذكرهم هم الهداة المهديون فتأس واقصد بسيرتهم العطرة ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي قل يا محمد لقومك لا أسألكم على تبليغ القرآن شيئاً من الأجر والمال ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي ما هذا القرآن إلا عظة وتذكير لجميع الخلق ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي ما عرفوا الله حق معرفته ولا عظموه حق تعظيمه ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ أي حين أنكروا الوحي وبعثه الرسل، والقائلون هم اليهود اللعناء تفوهوا بهذه العظيمة الشنعاء مبالغة في إنكار نزول القرآن على محمد عليه السلام ﴿قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المعاندين من أنزل التوراة على موسى نوراً يستضاء به وهداية لبني إسرائيل؟ ﴿تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا يَسْتَكْبِرُونَ بِهَا وَيَخْتَفُونَ مَا تَعْلَمُونَ قَالَ تَكْتُبُونَهُ فِي قُرَاطِيسٍ مُّقْطَعَةٍ وَوَرَقَاتٍ مُّفْرَقَةٍ تَبَدُونَ مِنْهَا مَا تَشَاءُونَ وَتَخْتَفُونَ مَا تَشَاءُونَ قَالَ «الطبري»: ومما كانوا يكتُمونه إياهم ما فيها من أمر محمد ﷺ ونبوته^(٢) ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ﴾ أي علّمتم يا معشر اليهود من دين الله وهدايته في هذا القرآن ما لم تعلموا به من قبل لا أنتم ولا آباؤكم ﴿قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي قل لهم في الجواب: الله أنزل هذا القرآن ثم اتركهم في باطلهم الذي يخوضون فيه يهزءون ويلعبون، وهذا وعيد لهم وتهديد على إجرامهم ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ أي وهذا القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ مبارك كثير النفع والفائدة ﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي يصدق كتب الله المنزلة كالنوراة والإنجيل ﴿وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي لتنذر به يا محمد أهل مكة ومن حولها وهم سائر أهل الأرض قاله ابن عباس ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي والذين يصدقون بالحشر والنشر يؤمنون بهذا الكتاب لما انطوى عليه من ذكر الوعد والوعيد والتبشير والتهديد ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي يؤدون الصلاة على الوجه الأكمل في أوقاتها قال الصاوي: خصّ الصلاة بالذكر لأنها أشرف العبادات^(٣) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَقْرَأَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ استفهام معناه النفي أي لا أحد أظلم ممن كذب

(١) قيل إن المراد بهم أهل المدينة من الأنصار وهو قول ابن عباس، وقيل: هم النبيون الثمانية عشر المذكرون في هذه الآية وهو قول قتادة واختيار الزجاج وابن جرير.

(٢) «الطبري» ٥٢٧/١١.

(٣) «حاشية الصاوي» على الجلالين ٣١/٢.

على الله فجعل له شركاء وأنداداً ﴿أَوْ قَالَ أُوْحَىٰ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ أي زعم أن الله بعثه نبياً كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي مع أن الله لم يرسله ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي ومن ادعى أنه سينظم كلاماً يماثل ما أنزله الله كقول الفجار: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال: ٣١] قال أبو حيان: نزلت في النضر بن الحارث ومن معه من المستهزئين لأنه عارض القرآن بكلام سخيف لا يذكر لسخفه ^(١) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ أي ولو ترى يا محمد هؤلاء الظلمة وهم في سكرات الموت وشدائده، وجواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوف للتهويل أي لرأيت أمراً عظيماً ﴿وَأَلْمَلَيْتُكُمْ بِأَسْطُوْا أَيْدِيَهُمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي وملائكة العذاب يضربون وجوههم وأدبارهم لتخرج أرواحهم من أجسادهم، وهذه عبارة عن العنف في السياق والإلحاح الشديد في الإزهاق من غير تنفيس وإمهال ^(٢) ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي تجزون العذاب الذي يقع به الهوان الشديد مع الخزي الأكيد ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي بافتراءكم على الله ونسبتكم إليه الشريك والولد ﴿وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي تتكبرون عن الإيمان بآيات الله فلا تتأملون فيها ولا تؤمنون ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي جئتمونا للحساب منفردين عن الأهل والمال والولد حفاة عراة غرلاً كما ورد في الحديث «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مَخْشُورُونَ إِلَى اللَّهِ حُفَاةٌ عُرَاةٌ غُرْلًا - ثُمَّ قَالَ ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فَعَلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]» ^(٣) ﴿وَرَكَّبْنَا مَا خَوَّلْتُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أي تركتم ما أعطيناكم من الأموال في الدنيا فلم تنفعكم في هذا اليوم العصيب ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي وما نرى معكم آلهتكم الذين زعمتم أنهم يشفعون لكم والذين اعتقدتم أنهم شركاء لله في استحقاق العبادة ﴿لَقَدْ نَقَطَعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي تقطع وصلكم وتشتت جمعكم ﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي ضاع وتلاشى ما زعمتموه من الشفعاء والشركاء.

البلاغة: ١ - ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ﴾ حكاية حال ماضية أي أريناه.

٢ - ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ فيه تعريض بضلال قومه، وبين لفظ (الهداية والضلالة) طباق وهو من المحسنات البديعية.

٣ - ﴿وَجَهَّتْ وَجْهِي﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

٤ - ﴿هُدًى اللَّهُ﴾ الإضافة للتشريف وبين ﴿هُدًى﴾ و﴿يَهْدِي﴾ جناس الاشتقاق أيضاً.

٥ - ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ مبالغة في إنكار نزول شيء من الوحي على أحد من الرسل.

(١) «البحر المحيط» ٤ / ١٨٠. (ش): ضعيف جداً، أخرجه «الطبري» في «جامع البيان».

(٢) «الكشاف» ٢ / ٣٦.

(٣) الحديث من رواية الشيخين ومعنى (غُرْلًا): أي غير مخْتُونين.

- ٦ - ﴿مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ استفهام للتبكيث والتوبيخ.
- ٧ - ﴿تُبَدُّوْنَهَا وَتُخْفَوْنَ﴾ بينهما طباق.
- ٨ - ﴿أُمُّ الْقُرَى﴾ مكة المكرمة وفيه استعارة حيث شبهت بالأم لأنها أصل المدن والقرى.
- ٩ - ﴿غَمَرَتِ الْمَوْتَ﴾ قال الشريف الرضي: هذه استعارة عجبية حيث شبه سبحانه ما يَعْتَوِرُهُمْ من كُرب الموت وغُصصه بالذين تتقاذفهم غمرات الماء ولججه وسميت غمرة لأنها تغمر قلب الإنسان^(١).

تنبيه: ذهب بعض المفسرين إلى أن ﴿أَزَرَ﴾ عم إبراهيم وليس أباه وقال آخرون: إنه اسم للصنم، والصحيح كما قال المحققون من المفسرين: إنه اسم لوالد إبراهيم وقد دل على ذلك الكتاب والسنة، والآية صريحة في أن أزر كان كافراً ولا يقدح ذلك في مقام إبراهيم عليه السلام وفي صحيح البخاري «يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ أَرْزَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَلَى وَجْهِ أَرْزَ قَتْرَةٌ وَغَبْرَةٌ...» الحديث ودعوى إيمانه مرفوضة بنص الكتاب والسنة. والله أعلم.

قال الله تعالى:

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْثِ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿١٥﴾ فَالِقُ الْأَصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَوْعٍ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُوْنَ ﴿١٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٢٠﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٢٢﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿٢٣﴾ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ أَلَنِعَمَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٢٧﴾ وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ

(١) «تلخيص البيان» ص ٣٧. (ش): يَعْتَوِرُهُمْ يُصِيبُهُمْ. الغصة: ما اعترض في الحلق من طعام أو شراب، وغصة الموت: سكرته. اللجة: ماء كثير تصطبخ أمواجه.

عَايَةً لِّمُؤْمِنِيهَا قُلْ إِنَّمَا الْآلَايَةُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٨﴾ وَنَقَلِبْ أَقْدَارَهُمْ
وَابْصُرْهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٩﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى أمر التوحيد وأردفه بتقرير أمر النبوة، ذكر هنا الأدلة الدالة على وجود الخالق وكمال علمه وقدرته وحكمته، تنبيهاً على أن المقصود الأصلي إنما هو معرفة الله بذاته وصفاته وأفعاله.

اللغة: ﴿فَالِقُ﴾ الفلق: الشق، وانفلق الصبح انشق ﴿سَكَنًا﴾ السكن ما يسكن إليه الإنسان ويأنس به، والسكن: الرحمة ﴿حُسْبَانًا﴾ أي بحساب قال الزمخشري: الحُسابان مصدر حَسَبَ كما أن الحُسابان مصدر حَسِبَ ونظيره الكُفران والشُكران ^(١) ﴿مُتَرَاكِبًا﴾ بعضه فوق بعض ﴿قَتَوْنَا﴾ جمع قَتَوْا وهو العِذْقُ أي عنقود النخلة ﴿وَيَتَوَّعُهُ﴾ أي نُضِجُهُ وإدراكه يقال: يَتَعَتُ الشجرةُ وأُتِنِعَتْ إذا نُضِجَتْ ﴿وَحَرَفُوا﴾ اختلقوا كذباً وإفكاً ﴿بَدِيعٌ﴾ مبدع وهو الخالق على غير مثال سابق، والإبداع الإتيان بشيء لم يسبق إليه ولهذا يقال لمن أتى في فنٍّ من الفنون لم يسبقه فيه غيره: إنه أبدع ﴿نُصْرَفُ﴾ التصريف: نقل الشيء من حال إلى حال.

سبب النزول: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال كفار قريش لأبي طالب إنما أن تنهى محمداً وأصحابه عن سب آلهتنا والنيل منها وإما أن نسب إليه ونهجه فنزلت ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ...﴾ ^(٢) الآية وفي رواية أخرى أن المشركين قالوا: يا محمد، لتنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجون ربك ^(٣) فنزلت.

التفسير: عاد الكلام إلى الاحتجاج على المشركين بعجائب الصنع ولطائف التدبير فقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ أي يفلق الحبَّ تحت الأرض لخروج النبات منها ويفلق النوى لخروج الشجر منها قال «القرطبي»: أي يشق النواة الميتة فيخرج منها ورقاً أخضر وكذلك الحبة ^(٤) ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي يخرج النبات الغض الطري من الحبِّ اليابس، ويخرج الحبِّ اليابس من النبات الحيِّ النامي عن ابن عباس: يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، وعلى هذا فالحي والميت استعارة عن المؤمن والكافر ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ فَاتَّيْتُ تَوْفَكُونَ﴾ أي ذلكم الله الخالق المدبر فكيف تصرفون عن الحق بعد هذا البيان ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ أي شاقُّ الضياء عن الظلام وكاشفه قال «الطبري»: شقَّ عمود الصبح عن ظلمة الليل وسواده ^(٥) ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ أي يسكن الناس فيه عن الحركات ويستريحون ﴿وَالشَّمْسُ

(١) «الكشاف» ٣٩/٢.

(٢) «القرطبي» ٦١/٧. (ش): ضعيف، أخرجه «الطبري» في «جامع البيان».

(٣) «أسباب النزول» ص ١٢٧. (ش): ضعيف، أخرجه «الطبري» في «جامع البيان».

(٤) «القرطبي» ٤٤/٧.

(٥) «الطبري» ٥٥٤/١١.

وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴿١﴾ أي بحساب دقيق يتعلق به مصالح العباد، ويُعرف بهما حساب الأزمان والليل والنهار ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي ذلك التسيير بالحساب المعلوم تقدير الغالب القاهر الذي لا يستعصي عليه شيء العليم بمصالح خلقه وتديبرهم ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ أي خلق لكم النجوم لتهتدوا بها في أسفاركم في ظلمات الليل في البر و«البحر»، وإنما امتنَّ عليهم بالنجوم لأن سالكي القفار، وراكبي البحار إنما يهتدون في الليل لمقاصدهم بها ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي بيَّنا الدلائل على قدرتنا لقوم يتدبرون عظمة الخالق ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي خلقكم وأبدعكم من نفس واحدة هي آدم عليه السلام ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ قال ابن عباس: المستقر في الأرحام والمستودع في الأصلاب، أي لكم استقرار في أرحام أمهاتكم وأصلاب آبائكم، وقال ابن مسعود: مستقر في الرحم ومستودع في الأرض التي تموت فيها^(١) ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ أي بيَّنا الحُجَجَ لقوم يفقهون الأسرار والدقائق قال الصاوي: عبر هنا بـ ﴿يَفْقَهُونَ﴾ إشارة إلى أن أطوار الإنسان وما احتوى عليه أمرٌ خفيٌّ تحير فيه الألباب، بخلاف النجوم فأمرها ظاهر مشاهد، ولذا عبر فيها بـ ﴿يَعْلَمُونَ﴾^(٢) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي أنزل من السحاب المطر فأخرج به كل ما ينبت من الحبوب والفواكه والثمار والبقول والحشائش والشجر قال «الطبري»: أي أخرجنا به ما ينبت به كل شيء وينمو عليه ويصلح^(٣) ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ أي أخرجنا من النبات شيئاً غَضًّا أخضر ﴿فَخَرَجَ مِنْهُ خَبَأٌ مُتَرَكَبًا﴾ أي نُحِج من الخضر حباً متراكباً بعضه فوق بعض كسنابل الحنطة والشعير قال ابن عباس: يريد القمح والشعير والذرة والأرز ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ أي وأخرجنا من طلع النخل - والطلع أول ما يخرج من التمر في أكمامه^(٤) - عناقيد قريبة سهلة التناول قال ابن عباس: يريد العراجين التي قد تدلت من الطلع دانية ممَّن يجتنينها ﴿وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ أي وأخرجنا بالماء بساتين وحدائق من أعناب ﴿وَالزَّيْتُونِ وَالرَّيْحَانِ مَشْتَبِهًا وَعَيْرَ مُتَشَبِهٍ﴾ أي وأخرجنا به أيضاً شجر الزيتون وشجر الرمان مشتبهاً في المنظر وغير متشابه في الطعم قال قتادة: مشتبهاً ورقه مختلفاً ثمرة، وفي ذلك دليل قاطع على الصانع المختار العليم القدير ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ أي انظروا أيها الناس نظر اعتبار واستبصار إلى خروج هذه الثمار من ابتداء خروجها إلى انتهاء ظهورها ونضجها كيف تنتقل من حال إلى حال في اللون

(١) وفسر المستقر أيضاً بالاستقرار فوق الأرض والمستودع تحت الأرض. واختار «الطبري» العموم.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤٢/٢.

(٣) «الطبري» ٥٧٣/١١.

(٤) (ش): أكمام النخلة: ما غطَّى جُمَارَهَا مِنَ السَّعْفِ وَاللِّيفِ وَالْجَذَعِ.

والرائحة والصغر والكبر، وتأملوا ابتداء الثمر حيث يكون بعضه مرأً وبعضه مالحاً لا يُنتفع بشيء منه، ثم إذا انتهى ونضج فإنه يعود حلواً طيباً نافعاً مستساغ المذاق فسبحان القدير الخلاق! ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي إن في خلق هذه الشمار والزروع مع اختلاف الأجناس والأشكال والألوان لدلائل باهرة على قدرة الله ووحدانيته لقوم يُصدّقون بوجود الله^(١) قال ابن عباس: يصدّقون أن الذي أخرج هذا النبات قادر على أن يحيي الموتى^(٢) ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ أي وجعلوا الجن شركاء لله حيث أطاعوهم في عبادة الأوثان ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ أي وقد علموا أنه تعالى هو الذي خلقهم وانفرد بإيجادهم فكيف يجعلونهم شركاء له؟ وهذه غاية الجهالة ﴿وَحَرِّقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي واختلقوا ونسبوا إليه تعالى البنين والبنات حيث قالوا: عزيز ابن الله والملائكة بنات الله سفهاً وجهالة ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي تنزه الله وتقدس عن هذه الصفات التي نسبها إليه الظالمون وتعالى علواً كبيراً ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي مبدعهما من غير مثال سبق ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ أي كيف يكون له ولد وليس له زوجة؟ والولد لا يكون إلا من زوجة ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي وما من شيء إلا هو خالقه والعالم به ومن كان كذلك كان غنياً عن كل شيء قال في «التسهيل»: والغرض الرد على من نسب لله الولد من وجهين: أحدهما أن الولد لا يكون إلا من جنس والده والله تعالى متعالٍ عن الأجناس لأنه مبدعها فلا يصح أن يكون له ولد، والثاني: أن الله خلق السماوات والأرض ومن كان هكذا فهو غني عن الولد وعن كل شيء^(٣) ثم أكد تعالى على وحدانيته وتفرد بالخلق والإيجاد فقال ﴿ذَلِكَ مُلْكُ اللَّهِ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي ذلكم الله خالقكم ومالككم ومدبر أموركم لا معبود بحق سواه ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ﴾ أي هو الخالق لجميع الموجودات ومن كان هكذا فهو المستحق للعبادة وحده ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي وهو الحافظ والمدبر لكل شيء ففوضوا أموركم إليه وتوسلوا إليه بعبادته ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ أي لا تصل إليه الأبصار ولا تحيط به^(٤) وهو يراها ويحيط بها لشمول علمه تعالى للخفيات ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ أي اللطيف بعباده الخبير بمصالحهم قال «ابن كثير»: ونفي الإدراك الخاص لا ينفي الرؤية يوم القيامة إذ يتجلى لعباده المؤمنين كما يشاء، فأما جلاله وعظمته على ما هو عليه تعالى وتقدس

(١) (ش): تفسيره الإيمان بالتصديق بوجود الله تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح.

(٢) تفسير الجوزي ٩٦/٣. (ش): الكلام المنسوب لابن عباس ذكره ابن الجوزي بدون إسناد.

(٣) «التسهيل» ١٨/٢.

(٤) (ش): ثبت أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة، فالصواب أن يقال: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أي لا تحيط به حين تراه. وقد قال ذلك المؤلف في نهاية تفسير هذه الآيات.

فلا تدركه الأبصار ولهذا كانت عائشة تثبت الرؤية في الآخرة وتنفيها في الدنيا وتحتج بهذه الآية^(١) ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي قد جاءكم البينات والحجج التي تبصرون بها الهدى من الضلال وتميزون بها بين الحق والباطل قال الزجاج: المعنى قد جاءكم القرآن الذي فيه البيان والبصائر^(٢) ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ قال الزمخشري: المعنى من أبصر الحق وآمن فلنفسه أبصر وإياها نفع، ومن عمي عنه فعلى نفسه عمي وإياها ضرر بالعمى^(٣) ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أي لست عليكم بحافظ ولا رقيب وإنما أنا منذر والله هو الحفيظ عليكم ﴿وَكَذَلِكَ نُنْصِرُ الْآيَاتِ﴾ أي وكما بينا ما ذكر نبين الآيات ليعتبروا ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ أي وليقول المشركون: درست يا محمد في الكتب وقرأت فيها وجئت بهذا القرآن واللام للعاقبة^(٤) ﴿وَلَنُبَيِّنَنَّ لَهُمْ فَيَوْمَ يَعْلَمُونَ﴾ أي ولنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه ﴿أَتَبِعَ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي اتبع يا محمد القرآن الذي أوحاه الله إليك قال «القرطبي»: أي لا تشغل قلبك وخاطرك بهم بل اشتغل بعبادة الله^(٥) ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحق إلا هو ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي لا تحتفل بهم ولا تلتفت إلى آرائهم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ أي لو شاء الله هدايتهم لهداهم فلم يشركوا ولكنه سبحانه يفعل ما يشاء ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي وما جعلناك رقيباً على أعمالهم تجازيهم عليها ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي ولست بموكل على أرزاقهم وأمورهم قال الصاوي: وهذا تأكيد لما قبله أي لست حفيظاً مراقباً لهم فتجبرهم على الإيمان وهذا كان قبل الأمر بالقتال^(٦) ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي لا تسبوا آلهة المشركين وأصنامهم ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي فيسبوا الله جهلاً واعتداءً لعدم معرفتهم بعظمة الله قال ابن عباس: قال المشركون: لتنتهين عن سبك آلهتنا أو لنهجون ربك فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم^(٧) ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ أي كما زيننا لهؤلاء أعمالهم كذلك زيننا لكل أمة عملهم قال ابن عباس: زيننا لأهل الطاعة الطاعة ولأهل الكفر الكفر ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ثم معادهم ومصيرهم إلى الله فيجازيهم بأعمالهم، وهو وعيد بالجزاء والعذاب ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٦٠٥.

(٢) «تفسير ابن الجوزي» ٣/ ٩٩.

(٣) «الكشاف» ٢/ ٤٣.

(٤) (ش): لأم العاقبة: «حرف نصب يفيد الصبرورة أو العاقبة، فيكون ما بعده أمراً مفاجئاً غير متوقع بالنسبة لما قبله، ويسمى لام العاقبة» ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.

(٥) «القرطبي» ٧/ ٦٠.

(٦) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٢/ ٣٧.

(٧) «ابن كثير» ١/ ٦٠٧.

جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ ﴿١﴾ أي حلف كفار مكة بأغلظ الأيمان وأشدّها ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أي لئن جاءتهم معجزة أو أمر خارق مما اقترحوه ليؤمننّ بها ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي قل لهم يا محمد: أمر هذه الآيات عند الله لا عندي هو القادر على الإتيان بها دوني ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي وما يدريكم أيها المؤمنون لعلها إذا جاءتهم لا يصدقون بها!! ﴿وَنَقَلُبُ أَفْسِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي ونحوّل قلوبهم عن الإيمان كما لم يؤمنوا بما أنزل من القرآن أول مرة قال الصاوي: وهو استئناف مسوق لبيان أن خالق الهدى والضلال هو الله لا غيره فمن أراد له الهدى حوّل قلبه له، ومن أراد الله شقاوته حوّل قلبه لها^(١) ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي ونتركهم في ضلالهم يتخبطون ويتردّدون متحيرين.

البلاغة: ١ - ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ بين لفظ الحيّ والميت طباق وهو من المحسنات البديعية وفي الآية أيضاً من المحسنات ما يسمى ردّ العجز على الصدر في قوله ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾.

٢ - ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ استفهام إنكاري بمعنى النفي أي لا وجه لصرفكم عن الإيمان بعد قيام البرهان.

٣ - ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ فيه التفتّات عن الغيبة والأصل فأخرج به والنكتة هي الاعتناء بشأن المُخرج والإشارة إلى أن نعمة عظيمة.

٤ - ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾ من عطف الخاص على العام لمزيد الشرف لأنهما من أعظم النعم.

٥ - ﴿بَصَائِرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ مجاز مرسل من باب تسمية المسبب باسم السبب أي حجج وبراهين تبصرون بها الحقائق.

٦ - ﴿أَبْصَرَ.. عَمِيَ﴾ طباق وبين لفظ ﴿بَصَائِرٍ.. أَبْصَرَ﴾ جناس الاشتقاق.

تنبيه: قوله تعالى ﴿لَا تَذَرِكُ إِلَّا أَبْصَرَ﴾ الآية نفت الإحاطة ولم تنفِ الرؤية فلم يقل تعالى: (لا تراه الأبصار)، فمن ذهب إلى عدم رؤية الله في الآخرة كالمعتزلة فقد جانب الحق وضلّ السبيل بمخالفة ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ المتواترة، أما الكتاب فقوله تعالى ﴿وَمُجِبَّةٌ يَوْمَ تَأْتِي سَائِرًا إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] وأما السنة فما أخرجه البخاري «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تَصَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ...» الحديث. وكفى بالكتاب والسنة دليلاً وهادياً^(٢).

(١) «حاشية الصاوي» على الجلالين ٣٩/٢.

(٢) (ش): (لَا تَصَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ) بِضَمِّ التَّاءِ وَتَشْدِيدِ الْمِيمِ مَعْنَاهُ لَا تَجْتَمِعُونَ لِرُؤْيَيْهِ فِي جِهَةٍ وَلَا يُضَمُّ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ، وَمَعْنَاهُ يَفْتَحُ التَّاءُ كَذَلِكَ (تَصَامُونَ) وَالْأَصْلُ لَا تَتَصَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ بِاجْتِمَاعٍ فِي جِهَةٍ. لِأَنَّ الشَّيْءَ =

قال تعالى:

وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَيْنَا ۖ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْعَدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِنْ تُطِيعِ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّوا بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِنْتِمَاءِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِنْتِمَاءَ سَيَجْزُونَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّدُوا لَهُمْ دِينَهُمْ لِيَكُنُوا مَشْرُكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَنْ كَانَ مِيتًا فَحَيَّيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَوْ نُؤْمِنُ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَهْدِهِ يَخْرُجْ صِدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صِدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ هَلُمَّ دَارَ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّكُمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى دلائل التوحيد والنبوة والبعث، واقتراح المشركين بعض الآيات على رسول الله ﷺ، ذكر هنا أن رؤية المعجزات لن تفيد من عميت بصيرته، وأنه لو أتاهم بالآيات التي اقترحوها من إنزال الملائكة، وإحياء الموتى حتى يكلموهم، وحشر السباع

= إذا كان خفيًا؛ ينضم الواحد إلى صاحبه ليريه إياه. وَتَخْفِيفِ الميم (لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ) مِنَ الصَّيْمِ وَمَعْنَاهُ لَا تُظْلَمُونَ فِيهِ بِرُؤْيَيْهِ بَعْضُكُمْ دُونَ بَعْضٍ فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ فِي جَهَاتِكُمْ كُلِّهَا، فَلَا يَحْجُبُ بَعْضُكُمْ عَنْ الرُّؤْيَا فَيُظْلَمُ بِمَنْعِهِ إِيَّاهُ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ يَرَاهُ. وَالتَّشْبِيهِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ لِلرُّؤْيَا بِالرُّؤْيَا لَا لِلْمَرْتَبَةِ بِالْمَرْتَبَةِ لِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَلِأَنَّ كَافَ التَّشْبِيهِ دَاخِلَةٌ عَلَىٰ فِعْلِ الرُّؤْيَا الْمَوْضُوعِ بِالْمَصْدَرِ (سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ) وَلَمْ يَقُلْ (سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَالْقَمَرِ).

والدواب والطيور وشهادتهم بصدق الرسول ما آمنوا بمحمد والقرآن لتأصلهم في الضلال.

اللغة: ﴿قُبُلًا﴾ مقابلة ومواجهة ومنه قولهم أتيتك قبلاً لا دُبْرًا، أي: من قِبَل وجهك ﴿وَحَشَرْنَا﴾ الحشر: الجمع مع سَوَقٍ^(١).

وكل جمع حشرٌ ومنه ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾ [النازعات: ٢٣]. ﴿زُخْرَفٌ﴾ قال الزجاج: الزخرف الزينة وقال أبو عبيدة: كل ما حسنته وزينته وهو باطل فهو زخرف ﴿وَلِئَصْغَى﴾ صغى إلى الشيء مال إليه ومثله أصغى وفي الحديث «فَأَصْغَى لَهَا الْإِنَاءُ»^(٢) وأصله الميل ﴿يَقْتَرِفُونَ﴾ اقترف: اكتسب وأكثر ما يكون في الشر يقال: قرف الذنب واقترفه أي اكتسبه ﴿يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون قال الأزهري: أصله الظن فيما لا يستيقن^(٣) ﴿صَغَارٌ﴾ ذلة وهوان ﴿يَشْرَحُ﴾ يوسع والشرح: البسط والتوسعة ﴿حَرَجًا﴾ الحرج: شدة الضيق قال ابن قتيبة: الحرج الذي ضاق فلم يجد منفذاً^(٤).

سَبَبُ النُّزُول: عن ابن عباس أن أبا جهل رمى رسول الله ﷺ بِفَرَثٍ - وحزمة لم يؤمن من بعد - فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل وهو راجع من قنصه وبيده قوس فأقبل غضبان حتى علا أبا جهل بالقوس فقال أبو جهل: أما ترى ما جاء به سَفَه عقولنا، وسب آلهتنا، وخالف آباءنا قال حمزة: وَمَنْ أَسْفَه مِنْكُمْ؟ تعبدون الحجارة من دون الله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فأنزل الله ﴿أَوْمَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ...﴾^(٥) الآية.

«التفسير»: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى﴾ هذا بيان لكذب المشركين في إيمانهم الفاجرة حين أقسموا ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ﴾ [الأنعام: ١٠٩] والمعنى: ولو أننا لم تقتصر على إيتاء ما اقترحوه من آية واحدة من الآيات بل نزلنا إليهم الملائكة وأحيينا لهم الموتى فكلموهم وأخبروهم بصدق محمد ﷺ كما اقترحوا ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ أي وجمعنا لهم كل شيء من الخلائق عياناً ومشاهدة ﴿مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي لو أعطيناهم هذه الآيات التي اقترحوها وكل آية لم يؤمنوا إلا أن يشاء الله، والغرض التيسير من إيمانهم

(١) (ش): ساق الإبل: حثها من خلفها على السير.

(٢) (ش): عَنْ كَبْشَةَ بِنْتِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ - وَكَانَتْ تَحْتَ ابْنِ أَبِي قَتَادَةَ - أَنَّ أَبَا قَتَادَةَ دَخَلَ فَسَكَبَتْ لَهُ وَضُوءًا فَجَاءَتْ هَرَّةٌ فَشَرِبَتْ مِنْهُ فَأَصْغَى لَهَا الْإِنَاءَ حَتَّى شَرِبَتْ قَالَتْ كَبْشَةُ: فَرَأَيْتِ أَنْظُرُ إِلَيْهِ فَقَالَ: أَنْعَجِبِينَ يَا ابْنَةَ أَخِي؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ. فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّهَا لَيَسْتَبْنَجِسُ مِنْهَا مِنَ الطَّوَّافِينَ عَلَيْكُمْ وَالطَّوَّافَاتِ». (رواه أبو داود وصححه الألباني. (تَحْتَ ابْنِ أَبِي قَتَادَةَ) كانت زوجة ابْنِ أَبِي قَتَادَةَ.

(٣) «تهذيب اللغة» مادة خرص.

(٤) «غريب القرآن» ص ١٦٠.

(٥) «أسباب النزول» ص ١٢٨. (ش): ضعيف، رواه الواحدي في «أسباب النزول». «الْفَرَثِ: بقايا الطعام في الكِرَش، طعام مهضوم في القناة الهاضمة من المعدة والأمعاء.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ أي ولكن أكثر هؤلاء المشركين يجهلون ذلك قال «الطبري»: أي يجهلون أن الأمر بمشيئة الله، يحسبون أن الإيمان إليهم والكفر بأيديهم متى شاءوا آمنوا، ومتى شاءوا كفروا، وليس الأمر كذلك، ذلك بيدي لا يؤمن منهم إلا من هديته له فوقته، ولا يكفر إلا من خذلته فأضلته^(١) ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ أي كما جعلنا هؤلاء المشركين أعداءك يعادونك ويخالفونك كذلك جعلنا لمن قبلك من الأنبياء أعداء من شياطين الإنس والجن، فاصبر على الأذى كما صبروا قال ابن الجوزي: أي كما ابتليناك بالأعداء ابتلينا من قبلك من الأنبياء ليعظم الثواب عند الصبر على الأذى^(٢) ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي يوسوس بعضهم إلى بعض بالضلال والشر ﴿زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ أي يوسوسون بالكلام المزين والأباطيل المموهة ليغروا الناس ويخدعوه قال مقاتل: وكل إبليس بالإنس شياطين يضلونهم فإذا التقى شيطان الإنس بشيطان الجن قال أحدهما لصاحبه: إني أضللت صاحبي بكذا وكذا فأضل أنت صاحبك بكذا وكذا، فذلك وحي بعضهم إلى بعض^(٣) ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي لو شاء الله ما عادى هؤلاء أنبياءهم ولكن حكمة الله اقتضت هذا الابتلاء قال «ابن كثير»: وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيتته أن يكون لكل نبي عدو من هؤلاء^(٤) ﴿فَذَرَّهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ﴾ أي اتركهم وما يدبرونه من المكائد فإن الله كافيك وناصرك عليهم ﴿وَلِيَصْغِيَ إِلَيْهِ أَفْعَدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي ولتميل إلى هذا القول المزخرف قلوب الكفرة الذين لا يصدقون بالآخرة ﴿وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ أي وليرضوا بهذا الباطل وليكتسبوا ما هم مكتسبون من الآثام ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغَى حَكَمًا﴾ أي قل لهم يا محمد أغير الله أطلب قاضيًا بيني وبينكم؟ قال أبو حيان: قال مشركو قريش لرسول الله ﷺ: اجعل بيننا وبينك حكمًا إن شئت من أحوار اليهود أو النصارى ليخبرنا عنك بما في كتابهم من أمرك فنزلت^(٥)

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ أي أنزل إليكم القرآن بأوضح بيان، مفصلاً فيه الحق والباطل موضحاً الهدى من الضلال ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أي وعلماء اليهود والنصارى يعلمون حق العلم أن القرآن حق لتصديقه ما عندهم

(١) «الطبري» ٤٧/١٢.

(٢) «زاد المسير» ١٠٨/٣.

(٣) تفسير ابن الجوزي ١٠٩/٣.

(٤) «أبو السعود» ١٣١/٢.

(٥) «البحر المحيط» ٢٠٦/٤. (ش): الذي في «البحر المحيط» هكذا بدون إسناد: «قَالَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ لِلرَّسُولِ: اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حَكَمًا مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ، وَإِنْ شِئْتَ مِنْ أَسَاقِفَةِ النَّصَارَى، لِيُخْبِرَنَا عَنْكَ بِمَا فِي كِتَابِهِمْ مِنْ أَمْرِكَ فَتَزَلَّتْ». وهو في «زاد المسير» في علم «التفسير» لابن الجوزي بدون إسناد أيضاً، وقال: ذكره الماوردي.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُعْتَرِينَ﴾ أي فلا تكونن من الشَّاكِّين قال «أبو السعود»: وهذا من باب التهيج والإلهاب وقيل: الخطاب للرسول والمراد به الأمة^(١) ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدًا﴾ أي تم كلام الله المنزل فيما أخبر، وعدلاً فيما قضى وقدَّر ﴿لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أي لا مغيِّر لحكمه ولا رادَّ لقضائه ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوال العباد العليم بأحوالهم ﴿وَأَنْ تَطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي إن تطع هؤلاء الكفار وهم أكثر أهل الأرض يضلُّوك عن سبيل الهدى قال «الطبري»: وإنما قال ﴿أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ لأنهم كانوا حينئذٍ كفاراً ضالِّينَ والمعنى: لا تطعهم فيما دعوك إليه فإنك إن أطعتهم ضللت ضلالهم وكنت مثلهم لأنهم لا يدعونك إلى الهدى وقد أخطؤوه^(٢) ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي ما يتبعون في أمر الدين إلا الظنون والأوهام يقلِّدون آباءهم ظناً منهم أنهم كانوا على الحق وما هم إلا قومٌ يكذبون ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي إن ربك يا محمد أعلم بالفريقين بمن ضلَّ عن سبيل الرشاد وبمن اهتدى إلى طريق الهدى والسداد. قال في «البحر»: وهذه الجملة خبرية تتضمن الوعيد والوعد لأن كونه تعالى عالماً بالضال والمهتدي كناية عن مجازاتهم^(٣) ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ أي كلوا مما ذبحتم وذكرتم اسم الله عليه إن كنتم حقاً مؤمنين قال ابن عباس: قال المشركون للمؤمنين إنكم ترعمون أنكم تعبدون الله فما قتله الله - يريدون الميثة - أحق أن تأكلوه مما قتلتم أنتم فنزلت الآية^(٤) ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي وما المانع لكم من أكل ما ذبحتموه بأيديكم بعد أن ذكرتم اسم ربكم عليه عند ذبحه؟ ﴿عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أي وقد بينَّ لكم ربكم الحلال والحرام ووضح لكم ما يحرم عليكم من الميتة والدم الخ في آية المحرمات إلا في حالة الاضطرار فقد أحلَّ لكم ما حرَّم أيضاً فما لكم تستمعون إلى الشبهات التي يثيرها أعداؤكم الكفار؟ ﴿وَإِنْ كَثُرَ بَلَّ يَضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي وإن كثيراً من الكفار المجادلين ليضلُّوا الناس بتحريم الحلال وتحليل الحرام بغير شرع من الله بل بمجرد الأهواء والشهوات ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ أي المجاوزين الحد في

(١) «أبو السعود» ٢٧٤/٤.

(٢) «الطبري» ٦٤/١٢.

(٣) «البحر المحيط» ٢١٠/٤.

(٤) «زاد المسير» ١١٢/٣. (ش): عن ابن عباس؛ قال: جادل المشركون المسلمين، فقالوا: ما بال ما قتل الله لا تأكلونه، وما قتلتم أنتم أكلتموه وأنتم تتبعون أمر الله؟ وفي رواية: خاصمهم المشركون فقالوا: ما نذبح لا تأكلونه، وما ذبحتم أكلتموه فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ يُوْخُونَ إِلَيْكُمْ أُولَئِكَ يَجْعَلُونَ لَكُمْ لُشْرُوكُمْ﴾. (أخرجه النسائي والحاكم، و«الطبري» في «جامع البيان» بإسناد صحيح).

الاعتداء فيحللون ويحرمون بدون دليل شرعي من كتاب أو سنة، وفيه وعيد شديد وتهديد أكيد لمن اعتدى حدود الله^(١) ﴿وَذُرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ أي اتركوا المعاصي ظاهرها وباطنها وسرها وعلايتها قال مجاهد: هي المعصية في السر والعلانية وقال السدي: ظاهره الزنى مع البغايا وباطنه الزنى مع الصدايق والأخذان^(٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ أي يكسبون الإثم والمعاصي ويأتون ما حرم الله سيلقون في الآخرة جزاء ما كانوا يكسبون ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي لا تأكلوا أيها المؤمنون مما ذبح لغير الله أو ذكر اسم غير الله عليه كالذي يذبح للأوثان ﴿وَأِنَّهُ لَفَسْقٌ﴾ أي وإن الأكل منه لمعصية وخروج عن طاعة الله ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجْدِلُوهُمْ﴾ أي وإن الشياطين ليوسوسون إلى المشركين أوليائهم في الضلال لمجادلة المؤمنين بالباطل في قولهم: تأكلون مما قتلتم ولا تأكلون مما قتل الله؟ يعني الميتة ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ أي وإن أطعتم هؤلاء المشركين في استحلال الحرام وساعدتموهم على أباطيلهم إنكم إذا مثلهم قال الزمخشري: لأن من اتبع غير الله تعالى في دينه فقد أشرك به، ومن حق ذي البصيرة في دينه ألا يأكل مما لم يذكر اسم الله عليه كيفما كان للتشديد العظيم^(٣) ﴿أَوْ مَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ قال أبو حيان: لما تقدم ذكر المؤمنين والكافرين مثل تعالى بأن شبه المؤمن بالحي الذي له نور يتصرف به كيفما سلك، والكافر بالمتخبط في الظلمات المستقر فيها ليظهر الفرق بين الفريقين^(٤) والمعنى: أو من كان بمنزلة الميت أعمى البصيرة كافراً ضالاً، فأحيا الله قلبه بالإيمان، وأنقذه من الضلالة بالقرآن ﴿وَجَعَلْنَاهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ أي وجعلنا مع تلك الهداية النور العظيم الوضاء الذي يتأمل به الأشياء فيميز به بين الحق والباطل ﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ أي كمن هو يتخبط في ظلمات الكفر والضلالة لا يعرف المنفذ ولا المخلص؟ قال «البيضاوي»: وهو مثل لمن بقي في الضلالة لا يفارقها بحال^(٥) ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي وكما بقي هذا في الظلمات يتخبط فيها كذلك حسناً للكافرين وزيناً لهم ما كانوا يعملون من الشرك والمعاصي ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مَّجْرِمِيهَا لِيَمَّكُرُوا فِيهَا﴾ أي وكما جعلنا في مكة صناديدها ليمكروا فيها كذلك جعلنا في كل بلدة مجرميها من الأكابر والعظماء ليفسدوا فيها قال ابن الجوزي: وإنما جعل الأكابر فساق كل قرية لأنهم أقرب إلى الكفر بما أعطوا من الرياسة والسعة^(٦) ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وما يدرون أن وبال

(١) (ش): لعل الصواب: تَعَدَّى حدود الله.

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٦١٢.

(٣) «الكشاف» ٢/ ٤٩.

(٤) «البحر المحيط» ٤/ ٢١٤.

(٥) «البيضاوي» ص ١٨١.

(٦) «زاد المسير» ٣/ ١١٧.

هذا المكر يحق بهم ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ﴾ أي وإذا جاءت هؤلاء المشركين حجة قاطعة وبرهان ساطع على صدق محمد ﷺ قالوا لن نصدق برسالته حتى نعطى من المعجزات مثل ما أعطي رسل الله، قال في «البحر»: وإنما قالوا ذلك على سبيل التهكم والاستهزاء ولو كانوا موقنين غير معاندين لاتبعوا رسل الله تعالى، وروي أن أبا جهل قال: زاحمنا بني عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يوحى إليه! والله لا نرضي به ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحياً كما يأتيه فنزلت الآية ^(١) ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ أي الله أعلم من هو أهل للرسالة فيضعها فيه وقد وضعها فيمن اختاره لها وهو محمد ﷺ دون أكابر مكة كأبي جهل والوليد بن المغيرة ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ أي سيصيب هؤلاء المجرمين الذل والهوان، والعذاب الشديد يوم القيامة بسبب استكبارهم ومكرهم المستمر قال في «البحر»: وقدم الصغار على العذاب لأنهم تمردوا عن اتباع الرسول وتكبروا طلباً للعز والكرامة فقبولوا بالهوان والذل أولاً ثم بالعقاب الشديد ثانياً ^(٢) ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ أي من شاء الله هدايته قذف في قلبه نوراً فينفسح له وينشرح وذاك علامة الهداية للإسلام قال ابن عباس: معناه يوسع قلبه للتوحيد والإيمان، وحين سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية قال: إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح. قالوا: فهل لذلك من أمارة يعرف بها؟ قال: الإجابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله ^(٣) ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ﴾ أي ومن يرد شقاوته وإضلاله ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ أي يجعل صدره ضيقاً شديداً الضيق لا يتسع لشيء من الهدى، ولا يخلص إليه شيء من الإيمان قال عطاء: ليس للخير فيه منفذ ^(٤) ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ أي كأنما يحاول الصعود إلى السماء ويزاول أمراً غير ممكن قال ابن جرير: وهذا مثل ضرب به الله لقلب هذا الكافر في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه، مثل امتناعه من الصعود إلى السماء وعجزه عنه لأنه ليس في وسعه ^(٥) ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي مثل جعل صدر الكافر شديد الضيق كذلك يلقي الله العذاب والخذلان على الذين لا يؤمنون بآياته قال مجاهد: الرجس كل ما لا خير فيه وقال الزجاج: الرجس اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة ﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ أي وهذا الدين الذي أنت عليه يا محمد هو الطريق المستقيم الذي لا عوج

(١) «البحر» ٢١٦/٤. (ش): ضعيف. رواه البيهقي في «دلائل النبوة». (كفرسي رهان): أي كالمسابقين إلي هدف.

(٢) «البحر» ٢١٧/٤.

(٣) «الطبري» ١٢/١٠٠. (ش): ورواه الحاكم والبيهقي، وضعفه الألباني.

(٤) «ابن كثير» ٦١٧/١.

(٥) «الطبري» ١٢/١٠٩.

فيه فاستمسك به ﴿قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ أي بينا ووضحنا الآيات والبراهين لقوم يتدبرون بعقولهم ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي لهؤلاء الذين يؤمنون ويعتبرون ويتفكرون بالآيات دار السلام، أي: السلامة من المكاره وهي الجنة في نزل الله وضيافته ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي هو تعالى حافظهم وناصرهم ومؤيدهم جزاء لأعمالهم الصالحة قال «ابن كثير»: وإنما وصف تعالى الجنة هنا بدار السلام لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم، المقتضي أثر الأنبياء وطرائقهم، فكما سلموا من آفات الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام^(١).

البلاغة: ١ - ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ التعرض لوصف الربوبية والإضافة إلى ضميره عليه السلام ﴿رَبُّكَ﴾ لتشريف مقامه وللمبالغة في اللطف في التسلية^(٢).

٢ - ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْغُمَرِينَ﴾ [آل عمران: ٦٠] الخطاب للرسول ﷺ على طريق التهيج والإلهاب.

٣ - ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي تمّ كلامه ووحيه أطلق الجزء وأراد الكل فهو مجاز مرسل.

٤ - ﴿وَذَرَوْا ظَهِيرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ بين لفظ (ظاهر) و (باطن) طباقاً.

٥ - ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ الموت والحياة، والنور والظلمة كلها من باب الاستعارة فقد استعار الموت للكفر والحياة للإيمان وكذلك النور والظلمات للهدى والضلال^(٣).

٦ - ﴿يُشْرِحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ الشرح كناية عن قبول النفس للحق والهدى الذي جاء به الرسول ﷺ وبين لفظ الشرح والضيق طباقاً وهو من المحسنات البديعية.

فائدة: الحكم أبلغ من الحاكم وأدل على الرسوخ؛ لأنه لا يطلق إلا على العادل وعلى من تكرر منه الحكم بخلاف الحاكم^(٤).

تنبيه: قال «الرازي»: دلّت هذه الآية ﴿وَإِنْ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ على أن القول في الدين بمجرد التقليد حرام، لأن القول بالتقليد قولٌ بمحض الهوى والشهوة، والآية دلّت على أن ذلك حرام^(٥).

قال الله تعالى:

وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَسَرُ الْجَنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آلَآءَكَ الَّتِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِبَعْضِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَمْعَسَرُ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٦١٨.

(٢) أفاده «أبو السعود».

(٣) انظر «البحر المحيط» ٤/ ٢١٤.

(٤) «محاسن التأويل» ٦/ ٢٤٧٤.

(٥) «التفسير الكبير» ١٣/ ١٦٧. (ش): أي تحريم الحلال وتحليل الحرام بغير شرع من الله بل بمجرد الأهواء والشهوات.

رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ
 الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاثِرُونَ ﴿١٢٠﴾ ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَىٰ يُظْلِمُ
 وَأَهْلُهَا غَفْلُونَ ﴿١٢١﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَّبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَرَبُّكَ
 الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَأْ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ
 ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّ مَثُوعِدْوَتَ لَّآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٢٤﴾ قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا
 عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٢٥﴾
 وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرْغِمِهِمْ وَهَذَا
 لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ
 إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ
 الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ
 اللَّهُ مَا فَعَلُوا فَنَدَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٢٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمُ وَحَرَّتْ حَجَرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ
 نَّشَاءَ بِرْغِمِهِمْ وَأَنْعَمُ حَرَمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا
 كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٢٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ
 أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٩﴾
 قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا
 كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٣٠﴾

المناسبة: لما ذكر سبحانه أن البشر فريقان: مهتد وضال، وذكر أن منهم من شرح الله صدره
 وأنار قلبه فأمن واهتدى، ومنهم من اتبع الهوى وسار بقيادة الشيطان فضلَّ وغوى، ذكر هنا أنه
 سيحشر الخلائق جميعاً يوم القيامة للحساب، لينال كلُّ جزاءه العادل^(١) على ما قدَّم في هذه
 الحياة.

اللغة: ﴿مَثُوعِدْوَتَ﴾ مأواكم يقال: ثوى بالمكان إذا أقام فيه ﴿يَقْضُونَ﴾ يحكون يقال قصَّ
 الخبر يقضه قصاً أي حكاه ﴿ذَرَأَ﴾ خلق ﴿الْحَرْثِ﴾ الزرع ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ الإرداء: الإهلاك
 يقال أرادته يرديه أي أهلكه ﴿حَجَرٌ﴾ الحجر: الحرام وأصله المنع يقال حجره، أي: منعه
 والحجر: العقل سمي به لأنه يمنع عن القبائح قال تعالى ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ٥]
 ﴿سَفَهًا﴾ حماقة وجهالة والسَّفه: خفة العقل.

(التفسير): ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي اذكر يوم يجمع الله الثقلين: الإنس والجن جميعاً
 للحساب قائلاً ﴿يَنْمَعُشَرُ الْجَنِّ قَدْ أَسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ أي استكثرتم من إضلالهم وإغوائهم

(١) (ش): أي كلُّ واحد منهم جزاءه العادل.

قال ابن عباس: أضللتهم منهم كثيراً، وهذا بطريق التوبيخ والتقريع ﴿وَقَالَ أَوْلِيَائُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي وقال الذين أطاعوهم من الإنس: ربنا انتفع بعضهم ببعض قال «البيضاوي»: انتفع الإنس بالجن بأن دلوهم على الشهوات وما يتوصل به إليها، وانتفع الجن بالإنس بأن أطاعوهم وحصلوا مرادهم ^(١) ﴿وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ أي وصلنا إلى الموت والقبر ووافينا الحساب، وهذا منهم اعتذار واعتارف بما كان منهم من طاعة الشياطين واتباع الهوى وتحسر على حالهم ﴿قَالَ النَّارُ مُثَوِّكُكُمْ﴾ أي قال تعالى ردّاً عليهم: النار موضع مقامكم وهي منزلكم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي ماكثين في النار في حال خلود دائم إلا الزمان الذي شاء الله أن لا يخلدوا فيها قال «الطبري»: هي المدة التي بين حشرهم إلى دخولهم النار ^(٢) وقال الزمخشري: يخلدون في عذاب النار الأبد كله إلا ما شاء الله أي إلا الأوقات التي يُقلون فيها من عذاب النار إلى عذاب الزمهير، فقد روي أنهم يدخلون وادياً من الزمهير فيتعاوون ويطلبون الرد إلى الجحيم ^(٣) ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي حكيم في أفعاله عليم بأعمال عباده ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّنُ بِعَظْمِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا يُمَارُونَ يَكْسِبُونَ﴾ أي كما متعنا الإنس والجن بعضهم ببعض نسلط بعض الظالمين على بعض بسبب كسبهم للمعاصي والذنوب قال «القرطبي»: وهذا تهديد للظالم إن لم يمتنع من ظلمه سلط الله عليه ظالماً آخر قال ابن عباس: إذا رضي الله عن قوم ولّى أمرهم خيارهم، وإذا سخط الله على قوم ولّى أمرهم شرارهم ^(٤) وعن مالك بن دينار قال: قرأت في بعض كتب الحكمة إن الله تعالى يقول: «إني أنا الله مالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك ولكن توبوا إليّ أعطفهم عليكم» ^(٥) ﴿يَمْعَشِرَ الْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي﴾ هذا النداء أيضاً يوم القيامة والاستفهام للتوبيخ والتقريع أي ألم تأتكم الرسل يتلون عليكم آيات ربكم؟ ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي: يخوفونكم عذاب هذا اليوم الشديد؟ ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾ أي لم يجدوا إلا الاعتراف فقالوا: بلى شهدنا على أنفسنا بأن رسلك قد أتتنا وأنذرتنا لقاء يومنا هذا قال ابن عطية: وهذا إقرار

(١) «البيضاوي» ص ١٨١.

(٢) «الطبري» ١٢/١١٨.

(٣) «الكشاف» ٥١/٢. (ش): لم أجده إلا في بعض كتب «التفسير» بدون إسناد. تعاونت الكلاب: تصايحت.

(٤) «القرطبي» ٨٥/٧. (ش): ذكره «القرطبي» وغيره من المفسرين بدون إسناد.

(٥) «الفخر الرازي» ١٣/١٩٤. (ش): المسلم مطالب بطاعة الله والتوبة إليه ليسعد في الدنيا والآخرة، ولكن على

فرض صحة نسبة هذا الكلام إلى مالك بن دينار، فكلام ربنا نأخذه من القرآن الكريم والسنة الصحيحة وليس من كتب الحكمة.

منهم بالكفر واعتراف على أنفسهم بالتقصير كقولهم ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ [الملك: ٩] ﴿وَعَرَّيْنَاهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي خدعتهم الدنيا بنعيمها وبهرجها الكاذب ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ أي اعترفوا بكفرهم قال «البيضاوي»: وهذا ذمٌ لهم على سوء نظرهم وخطأ رأيهم، فإنهم اغتروا بالحياة الدنيا ولذاتها الفانية، وأعرضوا عن الآخرة بالكلية حتى كان عاقبة أمرهم أن اضطروا بالشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام للعذاب المخلد تحذيراً للسامعين من مثل حالهم ^(١) ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَفِلُونَ﴾ أي إنما فعلنا هذا بهم من إرسال الرسل إليهم لإلذارهم سوء العاقبة؛ لأن ربك عادل لم يكن ليهلك قوماً حتى يبعث إليهم رسولاً قال «الطبري»: أي إنما أرسلنا الرسل يا محمد يقصون عليهم آياتي وينذرونهم لقاء معادهم من أجل أن ربك لم يكن ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسول والآيات والعبر ^(٢) ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ أي ولكل عامل بطاعة الله أو معصيته، منازل ومراتب من عمله يلقاها في آخرته إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر، قال ابن الجوزي: وإنما سميت درجات لتفاضلها في الارتفاع والانحطاط كتفاضل الدرج ^(٣) ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي ليس الله بلاءٍ أو ساءٍ عن أعمال عباده، وفي ذلك تهديد ووعد ﴿وَرَبُّكَ الْغَفِيُّ﴾ أي هو جل وعلا المستغني عن الخلق وعبادتهم، لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ أي ذو الفضل التام قال ابن عباس: ذو الرحمة بأوليائه وأهل طاعته، وقال غيره: بجميع الخلق ومن رحمته تأخير الانتقام من المخالفين قال «أبو السعود»: وفيه تنبيهٌ على أن ما سلف ذكره من الإرسال ليس لنفعه بل لترحمه على العباد ^(٤) ﴿إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي لو شاء لأهلككم أيها العصاة بعذاب الاستئصال ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ أي وأتى بخلق آخر أمثل منكم وأطوع ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ أي كما خلقكم وابتدأكم من بعد خلق آخرين كانوا قبلكم قال أبو حيان: وتضمنت الآية التحذير من بطش الله في التعجيل بالإهلاك ^(٥) ﴿إِنْ مَاتُوا عَدُونَ لَاتٍ﴾ أي ما توعّدونه من مجيء الساعة والحشر لواقع لا محالة ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي لا تخرجون عن قدرتنا وعقابنا وإن ركبتكم في الهرب متن كل صعب وذلول ^(٦) ﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد: يا قوم اثبتوا على كفركم ومعاداتكم لي واعمِلوا ما أنتم عاملون، والأمر هنا للتهديد كقوله ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾

(١) «البيضاوي» ص ١٨٢.

(٢) «الطبري» ١٢ / ١٢٤.

(٣) ابن الجوزي ٣ / ١٢٦.

(٤) «أبو السعود» ٢ / ١٣٨. (ش): أي أن إرسال الله للرسل ليس لمنفعة تعود على الله بل لرحمته بعباده.

(٥) «البحر» ٤ / ٢٢٥.

(٦) (ش): (متن): طهر. (ركب كل صعب وذلول في أمره): اتخذ كل سبيل وبذل فيه الطاقة.

[فصلت: ٤٠] ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أي عاملٌ ما أمرني به ربي من الثبات على دينه ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنِ تَكُونُ لَهُ عَقِبَةُ الدَّارِ﴾ أي فسوف تعلمون أينما تكون له العاقبة المحمودة في الدار الآخرة أنحن أم أنتم؟ ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي لا ينجح ولا يفوز بمطلوبه من كان ظالماً قال الزمخشري: في الآية طريقٌ من الإنذار لطيف المسلك، فيه إنصاف في المقال وأدبٌ حسن، مع تضمن شدة الوعيد، والوثوق بأن المُنذر محقٌّ، والمُنذر مبطل^(١) ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ أي جعل مشركو قريش لله ممّا خلق من الزرع والأنعام نصيباً ينفقونه على الفقراء ولشركائهم نصيباً يصرفونه إلى سدنتها قال «ابن كثير»: هذا ذمٌ وتوبيخٌ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعاً وكفراً وشركاً، وجعلوا لله شركاء وهو خالق كل شيء سبحانه ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ أي خلق وبرأ من الزرع والثمار والأنعام جزءاً وقسماً^(٢) ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ﴾ أي قالوا: هذا نصيب الله بزعمهم أي بدعواهم وقولهم من غير دليل ولا شرع قال في «التسهيل»: وأكثر ما يقال الزعم في الكذب^(٣) ﴿وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ أي وهذا النصيب لآلهتنا وأصنامنا قال ابن عباس: إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منه جزءاً وللوثن جزءاً، فما كان من حرثٍ أو ثمرةٍ أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه، وإن سقط منه شيء فيما سُمي لله ردّوه إلى ما جعلوه للوثن وقالوا إن الله غنيٌّ والأصنام أحوج^(٤) ولهذا قال: ﴿فَمَا كَانَتْ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي ما كان للأصنام فلا يصل إلى الله منه شيء ﴿وَمَا كَانَتْ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي ما كان من نصيب الله فهو يصل إلى أصنامهم قال مجاهد: كانوا يسمّون جزءاً من الحرث لله وجزءاً لشركائهم وأوثانهم فما ذهبت به الريح من نصيب الله إلى أوثانهم تركوه وما ذهب من نصيب أوثانهم إلى نصيب الله ردّوه، وكانوا إذا أصابتهم سنةٌ «قحط» أكلوا نصيب الله وتحاموا نصيب شركائهم ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بئس هذا الحكم الجائر حكمهم ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائُهُمْ﴾ أي مثل ذلك التزيين في قسمة القربان بين الله وبين آلهتهم زَيْنَ شياطينهم لهم قتل أولادهم بالوَاد أو بنحرمهم لآلهتهم قال الزمخشري: كان الرجل في الجاهلية يحلف لئن ولد له كذا غلاماً لينحرن أحدهم كما حلف عبد المطلب^(٥) ﴿لِيَرُدُّوهُمْ﴾ أي ليهلكوهم بالإغواء ﴿وَلَيْسَ سَوْءٌ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أي وليخلطوا عليهم ما كانوا عليهم من دين إسماعيل عليه السلام ﴿وَلَوْ سَاءَ

(١) «الكشاف» ٥٣/٢.

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/٦٢٢.

(٣) «التسهيل» ٢/٢٢.

(٤) «مختصر ابن كثير» ١/٦٢٢.

(٥) «الكشاف» ٢/٥٤.

اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴿١﴾ أَيُّ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوا ذَلِكَ الْقَبِيحَ ﴿٢﴾ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿٣﴾ أَيُّ دَعَاهُمْ وَمَا يَخْتَلِقُونَهُ مِنَ الْإِفْكِ عَلَى اللَّهِ، وَهُوَ تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ ﴿٤﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمُ وَحَرَّتْ جِبْرُ هَذِهِ حِكَايَةٌ عَنْ بَعْضِ قَبَائِحِهِمْ وَجَرَائِمِهِمْ أَيْ قَالَ الْمُشْرِكُونَ هَذِهِ أَنْعَمُ وَزُرُوعُ أَفْرَدْنَاهَا لِأَلْهَتِنَا حَرَامٌ مَمْنُوعَةٌ عَلَى غَيْرِهِمْ ﴿٥﴾ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ ﴿٦﴾ أَيْ مِنْ خِدْمَةِ الْأَوْثَانِ وَغَيْرِهِمْ ﴿٧﴾ يَزْعِمُهُمْ أَيْ يَزْعِمُهُمُ الْبَاطِلُ مِنْ غَيْرِ حُجَّةٍ وَلَا بَرَهَانٍ ﴿٨﴾ وَأَنْعَمُ حَرِّمَتْ طُهُورُهَا ﴿٩﴾ أَيْ لَا تَرْكَبُ كَالْبَحَائِرِ وَالسَّوَابِغِ وَالْحَوَامِي ﴿١٠﴾ وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا ﴿١١﴾ أَيْ عِنْدَ الذَّبْحِ وَإِنَّمَا يَذْكُرُونَ عَلَيْهَا أَسْمَاءَ الْأَصْنَامِ ﴿١٢﴾ أَفْتَرَاءً عَلَيْهِ ﴿١٣﴾ أَيْ كَذِبًا وَاخْتِلَافًا عَلَى اللَّهِ ﴿١٤﴾ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٥﴾ أَيْ سَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ الْإِفْتَرَاءِ، وَهُوَ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ ﴿١٦﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا ﴿١٧﴾ هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى نَوْعٍ آخَرَ مِنْ أَنْوَاعِ قَبَائِحِهِمْ أَيْ قَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْبَحَائِرِ وَالسَّوَابِغِ حَلَالٌ لِّذُكُورِنَا خَاصَّةً ﴿١٨﴾ وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَرْوَاجِنَا ﴿١٩﴾ أَيْ لَا تَأْكُلُ مِنْهُ الْإِنَاثُ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ﴿٢١﴾ أَيْ وَإِنْ كَانَ هَذَا الْمَوْلُودُ مِنْهَا مَيْتَةً اشْتَرَكُ فِيهِ الذُّكُورُ وَالْإِنَاثُ ﴿٢٢﴾ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَيْ سَيَجْزِيهِمْ جَزَاءً وَصَفَهُمُ الْكَذِبَ عَلَى اللَّهِ فِي التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ ﴿٢٤﴾ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ أَيْ حَكِيمٌ فِي صَنْعِهِ عَلِيمٌ بِخَلْقِهِ ﴿٢٦﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ ﴿٢٧﴾ أَيْ وَاللَّهُ لَقَدْ خَسِرَ هَؤُلَاءِ السُّفَهَاءُ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ قَالِ الزَّمْخَشَرِيُّ: نَزَلَتْ فِي رُبْعَةٍ وَمُضَرٍّ وَالْعَرَبُ الَّذِينَ كَانُوا يَتَدُونُ بَنَاتِهِمْ مَخَافَةَ السَّبْيِ وَالْفَقْرِ ^(١) سَفَهًا يَغْيِرُ عَلَيْهِمْ أَيْ جَهَالَةً وَسَفَاهَةً لَخَفَةِ عَقْلِهِمْ وَجَهْلِهِمْ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّازِقُ لَهُمْ وَلَأَوْلَادَهُمْ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ﴿٢٨﴾ أَيْ حَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمُ الْبَحِيرَةَ وَالسَّائِبَةَ وَشَبَّهَهَا ﴿٢٩﴾ أَفْتَرَاءً عَلَى اللَّهِ ﴿٣٠﴾ أَيْ كَذِبًا وَاخْتِلَافًا عَلَى اللَّهِ ﴿٣١﴾ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٣٢﴾ أَيْ لَقَدْ ضَلُّوا عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ بِصَنِيعِهِمُ الْقَبِيحِ وَمَا كَانُوا مِنَ الْأَصْلِ مُهْتَدِينَ لِسُوءِ مَسِيرَتِهِمْ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِذَا سَرَّكَ أَنْ تَعْلَمَ جَهْلَ الْعَرَبِ فَاقْرَأْ مَا فَوْقَ الثَّلَاثِينَ وَالْمِائَةِ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ ﴿٣٣﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا يَغْيِرُ عَلَيْهِمْ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ أَفْتَرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ^(٢) .

البَلَاغَةُ: ١ - ﴿قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ أَيْ أَفْرَطْتُمْ فِي إِضْلَالٍ وَإِغْوَاءِ الْإِنْسِ، فَفِيهِ إِيجَازٌ بِالْحَذْفِ وَمِثْلُهُ ﴿اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أَيْ اسْتَمْتَعَ بَعْضُ الْإِنْسِ بِبَعْضِ الْجَنِّ، وَبَعْضُ الْجَنِّ بِبَعْضِ الْإِنْسِ.

٢ - ﴿النَّارُ مَثُونَكُمُ﴾ تَعْرِيفُ الطَّرْفَيْنِ لِإِفَادَةِ الْحَصْرِ.

٣ - ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ﴾ الْاسْتِفْهَامُ لِلتَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ.

(١) «الكشاف» ٥٧/٢.

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/٦٢٤.

٤ - ﴿وَلِكُلِّ﴾ أي لكل من العاملين فالتنوين عوض عن محذوف.
 ٥ - ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ صيغة الاستقبال ﴿تُوعَدُونَ﴾ للدلالة على الاستمرار التجددى، ودخولِ إِنَّ واللام على الجملة للتأكيد لأن المخاطبين منكرون للبعث فلذا أكد الخبر بمؤكدين.

٦ - ﴿مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ أَفَرَّاءَ عَلَى اللَّهِ﴾ إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لإظهار كمال عتوهم وضلالهم أفاده «أبو السعود»^(١).

الفوائد الأولى: قال السيوطي في الإكليل: قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ الآية في معنى حديث «كما تكونون يولي عليكم»^(٢)

وقال الفضيل بن عياض: إذا رأيت ظالمًا ينتقم من ظالم فقف وانظر متعجبًا.

الثانية: الجمهور على أن الرسل من الإنس ولم يكن من الجن رسول وقوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَأْتِيَكُمُ الرُّسُلُ مِنْكُمْ﴾ هو من باب التغليب كقوله ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وإنما يخرجان من «البحر» المالح دون العذب.

الثالثة: ذكر «القرطبي» في تفسيره «أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ لَا يَزَالُ مُعْتَمًا بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ: «مَا لَكَ تَكُونُ مَحْزُونًا؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَأَخَافُ أَلَّا يَغْفِرَهُ اللَّهُ لِي وَإِنْ أَسْلَمْتُ! فَقَالَ لَهُ: «أَخْبِرْنِي عَنْ ذَنْبِكَ» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ مِنَ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ بَنَاتِهِمْ، فَوُلِدَتْ لِي بِنْتُ فَتَشَفَّعَتْ إِلَيَّ أَمْرًا أَنِ أَتْرُكَهَا فَتَرُكْتُهَا حَتَّى كَبُرَتْ وَأَدْرَكْتُ، وَصَارَتْ مِنْ أَجْمَلِ النِّسَاءِ فَخَطْبُوهَا: فَدَخَلْتَنِي الْحِمِيَّةَ وَلَمْ يَحْتَمِلْ قَلْبِي أَنْ أَرْوِّجَهَا أَوْ أَتْرُكَهَا فِي الْبَيْتِ بِغَيْرِ رَوْحٍ، فَقُلْتُ لِلْمَرْأَةِ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَذْهَبَ إِلَى قَبِيلَةٍ كَذَا وَكَذَا فِي زِيَارَةِ أَقْرَبَائِي فَأَبْعِثْهَا مَعِي، فَسَرَتْ بِذَلِكَ وَزَيَّنَتْهَا بِالْثِيَابِ وَالْحُلِيِّ، وَأَخَذَتْ عَلَيَّ الْمَوَاقِيقَ بِأَلَا أُخَوِّنُهَا، فَذَهَبَتْ بِهَا إِلَى رَأْسِ بئرٍ فَنَظَرْتُ فِي الْبئرِ فَفَطِنْتُ الْجَارِيَةَ أَنِّي أُرِيدُ أَنْ أَلْقِيَهَا فِي الْبئرِ، فَالْتَزَمْتَنِي وَجَعَلَتْ تَبْكِي وَتَقُولُ: يَا أَبْتَ! أَأَيْشَ تَرِيدُ أَنْ تَفْعَلَ بِي! فَرَحِمْتَهَا، ثُمَّ نَظَرْتُ فِي الْبئرِ فَدَخَلْتُ عَلَيَّ الْحِمِيَّةَ، ثُمَّ الْتَزَمْتَنِي وَجَعَلَتْ تَقُولُ: يَا أَبْتَ! لَا تُصَيِّعْ أَمَانَةَ أُمِّي، فَجَعَلْتُ مَرَّةً أَنْظُرُ فِي الْبئرِ وَمَرَّةً أَنْظُرُ إِلَيْهَا فَأَرْحَمُهَا، حَتَّى غَلَبَنِي الشَّيْطَانُ فَأَخَذْتُهَا وَأَلْقَيْتُهَا فِي الْبئرِ مَنْكُوسَةً، وَهِيَ تَنَادِي فِي الْبئرِ: يَا أَبْتَ، قَتَلْتَنِي. فَمَكَثْتُ هُنَاكَ حَتَّى انْقَطَعَ صَوْتُهَا فَارْجَعْتُ. فَبَكَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ وَقَالَ: «لَوْ أَمَرْتُ أَنْ أُعَاقِبَ أَحَدًا بِمَا فَعَلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَعَاقَبْتُكَ»^(٣).

(١) «أبو السعود» ١٤١/٢.

(٢) «محاسن التأويل» للقاظمي ٢٥٠٥/٦. (ش): حديث: «كما تكونوا يولي عليكم» رواه البيهقي والديلمي، وضعفه ابن حجر العسقلاني والألباني.

(٣) تفسير «القرطبي» ٩٧/٧. (ش): لم أجده إلا في «تفسير القرطبي» وبدون إسناد.

قال تعالى:

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّاتَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسٌ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَنِيَّةٌ أَزْوَاجٌ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعَزِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَّذِكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِيُّنِي يَعْلَمُ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَّذِكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أَوْ هَلًا لِبَغْيٍ لِلَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ أَلْحَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرْدُ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

المناسبة: لما أخبر تعالى عن المشركين أنهم حرّموا أشياء مما رزقهم الله وحكى طرفاً من قبائحهم وجرائمهم، ذكر تعالى هنا ما امتنّ به عليهم من الرزق الذي تصرفوا فيه بغير إذنه تعالى افتراءً منهم عليه واختلاقاً، ثم أعقبه باحتجاجهم على الشرك وعدم الإيمان بالقضاء والقدر، وهذا أيضاً من جملة الكذب والبهتان والافتراء على الله.

اللغة: ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾ مرفوعات على ما يحملها من العيدان ﴿حَصَادِهِ﴾ الحصاد: جمع الثمر، كالجُذاذ ﴿حَمُولَةٌ﴾ الحمولة: الإبل التي تحمل الأثقال على ظهورها ﴿وَفَرَسٌ﴾ الفرش: الصغار التي لا تصلح للحمل كالفُصْلان والعجائيل قال الزجاج: الفرش صغار الإبل قال الشاعر:

أَوْرَنْيَ حَمُولَةً وَفَرَسًا أَمْشَهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مَشًا^(١)

(١) (ش): مَشَى، مَشَى، تَمَشَّى، مَشَّاه: أَمْشَاه، سَيَّرَه، جعله يمشي.

﴿الْحَوَايَا﴾: قال الواحدي: هِيَ الْمَبَاعِرُ^(١) والمصارين، واحدها حَاوِيَّةٌ وَحَوِيَّةٌ. وَقِيلَ: الْحَوَايَا الْأَمْعَاءُ الَّتِي عَلَيْهَا الشُّحُومُ سَمِيَتْ حَوَايَا لِأَنَّ الْبَطْنَ يَحْوِيهَا. ﴿هَلُمَّ﴾: هَاتُوا. ﴿يَعْدِلُونَ﴾: يَشْرَكُونَ بِهِ.

التفسير: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ أي هو الذي أنعم عليكم بأنواع النعم لتعبدوه وحده، فخلق لكم بساتين من الكروم منها مرفوعات على عيدان، ومنها متروكات على وجه الأرض لم تعرش ﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ﴾ أي وأنشأ لكم شجر النخيل المشمر بما هو فاكهة وقوت، وأنواع الزرع المحصل لأنواع القوت مختلفاً ثمره وحبّه في اللون والطعم والحجم والرائحة ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالزُّمَّاتَ مُتَشَكِّبًا وَغَيْرَ مُتَشَكِّبٍ﴾ أي متشابهاً في اللون والشكل وغير متشابه في الطعم ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ أي كلوا أيها الناس من ثمر كل واحد مما ذكر إذا أدرك من رطبه وعنبه ﴿وَعَاثُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ أي أعطوا الفقير والمسكين من ثمره يوم الحصاد ما تجود به نفوسكم وقال ابن عباس: يعني الزكاة المفروضة يوم يُكَالُ ويعلم كيّله^(٢) ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي ولا تسرفوا في الأكل لما فيه من مضرة العقل والبدن قال «الطبري»: المختار قول عطاء أنه نهى عن الإسراف في كل شيء^(٣) ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ﴾ أي وخلق لكم من الأنعام ما يحمل الأثقال وما يفرش للذبج «أي يضجع» قال ابن أسلم: الحمولة ما تركبون، والفَرَسُ ما تأكلون وتحلبون ﴿كُلُوا مِنَّمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي كلوا من الثمار والزروع والأنعام فقد جعلها الله لكم رزقاً ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي طريقه وأوامره في التحليل والتحرير كفعل أهل الجاهلية ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي إن الشيطان ظاهر العداوة للإنسان فاحذروا كيده ﴿تَمَنِّيَ أَزْوَاجَ مَتَّاتٍ أُنثَيْنِ وَمِنَ الْمَعَزِ اثْنَيْنِ﴾ أي وأنشأ لكم من الأنعام ثمانية أنواع أحل لكم أكلها، من الضأن ذكراً وأنثى، ومن المعز ذكراً وأنثى قال «القرطبي»: يعني ثمانية أفراد، وكل فرد عند العرب يحتاج إلى آخر يُسَمَّى زوجاً فيقال للذكر: زوجٌ وللأنثى زوجة^(٤) ويراد بالزوجين من الضأن: الكبش والنعجة، ومن المعز: التيس والعنز ﴿قُلْ أَلَّذَكَرْتَنِي حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ﴾ هذا إنكار لما كانوا يفعلونه من تحريم ما أحل الله أي قل لهم يا محمد على وجه التوبيخ والزجر: أَلَّذَكَرْتَنِي الضأن والمعز حَرَّمَ الله عليكم أيها المشركون أم الأنثيين منهما؟ ﴿أَمَّا أَسْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامَ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أي أو ما حملت إناث الجنسين ذكراً كان أو أنثى؟ ﴿نِعْثُوْنِي يَعْلَمُ﴾

(١) (ش): الْمَبَاعِرُ: جَمْعُ مَبْعَرٍ، وَهُوَ مَكَانُ الْبَعْرِ مِنْ كُلِّ ذِي أَرْبَعٍ، سَمِّيَ بِذَلِكَ لِاجْتِمَاعِ الْبَعْرِ فِيهِ. وَهُوَ الزُّبُلُ. المصارين: الأمعاء، وهي ما يتنقل إليها الطعام بعد المعدة.

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٦٢٤.

(٣) «الطبري» ١٢/ ١٧٦.

(٤) «القرطبي» ٧/ ١١٣.

كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١﴾ تعجيزٌ وتوبيخٌ أي أخبروني عن الله بأمرٍ معلوم لا بافتراءٍ ولا بتخرصٍ إن كنتم صادقين في نسبة ذلك التحريم إلى الله ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ أي وأنشأ لكم من الإبل اثنتين هما الجمل والناقة ومن البقر اثنتين هما الجاموس والبقرة ^(١) ﴿قُلْ أَلَّذِكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾ ؟ كرره هنا مبالغة في التقرير والتوبيخ قال «أبو السعود»: والمقصود إنكار أن الله سبحانه حرم عليهم شيئاً من الأنواع الأربعة وإظهار كذبهم في ذلك فإنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة، وإناثها تارة، وأولادها تارة أخرى ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْكُمْ اللَّهُ بِهَذَا﴾ زيادة في التوبيخ أي هل كنتم حاضرين حين وصاكم الله بهذا التحريم؟ وهذا من باب التهكم ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي لا أحد أظلم ممن كذب على الله فنسب إليه تحريم ما لم يحرم بغير دليل ولا برهان ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ عمومٌ في كل ظالم، ثم أمر تعالى رسوله ﷺ بأن يبين لهم ما حرمه الله عليهم فقال ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ﴾ أي قل يا محمد لكفار مكة لا أجد فيما أوحاه الله إلي من القرآن شيئاً محرماً على أي إنسان إلا أن يكون ذلك الطعام ميتةً أو دمًا سائلاً مصبوحاً أو يكون لحم خنزير فإنه قذرٌ ونجسٌ لِعَوْدِهِ أَكْلُ النَجَاسَاتِ ﴿أَوْ فَسَقًا أَهْلَ لَغْوٍ﴾ أي أو يكون المذبوح فسقاً ذبح على اسم غير الله كالمذبوح على النصب، سُمِّيَ فسقاً مبالغةً كأنه نفس الفسق لأنه ذبح على اسم الأصنام ﴿فَمَنْ أَضْطَرُّ عَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي من أصابته الضرورة واضطرته إلى أكل شيء من المحرمات فلا إثم عليه إن كان غير باغ أي غير قاصد التلذذ بأكلها بدون ضرورة ولا عادية أي مجاوز قدر الضرورة التي تدفع عنه الهلاك فله غفور رحيم بالعباد، ثم بين تعالى أن ما حرمه على اليهود إنما كان بسبب بغيتهم وعصيانهم فقال ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ أي وعلى اليهود خاصة حرماً عليهم كل ذي ظفر قال ابن عباس: هي ذوات الظلف كالإبل والنعامة وما ليس بذي أصابع منفردة كالبط والأوز ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ أي وحرماً عليهم أكل شحوم البقر وشحوم الغنم ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ أي إلا الشحم الذي علق بالظهر منهما ﴿أَوْ الْحَوَايِكَا﴾ أي الأمعاء والمصارين ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ كشحم الألية والمعنى أن الشحم الذي تعلق بالظهور أو احتوت عليه المصارين أو اختلط بعظم كشحم الألية جائز لهم ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ بَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِّقُونَ﴾ أي ذلك التحريم بسبب ظلمهم وعدوانهم الذي سبق من قتل الأنبياء وأكل الربا واستحلال أموال الناس بالباطل وإننا لصادقون فيما قصصنا عليك

(١) (ش): البقر: يشمل البقر والجاموس، فالجاموس: نوعٌ من البقر، فالصواب أن يُقال: ومن البقر اثنتين هما (الثور أو الفحل، والبقرة أو الجاموسة).

يا محمد، وفي ذلك تعريضٌ بكذب من حرّم ما لم يحرم الله والتعريض بكذب اليهود ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ أي فإن كذبك يا محمد هؤلاء اليهود فيما جئت به من بيان التحريم فقل متعجباً من حالهم ربكم ذو رحمة واسعة حيث لم يعاجلكم بالعقوبة مع شدة إجرامكم. قال في «البحر»: وهذا كما تقول عند رؤية معصية عظيمة: «ما أحلّم الله تعالى!!»، وأنت تريد ما أحلّمه لإمهاله العاصي^(١)، ثم أعقب وصفه بالرحمة الواسعة بالوعيد الشديد فقال ﴿وَلَا يَرُدُّ بَأْسَهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي لا تغتروا بسعة رحمته فإنه لا يرد عذابه وسطوته عن اكتساب الذنوب واجترحوا السيئات فهو مع رحمته ذو بأس شديد، وقد جمعت الآية بين الترغيب والترهيب حتى لا يقنط المذنب من الرحمة ولا يغتر العاصي بحلم الله.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ أي سيقول مشركو العرب لو أراد الله ما كفرنا ولا أشركنا نحن ولا آبائنا يريدون أن شركهم وتحريمهم لما حرّموا كان بمشيئة الله ولو شاء ألا يفعلوا ذلك ما فعلوه، فاحتجوا على ذلك بإرادة الله كما يقول الواقع في معصية إذا طلب منه الإقلاع عنها: هذا قدر الله لا مهرب ولا مفر منه، ولا حجة في هذا لأنهم مكلفون بمأمورين بفعل الخير وترك القبيح ولكنها نزعة جبرية يحتج بها السفهاء عندما تدمغهم الحجة قال تعالى في الرد عليهم ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ أي كذلك كذب من سبقهم من الأمم حتى أنزلنا عليهم العذاب ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ استفهام إنكاري يقصد به التهمك أي قل لهم هل عندكم حجة أو برهان على صدق قولكم فتظهروه لنا ﴿إِنْ تَنْبَغُ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي ما تتبعون في ذلك إلا الظنون والأوهام وما أنتم في الحقيقة إلا تكذبون على الله عز وجل ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي قل لهم إن لم تكن لكم حجة فلله الحجة البينة والواضحة التي بلغت غاية الظهور والإقناع، فلو شاء لهداكم إلى الإيمان أجمعين ولكنه تعالى ترك للخلق أمر الاختيار في الإيمان والكفر ليتم التكليف ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] ﴿قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ أي قل لهم يا محمد أحضروا لي من يشهد لكم على صحة ما تزعمون أن الله تعالى حرّم هذه الأشياء التي تدعونها من البحيرة والسائبة وغيرهما ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ أي فإن حضروا وكذبوا في شهادتهم وزوروا فلا تشهد بمثل شهادتهم ولا تصدقهم فإنه كذبٌ بحتٌ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي ولا تتبع أهواء المكذبين بآيات الرحمن الذين لا يصدقون بالآخرة ﴿وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي وهم يشركون بالله غيره فيعبدون الأوثان.

البَلَاغَةُ: ١ - ﴿حَمُولَةٌ وَفَرَشًا﴾ بينهما طباقٌ لأن الحمولة الكبارُ الصالحة للحمل، والفرشُ الصغار الدانية من الأرض كأنها فرش.

٢ - ﴿خُطُوتِ الشَّيْطَانِ﴾ هذا من لطيف الاستعارة وهي أبلغ عبارة للتحذير من طاعة الشيطان والسير في ركابه^(١).

٣ - ﴿عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ من صيغ المبالغة أي مبالغ في المغفرة والرحمة.

٤ - ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَسِعَتْ وَلَا يُرْدُّ بِأُسْهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ جاءت الأولى جملة اسمية لأنها أبلغ في الإخبار من الفعلية فناسبت وصفه تعالى بالرحمة الواسعة وجاءت الجملة الثانية فعلية ﴿وَلَا يُرْدُّ﴾ لئلا يتعادل الإخبار عن الوصفين، وباب الرحمة أوسع^(٢) أفاده في «البحر».

فَائِدَةٌ: في قوله تعالى ﴿قُلْ لَا أَحَدٌ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ إيدان بأن التحريم إنما يعلم بالوحي لا بالهوى، وأن الله وَجَلَّ وعلا المشرع للأحكام والرسول مبلِّغ عن الله ذلك التشريع كقوله ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ (٢) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٢ - ٣].

قال الله تعالى:

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَاللَّوْلَدِينَ إِحْسَنًا ۖ وَلَا تَقْنُلُوا ۖ أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقْتُ ۖ تَحْنُ نَزْفُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنٌ ۖ وَلَا تَقْنُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ ۖ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۚ إِنَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَكُونُونَ ﴿١٥٢﴾ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ ۖ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٣﴾ وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ ۖ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٤﴾ ثُمَّ أَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٥﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٦﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا ۖ وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ ﴿١٥٧﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجَرَى الَّذِينَ يَصْدَفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدَفُونَ ﴿١٥٨﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامِنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ۚ قُلْ أَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴿١٥٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يَنْتِظُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٦٠﴾ مَنْ جَاءَ

(١) تلخيص البيان ص ١١.

(٢) «البحر المحيط» ٤/ ٢٤٦.

بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِرْ وَأُزِرُّ وَذُرْ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلْقَ الْأَرْضَ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى ما حرّمه الكفار افتراء عليه وذكر ما أباحه تعالى لهم من الحبوب والفواكه والحيوان، ذكر هنا ما حرّمه تعالى عليهم حقيقة من الأمور الضارة، وذكر الوصايا العشر التي اتفقت عليها الشرائع السماوية وبها سعادة البشرية.

اللغة: ﴿أَتْلُ﴾ أقرأ وأفص ﴿إِملَني﴾ فقر يقال أملق الرجل إذا افتقر ﴿أشدّه﴾ قوته وهو بلوغ سن النكاح والرشد، والأشدُّ جمع لا واحد له ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل بلا بخس ولا نقصان ﴿الُسْبُلُ﴾ جمع سبيل وهي الطريق ﴿شيعاً﴾ فرقاً وأحزاباً جمع شيعه وهي الفرقة تتشيع وتتعصب لمذهبها ﴿قيماً﴾ مستقيماً لا عوج فيه ﴿ونُسُكِي﴾ النُّسُك جمع نسكة وهي الذبيحة وقال الزجاج: عبادتي ومنه الناسك الذي يتقرب إلى الله بالعبادة^(١).

(التفسير): ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ أي قل يا محمد تعالوا أقرأ الذي حرّمه ربكم عليكم باليقين لا بالظن والتخمين ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ أي لا تعبدوا معه غيره ﴿وَيَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ أي وأحسنوا إلى الوالدين إحساناً، وذكر ضمن المحرمات لأن الأمر بالشيء نهى عن ضده فكأنه قال: ولا تسيئوا إلى الوالدين قال «أبو السعود»: والسُّرِّي في ذلك المبالغة والدلالة على أن ترك الإساءة إليهما غير كافٍ في قضاء حقوقهما^(٢) ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَني﴾ أي ولا تقتلوا أولادكم خشية الفقر قال ابن الجوزي: المراد دفن البنات أحياء من خوف الفقر^(٣) ﴿ثُمَّ نَرْزُقْكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ أي رزقكم ورزقهم علينا فإن الله هو الرازق للعباد ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي لا تقربوا المنكرات الكبائر علانياتها وسرّها قال ابن عباس: كانوا في الجاهلية لا يرون بالزنى بأساً في السرّ ويستقبحونه في العلانية فحرّمه الله في السر والعلانية^(٤) ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي لا تقتلوا النفس البريئة التي حرّم الله قتلها إلا بموجب وقد فسره قول رسول الله ﷺ: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ

(١) تفسير «القرطبي» ١٥٢/٧.

(٢) «أبو السعود» ١٤٦/٢.

(٣) زاد المسر ١٤٨/٣.

(٤) «الطبري» ٢١٩/١٢.

إِلَّا يَأْخُذِي ثَلَاثُ شَيْبٍ الزَّانِي وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»^(١) ﴿ذَلِكَمُ
وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي ذلكم المذكور هو ما أوصاكم تعالى بحفظه وأمركم به أمراً مؤكداً
لعلكم تسترشدون بعقولكم إلى فوائد هذه التكاليف ومنافعها في الدين والدنيا قال أبو حيان:
وفي لفظ وصاكم من اللطف والرأفة وجعلهم أوصياء له تعالى ما لا يخفى من الإحسان^(٢) ﴿وَلَا
تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أي لا تقربوا مال اليتيم بوجه من الوجوه إلا
بالخصلة التي هي أنفع له حتى يصير بالغاً رشيداً، والنهي عن القرب يعم وجوه التصرف لأنه
إذا نُهي عن أن يقرب المال فالنهي عن أكله أولى وأحرى والتي هي أحسن منفعة اليتيم وتتمير
ماله قال ابن عباس: هو أن يعمل له عملاً مصلحاً يأكل منه بالمعروف ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ
وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل والتسوية في الأخذ والعطاء ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي لا
نكلف أحداً إلا بمقدار طاقته بما لا يعجز عنه قال «البيضاوي»: أي إلا ما يسعها ولا يعسر عليها،
وذكره بعد وفاء الكيل لأن إيفاء الحق عسر فعليكم بما في وسعكم وما وراءه معفو عنكم^(٣)
﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أي اعدلوا في حكومتكم وشهادتكم ولو كان المشهود
عليه من ذوي قرابتكم ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ أي أوفوا بالعهد إذا عاهدتم قال «القرطبي»: وهذا
عام في جميع ما عهده الله إلى عباده ويحتمل أن يراد به ما انعقد بين الناس وأضيف إلى الله من
حيث أمر بحفظه والوفاء به^(٤) ﴿ذَلِكَمُ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي لعلكم تتعظون
﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي وبأن هذا
ديني المستقيم شرعته لكم فتمسكوا به ولا تتبعوا الأديان المختلفة والطرق الملتوية فتفرقكم
وتزيلكم عن سبيل الهدى عن ابن مسعود قال: «خط لنا رسول الله ﷺ يوماً خطاً ثم قال هذا
سبيل الله، ثم خط خطوطاً عن يمينه ويساره ثم قال: هذه سُبُل على كل سبيل منها شيطان يدعو
إليها ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾^(٥) الآية».

﴿ذَلِكَمُ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ كرر الوصية على سبيل التوكيد أي لعلكم تتقون
النار بامثال أوامر الله واجتناب نواهيه قال ابن عطية: لما كانت المحرمات الأولى لا يقع
فيها عاقل جاءت العبارة ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣] والمحرمات الأخر شهوات وقد يقع
فيها من لم يتذكر جاءت العبارة ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ والسير في الجادة المستقيمة يتضمن

(١) (ش): رواه الترمذي، وصححه الألباني.

(٢) «البحر» ٢٥٢/٤.

(٣) «البيضاوي» ص ١٨٤.

(٤) «القرطبي» ١٣٧/٧.

(٥) «مختصر ابن كثير» ٦٣٣/١. (ش): رواه أحمد وصححه الألباني.

فعل الفضائل ولا بد لها من تقوى الله جاءت العبارة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١) [البقرة: ٦٣] ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ أي أعطينا موسى التوراة تمامًا للكرامة والنعمة على من كان محسنًا وصالحًا قال «الطبري»: أي آتينا موسى الكتاب تمامًا لنعمتنا عليه في قيامه بأمرنا ونهينا فإن إيتاء موسى الكتاب نعمة من الله عليه ومنَّة عظيمة لما سلف منه من صالح العمل وحسن الطاعة^(٢) ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ وبيانًا مفصلاً لكل ما يحتاج إليه بنو إسرائيل في الدين ﴿وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي وهدى لبني إسرائيل ورحمة عليهم ليصدقوا بقاء الله قال ابن عباس: كي يؤمنوا بالبعث ويصدقوا بالشواب والعذاب^(٣) ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ﴾ أي وهذا القرآن الذي أنزلناه على محمد كتاب عظيم الشأن كثير المنافع مشتمل على أنواع الفوائد الدينية والدنيوية ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي تمسكوا به واجعلوه إمامًا واحذروا أن تخالفوه لتكونوا راجعين للرحمة ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْأَكْتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ﴾ أي أنزلناه بهذا الوصف العظيم الجامع لخيرات الدنيا والآخرة كراهة أن تقولوا يوم القيامة ما جاءنا كتاب فتبعه وإنما نزلت الكتب المقدسة على اليهود والنصارى قال ابن جرير: فقطع الله بإنزاله القرآن على محمد ﷺ حجتهم تلك ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ﴾ أي وإنه الحال والشأن كنا عن معرفة ما في كتبهم ودراستهم غافلين لا نعلم ما فيها لأنها لم تكن بلغتنا ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ أو تقولوا لو أننا أنزل علينا الكتاب كما أنزل على هاتين الطائفتين لكنا أهدى منهم إلى الحق وأسرع إجابة لأمر الرسول لمزيد ذكائنا وجدنا في العمل ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أي فقد جاءكم من الله على لسان محمد ﷺ قرآن عظيم، فيه بيان للحلال والحرام وهدى لما في القلوب ورحمة من الله لعبادة قال «القرطبي»: أي قد زال العذر بمجيء محمد ﷺ^(٤) قال ابن عباس: بيّنة أي حجة وهو النبي ﷺ والقرآن^(٥) ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي من أكفر ممن كذب بالقرآن ولم يؤمن به ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أي أعرض عن آيات الله قال «أبو السعود»: أي صرف الناس عنها فجمع بين الضلال والإضلال^(٦) ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ وعيد لهم أي سثيب هؤلاء المعرضين عن آيات الله وحججه الساطعة شديد العقاب بسبب إعراضهم عن آيات الله وتكذيبهم لرسله ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ

(١) «البحر» ٢٥٤/٤.

(٢) «الطبري» ٢٣٦/١٢.

(٣) «أبو السعود» ١٤٨/٢.

(٤) «القرطبي» ١٤٤/٧.

(٥) «زاد المسير» ١٥٥/٣.

(٦) «أبو السعود» ١٤٩/٢.

إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴿١﴾ أَيُّ مَا يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ الْمَشْرُكُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ وَتَعْذِيبِهَا وَهُوَ وَقْتُ لَا تَنْفَعُ فِيهِ تَوْبَتُهُمْ ﴿٢﴾ أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴿٣﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيُّ يَأْتِي أَمْرَ رَبِّكَ فِيهِمْ بِالْقَتْلِ أَوْ غَيْرِهِ^(١)

وقال «الطبري»: المراد أن يأتيهم ربك في موقف القيامة للفصل بين خلقه أو يأتيهم بعض آيات ربك وهو طلوع الشمس من مغربها^(٢) ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ أَيُّ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ وَحِينَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الْإِيْمَانُ نَفْسًا كَافِرَةً ءَامَنَتْ فِي ذَلِكَ الْحِينِ وَلَا نَفْسًا عَاصِيَةً لَمْ تَعْمَلْ خَيْرًا قَالَ «الطبري»: أَيُّ لَا يَنْفَعُ مَنْ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ مُشْرِكًا بِاللَّهِ أَنْ يُؤْمِنَ بَعْدَ مَجِيءِ تِلْكَ الْآيَةِ لِعَظِيمِ الْهَوْلِ الْوَارِدِ عَلَيْهِمْ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، فَحُكْمُ إِيْمَانِهِمْ كَحُكْمِ إِيْمَانِهِمْ عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ^(٣) وَفِي الْحَدِيثِ «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَأَاهَا النَّاسُ ءَامَنُوا وَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا»^(٤) ﴿قُلْ أَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ أَيُّ أَنْتَظِرُوا مَا يَحِلُّ بِكُمْ وَهُوَ أَمْرٌ تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا﴾ أَيُّ فَرَّقُوا الدِّينَ فَأَصْبَحُوا شِيْعًا وَأَحْزَابًا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فَرَّقُوا دِينَ إِبْرَاهِيمَ الْحَنِيفِ ﴿كَسَبَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أَيُّ أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ بَرِيءٌ مِنْهُمْ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ أَيُّ جَزَاؤُهُمْ وَعِقَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ هُوَ يَتَوَلَّى جَزَاءَهُمْ ﴿ثُمَّ يَنْتَظِرُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أَيُّ يَخْبِرُهُمْ بِشَيْعِ فَعَالِهِمْ قَالَ «الطبري»: أَيُّ أَخْبِرُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَأَجَازِي كَلَامًا مِنْهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ^(٥) ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ أَيُّ مَنْ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَةٍ وَاحِدَةٍ جُوزِي عَنْهَا بِعَشْرِ حَسَنَاتٍ أَمْثَالِهَا فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَكَرَمًا وَهُوَ أَقْلُ الْمُضَاعَفَةِ لِلْحَسَنَاتِ فَقَدْ تَنْتَهَى إِلَى سَبْعِمِائَةٍ أَوْ أَزِيدَ ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا﴾ أَيُّ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ عَوِّقَ بِمِثْلِهَا دُونَ مُضَاعَفَةٍ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أَيُّ لَا يُنْقِصُونَ مِنْ جَزَائِهِمْ شَيْئًا وَفِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا أَوْ أَزِيدَ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ مِثْلُهَا أَوْ أَغْفَرُ^(٦) فَالزِّيَادَةُ فِي الْحَسَنَاتِ مِنْ بَابِ الْفَضْلِ، وَالْمُعَامَلَةُ بِالْمِثْلِ فِي السَّيِّئَاتِ مِنْ بَابِ الْعَدْلِ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٧) قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿

(١) (ش): هذا من التأويل المخالف لعقيدة السلف، فالصحيح ما نقله المؤلف بعد ذلك مباشرة عن «الطبري» من أن المراد أن يأتيهم ربك. وما رُوِيَ عن ابن عباس وجدته في «تفسير القرطبي» و«البحر المحيط» لأبي حيان الأندلسي، ولكن بدون إسناد.

(٢) «الطبري» ١٢ / ٢٤٥.

(٣) «الطبري» ١٢ / ٢٦٦.

(٤) أخرجه البخاري. (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٥) «الطبري» ١٢ / ٢٧٤.

(٦) رواه مسلم.

أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين إن ربي هداي إلى الطريق القويم وأرشدني إلى الدين الحق دين إبراهيم ﴿دِينًا قِيمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي دينًا مستقيمًا لا عوج فيه هو دين الحنيفية السمحة الذي جاء به إمام الحنفاء إبراهيم الخليل ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي وما كان إبراهيم مشركًا، وفيه تعريض بإشراك من خالف دين الإسلام لخروجه عن دين إبراهيم ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي﴾ أي قل يا محمد إن صلاتي التي أعبد بها ربي ﴿وَنُكُوسِي﴾ أي ذبحي^(١) ﴿وَحَيَايَ وَمَمَاتِي﴾ أي حياتي ووفاتي وما أقدمه في هذه الحياة من خيرات وطاعات ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي ذلك كله لله خالصًا له دون ما أشركتم به ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ أي لا أعبد غير الله ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ أي بإخلاص العبادة لله وحده أمرت ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي أول من أقر وأذعن وخضع لله جلّ وعلا ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ تقرير وتوبيخ للكفار، وسببها أنهم دعوه إلى عبادة آلهتهم والمعنى: قل يا محمد أأطلب ربًّا غير الله تعالى؟ ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي والحال هو خالق ومالك كل شيء فكيف يليق أن أتخذ إلهًا غير الله؟ ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ أي لا تكون جناية نفس من النفوس إلا عليها ﴿وَلَا تُزْرَى وَزْرُهُ وَزَرُ أُخْرَى﴾ أي لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يؤخذ إنسان بجريرة غيره ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ وهذا وعيد وتهديد أي مرجعكم إليه يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم ويميز بين المحسن والمسيء ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ أي جعلكم خلفاء للأمم الماضية والقرون السالفة يخلف بعضهم بعضًا قال «الطبري»: أي استخلفكم بعد أن أهلك من كان قبلكم من القرون والأمم الخالية فجعلكم خلائف منهم في الأرض تخلفونهم فيها^(٢) ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أي خالف بين أحوالكم في الغنى والفقر، والعلم والجهل، والقوة والضعف وغير ذلك مما وقع فيه التفضيل بين العباد ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ أي ليختبر شكركم على ما أعطاكم قال ابن الجوزي: أي ليختبركم فيظهر منكم ما يكون به الثواب والعقاب^(٣) ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي إن ربك سريع العقاب لمن عصاه وغفور رحيم لمن أطاعه، قال في «التسهيل»: جمع بين الخوف والرجاء، وسرعة العقاب إما في الدنيا بتعجيل الأخذ أو في الآخرة لأن كل ما هو آت قريب^(٤).

البلاغة: ١ - ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ السُّبُل استعارة عن البدع والضلالات والمذاهب المنحرفة.

(١) هذا قول ابن عباس ومجاهد واختاره «الطبري» وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالنسك العبادة والأولى أرجح.

(٢) «الطبري» ١٢ / ٢٨٧.

(٣) «زاد المسير» ٣ / ١٦٣.

(٤) «التسهيل» ٢ / ٢٨.

- ٢ - ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا﴾ التنكير لإفادة العموم والشمول.
- ٣ - ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ﴾ الإضافة للتشريف والتعظيم.
- ٤ - ﴿يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا﴾ وضع الظاهر مكان الضمير ﴿عَنْهَا﴾ لتسجيل شناعة وقباحة طغيانهم^(١).
- ٥ - ﴿قُلْ أَنْظِرُوا﴾ الأمر للتهديد والوعيد.
- ٦ - ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا...﴾ الآية اشتمل هذا الكلام على النوع المعروف من علم البيان باللف وأصل الكلام: يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً لم تكن مؤمنة قبل إيمانها بعد، ولا نفساً لم تكسب في إيمانها خيراً قبل ما تكسبه من الخير بعد، إلا أنه لف الكلامين فجعلهما كلاماً واحداً بلاغة واختصاراً وإعجازاً، أفاده صاحب الانتصاف^(٢).
- ٧ - (ظَهَرَ) و (بَطَنَ) طباق وبين ﴿بِالْحَسَنَةِ﴾ و ﴿بِالسَّيِّئَةِ﴾ طباق كذلك وهو من المحسنات البديعية.
- ٨ - ﴿وَلَا تُزِرُّ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى﴾ قال الشريف الرضي: ليس هناك على الحقيقة أحمال على الظهور وإنما هي أثقال الآثام والذنوب فهو من الاستعارة اللطيفة^(٣).
- فائدة:** وحد تعالى ﴿سَبِيلِهِ﴾ لأن الحق واحد وجمع ﴿السُّبُلِ﴾ لأن طرق الضلالة كثيرة ومتشعبة.
- تنبيه: قال الحافظ «ابن كثير»: كثيراً ما يقرن تبارك وتعالى في القرآن بين هاتين الصفتين ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ كقوله تعالى ﴿نَبِيٌّ عَبْدِي أَيُّ أَنَا الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(٤) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ [الحجر: ٤٩ - ٥٠] إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب، فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها، وتارة بهما لينجع في كل بحسبه^(٤).

«تم تفسير سورة الأنعام بعونه تعالى وله الحمد والمنة»



(١) (ش): قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِعَاثِتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجَرَى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ ، ومعنى كلام المؤلف أن في قوله تعالى: ﴿عَنْ آيَاتِنَا﴾ تكرار الإشارة إلى آيات الله بالاسم الظاهر ﴿آيَاتِنَا﴾ ، بدل الضمير (الهاء) الذي يشير إليها، فلم يقل (عَنْهَا).

(٢) حاشية «الكشاف» ٢/ ٦٤.

(٣) تلخيص البيان ص ٤٠.

(٤) «مختصر ابن كثير» ١/ ٦٤٢. (ش): نجع الشيء: نفع، وظهر أثره.



مكية وآياتها ست ومائتان

بين يدي السورة

سورة الأعراف من أطول السور المكية، وهي أول سورة عرضت للتفصيل في قصص الأنبياء، ومهمتها كمهمة السور المكية تقرير أصول الدعوة الإسلامية من توحيد الله جل وعلا، وتقرير البعث والجزاء، وتقرير الوحي والرسالة.

* تعرضت السورة الكريمة في بدء آياتها للقرآن العظيم معجزة محمد الخالدة، وقررت أن هذا القرآن نعمة من الرحمن على الإنسانية جمعاء، فعليهم أن يستمسكوا بتوجيهاته وإرشاداته ليفوزوا بسعادة الدارين.

* ولفتت الأنظار إلى نعمة خلقهم من أب واحد، وإلى تكريم الله لهذا النوع الإنساني ممثلاً في أبي البشر آدم عليه السلام الذي أمر الله الملائكة بالسجود له، ثم حذرت من كيد الشيطان ذلك العدو المتربص الذي قعد على طريق الناس ليصدهم عن الهدى ويبعدهم عن خالقهم. * وقد ذكر الله تعالى قصة آدم مع إبليس وخروجه من الجنة، وهبوطه إلى الأرض كنموذج للصراع بين الخير والشر، والحق والباطل، وبيان لكيد إبليس لآدم وذريته، ولهذا وجه الله أبناء آدم -بعد أن بين لهم عداوة إبليس لأبيهم- أربعة نداءات متتالية بوصف البنوة لآدم ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ﴾ وهو نداء خاص بهذه السورة يحذرهم بها من عدوهم الذي نشأ على عداوتهم من قديم الزمان حين وسوس لأبيهم آدم حتى أوقعه في الزلة والمخالفة لأمر الله ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ لَا يَفْنَىٰكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تِهَمًا﴾ [الأعراف: ٢٧].

* كما تعرضت السورة الكريمة لمشهد من المشاهد الواقعة يوم القيامة، مشهد الفرق الثلاثة وما يدور بينهم من محاوراة ومناظرة: فرقة المؤمنين أصحاب الجنة، وفرقة الكافرين أصحاب النار، وفرقة ثالثة لم يتحدث عنها القرآن إلا في هذه السورة، وهي الفرقة التي سميت بأصحاب الأعراف وسميت باسمها السورة «سورة الأعراف» مشهد سوف يشهده العالم يوم البعث والجزاء على الحقيقة دون تمثيل ولا تخيل، تبين ما يكون فيه من شماتة أهل الحق «أصحاب الجنة» بالمبطلين أصحاب النار، وينطلق صوت علوي يسجل عليهم اللعنة والطرود والحرمان، وقد ضرب بين الفريقين بحجاب ووقف عليه رجال يعرفون كلاً بسيماهم، ويعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه ونضرتها، ويعرفون أهل النار بسواد الوجوه وقترتها.

* وتناولت السورة قصص الأنبياء بإسهاب «نوح، هود، صالح، لوط، شعيب، موسى» وقد ابتدأت بشيخ الأنبياء «نوح» عليه السلام وما لاقاه من قومه من جحود وعناد، وتكذيب

وإعراض، وقد ذكرت بالتفصيل قصة الكليم موسى عليه السلام مع فرعون الطاغية، وتحدثت عما نال بني إسرائيل من بلاء وشدة ثم من أمن ورخاء وكيف لما بدلوا نعمة الله وخالفوا أمره عاقبهم الله تعالى بالمسخ إلى قردة وخنازير.

*وتناولت السورة كذلك المثل المخزي لعلماء السوء، وصورتهم بأشنع وأقبح ما يمكن للخيال أن يتصوره، صورة الكلب اللاهث الذي لا يكف عن اللهث، ولا ينفك عن التمرغ في الطين والأوحال ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ فَكُفِّلَ إِلَيْهِ أَكَلُ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثُ﴾ وتلك لعمر الحق أقبح صورة مُزْرِيَّة^(١) لمن رزقه الله العلم النافع فاستعمله لجمع الحطام الفاني وكان خزيًا ووبالاً عليه، لأنه لم يتنفع بهذا العلم، ولم يستقم على طريق الإيمان وانسلخ من النعمة، وأتبعه الشيطان فكان من الغاوين.

* وقد ختمت السورة الكريمة بإثبات التوحيد، والتهكم بمن عبدوا ما لا يضر ولا ينفع، ولا يبصر ولا يسمع، من أحجار وأصنام اتخذوها شركاء مع الله، وهو جل وعلا وحده الذي خلقهم وصورهم ويعلم منقلبهم ومثواهم، وهكذا ختمت السورة الكريمة بالتوحيد كما بدأت بالتوحيد، فكانت الدعوة إلى الإيمان بوحداية الرب المعبود في البدء والختام.

التسمية: سميت هذه السورة بسورة الأعراف لورود ذكر اسم الأعراف فيها، وهو سور مضروب بين الجنة والنار يحول بين أهلها، روى ابن جرير عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف فقال: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقعدت بهم سيئاتهم عن دخول الجنة، وتخلفت بهم حسناتهم عن دخول النار، فوقفوا هنالك على السور حتى يقضي الله فيهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَصِّ ١ كَذَّبَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِيُنْذِرَ بِهِ، وَذَكَرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ٢ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ٣ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ٤ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ٥ فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ٧ وَالْوَزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ٩ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ١٠ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ١١ قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ١٢

(١) (ش): مُزْرِيَّة: مُخْجَلَةٌ، مُؤَسَفَةٌ.

قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ فِيهَا فَالْصَّغِيرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُ فِيهِمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا وَمَدْحُورًا لَمَنِ تَبَعَكَ مِنْهُمْ لَا ضَلَالًا جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَتَذَكَّرُ أَتَى أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكَلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَ تَيْهَمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ فَلَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَفِيهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَبْنِيْ عَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لُبَاسًا يُورِي سَوْءَ تَيْهَمٍ وَرِدْشًا وَلِبَاسَ النَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَبْنِيْ عَادَمَ لَا يَفْنَدَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَيْهَمَا إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَةِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

اللغة: ﴿حَرَجٌ﴾ ضيق يقال: حَرَجَ المكانُ أو الصدرُ إذا ضاق ﴿بَيْتًا﴾ قال الراغب: البياتُ والبيتُ: قصدُ العدو ليلاً^(١) ﴿قَالِيلُونَ﴾ من القيلولة وهي النوم وسط النهار، والقائلة: الظهيرة ﴿مَذْمُومًا﴾ مذمومًا يقال ذامه، أي: ذمه وحقره ﴿مَدْحُورًا﴾ مطرودًا يقال دحره أي طرده وأبعده ﴿سَوْءَ تَيْهَمَا﴾ السوأة: العورة سميت بذلك لأن الإنسان يسوءه ظهورها ﴿وَطَفِقَا﴾ شرعا وأخذًا يقال: طَفِقَ يَطْفِقُ إذا ابتدأ وأخذ ﴿يَخْصِفَانِ﴾ يرفعان ويلزقان ﴿وَرِدْشًا﴾ لباسًا تتجملون به وأصل الریش: المال والجمال ومنه ريش الطير لأنه زينة له وجمال ﴿وَقَبِيلُهُ﴾ جنوده وأصل القبيل: الجماعة سواء كانوا من أصل أو أصول شتى ﴿فَاحِشَةً﴾ الفاحشة هي الشيء الذي تنهى قبحه والمراد بها هنا الطوافُ حَوْلَ البيتِ عِراءً، وكل أمرٍ قبيحٍ يسمى فاحشةً، والفحشاء ما اشتد قبحه من الذنوب كالفاحشة.

«التفسير»: ﴿الْمَصَّ﴾ تقدم في أول سورة البقرة الكلام عن الحروف المقطعة وأن الحكمة في ذكرها بيان «إعجاز القرآن» بالإشارة إلى أنه مركب من أمثال هذه الحروف ومع ذلك فقد عجز بلغاؤهم وفصحاؤهم وعباقرتهم عن الإتيان بمثله. وروي عن ابن عباس معناه: أنا الله

أعلم وأفصل، وقال أبو العالية: الألف مفتاح اسمه الله واللام مفتاح اسمه لطيف والميم مفتاح اسمه مجيد والصاد مفتاح اسمه صادق ﴿كَتَبْنَا نُزْلَ إِلَيْكَ﴾ أي هذا كتاب أنزله الله إليك يا محمد وهو القرآن ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي لا يضق صدرك من تبليغه خوفاً من تكذيب قومك ﴿لِنُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لتنذر بالقرآن من يخاف الرحمن، ولتذكر وتعظ به المؤمنين لأنهم المنتفعون به ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي اتبعوا أيها الناس القرآن الذي فيه الهدى والنور والبيان المنزل إليكم من ربكم ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي ولا تتخذوا أولياء من دون الله كالأوثان والرهبان والكهّان تولونهم أموركم وتطيعونهم فيما يشرعون لكم ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي تتذكرون تذكراً قليلاً قال الخازن: أي ما تتعظون إلا قليلاً^(١) ﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي وكثير من القرى أهلكناها والمراد بالقرية أهلها ﴿فَجَاءَهَا بُسُوفُ السَّيِّئِينَ﴾ أي جاءها عذابنا ليلاً ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ أي جاءهم العذاب في وقت القيلولة وهي النوم في وسط النهار قال أبو حيان: وخصّ مجيء البأس بهذين الوقتين لأنهما وقتان للسكون والدعة والاستراحة فمجيء العذاب فيهما أشق وأفظع لأنه يكون على غفلة من المهلكين^(٢) ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بُسُوفُ السَّيِّئِينَ﴾ أي ما كان دعاؤهم واستغاثتهم حين شاهدوا العذاب ورأوا أماراته ﴿إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي إلا اعترفهم بظلمهم تحسراً وندامة، وهيهات أن ينفع الندم ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي لنسألن الأمم قاطبة هل بلغكم الرسل وماذا أجبتهم؟ والمقصود من هذا السؤال التقرير والتوبيخ للكفار ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي لنسألن الرسل أيضاً هل بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة؟ قال في «البحر»: وسؤال الأمم تقرير وتوبيخ يعقب الكفار والعصاة نكالا وعذاباً، وسؤال الرسل تأنيس يعقب الأنبياء كرامة وثواباً^(٣) ﴿فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي فلنخبرهم بما فعلوا عن علم منا قال ابن عباس: يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ أي ما كنا غائبين عنهم حتى يخفى علينا شيء من أحوالهم قال «ابن كثير»: يخبر تعالى عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجيل وحقير، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور^(٤) ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ أي والوزن للأعمال يوم القيامة كائن بالعدل ولا يظلم ربك أحداً ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي فمن رجحت موازين أعماله بالإيمان وكثرة الحسنات ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي الناجون غداً من العذاب الفائزون بجزيل

(١) «تفسير الخازن» ٢/ ١٧٣.

(٢) «البحر» ٤/ ٢٦٩.

(٣) «البحر المحيط» ٤/ ٢٧٠.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٢/ ٦.

الثواب ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي ومن خفت موازين أعماله بسبب الكفر واجتراح السيئات ﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي خسروا أنفسهم وسعادتهم ﴿يَمَّا كَانُوا يَعْبَادُونَ﴾ أي بسبب كفرهم وجحودهم بآيات الله قال «ابن كثير»: والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل: الأعمال وإن كانت أعراضاً إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساماً يروى هذا عن ابن عباس، وقيل: يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة، وقيل: يوزن صاحب العمل كما في الحديث «يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة»^(١) والكل صحيح فتارةً توزن الأعمال، وتارةً محالها، وتارةً يوزن فاعلها والله أعلم. أقول: لا غرابة في وزن الأعمال ووزن الحسنات والسيئات بالذات، فإذا كان العلم الحديث قد كشف لنا عن موازين للحر والبرد، واتجاه الرياح والأمطار، أفيعجز القادر على كل شيء عن وضع موازين لأعمال البشر؟ ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي جعلنا لكم أيها الناس في الأرض مكاناً وقراراً قال «البيضاوي»: أي مكناكم من سكنائها وزرعها والتصرف فيها ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ﴾ أي ما تعيشون به وتحبون من المطاعم والمشارب وسائر ما تكون به الحياة ﴿فَلِيْلًا تَشْكُرُونَ﴾ أي ومع هذا الفضل والإنعام قليل منكم من يشكر ربه كقوله ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي خلقنا أبابكم آدم طيناً غير مصوّر ثم صورناه أبدع تصوير وأحسن تقويم، وإنما ذكر بلفظ الجمع تعظيماً له لأنه أبو البشر ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ أي ثم أمرنا الملائكة بالسجود لآدم تكريماً له ولذريته ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ أي سجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس امتنع من السجود تكبراً وعناداً، والاستثناء منقطع لأنه استثناء من غير الجنس وقد تقدم قول الحسن البصري: لم يكن إبليس من الملائكة طرفه عين ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ أي قال تعالى لإبليس: أي شيء منعك أن تدع السجود لآدم؟ والاستفهام للتقريع والتوبيخ ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ أي قال إبليس للعين: أنا أفضل من آدم وأشرف منه فكيف يسجد الفاضل للمفضول؟ ثم ذكر العلة في الامتناع فقال ﴿خَلَقَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ أي أنا أشرف منه لشرف عنصرى على عنصره، لأنني مخلوق من نار والنار أشرف من الطين، ولم ينظر المسكين لأمر من أمره بالسجود وهو الله تعالى قال «ابن كثير»: نظر العين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف والتعظيم وهو أن الله خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، وقاس قياساً فاسداً فأخطأ قبحه الله في قياسه في دعواه أن النار أشرف من الطين، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم، والنار من شأنها الإحراق والطيش، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح والنار محل العذاب ولهذا خان إبليس عنصره فأورثه الهلاك والشقاء والدمار قال ابن سيرين: أول من قاس إبليس فأخطأ فمن قاس الدين برأيه قرنه

(١) (ش): رواه البخاري ومسلم.

الله مع إبليس ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ أي اهبط من الجنة فما يصح ولا يستقيم ولا ينبغي أن تستكبر عن طاعتي وأمرني وتسكن دار قدسي ﴿ فَخُذْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ أي الدليلين الحقيرين قال الزمخشري: وذلك أنه لما أظهر الاستكبار ألبسه الله الذل والصغار فمن تواضع لله رفعه ومن تكبر على الله وضعه ﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ استدرك اللعين فطلب من الله الإمهال إلى يوم البعث لينجو من الموت لأن يوم البعث لا موت بعده فأجابته تعالى بقوله ﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ قال ابن عباس: أنظره إلى النفخة الأولى حيث يموت الخلق كلهم وكان طلب الإنظار إلى النفخة الثانية حيث يقوم الناس لرب العالمين فأبى الله ذلك عليه^(١) ويؤيده الآية الأخرى ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿ [الحجر: ٣٧ - ٣٨] ﴾ قَالَ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿ أي فسبب إغوائك وإضلالك لي لأقعدن لأدم وذريته على طريق الحق وسبيل النجاة الموصل للجنة كما يقعد القطاع للسابلة^(٢) ﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُنَّ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَيْهِمْ سَلَامٌ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴿ أي آتي عبادك من كل جهة من الجهات الأربع لأصددهم عن دينك قال «الطبري»: معناه لَا تَجِدُنَّهم من جميع وجوه الحق والباطل، فأصددهم عن الحق وأحسن لهم الباطل قال ابن عباس: ولا يستطيع أن يأتي من فوقهم لثلا يحول بين العبد وبين رحمة الله تعالى^(٣) ﴾ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿ أي مؤمنين مطيعين شاكرين لنعمك ﴾ قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْءُومًا وَمَأْكُورًا ﴿ أي أخرج من الجنة مذموماً معيماً مطروداً من رحمتي ﴾ لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿ اللام موطئة للقسم أي لمن أطاعك من الإنس والجن لأملأن جهنم من الأتباع الغاوين أجمعين، وهو وعيد بالعذاب لكل من انقاد للشيطان وترك أمر الرحمن ﴾ وَيَتَذَكَّرُ لِمَنْ أَسْكَنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴿ أي وقلنا يا آدم اسكن مع زوجك حواء الجنة بعد أن أهبط منها إبليس وأخرج وطرده ﴿ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ أي كلا من ثمارها من أي مكان شئتما ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أباح لهما الأكل من جميع ثمارها إلا شجرة عينها لهما ونهاهما عن الأكل منها ابتلاءً وامتحاناً فعند ذلك حسدهما الشيطان وسعى في الوسوسة والمكر والخديعة ﴿ فَسَوَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ أي ألقى لهما بصوت خفي لإغرائهما بالأكل من الشجرة ﴿ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِئِهِمَا ﴾ أي ليظهر لهما ما كان مستوراً من العورات التي يقبح كشفها ﴿ وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ وهذا توضيح لوسوسة اللعين أي قال في وسوسته لهما: ما نهاكما ربكما عن الأكل من الشجرة إلا كراهية أن تكونا مَلَكَتَيْنِ أو تصبحا من المخلدين في الجنة ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ ﴾

(١) «القرطبي» ١٤٧/٧.

(٢) (ش): سابلة: طريقٌ مسلوكة، مأرون على الطريق.

(٣) «الطبري» ١٢/٣٤١.

أي حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما وقد يُخدع المؤمن بالله قال الألوسي: وإنما عبر بصيغة المفاعلة للمبالغة لأن من يباري أحداً في فعلٍ يجد فيه ^(١) ﴿فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾ أي خدعهما بما غرهما به من القسم بالله قال ابن عباس: غرهما باليمين وكان آدم يظن أنه لا يحلف أحداً بالله كاذباً فغرهما بوسوسته وقسمه لهما ^(٢) ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا﴾ أي فلما أكلا من الشجرة ظهرت عوراتهما قال الكلبي: تهافت عنهما لباسهما فأبصر كل منهما عورة صاحبه فاستحيا ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ أي أخذوا وشرا يلصقان ورقة على ورقة ليستترا به بعد أن كانت كسوتهما من حلل الجنة قال «القرطبي»: أي جعلاً يقطعان الورق ويلزقانه ليستترا به، ومنه خُصِفُ النعل ^(٣) وعن وهب ابن منبه قال: كان لباس آدم وحواء نوراً على فروجهما لا يرى هذا عورة هذه، ولا هذه عورة هذا فلما أصابا الخطيئة بدت لهما سواتهما ^(٤) ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي ناداهما الله بطريق العتاب والتوبيخ قائلاً: ألم أحذركما من الأكل من هذه الشجرة وأخبركما بعداوة الشيطان اللعين؟ روى أنه تعالى قال لآدم: ألم يكن لك فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة؟ فقال: بلى وعزتك ولكن ما ظننت أن أحداً من خلقك يحلف بك كاذباً قال: فَوَعِزَّتِي لأهبطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلا كدّاً ^(٥) ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ اعترفا بالخطيئة وتابا من الذنب وطلبا من الله المغفرة والرحمة قال «الطبري»: وهذه الآية هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه ^(٦) ﴿قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ الخطاب لآدم وحواء وإبليس ولهذا جاء بصيغة الجمع أي اهبطوا من سماء القدس إلى الأرض حال كون بعضكم عدواً لبعض، فالشيطان عدو للإنسان، والإنسان عدو للشيطان كقوله ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَى حِينٍ﴾ أي لكم في الأرض موضع استقرار وتمتع وانتفاع إلى حين انقضاء آجالكم ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ أي في الأرض تعيشون وفيها تُقبرون ومنها تُخرجون للجزاء كقوله

(١) «روح المعاني» ٨/ ١٠٠.

(٢) «القرطبي» ٧/ ١٨٠.

(٣) «القرطبي» ٧/ ١٨١. (ش:) خَصَفَ النَّعْلَ ونحوها: حَاطَهَا بِالْمِخْصَفِ، خَرَزَهَا، أَصْلَحَهَا.

(٤) «الطبري» ١٢/ ٣٥٥.

(٥) «البحر» ٤/ ٢٨١. (ش:) هو في بعض كتب «التفسير» بدون إسناد. (مندوحة): سعة وفسحة. (لا مندوحة لك عن هذا الأمر/ لا مندوحة لك من هذا الأمر): لا يمكنك تركه. (لك عن هذا الأمر مندوحة/ من هذا الأمر مندوحة): يمكنك تركه والميل عنه. (الكُدُّ): الإرهاق والتعب.

(٦) هذه الرواية نقلها «الطبري» عن الضحاك وفيه الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَلَقَّحَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّ عَلَىٰ﴾.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥] ثم ذكر تعالى ما امتنَّ به على ذرية آدم من اللباس والرياش^(١) والمتاع فقال ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوْءَ نَفْسِكَ وَرِدْشًا﴾ أي أنزلنا عليكم لباسين: لباسًا يستر عوراتكم، ولباسًا يزينكم وتتجملون به قال الزمخشري: الريش لباس الزينة استعير من ريش الطير لأنه لباسه وزينته^(٢) ﴿وَلِبَاسُ الْقَوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أي ولباس الورع والخشية من الله تعالى خير ما يتزين به المرء فإن طهارة الباطن أهم من جمال الظاهر قال الشاعر:

وَحَيْرُ لِبَاسِ الْمَرْءِ طَاعَةُ رَبِّهِ وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ كَانَ لِلَّهِ عَاصِيَا

﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي إنزال اللباس من الآيات العظيمة الدالة على فضل الله ورحمته على عباده ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ أي لعلهم يذكرون هذه النعم فيشكرون الله عليها ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْنِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ﴾ أي لا يغوينكم الشيطان بإضلاله وفتنته ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ أي كما أغوى أبويكم بالأكل من الشجرة حتى أخرجهما من الجنة ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ بَعْثِهِمَا﴾ أي ينزع عنهما اللباس لتظهر العورات، ونسب النزاع إليه لأنه المتسبب، وهذا هدف اللعين أن يهتك الستر عن الإنسان ويعريه من جميع الفضائل الحسنية والمعنوية ﴿إِنَّهُ يَرِثُكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرْوَنَّهُمْ﴾ أي إن الشيطان يبصركم هو وجنوده من الجهة التي لا تبصرونه منها، فهو لكم بالمرصاد فاحذروا كيد ومكره لأن العدو إذا أتى من حيث لا يُرى كان أشدَّ وأخوف ﴿وَأَنَا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي جعلنا الشياطين أعوانًا وقرناء للكافرين ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً﴾ أي وإذا فعل المشركون فاحشة وهي الفعلة المتناهية في القبح كالطواف حول البيت عرا ﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهِمُ آبَاءَنَا﴾ أي اعتذروا عن ذلك الفعل القبيح بتقليد الآباء ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ أي أمرنا بالتجرد من الثياب إذ كيف نطوف في ثياب عصينا فيها الله! وهذا افتراء على ذي الجلال قال «البيضاوي»: احتجوا بأمرين: تقليد الآباء، والافتراء على الله سبحانه، فأعرض عن الأول لظهور فساد، وردَّ الثاني بقوله ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ لَا تَأْمُرُوا بِالْفَحْشَاءِ﴾^(٣) أي قل لهم يا محمد: الله منزّه عن النقص لا يأمر عباده بقبائح الأفعال ومساوي الخصال ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أتكذبون على الله وتنسبون إليه القبيح دون علم ونظر صحيح؟ ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل والاستقامة ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي توجهوا بكلِّيتكم إليه عند كل سجود ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي واعبدوه مخلصين له العبادة والطاعة قال «ابن كثير»: أي أمركم بالاستقامة في عبادته وهي

(١) (ش): رِياش: لباسٌ أو أثاثٌ فاخر.

(٢) «الكشاف» ٩٧/٢.

(٣) «البيضاوي» ص ١٨٩.

متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات وبالإخلاص لله في العبادة فإن الله تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين: أن يكون صواباً موافقاً للشرعية، وأن يكون خالصاً من الشرك^(١) ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ أي كما بدأكم من الأرض تعودون إليها ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ أي هدى فريقاً منكم وأضل فريقاً منكم وهو الفعال لما يريد لا يسأل عما يفعل ﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ هذا تعليل للفريق الذين حقت عليهم الضلالة أي اتخذوا الشياطين نصراء من دون الله ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي يظنون أنهم على بصيرة وهداية.

البلاغة: ١ - ﴿حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي ضيق من تبليغه فهو على حذف مضاف مثل ﴿وَسَّوِلَ الْقُرَيْةِ﴾ [يوسف: ٨٢].

٢ - ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة لضمير المخاطبين لمزيد اللطف بهم وترغيبهم في امتثال الأوامر^(٢).

٣ - ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بين ﴿ثَقُلَتْ﴾ و ﴿خَفَّتْ﴾ طباق وكذلك بين ﴿بَيْنًا﴾ و ﴿قَائِلُونَ﴾ لأن البيات معناه ليلاً و ﴿قَائِلُونَ﴾ معناه نهراً وقت الظهر.

٤ - ﴿خَلَقْنَاهُكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاهُكُمْ﴾ هو على حذف مضاف أي خلقنا أبابكم وصورنا أبابكم.

٥ - ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ استعار الصراط المستقيم لطريق الهداية الموصل إلى جنان النعيم.

٦ - ﴿وَيَتَكَادُمْ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي وقلنا يا آدم.

٧ - ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ عبّر عن الأكل بالقرب مبالغة في النهي عن الأكل منها.

٨ - ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ أكد الخبر بالقسم وإن واللام لدفع شبهة الكذب وهو من الضرب^(٣) الذي يسمى «إنكارياً» لأن السامع متردد.

٩ - ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾ بين الجمليتين طباق وهو من المحسنات البديعية.

تنبيه: سميت العورة سوءاً لأن كشفها يسوء صاحبها قال العلماء: في الآية دليل على أن كشف العورة من عظام الأمور وأنه مستهجن في الطباع ولذلك سميت سوءاً أقول: إن الآية قد أوضحت هدف إبليس اللعين ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ بَيْتِهِمَا﴾ فمن دعا إلى تعري المرأة وشجع على ذلك كما هو حال من يزعم التقدمية ويدعو المرأة إلى نزع الحجاب بدعوى الحرية والمساواة فإنما هو عدو للمرأة ومن أنصار وأعوان إبليس لأن الهدف واحد،

(١) «مختصر ابن كثير» ١٣/٢.

(٢) أفاده «أبو السعود» ١٥٥/٢.

(٣) (ش): الضرب: النوع.

وهي دعوة مكشوفة غايتها التفسخ والانحلال الخلقي، وليست التقديمية بالتكشف والتعري وإنما هي بصيانة الشرف والعفاف والله دُرُّ القائل^(١):

يَابْنَتِي إِنَّ أَرَدْتَ آيَةَ حُسْنٍ وَجَمَالًا يَزِينُ جِسْمًا وَعَقْلًا
فَأُنَبِّذِي عَادَةَ التَّبَرُّجِ نَبْذًا فَجَمَالُ النُّفُوسِ أَسْمَى وَأَعْلَى
يَصْنَعُ الصَّانِعُونَ وَرَدًّا وَلَكِنْ وَرَدَةُ الرُّوضِ لَا تُضَارِعُ شَكْلًا

قال الله تعالى:

يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَبْنِيْءَ آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنْ أَنْقَضَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكَرْبِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَإِنَّا مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّْا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ أَذْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا آدَرَكُوهَا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونَا فَنَاتِيهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَيْنَاهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْعَلُ لَهُمْ أَعْيُنُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُلَاحِظَ فِي سَمِّ الْجِلْبَابِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُّوا أَنْ تَلَكُمُ الْجَنَّةَ أَوْ رُتِمُوها بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا جَبَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا

(١) (ش): لله دُرَّة: عبارة تعجب ومدح، أي لله ما بذل من خير وما قام به من عمل، ما أحسن ما أتى به من قول أو عمل.

كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابَ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلِعِبًا وَغَرَّتُهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى قصة آدم عليه السلام، وذكر ما امتن به على بنيه وما أنعم به عليهم من اللباس الذي يستر العورات، أمر هنا بأخذ الزينة والتجمل في المناسبات وعند إرادة الصلاة، ثم ذكر أحوال الآخرة وانقسام الناس إلى طوائف: «أهل الجنة، وأهل النار، وأهل الأعراف» ومآل كل فريق من سعادة أو شقاء في دار العدل والجزاء.

اللغة: ﴿زِينَتَكُمْ﴾ الزينة: ما يترين به المرء ويتجمل من ثياب وغيرها ﴿الْفَوَاحِشَ﴾ جمع فاحشة وهي ما تنهى قبحه من المعاصي ﴿وَالْبَغْيَ﴾ الظلم والاستطالة على الناس ﴿سُلْطَانًا﴾ حجة وبرهانا ﴿سَمِ الْحَيَاطِ﴾ ثقب الإبرة ﴿مِهَادٌ﴾ فراش يمتدّه الإنسان^(١) ﴿غَوَاشٍ﴾ أغطية جمع غاشية قال ابن عباس: هي اللحف^(٢) ﴿الْأَعْرَافِ﴾ السور المضروب بين الجنة والنار جمع عُرف مستعار من عرف الديك ﴿بِسِمْنِهِمْ﴾ بعلامتهم. سَبَبَ النُّزُولِ: عن ابن عباس قال: كانت المرأة تطوف بالبيت عريانة وتقول: من يعيرني تطوافاً تجعله على فرجها وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله
فما بدامنه فلا أحله
فنزلت هذه الآية ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ وأذن مؤذن رسول الله ﷺ: ألا يطوف بالبيت عريان^(٣).

التفسير: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي البسوا أفخر ثيابكم وأطهرها عند كل صلاة أو طواف^(٤) ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ أي لا تسرفوا في الزينة والأكل والشرب بما يضر بالنفس والمال ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي المعتدين حدود الله فيما أحلّ وحرم ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ

(١) (ش): مَهْدُ الْفِرَاشِ / امْتَهَدَ: بَسَطَهُ وَوُطِّئَ وَجَعَلَ لَبِنًا يَسْهُلُ الْقَعُودُ وَالتَّوَمُّ عَلَيْهِ، أَعَدَّهُ وَهَيَّأَهُ.

(٢) (ش): اللحاف: كُلُّ مَا يَتَغَطَّى بِهِ، وَالْجَمْعُ اللَّحَفَةُ وَلُحُفٌ.

(٣) أخرجه مسلم كذا في «القرطبي» ١٨٩/٧. (ش): عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَهِيَ عُرْيَانَةٌ فَتَقُولُ مَنْ يُعِيرُنِي تَطَوُّفًا تَجْعَلُهُ عَلَى فَرْجِهَا وَتَقُولُ: الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ فَمَا بَدَأَ مِنْهُ فَلَا أَحْلَهُ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ فِي الْحَجَّةِ الَّتِي أَمَرَهُ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ فِي رَهْطٍ يُؤَدِّتُونَ فِي النَّاسِ يَوْمَ النَّحْرِ لَا يَحُجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانًا. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(٤) (ش): قال الشيخ السعدي: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: استروا عوراتكم عند الصلاة كلها، فَرَضَهَا وَنَفَلَهَا، فَإِنْ سَتَرَهَا زِينَةً لِلْبَدَنِ، كَمَا أَنَّ كَشْفَهَا يَدْعُ الْبَدْنَ قَبِيحًا مُشَوَّهًا.

زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴿١﴾ أَي قُل يَا مُحَمَّدُ لَهُؤَلَاءِ الْجَهْلَةُ مِنَ الْعَرَبِ الَّذِينَ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عَرَاءَ وَيَحْرَمُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مَا أَحَلَّتْ لَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ مِنْ حَرَمٍ عَلَيْكُمْ التَّجَمُّلِ بِالْثِيَابِ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ لِنَفْعِكُمْ مِنَ النَّبَاتِ، وَالْمُسْتَلْذَاتِ مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ^(١)! وَالْإِسْتِفْهَامِ لِلانْكَارِ وَالتَّوْبِيخِ ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أَي هَذِهِ الزَّيْنَةُ وَالطَّيِّبَاتُ فِي الدُّنْيَا مَخْلُوقَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ شَارَكَهُمْ فِيهَا الْكَافِرُونَ، وَتَسْكُونُ خَالِصَةً لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَشْرِكُهُمْ فِيهَا أَحَدٌ لِأَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أَي نَبِّينَ وَنَوْضِحُ الْآيَاتِ التَّشْرِيعِيَّةَ لِقَوْمٍ يَتَدَبَّرُونَ حِكْمَةَ اللَّهِ وَيَفْقَهُونَ تَشْرِيعَهُ ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أَي قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: مَا حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا الْقَبَائِحَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَفَاحَشُ قُبْحُهَا وَتَنَاهَى ضَرُّهَا، سِوَا مَا كَانَ مِنْهَا فِي السِّرِّ أَوْ فِي الْعَلَنِ ﴿وَالْأَيْمُ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أَي وَحَرَّمَ الْمَعَاصِيَ كُلَّهَا وَالْعُدْوَانَ عَلَى النَّاسِ ﴿وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أَي تَجْعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ فِي عِبَادَتِهِ بِدُونِ حُجَّةٍ أَوْ بَرَهَانٍ ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ أَي تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ فِي التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أَي لِكُلِّ أُمَّةٍ كَذَبَتْ رُسُلَهَا مَدَّةَ مَضْرُوبَةٍ لِهَلَاكِهَا قَالَ فِي «الْبَحْرِ»: هَذَا وَعِيدٌ لِلْمُشْرِكِينَ بِالْعَذَابِ إِذَا خَالَفُوا أَمْرَ رَبِّهِمْ^(٢) ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أَي إِذَا جَاءَ وَقْتُ هَلَاكِهِمْ الْمَقْدَرُ لَهُمْ لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُمْ بَرَهَةٌ مِنَ الزَّمَنِ وَلَا يَتَقَدَّمُ كَقَوْلِهِ ﴿وَتِلْكَ الْأَقْرَى أَهْلَكَ نَفْسُهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾^(٣) [الكهف: ٥٩] وَالسَّاعَةُ مِثْلٌ فِي غَايَةِ الْقِلَّةِ مِنَ الزَّمَانِ ﴿يَبْقَى آدَمُ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ مَا يَنْتَهِى عَنْهُ أَوَّلِيَّتُكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أَي وَأَمَّا مَنْ كَذَبَ وَاسْتَكْبَرَ عَنِ الْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ فَأُولَئِكَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ مَا كَثُرُوا لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا أَبَدًا ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾^(٤) الْإِسْتِفْهَامِ لِلانْكَارِ أَوْ مَنْ أَفْبَحَ وَأَشْنَعُ مِمَّنْ تَعَمَّدَ الْكَذِبَ عَلَى اللَّهِ أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ الْمُنْزَلَةِ؟ ﴿أُولَئِكَ يَنْهَكُ نَفْسُهُمْ مِنَ الْكُتُبِ﴾ أَي يُصَيِّبُهُمْ حُظُّهُمْ فِي الدُّنْيَا مِمَّا كُتِبَ لَهُمْ وَقَدَّرَ مِنَ الْأَرْزَاقِ وَالْأَجَالِ قَالَ مُجَاهِدٌ: مَا وُعدُوا بِهِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ

(١) (ش): أَي مِنْ حَرَمٍ عَلَيْكُمْ التَّجَمُّلِ بِالْثِيَابِ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ لِنَفْعِكُمْ مِنَ النَّبَاتِ، وَمِنْ حَرَمٍ عَلَيْكُمْ الْمُسْتَلْذَاتِ مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ!

(٢) «البحر المحيط» ٢٩٢/٤.

(٣) هَذَا الرَّاجِحُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ: أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ أَجَلُ الْأُمَمِ الْمَكْذِبِينَ لِلرُّسُلِ وَهُوَ اخْتِيَارُ «الطَّبْرِيِّ» وَ«ابْنِ كَثِيرٍ» وَأَبِي السَّعْدِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ لَهُ عُمْرٌ يَنْتَهِي إِلَيْهِ لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ، وَالْأَوَّلُ أَرْجَحُ لِأَنَّ اللَّفْظَ وَرَدَ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

رُسُلَنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴿١﴾ أَي جَاءَتْ مَلَائِكَةُ الْمَوْتِ تَقْبِضُ أَرْوَاحَهُمْ ﴿قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَي أَيْنَ الْآلِهَةِ الَّتِي كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ ادْعُوهُمْ لِيَخْلُصَكُمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَالسُّؤَالُ لِلتَّبَكُّيْتِ وَالتَّوْبِيخِ ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أَي قَالَ الْأَشْقِيَاءُ الْمَكْذُبُونَ لَقَدْ غَابُوا عَنَّا فَلَا نَرْجُو نَفْعَهُمْ وَلَا خَيْرَهُمْ ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ أَي أَقْرَأُوا وَاعْتَرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ وَالضَّلَالِ، وَإِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ التَّحَسُّرِ وَالاعْتِرَافِ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْخِيَةِ وَالْخُسْرَانِ ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ أَي يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِهَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ بِآيَاتِهِ: ادْخُلُوا مَعَ أُمَّمِ أَثَالِكُمْ مِنَ الْفَجْرَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ مِنْ كُفَارِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا﴾ أَي كُلَّمَا دَخَلَتْ طَائِفَةٌ النَّارِ لَعَنَتِ الَّتِي قَبْلَهَا لِضَلَالِهَا بِهَا. قَالَ الْأَلُوسِي: يَلْعَنُ الْأَتْبَاعُ الْقَادَةَ يَقُولُونَ: أَنْتُمْ أَوْرَدْتُمُونَا هَذِهِ الْمَوَارِدَ فَلَعْنَكُمْ اللَّهُ تَعَالَى ^(١)، وَالْمُرَادُ أَنَّ أَهْلَ النَّارِ يَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥] ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أَي تَلَاحَقُوا وَاجْتَمَعُوا فِي النَّارِ كُلَّهُمْ ﴿قَالَتْ أَخْرَجْنَاهُمْ لَأُخْلِصَنَّهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾ أَي قَالَ الْأَتْبَاعُ لِلْقَادَةِ وَالرُّؤَسَاءِ الَّذِينَ أَضَلُّوهُمْ: يَا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ أَضَلُّونَا عَنْ سَبِيلِكَ وَزَيَّنُوا لَنَا طَاعَةَ الشَّيْطَانِ ﴿فَقَاتِلْهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾ أَي أَدْفَعْهُمْ الْعَذَابَ مِضَاعَةً لَأَنَّهُمْ تَسَبَّحُوا فِي كُفْرَانَا وَنَظِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ ^(٢) ﴿رَبَّنَا آتِنَاهُمْ فِي عَذَابٍ مُنْتَصِفٍ مِنَ الْعَذَابِ وَأَلْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧ - ٦٨] ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾ أَي لِكُلِّ مِنَ الْقَادَةِ وَالْأَتْبَاعِ عَذَابٌ مُضَاعَفٌ أَمَا الْقَادَةُ فَلِضَلَالَتِهَا وَلِإِضْلَالِهَا، وَأَمَا الْأَتْبَاعُ فَلِكُفْرِهِمْ وَتَقْلِيدِهِمْ ﴿وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَي لَا تَعْلَمُونَ هَوْلَهُ وَلِهَذَا تَسْأَلُونَ لَهُمْ مُضَاعَفَةَ الْعَذَابِ ^(٣) ﴿وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَئِنْ كُنَّا مِنْكُمْ لَأَخْرِجَنَّهُمْ لَكُمَّ عَلَىٰ سَنَامٍ فَضْلٍ﴾ أَي قَالَ الْقَادَةُ لِلْأَتْبَاعِ: لَا فَضْلَ لَكُمْ عَلَيْنَا فِي تَخْفِيفِ الْعَذَابِ فَنَحْنُ مُتَسَاوُونَ فِي الضَّلَالِ وَفِي اسْتِحْقَاقِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أَي فَذُوقُوا عَذَابَ جَهَنَّمَ بِسَبَبِ إِجْرَامِكُمْ، قَالُوهُ لَهُمْ عَلَى سَبِيلِ التَّشْفِي لَأَنَّهُمْ دَعَا عَلَيْهِمْ بِمُضَاعَفَةِ الْعَذَابِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ أَي كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا مَعَ وَضُوحِهَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا وَالْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهَا ﴿لَا تَنْفَعُ لَهُمْ أُبُوبُ السَّمَاءِ﴾ أَي لَا يَصْعَدُ لَهُمْ عَمَلٌ صَالِحٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا يَرْفَعُ لَهُمْ مِنْهَا عَمَلٌ صَالِحٌ وَلَا دَعَاءٌ، وَقِيلَ: لَا تَنْفَعُ لِأَرْوَاحِهِمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ إِذَا قَبِضَتْ أَرْوَاحَهُمْ وَيُؤَيِّدُهُ حَدِيثُ «إِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعِ مِنَ الدُّنْيَا يَجِيئُهُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّىٰ يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ: أَيَّتَها النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ أَخْرِجِي إِلَىٰ

(١) «روح المعاني» ١١٦/٨.

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ من كلام الله للفريقين على سبيل التوبيخ وهو اختيار «الطبري»، والظاهر أنه من كلام القادة للأتباع كما في «البحر» والله أعلم.

سخط من الله وغضب، ويخرج منها كائن ربح جيفة فلا يمر على ملا من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح فلا يفتح له..»^(١) الحديث ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ أي لا يدخلون يوم القيامة الجنة حتى يدخل الجمل في ثقب الإبرة، وهذا تمثيل لاستحالة دخول الكفار الجنة كاستحالة دخول الجمل على ضخامته في ثقب الإبرة على دقته مبالغة في التصوير ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ أي ومثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي أهل العصيان والإجرام ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أي لهم فراش من النار من تحتهم ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أي ومن فوقهم أغطية من النار ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي ومثل ذلك الجزاء الشديد نجزي كل من ظلم وتعدى حدود الله، ولما ذكر تعالى وعيد الكافرين وما أعد لهم في الآخرة أتبعه بذكر وعد المؤمنين وما أعد لهم فقال ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي والذين صدّقوا الله ورسوله وعملوا بما أمرهم به وأطاعوه ﴿لَنُكَفِّرَنَّ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا﴾ أي لا نكلف أحداً بما هو فوق طاقته أو بما يعجز عنه بل بما هو في وسعه والجملة اعتراضية بين المبتدأ والخبر قال في «البحر»: وفائدته التنبيه على أن ذلك العمل في وسعهم وغير خارج عن قدرتهم وفيه تنبيه للكفار على أن الجنة مع عظم ما فيها يوصل إليها بالعمل السهل من غير مشقة^(٢) ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ هذا هو الخبر أي هؤلاء المؤمنون السعداء هم المستحقون للخلود الأبدي في جنات النعيم لا يُخرجون منها أبداً ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ أي طهرنا قلوبهم من الحسد والبغضاء حتى لا يكون بينهم إلا المحبة والتعاطف كما ورد في الحديث «يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَيْسَ فِي قُلُوبٍ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ غُلٌّ»^(٣) وصيغة الماضي تفيد التحقق والتثبت ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ أي تجري أنهار الجنة من تحت قصورهم زيادة في نعيمهم ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ أي وفقنا لتحصيل هذا النعيم العظيم ولولا هداية الله تعالى وتوفيقه لما وصلنا إلى هذه السعادة ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ أي والله لقد صدقنا الرسل فيما أخبرونا به عن الله عز وجل ﴿وَنُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي وتناديهم الملائكة أن هذه هي الجنة التي أُعطيتموها بسبب أعمالكم الصالحة في الدنيا. قال «القرطبي»: ورثتم منازلها بعملكم، ودخولكم إياها برحمة الله وفضله وفي الحديث «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ»^(٤) الحديث

(١) هذا من حديث أخرجه الإمام أحمد وانظره كاملاً في «ابن كثير» ١٨ / ٢ . (ش): صححه الألباني.

(٢) «البحر المحيط» ٢٩٨ / ٤ .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم. (ش): (رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره»، وابن أبي الدنيا في «الأهوال». بسند ضعيف).

(٤) أخرجه مسلم وانظر «القرطبي» ٢٠٩ / ٧ . (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ». قَالُوا وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَعَمَّدَنِي اللَّهُ مِنْهُ بِفَضْلِ وَرَحْمَةٍ». [رَوَاهُ مُسْلِمٌ].

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ هذا النداء إنما يكون بعد استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، وعبر بالماضي عن المستقبل لتحقق وقوعه أي ينادي أهل الجنة أهل النار يقولون: إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا على السنة رسله من النعيم والكرامة حقًا، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم من الخزي والهوان والعذاب حقًا؟ قال أهل النار مجيبين: نعم وجدناه حقًا قال الزمخشري: وإنما قالوا لهم ذلك ^(١) اغتباطًا بحالهم، وشماتةً بأهل النار، وزيادة في غمهم ^(٢) لمجرد الإخبار والاستخبار ﴿فَإِذْ يُؤَذِّنُ بَيْنَهُمْ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْظَالِمِينَ﴾ أي أعلن معلنٌ ونادى منادٍ بين الفريقين بأن لعنة الله على كل ظالم بالله ثم وصفهم بقوله ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي الذين كانوا في الدنيا يمنعون الناس عن اتباع دين الله ويبغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها أحد ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ أي وهم بقاء الله في الدار الآخرة مكذبون جاحدون ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ﴾ أي بين الفريقين حجاب وهو السور الذي ذكره بقوله ﴿فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ سُورٌ﴾ [الحديد: ١٣] يمنع من وصول أهل النار للجنة، وعلى هذا السور رجال يعرفون كلًّا من أهل الجنة وأهل النار بسيماهم أي بعلامتهم التي ميّزهم الله بها قال قتادة: يعرفون أهل النار بسواد وجوههم وأهل الجنة ببياض وجوههم ^(٣) ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلِّمُوا عَلَيْنَا﴾ أي ونادى أصحاب الأعراف أهل الجنة حين رأوهم أن سلامًا عليكم أي قالوا لهم: سلام عليكم قال تعالى ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ أي لم يدخل أصحاب الأعراف الجنة وهم يطمعون في دخولها ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال المفسرون: أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فليسوا من أهل الجنة ولا من أهل النار، يحبسون هناك على السور حتى يقضي الله فيهم فإذا نظروا إلى أهل الجنة سلّموا عليهم، وإذا نظروا إلى أهل النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين، سألوا الله ألا يجعلهم معهم قال أبو حيان: وفي التعبير بقوله ﴿صُرِفَتْ﴾ دليل على أن أكثر أحوالهم النظر إلى أهل الجنة وأن نظرهم إلى أصحاب النار ليس من قبلهم بل هم محمولون عليه والمعنى أنهم إذا حملوا على صرف أبصارهم ورأوا ما عليه أهل النار من العذاب استغاثوا بربهم من أن يجعلهم معهم ^(٤) ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ أي من أهل النار وهم رؤساء الكفرة ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي أي شيء

(١) (ش): أي قال أهل الجنة لأهل النار.

(٢) «الكشاف» ١٠٦/٢.

(٣) «الطبري» ١٢/٤٦٣.

(٤) «البحر المحيط» ٤/٣٠٣.

نَفَعَكُمْ جَمْعُكُمْ لِلْمَالِ وَاسْتِكْبَارُكُمْ عَنِ الْإِيمَانِ؟ وَالْإِسْتِفْهَامُ لِلتَّوْبِخِ ﴿أَهْتَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ أَي هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ الضَّعَفَاءُ الَّذِينَ كُنْتُمْ فِي الدُّنْيَا تَسْخَرُونَ مِنْهُمْ وَتَحْلِفُونَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، وَالْإِسْتِفْهَامُ اسْتِفْهَامُ تَقْرِيرٍ وَتَوْبِخٍ وَشِمَاتَةٍ يُوبِخُونَهُمْ بِذَلِكَ ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ أَي يَقُولُونَ: لِلْمُؤْمِنِينَ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ رَغْمَ أَنْوَافِ الْكَافِرِينَ قَالَ الْأَلُوسِي: هَذَا مِنْ كَلَامِ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ يَقُولُونَ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ الْمَشَارِ إِلَيْهِمْ: دُومُوا فِي الْجَنَّةِ غَيْرَ خَائِفِينَ وَلَا مُحْزَوْنِينَ عَلَى أَكْمَلِ سُرُورٍ وَأَتَمِّ كَرَامَةٍ ^(١) ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ يَخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمَحَاوَرَةِ بَيْنَ أَهْلِ النَّارِ وَأَهْلِ الْجَنَّةِ بَعْدَ أَنْ اسْتَقَرَّ بِكُلِّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ الْقَرَارُ وَاطْمَأْنَنَتْ بِهِ الدَّارُ، وَعَنْ اسْتِعَاثَتِهِمْ بِهِمْ عِنْدَ نَزُولِ عَظِيمِ الْبَلَاءِ مِنْ شِدَّةِ الْعَطَشِ وَالْجُوعِ وَالْمَعْنَى يَنَادُونَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَغِيثُونَا بِشَيْءٍ مِنَ الْمَاءِ لِنَسْكُنَ بِهِ حَرَارَةَ النَّارِ وَالْعَطَشِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَشْرَبَةِ فَقَدْ قَتَلْنَا الْعَطَشَ ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أَي مَنَعَ الْكَافِرِينَ شَرَابَ الْجَنَّةِ وَطَعَامَهَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَنَادِي الرَّجُلُ أَخَاهُ وَأَبَاهُ فَيَقُولُ: قَدْ احْتَرَقَتْ فَأَفْضِ عَلَيَّ مِنَ الْمَاءِ! فَيَقَالُ لَهُمْ أَجِيبُوهُمْ فَيَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ^(٢)، ثُمَّ وَصَفَ تَعَالَى الْكَافِرِينَ بِقَوْلِهِ ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ أَي هَزَعُوا مِنْ دِينِ اللَّهِ وَجَعَلُوا الدِّينَ سَخِرِيَّةً وَلَعِبًا ﴿وَعَرَّفَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أَي خَدَعْتَهُمْ بِزَخَارِفِهَا الْعَاجِلَةِ وَشَهَوَاتِهَا الْقَاتِلَةِ وَهَذَا شَأْنُهَا مَعَ أَهْلِهَا تَغَرُّ وَتَضَرُّ، وَتَخْدَعُ ثُمَّ تَصْرَعُ ﴿فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ أَي فِيهِ هَذَا الْيَوْمَ نَرَكَّهُمْ فِي الْعَذَابِ كَمَا تَرَكَوْا الْعَمَلَ لِلْقَاءِ يَوْمَهُمْ هَذَا فَلَمْ يَخْطُرْ بِأَلْفِهِمْ وَلَمْ يَهْتَمُّوا بِهِ قَالَ الْأَلُوسِي: الْكَلَامُ خَارِجٌ مَخْرَجَ التَّمْثِيلِ أَي نَرَكَّهُمْ فِي النَّارِ وَنَسَاهُمْ مِثْلَ نَسْيَانِهِمْ لِقَاءَ هَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيمِ الَّذِي يَنْبَغِي الْأَيْنَسَى ^(٣) وَقَالَ «ابْنُ كَثِيرٍ»: أَي يَعَامِلُهُمْ مَعَامَلَةً مِّنْ نَّسِيهِمْ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَشُدُّ عَنْ عِلْمِهِ شَيْءٌ وَلَا يَنْسَاهُ ^(٤) ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أَي وَكَمَا كَانُوا مُنْكَرِينَ لآيَاتِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا، يَكْذِبُونَ بِهَا وَيَسْتَهْزِئُونَ، نَنْسَاهُمْ فِي الْعَذَابِ.

البلاغَة: ١ - ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ مجاز مرسل علاقته المحلية لأن المراد بالمسجد هنا الصلاة والطواف، ولما كان المسجد مكان الصلاة أطلق ذلك عليه.

٢ - ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ كناية عن عدم قبول العمل، فلا يقبل لهم دعاء أو عمل ^(٥).

(١) «روح المعاني» ٨/ ١٢٦.

(٢) «الطبري» ١٢/ ٤٧٣.

(٣) «روح المعاني» ٨/ ١٢٧.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٢/ ٢٤.

(٥) (ش): ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ لَا تُفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لأعمالهم في الحياة ولا لأرواحهم عند الممات.

٣ - ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ فيه تشبيه ضمني أي لا يدخلون الجنة بحالٍ من الأحوال إلا إذا أمكن دخول الجمل في ثقب الإبرة، وهو تمثيل للاستحالة.

٤ - ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ قال صاحب «البحر»: هذه استعارة لما يحيط بهم من النار من كل جانب كقوله ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾^(١) [الزمر: ١٦].

٥ - ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا مَابَطْنٌ﴾ بين «ظهر» و«بطن» طباقٌ وهو من المحسنات البديعية.

فائدة: يروى أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق فقال ذلك الطبيب لأحد العلماء: ليس في كتابكم من علم الطب شيء والعلم علمان: علم الأبدان وعلم الأديان: فقال له العالم: قد جمع الله تعالى الطب كله في نصف آية من كتابه قال: وما هي؟ قال: قوله تعالى ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ فقال النصراني: ولا يؤثر عن رسولكم شيء في الطب فقال العالم: قد جمع رسولنا الطب في ألفاظ يسيرة قال: وما هي؟ قال: قوله: «مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وَعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ لُقِيمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ»^(٢) الحديث فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً^(٣).

قال تعالى:

وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا بِالْحَقِّ فَعَلَّ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنْ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْنِي أَيْلَ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا نَّفَخَا فِيهِ سَفْنَةً لِّلْبَلَدِ مِمَّنْ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْجُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا رَّبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ

(١) «البحر المحيط» ٢٩٨/٤.

(٢) (ش): رواه الترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني.

(٣) «محاسن التأويل» ٧/٢٦٦٤. (ش): جالينوس (نحو ١٢٩ - ٢٠٠ م): طبيب يوناني، ويُعتبر أحد أعظم الأطباء في العصور القديمة.

مِنْ رَبِّكَ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتُنقُوا وَلَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ ﴿٦٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَجْنَحْنَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٣﴾ وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْقُوتُونَ ﴿٦٤﴾ قَالَ يَنْقُومُ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّنا لَنَرُوكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٥﴾ قَالَ يَنْقُومُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٧﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَأَذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا نَعُدُّكُمْ إِنَّكُمْ مِنْ الصَّادِقِينَ ﴿٦٩﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَاَنْظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧٠﴾ فَأَجْنَحْنَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧١﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى حال الكفار الأشقياء وخسارتهم الفادحة في الآخرة، ذكر هنا أنه لا حجة لأحد فقد أرسل الله الرسل وأنزل الكتب لهداية البشرية، ثم ذكر قصص بعض الأنبياء فبدأ بنوح عليه السلام شيخ الأنبياء ثم أعقبه بذكر هود عليه السلام وموقف المشركين من دعوة الرسل الكرام.

اللغة: ﴿تَأْوِيلُهُ﴾ عاقبة أمره وما يثول إليه من آل يثول إذا صار إليه ﴿أَسْتَوَى﴾ الاستواء: العلو والاستقرار. قال الجوهري: استوى على ظهر الدابة: استقر واستوى إلى السماء: قصد، واستوى الشيء إذا اعتدل ﴿يُعْشَى﴾ يغطي ﴿حَيْثُ﴾ سريعاً والحث: الإعجال والسرعة ﴿تَبَارَكَ﴾ تفاعل من البركة وهي الكثرة والاتساع قال الأزهرى: تبارك أي تعالى وتعظيم وارتفع ﴿تَضَرَّعًا﴾ تدللاً واستكانة وهو إظهار الذل الذي في النفس مع الخشوع ﴿وَحُفِيَّةً﴾ سرّاً ﴿بُشْرًا﴾ مبشرة بالمطر ﴿أَقْلَتْ﴾ حملت ﴿نَكِيدًا﴾ العسر القليل ﴿ءَالَاءَ﴾ الآلاء النعم واحداها «إلى» كمعنى (١).

(التفسير): ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ﴾ أي ولقد جئنا أهل مكة بكتاب هو القرآن العظيم ﴿فَصَلَّنَاهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ أي بيناً معانيه ووضحنا أحكامه على علم منا حتى جاء قَيْمًا غير ذي عوج ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي هداية ورحمة وسعادة لمن آمن به ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي ما ينتظر أهل مكة إلا عاقبة ما وعدوا به من العذاب والنكال قال قتادة: تأويله عاقبته ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ هو يوم القيامة ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي يقول الذين ضيعوا وتركوا العمل به في الدنيا: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ أي جاءتنا الرسل بالأخبار الصادقة وتحقق لنا صدقهم فلم نؤمن

(١) (ش): معى: مفرد أمعاء.

بهم ولم نتبعهم قال «الطبري»: أقسم المساكين حين حل بهم العقاب أن رسل الله قد بلغتهم الرسالة ونصحت لهم وصدقتهم حين لا ينفعهم ولا ينجيهم من سخط الله كثرة القيل والقال^(١) ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ أي هل لنا اليوم شفيع يخلصنا من هذا العذاب؟ استفهام فيه معنى التمني ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أو هل لنا من عودة إلى الدنيا لنعمل صالحاً غير ما كنا نعمله من المعاصي وقبيح الأعمال؟ قال تعالى ردّاً عليهم ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي خسروا أنفسهم حيث ابتاعوا الخسيس الفاني من الدنيا بالنفيس الباقي من الآخرة، وبطل عنهم ما كانوا يزعمونه من شفاعة الآلهة والأصنام ثم ذكر تعالى دلائل القدرة والوحدانية فقال ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي إن معبودكم وخالقكم الذي تعبدونه^(٢) هو المنفرد بقدرة الإيجاد الذي خلق السماوات والأرض في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا قال «القرطبي»: لو أراد لخلقها في لحظة ولكنه أراد أن يعلم العباد الثبت في الأمور^(٣) ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي استواء يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تحريف كما هو مذهب السلف وكما قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: أخبار الصفات تُمرُّ كما جاءت بلا تشبيه ولا تعطيل فلا يقال: كيف؟ ولم؟ بأن الله على العرش كيف شاء، وكما شاء بلا حدٍّ ولا صفةٍ يبلغها واصفٌ أو يحُدُّها حَدٌّ، نقرأ الآية والخبر ونؤمن بما فيهما ونكِلُ الكيفية في الصفات إلى علم الله عَزَّ وَجَلَّ^(٤) وقال «القرطبي»: لم ينكر أحدٌ من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تعلم حقيقته^(٥) ﴿يُعْشَى أَيْلَ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُ﴾ أي يغطي الليل على النهار فيذهب بضوئه ويطلبه سريعاً حتى يدركه ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّهِ﴾ أي الجميع تحت قهره ومشيتته وتسخيره ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ أي له الملك والتصرف التام في الكائنات ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي تعظم وتمجد الخالق المبدع رب العالمين ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي ادعوا الله تذلاً وسراً بخشوع وخضوع ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي لا يحب المعتدين في الدعاء بالتشديد ورفع الصوت وفي الحديث «إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا»^(٦) ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ

(١) «الطبري» ١٢ / ٤٨٠.

(٢) (ش): إن كثيراً من المخاطبين يعبدون غير الله معه، فلا يكفي التعبير بـ «تعبدونه»، والصواب أن يقال: إن خالقكم ومالككم والمستحق للعبادة.

(٣) «القرطبي» ٧ / ٢١٩.

(٤) «محاسن التأويل» ٧ / ٢٧٠٨.

(٥) «القرطبي» ٧ / ٢١٩.

(٦) (ش): رواه البخاري ومسلم.

إِصْلَحْهَا ﴿ أَي لا تفسدوا في الأرض بالشرك والمعاصي بعد أن أصلحها الله ببعثة المرسلين
﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي خوفًا من عذابه وطمعًا في رحمته ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ
الْمُحْسِنِينَ﴾ أي رحمته تعالى قريبة من المطيعين الذين يمثلون أوامره ويتركون زواجره
﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي يرسل الرياح مبشرة بالمطر قال في
«البحر»: ومعنى بين يدي رحمته أي أمام نعمته وهو المطر الذي هو من أجل النعم وأحسنها
أثرًا على الإنسان^(١) ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ أي حتى إذا حملت الرياح سحبًا مثقلًا
بالماء ﴿سُفِّتُهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أي سقنا السحاب إلى أرض ميتة مجدبة لا نبات فيها ﴿فَأَنْزَلْنَا
بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي أنزلنا في ذلك البلد الميت الماء فأخرجنا بذلك الماء
من كل أنواع الثمرات ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي مثل هذا الإخراج نُخرج
الموتى من قبورهم لعلكم تعتبرون وتؤمنون. قال «ابن كثير»: وهذا المعنى كثير في القرآن
يضرب الله المثل ليوم القيامة بإحياء الأرض بعد موتها ولهذا قال لعلكم تذكرون^(٢) ﴿وَالْبَلَدُ
الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي الأرض الكريمة التربة يخرج النبات فيها وافيًا حسنًا غزير
النفع بمشيئة الله وتيسيره، وهذا مَثَلٌ للمؤمن يسمع الموعدة فينتفع بها ﴿وَالَّذِي خَبِثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا
نَكِيسًا﴾ أي والأرض إذا كانت خبيثة التربة كالحرّة أو السَّبْخَة^(٣) لا يخرج النبات فيها إلا بعسر
ومشقة وقليلًا لا خير فيه، وهذا مَثَلٌ للكافر الذي لا ينتفع بالموعدة قال ابن عباس: هذا مَثَلٌ
ضربه الله للمؤمن والكافر، فالمؤمن طيب وعمله طيب كالأرض الطيبة ثمرها طيب، والكافر
خبثٌ وعمله خبيث كالأرض السبخة المالحة لا ينتفع بها^(٤) ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَشْكُرُونَ﴾ أي كما ضربنا هذا المثل كذلك نبين وجوه الحجج ونكرها آية بعد آية، وحجة
بعد حجة لقوم يشكرون الله على نعمه، وإنما خصّ الشاكرين بالذكر لأنهم المتفعلون بسماع
القرآن قال الألوسي: أي مَثَلٌ هذا التصريف البديع نردّد الآيات الدالة على القدرة الباهرة
ونكرها لقوم يشكرون نعم الله تعالى، وشكرها بالتفكر والاعتبار بها^(٥) ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ
قَوْمِهِ﴾ اللام جواب قسم محذوف أي والله أرسلنا نوحًا، ونوحٌ شيخ الأنبياء لأنه أطولهم
عمرًا وهو أول نبي بعثه الله بعد إدريس، ولم يلق نبي من الأذى مثل نوح^(٦) ﴿فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا
اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أي وحدوا الله ولا تشركوا به فما لكم إله مستحق للعبادة غيره ﴿إِنِّي

(١) «البحر المحيط» ٣١٧/٤.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٢٧/٢.

(٣) الحرّة: الأرض ذات الحجارة السود. والسَّبْخَة: الأرض ذات الملح.

(٤) «الطبري» ٤٩٧/١٢.

(٥) «روح المعاني» ١٤٨/٨.

(٦) انظر ترجمة نوح مفصلة في كتابنا «النبوة والأنبياء».

أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١﴾ أَيِ إِنِ اشْرَكْتُمْ بِهِ وَلَمْ تُؤْمِنُوا فَأَنَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿٢﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ أَيِ قَالَ الْأَشْرَافُ وَالسَّادَةُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ يَا نُوحُ فِي ذَهَابٍ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ وَاضِحٌ جَلِيٌّ قَالَ أَبُو حَيَّانٍ: وَلَمْ يُجِبْهُ مِنْ قَوْمِهِ إِلَّا أَشْرَافُهُمْ وَسَادَتُهُمْ وَهُمْ الَّذِينَ يَتَعَاصُونَ عَلَى الرِّسْلِ لَانْغِمَاسَ عَقُولِهِمْ بِالْدُنْيَا وَطَلَبَ الرِّيَاسَةِ^(١)، وَهَكَذَا حَالُ الْفَجَارِ إِنَّمَا يَرُونَ الْأَبْرَارَ فِي ضَلَالَةٍ ﴿٤﴾ قَالَ يَقَوْمُ لَيْسَ فِي ضَلَالَةٍ^(٢) وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥﴾ أَيِ مَا أَنَا بِضَالٍ وَلَكِنْ أَنَا مُرْسَلٌ إِلَيْكُمْ مِنْ عِنْدِ رَبِّكُمُ الْمَالِكِ لِأُمُورِكُمُ النَّازِرِ لَكُمْ بِالْمَصْلَحَةِ ﴿٦﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْكُمْ أَنَّ اللَّهَ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ أَيِ أَنَا أُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسَلُنِي اللَّهُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَأَقْصِدُ صِلَاحَكُمْ وَخَيْرَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ الْأُمُورِ الْغَيْبِيَةِ أَشْيَاءَ لَا عِلْمَ لَكُمْ بِهَا قَالَ «ابْنُ كَثِيرٍ»: وَهَذَا شَأْنُ الرِّسُولِ أَنْ يَكُونَ مَبْلَغًا فَصِيحًا نَاصِحًا عَالِمًا بِاللَّهِ لَا يَدْرِكُهُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ فِي هَذِهِ الصِّفَاتِ^(٣) ﴿٨﴾ أَوْ عَجَبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ ﴿٩﴾ أَيِ لَا تَعْجَبُوا مِنْ هَذَا فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ بِعَجِيبٍ أَنْ يُوحِيَ اللَّهُ إِلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ رَحْمَةً بِكُمْ وَلَطْفًا وَإِحْسَانًا إِلَيْكُمْ ﴿١٠﴾ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١١﴾ أَيِ لِيُخَوِّفَكُمْ هَذَا الرِّسُولُ مِنَ الْعَذَابِ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلِتَتَّقُوا رَبَّكُمْ وَتَنَالَكُمْ الرِّحْمَةُ بِتَقْوَاهُ ﴿١٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ ﴿١٣﴾ أَيِ كَذَّبُوا نُوحًا مَعَ طَوْلِ مَدَّةِ إِقَامَتِهِ فِيهِمْ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ ﴿١٤﴾ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴿١٥﴾ أَيِ أَهْلَكْنَا الْمَكْذِبِينَ مِنْهُمْ بِالْغَرَقِ ﴿١٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿١٧﴾ أَيِ عَمِيتْ قُلُوبُهُمْ عَنِ الْحَقِّ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَهُ وَلَا يَهْتَدُونَ لَهُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَمِيتْ قُلُوبُهُمْ عَنْ مَعْرِفَةِ التَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْمَعَادِ^(٤) ﴿١٨﴾ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴿١٩﴾ أَيِ وَأُرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا وَكَانَتْ مَسَاكِنُهُمْ بِالْأَحْقَافِ بِالْيَمَنِ ﴿٢٠﴾ قَالَ يَقَوْمُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴿٢١﴾ أَيِ قَالَ لَهُمْ رَسُولُهُمْ: وَحَدِّدُوا لِلَّهِ فَلَيْسَ لَكُمْ إِلَهٌ غَيْرُهُ ﴿٢٢﴾ أَفَلَا تَنْقُوتَ ﴿٢٣﴾ أَيِ أَفَلَا تَخَافُونَ عَذَابَهُ؟ ﴿٢٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴿٢٥﴾ أَيِ قَالَ السَّادَةُ وَالْقَادَةُ مِنْهُمْ: ﴿٢٦﴾ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَذَّابِينَ ﴿٢٧﴾ أَيِ نَرَاكَ فِي خُفَةِ حِلْمٍ وَسَخَافَةِ عَقْلِ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ فِي ادْعَاكَ الرِّسَالََةَ ﴿٢٨﴾ قَالَ يَقَوْمُ لَيْسَ فِي سَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾ أَيِ لَيْسَ بِي كَمَا تَزْعُمُونَ نَقْصٌ فِي الْعَقْلِ وَلَكِنِّي مُرْسَلٌ إِلَيْكُمْ بِالْهُدَايَةِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٣١﴾ أَيِ أُبَلِّغُكُمْ أَوَامِرَ اللَّهِ وَأَنَا نَاصِحٌ لَكُمْ فِيمَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ، أَمِينٌ

(١) «البحر» ٤/ ٣٢٠.

(٢) لَمْ يَأْتِ التَّرْكِيبُ لِسْتُ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ بَلْ جَاءَ فِي غَايَةِ الْحَسَنِ: ﴿لَيْسَ فِي ضَلَالَةٍ﴾ لِنُفْيِ أَنْ يَلْتَبَسَ أَوْ يَخْتَلِطَ بِهِ ضَلَالَةٌ مَا، وَهَذَا أُبَلِّغُ مِنَ الْإِنْتِفَاءِ مِنَ الضَّلَالِ إِذْ لَمْ يَتَعَلَّقْ بِهِ وَلَا ضَلَالَةٌ وَاحِدَةٌ، أَفَادَهُ صَاحِبُ «الْبَحْرِ».

(٣) «مختصر ابن كثير» ٢/ ٢٨.

(٤) «البحر» ٤/ ٣٢٣.

على ما أقول لا أكذب فيه، قال الزمخشري: وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام مِمَّنْ نَسَبَهُمْ إِلَى السَّفَاهَةِ وَالضَّلَالَةِ - بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم وترك المقابلة - أدبٌ حسنٌ وَخُلُقٌ عَظِيمٌ، وتعليم للعباد كيف يخاطبون السفهاء ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم^(١) ﴿أَوْعِيبَتْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ أي لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولا من أنفسكم لينذركم لقاء الله ويخوفكم عذابه ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي اذكروا نعمة الله حين استخلفكم في الأرض بعد إهلاك قوم نوح ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ أي زاد في أجسامكم قوةً وضخامةً ﴿فَأَذْكُرُوا لَأَلَّا اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي اذكروا نعم الله عليكم كي تفلحوا وتفوزوا بالسعادة ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أي أجئنا يا هود تتوعدنا بالعذاب كي نعبد الله وحده ونهجر عبادة الآلهة والأصنام ونبتأ منها؟ ﴿فَأَيْنَا بِمَا نَعْبُدُهُ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي فأتنا بما تعبدنا به من العذاب فلن نؤمن لك إن كنت من الصادقين في قولك ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَيبٌ﴾ أي قد حلّ بكم عذاب وغضب من الله ﴿أَتَجِدُلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي أخاصمونني في أصنام لا تضر ولا تنفع ما أنزل الله بعبادتها من حجة أو برهان ﴿فَانْظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ أي فانتظروا نزول العذاب إني من المنتظرين لما يحل بكم وهذا غاية الوعيد والتهديد ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ أي أنجينا هوداً والذين معه من المؤمنين رحمةً منا لهم ﴿وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِطَاغُوتِنَا﴾ أي استأصلناهم بالكلية ودمرناهم عن آخرهم ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي كذبوا ولم يؤمنوا فاستحقوا العذاب قال «أبو السعود»: أي أصروا على الكفر والتكذيب ولم يرفعوا عن ذلك أبداً فأهلكهم الله بالريح العقيم^(٢).

البلاغة: ١ - ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ الآية على قلة ألفاظها جمعت معاني كثيرة استوعبت جميع الأشياء والشئون على وجه الاستقصاء حتى قال ابن عمر: من بقي له شيء فليطلبه. وهذا الأسلوب البليغ يسمى «إيجاز قصر» ومداره على جمع الألفاظ القليلة للمعاني الكثيرة.

٢ - ﴿سُقْنَتُهُ لِكُلِّ مَيِّتٍ﴾ وصفُ البلد بالموت استعارةً لجذبه وعدم نباته كأنه كالجسد الذي لا روح فيه من حيث عدم الانتفاع به.

٣ - ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ أي مثل إخراج النبات من الأرض نخرج الموتى من قبورهم

(١) «الكشاف» ١١٦/٢. (ش): الذيل: أسفل الثوب، والمعنى أنهم يتغاضون عما يكون من قومهم من سفاهات، ويتغافلون عنها.

(٢) «أبو السعود» ١٧٤/٢.

فهو تشبيه «مرسل مجمل» ذكرت الأداة ولم يذكر وجه الشبه.

٤ - ﴿وَقَطَعْنَا دَايِرَ﴾ قطع الدابر كناية لطيفة عن استئصالهم جميعاً بالهلاك.

تنبيه: ذكر العلامة الألوسي عند قوله تعالى ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ عن الحسن البصري أنه قال: لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم وذلك أنه تعالى يقول ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وأنه سبحانه ذكر عبداً صالحاً فقال ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ، نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣] ثم قال: وذكروا للدعاء آداباً كثيرة منها: أن يكون على طهارة، وأن يستقبل القبلة، وتخلية القلب من الشواغل، وافتتاحه واختتامه بالصلاة على النبي ﷺ ورفع اليدين نحو السماء، وإشراك المؤمنين فيه، وتحري ساعات الإجابة كثلث الليل الأخير، ووقت إفطار الصائم، ويوم الجمعة وغير ذلك^(١).

قال الله تعالى:

وإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءَ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ يَبُوتًا فَادْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَمْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنِّي صَالِحٌ مِّن رَّبِّي قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَمَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ آتِنَا بِمَا نَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمٍ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ ﴿٧٩﴾ وَلَوْطَأُ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفِتْنَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ الْبَسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَادْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا

(١) «روح المعاني» ١٣٩/٨. (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ: «فِي الْجُمُعَةِ سَاعَةٌ لَا يُؤَافِقُهَا مُسْلِمٌ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَسَأَلَ اللَّهَ خَيْرًا، إِلَّا أَعْطَاهُ» [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ].

فَكَثُرْكُمْ^{٨٦} وَأَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الْمُفْسِدِينَ^{٨٧} وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ^{٨٨} قَالَ أَلَمَّا الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ^{٨٩} قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ^{٩٠} وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَبَعْتُمْ شَعْبًا إِنْ كُنْتُمْ إِذًا لَخَسِرُونَ^{٩١} فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ^{٩٢} الَّذِينَ كَذَّبُوا شَعْبًا كَانَتْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شَعْبًا كَانُوا هُمُ الْخَسِرِينَ^{٩٣} فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُومُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِي ربي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ^{٩٤}

المناسبة: لما ذكر تعالى في أول السورة قصة آدم، وما اتصل بها من آثار قدرته، وغرائب صنعته، الدالة على توحيده وربوبيته، وأقام الحجة الدامغة على صحة البعث بعد الموت، أتبع ذلك بقصص الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم، فذكر نوحاً وهوداً وأعقبه هنا بذكر قصة صالح وشعيب، وموقف المعاندين للرسول الكرام.

اللغة: ﴿نَاقَةٌ﴾ الناقة: الأنثى من الجمال، وعقر الناقة: ضرب قوائمها بالسيف^(١) ﴿وَعَتَوْا﴾ استكبروا عتوا أي استكبر، والليل العاتي: الشديد الظلمة ﴿جِثِيمِينَ﴾ لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم كما يجثم الطائر ﴿الرَّجْفَةُ﴾ الطامة^(٢) التي يرجف لها الإنسان، أي: يتزعزع ويضطرب وأصل الرجف الاضطراب رجفت الأرض اضطربت ﴿الْفَتِيرِينَ﴾ الباقيين في عذاب الله، والغابر بمعنى الباقي ويجيء بمعنى الماضي والذاهب، ومنه قول الأعشى: في الزمن الغابر فهو من الأضداد كما في «الصحاح» ﴿يَغْنَوْا﴾ يقيموا يقال غنى بالمكان إذا أقام به دهرًا طويلاً ﴿عَفَوْا﴾ كثروا ونموا من عفا النبات إذا كثر.

التفسير: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُومُ رَبُّكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِهِ﴾ أي وحدوا الله ولا تشركوا به ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي معجزة ظاهرة جليلة تدل على صحة نبوتي ﴿هَذِهِ نَاقَةٌ لِلَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ هذا بيان للمعجزة أي هذه الناقة معجزتي إليكم وإضافتها إلى الله للتشريف والتعظيم، لأنها خلقت بغير واسطة قال «القرطبي»: أخرج لهم الناقة حين سأله من حجر صلد^(٣) ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ أي اتركوها تأكل من رزق ربه ﴿وَلَا تَمْسُوهَا سَوْءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي لا تعرضوا لها بشيء من السوء أصلاً

(١) (ش): الْعَقْرُ: الْقَتْلُ وَالذَّبْحُ.

(٢) (ش): الطَّامَةُ: الشَّدَّةُ

(٣) «القرطبي» ٧/ ٢٣٨.

إكراماً لها لأنها آية الله، والعذاب الأليم هو ما حلّ بهم حين عقروها ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ أي خلفاء في الأرض قال الشهاب: لم يقل خلفاء عاد إشارة إلى أن بينهما زماناً طويلاً ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَنْخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي أسكنكم في أرض الحجر تبون في سهولها قصوراً رفيعة ﴿وَنَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ أي تنحتون الجبال لسكناكم قال «القرطبي»: اتخذوا البيوت في الجبال لطول أعمارهم فإن الأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم ^(١) ﴿فَأَذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي اذكروا نعم الله عليكم واشكروه على ما تفضل به ولا تعيشوا في الأرض فساداً ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ أَمَنَّ مِنْهُمْ﴾ أي قال الأشراف المستكبرون من قوم صالح للمؤمنين المستضعفين من أتباع صالح عليه السلام: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّكَ صَاحِبُ مَرْسَلٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي أن الله أرسله إلينا وإليكم، وهذا قالوه على سبيل السخرية والاستهزاء ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ أي أجابوهم بالأسلوب الحكيم بالإيمان برسالته قال أبو حيان: وعدولهم عن قولهم هو مرسل إلى قولهم ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ في غاية الحسن إذ أمر رسالته معلوم واضح مسلم لا يدخله ريب لما أتى به من هذا المعجز الخارق العظيم فلا يحتاج أن يسأل عن رسالته ^(٢) ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي قال المستكبرون: نحن كافرون بما صدقتم به من نبوة صالح وإنما لم يقولوا إنا بما أرسل به كافرون إظهاراً لمخالفتهم إياهم ورداً لمقالتهم ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَكَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي نحروا الناقة واستكبروا عن امتثال أمر الله ﴿وَقَالُوا يُصْلِحُ آبَاؤُنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي جئنا يا صالح بما تعدنا من العذاب الذي نخوفنا به إن كنت يا صالح حقاً رسولاً، قالوا ذلك استهزاء به وتعجيزاً ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ﴾ أخذتهم الزلزلة الشديدة فصاروا في منازلهم هامدين موتى لا حراك بهم قال في «البحر»: أخذتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء له صوت في الأرض فقطعت قلوبهم وهلكوا ^(٣) ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ﴾ أي أدبر عنهم صالح بعد هلاكهم ومشاهدة ما جرى عليهم وقال على سبيل التفجع والتحسر عليهم: لقد بلغتكم الرسالة وحذرتكم عذاب الله وبذلت وسعي في نصيحتكم ولكن شأنكم الاستمرار على بغض الناصحين وعداوتهم قال الزمخشري ﴿وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ﴾ حكاية حال ماضية قد يقول الرجل لصاحبه وهو ميت - وكان قد نصحه حياً فلم يسمع منه حتى ألقى

(١) «القرطبي» ٧/ ٢٣٩.

(٢) «البحر» ٤٣٣٠.

(٣) «البحر» ٤/ ٣٣١.

بنفسه في التهلكة - يا أخي كم نصحتك وكم قلت لك فلم تقبل مني^(١)! ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي واذكر وقت أن قال لوط لقومه أهل سدوم على سبيل الإنكار والتوبيخ: أتفعلون تلك الفعلة الشنيعة المتناهية في القبح التي ما عملها أحد قبلكم في زمن من الأزمان! والفاحشة هي إتيان الذكور في الأدبار، أنكر عليهم أولاً فعلها ثم وبخهم بأنهم أول من فعلها قال أبو حيان: ولما كان هذا الفعل معهوداً قبّحه، ومركزاً في العقول فحشه أتى به معرفاً بالألف واللام ﴿الْفَاحِشَةَ﴾ بخلاف الزنى فإنه قال فيه ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾ [النساء: ٢٢] فأتى به مُنْكَرًا، والجملة منفية ﴿مَا سَبَقَكُمْ﴾ تدل على أنهم أول من فعل هذه الفعلة القبيحة وأنهم مبتكروها، والمبالغة في ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ حيث زيدت من التأكيد لنفي الجنس، وفي الإتيان بعموم ﴿الْعَالَمِينَ﴾ جمعاً قال عمرو بن دينار: ما رُئي ذكرٌ على ذكر قبل قوم لوط^(٢) ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ هذا بيانٌ للفاحشة وهو توبيخ آخر أشنع مما سبق لتأكيدهِ بـ «وَبِاللَّامِ» أي إنكم أيها القوم لتأتون الرجال في أدبارهم شهوة منكم لذلك الفعل الخبيث المكروه دون ما أحله الله لكم من النساء ثم أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح واتباع الشهوات فقال ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي لا عذر لكم بل أنتم عادتكم الإسراف وتجاوز الحدود في كل شيء قال «أبو السعود»: وفي التقييد بقوله ﴿شَهْوَةً﴾ وصفٌ لهم بالبهيمية الصُّرفة وتنبيهٌ على أن العاقل ينبغي أن يكون الداعي له إلى المباشرة طلب الولد وبقاء النسل لا قضاء الشهوة^(٣) ﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ﴾ أي ما كان جوابهم للوط إذ وبخهم على فعلهم القبيح إلا أن قال بعضهم لبعض: أخرجوا لوطاً وأتباعه المؤمنين من بلدتكم لأنهم أناس ينتزهون عما نفعله نحن من إتيان الرجال في الأدبار، قال ابن عباس ومجاهد: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ﴾ أي يتقذرون عن إتيان أدبار الرجال والنساء، قالوا ذلك سخرية واستهزاءً بلوط وقومه وعابوهم بما يمدح به الإنسان ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَايِينَ﴾ أي أنجيناه من العذاب الذي حلَّ بقومه وأهله المؤمنين إلا امرأته فلم تنج وكانت من الباقيين في ديارهم الهالكين قال «الطبري»: أي أنجيناً لوطاً وأهله المؤمنين به إلا امرأته فإنها كانت للوط خائنة وبالله كافرة فهلكت مع من هلك من قوم لوط حين جاءهم العذاب^(٤) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ أي أرسلنا عليه نوعاً من المطر عجيباً هو حجارة من

(١) «الكشاف» ٢/ ١٢٤.

(٢) «البحر» ٤/ ٣٣٣.

(٣) «أبو السعود» ٢/ ١٧٨.

(٤) «الطبري» ١٢/ ٥٥١.

سجّل كما في الآية الأخرى وشبه العذاب بالمطر المدرار لكثرة حيث أُرسل إرسال المطر ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي انظر أيها السامع إلى عاقبة هؤلاء المجرمين كيف كانت؟ وإلى أي شيء صارت؟ هل كانت إلا البوار والهلاك؟! ﴿وَلِإِي مَدِينَةٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقُومَ عَبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أي وأرسلنا إلى أهل مدين شعيباً داعياً لهم إلى توحيد الله وعبادته قال «ابن كثير»: ومدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة وهي التي بقرب «معان» من طريق الحجاز وهم أصحاب الأيكة كما سنذكره^(١) ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي معجزة تدل على صدقي ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ أي أتموا للناس حقوقهم بالكيل الذي تكيلون به والوزن الذي تزنون به ﴿وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي لا تظلموا الناس حقوقهم ولا تُنقصوهم إياها ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ أي لا تعملوا بالمعاصي بعد إصلاحها ببعثة الرسل ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي ما أمرتكم به من إخلاص العبادة لله وإيفاء الناس حقوقهم وترك الفساد في الأرض خير لكم إن كنتم مصدقين لي في قلبي ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ﴾ أي لا تجلسوا بكل طريق تُخوفون من آمن بالقتل قال ابن عباس: كانوا يقعدون على الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويصدونه ويقولون: إنه كذاب فلا تذهب إليه على نحو ما كانت تفعله قريش مع رسول الله ﷺ^(٢) ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي تريدون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة بمعنى تصويرهم أن دين الله غير مستقيم كما يقول الضالون في هذا الزمان «هذا الدين لا ينطبق مع العقل» لأنه لا يتمشى مع أهوائهم الفاجرة ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُكُمْ﴾ أي كنتم قلة مستضعفين فأصبحتم كثرة أعزة فاشكروا الله على نعمته ﴿وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ هذا تهديد لهم أي انظروا ما حلّ بالأُمم السابقة حين عصوا الرسل كيف انتقم الله منهم واعتبروا بهم ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِأَلَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ أي إذا كان فريق صدقوني فيما جئتكم به وفريق لم يصدقوني فاصبروا حتى يفصل الله بحكمه العادل بيننا وهو خير الفاصلين قال أبو حيان: هذا الكلام من أحسن ما تلطّف به في المحاوراة إذ برز المتحقق في صورة المشكوك وهو من بارع التقسيم فيكون وعدا للمؤمنين بالنصر ووعداً للكافرين بالعقوبة والخسار^(٣) ﴿قَالَ الَّذِينَ أَسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ أي قال أشراف قومه المستكبرين عن الإيمان بالله ورسوله:

(١) «مختصر ابن كثير» ٥٣ / ٢.

(٢) «البحر» ٣٣٨ / ٤.

(٣) «البحر» ٣٤٠ / ٤.

﴿لَنُخْرِجَنَّكَ بِشُعَيْبٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَةٍ أَوْ نَعُودَنَّ فِي مَلَّتِنَا﴾ أقسموا على أحد الأمرين: إما إخراج شعيب وأتباعه وإما العودة إلى ملتهم أي إلى الكفر والمعنى لنخرجنك يا شعيب ومن آمن بك من بين أظهرنا أو لترجعن أنت وهم إلى ديننا قال شعيب مجيباً لهم: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ أي أتجبروننا على الخروج من الوطن أو العودة في ملتكم ولو كنّا كارهين لذلك؟ والاستفهام للإنكار ﴿قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّنا اللَّهُ مِنْهَا﴾ أي إن عدنا إلى دينكم بعد أن أنقذنا الله منه بالإيمان وبصّرنا بالهدى نكون مختلفين على الله أعظم أنواع الكذب، وهذا تيسُّس للكفار من العودة إلى دينهم ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ أي لا ينبغي ولا يصح لنا أن نعود إلى ملتكم ودينكم إلا إذا شاء الله لنا الانتكاس والخذلان فيمضي فينا قضاؤه ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي وسع علمه كل الأشياء ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي اعتمادنا على الله وهو الكافي لمن توكل عليه ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ أي احكم بيننا وبينهم بحكمك الحق الذي لا جور فيه ولا ظلم وأنت خير الحاكمين ﴿وَقَالَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَسِرُونَ﴾ أي قال الأشراف من قومه الفجرة الكفرة: إذا اتبعتم شعيباً وأجبتموه إلى ما يدعوكم إليه إنكم إذا لخسرون لاستبدالكم الضلالة بالهدى قال تعالى ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ أي فأخذتهم الزلزلة العظيمة فأصبحوا ميّتين جاثمين على الركب ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي أهلكت الله المكذبين كأنهم لم يقيموا في ديارهم مُنْعَمِينَ ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ إخبارٌ عنهم بالخسار بعد الهلاك والدمار ﴿فَنَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَ قَوْمٍ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ قاله تأسفاً لشدة حزنه عليهم لأنهم لم يتبعوا نصحه ﴿فَكَيْفَ ءَاسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أي كيف أحزن على من لا يستحق أن يُحزن عليه قال «الطبري»: أي كيف أحزن على قوم جحدوا وحنانية الله وكذبوا رسوله وأتوجع لهلاكهم^(١).

البلاغة: ١ - ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾ الإضافة للتشريف والتكريم.

٢ - ﴿وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَاءً﴾ التنكير للتقليل والتحقير أي لا تمسوها بأدنى سوء.

٣ - ﴿أَتَأْتُونَ الْفِتْنَةَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتشنيع.

٤ - ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ﴾ يسمى هذا النوع في علم البديع التعريض بما يوهم الدم ولذلك قال ابن عباس: عابوهم بما يُمدح به.

٥ - ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ إظهار الاسم الجليل للمبالغة في التضرع وتقديس الجار والمجرور لإفادة الحصر.

٦ - بين لفظ ﴿مُؤْمِنُونَ﴾ و﴿كَافِرُونَ﴾ طباقاً.

فَائِدَةٌ: الذي عقر الناقة هو «قدار بن سالف» وإنما نسب الفعل إليهم جميعاً في قوله تعالى ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ لأنه كان برضاهم وأمرهم، والراضي بالعمل القبيح شريك في الجريمة.

قال الله تعالى:

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيْبَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَدَحْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ وَهُمْ لَا يُمِنُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَلَمْ يَأْتِ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْنَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ يَدُونُوهُمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السَّيِّئَاتِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٠١﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبِيَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٤﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرِعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٥﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٦﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٧﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٨﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّظَرِ ﴿١٠٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿١١٠﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١١﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١٢﴾ يَأْتُونَكَ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿١١٣﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٥﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّمَا أَن تَلْقَىٰ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُتَلَقِّينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٧﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلُ أَن ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نُنْقِمُ مِنْكَ إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنذِرْ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَاهِلَتَكَ قَالَ سَنُقْبِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَءَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي

الْأَرْضُ فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى قصص الأنبياء (نوح، هود، صالح، لوط، شعيب) وما حلَّ بأقوامهم من العذاب والنكال حين لم تُجِدْ^(١) «فيهم الموعظة»، ذكر تعالى هنا سنته الإلهية في الانتقام ممن كَذَّبَ أنبياءه وذلك بالتدرج معهم بالبأساء والضراء، ثم بالنعمة والرخاء، ثم بالبطش بهم إن لم يؤمنوا ثم أعقب ذلك بقصة موسى مع الطاغية فرعون وفيها كثير من العبر والعظات.

اللغة: ﴿بِالْبَاسَاءِ﴾ شدة الفقر ﴿وَالضَّرَاءِ﴾ الضرُّ والمرض ﴿عَفَوُا﴾ كثروا ونموا ﴿بَعْنَهُ﴾ فجأة ﴿وَمَلَأَهُ﴾ أشراف قومه ﴿أَرْجَهُ﴾ آخَرُ ﴿صَغِيرِينَ﴾ أذلاء ﴿تَلَقَّفُ﴾ تبتلع وتلتقم ﴿يَأْفِكُونَ﴾ الإفك: الكذب ﴿أَفْرِغْ﴾ الإفراغ: الصبُّ أي اصببه علينا.

(التفسير): ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ﴾ في الكلام حذف أي وما أرسلنا في قرية من نبي فكذبه أهلها ﴿إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ أي عاقبناهم بالبؤس والفقر، والمرض وسوء الحال ﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ أي كي يتضرعوا ويخضعوا ويتوبوا من ذنوبهم ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أي ثم أبدلناهم بالفقر والمرض، الغنى والصحة ﴿حَتَّىٰ عَفَوْا﴾ أي حتى كثروا ونموا ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ﴾ أي أبطرتهم النعمة وأشروا فقالوا كفراناً لها: هذه عادة الدهر وقد مَسَّ آباءنا مثل ذلك من المصائب ومن الرخاء وليست بعقوبة من الله فلنبق على ديننا، والغرض أن الله ابتلاهم بالسيئة لينبئوا إليه فما فعلوا، ثم بالحسنة ليشكروا فما فعلوا، فلم يبق إلا أن يأخذهم بالعذاب ولهذا قال تعالى ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَعْنَةً وَهُمْ لَا إِشْعُرُونَ﴾ أي أخذناهم بالهلاك والعذاب فجأة من حيث لا يدرون ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أي ولو أن أهل تلك القرى الذين كَذَّبُوا وأهلكوا آمنوا بالله ورسله واتقوا الكفر والمعاصي ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي لو سَعْنَا عليهم الخير من كل جانب وقيل: بركات السماء المطر، وبركات الأرض الثمار، قال السدي: فتحنا عليهم أبواب السماء والأرض بالرزق^(٢) ﴿وَالْأَرْضُ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي ولكن كَذَّبُوا الرسل فعاقبناهم بالهلاك بسوء كسبهم ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَّتَهُمْ نَائِمُونَ﴾ الهمزة للإنكار أي هل آمن هؤلاء المكذبون أن يأتيهم عذابنا ليلاً وهم نائمون غافلون عنه؟ ﴿أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضَحَىٰ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ ؟ أم هل آمنوا أن يأتيهم عذابنا ونكالنا نهاراً جهاراً وهم يلهون ويشغلون بما لا يُجدي كأنهم يلعبون؟ ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي أفأمنوا استدراجهم إياهم بالنعمة حتى يهلكوا في غفلتهم؟ فإنه لا يأمن ذلك إلا القوم الذين خسروا عقولهم وإنسانيتهم فصاروا أخس من البهائم قال

(١) (ش): أَجْدَى الشَّيْءِ: نَقَعَ.

(٢) «البحر» ٣٤٨/٤.

الحسن البصري: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفقٌ خائفٌ وجلٌّ، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو مطمئن آمن^(١) ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُوبُكَ أَلْأَرْضُ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ أي أولم يتضح ويتبين للذين يخلفون الأرض بعد هلاك أهلها الذين كانوا يعمرونها قبلهم، والمراد بها كفار مكة ومن حولهم ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي لو أردنا لأهلكناهم بسبب ذنوبهم كما أهلكنا من قبلهم قال في «البحر»: أي قد علمتم ما حل بهم أفما تحذرون أن يحل بكم ما حل بهم فذلك ليس بممتنع علينا لو شئنا^(٢) ﴿وَنَطْعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي ونختم على قلوبهم فلا يقبلون موعظةً ولا تذكيراً سماعٌ مُتَنَفِعٌ بهما ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ أي تلك القرى المذكورة نقصُّ عليك يا محمد بعض أخبارها وما حصل لأهلها من الخسف والرجفة والرجم بالحجارة ليعتبر بذلك من يسمع وما حدث أهولٌ وأفظع ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي جاءتهم بالمعجزات والحجج القاطعات ﴿فَمَا كَانُوا لِلْيُؤْمِنِ إِلَّا كَذِبًا مِنْ قَبْلُ﴾ أي ما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل لتكذيبهم إياهم قبل مجيئهم بالمعجزات وبعد مجيئهم بها فحالهم واحد في العتو والضلال قال الزمخشري: أي استمروا على التكذيب من لدن مجيء الرسل إليهم إلى أن ماتوا مُصِرِّينَ لَا يَرْعَوْنَ^(٣) مع تكرار المواعظ عليهم وتتابع الآيات^(٤) ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ أي مثل ذلك الطبع الشديد المحكم نطبع على قلوب الكافرين فلا يكاد يؤثر فيهم النذر والآيات، وفيه تحذير للسامعين ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ أي ما وجدنا لأكثر الناس من وفاء للعهد بل وجدناهم خارجين عن الطاعة والامثال قال «ابن كثير»: والعهد الذي أخذه هو ما فطروا عليه وأخذه عليهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكهم فخالفوه وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة من عقل ولا شرع^(٥) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ أي ثم بعثنا من بعد الرسل المتقدم ذكرهم موسى بن عمران بالمعجزات الباهرات والحجج الساطعات ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي أرسلناه إلى فرعون - ملك مصر في زمن موسى - وقومه ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي كفروا وجحدوا بها ظلمًا وعنادًا ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي انظر أيها السامع ما آل إليه أمر المفسدين الظالمين كيف أغرقناهم عن آخرهم بمرأى من موسى وقومه، وهذا أبلغ في النكال لأعداء الله، وأشفى لقلوب أولياء الله ﴿وَقَالَ مُوسَى يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي إني رسولٌ إليك

(١) «ابن كثير» ٣٨/٢ «المختصر».

(٢) «البحر» ٣٥٠/٤.

(٣) (ش): ارعوى الشَّخْصُ عَنْ عَيْهِ: كَفَّ عَنْهُ وَارْتَدَّعَ.

(٤) «الكشاف» ١٣٥/٢.

(٥) «مختصر ابن كثير» ٣٩٠/٢.

من الخالق العظيم رب كل شيء وخالقه ومليكه ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾ أي جديرٌ بي وحقٌ عليّ أن لا أخبر عن الله إلا بما هو حق وصدق لما أعلم من جلاله وعظيم شأنه ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي جئتكم بحجة قاطعة من الله تشهد على صدقي فخل واترك سبيل بني إسرائيل حتى يذهبوا معي إلى الأرض المقدسة التي هي وطن آبائهم^(١). قال أبو حيان: ولما كان فرعون قد ادعى الربوبية فاتحه موسى بقوله ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لينبئه على الوصف الذي ادعاه وأنه فيه مبطل لا محق، ولما كان قوله ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾ أردفها بما يدل على صحتها وهو قوله ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ولما قرّر رسالته فرّع عليها تبليغ الحكم وهو قوله ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾^(٢) ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِثَابِتٍ فَآتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي قال فرعون لموسى: إن كنت جئت بآية من ربك كما تدّعي فأحضرها عندي ليثبت بها صدقك في دعواك، قال ذلك على سبيل التعجيز لموسى ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي فإذا بها حية ضخمة طويلة قال ابن عباس: تحولت إلى حية عظيمة فاغرة فأها^(٣) مسرعة نحو فرعون ﴿مُبِينٌ﴾ أي ظاهر لا متخيل ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضٌ لِلنَّظَرِينَ﴾ أي أخرجها من جيبه فإذا هي بيضاء بياضاً نورانياً عجيباً يغلب نورها نور الشمس. قال ابن عباس: كان ليد نور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي قال الأشراف منهم وهم أصحاب مشورته: إن هذا عالمٌ بالسحر ماهرٌ فيه، وقولهم ﴿عَلِيمٌ﴾ أي بالغ الغاية في علم السحر وخدعه وفنونه ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ أي يخرجكم من أرض مصر بسحره ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أي بأي شيء تأمرون أن نفعل في أمره؟ وبأي شيء تشيرون فيه؟ قال «القرطبي»: قال فرعون: فماذا تأمرون. وقيل: هو من قول الملاء أي قالوا لفرعون وحده ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ كما يخاطب الجبارون والرؤساء: ما ترون في كذا ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ أي آخر أمرهما حتى ترى رأيك فيهما وأرسل في أنحاء البلاد من يجمع لك السحرة ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ أي يأتوك بكل ساحر مثله ماهر في السحر، وكان رؤساء السحرة بأقصى صعيد مصر ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾^(٤) في الكلام محذوف يدل عليه السياق وهو أنه بعث إلى السحرة وطلب أن

(١) قال المفسرون: كان سبب سكن بني إسرائيل بمصر مع أن أباهم كان بالأرض المقدسة أن الأسباط. أولاد يعقوب. جاءوا مصر إلى أخيهم يوسف فمكثوا وتناسلوا في مصر فلما ظهر فرعون استعبدهم واستعملهم في الأعمال الشاقة فأحب موسى أن يخلصهم من هذا الأسر ويذهب بهم إلى الأرض المقدسة وطن آبائهم.

(٢) «البحر» ٣٥٥ / ٤.

(٣) (ش): فأها: فمها. فغر فمه: فتحه.

(٤) «القرطبي» ٢٥٧ / ٧.

يُجْمَعُوا لَهُ فَلَمَّا جَاءُوا فَرَعُونَ قَالُوا: إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا عَظِيمًا إِنْ نَحْنُ غَلَبْنَا مُوسَى وَهَزَمْنَاهُ وَابْطَلْنَا سِحْرَهُ؟ ﴿٥٧٨﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٥٧٩﴾ أَيُّ قَالَ فَرَعُونَ: نَعَمْ لَكُمْ الْأَجْرُ وَأَزِيدَكُمْ عَلَى ذَلِكَ بِأَنْ أَجْعَلَكُمْ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ أَيُّ مِنْ أَعَزَّ خَاصَّتِي وَأَهْلَ مَشُورَتِي قَالَ «الْقُرْطَبِيُّ»: زَادَهُمْ عَلَى مَا طَلَبُوا ﴿٥٨٠﴾ قَالُوا يَكْمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُؤَلَّفِينَ ﴿٥٨١﴾ أَيُّ قَالَ السِّحْرَةَ لِمُوسَى: اخْتَرِ إِمَّا أَنْ تُلْقَى عَصَاكَ أَوْ نُلْقَى نَحْنُ عَصِينَا. قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: تَخْيِيرُهُمْ إِيَّاهُ أَدَبٌ حَسَنٌ كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ الصَّنَاعَاتِ إِذَا التَّقَوُّ كَالْمُتَنَازِلِينَ قَبْلَ أَنْ يَخُوضُوا فِي الْجِدَالِ (١) هَذَا مَا قَالَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ مِنْ بَابِ الْإِعْتِرَازِ بِالنَّفْسِ وَتَوَهُمِ الْغَلْبَةِ وَعَدَمِ الْإِكْتِرَافِ بِأَمْرِ مُوسَى كَمَا يَقُولُ الْمُعْتَدُّ بِنَفْسِهِ: أَبَدًا أَوْ تَبَدُّا ﴿٥٨٢﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴿٥٨٣﴾ أَيُّ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ فَلَمَّا أَلْقَوْا الْعَصَى وَالْحِبَالَ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ أَيُّ خِيلُوا إِلَيْهِمْ مَا لَا حَقِيقَةَ لَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنْهَا تَسْعَى﴾ [طه: ٦٦] ﴿وَأَسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ أَيُّ أَفْرَعُوهُمْ وَأَرْهَبُوهُمْ إِرْهَابًا شَدِيدًا حَيْثُ خِيلُوا حَيَاتٍ تَسْعَى وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ يَهَابُهُ مِنْ رَأَاهُ قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: صُفِّ خَمْسَةُ عَشَرَ أَلْفَ سَاحِرٍ مَعَ كُلِّ سَاحِرٍ حِبَالُهُ وَعَصِيَّتُهُ وَفَرَعُونَ فِي مَجْلِسِهِ مَعَ أَشْرَافِ مَمْلَكَتِهِ فَكَانَ أَوَّلُ مَا اخْتَلَفُوا بِسِحْرِهِمْ بِصَرِّ مُوسَى وَبَصَرِ فَرَعُونَ، ثُمَّ أَبْصَارُ النَّاسِ بَعْدَ، ثُمَّ أَلْقَى رَجُلٌ مِنْهُمْ مَا فِي يَدِهِ مِنَ الْعَصَى وَالْحِبَالَ فَإِذَا هِيَ حَيَاتٌ كَأَمْثَالِ الْجِبَالِ قَدْ مَلَأَتْ الْوَادِي يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا (٢) ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أَيُّ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ بِأَنْ أَلْقَ عَصَاكَ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ تَبْتَلَعُ بِسُرْعَةٍ مَا يُزَوِّرُونَهُ مِنَ الْكُذْبِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ لَا تَمُرُ بِشَيْءٍ مِنْ حِبَالِهِمْ وَخَشَبِهِمُ الَّتِي أَلْقَوْهَا إِلَّا التَّقَمَّتْهُ ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَيُّ ثَبَتَ وَظَهَرَ الْحَقُّ لِمَنْ شَهِدَهُ وَحَضَرَهُ، وَبَطَلَ إِفْكُ السِّحْرِ وَكَذِبُهُ وَمَخَايِلُهُ ﴿فَغَلَبُوا هَٰنَا لَكَ وَأَنْقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ أَيُّ غَلَبَ فَرَعُونَ وَقَوْمُهُ فِي ذَلِكَ الْمَجْمَعِ الْعَظِيمِ وَصَارُوا ذَلِيلِينَ ﴿وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ﴾ (٣) ﴿قَالُوا أَمْ تَارَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿أَيُّ خَرُّوا سَاجِدِينَ مُعْلِنِينَ إِيمَانَهُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ لِأَنَّ الْحَقَّ بِهِمْ قَالَ قَتَادَةُ: كَانُوا أَوَّلَ النَّهَارِ كُفَّارًا سَحَرَهُ وَفِي آخِرِهِ شُهَدَاءُ بَرَّةٍ (٣)﴾ ﴿قَالَ فَرَعُونَ أَمْ أَنْتُمْ بِإِيَّاهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أَيُّ قَالَ فَرَعُونَ الْجَبَّارَ لِلْسِّحْرَةِ: أَمْ أَنْتُمْ بِمُوسَى قَبْلَ أَنْ تَسْتَأْذِنُونِي؟ وَالْمَقْصُودُ بِالْجُمْلَةِ التَّوْيِيخُ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِخُرُوجِهَا مِنْهَا أَهْلُهَا﴾ أَيُّ صَنِيعَكُمْ هَٰذَا حِيلَةً أَتَحْتَلِمُونَهَا أَنْتُمْ وَمُوسَى فِي مِصْرَ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجُوا إِلَى الْمِيعَادِ لِتَخْرُجُوا مِنْهَا الْقَبْطَ وَتَسْكُنُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَالَ هَٰذَا تَمْوِيهًا عَلَى النَّاسِ لِئَلَّا يَتَّبِعُوا السِّحْرَةَ فِي الْإِيمَانِ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ فَسُوفَ

(١) «الكشاف» ٢/ ١٤٠.

(٢) «الطبري» ١٣/ ٢٨.

(٣) «البحر المحيط» ٤/ ٣٦٤.

تعلمون ما يحلُّ بكم، وهذا وعيد وتهديد ساقه بطريق الإجمال للتهويل ثم عقبه بالتفصيل فقال ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ أي لأقطعنَّ من كل واحد منكم يده ورجله من خلاف قال «الطبري»: ومعنى ﴿مَنْ خَلَفَ﴾ هو أن يقطع من أحدهم يده اليمنى ورجله اليسرى، أو يقطع يده اليسرى ورجله اليمنى فيخالف بين العضوين في القطع^(١) ﴿ثُمَّ لَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي ثم أصلبكم جميعاً تنكيلاً لكم ولأمثالكم، والصلب التعليق على الخشب حتى الموت ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ إِنَّا راجعون إلى الله بالموت لا محالة فلا نخاف مما تتوعدنا به ولا نبالي بالموت وحبذا الموت في سبيل الله ﴿وَمَا نُنْقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْتَ أَمَنَّا بِإِيدِكَ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا﴾ أي ما نكره منا ولا تعيب علينا إلا إيماننا بالله وآياته!!

كقوله ﴿وَمَا تَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨] قال الزمخشري: أرادوا وما تعيب منا إلا ما هو أصل المناقب والمفاخر كلها وهو الإيمان^(٢) ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ أي أفض علينا صبراً يغمرنا عند تعذيب فرعون إيانا وتوفنا على ملة الإسلام غير مفتونين ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُسُونَهُ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ الْهَيْكَلُ﴾ أي قال الأشراف لفرعون: أتترك موسى وجماعته ليفسدوا في الأرض بالخروج عن دينك وترك عبادة آلهتك!! وفي هذا إغراء لفرعون بموسى وقومه وتحريض له على قتلهم وتعذيبهم ﴿قَالَ سَنَقُولُ أَبْنَاءَهُمْ وَسَتَحْيَىٰ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ أي قال فرعون مجيباً لهم: سنقتل أبناءهم الذكور ونستحيي نساءهم للاستخدام كما كنا نفعل بهم ذلك وإننا عالون فوقهم بالقهر والسلطان ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا﴾ أي قال موسى لقومه تسليّة لهم حين تضجروا مما سمعوا: استعينوا بالله على فرعون وقومه فيما ينالكم من أذاهم واصبروا على حكم الله ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي الأرض كلها لله يعطيها من أراد من عباده، أطعمهم في أن يورثهم الله أرض مصر ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي النتيجة المحمودّة لمن اتقى الله ﴿قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ أي أؤذينا من قبل أن تأتينا بالرسالة ومن بعدما جئتنا بها يعنون أن المحنة لم تفارقهم فهم في العذاب والبلاء قبل بعثة موسى وبعد بعثته ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عِدْوُكُمْ وَيَسْتَخْلَفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي لعل ربكم أن يهلك فرعون وقومه ويجعلكم تخلفونهم في أرضهم بعد هلاكهم وينظر كيف تعملون بعد استخلافكم من الإصلاح والإفساد، والغرض تحريضهم على طاعة الله، وقد حقق الله رجاء موسى فأغرق فرعون وملك بن إسرائيل أرض مصر قال في «البحر»: سلك موسى طريق الأدب مع الله وساق الكلام مساق الرجاء^(٣).

(١) «الطبري» ١٣ / ٣٤.

(٢) «الكشاف» ٤ / ٣٦٩.

(٣) «البحر المحيط» ٤ / ٣٦٩.

البلاغة: ١ - ﴿بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ بين لفظ الحسنه والسيئة طباقاً وكذلك بين لفظ ﴿الضَّرَاءِ وَالسَّرَّاءِ﴾ .

٢ - ﴿لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ شبه تيسير البركات عليهم بفتح الأبواب في سهولة التناول فهو من باب الاستعارة أي وسعنا عليهم الخير من جميع الأطراف.

٣ - ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ تكررت الجملة والغرض منها الإنذار ويسمى هذا في علم البلاغة الإطناب ومثلها ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ قال (أبو السعود): تكريرٌ للنكير لزيادة التقرير، ومكرُ الله استعارة لاستدراجه العبد وأخذه من حيث لا يحتسب^(١).

٤ - ﴿وَإِنكُمْ لَمِنَ الْمُفَرِّينَ﴾ أكد الجملة بإن واللام لإزالة الشك من نفوس السحرة ويسمى هذا النوع من أَضْرُب^(٢) الخبر إنكارياً.

٥ - ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ فيه استعارة استعير الوقع للثبوت والحصول والله أعلم.

تنبيه: لما عجز فرعون عن دفع الحجة بالبرهان عدل إلى البطش والفتك بالسنان، وهكذا

(١) «أبو السعود» ١٨٤/٢. (ش): صفات الله تعالى كلها صفات كمال، دالة على أحسن المعاني وأكملها، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]. ومعنى المثل الأعلى أي الوصف الأكمل. والصفات ثلاثة أنواع: الأول: صفات كمال، لا نقص فيه بوجه من الوجوه. فهذه يوصف الله تعالى بها وصفاً مطلقاً ولا يقيد بشيء، مثال ذلك: العلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والرحمة. . . إلخ. الثاني: صفات نقص، لا كمال فيها، فهذه لا يوصف الله تعالى بها أبداً، كالنوم، والعجز، والظلم، والخيانة. . إلخ. الثالث: صفات يمكن أن تكون كمالاً، ويمكن أن تكون نقصاً، على حسب الحال التي تُذكر فيها. فهذه لا يوصف الله تعالى بها على سبيل الإطلاق، ولا تنفى عن الله تعالى على سبيل الإطلاق، بل يجب التفصيل، ففي الحال التي تكون كمالاً يوصف الله تعالى بها، وفي الحال التي تكون نقصاً لا يوصف الله تعالى بها. ومثال هذا: المكر، والخديعة، والاستهزاء. فالمكر والخديعة والاستهزاء بالعدو صفة كمال، لأن ذلك يدل على كمال العلم والقدرة والسلطان. . ونحو ذلك. أما المكر بالمؤمنين الصادقين فهو صفة نقص. ولذلك لم يرد وصف الله تعالى بهذه الصفات على سبيل الإطلاق، وإنما ورد مقيداً بما يجعله كمالاً. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]. فهذا خداع بالمنافقين. وقال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. وهذا مكر بأعداء الله الذين كانوا يَمْكُرُونَ برسول الله ﷺ. وقال عن المنافقين: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [البقرة: ١٤-١٥]. وهذا استهزاء بالمنافقين. فهذه الصفات تعتبر كمالاً في هذا السياق الذي وردت فيه. ولهذا يقال: الله تعالى يستهزئ بالمنافقين، ويخادعهم، ويمكر بأعدائه. ونحو ذلك. ولا يجوز أن يوصف الله تعالى بالمكر والخداع وصفاً مطلقاً. لأنه حينئذ لا يكون كمالاً. فالله سبحانه وتعالى ينسب إلى نفسه أحسن هذه المعاني وما هو منها حكمة وصواب وجزاء للمسيء وذلك غاية العدل والحق كقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا. وقوله: ﴿وَمَكُرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ﴾. وقوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾. وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾. وقوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنْ كِيدِي مَتِينٌ﴾، فهذا منه سبحانه في أعلى مراتب الحُسْن وإن كان من العبد قبيحاً سيئاً لأنه ظالم فيه ومُوقِعُه بمن لا يستحقه، والرب تعالى عادل فيه ومُوقِعُه بأهله ومن يستحقه.

(٢) (ش): أنواع، ضَرْب: نوع وصنف، والجمع أَضْرُب وضُرُوب.

حال كل ضال مبتدع إذا أعيتته الحجة مال إلى التهديد والوعيد.

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقِصَ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ
الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَرُوا يَمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ، أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرُكُمْ عَنْدَ اللَّهِ وَلَكُمْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَافِيعَ وَالذَّمَ آيَتِ مُفْصَلَتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ
﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمُوسَى أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ
لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَتَرْسِلَنَّا مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِلِغْوِهِ
إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ آفَاقَهُمْ فِي آيَةٍ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾
وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ
كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ، وَمَا
كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَوْرْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَانَا عَلَى قَوْمٍ يَكْفُؤُونَ عَلَى أَسْنَانِهِمْ قَالُوا
يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا مَثَبٌ مِمَّا هُمْ فِيهِ وَيَطْلُبُ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْيَعِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَبْحَنَكُم
مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ
بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴿١٤٢﴾ وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ مِيقَتَ رَبِّهِ
أَزْبَعِيكَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٣﴾
وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ، قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ
اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ، فَسَوْفَ نَرِنِي فَلَمَّا بَحَلَّ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صُوعًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ
سُبْحَنَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٤﴾ قَالَ يَمُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي
وَبِكَلِمَةٍ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً
وَنَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٦﴾ سَأَصْرِفُ
عَنْ آيَتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ
الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا
غَافِلِينَ ﴿١٤٧﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٤٨﴾ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَّهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلِمُهُمْ
وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا
قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٥٠﴾

المناسبة: لما كان قصة الكليم مع الطاغية فرعون مملوءة بالعبر والعظات لذلك استطردت

الآيات في الحديث عنهم فتحدثت عما حلَّ بقوم فرعون من البلايا والنكبات، وما ابتلاهم الله به من القحط والجذب، والطوفان والجراد وغير ذلك من المصائب نتيجة إصرارهم على الكفر وتكذيبهم بآيات الله، ثم ذكرت أنواع النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل ومن أعظمها إهلاك عدوهم وقطعهم «البحر» مع السلامة والأمان.

اللغة: ﴿بِالسِّنِينَ﴾ جمع سَنَةٍ وهي الجذب والقحط ﴿يَطِيرُوا﴾ يتشاءموا والأصل يطيروا مأخوذاً من الطيرة وهي زجر الطير ثم استعمل في التشاؤم ﴿الطُّوفَانُ﴾ السيل المتلف المدمر ﴿وَالْقَمَلُ﴾ السوس وهي حشرات صغيرة تكون في الحنطة وغيرها تفسد الحبوب ﴿الرَّجْزُ﴾ العذاب، والرجس بالسين: النجس وقد يستعمل بمعنى العذاب ﴿أَلِيمٌ﴾ «البحر» ﴿يَعْكُفُونَ﴾ عكف على الشيء أقام عليه ولزمه ﴿مُتَبَّرٌ﴾ مهلك والتبار: الهلاك ﴿صَعَقًا﴾ مغشياً عليه يقال: صعق الرجل إذا أغمى عليه.

التفسير: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ اللام موطئة لقسم محذوف أي والله لقد ابتلينا واختبرنا فرعون وأتباعه بالجذب والقحط ﴿وَنَقَصَ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أي وابتليناهم بإذهاب الثمار من كثرة الآفات قال المفسرون: كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة^(١) ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ أي لعلهم يتعظون وترقُّ قلوبهم فإن الشدة تجلب الإنابة والخشية ورقة القلب، ثم بين تعالى أنهم مع تلك المحن والشدائد لم يزدادوا إلا تمرداً وكفراً فقال ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ أي إذا جاءهم الخصب والرخاء قالوا هذه لنا وبسعدنا ونحن مستحقون لذلك ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطِيرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ أي وإذا جاءهم الجذب والشدة تشاءموا بموسى ومن معه من المؤمنين. أي: قالوا: هذا بشؤمهم قال تعالى ردّاً عليهم ﴿أَلَا إِنَّمَا طَلَيْتُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي إن ما يصيبهم من خير أو شر بتقدير الله وليس بشؤم موسى قال ابن عباس: الأمر من قبل الله ليس بشؤمهم إلا من قبله وحكمه^(٢) ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون أن ما لحقهم من القحط والشدائد من عند الله بسبب معاصيهم لا من عند موسى ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتَسْحَرْنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي قال قوم فرعون لموسى: أي شيء تأتينا به يا موسى من المعجزات لتصرفنا عما نحن عليه فلن نؤمن لك قال الزمخشري: فإن قلت كيف سموها آية ثم قالوا ﴿لَتَسْحَرْنَا بِهَا﴾ قلت: ما سموها آية لا اعتقادهم أنها آية وإنما قصدوا بذلك الاستهزاء والتلهي^(٣) قال تعالى ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ أي أرسلنا عليهم المطر الشديد حتى عاموا فيه وكادوا يهلكون قال ابن عباس: الطوفان كثرة الأمطار المغرقة

(١) «الطبري» ١٣/٤٦.

(٢) «روح المعاني» ٩/٣٢. (ش): أي إن ما يصيبهم من الجذب والقحط إنما هو بقضاء الله وقدره، وبسبب ذنوبهم وكفرهم.

(٣) «الكشاف» ٢/١٤٦.

المتلفة للزروع والثمار^(١) ﴿وَالْجَرَادَ﴾ أي وأرسلنا عليهم كذلك الجراد فأكل زروعهم وثمارهم حتى أكل ثيابهم ﴿وَالْقُمَّلَ﴾ وهو السوس حتى نخر حبوبهم وتتبع ما تركه الجراد وقيل: هو القمل المشهور كان يدخل بين ثوب أحدهم وجلده فيمصه ﴿وَالضَّفَادِعَ﴾ جمع ضفدع حتى ملأت بيوتهم وطعامهم وإذا تكلم أحدهم وثبت الضفدع إلى فمه ﴿وَالدَّمَ﴾ أي صارت مياههم دمًا فما يستقون من بئر ولا نهر إلا وجدوه دمًا ﴿ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ﴾ أي علامات ظاهرات فيها عبر وعظاٌ ومع ذلك استكبروا عن الإيمان ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي استكبروا عن الإيمان بها لغلوهم في الإجماع ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ أي وحين نزل بهم العذاب المذكور ﴿قَالُوا يَمْوَسَىٰ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ أي ادع لنا ربك ليكشف عنا البلاء بحق ما أكرمك به من النبوة قال الزمخشري: أي أسعفنا إلى ما نطلب إليك من الدعاء لنا بحق ما عندك من عهد الله وكرامته بالنبوة^(٢) ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ اللام لام القسم أي والله لئن رفعت عنا العذاب الذي نحن فيه يا موسى لنصدقن بما جئت به ولنطلقن سراح بني إسرائيل، وقد كانوا يستخدمونهم في أرذل الأعمال ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بِلُغْوِهِمْ﴾ أي فلما كشفنا بدعاء موسى عنهم العذاب إلى حدٍّ من الزمان هم واصلون إليه ولا بدَّ قال ابن عباس: هو وقت الغرق ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ أي إذا هم ينقضون عهودهم ويصرون على الكفر ﴿فَأَنقَضْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أي فانتقمنا منهم بالإغراق في «البحر» ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أي بسبب تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم عنها وعدم مبالاةهم بها ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا﴾ أي وأورثنا الذين كانوا يُستذلون بالخدمة أرض الشام ومملكتناهم جميع جهاتها ونواحيها: مشارقها ومغاربها ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بالخيرات وكثرة الثمرات ﴿وَوَكَّمْتُ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي تمَّ وعد الله الصادق بالتمكين لبني إسرائيل في الأرض ونصره إياهم على عدوهم قال «الطبري»: وكلمته الحسنی هي قوله جل ثناؤه: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ [القصاص: ٥] الآية^(٣) ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي بسبب صبرهم على الأذى ﴿وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ أي خربنا ودمرنا القصور والعمارات التي كان يشيدها فرعون وجماعته وما كانوا يعرشون من الجنات والمزارع. وإلى هنا تنتهي قصة فرعون وقومه ويتبدى الحديث عن بني إسرائيل وما أغدق الله عليهم من النعم الجسام، وأراهم من الآيات العظام، تسليّة لرسوله عليه

(١) «مختصر ابن كثير» ٢/ ٤٥.

(٢) «الكشاف» ٢/ ١٤٨.

(٣) «الطبري» ١٣/ ٧٧.

الصَّلَاةَ وَالسَّلَامُ مِمَّا رَأَاهُ مِنْهُمْ قَالَ تَعَالَى ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾ أَيِ عِبْرَنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ «البحر» وهو بحر القلزم عند خليج السويس الآن ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ أَيِ مَرُّوا عَلَى قَوْمٍ يَلْزَمُونَ عَلَى عِبَادَةِ أَصْنَامٍ لَهُمْ ﴿قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ أَيِ اجْعَلْ لَنَا صِنْمًا نَعْبُدُهُ كَمَا لَهُمْ أَصْنَامٌ يَعْبُدُونَهَا قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: الظاهر أنهم استحسِنُوا مَا رَأَوْا فَأَرَادُوا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي شَرعِ مُوسَى وَفِي جُمْلَةٍ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ وَإِلَّا فَبَعِيدٌ أَنْ يَقُولُوا لِمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا نُفَرِّدُهُ بِالْعِبَادَةِ ^(١) ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أَيِ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ عِظْمَةَ اللَّهِ وَمَا يَجِبُ أَنْ يَنْزِعَهُ عَنْهُ مِنَ الشَّرِيكَ وَالنَّظِيرِ قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: تَعَجَّبَ مِنْ قَوْلِهِمْ عَلَى أَثَرِ مَا رَأَوْا مِنَ الْآيَةِ الْعِظْمَى، وَالْمَعْجِزَةِ الْكُبْرَى فَوَصَفَهُمْ بِالْجَهْلِ الْمَطْلُوقِ وَأَكَّدَهُ، لِأَنَّهُ لَا جَهْلَ أَعْظَمَ مِمَّا رَأَى مِنْهُمْ وَلَا أَشْنَعَ ^(٢) ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُمُ فِيهِ﴾ أَيِ هَالِكٌ مَذْمُومٌ مَا هُمُ فِيهِ مِنَ الدِّينِ الْبَاطِلِ وَهُوَ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ ﴿وَنُطِلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَيِ بَاطِلٌ عَمَلُهُمْ مُضْمَحَلٌّ بِالْكَلْبَةِ لِأَنَّهُمْ عَبَدُوا مَا لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ ﴿قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أَيِ أَطْلَبَ لَكُمْ مَعْبُودًا غَيْرَ اللَّهِ الْمُسْتَحَقِّ لِلْعِبَادَةِ وَالْحَالُ أَنَّ اللَّهَ فَضَّلَكُمْ عَلَى غَيْرِكُمْ بِالنِّعَمِ الْجَلِيلَةِ! قَالَ «الطَّبْرِي»: فَضَّلَكُمْ عَلَى عَالَمِي دَهْرِكُمْ وَزَمَانِكُمْ ^(٣) ﴿وَإِذْ أَجْنَحْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أَيِ وَاذْكُرُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ النِّعَمَ الَّتِي سَلَفَتْ مِنِّي إِلَيْكُمْ حِينَ أَنْجَيْتُكُمْ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ يَذِيقُونَكُمْ أَفْظَعَ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ وَأَسْوَأَهُ ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ ﴿يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أَيِ يَذْبَحُونَ الذَّكَورَ وَيَسْتَبْقُونَ الْإِنَاثَ لَا مَتَهَانَهُنَّ فِي الْخِدْمَةِ ﴿وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أَيِ وَفِي هَذَا الْعَذَابِ اخْتِبَارٌ وَابْتِلَاءٌ مِنَ اللَّهِ لَكُمْ عَظِيمٌ فَتَجَاكُمُ مِنْهُ أَفْلا تَشْكُرُونَهُ؟ ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ أَيِ وَاعَدْنَا مُوسَى لِمَنَاجَاتِنَا بَعْدَ مَضِيِّ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَكْمَلْنَاهَا بِعَشْرِ لَيَالٍ فَتَمَّتِ الْمَنَاجَاةُ بَعْدَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: رَوَى أَنَّ مُوسَى وَعَدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهُوَ بِمِصْرَ إِنَّ أَهْلَكَ اللَّهِ عَدَّوَّهُمْ أَتَاهُمْ بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فِيهِ بَيَانٌ مَا يَأْتُونَ وَمَا يَذْرُونَ، فَلَمَّا هَلَكَ فِرْعَوْنَ سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ الْكِتَابَ فَأَمَرَهُ بِصَوْمِ ثَلَاثِينَ يَوْمًا وَهُوَ شَهْرُ ذِي الْقَعْدَةِ فَلَمَّا أَتَمَّ الثَّلَاثِينَ أَنْكَرَ خُلُوفَ فَمِهِ «تَغْيِيرُ رَائِحَتِهِ» فَتَسَوَّكَ فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ خُلُوفَ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدِي مِنْ رِيحِ الْمَسْكِ. فَأَمَرَهُ تَعَالَى أَنْ يَزِيدَ عَلَيْهَا عَشْرَةَ أَيَّامٍ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ^(٤) ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ أَيِ كُنْ خَلِيفَتِي فِيهِمْ إِلَى أَنْ أَرْجِعَ ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ

(١) «البحر» ٣٨٧/٤. (ش): تكملة كلام ابن عطية: اجعل لنا إلهاً نُفَرِّدُهُ بِالْعِبَادَةِ وَنَكْفُرُ بِرَبِّكَ.

(٢) «الكشاف» ١٥٠/٢.

(٣) «الطبري» ٨٤/١٣.

(٤) «الكشاف» ١٥١/٢.

الْمُفْسِدِينَ ﴿١﴾ أَي وَأَصْلَحْ أَمْرَهُمْ وَلَا تَسْلُكْ طَرِيقَ الَّذِينَ يَفْسُدُونَ فِي الْأَرْضِ بِمَعْصِيَتِهِمْ اللَّهُ ﴿٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴿٣﴾ أَي وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِلْوَقْتِ الَّذِي وَعَدْنَاهُ فِيهِ وَنَاجَاهُ رَبُّهُ وَكَلَّمَهُ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴿٥﴾ أَي أَرْنِي ذَاتَكَ الْمَقْدَسَةَ أَنْظُرْ إِلَيْهَا قَالَ «الْقُرْطَبِيُّ»: اشْتَاقَ إِلَى رُؤْيَا رَبِّهِ لَمَّا أَسْمَعَهُ كَلَامَهُ فَسَأَلَ النَّظَرَ إِلَيْهِ ^(١) ﴿٦﴾ قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانُهُ فَسَوْفَ تَرِنِي ﴿٧﴾ أَي أَجَابَهُ رَبُّهُ لَنْ تَسْتَطِيعَ رُؤْيَايَ فِي الدُّنْيَا فَإِنْ هَذِهِ الْبَنِيَّةُ الْبَشَرِيَّةُ لَا طَاقَةَ لَهَا بِذَلِكَ وَلَكِنْ سَأَتَجَلَّى لَمَّا هُوَ أَقْوَى مِنْكَ وَهُوَ الْجَبَلُ فَإِنْ ثَبَتَ الْجَبَلُ مَكَانَهُ وَلَمْ يَتَزَلْزَلْ فَسَوْفَ تَرَانِي أَي تَثْبُتَ لِرُؤْيَايَ وَإِلَّا فَلَا طَاقَةَ لَكَ ﴿٨﴾ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴿٩﴾ أَي فَلَمَّا ظَهَرَ مِنْ نُورِ اللَّهِ قَدْرَ نِصْفِ أُنْمَلَةِ الْخَنْصَرِ أُنْدَكَ الْجَبَلُ وَتَفَتَّتْ وَسَقَطَ مُوسَى مَغْشِيًا عَلَيْهِ ^(٢) مِنْ هَوْلِ مَا رَأَى قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا تَجَلَّى مِنْهُ سُبْحَانَهُ لِلْجَبَلِ إِلَّا قَدْرُ الْخَنْصَرِ فَصَارَ تَرَابًا وَخَرَّ مُوسَى مَغْشِيًا عَلَيْهِ وَفِي الْحَدِيثِ: فَسَاخَ الْجَبَلُ ^(٣) ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثَبَّتَ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾ أَي فَلَمَّا صَحَا مِنْ غَشِيَتِهِ قَالَ تَزْيِيهًا لَكَ يَا رَبِّ وَتَبَرُّثًا أَنْ يَرَاكَ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا ثَبَّتَ إِلَيْكَ مِنْ سَوْأَلِي رُؤْيَاكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ بِعَظَمَتِكَ وَجَلَالِكَ ﴿١٢﴾ قَالَ يَمُوسَى إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي ﴿١٣﴾ أَي اخْتَرْتُكَ عَلَى أَهْلِ زَمَانِكَ بِالرِّسَالَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَبِتَكْلِيمِي إِيَّاكَ بِدُونِ وَاسِطَةٍ ﴿١٤﴾ فَخَذَ مَاءً أَتَيْتُكَ ﴿١٥﴾ أَي خَذَ مَا أَعْطَيْتُكَ مِنْ شَرَفِ النَّبُوَّةِ وَالْحِكْمَةِ ﴿١٦﴾ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٧﴾ وَاشْكُرْ رَبَّكَ عَلَى مَا أَعْطَاكَ مِنْ جَلَائِلِ النِّعَمِ قَالَ «أَبُو السَّعُودِ»: وَالْآيَةُ مَسْوُوقَةٌ لِتَسْلِيَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ عَدَمِ الْإِجَابَةِ إِلَى سُؤَالِ الرُّؤْيَا كَأَنَّهُ قِيلَ: إِنْ مَنَعْتُكَ الرُّؤْيَا فَقَدْ أَعْطَيْتُكَ مِنَ النِّعَمِ الْعِظَامِ مَا لَمْ أَعْطِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ فَاغْتَنِمَهَا وَثَابِرْ عَلَى شُكْرِهَا ^(٤) ﴿١٨﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاكِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴿١٩﴾ أَي كَتَبْنَا لَهُ كُلَّ شَيْءٍ كَانَ يُنَوِّسُ إِسْرَائِيلَ مُحْتَاجِينَ إِلَيْهِ فِي دِينِهِمْ مِنَ الْمَوَاعِظِ وَتَفْصِيلِ الْأَحْكَامِ مَبِينَةً لِلْحَلَالِ وَالْحَرَامِ كُلِّ ذَلِكَ فِي الْأَوَاكِ التَّوْرَةِ ﴿٢٠﴾ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴿٢١﴾ أَي لِيَتَعَذَّبُوا بِهَا وَيَزِدُّوا وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ التَّكْلِيفِ الشَّرْعِيِّ ﴿٢٢﴾ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ ﴿٢٣﴾ أَي خَذَ التَّوْرَةَ بِجِدٍّ وَاجْتِهَادٍ شَأْنِ أُولِي الْعِزْمِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَرَ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴿٢٥﴾ أَي وَأَمَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالْحَثِّ عَلَى اخْتِيَارِ الْأَفْضَلِ كَالْأَخْذِ بِالْعِزَائِمِ دُونَ الرِّخَصِ فَالْعَفْوُ أَفْضَلُ مِنَ الْقِصَاصِ، وَالصَّبْرُ أَفْضَلُ مِنَ الْإِنْتِصَارِ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿٢٦﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٢٧﴾ [الشورى: ٤٣] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَمَرَ مُوسَى أَنْ يَأْخُذَهَا

(١) «القرطبي» ٧/ ٢٧٨.

(٢) «الطبري» ١٣/ ٩٧.

(٣) (ش): عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ قَالَ حَبَّادٌ هَكَذَا وَأَمْسَكَ سُلَيْمَانُ بِطَرَفِ إِنْهَامِهِ عَلَى أُنْمَلَةٍ إِصْبَعِهِ الْيُمْنَى قَالَ: فَسَاخَ الْجَبَلُ ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾. [رواه الترمذي، وصححه الألباني]. سَاخَ: انْخَسَفَ وَغَاصَ.

(٤) «أبو السَّعُودِ» ٢/ ١٩٥.

بأشد مما أمر به قومه^(١) ﴿سَأُوزِيكُمُ الدَّارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي سترون منازل الفاسقين - فرعون وقومه - كيف أفقرت منهم ودُمِّرَ لفسقهم لتعبروا فلا تكونوا مثلهم، فإن رؤيتها وهي خالية عن أهلها موجبة للاعتبار والانزجار ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي سأمنع المتكبرين عن فهم آياتي فلا يتفكرون ولا يتدبرون بما فيها، وأطمس على قلوبهم عقوبة لهم على تكبرهم قال الزمخشري: وفيه إنذار للمخاطبين من عاقبة الذين يُصرفون عن آيات الله لتكبرهم وكفرهم بها ثلثا يكونوا مثلهم فيسلك بهم سبيلهم^(٢) ﴿وَأِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أي وإن يشاهدوا كل آية قرآنية من الآيات المنزلة عليهم أو يروا كل معجزة ربانية لا يصدقوا بها ﴿وَأِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أي وإن يروا طريق الهدى والفلاح لا يسلكوه ﴿وَأِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أي وإن يروا طريق الضلال والفساد سلكوه كقوله ﴿فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧] ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي ذلك الانحراف عن هدي الله وشرعه بسبب تكذيبهم بآيات الله ﴿وَكَاثُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أي وغفلتهم عن الآيات التي بها سعادتهم حيث لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي جحدوا بما أنزل الله ﴿وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ﴾ أي وكذبوا بقاء الله في الآخرة أي لم يؤمنوا بالبعث بعد الموت ﴿حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي بطلت أعمالهم الخيرية التي عملوها في الدنيا من إحسان وصلة رحم وصدقة وأمثالها وذهب ثوابها لعدم الإيمان ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي هل يُثابون أو يعاقبون إلا بما عملوا في الدنيا؟ ﴿وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَّهُ خَوَارٌ﴾ قال الحافظ «ابن كثير»: يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذه لهم السامري من الحلي، فشكّل لهم منه عجلًا جسدًا لا روح فيه وقد احتال بإدخال الريح فيه حتى صار يسمع له خوار أي صوت كصوت البقر^(٣) ومعنى ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد ذهاب موسى إلى الطور لمناجاة ربه ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلِمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي كيف عبدوا العجل واتخذوه إلهًا مع أنه ليس فيه شيء من صفات الخالق الرازق، فإنه لا يملك قدرة الكلام ولا قدرة هدايتهم إلى سبيل السعادة فكيف يتخذ إلهًا؟ ﴿أَتَتَّخِذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أي عبدوا العجل واتخذوه إلهًا فكانوا ظالمين لأنفسهم حيث وضعوا الأشياء في غير موضعها، وتكرير لفظ ﴿أَتَتَّخِذُوهُ﴾ لمزيد التشنيع عليهم ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي ندموا على جنائتهم واشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ أي تبينوا ضلالهم تبينًا جليًا كأنهم

(١) «الطبري» ١١٠/١٣.

(٢) «الكشاف» ١٥٩/٢.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٥١/٢.

أَبْصَرُوهُ بِعْيُونِهِمْ ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ أي لئن لم يتداركنا الله برحمته ومغفرته ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي لتكونن من الهالكين قال «ابن كثير»: وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل^(١).

البلاغة: ١ - ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ﴾ بين لفظ الحسنة والسيئة طباق كما أن بين لفظ ﴿طَلَبَهُمْ﴾ و ﴿يَطِيرُوا﴾ جناس الاشتقاق وكلاهما من المحسنات البديعية.

٢ - ﴿وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ عدل عن الماضي إلى المضارع لاستحضار الصورة في ذهن المخاطب ومثله ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ والأصل ما صنعوا وما عرشوا.

٣ - ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أتى بلفظ (تجهلون) ولم يقل: (جهلتم) إشعاراً بأن ذلك منهم كالطبع والغريزة لا ينتقلون عنه في ماضٍ ولا مستقبل^(٢).

٤ - ﴿سَاءَ أَرْيَاكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في الحض على نهج سبيل الصالحين، والأصل أن يقال: سآريهم.

٥ - ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ هذا من باب الكناية فهو كناية عن شدة الندم لأن النادم يعرض على يده غمًا.

٦ - بين لفظ ﴿مَشْكُورٌ﴾ و ﴿مَغَارِبٌ﴾ طباق.

تنبيه: مذهب أهل السنة قاطبة أن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة وأنكرت المعتزلة ذلك واستدلوا بالآية الكريمة ﴿لَنْ تَرَنِى﴾ وليس لهم في هذه الآية متمسك بل هي دليل لأهل السنة والجماعة على إمكان الرؤية، لأنها لو كانت مُحالاً لم يسألها موسى فإن الأنبياء عليهم السلام يعلمون ما يجوز على الله وما يستحيل، ولو كانت الرؤية مستحيلة لكان في الجواب زجر وإغلاظ كما قال تعالى لنوح ﴿فَلَا تَسْأَلْنِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّىْ أَعْظَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] فهذا المنع من رؤية الله إنما هو في الدنيا لضعف البنية البشرية عن ذلك قال مجاهد: إن الله قال لموسى: لن تراني، لأنك لا تطيق ذلك ولكن سأتجلى للجبل الذي هو أقوى منك وأشد، فإن استقر وأطاق الصبر لهيئتي أمكن أن تراني أنت، وإن لم يُطق الجبل فأحرى ألا تطيق أنت، فعلى هذا جعل الله الجبل مثلاً لموسى ولم يجعل الرؤية مستحيلة على الإطلاق، وقد صرح بوقوع الرؤية في الآخرة كتابُ الله ﴿وَجِئْتُمْ بِرُؤْيَاكُمْ فَتَلَوْنَهَا عَلَى أُذُنِ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٢ - ٢٣] فلا ينكرها إلا مبتدع.

قائِدة: لما سمع الكليم موسى كلام الله اشتاق إلى رؤيته، لأن التلذذ بسماع كلام الحبيب

(١) «المختصر» ٥١ / ٢.

(٢) أفاده صاحب «البحر» ٣٧٨ / ٤.

يزيد في الشوق إليه والحنين وقد أحسن من قال:

وَأَفْرَحُ مَا يَكُونُ الشَّوْقُ يَوْمًا إِذَا دَسَّتِ الدِّيَارُ مِنَ الدِّيَارِ

لطيقة: السعادة والشقاوة بيد الله فموسى بن عمران رباه فرعون فكان مؤمنًا، وموسى السامري رباه جبريل وكان كافرًا، فلم تنفع تربية الأمين لموسى السامري، ولم تضر تربية اللعين لموسى الكليم عليه السلام، وقد أنشد بعضهم في هذا المعنى:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يُخْلَقْ سَعِيدًا مِنَ الْأَزَلِ فَقَدْ خَابَ مَنْ رَبَّى وَخَابَ الْمُؤْمَلُ
فَمُوسَى الَّذِي رَبَّاهُ جِبْرِيلُ كَافِرٌ وَمُوسَى الَّذِي رَبَّاهُ فِرْعَوْنُ مُرْسَلٌ^(١)

قال الله تعالى:

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاخَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ الْقَوْمُ اسْتَخَفُّونَنِي وَكَادُوا يَفْقُلُونَنِي فَلَا تَكُنْ مِنَ الْآعِدَاءِ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَخَذُوا الْعَهْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلِكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاخَ فِي شُحَّتِهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَأَخْبَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَتَّهَلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَكَتُبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ

(١) (ش): لا شك أن نبي الله موسى ﷺ قد تربى في بيت فرعون، وقصته وردت في مواطن كثيرة من القرآن، وجاءت في الأحاديث الصحيحة، وأما موسى السامري فقد ورد في كتب القصص والتاريخ أن السامري ولد في السنة التي يقتل فيها البنون، فوضعت أمه في كهف خوفًا عليه، فبعث الله إليه جبريل ليربيه ويغذيه، وهذه الروايات لا تثبت، فلا يُعَوَّل عليها.

أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ آبَ ضَرْبٍ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ أَتْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاتِ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَةٌ مِنْهُمْ لِمَ نَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْدَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفِقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَنَّ عَلَيْهِمُ الْيَوْمَ الْفَيْصَمَ مِنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأُخْرَىٰ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يَمَسُكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

المناسبة: لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل وما أغدق الله عليهم من النعم، وما قابلوها به من الجحود والعصيان، وقد ذكرت الآيات قصة واعتداءهم يوم السبت بالاصطياد فيه وكيف أن الله تعالى مسخهم قردة، وفي ذلك عبرة للمعتبرين.

اللغة: ﴿أَسْفًا﴾ الأسف: شدة الحزن أو الغضب يقال هو أسِفٌ وأسيفٌ ﴿ابْنُ أُمٍّ﴾ أصلها ابن أُمي وهي استعطاف ولين ﴿تُسْمِتُ﴾ الشماتة: السرور بما يصيب الإنسان من مكروه وفي الحديث «وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شِمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ»^(١) ﴿الرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة ﴿هَذَا﴾ تُبْنَى يقال: هاد يهود إذا تاب ورجع فهو هائد قال الشاعر: إِنِّي امْرُؤٌ مِمَّا جَنَيْتُ هَائِدٌ ﴿إِصْرُهُمْ﴾ التكاليف الشاقة وأصل الإصر الثقل الذي يأصر صاحبه عن الجراك ﴿وَالْأَغْلَلُ﴾ جمع غُل وهو ما يوضع في العنق أو اليد من الحديد ﴿وَعَزَّزُوهُ﴾ وقروه ونصروه ﴿أَسْبَاطًا﴾ جمع سبط وهو

(١) (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنْ شِمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

ولد الولد أو ولد البنت ثم أطلق على كل قبيلة من بني إسرائيل ﴿تَأَذَّنَ﴾ آذَنَ من الإيذان بمعنى الإعلام ﴿يَسْؤُمُهُمْ﴾ يذيقهم ﴿خَلْفٌ﴾ بسكون اللام من يخلف غيره بالسوء والشر وأما بفتح اللام من فهو يخلف غيره بالخير ومنه قولهم: «جعلك الله خير خلف لخير سلف»

«التفسير»: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا﴾ أي ولما رجع موسى من المناجاة ﴿غَضْبَنَ﴾ مما فعلوه من عبادة العجل ﴿أَسْفًا﴾ أي شديد الحزن ﴿قَالَ يَأْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ أي يأس ما فعلتموه بعد غيبيتي حيث عبدتم العجل ﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي أعجلتم عن أمر ربكم وهو انتظار موسى حتى يرجع من الطور؟ والاستفهام للإنكار ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ أي طرح الألواح لما عراه^(١) من شدة الغضب، وفرط الضجر غضبًا لله من عبادة العجل^(٢)، وأخذ بشعر رأس أخيه هارون يجره إليه ظنًا منه أنه قصر في كفهم عن ذلك وكان عليه السلام شديد الغضب لله سبحانه قال ابن عباس: لما عاين قومه وقد عكفوا على العجل ألقى الألواح فكسرها غضبًا لله وأخذ برأس أخيه يجره إليه^(٣) ﴿قَالَ ابْنُ أُمِّ إَنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ أي قال هارون يا بن أُمي - وهو نداء استعطاف وترفق^(٤) - إن القوم استذلوني وقهروني وقاربوا قتلي حين نهيتهم عن ذلك فأنا لم أقصر في نصحتهم ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا تُسِئْ إليَّ حتى يُسِرَّ الأعداء بي ويشمتوا بإهانتك إليَّ ولا تجعلني في عداد الظالمين بالمؤاخذه أو النسبة إلى التقصير قال مجاهد: ﴿الظَّالِمِينَ﴾ أي الذين عبدوا العجل ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ

(١) (ش): عَرَاه: اعتراه؛ أصابه، أَلَمَّ به، لَحِقَ به.

(٢) (ش): قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ الْخَبْرُ كَالْمُعَانِيَةِ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَخْبَرَ مُوسَىٰ بِمَا صَنَعَ قَوْمُهُ فِي الْعِجْلِ، فَلَمْ يُلْقِ الْأَلْوَاحَ، فَلَمَّا عَايَنَ مَا صَنَعُوا، أَلْقَى الْأَلْوَاحَ فَانْكَسَرَتْ» [رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِي].

إلقاء الألواح لا يقتضي إهانتها، ولا إهانة كلام الله تعالى، وحاشا لني من الأنبياء أن يستهين بكلام الله، وكيف يستهين به وهو الذي يبلغه ويدعو إلى تعظيمه فهو أولى بالتعظيم له من غيره؛ ولكنه عندما رأى قومه على ما رأى من عبادة العجل غضب غضبًا شديدًا، فعجل بوضع الألواح تفتيحًا لفعل قومه. فليس في الأمر إلا العجلة في الوضع الناشئ من الغيرة لله كما هو واضح من حديث الرسول ﷺ أن موسى ﷺ طرح الألواح من هَوْل ما رأى غفلةً عنها وليس ضجرًا بها أو ازدراءً أو تحقيرًا لها أو تبرمًا بها.

وكلمة (ألقي) في اللغة لا تستلزم الإزدراء أو الضجر أو عدم التوقير وإهدار الحرمة لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ قَالِيقِيهِ فِي الْبَيْتِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]. وما جاء من أن بعض الألواح قد انكسرت، فلم يكن قصْدُ موسى ﷺ أن تنكسر، فما حدث هو أن الغضب أذهله ﷺ عن الألواح، ولما ذهب عنه الغضب أخذها موقرًا لها حريصًا عليها لما فيها من الهدى والرحمة، ولأنه تلقاها من ربه ﷻ الذي غضب لاتنهاك حرمة؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُحُوتِهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِأَبْنِهِمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]

(٣) «الطبري» ١٣/ ١٢٣.

(٤) قال «ابن كثير»: وإنما قال: «ابن أُم» ليكون أرق وأنجع عنده وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه.

وَأَنْتَ أَزْكَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١﴾ لما تحقق لموسى براءة ساحة هارون عليه السلام من التقصير طلب عند ذلك المغفرة له ولأخيه فقال ﴿أَغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾ الآية قال الزمخشري: استغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه، ولأخيه مما عسى أن يكون فرط منه في حين الخلافة، وطلب ألا يتفرقا عن رحمته، ولا تزال منتظمة لهما في الدنيا والآخرة^(١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَخَذُوا الْعَجَلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي إن الذين عبدوا العجل - ذكر البقر - واتخذوه إلهًا سيصيبهم غضب شديد من الرحمن، وينالهم في الدنيا الذل والهوان قال «ابن كثير»: أما الغضب الذي نال بني إسرائيل فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة حتى قتل بعضهم بعضًا، وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلاً وصغاراً في الحياة الدنيا^(٢) ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ أي كما جازينا هؤلاء بإحلال الغضب والإذلال كذلك نجزي كل من افتري الكذب على الله قال سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل^(٣) ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا﴾ أي عملوا القبائح والمعاصي ثم تابوا ورجعوا إلى الله من بعد اقترافها وداموا على إيمانهم وأخلصوا فيه ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُوٌّ رَّحِيمٌ﴾ أي إن ربك يا محمد من بعد تلك التوبة لغفور لذنوبهم رحيم بهم قال الألوسي: وفي الآية إعلام بأن الذنوب وإن جلّت وعظمت فإن عفو الله تعالى وكرمه أعظم وأجل، وما ألطف قول أبي نواس غفر الله تعالى له:

يَا رَبِّ إِنِّ عَظُمْتُ ذُنُوبِي كَثْرَةً فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
إِنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ فِيمَنْ يَلُودُ وَيَسْتَجِيرُ الْمُجْرِمُ^(٤)

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ أي سكن غضب موسى على أخيه وقومه ﴿أَخَذَ الْأَلْوَابَ﴾ أي ألواح التوراة التي كان ألقاها ﴿وَفِي سُحُوتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أي وفيما نسخ فيها وكتب هداية للحق ورحمة للخلق بإرشادهم إلى ما فيه سعادة الدارين ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ أي هذه الرحمة للذين يخافون الله ويخشون عقابه على معاصيه ﴿وَأَخْنَارُ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا﴾ أي اختار موسى من قومه سبعين رجلاً ممن لم يعبدوا العجل للوقت الذي وعده ربه الإتيان للاعتذار عن عبادة العجل ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أي فلما رجف بهم الجبل وصعقوا ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي﴾ أي قال موسى على وجه التضرع والإستسلام لأمر الله: لو شئت يا رب أن تهلكنا قبل ذلك لفعلت فإننا عبيدك وتحت قهرك وأنت تفعل ما تشاء ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ أي أتهلكنا وسائر بني إسرائيل بما فعل

(١) «الكشاف» ٢/ ١٦٢.

(٢) «المختصر» ٢/ ٥٢.

(٣) «الطبري» ١٣/ ١٣٦.

(٤) «روح المعاني» ٩/ ٧٠.

هؤلاء السفهاء السبعون في قولهم: ﴿أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]؟ والاستفهام استفهام استعطاف وتذلل فكأنه يقول: لا تعذبنا يا الله بذنوب غيرنا قال «الطبري» في رواية السدي: إن الله أمر موسى عليه السلام أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موعداً فاختر موسى من قومه سبعين رجلاً على عينه ثم ذهب بهم ليعتذروا فلما أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة، فإنك قد كلمته فأرناه فأخذتهم الصاعقة فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلك خيارهم لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي» ^(١) أقول: إذا كان هذا قول الأخيار من بني إسرائيل فكيف حال الأشرار منهم؟ نعوذ بالله من خبت اليهود ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فَنَنُكَ﴾ أي ما هذه الفتنة التي حدثت لهم إلا محتك وابتلاؤك تمتحن بها عبادك ﴿تُضِلُّ بِهَا مَنْ شَاءَ وَتَهْدِي مَنْ شَاءَ﴾ أي تضل بهذه المحنة من تشاء إضلاله وتهدي من تشاء هدايته ﴿أَنْتَ وَلِيْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ أي أنت يا رب متولي أمورنا وناصرنا وحافظنا فاغفر لنا ما قارفناه من المعاصي وارحمنا برحمتك الواسعة الشاملة ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَفِرِينَ﴾ أي أنت خير من صفح وستر، تغفر السيئة وتبذلها بالحسنة ﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ هذا من جملة دعاء موسى عليه السلام أي حقق وأثبت لنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أي تبنا ورجعنا إليك من جميع ذنوبنا ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي قال تعالى: أما عذابي فأصيب به من أشاء من عبادي وأما رحمتي فقد عمت خلقي كلهم قال «أبو السعود»: وفي نسبة الإصابة إلى العذاب بصيغة المضارع ونسبة السعة إلى الرحمة بصيغة الماضي إيذان بأن الرحمة مقتضى الذات، وأما العذاب فمقتضى معاصي العباد ^(٢) ﴿فَسَأْكُتِبُهَا لِّلَّذِينَ يَنفُقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي سأجعل هذه الرحمة خاصة في الآخرة بالذين يتقون الكفر والمعاصي ويعطون زكاة أموالهم ويصدقون بجميع الكتب والأنبياء ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ أي هؤلاء الذين تنالهم الرحمة هم الذين يتبعون محمداً ﷺ النبي العربي الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب قال «البيضاوي»: وإنما سماه رسولاً بالإضافة إلى الله تعالى، ونبيّاً بالإضافة إلى العباد ^(٣) ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوءًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ أي الذي يجدون نعته وصفته في التوراة والإنجيل قال «ابن كثير»: هذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء، بشروا أممهم ببعته وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأخبارهم ^(٤) ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ

(١) «الطبري» ١٣ / ١٤٠.

(٢) «أبو السعود» ٢ / ٢٠١.

(٣) «البيضاوي» ص ٢.

(٤) «المختصر» ٢ / ٥٥.

الْمُنْكَرِ ۖ أَي لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِكُلِّ شَيْءٍ مُسْتَحْسَنٍ وَلَا يَنْهَى إِلَّا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ قَبِيحٍ ۖ وَيُحِلُّ لَهُمُ
الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ۖ أَي يَحِلُّ لَهُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَشْيَاءِ الطَّيِّبَةِ بِشُؤْمِ ظَلَمِهِمْ
وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ مَا يَسْتَحْبِثُ مِنْ نَحْوِ الدَّمِ وَالْمَيْتَةِ وَلَحْمِ الْخَنزِيرِ ۖ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ
وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۖ أَي يَخْفِفُ عَنْهُمْ مَا كَلَفُوهُ مِنَ التَّكَالِيفِ الشَّاقَةِ الَّتِي تَشْبِهُ الْأَغْلَالَ
كَقَتْلِ النَّفْسِ فِي التَّوْبَةِ وَقَطْعِ مَوْضِعِ النِّجَاسَةِ مِنَ الثُّوبِ وَالْقَصَاصِ مِنَ الْقَاتِلِ عَمْدًا كَانَ الْقَتْلُ
أَوْ خَطَاً وَشَبَهُ ذَلِكَ ۖ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ ۖ أَي فَالَّذِينَ صَدَقُوا بِمُحَمَّدٍ
وَعَظَّمُوهُ وَوَقَرُّوهُ وَنَصَرُوهُ دِينَهُ ۖ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أَي وَاتَّبَعُوا قُرْآنَهُ الْمُنِيرَ وَشَرَعَهُ
الْمَجِيدَ ۖ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۖ أَي هُمُ الْفَائِزُونَ بِالسَّعَادَةِ السَّرْمَدِيَةِ ۖ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ
إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ۖ هَذَا بَيَانٌ لِعُمُومِ رِسَالَتِهِ ﷺ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ أَي قُلْ يَا مُحَمَّدُ
لِلنَّاسِ: إِنِّي رَسُولٌ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ إِلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ ۖ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَي
الْمَالِكِ لِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ ۖ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ أَي لَا رَبَّ وَلَا مَعْبُودَ سِوَاهُ ^(١) فَهُوَ الْإِلَهُ
الْقَادِرُ عَلَى الْإِحْيَاءِ وَالْإِفْنَاءِ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ أَي صَدَّقُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَّقُوا بِرَسُولِهِ
الْمَبْعُوثِ إِلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ ۖ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ ۖ أَي آمَنُوا بِالنَّبِيِّ
الْأُمِّيِّ صَاحِبِ الْمَعْجَزَاتِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ الْمَصْدُقَ بِالْكَتَبِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى
غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ۖ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۖ أَي اسْلُكُوا طَرِيقَهُ وَاقْتَفُوا أَثَرَهُ رَجَاءَ
اهْتِدَائِكُمْ إِلَى الْمَطْلُوبِ ۖ وَمَنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ۖ أَي وَمَنْ بَنَى
إِسْرَائِيلَ جَمَاعَةً مُسْتَقِيمِينَ عَلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ يَهْدُونَ النَّاسَ بِكَلِمَةِ الْحَقِّ لَا يَجُورُونَ قَالِ
الزَّمْخَشَرِيُّ: لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الَّذِينَ تَزَلُّزَلُوا مِنْهُمْ مِنَ الدِّينِ وَارْتَابُوا حَتَّى أَقْدَمُوا عَلَى الْعَظِيمَتَيْنِ:
عِبَادَةِ الْعَجَلِ، وَطَلَبِ رُؤْيَا اللَّهِ، ذَكَرَ أَنَّ مِنْهُمْ أُمَّةً مُوقِنِينَ ثَابِتِينَ يَهْدُونَ النَّاسَ بِكَلِمَةِ الْحَقِّ
وَيَدُلُّوهُمْ وَيُرْشِدُونَهُمْ عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ ^(٢) ۖ وَقَطَّعْنَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۖ أَي وَفَرَّقْنَا بَنِي
إِسْرَائِيلَ فَجَعَلْنَاهُمْ قِبَالًا ثِنْتَيْ عَشْرَةَ قَبِيلَةً مِنْ اثْنِي عَشَرَ وَلَدًا مِنْ أَوْلَادِ يَعْقُوبَ قَالَ أَبُو
حَيَّانٍ: أَي فَرَّقْنَاهُمْ وَمَيَّزْنَاهُمْ أَسْبَاطًا لِيَرْجِعَ أَمْرُ كُلِّ سَبْطٍ إِلَى «قَبِيلَةٍ» إِلَى رَأْسِهِ لِيَخْفَ أَمْرُهُمْ
عَلَى مُوسَى لئَلَا يَتَحَاسَدُوا فَيَقْعَ الْهَرْجُ، وَلِهَذَا فَجَّرَ لَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ عَيْنًا لئَلَا يَتَنَازَعُوا وَيَقْتَتِلُوا
عَلَى الْمَاءِ، وَجَعَلَ لِكُلِّ سَبْطٍ نَقِيبًا لِيَرْجِعُوا فِي أُمُورِهِمْ إِلَيْهِ ^(٣) ۖ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَنَهُ
قَوْمُهُ ۖ أَي حِينَ اسْتَوْلَى عَلَيْهِمُ الْعَطَشُ فِي الْبَرِّيَّةِ ۖ أَنَّهُ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ أَي أَوْحَيْنَا
إِلَيْهِ أَنْ يَضْرِبَ الْحَجَرَ بِعَصَاهُ فَضَرَبَهُ ۖ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ أَي انْفَجَرَتْ مِنْ

(١) (ش): الصواب أن يُقال: «ولا معبود بحق سواه»، لأن هناك معبودات كثيرة لكن بغير حق.

(٢) «الكشاف» ١٦٧/٢.

(٣) «البحر المحيط» ٤٠٦.

الحجر اثنتا عشرة عيناً من الماء بعدد الأسباط ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ أي قد عرف كل سبط وجماعة منهم عينهم الخاصة بهم قال «الطبري»: لا يدخل سبطاً على غيره في شربه^(١) ﴿وَوَضَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمِيمَ﴾ أي جعلنا الغمام يكنهم من حر الشمس ويقبهم من أذاها قال الألوسي: وكان الظل يسير يسيرهم ويسكن بإقامتهم ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى﴾ أي وأكرمناهم بطعام شهوي هو ﴿الْمَنَّاءُ﴾ وهي شيء حلوا ينزل على الشجر يجمعونه ويأكلونه و﴿السَّلْوَى﴾^(٢) وهو طائر لذيد اللحم يسمى السَّمَّاني كل ذلك من إفضال الله وإنعامه عليهم دون جهد منهم ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي وقلنا لهم: كلوا من هذا الشيء الطيب اللذيذ الذي رزقناكم إياه ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ في الكلام محذوف تقديره: فكفروا بهذه النعم الجلييلة وما ظلمونا بذلك ولكن ظلموا أنفسهم حيث عرّضوها بالكفر لعذاب الله ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أي واذكر لهم حين قلنا لأسلافهم اسكنوا بيت المقدس وكلوا من مطاعمها وثمارها من أي جهة ومن أي مكان شئتم منها ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي وقولوا حين دخولكم: يا الله حُطَّ عنا ذنوبنا ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾ أي نمح عنكم جميع الذنوب التي سلفت منكم ﴿سَزَيْدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي وسزيد من أحسن عمله بامتثال أمر الله وطاعته فوق الغفران دخول الجنان ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ أي غيّر الظالمون منهم أمر الله بقولهم كلاماً لا يليق حيث قالوا بدل ﴿حِطَّةٌ﴾ حنطة في شعيرة، وبدل أن يدخلوا ساجدين خشوعاً لله دخلوا يزحفون على أستاهم، «أدبارهم» سخرية واستهزاء بأوامر الله ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أي فأرسلنا عليهم عذاباً من السماء بسبب ظلمهم وعدوانهم المستمر سابقاً ولاحقاً قال «أبو السعود»: والمراد بالعذاب «الطاعون» روي أنه مات منهم في ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفاً^(٣) ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ أي واسأل يا محمد اليهود عن أخبار أسلافهم وعن أمر القرية التي كانت بقرب «البحر» وعلى شاطئه ماذا حل بهم لما عصوا أمر الله واصطادوا يوم السبت؟ ألم يمسخهم الله قردة وخنازير؟ قال «ابن كثير»: وهذه القرية هي (أيلة) وهي على شاطئ بحر القلزم^(٤) ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ أي يتجاوزون حد الله فيه وهو اصطيادهم يوم السبت ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعاً﴾ أي حين كانت الحيتان «الأسماك» تأتيتهم يوم السبت - وقد حُرِّم عليهم الصيد فيه - كثيرة ظاهرة على وجه الماء ﴿وَيَوْمَ لَا

(١) «الطبري» ١٣ / ١٧٧.

(٢) «روح المعاني» ٩ / ٨٨.

(٣) «أبو السعود» ٢ / ٢٠٥.

(٤) «المختصر» ٢ / ٥٨.

يَسْتَوُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ﴿١﴾ أي وفي غير يوم السبت وهي سائر الأيام لا تأتيهم بل تغيب عنهم وتختفي ﴿كَذَلِكَ بَلَّوْهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي مثل ذلك البلاء العجيب نختبرهم ونمتحنهم بإظهار السمك لهم على وجه الماء في اليوم المحرّم عليهم صيده وإخفائها عنهم في اليوم الحلال بسبب فسقهم وانتهاكهم حرّمت الله قال «القرطبي»: روي أنها كانت في زمن داود عليه السلام وأن إبليس أوحى إليهم فقال: إنما نُهيّتُم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا الحياض فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم الجمعة فتبقى فيها فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء فيأخذونها يوم الأحد ويحتالون في صيدها ﴿١﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمَ اللَّهِ مِثْلَهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴿٢﴾ قال «ابن كثير»: يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحظور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم، وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ولكنها قالت للمنكرية: ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمَ اللَّهِ مِثْلَهُمْ﴾ أي لم تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله فلا فائدة في نهيكم إياهم ﴿٢﴾ ﴿قَالُوا مَعْذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي قال الناهون: إنما نعظمهم لنُعذّر عند الله بقيامنا بواجب النصّح والتذكير ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْفِقُونَ﴾ أي ينزعون عمّا هم فيه من الإجماع قال «الطبري»: أي لعلهم أن يتقوا الله فينبوا إلى طاعته ويتوبوا من معصيتهم إياه وتعديهم الاعتداء في السبت ﴿٣﴾ ﴿فَلَمَّا دُسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ﴾ أي فلما تركوا ما ذكّرهم به صلحواؤهم ترك الناسي للشيء وأعرضوا عن قبول النصيحة إعراضاً كلياً ﴿أَنْجَيْنَا أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ أي نجينا الناهين عن الفساد في الأرض ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ أي وأخذنا الظالمين العصاة بعذاب شديد وهم الذين ارتكبوا المنكر ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب فسقهم وعصيانهم لأمر الله ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي فلما استعصوا وتكبروا عن ترك ما نهوا عنه ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أي مسخناهم إلى قردة وخنازير، والمعنى أنهم عذبوا أولاً بعذاب شديد فلما لم يرتدعوا وتمادوا في الطغيان مسخوا قردةً وخنازير، والحاصل أن أصحاب القرية انقسموا ثلاث فرق: فرقة عصت فحلّ بها العذاب، وفرقة نهت ووعظت فنجّاها الله من العذاب، وفرقة اعتزلت فلم تنه ولم تُعارف المعصية وقد سكت عنها القرآن قال ابن عباس: ما أدري ما فعل بالفرقة الساكتة أنجوا أم هلكوا؟ قال عكرمة: فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا لأنهم كرهوا ما فعله أولئك، فكساني حلة ﴿٤﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رُكْبُكَ لِيُبَعِثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفِتْنَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ

(١) «القرطبي» ٣٠٦/٧.

(٢) «المختصر» ٥٩/٢.

(٣) «الطبري» ١٨٥/٣١.

(٤) «المختصر» ٥٩/٢.

أَلْعَذَابِ ﴿١﴾ أَيِ وَاذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ حِينَ أَعْلَمَ رَبُّكَ لَيْسَ لَطَنٌ عَلَى الْيَهُودِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ مِنْ يَذِيقُهُمْ أَسْوَأَ الْعَذَابِ بِسَبَبِ عَصِيَانِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ أَمْرَ اللَّهِ وَاحْتِيَالِهِمْ عَلَى الْمَحَارِمِ، وَقَدْ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بُخْتَنَصَرَ فَقَتَلَهُمْ وَسَبَاهُمْ، وَسَلَّطَ عَلَيْهِمُ النَّصَارَى فَأَذَلُّوهُمْ وَضَرَبُوا عَلَيْهِمُ الْجِزْيَةَ، وَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ مُحَمَّدًا ﷺ فَطَهَّرَ الْأَرْضَ مِنْ رَجْسِهِمْ وَأَجْلَاهُمْ عَنِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ آخِرًا «هَتْلِر» فَاسْتَبَاحَ حِمَاهُمْ وَكَادَ أَنْ يَبِيدَهُمْ وَيَفْنِيَهُمْ بِالْقَتْلِ وَالتَّشْرِيدِ فِي الْأَرْضِ، وَلَا يَزَالُ وَعَدُ اللَّهِ بِتَسْلِيْطِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ سَارِيًّا إِلَى أَنْ يَقْتُلَهُمُ الْمُسْلِمُونَ فِي الْمَعْرَكَةِ الْفَاصِلَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَيِ سَرِيعِ الْعِقَابِ لِمَنْ عَصَاهُ وَغَفُورٌ رَحِيمٌ لِمَنْ أَطَاعَهُ ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ أَيِ فَرَّقْنَاهُمْ فِي الْبِلَادِ طَوَائِفَ وَفِرْقًا فِي كُلِّ بَلَدَةٍ فِرْقَةً مِنْهُمْ، وَلَيْسَ لَهُمْ إِقْلِيمٌ يَمْلِكُونَهُ حَتَّى لَا تَكُونَ لَهُمْ شَرَكَةٌ، وَمَا اجْتَمَعُوا فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ إِلَّا لِيُذَبِّحُوا بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ كَمَا وَعَدَ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ .»

الحديث أخرجه مسلم ثم بيّن تعالى أنهم ليسوا جميعاً فجاءَ بَلْ فِيهِمُ الْأَخْيَارُ فِيهِمُ الْأَشْرَارُ فَقَالَ ﴿مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ أَيِ مِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَهُمْ قَلَّةٌ قَلِيلَةٌ وَمِنْهُمْ مَنْ انْحَطَّ عَنْ دَرَجَةِ الصَّلَاحِ بِالْكَفْرِ وَالْفُسُوقِ وَهُمْ الْكَثْرَةُ الْغَالِبَةُ ﴿وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أَيِ اخْتَبَرْنَاهُمْ بِالنِّعَمِ وَالنِّقَمِ وَالشَّدَّةِ وَالرِّخَاءِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ عَنِ الْكَفْرِ وَالْمَعَاصِي ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ قَالَ «ابن كثير»: أَيِ خَلَفَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْجِيلُ الَّذِي فِيهِمُ الصَّالِحُ وَالطَّالِحُ خَلَفٌ آخَرٌ لَا خَيْرَ فِيهِمْ وَرِثُوا الْكِتَابَ وَهُوَ التَّوْرَةُ عَنْ آبَائِهِمْ ^(١) ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ أَيِ يَأْخُذُونَ ذَلِكَ الشَّيْءَ الدُّنْيَاءَ مِنْ حَطَامِ الدُّنْيَا مِنْ حَلَالٍ وَحَرَامٍ وَيَقُولُونَ مُتَبَجِّحِينَ: سَيَغْفِرُ اللَّهُ لَنَا مَا فَعَلْنَاهُ، وَهَذَا اغْتِرَارٌ مِنْهُمْ وَكَذِبٌ عَلَى اللَّهِ ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ أَيِ يَرْجُونَ الْمَغْفِرَةَ وَهُمْ مُصَرِّونَ عَلَى الذَّنْبِ كُلَّمَا لَاحَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ حَطَامِ الدُّنْيَا أَخَذُوهُ لَا يُبَالُونَ مِنْ حَلَالٍ كَانَ أَوْ حَرَامٍ ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتفريع أَيِ أَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِمُ الْعَهْدُ الْمُؤَكَّدُ فِي التَّوْرَةِ أَنْ يَقُولُوا الْحَقَّ وَلَا يَكْذِبُوا عَلَى اللَّهِ؟ فَكَيْفَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ سَيَغْفِرُ لَهُمْ مَعَ إِصْرَارِهِمْ عَلَى الْمَعَاصِي وَأَكْلِ الْحَرَامِ؟ ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ فِي هَذَا أَعْظَمُ التَّوْبِيخِ لَهُمْ أَيِ وَالْحَالُ أَنَّهُمْ دَرَسُوا مَا فِي الْكِتَابِ وَعَرَفُوا مَا فِيهِ الْمَعْرِفَةُ التَّامَّةُ مِنَ الْوَعِيدِ عَلَى قَوْلِ الْبَاطِلِ وَالْإِفْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ ﴿وَالَّذَارُ الْأَخْرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَنْقُوتُ﴾ أَيِ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ اللَّهَ بِتَرْكِ الْحَرَامِ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟

الاستفهام لِلانْكَارِ أَيِ فَلَا يَنْزَجِرُونَ وَيَعْقِلُونَ؟ وَالْمُرَادُ أَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا عَقْلَاءَ لَمَا أَثَرُوا الْفَانِيَةَ عَلَى الْبَاقِيَةِ ﴿وَالَّذِينَ يُسْكِنُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أَيِ يَتِمَسَّكُونَ فِي أُمُورِ دِينِهِمْ بِمَا أَنْزَلَهُ

الله ويحافظون على أداء الصلاة في أوقاتها ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ أي لا نضيع أجرهم بل نجزيهم على تمسكهم وصلاتهم أفضل وأكرم الجزاء.

البلاغة: ١ - ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ شبه الغضب بإنسان يردد ويزبد ويزمجر بصوته أمراً بالانتقام ثم اختفى هذا الصوت وسكت، ففي الكلام «استعارة مكنية» ويا له من تصوير لطيف يستشعر جماله كل ذي طبع سليم وذوق صحيح.

٢ - بين لفظ «تصل» و «تهدي» طباق وكذلك بين لفظ «يحيي» و «يميت» .

٣ - ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة، وهي أن يؤتى بمعنيين أو أكثر ثم يؤتى بما يقابلها على الترتيب.

٤ - ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ﴾ استعار الإصر والأغلال للأحكام والتكاليف الشاقة.

٥ - ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب زيادة في التوبيخ والتأنيب.

فائدة: الخلف بفتح اللام من يخلف غيره بالخير، والخلف بسكون اللام من يخلف غيره في الشر، ومنه قوله تعالى ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا﴾ [مريم: ٥٩] وهذه الآية ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ والله أعلم.

قال الله تعالى:

وَإِذْ نَفَخْنَا الْجِبْلَ فَوْقَهُمْ كَانَهُ ظِلٌّ وَطَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعدِهِمْ أَفَنُهَلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ لَرََفَعْنَاهُ يَلْهَثَ ذَلِكَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلُمٍ ﴿١٧٧﴾ مَنْ يَدْعُ اللَّهَ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ

مُبِينٌ ۝ ١٨٦ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ۝ ١٨٥ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝ ١٨٦

المناسبة: لما حكى تعالى عن بني إسرائيل عصيانهم وتمردهم على أوامر الله، حكى هنا ما عاقبهم به من اقتلاع جبل الطور وسحقهم به إن لم يعملوا بأحكام التوراة، ثم ذكر تعالى مثلاً لعلماء السوء في قصة الذي انسلخ عن آيات الله طمعاً في حطام الدنيا وضرب له مثلاً بالكلب اللاهث في حالتي التعب والراحة، وكفى به تصويراً لنفسية اليهود في تكالبهم على الدنيا وعبادتهم للمال.

اللغة: ﴿نَنْقَنَّا﴾ التثق: الجذب بقوة قال أبو عبيدة: أصل التثق قلع الشيء من موضعه والرمي به ^(١) ﴿ظُلَّةٌ﴾ الظلة: كل ما أظلك من سقف أو سحابة أو جناح ^(٢) حائط والجمع ظُلُلٌ وظلالٌ و﴿وُظُنُّوا﴾ علموا أو أيقنوا ﴿فَانْسَلَخُ﴾ الانسلاخ: الخروج يقال لكل من فارق شيئاً بالكلية انسلخ منه وانسلخت الحية من جلدها أي خرجت منه ﴿أَخْلَدُ﴾ مال إلى الشيء وركن إليه وأصله اللزوم يقال أخلد فلان بالمكان إذا لزم الإقامة به ومنه الخلود في الجنة ﴿يَلْهَثُ﴾ قال الجوهري: لَهَثَ الكلبُ يَلْهَثُ إذا أخرج لسانه من التعب أو العطش ^(٣) ﴿ذَرَأْنَا﴾ خلقنا ﴿يَلْحَدُونَ﴾ الإلحاد: الميل عن القصد والاستقامة يقال ألحد في الدين ولحد فهو ملحد لانحرافه عن تعاليم الدين.

التفسير: ﴿وَإِذْ نَنْقَنَّا الْجِبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ أي اذكر حين اقتلعنا جبل الطور ورفعناه فوق رؤوس بني إسرائيل ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ أي كأنه سقيفة أو ظلة غمام ﴿وُظُنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي أيقنوا أنه ساقط عليهم إن لم يمشثوا الأمر قال المفسرون: روي أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لغلظها وثقلها فرفع الله الطور على رؤوسهم وقيل لهم: إن قبلتموها بما فيها وإلا ليقعن عليكم فلما نظروا إلى الجبل خر كل واحد منهم ساجداً خوفاً من سقوطه ثم قال تعالى ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أي وقلنا لهم: خذوا التوراة بجد وعزيمة ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي اذكروا ما فيه بالعمل واعملوا به لتكونوا في سلك المتقين ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قال «الطبري»: أي واذكر يا محمد إذ استخرج ربك أولاد آدم من أصلاب آبائهم فقرهم بتوحيده وأشهد بعضهم على بعض بذلك ^(٤) قال ابن عباس: مسح الله ظهر آدم فاستخرج منه

(١) «الرازي» ٤/ ٤٥٧.

(٢) (ش): جناح: جانب أو ركن.

(٣) الصحاح مادة لهث.

(٤) للمفسرين في هذه الآية قولان: أحدهما أن الله لما خلق آدم أخرج ذريته من صلبه وهم مثل الذر وأخذ عليهم العهد بأن ربهم فأقروا وشهدوا بذلك وقد روى هذا المعنى عن النبي ﷺ من طرق كثيرة وقال به جماعة من الصحابة والثاني: أن هذا من باب التمثيل والتخييل والمعنى أنه سبحانه نصب لهم الأدلة على ربوبيته =

كَلَّ نَسْمَةً هُوَ خَالِقُهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ أَيِ وَقَرَّرَهُمْ عَلَى رَبوبيته ووحدانيته فأقروا بذلك والتزموا ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ أَيِ لثلاثا تقولوا يوم الحساب إنا كنا عن هذا الميثاق والإقرار بالربوبية غافلين لم ننبه عليه ﴿أَوْ قُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أَيِ ولكيلا تقولوا يوم القيامة أيضاً نحن ما أشركنا وإنما قلنا آباءنا واتبعنا منهماجهم فنحن معذرون ﴿أَفَنُهِّلُكُمْ بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أَيِ أفتهلكننا بإشراك من أشرك من آبائنا المضللين بعد اتباعنا منهماجهم على جهل منا بالحق؟ ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أَيِ وكما بينا الميثاق نبين الآيات ليتدبرها الناس وليرجعوا عما هم عليه من الإصرار على الباطل وتقليد الآباء ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَأَنْسَلَخَ مِنْهَا﴾ أَيِ واتل يا محمد على اليهود خبر وقصة ذلك العالم الذي علمناه علم بعض كتب الله فأنسلخ من الآيات كما تنسلخ الحية من جلدها بأن كفر بها وأعرض عنها ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ أَيِ فلحقه الشيطان واستحوذ عليه حتى جعله في زمرة الضالين الراسخين في الغواية بعد أن كان من المهتدين قال ابن عباس: هو «بلعم بن باعوراء» كان عنده اسم الله الأعظم وقال ابن مسعود: هو رجل من بني إسرائيل بعثه موسى إلى ملك «مَدْيَنَ» داعياً إلى الله فرشاه الملك وأعطاه المُلْكَ على أن يترك دين موسى ويتابع الملك على دينه ففعل وأضل الناس بذلك^(١) ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ﴾ أَيِ لو شئنا لرفعناه إلى منزل العلماء الأبرار، ولكنه مال إلى الدنيا وسكن إليها وأثر لذتها وشهواتها على الآخرة واتبع ما تهواه نفسه فانحط أسفل سافلين ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ أَيِ فمثله في الخسة والدناءة كمثل الكلب إن طردته وزجرته فسعى لهث، وإن تركته على حاله لهث، وهو تمثيل بادي الروعة ظاهر البلاغة ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أَيِ هذا المثل السيء هو مثل لكل من كذب بآيات الله، وفيه تعريض باليهود فقد أوتوا التوراة وعرفوا صفة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وانسلخوا من حكم التوراة ﴿فَأَقْصَصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أَيِ اقصص على أمتك ما أوحينا إليك لعلهم يتدبرون فيها ويتعظون ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ

= ووحدانيته، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقال لهم: ألسنت بربكم؛ فقالوا: بلى. وهذا الرأي اختاره الزمخشري وأبو حيان و«أبو السعود» والأول أصح.

(ش): القول الأول لا يصح غيره، فإشهاد بني آدم على أنفسهم ليس تخيلاً وتمثيلاً، بل الإشهاد حقيقي دلت عليه الأحاديث الصحيحة، وقد قال المؤلف في تفسير الآية ١٠٣ من سورة الأنعام: «وكفى بالكتاب والسنة دليلاً وهادياً».

(١) «التسهيل» ٥٤ / ٢.

كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴿١﴾ أَيُّ بَسٍّ مِثْلًا مِثْلُ الْقَوْمِ الْمَكْذِبِينَ بآيات الله ﴿٢﴾ وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿٣﴾ أَيُّ مَا ظَلَمُوا بِالْكَذِبِ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ فَإِنْ وَبَالَه لَا يَتَعَدَاهَا ﴿٤﴾ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥﴾ أَيُّ مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ فَهُوَ السَّعِيدُ الْمَوْفِقُ، وَمَنْ أَضَلَّهُ فَهُوَ الْخَائِبُ الْخَاسِرُ لَا مُحَالَةَ، وَالْغَرَضُ مِنَ الْآيَةِ بَيَانُ أَنَّ الْهُدَايَةَ وَالْإِضْلَالَ بِيَدِ اللَّهِ ﴿٦﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴿٧﴾ أَيُّ خَلَقْنَا لِجَهَنَّمَ لِيَكُونُوا حَطْبًا لَهَا خَلْقًا كَثِيرًا كَانَتْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ، وَالْمُرَادُ بِهِمُ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمُ الْكَلِمَةُ الْأَزَلِيَّةُ بِالشَّقَاوَةِ ﴿٨﴾ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴿٩﴾ أَيُّ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْهَمُونَ بِهَا الْحَقَّ ﴿١٠﴾ وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴿١١﴾ أَيُّ لَا يَبْصِرُونَ بِهَا دَلَائِلَ قُدْرَةِ اللَّهِ بِصَرِّ عَتَبَارٍ ﴿١٢﴾ وَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴿١٣﴾ أَيُّ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا الْآيَاتِ وَالْمَوَاعِظَ سَمَاعَ تَدْبِيرٍ وَاتِعَازٍ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ نَفْيُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ بِالْكُلِّيَّةِ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ نَفْيُهَا عَمَّا يَنْفَعُهَا فِي الدِّينِ ﴿١٤﴾ أُولَئِكَ كَانُوا لَافِقَهُ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴿١٥﴾ أَيُّ هُمُ كَالْحَيَوَانَاتِ فِي عَدَمِ الْفَقْهِ وَالْبَصَرِ وَالِاسْتِمَاعِ بَلْ هُمْ أَسْوَأَ حَالًا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ فَإِنَّهَا تَدْرِكُ مَنَافِعَهَا وَمَضَارَهَا وَهَوْلَاءَ لَا يَمِيزُونَ بَيْنَ الْمَنَافِعِ وَالْمَضَارِ وَلِهَذَا يُقَدِّمُونَ عَلَى النَّارِ ﴿١٦﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧﴾ أَيُّ الْغَارِقُونَ فِي الْغَفْلَةِ ﴿١٨﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴿١٩﴾ أَيُّ اللَّهُ الْأَسْمَاءُ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ الْأَسْمَاءِ وَأَجْلَهَا لِإِنْبَائِهَا عَنْ أَحْسَنِ الْمَعَانِي وَأَشْرَفَهَا فَسَمَّوْهُ بِتِلْكَ الْأَسْمَاءِ ﴿٢٠﴾ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴿٢١﴾ أَيُّ ااتركوا الذين يميلون في أسمائه تعالى عن الحق كما فعل المشركون حيث اشتقوا لأللهتهم أسماء منها كالكالات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان ﴿٢٢﴾ سَيَجْزُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَيُّ سَيَنَالُونَ جَزَاءَ مَا عَمِلُوا فِي الْآخِرَةِ ﴿٢٤﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿٢٥﴾ أَيُّ وَمِنَ بَعْضِ الْأُمَمِ الَّتِي خَلَقْنَا أُمَّةً مُّسْتَمْسِكَةً بِشَرِيعَةِ اللَّهِ قَوْلًا وَعَمَلًا يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى الْحَقِّ وَبِهِ يَعْمَلُونَ وَيَقْضُونَ قَالَ «ابن كثير»: والمراد في الآية هذه الأمة المحمدية لحديث «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»^(١) وهذه الطائفة لا تختص بزمان دون زمان بل هم في كل زمان وفي كل مكان، فالإسلام دائماً يعلو ولا يُعْلَىٰ عليه وإن كثر الفساق وأهل الشرف فلا عبرة فيهم ولا صولة لهم، وفي الحديث بشارة عظيمة لهذه الأمة المحمدية بأن الإسلام في علو شرف وأهله كذلك إلى قرب الساعة ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ أَيُّ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْقُرْآنِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَغَيْرِهِمْ سَنَأْخُذُهُمْ قَلِيلًا وَنُذْنِبُهُمْ مِنَ الْهَلَاكِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ قَالَ «البيضاوي»: وذلك بأن تتواتر عليهم النعم، فيظنون أنها لطف من الله تعالى بهم فيزدادوا بطراً وانهماكاً في الغي حتى تحق عليهم كلمة العذاب^(٢) ﴿٢٨﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴿٢٩﴾ أَيُّ وَأَمْلِي لَهُمْ ثُمَّ أَخَذَهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيف «إِنَّ اللَّهَ لَيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ

(١) «المختصر» ٢/ ٧٠ والحديث في الصحيحين.

(٢) «البيضاوي» ص ٢٠٥.

يُفْلِتُهُ ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي أخذي وعقابي قوي شديد وإنما سمّاه كيداً لأن ظاهره إحسانٌ وباطنه خذلان ﴿أَوَلَمْ يَنْفَكُوا مَا يَصَاحِبُهُمْ مِنْ جَنَّةٍ﴾ أي أولم يتفكر هؤلاء المكذبون بآيات الله فيعلموا أنه ليس بمحمد ﷺ جنون بل هو رسول الله حقاً أرسله الله لهدايتهم، وهذا نفى لما نسب له المشركون من الجنون في قولهم ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي ليس محمد إلا رسول منذر أمره بين واضح لمن كان له لبٌّ^(١) أو قلبٌ يعقل به ويعي ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي أولم ينظروا نظر استدلال في ملك الله الواسع مما يدل على عظم الملك وكمال القدرة، والاستفهام للإنكار والتعجب والتوبيخ ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي وفي جميع مخلوقات الله الجليل فيها والدقيق فيستدلوا بذلك على كمال قدرة صانعها وعظم شأن مالكتها ووحدة خالقها ومبدعها؟ ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ أي وأن يتفكروا لعلمهم يموتون عن قريب فينبغي لهم أن يسارعوا إلى النظر والتدبر فيما يخلصهم عند الله قبل حلول الأجل ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ أي فبأي حديث بعد القرآن يؤمنون إذا لم يؤمنوا به وهو النهاية في الظهور والبيان ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلا هَادِيً لَهْ﴾ أي من كتب الله عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي ويتركهم في كفرهم وتمردهم يترددون ويتحIRON.

البلاغة: ١ - ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ فيه التفات من المتكلم إلى المخاطب والأصل وإذ أخذنا والنكتة في ذلك تعظيم شأن الرسول بتوجيه الخطاب له، ولا يخفى أيضاً ما في الإضافة إلى ضميره عليه السلام ﴿رَبُّكَ﴾ من التكريم والتشريف، وفي الآية البيان بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال ﴿فَأَنْسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي خرج منها بالكلية انسلاخ الجلد من الشاة قال (أبو السعود): التعبير عن الخروج منها بالانسلاخ للإيذان بكمال مباينته للآيات بعد أن كان بينهما كمال الاتصال^(٢) ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ فيه تشبيه تمثيلي أي حاله التي هي مثل في السوء كحال أخس الحيوانات وأسفلها وهي حالة الكلب في دوام لهثه في حالتي التعب والراحة فالصورة منتزعة من متعدد ولهذا يسمى التشبيه التمثيلي ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ﴾ التشبيه هنا مرسل مجمل.

فائدة: روي عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ أنه قال: لو قالوا: نعم لكفروا، ووجهه أن «نعم» تصديقٌ للمخبر بنفي أو إيجاب فكأنهم أقروا أنه ليس ربهم بخلاف «بلى» فإنها حرف جواب وتختص بالنفي وتقيد بإبطاله فالمعنى بلى أنت ربنا ولو قالوا: نعم لصار المعنى نعم لست ربنا فهذا وجه قول ابن عباس فتنبه له فإنه دقيق.

(١) (ش): لب: عقل. يعي: يفهم. (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٢) «أبو السعود» ٢/ ٢١٠.

تنبيه: في الحديث الشريف « إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ »^(١) رواه الترمذي قال العلماء: معناه من حفظها وتفكر في مدلولها دخل الجنة وليس المراد حصر أسمائه تعالى في هذه التسعة والتسعين بدليل ما جاء في الحديث الآخر « أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ »^(٢) وقد ذكر ابن العربي عن بعضهم أن لله تعالى ألف اسم.

قال الله تعالى:

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضُ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْغَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَبْلًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَبْلًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيْشُرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ نَدَعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَدْعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ نَدَعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَجَلٌ يَمْسُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيََّ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِنْ نَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِنَّمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخَيْفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى موقف المستهزئين من دعوة الرسول ﷺ ذكر هنا طرفاً من عنادهم واستهزائهم بسؤالهم الرسول ﷺ عن وقت قيام الساعة، ثم ذكر الحجج والبراهين على بطلان

(١) (ش): ورواه البخاري ومسلم.

(٢) (ش): رواه أحمد، وصححه الألباني.

عقيدة المشركين في عبادة الأوثان والأصنام، وختم السورة الكريمة ببيان عظمة شأن القرآن ووجوب الاستماع والإنصات عند تلاوته.

اللغة: ﴿مُرْسَهَا﴾ استقرارها وحصولها من أرساه إذا أثبتته وأقره، ومنه رست السفينة إذا ثبتت ووقفت ﴿يُجَلِّهَا﴾ يظهرها: والتجلية: الكشف والإظهار ﴿حَفِيٌّ﴾ الحفي: المستقصي للشيء المعني بأمره قال الأعشى:

فَإِنْ تَسْأَلِي عَنِّي فَيَا رَبِّ سَائِلٍ حَفِيٌّ عَنِ الْأَعْشَى بِهِ حَيْثُ أَصْعَدَا^(١)

والإحفاء الاستقصاء، ومنه إخفاء الشوارب، وحفي عن الشيء إذا بحث للتعرف عن حاله ﴿يُأَعْرِفُ﴾ المعروف وهو كل خصلة حميدة ترتضيها العقول وتطمئن إليها النفوس ﴿وَالْأَصَالُ﴾ جمع أصيل قال الجوهري: والأصيل الوقت بعد العصر إلى المغرب^(٢).

سبب النزول: روي أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: إن كنت نبياً فأخبرنا عن الساعة متى تقوم؟ فأنزل الله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَهَا﴾^(٣).

«التفسير»: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ أي يسألونك يا محمد عن القيامة ﴿أَيَّانَ مُرْسَهَا﴾ أي متى وقوعها وحدوثها؟ وسميت القيامة ساعة لسرعة ما فيها من الحساب كقوله ﴿وَمَا أَمُرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ أي قل لهم يا محمد: لا يعلم الوقت الذي يحصل قيام القيامة فيه إلا الله سبحانه ثم أكد ذلك بقوله ﴿لَا يُجَلِّهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ أي لا يكشف أمرها ولا يظهرها للناس إلا الرب سبحانه بالذات هو العالم بوقتها ﴿ثُمَّ تَنفَلِتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي عظمت على أهل السماوات والأرض حيث يشفقون منها ويخافون شدائدتها وأحوالها^(٤) ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي يسألونك يا محمد عن وقتها كأنك كثير السؤال عنها شديد الطلب لمعرفةا ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي لا يعلم وقتها إلا الله لأنها من الأمور الغيبية التي استأثر بها علام الغيوب ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون السبب الذي لأجله أخفيت قال الإمام الفخر: والحكمة في إخفاء الساعة عن العباد أنهم إذا لم يعلموا متى تكون كانوا على حذر منها فيكون ذلك أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية^(٥) ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي لا أملك أن أجلب إلى نفسي خيراً ولا أدفع عنها شراً إلا بمشيئته تعالى فكيف أملك علم الساعة؟

(١) «القرطبي» ٣٣٦/٧. (ش): أصعد في البلاد: سار ومضى وذهب.

(٢) «الصحيح» مادة أصل.

(٣) «القرطبي» ٣٣٥/٧. (ش): ضعيف، أخرجه ابن جرير «الطبري» في «جامع البيان».

(٤) هذا قول قتادة، وقيل: المعنى: خفي علمها على أهل السماوات والأرض.

(٥) «الفخر الرازي» ٤/٤٨٤.

﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتَ مِنَ الْخَيْرِ﴾ أي لو كنت أعرف أمور الغيب لحصلت كثيراً من منافع الدنيا وخيراتها ودفعْتُ عني آفاتِها ومضراتِها ﴿وَمَا مَسْنَى السُّوءِ﴾ أي لو كنت أعلم الغيب لاسترستُ من السوء ولكن لا أعلمه فهذا يصيبني ما قَدَّر لي من الخير والشر ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أي ما أنا إلا عبد مرسل للإنذار والبشارة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لقوم يُصدِّقون بما جئتهم به من عند الله ^(١) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي هو سبحانه ذلك العظيم الشأن الذي خلقكم جميعاً وحده من غير مُعين من نفس واحدة هي آدم عليه السلام ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي وخلق منها حواء ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي ليطمئن إليها ويستأنس بها ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيًّا﴾ أي فلما جامعها حملت بالجنين حملاً خفياً دون إزعاج لكونه نطفة في بادئ الأمر قال «أبو السعود»: فإنه عند كونه نطفة أو علقة أخف عليها بالنسبة إلى ما بعد ذلك من المراتب، والتعرضُ لذكر خفته للإشارة إلى نعمته تعالى عليهم في إنشائه إياهم متدرجين في أطوار الخلق من العدم إلى الوجود، ومن الضعف إلى القوة ^(٢) ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي استمرت به إلى حين ميلاده ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ أي ثقل حملها وصارت به ثقيلة لكبر الحمل في بطنها ﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ أي دعوا الله مربيهما ومالك أمرهما ﴿لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّكْرِينَ﴾ أي لئن رزقنا ولدًا صالحًا سويَّ الخلقة لشكرنك على نعمائك ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾ أي فلما وهبهما الولد الصالح السويَّ ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ أي جعل هؤلاء الأولاد والذرية ^(٣) شركاء مع الله فعبدوا الأوثان والأصنام ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزهه وتقدس الله عما ينسبه إليه المشركون ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ الاستفهام للتوبيخ أي أيشركون مع الله ما لا يقدر على خلق شيء أصلاً ﴿وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ أي والحال أن تلك الأوثان والآلهة مخلوقة فكيف يعبدونها مع الله؟ قال «القرطبي»: وجمع الضمير بالواو

(١) (ش): تفسيره الإيمان بالتصديق فقط تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح.

(٢) «أبو السعود» ٢.

(٣) ذهبنا إلى هذا الرأي لجلالته ووضوحه وهو ما رجَّحه المحققون من أهل العلم، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن الآية في: «آدم وحواء» وأن الضمير في قوله تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ يعود إليهما ورووا في ذلك أحاديث وآثار منها ما روي عن سمرة مرفوعاً قال: «لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش بها ولد فقال: سمَّيه عبد الحارث فإنه يعيش، فسَمَّته عبد الحارث فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان» رواه أحمد والترمذي قال الحافظ ابن كثير: وهذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه وقد وضحها رحمه الله ورجح أن الحديث موقوف وضعف ما ورد من آثار ثم روى بسنده عن الحسن أنه قال: «كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم»، ثم قال ابن كثير: «وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري في هذا وأنه ليس المراد من هذا السياق «آدم وحواء» وإنما المراد المشركون من ذريته بدليل قول الله بعده: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾». أقول: وهو الحق الذي لا محيد عنه.

والنون لأنهم اعتقدوا أن الأصنام تضر وتنفع فأجريت مجرى الناس^(١) ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أي لا يستطيع هذه الأصنام نصر عابديها ﴿وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ أي: إن ولا ينصرون أنفسهم ممن أرادهم بسوء، فهم في غاية العجز والذلة فكيف يكونون آلهة؟ ﴿وَلَا تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ أي أن الأصنام لا تجيب إذا دعيت إلى خير أو رشاد لأنها جمادات ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ أي يتساوى في عدم الإفادة دعاؤكم لهم وسكوتكم قال «ابن كثير»: يعني أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، وسواء لديها من دعاها ومن دحها كما قال إبراهيم ﴿يَتَابَتِ لِمَ تَعْبُدُونَ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]^(٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ أي إن الذين تعبدونهم من دونه تعالى من الأصنام وتسمونهم آلهة مخلوقون مثلكم بل الأناس أكمل منها لأنها تسمع وتبصر وتبطلش وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك فهذا قال ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أمر على جهة التعجيز والتبكيت أي أدعوه في جلب نفع أو دفع ضرر إن كنتم صادقين في دعوى أنها آلهة^(٣) ﴿الْهَمُّ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾ توبيخ إثر توبيخ وكذلك ما بعده من الاستفهام للتعريض والتوبيخ أي هل لهذه الأصنام ﴿أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾ أي أم هل لهم أيدٍ تفتك وتبطلش بمن أرادها بسوء؟ ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ أي أم هل لهم أعين تبصر بها الأشياء؟ ﴿أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي أم هل لهم آذان تسمع بها الأصوات؟ والغرض بيان جهلهم وتسفيه عقولهم في عبادة جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عن عابدها شيئاً لأنها فقدت الحواس وفاقد الشيء لا يعطيه، والإنسان أفضل بكثير من هذه الأصنام لوجود العقل والحواس فيه فكيف يليق بالأكمل الأشرف أن يشتغل بعبادة الأخس الأدون الذي لا يحس منه فائدة أبداً لا في جلب منفعة ولا في دفع مضرة؟! ﴿قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد: ادعوا أصنامكم واستنصروا واستعينوا بها عليّ ﴿ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ﴾ أي ابدلوا جهدكم أنتم وهم

(١) «القرطبي» ٧ / ٣٤١.

(٢) «المختصر» ٢ / ٧٥.

(٣) قال الحافظ «ابن كثير»: أسلم مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَمُعَاذُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْجُمُوحِ وكانا شابين فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتخذانها حطباً، وكان لعمر بن الجموح. وهو سيد قومه. صنم يعبد به ويطلبه فكانا يجيئان في الليل فينكسأيه على رأسيه، ويلطخانه بالعذرة. النجس. فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به فيغسله ويطلبه ويضع عنده سيفاً ويقول له: انتصر، ثم يعودان لمثل ذلك ويعود إلى صنيعه حتى أخذه مرة فقرناه مع كلب ميت ودلياه في بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك علم أن ما عليه من الدين باطل فأشدد يقول:

« تَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ إِلَهًا مُسْتَدَنٌ
ثُمَّ أَسْلَمَ فَحَسَنَ إِسْلَامُهُ، وَقَتْلَ يَوْمٍ أَحَدٍ شَهِيدًا
(ش:) (مُسْتَدَنٌ): مُسْتَعْبَدٌ ذَلِيلٌ، (قَرَنٌ): حَبْلٌ يَقَادُ بِهِ.

لَمْ تَكُ وَالْكَلْبُ جَمِيعًا فِي قَرْنٍ »

في الكيد لي وإلحاق الأذى والمضرة بي ولا تمهلون طرفة عين، فإني لا أبالي بكم لاعتمادي على الله قال الحسن: خوفوا الرسول ﷺ بألهتهم فأمره تعالى أن يجابههم بذلك ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهَ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ أي إن الذي يتولى نصري وحفظي هو الله الذي نزل عليّ القرآن ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ أي هو جل وعلا يتولى عباده الصالحين بالحفظ والتأييد، وهو وليهم في الدنيا والآخرة ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصَرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرُوبُونَ﴾ كرهه لبيّن أن ما يعبدونه لا ينفع ولا يضر ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا﴾ أي وإن تدعوا هذه الأصنام إلى الهداية والرشاد لا يسمعون دعاءكم فضلاً عن المساعدة والإمداد ﴿وَتَرَبَّهَتْهُمْ بَيْتُكَ إِلَهُكُمْ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي وتراهم يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة وهي جماد لا تبصر لأن لهم صورة الأعين وهم لا يرون بها شيئاً ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أمر له عليه الصلاة والسلام بمكارم الأخلاق أي خذ بالسهل اليسير في معاملة الناس ومعاشرتهم قال «ابن كثير»: وهذا أشهر الأقوال ويشهد له قول جبريل للرسول ﷺ: «إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك»^(١) ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ أي بالمعروف والجميل المستحسن من الأقوال والأفعال ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ أي لا تقابل السفهاء بمثل سفههم بل احلم عليهم قال «القرطبي»: وهذا وإن كان خطاباً لنبيه عليه الصلاة والسلام فهو تأديبٌ لجميع خلقه^(٢) ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ أي وإما يصيبنك يا محمد طائف من الشيطان بالسوسة والتشكيك في الحق ﴿فَأَسْتَعْذِرْ بِاللَّهِ﴾ أي فاستعذر بالله والجأ إليه في دفعه عنك ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لما تقول عليّ بما تفعل ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي الذين اتصفوا بتقوى الله ﴿إِذَا مِنْهُمْ ظُلْفٌ مِنْ الشَّيْطَانِ﴾ أي إذا أصابهم الشيطان بوسوسته وحام حولهم بهواجسه ﴿تَذَكَّرُوا﴾ أي تذكروا عقاب الله وثوابه ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ أي يبصرون الحق بنور البصيرة ويتخلصون من وساوس الشيطان ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ أي إخوان الشياطين الذين لم يتقوا الله وهم الكفرة الفجرة فإن الشياطين تغويهم وتزين لهم سبل الضلال ﴿ثُمَّ لَا يُفْصِرُونَ﴾ أي لا يُمْسِكُونَ ولا يَكْفُونَ عن إغوائهم ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ﴾ أي وإذا لم تأتهم بمعجزة كما اقترحوا ﴿قَالُوا لَوْلَا آجَبْتَهُمْ﴾ أي هلا اختلقتها يا محمد واخترعتها من عند نفسك؟! وهو تهكم منهم لعنهم الله ﴿قُلْ إِنَّمَا آتَيْتُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ أي قل لهم يا محمد ليس الأمر إليّ حتى آتي بشيء من عند نفسي وإنما أنا عبدٌ امثل ما يوحى الله إليّ ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي هذا القرآن الجليل حججٌ بيّنة، وبراهين نيرة يغني عن غيره من المعجزات فهو بمنزلة البصائر للقلوب به يُبْصِرُ الحق ويُدرِك ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي وهداية ورحمة للمؤمنين لأنهم المقتبسون من

(١) (ش): ضعيف، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

(٢) «القرطبي» ٧/ ٣٤٧.

أنواره والمتفوعون من أحكامه ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ أي وإذا تليت آيات القرآن فاستمعوها بتدبر واسكتوا عند تلاوته إعظاماً للقرآن وإجلالاً ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أي لكي تفوزوا بالرحمة ﴿ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ ﴾ أي واذكر ربك سرّاً مستحضراً لعظمته وجلاله ﴿ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً ﴾ أي متضرعاً إليه وخائفاً منه ﴿ وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ أي وسطاً بين الجهر والسرّ ﴿ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ أي في الصباح والعشي ﴿ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ أي ولا تغفل عن ذكر الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ أي الملائكة الأطهار ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي لا يتكبرون عن عبادة ربهم ﴿ وَيَسْجُدُونَ ﴾ أي ينزهونه عما لا يليق به ﴿ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ أي لا يسجدون إلا لله. **البلاغة: ١ -** ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ التشبيه مرسل مجمل لذكر أداة التشبيه وحذف وجه الشبه.

٢ - ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّيْهَا ﴾ التغشي هنا كناية عن الجماع وهو من الكنايات اللطيفة.

٣ - ﴿ أَلْهَمَ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا... ﴾ إلخ هذا الأسلوب يسمى «الإطناب» وفائدته زيادة التقرير والتوبيخ.

٤ - ﴿ يَنْزَعْنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ ﴾ شبه وسوسة الشيطان وإغراءه الناس على المعاصي بالنزع وهو إدخال الإبرة وما شابهها في الجلد ففيه استعارة لطيفة.

٥ - ﴿ هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ فيه تشبيه وأصله هذا كالبصائر، حُذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فهو بليغ. ويرى بعض العلماء أنه من قبيل المجاز المرسل حيث أطلق المسبب على السبب لأن القرآن لما كان سبباً لتنوير العقول أطلق عليه لفظ البصيرة.

لطيفة: حكى عن بعض السلف أنه قال لتلميذه: ما تصنع بالشيطان إذا سَوَّلَ لك الخطايا؟ قال: أجاهده قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده. قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده. قال: إن هذا يطول، أرايت لو مررت بغنم فنبحك كلبها ومنعك من العبور ماذا تصنع؟ قال: أكابده وأرده جهدي قال: هذا يطول عليك، ولكن استغث بصاحب الغنم يكفه عنك، فهذه فائدة الاستعاذة.

«تم بعون الله تعالى تفسير سورة الأعراف»





مدنية وآياتها خمس وسبعون

بين يدي السورة

* سورة الأنفال إحدى السور المدنية التي عُنت بجانب التشريع، وبخاصة فيما يتعلق بالغزوات والجهاد في سبيل الله، فقد عالجت بعض النواحي الحربية التي ظهرت عقب بعض الغزوات، وتضمنت كثيرًا من التشريعات الحربية، والإرشادات الإلهية التي يجب على المؤمنين اتباعها في قتالهم لأعداء الله، وتناولت جانب السلم والحرب، وأحكام الأسر والغنائم.

* نزلت هذه السورة الكريمة في أعقاب «غزوة بدر» التي كانت فاتحة الغزوات في تاريخ الإسلام المجيد، وبداية النصر لجند الرحمن حتى سماها بعض الصحابة «سورة بدر» لأنها تناولت أحداث هذه الموقعة بإسهاب، ورسمت الخطة التفصيلية للقتال، وبينت ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من البطولة والشهامة، والوقوف في وجه الباطل بكل شجاعة وجرأة وحزم وصمود.

* ومن المعلوم من تاريخ الغزوات التي خاضها المسلمون أن غزوة بدر كانت في رمضان من السنة الثانية للهجرة، وكانت هي الجولة الأولى من جولات الحق مع الباطل، ورد البغي والطغيان، وإنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، الذين قعد بهم الضعف في مكة، وأخذوا في الضراعة إلى الله أن يخرجهم من القرية الظالم أهلها، وقد استجاب الله صراحتهم فهيأ لهم ظروف تلك الغزوة، التي تم فيها النصر للمؤمنين على قلة في عددهم، وضعف في عددهم، وعلى عدم تهيئهم للقتال، وبها عرف أنصار الباطل أنه مهما طال أمده، وقَوِيَتْ شَوْكُتُهُ، وامتد سلطانه، فلا بد من له من يوم يخرفه صريعًا أمام جلال الحق وقوة الإيمان، وهكذا كانت غزوة بدر نصرًا للمؤمنين، وهزيمة المشركين.

* وفي ثنايا سرد أحداث بدر جاءت النداءات الإلهية للمؤمنين ست مرات بوصف الإيمان ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ كحافز لهم على الصبر والثبات في مجاهدتهم لأعداء الله، وكتنكير لهم بأن هذه التكاليف التي أمروا بها من مقتضيات الإيمان الذي تحلو به، وأن النصر الذي حازوا عليه كان بسبب الإيمان لا بكثرة السلاح والرجال.

* **أما النداء الأول:** فقد جاء فيه التحذير من الفرار من المعركة ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ وقد توعدت الآيات المنهزمين أمام الأعداء بأشد العذاب.

*** وأما النداء الثاني:** فقد جاء فيه الأمر بالسمع والطاعة لأمر الله وأمر رسوله ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ كما صورت الآيات الكافرين بالأنعام السارحة التي لا تسمع لا تعي ولا تستجيب لدعوة الحق.

*** وأما النداء الثالث:** فقد بين فيه أن ما يدعوهم إليه الرسول فيه حياتهم وعزتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ...﴾ الآية.

*** وأما النداء الرابع:** فقد نبههم فيه على أن إفشاء سر الأمة للأعداء خيانة لله ولرسوله وخيانة للأمة أيضًا ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

*** وأما النداء الخامس:** فقد لفت نظرهم فيه إلى ثمرة التقوى، وذكرهم بأنها أساس الخير كله، وأن من أعظم ثمرات التقوى ذلك النور الرباني، الذي يقذفه الله في قلب المؤمن، وبه يفرق بين الرشد والغي، والهدى والضلال ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَفْقَوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

*** وأما النداء السادس:** وهو النداء الأخير فقد وضع لهم فيه طريق العزة، وأسس النصر، وذلك بالثبات أمام الأعداء، والصبر عند اللقاء، واستحضار عظمة الله التي لا تحد، وقوته التي لا تقهر، والاعتصام بالمدد الروحي الذي يعينهم على الثبات ألا وهو ذكر الله كثيرًا ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

*** وقد ختمت السورة الكريمة ببيان الولاية الكاملة بين المؤمنين، وأنه مهما تناوت ديارهم، واختلفت أجناسهم، فهم أمة واحدة، وعليهم نصر الذين يستنصرونهم في الدين، كما أن ملة الكفر أيضًا واحدة، وبين الكافرين ولاية قائمة على أسس البغي والضلال، وأنه لا ولاية بين المؤمنين والكافرين ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض فساد كبير.**

*** هذه خلاصة ما أشارت إليه السورة الكريمة من أهداف، وما أرشدت إليه من دروس وعبر، نسأله تعالى أن يجعلنا من أهل الفهم والبصر.**

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ① إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ② الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ③ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ④ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْنِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ⑤ مُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ⑥ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ

الشُّوْكَهَ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَبُطْلَ الْبُطْلِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفَلَاحِ مِنَ الْمَلَكَةِ مُرَدِّفٍ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ الْغَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُزِيلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِيَ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَمُ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقُنَالٍ أَوْ مُتَحَرِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا لَهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكَمُ وَأَنَّ اللَّهَ مُهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنْ تَسْتَفْهِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدًا وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

اللغة: ﴿الْأَنْفَالُ﴾ الغنائم جمع نَفْلٍ بالفتح وهو الزيادة وسميت الغنائم به لأنها زيادة على القيام بحماية الدين والأوطان، وتسمى صلاة التطوع نفلاً، وولد الولد نافلة لهذا المعنى قال لبيد: إِنَّ تَقْوَى رَبَّنَا خَيْرُ نَفْلٍ وَيَا ذُنَّ اللَّهِ رَيْثِي وَالْعَجَلُ ^(١) ﴿وَجَلَّتْ﴾ الوجل: الخوف والفرع ﴿ذَاتِ الشُّوْكَهَ﴾ الشوكة: السلاح وأصلها من الشوك قال أبو عبيدة: ومجاز الشوكة الحد يقال: ما أشدَّ شوكة بني فلان أي حدَّهم ^(٢) ﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾ الاستغاثة: طلب النصرة والعون ﴿مُرَدِّفٍ﴾ متتابعين يتلو بعضهم بعضاً وردف وأردف بمعنى واحد أي تبع قال «الطبري»: العرب تقول: أردفته وردفته بمعنى تبعته وأتبعته قال الشاعر:

إِذَا الْجَوَزَاءُ أَرْدَفَتِ الثُّرَيَّا ^(٣)

(١) (ش): خَيْرُ نَفْلٍ: أَي خَيْرُ غَنِيمَةٍ. (وَيَا ذُنَّ اللَّهِ رَيْثِي وَالْعَجَلُ): أَي أَنْ التَّائِي وَالْعَجَلَةُ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ ﷻ.

(٢) «زاد المسير» ٣/ ٣٢٤.

(٣) «الطبري» ١٣/ ٤١٥. (ش): (الْجَوَزَاءُ): أَحَدُ أَبْرَاجِ السَّمَاءِ. (الثُّرَيَّا): مَجْمُوعَةٌ مِنَ النُّجُومِ فِي صُورَةِ الثَّوْرِ، وَهِيَ سَبْعَةُ كَوَاكِبٍ. مَعْنَى الْبَيْتِ أَنَّهُ إِذَا طَلَعَتِ الْجَوَزَاءُ إِثْرَ الثُّرَيَّا عِنْدَ الْفَجْرِ ثَمَ لَمْ يَرُدْفَهَا نَجْمٌ آخَرٌ لَغَلْبَةِ نَوْرِ الشَّمْسِ عَلَى النُّجُومِ.

﴿بَنَانٍ﴾ البنان: جمع بنانة وهي أطراف أصابع اليدين والرجلين قال عنتره:
وَكَانَ فَتَى الْهَيْجَاءِ يَحْمِي ذِمَارَهَا وَيَضْرِبُ عِنْدَ الْكَرْبِ كُلَّ بَنَانٍ^(١)
﴿زَحْفًا﴾ الزحف: الدنو قليلاً مأخوذ من زحف الصبي إذا مشى على أليته قليلاً قليلاً ثم
سمي به الجيش الكثير العدد لأنه لكثرتة وتكاثفه يرى كأنه يزحف زحفاً ﴿مُتَحَيِّزًا﴾ منضمّاً
يقال: تحييز أي انضم واجتمع إلى غيره ﴿بَكَاءً﴾ رجع ﴿مُوهِنٌ﴾ مضعف ﴿تَسْفَنُحُوا﴾
استفتح: أي طلب الفتح والنصرة على عدوه.

سَبَبُ النِّزُولِ: أ - عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ كَذَا وَكَذَا، وَمَنْ أَسْرَ أَسِيرًا فَلَهُ كَذَا وَكَذَا»، فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات، وأما الشبان فتسارعوا إلى القتل والغنائم فقال المشيخة للشبان: أشركونا معكم فإننا كنا لكم رداءً ولو كان منكم شيء للجأتم إلينا فأبوا واختصموا إلى النبي ﷺ فنزلت ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ الآية فقسم ﷺ الغنائم بينهم بالسوية^(٢).

ب - روي «أن النبي ﷺ أخذ قبضة من تراب يوم بدر فرمى بها في وجوه القوم وقال: شأته الوجوه فما بقي أحد من المشركين إلا أصاب عينيه ومنخره تراب من تلك القبضة وولوا مدبرين» فنزلت ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى...﴾ الآية^(٣).

التفسير: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ أي يسألك أصحابك يا محمد عن الغنائم التي غنمتها من بدر لمن هي؟ وكيف تقسم؟ ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي قل لهم: الحكم فيها لله والرسول لا لكم ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي اتقوا الله بطاعته واجتناب معاصيه ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي أصلحوا الحال التي بينكم بالائتلاف وعدم الاختلاف ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله في الحكم في الغنائم قال عبادة بن الصامت: نزلت فينا أصحاب بدر حين اختلفنا وساءت أخلاقنا، فنزع الله الأنفال من أيدينا وجعلها لرسول الله ﷺ فقسمها على السواء^(٤) فكان في ذلك تقوى الله، طاعة رسوله، وإصلاح ذات البين ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ شرط

(١) «القرطبي» ٣٧٩/٧. (ش): الْهَيْجَاءُ: الْحَرْبُ. الذِّمَارُ: مَا يَجِبُ حِمَايَتُهُ، وَالِدِفَاعُ عَنْهُ، كَالْأَهْلِ، وَالْعِرْضِ.

(٢) «روح المعاني» ١٦٢/٩. (ش): رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ.

(٣) «الطبري» ٤٤٥/١٣. (ش): عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَ يَوْمَ بَدْرٍ قَبْضَةً مِّنَ التُّرَابِ فَرَمَى بِهَا فِي وُجُوهِ الْقَوْمِ، فَأَنْهَزُوا فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]. (صحيح، رواه الطبراني).

وَعَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَخَذَ كَفًّا مِّنَ الْحَصْبَاءِ فَاسْتَقْبَلْنَا بِهِ، فَرَمَانَا بِهَا، وَقَالَ: «شَهِتَ الْوُجُوهُ»، فَأَنْهَزْنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧] (حسن، رواه الطبراني).

(٤) «التسهيل» ٦٠/٢. (ش): حسن، رواه أحمد.

حذف جوابه أي إن كنتم حقاً مؤمنين كاملين في الإيمان فأطيعوا الله ورسوله ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي إنما الكاملون في الإيمان المخلصون فيه ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي إذا ذكر اسم الله فزعت قلوبهم لمجرد ذكره، استعظاماً لشأنه، وتهيباً منه جلّ وعلا ﴿ وَإِذَا تَلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ أي إذا تليت عليهم آيات القرآن ازداد تصديقهم ويقينهم بالله ^(١) ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ^(٢) أي لا يرجون غير الله ولا يرهبون سواه قال في «البحر»: أخبر عنهم باسم الموصول بثلاث مقامات عظيمة وهي: مقام الخوف، ومقام الزيادة في الإيمان، ومقام التوكل على الرحمن ^(٣) ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ أي يؤدون الصلاة على الوجه الأكمل بخشوعها وفروضها وآدابها ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ أي وينفقون في طاعة الله مما أعطاهم الله، وهو عام في الزكاة ونوافل الصدقات ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ أي المتصفون بما ذكر من الصفات الحميدة هم المؤمنون إيماناً حقاً لأنهم جمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال ﴿ لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أي لهم منازل رفيعة في الجنة ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ أي تكفير لما فرط منهم من الذنوب ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ أي رزق دائم مستمر مقرون بالإكرام والتعظيم ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ الكاف تقتضي مشبهاً قال ابن عطية: شهبث هذه القصة التي هي إخراجهم من بيته بالقصة المتقدمة التي هي سؤالهم عن الأنفال وكراحتهم لما وقع ^(٤) فيها، والمعنى: حالهم في كراهة تنفيل الغنائم كحالهم في حالة خروجك للحرب وقال «الطبري»: المعنى: كما أخرجك ربك بالحق على كره من فريق من المؤمنين كذلك يجادلونك في الحق بعدما تبين، والحق الذي كانوا يجادلون فيه النبي ﷺ بعدما تبينوه هو القتال ^(٥) ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُوا ﴾ أي والحال أن فريقاً منهم كارهون للخروج لقتال العدو خوفاً من القتل أو لعدم الاستعداد ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ ﴾ أي يجادلونك يا محمد في شأن الخروج للقتال بعد أن وضع لهم الحق وبان، وكان جدالهم هو قولهم: ما كان خروجنا إلا للغير ولو عرفنا لَا سَتَعْدُنَا للقتال ﴿ كَانَمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ قال «البيضاوي»: أي يكرهون القتال

(١) (ش): تفسيره الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح.

(٢) قال ابن الخطيب: ليقراً هذه الآية وليتدبرها كل مؤمن، وليعرضها على نفسه، فإن وجدها تنطبق على صفاته فليهنأ بما آتاه الله من فضل، وما وهبه من خير، وإن وجدها في وادٍ وهو في وادٍ، فليجأ إلى الرحيم الودود، وليجأ إلى اللطيف الحميد، أن يصفى قلبه ويزيده إيماناً وتوكلًا، ويوفقه لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فنعم القريب ونعم المحبب، وليكن هذا بإخلاص قلب وصدق طوية.

(٣) «البحر» ٤/ ٥٧.

(٤) «الطبري» ٤/ ٤٦١.

(٥) «الطبري» ١٣/ ٢٩٣.

كراهة من ينساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه، وذلك لقلّة عددهم وعدم تأهبهم، وفيه إيماء إلى أن مجادلّتهم إنما كانت لفرط فزعهم ورعبهم^(١) ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ أي اذكروا حين وعدكم الله يا أصحاب محمد إحدى الفرقتين أنها لكم غنيمة إما العير أو النفير ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ أي وتحبون أن تلقوا الطائفة التي لا سلاح لها وهي العير لأنها كانت محمّلة بتجارة قريش قال المفسرون: «روي أن عير قريش أقبلت من الشام وفيها تجارة عظيمة برئاسة أبي سفيان، ونزل جبريل عليه السلام فقال يا محمد: إن الله وعدكم إحدى الطائفتين: إما العير وإما قريشاً، فاستشار الرسول ﷺ أصحابه فاختاروا العير لخفة الحرب وكثرة الغنيمة، فلما خرجوا بلغ الخبر أهل مكة فنادى أبو جهل: يا أهل مكة النجاء النجاء، غيركم أموالكم إن أصابها محمد فلن تفلحوا بعدها أبداً، فخرج المشركون على كل صعب وذلول ومعهم أبو جهل حتى وصلوا بدرًا، ونجت القافلة فأخبر الرسول ﷺ أصحابه وقال لهم: إن العير قد مضت على ساحل «البحر»، وهذا أبو جهل قد أقبل، فقالوا يا رسول الله: عليك بالعير ودع العدو فغضب رسول الله فقام سعد بن عبادة فقال: امض بنا لما شئت فإننا متبعوك، وقام سعد بن معاذ فقال: والذي بعثك بالحق لو خضت بنا «البحر» لخضناه معك فسرّ بنا على بركة الله، فسرّ رسول الله ﷺ وقال لأصحابه: سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم»^(٢) ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ أي يظهر الدين الحق وهو الإسلام بقتل الكفار وإهلاكهم

(١) «البيضاوي» ص ٢٠٩.

(٢) «البيضاوي» ص ٢٠٩ بتصرف.

(ش): عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ شَاوَرَ حِينَ بَلَغَهُ إِقْبَالُ أَبِي سُفْيَانَ فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ تَكَلَّمَ عُمَرُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ: «إِنِّي أَنَا تُرِيدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِصَّهَا الْبَحْرَ لَأَخْضَنَاهَا وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَى بَرْكِ الْغِمَادِ لَفَعَلْنَا». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). (لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِصَّهَا الْبَحْرَ لَأَخْضَنَاهَا): لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِصَّ الْخَيْلَ الْبَحْرَ لَأَخْضَنَاهَا. (بَرْكِ الْغِمَادِ): قِيلَ: هُوَ مَوْضِعٌ مِنْ وَرَاءِ مَكَّةَ يَخْمَسُ لَيْلَالٍ بِنَاحِيَةِ السَّاحِلِ، وَقِيلَ: هُوَ مَوْضِعٌ بِأَقَاصِي هَجَرَ. وَقِيلَ: هُوَ فِي أَقْصَى الْيَمَنِ. وَفِي رَوَايَةٍ: قَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ: «وَاللَّهِ لَكَأَنَّكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ». قَالَ: «أَجَلٌ». قَالَ: «فَقَدْ آمَنَّا بِكَ، وَصَدَّقْنَاكَ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عَهْدَنَا وَمَوَاقِفَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لَكَ، فَأَمَضَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أَرَدْتَ فَفُتِحَ مَعَكَ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا الْبَحْرَ فَخَضَّصْتَهُ لَخَضَّصْنَاهُ مَعَكَ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكَّرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غَدًا، إِنَّا لَصَبْرٌ فِي الْحَرْبِ، صُدِّقَ عِنْدَ اللِّقَاءِ، لَعَلَّ اللَّهَ يُرِيدُ مِنَّا مَا تَقَرَّرَ بِهِ عَيْنُكَ، فَيَسِّرَ عَلَيْنَا بَرَكَهَ اللَّهِ».

فَسَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ: ثُمَّ قَالَ: «سَيُروا وَأَبْشُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَاللَّهُ لَكَأَنِّي الْآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ» (رَوَاهُ ابْنُ إِسْحَاقَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ).

انظر ما ثبت من تفاصيل غزوة بدر في كتاب «السيرة النبوية الصحيحة» محاوَلَةٌ لِطَبِيقِ قَوَاعِدِ الْمُحَدِّثِينَ فِي نَقْدِ رَوَايَاتِ السَّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ للدكتور أكرم ضياء العمري.

يوم بدر ﴿وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ أي يستأصل الكافرين ويهلكهم جملة من أصلهم قال في «البحر»: والمعنى أنكم ترغبون في الفائدة العاجلة، وسلامة الأحوال، وسفساف الأمور، والله تعالى يريد معالي الأمور، وإعلاء الحق، والفوز في الدارين، وشتان ما بين المرادين، ولذلك اختار لكم ذات الشوكة وأراكم عياناً خذلانهم، فنصركم وهزمهم، وأذلهم وأعزكم^(١) ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: ليحق الحق ويبطل الباطل ففعل ما فعل والمراد إظهار الإسلام وإبطال الكفر ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي ولو كره المشركون ذلك أي إظهار الإسلام وإبطال الشرك ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ أي اذكروا حين تطلبون من ربكم الغوث بالنصر على المشركين، روي أن سول الله ﷺ نظر إلى المشركين وهم ألف، وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة وبضعة عشر، فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو: «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ فَلَنْ تُعْبَدَ فِي الْأَرْضِ» فما زال كذلك حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأخذه أبو بكر فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله كفك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فنزلت هذه الآية ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ أي استجاب الله الدعاء بأني معينكم بألف من الملائكة ﴿مُرْدِفِينَ﴾ أي متتابعين يتبع بعضهم بعضاً^(٢)، قال المفسرون: ورد أن جبريل نزل بخمسةائة وقاتل بها في يسار الجيش، ولم يثبت أن الملائكة قاتلت في وقعة إلا في بدر، وأما في غيرها فكانت تنزل الملائكة لتكثير عدد المسلمين ولا تقاتل^(٣) ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى﴾ أي وما جعل إمدادكم بالملائكة إلا بشارة لكم بالنصر ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ أي ولتسكن بهذا الإمداد نفوسكم ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي وما النصر في الحقيقة إلا من عند الله العلي الكبير فثقوا بنصره ولا تتكلوا على قوتكم وعدتكم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي غالب لا يغلب يفعل ما تقضي به الحكمة ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ أي يلقي عليكم النوم أمناً من عند سبحانه وتعالى، وهذه معجزة لرسول الله ﷺ حيث غشي الجميع النوم في وقت الخوف قال علي رضي الله عنه: «ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح»^(٤)، قال ابن كثير: وكان ذلك كان للمؤمنين عند شدة البأس، لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله^(٥) ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ تعديد لنعمة أخرى، وذلك أنهم عدموا

(١) «البحر» ٤/ ٤٦٤.

(٢) (ش): رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ. (مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ)، أي: دَعَاؤُكَ إِيَّاهُ وَتَضَرُّعُكَ إِلَيْهِ.

(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ١١٨/٢.

(٤) رواه أبو يعلى. (ش): رواه أحمد بإسناد صحيح.

(٥) «المختصر» ٢/ ٩٠.

الماء في غزوة بدر فأنزل الله عليهم المطر حتى سالت الأودية، وكان منهم من أصابته جنابة فتطهر بماء المطر ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ أي من الأحداث والجنائيات ﴿وَيَذْهَبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ أي يدفع عنكم وسوسته وتخوفه إياكم من العطش، قال «البيضاوي»: روي أنهم نزلوا في كتيب أعفر، تسوخ فيه الأقدام على غير ماء، وناموا فاحتلم أكثرهم فوسوس إليهم الشيطان وقال: كيف تنصرون وقد غلبتم على الماء، وأتم تصلون محدثين مجنين وتزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله؟ فأنزل الله المطر حتى ثبتت عليه الأقدام وزالت الوسوسة ^(١) ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ أي يقويها بالثقة بنصر الله ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ أي يثبت بالمطر الأقدام حتى لا تسوخ في الرمل قال «الطبري»: ثبت بالمطر أقدامهم لأنهم كانوا التقوا مع عدوهم على رملة ميثاء فلبدّها المطر حتى صارت الأقدام عليها ثابتة لا تسوخ فيها ^(٢) ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأَتِكَ أَتَىٰ مَعَكُمْ﴾ تذكير بنعمة أخرى أي يوحى إلى الملائكة بأنى معكم بالعون والنصر ﴿فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي ثبتوا المؤمنين وقّوا أنفسهم على أعدائهم ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ أي ساقذف في قلوب الكافرين الخوف والفرع حتى ينهزموا ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ أي اضربوهم على الأعناق كقوله ﴿فَضْرَبَ الرِّقَابَ﴾ [محمد: ٤] وقيل: المراد الرءوس لأنها فوق الأعناق ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي اضربوهم على أطراف الأصابع قال في «التسهيل»: وفائدة ذلك أن المقاتل إذا ضربت أصابعه تعطل عن القتال فأمكن أسره وقتله ^(٣) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي ذلك العذاب الفظيع واقع عليهم بسبب مخالفتهم وعصيانهم لأمر الله وأمر رسوله ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَكَانَ اللَّهُ شَدِيدَ الْعِقَابِ﴾ أي ومن يخالف أمر الله وأمر رسوله بالكفر والعناد فإن عذاب الله شديد له ﴿ذَلِكَ فِى قُلُوبِهِمْ فَذُوقُوا وَأَنْتَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ النَّارِ﴾ أي ذلكم العقاب فذوقوه يا معشر الكفار في الدنيا، مع أن لكم العقاب الآجل في الآخرة وهو عذاب النار ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا﴾ أي إذا لقيتم أعداءكم الكفار مجتمعين كأنهم لكثرتهم يزحفون زحفاً ﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ أي فلا تنهزموا أمامهم بل اثبتوا واصبروا ﴿وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَ ذُبُرِهِ﴾ أي ومن يولهم يوم اللقاء ظهره منهزماً ﴿لَا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ أي إلا في حال التوجه إلى قتال طائفة أخرى، أو بالفر للكر بأن يخيل إلى عدوه أنه منهزم ليغره مكيدة وهو من باب «الحرب خدعة» ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ

(١) البيضاوي ص ٢١٠. (ش): ضعيف، رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» وابن المنذر وأبو الشيخ. والكتيب: تل أو مرتفع من الرمال كومة الرياح. (أعقر): لوئته كالعقر: وجه الأرض والتراب.

(٢) «الطبري» ١٣/ ٤٢١. (ش): (الرملة الميثاء): الليئة السهلة. قد تسوخ فيها الرجل قليلاً. (لبد المطر الأرض):

ألصق بعض ترابها ببعض فصارت قوية لا تسوخ فيها الأرجل، أي لا تغوص فيها.

(٣) «التسهيل» ٦٢/ ٢.

فَتْةٌ ﴿ أَي مُنْضَمًّا إِلَى جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ يَسْتَنْجِدُ بِهِمْ ﴾ فَقَدْ بَكَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴿ أَي فَقَدْ رَجَعَ بِسَخَطٍ عَظِيمٍ ﴾ وَمَا وَنُهُ جَهَنَّمَ ﴿ أَي مَقَرَّهُ وَمَسْكَنَهُ الَّذِي يَأْوِي إِلَيْهِ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ وَبُسْكَ الْمَصِيرُ ﴿ أَي بُسُّ الْمَرْجِعِ وَالْمَالِ ﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴿ أَي فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ بِدَرِّ بَقْوَتِكُمْ وَقَدَرْتَكُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ بِنَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَإِلْقَاءِ الرَّعْبِ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴿ أَي وَمَا رَمَيْتَ فِي الْحَقِيقَةِ أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ أَعْيَنَ الْقَوْمَ بِقُبْضَةٍ مِّنْ تَرَابٍ لِأَنَّ كِفَاً مِّنْ تَرَابٍ لَا يَمَلَأُ عَيُونَ الْجَيْشِ الْكَبِيرِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُبْضَةً مِّنَ التَّرَابِ فَرَمَى بِهَا فِي وَجْهِهِ الْمَشْرِكِينَ وَقَالَ: شَاهَتِ الْوُجُوهَ، فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا أَصَابَ عَيْنِيهِ وَمِنْخَرِيهِ مِّنْ تِلْكَ الرَّمِيَةِ فَوَلَّوْا مَدْبِرِينَ ^(١) ﴾ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَحِيٌّ ﴿ أَي بِإِصَالِ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ فَلَا مَرَّ فِي الْحَقِيقَةِ مِنَ اللَّهِ ﴾ وَلِيَسْبِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ﴿ أَي فَعَلَ ذَلِكَ لِيَقْهَرَ الْكَافِرِينَ وَيُنْعِمَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِالْأَجْرِ وَالنَّصْرِ وَالْغَنِيمَةِ ﴾ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿ أَي سَمِيعٌ لِّأَقْوَالِهِمْ عَلَيْهِمْ بِنْيَاتِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ ﴾ ذَلِكَمُ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿ أَي ذَلِكَ ^(٢) الَّذِي حَدَثَ مِنْ قَتْلِ الْمَشْرِكِينَ وَنَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا، وَالْغَرَضُ مِنْهُ إِضْعَافُ وَتَوْهِينُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ حَتَّى لَا تَقُومَ لَهُمْ قَائِمَةٌ ﴾ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴿ هَذَا خُطَابٌ لِّكَفَّارِ قُرَيْشٍ أَيْ إِنْ تَطَلَّبُوا يَا مَعْشَرَ الْكَفَّارِ الْفَتْحَ وَالنَّصَرَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَهُوَ الْهَزِيمَةُ وَالْقَهْرُ، وَهَذَا عَلَى سَبِيلِ التَّهْكُمِ بِهِمْ قَالَ «الطَّبْرِي» فِي رِوَايَةِ الزَّهْرِيِّ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ يَوْمَ بَدْرٍ: اللَّهُمَّ إِنَّا كَانُوا أَفْجَرَ، وَأَقْطَعَ لِلرَّحِمِ، فَأَحْنَهُ الْيَوْمَ - أَيْ أَهْلَكَه - فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾ فَكَانَ أَبُو جَهْلٍ هُوَ الْمُسْتَفْتَحُ ^(٣)، ﴿ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أَيْ وَإِنْ تَكْفُّوا يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ عَنْ حَرْبِ الرَّسُولِ وَمَعَادَاتِهِ، وَعَنِ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ وَآخِرَتِكُمْ ﴾ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدُّ ﴿ أَي وَإِنْ تَعُودُوا لِحَرْبِهِ وَقِتَالِهِ نَعُدُّ لِنَصْرِهِ عَلَيْكُمْ ﴾ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ ﴿ أَي لَنْ تَدْفَعَ عَنْكُمْ جَمَاعَتَكُمْ الَّتِي تَسْتَنْجِدُونَ بِهَا شَيْئًا مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا مَهْمَا كَثَرَ الْأَعْوَانُ وَالْأَنْصَارُ ﴾ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ أَي لِأَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ بِالنَّصْرِ وَالْعَوْنِ وَالتَّأْيِيدِ ﴾ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴿ أَي دُومُوا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ يَدُومَ لَكُمْ الْعِزُّ الَّذِي

(١) «الطَّبْرِي» ١٣/٤٤٣.

(٢) ذَلِكَ مُبْتَدَأٌ حَذَفَ خَبْرَهُ تَقْدِيرُهُ: ذَلِكَ الَّذِي حَدَثَ حَقًّا.

(٣) (ش): رَوَاهُ أَحْمَدُ بَلْفَظًا: «اللَّهُمَّ أَقْطَعْنَا لِلرَّحِمِ، وَأَنَّا بِمَا لَا يُعْرِفُ فَأَحْنَهُ الْغَدَاةُ» فَكَانَ الْمُسْتَفْتَحُ (رَوَاهُ أَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ الْأَرْنَؤُوط). وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ بَلْفَظًا: وَفِيهِ: فَكَانَ ذَلِكَ اسْتِفْتَا حَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدُّ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ [الأنفال: ١٩] وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ. (أَقْطَعْنَا لِلرَّحِمِ): اسْمٌ تَفْضِيلٌ لِلْقَطْعِ، أَيْ أَكْثَرْنَا قَطْعًا الرَّحِمِ. (فَأَحْنَهُ): الْهَلَاكُ، وَقَدْ حَانَ الرَّجُلُ: هَلَكَ. يُقَالُ: أَحَانَهُ اللَّهُ، أَيْ: أَهْلَكَهُ وَكَمْ يُوفِّقُهُ لِلرَّشَادِ. أَيْ اللَّهُمَّ مَنْ كَانَ أَكْثَرْنَا قَطْعًا الرَّحِمِ وَإِتْيَانًا بِمَا لَا يُعْرِفُ فَأَهْلِكَهُ الْيَوْمَ.

حصل بيدر ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أي لا تعرضوا عنه بمخالفة أمره وأصله تتولوا حذف منه إحدى التاءين ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أي تسمعون القرآن والمواعظ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا تكونوا كالكفار الذين سمعوا بأذانهم دون قلوبهم، فسماعهم كلاً سماعاً^(١) لأن الغرض من السماع التدبر والاتعاظ ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي شرُّ الخلق وشرُّ البهائم التي تدبُّ على وجه الأرض ﴿الصَّمُّ الْبُكْمُ﴾ أي الصمُّ الذين لا يسمعون الحق، البكم أي الخرس الذين لا ينطقون به ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي الذين فقدوا العقل الذي يميز به المرء بين الخير والشر، نزلت في جماعة من بني عبد الدار كانوا يقولون: نحن صمُّ بكمِّ عما جاء به محمد، وتوجهوا لقتال الرسول ﷺ مع أبي جهل، وفي الآية غاية الذم للكافرين بأنهم أشرُّ من الكلب والخنزير والحمير، لأنهم لم يستفيدوا من حواسهم فصاروا أخسَّ من كل خسيس ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ أي لو علم الله فيهم شيئاً من الخير لأسمعهم سماعاً تفهمهم وتدبرهم ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ أي ولو فرض أن الله أسمعهم - وقد علم أن لا خير فيهم - لتولوا وهم معرضون عنه جحوداً وعناداً، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ على عدم إيمان الكافرين.

البلاغة: ١ - ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الإشارة بالبعيد عن القريب لعلو رتبته وبعد منزلتهم في الشرف.

- ٢ - ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ استعار الدرجات للمراتب الرفيعة والمنازل العالية في الجنة.
- ٣ - ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾ التشبيه هنا تمثيلي.
- ٤ - ﴿أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقُّ﴾ بينهما جناس الاشتقاق.
- ٥ - ﴿ذَاتِ الشُّوْكَ﴾ استعيرت الشوكة للسلاح بجامع الشدة والحدة بينهما.
- ٦ - ﴿وَيَقْطَعُ دَائِرَ الْكَافِرِينَ﴾ كناية عن استئصالهم بالهلاك.
- ٧ - ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾ صيغة المضارع لاستحضار صورتها الغريبة في الذهن.
- ٨ - ﴿وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ تقديم الجار والمجرور على المفعول به للاهتمام بالمُقَدَّم والتشويق إلى المؤخَّر.

٩ - ﴿إِنْ تَسْتَفِئْهُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ الخطاب للمشركين على سبيل التهكم كقوله ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

١٠ - ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ شبه الكفار بالبهائم بل جعلهم شراً منها، وذلك منتهى البلاغة ونهاية الإعجاز، إذ أن الكافر لا يسمع الحق والبهائم لا تسمع، ولا ينطق به والبهائم لا تنطق، ويأكل والبهائم تأكل، بقي أنه يضر والبهائم لا تضر فكيف لا يكون شراً منها؟

(١) (ش): أي سماعهم كعدم السماع.

تنبيه: ذكر تعالى في هذه السورة أنه أمد المؤمنين بألف من الملائكة، وذكر في سورة آل عمران أنه أمدّهم بثلاثة آلاف، ولا تعارض بن الآيات فإنه تعالى ذكر هنا لفظ ﴿مُرْدِفِينَ﴾ ومعناه متتابعين فأمدّهم أولاً بألف ثم بثلاثة آلاف والله الموفق.

قال الله تعالى:

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فَتَنَةَ لَأْذِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَعَاوَنَكُمْ وَيُدْكُمْ بِضَرْهٍ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا نُتِلَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَبِلْنَاهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَلُمَهُ لِلَّهِ فَإِنْ آتَاهَا فَمَا يَكُونُ لَهُمْ جِزَاءٌ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ نَعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنَعَمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى الكافرين، وشبههم بالأنعام السارحة لأنهم أعرضوا عن قبول دعوة الله، أمر المؤمنين هنا بالاستجابة لله والرسول، وقبول دعوته التي فيها حياة القلوب، وبها السعادة الكاملة في الدنيا والآخرة.

اللغة: ﴿مُكَاءً﴾ المكاء: الصفير قال أبو عبيدة: والكثير في الأصوات أن تكون على فعال كالصراخ والخوار والدُّعاء والنباح^(١) ﴿وَتَصَدِيَةً﴾ التصدية: التصفيق يقال: صدى

تصدية إذا صفق بيديه وأصله من الصدى وهو الصوت الذي يرجع من الجبل ﴿فَيَرْكُمُهُ﴾ الركن: الجمع قال الليث: هو أن تجمع الشيء فوق الشيء حتى تجعله ركاماً مركوماً كركام الرمل والسحاب ^(١) ﴿سَلَفَ﴾ مضى ﴿سُنَّتِ الْأَوَّلِينَ﴾ عادة الله وسنته في إهلاك المكذبين من الأمم السالفة ﴿مَوْلَكُمْ﴾ ناصركم ومعينكم.

سَبَبُ النُّزُولِ: أخرج ابن جرير عن الزهري «أن رسول الله ﷺ لما حاصر يهود بني قريظة طلبوا الصلح فأمرهم أن ينزلوا على حكم» سعد بن معاذ «فقالوا: أرسل لنا» أبا لبابة «فبعثه رسول الله ﷺ إليهم فقالوا: يا أبا لبابة ما ترى؟ أنزل على حكم سعد؟ فأشار إلى حلقه يعني أنه الذبح، قال أبو لبابة: والله ما زالت قدماي عن مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله فقال: لا والله لا أذوق طعاماً ولا شرباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ فنزلت الآية ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْنُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولَ ...﴾ الآية ثم نزلت توبته ^(٢).

التفسير: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي أجيبوا دعاء رسوله إذا دعاكم للإيمان الذي به تحيا النفوس، وبه تحيى الحياة الأبدية قال قتادة: هو القرآن فيه الحياة، والثقة، والنجاة، والعصمة في الدنيا والآخرة ^(٣) ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ أي أنه تعالى المتصرف في جميع الأشياء، يُصَرِّفُ القلوب كيف يشاء بما لا يقدر عليه صاحبها، فيفسخ عزائمه، ويغير مقاصده، ويلهمه رشده، أو يزيغ قلبه عن الصراط السوي، وفي الحديث: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ» ^(٤)، قال ابن عباس: يحول بين المؤمن والكفر، وبين الكافر والإيمان ^(٥) قال أبو حيان: وفي ذلك حُصٌّ على المراقبة، والخوف من الله تعالى والمبادرة إلى الاستجابة له جلّ وعلا ^(٦) ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي وأنه سبحانه إليه مرجعكم ومصيركم فيجازيكم بأعمالكم ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ أي احذروا بطش الله وانتقامه إن عصيتم أمره واحذروا فتنة إن نزلت بكم لم تقتصر على الظالم خاصة بل تعم الجميع، وتصل إلى الصالح والطالح، لأن الظالم يهلك

(١) نفس المرجع ٤/ ٤٧٤.

(٢) «روح المعاني» للآلوسي ٩/ ١٩٥. (ش): نزول الآية في أبي لبابة بن عبد المنذر ضعيف، أخرجه «الطبري» في «جامع البيان». لكن روى الإمام أحمد بإسناد حسن أن بني قريظة، أرادوا الاستسلام والنزول على أن يحكم الرسول ﷺ فيهم، وقد استشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر من الصحابة - وكان حليفاً لهم - فأشار إلى أن ذلك يعني ذبحهم.

(٣) «الطبري» ١٣/ ٤٦٨.

(٤) (ش): رواه الترمذي، وصححه الألباني.

(٥) «روح المعاني» ٩/ ١٩١.

(٦) «البحر» ٤/ ٤٨١.

بظلمه وعصيانه، وغير الظالم يهلك لعدم منعه وسكوته عليه وفي الحديث «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ»^(١)، قال ابن عباس: أمر الله المؤمنين ألا يقرأوا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب، فيصيب الظالم وغير الظالم^(٢) ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وهذا وعيد شديد أي شديد العذاب لمن عصاه ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي اذكروا نعمة الله عليكم وقت أن كنتم قلة أذلة يستضعفكم الكفار في أرض مكة فيفتنونكم عن دينكم وينالونكم بالأذى والمكروه ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَنْخَطِفَكُمْ النَّاسُ﴾ أي تخافون المشركين أن يختطفوكم بالقتل والسلب، والخطف: الأخذ بسرعة ﴿فَقَاوِنَكُمْ﴾ أي جعل لكم مأوى تتحصنون به من أعدائكم وهو المدينة المنورة ﴿وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِ﴾ أي أعانكم وقواكم يوم بدر بنصره المؤزر حتى هزمتهم ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي منحكم غنائمهم حلالاً طيبة ولم تكن تحل لأحد من قبل ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لتشكروا الله على هذه النعم الجليلة، والغرض التذكير بالنعمة فإنهم كانوا قبل ظهور الرسول ﷺ في غاية القلة والذلة، وبعد ظهوره صاروا في غاية العزة والرفعة، فعليهم أن يطيعوا الله ويشكروه على هذه النعمة ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ أي لا تخونوا دينكم ورسولكم بإطلاع المشركين على أسرار المؤمنين ﴿وَتَحُونُوا أَمْنَتَكُمْ﴾ أي ما ائتمنكم عليه من التكليف الشرعية كقوله ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأحزاب: ٧٢] الآية قال ابن عباس: خيانة الله سبحانه بترك فرائضه، والرسول ﷺ بترك سنته وارتكاب معصيته، والأمانات: الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد^(٣) ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي تعلمون أنه خيانة وتعرفون تبعة ذلك ووباله ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي محنة من الله ليختبركم كيف تحافظون معها على حدوده قال الإمام الفخر: وإنما كانت فتنة لأنها تشغل القلب بالدنيا، وتصير حجاباً عن خدمة المولى^(٤) ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي ثوابه وعطاؤه خير لكم من الأموال والأولاد فاحرصوا على طاعة الله ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي إن أطعتم الله واجتبتهم معاصيه يجعل لكم هداية ونوراً في قلوبكم، تُفَرِّقُونَ به بين الحق والباطل كقوله ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد: ٢٨] وفي الآية دليل على أن التقوى تنور القلب، وتشرح الصدر، وتزيد في العلم والمعرفة ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي يمحو عنكم ما سلف من ذنوبكم ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي يسترها

(١) رواه البخاري. (ش): ليس في البخاري، وإنما رواه الترمذي، وصححه الألباني.

(٢) حاشية الصاوي ١٢٢/٢.

(٣) «روح المعاني» ١٥٩/٩.

(٤) التفسير الكبير ١٥٢/١٥.

عليكم فلا يؤاخذكم بها ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي واسع الفضل عظيم العطاء ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذا تذكير بنعمة خاصة على الرسول ﷺ بعد تذكير المؤمنين بالنعمة العامة عليهم والمعنى: اذكر يا محمد حين تأمر عليك المشركون في دار الندوة ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ أي يحبسوك ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ أي بالسيف ضربة رجل واحد ليتفرق دمه ﷺ بين القبائل ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ أي من مكة ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ أي يحتالون ويتآمرون عليك يا محمد ويدبر لك ربك ما يبطل مكرهم ويفضح أمرهم ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيْنَ﴾ أي مكره تعالى أنفذ من مكرهم وأبلغ تأثيراً قال «الطبري» في روايته عن ابن عباس: إن نفرًا من أشرف قريش اجتمعوا في دار الندوة فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا: من أنت؟ قال شيخ من العرب، سمعت باجتماعكم فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم مني رأي ونصح قالوا: أجل فادخل، فقال انظروا في شأن هذا الرجل - يعني محمدًا ﷺ - فقال قائل: احبسوه في وثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك، فصرخ عدو الله وقال: والله ما هذا لكم برأي، فليوشكن أن يثب أصحابه عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم، فقال قائل: أخرجوه من بين أظهركم تستريحوا منه فإنه إذا خرج فلن يضركم ما صنع وأين وقع، فقال الشيخ المذكور: والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حلاوة قوله، وطلاقة لسانه، وأخذة القلوب بحديثه؟ والله لئن فعلتم لتجتمعن عليكم العرب حتى يخرجوكم من بلادكم ويقتلوا أشرافكم، قالوا صدق فانظروا رأيًا غير هذا، فقال أبو جهل: والله لأشيرن عليكم برأي ما أرى غيره! قالوا: وما هو؟ قال نأخذ من كل قبيلة غلامًا شابًا جلدًا، ونعطي كل واحد سيفًا صارمًا، ثم يضربونه فيقبلون الدية ونستريح منه ونقطع عنا أذاه، فصرخ عدو الله إبليس: هذا والله الرأي لا أرى غيره، قالوا: وما هو؟ قال نأخذ من كل قبيلة غلامًا شابًا جلدًا، ونعطي كل واحد سيفًا صارمًا، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، ويتفرق دمه في القبائل كلها، ولا أظن بني هاشم يقدرّون على حرب قريش كلها فيقبلون الدية ونستريح منه ونقطع عنا أذاه، فصرخ عدو الله إبليس: هذا والله الرأي لا أرى غيره، فتفرقوا على ذلك فأتى جبريل النبي ﷺ فأخبره وأمره أن لا يبيت في مضجعه، وأذن له بالهجرة، وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة يذكره نعمته عليه ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ...﴾ ^(١) الآية ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ أي وإذا قرئت عليهم آيات القرآن المبين ﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ أي قالوا مكابرة وعنادًا: قد سمعنا هذا الكلام ولو أردنا لقلنا مثله ﴿إِن هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأُولَيْنِ﴾ أي ما هذا القرآن الذي تتلوه علينا إلا أكاذيب وأباطيل وحكايات الأمم السابقة سطورها وليس كلام الله تعالى قال

(١) «الطبري» ١٣/ ٤٩٥. (ش): ضعيف، أخرجه «الطبري» في «جامع البيان» وأبو نعيم في «دلائل النبوة» وابن أبي حاتم في «تفسيره» والبيهقي في «دلائل النبوة».

«أبو السعود»: وهذا غاية المكابرة ونهاية العناد، كيف لا، ولو استطاعوا لما تأخروا فما الذي كان يمنعهم وقد تحداهم عشر سنين؟ وقرعوا^(١) على العجز، ثم قورعوا^(٢) بالسيف فلم يعارضوه، مع أنفتهم، وفرط استنكافهم^(٣) أن يغلبوا لا سيما في باب البيان؟^(٤) ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا لِمَنِ عِنْدَكَ﴾ أي إن كان هذا القرآن حقاً منزلاً من عندك ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي أنزل علينا حاصباً وحجارة من السماء كما أنزلتها على قوم لوط ﴿أَوْ أَتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي بعذاب مؤلم أهلكنا به، وهذا تهكم منهم واستهزاء قال ابن كثير: وهذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم، وكان الأولى لهم أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه، ولكنهم استعجلوا العقوبة والعذاب لسفهمهم^(٥) ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ هذا جواب لكلمتهم الشنعاء وبيان للسبب الموجب لإمهالهم أي إنهم مستحقون للعذاب ولكنه لا يعذبهم وأنت فيهم إكراماً لك يا محمد، فقد جرت سنة الله وحكمته ألا يعذب أمة ونبياها بين ظهرانيها قال ابن عباس: لم تعذب أمة قط ونبياها فيها^(٦)، والمراد بالعذاب عذاب الاستئصال^(٧) ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي وما إن الله ليُعَذِّبَ هؤلاء الكفار وفيهم مؤمنون يستغفرون الله، وهو إشارة إلى استغفار من بقي بين أظهرهم من المسلمين المستضعفين قال ابن عباس: كان فيهم أمانان: نبي الله ﷺ، والاستغفار، أما النبي فقد مضى، وأما الاستغفار فهو باق إلى يوم القيامة ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ أي شيء لهم في انتفاء العذاب عنهم؟ وكيف لا يعذبون وهم على ما هم عليه من العتو والضلال؟ ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي وحالهم الصد عن المسجد الحرام كما صدوا رسول الله ﷺ عام الحديبية، وكما اضطروه والمؤمنين إلى الهجرة من مكة، ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي ما كانوا أهلاً لولاية المسجد الحرام مع إشراكهم ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْأُمُتُونَ﴾ أي إنما يستأهل ولايته من كان براً تقياً^(٨) ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكن أكثرهم جهلة سفلة فقد كانوا يقولون: نحن ولاية البيت والحرام، نصد من نشاء، وندخل من نشاء.. والغرض من الآية بيان استحقاقهم لعذاب الاستئصال بسبب جرائمهم الشنيعة، ولكن

(١) (ش): قَرَعَ: عَنَفَ.

(٢) (ش): قَارَعَ فَلَانٌ فَلَانًا: ضَارَبَهُ وَصَارَعَهُ. قَارَعَ الْحُجَّةَ بِالْحُجَّةِ: رَدَّ عَلَى الدَّلِيلِ بَدِيلَ عَكْسِيٍّ.

(٣) (ش): اسْتَنَكَفَ: امْتَنَعَ أَنْفَةً وَحِمِيَّةً وَاسْتِكْبَارًا.

(٤) «أبو السعود» ٢/ ٢٣٧.

(٥) «المختصر» ٢/ ١٠١.

(٦) «البحر» ٤/ ٤٨٩.

(٧) «الرازي» ١٥/ ١٥٨.

(٨) (ش): اسْتَأْهَلَ الشَّيْءَ: اسْتَحَقَّهُ، كَانَ أَهْلًا لَهُ، حَقِيقًا بِهِ.

الله رفعة عنهم إكراماً لرسوله عليه السلام، ولاستغفار المسلمين المستضعفين ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾ ﴿١﴾ هذا من جملة قبائحهم أي ما كانت عبادة المشركين وصلاتهم عند البيت الحرام إلا تصفيراً وتصفيقاً، وكانوا يفعلونها إذا صلى المسلمون ليخلطوا عليهم صلاتهم، والمعنى أنهم وضعوا مكان الصلاة والتقرب إلى الله التصفير والتصفيق قال ابن عباس: كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون^(١) ﴿فَذَوْقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ﴿٢﴾ أي فذوقوا عذاب القتل والأسر بسبب كفركم وأفعالكم القبيحة، وهو إشارة إلى ما حصل لهم يوم بدر ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي يصرفون أموالهم ويبدلونها لمنع الناس عن الدخول في دين الإسلام، ولحرب محمد عليه السلام، قال «الطبري»: لما أصيب كفار قريش يوم بدر، ورجع فلهم^(٢) إلى مكة قالوا: يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم^(٣) وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا فنزلت الآية^(٤) ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي فسينفقون هذه الأموال ثم تصير ندامة عليهم، لأن أموالهم تذهب ولا يظفرون بما كانوا يطمعون من إطفاء نور الله وإعلاء كلمة الكفر ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ ﴿٣﴾ إخبار بالغيب أي ثم نهايتهم الهزيمة والاندحار ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ مُحْتَرُونَ﴾ ﴿٤﴾ أي والذين ماتوا على الكفر منهم يساقون إلى جهنم، فأعظم بها حسرة وندامة لمن عاش منهم ومن هلك ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي ليفرق الله بين جند الرحمن وجند الشيطان، ويفصل بين المؤمنين الأبرار والكفرة الأشرار، والمراد بالخبث والطيب الكافر والمؤمن ﴿وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي يجعل الكفار بعضهم فوق بعض ﴿فَيَرَكُمُ جَمِيعًا﴾ أي يجعلهم كالركام مترامكماً بعضهم فوق بعض لشدة الازدحام ﴿فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ أي فيقذف بهم في نار جهنم ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي الكاملون في الخسران لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم، ثم دعاهم تعالى إلى التوبة والإنابة، وحذرهم من الإصرار على الكفر والضلال فقال سبحانه ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك، إن ينتهوا عن الكفر ويؤمنوا بالله ويتركوا قتالك وقتال المؤمنين، يغفر لهم ما قد سلف من الذنوب والآثام ﴿وإن يَعودُوا فَقَدْ مَضَتْ

(١) «الطبري» ١٣/ ٥٢٤.

(٢) (ش): قَوْمٌ قُلٌّ: مُنْهَضُونَ، والجمع قُلُولٌ وَأَفْلَالٌ. فلول الجيش: الجماعات المتفرقة من الجنود المنهزمين.

(٣) (ش): وَتَر الشَّخْصَ: أَدْرَكَه بِمَكْرِهِ. قَتَلَ حَمِيمَهُ، أي قريبه الذي يهتم لأمره، أو صديقه الذي يُكِنُّ لك حباً شديداً.

(٤) نفس المرجع ١٣/ ٥٣٢. (ش): ضَعِيفٌ. أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره»، و«الطبري» في «جامع البيان».

سُنْتُ الْأَوَّلِينَ ﴿١﴾ أي وإن عادوا إلى قتالك وتكذيبك فقد مضت سنتي في تدمير وإهلاك المكذبين لأنبيائي، فكَذَلِكَ نَفْعَلُ بِهِمْ، وهذا وعيد شديد لهم بالدمار إن لم يقلعوا عن المكابرة والعناد ﴿وَقَدْ نُلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي قاتلوا يا معشر المؤمنين أعداءكم المشركين حتى لا يكون شرك ولا يعبد إلا الله وحده، قال ابن عباس: الفتنة: الشرك، أي حتى لا يبقى مشرك على وجه الأرض وقال ابن جريج: حتى لا يفتن مؤمن عن دينه ^(١) ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَكُمْ إِيمَانًا ظَاهِرًا﴾ أي أي تضمحل الأديان الباطلة ولا يبقى إلا دين الإسلام قال الألوسي: واضمحلالها إما بهلاك أهلها جميعاً، أو برجوعهم عنها خشية القتل ^(٢)، لقوله عليه السلام «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ^(٣)، ﴿فَإِنْ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي فإن انتهوا عن الكفر وأسلموا فإن الله مطلع على قلوبهم، يشيهم على توبتهم وإسلامهم ﴿وَأَنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَا﴾ أي وإن لم ينتهوا عن كفرهم وأعرضوا عن الإيمان فاعلموا يا معشر المؤمنين أن الله ناصركم ومعينكم عليهم، فثقوا بنصرته وولايته ولا تبالوا بمعاداتهم لكم ﴿نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾ أي نعم الله أن يكون مولاكم فإنه لا يضيع من تولاه، ونعم النصير لكم فإنه لا يغلب من نصره الله.

البلاغة: ١ - ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ الكلام من باب الاستعارة التمثيلية، شبه تمكنه تعالى من قلوب العباد وتصريفها كما يشاء، بمن يحول بين الشيء والشيء، وهي استعارة لطيفة.

٢ - ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ﴾ صيغة المضارع لاستحضار الصورة العجيبة من تأمر المشركين على صاحب الرسالة عليه السلام.

٣ - ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ إضافة المكر إليه تعالى على طريق «المشاكلة» بمعنى إحباط ما دبروا من كيد ومكر، والمشاكلة أن يتفق اللفظ ويختلف المعنى وقد تقدم ^(٤).

(١) «الطبري» ١٣/٥٣٨.

(٢) «روح المعاني» ٩/٢٠٧.

(٣) (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٤) انظر توضيح ذلك عند قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ من سورة البقرة.

(ش): صفات الله تعالى كلها صفات كمال، دالة على أحسن المعاني وأكملها، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]. ومعنى المثل الأعلى أي الوصف الأكمل. والصفات ثلاثة أنواع:

الأول: صفات كمال، لا نقص فيه بوجه من الوجوه. فهذه يوصف الله تعالى بها وصفاً مطلقاً ولا يقيد بشيء، مثال ذلك: العلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والرحمة... إلخ.

الثاني: صفات نقص، لا كمال فيها، فهذه لا يوصف الله تعالى بها أبداً، كالنوم، والعجز، والظلم، والخيانة... إلخ.

الثالث: صفات يمكن أن تكون كمالاً، ويمكن أن تكون نقصاً، على حسب الحال التي تُذكر فيها.

٤ - ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ تأمل التعبير الرائع في أسلوب القرآن حيث وضعوا المكاء والتصديّة «التصفير والتصفيق» موضع الصلاة التي ينبغي أن تؤدى عند البيت فكانوا كالأنعام التي لا تفقه معنى العبادة، ولا تعرف حرمة بيوت الله، وهو على حدّ قول القائل: «تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ»^(١).

٥ - ﴿الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ كناية عن المؤمن والكافر وبين لفظ «الخبيث» و «الطيب» طباق وهو من المحسنات البديعية.

تنبيه: روى الحافظ ابن كثير عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال: «كنت أصلي فمر بي النبي ﷺ فدعاني فلم آته حتى صليت، ثم أتيت فقال: ما منعك أن تأتيني؟ ألم يقل الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؟ ثم قال: لأعلمنك أعظم صورة في القرآن قبل أن أخرج، فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له ذلك فقال ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»^(٢).

لطيفة: حكى عن معاوية رضي الله عنه أنه قال لرجل من سبأ: ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة! فقال الرجل: أجهل من قومي قومك حين قالوا لرسول الله ﷺ حين دعاهم

= فهذه لا يوصف الله تعالى بها على سبيل الإطلاق، ولا تنفى عن الله تعالى على سبيل الإطلاق، بل يجب التفصيل، ففي الحال التي تكون كمالاً يوصف الله تعالى بها، وفي الحال التي تكون نقصاً لا يوصف الله تعالى بها. ومثال هذا: المكر، والخديعة، والاستهزاء، فالمكر والخديعة والاستهزاء بالعدو صفة كمال، لأن ذلك يدل على كمال العلم والقدرة والسلطان. ونحو ذلك. أما المكر بالمؤمنين الصادقين فهو صفة نقص. ولذلك لم يرد وصف الله تعالى بهذه الصفات على سبيل الإطلاق، وإنما ورد مقيداً بما يجعله كمالاً. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]. فهذا خداع بالمنافقين. وقال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. وهذا مكر بأعداء الله الذين كانوا يَمْكُرُونَ برسول الله ﷺ. وقال عن المنافقين: ﴿وَإِذْ لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَأَمْنَا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَٰطِئِثِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ﴾ [البقرة: ١٤-١٥]. وهذا استهزاء بالمنافقين. فهذه الصفات تعتبر كمالاً في هذا السياق الذي وردت فيه. ولهذا يقال: الله تعالى يستهزئ بالمنافقين، ويخادعهم، ويمكر بأعدائه. . . ونحو ذلك. ولا يجوز أن يوصف الله تعالى بالمكر والخداع وصفاً مطلقاً. لأنه حينئذ لا يكون كمالاً.

فالله سبحانه وتعالى ينسب إلى نفسه أحسن هذه المعاني وما هو منها حكمة وصواب وجزاء للمسيء وذلك غاية العدل والحق كقوله: ﴿لَهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾^(١٥) وَكَيْدًا كَيْدًا. وقوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾. وقوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾. وقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾. وقوله: ﴿وَأَمَلِ لَهُمْ إِنِّي كَيْدِي مِتُّ﴾، فهذا منه سبحانه في أعلى مراتب الحُسن وإن كان من العبد قبيحاً سيئاً لأنه ظالم فيه وموقعه بمن لا يستحقه، والرب تعالى عادل فيه وموقعه بأهله ومن يستحقه.

(١) (ش): أي: القائل مقام التَّحِيَّةِ هُوَ الضَّرْبُ الْوَجِيعُ.

(٢) مختصر ابن كثير ٩٥/٢. (ش): رواه البخاري

إِلَى الْحَقِّ ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَاهُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ولم يقولوا: إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَهْدِنَا إِلَيْهِ، فَسَكَتَ مُعَاوِيَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١).

تنبيه: البلاذري لا يُعتمد عليه فيما ينقله عن الصحابة رضي الله عنهم من أحداث الفتنة؛ فقد ورد في ترجمته ما يدل على أن في عدالته نظرًا.

قال الله تعالى:

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَفَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدِّينِ وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَادَكُمُ كَثِيرًا لَفُتِنْتُمْ وَلِنَنْزَعْنَكُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَأْتِيهَا الذِّبْ ءَامِنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاسَةً النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفُتَاتِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَذَابُ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَذَابُ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَاذِبٍ ظَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَنْقُوتُ ﴿٥٦﴾ فَمَا تَتْفَفُنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِنَّمَا تَخَافُ

(١) (ش): هذه القصة لا تثبت، رواها الواحدي في «التفسير الوسيط»، البلاذري في «أنساب الأشراف» بسند ضعيف.

مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَالْيَدِ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

المناسبة: لما أمر تعالى بقتال المشركين، وذكر فيما تقدم طرفاً من غزوة بدر، وكان لا بد بعد القتال من أن يغنم المجاهدون الغنائم - وهي أموال المشركين - على طريق القهر والظفر، ذكر سبحانه هنا حكم الغنائم وكيفية قسمتها - ثم سرد بقية الأحداث الهامة في تلك الغزوة المجيدة «غزوة بدر» .

اللغة: ﴿بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا﴾ عدوة الوادي: جانبه وشفيره، والدنيا تأنيث الأدنى أي الأقرب والمراد ما يلي جانب المدينة ﴿بِالْعُدُوِّ الْقُصُوصِ الْقُصُوصِ﴾ تأنيث الأقصى أي الأبعد، وكل شيء تنحى عن شيء فقد قصا والمراد ما يلي جانب مكة ﴿نَكَصَ﴾ النكوص: الإحجام عن الشيء ﴿كَذَابٌ﴾ الدأب: العادة، وأصله في اللغة إدامة العمل يقال: فلان يدأب في كذا أي يدوم عليه ويواظب ثم سميت العادة دأباً لأن الإنسان مداوم على عادته ﴿تُثَقِّفَهُمْ﴾ قال الليث: يقال ثقفنا فلاناً في موضع كذا أي أخذناه وظفرنا به^(١) ﴿فَشَرَّدَ﴾ التشريد: التفريق والتبديد يقال: شردت القوم إذا قاتلتهم وطردهم عنها حتى فارقوها.

التفسير: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنْمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي اعلموا أيها المؤمنون أنما غنمتموه من أموال المشركين في الحرب سواء كان قليلاً أو كثيراً ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ قال الحسن: هذا مفتاح كلام، الدنيا والآخرة لله^(٢) أي أن ذكر اسم الله على جهة التبرك والتعظيم كقوله ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: ٦٢] قال المفسرون: تقسم الغنيمة خمسة أقسام، فيعطى الخمس لمن ذكر الله تعالى في هذه الآية، والباقي يوزع على الغانمين ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ أي سهم من الخمس يعطى للرَسُولِ ﷺ ﴿وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ أي قرابة الرسول ﷺ وهم بنو هاشم وبنو المطلب ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ أي ولهؤلاء الأصناف من اليتامى الذين مات آباؤهم، والفقراء من ذوي الحاجة، والمنقطع في سفره من المسلمين ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ جواب الشرط محذوف تقديره: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن هذا هو حكم الله في الغنائم فامثلوا أمره بطاعته ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ وبما أنزلنا على محمد ﷺ ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ أي يوم بدر لأن الله فرق به بين الحق والباطل ﴿يَوْمَ انْفَقَى الْجَمْعَانِ﴾ أي جمع المؤمنين وجمع الكافرين، والتقى فيه جند الرحمن بجند الشيطان ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي قادر لا يعجزه شيء، ومنه

(١) «الرازي» ١٨٩/١٥ .

(٢) «القرطبي» ١٠/٨ .

نَصْرُكُمْ مَعَ قَلَّتْكُمْ وَكَثُرَتْهُمْ ﴿١﴾ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا ﴿٢﴾ هَذَا تَصْوِيرٌ لِلْمَعْرَكَةِ أَيْ وَقْتُ كُنْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِجَانِبِ الْوَادِي الْقَرِيبِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴿٣﴾ وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصُوصِ ﴿٤﴾ أَيْ وَأَعْدَاؤُكُمْ الْمَشْرُكُونَ بِجَانِبِ الْوَادِي الْأَبْعَدِ عَنِ الْمَدِينَةِ ﴿٥﴾ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴿٦﴾ أَيْ وَالْعِيرُ الَّتِي فِيهَا تِجَارَةٌ قَرِيشٌ فِي مَكَانٍ أَسْفَلَ مِنْ مَكَانِكُمْ فِيمَا يَلِي سَاحِلَ «الْبَحْرِ» ﴿٧﴾ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ﴿٨﴾ أَيْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ أَنْتُمْ وَالْمَشْرُكُونَ عَلَى الْقِتَالِ لَاخْتَلَفْتُمْ لَهُ وَلَكِنْ اللَّهُ بِحُكْمِهِ يُسِرُّ وَتَمَّ ذَلِكَ قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ يَرِيدُونَ عِيرَ قَرِيشٍ حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ (١) قَالَ «الرَّازِي»: الْمَعْنَى لَوْ تَوَاعَدْتُمْ أَنْتُمْ وَأَهْلُ مَكَّةَ عَلَى الْقِتَالِ لَخَالَفَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا لَقَلَّتْكُمْ وَكَثُرَتْهُمْ (٢)، ﴿وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أَيْ وَلَكِنْ جَمَعَ بَيْنَكُمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ لِيَقْضِيَ اللَّهُ مَا أَرَادَ بِقُدْرَتِهِ، مِنْ إِعْزَازِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَإِذْلالِ الشُّرْكِ وَأَهْلِهِ، فَكَانَ أَمْرًا مُتَحَقِّقًا وَاقِعًا لَا مُحَالَةً قَالَ «أَبُو السَّعُودِ»: وَالْغُرْضُ مِنَ الْآيَةِ أَنْ يَتَحَقَّقُوا أَنَّ مَا اتَّفَقَ لَهُمْ مِنَ الْفَتْحِ، لَيْسَ إِلَّا صَنْعًا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ خَارِقًا لِلْعَادَاتِ، فَيَزِدَادُوا إِيمَانًا وَشُكْرًا، وَتَطْمَئِنُّ نَفُوسُهُمْ بِفَرْضِ الْخَمْسِ (٣) ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أَيْ فَعَلَ ذَلِكَ تَعَالَى لِيَكْفَرَ مَنْ كَفَرَ عَنْ وَضُوحٍ وَبَيَانٍ (٤) ﴿وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أَيْ وَيُؤْمِنُ مَنْ آمَنَ عَنْ وَضُوحٍ وَبَيَانٍ، فَإِنْ وَقَعَتْ بَدْرٌ مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ عَلَى نَصْرِ اللَّهِ لِأَوْلِيَائِهِ وَخِذْلَانِهِ لِأَعْدَائِهِ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أَيْ سَمِيعٌ لِأَقْوَالِ الْعِبَادِ عَلِيمٌ بِنِيَّاتِهِمْ ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ أَيْ أَذْكَرُ يَا مُحَمَّدُ حِينَ أَرَاكَ اللَّهُ فِي الْمَنَامِ أَعْدَاءَكَ قَلَةً، فَأَخْبَرَتْ بِهَا أَصْحَابُكَ حَتَّى قَوَّيْتَ نَفُوسَهُمْ وَتَشَجَّعُوا عَلَى حَرْبِهِمْ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَرَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُمْ فِي مَنَامِهِ قَلِيلًا، فَأَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ فَكَانَ تَثْبِيغًا لَهُمْ ﴿وَلَوْ أَرَدْنَاكُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْنَاكُمْ﴾ أَيْ وَلَوْ أَرَادَ رَبُّكَ عَدُوَّكَ كَثِيرًا لَجَبَنَ أَصْحَابُكَ وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى حَرْبِ الْقَوْمِ، وَانْظُرْ إِلَى مُحَاسِنِ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ لَمْ يَسْنِدِ الْفَشْلَ إِلَيْهِ ﷺ لِأَنَّهُ مَعْصُومٌ بَلْ قَالَ ﴿لَفَشَلْنَاكُمْ﴾ إِشَارَةً إِلَى أَصْحَابِهِ ﴿وَلَنَنْزَعَنَّ فِي الْأَمْرِ﴾ أَيْ وَلَاخْتَلَفْتُمْ يَا مَعْشَرَ الصَّحَابَةِ فِي أَمْرِ قِتَالِهِمْ ﴿وَلَاكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أَيْ وَلَكِنْ اللَّهُ أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِالسَّلَامَةِ مِنَ الْفَشْلِ وَالتَّنَازُعِ ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أَيْ عَلِيمٌ بِمَا فِي الْقُلُوبِ يَعْلَمُ مَا يَغْيِرُ أَحْوَالَهَا مِنَ الشَّجَاعَةِ وَالْجَبَنِ، وَالصَّبْرِ وَالْجَزَعِ ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقَيْتُمْ فِيَ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيَ أَعْيُنِهِمْ﴾ هَذِهِ الرُّؤْيَا بِالْقِظَةِ لَا بِالْمَنَامِ أَيْ وَاذْكُرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ حِينَ

(١) «الطبري» ١٣/ ٥٦٦.

(٢) تفسير «الرازي» ١٥/ ١٦٧.

(٣) «أبو السَّعُودِ» ٢/ ٢٤٠.

(٤) ذهب «الطبري» إلى أن المعنى ليموت من مات من خلقه عن حجة لله قد أثبتت له وقطعت عذره، وليعش من عاش منهم عن حجة لله قد أثبتت له وظهرت لعينه فعلمها وما ذهبنا إليه هو اختيار الجلالين وهو أوضح ويؤيده: «لينذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين».

التقيتم في المعركة فقلل الله عدوكم في أعينكم لتزداد جرأتكم عليهم، وقللكم في أعينهم حتى لا يستعدوا ويتأهبوا لكم قال أبو مسعود: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل: أتراهم يكونون مائة^(١)؟ وهذا قبل التحام الحرب فلما التحم القتال كثر الله المؤمنين في أعين الكفار فبهتوا وهابوا، وفُلت شوكتهم^(٢)، ورأوا ما لم يكن في الحسبان، وهذا من عظام آيات الله في تلك الغزوة ﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي فعل ذلك فجراً المؤمنين على الكافرين، والكافرين على المؤمنين، لتقع الحرب ويلتحم القتال، وينصر الله جنده ويهزم الباطل وحزبه، وتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى ﴿وَالِلَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي مصير الأمور كلها إلى الله يصرفها كيف يريد، لا معقب لحكمه وهو الحكيم المجيد، ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ هذا إرشاد إلى سبيل النصر في مبارزة الأعداء أي إذا لقيتم جماعة من الكفرة فاثبتوا لقتالهم ولا تنهزموا ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي أكثروا من ذكر الله بألستكم لتستمتطروا نصره وعونه وتفوزوا بالظفر عليهم ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي في جميع أقوالكم وأفعالكم ولا تخالفوا أمرهما في شيء ﴿وَلَا تَنَزَعُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي ولا تختلفوا فيما بينكم فتضعفوا وتجنبوا عن لقاء عدوكم ﴿وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي تذهب قوتكم وبأسكم، ويدخلكم الوهن والخور ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أي واصبروا على شدائد الحرب وأهوالها، فإن الله مع الصابرين بالنصر والعون ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ أي لا تكونوا ككفار قريش حين خرجوا لبدر عتواً وتكبراً، وطلباً للفخر والثناء، والآية إشارة إلى قول أبي جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، فنشرب فيها الخمر وننحر الجزور، وتعزف علينا القيان - المغنيات - وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبداً^(٣)، قال «الطبري»: فَسَقُوا مَكَانَ الْخَمْرِ كُؤُوسَ الْمَنِيَا^(٤)، وناحت عليهم النوائح مكان القيان ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي ويمنعون الناس عن الدخول في الإسلام ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي وهو سبحانه عالم بجميع ذلك وسيجازيهم عليه ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ أي واذكر وقت أن حسن لهم الشيطان أعمالهم القبيحة من الشرك وعبادة الأصنام، وخرجهم لحرب الرسول عليه السلام ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي لن يغلبكم محمد وأصحابه ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ أي مجير ومعين لكم ﴿فَلَمَّا تَرَأَتْهُ الْفِتَانُ

(١) «الطبري» ١٣/ ٥٧٣.

(٢) (ش): فَلَّ السَّيْفُ وَنَحْوَهُ: تَلَمَّ حَدُّهُ؛ صَارَ ضَعِيفَ الْقَطْعِ. فَلَّ السَّيْفُ: كَسَرَهُ فِي حَدِّهِ.

(٣) ذكر «الطبري» في روايته عن ابن عباس أن أبا سفيان لما نجا بالغير أرسل إلى قريش يقول: ارجعوا فقد سلمت غيركم ونجت تجارتكم فقال أبو جهل اللعين ما قال. (ش): ذكره ابن اسحق في «السيرة» بدون إسناد.

(٤) «الطبري» ١٣/ ٥٧٨.

نَكْصَ عَلَى عَقَبَيْهِ ﴿١﴾ أي فلما تلاقى الفريقان ولى الشيطان هارباً مولياً الأدبار ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ﴾ أي بريء من عهد جواركم، وهذا مبالغة في الخذلان لهم ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ أي أرى الملائكة نازلين لنصرة المؤمنين وأنتم لا ترون ذلك وفي الحديث «ما رؤي الشيطان يوماً هو فيه أصغر، ولا أدر، ولا أحقر، ولا أغيط منه في يوم عرفة، إلا ما رأى يوم بدر، فإنه رأى جبريل يزغ الملائكة»^(١) أي يصفها للحرب ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي إني أخاف الله أن يعذبني لشدة عقابه قال ابن عباس: جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رأيته في صورة «سراقه بن مالك» فقال الشيطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم، فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضه من التراب فرمى بها وجوه المشركين، فولوا مدبرين، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس، فلما رآه - وكانت يده في يد رجل من المشركين - انتزع يده ثم ولى مدبراً وشيعته، فقال الرجل: يا سراقه أتزعم أنك لنا جار؟ فقال: إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله، وكذب عدو الله فإنه علم أنه لا قوة له ولا منعة وذلك حين رأى الملائكة^(٢)، ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي حين قال أهل النفاق الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر لضعف اعتقادهم بالله ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ أي اغتر المسلمون بدِينهم فأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به قال تعالى في جوابهم ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي ومن يعتمد على الله ويثق به فإن الله ناصره لأن الله عزيز أي غالب لا يذل من استجار به، حكيم في أفعاله وصنعه ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ أي لو رأيت وشاهدت أيها المخاطب أو أيها السامع حالتهم ببدر حين تقبض ملائكة العذاب أرواح الكفرة المجرمين، وجواب (لَوْ) محذوف للتهويل أي لرأيت أمراً فظيماً وشأناً هائلاً قال أبو حيان: وحذف جواب (لَوْ) جائز بليغ حذفه في مثل هذا لأنه يدل على التهويل والتعظيم^(٣) أي لرأيت أمراً فظيماً لا يكاد يوصف ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ أي تضربهم الملائكة من أمامهم وخلفهم، على وجوههم وظهورهم بمقامع من حديد ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي ويقولون لهم: ذوقوا يا معشر الفجرة عذاب النار المحرق، وهذا بشارة لهم بعذاب الآخرة وقيل: كانت معهم أسواط من نار يضربونهم بها فتشتعل جراحاتهم ناراً^(٤) ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ﴾ أي ذلك العذاب بسبب ما كسبتم من الكفر والآثام ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي وأنه تعالى عادل ليس بذي ظلم لأحد من العباد حتى يعذبه

(١) رواه مالك في الموطأ. (ش): ضعفه الألباني.

(٢) مختصر ابن كثير ١١١/٢. (ش): ضعيف. رواه الطبراني، و«الطبري» في «جامع البيان».

(٣) «البحر» ٥٠٦/٤.

(٤) «البيضاوي» ص ٢١٥.

بغير ذنب، وصيغة ﴿بِظُلْمٍ﴾ ليست للمبالغة وإنما هي للنسب أي ليس منسوباً إلى الظلم فقد انتفى أصل الظلم عنه تعالى فتدبره ﴿كَدَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي دأب هؤلاء الكفرة في الإجرام يعني عملهم وطريقهم الذي دأبوا فيه كعمل وطريق آل فرعون ومن تقدمهم من الأمم كقوم نوح وعاد وثمود في العناد والتكذيب والكفر والإجرام ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي جحدوا ما جاءهم به الرسل من عند الله ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي أهلكهم بكفرهم وتكذيبهم ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي قوي البطش شديد العذاب، لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ﴾ أي ذلك الذي حل بهم ن العذاب بسبب أن الله عادل في حكمه لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه، وأنه لا يبدل النعمة بالنقمة ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ أي حتى يبدلوا نعمة الله بالكفر والعصيان، كتبديل كفار قريش نعمة الله من الخصب والسعة والأمن والعافية، بالكفر والصد عن سبيل الله وقتال المؤمنين قال السدي: نعمة الله على قريش محمد ﷺ فكفروا به وكذبوه، فنقله الله إلى المدينة وحل بالمشركين العقاب ^(١) ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي وأنه سبحانه سميع لما يقولون عليهم بما يفعلون ﴿كَدَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ كرره لزيادة التشنيع والتوبيخ على إجرامهم أي شأن هؤلاء وحالهم كشأن وحال المكذبين السابقين حيث غيروا حالهم فغير الله نعمته عليهم ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي أهلكناهم بسبب ذنوبهم بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالخسف وبعضهم بالحجارة، وبعضهم بالغرق ولهذا قال ﴿وَأَغْرَقْنَاهُ آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أي أغرقنا فرعون وقومه معه ﴿وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أي وكل من الفرق المكذبة كانوا ظالمين لأنفسهم بالكفر والمعاصي حيث عرَّضوها للعذاب ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي شر من يدب على وجه الأرض في علم الله وحكمه ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي الذين أصروا على الكفر ورسخوا فيه فهم لا يتوقع منهم إيمان لذلك قال ابن عباس: نزلت في بني قريظة من اليهود، منهم كعب بن الأشرف وأصحابه عاهدتهم رسول الله ﷺ ألا يحاربوه فنقضوا العهد ^(٢)، ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ﴾ أي الذين عاهدتهم يا محمد على ألا يعينوا المشركين ﴿ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ أي يستمرون على النقض مرة بعد مرة ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ أي لا يتقون الله في نقض العهد قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ قد عاهد يهود بني قريظة ألا يحاربوه ولا يعاونوا عليه المشركين، فنقضوا العهد وأعانوا عليه كفار مكة بالسلاح يوم بدر،

(١) «القرطبي» ٢٩/٨.

(٢) «زاد المسير» ٣/٣٧١. (ش): ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» في علم التفسير» بسند ضعيف. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَقُولُونَ﴾ قَالَ هُمْ نَفَرٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ رَوَاهُ البخاري.

ثم قالوا: نسينا وأخطأنا فعاهدهم مرة أخرى فنقضوا العهد ومالئوا الكفار يوم الخندق ^(١) ﴿فَإِمَّا تَثَقَفَنَّاهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ أي فإن تظفر بهم في الحرب ﴿فَشَرِّدْ بِهِمْ مِّنْ خَلْفُهُمْ﴾ أي فاقتلهم ونكل بهم تنكيلاً شديداً يشرّد غيرهم من الكفرة المجرمين ^(٢) ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي لعلهم يتعظون بما شاهدوا فيرتدعوا والمعنى: اجعلهم عبرة لغيرهم حتى لا يبقى لهم قوة على محاربتك ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّكَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ﴾ أي وإن أحسست يا محمد من قوم معاهدين خيانة للعهد ونكثاً بأمارات ظاهرة ﴿فَأَنذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي اطرّح إليهم عهدهم على بينة ووضوح من الأمر قال النحاس: هذا من معجز ما جاء في القرآن مما لا يوجد في الكلام مثله على اختصاره وكثرة معانيه والمعنى: وإما تخافن من قوم - بينك وبينهم عهد - خيانة فانبذ إليهم العهد أي قل لهم قد نبذت إليكم عهدكم وأنا مقاتلكم، ليعلموا ذلك فيكونوا معك في العلم سواء، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد وهم يثقون بك فيكون ذلك خيانة وغدراً ^(٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ وهذا كالتعليل للأمر بنبذ العهد أي لا يحب من ليس عنده وفاء ولا عهد ﴿وَلَا يُحْسِنُ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبْقُوا﴾ أي لا يظن هؤلاء الكفار الذين أفلتوا يوم بدر من القتل أنهم فاتونا فلا نقدر عليهم، بل هم في قبضتنا وتحت مشيتنا وقهرنا ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ كلام مستأنف أي إنهم لا يعجزون ربهم، بل هو قادر على الانتقام منهم في كل لحظة، لا يعجزه أحد في الأرض ولا في السماء ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ أي أعدوا القتال أعدائكم جميع أنواع القوة: المادية، والمعنوية قال الشهاب: وإنما ذكر القوة هنا لأنه لم يكن لهم في بدر استعداد تام، فنبهوا على أن النصر من غير استعداد لا يتأتى في كل زمان ^(٤) ﴿وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ أي الخيل التي تربط في سبيل الله ﴿تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أي تخيفون بتلك القوة الكفار أعداء الله وأعداءكم ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ أي وترهبون به آخرين غيرهم قال ابن زيد: هم المنافقون وقال مجاهد: هم اليهود من بني قريظة والأول أصح لقوله ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ أي لا تعلمون ما هم عليه من النفاق ولكن الله يعلمهم ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي وما تنفقوا في الجهاد وفي سائر وجوه الخيرات ﴿يُوفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي تعطون جزاءه وافياً كاملاً يوم القيامة ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾ أي لا تنقصون من ذلك الأجر شيئاً.

البلاغة: ١ - ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ التنكير للتقليل.

٢ - ﴿عَلَى عَبْدِنَا﴾ ذكره عليه السلام بلفظ العبودية وإضافته إلى الله للتشريف والتكريم.

(١) الفخر «الرازي» ١٥/ ١٦٢.

(٢) (ش): نكل به تنكيلاً إذا جعله نكالاً وعبرة لغيره. ويُقال: نكلت فلان إذا عاقبته في جرم أجرمه عقوبة تُنكل غيره عن ارتكاب مثله. أي تجعله إذا رآه خاف أن يعمل عمله.

(٣) تفسير «القرطبي» ٨/ ٣٢.

(٤) «محاسن التأويل» ٨/ ٣٠٢٤.

- ٣ - ﴿بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا﴾ بين لفظ «الدنيا» و «القصوى» طباق.
- ٤ - ﴿لِيَهْلِكَ﴾ ﴿وَيَحْيَى﴾ استعار الهلاك والحياة للكفر والإيمان، وبين «يهلك» و «يحيا» طباق.

٥ - ﴿وَنَذْهَبَ رِجْزُكُمْ﴾ أي تذهب قوتكم وشوكتكم وهو من باب الاستعارة أيضاً.

تنبيه: يأمرنا الله تعالى بإعداد القوة لقتال الأعداء، وقد جاء التعبير عاماً ﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾ يشمل القوة المادية، والقوة الروحية، وجميع أسباب القوة، وكيف لا يطعم العدو بالممالك الإسلامية وهو لا يرى عندنا معامل للأسلحة، وذخائر للحرب، بل كلها مما يشتريه المسلمون من بلاد العدو؟ فلا بد لنا من العودة إلى تعاليم الإسلام إذا ما أردنا حياة العزة والكرامة.

قال الله تعالى:

وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَتَاكَ نَبْرُهُ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾ وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بِئِنَّ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٣﴾ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدِرُونَ يَغْلِبُوا بِأَتْنَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٤﴾ الْكُفْرَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا بِأَتْنَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥﴾ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَتَخِذَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٦﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٨﴾ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبُ لَمَنِ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهِاجِرُوا مَا لَكُم مِّنَ وَلِيَّتِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ حَتَّى يَهِاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٤﴾

المناسبة: لما أمر الله تعالى بإعداد العدة لإرهاب الأعداء، أمر هنا بالسلم بشرط العزة والكرامة متى وجد السبيل إليه، لأن الحرب ضرورة اقتضتها ظروف الحياة لرد العدوان،

وحرية الأديان، وتطهير الأرض من الظلم والطغيان^(١)، ثم تناولت الآيات الكريمة حكم الأسرى، وختمت السورة بوجوب مناصرة المؤمنين بعضهم لبعض، بسبب الولاية الكاملة وأخوة الإيمان.

اللغة: ﴿فَاجْنَحْ﴾ مال يقال: جنح الرجل إلى فلان إذا مال إليه وخضع له، وجنحت الإبل: إذا مالت أعناقها في السير، ومنه قيل للأضلاع جوانح ﴿للسَّلَامِ﴾ المسالمة والصلح قال الزمخشري: وهي تؤنث تأنيث ضدها وهي الحرب قال الشاعر:

السَّلَامُ تَأْخُذُ مِنْهَا مَا رَضِيتَ بِهِ وَالْحَرْبُ يَكْفِيكَ مِنْ أَنْفَاسِهَا جُرْعُ^(٢)

﴿حَرِضٌ﴾ التحريض: الحث على الشيء وتحريك الهمة نحوه كالتحريض ﴿يُخْزِئُ﴾ قال الواحدي: الإثخان في كل شيء عبارة عن قوته وشدته، يقال: قد أثخنه المرض إذا اشتدت قوته عليه، وأثخنه الجراح، والثخانة: والغلظة، والمراد بالإثخان هنا المبالغة في القتل والجراحات^(٣).

سَبَبُ النَّزُول: أ - عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما هزم الله المشركين يوم بدر، وقتل منهم سبعون وأسر منهم سبعون، استشار النبي ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً فقال أبو بكر: يا نبي الله هؤلاء بنو العم والعشيرة، وإنني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً، فقال رسول الله: «مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ!» قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكيني من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هودة على المشركين، هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت فأخذ منهم الفداء، فلما كان من الغد غدوت إلى رسول الله ﷺ فإذا هو قاعد وأبو بكر الصديق وهما يبكيان، فقلت يا رسول الله: أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت، فقال ﷺ: «أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَذْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ» لشجرة قريبة فأنزل الله ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُخْزِئَ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية^(٤).

(١) (ش): لقد شُرع الجهاد في الإسلام لِنَشْرِ عَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ فِي الْأَرْضِ وظهور دين الإسلام على سائر الأديان، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾، وغيرها من الآيات التي تبين الحكمة التي من أجلها شرع الجهاد في سبيل الله لا من أجل ظروف الحياة ولا من أجل حرية الأديان.

(٢) «الكشاف» ٢/ ٢٣٣. (ش): معنى البيت أن الصلح تأخذ منها ما يكفيك من طول المدة، وأما الحرب فيكفيك منها القليل.

(٣) الفخر «الرازي» ١٥ / ٢٠١.

(٤) «زاد المسير» ٣ / ٣٨٠ والرواية لمسلم.

ب - لما وقع العباس عم النبي ﷺ في الأسر كان معه عشرون أوقية من ذهب، فلم تحسب له من فدائه، وكلف أن يفدي ابني أخيه فأدى عنهما ثمانين أوقية من ذهب، وقال النبي ﷺ «أضعفوا على العباس الفداء» فأخذوا منه ثمانين أوقية فقال العباس لرسول الله ﷺ: لقد تركتني أتكف قريشاً ما بقيت، فقال له ﷺ: وأين الذهب الذي تركته عند أم الفضل؟ فقال: أي الذهب؟ فقال: إنك قلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا! فإن حدث بي حدث فهو لك ولولدك، فقال يا ابن أخي: من أخبرك بهذا؟ قال: الله أخبرني فقال العباس: أشهد أنك صادق، وما علمت أنك رسول الله قبل اليوم، وأمر ابني أخيه فأسلما ففیهما نزلت ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ قُلُوبَ لِمَنِ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرِ﴾ الآية (١).

التفسير: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ أي إن مالوا إلى الصلح والمهادنة فمل إليه وأجبههم إلى ما طلبوا إن كان فيه مصلحة ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي فوض الأمر إلى الله ليكون عوناً لك على السلامة ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي هو سبحانه السميع لأقوالهم العليم بنياتهم ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ أي وإن أرادوا بالصلح خداعك ليستعدوا لك ﴿فَاتَّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ أي فإن الله يكفيك وهو حسبك، ثم ذكره بنعمته عليه فقال ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِصَبْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ أي قواك وأعانك بنصره وشد أزرك بالمؤمنين قال ابن عباس: يعني الأنصار ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي جمع بين قلوبهم على ما كان بينهم من العداوة والبغضاء، فأبدلهم بالعداوة حبا، وبالتباعد قرباً قال «القرطبي»: وكان تأليف القلوب مع العصبيّة الشديدة في العرب من آيات النبي ﷺ ومعجزاته، لأن أحدهم كان يلطم اللطمة فيقاتل عليها، وكانوا أشد خلق الله حمية، فألف الله بينهم بالإيمان، حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين (٢) ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي لو أنفقت في إصلاح ذات بينهم ما في الأرض من الأموال

(١) «القرطبي» ٤٢/٨.

(ش): قَالَ الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ مُسْلِمًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِسْلَامِكَ، فَإِنْ يَكُنْ كَمَا تَقُولُ فَاللَّهُ يَجْزِيكَ، فَأَدِ نَفْسَكَ وَابْنِي أَخَوَيْكَ: تَوَقَّلْ بِنَ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَعُقَيْلُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَخَلِيفَتُكَ عَتَبَةُ بْنُ عَمْرِو بْنِ جَحْدَمَ أَخَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ فِهْرٍ» فَقَالَ: مَا ذَلِكَ عِنْدِي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «فَأَيْنَ الْمَالُ الَّذِي دَفَنْتَ أَنْتَ وَأُمُّ الْفَضْلِ فَقُلْتَ لَهَا: إِنْ أَصَبْتُ فَهَذَا الْمَالُ لِبَنِي الْفَضْلِ، وَعَبْدُ اللَّهِ وَقُتْمٌ؟» فَقَالَ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا لِشَيْءٍ مَا عَلِمَهُ أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرَ أُمِّ الْفَضْلِ، فَاحْسِبْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَصَبْتُمْنِي عَشْرِينَ أَوْقِيَةً مِنْ مَالٍ كَانَ مَعِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «افْعَلْ» فَفَدَى الْعَبَّاسُ نَفْسَهُ وَابْنِي أَخَوَيْهِ وَخَلِيفَتَهُ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنِ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرِ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠] فَأَعْطَانِي مَكَانَ الْعَشْرِينَ الْأَوْقِيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ عَشْرِينَ عَبْدًا كُلُّهُمْ فِي يَدِهِ مَالٌ يَضْرِبُ بِهِ مَعَ مَا أَرْجُو مِنْ مَغْفِرَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . رواه الحاكم وقال: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ» ووافقه الذهبي.

(٢) «القرطبي» ٥٣/٨.

ما قدرت على تأليف قلوبهم واجتماعها على محبة بعضها بعضاً ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾ أي ولكنه سبحانه بقدرته البالغة جمع بينهم ووفق، فإنه المالك للقلوب يقلبها كيف يشاء ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي غالب على أمره لا يفعل شيئاً إلا عن حكمة ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي الله وحده كافيك، وكافي أتباعك، فلا تحتاجون معه إلى أحد وقال الحسن البصري: المعنى حسبك أي كافيك الله والمؤمنون^(١)، ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرِصٌ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ أي حض المؤمنين ورغبهم بكل جهدك على قتال المشركين ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ قال «أبو السعود»: هذا وعد كريم منه تعالى بغلبة كل جماعة من المؤمنين على عشرة أمثالهم^(٢) والمعنى: إن يوجد منكم يا معشر المؤمنين عشرون صابرون على شدائد الحرب يغلبوا مائتين من عدوهم، بعون الله وتأيدته ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي وإن يوجد منكم مائة - بشرط الصبر عند اللقاء - تغلب ألفاً من الكفار بمشيئة الله ﴿وَأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ الباء سببية أي سبب ذلك بأن الكفار قوم جهلة لا يفقهون حكمة الله، ولا يعرفون طريق النصر وسببه، فهم يقاتلون على غير احتساب ولا طلب ثواب، فلذلك يغلبون قال ابن عباس: كان ثبات الواحد للعشرة فرضاً، ثم لما شق ذلك عليهم نُسخ وأصبح ثبات الواحد للاثنتين فرضاً ﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ أي رفع عنكم ما فيه مشقة عليكم ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ أي وعلم ضعفكم فرحمكم في أمر القتال ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ أي إن يوجد منكم مائة صابرة على الشدائد يتغلبوا على مائتين من الكفرة ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾ أي وإن يوجد منكم ألف صابرون في ساحة اللقاء، يتغلبوا على ألفين من الأعداء ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بتيسيره وتسهيله ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ هذا ترغيب في الثبات وتبشير بالنصر أي الله معهم بالحفظ والرعاية والنصرة، ومن كان الله معه فهو الغالب ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُخْرِجَ فِي الْأَرْضِ﴾ عتاب للنبي ﷺ وأصحابه على أخذ الفداء^(٣) والمعنى: لا ينبغي لنبي من الأنبياء أن يأخذ الفداء من الأسرى إلا بعد أن يكسر القتل ويبالغ فيه ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ أي تريدون أيها المؤمنون بأخذ الفداء حطام الدنيا ومتاعها الزائل؟ ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ أي يريد لكم الباقي الدائم، وهو ثواب الآخرة، بإعزاز دينه وقتل أعدائه ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي

(١) القول الأول معناه: حسبك الله وحده وحسب أتباعك وقد اختاره الزمخشري ونصره ابن القيم في مقدمة «زاد المعاد» بأدلة مقنعة، والقول الثاني روى عن مجاهد والحسن البصري واختاره السيوطي والمحلّي في تفسير الجلالين، والأول أرجح.

(٢) تفسير «أبو السعود» ٢/ ٢٤٧.

(٣) انظر سبب النزول.

عزيز في ملكه لا يقهر ولا يُغلب، حكيم في تدبير مصالح العباد ﴿لَوْلَا كُنْتُ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ أي لولا حكم في الأزل من الله سابق وهو ألا يعذب المخطئ في اجتهاده^(١) ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي لأصابكم في أخذ الفداء من الأسرى عذاب عظيم، وروي أنها لما نزلت قال عليه السلام «لو نزل العذاب لما نجا منه غير عمر»^(٢)، ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ أي كلوا يا معشر المجاهدين مما أصبتموه من أعدائكم من الغنائم في الحرب حال كونه حلالاً أي محللاً لكم ﴿طَيِّبًا﴾ أي من أطيب المكاسب لأنه ثمرة جهادكم، وفي الصحيح «وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي»^(٣) ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي خافوا الله في مخالفة أمره ونهيه ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي مبالغ في المغفرة لمن تاب، رحيم بعباده حيث أباح لهم الغنائم ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾ أي قل لهؤلاء الذين وقعوا في الأسر من الأعداء، والمراد بهم أسرى بدر ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ أي إن يعلم الله في قلوبكم إيماناً وإخلاصاً، وصدقاً في دعوى الإيمان ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾ أي يعطكم أفضل مما أخذ منكم من الفداء ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ أي يمحو عنكم ما سلف من الذنوب ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي واسع المغفرة، عظيم الرحمة لمن تاب وأناب قال «البيضاوي»: نزلت في العباس رضي الله عنه حين كلفه رسول الله ﷺ أن يفدي نفسه وابني أخويه «عقيل» و «نوفل» فقال يا محمد: تركتني أتكف قريشاً ما بقيت، فقال: أين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك وقلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في جهتي هذه، فإن حدث بي حدث فهو كل ولعيالك! فقال العباس: ما يدريك؟ قال: أخبرني به ربي تعالى، قال: فأشهد أنك صادق، وأن لا إله إلا الله وأنك رسوله، والله لم يطلع عليه أحد، ولقد دفعته إليها في سواد الليل! قال العباس: فأبدلني الله خيراً من ذلك، وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربي - يعني الموعود - بقوله تعالى ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾^(٤) ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ وإن كان هؤلاء الأسرى يريدون خيانتك يا محمد بما أظهروا من القول ودعوى الإيمان ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي فقد خانوا الله تعالى قبل هذه الغزوة غزوة بدر ﴿فَأَمَّا مَن مِّنْهُمْ﴾ أي فقواك ونصرلك الله عليهم وجعلك تتمكن من رقابهم، فإن عادوا إلى الخيانة فسيمكنك منهم أيضاً ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عالم بجميع ما يجري، يفعل ما تقضي به حكمته البالغة ﴿إِنَّ الدِّينَ أَمْنٌ﴾ أي صدقوا

(١) هذا القول اختاره «الرازي» وضعف بقية الأقوال وهو أحد الأقوال المروية عن ابن عباس. انظر الفخر «الرازي» ٢٠٢/١٥.

(٢) (ش): ضعيف، رواه الطبري في «جامع البيان».

(٣) انظر تفصيل موضوع الفداء في التفسير الكبير للرازي. (ش): حديث: «جُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي» رواه البخاري ومسلم.

(٤) تفسير «البيضاوي» ٢١٧/١.

الله ورسوله ﴿وَهَاجِرُوا﴾ أي تركوا وهجروا الديار والأوطان حباً في الله ورسوله ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي جاهدوا الأعداء بالأموال والأنفس لإعزاز دين الله، وهم المهاجرون ﴿وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا﴾ أي آووا المهاجرين في ديارهم ونصروا رسول الله وهم الأنصار ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي أولئك الموصوفون بالصفات الفاضلة بعضهم أولياء بعض في النصر والإرث، ولهذا أخى ﷺ بين المهاجرين والأنصار ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾ أي أي آمنوا وأقاموا بمكة فلم يهاجروا إلى المدينة ﴿مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ أي لا إرث بينكم وبينهم ولا ولاية حتى يهاجروا من بلد الكفر ﴿وَإِنْ أَسْتَضَرُّوكُمْ فِي الَّذِينَ فَعَلَيْكُمْ أَنْتَضَرُّوا﴾ أي وإن طلبوا منكم النصر لأجل إعزاز الدين، فعليكم أن تنصروهم على أعدائهم لأنهم إخوانكم ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ أي إلا إذا استنصروكم على من بينكم وبينهم عهد ومهادنة فلا تعينوهم عليهم ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي رقيب على أعمالكم فلا تخالفوا أمره. ذكر تعالى المؤمنين وقسمهم إلى ثلاثة أقسام: المهاجرين، الأنصار، الذين لم يهاجروا، فبدأ بالمهاجرين لأنهم أصل الإسلام وقد هجروا الديار والأوطان ابتغاء رضوان الله، وثنى بالأنصار لأنهم نصروا الله ورسوله وجاهدوا بالنفس والمال، وجعل بين المهاجرين والأنصار الولاية والنصرة، ثم ذكر حكم المؤمنين الذين لم يهاجروا بين أنهم حرموا الولاية حتى يهاجروا في سبيل الله، وبعد ذكر هذه الأقسام الثلاثة ذكر حكم الكفار فقال ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي هم في الكفر والضلال ملة واحدة فلا يتولاها إلا من كان منهم ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي وإن لم تفعلوا ما أمرتكم به من تولي المؤمنين وقطع الكفار ﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أي تحصل في الأرض فتنة عظيمة ومفسدة كبيرة، لأنه يترتب على ذلك قوة الكفار وضعف المسلمين، ثم عاد بالذكر والثناء على المهاجرين والأنصار فقال ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجِرُوا وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم المهاجرون أصحاب السبق إلى الإسلام ﴿وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا﴾ وهم الأنصار أصحاب الإيواء والإيثار ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي هؤلاء هم الكاملون في الإيمان، المتحققون في مراتب الإحسان ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي لهم مغفرة لذنوبهم، ورزق كريم في جنات النعيم قال المفسرون: ليس في هذه الآيات تكرار، فالآيات السابقة تضمنت الولاية والنصرة بين المؤمنين، وهذه تضمنت الثناء والتشريف، ومآل حال أولئك الأبرار من المغفرة والرزق الكريم في دار النعيم ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجِرُوا وَجَاهِدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ هذا قسم رابع وهم المؤمنون الذين هاجروا بعد الهجرة الأولى فحكمهم حكم المؤمنين السابقين في الثواب والأجر ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي أصحاب القربابات بعضهم أحق بإرث بعض من الأجانب في حكم الله وشرعه قال العلماء: هذه ناسخة للإرث بالحلف والإخاء ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي أحاط بكل شيء

علماً، فكل ما شرعه الله حكمة وصواب وصلاح، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وهو ختم للسورة في غاية البراعة.

البلاغة: ١ - ﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾ هذا الأسلوب يسمى بـ «الإطناب» وفائدته التذكير بالمنة الكبرى والنعمة العظمى على الرسول والمؤمنين.

٢ - ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَاحِبُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ...﴾ الآيات ^(١)

قال في «البحر»: انظر إلى فصاحة هذا الكلام حيث أثبت في الشرطية الأولى قيد الصبر، وحذف نظيره من الثانية، وأثبت في الثانية قيد كونهم من الكفرة، وحذفه من الأولى، ولما كان الصبر شديد الطلب أثبت في جملة التخييف، ثم ختمت الآيات بقوله ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ مبالغة في شدة المطلوبة، وهذا النوع من البديع يسمى «الاحتباك» ^(٢). فله در التنزيل ما أحلى فصاحته وأنضر بلاغته!!

«تم بحمده تعالى تفسير سورة الأنفال»



(١) (ش): قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَاحِبُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٦٥) أَلْفَنَ حَفَفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾

(٢) «البحر» المحيط ٥١٦/٤.



مدنية وآياتها تسع وعشرون ومائة

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة من السور المدنية التي تعني بجانب التشريع، وهي من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ فقد روى البخاري عن البراء بن عازب أن آخر سورة نزلت سورة براءة^(١)، وروى الحافظ ابن كثير: أن أول هذه السورة نزلت على رسول الله ﷺ عند مرجعه من غزوة تبوك وبعث أبا بكر الصديق أميرًا على الحج تلك السنة، ليقم للناس مناسكهم، فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فيها من الأحكام^(٢) نزلت في السنة التاسعة من الهجرة، وهي السنة التي خرج فيها رسول الله ﷺ لغزو الروم، واشتهرت بين الغزوات النبوية بـ «غزوة تبوك» وكنت في حر شديد، وسفر بعيد، حين طابت الثمار، وأخلد الناس إلى نعيم الحياة، فكانت ابتلاء لإيمان المؤمنين، وامتحانًا لصدقهم وإخلاصهم لدين الله، وتمييزًا بينهم وبين المنافقين، ولهذه السورة الكريمة هدفان أساسيان -إلى جانب الأحكام الأخرى- هما:

أولاً: بيان القانون الإسلامي في معاملة المشركين، وأهل الكتاب.

ثانيًا: إظهار ما كانت عليه النفوس حينما استفزهم الرسول لغزو الروم.

* أما بالنسبة للهدف الأول فقد عرضت السورة إلى عهود المشركين فوضعت لها حدًا، ومنعت حج المشركين لبيت الله الحرام، وقطعت الولاية بينهم وبين المسلمين، ووضعت الأساس في قبول بقاء أهل الكتاب في الجزيرة العربية، وإباحة التعامل معهم، وقد كان بين النبي ﷺ والمشركين عهود ومواثيق، كما كان بينه وبين أهل الكتاب عهود أيضًا، ولكن المشركين نقضوا العهود وتآمروا مع اليهود عدة مرات على حرب المسلمين، وخانت طوائف اليهود بنو النضير «بنو قريظة» و«بنو قينقاع» ما عاهدوا عليه رسول الله ﷺ ونقضوا عهودهم مرات ومرات، فلم يعد من الحكمة أن يبقى المسلمون متمسكين بالعهود وقد نقضها أعداؤهم، فنزلت السورة الكريمة بإلغاء تلك العهود ونبذها إليهم على وضوح وبصيرة، لأن الناكثين

(١) البخاري ٢٢٧/٨. (ش): عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ كَامِلَةً بَرَاءَةُ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

(٢) مختصر ابن كثير ١٢٣/٢. (ش): عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ فِي تِلْكَ الْحَجَّةِ فِي مُؤَذِّنِينَ، بَعَثَهُمْ يَوْمَ النَّحْرِ يُؤَذِّنُونَ بِمَنَى أَنْ لَا يَحْجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ غُرْيَانٌ. ثُمَّ أَرْدَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَذِّنَ بِبَرَاءَةٍ. فَأَذَّنَ مَعَنَا عَلَى يَوْمِ النَّحْرِ فِي أَهْلِ مَنَى بِبَرَاءَةٍ، وَأَنْ لَا يَحْجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ غُرْيَانٌ. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ).

لا يتورعون عن الخيانة كلما سنحت لهم الفرصة، وبذلك قطع الله تعالى ما بين المسلمين والمشركين من صلات، فلا عهد، ولا تعاهد، ولا سلم، ولا أمان، بعد أن منحهم الله فرصة كافية هي السياحة في الأرض أربعة أشهر ينطلقون فيها آمنين، ليتمكنوا من النظر والتدبر في أمرهم، ويختاروا ما يرون فيه المصلحة لهم، وفي ذلك نزل صدر السورة الكريمة ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ...﴾ الآيات.

* ثم تلتها الآيات في قتال الناقضين للعهد من أهل الكتاب ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَوْمِ الْآخِرِ...﴾ الآية، وقد تناول الحديث عنهم ما يقرب من عشرين آية، كشف الله سبحانه فيها القناع عن خفايا أهل الكتاب، وما انطوت عليه نفوسهم من خبث ومكر، وحقد على الإسلام والمسلمين حين استفزهم رسول الله ﷺ لغزو الروم، وقد تحدثت الآيات عن المتثاقلين منهم والمتخلفين، والمبطين، وكشفت الغطاء عن فتن المنافقين، باعتبار خطرهم الداهم على الإسلام والمسلمين، وفضحت أساليب نفاقهم، وألوان فتنتهم وتخذييلهم للمؤمنين، حتى لم تدع لهم سترًا إلا هتكته، ولا دخيلة إلا كشفتها، وتركته بعد هذا الكشف والإيضاح تكاد تلمسهم أيدي المؤمنين، وقد استغرق الحديث عنهم معظم السورة بدءًا من قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْعُوكَ...﴾ إلى قوله تعالى ﴿لَا يَزَالُ بُيْنَهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ^(١)﴾ ولهذا سماها بعض الصحابة «الفاضحة» لأنها فضحت المنافقين وكشفت أسرارهم، قال سعيد بن جبیر: سألت ابن عباس عن سورة براءة فقال: تلك الفاضحة، ما زال ينزل ومنهم، ومنهم، حتى خفنا ألا تدع منهم أحدا^(٢)، وروى عن حذيفة بن اليمان أنه قال: إنكم تسمونها سورة التوبة، وإنما هي سورة العذاب، والله ما تركت أحدا من المنافقين إلا نالت منه^(٣)، وهذا هو السر في عدم وجود البسملة فيها قال ابن عباس: سألت على ابن أبي طالب لم لم يكتب في براءة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾؟ قال: لأن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أمان، وبراءة نزلت بالسيف، ليس فيها أمان، وقال سفيان بن عيينة: إنما لم تكتب في صدر هذه السورة البسملة لأن التسمية رحمة، والرحمة أمان، وهذه السورة نزلت بالمنافقين وبالسيف، ولا أمان للمنافقين^(٤).

* وبالجملة فإن هذه السورة الكريمة قد تناولت «الطابور الخامس»^(٥) المُنْدَس بين

(١) الآيات من (٤٢-١١٠) ويكاد يكون جو السورة في النفاق والمنافقين.

(٢) «القرطبي» ٦١/٨.

(٣) «الكشاف» ٢٤١/٢.

(٤) «القرطبي» ٦٣/٨.

(٥) (ش): الطابور الخامس: جماعة من المواطنين تساعد العدو في السر بالتجسس لصالحه.

صفوف المسلمين ألا وهم «المنافقون» الذين هم أشد خطراً من المشركين ففضحتهم وكشفت أسرارهم ومخازيهم، وظلت تقذفهم بالحمم حتى لم تبق منهم دياراً، فقد وصل بهم الكيد في التأمر على الإسلام، أن يتخذوا بيوت الله أوكاراً للتخريب والتدمير، وإلقاء الفتنة بين صفوف المسلمين، في مسجدهم، الذي عرف باسم «مسجد الضرار» وقد نزل في شأنه أربع آيات في هذه السورة ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ...﴾ الآيات ولم يكد النبي ﷺ يتلقى الوحي حتى قال لأصحابه: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم وأهله فاهدموه وحرقوه» فهدموه^(١) وكفى الله الإسلام والمسلمين شرهم، وكيدهم، وخبثهم، وفضحهم إلى يوم الدين.

التسمية: تسمى هذه السورة بأسماء عديدة أوصلها بعض المفسرين إلى أربعة عشر اسماً، قال العلامة الزمخشري: لهذه السورة عدة أسماء: (براءة، والتوبة، والمقشقة، والمبعثرة، والمشردة، والمخزية، والفاضحة، والمثيرة، والحافرة، والمنكلة، والمدممة، وسورة العذاب) قال: لأن فيها التوبة على المؤمنين، وهي تقشقر من النفاق أي تبرئ منه، وتبعثر عن أسرار المنافقين، وتبحث عنها وتثيرها وتحفر عنها، وتفضحهم، وتنكل بهم، وتشردهم وتخزيهم، وتدمدم عليهم^(٢).

قال الله تعالى:

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۚ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ غَيْرَ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ۚ (٢) وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ۚ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۚ (٣) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۚ (٤) فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۚ (٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَا مَنَعَهُ ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ۚ (٦) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا

(١) (ش): قال الألباني: «ضعيف»، رواه ابن هشام عن ابن إسحاق بدون إسناد. لكن أخرج الحاكم عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما، قال: «رَأَيْتُ الدُّخَانَ مِنْ مَسْجِدِ الضَّرَارِ حِينَ انْهَارَ» وصححه ووافقه الذهبي، فلعل المسجد انهار بأمر الله دون حرق، والله أعلم. (انظر: ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية، للدكتور محمد بن عبد الله العوشن (ص ٢٢٠-٢٢١)).

(٢) «الكشاف» ٢/ ٢٤١.

اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِلُ الْأَيْتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَبِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا نُنَقِِلُوكَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَكُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَتَتُوبَ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

اللغة: ﴿بِرَاءَةٍ﴾ برئت من الشيء: إذا قطعت ما بينك وبينه من سبب وأزلته عن نفسك، قال الزجاج: برئت من الرجل والدين براءة، وبرئت من المرض بروءاً^(١) ﴿فَسِيحُوا﴾ السباحة: السير في الأرض والذهاب فيها للتجارة أو العبادة أو غيرها ﴿وَأَذِّنْ﴾ الأذان: الإعلام ومنه أذان الصلاة ﴿مَرَصِدٍ﴾ المرصد: الموضع الذي يرقب فيه العدو من قولهم: رصدت فلاناً إذا ترقبته قال الشاعر: إن المنية للفتى بالمرصد^(٢) ﴿أَسْتَجَارَكَ﴾ طلب جوارك أي أمانك ﴿إِلَّا﴾ إلا: العهد والقربة وأنشد عبدة:

أَفْسَدُ النَّاسِ خُلُوفٌ خَلَفُوا الْإِلَّ وَأَعْرَافُ الرَّحِمِ^(٣)
﴿نَكَثُوا﴾ النكث: النقض وأصله في كل ما قُتل ثم حل ﴿وَلِجَةً﴾ بطانة ودخيلة، قال

(١) «زاد المسير» ٣/ ٣٩٢.

(٢) «القرطبي» ٨/ ٧٣.

(٣) «البحر» المحيط ٥/ ٣.

أبو عبيدة: كل شيء أدخلته في شيء ليس منه فهو وليجة^(١) وأصله من الولوج، فالداخل في القوم وليس منهم يسمى وليجة وقال الفراء: الوليجة: البطانة من المشركين يفشي إليهم سره، ويعلمهم أمره. سَبَبَ النَّزُولُ: روي أن جماعة من رؤساء قريش أسروا يوم بدر، وفيهم «العباس بن عبد المطلب» فأقبل عليهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فغبروهم بالشرك، وجعل علي بن أبي طالب يوبخ العباس بقتال رسول الله ﷺ وقطيعة الرحم، فقال العباس: ما لكم تذكرون مساوئنا وتكتمون محاسننا؟ فقال: وهل لكم من محاسن؟ فقال: نعم، إنا لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحجاج، ونفك العاني - الأسير - فنزلت هذه الآية ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ...﴾ الآية^(٢).

التفسير: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي هذه براءة من المشركين ومن عهودهم كائنة من الله ورسوله قال المفسرون: أخذت العرب تنقض عهوداً عقدتها مع رسول الله ﷺ فأمره الله بإلقاء عهودهم إليهم، فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الحج ليقيم للناس المناسك، ثم أتبعه علياً ليعلم الناس بالبراءة، فقام علي فنادى في الناس بأربع: ألا يقرب البيت الحرام بعد العام مشرك، وألا يطوف بالبيت عريان، وأنه لا يدخل الجنة إلا مسلم، ومن كان بينه وبين رسول الله مدة فأجله إلى مدته، والله بريء من المشركين ورسوله^(٣) ﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ أي سيروا آمنين أيها المشركون مدة أربعة أشهر لا يقع بكم منا مكروه، وهو أمر إباحة وفي ضمنه تهديد ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أي لا تفوتونه تعالى وإن أمهلهم هذه المدة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ﴾ أي مذلهم في الدنيا بالأسر والقتل، وفي الآخرة بالعذاب الشديد ﴿وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾ أي إعلام إلى كافة الناس بتبرئ الله تعالى ورسوله من المشركين ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ أي يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك قال الزمخشري: وصف الحج بالأكبر لأن العمرة تسمى الحج الأصغر^(٤) ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ أي إعلام لهم بأن الله بريء من المشركين وعهودهم، ورسوله بريء منهم أيضاً ﴿فَإِنْ بُنْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي فإن تبتم عن الكفر ورجعتم إلى توحيد الله فهو خير لكم من التماذي في الضلال ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أي وإن أعرضتم عن الإسلام وأبيتم إلا الاستمرار على الغي والضلال، فاعلموا أنكم لا تفوتون الله طلباً، ولا

(١) «الرازي» ١٦/٥.

(٢) «زاد المسير» ٣/٤٠٧. (ش): ذكره الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.

(٣) (ش): عَنْ زَيْدِ بْنِ يُنَيْعٍ قَالَ سَأَلْنَا عَلِيًّا بَأَى شَيْءٍ بُعِثَتْ فِي الْحَجَّةِ قَالَ بُعِثْتُ بِأَرْبَعٍ أَنْ لَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عَرِيَانٌ وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ عَهْدٌ فَعَهْدُهُ إِلَى مُدَّتِهِ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَهْدٌ فَأَجَلُهُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُؤْمِنَةٌ وَلَا يَجْتَمِعُ الْمُشْرِكُونَ وَالْمُسْلِمُونَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا. (رواه الترمذي والحاكم، وصححه الألباني).

(٤) «الكشاف» ٢/٢٤٥.

تُعْجِزُونَهُ هَرَبًا ﴿١﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢﴾ أَيُّ بَشَرٍ الْكَافِرِينَ بِعَذَابٍ مُؤَلَّمٍ مَوْجَعٍ يَحِلُّ بِهِمْ قَالَ أَبُو حَيَّانٍ: جَعَلَ الْإِنذَارَ بَشَارَةً عَلَى سَبِيلِ الْاسْتَهْزَاءِ بِهِمْ، وَفِي هَذَا وَعِيدٌ عَظِيمٌ لَهُمْ ^(١) ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٤﴾ أَيُّ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمُوهُمْ وَلَمْ يَنْقُضُوا الْعَهْدَ فَأَتَمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ قَالَ فِي «الْكَشَافِ»: وَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ بِمَعْنَى الْاسْتِدْرَاكِ أَيُّ لَكِنْ مِنْ وَفَى وَلَمْ يَنْكُثْ فَأَتَمُّوا عَلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ، وَلَا تُجْرُوهُمْ مَجْرَاهُمْ، وَلَا تَجْعَلُوا الْوَفَى كَالْغَادِرِ ^(٢) ﴿٥﴾ ثُمَّ لَمْ يَنْقُضُواكُمْ شَيْئًا ﴿٦﴾ أَيُّ لَمْ يَنْقُضُوا مِنْ شُرُوطِ الْمِيثَاقِ شَيْئًا ﴿٧﴾ وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا ﴿٨﴾ أَيُّ لَمْ يَعِينُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا مِنْ أَعْدَائِكُمْ ﴿٩﴾ فَأَتَمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مَدَّتِهِمْ ﴿١٠﴾ أَيُّ وَفُوا الْعَهْدَ كَامِلًا إِلَى انْقِضَاءِ مَدَّتِهِ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢﴾ أَيُّ يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ لِرَبِّهِمُ الْمُؤْمِنِينَ لِعَهْدِهِمْ قَالَ «الْبِضَاوِيُّ»: هَذَا تَعْلِيلٌ وَتَنْبِيهُ عَلَى أَنْ إِتِمَامَ عَهْدِهِمْ مِنْ بَابِ التَّقْوَى ^(٣) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ قَدْ بَقِيَ لِحَيٍّ مِنْ كِنَانَةَ مِنْ عَهْدِهِمْ تِسْعَةُ أَشْهُرٍ، فَأَتَمَّ ﷺ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ ﴿١٣﴾ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمَ ﴿١٤﴾ أَيُّ مَضَتْ وَخَرَجَتْ الْأَشْهُرُ الْأَرْبَعَةُ الَّتِي حُرِّمَ فِيهَا قِتَالُهُمْ ﴿١٥﴾ فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴿١٦﴾ أَيُّ اقْتُلُوهُمْ فِي أَيِّ مَكَانٍ أَوْ زَمَانٍ مِنْ حِلٍّ أَوْ حَرَمٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ وَفِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ ^(٤) ﴿١٧﴾ وَخَذُواهُمْ أَيْ بِالْأَسْرِ ﴿١٨﴾ وَأَحْصُواهُمْ أَيْ احْبِسُوهُمْ وَامْنَعُوهُمْ مِنَ التَّقَلُّبِ فِي الْبِلَادِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنْ تَحَصَّنُوا فَاحْصَرُوهُمْ أَيْ فِي الْقَلَاعِ وَالْحَصُونِ حَتَّى يُضْطَرُّوا إِلَى الْقَتْلِ أَوْ الْإِسْلَامِ ﴿١٩﴾ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ﴿٢٠﴾ أَيُّ اقْعُدُوا لَهُمْ فِي كُلِّ طَرِيقٍ يَسْلُكُونَهُ، وَارْقُبُوهُمْ فِي كُلِّ مَمَرٍ يَجْتَازُونَ مِنْهُ فِي أَسْفَارِهِمْ قَالَ فِي «الْبَحْرِ»: وَهَذَا تَنْبِيهُ عَلَى أَنْ الْمَقْصُودُ إِيصَالُ الْأَذَى إِلَيْهِمْ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ بِطَرِيقِ الْقِتَالِ أَوْ بِطَرِيقِ الْاِغْتِيَالِ ^(٥) ﴿٢١﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴿٢٢﴾ أَيُّ فَإِنْ تَابُوا عَنْ الشِّرْكِ وَأَدَّوْا مَا فَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ﴿٢٣﴾ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴿٢٤﴾ أَيُّ كَفُّوا عَنْهُمْ وَلَا تَتَعَرَّضُوا لَهُمْ ﴿٢٥﴾ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٦﴾ أَيُّ وَاسِعٌ الْمَغْفِرَةُ وَالرَّحْمَةُ لِمَنْ تَابَ وَأَنَابَ ﴿٢٧﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ ﴿٢٨﴾ أَيُّ إِنْ اسْتَأْمَنَكَ مَشْرُكٌ وَطَلَبَ مِنْكَ جَوَارَكَ ﴿٢٩﴾ فَاجْرَهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ﴿٣٠﴾ أَيُّ أَمْنُهُ حَتَّى يَسْمَعَ الْقُرْآنَ وَيَتَذَكَّرَهُ قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: الْمَعْنَى إِنْ جَاءَكَ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْأَشْهُرِ، لَا عَهْدَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، وَاسْتَأْمَنَكَ لِيَسْمَعَ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْقُرْآنِ، فَأَمْنُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ وَيَتَذَكَّرَهُ وَيَطَّلِعَ عَلَى حَقِيقَةِ الْأَمْرِ أَقُولُ: هَذَا غَايَةٌ فِي حَسَنِ الْمَعَامَلَةِ وَكُرَمِ الْأَخْلَاقِ، لِأَنَّ الْمُرَادَ لَيْسَ النَّيْلُ مِنَ الْكَافِرِينَ، بَلْ إِقْنَاعُهُمْ وَهَدَايَتُهُمْ حَتَّى يَعْرِفُوا الْحَقَّ

(١) «البحر» ٨/٥.

(٢) «الکشاف» ٢/٢٤٦.

(٣) «البيضاوي» ٢١٨.

(٤) «زاد المسير» ٣/٣٩٨.

(٥) «البحر» المحيط ١٠/٥.

فيتبعوه، ويتركوا ما هم عليه من الضلال ﴿ثُمَّ أَوَّلَيْتُمْ مَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ﴾ أي ثم إن لم يُسلم فأوصله إلى ديار قومه التي يأمن فيها على نفسه وماله من غير غدر ولا خيانة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ذلك الأمر بالإجارة للمشركين، بسبب أنهم لا يعلمون حقيقة دين الإسلام، فلا بد من أمانهم حتى يسمعوها ويتدبروها، ثم بين تعالى الحكمة من البراءة من عهود المشركين فقال ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ استفهام بمعنى الإنكار والاستبعاد أي كيف يكون عهد معتد به عند الله ورسوله، ثم استدرك فقال ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي لكن من عهدتم من المشركين عند المسجد الحرام ولم ينقضوا العهد قال ابن عباس: هم أهل مكة وقال ابن إسحاق: هم قبائل بني بكر كانوا دخلوا وقت الحديبية في المدة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين قريش، فأمر بإتمام العهد لمن لم يكن نقض عهده منهم ﴿فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أي فما داموا مستقيمين على عهدهم فاستقيموا لهم على العهد قال «الطبري»: أي فما استقاموا لكم على العهد فاستقيموا لهم على الوفاء ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي يحب من اتقى ربه، ووفى عهده، وترك الغدر والخيانة ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ تكرار لاستبعاد ثباتهم على العهد أي كيف يكون لهم عهد وحالهم هذه أنهم إن يظفروا بكم ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أي لا يراعوا فيكم عهداً ولا ذمة، لأنه لا عهد لهم ولا أمان قال أبو حيان: وهذا كله تقرير واستبعاد لثبات قلوبهم على العهد ﴿يُرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي يرضونكم بالكلام الجميل إن كان الظفر لكم عليهم ﴿وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ أي وتمنع قلوبهم من الإذعان والوفاء بما أظهروه وقال «الطبري»: المعنى يعطونكم بألسنتهم من القول خلاف ما يضمرونه لكم في نفوسهم من العداوة والبغضاء، وتأبى قلوبهم أن يذعنوا بتصديق ما يبدونه لكم بألسنتهم ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَسِيقُونَ﴾ أي وأكثرهم ناقضون للعهد خارجون عن طاعة الله ﴿أَشْتَرُوا بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي استبدلوا بالقرآن عرضاً يسيراً من متاع الدنيا الخسيس ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي منعوا الناس عن اتباع دين الإسلام ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي بئس هذا العمل القبيح الذي عملوه ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أي لا يراعون في قتل مؤمن لو قدروا عليه عهداً ولا ذمة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ أي وأولئك الجامعون لتلك الأوصاف الذميمة هم المجاوزون الحد في الظلم والبغي ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ أي فإن تابوا عن الكفر وأقاموا الصلاة وأعطوا الزكاة ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أي فهم إخوانكم في الدين، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم ﴿وَنُفِصِلُ الْأَيْتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي ونبين الحجج والأدلة لأهل العلم والفهم، والجملة اعتراضية للحث على التدبر والتأمل ﴿وَإِنْ نَكُثُوا آلَمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ أي وإن نقضوا عهودهم الموثقة بالآيمان ﴿وَوَطَعُوا فِي دِيبِكُمْ﴾ أي عابوا الإسلام بالقدح والذم ﴿فَقَتِلُوا بِمَنَّةٍ

الْكُفْرِ ﴿ أَيُّ رُؤْسَاءٍ وَصَنَادِيدِ الْكُفْرِ ﴾ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ ﴿ أَيُّ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ وَلَا عَهْدَ يَوْفُونَ بِهَا ﴾ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ ﴿ أَيُّ كَيْ يَكْفُوا عَنِ الْإِجْرَامِ، وَيَنْتَهُوا عَنِ الطَّعْنِ فِي الْإِسْلَامِ، قَالَ «الْبِيضَاوِي»: وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِـ «قَاتِلُوا» أَيُّ لَيْكُنْ غَرَضُكُمْ فِي الْمَقَاتِلَةِ الْإِنْتِهَاءَ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ، لَا إِصْصَالُ الْأَذْيَةِ بِهِمْ كَمَا هُوَ طَرِيقَةُ الْمُؤْذِينَ^(١) ﴿ أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَنَهُمْ ﴾ تَحْرِيصُ عَلَى قِتَالِهِمْ أَيُّ أَلَا تَقَاتِلُونَ يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ قَوْمًا نَقَضُوا الْعَهْدَ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ ﴿ وَهَكُومًا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ ﴾ أَيُّ عَزَمُوا عَلَى تَهْجِيرِ الرَّسُولِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ حِينَ تَشَاوَرُوا بِدَارِ النَّدْوَةِ عَلَى إِخْرَاجِهِ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِكُمْ ﴿ وَهُمْ بِكَذِّهِمْ وَأُولَئِكَ مَرَوُا ﴾ أَيُّ هُمُ الْبَادِثُونَ بِالْقِتَالِ حَيْثُ قَاتَلُوا حُلَفَاءَ كُمْ خِزَاعَةً، وَالْبَادِثُ أَظْلَمُ، فَمَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تَقَاتِلُوهُمْ؟ ﴿ أَمْ خَشَوْهُمْ فَأَلَلَهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ ﴾ ؟ أَيُّ أَنْخَافُونَهُمْ فَتَتْرَكُونَ قِتَالَهُمْ خَوْفًا عَلَى أَنْفُسِكُمْ مِنْهُمْ؟ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخَافُوا عِقَابَهُ إِنْ تَرَكْتُمْ أَمْرَهُ ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أَيُّ إِنْ كُنْتُمْ مُصَدِّقِينَ بِعَذَابِهِ وَثَوَابِهِ قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ: يَعْنِي أَنْ قَضِيَّةَ الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ أَلَا يَخْشَى الْمُؤْمِنُ إِلَّا رَبَّهُ وَلَا يَبَالِي بِمَا سِوَاهُ^(٢).. ثُمَّ بَعْدَ الْحُضِّ وَالْحَثِّ أَمَرَهُمْ بِقِتَالِهِمْ صِرَاحَةً فَقَالَ ﴿ قَتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ أَيُّ قَاتِلُوهُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ فَتَقَاتِلُوا لَهُمْ عَذَابَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَجِهَادَ لِمَنْ قَاتَلَهُمْ ﴿ وَيَخْزِيهِمْ ﴾ أَيُّ يَذِلُّهُمْ بِالْأَسْرِ وَالْقَهْرِ ﴿ وَيَضْرِبُكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيُّ يَمْنَحُكُمْ الظَّفَرَ وَالْغَلْبَةَ عَلَيْهِمْ ﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ أَيُّ يَشْفِ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ بِإِعْلَاءِ دِينِ اللَّهِ وَتَعْذِيبِ الْكَفَّارِ وَخِزْيِهِمْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمْ قَوْمٌ مِنَ الْيَمَنِ قَدِمُوا مَكَّةَ فَأَسْلَمُوا فَلَقُوا مِنْ أَهْلِهَا أَذَى كَثِيرًا فَشَكُّوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَبْشِرُوا فَإِنَّ الْفَرَجَ قَرِيبٌ^(٣) ﴿ وَيَذْهَبُ غِيْظُ قُلُوبِهِمْ ﴾ أَيُّ يَذْهَبُ مَا بِهَا مِنْ غِيْظٍ، وَغَمٍّ، وَكَرْبٍ، وَهُوَ كَالْتَّأْكِيدِ لَشَفَاءِ الصُّدُورِ وَفَائِدَتِهِ الْمُبَالِغَةُ فِي جَعْلِهِمْ مُسْرُورِينَ بِمَا يَمُنُّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ تَعْذِيبِ أَعْدَائِهِمْ قَالَ «الرَّازِي»: أَمْرٌ تَعَالَى بِقِتَالِهِمْ وَذَكَرَ فِيهِ خَمْسَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الْفَوَائِدِ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا يَعِظُ مَوْقِعَهُ إِذَا انْفَرَدَ، فَكَيْفَ بِهَا إِذَا اجْتَمَعَتْ^(٤)؟ ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ أَيُّ يَمُنُّ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ بِالتَّوْبَةِ وَالدَّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ كَأَبِي سَفْيَانَ ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيُّ عَالَمٌ بِالْأَسْرَارِ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، حَكِيمٌ لَا يَفْعَلُ إِلَّا مَا فِيهِ حِكْمَةٌ وَمَصْلَحَةٌ قَالَ «أَبُو السَّعُودِ»: وَلَقَدْ أَنْجَزَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ جَمِيعَ مَا وَعَدَهُمْ بِهِ عَلَى أَجْمَلِ مَا يَكُونُ، فَكَانَ إِخْبَارُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِذَلِكَ قَبْلَ وَقْعِهِ مُعْجَزَةً عَظِيمَةً^(٥) ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا ﴾ أَيُّ مُنْقَطِعَةٌ

(١) «الْبِيضَاوِي» ص ٢١٩.

(٢) «الْكَشَافُ» ٢/٢٥٢.

(٣) «أَبُو السَّعُودِ» ٢/٢٥٨. (ش): لَمْ أَجِدْهُ إِلَّا فِي بَعْضِ كُتُبِ التَّفْسِيرِ بِدُونِ إِسْنَادٍ.

(٤) الْفَخْرُ «الرَّازِي» ١٦/٢.

(٥) «أَبُو السَّعُودِ» ٢/٢٥٨.

بمعنى بل والهمزة أي بل أحسبتم يا معشر المؤمنين أن تتركوا بغير امتحان وابتلاء يعرف الصادق منكم في دينه من الكاذب فيه! ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ ^(١) أي والحال أنه لم يتبين المجاهد منكم من غيره، والمراد بالعلم علم ظهور لا علم خفاء فإنه تعالى يعلم ذلك غيباً فأراد إظهار ما علم ليجازي على العمل ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ﴾ أي جاهدوا في سبيل الله ولم يتخذوا بطانة وأولياء من المشركين يفشون إليهم أسرارهم ويوالونهم من دون المؤمنين، والغرض من الآية: إن الله تعالى لا يترك الناس دون تمحيص يظهر فيه الطيب من الخبيث ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي يعلم جميع أعمالكم لا يخفى عليه شيء منها ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ أي لا يصح ولا يستقيم ولا ينبغي ولا يليق بالمشركون أن يعمرُوا شيئاً من المساجد ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ أي حال كونهم مقرين بالكفر، ناطقين به بأقوالهم وأفعالهم حيث كانوا يقولون في تليستهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك» يعنون الأصنام، وكانوا قد نصبوا أصنامهم خارج البيت، وكانوا يطوفون عراة كلما طافوا طوفه سجدوا للأصنام ^(٢) والمعنى: ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين: عمارة مساجد الله، مع الكفر بالله وبعبادته ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي بطلت أعمالهم بما قارنها من الشرك ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ أي ماكنون في نار جهنم أبداً ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي إنما تستقيم عمارة المساجد وتليق بالمؤمن من المصدق بوحداية الله، الموقن بالآخرة ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ﴾ أي أقام الصلاة المكتوبة بحدودها، وأدى الزكاة المفروضة بشروطها ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي خاف الله ولم يرهب أحداً سواه ﴿فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ أي فعسى أن يكونوا في زمرة المهتدين يوم القيامة قال ابن عباس: كل عسى في القرآن واجبة قال الله لنبيه ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] يقول: إن ربك سيبعثك مقاماً محموداً وهي الشفاعة ^(٣) قال أبو حيان: وعسى من الله تعالى واجبة حيثما وقعت في القرآن، وفي التعبير بعسى قطع لأطماع المشركين أن يكونوا مهتدين، إذ من جميع هذه الخصال الأربعة جعل حاله حال من لا ترجى له الهداية، فكيف بمن هو غار منها؟ وفيه ترجيح الخشية على الرجاء، ورفض الاغترار بالأعمال الصالحة ^(٤) ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ

(١) (ش): لَمَّا: حرف نفْي يجزم المضارع، ويقبله إلى ماضٍ ممتدٍّ حَتَّى وقت الحديث مع توقُّع حدوثه في المستقبل القريب «لَمَّا يَذَاكِرُ دَرْسَهُ: لَمْ يَفْعَلْهُ إِلَى وقت الحديث» - «قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ»: لم يدخل حتى الآن».

(٢) الصاوي على الجلالين ١٤١/٢.

(٣) «الطبري» ٩٤/١.

(٤) «البحر» المحيط ٢٠/٥.

الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿الخطاب للمشركون﴾^(١)، والاستفهام للإنكار والتوبيخ والمعنى: أجعلتم يا معشر المشركين سقاية الحجيج وسدانة البيت، كإيمان من آمن بالله وجاهد في سبيله؟ وهو رد على العباس حين قال: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة، فلقد كنا نعمار المسجد الحرام، ونسقي الحاج فنزلت قال «الطبري»: هذا توبيخ من الله تعالى لقوم افتخروا بالسقاية وسدانة البيت الحرام، فأعلمهم أن الفخر في الإيمان بالله، واليوم الآخر، والجهاد في سبيله^(٢) ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي لا يتساوى المشركون بالمؤمنين، ولا أعمال أولئك بأعمال هؤلاء ومنزلهم ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ هذا كالتعليل أي لا يوفق الظالمين إلى معرفة الحق، قال في «البحر»: ومعنى الآية إنكار أن يُشَبَّهَ المَشْرِكُونَ بالمؤمنين، وأعمالهم المحبطة بأعمالهم المثبتة^(٣)، ولما نفى المساواة بينهم أوضحها بأن الكافرين بالله هم الظالمون، ظلموا أنفسهم بعدم الإيمان، وظلموا المسجد الحرام إذ جعلوه متعبداً لأوثانهم، وأثبت للمؤمنين الهداية في الآية السابقة، ونفاها عن المشركين هنا فقال ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٤) ثم قال تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ هذا زيادة توضيح وبيان لأهل الجهاد والإيمان والمعنى: إن الذين طهروا أنفسهم من دنس الشرك بالإيمان، وطهروا أبدانهم بالهجرة من الأوطان^(٥)، وبذلوا أنفسهم وأموالهم للجهاد في سبيل الرحمن، هؤلاء المتصفون بالأوصاف الجليلة أعظم أجراً، وأرفع ذكراً من سقاة الحاج، وعُمار المسجد الحرام وهم بالله مشركون ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أي أولئك هم المختصون بالفوز العظيم في جنات النعيم ﴿يُلبِثُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ أي يبشرهم المولى برحمة عظيمة، ورضوان كبير من ربٍّ عظيم ﴿وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ أي وجنات عالية، قطوفها دانية، لهم في تلك الجنات نعيم دائم لا زوال له ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي ماكثين في الجنان إلى ما لا نهاية ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي ثوابهم عند الله عظيم، تعجز العقول عن وصفه قال أبو حيان: لما وصف المؤمنين بثلاث صفات: الإيمان، والهجرة، والجهاد بالنفس والمال، قابلهم على ذلك بالتبشير بثلاثة: الرحمة، الرضوان، والجنان، فبدأ بالرحمة لأنها أعم النعم في مقابلة الإيمان، وثنى بالرضوان الذي هو نهاية الإحسان في مقابلة الجهاد، وثلث بالجنان في مقابلة الهجرة

(١) انظر سبب النزول.

(٢) «الطبري» ٩٤ / ١٠.

(٣) (ش): أي إنكار تشبيه المشركين بالمؤمنين، وإنكار تشبيه أعمال المشركين المحبطة بأعمال المؤمنين المثبتة.

(٤) «البحر» المحيط ٢٠ / ٥.

(٥) «البحر» ٢١ / ٥.

وترك الأوطان وقال الألوسي: ولا يخفى أن وصف الجنات بأن لهم فيها نعيم مقيم جاء في غاية اللطافة، لأن الهجرة فيها السفر، الذي هو قطعة من العذاب^(١).

البلاغة: ١ - ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ التنوين للتفخيم والتقيد بأنها من الله ورسوله لزيادة التفخيم والتهويل.

٢ - ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذا يسمى «الأسلوب التهكمي» لأن البشارة بالعذاب تهكم به.

٣ - ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾ شَبَّهَ مُضِيِّ الْأَشْهُرِ وانقضاءها بالإنسلاخ الواقع بين الحيوان وجلده فهو من باب الاستعارة.

٤ - ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ذكر الاسم الجليل مكان الضمير لتربية المهابة وإدخال الروعة في القلب.

٥ - ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ الجملة مفيدة للحصر أي هم الفائزون لا غيرهم.

٦ - ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ في تخصيص الصلاة والزكاة بالذكر تفخيم ل شأنهما وحث على التنبه لهما.

٧ - ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ تنكير الرحمة والرضوان للتفخيم والتعظيم أي برحمة لا يبلغها وصف واصف.

فائدة: عمارة المساجد نوعان: حسية، ومعنوية، فالحسية بالتشيد والبناء، والمعنوية بالصلاة وذكر الله، وقد ربط الباري جل وعلا بين العمارة والإيمان وفي الحديث «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان لأن الله تعالى يقول ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنِ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾^(٢)، فالعمارة الحقيقية بالصلاة وذكر الله.

لطيفة: ذكر «القرطبي» أن أعرابياً قدم المدينة المنورة فقال: من يقرئني مما أنزل على محمد ﷺ؟ فأقرأه رجل سورة براءة حتى أتى الآية الكريمة ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ فقرأها عليه بالجر ﴿وَرَسُولُهُ﴾ فقال الأعرابي: وأنا أيضاً أبرأ من رسوله، فاستعظم الناس الأمر وبلغ ذلك عمر فدعاه فقال يا أعرابي: أتبرأ من رسول الله ﷺ؟ فقال يا أمير المؤمنين: قدمت المدينة فأقرأني رجل سورة براءة فقلت إن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه، فقال: ما هكذا الآية يا أعرابي؟ قال فكيف يا أمير المؤمنين! فقرأها عليه بالضم ﴿وَرَسُولُهُ﴾ فقال الأعرابي: وأنا والله أبرأ مما برئ الله ورسوله منه، فأمر عمر ألا يقرئ الناس إلا عالمٌ بلغة العرب^(٣).

(١) «روح المعاني» ١٠/ ٧٠.

(٢) رواه الترمذي. (ش): ورواه ابن ماجه، وضعفه الألباني.

(٣) «القرطبي» ١/ ٢٤.

قال الله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى
الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ
وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا
أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ
كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ
مُدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَءُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ
بَعْدَ عَمِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَالُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ
وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ
﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّي أَيْمَنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ
بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَالَهُمْ اللَّهُ أَتَى يَوْفَكُونَ ﴿٣٠﴾
اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا
إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ
أَنْ يُطْعَمُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي
أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى قبائح المشركين، وأثنى على المهاجرين المؤمنين الذين هجروا
الديار والأوطان حباً في الله ورسوله، حذر هنا من ولاية الكافرين وذكر أن الانقطاع عن الآباء
والأقارب واجب بسبب الكفر، ثم استطرد إلى تذكير المؤمنين بنصرهم في مواطن كثيرة ليعتروا
بدينهم، ثم عاد إلى الحديث عن قبائح أهل الكتاب للتحذير من موالاتهم، وأنهم كالمشركين
يسعون لإطفاء نور الله.

اللغة: ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ جمع ولي: وهو الناصر والمعين الذي يتولى شئون الغير وينصره ويقويه
﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ العشيرة: الجماعة التي يعتز ويحتمي بها الإنسان قال الواحدي: عشيرة الرجل أهله
الأدنون وهو من العشيرة، أي: الصحبة لأنها من شأن القربى ﴿كَسَادَهَا﴾ كسد الشيء كساداً
وكسوداً إذا بَارَ ولم يكن له نفاق^(١) ﴿عَيْلَةً﴾ فقراً يقال: عال الرجل يعيل إذا افتقر قال الشاعر:

(١) (ش): بارت السِّلعة: كسدت ولم تجد من يشتريها لكثرتها وابتذالها. نَفَقَتِ البضاعةُ نَفَاقًا: راجت كثر طلابها

وَمَا يَذَرِي الْفَقِيرُ مَتَى غِنَاهُ وَمَا يَذَرِي الْغَنِيُّ مَتَى يَعْجِلُ^(١)
 ﴿الْحِزْبَةُ﴾ ما أخذ من أهل الذمة سميت جزية؛ لأنهم أعطوها جزاء ما مُنحوا من الأمن
 ﴿يُضَاهَوْنَ﴾ يشابهون والمضاهاة المماثلة والمحاكاة ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون عن
 الحق والإفك الصرف يقال: أُفِكَ الرجل، أي: قلب وصُرف.

سَبَبُ النُّزُولِ: قال الكلبي: لما أمر رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة، جعل الرجل يقول
 لأبيه وأخيه وامرأته: لقد أمرنا بالهجرة، فمنهم من يسرع إلى ذلك ويعجبه، ومنهم من تتعلق به
 زوجته وولده فيقولون: ناشدناك الله إن تدعنا من غير شيء فنضيع، فبِرَّق فيجلس معهم ويدع
 الهجرة فنزلت الآية تعاتبهم ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ..﴾^(٢)
 الآية.

التفسير: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ النداء بلفظ الإيمان
 للتكريم ولتحريك الهمة للمسارعة إلى امتثال أوامر الله قال ابن مسعود: «إذا سمعت الله
 تعالى يقول: يا أيها الذين آمنوا فأرعوها سمعك، فإنه خير تؤمر به، أو شر تنهى عنه» والمعنى:
 لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم الكافرين أنصاراً وأعواناً تودونهم وتحبونهم ﴿إِنْ أَسْتَحَبُّوا
 الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ أي إن فضلوا الكفر واختاروه على الإيمان وأصرروا عليه إصراراً
 ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قال ابن عباس: هو مشرك مثلهم، لأن من رضي
 بالشرك فهو مشرك^(٣) ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ أَيُّ شَيْءٍ
 الْأَقْرَبُ مِنَ الْآبَاءِ، وَالْأَبْنَاءِ، وَالْإِخْوَانِ، وَالزَّوْجَاتِ وَمَنْ سِوَاهُمْ﴾ وعشيرتكم ﴿أَيُّ جَمَاعَتِكُمُ
 الَّتِي تَسْتَنْصِرُونَ بِهِمْ﴾ وأمول أفتقرتموها ﴿أَيُّ وَأَمْوَالِكُمُ الَّتِي كَسَبْتُمُوهَا﴾ وتجرعة تحشون
 كسادها ﴿أَيُّ تَخَافُونَ عَدَمَ نَفَاقِهَا﴾ ومسكن ترضونها ﴿أَيُّ مَنَازِلٍ تَعْجِبُكُمُ الْإِقَامَةُ فِيهَا﴾
 ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ هذا هو خبر كان أي إن كانت هذه الأشياء المذكورة
 أحب إليكم من الهجرة إلى الله ورسوله ﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ أي وأحب إليكم من الجهاد
 لنصرة دين الله ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أي انتظروا وهو وعيد شديد وتهديد ﴿حَتَّى يَأْتِيَكُمُ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ أي
 بعقوبته العاجلة أو الآجلة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي لا يهدي الخارجين عن
 طاعته إلى طريق السعادة، وهذا وعيد لمن أثر أهله، أو ماله، أو وطنه، على الهجرة والجهاد،
 ثم ذكرهم تعالى بالنصر على الأعداء في مواطن اللقاء فقال ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ

ورُغِبَ فيها .

(١) «البحر» ٤/٥ .

(٢) «أسباب النزول» ص ١٤٠ . (ش): موضوع، رواه الواحدي في «أسباب النزول» .

(٣) «القرطبي» ٨/ ٩٤ .

كَثِيرَةٍ ﴿ أَيِ نَصْرِكُمْ فِي مَشَاهِدَ كَثِيرَةٍ، وَحُرُوبَ عَدِيدَةٍ ﴾ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴿ أَيِ وَنَصْرِكُمْ أَيْضًا يَوْمَ حُنَيْنٍ بَعْدَ الْهَزِيمَةِ الَّتِي مُنِيتُمْ بِهَا بِسَبَبِ اغْتِرَارِكُمْ بِالْكَثَرَةِ ﴾ إِذْ أَعْجَبَكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُعْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا ﴿ أَيِ حِينَ أَعْجَبَكُمْ كَثَرَةُ عَدَدِكُمْ فَقُلْتُمْ: لَنْ نَغْلِبَ الْيَوْمَ مِنْ قَلَّةٍ، وَكُنْتُمْ اثْنِي عَشَرَ أَلْفًا وَأَعْدَاؤُكُمْ أَرْبَعَةُ آلَافٍ، فَلَمْ تَنْفَعَكُمْ الْكَثَرَةُ وَلَمْ تَدْفَعْ عَنْكُمْ شَيْئًا ﴾ وَصَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴿ أَيِ وَصَافَتْ الْأَرْضُ عَلَى رَحْبِهَا وَكَثَرَةِ اتِّسَاعِهَا بِكُمْ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ ﴾ ثُمَّ وَلَيْتُمْ مُدِيرِينَ ﴿ أَيِ وَلَيْتُمْ عَلَى أَدْبَارِكُمْ مِنْهُمْ مِينَ قَالَ «الطبري»: يَخْبِرُهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّ النَّصْرَ بِيَدِهِ وَمَنْ عِنْدَهُ، وَأَنَّهُ لَيْسَ بِكَثَرَةِ الْعَدَدِ، وَأَنَّهُ يَنْصُرُ الْقَلِيلَ عَلَى الْكَثِيرِ إِذَا شَاءَ، وَيَخْلِي الْقَلِيلَ فِيَهْزِمُ الْكَثِيرَ ^(١)، قِيلَ لِلْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ: أَفَرَرْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ؟ فَقَالَ الْبَرَاءُ: أَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَفِرْ: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ عَلَى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ - وَأَبُو سَفْيَانَ أَخَذَ بِلِجَامِهَا يَقُودُهَا - فَلَمَّا غَشِيَهُ الْمُشْرِكُونَ نَزَلَ فَجَعَلَ يَقُولُ:

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ^(٢)

ثُمَّ أَخَذَ قُبْضَةً مِنْ تَرَابِ فَرَمَى بِهَا فِي وَجْهِهِ الْمُشْرِكِينَ وَقَالَ: شَاهَتِ الْوُجُوهَ. فَفَرَّوْا، فَمَا بَقِيَ أَحَدٌ إِلَّا وَيَمْسَحُ الْقَذَى عَنْ عَيْنَيْهِ ^(٣)، وَقَالَ الْبَرَاءُ: كُنَّا وَاللَّهِ إِذَا حَمِيَ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِنْ الشُّجَاعُ مِنَ الَّذِي يُحَازِيهِ ^(٤)

﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيِ أَنْزَلَ بَعْدَ الْهَزِيمَةِ الْأَمْنُ وَالطَّمَأْنِينَةُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى سَكَنَتْ نَفُوسُهُمْ قَالَ «أَبُو السَّعُودِ»: أَيِ أَنْزَلَ رَحْمَتَهُ الَّتِي تَسْكُنُ بِهَا الْقُلُوبُ وَتَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا ^(٥) ﴿ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ ﴿ وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أَيِ بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَسَبِي النِّسَاءِ وَالذَّرَارِيِّ ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ أَيِ وَذَلِكَ عِقَابُ الْكَافِرِينَ بِاللَّهِ ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ أَيِ يَتُوبُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ فَيُفَوِّقُهُ لِلْإِسْلَامِ، وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى إِسْلَامِ هَوَازِنَ ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أَيِ عَظِيمُ الْمَغْفِرَةِ وَاسِعُ

(١) (ش): الَّذِي فِي «تَفْسِيرِ «الطَّبْرِيِّ»»: «وَيَخْلِي الْكَثِيرَ وَالْقَلِيلَ، فَيَهْزِمُ الْكَثِيرَ»: قَالَ مُحَقِّقُهُ الشَّيْخُ أَحْمَدُ شَاكِرٌ: «وَأَمَّا أَرَادَ أَنَّ اللَّهَ يَخْلِي بَيْنَ الْكَثِيرِ وَالْقَلِيلِ فَلَا يَنْصُرُ الْقَلِيلَ، فَيَهْزِمُ الْكَثِيرَ الْقَلِيلَ، عَلَى مَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ مِنَ غَلْبَةِ الْكَثِيرِ عَلَى الْقَلِيلِ».

(٢) (ش): (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وَأَبُو سَفْيَانَ هُوَ أَبُو سُفْيَانَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ.

(٣) «الطَّبْرِيُّ» ١٠/١٠٣. (ش): عَنْ إِيَّاسِ بْنِ سَلَمَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حُنَيْنًا... فَلَمَّا غَشَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَزَلَ عَنِ الْبَغْلَةِ ثُمَّ قَبَضَ قُبْضَةً مِنْ تَرَابٍ مِنَ الْأَرْضِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ بِهِ وَجُوهَهُمْ فَقَالَ « شَاهَتِ الْوُجُوهَ ». فَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْهُمْ إِنْسَانًا إِلَّا مَلَأَ عَيْنَيْهِ تَرَابًا بِتِلْكَ الْقُبْضَةِ فَوَلَّوْا مُدِيرِينَ فَهَزَمَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَقَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَنَائِمَهُمْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٤) (ش): قَالَ الْبَرَاءُ: « كُنَّا وَاللَّهِ إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِهِ وَإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لِلَّذِي يُحَازِي بِهِ. يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). نَتَّقِي بِهِ: يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ.

(٥) «أَبُو السَّعُودِ» ٢/٢٦٣.

الرحمة ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ أي قدر لخبث باطنهم قال ابن عباس: أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير، وقال الحسن: من صافح مشركاً فليتوضأ^(١)، والجمهور على أن هذا على التشبيه أي هم بمنزلة النجس أو كالنجس لخبث اعتقادهم وكفرهم بالله جُعِلُوا كَأَنَّهُم النجاسة بعينها مبالغة في الوصف على حد قولهم: عليّ أسدٌ أي كالأسد ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ أي فلا يدخلوا الحرم، أطلق المسجد الحرام وقصد به الحرم كله قال «أبو السعود»: وقيل: المراد المنع عن الحج والعمرة أي لا يحجوا ولا يعتمرُوا بعد حج عامهم هذا وهو عام تسع من الهجرة ويؤيده حديث «وَأَنْ لَا يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ»^(٢) وهو العام الذي نزلت فيه سورة براءة ونادى بها عليٌّ في المواسم ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَتَكُمْ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي وإن خفتم أيها المؤمنون فقراً بسبب منعهم من دخول الحرم أو من الحج فإن الله سبحانه يغنيكم عنهم بطريق آخر من فضله وعطاؤه قال المفسرون: لما مُنِعَ المسلمون من تمكين المشركين من دخول الحرم، وكان المشركون يجلبون الأطعمة والتجارات إليهم في المواسم، ألقى الشيطان في قلوبهم الحزن فقال لهم: من أين تأكلون؟ وكيف تعيشون وقد منعت عنكم الأرزاق والمكاسب؟ فأمنهم الله من الفقر والعيلة، ورزقهم الغنائم والجزية^(٣) ﴿إِنْ شَاءَ﴾ أي يغنيكم بإرادته ومشئته ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ قال ابن عباس: عليم بما يصلحكم، حكيم فيما حكم في المشركين. ولما ذكر حكم المشركين ذكر حكم أهل الكتاب فقال ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي قاتلوا الذين لا يؤمنون إيماناً صحيحاً بالله واليوم الآخر وإن زعموا الإيمان، فإن اليهود يقولون عزير ابن الله، والنصارى يعتقدون بالوهية المسيح ويقولون بالتثليث ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أي لا يحرمون ما حرم الله في كتابه، ولا رسوله في سنته، بل يأخذون بما شرعه لهم الأحرار والرهبان ولهذا يستحلون الخمر والخنزير وما شابههما ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ أي لا يعتقدون بدين الإسلام الذي هو دين الحق ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ هذا بيان للمذكورين أي من هؤلاء المنحرفين من اليهود والنصارى الذين نزلت عليهم التوراة والإنجيل ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ﴾ أي حتى يدفعوا إليكم الجزية منقادين مستسلمين ﴿وَهُمْ صَغُورٌ﴾ أي أذلاء حقيرون مقهورون بسلطان الإسلام، ثم ذكر تعالى طرفاً من قبائحهم فقال ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ أي نسب اللعناء إلى الله الولد،

(١) «القرطبي» ١٠٣/٨، وهو الذي نقل عن ابن عباس والحسن البصري ورجحه الفخر «الرازي» والألوسي وهو ظاهر الآية، والجمهور على أنه على التشبيه.

(٢) «أبو السعود» ٢/٢٦٤. (ش): رواه البخاري ومسلم. (بَعْدَ الْعَامِ): أي بَعْدَ هَذَا الْعَامِ.

(٣) «انظر» الطبري» ١٠٧/١٠.

وهو واحد أحد فرد صمد قال «البيضاوي»: وإنما قالوا ذلك لأنه لم يبق فيهم بعد بختنصر من يحفظ التوراة، فلما أحياه الله بعد مائة عام أملى عليهم التوراة حفظاً فتعجبوا من ذلك وقالوا: ما هذا إلا لأنه ابن الله^(١) ﴿وَقَالَتِ الْتَصَرَّى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ أي وزعم النصارى - أعداء الله - أن المسيح ابن الله قالوا: لأن عيسى ولد بدون أب، ولا يمكن أن يكون ولد بدون أب، فلا بد أن يكون ابن الله، قال تعالى رداً عليهم ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي ذلك القول الشنيع هو مجرد دعوى باللسان من غير دليل ولا برهان قال في «التسهيل»: يتضمن معنيين: أحدهما إلزامهم هذه المقالة والتأكيد في ذلك، والثاني أنهم لا حجة لهم في ذلك، وإنما هو مجرد دعوى كقولك لمن تكذبه: هذا قولك بلسانك^(٢) ﴿يُضَكُّهُنَّ قَوْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي يشابهون بهذا القول الشنيع قول المشركين قبلهم: الملائكة بنات الله ﴿تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨] ﴿قَسَلَهُمُ اللَّهُ أَفَى يُؤْفَكُونَ﴾ دعاء عليهم بالهلاك أي أهلكهم الله كيف يُصرفون عن الحق إلى الباطل بعد وضوح الدليل حتى يجعلوا لله ولداً قال «الرازي»: الصيغة للتعجب وهو راجع إلى الخلق على عادة العرب في مخاطبتهم، والله تعالى عَجَبَ نبيه من تركهم الحق وإصرارهم على الباطل^(٣) ﴿أَتَحْكُدُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي أطاع اليهود أحبارهم والنصارى رهبانهم في التحليل والتحريم وتركوا أمر الله فكأنهم عبدوهم من دون الله والمعنى: أطاعوهم كما يطاع الرب وإن كانوا لم يعبدوهم^(٤) وهو التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ قال عدي ابن حاتم: «أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: «يا عدي اطرح عنك هذا الوثن»، قال وسمعتة يقرأ سورة براءة ﴿أَتَحْكُدُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فقلت يا رسول الله: لم يكونوا يعبدونهم فقال عليه السلام: «أليس يُحرمون ما أحل الله تعالى فيحرمونه، ويحلون ما حرم الله فيستحلون؟ فقلت: بلى، قال: فذلك عبادتهم»^(٥) ﴿وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي اتخذه النصارى رباً معبوداً ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أي والحال أن أولئك الكفرة ما أمروا على لسان الأنبياء إلا بعبادة إله واحد هو الله رب العالمين ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق سواه ﴿سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه الله عما يقول المشركون وتعالى علواً كبيراً ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي يريد هؤلاء

(١) «البيضاوي» ص ٢٢٢.

(٢) «التسهيل» ٧٤ / ٢.

(٣) «الرازي» ٣٦ / ١٦. (ش): التعجب ثابت لله صفة من صفاته الفعلية على ما يليق به سبحانه وتعالى.

(٤) (ش): اعتبر الله تعالى طاعتهم لهم في تحليل ما حرم وتحريم ما أحل عبادة، فكيف يقال: إنهم لم يعبدوهم، وقد بين النبي - صلى الله عليه وسلم - لعدي معنى عبادتهم لهم.

(٥) الألوسي ٨٤ / ١٠. (ش): رواه أحمد والترمذي والطبراني، وحسنه الألباني. الوثن: ما يُعبد من دون الله تعالى، وأراد به هنا الصليب. أحبارهم: الأخبار: جمع خبر، وهو العالم.

الكفار من المشركين وأهل الكتاب أن يطفئوا نور الإسلام وشرع محمد عليه السلام بأفواههم الحقيرة، بمجرد جدالهم واقترائهم، وهو النور الذي جعله الله لخلقه ضياءً، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس أو نور القمر بنفخه بفيه ولا سبيل إلى ذلك ﴿وَيَأْتِي اللَّهَ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ ثَوْرُهُ﴾ أي ويأبى الله إلا أن يُعْلِيَهُ ويرفع شأنه ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ أي ولو كره الكافرون ذلك ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي أرسل محمداً ﷺ بالهداية التامة والدين الكامل وهو الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي ليعليه على سائر الأديان ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ جوابه محذوف أي ولو كره المشركون ظهوره.

البلاغة: ١ - ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ صيغته أمر وحقيقته وعيد كقوله ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠].

٢ - ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ من باب عطف الخاص على العام للتبويه بشأنه حيث جاء النصر بعد اليأس، والفرج بعد الشدة.

٣ - ﴿وَصَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ شبه ما حل بهم من الكرب والهزيمة والضيق النفسي بضيق الأرض على سعتها على سبيل الاستعارة.

٤ - ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجس﴾ الصيغة لإفادة الحصر واللفظ فيه تشبيه بليغ أي كالنجس في خبث الباطن وخبث الاعتقاد حذفت منه أداة الشبه ووجه الشبه فأصبح بليغاً، ومثله ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾ أي كالأرباب في طاعتهم وامتنال أوامرهم في التحريم والتحليل.

٥ - ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ﴾ عبّر عن الدخول بالقرب للمبالغة.

٦ - ﴿يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ أراد به نور الإسلام فإن الإسلام بنوره المضيء وحججه القاطعة يشبه الشمس الساطعة في نورها وضيائها فهو من باب الاستعارة. وهي من لطائف الاستعارات.

لطيفة: قال العلامة «القرطبي»: دل قوله تعالى ﴿لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ على أن القرب قرب الأديان لا قرب الأبدان، وقد أنشدوا في ذلك أبياتاً:

يَقُولُونَ لِي: ذَا الْأَحِبَّةِ قَدْ دَنَتْ وَأَنْتَ كَعِيبٍ إِنَّ ذَا لَعَجِيبُ
فَقُلْتُ: وَمَا تُغْنِي دِيَارُ قَرِيبَةٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْقُلُوبِ قَرِيبُ

قال الله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْذِبُونَ الذِّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ ﴿٢٥﴾ إِنَّ عَذَابَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ

أَتَيْنَا عَشْرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَزَلِجُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ وَفَتِنُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْنَلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُكْرِمُونَهُ عَامًا لِيُوْطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتِلُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضِيئُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا نَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا نَضُرُّهُ فَقَدْ نَضَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآزَتْ أَبَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

المناسبة: لما وصف تعالى رؤساء اليهود والنصارى بالكبر والتجبر وادعاء الربوبية، وصفهم هنا بالطمع والجشع والحرص على أكل أموال الناس، تحقيراً لشأنهم وتسفيهاً لأحلامهم، لأنهم اتخذوا الدين مطية لنيل الدنيا، وذلك نهاية الذل والدناءة، ثم ذكر تعالى قبائحهم وقبائح المشركين، ثم دعا إلى النفير العام وذكر موقف المنافقين المشبطين عن الجهاد في سبيل الله.

اللغة: ﴿الْأَخْبَارُ﴾ علماء اليهود ﴿وَالرُّهْبَانُ﴾ علماء النصارى قال ابن المبارك:

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ وَأَخْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا ^(١)

﴿يَكْزُرُونَ﴾ أصل الكنز في اللغة: الجمع والضم، ومنه حديث «أَلَا أُخْبِرُكَ بِخَيْرٍ مَا يَكْزُرُ الْمَرْءُ الْمَرْأَةَ الصَّالِحَةَ» ^(٢) أي يضمه لنفسه ويجمعه، ثم غلب استعماله على المدفون من الذهب والفضة قال «الطبري»: الكنز كل شيء مجموع بعضه إلى بعض في بطن الأرض

(١) «القرطبي» ٨/ ١٢٠.

(٢) (ش): رواه أبو داود، وضعفه الألباني.

كان أو على ظهرها^(١) ﴿فَتَكُونُ﴾ الكي: إصباغ المحمي من الحديد وشبهه بالعضو حتى يتمزق الجلد وفي الأمثال «آخر الدواء الكي» ﴿النَّسِيءُ﴾ التأخير يقال: نسأه ونسأه إذا أخره ومنه حديث «وَيْسَأُ لَهُ فِي أَثَرِهِ»^(٢) أي يؤخر له في أجله قال الزمخشري: النسبيء: تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر ﴿لِيُؤَاطُوا﴾ ليوافقوا والمواطأة: الموافقة يقال: تواطأ القوم: إذا اتفقوا على أمر خفية ﴿أَنْفَرُوا﴾ النفروا: الخروج بسرعة، ومنه ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَدْبَرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦] ﴿أَنَاقَلْتُمْ﴾ أصله تناقلتم بمعنى تباطأتم ولم تسرعوا ﴿عَرَضًا﴾ العرض: ما يعرض للإنسان من منافع الدنيا سمي عرضاً لأنه لا يدوم وفي الحديث «الدنيا عرض حاضر، يأكل منه البر والفاجر»^(٣) ﴿الشُّقَّةُ﴾ المسافة البعيدة التي لا تقطع إلا بمشقة قال الجوهري: الشقة السفر البعيد^(٤)، وكأنه مأخوذ من المشقة يقال: شقة شاقة.

سَبَبُ النُّزُول: لما رجع رسول الله ﷺ من الطائف وغزوة حنين، أمر الناس بالجهاد، لغزو الروم، وذلك في زمن عسرة من البأس، وجذب من البلاد، وشدة من الحر، حين أثمرت النخل، وطابت الثمار، فعظم على الناس غزو الروم، وأحبوا الظلال والمقام في المساكن والمال، وشق عليهم الخروج إلى القتال فأنزل الله ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ...﴾ الآية^(٥).

التفسير: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ﴾ أي يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله^(٦) إن كثيراً من علماء اليهود «الأحبار» وعلماء النصارى «الرهبان» ﴿يَأْتِي كَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ بِالْبَطْلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي ليأخذون أموال الناس بالحرام، ويمنعونهم عن الدخول في دين الإسلام قال ابن كثير: والمقصود التحذير من علماء السوء، وعُباد الضلال قال ابن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى^(٧) ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ أي يجمعون الأموال ويدخرون الثروات ﴿وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي لا يؤدون زكاتها ولا يبذلون منها في وجوه الخير قال ابن عمر: الكنز ما لم تؤد زكاته، وما أدت زكاته فليس بكنز ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أسلوب

(١) «الطبري» ١/ ١٢١.

(٢) (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٣) (ش): رواه الشافعي في «مُسْنَدِهِ» والبيهقي، وضعفه الألباني.

(٤) «القرطبي» ٨/ ١٥٤.

(٥) «أسباب النزول» للواحدى ص ١٤١. (ش): ضعيف، رواه ابن جرير في «جامع البيان».

(٦) (ش): تفسيره الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح.

(٧) «المختصر» ٢/ ١٣٨.

تهكم أي أخبرهم بالعذاب الأليم في دار الجحيم قال الزمخشري: وإنما قرَنَ بين الكافرين وبين اليهود والنصارى تغليظاً عليهم ودلالة على أن من يأخذ منهم السحت، ومن لا يُعطي من المسلمين من طيب ماله - سواء^(١) في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم^(٢) ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي يوم يحمى عليها بالنار المستعرة حتى تصبح حامية كاوية ﴿فَتَكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوهُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ أي تحرق بها الجباه والجنوب والظهور بالكي عليها قال ابن مسعود: والذي لا إله غيره لا يكوى عبد بكنز فيمس دينار ديناراً، ولا درهم درهماً، ولكن يوسع جلده فيوضع كل دينار ودرهم على حدته^(٣)، وخصت هذه الأماكن بالكي لأن البخيل يرى الفقير قادمًا فيقطب جبهته، فإذا جاء أعرض بجانبه، فإذا طالبه بإحسان ولاه ظهره، قال «القرطبي»: الكي في الوجه أشهر وأشنع، وفي الظهر والجنب ألم وأوجع، فلذلك خصها بالذكر من بين سائر الأعضاء^(٤) ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي يقال لهم تبيكيتاً وتقريعاً: هذا ما كنزتموه لأنفسكم فذوقوا وبال ما كنتم تكنزونه وفي صحيح مسلم «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل له يوم القيامة صفائح من نار، فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضي بين العباد، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» ﴿إِنَّ عَذَابَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ أي إن عدد الشهور المعتد بها عند الله في شرعه وحكمه هي اثنا عشر شهراً على منازل القمر، فالمعتبر به الشهور القمرية إذا عليها يدور فللك الأحكام الشرعية ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي في اللوح المحفوظ ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ قال ابن عباس: كتبه يوم خلق السماوات والأرض في الكتاب الإمام الذي عند الله ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ أي منها أربعة شهور محرمة هي: «ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب» وسميت حرماً لأنها مُعَظَّمَةٌ محترمة تتضاعف فيها الطاعات ويحرم القتال فيها ﴿ذَلِكَ أَلَيُّنَ الْفِتْنِ﴾ أي ذلك الشرع المستقيم ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي لا تظلموا في هذه الأشهر المحرمة أنفسكم بهتك حرمتين وارتكاب ما حرم الله من المعاصي والآثام ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ أي قاتلوهم جميعاً مجتمعين غير متفرقين كما يقاتلكم المشركون جميعاً ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي معهم بالنصرة والتأييد، وهو بشارة وضمان لأهل التقوى ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ أي إنما تأخير حرمة شهر لشهر آخر زيادة في الكفر لأنه تحريم ما أحله الله وتحليل ما حرمه فهو كفر آخر

(١) (ش): سواءً: متساوون.

(٢) «الكشاف» ٢/ ٢٦٦.

(٣) «الطبري» ١٠/ ١٢٤.

(٤) «القرطبي» ٨/ ١٢٩.

مضموم إلى كفرهم قال المفسرون: كان العرب أهل حروب وغارات، وكان القتال محرماً عليهم في الأشهر الحرم، فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شق عليهم ترك المحاربة، فيحلونه ويحرمون مكانه شهراً آخر، كأنهم يستقرضون حرمة شهر لشهر غيره، فربما أحلوا (المحرم) وحرموا (صفر) حتى يكمل في العام أربعة أشهر محرمة ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي يُضَلُّ بسببه الكافرون ضلالاً على ضلالهم ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ أي يحلون المحرم عاماً والشهر الحلال عاماً فيجعلون هذا مكان هذا والعكس ﴿لِيُؤْطِغُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي ليوافقوا عدة الأشهر الحرم الأربعة ﴿فِيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي فيستحلوا بذلك ما حرمه الله قال مجاهد: كان رجل من بني كنانة يأتي كل عام إلى الموسم على حمار له، فيقول أيها الناس: إني لا أعاب ولا أjab، ولا مرد لما أقول، إنا قد حرمنا (المحرم)، وأخرنا (صفر)، ثم يجيء العام المقبل ويقول: إنا قد حرمنا (صفر) وأخرنا (المحرم) فذلك قوله تعالى ﴿لِيُؤْطِغُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ^(١)﴾ ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ أي زين الشيطان لهم أعمالهم القبيحة حتى حسبوها حسنة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي لا يرشدهم إلى طريق السعادة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ استفهام للتقريع والتوبيخ، وهو توبيخ على ترك الجهاد وعتاب لمن تخلف عن غزوة تبوك والمعنى: ما لكم أيها المؤمنون إذا قيل لكم: اخرجوا لجهاد أعداء الله تباطأتم وتثاقلتم، وملتكم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعه؟! ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أي أرضيتم بنعيم الدنيا ومتاعها الفاني بدل نعيم الآخرة وثوابها الباقي؟ ﴿فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي فما التمتع بلذائذ الدنيا في جنب الآخرة إلا شيء مستحق قليل لا قيمة له، ثم توعدهم على ترك الجهاد فقال ﴿إِلَّا أَنْفِرُوا يُعَذِّبَكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي إن لا تخرجوا إلى الجهاد مع رسول الله يعذبكم الله عذاباً أليماً موجعاً، باستيلاء العدو عليكم في الدنيا، وبالنار المحرقة في الآخرة وقال ابن عباس: هو حبس المطر عنهم^(٢) ﴿وَيَسْتَبَدِّلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي يهلككم ويستبدل قوماً آخرين خيراً منكم، يكونون أسرع استجابة لرسوله وأطوع ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ ولا تضروا الله شيئاً بتثاقلكم عن الجهاد فإنه سبحانه غني عن العالمين ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي قادر على كل ما يشاء ومنه الانتصار على الأعداء بدونكم قال «الرازي»: وهو تنبيه على شدة الزجر من حيث إنه تعالى قادر لا يجوز عليه العجز، فإذا توعد بالعقاب فعل^(٣) ﴿إِلَّا تَضُرُّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ أي إن لا تنصروا

(١) «الطبري» ١٣٤/١٠.

(٢) «الطبري» ١٣١/١٠.

(٣) «الرازي» ٦١/١٦.

رسوله فإن الله ناصره وحافظه وجواب الشرط محذوف تقديره: فسينصره الله، دل عليه قوله: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ والمعنى: إن لم تنصروه أنتم فسينصره الله الذي نصره حين كان ثاني اثنين، حيث لم يكن معه أنصار ولا أعوان ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي حين خروجه من مكة مهاجراً إلى المدينة، وأسند إخراجهم إلى الكفار لأنهم أخرجوه إلى الخروج وتأمرؤا على قتله حتى اضطروا إلى الهجرة ﴿ثَاقِفِ اثْنَيْنِ﴾ أي أحد اثنين لا ثالث لهما هو أبو بكر الصديق ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ أي حين كان هو والصديق مختبئين في النقب في جبل ثور ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ أي حين يقول لصاحبه وهو أبو بكر الصديق تطميناً وتطبيباً: لا تخف فالله معنا بالمعونة والنصر، روى «الطبري» عن أنس أن أبا بكر رضي الله عنه قال «بينا أنا مع رسول الله ﷺ في الغار، وأقدام المشركين فوق رؤوسنا فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم رفع قدمه لأبصرنا فقال يا أبا بكر: ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟»^(١) وكان سبب حزن أبي بكر خوفه على رسول الله ﷺ فنهاه الرسول تسكيناً لقلبه ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ أي أنزل الله السكون والطمأنينة على رسوله ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أي قوّاهُ بجنوده من عنده من الملائكة يحرسونه في الغار لم تروها أنتم ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ أي جعل كلمة الشرك سافلة ذنيئة حقيرة، أذل بها الشرك والمشركين ﴿وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ أي وكلمة التوحيد «لا إله إلا الله» هي الغالبة الظاهرة، أعز الله بها المسلمين، وأذل الشرك والمشركين ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي قاهر غالب لا يُغلب، لا يفعل إلا ما فيه الحكمة والمصلحة ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي اخرجوا للقتال يا معشر المؤمنين شبيهاً وشباناً، مشاة وركباناً، في جميع الظروف والأحوال، في السير والعسر، والمنشط والمكره ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي جاهدوا بالأموال والأنفس لإعلاء كلمة الله ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي هذا النفير والجهاد خير من التثاقل إلى الأرض والخلود إليها والرضا بالقليل من متاع الحياة الدنيا إن كنتم تعلمون ذلك قال في «البحر»: والخيرية في الدنيا بغلبة العدو ووراثته الأرض، وفي الآخرة بالثواب العظيم ورضوان الله^(٢)، ثم ذكر تعالى أحوال المخلفين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، وموقف المشبطين المنافقين منهم فقال ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ أي لو كان ما دعوا إليه غنماً قريباً سهل المنال ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي وسفراً وسطاً ليس ببعيد ﴿لَاتَّبَعُوكَ﴾ أي لخرجوا معك لا لوجه الله بل طمعاً في الغنيمة

(١) «الطبري» ١٠/١٣٦. (ش): عن أبي بكر الصديق حَدَّثَهُ قَالَ: نَظَرْتُ إِلَى أَقْدَامِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رُءُوسِنَا وَنَحْنُ فِي الْغَارِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ أَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ: مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٢) «البحر» ٥/٤٤.

﴿وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ أي ولكن بعدت عليهم الطريق والمسافة الشاقة ولذلك اعتذروا عن الخروج لما في قلوبهم من النفاق ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أي وسيحلفون لكم معتردين^(١) بأعذار كاذبة لو قدرنا على الخروج معكم لما تأخرنا، ولو كان لنا سعة في المال أو قوة في الأبدان لخرجنا للجهاد معكم، قال تعالى رداً عليهم وتكذيباً لهم ﴿يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي يوقعون أنفسهم في الهلاك بأيمانهم الكاذبة ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي لكاذبون في دعواهم حيث كانوا مستطيعين للخروج ولم يخرجوا ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ تلتف في عتاب الرسول ﷺ حيث قدم العفو على العتاب إكراماً له عليه السلام^(٢) والمعنى سامحك الله يا محمد لم أذنت لهؤلاء المنافقين في التخلف عن الخروج معك بمجرد الاعتذار!! ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي وهلا تركتهم حتى يظهر لك الصادق منهم في عذره من الكاذب المنافق قال مجاهد: نزلت في المنافقين قال أناس منهم: «استأذنوا رسول الله، فإن أذن لكم فافعدوا»^(٣)، وإن لم يأذن لكم فافعدوا»، فقد كانوا مُصِرِّين على القعود عن الغزو وإن لم يأذن لهم، ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه أهل الإيمان فقال ﴿لَا يَسْتَعِذُّنَا الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي لا يستأذك يا محمد عن الجهاد والغزو من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ أي كراهية الجهاد بالمال والنفوس لأنهم يعلمون ما أعدّه الله للمجاهدين الأبرار من الأجر الجزيل فكيف يتخلفون عنه؟ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ أي عليم بهم لأنهم مخلصون في الإيمان متقون للرحمن ﴿إِنَّمَا يَسْتَعِذُّنَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي إنما يستأذك يا محمد المنافقون الذين لم يثبت الإيمان في قلوبهم ﴿وَأَزَلَّتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي شكّت قلوبهم في الله وثوابه فهم يترددون حيارى لا يدرون ما يصنعون.

البلاغة: ١ - ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ بين يحلون ويحرمون طباق وهو من

المحسنات البديعية.

٢ - ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ﴾ استفهام يقصد به الإنكار والتوبيخ.

(١) هذا إخبار بغيب أي سيحلفون عند رجوعك من غزوة تبوك معتردين بهذه الأيمان الكاذبة وقد حصل كما أخبر القرآن فكان ذلك من أوضح المعجزات القرآنية.

(٢) قال المفسرون: من هذه الآية يعرف الإنسان مكانة الرسول ﷺ عند ربه، وعلو قدره، وسمو منزلته، بشره بالعفو قبل أن يخبره بالذنب، ولو قال له معاتباً: لم أذنت لهم؟ لخيف عليه أن ينشق قلبه حزناً وكمدًا قال عون: هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟ ناداه بالعفو قبل المعاتبه، أقول: وما ذكره الزمخشري سوء أدب في مقام الرسول ﷺ. (ش): أي ما ذكره الزمخشري في تفسير الآية حيث قال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ كناية عن الجنابة، لأن العفو رادف لها. ومعناه: أخطأت وبئس ما فعلت.

(٣) «الطبري» ١٤٢/١١.

- ٣ - ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي أرضيتم بنعيم الدنيا ولذا نذرها بدل نعيم الآخرة.
- ٤ - ﴿فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أظهر في مقام الإضمار لزيادة التقرير والمبالغة في بيان حقارة الدنيا ودناءتها بالنسبة للآخرة.
- ٥ - ﴿يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا﴾ بينهما جناس الاشتقاق.
- ٦ - ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ «كلمة الذين كفروا» استعارة عن الشرك كما أن «كلمة الله» استعارة عن الإيمان والتوحيد.
- ٧ - ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ بينهما طباق.
- ٨ - ﴿بُعِثْتُ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ استعار الشقة للمسافة الطويلة البعيدة التي توجب المشقة على النفس.

٩ - ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ خبر يقصد تقديم المسرة على المضرة وقد أحسن من قال: إن من لطف الله بنبيه أن بدأه بالعفو قبل العتب.

فائدة: روي أن أعرابياً قال لابن عمر: أخبرني عن قول الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ فقال ابن عمر: مَنْ كَنَزَهَا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهَا فَوَيْلٌ لَهُ إِنَّمَا كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تُنَزَلَ الزَّكَاةُ فَلَمَّا أُنْزِلَتْ جَعَلَهَا اللَّهُ طَهُورًا لِلْأَمْوَالِ. ثُمَّ التَفَتَ فَقَالَ مَا أَبَالِي لَوْ كَانَ لِي أَحَدُ ذَهَبًا أَعْلَمُ عَدَدَهُ وَأَرْكَبُهُ وَأَعْمَلُ فِيهِ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.^(١)

تنبيه: دلت الآية ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ﴾ على عظيم فضل الصديق وجليل قدره، إذ جعله الله صاحب الرسول في الغار، ورفيقه في الهجرة، ولهذا قال العلماء: من أنكر صحبة أبي بكر فقد كفر لأنه رد كتاب الله تعالى.

لطيفة: عن حيان بن زيد قال: نفرنا مع صفوان بن عمرو، فرأيت شيخاً كبيراً هرمًا، قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار فأقبلت عليه فقلت: يا عم لقد أعذر الله إليك قال: فرفع حاجبيه فقال يا ابن أخي: استغفرنا الله خفاقاً وثقالاً، ألا إنه من يحبه الله يبتليه، ثم يعيده الله فيبقى، وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر، ولم يعبد إلا الله عَزَّ وَجَلَّ.^(٢)

أقول: رحم الله تلك الأنفس الزكية التي باعت أرواحها في مرضاة الله تعالى.

قال الله تعالى:

وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ

(١) رواه ابن ماجه. (ش): وصححه الألباني.

(٢) «الطبري» ١٠/١٣٨.

الْفَلْعِيدِ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضِعُوا لِحُلَاكُمُ الْيَوْمِ لَكُمْ الْفِتْنَةُ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدْ ابْتَعُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلِ وَكَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذُنْ لِي وَلَا نَفْتِنَكَ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِنْ تُصَبِّحْ حَسَنَةً نَسُوهُمْ وَإِنْ تُصَبِّحْ مُصِيبَةً يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا أَحَدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِيَا فَرَبِّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُنَبِّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبَكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَخَذُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَاةِ فَلَوْ لَهُمْ فِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى المنافقين وتباطؤهم عن الخروج للجهاد، ذكر هنا بعض أعمالهم القبيحة من الكيد، والمكر، وإثارة الفتن بين المسلمين، والفرح بأذاهم، وذكر تعالى أنهم لو خرجوا مع المؤمنين ما زادوا الجيش إلا ضعفًا واندحارًا بتفريق الجماعة وتشتيت الكلمة، وذكر كثيرًا من مثالبهم وجرائمهم الشنيعة.

اللغة: ﴿أَنْبَعَاثُهُمْ﴾ الانبعاث: الانطلاق في الأمر ﴿فَتَبَطَّهْمُ﴾ الشيط: رد الإنسان عن الفعل الذي هم به ﴿خَبَالًا﴾ الخبال: الشر والفساد في كل شيء ومنه المخبول للمعتوه الذي فسده عقله ﴿وَلَا وُضِعُوا﴾ الإيضاع: سرعة السير، قال الراجز:

يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَدُّعٌ أَحْبَبُّ فِيهَا وَأَصْعُ^(١)

يقال: وضع البعير إذا أسرع السير، وأوضع الرجل إذا سار بنفسه سيرًا حثيثًا^(٢) ﴿يَجْمَحُونَ﴾ جمع: نفر بإسراع من قولهم فرس جموح أي لا يرده اللجام ﴿يَلْمِزُكَ﴾ اللمز: العيب

(١) (ش): الجَدُّعُ من الرِّجَالِ: الشَّابُّ. الْخَبَبُ: نوع من أنواع سير الفرس بحيث تَمَسُّ أَقْدَامُهَا الْأَرْضَ بِشَكْلِ مَتَابَعٍ.

(٢) «الرازي» ٨١/١٦.

يقال: لمزه إذا غابه قال الجوهري: وأصله الإشارة بالعين ونحوها ورجل لَمَاز أي عَيَاب^(١) ﴿وَالْغَرَمِينَ﴾ الغارم: المديون قال الزجاج: أصل الغرم لزوم ما يشق، والغرام العذاب اللازم الشاق وسمي العشق غراماً لكونه أمراً شاقاً ولازمًا، وسمي الدين غراماً لكونه شاقاً على الإنسان^(٢).

سَبَبُ النُّزُول: «لما أراد ﷺ الخروج إلى تبوك قال للجد بن قيس - وكان منافقاً - يا أبا وهب: هل لك في جلاد بني الأصفر - يعني الروم - تتخذ منهم سراري ووصفاء؟ فقال يا رسول الله: لقد عرف قومي أنني مغرم بالنساء، وإني أخشى إن رأيت بني الأصفر ألا أصبر عنهم فلا تفتني وأذن لي في القعود وأعينك بمالي، فأعرض عنه النبي ﷺ وقال: قد أذنت لك فأنزل الله ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكْفُلُ أَثَدَنَ لِي وَلَا تَفْتِنِي﴾^(٣)» الآية.

التفسير: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ أي ولو أراد هؤلاء المنافقون الخروج معك للجهاد أو كانت لهم نية في الغزو لاستعدوا له بالسلح والزاد، فتركهم الاستعداد دليل على إرادتهم التخلف ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ أي ولكن كره الله خروجهم معك ﴿فَتَبَطَّهْمُ﴾ أي كسر عزمهم وجعل في قلوبهم الكسل ﴿وَقِيلَ أَفَعُدُّوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ أي اجلسوا مع المخلفين من النساء والصبيان وأهل الأعذار، وهو ذم لهم لإيثارهم القعود على الخروج للجهاد، والآية تسلية له ﷺ على عدم خروج المنافقين معه إذ لا فائدة فيه ولا مصلحة بل فيه الاذى والمضرة ولهذا قال ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي لو خرجوا معكم ما زادوكم إلا شراً وفساداً ﴿وَلَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ أي أسرعوا بينكم بالمشي بالنميمة ﴿يَبْغُونَ كُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أي يطلبون لكم الفتنة بإلقاء العداوة بينكم ﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ﴾ أي وفيكم ضعفاء قلوب يصغون إلى قولهم ويطيعونهم^(٤) ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي عالم بالمنافقين علماً محيطاً بضمائرهم وظواهرهم ﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي طلبوا لك الشر بتشتيت شملك وتفريق صحبك عنك من قبل غزوة تبوك كما فعل ابن سلول حين انصرف بأصحابه يوم يوم أحد ﴿وَقَالُوا لَكَ الْأُمُورُ﴾ أي دبوا لك المكائد والحيل وأداروا الآراء في إبطال دينك ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي حتى جاء نصر الله وظهر دينه وعلا على سائر الأديان ﴿وَهُمْ كَرِهُوا﴾ أي والحال أنهم كارهون لذلك لنفاقهم

(١) الصحاح للجوهري.

(٢) «البحر» ٣٥/٥.

(٣) «أسباب النزول» ص ١٤٢. (ش): ضعيف أخرجه الطبراني، والواحد في «أسباب النزول».

(٤) وقال مجاهد: المعنى وفيكم عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم، والمعنى الأول أظهر وهو الأشهر، وإليه ذهب قتادة واختاره ابن كثير.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ أي ومن هؤلاء المنافقين من يقول لك يا محمد ائذن لي في القعود ولا تفتني بسبب الأمر بالخروج قال ابن عباس: نزلت في «الجد ابن قيس» حين دعاه الرسول ﷺ إلى جلاد بني الأصفر، فقال يا رسول الله: ائذن لي في القعود عن الجهاد ولا تفتني بالنساء^(١) ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي ألا إنهم قد سقطوا في عين الفتنة فيما أرادوا الفرار منه، بل فيما هو أعظم وهي فتنة التخلف عن الجهاد وظهور كفرهم ونفاقهم قال «أبو السعود»: وفي التعبير عن الافتتان بالسقوط في الفتنة تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة، المفصحة عن ترددهم في دركات الردى أسفل سافلين^(٢) ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي لا مفر لهم منها لأنها محيطة بهم من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم، وفيه وعيد شديد ﴿إِنْ تُصِيبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ أي إن تصيبك في بعض الغزوات حسنة، سواء كانت ظفراً أو غنيمة، يسؤهم ذلك ﴿وَإِنْ تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ﴾ أي وإن تصيبك مصيبة من نكبة وشدة، أو هزيمة ومكروه يفرحوا به ويقولوا: قد احتطنا لأنفسنا وأخذنا بالحذر واليقظ فلم نخرج للقتال من قبل أن يحل بنا البلاء ﴿وَيَقُولُوا هُمْ فَرِحُوا﴾ أي وينصرفوا عن مجتمعهم وهم فرحون مسرورون^(٣) ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أي لن يصيبنا خير ولا شر، ولا خوف ولا رجاء، ولا شدة ولا رخاء، إلا هو مقدر علينا مكتوب عند الله ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي ناصرنا وحافظنا ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي ليفوض المؤمنون أمورهم إلى الله، ولا يعتمدوا على أحد سواه ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ أي قل لهم هل تنتظرون بنا يا معشر المنافقين إلا إحدى العاقبتين الحميدتين: إما النصر، وإما الشهادة، وكل واحدة منهما شيء حسن!! ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ﴾ يعذاب من عنده أو بأيدينا ﴿أَي وَنَحْنُ نَنْتَظِرُ لَكُمْ أَسْوَ الْعَاقِبَتَيْنِ الْوَحِيمَتَيْنِ: أَنْ يَهْلِكَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ يَسْتَأْصِلُ بِهِ شَأْفَتَكُمْ، أَوْ يَمُوتَ بِيَدِينَا﴾ ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ أي انتظروا ما يحل بنا ونحن ننتظر ما يحل بكم، وهو أمر يتضمن التهديد والوعيد ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ﴾ أي قل لهم انفقوا يا معشر المنافقين طائعين أو مكرهين، فمهما أنفقتم الأموال فلن يتقبل الله منكم قال «الطبري»: وهو أمر معناه الخبر كقوله ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] والمعنى لن يتقبل منكم سواء أنفقتم طوعاً أو كرهاً^(٤) ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ تعليل لرد إنفاقهم أي لأنكم كنتم عتاة متمردين

(١) انظر سبب النزول.

(٢) «أبو السعود» ٢/ ٢٧٥.

(٣) قال «القرطبي»: المعنى يُعرضوا عن الإيمان وهم معجبون بذلك.

(٤) «الطبري» ١٠/ ١٥٢.

خارجين عن طاعة الله، ثم أكد هذا المعنى بقوله ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي وما منع من قبول النفقات منهم إلا كفرهم بالله ورسوله ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ أي ولا يأتون إلى الصلاة إلا وهم متشاقلون ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ أي ولا ينفقون أموالهم إلا بالإكراه لأنهم يعدونها مغرمًا قال في «البحر»: ذكر تعالى السبب المانع من قبول نفقاتهم وهو الكفر واتبعه بما هو مستلزم له وهو إيتائهم الصلاة كسالي، وإيتاء النفقة وهم كارهون، لأنهم لا يرجون بذلك ثوابًا ولا يخافون عقابًا، وذكر من أعمال البر هذين العاملين الجليلين وهما: الصلاة، والنفقة، لأن الصلاة أشرف الأعمال البدنية، والنفقة في سبيل الله أشرف الأعمال المالية^(١) ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي لا تستحسن أيها السامع ولا تفتتن بما أوتوا من زينة الدنيا، وبما أنعمنا عليهم من الأموال والأولاد، فظاهرها نعمة وباطنها نقمة، إنما يريد الله بذلك استدراجهم ليعذبهم بها في الدنيا قال «البيضاوي»: وعذابهم بها بسبب ما يكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب، وما يرون فيها من الشدائد والمصائب^(٢) ﴿وَتَرَهَّقَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أي ويموتوا كافرين مشغولين بالتمتع بزينة الدنيا عن النظر في العاقبة فيشتد في الآخرة عذابهم ﴿وَيُخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لِمَنْكُمُ وَمَا هُمْ بِمِنْكُمْ﴾ أي ويُقسِمون بالله لكم إنهم لمؤمنون مثلكم، وما هم بمؤمنين لكفر قلوبهم ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ أي ولكنهم يخافون منكم أن تقتلوهم كما تقتلون المشركين، فيُظهرون الإسلام تقية ويؤيدونه بالأيمان الفاجرة ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً﴾ أي حصناً يلجأون إليه ﴿أَوْ مَغْرَبًا﴾ أي سرايب يختفون فيها ﴿أَوْ مَدْخَلًا﴾ أي مكاناً يدخلون فيه ولو ضيقاً ﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي لأقبلوا إليه يسرعون إسرعاً كالفرس الجموح، والمراد من الآية تنبيه المؤمنين إلى أن المنافقين لو قدروا على الهروب منهم ولو في شر الأمكنة وأخسها لفعلوا لشدة بغضهم لكم فلا تغتروا بأيمانهم الكاذبة أنهم معكم ومنكم ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ أي ومنهم من يعيبك يا محمد في قسمة الصدقات ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا﴾ أي فإن أعطيتهم من تلك الصدقات استحسنوا فعلك ﴿وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ أي وإن لم تعطهم منها ما يرضيهم سخطوا عليك وعابوك قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ يقسم غنائم حنين فجاء إليه رجل من المنافقين يقال له «ذو الخويصرة» فقال: اعدل يا محمد فإنك لم تعدل فقال ﷺ: «وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدُلُ

(١) «البحر» المحيط ٥/ ٥٣.

(٢) «البيضاوي» ص ٢٢٦.

إِنْ لَمْ أَعْدِلْ؟^(١)، الحديث^(٢). ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أي ولو أن هؤلاء الذين عابوك يا محمد رضوا بما أعطيتهم من الصدقات وقنعوا بتلك القسمة وإن قلت قال «أبو السعود»: وذكر الله عزَّ وجلَّ للتعظيم والتنبيه على أن ما فعله الرسول كان بأمره سبحانه^(٣) ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ أي كفانا فضل الله وإنعامه علينا ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ أي سيرزقنا الله صدقة أو غنيمة أخرى خيراً وأكثر مما آتانا ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ أي إنا إلى طاعة الله وإفضاله وإحسانه لراغبون، وجواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوف تقديره لكان خيراً لهم قال «الرازي»: وترك الجواب في هذا المعرض أدل على التعظيم والتهويل وهو كقولك للرجل: لو جئتنا. ثم لم تذكر الجواب أي لو فعلت ذلك لرأيت أمراً عظيماً^(٤)، ثم ذكر تعالى مصرف الصدقات فقال ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ قال «الطبري»: أي لا تنال الصدقات إلا للفقراء والمساكين ومن سماهم الله جل ثناؤه^(٥) والآية تقتضي حصر الصدقات وهي الزكاة في هذه الأصناف الثمانية فلا يجوز أن يعطى منها غيرهم، والفقير الذي له بُلغة من العيش، والمساكين الذي لا شيء له قال يونس: سألت اعرابياً أفقير أنت؟ فقال: لا والله بل مسكين، وقيل: المسكين أحسن حالاً من الفقير، والمسألة خلافية ﴿وَالْعَمَلِينَ عَلَيْهِم﴾ أي الجُباة الذين يجمعون الصدقات ﴿وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ﴾ هم قوم من أشرف العرب أعطاهم ﷺ ليتألف قلوبهم على الإسلام، وروى «الطبري» عن صفوان بن أمية قال: وَاللَّهِ لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- مَا أَعْطَانِي وَإِنَّهُ لَأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ فَمَا زَالَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ^(٦) ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ أي وفي فك الرقاب لتخليصهم من الرق ﴿وَالْأَعْرَمِينَ﴾ أي المديونين الذين أثقلهم الدين ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي المجاهدين والمرابطين وما تحتاج إليه الحرب من السلاح والعتاد ﴿وَأَنزِلِ السَّيْلَ﴾ أي الغريب الذي انقطع في سفره ﴿فَرِيضَةً مِّنْكَ اللَّهُ﴾ أي

(١) «روح المعاني» ١٠/١١٩.

(٢) (ش): عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ بَيَّنَّا النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- يَقْسِمُ ذَاتَ يَوْمٍ قِسْماً فَقَالَ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ - رَجُلٌ مِّنْ بَنِي تَمِيمٍ - يَا رَسُولَ اللَّهِ اعْدِلْ . قَالَ « وَبِئْسَ مَا يَفْعَلُ إِذَا لَمْ يَأْمُرْ بِهِ » . (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ) . وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- بِالْجَعْرَانَةِ وَهُوَ يَقْسِمُ التَّبَرَّ وَالْعَنَائِمَ وَهُوَ فِي حَجَرٍ بَلَاكٍ فَقَالَ رَجُلٌ اعْدِلْ يَا مُحَمَّدُ فَإِنَّكَ لَمْ تَعْدِلْ . فَقَالَ « وَبِئْسَ مَا يَفْعَلُ إِذَا لَمْ يَأْمُرْ بِهِ » . (رواه ابن ماجه ، وصححه الألباني).

(٣) «أبو السعود» ٢/٢٧٧.

(٤) «الرازي» ١٦/٩٩.

(٥) ١٠/١٥٧. (ش): الذي في تفسير «الطبري» بتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر: «ما الصدقات إلا للفقراء والمساكين، ومن سماهم الله جل ثناؤه». وقال الشيخ أحمد شاكر: «في المطبوعة: «لا ينال الصدقات»، وهو كلام غير مستقيم، والصواب ما كان في المخطوطة».

(٦) «الطبري» ١٠/١٦٢. (ش): رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ.

فرضها الله جل وعلا وحددها ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بمصالح العباد، حكيم لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة قال في «التسهيل»: وإنما حصر مصرف الزكاة في تلك الأصناف ليقطع طمع المنافقين فيها فاتصلت هذه في المعنى بآية اللز في الصدقات^(١).
البلاغة: ١ - ﴿لَاَعْدُوْا لَهُ عُدَّةٌ﴾ بينهما جناس الاشتقاق وكذلك في قوله ﴿اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾.

٢ - ﴿وَلَا تَوَضَّعُوا خِلَالَكُمْ﴾ قال الطيبي: فيه استعارة تبعية حيث شبه سرعة إفسادهم ذات البين بالنميمة بسرعة سير الراكب ثم استعير لها الإيضاع وهو للإبل، والأصل ولأوضاعوا ركائب نمائمهم خلالكم^(٢).

٣ - ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ فيه استعارة حيث شبه وقوعهم في جهنم بإحاطة العدو بالجند أو السوار بالمعصم، وإيثار الجملة الإسمية للدلالة على الثبات والاستمرار.

٤ - ﴿إِنْ تُصِيبْكَ حَسَنَةٌ تَسُوءْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ..﴾ الآية فيها من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة.

٥ - ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَايَ تَوَكَّلْ﴾ تقديم الجار والمجرور على الفعل لإفادة القصر، وإظهار الاسم الجليل مكان الاضممار لترية الروعة والمهابة.

٦ - ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ بينهما طباق وكذلك بين الرضا والسخط في قوله ﴿رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾.

٧ - ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ صيغة فعيل للمبالغة أي عظيم العلم والحكمة.
لطيفة: قال الزمخشري في قوله تعالى ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ هذا ذم لهم وتعجيز وإلحاق بالنساء والصبيان والزمنى الذين شأنهم القعود والجثوم في البيوت^(٣) على حد قول القائل:

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبُعْثِهَا وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي^(٤)
تنبيه: قال ابن كثير: لما قدم النبي ﷺ المدينة رمته العرب عن قوسٍ واحدة، وحاربتة يهود

(١) التسهيل ٧٩/٢.

(٢) «روح المعاني» ١١٢/١٠.

(٣) «الكشاف» ٣٧٦/٢. (ش): الزَّمنَى: الزَّمنُ: من طال مرضه ودام زمانًا طويلًا أو ضعف بكبر سنٍّ أو طول علة. جثم الشخص جثومًا: لزِم مكانه فلم يبرح.

(٤) (ش): في البيت أمران (دع، واقعد) يُراد منهما التوبيخ، أو التحضيض. فالطَّاعِمُ الْكَاسِي، أي المَطْعُومُ الْمَكْسُوفُ. أي من كُفِّي طعامه وكسائه، فاكتفى ولم يسع للمكارم. والمكارم لا ينالها إلا مَنْ رَحَلَ في طلبها، ولا ينالها المقيم في منزله.

المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته قال ابنُ أبي وأصحابه: هذا أمر قد توجه - يعني أقبل - فدخلوا في الإسلام ظاهراً، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله، أغاظهم ذلك وساءهم ولهذا قال تعالى ﴿وَبَدَّلَ اللَّهُ أَمْرَهُمْ كَيْدَهُمْ﴾ (١).

قال الله تعالى:

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ
لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) يَخْلِفُونَ
بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا
أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَبْدَلَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣)
يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُخْرِجُ
مَا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَلَعَبٌ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ
وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ
نَعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَمُرُّونَ
بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ
هُمْ أَفْسِسُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ
حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً
وَكَثَرَ أَمْوَالُهُمْ وَأُولَدًا فَاسْتَغْنَوْا فَاخْلَفَهُمْ فَاسْتَمْتَعَتْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضُّوا كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ
وقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَنَّ هُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ
لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠) وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَمُرُّونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢) يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَطَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ
الْمَصِيرُ (٧٣) يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ
يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَوُوا يَعَذِّبُهُمُ
اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤)

المناسبة: لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن المنافقين توضيحاً لخطرهم، وتحذيراً

للمؤمنين من مكائدهم، وفي هذه الآيات ذكر تعالى نوعاً آخر من قبائحهم، وهو إيذاؤهم للرسول ﷺ، وإقدامهم على الإيمان الكاذبة، واستهزاءهم بآيات الله وشريعته المطهرة، إلى غير ما هنالك من الأعمال المنكرة، والأفعال الخبيثة.

اللغة: ﴿أُذُنٌ﴾ قال الجوهري: قال رجل أذن إذا كان يسمع مقال كل أحد، يستوي فيه الواحد والجمع^(١) وقال الزمخشري: الأذن: الرجل الذي يصدق كل ما يسمع، ويقبل قول كل أحد، سمي بالجارحة التي هي آلة السماع^(٢). قال الشاعر:

قَدْ صِرْتُ أُذُنًا لِلْوُشَاةِ سَمِيعَةً يَنَالُونَ مِنْ عَرَضِي وَلَوْ شِئْتُ مَا نَالُوا^(٣)

﴿يُحَادِدُ﴾ المحادة: المخالفة والمعاداة كالمشاقة وهي أن يكون كل واحد من المتخاصمين في حد وشق غير ما عليه صاحبه ﴿يَخْلِقُهُمُ﴾ الخلاق: النصيب كقوله ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠] وقد تقدم ﴿وُخْضُمُ﴾ الخوض: الدخول في اللهو والباطل وهو مستعار من الخوض في الماء ﴿حِطَّتْ﴾ بطلت وذهب ثوابها ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةِ﴾ الالتفاف: الانقلاب ويراد بهم قوم لوط لأن أرضهم اتكفت بهم أي انقلبت، وقيل هو مجاز عن انقلاب حالها من الخير إلى الشر كقول ابن الرومي:

وَمَا الْخَسْفُ أَنْ تَلْقَى أَسَافِلَ بِلْدَةٍ بَلْ أَنْ يَسُودَ الْأَرَاذِلُ^(٤)

سَبَبُ النَّزُول: أ - كان جماعة من المنافقين يؤذون رسول الله ويقولون فيه ما لا ينبغي، فقال بعضهم: لا تفعلوا فإننا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع بنا، فقال «الجلال بن سويد»: نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول فإنما محمد أذن سامعة فأنزل الله ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذنٌ قُلْ أذنٌ...﴾^(٥).

ب - قال مجاهد: كان المنافقون يعيبون رسول الله ﷺ فيما بينهم ثم يقولون عسى الله أن لا يفشي سرنا فأنزل الله ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ...﴾^(٦) الآية.

التفسير: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ أي ومن المنافقين أناس يؤذون الرسول بأقوالهم وأفعالهم ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أذنٌ﴾ أي يصدق بكل خبر يسمعه ﴿قُلْ أذنٌ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي هو أذن خير لا أذن شر، يسمع الخير فيعمل به، ولا يعمل بالشر إذا سمعه ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ

(١) الصحاح للجوهري.

(٢) «الكشاف» ٢/ ٢٨٤.

(٣) (ش): الواشي: النمام.

(٤) (ش): أرذل: دون خسيس رديء.

(٥) «أسباب النزول» ص ١٤٣. (ش): ذكره الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.

(٦) «زاد المسير» ٣/ ٤٦٣. (ش): ضعيف؛ لا نقطاعه، ذكره الواحدي في «أسباب النزول» عن مجاهد.

لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ أَي يَصَدِّقُ اللَّهُ فيما يقول، ويصدق المؤمنين فيما يخبرونه به لعلمه بإخلاصهم ﴿وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ أي وهو رحمة للمؤمنين لأنه كان سبب إيمانهم ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي والذين يعيبون الرسول ويقولون ما لا يليق بجناحه الشريف لهم عذاب موجه في الآخرة ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ﴾ أي يحلفون لكم أنهم ما قالوا شيئاً فيه انتقاص للرسول ليرضوكم بتلك الأيمان ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ أي والحال أنه تعالى ورسوله أحق بالإرضاء، ولا يكون ذلك إلا بالطاعة، والمتابعة، وتعظيم أمره عليه السلام ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن كانوا حقاً مؤمنين فليَرْضُوا الله ورسوله ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنِ يُكَادِرِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي ألم يعلم هؤلاء المنافقون أنه من يعادي ويخالف الله والرسول، والاستفهام للتوبيخ ﴿فَأَن تَأْرَ جَهَنَّمَ خَلِيداً فِيهَا﴾ أي فقد حق دخوله جهنم وخلوده فيها ﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ أي ذلك هو الذل العظيم، والشقاء الكبير، المقرون بالفضيحة حيث يفتضحون على رءوس الأشهاد ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي يخشى المنافقون أن تنزل فيهم سورة تكشف عما في قلوبهم من النفاق ﴿قُلِ اسْتَزِرُوا﴾ أي استهزئوا بدين الله كما تشتهون وهو أمر للتهديد كقوله ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ أي مظهر ما تخفونه وتحذرون ظهوره من النفاق، قال الزمخشري: كانوا يستهزئون بالإسلام ويحذرون أن يفضحهم الله بالوحي، حتى قال بعضهم: والله لا أرانا إلا شر خلق الله، ولوددت أني جلدت مائة جلدة ولا ينزل فينا شيء يفضحنا^(١) ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ أي ولئن سألت يا محمد هؤلاء المنافقين عما قالوا من الباطل والكذب، في حقك وفي حق الإسلام، ليقولون لك ما كنا جادين، وإنما كنا نمزح ونلعب للترويح عن النفس قال «الطبري»: بينا^(٢) رسول الله ﷺ يسير في غزوته إلى تبوك وبين يديه ناس من المنافقين، فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونها هيهات هيهات!! فأطلع الله نبيه فاتاهم فقال: قلتم كذا وكذا فقالوا يا نبي الله: إنما كنا نخوض ونلعب فنزلت^(٣) ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ

(١) «الكشاف» ٢/ ٢٨٦.

(٢) (ش): بينا: بينما.

(٣) هذه رواية قتادة كذا في «الطبري». (ش): ضعيف؛ لانقطاعه، ذكره الواحدي في «أسباب النزول» عن قتادة. وعن عبد الله بن عمر قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يوم: ما رأيته مثل قرائتنا هؤلاء أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عند اللقاء - يعني رسول الله ﷺ وأصحابه - فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكيئك متافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ونزل القرآن قال عبد الله: فأنأ رأيته متعلقا بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة وهو يقول: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، ورسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾. (حسن، رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير في «جامع البيان» =

تَسْتَهْزِئُونَ ﴿١﴾ أَي قُلْ لِهَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ: أَتَسْتَهْزِئُونَ بِدِينِ اللَّهِ وَشَرْعِهِ، وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ؟ وَالِاسْتِفْهَامُ لِلتَّوْبِخِ، ثُمَّ كَشَفَ تَعَالَى أَمْرَهُمْ وَفَضَحَ حَالَهُمْ فَقَالَ ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أَي لَا تَعْتَذِرُوا بِتِلْكَ الْإِيمَانِ الْكَاذِبَةِ فَإِنَّمَا لَا تَنْفَعُكُمْ بَعْدَ ظُهُورِ أَمْرِكُمْ، فَقَدْ أَظْهَرْتُمْ الْكُفْرَ بِإِذَاءِ الرَّسُولِ بَعْدَ إِظْهَارِكُمُ الْإِيمَانَ ﴿إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ﴾ أَي إِنْ نَعَفَ عَنْ فَرِيقٍ مِنْكُمْ لِتَوْبَتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ ﴿نُعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أَي نَعَذِّبُ فَرِيقًا آخَرَ لِأَنَّهُمْ أَصْرُوا عَلَى النِّفَاقِ وَالْإِجْرَامِ ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ أَي الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ صَنَفٌ وَاحِدٌ، وَهُمْ مُتَشَابِهُونَ فِي النِّفَاقِ وَالْبَعْدِ عَنِ الْإِيمَانِ، كَتَشَابُهٍ أَجْزَاءِ الشَّيْءِ الْوَاحِدِ قَالَ فِي «الْكَشَافِ»: وَأَرِيدُ بِقَوْلِهِ ﴿بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ نَفْيَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَكْذِيبَهُمْ فِي قَوْلِهِمْ ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦] ^(١) ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِمَا يَدُلُّ عَلَى مَخَالَفَةِ حَالِهِمْ لِحَالِ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ أَي يَأْمُرُونَ بِالْكَفْرِ وَالْمَعَاصِي وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أَي يُمْسِكُونَ أَيْدِيَهُمْ عَنِ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِوهُمْ﴾ أَي تَرَكُوا طَاعَتَهُ فَتَرَكَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ وَجَعَلَهُمْ كَالْمَنْسِيِّينَ ^(٢) ﴿إِنَّكَ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أَي الْكَامِلُونَ

= وقال الشيخ مقبل بن هادي في «الصحيح المسند من «أسباب النزول» (ص: ١٠٩): الحديث رجاله رجال الصحيح إلا هشام بن سعد فلم يخرج له مسلم إلا في الشواهد، وأخرجه «الطبري» وله شاهد بسند حسن عند ابن أبي حاتم. «الحَقَّبُ: حَبْلٌ يُشَدُّ بِهِ الرَّحْلُ فِي بَطْنِ الْبَعِيرِ. تَنَكُّبُهُ الْحَجَارَةُ: تَصْبِيهِ وَتَوَذُّيهِ.

(١) «الْكَشَافُ» ٢/ ٢٨٧.

(٢) (ش): للنسيان معنيان: أحدهما: الذهول عن شيء معلوم مثل قوله تعالى: (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) البقرة / ٢٨٦. وهذا المعنى للنسيان منتف عن الله عز وجل بالدليلين السمعي، والعقلي. أما السمعي: فقوله تعالى عن موسى: ﴿قَالَ عَلِمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥٢]. وأما العقلي: فإن النسيان نقص، والله تعالى منزّه عن النقص، موصوف بالكمال، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠]. وعلى هذا فلا يجوز وصف الله بالنسيان بهذا المعنى على كل حال. والمعنى الثاني للنسيان: التَّركُ عن علم وعمد، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤]. وهذا المعنى من النسيان ثابت لله تعالى عز وجل قال الله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ [السجدة: ١٤]. وقال تعالى في المنافقين: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِوَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧]. في صحيح مسلم أن الله لَا يَلْقَى الْعَبْدَ يَقُولُ لَهُ: أَفْظَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيٌّ يَقُولُ لَا. يَقُولُ فَإِنِّي أَنَسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي. وتركه - للشيء صفة من صفاته الفعلية الواقعة بمشيئته التابعة لحكمته، قال الله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧]. وقال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: ٩٩]. وقال: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً﴾ [العنكبوت: ٣٥]. والنصوص في ثبوت الترك وغيره من أفعاله المتعلقة بمشيئته كثيرة معلومة، وهي دالة على كمال قدرته وسلطانه. وقيام هذه الأفعال به سبحانه لا يماثل قيامها بالمخلوقين، وإن شاركه في أصل المعنى، كما هو معلوم عند أهل السنة. باختصار من «فتاوى الشيخ ابن عثيمين» (١/ ١٧٢-١٧٤).

في التمرّد والعصيان، والخروج عن طاعة الرحمن، وكفى به زجراً لأهل النفاق ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أي وعد الله المنافقين والمتجاهرين بالكفر بإصلاّتهم في نار جهنم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أي هي كفايتهم في العذاب، إذ ليس هناك عذاب يعادلها ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي أبعدهم من رحمته وأهانهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي دائم لا ينقطع ﴿كَالَّذِينَ﴾ من قبلكم كانوا يا معشر المنافقين كحال من سبقكم من المكذبين، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً﴾ أي كانوا أقوى منكم أجساماً وأشدّ بطشاً ﴿وَأَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَدًا﴾ أي وكانوا أوفر أموالاً، وأكثر أولاداً، ومع ذلك أهلكهم الله فاحذروا أن يحل بكم ما حل بهم ^(١) ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ﴾ أي تمتعوا بنصيبيهم وحظهم من ملاذ الدنيا ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ﴾ أي استمتعتم بملاذ الدنيا وشهواتها كما استمتع أولئك الذين سبقوكم بنصيبيهم منها ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ أي وخضتم في الباطل والضلال كما خاضوا هم فيه قال «الطبري»: المعنى سلكتم أيها المنافقون سبيلهم في الاستمتاع بالدنيا كما استمتع الأمم الذين كانوا من قبلكم، وخضتم في الكذب والباطل على الله كخوض تلك الأمم قبلكم، فاحذروا أن يحل بكم من عقوبة الله مثل الذي حل بهم ﴿أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من قبيح الفعال ذهبت أعمالهم باطلاً فلا ثواب لها إلا النار ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي وأولئك هما الكاملون في الخسران ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي ألم يأت هؤلاء المنافقين خبر الأمم السابقين حين عصوا الرسل ماذا حلّ بهم من العقوبة؟ ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ﴾ أي قوم نوح الذين أهلكوا بالطوفان وقوم هود «عاد» الذين أهلكوا بالريح، وقوم صالح «ثمود» الذين أهلكوا بالصيحة ﴿وقوم إبراهيم﴾ الذين أهلكوا بسلب النعمة ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ قوم شعيب الذين أهلكوا بعذاب يوم الظلة ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾ قرى قوم لوط الذين انقلبت بهم فصار عاليها سافلها، وأمطروا حجارة من سجيل ﴿أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي جاءتهم رسلمهم بالمعجزات فكذبوهم ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي فما أهلكهم الله ظلماً إنما أهلكهم بإجرامهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي ولكن ظلّموا أنفسهم بالكفر وارتكاب المعاصي، أفأمن هؤلاء المنافقون أن يُسلّك بهم في الانتقام سبيل أسلافهم المكذبين من أهل الإجماع؟ ولما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة أعقبها بذكر صفات المؤمنين الحميدة فقال ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي هم إخوان في الدين يتناصرون ويتعاضدون ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي يأمرّون الناس بكل خيرٍ وجميلٍ يرضي الله،

وينهونهم على كل قبيح يسخط الله، فهم على عكس المنافقين الذين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي يؤدونها على الوجه الكامل ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي يعطونها إلى مستحقيها ابتغاء وجه الله ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي في كل أمر ونهي ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ أي سيدخلهم في رحمته، ويفيض عليهم جلائل نعمته ^(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي غالب، لا يغلب من أطاعه ولا يُدْثَلُ من عصاه ﴿حَكِيمٌ﴾ أي يضع كل شيء في موضعه على أساس الحكمة، في النعمة والنقمة ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي وعدهم على إيمانهم بجنت وارفة الظلال، تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي لا بشين فيها أبداً، لا يزول عنهم نعيمها ولا يبید ﴿وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أي ومنازل يطيب فيها العيش في جنات الخلد والاقامة قال الحسن: هي قصور من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزرجد ^(٢) ﴿وَرِضْوَانٍ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرَ﴾ أي وشيء من رضوان الله أكبر من ذلك كله، وفي الحديث يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ. فَيَقُولُونَ لَنَبِّكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ. فَيَقُولُ هَلْ رَضِيتُمْ فَيَقُولُونَ وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبَّ وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ نَعْطُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ فَيَقُولُ أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُونَ يَا رَبَّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أُسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا ^(٣) ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي ذلك هو الظفر العظيم الذي لا سعادة بعده ﴿يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ قال ابن عباس: جاهد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان ﴿وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ﴾ أي اشدد عليهم بالجهاد والقتال والإرعاب ^(٤) ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي مسكنهم ومشواهم جهنم ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي بئس المكان الذي يصار إليه جهنم ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ أي يحلف المنافقون أنهم ما قالوا الذي بلغك عنهم من السب قال قتادة: نزلت في عبد الله بن أبي، وذلك أنه اقتتل رجلاً من جهني وأنصاري، فعلا الجهني على الأنصاري، فقال ابن سلول للأنصار: ألا تنصرون أحاكم؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل «سَمَنْ كَلْبِكَ يَا كَلْبُكَ» فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ فأرسل إليه يسأله فجعل يحلف بالله ما قاله فأنزل الله فيه هذه الآية ^(٥) ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ هي قول ابن سلول «لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ» «وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ» أي أظهروا الكفر بعد إظهار الإسلام «وَهُمُومُوا

(١) (ش): جلائل النعم: النعم العظيمة الشأن أو القدر.

(٢) «الكشاف» ٢/ ٢٨٩.

(٣) «الطبري» ١٠/ ١٨٢ والحديث في الصحاح. (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٤) (ش): أَرَعَبَ العدوَّ: خَوَّفَهُ وَأَفْزَعَهُ.

(٥) «محاسن التأويل» ٨/ ٣٢٠٤. (ش): ضعيف؛ لانقطاعه، ذكره الواحدي في «أسباب النزول» عن قتادة.

يَمَّا لَمْ يَنَالُوا ﴿١﴾ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: هُمْ نَفَرٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ هَمُّوا بِالْفِتْكَ بِالنَّبِيِّ ﷺ عِنْدَ عَوْدَتِهِ مِنْ تَبَوُّكَ وَكَانُوا بِضَعَةِ عَشْرِ رَجُلًا ﴿٢﴾ ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أَيُّ مَا عَابُوا عَلَى الرَّسُولِ وَمَا لَهُ عِنْدَهُمْ ذَنْبٌ إِلَّا أَنْ اللَّهُ أَغْنَاهُمْ بِبَرَكَتِهِ، وَيُؤْمِنُ سَعَادَتُهُ، وَهَذِهِ الصَّيْغَةُ تُقَالُ حَيْثُ لَا ذَنْبَ.. ثُمَّ دَعَاهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى التَّوْبَةِ فَقَالَ ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أَيُّ فَإِنْ يَتُوبُوا عَنْ النِّفَاقِ يَكُنْ رَجُوعُهُمْ وَتَوْبَتُهُمْ خَيْرًا لَهُمْ وَأَفْضَلُ ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا﴾ أَيُّ يَعْرِضُوا وَيَبْصُرُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أَيُّ يَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أَيُّ فِي الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالنَّارِ وَسَخَطِ الْجَبَّارِ ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أَيُّ لَيْسَ لَهُمْ مَنْ يَنْقُذُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ، أَوْ يَشْفَعُ لَهُمْ فَيُخَلِّصُهُمْ وَيُنْجِيهِمْ يَوْمَ الْحِسَابِ.

البَلَاغَةُ: ١ - ﴿هُوَ أَذُنٌ﴾ أَصْلُهُ هُوَ كَالْأَذْنِ يَسْمَعُ كُلُّ مَا يُقَالُ لَهُ، فَحُذِفَ مِنْهُ أَدَاةُ التَّشْبِيهِ وَوُجِهُ الشَّبهِ فَصَارَ تَشْبِيهًا بَلِيغًا مِثْلَ زَيْدٍ أَسَدَ.

٢ - ﴿يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أَبْرَزَ اسْمَ الرَّسُولِ وَلَمْ يَأْتِ بِهِ ضَمِيرًا ﴿يُؤْذُونَهُ﴾ تَعْظِيمًا لِشَأْنِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجَمْعًا لَهُ بَيْنَ الرَّتْبَتَيْنِ الْعَظِيمَتَيْنِ «النُّبُوَّةُ وَالرِّسَالَةُ» وَإِضَافَةً إِلَيْهِ زِيَادَةً فِي التَّكْرِيمِ وَالتَّشْرِيفِ^(١).

٣ - ﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ الْإِشَارَةُ بِالْبَعِيدِ عَنِ الْقَرِيبِ لِلإِذْنَانِ بَعْدَ دَرَجَتِهِ فِي الْهَوْلِ وَالْفُظَاعَةِ.

٤ - ﴿وَيَقْصُوتُ أَيْدِيهِمْ﴾ قَبْضُ الْيَدِ كُنَايَةً عَنِ الشَّحِّ وَالْبَخْلِ، كَمَا أَنَّ بَسْطَهَا كُنَايَةً عَنِ الْجُودَةِ وَالْكَرَمِ.

٥ - ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ مِنْ بَابِ الْمَشَاكِلَةِ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَنْسَى أَيُّ تَرَكَوْا طَاعَتَهُ فَتَرَكَهُمْ تَعَالَى مِنْ رَحْمَتِهِ.

٦ - ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ الْإِنْفَاتُ مِنَ الْغِيَّةِ إِلَى الْخُطَابِ لَزِيَادَةِ التَّقْرِيعِ وَالْعِتَابِ.

٧ - ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ...﴾ الْآيَةُ فِيهِ إِطْنَابٌ وَالْغَرَضُ مِنْهُ الذَّمُّ وَالتَّوْبِيخُ لِاسْتِغْلَالِهِم بِالْمَتَاعِ الْخَسِيسِ، عَنْ الشَّيْءِ الْنَفِيسِ.

٨ - ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ...﴾ فِي الْآيَةِ تَأْكِيدُ الْمَدْحِ بِمَا يَشْبَهُ الذَّمَّ عَلَى حَدِّ قَوْلِ الْقَائِلِ «وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سَيُوفَهُمْ» الْبَيْتُ^(٢).

(١) (ش): ضَعِيفٌ؛ لَانْقِطَاعِهِ، ذَكَرَهُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» وَالْوَاحِدِيُّ فِي «أَسْبَابِ النُّزُولِ» عَنْ الضَّحَّاكِ.

(٢) أَفَادَهُ فِي «الْبَحْرِ» ٦٣/٥.

(٣) (ش): قَالَ الشَّاعِرُ:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سَيُوفَهُمْ
بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ
فُلُولٌ: جَمْعُ فُلٍّ وَهُوَ ثَلَمٌ، يَصِيبُ حَدَّ السِّيفِ مِنَ الضَّرْبِ الشَّدِيدِ بِهِ. يُقَالُ: ثَلَمَ السِّيفُ: ضَعُفَ حَدُّهُ. الْقِرَاعُ: التَّقَاتِلُ ضَرْبًا بِالسُّيُوفِ وَالرَّمَاكِ، وَالْكَتَائِبُ: الْجِيُوشُ الْمُحَارِبَةُ. كَأَنَّهُ يَقُولُ: إِنْ كَانَ فُلُولُ السِّيفِ مِنَ الْقِرَاعِ عَيْبًا فَإِنَّهُمْ ذَوُّو عَيْبٍ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا عَيْبًا فَلَيْسَ فِيهِمْ عَيْبٌ الْبَتَّةَ لِأَنَّهُ لَا شَيْءَ سِوَى هَذَا.

فَائِدَةٌ: روى ابن كثير عن علي كرم الله وجهه قال: بُعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف: سيف للمشركين ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿قَتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩] وسيف لأهل الكتاب ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ وسيف للمنافقين ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ وسيف للبغاة ﴿فَقَاتِلُوا آلِي بَغْيٍ حَتَّى يُفَىَ إِلَيَّ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] (١).

لطيفة: قال الإمام الفخر: لما وصف تعالى المؤمنين بكون بعضهم أولياء بعض، ذكر بعده خمسة أمور بها يتميز المؤمن، عن المنافق، فالمنافق يأمر بالمنكر، وينهى عن المعروف، ولا يقوم إلى الصلاة إلا بكسل، ويبخل بالزكاة وسائر الواجبات، وإذا أمر بالمسارعة إلى الجهاد فإنه يتخلف ويشط غيره، والمؤمن بالضد منه فإنه يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويؤدي الصلاة على الوجه الأكمل، ويؤتي الزكاة، ويسارع إلى طاعة الله ورسوله، ولهذا قابل تعالى بين صفات المؤمنين، وصفات المنافقين بقوله ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ كما يقابل في الجزاء بين نار جهنم والجنة فكانت مقابلة لطيفة (٢).

قال الله تعالى:

وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِقَافًا فِي يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْنُوكَ لِخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تَعْجِبْ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَ بِهِمُ الْدُنْيَا وَيَرْزُقَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنَكَ أُولُو الطَّلَاقِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ

(١) «المختصر» ١٥٦/٢.

(٢) تفسير «الرازي» ١٦/١٣٠ بشيء من التصريف.

مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُوْنَ ﴿٨٧﴾ لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَوْلِيَّائِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِمْدَ مَا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴿٩٣﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٤﴾

المناسبة: لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن المنافقين، وتفضح أسرارهم، وتكشف أحوالهم، باعتبار خطرهم الداهم عن الإسلام والمسلمين.

اللغة: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ قال الليث: يقال أعقت فلاناً ندامة إذا صارت عاقبة أمره ذلك، ويقال: أكل أكلة أعقبته سقماً أي حصل له بها السقم قال الهذلي:

أَوْدَى^(١) بَنِي وَأَعْقَبُونِي حَسْرَةً بَعْدَ الرُّقَادِ وَعَبْرَةً لَا تُقْلَعُ^(٢)

﴿سِرَّهُمْ﴾ السر: ما ينطوي عليه الصدر ﴿وَنَجَوْنَهُمْ﴾ النجوى: ما يكون بين شخصين أو أكثر من الحديث مأخوذ من النجوة وهو الكلام الخفي، كأن المتناجين منعاً إدخال غيرهما معهما ﴿يَلْمِزُونَ﴾ يعيبون واللمز: العيب ﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾ المخلف، المتروك الذي تخلف عن الجهاد ﴿الطَّوَلُ﴾ الغنى ﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾ جمع مُعَذِّرٌ كمقصر وهو الذي يعتذر بغير عذر قال الجوهري: هو الذي يعتذر بالكذب^(٣) وأصله من العذر وفي الأمثال «أعذر من أنذر» أي بالغ في العذر من تقدم إليك فأندرك.

سَبَبُ النُّزُول: أ - «روي أن رجلاً يسمى ثعلبة جاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: ادع الله أن يرزقني مالاً فقال: ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره، خير من كثير، لا تطيقه، فقال: والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله أن يرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه، فلم يزال يراجعه حتى دعا له، فاتخذ غنماً فتمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل وادياً من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما، ثم نمت وكثرت حتى ترك الجمعة والجماعة، فسأل رسول الله ﷺ عنه فأخبروه يخبره فقال: يا ويح ثعلبة ثلاثاً،

(١) (ش): أَوْدَى: هَلَكَ.

(٢) «الرازي» ١٤٢/١٦.

(٣) «القرطبي» ٨/٢٢٥.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾. الآية^(١)» فهل لك في خلافة عثمان.

ب - عن ابن عمر قال: «لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فقال يا رسول الله: أعلى عدو الله تصلي؟ فقال: «أَخْرَجَنِي يَا عُمَرُ. إِنِّي خَيْرْتُ فَأَخْرَجْتُ قَدْ قِيلَ لِي ﴿أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الآية لَوْ أَعْلَمْتُ أَنِّي لَوْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ غُفْرَةً لَهُ لَزِدْتُ»، ثم صلى عليه ومشى معه وقام على قبره فما كان إلا يسيراً حتى أنزل الله ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا...﴾ [التوبة: ٨٤]^(٢) الآية.

التفسير: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ أي ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه ﴿لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي لئن أعطانا الله من فضله ووسع علينا في الرزق ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي لنصدقن على الفقراء والمساكين، ولنعملن فيها بعمل أهل الخير والصلاح ﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي فلما رزقهم الله وأغناهم من فضله ﴿بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ أي بخلوا بالإنفاق ونقضوا العهد وأعرضوا عن طاعة الله ورسوله ﴿فَأَعَقَبَهُمُ النَّفَاقُ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ أي جعل الله عاقبتهم رسوخ النفاق في قلوبهم إلى يوم لقاء الله ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ أي بسبب إخلافهم ما عاهدوا الله عليه من الصدق والصلاح ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ أي وبسبب كذبهم في دعوى الإيمان والإحسان ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتفريع أي ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن الله يعلم أسرارهم وأحوالهم ما يخفونه في صدورهم، وما يتحدثون به بينهم؟ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمُ

(١) «أسباب النزول» ١٤٥ وهذا الذي ذكره المفسرون غير: «ثعلبة بن أبي حاطب» الصحابي المشهور، وإنما هذا رجل من المنافقين يسمى ثعلبة والله أعلم.

(ش): القصة التي ذكرها المؤلف عن «أسباب النزول» للواحدى إسنادها ضعيف جداً. تنبيه: إذا ثبت لرجل أو لامرأة الصحبة فلا يمكن أن يقبل لمزاة بالنفاق إلا بإسناد صحيح، ولهذا لا يصح قول من قال: إن ثعلبة بن حاطب الأنصاري - رضي الله عنه - وهو ممن شهد غزوة بدر - هو المقصود بقوله - عز وجل -: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (التوبة: ٧٥). وهذه القصة - التي يذكرها كثير من الخطباء في أثناء حديثهم عن الزكاة - لا تصح سنداً ولا متناً، أما سنداً فهي من طريق معان بن رفاعة عن علي بن يزيد، وكلاهما لا يصح حديثه. وأما متناً فالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قرر أن مانع الزكاة تؤخذ منه قسراً، وحارب أبو بكر الصديق مانعي الزكاة، فكيف يرفض أخذها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وأبو بكر وعمر - رضي الله عنهما؟ وهذه القصة المكذوبة قد أشار إلى ضعفها ابن حزم والبيهقي والقرطبي والذهبي وابن حجر العسقلاني والسيوطي والألباني. (انظر: الشهاب الثاقب في الذب عن الصحابي الجليل ثعلبة بن حاطب رضي الله عنه، لسليم الهلالي).

(٢) مختصر ابن كثير ١/٢٦١. (ش): رواه البخاري ومسلم والترمذي.

الْغُيُوبِ ﴿ أَي لا يخفى عليه شيء مما غاب عن الأسماع والأبصار والحواس ؟ ﴾ الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴿ أَي يعيبون المتطوعين المتبرعين من المؤمنين في صدقاتهم ﴾ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ﴿ أَي يعيبون الذين لا يجدون إلا طاقاتهم فيهزءون منهم روى «الطبري» عن ابن عباس قال: جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى النبي ﷺ، وجاء رجل من الأنصار بصاع من تمر، فقال بعض المنافقين: والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياءً، وإن كان الله ورسوله لَعَنَيْنِ عن هذا الصاع فنزلت ^(١) ﴿ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ أي جازاهم على سخريتهم وهو من باب المشاكلة ^(٢) ﴿ وَلَهُمْ

(١) «الطبري» ١٩٤/١٠. (ش): ضعيف؛ لانقطاعه، ذكره الواحدي في «أسباب النزول» عن قتادة. وعن أبي مسعود قال: لَمَّا أُمِرْنَا بِالصَّدَقَةِ كُنَّا نَتَحَامَلُ فَبَاءَ أَبُو عَقِيلٍ بِنَصْفِ صَاعٍ، وَجَاءَ إِنْسَانٌ بِأَكْثَرِ مِنْهُ، فَقَالَ الْمُتَنَافِقُونَ إِنَّ اللَّهَ لَغَنَى عَنْ صَدَقَةِ هَذَا، وَمَا فَعَلَ هَذَا الْآخَرُ إِلَّا رِثَاءً. فَتَنَزَّلَتْ (الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ) الْآيَةَ. (رواه البخاري ومسلم). وفي «صحيح مسلم» أن أبا خيثمة الأنصاري هو الذي تصدق بصاع التمر حين لَمَزَهُ الْمُتَنَافِقُونَ.

(٢) المشاكلة: اتفاق الكلمتين لفظاً واختلافهما معنى. (ش): صفات الله تعالى كلها صفات كمال، دالة على أحسن المعاني وأكملها، قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [النحل: ٦٠]. وقال تعالى: ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الروم: ٢٧]. ومعنى المثل الأعلى أي الوصف الأكمل. والصفات ثلاثة أنواع: الأول: صفات كمال، لا نقص فيه بوجه من الوجوه. فهذه يوصف الله تعالى بها وصفاً مطلقاً ولا يقيد بشيء، مثال ذلك: العلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والرحمة. . . الخ. الثاني: صفات نقص، لا كمال فيها، فهذه لا يوصف الله تعالى بها أبداً، كالنوم، والعجز، والظلم، والخيانة. . . الخ. الثالث: صفات يمكن أن تكون كمالاً، ويمكن أن تكون نقصاً، على حسب الحال التي تذكر فيها.

فهذه لا يوصف الله تعالى بها على سبيل الإطلاق، ولا تنفي عن الله تعالى على سبيل الإطلاق، بل يجب التفصيل، ففي الحال التي تكون كمالاً يوصف الله تعالى بها، وفي الحال التي تكون نقصاً لا يوصف الله تعالى بها. ومثال هذا: المكر، والخديعة، والاستهزاء، فالمكر والخديعة والاستهزاء بالعدو صفة كمال، لأن ذلك يدل على كمال العلم والقدرة والسلطان. . . ونحو ذلك. أما المكر بالمؤمنين الصادقين فهو صفة نقص. ولذلك لم يرد وصف الله تعالى بهذه الصفات على سبيل الإطلاق، وإنما ورد مقيداً بما يجعله كمالاً. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَنَفِّقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ ﴾ [النساء: ١٤٢]. فهذا خداع بالمنافقين. وقال: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]. وهذا مكر بأعداء الله الذين كانوا يمحرون برسول الله ﷺ. وقال عن المنافقين: ﴿ وَإِذْ لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة: ١٤-١٥]. وهذا استهزاء بالمنافقين. فهذه الصفات تعتبر كمالاً في هذا السياق الذي وردت فيه. ولهذا يقال: الله تعالى يستهزئ بالمنافقين، ويخادعهم، ويمكر بأعدائه. . . ونحو ذلك. ولا يجوز أن يوصف الله تعالى بالمكر والخداع وصفاً مطلقاً. لأنه حينئذ لا يكون كمالاً. فالله سبحانه وتعالى ينسب إلى نفسه أحسن هذه المعاني وما هو منها حكمة وصواب وجزاء للمسيء وذلك غاية العدل والحق كقوله: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾. وقوله: ﴿ وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ ﴾. وقوله: ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾. وقوله: ﴿ إِنَّ الْمُتَنَفِّقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ ﴾. وقوله: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِيَّائِي كَيْدِي مَتِينٌ ﴾. فهذا منه سبحانه في أعلى مراتب الحُسن وإن كان من العبد قبيحاً سيئاً لأنه ظالم فيه وموقعه بمن لا يستحقه، والرب تعالى عادل فيه وموقعه بأهله ومن يستحقه.

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ أي عذاب موحٍ، هو عذاب الآخرة المقيم ﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ﴾ ﴿٢﴾ أمر ومعناه الخبر أي سواء يا محمد استغفرت لهؤلاء المنافقين أم لم تستغفر لهم فلن يغفر الله لهم ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ﴿٣﴾ قال الزمخشري: والسبعون جارٍ مجرى المثل في كلامهم للتكثير^(١) والمعنى مهما أكثرت من الاستغفار لهم وبالغت فيه فلن يغفر الله لهم أبداً ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ﴿٤﴾ أي عدم المغفرة لهم بسبب كفرهم بالله ورسوله كفراً شنيعاً حيث أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٥﴾ أي لا يوفق للإيمان الخارجين عن طاعته، ولا يهديهم إلى سبيل السعادة ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ ﴿٦﴾ أي فرح المنافقون الذين تخلفوا عن رسول الله في غزوة تبوك بعودهم بعد خروج الرسول ﷺ مخالفةً له حين سار وأقاموا ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ﴿٧﴾ أي وكرهوا الخروج إلى الجهاد إثارةً للراحة وخوف إتلاف النفس والمال لما في قلوبهم من الكفر والنفاق ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ ﴿٨﴾ أي قال بعضهم لبعض: لا تخرجوا إلى الجهاد في وقت الحر، وذلك أن النبي ﷺ استنفرهم إلى هذه الغزوة في حر شديد، قال «أبو السعد»: وإنما قال ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ على قوله «وكرهوا أن يخرجوا إلى الغزو» إيداناً بأن الجهاد في سبيل الله مع كونه من أجل الرغائب، وأشرف المطالب، التي يجب أن يتنافس فيها المتنافسون قد كرهوه، كما فرحوا بأقبح القبائح الذي هو القعود خلاف رسول الله ﷺ وقالوا لإخوانهم توامياً فيما بينهم بالشر والفساد لا تنفروا في الحر، فقد جمعوا ثلاث خصال من الكفر والضلال: الفرح بالقعود، وكرهية الجهاد، ونهي الغير عن ذلك^(٢)، قال تعالى رداً عليهم ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ ﴿٩﴾ أي قل لهم يا محمد: نار جهنم التي تصيرون إليها بتشاقلكم عن الجهاد أشد حراً مما تحذرون من الحر المعهود، فإن حر الدنيا يزول ولا يبقى، وحر جهنم دائم لا يفتر، فما لكم لا تحذرون نار جهنم؟ قال الزمخشري: وهذا استجهال لهم، لأن من تصوّن من مشقة ساعة، فوقع بذلك التصون في مشقة الأبد كان أجهل من كل جاهل^(٣) ﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿١٠﴾ أي لو كانوا يفهمون لنفروا مع الرسول ﷺ في الحر، لَيَتَّقُوا بِهِ حَرَّ جَهَنَّمَ الذي هو أضعاف أضعاف وهذا ولكنهم «كالمستجير من الرمضاء بالنار» ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ ﴿١١﴾ أمر يراد به الخبر معناه: فسيضحكون قليلاً، وسيبكون كثيراً، قال ابن عباس: الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاءوا، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله عزَّ وجلَّ استأنفوا بكاءً لا ينقطع أبداً^(٤)

(١) «الكشاف» ٢/ ٢٩٥.

(٢) «أبو السعد» ٢/ ٢٨٦.

(٣) «الكشاف» ٢/ ٢٩٦.

(٤) مختصر ابن كثير ٢/ ١٦٠.

﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي جزاء لهم ما اجترحوا من فنون المعاصي ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي فإن ردك الله من غزوة تبوك إلى طائفة من المنافقين الذين تخلفوا بغير عذر ﴿فَاسْتَعِذْ نَوَكَ لِلْخُرُوجِ﴾ أي طلبوا الخروج معك لغزوة أخرى ﴿فَقُلْ لَّنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ أي قل لهم لن تخرجوا معي للجهاد أبداً ﴿وَلَنْ نُّقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ أي لن يكون لكم شرف القتال معي لأعداء الله، وهو خبر معناه النهي للمبالغة، جَارٍ مجرى الذم لهم لإظهار نفاقهم ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي قعدتم عن الخروج معي أول مرة حين لم تخرجوا إلى تبوك ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ أي فاقعدوا مع المتخلفين عن الغزو من النساء والصبيان ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا﴾ أي لا تصل يا محمد على أحد من هؤلاء المنافقين إذا مات، لأن صلاتك رحمة، وهم ليسوا أهلاً للرحمة ﴿وَلَا تُقِمُّ عَلَى قَبْرِهِ﴾ أي لا تقف على قبره للدفن، أو للزيارة والدعاء^(١) ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي لأنهم كانوا في حياتهم منافقين يُظْهِرُونَ الإيمان وَيُبْطِنُونَ الكفر ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَنَاسِقُونَ﴾ أي وماتوا وهم على نفاقهم خارجون من الإسلام متمردون في العصيان، نزلت في ابن سلول^(٢) ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ﴾ أي لا تستحسن ما أنعمنا به عليهم من الأموال والأولاد ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ أي لا يريد بهم الخير إنما يريد أن يعذبهم بها في الدنيا بالمصائب والنكبات ﴿وَنَزَهَقَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أي تخرج أرواحهم ويموتوا على الكفر منشغلين بالتمتع بالأموال والأولاد عن النظر والتدبر في العواقب ﴿وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً﴾ التنكير للتفخيم أي وإذا أنزلت سورة جليلة الشأن ﴿أَنْ أَمُوتُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ﴾ أي بأن آمنوا بالله بصدقٍ ويقين، وجاهدوا مع رسول لنصرة الحق وإعزاز الدين ﴿أَسْتَعِذَّكَ أَوْ لَوْ أَنَّ الطَّوْلَ مِنْهُمْ﴾ أي استأذنتك في التخلف أو لولا الغنى والمال الكثير ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْفَاعِلِينَ﴾ أي دعنا نكون مع الذين لم يخرجوا للغزو وقعدوا لعذر، قال تعالى تقبيحاً لهم وذمّاً ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ أي رضوا بأن يكونوا مع النساء والمرضى والعجزة الذين تخلفوا في البيوت ﴿وَطُيْعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي خُتِمَ عليها ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُوْنَ﴾ أي فهم لا يفهمون ما في الجهاد وطاعة الرسول من السعادة، وما في التخلف عنه من الشقاوة ﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ قال «الرازي»: لما شرح حال المنافقين، بين حال الرسول والمؤمنين بالضد منه، حيث بذلوا المال والنفس في طلب رضوان الله والتقرب إليه^(٣) والمعنى: إن تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا، فقد جاهد من هو خيرٌ منهم وأخلص نيةً واعتقاداً ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ أي لهم منافع الدارين:

(١) (ش): أي الدعاء له بالمغفرة.

(٢) انظر سبب النزول السابق.

(٣) «الرازي» ١٥٧/١٦.

النصر والغنيمة في الدنيا، والجنة والكرامة في الآخرة ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي الفائزون بالمطلوب ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي أعد الله لهم على إيمانهم وجهادهم بساتين تجري من تحت قصورها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي لا يثنى في الجنة أبداً ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي ذلك هو الظفر العظيم الذي لا فوز وراءه ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ أي جاء المعتذرون من الأعراب الذين انتحلوا الأعذار وتخلفوا عن الجهاد ﴿لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ أي في ترك الجهاد، وهذا بيان لأحوال المنافقين من الأعراب بعد بيان أحوال المنافقين من أهل المدينة، قال «البيضاوي»: هم «أسد» و «غطفان» استأذنوا في التخلف معتذرين بالجهد وكثرة العيال^(١) ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي وقعد عن الجهاد الذين كذبوا الله ورسوله في دعوى الإيمان، وهم قوم لم يجاهدوا ولم يعتذروا عن تخلفهم ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وعيد لهم شديد أي سينال هؤلاء المتخلفين الكاذبين في دعوى الإيمان عذاب أليم بالقتل والأسر في الدنيا، والنار في الآخرة ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾ أي ليس على الشيوخ المُسِنَّين، ولا على المرضى العاجزين الذين لا يستطيعون الجهاد لعجزهم أو مرضهم ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ﴾ أي الفقراء الذين لا يجدون نفقة للجهاد ﴿حَرَجٌ﴾ أي إثم في القعود ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي أخلصوا الإيمان والعمل الصالح، فلم يرجفوا بالناس ولم يُبْطِطوهم^(٢)، ولم يثيروا الفتن، فليس على هؤلاء حرج إذا تركوا الغزو لأنهم أصحاب أعذار ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي ليس عليهم جناح ولا إلى معاتبتهم سبيل قال في «التسهيل»: وصفهم بالمحسنين لأنهم نصحوا الله ورسوله، ورفع عنهم العقوبة والتعنيف واللوم^(٣)، وهذا من بليغ الكلام لأن معناه: لا سبيل لعاتب عليهم، وهو جارٍ معجى المثل ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي عظيم المغفرة والرحمة حيث وسع على أهل الأعذار ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ نزلت في البكائين الذين أرادوا الغزو مع رسول الله ولم يجد الرسول ﷺ ما يحملهم عليه قال «البيضاوي»: هم البكَّاءون سبعة من الأنصار أتوا رسول الله ﷺ وقالوا: قد نذرنا الخروج فاحملنا نغزو معك، فقال عليه السلام: لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وهم يبيكون^(٤) ﴿قُلْتُ لَا أَحِذْ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي ليس عندي ما أحملكم عليه من الدواب ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا﴾ أي انصرفوا وأعينهم تسيل دمعاً من شدة الحزن ﴿أَلَا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ﴾ أي لأنهم لم يجدوا ما ينفقونه لغزوهم، ولم يكن عند

(١) «البيضاوي» ٢٣٠.

(٢) (ش): كَبَّطَهُ عَنْ سَعْيِهِ: عَوَّقَهُ عَنْهُ وَبَطَّأَهُ، شَغَلَهُ وَمَنَعَهُ عَنِ الْمُسْعَى فِيهِ.

(٣) «التسهيل» ٨٣/٢.

(٤) «البيضاوي» ٢٣٠. (ش): ذكره الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.

رسول الله ما يحملهم عليه ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ أي إنما الإثم والجرح على الذين يستأذنونك في التخلف وهم قادرون على الجهاد وعلى الإنفاق لغناهم ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ أي رضوا بأن يكونوا مع النساء والمرضى والعجزة ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ختم عليها فهم لذلك لا يهتدون.

البلاغة: ١ - ﴿يَعْلَمُ.. عَلَّمَ الْغُيُوبِ﴾ بين (يعلم وعلام) جناس الاشتقاق.

٢ - ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ التنوين في عذاب للتهويل والتفخيم.

٣ - ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ بينهما طباق السلب، وقد خرج الأمر عن حقيقته إلى التسوية.

٤ - ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة.

٥ - ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ الخوالف: النساء المقيمات في دار الحي بعد رحيل الرجال فيه استعارة، وإنما سمي النساء خوالف تشبيهاً لهن بالخوالف وهي الأعمدة تكون في أواخر بيوت الحي فشبههن لكثرة لزوم البيوت بالخوالف التي تكون في البيوت^(١).

٦ - ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ هو من عطف الخاص على العام اعتناءً بشأنهم أفاده الألوسي^(٢).

فائدة: قال الزمخشري عند قوله تعالى ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ لفظ السبعين جارٍ مجرى المثل في كلام العرب للتكثير قال علي بن أبي طالب:

لَأُصَبِّحَنَّ الْعَاصَ وَابْنَ الْعَاصِي سَبْعِينَ أَلْفًا عَاقِدِي النَّوَاصِي^(٣)

فذكرها ليس لتحديد العدد، وإنما هو المبالغة جزيًا على أساليب العرب^(٤).

تنبيه: إنما منع ﷺ من الصلاة على المنافقين، لأن الصلاة على الميت دعاء واستغفار واستشفاع له، والكافر ليس بأهل لذلك.

لطيفة: «اشتهر» حذيفة بن اليمان بأنه صاحب سر الرسول ﷺ وقد قال له ﷺ: «إني مسرٌ إليك سرًّا فلا تذكره لأحد، إني نهيت أن أصلي على فلان وفلان، لرهط ذوي عدد من المنافقين، ولذلك كان عمر رضي الله عنه يأتيه فيقول: أسألك بالله هل عدني رسول الله من المنافقين»^(٥).

(١) تلخيص البيان للشريف الرضى ص ١٤٨.

(٢) «روح المعاني» ١٠/١٥٩.

(٣) (ش): «عقد ناصيته: غضب وتهباً للشر. والمقصود بهذا البيت معاوية بن أبي سفيان، والبيت رواه ابن جرير «الطبري» في «تاريخه» بإسناد ضعيف في قصة طويلة في الفتنة بين علي بن أبي طالب ومعاوية ب، وكم من قصص مكذوبة تسيء إلى الصحابة الكرام تذكرها كتب التاريخ بلا تثبُّت.

(٤) «الكشاف» ٢/٢٩٥.

(٥) (ش): «عن حذيفة رضي الله عنه قال: دُعِيَ عُمَرُ، لِحِجَارَةٍ، فَخَرَجَ فِيهَا أَوْ يَرِيدُهَا فَتَعَلَّقْتُ بِهِ فَقُلْتُ: اجْلِسْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، =

قال الله تعالى:

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ
أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عِلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشِئُكُمْ
بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِنَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ
رَجِسٌ وَمَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٧﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِنَرِضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ
تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٨﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ
أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا
وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٠﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا يَأْتِيَ قُرْبَهُ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ
اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠١﴾ وَالسَّيِّفُوتُ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ
بِإِحْسَنِ رِضَى اللَّهِ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٢﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النِّفَاقِ
لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنَعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٣﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ
خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٤﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً
تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٥﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ
التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٦﴾ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ
وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٧﴾ وَآخَرُونَ مَرْجُونَ
لِأَمْرِ اللَّهِ إِنَّمَا يَعَذِّبُهُمْ وَإِنَّمَا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٨﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا
وَتَفْرَقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلِيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى
وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٩﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ
فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ حُجَّةً لِّأَنْ يَرْجِعُوا فِيهِمْ وَلَئِنْ لَّمْ يَجِبُوا عَلَيْهِمْ لِيُجِبُوا
مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مِنْ أَكْثَرِ بَلَى لَكُمْ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ عَلَىٰ شَاقِ جُرْفٍ مُّارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ

= فَإِنَّهُ مِنْ أَوْلَئِكَ، فَقَالَ: «شَدَّتْكَ اللَّهُ أَنَا مِنْهُمْ»، قَالَ: «لَا وَلَا أُبْرِي أَحَدًا بَعْدَكَ» (رواه البزار بإسناد صحيح).
عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ، قَالَ: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ سَائِرٌ إِلَى تَبُوكَ نَزَلَ عَنْ رَاحِلَتِهِ لِيُحَى إِلَيْهِ، وَأَنَا حَتَّى النَّبِيِّ ﷺ فَهَضَبَتِ
النَّاقَةُ تَجُرُّ زِمَامَهَا مُنْطَلِقَةً، فَتَلَقَّا حُذَيْفَةً فَأَخَذَ بِزِمَامِهَا يَقُودُهَا حَتَّى أَنَا حَتَّى وَقَعَدَ عِنْدَهَا، ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَامَ
فَأَقْبَلَ إِلَيَّ نَاقَتِهِ فَقَالَ: «مَنْ هَذَا؟» فَقَالَ: حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَإِنِّي مُسَرٌّ إِلَيْكَ سِرًّا لَا تَحْدَثَنَّ بِهِ
أَحَدًا أَبَدًا، إِنِّي نَهَيْتُ أَنْ أَصْلِيَ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ»، رَهْطُ ذَوِي عَدَدٍ مِنَ الْمُتَنَافِقِينَ، قَالَ: فَلَمَّا تَوَفَّى رَسُولُ اللَّهِ
ﷺ، وَاسْتُخْلِفَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَانَ إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ مِنْ صَحَابَةِ النَّبِيِّ ﷺ مِمَّنْ يَطْنُ عُمَرُ أَنَّهُ مِنْ أَوْلَئِكَ
الرَّهْطِ أَخَذَ بِيَدِ حُذَيْفَةَ فَقَادَهُ، فَإِنْ مَشَى مَعَهُ صَلَّى عَلَيْهِ، وَإِنْ انْتَرَعَ مِنْ يَدِهِ لَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ، وَأَمَرَ مَنْ يُصَلِّي عَلَيْهِ

(رواه البيهقي في «السنن الكبرى» بإسناد ضعيف).

أَلْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ لَا يَزَالُ بُنِيتُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٩﴾

المناسبة: لا تزال الآيات تتحدث عن المنافقين، الذين تخلفوا عن الجهاد وجاءوا يؤكدون تلك الأعداء بالأيمن الكاذبة، وقد ذكر تعالى من مكاييد المنافقين «مسجد الضرار» الذي بنوه ليكون وكرًا للتآمر على الإسلام والمسلمين، وحذر نبيه ﷺ من الصلاة فيه، لأنه لم يُشَيَّد على أساس من التقوى، وإنما بني ليكون مركزاً لأهل الشقاق والنفاق، ولتفريق وحدة المسلمين، وقد اشتهر باسم مسجد الضرار.

اللغة: ﴿أَنْفَقْتُمْ﴾ رجعتكم ﴿رَجَسُ﴾ الرجس: الشيء الخبيث المستقذر، وقد يطلق على النجس ﴿وَمَا وَلَهُمْ﴾ قال الجوهري: المأوى كل مكان يأوى إليه ليلاً ونهاراً ﴿الْأَعْرَابُ﴾ جمع أعرابي قال أهل اللغة: يقال رجل عربي إذا كان نسبه في العرب وجمعه العرب، ورجل أعرابي إذا كان بدوياً يطلب مساقط الغيث والكلأ، سواء كان من العرب أو من مواليهم، فمن استوطن القرى العربية فهم عرب، ومن نزل البادية فهم أعراب^(١) ﴿وَأَجْدَرُ﴾ أولى وأحق ﴿مَغْرَمًا﴾ المغرم: الغرم والخسران وأصله من الغرام وهو لزوم الشيء^(٢) ﴿مَرْدُوءًا﴾ ثبتوا واستمروا وأصل الكلمة من اللين والملازمة والتجرد فكأنهم تجردوا للنفاق، ومنه رملة مرداء لا نبت فيها، وغصن أمرد لا ورق عليه، وغلام أمرد لا لحية له ﴿مُرْجُونَ﴾ الإرجاء: التأخير يقال: أرجأته، أي: أخرته ومنه المرجئة لأنهم أخرخوا العمل^(٣) ﴿ضِرَارًا﴾ الضرار: محاولة الضر وفي الحديث «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ»^(٤) ﴿وَارْصَادًا﴾ الإرصاء: الترقب والانتظار يقال أرصدت له كذا إذا أعددت مرتقباً له به ﴿شَفَا﴾ الشفا: الحرف والشفير ومنه أشفى على كذا إذا دنا منه ﴿جُرْفٍ﴾: ما تجرفه السيول من الأودية ويبقى على الأطراف طين مشرف على السقوط وأصله من الجرف وهو اقتلاع الشيء من أصله ﴿هَكَارٍ﴾ ساقط يقال: تهور البناء إذا سقط وأصله هائر.

سَبَبُ النُّزُول: «روي أن أبا عامر الراهب^(٥) قد تنصر في الجاهلية وترهب، فلما خرج رسول الله ﷺ عاداه لأنه ذهب رياسته وقال: لا أجد قومًا يقاتلونك إلا قاتلتك معهم - وسماه النبي ﷺ

(١) «الرازي» ١٦٥/١٦.

(٢) «القرطبي» ٢٣٤/٨.

(٣) (ش): المرجئة يخالفون أهل السنة والجماعة في أصل من أصول العقيدة، حيث يقول أهل السنة: إن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية. وأهل الإرجاء يخالفون في ذلك وغيره، فالإيمان عندهم هو التصديق والقول فقط، ولا يزيد ولا ينقص، ولا دخل للطاعة والمعصية في مسمى الإيمان.

(٤) رواه الدارقطني. (ش): ورواه ابن ماجه، وصححه الألباني.

(٥) هو والد حنظلة الذي غسلته الملائكة.

أبا عامر الفاسق - فلما انهزمت هوازن في حنين خرج إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح، وابنوا لي مسجداً فيني ذاهب إلى قيصر فآتي بجند الروم فأخرج محمداً وأصحابه، فبنوا مسجداً إلى جانب مسجد قباء، وأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إنا بنينا مسجداً لذي العلة، والحاجة، والليلة المطيرة، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فدعا بثوبه ليلبسه فيأتيهم فنزل عليه القرآن، وأخبر الله رسوله خبر مسجد الضرار وما هموا به، فدعا ﷺ بعض الصحابة وقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم وأهله واحرقوه، فذهبوا إليه فحرقوه وهدموه وتفرق عنه أهله، وفيه نزلت ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا...﴾^(١) الآية.

التفسير: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ أي يعتذر إليكم هؤلاء المتخلفون عن غزوة تبوك إذا رجعت إليهم من سفركم وجهادكم ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي قل لهم لا تعتذروا فلن نصدقكم فيما تقولون ﴿قَدْ بَيَّنَّا اللَّهُ مِنْ أَعْبَارِكُمْ﴾ أي قد أخبرنا الله بأحوالكم وما فيه من ضمايركم من الخبث والنفاق ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أي وسيرى الله ورسوله عملكم فيما بعد، أأتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه؟ ﴿ثُمَّ تُرْذَوْنَ إِلَىٰ عِلْمِ الْعَلِيِّ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي ثم ترجعون بعد مماتكم إلى الله تعالى الذي يعلم السر والعلانية، ولا تخفى عليه خافية ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي فيخبركم عند وقوفكم بين يديه بأعمالكم كلها، ويجازيكم عليها الجزاء العادل ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾ أي سيحلف لكم بالله هؤلاء المنافقون ﴿إِذَا أَنْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ أي إذا رجعت إليهم من تبوك معتردين بالأعذار الكاذبة ﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ أي لتصفحوا عنهم ولتعرضوا عن ذمهم ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ أي فأعرضوا عنهم إعراض مقت واجتناب، وخلوهم وما اختاروا لأنفسهم من الكفر والنفاق قال ابن عباس: يريد ترك الكلام والسلام^(٢) ثم ذكر تعالى العلة فقال: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ أي لأنهم كالقدر لخبث باطنهم ﴿وَمَا أَوْلَاهُمْ جَهَنَّمَ﴾ أي مصيرهم إلى جهنم هي مسكنهم ومأواهم ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي جزاء لهم على نفاقهم في الدنيا، وما اكتسبوه من الآثام ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ كرهه لبيان كذبهم وللتحذير من الاغترار بمعاذيرهم الكاذبة، أي يحلفون لكم بأعظم الأيمان لينالوا رضاكم ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي فإن رضيت عنهم فإن رضاكم لا ينفعهم لأن الله ساخط عليهم قال «أبو السعود»: ووضع

(١) «أسباب النزول» ١٤٩. (ش): قال الألباني - رحمه الله -: «ضعيف رواه ابن هشام عن ابن إسحاق بدون إسناد. لكن أخرج الحاكم عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه، قال: «رَأَيْتُ الدُّخَانَ مِنْ مَسْجِدِ الضَّرَارِ حِينَ انْهَارَ» وصححه ووافقه الذهبي، فلعل المسجد انهار بأمر الله دون حرق، والله أعلم. (انظر: ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية، للدكتور محمد بن عبد الله العوشن (ص ٢٢٠ - ٢٢١).

(٢) «الرازي» ١٦ / ١٦٤.

الفاستقين موضع الضمير للتسجيل عليهم بالفسق والخروج عن الطاعة^(١) ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ الأعراب - أهل البدو - أشد كفراً وأعظم نفاقاً من أهل الحضر، لجفائهم وقسوة قلوبهم، وقلة مشاهدتهم لأهل الخير والصلاح ﴿وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ أي وهم أولى بالآ لا يعلموا ما أنزل الله على رسوله من الأحكام والشرائع قال في «البحر»: وإنما كانوا أشد كفراً ونفاقاً لفخرهم وطيشهم وتربيتهم بلا سائس ولا مؤدب، فقد نشئوا كما شاءوا، ولبعدهم عن مشاهدة العلماء ومعرفة كتاب الله وسنة رسوله، فكانوا أطلق لساناً بالكفر من منافقي المدينة^(٢) ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بخلقهم حكيم في صنعه ﴿وَمَنْ الْأَعْرَابُ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا﴾ أي ومن هؤلاء الأعراب الجهلاء من يعدُّ ما يصرفه في سبيل الله ويتصدق به غرامة وخسراناً، لأنه لا ينفقه احتساباً فلا يرجو له ثواباً ﴿وَيَتَرَبَّصُّ بَكُمْ لِدُورِ﴾ أي ينتظر بكم مصائب الدنيا ليتخلص من أعباء النفقة ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ جملة اعتراضية للدعاء عليهم أي عليهم يدور العذاب والهلاك ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوالهم عليم بأفعالهم ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي ومن الأعراب من يصدق بوحدانية الله وبالبعث بعد الموت على عكس أولئك المنافقين ﴿وَيَتَّخِذُوا مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي ويتخذ ما ينفق في سبيل الله ما يقربه من رضا الله ومحبه ﴿وَصَلُّوا لِلرَّسُولِ﴾ أي دعاء الرسول واستغفاره له ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ (ألا) أداة استفتاح للتنبيه على الاعتناء بالأمر أي ألا إن هذا الإنفاق قربة عظيمة تقربهم لرضا ربهم حيث أنفقوها مخلصين ﴿سَيَدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي سيدخلهم الله في جنته التي أعدها للمتقين^(٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي غفور لأهل طاعته رحيم بهم حيث وفقهم للطاعة ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ الأولون من المهجرين والأنصار ﴿أَيِ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ الذين سبقوا إلى الإيمان من الصحابة^(٤) ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ أي سلكوا طريقهم واقتدوا بهم في سيرتهم الحسنة، وهم التابعون ومن سار على نهجهم إلى يوم القيامة ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ وعدُّ بالغفران والرضوان أي رضي الله عنهم وأرضاهم، وهذا أرقى المراتب التي يسعى إليها المؤمنون، ويتنافس فيها المتنافسون أن يرضى الله تعالى عنهم ويرضيهم قال «الطبري»: رضي الله عنهم لطاعتهم وإجابتهم نبيه، ورضوا عنه لما أجزل لهم من الثواب على الطاعة والإيمان ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

(١) «أبو السعود».

(٢) «البحر» المحيط.

(٣) (ش): فالجنة أئز من آثار رحمته تعالى، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، في جوار أرحم الراحمين سبحانه وتعالى.

(٤) روى عن الشعبي أنهم الذي، بايعوا بيعة الرضوان. وقيل: هم الذين صلوا إلى القبلتين. وما ذكرناه أنهم جميع الصحابة وهم السابقون في الهجرة والنصرة هو ما رجحه «الطبري» واختاره الفخر «الرازي».

الْأَنْهَرُ ﴿١﴾ أي وأعد لهم في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي مقيمين فيها من غير انتهاء ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي ذلك هو الفوز الذي لا فوز وراءه قال في «البحر»: لما بين تعالى فضائل الأعراب المؤمنين، بين حال هؤلاء السابقين، ولكن شتان ما بين الشئيين فهناك قال ﴿إِنَّمَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ وهناك قال ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وهنا ختم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهناك ختم ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ^(١) ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ أي وممن حولكم يا أهل المدينة منافقون من الأعراب منازلهم قريبة من منازلكم ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ أي ومن أهل المدينة منافقون أيضًا ﴿مَرَدُّوْا عَلَى الْنِفَاقِ﴾ أي لجؤا في النفاق واستمروا عليه قال ابن عباس: مرنوا عليه وثبتوا ^(٢) منهم ابن سلول، والجلال، وأبو عامر الراهب ^(٣) ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ أي لا تعلمهم أنت يا محمد لمهارتهم في النفاق بحيث يخفى أمرهم على كثيرين، ولكن نحن نعلمهم ونخبرك عن أحوالهم ﴿سَنَعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ﴾ أي في الدنيا بالقتل والأسر، وعند الموت بعذاب القبر ﴿ثُمَّ يُرَدُّوْنَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ أي ثم في الآخرة يردون إلى عذاب النار، الذي أعده الله للكفار والفجار ﴿وَأَخْرَوْا اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي وقوم آخرون أقروا بذنوبهم ولم يعتذروا عن تخلفهم بالمعاذير الكاذبة قال «الرازي» ^(٤): هم قوم من المسلمين تخلفوا عن غزوة تبوك لا لنفاقهم بل لكسلهم، ثم ندموا على ما فعلوا وتابوا ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ أي خلطوا جهادهم السابق وخروجهم مع الرسول لسائر الغزوات بالعمل السيئ وهو تخلفهم عن غزوة تبوك هذه المرة ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي لعل الله يتوب عليهم قال «الطبري»: و«عسى» من الله واجب، ومعناه: سيتوب الله عليهم، ولكنه في كلام العرب بمعنى الترجي على ما وصفت ^(٥) ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي ذو عفو لمن تاب، عظيم الرحمة لمن أناب ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ أي خذ يا محمد من هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم صدقة تطهرهم بها من الذنوب والأوضار، وتنمي بتلك الصدقة حسناتهم حتى يرتفعوا بها إلى مراتب المخلصين الأبرار ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ أي وادع لهم بالمغفرة فإن دعاءك واستغفارك طمأنينة لهم قال ابن عباس: ﴿سَكَنٌ لَهُمْ﴾ رحمة لهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سامع لقولهم عليهم بنبأيتهم ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ الاستفهام للتقرير أي

(١) «البحر» ٩٢/٥.

(٢) (ش:) لجَّ في الأمر: تَمَادَى فيه معاندًا، لازمه وأبى أن ينصرف عنه. مرنوا عليه: أي تَعَوَّدُوا عليه ومهروا فيه.

(٣) تفسير ابن الجوزي ٤٩١/٣.

(٤) «الرازي» ١٧٤/١٦.

(٥) «الطبري» ١٢/١١.

ألم يعلم أولئك التائبون أن الله تعالى هو الذي يقبل توبة من تاب من عباده ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ أي يتقبلها ممن أخلص النية ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي وأن الله وحده المستأثر بقبول التوبة والرحمة لقوله: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر: ٣] ﴿وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ صيغة أمر متضمنة للوعيد أي اعملوا ما شئتم من الأعمال فأعمالكم لا تخفى على الله، وستعرض يوم الحساب على الرسول والمؤمنين ﴿وَسَرُدُّوكَ إِلَى عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي وستردون إلى الله الذي لا تخفى عليه خافية ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي فيجازيكم على أعمالكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿وَعَاخِرُونَ مَرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ أي وآخرون من المتخلفين مؤخرون إلى أن يظهر أمر الله فيهم قال ابن عباس: هم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، لم يسارعوا إلى التوبة والاعتذار، وكانوا من أصحاب بدر، فنهى النبي ﷺ عن كلامهم والسلام عليهم، فصاروا مرجئين لأمره تعالى ^(١) إلى أن يتجاوز عن سيئاتهم، فهو تعالى وحده الذي يقبل التوبة ويتوب على العبد دون غيره ﴿إِنَّمَا يَعِدُكُم وَإِنَّمَا يُؤَبِّ عَالِيهِمْ﴾ أي إما أن يعذبهم إن لم يتوبوا، وإما أن يوفقهم للتوبة ويغفر لهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بأحوالهم حكيم فيما يفعله بهم، وهؤلاء الثلاثة المذكورون في قوله تعالى ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا﴾ [التوبة: ١١٨] وقد وقف أمرهم خمسين ليلة وهجرهم الناس حتى توبتهم بعد ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ أي ومن المنافقين جماعة بالغوا في الإجماع حتى ابتنوا مجمعاً يدبرون فيه الشر، وسموه مسجداً مَضَارَّةً للمؤمنين ^(٢)، وقد اشتهر باسم «مسجد الضرار» ﴿وَكُفْرًا﴾ أي نصرة للكفر الذي يخفونه ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يفرقون بواسطته جماعة المؤمنين، ويصرفونهم عن مسجد قباء ﴿وَلِرِصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي ترقباً وانتظاراً لقدم أبي عامر الفاسق الذي قال لرسول الله: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم، وهو الذي أمرهم ببناء المسجد ليكون معقلاً له قال «الطبري» في رواية الضحاك: هم ناس من المنافقين بنوا مسجداً بقاء يضارون به نبي الله والمسلمين وكانوا يقولون: إذا رجع أبو عامر صلى فيه، وإذا قدم ظهر على محمد وتغلب عليه ^(٣) ﴿وَلِيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَ﴾ أي وليقسمن ما أردنا بينائيه إلا الخير والإحسان، من الرفق بالمسكين، والتوسعة على المصلين ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي والله يعلم كذبهم في ذلك الحلف، وأتى بإن واللام لزيادة التأكيد، ثم نهى تعالى رسوله عن الصلاة في مسجد الضرار فقال ﴿لَا نَقُومُ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي لا تصل فيه يا محمد أبداً لأنه لم يُبْنَ إلا ليكون معقلاً لأهل النفاق

(١) «أبو السعود» ٢/ ٢٩٥.

(٢) انظر سبب النزول.

(٣) «الطبري» ١١/ ٢٥.

﴿لَمَسْجِدَ أُسَسِّ عَلَى التَّقْوَى﴾ اللام لام القسم أي لمسجد قباء الذي بني على تقوى الله وطاعته ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ أي من أول يوم ابتدئ في بنائه ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ أي أولى وأجدر بأن تصلي فيه من مسجد الضرار ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا﴾ أي في هذا المسجد رجال أتقياء - وهم الأنصار - يحبون أن يتطهروا من الذنوب والمعاصي ^(١) ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ أي المبالغين في الطهارة الظاهرة والباطنة، ثم أشار تعالى إلى فضل مسجد التقوى على مسجد الضرار فقال: ﴿أَفَمَنْ أُسِّسَ بُيُوتُهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ﴾ الاستفهام للإنكار والمعنى: هل من أسس بنيانه على تقوى وخوف من الله تعالى وطلب لمرضاته بالطاعة ﴿خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُيُوتُهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ أي هل ذاك خير أم هذا الذي أسس بنيانه على طرف واد متصدع مشرف على السقوط؟ ﴿فَأَنْهَارُ يَجْرِي فِي نَارٍ جَهَنَّمَ﴾ أي فسقط به البناء في نار جهنم ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يوفق الظالمين إلى السداد، ولا يهديهم سبيل الرشاد، والآية الكريمة على سبيل التشبيه والتمثيل لعمل أهل الإخلاص، والإيمان، وعمل أهل النفاق والضلال، والمعنى هل من أسس ببيان دينه على التقوى والإخلاص كمن أسسه على الباطل والنفاق الذي يشبه طرف الوادي أو الجبل الذي أشفى على السقوط؟ ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي لا يزال في قلوب أهل مسجد الضرار شك ونفاق، وغيظ وارتباب بسبب هدمه، يحسبون أنهم كانوا في بنائه محسنين، روي أن النبي ﷺ بعث إلى ذلك المسجد من هدمه وحرقه وأمر بإلقاء الجيف والتتن والقمامة فيه إهانة لأهله، فلذلك اشتد غيظ المنافقين وحقدهم ^(٢) ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي لا يزالون في ارتياب وغيظ إلا أن تتصدع قلوبهم فيموتوا ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي والله سبحانه عليم بأحوال المنافقين، حكيم في تدبيره إياهم ومجازاتهم بسوء نياتهم.

البلاغة: ١ - ﴿الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ بين الكلمتين طباق.

٢ - ﴿لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ الإظهار في موضع الإضمار لزيادة التشنيع والتقبيح وأصله لا يرضى عنهم.

٣ - ﴿سَيَدْخُلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ فيه مجاز مرسل أي يدخلهم في جنته التي هي محل

(١) (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ «نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَهْلِ قُبَاءَ» فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا قَالَ: كَانُوا يَسْتَنْجُونَ بِالْمَاءِ فَتَزَلَّتْ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةُ. (رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني).

(٢) (ش): قَالَ الْأَلْبَانِي: «ضَعِيفٌ رَوَاهُ ابْنُ هِشَامٍ عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ بِدُونِ إِسْنَادٍ. لَكِنْ أَخْرَجَ الْحَاكِمُ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «رَأَيْتُ الدُّخَانَ مِنْ مَسْجِدِ الضَّرَارِ حِينَ انْهَارَ» وَصَحَّحَهُ وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ، فَلَعَلَّ الْمَسْجِدَ انْهَارَ بِأَمْرِ اللَّهِ دُونَ حَرِّهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. (انظر: ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية، للدكتور محمد بن عبد الله العوشن (ص ٢٢٠-٢٢١)).

الرحمة وهو من إطلاق الحال وإرادة المحل^(١).

٤ - ﴿عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ بين ﴿صَالِحًا .. سَيِّئًا﴾ طباق.

٥ - ﴿إِنَّ صَلَوتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ فيه تشبيه بليغ حيث جعل الصلاة نفس السكن والاطمئنان مبالغة وأصله كالسكن حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً.

٦ - ﴿هَارٍ فَانْهَارَ﴾ بينهما جناس ناقص وهو من المحسنات البديعية.

٧ - ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ عَلَى تَقْوَىٰ﴾ في الكلام استعارة مكنية حيث شبهت التقوى والرضوان بأرض صلبة يعتمد عليها البنيان وطوي ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو التأسيس^(٢).

تنبيه: كلمة «عسى» من الله واجب قال الإمام «الرازي»: وتحقيق القول فيه أن القرآن نزل على عرف الناس في الكلام، والسلطان العظيم إذا التمس المحتاج منه شيئاً فإنه لا يجيبه إلا على سبيل الترجي مع كلمة «عسى» أو «لعل» تنبيهاً على أنه ليس لأحد أن يلزمه بشيء، بل كل ما يفعله فإنما هو على سبيل التفضل والتطول، وفيه فائدة أخرى وهو أن يكون المكلف على الطمع والإشفاق لأنه أبعد من الاتكال والإهمال^(٣).

لطيفة: روى الأعمش أن أعرابياً جلس إلى «زيد بن صوحان» وهو يحدث أصحابه وكانت يده أصيبت يوم نهاوند، فقال الأعرابي: والله إن حديثك ليعجبني، وإن يدك لتريني! قال زيد: ما يريبك من يدي إنها الشمال، فقال الأعرابي: والله ما أدري اليمين يقطعون أم الشمال فقال زيد: صدق الله ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ...﴾ الآية، معنى تريني أي تدخل إلى قلبي الشك هل قطعت في سرقة وهذا من جهل الأعرابي^(٤).

قال الله تعالى:

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقْلِنُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْلِنُونَ وَيُقْلِنُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ السَّيِّئَاتِ الْعَبِيدُونَ الْحَمِيدُونَ السَّيِّئُونَ الرَّاكِعُونَ السَّجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ

(١) (ش): فالجنة أثر من آثار رحمته تعالى، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، في جوار أرحم الراحمين سبحانه وتعالى.

(٢) انظر ما كتبه الشريف الرضي في «تلخيص البيان» حول هذه الآية الكريمة ص ١٤٩، ففيه روائع البيان.

(٣) «الرازي» ١٧٦/١٦.

(٤) «محاسن التأويل» ٣٢٣٩/٨.

الْمُنْكَرِ وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانِ اللَّهُ يُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ بَيَّنَّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّقُوا اللَّهَ وَكَوْنُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ بَيَّنَّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا قُلُوبُهُمُ الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيْمَانًا فَآمَنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى أحوال المنافقين، المتخلفين عن الجهاد، المشطين عنه، ذكر صفات المؤمنين المجاهدين، الذين باعوا أنفسهم لله. ثم ذكر قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وتوبة الله عليهم، وختم السورة بتذكير المؤمنين بالنعمة العظمى، ببعثة السراج المنير، النبي العربي، الذي أرسله الله رحمة للعالمين.

اللغة: ﴿أَوَّاهٌ﴾ كثير التأوه ومعناه الخاشع المتضرع، يقال: تأوه الرجل تأوهاً إذا توجع

قال الشاعر:

إِذَا مَا قُمْتُ أَرْحَلُهَا بَلِيلٌ تَأَوُّهُ^(١) آهَةَ الرَّجُلِ الْحَزِينِ^(٢)
 ﴿حَلِيمٌ﴾ الحليم: الكثير الحلم وهو الذي يصفح عن الذنب ويصبر على الأذى ﴿الْعُسْرَةَ﴾
 الشدة وصعوبة الأمر وتسمى غزوة تبوك «غزوة العسرة» لما فيها من المشقة والشدة ﴿يَزِيعُ﴾
 الزيع: الميل: يقال زاع قلبه إذا مال عن الهدى والإيمان ﴿ظَمًا﴾ الظما: شدة العطش ﴿نَصَبٌ﴾
 النصب: الإعياء والتعب ﴿مَحْمَصَةٌ﴾ مجاعة شديدة يظهر بها ضمور البطن ﴿يَنَالُونَ﴾
 يصبون، نال الشيء إذا أدركه وأصابه ﴿غَلْظَةً﴾ شدة وقوة وحمية ﴿عَزِيزٌ﴾ صعب وشاق
 ﴿عَنِتَمٌ﴾ العنت: الشدة والمشقة.

سَبَبُ النُّزُولِ: أ - «لما بايع الأنصار رسول الله ﷺ ليلة العقبة - وكانوا سبعين رجلاً - قال
 عبد الله بن رواحة: يا رسول الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال: اشترط لربي أن تعبدوه
 ولا تشركوا به شيئاً، واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم، قالوا: فإذا فعلنا
 ذلك فما لنا؟ قال: الجنة، قالوا ربح البيع لا نفيل ولا نستقيل» فنزلت ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْكُمُ
 الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ...﴾^(٣) الآية^(٤).

(١) (ش): تَأَوُّهُ: أصلها تَأَوَّهٌ ومعناها تتألم، آهة الرجل: مثل تألم الرجل. عنى بذلك ناقلته، تحنُّ إلى ديارها
 وأوطانها. فعندما يذهب الشاعر إلي ناقلته لتجهيزها للسفر يسمعها وهي تتألم مثلما يتألم الرجل الحزين.

(٢) «البحر» ٥ / ٨٨.

(٣) «زاد المسير» ٣ / ٥٠٤.

(٤) (ش): سبب النزول ضعيف، رواه ابن جرير في «جامع البيان». أما قصة المبايعات فثابتة. فعن جابر بن عبد
 الله رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَبِثَ عَشْرَ سِنِينَ يَتَّبِعُ الْحَاجَّ فِي مَنَازِلِهِمْ فِي الْمَوْسِمِ وَبِمَنَازِلِهِمْ بِمَنْى يَقُولُ: «مَنْ يُؤْوِينِي، مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَاتِ رَبِّي وَلَهُ الْجَنَّةُ؟». فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَنْصُرُهُ
 وَيُؤْوِيهِ، حَتَّى إِذَا الرَّجُلُ يَرْحَلُ مِنْ مَضَرٍّ، أَوْ مِنَ الْيَمَنِ، إِلَى ذِي رَجْمٍ، فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ، فَيَقُولُونَ: «احْذَرِ غُلَامَ قُرَيْشٍ
 لَا يَفْتِنُكَ»، وَيَمْشِي بَيْنَ رَحَالِهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ. حَتَّى بَعَثْنَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ
 مِنْ يَثْرِبَ، فَيَأْتِيهِ الرَّجُلُ فَيُؤْمِنُ بِهِ، فَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ، فَيَسْلُمُونَ بِإِسْلَامِهِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورٍ
 يَثْرِبُ إِلَّا فِيهَا زَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ، ثُمَّ بَعَثْنَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَأْتَمَرْنَا، وَاجْتَمَعْنَا سَبْعُونَ رَجُلًا مِنَّا،
 فَقُلْنَا: حَتَّى مَتَى نَذَرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ، وَيَخَافُ. فَرَحَلْنَا حَتَّى قَدِمْنَا عَلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ، فَوَاعَدْنَاهُ
 شِعْبَ الْعَقَبَةِ، فَقَالَ عَمَةُ الْعَبَّاسِ: «يَا ابْنَ أَخِي، إِنِّي لَا أَذْرِي مَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ الَّذِينَ جَاءُوكَ؟ إِنِّي دُوْ مَعْرِفَةٍ بِأَهْلِ
 يَثْرِبَ»، فَاجْتَمَعْنَا عِنْدَهُ مِنْ رَجُلٍ وَرَجُلَيْنِ، فَلَمَّا نَظَرَ الْعَبَّاسُ فِي وَجْهِهَا، قَالَ: «هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا أَعْرِفُهُمْ، هَؤُلَاءِ
 أَحْدَاثُ»، فَقُلْنَا: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَامَ نُبَايَعُكَ؟» قَالَ: «تُبَايَعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكُسَلِ،
 وَعَلَى النِّقْفَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْبُسْرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَعَلَى أَنْ تَقُولُوا فِي اللَّهِ لَا تَأْخُذْكُمْ
 فِيهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي إِذَا قَدِمْتُ يَثْرِبَ، فَتَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ
 وَلَكُمْ الْجَنَّةُ». فَقُمْنَا نُبَايَعُهُ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ وَهُوَ أَصْغَرُ السَّبْعِينَ، فَقَالَ: «رُؤِيدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ، إِنَّا لَمْ
 نَضْرِبْ إِلَيْهِ أَكْبَادَ الْمَطِيِّ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، إِنْ أَخْرَجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةً الْعَرَبِ كَافَّةً، وَقَتْلَ خِيَارِكُمْ،
 وَأَنْ تَعْصِيَكُمْ السُّيُوفُ، فَإِنَّمَا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَى السُّيُوفِ إِذَا مَسَّتْكُمْ، وَعَلَى قَتْلِ خِيَارِكُمْ، وَعَلَى مُفَارَقَةٍ =

ب - لما حضرت أبا طالب الوفاة، دخل رسول الله ﷺ وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية، فقال: «أَيُّ عَمٍّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أَحَاجَّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ»، فقال أبو جهل وابن أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول «لا إله إلا الله» فقال رسول الله ﷺ: «أَمَّا وَاللَّهِ لَا سَتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنَّهُ عَنْكَ» فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ...﴾ ﴿١﴾ ونزلت ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ ﴿٢﴾ [القصص: ٥٦].

التفسير: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ أي اشترى أموال المؤمنين وأنفسهم بالجنة وهو تمثيل في ذروة البلاغة والبيان لأجر المجاهدين^(١)، مثل تعالى جزاءهم بالجنة على بذلهم الأموال والأنفس في سبيله بصورة عقد فيه بيع وشراء قال الحسن: بايعهم فأغلى لهم الثمن^(٢) وانظروا إلى كرم الله، أنفُسًا هو خلقها، وأموالًا هو رزقها، ثم وهبها لهم، ثم اشتراها منهم بهذا الثمن الغالي فإنها لصفقة رابحة وقال بعضهم: ناهيك عن^(٣) بيع البائع فيه المؤمن، والمشتري فيه ربُّ العزة والثمن فيه الجنة، والصكُّ فيه الكتب السماوية، والواسطة فيه محمد عليه الصلاة والسلام ﴿يُقَنِّلُونُ﴾ في سبيل الله أي يجاهدون لإعزاز دين الله وإعلاء كلمته ﴿فَيَقْنُلُونَ وَيُقَنِّلُونَ﴾ أي في حالتي الظفر بالأعداء بقتلهم، أو الاستشهاد في المعركة بموتهم ﴿وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي وعدهم به المولى وعداً قاطعاً ﴿فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ﴾ أي وعداً مثبتاً في الكتب المقدسة «التوراة، والإنجيل، والقرآن» ﴿وَمَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى النفي أي لا أحد أوفى من الله جل وعلا قال الزمخشري: لأن إخلاف الميعاد قبيح لا يقدم عليه الكرام من الخلق، فكيف بالغني

= الْعَرَبُ كَافَّةً، فَخُدُّوهُ وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللَّهِ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ خِيفَةً فَدَرَوْهُ، فَهُوَ أَعْدَرُ عِنْدَ اللَّهِ. قَالُوا: يَا أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ أَمْطَ عَنَّا يَدَكَ، فَوَاللَّهِ لَا نَذَرُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ، وَلَا نَسْتَقْبِلُهَا، فَقُمْنَا إِلَيْهِ رَجُلًا رَجُلًا يَأْخُذُ عَلَيْنَا بِشَرْطَةِ الْعَبَّاسِ، وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ (رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: هَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ). «هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا أَعْرِفُهُمْ، هَؤُلَاءِ أَحْدَاثٌ»: هَذَا يَدُلُّ عَلَى غَلَبَةِ الشَّيْبَانِ عَلَى الْوَفْدِ. (أَمْطَ): أَبْعَدَ. (لَا نَذَرُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ): أَيُّ لَا نَتْرُكُهَا. (وَلَا نَسْتَقْبِلُهَا): لَا نَطْلُبُ فَسْخَاحَهَا وَالرُّجُوعَ فِيهَا. وَالْإِقَالَةُ: طَلَبُ الْإِقَالَةِ، وَالْإِقَالَةُ هِيَ رَفْعُ الْعَقْدِ بَعْدَ وَقُوعِهِ. (بِشَرْطَةِ الْعَبَّاسِ): يَعْنِي الْمَوَاقِيقَ الَّتِي أَخَذَهَا الْعَبَّاسُ عَلَيْهِمُ بِالْوَفَاءِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

(١) أخرجه مسلم.

(٢) (ش): هذا خطأ لأنه لا مانع من حمله على الحقيقة، لأن الأصل في الكلام لاسيما كلام الله الحقيقة لا المجاز، والشراء في اللغة استبدال شيء بشيء، وهو حاصل هنا.

(٣) «الطبري» ١١/٣٥، و«الرازي» ١٦/١٩٩.

(٤) (ش): ناهيك عن/ ناهيك ب: كافيك. صك: سند أو وثيقة اعتراف بالمال المقبوض أو بالمال المستحق للغير.

الذي لا يجوز عليه القبيح؟ ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن منه وأبلغ^(١) ﴿مَنْ أَلَّهَ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ أي أبشروا بذلك البيع الرابع وافرخوا به غاية الفرح ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ هو الفوز الذي لا فوز أعظم منه ﴿التَّائِبُونَ الْعَمِيدُونَ الْحَكِيمُونَ﴾ كلاً مستأنف قال الزجاج: مبتدأ خبره محذوف أي التائبون العابدون من أهل الجنة أيضاً وإن لم يجاهدوا كقوله ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [النساء: ٩٥] والمعنى التائبون عن المعاصي، العابدون أي المخلصون في العبادة، الحامدون لله في السراء والضراء ﴿السَّاجِدُونَ﴾ أي السائرون في الأرض للغزو أو طلب العلم، من السياحة وهي السير والذهاب في المدن والقفار للعبادة والاعتبار^(٢) ﴿الرَّزَّاقُونَ السَّاجِدُونَ﴾ أي المصلون ﴿الْأُمُّرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي الداعون إلى الله، يدعون الناس إلى الرشد والهدى، وينهونهم عن الفساد والردى ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ أي المحافظون على فرائض الله، المتمسكون بما شرع الله من حلال وحرام قال «الطبري»: أي المؤدون فرائض الله، المنتهون إلى أمره ونهيه^(٣) ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بشرهم بجنت النعيم، وحذف المبشر به إشارة إلى أنه لا يدخل تحت حصر، بل لهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ أي لا ينبغي ولا يصح للنبي والمؤمنين أن يطلبوا من الله المغفرة للمشركين ﴿وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ﴾ أي ولو كان المشركون أقرباء لهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي من بعد ما وضح لهم أنهم من أهل الجحيم لموتهم على الكفر، والآية نزلت في أبي طالب^(٤) ﴿وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ هذا بيان للسبب الذي حمل إبراهيم على الاستغفار لأبيه آزر أي ما أقدم إبراهيم على الاستغفار ﴿إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ أي إلا من أجل وعد تقدم له بقوله ﴿سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي﴾ [مريم: ٤٧] وأنه كان قبل أن يتحقق إصراره على الشرك ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ أي فلما تبين لإبراهيم أن أباه مُصِرٌّ على الكفر ومستمر على الكفر، تبرأ من أبيه بالكلية فضلاً عن الاستغفار له، ثم بين تعالى بأن الذي حمل إبراهيم على الاستغفار هو فرط ترحمه وصبره على أبيه فقال ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ أي كثير التأوه من فرط الرحمة ورقة القلب ﴿حَلِيمٌ﴾ أي صبور على ما يعترضه من الأذى ولذلك حلم عن أبيه مع توعده له بقوله ﴿لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ

(١) «الكشاف» ٢/ ٣١٤.

(٢) فسر بعضهم «السائحون» بأنهم الصائمون، وقال عطاء: هم الغزاة، وقال ابن زيد: هم المهاجرون، وما ذهبنا إليه هو ما رجحه الفخر «الرازي»، وهو الأولى بتفسير الآية الكريمة ويدل عليه: ﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾ والله أعلم.

(٣) «الطبري» ١١/ ٣٩.

(٤) انظر سبب النزول.

لَا رَجْمَ لَكَ ﴿[مریم: ٤٦] فليس لغيره أن يتأسى به في ذلك قال أبو حيان: ولما كان استغفار إبراهيم لأبيه بصدد أن يقتدى به بين تعالى العلة في استغفار إبراهيم لأبيه، وهو الوعد الذي كان وعده به، فكان يرجو إيمانه فلما تبين له من جهة الوحي أنه عدو لله، وأنه يموت كافراً، وانقطع رجاءه منه تبرأ منه وقطع استغفاره^(١) ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ نزلت الآية في قوم من المسلمين استغفروا للمشركين، فخافوا على أنفسهم من ذلك فنزلت الآية تأنيساً لهم^(٢) أي ما كان الله ليقتضي على قوم بالضلال ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ﴾ أي بعد أن وفقهم للإيمان ﴿حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ أي حتى يبين لهم ما يجنبونه فإن خالفوا بعد النهي استحقوا العقوبة ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي عليم بجميع الأشياء ومنها أنه يعلم من يستحق الهداية، ومن يستحق الإضلال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي له سلطان السماوات والأرض وملكهما، وكل من فيهما عبده ومماليكه ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي بيده وحده حياتهم وموتهم ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي ما لكم أيها الناس من أحد غير الله تلجئون إليه أو تعتمدون عليه قال الألوسي: لما منعهم سبحانه عن الاستغفار للمشركين وإن كانوا أولي قربى، وتضمن ذلك وجوب التبري عنهم، بين لهم أن الله سبحانه مالك كل موجود، ومتولي أمره، والغالب عليه، ولا يتأتى لهم ولاية ولا نصر إلا منه تعالى، ليتوجهوا إليه بكليتهم، متبرئين عما سواه، غير قاصدين إلا إياه^(٣) ﴿لَقَدْ تَابَكَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُكَلِّمِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ أي تاب الله على النبي من إذنه للمنافقين في التخلف، وتاب على المهاجرين والأنصار لما حصل منهم من بعض الهفوات في غزوة تبوك، حيث تباطأ بعضهم، وتناقل عن الجهاد آخرون، والغرض التوبة على من تخلفوا من المؤمنين عن غزوة تبوك ثم تابوا وأتابوا، وعلم الله صدق توبتهم فقبلها منهم، وصدرها بتوبته على رسوله وكبار صحبه جبراً لقلوبهم، وتنويهاً لشأنهم، وبعثاً للمؤمنين على التوبة، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار، حتى النبي والمهاجرون والأنصار^(٤) ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ أي اتبعوه في غزوة تبوك وقت العسرة في شدة الحر، وقلة الزاد، والضيق الشديد روى «الطبري» عن عمر رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستقطع، حتى إن الرجل لينحر البعير فيعصر فرثه فيشربه، فقال أبو بكر: يا رسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا، قال: تحب ذلك؟ قال: نعم فرفع يديه فلم يرجعهما حتى سكبت السماء فملاوا

(١) «البحر» المحيط ١٠٥/٥.

(٢) التسهيل ٨٦/٢. (ش): ذكره ابن جزي في «التسهيل» لعلوم التنزيل بدون إسناد.

(٣) «روح المعاني» ٣٩/١١.

(٤) انظر «الكشاف» ٣١٦/٢.

ما معهم، فرجعنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر^(١) ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَرِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ أي من بعد ما كادت قلوب بعضهم تميل عن الحق وترتاب، لما نالهم من المشقة والشدة ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي وفقهم للثبات على الحق وتاب عليهم لما ندموا ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي لطيف رحيم بالمؤمنين ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا﴾ أي وتاب كذلك على الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو، وهم «كعب، وهلال، ومرارة»^(٢) ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي ضاقت عليهم مع سعتها ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي ضاقت نفوسهم بما اعتراها من الغم والهَمِّ، بحيث لا يَسْعُهَا أَنْسٌ ولا سرور، وذلك بسبب «أن الرسول عليه السلام دعا لمقاطعتهم، فكان أحدهم يفشي السلام لأقرب أقربائه فلا يرد عليه، وهَجَرَتْهُمْ نِسَائُهُمْ وأهلُهم وأهلُهم حتى تاب الله عليهم» ﴿وَوَظَنُوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ أي وأيقنوا أنه لا معصم لهم من الله ومن عذابه، إلا بالرجوع والإِنابة إليه سبحانه ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ أي رجع عليهم بالقبول والرحمة، ليستقيموا على التوبة ويدوموا عليها ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْتَوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي المبالغ في قبول التوبة وإن كثرت الجنايات وعَظُمَتْ، المتفضل على العباد بالرحمة الشاملة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أي راقبوا الله في جميع أقوالكم وأفعالكم، وكونوا مع أهل الصدق واليقين، الذين صدقوا في الدنيا وفي قولاً وعملاً ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ عتاب لمن تخلف عن غزوة تبوك أي ما صح ولا استقام لأهل المدينة ومن حولهم من سكان البوادي أن يتخلفوا عن الغزو مع رسول الله ﷺ ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي لا يترفعوا بأنفسهم عن نفسه بأن يكرهوا لها المكاره ولا يكرهوها له عليه السلام، بل عليهم أن يُفِدُوهُ بِالْمُهْجِ والأرواح، وأن يكابدوا معه ما يكابده من الأهوال والخطوب قال الزمخشري: أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء، وأن يلقوا من الشدائد ما تلقاه نفسه، علماً بأنها أعز نفس على الله وأكرمها عليه، لا أن يَصْنُتُوا^(٣) بأنفسهم على ما سمح بنفسه عليه، وهذا نهي بليغ، وتبييح لمتابعتهم عليه السلام^(٤) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ أي ذلك النهي عن التخلف بسبب أنهم لا يصيبهم عطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ أي ولا تعب ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ أي ولا مجاعة ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي في طرق الجهاد ﴿وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا﴾ أي ولا يدوسون مكاناً من أمانة

(١) «الطبري» ٥٥ / ١١. (ش): قال الهيثمي: «رواه البزار والطبراني في الأوسط ورجال البزار ثقات».

(٢) انظر قصتهم في صحيح البخاري كتاب المغازي وفي «الطبري» ٥٨ / ١١. (ش): هم كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ومُرَّادُ بْنُ الرِّبِيعِ العُمَرِيُّ، وهَلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ رضي الله عنه. والقصة رواها أيضاً مسلم في «صحيحه».

(٣) (ش): ضَنَّ بِالْمَالِ وغيره: بَخِلَ بِهِ.

(٤) «الكشاف» ٣٢١ / ٢ / ٢.

الكفار بأرجلهم أو حوافر خيولهم ﴿يَغْضِبُ الْكُفَّارَ﴾ أي يُغْضِبُ الكفارَ وَطُوحًا ﴿وَلَا يَنَالُوكَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً﴾ أي ولا يصيبون أعداءهم بشيء بقتل أو أسر أو هزيمة قليلاً كان أو كثيراً ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ أي إلا كان ذلك قرينة لهم عند الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي لا يضيع أجر من أحسن عملاً ﴿وَلَا يُفْقُوتُ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ قال ابن عباس: ثمرة فما فوقها ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أي ولا يجتازون للجهاد في سيرهم أرضاً ذهاباً أو إياباً ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ أي أثبت لهم أجر ذلك ﴿لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ليجزيهم على كل عمل لهم جزاء أحسن أعمالهم قال الألوسي: على معنى أن لأعمالهم جزاءً حسناً وجزاءً أحسن، وهو سبحانه اختار لهم أحسن جزاء (١) ﴿وَمَا كَانُوا يُفْقِدُونَ﴾ أي لا ينبغي خروج جميع المؤمنين للغزو (٢) بحيث تخلو منهم البلاد، روي عن ابن عباس أنه تعالى لما شدد على المتخلفين قالوا: لا يتخلف منا أحد عن جيش أو سرية أبداً، فلما قدم الرسول المدينة وأرسل السرايا إلى الكفار، نفر المسلمون جميعاً إلى الغزو وتركوه وحده بالمدينة فنزلت هذه الآية (٣) ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ أي فإذا لم يكن نفير الجميع ولم يكن فيه مصلحة فهلاً نفر من كل جماعة كثيرة فئة قليلة ﴿لِيَنْفَقَهُوْا فِي الدِّينِ﴾ أي ليصبحوا فقهاء ويتكلفوا المشاق في طلب العلم ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ أي وليخوفوا قومهم ويرشدوهم إذا رجعوا إليهم من الغزو، لعلمهم يخافون عقاب الله بامثال أو امره واجتناب نواهيهِ قال الألوسي: وكان الظاهر أن يقال ﴿لِيَعْلَمُوا﴾ بدل ﴿وَلِيُنْذِرُوا﴾ و ﴿يَفْقَهُوْا﴾ بدل ﴿يَحْذَرُونَ﴾ لكنه اختير ما في النظم الجليل للإشارة إلى أنه ينبغي أن يكون غرض المعلم: الإرشاد والإنذار، وغرض المتعلم: اكتساب الخشية لا التبسط والاستكبار (٤) ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ أي قاتلوا القرييين منكم وطهروا ما حولكم من رجس المشركين ثم انتقلوا إلى غيرهم، والغرض إرشادهم إلى الطريق الأصوب والأصلح، وهو أن يبتدئوا من الأقرب فالأقرب حتى يصلوا إلى الأبعد فالأبعد ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي وليجد هؤلاء الكفار منكم شدة عليهم ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي واعلموا أن من اتقى الله كان الله معه بالنصر والعون ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾ أي من سور القرآن ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ أي فمن هؤلاء المنافقين من يقول استهزاء: أيكم زادته هذه إيماناً؟ على وجه الاستخفاف

(١) «روح المعاني» ٤٧/١١.

(٢) وقيل: المراد أن ينفروا لطلب العلم.

(٣) «الرازي» ٢٢٥/١٦.

(٤) «روح المعاني» ٤٨/١١.

بالقرآن كأنهم يقولون: أي عجب في هذا وأي دليل في هذا؟ يقول تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ أي فأما المؤمنون فزادتهم تصديقاً^(١) وذلك لما يتجدد عندهم من البراهين والأدلة عند نزول كل سورة ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي وهم يفرحون لنزولها لأنه كلما نزل شيء من القرآن ازدادوا إيماناً ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ أي وأما المنافقون الذين في قلوبهم نفاق وشك في دين الله ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ أي زادتهم نفاقاً إلى نفاقهم وكفراً إلى كفرهم، فزادوا رجساً وضللاً فوق ما هم فيه من الرجس والضلال ﴿وَمَا تَأْوُوا لَهُمْ كَفِرُوا﴾ أي ماتوا على الكفر ﴿أُولَٰئِكَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ أي أولاً يرى هؤلاء المنافقون الذين تفضح سرائرهم كل سنة مرة أو مرتين حين ينزل فيهم الوحي؟ ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ أي ثم لا يرجعون عما هم فيه من النفاق ولا يعتبرون ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا﴾ أي وإذا أنزلت سورة من القرآن عيب المنافقين وهم في مجلس النبي ﷺ نظر بعضهم لبعض هل يراكم أحد من المسلمين لنصير، فإن لا نصير على استماعه وهو يفضحنا ثم قاموا فانصرفوا ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ جملة دُعائية أي صرفها عن الهدى والإيمان ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي لأجل أنهم لا يفهمون الحق ولا يتدبرون فهم حمقى غافلون ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي لقد جاءكم أيها القوم رسول عظيم القدر، من جنسكم عربي قرشي، يُبلغكم رسالة الله ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي يشق عليه عنتكم وهو المشقة ولقاء المكروه ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي حريص على هدايتكم ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي رءوف بالمؤمنين رحيم بالمذنبين، شديد الشفقة والرحمة عليهم قال ابن عباس: سماه باسمين من أسمائه^(٢) ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي فإن أعرضوا عن الإيمان بك يا محمد فقل: يكفيني ربي ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود سواه^(٣) ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي عليه اعتمدت فلا أرجو ولا أخاف أحداً غيره ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي هو سبحانه رب العرش المحيط بكل شيء، لكونه أعظم الأشياء؛ الذي لا يعلم مقدار عظمته إلا الله تعالى.

البَلاَغَةُ: ١ - ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ﴾ استعارة تبعية شبه بذلهم الأموال والأنفس وإثابتهم عليها

(١) (ش): تفسيره الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح.

(٢) «زاد المسير» ٣/ ١٢٥.

(٣) (ش): الصواب أن يقال: أي لا معبود بحق سواه.

بالجنة بالبيع والشراء^(١).

٢ - ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ فيه جناس ناقص لاختلافهما في الشكل وهو من المحسنات البديعية.

٣ - ﴿الرَّكْعَتِ السَّجْدَتِ﴾ يعني المصلين فيه مجاز مرسل من إطلاق الجزء وإرادة الكل، وخص الركوع والسجود بالذكر لشرفهما «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»^(٢).

٤ - ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الإظهار في مقام الإضمار للاعتناء بهم وتكريمهم.

٥ - ﴿مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

٦ - ﴿لِيُضِلَّ .. هَدَاهُمْ﴾ بينهما طباق وكذلك بين ﴿يُحْيِي .. وَيُمِيتُ﴾ وكذلك ﴿صَافَتْ .. رَحِبَتْ﴾.

٧ - ﴿النَّوَابِ الرَّحِيمِ﴾ من صيغ المبالغة.

٨ - ﴿يَطْفُونَ مَوْطِنًا﴾ جناس الاشتقاق وكذلك ﴿يَنَالُونَ .. نَيْلًا﴾.

٩ - ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ طباق.

١٠ - ﴿فَزَادَتْهُمْ رَجْسًا إِلَى رَجْسِهِمْ﴾ قال في تلخيص البيان: السورة لا تزيد الأرجاس رجسًا، ولا القلوب مرضًا، بل هي شفاء للصدور وجلاء للقلوب، ولكن المنافقين لما ازدادوا عند نزولها عَمَى، حَسُنَ أن يضاف ذلك إلى السورة على طريق الاستعارة.

تنبيه: «روي أن أبا خيثمة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء فرشت له في الظل، وبسطت له الحصير، وقربت إليه الرطب والماء البارد، فنظر فقال: ظل ظليل، ورطب يانع، وماء بارد، وامرأة حسناء، ورسول الله ﷺ في الحر والريح ما هذا بخير، فقام فرحل ناقته، وأخذ سيفه ورمحه، ومر كالريح فنظر رسول الله ﷺ خلفه فإذا براكب وراء السراب، فقال: «كن أبا خيثمة» فكان ففرح به رسول الله ﷺ واستغفر له»^(٣).

«تم تفسير سورة التوبة والله الحمد في البدء والختام»



(١) (ش): هذا خطأ لأنه لا مانع من حمله على الحقيقة، لأن الأصل في الكلام لاسيما كلام الله الحقيقة لا المجاز، والشراء في اللغة استبدال شيء بشيء، وهو حاصل هنا.

(٢) تلخيص البيان ١٥٢. (ش): (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٣) (ش): حديث (كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ) صحيح، وهو عند مسلم وأحمد، وهو جزء من حديث كعب بن مالك الطويل. أما قصة أبي خيثمة التي ذكرها المؤلف؛ فقد أوردها ابن هشام عن ابن إسحاق بدون سند. ورواها الطبراني في «الكبير» بسند فيه يعقوب بن محمد الزهري، وهو ضعيف.



مكية وآياتها تسع ومائة

بين يدي السورة

سورة يونس من السور المكية التي تُعنى بأصول العقيدة الإسلامية «الإيمان بالله تعالى، والإيمان بالكتب، والرسول، والبعث والجزاء» وهي تتميز بطابع التوجيه إلى الإيمان بالرسالات السماوية، وبوجه أخص إلى «القرآن العظيم» خاتمة الكتب المنزلة، والمعجزة الخالدة على مدى العصور والدهور.

* تحدثت السورة الكريمة في البدء عن الرسالة والرسول، وبينت أن هذه سنة الله في الأولين والآخرين، فما من أمة إلا بعث الله إليها رسولاً، فلا داعي للمشركين للعجب من بعثة خاتم المرسلين ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢]؟ ثم تلتها الآيات عن بيان حقيقة «الألوهية» و«العبودية» وأساس الصلة بين الخالق والمخلوق، وعرفت الناس برهم الحق الذي ينبغي أن يعبدوه، وأن يُسلموا وجوههم إليه، فهو وحده الخالق الرازق، المحيي المميت، المدبر الحكيم، وكل ما سواه فباطل وهباء ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [يونس: ٣] الآيات.

* وتناولت السورة الكريمة موقف المشركين من الرسالة والقرآن، وذكرت أن هذا القرآن هو المعجزة الخالدة، الدالة على صدق النبي الأمي، وأنه يحمل برهانه في تفرد المعجز، حيث تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا مع أنهم أساطين الفصاحة وأمراء البيان، ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

* وانتقلت السورة لتعريف الناس بصفات الإله الحق، بذكر آثار قدرته ورحمته الدالة على التدبير الحكيم، وما في هذا الكون المنظور من آثار القدرة الباهرة، التي هي أوضح البراهين على عظمة الله وجلاله وسلطانه ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ...﴾ الآيات وهذه هي القضية الكبرى التي يدور محور السورة عليها وهي موضوع الإيمان بوحداية الله جل وعلا، وقد عرضت السورة لها بشتى الأدلة السمعية والعقلية.

* وتحدثت السورة عن قصص بعض الأنبياء، فذكرت قصة نوح مع قومه، وقصة موسى مع فرعون الجبار، وذكرت قصة نبي الله «يونس» -الذي سميت السورة باسمه- وكل هذه القصص لبيان سنة الله الكونية في إهلاك الظالمين، ونصرة المؤمنين.

* وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالاستمسك بشريعة الله، والصبر على ما

يلقى من الأذى في سبيل الله ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.
التسمية: سميت السورة «سورة يونس» لذكر قصته فيها، وما تضمنته من العظة والعبرة برفع العذاب عن قومه حين آمنوا بعد أن كاد يحل بهم البلاء والعذاب، وهذا من الخصائص التي خص الله بها قوم يونس لصدق توبتهم وإيمانهم.
قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّنِ وَالْحِسَابِ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَاؤُهُمُ النَّارُ يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ فَذَرِ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَٰلِكَ زَيْنٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُنْزِلَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَنْتِ بِشَرِّهِمْ أَوْ بِهَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرِكُكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَبَعْدُوتٍ مِّن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ يَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شَفَعْتُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ لِلنَّاسِ إِلَّا

أُمَّةٌ وَحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

اللغة: ﴿قَدَّمَ صَدَقَ﴾ قال الليث: القدم السابقة قال ذو الرمة:

وَأَنْتَ أَمْرٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ ذُوَابَةِ لَهُمْ قَدَمٌ ^(١) مَعْرُوفَةٌ وَمَفَاخِرُ ^(٢)

وقال أبو عبيدة: كل سابق في خير أو شر فهو قدم وقال الأخفش: سابقة إخلاص ﴿يُدِيرُ﴾ التدبير القضاء والتقدير على حسب الحكمة ﴿يَالْقَسْطُ﴾ العدل ﴿حَمِيمٌ﴾ الحميم: الماء الحار الذي سخن بالنار حتى انتهى حره ﴿يَفْصَلُ﴾ التفصيل: التبيين والتوضيح ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ مثواهم ومقامهم ﴿طُغْيَنِهِمْ﴾ الطغيان العلو والارتفاع ﴿يَعْمَهُوتُ﴾ يتحيرون ﴿خَلِيفٌ﴾ جمع خليفة وهو الذي يخلف غيره في شئونه.

سَبَبُ النُّزُول: قال ابن عباس: لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ أنكرت الكفار وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، أما وجد الله من يرسله إلا يتيماً أبي طالب؟ فأنزل الله ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ...﴾ ^(٣) الآية.

التفسير: ﴿الر﴾ إشارة إلى أن هذا الكلام البليغ المعجز، مكوّن من جنس الأحرف التي يتكون منها كلامكم، فمن هذه الحروف وأمثالها تتألف آيات الكتاب الحكيم، وهي في متناول أيديهم ثم يعجزون عن الإتيان بمثل آية واحدة منه ^(٤) ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ أي هذه آيات القرآن المحكم المبين الذي لا يدخله شك، ولا يعتريه كذب ولا تناقض ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ أي أكان عجباً لأهل مكة إيحائنا إلى رجل منهم هو محمد عليه السلام؟ والهمزة للإنكار أي لا عجب في ذلك فهي عادة الله في الأمم السالفة أوحى إلى رسالهم ليبلغوهم رسالة الله ﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ أي أوحينا إليه بأن خوف الكفار عذاب النار ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي وأن بشر المؤمنين بأن لهم سابقة ومنزلة رفيعة عند ربهم بما قدموا من صالح الأعمال ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا السَّحَرُ الْمُبِينُ﴾ أي ومع ضوح صدق الرسول ﷺ قال المشركون: إن محمداً ساحرٌ ظاهر السحر، مبطلٌ فيما يدّعيه قال «البيضاوي»: وفيه اعترافٌ من حيث لا يشعرون بأن ما جاء به خارجٌ عن طوق البشر ^(٥) ﴿إِنْ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي

(١) (ش): القدم السابقة: ما تقدموا فيه غيرهم. الذوابة: أعلى كل شيء، أو قمته وناصيته.

(٢) التفسير الكبير للرازي ١٧/٧.

(٣) «القرطبي» ٨/٣٠٦. (ش): ضعيف، أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» والواحد في «أسباب النزول».

(٤) انظر ما كتبه في أول سورة البقرة.

(٥) «البيضاوي» ٢٣٥.

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴿١﴾ أَيَّ إِن رَّبِّكُمْ وَمَالِكُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ تُفَرِّدُوهُ بِالْعِبَادَةِ هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْكَائِنَاتِ فِي مِقْدَارِ سِتَّةِ أَيَّامٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا، وَلَوْ شَاءَ لَخَلَقَهُنَّ فِي لَمَحَةٍ وَلَكِنَّهُ أَرَادَ تَعْلِيمَ الْعِبَادِ التَّائِي وَالتَّثْبِتَ فِي الْأُمُورِ ﴿٢﴾ ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴿٣﴾ اسْتَوَاءً يَلِيْقُ بِجَلَالِهِ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ، وَلَا تَشْبِيهِ، وَلَا تَعْطِيلٍ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: نَسَلَكُ فِي هَذَا الْمَقَامِ مَذْهَبَ السَّلَفِ الصَّالِحِ، وَهُوَ إِمْرَارُهَا كَمَا جَاءَتْ مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهِ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَالتَّيْبَادُ إِلَى أَذْهَانِ الْمُشَبِّهِينَ مُنْفِيٌّ عَنِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُشَبِّهُهُ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِهِ، فَمَنْ أَثَبَّتَ اللَّهُ تَعَالَى مَا وَرَدَتْ بِهِ الْآيَاتُ الصَّرِيحَةُ، وَالْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ، عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَلِيْقُ بِجَلَالِ اللَّهِ، فَقَدْ سَلَكَ سَبِيلَ الْهُدَى ^(١) وَقَالَ «أَبُو السَّعُودِ»: اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي عَنَاهُ، وَهُوَ صِفَةٌ لَهُ سَبْحَانَهُ بَلَا كَيْفٍ، مُنْزَهًا عَنِ التَّمَكُّنِ وَالِاسْتِقْرَارِ ^(٢)، وَهَذَا بَيَانٌ لَجَلَالَةِ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، بَعْدَ بَيَانِ عَظَمَةِ شَأْنِهِ ^(٣) ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ أَيَّ يَدَبِّرُ أَمْرَ الْخَلَائِقِ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ وَالْمَصْلَحَةُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا يَشْغَلُهُ فِي تَدْبِيرِ خَلْقِهِ أَحَدٌ ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ أَيَّ لَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ شَافِعٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ فِي الشَّفَاعَةِ، وَفِي هَذَا رَدٌّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي زَعْمِهِمْ أَنَّ الْأَصْنَامَ تَشْفَعُ لَهُمْ ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ أَيَّ ذَلِكُمُ الْعَظِيمُ الشَّانُ هُوَ رَبُّكُمْ وَخَالِقُكُمْ لَا رَبَّ سِوَاهُ، فَوَحِّدُوهُ بِالْعِبَادَةِ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أَيَّ أَفَلَا تَتَعَذَّبُونَ وَتَعْتَبِرُونَ؟ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْمُتَفَرِّدُ بِالْخَلْقِ ثُمَّ تَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أَيَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَمِيعًا ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ أَيَّ وَعَدًا مِنْ اللَّهِ لَا يَتَبَدَّلُ، وَفِيهِ رَدٌّ عَلَى مَنْكَرِي الْبَعْثِ حَيْثُ قَالُوا ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُبْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الباقية: ٢٤] ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أَيَّ كَمَا ابْتَدَأَ الْخَلْقَ كَذَلِكَ يُعِيدُهُ ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أَيَّ لِيَجْزِيَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْعَدْلِ، وَيُوفِيهِمْ أَجُورَهُمْ بِالْجِزَاءِ الْأَوْفَى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيَّ وَالَّذِينَ جَحَدُوا بِاللَّهِ وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أَيَّ لَهُمْ فِي جَهَنَّمَ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ، بَالِغِ النِّهَايَةِ فِي الْحَرَارَةِ ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

(١) «المختصر» ٢/ ٢٥، وانظر توضيح المسألة في أول سورة الأعراف من هذا الكتاب.

(٢) (ش): قول أبي السَّعُودِ «منزهاً عن التمكن والاستقرار» مخالف لما يثبت السلف من صفة العلو، ومخالف لما ذكره المؤلف نفسه - في تفسير سورة الأعراف - من تفسير الاستواء بالعلو والاستقرار. فكلام أبي السَّعُودِ مخالف لعقيدة أهل السنة والجماعة، والواجب السكوت عما سكنت عنه النصوص وسكت عنه السلف؛ والسلف أثبتوا الحق ونفوا الباطل، وتفسيرهم لآيات الصفات وأحاديثها على الوجه اللائق بالله تعالى أمر معلوم، بل إن عامة أهل السنة على إثبات «التمكن والاستقرار» الذي نزه أبو السَّعُودِ الله عنه، فإن جمعاً من علماء أهل السنة فسروا الاستواء بالاستقرار والتمكن، وما أنكروا البقية عليهم. جاء في كتاب «التمهيد» لابن عبد البر (٧/ ١٣١): «الاستواء معلوم في اللغة ومفهوم، وهو العلو والارتفاع على الشيء والاستقرار، والتمكن فيه». [وانظر: «مجموع فتاوى ورسائل العثيمين» (١/ ٢٤٠)].

(٣) «أبو السَّعُودِ» ٢/ ٣٠٧.

يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١﴾ أي ولهم عذاب موجه بسبب كفرهم وإشراكهم قال «البيضاوي»: والآية كالتعليل لما سبق فإنه لما كان المقصود من البدء والإعادة مجازاة المكلفين على أعمالهم كان مرجع الجميع إليه لا محالة^(١) ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً﴾ الآية للتنبيه على دلائل القدرة والوحدانية أي هو تعالى بقدرته جعل الشمس مضيئة ساطعة بالنهار كالسراج الوهاج ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ أي وجعل القمر منيراً بالليل وهذا من كمال رحمته بالعباد، ولما كانت الشمس أعظم جرماً خُصَّت بالضياء، لأنه هو الذي له سطوعٌ ولَمعان قال «الطبري»: المعنى أضاء الشمس وأنار القمر^(٢) ﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾ أي قَدَّر سيره في منازل وهي البروج^(٣) ﴿لِنَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالْجَسَابَ﴾ أي لتعلموا أيها الناس حساب الأوقات، فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي ما خلق تعالى ذلك عبثاً بل لحكمة عظيمة، وفائدة جليلة ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي يبين الآيات الكونية ويوضحها لقوم يعلمون قدرة الله، ويتدبرون حكمته قال «أبو السعود»: أي يعلمون الحكمة في إبداع الكائنات، فيستدلون بذلك على شئونها مبدعها جل وعلا^(٤) ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي في تعاقبهما يأتي الليل فيذهب النهار، ويأتي النهار فيذهب الليل ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي وما أوجد فيهما من أصناف المصنوعات ﴿لَا يَتَّبِعُ لِقَوْمٍ يَكْفُرُونَ﴾ أي لا يات عظمة وبراهين جليلة، على وجود الصانع ووحدته، وكمال علمه وقدرته، لقوم يتقون الله ويخافون عذابه ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي لا يتوقعون لقاء الله أصلاً ولا يخطر ببالهم، فقد أعمتتهم الشهوات عن التصديق بما بعد الممات ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي رضوا بالدنيا عوضاً من الآخرة، وآثروا الخسيس على النفيس ﴿وَأَطْمَأَنَّنُوا﴾ أي فرحوا بها وسكنوا إليها ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ أي وهم عن الأدلة المنبئة في صحائف الأكوان غافلون، لا يعتبرون فيها ولا يتفكرون ﴿أُولَئِكَ مَاؤُنْهُمُ النَّارُ﴾ أي مشواهم ومقامهم النار ﴿يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي بسبب كفرهم وإجرامهم، وبعد أن ذكر الله حال الأشقياء أرففه بذكر حال السعداء فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ أي يهديهم إلى طريق الجنة بسبب إيمانهم ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي تجري من تحت قصورهم الأنهار أو من تحت أسرّتهم وهم مقيمون في جنات النعيم ﴿دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ أي دعاؤهم في الجنة سبحانك اللهم وفي الحديث «يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا

(١) «البيضاوي» ٢٣٦.

(٢) «الطبري» ٨٦/١١.

(٣) (ش): المنازل للقمر والبروج للشمس، ومنازل القمر ثمان وعشرون والبروج اثنا عشر فقط.

(٤) «أبو السعود» ٣١٠/٢.

يُلْهِمُونَ النَّفْسَ^(١) أي كلامهم في الجنة تسبيح الله ﴿وَيَحْيِيهِمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أي وتحيه بعضهم بعضاً سلاماً عليكم كما يحييهم بذلك الملائكة ﴿وَأَلْمَلَيْتُكَ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (٣٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴿[الرعد: ٢٣ - ٢٤]﴾ ﴿وَعَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي وآخر دعائهم أن يقولوا: الحمد لله رب العالمين ﴿وَلَوْ يُعِجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ قال مجاهد: هو دعاء الرجل على نفسه أو ولده إذا غضب، اللهم أهلكه، اللهم لا تبارك فيه قال «الطبري»: المعنى لو يعجل الله إجابة دعاء الناس في الشر وفيما عليهم فيه مضرة، كاستعجاله لهم في الخير بالإجابة إذا دعوه به ﴿لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَجَلَهُمْ﴾ أي لهلكوا وعُجِّلَ لهم الموت^(٢) ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي فترك المكذبين بلقائنا الذين لا يؤمنون بالبعث ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي في تمردهم وعتوهم يترددون تحيراً والمعنى: ترك المجرمين ونمهلهم ونفيض عليهم النعم مع طغيانهم لتلزمهم الحجة ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ﴾ أي وإذا أصاب الإنسان الضر من مرض أو فقراً ونحو ذلك ﴿دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ أي دعانا في جميع الحالات: مضطجعاً أو قاعداً أو قائماً لكشف ذلك الضر عنه ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ﴾ أي فلما أزلنا ما به من ضر استمر على عصيانه، ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء أو تناساه، وهو عتاب لمن يدعو الله عند الضر، ويغفل عنه عند العافية ﴿كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي كما زين لذلك الإنسان الدعاء عند الضر والإعراض عند الرخاء، كذلك زين للمسرفين المتجاوزين الحد في الإجماع، ما كانوا يعملون من الإعراض عن الذكر، ومتابعة الشهوات ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أي ولقد أهلكنا الأمم من قبلكم أيها المشركون لما كفروا وأشركوا وتمادوا في الغي والضلال ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي جاءوهم بالمعجزات الباهرة التي تدل على صدقهم ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أي وما آمنوا بما جاءتهم به الرسل، أي أنهم ظلموا وما آمنوا فكان سبب إهلاكهم شينان: ظلمهم، وعدم إيمانهم ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء - يعني الإهلاك - نجزي كل مجرم، وهو وعيد لأهل مكة على تكذيبهم رسول الله ﷺ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي ثم استخلفناكم في الأرض يا أهل مكة من بعد إهلاك أولئك القرون، التي تسمعون أخبارها وتشاهدون آثارها ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي لننظر أتعلمون خيراً أم شراً فنجازيكم على حسب عملكم قال «القرطبي»: والمعنى: يعاملكم معاملة المختبر

(١) (ش): (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٢) «الطبري» ٩١/١١، وقال بعض المفسرين: نزلت في كفار مكة حيث قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ أَلْحَقًا مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]، قال الزمخشري: يعني: لو عجلنا لهم الشر الذي دعو به كما نعجل لهم الخير ونجيبهم إليه لأُْمِنُوا وأهلكوا. اهـ. «الكشاف» ٣٣٢/٢.

(ش): سبب نزول الآية في كفار مكة حيث قالوا «لم أجده إلا في بعض كتب التفسير بدون إسناد».

إظهاراً للعدل^(١) وقال في «التسهيل»: معناه ليظهر في الوجود عملكم فتقوم عليكم به الحجة^(٢) والغرض أن الله تعالى عالمٌ بأعمالهم من قبل ذلك ولكن يختبرهم ليتبين في الوجود ما علمه تعالى أولاً ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي وإذا قرئت على المشركين آيات القرآن المبين، حال كونها واضحة لا لبس فيها ولا إشكال ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي قال الذين لا يؤمنون بالبعث والحساب، ولا يرجون الأجر والثواب ﴿إِنِّي بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا﴾ أي أي انت يا محمد بكتاب آخر غير هذا القرآن، ليس فيه ما نكرهه من عيب آلهتنا، وتسفيه أحلامنا، ﴿أَوْ بَدِّلُهُ﴾ بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة، ومكان سب آلهتنا مدحهم، ومكان الحرام حلالاً، وإنما قالوه على سبيل الاستهزاء والسخرية قال ابن عباس: نزلت في المستهزئين بالقرآن من أهل مكة قالوا: يا محمد اتتنا بقرآن غير هذا فيه ما نسألك^(٣) ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِ نَفْسِي﴾ أي قل لهم يا محمد ما ينبغي ولا يصح لي أن أغير أو أبدل شيئاً من قبل نفسي ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي لا أتبع إلا ما يوحى إليّ ربي، فأنا عبد مأمور، ورسول مبلغ، أبلغكم رسالة الله ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي إني أخشى أن خالفت أمره، وبدلت وحيه، عذاب يوم شديد الهول هو يوم القيامة، وهذا كالتعليل لما سبق ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد: لو شاء الله ما تلوت هذا القرآن عليكم، وما تلوته إلا بمشيئته تعالى، لأنه من عنده وما هو من عندي ﴿وَلَا أَذْرِكُمْ بِهِ﴾ أي ولا أعلمكم به على لساني ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ﴾ أي فقد مكثت بين أظهركم زمناً طويلاً، مدة أربعين سنة من قبل القرآن لا أعلمه أنا ولا أتلوه عليكم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكير لتعلموا أن مثل هذا الكتاب المعجز ليس إلا من عند الله؟ قال الإمام الفخر: إن الكفار شاهدوا رسول الله ﷺ من أول عمره إلى ذلك الوقت، وكانوا عالمين بأحواله، وأنه ما طالع كتاباً، ولا تتلمذ لأستاذ، ولا تعلم من أحد، ثم بعد انقراض أربعين سنة جاءهم بهذا الكتاب العظيم، المشتمل على نفائس علم الأصول، ودقائق علم الأحكام، ولطائف علم الأخلاق، وأسرار قصص الأولين، وعجز عن معارضته العلماء، والفصحاء، والبلغاء، وكل من له عقل سليم يعلم أن مثل هذا لا يكون إلا على سبيل الوحي والتنزيل^(٤) ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ استفهام انكاري بمعنى النفي أي لا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب، والمقصود منه نفي الكذب عن مقامه الشريف ﷺ

(١) «القرطبي» ٣١٨/٨.

(٢) «التسهيل» ٩٠/٢.

(٣) «البحر» ١٣١/٥.

(٤) «الرازي» ٥٧/١٧.

حيث زعم المشركون أن هذا القرآن من صنع محمد ﴿أَوْ كَذَّبَ بِعَائِيَّتِهِ﴾ أي كذب بالحق الذي جاءت به الرسل ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي لا يفوز بالسعادة من ارتكب الإِجرام وكذب الرسل الكرام ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ بيان لقبائح المشركين أي ويعبدون الأوثان التي هي جمادات لا تقدر على جلب نفع أو دفع ضرر ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي يزعمون أن الأصنام تشفع لهم مع أنها حجارة لا تبصر ولا تسمع ﴿قُلْ أَتُشْرِكُونَ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ ؟ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: أنخبرون الله تعالى بشريك أو شفيع كائن في السماوات أو الأرض لا يعلمه جل وعلا، وهو علام الغيوب الذي أحاط علمه بجميع الكائنات؟ والاستفهام للتهكم والهزاء بهم ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه الله وتقدس عما يقول الظالمون، وينسبه إليه المشركون ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ أي وما كان الناس إلا على دين واحد هو الإسلام من لدن آدم إلى نوح فاختلَفوا في دينهم وتفرقوا شيعاً وأحزاباً قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، ثم وقع الاختلاف بين الناس وعُبدت الأوثان والأصنام فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين^(١) ﴿وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي ولولا قضاء الله بتأخير الجزاء إلى يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي لعُجل عقابهم في الدنيا باختلافهم في الدين^(٢) ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي ويقول هؤلاء الكفرة المعاندون: هلا أنزل على محمد معجزة من ربه كما كان للأنبياء من الناقة والعصا واليد ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي قل لهم أمر الغيب لله وحده ولا يأتي بالآيات إلا هو وإنما أنا مُبَلِّغ ﴿فَأَنْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ أي فانتظروا قضاء الله بيننا فأنا ممن ينتظر ذلك.

البلاغة: ١ - ﴿الْكَتَبِ الْحَكِيمِ﴾ فعيل بمعنى مفعول أي المُحكَم الذي لا يتطرق إليه الفساد ولا يعتريه الكذب والتناقض.

٢ - ﴿أَنْذِرْ.. وَبَشِّرْ﴾ بينهما طباق.

٣ - ﴿قَدَّمَ صِدْقٍ﴾ كناية عن المنزلة الرفيعة، والعبارة غاية في البلاغة لأن بالقدم يكون السبق والتقدم، كما سميت النعمة يداً لأنها تُعطى بها.

٤ - ﴿يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْبُدُوهُ﴾ بين كلمتي البدء والإعادة طباق.

٥ - ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ فيه التفات مع الإضافة إلى ضمير الجلالة لتعظيم الأمر وتهويله.

(١) «المختصر» ٢/ ١٨٨.

(٢) (ش): أي: ولولا كلمة سبقت من الله بامهال العاصين وعدم معاجلتهم بذنوبهم لقضي بينهم: بأن يُهلك أهل الباطل منهم، ويُنجي أهل الحق.

٦ - ﴿الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ أي كاستعجالهم أو مثل استعجالهم بالخير ففيه تشبيه مؤكد مجمل، وبين الشر والخير طباقاً.

٧ - ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ في الكلام استعارة تمثيلية حيث شبه حال العباد مع ربهم بحال رعية مع سلطانها في إمهالهم للنظر في أعمالهم، واستعير الاسم الدال على المشبه به للمشبه على سبيل التمثيل والتقريب، والله المثل الأعلى.

٨ - ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ.

فائدة: قال السيوطي في قوله تعالى ﴿جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرُ نُورًا﴾ إن هذه الآية أصل في علم المواقيت، والحساب، والتاريخ، ومنازل القمر.

لطيفة: قال الحافظ ابن كثير: من قال مقالة صادقاً أو كاذباً فلا بد أن يُنصب عليه من الأدلة على برّه أو فجوره ما هو أظهر من الشمس، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدتهما أظهر من الفرق بين الضحى وحندس^(١) الظلماء، قال عبد الله بن سلام: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس (أي تفرق اليهود عنه) فكنت فيمن انجفل، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»^(٢) فقد أيقن بصدقه صلوات الله وسلامه عليه بما رأى من الدلائل. قال حسان:

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ لَكَانَ مَنْظَرُهُ يُنبِئُكَ بِالْخَبَرِ

قال الله تعالى:

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنْ رُسُلُنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكَ فِي الْبَرْ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتَ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَيْنَ يَدَيْ طَيْبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أُنْجِيتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا أُنْجِيتَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغِيكُمُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَطَرَتْ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىهَا أَتَتْهَا أَسْفَادٌ لِيلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْيَوْمِ يَنْفَكِرُونَ ﴿١٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٥﴾ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَبْسُلُهَا وَتَرْهَقُهُمْ

(١) (ش): حندس: ظلمة شديدة.

(٢) (ش): رواه الترمذي، وصححه الألباني.

ذَلَّةً مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلَوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَازَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصَرِّفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفِكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُنْعِمَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَمَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مِنْ أَسْطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى الأدلة على فساد عبادة الأوثان، وشبهات المشركين حول الرسالة والقرآن، ذكر هنا أن عادة هؤلاء الأشقياء المكر، والجحود، والعناد، فإن أصابتهم الشدة تضرعوا، وإن جاءتهم الرحمة بطروا وكفروا، ثم ضرب تعالى المثل بالحياة الدنيا في الزوال والفناء، ثم عاد إلى ذكر الأدلة والبراهين على وحدانية الله رب العالمين.

اللغة: ﴿عاصِفٌ﴾ العاصف: الريح الشديدة التي تعصف بالأوراق والأشجار، قال الفراء: يقال: عصفت الريح وأعصفت أي اشتدت قال الشاعر:

إِنَّ الرِّيَّاحَ إِذَا مَا أَعْصَفَتْ قَصَفَتْ عَيْدَانًا نَجِدَ وَلَا يَعْبَانُ بِالرَّتَمِ ^(١)
﴿الْمَوْجُ﴾ ما ارتفع من الماء فوق «البحر»، سُمِّي موجاً لاضطرابه ﴿زُخْرَفُهَا﴾ الزخرف: كمال حسن الشيء ونضارته، سُمِّي زخرفاً لبهجته ونضارته ﴿نَعْبٌ﴾ غني بالمكان إذا أقام به وعمره ﴿يَرْهَقُ﴾ يغشى ويعلو يقال: رهقه الذل، أي: غشيه ﴿قَتَرٌ﴾ القتر والقطرة: الغبار الذي معه سواد قال تعالى ﴿زَهَقَهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٤١] أي تعلوها غبرة جهنم، وقيل: القتر الغبار وإن لم يكن معه سواد قال الفرزدق:

مُتَوَجِّجٌ بِرِدَاءِ الْمُلْكِ يَتْبَعُهُ مَوْجٌ تَرَى فَوْقَهُ الرَّاياتِ وَالْقَتَرَا ^(٢)

(١) «البحر» ١٢٠/٥. (ش): (أَعْصَفَتْ الرِّيحَ): عصفت: اشتد هبوبها. (قَصَفَ): كَسَرَ. (عَيْدَانِ): جَمْعُ عَيْدَانَةٍ، وهي النَّخْلَةُ الطَّوِيلَةُ وَالشَّجَرَةُ الصُّلْبَةُ الْقَدِيمَةُ. وَالرَّتَمُ: نَبَاتٌ مِنْ أَدَقِّ الشَّجَرِ، كَأَنَّهُ مِنْ دَقَّتِهِ شَبَّهَ بِالْخَيْطِ.

(٢) «القرطبي» ٣٣١/٨.

﴿فَرَقْنَا وَمِيزْنَا﴾ تَوَفَّكُونَ ﴿تَصْرِفُونَ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ﴾.

التفسير: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُمْ﴾ المراد بالناس كفار مكة رُوي أن الله سَلَّطَ عليهم القحط سبع سنين حتى كادوا يهلكون فطلبوا منه ﷺ أن يدعو لهم بالخصب ووعدوه بالإيمان فلما رحمهم الله بإنزال المطر رجعوا إلى الكفر والعناد^(١) والمعنى: وإذا أذقنا هؤلاء المشركين رخاءً بعد شدة، وخصباً بعد جُذب أصابهم ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ قال مجاهد: استهزاءً وتكذيباً ﴿قُلْ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي أَعْجَلُ عقوبةً على جزاء مكرهم^(٢) ﴿إِن رُّسُلَنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ أي إِنَّ الملائكة الحفظة يكتبون مكرهم ويسجلون إجرامكم، وفيه تنبيه على أن ما دَبَّرُوهُ غير خافٍ على الحَفَظَةِ فضلاً عن العليم الخبير ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي هو تعالى بقدرته الذي يحملكم في البر على الدواب، وفي «البحر» على السفن التي تسير على وجه الماء ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ﴾ أي حتى إذا كنتم في «البحر» على ظهور هذه السفن ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ فيه التفات أي وَجَرَيْنَ بِهِم^(٣) بالريح اللينة الطرية التي تُسَيِّرُ السفن ﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾ أي فرح الركاب بتلك الريح الطيبة ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ أي وفجأة جاءت الريح الشديدة العاصفة المدمرة ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي وأحاطت بهم أمواج البحار من كل جهة ﴿وَوُظِنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي أيقنوا بالهلاك ﴿دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي أخلصوا الدعاء لله وتركوا ما كانوا يعبدون، قال «القرطبي»: وفي هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد، وأن المضطر يجاب دعاؤه وإن كان كافراً، لانقطاع الأسباب، ورجوعه إلى ربِّ الأرباب^(٤) ﴿لَّيْنٌ أَنجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَكَ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي لئن أنقذتنا من هذه الشدائد والأحوال لنكونن من الشاكرين لك على نعمائك، والعاملين

(١) (ش): لم أجده إلا في بعض كتب التفسير بدون إسناد.

(٢) مكر الله الموصوف بالسرعة هو عقابه لهم سماه مكرًا مشاكلة لفعلهم وتسمية للعقوبة باسم الذنب.

(٣) (ش): جَرَيْنَ بِهِم: جَرَتْ بِهِمُ السفن.

(٤) «القرطبي» ٨/ ٣٢٥. (ش): «رب الأرباب»، لا تعني الاعتراف أو الإقرار بربوبية غير الله على الحقيقة. بل هو إبطال لربوبية ما سوى الله، فإذا كان سبحانه هو الرب الموجود والمتصرف بهذه الأرباب، فلا معنى لاتخاذها أو عبادتها. إذ ربوبيتها قاصرة محدودة التأثير حتى في نظر أصحابها وعابديها، وهي عند الله فاسدة باطلة، وحجة عابديها عنده داحضة. وعلى تقدير آخر إذا كان المقصود بالأرباب: أصحاب الشأن ومُلاك العبيد ونحوهم فكذلك أيضاً، لأن ربوبيتهم صورية، أخذت من كلمة الرب معناها اللغوي، وهم وما يملكون عبيد الله خاضعون لسلطانه. فإن الدار لها رب، والأرض لها رب، والنخل له رب، والأنعام لها رب يعني (مالك)، فهو رب هذه الأرباب يعني رب هذه المخلوقات التي لها أتباع، فالله هو رب الجميع وإن سُمُّوا أرباباً هم لكنهم مملوكون له سبحانه، هم عبيده، هو رب الأرباب يعني رب المخلوقات جميعاً، مربوبها وربها، عبيدها وأحرارها، جمادها وعاقلها، إلى غير ذلك.

بطاعتك ومرضاتك قال في «البحر»: ومعنى الإخلاص^(١) إفراذه بالدعاء من غير إشراك أصنام وغيرها وقال الحسن: مخلصين لا إخلاص إيمان ولكن لأجل العلم بأنهم لا ينجيهم من ذلك إلا الله فيكون ذلك جاريًا مجرى الإيمان الاضطرابي^(٢) ﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي فلما خلّصهم وأنقذهم إذا هم يعملون في الأرض بالفساد والمعاصي قال ابن عباس: يبغون بالدعاء فيدعون غير الله ويعملون بالمعاصي^(٣) قال تعالى ردا عليهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي وبأل البغي عليكم، ولا يجني ثمرته إلا أنتم ﴿مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي تتمتعون في هذه الحياة بالشهوات الفانية، التي تعقبها الحسرات الباقية ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي مرجعكم بعد الموت إلينا فنجازيكم عليها، وفي هذا وعيد وتهديد. والآية الكريمة تمثيل لطبيعة الإنسان الجحود^(٤)، لا يذكر الله إلا في ساعة العسرة، ولا يرجع إليه إلا وقت الكرب والشدة، فإذا نجّاه الله من الضيق، وكشف عنه الكرب، رجع إلى الكفر والعصيان، وتمادى في الشر والطغيان. ثم ضرب تعالى مثلاً للحياة الدنيا الزائلة الفانية وقصر مدة التمتع بها فقال ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ أي صفة الحياة الدنيا وحالها العجيبة في فنائها وزوالها، وذهاب نعيمها واغترار الناس بها كمثّل مطر نزل من السماء فنبت به أنواع من النبات مختلط بعضها ببعض قال ابن عباس: اختلط فنبت بالماء كل لون^(٥) ﴿يَمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ أي مما يأكله الناس من الحبوب والثمار والبقول، والأنعام من الكلاً والتبن والشعير ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أي أخذت حُسْنَهَا وبَهْجَتَهَا ﴿وَارْتَبَتْ﴾ أي تزينت بالحبوب والثمار والأزهار، وهو تمثيلٌ بالعروس إذا تزينت بالحلي والثياب ﴿وَوُظِنَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىٰهَا﴾ أي وظن أصحابها أنهم متمكنون من الانتفاع بها، محصلون لثمرتها وغلتها ﴿أَتَنَهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ أي جاءها قضاؤنا بهلاك ما عليها من النبات إمّا ليلاً وإمّا نهاراً ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ أي محصودة مقطوعة لا شيء فيها كالذي حصد بالمنجل ﴿كَأَنَّ لَمْ تَعْرِ بِالْأَمْسِ﴾ أي كأنها لم تكن عامرة قائمة على ظهر الأرض قبل ذلك ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي مثل ما بينا هذا المثل الرائع للحياة الدنيا نبين الآيات ونضرب الأمثال لقوم يتفكرون فيعتبرون بهذه الأمثال قال الألوسي: وتخصيصهم بالذكر لأنهم المنتفعون^(٦) ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ أي يدعو إلى الجنة دار السرور والإقامة

(١) (ش): في قوله تعالى: ﴿دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

(٢) «البحر» ١٣٩/٥.

(٣) نفس المرجع السابق ١٤٠/٥.

(٤) (ش): جحد الحق/ جحد بالحق: أنكره مع علمه به.

(٥) «الطبري» ١١/١٠٢.

(٦) «روح المعاني» ١١/١٠٢.

﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي يوصل من شاء هدايته إلى الطريق المستقيم وهو دين الإسلام ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْخُسْفَى﴾ أي للذين أحسنوا بالإيمان والعمل الصالح لهم الحسنى أي الجنة ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ وهي النظر إلى وجه الله الكريم ^(١) ﴿وَلَا يَرَهُمْ قَتَرٌ﴾ أي ولا يغشى وجوههم غبار ولا سواد كما يعتري وجوه أهل النار ﴿وَلَا ذَلَّةٌ﴾ أي هوانٌ وصغارٌ ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي دائمون لا زوال فيها ولا انقراض لنعيمها بخلاف الدنيا وزخارفها ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ أي والذين عملوا السيئات في الدنيا فعصوا الله وكفروا فسيجزون على السيئة بمثلها لا يزدادون على ذلك، فالحسنات مضاعفة بفضل الله، والسيئات جزاؤها بالمثل عدلاً منه تعالى ^(٢) ﴿وَتَرَهُمْ ذُلٌّ﴾ أي تعساهم ذلة وهوان ﴿مَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي ليس لهم أحد يعصمهم أو يمنعهم من سخط الله تعالى وعقابه ﴿كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ أي كأنما ألبست وجوههم من فرط السواد والظلمة قطعاً من ظلام الليل ﴿كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي لا يخرجون منها أبداً ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي نجتمع الفريقين للحساب: المؤمنين والكافرين ثم نقول للذين أشركوا الله ﴿مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ﴾ أي الزموا مكانكم أنتم والذين عبدتموهم لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل الله بكم ﴿فَرَلَيْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي ففرقنا وميزنا بينهم وبين المؤمنين كقوله ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩] ﴿وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيانَا تَعْبُدُونَ﴾ أي تبرأ منهم الشركاء وهم الأصنام الذين عبدوهم من دون الله ^(٣) قال مجاهد: يُنْطِقُ الله الأوثان فتقول: ما كنا نشعر بأنكم إيانا تعبدون وما أمرناكم بعبادتنا ^(٤) كقوله ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا يَبْنِئْنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي تقول الشركاء للمشركين يوم القيامة: حسبنا الله شاهداً بيننا وبينكم ﴿إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ أي ما كنا عن عبادتكم لنا إلا غافلين، لا نسمع ولا نبصر ولا نعقل،

(١) ورد هذا في حديث صحيح أخرجه مسلم. (ش): قَالَ ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ - قَالَ - يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ فَيَقُولُونَ أَلَمْ تُبَيِّضْ وَجُوهَنَا أَلَمْ تَدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ - قَالَ - فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ». (رواه مسلم).

(٢) قال في الجوهرة: فالسيئات عنده بالمثل: والحسنات ضوعفت بالفضل.

(٣) (ش): ليس هذا خاصاً بالأصنام، بل كل ما عُبد من دون الله من الملائكة والأولياء وغيرهم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِبُعِيثِ ابْنِ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ ^(١) مَا قُلْتُ هُمْ وَلَا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [المائدة: ١١٦، ١١٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُوا لِي إِنَّا كُنَّا يَعْبُدُونَكُمْ﴾ ^(٢) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ يَقُولُونَ ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا أَلَا إِلَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

(٤) «القرطبي» ٣٣٣/٨.

لأننا كنا جماداً لا روح فينا ﴿هُنَالِكَ تَبْلَوْا كُلَّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ أي في ذلك الوقت تُختبر كل نفس بما قدمت من خير أو شر، وتنال جزاء ما عملت ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ﴾ أي ردُّوا إلى الله تعالى المتولي جزاءهم بالعدل والقسط ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي ضاع وذهب عنهم ما كانوا يزعمونه م أن الأوثان تشفع لهم، وفي الآية تبيكت شديد للمشركين الذين عبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ولا يُعني عنهم شيئاً ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ في هذه الآيات الأدلة على وحدانية الله وربوبيته أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: من ينزل لكم الغيث والقطر، ويخرج لكم الزروع والثمار؟ ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ أي من ذا الذي يملك أسماعكم وأبصاركم، التي تسمعون وتبصرون بها؟ ومن يستطيع أن يردها لكم إذا أراد الله أن يسلبكموها؟ كقوله ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٤٦] الآية ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ﴾؟ أي من يخرج الإنسان من النطفة، والطيور من البيضة، والسنبل من الحبة، والنبات من الأرض، والمؤمن من الكافر؟ ﴿وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ أي ومن يدبر أمر الخلق، ويصرف شؤون الكائنات؟ ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ أي فسيفعلون بأن فاعل ذلك كله هو الله رب العالمين، إذ لا مجال للمكابرة والعناد لغاية وضوحه ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَنْقُونَ﴾ أي قل لهم يا محمد أفلا تخافون عقابه ونقمته بإشراككم وعبادتكُم غير الله؟ ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ أي هذا الذي يفعل هذه الأشياء الجليلة هو ربكم الحق، الثابت ربوبيته ووحدانيته بالبراهين القاطعة ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ استفهام إنكاري أي ليس بعد الحق إلا الضلال، فمن تخطى الحق الذي هو عبادة الله تعالى وقع في الضلال ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أي فكيف تُصرفون عن عبادة الله، إلى عبادة ما لا يخلق ولا يرزق، ولا يحيي ولا يميت؟ ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي كذلك وجب قضاء الله وحُكْمُه السابق ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ أي على الذين خرجوا عن الطاعة وكفروا وكذبوا ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لأنهم لا يصدقون بوحدانية الله ورسالة نبيه، فلذلك حقت عليهم كلمة العذاب لشقاوتهم وضلالتهم ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي قل لهم يا محمد على جهة التوبيخ والتقريع: هل من الأوثان والأصنام من ينشئ الخلق من العدم ثم يفنيه، ثم يُعيدُهُ ويُحييه؟ قال «الطبري»: ولما كانوا لا يقدرون على دعوى ذلك، وفيه الحجة القاطعة، والدلالة الواضحة على أنهم في دعوى الأرباب كاذبون مفترون، أمر ﷺ بالجواب ^(١) ﴿قُلْ اللَّهُ يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي قل لهم يا محمد: الله وحده هو الذي يحيي ويميت، ويبدأ ويُعيد، وليس أحد من هؤلاء الآلهة المزعومة يفعل ذلك ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف تنقلبون وتنصرفون عن الحق إلى الباطل؟ ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾

(١) هذا ما ذهب إليه «الطبري». وقال بعض المفسرين: المراد الرؤساء والمضللون الذين لا يرشدون أنفسهم إلى هدي إلا أن يُرشدوا.

توبيخ آخر في صورة استفهام أي قل لهؤلاء المشركين: هل من هذه الآلهة التي تعبدونها من يرشد ضالاً؟ أو يهدي حائراً؟ أو يدل على طريق الحق وسبيل الاستقامة؟ ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ أي فقل لهم: إن عجزت ألهتكم عن ذلك فالله هو القادر على هداية الضال، وإنارة السبيل، وبيان الحق ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ أي أفعلى يرشد إلى الحق وهو سبحانه وتعالى أحق بالاتباع أم هذه الأصنام التي لا تهدي أحداً؟ ولا تستطيع هداية نفسها فضلاً عن هداية غيرها^(١)؟ ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي ما لكم أيها المشركون تسوون بين الأصنام وبين رب الأرباب، وتحكمون بهذا الباطل الصراح؟ وهو استفهام معناه التعجب والإنكار، ثم بين تعالى فساد نحلته بعد أن أفحمهم بالبراهين النيرة التي توجب التوحيد وتبطل التقليد فقال ﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي وما يتبعون في اعتقادهم ألوهية الأصنام، إلا اعتقاداً غير مستند لدليل أو برهان، بل مجرد أوهام باطلة، وخرافات فاسدة ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أي ومثل هذا الاعتقاد المبني على الأوهام والخيالات، ظنٌ كاذب لا يغني من اليقين شيئاً، فليس الظن كاليقين ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي عالم بما هم عليه من الكفر والتكذيب، وهو وعيدٌ على اتباعهم للظن، وإعراضهم عن البرهان، ثم بين تعالى صدق النبوة والوحي فقال ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي لا يصح ولا يعقل، ولا يستقيم لذي عقل سليم، أن يزعم أن هذا القرآن مفترى مكذوب على الله، لأنه فوق طاقة البشر ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي ولكنه جاء مصدقاً لما قبله من الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل ﴿وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ﴾ أي وفيه تفصيل وتبيين الشرائع والعقائد والأحكام ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي لا شك في أنه تنزيل رب العالمين ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أي بل يقولون اختلق محمد هذا القرآن من قبل نفسه؟ وهو استفهام معناه التقرير ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ أي إن كان كما زعمتم فجيئوا بسورة مثل هذا القرآن، وهو تعجيزٌ لهم وإقامة حجة عليهم ﴿وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي ادعوا من دونه تعالى من استطعتم من خلقه، من الإنس والجن للاستعانة بهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي إن كنتم صادقين في أن محمداً افتراه قال «الطبري»: والمراد أنكم إن لم تفعلوا فلا شك أنكم كاذبة، لأن محمداً لن يعدو أن يكون بشراً مثلكم^(٢)، فإذا عجز الجميع من الخلق أن يأتوا بسورة مثله، فالواحد منهم أن يأتي بجميعه أعجز^(٣)، قال تعالى ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ أي بل كذب هؤلاء المشركون بالقرآن العظيم، وساروا إلى الطعن به قبل أن يفقهوه ويتدبروا ما فيه، والناس دائماً أعداء لما جهلوا ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾

(١) «الطبري» ١١٥/١١.

(٢) (ش): لا يعدو أن يكون كذا: ليس إلا كذا.

(٣) «الطبري» ١١٨/١١.

أي والحال لم يأتهم بعد عاقبة ما فيه من الوعيد ﴿كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي مثل تكذيب هؤلاء كذبت الأمم الخالية قبلهم ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ أي فانظر يا محمد كيف أخذهم الله بالعذاب والهلاك بسبب ظلمهم وبغيهم، فكما فعل بأولئك يفعل بهؤلاء الظالمين الطاغين.

البلاغة: ١ - ﴿أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ تسمية عقوبة الله مكرًا من باب «المشاكلة».

٢ - ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة وحكمته زيادة التقيح والتشنيع على الكفار لعدم شكرهم النعمة.

٣ - ﴿أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ هذا من بديع الاستعارة شبه الأرض حينما تتزين بالنبات والأزهار بالعروس التي تتزين بالحلي والثياب واستعير لتلك البهجة والنضارة لفظ الزخرف.

٤ - ﴿أَتَنَهَا أَمْرًا﴾ الأمر هاهنا كناية عن العذاب والدمار.

٥ - ﴿أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾ بينهما جناس الإشتقاق.

٦ - ﴿كَأَنَّمَا أَغْشَيْتُ وُجُوهَهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ فيه تشبيه مرسل مجمل.

٧ - ﴿يَبْدُوا... ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بينهما طباق.

٨ - ﴿فَأَنى تُؤَفِّكُونَ﴾ الاستفهام للتوبيخ، ومثله ﴿فَا لَكُم كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

٩ - ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ استعارة لطيفة والمراد لما سبقه من التوراة والإنجيل فإنها قد بشرت به.

قال الله تعالى:

وَمِنْهُمْ مَّن يُّؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّن لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيْعُونَ مِمَّا آعَمَلُ وَأَنَا بَرِيْعٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّئُكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَظْلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن أَنْتُمْ عَدَاوَةٌ بَيْنَنَا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَتَمُرُّ إِذَا مَا وَقَعَ أَمْنٌ بِهِ عَاثِرِينَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْغُلَّادِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لِحَقٍّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَظْلِمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْإِنِّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي

وَيُصِيبُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَتَأْتِيَ النَّاسَ قَدْ جَاءَ تَكُفُّكُمْ مَوْعِظَةً مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءً لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهَدًى
وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ
مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَلِلَّهِ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾
وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِن أَكْثَرُهُمْ لَا
يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا
إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا
أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا نَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ
اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِن فِي السَّمَوَاتِ وَمِن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَكَ مِنَ دُونِ
اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ آيَاتٍ
لِّتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا أَتُخَذُ
اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا
أَقُولُوكَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾
مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُنْذِرُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

المناسبة: لما حكى تعالى عن الكافرين طعنهم في أمر النبوة والوحي، ذكر هنا أن منهم من يصدق بأن القرآن كلام الرحمن، ولكنه يكابر ويعاند، ومنهم من لا يصدق به أصلاً لفرط غباوته، وسخافة عقله، واختلال تمييزه ... ثم ذكر تعالى أن القرآن شفاء لما في الصدور، وأعقبه بذكر مآل المشركين في الآخرة.

اللغة: ﴿الصَّم﴾ جمع أصم وهو الذي لا يسمع ﴿يَبْتَأ﴾ ليلاً ﴿تُفِيضُونَ﴾ يقال أفاض فلان في الحديث إذا اندفع فيه ﴿يَعْزُبُ﴾ يخفى ويغيب ﴿مِثْقَالِ﴾ وزن ﴿سُلْطَانٍ﴾ حجة وبرهان ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تنزيه لله جل وعلا عن النقائص.

التفسير: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يُّؤْمِنُ بِهِ﴾ أي ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك ويتنفع بما أرسلت به ﴿وَمِنْهُمْ مَّن لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ بل يموت على ذلك ويُبعث عليه ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أي وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلالة فيضلّه ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أي وإن كذبتك هؤلاء المشركون فقل لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم حقاً كان أو باطلاً ﴿أَنْتُمْ بَرِئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي لا يؤاخذ أحد بذنوب الآخر ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أي يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وقلوبهم لا تعي شيئاً مما تقرأه وتتلوه ﴿أَفَأَنْتُمْ تُسْمِعُونَ الصَّمَّ﴾ أي أنت يا محمد لا تقدر أن

تسمع من سلبه الله السمع ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي ولو كانوا من الصمم لا يعقلون ولا يتدبرون؟ قال ابن كثير: المعنى ومن هؤلاء من يسمعون كلامك الحسن، والقرآن النافع، ولكن ليس أمر هدايتهم إليك، فكما لا تقدر على إسماع الأصم فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله^(١) ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي ومن هؤلاء من ينظر إليك ويعاين دلائل نبوتك الواضحة، ولكنهم عمي لا ينتفعون بما رأوا، أفأنت يا محمد تقدر على هدايتهم ولو كانوا عمي القلوب؟ شبههم بالعمي لتعاميهم عن الحق، قال «القرطبي»: والمراد تسليية النبي ﷺ أي كما لا تقدر أن تخلق للأعمى بصراً يهتدي به، فكذلك لا تقدر أن توقق هؤلاء للإيمان^(٢) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ أي لا يعاقب أحداً بدون ذنب، ولا يفعل بخلقه ما لا يستحقون ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي ولكنهم يظلمون أنفسهم بالكفر والمعاصي ومخالفة أمر الله قال «الطبري»: وهذا إعلام من الله بأنه لم يسلب هؤلاء الإيمان ابتداءً منه بغير جرم سلف منهم، وإنما سلبهم ذلك لذنوب اكتسبوها، فحق عليهم أن يطبع الله على قلوبهم^(٣) ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾ أي اذكر يوم نجمع هؤلاء المشركين للحساب كأنهم ما أقاموا في الدنيا إلا ساعة من النهار، لهول ما يرون من الأحوال ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي يعرف بعضهم بعضاً كما كانوا في الدنيا، وهو تعارف توبيخ وافتضاح، يقول الواحد للآخر: أنت أغويتني وأضللتني، وليس تعارف محبة ومودة ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أي لقد خسر حقاً هؤلاء الظالمون الذين كذبوا بالبعث والنشور، وما كانوا موقفين للخير في هذه الحياة ﴿وَأَمَّا نُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَوَفِّقُكَ فَإِنَّا نَجْعُهُمْ﴾ أي إن أريناك يا محمد بعض عذابهم في الدنيا لتقر عينك منهم فذاك، وإن توفيئك قبل ذلك فمر جمعهم إلينا في الآخرة، ولا بد من الجزاء إن عاجلاً أو آجلاً ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ أي هو سبحانه شاهد على أفعالهم وإجرامهم ومُعَاقِبُهُمْ عَلَىٰ مَا اقْتَرَفُوا ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ أي ولكل أمة من الأمم رسول أرسل لهدايتهم ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ قال مجاهد: يعني يوم القيامة قضي بينهم بالعدل قال ابن كثير: فكل أمة تعرض على الله بحضرة رسولها، وكتاب أعمالها من خير وشر شاهد عليها، وحفظتهم من الملائكة شهود أيضاً^(٤) ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا يُعَذَّبُونَ بغير ذنب ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي ويقول كفار مكة متى هذا العذاب الذي تعدنا به إن كنت صادقاً؟ وهذا

(١) «المختصر» ٢/ ١٩٥.

(٢) «القرطبي» ٨/ ٣٤٦.

(٣) «الطبري» ١١/ ١٢٠.

(٤) «المختصر» ٢/ ١٩٦.

القول منهم على سبيل السخرية والاستهزاء ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي لا أستطيع أن أدفع عن نفسي ضرراً، ولا أجلب إليها نفعاً، وليس ذلك لي ولا لغيري ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي إلا ما شاء الله أن أملكه وأقدر عليه، فكيف أقدر أن أملك ما استعجلتم به من العذاب! ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي لكل أمة وقت معلوم لهلاكهم وعذابهم ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي فإذا جاء أجل هلاكهم فلا يمكنهم أن يستأخروا عنه ساعة فيمهلون ويؤخروا، ولا يستقدمون قبل ذلك لأن قضاء الله واقع في حينه ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتًا أَوْ نَهَارًا﴾ أي قل لأولئك المكذبين: أخبروني إن جاءكم عذاب الله ليلاً أو نهاراً فما نفعلكم فيه؟ ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ استفهام معناه التهويل والتعظيم أي ما أعظم ما يستعجلون به؟ كما يقال لمن يطلب أمراً وخيماً: ماذا تجني على نفسك ﴿أَثَرُ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنُكُمْ بِهِ﴾ في الكلام حذف تقديره: أتؤخرون إلى أن تؤمنوا بها وإذا وقع العذاب وعانيتموه فما فائدة الإيمان وما نفعلكم فيه، إذا كان الإيمان لا ينفع حينذاك؛ قال «الطبري»: المعنى أهنالك إذا وقع عذاب الله بكم أيها المشركون صدقتم به في حال لا ينفعكم فيه التصديق^(١) ﴿ءَالْكَفُورُ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي يقال لكم أيها المجرمون: الآن تؤمنون وقد كنتم قبله تهزءون وتسخرون وتستعجلون نزول العذاب؟ ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أي ذوقوا العذاب الدائم الذي لا زوال له ولا فناء ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي هل تجزون إلا جزاء كفركم وتكذيبكم؟ ﴿وَيَسْتَبِشِرُونَكَ أَحَقُّ هُوَ﴾ أي ويستخبرونك يا محمد فيقولون: أحق ما وعدتنا به من العذاب والبعث؟ ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ﴾ أي قل نعم والله إنه كائن لا شك فيه ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي لستم بمعجزين الله بهرب أو امتناع من العذاب بل أنتم في قبضته وسلطانه^(٢) ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي لو أن لكل نفس كافرة ما في الدنيا جميعاً من خزائنها وأموالها، ومنافعها قاطبة ﴿لَدَفَعَتْ بِهِ﴾ أي لدفعته فدية لها من عذاب الله ولكن هيهات أن يقبل كما قال تعالى ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ [آل عمران: ٩١] ثم قال تعالى مخبراً عن أسفهم وندمهم: ﴿وَأَسْرَوْا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي أخفى هؤلاء الظلمة الندم لما عاينوا العذاب قال الإمام الجلال: أي أخفاها رؤساؤهم عن الضعفاء الذين أضلوهم مخافة التعبير^(٣) ﴿وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ أي فُضي بين الخلائق بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

(١) «الطبري» ١١/١٢٢.

(٢) وقيل المعنى: لستم بفارين من العذاب بل هو مدركم لا محالة، من «تفسير الطبري».

(٣) تفسير الجلالين ٢/١٩٢، وقال في «البحر»: وإخفاء الندامة هو من كونهم بهتوا لرؤيتهم ما لم يحسبوه ولا خطرَ بالهـم، ومعانيتهم ما أوهَى قواهم، فلم يطيقوا عند ذلك بكاءً ولا صراخاً، كما يعرض لمن يُقدم للصلب لا يكاد ينبس بكلمة، ويبقى مبهوتاً جامداً.

أي لا يظلمون من أعمالهم شيئاً، ولا يُعاقبون إلا بجريرتهم ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١) «ألا» كلمة تنبيه للسامع تترادف في أول الكلام أي انتبهوا لما أقول لكم فكل ما في السماوات والأرض ملكٌ لله، لا شيء فيها لأحدٍ سواه، هو الخالق وهو المالك ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي إن وعده بالبعث والجزاء حق كائن لا محالة ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولكن أكثر الناس لقصور عقولهم، واستيلاء الغفلة عليهم، لا يعلمون ذلك فيقولون ما يقولون ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي هو سبحانه المحيي والمميت، وإليه مرجعكم في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ خطابٌ لجميع البشر أي قد جاءكم هذا القرآن العظيم الذي هو موعظةٌ لكم من خالقكم ﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي يشفي ما فيها من الشك والجهل ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وهداية من الضلال ورحمة لأهل الإيمان قال صاحب «الكشاف»: المعنى قد جاءكم كتابٌ جامعٌ لهذه الفوائد العظيمة من الموعظة، والتنبيه على التوحيد، ودواء الصدور من العقائد الفاسدة، ودعاء إلى الحق، ورحمة لمن آمن به منكم^(٢) ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ قال ابن عباس: فضل الله القرآن، ورحمته الإسلام^(٣) والمعنى: ليفرحوا بهذا الذي جاءهم من الله، من القرآن والإسلام، فإنه أولى ما يفرحون به ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي هو خيرٌ مما يجمعون من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية، والنعيم الزائل، فإن الدنيا بما فيها لا تساوي جناح بعوضة كما ورد به الحديث الشريف ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ خطابٌ لكفار العرب والمعنى: أخبروني أيها المشركون عما خلقه الله لكم من الرزق الحلال ﴿فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ أي فحرمتم بعضه وحللتُم بعضه كالبحيرة، والسائبة، والميتة قال ابن عباس: نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب، والحرث والأنعام^(٣) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ لَكُمْ أَمْرًا عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ أي قل لهم يا محمد أخبروني: أحصل إذن من الله لكم بالتحليل والتحريم، فأنتم فيه ممثلون لأمره، أم هو مجرد افتراء وبهتان على ذي العزة والجلال؟ ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي وما ظنُّ هؤلاء الذين يتخرون على الله الكذب فيحلون ويحرمون من تلقاء أنفسهم، أيحسبون أن الله يصفح عنهم ويغفر يوم القيامة؟ كلاً بل سيصليهم سعياء، وهو وعيدٌ شديد للمفترين ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أي لذو إنعام عظيم على العباد حيث رحمهم بترك معاجلة العذاب، وبالإإنعام عليهم ببعثة الرسل وإنزال الكتب ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي لا يشكرون النعم بل يجحدون ويكفرون

(١) «الكشاف» ٢/ ٣٥٣.

(٢) «البحر» ٥/ ١٧١.

(٣) «المختصر» ٢/ ١٩٨.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ الخطابُ للرسول ﷺ أي ما تكون يا محمد في أمر من الأمور، ولا عمل من الأعمال ﴿وَمَا تَلْوُا مِنْهُ مِنْ قَرَأَنٍ﴾ أي وما تقرأ من كتاب الله شيئاً من القرآن ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ أي ولا تعملون أيها الناس من خير أو شر ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي إلا كنا شاهدين رقباء، نحصي عليكم أعمالكم حين تندفعون وتخوضون فيها ﴿وَمَا يَعْرُزُ عَنْ رَزَايِكٍ﴾ أي ما يغيب ولا يخفى على الله ﴿مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي من وزن هبأة أو نملة صغيرة في سائر الكائنات أو الموجودات ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي ولا أصغر من الذرة ولا أكبر منها إلا وهو معلوم لدينا ومسجل في اللوح المحفوظ قال «الطبري»: والآية خبرٌ منه تعالى أنه لا يخفى عليه أصغر الأشياء وإن خفَّ في الوزن، ولا أكبرها وإن عظم في الوزن، فليكن عملكم أيها الناس فيما يرضي ربكم، فإنما محصوها عليكم ومجازوكم بها^(١) ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي انتبهوا أيها الناس واعلموا أن أحباب الله وأولياءه لا خوف عليهم في الآخرة من عذاب الله، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا، ثم بين تعالى هؤلاء الأولياء فقال ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ أي الذين صدّقوا الله ورسوله^(٢)، وكانوا يتقون ربهم بامتنال أو امره واجتناب نواهيهِ، فالوليُّ هو المؤمن التقى وفي الحديث «إن لله عبداً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله، قالوا: أخبرنا من هم؟ وما أعمالهم؟ فلعلنا نجبهم، قال: هم قومٌ تحابوا في الله، على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس ثم قرأ ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الآية^(٣) ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي لهم ما يسرهم في الدارين، حيث تبشرهم الملائكة^(٤) عند الاحتضار برضوان الله ورحمته،

(١) «الطبري» ١١/ ١٣٠.

(٢) (ش): تفسيره الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح.

(٣) «الطبري» ١١/ ١٣٢. (ش): عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ لَأَنَاسًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ تُخْبِرُنَا مَنْ هُمْ؟ قَالَ: «هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامَ بَيْنَهُمْ وَلَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا فَوَاللَّهِ إِنَّ وَجُوهَهُمْ لَنُورٌ وَإِنَّهُمْ عَلَى نُورٍ لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزَنَ النَّاسُ». وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. رواه أبو داود وصححه الألباني.

(٤) ذهب بعض المفسرين إلى أن البشارة في الدنيا هي: «الرؤيا الصالحة» التي يراها المؤمن أو ترى له، وقد ورد ذلك في حديث أخرجه الحاكم، واختار «الطبري» أن البشارة تكون بالرؤيا الصالحة وببشارة الملائكة عند الموت. (ش): عَنْ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ: بُنِيتُ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قَالَ: «هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُؤْمِنُ أَوْ تَرَى لَه». (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

وفي الآخرة بجنات النعيم والفوز العظيم كقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] ﴿لَا يُبْدِلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي لا إخلاف لوعده ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي هو الفوز الذي لا فوز وراءه، والظفر بالمقصود الذي لا يُضَاهِي^(١) ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي لا يحزنك ولا يؤلمك يا محمد تكذيبهم لك وقولهم: لست نبياً مرسلًا، ثم ابتداء تعالى فقال ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي القوة الكاملة، والغلبة الشاملة، لله وحده، فهو ناصرٌك ومانعٌك ومعينٌك، وهو المنفرد بالعزة يمنحها أوليائه، ويمنعها أعداءه ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوالهم، العليم بأعمالهم ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي الجميع له سبحانه عبيداً وملكاً وخلقاً ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أي وما يتبع هؤلاء المشركون الذين يعبدون غير الله آلهة على الحقيقة، بل يظنون أنها تشفع أو تنفع، وهي لا تملك لهم ضرراً ولا نفعاً ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي ما يتبعون إلا ظناً باطلاً ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي يحسدون ويكذبون، يظنون الأوهام حقائق ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ تنبيهٌ على القدرة الكاملة والمعنى من دلائل قدرته الدالة على وحدانيته، أن جعل لكم أيها الناس الليل راحةً لأبدانكم تستريحون فيه من التعب والنصب في طلب المعاش ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي وجعل النهار مضيئاً تبصرون فيه الأشياء لتهتدوا إلى حوائجكم ومكاسبكم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ﴾ أي لعلامات ودلالات على وحدانية الله، لقوم يسمعون سمع اعتبار، ثم نبه تعالى على ضلال اليهود والنصارى والمشركين فقال ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ أي نسب اليهود والنصارى لله ولداً^(٢) فقالوا: عزيز ابن الله، والمسيح ابن الله، كما قال كفار مكة: الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ أي تنزه الله وتقدس عما نسبوا إليه فإنه المستغني عن جميع الخلق، فإن اتخذا الولد إنما يكون للحاجة إليه، والله تعالى غير محتاج إلى شيء، فالولد مُتَتَفٍ عنه ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي الجميع خلقه وملكه ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ أي ما عندكم من حجة بهذا القول ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أتفترون على الله وتكذبون بنسبه الشريك والولد؟ وهو توبيخ وتقريع على جهلهم. ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي كل من كذب على الله لا يفوز ولا ينجح ﴿مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا﴾ أي متاعٌ قليل في الدنيا يتمتعون به مدة حياتهم ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي ثم معادهم ورجوعهم إلينا للجزاء والحساب ﴿ثُمَّ نُنْذِرُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي

(١) (ش): لا يُضَاهِي: لا مثيل له.

(٢) ياله من جهل وحمق ينسبون إلى العلى الأعلى ما ينزهون عنه رهبانهم ويزعمون أنهم مقدسون لا يتزوجون!.

ثم في الآخرة نذيقهم العذاب الموجه الأليم بسبب كفرهم وكذبهم على الله.

البالغة: ١ - ﴿مَنْ يُؤْمِنْ بِهِ.. مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ بينهما طباق السلب.

٢ - ﴿تَسْمِعُ الصُّمَّ.. تَهْدِي الْأَعْمَى﴾ الصُّمَّ والعمي مجاز عن الكافرين شبههم بالصُّم والعمي لتعاميهم عن الحق.

٣ - ﴿صَرًّا وَلَا نَفَاحًا﴾ بينهما طباق وكذلك بين ﴿بَيْنًا أَوْ نَهَارًا﴾ وبين ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ وبين ﴿يَسْتَقْدِمُونَ.. يَسْتَخِرُونَ﴾.

٤ - ﴿وَشَفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ مجاز مرسل أطلق المحل وأراد الحال أي شفاء للقلوب لأن الصدور محل القلوب.

٥ - ﴿حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ بينهما طباق.

٦ - ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ قال في تلخيص البيان: هذه استعارة عجيبة، سمى النهار مبصرًا لأن الناس يبصرون فيه، فكأن ذلك صفة الشيء بما هو سبب له على طريق المبالغة كما قالوا: ليل أعمى و ليلة عمياء إذا لم يبصر الناس فيها شيئًا لشدة إظلامها^(١).

٧ - ﴿أَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ استفهام توبيخ وتقريع.

فائدة: أمر تعالى رسوله ﷺ بالحلف في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم في هذه السورة ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ وفي سورة سبأ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمُ﴾ وفي سورة التغابن ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن - الآية: ٧] ذكره ابن كثير.

تنبيه: كلمة «أرأيت» تستعمل بمعنى الاستفهام عن الرؤية البصرية، أو العلمية، وهذا أصل وضعها ثم استعملت بمعنى «أخبرني» فيقولون: أرأيت ذلك الأمر أي أخبرني عنه، والرؤية إما بصرية أو علمية والتقدير: أبصرت حالته العجيبة، أو أعرفت أمره العجيب؟ فأخبرني عنها، ولذا لم تستعمل في غير الأمر العجيب، ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ﴾ ؟ ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ [العلق: ٩ - ١٠]؟ وهكذا.

قال الله تعالى:

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بَيَّانَتِ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكِبِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا

(١) «تلخيص البيان» للشريف الرضي ص ١٥٦.

فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَنْتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَبَّطِلَهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يَقُومُ إِن كُنْتُمْ ءَامِنُونَ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ فَأَسْتَفِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى الدلائل الدالة على وحدانيته، وذكر ما جرى بين الرسول ﷺ وكفار مكة، ذكر هنا بعض قصص الأنبياء، تسلياً للرسول ﷺ ليتأسى بهم فيهن عليه ما يلقاه من الشدائد والمكاره، وقد ذكر تعالى هنا ثلاث قصص: ١ - قصة نوح عليه السلام مع قومه ٢ - قصة موسى وهارون مع الطاغية فرعون ٣ - قصة يونس مع قومه، وفي كل قصة عبرة لمن اعتبر، وذكرى لمن تدبر.

اللغة: ﴿كَبَّرَ﴾ قال الواحدي: كَبَّرَ يَكْبُرُ كِبَرًا فِي السِّنِّ، وَكَبَّرَ الْأَمْرُ وَالشَّيْءُ يَكْبُرُ كِبَرًا وَكِبَارَةً إِذَا عَظُمَ ^(١) ﴿غَمَّةٌ﴾ مبهمًا من قولهم غَمَّ عَلَيْنَا الْهَلَالُ فَهُوَ مَغْمُومٌ إِذَا التَّبَسَّ وَاسْتَرَّ قَالَ طَرْفَةٌ: لَعَمْرُكَ مَا أَمْرِي عَلَيَّ بِغَمَّةٍ نَهَارِي وَلَا لَيْلِي عَلَيَّ بِسَرْمَدٍ ^(٢) ﴿فَاجْمَعُوا﴾ الإجماع: الإعداد والعزيمة على الأمر وأنشد الفراء: يَا لَيْتَ شِعْرِي وَالْمُنَى لَا تَنْفَعُ أَغْدُونَ يَوْمًا وَأَمْرِي مُجْمَعٌ ^(٣) ﴿نَطَبُخْ﴾ نختم ﴿لِتَلْفَنَّا﴾ تصرفنا وتلوينا واللفت: الصرف عن أمر وأصله اللَّيُّ يُقَالُ لَفْتُ عَنْقَهُ إِذَا لَوَاهَا ﴿الْكِبْرِيَاءُ﴾ العظمة والملك والسلطان ﴿لَعَالٍ﴾ عاتٍ متكبر ﴿الْمُسْرِفِينَ﴾

(١) «الرازي» ١٧/١٣٦.

(٢) (ش): (لَعَمْرُكَ): كلام أهل العلم أن هذه الكلمة ليست يمينًا، بل تُدَكَّرُ لتأكيد مضمون الكلام فقط؛ لأنها أقوى من سائر المؤكِّدات، وأسلم من التأكيد بالقسم بالله لوجوب البر به. [انظر: المدونة الكبرى رواية الإمام سحنون بن سعيد التنوخي عن عبد الرحمن بن القاسم وغيره عن الإمام مالك (٢/ ٣٣٨)].
السَّرمَد: الدائم الذي لا ينقطع.

(٣) «القرطبي» ٨/٣٦٣.

المجاوزين الحد في الضلال والطغيان ﴿أَطِيسُ﴾ الطمسُ: المسخ قال الزجاج: طمسُ الشيء إذهابه عن صورته ومنه عينٌ مطموسة.

التفسير: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ﴾ أي اقرأ يا محمد على المشركين من أهل مكة خبر أخيك نوح مع قومه المكذبين ﴿قَالَ لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ﴾ أي حين قال لقومه الجاحدين المعاندين يا قوم إن كان عَظُمَ وَشَقَّ عَلَيْكُمْ ﴿مَقَامِي وَتَذَكِّرِي بِعَائِدَتِ اللَّهِ﴾ أي طولُ مقامي ولبي فيكم، وتخويفي إياكم بآيات ربكم، وعزمت على قتلي وطردي ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي على الله وحده اعتمدتُ، وبه وثقتُ فلا أبالي بكم ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ أي فاعزموا أمركم وادعوا شركاءكم، ودبروا ما تريدون لمكيدتي ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي لا يكن أمركم في شأني مستوراً بل مكشوفاً مشهوراً، ﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ أي أنفذوا ما تريدونه^(١) في أمري ولا تؤخروني ساعة واحدة، قال «أبو السعود»: وإنما خاطبهم بذلك إظهاراً لعدم المبالاة، وثقةً بالله وبوعده من عصمته وكِلايته^(٢) ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي فإن أعرضتم عن نصيحتي وتذكيري فليس لأني طلبت منكم أجراً حتى تمتنعوا، بل لشقاوتكم وضلالكم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي ما أطلب ثواباً أو جزاءً على تبليغ الرسالة إلا من الله، وما نصحتكم إلا لوجه الله لا لغرض من أغراض الدنيا ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي من الموحدين لله تعالى ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ أي فأصروا واستمروا على تكذيب نوح فجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ من المؤمنين في السفينة ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ أي جعلنا من معه من المؤمنين سكان الأرض وخلفاء ممن غرق ﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي أغرقنا المكذبين بالطوفان ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكِبِينَ﴾ أي انظر يا محمد كيف كان نهاية المكذبين لرسولهم؟ والغرض: تسلية للرسول ﷺ والتحذير لكفار مكة أن يحل بهم ما حلَّ بالسابقين ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ أي أرسلنا من بعد نوح رسلاً إلى قومهم يعني هوداً وصالحاً ولوطاً وإبراهيم وشعيباً ﴿فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالمعجزات الواضحات ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي ما كانوا ليصدقوا بما جاءتهم به الرسل، ولم يزرهم عقاب السابقين ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي كذلك نختم على قلوب المجاوزين الحد في الكفر والتكذيب والعناد ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي بعثنا من بعد أولئك الرسل والأمم موسى وهارون إلى فرعون وأشراف قومه ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي بالبراهين والمعجزات الباهرة، وهي الآيات التسع المذكورة في سورة الأعراف ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا تُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣] أي تكبروا عن الإيمان بها وكانوا مفسدين، تعودوا الإِجرام وارتكاب

(١) (ش): أَتَفَذَّ الْأَمْرَ: قضاهُ وأجرأه وأتَمَّه.

(٢) «أبو السعود» ٢/ ٣٤١. (ش): كَلَّا اللَّهُ الْعِبَادَ: حَفِظْهُمْ وَرَعَاهُمْ وَحَرَسَهُمْ.

الذنوب العظام ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ أي فلما وضع لهم الحق الذي جاءهم به موسى من اليد والعصا قالوا لفرط عتوهم وعنادهم: هذا سحرٌ ظاهرٌ بينٌ أراد به موسى أن يسحرنا ﴿ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أتقولون عن هذا الحق إنه سحرٌ؟ ثم أنكر عليهم أيضاً باستفهام آخر ﴿ أَسِحْرٌ هَذَا ﴾ أي أسحرٌ هذا الذي جئتكم به؟ ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ أي والحال أنه لا يفوز ولا ينجح الساحرون ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ أي أجئتنا لتصرفنا وتلوينا عن دين الآباء والأجداد؟ ﴿ وَتَكُونُ لَكُمْ أَلِكِبْرِيَاءَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي يكون لك ولأخيك هارون العظمة والمُلْك والسلطان في أرض مصر ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي ولسنا بمصدقين لكما فيما جئتما به ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴾ أي اتوني بكل ساحر ماهر، عليم بفنون السحر ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ ﴾ في الكلام محذوف تقديره فأتوه بالسحرة فلما جاءوا قال لهم موسى: ألقوا ما أنتم ملقون من حبالكم وعصيكم ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ ﴾ أي ما جئتم به الآن هو السحر لا ما اتهمتموني به ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ﴾ أي سيمحقه وسيذهب به ويظهر بطلانه للناس ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أي لا يصلح عمل من سعى بالفساد ﴿ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أي يثبت الله الحق ويقويه بحججه وبراهينه ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أي ولو كره ذلك الفجرة الكافرون ﴿ فَمَاءٌ آمِنٌ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ ﴾ أي فما آمن مع موسى ولا دخل في دينه، مع مشاهدة تلك الآيات الباهرة إلا نفرٌ قليلٌ من أولاد بني إسرائيل قال مجاهد: هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آبائهم ^(١) ﴿ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ ﴾ أي على تخوف وحذر من فرعون وملئه أن يعدّهم ويصرفهم عن دينهم ﴿ وَإِنْ فِرْعَوْنُ لَعَالِي فِي الْأَرْضِ ﴾ أي عاتٍ متكبر مفسد في الأرض ﴿ وَإِنَّهُ لَكِنِ الْمُسْرِفِينَ ﴾ أي المتجاوزين الحدّ بادعاء الربوبية ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ ﴾ أي قال لقومه لما رأى تخوف المؤمنين من فرعون: يا قوم إن كنتم صدقتم بالله وبآياته ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ﴾ أي على الله وحده اعتمدوا فإنه يكفيكم كل شرٍّ وضرٍّ ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ أي إن كنتم مُستسلمين لحكم الله مُنقادين لشرعه ﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أي أجابوا قائلين: على ربنا اعتمدنا وبه وثقنا ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي لا تسلطهم علينا حتى يعذبونا ويفتنونا بنا فيقولوا: لو كان هؤلاء على الحق لَمَا أُصِيبُوا ﴿ وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ أي خلصنا وأنقذنا بفضلِكَ وإنعامك من كيد فرعون وأنصاره الجاحدين ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾ أي اتخذوا لهم بيوتاً للصلاة والعبادة ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ أي

(١) اختار الإمام الجلال أن الطائفة التي آمنت بموسى هم من آل فرعون. وما ذكرناه هو اختيار «الطبري» والجمهور، وهو الأرجح.

اجعلوها مُصَلَّى^(١) تُصَلُّونَ فيها عند الخوف قال ابن عباس: كانوا خائفين فأَمَرُوا أن يُصَلُّوا في بيوتهم^(٢) ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي أدُّوا الصلاة المفروضة في أوقاتها، بشروطها وأركانها على الوجه الأكمل ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بَشِّرْ يا موسى أتباعك المؤمنين بالنصر والغلبة على عدوهم ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي قال موسى يا ربنا إنك أعطيت فرعون وكبراء قومه وأشرافهم، زينةً من متاع الدنيا وأثاثها، وأنواعاً كثيرة من المال ﴿رَبَّنَا لِضُلُوعِ سَبِيلِكَ﴾ اللام لأم العاقبة^(٣) أي آتيتهم تلك الأموال الكثيرة لتكون عاقبة أمرهم إضلال الناس عن دينك، ومنعهم عن طاعتك وتوحيدك ﴿رَبَّنَا أَطْمَسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ دعاء عليهم أي أهلك أموالهم يا الله وبددناها ﴿وَأَسَدَّدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي قَسَّ قلوبهم واطبع عليها حتى لا تنشرح للإيمان قال ابن عباس: أي امنعهم الإيمان ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ دعاء عليهم بلفظ النفي أي اللهم فلا يؤمنوا حتى يذوقوا العذاب المؤلم ويوقنوا به حيث لا ينفعهم ذلك، وإنما دعا عليهم موسى لطغيانهم وشدة ضلالهم، وقد علم بطريق الوحي أنهم لن يؤمنوا فدعا عليهم قال ابن عباس: كان موسى يدعو وهارون يؤمن فسببت الدعوة إليهما^(٤) ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ أي قال تعالى: قد استجبتُ دعوتكما على فرعون وأشراف قومه ﴿فَأَسْتَقِيمَا﴾ أي اثبتنا على ما أنتم عليه من الدعوة إلى الله وإلزام الحجة ﴿وَلَا نَتَّبِعَنَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا تسلكا سبيل الجهلة في الاستعجال أو عدم الاطمئنان بوعد الله تعالى، قال «الطبري»: رُوي أنه مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة ثم أغرق الله فرعون^(٥).

البلاغة: ١ - ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ تقديم ما حَقَّه التأخير لإفاده الحصر أي على الله لا على غيره.

٢ - ﴿وَيُحْيِي... الْحَقَّ﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

٣ - ﴿لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ عبر عن الالتباس والستر بالغمة بطريق الاستعارة أي لا

(١) وقيل: المراد اجعلوا بيوتكم موجهة إلى جهة القبلة.

(٢) «الطبري» ١١/١٥٤.

(٣) هذه اللام كقوله تعالى: ﴿فَالْتَفَتَهُ﴾ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴿ وفي الخبر (لُدُّوا لِلْمَوْتِ، وَابْنُوا لِلْخَرَابِ) أي لتكون العاقبة الموت والخراب. (ش): هذا الخبر أخرجه البيهقي في «شُعَبِ الإيمان» وضعفه الألباني. (لُدَّ المَرِيضُ): أعطاه الشراب الذي يُسْقَاهُ في أحد شِقَيْهِ فمَه. (لُدُّوا لِلْمَوْتِ، وَابْنُوا لِلْخَرَابِ): فالمرضى مهما أخذ من أسباب العلاج سيموت يوماً، وكذلك ما بينه الناس مصيره يوماً إلى الخراب.

(٤) «البحر» ٥/١٨٧.

(٥) «الطبري» ١١/١٦١. (ش): رواه ابن جرير «الطبري» عن ابن جُرَيْج بلفظ: «يقولون: إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة». وهل يثبت هذا الكلام وبين ابن جُرَيْج وموسى ﷺ مئات أو آلاف السنين؟

يكن أمرهم مغطى تغطية حيرة ومبهما فيكون كالغمة العمياء.

٤ - ﴿وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ الشَّدُّ اسْتِعَارَةً عَنْ تَغْلِيظِ الْعِقَابِ، ومضاعفة العذاب.

تنبيه: قال ابن كثير: دعوة موسى على فرعون كانت غضبا لله ولدينه كما دعا نوح على قومه فقال ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (١٦) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ﴿[نوح: ٢٦-٢٧] ولهذا استجاب الله لموسى دعوته التي شاركه فيها أخوه هارون، كما استجاب دعوة نوح ﷺ.

قال الله تعالى:

وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ
 ءَأَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَأَكْفَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ
 مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَأَلْوِمْ نُجَيْكَ بِذُنُوبِكَ لِيَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا
 لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صَدَقَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ
 إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ
 يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
 الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا
 يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِينَةٌ ءَأَمَنْتَ فَفَنَقَهَا إِيْمَانَهَا
 إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ
 لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ
 أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَعْمَلُ الرَّجْسُ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آبَائِهِمُ الَّذِينَ خَلَوْا
 مِنْ قَبْلِهِمْ قُلِ فَانظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا
 عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلِ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّعُكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ
 مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾
 وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ
 مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلِ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا
 يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى
 يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى دعاء موسى على فرعون لطغيانه، ذكر هنا ما حدث لفرعون وجنوده من الإغراق في «البحر» نتيجة البغي والعدوان، وأن إيمانه لم ينفعه لأنه إيمان المضطر، ثم ذكر قصة يونس وتوبة الله تعالى على قومه، وختم السورة الكريمة ببيان حقيقة التوحيد، وأن

الإنسان لا ينجيه عند الله إلا الإيمان.

اللغة: ﴿بَوَّأْنَا﴾ أنزلنا وأسكننا ﴿الْمُتَمَرِّينَ﴾ الشاكين، امترى: شكَّ وارتاب ﴿فَلَوْلَا﴾ لولا للتحضيض بمعنى هلا ﴿الرَّجَسَ﴾ العذاب أو السخط ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الأديان الباطلة كلها ﴿يَمَسُّسُكَ﴾ يصيبك ﴿كَاشَفَ﴾ دافعٌ ومزيل يقال: كشف السوء أي أزاله ﴿بَوَكَّيْلٍ﴾ بحفيظ موكلٍ إليَّ أمرُكم.

التفسير: ﴿وَجَوَّزْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾ أي قطعنا وعدينا ببني إسرائيل «البحر» «بحر السويس» حتى جاوزوه ﴿فَأَنبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا﴾ أي لحقهم فرعون مع جنوده ظلمًا وعدوانًا وطلبًا للاستعلاء بغير حق ﴿حَتَّىٰ إِذَا دَرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ أي حتى إذا أحاط به الغرق وأيقن بالهلاك ﴿قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَوَّأَ إِسْرَءِيلَ﴾ أي قال عندئذ: أقررتُ وصدقْتُ بأنه لا إله إلا الله ربُّ العالمين، الذي آمنت وأقرت به بنو إسرائيل ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ تأكيدٌ لدعوى الإيمان أي وأنا ممن أسلم نفسه لله، وأخلص في إيمانه قال ابن عباس: جعل جبريل عليه السلام في فم فرعون الطين مخافة أن تدركه الرحمة^(١) ﴿أَلَكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي الآن تؤمن حين يئست من الحياة، وقد عصيت الله قبل نزول نعمته بك، وكنت من الغالين في الضلال والإضلال والصد عن دين الله؟ ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي فاليوم نخرجك من «البحر» بجسدك الذي لا روح فيه ﴿لَتَكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ أي لتكون عبرة لمن بعدك من الناس، ومن الجبابرة والفراعنة، حتى لا يطغوا مثل طغيانك قال ابن عباس: إن بعض بني إسرائيل شكوا في موت فرعون، فأمر الله «البحر» أن يلقيه بجسده سويًا بلا روح ليتحققوا موته وهلاكه^(٢) ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَفُلُونَ﴾ أي معرضون عن تأمل آياتنا لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْأَأَ صَدَقٍ﴾ أي أنزلنا وأسكننا بني إسرائيل بعد إهلاك أعدائهم منزلاً صالحاً مرضياً ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي اللذائذ الطيبة النافعة ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي فما اختلفوا في أمر الدين إلا من بعد ما جاءهم العلم وهو التوراة التي فيها حكم الله، وهذا دَمُّ لهم لأن اختلافهم كان بسبب الدين، والدين يجمع ولا يفرق، ويوحد ولا يشتت وقال «الطبري»: كانوا قبل أن يُبعث محمد ﷺ مجمعين على نبوته، والإقرار بمبعثه، فلما

(١) الطبري ١٦٣/١١ والمراد بإدراك الرحمة النجاة من الغرق كما كان طلب المخدول، قال «أبو السعود».

(ش): عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ «لَمَّا أَغْرَقَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ فَقَالَ جِبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ فَلَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَخُذُ مِنْ حَالِ الْبَحْرِ فَأَدُسُّهُ فِيهِ مَخَافَةً أَنْ تَدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ». (رواه الترمذي، وصححه الألباني). حَالِ الْبَحْرِ: طينه الأسود.

(٢) «المختصر» ٢٠٦/٢.

جاءهم ما عرفوا كفر به بعضهم، وآمن البعض، فذلك اختلافهم^(١) ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ هذا على سبيل الفرض والتقدير: أي إن فرض أنك شككت فاسأل قال ابن عباس: لم يشك النبي ﷺ ولم يسأل وقال الزمخشري: هذا على الفرض والتمثيل^(٢) كأنه قيل: فإن وقع شك مثلاً، وخيل لك الشيطان خيلاً تقديراً فسأل علماء أهل الكتاب، وفرق عظيم بين قوله ﴿وَأَنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [فصلت: ٤٥] بإثبات الشك على سبيل التأكيد والتحقيق وبين قوله ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾ بمعنى الفرض والتمثيل وقال بعضهم: الخطاب للنبي ﷺ والمراد غيره ﴿فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقرءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي أسأل أهل الكتاب الذين يعرفون التوراة والإنجيل، فإن ذلك محقق عندهم كما قصصنا عليك، والغرض دفع الشك عن قصص القرآن ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي جاءك يا محمد البيان الحق، والخبر الصادق، الذي لا يعتريه شك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُكْذِبِينَ﴾ أي فلا تكن من الشاكين المرتابين ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي لا تكذب بشيء من آيات الله ﴿فَتَكُونُ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ أي فتصبح ممن خسر دنياه وآخرته، قال «البيضاوي»: وهذا من باب التهيج والتثيت وقطع أطماع المشركين عنه^(٣) وقال «القرطبي»: الخطاب في هاتين الآيتين للنبي ﷺ والمراد غيره^(٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي وجبت عليهم كلمة العذاب بإرادة الله الأزلية ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٥) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ أي لا يصدقون ولا يؤمنون أبداً ولو جاءتهم البراهين والمعجزات ﴿حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي فحينئذ يؤمنون كما آمن فرعون ولكن لا ينفعهم الإيمان ﴿فَلَوْ لَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ أي فهلا كانت قرية واحدة من القرى التي أهلكتها، تابت عن الكفر وأخلصت الإيمان عند معاينة العذاب فنفعها إيمانها في ذلك الوقت ﴿إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ﴾ أي غير قوم يونس ﴿لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي لما تابوا عن الكفر وآمنوا بالله رفعنا عنهم العذاب المخزي المهيين في الحياة الدنيا ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي أخرناهم إلى انتهاء آجالهم قال قتادة: روي أن يونس أنذرهم بالعذاب ثم خرج من بين أظهرهم، فلما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم، قذف الله في قلوبهم التوبة ولبسوا المسوح^(٥)، فلما عرف الله الصديق من قلوبهم، والتوبة والندم على ما مضى منهم، كشف الله عنهم العذاب^(٦) ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ أي لو أراد الله لآمن الناس جميعاً، ولكن لم

(١) «الطبري» ١٦٧/١١.

(٢) «الكشاف» ٣٧٠/٢.

(٣) «البيضاوي» ٢٤٥.

(٤) «القرطبي» ٣٨٣/٨.

(٥) (ش): المسح: كساء غليظ.

(٦) «الطبري» ١٧١/١١.

يشأ ذلك لكونه مخالفاً للحكمة، فإنه تعالى يريد من عباده إيمان الاختيار، لا إيمان الإكراه والاضطرار ﴿فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾؟ أي أفأنت يا محمد تُكره الناس على الإيمان، وتضطرهم إلى الدخول في دينك؟ ليس ذلك إليك، والآية تسلية له ﷺ وترويح لقلبه مما كان يحرص عليه من إيمانهم قال ابن عباس: كان النبي ﷺ حريصاً على إيمان جميع الناس، فأخبره تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبقت له السعادة في الذكر الأول، ولا يضل إلا من سبقت له الشقاوة في الذكر الأول^(١) ﴿وَمَا كُنْتَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِرَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي ما كان لأحد أن يؤمن إلا بإرادته تعالى وتوفيقه ﴿وَيَعْمَلُ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ آلِذِهِ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي ويجعل العذاب على الذين لا يتدبرون آيات الله، ولا يستعملون عقولهم فيما ينفع ﴿قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار: انظروا نظراً تفكروا واعتباراً، ما الذي في السماوات والأرض من الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته سبحانه؟ ﴿وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي وما تنفع الآيات والإنذارات قوماً سبق لهم من الله الشقاء ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي فهل ينتظر مشركو مكة إلا مثل أيام أسلافهم، وما حل بهم من العذاب والنكال؟ ﴿قُلْ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعْكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ أي قل لهم يا محمد: انتظروا عاقبة البغي والتكذيب إني من المنتظرين هلاككم ودماركم ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ﴾ أي ثم إذا نزل العذاب بالمكذبين نُنجي الرسل والمؤمنين إنجاءً مثل ذلك الإنجاء ﴿حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي حقاً ثابتاً علينا من غير شك قال الربيع بن أنس: خوفهم عذابه ونقمته، ثم أخبرهم أنه إذا وقع من ذلك أمرٌ أنجى الله رسله والذين آمنوا معه^(٢) ﴿قُلْ يَتَأَيَّبُهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمٌ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك إن كنتم في شك من حقيقة ديني وصحته ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي فلا أعبد ما تعبدون من الأوثان والأصنام التي لا تنفع ولا تضر ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّعُكُمْ﴾ أي ولكني أعبد الله الذي يتوفاكم، ويبيده محياكم ومماتكم، قال «الطبري»: وهذا تعريض ولحن من الكلام لطيف، وكأنه يقول: لا ينبغي لكم أن تشكوا في ديني، وإنما ينبغي أن تشكوا في عبادة الأصنام التي لا تعقل ولا تضر ولا تنفع، فأما إلهي الذي أعبد فهو الذي يقبض الخلق وينفع ويضر^(٣) ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وأنا مأمور بأن أكون مؤمناً موحداً لله لا أشرك معه غيره ﴿وَأَنْ أَقْرِعَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي وأمرت بالاستقامة في الدين، على الحنيفة السمحة ملة إبراهيم ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي ولا تكونن ممن يشرك في عبادة ربه

(١) «القرطبي» ٨ / ٣٨٥.

(٢) «الطبري» ١١ / ١٧٦.

(٣) «الطبري» ١١ / ١٧٦.

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ تأكيدٌ للنهي المذكور أي ولا تعبد غير الله مما لا ينفع ولا يضر كالآلهة^(١) والأصنام ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي فإن عبدت تلك الآلهة المزعومة كنت ممن ظلم نفسه لأنك عرّضتها لعذاب الله، والخطاب هنا للرسول ﷺ والمراد غيره كما تقدم ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ أي وإن أراد الله إصابتك بضرٍّ فلا دافع له إلا هو وحده ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بَخِيرٌ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ أي وإن أراد إصابتك بنعمة أو رخاء فلا يمنعه عنك مانع ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي يصيب بهذا الفضل والإحسان من شاء من العباد ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي هو سبحانه الغفور لذنوب العباد، الرحيم بأهل الرشاد ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي جاءكم القرآن العظيم المشتمل على محاسن الأحكام ﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ أي من اهتدى بالإيمان فممنفعة اهتدائه لها خاصة ﴿وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي ومن ضلَّ بالكفر والإعراض فوبال الضلال مقصور عليها ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي ولست بحفيظ أحفظ عليكم أعمالكم إنما أنا بشيرٌ ونذير ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ أي اتبع يا محمد في جميع شئونك ما يوحيه إليك ربك ﴿وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ أي اصبر على ما يعتربك من مشاق التبليغ حتى يقضي الله بينك وبينهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ أي هو سبحانه خير من يفصل في الحكومة، والآية تسلية للنبي ﷺ ووعدٌ للمشركين.

البلاغة: ١ - ﴿ءَالَتْنِ وَقَدْ عصيتَ قبلُ﴾ الاستفهام للتوبيخ والإنكار.

٢ - ﴿بَوَانَا... مَبُوءًا﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

٣ - ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ كناية عن القضاء والحكم الأزلي بالشقاوة^(٢).

٤ - ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ صيغة المضارع حكاية عن الماضي لتحويل أمرها باستحضار

صورتها.

٥ - ﴿مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ بينهما طباق.

٦ - ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ... وَإِنْ يُرِدْكَ بَخِيرٌ﴾ بين الجملتين مقابلة لطيفة وهي من

المحسنات البديعية.

٧ - ﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ.. وَمَنْ ضَلَّ﴾ بينهما طباق.

٨ - ﴿يَحْكُمُ اللَّهُ.. الْحَاكِمِينَ﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

فائدة: قال الإمام الفخر: آمن فرعون ثلاث مرات: أولها قوله ﴿ءَاَمَنْتُ﴾ وثانيها قوله

(١) (ش): أي معبوداتهم الباطلة.

(٢) (ش): قال الإمام ابن جرير «الطبري» في تفسيره «جامع البيان في تأويل القرآن» (١٥ / ٢٠٤): في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَكْثَرُ عَلَىٰ عِلَّةٍ يَخْتَفُونَ﴾: «يقول تعالى ذكره: إن الذين وجبت عليهم يا محمد «كلمة ربك»، هي لعنته إياهم بقوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾»، [سورة هود: ١٨]، فثبتت عليهم.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ وثالثها قوله ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فما السبب في عدم قبول إيمانه؟ الجواب: أنه إنما آمن عند نزول العذاب، والإيمان في هذا الوقت غير مقبول، لأنه يصير الحال حال الإلجاء فلا ينفع التوبة ولا الإيمان قال تعالى ﴿فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥] .

تنبيه: قال المفسرون: إنما نجّى الله بدن فرعون بعد الغرق، لأن قوماً اعتقدوا فيه الإلهية، وزعموا أن مثله لا يموت، فأراد الله أن يشاهده الخلق على ذلك الذل والمهانة، ليتحققوا موته، ويعرفوا أن الذي كان بالأمس في نهاية الجلالة والعظمة قد آل أمره إلى الذل والهوان، فيكون عبرة للخلق، وزجراً لأهل الطغيان.

«تم تفسير سورة يونس بعون الله وحسن توفيقه، والحمد لله رب العالمين»

تم بحمد الله المجلد الأول

فهرس أحاديث المجلد الأول

الصفحة	الراوي	طرف الحديث
٨٩	أصحاب السنن	«كان ﷺ إذا قام من الليل استفتح صلاته بالتكبير...»
٩٠	أحمد	«والذي نفسي بيده ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل مثلها...»
٩٠	البخاري	«لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن: الحمد لله رب العالمين...» «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة...»
٩٩	مسلم والترمذي	«اقرأوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة...»
٩٩	مسلم	«البر لا يبلى، والذنوب لا يئسى، والديان ولا يموت...»
١٢٦	أصحاب السنن	«كان ﷺ إذا حزبه أمر فرغ إلى الصلاة...»
١٢٨	أصحاب السنن	«لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم...»
١٤٧	البخاري	«لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار...»
١٥٥	البخاري والنسائي	«لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقلوا: آمنا بالله...»
١٧٥	البخاري	«لما قدم رسول الله ﷺ المدينة صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً...»
١٧٦	البخاري	«إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟...»
١٨٢	أحمد والترمذي	«يا سعد أظب مطعمك تكن مستجاب الدعوة...»
١٩١	الحافظ ابن مردويه	«إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد...»
٢٠٠	الترمذي	«إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته...»
٢٠٠	أصحاب السنن	«شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد برده له في ظل الكعبة...»
٢١٦	البخاري	«اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل ممن قبلكم متعبداً...»
٢٢١	النسائي	«شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً»
٢٢٣	الشيخان	«الذي تفوته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله» أي فقدهما
٢٣٤	الشيخان	«ابن آدم مرضت فلم تعدني، قال: وكيف أعودك وأنت رب العالمين...» حديث قدسي
٢٣٨	الشيخان	«سأل عمر بن الخطاب يوماً أصحاب النبي ﷺ فيم ترون هذه الآية نزلت...»
٢٥٢	البخاري	«كان رجل يُدأين الناس، فكان يقول لفتاه: إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه...»
٢٥٨	البخاري	«أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم البقرة...»
٢٦٣	مسلم	«يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به..»
٢٦٤	مسلم	

الصفحة	الراوي	طرف الحديث
٢٦٨	مسلم	«إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فأحذروهم....»
٢٦٩	البخاري	«قال رجل لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف على...»
٢٧٣	البخاري	«قال عمر بن الخطاب: اللهم لا صبر لنا على ما زينت لنا إلا بك»
٢٧٧	الطبراني	«عبدى عهد إليَّ عهدًا وأنا أحق من وفى، أدخلوا عبدى الجنة» حديث قدسي
٢٨٠	الشيخان والترمذي	«إن الله إذا أحب عبدًا نادى جبريل فقال: إني أحب فلانًا فأحبه...» حديث قدسي
٢٩٥	مسلم والترمذي	«من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى..»
٢٩٩	النسائي	«لحق رجل من الأنصار بالمشركين ثم ندم، فأرسل إلى قومه هل لي من توبة؟...»
٣٠١	الشيخان	«يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرايت لو كان لك ما على الأرض...»
٣١٣	مسلم	«لما كسرت ربيعة النبي ﷺ وشجَّ وجهه قال: كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيهم...»
٣٢٠	أحمد	«كتب هرقل إلى النبي ﷺ: إنك دعوتني إلى جنة عرضها السماوات والأرض فأين النار...»
٣٢٥	البخاري	«لما هزم المسلمون بأحد وأشاع المشركون بأن محمدًا ﷺ قد قتل...»
٣٣١	الشيخان	«لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر...»
٣٣١	ابن ماجه والترمذي	«ألا أبشرك بما لقي الله عز وجل به أباك قلت: بلى يا رسول الله...»
٣٣٤	ابن مردويه	«سئلت عائشة عن أعجب ما رآته من رسول الله ﷺ فبكت وقالت...»
٣٤٧	الشيخان	«يا ابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ويعجبه مالها وجمالها...»
٣٥٢	الشيخان	«جاءت امرأة سعد بن الربيع رسول الله ﷺ بابتيتها فقالت: يا رسول الله...»
٣٥٧	مسلم	«لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقًا رضي منها آخر...»
٣٥٧	مسلم	«اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله»
٣٦٨	الترمذي	«صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعامًا وسقانا من الخمر فأخذت منها وحضرت الصلاة...»
٣٦٩	البخاري	«اقرأ علي القرآن، قلت: يا رسول الله، اقرأ عليك وعليك أنزل؟...»
٣٧٤	أحمد	«يعظم أهل النار في النار حتى إن ضرس أحدهم مثل أحد...»

الصفحة	الراوي	طرف الحديث
٣٨٠	ابن مردويه	«قال رجل للنبي ﷺ: إنك لأحب إلى من نفسي وأهلي وإني لأذكرك فما أصبر...»
٣٨٣	مسلم	«تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يُخرجه إلا جهاداً في سبيله...»
٣٨٨	الشيخان	«إنها طيبة تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الحديد»
٣٨٨	مسلم	«الحق المسلمون رجلاً في غنيمة له فقال: السلام عليكم فقتلوه...»
٣٩١	البخاري	«إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم من مسير ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم...»
٣٩١	النسائي	«إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله...»
٣٩١	ابن ماجه	«من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة جاء يوم القيامة...»
٣٩٢	البيهقي	«لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مؤمن...»
٤٠٦	البخاري	«اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك»
٤١٥	الشيخان	«والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً...»
٤٢٤	أحمد	«أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته فلم تستطع أن تحمله..»
٤٢٨	البخاري	«إذا أرسلت كلبك المعلم فقتل فكل..»
٤٢٩	الشيخان	«ويلٌ للأعقاب من النار»، وفي رواية: «ويل للعراقيب من النار»
٤٣١	الشيخان	«آية في كتابكم تقرأونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك يوم عيد...»
٤٤٢	البخاري	«يُجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له: أرايت لو كان لك ملء الأرض ذهباً...»
٤٤٥	مسلم	«مُرَّ على النبي ﷺ يهودي محمم مجلود، فدعاهم فقال: هكذا تجدون حد الزاني...»
٤٧٥	الحاكم	«اتممر بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شُحاً مُطاعاً، وهوى متبعاً...»
٤٨١	الترمذي	«أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحمًا، وأمروا ألا يدّخروا لغيرهم...»
٤٨٢	مسلم	«يا جبريل اذهب إلى محمد فاسأله ما يبيحك؟ فقال...» حديث قدسي
٤٩٩	أحمد	«إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج...»
٥٠١	الترمذي	«الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام...»
٥١٥	الشيخان	«أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً...»
٥٤٣	البخاري	«لا تقوِّم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا...»

الصفحة	الراوي	طرف الحديث
٥٤٣	مسلم	«يقول الله عز وجل: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيد، ومن جاء..» حديث قدسي
٥٥٠	البخاري	«يؤتى يوم القيامة بالرجل العظيم السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة»
٥٥٦	مسلم	«كانت المرأة تطوف بالبيت عريانة وتقول: من يعيرني تطوفاً...»
٥٥٨	أحمد	«إن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا يجيئه ملك الموت...»
٥٥٩	مسلم	«لن يدخل أحدكم عمله الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله...»
٥٩٦	مسلم	«لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون...»
٦٠٠	الشيخان	«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم...»
٦٠٢	الترمذي	«إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة»
٦٠٦	أصحاب السنن	«إن الله يأمرك أن تغفو عمن ظلمك، وتُعطي من حرمك، وتصل من قطعك»
٦٢٠	أبو داود والترمذي	«إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه»
٦٣٠	مالك	«ما روي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيط منه في يوم عرفة...»
٦٣٤	مسلم	«أبكي للذي عرض على أصحابك من الفداء، لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة»
٦٣٧	أصحاب السنن	«لو نزل العذاب لما نجا منه غير عمر...»
٦٤٠	البخاري	«إن آخر سورة نزلت سورة براءة»
٦٥٠	الترمذي	«إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان...»
٦٥٣	الترمذي	«كنا إذا حمي البأس نتقى برسول الله ﷺ وإن الشجاع منا الذي يحاذيه»
٦٥٥	أحمد والترمذي	«أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليبٌ من ذهب فقال: يا عدي اطح عنك هذا الوثن...»
٦٥٧	أبو داود	«ألا أخبركم بخير ما يكتز المرء؟ المرأة الصالحة، إن نظر إليها سرته...»
٦٦٨	أحمد	«ويلكم إن لم أعدل فمن يعدل؟...»
٦٩٥	مسلم	«لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول الله ﷺ وعنده أبو جهل...»
٧٠٦	مسلم	«إن أهل الجنة يُلهمون التسبيح والتحميد كما تُلهمون النفس...»
٧٢٢	أبو داود	«إن لله عبداً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة...»

فهرس موضوعات المجلد الأول

٥	مقدمة المحقق
٧٨	تقاريط لطائفة من كبار العلماء
٧٨	كلمة سماحة شيخ الأزهر
٧٩	كلمة سماحة رئيس مجلس القضاء العالي
٨٠	كلمة سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي
٨١	كلمة معالي مدير جامعة الملك عبد العزيز
٨٤	كلمة فضيلة رئيس قسم الدعوة
٨٥	مقدمة المؤلف الشيخ محمد على الصابوني
٨٦	طريقة المؤلف في صفوة التفاسير

١ - سورة الفاتحة

٨٩	الحكمة من افتتاح السور بسم الله الرحمن الرحيم
٨٩	المقاصد الأساسية لسورة الفاتحة
٩٠	فضل سورة الفاتحة
٩٣	وجوه الفصاحة والبلاغة في الفاتحة
٩٥	الأسرار القدسية في فاتحة الكتاب

٢ - سورة البقرة

٩٧	المقاصد الأساسية لسورة البقرة
٩٩	لماذا سميت سورة البقرة
٩٩	فضل سورة البقرة
١٠٠	السر في افتتاح بعض السور بالحروف المقطعة
١٠١	انقسام الناس إلى مؤمنين، وكافرين، ومنافقين
١٠١	أوصاف المؤمنين الفاضلة
١٠٢	أوصاف الكافرين ومصيرهم في الآخرة
١٠٣	صفات المنافقين الشنيعة
١٠٣	ضرب الأمثال للمنافقين
١٠٦	بيان من القرآن لظلمة الضلال والنفاق
١٠٨	وصف المنافقين بعشرة أوصاف شنيعة
١١٠	كلام ابن القيم حول أمثال القرآن
١١٠	السر في التعبير بقوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ يَبُورِهِمْ﴾ ولم يقل (بنارهم)
١١٠	السر في جمع الظلمات وتوحيد النور

- الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين ١١٠
- كلام الإمام البيضاوي حول كروية الأرض ١١٣
- وجوه إعجاز القرآن الكريم ١١٣
- القرآن معجز في نظمته، وتشريعته، وبيانه ١١٣
- عجز البشر عن الإتيان بمثل القرآن ١١٣
- كلام الحافظ ابن كثير في إعجاز القرآن ١١٤
- الرد على شبهات المشركين ١١٤
- لماذا ضرب القرآن الأمثال بالذباب والعنكبوت؟ ١١٥
- الحكمة من إكثار الأمثال في القرآن ١١٦
- خلق آدم وخلافته في الأرض ١١٨
- الحكمة في أمر الملائكة بالسجود لآدم ١٢٢
- سجود الملائكة كان سجود تحية وتكريم لا سجود خضوع وعبادة ١٢٣
- لطيفة: هل لإبليس زوجة؟ ورد الشعبي على السؤال ١٢٤
- سجود الملائكة لآدم سجود تحية وتكريم ١٢٤
- التحقيق في أن إبليس لم يكن من الملائكة ١٢٤
- من هو إسرائيل؟ ١٢٥
- الفرق بين عبيد النعم وعبيد المنعم ١٢٦
- قول على: «قصم ظهري رجلاً..» ١٢٧
- سبب تقتيل الذكور من بني إسرائيل ١٢٩
- ما هو الحجر الذي نبع منه الماء؟ ١٣٣
- قصة البقرة ذكر إحياء الموتى في خمسة مواضع ١٣٩
- التحريف لكلام الله نوعان ١٤٠
- قصة عزم اليهود على قتل الرسول ﷺ بالسسم ١٤٠
- سبب بغض اليهود لجبريل عليه السلام ١٤٣
- السر في التفريق بين ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ﴾ و﴿وَلَا يَتَمَنَّوْهُ﴾ ١٥٣
- الحكمة من تعليم الملكين السحر للبشر ١٥٥
- ورود لفظ ﴿يَتَأْتِيهَا الذِّبْكُ﴾ في ثمانية وأربعون موضعاً من القرآن ١٥٨
- معنى إسلام الوجه لله تعالى ١٦١
- تعريف لطيف ودقيق لمعنى البدعة ١٦٤
- الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم ١٦٨
- السر في تفضيل البيت العتيق ١٧١

- المقصود من معنى ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ١٧٣
- الحكمة من تحويل القبلة ١٧٦
- الحكمة من تكرار الأمر باستقبال القبلة ١٧٨
- ما هي النعم الثلاث في المصيبة؟ ١٨٠
- معنى إتباع خطوات الشيطان ١٨٥
- فائدة هامة في سمو التعبير من ناحية حسن البيان في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ ١٩٢
- السر في اقتران القتال بكلمة ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ٢٠٠
- الحكمة من المغيرة بين «قل» و «فقل» في أجوبة الأسئلة ٢٠٣
- المعنى الصحيح لإلقاء بالنفس إلى التهلكة ٢٠٣
- الفرق بين زاد الدنيا وزاد الآخرة ٢٠٤
- لماذا كانت الخمر أم الخبائث؟ ٢١٧
- ما هي المنافع في الخمر والميسر؟ ٢١٨
- أول خلع كان في الإسلام ٢٢٢
- الحكمة من إيجاب المتعة ٢٢٣
- قصة تمتع الحسن بن علي لزوجته ٢٢٨
- التحقيق أن الصلاة الوسطى هي العصر ٢٣٢
- قصة أبي الدحداح في تصدقه ببستانه ٢٣٤
- تفسير ابن عباس للكرسي بأنه العلم ٢٤١
- ملك الدنيا مؤمنان وكافران ٢٤٥
- سؤال الخليل عن كيفية الإحياء ليست للشك ٢٤٥
- سؤال عمر للصحابة عن معنى آية ٢٥٢
- قول بعض الحكماء: إذا اصطنعت المعروف فاستره ٢٥٣
- العلم نوعان: كسبي ووهبي ٢٦١

٣- سورة آل عمران

- أحسن ما قيل في المتشابه والمحكم ٢٦٥
- سؤال رجل لابن عباس عن المتشابه في القرآن ٢٦٨
- فائدة تخصيص الأسحار بالاستغفار ٢٧٣
- لطيفة في المحاوراة بين العقل والعلم ٢٧٧
- كرامات الأولياء والأدلة عليها ٢٨١
- سؤال الجنيد عن مكر الله وجوابه اللطيف ٢٨٤

- لا تحل أموال أهل الذمة إذا أدوا الجزية ٢٩٨
- قصة شاس بين قيس اليهودي وما نزل في الأنصار بسبب عدو الله ٣٠٢
- النهي عن الاختلاف في الأصول لا في الفروع ٣٠٦
- المقصود بالأضعاف المضاعفة في الربا ٣١٣
- أعمال الآخرة ينبغي لها المسارعة ٣١٦
- قصة أنس بن النضر رضي الله عنه ٣٢١
- جهاد النساء في غزوة أحد ٣٢٦
- محمد ﷺ بحر المكارم والفضائل ٣٣٠
- استحباب قول المؤمن: «حسبنا الله ونعم الوكيل» عند الغم والأمور العظيمة ... ٣٣٥
- قصة أبي بكر مع فخاض ٣٤٠
- أعجب ما رآته عائشة من رسول الله ﷺ ٣٤٣

٤ - سورة النساء

- كلمة لطيفة حول تعدد الزوجات في الإسلام ٣٥٠
- استنباط بديع من آية ﴿يُؤْصِيكُمُ اللَّهُ فِيْ أَوْلَادِكُمْ﴾ ٣٥١
- في الكناية عن الجماع بالإفضاء أدب رفيع ٣٥٤
- نهي عمر عن المغالاة في المهو ورد امرأة عليه ٣٥٨
- خطأ فاحش ارتكبه الشيعة في المتعة ٣٦٣
- لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار ٣٦٧
- قصة سعد بن الربيع مع امرأته حبيبة ٣٦٨
- السر في ذكر الإصلاح دون التفريق ٣٦٨
- الإيجاز والإعجاز في التعبير القرآني ٣٦٩
- كلمة لطيفة حول تأديب النساء ٣٧٠
- قصة إسلام عثمان بن طلحة صاحب مفتاح الكعبة ٣٧١
- قصة المنافق واليهودي وما نزل فيه ٣٧١
- قول الصحابة: كنا في عز ونحن مشركون فلما آمننا صرنا أذلة! ٣٨١
- التوفيق بين آيتي الحسنه والسيئة ٣٨٧
- اختلاف الصحابة في شأن المنافقين ٣٨٨
- الفارق الهائل بين حضارة الإسلام والحضارة الغربية ٣٩١
- قصة الصحابي «ضمرة بن القيس» رضي الله عنه ٣٩٢
- قصة طعمة بن أبيرق وجماعته المنافقين ٣٩٣
- تفاخر المسلمين وتفاخر أهل الكتاب ٤٠٠

- ٤٠٦ العدل بين النساء الذي أمر به الإسلام
- ٤٠٧ معنى آية ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾
- ٤١٢ أسماء جهنم السبعة: «جهنم، لظى، الحطمة، السعير، سقر، الجحيم، الهاوية»
- ٤١٢ تنبيه هام للتفريق بين النفاق والكفر
- ٤١٧ الرد على بهتان النصارى في زعمهم صلب المسيح
- ٤١٨ معنى أن المسيح عيسى ابن مريم من روح الله

٥ - سورة المائدة

- ٤٣٠ قصة الفيلسوف الكندي الذي عزم على معارضة القرآن
- ٤٣١ الفارق بين المبدأ الجاهلي والمبدأ الإنساني
- ٤٣١ قصة اليهودي مع عمر بن الخطاب وفضل آية من القرآن
- ٤٣٧ كفر من زعم حلول الله في الصور من جهلة الصوفية
- ٤٣٨ السر في تسمية أرض فلسطين الأرض المقدسة
- ٤٣٨ استنباط دقيق من القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه
- ٤٣٩ قصة قابيل وهابيل وسبب قتل قابيل لأخيه
- ٤٤٠ عقوبة قطاع الطريق والرهط من عربنة الذين قتلوا راعي النبي ﷺ
- ٤٤٢ معنى النفي من الأرض وهل يدخل فيه السرقة
- ٤٤٢ قصة الأصمعي مع الأعرابي وآية السرقة
- ٤٤٢ اعتراض بعض الملاحدة على قطع يد السارق
- ٤٤٢ كلمة وجيزة لبيان حكمة التشريع في قطع اليد
- ٤٤٤ قصة اليهودي الذي زنى وحكم الرسول ﷺ فيه
- ٤٤٩ اليهود إخوة الخنازير والقروذ وما نزل فيهم
- ٤٥١ كراهية عمر رضي الله عنه لاستعمال اليهود والنصارى
- ٤٥٦ تنبيه هام إلى التفصيل في علة تحريم الخمر والميسر
- ٤٧٧ المواطن التي يكون فيها السؤال مذموماً عشرة

٦ - سورة الأنعام

- ٤٩٠ فائدة: خمس سور ابتدأت بـ «الحمد لله»
- قصة الأخنس بن شريق مع أبي جهل بن هشام وسؤاله هل محمد صادق أو كاذب؟
- ٤٩١ وما أجابه به
- ٥٠٣ وجوب الحمد لله عند هلاك الظلمة
- ٥٠٤ ما هي مفاتيح الغيب؟

- كلام إبراهيم في الشمس والقمر كان للمناظرة ٥٠٩
- الصحيح أن «آزر» والد إبراهيم ٥١٠
- معنى إخراج الحي من الميت والميت من الحي ٥١٦
- آية ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ نفى لإحاطة لا نفى للرؤية في الآخرة ٥٢٢
- القول في الدين بمجرد التقليد حرام ٥٢٨
- بحث الرسل من الإنس لا من الجن ٥٢٩
- قصة الصحابي الذي وأد ابنته في الجاهلية ٥٣٥
- فائدة: التحريم يُعلم بالوحي لا بالهوى ٥٣٩
- ما هي الوصايا العشر؟ ٥٣٩
- الحكمة من التفضيل بين الخلق ٥٤٠
- سبيل الحق واحد، وطرق الضلال كثيرة ٥٤٣
- كثيراً ما يقرن القرآن بين آيات الرغبة والرغبة ٥٤٣

٧- سورة الأعراف

- الحكمة من الحروف المقطعة بيان إعجاز القرآن ٥٤٦
- سؤال الرسل توبيخ للمجرمين والعصاة ٥٤٧
- كيف توزن الأعمال يوم القيامة؟ ٥٥٥
- الأدلة على أن إبليس من الجن وليس من الملائكة ٥٥٦
- لماذا سميت العورة سوءاً؟ ٥٥٧
- الغرض الخبيث من الدعوة إلى تعري المرأة ٥٥٧
- كيف كان العرب يطوفون حول الكعبة؟ ٥٥٨
- من هم أصحاب الأعراف؟ ٥٥٩
- ما معنى نسيان الله للكافر؟ ٥٦٠
- علم الأبدان وعلم الأديان وقصة الطبيب النصراني ٥٦٢
- معنى الاستواء على العرش وتوضيح مذهب السلف فيه ٥٦٣
- آداب الدعاء والساعات التي يستجاب فيها ٥٦٤
- سبب سكني بني إسرائيل في مصر ٥٧٩
- السبب في تأجيل مناجاة موسى لربه ٥٨١
- تنبيه هام إلى رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة ٥٨٣
- سماع كلام الحبيب يزيد في الشوق والحنين ٥٨٤
- السعادة والشقاوة بيد الله تعالى ٥٨٤
- قصة أصحاب القرية الذين مسخوا قردة وخنازير ٥٩٦

- معنى استخراج ذرية آدم من صلبه وأخذ العهد عليهم ٥٩٨
 قصة «بلعم بن باعوراء» الذي أعطاه الله العلم ثم ارتد عن الدين وكفر بالله ٥٩٨
 هل أسماء الله الحسنى محصورة في التسعة والتسعين؟ ٦٠٠
 الحكمة في إخفاء الساعة عن العباد ٦٠٣
 التحقيق العلمي في بية ﴿أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ وقصة آدم وحواء ... ٦٠٤
 قصة إسلام معاذ بن جبل ومعاذ بن الجموح وتكسيهما لأصنام المشركين ٦٠٤
 الأدلة على بطلان عبادة الأصنام والأوثان ٦٠٤
 كيف يدفع الإنسان عنه كيد الشيطان؟ ٦٠٧
 فائدة الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ٦٠٧

٨- سورة الأنفال

- النداءات الإلهية للمؤمنين في سورة الأنفال ٦٠٨
 صفات المؤمنين الكاملين وكلام ابن الخطيب ٦١١
 إمداد المؤمنين بالملائكة يوم بدر ٦١٦
 التوفيق بين إمدادهم بألف وبنائبة آلف ٦١٨
 قصة «أبو لبابة» واستشارة اليهود له ٦١٨
 معنى آية ﴿وَأَتَقَوْا فِتْنَةَ لَا تُضَيِّبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ ٦١٩
 قصة اجتماع إبليس اللعين مع المشركين بدار الندوة ٦٢١
 للمؤمنين أمانان: نبي الله، والاستغفار ٦٢٢
 تنبيه إلى وجوب إجابة دعاء الرسول ﷺ ٦٢٦
 لطيفة في قول معاوية لرجل: ما أجهل قومك حين ملكتهم امرأة! ٦٢٦
 قول أبي جهل في بدر: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، ونشرب الخمر... إلخ ٦٢٩
 معنى قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ ٦٣١
 تنبيه إلى أن القوة نوعان: مادية وروحية ٦٣٣
 استشارة النبي ﷺ لأصحابه في أسرى بدر ٦٣٤
 أخذه لرأي أبي بكر وما نزل من العتاب ٦٣٧

٩- سورة التوبة

- سورة التوبة كشفت أسرار المنافقين ٦٤١
 السر في عدم وجود البسملة فيها ٦٤١
 أسماء سورة التوبة أربعة عشر اسمًا ٦٤١
 توبيخ الصحابة للعباس وتغييرهم له بالشرك ٦٤٣
 قول العباس: ما لكم تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا؟ ٦٤٤

- ٦٥٠ عمارة المساجد نوعان: حسية، ومعنوية
- ٦٥١ لطيفة في قصة أعرابي طلب تعليمه القرآن
- ٦٥٣ معنى آية ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾
- ٦٥٥ من لطائف الاستعارات قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾
- ٦٦١ قول الرسول ﷺ لأبي بكر: ما ظنك باثنين الله ثالثهما!!
- ٦٦١ اتفاق المفسرين على أن أبا بكر كان صاحب الرسول ﷺ في الغار
- ٦٦٢ علو قدر الرسول ﷺ وسمو منزلته عند ربه
- ٦٦٢ تقديم العفو على العتاب تكريم للرسول عليه السلام
- ٦٦٣ المعنى الصحيح لكنز الأموال
- ٦٦٣ تنبيه على عظيم فضل الصديق رضي الله عنه
- ٦٦٣ قصة «صفوان بن عمرو» وخروجه للجهاد وهو شيخ هرم
- ٦٦٥ قصة «الجد بن قيس» المنافق وما نزل فيه
- ٦٦٩ لطيفة في معنى آية: ﴿وَقِيلَ أَفَعُودُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾
- ٦٦٩ تنبيه عن سبب دخول المنافقين في الإسلام
- ٦٧٧ قول علي: بعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف
- ٦٧٧ الأمور التي يتميز بها المؤمن عن المنافق
- ٦٧٨ قصة ثعلبة المنافق وهو غير ثعلبة بن أبي حاطب الصحابي المشهور
- ٦٧٨ النهي عن الصلاة على المنافقين وما نزل في ابن سلول
- ٦٨٤ السر في ذكر السبعين في قوله: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾
- ٦٨٤ الصلاة على الميت استغفار له واستشفاع، والكافر ليس أهلاً لذلك
- ٦٨٤ لماذا كان عمر يقول لحذيفة: هل عدني رسول الله ﷺ من المنافقين؟
- ٦٨٦ قصة أبو عامر الراهب الذي تنصّر في الجاهلية
- ٦٨٦ مسجد الضرار وأمر الرسول ﷺ بإحراقه
- ٦٩٢ تنبيه هام إلى أن «عيسى» من الله واجبة
- ٦٩٢ لطيفة في قصة «زيد بن صوحان» مع الأعرابي
- ٦٩٤ قصة أبي طالب لما حضرته الوفاة وما نزل فيه
- ٦٩٤ التحقيق في أن أبا طالب مات على الكفر
- ٦٩٥ معنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُوتُوا الرَّكْعُونَ السَّاجِدُونَ﴾
- ٦٩٥ الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك
- ٦٩٦ لا ينبغي خروج جميع المسلمين إلى الغزو
- ٦٩٦ معنى آية ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾

٦٩٨	قصة «أبي خيثمة الأنصاري» مع زوجته الحسنة
٧٠٠	السر في ختم السورة بقول: (حسبي الله ونعم الوكيل)
٧٠١	رحمة الرسول ﷺ وشفقته على أمته
١٠ - سور يونس	
٧٠٢	الحكمة من الحروف المقطعة التنبيه على إعجاز القرآن
٧٠٤	معنى الاستواء على العرش ومذهب السلف الصالح
٧٠٤	قول الحافظ ابن كثير في معنى الاستواء
٧٠٤	السر في تخصيص الشمس بالضياء والقمر بالنور
٧٠٦	هذا القرآن جاء به نبي أمي يعلمون أحواله
	القرآن مشتمل على نفائس علم الأصول، ودقائق علم الأحكام، ولطائف علم
٧٠٦	الأخلاق .. إلخ
٧٠٨	قصة إسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه
٧١٠	اكتشاف البشر لنواميس الكون
٧١٥	معنى القرآن شفاءً لما في الصدور
٧١٨	من هم أولياء الله؟
٧٢٢	معنى البشارة للمؤمن في الحياة الدنيا
٧٢٤	أمر الله رسوله ﷺ بالحلف في ثلاثة مواضع
٧٢٨	تنبيه إلى المراد من قوله: «أرأيت»
٧٢٩	الغرض من ذكر قصص الأنبياء
٧٢٩	ذكر قصة قوم يونس عليه السلام
٧٣٠	سنة الله في إنجاء الرسل والمؤمنين
٧٣٣	الغرض من نجاة بدون فرعون بعد غرقه
٧٣٥	فهرس أحاديث المجلد الأول
٧٣٩	فهرس موضوعات المجلد الأول